

تَفْسِيرٌ

الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْحَافِظِ

أَبِي الْفَيْدُاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدَّمَشْقِيِّ

(٧٠١-٧٧٤ هـ)

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُحَرَّرَةٌ

تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاكُ السَّقَطِ الْوَاضِلِ فِي الطَّبَعَاتِ السَّابِقَةِ
وَمَيَّزْنَا الْآيَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالتَّفْسِيرِ بِمَوْتِ أَحْمَرَ
مُنْصَبَةً بِرِسْمِ الصَّوْفِ الشَّرِيفِ



دار ابن حزم

تَفْسِيرٌ
الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْحَافِظِ
أَبِي الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدِّمَشْقِيِّ
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

طَبْعَةٌ عَهْدِيَّةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُرتَّبَةٌ
تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاكُ السَّقَطِ الْخَاضِلِ فِي الطَّبَعَاتِ السَّابِقَةِ
وَمُتَرْنَا الْآيَاتِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِالتَّفْسِيرِ بِلَوْنِ أَحْمَرَ
مُنضَبَّةٌ بِرِسْمِ الصَّخْفِ الشَّرِيفِ

دار ابن خزيمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب. ٦٣٦٦/١٤ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

أبو الفداء بن كثير^(١)

٧٠١ - ٧٧٤ هـ

١٣٠٢ - ١٣٧٣ م

حياته:

ولد الحافظ ابن كثير في مفتح القرن الثامن الهجري، قال في البداية وهو يذكر أحداث سنة ٧٠١: «وفيها وُلد كاتبه إسماعيل بن عمَر بن كثير القُرشي البُصروي الشافعي، عفا الله عنه». وكان مولده في «مُجيدل القرية» التابعة لِبُصْرَى الشام، وهي قرية والدته مَرِيَم بنت فَرَج بن علي، وكان والده قد أسند إليه الخطابة بها، «فأقام بها مُدَّةً طويلة في خَيْر وكفاية وتلاوة كثيرة». وقد حدثنا ابن كثير عن نَسبه وبعض أخباره وهو يذكر وفاة والده سنة ٧٠٣ فقال: «وفيها تُوفِّي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حَفْص عمَر بن كثير بن صَوِّ بن دزج القُرشي، من بني حِصْلَة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نَسب، وقف على بعضها شيخنا المُزني فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نَسبي بسبب ذلك: «القُرشي». ثم يذكر أن الأسرة انتقلت بعد ذلك إلى دمشق صُحْبَةً شَقِيْقَه عبد الوهاب سنة ٧٠٧ هـ، يقول ابن كثير: «وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوفاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فَيَسَّرَ اللهُ تعالى منه ما يَسَّرَ، وسَهَّلَ منه ما تَعَسَّرَ».

وفي دمشق لَقِيَ ابنُ كَثِيرٍ عالماً من الشيوخ، وكانت دمشق آنذاك مركزاً أصيلاً من مراكز العِلْمِ في العالم الإسلامي، كانت تحفُّلُ بدور القرآن، ومعاهد العلم من المدارس والمساجد، ولقد أفاد ابن كثير من لقاء أعلام عصره، وكان أعظمُ شيوخه أثرًا في حياته واتجاهه شيخه الحافظ أبا الحجاج المُزني، الذي أضره إليه، وتزوَّج ابنته زينب، وكان لصحبته له وقُرْبُه منه أثر واضح في مؤلفاته. هذا ولم يمض وقت حتى صار علماً من أعلام دمشق، وأقبل عليه الطلبة، ثم تولى كما قال النُّعيمي مشيخة أم الصالح بعد موت شيخه الذهبي (٧٤٨هـ)، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦هـ)، وكان ذلك لمدَّةٍ يسيرة، ثم أخذت منه.

هذا ولابن كثير أربعة من الولد: عمَر (ت ٧٨٣)، وأحمد (ت ٧٦٥ - ٨٠١)، ومحمد (٧٥٩ - ٨١٠٣هـ)، وعبد الوهاب (ت ٧٦٧ - ٨٤٠)، ترجم للثلاثة الأول ابنُ حَجَرٍ في إنباء العُمُر ٧٥/٢، ٣٩٩/٤، ٣٢١ - ٣٢٢، وترجم السخاوي في الضوء اللامع للثلاثة الآخر في ٢٤٣/١، ١٣٨/٧، ٩٨/٥. ولم يكن لأحمد شأنٌ في العلم، فأما الآخرون فكانت لهم سماعات، ورُوي عنهم. وعلَّق محمد تاريخاً للحوادث التي كانت في زمنه.

أما عن عقيدته فقد ذكروا أنه كان صحيح الدين، سلفي العقيدة، ولعل ذلك من آثار صحبته المتقدمة لشيخه أبي العباس أحمد بن تيمية، وملازمته لشيخه وصهره أبي الحجاج المُزني، ولغير هذين الشيخين، حتى عُرف بذلك. على أنه قد جرى بينه وبين برهان الدين ابن الشيخ شمس الدين المعروف بابن القيم (٧١٩ - ٧٦٧هـ) ما حكاه النُّعيمي بقوله: «وكانت له أجوبة مسكتة، وقد وقع بينه وبين ابن كثير في بعض المحافل، فقال ابن كثير: أنت تكرهني لأني أشعري. فقال له: لو كان في رأسك إلى قَدَمِكَ شعر ما صدَّقك الناس أنك أشعري». (الدارس ٨٩/١). وينبغي أن يُفهم كلام ابن كثير على أنه ليس اعترافاً منه بأنه أشعري، وإنما على معنى: أنني لا أجد سبباً يحملك على كراهيتي إلا أن تكون قد ظننتني أشعرياً! فقال له برهان الدين: ومن يظن ذلك بك!؟

وأما عن مذهبه في الفروع فكان شافعي المذهب، وسيتبين ذلك عند الحديث عن مصنفاته.

(١) مصادر ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣١/٦ - ٢٣٢، والدرر الكامنة لابن حجر ٣٧٣/١ - ٣٧٤، وإنباء العُمُر بانباء العُمُر له ٤٥/١ - ٤٧، والبدر الطالع للشوكاني ١٥٣/١، وذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن الحسيني ٥٧ - ٥٨، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٣٠، والدارس في تاريخ المدارس للنُّعيمي ٣٦/١ - ٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٢٣/١١ - ١٢٤.

هذا وقد ذكروا أنه كان ينظم الشعر، وهو القائل:

تَمُرُّ بنا الأيام تَثْرَى وإنما
فلا عائدُ ذاك الشبابُ الذي مضى

وقد وافاه الأجل - رحمه الله - في شعبان سنة ٧٧٤هـ، ودُفِنَ بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. ورثاه بعض طلبته بقوله:
لَقَدْ فُيِدَ طَلابُ المعلومِ تَأْسُفُوا
ولو مَرَجُوا ماء المدامع بالدماء
رحمه الله رحمةً واسعةً.

شيوخه:

غلب على ابن كثير علم الحديث، فقد لقي شيوخه، ودارت عليها مصنفاته فطُبِعَتْ بطابع المحدث وإن كانت في التفسير أو الفقه، كما سَنِيَتْهُ ونحن نعرض كتبه ورسائله، وقد وصفه ابن حجر تلميذه فقال: «كان أحفظ من أدركانه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها، وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر شيئاً كثيراً من [التفسير] والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيد الفهم، صحيح الدين، ويحيي الليل إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركةً جيدةً، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به، على كثرة تَرُدُّوي إليه، إلا وأخذت منه».

وسوف نذكر هؤلاء الشيوخ مرتبين حسب وفياتهم:

- ١ - أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حماد البجلي الشافعي نائب الخطابة ومدرس الطيبة والأسدية. قال ابن كثير: «بقية السلف، وله حلقه للاشتغال بالجامع الأموي يحضر بها عنده الطلبة. وكان يشتغل بالفرائض وغيرها». توفي في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٢٢هـ.
- ٢ - أبو نصر محمد بن محمد بن ميميل (٦٢٩ - ٧٢٣)، قال ابن كثير: «سمع الكثير، وأسمع وأفاد».
- ٣ - أبو محمد القاسم بن عساكر (٦٢٩ - ٧٢٣هـ)، قال ابن كثير: «شيخنا الجليل المعمر الرُّخْلَةُ». سمع منه بدمشق.
- ٤ - أبو زكريا يحيى بن الفاضل (٦٤٥ - ٧٢٤هـ)، قال ابن كثير: «سمع كثيراً وخرَّج له الذهبي شيئاً، وسمعنا عليه الدارقطني وغيره».
- ٥ - محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلِّي ثم الدمشقي (ت ٧٢٥هـ)، قال ابن كثير: آخر من حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي، سمعنا عليه شيئاً منها.
- ٦ - إسحق بن يحيى الأمدي (٦٤٠ - ٧٢٥هـ). قال ابن كثير كما في الدارس في تاريخ المدارس: «شيخنا المعمر المسند الرُّخْلَةُ». سمع منه بدمشق.
- ٧ - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء، المعروف بابن الزرَّاد سمع منه بدمشق.
- ٨ - أبو محمد عبدالوهاب بن دؤيب، ابن قاضي شهبة (٦٥٣ - ٧٢٦)، قال التميمي: «وتفقه على كمال الدين ابن قاضي شهبة».
- ٩ - شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم، ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨)، صرح ابن كثير بأخذه عنه في البداية ١١٤/١٤، وقال ابن قاضي شهبة في طبقاته: «كانت له خصوصية بابن تيمية ومناضلة عنه، وأتباع له في آرائه».
- ١٠ - أبو إسحق إبراهيم بن عبدالرحمن الفرَّارتي برهان الدين المعروف بالفركاح (٦٦٠ - ٧٢٩) قال ابن كثير: «سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره»، وقال: «لم أر شافعيّاً من مشايخنا مثله». وقال التميمي: «وتفقه على الشيخ برهان الدين الفرَّارتي».
- ١١ - أبو يعلى حمزة بن أبي المعالي أسعد بن المظفر القلاسي (٦٤٩ - ٧٢٩هـ)، قال ابن كثير: «وسمع الحديث من جماعة ورواه وسمعنا عليه».
- ١٢ - أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي (ت ٧٣٠)، قال ابن كثير: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع، سمع الحديث وأسمعه، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعائة».
- ١٣ - أبو العباس أحمد بن أبي طالب، الحجار، المعروف بابن الشحنة، قال ابن كثير: «سمعنا عليه بدار الحديث الأشرفية».

نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع».

١٤ - مؤرخ الشام أبو محمد بن محمد البرزالي (٦٦٥ - ٧٣٩هـ). ذكر ابن كثير في آخر حوادث ٧٢٨هـ مشيخته له، وأنه دُيِّل على تاريخه.

١٥ - الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف الجوزي (٦٥٤ - ٧٤٢هـ). لازم ابن كثير الحافظ الجوزي، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وبه انتفع وتخرَّج. وتزوج ابنته، وقد كان الجوزي حياً عندما أُلِّف ابن كثير تأليفه، قال عند تفسير الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء تعقيباً على حديث: «وقد صرَّح جماعة من الحفاظ بوضعه، منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج الجوزي، فسح الله في عُمره، ونَسَأ في أجله، وحَتَم له بصالح عمله».

١٦ - الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ)، قرأ عليه ابن كثير، وقال: «وقد ختم به شيوخ الحديث وحُفَظوه». روى عنه في موضعين من تفسيره، عند آية النساء ١٦٥، وفي مقدمة سورة الصف.

١٧ - محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني (٦٧٤ - ٧٤٩هـ)، قال الثُّعَيْمي: «وقرأ الأصول على الشيخ الأصفهاني».

هؤلاء بعض شيوخه، وقد أجاز له بمصر أبو موسى القرافي، والحسيني، وأبو الفتح الدُّبُوسي، وعلي بن عمِّر الواني، ويوسف الحنَّتي.

تلاميذه:

أما تلاميذه فكثيرون، ويمكن لمن أراد أن يتعرَّفهم الرجوعُ إلى أبناء العُمَر، والدرر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي.

مؤلفاته:

١ - تفسير القرآن العظيم: وهو كتابنا هذا.

٢ - البداية والنهاية: وقد صَدَّره ابن كثير بالحديث عن منهجه بقوله: «هذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحُسن توفيقه ما يَسَّره الله تعالى بحوله وقُوته من ذكر مبدأ المخلوقات، من خَلَقَ العَرْشَ والكرسيَّ والسموات والأرضين، وما فيهنَّ من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النَّبِيِّين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فنذكر سيرته كما ينبغي . . . ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا. ونذكر الفتن والملاحم وأشرط الساعة، ثم البيعت . . . ثم صفة النار، ثم صفة الجنان. وما وُرِدَ في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة عن العلماء وورثة الأنبياء».

مضى ابن كثير على هذا النهج إلا ما كان من حديث الفتن والملاحم وأشرط الساعة والبعث الجنة والنار فقد طبع مستقلاً تحت عنوان: النهاية، وكان قد توقف عن سَرْد الأحداث عند سنة ٧٦٧هـ، أي قبل وفاته بسبع سنين. وقد نقل صاحب كشف الظنون عن ابن شهبة قوله عن هذا الكتاب: «وهو ممن جمع بين الحوادث والوفيات، وأجود ما فيه السيرة النبوية. وقد أُخِلَّ بذكر خلائق من العلماء والمشهور أن تاريخه انتهى إلى آخر سنة ٧٣٨هـ، وهو آخر ما لخصه من تاريخ البرزالي، وكتب حوادث إلى قبل وفاته بستين». كذا قال ابن شهبة، والذي بين أيدينا إلى ما قبل الوفاة بسبع سنين. وقد اعترف ابن كثير بإفادته من تاريخ البرزالي، ويقول في أواخر سنة ٧٣٨هـ: «وها آخر ما أرَّخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي دُيِّل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي. وقد دُيِّلَت على تاريخه إلى زماننا هذا. وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، من سنة إحدى وخمسين وسبعمئة إلى زماننا هذا».

٣ - الكواكب الدراري: قال في كشف الظنون: «انتخبه من تاريخه الكبير» ولم نطلع عليه.

٤ - كتاب السيرة المطول: أحال عليه ابن كثير عند تفسير الآية العاشرة من سورة الجن، والآية ٧٩ من سورة الإسراء.

٥ - اختصار السيرة النبوية».

٦ - سيرة أبي بكر رضي الله عنه: قال في البداية ١٨/٧: «وقد ذكرنا ترجمة الصديق - رضي الله عنه - وسيرته وأيامه، وما رَوَى من الأحاديث، وما رَوَى عنه من الأحكام في مجلد، والله الحمد والمنة». ولم يُقَفَّ عليه.

٧ - سيرة عمِّر بن الخطاب - رضي الله عنه - المفردة: ذكرها ابن كثير في آخر تفسير الآية ٤٣ من سورة الحاقة.

ترجمة المؤلف

- ٨- مسند الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ. وحققه الدكتور مطر أحمد ناصر الزهراني في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراة من جامعة أم القرى، وبين أنه جزء من «جامع المسانيد» إلا أنه أفرده بالتصنيف، وعنوانه: مسند الفاروق عمر بن الخطاب.
- ٩- طبقات الفقهاء الشافعيين: ذكره في البداية ١٠/٢٦٢، وهو يتحدث عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي.
- ١٠- الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس: ذكره في كشف الظنون. ولعله ما ذكره أول طبقات الفقهاء الشافعيين.
- ١١- شرح التنبيه: التنبيه في فقه الشافعية لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت ٤٧٦هـ). وقد ذكره ابن كثير فقال في البداية ١٢/١٣٣: «وقد ذكرت ترجمته مستقصاة في أول شرح التنبيه».
- ١٢- تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ، وقال ابن كثير في البداية ١٣/١٨٨: «ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه فوائد ابن شاش. ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الأمدى. وقد من الله تعالى عليّ بحفظه، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية والله الحمد».
- ١٣- اختصار علوم الحديث: ذكره حاجي خليفة، وقال إن ابن كثير اختصر فيه علوم الحديث لابن الصلاح، وأضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من المدخل إلى كتاب السنن، كلاهما للبيهقي وقد طبع غير مرة. وشرحه الأستاذ الشيخ أحمد شاکر، ونشره بعنوان: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث.
- ١٤- جامع المسانيد: قال حاجي خليفة: «وهو كتاب عظيم جمع فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام، أعني السنة والمانيد الأربعة».
- هذا ومُعْجَمُ المسانيد مُرتَّبٌ على مسانيد الصحابة وهؤلاء مُرتَّبون على حروف المعجم.
- ١٥- التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: كذا ذكره ابن كثير في جامع المسانيد ١/٦٠، وقال: «في عدة عشر مُجلِّدات هو كالمقدمة بين كتابي هذا». وقد ذكره في البداية ١١/٧٠.
- ١٦- الأحكام الصغرى في الحديث: كذا ذكره حاجي خليفة.
- ١٧- الأحكام الكبرى: ذكره ابن كثير مراراً، ومنها عند تفسير الآية الرابعة من سورة القتال، وفي مقدمة سورة تفسير سورة الملك، وأشار إليه في مقدمة جامع المسانيد.
- ١٨- شرح صحيح البخاري: أحال عليه ابن كثير مراراً في تفسيره، انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة الأحزاب، ٤٩ من سورة القمر، ٧ من سورة الحديد، ١١ من سورة المجادلة، والثانية من سورة الصف.
- ١٩- المقدمات: ذكره ابن كثير عند تفسير الآية ٨٥ من سورة مريم وقال في الباعث الحثيث ٤٦ عن حديثه عن المرسل: «وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا المقدمات».
- ٢٠- الاجتهاد في طلب الجهاد: قال حاجي خليفة: «كتبها للأمير منجك لما حاصر الفرنج قلعة إياس». وقد طبع في سنة ١٣٤٧هـ، وصدر في نشرة محققة للدكتور عبدالله العسيلان.
- ٢١- سيرة منكلي بغا: قال السخاوي في الإعلان بالتبليغ ٥٤٤: «وللعماد ابن كثير سيرة منكلي بغا».
- ٢٢- مسألة في السماع، سماع الغناء بالألحان: ذكرها حاجي خليفة ٢/١٠٠٢.
- ٢٣- مولد رسول الله ﷺ: وهو رسالة صغيرة نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد، عن مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة برنستن بالولايات المتحدة الأمريكية.
- ٢٤- أحاديث التوحيد والردة على الشرك: ذكره بروكلمان ٢/٤٨، وأنه طبع في دلهي سنة ١٢٩٧.
- ٢٥- كتاب العقائد: وهو مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبدالعزيز.
- ٢٦- كتاب في الصيام: ذكره عند تفسير الآية ١٨٤، ١٨٧ من سورة البقرة.



مقدمة ابن كثير

قال الشيخ الإمام الأوحى، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير البصري الشافعي، رحمه الله تعالى، ورضي عنه: الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابُ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ يَمَّا يُنذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَن لَّدُنْهُ وَسَخَّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَتَّكِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١-٥]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مال أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُحْجَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الفصص: ٧٧]، كما قال: ﴿لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبا: ١]. فله الحمد في الأولى والآخرة، أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»؛ ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس، أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي منته ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ يَدْعُوهُمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ الْغَيْرِ ﴿١٠١﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَمْدُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرٌ دَعْوَاهُمْ أَنْ لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ رَبِّكَ السُّورَاتُ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: ٩، ١٠]. والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَمْ يَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِلِقَآئِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَطِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُؤَدَّبُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسد وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَنَّا نُنَزِّلُ مَوْعِدَهُمْ ﴿١٧﴾﴾. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْقُرْآنِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمَلِ لَهُمْ﴾ [الفلم: ٤٤، ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ». قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغًا لَهُمْ عَنْ اللَّهِ مَا أَرْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حِكْمِ حَمِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت: ٤٥]. وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذيرهم إلى تفهمه، فقال تعالى: ﴿أَنَّا لَا نَدْرَأُكَ أَفْرَاقًا وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُذَكِّرُ الْبَشَرَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ ذَكَرٌ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَنَّا لَا نَدْرَأُكَ أَفْرَاقًا أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْبَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَبُوا بِهُ مِنَّا قَلِيلًا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَنْ يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ وَلَا يُنظرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلَا يُرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله. فعليتنا - أيها المسلمون - أن تنتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل علينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَلُ فَنَسُوا قُلُوبَهُمْ﴾

مقدمة المؤلف

وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُئِلَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَنْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجبل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالِفِينَ حَصِيماً﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لِيَكْفُرُوا بِتِلْكَ الْأَيَاتِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجُومٌ﴾ [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله». وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه. وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مُسَلِّمٍ قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صُبَيْحٍ أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم ترجمان للقرآن ابن عباس. ثم رواه عن بُنْدَارٍ، عن جعفر بن عَوْنٍ، عن الأعمش، به كذلك. فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود، أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضي الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف علي بن عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا. ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغُوا عني ولو آية، وحَدِّثُوا عني بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِيَهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٢٢٢﴾ [الكهف: ٢٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لردّه كما ردّه، ثم أُرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلماذا قال: ﴿فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معني، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب. قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجح كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبير، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، وأوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه الواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفظن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك. فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار». وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عَوَّانة، عن عبد الأعلى، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا رواه ابن جرير - أيضاً - عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً. ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس المُلائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه. وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله، فإله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جُنْدَب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ». وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل. وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جزماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْلَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ» [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زني في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم. ولهذا تخرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَلِكَلِمَةٍ وَاوَّابٌ﴾ [عبر: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع. وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَلِكَلِمَةٍ وَاوَّابٌ﴾ [عبر: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقايع، فقرأ: ﴿وَلِكَلِمَةٍ وَاوَّابٌ﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك إلا تدريه. وهذا كله محمول على أنهما، رضي الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبياً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَبْتَنَا بِمَا جَاءَ﴾ [ص: ٢٧]، [عبر: ٢٧، ٢٨]. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضهم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. إسناده صحيح. وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ حَمِيمِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما. ففكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وقال - أيضاً - ابن جرير: حدثني يعقوب - يعني ابن إبراهيم - حدثنا ابن عُليَّة، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جُنْدَب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمت عني، أو قال: أن تجالسني. وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً. وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن. وقال شعبة، عن عمرو بن مَرْوَة، قال: سألت رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفي عليه منه شيء، يعني: عكرمة.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط. وقال أيوب، وابن عَوْن، وهشام الدستواي، عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن؟ فأتى الله، وعليك بالسداد. وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده. حدثنا هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه. وقال شعبة عن عبد الله بن أبي

السُّفْر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله ﷻ. وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله. فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتَلْمِزَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تُكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آتياً تُعد، علمهن إياه جبريل، عليه السلام. ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن مَعْن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به. فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث. وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقف عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمِل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد عن الأعرج، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. قال ابن جرير: وقد روي نحوه في حديث في إسناده نظر: حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي، عن أبي صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء. ومتشابه لا يعلمه إلا الله ﷻ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب». والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.



كتاب فضائل القرآن

قال البخاري، رحمه الله:

كيف نزول الوحي وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين، القرآن أمين على كل كتاب قبله. حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن أبي سلمة قال: أخبرني عائشة وابن عباس قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً. ذكر البخاري، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان.

وقول ابن عباس في تفسير المهيمن إنما يريد به البخاري قوله تعالى في المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا المشني، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية عن علي - يعني ابن أبي طلحة - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وفي رواية: شهيداً عليه. وقال سفيان الثوري وغير واحد من الأئمة عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً. وبنحو ذلك قال مجاهد والسدي وقاتدة وابن جريج والحسن البصري وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَبَ الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفي أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شيء، والرقيب: الحفيظ بكل شيء.

وأما الحديث الذي أسنده البخاري: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً، فهو مما انفرد به البخاري دون مسلم، وإنما رواه النسائي من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن أبي سلمة عنها. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ ﴿وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ إِذِ الْوَيْلُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَقَالَ صَبِرْ عَلَىٰ مَا أَلْقَىٰ بِكَ إِنَّكَ إِلَيْنَا لَارْجِعُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح. أما إقامته بالمدينة عشراً فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصاراً في الكلام؛ لأن العرب كثيراً ما يحذفون الكسور في كلامهم؛ أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل في ابتداء الأمر، يلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدء بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه ابتدء نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفي فيها عارضه به مرتين تأكيداً وتشبيهاً. وأيضاً في هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكى ومنه مدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو غيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المكي وأخر أنها من المدني، واختلفوا في آخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية وما فيها: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكى. وقد يكون مدنياً كما في البقرة ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَمَتُّونَ ﴿١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْأَرْضِ كَلَّا تَتَسَوَّأَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شيء في القرآن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة. ثم قال: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليح، عن

ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ و ﴿بَيْنِي مَادِمٌ﴾ فإنه مكى، وما كان: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدني. ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يستثنى من المكى آيات يدعي أنها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها. والحق في ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِذَا طَلَعَتِ السَّيِّئَةُ﴾ و ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ لِيَرَّحَمَهُمُ﴾ والفجر، و ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا بَتَّئِيَ ۝﴾ و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ و ﴿لَوْ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة. وهذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رووا عنه التفسير، وقد ذكر في المدني سوراً في كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثاني: وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، فلما قام قلت: والله ما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يُخبر خبر جبريل. أو كما قال، قال أبي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضاً في علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسي، ومسلم في فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن عبد الأعلى كلهم عن معتمر بن سليمان به. والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَٰنَ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى وعبدية ورسوليه جبريل ومحمداً ﷺ وسنستقصي الكلام على تفسير هذا الكتاب في موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وفي الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة، رضي الله عنها - كما بينه مسلم رحمه الله - لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضاً لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيراً ما يأتي رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضي الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاة، وقضاة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائي عن قتيبة جميعاً، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه - واسمه كيسان المقبري - به. وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتباعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنه ما كان معظم ما أتاه الله وحياً منه إليه منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ مَثَرَاتٍ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [يونس: ٢٨]، وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية كما ذكرنا وفي المدنية أيضاً كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضاً، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبالغة والشعر وقرض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد

من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّمَتْ كَيْمَتْ رَبِّكَ بِدَقًّا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظي عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لآتين أمير المؤمنين، فلاسالنه عما سمعت العشيبة قال: فجئته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟» قال: فقال: «كتاب الله به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فضل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تفتني عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن علي الجعفي، حدثنا حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال.

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرىء حمزة من عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعدد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مآذبة الله تعالى فتعلموا من مآذبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله ﷻ، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عضمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يوجع فيقوم، لا يزيغ فيستعجب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فأتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر». وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيراً.

وقال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدي: رفاع كثير الوهم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم. وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله.

الحديث الرابع: قال البخاري: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا - وهو الناقد - وحسن الحلواني وعبد بن حميد والنسائي عن إسحاق بن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري به. ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ شيئاً بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإنه استلثب الوحي بعدها حيناً يقال: قريباً من ستين أو أكثر، ثم حمى الوحي وتتابع، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿بِأَنَّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُرْآنًا مَّبِينًا﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندباً يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأنته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضَّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣]. وقد رواه البخاري في غير موضع أيضاً، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق آخر، عن سفيان - وهو الثوري - وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدي، عن جندب بن عبد الله البجلي، به. وسأيتي الكلام على هذا الحديث في تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى. والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متابعا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفزقا ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام.

قال البخاري، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآناً عربياً، بلسان عربي مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري: أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أتمم وزيد في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا. هذا الحديث قطعة من حديث سيأتي قريباً الكلام عليه ومقصود البخاري منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملي في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح. وقال أيضاً: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هودة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرأ من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَمَعْتُمْ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَأَلَّاؤُا لَوْلَا فَصَلَّتْ آيَاتُهُ ۝١٩٢ وَأَنْعَمَتْ وَعَرَفَتْ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَمَعْتُمْ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَأَلَّاؤُا لَوْلَا فَصَلَّتْ آيَاتُهُ ۝١٩٢ وَأَنْعَمَتْ وَعَرَفَتْ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. ثم ذكر البخاري، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: لبتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث الذي سأله عن أحرم بعمره وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجأه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أي: تعال، فجأه يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: «أين الذي سألتني عن العمرة أتفأ؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب. وهذا الحديث رواه جماعة من طرق عديدة، والكلام عليه في كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر في الترجمة التي قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.



جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله: فائدة جلية حسنة: ثبت في الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة: كلهم من الأنصار؛ أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي. وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه. قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديماً، وقد ذكره في أهل بدر، وقال بعضهم: سعيد بن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعني من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في مرض الموت ليصلي بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «اليوم القوم أفروهم»، فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري. وحكى القرطبي في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه قال: بعد ذكره حديث أنس بن مالك هذا: «فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقياً من في رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض.

جمع القرآن

قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم. قال القرطبي: لم يذكر القاضي ابن مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن. نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف. ١. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر - مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استخّر بقرء القرآن، وإنني أخشى أن يستخّر القتل بالقرء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف فعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف فعلت شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. فتتبع القرآن أجمعه من العُصب واللِّخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم.

وقد روى البخاري هذا الحديث في غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري به. وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضي الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبي ﷺ مقاماً لا ينبغي لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعي الزكاة، والمرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القاريء من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضي الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وكيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثوري عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين. إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أبا بكر هو الذي جمع القرآن بعد النبي ﷺ، يقول: ختمه. صحيح أيضاً. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هو الذي تنبه لذلك لما استخّر القتل بالقرء، أي اشتد القتل وكثر في قرء القرآن يوم اليمامة، يعني يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بني حنيفة بأرض اليمامة في حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف مع من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم، فانكشف الجيش الإسلامي لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القرء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا منهم، وانفردوا، فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالاً شديداً، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم وولّى جيش الكفار فاراً، وأتبعتهم السيوف المسلمة في أقتنيتهم قتلاً وأسراً، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القرء يومئذ قريب من خمسمائة، رضي الله عنهم، ولهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظاً فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجع الصديق قليلاً ليثبت في الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت في ذلك ثم صاروا إلى ما رأياه، رضي الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصاري؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إن الله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه في المصحف.

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمناً على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان. وذلك عن أمر الصديق له في ذلك، كما قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن هشام بن

عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضي الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتبوه. منقطع حسن. ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] مع أبي خزيمة الأنصاري، وفي رواية: مع خزيمة بن ثابت الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين في قصة الفرس التي ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابي، فأنكر الأعرابي البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابي. والحديث رواه أهل السنن وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية أن أبي بن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت. وقد روى ابن وهب عن عمرو بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً.

وأما قول زيد بن ثابت: «فتبعت القرآن أجمعه من العُسْب واللُّخاف وصدور الرجال» وفي رواية: «من العسب والرِّقاع والأضلاع»، وفي رواية: «من الأكتاف والأفتاب وصدور الرجال». أما العُسْب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فوق الكَرْب لم يثبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف. واللُّخاف: جمع لُخْفَة وهي القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعون من القرآن من رسول الله ﷺ. ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقيه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أي من حفظه وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليلبغوه إلى من بعده كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألتهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟». فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراه، فبَلِّغُوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآناً، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عني سوى القرآن فليمحاه» أي: لتلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أده الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إليناه، والله الحمد والمنة، فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لتلا يذهب منه شيء يموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أنس بن مالك، حدثنا أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أقب بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في المصحف فألحقناها في سورتها.

وهذا - أيضاً - من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لتلا يختلفوا في القرآن ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روى عن

جمع القرآن

عبد الله بن مسعود شيء من التفضيب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بستي وستة الخلفاء الراشدين من بعدي». وكان السبب في هذا حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه لما كان غازياً في فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافاً وافتراقاً، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعان أيضاً، وليس في توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى - أيضاً - بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة، وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهي مختلفة - أيضاً - اختلافاً كثيراً، وهذه الأناجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالصف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفرعه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التي عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك في مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصاري، أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصحابة ونجائبهم علماء وعملاً وأصلاً وفضلاً، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريماً جواداً ممدحاً، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، فجلس هؤلاء الثفر يكتبون القرآن نسخاً، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أي لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا في التابوت أيكتبونه بالباء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فترجعوا إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم. وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثني بالمتين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها في السبع الطوال.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي متلقى عن رسول الله ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيراً. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضي الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً كما قرأ عليه الصلاة والسلام، في صلاة الجمعة بسورة «الجمعة» و«المنافقين» وتارة ب«سبح» و«هل أتاك حديث الغاشية»، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد ب«قاف» و«اقتربت الساعة»، رواه مسلم عن أبي واقد في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: «الم السجدة»، و«هل أتى على الإنسان». وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم. وقرأ عمر في الفجر بسورة النحل ثم يوسف.

ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لثلاث يكون فيها شيء يخالف المصاحف التي نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى أهل مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة

مصحفاً، رواه أبو بكر بن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، سمعه يقوله. وصحح القرطبي أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لثلاث تختلف قراءات الناس في الآفاق، وقد وافقه الصحابة في عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفي ذلك جملة ما أنكره مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ في عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه. قال أبو داود الطيالسي وابن مهدي وعُثْرَد عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن رجل، عن سويد بن غفلة، قال علي حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعتة. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد. وهذا إسناد صحيح. وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمارة الحنفي، قال: سمعت غنيم بن قيس المازني قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعاً، والله ما يسرنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العزير، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر.

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني عمران بن حدير، عن أبي مجلز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألغيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: خصلتنا لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف. وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حميد بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف - يعني بتحريقها - ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغل مصحفاً فيغلل، فإنه من غل شيئاً جاء بما غل يوم القيامة. ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبي، فأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ. وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلِلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذوابتان، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكاناً تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن المنبر جلست في الحلق، فما أحد ينكر ما قال. أصل هذا مخرج في الصحيحين وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله. وقول أبي وائل: «فما أحد ينكر ما قال»، يعني: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم. وأما أمره بغل المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جباناً، فما باله يواطئ الأمراء. وقال أبو بكر بن أبي داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلي قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن فُلْفُلَةَ الجعفي قال: فرغت فيمن فرغ إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف - أو حروف - وإن الكتاب قبلكم كان ينزل - أو نزل - من باب واحد على حرف واحد. وهذا الذي استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضاً: حدثنا عمي، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: يا أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون: قراءة أبي وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمه عليك؟ فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأبي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: قد أحسن. إسناده صحيح.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن

أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأَنْصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا في شيء آخره. قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظناً إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله. صحيح أيضاً. قلت: الربعة هي الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضي الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضي الله عنه، في المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها في جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هي بعينها الذي كتبه، وإنما رتبته، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتآول في ذلك ما تأول عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله: أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتبت منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشقت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مراتب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب. إسناده صحيح.

وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب والحاقهم إياها في سورتها، فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق المصحف كما جاء مصرحاً به في غير هذه الرواية عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فالحقناها في سورتها من المصحف» وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعاهم لئلا يذهب منه شيء. وعثمان، رضي الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي». أخرجاه في الصحيحين.

وقد روي أن علياً، رضي الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتباً بحسب نزوله أولاً فأولاً، كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أَسْم على ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر، رضي الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنني أَسْمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع. هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث، وهو لين الحديث، وإنما رواه: حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه؛ فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن. قلت: وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن علياً لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني، يقال: إنها بخط علي، رضي الله عنه، وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: كتبه علي بن أبي طالب، وهذا لحن من الكلام؛ وعلي، رضي الله عنه، من أبعد الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء آخر تمهما أبو الأسود بعده، ثم أخذته الناس عن أبي الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علماً مستقلاً.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسائة، وقد رأته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً.

فأما عثمان، رضي الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضي الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا علي بن حرب الطائي، حدثنا قريش بن أنس، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مولى بني أسيد، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربه بالسيف على يده فوقعت على: ﴿سَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّجِّدُ الْكَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]، فمد يده فوقعت، والله إنها لأول يد خطت المفصل. وقال أيضاً: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لي: ذهب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذي كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذي تركه في المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيء من قرية هناك يقال لها: بقعة، ثم هذبوه ونشروه في جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألتنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار.

قلت: والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو علي مقلة الوزير، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قربها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تحكم جيداً، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس في ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه فضائل القرآن، والحافظ أبو بكر بن أبي داود، رحمه الله، فبويا على ذلك، وذكر قطعة صالحة هي من صناعة القرآن، ليست مقصدنا هنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص في ذلك غيره، واختلفوا في الشكل والنقط فمن مرخص ومن مانع، فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير في مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح. ثم قال البخاري: ذكر كتاب النبي ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهري، عن ابن السباقي، عن زيد بن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ وذكر نحو ما تقدم في جمعه للقرآن، وقد تقدم، وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْأَقْبَابِ﴾ [النساء: ٩٥]، وسيأتي الكلام عليه في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخاري أحداً من الكتاب في هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم. وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتابه عليه السلام. ثم قال البخاري، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف». وقد رواه - أيضاً - في بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم - أيضاً - من حديث معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به، ثم قال الزهري: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا تختلف في حلال ولا في حرام. وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال: حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: ما حاك في صدري شيء منذ أسلمت، إلا أنني قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمن رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأني آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: أليس تقرئني آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتاني فقعده جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: أقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف». وقد رواه النسائي من حديث يزيد - وهو ابن هارون - ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبي بن كعب بنحوه. وكذا رواه ابن أبي عدي ومحمود بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعاً، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبي ﷺ: «اقرأ»، فقرأ، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبي ﷺ الذي قال كُبر علي ولا إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى الذي غشيني ضرب في صدري ففضضت عرقاً، وكأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ فقرأ فقال: «يا أباي، إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فأرسل إلي أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فأرسل إلي أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن اقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتي، فقال: اقرأه على حرفين، فقلت: اللهم ربّ خفف عن أمتي، فأمرني أن اقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شاف كاف».

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، أنه قال: سمعت رجلاً يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرأها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما؟ فقالا: رسول الله ﷺ فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما قرأني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت» ثم قال للأخر: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت». قال أبي: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى احمر وجهي، فعرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهي، فضرب يده في صدري ثم قال: «اللهم أخسئ الشيطان عنه، يا أباي، أتاني أت من ربي فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عني ثم أتاني الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين فقلت: رب، خفف عن أمتي، ثم أتاني الثالثة، فقال مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتاني الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يارب، اللهم اغفر لأمتي، يارب، اغفر لأمتي، واختبأت الثالثة شفاعاً لأمتي يوم القيامة». إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذي حصل لأبي في تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذي لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة ﴿لَرَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخرها لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿١﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٢﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الحديدية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِذْ سَأَلَ أَهْلَهُ بِمَبِيتِكَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أخياة بني غفار، فأثاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرفين. قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا.

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية شعبة به، وفي لفظ لأبي داود عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أباي، إني أقرئت القرآن فقبل لي: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذي معي: قل على حرفين. قلت: على حرفين. فقبل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال: الملك الذي معي: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سمياً عليماً، عزيزاً حكماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب». وقد روى ثابت بن قاسم نحواً من هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ومن كلام ابن مسعود، رضي الله عنه، نحو ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبي قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسي، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف». وأخرجه الترمذي من حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن أبي بن كعب، به، وقال: حسن صحيح. وقد رواه أبو عبيد عن أبي النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقي

جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث، والله أعلم. وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لقيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إني أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيوخ الفاني، الذي لم يقرأ كتاباً قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف». وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن ربيعة بن جراث: حدثني من لم يكذبني - يعني حذيفة - قال: لقي النبي ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال: إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن في أمتك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدي، حدثنا شريك عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد - يرفعه - قال: «أتاني ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف». ورواه النسائي في اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن العوام بن حوشب، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبي بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا في القراءة، فذكر الحديث. وهكذا رواه أحمد بن مئيع عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبي أنه أتى النبي ﷺ برجلين، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن فلان العبدي - قال ابن جرير: ذهب عني اسمه - عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب قال: رحمت إلى المسجد، فسمعت رجلاً يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أحسنت». قال: قلت: إنك أقرأني كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب بيده على صدري ثم قال: «اللهم أذهب عن أبي الشك». قال: ففضت عرقاً، وامتلاً جوفى فرقاً. قال: ثم قال: «إن الملكين أتاني، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدني. فقال: اقرأه على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأه على سبعة أحرف». وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن شتير العبدي، عن سليمان بن صرد عن أبي، عن النبي ﷺ بنحو ذلك، ورواه أبو داود عن أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يعمر، عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب بنحوه.

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبي بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعي شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي بكر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب برحمة». وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد في آخره: كقولك: هلم وتعال.

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم، عن أبي سلمة - لا أعلمه إلا عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، مرء في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائي عن قتبية عن أبي ضمرة أنس بن عياض به.

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله - وهو ابن أبي يزيد - عن أبيه، عن أم أيوب - يعني امرأة أبي أيوب الأنصارية - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك». وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمي، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبي جهيم الأنصاري؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

تلقاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعاً حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا تماروا، فإن وراءه فيه كفر». هكذا رواه أبو عبيد على الشك، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزازي، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني يزيد بن خصيفة، أخبرني بسر بن سعيد، حدثني أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبي ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن وراءه في القرآن كفر». وهذا إسناد صحيح - أيضاً - ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو - يعني ابن العاص - : إنما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ فخرجنا إلى رسول الله ﷺ حتى أتينا، فذكرنا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فإني ذلك قرأتكم أصبتم، فلا تماروا في القرآن، فإن وراءه فيه كفر». ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخزازي، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المرء فيه كفر أو إنه الكفر به». وهذا - أيضاً - حديث جيد.

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وأمنوا بمتشابهه، وقولوا: أمنا به كل من عند ربنا». ثم رواه عن أبي كُرَيْب عن المحاربي، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه وهو أشبه. والله أعلم.

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف». قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذلك بين في أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن. قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني دارم. ولهذا قال عمر: لا يملي في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف. قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه. قال أبو عبيد: وحدثنا هُشَيْم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني: أنه كان يستشهد به على التفسير. حدثنا هُشَيْم عن أبي بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) [الأنشاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قد اتسقن لو يجدن سائقا

حدثنا هُشَيْم، أنبأنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَأْتَسَاهِرُوا﴾ (١٤) [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبي الصلت:

عندهم لحم بحر ولحم ساهرة

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما ﴿قَاطِرِ الْكَسَكَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها. إسناد جيد أيضاً. وقال

الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري، رحمه الله، بعد ما أورد طرفاً مما تقدم: وضح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع، إذا كان معلوماً أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفاً، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه، والذي قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة. قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم، جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعتف آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة في معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بعزل؛ لأن المرء في مثل هذا ليس بكفر، في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمرء في الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم.

الحديث الثاني: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاريء حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقرائه فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكذت أساوره في الصلاة، فتبصرت حتى سلم فليته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، أقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «أقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه». وقد رواه الإمام أحمد والبخاري - أيضاً - ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري، ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن ابن مهدي، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبد، عن عمر، فذكرت الحديث بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير عليّ قال: فاجتمعنا عند النبي ﷺ، فقرأ الرجل على النبي ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكان عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذاباً». وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت، لا نعرف أحداً جرحه.

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المرء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

قلت: ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا مورده ملخصاً: فالأول - وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي -: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم وقال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل. وروي عن وراق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِيَذُبْنَا عَنْكُم مِّنْ قُرْآنِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]: «للذين آمنوا أمهلونا» «للذين آمنوا آخرون» «للذين آمنوا أرقبونا»، وكان يقرأ: ﴿كَلِمًا أَصَاةَ لَهُمْ مَمَّنَّوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: «مروا فيه» «سعوا فيه». قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ. وقد ادعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة. قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا غيرها، وألا يتعاطا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تابعوا فيها وأكثرها منها، قال: فلو أنا أمضيناها عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة في أشهر الحج لثلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتي بالتمتع فتركه اتباعاً لأمر المؤمنين وسماعاً وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله: ﴿وَعَبْدٌ أَلْفُفُوتٌ﴾ [المائدة: ٦٠] و ﴿يَرْتَعُ وَيَلْمَتُ﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعد به من بعض، وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أي: معظمه، ولم يبق دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. ولم يقل: قرشياً. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناوياً واحداً، يعني حجازها ويمناها، وكذلك قال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قرشياً لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى: ﴿فَاطِرُ الْأَرْضِينَ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعرابياً يقول لبشر ابتداء حرفها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع: - وحكاها الباقلاني عن بعض العلماء -: أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿وَيَبِيحُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيئ»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبا: ١٩] و «باعذب بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿تَنْشُرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و «تنشُرُها»، أو بالكلمة مع بقاء المعنى مثل: ﴿كَأَلَيْهِنَّ أَلْمَنُوشُ﴾ [القارعة: ٥]، أو كالأصوف المنفوش، أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿وَبَيَّاتٌ سَكْرَةٌ أَلْتَوِي بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، أو «سكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أنثى»، و«أما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين». «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفاً، وأيضاً بالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال، ولا في تغيير شيء من المعاني، وقد أورد القاضي الباقلاني في هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها.

فصل

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالدودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره. قال القرطبي: وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رأها أحسن والأولى عنده. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب.

قال البخاري، رحمه الله:

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلني أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أي قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألب: ﴿بِئْسَ الْكَاذِبُ مَوَدَّهُمْ وَأَلْسِنَةٌ دَخِيلٌ﴾ [الفر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه أي السور. وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سورة. وهذا العراقي سأل أولاً عن أي الكفن خير، أي: أفضل، فأخبرته عائشة، رضي الله عنها، أن هذا لا ينبغي أن يعتنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن في هذا تكلفاً لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! ولهذا لم يتبالغ معه عائشة، رضي الله عنها، في الكلام لئلا يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البيضاء، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها أظهر وأطيب» وصححه الترمذي من الوجهين. وفي الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة. وهذا محرر في باب الكفن من كتاب الجنائز. ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أي: غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يعث أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه، إلى الأفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم. ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار، وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدرج أولاً فأولاً، وهذا من حكمة الله ورحمته، ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداية بها في أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه أي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأي سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو آخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو في الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران. وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضي الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو راجع إلى رأي عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس له في ترك السملة في أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد جيد وقوي. وقد ذكرنا عن

تأليف القرآن

علي أنه كان عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله. ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: «مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾» ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وأول مصحف أبي: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضي الله عنهم، وكذا ذكره مكِّي في تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسمة في الأوائل فهو من النبي ﷺ.

وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمت وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ. قال أبو الحسن بن بطال: إنا نجد تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ولا يعلم أن أحدا منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أياه قرأت قبل. وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها. وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً. وقالوا: إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخاري: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي. انفرد البخاري بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أي: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلادي» أي: من قديم ما قنيت وحفظت. والتالذ في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف: حديثه وجديده، والله أعلم. وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النبي ﷺ. وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ مكية نزلت قبل الهجرة، والله أعلم. ثم قال: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرأهن اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرن من الحواميم حم الدخان وعم يتساءلون. وهذا التأليف الذي عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضي الله عنه، فإن المفصل في مصحف عثمان، رضي الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عثمان بن عبد الله بن أوس الثقفي عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثاً فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكنك عنا يا رسول الله؟ قال: «طراً علي حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي به، وهذا إسناد حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر، والله أعلم. وأما كتابة الأعراس على الحواشي فينسب إلى الحجاج أيضاً، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الداني عن ابن مسعود أنه كره التعشير في المصحف، وكان يحكه، وكره مجاهد ذلك أيضاً. وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آي السور في أولها في المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأساً.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبي كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. ورأى إبراهيم النخعي فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الداني: ثم قد أطبق المسلمون في ذلك في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأمهات وغيرها. ثم قال البخاري، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضي الله عنها: أسر إلي رسول الله ﷺ: إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي. هكذا ذكره معلقاً وقد أسنده في موضع آخر. ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه، وقد تقدم الكلام عليه في أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم. ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض. ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به. والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استنباطاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعرضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله. وعثمان، رضي الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرصة الأخيرة، وخص بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإحياء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبي ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»، رضي الله عنهم. وقد أخرجه البخاري في المناقب في غير موضع، ومسلم والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة به. وأخرجاه والترمذي والنسائي - أيضاً - من حديث الأعمش عن أبي وائل، عن مسروق به. فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبي ﷺ في المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وهما سيدان كبيران، رضي الله عنهم أجمعين. ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك.

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسن» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترى أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد. حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني ببلغه الإبل لركبت إليه. وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يجعله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخباراً عن يوسف لما قال لصاحب مصر: ﴿أَتَمَنَّاكَ عَلَيَّ خَزَائِنَ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحاً وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدم عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد». وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي معاوية، عن الأعمش به مطولاً، وفيه قصة، وأخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي معاوية وصححه الدارقطني، وقد ذكرته في مسند عمر، وفي

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

مسند الإمام أحمد - أيضاً - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك. ثم قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام.

ثم قال البخاري: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس. حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثني ثابت البناني وثمامة عن أنس بن مالك قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه. فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لا شك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضاً، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبي بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وقد اختلف في اسمه فقال الواقدي: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدي أصح لأنه خزرجي؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفي بعض ألفاظه: وكان أحد عمومتي. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبُرُ عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجزيت شهادته بشهادة رجلين خزيمية بن ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدي، وقد شهد أبو زيد هذا بحدوثه، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهري: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر أبي عبيدة على رأس خمس عشرة من الهجرة، والدليل على أن من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضي الله عنه، قدمه رسول الله ﷺ في مرضه إماماً على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يوم القوم أقرأهم لكتاب الله»، فلولا أنه كان أقرؤهم لكتاب الله لما قدمه عليهم. هذا مضمون ما قرره الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدفع ولا شك فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعاني في ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك في كتاب مسند الشيخين، رضي الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه في ركعة - كما سنذكره - وعلي بن أبي طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وفيم نزلت؟ ولو علمت أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطي لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، كان من السادات النجباء والأئمة الأتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيداً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أفضه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أقرأه في شهر». وذكر تمام الحديث. ثم قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال عمر: عليُّ أفضانا، وأبي أقرؤنا، وإنا لنُدع من لحن أبي، وأبي يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيء قال الله تعالى: ﴿مَا تَسْخَرُونَ مِنْهُ أَوْ يُخْشَعُونَ مِنْهُ فَيَلْقَىٰهُمُ الرَّسُولُ بِآيَةٍ أَوْ نَذِيرٍ أَوْ يَخْتَصِمُونَهَا أَلَمْ يَجْعَلْ يَدَيْهِ يُعَلِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُخْفِي مَا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٦]. وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشيء يظنه صواباً وهو خطأ في نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أي: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر البخاري فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة،

وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلّة، فيها أمثال المصاييح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أوتدري ما ذاك؟». قال: لا، قال: «الملائكة ذنّت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحدثني هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري عن أسيد بن الحضير. هكذا أورد البخاري هذا الحديث معلّقاً، وفيه انقطاع في الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي المدني تابعي صغير لم يدرك أسيداً لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك.

وقد رواه الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بكير، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أسيد بن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: قال ابن الهاد: وحدثني عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا. وقد رواه النسائي في فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمد بن علي، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد، به. ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضاً، فجمع بين الإسنادين. ورواه في المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم.

وقال أبو عبيد: حدثني عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه: حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسيد بن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ الباردة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت وجبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» مرتين قال: فالتفت إلى أمثال المصاييح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو نزلت على القرآن». وقد أخرجه صاحبنا الصحيح من حديث شعبة. والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخاري، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذي وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد: حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهو مصاييح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة. وفي الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة. ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقْرَأَانَ الْقُرْآنَ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ إِنَّ قُرْآنَ الْقُرْآنِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في بعض التفاسير: أن الملائكة تشهدده. وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أتترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. تفرد به البخاري، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئاً يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً. وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينه وموضحة له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لما سئل عن ميراث النبي ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول - أيضاً - عنه عليه السلام، رضي الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هذبة بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأثرجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها». وهكذا رواه في مواضع أخر مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به. ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجوداً وهدماً، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى عن سفيان، حدثني عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً! قال: هل ظلمتكم من حَقِّكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيته من شئت». تفرد به من هذا الوجه، ومناسبه للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». وإنما فازوا بهذا بركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمناً عليه، وناسخاً له، وخاتماً له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثم إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بأخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطاً قيراطاً، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أي ربنا، ما لنا أكثر عملاً وأقل أجرًا؟ فقال: هل ظلمتكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أي: الزائد على ما أعطيتكم أوتيته من أشياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦٨] لِيَا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَيَّ نَقِيٍّ وَمَنْ فَضَّلَ اللَّهُ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٦٨﴾

[الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا طلحة بن مُصْرَفٌ قال: سألت عبد الله ابن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، ﷺ. وقد رواه في مواضع أخر مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين

الدفنتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية في أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا أَوْلِيَّيَاتٍ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئاً يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوص إلى خليفة يكون بعده على التنصيب؛ لأن الأمر كان ظاهراً من إشارته وإيمانه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغن بالقرآن وقول الله تعالى ﴿أَوْلَرَّ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]
 حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء، ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المديني، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به. قال سفيان: تفسيره: يستغني به، وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة، ومعناه: أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك. وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الله الذي وسع سمعه الأصوات. ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ﴾ [الآية: يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم. ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن» أي: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا التَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذَّتْ رِيحًا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَطَخَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذَّتْ رِيحًا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ١-٥] أي: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته». وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغني: يستغني به، فإن أراد: أنه يستغني عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذي تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلاص الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسره بعض رواه بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحرز به.

قال حرمله: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغني به، فقال لي الشافعي: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغاني به، وإنما هو يتحرز ويترنم به، ثم قال حرمله: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزني والربيعي عن الشافعي، رحمه الله. وعلى هذا فتصدير البخاري الباب بقوله تعالى: ﴿أَوْلَرَّ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ١١٦] في ذلك لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت رداً على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَرَّ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أمي ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْتَمِلُونَ بُيُوتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، ومعنى ذلك: أي: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغني بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عدها من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر.

فصل

في إيراد أحاديث في معنى الباب وذكر أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح اللخمي، عن عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلتاً من المخاض من العقل». وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به» ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائي في فضائل القرآن، من حديث موسى بن علي، عن أبيه به، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح، عن عقبة، وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القاريء.

ذكر أحاديث وأحكام التلاوة بالأصوات

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون» وهذا مرسل. ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»: يعني: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقراً. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم. وقال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ قال: «الله أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته». قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجه، عن راشد بن سعيد بن أبي راشد، عن الوليد، عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة عن النبي ﷺ: «الله أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته». قال أبو عبيد: يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «ما أذن الله لشيء» أي: ما استمع. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبي مُليكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لي سعد: يابن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وإبكوا، فإن لم تقدروا على البكاء فتابكوا». وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبي مُليكة، عن عبيد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». ورواه ابن ماجه من حديث ابن أبي مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا».

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سعيد بن حسان المخزومي، عن ابن أبي مُليكة، عن عبد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال وكيع: يعني: يستغني به. ورواه أيضاً عن الحجاج وأبي النصر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به. وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مُليكة، يقول عبيد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لُبابة فأتبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رثم البيت، رث الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعت يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، رأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟! قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود.

فقد فهم من هذا أن السلف، رضي الله عنهم، إنما فهموا من التلغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك - أيضاً - ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم». وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به. وأخرجه النسائي من طرق آخر عن طلحة، وهذا إسناده جيد. وقد وثق النسائي، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدني عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمدونه.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ في الألحان المبتدعة، فلهذا أنهاه أن يحدث به. قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلاً على الله، كما روي له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد تطرقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بَقِيَّ بن مَخْلَد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيته وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي لحبرتها لك تحبيراً. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت زمزماً من زمزيم آل داود». وسيأتي هذا في باب حيث يذكره البخاري، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبرتها لك

تجبيراً، فدل على جواز تعاطي ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطي صوتاً حسناً كما سنذكره إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكّرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده. وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمي، أنبت عنه، حدثنا أبو عثمان النهدي قال: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنع قط، ولا بربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته. وقال ابن ماجه: حدثنا العباس بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني حنظلة بن أبي سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحي يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقامت معه حتى استمع له، ثم التفت إليّ فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا». إسناده جيد.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفي بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ حُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخٰلِفُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قلت أن فؤادي قد انصدع. وكان جبير لما سمع هذا بعد مشركاً على دين قومه، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته في المشرك المصر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله.

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأته يخشى الله». وقد روي هذا متصلاً من وجه آخر، فقال ابن ماجه: حدثنا بشر بن معاذ الضرير، حدثنا عبد الله بن جعفر المدني، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد علي بن المدني، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجعل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله: حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزاري: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، ويجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم». حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبي اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبي عمر، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفاري، فرأى الناس يخرجون في الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذني، فقالوا: تمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت؟» فقال: إني أبادر خصلاً سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم به غناة» وذكر خصلتين آخرين.

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفاري، عن النبي ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلاً يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه.

هذه طرق حسنة في باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمثيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأحسن، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن». ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن

أبي نُهَيْك عن سعد، ورواه عَسَل بن سفيان عنه، عن عائشة، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير.

اغْتِبَاطُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار». انفرد به البخاري من هذا الوجه، واتفقا على إخراجهما من رواية سفيان عن الزهري، ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبه، عن سليمان: سمعت دُكْوَانَ، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق»، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل.

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغْتِبَاطِ بما هو فيه، ويستحب تغيُّبه بذلك، يقال: غبطه يغبطه غبطاً، إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلكٌ، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعي الممدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْقَضُوا بِمَنَّا رِزْقَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُوكَ بِمَجْرَمِهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ جَزَاءٌ مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْطَوْنَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روي نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إلي أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأقوم كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأتصدق به».

وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثني يونس بن خباب، عن أبي سعيد البخري الطائي، عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدنكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدنكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه»، قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لي مال عملت بعمل فلان» قال: «فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يخطب في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بعمل فلان». قال: «هي نيته فوزهما فيه سواء». وقال أيضاً: حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به في ماله يتفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخطب فيه بنفقة في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الوزر سواء». إسناده صحيح.

خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ

حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا شعبه، أخبرني علقمة بن مرثد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، رضي الله عنه، حتى كان الحجاج قال: وذلك الذي أقمعني مقعدي هذا. وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبه عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمي - رحمه الله. وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان قال: قال النبي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن

وعلمه». وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن سفيان، عن علقمة، عن أبي عبد الرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة، كما رواه شعبة ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثوري فيه على شعبة، وخطأ بُنْدَار يحيى بن سعيد في روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصح في هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفي ذكره طول لولا الملالة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّابَأُ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَهْتَوُونَ عَنَّهُ وَيَتَوَكَّرُونَ عَنَّهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، في أصح قولي المفسرين في هذا، وهو أنهم يبهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَتَنَّا أَهْلَكَ مِن كَذَّبَ بِكَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [تصلت: ٢٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحاً، وقال قولاً صالحاً، فلا أحد أحسن حالاً من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي - أحد أئمة الإسلام ومشايخهم - من رغب في هذا المقام، ففقد يعلم الناس في إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبي ﷺ امرأة فقالت أنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «ما لي في النساء من حاجة». فقال رجل: زوّجنيها. قال: «أعطها ثوباً»، قال: لا أجد، قال: «أعطها ولو خاتماً من حديد»، فاعتل له، فقال: «ما معك من القرآن؟». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن». وهذا الحديث متفق على إخرجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذي قصده البخاري أن هذا الرجل تعلم الذي تعلمه من القرآن، وأمره النبي ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقاً لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصاً بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوجتكها بما معك من القرآن؟» أيسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك. أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله في صحيح مسلم: «فعلّمها»، وهذا هو الذي أراده البخاري هنا وتحريه باقي الخلاف المذكور في كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخاري في هذه الترجمة حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، والحديث الذي تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معي سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقروهن عن ظهر قلبك؟». قال: نعم. قال: «أذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن». وهذه الترجمة من البخاري، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم.

ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة في المصحف بما رواه الإمام العلم أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن حيث قال: حدثنا نعيم بن حماد، عن بقة بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرأه ظهراً، كفضل الفريضة على النافلة» وهذا الإسناد ضعيف، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفي أو الأطرابلسي، وأيهما كان فهو ضعيف. وقال الثوري عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته

استذكار القرآن وتعاهده

نشر المصحف فقرأ فيه . وقال حماد أيضاً: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرأوا، وفسر لهم . إسناده صحيح . وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجح أحدكم من سوقه فليشر المصحف وليقرأ . وقال الأعمش عن خَيْثَمَةَ: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال: هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة .

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لثلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخاً يوقفه على لفظ القرآن، فأما عند العجز عن تلقين فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف - والحالة هذه - فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد: حدثني هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعي؛ أن رجلاً صحبهم في سفر قال: فحدثنا حديثاً ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل». وحدثنا حفص بن غياث، عن الشيباني، عن بكير بن الأخنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمي والذي لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل . وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف . قال الشيخ أبو زكريا النووي، رحمه الله، في التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلمهم محمول على هذا التفصيل .

تتبييه:

إن كان البخاري، رحمه الله، أراد بذكر حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقاً في حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب - لأنه أُمِّي لا يدري الكتابة - أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده . الثاني: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استثبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليتمكن تعليمها لزوجته، وليس المراد ههنا: أن هذا أفضل من التلاوة نظراً، ولا عدمه، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائي من حديث مالك به . وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار، كمثل رجل له إبل، فإن عقلها حفظها، وإن أطلق عقالها ذهبت، فكذلك صاحب القرآن». أخرجه، قاله ابن الجوزي في جامع المسانيد، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به، وحدثنا محمد بن عرعرة، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نسيي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تقصياً من صدور الرجال من التعم». .

تابعه بشر . هو ابن محمد السخيتاني، عن ابن المبارك، عن شعبة . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة به، وقال: حسن صحيح . وأخرجه النسائي من رواية شعبة . وحدثنا عثمان، حدثنا جرير، عن منصور مثله . وتابعه ابن جريح عن عبدة، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ، وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريح به، ورواه النسائي في اليوم واللييلة من حديث محمد بن جحادة، عن عبدة وهو ابن أبي ثبابة به . وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به، وستأتي رواية البخاري له عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، عن منصور به، والنسائي من رواية ابن عيينة عن منصور به، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعاً في رواية هؤلاء كلهم، وقد رواه النسائي عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله موقوفاً، وهذا غريب وفي مسند أبي يعلى، فإنما

هو نسي بالتخفيف. حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن يزيد بن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تَفْصِيًّا من الإبل في عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبي كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن براء الأشعري، كلاهما عن أبي أسامة حماد بن أسامة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن علي: سمعت أبي يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه، وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلتاً من المخاض في العقل».

ومضمون هذه الأحاديث الترويح في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة يلقيه وهو أجذم». هكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، كما رواه خالد بن عبد الله. وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عباد عن النبي ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهم. وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبي زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوههم في إسناده، ورواه وكيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبي ﷺ مرسلًا.

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن عباد بن الصامت فقال: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم». وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا في باب الترهيب مقبول. والله أعلم - لا سيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد. حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمي فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحُذت عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافي به أمي يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها».

وقد روى أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبخاري وغيرهم من حديث ابن أبي رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علي أجور أمي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمي، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها». قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخاري فاستغربه، وحكى البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي أنه أنكسر سماع المطلب من أنس بن مالك. قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الآدمي، عن ابن أبي رواد، عن ابن جريج عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَصِيَّتِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٦٦) قَالَ رَبِّي لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٦٧) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ كَذَلِكَ أَنْتَ كَذَلِكَ أَنْتَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ نَسَى (١٦٨) وهذا الذي قاله هذا - وإن لم يكن هو المراد جميعه - فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفي لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تَفْصِيًّا من صدور الرجال من النعم».

التَّفْصِي: التخلص، يقال: تَفْصَى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تَفْصَى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أي: إن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال. وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: إني لأمقت القارئ أن أراه سميناً نسياً للقرآن. حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: سمعت الضحاک بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصْبِحٍ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٢٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب. ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن كما أنه يكره له أن يقرأ في أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتي هذا، حيث يذكره البخاري بعد هذا، وكان الأئمة أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرني أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح. وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق، عن شعبة، عن أبي إياس، وهو معاوية بن قرة به، وهذا - أيضاً - له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرأ وحضرأ، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبي داود: وحدثني أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن الرجل يصلي في آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، فقال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق. وقال الشعبي: تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواطن: في الحمام، وفي الحشوش، وفي الرحي وهي تدور. وخالفه في القراءة في الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم، وروى ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي، ومحكي عن أبي حنيفة، رحمهم الله، أن القراءة في الحمام تكره وأما القراءة في الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحریم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهباً، وأما القراءة في بيت الرحي وهي تدور فلتلا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يُعلَى، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم. حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصل». انفرد بإخراجه البخاري، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخاري أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون. وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه تجوز في هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحباً أو واجباً؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشدّ علوقاً بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعمود من حال الناس، وقد استحَب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلاً للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يلزم أولاً بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلاً قليلاً، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يلحق خمس آيات خمس آيات، رويناه عنه بسند جيد.

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى ﴿سَتَرْنَاكَ فَلَا تَنسَى﴾ (إلا ما شاء الله) [الأعلى: ٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا من سورة كذا». وحدثني محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتهن من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضاً. تابعه علي بن مسهر وعبدية عن هشام. وقد أسندهما البخاري في موضع آخر، ومسلم معه في عبدة. وحدثنا أحمد بن أبي رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال: «يرحمه الله، فقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة.

الحديث الثاني: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي» ورواه مسلم والنسائي، من حديث منصور به. وقد تقدم. وفي مسند أبي يعلى: «فإنما هو نسي»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفي هذا الحديث - والذي قبله - دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقص له إذا كان بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نسيي»، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب - أيضاً - في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: «وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسَيْتُ» [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنباً، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه». وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبنا الصحيح والنسائي وابن ماجه من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبة بن عامر الأنصاري البكري.

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المسور وعبد الرحمن بن عبد القاري، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان.. وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي.

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئاً يقرأ من الليل في المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أسقطتهن من سورة كذا وكذا». وهكذا في الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شيء من القرآن يقول رسول الله ﷺ: «اجعلوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل في القراءة

وقول الله ﷻ: ﴿رَبِّكَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ آيَاتِنَا إِتْرَارًا عَلَى الْكَلْبِ عَلَى مَكِّيٍّ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، يكره أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: «فَرَّقْتَهُ»: فصلناه. حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا واصل وهو ابن حيان الأحذب، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: غدوننا على عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذ الشعر، إننا قد سمعنا القراءة، وإنني لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من ال حم. ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن مهدي بن ميمون، عن واصل - وهو ابن حيان الأحذب - عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مخرق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناساً يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه.

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجُلَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفته فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي، وهو متفق عليه، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذرمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكير، قال الله تعالى: ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَّبُوا أَتَيْنَهُ﴾ [ص: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ واوق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلت عند آخر آية تقرؤها».

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكانه عجل، فقال عبد الله: فذاك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن. وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمره

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول. وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن في حديث حماد: أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة.

ثم قال البخاري، رحمه الله:

مد القراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبي مُليكة، عن يعلى بن مَمَلَك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملي، والترمذي والنسائي، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الليث بن سعد به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن ابن جريج، عن ابن أبي مُليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا. رواه أبو داود والترمذي من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: غريب وليس إسناده بمتصل، يعني: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُليكة لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مَمَلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته - أو جملة - وهي تسيب به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع. وقد تقدم هذا الحديث في القراءة على الدابة وأنه من المتفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما الترجيع: فهو التردد في الصوت كما جاء - أيضاً - في البخاري أنه جعل يقول: (آآ)، وكان ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت زمزماً من زمزما آل داود»، وهذا رواه الترمذي عن موسى بن عبد الرحمن الكندي، عن أبي يحيى الحماني - واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن - وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام على تحسين الصوت عند قول البخاري: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هناك أحكاماً كافية عن إعادتها مهناً، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن». قلت: عليك أقرأ عليك أنزل؟! قال: «إني أحب أن أسمع من غيري». وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحبّرتها لك تحبيراً. وقال الزهري، عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده. وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنع قط ولا يربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته.

قول المقرء للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿كَفَيْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرأوا القرآن ما اتلفتت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَّهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات، فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبي مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبي ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه. وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبي مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولاً من علقمة، ثم لقي أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعليّ هذا هو ابن المديني وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة - فقيه الكوفة في زمانه - استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات»، ولكن هذا الحديث - أعني حديث أبي مسعود - أصح وأشهر وأخص، ولكن وجه مناسبه للترجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر، والله أعلم.

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنيته فيسألها عن بعلمها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيتاه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «ألقني به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تخدم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة، وقرأ القرآن في كل شهر». قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصم يوماً». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، وقرأ في كل سبع ليال مرة»، فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع. وقد رواه في الصوم، والنسائي - أيضاً - عن بُنْدَار عن عُثْمَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائي من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به.

ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن عبد الرحمن - مولى بني زهرة - عن أبي سلمة، قال: وأحسبني قال: سمعت أنا من أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فأقرأه في سبع ولا تزد على ذلك». فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد: حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة؛ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في كل خمس عشرة». قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال: «ففي كل جمعة». وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان - رجل من أهل الكوفة - قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة.

وعن حجاج، عن شعبة عن أيوب: سمعت أبا قلابة، عن أبي المهلب قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وحدثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابة قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وكان تميم الداري يختمه في كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن في كل سبع. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل ست، وكان علقمة يختمه في كل خمس. فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخرجاها على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه

في كم يقرأ القرآن

الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفي. وهذا إسناد جيد قوي حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة، وابن لهيعة، وإنما يخشى من تدليس وسوء حفظه، وقد صرح بهنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم. وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير، عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفي.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث». وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الفرق، عن الطيب بن سليمان، حدثنا عمرة بنت عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث. هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصري، ضعفه الدارقطني، وليس هو بذلك المشهور، والله أعلم. وقد ذكره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف - أيضاً - قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث. صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله مثله سواء. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذكوان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث. إسناده صحيح. وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً: «أقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به». فقوله: «لا تغلوا فيه» أي: لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبير غالباً؛ ولهذا قبله بقوله: «ولا تجفوا عنه» أي: لا تتركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خصيفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلاً سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضي الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأعطين الليلة على الحجر، فقلت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحمني، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادي الفجر، أوتر بركة لم يصل غيرها. وهذا إسناد صحيح.

قال: وحدثنا هُشَيْمٌ، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيي الليل كله بركة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضاً. وقال - أيضاً -: حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميم الداري قرأ القرآن في ركعة. حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير، أنه قال: قرأت القرآن في ركعة في البيت - يعني الكعبة. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن في ليلة، طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمثنى، ثم طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بقية القرآن.

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا، ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْرٍ، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التنجيبى كان يختم القرآن في ليلة ثلاث مرات، ويجمع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضي ربك وترضي أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح.

قلت: كان سليم بن عتر تابعياً جليلاً ثقة نبيلاً، وكان قاضياً بمصر أيام معاوية وقاضياً بها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبي الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثني محمد بن عوف، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرمله بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين. وذكره ابن يونس في تاريخ مصر. وقد روى ابن أبي داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء. وعن منصور قال: كان علي الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان. وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبي يحتبي فما يحل حبوته حتى يختم القرآن. قلت: وروي عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلاً.

وعن الإمام الشافعي، رحمه الله: أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة. وعن أبي عبد الله البخاري - صاحب الصحيح -: أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمة. ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات. وهذا نادر جداً. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم. قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذمة).

ثم قال البخاري، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمع من غيري». قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: ﴿كَذَيْفَ إِذَا يَجْتَأَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ يَشْهِيهِ وَيَجْتَأُ بِكَ عَلَى هَذُلَاةٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كف أو أمسك»، فرأيت عيناه تدرقان. وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله.

من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خنيفة، عن سويد بن غفلة، قال علي، رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة».

وقد روي في موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق عن الأعمش به: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئاً، وينظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق». ورواه في موضع آخر، ومسلم أيضاً - والنسائي من طرق عن الزهري، عن أبي سلمة به. حدثنا مسدد بن مسرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأثرجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ریح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر». ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به.

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المرأة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، كما جاء في الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه» يعني: القرآن. والمذكورون في حديث علي وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع

اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم

صياهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿أَقَمَّنْ أَسَسَكْ بَيْكِنَمَّ عَلَّ تَقَوَّى مِنْكَ اللَّهُ وَرَضَوْنَ حَبْرَ أَمَّ مَنَّ أَسَسَ بَيْكِنَمَّ عَلَّ شَقًّا جُرُوفٍ هَاكِرٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء في تفسير الخوارج وتفسيرهم ورد روايتهم، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

والمناقق المشبه بالريحانة التي لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المراني بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى إِرْهَاءِ كُنَاسٍ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٧]. ثم قال البخاري:

اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». حدثنا عمرو بن علي بن بحر الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن أبي عمران الجوني، عن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». تابعه الحارث بن عُبيد وسعيد بن زيد، عن أبي عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان. وقال عُذْر: عن شعبة، عن أبي عمران قال: سمعت جُنْدُباً. قوله: وقال ابن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصح وأكثر. وقد رواه في موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبي عمران به، ومسلم - أيضاً - عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبي قدامة، عن أبي عمران به، ورواه مسلم - أيضاً - عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبي عمران به مرفوعاً. وقد حكى البخاري: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعا، فانه أعلم. ورواه النسائي والطبراني من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعمور النحوي، عن أبي عمران به.

ورواه النسائي - أيضاً - من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبي عمران به مرفوعاً، وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبي عمران، عن جُنْدُب موقوفاً، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. قال أبو بكر بن أبي داود: لم يخطيء ابن عون في حديث قط إلا في هذا، والصواب عن جندب. ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالوا: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران، عن جندب مرفوعاً. فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة أبو عبد الله البخاري، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»، وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفي اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». ثم قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سيرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلالها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرا» أكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله ﷻ». وأخرجه النسائي من رواية شعبة به، وهذا في معنى الحديث الذي تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه كما تقدم النهي عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبیش قال: قال عبد الله بن مسعود: تمارينا في سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية، قال: فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فوجدنا علياً بناصية فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما قد علمتم.

وهذا آخر ما أورده البخاري، رحمه الله، في كتاب فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، والله الحمد والمنة.



كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال نبي الله عليه الصلاة والسلام: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه». وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا خنوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني؛ أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر». قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به. وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي الخطاب، عن أبي سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؛ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله، لا يرعوي إلى شيء منه». قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيته أفضل ثواب السائلين».

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثني عبد الرحمن بن بُذَيْل بن ميسرة، حدثني أبي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهليين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار، حدثنا خالد بن خَدَّاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه». وقال الحافظ أبو بكر البزار، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن». ابن المحرر ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سودة، عن وفاة الخولاني، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربي والعجمي والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم في خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله - ﷺ - وسيأتي على الناس زمان يتقفون كما يتقف القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها». وقد رواه الإمام أحمد - أيضاً - عن حسن، عن ابن لهيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ فذكره. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمر بن نبهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال: «إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثني يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قعد أبو موسى في بيت واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أنتستطيع أن تقعدني حيث لا يراني منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبي موسى فقال: «إنه ليقراً على مزمار من مزامير داود، عليه السلام».

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن علي بن الحسين - عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أنتكم الساعة هكذا - وأشار بأصبعه السبابة والوسطى - صحبتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فلآتي وعلي». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب - يعني ابن عطاء - أنبأنا

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن

أسامة بن زيد الليثي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن فقال: «اقرأوا القرآن وابتغوا به وجه الله - ﷻ - من قبل أن يأتي بقوم يقيمونه إقامة القدرح، يتعجلونه ولا يتأجلونه». قال أحمد - أيضاً -: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا المعجمي والأعرابي قال: فاستمع فقال: «اقرأوا فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدرح، يتعجلونه ولا يتأجلونه».

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كُرَيْب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلى الكندي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه - أو كلمة نحوها - زج في قفاه إلى النار». وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثني بكر بن يونس، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قطاراً، والقطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية والوقية ستة دنانير، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط مثل أحد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته: نصب عبد لي، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيماناً به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك».

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». قال البزار: لا تعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثني أبي قال: وجدت في كتاب أبي بخطه عن عمران بن أبي عمران، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من اتبع كتاب الله هداة الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله ﷻ يقول: ﴿فَمَنْ آتَىٰ هَذَا فَلَا يُصِلْ وَلَا يَسْتَقِمْ﴾ [طه: ١٢٣]. وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به». وقال - أيضاً -: حدثنا أبو يزيد القراطيسي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن سعيد أبي سعد البقال، عن الضحاک، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن». وروى - أيضاً - بسنده إلى الضحاک عن ابن عباس مرفوعاً: «أشرف أمتي حملة القرآن». وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا إبراهيم بن أبي سويد الذارع، حدثنا صالح المري، عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سألت رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله».

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشي، حدثني أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدري، فقال النبي ﷺ: «أعلمك كلمات يفعلك الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبي وأمي، قال: «صل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، وأسألك أن تنور بالكتاب بصري، وتطلق به لساني، وتفرج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتستعمل به بدني، وتقويني على ذلك وتعينني على ذلك، فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعمائة تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمناً قط». فأتى النبي ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبي ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة، علم أبو الحسن، علم أبو الحسن» هذا سياق الطبراني.

وقال أبو عيسى الترمذي في كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأمي، تغلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت في صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمني، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخي يعقوب لبيته: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم في وسطها، فإن لم تستطع فقم في أولها فصل أربع ركعات، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحَم الدخان، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الشاء على الله، وصل عليّ وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلف ما لا يعينني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصري، وأن تطلق به لساني، وأن تفرج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تغسل به بدني، فإنه لا يعينني على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعمائة تجاب بإذن الله تعالى، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط». قال ابن عباس: فوالله ما لبث عليّ إلا خمساً أو سبعمائة حتى جاء عليّ رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتهن على نفسي تفلتن وأنا أعلم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين يدي، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا زدّدته تفلت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفاً، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم في مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: على شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسماع من ابن جريج، فالله أعلم - فإنه في المتن غرابة بل نكارة، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا العمري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعلقة إن تعاهدها صاحبها أسكها، وإن تركها ذهبت». ورواه - أيضاً - عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمري به. ورواه - أيضاً - عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبي الحوار، حدثنا مسعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رويت أنه يخشى الله، ﷻ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: أقرأ وأزق ورُتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حُيى الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن». وبهذا الإسناد: أن رجلاً جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تنعم أن ابنتك يظل ذاكراً ويبيت سالماً». وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعمته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعمته النوم بالليل فشفعني فيه»، قال: «يفشعان». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقي أمتي قراؤها». وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثني همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه». ورواه

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن

- أيضاً - عن عُثْمَر، عن شعبة، عن قتادة به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبي الحجاج التميمي، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ القرآن فكانما استدرجت النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظم ما صغر الله، وصغر ما عظم الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسفه فيمن يسفه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يخذل فيمن يخذل، ولكن يعفو ويصفح، لفضل القرآن» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن مسيرة، عن الحسن، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال : «من استمع إلى آية من كتاب الله كَتَبَتْ له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» . وقال البزار : حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عنبسة بن مهران عن الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال : «مراة في القرآن كفر» . ثم قال عنبسة : هذا ليس بالقوي . وعنده فيه إسناد آخر . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبري، عن جده، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» . وقال الطبراني : حدثنا موسى بن حازم الأصبهاني، حدثنا محمد بن بكر الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن الحارث الذماري، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن فضالة بن عبيد، وتميم الداري، عن النبي ﷺ قال : «من قرأ عشر آيات في ليلة كَتَب له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، ﷻ : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك : اقبض، فيقول العبد بيده : يا رب أنت أعلم . فيقول : بهذه الخلد وبهذه النعيم» . وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة معقس بن عمران بن حطان قال : قال : دخلت مع أبي علي أم الدرداء، رضي الله عنها، فسألها أبي : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت : حدثني عائشة قالت : جُعِلَتْ دَرَجُ الْجَنَّةِ عَلَى عِدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من درجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درجها، ومن قرأ كلّه كان في عليين، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيد . وقال الطبراني : حدثنا مسعدة بن سعد العطار المكي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصاري، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدي، حدثني فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، حدثني سكين بنت الحسين بن علي، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة يوم القيامة» . وروى الطبراني من حديث بقرته، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة المليكي، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : «يا أهل القرآن، لا تؤسّدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته من آتاء الليل والنهار، وتغنوه وتَقَوُّوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثوابين» .

وفي حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن مشرح، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أن القرآن جُعِلَ في إهاب ثم لقي في النار ما احترق» . تفرد به . قيل : معناه : أن الجسد الذي يقرأ القرآن لا تمسه النار . وفي سنن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نهيك، عن عقبة بن عامر مرفوعاً : «من تعلم القرآن ثم تركه فقد عصاني» . وفي حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبي سعيد مرفوعاً : «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، واخزّن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان» .

وهكذا أذكر آثاراً مروية عن ابن أمّ عبد أحد قراء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم : روى الطبراني، عن الدبري، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، قال ابن مسعود : كل آية في كتاب الله خير مما في السماء والأرض . ومن طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة قال ابن مسعود : من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين . ومن طريق سفيان وشعبة، عن ساعد بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال : إن هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلق . ومن حديث الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سيار أبي الحكم، عن ابن مسعود أنه قال : أعربوا هذا القرآن فإنه عربي، وسيجيء قوم يتقّفونه وليسوا بخياركم . والثوري، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال : أديموا النظر في المصحف، وإذا اختلفتم في آية أو آء فاجعلوها آء، ذكروا القرآن فإنه مذكور .

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شداد بن معقل، سمعت ابن مسعود يقول : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وليصليّن قوماً لا خلاق لهم، ولينزعن قوم من بين أظهركم . قالوا : يا أبا عبد

الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يُسْرَى على القرآن ليلاً فَيَذْهَبُ به من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء - وفي رواية: لا يبقى في مصحف منه شيء - ويصبح الناس فَعَرَاءَ كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَسَكِينًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثني شعبة، عن علي بن بزيم، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. قال هشام عن الحسن: إنه بلغه عن ابن مسعود مثل ذلك. ومن طريق الأعمش، عن أبي وائل قال: كان عبد الله يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمْتُ صَعَفْتُ عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحب إلي.

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن منهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والثور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تُحَرِّمْ، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة. فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان. وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطية بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمئة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حَرْفٍ ومائة وثمانون حرفاً. وقال الفضل، عن عطية بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً. وقال سلام أبو محمد الحماني: إن الحجاج جمع القراءة والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حَرْفٍ وأربعون ألفاً وسبعمئة وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَيَسْتَلْفَفُ﴾ [الكهف: ١٩]، وثله الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسبَّعُه الأول إلى الدال من قوله: ﴿فَيَنْهَى مَنْ مَأْمَنَ بِهِ وَيَمْتَنُّ مَنْ صَدَّقَتْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسبَّع الثاني إلى الباء من قوله في الأعراف: ﴿حَطَّطَتْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من ﴿أَكْثَلَهَا﴾ في الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الألف من قوله في الحج: ﴿جَعَلْنَا مَسْجِدًا﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح: ﴿الْفَلَاكِيَتَ بِاللَّهِ طَلَبَ الْكُفْرَ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك في أربعة أشهر. قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى ﴿وَيَسْتَلْفَفُ﴾ [الكهف: ١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، والله أعلم.

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهما عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف يُحزَّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المُفْضَل من قاف حتى يختم. قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلائي والطبري وقالوا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.

فصل

واختلفوا في معنى السورة: مِمَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبذَبُ
 فكان القاريء ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذ من أسار الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خفت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما

قبلها. وقيل: لتماهما وكما لها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة. قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازله ودوره، والله أعلم. وجمع السورة سُورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سُورَاتٍ وسُورَاتٍ. وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بائنة من أختها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَائِكَةَ مَلَائِكَةً﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة:

تَوَهَّنْتُ آيَاتِ لَهَا فَمَرَفْتُهَا لَسْتُهُ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَمَامِ سَابِغٍ
وقيل: لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بأيّتهم، أي: بجماعتهم. قال الشاعر:

خَرَجْنَا مِنَ التُّقْبِينِ لَا حَيَّ مِثْلُنَا بَأَيْتِنَا تُزْجِي اللِّقَاحَ المَطَافِلَا
وقيل: سُمِّيَتْ آيَةً لأنها عَجَبٌ يَعْجِزُ البَشَرَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قال سيويه: وأصلها آيَةٌ مثل أكمة وشجرة، تحركت الياء وافتتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: آية على وزن آمنة، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتباسها. وقال الفراء: أصلها آية - بتشديد الياء - فقلبت الأولى ألفاً، كراهية التشديد فصارت آية، وجمعها: آيٍ وآيَاتٍ وآيَاتٍ. وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون عشرة أحرف ﴿يَسْتَنْظِرُونَ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنْزَلْنَاهُ كَقُرْآنٍ﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَلَقَدْ يَنْشُرُونَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحى، والمعصر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم - في قول الكوفيين - و ﴿حَمْرٌ ۝ عَسَقٌ ۝﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هي فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله: ﴿مُدَّهَا كَتَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٦٤] في سورة الرحمن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضاً: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات من أم الكتاب، ولذا كرها - أيضاً - أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله عليه السلام عن ربه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم». ويقال لها: الرقية، لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟». وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقعة. وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها». ويقال لها: سورة الصلاة والكنز، ذكرهما الزمخشري في كشفه.

وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل: مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَآئِكَ سَبْعًا مِنَ النَّبِيِّ﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم. وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه. وهي سبع آيات بلا خلاف، وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفي: ستة، وهذا شاذان. وإنما اختلفوا في البسمة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الفتة.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب: أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما

تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أما ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أما ، واستشهد بقول ذي الرمة :
على رأسه أم لنا نقتدي بها
جماع أمور ليس نعصي لها أمرا
يعني : الرمح . قال : وسميت مكة : أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، وقيل : لأن الأرض دحيت منها . ويقال لها أيضاً : الفاتحة ؛ لأنها تفتتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام ، وصح تسميتها بالسبع المثاني ، قالوا : لأنها تنفي في الصلاة ، فتقرأ في كل ركعة ، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله .
قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هشام عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال لأم القرآن : «هي أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم» . ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به ، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أنا ابن وهب ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني» . وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره : حدثنا أحمد بن محمد بن زيد ، ثنا محمد بن غالب بن حارث ، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي ، ثنا المعافى بن عمران ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن نوح بن أبي بلال ، عن المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله رب العالمين سبع آيات : بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي أم الكتاب» .

وقد رواه الدارقطني - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله ، وقال : كلهم ثقات . وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿سَمَاءٌ مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الحجر : ٨٧] بالفاتحة ، وأن البسمة هي الآية السابعة منها ، وسيأتي تمام هذا عند البسمة . وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال : قيل لابن مسعود : لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة . قال أبو بكر بن أبي داود : يعني حيث يقرأ في الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها .
وقد قيل : إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن ، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا أحدها وقيل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ثم قال : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن» . قال : «نعم ، الحمد لله رب العالمين هي : السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» . وهكذا رواه البخاري عن مسدد ، وعلي بن المديني ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به . ورواه في موضع آخر من التفسير ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه من طرق عن شعبة ، به . ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، عن أبي بن كعب ، فذكر نحوه .

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن حديثي خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، رضي الله عنه ، قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجه حتى صليت وأتيت ، فقال : «ما منعك أن تأتيني؟» . قال : قلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي . قال : «ألم يقل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ثم قال : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» . قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن» . قال : «نعم ، الحمد لله رب العالمين هي : السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» . وهكذا رواه البخاري عن مسدد ، وعلي بن المديني ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به . ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، عن أبي بن كعب ، فذكر نحوه .
وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس ، ما ينبغي التنبيه عليه ، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي : أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم ، أن رسول الله ﷺ نادى أبي بن كعب ، وهو يصلي في المسجد ، فلما فرغ من صلاته لحقه ، قال : فوضع النبي ﷺ يده على يدي ، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ، ثم قال : «إني لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلاً» . قال أبي : فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ، ثم قلت : يا رسول الله ، ما السورة التي وعدتني؟ قال : «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» . قال : فقرأت عليه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على آخرها ، فقال رسول الله ﷺ : «هي هذه السورة ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت» .

فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المُعلَى، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المُعلَى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالي خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد روي عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يا أباي»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبي، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله. قال: «وعليك السلام»، قال: «ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني؟». قال: أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أو لست تجد فيما أوحى الله إلي: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». قال: بلى يا رسول الله، لا أعود. قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟» قلت: نعم، أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أتبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «ما تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؛ إنها السبع المثاني».

ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدَّرَاوَزِيِّ، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكره، وعنده: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد، عن إسماعيل بن أبي مَعْمَر، عن أبي أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه. وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن أبي عمار حسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي مقسومة بيني وبين عبدي»، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعني ابن البريد، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فانتقلت رسول الله ﷺ يمشي، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها». هذا إسناد جيد، وابن عقيل تحتج به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدي، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر. واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار من المالكية. وذمبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلا يومه التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القُرطبي عن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم ابن حبان البستي، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك أيضاً.

حديث آخر: قال البخاري في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المنثي، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نقرنا غُيب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكننت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لا تُحدِثُوا شيئاً حتى نأتي، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم». وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثني معبد بن سيرين، عن أبي سعيد الخدري بهذا. وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام، وهو ابن حسان، عن ابن سيرين، به. وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذي رقى ذلك السليم، يعني: اللدغ يسمونه بذلك تفاضلاً.

حديث آخر: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيْق، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأثنى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائي.

ولمسلم نحوه حديث آخر: قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء، يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: حمدني عبدي» - وقال مرة: «فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وهكذا رواه النسائي، عن إسحاق بن راهويه. وقد رواه - أيضاً - عن قتبية، عن مالك، عن العلاء، عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبي هريرة، به، وفي هذا السياق: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل». وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج، عن العلاء، عن أبي السائب هكذا. ورواه - أيضاً - من حديث ابن أبي أويس، عن العلاء، عن أبيه وأبي السائب، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وسألت أبا رُزَعة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء عن أبي السائب. وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب مطولاً. قال ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عُنَيْسَةُ بن سعيد، عن مُطَرِّف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عَجْرَةَ، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ قال: أثنى علي عبدي. ثم قال: هذا لي وله ما بقي». وهذا غريب من هذا الوجه.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه: أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقَرَأَانَ الْقُرْآنَ إِذَ قَرَأَانَ الْقُرْآنَ كَأَنَّهُ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء. ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئها هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْزَلُ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة في قصة المسيء صلته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئها الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» والخداج هو: الناقص كما فسّر به في الحديث: «غير تمام».

واحتجوا - أيضاً - بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن محمد بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن». والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك، رحمهم الله. ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات، أخذ بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزاء لقوله: ﴿فَأَقْرَأْ مَا تَمَنَّى رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٢٠]، كما تقدم، والله أعلم. وقد روى ابن ماجة من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نصره، عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها». وفي صحة هذا نظر، وموضح تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة. والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف. ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه. وقد روي هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم. والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»، وذكر بقية الحديث. وكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا غسان بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقد أمنت من كل شيء إلا الموت».

الكلام على تفسير الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٥﴾ [الاعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ أَسْفَلَ مِنْ هَيْبَتِكَ لِيُصَلُّوا بَمَا يُصَلُّونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا بِكَ بِدُونِ مَا يُحْضُرُونَ ﴿٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ أَسْفَلَ مِنْ هَيْبَتِكَ لِيُصَلُّوا بَمَا يُصَلُّونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرِّيٌّ عَظِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ [نصفت: ٣٤-٣٦]. فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتبغى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ لَا يَفْتِنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الاعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [طاهر: ٦] وقال: ﴿أَفْتَحْذَرُوا وَذَرِّبْتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٢﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]. قالت طائفة من القراء وغيرهم: تتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوبا عنه، وأبو حاتم

السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتابه «الكامل». وروي عن أبي هريرة - أيضاً - وهو غريب.

ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصهباني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك، رحمه الله تعالى، أن القاريء يتعوذ بعد الفاتحة. واستقره ابن العربي. وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولاً وأخراً جمعاً بين الدليلين نقله فخر الدين.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة كقولك: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلُظْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه». وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب. وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والثفخ بالكبر، والنفث بالشعر. كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عاصم العنزّي، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً؛ اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه». قال عمرو: وهمزة الموتة، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر. وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه». قال: همزه: الموتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، «وسبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات. ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه». وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشنى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزج أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد، به. وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي والنسائي في اليوم والليلة عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي - أيضاً - من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خُيلَ إليّ أن أحدهما يمزج أنفه من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود. وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل ستة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة، رضي الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون.

وقد رواه - أيضاً - مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به. وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفوائد الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل، عليه السلام، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: «أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل. وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَأَسْتَعِذْ﴾، وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء: يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي وحكي عن بعضهم أنه يقول: أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للضم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيئ للتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبین الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والاتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فصل

معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكف عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإساءة الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْقُرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبُحْهِلَاتِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من

البشر، ثم قال: ﴿وَإِنَّا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿أَدْفَعْ بِالْأَيْ هِيَ أَحْسَنُ النَّسِيئَةِ مِمَّنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٦١﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٦٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي لَسَانُهُ وَلَا النَّسِيئَةُ أَدْفَعُ بِالْأَيْ هِيَ أَحْسَنُ فَأَذَا أَلَذَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَكِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُرٌّ حَظْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، ويعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان، عليه السلام:

أَيْمَاشَاطِنَ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السُّجُنِ وَالْأَغْلَالِ
فَقَالَ: أَيْمَاشَاطِنَ، ولم يقل: أَيْمَاشَاطِنَ. وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن دُيَّانَ -:

نَاتَ بِسَعَادِ عَنكَ نَسْوَى شَطُونُ فَبَانَتْ وَالْفَوَاذُ بِهَا زَهْمِينُ

يقول: بعدت بها طريق بعيدة. وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطان فلان إذا فعلَ ففعلَ الشيطان، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط. والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١١٧]. وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم». وفي صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ركب بزذونا، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضره فلا يزداد إلا تبخترأ، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده صحيح.

والرَّجِيمُ: فعيل بمعنى مفعول، أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا نُجُومًا لِلشَّيْطَانِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُرُوبِ ﴿١﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى التَّلَاقِ الْأَعْلَى وَقَادِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٤﴾ نُحُورًا وَهَلَمَّ عَذَابٌ وَاسِعٌ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْمَقْتُلَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٢﴾﴾ [الصافات: ٦-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحِفْظًا لِنَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرمج الناس بالوسواس والربايات، والأول أشهر.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضاً، وروي مرسلًا عن سعيد بن جبيرة. وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ بالبسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جُرَيْجٍ، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عنها. وروى له الدارقطني متابعاً، عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما. ومن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن زَاهُوِيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان. وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله. هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفزع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب. ومن التابعين عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعلي بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن مغفل بن مقرن. زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار. والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أعضائها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم. وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن ويمد الرحيم.

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطني: إسناده صحيح. وروى الشافعي، رحمه الله، والحاكم في مستدركه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل. وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقتنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطبيقاتها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر. وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل. وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ بالبسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها. ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل، رضي الله عنه.

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدثنا سلام بن وهب الجندبي، حدثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب». وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْذُويه، عن سليمان بن أحمد، عن علي بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به. وقد روى الحافظ ابن مَرْذُويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن

إسماعيل بن يحيى، عن مسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة». وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء، الملقب: زُبَيْرِ، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، فذكره، وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم. وقد روى جُوَيْرِ، عن الضحَّاك، نحوه من قبله. وقد روى ابن مَرْذُويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بسم الله الرحمن الرحيم». وروى بإسناده عن عبد الكبير بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن دُرِّ، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغنيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ألا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه.

وقال وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيهِ الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد، ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية ونظره بحديث: «فقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها» لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك. وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تيمية يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تغل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد روى النسائي في اليوم والليلة، وابن مَرْذُويه في تفسيره، من حديث خالد الحذاء، عن أبي تيمية وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تغل هكذا، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب». فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. فتستحب في أول الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجدم»، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ولما ورد من الحديث في ذلك، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلك فسم الله؛ فإنه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات». وهذا لا أصل له، ولا رأيه في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة: «قل: باسم الله، وكل بيمنتك، وكل مما يليك». ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً». ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، فتقديره: باسم الله ابتدائي، فلقله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا وَفَرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل أمراً وخبراً نحو: ابدأ بسم الله أو ابتدأت بسم الله، فلقله: ﴿أَقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [المعلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدَّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله، إن كان قياماً أو عوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم؛ ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بشر بن عُمارة، عن أبي روق، عن الضحَّاك، عن ابن عباس، قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد قل: استعِذْ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّحِيمِ، ثم قال: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال: قال له جبريل: قل باسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم، واقعد بذكر الله. هذا لفظ ابن جرير.
وأما مسألة الاسم: هل هو المسمى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك، وقال فخر الدين الرازي - وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الري - في مقدمات تفسيره: قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث. ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعدوم وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها، وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد الالفاظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا»، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى، وأيضاً فقولوه: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ﴾ أضافها إليه، كما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، ونحو ذلك. والإضافة تقتضي المغايرة وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره، واحتج من قال: الاسم هو المسمى، بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] والمبارك هو الله. والجواب: أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل: زينب طالق، يعني امرأته طالق، طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق. والجواب: أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازي: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً، والله أعلم.

﴿اللَّهُ﴾: عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ اسْمُ الْأَعْظَمِ؛ لِأَنَّهُ يُوَصَّفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١١٢] هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وجاء تعداها في رواية الترمذي، وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ. وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله در الفغانيات الممدّه سبحن واسترجعن من تألهي
فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التاله، من أله ياله لإلهة وتألها، كما روي أن ابن عباس قرأ: «ويذكر والاهتك» قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعْبَدُ ولا يُعْبَدُ، وكذا قال مجاهد وغيره. وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي المعبود في السموات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديانني فتخزوني
قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسوسني، وقال الكسائي والفراء: أصله: الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في

الثانية، كما قال: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل وله، وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل في الصحارى، والله تعالى تحير أولو الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاء، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق من ألهمت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل: إذا فزع من أمر نزل به فألهه، أي: أجاره، فالمجبر لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّمَعُورٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يُطِئِمُّ وَلَا يُطَعَّمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه: منها: أنه لو كان مشتقاً لاشترك في معناه كثيرون، ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿العزیز الحمید اللہ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجبر فجعل ذلك من باب عطف البيان، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيِّئًا﴾ [مریم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبراني لا عربي، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: وأعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكانهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتأهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألوهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهأ، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت. وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لهماً واحدة مشددة، وفخمت تعظيماً، فقيل: الله.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وهي كلام ابن جرير ما يُفهِّم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى، عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المحروم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه. وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق. قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». وقال ابن المبارك: الرحمن إذا ستل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، وقال بعض الشعراء:

لا تطلبن بنى آدم حاجة
وسئل الذي أبوابه لا تغلق
الله يغضب إن تركت سؤاله
وبنى آدم حين يسأل يغضب

قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعت العززمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْفَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [١٥]. ولما تجهرم مسيئة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيئة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوير من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهرم مسيئة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيْمًا بَصِيرًا﴾ [٢] [الإنسان: ٢]. والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص. فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلني: «اكتب» ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [٦٦] [الفرقان: ٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال:

ألا ضرتك تلك الفتاة هجيتها
ألا قضب الرحمن زبي يمينها
وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم
وما يسأ الرخمن ينفقد ويطلق
وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [١]، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى. وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [١] الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٢] الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ [٣] مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ [٤]، فقرأ

بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① وكسر الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور. وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصله الهمزة فيقولون: ﴿يَسْمَعُ اللَّهُ الْكَلِمَ الْكَبِيرَ﴾ ② ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ③ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد بهذا قراءة عن أحد فيما علمت.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ④

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالا: ﴿الحمد لله﴾ بالنصب وهو على إضمار فعل، وقرأ ابن أبي عيلة: ﴿الحمد لله﴾ بضم الدال واللام اتباعاً للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ، وعن الحسن وزيد بن علي: ﴿الحمد لله﴾ بكسر الدال اتباعاً للأول الثاني. قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأً.

وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكانه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر. وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة كل شاعر، وقد استدل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً. وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم. وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمدته حمداً ومحمداً، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح. وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللجماد - أيضاً - كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم.

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رضيها لنفسه. ورواه غير أبي معمر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال. وقال علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي. رواه ابن أبي حاتم. وروى - أيضاً - هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخفاف له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك. وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. وقال الضحاك: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك. قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا

بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك».

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن ابن عليه، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، به. وروى الترمذي، والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وقال الترمذي: حسن غريب. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطي أفضل مما أخذ». قال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك». قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يقضى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالنَّوْتُورُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَيُّوتُ الْمَصْلُوحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا رب، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدي؟ قال: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزبه بها». وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل من قول: لا إله إلا الله؛ لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر في السنن: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له». وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وحسنه الترمذي.

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله». الحديث.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله ﷻ، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم. والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله ﷻ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، وكل قرن منها وجبل يسمى عالماً أيضاً. قال بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم. وفي رواية سعيد بن جبيرة، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن جبيرة، ومجاهد وابن جريج، وروي عن علي نحوه. وقال ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجمد ويلقب بالحمار - أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه إلا الله، ﷻ. وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب بن سمي، عن نبيح، يعني الحميري، في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وحكي مثله عن سعيد بن

المسيب. وقد روي نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي في مسنده: حدثنا محمد بن المشي، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه، فلم يخبر بشيء، فاعتم لذلك، فأرسل ركباً يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أم لا؟ قال: فاتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه». محمد بن عيسى هذا - وهو الهلالي - ضعيف.

وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوي، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن لله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٠) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٢١﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحديته كما قال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢١)

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٢) تقدم الكلام عليه في البسمة بما أغنى عن إعادته.

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٢٣)

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَلِكٌ﴾. وكلاهما صحيح متواتر في السبع. ويقال: ﴿ملك﴾ أيضاً، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: ﴿ملكى يوم الدين﴾، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري ملك؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ وحكي عن أبي حنيفة أنه قرأ «ملك يوم الدين» على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريب شاذ جداً. وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأدرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدي بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٢٣) وأول من حدث «ملك» مروان. قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم. وقد روي من طرق متعددة أوردها ابن مژدويه أن رسول الله ﷺ كان يقرأها: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٢٣) ومالك مأخوذة من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (١٢٤) [مریم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١٢٥) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (١٢٦) [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذ من المُلْك كما قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غانف: ١٦] وقال: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عِصْمًا﴾ (١٢٦) [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْلَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (١٢٨) [النبا: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّمتِ الْأَبْصَارُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتُكَ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَبْشُرُ شَقِيًّا وَسَوْيَةٌ﴾ (١٢٩) [مرد: ١٠٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٢٣) يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾: أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه. والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم.

والملك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارين؟ أين المتكبرون؟ وفي القرآن العظيم: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ إِلَهَ الْوَجْدِ الْفَهَارِ﴾. فاما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُ مَلِكٌ﴾، ﴿إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَرْبَابًا وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا﴾، وفي الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة).

والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وقال: ﴿أَوَلَا لَعَدُوُّونَ﴾. أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أي حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنِّي خَافِيَةٌ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «إياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فهباك والأمر الذي إن تراجحت موارده ضاقت عليك مصادره
و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم وقيس.

العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [مرد: ١٧٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِيَدِهِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ الْاَشْرَاقِ وَالتَّرْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٢٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة؛ لأنه لما أتى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده أن يشنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الخرقه، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أتني علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدي ولعبي ما سأل».

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه

على أمركم. وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أوجب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وإذا كنت في خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجمع إلى الله ﷻ. ومنهم من قال: ألطف في التواضع من إياك أعبد، لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثنى عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بعبادتها فإنه أشرف أسمائي
وقد سمي الله رسوله عبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنْتَ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعَرْنَا أَنكَ يَصِيقُ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٧٧] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [١٨] ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ بَابِكَ الْيَقِينِ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. وقد حكي فخر الدين في تفسيره عن بعضهم: أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق؛ قال: ولأن الله متولي مصالح عبده، والرسول متولي مصالح أمته، وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده.

وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى، وهذا أيضاً - عندهم ضعيف، بل العالي أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلي: أصلي لله. ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العذاب لبطلت صلاته. وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا: كون العبادة لله ﷻ، لا ينافي أن يطلب معها ثواباً، ولا أن يدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابي: أما إنني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ: «حولها دندندن».

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قراءة الجمهور بالصاد. وقرئ: ﴿السرط﴾ وقرئ بالزاي، قال الفراء: وهي لغة بني عذرة وبلقين وبني كلب. لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبيد ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿أَهْدِنَا﴾؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [التقصير: ٢٤] وقد تقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الانبيا: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كقول الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني
إذا أثنى عليك المرء يوماً
حياؤك إن شيمتك الحياء
كفاه من تعرضه الشناء

والهداية هنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيْنَهُ السَّبِيلَ﴾ [البعد: ١٠] أي: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: ﴿أَجَبْنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَأَقْدَمُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً. وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطْفِي:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا أَعْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ
قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروي أنه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصراط المستقيم كتاب الله». وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد تقدم في فضائل القرآن فيما رواه أحمد والترمذي من رواية الحارث الأعور، عن علي مرفوعاً: «وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم».

وقد روي هذا موقوفاً عن علي، وهو أشبه، والله أعلم. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه. وقال ميمون بن وهبان، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ذلك الإسلام. وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قالوا: هو الإسلام. وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض. وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو دين الله، الذي لا يقبل من العباد غيره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث يعني ابن سعد، عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه، عن أبيه، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد به. ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن علي بن حجر عن بقة، عن بُجَيْرِ بْنِ سَعْدٍ، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان، به. وهو إسناده صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبي ﷺ، وصاحبه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح. وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي البصيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ. ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي - أعني ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيت به ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه،

واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تشييته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال البعيدة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى أمرأ لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)، وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً. فمعنى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبيدي ولعبيدي ما سألت». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم. و ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) [النساء: ٦٩، ٧٠]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النساء: ٦٩]. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه. والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: قرأ الجمهور: «غير» بالجر على النعت، قال الزمخشري: وقرئء بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في ﴿عليهم﴾ والعامل: ﴿أنعمت﴾ والمعنى: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامتنال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعملوا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن تم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى. وقد زعم بعض النحاة أن «غير» ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقْيَاشٍ يُدْفَنُ عِنْدَ رَجُلَيْنِ بِشَنْ
أَي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. أي: غير صراط المغضوب عليهم. اكتفى بالمضاد إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. ومنهم من زعم أن (لا) في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد بييت العجاج:

فِي بَثْرِ لَا حُورٍ سَرَى وَمَا شَغَرَ

أي في بثر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ

الضَّالِّينَ. وهذا إسناد صحيح، وكذا حكى عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي، لثلاث يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان شاملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من باه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَى عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. وذلك واضح بين.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سماك بن حرب، يقول: سمعت عباد بن حُبَيْش، يحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صُفُوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمَنْ عَلِيٌّ مَنْ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الذي فر من الله ورسوله!» قالت: فمَنْ عَلِيٌّ، فلما رجع، ورجل إلى جنبه، ترى أنه علي، قال: سليه حُمْلَانًا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتنتي، فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، وذكر قريبهم من النبي ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: «يا عدي، ما أفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر من الله، ﷻ؟». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى».

وذكر الحديث، ورواه الترمذي، من حديث سماك بن حرب، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه. قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مُرْتَبِي بْنِ قَطْرِيٍّ، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «هم اليهود» ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ قال: «النصارى هم الضالون». وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم، به. وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بُدَيْلِ الْعُقَيْلِيِّ، أخبرني عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع النبي ﷺ، وهو بوادي الفُرَى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بني الفين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى». وقد رواه الجُرَيْرِيُّ وعروة، وخالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه، ولم يذكروا من سمع النبي ﷺ. ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فانه أعلم. وقد روى ابن مَرْزُوقٍ، من حديث إبراهيم بن طَهْمَانَ، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم، قال: «اليهود»، قال: قلت: الضالين، قال: «النصارى». وقال السُّدِّيُّ، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾: هم النصارى. وقال الضحَّاكُ، وابن جُرَيْجٍ، عن ابن عباس: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾: هم النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً. وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿يَسْمَا أَشْرَقُوا بِوَجْهِ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَلَيَّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُ وَعَصَيْبَ عَلَيَّ وَعَصَيْبَ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال في المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمُنْزِلِ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَى عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَفْرَادًا وَالْحَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ لِسَانَ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. وفي السيرة، عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع

أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، رضي الله عنه.

(مسألة): والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحريم ما بين الضاد والطاء لقب مخرجهما؛ وذلك لأن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لثلاثي حشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَبْذُ اللَّهُ فَوْهُ أَلْمَهْتَدُ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَعَلَا هَادِيًا لَمْ يَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم». يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ بِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل: يس، ويقال: آمين، بالقصر أيضاً مثل: يمين، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم. وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطني قال: هذا إسناد حسن. وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود.

ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شجدا الميم من آمين مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٢]. قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه». قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله».

وقال جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل». وقال الجوهري:

معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكرشون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي. وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سَمِيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وَإِذَا قَالَ، يَعْنِي الْإِمَامُ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ. الْحَدِيثُ. وَاسْتَأْنَسُوا. أَيْضاً - بِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى: «وَإِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ». وَقَدْ قَدِمْنَا فِي الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا» وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُؤْمَنُ إِذَا قَرَأَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد». ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وفضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وفضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»، وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثرُوا من قول: آمين» وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف. وروي ابن مَرْدُويه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آمِينَ: خَاتَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ». وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ آمِينَ فِي الصَّلَاةِ وَعِنْدَ الدَّعَاءِ، لَمْ يَعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوسَى، كَانَ مُوسَى يَدْعُو، وَهَارُونَ يُؤْمِنُ، فَاخْتَمُوا الدَّعَاءَ بِآمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُهُ لَكُمْ».

قلت: ومن هنا نزح بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَمَنَّيَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَسْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون آمن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدل ذلك على أن من آمن على دعاء فكأنما قاله؛ فلهدا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدل هذا المنزح على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم. ولهذا قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقَالَ: آمِينَ، فَتَوَافَقَ آمِينَ أَهْلُ الْأَرْضِ آمِينَ أَهْلُ السَّمَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَمِثْلُ مَنْ لَا يَقُولُ: آمِينَ، كَمِثْلِ رَجُلٍ غَزَا مَعَ قَوْمٍ، فَاقْتَرَعُوا، فَخَرَجَتْ سَهَامُهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ سَهْمُهُ، فَقَالَ: لِمَ لَمْ يَخْرُجْ سَهْمِي؟ فَقِيلَ: إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ: آمِينَ».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة البقرة

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وستة آلاف ومائة وعشرون كلمة، ومائتان وستة وثمانون آية في عدد الكوفي وعدد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذكر ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنّام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش، فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة، ويس: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، واقروها على موتاكم». انفرد به أحمد. وقدره أحمد - أيضاً - عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان - وليس بالثَّهْدِي - عن أبيه، عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقروها على موتاكم» يعني: يس. فقد بيّنا بهذا الإسناد معرفة المبهم في الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود، والنسائي، وابن ماجه. وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنّام، وإن سنّام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي». وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني ابن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه». سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال، حدثني أبو بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَلْفَيْنِ أَحَدَكُم، يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يَتَغْنَى، وَيَدْعُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ يَقْرُؤُهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْرَ مِنْ الْبَيْتِ تَقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنْ أَضْفَرَ الْبَيْوتِ الْجَوْفَ، الضَّفْرُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ». وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به. وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سنّاماً، وإن سنّام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن المفضل. وروى - أيضاً - من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيات بعدها وثلاث آيات من آخرها، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن إلا أفاق.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سنّاماً، وإن سنّام القرآن البقرة، من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام». رواه أبو القاسم الطبراني، وأبو حاتم، وابن حبان في صحيحه. وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المقبري، عن عطاء مولى أبي أحمد، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم، يعني ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنّاً، فقال: «ما مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» قال: «معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «أذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرفهم: «والله ما منعتني أن أتعلم البقرة إلا أني خشيت ألا أقوم

سورة البقرة ذكر فضلها مع آل عمران

بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقروه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه، فبرقد وهو في جوفه، كمثل جراب أوكي على مسك». هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلًا، والله أعلم.

قال البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن حضير، قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلّة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذلك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به. وقد روي من وجه آخر، عن أسيد بن حضير، كما تقدم، والله أعلم.

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس، رضي الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد القاسم: حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ، قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس؟ لم ترل داره البارحة تزهو مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فستل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة. وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إيهاماً، ثم هو مرسل، والله أعلم.

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن مهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعت يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غماتان أو غيبتان، أو فزقان من طير صواف، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين، لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد في ذرّج الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلاً». وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم، فإن بشيراً هذا أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين، وقال النسائي: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تجيء بالعجب. وقال البخاري: يخالف في بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن عدي: روى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطني: ليس بالقوي. قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرأوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غماتان، أو كأنهما غيبتان، أو كأنهما فزقان من طير صواف يحاجان عن أهلها» ثم قال: «اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام مَطْطُور الحَبْشِيِّ، عن أبي أمامة صَدِّي بن عجلان الباهلي به. الزهراوان: المنيران. والغياية: ما أظلك من فوقك. والفزق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة. والبطلة: السحرة. ومعنى «لا تستطيعها» أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشِيِّ، عن جَبَّير بن نُفَيْر، قال: سمعت الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ الكلابي، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غماتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرّق، أو كأنهما فزقان من طير

صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا». ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به. والترمذي، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، به. وقال: حسن غريب. وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحسبه عن أبي منيب، عن عمه؛ أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده، إن فيهما اسم الله الذي إذا دعي به استجاب. قال: فأخبرني به. قال: لا، والله لا أخبرك به، ولو أخبرت لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت. قال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أحاً لكم أري في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم، دنتا منه بأعناقهما، حتى يتعلق بهما فتخطران به الجبل.

قال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً ممن قرأ القرآن أغار على جاره، فقتله، وإنه أقيد به، فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة، ثم إن آل عمران انسلت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدُنَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّلْمَيْدِ﴾ ﴿٢٩﴾ قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة. قال أبو عبيد: أراه، يعني: أنهم كانوا معه في قبره تدفان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن. وقال أيضاً: - حدثنا أبو مسهر الغساني، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن يزيد بن الأسود الجرشي كان يحدث: أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم، برى من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة برى من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه. قال أيضاً: وحدثنا يزيد، عن وقاء بن إياس، عن سعيد بن جبير، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان - أو كتب - من القانتين. فيه انقطاع، ولكن ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة.

ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المثني مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفضل». هذا حديث غريب، وسعيد بن بشير، فيه لين. وقد رواه أبو عبيد أيضاً، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: .. فذكره، والله أعلم. ثم قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هند الأسلمي، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو خير».

وهذا أيضاً غريب، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمي، روى عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكرة، وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً، فالحق أعلم. وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به. ورواه - أيضاً - عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حبيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير». قال أحمد: وحدثنا حسين، حدثنا ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله. قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب بلا «أبي»، أغفله أبي، أو كذا هو مرسل، ثم قال أبو عبيد: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ التَّوَارِيحِ﴾ [الحجر: ٢٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد الفارسي، وشَدَاد بن عبيد الله، ويحيى بن الحارث الذماري في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خير، وألف أمر، وألف نهي. وقال العادون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالحق أعلم. قال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة. وقال خُصَيْفٌ، عن مجاهد، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة. وقال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان، عن أبي الزناد،

عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرة بالمدينة. وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين، ولا خلاف فيه. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي، حدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا عُبيس بن ميمون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله». هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتج به. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه.

وروى ابن مَرْدُويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة». وأظن هذا كان يوم حنين، حين لولا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب البقرة»؛ ولينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة حُشْر بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم. رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها، حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم به، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خثيم، واختاره أبو حاتم بن حبان. ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء في معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور. قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه، ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: أنه قال: الم، وحَم، والمص، ووص، فواتح افتتح الله بها القرآن. وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن شبل، عن ابن أبي نَجِيح، عنه، أنه قال: الم، اسم من أسماء القرآن. وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد: أنه اسم من أسماء السور، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «المص» اسماً للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص»، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِي، عن شعبة، قال: سألت السدي عن حم وطس والم، فقال: قال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم. وقال ابن جرير: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو النعمان، حدثنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن مَرَّة الهمداني، قال: قال عبد الله: فذكر نحوه وحكى مثله عن علي وابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عُليّة، عن خالد الحذاء، عن عكرمة أنه قال: الم، قسم. ورويا - أيضاً - من حديث شريك بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: الم، قال: أنا الله أعلم. وكذا قال سعيد بن جبير. وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مَرَّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الم. قال: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الْم﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعَجِب، فقال: وأعجِب

أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؛ فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة. هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ ففي أسماء السور، ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك، كما ذكره الزبيح ابن أنس عن أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ نِمَّا بِمَنَّا وَادَّكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين على أصح القولين، قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حملة على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأمة يدل على كل معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا قفي لنا فقلت قاف لا نخسبي أنا نسينا الإيجاف
تعني: وقفت. وقال الآخر:

مال للظليم عال كيف لا يا ينقذ عنه جلده إذا يا
قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتمى بالياء من يفعل، وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فـ ولا أريد الشر إلا أن تـ

يقول: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكتمى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيةهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم. قال القرطبي: وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في قتل: اق. وقال خصيف، عن مجاهد؛ أنه قال: فواتح السور كلها «ق وص وحم وطسم والر» وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي تنمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: أ ب ت ث، أي: في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير. قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف. قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف الفلقلة. وقد سردنا مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله.

ومن ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿هَامِكًا يَوْمَ كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ [إك عمران: ٢٧]. ولم يجمع العلماء فيها

على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.
المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها. فقال بعضهم: إنما ذكرت لتعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالسملة تلاوة وكتابة. وقال آخرون: بل ابتدء بها لتفتتح لاستماعها أسماع المشركين - إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن - حتى إذا استمعوا له ثلثي عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير - أيضاً -، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضاً - لانبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدينتان ليستا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه. وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿الْعَرَبُ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿البقرة: ١، ٢﴾. ﴿الْعَرَبُ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُّمُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿آل عمران: ١-٣﴾. ﴿التَّصَّ﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴿الأعراف: ١، ٢﴾. ﴿الرَّ﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴿إبراهيم: ١﴾. ﴿الرَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّكَ الْمَتَّكِينَ ﴿١﴾ ﴿السجدة: ١، ٢﴾. ﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴿تصلت: ١، ٢﴾. ﴿حَمْدٌ﴾ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْفَرِيقُ الْمَكِينُ ﴿١﴾ ﴿النورى: ١-٣﴾، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم.

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، قال: مر أبو ياسر بن أخطب، في رجال من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الْعَرَبُ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ ﴿البقرة: ١، ٢﴾ فأتى أخاه حبيبي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون - والله - لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الْعَرَبُ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حبيبي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الْعَرَبُ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين نبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام حبيبي بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفندخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «المص»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون، فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك؟ قال: «الر». قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتان سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «الم». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقلباً أعطيت أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه حبيبي بن أخطب، ولمن معه من الأحيار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا للمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ﴿آل عمران: ٧﴾. فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فآتم وأعظم، والله أعلم.

﴿الْعَرَبُ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿الْعَرَبُ﴾: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي

ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريح: أن ذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلاً منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم. و «الْكُتْبُ»: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد الثَّجَعَةَ وأغرق في النزح، وتكلف ما لا علم له به. والزَّيْبُ: الشك، قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: «لَا رَيْبَ فِيهِ»: لا شك فيه. وقاله أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقادة وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل:

بشينة قالت يا جميل أربتني فقلت كلانا يا بشين مريب
واستعمل - أيضاً - في الحاجة كما قال بعضهم:

قضينا من تهامة كل ريب وخير ثم أجمنا السيوفنا
ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: «الْعَرَبُ لَا تَأْتِيكُ الْكُتُبَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١﴾» [السجدة: ١، ٢]. وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله: «لَا رَيْبَ». وبيتديء بقوله: «فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» والوقف على قوله تعالى: «لَا رَيْبَ فِيهِ» أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: «هُدًى» صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: «فِيهِ هُدًى».

و «هُدًى»: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت، ومنصوباً على الحال. وخصت الهداية للمتقين. كما قال: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» [فصلت: ٤٤]. «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٨٧﴾» [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: «يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾» [يونس: ٥٧]. وقد قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» يعني: نوراً للمتقين. وقال الشعبي: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح. وقال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» قال: هم المؤمنون. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «لِلْمُتَّقِينَ» أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وقال أبو رزق، عن الضحاک، عن ابن عباس: «لِلْمُتَّقِينَ» قال: المؤمنون الذين يتقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي. وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: «لِلْمُتَّقِينَ» قال: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم. وقال أبو بكر بن عياش: سألتني الأعمش عن المتقين، قال: فأجبت. فقال لي: سل عنها الكلبي، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنه كذلك. ولم ينكره. وقال قتادة: «لِلْمُتَّقِينَ»: هم الذين نعتهم الله بقوله: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴿٣﴾» [البقرة: ٣]. واختار ابن جرير: أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس». ثم قال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان، يعني الرازي، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيق واحد، فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمروا إلى الجنة. وأصل التقوى: التوقي مما يكره لأن أصلها قوي من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
وقال الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم
وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال:
بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمريت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك الستقى
واصنع كمش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحق قرن صغيرة إن الجبال من السحصى
وأشدد أبو الدرداء يوماً:

يريد الممر أن يتوتى منهاه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول الممر فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا
وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة سالحة، إن نظر
إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله».

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

قال أبو جعفر الرازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق.
وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون. وقال معمر بن الزهري: الإيمان العمل.
وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون. قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان
بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة
جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد
يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُرْسَلِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم:
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
السَّالِحَاتِ﴾ [الأنشقاق: ٢٥، والنين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا
ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد
وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٧]، وقوله: ﴿مَنْ حَفِظَ الْأَمْرَةَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَهَا بِغَلْبِ
مُؤْنِبٍ﴾ [ق: ٢٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما
الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد. قال أبو جعفر الرازي، عن
الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته
وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة. وقال السدي، عن أبي مالك،
وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أما الغيب فما غاب
عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر في القرآن. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو
عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعني: من الله تعالى. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن
زرّ، قال: الغيب القرآن.

وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بغيب الإسلام.
وقال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من
الغيب الذي يجب الإيمان به. وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد
الرحمن بن يزيد، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال
عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذي لا إله إلا غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الْمَرَّ

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد، حدثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعي، حدثني أسيد بن عبد الرحمن، عن خالد بن دُرَيْك، عن ابن مُخَرِّيز، قال: قلت لأبي جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم»، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني».

طريق أخرى: قال أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جُبَيْر، قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ بييت المقدس، ليصلي فيه، ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة، فلما انصرف خرجنا تشيعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقاً؛ أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قلنا: هات رحمك الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ أمنا بك واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين.

ثم رواه من حديث ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جبیر، عن أبي جمعة، بنحوه. وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَة التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررتها في أول شرح البخاري؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً. وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟» قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إليّ إيماناً لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يجدونَّ صحفًا فيها يؤمنون بما فيها». قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده، وابن مردويه في تفسيره، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقد روي نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا إسحاق بن إدريس، أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري، أخبرني جعفر بن محمود، عن جدته تويلة بنت أسلم، قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا: أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام. قال إبراهيم: فحدثني رجال من بني حارثة: أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقَاتُونَ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يقيمون الصلاة بفروضها. وقال الضحاك، عن ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والاقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والشهد والصلاة على النبي ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال علي بن أبي طلحة، وغيره عن ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقَاتُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقَاتُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة. وقال جُؤَيْبِر، عن الضحاك: كانت النفقات قربات

يتقربون بها إلى الله على قدر مسيرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبغ آيات في سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، من الناسخات المُثَبَّتَات. وقال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عواري ودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤذنين، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحده والثناء عليه، وتمجيده والابتهاج إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القربان والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتُونَ﴾؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بُيِّنَ الْإِسْلَامَ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصَوْمُ رَمَضَانَ، وحَجُّ الْبَيْتِ». والأحاديث في هذا كثيرة. وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، قال الأعشى:

لَهَا حَارِسٌ لَا يَبْرُحُ الدَّهْرَ بَيْنَهَا وَإِنْ دُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَرَمَزَمَا
وقال أيضاً:

وقابلها الريح في دَنِّهَا وصلّى على دَنِّهَا وارتسم
أنشدهما ابن جرير مستشهداً على ذلك.
وقال الآخر - وهو الأعشى أيضاً -:

تقول بنتي وقد قُرِبْتُ مرتحلاً يا رب جُنُبِ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعَا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فإن لجنب المرء مُضْطَجَعَا
يقول: عليك من الدعاء مثل الذي دعيت لي. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشروعة المشهورة. وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجته. وقيل: هي مشتقة من الصلويين إذا تحركا في الصلاة عند الركوع، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفا عجب الذنب، ومنه سمي المصلي وهو الثاني للسابق في حلبة الخيل، وفيه نظر، وقيل: هي مشتقة من الصلي، وهو الملازمة للشيء من قوله: ﴿لَا يَسْتَلِمُهَا﴾ أي: يلزمها ويدوم فيها ﴿إِلَّا الْأَتَقُ﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصلية الخشبة في النار لتقوم، كما أن المصلي يقوم عوجه بالصلاة: ﴿إِنَّكَ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [المنكيات: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم.

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه، إن شاء الله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١]

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان. وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون في الموصوفين ههنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير:

أحدها: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثاني: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ [٢] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى [٣] وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعَى [٤] فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى [٥] [الاعلى: ١-٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتابة في المزدحم فعطف الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد. والثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنون العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية مؤمنون أهل الكتاب، نقله السدي في تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، ويقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ الْآسِئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]. وثبت في الصحيحين، من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها» وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهي أن الله تعالى وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربي وكنابي.

قلت: والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثوري، عن رجل، عن مجاهد. ورواه غير واحد، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآياتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن انصف بها من عربي وعجمي، وكنابي من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَجِدٌ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْفَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَقٍّ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَرِفُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقَرِّبُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه. لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملًا، كما جاء في الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما يُنصف ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

وقال ابن جرير: وأما معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المُنجِحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب. وقد

حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى مؤمني أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، على ما تقدم من الخلاف. قال: وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعاً مما قبله، وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. واختاره أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمني العرب وأهل الكتاب، لما رواه السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة، والإشارة عائدة عليهم، والله أعلم. وقد نقل هذا عن مجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، رحمهم الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم واسمه سليمان بن عبد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ وقيل له: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فرجو، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نأس، أو كذا قال. قال: فقال: «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَرْجُونَ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء أهل الجنة. قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسانهم يا رسول الله. قال: «أجل».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: غَطُوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جنتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سِزْمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٧٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال في حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَا آلَ فِرْعَانَ الْكِتَابَ يَكْفُرُ بِمَا يَكْفُرُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥] أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له، ومن أضله فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهجدك ذلك، ﴿فَأَنذِرْ عَذَابَ الْبَلْغِ وَعَذَابَ الْحَسَابِ﴾ [الزمر: ٤٠]، و ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما أنزل إليك، وإن قالوا: إننا قد آمننا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟! وقال أبو جعفر الرزازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَةً أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَآسَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [جهم: يَصَلُّونَهَا] [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

والمعنى الذي ذكرناه أولاً، وهو المروري عن ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة، أظهر، ويفسر ببقية الآيات التي في معناها، والله أعلم. وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً، فقال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عبد الله بن المغيرة، عن أبي الهيثم، عن عبد الله بن عمرو، قال: قيل: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فرجو، ونقرأ فنكاد أن نأس، فقال: «ألا أخبركم؟»، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسانهم يا رسول الله؟ قال: «أجل».

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ﴾ أي هم كفار في كلا الحالين؛ فهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

قال السدي: ﴿حَتَمَ اللَّهُ﴾ أي: طبع الله. وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فحتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبث أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع. قال ابن جريج: وحدثنى عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهداً يقول: الزان أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله. وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه - يعني: الكف - فإذا أذنب العبد ذنباً ضَمَّ منه. وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضَمَّ. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضَمَّ، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك: الرين. ورواه ابن جرير: عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأَصَمَّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي حتم على قلوبهم وأسماعهم. (قلت): وقد أظنبت الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتناول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده - تعالى الله عنه في اعتقاده - ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاعُوا أَنْأَ أَلَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنَقَلْنَا آفَاقَهُمْ وَآبَسَرْنَا أَعْيُنَهُمْ فَكَا تَرَى يَوْمَهُمُ يَأْوُونَ إِلَهُهُمُ الَّذِي ذُكِّرُوا بِهٖ فِي الْأَيَّاتِ الْبَارِئَةِ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما حتم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزءاً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم. قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازة لكفرهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وذكر حديث تغليب القلوب: «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأبى قلب أشربها نكت في نكتة سوداء وأبى قلب أنكرها نكت في نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مراب كالكوز مخجلاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً) الحديث. قال: والحق عندي في ذلك ما صَحَّ بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثنا به محمد ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونَزَعَ واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الزان الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [المطففين: ١٤].»

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتتها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه حتم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمته وحلّه وابطاه عنها.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهي الغطاء - تكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون. قال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثنا أبي، حدثني عمي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: والغشاوة على أبصارهم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، يعني ابن داود، وهو سنيدي، حدثني حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ اللَّهُ يُغَيِّرْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾ [الجنات: ٢٣]. قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل

أن يكون نصيبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَىٰ سَمِيْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسُحُرُ عِيْنٍ ۗ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:
عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا
وقال الآخر:

ورَأَيْتَ زُوْجَكَ فِي الْوِغَى مَتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا
تقديره: وسقيتها ماءً بارداً، ومعتقلاً رمحاً. لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس أظنّب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبُذُّ ءَامَنًا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴿٨﴾ يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ وَالنّٰسَ وَمَا يَخْدَعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٩﴾﴾
النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جرير: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده متبني. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَهًا، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقُلٌّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان، عليه الصلاة والسلام، وأدع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلوك، وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وُجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكزهاً، بل يهاجر ويرتك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبُذُّ ءَامَنًا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴿٨﴾﴾ يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم. وكذا فسرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدي. ولهذا نبّه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبُذُّ ءَامَنًا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴿٨﴾﴾ أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّٰهِ﴾ [المنافقون: ١] أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا في نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة بأن ولام التأكيد في خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿ءَامَنًا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ وَالنّٰسَ وَمَا يَخْدَعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهره من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجعلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ سَيُؤْتِيهِمُ اللّٰهُ حَيٰمًا يَتَّبِعُونَ لِمَ كَمَا يَخْلِفُونَ لِحُرِّ النَّاسِ وَمَا يَخْلِفُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ هُمْ اَلْكٰذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٧]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرّون بصنيعهم ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ يَخْدَعُونَ اللّٰهَ وَهُوَ خٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن القراء من قرأ: ﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا نقيّة؟

قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسياء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمّيتها، ويُسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطيتها، ومُجرّعها بها كأس عذابها، ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبادة المؤمنين أنّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا علي بن المبارك، فيما كتب إليّ، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد بن ثور، عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرهون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأمواهم، وفي أنفسهم غير ذلك. وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَمَنْ تَأْتِيهِ مِنَ الْبُحْرِ أَمْسًا بِإِلَهٍ وَالْبُحْرِ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نعت المنافق عند كثير: خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هب معها.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

قال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: شك. وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقاتدة. وعن عكرمة، وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: يعني: الرياء. وقال الضحّاك، عن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: نفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقاً، وهذا كالأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شرأ إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم. وهذا الذي قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآذَرَهُمْ حَتَّىٰ هَادَىٰ وَعَانَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: وقرئ «يكذبون»، وقد كانوا متصفين بهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه السلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين: أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»، ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفه قلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم. قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين لبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجب ما قبله. ويؤيد هذا قوله، عليه السلام، في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأمواهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل». ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط أهل الإيمان ﴿يَتَادُّوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمُ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤]؛ فهم يخالطونهم في بعض المحشر، فإذا حقت المحقورية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه السلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبيّنة، فأما

بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا. أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام. (تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يقتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم. فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ سَخَنَ نَفْسُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّرَبُّنَا أَعْتَبْنَا فَتُونَنَا لَنَافِقُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَوْنَتْ لَأَرْبَابِكُمْ مَّرْفِقَةٌ لِّفَتْنِهِمْ وَتَطْرِفُهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات [صلى عليه] وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفي رواية في الصحيح «إني خيرت فاخترت» وفي رواية «لو أني أعلم لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢).

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١): أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تعصوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسما بالطاعة. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوها معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون. وقد قال وكيع، وعيسى بن يونس، وعثام بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) قال سلمان: لم يجيء أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شريك، حدثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، في هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بغد.

قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي ﷺ، لأنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفة أحد. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والزيب، ومظاهرهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها. وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (١٣) [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبُدُونَ أَن تَجْمَلُوا فِيهِ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا سُبٰتًا﴾ (١٤) [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْكٰفِرِينَ فِي الذَّرْكِ الْأَشْفٰكِ مِنَ النَّارِ وَكُنْ جَدًّا لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٥) [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان أشبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غرر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، وإلى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأولى لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلق وأنجح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطليح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه

ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَائِثًا كَمَا مَأَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا مَأَنَ الشَّهَّةَ آيَا إِيَّاهُمْ هُمْ أَشْفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول الله تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿مَائِثًا كَمَا مَأَنَ النَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا مَأَنَ الشَّهَّةَ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم، قاله أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!! والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الزأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا الشَّهَّةَ أَمْوَالِكُمْ أَلَّا يَحِلَّ لَكُمُ الْقَيْمَاتُ﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان. وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿آيَا إِيَّاهُمْ هُمْ أَشْفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَعُنُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ فِي تَلَفَاتِهِمْ يَسْمُؤُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول الله تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أي: أظهروا لهم الإيمان والموالاته والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، ولشركهم فيما أصابوا من خير ومغرم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم. فضمن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بالي؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل المفلوظ به. ومنهم من قال: ﴿إلى﴾ هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير. وقال السدي عن أبي مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعني: مضوا، و ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: ساداتهم وكبراهم ورؤساهم من أحرار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين. قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، عن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: هم رؤوسهم من الكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول. وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم، وقادتهم في الشرك، والشرك. وينحو ذلك فسره أبو مالك، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس. قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وفي المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ. وكذلك قال الربيع بن أنس، وقاتدة. وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَيَسْمُؤُكُمْ فِي تَلَفَاتِهِمْ يَسْمُؤُونَ ﴿١٥﴾﴾. قال ابن جرير: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا نَظَرْنَا نَقْتَسِي مِنْ قُرْبِكُمْ قِيلَ إِنَّكُمْ وَرَأَيْتُمْ قَالُوا فَتَبَسَّوْا نَبْهًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لَّهُمْ بَابٌ بَلِيغٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ الْعِدَابُ ﴿١٦﴾﴾ الآية [الحديد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُلِي لَهُمْ لِيُرَادُوا بِإِسْمَاءٍ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخرته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأول هذا التأويل. قال: وقال آخرون: بل استهزؤه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به. قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٤] و ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهُ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله:

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، و ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء، ويعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مُخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَغْتَابَ عَلَىٰكُمْ فَاغْتَابُوا عَلَىٰ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما. قال: وإلى هذا المعنى وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلَّوا إلى مَرَدِّيَتِهِم قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم - من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعني من عصمة دمايتهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال. ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، ﷻ، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. قال: وينحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، قال: يسخر بهم للنعمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة قالوا: يمدهم: يملئ لهم. وقال مجاهد: يزيدهم. قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتْوِهِمْ وَتَمَرَّدِهِمْ، كما قال: ﴿وَتَقَلَّبُ أَعْقَابَهُمْ وَيُكْسِرُهُمْ كَمَا كَسَّرَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَّرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. والطغيان: هو المجاوزة في الشيء. كما قال: ﴿إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْغَايِبِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في كفرهم يترددون. وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقادة، والزبيح بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم. قال ابن جرير: والعَمَهُ: الضلال، يقال: عمه فلان يعمه عمها وعموها: إذا ضل. قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في ضلالهم، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُهُ، وعلاهم رجسه، يترددون حيارى ضللاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً، ولا يهتدون سبيلاً. وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب - أيضاً - قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعمامه، وجمعه عمه، وذهبت إليه العمهاء: إذا لم يدر أين ذهبت.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أي: الكفر بالإيمان. وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا. وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى أي: الكفر بالإيمان. وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [نصت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا طَلَعَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أي: راشدين في صنيعهم ذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَمَا رَبِحَتْ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: قد - والله - رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿مِثْلَهُمْ كَتَلُوا الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاعَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ يَثْوِيهِمْ وَرَكَّبَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [ص: ٧] مِمَّنْ يَكْفُرُ عَمَىٰ قَلْبُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾.

يقال: مثل ومثل ومثيل - أيضاً - والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يُعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [النبوة: ٤٣]. وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبَّههم في اشترايتهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد

التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم العمى على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدي ثم قال: والتشبيه ههنا في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً ثم بنفاقهم تانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين. وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير، رحمه الله، هذه الآية ههنا وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجه ابن جرير هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهره من كلمة الإيمان، أي في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة. قال: وضح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِ عَنَّا مِنْهُمُ الْقَرْبُ وَالْحَسْبُ وَاللَّهُ بِمَا فَعَلُوا عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي: كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَدَأْنَاكُمْ إِلَّا كَفَّةً رِجْدَةً وَرِجْدَةً﴾ [القصص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا كَالْوَرْدَةِ كَمَا لَمْ تَحْمِلْهَا كَتَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصة الذي استوقد ناراً. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَكُمْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَعَمَى لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بَكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمَى﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنهَا لَا تَمْسَى الْأَبْصُرَ وَلَكِن تَمْسَى الْقُلُوبُ أَلْبَى فِي السُّنُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَكُمْ﴾: زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مقدّم نبي الله ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قذى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، وعرف الخير والشر، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر. وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَكُمْ﴾ أما إضاءة النار فأبطلها إلى المؤمنين، والهدى. وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة والحسن، والسدي، والزيّج بن أنس نحو قول عطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة: فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثم نزع منهم، فعتوا بعد ذلك. وأما قول ابن جرير فيسبه ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعترفون بالإسلام، فينكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفتي، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إله إلا الله أضاء له، فإذا

شك وقع في الظلمة. وقال الضحاك في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به.
وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْهَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فهي لا إله إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمروا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إن المعنى: أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت سلبها المنافق؛ لأنه لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله. ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: أي يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمات الكفر أطفؤوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق. وقال السدي في تفسيره بسنده: ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم. وقال الحسن البصري: ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾، فذلك حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق به قول: لا إله إلا الله.

﴿هُم بِكُمْ عَمِي﴾: قال السدي بسنده ﴿هُم بِكُمْ عَمِي﴾ يقول: فهم خرس عمي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هُم بِكُمْ عَمِي﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقاتدة بن دعامة. ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: قال ابن عباس: أي لا يرجعون إلى هدى، وكذلك قال الربيع بن أنس. وقال السدي بسنده: ﴿هُم بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: إلى الإسلام. وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ يُجْعَلُونَ أَسْمِعُكُمْ فِي عَذَابِهِمْ مِّنَ الْقَرْعَةِ حَذَرَ النَّوْتِ وَاللَّهُ حَيُّطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَتَوَّاهُ اللَّهُ لَدْهَبٌ يُسْمِعُكُمْ وَأَنْبَسَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾.
وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكرون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، والحسن البصري، وقاتدة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والسدي، والزبيع بن أنس. وقال الضحاك: هو السحاب. والأشهر هو المطر نزل من السماء، في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرح، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَائِمًا لِّبَنِيكُمْ وَمَا هُمْ بِبَشِيرِينَ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَوْ عَلَّمِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُرْآنًا مِّثْلَ مَا عُلِّمَ لَحَرَسُواهُ وَمَا كَانَ كَلِمَاتُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَأَنذَرَتْهُمْ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]. والبرق: هو ما يلعب في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَسْمِعُكُمْ فِي عَذَابِهِمْ مِّنَ الْقَرْعَةِ حَذَرَ النَّوْتِ وَاللَّهُ حَيُّطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْمُؤَدِّبِ ﴿١٧﴾ فَرَعُونَ وَتَمُودُ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَيُّطٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ١٧-٢٠]. والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم صاعقة، وحكى بعضهم صاعقة وصعقة وصاعقة، ونقل عن الحسن البصري أنه قرأ: «من الصواعق حذر الموت» بتقديم القاف وأنشدوا لأبي النجم:

يحكوك بالمشقولة القواطع شفق البرق عن الصواعق
قال النحاس: وهي لغة بني تميم وبعض بني ربيعة، حكى ذلك القرطبي في تفسيره. ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾: أي: لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾ يقول: يكاد مُحَكِّمُ الْقُرْآنِ يدل على عورات المنافقين. وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾: أي لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تُعْرِضُ لَهُمْ الشُّكُوكَ أَظْلَمَتْ قُلُوبَهُمْ فَوْقُوا حَاطِرِينَ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِدُ اللَّهُ عَلَّ حَرْفًا فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَمْلَأَنَ يَدَهُ وَإِنْ أُصَابَتْهُ مِثْلُهَا﴾ الآية [الحج: ١١]. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم في قولهم به على استقامة فإذا

ارتكسوا منه إلى الكفر ﴿قَامُوا﴾ أي: متحيرين. وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده، عن الصحابة وهو أصح وأظهر. والله أعلم. وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء له أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى. ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلص من المنافقين، الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ تَرَى يَقُولَ الْكٰفِرُونَ وَالْمُنٰفِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورًا وَانقِرْ لَنَا ابْوَابَكَ عَلٰى كُلِّ مَقْبَرٍ﴾ [التحريم: ٨].

ذكر الحديث الوارد في ذلك:

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [الحديد: ١٣]: ذكر لنا أن النبي ﷺ يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن، أو بين صنعاء ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه». رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داور القطان، عن قتادة، بنحوه. وهذا كما قال المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يرى نوره كالنخلة، ومنهم من يرى نوره كالرجل القائم، وأذناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويقد مرة. وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن مثنى، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنّافسي، حدثنا ابن إدريس، سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، قال: على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأذناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفاً أخرى.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الجعّاني، حدثنا عثبة بن يقطان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا. وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً؛ فإذا انتهى إلى الصراط طفء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورًا﴾. فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خُلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبر، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالاً من الذين قبلهم.

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب دري، وهي قلب المؤمن المقطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله. ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كُرْبُهُمْ يَبْعَثُ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَاتُ مَاءً حَمِيماً إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَمِيكاً﴾ الآية [النور: ٣٩]. ثم ضرب مثل الكفار الجهال البسيط، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَوْ كَلْبَانٍ فِي بَحْرِ لَحْمٍ يَبْسُفُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَابَّ طُلُوعُ قَوْقٍ بَعْضُ إِذَا أَحْرَجَ يَكْتُمُ لَمْ يَكْتُمْ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْمَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ يَغْتِرَ عَلِيمٌ وَيَتَّجِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] وقال بعده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ يَغْتِرَ عَلِيمٌ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الحج: ٨] وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان». استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق.

إما عملي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم وكما سيأتي، إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعني شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَح؛ فاما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، واما القلب الأغلف فقلب الكافر، واما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، واما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المذتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾: قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة، أو عفو، قدير. وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثليين مضموران لصف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ بِهِنَّ يَأْتِيهَا أَوْ كَثُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أي: أصرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم؛ كما ضرب المثليين في سورة النور لصنفي الكفار الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْتَبْنَاهُمْ كَمَا كُفِّرُوا بِقِعْمِهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ كَطَلْبِ فِي بَحْرِ لُبِّي يَسْتَنُهُ مَرْجٌ﴾ الآيتان [النور: ٣٩، ٤٠]؛ فالأول للدعاة الذين هم في جهل مُركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِبِدُوا رَبِّكُمْ الَّتِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢١] الَّتِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٢].

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبّيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفرش مُقَرَّرَةً موطأةً مثبتة بالرواسي الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّتِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَسَوَّوْكُمْ وَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرِكُ به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا، وهو خالقك» الحديث. وكذا حديث معاذ: «أندري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» الحديث، وفي الحديث الآخر: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن ليقبل: ما شاء الله، ثم شاء فلان».

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن جِراش، عن الطفيل بن سَخْبَرَةَ، أخي عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: غَزِير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت

بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحدا؟» فقلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طُفَيْلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمتعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به. وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير به، بنحوه. وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلت لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي، وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به. وهذا كله صيانة، وحماية لجناح التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وبه عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيد هو الحق الذي لا شك فيه. وهكذا قال قتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا أبي عمرو، حدثنا أبي الضحاک بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، في قول الله، عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديبب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله حياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأنانا للصوص، ولولا البط في الدار لأنى للصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا كله به شرك.

وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله ندا». وفي الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم، لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله وشاء فلان».

قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا﴾: أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وإسماعيل بن أبي خالد. وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يعد من البدلاء، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده مبطور، عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ، أمر يحيى بن زكريا، عليه السلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطيء بها، فقال له عيسى، عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإذا أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، ففعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوزق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفندي نفسي؟ فجعل يفندي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في

سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قيّدَ شَيْبُرٌ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جَيْبِي جهنم». قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ فقال: «وإن صام وصلى وحسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً». وهذه الآية دالة على توحيد تعالَى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعتها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالَى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنعيمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سأله عن وجود الباري تعالَى، فقال لهم: دعوني فأني مفكر في أمر قد أخبرت عنه: ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد. وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت ملبح، يعني بذلك أبيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر
عيون من لجين شاخصات
على قضب الزبرجد شاهدات
وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله
وفي كل شيء له آية

أم كيف يجحده الجاحد
تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة ودورة ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما زرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرايب والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عِبَادَتِنَا فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ إِذْ وَقَعُوا عَهْدَهُمْ فِيكُمْ مَخْلُوعِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عِبَادَتِنَا فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ إِذْ وَقَعُوا عَهْدَهُمْ فِيكُمْ مَخْلُوعِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم شرع تعالَى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عِبَادَتِنَا فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ إِذْ وَقَعُوا عَهْدَهُمْ فِيكُمْ مَخْلُوعِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يعني: محمداً ﷺ ﴿فَأَتُوا سُورَةَ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿شَهَادَاتِكُمْ﴾ أعوانكم أي: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك. وقال السدي، عن أبي مالك: شركاءكم أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصروكم. وقال مجاهد: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به يعني: حكام الفصحاء. وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهَا إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَكُمْ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [١٩] ﴿القصص: ٤٩﴾ وقال في سورة سبحان: ﴿قُلْ لِي أُحْشَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بِعِضْمِ ظُهُورِهِمْ كِذْبًا وَسُوءِ مَثَلِهِمْ وَأَدْعَاؤُهُمْ اسْتَلْطَمُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُرْتَابِينَ﴾ [١٣] ﴿هود: ١٣﴾، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبَأُهُمُ اللَّهُ بِشُرُوبِ مِثْلِهِمْ وَلَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِمْ وَتَقَعُ الْجُبْنَ لَوْلَا رِزْقُ رَبِّهِمْ لَفَنُونَا صِرْتُمْ زُلْمًا﴾ [١٧] ﴿هود: ١٣﴾، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَحْنُ صَدِيقٌ لَكَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَفَصْلٌ مِنَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧] ﴿يونس: ٣٧﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبَأُهُمُ اللَّهُ بِشُرُوبِ مِثْلِهِمْ وَلَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِمْ وَتَقَعُ الْجُبْنَ لَوْلَا رِزْقُ رَبِّهِمْ لَفَنُونَا صِرْتُمْ زُلْمًا﴾ [١٧] ﴿يونس: ٣٧﴾، وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك - أيضاً - في المدينة، فقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُ﴾ أي: في شك ﴿فَأَتُوا سُورَةَ﴾ يعني: محمداً ﷺ. ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعني: من مثل هذا القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. بدليل قوله: ﴿فَأَتُوا بِشُرُوبِ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعني: من رجل أمي مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [ولن: ١] لنفي التأييد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأتى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!.

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ أَكْبَرُ مِنْكُمْ فِي كِبَرِهِمْ﴾ [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا ينادى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أهذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقه أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجده فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكررت حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعدت بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْإِنْسُ وَنَسَلُ الْأَعْرَابِ وَأَشْرَبُ فِيهَا خَلْدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في التهريب: ﴿أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْبِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْبِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١٦] ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نُذِيرُ﴾ [الملك: ١٧]، وقال في الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [المنكبر: ٤٠]، وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٥] ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [٢٦] ﴿مَا أَفْقَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا الْبُرُكُ مَأمُوتًا﴾ فأرעה سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْعَمْرِوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجِدُ لَهُمُ السَّبِيلَ

وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَصْعَعُ عَنْهُمُ إِصْرَهُمْ وَالْأَثْقَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأندرت؛ ودعيت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» لفظ مسلم. وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً» أي: الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله؛ لصفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قرنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصرو ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرارها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الانبيا: ٤٨]. والمراد بالحجارة ههنا: هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المتنتة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت، أجازنا الله منها. قال عبد الملك بن ميسرة الزرّاد، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبي حاتم، والحاكم في مستدركه وقال: على شرط الشيخين. وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار. وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن علي: هي حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود في النار، وقال لي عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

وقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانبيا: ٤٨]؛ حكاه القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول؛ قال: لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى، وهذا الذي قاله ليس بقوي؛ وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة - أيضاً - مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار فتضهرها النار وتحرقها. وإنما سبق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كَلِمَاتٍ خَتَّ زَيْنَهُمْ سَوِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٧]. وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعربها النار لتحتمى ويشتد لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذ في النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف، ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من أذى الناس دخل النار، والآخر: كل ما يؤذي فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والبهائم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: الأظهر أن الضمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾، عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان. و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر. وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أرصدت وهيئت. وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: «تحتاج الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف»، وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله: ﴿قَاتُوا يَوْمَ يَنْزِلُ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿يَسُورَ يَنْزِلُ﴾ [يونس: ٢٨] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله: ﴿قَاتُوا يَوْمَ يَنْزِلُ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين. قلنا: فلماذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه. والصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتمهم: ﴿وَالصَّعْرِ﴾ [١] إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنُؤَاثِرُوا بِأَلْحَىٰ وَنُؤَاثِرُوا بِالصَّعْرِ ﴿٣﴾ [العصر: ١-٣]. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالصَّعْرِ﴾ [١] إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ﴿٢﴾، ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا زبير يا زبير، إنما أنت أذنان وصدر، وسأترك حقر فقير، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني لأعلم إنك تكذب.

﴿وَيَبْرَأ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَلِمًا زُرُقًا فَإِذَا هُمْ فِيهَا جُلُودًا مَبْدُودَةً ﴿١٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنائي» على أصح أقوال العلماء، كما سنبسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابلة. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلماذا قال تعالى: ﴿وَيَبْرَأ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري من غير أهدود، وجاء في الكوثر أن حافته قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحبصاؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله وكرمه إنه هو البر الرحيم. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُعْجَرُ مِنْ تَحْتِ تَلَالٍ - أو من تحت جبال - المسك». وقال أيضاً: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمًا زُرُقًا مَبْدُودَةً مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في دار الدنيا. وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن

أسلم، ونصره ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك: هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾ قال سنيّد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المصيبة، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء، فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللون واحد، والطعم مختلف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر بن يساف، عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكتبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتونا آنفاً به، فيقول لهم الولدان: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾ قال: يشبه بعضه بعضاً، ويختلف في الطعم. وقال ابن أبي حاتم: وزوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. وقال ابن جرير بإسناده عن السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾ يعني: في اللون والمرأى، وليس يشبهه في الطعم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء. وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلاهما عن الأعمش، به. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنْتَشِبَهَا﴾ قال: يعرفون أسماء كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهاً، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبراق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروي عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التي لا تحيض. قال: وكذلك خلقت حواء، عليها السلام، حتى عصت، فلما عصت قال الله تعالى: إني خلقتك مطهرة وسادميك كما آدميت هذه الشجرة. وهذا غريب. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثني جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجوري، قالوا: حدثنا محمد بن عبيد الكندي، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبي نصر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة والبراق». هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن علي بن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين. وهذا الذي ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعي هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستي: لا يجوز الاحتجاج به. قلت: والأظهر أن هذا من كلام قتادة، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدى أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرة، إنه جواد كريم، برحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ مِمَّا بَعْضُهُ فَكَمَا قَوْعَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَتَقَفُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ مِيثَاقِهِ وَيَقْلُطُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَهَيَسِ مِنْ الشَّمَكِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ مِمَّا بَعْضُهُ﴾. وقال سعيد، عن قتادة: أي إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل

الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً مَّا فَوْقَهَا﴾. قلت: العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقرب والله أعلم. وروى ابن جرير عن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة. وقال ابن أبي حاتم: روي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقاتد. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿فَلَسْنَا شَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي؛ لأنه أسس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي، أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي: أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً. و«ما» ههنا للتقليل، وتكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء أو تكون «ما» نكرة موصوفة ببعوضة. واختار ابن جرير أن ما موصولة، و﴿بَعُوضَةً﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ في كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابها لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حسان بن ثابت:

وَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا
قال: ويجوز أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها. وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورويت «بعوضة» بالرفع، قال ابن جني: وتكون صلة لما وحذف العائد كما في قوله: ﴿فَمَا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أي: على الذي أحسن هو أحسن، وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، أي: يعني بالذي هو قاتل لك شيئاً.

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». والثاني: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير. ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة».

فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٍ مَثَلٍ فَاسْتَوْعِمُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَعْبُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ أَحْمَمُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضِعْفَ الطَّلَابِ وَالطَّلَوبُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرُ الْعَيْبُوتِ لَبَيْتٌ الْمَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَفَجْرَةٍ طَيْبَةٍ أَصْلُهَا نَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ بَعِيٍّ يَأْذِنُ رِيحًا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَفَجْرَةٍ خَبِيثَةٍ أَجْمَتَتْ مِنْ قَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٦﴾ يَبْنِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية [النحل: ٧٥] ثم قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانُهُمْ لَا يَأْتِ بِخَبَرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴿٧٦﴾﴾ الآية [النحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ ﴿٧٨﴾﴾ الآية [الروم: ٢٨]، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ رَجُلًا سَلَمًا أَرِجَلٍ ﴿٧٩﴾﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة. قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال مجاهد قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً مَّا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها. وقال قتادة: ﴿فَمَا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ﴾ أي: يعلمون أنه

كلام الرحمن، وأنه من عند الله. وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَسْئَلُونَكَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: هذا المثل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، كما قال في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِقَارِ آلِ مَلِكِكُمْ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَتَّقِينَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ وَيُؤَدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيَّاتَا وَلَا يَتَّابِ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ لِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْيَةً وَلَكِنَّ أَوَّلَ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسِهِ مَا يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّقُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهٖ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا﴾ يعني: المنافقين، ﴿وَيَهْدِي بِهٖ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به ﴿وَيَهْدِي بِهٖ﴾ يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وقال أبو العالية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به. وقال قتادة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾: فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم. وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثْتُ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سَلِيمَانَ، عَنْ أَبِي سِنَانَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَدَةَ، عَنْ مَعْصَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي فَقُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إِلَى آخِرِ آيَةِ، فَقَالَ: هُمُ الْحُرُورِيُّ. وَهَذَا الْإِسْنَادُ إِنْ صَحَّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي قَاصٍ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهُوَ تَفْسِيرٌ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ آيَةَ أُورِدَ مِنْهَا التَّنْصِيفُ عَلَى الْخَوَارِجِ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا حَالِ نَزُولِ آيَةِ، وَإِنَّمَا هُمُ دَاخِلُونَ بِوَفْقِهِمْ فِيهَا مَعَ مَنْ دَخَلَ؛ لِأَنَّهُمْ سَمَوْا خَوَارِجَ لِخُرُوجِهِمْ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ وَالْقِيَامِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَالْفٰسِقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيْضًا. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقْتُ الرُّطْبَةَ: إِذَا خَرَجْتَ مِنْ قَشْرَتِهَا؛ وَهَذَا يُقَالُ لِلْفَأْرَةِ: فَوَيْسِقَةٌ، لِخُرُوجِهَا عَنِ جُحْرِهَا لِلْفَسَادِ. وَبُيِّنَ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ».

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، قال: سألت أبي فقلت: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: هم الحرورية. وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، فهو تفسير على المعنى، لأن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على علي بن النور، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم على طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام. والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وبيّن في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحداة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقُولُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيُؤَدَّ فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰبِرُونَ﴾ (١٧). وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَمَّنْ يَمُنُّ أَنَّكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ آخِزًا بِمَا يَدَّكَ أُوَّلًا الْأَلْتَبِ (١٦) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ أَلَيْتَهُ (١٧) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيَخُونُوا رَهْمَ وَيَخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ (١٨)﴾ الآية، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيُؤَدُّوا فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيُؤَدُّوا فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيُؤَدُّوا فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ وَيُؤَدُّوا فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [الرعد: ١٩-٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به. وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان. وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحتها بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضاً عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن، وإليه مال الزمخشري، فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَتَاهُمُ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ أَسْتَيْسِرُ رِيكِبَكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الاعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم في الكتب المنزلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا

يَهْدِي أُولَئِكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]. وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ أَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونقصهم ذلك تركهم الوفاء به. وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ وَمِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿الْخَائِرُونَ﴾ قال: هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا. وكذا قال الربيع بن أنس أيضاً. وقال السدي في تفسيره بإسناده، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ وَمِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾ هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ مَا مَرَّ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يَرْسُلَ قَوْلَهُمْ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾. قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الرعد: ٢٥] وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب. وقال ابن جرير في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخساراً وخساراً، كما قال جرير بن عطية:

إِنْ سَلِبْتَ فِي الْخَسَارِ إِيَّاهُ أَوْلَادَ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقْبَسَهُ
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ﴾ أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّخَابِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٠﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ الْآذِرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ﴾: أمواتاً في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يعثكم. قال: وهي مثل قوله: ﴿رَبَّنَا أَمْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿رَبَّنَا أَمْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وهكذا روي عن السدي بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة - وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقاتدة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك. وقال الثوري، عن السدي عن أبي صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْبَيْتُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ قال: يحييكم في القبر، ثم يميتكم. وقال ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق، أم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجنابة: ٢٦]. وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾

[النحل: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا يَدْرِي لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الْبَشَرَ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَا يَفْعَلُ بِالْإِنْسَانِ﴾ [يس: ٣٣].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، والاستواء هنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بالي ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي: فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق. كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَّوْنَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّائِلِينَ﴾ [٢] ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَعِلَّاَرْضِ أَنْتِكِ طُوبَىٰ أَوْ كَرِهْنَا قَالَتْ أَنِينَا طَائِفِينَ﴾ [٣] ﴿فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبْغٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّحْمَنِ الْعَلِيمِ﴾ [٤] [نصت: ٩-١٢]. ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسفله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك، كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ [٥] ﴿رَفَعَ سَمَاءَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [٦] ﴿وَأَنْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ مُخْتَلِفًا﴾ [٧] ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٨] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [٩] ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [١٠] [النازعات: ٢٧-٣٢] فقد قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثَمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ
وقيل: إن الدُّخَانَ كان بعد خلق السموات. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقد قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك - وعن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١١] قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسماه عليه، فسماه سماء. ثم أبيض الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوث هو النون الذي ذكره الله في القرآن: ﴿تَوَّابًا وَالْقُرْآنَ﴾، والحوث في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان - ليست في السماء ولا في الأرض، فتتحرك الحوت فاضطرب، فتنزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال فقُتِرَتْ، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين، في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَّوْنَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٢] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [نصت: ٩، ١٠]. يقول: أنبت شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا﴾ يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّائِلِينَ﴾ [نصت: ١٠] يقول: من سأل فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [نصت: ١١] وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [نصت: ١٢] قال: خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها، من البحار وجبال البرد وما لا نعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً، تحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الاعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين في الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عَجَلٍ، فلنك الساعة التي تقوم فيها الساعة. وقال مجاهد في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قال: بعضهم فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضهم تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ

الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسَيْنِ مِنْ قَوْمِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا فُوقَهَا فِي آثَرِهِمْ أَيْرٍ سَوَاءً لِّلسَّالِئِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَسْرَجْنَا فِيهَا السَّمَاءَ وَهِيَ كُنُوزٌ فَكَانَ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنثِيًا طُورًا أَوْ كُرْمًا فَالِقَا أُنثِيًا طَالِبِينَ ﴿٢١﴾ فَفَضَّلْنَاهُنَّ سَبَّحَ سَمَوَاتِي فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الرَّحْمَنِ الْعَلِيمِ ﴿٢٢﴾ [تفصلت: ٩ - ١٧] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلْقًا أَوْ أُنثَىٰ بَيْنَهُمَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكًا سَمَوَاتِيهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ مَصْنَعَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَاللَّيْلَ أُنثَىٰ ﴿٣٢﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير - أيضاً - من رواية ابن جزيج قال: أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل». وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشبهه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى بامتثانه على بني آدم، بتنويهم بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ أَي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة، أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورد ابن جرير. قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجترأ من أبي عبيدة. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. وقرئ في الشاذ: «إني جاعل في الأرض خليفة» حكاية الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي.

وليس المراد ههنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاية فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يزد آدم عيناً إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ضلصال من حمل مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوه على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم أنه سيخلق في الأرض خلقاً.

قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك،

فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفساد التي ذكروها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت في الصحيح: أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَيَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم واليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه:

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك. وقال السدي: استشار الملائكة في خلق آدم. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال: «دُجِيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت للملائكة، فقال الله: إني جاعل في الأرض خليفة، يعني مكة». وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. ﴿خَلِيفَةً﴾: قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه فمن غير خلفائه. قال ابن جرير: وإنما كان تأويل الآية على هذا معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرناً. قال: والخليفة الفعلية من قومك، خلف فلان فلاناً في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. ومن ذلك قيل للسُلطان الأعظم خليفة؛ لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكناً وعامراً يسكنها ويعمرها خلفاً ليس منكم. قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاک، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرض الجن فآفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قال: يعنون به بني آدم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وليس لله ﷻ، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! وقد تقدم ما رواه السدي، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة

بما يفعل ذرية آدم، فقالت الملائكة ذلك. وتقدم آنفاً ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك، ففاسوا هؤلاء بأولئك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن محمد الطنّافسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن بكير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بالف سنة، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم، حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالوا: أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد في الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾ كما سفكوا.

قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. فأمنا بربهم، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. قال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذي علمهم. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: كان الله أعلمهم أنه كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام الرازي، حدثنا ابن المبارك، عن معروف، يعني ابن حربوذ المكي، عن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السجّل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له في كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾ قال ذلك استطلاعة على الملائكة. وهذا أثر غريب. ويتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط، وهو خلاف السياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم - أيضاً - حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم. وهذا - أيضاً - إسرائيلي منكر كالذي قبله، والله أعلم. وقال ابن جرير: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾. وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾؛ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعدما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟! فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض من ترونه لي طائفاً. قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكانهم قالوا: يا رب خیرنا، مسألة الملائكة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار. واختاره ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿رَدَّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَسَفِكُ الدِّمَاءِ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنت الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَلَيْسَ طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: التسييح: التسييح، والتقديس: الصلاة. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلي لك. وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك. وقال الضحاك: التقديس: التطهير. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ سَيِّئٌ بِمَعْرِبِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصي ولا نأتي شيئاً

تكرهه. وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبِّحَ قُدُّوسٌ، يعني بقولهم: سُبِّحَ، تنزيه له، ويقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَعَنْ سُبْحَانَ مَحْمَدِكَ﴾، نزهك ونبرتك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأذناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحانه الله وبحمده». وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به سمع تسبيحاً في السموات العلا «سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى». ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتي عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو يتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو بقره واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي. وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفي شاهدان، وقال الجبائي: يجب أربعة وعاقده ومعقود له، كما ترك عمر، رضي الله عنه، الأمر شورى بين ستة، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبت وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقيين وفي هذا نظر، والله أعلم. ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغا عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن كان هذا لعذر وقد مدح على ذلك.

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان». وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَكَادُمُ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْبُرُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوها عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسما، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشبه ذلك من الأمم وغيرها. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عاصم بن كليب، عن سعيد بن مبد، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفسية. وقال

مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء. وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم. واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ مِّن مَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِثْلًا وَبَيْنَهُمْ مَن يَبْغِي عَلَىٰ بَاطِنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَكُونُ لِقَوْمِهِ إِذْيُنَىٰ عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَيَوْمَئِذٍ تَتَقَبَّلُونَ مِمَّن دَخِلُوا فِيهَا مِمَّنْ يَعْلَمُ أَسْمَاءَ ذُرِّيَّتِهِمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمِ الْآيَاتِ اللَّاتِيَّاتِ بَلَدًا بَلَدًا﴾ [النور: ٤٥]. وقد قرأ عبد الله بن مسعود: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿ثُمَّ عَرَضَهَا﴾ أي: السموات.

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها؛ ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفُسْية. يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال - وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبي ﷺ قال -: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ. ويذكر ذنبه فيستحيي؛ اتنوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُنَاكُمْ. ويذكر ذنبه فيستحيي؛ اتنوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُنَاكُمْ. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيي. فيقول: اتنوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُمْ؛ فيقول: اتنوا موسى عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُمْ. ويذكر قَتْلَ النفس بغير نفس، فيستحيي من ربه؛ فيقول: اتنوا عيسى عبداً الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُمْ؛ اتنوا محمداً عبداً عَفَّرَ اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنطلق حتى أستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يَسْمَعُ، واشفع تُشْفَعُ، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحذلي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيحذلي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا مَنْ حبسه القرآن ووجب عليه الخلود». هكذا ساق البخاري هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام، وهو ابن أبي عبد الله الدُّسْتَوَائِي، عن قتادة، به. وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد، وهو ابن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة. ووجه إيراد ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ﴾ يعني: المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أُنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض المخلوق على الملائكة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن - وأبي بكر، عن الحسن وقتادة - قالوا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة. وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عَرَضْتُهُ عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفة في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطمعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

وقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٤) هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مُيَيْكَةَ، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. قال: ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن يقال. قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربي قال: سألت رجل ميمون بن مهران عن «سبحان الله»، فقال: اسم يُعْظَمُ الله به، ويَحْشَى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَكادُمُ أَنْيُتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْيَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٤) قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب. وقال مجاهد في قول الله: ﴿يَكادُمُ أَنْيُتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة، نحو ذلك. فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنَّوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدد أنه قال لسليمان: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٦٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦]. وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غير ما ذكرناه؛ فروى الضحاک، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولهم: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي، والضحاک، والثوري. واختار ذلك ابن جرير.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقاتدة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذي أبدوا قولهم: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الذي كتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم، والكرم. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته؛ ولذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني، قال: وسبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمِينَ﴾ [معد: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدره قال: ولما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل. وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بالستكم وما كنتم تخفون في أنفسكم، فلا يخفى علي شيء، سواء عندي سرائركم، وعلانيتكم. والذي أظهره بالستهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتُمون ما كان عليه منظوياً إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبر عن طاعته. قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الجِيشُ وهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْعُتْرَةِ﴾ [الحجرات: ٤] ذُكِرَ أَنَّ الَّذِي نَادَى إِنَّمَا كَانَ وَاحِدًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٥)

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث - أيضاً - كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، عليه السلام: «رَبِّ، أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته». قال... وذكر الحديث

كما سيأتي. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عُمارة، عن أبي روق، عن الضحاح، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجِنِّ، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلق الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي. قال: وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت قال: وخلق الإنسان من طين. فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة - وهم هذا الحي الذين يقال لهم: الجن - فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترَّ في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثنا عليهم لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللأزب: اللزج الصلب - من حمل مسنون متين، وإنما كان حماً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، أي فيصوت. قال: فهو قول الله تعالى: ﴿وَمِن صَلْصَلِهِ كَأَنَّ نَخَارًا﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمضمت. قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره، ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً - للصلصلة - ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت علي لأعصيتك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحمًا ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جِرْوَلَ﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضجر لا صبر له على سراء ولا ضراء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام الله. فقال الله له: «يرحمك الله يا آدم».

قال: ثم قال الله تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث نفسه من الكبر والاعتزاز. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عُقُوبَةً لمعصيته، ثم علم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعني: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي أَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل في الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة مودة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، وتبناً إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ تبرئاً منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَكادِمُ أَتَقَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ يقول: أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ قَالَتْ أَلَمْ نَأْتِكُمْ بِهَا الْمَلَائِكَةَ خَاصَّةً﴾ يعني: أعلم غيب السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ولا يعلم غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز.

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور. وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموها الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْك خازناً، فوقع في صدره كبر وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَتْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ، وقال: رب مني عاذت بك فأعدتها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث مُلْك الموت

فعاذت منه . فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض ، ووَحَلَطَ ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قبيل التراب حتى عاد طيناً لازباً - واللآزب : هو الذي يلتزق ببعضه ببعض - ثم قال للملائكة : ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٧١ ، ٧٢] فخلقه الله بيده لثلاثين إبليس عنه ، ليقول له : تتكبر عما عملت بيدي ، ولم أتكبر أنا عنه . فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم فزعاً منه إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة . فذلك حين يقول : ﴿وَمِن صَلْصَلِهِ كَأَنَّ نَخَارًا﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فيه فخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف . لئن سلطت عليه لأهلكته ، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له . فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه ، عطس ، فقالت الملائكة : قل : الحمد لله . فقال : الحمد لله . فقال له الله : رحمتك ربك . فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة . فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] .

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٣٠ ، ٣١] ، أبى واستكبر وكان من الكافرين . قال الله له : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي ؟ قال : أنا خير منه ، لم أكن لأسجد لمن خلقته من طين . قال الله له : اخرج منها فما يكون لك ، يعني : ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار : هو الذل . قال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَيُّكُمْ أَسْمَاءُ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا : ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله : ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال : قولهم : ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفِيدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني : ما أسر إبليس في نفسه من الكبير .

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدِّي ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة ، فلعل بعضها مُدرَج ليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة . والله أعلم . والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ، ويقول : هو على شرط البخاري . والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابه ؛ لأنه - وإن لم يكن من عُصمهم - إلا أنه كان قد تَنَبَّه بهم وتوسم بأفعالهم ؛ فلماذا دخل في الخطاب لهم ، وذم في مخالفة الأمر . وسننسط المسألة - إن شاء الله تعالى - عند قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] . ولهذا قال محمد بن إسحاق ، عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس ، عن ابن عباس : قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً ، وأكثرهم علماً ؛ فذلك دعاه إلى الكبير ، وكان من حي يسمون جناً .

وفي رواية عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس - أو مجاهد - عن ابن عباس ، أو غيره ، بنحوه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد - يعني : ابن العوام - عن سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبَّير ، عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشرف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد . وقال سُبيد ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض . وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس ، سواء . وقال صالح مولى الثَّوَمَةِ ، عن ابن عباس : إن من الملائكة قبيلًا يقال لهم : الجن ، وكان إبليس منهم ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى ، فمسخه الله شيطاناً رجيماً . رواه ابن جرير .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عدي بن أبي عدي ، عن عوف ، عن الحسن : قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قَطُّ ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس . وهذا إسناد صحيح عن الحسن . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير . وقال سُبيد بن داود : حدثنا هُشَيْم ، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى ، عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل ، عن سعد بن مسعود ، قال : كانت الملائكة تقاتل الجن ، فسبى إبليس وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة ، فتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس . فلذلك قال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن سنان القرظي ، حدثنا أبو

عاصم، عن شريك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إني خالق بشرأ من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم. وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلاً مبهماً، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته. وقال في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيان، حدثنا عبد الله بن يزيد: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار. وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: من العصيين. وقال السدي: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد.

وقال محمد بن كعب القرظي: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصوره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذَا نَصْرًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَلَقَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلماهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»، ورجحه الرازي، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال: ﴿أَوْبَرُ السَّمَاءِ يُدْرِكُ السَّمْنَ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله، ﷻ؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عدها من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر» وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس؛ قال بعض المعريين: وكان من الكافرين أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيها ففر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

أي: قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجحه القرظي، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه. ثم استدل على ما قال: بأن لا تقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك، يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر. قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر، أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خيال له رسول الله ﷺ: ﴿فَأَتَيْتُ يَوْمَ تَأْتَى السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يضدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، والأرض أن تثبت فثبتت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المبهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصديقي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث، رحمه الله، بل إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام في ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٢٠] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١ ص: ٧٣، ٧٤] فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ يَمَدُّمُ اسْتَكْبَرَ أَنْتَ وَرَجِيكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا بِهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَفْقَهُ هَدْيُ الشَّجَرَةِ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

وَمَا كَانَا بِيَوْمَ وَقَفْنَا أَنه يَطْعَمُ لِيَمِصَّ عَدُوًّا وَلِكُرِّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفْرًّا وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾.

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء، رَعْدًا، أي: هنيئاً واسعاً طيباً. وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه، من حديث محمد بن عيسى الدامغاني، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنيباً كان؟ قال: نعم، نبياً رسولاً، كلمه الله قَبْلًا، فقال: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾. وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهي في السماء أم في الأرض؟ والأكثر على الأول، وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معابته إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَكَادُمْ أَنبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْكَلِيمُ الْمَكِينُ﴾. قال: ثم أقيمت السنّة على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُفِّفَ عنه السنّة وهب من نومه، وأها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون والله أعلم -: لحمي ودمي وروحي. فسكن إليها. فلما زُوِّجَه اللهُ، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قَبْلًا: ﴿يَكَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِتْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في تفسيره، ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وخشياً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه - : ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿يَكَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِتْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟ فقال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: الشجرة التي نهي عنها آدم، عليه السلام، هي الكُرْم. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، والشعبي، وجَعْفَدَةُ بن هُبَيْرَةَ، ومحمد بن قيس. وقال السدي - أيضاً - في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ﴾ هي الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة. وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الجُمَانِي، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، قال: الشجرة التي نُهي عنها آدم، عليه السلام، هي السنبله. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: هي السنبله. وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هي البر. وقال ابن جرير: وحدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثني رجل من بني تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة التي نهي عنها آدم، وهي السنبله، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم، وهي الزيتون. وكذلك فسره الحسن البصري، وهب بن مُثَنَّب، وعطية العوفي، وأبو مالك، ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه: أنه كان يقول: هي البر، ولكن الحية منها في الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل. وقال سفيان الثوري، عن حصين، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ﴾ قال: النخلة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ﴾ قال: تينة. وبه قال قتادة وابن جريج. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرَب، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهي الله عنها آدم وزوجته. فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة. قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه، نهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلها منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل:

كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم. وكذلك رجح الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال حمزة وعاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النجود: فأزلهما، أي: فنجاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: من قبيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْوَيْلِ﴾ [الذاريات: ٩]. أي: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا وَمَا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيء والراحة.

﴿وَقُلْنَا أَمْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ أَعْيُنُنَا﴾: ثم تقوم القيامة. وقد ذكر المفسرون من السلف كالسُّدِّيِّ بأسانيد، وأبي العالية، ووهب بن منبّه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسنسط ذلك، إن شاء الله، في سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق. وقد قال ابن أبي حاتم ههنا: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشد في الجنة، فأخذت شجره شجرة، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مني نقر! فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء». قال: وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القومسي سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ذاق آدم من الشجرة قرّ هارباً؛ فتعلقت شجرة شعره، فنودي: يا آدم، أفراراً مني؟ قال: بل خياء منك، قال: يا آدم أخرج من جواربي؛ فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصوني لأسكنتهم دار العاصين». هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبي بن كعب، رضي الله عنهما. وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بالويه، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عمّار بن معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا روح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة. وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿أَمْطُوا مِنهَا بَعْضًا﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة فيه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها. وقال عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة يدخنا، أرض بالهند. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم، عليه السلام، إلى أرض يقال لها: دخنا، بين مكة والطائف. وعن الحسن البصري، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدسئيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدي، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة. وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يده على ركبتيه مطأطأ رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء. وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: أخبرني عَوْفُ، عن قَسَامَةَ بن زهير، عن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فشاركه هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الزهري، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائي. وقال فخر الدين: اعلم أن في هذه الآيات

تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
منها إلى الدنيا بذنوب واحد
أنسيت ربك حين أخرج آدم

قال فخر الدين عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسينانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قديراً، والقدر لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبين حكم ذلك، فأجاد وأفاد.

﴿فَلَمَّا دَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿فَلَا رَبِّيَ طَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّرُ تَقَفَرْنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَائِرِينَ﴾ (٣٢) [الاعراف: ٢٣]؛ روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السبيعي، عن رجل من بني تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: قلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم آدم شأن الحج.

وقال سفیان الثوري، عن عبد العزيز بن رُقيع، أخبرني من سمع عبيد بن عمير، وفي رواية: قال: أخبرني مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا رب، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبتة علي قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبتة عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبتة علي فاغفر لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

وقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيديك؟ قيل له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفأريت إن تبث هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبيرة، وسعيد بن مَعْبُد، عن ابن عباس، بنحوه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وهكذا فسره السدي وعطية العوفي.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم، عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبث ورجعت، أعاندي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا دَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، أرأيت إن تبث وأصلحت؟ قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهي من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿رَبِّيَ طَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّرُ تَقَفَرْنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَائِرِينَ﴾ [الاعراف: ٢٣].

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاقبلي، إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ ﴿التوبة: ١٠٤﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوْمًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبديه، لا إله إلا هو التواب الرحيم. وذكرنا في المسند الكبير من طريق سليمان بن سليم عن ابن بريدة وهو سليمان عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لما أبطأ الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فأقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما عندي فاغفر ذنوبي، أسألك إيماناً يباشر قلبي، وبقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي. قال: فأوحى الله إليه إنك قد دعوتني بدعاء أستجيب لك فيه ولمن يدعوني به، وفرجت همومه وغمومه، ونزعت فقره من بين عينيه، وأجرت له من وراء كل تاجر زينة الدنيا وهي كلمات عهد وإن لم يزد لها» رواه الطبراني في معجمه الكبير.

﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسول؛ كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسول والبيان. وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذا القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم. ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسول ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْبَطُوا مِنْهَا جِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا بَعْسَ وَلَا يَشْقَى ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخَذَ ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابن جرير، رحمه الله، ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد، عن أبي نصر المندر بن مالك بن قطعة، عن أبي سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخُدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فإمتنهم إمامة، حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة». وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة، به. وذكر هذا الإبط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإبط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿يَتَّبِعِ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا يَصْبِحُ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْهِمْ وَأَرْوَاهُ يَهْدِي أَوْفَ يَهْدِيكُمْ وَإِنِّي فَالَهُبُونَ ﴿٣٠﴾ وَءَايَاتُوا يَمَّا أَنْزَلْتُ مَصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا أَوْلَٰئِكَ كَافِرٌ بِهِ وَلَا تَتَّبِعُوا بِآيَاتِي تَبِعًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَالَهُبُونَ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهَيِّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابن الشجاع، بارز الأبطال. يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣] لإسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس؛ أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿أَذْكَرُوا يَصْبِحُ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْهِمْ﴾: قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك؛ فَجَّرَ لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسول، وأنزل عليهم الكتب. قلت: وهذا كقول موسى، عليه السلام، لهم: ﴿يَقُولُوا أَذْكَرُوا يَصْبِحُ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْهِمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠] يعني في زمانهم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَذْكَرُوا يَصْبِحُ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بلائي عندكم وعند آبائكم

لِمَا كَانَ نَجَاهُمْ بِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم. ﴿أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: أي أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذي أخذه الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه عُفِرَ له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازي ههنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ. وقال أبو العالية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة. وكذا قال السدي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَرِئَىٰ قَارِعُونَ﴾ أي: فاشحون؛ قاله أبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَرِئَىٰ قَارِعُونَ﴾: أي أنزل بكم ما أنزل بمن كان قبلكم من آبائكم من النِّقَمَاتِ التي قد عرفتم من المسخ وغيره. وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاعتناظ بالقرآن وزواجره، وامتنثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَمُنُّوْا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَكَرَّمْتُ﴾ مَصَدِّقًا ماضياً منصوباً على الحال من ﴿بِمَا﴾ أي: بالذي أنزلت مصدقاً أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصدقاً، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل وهو قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾ يعني به: القرآن الذي أنزله على محمد النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتقاً على الحق من الله تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. قال أبو العالية، رحمه الله، في قوله: ﴿وَمَا يَمُنُّوْا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَكَرَّمْتُ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِدِيْنِهِ﴾ قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به ونحو ذلك. قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِدِيْنِهِ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم. وقال أبو العالية: يقول: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِدِيْنِهِ﴾: أول من كفر بمحمد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه. وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس. واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: ﴿بِدِيْنِهِ﴾ عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾. وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن. وأما قوله: ﴿أَوْلَ كَافِرٍ بِدِيْنِهِ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِإِثْمِي كَيْفَ لَيْلًا﴾ يقول: لا تتعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد، قال: سُئِلَ الحسن، يعني البصري، عن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ لَيْلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحدافها. وقال ابن أبي عمير: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، في قوله: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِإِثْمِي كَيْفَ لَيْلًا﴾: وإن آياته: كتابه الذي أنزله إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها. وقال السدي: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِإِثْمِي كَيْفَ لَيْلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتموا اسم الله لذلك الطمع وهو الثمن. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِإِثْمِي كَيْفَ لَيْلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، عَلِمَ مَجَانًا كما عَلِمْتَ مَجَانًا.

وقيل: معناه لا تتعاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يتعني به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكبس، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور

العلماء، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله»، وقوله في قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فأقبله» فتركه، رواه أبو داود، وروي مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَأَيُّ قَاتِلِينَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عمر الدوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله. ومعنى قوله: ﴿وَأَيُّ قَاتِلِينَ﴾: أنه تعالى يتوعدكم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣١) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣٢).

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣١)؛ فنهاهم عن الشئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب. وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ. ويروى عن سعيد بن جبيرة والربيع بن أنس، نحوه. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله. وروي عن الحسن البصري نحو ذلك. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تكتفوا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وروي عن أبي العالية نحو ذلك. وقال مجاهد، والسدي، وقاتدة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ﴾ يعني: محمداً ﷺ. قلت: ﴿وَتَكْفُرُوا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: «وتكتفون الحق» أي: في حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلخوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخط الحق بالباطل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣٢) قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفونها إلى النبي ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ يقول: كونوا منهم ومعهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص. وقال وكيع، عن أبي جنتاب، عن عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتان فصاعداً. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن، في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن أبي حيان العجمي التيمي، عن الحارث العكلي في قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمل الصلاة. وقد استدلت كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٣)

يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنبها من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقواه، وبالبر، ويخالفون، فَعَيَّرَهُم الله، وكذلك قال السدي. وقال ابن جرير: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدْعُونَ الْعَمَلَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ النَّاسَ، فَعَيَّرَهُم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي. وقال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أرتمتم به من إقام الصلاة، وتسنون أنفسكم. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن الحسن، حدثنا مسلم الجزمي، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عن أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة في قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَقْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبيرة يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قلت: ولكنه - والحالة هذه - مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي المعمري، قالوا: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا علي بن سليمان الكلبي، حدثنا الأعمش، عن أبي تميمة الهجيمي، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد هو ابن جدعان، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مرت ليلة أسري بي على قوم شفاههم تُقْرَضُ بمقاريض من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟». ورواه عبد بن حميد في مسنده. وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن مردويه في تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن منتهال، كلاهما عن حماد بن سلمة، به، وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ، حدثنا مكِّي بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن علي بن زيد، عن ثمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مرت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألستهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم». وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه - أيضاً - من حديث هشام الدستوائي، عن المغيرة - يعني ابن حبيب - ختن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ بمقوم تُقْرَضُ شفاههم، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون؟».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي واثل، قال: قيل لأسامة - وأنا رديفه -: ألا

تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تزرون أني لا أكلمه إلا أسمعكم. إنني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً - لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس. وإن كان علي أميراً - بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أفتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت أمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية».

ورواه البخاري ومسلم، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به نحوه. وقال أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعافي الأمين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء». وقد ورد في بعض الآثار: أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٩]. وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ، قال: «إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل» رواه من حديث الطبراني عن أحمد بن يحيى بن حيان الرقي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الداهري عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إنني أريد أن أمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فاعمل. قال: وما هن؟ قال: قوله ﷺ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [مرد: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابداً بنفسك. رواه ابن مردويه في تفسيره. وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد بن الحريش، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام بن حوشب، عن سعيد بن المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه». إسناده فيه ضعف؛ وقال إبراهيم النخعي: إنني لأكره القصص الثلاث آيات قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَمْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [مرد: ٨٨]. وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ
لو كان في تزهيده صادقاً
إن رفض الناس فمما باله
الرزق مقسوم على من ترى

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيري الزاهد يوماً على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:

وغير تقي بأمر الناس بالتقى
قال: فضج الناس بالبكاء. وقال أبو الغتاهية الشاعر:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى
وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
فابداً بنفسك فانها عن غيرها
فهنالك يقبل إن وعظت ويقتدى

يزهد الناس ولا يزهد
أضحى وأمسى بيته المسجد
يستفتح الناس ويستترقد
يسقى له الأبيض والأسود

طبيب يداري والطبيب مريض

وربح الخطايا من شأنك تقطع

عار عليك إذا فعلت عظيم
فلإذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يريني رقيقاً في الجنة، فقيل لي في المنام: هي امرأة في الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لي: هي ترعى غنماً بواد هناك،

فجئت إليها فإذا هي قائمة تصلي والغنم ترعى حولها وبينهن الذناب لا يفرن منه، ولا يسطو الذناب عليهن. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا إنما الموعد ثم، فسألته عن شأن الذناب والغنم. فقالت: إني أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح ما بين الذناب والغنم. فقلت لها: عطيني. فقالت: يا عجبا من واعظ بوعظ، ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتكم بمكنون ما فيها، يا ابن زيد، إنه بلغني ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا فابتغى إليه تاباً إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب البعد وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول:

يا واعظاً قام لا حجاب
تنه عنه وأنت السقيم حقاً
تنه عن الغني والتمادي
لو كنت أصلحت قبل هذا
كان لما قلت يا حبيبي
﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ مَلْعُونًا رِيبًا وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَجِيعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عبیده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حیان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة. فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد. قال القرطبي وغيره: ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن جُزَيِّ بن كليب، عن رجل من بني سليم، عن النبي ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر». وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعمالها: فعل الصلاة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبید الله بن حمزة بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

قال: وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر. وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبیر، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله. وأما قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾. حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة، يعني ابن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتي. وقد رواه ابن جرير، من حديث ابن جُرَيْج، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. ورواه بعضهم عن عبد العزيز بن أخي حذيفة؛ ويقال: أخي حذيفة مرسلًا عن النبي ﷺ؛ وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود العسكري، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلي: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبي ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى. وحدثنا عبید الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح.

قال ابن جرير: وروي عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مر بأبي هريرة، وهو منقطع على بطنه، فقال له: «اشكنب درد» قال: نعم قال: «قم فصل فإن الصلاة شفاء» ومعناه: أيوجعك بطنك؟ قال: نعم. قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالوا: حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا عُبَيْد بن عبد الرحمن، عن أبيه: أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأنافخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾. وقال سُئِيد، عن حجاج، عن ابن جرير: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله. والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره

ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْسُ بِكُمْ نَوَافٍ اللَّهُ سَيَرِّبُ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ سَبِيلًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَإِلَىٰ أَلْسِنَةٍ لَّا حِسَابَ وَلَا يُخَبِّرُكُمْ بِالْكِتَابِ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ لِعِندَهُ حَقِيرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النقص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي السَّمْعَةُ وَلَا الْعَيْنَةُ ادْفَعْ بِالْيَدِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَإِلَىٰ أَلْسِنَةٍ لَّا حِسَابَ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [نصك: ٣٥، ٣٤] أي: وما يلقى هذه الوصية إلا للذين صبروا ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا﴾ أي: يؤتاها ويلهمها ﴿إِلَّا ذُو حِجْلٍ عَظِيمٍ﴾. وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِكَلِمَةٍ أَوْ مَنَافِقَةٍ أَوْ مَقَالَةٍ أَوْ مَقَالَةٍ أَوْ مَقَالَةٍ أَوْ مَقَالَةٍ﴾ أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين. وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّمَا لِكَلِمَةٍ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سَطَوَاتِهِ، المصدقين بوعده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء في الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه». وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته.

هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَطَّلُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَفِتُونَ رِيحَهُمْ وَإِلَىٰ رِجْمُونَهُمْ﴾: هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو الرضا لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعبده، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله: ﴿يَطَّلُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَفِتُونَ رِيحَهُمْ﴾، قال ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدفَة، والضيء سُدفَة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده، كما قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

فقلت لهم ظنُّوا بالفسى مُدَجِّجٌ
سَرَائِرُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ
يعني بذلك يقنوا بالفسى مدجج يأتيكم، وقال عَمِيرَةُ بْنُ طَارِقٍ:

بِأَنَّ يَفْتَرُوا قَوْمِي وَأَقْعَدَ فِيكُمْ
وَأَجْعَلَ مِنِّي الظَّنَّ غَيْباً مَرَجِماً
يعني: وأجعل مني اليقين غيباً مرجماً، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْمُرْجُمُونَ النَّارَ فَطَّلُوا أَنَّهُمْ مُؤَافِقُوهُمْ﴾ [الكهف: ٥٣]. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يقين، أي: ظننت وظنوا. وحدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَطَّلُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَفِتُونَ رِيحَهُمْ﴾ قال: الظن ههنا يقين. قال ابن حاتم: وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، وقناة نحو قول أبي العالية. وقال سُبَيْدِ، عن حجاج، عن ابن جريج: ﴿الَّذِينَ يَطَّلُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَفِتُونَ رِيحَهُمْ﴾ علموا أنهم ملاقوا ربهم، كقوله: ﴿إِنِّي لَنَنْتُ أَنِّي لَمُنِّي حَسَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قلت: وفي الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتني». وسيأتي مبسوطاً عند قوله: ﴿سُوا اللَّهُ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿بَيْنَ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا شَيْعَ آلِيٍّ أَتَشَتْ عَلَيْكَ وَأَيُّ فَضْلِكَ عَلَى الْمَلَأِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

يذكرهم تعالى سالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْمَلَأِينَ﴾ [الدخان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ بِنُقُورٍ أَذْكُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَشَدًّا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المناد: ٢٠]. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَإَيُّ فَضْلِكَ عَلَى الْمَلَأِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً. وروي عن مجاهد، والربيع بن أنس،

وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن عن معاوية بن خبزة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم ثوفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿الْمَلَكِينَ﴾ عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فأبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ لَا يَجْرَى تَنْسُ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨).

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حُلُولِ نعمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا يَجْرَى تَنْسُ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يعني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا يُزْ وَارِدَةٌ وَرَدَّ أُخْرَى﴾ [الانعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاقٌّ مِمَّا يُنصَرُونَ﴾ [عبس: ٣٧]، وقال: ﴿يَكْفُرُ النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِيهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه أبلغ المقامات: أن كلاً من الوالد وولده لا يعني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ النَّبِيِّينَ﴾ (٤٨) [المائدة: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَلَا صَافِيينَ جَمِيعًا﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرًا فَلَنْ يُمْسَكَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ بَدَلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَتَمَكْتُم بِرُءُوسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَسْكُ لَيَقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ وَمَنْ عَذَابُ اللَّهِ أَلِيمٌ﴾ (٥٠) [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَدَّرَ كَلٌّ عَدْلٌ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا﴾ [الانعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ بَدَلٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحديد: ٤١]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال سنيد: حدثني حجاج، حدثني ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبذل: الفدية، وقال السدي: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفندي به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني: فداء. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن علي، رضي الله عنه، في حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة. وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن عمير بن هانيء.

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثني نجيح بن إبراهيم، حدثنا علي بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية - من أهل الشام أحسن عليه الثناء - قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية». وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنَ يَوْمِ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (٥١) [الطارق: ١٠] أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَوْءُؤِيحًا وَلَا يَجَاؤُا عَلَيْهِمْ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يَصْعَدُونَ﴾ (٥٢) [الفجر: ٢٥]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٥٣) [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ صَدَقُوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٨]، قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٥٤) ما لكم اليوم لا تمنعون؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم. قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحابة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسبئية مثلها وبالحسنة

أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ أَهْمًا فَسَمِعُوا لَهُمْ مَسْئَلُونَ﴾ (١٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ آتِيهِمْ مُسْتَسْتَلُونَ ﴿١٦﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].
﴿وَإِذْ يَخَيَّنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَلْبَسْنَاكُمْ فَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَقْنَا نَضَارُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿وَإِذْ يَخَيَّنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى، عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا حالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء في حديث الفُتُون، كما سيأتي في موضعه في سورة طه، إن شاء الله، فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل كل ذي ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذالها. وههنا فسر العذاب بذيح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد. ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسيف فينا

وقيل: معناه: يذيمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿أَذْكُرُوا لِيَمِينِي أَلَيْ أَنَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَسْمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: بأبائيه ونعمه عليهم فتاسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأبدي. وفرعون علم على كل من ملك مصر، كافرأ من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرأ، وكذلك كسرى لكل من ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافرأ والنجاشي لمن ملك الحبشة، وبطيالموس لمن ملك الهند، ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى، عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأبأ ما كان فعله لعنة الله، وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من استخر. وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجاننا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدي، وغيرهم. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَيَكَلُومُ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّهُ﴾ [الانباء: ٢٣٥]، وقال: ﴿وَيَكَلُومُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَاللَّيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير: أبلبه إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبي سلمى:

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَنْبَلُو

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾: إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ قال القرطبي: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا في الشر، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَلْبَسْنَاكُمْ فَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَقْنَا نَضَارُونَ﴾ [صافات: ١٨] معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى، عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه، ومن أبسطها في سورة الشعراء إن شاء الله. ﴿فَأَلْبَسْنَاكُمْ﴾ أي: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقتهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشقى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أبي إسحاق الهمداني، عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشْرَقْنَا نَضَارُونَ﴾ قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى تصبح الديكة. قال:

فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا؛ فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع. فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت وما كذبت. فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَصْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فصربه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه وأنبيهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تناموا فيه ألقه الله عليهم فلذلك قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا بِأَنَّ زَعُونَ وَاشْتَرْنَا نَظْرُونَ﴾. وكذلك قال غير واحد من السلف، كما سيأتي بيانه في موضعه. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله ﷻ فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷻ، وأمر بصومه. وروى هذا الحديث البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه من طرق، عن أيوب السخيتاني، به نحو ما تقدم. وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا سلام - يعني ابن سليم - عن زيد العمي عن يزيد الرقاشي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «فلق الله البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء». وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيدا العمي فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشي أضعف منه.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا آلَ مِثْرَانَ مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٢)

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا فِي بَعْثِهِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكمالها وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر. وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك - أيضاً - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف. ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمَاءٍ أَمْهَلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النصم: ٤٣]. وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان وهذا غريب، وقيل: عطف عليه وإن كان المعنى واحداً، كما في قول الشاعر:

وقدمت الأديم لراقشييه فالفسى قولها كذباً ومينا
وقال الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد
فالكذب هو المين، والنأي: هو البعد. وقال عترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعمد أم الهيثم
فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُعْذِرُكُمْ أَنْتُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ آلِهَةً قُلُوبًا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣)

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُعْذِرُكُمْ أَنْتُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ آلِهَةً قُلُوبًا﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَوَّطُ فِي آيَاتِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يُعْذِرُكُمْ أَنْتُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ آلِهَةً قُلُوبًا﴾. وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿قَتَلُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾: أي إلى خالقكم. قلت: وفي قوله ههنا: ﴿إِلَى بَارِيكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي: قتلوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصمغ بن زيد الوراق عن

القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذا قطعة من حديث الفُتُون، وسيأتي في تفسير سورة طه بكامله، إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾. قال: أمر موسى قومه - من أمر ربه ﷻ - أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى: ﴿فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قالوا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكشفت عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حَسْبِي، فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى موسى بثوبه، وروي عن علي رضي الله عنه نحو ذلك. وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحيم توبة، وللمقتول شهادة. وقال الحسن البصري: أصابتهم ظلمة حنُوس، فقتل بعضهم بعضاً نعمة، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك. وقال السدي في قوله: ﴿فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدهم والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قُتل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون؛ ربنا أهلك بني إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مكفراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهري: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جل ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحي عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته. فسَرَ بذلك موسى، وبنو إسرائيل. رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بُعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نُصَبِر لأمر الله. فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يُقتل من عبده. فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من توبة؟ قال: بلى، ﴿فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاختلطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يلدي. قال: ويتنادون فيها: رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلهم شهداء، وتيب على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ بَدَدَ مُؤْمِنِكُمْ لَمَّا كَفَرْتُمْ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتي جهرة عياناً، مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية. وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ﴾

اللَّهُ جَهْرَةً: أي علانية، أي حتى نرى الله. وقال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي عياناً. وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا. وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة: صيحة من السماء. وقال السدي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار. وقال عروة بن زويم في قوله: ﴿وَأَنْشَرْنَا نَظْرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء. وقال السدي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي أَنْتَ لِكَمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلٌ رجلٌ، ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدْرِ مَوْجِكُمْ لَمَلَكِكُمْ فَتَشْكُرُونَ﴾. وقال الربيع بن أنس: كان موثهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحزق العجل وذراه في اليم، اختار موسى سبعين رجلاً للخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتكم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون، فيما ذكر لي، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اخترت منهم سبعين رجلاً، الخَيْرُ فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم. هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية. وهذا السياق يقتضي أن الخطاب توجه إلى بني إسرائيل في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواء، وقد أغرب فخر الدين الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جداً، إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله ﷻ، فإن موسى الكلبي، عليه السلام، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟.

القول الثاني في الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى - لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدْرِ مَوْجِكُمْ لَمَلَكِكُمْ فَتَشْكُرُونَ﴾ [٥٦] فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا. قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة ففتت الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم

لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق؛ والثاني: أنهم مكلفون لثلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمر الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظماً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسخغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يُغَمُّ السماء، أي: يواربها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظَلَّلُوا به في التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفُتُون، قال: ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، والزبيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس. وقال الحسن وقناة: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس. وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم. وهكذا رواه ابن جرير، عن المثني بن إبراهيم، عن أبي حذيفة. وكذا رواه الثوري، وغيره عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زبي هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرًا، كما قال سنيدي في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه. وقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾: اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرزب الغليظ. وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ أنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر الزنجبيل. وقال قناة: كان المن ينزل عليهم في محلتهن سقوطة الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية. وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه. وقال وهب بن منبه - وسئل عن المن - فقال: حُبز الرقاق مثل الذرة أو مثل التقي. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل. ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال:

فَرَأَى اللهُ أَنَّهُمْ بِمَضِيْعٍ لَا بِذِي مَزْرَعٍ وَلَا مَنُورٍ
فَسَنَّاها عَلَيْهِمُ غَادِيَاتٍ وَتَرَى مُزْنَهُمْ خَلَايَا وَخُورًا
عَمَلًا نَاطِفًا وَمَاءَ فَرَاتٍ وَحَلِيْبًا ذَا بَهْجَةٍ مَرْمُورًا

فالناطق: هو السائل، والحليب المرمور: الصافي منه. والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حُرَيْث، عن سعيد بن زيد، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وماؤها شفاء للعين». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به. وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه البخاري ومسلم والنسائي من رواية الحكم، عن الحسن العُزَني، عن عمرو بن حُرَيْث، به. وقال الترمذي: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غيلان، قالوا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال

رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين». تفرد بإخراجه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو، وإلا من حديث سعيد بن عامر، عنه، وفي الباب عن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر. كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره، من طريق آخر، عن أبي هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصري، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمى واسطي، يكنى بأبي محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها.

ثم قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدرى الأرض، فقال النبي ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم». وهذا الحديث قد رواه النسائي، عن محمد بن بشار، به. وعنه، عن عُثْرَد، عن شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به. وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط. وروى النسائي - أيضاً - وابن ماجه من حديث محمد بن بشار، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه. وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فإنه لم يسمعه منه، بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سننه، عن علي بن الحسين الدرهمي، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن عَنَم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة، وبعضهم يقول: جدرى الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم». قال النسائي في الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد وجابر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». ثم رواه - أيضاً -، وابن ماجه من طرق، عن الأعمش، عن أبي بشر، عن شهر عنهما، به.

وقد روي - أعتي النسائي، وابن ماجه - من حديث سعيد بن مسلم، كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: وحديث جابر، عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». ورواه ابن مَرْدُويه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدوري، عن لاحق بن صواب، عن عمار بن زَرْبِق، عن الأعمش، كابت ماجه. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدوري، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمآت، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وأخرجه النسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع، ثم رواه ابن مردويه. رواه أيضاً عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن الأعمش، به، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى به. وقد روى من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، كما قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوشرة بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تدارؤوا في الشجرة التي اجنتت من فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم».

وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئاً من هذا والله أعلم. وقد روى عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائي - أيضاً - في الوليمة، عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد، عن عبد الله بن عون الخزاز، عن أبي عبيدة الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». فقد اختلف - كما ترى فيه - على شهر بن حوشب، ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل

الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد. وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّماني، كانوا يأكلون منه. وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مروة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السُّماني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى: هو السُّماني. وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله. وعن عكرمة: أما السلوى فطير كبير يكون بالجنة، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك. وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريح الجنوب. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه. وقال وهب بن منبه: السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفي رواية عن وهب، قال: سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند مساكنهم السلوى، وهو السماني، مثل ميل في ميل قيد رمح إلى السماء فخيَّووا للغد فتن اللحم وخنز الخبز. وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى، عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَبَّأْنَا عَلَيْكُمْ أَلْفَمَامًا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ نَفْسَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وروي عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي. وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جزيج، قال: قال ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جزيج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً. قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألد من السلوى إذا ما أشورها
قال: فظن أن السلوى عسلاً قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل بيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة؛ لأنه يسلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد بيت الهذلي - أيضاً -، والسلوان بالضم خرزة، كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجد العيش يا مي ما أسلو
واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفي الحزين فيسلو الأطباء يسمونه (مفرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ - الواحد - أيضاً، كما يقال: سماني للمفرد والجمع وويلي كذلك، وقال الخليل واحده سلوانة، وأنشد:

وإنني لسمروني لذكراك هزة كما انتفض السلوانة من بلبل القطر
وقال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبي. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ﴾ [سبا: ١٥] فخالقوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاز أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سأله في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى

الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، ومع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا اتَّبِعُوا مَدْيَةَ الْقَهْبَةِ فَحَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ وَفَّقْنَاكُمْ وَفَدَاكُمْ بِذَلِكَ آيَاتِكُمْ لَكُمْ حَسْبُكُمْ وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾ (٥٨)

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى، عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقاتل من فيها من العماليق الكفرة، فنكولوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي، والربيع بن أنس، وقتادة، وأبو مسلم الأصبهاني وغير واحد وقد قال تعالى: ﴿يَقُولُوا آذَلُّوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات [المائدة: ٢١ - ٢٤]. وقال آخرون: هي أريحا ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين في تفسيره، والصحيح هو الأول؛ لأنها بيت المقدس. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقريبة ليست مقصورة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿حَسْبُكُمْ﴾ أي: شكرأ الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بدمهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا آيَاتِكُمْ حَسْبُكُمْ﴾: أي ركعاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا آيَاتِكُمْ حَسْبُكُمْ﴾: قال: ركعاً من باب صغير. ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان، وهو الثوري، به. وزاد: فدخلوا من قبل استاهمهم. وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي، وحكى عن بعضهم: أن المراد بالسجود ههنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته. وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن المقدس، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عن باب جهة من جهات القرية. وقال خصيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شق. وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقتعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا. وقوله: ﴿وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾: قال الثوري عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾: قال: مغفرة، استغفروا. وروي عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾: قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم. وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله. وقال الأوزاعي: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾ فكتب إليه: أن أقرأ بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا. ﴿تَنْزِيلُ لَكُمْ حَسْبُكُمْ وَوَقُلُوا حَسْبُكُمْ﴾: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣]. فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى إن عُثْنُونَهُ ليمس مَوْزِكَ رَحْلَهُ، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى، فقال بعضهم: هي صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم؛ وقيل: يصلها كلها بتسليم واحد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قال البخاري: حدثني محمد، حدثنا عبد الرحمن بن

مهدي، عن ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَأَدْخُلُوا آتَابَك سُبْحَكَا وَفُؤُلُوا حِطَّةَ﴾ فدخلوا يزحفون على آستاهم، فبدلوا وقالوا: حطة: حبة في شعرة». ورواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن مهدي به موقوفاً. وعن محمد بن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسنداً، في قوله تعالى: ﴿حِطَّةَ﴾ قال: فبدلوا. فقالوا: حبة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَام بن مَثَبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَأَدْخُلُوا آتَابَك سُبْحَكَا وَفُؤُلُوا حِطَّةَ نَمِيزَ لَكُرَّ حَطَلَيْكُمُ﴾ فبدلوا، ودخلوا الباب يزحفون على آستاهم، فقالوا: حبة في شعرة». وهذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذي عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمن لا أتهم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على آستاهم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة». وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَأَدْخُلُوا آتَابَك سُبْحَكَا وَفُؤُلُوا حِطَّةَ نَمِيزَ لَكُرَّ حَطَلَيْكُمُ﴾». ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، مثله. هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القرزاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل، أجزنا في ثنية يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَأَدْخُلُوا آتَابَك سُبْحَكَا وَفُؤُلُوا حِطَّةَ نَمِيزَ لَكُرَّ حَطَلَيْكُمُ﴾». وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: «سَيَوُلُ الشَّهْمَاءُ مِنَ آتَابِكُ» [البقرة: 142] قال اليهود: قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً، وقلوا: حطة: أي مغفرة، فدخلوا على آستاهم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن ابن مسعود: ﴿وَفُؤُلُوا حِطَّةَ﴾ فقالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هُطِي سمعانا أزية مزبا» فهي بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَدْخُلُوا آتَابَك سُبْحَكَا﴾: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل آستاهم، وقالوا: حنطة، فهو قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وهكذا روي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع. وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على آستاهم من قبل آستاهم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنْ أَسْمَاءٍ مِّمَّا كَانُوا يَقْسُونَ﴾. وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من «الرجز» يعني به العذاب. وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبيرة: هو الطاعون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد - يعني ابن أبي وقاص - عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذَّب به من كان قبلكم». وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به. وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث. قال ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عُذَّب به بعض الأمم قبلكم». وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين، من حديث الزهري، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي

النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَفْرَهُمْ كَفُورًا وَافْتَخِرُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَنَّوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنيبكم موسى، عليه السلام، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَرٍ يُحْمَلُ معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثني عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعثه لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك. ﴿وَلَا تَتَعَنَّوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون في كلامهم، كما قال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى، عليه السلام، فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من مَثَقَلَةٍ إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول. وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهو حديث الفتون الطويل. وقال عطية العوفي: وجعل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء. وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا. وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه. وقال الزمخشري: وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أسس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى. وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمه أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيبسي، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسه بالعصا لعلمهم بقرون. وقال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنا عشرة عيناً فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين. وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً. وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. وقال مجاهد نحو قول ابن عباس. وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة، وهي البقرة فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الأمر آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا، وذاك هناك، والله أعلم. وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الرازي في تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب والله تبارك وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَنْ نُصَبِّرْ عَلَىٰ طَعَامٍ لَا يَكُونُ لَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرْجٌ مِمَّا يَكْفُرُ لَكُمْ وَكَانَ الْأَرْضُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَقَوْمًا وَعَدِيهَا وَبَسِيلًا قَالَ اسْتَبَدَّلَ الَّذِي هُوَ آذَنٌ بِالَّذِي هُوَ حَيْرٌ أَمِيطُوا وَبَصُرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هينئاً سهلاً، واذكروا ذبركم وضجركم مما رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتكم. وقال الحسن البصري رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل ويقول وفوم، فقالوا: ﴿يَسْمُونُ لَنْ نُصَبِّرَ عَلَىٰ طَعَامٍ لَا يَكُونُ لَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرْجٌ مِمَّا يَكْفُرُ لَكُمْ وَكَانَ الْأَرْضُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَقَوْمًا وَعَدِيهَا وَبَسِيلًا﴾ وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كآكل واحد. فالبقول والقشء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري، عن يونس، عن الحسن، في قوله: ﴿وَقَوْمًا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم. قالوا: وفي اللغة

القديمة: قَوْمُوا لَنَا بِمَعْنَى: اِخْتَبِرُوا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا، فَإِنَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُبَدَلَةِ كَقَوْلِهِمْ: وَقَعُوا فِي «عَاثُرٍ شَرٍّ» وَعَافُورٍ شَرٍّ، وَأَثَانِيٍّ وَأَثَانِيٍّ، وَمَغَايِرٍ وَمَغَايِرٍ. وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّبَ الْفَاءُ نَاءً وَالثَاءُ فَاءً لِتَقَارُبِ مَخْرَجِيهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْقَوْمُ الْحَنْطَةُ، وَهُوَ الْبَرُّ الَّذِي يَعْمَلُ مِنْهُ الْخِيَز. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قِرَاءَةً، أَبْنَانًا ابْنَ وَهْبٍ قِرَاءَةً، حَدَّثَنِي نَافِعُ بْنُ أَبِي نَعِيمٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَتَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾: مَا قَوْمُهَا؟ قَالَ: الْحَنْطَةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أَحِيحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا
وَرَدَّ الْمَدِينَةَ عَنْ زَرَاعَةَ قَوْمٍ
وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ الْجَرْمِيُّ، حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ يُونُسَ، عَنْ رَشْدِينَ بْنِ كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قَالَ: الْقَوْمُ الْحَنْطَةُ بِلِسَانِ بَنِي هَاشِمٍ. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالضُّحَّاكُ، وَعِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْقَوْمَ: الْحَنْطَةُ. وَقَالَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مَجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قَالَ: خِيَزَهَا. وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ يُونُسَ، عَنْ الْحَسَنِ، وَحَصِينِ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قَالَ: الْحَنْطَةُ. وَهُوَ قَوْلُ عِكْرَمَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْقَوْمُ: الْحَنْطَةُ. وَقَالَ ابْنُ دَرِيدٍ: الْقَوْمُ: السَّنْبِلَةُ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَطَاءٍ وَقَتَادَةَ أَنَّ الْقَوْمَ كُلَّ حَبٍ يَخْتِيزُ. قَالَ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْحَمِصُّ لُغَةً شَامِيَّةً، وَمِنْهُ يُقَالُ لِبَاعِثِهِ: فَامِي مَغِيرٍ عَنْ فَوْمِي. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَبُوبُ الَّتِي تُؤْكَلُ كُلُّهَا فَوْمٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتَنْبِيلُوكَ الْأَذَى هُوَ أَذَقَ بِالْأَذَى هُوَ خَيْرٌ﴾ فِيهِ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَيْهِ مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ الدُّنْيَا مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ، وَالطَّعَامِ الْهَنِئِءِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ.

وقوله: ﴿أَهْبَطُوا بِمِصْرًا﴾ هَكَذَا هُوَ مَنْوُونٌ مَصْرُوفٌ مَكْتُوبٌ بِالْأَلْفِ فِي الْمَصَاحِفِ الْأَثَمَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَهُوَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِالصَّرْفِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَا أُسْتَجِيزُ الْقِرَاءَةَ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِإِجْمَاعِ الْمَصَاحِفِ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَهْبَطُوا بِمِصْرًا﴾ قَالَ: مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْبِقَالِ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْهُ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ السُّدِّيِّ، وَقَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَعَ فِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: «أَهْبَطُوا مِصْرًا»، مِنْ غَيْرِ إِجْرَاءٍ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ صَرْفٍ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُمَا فَسَّرَا ذَلِكَ بِمِصْرٍ فَرَعُونَ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَعَنْ الْأَعْمَشِ أَيْضًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِصْرَ فَرَعُونَ عَلَى قِرَاءَةِ الْإِجْرَاءِ أَيْضًا. وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِتْبَاعِ لِكِتَابَةِ الْمَصْحَفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي الْمُرَادِ مَا هُوَ؟ أَمْصَرَ فَرَعُونَ أَمْ مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ؟ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ نَظَرٌ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَالْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ بِأَمْرِ عَزِيزٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهُ وَجَدْتُمُوهُ، فَلَيْسَ يَسَاوِي مَعَ دِنَاةٍ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ سَأَلَ اللَّهُ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَنْبِيلُوكَ الْأَذَى هُوَ أَذَقَ بِالْأَذَى هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا بِمِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أَي: مَا طَلَبْتُمْ، وَلَمَّا كَانَ سَوْأَلُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ، لَمْ يَجَابُوا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسُّكْنَةَ وَبَاءَهُمْ مَعْصِيَتُكَ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَمَا نَبَأَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بِتِلْكَ آيَةِ اللَّهِ وَتَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسُّكْنَةَ﴾ أَي: وَضَعَتْ عَلَيْهِمْ وَالزَّمَوْا بِهَا شَرًّا وَقَدْرًا، أَي: لَا يَزَالُونَ مُسْتَذَلِّينَ، مِنْ وَجْدِهِمْ اسْتَذَلُّهُمْ وَأَهَانَهُمْ، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ، وَهِيَ مَعُ ذَلِكُ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذْلَاءُ مَتَمَسِّكُونَ. قَالَ الضُّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسُّكْنَةَ﴾ قَالَ: هُمُ أَصْحَابُ النَّبَالَاتِ، يَعْنِي أَصْحَابُ الْجَزِيَّةِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ قَالَ: يَعْطُونَ الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ، وَقَالَ الضُّحَّاكُ: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ﴾ قَالَ: الذَّلُّ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَذْلَهُمُ اللَّهُ فَلَا مَنَعَةَ لَهُمْ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ أَدْرَكْتَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَإِنَّ الْمَجُوسَ لِتَجْبِيهِمُ الْجَزِيَّةِ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْمَسْكَنَةُ الْفَاقَةُ. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: الْخِرَاجُ. وَقَالَ الضُّحَّاكُ: الْجَزِيَّةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَاءَهُمْ مَعْصِيَتُكَ مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ الضُّحَّاكُ: اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: فَحَدَّثَتْ عَلَيْهِمُ غَضَبَ اللَّهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿وَبَاءَهُمْ مَعْصِيَتُكَ مِنَ اللَّهِ﴾، يَقُولُ: اسْتَوْجَبُوا سَخَطًا، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَاءَهُمْ مَعْصِيَتُكَ مِنَ اللَّهِ﴾: انصَرَفُوا وَرَجَعُوا، وَلَا يُقَالُ: بَاؤُوا إِلَّا مَوْصُولًا: إِمَّا بِخَيْرٍ وَإِمَّا بِشَرٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: بَاءَ فُلَانٌ بِذَنْبِهِ يَبُوءُ بِهِ بُؤًا وَبُؤًا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ أَرِيدُ أَنْ نَبَأَ الْإِنَّمَى وَإِنَّمَى﴾ [المناداة: ٢٩] يَعْنِي: تَنْصَرَفُ مَتَحْمَلُهُمَا وَتَرْجِعُ بِهِمَا،

قد صاروا عليك دوني. فمعنى الكلام إذا: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَبْعَثُ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بظن الحق، وعُظمت الناس».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النجوى، ولا عن كذا ولا عن كذا قال: فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي، فأدرتته من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لي من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فضّلني بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغي؟ فقال: «لا، ليس ذلك من البغي، ولكن البغي من بطن - أوقال: سفه - الحق وعُظمت الناس». يعني: رد الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاطف عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصلاً بذل الآخرة جزاء وفاقاً. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبان، حدثنا عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله - يعني ابن مسعود - أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين». وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدُونَ﴾: وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَآمَنِ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَحِيلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢).

لما بين الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنی، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿آلَٰ إِنَّ أَوْلِيَٰةَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَادُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَآمَنِ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخر الآية. وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَآمَنِ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَحِيلَ صَٰلِحًا﴾ الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النار». فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكاً. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل - كان هالكاً. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبيرة نحو هذا. قلت: وهذا لا ينافي ما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَآمَنِ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران: ٨٥].

فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشرعية محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. واليهود من اليهودة وهي المودة أو التهود وهو التوبة؛ كقول موسى، عليه

السلام: ﴿إِنَّا هُنَا إِنَّا﴾ [الاعراف: ١٥٦] أي: تبنا، فكانهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض. وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة. فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْكُورِيُّونَ فَمَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سُموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم. والنصارى: جمع نصران كمشاوي جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر:

نصيرانة لم تُخالف

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح، عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبيرة نحو ذلك. وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك وإسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم. وقال هُشَيْمٌ عن مطرف: كنا عند الحكم بن عُتَيْبَةَ فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك. وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخبير بعد أنهم يعبدون الملائكة. وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة.

وكذا قال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمين كل يوم خمس صلوات. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً. وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الأصبخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فرض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكثرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، راداً عليهم ومبطلاً لقولهم. وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، وهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينيزون من أسلم بالصابئي، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَدَدْتُمْ فَأَنْزَلْنَا فَسْخَالَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحِمْتُمْ لَكُم مِّنَ الْغَيْبِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر. وفي رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُثبِت فليس بطور. وفي حديث الفتون: عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا فسجدوا. وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الْقُلُوبَ﴾. وقال الحسن في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: يعني التوراة. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجِدُّ وإلا قذفته عليكم. قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم، أي: أسقطته عليكم، يعني الجبل. وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعَدَ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثيتم ونقضتموه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعَدَ ذَلِكَ﴾ أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي الْحَبَشَةِ فَوَقَفْنَا لَهُمْ كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿لَعَلَّهَا تَكُنَّ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطيد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالإناس في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦] القصة بكاملها. وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل «أبلة». وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة. وقوله: ﴿كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقَلْنَا لَهُمْ كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَثَلِ الْجَحَارِ يُحِيلُ أَشْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. ورواه ابن جرير، عن المثني، عن أبي حذيفة. وعن محمد بن عمرو الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به. وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ دُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]. وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَقَلْنَا لَهُمْ كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾: فجعل الله منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيمة صاروا خنازير. وقال شيبان النحوي، عن قتادة: ﴿فَقَلْنَا لَهُمْ كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾: فصار القوم قرداً تعاقى لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء. وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية، ﴿كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيبة، حدثنا محمد بن مسلم - يعني الطائفي - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فوافقاً ثم هلكوا. ما كان للمسخ نسل. وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحوله كما يشاء. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿كُوفُوا قَرْدَةَ حَبَشِينَ﴾ قال: يعني أدلة صاغرين. وروي عن

مجاهد، وقتادة والربيع، وأبي مالك، نحوه. وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم - يوم الجمعة - فخالقوا إلى السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: «مدين»؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرُوعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يوم السبت أتبن شُرُوعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقَرِموا إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فحزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي: إني لم أخذه في يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ربح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ربح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم، اتقوا الله. ونهروهم عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُمَدِّدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِيَّ زَيَّكُمُ﴾ لسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديةهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقردة، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقردة. قال: يقول ابن عباس: فولوا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن سوء لقلنا: أهلك الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال الله جل ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿رَسَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا.

قال السدي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: فهم أهل «أيلة»، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت - وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً - لم يبق في البحر حوت إلا خرج، حتى يخرج خراطيمهم من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مقل البحر، فلم يرَ منهم شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿رَسَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَقْسُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فاشتبه بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقىها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيساله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال العلماء: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحكم الماء فدخل، قال: وغلبوا أن يتتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُمَدِّدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقول: لم تعظوهم، وقد عظمتوهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مَعذِرَةٌ لِيَّ زَيَّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة. فقسّموا القرية بحدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطؤوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلِمُوا لِسَانَ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة. قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوي صوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال بعضهم: الضمير في ﴿لَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية، حكاه ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها عبرة كما

قال الله عن فرعون: ﴿فَأَنذَرْتَهُ اللَّهُ تَكَاثُفًا وَتَوَكُّرًا وَأَلُوًّا ﴿٢٥﴾﴾ [النزعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي من القرى. قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن ابن عباس، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبيرة: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: من بحضرتها من الناس يومئذ. وروى عن إسماعيل بن أبي خالد، وقتادة، وعطية العوفي: ﴿فَجَعَلْنَاهَا تَكَاثُفًا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت. وقال أبو العالية والربيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم. وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها في الزمان. وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة، والله أعلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا تَكَاثُفًا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم. وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وحكى القرطبي، عن ابن عباس والسدي، والفراء، وابن عطية: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها. الثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم. والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ نَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الانبيا: ٤٤]، فجعلها عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بعدهم، فيتقون نعمة الله، ويحذرونها. وقال السدي، وعطية العوفي: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ. قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لثلاث يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطه: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَلَوْ قَالَ مُوسَىٰ لِيُؤْمِرُوا بِإِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ أَن نَّذْمُوا بِقُرْبِهِ قَالُوا أَنْظِرْنَا حَرْوًا مَّا نَدْرَأُ بِأَلَيْهِ أَنْ نُكْرِمَ مِنَ الْجِبَلِ لَيْتَ﴾

يقول تعالى: واذكروا - يا بني إسرائيل - نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا في البقر فقيل: تذبح، وقيل: تنحر، والذبح أولى لنصر القرآن ولقرب منحها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافاً صحيحاً بين ما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكاً كره ذلك. وقد يكره الإنسان ما لا يحرم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى، عليه السلام، في أمر القاتل قبل نزول القسامة في التوراة.

بسط القصة - كما قال ابن أبي حاتم -: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله لئلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فاتوا موسى، عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَلْبِطُونَ هَذَا قَالُوا قَدْ آخَذُوا بِمِلٍّ مِنْ جِلْدِهَا ذَبْحًا فَتَمِثُّوا بِهَا ذَبْحَهَا فَضَرْبُوهَا بِبَعْضِهَا فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ فَقَالَ: هَذَا، لِابْنِ أَخِيهِ. ثُمَّ مَالَ مَيْتًا، فَلَمْ يَعْطَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، فَلَمْ يُورَثْ قَاتِلٌ بَعْدَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي يُوْبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْرِينَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، بِنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: أَنبَأَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، بِهِ.

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، به. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال له: إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بيته لنا، قال: فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فعجبوا من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَتَذْبَحُونَ هَذَا قَالُوا قَدْ آخَذُوا بِمِلٍّ مِنْ جِلْدِهَا ذَبْحًا فَتَمِثُّوا بِهَا ذَبْحَهَا فَضَرْبُوهَا بِبَعْضِهَا فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ فَقَالَ: هَذَا، لِابْنِ أَخِيهِ. ثُمَّ مَالَ مَيْتًا، فَلَمْ يَعْطَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، فَلَمْ يُورَثْ قَاتِلٌ بَعْدَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي يُوْبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْرِينَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، بِنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: أَنبَأَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، بِهِ.

﴿لَا فَرْسٌ﴾ يعني: لا هرمة ﴿وَلَا يَكْرُ﴾ يعني: ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: نصف بين البكر والهرمة ﴿قَالُوا أَنْعِ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَأَوْثَمُ لَنَا مَا لَوْثَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَمْرَاءٌ فَاقْبَعْ لَوْثَهَا﴾ أي: صاف لونها ﴿تَسْرُ الْأَثْلِينَ﴾ أي: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا أَنْعِ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنْ أَبَيْتُ تَشَيْتَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70]، لما هداها إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القَيْمَةُ عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشدتكم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها فذبحوها، فأمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القاتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله - وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه مقتلته - فقتله الله على أسوأ عمله.

وقال محمد بن جرير: حدثني ابن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه عن جده، عن ابن عباس، في قوله في شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى، عليه السلام، كان مكثرأً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت معهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتغرّموا أهل المدينة التي لستم بها ديته، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا في إحداهما وكان القاتل إذا قتل فطرح بين المدينتين، قيس ما بين القاتل والمدينتين فأيهما كانت أقرب إليه غرمت الدينة، وأنهم لما سأل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عنهم عمّداً إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله لتغرمن لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أعلق حتى أصبحنا. وإنهم عمدوا إلى موسى، عليه السلام، فلما أتوه قال بنو أخي الشيخ: عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإنه جبريل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى، عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فتضربوه ببعضها.

وقال السدي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثرأً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم، انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم، لعلني أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك

السيط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدري أين هو، فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السيط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمي، فأذوا إلي ديتي فجعل يبكي ويحشو التراب على رأسه، وينادي: واعماهم. فرفعهم إلى موسى قضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله إن ديتي علينا لهينة، ولكننا نستحي أن نعيمر به فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذ قُلْنَا نَسَّا فَوَاقِدَهُنَّ فِيمَا وَآلَهُمْ نُجِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً ﴿٦٩﴾﴾ قالوا: نسالك عن القتل وعن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة. أتَهَزَأُ بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشد الله عليهم. فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِّئْنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿٧١﴾﴾. والفارص: الهرمة التي لا تلد والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النصف التي بين ذلك، التي قد ولدت وولد ولدها ﴿فَأَفْصَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴿٧٣﴾ قال: نقي لونها ﴿فَسُئِرَ الظَّنَّيْرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِّئْنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْزَاتِ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴿٧٦﴾﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا الْفَنَ جَحْتٌ بِالْحَقِّ ﴿٧٧﴾﴾ فظلبوها فلم يقدروا عليها.

وكان رجل في بني إسرائيل، من أبر الناس بأبيه، وإن رجلاً مَرَّ به معه لؤلؤ بيبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبي فأخذه منك بشمانين ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه، ففوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزاده حتى بلغوا عشراً، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمناً فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبطيخة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي، قال: أقتله، فأخذ ماله، وأكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه.

وقال سُنَيْدٌ: حدثنا حجاج، هو ابن محمد، عن ابن جُرَيْجٍ، عن مجاهد، وحجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: إن سيبطاً من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا افتتحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسوا. قال: وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القاتل رد الباب، فناده أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً في أصحابه بني إسرائيل، كان إذا رأى القاتل بين ظهرائي القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبيننا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً ﴿٦٨﴾﴾. وهذه السياقات كلها عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهاذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِّئْنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿٦٨﴾﴾ فَأَفْصَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِّئْنَا مَا لونها قال إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴿٧٣﴾﴾ فَسُئِرَ الظَّنَّيْرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِّئْنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْزَاتِ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴿٧٦﴾﴾ قَالُوا الْفَنَ جَحْتٌ بِالْحَقِّ ﴿٧٧﴾﴾ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَمْعَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لو قعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، فقالوا : ﴿ اِنْعَمْنَا رَبَّنَا بِمَا هَذِهِ الْبَقْرَةُ ؟ وَآيَ شَيْءٍ صَفْتَهَا ؟ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : لَوْ أَخَذُوا أَدْنَى بَقْرَةٍ اكْتَفَوْا بِهَا ، وَلَكِنْهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . إسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس . وكذا قال عبيدة ، والسدي ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية وغير واحد . وقال ابن جرير : قال لي عطاء : لو أخذوا أدنى بقرة كففتهم . قال ابن جرير : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا أَمْرُوا بِأَدْنَى بَقْرَةٍ ، وَلَكِنْهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّمَا لَوْ أَنَّ اللَّهَ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْتُوا مَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ » . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : « قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْ أَنَّ بَقْرَةَ لَا فَايَضٌ وَلَا يَكْرُؤُ أَي : لَا كَبِيرَةَ هَرْمَةٍ وَلَا صَغِيرَةَ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ ، وَالسَّدي ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعَكْرَمَةُ ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهِ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَالْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ » يَقُولُ : نَصْفٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدُّوَابِّ وَالْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ . وَرَوَى عَنْ عَكْرَمَةَ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ ، وَالضَّحَّاكِ نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَالَ السَّدي : الْعَوَانُ : النُّصْفُ الَّتِي بَيْنَ ذَلِكَ الَّتِي وَلَدَتْ ، وَوَلَدَ لَهَا . وَقَالَ هَشِيمٌ ، عَنْ جُوَيْرٍ ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ زِيَادٍ ، عَنْ الْحَسَنِ فِي الْبَقْرَةِ : كَانَتْ بَقْرَةٌ وَحْشِيَّةٌ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، عَنْ عَطَاءٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : مِنْ لَبَسَ نَعْلًا صَفْرَاءَ لَمْ يَزَلْ فِي سُرُورٍ مَا دَامَ لَابِسَهَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا كَلَوْنِ النَّظِيرِ » . وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهِ أَنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو : كَانَتْ صَفْرَاءَ الظِّلْفِ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ : كَانَتْ صَفْرَاءَ الْقَرْنِ وَالظِّلْفِ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ ، أَنَّ أَبَانَ أَبُورِجَاءَ ، عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ : « بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » قَالَ : سُودَاءُ شَدِيدَةُ السُّودِ . وَهَذَا غَرِيبٌ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَلِهَذَا أَكَّدَ صَفْرَتَهَا بِأَنَّ « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » . وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » : تَكَادُ تُسَوِّدُ مِنْ صَفْرَتِهَا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » قَالَ : صَافِيَةُ اللَّوْنِ . وَرَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَالسَّدي ، وَالْحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ نَحْوَهُ . وَقَالَ شَرِيكٌ ، عَنْ مَغْرَاءَ ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » قَالَ : صَافٍ . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » : شَدِيدُ الصَّفْرِ ، تَكَادُ مِنْ صَفْرَتِهَا تَبْيَضُ . وَقَالَ السَّدي : « تَسْرُ النَّظِيرِ » أَي : تَعْجَبُ النَّظِيرِينَ . وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ ، وَقَتَادَةُ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ . وَفِي التَّوْرَةِ : أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ ، فَلَعَلَّ هَذَا خَطَأٌ فِي التَّعْرِيفِ أَوْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : إِنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الصَّفْرِ تَضْرِبُ إِلَى حَمْرَةٍ وَسَوَادٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقال وهب بن منبه : إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وقوله : ﴿ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَّهَ عَيْنًا ﴾ أي : لكثرتها ، فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلدها لنا ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِذَا بَيَّنَّتْ لَنَا لَكُمُهَا ﴾ إليها . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن يحيى الأودي الصوفي ، حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد ، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطي ، ابن أخي منصور بن زاذان ، عن عباد بن منصور ، عن الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكُمُهَا » مَا أَعْطَوْا ، وَلَكِنْ اسْتَشْتُوا » . وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، عَنْ سُرُورِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، عَنْ زَادَانَ ، عَنْ عَبَّادِ بْنِ مَنْصُورٍ ، عَنْ الْحَسَنِ ، عَنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكُمُهَا » مَا أَعْطَوْا أَبَدًا ، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بَقْرَةَ مِنَ الْبَقَرِ فَذَبَحُوهَا لِأَجْزَاتِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ شَدَّدُوا ، فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » . وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ عَنِ السَّدي ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْ أَنَّ بَقْرَةَ لَا دَوْلُؤُا لَهَا بَقْرَةٌ لَا دَوْلُؤُا لَهَا بَقْرَةٌ وَلَا تَسْقَى لَمَرَّتْ ﴾ أَي : إِنَّهَا لَيْسَتْ مَذْلَلَةٌ بِالْحَرَاثَةِ وَلَا مَعْدَةٌ لِلْسَّقِيِّ فِي السَّانِيَةِ ، بَلْ هِيَ مَكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ صَحِيحَةٌ لَا عَيْبَ فِيهَا ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ أَي : لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ غَيْرُ لَوْنِهَا . وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ يَقُولُ : لَا عَيْبَ فِيهَا ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ مِنَ الشَّيْءِ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ الْقَوَائِمُ وَالْخَلْقُ ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ . قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا بِيَاضَ وَلَا سُودَ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : لَيْسَ فِيهَا بِيَاضٌ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ : ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ قَالَ : لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَهِيمٌ . وَرَوَى عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ ، وَوَهْبِ بْنِ مَنْبِهِ ، وَإِسْمَاعِيلِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ ، نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَالَ السَّدي : ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ مِنْ بِيَاضٍ وَلَا سُودٍ وَلَا حَمْرَةٍ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَابِرَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا بَقْرَةٌ لَا دَوْلُؤُا لَهَا بَقْرَةٌ لَا دَوْلُؤُا لَهَا بَقْرَةٌ ﴾ لَيْسَتْ بِمَذْلَلَةٌ بِالْعَمَلِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ : ﴿ تَبْيِؤُا الْأَرْضِ ﴾ أَي : يَعْمَلُ عَلَيْهَا بِالْحَرَاثَةِ لَكِنَهَا لَا تَسْقَى الْحَرَاثَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ فُسِّرَ الدَّلُولُ الَّتِي لَمْ تَذَلَّ بِالْعَمَلِ بِأَنَّهَا لَا تَبْيِؤُا الْأَرْضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرَاثَ كَذَا قَرَّرَهُ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ .

﴿قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِالْمَعْقُورِ﴾: قال قتادة: الآن يَبُيْتُ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك - والله - قد جاءهم الحق. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَمْعَلُونَ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها. يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعتن، فلهدا ما كادوا يذبحونها. وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَمْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها. وفي هذا نظر؛ لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير، وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرني محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنائير. وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتل الذي اختصموا فيه. ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها». وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل خطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضب أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُوهَآ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاللّٰهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْنَا أَمْرُوهُ بِمَعْنَىٰ كَذَلِكَ يُعِي ٱللَّهُ أَمْرًا وَرَبِّكُمْ ؕ ءَاتَيْنَاهُ لَكُمْ مَقُولًا ﴿٧٣﴾﴾.

قال البخاري: ﴿فَاذْرُوهَآ﴾: اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي حذيفة، عن شبل عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد، أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُوهَآ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: اختلفتم. وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختلفتم فيها. وقال ابن جرير: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُوهَآ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه. وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ﴿وَاللّٰهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: قال مجاهد: ما تُغَيَّبُونَ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصري، حدثنا محمد بن الطفيل العبدي، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿وَاللّٰهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ قُلْنَا أَمْرُوهُ بِمَعْنَىٰ﴾. هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصله به. وخرق العادة به كائن، وقد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله. ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عَفَّان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقره بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقره تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مسكها دنائير، فذبحوها، فضربوه - يعني القتل - بعضو منها، فقام تَشْحَبُ أوداجه دماً فسألوه، فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني فلان. وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها. وفي رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربروه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلني فلان. وقال أبو أسامة، عن النضر بن عربي، عن عكرمة: ﴿قُلْنَا أَمْرُوهُ بِمَعْنَىٰ﴾: قال: فضربره بفخذها فقام، فقال: قتلني فلان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وقاتدة، نحو ذلك. وقال السدي: فضربروه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي. وقال أبو العالية: أمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوه به القتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربروه ببعض آرابها وقيل: بلسانها، وقيل: بعجب ذنبها. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُعِي ٱللَّهُ أَمْرًا﴾: أي: فضربروه فحيي. وبالله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاكُمْ بِرَبِّ بَدِّ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة. وبالله تعالى بإحياء

الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيررتها رميمًا، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرني يعلى بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عُدُس، يحدث عن أبي رَزِين العُقَيْلي، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مرت بواد مُنْجَل، ثم مرت به خَضْرَاء؟» قال: بلى. قال: «كذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيي الله الموتى». وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا لَمْ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قِيمَةً بِأَكْوَابِهَا ۗ وَكَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ الْعَيْوُنِ ﴿٧٤﴾ لِأَكْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

مسألة: استدل لمذهب مالك في كون قول الجريح: فلان قتلني لوثاً بهذه القصة؛ لأن القتل لما حيي سئل عن قتله فقال: قتلني فلان، فكان ذلك مقبولاً منه؛ لأنه لا يخبر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يهتم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهودياً قتل جارية على أوضاع لها، فرضخ رأسها بين حجرين فقتل: من فعل بك هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكر اليهودي، فأومات برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد رأسه بين حجرين، وعند مالك: إذا كان لوثاً حلف أولياء القتل قسامة، وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتل في ذلك لوثاً.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهَيَّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا يَكَوْنُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ظَلَمُوا عَلَيْهِمُ الْأَمْدَ قَسَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكِبَرَتْ مِنْهُمْ قُلُوبُهُمْ ﴿٧٤﴾﴾ [الحديد: ١٦]. وقال العوفي، في تفسيره، عن ابن عباس: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني. ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذا رأوا. فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني: بني أخي الشيخ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعدة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج ليليتها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تنفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿سَخَّجَ لَهُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ فِيهِمْ مِنْ قَوْمٍ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئاً وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئاً مِنْهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا حَلِيمَةً غَوَّارًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ وقال أبو علي الجبائي في تفسيره: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهَيَّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: هو سقوط البرد من السحاب. قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده فخر الدين الرازي وهو كما قال فإن هذا خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفي، حدثني يحيى بن أبي طالب - يعني يحيى بن يعقوب - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قال: هو كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهَيَّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب، من غير دموع العين.

(وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَ﴾. قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ السَّاجِدِ﴾ ﴿١﴾ و﴿أُولَئِكَ رُؤُوسُ الْأُمَمِ﴾ الآية، ﴿فَأَلَمْنَا أَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾، ﴿ثُمَّ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبَلٍ﴾ الآية، ﴿وَقَالُوا لِيُؤْتِيهِمْ لَيْمٌ شَهَدَتُمْ حَتَّىٰ تَقُولُوا أَنفَقْنَا بِاللهِ﴾ الآية، وفي الصحيح: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، وكحنيين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير؛ أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. وكذا حكاة الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر: إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمرًا، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل كلوا حلواً أو حامضاً؛ أي لا يخرج عن واحد منهما؛ أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشئين. والله أعلم.

تفسيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَبْ يَنْفُسُ الْإِنْسَانِ﴾ [٢٤]، وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا ليثما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقدر
تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نال الخِلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قدراً. وحكى القرطبي قولاً: أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخر الدين في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإبهام والنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرأ وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلني حلو أو حامض، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشئيين والله أعلم. وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، تقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا رُفِعَ مِنْهُمُ الْحَقُّ لَأَسْ كَهَيْئَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدُّ حَسِيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى يَأْتِيهِ أَوْ يُرِيدُكَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿كَذَلِكَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى ذلك ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاه ابن جرير. وقال آخرون: المراد بذلك الإبهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

أحب محمداً حباً شديداً وعبّاساً وحمزة والوصيا
فإن يك حبيبهم رشداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيباً

قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حب من سعى رشداً، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ إِيَّاكُمْ لَمَنَّ هُدًى أَوْ فِي صُلْبِكُمْ نُجُوبٌ﴾ [سبأ: ٢٤]. فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا في الهادي منهم من الضلال؟ وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة. قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره. قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَظُ مِنْ كُفْرِهِمْ بَيْعَتُهُ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَطَلْبَتِ فِي بَحْرِ لَيْلِي﴾ [النور: ٤٠]، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم. قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا علي بن حفص، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم. وروى الزبار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسى القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

﴿أَنْتُمْ لَكُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِينٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْزَنُونَ مِنْ بَدِّ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ [٧٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَعِدُّونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٧٦] أَوَلَا يَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُسْمَعُونَ﴾ [٧٧].

يقول تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: يتقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد أبائهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِينٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَدِّ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ يَشْتَقِبْهُمْ لَسَّتْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا مُغْمَضًا فَتَرَوْكُمُ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤسهم منهم: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِينٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وليس قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾: يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم

الذين سألو موسى رؤية ربهم فآخذتهم الصاعقة فيها. قال محمد بن إسحاق: فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حبل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مُرهم فليظهروا، وليظهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤهم حَزَفَ فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ. وقال السدي: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: هي التوراة، حرفوها. وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق. فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكلبي موسى بن عمران، عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن أَمَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَتَجَارَكُ فَآيَرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: مبلغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَلْمُوكُ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم. وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه. وقال السدي: ﴿وَهُمْ يَلْمُوكُ﴾ أي أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحقق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمره بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ الآية. قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر، ونجد في كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُبَيِّنُونَ﴾ [٧٧]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعني المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا. وقال السدي: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم ناقروا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤسأوهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَاءَ الْفِتْنَةَ وَكُفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ رَجِعُوا إِلَى عِمْرَانَ: ٧٧﴾ وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون: ليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم [يعني الرؤساء] قالوا: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقال أبو العالية: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم إلى بعض، فقالوا: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. قول آخر في المراد بالفتح: قال ابن جريج: حدثني القاسم بن أبي بزة، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم. قال ابن جريج، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً، فأذوا محمداً ﷺ. وقال السدي: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم ناقروا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُدُّوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقال عطاء الخراساني: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما

قضى الله لكم وعليكم. وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيحاجوكم به عند ربكم، فيخصموكم. وقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوكُمْ وَأَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧): قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهو يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة. وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوكُمْ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقاتدة.

﴿وَمَنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَايٌ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾ (٧٨) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتُّاً قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتَ بِيَدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ (٧٩).

يقول تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ أُمَّيُونَ﴾ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقاتدة، وإبراهيم التَّحْمِي، وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَايٌ﴾ أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِسِنَّيْتِكَ إِذَا أَتَاكَ الْمُطَلِّعُونَ﴾ (٤٨) [المنكوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا الحديث. أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقفتنا إلى كتاب ولا حساب وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢٧]. وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه، قال: وقد روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَنْهُمْ أُمَّيُونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتابا أنزله الله، فكتبوا كتابا بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين، لجحودهم كتب الله ورسله. ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمي عند العرب: الذي لا يكتب. قلت: ثم في صحة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَايٌ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَايٌ﴾: إلا أحاديث. وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا أَمَايٌ﴾ يقول: إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً. وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمَنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَايٌ﴾ قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانيّ يمتنونها. وعن الحسن البصري، نحوه. وقال أبو العالية، والربيع وقاتدة: ﴿إِلَّا أَمَايٌ﴾ يمتنون على الله ما ليس لهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا أَمَايٌ﴾، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليسوا منهم. قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذي أنزل الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يتخَرَّصُونَ الكذب ويتخَرَّصُونَ الأباطيل كذباً وزوراً. والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت». يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَايٌ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن. وقال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾: يكذبون. وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق. وقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتُّاً قَلِيلاً﴾ الآية: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وقال سفيان الثوري، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد في أصل جهنم. وقال عطاء بن يسار. الويل: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دُرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويل واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، به. وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد - مرفوعاً - منكر، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا المنثي، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. قال: «الويل جبل في النار. وهو الذي أنزل في اليهود؛ لأنهم حَرَفُوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحووا منها ما يكرهون، ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة. ولذلك غضب الله عليهم، ورفع بعض التوراة، فقال: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾». وهذا غريب أيضاً جداً. وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفرج والويل ترحم، وقال غيره: الويل: الحزن. وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها، بمعنى: الزمهم وبلاداً. قلت: لكن لم يقرأ بذلك أحد. وعن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ أَنكُتَبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: هم أجبار اليهود. وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود. وقال سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ أَنكُتَبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب. وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمناً قليلاً. وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب؟ وقد حَدَّثَكُم اللهُ تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم. رواه البخاري من طرق عن الزهري. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحدافيرها. وقوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ أَنكُتَبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاک عن ابن عباس: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده. ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. قال محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٨٢]. ثم رواه عن محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس، بنحوه. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً﴾: اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره: هي مدة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبي عن ابن عباس وقاتدة. وقال الضحاک: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً﴾. وقال عبدالرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً﴾ يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل. وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها قوم آخرون، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فانزل الله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا نَكِامًا مَّقْصُودَةً﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لما فتحت

خبير أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. قال: «كذبتكم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبرزت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتناك عرفت كذبتنا كما عرفت في آيينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «احسبوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُم؟». فقالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. ورواه أحمد، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه.

﴿بِئْسَ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَا ءَاتِيًّا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتبهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة - فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَسَّ سُوًّا يُحْمَرْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ يَمَسَّ مِنْ الْفٰكِحٰلٰتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٦، ١٢٧]. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿بِئْسَ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة. وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، بنحوه. وقال الحسن - أيضاً - والسدي: السينة: الكبيرة من الكبائر. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ قال: بقلبه. وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ قالوا: أحاط به شركه. وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾، قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب. وعن السدي، وأبي رزين، بنحوه. وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾: الكبيرة الموجبة. وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة، عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَا ءَاتِيًّا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشّر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرٰءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهََ وَيَٰٓأُولَٰئِكَ إِحْسَٰنًا وَذِي الْقُرْبٰنِ وَالْيَتٰمٰنِ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّكٰوةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنِي إِسْرٰءِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ، وَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْرَضُوا قَصْدًا وَعَمْدًا، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهََ وَاتَّقُونِي أَلْتَفَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَوَلَدِيكَ إِيَّيَّكَ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْ رُبَّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَوَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية إلى أن قال: ﴿وَمَا آتَا ذَا الْقُرْبٰنِ حَقَّهُ وَالْيَتٰمٰنِ وَالسَّكِينِ وَالنَّسِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦]. وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك».

قال: ثم من؟ قال: «أباك. ثم أذاك أدناك».

وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب، وهو أكد. وقيل: كان أضله: ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف، فحذف أن فارتفع، وحكى عن أبي وابن مسعود، رضي الله عنهما، أنهما قرأها: «لا تعبدوا إلا الله». وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم، أي: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه. وقال: اختاره المبرد والكسائي والفراء. قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم أطلق في بني آدم من الأم أيضاً. ﴿وَالسَّكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوَالِيْنَ إِحْسَنًا﴾ الآية [النساء: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: كلموهم طيباً، وليتوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالحُسن من القول: يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضي الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالتق أخاك بوجه متطلق». وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي وصححه، من حديث أبي عامر الخزاز، واسمه صالح بن رستم، به. وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعنى من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء، بقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوَالِيْنَ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْحَقِيبِ وَالْعَجَايِبِ وَالْجَنِّبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة. ومن النقول الغربية ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العمقلاني، حدثنا عبد الله بن يوسف - يعني الثنيسي - حدثنا خالد بن صبيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تسلم على اليهودي والنصراني. فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهو السلام. قال: وروي عن عطاء الخراساني، نحوه. قلت: وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ أَفَرَّتْمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَكَوْلَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيضًا مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْمَدْلَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَنُدْوَاهُمْ وَهُوَ حَرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْيُونَ بَعْضُ الْكُفْلِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْفَى الصَّلَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَصْمَلُونَ﴾ (٨٥) أَوْلَيْتُكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ﴾ (٨٦).

يقول تبارك وتعالى، منكرأ على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عبداً أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه في دينه ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْتَوْيُونَ بَعْضُ الْكُفْلِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتُؤْتُونَ إِلَى بَارِيكُمْ فَاتَّلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ حَيْزٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقوله: ﴿ثُمَّ أَفَرَّتْمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم أفرتم بمعرفه هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَكَوْلَا تَقْتُلُونَ

أَنْفُسَكُمْ وَخُرُجُونَ قَرِيْبًا مِنْكُمْ يَنْ يَسْرِهِمْ تَطَهَّرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْمَدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوَكُمْ أَسْرَى تَعْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ»، قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أتَيْهم الله من فعلهم، وقد حَرَّمَ عليهم في التوراة سفك دمايتهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفندي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفندي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلون ما أصابوا من دمايتهم، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أتَيْهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفي حكم التوراة ألا يفعل، ولا يخرج من داره، ولا يظاھر عليه من يُشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة.

وقال أسباط عن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سُمير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوها له حتى يفدوه. فغيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحَرَّمَ علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إننا نستحيي أن تُسندَل حلفاؤنا. فذلك حين غيرهم الله، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَخُرُجُونَ قَرِيْبًا مِنْكُمْ يَنْ يَسْرِهِمْ﴾.

وقال شعبة، عن السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَخُرُجُونَ قَرِيْبًا مِنْكُمْ يَنْ يَسْرِهِمْ تَطَهَّرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْمَدْوَانِ﴾. وقال أسباط، عن السدي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بَلَنْجَر، فحاصرنا أهلها ففتحن المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مرّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك في عجز ههنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة درهم. قال: فإني أُرْبِحُك سبعمائة أخرى. قال: فإني قد حلفت ألا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشتريها مني، أو لتفرض بدينك الذي أنت عليه، قال: ادن مني، فدنا منه، فقرأ في آذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ﴿وَإِنْ يَأْتُوَكُمْ أَسْرَى تَعْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ﴾، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاه بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله الفين، ورد عليه ألفين. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرازي، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلهن. والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلماذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبر بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْتُمْ بُرْدُونَ إِلَيْهِمْ أَنَّكَ أَخَذْتَ الْعَذَابَ﴾ جزء على ما كتّمه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: استحسبوا على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُعْرَضُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقدهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَدْوِهِ بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ قَرِيْبًا كَذَّبْتُمْ وَرَبِيْبًا تَقْتُلُونَ﴾.

ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو والعدا والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده

الذين يحكمون بشريعتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمٍ بِهَا أَنْبِئُوكَ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيِّونَ وَالْأَحْبَارَ يَمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ مِثْلِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً يأذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَا جِبَالَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتَكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه. وفريقاً يقتلونه، وما ذلك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ويلزمهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلماذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِحًا كَذَبْتُمْ وَقَرِيبًا تَقْتُلُونَ﴾. والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسدي، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وفتادة مع قوله تعالى: ﴿تَزَلُّ بِهِ الرُّوحِ الْأَمِينِ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴿بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ سِينٍ﴾ ﴿١٩٢﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ما قال البخاري: وقال ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لحيان بن ثابت مثبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافع عن نبيك». وهذا من البخاري تعليق.

وقد رواه أبو داود في سننه، عن لوين، والترمذي، عن علي بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزاري، ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به. وقال الترمذي: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد. وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن عمر مر بحسان، وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيد بروح القدس؟». فقال: اللهم نعم. وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو: هاجهم - وجبريل معك». وفي شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله ينادي
وروح القدس ليس به خفاء
وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرأ من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟» قالوا: نعم. وفي صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفخ في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

اقوال اخر:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يُحيي به الموتى. وقال ابن جرير: حدثت عن المنجاب. فذكره. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك. ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير - أيضاً - قال: وهو الاسم الأعظم. وقال ابن أبي نجيع: الروح هو حفظة على الملائكة. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب. وقال السدي: القدس: البركة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القدس: الطهر. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالوا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله ﷻ، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرِي عَلَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَعَلَى لَدَائِكِ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كُلُّ النَّاسِ

في التمهيد وَصَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ الآية (المائدة: ١١٠). فذكر أنه أيد به، فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ آتَيْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله أعر أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به. قلت: ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم في أول السياق؛ والله الحمد. وقال الزمخشري ﴿رُوحِ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكريمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، وتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة. وقال الزمخشري في قوله: ﴿فَقَرِيبًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيبًا نَقُوتُونَ﴾: إنما لم يقل: وقريباً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل - أيضاً - لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسحر والسحر، وقد قال، عليه السلام، في مرض موته: «ما زالت أكلة خبير تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»، وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَمَسَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: في أكنة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا تفقه. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: هي القلوب المطبوع عليها. وقال مجاهد: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا تفقه. وقال السدي: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَوْ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [نصت: ٥]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ قال: يقول: قلبي في غلاف فلا يخلص إليه ما تقول، قرأ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَوْ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾. وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روى من حديث عمرو بن مَرَّة الجملي، عن أبي البختری، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مَغْضُوب عليه، وذاك قلب الكافر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العرزمي، أنبأنا أبي، عن جدي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تختن. هذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

قول آخر:

قال الضحاک، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: قالوا: قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره. وقال عطية العوفي: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: أوعية للعلم. وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار، فيما حكاه ابن جرير: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يمتنون بعلم التوراة. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَمَسَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]. وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة والأصم وأبي مسلم الأصهباني وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا يفهمهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ. وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجمع كافرين، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. وقال الكسائي: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أي: لا تنبت شيئاً. حكاه ابن جرير، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْخِرُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني اليهود ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْخِرُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم،

كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار - وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قالوا: كنا قد علوناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًا من الأنبياء يبعث الآن تبعه، قد أظل زمانه، نقلتكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: يستظهرون يقولون: نحن نعين محمدًا عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون. وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مغرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جئنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب - يعني بذلك أهل الكتاب - فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا ﷺ ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾. وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ قال: هم اليهود. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخي بني عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجعاً فيها بفناء أصلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائنًا بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجوزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يجمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره بدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فأمانا به وكفر به بغياً وحسدًا. فقالنا: ويلك يا فلان، ألسنت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. فنرد به أحمد. وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعى اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أي من الحق وصفه محمد ﷺ كفروا به فلعننا الله على الكافرين..

﴿يَسْكَنُوا أَشْرَافًا بِرَبِّهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قِبَاوَةً وَيَعْصِبَ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿يَسْكَنُوا أَشْرَافًا بِرَبِّهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يهود شروا الحق بالباطل، وكتماناً ما جاء به مُحَمَّد ﷺ بأن بينوه. وقال السدي: ﴿يَسْكَنُوا أَشْرَافًا بِرَبِّهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بشما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه وموازرتة ونصرتة. وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ﴿أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. قال ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا اللَّهُ بِأَنزِيلِهِ مِنْ فَنَالِهِمْ غَلًّا مِنْ إِسْخَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿فَبَاءَهُ وَبَعَثْنَا فِي نَفْسِهِ الْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم. قلت: ومعنى ﴿فَبَاءَهُ﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن، عليهما السلام، وعن عكرمة وقادة مثله. وقال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ وعن ابن عباس مثله. وقوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾: لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قولوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَلِيزِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم، يقال له: بُولَس فيعلوهم نار الأنبار يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَأَمِنُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فِيمَ تَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٩١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَدْوِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [٩٢].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ءَأَمِنُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: على محمد ﷺ وصدقه واتبعوه ﴿قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نفر إلا بذلك، ﴿وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَرَوْنَهُ كَمَا يَرَوْنَ آيَاتِنَا﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فِيمَ تَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ تقتلهم بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والتشهي، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقال السدي: في هذه الآية يعيرهم الله تعالى: ﴿قُلْ فِيمَ تَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، لليهود بني إسرائيل - الذين - إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿تُوْمِنُ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾ - لم تقتلوا - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿تُوْمِنُ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾، وتعبير لهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبيّنات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وقلع البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدها ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿مِنْ بَدْوِهِ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَدْوِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عَجَلًا لَمْ يَخُورْ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتوه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا سِيقَتْ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَصْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا قَوْصَكُمْ الطُّورَ حُدُودًا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بُرُوءًا وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْتُمْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْأَلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣].

يعدد، تبارك وتعالى، عليهم خطاهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وقد تقدم تفسير ذلك. ﴿وَأَشْرَيْتُمْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَأَشْرَيْتُمْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا في قلوبهم حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس. وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «حَبِكَ الشَّيْءُ

يُعْمِي وَيُصْمِ». ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بَقِيَّةَ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به، وقال السدي: أخذ موسى، عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذٍ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فاشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْعَجَلَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن السلمى، عن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْعَجَلَ﴾ قال: لما أحرق العجل برد ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعران. وحكى القرطبي عن كتاب القشيري: أنه ما شرب منه أحد ممن عبد العجل إلا جُرُّ ثم قال القرطبي: وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر التقير على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم اشربوا في قلوبهم حب العجل، يعني: في حال عبادتهم له، ثم أتشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغفل حب عثمة في فوايدي فباديه مع الخافي يسير
تغفل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنساناً يطير

وقوله: ﴿قُلْ يَسْكَنُ بِأَمْكُمُ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بشما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ - وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم - إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!!

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ وَكَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَمَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الدَّيْنِ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ لَعْنَةً وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٩٦﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب. فابوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَكَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾: فسلا الموت. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، قوله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنأسي، حدثنا عثام، سمعت الأعمش - قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة - عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وقال ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً، ولا مالاً». حدثنا بذلك أبو كُرَيْبٍ، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ. ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن زيد الرقي أبي يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم، قلت: رأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أتراهم كانوا ميتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليتمنوا لو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَكَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٩٥﴾.

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية والربيع بن أنس، رحمهم الله. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَكْفِيهَا الدَّيْنُ هَادِرًا إِنْ رَضَعْتُمْ أَنْكُمُ أَنْوَيْسَكُ لِي مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ

أَبَدًا يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَوَّبَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبَتْهَا عَذَابًا نَكِرًا ﴿٨﴾ [الجمعة: ٦-٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصاري بعد قيام الحججة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ فَقُلْ مَثَلًا نَدِيحًا وَأَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ فَزُجَّجَلْ فَتَجَعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبادلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، أمينًا. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الْعِلْمِ فَلْيَسُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَثَلًا﴾ [مريم: ٧٥]، أي: من كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومد له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله. فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة، وفضح بها أحبارهم وعلماهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ من النصاري إذ خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق من اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيتكم أمانيكم من الموت إذا تمنيتهم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق من النصاري.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا يظهر الحججة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعوهم أن يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيرا وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله». وجاء في الصحيح النهي عن تمني الموت، وفي بعض ألفاظه: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعله أن يزداد، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب». ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تمنون في حال الصحة الموت؛ وكيف نلزمونا بما لا نلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وإنكم أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - . وسميت هذه المباهلة تمنيا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله الميطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ وَلْيَجِدْهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَي: أحرص الخلق على حياة أي: على طول عُمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص الناس من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿رَبَّنَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث

الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي. وقال الحسن البصري: ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ آيَاتِهِ﴾ قال: المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك ﴿يَوْمَ يُؤَدُّهُمْ﴾ أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق. وقال أبو العالية: ﴿يَوْمَ أُخِذَتْهُمُ﴾ يعني المجوس، وهو يرجع إلى الأول. ﴿تَوَّابًا﴾ قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ أُخِذَتْهُمُ تَوَّابًا﴾ قال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبي يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أُخِذَتْهُمُ تَوَّابًا﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان». وقال مجاهد: ﴿يَوْمَ أُخِذَتْهُمُ تَوَّابًا﴾ قال: حبيت إليهم الخطيئة طول العمر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَجَّزٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: ما هو بمنجيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَجَّزٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل. وقال أبو العالية وابن عمر: فما ذلك بمغيبه من العذاب ولا منجيه منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على هذه الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام»، فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحزمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه الألبان؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قال: «وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تمام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندنا نجامعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندنا نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما متعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابًا﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندنا باؤوا بغضب على غضب. وقد رواه الإمام أحمد في مستدره، عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد في تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام،

ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن الحسين بن محمد المروزي، عن عبد الحميد، بنحوه به. وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلًا، وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: «أنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟» قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك. فانزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكر بن شهاب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبي ﷺ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف توث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا». قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل، فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله، موكّل بالسحاب بيديه - أو في يده - مخرّاق من نار يزر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله ﷻ». قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا: إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فانزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾.

ورواه الترمذي، والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال سنيّد في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج: أخبرني القاسم بن أبي بزّة أن يهود سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي. قال: «جبريل». قالوا: فإنه لنا عدو، ولا يأتي إلا بالشدة والحرب والقتال. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، وإنه لنا عدو. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾.

وقال البخاري: قوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. حدثنا عبد الله بن مُثَرِّبٍ سمع عبد الله بن بكر، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف. فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفًا». قال جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَوَّيْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَبَلَغْنَا لَكُمُ الْكَلِمَةَ الْكُلِّيَّةَ﴾. قالوا: أخبرنا عن أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يهتوني. فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاده الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد أخرجه من وجه آخر، عن أنس بنحوه. وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق، كما سيأتي في موضعه. وحكاية البخاري عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثوري، عن خصيف، عن عكرمة. ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله وميكائيل: عبید الله. إيل: الله. ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله سواء. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتي قريباً. وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل: عبید الله. ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة «إيل» لا تتغير في الجميع، فوزانته: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعبد موجودة في هذا

كله، واختلقت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي ﷺ.

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن المثني، حدثني ربيعي بن عُليّة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مذبذاسهم، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قلت: إني أتيتكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال: ومرو رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذلك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلظ عليكم فأجيئوه. فقالوا: فأنت عالمتنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأنى هلكتم؟! قالوا: إننا لم نهلك. قال: قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وإنه قرن بنوته عدونا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل، وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الغضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا. قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت فاتبع النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من حوذة لبني فلان، فقال: «يا ابن الخطاب، ألا أفرئك آيات نزلن قبل؟» فقرأ علي: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبريل كفل محمداً، وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه أسلمنا. قال: فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى: ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مر النبي ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب. فقام إليه عمر، فأتاه، وقد أنزل الله، ﷻ، عليه: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٦٥). وهذا الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحب صاحبك؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذلك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء الحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتكفرون محمداً ﷺ؟ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ، ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ثم قال: حدثني المثني، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أتبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه. وهذا أيضاً - منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا

محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدُّشْتُكي - حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨). قال: فنزلت على لسان عمر، رضي الله عنه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والفتنة، فإنه لنا عدو. قال: فنزلت هذه الآية. حدثني يعقوب قال: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء بن نحو. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، لأنه ينزل بالشدة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْيَدُونَ أَنْ يُفْرَقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا يَعْزُبُ عَنْهُمْ مَغْفِرَةٌ لِمَا بَيَّنَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سِمِيلًا﴾ (١٥٩) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٦٠) [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا كَانَ إِلَيْنَا إِلَّا حَقْلًا وَمَا كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مریم: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزِيلَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي سَحَابٍ مُمِدَّةٍ لِلْحَيَاةِ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّا بِيَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ يَلِدُكُمْ وَأَنْتُمْ هُنَّكُمْ وَشِقَاقُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَنْ عَذَابِهِمْ عَمُونَ أُولَئِكَ يَلِدُوكُم مِّنْ تَحْتِ الْبُيُوتِ﴾ [نزل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَّوْسِقًا وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨)، يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سُؤلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٧٥]. ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه - أيضاً - ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هناك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهتدي لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عبيد. وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و«عبد الرحمن». وقيل: جبر: عبد. وإيل: الله. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، وكل اسم مرجعه إلى «يل» فهو إلى الله. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحب إلي من كل شيء وكتبه في دفتر كان بين يديه. وفي جبريل

وميكائيل لغات وقرارات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نظول كتابنا هذا بسرّد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾: فيه إيقاع المظهر مكان المضمّر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. بل قال: ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾، كما قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئا
نُغص الموت ذا الغنى والفقيرا
وقال آخر:

لَيْتَ الْغُرَابُ غَدَاةً يَنْفَبُ دَائِبًا كَانَ الْغُرَابُ مَقْطُوعَ الْأَوْدَاعِ

وإنما أظهر الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». وفي الحديث الآخر: «إني لأثار لأوليائي كما يثار للثيب الحرب». وفي الحديث الصحيح: «ومن كنت خصمه خصمته».

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْكَلِمَا عَهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَكِن جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَاهُمْ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَذَبٌ ﴿١٠٢﴾ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَيِّنَاتٍ هُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَبِّهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ ﴿١٠٣﴾ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يُبَادِنِ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَسْتُرُهُمْ وَلَا يَشْعُرُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَمُتُوبَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وُصِفَ، من غير تعلم تعلمه من بشرٍ ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي. كما قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتجبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لا تقرا كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وقال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال ابن صوريا الفطيوبي لرسول الله ﷺ: «يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾. وقال مالك بن الصيف - حين بُعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ له علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿أَوْكَلِمَا عَهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرت إلى عنوانه فنبيذته كنبذك نغلاً أخلقت من نعالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحققها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعمته وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرتة ومناصرتة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿١٠٧﴾﴾ الآية (الاعراف: ١٥٧)، وقال ههنا: ﴿وَلَكِن جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَاهُمْ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: اطرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسخروه في مُشْطٍ ومُشَاقَّةٍ وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ، تحت

راعوثه بشر ذي أروان. وكان الذي تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه. قال السدي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفتت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكنتموه وجحدوا به.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾: وكان حين ذهب مُلْكُ سليمان ارتد فقام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان، ظهر على كتبهم فدفنوها تحت كرسية، وتوفي سليمان، عليه السلام، حدثنا ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ قَرِيبٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَهُمْ كَاتِبَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واتبعوا الشهوات، أي: التي كانت تلو الشياطين، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفن تحت كرسية، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبون، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان سليمان، عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة - وهي امرأة - خاتمه. فلما أراد الله أن يبتي سليمان، عليه السلام، بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنوها تحت كرسية سليمان، ثم أخرجوها وقروها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبريء الناس من سليمان، عليه السلام، وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران، وهو ابن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس - رضي الله عنهما - إذ جاء رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن علياً خارج إليهم. ففرع ثم قال: ما تقول؟ لا أبالك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرِبَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتَشْرِبُهَا قُلُوبُ النَّاسِ. فأطلع الله عليها سليمان، عليه السلام، فدفنوها تحت كرسية. فلما توفي سليمان، عليه السلام، قام شيطان الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنز الممّنع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسية. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره فتناسخها الأمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق - وأنزل الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. ورواه الحاكم في مستدرکه، عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس الحديث في الكتب، وفسا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسية. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسية إلا احترق. وقال: لا أسمع أحداً

يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عقبه. فلما مات سليمان، عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خَلَفَ تمثل شيطان في صورة إنسان، ثم أتى نقرأ من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فأذن. قال: لا ولكني ههنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطيور بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألو محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سأله عنه، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سأله عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ عَمَدُوا إِلَىٰ كِتَابِ فَكْتَبُوا فِيهِ السَّحْرَ وَالْكَهَانَ وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فذفونه تحت مجلس سليمان، وكان سليمان، عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخذعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتبه ويحسد الناس عليه. فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حجتهم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة إلا زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين فعلته الناس، وهو السحر. وقال سعيد بن جبيرة: كان سليمان، عليه السلام، يتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزائنه، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فذُبت إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزائنه وتحت كرسيه. فاستثار به الإنس واستخرجوه فعملوا بها. فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ براءة سليمان، عليه السلام، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود، عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنفا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عُنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، عليهما السلام، من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أخذوا ما أخذوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر في الناس وتعلموه وعلموه. وليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عده من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا الحجاج، عن أبي بكر، عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان، عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا». فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم. ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيباً، ثم قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبياً، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً! هذا سحره، بهذا تعبنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبي ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود لعنهم الله: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل. يذكر سليمان مع الأنبياء. إنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حدير، عن أبي مجلز، قال: أخذ سليمان، عليه السلام، من كل دابة عهداً، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن زواد، حدثنا آدم، حدثنا مسعودي، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا

مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴿٩٩﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة. وقال: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي، حدثني سُور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾: واتبعت اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان. فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمداً ﷺ - ما تتلو الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعدها بعلي؛ لأنه ضمن تتلو: تكذب. وقال ابن جرير: «علي» ههنا بمعنى «في»، أي: تتلو في ملك سليمان. ونقله عن ابن جريج، وابن إسحاق. قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم. وقول الحسن البصري، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدُو مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لَكُمُ اللَّهُمَّ أَنْتَ لَنَا مَلِكًا فَتَدْبِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَأَكْبَهُ اللَّهُ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، لنبيهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُنُوتٌ وَمُرُوتٌ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَهْلِ حَقِّ بَقُولًا إِنَّمَا هُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرَةِ وَالْمُتَمِرَةِ﴾: اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، أعني التي في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. قال القرطبي: «ما» نافية ومعطوفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْيَتَرَ وَمَا أَنْزَلَ﴾ أي: السحر ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وذلك أن اليهود - لعنهم الله - كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هُنُوتٌ وَمُرُوتٌ﴾ بدلاً من: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، أو يكون لهما اتباع أو ذكراً من بينهما لتتردهما، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُنُوتٌ وَمُرُوتٌ﴾ يقول: لم ينزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر. قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هُنُوتٌ وَمُرُوتٌ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ «من السحر» ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وما أنزل الله «السحر» على الملكين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْيَتَرَ﴾ ببابل هاروت وماروت فيكون معناه بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان، عليه السلام، مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس، ورداً عليهم. هذا لفظه بحروفه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثت عن عبيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر. حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا يعلى - يعني ابن أسد - حدثنا بكر - يعني ابن مصعب - حدثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزي كان يقرؤها: «وما أنزل على الملكين داود وسليمان». وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علماً بالإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينبيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به. وهذا الذي سلكه غريب جداً! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم! وروى ابن أبي حاتم بإسناده. عن الضحك بن مزاحم:

أنه كان يقرؤها: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ويقول: هما علعجان من أهل بابل. وَوَجَّهَ أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخلق، لا بمعنى الإيحاء، في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأُنزِلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصَوِّبُ بِهِ خَلْقًا نَافِيًا لَدُونِ جُنُودِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي دَرَجَاتٍ عَالِيَةٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي دَرَجَاتٍ عَالِيَةٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي دَرَجَاتٍ عَالِيَةٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأُنزِلْنَا لَدِيدًا فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْرُجُ بِهِ شَجَرًا تَأْكُلُ مِنْهُ عُلْمًا حَرِيمًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء». وكما يقال: أنزل الله الخير والشر. وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبيزى والضحاك والحسن البصري: أنهم قرؤوا: «وما أنزل على الملائكة» بكسر اللام. قال ابن أبيزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا تكون «ما» نافية أيضاً. وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْحِكْمَ﴾ و «ما» نافية، قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْحِكْمَ﴾ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَيِّ هَرُوتَ وَمُرُوتَ؟ قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روي عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أي ذلك كان، إني آمنت به. وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما، فلا تعارض حينئذٍ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله. وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي.

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفع - وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب، ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَيِّحٌ مُبْتَدِئُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَنعَلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربنا، نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هَلِّمُوا مَلَائِكَةَ حَتَّى نَهَيَّهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَنَنْظُرْ كَيْفَ يَعْمَلَانِ؟ قالوا: برَبَّنَا، هاروت وماروت. فأهبط إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشرار. فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً. فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت بقلح خمر تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أيتما علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما. فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بكير، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولاهم المدني الحذاء، روى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروى عنه ابنه عبد السلام، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع، كما قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلَجُ بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سَرْجِس، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النبي ﷺ يقول. فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين - وهو سُنَيْدُ بن داود صاحب التفسير - حدثنا الفرغ بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا - مرتين أو ثلاثاً - ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً؟ قلت: سبحان الله! نجم مسخر سامع مطيع. قال: ما

قُلْتُ لَكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَوْ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبِّ، كَيْفَ صَبِرَكَ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ؟ قَالَ: إِنِّي ابْتَلَيْتَهُمْ وَعَافَيْتَهُمْ. قَالُوا: لَوْ كُنَّا مَكَانَهُمْ مَا عَصَيْنَاكَ. قَالَ: فَاخْتَارُوا مَلَائِكِينَ مِنْكُمْ. قَالَ: فَلَمْ يَأْلُوا جَهْدًا أَنْ يَخْتَارُوا، فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ». وَهَذَا - أَيْضًا - غَرِيبَانِ جَدًّا. وَأَقْرَبُ مَا فِي هَذَا أَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، لَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: ذَكَرَتِ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، وَمَا يَأْتُونَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَقِيلَ لَهُمْ: اخْتَارُوا مِنْكُمْ اثْنَيْنِ، فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ. فَقَالَ لَهُمَا: إِنِّي أُرْسِلُ إِلَيْكَ بَنِي آدَمَ رَسُولًا، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ رَسُولٌ، أَنْزَلَا لَا تَشْرَكَا بِي شَيْئًا وَلَا تَزْنِيَا وَلَا تَشْرَبَا الْخَمْرَ. قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسِيَا مِنْ يَوْمِهِمَا الَّذِي أَهْبَطَا فِيهِ حَتَّى اسْتَكْمَلَا جَمِيعَ مَا نَهَىا عَنْهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَصَامٍ، عَنْ مُؤَمَّلٍ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: حَدَّثَنِي الْمَثْنِيُّ، حَدَّثَنَا الْمَعْلِيُّ - وَهُوَ ابْنُ أَسَدٍ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْمُخْتَارِ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، حَدَّثَنِي سَالِمٌ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْدُثُ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، فَذَكَرَهُ. فَهَذَا أَصَحُّ وَأَثْبَتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مِنَ الْإِسْنَادَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، وَسَالِمٌ أَثْبَتَ فِي أَبِيهِ مِنْ مَوْلَاهُ نَافِعٍ. فَدَارَ الْحَدِيثِ وَرَجَعَ إِلَى نَقْلِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، عَنْ كَتَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذَكَرَ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمَثْنِيُّ، حَدَّثَنَا الْحِجَّاجُ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، عَنْ خَالِدِ الْحِذَاءِ، عَنْ عَمِيرِ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: كَانَتِ الزُّهْرَةُ امْرَأَةً جَمِيلَةً مِنْ أَهْلِ فَارَسَ، وَإِنِّهَا خَاصَمَتْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَرَاوَدَاهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ عَلَيْهِمَا إِلَّا أَنْ يَعْلَمَا الْكَلَامَ الَّذِي إِذَا تَكَلَّمَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ يُعْرَجُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ. فَعَلِمَاهَا فَتَكَلَّمَتْ بِهِ فَعَرَجَتْ إِلَى السَّمَاءِ. فَسَخَتْ كَوَكِبًا! وَهَذَا الْإِسْنَادُ جَيِّدٌ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَهُوَ غَرِيبٌ جَدًّا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ شَاذَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ، عَنْ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَمِيرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَلِيِّ قَالَ: هُمَا مَلَكَانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ. يَعْنِي: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَائِكِينَ﴾. وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدِهِ، عَنْ مَغِيثٍ، عَنْ مَوْلَاهُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَلِيِّ - مَرْفُوعًا - وَهَذَا لَا يَثْبُتُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ، عَنْ عَلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الزُّهْرَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي فَتَنَتْ الْمَلَائِكَةَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ». وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصِحُّ، وَهُوَ مُنْكَرٌ جَدًّا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمَثْنِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا الْحِجَّاجُ بْنُ مِثَالٍ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي عَثْمَانَ التُّهَدِيِّ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمَا قَالَا جَمِيعًا: لَمَّا كَثُرَ بَنُو آدَمَ وَعَصَوْا، دَعَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ رَبَّنَا لَا تَهْلِكْهُمُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ: إِنِّي أَزَلْتُ الشَّهْوَةَ مِنْ أَفْضَلِكُمْ. فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ. فَأَهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ. وَأَنْزَلْتُ الزُّهْرَةَ إِلَيْهِمَا فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ يَسْمُونَهَا بِيَذَخْتَ. قَالَ: فَوْقَهَا بِالْخَطِيئَةِ. فَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فَلَمَّا وَقَعَا بِالْخَطِيئَةِ اسْتَغْفَرُوا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فَخَيْرًا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاخْتَارُوا عَذَابَ الدُّنْيَا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ الرَّقِيِّ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ عَمْرٍو - عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أَنَسَةَ، عَنِ الْمَنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو وَيُونُسَ بْنِ خَبَابٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: كُنْتُ نَازِلًا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي سَفَرٍ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَالَ لِفَلَامَةَ: انظُرِي، طَلَعَتِ الْحَمْرَاءُ، لَا مَرْحَبًا بِهَا وَلَا أَهْلًا، وَلَا حَيَاةَ اللَّهِ، هِيَ صَاحِبَةُ الْمَلَائِكَةِ. قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، كَيْفَ تَدْعُ عَصَاةَ بَنِي آدَمَ وَهُمْ يَسْفِكُونَ الدَّمَ وَيَتَهَكُونَ مَحَارِمَكَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ! قَالَ: إِنِّي قَدْ ابْتَلَيْتَهُمْ، فَعَلَّ إِنِّي ابْتَلَيْتَهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ فَعَلِمْتُ كَالَّذِي يَفْعَلُونَ. قَالُوا: لَا. قَالَ: فَاخْتَارُوا مِنْ خِيَارِكُمْ اثْنَيْنِ. فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ. فَقَالَ لَهُمَا: إِنِّي مَهْبِطُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَاهِدْ إِلَيْكُمَا أَلَّا تَشْرَكَا وَلَا تَزْنِيَا وَلَا تَخُونَا. فَأَهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ وَأَلْقِيَا عَلَيْهِمَا الشُّبُوتَ، وَأَهْبَطَتْ لَهُمَا الزُّهْرَةُ فِي أَحْسَنِ صُورَةِ امْرَأَةٍ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُمَا، فَرَاوَدَاهَا عَنْ نَفْسِهَا. فَقَالَتْ: إِنِّي عَلَى دِينٍ لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَنِي إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِهِ. قَالَا: وَمَا دِينُكَ؟ قَالَتْ: الْمَجُوسِيَّةُ. قَالَا: الشُّرْكَ! هَذَا شَيْءٌ لَا نَقْرُ بِهِ. فَمَكَثَتْ عَنْهُمَا مَا شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ تَعَرَّضَتْ لَهُمَا فَأَرَادَاهَا عَنْ نَفْسِهَا. فَقَالَتْ: مَا شِئْتُمَا، غَيْرَ أَنْ لِي زَوْجًا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى هَذَا مِنْنِي فَأَتَضَّحُّ، فَإِنْ أَقْرَرْتُمَا لِي بَدِينِي، وَشَرِطْتُمَا لِي أَنْ تَصْعَدَا بِي إِلَى السَّمَاءِ فَعَلْتُ. فَأَقْرَأَا لَهَا بَدِينَهَا وَأَتَيَاها فِيمَا يَرِيانِ، ثُمَّ صَعَدَا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ. فَلَمَّا أَتَيْتَهَا

بها إلى السماء اختطفت منهما، وقطعت أجنحتهما، فوقعا خائفين نادمين بيكيان، وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب. فقالا: لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب لنا التوبة! فأتياه، فقال: رحمكما الله، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء! قال: إنا قد ابتلينا. قال: اثنياني يوم الجمعة. فأتياه، فقال: ما أجبت فيكما بشيء، اثنياني في الجمعة الثانية. فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله. فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك؟ إني قد أطعتك في الأمر الأول فأطعني الآن، إن عذاباً يقضى ليس كعذاب يقضى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذبنا. قال: لا، إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ألا يجمعهما علينا. قال: فاختارا عذاب الدنيا، فجعلنا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار، عالِيَهُمَا سافلُهُما.

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع، عنه رفعه. وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو - والله أعلم - من رواية ابن عمر عن كعب، كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء، وكذا في المروي عن علي، فيه غرابة جداً. وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، حدثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما وقع الناس من بعد آدم، عليه السلام، فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب، هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما ورعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام، والزنا والسرقه وشرب الخمر. فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، فقيل: إنهم في عُيب. فلم يعذروهم. فقيل لهم: يا اختاروا منكم من أفضلكم ملكين، أمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقه وشرب الخمر. فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمان إدريس عليه السلام. وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخصعا لها في القول، وأرادها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده. فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا. فذهبا فغَبَرَا ما شاء الله. ثم أتيا عليها فأرادها على نفسها، ففعلت مثل ذلك. فذهبا، ثم أتيا عليها فأرادها على نفسها، فلما رأتا أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذا الخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر. فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في عُيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فنزل في ذلك: ﴿وَاللَّيْلَةَ سَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه يتقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلنا بيابل، فهما يعذبان.

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكام بن سلم الرازي، وكان ثقة، عن أبي جعفر الرازي، به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم بن الفضل الحُلثاني، حدثنا يزيد - يعني الفارسي - عن ابن عباس قال: إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فأروهم يعملون المعاصي، فقالوا: يا رب، أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي! فقال الله: أنتم معي، وهم عُيب عني. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمروا ألا يشربوا خمرًا ولا يقتلوا نفساً، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثن. فاستقال منهم واحد، فأقبل. فأهبط اثنان إلى الأرض، فأنتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية. فهويها جميعاً، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأرادها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدوا لوثي. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتهاها طرمتا. فأخبرهاا فطارت فمسخت جَمْرَةً. وهي هذه الزهرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود، فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فهما مناطان بين السماء والأرض. وهذا السياق فيه زيادات

كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب. وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَكْرُوتَ وَمَرْوَتَ﴾: كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها. ثم ذهب يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا. وقال معمر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر، فأخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

وقال أسباط عن السدي أنه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم، فقيل لهما: إني أعطيت بني آدم عشراً من الشهوات، فيها يعصونني. قال هاروت وماروت: ربنا، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمتنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس. فنزلا ببابل دُبُرًا، فكانا يحكمان، حتى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما حُسنها - واسمها بالعربية: «الزهرة»، وبالطبية «بيذخت»، والفارسية «أناهيد» - فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنى. قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لئرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكر إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيا لي على زوجي. فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما حربة من الحَرْبِ يأتيانها فيها، فأتياها لذلك. فلما أراد الذي يواقعها قالت: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء، وبأي كلام تنزلان منها؟ فأخبراهما، فتكلمت فصعدت، فأنساها الله ما تنزل به، فبقيت مكانها، وجعلها الله كوكباً. فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، فقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت، فلما كان الليل أراد أن يصعدا فلم يطبقا، فعرفا الهلكة فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل، وجعلتا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: أما شأن هاروت وماروت، فإن الملائكة عجبت من ظلم بني آدم، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبيئات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم فاختاروا فلم يألوا إلا هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما من بني آدم من ظلمهم ومن معصيتهم، وإنما أتيتهم الرسل والكتب والبيئات من وراء وِزَاءٍ، وأنتما ليس بيبي وبينكما رسول، فافعلوا كذا وكذا، ودعا كذا وكذا، فأمرهما بأمر ونهاهما، ثم نزلا علي ذلك ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعذلا. فكانا يحكمان النهار بين بني آدم، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة، ويتزلفان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان، حتى أنزلت عليهما الزهرة في أحسن صورة امرأة تُخَاصِمُ، فقضيا عليها. فلما قامت وجد كل واحد منهما في نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذي وجدت؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن اثبتنا نقض لك. فلما رجعت قالا وقضيا لها، فأتتهما فتكشفا لها عن عورتها، وإنما كانت شهوتها في أنفسهما، ولم يكونا كبنى آدم في شهوة النساء ولذتها. فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت. فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بني آدم فأتياه، فقالا: ادع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالوا: سمعنا ربك يذكرك بخير في السماء. فوعدهما يوماً، وغدا يدعوا لهما فدعا لهما، فاستجيب له، فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: ألا تعلم أن أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد، وفي الدنيا تسع مرات مثلاً؟ فأمر أن ينزلا ببابل، فتم عذابهما. وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان، يصفقان بأجنحتهما.

وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقاتدة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراه الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. وقد ورد أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها وعن أبيها أنها قالت: قدمت امرأة علي من أهل دومة الجندل، جاءت تتغي رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثَةً ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به. قالت عائشة، رضي الله عنها، لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفئها كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت. كأن

لي زوج فغاب عني، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما. فقالا: ما جاء بك؟ فقلتُ: أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجمي. فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك الثور، فبولي فيه. فذهبت ففرعت ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك. فأزببتُ وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك الثور فبولي فيه. فذهبت فاقشعرت وخفت، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت، لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري؛ فإنك على رأس أمرك. فأرببتُ وأبيتُ. فقالا: اذهبي إلى ذلك الثور، فبولي فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني، فذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه، فجننتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج مني فذهب في السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك. اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قال لي شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت، وقلت: اطلمي. فأطلمت وقلت: احقلي فأحقلت، ثم قلت: افركي فأفركت. ثم قلت: ايسي فأيسيت. ثم قلت: اطحنني فأطحت. ثم قلت: اخبزي فأخبزت. فلما رأيتُ أنني لا أريد شيئاً إلا كان، سَقِط في يدي وندمت - والله - يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً.

ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان، به مطولاً، كما تقدم. وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبداً: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حَدَاثَةَ وفاة رسول الله ﷺ، وهم يومئذ متوافرون، فما ذرّوا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس - أو بعض من كان عنده -: لو كان أبوك حيين أو أحدهما لكان يكفيانك. قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان قال: قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكي أهل حممٍ وتكلف بغير علم. فهذا إسناد جيد إلى عائشة، رضي الله عنها. وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان؛ لأن هذه المرأة بَدَّرت واستغلت في الحال. وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخيل، كما قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوا مِنْهَا وَإِنَّهُمْ بِرُءُوسِهِمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الاعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُمِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَسْعَى﴾ [مط: ١٦٦] واستدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، لا بابل دُنيّا وند كما قاله السدي وغيره. ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثني ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن زهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة، ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة.

وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن زهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري: أن علياً مر ببابل، وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي بأرض بابل، فإنها ملعونة. حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن زهر وابن لهيعة، عن الحجاج بن شداد، عن أبي صالح الغفاري، عن علي، بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما «خرج» مكان «برز». وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه؛ ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم، إلا أن يكونوا باكين. قال أصحاب الهيئة: ويعد ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوقيانوس سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْلِكَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهيته أشد النهي، وقاله: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أتى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عين الشيطان فعمله، فإذا تعلم خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا أصنع؟

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أنزل الملكان بالسحر، ليعلمنا الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي

به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا حُجُنُّ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا حُجُنُّ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ﴾ - أي: بلاء ابتلينا به - ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾. وقال قتادة والسدي: إذا أتاهما إنسان يريد السحر، وعظاه، وقال له: لا تكفر، إنما نحن فتنة. فإذا أبي قال له: ائت هذا الرماد، فبُئِل عليه. فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه. وذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَلْمِزَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا حُجُنُّ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية. وقال سُنَيْدٌ، عن حجاج، عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترىء على السحر إلا كافر. وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فُتِنَ التُّسَامُ فِي دِينِهِمْ وَخَلَّى ابْنُ عَفَانَ شِراً طَوِيلاً
وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُنَا﴾ أي: ابتلاؤك واختيارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ نَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ نَشَاءُ﴾ [الاعراف: ١٥٥]. وقد استدلل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، وُستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ. وهذا إسناد جيد، وله شواهد أخر. وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والانتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: ولا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقره ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت. وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

والمرء عبارة عن الرجل، وتأنثه امرأة، ويشي كل منهما ولا يجعلان، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾: قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾، قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضرب أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: ولقد علم اليهود الذي استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لَمَنِ فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق. قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ما له في الآخرة من جهة عند الله، وقال: وقال الحسن: ليس له دين. وقال سعد عن قتادة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَذُّكُمْ فَإِنَّ رَبَّكُمْ فَوَابٍ اللَّهُ خَبِيرٌ لَمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد استدلل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن خده صُزِبَ عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهما الله: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عبيدة يقول: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً. وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت. قال أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ أن ذنوا في قتل الساحر. وروى الترمذي من

حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جُنْدُب الأزدِي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف». ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يُضَعِّف في الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جندب موقوفاً. قلت: قد رواه الطبراني من وجه آخر، عن الحسن، عن جُنْدُب، مرفوعاً. والله أعلم. وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورأه رجل من صالحِي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتتلاً على سيفه، وذهب يلعب لعبه ذلك، فاختلط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُرَكُ السِّحْرَ وَأَتَّخِذُ بِتُصَيُّرِكَ﴾ [الأنبياء: ٣] فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثني أبو إسحاق، عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتتلاً على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعي، رحمه الله، قصة عمر، وحفصة على سِخْرِ يكون شركاً. والله أعلم.

فصل

حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده. قال: وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمارة إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقي وتلك الكلمات المُعَيَّنة، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه يخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِصَكَارِيذٍ يَدَّ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سُجِّرَ، وأن السحر عَمَلٌ فيه، وبقصة تلك المرأة مع عائشة، رضي الله عنها، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا: المسألة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس بقبیح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز مُعْجِزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب؛ فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قوله: «العلم بالسحر ليس بقبیح». إن عني به ليس بقبیح عقلاً، فمخالفة من المعتزلة ينعون هذا، وإن عني أنه ليس بقبیح شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تشييع لتعلم السحر، وفي الصحيح: «من أتى عرفاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد». وفي السنن: «من عَقَدَ عُقْدَةَ وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ». وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله علم السحر في عموم قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي، ولم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقبه إلى وجوب تعلّمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد؛ لأن معظم معجزات رسولنا، عليه الصلاة والسلام، هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم. ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية:

الأول: سحر الكُلدانيين والكُشدانيين، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مُدَبَّرَةٌ العالم، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بَمَثَ إليهم إبراهيم الخليل ﷺ، مبطلاً لمقاتلتهم وراداً لمذهبهم، وقد استقصى في «كتاب السر المكتوم»، في مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما ذكره القاضي ابن خلكان وغيره، ويقال: إنه تاب منه. وقيل: إنه صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد. وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسون، وما يتسكعون به.

قال: والنوع الثاني: سحر أصحاب الأرواح والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشي

على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المَزْعُوف عن النظر إلى الأشياء الحُمْر، والمصروع إلى الأشياء القوية للمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مُطِيعَةً للأوهام. قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات. وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم. وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانتقاط عن الناس والرياء.

قلت: وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للمصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها في ذلك. فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية، ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال - لعنه الله - له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله. وكذلك من شابهه من مخالفين الشرعية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

قال: النوع الثالث من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار، وهم الشياطين. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقي والدخل والتجريد. وهذا النوع هو المسمى بالعرزائم وعمل التسخير.

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومعناه على أن البصر قد يخطيء ويشغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه. فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها، لفظن الناظرون لكل ما يفعله. قال: وكلما كانت الأحوال التي تقيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناطقة على أحوالها بكلالها، والحالة هذه. قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُ إِلَيْهِمْ سِحْرَهُمْ أَبْصَارًا﴾ [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى في نفس الأمر. والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التي تُصَوَّرُها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل. قلت: يعني ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي، فحشوها زنبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزنبق، فيخيل إلى الراي أنها تسعى باختيارها. قال الرازي: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأثقال بالآلات الخفيفة. قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر، لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليه قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُرَوِّهَم إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدي الكرامة، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم:

«من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وقوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ فإنه من يكذب عليّ يلج النار».

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترقق له فتذهب فتلقى في وكره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعند هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه؟ ففتنهم بذلك، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

قال الرازي: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع من السحر: تعليق القلب، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه ويتقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء. قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبئ حاذقاً في علم الفراسة عرف من يتقاد له من الناس من غيره.

قال: النوع الثامن من السحر: السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع في الناس. قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس واتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «ليس بالكذب من ينمُ خيراً، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة»، فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: «الحرب خدعة». وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، وجاء إلى هؤلاء فسمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافتترقت. وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة. والله المستعان. ثم قال الرازي: فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه. قلت: وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، للطائفة مداركها؛ لأن السحر في اللغة: عبارة عما لطف وخفي سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً». وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل. والسحر: الرثة، وهي محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وعضونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعنته: انتفخ سحرك. أي: انتفخت رثته من الخوف. وقالت عائشة، رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ بين سحري وسحري. وقال: ﴿سَحَرُوا عَيْنَ النَّبِيِّ﴾ [الاعراف: ١١٦]، أي أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

فصل

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة في كتابه: «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك. ومن أصحاب أبي حنيفة من قال: إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه يضعه كُفر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعي، رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك. فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك في حق شخص معين. وإذا قُتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل - والحالة هذه - قصاصاً. قال: وهل إذا تاب الساحر تُقبل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهما: لا تقبل. وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل، كما يقتل

الساحر المسلم . وقال مالك والشافعي وأحمد : لا يقتل . يعني لقصة لبيد بن أعصم . واختلفوا في المسلمة الساحرة ، فعند أبي حنيفة : لا تقتل ، ولكن تحبس . وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل ، والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا أبو بكر المروزي ، قال : قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عَمْرُ بن هارون ، حدثنا يونس ، عن الزهري ، قال : يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين ؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك ، رحمه الله ، أنه قال في الذمي إذا سحر يقتل إن قتل سحره ، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر : إحداهما : أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل ، والثانية : أنه يقتل وإن أسلم ، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفرأ كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَمْرٍ حَتَّى يَقُولَا بِمَنْ حَقُّهُ فَتَنَّهُ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق ، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلنا ولم نقتله ، فإن قتل سحره قتل . قال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل فهو مخطيء تجب عليه الدية .

مسألة : وهل يسأل الساحر حل سحره ؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة : أنها قالت : يا رسول الله ، هلا تنشرت ، فقال : «أما الله فقد شفاني ، وخشيت أن أفتح على الناس شرأ» . وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال : يؤخذ سبع ورفات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يفتسل بياقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته . قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان ، وفي الحديث : «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما» ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان . وقال أبو عبد الله القرطبي : وعندنا أن السحر حق ، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخيل . قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذي البريد ؛ لخفة سيره . قال ابن فارس : هذه الكلمة من كلام أهل البادية . قال القرطبي : ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهد الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك . قال : وقوله ، عليه السلام : «إن من البيان لسحراً» يحتمل أن يكون مدحاً كما نقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذمّاً للبلافة . قال : وهذا الأصح . قال : لأنها تصوب الباطل حين يوهم السامع أنه حق كما قال : «فعل بعضكم أن يكون ألحن لحجته من بعض» فافتضى له الحديث .

﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَأَمْتُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ آيَةٍ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوْذُو الذِّبْرُ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُونَ من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا . يقولون : راعنا . يورون بالرعوثة ، كما قال تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَمْرٌ غَيْرٌ مُسْمَعٍ وَرَعَيْنَا لِيَأْتِيَ بِلِغَتِهِمْ وَلَعَنَّا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمَنْهُمْ اللَّهُ يَكْفُرُهم فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم ، بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السام عليكم . والسام هو : الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم» . وإنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً ، فقال : ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَأَمْتُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ آيَةٍ ﴿١٠٤﴾﴾ . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت ، حدثنا حسان بن عطية ، عن أبي مئيب الجُرْشِيِّ ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له . وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلة والضغائر على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم» . وروى أبو داود ، عن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، به : «من تشبه بقوم فهو منهم» . ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد ، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ، ولباسهم وأعيادهم ، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نُقَرَّر عليها . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا مسعر ، عن مغن وعون - أو أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود ، فقال : اعهد إلي . فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَأَمْتُوا﴾ فأرעהَا سَمْعُكَ ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وقال الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ ، قال : ما تقرؤون في القرآن : ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَأَمْتُوا﴾ فإنه في التوراة : «أيها المساكين» . وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿رَعَيْتَا﴾

أي: أرعنا سمعك. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما ﴿رَعَيْتَا﴾ كقولك: عاطنا. وقال ابن أبي حاتم: وروى أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة، نحو ذلك.

وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا﴾؛ لا تقولوا خلافاً. وفي رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا﴾: كانت لغة يقولها الأنصار فهمي الله عنها. وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا﴾، قال: الراعي من القول السخري منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روي عن ابن جريج أنه قال مثله. وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا وَتَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أرعنا سمعك. فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له. وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد، يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرُ صَاغِرٍ. وهي كالتي في سورة النساء. فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بنحو من هذا. قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا للنبي ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها للنبي ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَا تَقُولُوا لِلْعَبْدِ الْكَرِيمِ، وَلَكِنْ قُولُوا: الْحَبَلَةَ. وَلَا تَقُولُوا: عَبْدِي، وَلَكِنْ قُولُوا: فِتَايَ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَوْزُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. ويُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى مَا نَعَمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ التَّامِّ الْكَامِلِ، الَّذِي شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا فَأَتَّخِذْ مَثَلًا لَهَا أَوْ يَتَّخِذْ مَثَلًا لَهَا﴾ قال ابن عباس: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما تبدل من آية. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نُحِثُ مِنْ آيَةٍ. وقال ابن أبي نجيب، عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: قال: ثبت خطؤها وتبدل حكمها. حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود. قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، نحو ذلك. وقال الضحاك: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نُنسِكُ. وقال عطاء: أما ﴿مَا نَسَخَ﴾ فما نترك من القرآن. قال ابن أبي حاتم: يعني: ترك فلم ينزل على محمد ﷺ. وقال السدي: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: نسخها: قبضها. قال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: ﴿لَوْ كَانَ لَابْنِ آدَمَ وَإِدْبَانَ مِنْ مَالٍ لَا يَتَّبِعِي لِهَمَا ثَالِثًا﴾. وقال ابن جرير: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما ننقل من حُكْمِ آيَةٍ إِلَى غَيْرِهِ فَنَبْدِلُهُ وَنُغَيِّرُهُ، وَذَلِكَ أَنْ يُحَوَّلَ الْحَلَالُ حَرَامًا، وَالْحَرَامُ حَلَالًا، وَالْمَبْحُوحُ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورُ مَبْحُوحًا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُظْرِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ. فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ. وَأَصْلُ النَّاسِخِ مِنْ نَسَخَ الْكِتَابِ، وَهُوَ نَقْلُهُ مِنْ نَسْخَةٍ إِلَى أُخْرَى غَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسَخِ الْحُكْمِ إِلَى غَيْرِهِ، إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيلُهُ وَنَقْلُ عِبَادَةٍ إِلَى غَيْرِهَا. وَسِوَاءِ نَسَخِ حُكْمِهَا أَوْ خَطِئِهَا، وَهِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مَنْسُوخَةٌ. وَأَمَّا عِلْمَاءُ الْأَصُولِ فَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي حَدِّ النَّاسِخِ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَى النَّاسِخِ الشَّرْعِيِّ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَلِخُصِّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَفَعَ الْحُكْمَ بِدَلِيلٍ شَرْعِيِّ مُتَأَخِّرٍ. فَانْدَرَجَ فِي ذَلِكَ نَسَخُ الْأَخْفِ بِالْأَثْقَلِ، وَعَكْسُهُ، وَالنَّاسِخُ لَا إِلَى بَدَلٍ. وَأَمَّا تَفَاصِيلُ أَحْكَامِ النَّاسِخِ وَذَكَرَ أَنْوَاعَهُ وَشُرُوطَهُ فَمَبْسُوطٌ فِي قَوْلِ أَصُولِ الْفَقْهِ.

وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيب عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرنا منها على حرف، فأصبحنا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مما نسخ وأنسي، فاهلوا عنها». فكان الزهري يقرؤها: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا﴾ بضم النون خفيفة. سليمان بن أرقم ضعيف. وقد روى أبو بكر بن الأنباري، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس وعبيد وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعاً، ذكره القرطبي. قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِخْهَا﴾: فقرأه على وجهين: «ننساها ونُنسها».

فأما من قرأها: «نُتْسَاهَا» - بفتح النون والهمزة بعد السين - فمعناها: نؤخرها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأَهَا﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾: نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾: نؤخرها ونرجئها. وقال عطية العوفي: ﴿أَوْ نُنسأَهَا﴾: نؤخرها فلا ننسخها. وقال السدي مثله أيضاً، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاك: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾ يعني: الناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾ أي: نؤخرها عندنا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، حدثنا خلف، حدثنا الخفاف، عن إسماعيل - يعني ابن مسلم - عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: خطبنا عمر، رضي الله عنه، فقال: يقول الله ﷻ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾ أي: نؤخرها.

وأما على قراءة: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾ فقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾ قال: وكان الله تعالى ينسي نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء. وقال ابن جرير: حدثنا سواد بن عبد الله، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾ قال: إن نبيكم ﷺ أقرىء قرآناً ثم نسيه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا محمد بن الزبير الحراني، عن الحجاج - يعني الجزري - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالهار، فأنزل الله، ﷻ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾. قال أبو حاتم: قال لي أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أرقط، هو شيخ لنا جَزْرِي. وقال عبيد بن عمير: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾ نرفعها من عندهم. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، عن يعلى بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾ قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾. قال: فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: ﴿سَتَجِدُنَا فَلَ تَسْخَبَ﴾ [الاعلى: ٦٦] ﴿وَأَذْكُرُ ذَلِكَ إِذَا سَبَّيْتُ﴾ [الكهف: ٢٤]. وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي حاتم الرازي، عن آدم، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال ابن أبي حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقاتدة، وعكرمة، ونحو قول سعيد. وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى، حدثنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال عمر: علي أفضلنا، وأبي أقرؤنا، وإنا لنندع بعض ما يقول أبي، وأبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فلن أدعه لشيء. والله يقول: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾. وقال البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أبي، وأفضانا علي، وإنا لنندع من قول أبي، وذلك أن أبا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. وقد قال الله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُتْسَاهَا﴾.

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾ أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾ يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا نعمل بها، ﴿أَوْ نُتْسَاهَا﴾ أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها. وقال السدي: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾ يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه. وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ يَسْلُهَا﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي. وقوله: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [البقرة: ١٧١]: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهي عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً، كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: أَلَمْ تَلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنْ لِي مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانُهُمَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكَمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَسَاءُ، وَأَمْرٌ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَسَاءُ، وَأَنْهَى عَمَّا أَسَاءُ، وَأَنْسَخُ وَأَبْدُلُ وَأَغْيِرُ مِنْ أَحْكَامِي

التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيها ما أشاء. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

وأمر إبراهيم، عليه السلام، بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل. قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ جل بعضها، وكان نكاح الأخنتين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيّلة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى آلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى. ففي هذا المقام بين تعالى تقدير جواز النسخ، رداً على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَقُلْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٦١] ﴿أَلَمْ نَقُلْ أَنَّ اللَّهَ لَمَّ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٧٧] الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَكْرَامُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، ووقع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَوْمِ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مردول. وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلْتُمْ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَنَبِّئْكَ الْفِعْرَ وَالْإِبْرِيْنَ فَقَدْ سَأَلُوا سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [١٧٨].

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْبُرُكُ أَمْثَالًا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلُكُمْ سَأَلُوكُمُوهَا وَإِنْ تَسْأَلُوهَا عَنْهَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ يُرْسِلُ الْفَرْءَ أَنْ يُبَدِّلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «أعظم المسلمين جُزْماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته». ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بامر عظيم، وإن سكنت سكنت عن مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعة. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبه: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: «أكل عام يارسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً». ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لو جبت، ولو وجبت لما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: فنهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو كريب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي عليّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأنهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب. وقال البزار: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سألهوا إلا عن نبيّ

عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْهَارِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعني: هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن خزيمة - أو وهب بن زيد -: يا محمد، اتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهاراً تنبعك وتصدقك. فانزل الله من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل! فقال النبي ﷺ: «اللهم لا نبغيها - ثلاثاً - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخيطية وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة. فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل». قال: ﴿وَمَنْ يَسْمَلْ سَوْمًا أَوْ يَطْلِمَ تَقْسَمَ نَدْرٍ يَسْتَفْرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَافِيًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: «الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن». وقال: «من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك». فانزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾. وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً. قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم»، فأبوا ورجعوا. وعن السدي وقناة نحو هذا، والله أعلم. والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء، على وجه التعنت والافتراء، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكديباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراء عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَمْسُكُ الْقُرْآنَ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَدُوِّ إِيمَانِكُمْ كَمَا كَانَ بَدُوًّا حَسَنًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَدُوِّ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاسْتَحُوا وَأَصْفَحُوا حَقًّا يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَفْعَلُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَعِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٨٠﴾﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتعلون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة، أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فانزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ﴾ الآية. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ. وفيه أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾. وقال الضحاک، عن ابن عباس: إن رسولاً آمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفرة وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿كَمَا كَانَ بَدُوًّا حَسَنًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَدُوِّ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعبرهم

ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبية ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال الربيع بن أنس: «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»: من قبل أنفسهم. وقال أبو العالية: «مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ»: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسدي. وقوله: «فَاعْتَمُوا وَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» مثل قوله تعالى: «وَالْتَمَسْتُمُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرْتُمْ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [آل عمران: ١٨٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «فَاعْتَمُوا وَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» نسخ ذلك قوله: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَبَدِّئُوهُمْ» [التوبة: ٥]، وقوله: «فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى قوله: «وَهُمْ صَرُوفٌ» [التوبة: ٢٩] فنسخ هذا عنوه عن المشركين. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي؛ إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله: «حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: «فَاعْتَمُوا وَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش. وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما. وقوله تعالى: «وَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ» بحث تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعوذ عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم الأشهداء «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْكٰفِلِيْنَ مَعٰزِرُهُمْ وَلَهُمْ لَعْنَةُ اللَّعْنَةِ وَلَهُمْ سَوْءُ الْمَكَارِئِ» [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله. وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: وهذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيه بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلاًها. وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعداً وأمرًا وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مدخراً لهم عنده، حتى يبشّرهم عليه، كما قال: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ»، وليحذرُوا معصيته. قال: وأما قوله: «بَصِيرٌ» فإنه مبصر صرف إلى «بصير»، كما صرف مبدع إلى «بديع»، ومؤلم إلى «أليم»، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبه بن عامر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يفسر في هذه الآية «سَبِيحٌ بَصِيرٌ» يقول: بكل شيء بصير.

«وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ آمَانِيَهُمْ قُلْ هَآئِنَا بِرُءُوسِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَعْنَةُ النَّصْرِيِّ عَلَىٰ شِعْرِو وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَعْنَةُ الْيَهُودِ عَلَىٰ شِعْرِو وَهُمْ يَلْمِزُونَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ لَمَنِ مَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: «تِلْكَ آمَانِيَهُمْ». وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس. ثم قال: «قُلْ: أَي: يا محمد، «هَآئِنَا بِرُءُوسِكُمْ». وقال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. «إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» كما تدعونه. ثم قال تعالى: «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ أَي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: «فَإِنْ حَاجِبُوكُمْ فَقُلْ سَأَلْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُمُ» الآية: [آل عمران: ٢٠]. وقال أبو العالية والربيع: «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» من أخلص لله. وقال سعيد بن جبير: «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ»: أخلص، «وَجْهَهُ»: دينه، «وَهُوَ مُحْسِنٌ»: أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشرعية. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

رواه مسلم من حديث عائشة، عنه، عليه السلام. فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مِّنْهُنَّ ﴿١١٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرْهًا بِقَعْوَةٍ بِحَسَبِ الْكُفْرَانِ مَا هُوَ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَرِيحُهُمْ شَيْئًا﴾ [النور: ٢٩]. روي عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي. وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرايين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ بَرَاءُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿١١٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١١٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿١١٦﴾ وَيَمْتَعُونَ النَّعْمَةَ ﴿١١٧﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ زَيْجُهَا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ مَنَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. وقوله: ﴿قَلْبُهُ أَمْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ضَمَّنْ لَهُمْ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ تَحْصِيلَ الْأَجْرِ، وَأَمَّنَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ ﴿فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِمَّا يَتْرُكُونَهُ، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، يَعْنِي: فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، يَعْنِي: لَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: يبيِّن به تَعَالَىٰ تَنَاقُضَهُمْ وَتِبَاغُضَهُمْ وَتَعَادِيَهُمْ وَتَعَانُدَهُمْ. كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنِ عِكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودٍ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ خُرَيْمَةَ: مَا أَنْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَكَفَرُ بَعِيسَىٰ وَبِالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَىٰ لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ. وَجَحَدَ بِنُبُوَّةِ مُوسَىٰ وَكَفَرَ بِالتَّوْرَةِ. فَانْتَزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. قَالَ: إِنْ كَلَّأَ يَتْلُو فِي كِتَابِهِ تَصْدِيقَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَي: يَكْفُرُ الْيَهُودُ بَعِيسَىٰ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ، فِيمَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ مُوسَىٰ بِالتَّصْدِيقِ بَعِيسَىٰ، وَفِي الْإِنْجِيلِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ بِتَصْدِيقِ مُوسَىٰ، وَمَا جَاءَ مِنَ التَّوْرَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكُلٌّ يَكْفُرُ بِمَا فِي يَدِ صَاحِبِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، قَالَ: بَلَى، قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ الْيَهُودِ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا وَتَفَرَّقُوا. ﴿وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، قَالَ: بَلَى، قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ الْيَهُودِ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا وَتَفَرَّقُوا. وَعَنهُ رَوَايَةٌ أُخْرَىٰ قَعُولُ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَهَذَا الْقَوْلُ يَقْتَضِي أَنَّ كَلَّأً مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ صَدَقَتْ فِيمَا رَمَتْ بِهِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَىٰ. وَلَكِنْ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ يَقْتَضِي ذَمَّهُمْ فِيمَا قَالُوهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أَي: وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ وَالإِنْجِيلِ، كُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ كَانَتْ مَشْرُوعَةً فِي وَقْتٍ، وَلَكِنْ تَجَاحَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنَادًا وَكَفْرًا وَمُقَابَلَةً لِلْفَاسِدِ بِالْفَاسِدِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ فِي الرَّوَايَةِ الْأُولَىٰ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يَتْلُو قَوْلَهُمْ﴾: يُبَيِّنُ بِهَذَا جَهْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِيمَا تَقَابَلُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الإِيْمَاءِ وَالإِشَارَةِ. وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِيمَنْ عَنِ يَقُولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قَالَا: قَالَتِ النَّصَارَىٰ مِثْلَ قَوْلِ الْيَهُودِ وَقِيلَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ قَالَ: أُمُّ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَقَبْلَ التَّوْرَةِ وَالإِنْجِيلِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَهَمُّ: الْعَرَبُ، قَالُوا: لَيْسَ مُحَمَّدٌ عَلَىٰ شَيْءٍ. وَاخْتَارَ أَبُو جَعْفَرٍ بَيْنَ جَرِيرٍ أَنَّهَا عَامَةٌ تَصْلُحُ لِلْجَمِيعِ، وَلَيْسَ ثَمَّ دَلِيلٌ قَاطِعٌ يَعْينُ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَالْحَمْلُ عَلَى الْجَمِيعِ أَوْلَىٰ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَي: إِنَّهُ تَعَالَىٰ يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيَفْصَلُ بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْحَجِّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [سبا: ٢٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ سَعْدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَمَىٰ فِي حَرَابِهَا أَوْلَادَكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوْا في خرابها على قولين: أحدهما: ما رواه العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُكُمْ﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة في قوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾: هو بُخْتَنَصْرُ وأصحابه، خَرَّبَ بيت المقدس، وأمانه على ذلك النصارى. وقال سعيد، عن قتادة: قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بِخْتَنَصْرَ البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقال السدي: كانوا ظاهرًا وبُخْتَنَصْرَ على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا. وروي نحوه عن الحسن البصري.

القول الثاني: ما رواه ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُكُمْ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذي طَوْرَى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يُصَدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه. فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفيها باق. وفي قوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ قال: إذ قطعوا من يَغْمُرُها بذكره ويأتيها للحج والعمرة. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن قَرِيشًا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُكُمْ﴾. ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إلا ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُونَهُمْ اللَّهُ وَمِمَّنْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَصْرِفُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآلَةِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [١٧] إِنَّمَا يَصْرُفُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا اللَّهُ فَسَوَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ مُكْرَفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ لَمَلُومُهُمْ أَنْ تَطَّوَّفَهُمْ فَقَبِيبَكُم مِّنْهُم مَّعْرَةٌ يَنْبَغِي عَلَيْهَا لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَصْرُفُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِبِينَ﴾: هذا خبر معناه الطلب، أي: لا تَمَكَّنُوا هؤلاء - إذا قَدَّرْتُمْ عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يُحْجَنَ بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَدْأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنَّمَا الشُّرُكُوتُ بُحْسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَمَدِّ عَائِيهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهييب، وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم. وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقَى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجْلَى اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذلك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة المباركة التي بعث الله فيها رسوله

إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه . وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجلوها منها. ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتنتهون من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرباً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهاها الله ورسوله. وأما من فسّر بيت المقدس، فقال كعب الأحيار: إن النصراني لما ظهرها على بيت المقدس خزيه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَمَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِضِينَ﴾ الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً. وقال السدي: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة. قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية فإن النصراني لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التي كانت يصلح إليها اليهود، عُوقبوا شرعاً وقدرًا بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصراني كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم. وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا، بخروج المهدي عند السدي، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون. والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعادة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلبس: سمعت أبي يحدث، عن بسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة». وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بسر بن أرطاة. ويقال: ابن أبي أرطاة - حديث سواه، وسوى حديث: «لا تقطع الأيدي في الغزو».

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ وَإِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمَهُ﴾ (١١٥)

وهذا - والله أعلم - فيه تسليية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلح بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ﴾. قال أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب الناسخ والمنسوخ: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا - والله أعلم - شأن القبلة: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجِهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قَوْلًا وَيُوهَمُكُمْ سَطَرُهُ﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لها هاجر إلى المدينة - وكان أهلها اليهود - أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى قَلْبُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلِيَّتَكَ قِبَلَةٌ رَزَمْنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿قَوْلًا وَيُوهَمُكُمْ سَطَرُهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ﴾. وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَجِدْهُ رَبُّهُ﴾ قال: قبلة الله: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة. وقال ابن أبي حاتم بعد روايته الأثر المتقدم، عن ابن عباس، في نسخ القبلة، عن عطاء، عنه: وروي عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقاتدة، والسدي، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شأوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْرِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ١٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام. هكذا قال، وفي قوله: «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان»: إن أراد علمه تعالى فصحيح؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلح التطوع حيث توجه من شرق أو

غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك - هو ابن أبي سليمان - عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر: أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته. ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْدُويه، من طرق، عن عبد الملك بن أبي سليمان، به. وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية. وفي صحيح البخاري من حديث نافع، عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم، وركبائاً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ.

مسألة: ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبي حنيفة خلافاً لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الأصبخري، التطوع على الدابة في المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. واختاره أبو جعفر الطبري، حتى للماشي أيضاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عُمَيْتٍ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله: لي المشارق والمغرب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية. حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه. فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ﴾ الآية.

ثم رواه عن سفیان بن وكيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان، بنحوه. ورواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن وكيع. وابن ماجه، عن يحيى بن حكيم، عن أبي داود، عن أبي الربيع السمان. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد بن سليمان، عن أبي الربيع السمان - واسمه أشعث بن سعيد البصري - وهو ضعيف الحديث. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ليس إسناده بذلك، ولا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث يُضَعَّفُ في الحديث. قلت: وشيخه عاصم أيضاً ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم. وقد روى من طرق أخرى، عن جابر. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا الحسن بن علي بن شبيب، حدثني أحمد بن عبيد الله بن الحسن؛ قال: وجدت في كتاب أبي: حدثنا عبد الملك العزمي، عن عطاء، عن جابر، قال: بَعَثَ رسول الله ﷺ سَرِيَّةً كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ههنا قبل السماك. فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ، فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزمي، عن عطاء، عن جابر، به. وقال الدارقطني: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز - وأنا أسمع - حدثكم داود بن عمرو، حدثنا محمد بن يزيد الواسطي، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأصابنا غيم، فتحيرنا فاختلنا في القبلة، فصلى كل منا على حدة. وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكتنا، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: «قد أجزأت صلاتكم». ثم قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان. ثم رواه ابن مردويه أيضاً من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً فأخذتهم ضبابة، فلم يهتدوا إلى القبلة، فصلوا لغير القبلة. ثم استبان لهم بعد طلوع الشمس أنهم صلوا لغير القبلة. فلما جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه، فأنزل الله، هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. وهذه الأسانيد فيها ضَعْفٌ، ولعله يشد بعضها بعضاً. وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، كما حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هشام بن معاذ، حدثني أبي، عن قتادة: أن النبي ﷺ قال: «إن أخطأ لكم قدمات فصلوا عليه». قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ أَنْ تَقُولَ مَا تَتْلُو مِنَ الْقُرْآنِ إِذَا كُنْتَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. قال قتادة: فقالوا: فإن كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله ﷻ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. وهذا غريب، والله أعلم. وقد قيل: إنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه

الناسخ إلى الكعبة، كما حكاها القرطبي عن قتادة، وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه عليه السلام، شاهده حين صلى عليه طويت له الأرض.

الثاني: أنه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه، واختاره ابن العربي، قال القرطبي: ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلمهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد.

الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق». وله مناسبة ههنا، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي معشر، واسمه نجيج بن عبد الرحمن السندي المدني، به: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقال الترمذي: وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة. وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذي: حدثني الحسن بن أبي بكر المرزوي، حدثنا المعلى بن منصور، حدثنا عبد الله بن جعفر المخرمي، عن عثمان بن محمد الأحنسي، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحكي عن البخاري أنه قال: هذا أقوى من حديث أبي معشر وأصح. قال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من الصحابة: ما بين المشرق والمغرب قبلة - منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة. ثم قال ابن مردويه: حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا يعقوب بن يونس مولى بني هاشم، حدثنا شعيب بن أيوب، حدثنا ابن نعيم، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقد رواه الدارقطني والبيهقي، وقال المشهور: عن ابن عمر، عن عمر، قوله. قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، قال: قال ابن جرير: قال مجاهد: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. قال ابن جرير: ويعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود. وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَمْ قَلِيلُونَ ﴿١١٦﴾ بَرِيحَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً. فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء. والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيتين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿بَرِيحَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُم صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١١٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَرَّتْ الْجِبَالُ هَذَا ﴿١١٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٢٠﴾ وَمَا يَدْعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٢١﴾ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا تَرَىٰ الرَّحْمَنُ عِندًا ﴿١٢٢﴾ لَقَدْ أَعْنَبْتُمْ وَعَدَدْتُمْ عِدًّا ﴿١٢٣﴾ وَكَلَّمْتُمْ مَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرِينًا ﴿١٢٤﴾﴾ [سريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن عبد الله بن أبي حُسَيْن، حدثنا نافع بن جبير - هو ابن مطعم - عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله

تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إِيَّاي فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إِيَّاي فقولهُ: لي ولد. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً. انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذي، حدثنا إسحاق بن محمد الفَرَوِي، حدثنا مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: كَذَّبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبني، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذيبه إِيَّاي فقولهُ: لن يعيدني كما بداني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إِيَّاي فقولهُ: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم». وقوله: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط، عن مطرف، عن عطية، عن ابن عباس، قال: ﴿قَدِينِينَ﴾ مصلين. وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾: مُقَرُّون له بالعبودية. وقال سعيد بن جبیر: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾ يقول: الإخلاص. وقال الربيع بن أنس: يقول كل له قائم يوم القيامة. وقال السدي: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾ يقول: له مطيعون يوم القيامة. وقال خصيف، عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾ قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَمْ قَدِينُونَ﴾: مطيعون. يقول: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره. وهذا القول عن مجاهد - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعي وقُدري، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا وَأَلْمَالًا﴾ [الرعد: ١٥]. وقد رُود حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن ذراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن أهيعة، عن ذراج بإسناده، مثله. ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه. ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه، والله أعلم. وكثيراً ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة، فلا يغتر بها، فإن السند ضعيف، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على غير مثال سبق، قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة. ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة. كما جاء في الصحيح لمسلم: «فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة». والبدعة على قسمين، تارة تكون بدعة شرعية، كقولهِ: فإن كل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة. وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه. وقال ابن جرير: وبديع السموات والأرض: مبدعهما. وإنما هو مُفْعِل فصرف إلى فَعِيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع. ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد. قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً. ومن ذلك قول أعشى ثعلبة، في مدح هوزة بن علي الحنفي:

يُرعى إلى قَوْل سادات الرّجال إذا
أبدوا له الحزْم أو ما شاء ابتدعا
أي: يحدث ما شاء. قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعها بدالاتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالفها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بنوته؛ وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته. وهذا من ابن جرير، رحمه الله، كلام جيد وعبارة صحيحة. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَتَلَ امْرَأًا فَأَمَّا يَقُولُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: كن. أي: مرة واحدة، فيكون، أي: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الفرقان: ٥٠]، وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فلإنما
يقول له كن فولة فيكون
وتبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَشَيْءِ مَادَمٍ خَلَقْتُم مِّنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشْتَكُمُ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن خزيمة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾: قال: النصارى تقول. وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفي ذلك نظر. وحكى القرطبي ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾: أي: لو يخاطبنا بنبوتك يا محمد. قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ﴾، قالوا: هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِنْ آوَىٰ رُسُلِ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِصِّبُ الَّذِينَ أَحْرَمُوا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَدَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجُرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوعًا ﴿١١٥﴾ أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا لِسَعًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهِ وَالْمَلَكُوتَ فِيلَا ﴿١١٧﴾ أَوْ يُكُونَ لَكَ يَتًّا مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكُمُ ﴿١١٨﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١٦﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنْتَشِرَةً ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهَنَّمَ ﴿١٥٣﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ كُنْ نُوْمَانَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]. وقوله: ﴿تَشْتَكُمُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَائِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ أَوْ آمَسُوا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الدَّارِيَات: ٥٦، ٥٧، ٥٨]. وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وضَّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سَاءُ مَا يَكُونُونَ ﴿١١٩﴾ وَوَجَّهْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِاللِّكْفِ أَعْيَنَّا لَهُمْ آيَاتِنَا فَهَوَوْا مُكَذِّبِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [يونس: ٩٧-٩٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفرزاري عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أنزلت عليّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقال: «بشيراً بالجنة، ونذيراً من النار». وقوله: ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قراءة أكثرهم: ﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ بضم التاء على الخبر. وفي قراءة أبي بن كعب: «وما تسأل» وفي قراءة ابن مسعود: «ولم تسأل عن أصحاب الجحيم» نقلها ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿كَلِمًا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١٦﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١١٧﴾﴾ الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢] وكقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَبَ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ ﴿١١٨﴾﴾ [ق: ٤٥] وأشبه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون: «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهي، أي: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبواي، ليت شعري ما فعل أبواي، ليت شعري ما فعل أبواي؟». فنزلت: ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، فما ذكرهما حتى توفاه الله، ﷺ. ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن وكيع، عن موسى بن عبيدة، وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبي: وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان؛ أي: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحياه أبويه حتى آمنّا، وأجبنّا عن قوله: (إن أبي وأباك في النار). (قلت): والحديث المروي في حياة أبويه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم. ثم قال ابن جرير: وحدثنى القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبواي؟». فنزلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾. وهذا مرسل كالذي قبله. وقد رد ابن جرير هذا

القول المروري عن محمد بن كعب القرظي وغيره في ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه. واختار القراءة الأولى. وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت ذلك في الصحيح ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمينين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا سحاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع عن محمد بن سنان، عن فليح، به. وقال: تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال. وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. ورواه في التفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به. فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به في كتاب الأدب. وزعم أبو مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب، عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار، فسألته فما اختلفا في حرف، إلا أن كعباً قال بلغتي: أعيناً عمومي، وآذاناً صمومي، وقلوباً غلوفاً.

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلَهُمْ قُلُوبَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الْهُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ آتَيْنَاهُم مَّا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن آيَةٍ مِن آيَاتِهِمْ بَدَّ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْآيَةِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن آيَةٍ وَلَا نَصِيرَةٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُرْسِلُوا إِلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلَهُمْ﴾ وليست اليهود - يا محمد - ولا النصرارى براضية عنك أبداً، فذبح طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال قتادة في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾: خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله». قلت: هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو. ﴿وَلَئِنْ آتَيْنَاهُم مَّا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن آيَةٍ مِن آيَاتِهِمْ بَدَّ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْآيَةِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن آيَةٍ وَلَا نَصِيرَةٍ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عباداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمره. وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلَهُمْ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُ وَرَبِّي﴾ [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه. وقال في الرواية الأخرى كقول مالك: إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قالوا: حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار. وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يجل حلاله ويحرم حرامه ويقراه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يُجَلُّون حلاله ويَحْرُمُون حرامه، ولا يَحْرَفُونه عن مواضعه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود نحو ذلك. وقال الحسن البصري: يعلمون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكَلِّفُون ما أشكل عليهم إلى عالمه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَالْقُرْآنَ إِذْ لَنَّا﴾ [الشمس: ٢٧]، يقول: أتبعها. قال: وروي عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رزين، وإبراهيم النخعي نحو ذلك.

وقال سفيان الثوري: حدثنا زَيْد، عن مَرْة، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه. قال القرطبي: وروى نصر بن عيسى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه»، ثم قال في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاضوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حَبْرٌ عن ﴿الَّذِينَ آمَنَتُهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالْإِسْلَامِ وَالْإِنْجِيلِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، أي: إذا أقمتوها حق الإقامة، وأمنت بها حق الإيمان، وصدقت ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ وتوغته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا مِثْرًا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُونَ عَلَيْهِمْ يَحِزُّونَ لِأَنَّ فِي شِكْرِكَ ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾﴾ [الإسراء: ١٥٧، ١٥٨] أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتُهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ قَوْلًا مِمَّا جَاءَ بِهِ إِنْ أَخْبَرُوا أَنَّهُ نَبَأٌ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٧٠﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَمْوَالَهُمْ مَرْزُقًا بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَحْمِلُ مَا اسْتَمْتَرُوا فَإِنْ اسْتَمْتَرُوا فَقَدْ عَصَيْتُمْ أَوْ أَمَرُوا فَكَيْفَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصِرَاتِ الْبَاسِطِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [إلى عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّكِرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدَةٌ ﴿١٧٧﴾﴾ وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَحِزُّونَ ﴿١٦٧﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَحِزُّونَ عَنْ نَفْسِنَا وَلَا يَقْبَلُ مِنَّا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُكَ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُضْرَبُونَ ﴿١٦٨﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمه. يحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذِ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ رُؤُوسَ بُيُوتِهِمْ قَالَتْ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا تَبَالُ عَهْدِي لِلَّذِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

يقول تعالى مثبهاً على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقندي به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذِ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ رُؤُوسَ بُيُوتِهِمْ﴾ أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي؛ ﴿قَالَتْ هُنَّ أُمَّهَاتُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَكُمْ غُرُبَاءَ مَسْكُونِينَ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: وفي جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَا يَنْتَهَى فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [النحل: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

بالأوامر وتَرَكَ الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس في ذلك روايات: فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وكذا رواه أبو إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس. وقال عبد الرزاق - أيضاً -: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفُزِقَ الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونُتِفَ الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء. قال ابن أبي حاتم: وزُوي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والثَّخمي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك. قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسُّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبِرَاجِمِ، وَنُتْفُ الْإِبْطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء، يعني: الاستنجاء. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنُتْفُ الْإِبْطِ». ولفظه لمسلم. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن حنَّس بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ فَاتَّخِذْهُمْ﴾، قال: عَشْرٌ، ست في الإنسان، وأربع في المشاعر. فأما التي في الإنسان: حلق العانة، ونُتْفُ الْإِبْطِ، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

وقال داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ فَاتَّخِذْهُمْ﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتهمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات في براءة: ﴿التَّائِبِينَ الْعَمَلُونَ الصَّالِحِينَ﴾ إلى آخر الآية (التوبة: ١١٢)، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿سَأَلْنَا هَذَا مِنْ رَبِّهِ﴾ و ﴿عَشْرٌ آيَاتٍ فِي الْأَحْزَابِ﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتهمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. هكذا رواه الحاكم، وأبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبي حاتم، بأسانيدهم إلى داود بن أبي هند، به. وهذا لفظ ابن أبي حاتم. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتهمهن: فراق قومه - في الله - حين أمر بمفارقتهم. ومحاجته نمرود - في الله - حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه. وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه - في الله - على هول ذلك من أمرهم. والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده - في الله - حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء، قال الله له: ﴿أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما كان من خلاف الناس ورفاقهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا إسماعيل بن عُلَيْبَةَ، عن أبي رجاء، عن الحسن - يعني البصري - : ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ فَاتَّخِذْهُمْ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالختان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه. وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إي والله، ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين. ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سمع الحسن يقول في قوله: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ فَاتَّخِذْهُمْ﴾ قال: ابتلاه الله بذبح ولده، وبالنار، والكواكب، والشمس، والقمر. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا سلم بن قتيبة، حدثنا أبو هلال، عن الحسن ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب، وبالشمس، والقمر، فوجده صابراً. وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكِينٍ فَاتَّخِذْهُمْ﴾ فمنهن: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن: ﴿وَإِذْ يَقَعُ بِإِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ وَيَسْقِيهِمْ﴾، ومنهن: الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت،

ومحمد بعث في دينهما . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شيبان، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعًا وَلَا قَائِمًا﴾ قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم. قال: وأمنأ. قال: نعم. قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال: نعم. قال ابن أبي نجيح: سمعته عن عكرمة، فعرضته على مجاهد، فلم ينكره. وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعًا وَلَا قَائِمًا﴾، قال: ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعًا وَلَا قَائِمًا﴾ قال: الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا مِن مَّوَارِثِهِمْ مَّمْلُوكًا﴾، وقوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَذِيقَهُمْ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم. وقال السدي: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَأَبْتَدِ فِيهِمْ رَسُولًا يُنَبِّئُهُمْ بِتِلْكَ آيَاتِكَ﴾.

وقال القرطبي: وفي الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم، عليه السلام، أول من اختتن وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قلم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال يا رب، زدني وقاراً. وذكر ابن أبي شيبه، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم، عليه السلام، قال غيره: وأول من برّد البريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجدى بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اتخذ المنبر فقد اتخذته أبي إبراهيم، وإن اتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم» قلت: هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية. قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له. قال: غَزَرَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَظِيرِ مَعْنَى ذَلِكَ خَبْرَانِ أَحَدُهُمَا: مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كَرِيبٍ، حَدَّثَنَا رَشْدِينَ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي زِيَانُ بْنُ فَائِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمِيَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؟ لَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كَلِمًا أَصْبَحَ وَكَلِمًا أَمْسَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسَوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] حتى يختم الآية». قال: والآخر منهما: حدثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن، عن عطية، أخبرنا إسرائيل، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [١٧]: «أندرون ما وفى؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «وَفَّى عَمَلُ يَوْمِهِ، أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ». ورواه آدم في تفسيره، عن حماد بن سلمة. وعبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن جعفر بن الزبير، به. ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين، وهو كما قال؛ فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلاً من السنتين مشتمل على غير واحد من الضعفاء، مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم. ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً، فإن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبیان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلي بهن إبراهيم.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم. وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدي بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَاتِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه. وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال خصيف، عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: إنه سيكون في ذريتك ظالمون. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَنَّكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون

لي إمام ظالم يقتدى به . وفي رواية : لا أجعل إماماً ظالماً يَقْتَدَى به . وقال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : لا يكون إمام ظالم يقتدى به . وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبي ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا شريك ، عن منصور ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَوَيْدُيَّ ﴾ قال : أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به . وأما من كان ظالماً فلا ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ . وقال سعيد بن جبيرة : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ : المراد به المشرك ، لا يكون إمام ظالم . يقول : لا يكون إمام مشرك . وقال ابن جريج ، عن عطاء ، قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَوَيْدُيَّ ﴾ . فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً . قلت لعطاء : ما عهده؟ قال : أمره . وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا عمرو بن ثور القيساري فيما كتب إلى ، حدثنا الفريابي ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال الله لإبراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَوَيْدُيَّ ﴾ . فأبى أن يفعل ، ثم قال : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ قَالَ وَوَيْدُيَّ قَالَ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ : يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده - ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله - ومحسن ستفد في دعوته ، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته . وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه ، أن تطيعه فيه . وقال ابن جرير : حدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، عن إسرائيل ، عن مسلم الأعور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : ليس للظالمين عهد ، وإن عاهدته فانتقضه . وروي عن مجاهد ، وعطاء ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك . وقال الثوري ، عن هارون بن عنترة ، عن أبيه ، قال : ليس لظالم عهد . وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَرٌ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : لا ينال عهد الله في الآخرة للظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمّن به ، وأكل وعاش . وكذا قال إبراهيم النخعي ، وعطاء ، والحسن ، وعكرمة . وقال الربيع بن أنس : عهد الله الذي عهد إلى عباده : دينه ، يقول : لا ينال دينه الظالمين ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَيَمِينَ دُرَيْتِهِمَا مُحْسِنًا وَطَلَّامًا لِنَفْسِهِ مَبِيتٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصفوات: ١١٣] ، يقول : ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق . وكذا روي عن أبي العالية ، وعطاء ، ومقاتل بن حيان . وقال جوير ، عن الضحاك : لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني ، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني . وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه : حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الأسدي ، حدثنا سليم بن سعيد الدماغاني ، حدثنا وَكَيْعٌ ، عن الأعمش ، عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي بن أبي طالب ، عن النبي ﷺ ، قال : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، قال : « لا طاعة إلا في المعروف » . وقال السدي : ﴿ لَا يَأْتِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ يقول : عهدي نبوتي . فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، رحمهما الله تعالى . واختار ابن جرير أن هذه الآية - وإن كانت ظاهرة في الخبر - أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً . ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل ، عليه السلام ، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه ، كما تقدم عن مجاهد وغيره ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ وَآتَيْنَاهُم مِّن مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًا ﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يقول : لا يقضون منه وطراً ، يأتونه ، ثم يرجعون إلى أهلهم ، ثم يعودون إليه . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، يقول : يثوبون . رواهما ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي ، أخبرنا عبد الله بن رجاء ، أخبرنا إسرائيل ، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : يثوبون إليه ثم يرجعون . قال : وروي عن أبي العالية ، وسعيد بن جبيرة - في رواية - وعطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وعطية ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، نحو ذلك . وقال ابن جرير : حدثني عبد الكريم بن أبي عمير ، حدثني الوليد بن مسلم قال : قال أبو عمرو - يعني الأوزاعي - حدثني عبدة بن أبي لبابة ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : لا ينصرف عنه منصور وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وحدثني يونس ، عن ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه . وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى ، أورده القرطبي :

جعل البيت مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوَطْرُ
وقال سعيد بن جبيرة - في الرواية الأخرى - وعكرمة ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ﴿ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي : مجمعا . ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ ﴾ : قال

الضحك عن ابن عباس: أي أمناً للناس. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَةً لِلنَّاسِ لِآيَاتِنَا﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَلَ فيه السلاح. وقد كانوا في الجاهلية يَتَخَطَّفُ الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسَبَّون. وروي عن مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: من دخله كان أمناً. ومضمون ما فسره به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأ، من كونه مثابة للناس، أي: جعله مَحَلًّا تشناق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عليه السلام، في قوله: ﴿فَأَجْمَلْ أُنْفُذَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَنَا﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان أمناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يفرض له. كما وصفها في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْرَ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا لَيَسَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٧]، أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها سوءاً، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض؛ وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي هذه الآية الكريمة تَبَّ على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميري، حدثنا أبو خلف - يعني عبد الله بن عيسى - حدثنا داود بن أبي هند، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وقال أيضاً: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد. ثم قال: و ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾: يعد كثير، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لي عطاء فقال: التعريف، وصلتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع. قال: نعم، سمعته منه.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. ولو غُسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه. وقال السدي: المقام: الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبي، وضعفه ورجحه غيره، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جريج، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا تتخذة مصلي؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم. قال: أفلا تتخذة مصلي؟ فنزلت: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال ابن مردويه: حدثنا ذُغَلَج بن أحمد، حدثنا غيلان بن عبد الصمد، حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال: يا رسول الله، أليس تقوم مقام خليل ربنا؟ قال: «بلى». قال: أفلا تتخذة مصلي؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد القزويني، حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذي قال الله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؟ قال: «نعم». قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك ﴿وَأَتَّخِذُوا﴾؟ قال: نعم. هكذا وقع في هذه الرواية. وهو غريب. وقد روى النسائي من حديث الوليد بن مسلم، نحوه. وقال البخاري: باب قوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: مثابة: يشوبون يرجعون.

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقتني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلي؟ فنزلت: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا

رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقال: وبلغني مُعَاتِبَةُ النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو لبيدُن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نساته، فقلت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزُقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ [التحریم: ٥]. وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني حميد، قال: سمعت أنساً عن عمر، رضي الله عنهما. هكذا ساقه البخاري هُنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري. وقد تفرد بالرواية عنه البخاري من بين أصحاب الكتب الستة. وروى عنه الباقر بواسطه، وغرضه من تعليق هذا الطريق لبيبن فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يستند؛ لأن يحيى بن أيوب الغافقي فيه شيء، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيء الحفظ، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا حُمَيْد، عن أنس، قال: قال عمر، رضي الله عنه: وافقت ربي، ﷺ، في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة. فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزُقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك. ثم رواه أحمد، عن يحيى وابن أبي عدي، كلاهما عن حميد، عن أنس، عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقت ربي في ثلاث، فذكره. وقد رواه البخاري عن عُمر بن عُفْرٍ، والترمذي عن أحمد بن منيع، والنسائي عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هُشَيْم بن بشير، به. ورواه الترمذي - أيضاً - عن عبد بن حُمَيْد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة. والنسائي عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، كلاهما عن حميد، وهو ابن تيرويه الطويل، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه الإمام علي بن المديني، عن يزيد بن زُرَيْع، عن حميد، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصري، ورواه الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه بسند آخر، ولفظ آخر، فقال: حدثنا عقبه بن مُكْرَم، أخبرنا سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

وقال أبو حاتم الرازي: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث - أو وافقت ربي - قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النساء؟ فنزلت آية الحجاب. والثالثة: لما مات عبد الله بن أبي جاه رسول الله ﷺ ليصلي عليه. قلت: يا رسول الله، تصلي على هذا الكافر المنافق! فقال: «إيهأ عنك يا بن الخطاب»، فنزلت: ﴿وَلَا صَلَّ عَلَىٰ أَسْرٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَفَسًا قَبْرَهُ﴾ [التوبة: ٨٤]. وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق فُدم عليه، والله أعلم. وقال ابن جرير: أخبرني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمى ثلاثة أشواط، ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سلمان، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين. وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث حاتم بن إسماعيل. وروى البخاري بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم، عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار آناه إسماعيل، عليه السلام، به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كَمَل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري. وكانت آثار قديمة ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطىء إبراهيم في الضخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهب مسخ الناس بأيديهم. وقال ابن جرير:

حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَارِئِهِمْ مَمْلُوءًا﴾: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكّر لنا من رأى أثر عقبيه وأصابه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانمحي. قلت: وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أُمِرْنَا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالَّذِينَ من بعدي أبي بكر وعمر». وهو الذي نزل القرآن بوقافه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين. قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قالوا: أول من نقله عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وقال عبد الرزاق أيضاً، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد قال: أول من أخرج المقام إلى موضعه الآن، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها: أن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير العَدَنِي قال: قال سفيان - يعني ابن عيينة وهو إمام المكيين في زمانه - كان المقام في شُغْع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوّله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ وبعد قوله: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَارِئِهِمْ مَمْلُوءًا﴾ قال: ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فرده عمر إليه. وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بها أم لا؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَارِئِهِمْ مَمْلُوءًا﴾. فكان المقام عند البيت، فحوّله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا. قال مجاهد: قد كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن. هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد أن أول من أخرج المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مَرْذُويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيَّبِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنٍ مِنْهُمْ وَاللَّهُ الْوَكِيلُ ﴿١٢٧﴾ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْرِبُ إِلَيْكَ عَذَابَ النَّارِ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَإِبْرَاهِيمَ اتَّبَعْتَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا إِنَّكَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُونِنَا إِنَّهُ مُسْلِمٌ لَكَ وَارِنَا مَتَابِعًا وَسُبِّحَ عَيْنًا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والتنجس ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناه. كذا قال: والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّيَ بإلي؛ لأنه في معنى: تقدمنا وأرحبنا. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قوله: ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيَّبِينَ﴾ قال: من الأوثان. وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: ﴿طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ﴾: إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. قال ابن أبي حاتم: وزوي عن عبيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وعطاء، وقاتدة: ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي﴾ أي: بلا إله إلا الله، من الشرك. وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبیر أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: من أتاه من غزبة، ﴿وَالْمُكَيَّبِينَ﴾: المقيمين فيه. وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبیر. وقال يحيى بن القطان، عن عبد الملك - هو ابن أبي سليمان - عن عطاء في قوله: ﴿وَالْمُكَيَّبِينَ﴾ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده، وقال لنا: ونحن مجاورون -: أنتم من العاكفين. وقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، قال:

قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مُكَلِّمَ الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويُحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون.

ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة، به. قلت: وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَرْكَعِ الشُّجُورَ﴾: فقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْكَعِ الشُّجُورَ﴾ قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة. وقال ابن جرير، رحمه الله: فمعنى الآية: وأمَرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفتين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين، أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها. قلت: وهذا الجواب مُفْرَعٌ على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم، وعليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّدٍ. الجواب الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فبيناه مطهراً من الشرك والرِّيب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَقَمْنَا اسْمَكَ بُنْيَانًا عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَّا اللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَّا اسْتَسْرَبْنَاكَ عَلَىٰ شَفَا حُجْرَتِنَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾. قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والرِّيب، كما قال السدي: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾: ابنيا بيتي للطائفتين. وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن يبنا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفتين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ بِوَأُكَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧]. وقد اختلف الفقهاء: أيما أفضل، الصلاة عند البيت أو الطواف؟ فقال مالك: الطواف به لأهل الأمصار أفضل من الصلاة عنده، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام.

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَصْدُقُونَ عَنْ سَكِينِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْمَنْكُفِ فِيهِ وَالْبَاءِ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَطْلُبُ ثِقَّةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]. ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْمَنْكُفِ فِيهِ وَالْبَاءِ﴾ في هذه الآية الكريمة ذكر الطائفتين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك - أيضاً - ردٌّ على من لا يحججه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أن بني هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حَجَّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهًا وَهِيَ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. وتقدير الكلام إذاً: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: تقدمنا لوحيًا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: طهرا من الشرك والرِّيب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفتين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنَّهُ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُورِ وَالْأَصْوَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطبيخها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال، عليه السلام: ﴿إنما بنيت المساجد لما بنيت له﴾. وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والممنة.

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وروي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم، عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودي، وهذا غريب أيضاً. وروى نحوه عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة، وعن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث، عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها

بمجردهما، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْزُقْنَا أَهْلَهُ مِنَّا نَشْرَبُ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ يَا رَبِّ وَالْبَاقِي الْآخِرُ﴾. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإن حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاها». وهكذا رواه النسائي، عن محمد بن بشار، عن بُنْدَار، به. وأخرجه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعُمرُو الناقد، كلاهما عن أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري. وقال ابن جرير - أيضاً -: حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالوا: حدثنا ابن إدريس. وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الرحيم الرازي، قالوا جميعاً: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليه، وإن عبد الله ورسوله. وإن إبراهيم حرم مكة، وإن حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير». وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب الستة، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ، قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدُنَا. اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونيك، وإن عبدك ونيك. وإنه دعاك لمكة، وإنه أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعو أصغرَ ولید له، فيعطيه ذلك الثمر. وفي لفظ: «بركة مع بركة». ثم يعطيه أصغر من يحضره من ولدان. لفظ مسلم. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني أحرم ما بين لابتيها». انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضر، به. ولفظه كلفظه سواء. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «التمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني». فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنيت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال في الحديث: ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال: «هذا جبل يُحِبُّنا ونحبه». فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إني أحرم ما بين جبليها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مذهبهم وصاعهم». وفي لفظ لهما: «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم». زاد البخاري: يعني: أهل المدينة.

ولهما أيضاً عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفِي ما جعلت بمكة من البركة». وعن عبد الله بن زيد بن عاصم، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحُرِّمَت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة». رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإن حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنني دعوت لها في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة». وعن أبي سعيد، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً، وإنني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزيمها، لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخطب فيها شجرة إلا لعلف. اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدُنَا، اللهم اجعل مع البركة بركتين». الحديث رواه مسلم. والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم، عليه السلام، لمكة، لما في ذلك في مطابقة الآية الكريمة. وتَمَسُّكُ بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى. وقد وردت أحاديث أخر تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يُجَلِّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُغْضَدُ شوكه ولا ينفر صيده، ولا تُلْتَقَطُ لِقَطَّتُهُ إلا من عرفها، ولا يختلي خلالها». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم. فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم. ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك.

ثم قال البخاري بعد ذلك: قال أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبي ﷺ، مثله. وهذا الذي علقه البخاري رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه، عن محمد بن عبد الله بن مُبَيْر، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن يُثَاق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت النبي ﷺ يخاطب عام

الفتح، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يُعصَد شجرها ولا يُنْفَر صيدها، ولا يأخذ لَقَطَتِهَا إلا مُنْشِدٌ». فقال العباس: إلا الإذخر؛ فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر». وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعنرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة -: انذن لي - أيها الأمير - أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً، ولا فأراً بدم، ولا فأراً بخربة. رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه. فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حرَّمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم، عليه السلام، لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبَتْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية. وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال: «دعوة أبي إبراهيم، ويشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاعت له قصور الشام». أي: أخبرنا عن بدء ظهور أمرك. كما سيأتي قريباً، إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة، كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة، كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر في موضع آخر بأدلتها، إن شاء الله، وبه الثقة. وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا﴾ أي: من الخوف، لا يزعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرًا. كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آيَاتًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكِيمًا آيَاتًا وَيَحْتَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [التكوير: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات. وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها، وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح». وقال في هذه السورة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا﴾ أي: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا أَهْلَهُ مِنَ النَّارِ مَن مَّامِنَ مِّنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَتْهُمْ قِيلًا ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْنَا نَارًا وَيُنْسُ الْمَصِيرُ﴾. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَتْهُمْ قِيلًا ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْنَا نَارًا وَيُنْسُ الْمَصِيرُ﴾ قال: وقرأ آخرون ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَتْهُمْ قِيلًا ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْنَا نَارًا وَيُنْسُ الْمَصِيرُ﴾ فجعلا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأتته نارا، وقال أبو جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَتْهُمْ قِيلًا﴾ يقول: ومن كفر فأرزه أيضاً: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْنَا نَارًا وَيُنْسُ الْمَصِيرُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم، عليه السلام، الدعوة عمَّن أبى الله أن يجعل له الولاية - انقطاعاً إلى الله ومحبه، وفراقاً لمن خالف أمره، وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم أنه ظالم ألا يناله عهد، بخبر الله له بذلك - قال الله: ومن كفر فإني أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلاً. وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَأَنزَلْنَا أَهْلَهُ مِنَ النَّارِ مَن مَّامِنَ مِّنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أخلق خلقاً لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلاً، ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا يُبَدِّلُ هَتُوكَآءَهُ وَهَتُوكَآءَهُ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] رواه ابن مرفويه. وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِقُونَ﴾ [متن في الدين: ٢٠] متع في الدين: ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُؤْتِيهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣٦] [يونس: ٦٩، ٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَمْنُنْكَ كُفْرُهُ﴾ [إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَزِّلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] [يونس: ٣٦] نُنَزِّلُهُمْ قِيلًا

ثُمَّ نَضْرِبُ لَهُمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ [القمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَ سُمْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ آيَاتًا وَمُرَرًّا عَلَيْهَا يَكْفُوتُ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ نَضْرِبُ لَهُمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ غَلِيظٍ﴾ أي: ثم ألجته بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلهما إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى ينظرهم ويمنهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَىٰ الْمَصِيْرِ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم»، وفي الصحيح أيضاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الشَّرِيْةَ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيْدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [مرد: ١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَرَّعَ إِبْرَاهِيْمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيْلَ رَبَّنَا فَتَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْنَ لَكَ وَمِن دُورِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَوَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ﴿١٢٨﴾﴾: فالقواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: «واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ﴾»، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكي، عن وهيب بن الورد: أنه قرأ: ﴿وَإِذْ بَرَّعَ إِبْرَاهِيْمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيْلَ رَبَّنَا فَتَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفِقٌ أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاهُمْ أَيْ: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوْبِهِمْ رَاحَةً﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: خائفة ألا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه.

وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعي إسماعيل. والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتي بيانه. وقد روى البخاري ههنا حديثاً سنورده ثم نُشِعَه بأثار متعلقة بذلك. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السختياني، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، عليهما السلام. اتخذت منطقاً ليعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، عليهما السلام، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زُمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَهْلَهُ بِرَبِّكَ النَّاسَ يَنْهَوْنَ إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، عليهما السلام، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ماء السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلظى - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم ترى أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرفَ درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفرور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ههنا بيتاً لله، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله، ﷻ، لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُزهم - أو أهل بيت من

جُزْم - مقبلين من طريق كَدَاء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، نَعَهْدُنَا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيّين، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: فقال النبي ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفَسَهُم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، عليهما السلام، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تَرْكَتَهُ. فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج بيتغي لنا. ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بِشْرٌ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جَهْدٍ وشِدَّةٍ. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: عَزَّزَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قال: ذلك أبي. وقد أمرني أفارقك، فالحق بأهلك. فَطَلَّقَهَا وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألتها عنه، فقالت: خرج بيتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألتها عن عيشهم وهيتهم. فقالت: نحن بخير وسعة. وأنت على الله، ﷻ. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرباكم؟ قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم، لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: «فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام، ومره يُبَيَّتَ عَتَبَةَ بَابِهِ، فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذلك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله، ﷻ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلًا له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك، ﷻ. قال: وتعيينني؟ قال: وأعينك. قال فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رَفَعَا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»، قال: «فجعلا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾».

ورواه عبد بن حميد عن عبدالرزاق به مطولاً.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي عبد الله محمد بن حماد الظهري. وابن جرير، عن أحمد بن ثابت الرازي، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً. وقال أبو بكر بن مَرْدُوْبِهِ: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الأزرق، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن عبد الملك بن جَرِيْح، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير، في أعلى المسجد ليلاً، فقال سعيد بن جبير: سلوني قبل أن لا تروني. فسألوه عن المقام، فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله. ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَتَّةٌ فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشتَّة، فَنَبِرُ لِبْنِهَا على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحه، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل، حتى بلغوا كَدَاءَ نَادِيهِ من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، ﷻ. قالت: رضيت بالله. قال: فرَجَعَتْ، فجعلت تشرب من الشتة، ويذكر لبنيها على صبيها حتى لما فَيِيَ الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً. قال: فذَهَبَتْ فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً. فلما بلغت الوادي سَعَتْ حتى أتت المروة، ففعلت ذلك أشواطاً ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، تعني الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَعُ للموت، فلم تَقْرُها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً. قال: فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت فلم تُحس أحداً، حتى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أغث إن كان عندك خير. فإذا جبريل، عليه السلام، قال: فقال بعقبه هكذا، وعزم عَقْبَهُ على الأرض. قال: فانبثق الماء، فَذَهَبَتْ أم إسماعيل، فجعلت

تحفر. قال: فقال أبو القاسم عليه السلام: «لو تركتَ لكان الماء ظاهراً». قال: فجعلت تشرب من الماء ويَدِرُ لبنها على صبيها. قال: فمر ناس من جُزهم بطن الوادي، فإذا هم بطير، كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فَنَظَرَ، فإذا هو بالماء. فأتاهم فأخبرهم. فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك - أو نسكن معك؟ - فبلغ ابنها ونكح فيهم امرأة. قال: ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام، فقال لأهله: إني مُطَّلَعٌ تَزَكِي. قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد. قال: قولي له إذا جاء: غير عتبه بيتك. فلما جاء أخبرته، قال: أنت ذاك، فاذهبي إلى أهلِكَ.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطَّلَعٌ تَزَكِي. قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد. فقالت: ألا تنزل فَتَطْعَمَ وتشرب؟ فقال: ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال: أبو القاسم عليه السلام: «بَرَكَه بدعوة إبراهيم». قال: ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله: إني مُطَّلَعٌ تَزَكِي. فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نَبْلًا له. فقال: يا إسماعيل، إن ربك، عليه السلام، أمرني أن أبني له بيتاً. فقال: أطع ربك، عليه السلام. قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه؟ فقال: إذن أفعل - أو كما قال - قال: فقاما، قال: فجعل إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قال: حتى ارتفع البناء وَضَعَفَ الشيخ عن نقل الحجارة. فقام على حَجَرِ المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء. والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرک، عن أبي العباس الأصم، عن محمد بن سنان القُرَاز، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن إبراهيم بن نافع، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه البخاري كما ترى، من حديث إبراهيم بن نافع، كان فيه اقتصاراً، فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح. وقد جاء في الصحيح، أن قرني الكبيش كانا معلمين بالكعبة، وقد جاء أن إبراهيم، عليه السلام، كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً، ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة، والله أعلم. والحديث - والله أعلم - إنما فيه - مرفوع - أماكن صرح بها ابن عباس، عن النبي عليه السلام. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى قالوا: حدثنا مؤمّل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر. قال: فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مثل الرأس. فكلمه، قال: يا إبراهيم، ابن علي ظلي - أو قال علي قدري - ولا تزد ولا تنقص: فلما بنى خرج، وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إني من تكلنا؟ قال: إني الله. قالت: انطلق، فإنه لا يضيعنا. قال: فغطش إسماعيل عطفاً شديداً، قال: فصعدت هاجر إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك. فأتته وهو يُفَخِّصُ برجله من العطف. فناداها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فألي من وِكلِكُما؟ قالت: وكلنا إني الله. قال: وكلكما إني كافي. قال: ففحص الغلام الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم. فجعلت تحبس الماء فقال: دعيه فإنها رَوَاء. ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل - إن كان محفوظاً - أن يكون أولاً وضع له حوطاً وتحجيراً، لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كبر إسماعيل فبناها معاً، كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير: حدثنا هُثَّاد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عرعة، أن رجلاً قام إلى علي، رضي الله عنه، فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بني: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، قال: فضاقت إبراهيم بذلك دُرعاً فأرسل الله السكينة - وهي ريح خجوج، ولها رأسان - فأتبع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة، فتطوت على موضع البيت كطي الحَجَفَة، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم وبقي حجر، فذهب الغلام يبني شيئاً. فقال إبراهيم: أبغني حجراً كما أمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه. فقال: يا أبا، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لن يتكل على بنائك، جاء به جبريل، عليه السلام، من السماء. فأتاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غشاة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيث الأرض. قال سعيد: وحدثنا علي بن أبي طالب: أن إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة تدله على تَبْوَةِ البيت كما تَبْوُ العنكبوت بيتاً، قال: فكشفت عن أحجار لا يُطِيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً. قلت: يا أبا محمد، فإن الله

يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: كان ذلك بعد .

وقال السدي: إن الله ﷻ، أمر إبراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل: ابنيا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذًا المعاول لا يدريان أين البيت؟ فبعث الله ربحاً، يقال لها: ربح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ﴿وَإِذْ يَبْنِي إِبْرَاهِيمُ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا. قال: يا أبت، إني كسلان لغب. قال: عَلَيَّ بذلك فانطلق فطلب له حجراً، فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال انتني بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجراً، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوته بيضاء مثل الثَّغَامَةِ، وكان آدم هبط به من الجنة فأسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبة، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبنيا وهما يدعوان الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربه، فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هُدي إبراهيم إليها وبؤى لها. وقد ذهب إلى ذلك ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان، عن سوار - ختن عطاء - عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابته الملائكة، حتى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها. فخفضه الله إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكوا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته. فوجه إلى مكة، فكان موضع قَدَمِهِ قَرِيَةً، وَخَطْوُهُ مَفَاذَةً، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطرفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم، عليه السلام، فبناه. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة؟! قال: بخطيتك، ولكن اهبط إلى الأرض، فابن لي بيتاً ثم احفف به، كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء. وطور زيتاً، وطور سيناً، وجبل لبنان والجودي. وكان رَضُّهُ من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم، عليه السلام، بعد. وهذا صحيح إلى عطاء، ولكن في بعضه نكارة، والله أعلم. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين اهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند. وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنفض إلى ستين ذراعاً، فحزن إذ فقد أصوات الملائكة وتسيبهم. فشكا ذلك إلى الله ﷻ، فقال الله: يا آدم، إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصليني عنده كما يصلني عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومُدَّ له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة. فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك. فأتى آدم البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: وضع الله البيت على أركان الماء، على أربعة أركان، قبل أن تُخْلَقَ الدنيا بألفي عام، ثم دجيت الأرض من تحت البيت. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد وغيره من أهل العلم: أن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا - فيما حدثني - على البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلُّهُ على موضع البيت ومعالم الحرم. وخرج معه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: افضه. حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عَضَاة سَلَمَ وَسَمُرَ، وبها أناس يقال لهم: «العمالق» خارج مكة وما حولها. والبيت يومئذ ربوة حمراء مديرة، فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم. فعمد بهما إلى موضع الجحر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَّا هَمَّ بِشِكْرٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حسان، أخبرني حميد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة. وكذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن الأحمر: أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال: ما لكما

ولأرضي؟ فقال: نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينه على ما تدعيان. فقامت خمسة أكباش، فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت. ثم مضى.

وذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم، عليه السلام، بالبيت، وهذا يدل على تقدم زمانه، والله أعلم. وقال البخاري، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ بِرَأْسِهِ تَرَاهُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَجْرُونَ لَئِن لَّمْ يَأْمُرْنَا بِعِبَادَتِ اللَّهِ كَانُوا يُفْرِقُونَ بِاللَّهِ كَذِبًا كَبِيرًا﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها قاعدة. والقواعد من النساء: واحدها قاعد. حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر، عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تری أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا جدنان قومك بالكفر». فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يُتَمَّ على قواعد إبراهيم، عليه السلام. وقد رواه في الحج عن القعنبی، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف. ومسلم عن يحيى بن يحيى، ومن حديث ابن وهب. والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم، كلهم عن مالك، به. ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع، قال: سمعت عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة يحدث عبد الله بن عمر، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أوقال: بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر». وقال البخاري: حدثنا عبید الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قال: قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون». ففعله ابن الزبير. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لولا خدائت عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قریشاً حين بنت البيت استقصرت، ولجعلت لها خلفاً». قال: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب، قالوا: حدثنا ابن نمير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم. قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثني ابن مهدي، حدثنا سليم بن خيطان، عن سعيد - يعني ابن ميناء - قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتني خالتي - يعني عائشة رضي الله عنها - قالت: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قریشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة». انفرد به أيضاً.

ذكر بناء قریش الكعبة بعد إبراهيم الخليل، عليه السلام، بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ

بخمسة سنين وقد نَقَلَ معهم في الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة

صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قریش لبنیان الكعبة، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسبقوها، ويهايون هذمها، وإنما كانت رَضْمًا فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرأ سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جَوْف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك، مولى بني مَلِيح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قریش يده. ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رَمَى بسفينته إلى جُدَّة، لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها. وكان بمكة رجل قبطي نجار، فهياً لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تَطْرُخُ فيها ما يَهْدِي لها كل يوم، فتنشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهايون. وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشئت وفتحت فاهها، فكانوا يهايونها، فبينما هي يوماً تتشرق على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرأ فأخطفها، فذهب بها. فقالت قریش: إنا نلرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية. فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قریش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. قال ابن إسحاق: والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. قال: ثم إن قریشاً تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني

عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسَهْم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قُصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي، وهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هذمها وقرئوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هذمها: فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرغ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم، عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً. قال محمد بن إسحاق: فحدثني بعض من يروي الحديث: أن رجلاً من قريش، ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتها عن ذلك الأساس. قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعني الحجر الأسود - فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعافدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الحفنة، فسموا: لَقَعَة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عَمَر بن مخزوم - وكان عامئذٍ أسن قريش كلهم - قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ. فلما رآه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: «هَلُمَّ إِلَيَّ ثوباً» فأتي به، فأخذ الركن - يعني الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لنأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب»، ثم قال: «ارفعوه جميعاً». ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لِمَا تَصَوَّبَتِ الْعُقَابُ
وقد كانت يكون لها كشيخ
إذا قمننا إلى التأسيس شُدت
فلما أن خَشِينَا الرَّجْرَجَاتِ
فضممتها إليها ثم حَلَّتْ
فَقَمْنَا حَاشِدِينَ إِلَى بِنَاءِ
غداة نُرْفَعُ التَّاسِيسَ مِنْهُ
أَعَزَّ بِهِ الْمَلِيكَ بَنِي لُؤي
وقد حَشَدَتْ هُنَاكَ بَنُو عَدِي
فَبَوَّأْنَا الْمَلِيكَ بِذَلِكَ عَزَا

إلى الشعبان وهي لها اضطراب
وأحياناً يكون لها وثاب
تَهَيَّبْنَا الْبِنَاءَ وَقَدْ تَهَابُ
عقاب تَتَلَثَّبُ لَهَا أَنْصَابُ
لنا البنيان ليس له حجاب
لنا منه القواعد والستراب
وليس على مَسْوِينَا ثياب
فليس لأصله مثلهم ذهب
ومُرَّةٌ قَدْ تَقَدَّمَهَا كِلَابُ
وعند الله يُلْتَمَسُ الثَّوَابُ

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر فراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كُسيت بعد البرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف. قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذٍ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوَانَ له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا هُنَادُ بن السَّرِيِّ، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن أبي سليمان، عن عطاء، قال: لما احترق البيت رَمَنَ يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، وكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يُجَرِّتَهُمْ - أو يُحزبهم - على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا

عليّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فرّق لي رأي فيها، أرى أن تُصْلِحَ ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجده، فكيف بيت ربكم، ﷺ؛ إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري. فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن يتقضها. فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعده رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة، رضي الله عنها، تقول: إن النبي ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّني على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه». قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساً نظّر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتِلَ ابْنُ الزبير كَتَبَ الحُجَّاجُ إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسا نأ تلتطخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه. فنقضه وأعادّه إلى بنائه. وقد رواه النسائي في سننه، عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصة، وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه؛ لأنه هو الذي وُدّه رسول الله ﷺ. ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحدائث عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك؛ ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: وددا أنا تركناه وما تولى. كما قال مسلم: حدثني محمد بن حاتم، حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا ابن جُرَيْج، سمعت عبد الله بن عُبيد بن عمير والوليد بن عطاء، يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وَفَدَّ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا حُبيّب - يعني ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها. قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حدائث عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنيه فَهَلْمي لأريك ما تركوا منه». فأراها قريباً من سبعة أذرع. هذا حديث عبد الله بن عُبيد بن عمير. وزاد عليه الوليد بن عطاء: قال النبي ﷺ: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» قالت: قلت: لا. قال: «تَعَزُّزاً ألا يدخلها إلا من أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يَدْعونه حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط». قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فَتَنَكَّتْ ساعة بعصاه، ثم قال: وَوَدِدْتُ أني تركت وما تَحْمَلُ. قال مسلم: وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح) وحدثنا عُبيد بن حُميد، أخبرنا عبد الرزاق، كلاهما عن ابن جُرَيْج بهذا الإسناد، مثل حديث ابن بكر. قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حاتم بن أبي صَغيرة، عن أبي قَزَعَةَ أنَّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا جذنان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيها من الحجر، فإن قومك قصروا في البناء». فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير. فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد روي عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً. ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغيّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد - أو أبيه المهدي - : أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مُلْعَبَةً للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنووي، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السُويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السُويقتين من الحبشة». أخرجاه. وعن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «كأنني به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخاري. وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرّاني، حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرَبُ الكعبة ذو السويقتين من الحيشة، ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها. ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومغوله». الفدع: زنع بين القدم وعظم الساق. وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحْجَرَ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ».

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾. قال ابن جرير: يعينان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحضضي القرشي، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريم: «وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» قال: مخلصين لك، «وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ» قال: مخلصه. وقال أيضاً: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا المقدمي، حدثنا سعيد بن عامر، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: «وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ» قال: كانا مسلمين، ولكنهما سالا الشبان. وقال عكرمة: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» قال الله: قد فعلت. «وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ» يعينان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: «وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْتَمِدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩]. قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: «رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا فِيهِمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ» الآية، والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا فِيهِمْ» [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: «قَدْ بَيَّأْتُهَا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا» [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة. وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين، في قوله: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤]. وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحِبَّ أن يكون من صلبيه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قال «وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» وهو قوله: «وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» [إبراهيم: ٣٥]. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: قال ابن جرير، عن عطاء «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا»: أخرجها لنا، عَلَّمَنَاهَا. وقال مجاهد «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا»: مذابحنا. ورؤي عن عطاء أيضاً، وقادة نحو ذلك. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عتاب بن بشير، عن خُصَيْف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» فاتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارتفع القواعد. فرفع القواعد وأتم البنين، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله. ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله؟ ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه. فكبر وارمه. ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر وارمه. فذهب إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدْخِلَ في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات. قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرار. قال: نعم. وروي عن أبي مخيلز وقادة نحو ذلك. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي العاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى، فقال: مُنَاحُ النَّاسِ هَذَا. فلما انتهى إلى جمره العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمره الوسطى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم أتى به الجمره القصوى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جمعاً. فقال: هذا المشعر. ثم أتى به عرفه. فقال: هذه عرفه. فقال له جبريل: أعرفت؟.

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا فِيهِمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم - أي من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه

الدعوة المستجابة قَدَّر الله السابق في تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجمين، من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيْد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وأسئلكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورويا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيَنَّ». وكذلك رواه ابن وهب، والليث، وكاتبه عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سُوَيْد، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». والمراد أن أول من نُوِّه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم، عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْكُتُبِ وَبَشِيرًا لِلرَّسُولِ بِأَنِّي بَعَدِي أُمَّةٌ أَحَدٌ» [الصف: ٦٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم». وقوله: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل: كان مناماً رآته حين حملت به، وقصته على قومها فشاغ فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام». قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: «رَبَّنَا وَابْتِئْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» يعني: أمة محمد ﷺ. فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان. وكذا قال السدي وقتادة. وقوله تعالى: «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ» يعني: القرآن «وَالْحِكْمَةَ» يعني: السنة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة. «وَرَبِّهِمْ» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» قال: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشرف فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته. وقوله: «إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْكُفِيُّ» أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِمْ قَالَ أَسْمَأْتُ رَبِّ أَعْلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَمَنْ يَمَّا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِدَّ اللَّهِ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَشْهَوْنَ إِلَّا وَانْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾.

يقول تبارك وتعالى زُداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْع معه غيره، ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: «يَنْفَقُوا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» [١٧٨] وَإِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٦﴾ [الانعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تُعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٧٧﴾» [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَمَا نَبَى لَهَا أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرُّاً إِنَّهُ إِذْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْكَىٰ سَلِيمٌ ﴿١١٤﴾» [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٦﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٧﴾ وَمَا تَبَيَّنَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَاللَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾» [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ أَي: عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أَي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، من خدائته سنه إلى أن اتخذها الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء - فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتباع طُرُق الضلالة والغي، فأبى سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: «إِنَّكَ الْبَرُّ لَطَلُمٌ عَظِيمٌ». وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾» [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِمْ قَالَ أَسْمَأْتُ رَبِّ أَعْلَمِينَ ﴿١٣١﴾» أَي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب

إلى ذلك شرعاً وقدرأ، وقوله: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْمَلَكِينَ﴾. لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَمَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف «ويعقوب» بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح؛ والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَثِهِ إِبْرَاهِيمَ يَعْقُوبَ﴾ [مرد: ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَقَّاتُ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَمَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَائْتَنَةَ آجُرُّهُ فِي الدُّنْيَا وَإِلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ لَئِنِ الْفَالِجِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال في الآية الأخرى: ﴿وَوَقَّاتُ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» الحديث. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقده أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدّه بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألف سنين، والله أعلم، وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين. وقوله: ﴿يَنْبَغِي لَكَ اللَّهُ أَصْطَقَ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: أحسنوا في حال الحياة والزمو هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عاداته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه. ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس». وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلشَّرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلشَّرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِكُمْ وَحَدَّائِكُمْ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي؛ وقد استدلل بهذه الآية من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق - رضي الله عنه - حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف؛ وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة؛ وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحباً أبي حنيفة القاضي: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر. وقوله: ﴿إِلَهِكُمْ وَحَدَّائِكُمْ﴾ أي: نوحدهم بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَعَنْكُمْ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نحن مَعَشَرُ الأنبياء أولاد غلات ديننا واحد». وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ولهذا جاء في الأثر: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ .

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن زوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبنا يا محمد تهتد. وقالت النصراني مثل ذلك. فأنزل الله ﷻ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتكم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً. قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية. وقال خصيب عن مجاهد: مخلصاً. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: حاجباً. وكذا روي عن الحسن والضحاك، وعطية، والسدي. وقال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً. وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً، أي: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله، ﷻ والختان.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ .

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَرِيدُونَ أَنْ يُقَرَّبُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ الآية (النساء: ١٥٠، ١٥١). وقال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا». وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم، عن سعيد بن يسار عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَنشَدَ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال أبو العالية والربيع وقاتدة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً؛ ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالمقابل في بني إسماعيل؛ وقال الزمخشري في الكشاف: الأسباط: حفدة يعقوب وذريته أبناءه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه، وقرره ولم يعارضه. وقال البخاري: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَيْنَةً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِ سَدَاكًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَتْفَقَ عَصْرَةَ آسَاطًا أَمَّا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقال القرظي: وسموا الأسباط من السبط، وهو التابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السبط بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبطة. قال الزجاج: وبين لك هذا: ما حدثنا محمد بن جعفر الأنباري، حدثنا أبو نعيم الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد - عليهم الصلاة والسلام. قال القرظي: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد. وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها وبرسوله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مضعب الصوري، حدثنا مؤمل، حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن مغلل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسمعكم القرآن».

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِبَعْضٍ مِمَّا آمَنَتْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُمْ عِبْدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِبَعْضٍ مِمَّا آمَنَتْ بِهِ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُ اللَّهُ﴾ أي: فسينصررك عليهم ويُظفرُك بهم: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي

نُعيم، قال: أرسل إليّ بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه . قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿سَبَّحْتَكَ اللَّهُ وَهُوَ السَّابِّحُ الْكَلِيمُ﴾ . فقال نافع: بصُرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قدّم . وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: قال الضحّاك، عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحّاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك . وانتصاب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: إما على الإغراء كقوله: ﴿فَطَرْتَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] أي الزموا ذلك عليكموه . وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُهُ﴾ . وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿وَمَا نَسُوا بِاللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦] . وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مزّويه، من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصيغ ربك؟ فقال: اتقوا الله . فناداه ربه: يا موسى، سألوكم هل يصيغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي . وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةَ﴾ . وكذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم .

﴿قُلْ أَنتُمَا جُوتَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبِّكُمْ وَقَلْنَا أَغْمَلْنَا وَلَكُمُ أَغْمَلْتُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَغْمَلْكُمْ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَادَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَغْمَلُ أَمْ أَغْمَلُ أَرَأَيْتُمْ أَغْمَلُ أَرَأَيْتُمْ أَغْمَلُ أَرَأَيْتُمْ أَغْمَلُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ آيَاتُ فَمَنْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ .

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَنتُمَا جُوتَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبِّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَقَدْ أَغْمَلْنَا وَلَكُمُ أَغْمَلْتُمْ﴾ أي: نحن براءً منكم، وأنتم براءً منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَنْ كَذَّبَكَ فَقُلْتُ لِي عَمَلٍ وَلَكُمُ عَمَلِكُمْ أَشَدَّ رِيحُونَ وَمَا أَغْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ سَابِّحَكَ فَقُلْتَ أَسَلْتَ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ مَا أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اسْتَمْسَقُوا فَلَمَّا قَالُوا فَكَيْمَا عَلَيْنَا الْآيَةُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْبَاطِلِ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٠] . وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم: ﴿وَسَاجِدٌ قَوْمَهُ قَالَ أَتُحْكِمُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتِ وَلَا خَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاقِقَ رَبِّي شَيْئًا وَرَبِّيَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ لِي الْأُذَى حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨] . وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَغْمَلْنَا وَلَكُمُ أَغْمَلْتُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَغْمَلْكُمْ﴾ أي: نحن براءً منكم كما أنتم براءً منا، ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه . ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ أَغْمَلُ أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حِينًا مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ . الآية والتي بعدها . [آل عمران: ٦٧، ٦٨] . وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾: قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براءً من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكنتموا شهادة الله عندهم من ذلك . وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد، أي: أن علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ فَمَنْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾ وليس يعني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم متقادين لأمر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿سَبَّحْتَكَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] . وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَغْمَلْنَا وَلَكُمُ أَغْمَلْتُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَغْمَلْكُمْ﴾ أي: نحن براءً منكم كما أنتم براءً منا، ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه . ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكنتموا شهادة الله عندهم من ذلك . وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد، أي: أن علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ فَمَنْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾ وليس يعني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم متقادين لأمر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿سَبَّحْتَكَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] . وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَغْمَلْنَا وَلَكُمُ أَغْمَلْتُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَغْمَلْكُمْ﴾ أي: نحن براءً منكم كما أنتم براءً منا، ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه . ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكنتموا شهادة الله عندهم من ذلك . وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد، أي: أن علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ فَمَنْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾ وليس يعني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم متقادين لأمر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

وأنه صلى أول صلاة صلاها، صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فذاؤوا كما هم قبل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ لَكُمْ الْإِيمَانَ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَشَدِيدٌ﴾. انفرد به البخاري من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر. وقال محمد بن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى نَقْلَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوِئْسَتَكَ بِلَيْلَةٍ رَمَتْهَا قَوْلٌ وَمَهْلِكٌ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نُصرف إلى القبلة، وكيف بصلواتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ لَكُمْ الْإِيمَانَ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى نَقْلَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوِئْسَتَكَ بِلَيْلَةٍ رَمَتْهَا قَوْلٌ وَمَهْلِكٌ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فوجه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤًا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يضلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبلُ صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعدُّوا الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؛ على قولين، وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام. والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهاج أن يوجه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء. ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى: أنها الظهر. وأما أهل قُبَاء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقبَاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي هذا دليل على أن الناس لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم. ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب وزيف عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤًا عَلَيْهَا﴾ أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فشم وجه الله، و ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنَّا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبده وفي تصريفه وحُدَامُهُ، حيثما وجهنا توجهنَّا، وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمره عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجهم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد، عن علي بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عُمَرُ بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعني في أهل الكتاب -: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التي هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين». وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واختارنا لها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم

بالفضل. والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قرش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاجِحِ وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْبَدْتُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَنُكِّنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ١٧٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نذير وما آتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته» قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال: الوسط: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم». رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته: فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا» فذلك قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً» ﴿لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً». وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عتيبة بن نهاس: حدثني مكتب لنا، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كؤم مُشْرِفِينَ عَلَى الْخَلَائِقِ. ما من الناس أحد إلا وذاته منا. وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه، ﷺ».

وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضاً، واللفظ له، من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظي، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: والله - يا رسول الله - لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان... وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال النبي ﷺ: «وجبت». ثم شهد جنازة في بني حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: يا رسول الله، بش المرء كان، إن كان لفظاً غليظاً، فآثبنا عليه شرأ فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذي تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن عبد الله بن يزيد، عن أبي الأسود: قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرّت به جنازة، فأثبني على صاحبها خير. فقال: وجبت وجبت. ثم مرّ بأخرى فأثبني عليها شر، فقال عمر: وجبت وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة». قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخاري، والترمذي، والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات، به. قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثني أبو الوليد، حدثنا نافع بن عمر، حدثني أمية بن صفوان، عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالبأبوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن والثناء السيئ»، أنتم شهداء الله في الأرض». ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون. ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، وعبد الملك بن عمر، وشريح، عن نافع عن ابن عمر، به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلَيَّةَ أَلَيْ كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يَبِيعُ الرَّسُولَ مَعَنَ يَنْقَلِبُ عَلَ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يبيعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي: مُرْتَدِّاً عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعل،

وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مزية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَنْهَرُ مَنْ يَتَّبِعُ آيَاتِكُمْ زَادَتْهُمْ هَيْبَةً يَمِينًا فَامَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَزَادْتُمْ لَهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾﴾ [الاسراء: ٨٧]. ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا القبلتين. وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: بنا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم من وجه آخر، عن ابن عمر. ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري، وعنده: أنهم كانوا ركوعاً، فاستداروا كما هم إلى الكعبة، وهم ركوع. وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، مثله. وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله، واتباعهم لأوامر الله ﷻ، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾. ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه. وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى. أي: ليُعطيكُم أجرهما جميعاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألقته بصدورها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدت ضمته إليها وألقته تديها. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار، وهي تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَنَهَا وَقَوْلٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَنَهَا وَقَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ وَأَنْتَ أَكْبَرُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿وَمَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهَا قُلُوبًا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَبْغِي الرِّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَ عَقْبَيْهِ﴾.

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري، عن عمه عبید الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَنَهَا وَقَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿وَمَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهَا قُلُوبًا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَبْغِي الرِّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَ عَقْبَيْهِ﴾.

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري، عن عمه عبید الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَنَهَا وَقَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿وَمَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهَا قُلُوبًا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَبْغِي الرِّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَ عَقْبَيْهِ﴾.

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري، عن عمه عبید الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَنَهَا وَقَوْلٌ وَجْهَكَ سَطْرٌ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿وَمَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهَا قُلُوبًا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَبْغِي الرِّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَ عَقْبَيْهِ﴾.

إسحاق، عن عمير بن زياد الكندي، عن علي، رضي الله عنه، ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: شطره: قبله. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقناة، والربيع بن أنس، وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقال القرطبي: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي». وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: حدثنا زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء أن النبي ﷺ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يَعْجِبُهُ قِبَلَتُهُ قَبْلَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَصَلِّي مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ قَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قَبْلَ الْبَيْتِ. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُجِبُّ أَنْ يَحْوَلَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فَنَزَلَتْ: ﴿قَدْ رَئَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فصرف إلى الكعبة. وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نَعُدُّوْا إِلَى الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَّ عَلَى الْمَسْجِدِ فَتَصَلَّى فِيهِ، فَمَرَرْنَا يَوْمًا - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ عَلَى الْمَنْبَرِ - قُلْتُ: لَقَدْ حَدَّثَ أَمْرٌ، فَجَلَسْتُ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قَدْ رَئَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ. فقلت لصاحبي: تَعَالَ نَرْكِعُ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَكُونُ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى، فَتَوَارَيْنَا فَصَلِّيْنَاهُمَا. ثم نزل النبي ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ. وكذا روى ابن مردويه، عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظهر، وأنها الصلاة الوسطى. والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحسين بن إسحاق الثستري، حدثنا رجاء بن محمد السقطي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثني أبي، عن جدته أم أبيه ثويلة بنت مسلم، قالت: صَلَّيْنَا الظُّهْرَ - أَوْ الْعَصْرَ - فِي مَسْجِدِ بَنِي حَارِثَةَ، فَاسْتَقْبَلْنَا مَسْجِدَ إِبِلِيَاءَ فَصَلَّيْنَا رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَاءَ مَنْ يَحْدِثُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فَتَحَوَّلَ النِّسَاءُ مَكَانَ الرِّجَالِ، وَالرِّجَالُ مَكَانَ النِّسَاءِ، فَصَلَّيْنَا السَّجْدَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ، وَنَحْنُ مُسْتَقْبِلُونَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ. فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب». وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن علي بن دُخَيْمٍ، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا مالك بن إسماعيل التُّهَيْدِي، حدثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عَمَارَةَ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الصَّلَاةِ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَنَحْنُ رُكُوعٌ، إِذْ أَتَى مَنَادٌ بِالْبَابِ: أَنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حَوَّلَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ. قَالَ: فَأَشْهَدُ عَلَى إِمَامِنَا أَنَّهُ انْحَرَفَ فَتَحَوَّلَ هُوَ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَهُمْ رُكُوعٌ، نَحْوَ الْكَعْبَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَسِّرْ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَيُؤَيِّدْكُمْ شَطْرَكُمْ﴾: أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ، شَرْقًا وَغَرْبًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَلَا يَسْتَشْنَى مِنْ هَذَا شَيْءٍ، سِوَى النَّافِلَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ، فَإِنَّهُ يَصَلِّي بِهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَائِلُهُ وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ. وَكَذَا فِي حَالِ الْمَسَافِقَةِ فِي الْقِتَالِ يَصَلِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَكَذَا مِنْ جَهْلِ جِهَةِ الْقِبْلَةِ يَصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ، وَإِنْ كَانَ مَخْطِئًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَكْتَلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا.

مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره. وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: واليهود - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس - يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأُمَّتِهِ، وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرَفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ يَتَكَاثَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا؛ وَهَذَا يَهْدِيهِمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَكْفُرُونَ لَأَنزَلْنَا بِكُمُ الْقُرْآنَ وَمَا أَلَمْنَا بِكُمُ الْغُلَامِيَّةَ﴾ (١٤٦)

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما

جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِتْلَكَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا آتَىٰ بِتِلْكَ يَتْلُوهَا وَمَا بَعْضُهُمْ بِتِلْكَ بَعِيْنٌ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مُستَمسِكُ بامر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس؛ لأنها قبله اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى. ثم حذر الله تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد الأمة: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِتْلَكَ وَمَا آتَىٰ بِتِلْكَ يَتْلُوهَا وَمَا بَعْضُهُمْ بِتِلْكَ بَعِيْنٌ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِتْلَكَ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتِلْكَ بَعِيْنٌ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكْبِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله، أشهد به. قال: «أما إنه لا يخبني عليك ولا تخبني عليه». قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك ابنك، قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمره. قلت: وقد يكون المراد «يعرفونهم كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ» من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتماهى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبت تعالى نبية المؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكْبِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّبٌ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّبٌ﴾. يعني بذلك: أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث تَوَجَّهَ الْمُؤْمِنُونَ. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليتها، وللنصراني وجهة هو موليتها، وهداكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي نحو هذا. وقال مجاهد في الرواية الأخرى: ولكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة. وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: «ولكل وجهة هو مولاها». وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَازِعَةٌ وَبَيْنَهَا جَمَلٌ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿١٤٧﴾﴾. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَازِعَةٌ وَبَيْنَهَا جَمَلٌ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿١٤٧﴾﴾. وقال ههنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنَ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَمَلُونُ ﴿١٤٩﴾﴾ وَمِنَ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَدَاوَةً مِمَّا قَدْ تَلَوْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَحْتَوِي وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ ﴿١٥٠﴾﴾.

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض. وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي. وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبي، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولاً ﴿قَدْ تَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ لَيَكْتُمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا يَكْفُرُونَ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها؛ وقال في الأمر الثاني: ﴿وَمِنَ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَمَلُونُ ﴿١٤٩﴾﴾، فذكر أنه الحق من الله وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من

اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حججهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول ﷺ إليها، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَيْنُكُمْ حُجَّةً﴾ أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر. قال أبو العالية: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَيْنُكُمْ حُجَّةً﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صُرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه. وكان حججهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، نحو هذا. وقال هؤلاء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: مشركي قريش. ووجه بعضهم حُجَّةُ الظلمة - وهي داحضة - أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم؛ فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم يرجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم - وهي الكعبة - فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو، صلوات الله وسلامه عليه، مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين، وأمهت تبع له. وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبُوهُمْ كَآخِشِينَ﴾ أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعتنين، وأفرذوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه. وقوله: ﴿وَلَا تَيْمَنُوا بِعِزَّةِ عَيْتِكُمْ لِيُطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: ولا تمننوا بغيركم ليطاف عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهاً ﴿وَمَلَكُمْ مَهْمَدُونَ﴾ أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَّاكُمْ لِيُذَكِّرَ أَكْثَرَكُمْ وَأَسْخَرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَّاكُمْ لِيُذَكِّرَ أَكْثَرَكُمْ وَأَسْخَرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥٢).

يُذَكِّرُ تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات وَيُزَكِّيهِمْ، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق وَدَسَسَ النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن - والحكمة - وهي السنة - ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسْفَهُونَ بالقول الفزى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلمهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية (آل عمران: ١٦٤). وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُؤْسِ﴾ (إبراهيم: ٢٨). قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ ولهذا نذب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكوره وشكره، فقال: ﴿فَأَذْكُرُوا لِي وَتَسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥١). قال مجاهد في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فأذكروني. قال عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن موسى عليه السلام، قال: يا رب، كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني. وقال الحسن البصري، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره ويعذب من كفره. وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿أَتَقْرَأُ اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ﴾ (آل عمران: ١٠٢) قال: هو أن يطاع فلا يُنصى، ويذكر فلا يُنسى، وَيُشْكِرَ فلا يُكْفَرَ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلاني، حدثنا مكحول الأزدي قال: قلت لابن عمر: أ رأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا لِي وَتَسْكُرُوا لِي﴾ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته، حتى يسكت. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا لِي وَتَسْكُرُوا لِي﴾ قال: أذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبتم لكم على نفسي. وعن سعيد بن جبيرة: أذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا لِي وَتَسْكُرُوا لِي﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. وفي الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، من ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله ﷻ يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملاء ذكرتك في ملاء من الملائكة - أو قال: في ملاء خير منهم - وإن دنوت

مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول». صحيح الإسناد، أخرجه البخاري من حديث قتادة. وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعده على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيحِكُمْ لَمَنِ سَكَّرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء الطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزل لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه». وقال روح مرة: «على عبده».

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنِينَ وَالصَّابِرُونَ لِمَا آتَاهُم مِّنَ اللَّهِ أَجْرًا﴾ [البقرة: ١٥٣].

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن. لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاطِمِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في باين، الصبر لله بما أحب، وإن نقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم، إن شاء الله. وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُتْق من الناس، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: وقيل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلت، ادخلوا الجنة، فنعلم أجر العاملين. قلت: ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجذد لا يرى منه إلا الصبر. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتُوا بَلْ أحيَاءٌ يَرْتَقُونَ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرتقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك أطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأتي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». فقيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

﴿وَلَتَنَلَّوْكُمْ يَتْنُو مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقَسٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالصَّرَبِ وَالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلَتَنَلَّوْكُمْ يَتْنُو مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقَسٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ١٥٤].

أخبر تعالى أنه يتلنى عباده المؤمنين، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَنَلَّوْكُمْ حَتَّى تَلْمِزَ الْمُجْرِمِينَ وَتَكْفُرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَبَيَّنُوا أَرْبَابَكُمُ الْغَيْبِ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَقْنَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال ههنا ﴿يَتْنُو مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾: أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقَسٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾: أي: ذهب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾: كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالصَّرَبِ﴾: أي: لا تُعَلِّجُ الحداثق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحل الله به عقابه. ولهذا قال: ﴿وَكَبِيرٌ أَصْدِيرٌ﴾. وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا: خوف الله، وبالجموع: صيام رمضان، ونقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد. وفي هذا نظر، والله أعلم. ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم، قال:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ (١٥٦) أي: تسَلَّوْا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنَّهم ملك الله يتصرف في عيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ثناء من الله عليهم ورحمة. قال سعيد بن جبیر: أي أُمَّتُهُ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نَعَمْ الْعَدْلَانِ وَنِعْمَتِ الْعَلَاوَةِ ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً. وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث - يعني ابن سعد - عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سُرْتُ بِهِ. قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتيه، ثم يقول: اللهم أجزني في مصيبتني واخلف لي خيراً منها، إلا فعل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجزني في مصيبتني واخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي. فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ - وأنا أدبغ إهاباً لي - ففسلت يدي من القِرْطِ، وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حَشَوْهَا لَيْفٍ، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقاله قلت: يا رسول الله، ما بي ألا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُدْهِمُهَا اللهُ، عَنكَ. وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالُك عيالي». قالت: فقد سلَّمْتُ لرسول الله ﷺ. فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ. وفي صحيح مسلم، عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ اللهم أجزني في مصيبتني واخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله من مصيبتيه، واخلف له خيراً منها». قالت: فلما تُوفِّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه: رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، وعَبَادُ بن عباد قالوا: حدثنا هشام بن أبي هشام، حدثنا عباد بن زياد، عن أمه، عن فاطمة ابنة الحسين، عن أبيها الحسين بن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدا - وقال عباد: قَدَّمْ عهدا - فيُحَدِّثُ لذلك استرجاعاً، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب». ورواه ابن ماجه في سننه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين. وقد رواه إسماعيل بن عُليَّة، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد، عن أبيه، كذا، عن فاطمة، عن أبيها. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السالحي، أخبرنا حَمَادُ بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنتُ ابناً لي، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني، وقال لي: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عَزْرَب، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمره فواده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمَدُك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسَمَّوه بيتَ الحمد». ثم رواه عن علي بن إسحاق، عن عبد الله بن المبارك. فذكره. وهكذا رواه الترمذي عن سُويد بن نصر، عن ابن المبارك، به. وقال: حسن غريب. واسم أبي سنان: عيسى بن سنان.

﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمُرَّةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ حَرًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٧)

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قلت: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمُرَّةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطَّوَّفَ بهما؟ فقالت عائشة: بشما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهْلُونَ لِمَنَاةِ الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمُرَّةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجه في الصحيحين. وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن

هذا العلم، ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء. ورواه البخاري من حديث مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، بنحو ما تقدم. ثم قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال: كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَابِرِ اللَّهِ﴾. وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله، وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلام سألو الرسول الله ﷺ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبي: كان إساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. قلت: وذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين، فزينا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرعون ركابهم بمفضي السيول من إساف ونائل
وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفية بنت شيبة، عن حبيبة بنت أبي تخرجة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: «اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي». ثم رواه أمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن واصل - مولى أبي عيينة - عن موسى بن عبيدة، عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كتب عليكم السعي، فاسعوا». وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب، وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾. وقيل: بل مستحب. والقول الأول أرجح، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عني مناسككم». فكل ما فعله في حجه تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم، وقد تقدم قوله عليه السلام: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي». فقد بين الله - تعالى - أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وتردادهما بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نهد ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونهد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، ﷻ، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجله مضطرة فقيرة إلى الله، ﷻ، حتى كشف الله كربتها، وآسن غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله، ﷻ، ليُريح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يبثه عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك. وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. حكى ذلك فخر الدين الرازي، وعزى الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يشيب على القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بقدر الجزء فلا يخس أحداً ثوابه و﴿لَا يظلمُ شيئاً ذريراً﴾ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لده أجرًا عظيماً ﴿النساء: ٤٠﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي مِن بَيْنَ يَدَيْهِ مَا بَيِّنَةٌ لِّلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْمِزُهُمُ اللَّهُ وَيَلْمِزُهُمُ النَّبِيُّونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَأْتُواوَأَسْكُرُوا وَيُبْذُونَ فَأُولَئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِيدَيْنِ فِيهَا لَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ أَلْمَدَابُ وَلَا هُمْ يُظَاهِرُونَ ﴿١٦٢﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه، التي أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء الذين يكتمون، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سُئِلَ عن علم، فكتمه أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نار». والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ الْآيَةِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنَا عِمَارُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، عَنِ الْمَنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زَادَانَ أَبِي عَمْرٍو، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ الْكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ كُلَّ دَابَّةٍ غَيْرِ الثَّقَلَيْنِ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاحِقُونَ﴾ يعني: دواب الأرض». ورواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح عن عمار بن محمد به. وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس. وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاحِقُونَ﴾: يعني تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون. وقد جاء في الحديث، أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان، وجاء في هذه الآية: أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال، أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَمْسَلُوا وَبَيَّنُّوا﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه. ثم أخبر تعالى عن كفره واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ أَلْمَدَابُ﴾ فيها، أي: لا ينقص عمَّا هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُظَاهِرُونَ﴾ أي: لا يُعَيِّرُ عنهم ساعة واحدة، ولا يفتِّر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. وقال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره؛ فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندرى بما يختم له، واستدل بعضهم بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين. واختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله، عليه السلام، في صحيح البخاري في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» قالوا: فعلة المنع من لعنه؛ بأنه يحب الله ورسوله فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُكَرُّ لِلَّهِ وَجِدُّ لَأِ اللَّهِ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول السورة. وفي الحديث عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُكَرُّ لِلَّهِ وَجِدُّ لَأِ اللَّهِ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿الْعَزَّ وَالْعَزَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ١، ٢)». ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيها، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاسْتَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ الَّذِي يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَثَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرَءَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَشْرِيفِ الرَّبْحِ وَالشَّحَابِ الْمُسَوِّجِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلکها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهابها وغمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَأَخْتَلَفَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْأَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَالْفُلُوكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ نَسْفَةٍ مِنْ تَأْوٍ فَأَخِصًا بِدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ هُمُ الْأَرْضُ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَآخَرُهَا مِنْهَا حَيًّا فَيَنْتَهَى بِأَكْوَابِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [سورة الأعراف: ٦٨] ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٩] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي سَاعَتَيْنِ الْأُولَى وَالْآخِرَى وَمَنْ أُنْفِيسِهِمْ وَمَنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٣-٣٦]. ﴿وَبَدَّهَا مِنْ كَتِّبٍ ذَاتِ كَرٍّ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَاتِ قُرْبَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَعِلْمُهُ سُنتُهَا وَسُجُودُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦١] ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أي: تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مباشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعها، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة ديور وهي غربية تغد من ناحية دبر الكعبة والرياح تسمى كلها بحسب مرورها على الكعبة. وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض يُسَخَّرُ إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَأَنْتَ لَقَوِيْرٌ يُعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠] ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَنَّكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويَه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدُّشْتُكِي حَدَّثَنِي أَبِي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا: يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنشترى به الخيل والسلاح، فنؤم بك ونقاتل معك. قال: «أو تقوا لي لئِنْ دعوتُ ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بي». فأوثقوا له، فدعاه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين. قال محمد ﷺ: «رب لا، بل دعني وقومي فلاذعهم يوماً بيوم». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الآية. ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به. وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجیح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١]. فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إليه واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَنْتَ لَقَوِيْرٌ يُعْقِلُونَ﴾. فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء. وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يُعْقِلُونَ﴾. ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن سعيد بن مسروق، والد سفيان، عن أبي الضحى، به.

﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَنْ يَخُذُ مَنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٦] إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة: ١٦٧] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٧].

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أي: أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود

قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبههم لله وتمايم معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ إِذْ يَسْتَدْعُونَ اللَّهَ وَلَاقُوا اللَّهَ وَأَقَامَهُ أَشَدُّ﴾ [النجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعابنونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ تبرات منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَةً يَسْتَدْعُونَ﴾ [التقصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]. والجن أيضاً تبارأ منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلْ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَّا يَنْتَعِبُ لَهُ مِنْ لَّا يُورِ الْقِيَامَةَ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا مِنَ اللَّهِ يَوْمَ دُعِيَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ لِيُكَلِّمَهُمْ عَزَّ أَكْبَرًا﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٧﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّقِئُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [المنكوث: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَعَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَجِعَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَمْحَىٰ سَدَدَنَّاكَ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢١-٢٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ السَّيِّطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّي وَعَدُّوكُمْ فَلَبَسْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِجِكُمْ إِلَىٰ كَعَفَرْتَ بِنَا أَفْرَاشِكُمْ مِنْ قَبْلِ إِذِ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الجبل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مغلداً ولا مضرفاً. قال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجیح. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبِعُ لَمَّا نَبَّهْنَا وَمَا كُنَّا نَدْعُوا إِلَّا الْوَالِدِينَ وَالْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [النور: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مَسْمُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ حَمِيمَةٍ ظَهَرَ أَفْعَانُ مَاءٌ﴾ الآية [النور: ٣٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ﴾. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا مَلِيًّا وَلَا تَقْتُلُوا حُلُوتِ السَّيِّئِينَ إِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ إِنَّمَا يُرْمَىٰ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَةِ وَأَنْ قُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ٢١].

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما رزبه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل ما أمنه عبدي فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبدي ختفاً فجاءتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم، وحزمت عليهم ما أحللت لهم». وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصري، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني - رفيق إبراهيم بن أدهم - حدثنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ثلثت هذه الآية عند النبي ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا مَلِيًّا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس

محمد بيده، إن الرجل لَيُذْفَقُ اللقمة الحرام في جوفه ما يُتَقَبَّلُ منه أربعين يوماً، وأتينا عبد نبت لحمه من السُخْتِ والربا فالنار أولى به». وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [ماطر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَقْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال قتادة، والسدي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. وقال عكرمة: هي نزعات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه، أو قال: خطاياهم. وقال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي. وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه فأفاته مسروق بذبح كبش. وقال: هذا من خطوات الشيطان.

وقال أبو الضحى، عن مسروق: أتى عبد الله بن مسعود بَصْرُوعٍ وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل صُرْعًا أبداً. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعمم وكفّر عن يمينك. رواه ابن أبي حاتم، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المضري، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع، قال: غضبت على امرأتي، فقالت: هي يوماً يهودية ويوما نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفضه امرأة في المدينة. وأتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك. وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وقال سعيد بن داود في تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلبى عن عاصم الأحول، عن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أجلك مائة سوط فامرأته طالق، قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّرِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ هَآئِهَآءُ أَوْ لَوْ كُنَّا رَبَّهُمْ لَآ يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ لَآ دَعْوَاهُ وَيَذَّأبُ مِمَّنْ يَكْفُرُ عَمِّي فَهُمْ لَآ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَهْوَاءِ الكُفْرَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا﴾ أي: وجدنا ﴿عَلَيْهِ هَآئِهَآءُ﴾ أي: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا رَبَّهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَآ يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية!! وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. فأنزل الله هذه الآية. ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعت بها راعبها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعواتهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقل ولا تبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها. وقوله: ﴿مِمَّنْ يَكْفُرُ عَمِّي﴾ أي: صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَآ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورًا وَكُفِّرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَحْمِلُونَ أَرْثَهُمْ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٢٦٩].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلِمَاتٌ مِّنْ طِبْيَاتٍ مَّا رَزَقْتُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِآ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٤] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

يقول تعالى آمراً عبادة المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَأْتِيهَا

الرَّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاصْلُوا صَدِيقًا إِنِّي لَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِمْ ﴿١٧٠﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأتى يستجاب لذلك. ورواه مسلم في صحيحه، والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق. ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحَرِّمْ عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حَتْفَ أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو مُتْرَدِيَةٌ أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع. وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَاللَّيْسَاءُ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي، وحديث العنبر في الصحيح. وفي المسند والموطأ والسنن قوله، عليه السلام، في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وسيأتي تقرير ذلك في سورة المائدة. ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جن المجوس، فقال القرطبي في تفسيره ههنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع. وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هارون عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي. عن سلمان سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه». وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّيَ أو مات حَتْفَ أنفه، ويدخل شُحْمه في حكم لحمه، إما تغليظاً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي. وكذلك حَرَّمَ عليهم ما أهْلُ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للبعث فنجرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم؛ وأورد القرطبي عن عائشة أنها سئلت عما يذبحه العجم في أعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ أَحْضَرَ غَيْرَ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وقال سعيد - في رواية عنه، ومقاتل بن حيان: غير باغ: يعني غير مستحل. وقال السدي: غير باغ يبتغي فيه شهوته، وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿غَيْرَ بَإِغٍ﴾ قال: لا يشوي من الميتة ليشتبهه ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العُلُقَةَ، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ يقول: لا يعدو به الحلال. وعن ابن عباس: لا يشيع منها. وفسره السدي بالعدوان. وعن ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَإِغٍ﴾ في الميتة، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد في أكله: أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة. وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنْ أَحْضَرَ﴾ أي: أكره على أكل ذلك بغير اختياره. مسألة: ذكر القرطبي إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بلا خلاف - كذا قال - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمنه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبي إياس جعفر بن أبي وحشية: سمعت عباد بن شرحبيل الغبري قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة. فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضرمني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً». فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بغيره غير متخذ خبنة، فلا شيء عليه» الحديث. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزداد على ثلاث لقم. وقال سعيد بن جبير: عُفُورٌ لما أكل من الحرام. رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار. وقال وكيع: حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا

يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبري - المعروف بالكنيا الهراسي رفيق الغزالي في الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض في رمضان ونحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ نَمَّا قَلِيلًا أَلْوَيْكَ مَا يَأْكُرُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أَلْوَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّالَ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَينِهِمْ ﴿١٧٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ مما يشهد له بالرسالة ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - أن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرُ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ نَمَّا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أَلْوَيْكَ مَا يَأْكُرُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تَأْجُجُ في بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُرُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلًّا إِنَّمَا يَأْكُرُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْفُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٠]، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ بأنه قال: «الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يجزجر في بطنه نار جهنم». وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم، أي: ينفي عنهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً. وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مَرْدُوْنَه ههنا الحديث الذي رواه مسلم أيضاً من حديث الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر». ثم قال تعالى: مخبراً عنهم: ﴿أَلْوَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى﴾ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة. وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياداً بالله من ذلك. وقيل معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي: ما أدمهم لعمل المعاصي التي تقتضي بهم إلى النار. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّالَ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ﴾ أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّالَ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَينِهِمْ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تُولُوا وَبُوءَ بِكُمْ بِكَلِمَاتٍ مُّشْرِكٍ وَالْمُشْرِكِ وَالْمُشْرِكِ وَلَكِنَّ إِلَهٌ إِلَّا مَا بِيَدِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاللَّيْطِ وَاللَّيْطِ وَمَا عَلَىٰ جُنْجِيهِ ذَوَى السُّرُوبِ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقْرَبَ السَّلَاةِ وَمَا فِي الرِّقَابِ وَالْمُؤْتَرِكِ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَفَةِ وَسِينَ الْأَبْنَى أَلْوَيْكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَلْوَيْكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، على جملة عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد بن هشام الحلبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شُعْبَى، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فبنا عليه: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تُولُوا وَبُوءَ بِكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فبناها عليه، ثم سأله. فقال: «إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك». وهذا منقطع؛ فإن مجاهداً لم يدرك أباً ذر؛ فإنه مات قديماً. وقال المسعودي: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تُولُوا وَبُوءَ بِكُمْ﴾ حتى فرغ منها. فقال الرجل: ليس عن البر سألتك. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فسأله عما سألتني عنه، فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبيت أنت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ - وأشار بيده -: «المؤمن إذا عمل حسنة سرتَه ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أذنته وخاف عقابها». رواه ابن مَرزُويه، وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم. وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حَوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، ﷻ، وامتنال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَيَتَوَلَّوْا الْآخِرَةَ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنَّ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ١٣٧]. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تُصَلُّوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها.

وروي عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك. وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقبِل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل. وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله. وقال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله، ﷻ. وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها. وقال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عَرَى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسوله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله، وأمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَلَىٰ حَيْدٍ﴾ أي: أخرجه، وهو مُحِب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبيرة وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تصدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر». وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة والثوري، عن منصور، عن زُبَيْد، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ عَلَىٰ حَيْدٍ﴾: أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قلت وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زُبَيْد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم. وقال تعالى: ﴿وَتَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ عَلَىٰ حَيْدٍ وَسَكِينًا وَيَنبَأُ وَيَأْتِيكَ إِتْمَانًا تَطْمِئِنُّ عَلَيْهِ اللَّهُ لَا تَرُدُّ بِشِكْرِ الْجَزَاءِ وَلَا شُكْرًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنفِقَهُ إِلَّا حَقًّا تَبَقُّوهُ وَمَا شِئْتُمْ﴾ قال عمران: [٩٢]، وقوله: ﴿رَبُّوهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحنتر: ٩] نطأ آخر أرفع من هذا ومن هذا، وهو أنهم أتروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له. وقوله: ﴿ذَوِي الْأَرْبَابِ﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصله». فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز.

﴿وَأَلْبَسْتَنَّهُمْ﴾ هم: الذي لا كاسب لهم، وقد مات أبائهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن جوبير، عن الضحاك، عن النزال بن سَبْرَةَ، عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُثْم بعد حُلْم». ﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وختلتهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمران واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُصدَّق عليه». ﴿وَأَنَّ السَّبِيلِ﴾ هو: المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرأ في طاعة، فيعطى ما يكفي في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك والزهري والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. ﴿وَالسَّابِقِينَ﴾ وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، قالوا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها - قال عبد الرحمن: حسين بن علي - قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». رواه أبو داود. ﴿وَفِي أَرْبَابٍ﴾ وهم: المكاتبون الذين لا

يجدون ما يؤدونه في كتابتهم. وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، حدثني فاطمة بنت قيس: أنها سألت رسول الله ﷺ: «أفي المال حق سوى الزكاة؟» قالت: «فلا عليّ: ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾. ورواه ابن مَرْزُوبِه من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، كلاهما، عن شريك، عن أبي حمزة عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة» ثم تلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي آرْقَابٍ﴾.

وقد أخرجه ابن ماجه والترمذي وضعف أبا حمزة ميموناً الأعور، قال: وقد رواه بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي. وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمانيتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. وقوله: ﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةَ النَّفْسِ، وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَا الرَّذِيلَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَطْعَمَ مِنْ زَكَاةِهَا﴾ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا ﴿١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقول موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْتَبِرْ ﴿١٩﴾ [الزمر: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [نصفت: ٦، ٧]. ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبيرة ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة؛ ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس: أن في المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالْمُؤْرِكُ يَمْهَدِيهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ يَمْهَدُ اللَّهُ لَهُمْ وَيَأْتِيهِمْ الْيُسْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان». وفي الحديث الآخر: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وقوله: ﴿وَالْقَادِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم. وإنما نُصِبَ ﴿وَالْقَادِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ مَأْمُورٌ كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْمَرُّ بِالْحَرِّ وَالْمَعْدُ بِالْمَعْدِ وَالْأُنْفُ بِالْأُنْفِ فَمن عُنِيَ لَهُ مِنَ أَحَدِهِمْ فَأَتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْيِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن عَدَدِي بَدَّ ذَٰلِكَ فَلَمَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَكَلِمَةٌ فِي الْقِصَاصِ حِيْرَةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَمَلَكْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾. يقول تعالى: ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ﴾ العدل في القصاص - أيها المؤمنون - حُرِّمَ بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبنو النضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهرهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُغَادَى بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فذوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفرةً وبغياً، فقال تعالى: ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْمَرُّ بِالْحَرِّ وَالْمَعْدُ بِالْمَعْدِ وَالْأُنْفُ بِالْأُنْفِ﴾. وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، في قول الله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ مَأْمُورٌ كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني: إذا كان عَمْدًا الحَرِّ بِالْحَرِّ. وذلك أن حَيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ اقْتَتَلُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِقَلِيلٍ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلٌ وَجِرَاحَاتٌ، حَتَّى قَتَلُوا الْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ، فَلَمْ يَأْخُذْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى أَسْلَمُوا، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيِّينَ يَتَطَاوَلُ عَلَى الْآخَرِ فِي الْعِدَّةِ وَالْأَمْوَالِ، فَحَلَفُوا أَلَّا يَرْضَوْا حَتَّى يَقْتُلَ بِالْعَبْدِ مِنَ الْحَرِّ مِنْهُمْ، وَبِالْمَرْأَةِ مِنَ الرَّجُلِ مِنْهُمْ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ. ﴿أَلْمَرُّ بِالْحَرِّ وَالْمَعْدُ بِالْمَعْدِ وَالْأُنْفُ بِالْأُنْفِ﴾ منها منسوخة، نسختها ﴿الْأَنْفُسُ بِالْأَنْفُسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْأُنْفُ بِالْأُنْفِ﴾ وذلك أنهم لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسأؤهم في النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونسأؤهم، وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿الْأَنْفُسُ بِالْأَنْفُسِ﴾.

مسألة: مذهب أبي حنيفة أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود، وهو مروى عن علي، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة والحكم، وقال البخاري، وعلي بن المدني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه: يقتل السيد بعبد؛ لعموم حديث الحسن عن سمرة: «من قتل عبده قتلناه، ومن جذعه جذعناه، ومن خصاه خصيناه»، وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق أولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، كما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة؛ ولقوله عليه السلام: «المسلمون تكافأ دماؤهم»، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاها ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان والزهرري ومحمد بن سيرين وحيب بن أبي ثابت؛ ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة. وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلفت الصحابة فسيبيله النظر. وقوله: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ»: قال مجاهد عن ابن عباس: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» فالعفو: أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالبي، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال الضحاك عن ابن عباس: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» يقول: فمن ترك له من أخيه شيء يعني: بعد أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو «فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْمَعْرُوفِ» يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قَبِلَ الدية «وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» يعني: من القاتل من غير ضرر ولا مَغْكَ، يعني المدفاعة. وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان.

مسألة: قال مالك - رحمه الله - في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوله: ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقر: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو منهنم الحسن، وقتادة، والزهرري، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعي، وخالفهم الباقر. وقوله: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد، عن ابن عباس، قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ وَالْمَبْدِيِّ وَالْمَبْدِيِّ وَالْأَنْثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان. وقد رواه غير واحد عن عمرو بن دينار، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن عمرو بن دينار، به. وقد رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس؛ ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس، بنحوه. وقال قتادة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ»: رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبيلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أورش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش. وهكذا روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، نحو هذا. وقوله: «فَمَنْ أَعْتَدَكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَدَاْبٌ أَلِيمٌ» يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجه شديد. وكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق، عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شريح الخراعي: أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خَبَل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» رواه أحمد. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية - يعني: لا أقبل منه الدية - بل أقتله». وقوله: «وَلَكُمْ فِي

أَلْقِصَاصِ حَيَّوَةً ﴿١٨٠﴾: يقول تعالى: وفي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ - وهو قتل القاتل - حكم عظيم لكُم، وهي بقاء المُهْجِ وَصُونِهَا؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكَفَ عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النفوس. وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّوَةٌ﴾: قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبي مالك، والحسن، وقناة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حیان، ﴿يَتَأَذَى الْأَنْبِيَاءَ لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والتقى، لعلكم تنزجرون فتتكون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَمًا مِمَّا قَلِبًا إِفْثَمَ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُّونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾ فَمَنْ حَافٍ مِنْ مَوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾﴾. اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً - على أصح القولين - قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نُسخَتْ هذه، وصارت الموارث المقدره فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصي، ولهذا جاء الحديث في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علقمة، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخَتْ هذه الآية. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هُثَيْمِ، عن يونس، به. ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: ٧]. ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، وأبي موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقناة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وطاوس، وإبراهيم التَّخَعِي، وشريح، والضحاك، والزهري: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث. والعجب من أبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر الرازي - رحمه الله - كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني: أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مُفسرة بآية الموارث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين. من قوله: ﴿يُؤَسِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبیر، والربيع بن أنس، وقناة ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عيّن له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نذراً حتى نُسخَتْ. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية - فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع. بل منهي عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». فآية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض وللعصابات، رفع بها حُكْمُ هذه بالكلية. بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصي لهم من الثلث، استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي. والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً. وقال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، ننتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيباً في مالك حين أخذت بكظمك، لا ظهره به وأزكيك، وصلاة عبادي عليك بعد انقضاء أجلك». وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا. قاله ابن عباس،

ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبّير، وأبو العالية، وعطية العوفى، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وقتادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قلّ المال أو كثر كالأروثة، ومنهم من قال: إنما يوصى إذا ترك مالا جزئياً، ثم اختلفوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قيل لعلي، رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات، وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة، ولم يوص. قال: ليس بشيء، إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾. قال: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك. وقال الحكم بن أبان: حدثني عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال الحكم: قال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً. وقال قتادة: كان يقال: ألفاً فما فوقها. وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن يسار، حدثني سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قوله: ﴿كَيْتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَمَدُكُمْ أَلْمُوتِ﴾ فقال: نَعَمْ، الوصية حق، على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر. والمراد بالمعروف: أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس». وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد مولى بني هاشم، عن ذياب بن عبيد بن حنظلة، سمعت حنظلة بن جندب بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم في حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إني أوصيت ليتيم لي بمائة من الإبل، كنا نسميها المطيبة. فقال النبي ﷺ، «لا، لا، لا». الصدقة: خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمسة عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمسة وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسة وثلاثون، فإن أكثرت فأربعون». وذكر الحديث بطوله. وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَدَلًا سِمْعًا فَإِنَّمَا أَنتُمْ عَلَى الْآلِئِينَ يَدُلُونَهُ﴾ يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحزفها، فغزى حكمها وزاد فيها أو نقص - ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى - ﴿فَأِنَّمَا أَنتُمْ عَلَى الْآلِئِينَ يَدُلُونَهُ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم. وقوله: ﴿فَمَنْ حَافٍ مِنْ مَوْصِيٍّ جَنَفًا أَوْ إِنَّمَا﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي: الجَنَفُ: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متمعداً تماماً في ذلك، فللوصي - والحالة هذه - أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي. ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء. ولهذا عطف هذا - فبينه - على النهي لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد، قراءة، أخبرني أبي، عن الأوزاعي، قال الزهري: حدثني عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «يُرَدُّ مِنْ صَدَقَةِ الْحَائِفِ فِي حَيَاتِهِ مَا يَرِدُ مِنْ وَصِيَّةِ الْمَجْنُونِ عِنْدَ مَوْتِهِ». وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْزُوقٍ، من حديث العباس بن الوليد، به. قال ابن أبي حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد. وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط. وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، فلم يجاوز به عروة. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الحيف في الوصية من الكبائر». وهذا في رفعه أيضاً نظراً. وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قاله عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَرٌ، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْرٍ بن حَوْشَبٍ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَمْتَدُّوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كَيْتَبَ عَلَيْكُمُ الْوَصِيَّةُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّمَا مَمْدُودِنَا فَمَنْ كَاتَبَ يَتَكَّمُ

رَبِّضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ نَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ .

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وأمرأ لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ لَكُمْ سُنَّةَ اللَّهِ لِكَمَلِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْئُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمُ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابٌ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَنْفُونَ﴾ (١٨٣) لأن الصوم فيه تركية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم البائة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام - عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نَسَخَ اللهُ ذلك بصيام شهر رمضان. وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابٌ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَنْفُونَ﴾ (١٨٣) آيَاتاً مُتَدَوِّرَةً فقال: نعم، والله لقد كتبت الصيام على كل أمة قد خلت كما كتب علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. وروي عن السدي، نحوه. وروي ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد، عن أبي الربيع، رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم...» في حديث طويل اختصر منه ذلك. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن عمه حدثني عن ابن عمر، قال: أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَنْفُونَ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم الله عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جببير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، نحو ذلك. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني بذلك: أهل الكتاب. وروي عن الشعبي والسدي، وعطاء الخراساني، مثله.

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ رَبيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعده ذلك من أيام آخر. وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام، فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ نَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودي، حدثنا عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأما أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ قدم المدينة، وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله ﷻ أنزل عليه: ﴿قَدْ رَزَى نَفْسُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنْزِلَتِكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] فوجهه الله إلى مكة. هذا حول. قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذون بها بعضهم بعضاً حتى تقسوا أو كادوا يتنفسون. ثم إن رجلاً من الأنصار، يقال له: عبد الله بن زيد، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم - ولو قلت: إني لم أكن نائماً لصدقت - أني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - منى حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة، ثم قال مثل الذي قال، غير أنه يزيد في ذلك: قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ: «عَلِمَهَا بِلَا فُلْيُؤَذْنَ بِهَا». فكان بلال أول من أذن بها. قال: وجاء عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله ﷺ، إنه قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنه سبقني، فهذان حالان. قال: وكانوا يأتون الصلاة - قد سبقهم النبي ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذا كم صلى، فيقول: واحدة أو اثنتين، فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجد على حال إبدأ إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقني.

قال: فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه، فلما قضى رسول الله ﷺ قام ف قضى، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد سن لكم معاذ، فهكذا فاصنعوا». فهذه ثلاثة أحوال. وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدّم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله ﷻ أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان. قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له: صزمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح فأصبح صائماً، فراه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟ قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجنثت حين جنثت فالتقيت نفسي فتمت فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجْرٌ لَّكُم مِّمَّا أَكَلْتُم مِّنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم مِّمَّا حَرَّمَ اللَّهُ لَكُمُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنكَرَ﴾. وأخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدرکه، من حديث المسعودي، به. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر. وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود، مثله. وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ: كان في ابتداء الأمر: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها. وروى أيضاً من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: هي منسوخة. وقال السدي، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عمرو بن دينار، عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: «وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين». قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً.

وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، نحوه. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً. وقال الحافظ أبو بكر بن مزروعيه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المحرمي، حدثنا وهب بن بقيب، حدثنا خالد بن عبد الله، عن ابن أبي ليلي، قال: دخلت على عطاء في رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر. فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسته، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء - أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس - بعد أن كبر عاماً أو عامين - كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر. وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، فقال: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا عمران، عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس بن مالك عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم. ورواه عبد بن حميد، عن روح بن عباد، عن عمران - وهو ابن حدير - عن أيوب، به. ورواه عبد

أيضاً، من حديث ستة من أصحاب أنس، عن أنس - بمعناه. ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه. والله الحمد والمنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ ۗ وَلَلَكُمْ فِي تَشْكُرِكُمْ ﴿١٨٥﴾﴾.

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عمران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة - يعني ابن الأسقع - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صُحُف إبراهيم في أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة ليست مَضِينَ من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل لثلاثي عشرة ليلة خلت من رمضان، والإنجيل لثمانية عشرة، والباقي كما تقدم. رواه ابن مردويه. أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل - فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]. وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ بُرُوجِكُمْ ﴿٢﴾﴾ [الدخان: ٢٣]، ثم نزل بعد مفزقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روي من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل، عن السدي، عن محمد بن أبي المجالد عن يقسم، عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشك من قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ بُرُوجِكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، وقد أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان، في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهذا لفظه.

وفي رواية سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُخَدِّثُ لبيبة ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٢، ٢٣]. قال فخر الدين: ويحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا، وتوقف هل هذا أولى أو الأول؟ وهذا الذي جعله احتمالاً نقله القرطبي عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وحكى الرازي عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: في فضله أو وجوب صومه، وهذا غريب جداً. وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾: هذا مدح للقرآن الذي أنزل الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أي: ودلائل وُحِّجَ بيته واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال، والحرام. وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال: «إلا شهر رمضان» ولا يقال: «رمضان»؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بكار بن الريان، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، وسعيد - هو المقبري - عن أبي هريرة، قال: لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان. قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن مجاهد، ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت. قلت: أبو معشر هو نجيب بن عبد الرحمن المدني إمام في المغازي، والسير، ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعاً، عن أبي هريرة، وقد أنكروه عليه الحافظ ابن عدي - وهو جدير بالإنكار - فإنه متروك، وقد وهم في رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخاري، رحمه الله، في كتابه لهذا فقال: «باب يقال رمضان»، وساق أحاديث في ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه - أن يصوم لا محالة. ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه، أو يؤذيه، أو كان على سفر أي في حال سفر - فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم. وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية: إحداها: أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبنا الصحيح. الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر، لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. والصحيح قول الجمهور، أن الأمر في ذلك على التخيير، وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان. قال: «فمن الصائم ومن المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم». فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة. الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه». وقال في حديث آخر: «عليكم برخصة الله التي رخص لكم». وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفأصوم في السفر؟ فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر». وهو في الصحيحين. وقيل: إن شق الصيام للإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصيام في السفر». أخرجاه. فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة.

الرابعة: القضاء، هل يجب متابعا أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع، لأن القضاء يحكي الأداء. والثاني: لا يجب التتابع، بل إن شاء فزق، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزازي، حدثنا ابن هلال، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره». وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا غاضرة بن عروة الفُقمي، حدثني أبي عروة، قال: كنا ننظر النبي ﷺ فخرج رجلاً يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر» ثلاثاً يقولها. ورواه الإمام أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم، عن عاصم بن هلال، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التياح، سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا». أخرجاه في الصحيحين. وفي الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفي السنن والمسند أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفة السمحة».

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجزي، عن عبد الله بن شقيق، عن مِخْجَن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً

يصلي فتراها بصره ساعة، فقال: «أترأه يصلي صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسمِعه فتهلكه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر». ومعنى قوله: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعدار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم. وقوله: «وَلْيُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَمَلًا مَّا هَدَيْتُمْ» أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: «فَإِذَا قَضَيْتُمْ صَلَاتَكُمْ فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا» [البقرة: ٢٠٠] وقال: «فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْعُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوا وَعَنْ جُوبِئِكُمْ» [النساء: ١٠٣]، «فَإِذَا قَضَيْتَ الصَّلَاةَ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [الجمعة: ١٠] وقال: «وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَدْرَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَدْرَ الْغُرُوبِ» [١٦] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ» [١٧] [٢٩، ٤٠]؛ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات. وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير؛ ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: «وَلْيُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَمَلًا مَّا هَدَيْتُمْ» حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر؛ لظاهر الأمر في قوله: «وَلْيُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَمَلًا مَّا هَدَيْتُمْ» وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - أنه لا يُشْرَعُ التكبير في عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: «وَلَمَّا كُمُتُمْ تَتَذَكَّرُونَ» أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

«وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» [١٨]

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبدة بن أبي برزة السجستاني، عن الصُّلب بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أن أعرابياً قال: يا رسول الله، أقرئ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». ورواه ابن مَرْدُويه، وأبو الشيخ الأصبهاني، من حديث محمد بن أبي حميد، عن جرير، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ: «أين ربنا؟ فنزل الله ﷻ: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [غانر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نضعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منّا فقال: «يا أيها الناس، أزعفوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق رحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله». أخرجه في الصحيحين، وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مَلْ عنده، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه». قلت: وهذا كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [النحل: ١٧٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان - هو النهدي - يحدث عن سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبين». قال يزيد: سموا لي هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون، صاحب الأنماط، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه. وقال الشيخ الحافظ أبو الحجاج الميزي، رحمه الله، في أطرافه: وتابعه أبو همام محمد بن الزبيرقان، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا

أبو عامر، حدثنا علي بن ذؤاد أبو المتوكل الناجي، عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذا نكث. قال: «الله أكثر». وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَيْر بن نفيير، أن عَبَادَةَ بن الصامت حدثهم أن النبي ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مُسْلِم يدعو الله، ﷻ، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعْ بإثم أو قطيعة رحم». ورواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن ابن ثوبان - وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان - به. وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبي عبيد - مولى ابن أزهر - عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي». أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به. وهذا لفظ البخاري، رحمه الله، وأثابه الجنة. وقال مسلم أيضاً: حدثني أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعْ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرْ يستجاب لي، فَيَسْتَحْسِر عند ذلك، ويترك الدعاء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ابن هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوتُ ربي فلم يَسْتَجِبْ لي». وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: ما من عبْد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعْجَل له في الدنيا أو تُدْخِر له في الآخرة إذا لم يعجل أو يقنط. قال عروة: قلت: يا أمّاه، كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أعط، ودعوت فلم أجب. قال ابن قُسيط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل». وقال ابن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي نافع بن معديكرب ببغداد، حدثني أبي بن نافع، حدثني أبي نافع بن معديكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسول الله ﷺ عن الآية: «أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا» قال: «يارب، مسألة عائشة». فهبط جبريل فقال: الله يقرئك السلام، هذا عبدي الصالح، بالنية الصادقة، وقلبه نقي، يقول: يارب، فأقول: لبيك. فأقضي حاجته. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى ابن مَرْذُويه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: حدثني جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قرأ: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا» الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أمرت بالدعاء، وتوكلت بالإجابة، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن عدك حق، ولقائك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى الأزدي، ومحمد بن يحيى الشُّطَعي، قالوا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المُرِّي، عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك؛ فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فما عملت من شيء وقئته، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة». وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا أبو محمد المليكي، عن عمرو - هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفرط دعا أهله، وولده ودعا. وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله المدني، عن عبْد الله بن أبي مُلَيْكَةَ، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرَدُّ». قال عبْد الله بن أبي مُلَيْكَةَ: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفرط: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر

لي. وفي مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين».

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّارِ الرَّقْتُ إِلَى سَيِّبِكُمْ هُنَّ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِينَا السَّيِّمَ إِلَى السَّيْلِ وَلَا تَنْبِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَوْنَ فِي التَّسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لِلنَّاسِ لِمَأْتُهُمْ بَتَقَوْنَ ﴿١٨٧﴾﴾.

هذه رُحْصَة من الله تعالى للمسلمين، ورفَع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشرب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مَشَقَّة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعمر بن دينار، والحسن، وقتادة، والزهري، والضحاك، وإبراهيم السَّخَعي، والسدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان. وقوله: ﴿هُنَّ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني هن سَكَن لكم، وأنتم سكن لهن. وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويَمَاسه ويضاجعه، فناسب أن يُرْحَص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لتلا يشق ذلك عليهم، ويخرجوا، قال الشاعر:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَسِيَ جِيدهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا
وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حَضَرَ الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك. فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك! أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّارِ الرَّقْتُ إِلَى سَيِّبِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِينَا السَّيِّمَ إِلَى السَّيْلِ وَلَا تَنْبِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَوْنَ فِي التَّسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لِلنَّاسِ لِمَأْتُهُمْ بَتَقَوْنَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صَلُّوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾. وكذا روى العوفي عن ابن عباس. وقال موسى بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وَقَعَ على أهله، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت. قال: «وماذا صنعت؟» قال: «إني سَوَّلْتُ لي نفسي، فوقع على أهلي بعدما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبي ﷺ قال: «ما كنت خليقاً أن تفعل». فنزل الكتاب: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّارِ الرَّقْتُ إِلَى سَيِّبِكُمْ﴾. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة في قوله الله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّارِ الرَّقْتُ إِلَى سَيِّبِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِينَا السَّيِّمَ إِلَى السَّيْلِ﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرَمَ عليهم الطعام والشرب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فآكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّارِ الرَّقْتُ إِلَى سَيِّبِكُمْ﴾ يعني بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: تجمعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ يعني: جامعوهن ﴿وَأَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني:

الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾. فكان ذلك عسراً من الله ورحمة. وقال هُشَيْم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت: إنها قد نامت، فلظنتها تغتسل، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أَيْلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

وهكذا رواه شعبة، عن عمرو بن مرة، عن ابن أبي ليلى، به. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لهيعة، حدثنا موسى بن جبير - مولى بني سلعة - أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام، حُزِمَ عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوُنَ أُنْسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَمِزْ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِزْمَةِ بن قيس؛ فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورحضة ورفقاً. وقوله: ﴿وَأَتَمُّوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، وشريح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتيبة، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَأَتَمُّوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: الجماع. وقال عمرو بن مالك التُّكْرِي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَأَتَمُّوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وقال سعيد بن قتادة: ﴿وَأَتَمُّوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: ما أحل الله لكم. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَأَتَمُّوا﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أتيتها شئت: عليك بالقراءة الأولى. واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله. وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾: أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيطة الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو عَسَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُطَّرَفٍ، حدثني أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، رَبَطُوا أَعْيُنَهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، فَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَّبِينَ لَهُ رُؤْيَاهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي: الليل والنهار. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن الشعبي، أخبرني عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِيَاضِ النَّهَارِ وَسَوَادِ اللَّيْلِ». أخرجاه في الصحيحين من غير وجه، عن عَدِي. ومعنى قوله: «إِن وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضَ» أي: إن كان يسع لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب. وهكذا وقع في رواية البخاري مفسراً بهذا: أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَيْن، عن الشعبي، عن عَدِي قال: أخذ عَدِي عقلاً أبيض وعقلاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يتبيناً. فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي. قال: «إِن وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضَ، أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ تَحْتَ وَسَادَتِكَ». وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان سواده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضاً: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مُطَّرَفٍ، عن الشعبي، عن عَدِي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ». ثم قال: «لَا، بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبِيَاضُ النَّهَارِ». وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السُّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السُّحُور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها، ففي الصحيحين

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْحَرُوا فَإِن فِي السُّحُورِ بَرَكَةٌ». وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن فَضَّلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةَ السُّحْرِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السُّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ، فَلَا تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْرَعُ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ». وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهاً بالأكليين. ويستحب تأخيرها إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبي عثمان، عن عدي بن حاتم الحمصي، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السُّحُورَ». وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمَّاهُ الْعَدَاءَ الْمُبَارَكِ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زب بن حبش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع. وهو حديث تفرد بن عاصم بن أبي النجود، قاله النسائي، وحمله على أن المراد قرب النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ لَأْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أي: قاربن انقضاء العدة، فإما إمساك أو ترك للفراق. وهذا الذي قاله هو المتعين حمل الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد بن علي بن الحسين، وأبو مجلز، وإبراهيم التَّحَمِّي، وأبو الضُّحَى، وأبو وائل، وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عتيبة، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش ومعمر بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، والله الحمد.

وحكى أبو جعفر بن جرير في تفسيره، عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها. قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْوَيْحَ الْأَيْمَنُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سُحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يَنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤذَنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». لفظ البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الْفَجْرُ الْمَسْتَطِيلُ فِي الْأَفْقِ وَلَكِنَّهُ الْمَعْتَرِضُ الْأَحْمَرُ». ورواه أبو داود والترمذي ولفظهما: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا يَهْدِيَنَّكُمْ السَّاطِعُ الْمَصْعَدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمْ الْأَحْمَرُ». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن شيخ من بني قشير: سمعت سُمْرَةَ بن جُنْدَبٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَغْرَنُكُمْ نَدَاءُ بِلَالٍ وَهَذَا الْبَيَاضُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ، أَوْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ». ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سوادة بن حنظلة، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمَسْتَطِيلُ، وَلَكِنَّ الْفَجْرَ الْمَسْتَطِيرَ فِي الْأَفْقِ». قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن عبد الله بن سَوَادَةَ الْقَشِيرِيِّ، عن أبيه، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَغْرَنُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ، تَعَمَّدُوا الصَّبْحَ حِينَ يَسْتَطِيرُ». ورواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم - يعني ابن علي - مثله سواء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا ابن المبارك، عن سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سُحُورِهِ - أَوْ قَالَ نَدَاءُ بِلَالٍ - فَإِنَّ بِلَالاً يُؤذَنُ أَوْ قَالَ يَنَادِي - لِيُنَبِّئَكُمْ نَائِمَكُمْ وَلِيُرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ الْفَجْرُ أَنْ يَقُولَ هَكَذَا أَوْ هَكَذَا، حَتَّى يَقُولَ هَكَذَا». ورواه من وجه آخر عن التميمي، به. وحدثني الحسن بن الزبير قال النخعي، حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «الْفَجْرُ فَجْرَانُ، فَالَّذِي كَانَهُ ذَنْبُ السَّرْحَانِ لَا يُحْرَمُ شَيْئاً، وَأَمَّا الْمَسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الْأَفْقَ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ الصَّلَاةُ وَيَحْرَمُ الطَّعَامُ». وهذا مرسل جيد. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يُحَلُّ وَلَا يُحْرَمُ شَيْئاً، وَلَكِنَّ الْفَجْرَ الَّذِي يَسْتَبِينُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، هُوَ الَّذِي يَحْرَمُ الشَّرَابَ. قال عطاء: فأما

إذا سَطِعَ سَطْوَعًا فِي السَّمَاءِ، وَسَطْوَعُهُ أَنْ يَذْهَبَ فِي السَّمَاءِ طَوَلًا، فَإِنَّهُ لَا يَحْرَمُ بِهِ شَرَابَ لَصِيَامٍ وَلَا صَلَاةَ، وَلَا يَفُوتُ بِهِ حَجٌّ، وَلَكِنْ إِذَا انْتَشَرَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، حَرَّمَ الشَّرَابَ لِلصِّيَامِ وَفَاتَ الْحَجَّ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ. مَسْأَلَةٌ: وَمَنْ جَعَلَهُ تَعَالَى الْفَجْرَ غَايَةَ لِإِبَاحَةِ الْجَمَاعِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِمَنْ أَرَادَ الصِّيَامَ، يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ جُنُبًا فَلْيُغْتَسَلْ، وَلَيْتِمُ صَوْمَهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ. وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلْفًا وَخَلْفًا، لَمَّا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلْمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُمَا قَالَتَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جَمَاعٍ غَيْرِ احْتِلَامٍ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ. وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلْمَةَ عَنْهُمَا: ثُمَّ لَا يَفْطُرُ وَلَا يَقْضِي. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُذَرِكُنِي الصَّلَاةَ وَأَنَا جَنْبٌ، فَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا تَدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جَنْبٌ، فَأَصُومُ». فَقَالَ: لَسْتُ مِثْلًا - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ. فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْسَابَكُمْ اللَّهُ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَقِي». فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلَاةِ - صَلَاةُ الصُّبْحِ - وَأَحَدُكُمْ جَنْبٌ فَلَا يَصُومُ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُ حَدِيثٌ جَيِّدٌ الْإِسْنَادُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، كَمَا تَرَى، وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي سَنَنِ النَّسَائِيِّ: عَنْهُ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَالْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ وَلَمْ يَرَفَعَهُ. فَمَنْ الْعُلَمَاءُ مِنْ عُلَلِ هَذَا الْحَدِيثِ بِهَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَيُحْكِي هَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَسَلَامٍ، وَعَطَاءٍ، وَهَشَامِ بْنِ عَرُوةَ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى التَّفَرُّقِ بَيْنَ أَنْ يَصْبِحَ جَنْبًا نَاتِمًا فَلَا عَلَيْهِ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلْمَةَ، أَوْ مَخْتَارًا فَلَا صَوْمَ لَهُ، لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَحْكِي هَذَا عَنْ عُرُوةَ، وَطَاوَسٍ، وَالْحَسَنِ. وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْفَرْضِ فَيْتِمُهُ وَيَقْضِيهِ وَأَمَّا التُّغْلُ فَلَا يَضُرُّهُ. رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَيْضًا، وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى نَسْخَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِحَدِيثِي عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلْمَةَ، وَلَكِنْ لَا تَارِيخَ مَعَهُ. وَادَّعَى ابْنُ حَزْمٍ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ بَعِيدٌ أَيْضًا، وَأَبْعَدُ؛ إِذْ لَا تَارِيخَ، بَلِ الظَّاهِرُ مِنَ التَّارِيخِ خِلَافُهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى نَفْيِ الْكَمَالِ «فَلَا صَوْمَ لَهُ» لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلْمَةَ الدَّالِّينِ عَلَى الْجَوَازِ. وَهَذَا الْمَسْلُوكُ أَقْرَبُ الْأَقْوَالِ وَأَجْمَعُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَتَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ إِلَى آيَاتٍ﴾ يَقْتَضِي الْإِفْطَارَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حَكْمًا شَرْعِيًّا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهْنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهْنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ». وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْفِطْرَ» أَخْرَجَاهُ أَيْضًا. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا قُرَّةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلْمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ، ﷻ: أَنْ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلَهُمْ فِطْرًا». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ بِهِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عِفَّانٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ إِيَادٍ، سَمِعْتُ إِيَادَ بْنَ لَقِيطٍ قَالَ: سَمِعْتُ لَيْلَى امْرَأَةَ بَيْتِيرِ بْنِ الْخَصَّاصِيَّةِ، قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَصُومَ يَوْمَيْنِ مُوَاصِلَةً، فَمَنْعَنِي بِشِيرٍ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ. وَقَالَ: «يَفْعَلُ ذَلِكَ النَّصَارَى، وَلَكِنْ صُومُوا كَمَا أَمَرَكَمُ اللَّهُ، وَأَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَافْطَرُوا». وَرَوَى الْحَافِظُ ابْنَ عَسَاكِرَ، حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاصِلٌ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَةٍ؛ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِلَ وَصَالِكَ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ، وَذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿ثُمَّ أَتَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ إِلَى آيَاتٍ﴾، فَلَا صِيَامَ بَعْدَ اللَّيْلِ، وَأَمْرُنِي بِالْوَتْرِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا بَأْسَ بِهِ، أَوْرَدَهُ فِي تَرْجُمَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي ذَرٍّ فِي تَارِيخِهِ.

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «فإنني لست مثلكم، إنني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لذتكم» كالمُنْكَل بهم. وأخرجه في الصحيحين، من حديث الزهري. به. وكذلك أخرجه النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إنني لست كهيتكم، إنني يطعمني ربي ويسقيني». فقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغَّلها عن الشراب وتُلْهِيها عن الزاد

وأما من أحب أن يُمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأبيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله. قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني، وساق يسقيني». أخرجه في الصحيحين أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العنسي، عن أبي بكر بن حفص، عن أم ولد حاطب بن أبي بلتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر، فدعاها إلى الطعام. فقالت: إني صائمة. قال: وكيف تصومين؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أين أنت من وصال آل محمد، من السحر إلى السحر». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر. وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد، أي من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه. وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبير لثلاث تنحرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ فِي السَّجْدِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً ونهاراً حتى يقضي اعتكافه. وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ فِي السَّجْدِ﴾ أي: لا تقربوهن ما دمت عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف، وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه.

وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه. وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، والله الحمد. ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبية على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله ﷻ. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجه من حديث عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها. وفي الصحيحين أن صفية بنت حبي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها - وكان ذلك ليلاً - فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعوا - وفي رواية: تواريا - أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حبي» أي: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حبي، أي: زوجتي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» أو قال: «شراً». قال الشافعي، رحمه الله: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها، لثلاث يقع في محذور، وهما كانا أتقى الله أن يظن بالنبي ﷺ شيئاً. والله أعلم. ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَانًا﴾ أي: هذا الذي بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحننا فيه وما حرمنا، وذكر غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أي: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها، وتعدوها. وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَانًا﴾: «أجل لكم ليلة الصيام الوقت إن يسألكم حتى

بلغ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِلى الْبَيْتِ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا وتلونه علينا. ﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله، وكذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿لِلنَّاسِ لَمَّا هُمْ يَتَفَتَّحُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكَ عَلَىٰ عِبَادِهِ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ الْكِتَابَ مِن لَّدُنْكَ لِيُذَكِّرَ﴾ [الحديد: ٤٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْكُفَّارِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيعة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه أثم أكل حرام. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليخملها، أو ليزها». فدلّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو يلزم في الظاهر، فإن طاب في نفسه الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْكُفَّارِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ أي طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وترجون في كلامكم. قال قتادة: اعلم - بآدم - أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحل لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له باطل أن خصومته لم تنقُص حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا. وقال أبو حنيفة: حكم الحاكم بطلاق الزوجة إذا شهد شاهداً زور في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتى للشاهدين ويحرمها على زوجها الذي حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلعان المرأة، إنه يبينها من زوجها ويحرمها عليه، وإن كانت كاذبة في نفس الأمر، ولو علم الحاكم بكذبها لحدها ولما حرمها وهذا أولى. مسألة: قال القرطبي: أجمع أهل السنة على أن من أكل مالا حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال أنه يفسق، وقال بشر بن المعتمر في طائفة من المعتزلة: لا يفسق إلا بأكل مائتي درهم فما زاد، ولا يفسق بما دون ذلك، وقال الجبائي: يفسق بأكل درهم فما فوقه إلا بما دونه.

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْعَمْعُ وَلَيْسَ الْإِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِاءُ وَأَتَقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْعَمْعُ﴾ يعلمون بها حلّ دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم. وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحلّ دينهم. وكذا روي عن عطاء، والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وقال عبد الرزاق، عن عبد العزيز بن أبي رزاد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله أهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدّوا ثلاثين يوماً». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن أبي رواد، به. وقال: كان ثقة عابداً مجتهداً شريف النسب، فهو صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن أغمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين». وكذا روي من حديث أبي هريرة، ومن كلام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْإِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِاءُ﴾: قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْإِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِاءُ﴾. وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: كانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قُطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك

على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت. فقال: «إني رجل أحسن». قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْكِرْبُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْكِرْبَ مِنَ الْأَنْفِ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَارِهَا﴾. رواه ابن أبي حاتم. ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه. وكذا روي عن مجاهد، والزهري، وقناة، وإبراهيم النخعي، والسدي، والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يُريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يُقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْكِرْبُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْكِرْبَ مِنَ الْأَنْفِ﴾ الآية. وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية. وقال عطاء بن أبي رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْكِرْبُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾. وقوله: ﴿وَأَتُوا اللَّهَ لَمَكَّكُمْ نُفُوسُكُمْ﴾ أي: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَمَكَّكُمْ نُفُوسُكُمْ﴾ غداً إذا وقفت بين يديه، فيجزىكم بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتُلُونَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا لِلدِّينِ سَبِيلَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُشْرِكُونَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ وَالْأَيُّمَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ حَتَّى يَفْتُلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلْتُمُ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ١٩١] فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُودٌ رَحِيمٌ ﴿وَقَبَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَبَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٢].

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتُلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿وَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَفْتُلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَاتَلْتُمُ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ﴾ أي: لتكن همتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها، فقصاصاً.

وقد حكى عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة، ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُوا بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا﴾ الآية [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: ﴿وَلَا تَسَدُّوا لِلدِّينِ سَبِيلَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي - كما قاله الحسن البصري - من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن بُريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تُمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «أخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تُمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد. ولأبي داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه. وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: «وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان. وقال الإمام أحمد: حدثنا مُصعب بن سلام، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبي مسلم، عن ربعي بن جراش، قال: سمعت حذيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه». هذا حديث حسن الإسناد. ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً. ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. قال أبو مالك: أي: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والحسن، وقناة، والضحاك، والربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل. وقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد

حَرَمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنِهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاؤُهُ. فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذَنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ». يَعْنِي بِذَلِكَ - صَلَوَاتِ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قِتَالَهُ أَهْلَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَإِنَّهُ فَتَحَهَا عَنُودًا، وَقَتَلَتْ رِجَالَ مِنْهُمْ عِنْدَ الْخَدْمَةِ، وَقِيلَ: صَلْحًا؛ لِقَوْلِهِ: مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ. وَقَدْ حَكَى الْقُرْطُبِيُّ: أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْقِتَالِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْسُوخٌ. قَالَ قَتَادَةُ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قَالَ مِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وَفِي هَذَا نَظَرٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يُنْفِثُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلا أَنْ يَبْذُوكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ، فَلَكُمْ حِينَئِذٍ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ دَعَاً لِلصِّيَالِ، كَمَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْقِتَالِ، لَمَّا تَأَلَّيْتُ عَلَيْهِ بِطُونَ قَرِيشٍ وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءٍ تَقِيفٍ وَالْأَحْيَاءِ عَامِتِمْ، ثُمَّ كَفَّ اللهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التفتح: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِسَالَةٌ مُؤْمِنَةٌ لَرَأَيْتُمُوهُمْ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلَيْهِ لِيُدْخَلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكَتُمْ لَدُنَّا لَأَكْرَهْتُمْ أَنْ تَقَاتِلُوا عِدَابًا أَيْسًا﴾ [التفتح: ٢٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٩٤] أَي: فَإِنْ تَرَكَتُمُ الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أَي: شُرْكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ، وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ. ﴿وَيَكُونُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ أَي: يَكُونُ دِينُ اللهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِيُّ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شِجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حِمْيَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ». وَفِي الصَّحِيحِينَ: «أَمَزَتْ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللهِ». وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ: فَإِنْ انْتَهَرُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ، وَقَاتَلَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكُفُّوا عَنْهُمْ، فَإِنْ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَلَا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: لَا يُقَاتَلُ إِلا مَنْ قَاتَلَ. أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ انْتَهَرُوا فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الشُّرْكَ. فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْمَرَادُ بِالْعُدْوَانِ هُنَا الْمَعَاقِبَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْرُكُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً يَبْتَلِيهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَلَيْنَ عَاقِبَتُهُمْ فَسَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِبَتْ بِهُ بِعَدْوِي﴾ [النحل: ١٢٦]. وَلِهَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ: الظَّالِمُ: الَّذِي أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلا اللهُ. وَقَالَ الْبَخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ السَّبِيلَ﴾ الآية: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو، قَالَ: أَنَّهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةٍ ابْنِ الزَّبِيرِ فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ صَنَعُوا وَأَنْتَ ابْنُ عَمْرِو وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ قَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ دَمَ أَخِي. قَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لغيرِ اللهِ. وَزَادَ عُثْمَانُ ابْنَ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي فُلَانٌ وَحْيُوهُ بِنِ شَرِيحٍ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرِو الْمَعَارِفِيِّ: أَنَّ بَكْرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ حَدَّثَهُ، عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابْنَ عَمْرِو فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَحْجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرَكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا رَغِبَ اللهُ فِيهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالزَّكَاةُ، وَأَدَاءُ الزَّكَاةِ، وَحُجُّ الْبَيْتِ. قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَلَنْ نَطْفِئَنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَتَقَاتِلَا إِلَى تَبْيِ حَتَّى تَبْرَأَ إِلَهُ أَمْرٌ لِلَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قَالَ: فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا وَكَانَ الرَّجُلُ يَفْتَنُ فِي دِينِهِ: إِما قَتَلَهُ أَوْ عَذَّبَهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ: أَمَا عُثْمَانُ فَكَانَ اللهُ عَفَا عَنْهُ، وَأَمَا أَنْتُمْ فَكُفَرْتُمْ أَنْ تَعْفُوا عَنْهُ، وَأَمَا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمْرِو رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَحْتَهُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَقَالَ: هَذَا بَيْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ.

﴿النَّبِيُّ لِحُرْمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَصَاصٌ مِمَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْفَعُوا اللهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [١٩٤].

قَالَ عِكْرَمَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ، وَمُقْسِمٍ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَعَطَاءِ وَغَيْرِهِمْ: لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعْتَمِرًا فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَحَبَسَهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الدُّخُولِ وَالرُّصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَصَدَّوهُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى الدُّخُولِ مِنْ قَابِلٍ، فَدَخَلَهَا فِي السَّنَةِ الْآيَةِ، هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْصَحَهُ اللهُ مِنْهُمْ، فَنَزَلَتْ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿النَّبِيُّ لِحُرْمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَصَاصٌ﴾. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ

عيسى، حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى ويُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ - وهو مُحَيَّمٌ بالحديبية - أن عثمان قد قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتَحَصَّنَ قَلْبُهُم بالطائف، عَدَلَ إليها، فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس. فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُتَفَخَّ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين. وكانت عُمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مَا أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ﴾: أمر بالعدل حتى في المشركين: كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَحَرْزًا سَيِّئًا سَيِّئًا لِمَثَلًا﴾ [الشورى: ٤٠]. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مَا أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية الجهاد بالمدينة. وقد رَدَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل هذه الآية مدنية بعد غزوة القُضَيْيَةِ، وعزا ذلك إلى مجاهد، رحمه الله. وقد أطلق ههنا الاعتداء على الاقتصاص، من باب المقابلة، كما قال عمرو بن أم كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وقال ابن دريد:

لي استنواء إن موالسي استنوا لسي التنواء إن تعادى التنوا
وقال غيره:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
ومن رام تقويمي فلإني مقوم ومن رام تعويجي فلإني معوج
وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباراً بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

قال البخاري: حدثنا إسحاق، أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة: ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن أبي معاوية عن الأعمش، به مثله. قال: وروى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقناة، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، نحو ذلك. وقال الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى حَرَقَهُ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبتنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِيًّا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِهِ، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرتنا على الأهليين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فقيم فيهما. فنزل فينا ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ في تفسيره، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْذُويه، والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية - وعلى أهل مصر عقبة بن عامر؛ وعلى أهل الشام رجل، يريد فضالة بن عبيد - فخرج من المدينة صَفَّ عَظِيمٍ من الروم، صُفِّفْنَا لَهُمْ فَحَمَلَ رَجُلٌ من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم: ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، وإنما لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها. فأنزل الله هذه الآية. وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقى بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله

لرسوله: ﴿فَقَتِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا فَنَسَكٌ﴾ [النساء: ٨٤]، إنما هذا في النفقة. رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدرکه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء - فذكره. وقال بعد قوله: ﴿لَا تَكُفُّ إِلَّا فَنَسَكٌ﴾: ولكن التهلكة أن يذنب الرجل والذنب، فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فزده، وقال عمرو: قال الله ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

وقال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تُمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله. ولا تلق بيدك إلى التهلكة. وقال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبي. عن الضحاک بن أبي جبيرة قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سنة، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: هو البخل. وقال سيمك بن حرب، عن النعمان بن بشير في قوله: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: أن يذنب الرجل الذنب، فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. رواه ابن مردويه. وقال ابن أبي حاتم: وزوي عن عبدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة - نحو ذلك. يعني: نحو قول النعمان بن بشير: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا زوي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: التهلكة: عذاب الله. وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرظي: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل. فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده، حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه، فأنزل الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وقال ابن وهب أيضاً: أخبرني عبد الله بن عباس، عن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيِّكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: وذلك أن رجلاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإما يقطع بهم، وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع أو العطش أو من المشي. وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَيُّهَا لَمَجِّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّىٰ بَلَغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَعِدْيَةٌ مِنْ صِيَابِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكٌّ فَإِذَا آمَنْتُمْ مِنَ الْعُمْرَةِ إِلَى الْمَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَيْصِيًّا تَلْتَمِذًا فَإِمَّا فِي الْمَجِّ وَسَعَوْا إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَأْوَلَةٍ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦).

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَأَيُّهَا لَمَجِّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: صُدِّدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزوم، سواء قيل بوجود العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء. وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا «الأحكام» مستقصى، والله الحمد والمنة. وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي: أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَيُّهَا لَمَجِّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تُحْرِمَ من ذؤيرة أهلك. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وطاوس. وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهَلَّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغيره. وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله: ﴿وَأَيُّهَا لَمَجِّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: من تمامهما أن تُفْرِدَ كُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾. وقال هشيم بن عوف قال: سمعت

القاسم بن محمد يقول: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة، فقيل له: العمرة في المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة. وكذا روي عن قتادة بن دعامة، رحمهما الله. وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كلها في ذي القعدة: عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قط في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لام هانئ: «عُمرة في رمضان تعدل حجة معي». وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري، ونص سعيد بن جبيرة على أنه من خصائصها، والله أعلم. وقال السدي في قوله: «وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» أي: أقيموا الحج والعمرة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة، فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة، وطاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل. وقال قتادة، عن زُزارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة في قوله: «وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» قال: هي في قراءة عبد الله: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» لا تجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة، فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت». وقرأ الشعبي: «وأتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. وروي عنه خلاف ذلك. وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَعَ في إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هذِي فليهل بحج وعمرة». وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». وقد روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً فقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الهروي، حدثنا غسان الهروي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن صفوان بن أمية أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ مُتَضَمِّعاً بالزعفران، عليه جبة، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي؟ قال: فأنزل الله: «وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن العُمرة؟» فقال: ها أنا ذا. فقال له: «ألقت عنك ثيابك، ثم اغتسل، واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعاً في حَجِّكَ فاصنعه في عمرتك». هذا حديث غريب وسياق عجيب، والذي ورد في الصحيحين، عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال: كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وحُلُوق؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحي، ثم رفع رأسه فقال: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا فقال: «أما الجبة فانزعها، وأما الطيب الذي بك فاغسله، ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عُمرك». ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق، ولا ذكر نزول الآية، وهو عن يعلى بن أمية، لا عن صفوان بن أمية، والله أعلم. وقوله: «فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين». وقد كانوا اشتروا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عدُو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين: فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، وابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، وابن أبي نجيح ومجاهد، عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرٌ إلا حَصْرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: «فَإِذَا أَيْتَمْتُمْ»، فليس الأمن حَصْرًا. قال: وروي عن ابن عمر، وطاوس، والزهري، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. والقول الثاني: أن الحصر أعم من أن يكون بعدُو أو مرض أو ضلال. وهو التَّوَهُانُ عن الطريق - أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حجاج الصَّوْفِيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كَبُرَ أو عَرَجَ فقد حل، وعليه حجة أخرى». قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق. وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن

أبي كثير، به. وفي رواية لأبي داود وابن ماجه: من عرج أو كسر أو مَرَض - فذكر معناه. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عُلَيْثٍ، عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف، به. ثم قال: وروي عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعي، وعطاء، ومقاتل بن حيان، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر. وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ على ضَبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطي: أَنْ مَجَلِّي حيثُ حَبَسْتِي». ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله. فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القولُ بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، والله الحمد.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: قال الإمام مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: شاة. وقال ابن عباس: الهدي من الأرواح الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن. وقال الثوري، عن حبيب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، قال: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وأبو العالية، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إلا من الإبل والبقر. قال: وروي عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبيرة - نحو ذلك. قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية الحديبية، فإنه لم يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه ذبح عن أحد منهم من الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشتري في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقره. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يسارته. وقال العوفي، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء. والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي، أي: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحَبْرُ البحر ترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً. وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَلْمَعُ وَالْمَرَّةُ الْبَدُ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أُحْضِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حَلَوْا من العمرة، ولم تَحِلْ أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لَبُدْتُ رأسي وقلدت هدي، فلا أحل حتى أنحر».

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدَبَّدَهُ مِنْ مَبَازِرِهِ أَوْ صَدَقَهُ أَوْ سُكِيَ﴾: قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني: سمعت عبد الله بن مَعْقِل، قال: تعدت إلى كعب بن عُجْرَةَ في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن ﴿فَدَبَّدَهُ مِنْ مَبَازِرِهِ﴾، فقال: حُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي. فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا! أما تجد شاة؟» قلت: لا. قال: «صُمُّ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك». فنزلت في خاصة، وهي لكم عامة. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: أتى عَلِيَّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر، والقملُ يتناثر على وجهي - أو قال: حاجبي - فقال: «يُؤْذِيكَ هَوَامُ رَأْسِكَ؟» قلت: نعم. قال: «فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكاً». قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ. وقال أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون، وقد حصره المشركون، وكانت لي وَفْرَةٌ، فجعلت الهوام تَسْقُطُ على وجهي، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «أيؤذيك هوام رأسك؟» فأمره أن يحلق. قال: ونزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدَبَّدَهُ مِنْ مَبَازِرِهِ أَوْ صَدَقَهُ أَوْ سُكِيَ﴾. وكذا رواه عفان، عن شعبة، عن أبي بشر،

وهو جعفر بن إياس، به. وعن شعبة، عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، به. وعن شعبة، عن داود، عن الشعبي، عن كعب بن عُجْرة، نحوه. ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة - فذكر نحوه. وقال سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه سمع كعب بن عُجْرة يقول: فذبحت شاة. رواه ابن مَرْدُويه. وروى أيضاً من حديث عمر بن قيس، سندل - وهو ضعيف - عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «النسك شاة، والصيام ثلاثة أيام، والطعام فَرْق، بين ستة». وكذا رُوِيَ عن علي، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعطاء، والسدي، والربيع بن أنس. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب: أن مالك بن أنس حدثه، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فأذاه القَمَلُ في رأسه، فأمره رسول الله ﷺ أن يخلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مُدَّين مَدَّين لكل إنسان، أو انسك شاة، أي ذلك فعلت أجزأ عنك». وهكذا روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدَيَّةٌ مِّنْ صِيَّارٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُلَةٌ﴾، قال: إذا كان «أو» فأية أخذت أجزأ عنك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وحُميد الأعرج، وإبراهيم النخعي، والضحاك، نحو ذلك. قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّرُ في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدَّق بقرق، وهو ثلاثة أصع، لكل مسكين نصف صاع، وهو مُدَّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدَّق بها على الفقراء، أي ذلك فعل أجزأه. ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: ﴿فَقَدَيَّةٌ مِّنْ صِيَّارٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُلَةٌ﴾ ولَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ، أُرْشِدُهُ إِلَى الْأَفْضَلِ، فَالْأَفْضَلُ، فَقَالَ: انسك شاة، أو اطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام. فكلَّ حسن في مقامه. والله الحمد والمنة. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كَرْبُزٍ، حدثنا أبو بكر بن عياش قال: ذكر الأعمش قال: سألت إبراهيمَ سعيدَ بن جبير عن هذه الآية: ﴿فَقَدَيَّةٌ مِّنْ صِيَّارٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُلَةٌ﴾ فأجابته يقول: يُخَكِّمُ عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم، وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام بكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر. قال: لما قال لي سعيد بن جبير: من هذا؟ ما أظرفه! قال: قلت: هذا إبراهيم. فقال: ما أظرفه! كان يجالسنا. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، قال: فلما قلت: «يجالسنا» انتفض منها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عمران، حدثنا عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن في قوله: ﴿فَقَدَيَّةٌ مِّنْ صِيَّارٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُلَةٌ﴾ قال: إذا كان بالمُحْرِمِ أذى من رأسه، حَلَقَ وافتدى بأيّ هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين، كل مسكين مَكُوكِين: مَكُوكاً من تمر، ومَكُوكاً من بُر، والنسك شاة. وقال قتادة، عن الحسن وعكرمة في قوله: ﴿فَقَدَيَّةٌ مِّنْ صِيَّارٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُلَةٌ﴾ قال: إطعام عشرة مساكين. وهذا قولان من سعيد بن جبير، وعلقمة، والحسن، وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر؛ لأنه قد ثبت السنة في حديث كعب بن عُجْرة بصيام ثلاثة أيام، لا عشرة ولا ستة، أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة، وأن ذلك على التخير كما دلّ عليه سياق القرآن. وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد، كما هو نص القرآن. وعليه أجمع الفقهاء هناك، بخلاف هذا، والله أعلم. وقال هُشَيْم: أخبرنا ليث، عن طاوس: أنه كان يقول: ما كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء. وكذا قال عطاء، ومجاهد، والحسن. وقال هُشَيْم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء: أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء. وقال هُشَيْم: أخبرنا يحيى بن سعيد، عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان، ومعه علي والحسين بن علي، فارتحل عثمان. قال أبو أسماء: وكنت مع ابن جعفر، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه، قال: فقلت: أيها التَّوْم. فاستيقظ، فإذا الحسين بن علي. قال: فحملة ابن جعفر حتى أتينا به السُّقْيَا قال: فأرسل إلى علي ومعه أسماء بنت عميس. قال: فمرضناه نحواً من عشرين ليلة. قال: قال علي للحسين: ما الذي تجد؟ قال: فأومأ بيده إلى رأسه. قال: فأمر به علي فحَلَقَ رأسه، ثم دعا بيدته فنحراها. فإن كانت هذه الناقه عن الحلق فيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن التحلل فواضح. وقوله: ﴿فَإِذَا كُنَيْتُمْ مِّنْ تَمَعٍ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْكَحْبِ مَا أَسْتَيْسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم مُتَمَتِّعاً بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرِّوَاة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ. وآخر يقول: قَرَن. ولا خلاف أنه ساق الهدى. وقال تعالى: ﴿مَنْ تَمَعَّ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْكَحْبِ مَا أَسْتَيْسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن

يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر. وقال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه، وكن متمتعاً. رواه أبو بكر بن مزوديه.

وفي هذا دليل على شرعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية التمتع في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ ثم لم يُنزل قرآن يُحرّمه، ولم يُنه عنها، حتى مات. قال رجل بزأيه ما شاء. قال البخاري: يقال: إنه عُمر. وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر، رضي الله عنه، كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام. يعني قوله: ﴿وَأَيُّوا لَحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. وفي نفس الأمر لم يكن عمر، رضي الله عنه، ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى عنها لكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به، رضي الله عنه. وقوله: ﴿فَن لَّمْ يَجِدْ صِيَامًا تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ يَوْمَ عَثْرَةَ كَامِلَةً﴾. يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك. قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِي لَحَجٍّ﴾، ومنهم من يجوز صياهما من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحمام، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله. وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة، عن ابن عمر، قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة. وكذا روى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي أيضاً. فلو لم يصمها أو بعضها قبل يوم العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعي أيضاً، القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يَرَحَّصْ في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى. وكذا رواه مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. وعن سالم، عن ابن عمر إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامٌ تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَبْعَةٍ﴾، وقد روي من غير وجه عنهما. ورواه سفيان، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق. وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثي، وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامٌ تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ﴾. والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نبیثة الهذلي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: فيه قولان: أحدهما: إذا رجعتم في الطريق. ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء بن أبي رباح. والقول الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن سالم، سمعت ابن عمر قال: ﴿فَن لَّمْ يَجِدْ صِيَامًا تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إذا رجع إلى أهله. وكذا روى عن سعيد بن جبيرة، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقادة، والزهري، والربيع بن أنس. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع. وقد قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهد. فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقصر وليحلل، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث. قال الزهري: وأخبرني عروة، عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه. والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري، به. وقوله: ﴿تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَلَا تَخْطُرُ بِبَيْتِكَ﴾ [المنكبر: ٤٨]، وقال: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى تَلْتَمِذًا لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ قَتَمٍ مِيقَاتٍ رَبِيَّةٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقيل: معنى «كاملة»: الأُمُرُ بِإِكْمَالِهَا وَإِتْمَانِهَا، اختاره ابن جرير. وقيل: معنى «كاملة»: أي: مُجَزَّةٌ عَنِ الْهَدْيِ. قال هشيم، عن عباد بن راشد، عن الحسن البصري، في قوله: ﴿تَلْتَمِذًا أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: قال: من الهدى.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَابِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن غني بقوله: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَابِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم مغنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل

الحرم خاصة دون غيرهم. حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان - هو الثوري - قال: قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحَرَم. وكذا روى ابن المبارك، عن الثوري، وزاد: الجماعة عليه. وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا تمتعوا لكم، أحلت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً - أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً - ثم يُهَلُّ بعمره. وقال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: المتعة للناس - لا لأهل مكة - مَنْ لم يكن أهله من الحرم. وذلك قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاصِرِي الْمَنَازِرِ﴾. قال: وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بيته وبين المواقيت، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل، عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت، فهو كأهل مكة، لا يتمتع. وقال عبد الله بن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مكحول، في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاصِرِي الْمَنَازِرِ﴾ قال: من كان دون الميقات. وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاصِرِي الْمَنَازِرِ﴾ قال: عرفة، ومَرَّ، وعَرَنَة، وضُحَّان، والرجيع. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، سمعت الزهري يقول: من كان أهله على يوم أو نحوهِ تَمَتَّع. وفي رواية عنه: اليوم واليومين. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تُقَصِّرُ منها الصلاة؛ لأن من كان ذلك يُعَدُّ حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم وما نهاكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنده زجره. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ رَمَى فِيهِنَّ لَحْجًا فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوفَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَعَلَّمُوا مِنْ حَبْرِ يَسْلَمَنَّ اللَّهُ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ حَبْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَأَتَقَوَّنِ يَتَأَدَّى الْأَلْتِبَ﴾.

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره: الحج حَجٌّ أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذلك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السَّنَةِ مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن زَاهَوِيه، وبه يقول إبراهيم النَّخَعِي، والثوري، والليث بن سعد. واحتجَّ لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 1٩٨] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به في جميع السَّنَةِ كالعمرة.

وزهد الشافعي، رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم يتعدَّ إحرامه به، وهل يتعدَّ عُمره؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مَرْوِي عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد، رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن: وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلَّ على أنه لا يصح قبلها، كميقات الصلاة. قال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عُمَرُ بن عَطَاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يُحْرِمَ بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسي، عن حجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جريج، به. ورواه ابن مَرْدَوِيه في تفسيره من طريقين، عن حجاج بن أَرْطَاة، عن الحكم بن عُثَيْبَة، عن مِقْسَم، عن ابن عباس أنه قال: من السَّنَةِ ألا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج. وقال ابن خزيمة في صحيحه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإنه من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج. وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه. وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا الحسن بن المُثَنَّى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج». وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعي، والبيهقي من طُرُق، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيُّهَلُّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا. وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابي، يتقرَّى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره». والله أعلم. وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وهذا الذي علَّقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً: حدثنا أحمد بن حازم بن أبي عُرْزَة، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ قال: شوال، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضاً في مستدركه، عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر - فذكره وقال: على شرط الشيخين.

قلت: وهو مزوي عن عُمَر، وعلي، وابن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان. وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأبي يوسف، وأبي تُوَر، رحمهم الله. واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «زرتَه العام، ورأيتَه اليوم» وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَجَلَّ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف. وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة بكمالهما. وهو رواية عن ابن عُمَر أيضاً؛ قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن جريج، قال: قلت لثنايف: أسمعت عبد الله بن عُمَر يسمي شهور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمي: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر بن عبد الله صاحب النبي ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج. وقد حكي هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع بن أنس، وقتادة. وجاء فيه حديث مرفوع، ولكنه موضوع، رواه الحافظ ابن مَرْدويه، من طريق حُصَيْن بن مَخارق - وهو متهم بالوضع - عن يونس بن عبيد، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة». وهذا كما رأيت لا يصح رفعه، والله أعلم. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لأنه يصح الحج بعد ليلة النحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مُسلم، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وهذا إسناد صحيح. قال ابن جرير: إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج. وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد، عن العمرة في أشهر الحج، فقال: كانوا لا يرونها تامة. قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان، رضي الله عنهما، أنهما كانا يجبان الاعتمار في غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم. وقوله: ﴿فَمَنْ رَمَسَ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ أي: أوجب بإحرامه حجاً. فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه. قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ رَمَسَ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة. وقال عطاء: الفرض الإحرام. وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن جريج: أخبرني عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه قال: ﴿فَمَنْ رَمَسَ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾: فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبي حاتم: ورؤي عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، والزهري، ومقاتل بن حَيَّان - نحو ذلك. وقال طاوس، والقاسم بن محمد: هو التلبية. وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ بِحَضْرَةِ النِّسَاءِ﴾. قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس: أن نافعاً أخبره: أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك: الرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم. قال ابن وهب: وأخبرني أبو صخر، عن محمد بن كَعْب، مثله. قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن رجل، عن أبي العالية الرُّيَاحِي، عن ابن عباس: أنه كان يحدو - وهو محرم - وهو يقول:

وَهُنَّ يَمُشِينَ بِنَاهِمِينَ إِنْ يَضُّقُ الطَّيْرُ نَلَّ لَمِينَا

قال أبو العالية فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟! قال: إنما الرفث ما قبل عند النساء. ورواه الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس، فذكره. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عدي، عن عون، حدثني زياد بن حصين، حدثني أبي حصين بن قيس، قال: أضعدت مع ابن عباس في الحاج، وكنت خليلاً له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس، فأخذ بذنْبِ بغيره فجعل يلويه وهو يرتجز، ويقول:

وَهُنَّ يَمُشِينَ بِنَاهِمِينَ إِنْ يَضُّقُ الطَّيْرُ نَلَّ لَمِينَا

قال: فقلت: وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. وقال عبد الله بن طاوس، عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿وَلَا رَفَثٌ وَلَا شُؤُوكٌ﴾ قال: الرفث التعريض بذكر الجماع، وهي العزابة في كلام العرب، وهو أدنى الرفث. وقال عطاء بن أبي رباح: الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار. وقال عطاء: كانوا يكرهون العزابة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مخرم. وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا خللت أصبتك. وكذا قال أبو العالية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفث: غشيان النساء والقُبُل والغَمَز، وأن يُعَرِّضَ لها بالفحش من الكلام، ونحو ذلك. وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفث: غشيان النساء. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية، وعطاء، ومكحول، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم التُّخمي، والربيع، والزهري، والسدي، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَلَا شُؤُوكٌ﴾ قال مِقْسَم وغير واحد، عن ابن عباس: هي المعاصي. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم التُّخمي، والزهري، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: الفسوق: ما أصيب من معاصي الله به صَيِّدٌ أو غيره. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم. وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، والسدي، وإبراهيم، والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر». ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله، من حديث سفيان الثوري عن يزيد، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ومن حديث أبي إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا: الذبح للأصنام. قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَشْقَى أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِدُونِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال الضحاك: الفسوق: التنايز بالألقاب. والذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيًا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد؛ ولهذا قال: ﴿مِنَهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَسِقُ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُطَلِّمْ نَفْسَهُ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا: هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام، من قتل الصيد، وحلق الشعر، وقلم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر. وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بين الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال وكيع، عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهداً يقول: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن نجيج، عن مجاهد: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: لا شهر يُنسأ، ولا جدال في الحج، قد تبين، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسب الذي ذمهم الله به. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: قد استقام الحج، فلا جدال فيه. وكذا قال السدي. وقال هُشيم: أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: المرء في الحج.

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجدال في الحج - والله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعرقة وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم. وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون، كلهم يدعي أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك. وقال ابن وهب، عن أبي صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. وقال حماد بن سلمة عن جبر بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً. ويقول بعضهم: اليوم. وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج. والقول الثاني: أن المراد بالجدال ههنا: المخاصمة. قال ابن جرير: حدثنا عبد الحميد بن بيان، حدثنا إسحاق، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وبهذا الإسناد إلى أبي إسحاق، عن التميمي: سألت ابن عباس عن «الجدال» قال: المرء، تماري صاحبك حتى تغضبه. وكذا

روى مِقْسَم والضحاك، عن ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والسدي، والضحاك، والربيع بن أنس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهري، ومقاتل بن حيان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: الجدل: المراء والملاحة، حتى تغضب أخاك وصاحبك، فهى الله عن ذلك. وقال إبراهيم النخعي: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدل. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدل: السباب والمنازعة. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدل في الحج: السباب، والمراء، والخصومات، وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن الزبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمد بن كعب، قالوا: الجدل المراء. وقال عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن بشر، عن عكرمة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعقب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه: أن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجاً، حتى إذا كنا بالعِزْج نَزَلَ رسول الله ﷺ، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي. وكانت زَمالة أبي بكر وزَمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تَضَلُّه؟ فطلق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المُخْرِم ما يصنع؟». وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن إسحاق. ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضَرْبُ الجمال. ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر: «انظروا إلى هذا المُخْرِم ما يصنع؟» - كهيئة الإنكار اللطيف - أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم. وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى نُسُكَه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَسْكُمَهُ اللَّهُ﴾: لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفِعْلاً، حُثُّهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. وقوله: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة، يقولون: نُحُجُّ بيت الله ولا يطعمنا. فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: قال: إن ناساً كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾. وكذا رواه ابن جرير عن عمرو - وهو الفلاس - عن ابن عيينة. قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورفاه، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: وما يرويه ابن عيينة أصح. قلت: قد رواه النسائي، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾. وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري، عن يحيى بن بشر، عن شِبابة. وأخرجه أبو داود، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي، ومحمد بن عبد الله المخزومي، عن شِبابة، عن ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يَحْجُونَ ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فأنزل الله: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن شِبابة به. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شِبابة، به. وروى ابن جرير وابن مَرْزُوق من حديث عَمْرُو بن عبد الغفار عن محمد بن سوقة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا - ومعهم أزوادهم - رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾ فَنُهِوا عن ذلك، وأمرُوا أن يتزودوا الكعك والديق والسويق. وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبد الله، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وقال سعيد بن جبير: فتزودوا الديق والسويق والكعك. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان، عن محمد بن سوقة، عن سعيد بن جبير: ﴿وَسَكَرُودُوا﴾ قال: الخشكنانج والسويق. وقال وكيع أيضاً: حدثنا إبراهيم المكي، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كَرَم الرجل طيب زاده في السفر. وزاد فيه حماد بن سلمة، عن أبي ریحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجَوْزَة. وقوله: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوْنَ﴾: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى

إليها، كما قال: ﴿رَبِّدْنَا وَيَأْسُ الْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي تَبَّه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع. قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّثْرَ الْتَقْوَىٰ﴾ يعني: زاد الآخرة. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن معاوية، عن إسماعيل عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «من يتزود في الدنيا يَنْفَعَهُ في الآخرة». وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكَزُّوْهُمَا﴾ قام رجل من فقهاء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد زاداً تنزوده. فقال رسول الله ﷺ: «تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأْوِي أَلْيَتَيْكُمْ﴾ يقول: واتقوا عقابي، ونكالي، وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمرى، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد، أخبرني ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأتموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج. وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة، به. ولبعصمهم: فلما جاء الإسلام تأتموا أن يتجروا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وكذلك رواه ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت هذه الآية. وروى أبو داود، وغيره، من حديث يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقُونَ البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه قال: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وهكذا زوى العوفي، عن ابن عباس. وقال وكيع: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». وقال عبد الرزاق: عن ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد: سمعت ابن الزبير يقول: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». ورواه عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن حماد بن زيد، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمعت ابن الزبير يقرأ - فذكر مثله سواء. وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شعبة بن سوار، حدثنا شعبة، عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر - وسئِلَ عن الرجل يَحْتَجَّ ومعه تجارة - فقرأ ابن عمر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وهذا موقوف، وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعاً، قال أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرَى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فدعا النبي ﷺ، فقال: «أنتم حجاج». وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن العلاء بن المسيب، عن رجل من بني تيم الله قال: جاء رَجُلٌ إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نُكْرَى، ويزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألسنتم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى. قال: فأنت حاج. ثم قال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن عبد الرزاق به. وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة، عن الثوري، مرفوعاً. وهكذا روي من غير هذا الوجه مرفوعاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عباد بن العوام، عن العلاء بن المسيب، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نُكْرَى في هذا الوجه إلى مكة، وإن ناساً يزعمون أنه لا حَجَّ لنا، فهل ترى لنا حجاً؟ قال: ألسنتم تحرمون، وتطوفون بالبيت، وتقضون المناسك؟ قال: قلت: بلى. قال: فأنتم حجاج. ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل الذي سألت، فلم يَدْر ما يعود عليه - أو قال: فلم يَزِدْ عليه شيئاً - حتى نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل، فتلاها عليه، وقال: «أنتم حجاج». وكذا رواه مسعود بن سعد، وعبد الواحد بن زياد،

وشريك القاضي، عن العلاء بن المسيب به مرفوعاً. وقال ابن جرير: حدثني طليق بن محمد الواسطي، حدثنا أسباط - هو ابن محمد - أخبرنا الحسن بن عمرو - هو الفقيهي - عن أبي أمامة التيمي. قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا من حج؟ فقال: ليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلنا: بلى. قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل جبريل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ: «أنتم حجاج». وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مُنْدَل، عن عبد الرحمن بن المهاجر، عن أبي صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشيهم إلا في الحج؟ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْأَقْصَى﴾. إنما صرَفَ «عرفات» وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة، فروع في الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير. وعرفة: موضع الموقف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد، وأهل السنن، بإسناد صحيح، عن الثوري، عن بكير بن عطاء، عن عبد الرحمن بن يَعمَر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه».

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنَّ النبي ﷺ وقف في حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لنأخذوا عني مناسككم». وقال في هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عَرَفة. واحتجوا بحديث الشعبي، عن عروة بن مَضْرُوس بن حارثة بن لام الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللت راحتي، وأتبع نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقتت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تمَّ حَجُّه، وقضى نَفَقَتَهُ». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

ثم قيل: إنما سميت عَرَفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل، عليه السلام، إلى إبراهيم، عليه السلام، فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاه مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عَرَفة. وقال ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة، أن جبريل كان يُري إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْتُ عَرَفْتُ. فسمي «عرفات». وروي نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبي مجلز، فأنه أعلم. وتسمى عرفات المشعر الحلال، والمشعر الأقصى، والإلال - على وزن هلال - ويقال للجبل في وسطها: جَبَل الرحمة. قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وبالمشعر الأقصى إذا قَصَدوا له إلال إلى تلك الشُراج السقوابل

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن الحسن بن عَنَبَسَة، حدثنا أبو عامر، عن زمعة - هو ابن صالح - عن سلمة - هو ابن وهزام - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا، فأخَّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس. ورواه ابن مَرْزُويه، من حديث زمعة بن صالح، وزاد: ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بَعْلَسَ، حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع. وهذا حَسَنُ الإسناد. وقال ابن جُرَيْج، عن محمد بن قيس، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنما ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها وإنما ندفع قبل أن تطلع الشمس، مُخَالَفاً هَذَيْمًا هَذِي أَهْلَ الشَّرْكِ». هكذا رواه ابن مَرْزُويه وهذا لفظه، والحاكم في مستدركه، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي، عن عبد الوارث بن سعيد، عن ابن جريج، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال: وقد صحَّ وَبُتَّ بما ذكرناه سماع المِسْوَر من رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع. وقال وكيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي، عن المعمر بن سويد، قال: رأيت عمر، رضي الله عنه، حين دفع من عرفة، كأنني أنظر إليه رجلاً أصلع على بعير

له، يُوضع، وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاح. وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شئتُ للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مؤرك رحله، ويقول بيده اليميني: «أيها الناس، السكينة السكينة». كلما أتى جبلاً من الجبال أزخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المُزْدَلِفَةَ فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلّى الفجر حين تَبَيَّنَ له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلَّله ووَحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس. وفي الصحيح، عن أسامة بن زيد، أنه سُئِلَ كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَع؟ قال: «كان يسير العتق، فإذا وجد فجوة نص». والعتق: هو انبساط السير، والنص: فوقه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعي، فيما كتبت إليّ، عن أبيه أو عمه، عن سفيان بن عيينة قوله: ﴿كَأَيُّهَا أَفْقَسْتُمْ مِمَّنْ عَزَّيْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعاً. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن سالم قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وقال هُشَيْمٌ، عن حجاج، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: رآهم ابن عمر يزدحمون على قُرْحٍ، فقال: علام يزدحم هؤلاء؟ كل ما ههنا مشعر. وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أفضت من مازمي عرفة فذلك إلى مُحَسَّرٍ. قال: وليس المازمان مازما عرفة من المزدلفة، ولكن مفاصهما. قال: ففبق بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تَقَفَ دون قُرْحٍ، هلَّمَّ إلينا من أجل طريق الناس. قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القفال، وابن خزيمة، لحديث عروة بن مفرس؟ أو واجب، كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عَرَفَةُ كلها موقف، وارفعوا عن عُرْتَةِ، وجمع كلها موقف إلا مُحَسَّرًا». هذا حديث مرسل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، حدثني سليمان بن موسى، عن جبيرة بن مطعم، عن النبي ﷺ، قال: «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عُرْتَةِ. وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن مُحَسَّرٍ، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح». وهذا أيضاً منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا - وهو الأشدق - لم يدرك جبيرة بن مطعم. ولكن رواه الوليد بن مسلم، وسويد بن عبد العزيز، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد: عن ابن جبيرة بن مطعم، عن أبيه. وقال سويد: عن نافع بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فذكره، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾: تنبيه لهم على ما أنعم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل القرآن، وقيل الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ثُمَّ أَوْبَهُنَا مِنْ حَيْثُ أَفْكَسَ الْأَكْأَسُ وَأَسْتَفْزِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ عَوْرٌ رَجِيمٌ﴾

«ثم ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة، ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الجبل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقطان بيته. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّونَ الحُمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها ثم يُفِيضُ منها، فذلك قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ أَفْكَسَ الْأَكْأَسُ﴾. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع، رحمهم الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُفيان، عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أضلكتُ بغيري بعرفة، فذهبتُ أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الخُمس، ما شأنه ههنا؟ أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخاري من حديث موسى بن عقبة، عن كُريب، عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار. فإله أعلم. وحكاها ابنُ جرير، عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيم، عليه السلام. وفي رواية عنه: الإمام. قال ابن جرير: ولولا إجماعُ الحجة على خلافه لكان هو الأرجح. وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً. وفي الصحيحين أنه نذب إلى التسييح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين. وقد روى ابن جرير ههنا حديث العباس بن مرداس السلمي في استغفاره، عليه السلام، لأمتة عشيبةَ عرفة، وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة. وأورد ابن مَرْدَوِيَه ههنا الحديث الذي رواه البخاري، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة». وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي؟ فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم». والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَلَمَّا قَسَيْتُمْ فِئَابَكُمْ فَأَقْصَرْتُمْ كُنُوفَكُمْ أَيَاكُمْ أَوَّاهَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك و فراغها. وقوله: ﴿ذِكْرًا أَيَاكُمْ﴾: اختلفوا في معناه، فقال ابن جُريج، عن عطاء: هو كقول الصبي: «أبُه أمُه»، يعني: كما يُلَهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذا أنتم، فالحجوا بذكر الله بعد قضاء النسك. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس. وروى ابنُ جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس - نحوه. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحِمَالَات ويحمل الديات. ليس لهم ذكر غير فعَال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ ذِكْرًا أَيَاكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. قال ابن أبي حاتم: وروى عن أنس بن مالك، وأبي وائل، وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه، وسعيد بن جبير، وعكرمة في إحدى رواياته، ومجاهد، والسدي، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وهكذا حكاها ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله أعلم. والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و «أر» ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر، كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَابِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقوله: ﴿يَتَشَوَّنُ النَّاسُ كَهَيْئَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ حَشِيئَةً﴾ [النساء: ١٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْتُهُ إِلَىٰ يَاتَةِ آفِيٍّ أَوْ زَيْدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧]، ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]. فليست ههنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه. ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، ودَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ أي: من نصيب ولا حظ. وتضمن هذا اللم التفسير عن التشبه بمن هو كذلك. قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث و عام خضب و عام و لاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ولهذا مدح من يسأله للدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنه في الدنيا. وأما الحسنه في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب

وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وفي عذاب النار. ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء. فقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله ﷺ يقول: «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد - يعني أبا طالوت - قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام، قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع لهم فقال: تريدون أن أشق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرح: فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إيَّاه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - فهلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. قال: فدعا الله، فشفاه. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث ابن أبي عدي - به. وقال الإمام الشافعي: أخبرنا سعيد بن سالم القداح، عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد - مولى السائب - عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ورواه الثوري عن ابن جريج كذلك. وروى ابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحو ذلك. وفي سنده ضعف، والله أعلم. وقال ابن مَرْدُوَيْهِ: حدثنا عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان، عن إبراهيم بن سليمان، عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مرت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين. فإذا مررت عليه فقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وقال الحاكم في مستدركه: أخبرنا أبو زكريا العنبري، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نُصِيبُ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَكَرَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِيَنِ اتَّقَى وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِّي مُمْسِرُونَ﴾.

قال ابن عباس: «الأيام المعدودات» أيام التشريق، و «الأيام المعلومات» أيام العشر. وقال عكرمة: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ يعني: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن علي، عن أبيه، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هشيم، أخبرنا خالد، عن أبي المليح، عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». رواه مسلم أيضاً، وتقدم حديث جبير بن مطعم: «عرفة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح». وتقدم أيضاً حديث عبد الرحمن بن يغمر الدبلي: «وأيام منى ثلاثة، فمن تجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه». وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاص بن أسلم، قالوا: حدثنا هشيم، عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طعمم وذكر». وحدثنا خلاص بن أسلم، حدثنا زُوح، حدثنا صالح، حدثني ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن خديفة يطوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله ﷻ». وحدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، عن سفيان بن حسين، عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن خديفة، فنادى في أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله، إلا من كان عليه صوم من هذلي»، زيادة حسنة ولكن مرسله. وبه قال هشيم، عن عبد

الملك بن أبي سليمان، عن عمرو بن دينار: أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم، فنادى في أيام التشريق، فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله». وقال هُشَيْم، عن ابن أبي ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله». وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحاكم الزُرقي، عن أمه قالت: لكأني أنظر إلى عليّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول: «يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر». وقال مَقْسَم عن ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده. ورُوِيَ عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبي موسى، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبَّير، وأبي مالك، وإبراهيم النَّخعي، ويحيى بن أبي كثير، والحسن، وقَتادة، والسدي، والزهري، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حَيان، وعطاء الخراساني، ومالك بن أنس، وغيرهم - مثل ذلك. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح في أيهن شتت، وأفضلها أولها. والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَنْ تَمَجَّلْ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر. ويتعلق بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِيهَا أَكْبَارَ مَقْدُونَاتٍ﴾ ذكر الله على الأضاحي، وقد تقدم، وأن الراجح في ذلك مذهب الشافعي، رحمه الله، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق. ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال. وفي وقته أقوال للعلماء، وأشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النَّفَر الآخر. وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني، ولكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يكبر في قبه، فيكبر أهل السوق بتكبيره، حتى ترجع مني تكبيراً. ويتعلق بذلك أيضاً التكبيرُ وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق. وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله ﷻ». ولما ذكر الله تعالى النَّفَر الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والأفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجتمعون يوم القيامة، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ الَّذِي جِصَّاءَ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُ بِهَا وَهَيْبَتَ الْحَزَنَةِ وَاللَّسْتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْإِهْكَاءُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ آتِيَةً مَّرْكَاتٍ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْغَافِلِينَ (٢٠٧)﴾

قال السدي: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في حبيب وأصحابه الذين قتلوا بالزجيج وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح حبيب وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ آتِيَةً مَّرْكَاتٍ اللَّهُ﴾. وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن القرظي، عن نَوْف - وهو البكالي، وكان ممن يقرأ الكتب - قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، السننهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الضير، يلبسون للناس مُسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى: فعليّ يجترون! وبي يغترون! حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران. قال القرظي: تدبرتها في القرآن، فإذا هم المنافقون، فوجدتها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ الآية. وحدثني محمد بن أبي معشر، أخبرني أبي أبو معشر نجيع قال: سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عبادة السننهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الضير، لبسوا للناس مُسوك الضأن من اللين، يجتزون الدنيا بالدين. قال الله تعالى: عليّ تجترون! وبي تغترون! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. فقال سعيد: قد عرفتُ فيمن أنزلت هذه الآية. فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح. وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيصة: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ﴾ بفتح الباء، وضم الجلالة ﴿عَلَيْ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. وقراءة الجمهور بضم

الياء، ونصب الجلالة ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناه: أنه يُظهِرُ للناس الإسلام وبيارزُ الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَّا وَمِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَّا اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، أو عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام خَلَفَ وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم. وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: الألد في اللغة: هو الأعوج، ﴿وَتُذِيرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧] أي: عُوجاً. وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب، وَيُزَوِّرُ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وقال البخاري: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة تَرْفَعُهُ قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». قال: وقال عبد الله بن يزيد: حدثنا سفيان، حدثني ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وهكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر في قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ والله لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ أي: هو أعوج المقال، سببها الفعل، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعي ههنا هو: القصد. كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَوَلَّى ﴿٢٠٦﴾ فَحَسَرَ فَادَايَ ﴿٢٠٧﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٠٨﴾ فَأَعَدَّهُ اللَّهُ تَكَالُفَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٠٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَتَّقِي ﴿٢١٠﴾﴾ [النازعات: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِرَبِّكُمُ اللَّيْلُ مِنْ بَوَاقِرِ الْجُمُوعِ فَاسْتَوْا إِلَيْكَ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ [الجمعة: ٩] أي: اقصدا واعمدوا نواوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهني عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار». فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل نماء الزورع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات اللذين لا قوام للناس إلا بهما. وقال مجاهد: إذا سعي في الأرض فساداً، منع الله القَطْرَ، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي: إذا وُعظَ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق - امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإنثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعْتُمْ تَعْرِفَ فِي حُجُوبِ الْآيَاتِ كَفَرُوا التَّكْوِينُ بِكَادُورَتِ يَسْطُورَتِ بِاللَّيْلِ يَتَلَوَاتُ عَلَيْهِمْ مَائِنَاتًا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذُكِرَ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الْآيَاتِ كَفَرُوا وَيَسْ أَلْمِيزِ ﴿٢١١﴾﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فَحَسِبُكُمْ جَهَنَّمَ وَكِلَابَ إِلْهَادٍ﴾ أي: هي كافيته عقوبة في ذلك. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي نَفْسَهُ آيَةً مِّنْ مَّكَاتِ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الدميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي نَفْسَهُ آيَةً مِّنْ مَّكَاتِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجزد منه ويهاجر، ففعل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب». قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رُسْتَمَ، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا عوف، عن أبي عثمان النهدي، عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب، قَدِمْتَ إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً. فقلت لهم: أرايتم إن دَفَعْتُ إليكم مالي تُحَلِّوْنَ عني؟ قالوا: نعم. فدفعْتُ إليهم مالي، فحلُّوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب» مرتين. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبته نَفَرٌ من قريش، فنزل عن راحلته، وانتحل ما في كنانته. ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أنني من أركامكم رجلاً، وأنتم والله لا تصلون إلي حتى أرمي كُلَّ سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعَلُوا ما شئتم، وإن شئتم دلتكم على مالي وقبَّتي بمكة وخليتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فلما قدم على النبي ﷺ قال: «ربح البيع، ربح البيع». قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي نَفْسَهُ آيَةً مِّنْ مَّكَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. وأما

الأكثرون فحملوا ذلك علي أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿لَنْ أَسْأَلَكَ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ أَمْرًا لَكُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِهِمْ وَالَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ وَذَلِكُمْ هُوَ الْقَرْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٤١١]. ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين، أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا مَنْ يَنْسَى نَفْسَهُ لِبَغْيَةٍ فَهَمَّ بِهَا لَمَامًا وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فَإِنْ رَكَعْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ آيَاتُنَا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين به المصدقين برسوله: أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك زواجره ما استطاعوا من ذلك. قال العوفي، عن ابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد، في قوله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعني: الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعني: الطاعة. وقال قتادة أيضاً: المودة. وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة والضحاك: جميعاً، وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر. وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سلام، وثعلبة وأسد بن عبيد وطائفة استأذنا رسول الله ﷺ في أن يُستبوا، وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفع بطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام. ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَآفَّةً﴾ حالاً من الداخلين، أي: ادخلوا في الإسلام كلكم، والصحيح الأول، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها. وقال: ابن أبي حاتم: أخبرنا علي بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرني الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثني محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ - كذا قرأها بالنصب - يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً، وحسيكم بالإيمان بالتوراة وما فيها. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أي: اعملوا الطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّبُهَاتِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان. وقوله: ﴿فَإِنْ رَكَعْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ آيَاتُنَا﴾ أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز أي في انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب. حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نعمته، حكيم في أمره. وقال

محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في عذره ورحته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالسَّعَابِقِ وَقُصِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يقول تعالى مُهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالسَّعَابِقِ﴾ يعني: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿وَقُصِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ رِيَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَتْهُ يَوْمَئِذٍ بِحَمَلٍ بِيَوْمِئِذٍ يَنْدَعُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنْتَ لَهُ الْوَكْرِيُّ ﴿٢٣﴾﴾ [النجر: ٢١-٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الاسم: ١٥٨]. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير لها حديث الصور بطوله من أوله، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ. وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: «أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً، من آدم فمن بعده، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فإذا جاؤوا إليه قال: أنا لها، أنا لها. فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد، فيشقه الله، ويأتي في ظلل من الغمام بعدما تنشق السماء الدنيا، وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة إلى السابعة، وينزل حملة العرش والكروبيون قال: وينزل الجبار، في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم رَجُلٌ مِنْ تَسْبِيحِهِمْ يَقُولُونَ: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان رب

العرش ذي الجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميئ الخلاق ولا يموت، سُبُوح قدوس، رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبداً. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم؛ فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن مسروق، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً شاخصاً أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فضل القضاء، وينزل الله في ظُلل من الغمام من العرش إلى الكرسي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القيسي، يحدث عن عبد الله بن عمرو: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» الآية، قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خَلْفَهُ سبعون ألف حِجَاب، منها: النور، والظلمة، والماء. فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب. قال: وحدثنا أبي: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: ظلل من الغمام، منظوم من الباقوت، مكلَّل بالجواهر والزبجند. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد «فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: هو غير السحاب، ولم يكن قَطْ إلا لبني إسرائيل في تبهم حين تاهوا. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَاللَّيْلِ» قال: يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء - وهي في بعض القراءة: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام» وهي كقوله: «وَيَوْمَ تَشَقُّ أَسْمَاءُ بِالْعَنَمِ وَزَلَّ اللَّيْلُ تَزِيلًا ﴿٢٥﴾» [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَدْبُلْ يَمَةً اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾﴾ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مُخْبِراً عن بني إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿بَيْنَ آيَاتِنَا﴾ أي: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيداه وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المَنَّ والسُلُوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفراً، أي: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَنْ يَدْبُلْ يَمَةً اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما قال إخباراً عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَةً اللَّهُ كَفْرًا وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارَ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩] ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يُرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبدلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحوظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومُنشَرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدرجات في أسفل السفالين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «ابن آدم، أنفق أنفق عليك»، وقال النبي ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا». وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]، وفي الصحيح أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط مُمسكاً تلفاً. وفي الصحيح: «يقول ابن آدم: مالي، مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس». وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ بِحُكْمِ بَيْنِ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِكَيْلِ يُصِطِّبَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». ورواه الحاكم في مستدرکه، من حديث بُنْدَار عن محمد بن بشار. ثم قال: صحيح ولم يخرجه. وكذا روى أبو جعفر الرازي، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أنه كان يقرؤها: «كان الناس أمة واحدة

فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين». وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً، «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» فكان أول نبي بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفاراً، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَعثًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: من بعدما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم، فهذان الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهذان له، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى». ثم رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طائوس، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾: فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمسي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى، عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون، أن رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم. وفي قراءة أبي بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»، وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة. وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي الدعاء المأثور: اللهم، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، ووقفنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للמתقين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدَلُّوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿٢١٤﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدَلُّوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُتَبَلَّوْا وتختبروا وتمتنحوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنواب. قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومرة الهُمْدَانِي، والحسن، وقاتدة والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الفقر. قال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: السقم. ﴿وَزُلُّوا﴾: خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتنحوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا

يُصْرَفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُتَشَطُّ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لِحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرَفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثم قال: «والله ليمنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون». وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُبْزَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٢١٥﴾ وَقَدْ فتنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢١٦﴾﴾ [المنكوب: ١- ٢٣]. وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة، رضي الله عنهم، في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَبَيْنَ أَصْفَلٍ مِنْكُمْ رَاغِبٌ رَبَّيْكُمْ وَإِذْ رَاغَبُ الْأَبْصُرِ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٢١٧﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَوُزِّلُوا رِزْقُهُمْ وَإِذْ بَيْعُوتُ النَّسْفَةِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿٢١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٢]. ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالا، وبدال علينا ونُدال عليه. قال: كذلك الرسل يُبْتَلَى، ثم تكون لها العاقبة. وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: سنتهم. كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَسَدًا مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْعًا مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١٨﴾﴾ [الزخرف: ٨]. وقوله: ﴿وَوَزَّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَخَى نَصْرَ اللَّهِ﴾ أي: يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقرب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٩﴾﴾ كما قال: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢١٩﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٢٠﴾﴾. وفي حديث أبي زرین: «عجب ربك من قنوط عباده، وقرب غيبه، فينظر إليهم قنطين، فيظلم يضحك، يعلم أن فرجهم قريب» الحديث.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَبْلَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنِّي السَّكِينُ ﴿٢١٩﴾ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾. قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي نسختها الزكاة. وفيه نظر. ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَبْلَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنِّي السَّكِينُ﴾ أي: اصرقوها في هذه الوجوه. كما جاء في الحديث: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أمناك أدناك». وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا زمزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء؛ فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَرَسُولُ اللَّهِ عَلَىٰ كَرِهٍ لَكُمْ بِمَا هَلَكَ مِنْكُمْ وَإِنَّهُ عَنِ اللَّهِ وَأَنَّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْفُرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين: أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام. وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذا استعين أن يُعين، وإذا استغيت أن يُغيت، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يُحتج إليه قعد. قلت: ولهذا ثبت في الصحيح: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية». وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، إذا استنفرتم فانفروا». وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالد الأعداء. ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وأموالهم، وذرائعهم، وأولادهم. ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾: وهذا عام في الأمور كلها، قد يُحب المرء شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القعود عن القتال، قد يُعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ وَيَسِّرُ وَأَسْرَرُ لَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَزَايِ قَالِ فِيهِ قُلْ فَتَالِ بِهِ كَرِهٌ لَكُمْ وَمَسَدٌ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَرِهٌ لَكُمْ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُونَكَمُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِِنْ أَسْتَلَمْتُمْ وَمَنْ يُرِيدْ بِنَفْسِهِ يَتَّخِذْ سَبِيلًا فَهِيَ كَفَرٌ وَأُولَئِكَ حَبِطَتِ أَسْمَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يُرْجَوْنَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٣﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، حدثني الحضرمي، عن أبي السوار، عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق، بكى صباة إلى رسول الله ﷺ فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً،

وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلاً، وبقي بقيّتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يذروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾ الآية. وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرّيته، وكانوا سبعة نفر، عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي - حليف لبني نوفل - وسُهَيْل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله الزبوي، حليف لعمر بن الخطاب. وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل بطن مَلَل، فلما نزل بطن مَلَل فتح الكتاب، فإذا فيه: أن سِرَّ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: مَنْ كان يريد الموت فليمض وليبوص، فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ. فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص، وعتبة، وأضلا راحلة لهما فأتيا بُحْران يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعمرو بن الحضرمي، وعبد الله بن المغيرة. وانفلت ابن المغيرة، فأسروا الحكم بن كيسان والمغيرة وقتل عمرو، وقتله واقد بن عبد الله. فكانت أول غنيمة عنهما أصحاب النبي ﷺ. فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يقدوا الأسيرين، فقال النبي ﷺ: «حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى - وقيل: في أول رجب، وآخر ليلة من جمادى - وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب. فأنزل الله يُعَيِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾ لا يحل، وما صنعتكم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصدّتم عنه محمداً ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، حين أخرجوا محمداً ﷺ أكبر من القتل عند الله. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾ وذلك أن المشركين صدّوا رسول الله ﷺ، وزدوه عن المسجد الحرام في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل. فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ من القتال فيه. وأن محمداً ﷺ بعث سرّية فلقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وأول ليلة من رجب. وأن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه. وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك. فقال الله: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾، وغير ذلك أكبر منه: صدّ عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه: إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وهكذا روى أبو سعد البقّال، عن عكرمة، عن ابن عباس أنها أنزلت في سرّية عبد الله بن جحش، وقتل عمرو بن الحضرمي. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَيْبٌ﴾ إلى آخر الآية. وقال عبد الملك بن هشام راوي السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني، رحمه الله، في كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث - يعني رسول الله ﷺ - عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب، مَقْفَلُهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يَسْتَكْرِه من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين. ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعُكاشة بن مخصن بن حُرْثان، أحد بني أسد بن خزيمة، حليف لهم. ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر، حليف لهم. ومن بني زُهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص. ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم من عَنَتْر بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بني تميم، حليف لهم. وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث، حليف لهم. ومن بني الحارث بن فهر: سُهَيْل بن بيضاء. فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، ترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتية منهم بخير، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليَنتقلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فامض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد. فسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفُزْع، يقال له: بُخران، أضل سعد بن أبي وقاص وعُتْبة بن غزوان بغيراً لهما، كانا يَعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخلة، فمَرّت به غير لقريش تحمل زبيياً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها: عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان، مولى هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رآه أمثوا وقالوا: عُمَارُ، لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتعنن منكم به، ولئن قتلتموهم لقتلنهم في الشهر الحرام. فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعبير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة. قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يَفْرَضَ الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه. قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوَقِفَ العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعثفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يَزِدُ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. وقالت يهود نَفَاءً بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله: عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك لا لهم. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْقِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، ﴿وَالْقِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّقَقِ قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا تُفديكموهما حتى يقدم صاحبان - يعني سعد بن أبي وقاص وعُتْبة بن غزوان - فإن قتلوهما نقتل صاحبككم. فقدم سعد وعُتْبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم. فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافراً. قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمَعُوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة تُعْطَى فيها أجر المجاهدين المهاجرين؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْبِرَّ مَآثِرُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء. قال ابن إسحاق: والحديث في هذا عن الزهري، ويزيد بن رومان، عن عروة. وقد روى يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق. وروى موسى بن عقبة عن الزهري نفسه، نحو ذلك. وروى شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، عن عروة بن الزبير نحوه من هذا أيضاً، وفيه: فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فقالوا: أيجل القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية. وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة». ثم قال ابن هشام عن زياد، عن ابن إسحاق: وقد ذكر عن بعض آل عبد الله بن جحش: أن الله قسم الفيء حين أحله، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه، وخمساً إلى الله ورسوله. فوقع على ما

كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير. قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون. قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها، حين قالت قريش: قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه المال، وأسروا فيه الرجال. قال ابن هشام: هي لعبد الله بن جحش:

تُعَدُّونَ قَتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً وَأَعْظَمَ مِنْهُ لَوْ رَى الرَّشِدُ رَاشِدًا
صَدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ وَكَفَرَ بِهِ وَرَأَى وَشَاهَدُ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ لِنَبِيِّ اللَّهِ فِي الْبَيْتِ سَاجِدًا
فَلِنَا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ وَأَرْجَفَ بِالإِسْلَامِ بِيَاعٍ وَحَاسِدًا
سَقَيْنَا مِنْ إِبْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا بِنَخْلَةٍ لَنَا أَوْ قَدَّ الْحَرْبِ وَأَقْدًا
دَمَا وَإِبْنُ عَبْدِ اللَّهِ عِثْمَانُ بَيْنَنَا بِنِزَاعِهِ غُلًّا مِنَ الْقَدِّ عَانِدًا
﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُبَيِّقُونَ قُلْ أَلَسَوْا كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَسْرِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ حَرَبَ وَإِنْ مَخَاطِبُهُمْ فَاجِدُونَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي مسيرة، عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَورَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق. وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسيرة، واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي، عن عمر. وليس له عنه سواه، لكن قال أبو زرعة: لم يسمع منه. والله أعلم. وقال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح وضححه الترمذي. وزاد ابن أبي حاتم - بعد قوله: انتهينا -: إنها تذهب المال وتذهب العقل. وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضاً - عند قوله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا كُنْفَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَلْكَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات. فقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار. وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته:

وَنَشْرِبُهَا فَتُتْرَكُنَا مَلُوكًا وَأَسْنَدًا لَا يُتَّهَنُنَّهَا لَلِقَاءِ
وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يُقْمَشُه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية مهيأة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضي الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا كُنْفَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَلْكَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْكُنْفَرِ وَالْمَيْسِرِ وَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله، وبه الثقة. قال ابن عمر، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه أول آية نزلت في الخمر: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم التي في المائدة، فحرمت الخمر. وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُبَيِّقُونَ قُلْ أَلَسَوْا كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾: قرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجه قريب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أنه بلغه: أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا. فأنزل الله: ﴿وَسَتَلُونُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾. وقال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿وَسَتَلُونُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْوُ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك.

وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، وغير واحد: أنهم قالوا في قوله: ﴿قُلِ الْمَعْوُ﴾: يعني الفضل. وعن طاوس: اليسير من كل شيء، وعن الربيع أيضاً: أفضل مالك، وأطيبه. والكل يرجع إلى الفضل. وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هودبة بن خليفة، عن عوف، عن الحسن: ﴿وَسَتَلُونُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْوُ﴾ قال: ذلك ألا تتجدد مالك ثم تقعد تسأل الناس. ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا أبو عاصم، عن ابن عَجَلان، عن المَقْبِرِيِّ، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندي آخر؟ قال: «فأنت أبصر». وقد رواه مسلم في صحيحه. وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا». وعنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول». وفي الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف». ثم قد قيل: إنها منسوخة بأية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني والسدي، وقيل: مبينة بأية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: كما فضل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده، ووعيد، ولعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقيتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنائسي، حدثنا أبو أسامة، عن الصَّعْقِ العَيْشِيِّ، قال: شهدت الحسن - وقرأ هذه الآية من البقرة: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: هي والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء. وهكذا قال قتادة، وابن جُرَيْج، وغيرهما. وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفي رواية عن قتادة: فاترؤوا الآخرة على الأولى. وقد ذكرنا عند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] آثاراً كثيرة عن السلف في معنى التفكير والاعتبار.

وقوله: ﴿وَسَتَلُونُكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ وَاللَّهُ يَهْتَمُّ بِالْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَغْنَيْتَكُم مِّنَ الشَّيْءِ مِنْ طَعَامِهِمْ فَيُحْسِنُ لَهُمْ حَرِيمَهُمْ وَإِنَّ تَخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحسب له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَسَتَلُونُكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه من طرق، عن عطاء بن السائب، به. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود - بمثله. وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي، وابن أبي ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. قال وكيع بن الجراح: حدثنا هشام الدستوائي، عن حماد، عن إبراهيم قال: قالت عائشة: لأنني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي عرّة حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي.

فقوله: ﴿قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: على حدة ﴿وَإِنْ تَخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ﴾ أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْتَمُّ بِالْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: يعلم من قضده ونيته الإفساد أو الإصلاح. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَغْنَيْتَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ولو شاء لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتالي هي أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

[الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدن لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِوَلَّامَةٍ مُّؤْمِنَةٍ حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهَا حَرْمٌ مِّنَ اللَّهِ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلًا مِّنَ السَّمَاءِ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَكْتُبُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [البقرة: ٢٢١].

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية وثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْكُوفِرَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ مَحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُخْذِلَاتٍ أَخَذْنَ﴾ [المائدة: ٥]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرذ أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. فأما ما رواه ابن جرير: حدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا أبي، حدثنا عبد الحميد بن بهزاد الفزاري، حدثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]. وقد نكح طلحة بن عبيد الله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً، حتى هم أن يسطر عليهما. فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب! فقال: لئن خلّ طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكني أنتزعهن منكم صغرة قماءة - فهو حديث غريب جداً. وهذا الأثر عن عمر غريب أيضاً. قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك، لئلا يزهّد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، كما حدثنا أبو كزيب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا الصلت بن بهرام، عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وهذا إسناد صحيح، وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل، عن وكيع، عن الصلت، نحوه. وقال ابن جرير: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يزيد بن أبي زياد، عن زيد بن وهب قال: قال لي عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة. قال: وهذا أصح إسناداً من الأول. ثم قال: وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق، عن شريك، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا». ثم قال: وهذا الخبر - وإن كان في إسناده ما فيه - فالقول به لإجماع الجميع من الأمة على صحة القول به. كذا قال ابن جرير، رحمه الله. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن جعفر بن بزقان، عن ميمون بن مهران، عن ابن عمر: أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتناول: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾. وقال البخاري: وقال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى. وقال أبو بكر الخلال الحنبلي: حدثنا محمد بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم (ح) وأخبرني محمد بن علي، حدثنا صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، عن قول الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾، قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأوثان.

وقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهَا حَرْمٌ مِّنَ اللَّهِ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلًا مِّنَ السَّمَاءِ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَكْتُبُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]. قال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمه سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرها. فقال له: «ما هي؟» قال: تصوم، وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فقال: «يا أبا عبد الله، هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقتها ولا تزوجتها. ففعل، فظعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة. وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهَا حَرْمٌ مِّنَ اللَّهِ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلًا مِّنَ السَّمَاءِ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَكْتُبُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وقال عبد بن حميد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلامة سوداء خزء ذات دين أفضل». والإفريقي ضعيف. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».

ولمسلم عن جابر مثله. وله، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». وقوله: «وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا» أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ» [المنحعة: ١٠]. ثم قال تعالى: «وَلَقَبَدُّ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» أي: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سربياً «أَوْ لَتَبِكَّ يَدْعُونَ إِلَى الْآثَارِ» أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِإِذْنِهِ» أي: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه «وَيَسِّرُنَّ لَهَا لِيَسِّرَ لِمَنْ يَدْعُونَ».

«وَسْتَأْتِكُ عَنِ الْمَجِيصِ قُلٌّ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَيُحِبُّ السَّالِفِينَ» يسألكم حرتكم فأثروا حرتكم أني شيعتم وقدوموا لأنسكروا وأنفقوا الله وأعلموا أنكم ملقوه وبسبر التوقيين (١٢٢). قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأُنزل الله ﷻ: «وَسْتَأْتِكُ عَنِ الْمَجِيصِ قُلٌّ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجدَ عليهما، فخرجنا، فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجدَ عليهما. رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة. فقوله: «فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ» يعني في الفرج، لقوله: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج. قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً، ألقى على فرجها ثوباً. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا القعقبي، حدثنا عبد الله - يعني ابن عمر بن غانم - عن عبد الرحمن - يعني ابن زياد - عن عمارة بن غراب: أن عمة له حدثته: أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض، وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد؟ قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ: دخل فمضى إلى مسجده - قال أبو داود: تعني مسجد بيتها - فما انصرف حتى غلبتني عيني، وأوجعه البرد، فقال: «إدني مني». فقلت: إني حائض. فقال: «اكشفي عن فخذي». فكشفت فخذي، فوضع خده وصدره على فخذي، وحيث عليه حتى دفىء ونام ﷺ. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة: أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله. فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحباً مرحباً. فأذنا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحيي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها. ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن مروان الأصغر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة.

وروى ابن جرير أيضاً، عن أبي كُرَيْب، عن ابن أبي زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مهران، عن عائشة قالت: له ما فوق الإزار. قلت: وتحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجرتي وأنا حائض، فيقرأ القرآن. وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن جابر بن صُبَيْح: سمعت خلاساً الهجري قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد، واني حائض طامث، فإن أصابه مني شيء، غسل مكانه لم يَغْدَهُ، وإن أصاب - يعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يَغْدَهُ، وصلى فيه. فأما ما رواه أبو داود: حدثنا سعيد بن عبد الجبار، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن أبي اليمان، عن أم ذرة، عن عائشة: أنها قالت: كنت إذا حضتُ نزلت عن المثال على الحصير، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم ندن منه حتى نظهر - فهو محمول على التنزه والاحتياط. وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يبشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وهذا لفظ البخاري. ولهما عن عائشة نحوه. وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث العلاء بن الحارث، عن حزام بن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري: أنه سأل

رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «ما فوق الإزار».

ولأبي داود أيضاً، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض. قال: «ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل». وهو رواية عن عائشة - كما تقدم - وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وشريح. فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. وما أخذهم أنه حريم الفرج، فهو حرام، لثلاث يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله ﷻ، الذي أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة في الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار». وفي لفظ للترمذي: «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب، ديناراً فإن أصابها وقد أدير الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار. والقول الثاني: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي، وقول الجمهور: أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله ﷻ، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْتَرِلُوا الْيَسَاءَ فِي الْمَجْبُورِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع، وقد قال به طائفة من السلف. قال القرطبي: وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ. وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يزده الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَشْلَحَ الْأَكْثَرُ الْحَرَمَ فَأَقْلَبُوا أَلْمَشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاها الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين، وهو الصحيح.

وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تميم، إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا يحيى بن بكير من المالكية وهو أحد شيوخ البخاري، فإنه ذهب إلى إباحة وطء المرأة بمجرد انقطاع دم الحيض، ومنهم من ينقله عن ابن عبد الحكم أيضاً، وقد حكاها القرطبي عن مجاهد وعكرمة عن طاوس كما تقدم. إلا أن أبا حنيفة، رحمه الله، يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل ولا يصح لأقل من ذلك المزيد في حلها من الغسل ويدخل عليها وقت صلاة إلا أن تكون دمثة، فيدخل بمجرد انقطاعه، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد، وغيرهم. وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني الفرج؛ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول في الفرج ولا تعدوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أن تعتزلوهن. وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً. وقال أبو زرین، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: طاهرات غير حُيْض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ النَّوَائِبَ﴾ أي: من الذنب وإن تكرر غشيانه، ﴿وَيُبْغِضُ النَّظَائِرَ﴾ أي: المتنزهنين عن الأفتار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأني. وقوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. ورواه داود، من حديث سفيان الثوري به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ:

«مقبلة ومدبرة، إذا كان ذلك في الفرج». وفي حديث يَهْزُ بن حكيم بن معاوية بن خَيْدَةَ القشيري، عن أبيه، عن جده أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما تأتي منها وما نذر؟ قال: «حرثك، اثنت حركك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في الميت». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهْبَعَةَ عن يزيد بن أبي حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أحب النساء، فكيف ترى في ذلك؛ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ﴾.

حديث آخر: قال أبو جعفر الطحاوي في كتابه «مشكل الحديث»: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، ورواه ابن جرير بن يونس وعن يعقوب، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت: إني سائلك عن أمر، وإني أستحي أن أسألك. قالت: فلا تستحي يا ابن أخي. قال: عن إتيان النساء في أديارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يُجَيِّبُونَ النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبَى امرأته كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة تكحوا في نساء الأنصار، فجَبَّوهُنَّ، فأبت امرأة أن تطع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى أتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحيت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: «ادعي الأنصارية»: فدُعِيَتْ، فتلا عليها هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ صماماً واحداً. ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، عن ابن خُثَيْم، به. وقال: حسن. قلت: وقد روي من طريق حماد بن أبي حنيفة، عن أبيه، عن ابن خُثَيْم، عن يوسف بن ماهك، عن حفصة أم المؤمنين: أن امرأة أتها فقالت: إني زوجي يأتيني مُحْتَبَةً ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا بأس إذا كان في صمام واحد».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا يعقوب - يعني الفُهمي - عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: «ما الذي أهلكك؟» قال: حولت رجلي البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحِيضَةَ. رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب، به. وقال: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غِيْلَان، حدثنا رُشْدَيْن، حدثني الحسن بن ثوبان، عن عامر بن يحيى المعافري، عن حَنْش، عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ﴾ في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ، فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أتها على كل حال، إذا كان في الفرج». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سريج، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: أنفر رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: أنفر فلان امرأته، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. وقال أبو داود: حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبغ، قال: حدثني محمد - يعني ابن سلمة - عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم، إنما كان أهل هذا الحي من الأنصار - وهم أهل وثن - مع أهل هذا الحي من يهود - وهم أهل كتاب - وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يَشْرَحُونَ النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤْتِي على حرف. فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَيْفِمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات - يعني بذلك موضع الولد. تفرد به أبو داود، ويشهد له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولا سيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد قال:

عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها، حتى انتهت إلى هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾، فقال ابن عباس: إن هذا الحي من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة، ويتلذذون بهن. فذكر القصة بتمام سياقها. وقول ابن عباس: «إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم». كأنه يشير إلى ما رواه البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال: أتدري فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت في كذا وكذا. ثم مضى. وعن عبد الصمد قال: حدثني أبي، حدثني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ قال: يأتيها في... هكذا رواه البخاري، وقد تفرد به من هذه الوجوه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، حدثنا ابن عون، عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾، فقال ابن عمر: أتدري فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وحدثني أبو قلابة، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ قال: في الدبر. وروي من حديث مالك، عن نافع، عن ابن عمر، ولا يصح. وروى النسائي، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتى امرأته في دبرها، فوجد في نفسه من ذلك وجداً شديداً، فانزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾. قال أبو حاتم الرازي: لو كان هذا عند زيد بن أسلم، عن ابن عمر لما أوع الناس بنافع. وهذا تعليل منه لهذا الحديث. وقد رواه عبد الله بن نافع، عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر - فذكره. وهذا محمول على ما تقدم، وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي أيضاً عن علي بن عثمان النخيلي، عن سعيد بن عيسى، عن المفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر: أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر إنه أفنى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال: كذبوا علي، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾: فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجيبُ النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نزيد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فانزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾. وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه، عن الطبراني، عن الحسين بن إسحاق، عن زكريا بن يحيى كاتب العمري، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش، عن كعب بن علقمة، فذكره. وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن شداد عن رجل عن خزيمة بن ثابت: أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يعقوب، سمعت أبي يحدث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد: أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه أن هرمي بن عبد الله الواقفي حَدَّثَهُ: أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحي الله من الحق، لا يستحي الله من الحق - ثلاثاً - لا أتوا النساء في أعجازهن». ورواه النسائي، وابن ماجه من طرق، عن خزيمة بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي، والنسائي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الضحاك بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان، عن كُزَيْب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه. وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي، عن هناد، عن وكيع، عن الضحاك، به موقوفاً. وقال عبد: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه: أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال: تسألني عن الكفر! إسناد صحيح. وكذا رواه النسائي، من طريق ابن المبارك، عن معمر - به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن

النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى» وقال عبد الله بن أحمد: حدثني هذبة، حدثنا همام، قال: سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها. فقال قتادة: حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «هي اللوطية الصغرى». قال قتادة: وحدثني عقبة بن وسّاج، عن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟. وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وكذلك رواه عبد بن حميد، عن يزيد بن هارون، عن حميد الأعرج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله. طريق أخرى: قال: جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم، ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، وجامع بين المرأة وابنتها، والزاني بحليلة جاره، والمؤذي جاره حتى يلعه». ابن لهيعة وشيخه ضعيفان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن عاصم، عن عيسى بن حطان، عن مُسلم بن سَلَام، عن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن؛ فإن الله لا يستحيي من الحق. وأخرجه أحمد أيضاً، عن أبي معاوية، وأبو عيسى الترمذي من طريق أبي معاوية أيضاً، عن عاصم الأحول به وفيه زيادة، وقال: هو حديث حسن. ومن الناس من يورد هذا الحديث في مسند علي بن أبي طالب، كما وقع في مسند الإمام أحمد بن حنبل، والصحيح أنه علي بن طلق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن سُهَيْل بن أبي صالح، عن الحارث بن مُخَلَّد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه». وحدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها». وكذا رواه ابن ماجة من طريق سهيل. وحدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». وهكذا رواه أبو داود، والنسائي من طريق وكيع، به. طريق أخرى: قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي، حدثنا هناد، ومحمد بن إسماعيل - واللفظ له - قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». ليس هذا الحديث هكذا في سنن النسائي، وإنما الذي فيه عن سهيل، عن الحارث بن مخلد، كما تقدم. قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي: ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند، وهم منه، وقد ضعفوه. طريق أخرى: رواها مسلم بن خالد الزُّنْجِي، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ملعون من أتى النساء في أدبارهن». ومسلم بن خالد فيه كلام، والله أعلم. طريق أخرى: رواها الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبي تميمه الهُجَيْمِي، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». وقال الترمذي: ضعف البخاري هذا الحديث. والذي قاله البخاري في حديث حكيم الأثرم عن أبي تيممة: لا يتابع في حديثه. طريق أخرى: قال النسائي: حدثنا عثمان بن عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه، عن عبد الملك بن محمد الصنعاني، عن سعيد بن عبد العزيز، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء، لا تأتوا النساء في أدبارهن». تفرد به النسائي من هذا الوجه. قال حمزة بن محمد الكُتَّانِي الحافظ: هذا حديث منكر باطل من حديث الزهري، ومن حديث أبي سلمة ومن حديث سعيد؛ فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد، فإنما سمعه بعد الاختلاط، وقد رواه الزهري عن أبي سلمة أنه كان ينهى عن ذلك، فأما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فلا. انتهى كلامه. وقد أجاد وأحسن الانتقاد؛ إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعاني لا يعرف أنه اختلط، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة الكُتَّانِي، وهو ثقة، ولكن تكلم فيه دُحَيْم، وأبو حاتم، وابن حبان، وقال: لا يجوز الاحتجاج به، والله أعلم. وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد، عن سعيد بن عبد العزيز. وروي من طريقين آخرين، عن أبي سلمة. ولا يصح منها شيء. طريق أخرى: قال النسائي: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر. ثم رواه، عن بُنْدَار، عن عبد الرحمن، به. قال: من أتى امرأة في دبرها ملك كفره. هكذا رواه النسائي، من طريق الثوري، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة موقوفاً. وكذا رواه من طريق علي بن بزيم، عن مجاهد،

عن أبي هريرة موقوفاً. ورواه بكر بن خنيس، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر» والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون.

حديث آخر: قال محمد بن أبان البلخي: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه - وعن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن». وقد رواه النسائي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، عن عثمان بن اليمان، عن زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر قال: «لا تأتوا النساء في أدبارهن». وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، عن زمعة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن عبد الله بن الهاد الليثي قال: قال عمر رضي الله عنه: استحيوا من الله، فإن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن. الموقوف أصح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عُثْرُودُ وَمَعَاذُ بْنُ مَعَاذٍ قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ، عَنْ عَيْسَى بْنِ حِطَّانٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ طَلْقِ بْنِ يَزِيدٍ - أَوْ يَزِيدِ بْنِ طَلْقٍ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَسْتَاهُنَّ». وكذا رواه غير واحد، عن شعبة. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن علي، والأشبه أنه علي بن طلق، كما تقدم، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو بكر الأثرم في سننه: حدثنا أبو مسلم الخرمي، حدثنا أخي أنيس بن إبراهيم أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره، عن أبيه أبي القعقاع، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «محاش النساء حرام». وقد رواه إسماعيل بن عليه، وسفيان الثوري، وشعبة، وغيرهم، عن أبي عبد الله الشقري - واسمه سلمة بن تمام - ثقة - عن أبي القعقاع، عن ابن مسعود - موقوفاً. وهو أصح. طريق أخرى: قال ابن عدي: حدثنا أبو عبد الله المحاملي، حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن»، محمد بن حمزة هو الجزري، وشيخه فيهما مقال. وقد روي من حديث أبي بن كعب، والبراء بن عازب، وعقبة بن عامر، وأبي ذر، وغيرهم. وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث، والله أعلم. وقال الثوري، عن الضُّلْتِ بْنِ بَهْرَامٍ، عَنْ أَبِي الْمُعْتَمِرِ، عَنْ أَبِي جَوَيْرِيَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا عَنِ إِتْيَانِ الْمَرْأَةِ فِي دُبُرِهَا، فَقَالَ: سَقَلْتُ اللَّهَ بِكَ! أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْوَجَاتِكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهَا حُرْمَةٌ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد تقدم قول ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه يحرمه. قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبي الحجاب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدُّبُرُ. فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟. وكذا رواه ابن وهب وقتيبة، عن الليث، به. وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم. وقال ابن جرير: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو يزيد عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر، حدثني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس أنه قيل له: يا أبا عبد الله، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال: كذب العبد، أو العليج، على أبي عبد الله فقال مالك: أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني، عن سالم بن عبد الله، عن ابن عمر مثل ما قال نافع. فقيل له: فإن الحارث بن يعقوب يروي عن أبي الحجاب سعيد بن يسار: أنه سأل ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نشترى الجوارى أنحمض لهن؟ فقال: وما التحميض؟ فذكر له الدبير. فقال ابن عمر: أف! أف! يفعل ذلك مؤمن - أو قال: مسلم - فقال مالك: أشهد على ربيعة لأخبرني عن أبي الحجاب، عن ابن عمر، مثل ما قال نافع. وروى النسائي، عن الربيع بن سليمان، عن أصبغ بن الفرج الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار، قال: قلت لابن عمر: أنا نشترى الجوارى، فنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ قلت: نأتيهن في أدبارهن. فقال: أف! أف! أو يعمل هذا مسلم؟ فقال لي مالك: فأشهد على ربيعة لحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر، فقال: لا بأس به. وروى النسائي أيضاً من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر كان لا يرى بأساً أن يأتي الرجل المرأة في دبرها. وروى معن بن عيسى، عن مالك: أن ذلك حرام. وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل بن روح: سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن: قال: ما أنتم قوم عرب. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدو الفرج. قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون:

إنك تقول ذلك؟! قال: يكذبون علي، يكذبون علي. فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة. وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء. وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء أهل المدينة، حتى حكوه عن الإمام مالك، وفي صحته عنه نظر. وقد روى ابن جرير في كتاب النكاح له وجمعه عن يونس بن عبد الأحوص بن وهب بإحاطه. قال الطحاوي: روى أصبغ بن الفرغ، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً اقتدي به في ديني يشك في أنه حلال. يعني وطء المرأة في دبرها. ثم قرأ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾ ثم قال: فأني شيء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوي. وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحتها ذلك. ولكن في الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك، فإله أعلم.

وقال الطحاوي: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء. والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب، عن أبي سعيد الصيرفي، عن أبي العباس الأصم، سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعت الشافعي يقول... فذكر. قال أبو نصر بن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه، والله أعلم. وقال القرطبي في تفسيره: وممن ينسب إليه هذا القول - وهو إباحتها وطء المرأة في دبرها - سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون. وهذا القول في العتبية. وحكى ذلك عن مالك في كتاب له أسماء كتاب السر، وحقاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب السر، ووقع هذا القول في العتبية وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند هذا القول إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من رواية كثيرة من كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن هذا لفظه قال: وحكى الكيا الهراسي الطبري عن محمد بن كعب القرظي أنه استدل على جواز ذلك بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَمَلِينَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. يعني مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرظي إن كان صحيحاً إليه خطأ. وقد صنف الناس في هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبي وسمى كتابه إظهار إديار من أجاز الوطء في الأدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من فعل الطاعات، مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُكْفَرُونَ﴾ أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً. ﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد، عن عطاء - قال: أراه عن ابن عباس -: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع. وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً».

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَتْ تَنَزَّوْا وَتَصَلُّوْا وَتُؤْتُوا زَكَوَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِفُونَ﴾ [النور: ٢٢].

يقول تعالى: لا تجعلوا إيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحمن إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي أَوْلِيَاءَ الْفَضْلِ يَنْكُرُ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَوا لِيَصْنَعُوا أَلَا يُحْسِنُونَ أَنْ يَتَفَرَّ اللَّهُ لَكُمْ وَأَنَّ عَفْوَ رَبِّكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير. كما قال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، وقال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به، ورواه أحمد، عنه، به. ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية، هو ابن سلام، عن يحيى، وهو ابن أبي كثير، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من استلج في أهله بيمين، فهو أعظم إثماً، ليس تغني الكفارة». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا

تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير. وهكذا قال مسروق، والشعبي، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومكحول، والزهري، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللنتها»، وثبت فيها أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». وروى مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها». ورواه أبو داود من طريق عبيد الله بن الأحنس، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطعة رحم، ومن حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فليدعها، وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها». ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبي ﷺ كلها: «فليكفر عن يمينه» وهي الصحاح. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سعيد الكندي، حدثنا علي بن مسهر، عن حارثة بن محمد، عن عمرة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على قطعة رحم أو معصية، فبهر أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه». وهذا حديث ضعيف؛ لأن حارثة هذا هو ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن، متروك الحديث، ضعيف عند الجميع. ثم روى ابن جرير عن ابن جبير، وسعيد بن المسيب، ومسروق، والشعبي: أنهم قالوا: لا يمين في معصية، ولا كفارة عليها.

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه: واللوات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألستهم قد ألقت ما كانت عليه من الحلف باللوات من غير قصد، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد، لتكون هذه بهذه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ﴾ كما قال في الآية الأخرى في المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]. قال أبو داود: باب لغو اليمين: حدثنا حميد بن مسعدة الشامي حدثنا حسان - يعني ابن إبراهيم - حدثنا إبراهيم - يعني الصائغ - عن عطاء: في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: كلا والله وبلى والله». ثم قال أبو داود: رواه داود بن أبي الفرات، عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء، عن عائشة موقوفاً. ورواه الزهري، وعبد الملك، ومالك بن مغول، كلهم عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً أيضاً. قلت: وكذا رواه ابن جريج، وابن أبي ليلي، عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً. ورواه ابن جرير، عن هناد، عن وكيع، وعبد، وأبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] قالت: لا والله، وبلى والله. ثم رواه عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن هشام، عن أبيه، عنها. وبه، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن القاسم، عنها. وبه، عن سلمة عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عنها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله يتدارؤون في الأمر: لا تعتد عليه قلوبهم. وقد قال ابن أبي حاتم: أخبرنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة في قول الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قالت: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وحدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو في المزاح والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله. ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، وابن عباس في أحد أقواله، والشعبي، وعكرمة في أحد قوليه، وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد في أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبي صالح، والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلابة، والزهري، نحو ذلك. الوجه الثاني: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الثقة، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أنها كانت تتأول

هذه الآية - يعني قوله: ﴿لَا يُؤَاغِدُكُمْ اللَّهُ بِأَلْفُو فِي آيَاتِنَا﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم، لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه. ثم قال: وروي عن أبي هريرة، وابن عباس - في أحد قوليهِ - وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد - في أحد قوليهِ - وإبراهيم النخعي - في أحد قوليهِ - والحسن، وزرارة بن أوفى، وأبي مالك، وعطاء الخراساني، ويكر بن عبد الله، وأحد قولي عكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسدي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيعه، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا عبد الله بن ميمون المرالي، حدثنا عوف الأعرابي عن الحسن بن أبي الحسن، قال: مر رسول الله ﷺ يقوم ينتضلون - يعني: يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله وأخطأت والله. فقال الذي مع النبي ﷺ: حنت الرجل يا رسول الله. قال: «كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عائشة القولان جميعاً. حدثنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا شيبان، عن جابر، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق، ولا يكون كذلك.

أقوال أخر: قال عبد الرزاق، عن هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجني الله من مالي إن لم أتك غداً، فهو هذا. قال ابن أبي حاتم: وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا خالد، أخبرنا عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وأخبرني أبي، أخبرنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روي عن سعيد بن جبيرة. وقال أبو داود «باب اليمين في الغضب»: حدثنا محمد بن المنهال، أنبأنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألني عن القسمة، فكل مالي في رتاج الكعبة. فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب ﷻ، ولا في قطيعة الرحم، وفيما لا تملك».

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاغِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهي كقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاغِدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]. «وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ» أي: غفور لعباده، حلِيم عليهم.

﴿لَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ رِزْقًا مِّنْ أَزْوَاجِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَعْيُنُ عَنْ رِجَالِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٢٧]

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبة بالفينة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه. فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء - أي: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لثلاثيها. ولهذا قال تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤَلُّونَ﴾ أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. ﴿رِزْقًا مِّنْ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطلب بالفينة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء - وهو القديم عن الشافعي: أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه.

ويعتضد بما تقدم في الآية التي قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»، كما رواه أحمد وأبو داود، والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح. والله أعلم. وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر - الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، في الموطأ، عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَسَوَدَ جَانِبُهُ
فَوَاللهَ لَوْلَا اللهُ أَنِّي أَرَأَيْتُ
فَسَأَلَ عَمْرَابَتَهُ حَفْصَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَمْ أَكْثَرَ مَا تَصْبِرُ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا؟ فَقَالَتْ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. فَقَالَ عَمْرٌ: لَا أَحْبَسُ أَحَدًا مِنَ الْجِيُوشِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَقَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ السَّائِبِ بْنِ جَبْرِ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: مَا زِلْتُ أَسْمَعُ حَدِيثَ عَمْرٍ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَطُوفُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرًا؛ إِذْ مَرَّ بِامْرَأَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ مَغْلَقَةٌ بِأَبَاهَا وَهِيَ تَقُولُ:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَزْوَرَ جَانِبُهُ
الْأَعْيَبُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّمَا
يَسْرَبُ مِنْ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقَرْبِهِ
فَوَاللهَ لَوْلَا اللهُ لَا شَيْءَ غَيْرِهِ
وَلَكِنِّي أَخْشَى رَقِيبًا مَوْكَلًا

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم، أو نحوه. وقد روي هذا من طرق، وهو من المشهورات. وقوله: ﴿وَإِنَّ عَزْمًا لَلطَّلَعِ﴾: فيه دلالة على أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي الأربعة أشهر تلبية، وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، ومسروق، والقاسم، وسالم، والحسن، وأبو سلمة، وقتادة، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعطاء، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن طرخان التيمي، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، والسدي. ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيع، والزهري، ومروان بن الحكم. وقيل إنها تطلق بائنة، روي عن علي، وابن مسعود، وعثمان، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول: عطاء، وجابر بن زيد، ومسروق وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو حنيفة، والثوري، والحسن بن صالح، وكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعي، والذي عليه الجمهور أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق. وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألكى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فلما أن يطلق، وإما أن يفىء. وأخرجه البخاري. وقال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي قال الشافعي: وأقل ذلك ثلاثة عشر. ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه: أنه وقف المولي. ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما روينا عن عمر، وابن عمر، وعائشة، وعن عثمان، وزيد بن ثابت، وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ. هكذا قال الشافعي، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق. ورواه الدارقطني من طريق سهيل. قلت: وهو مروى عن عمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعائشة أم المؤمنين، وابن عمر، وابن عباس. وبه يقول سعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، وطاوس، ومحمد بن كعب، والقاسم. وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأبي ثور، وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفىء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة. وانفرد مالك بأن قال: لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة، وهذا غريب جداً.

﴿وَالطَّلَعُ يُرْتَضَعُ بِأَنْفُسِهِمْ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَوْلَاهُنَّ أَحَقُّ بِرِضَائِهِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادَا إِسْكَاتًا وَلَكِنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِمُ بِالْمَرْءِ وَالرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يترصدن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث

إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طُلقت، فإنها تعتد عندهم بقريين، لأنها على النصف من الحرية، والقُرء لا يتبعض، فكمثل لها قرءان. ولما رواه ابن جريج عن مظاهر بن أسلم المخزومي المدني، عن القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيستان». رواه أبو داود، والترمذي وابن ماجه. ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية. وقال الحافظ الدارقطني وغيره: الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه. ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفي عن ابن عمر مرفوعاً. قال الدارقطني: والصحيح ما رواه سالم ونافع، عن ابن عمر قوله. وهكذا زوي عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جبلي فكان الإمام والحرائر في هذا سواء، والله أعلم، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل - يعني ابن عباس - عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه: أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طُلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله ﷻ، حين طلقت أسماء العدة للطلاق، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق، يعني: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، قال الزهري: فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدرسون ما الأقراء؟ إنما الأقراء: الأطهار. وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبريء منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. وزوي مثله عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، والزهري، وبقية الفقهاء السبعة، وهو مذهب مالك، والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِ﴾ [الطلاق: ١] أي: في الأطهار. ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها؛ ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالظن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان. واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر - وهو الأعشى -:

ففي كل عام أنت جاثم غزوة تُشَدُّ لانتصاهَا عَزِيمٌ عَزَائِكَا
مُؤَزَّتَةٌ عَدًّا، وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قُروء نَسَائِكَا
يمدح أميراً من أمراء العراب أثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها.

والقول الثاني: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة. قال الثوري: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقتني بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد وضعت مائي وقد نزع ثيابي وأغلقت بابي. فقال عمر لعبد الله - يعني ابن مسعود - ما ترى؟ قال: أراها امرأته، ما دون أن تحل لها الصلاة. قال عمر: وأنا أرى ذلك. وهكذا روي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبي، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، ومكحول، والضحاك، وعطاء الخراساني، أنهم قالوا: الأقراء: الحيض. وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض. وهو مذهب الثوري، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حني، وأبي عبيد، وإسحاق بن راهويه. ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي، من طريق

المنذر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبي حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعي الصلاة أيام أقرائك». فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال ابن جرير: أصل القرء في كلام العرب: «الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم». وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض العلماء الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض: قرءاً، وتسمى الطهر: قرءاً، وتسمى الحيض مع الطهر جميعاً: قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حَبَلٍ أو حيض. قاله ابن عباس، وابن عُمر، ومجاهد، والشعبي، والحكم بن عتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تهديد لهن على قول خلاف الحق. ودل هذا على أن المرجح في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعدى إقامة البينة غالباً على ذلك، فردة الأمر إليهن، وتوَعَّدنَّ فيه، لثلا تخبر بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطولها، لما لها في ذلك من المقاصد. فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَيُؤْمِنَنَّ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: زوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير. وهذا في الرجعات. فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهادهم على مسألة عود الضمير - هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ - بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم. وقوله: ﴿وَكُنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَرْءِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته، في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفي حديث بهز بن حكيم، بن معاوية بن حيدة الفشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمنت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وقال وكيع عن بشير بن سليمان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَكُنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَرْءِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَعُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَعُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله: ﴿وَأَلَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرِفٍ أَوْ سَرِيحٍ يِلْخَسَنِ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا يَمَا ءَاتَيْتُمُوْنَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعَيِّبَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا يُعَيِّبَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا يِنَا أَنْتَدَّتْ يِدُهُ تِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَجِلُّ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَا أَنْ يَخَافَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٠).

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله ﷻ إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرِفٍ أَوْ سَرِيحٍ يِلْخَسَنِ﴾. قال أبو داود، رحمه الله، في سننه: «باب في نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث»: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية. ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن علي بن الحسين، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أوويك أبداً.

قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، حتى إذا دنا أجلك راجعتك. فأنت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد، وابن إدريس. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء، ما دامت في العدة، وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال: والله لا أؤويك ولا أفارئك. قالت: وكيف ذلك. قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من طريق محمد بن سليمان، عن يعلى بن شبيب - مولى الزبير - عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به. ثم رواه عن أبي كريب، عن ابن إدريس، عن هشام، عن أبيه مرسلًا. وقال: هذا أصح. ورواه الحاكم في مستدرکه، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، عن يعلى بن شبيب به، وقال صحيح الإسناد. ثم قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس، فقال: والله لأتركنك لا أياً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. فوقت الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره. وهكذا روي عن قتادة مرسلًا. وذكره السدي، وابن زيد، وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: إذا طلقتهما واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فتبين منك، وتطلق سراهما محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تضاها بها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إذا طلق الرجل امرأته تطلقتين، فلبت الله في الثالثة، فإذا أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سفيان الثوري. حدثني إسماعيل بن سميع، قال: سمعت أبا رزين يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله ﷻ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان». ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان، عن إسماعيل بن سميع، أن أبا رزين الأسدي يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قول الله ﷻ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أين الثالثة؟ بإحسان الثالثة. ورواه الإمام أحمد أيضاً. وهكذا رواه سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن زكريا وأبي معاوية، عن إسماعيل بن سميع، عن أبي رزين، به. وكذا رواه قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به مرسلًا. ورواه ابن مردويه أيضاً من طريق عبد الواحد بن زياد، عن إسماعيل بن سميع، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، فذكره. ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة، حدثنا ابن عائشة، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَنَاجَرُوا عَنْهَا مِنْكُمْ أَمْ أَنْتُمْ مُنْجِدُونَ شَيْئًا وَإِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُعْطِيَ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا لِمَنْ يُغْرِبُكُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَبَدْعُوا بِحُجُوبٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبه المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقْتُمُوهنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْرُتَ إِلَيْهِنَّ فَأَلْفُوهُنَّ فَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ يَفْعَلُونَ﴾ [النساء: 4]، وأما إذا تشاقت الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها، ولا عليه في قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَنَاجَرُوا عَنْهَا مِنْكُمْ أَمْ أَنْتُمْ مُنْجِدُونَ شَيْئًا وَإِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُعْطِيَ حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْطِيَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيمَا افْتَدْتُمْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب - وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية - قال جميعاً: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن حماد بن عمار، عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «أيا امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه الترمذي، عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به. وقال حسن: قال: ويروي، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان. ورواه بعضهم، عن

أيوب بهذا الإسناد. ولم يرفعه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة - قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حماد بن زيد، به. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث، عن أبي إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس، حرم الله عليها رائحة الجنة». وقال: «المختلعات هن المناقات». ثم رواه ابن جرير والترمذي جميعاً، عن أبي كريب، عن مزاحم بن ذؤاد بن علقمة، عن أبيه، عن ليث، هو ابن أبي سليم، عن أبي الخطاب، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي إدريس، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «المختلعات هن المناقات». ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن الربيع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن ثابت بن يزيد، عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المختلعات المنتزعات هن المناقات». غريب من هذا الوجه ضعيف.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا بكر بن خلف أبو بشر، حدثنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمه عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كُنْهه فتنجد ریح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب، عن الحسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «المختلعات والمنتزعات هن المناقات». ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتْرًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُضَيِّعَا حُكْمَ اللَّهِ» الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدَمُه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب ردّه إليها، وكان الطلاق رجعيّاً. قال مالك: وهو الأمر الذي أدركتُ الناس عليه. وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع في حالة الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستذكار» له، عن بكر بن عبد الله المزني، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: «وَمَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِعْدَتَهُنَّ فَنَطْرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سِتْرًا» [النساء: ٢٠]. ورواه ابن جرير عنه. وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله. وقد ذكر ابن جرير، رحمه الله، أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول. ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه:

قال الإمام مالك في موطنه: عن يحيى بن سعيد، عن عُمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في العَلَس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس - لزوجها - فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها». فأخذ منها وجلست في أهلها. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بإسناده - مثله - ورواه أبو داود، عن القعني، عن مالك. والنسائي، عن محمد بن مسلمة، عن ابن القاسم، عن مالك به.

حديث آخر: عن عائشة: قال أبو داود وابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو عمرو السدوسي، عن عبد الله - يعني ابن أبي بكر - عن عمرة، عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، فضرها فكسر نُغضها، فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه، فدعا رسول الله ﷺ ثابتاً فقال: «خذ بعض مالها وفارقها». قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فإني أصدقتها حديثين، فهما بيدها. فقال النبي ﷺ: «خذها وفارقها». ففعل. وهذا لفظ ابن جرير. وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام.

حديث آخر فيه: عن ابن عباس رضي الله عنه: قال البخاري: حدثنا أزهر بن جميل، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه

في خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديثة وطلقها تطليقة». وكذا رواه النسائي، عن أزهر بن جميل بإسناده، مثله. ورواه البخاري أيضاً، عن إسحاق الواسطي، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد، هو ابن مهران الحذاء، عن عكرمة به، نحوه.

وهكذا رواه البخاري أيضاً من طرق، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به. وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه، تعني: بغضاً. وهذا الحديث من أفراد البخاري من هذا الوجه. ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن جميلة رضي الله عنها. كذا قال، والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم. قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان الرقاشي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن عكرمة. عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر بعد الإسلام، ولا أطيقه بغضاً. فقال النبي ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديثه ولا يزداد. وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان، بإسناده مثله سواء، وهذا إسناد جيد مستقيم، ورواه أيضاً أبو القاسم البغوي، عن عبيد الله القواريري، عن عبد الأعلى، مثله، لكن قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن جميلة بنت أبي بن سلول: أنها كانت تحت ثابت بن قيس، فنشزت عليه، فأرسل إليها النبي ﷺ فقال: «يا جميلة، ما كرهت من ثابت؟» قالت: والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً، إلا أنني كرهت دمامته! فقال لها: «أتردين الحديثة؟» قالت: نعم. فردت الحديثة، وفرق بينهما. قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل، عن أبي جرير، أنه سأل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي، أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعت جانب الخباء، فرأيت أقبيل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. قال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديثة لي، فإن ردت عليّ حديثتي؟ قال: «ما تقولين؟» قالت: نعم، وإن شاء زدته. قال ففرق بينهما.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً، فقالت: يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه! فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. فردت عليه حديثه. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاهما؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيمَا أَفْعَدْنَ يَدَهُنَّ﴾. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، أخبرنا أيوب، عن كثير مولى سمرة: أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي حبستني. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن كثير مولى سمرة، فذكر مثله، وزاد: فحبسها فيه ثلاثة أيام. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشكت زوجها، فأباتها في بيت الزبل. فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها. وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عجيل: أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت: كان لي زوج يُقِيلُ عليّ الخير إذا حضرني، ويحرمني إذا غاب عني. قالت: فكانت مني زلة يوماً، فقلت له: أختلعت منك بكل شيء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت: فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس. ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وقبيصة بن ذؤيب، والحسن بن صالح، وعثمان البتي. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعي، وأبي ثور، واختاره ابن جرير. وقال أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاهما، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء: وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز في القضاء. وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والزهري، وطاوس، والحسن، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان، والربيع بن أنس. وقال معمر،

والحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها. وقال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها. قلت: ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قصة ثابت بن قيس: فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد، وبما روى عبد بن حميد حيث قال: أخبرنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء: أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعني المختلعة، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِيهَا أَنْفَتَتْ يَدُ﴾ أي: من الذي أعطاها؛ لتقدم قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُغْنِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حَفَّتْ مَنَاةٌ يُغْنِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيهَا أَنْفَتَتْ يَدُ﴾ أي: من ذلك. وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس: «فلا جناح عليهما فيما اقتدت به منه» رواه ابن جرير؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

فصل

قال الشافعي: اختلف أصحابنا في الخلع، فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد: يتزوجها إن شاء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قرأ إلى: ﴿أَنْ يَرَاجَعَا﴾ قال الشافعي: وأخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: كل شيء أجازاه المال فليس بطلاق. وروى غير الشافعي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وقرأ ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَرَاجَعَا﴾.

وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما - من أن الخلع ليس بطلاق، وإنما هو فسخ - هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وابن عمر. وهو قول طاوس، وعكرمة. وبه يقول أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري. وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة. والقول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك. قال مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جُمهان مولى الأسلميين، عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد، فأتيا عثمان بن عفان في ذلك، فقال: تطليقة؛ إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت. قال الشافعي: ولا أعرف جُمهان. وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم. وقد روي نحوه عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء، وشريح، والشعبي، وإبراهيم، وجابر بن زيد. وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، والأوزاعي، وعثمان البتي، والشافعي في الجديد. غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالعة بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة. وإن نوى ثلاثاً فثلاث. وللشافعي قول آخر في الخلع، وهو: أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعرى عن النية فليس هو بشيء بالكلية.

مسألة: وذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد وإسحاق في رواية عنهما، وهي المشهورة؛ إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض. وروى ذلك عن عمر، وعلي، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبو عياض، وجلاس بن عمرو، وقاتدة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم. وما أخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعدت كسائر المطلقات. والقول الثاني: أنها تعدت بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر، عن نافع أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان، رضي الله عنه، فقال: تعدت حيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعدت ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا. وحدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: عدة المختلعة حيضة. وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: عدتها حيضة. وبه يقول عكرمة، وأبان بن عثمان، وكل من تقدم ذكره ممن يقول: إن الخلع فسخ - يلزمه القول بهذا، واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود، والترمذي، حيث قال كل واحد منهما: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادي، حدثنا علي بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعدت بحيضة. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وقد رواه عبد الرزاق، عن

معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة مرسلًا.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء: أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي - أو أمرت - أن تعتد بحيضة. قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة. طريق أخرى: قال ابن ماجه: حدثنا علي بن سلمة النيسابوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال: قلت لها: حديثني حديثك. قالت: اختلعت من زوجي، ثم جئت عثمان، فسألت: ماذا علي من العدة؟ قال: لا عدة عليك، إلا أن يكون حديث عهد بك، فتمكثين عنده حتى تحيض حيضة. قالت: وإنما تبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه. وقد روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن الربيع بنت معوذ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة.

مسألة: وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروى عن عبد الله بن أبي أوفى، وماهان الحنفي، وسعيد بن المسيب، والزهري أنهم قالوا: إن رد إليها الذي أعطها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبي ثور، رحمه الله. وقال سفيان الثوري: إن الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان سمي طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة. وبه يقول داود بن علي الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك، كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

مسألة: وهل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: أحدها: ليس له ذلك؛ لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه. وبه يقول ابن عباس، وابن الزبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. والثاني: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع، وإن سكت بينهما لم يقع. قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان، رضي الله عنه. والثالث: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح، وطاوس، وإبراهيم، والزهري، والحكم، وحماد بن أبي سليمان. وروى ذلك عن ابن مسعود، وأبي الدرداء. قال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما. وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها». وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة واحدة، لقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخزوم بن بكير عن أبيه، عن محمد بن لبيد قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطلقات جميعاً فقام غضبان، ثم قال: «أبْلِيبُ بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!» حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله؟، فيه انقطاع. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهَا مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾ أي: إنه إذا طلق الرجل امرأته طليقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطيء في غير نكاح، ولو في ملك يمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزواج، وهكذا لو تزوجت، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب، رحمه الله، أنه يقول: يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني. وفي صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه في الاستذكار، فإله أعلم. وقد قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سالم بن رزين، عن سالم بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها، قيل أن يدخل بها: أترجع إلى الأول؟ قال: «لا»، حتى تذوق عسليته ويذوق عسيلتها». هكذا وقع في رواية ابن جرير، وقد رواه الإمام أحمد فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله، يعني: ابن عمر،

عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: في الرجل تكون له المرأة فيطلقها، ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها، فترجع إلى زوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «حتى يذوق العسيلة». وهكذا رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، وابن ماجه عن محمد بن بشار بنندار، كلاهما عن محمد بن جعفر غندر، عن شعبة، به كذلك. فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعاً، على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند، والله أعلم. وقد روى أحمد أيضاً، والنسائي، وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن رزين بن سليمان الأحمرى، عن ابن عمر قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فيتزوجها آخر، فيغلق الباب ويرخي الست ثم يطلقها، قبل أن يدخل بها: هل تحل للأول؟ قال: «لا، حتى يذوق العسيلة». وهذا لفظ أحمد، وفي رواية لأحمد: سليمان بن رزين.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا محمد بن دينار، حدثنا يحيى بن يزيد الهنائي، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً، فطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذائق من عسيلته». ورواه ابن جرير، عن محمد بن إبراهيم الأنماطي، عن هشام بن عبد الملك، حدثنا محمد بن دينار، فذكره. قلت: ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدي ثم الطاحي البصري، ويقال له: ابن أبي الفرات: اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له. وقال أبو داود: إنه تغير قبل موته، فإله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا أبي، حدثنا شيبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي الحارث الغفاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في المرأة يطلقها زوجها ثلاثاً فتتزوج زوجاً غيره، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها، قال: «لا، حتى يذوق الآخر عسيلتها». ثم رواه من وجه آخر عن شيبان، وهو ابن عبد الرحمن، به. وأبو الحارث غير معروف.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثنا القاسم، عن عائشة: أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسه، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال: «لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول». أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، من طرق، عن عبيد الله بن عمر العمري، عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن عمته عائشة، به. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهباري، وسفيان بن وكيع، وأبو هشام الرفاعي قالوا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته، فتزوجت رجلاً غيره، فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته». وكذا رواه أبو داود عن مسدد، والنسائي عن أبي كريب، كلاهما عن أبي معاوية، وهو محمد بن حازم الضرير، به. طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن العلاء الهمداني، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ قال: «لا، حتى يذوق عسيلتها». قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا ابن فضال: وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية جميعاً، عن هشام بهذا الإسناد. وقد رواه البخاري من طريق أبي معاوية محمد بن حازم، عن هشام به. وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين. وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً بنحوه أو مثله. وهذا إسناد جيد. وكذا رواه ابن جرير أيضاً، من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن امرأة أبيه أمينة أم محمد عن عائشة، عن النبي ﷺ بمثله، وهذا السياق مختصر من الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، عن هشام، حدثني أبي، عن عائشة، عن النبي ﷺ. وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عبدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رفاعة القرظي تزوج امرأة ثم طلقها، فتزوجت آخر فأنت النبي ﷺ، فذكرت له أنه لا يأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هدية الثوب فقال: «لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك». تفرد به من هذين الوجهين. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي - وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ - فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدية، وأخذت هدية من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ! فما زاد رسول الله ﷺ على التبسم، وقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاعة، لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك». وهكذا رواه البخاري من حديث عبد الله بن المبارك، ومسلم من حديث

عبد الرزاق، والنسائي من حديث يزيد بن زريع، ثلاثهم عن معمر به. وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم: إن رفاة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبا داود من طريق سفيان بن عيينة، والبخاري من طريق عقيل، ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده ثلاث تطليقات، والنسائي من طريق أيوب بن موسى، ورواه صالح بن أبي الأخضر كلهم عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، به. وقال مالك عن المسور بن رفاة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاة بن سمؤال طلق امرأته تميمة بنت وهب في عهد رسول الله ﷺ ثلاثاً، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير، فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسه، ففارقها، فأراد رفاة أن ينكحها، وهو زوجها الأول الذي كان طلقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنهاه عن تزويجها، وقال: «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» كذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع. وقد رواه إبراهيم بن طهمان، وعبد الله بن وهب، عن مالك، عن رفاة، عن الزبير بن عبد الرحمن، عن أبيه، فوصله.

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطناً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف، لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده. واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوق عسيلته وذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع»، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

الحديث الأول: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن ذكّين، حدثنا سفيان، عن أبي قيس، عن الهزيل، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله. ثم رواه أحمد، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن سفيان، وهو الثوري، عن أبي قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس. طريق أخرى: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله، عن عبد الكريم، عن أبي الواصل، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله المحلل والمحلل له». طريق أخرى: روى الإمام أحمد، والنسائي، من حديث الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن الحارث الأعور، عن عبد الله بن مسعود قال: أكل الربا وموكله، وشاهداه وكتبته إذا علموا به، والواصلة، والمستوصلة، ولاوي الصدقة، والمعتدي فيها، والمرتد على عقبيه أعرابياً بعد هجرته، والمحلل والمحلل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

الحديث الثاني: عن علي رضي الله عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله، وشاهديه وكتابه، والواشمة والمستوشمة للحسن، ومانع الصدقة، والمحلل، والمحلل له، وكان ينهى عن التوح. وكذا رواه عن غندر، عن شعبة، عن جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي عن الحارث، عن علي، به. وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد، وحصين بن عبد الرحمن، ومجالد بن سعيد، وابن عون، عن عامر الشعبي، به. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث الشعبي، به. ثم قال أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا، وأكله، وكتابه، وشاهده، والمحلل، والمحلل له.

الحديث الثالث: عن جابر: قال الترمذي: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن بن زبيد اليامي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله وعن الحارث، عن علي: أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له. ثم قال: وليس إسناده بالقائم، ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم، منهم أحمد بن حنبل. قال: ورواه ابن نمير، عن مجالد، عن

الشعبي، عن جابر بن عبد الله، عن علي. قال: وهذا وهم من ابن نمير، والحديث الأول أصح.

الحديث الرابع: عن عقبه بن عامر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري، حدثنا أبي، سمعت الليث بن سعد يقول: قال أبو مصعب مشرح هو: ابن هاعان، قال عقبه بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له». تفرد به ابن ماجه. وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، عن عثمان بن صالح، عن الليث به، ثم قال: كانوا ينكرون على عثمان في هذا الحديث إنكاراً شديداً. قلت: عثمان هذا أحد الثقات، روى عنه البخاري في صحيحه. ثم قد تابعه غيره، فرواه جعفر الفريابي عن العباس المعروف بابن فريق، عن أبي صالح عبد الله بن صالح، عن الليث به، فبرئ من عهده والله أعلم.

الحديث الخامس: عن ابن عباس. قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر، عن زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. طريق أخرى: قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني السعدي: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال: «لا، إلا نكاح رغبة، لا نكاح دُلْسَة ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيلتها». ويتقوى هذان الإسنادان بما رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عن حميد بن عبد الرحمن، عن موسى بن أبي الفرات، عن عمرو بن دينار، عن النبي ﷺ بنحو من هذا، فيتقوى كل من هذا المرسل والذي قبله بالآخر، والله أعلم.

الحديث السادس: عن أبي هريرة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله، هو ابن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، والبيهقي، من طريق عبد الله بن جعفر القرشي. وقد وثقه أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين وغيرهم. وأخرج له مسلم في صحيحه، عن عثمان بن محمد الأحنسي - وثقه ابن معين - عن سعيد المقبري، وهو متفق عليه.

الحديث السابع: عن ابن عمر. قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف المدني، عن عمر بن نافع، عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه، ليحلها لأخيه: هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقد رواه الثوري، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، به. وهذه الصيغة مشعرة بالرفع. وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، وحرب الكرماني، وأبو بكر الأثرم، من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع، عن قبيصة بن جابر، عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجتمها. وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة، عن بكير بن الأشج، عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روي عن علي، وابن عباس، وغير واحد من الصحابة، رضي الله عنهم. وقوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» أي: الزوج الثاني بعد الدخول بها «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجَعَا» أي: المرأة والزوج الأول «إِنْ طَلَّقَا أَنْ يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» أي: يتعاشرا بالمعروف وقال مجاهد: إن طنا أن نكاحهما على غير دلْسَة «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أي: شرائعه وأحكامه «يُبَيِّنُهَا» أي: يوضحها «لِقَوْمٍ يَلْتَمُونَ» وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، فيما إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين، وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بأخر فدخل بها، ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول: هل تعود إليه بما بقي من الثلاث، كما هو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة، رضي الله عنهم؟ أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله؟ ووجهتم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأُنِيسِكُمْ بِمَعْرِفٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ حَتَّى يَكُنَّ مِنْكُمْ حُدُودُ اللَّهِ وَأُولَئِكَ حُدُودُ اللَّهِ لَا يَجْعَلُ اللَّهُ سَبِيلَ ظُلْمٍ وَلَا نَجْدٍ وَلَا يَذَرُ اللَّهُ شَيْئاً إِلَّا وَرَدَّ أَرْثَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْثَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالْحِكْمَةِ يُظَاهِرُ بِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ﴾

هذا أمر من الله ﷻ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسخها، أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتخيير أحسن، من غير شقاق ولا

مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُشْكِرْهُنَّ شِرْكَاً لِّعَمَلِكُنَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لثلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَنْ يَمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بمخالفته أمر الله تعالى. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾: قال ابن جرير: عند هذه الآية: أخبرنا أبو كُرَيْب، أخبرنا إسحاق بن منصور، عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبي العلاء الأودي، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأناه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعرين؟! فقال: «يقول أحدكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة قُبِلَ عدتها». ثم رواه من وجه آخر، عن أبي خالد الدالاني، وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام. وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة. وقال الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع، ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً. فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾ فألزم الله بذلك. وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفي، حدثني جعفر بن محمد السمسار، عن إسماعيل بن يحيى، عن سفیان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب، لا يريد الطلاق؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رُوَاد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، هو البصري، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق ويقول: كنت لاعباً وينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو اعتق أو نكح أو أنكح، جاداً أو لاعباً، فقد جاز عليه». وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهري، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، مثله. وهذا مرسل. وقد رواه ابن مردويه، من طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبي الدرداء موقوفاً عليه. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب، حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية، عن إسماعيل بن سلمة، عن الحسن، عن عبادة بن الصامت، في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾ قال: كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل زوجته ابنتي ثم يقول: كنت لاعباً. ويقول: قد اعتقت، ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًّا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح».

والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من طريق عبدالرحمن بن حبيب بن أردك، عن عطاء، عن ابن ماهدك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة».

وقال الترمذي: حسن غريب. وقوله: «وَأَذْكُرُوا بِمَنْتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبيّنات إليكم ﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة ﴿يُعْطِكُمْ بِيَدٍ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذكرون ﴿وَأَعْمَلُوا﴾ أَنَّ اللَّهَ يَكْفِي مَعَكُمْ عَيْبٌ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك. ﴿وَلِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا تَصَلَّوهُنَّ أَنْ يَكْفِيَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَصُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ بَيْنَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ ذِكْرُكُمْ أَنْتُمْ لَكُمْ وَأَطَّهَرُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين، فتتقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فهى الله أن يمنعوها. وكذا روى العوفي، عنه، وكذا قال مسروق، وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك أنها نزلت في ذلك. وهذا الذي قاله ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في تزويجها من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها». وفي الأثر الآخر: لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهدي عدل. وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع، وقد قرنا ذلك في كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة..

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فقال البخاري، رحمه الله، في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن قال: حدثني معقل بن يسار

قال: كانت لي أخت تخطب إلي - قال البخاري: وقال إبراهيم، عن يونس، عن الحسن: حدثني معقل بن يسار. وحدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَمْسُكُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه من طرق متعددة، عن الحسن، عن معقل بن يسار، به. وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار: أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: بالكع، أكرمتك بها وزوجتكها، فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، آخر ما عليك قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلمها، أنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجْهَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمِعْتُ لِرَبِّي وَطَاعَةَ ثُمَّ دَعَا، فقال: أزوجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني. وروى ابن جرير، عن ابن جريح قال: هي جمل بنت يسار كانت تحت أبي البداح، وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق السبيعي قال: هي فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم. وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكَ أَرْكَنٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: اتباعكم شرع الله في رد الموليآت إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ بِكُمْ﴾ أي: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تدرن.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِضْفَانٌ وَيَسْتَوْجِبُنَّ الْيَتِيمَ لَا تَكْفُلْ نَفْسٌ إِلَّا وَمَسْمَأُ لَا تُضَاعَفُ وَلِدَةٌ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يَوْلِدُونَ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَكْوِينًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْكَرْبِ وَاعْتَرَفُوا لِلَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. قال الترمذي: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام». وقال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. وفاطمة بنت المنذر ابن الزبير بن العوام، وهي امرأة هشام بن عروة. قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: «إلا ما كان في الثدي، أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث، الذي رواه أحمد، عن وكيع وغندر، عن شعبة، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: «إن له مرضعاً في الجنة». وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً في الجنة» يعني: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطني، من طريق الهيثم بن جميل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ. قلت: وقد رواه الإمام مالك في الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس موقوفاً. ورواه الدراوردي عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس وزاد: «وما كان بعد الحولين فليس بشيء»، وهذا أصح. وقال أبو داود الطيالسي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يُتَمُّ بعد احتلام»، وتمام الدلالة من هذا الحديث في قوله: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَحَلْمُهُ وَفِصْلُهُ تَكْتُونُ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥]. والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروى عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبي يوسف، ومحمد، ومالك في رواية، وعنه: أن مدته سنتان وشهران، وفي رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر، وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعي. قال مالك:

ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روي عن عمر وعلي أنها قالوا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يفظم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقد روي في الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه، وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأى ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور - منهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة - ما ثبت في الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «انظُرْنَ من إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة». وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع، وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقوله: ﴿وَعَلَّ الْمَوْلُودَ لَهُ يَرْضَعُ وَيَسْتَمِئْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدتهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿يُسْقِئُ ذُو سَعْيٍ مِّن سَعْيِهِ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ يَرْفَعْهُ فَلَئِنْ قَالَ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنهَاءُ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاك: إذا طلق الرجل زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف. وقوله: ﴿لَا تُضَاكِرُ وَاِلِدَةً يُولَدُهَا﴾ أي: لا تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودَ لَهُ يُولَدُ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقناة، والضحاك، والزهري، والسدي، والثوري، وابن زيد، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَعَلَّ الْوَارِثُ مِثْلَ ذَلِكَ﴾. قيل: في عدم الضرر لقربيه، قاله مجاهد، والشعبي، والضحاك. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور. وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره. وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وجمهور السلف، ويرشح ذلك بحديث الحسن، عن سمره مرفوعاً: «من ملك ذا رحم محرم عُتِقَ عليه». وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله، وقد قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين. فقال: لا ترضعيه. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَا لَكَ فَتَأْتِهِنَّ وَأَقْرَابَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه: أن انفرد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاوراة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، والزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حذر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَا لَكَ فَتَأْتِهِنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ مَسَرْتُمُ فَسَرِّعْ لَهُ الْآخَرَ﴾ [الطلاق: ٦]. وقوله: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا مَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِالْأَوْلَادِ مِنَ آبَائِهِمْ وَإِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَفَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن: أن يعتدداً أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِلَ عن رجل تزوج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملاً. وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بزوح بنت واشيق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. وفي

رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا:شهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بزّوع بنت واشق. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلط قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سُبَيْعة الأَسلمية، المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكْكَ، فقال لها: مالي أراك مَتَجَمَّلَةً؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سُبَيْعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت، وأمرني بالتزويج إن بدلي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيْعة، يعني لما احتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سُبَيْعة، كما هو قول أهل العلم قاطبة. وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة. ومن العلماء - كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية - من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام؛ لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليفة. وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة في جعل عدة الوفاء أربعة أشهر وعشر؛ لاحتمال اشتغال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نظفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح». فهذه ثلاثة أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيه ينفخ الروح. وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: لِمَ صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيها الروح. رواهما ابن جرير. ومن ههنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا؛ لأنها صارت فراشاً كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلِسُوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر. ورواه أبو داود، عن قتيبة، عن عُثْرٍ. وعن ابن المشي، عن عبد الأعلى. وابن ماجة، عن علي بن محمد، عن وكيعة - ثلاثتهم عن سعيد بن أبي عروبة، عن مطر الوراق، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره. وقد روي عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل: إن قبيصة لم يسمع عُمرأ، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم: سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وابن سيرين، وأبو عياض، والزهري، وعمر بن عبد العزيز. وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين. وبه يقول الأوزاعي، وإسحاق بن زَاهَوِيه، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه. وقال طائوس وقاتدة: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصفُ عدة الحرة: شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح بن حَيٍّ: تعتد بثلاث حيض. وهو قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة. وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قال الليث: ولو مات وهي حائض أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إلي. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحدا على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشر». وفي الصحيحين أيضاً، عن أم سلمة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عيها، أفنكحها؟ فقال: «لا». كل ذلك يقول: «لا» مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة». قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً، حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطي بَغرة فترمي بها، ثم تؤتي بدابة - حمار أو

شاة أو طير - فَتَقْتَضُ بِهِ فَقَلْمًا تَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ .

ومن ههنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعِينَ إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية (البقرة: ٢٤٠)، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره. والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعوهها إلى الأزواج من ثياب وحُلِيٍّ وغير ذلك وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن؟ فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة، والحررة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة. وبه يقول أشهب، وابن نافع من أصحاب مالك. وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحْدَ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»: قالوا: فجعله تعيداً. وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها، لعدم التكليف. وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لتقصها. ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالَ مِنْ عِلْمِهِمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ﴾ أي: انقضت عدتهن. قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهري: أي: على أوليائنها ﴿فِيمَا قَعَلْنَ﴾ يعني: النساء اللاتي انقضت عدتهن. قال العوفي، عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف. روي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب. وروي عن الحسن، والزهري، والسدي نحو ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تُعَرَّضُوا بخِطْبَةِ النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال الثوري وشعبة وجريير وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ قال: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة ونحو هذا. ولا يتصحب للخطبة. وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأة سالحة، ولا ينصب لها ما دامت في عدتها. ورواه البخاري تعليقاً، فقال: قال لي طلق بن عثام، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أنه تيسر لي امرأة سالحة. وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وقتادة، والزهري، ويزيد بن قسيط، ومقاتل بن حيان، والقاسم بن محمد، وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص: آخر ثلاث تطلقات. فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: «فإذا خللت فأذيني». فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجه إياه. فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَكْتَسَبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أضمرتم في أنفسكم خطبتهن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَسْمَعُ مَا تَكْفُرُونَ مِنْكُمْ وَمَا يُعَلِّتُونَ﴾ [الفصل: ٦٩]، وكقوله: ﴿وَأَنَا أَهْلَكُ بِمَا أَنْفَقْتُمْ وَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ [المتنحة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمُوهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال أبو ميخلز، وأبو الشعثاء - جابر بن زيد - والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وسليمان التيمي، ومقاتل بن حيان، والسدي: يعني الزنا. وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، واختاره ابن جريج.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري، ونحو هذا. وكذا روي عن سعيد بن جبير، والشعبي، وعكرمة، وأبي الضحى، والضحاك، والزهري، ومجاهد، والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تنفوتيني بنفسك، فإني ناكحك. وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة، وهي في عدتها ألا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه، وأحل الخطبة والقول بالمعروف. وقال

ابن زيد: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ بَيْرًا﴾ هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حلت أظهر ذلك. وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَمْرُوفًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والسدي، والثوري، وابن زيد: يعني به: ما تقدم من إباحة التعريض. كقوله: إني فيك لرأغب. ونحو ذلك. وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَمْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسفني بها، يعني: لا تزوجها حتى تعلمني. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَا تَزْنِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والربيع بن أنس، وأبو مالك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، والزهري، وعطاء الخراساني، والسدي، والثوري، والضحاك: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد. واحتج في ذلك بما رواه عن ابن شهاب، وسليمان بن يسار: أن عمر، رضي الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها، فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً. قالوا: وماخذ هذا: أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأييد، كالمقاتل يحرم الميراث. وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد، لقول علي: إنها تحل له. قلت: ثم هو منقطع عن عمر. وقد روى الثوري، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق: أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها، وجعلها يجتمعان. وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَخَدَرُوا﴾ توعدهم على مايقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسنهم من رحمته، ولم يُنظّمهم من عانته، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ

حَلِيمٌ﴾

﴿لَا جَنَاحَ عَلَيْهِمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ رِيبَةً وَمَتْمُونًا عَلَىٰ الْوَيْحِ قَدَرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، والحسن البصري: المس: النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها، والفرض لها إن كانت مُقْرَضَةً، وإن كان في هذا انكسار لقلبها؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره. وقال سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أمية، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: متعة الطلاق أعلاء الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن كان موسراً متعها بخادم، أو شبه ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب. وقال الشعبي: أوسط ذلك: درع وخمار وملحفة وجلباب. قال: وكان شريح يمتع بخمسائة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: كان يُمتع بالخادم، أو بالنفقة، أو بالكسوة، قال: وتمتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاع قليل من حبيب مُفَارِق.

وذهب أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعي في الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة. وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً، إلا أنني أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روي عن ابن عمر، رضي الله عنهما. وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلق، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها؟ على أقوال: أحدها: أنه تجب المتعة لكل مطلق، لعدم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْجِيَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّيَهَا فَمَا لَكُمْ بِأَمْتِعَتِكُمْ وَأَمْتِعْتَكُمْ سَرَكَامًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، والحسن البصري. وهو أحد قولي الشافعي، ومنهم من جعله الجديد الصحيح، فالله أعلم. والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل الميسس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسِرْجُوهُنَّ سَرَكَامًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، قال شعبة وغيره، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد، وأبي أسيد أنهما قالاً: تزوج

رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنما كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين. والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها، ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد. ومن العلماء: من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول: وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَرْوَةِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّبِعِ﴾ (٢٤١) [البقرة: ٢٤١]. ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القرويني، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: ذكروا له المتعة، أيجبس فيها؟ فقرأ: ﴿عَلَى الْوَيْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُعْتَرِ قَدْرُهُ﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْفٌ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَعْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ﴾ (٢٤١).

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة، والله أعلم. وتشطير الصداق - والحالة هذه - أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن قال الشافعي: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج، عن ليث بن أبي سليم، عن طائوس، عن ابن عباس أنه قال: - في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها - ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْفٌ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعي: هذا أقوى، وهو ظاهر الكتاب. قال البيهقي: وليث بن أبي سليم وإن كان غير محتج به، فقد روينا من حديث ابن أبي طلحة، عن ابن عباس فهو يقوله. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء. قال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله: وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، والشعبي، والحسن، ونافع، وقتادة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، والضحاك، والزهري، ومقاتل بن حيان، وابن سيرين، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يعني: الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه. انتهى كلامه. وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «ولي عقدة النكاح الزوج». وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره، ولم يقل: عن أبيه، عن جده، فالله أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جرير، يعني ابن حازم، عن عيسى - يعني ابن عاصم - قال: سمعت شريحاً يقول: سألتني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولي المرأة. فقال علي: لا، بل هو الزوج. ثم قال: وفي إحدى الروايات عن ابن عباس، وجبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح - في أحد قوليه - وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، ونافع، ومحمد بن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وجابر بن زيد، وأبي مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان: أنه الزوج. قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة. وأصحابه، والثوري، وابن شبرمة، والأوزاعي، واختاره ابن جرير. وماخذ هذا القول: أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وإنهادهما، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق. قال: والوجه الثاني: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو بن دينار، عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها، أو من لا تنكح إلا بإذنه، وروي عن علقمة، والحسن، وعطاء، وطائوس، والزهري، وربيع، وزيد بن أسلم، وإبراهيم النخعي، وعكرمة في أحد قوليه، ومحمد بن سيرين - في أحد قوليه - أنه الولي. وهذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم؛ وماخذ أن الولي هو

الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن الربيع الرازي، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأى امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها وجاز عفوهُ. وهذا يقتضي صحة عفو الولي، وإن كانت رشيدة، وهو مروى عن شريح. لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه. وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: حُوطب به الرجال، والنساء. حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو. وكذا روي عن الشعبي وغيره، وقال مجاهد، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والثوري: الفضل لهن أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْنَأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقاتدة، والسدي، وأبو وائل: المعروف، يعني: لا تهملوه بل استعملوه بينكم. وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عبد الله بن عبيد، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لِبِائْتَيْنِ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعْضُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَيَنْسَى الْفَضْلَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْنَأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، شرار يبايعون كل مضطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع العرّ، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يَحْزُنُهُ ولا يَحْرِمُهُ. وقال سفيان، عن أبي هارون قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي، فكان عون يحدثنا ولحيته تَرَشُّ من البكاء ويقول: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همّاً، حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاً، وأحسن مركباً مني. وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿وَلَا تَسْنَأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدْعُ له. رواه ابن أبي حاتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رِكَابًا فَإِذَا أُنْمِتْمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلوة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزداني. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، عن القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه الدنيا، عن جدته أم قُرْظَةَ - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ، وذكر الأعمال، فقال: «إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وقال: لا نعرفه إلا من طريق العمري، وليس بالقوي عند أهل الحديث. وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح. حكاها مالك في الموطأ بلاغاً عن علي، وابن عباس قال: مالك: وذلك رأيي. وقال هشيم، وابن عُلية، وعُثْدَر، وابن أبي عدي، وعبد الوهاب، وشريك وغيرهم، عن عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، فقنت فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين. رواه ابن جرير. ورواه أيضاً من حديث عوف، عن جَلَّاس بن عمرو، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف، عن أبي المنهال، عن أبي العالية، عن ابن عباس: أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جانب: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. وروى من طريق أخرى عن الربيع، عن أبي العالية: أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ، صلاة الغداة، فلما أن فرغوا قال، قلت لهم: أيتهن الصلاة الوسطى؟ قالوا: التي قد صليتها قبل. وقال أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عتمة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح. وحكاها ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، وأبي أمامة، وأنس، وأبي العالية، وعُبَيْد بن عمير، وعطاء، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، والربيع بن أنس. ورواه ابن جرير، عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعي، رحمه الله، محتجاً بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. والقنوت عنده في صلاة

الصبح. ونقله الدمياطي عن عمر، ومعاذ، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة على خلاف منهم، وأبي موسى، وجابر، وأنس، وأبي الشعثاء، وطاوس، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد. ومنهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتي ليل جهريتين، وصلاتي نهار سريرتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر. قال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزبير بن عرينة - يعني ابن عمرو - عن زهرة - يعني ابن معبد - قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة، فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان النبي ﷺ يصلها بالهجير. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عمرو بن أبي حكيم، سمعت الزبير بن عروة عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب النبي ﷺ منها، فنزلت ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُصَلُّونَ﴾ وقال: «إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود في سننه، من حديث شعبة، به.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزبير بن عرينة: أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت، وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم؛ يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر. فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هي الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هي الظهر؛ إن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالتهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُصَلُّونَ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ «لَيْتَنِّي هَيْئَ رَجَالٍ أَوْ لَأَحْرَقَنَّ بِيوتَهُمْ». الزبير بن عروة بن عمرو بن أمية الضمري، لم يدرك أحداً من الصحابة. والصحيح ما تقدم من روايته، عن زهرة بن معبد، وعروة بن الزبير. وقال شعبة وهمام، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر. وقال أبو داود الطيالسي وغيره، عن شعبة، أخبرني عمر بن سليمان، من ولد عمر بن الخطاب قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هي الظهر. ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، به، عن زيد بن ثابت، في حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر. ومن روي عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة بن الزبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد. ورواية عن أبي حنيفة، رحمه الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذي والبيهقي، رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: هو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى: «كشف المغطى، في تبيين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاها عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي أيوب، وعبد الله بن عمرو، وسمرة بن جندب، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على الصحيح عنهم. وبه قال عبيدة، وإبراهيم النخعي، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وابن سيرين، والحسن، وقاتدة، والضحاك، والكلبي، ومقاتل، وعبيد بن أبي مريم، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي: والشافعي. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي، رحمه الله.

ذكر الدليل على ذلك

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم، عن شتير بن شكل، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملا الله قلوبهم وبيوتهم ناراً». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب والعشاء. وكذا رواه مسلم، من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسائي من طريق عيسى بن يونس، كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن شتير بن شكل بن حميد، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ مثله. وقد رواه مسلم أيضاً، من طريق شعبة، عن الحكم بن عتيبة، عن يحيى بن الجزار، عن علي، به. وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب المساند، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها، عن عبيدة السلماني، عن علي، به. ورواه الترمذي، والنسائي من طريق الحسن البصري، عن علي، به. قال الترمذي: «ولا يعرف سماعه منه». وقال ابن

أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن عاصم، عن زر: قال قلت لعبيدة: سل علياً عن صلاة الوسطى فسأله، فقال: كنا نراها الفجر - أو الصبح - حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم - أو بيوتهم - ناراً» ورواه ابن جرير، عن بNDAR، عن ابن مهدي، به. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى: هي صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضاً، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب - رضي الله عنهما.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى: صلاة العصر». وحدثنا بهز، وعفان قالا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿حَافِظُوا عَلَ الْفَسْكَوَاتِ وَالْفَسْكَوَاتِ الْوَسْطَى﴾ وسماها لنا أنها هي: صلاة العصر. وحدثنا محمد بن جعفر، وروح، قالا: حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «هي العصر». قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى. ورواه الترمذي، من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة. وقال: حسن صحيح: وقد سمع منه.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

طريق أخرى، بل حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الجرشي الواسطي، حدثنا الوليد بن مسلم. قال: أخبرني صدقة بن خالد، حدثني خالد بن دهقان، عن خالد بن سيلان، عن كهيل بن حرملة. قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ، وفينا الرجل الصالح: أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك، فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه، ثم خرج إلينا فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر. غريب من هذا الوجه جداً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام، عن سالم مولى أبي بصير، حدثني إبراهيم بن يزيد الدمشقي قال: كنت جالساً عند عبد العزيز بن مروان فقال: يا فلان، اذهب إلى فلان فقل له: أي شيء سمعت من رسول الله ﷺ في الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسلني أبو بكر وعمر - وأنا غلام صغير - أسأله عن الصلاة الوسطى، فأخذ إصبعي الصغيرة فقال: هذه الفجر، وقبض التي تليها، فقال: هذه الظهر. ثم قبض الإبهام، فقال: هذه المغرب. ثم قبض التي تليها، فقال: هذه العشاء. ثم قال: أي أصابعك بقيت؟ فقلت: الوسطى. فقال: أي الصلاة بقيت؟ فقلت: العصر. فقال: هي العصر، غريب أيضاً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر». إسناده لا بأس به.

حديث آخر: قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام عن قتادة عن مَوْزُقِ الْعِجْلِيِّ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر». وقد روى الترمذي، من حديث محمد بن طلحة بن مَصْرُفٍ، عن زيد اليامي، عن مَرَّةِ الْهَمْدَانِيِّ، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر»، ثم قال: حسن صحيح. وأخرجه مسلم في صحيحه، من طريق محمد بن طلحة، به ولفظه: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» الحديث.

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح، من رواية الزهري، عن سالم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله». وفي الصحيح أيضاً، من حديث الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي قلابة، عن أبي المهاجر عن بُرَيْدَةَ بن الْحُصَيْنِ، عن النبي ﷺ قال: «بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم، عن أبي بصرة الغفاري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم،

يقال له: المَخْمُص صلاة العصر، فقال: «إن هذه الصلاة صلاة العصر عُرِضَتْ على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاها ضَعُفَ له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد». ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق، عن الليث، عن خير بن نُعَيْم، عن عبد الله بن هبيرة، به. وهكذا رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث. ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن خير بن نعيم الحضرمي، عن عبد الله بن هبيرة السبائي، به. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس مولى عائشة قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فأذني. فلما بلغت آذنتها، فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ. وهكذا رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن مالك، به. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان في مصحف عائشة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر». وهكذا رواه من طريق الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك. وقد روى الإمام مالك أيضاً، عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبي ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلما بلغت آذنتها. فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». وهكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار فقال: حدثني أبو جعفر محمد بن علي، ونافع مولى ابن عمر: أن عمرو بن رافع قال... فذكر مثله، وزاد: كما حفظتها من النبي ﷺ. طريق أخرى عن حفصة: قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدي، عن سالم بن عبد الله: أن حفصة أمرت إنساناً أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فأذني. فلما بلغ آذنها فقالت: اكتب: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرأها. فلما بلغها أمرته فكتبتها: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فראيت فيه «الواو». وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرأ كذلك. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني أبو سلمة، عن عمرو بن رافع مولى عمر قال: كان في مصحف حفصة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها. وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُذَكِّرِينَ سَبِيلَ النَّجْمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ﴿وَكَذَلِكَ نُزِيَ إِذْ هَمَّ مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ التَّوْقِينِ﴾ [٥٥] [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذات، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَرَ النَّيْتِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ [٢] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَنَكَ [٣] وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكُرْآنَ [٤] [الأعلى: ١-٤] وأشبه ذلك كثيرة، وقال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام
وقال أبو دؤاد الإيادي:

سلط الموت والمنون عليهم
والموت هو المنون؛ قال عدي بن زيد العبادي:

فقدمت الأديم لرامشيهِ
فألفى قولها كذباً وميناً

والكذب: هو العين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم. وأما إن روي على أنه قرآن فإنه لم يتواتر، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن؛ ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان في المصحف الإمام. ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجج بقرائهم، لا من السبعة ولا غيرهم. ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث. قال مسلم. أخبرنا إسحاق بن راهويه، أخبرنا يحيى بن آدم، عن فضيل بن مرزوق، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها

على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، ﷻ، فأنزل: ﴿حَنِطُوا عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾، فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق -: أهي العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله ﷻ. قال مسلم: ورواه الأشجعي، عن الثوري، عن الأسود، عن شقيق. قلت: وشقيق هذا لم يروه مسلم سوى هذا الحديث الواحد، والله أعلم. فعلى هذا تكون هذه التلاوة، وهي تلاوة الجادة، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة، ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب. رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وفي إسناده نظر؛ فإنه رواه عن أبيه، عن أبي الجُمَاهِر، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن عمه، عن ابن عباس قال: صلاة الوسطى: المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب، وحكى أيضاً عن قتادة على اختلاف عنه. ووجه هذا القول بعضهم بأنها: وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: إنها العشاء الآخرة، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور: وقيل: هي واحدة من الخمس، لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر. ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب، وشريح القاضي، ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خثيم، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت، واختاره إمام الحرمين الجويني في نهايته. وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وفي صحته أيضاً نظر. والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر الثمري، إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار - مع اطلاعه وحفظه - ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر، وقيل: بل هي صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة عيد الأضحى. وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح. ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنافح فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن. قال ابن جرير: حدثني محمد بن بشار وابن مثنى، قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبَّك بين أصابعه. وقد حكى فخر الدين الرازي في تفسيره قولاً عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت، وربيع بن خثيم: أنها لم يرد بيانها، وإنما أريد إبهامها، كم أبهمت ليلة القدر في شهر رمضان، وساعة الإجابة في يوم الجمعة، والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى، ووقت الموت على المكلف؛ ليكون في كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التي ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس، ويعطوا الأهبة دائماً، وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه؛ فلا تأتي إلا بغتة. وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها. وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب «فضائل الشافعي» رحمه الله: حدثنا أبي، سمعت حرملة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني. وكذا روى الربيع والزعفراني وأحمد بن حنبل، عن الشافعي. وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود، عن الشافعي: إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك. فهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين أمين. ومن ههنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الشافعي، رحمه الله، أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر، وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح، لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب، والله الحمد والمنة. ومن الفقهاء في المذهب من ينكر أن تكون هي العصر مذهباً للشافعي، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحداً. قال الماوردي: ومنهم من حكى في المسألة قولين، ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا، وقد أفردناه على حدة، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة، لمنافاته إياها؛ ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه، وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال: «إن في الصلاة لشغلاً»، وفي صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله». وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثني الحارث بن شبيل، عن أبي عمرو الشيباني، عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ، في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة - سوى ابن

ماجة، به، من طرق عن إسماعيل، به. وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة، فبرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد علي، فأخذني ما قرب وما بعد، فلما سلم قال: «إني لم أرد عليك إلا أنني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة». وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ مدينة بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم. وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيض مرتين، وحرمتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر. والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا إسحاق بن يحيى، عن المسيب، عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء، فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال: «وعليك السلام، أيها المسلم، ورحمة الله، إن الله ﷻ، يحدث من أمره ما يشاء، فإذا كنتم في الصلاة فاقتنوا ولا تكلموا». وقوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ مِرْبَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ مِرْبَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلوا على أي حال كان. رجلاً أو ركباناً، يعني مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها كما قال مالك. عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجلاً على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلتي القبلة أو غير مستقبلتيها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم ورواه البخاري أيضاً من وجه آخر، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: نحوه أو قريباً منه. ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصلوا ركباً، أو قائماً تومئ إيماء.

وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ، إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقته، وكان نحو عرفة - أو عرفات - فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتني، فجعلت أصلي وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد. وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده، ووضعه الأوصار والأغلال عنهم. وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال في هذه الآية: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجله، قال: وروي عن الحسن، ومجاهد، ومكحول، والسدي، والحكم، ومالك، والأوزاعي، والثوري، والحسن بن صالح، نحو ذلك، وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو داود - يعني ابن علي - عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله قال: إذا كانت المسافة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿وَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. وروي عن الحسن، ومجاهد. وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وعطية، والحكم، وحماد، وقتادة، نحو ذلك. وقد ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله الشكري - زاد مسلم والنسائي: وأيوب بن عائذ - كلاهما، عن بكير بن الأحنس الكوفي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ، في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وبه قال الحسن البصري، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة قال: سألت الحكم، وحماداً، وقتادة، عن صلاة المسابقة، فقالوا: ركعة. وهكذا روى الثوري، عنهم سواء. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقيق بن الوليد، حدثنا المسعودي، حدثنا يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف. ركعة. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو»: وقال الأوزاعي: إن كان تهباً الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول

- وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تشتر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري، ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره، عليه السلام، صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، ويقول، عليه السلام، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منها رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين. وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد به القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعي، والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّمًا إِلَى الْوَلَدِ عِزَّ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي شَهْرٍ مِنْ مُعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى التَّوْبَةِ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

قال الأكرهون: هذه الآية منسوخة بالتى قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال البخاري: حدثنا أمية، حدثنا يزيد بن زريع، عن حبيب، عن ابن أبي مليكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها - أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا غير شيئاً منه من مكانه. ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّمًا إِلَى الْوَلَدِ عِزَّ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لها الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس: أنها منسوخة. وروي من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّمًا﴾. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال ﴿وَأَلْهَمْنَا الرُّوحَ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: ١٧] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة. قال: وروي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال: وروي عن سعيد بن المسيب قال: نسختها التي في الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحُوا الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. قلت: وروي عن مقاتل وقتادة: أنها منسوخة بآية الميراث. وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا روح، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّمًا إِلَى الْوَلَدِ عِزَّ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي شَهْرٍ مِنْ مُعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿عِزَّ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فالعدة كما هي واجب

عليها، زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله. وقال عطاء: وقال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعدت حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿عَدَّ إِخْرَاجُ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعدت حيث شاءت، ولا سكنى لها، ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه. فهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١]، وقال: ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى: كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير. ولا يمنع من ذلك، لقوله: ﴿عَدَّ إِخْرَاجُ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فانهن لا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا قَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخروه، منهم: الشيخ أبو عمر بن عبد البر. وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركه الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي، رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة: أن الفريضة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري، رضي الله عنهما أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن يرجع إلى أهلها في بني خُدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدم لحقهم، فقتلوه. قالت: سألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خُدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت في الحجر ناداني رسول الله ﷺ - أو أمربي فنوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي. فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي، فسألني عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به. وكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث مالك، به، ورواه النسائي أيضاً وابن ماجه من طرق، عن سعد بن إسحاق به وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿مَتَّحًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقد استدلت بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها أو مطلقاً، قبل المسيس أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي، رحمه الله. وإليه ذهب سعيد بن جبير. وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعْتُمْ عَلَى الْمُبِيعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّحًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: في إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: تفهمون، وتديرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الذُّمِّ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنشِرَهُمُ إِلَى اللَّهِ فَذَرْتُمْ عَلَى النَّاسِ وَلِئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفتيلوا في سبيل الله وأعلموا أن الله سبحانه عليمٌ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فَتُصَدِّقَهُ لَهُ أَشْغَاكَ كَثِيرَةٌ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه: كانوا ثمانية آلاف. وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً. وقال وهب بن منبه، وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان. وكذا قال السدي وأبو صالح، وزاد: من قبل واسط. وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج، عن عطاء قال: هذا مثل. وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان، قرية على فرسخ من واسط. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن

جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية. وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملاوا ما بين عدوتيته، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مَرَّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له: حزقييل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابته إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتعمي فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً. فكان ذلك، وهو يشاهده. ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت. وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والمحجج والدلالات الدامغة، ﴿وَلَكِن كَأَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلباً لطول الحياة، فعملوا بتقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنا مالك، وعبد الرزاق، أخبرنا معمر، كلاهما عن الزهري، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرخ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاهه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف.

وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به. طريق أخرى لبعضه: قال أحمد: حدثنا حجاج ويزيد العمري، قالوا: أخبرنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر، وهو في الشام، عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر من الشام. وأخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، عن الزهري، بنحوه.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً، ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقين، لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَمَّاؤُنَا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادِرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال عمران: [١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْفَقَ وَلَا تظلمُونَ قَبِيلاً﴾ [٧٧] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال: - وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وه أنا إذا أموت على فراشي كما يموت العير!! فلا نامت أعين الجبناء يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضْعفُهُ لَهُ أَشْهَاقًا كَبِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع. وفي حديث النزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم» وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضْعفُهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فتأوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: ليبيك. قال: اخرجني فقد أقرضته ربي، ﷻ. وقد رواه ابن مردويه، من حديث

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر مرفوعاً بنحوه.

وقوله: ﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾: روي عن عمر وغيره من السلف: هو النفقة في سبيل الله. وقيل: هو النفقة على العيال. وقيل: هو التسيح، والتقديس. وقوله: ﴿فَيَتَنَبَّهَهُ لَهُمْ أَسْمَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَبَاكِلَ فِي كُلِّ سُبُكَّةٍ يَأْتِيهِ حَبَّةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٦]. وسيأتي الكلام عليها. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي، قال: آتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغني أنك تقول: إن الحسنه تضاعف ألف ألف حسنة. فقال: وما أعجبك من ذلك؟ لقد سمعت من النبي ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنه ألفي ألف حسنة». هذا حديث غريب، وعلي بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال: حدثنا أبو خلد سليمان بن خالد المؤدب، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا محمد بن عقبة الرباعي، عن زياد الجصاص، عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني، فقدم قبلي حاجاً قال: وقدمت بعده، فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف حسنة» فقلت: ويحكم، والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني، فما سمعت هذا الحديث. قال: فتحملت أريد أن أحقه، فوجدته قد انطلق حاجاً، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث، فلقيته لهذا، فقلت: يا أبا هريرة، ما حديث سمعت أهل البصرة يأترون عنك؟ قال: ما هو؟ قلت: زعموا أنك تقول: إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف حسنة. قال: يا أبا عثمان، وما تعجب من ذا، والله يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ ويقول: ﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والذي نفسي بيده، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنه ألفي ألف حسنة».

وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره، من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة» الحديث. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَبَاكِلَ﴾ [البقرة: ٢٧٦] إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ قال: رب زد أمتي. فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن كعب الأحبار: أنه جاءه رجل فقال: إني سمعت رجلاً يقول: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مرة واحدة، بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من در وياقوت في الجنة، أفأصدق بذلك؟ قال: نعم، أو عجبت من ذلك؟ قال: نعم وعشرين ألف ألف، وثلاثين ألف ألف، وما لا يحصي ذلك إلا الله، ثم قرأ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ قال: لا يحصى. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يقرضُ وَيضَاعِفُ﴾ أي: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضييق على من يشاء في الرزق، ويوسع على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَرِزْقِهِ رُجُومٌ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَيْدًا فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون. قال ابن جرير: يعني ابن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. وهذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك في زمان داود، عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم. وقال السدي: هو شمعون. وقال مجاهد: هو شمويل، عليه السلام. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه، وهو: شمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن إيهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا بن صفنيه بن علقمة بن أبي ياسف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى، عليه السلام، على طريق الاستقامة مدة الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منه مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاثلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة

والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها. وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل تلك المرأة تدعو الله ﷻ أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها وهبها غلاماً، فسمته شمويل: أي: سمع الله. ومنهم من يقول: شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، وأنبته الله نبياً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تنفوا بما التزمتن من القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَحْمِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاؤُنَا﴾ أي: وقد أخذت منا البلاد، وسييت الأولاد؟ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَمَةَ مَنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِزِّ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجدانهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلماذا قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف يكون ملكاً علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَمَةَ مَنَ الْمَالِ﴾ أي: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً. وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِزِّ وَالْجِسْمِ﴾ أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علماً وقامة منكم. ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلهم وحكمته ورأفته بخلقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْكَافِرُونَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم مِّنْكُمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه فيه وقار، وجلالة. قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي: وقار. وقال الربيع: رحمة. وكذا روي عن العوفي، عن ابن عباس، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون إليه. وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح. ورواه السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص؛ عن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي ريح هفافة. وقال ابن جرير: حدثني ابن المنثى، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، وحماد بن سلمة، وأبو الأحوص، كلهم عن سيمك، عن خالد بن عرعة، عن علي قال: السكينة ريح خجوج ولها رأسان. وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة، إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تكلم، فأخبرهم ببيان ما يريدون. وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال ابن جريج: أخبرنا ابن المنثى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال: عصاه ورضاض الألواح. وكذا قال قتادة، والسدي، والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة. وقال أبو صالح ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ يعني: عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن. وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح. وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ فقال: منهم من

يقول قفيز من من، ورضاض الألواح. ومنهم من يقول: العصا، والنعلان. وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعت بين يدي طالوت، والناس ينظرون. وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين. وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم، تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم، فأنزلوه فوضعه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسر القوائم، ملقى بعيداً، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل، حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين، فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا. وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل: إنه تسلمه داود، عليه السلام، وإنه لما قام إليهما حجج من فرحه بذلك. وقيل: شابان منهم، فإله أعلم. وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين، يقال لها: أزدرد. وقوله: ﴿إِنِّي فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت: ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودُهُ قَالَ الَّذِينَ يَلْمُوكَ أَنَّهُمْ أَمَلُوا اللَّهَ كَمَا مَنَ مِنْ فَتَنَةٍ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يٰٓأَيُّهَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فإله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ بِنَهْرٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فلا يصحبي اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روى، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس. وكذا قال قتادة، وابن شوذب. وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، وكذا قال. وقد روى ابن جرير، من طريق إسرائيل، وسفيان الثوري، ومسعر بن كدام، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن. ورواه البخاري، عن عبد الله بن رجاء، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: «كنا - أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة». ثم رواه من حديث سفيان الثوري وزهير، عن أبي إسحاق، عن البراء، بنحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودُهُ﴾ أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشحهم علماءهم وهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿كَم مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يٰٓأَيُّهَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا حَبْرًا وَكُنْتَ أَعْدَانَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَرَمُوا مِنْ يَدَيْهِ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

أي: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير - ﴿قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا حَبْرًا﴾ أي: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿وَكُنْتَ أَعْدَانَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنينا الفرار والمعجز ﴿وَأَضْرَبْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَهَرَمُوا مِنْ يَدَيْهِ﴾ أي: غلبوهم وفهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات: أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي:

لولا الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، لهلكوا، كما قال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبْعَثُ لَمُؤْمِتٍ صَوِّعٌ وَيَبِيعٌ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. وقال ابن جرير، رحمه الله: حدثني أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقة، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء». ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبْعَثُ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ وهذا إسناد ضعيف، فإن يحيى بن سعيد هذا هو أبو زكريا العطار الحمصي، وهو ضعيف جداً. ثم قال ابن جرير: حدثني أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده، وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله، مادام فيهم». وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا علي بن إسماعيل بن حماد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا زيد بن الحباب، حدثني حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان - رفع الحديث - قال: «لا يزال فيكم سبعة، بهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله». وقال ابن مردويه أيضاً: وحدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن جرير بن يزيد، حدثنا أبو معاذ نهار بن عثمان الليثي، أخبرنا زيد بن الحباب، أخبرني عمر البزار، عن عنبسة الخواص، عن قتادة، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْلُوبِينَ﴾ أي: من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله، وأقواله. ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَ وَالَّذِينَ لَا يَقُولُوا لَهُمْ مَحْرُوبًا وَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١٢٨]. هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿وَأَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ أَرْسُلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الْقُرْآنَ مِنْ بَدْوٍ مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الْقُرْآنَ وَلَكِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٢٩﴾.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال ههنا: ﴿تِلْكَ أَرْسُلْنَا فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعني: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان، عن أبي ذر رضي الله عنه، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء، حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال: أي خبيث، وعلى محمد ﷺ! فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفتق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء». وفي رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء». فالجواب من وجوه: أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل، وفي هذا نظر. الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع. الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحالة التي تحاكموا فيها عند الخصام والتشاجر. الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله، ﷻ، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به. وقوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني: أن الله أيد به جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الْقُرْآنَ مِنْ بَدْوٍ مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الْقُرْآنَ وَلَكِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا رَفَعْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾.

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكمهم، وليبادروا إلى ذلك في

هذه الحياة الدنيا ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ أي: لا يبيع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفَعَةٌ﴾ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾: مبتدأ محصور في خبره، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. وقد روى ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ، بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجريري، عن أبي السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبي - هو ابن كعب - أن النبي ﷺ سألته «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً، ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفعتين، تقدر الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجريري - به، وليس عنده زيادة: «والذي نفسي بيده... إلخ».

حديث آخر: عن أبي أيضاً، في فضل آية الكرسي، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبدة بن أبي لبابة، عن عبد الله بن أبي بن كعب: أن أباه أخبره: أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبي يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بداية شبابه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: فقلت: ما أنت، جني أم إنسي؟ قال: جني. قلت: ناولني يدك. قال: فناولني، فإذا يد كلب، وشعر كلب. فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني، قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببت أن نصيب من طعامك. قال: فقال له: فما الذي يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي. ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «صدق الخبيث». وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي داود الطيالسي، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن الحضرمي بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبي كعب، عن جده، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث، قال: سمعت أبا السليل قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكتروا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أي آية في القرآن أعظم؟» فقال رجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. قال: فوضع يده بين كفتي، فوجدت بردها بين ثديي، أو قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كفتي، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر».

حديث آخر: عن الأسفح الكبري. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو يزيد القرايطسي، حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عمر بن عطاء أن موسى ابن الأسفح - رجل صدق - أخبره، عن الأسفح البكري: أنه سمعه يقول: إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: «﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾» حتى انقضت الآية.

حديث آخر: عن أنس. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثني سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك حدثه، أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته فقال: «أي فلان، هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به. قال: «وأوليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»؟ قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾»؟ قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾» قال: بلى. قال: «ربع القرآن».

حديث آخر: عن أبي ذر جندب بن جنادة، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست. فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا. قال: «قم فصل» قال: فقممت فصليت، ثم جلست. فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال: قلت: يا رسول الله، أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قال: قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرض مجزي، وعند الله مزيد» قلت: يا

رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يا رسول الله، فأيهما أفضل؟ قال: «جهد من مقل، أو سر إلى فقير» قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم، نبي مكرم» قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جمًّا غفيراً» وقال مرة: «وخمسة عشر» قال: قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي»: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ورواه النسائي.

حديث آخر: عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه وأرضاه، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي أيوب: أنه كان في سهوة له، وكانت الغول تجيء فتأخذ، فشكاها إلى النبي ﷺ فقال: «إذا رأيتها فقل: باسم الله، أجيبني رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها: فأخذها، فقالت: إني لا أعود. فأرسلها، فجاء، فقال له النبي ﷺ: «ما فعل أسيرك؟» قال: أخذتها، فقالت لي: إني لا أعود إني لا أعود. فأرسلتها. فقال: «إنها عائدة» فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجبي إلى النبي ﷺ فيقول: «ما فعل أسيرك؟» فأقول: لا أعود. فيقول: «إنها عائدة» فأخذها، فقالت: أرسلني وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء: آية الكرسي. فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «صدقت، وهي كذوب». ورواه الترمذي في فضائل القرآن، عن بُنْدَار، عن أبي أحمد الزبير، به. وقال: حسن غريب. وقد ذكر البخاري هذه القصة، عن أبي هريرة، فقال في كتاب «فضائل القرآن» وفي كتاب «الوكالة»، وفي «صفة إبليس» من صحيحه: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو، حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: وكنتي رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته وخلت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعني، فلاني محتاج، وعلي عيال، لا أعود. فرحمته وخلت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرجمتُه فخلت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن. قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلت سبيله. قال: «ما هي؟» قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب مُدَّ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا قال: «ذاك شيطان».

كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم. وقد رواه النسائي في «اليوم واللييلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عثمان بن الهيثم، فذكره. وقد روي من وجه آخر، عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرو بن الصغار، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدي، أخبرنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة، وكان فيه تمر، فذهب يوماً ففتح الباب، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف، ودخل يوماً آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف، ثم دخل يوماً آخر ثالثاً فإذا قد أخذ منه مثل ذلك. فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبي، فقال له النبي ﷺ: «تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال: نعم. قال: «فإذا فتحت الباب فقل: سبحان من سخرك محمد» فذهب ففتح الباب، فقال: سبحان من سخرك محمد. فإذا هو قائم بين يديه، قال: يا عدو الله، أنت صاحب هذا؟ قال: نعم، دعني، فلاني لا أعود، ما كنت أخذاً إلا لأهل بيت من الجن فقراء، فخلني عنه. ثم عاد الثانية، ثم عاد الثالثة. فقلت: أليس قد عاهدتني ألا تعود؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ. قال: لا تفعل، فإنك إن تدعني علمتكم كلمات، إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن، صغير ولا كبير، ذكر ولا أنثى، قال له: لتفعلن؟ قال: نعم. قال: ما هن؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرأ آية الكرسي حتى ختمها، فتركة فذهب فأبعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت أن ذلك كذلك؟». وقد رواه النسائي، عن أحمد بن محمد بن عبيد الله، عن شعيب بن

حرب، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي المتوكل عن أبي هريرة، به. وقد تقدم لأبي بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع.

قصة أخرى: قال أبو عبيد في كتاب «الغريب»: حدثنا أبو معاوية، عن أبي عاصم الثقفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقبه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعني، فإن صرعتني علمتكم آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصارعه، فقال: إني أراك ضئيلاً شخيتاً كان ذراعك ذراعاً كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم، أم أنت من بينهم؟ فقال: إني بينهم لضليح فعاودني فصارعه فصارعه الإنسي. فقال: تقرأ آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خَجَجٌ كخجج الحمام. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر. قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخَجَجُ بالخاء المعجمة، ويقال: بالخاء المهملة: الضراط.

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه: حدثنا علي بن حمشاذ، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني حكيم بن جُبَيْرِ الأسيدي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة أي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه! آية الكرسي». وكذا رواه من طريق أخرى عن زائدة، عن حكيم بن جبير ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه الترمذي من حديث زائدة به، ولفظه: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن: آية الكرسي». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه. قلت: وكذا وضعفه أحمد، ويحيى بن معين وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي.

حديث آخر: قال ابن مَرْذُويه: حدثنا عبد الباقي بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزي، أخبرنا عمر بن محمد البخاري، أخبرنا أبي، أخبرنا عيسى بن موسى عُثْبَانِجَار، عن عبد الله بن كَيْسَانَ، أخبرنا يحيى بن عَقِيل، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ذات يوم إلى الناس، وهم سمامطات، فقال: أياكم يخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخير سَمَطَتْ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية في القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

حديث آخر في اشتغالها على اسم الله الأعظم: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبيد الله بن أبي زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال عمران: ١، ٢ «إن فيهما اسم الله الأعظم». وكذا رواه أبو داود عن مُسَدَّدٍ وَالتِّرْمِذِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَشْرَمٍ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، ثَلَاثُهُمْ عَنْ عَيْسَى بْنِ يُونُسَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

حديث آخر في معنى هذا عن أبي أمامة رضي الله عنه: قال ابن مَرْذُويه: أخبرنا عبد الرحمن بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد: أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن، يحدث عن أبي أمامة يرفعه، قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه». وقال هشام - وهو ابن عمار خطيب دمشق -: أما البقرة ف﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

حديث آخر عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة: قال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمي، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسين بن بشر بطرسوس، أخبرنا محمد بن حمير، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُرَ كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت». وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن الحسين بن بشر، به، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من حديث محمد بن حمير، وهو الحمصي من رجال البخاري أيضاً، فهو إسناد على شرط البخاري، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزي أنه حديث موضوع. فالله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث علي، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث. ولكن في إسناد كل منها ضعف. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرئ، أخبرنا يحيى بن دُرُسْتُويه المروزي، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكري، عن المثنى، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران، عليه السلام، أن اقرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرؤها في دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين، وثواب المنيبين، وأعمال الصديقين، ولا يواظب

على ذلك إلا نبي أو صديق أو عبد امتحن قلبه للإيمان، أو أريد قتله في سبيل الله» وهذا حديث منكر جداً.

حديث آخر في أنها تحفظ من قراها في أول النهار وأول الليل: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا يحيى بن المغيرة، أبو سلمة المخزومي المدني، أخبرنا ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن المليكي، عن زرارة بن مضعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿حَمِّمُوا﴾ المؤمن، إلى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣] وآية الكرسي حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قراها حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مُلَيْكَةَ المليكي من قبل حفظه. وقد ورد في فضيلتها أحاديث آخر، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها. كحديث علي في قراءتها عند الحجامة: إنها تقوم مقام حجامتين، وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه، وغير ذلك.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿الَّذِي الْقِيُومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «الْقِيَامُ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعثره نقص ولا غفلة ولا ذمول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيومية أنه لا يعثره سنة ولا نوم فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا تغلبه سنة، وهي الوسن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سُبحَاتِ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، أخبرني الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: أن موسى، عليه السلام، سأل الملائكة هل ينام الله، ﷻ؟ فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يورقوه ثلاثاً، فلا يتركوه نيام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه، وحذروه أن يكسرهما. قال: فجعل يعنس وهما في يده، في كل يد واحدة. قال: فجعل يعنس وينبه، ويعنس وينبه، حتى نعس نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرها. قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله، ﷻ، يقول: فكذلك السموات والأرض في يديه. هكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، فذكره. وهو من أخبار بني إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى، عليه السلام، لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله، ﷻ، وأنه منزه عنه.

وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى، عليه السلام، على المنبر، قال: «وقع في نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما». قال: «فجعل ينام تكاد يداه تلتقيان فيستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان» قال: «ضرب الله له مثلاً ﷻ: أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض». وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدُّشَنَكِيُّ، حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه، ﷻ، يا موسى، سألوكم: هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك. وأنزل الله على نبيه ﷺ آية الكرسي. وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِندَ الرَّحْمَنِ عِدًّا﴾ ﴿١١٠﴾ قَدْ أَحْسَبْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عِدًّا ﴿١١١﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنَا ﴿١١٢﴾ [مریم: ٩٣-٩٥]. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا يَقُولُ شَفَعْنَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿١٦٦﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ﴾ [الانبيا: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه، ﷻ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه

في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «أتى تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واسمع تنفخ» قال: «فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَنزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئاً﴾ [مریم: ٦٤]. وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله، ﷻ، وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن مطرف بن طريف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه. وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم، كلاهما عن مطرف بن طريف، به. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبيرة مثله. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي، موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. وقال شجاع بن مخلد في تفسيره: أخبرنا أبو عاصم، عن سفيان، عن عمار الدُهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، ﷻ». كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، من طريق شجاع بن مخلد الفلاس، فذكره، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان، عن عمار الدُهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم في مستدرکه، عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي، عن محمد بن معاذ، عن أبي عاصم، عن سفيان - وهو الثوري - بإسناده، عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي - وهو متروك - عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح أيضاً. وقال السدي عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش. وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرني ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في تْرُس». قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض». وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهيب الغزي، أخبرنا محمد بن أبي السري العسقلاني، أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الشقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما السموات السبع، والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلان، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر، رضي الله عنه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسية وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرّحل الجديد من ثقله». وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما، والحافظ الضياء في كتابه «المختار» من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذلك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه عنه، عن عمر موقوفاً، ومنهم من يرويه عنه مراسلاً، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها. وأغرب من هذه حديث جبيرة بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتاب السنة من سننه، والله أعلم. وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما، في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذلك غير المذكور في هذه الآية. وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون. وروى ابن جرير من طريق جوير، عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش. والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة، عن عمر في

ذلك، وعندني في صحته نظر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا يُؤَدُّ جُنُودَهُمْ﴾ أي: لا يثقله ولا يكرهه حفظ السموات والأرض ومن فيها ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] وكقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الزمر: ٢٩]. وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت، من غير تكيف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَبِيحٌ عَلَيْهِ﴾ ﴿٢٥٦﴾.

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداة الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وخنم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عدي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلداً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً، عن بُنْدَارٍ، به. ومن وجوه أخرى، عن شعبة، به نحوه، وقد رواه ابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، من حديث شعبة، به. وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري، وغيرهم: أنها نزلت في ذلك. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد الحرشي، مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار، من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرهما، فإنهما قد آبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. رواه ابن جرير، وروى عن السدي نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام، يحملون زيتاً، فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرهما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك، عن أبي هلال، عن أسق قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض علي الإسلام، فأبى فيقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ويقول: يا أسق، لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بدلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقله وببذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيْكُمْ قَوْمًا بَأْسٌ شَدِيدٌ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَوَّلُ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَتَتَّبِعُونَهُمْ أَوْ يَسْتَلِيمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَإِغْلِبْ عَلَيْهِمُ﴾ [التحریم: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَقُولُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»، يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: إني أجدني كارهاً. قال: «وإن كنت كارهاً». فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: «أسلم»، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص». وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَبِيحٌ عَلَيْهِ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووجد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم. قال أبو القاسم البغوي: حدثنا أبو روح البلدي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن حسان - هو ابن فائد العبسي - قال: قال عمر، رضي الله عنه: إن

الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً. وهكذا رواه ابن جرير. وابن أبي حاتم، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن حسان بن فائد العبسي، عن عمر، فذكره. ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها. وقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَغْتَسَكَ بِالْمَرْؤِ الْوُثْقَىٰ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدِ اسْتَغْتَسَكَ بِالْمَرْؤِ الْوُثْقَىٰ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَبِيحٌ عَظِيمٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدِ اسْتَغْتَسَكَ بِالْمَرْؤِ الْوُثْقَىٰ﴾ يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير، والضحاك: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: ﴿بِالْمَرْؤِ الْوُثْقَىٰ﴾: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها. وقال معاذ بن جبل، في قوله: ﴿لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿فَقَدِ اسْتَغْتَسَكَ بِالْمَرْؤِ الْوُثْقَىٰ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْتَبَرُ مَا يَفْعَرُ حَتَّىٰ يُعْتَبَرَا مَا بَيْنَهُمَا﴾ [الرعد: ١١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عون، عن محمد، عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا. قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقبل لي: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع. فجاءني مِنْصَفٌ - قال ابن عون: هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد. فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستقيظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه. فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت». قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون، وأخرجه البخاري من وجه آخر، عن محمد بن سيرين، به. طريق أخرى وسياق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، وعفان قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحر قال: قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ. فجاء شيخ يتوكأ على عصاه، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقامت إليه، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا. فقال: الجنة لله يُدخلها من يشاء، وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا، رأيت كأن رجلاً أتاني فقال: انطلق. فذهبت معه، فسلك بي منهجاً عظيماً، فعرضت لي طريق عن يساري، فأردت أن أسلكها. فقال: إنك لست من أهلها. ثم عرضت لي طريق عن يميني، فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق، فأخذ بيدي فزجل، فإذا أنا على ذروته، فلم أبق ولم أتماسك، فإذا عمود حديد في ذروته حلقة من ذهب، فأخذ بيدي فزجل حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك. فقلت: نعم. فضرب العمود برجله فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر، وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمنزلة الشهداء، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت». قال: فانا أرجو أن أكون من أهل الجنة. قال: وإذا هو عبد الله بن سلام. وهكذا رواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن عفان، وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة، به نحوه. وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن سليمان بن مُسْهِر، عن خرشة بن الحر الفزاري، به.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلبي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

الشَّجَلِ فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَلَّكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَجْمَلُ الظُّلَمَتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الظُّلَمِينَ وَالنَّجْمَاتِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، قال: يبعث أهل الأهواء - أو قال: يبعث أهل الفتن - فمن كان هواه الإيمان كانت فنته بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر كانت فنته سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿اللَّهُ وَيُؤَيِّنُ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّي فَأَتِي بِهِ وَيُؤَيِّنُ قَالِ إِنَّ رَبِّي لَغَيْرُكَ فَأْتَى بَيْنَهُم مِّنَ الْمَشْرِقِ فَأْتَى بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد، وغيره. قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين. والكافران: نمرود بن كنعان ويختصر. فالله أعلم. ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملكه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُؤَيِّنُ وَيُؤَيِّنُ﴾ أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود -: ﴿أَنَا أَنِّي وَيُؤَيِّنُ﴾. قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي، وغير واحد: وذلك أنني أوتى بالرجلين قد استحقاقت، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة. والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِي﴾؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَأَنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إليها كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حججهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبيِّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، والله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، ففجرت بينهما هذه المناظرة. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يغدون إليه للميمرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميمرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب فلما منه عدليه وقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكاً فنام. فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائمتين طعاماً طيباً، فعلمت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أني لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله، ﷻ. قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمر بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجتمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في منخريه أربعمئة

سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَيْفَ لَيْتُكَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى مَلَأَيْكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ وَلْيَخْلُكْ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ نُشِرُهَا ثُمَّ نَكَّرُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّكَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. اختلفوا في هذا المار من هو؟ فروى ابن أبي حاتم عن عصام بن زوَاد، عن آدم بن أبي إياس، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزيز. ورواه ابن جرير، عن ناجية، نفسه. وحكاها ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وسليمان بن بُرَيْدَةَ، وهذا القول هو المشهور. وقال وهب بن منبه، وعبد الله بن عبيد بن عمير: هو إرميا بن حلقيا. قال محمد بن إسحاق؛ عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر، عليه السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: سمعت سليمان بن محمد اليساري الجاري - من أهل الجار، ابن عم مطرف - قال: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: إن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه: حزقيل بن بورا. وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل. وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنة تسعين وكان الجد شاباً وابنه وابن ابنة شيخان كبيران قد بلغا الهرم، وأنشدني به بعض الشعراء:

واسوّة رأس شاب من قبل ابنه	ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى أنه شيخا يدب على عصا	ولحيته سوداء والرأس أشعر
وما لابنه حبل ولا فضل قوة	يقوم كما يمشي الصغير فيعشر
وعمر ابنه أربعون أمرها	ولابن ابنه في الناس تسعين غير

وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوي خواء وخوياً. وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقفها وجدرانها على عرصاتها، فوقفت متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، ﷻ، بعد موته كان أول شيء أحيأ الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟ فلما استقل سوياً قال الله له - أي بواسطة الملك -: ﴿كَيْفَ لَيْتُكَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى مَلَأَيْكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه، فيما ذكر، عنب وتين وعصير، فوجده كما فقدته لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، لا التين حمض، ولا أنتن، ولا العنب تعفن ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله، ﷻ، وأنت تنظر ﴿وَلْيَخْلُكْ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً على المعاد، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ نُشِرُهَا﴾ أي: نرفعها فتركب بعضها على بعض. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث نافع بن أبي نعيم، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كَيْفَ نُشِرُهَا﴾ بالزاي. ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقرئ: ﴿نُشِرُهَا﴾ أي: نحييها، قاله مجاهد، ﴿ثُمَّ نَكَّرُوهَا لَحْمًا﴾. وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يمينا ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتهما من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصاً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنخ في منخري الحمار، فنهق كله بإذن الله ﷻ، وذلك كله برأى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فانا أعلم أهل زماني بذلك وقرأ آخرون: ﴿قال اعلم﴾، على أنه أمر له بالعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْلَمَ تَوْفِينِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطَمِينَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ اللَّذِيذِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ جَبَلٍ فَنُهْنَّ جِزءًا ثُمَّ ادَّعَهُنَّ يَا بُنْتَكِ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً، منها: أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّكَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي» وكذا رواه مسلم، عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب، به - فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلا خلاف. وقد أحجبت عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها...

وقوله: ﴿قَالَ فَخَدُّ أَرْبَعَةً مِّنَ الْأَطْيَرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُتَّهَمٌ لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس أنه قال: هي الغرنوق، والطاووس، والديك، والحمامة. وعنه أيضاً: أنه أخذ وزاً، ورأى - وهو فرخ النعام - وديكا، وطاووساً. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكاً، وطاووساً، وغراباً. وقوله: ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو الأسود الدليلي، ووهب بن منبه، والحسن، والسدي، وغيرهم. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن واتفق ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أعجيل. وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله، ﷻ، أن يدعوهم، فدعاهن كما أمره الله، ﷻ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء لياخذ رأسه الذي في يد إبراهيم، عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه أباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا مناع لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب في قوله: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن علي يحدث، عن رجل، عن سعيد بن المسيب قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا. قال: ونحن شعبة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله تعالى: ﴿يَكِيدُوا الَّذِينَ الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني ابن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله ﷻ: ﴿يَكِيدُوا الَّذِينَ الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية. فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ﴾ فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدي، عن بشر بن عمر الزهراني، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، بإسناده، مثله. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١).

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾. وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله، ﷻ، لأصحابها،

كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمئة ضعف، قال الإمام أحمد: حدثنا زياد بن الربيع أبو خِداش، حدثنا واصل مولى أبي عيينة، عن بشار بن أبي سيف الجرمي، عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبي عبيدة بن الجراح نعوذه من شكوى أصابه - وامرأته تُحَيِّفَةُ قاعدة عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألوني عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمئة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو ماز أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، ﷻ، ببلاء في جسده فهو له حطة». وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفاً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيباني، عن أبي مسعود: أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لنأتين يوم القيامة بسبعمئة ناقة مخطومة». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به. ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله. فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عمرو بن مَجْمَع أبو المنذر الكندي، أخبرنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، ﷻ، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلا الصوم، والصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي سعيد الأشج، كلاهما عن وكيع، به.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن الركين، عن يسير بن عميلة، عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله تضاعف سبعمئة ضعف».

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، عن زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف».

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان، حدثنا ابن أبي فديك، عن الخليل بن عبد الله، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم سبعمئة درهم يوم القيامة، ومن غزا في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم سبعمئة ألف درهم». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهذا حديث غريب. وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي، عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي حسنة، عند قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكري البزاز، أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب، أخبرنا محمود بن خالد الدمشقي، أخبرنا أبي، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿تَكُلُّ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، عن حاجب بن أركين، عن أبي عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرئ، عن أبي إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره. وقوله ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا آتَوْهُمُ مِنْهُ وَلَا آذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿قَوْلَ مَرْوُفٍ وَمَنْفِرَةَ حَيْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَنَمَّهَآ أَدَىٰ وَٱللَّهِ عَنِّي حَيْبٌ ۖ﴾ ﴿٢٦٢﴾ يَتَأَمَّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ ٱلَّتِي ٱلَّذِينَ كَأَدَىٰ يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ ٱللَّهُ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَنْكُم مَّنْ كَتَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَٱبِلٌ فَتَرَكَهُ صَدَقًا لَا يَفْدُونَكَ عَلَىٰ سَنَةٍ وَمَا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٢٦٣﴾

يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات متاعاً على من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا بفعل. وقوله: ﴿وَلَا أَدَىٰ﴾ أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا حَرْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك. ثم قال تعالى: ﴿قَوْلَ مَرْوُفٍ﴾ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَنْفِرَةَ﴾ أي: عفو عن ظلم قولي أو فعلي ﴿حَيْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَنَمَّهَآ أَدَىٰ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله: ﴿قَوْلَ مَرْوُفٍ وَمَنْفِرَةَ حَيْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَنَمَّهَآ أَدَىٰ﴾».

﴿وَٱللَّهُ عَنِّي﴾ أي: عن خلقه، ﴿حَيْبٌ﴾ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم. وقد وردت الأحاديث بالنبي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن الأعمش عن سليمان بن مُسَهِرٍ، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدوري، أخبرنا هُثَيْمٌ بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر» وروى أحمد وابن ماجه، من حديث يونس بن ميسرة نحوه.

ثم روى ابن مردويه، وابن حبان، والحاكم في مستدركه، والنسائي من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى». وقد روى النسائي، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عبادة، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزري، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان». وقد رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن المنهال، عن محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي، عن عتاب، عن خُصَيْفٍ، عن مجاهد، عن ابن عباس. ورواه النسائي من حديث، عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد، قوله. وقد روي عن مجاهد، عن أبي سعيد، وعن مجاهد، عن أبي هريرة، نحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَتَأَمَّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ ٱلَّتِي ٱلَّذِينَ كَأَدَىٰ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى. ثم قال تعالى: ﴿كَأَدَىٰ يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من رآى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ ٱللَّهُ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه - قال الضحاك: والذي يتبع نفقته من أذى - فقال: ﴿فَمَنْكُم مَّنْ كَتَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَٱبِلٌ فَتَرَكَهُ صَدَقًا﴾ أي: فترك الوايل ذلك الصفوان صلدًا، أي: أملس يابسًا، أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي: وكذلك أعمال المرئين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَفْدُونَكَ عَلَىٰ سَنَةٍ وَمَا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَنْكُم مَّنْ كَتَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَٱبِلٌ فَتَرَكَهُ صَدَقًا﴾ أي: فترك الوايل ذلك الصفوان صلدًا، أي: أملس يابسًا، أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي: وكذلك أعمال المرئين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَفْدُونَكَ عَلَىٰ سَنَةٍ وَمَا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالُهُمْ أَنفَقُوا مَرْضَاتٍ ٱللَّهِ وَتَنَمَّيَتْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في المعنى قوله، عليه السلام، في الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أي: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه. قال الشعبي: ﴿وَتَنَمَّيَتْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي:

تصديقاً وبقيناً. وكذا قال قتادة، وأبو صالح، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال مجاهد والحسن: أي: يشتبون أين يضعون صدقاتهم. وقوله: ﴿كَشَّيْلٍ جَنْجَمٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: كمثل بستان برية. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوي من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار. قال ابن جرير: وفي الربوة ثلاث لغات من ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس. وقوله: ﴿أَسَابِهَا وَأَبْلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، فأتت ﴿أَكْلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿ضِعْفَتَيْنِ﴾ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿فَإِنْ لَمْ يُبْسَبْهَا وَأَبْلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرزاذ، وهو اللين من المطر. أي: هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصيبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره ويمنيه، كل عامل بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفي عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّدُ أَمْذَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَمْ جَنَّةٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَسَابِقُ الْكِبَرِ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ سُمْعَاءُ فَأَسَابِقُ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن ابن جريج: سمعت عبد الله بن أبي مليكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَمْذَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَمْ جَنَّةٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. ثم رواه البخاري، عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن حجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جريج، ذكره. وهو من أفراد البخاري، رحمه الله. وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسئآت، عياداً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسَابِقُ الْكِبَرِ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ سُمْعَاءُ فَأَسَابِقُ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرقت ثمارها وأباد أشجارها، فأني حال يكون حاله. وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيُّدُ أَمْذَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَمْ جَنَّةٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: ضيعة في شيبته ﴿وَأَسَابِقُ الْكِبَرِ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاء إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يفرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا رُدَّ إلى الله، ﷻ، ليس له خير فيسْتَعْتَبُ، كما ليس لهذا قوة فيفرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يُعْنِ عن هذا ولده، وحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته. وهكذا روى الحاكم في مستدركه: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَقْلَهُمْ إِلَّا آلَاءُ الْمَلِئُونَ ﴿٢٦٧﴾﴾ [المنكوت: ٤٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَمْرَتْكُمْ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَبِمُوا الْحَبِيبِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِبَاطِلِينَ إِلَّا أَنْ تُحِبُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَبْذُوكُمُ الْفَقْرَ رِيَاءَكُمْ بِالْعَسْكَةِ وَاللَّهُ يَبْذُوكُمُ مَنَفَرَةً مِنْهُ وَقَضَاءُ اللَّهِ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق - والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس - من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها. قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم. وقال علي والسدي: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني: الذهب والفضة، ومن الثمار والزرع التي أنبتت لهم من الأرض. قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال وذنيه - وهو خبيثه - فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبِمُوا﴾ أي: تقصدوا ﴿الْحَبِيبِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِبَاطِلِينَ﴾ أي: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تغاضوا فيه، فإله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما

تكرهون. وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مئة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبدٌ حتى يُسَلِّمَ قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جأزه بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عَشْمُهُ وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينْفَقَ منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». والصحيح القول الأول؛ قال ابن جرير: حدثني الحسين بن عمرو العنقزي، حدثني أبي، عن أسباط، عن السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبْعَتِكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أقاء البسر، فعلقوه على جبل بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيغمد الرجل منهم إلى الحشف، فيدخله مع أقاء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. ثم رواه ابن جرير، وابن ماجه، وابن مَرْزُوقِيه، والحاكم في مستدركه، من طريق السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء، بنحوه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِلَّا أَنْ تَحْمُرُوا فِيهِ﴾ قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي الرجل بالقتو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه، فيسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقتو فيه الحشف والشبص، ويأتي بالقتو قد انكسر فيعلقه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِلَّا أَنْ تَحْمُرُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وخياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده. وكذا رواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن عبيد الله - هو ابن موسى العبيسي - عن إسرائيل، عن السدي - وهو إسماعيل بن عبد الرحمن - عن أبي مالك الغفاري - واسمه غزوان - عن البراء، فذكر نحوه. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من التمر: الجُغُرُورُ ولون الخبيث. وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين، عن الزهري به. ثم قال: أسنده أبو الوليد، عن سليمان بن كثير، عن الزهري، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ عن الجُغُرُورِ ولون الخبيث أن يؤخذ في الصدقة. وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حُميد اليخضبي، عن الزهري، عن أبي أمامة. ولم يقل: عن أبيه، فذكر نحوه. وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن مغل في هذه الآية: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف، والدرهم الزيف، وما لا خير فيه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد - هو ابن أبي سليمان - عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: أتني رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم يبه عنه. قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون». ثم رواه عن عفان، عن حماد بن سلمة. به. فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم ما لا تأكلون». وقال الثوري: عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء: ﴿وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِلَّا أَنْ تَحْمُرُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِلَّا أَنْ تَحْمُرُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حَقِّكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَحْمُرُوا فِيهِ﴾. فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!! رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قال عمران: ٩٢ ثم روى من طريق العوفي وغيره، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذا ذكر غير واحد. قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: وإن أمركم

بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا لیساوي الغني والفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَأَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَأَالَهُ النَّقَوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفذ ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلم، وهو الحميد، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَبْدُكُمْ بِالْفَقْرِ وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَبْدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٧١) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لئمة بابن آدم، وللملك لئمة، فأما لئمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لئمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَبْدُكُمْ بِالْفَقْرِ وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَبْدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية. وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سُنَنِهِمَا جميعاً، عن هناد بن السري. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد، به. وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص - يعني سلام بن سليم - لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه. كذا قال. وقد رواه أبو بكر بن مزدويه في تفسيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الله بن مسعود، مرفوعاً نحوه، عن هارون الفروي، عن أبي ضمرة، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود، مرفوعاً نحوه. ولكن رواه يسمر، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَبْدُكُمْ بِالْفَقْرِ﴾ أي: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، ﴿وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَبْدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وقوله: ﴿يُؤْتِي الْوَحْيَ مَن يَشَاءُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وروى جؤنبر، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن. يعني: تفسيره، قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البر والفاجر. رواه ابن مزدويه. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: يعني بالحكمة: الإصابة في القول. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿يُؤْتِي الْوَحْيَ مَن يَشَاءُ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة. وقد روى ابن مزدويه، من طريق بقية، عن عثمان بن زفر الجهني، عن أبي عمار الأسدي، عن ابن مسعود مرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله». وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة: الكتاب والفهم. وقال إبراهيم النخعي: الحكمة: الفهم. وقال أبو مالك: الحكمة: السنة. وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتبه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله. وقال السدي: الحكمة: النبوة. والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأنبياء الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية، كما جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه». رواه وكيع بن الجراح في تفسيره، عن إسماعيل بن رافع، عن رجل لم يسمه عن عبد الله بن عمر، قوله. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويزيد قالا: حدثنا إسماعيل - يعني بن أبي خالد - عن قيس - وهو ابن أبي حازم - عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها». وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه - من طرق متعددة - عن إسماعيل بن أبي خالد، به. وقوله: ﴿وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَكْبَابِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) إن تُبَدُوا الصَّدَقَاتِ فَيَعْمَا مِنْ دَانَ تُخَفَّوْا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَكَفَرٌ عَنْكُمْ مِّنْ سَعْيِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١).

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره،

فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته. وقوله: ﴿إِنْ تَبُدُّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: إن أظهرتموها فنعم شيء هي. وقوله: ﴿وَلَنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء؛ إلا أن يرتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحثيثة، وقال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسر بالقرآن كالمُسر بالصدقة». والأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله». وقد ذكرنا في فضل آية الكرسي، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «سر إلى فقير، أو جهد من مقل». رواه أحمد. ورواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي ذر فذكره. وزاد: ثم نزع بهذه الآية: ﴿إِنْ تَبُدُّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية. وفي الحديث المروي: «صدقة السر تطفى غضب الرب، ﷻ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد المحاربي مؤدب محارب، أخبرنا موسى بن عمير، عن عامر الشعبي في قوله: ﴿إِنْ تَبُدُّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال: أنزلت في أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ: فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟». قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟». فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر، رضي الله عنه، وقال: بأبي أنت يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً. وهذا الحديث مروى من وجه آخر، عن عمر، رضي الله عنه. وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك، ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة. لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتهما، فقال: بسبعين ضعفاً. وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً. وقوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئِكُمْ﴾ أي: بدل الصدقات، ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات، وقد قرئ: «ويكفر عنكم» بالضم، وقرئ: «ونكفر» بالجزم، عطفاً على جواب الشرط، وهو قوله: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ كقوله: «فأصدق وأكون» «وَأَنْ» . وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ خَيْرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزيكم عليه سبحانه وبحمده.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُغْفِرُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُغْفِرُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿لِلْفَقْرَةِ الَّذِينَ أَحْبَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْئَلُونَ صَرْفًا فِي الْأَرْضِ بِحَسَبِهَا الْجَائِلِ أَهْلًا مِنَ التَّعْتَفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ الْعِثَاءَ وَمَا تُغْفِرُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا عَمِلْتُمْ لَبِيبٌ يُغْفِرُ أَمْوَالَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا سِرًّا وَعَلَانِيَةً قَلْبُهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٧٣﴾ .

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم، أخبرنا الفزاري، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُغْفِرُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُغْفِرُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٧٢﴾ . وكذا رواه أبو حذيفة، وابن المبارك، وأبو أحمد الزبير، وأبو داود الحفري، عن سفيان - وهو الثوري - به. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن - يعني الدُّشْكِي - حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن

سعید بن جبیر، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بالصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ حُدُودٌ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين. وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعُكَ اللَّهُ عَنَّا الَّذِينَ لَمْ يُقَالُوا لَكَ فِي الدِّينِ وَلَا يَخْرُجُكَ مِن دِينِكَ﴾ الآية [المنحنة: ٨] حديث أسماء بنت الصديق في ذلك إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن حَبْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [نصحت: ٤٦، الجانية: ١٥] ونظرائها في القرآن كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: البز أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن حَبْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، والحديث المخرج في الصحيحين، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأنصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصَدِّقُ عَلَى زَانِيَةٍ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأنصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدِّقُ عَلَى غَنِيٍّ! فقال: اللهم لك الحمد على غني، لأنصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدِّقُ عَلَى سَارِقٍ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْأَلُونَ صَدَقَةً﴾ يعني: سراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ صِرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرَءُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ رَحُومٌ وَآخِرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخِرُونَ يَقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالمهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمران، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يُفْطِنُ لَهُ فَيْتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، ولا يسأل الناس شيئاً». وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً. وقوله: ﴿تَقْرِفُهُمْ بِسِيئَتِهِمْ﴾ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿سِيئَاتِهِمْ فِي نُجُومِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٧٩]، وقال: ﴿وَتَقْرِفُهُمْ بِلَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفي الحديث الذي في السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلَّذِينَ يَتْلُونَ الصُّرُوحَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة؛ قال البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبي نمر: أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف؛ أقرؤوا إن شئتم - يعني قوله -: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾». وقد رواه مسلم، من حديث إسماعيل بن جعفر المدني، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار - وحده - عن أبي هريرة، به. وقال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك - وهو ابن أبي نمر - عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف؛ أقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾». وروى البخاري من حديث شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن أبي الوليد، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف عليكم، فتطمعونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافاً». وقال ابن جرير: حدثني معتمر، عن الحسن بن مالك، عن صالح بن سويد، عن أبي هريرة قال: ليس المسكين الطواف الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين المتعفف في بيته، لا يسأل الناس شيئاً تصبيه الحاجة؛ أقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا

عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً». فقلت بيني وبين نفسي: لناقاة لي خير من خمس أواق، ولغلامه ناقاة أخرى فهي خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله. وهكذا رواه أبو داود والنسائي، كلاهما عن قتيبة. زاد أبو داود: وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال بإسناده، نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة وقية فهو ملحف» والوقية: أربعون درهماً. وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بني أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية - أو عدلها - فقد سأل إلحافاً». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسأته يوم القيامة خدوشاً - أو كدوشاً - في وجهه». قالوا: يا رسول الله، وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً، أو حسابها من الذهب». وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حكيم بن جبير الأسدي الكوفي. وقد تركه شعبة بن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس، حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: بلغ الحارث - رجلاً كان بالشام من قريش - أن أبا ذر كان به عوز، فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلاً هو أهون عليه مني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاة وماهانان. قال أبو بكر بن عياش: يعني خادمين. وقال ابن مَرزُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان، عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «من سأل وله أربعون درهماً فهو مُلحف، وهو مثل سف الملة يعني: الرمل. ورواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان - وهو ابن عيينة - بإسناده، نحوه. قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَكُمْ أَلَّهُ بِهِ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه. وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْتَّكْوَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأكل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع -: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر ويهز قال: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري، يحدث عن أبي مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة» أخرجه من حديث شعبة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْتَّكْوَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ في أصحاب الخيل». وقال حنش الصنعاني، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذي يعلقون الخيل في سبيل الله. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن أبي أمامة، وسعيد بن المسيب، ومكحول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا يحيى بن يمان، عن عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر، عن أبيه قال: كان لعلي أربعة دراهم، فأنفق درهماً ليلاً، ودرهماً نهاراً، ودرهماً سراً، ودرهماً علانية، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْتَّكْوَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾. وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف. ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر، عن ابن عباس أنها أنزلت في علي بن أبي طالب. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلوات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والآفات - شرع في ذكر أكلة الربا وأموات الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّق. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبيرة، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وحكي عن عبد الله بن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني: لا يقومون يوم القيامة. وكذا قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد. وروي ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن ابن عبد الله بن مسعود، عن أبيه أنه كان يقرأ: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذين يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال: وذلك حين يقوم من قبره. وفي حديث أبي سعيد في الإسراء، كما هو مذكور في سورة سبحان: أنه، عليه السلام، مر ليلتئذ يقوم لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقي مطولاً. وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تُرى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا». ورواه الإمام أحمد، عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. وفي إسناده ضعف.

وقد روى البخاري، عن سُمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر - حسبنا أنه كان يقول: أحمر مثل الدم - وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيغفر له فاه فيلقمه حجراً» وذكر في تفسيره: أنه أكل الربا. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي: إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا! وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ الكلام، رداً عليهم، أي: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو الحكيم العليم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من بلغه نهى الله عن الربا فانتبهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «وكل ربياً في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول رباً أضع ربا العباس» ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

قال سعيد بن جبيرة والسدي: ﴿فَلِلَّهِ مَا سَلَفَ﴾ فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أم يونس - يعني امرأته العالية بنت أيعف - أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد لزيد بن أرقم: يا أم المؤمنين، أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم. قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بشمانمة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمانة. فقالت: بنس ما شريت! وما بنس ما اشتريت! أبلغني زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب قالت: فقلت: رأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمانه؟ قالت: نعم، ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ﴾. وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم

مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المقررة في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهي الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقد قال أبو داود: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبد الله بن رجاء المكي، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَرِيِّ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة، فليؤذن بحرب من الله ورسوله». ورواه الحاكم في مستدرکه، من حديث ابن خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرج به. وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض - إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها، جسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشئتين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة. ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من توضيح المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة إليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَوْفَى كَعْلَى ذِي عَظْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يسف: ٧٦]. وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه». وفي السنن عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفي رواية: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك». وقال الثوري: عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه البخاري عن قبيصة، عنه. وقال أحمد، عن يحيى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة. رواه ابن ماجه، وابن مردويه. وروى ابن مردويه عن طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد المخدري قال: خطبنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وأمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ وبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم. وقد قال ابن ماجه: حدثنا عمرو بن علي الصيرفي، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن زبيد، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً». ورواه الحاكم في مستدرکه، من حديث عمرو بن علي الفلاس، بإسناد مثله، وزاد: «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ابن ماجه: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه». وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، عن عباد بن راشد، عن سعيد بن أبي خيرة، حدثنا الحسن - منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» وكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من غير وجه، عن سعيد بن أبي خيرة، عن الحسن، به. ومن هذا القبيل، وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهن، فحرم التجارة في الخمر. وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي، من طرق، عن الأعمش به، وهكذا لفظ رواية البخاري، عند تفسير الآية: فحرم التجارة، وفي لفظ له، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك. كما قال، عليه السلام، في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها وأكلوا أثمانها». وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنْكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]

قوله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه». قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات، وفي الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقد صنف الإمام، العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً في «إبطال التحليل» تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفي في ذلك وشفى، فرحمه الله ورضي عنه.

﴿يَمْحُؤُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يمحق الربا، أي: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يخرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيْثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْمَلُ الْحَيْثُ بِمَعْنَاهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْتَكِبُهُ جَمِيعًا فَيَجْمَعُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ فَلَا يَرْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الآية [الروم: ٣٩]]. وقال ابن جرير: في قوله: ﴿يَمْحُؤُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قُلْ». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده، فقال: حدثنا حجاج قال: حدثنا شريك عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزاري عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلْ» وقد رواه ابن ماجه، عن العباس بن جعفر، عن عمرو بن عون، عن يحيى بن أبي زائدة، عن إسرائيل، عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزاري، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة». وهذا من باب المعاملة بتقيض المقصود، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا الهيثم بن رافع الطاطري، حدثني أبو يحيى - رجل من أهل مكة - عن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منثوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فدعاهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام». فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود في طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً. ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع، به. ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وقوله: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾: قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و «أرباه يربيه» أي: كثره ونماه ينميه. وقرئ: «ويُرِي» بالضم والتشديد، من التربية، كما قال البخاري: حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل». كذا رواه في كتاب الزكاة. وقال في كتاب التوحيد: وقال خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار، فذكر بإسناده، نحوه. وقد رواه مسلم في الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره. قال البخاري: ورواه مسلم بن أبي مريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قلت: أما رواية مسلم بن أبي مريم: فقد تفرد البخاري بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم: فرواها مسلم في صحيحه، عن أبي الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، به. وأما حديث سهيل فرواه مسلم، عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهيل، به. والله أعلم. قال البخاري: وقال وراق عن ابن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن وراق - وهو ابن عمر الشكري - عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، فيربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل أحد». وهكذا روى هذا الحديث مسلم، والترمذي، والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبري. وأخرجه النسائي - من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصاري - ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبي الحبيب المدني، عن

أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره. وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن عباد بن منصور، حدثنا القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، يقبل الصدقة ويأخذها يمينه، فيربها لأحدكم كما يربي أحدهم مهره - أو فلوله - حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد». وتصديق ذلك في كتاب الله: «يَمَعُوْا لِلَّهِ آثِمًا وَإِنِّي الْكَافِرَاتُ». وكذا رواه أحمد، عن وكيع، وهو في تفسيره وكيع. ورواه الترمذي، عن أبي كُرَيْبٍ، عن وكيع، به وقال: حسن صحيح، وكذا رواه الثوري عن عباد بن منصور، به. ورواه أحمد أيضاً، عن خلف بن الوليد، عن ابن المبارك، عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبي نضرة، عن القاسم، به. وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الملك بن إسحاق، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أيوب، عن القاسم بن محمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا تصدق من طيب، يقبلها الله منه، فيأخذها يمينه، وَيُرِيهَا كما يربي أحدهم مَهْرَهُ أو فضيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربى في يد الله - أو قال: في كف الله - حتى تكون مثل أحد، فتصدقوا». وهكذا رواه أحمد، عن عبد الرزاق. وهذا طريق غريب صحيح الإسناد، ولكن لفظه عجيب، والمحفوظ ما تقدم. وروي عن عائشة أم المؤمنين، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن القاسم بن محمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي أحدهم قَلْوَهُ أو فضيله، حتى يكون مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال البزار: حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور، حدثنا إسماعيل، حدثني أبي، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، عن النبي ﷺ، وعن الضحاك بن عثمان، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده فيربها، كما يربي أحدهم فلوله - أو وصيفه - أو قال: فضيله» ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبو أوس. وقوله: «وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَذَابٍ أُتِيحَ» أي: لا يحب كتمور القلب أثم القورل والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم أثم يأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلفه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٧٧﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاتَوُا اللَّهَ وَرَدُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧٨﴾ إِنْ لَمْ تَقْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُومٌ أَنْتُمْ لَكُمْ لَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُرْفَرٍ فَلْيُقَظِرْ إِلَى مَيِّسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨١﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاتَوُا اللَّهَ وَرَدُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك. وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جرير، ومقاتل بن حيان، والسدي: أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير بن ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم، فشاؤروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاتَوُا اللَّهَ وَرَدُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧٨﴾ إِنْ لَمْ تَقْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿فَاذْنُوا بِحَرْبٍ﴾ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله. وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. ثم قرأ: ﴿إِنْ لَمْ تَقْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنْ لَمْ تَقْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتبهه، فإن نزاع وإلا ضرب عنقه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالوا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام

عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا، فإياكم وما خالط هذه البيوع من الربا؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئتمكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبي حاتم. وقال الربيع بن أنس: أوعد الله أكل الربا بالقتل. رواه ابن جرير. وقال السهيلي: ولهذا قالت عائشة لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، في مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل، إلا أن يتوب، فخصت الجهاد؛ لأنه ضد قوله: ﴿فَأَذُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. قال: وهذا المعنى ذكره كثير. قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَيَّنَتْ فَلكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إشكاب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن شبيب بن غرقدة البارقى، عن سليمان بن الأوحس عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله» كذا وجدته: سليمان بن الأوحس. وقد قال ابن مردويه: حدثنا الشافعي، حدثنا معاذ بن المنثى، أخبرنا مسدد، أخبرنا أبو الأوحس، حدثنا شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون». وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمرو - هو ابن خارجة - فذكره. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ مَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨١): يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي: لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي. ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ مَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ، بذلك:

فالحديث الأول: عن أبي أمامة أسعد بن زارة النقيب، قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب الرجاني، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم، حدثنا محمد بن بكر البرساني، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثني عاصم بن عبيد الله، عن أبي أمامة أسعد بن زارة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليؤس على معسر أو ليضع عنه». حديث آخر: عن بريدة، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قلت: سمعتك - يا رسول الله - تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة»؟! قال: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثله صدقة».

حديث آخر: عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمي، عن محمد بن كعب القرظي: أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيخيبه منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة فناده: يا فلان، اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي. قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه - أو محاعنه - كان في ظل العرش يوم القيامة». ورواه مسلم في صحيحه. حديث آخر: عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الأحنس أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعد من عبده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها، قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يا رب، إنك أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. قال: فيقول الله، ﷻ: أنا أحق من يسر، ادخل الجنة». وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه - من طرق - عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. زاد مسلم: وعقبه بن عامر وأبي مسعود البديري عن النبي ﷺ، بنحوه. ولفظ البخاري: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهري، عن عبد الله بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا

رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه.

حديث آخر: عن سهل بن حنيف، قال الحاكم في مستدرکه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلاً حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً، أو غارماً في عسرتة، أو مكاتباً في رقبته، أظله الله يوم لا ظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر»، انفرد به أحمد.

حديث آخر: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، أن رجلاً أتى به الله ﷻ، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير أرجوكم بها، فقال له ثلاثاً، وقال في الثالثة: أي رب كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبيدي. فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبي ﷺ، وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به.

حديث آخر: عن عمران بن حصين، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي داود، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فأخره، كان له بكل يوم صدقة». غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

حديث آخر: عن أبي اليسر كعب بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله ﷻ، في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وقد أخرجه مسلم في صحيحه من وجه آخر، من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري، وعلى غلامه بردة ومعافري فقال له أبي: يا عم، إني أرى في وجهك سفعة من غضب؟ قال أجل، كان لي على فلان بن فلان الحرامي مال، فأتيت أهله فسلمت، فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج علي ابن له جفراً فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أمي. فقلت: أخرج إلي فقد علمت أين أنت؟ فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك؛ خشيت - والله - أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ، وكنت - والله - معسراً قال: قلت: آله؟ قال: آله. قلت: آله؟ قال: آله. قلت: آله؟ قال: آله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدت قضاء فاقضني، وإلا فأنت في حل، فأشهد بصر عيني - ووضع أصبعه على عينيه - وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي - وأشار إلى مناظ قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: «من أنظر معسراً، أو وضع عنه أظله الله في ظله». وذكر تمام الحديث.

حديث آخر: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه حدثني أبو يحيى البرزاز محمد بن عبد الرحيم، حدثنا الحسن بن بشر بن سلم الكوفي، حدثنا العباس بن الفضل الأنصاري، عن هشام بن زياد القرشي، عن أبيه، عن محجن مولى عثمان، عن عثمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أظل الله عيناً في ظله، يوم لا ظل إلا ظله من أنظر معسراً، أو ترك لغارم». حديث آخر: عن ابن عباس، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جعونة السلمى الخراساني، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، وهو يقول بيده هكذا - وأوماً عبد الرحمن بيده إلى الأرض -: «من أنظر معسراً أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، إلا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثاً - إلا إن عمل النار سهل بسهولة، والسعيد من وقى الفتنة، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد الله إلا ملأ الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد البؤزاني قاضي الحديثة من ديار ربيعة، حدثنا الحسين بن علي الصُدائي، حدثنا الحكم بن الجارود، حدثنا ابن أبي المنتد - خال ابن عيينة - عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً إلى مسيرته أنظره الله بذنبه إلى توبته». ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: «وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾ . وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه ابن أبي حاتم. وقد رواه ابن مژذويه من حديث المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ . وقد رواه النسائي، من حديث يزيد النحوي، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾ . وكذا رواه الضحاك، والعمري، عن ابن عباس، وروى الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وبدى يوم السبت ومات يوم الاثنين، رواه ابن جرير. ورواه عطية عن أبي سعيد، قال: آخر آية أنزلت: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الذُّرُوبُ مَأْمُومًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجَلِي مُسَكِّي فَاصْتَبُوهُ وَيَتَخَبَّبُ بَيْنَكُمْ كَابِتًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْبُ كَابِتٌ أَنْ يَكُذِبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتَبْ وَلْيُمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ صَوِيحًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْلُغَ هُوَ فَلْيَسْلِلْ وَإِلَيْهِ بِالْكَذِبِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَاطِلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْفُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَنْفَسُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا حَبِيرَةٌ تُدْرِكُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَمَلَّقُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَأَنْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ سَوَاءً عَلَيْهِ﴾ ﴿٢٨٢﴾ .

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال، حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، عليه السلام، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذاريء إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هو ابنك داود. قال: أي رب، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: رب زدني عمره. قال: لا، إلا أن أزيد من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة». وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره، وزاد فيه: «فأتتها الله لداود مائة، وأتمها لآدم ألف سنة». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به. هذا حديث غريب جداً، وعلي بن زيد بن جُدعان في أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم في مستدركه بنحوه، من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة. ومن رواية داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن أبي هريرة. ومن طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. ومن حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه. ف قوله: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرُوبُ مَأْمُومًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجَلِي مُسَكِّي فَاصْتَبُوهُ﴾ . هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكَمْ أَنْفَسُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ . وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجیح عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرُوبُ مَأْمُومًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجَلِي مُسَكِّي فَاصْتَبُوهُ﴾ قال: أنزلت في السَّلْمِ إلى أجل معلوم. وقال قتادة، عن أبي حسان الأعرج، عن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرُوبُ مَأْمُومًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجَلِي مُسَكِّي﴾ . رواه البخاري. وثبت في الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجیح، عن عبد الله بن كثير، عن أبي المنهال، عن ابن عباس، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسَلِّفُونَ في الثمار الستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم» .

وقوله: ﴿فَاصْتَبُوهُ﴾ : أمر منه تعالى بالكتابة والحالة هذه للتوثق والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن

عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الذين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر بكتابه إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم. قال ابن جريج: من أذن فليكتب، ومن ابتاع فليشهد. وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي، كان رجلاً صاحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك قال: رجل باع بيماً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له؛ لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد، والشعبي، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله: ﴿إِن آتَيْنَا بِكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي آتَيْنَا مِنْكُمْ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هزْمُر، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: انتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً. قال: انتني بكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر ففضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أنني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً. فرضي بذلك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً. فرضي بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني استودعْتُكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجتبه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأناه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي آتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بالفك راشداً». وهذا إسناد صحيح، وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم، فقال: وقال الليث بن سعد، فذكره. ويقال: إنه رواه في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث، عنه.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كِتَابًا بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يُجَزَّ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَلَا يَأْت كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَيَكْتُوبَ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئِلَ أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق». وفي الحديث الآخر: «من كتب معلماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب. وقوله: ﴿وَلْيَسْلُبِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَسْتَقِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ أي: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا يكتس منه شيئاً، ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَائِغًا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أَوْ ضَمِيمًا﴾ أي: صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَدِّيَهُهُ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿فَلْيَسْلُبِ وَيُلْهُ بِالْعَدْلِ﴾. وقوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم في صحيحه: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزَلَةٌ: وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي ليُب منكن». قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تُعَدُّ لشهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين». وقوله: ﴿وَمَنْ رَضَوْنَ مِنْ الشُّهُدَاءِ﴾: فيه دلة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيدٌ، حَكَمَ به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ بالتشديد من التذكار. ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعده، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ومن ههنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية. وقيل - وهو مذهب الجمهور -: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للاداء، لحقيقة قوله: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾، والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعي لأدائها فعليها الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فاجب. وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن، من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن زيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها». فأما الحديث الآخر في الصحيحين: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق إيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم إيمانهم». وفي رواية: «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون». فهؤلاء شهد الزور. وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري: أنها تعم الحالين: التحمل والاداء. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا كِتَابَهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا إِلَّا جُلُودًا﴾: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا كِتَابَهُمْ﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَّا جُلُودًا﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةٌ تُدْرِكُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانقضاء المحذور في تركها. فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قول الله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعني: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فاشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروي عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، نحو ذلك.

وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿إِنِ أَيْنَ بِعَمَلِكُمْ مَعَصَا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَتَهُ﴾. وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني عمارة بن خزيمة الأنصاري، أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبي ﷺ - أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطلق رجال يعترضون الأعرابي فيسأله بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعته، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابي: لا، والله ما بعتهك. فقال النبي ﷺ: «بل قد ابتعته منك». فطلق الناس يلذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعا، فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك. قال خزيمة: أن أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب، والنسائي من رواية محمد بن الوليد الزبيدي، كلاهما عن الزهري، به نحوه. ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه والحاكم في مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبري، عن شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بزة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالا فلم يُشْهد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه، لتوقف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين». وقوله: ﴿وَلَا يَصْرُكَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتبها بالكلية، وهو قول الحسن وقاتة وغيرهما. وقيل: معناه لا يضرب بهما، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين - يعني ابن حفص - حدثنا سفيان، عن

يزيد بن أبي زياد، عن مفسم، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَلَا يَصَّارِكُمْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتي الرجل فيدعوها إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا. فليس له أن يضارهما. ثم قال: وروي عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. وقوله: ﴿وَلَا تَقْعَلُوا فِئْتَةً مُسَوِّفًا يَكْفُرُ﴾ أي: إن خالفتما ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون منه. وقوله: ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿وَيُكَلِّمُكُمْ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْنُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٢٩]، وكقوله: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقْنُوا اللَّهَ وَمَا آمَنُوا مِنْهُ إِلَّا بِرُؤْيُكُمْ فَذَلِكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِي شَأْنَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم

بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات. ﴿وَلَا كُنْتُمْ عَلَى سَعَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي آؤُتُوا مِنْكُمْ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْفُرُوا﴾ [التكوير: ١٧].

يقول تعالى: ﴿وَلَا كُنْتُمْ عَلَى سَعَرٍ﴾ أي: مسافرين وتدابيتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً فرهن مقبوضة، أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق. وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة. واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره. وقد ثبت في الصحيحين، عن أنس، أن رسول الله ﷺ ثوفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير، رهنها قوتاً لأهله. وفي رواية: من يهود المدينة. وفي رواية الشافعي: عند أبي الشحم اليهودي. وتقرير هذه المسائل في كتاب «الأحكام الكبير»، والله الحمد والمنة، وبه المستعان. وقوله: ﴿فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي آؤُتُوا مِنْكُمْ﴾، روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبي: إذا اتمنتم بعضكم بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا. وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني: المؤمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية قتادة، عن الحسن، عن سمره: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه». وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ إِذًا قَدْ كَفَرَ﴾، قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِذَا لَيْتُمُ الْآيَاتِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْوَسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَسْلُبُوا أَنْ تَكُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ فَإِنْ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ إِذًا قَدْ كَفَرَ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِمَا يَكْفُرُ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ قَتِيلٌ لِمَنْ يَكْفُرْ وَمَنْ يَكْفُرْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي سُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوا بِطَنَتِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَرَأَىٰ مَا تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَخَفَىٰ﴾ [طه: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن - يعني العلاء - عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِمَا يَكْفُرُ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ قَتِيلٌ لِمَنْ يَكْفُرْ وَمَنْ يَكْفُرْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها

أستتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْهُ بِيْتٍ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٣﴾﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، إلى آخره. ورواه مسلم منفرداً به، من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله، ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم، ﴿وَاعْتَصِفْنَا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم. حديث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسألنا». فالقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٣﴾﴾، إلى قوله: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وهكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كريب، وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع، به، وزاد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَاعْتَصِفْنَا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا﴾ قال: قد فعلت.

طريق أخرى عن ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فيكى. قال: آية آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا﴾. قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت غَمَّت أصحاب رسول الله ﷺ غمًا شديدًا، وغاظتهم غيظًا شديدًا، يعني، وقالوا: يا رسول الله، هلكننا، إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فاما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال: لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا». قالوا: سمعنا وأطعنا. قال: فنسخها هذه الآية: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فتجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال. طريق أخرى عنه: قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، وأخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مَرْجَانَةَ، سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فقال: سمع نشيجه. قال ابن مَرْجَانَةَ: فقلت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر، وما فعل حين تلاها، فقال عبد الله بن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. لَعَمْرِي لقد وَجَدَ المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله، ﷻ، أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن سالم: أن أباه قرأ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ﴾ قال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت، فنسخها الآية التي بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس. قال البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خالد الحذاء، عن مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ أَوْ تُكْفَسُوا بِهَا أَمْيَالُكُمْ﴾ قال نسختها الآية التي بعدها. وهكذا رُوِيَ عن علي، وابن مسعود، وكعب الأحبار، والشعبي، والنخعي، ومحمد بن كعب القُرظي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها. وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل». وفي الصحيحين، من

حديث سفيان بن عُيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هم عبدى بسينة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا». لفظ مسلم، وهو في أفراد من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسينة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبها سيئة واحدة». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة، فأنأ أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنأ أكتبها له بمثلها». وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: رب، وإن عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، وإنما تركها من جرائي». وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحد إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله ﷻ». تفرد به مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ، وبعضه في صحيح البخاري. وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسينة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت». تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب. وقال مسلم: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث، عن الجعد أبي عثمان، حدثنا أبو رجاء العطاردي، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسينة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

ثم رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان في هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الوارث، وزاد: «ومحأها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك». وفي حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان». لفظ مسلم، وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، به. وروى مسلم أيضاً من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك صريح الإيمان». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَلَا تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُخْفَاكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ» فإنها لم تُنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم، مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: «يُخْفَاكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ»، يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو وقوله: «فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَسْأَلُ وَيَسْأَلُ مَنْ يَسْأَلُ»، وقوله: «وَلَكِنْ يُوَازِلُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» [البقرة: ٢٢٥] أي: من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا. وروى ابن جرير، عن مجاهد والضحاك، نحوه. وعن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكَمَةٌ لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية، قائلًا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد وهشام، (ح) وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، حدثنا هشام، قالا جميعاً في حديثهما: عن قتادة، عن صفوان بن مُحرز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أعفوها لك اليوم». قال: «فيعطى صحيفة حسناته - أو كتابه - يمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: «هَذَا الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى

رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة، عن قتادة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية قالت: سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يُمَايَسِكُمْ يَوْمَ اللَّهِ﴾ فقالت: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «هذه مبايعة الله العبد، وما يصيبه من الحمى، والكعبة، والبضاعة يضعها في يد كفه، فيفتقدتها فيفزع لها، ثم يجدها في ضيقه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكبر». وكذا رواه الترمذي، وابن جرير من طريق حماد بن سلمة، به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديثه. قلت: وشيخه علي بن زيد بن جُدعان ضعيف، يغرب في رواياته، وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه: أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها في الكتب سواه.

﴿عَمَّا أَرْسَلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّي وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكَلِمِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَرَوُنَّ بَيْنَكَ أَحَدًا مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا مِثْلًا نَّمُنُّ بِغُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِنَّكَ الْعَصِيدُ ﴿١٨﴾ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا بِأَخْطَاءَنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ قَوْلَنَا لَنَا يَوْمَ لَا تَلْمِظُنَا مَا لَا تَحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر الأحاديث الواردة

في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

الحديث الأول: قال البخاري: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين»، وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش، بإسناده، مثله. وهو في الصحيحين من طريق الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عنه، به. وهو في الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن، عن علقمة عن أبي مسعود. قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا مسعود، فحدثني به. وهكذا رواه أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم. عن المسيب بن رافع، عن علقمة، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي، عن حُرشة بن الحُر، عن المعمر بن سويد، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي». وقد رواه ابن مردويه، من حديث الأشجعي، عن الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن زيد بن طيبان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

الحديث الثالث: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نُمير، وزهير بن حرب جميعاً، عن عبد الله بن نُمير - وألفاظهم متقاربة - قال ابن نمير: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما أُسْرِي برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يُفْرَجُ به من الأرض فَيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فَيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ مَا يَفْعَلُ﴾ ﴿١٦﴾ النجم: قال: قرأ من ذهب. قال: وأعطني رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطيت الصلوات الخمس، وأعطيت خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المصحفات.

الحديث الرابع: قال أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مَرْثَد بن عبد الله اليزني، عن عقبه بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيهما من تحت العرش». هذا إسناد حسن، ولم يخرجوه في كتبهم.

الحديث الخامس: قال ابن مَرْثُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، أخبرنا مُسَدَّد أخبرنا أبو عوانة، عن أبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث، أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش، لم يعطها أحد قبلي، ولا يعطها أحد بعدي». ثم رواه من

حديث نعيم بن أبي هند، عن ربيعي، عن حذيفة، بنحوه.

الحديث السادس: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، أنبأنا إسماعيل بن الفضل، أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع، أخبرنا جعفر بن عون، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لا أرى أحداً عقيل الإسلام ينام حتى يقرأ خواتيم سورة البقرة، فإنها كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش. ورواه وكيع عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمير بن عمرو الخارفي، عن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش.

الحديث السابع: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن أشعث بن عبد الرحمن الجزمي، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقر بها شيطان». ثم قال: هذا حديث غريب. وهكذا رواه الحاكم في مستدرکه من حديث حماد بن سلمة به، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

الحديث الثامن: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين، أخبرنا الحسن بن الجهم، أخبرنا إسماعيل بن عمرو، أخبرنا ابن أبي مريم، حدثني يوسف بن أبي الحجاج، عن سعيد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك، وقال: «إنهما من كنز الرحمن تحت العرش». وإذا قرأ: ﴿مَنْ يَحْمِلْ سَوَاءَ يَحْمِلْ بِهِ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [١٣٦]، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [١٤٠]، ﴿ثُمَّ يُبْعَثُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [١٤١]، استرجع واستكان.

الحديث التاسع: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي، حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن أبي حميد، عن أبي مليح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، والمفصل نافلة».

الحديث العاشر: قد تقدم في فضائل الفاتحة، من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل؛ إذ سمع نقيضاً فوقه، فرجع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما أفتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يوتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم والنسائي، وهذا لفظه.

الحديث الحادي عشر: قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أبيع بن عبد الله الكلاعي قال: قال رجل: يا رسول الله، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: «آية الكرسي»: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال: فأية في كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال: «آخر سورة البقرة، ولم يترك خيراً في الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه».

فقوله تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾: إخبار عن النبي ﷺ بذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «ويحق له أن يؤمن». وقد روى الحاكم في مستدرکه: حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشي، حدثنا خالد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل، عن يحيى بن أبي كثير، عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «حق له أن يؤمن». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَعَظَفَ عَلَى الرَّسُولِ﴾ ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلُّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي رُسُلِهِ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى تُسَخَّ جميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا سَوِيًّا وَأَلْمَنَّا﴾ أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه،

وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿عُذْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر والرحمة واللطف. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿عُذْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿وَأَلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن بيان، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَكَانُوا سَمِعًا وَأَلْفَمًا عُذْرَانِكَ رَبَّنَا وَأَلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى امتك، فسل تُغْطِه. فسال: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر الآية. وقوله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورافته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، في قوله: ﴿وَأَن تَبُدُّوهُ مَا فِي كُفْرِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يُعَاسِبْكُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِسُحَابٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان. وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ أي: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: الصواب في العمل، جهلاً منا بوجهه الشرعي. وقد تقدم في صحيح مسلم لحديث أبي هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث ابن عباس: «قال الله: قد فعلت». وروى ابن ماجه في سننه، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي عمرو الأزاعي، عن عطاء - قال ابن ماجه في روايته: عن ابن عباس. وقال الطبراني وابن حبان: عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وقد روي من طروق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرأنا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِمْ عَيْنَنَا إِسْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفة السمحة». وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِمْ لَنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تتبلىنا بما لا قبل لنا به. وقد قال مكحول في قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِمْ لَنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: الغزبة والغلظة، رواه ابن أبي حاتم، «قال الله: نعم» وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت». وقوله: ﴿وَأَعِزَّنَا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ أي: فيما يُسْتَقْبَل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم. وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت». وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فأنصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، «قال الله: نعم». وفي الحديث الذي رواه مسلم، عن ابن عباس: «قال الله: قد فعلت». وقال ابن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، أن معاذاً، رضي الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين. ورواه وكيع عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل: أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين.

تفسير سورة آل عمران

هي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك، إن شاء الله تعالى عند تفسير آية المباهلة منها، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير سورة البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَهُ ۗ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ أَلَمْ يَلْقَ الْفُتُورُ ۗ﴾ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِنَبِيِّنَا وَأَنزَلَ

وقد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ أَلَمْ يَلْقَ الْفُتُورُ ۗ﴾ و ﴿آلَهُ ۗ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ أَلَمْ يَلْقَ الْفُتُورُ ۗ﴾ عند تفسير آية الكرسي، وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿آلَهُ ۗ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ أَلَمْ يَلْقَ الْفُتُورُ ۗ﴾ في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضاً الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ أَلَمْ يَلْقَ الْفُتُورُ ۗ﴾ في تفسير آية الكرسي. وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله ﷻ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن العظيم عليه. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي: على موسى بن عمران عليه السلام، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: على عيسى ابن مريم ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِنَبِيِّنَا﴾ أي: في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغني والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرّره، ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك. وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو القرآن. وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح أن المراد ههنا بالفرقان: التوراة، فضعيف أيضاً؛ لتقدم ذكرها، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: جحدوا بها وأنكروها، وردوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع الجناب عظيم السلطان: ﴿ذُو أَنْبَاءٍ﴾ أي: ممن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۗ﴾ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله تعالى صورّه في الرحم وخلقّه، كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى - عليهم لعائن الله - وقد قلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ لَّئِيْلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ فَانظُرُوا﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَانْتِفَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۗ﴾ ﴿٥﴾ رَبَّنَا لَا تُؤِخِّرْ قُلُوبَنَا بَدَّةً يَدُّ هَدْيَتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكِيلُ ﴿٦﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ الْغَايِبِ يُؤَيِّرُ لَا رَبَّ فِئْتُ رَبِّكَ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ الْيَمِينَةَ ﴿٧﴾

يخبر تعالى أن القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأَمْرٌ مُتَشَابِهَةٌ﴾ أي: تحتل دلالته موافقة المحكم، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد. وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه، فروي عن السلف عبارات كثيرة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: المحكمات ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمر به ويعمل به. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وقادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَكُونُوا أَقْدَمَ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِمَا كُفَرْتُمْ بِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] والآيات بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن أبي حاتم، وحكاه عن سعيد بن جبيرة، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾، فقال أبو فاختة: فواتح السور. وقال يحيى بن يعمر: الفرائض، والأمر والنهي، والحلال والحرام. وقال ابن أبي عمير عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب، لأنهن مكتوبات في جميع الكتب. وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن.

وقيل في المتشابهات: إنهن المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور، قاله مقاتل بن حيان. وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً. وهذا إنما في تفسير قوله: ﴿كَيْتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال الفجار، ونحو ذلك. فأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم. وأحسن ما قيل فيه الذي قدمناه، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، حيث قال: ﴿مِنْهُ مَا يَنْتَظِرُ الْمُتَكِدُّ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾: فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحزفن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحزفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿أَتَيْتَهُمُ الْبُرْهَانَ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصراحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ تَأْيِيدًا﴾ أي: تحريفه على ما يريدون. وقال مقاتل والسدي: يتفنون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنتي الله فأحذروهم». وهكذا وقع هذا الحديث في مسند الإمام أحمد، رحمه الله، من رواية ابن أبي مليكة، عن عائشة، ليس بينهما أحد. وهكذا رواه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن علقمة وعبد الوهاب الثقفي، كلاهما عن أيوب، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، عنها. ورواه محمد بن يحيى العبادي في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي، عن أيوب به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب. وكذا رواه غير واحد عن أيوب. وقد رواه ابن حبان في صحيحه، من حديث أيوب، به. وتابع أيوب عامر الخزاز وغيره عن ابن أبي مليكة، فرواه الترمذي عن بُنْدَار، عن أبي داود الطيالسي، عن أبي عامر الخزاز، فذكره. وهكذا رواه سعيد بن منصور في سننه، عن حماد بن يحيى الأصبغ، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة. ورواه ابن جرير، من حديث روح بن القاسم، ونافع بن عمر الجمحي، كلاهما عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، به. وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة: حدثني عائشة، فذكره.

وقد روى هذا الحديث البخاري، رحمه الله، عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه، ثلاثهم، عن القعقبي، عن يزيد بن إبراهيم السُّنْتَرِي، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة،

رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتَّبِعُونَ ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ» لفظ البخاري. وكذا رواه الترمذي أيضاً، عن بندار، عن أبي داود الطيالسي، عن يزيد بن إبراهيم التستري، به. وقال: حسن صحيح. وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، ولم يذكرها القاسم. كذا قال. ورواه ابن المنذر في تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السدوسي - ولقبه عارم - حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، به. وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري وحماد بن سلمة، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتَّبِعُونَ ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ». وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: نزع رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قد حذركم الله، فإذا رأيتموهم فأغروهم». ورواه ابن مردويه من طريق أخرى، عن القاسم، عن عائشة، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: «هم الخوارج». وقد رواه ابن مردويه من غير وجه، عن أبي غالب، عن أبي أمامة مرفوعاً، فذكره. وهذا الحديث أقل أسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حُتَيْن، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، فجاؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الحُويصرة - بقر الله خاصرته -: اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد جئت وخيبرت إن لم أكن أعدل، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب، وفي رواية: خالد بن الوليد - ولا بعد في الجمع - رسول الله ﷺ في قتله، فقال: «دعه فإنه يخرج من ضيضيء هذا - أي: من جنسه - قوم يخفركم أحدكم صلواته مع صلواتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يَمْرُقُونَ من الدين كما يَمْرُقُ السهم من الرميَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم». ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالثَّوروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم نبَّعت القَدْرِيَّة، ثم المعتزلة، ثم الجَهْمِيَّة، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق في قوله: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فِرْقَةً، كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا المعتز، عن أبيه، عن قتادة، عن الحسن بن جندب بن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة - أو سمعه منه - يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: «إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل، يتأولونهُ على غير تأويله». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَمَا يَسْأَلُكُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾: اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهم، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ. ويروي هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم. وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمْصَمُ بن رُزْعة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذهم المؤمن بيتغي تأويله، ﴿وَمَا يَسْأَلُكُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يباليون عليه» غريب جداً. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا أحمد بن عمرو، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا ابن أبي حازم، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن ابن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فامتنوا به». وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طائوس، عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون: آمنا به». وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود:

«إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون أمتنا به». وكذا عن أبي بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول. ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون أمتنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَسْتَمِ تَأْوِيلُهُ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾. ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المُحَكِّمَةِ التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فانسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم قَهِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ».

ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَ آيَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَذَا يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ و ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿يَنْتَسِبُونَ لِأَبَوَائِهِمْ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خاطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدِينِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا لِنَسُكِّتَ سَبَقُونَ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ٨ - ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَبِعَاثِ رَبِّكَ وَالْمَلَكِ صَفًّا صَفًّا﴾ [النجر: ٢٢] أي: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الجهمي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا فياض الرقي، حدثنا عبد الله بن يزيد. وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ: أنس، وأبا أمامة، وأبا الدرداء، رضي الله عنهم، قال: حدثنا أبو الدرداء، أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم، فقال: «من برزت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ يوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه». وقد تقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث، من طريق هشام بن عمار، عن ابن أبي حازم، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، به. وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده، حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أنس بن عياض، عن أبي حازم، عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والجزء في القرآن كفر - ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهذا إسناد صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوي: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة. وقال ابن المنذر في تفسيره: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذلون لله في مرضاته، لا يتعاطون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة أو الفهوم المستقيمة.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِجْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتهما عليه، ولا تجعلنا كالذين في قولهم زبغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَقَبَّ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَوْحَاثٌ﴾. قال ابن

أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي - وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب - قالاً جميعاً: حدثنا وَكَيْع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مُقَلَّبَ القلوب ثَبِّت قلبي على دينك»، ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بَكَّار، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة، وهي أسماء بنت يزيد بن السكن، سمعها تحدّث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت: قلت: يا رسول الله، وإن القلب ليتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله ﷻ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه». فسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب. وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله. ورواه أيضاً عن المشنى، عن الحجاج بن مِثْهَال، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله، وزاد: «قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قلبي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غَيْظَ قلبي، وأجزني من مُضَلِّاتِ الفتن». ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقي، أخبرنا العباس بن الوليد الخلال، أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله، أخبرنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء. فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه، أما تسمعين قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾». غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت في الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة.

وقد روى أبو داود والنسائي وابن مردويه، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ - زاد النسائي وابن حبان: وعبد الله بن وهب، كلاهما عن سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد الثُّجَيْبِي، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمة، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» لفظ ابن مردويه. وقال عبد الرزاق، عن مالك، عن أبي عبيد - مولى سليمان بن عبد الملك - عن عبادة بن نَسِيٍّ، أنه أخبره، أنه سمع قيس بن الحارث يقول: أخبرني أبو عبد الله الصُّنَابِحِي، أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . قال أبو عبيد: وأخبرني عبادة بن نَسِيٍّ: أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتني عن أبي عبد الله الصُّنَابِحِي فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانياً. قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه، وإن كنت قبل ذلك لَعَلِّي غير ذلك. فقال له رجل: على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك؟ قال: كنت أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٢١].

وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم، عن مالك والأوزاعي، كلاهما عن أبي عبيد، به. ورواه الوليد أيضاً، عن ابن جابر، عن يحيى بن يحيى الغساني، عن محمود بن لبيد، عن الصُّنَابِحِي: أنه صلى خلف أبي بكر، رضي الله عنه، المغرب فقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة، يجهر بالقراءة، فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابي لتمس ثيابه، فقرأ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّقُ إِلَيْكَ شَيْئاً﴾ [آي: يقولون في دعائهم: إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزئ كلا بعمله، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَسْرَهُمْ وَلَا أَزْوَاجَهُمْ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن أَزْوَاجِهِمْ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [النساء: ١٢] كَذَّابٌ مَّا لَهُ زَوْجٌ مِّنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآلَنذَهُمْ اللَّهُ يَذُّوهُمْ وَأَلَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غان: ٥٢]، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد ينافع لهم عند الله، ولا بمنجهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُنْفِكُكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزَكَّى أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمُرُّكَ تَقَلُّبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِ بَدْرٍ ﴿١٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِيَهَادَ ﴿١٣﴾ ﴿آل عمران: ١١٩، ١٢٠﴾ كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تَنفَعَكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: حطبا الذي تسجر به وتوقد به، كقولته: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ لَهَا وَرْدِيًّا﴾ ﴿الانبيا: ٤٩٨﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا ابن لهيعة، أخبرني ابن الهادي، عن هند بنت الحارث، عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل، فقال: «هل بلغت، اللهم هل بلغت... ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبي ﷺ: «ليظهن الإسلام حتى يرذ الكفر إلى موطنه، ولتخوضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذي هو خير منا، فهل في أولئك من خير؟ قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم وأولئك هم وقود النار». وكذا رأيته بهذا اللفظ. وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله بن الهادي، عن هند بنت الحارث، امرأة عبد الله بن شداد، عن أم الفضل؛ أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال: «هل بلغت؟» يقولها ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب - وكان أواها - فقال: اللهم نعم، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر. فقال النبي ﷺ: «ليظهن الإيمان حتى يرذ الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن، فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون: قد قرأنا، وقد علمنا، فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير؟ قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار» ثم رواه من طريق موسى بن عبيد، عن محمد بن إبراهيم، عن بنت الهادي، عن العباس بن عبد المطلب: ينحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ مَالٍ فِرْعَوْنُ﴾ قال الضحاک، عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاک، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كَنَهْرٌ ونَهْرٌ -: هو الصنع والشأن والحال والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، وقال امرؤ القيس:

وقولاً بها صحبي على مطيهم
كذابك من أم الحويرث قبلها
والمعنى: كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبيها وبكيت دارها ورسمها. والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جازوا به من آيات الله وحججه. ﴿كَذَّابٌ مَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَا نَخَذُهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَلَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١﴾ أي: شديد الأخذ أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد، الذي قد غلب كل شيء، وذل له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُنُوكٌ يُتَعَرَّكُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرُ لِيَهَادَ ﴿١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي شَيْءٍ أَنْتُمْ لَا تَعْتَبِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سُنُوكٌ﴾ أي: في الدنيا، ﴿يَتَعَرَّكُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرُ لِيَهَادَ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يفرنك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُنُوكٌ يُتَعَرَّكُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرُ لِيَهَادَ﴾ ﴿١٣﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ شَيْئًا﴾. وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد كان لكم - أيها اليهود القائلون ما قلتم - ﴿آيَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله مع دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمر ﴿فِي شَيْءٍ﴾ أي: طائفتين ﴿أَنْتُمْ لَا تَعْتَبِرُونَ﴾ أي: للقتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأَخْرَجْنَا كَافِرًا﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ يَنْهَيْهِمْ رَبُّكَ عَلَىٰ أَنْ يُحَدِّثُوا أَخْبَارَهُمْ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير -: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رواه سبياً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل

القتال يحزر لهم المسلمین، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم. والقول الثاني: أن المعنى في قوله: ﴿يُرِيدُهُمْ مِّنْ لَّيْلِهِمْ زَأَى الْمَكِينِ﴾ أي: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم، أي: ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي، عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف كما رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عذة قريش، فقال: كثير، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قال: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال النبي ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». وروى أبو إسحاق السبعي، عن حارثة، عن علي، قال: كانوا ألفاً، وكذا قال ابن مسعود. والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، وكذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وَرَأَى يُرِيدُهُمْ إِذِ الْقَيْمِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَقَوْلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَقِيْنُ اللَّهُ أَمْراً كَأَنَّكَ مَعْمُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ والجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى، كما قال السدي، عن مرة الطيب، عن ابن مسعود في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَوَجَدَا كَافِرًا وَكَافِرًا كَافِرًا يَرِيدُهُمْ وَيُرِيدُهُمْ زَأَى الْمَكِينِ﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَأَى يُرِيدُهُمْ إِذِ الْقَيْمِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَقَوْلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جاني: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

فعدنا عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثلهم، أي: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، ﷺ. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل النصف والتقى الفريقان قتل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر. ﴿يَقِيْنُ اللَّهُ أَمْراً كَأَنَّكَ مَعْمُولًا﴾ أي: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَصَّرْنَاكُمْ اللَّهُ بِنُورٍ وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنُورِهِ مَن يَشَاءُ لِمَا فِي ذَلِكَ آيَةٌ لِّلَّذِينَ الْاَبْتَكِرُ﴾ أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿يُنِيبُ لِلنَّاسِ مَنُ الشَّهَادَاتِ مِنَ الذَّلِيلِ وَالْقَنْطَرِ الْمَقْطَرَةِ مِنَ الذَّلِيلِ وَالْحَبْلِ الْمُسْوَمِ وَالْأَنْمَةِ وَالْحَرْبِ ذَلِكَ مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حُجْرَةِ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْحِيْتُ بِخَبْرٍ مِّنْ دَلِيكُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عما زُين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه عليه السلام، قال: «مَا تَزَكَّتْ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضْرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، «وإن خَيْرَ هذه الأمة كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»، وقوله، عليه السلام: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفَظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا»، وقوله في الحديث الآخر: «حُبُّ إِلِي النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قُرَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وقالت عائشة، رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من الخيل إلا النساء.

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ومدوح، كما ثبت في الحديث: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَالِدِ، فَإِنِّي مُكَاتِبٌ بِكُمْ الْاَمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وحب العائل - كذلك - تارة يكون للفتخ والخلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة

في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل: اثنا عشر ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً. وقيل: ستون ألفاً وقيل: سبعون ألفاً. وقيل: ثمانون ألفاً. وقيل غير ذلك.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وقد رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، به. وقد رواه ابن جرير عن بُنْدَارٍ، عن ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن عاصم - هو ابن بهذلة - عن أبي صالح، عن أبي هريرة، موقوفاً، وهذا أصح. وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر. وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية. ثم قال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى الضرير، حدثنا شعبة، حدثنا مُحَمَّدُ بن عبد الواحد، عن علي بن زيد، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن زَرِّ بن حُبَيْشٍ عن أَبِي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقِنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ». وهذا حديث منكر أيضاً، والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة. وقد روى ابن مَرْذُويه، من طريق موسى بن عُبيدة الرَبَذي، عن محمد بن إبراهيم عن يحيى بن حنبل عن أبي موسى، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةِ لَمْ يَكْتَبْ مِنَ الْعَافِيَيْنِ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ إِلَى أَلْفِ أَصْبَحَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ أَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، الْقِنْطَارُ مِثْلُ الْجِبَلِ الْعَظِيمِ». ورواه وكيع، عن موسى بن عُبيدة، بمعناه وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بن تيس، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، حدثنا حُمَيْد الطويل، ورجل آخر، عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله، ﷻ: ﴿وَالْقِنْطَارِ الْمُنْقَطِرِ﴾ قال: «الْقِنْطَارُ أَلْفَا أَوْقِيَّةٍ». صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، هكذا رواه الحاكم. وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الرُّقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - حدثنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه - يعني يزيد الرُّقاشي - عن أنس، عن رسول الله ﷺ في قوله: قنطار، يعني: «ألف دينار». وهكذا رواه ابن مَرْذُويه، ورواه الطبراني، عن عبد الله بن محمد بن أبي مريم، عن عمرو بن أبي سلمة، فذكر بإسناده مثله سواء. وروى ابن جرير عن الحسن البصري مرسلًا عنه وموقوفاً عليه: القنطار ألف ومائتا دينار. وكذا رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار. ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم، عن حَمَادٍ، عن سعيد الجريدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: القنطار مائة مسك الثور ذهباً. قال أبو محمد: ورواه محمد بن موسى الحرشي، عن حماد بن زيد، مرفوعاً. والموقوف أصح.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها. ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِيبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وأما «الْمُسَوَّمَةُ» فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: المسومة الراعية، والمُطَهَّمَةُ الحسان، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزي، والسُّدي، والربيع بن أنس، وأبي سنان وغيرهم. وقال مكحول: المسومة: العُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سُوَيْدِ بن قيس، عن معاوية بن حُذَيْج، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدُّنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَرَسٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ حَوْلْتَنِي مِنْ حَوْلَتِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ».

وقوله: ﴿وَالْأَنْمَاقِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم «وَالْحَرَثِ» يعني: الأرض المتخذة للغراس والزراعة. قال الإمام أحمد: حدثنا رُوْح بن عبادة، حدثنا أبو نعامه العدوي، عن مسلم بن بَدِيل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْدِ بن هُبَيْرَةَ، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ مَالٍ أَمْرِي لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سِيكَةٌ مَأْيُورَةٌ»، المأمورة الكثيرة النسل، والسُّكَّةُ: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَكِّ الْحَيَوَاتِ الْأَدْنِيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقِتَابِ» أي: حسن المرجع والثواب. وقد قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي بكر بن حفص بن عُمر بن سعد قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لما أنزلت: ﴿رُؤْيَيْنِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا

الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يَا رَبِّ﴾. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، فقال: حدثنا علي بن حسين، حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني، حدثنا عمْر بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصاري، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قال: ﴿وَأَنَا أَشْهَدُ أَيُّ رَبِّ﴾.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبدان بن أحمد وعلي بن سعيد الرازي قالا: حدثنا عمَار بن عمر بن المختار، حدثني أبي، حدثني غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ **إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة: ﴿إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد، إنني سمعتك تردد هذه الآية. قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثني. قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة. فأقمت سنة فكتت على بابي، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضت السنة. قال: حدثني أبو وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: عَبْدِي عَهْدٌ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ وَفَى بِالْعَهْدِ، أَدْخَلُوا عَبْدِي الْجَنَّةِ». وقوله: ﴿إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمقبول. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ **إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** بكسر «أنت» وفتح «إِنَّ الْبُرُكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» أي: شهد هو وملانكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الْأَوَّلُ أَوْثَرًا أَلِكْتَبِ إِلَّا مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمُ الْبُرُكُ بَكْرًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلَفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابره، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٧﴾ أي: من جحد بما أنزل الله في كتابه فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ حَاجِبَكَ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ على ديني، يقولون كمفاتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [يوسف: ١٠٨]. ثم قال تعالى أمرًا لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكنايين من الملتين والأمينين من المشركين فقال: ﴿وَقُلْ لِلَّهِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أُسْلِمُوا فَسَدَّ أَسْمَاءُ فَكِدَّوْا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَلَّهُ بِصِيرَتِي بِالْكَوَادِ﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وما ذاك إلا لحكمته ورحمته. وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابتهم وأمهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هُثَام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا

نَضْرَانِي، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» رواه مسلم. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وقال: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». وقال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حَمَاد، حدثنا ثابت عن أنس، رضي الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ: «يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَنظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَنَزَّلَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطْعَمَ آبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنِّي مِنَ النَّارِ» أخرجه البخاري في الصحيح. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِحَيْرِ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْأَخْزَةِ وَالْأُخْرَى وَمَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ﴾ (١١)

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبهوا من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاضلاً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الزبير الحسن بن علي بن مسلم النيسابوري، نزيل مكة، حدثني أبو حفص عمر بن حفص - يعني ابن ثابت بن زرارة الأنصاري - حدثنا محمد بن حمزة، حدثني أبو الحسن مولى لبني أسد، عن مكحول، عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، عن أبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِحَيْرِ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١١) إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ﴾ الآية. ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، قَتَلْتَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةَ وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَحَمَّ مِائَةَ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرُوا مَنْ قَتَلَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ، ﷻ». وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عبيد الوضابي محمد بن حفص، عن ابن حُمَيْرٍ، عن أبي الحسن مولى بني أسد، عن مكحول، به. وعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوقاً بقلبيهم من آخره. رواه ابن أبي حاتم. ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجه مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْأَخْزَى وَالْأُخْرَى وَمَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ﴾ (١٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِنْ آلِ كَنْبِ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّجُ فِي يَوْمِهِمْ مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ﴾ (١٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٥)

يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: إنما حملهم وجزأهم على مخالفة الحق افتراءهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً. وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة. ثم قال: ﴿وَعَرَّجُ فِي يَوْمِهِمْ مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ﴾ أي غرهم في دينهم أي: تبثهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطاناً. قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك في وقوعه وكونه ﴿وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

﴿قُلِ اللَّهُمَّ سَيِّدُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ وَتَنَزَّحْ عَنِ الْمَلِكِ وَمَنْ تَشَاءُ وَرُحْمٌ مِّنْ تَشَاءُ وَرُدُّوهُنَّ إِلَى اللَّهِ عَن كُلِّ قَوْمٍ مَّوَدَّةً﴾ (١٦)

قُولِ الْيَلِّ فِي النَّهَارِ وَوَلِيَّ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْعَمَى مِنَ الْعَمَى وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْزِلِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ .
يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، معظماً لربك ومتوكلاً عليه، وشاكراً له ومفوضاً إليه: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾، أي: لك الملك كله
﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما
شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول
النبوّة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس
والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل، في العلم
بالله وشرعيته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض
ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل
والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْزِلِ حِسَابٍ﴾
في أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَىٰ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦]. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهْلُ
يَقِينٍ رَّحِمَتِ رَبِّكَ عَنْ قَسَمَاتِهِمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]. نحن نتصرف
في خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك، وهكذا نعطي النبوّة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأنعام: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
تَفَضُّلاً ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إسحاق بن أحمد من تاريخه عن المأمون الخليفة: أنه
رأى في قَصْرِ بِلَادِ الرُّومِ مكتوباً بالحميرية، فغرب له، فإذا هو: باسم الله ما اختلف الليل والنهار، ولا دارت نجوم السماء في
الفلك إلا بنقل النعيم عن مَلِكٍ قد زال سلطانه إلى ملك. ومَلِكٌ ذي العرش دائم أبداً ليس بِفَانٍ ولا بِمَشْرُوكٍ. وقوله: ﴿قُولِ الْيَلِّ
فِي النَّهَارِ وَوَلِيَّ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: تأخذ من طول هذا فتزیده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيفتاوتان، ثم
يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء. وقوله: ﴿تُخْرِجُ الْعَمَى مِنَ الْعَمَى﴾ أي:
تخرج الحَبَّةَ من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن،
والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْزِلِ حِسَابٍ﴾ أي: تعطي
من شئت من المال ما لا يَعدده ولا يقدر على إحصائه، وتقدر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشیئة
والعدل. قال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا جعفر بن جسر بن فرقد، حدثنا أبي، عن عمرو بن مالك، عن
أبي الجوزاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، في هذه الآية من آل عمران:
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْزِلِ حِسَابٍ﴾ أي:
قُدْرَتِهِ ﴿٢٦﴾» .

﴿لَا يَخْذِلُ الْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ كَتَبْنَا مِنْهُمُ ثِقَةً وَبَعَدْرُكُمْ اللَّهُ تَنَسُّهُ
وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿٢٦﴾﴾ .

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسِرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم
توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من يرتكب نهى الله في هذا فقد برىء من الله كما قال:
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبُدُونَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَهُمْ سُلْطٰنًا مِّبِينًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]، وقال
تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصٰرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾
[المائدة: ٥١]. وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّيكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوتُوا إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ
صَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المنحنة: ١] وقال تعالى - بعد ذكر موالاته المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب -: ﴿وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٣]. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ كَتَبْنَا مِنْهُمُ ثِقَةً
تَنَسُّهُ﴾ أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن
أبي الدرداء أنه قال: «إِنَّا لَتَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ». وقال الثوري: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ليس التقيّة
بالعمل إنما التقيّة باللسان، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس: إنما التقيّة باللسان، وكذا قال أبو العالية، وأبو الشعثاء
والضحّاك، والربيع بن أنس. ويؤيد ما قاله قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾ [النحل: ١٠٦]. وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يحذركم نعمته، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أوليائه. ثم قال تعالى: ﴿وَأَلَّ اللَّهُ الْكَمِيرُ﴾ أي: إليه المرجع والمنقلب، فيجازي كل عامل بعمله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن أبي حسين، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون بن مهران قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار.

﴿قُلْ إِنْ تَحِبُّوا مَا فِي سُؤْدُوكُمْ أَوْ تَبْذُرُوا مِلَّةَ اللَّهِ وَيَسْأَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَيَّ كَلِمٌ مَقْذُومٌ ﴿١٦٧﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَسَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٦٨﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآيات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَنْغِضُهُ مِنْهُمْ، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَسَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ يُنْفَخُ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرُ ﴿١٦٩﴾﴾ [القيامة: ١٦٣]، فما رأى من أعمال حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرَّاه على فعل السوء: ﴿بَلَيْتَ بَيْتِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنُ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ثم قال تعالى: مؤكداً ومهدداً ومتوعداً ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجعاً لعباده لئلا يياسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصري: من رافته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أي رحيم بخلقهم، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرح المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ زِدٌ» ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» قال أبو زرعة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث.

ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال أمراً لكل أحد من خاص وعمام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: خالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون - بل أولوا العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اسْتَفْتَحَ مَادَمَ وَتَوَكَّلَ وَإِسْرَافَهُ وَمَا لَ إِسْرَافَهُ وَمَا لَ إِسْرَافَهُ وَعَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ ذُرِّيَّةً مِمَّنْ مَلَأْنَا قُلُوبَهُمْ غِشًّا وَكَانُوا كَالْأَكْمَامِ ﴿١٧٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبته منها، لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً، عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْراني قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. قال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميثا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياروش بن أجرهيو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخييم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعْرَأً فَقَبِلْ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَصَمَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَمْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَمَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَتَيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أَخِيضُهَا بِكَ وَوَدَّعْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

امرأة عمران هذه أم مريم بنت عمران عليها السلام، وهي حنّة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يُزِقُّ فرخه، فاشتهد الولد، فدعت الله، ﷻ، أن يهبها ولدًا، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون «مُعْرَأً»، أي: خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعْرَأً فَقَبِلْ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: السميع لدعائي، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَصَمَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَمْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَمَتْ﴾. قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنثَى﴾ أي: في القوة والجِدَّة في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَتَيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررًا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: ﴿وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ﴾. أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله ﷺ، فحَنَكه وسماه عبد الله. وفي صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله، وُلِدَ لِي وَلَدٌ، فما أسْمِيه؟ قال: اسم وُلْدِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ. وثبت في الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحُنكته، فذَهَل عنه، فأمر به أبوه فَرَدَه إلى منزلهم، فلما ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ في المجلس سَمَاه المنذر. فأما حديث قتادة، عن الحسن البصري، عن سَمْرَةَ بن جُنْدُب؛ أن رسول الله ﷺ قال: كُلُّ غُلَامٍ رَمِينٌ بِعَقِيْقَتِهِ، يُذْبِحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى وَيُحَلَّقُ رَأْسُهُ فقد رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي بهذا اللفظ، ويروي: «وَيُدَمَّى»، وهو أثبت وأحفظ، والله أعلم. وكذا ما رواه الزبير بن بكار في كتاب النسب: أن رسول الله ﷺ عَقَّ عن ولده إبراهيم يوم سابعه وسماه إبراهيم. فإسناده لا يثبت، وهو مخالف لما في الصحيح، ولو صح لَحُمِلَ على أنه اشْتَهَرَ اسْمَهُ بذلك يومئذ، والله أعلم. وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّي أَخِيضُهَا بِكَ وَوَدَّعْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: عَوَّدْتُهَا بِاللَّهِ، ﷻ، من شر الشيطان، وعودت ذريتها، وهو لديها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلِلُ صَارِخاً مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَتَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أَخِيضُهَا بِكَ وَوَدَّعْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. أخرجاه من حديث عبد الرزاق. ورواه ابن جرير، عن أحمد بن الفرَج، عن بَقِيَّة، عن الزبيدي عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. وروى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدَ عَصَرَهُ الشَّيْطَانُ عَصْرَةً أَوْ عَصْرَتَيْنِ إِلَّا عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمَرْيَمَ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنِّي أَخِيضُهَا بِكَ وَوَدَّعْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مسلم، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة. ورواه وهب أيضاً، عن ابن أبي ذئب، عن عَجَلَانَ مولى المِشْمَعَلِّ، عن أبي هريرة، ورواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بأصل الحديث. وهكذا رواه الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، الأعرج قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ تَلِدُهُ أُمُّهُ، إِلَّا عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ قَطْعَنَ فِي الْحِجَابِ».

﴿فَقَبَلَهَا رُدُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا وَأَبْتَهَا تَبَاكَ حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْيَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَرِيحُ أَنَّ لِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه ﴿وَأَبْتَهَا تَبَاكَ حَسَنًا﴾، أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفي قراءة: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلاً لها. قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنةٌ جذب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين، والله أعلم. وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما. وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: «إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة»، وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانه خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قضى في عمارة بنت حنزة أن تكون في حضانه خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْيَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخعي والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، والسدي والشعبي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وعن مجاهد ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: علماً، أو قال: صحفاً فيها علم. رواه ابن أبي حاتم، والأول أصح، وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَرِيحُ أَنَّ لِي هَذَا﴾ أي يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سهل بن زنجلة، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني عبد الله بن لهيعة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً، حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحد منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بنية، هل عندك شيء أكله، فإني جائع؟» فقالت: لا، والله بأبي أنت وأمي. فلما خرج من عندها بعث إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها، وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي. وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها فقالت له: بأبي وأمي، قد أتى الله بشيء فخبأته لك. قال: «هلُمّي يا بنية» قالت: فأتيته بالجفنة. فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصلّت على نبيّه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه حمد الله وقال: «مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا بِنْتِي؟» فقالت: يا أبت، ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فحمد الله وقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ - يَا بِنْتِي - شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا زرقتها الله شيئاً فسئلت عنه قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فبعث رسول الله ﷺ إلى علي، ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي، وفاطمة، وحسن، وحسين، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا. قالت: وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَادَّعَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْيَحْرَابِ قَالَ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ مُصَدِّقًا يَكْفُمُ مِنْ اللَّهِ وَحُصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمَهُ النَّاسَ لَنْتُنْزِلَهُ آتِيًا إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكَرَ ذَكَكَ كَثِيرًا وَنَسِيحًا بِالْحَيْثُ وَالْإِنْبِشِ ﴿٤٠﴾﴾ .

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وإن كان شيخاً كبيراً قد ضعف ووَهَن منه العظم، واشتعل رأسه شيباً، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداءً خفياً، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَدَّعَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْيَحْرَابِ﴾ أي: خاطبته الملائكة شفهاً خطاباً أسمعت، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته، وصلاته. ثم أخبر عما بشرته به الملائكة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ طَيِّبٍ﴾، أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنما سُمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ روى العوفي وغيره عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم في هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى ابن مريم؛ قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم، وقال قتادة: وعلى سننه ومنهاجه. وقال ابن جرير: قال ابن عباس في

قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه بعيسى: تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى، عليه السلام، وهكذا قال السدي أيضاً. وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم المتقي، وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد في خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله، ﷺ.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ زُوي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، وعطية العوفي أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء. وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له. وقال الضحاك: هو الذي لا ولد له ولا ماء له. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس في الحُصُور: الذي لا ينزل الماء، وقد روى ابن أبي حاتم في هذا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادي، حدثني سعيد بن سليمان، حدثنا عبادة - يعني ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن ابن العاص - لا يدري عبد الله أو عمرو - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: ثم تناول شيئاً في الأرض فقال: «كان ذكره مثل هذا». ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، أنه سمع سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال: الحُصُور ما كان ذكره مثل ذي وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة. فهذا موقوف، وهو أقوى إسناداً من المرفوع، بل وفي صحة المرفوع نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿وَحَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوياً، أو لا ذكر له، بل قد أنكروا هذا خُذَاتُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله ﷻ، كيحيى عليه السلام. ثم هي حق من أقدّر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». هذا لفظه. والمقصود أن مدح يحيى بأنه حُصُور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإبلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿مَهَبٌ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عيسى بن حماد زُغْبَةَ ومحمد بن سلمة المرادي قال: حدثنا حجاج، عن سلمان بن القمري، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيداً وحضوراً ونبياً من الصالحين». ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: «كان ذكره مثل هذه القذاة».

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوته يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِذْ أَبْكَبَتْ وَأَجْلَسَتْ وَتَوَلَّىٰ وَجْهَهُ﴾ [النصر: 7] فلما تحققت زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ يَكُونُ لِي عَلِيمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرًا إِذْ عَاقَرْتُ قَالَ﴾ أي الملك: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ مَا آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا﴾ أي: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَإِن يَنْكِرُ﴾ وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمَلَائِكَةِ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا أَنتِ ابْنُكِ وَاسْمُكِ أَذْكُكِ مَعَ الْوَالِدَاتِ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَفْلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاهَا، أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرافها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاهَا ثانياً مرة بعد مرة لجلالتهَا على نساء العالمين. قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَهَا عَلَيْهِ سَائِرَ الْعَالَمِينَ﴾. قال: كان أبو هريرة يُحدث عن رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءِ رُكْبَنِ الْإِبِلِ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَأُ عَلَىٰ وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَزْعَأُ عَلَىٰ زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدَيْهِ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ». لم يخرجوه من هذا الوجه، سوى مسلم فإنه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حَمِيد، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقال هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ هِشَامٍ، بِهِ مِثْلُهُ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ زَنْجُوْنِهِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرُ، عَنْ قَتَادَةَ؛ عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» تفرد به الترمذي وصححه. وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه قال: كان ثابت البُنَّانِي يحدث عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». رواه ابن مردويه. وروى ابن مردويه من طريق شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا آدم العسقلاني، حدثنا شُعْبَةُ، حدثنا عمرو بن مَرْة، سمعت مَرْة الهَمْدَانِي بحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ». وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به، ولفظ البخاري: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى ابن مريم، عليها السلام، في كتابنا: «اللبداية والنهاية» والله الحمد والمنة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العباد والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدُّوْب في العمل لها، لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعته في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولدًا من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَىٰ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكْبَانِ﴾ (١٣). أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿بَلِّغْ لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْزِمِ لَهُمُ الْقُرْآنَ وَالْغَمَامَ﴾ (١١٦). وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن ذَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يَذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ». ورواه ابن جرير من حديث ابن لهيعة، عن ذَرَّاجٍ، به، وفيه نكارة. وقال مجاهد: كانت مريم، عليها السلام، تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو: طول الركود في الصلاة، يعني امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَىٰ لِرَبِّكَ﴾. بل قال الحسن: يعني اعبدني لربك ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكْبَانِ﴾ أي: كوني منهم. وقال الأوزاعي: ركذت في محرابها راکعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها، رضي الله عنها. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكُدَيْمِي - وفيه مقال - : حدثنا علي بن بحر بن بُرَيْ، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَىٰ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي﴾ قال: سَجَدَتْ حتى نزل الماء الأصفر في عينيها. وذكر ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا ضَمْرَةَ، عن ابن شوذب قال: كانت مريم، عليها السلام، تغتسل في كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله عليه أفضل الصلوات والسلام بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمُ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فتُخْبِرهم عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرًا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقتصروا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر. قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ، عن القاسم بن أبي بَرَّة، أنه أخبره عن عكرمة - وأبي بكر، عن عكرمة - قال: ثم حَرَجَتْ بها - يعني أم مريم بمريم - تحملها في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى، عليهما السلام - قال: وهم يومئذ يولون في بيت المقدس ما يلي الحَجَبَةَ من الكعبة - فقالت لهم: ذونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي؟ فقالوا:

هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا فقال زكريا: ادفعوها إلي: فإن خالتيها تحتي. فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، ففَرَعَهُمْ زكريا، فكفلها. وقد ذكر عكرمة أيضاً، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد - دخل حديث بعضهم في بعض - أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فيه فأبهم ثبت في جزية الماء فهو كالفها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء، إلا قلم زكريا فإنه ثبت. ويقال: إنه ذهب صُعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبیهم صلوات الله وسلامه عليه وسائر النبيين والمرسلين.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ لَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَسْمُهُ الَّتِي سَمِعُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمَقْرَبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْغَيْبِ وَكَلِمَاتٍ لَمْ يَكُنْ لِي وَلَدٌ وَلَوْ يَسْتَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ لَكَلِمَةٌ مِنْهُ﴾ أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿أَسْمُهُ الَّتِي سَمِعُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أخصص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالى. وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمَقْرَبِينَ﴾ أي: له وجهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم. وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْغَيْبِ وَكَلِمَاتٍ﴾ أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ الْغَيْبِ﴾ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن محمد بن شرحبيل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَا تَكَلَّمْتُ مَوْلُودٍ فِي صَغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبَ جُرْنِجٍ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة، حدثنا الحسين - يعني المروزي - حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن محمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرْنِجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرٌ﴾. فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، ﷻ قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي وَكَلْدٌ وَلَوْ يَسْتَسْنِي بَشَرٌ﴾ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغيا؟ حاشا لله. فقال لها الملك - عن الله، ﷻ في جواب هذا السؤال -: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء. وصرح ههنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥١﴾﴾ [الفرع: ٥٠]، أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مشوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كالمح بالبصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالنُّزُونَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٦﴾ وَرَسُولًا إِنْ بَقِيَ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدَّ وَجْهَهُ مِنَ النُّزُونَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٧﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ النُّزُونَ وَالْإِنجِيلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥١﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى - مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنتها عيسى، عليه السلام - أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ﴾ الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة. والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة. و ﴿النُّزُونَ وَالْإِنجِيلَ﴾، فالتوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذي أنزله الله على عيسى عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا. وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِنْ بَقِيَ إِسْرَائِيلَ﴾ أي: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ أَلْقَىٰ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ طَائِرًا فِيهِ فَكُونُوا طَائِرًا لِذِي اللَّهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله، ﷻ الذي جعل هذا معجزة يدل على أن الله أرسله. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً. وقيل بالعكس: وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذي يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه

أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ معروف. ﴿وَأَمَّا الْمَوْثِقُ يَا ذَنبِ اللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بهزت الأبصار وحيرت كل سخّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى، عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمة، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، ﷻ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذلك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرُسُونَ فِي يَوْمِكُمْ﴾ أي: أخيركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغداه ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في ذلك كله ﴿لَايَةً لَكُمْ﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مقرر لها ومثبت ﴿وَلَا جِدْلَ لَكُمْ بِعَصِ الْأَنْبِيَاءِ حُرْمٍ عَلَيْكُمْ﴾، فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَنْبَغُ لَكُمْ بِعَصِ الْأَنْبِيَاءِ حُرْمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم. ثم قال: ﴿وَيَسْتَكْفِرُ بِنَيْبَتِي مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِذَ اللَّهُ رَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْ أَنْصَارِهِ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ عَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ أَمَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُبُلَكُمْ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا مَا آتَيْنَاكَ بِمَا أَنْزَلْتَ وَأَتَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَأَكْتَبْنَا مَعَ الْكُفَّيرِ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمُكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟ وقال سفيان الثوري وغيره: من أنصاري مع الله؟ وقول مجاهد أقرب. والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي عَلَى أَنْ أُبْلِغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنْ فُرِّشْنَا قَدْ مَثَوْنِي أَنْ أُبْلِغَ كَلَامَ رَبِّي» حتى وجد الأنصار فأوروه ونصروه، وهاجر إليهم فأسوه، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَالكُفَّيرِ عَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ أَمَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُبُلَكُمْ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا مَا آتَيْنَاكَ بِمَا أَنْزَلْتَ وَأَتَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَأَكْتَبْنَا مَعَ الْكُفَّيرِ ﴿٥٣﴾﴾ الحواريون، قيل: كانوا قضاة وقيل: سماوا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِييَ الزُّبَيْرِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الْكُفَّيرِ﴾، قال مع أمة محمد ﷺ. وهذا إسناد جيد. ثم قال تعالى مخبراً عن ملا بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى، عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا عليه ووسوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، فأتوها إليه أن ههنا رجلاً يضل الناس ويصددهم عن طاعة الملك، ويؤندب الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويكفل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعهم من رزونة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعهم من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبيتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمُكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِذَ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ إِنِّي مَوَدُّكَ وَرَأَيْتُكَ إِذَ وَمَطَّلَهُكَ مِنْ أَلْيَيْنَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُكَ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مَرِيضٌ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلُفُونَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْلَمْتُمْ عَذَابًا سَكِينًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُغِيثُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْمَكِينِ ﴿٥٨﴾﴾.

اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: ميمتك. وقال محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وهب بن مئنه، قال: توفاه الله ثلاث ساعات من النهار حين رفعه الله إليه. قال ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه. وقال إسحاق بن بشر، عن إدريس، عن وهب: أماته الله ثلاثة أيام، ثم بعثه، ثم رفعه. وقال مطر الوراق: متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جريج: توفيه هو رفعه. وقال الأكترون: المراد بالوفاة ههنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَابِعِهَا فِيمَتِكُمُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَجَ إِلَيْكَ لِأَجْلِ تُسْمِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول: - إذا قام من النوم -: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»، وقال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وُقُوفِهِمْ عَلَىٰ مَرْبِعِهِمْ نَبِّئْنَا عِظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَاتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا قُلُوهُ يَفِيئَابَ رُفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا﴾ [١٥٨] وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَهِيًا﴾ [١٥٩] - والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائذ على عيسى، عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، حدثنا الربيع بن أنس، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وقوله تعالى: ﴿وَتَطَهَّرَكُم مِّنَ الذَّرِّينَ كَفَرُوا﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء ﴿وَيَجْعَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شعباً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، وزد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم تبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة الملكية منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا. ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قصر، وسلبوها كئوزهما، وأنفتحت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، ﷻ في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن مَّوَدِّعِهِمْ أُمَّةً﴾ [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنین بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيزون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزء مفرداً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [١٦١]، وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى؛ عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

من واقب ﴿الرعد: ٣٤﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَوَقَّيْهِمْ أَجْرَهُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العليات ﴿وَاللَّهُ لَا يُغِيْبُ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) أي: هذا الذي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، فَلَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤) مَا كَانَ لَوَلَاءُ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ وَلَدِهِ سَبْعَةً إِذَا فَتَّحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥) ﴿مريم: ٣٤، ٣٥﴾ وههنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدِّ مَا جَاءَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَقُلْ تَمَّالُوا نِعْمَ آيَاتُنَا وَآيَاتُكُمُ الْوَسْءَاءُ وَالنَّسَاءُ وَأَنْفُسُكُمْ فَمَنْ نَبْتَلُ فَتَنْجَسْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَيْسَ اللَّهُ لَهُوَ الْمُزَيَّرُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُنِيدِينَ﴾ (٦٣).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب، فجاوز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. ولكن الرب، ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقها، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (مريم: ٢١)، وقال ههنا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى - أمرأ رسول الله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَائِدَ الْحَقِّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظَهْوَرِ الْبَيَانِ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدِّ مَا جَاءَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَقُلْ تَمَّالُوا نِعْمَ آيَاتُنَا وَآيَاتُكُمُ الْوَسْءَاءُ وَالنَّسَاءُ وَأَنْفُسُكُمْ﴾ أي: نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَلُ فَتَنْجَسْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ أي: نلتعن ﴿فَتَنْجَسْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾، أي: منا أو منكم. وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصراري حين قدموا فاجعلوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعَمُونَ فِيهِ مَا يَزْعَمُونَ مِنَ الْبِنُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ وَغَيْرِهِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهِ: وَقَدَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتُونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُوِّوِلُّونَ إِلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ، وَهُمْ: الْعَاقِبُ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ، وَهُوَ الْأَيْهَمُ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنِ عُلْقَمَةَ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ، وَأُرَيْسُ الْحَارِثِ، وَزَيْدٌ، وَقَيْسٌ، وَيَزِيدٌ، وَنَبِيهٌ، وَخُوَيْلِدٌ، وَغَمْرُو، وَخَالِدٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَبُحَيْشٌ. وَأَمْرُهُ هُوَ الَّذِي يُوِّوِلُّونَ إِلَى ثَلَاثَةِ مِنْهُمْ، وَهُمْ: الْعَاقِبُ وَكَانَ أَمِيرَ الْقَوْمِ وَذَا رَأْيِهِمْ وَصَاحِبَ مَشُورَتِهِمْ، وَالَّذِي لَا يَصْدُرُونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ، وَالسَّيِّدُ وَكَانَ عَالِمَهُمْ وَصَاحِبَ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمِعَهُمْ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنِ عُلْقَمَةَ وَكَانَ أَسْفَفَهُمْ وَخَيْرَهُمْ وَإِمَامَهُمْ وَصَاحِبَ مَدْرَاسِهِمْ، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ، وَلَكِنَّهُ تَنْصُرُ، فَعَظَمَتِ الرُّومُ وَمَلُوكُهَا وَشُرَفُوهَا، وَبَنُو آلِهِ الْكِنَانِسُ وَمَوْلُوهُ وَأَخْدَمُوهُ، لَمَّا يَعْلَمُونَهُ مِنْ صِلَابَتِهِ فِي دِينِهِمْ. وَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَأْنَهُ وَصِفَتَهُ بِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ جَيِّدًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَهُ جِهْلُهُ عَلَى الْاِسْتِمْرَارِ فِي النِّصْرَانِيَّةِ لَمَّا يَرَى مِنْ تَعْظِيمِهِ فِيهَا وَوَجَاهَتِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزَّيْبَرِ، قَالَ: قَدِيمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحَبْرَاتِ: حُبَّبٌ وَأَزْدِيَّةٌ، فِي جَمَالِ رَجَالِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. قَالَ: يَقُولُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا بَعْدَهُمْ وَفَدًّا مِثْلَهُمْ. وَقَدْ حَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَصَلُّونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهُمْ، فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ. قَالَ: فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو حَارِثَةَ بْنَ عُلْقَمَةَ، وَالْعَاقِبُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، أَوْ السَّيِّدُ الْأَيْهَمُ، وَهُمْ مِنَ النِّصْرَانِيَّةِ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ، مَعَ اخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ، يَقُولُونَ: هُوَ اللَّهُ، وَيَقُولُونَ: هُوَ وَلَدُ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَكَذَلِكَ قَوْلُ النِّصْرَانِيَّةِ، فَهَمَّ يَحْتَجُونَ فِي قَوْلِهِمْ: «هُوَ اللَّهُ» بِأَنَّهُ كَانَ يَحْيِي الْمَوْتَى، وَيُبْرِئُ الْأَسْقَامَ، وَيَخْبِرُ بِالْغَيْبِ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، ثُمَّ يَنْفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا. وَذَلِكَ كُلُّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِيَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ. وَيَحْتَجُونَ فِي قَوْلِهِمْ بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَعْلَمُ، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ بِشَيْءٍ لَمْ يَصْنَعْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُ. وَيَحْتَجُونَ فِي قَوْلِهِمْ بِأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلْنَا، وَأَمْرَنَا، وَخَلَقْنَا، وَقَضَيْنَا؛ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ وَاحِدًا مَا قَالَ إِلَّا فَعَلْتُ وَقَضَيْتُ وَأَمْرْتُ وَخَلَقْتُ؛ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَعِيسَى وَمَرْيَمُ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ قَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ.

فلما كلمه الخبران قال لهما رسول الله ﷺ: «أسليماً» قالوا: قد أسلمنا. قال: «إِنَّكُمْ لَمْ تُسَلِّمُوا فاسلموا» قالوا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «كَذَّبْتُمَا، يَمْتَنِعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاؤُكُمَا لله ولدا، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبِ وَأَكْلُكُمَا الْخَنزِيرِ» قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فَصَمَّتْ رسول الله ﷺ عنهما فلم يجيبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم، صَدَرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. ثم تكلم ابن إسحاق على التفسير إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبير من الله، والفَضْل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن زدوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا نَظَرَ فِي أَمْرِنَا، ثم نأتيك بما نريد أن نعمل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب، وكان ذارأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيِّ مَرسل، ولقد جاءكم بالفَضْل من خَبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا لف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رَضًا. قال محمد بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّتُونِي الْعَشِيَّةَ ابعت معكم القوي الأمين»، فكان عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قط حَتَّى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُحْتُ إلى الظهر مُهَجَّرًا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلَّم، ثم نَظَرَ عن يمينه وعن يساره، فجعلت أطاول له ليراني، فلم يَزَلْ يلمتس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه: «أَخْرُجْ معهم، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ يَمِينًا اخْتَلَفُوا فِيهِ». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة، رضي الله عنه. وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خَدِيج: أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه، إلا أنه قال في الأشراف: كانوا اثني عشر. وذكر بقيته بأطول من هذا السياق، وزيادات أخر. وقال البخاري: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زُفَر، عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالوا: إنا نعطيك ما سألنا، وابتعت معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: «لَا تَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا آمِينًا، حَقَّ آمِينٍ»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «فَمَنْ يَا أبا عبيدة بَنَ الْجَرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا آمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ». ورواه البخاري أيضاً، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من طرق عن أبي إسحاق السبيعي، عن صِلَةَ، عن حذيفة، بنحوه. وقد رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ عن ابن مسعود، بنحوه. وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن خالد، عن أبي قلابه، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لِلكل أُمَّةٌ آمِينٌ وَآمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَبُو عبيدة بَنُ الْجَرَّاحِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرُّزِّيُّ أبو يزيد، حدثنا قُرَات، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، عن عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمثوا الموت لमतوا وأرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً». وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم، به. وقال الترمذي. حديث حسن صحيح. وقد روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة، وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام، قال البيهقي:

حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالوا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده - قال يونس: وكان نصرانياً فأسلم -: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: «بِاسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدِ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى أَسْقَفِ نَجْرَانَ وَأَهْلِ نَجْرَانَ سَلِّمُ أَنْتُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وِلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وِلَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنِ ابْتَيْتُمْ فَالْجَزِيَّةَ، فَإِنِ ابْتَيْتُمْ أَدْنَتْكُمْ بِحَرْبٍ وَالسَّلَامَ». فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فظن به، وذعره ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له. شَرْحِبِيلَ بن وداعة - وكان من همدان ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت مُغضلة قلبه، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب - فدفعت الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شَرْحِبِيلَ، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من

أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي، وجهدت لك، فقال له الأسقف: تتع فاجلس. فتتخى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حنير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: فاجلس، فتتخى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه؟ فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتتخى فجلس ناحية. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، وزُفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله - وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن ذاعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبجي، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا خللاً لهم يجرونها من حبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم، وتصدوا لكلامه نهراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهم، فوجدهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناها فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهراً طويلاً فأعيناً أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب - وهو في القوم -: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا خللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه. ففعلوا فسلموا، فرد سلامهم، ثم قال: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمَرَّةَ الْأُولَى، وَإِنْ إِيَّائِي لَمَعَهُمْ» ثم سألهم وسألوهم، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى، فإننا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ قال رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يَوْمِي هَذَا، فَأَيُّشُوا حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بِمَا يَقُولُ لِي رَبِّي فِي عَيْسَى». فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَعَلَّ قَالًا لَوِ كَفَرْنَا وَوَيْسَاءُ مَا وَجَدْنَاهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ بَدِيحٍ وَإِنِّي لَأَكْفُرُ بِاللَّذِينَ اتَّخَذُوا لِقَاءِ إِيضَاهُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بَدَائِلًا وَأَشْيَاءَ كُفْرًا وَسَاءَ مَا اتَّخَذُوا لِشِرَارِهِمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَسْفَاهُ مَا اتَّخَذُوا لِلْبِرِّ مَوَازِينًا ﴿٦١﴾﴾، فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتتلاً على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعة، وله يومئذ عدة نوسة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً قبيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً، فكنا أول العرب طعن في عينيه ورد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان الرجل نبياً مرسلًا فلا عناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك. فقال له صاحبه: يا أبا مريم، فما الرأي؟ فقال: أرى أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً. فقالا له: أنت وذاك. قال: فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال له: إني قد رأيت خيراً من ملاعتك. فقال: «وما هو؟» فقال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ وَرَاءَكَ أَحَدًا يَثْرِبُ عَلَيْكَ؟» فقال شرحبيل: سل صاحبي. فسألها فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأيي شرحبيل. فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ رَسُولُ اللَّهِ لِتَنْجِرَانَ - إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمٌ - فِي كُلِّ ثَمْرَةٍ وَكُلِّ صَفْرَاءٍ وَيَبْضَاءٍ وَسَوْدَاءٍ وَرَبِيعِي فَاضِلٍ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ لَهُمْ، عَلَىٰ أَلْفِي حُلَّةٍ، فِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ، وَفِي كُلِّ صَفْرِ أَلْفُ حُلَّةٍ» وذكر تمام الشروط وبقية السياق.

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع؛ لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَذَلُّوا أَلَدِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا بشر بن مهرا، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعة فواعدها على أن يلاعها الغداة. قال: فغددا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما قاتياً أن يجيئا،

واقراً بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ قَالَ: لَا، لَأَمَطَرْتُ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَاراً» قال جابر: فيهم نزلت ﴿نَدَعُ آبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. قال جابر: «وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ»: رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب «أَبْنَاءَنَا»: الحسن والحسين «وَنِسَاءَنَا»: فاطمة. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، عن علي بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهري، عن علي بن حنجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. هكذا قال وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن المغيرة، عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح، وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا تغدل عنه ولا محيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأَمْثَلُ﴾ أي: عن هذا إلى غيره ﴿وَإِلَى اللَّهِ عِوَابُ الْمُنْفِيذِينَ﴾ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء، سبحانه ويحمده، ونعوذ به من حلول تقمه.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هبنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثناً، ولا صنماً، ولا صليباً ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً. بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَتَّبِعُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ١٢٦]. ثم قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جرير: يعني: يطبع بعضنا بعضاً في معصية الله. وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعض. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وقد ذكرنا في شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مشركاً لم يسلم بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مفسر به في الحديث، ولأنه لما قال: هل يغير؟ قال: فقلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه. والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهُدَى. أَمَا بَعْدُ، فَأَسَلِمُ تَسَلَّمَ، وَأَسَلِمُ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بدل الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب من وجوه: أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصلحة عن المباهاة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والأربعة الأحماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك. الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَيِّئَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُمَا خَيْرًا مِنْكَ﴾ [الآية [التحریم: ٢٥].

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَعَارَفْتُمْ فِي إِذِهِمْ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوِهِ أَلَّا تَعْلَمُوا ۗ﴾ ﴿٦٥﴾ هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءِ حَنْجَرًا فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُعَارَفُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِذِهِمْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَيْبًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِذِهِمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ .

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَعَارَفْتُمْ فِي إِذِهِمْ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوِهِ أَلَّا تَعْلَمُوا ۗ﴾ ﴿٦٥﴾ . أي: كيف تدعون، أيها اليهود، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا ۗ﴾ .

ثم قال: ﴿هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءِ حَنْجَرًا فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُعَارَفُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۗ﴾ ﴿٦٦﴾ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برذ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَسْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۗ﴾ . ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِذِهِمْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَيْبًا مُسْلِمًا ۗ﴾ أي: متحنفاً عن الشرك قَصْدًا إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۗ﴾ . وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۗ﴾ ﴿البقرة: ١٣٥﴾ . ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِذِهِمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ ﴿٦٧﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي - يعني محمداً ﷺ - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم. قال سعيد بن منصور: أخبرنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وِلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وِلَايَةَ مِنهُنَّ أَبِي وَخَلِيلَ رَبِّي ﷺ﴾ . ثم قرأ: ﴿إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِذِهِمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ ﴿٦٨﴾ . وقد رواه الترمذي والبخاري من حديث أبي أحمد الزبيري، عن سفیان الثوري، عن أبيه، به، ثم قال البخاري: رواه غير أبي أحمد، عن سفیان، عن أبيه، عن أبي الضحى، عن عبد الله، ولم يذكر مسروقاً. وكذا رواه الترمذي من طريق وكيع، عن سفیان، ثم قال: وهذا أصح. لكن رواه وكيع في تفسيره فقال: حدثنا سفیان، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ أي: ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿وَدَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۗ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَعَارَفْتُمْ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلِيْسُونَ الْعَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُونَ الْعَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَيُّهَا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَعَلْنَا نَهَارَ ءَاخِرُهُمْ لَمَلَكُهُمْ يَوْمَهُمْ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبِتَكْفُرٍ إِنَّ أَهْلَكُم مَّهْدَى اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّقَهُ أَحَدٌ يَنْقُلُ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُجَازِكُمْ بِعَذَابِكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْفَضُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ويغيب إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم مذكور بهم. ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَعَارَفْتُمْ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۗ﴾ ﴿٦٩﴾ أي: تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلِيْسُونَ الْعَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُونَ الْعَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ﴾ ﴿٧٠﴾ أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه. ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَيُّهَا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَعَلْنَا نَهَارَ ءَاخِرُهُمْ لَمَلَكُهُمْ يَوْمَهُمْ﴾ ﴿٧٢﴾ هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رذهم إلى دينهم اطلأهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَمَلَكُهُمْ يَوْمَهُمْ﴾ . قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، في قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية: يعني يهود، صلّت مع النبي ﷺ صلاة الفجر وكفروا آخر النهار، مكرأ منهم، ليزوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة، بعد أن كانوا اتبعوه. وقال العوفي، عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلواتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا. وهكذا روي عن قتادة والسدي والربيع وأبي مالك. وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تطمئنوا وتظهروا سرهم وما عندكم إلا لمن

اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُمْ هُدَىٰ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ شَيْءٌ يَأْتُوا بِهِ فَإِذَا حَرَّمُوا عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ مَا أَحْبَبُوا لَمْ يُنَالُوا فِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وهو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كنتم - أيها اليهود - ما بأيديكم من صفة محمد في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَهُ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ بِمِثْلِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله، أي: يتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَظَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويعمي بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة. ﴿وَاللَّهُ وَبِيعَ عَلَيْكُمْ نِعْمَتَ رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يحُد ولا يُوصَف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَيَتَّخِذُ بِهِ دِينَارًا لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَقْرَبَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُكْفِرِينَ﴾ (٧٦).

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنون من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ أي: من المال ﴿يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَيَتَّخِذُ بِهِ دِينَارًا لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه. وقد تقدّم الكلام على القنطار في أول السورة، وأما الدينار فمعروف. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ، عن زياد بن الهيثم، حدثني مالك بن دينار قال: إنما سمي الدينار لأنه دين وثار، وقال: معناه: أنه من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار. ومناسب أن يكون ههنا الحديث الذي علقه البخاري في غير موضع من صحيحه، ومن أحسنها سياقه في كتاب الكفالة حيث قال: وقال الليث: حدثني جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَذَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَىٰ أَجْلِ مُسَمًى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَفَضَىٰ حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجْلِ الَّذِي أَجَلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَتَقَرَّهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَجَعَ مُوضِعَهَا، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسَلَفْتُ فَلَانَا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلْتَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِي بِكَ. وَسَأَلْتَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. فَرَضِي بِكَ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثَ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي اسْتَوَدَعْتُهَا. فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَىٰ بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ اسْتَلَفَهُ نَظَرَ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتُ بَعَثَ إِلَيْ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّىٰ عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتُ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا. هكذا رواه البخاري في موضعه معلقًا بصيغة الجزم، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه. ورواه الإمام أحمد في مسنده هكذا مطولاً، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث به. ورواه البزار في مسنده، عن الحسن بن مُذْرِك، عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، ثم قال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وكذا قال، وهو خطأ، لما تقدم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ﴾ أي: إننا حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمتين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وقد اختلفوا هذه المقالة، وانتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهت. قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أبي صَغَصَمَةَ بن يزيد؛ أن رجلاً سأل ابن عباس، قال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاج والشاة؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. وكذا رواه الثوري، عن أبي

إسحاق بنحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا يعقوب، حدثنا جعفر، عن سعيد بن جبيرة قال: لما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: «كَذَّبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي النَّجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ إِلَّا الْأَمَانَةَ، فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ».

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أي: لكن من أوفى بعهدكم منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأمهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى واتبع طاعته وشيئته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا يَخْلُقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: إن الذين يعترضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الأثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَئِكَ لَا يَخْلُقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: برحمة منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُرْكَبُهُمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شعبة قال: علي بن مذكّر أخبرني قال: سمعت أبا رزعة، عن خزيمة بن الحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاد رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «السُّبُلِ، وَالْمُنْتَفِقِ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَانِ». ورواه مسلم، وأهل السنن، من حديث شعبة، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجريري، عن أبي العلاء بن الشخير، عن أبي الأحسن قال: لقيت أبا ذر، فقلت له: بلغني عنك أنك تحدث حديثاً عن رسول الله ﷺ. فقال: أما إنه لا تخالني أكذب على رسول الله ﷺ بعدما سمعته منه، فما الذي بلغك عني؟ قلت: بلغني أنك تقول: ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يشنؤهم الله. قال: قلته وسمعته. قلت: فمن هؤلاء الذين يحبهم الله؟ قال: الرجل يلقي العدو في فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه. والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يجوبوا أن يمسا الأرض فينزولون، فيتحنى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم. والرجل يكون له الجار يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن. قلت: ومن هؤلاء الذين يشنأ الله؟ قال: التاجر الحلاف - أو: البائع الحلاف - والفقير المختال، والبخيل المنان. غريب من هذا الوجه.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن جرير بن حازم قال: حدثنا عدي بن عدي، أخبرني رجاء بن حيوة والغزس بن عميرة عن أبيه عدي - هو ابن عميرة الكندي - قال: خاصم رجل من كندة يقال له: امرؤ القيس بن عابس رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، ففرض على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، ففرض على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهب ورب الكعبة أرضي. فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لِقِيَّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أنني قد تركتها له كلها. ورواه النسائي من حديث عدي بن عدي، به.

الحديث الثالث: قال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لِقِيَّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ». فقال الأشعث: فبي والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجددني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «أَلَمْ يَبُتْ؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «اخلف» فقلت: يا رسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. أخرجه من حديث الأعمش.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن شقيق بن سلمة، حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بغيرِ حَقِّ لِقِيَّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قال:

فجاء الأشعث بن قيس فقال: ما يُحدِّثكم أبو عبد الرحمن؟ فحدثناه، فقال: فني كان هذا الحديث، خاصمتُ ابن عمِّ لي إلى رسول الله ﷺ في بئر لي كانت في يده، فجددني، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ افْتَطَعَ مَالَ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّ لِقَايِ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ» قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا تَخْلُقُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُصَلِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾».

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن عَمَّان، حدثنا رشدين عن زَبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَا يَكْتُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» قيل: ومن أولئك يا رسول الله؟ قال: «مُتَّبِرِيٌّ مِنْ وَالِدَيْهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا، وَمُتَّبِرِيٌّ مِنْ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرُوا بِنِعْمَتِهِمْ وَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ».

الحديث الخامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم، أنبأنا العوام - يعني ابن حَوْشَب - عن إبراهيم بن عبد الرحمن - يعني السُّكْسُكِي - عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ورواه البخاري، من غير وجه، عن العوام.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَتَّعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضَّلَ مَاءَهُ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ - يعني كاذباً - وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَغْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُغْطِهِ لَمْ يَبْ لَهُ». ورواه أبو داود، والترمذي، من حديث وكيع. وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضعه وَيُبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ، ويزيلونه عن المراد به، ليؤهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد، والشعبي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿يَلُونُ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه. وهكذا روى البخاري عن ابن عباس: أنهم يحرفون ويزيدون. وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله. وقال وهب بن مُثَنَّب: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يُضَلِّفُونَ بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فاما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول. رواه ابن أبي حاتم، فإن عَنَى وَهَبَ ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية فيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، وهم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب، وفهم كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد. وأما إن عَنَى كَتَبَ اللهُ التي هي كتبه عنده، فنقل كما قال محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمِينَ إِمَّا كُنْتُمْ تُخْلِفُونَ الْكِتَابَ وَإِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ولا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّحِيَّةِ وَاللَّيْلِينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس، قال: قال أبو رافع القرظي، حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذلك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «مَعَادُ اللَّهِ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ تَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعْثِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمْرِي». أو كما قال ﷺ، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. فقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا للمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يتعبدون لأحبارهم

ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَكُذَرُوا أَجْرَهُمْ وَذَمُّهُمْ أَزْيَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أَسْرَرُوا إِلَّا يَعْجُدُوا لَهَا وَاجِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٣١] وفي المسند، والترمذي - كما سيأتي - أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فأتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». فالجهلة من الأحرار والرهبان ومشايخ الصلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرهم بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يتفوتهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق. وقوله: ﴿وَلَكِن كُفُّوا رُءُوسَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ بِتَلْمِذِهِمْ أَن كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ﴾ أي: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا رؤسائين. قال ابن عباس وأبو زرير وغير واحد، أي: حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا زوي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، وعطية العوفي، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة وأهل تقوى. وقال الضحاك في قوله: ﴿يَا كُنْتُمْ تَلْمِزُونَ أَلَكُتَّبَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً: ﴿تَلْمِزُونَ﴾ أي: تفهمون معناه. وقرئ: ﴿تَلْمِزُونَ﴾ بالنشديد من التعليم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون ألفاظه. ثم قال: ﴿وَلَا يَأْتِرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْكَلْبَةَ وَالشِّتَّانَ أَرْبَابًا﴾ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيُّامِكُمْ بِالْكَفْرِ بَدَأَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرهم بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاتِ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلًا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهُهُ يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنْ عَجْرِبُوهُ فَهَتَّكَ كَذَلِكَ تَجْرِي السَّمَاوَاتُ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ حَتِّبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَآخِذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٨٣﴾﴾. يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمّن به ولينصرته، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ حَتِّبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: لهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَآخِذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾. وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحاق: ﴿إِصْرِي﴾ أي: نقل ما حملتم من عهدي، أي: ميثاقي الشديد المؤكد. ﴿قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرننه. وقال طاووس، والحسن البصري، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً. وهذا لا يضاد ما قاله عليّ وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقضيه. ولهذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قُرَيْظَةَ، فكتب لي جَوَامِيعَ مِنَ التَّوْرَةِ، ألا عرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجه رسول الله ﷺ - قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسلاً - قال: فسرتني عن رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده لو أضحج فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتنم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر: حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بإطال وإما أن تكذبوا بحقي، وإنه - والله - لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني». وفي بعض الأحاديث له: «لو كان موسى وعيسى

خَبِيرٍ لَمَا وَسِعَهُمَا إِلَّا آتَابِعِي». فالرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيح في يوم الحشر في إتيان الرب لفضل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به.

﴿أَنْزَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحَدِيثَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ﴾ [٨٣] ﴿قُلْ ءَأَمَّا بِيَدِ اللَّهِ مَا آتَى الْبَشَرَ لَنْ نَجْعَلَ لِكُلِّ فِتْنَةٍ كِتَابًا وَلَا نَرْسِلُ مِنْ دُونِ رَسُولِنَا مُبَشِّرًا وَلَا نَذِيرًا وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى رُسُلِنَا إِلَّا الْقُرْآنَ وَهُوَ الْحَكْمُ وَالرَّحْمَةُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٨٤] ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَذْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْغَنِيِّينَ﴾ [٨٥].

يقول تعالى منكرأ على من أراد ديناً سوى دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسوله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذي ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا بِالْقُدْرَةِ وَالْأَمَلِ﴾ [١٥] ﴿[الرعد: ١٥]﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَتَفَكَّهُونَ أَجْزَأُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ لَا يَخْفُونَ﴾ [١٨] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٩] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَقْبَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٥٩] ﴿[الحل: ٤٨ - ٥٠]﴾ فالؤمن مستسلم بقلبه وقاله لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والفهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية، على معنى آخر فيه غرابة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن النضر العسكري، حدثنا سعيد بن حفص الثَّقَلِي، حدثنا محمد بن مَخْضَن العكاشي، حدثنا الأزاعي، عن عطية بن أبي رباح، عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: «أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمَنْ وُلِدَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وأما كرهاً فمَنْ أتَى بِهِ مِنْ سَبَائِلِ الْأُمَّمِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَهُمْ كَارِهُونَ». وقد ورد في الصحيح: «عَجِبْتُ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ». وسيأتي له شاهد من وجه آخر، ولكن المعنى الأول للآية أقوى. وقد قال وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقولهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. وقال أيضاً: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: حين أخذ الميثاق.

﴿وَإِلَيْهِ رُجُوعٌ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازي كلاً بعمله. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَّا بِيَدِ اللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ يعني: القرآن: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَنْبِيَاءَ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الثاني عشر. ﴿وَمَا أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى﴾ يعني بذلك: التوراة والإنجيل ﴿وَالْإِنجِيلَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: بل نؤمن بجمعهم ﴿وَتَعَنَّ لَهُمْ مَسْلُومُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقُونَ بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَذْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْغَنِيِّينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، حدثنا أبو هريرة، إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخَذْتُ مِنْكَ وَأَعْطَيْتَنِي، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَذْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْغَنِيِّينَ﴾ [٨٥]. تفرد به أحمد. قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٦] ﴿أَوَلَيْتَ كَيْفَ جَزَأْتَهُمْ أَنْ عَلَّمَهُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكَاتِبِينَ الْأَمْثُونَ﴾ [٨٧] ﴿خَلْقِينَ مِنْهَا لَا يُحْفَتُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [٨٨] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَلَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٨٩].

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع البصري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن

ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩). وهكذا رواه النسائي، وابن حبان، والحاكم، من طريق داود بن أبي هند، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا حُميد الأعرج، عن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٠)، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه. فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العمياء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم أَن عَابَهُمُ لَفْسَكُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٩١) أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة ﴿لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٢) وهذا من لطفه وبره ورافته ورحمته وعائده على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّن نَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهٖ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٩٤).

يقول تعالى متوعداً ومتهذباً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أي: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ التَّوْبَةَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٨). ولهذا قال ههنا: ﴿لَن نَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق العي. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأسلموا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّن نَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ﴾. هكذا رواه، وإسناده جيد. ثم قال: ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهٖ﴾ أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدعان - وكان يَغْرِى الضيف، وَيُقْتَلُ العاني، وَيُعْطَمُ الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يَقُلْ يوماً مِنَ الدُّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ (البقرة: ١٧٣)، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ (إبراهيم: ٣١)، وقال: ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهٖ عَذَابٌ﴾ (المائدة: ٣٦)؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهٖ﴾ فعطف ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهٖ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقضي ذلك ألا يتخذ من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وثراياها ورمالها وسهلهما ووعرها وبرها وبحرها. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهٖ؟ قَالَ: قَيْقُولُ: نعم. قال: فيقول: قَدْ أَزَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ أَدَمَ الْأَشْرَكَ بِي شَيْئًا، فَأَيُّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ». وهكذا أخرجه: البخاري، ومسلم.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا زُوح، حدثنا حَمَّاد، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَيْقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنزِلَكَ؟ قَيْقُولُ: أَيُّ رَبِّ، خَيْرٌ مَنزِلٌ. قَيْقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ. قَيْقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تُرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مِرَازٍ - لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَيْقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنزِلَكَ؟ قَيْقُولُ: يَا رَبِّ، سَرٌّ مَنزِلٌ. قَيْقُولُ لَهُ: تَفْتَدِي مِنِّي بِطَلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ قَيْقُولُ: أَيُّ رَبِّ، نَعَمْ. قَيْقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْسَرَ قَلْمَ تَفْعَلُ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ». ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ

تَعْمِرِينَ ﴿٩٢﴾ أي: وما لهم من أحد يُنْقِذُهُمْ من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ نُفِيقُوا مِمَّا حُبِبْنَا وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ لَّانَّ اللَّهَ بِوَالِحِنَا عَلِيمٌ ﴿٩٣﴾﴾.

روى وكيع في تفسيره عن شريك، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون ﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ قال: البر الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أَحَبَّ أمواله إليه بَيْرَحَاءَ - وكانت مُسْتَقْبَلَةَ المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طَيِّبٌ - قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ نُفِيقُوا مِمَّا حُبِبْنَا﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ نُفِيقُوا مِمَّا حُبِبْنَا﴾ وإن أَحَبَّ أموالي إِلَيَّ بَيْرَحَاءَ وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فَصَغَعَهَا يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال النبي ﷺ: «بَيْحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ». فقال أبو طلحة: أَفَعَلَّ يا رسول الله. فَصَغَعَهَا أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. أخرجاه. وفي الصحيحين أن عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، لم أَصِبْ مالا قَطُّ هو أَنفُسٌ عندي من سهمي الذي هو بِخَيْبَرِ، فما تأمرني به؟ قال: «حَسْبُ الْأَضْلِ، وَسَبَلُ الثَّمَرَةِ». وقال المحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي عمرو بن حَمَّاسٍ عن حمزة بن عبد الله بن عُمَرَ، قال: قال عبد الله: حضرتني هذه الآية: ﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ نُفِيقُوا مِمَّا حُبِبْنَا﴾ فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئا أَحَبَّ إِلَيَّ من جارية رُومِيَّةَ، فقلت: هي حُرَّةٌ لوجه الله. فلو أَنَّى أعود في شيء جعلته الله لَنَكَحْتُهَا، يعني تزوجتها.

﴿كُلُّ الظَّالِمِ كَانَ جَلَدًا يَسِيًّا إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فَمَنْ أَفْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَدِّ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر قال: قال ابن عباس رضي الله عنه: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسالك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: «سألوني عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَغْفُوبٌ عَلَىٰ بَيْتِهِ لَيْتَنَ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ». قالوا: فذلك لك. قال: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وَليته من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه وقال: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَىٰ مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سَقْمُهُ، فَتَدَّرَ لِلَّهِ نَذْرًا لِيُنْ شَفَاءَ اللَّهِ مِنْ سَقْمِهِ لِيُحْرَمَنَّ أَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَىٰ مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْبَضُ غَلِيظٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَوِيْقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، إِنْ عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ». قالوا: نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَىٰ مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامَ عَيْنَاهُ وَلَا يَتَأَمَّ قَلْبُهُ». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْنَا». وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندنا نجامك أو نفارقك قال: «إِنَّ وَلِيَّيَ جِبْرِيْلَ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قالوا: فعندنا نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]. ورواه أحمد أيضاً، عن حسين بن محمد، عن عبد الحميد، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، نسالك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعتناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]. قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَتَأَمَّ قَلْبُهُ». قالوا: أخبرنا كيف تُوُتُّ الْمَرْأَةُ وكيف تُذَكَّرُ؟ قال: «يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءَ الْمَرْأَةِ أَثْنَتْ. قالوا: أخبرنا ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، قال: «كَانَ يَشْتَكِي عِزْقَ النَّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَاقِيهِ إِلَّا اللَّبَانَ كَذَا وَكَذَا - قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل - فَحَرَّمَ لِحُومَهَا». قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ - أو في يده - وَمُخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ». قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسْمَعُ؟ قال: «صَوْتُهُ». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة،

وهي التي تنابك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: ﴿جبريل عليه السلام﴾. قالوا: جبريل ذلك ينزل بالحزب والقتال والعذاب غدونا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبِيبِي فَإِنَّهُ تَزَلَّهُ عَن قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَرَكَ يَدَيْهِ وَهَدَىٰ لِأُمَّتِهِ وَمَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن الوليد العجلي، به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن جرير والعوفي، عن ابن عباس: كان إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - يعتره عزق النسا بالليل، وكان يقلقه ويُرْجعه عن النوم، ويُفْلَعُ الوَجْعُ عنه بالنهار، فنذر الله لئن عافاه الله لا يأكل عزقا ولا يأكل ولد ما له عزق. وهكذا قال الضحاك والسدي. كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره. قال: فأتبعه بثوه في تحريم ذلك استثناء به واقتداء بطريقه. قال: وقوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ تَزَلَّهُ التَّوْبَةُ﴾ أي: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان: إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغا في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَنْ نَسْأَلَكَ إِلَهًا حَتَّىٰ تَنْفِقُوا سِمًا يُحِبُّونَ﴾. فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبُّه العبد ويشتهي، كما قال: ﴿وَمَا آتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿وَيُطْمِئِنُّونَ الْكَلِمَةَ عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه. وظهر الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شرع في الرد على اليهود، فحبهم الله، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، ﷻ، قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لُحْمَان الإبل وألبانها، فاتبه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله، ﷻ، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك. وكان التَّسْرِيُّ على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حُرِّمَ مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حُرِّمَ ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذاك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصرط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ الْأَطْمَارِ كَانَ جَلًّا لِّسَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي: كان حلالاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حُرِّمَهُ إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ أَفْتَرَا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قَوْلُكَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آي: ١١٤] فمن كذب على الله وأدعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيَّناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿قَوْلُكَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن ﴿فَأَتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مزية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَدِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آي: ٩٦] فإذ كانت ملة إبراهيم ملة الله، فمن دنا من الله وحده، فلهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وضع مباركاً ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أذرت الصلاة فصل، فكلها مسجد». وأخرجه البخاري، ومسلم، من حديث الأعمش، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا

يُخْبِرُ تعالى أن أول بيت وضع للناس، أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجة. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وضع مباركاً ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أذرت الصلاة فصل، فكلها مسجد». وأخرجه البخاري، ومسلم، من حديث الأعمش، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا

سعيد بن سليمان، حدثنا شريك عن مُجالد، عن الشَّعْبِيِّ عن عليّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مَبْرُكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله تعالى. قال: وحدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأخوص، عن سماك، عن خالد بن زعرارة قال: قام رجل إلى عليّ فقال: ألا تُحدِّثني عن البيت: أهو أول بيت وُضِعَ في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت، وقد ذكرنا ذلك مُستقصى في سورة البقرة فأغتنى عن إعادته. وزعم السُّدِّيُّ أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً. والصحيح قول عليّ رضي الله عنه. فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في كتابه دلائل النبوة، من طريق ابن أبي عمير، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيْلَ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ، فَأَمَرَهُمَا بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَبَنَاهَا آدَمُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» فَهِنَّ كَمَا تَرَى مِنْ مُفْرَدَاتِ ابْنِ أَبِي لَهْيَعَةَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَالْأَشْبَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَكُونَ هَذَا مَوْقُوفًا عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو. وَيَكُونُ مِنَ الرَّامِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَصَابَهُمَا يَوْمَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ، مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكة: من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبَّكَ أَعْنَاقَ الظُّلْمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى: يَبْكُونَ بِهَا وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَّبَاكُونَ فِيهَا، أَي: يَزْدَحُمُونَ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ بَكََّ بِهَ النَّاسَ جَمِيعاً، فَيَصِلِي النَّسَاءَ أَمَامَ الرَّجَالِ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِبَلَدٍ غَيْرِهَا. وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ. وَذَكَرَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَكَّةُ مِنَ الْفَجِّ إِلَى التَّنْعِيمِ، وَبَكَّةُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْبَطْحَاءِ. وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ الْمَغِيرَةِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ: بَكَّةُ: الْبَيْتُ وَالْمَسْجِدُ. وَكَذَا قَالَ الزَّهْرِيُّ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي رِوَايَةٍ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: الْبَيْتُ وَمَا حَوْلَهُ بَكَّةُ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَكَّةُ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: بَكَّةُ مَوْضِعُ الْبَيْتِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مَكَّةُ. وَقَدْ ذَكَرُوا لِمَكَّةَ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً: مَكَّةُ، وَبَكَّةُ، وَالْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينُ، وَالْمَأْمُونُ، وَأُمُّ رُحْمٍ، وَأُمُّ الْفَرْقَى، وَصَلَاحٌ، وَالْعَرْشُ عَلَى وَزْنِ بَدْرٍ، وَالْقَادِسُ؛ لِأَنَّهَا تَطْهَرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمَقْدَسَةُ، وَالنَّاسَةُ: بِالنُّونِ، وَبِالْيَاءِ أَيْضاً، وَالْحَاطِمَةُ، وَالنَّسَّاسَةُ، وَالرَّأْسُ، وَكُوَيْثُ، وَبِالْبَلَدَةِ، وَالْبَيْتَةُ، وَالْكَعْبَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهِ مَائِكَةُ بَيْنَتٌ﴾ أَي: دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَهُ وَشَرَفَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي: الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجِدْرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيَنَاولُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقاً بِجِدَارِ الْبَيْتِ، حَتَّى آخَرَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطَّوَافُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مَوْسَلٍ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ، فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هُنَا، وَاللهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ مَائِكَةُ بَيْنَتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَي: فَمَنْهَنْ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَشْعَرُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَثَرٌ قَدِيمٌ فِي الْمَقَامِ آيَةٌ بَيْنَةٌ. وَكَذَا رَوَى عَنْ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ، وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ:

مَوْطِيءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ زَطْبَةٌ عَلَى قَدَمِيهِ حَافِيَاً غَيْرَ نَاعِلٍ
وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودي قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. وَلَفْظُ عَمْرٍو: الْحَجَرُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَجُّ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. هَكَذَا رَأَيْتُ فِي النُّسخَةِ، وَلَعَلَّهُ الْحَجَرُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُجَاهِدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يَعْنِي: حَرَمُ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ يَأْمَنُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صَوْقَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمُقْتُولِ فَلَا يُبْجِئُهُ حَتَّى يَخْرُجَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى التَّيْمِيُّ، عَنْ عَطَاءِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قَالَ: مَنْ عَاذَ بِالْبَيْتِ عَاذَهُ الْبَيْتُ، وَلَكِنْ لَا يَأْوِي وَلَا يُطْعَمُ وَلَا يُسْقَى، فَإِذَا خَرَجَ أَخَذَ بَدْنِهِ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَكْرَمًا وَإِنَّا لَنَنحَلُّهُ النَّاسَ مِنْ حَرَمِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٦] أَلَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ حَوْفٍ ﴿٩٦﴾ [قريش: ٣، ٤] وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةً اصْطِيَادِ صَيْدِهَا وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةِ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَشِيشِهَا، كَمَا ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً. فَفِي الصَّحِيحِينَ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،

وإِذَا اسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»، وقال يوم الفتح فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُغضد سَوْكُهُ، ولا يُتَفَرَّ صَيْدُهُ، ولا يُلْتَقَطُ لِقَطْعَتُهُ إلا من عَرَفَهَا، ولا يُخْتَلَى خَلَاهَا»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لعينهم وليوتهم، فقال: «إلا الإذخر». ولهما عن أبي هريرة، مثله أو نحوه، ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: انذّن لي أيها الأمير أن أهدتك قولاً قام به رسول الله ﷺ العَدَد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمُهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، ولا يُغضد بها شجرة، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَحَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقَوْلُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدَ الْعَائِبِ» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يُعمد عاصياً ولا فأراً يدم ولا فأراً بخزنية. وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يُخِيمَلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ» رواه مسلم. وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بالحزوة في سوق مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ لَأَنِّي أُخْرِجْتُ وَنَكَ مَا خَرَجْتُ». رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه. وروى أحمد عن أبي هريرة، نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السماء، حدثنا أبو عاصم، عن زُرَيْقِ بْنِ مُسْلِمِ الْأَعْمَى مولى بني مخزوم، حدثني زياد بن أبي عياش، عن يحيى بن جعدة بن هبيرة، في قوله تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» قال: أمنا من النار. وفي معنى هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، حدثنا محمد بن سليمان الواسطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن المؤمل، عن ابن مخين، عن عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ دَخَلَ فِي حَسَنَةٍ وَخَرَجَ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَخَرَجَ مَغْفُورًا لَهُ»: ثم قال: تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بقوي. وقوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: «وَأَتُوا مَكَّةَ وَالْمَوَدَّةَ لِلَّهِ» [البقرة: 1٩٦] والأول أظهر. وقد رذت الأحاديث المتعددة بأنه أخذ أركان الإسلام ودعائه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الربيع بن مسلم الفرشي، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إِيَّاهُ النَّاسُ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَمُحِبُّوهُ». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَلْبُكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاجْتِيَاحِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَذَعُوهُ». ورواه مسلم، عن زُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ، عن يزيد بن هارون، به نحوه. وقد روى سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ، وسليمان بن كثير، وعبد الجليل بن حُمَيْدٍ، ومحمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن أبي سنان الدؤلي - واسمه يزيد بن أمية - عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُمْهَا، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث الزهري، به. ورواه شريك، عن سِمَاكٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وروى من حديث أسامة بن زيد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدَانَ، عن علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البختري، عن علي بن أبي حمزة قال: لما نزلت: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت، قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ قال: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ». فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَأْذِنُوا عَنْ أَسْيَافِكُمْ لِأَنَّ بَيْتَكُمْ سَوْكُمْ» [المائدة: 1٠١]. وكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، من حديث منصور بن وَرْدَانَ، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وفيما قال نظر؛ لأن البخاري قال: لم يسمع أبو البختري من علي. وقال ابن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا محمد بن أبي عبيدة، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك قال: قالوا: يا رسول الله، الحج في كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا لَمُذَّبْتُمْ». وفي الصحيحين من حديث ابن

جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن جابر، عن سُرَاقَةَ بن مالك قال: يا رسول الله، مُتَعَنَتْنَا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «لَا، بَلْ لِلأَبَدِ». وفي رواية: «بل لأبد أبد». وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، من حديث واقد بن أبي واقد الليثي، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه في حجته: «هَذِهِ تُمْ ظُهُورَ الخُصْرِ» يعني: ثم الزَّمَنَ ظُهُورَ الحِصْرِ، ولا تخرجن من البيوت. وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطعاً بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر في كتب الأحكام. قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عَبْدُ بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال: سمعت مُحَمَّدَ بن عَبَّاد بن جعفر يحدث عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: مَنْ الحَاجُّ يا رسول الله؟ قال: «الشُّعْتُ الثَّقِلُ»، فقام آخر فقال: أَي الحِجِّ أَفْضَلُ يا رسول الله؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السَّبِيلُ يا رسول الله؟ قال: «الرَّادُ والرَّاحِلَةُ».

وهكذا رواه ابن ماجه من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخُوْزِي. قال الترمذي: ولا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هُنا. وقال في كتاب الحَجِّ: هذا حديث حسن. ولا يشك أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات سوى الخُوْزِي هذا، وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث. لكن قد تابعه غيره، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامري، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: جلست إلى عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما السَّبِيلُ؟ قال: «الرَّادُ والرَّاحِلَةُ». وكذا رواه ابن مَرْذُويه من رواية محمد بن عبد الله بن عُبَيْد بن عمير، به. ثم قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس، وأنس، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والربيع بن أنس، وقتادة - نحو ذلك. وقد روي هذا الحديث من طُرُقٍ أُخْرٍ من حديث أنس، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كلها مرفوعة، ولكن في أسانيدنا مقال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام، والله أعلم. وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه بجمع طرق هذا الحديث. ورواه الحاكم من حديث قَتَادَةَ، عن حماد بن سلمة، عن قَتَادَةَ، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فقيل: ما السَّبِيلُ؟ قال: «الرَّادُ والرَّاحِلَةُ». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْمَةَ، عن يونس، عن الحسن قال: قرأ رسول الله ﷺ: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ أَلْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قالوا: يا رسول الله، ما السَّبِيلُ؟ قال: «الرَّادُ والرَّاحِلَةُ». ورواه وكيع في تفسيره، عن سفيان، عن يونس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا الثوري، عن إسماعيل - وهو أبو إسرائيل الملائي - عن فضيل - يعني ابن عمرو - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الحَجِّ - يعني الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَذْرِي مَا يَغْرُضُ لَهُ».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفَيْصَمِيُّ، عن مِهْرَانَ بن أبي صفوان، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَادَ الحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ». ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي معاوية الضرير، به. وقد روى ابن جُبَيْر، عن ابن عباس في قوله: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قال: من مَلَكَ ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ فَقَدْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. وعن عِكْرَمَةَ مَوْلَاهُ أَنَّهُ قَالَ: السَّبِيلُ الصَّحَّةُ. وروى وَكَيْعُ بن الجَرَّاحِ، عن أبي جَنَابٍ - يعني الكلبي - عن الضحَّاك بن مَرْزَاحٍ، عن ابن عباس قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: الزاد والبعير. وقوله: «وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْمَلَائِكِينَ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جَحَدَ فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه. وقال سعيد بن منصور، عن سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن عِكْرَمَةَ قال: لما نزلت: «وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الدُّنْيَا فَلَنْ يَبْقَى بِسُوءِ» قالت اليهود: فنحن مسلمون. قال الله ﷻ: «فَاخْصَمْتُمْ فَحَجَّجْتُمْ» - يعني فقال لهم النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَجَّ أَلْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال الله: «وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْمَلَائِكِينَ». وروى ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، نَحْوَهُ. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، أخبرنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قال: أخبرنا هلال أبو هاشم الخُرَّاسَانِي، أخبرنا أبو إسحاق الهمداني، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحْجِ بَيْتَ اللَّهِ، فَلَا يَصْرُهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ أَلْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْمَلَائِكِينَ». ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم، به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زُرْعَةَ الرَازِي: حدثنا هلال بن فياض، حدثنا هلال أبو هاشم الخُرَّاسَانِي، فذكره بإسناده مثله. ورواه الترمذي عن محمد بن يحيى القُطَيْعِي، عن مسلم بن إبراهيم، عن هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي، به، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال مجهول، والحارث يضعف في الحديث. وقال البخاري: هلال هذا منكر الحديث. وقال ابن عَدِي: هذا الحديث ليس بمحفوظ. وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من

حدث أبي عمرو الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، حدثني عبد الرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً. وهذا إسناد صحيح إلى عمر، رضي الله عنه، وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جِدَّة فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين. ما هم بمسلمين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدَّقُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّأْنٍ تَتَوَقَّعُوا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصددهم عن سبيله من أرادهم من أهل الإيمان بجهدهم وطاقاتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونؤثروا، من ذكر النبي ﷺ الأمي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المبشر بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزئهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْبَ بِرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالِ عَيْنَكُمْ مَا بَيْتُ اللَّهِ وَرَيْبِكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَمِدْ بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا كَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال ههنا: ﴿إِنَّا نُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْبَ بِرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَفْرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالِ عَيْنَكُمْ مَا بَيْتُ اللَّهِ وَرَيْبِكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويلفها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمُ لَا تَقُولُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُونَكَ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكَ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨] والآية بعدها. وكما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟» قالوا: «الملائكة.» قال: «وَكَيفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وذكروا الأنبياء، قال: «وَكَيفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: «فنحن.» قال: «وَكَيفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيِّنٌ أَظْهَرُكُمْ؟!» قالوا: «فأي الناس أعجب إيماناً؟» قال: «قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِن بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا.» وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري، والله الحمد. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَمِدْ بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمدة في الهداية، والعُدَّة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا عَاقِبَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان وشعبة، عن زبيد اليامي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.» قال: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهذا إسناد صحيح موقوف، وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود. وقد رواه ابن مزويه من حديث يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن سفيان الثوري، عن زبيد، عن مرة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.» أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى. وكذا رواه الحاكم في مستدرکه، من حديث مسعر، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، مرفوعاً فذكره. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف والله أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم: وروي نحوه عن مرة الهمداني، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النخعي، وطاوس، والحسن، وقتادة، وأبي سنان، والسُّدِّي، نحو ذلك. وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي العبد الله حق تقاته حتى يخزن من لسانه. وقد ذهب سعيد بن جبیر، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، والسُّدِّي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.» قال: لم ننسخ، ولكن «حَقَّ تَقَاتِهِ.» أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم،

ويقوموا بالقنسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياًذاً بالله من خلاف ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا زَوْح، حدثنا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ سَلِيمَانَ، عَنِ مَجَاهِدٍ، أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ مَعَهُ مَخَجْنٌ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتُلِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةَ مِنَ الزُّقُومِ فُطِرَتْ لَأَمْرَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ.﴾

وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جِبَّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَذْرِكُهُ مَيِّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ.﴾ وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: ﴿لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ.﴾ ورواه مسلم من طريق الأعمش، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا فَلَهُ.﴾ وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من وجه آخر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي.﴾ وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك القرشي، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت - وأحسبه - عن أنس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً، فجاهه النبي ﷺ يومه، فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا فُلَانُ؟» قال: بخير يا رسول الله، أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْعَوَظِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ.﴾ ثم قال: لا تعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان. وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديثه، ثم قال الترمذي: غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت مرسلًا.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك، عن حكيم بن جزام قال: بايعت رسول الله ﷺ على ألا أجزأ إلا قائماً. ورواه النسائي في سننه عن إسماعيل بن مسعود، عن خالد بن الحارث، عن شعبة، به، وترجم عليه فقال: (باب كيف يخر للسجود) ثم ساقه مثله فقيل: معناه: على ألا أموت إلا مسلماً، وقيل: معناه على ألا أقتل إلا مقبلاً غير مدبر، وهو يرجع إلى الأول. وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: ﴿مُحِبَّتِ عَلَيْهِمُ الذِّكْرُ أَيْنَ مَا قَفُّوا إِلَّا بِحَبْلِ اللَّهِ وَحَبْلِ بَيْنِ النَّاسِ.﴾ قال عمران: [١١٢] أي بعهد وذمة. وقيل: ﴿بِحَبْلِ بَيْنِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن، كما في حديث الحارث الأعور، عن علي بن مرفوعاً في صفة القرآن: ﴿هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ.﴾ وقد ورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبري: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أسباط بن محمد، عن عبد الملك بن أبي سليمان العززمي، عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كِتَابُ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ.﴾ وروى ابن مَرْدُودِيَه من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي الأَحْوَس، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَهُوَ النَّورُ الْمَبِينُ وَهُوَ الشَّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ.﴾ وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك. وقال وكيع: حدثنا الأعمش عن أبي وائل قال: قال عبد الله: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين، يا عبد الله، هذا الطريق، هلم إلى الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن. وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: أَمَرَهُمُ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ. وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والاتلاف، كما في صحيح مسلم من حديث سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وُلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ: وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ.﴾

وقد ضُجِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ، عِنْدَ اتِفَاقِهِمْ، مِنَ الْخَطَا، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ أَيْضًا، وَخِيفَ عَلَيْهِمُ الْاِفْتِرَاقُ، وَالاخْتِلَافُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَافْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَمُسْلِمَةٌ مِنَ عَذَابِ النَّارِ،

وهم الذين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحترق وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فابعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنَ، فَعَتَبَ من عتب منهم لما فَضَّلَ عليهم في القَسَمَةِ بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةٌ فَاغْتَاكُمْ اللَّهُ بِي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بملأ من الأوس والخزرج، فساء ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بَعَثَ وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فاتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «أَبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاروا في قضية الإفك، والله أعلم.

﴿وَلَنْكُنَّ بِكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَرَرُّوا وَاتَّخَلَفُوا بَيْنَ يَدَيْ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٨﴾﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَنْكُنَّ بِكُمْ أُمَّةً﴾ أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعني: المجاهدين والعلماء. وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَنْكُنَّ بِكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: «الْخَيْرُ أَتْبَاعُ الْقُرْآنِ وَسُنَّتِي» رواه ابن مردويه. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِعَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عَنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُهُنَّ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ». ورواه الترمذي، وابن ماجه، من حديث عمرو بن أبي عمرو، به وقال الترمذي: حسن. والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتي تفسيرها في أماكنها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَرَرُّوا وَاتَّخَلَفُوا بَيْنَ يَدَيْ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٨﴾﴾: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني أزهر بن عبد الله الهوزني عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيِّ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعني الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامًا تَتَّجِرُ بِهُمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَّجِرُ الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مُفْضِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ. وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ لَغَيَّرَكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى الْأَقْوَامُ بِهِ».

وهكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى، كلاهما عن أبي المغيرة - واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي - به، وقد روي هذا الحديث من طرق. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: قال الحسن البصري: وهم المنافقون: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعتم كل كافر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَيْعُوا وَجُوهَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلَائِفُونَ﴾ يعني: الجنة، ماكثون فيها أبداً لا يبيعون عنها حوياً. وقد قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وَكَيْعٌ، عن رِبِيعٍ - وهو ابن صَبِيحٍ - وَحَمَّادُ بْنُ سَلْمَةَ، عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على دَرَجٍ دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خَيْرٌ قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمع إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً - حتى عَدَّ سبْعاً - ما حَدَّثْتُكُمْوه. ثم قال: هذا حديث حسن. وقد رواه ابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن أبي غالب، وأخرجه أحمد في مسنده، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي غالب، بنحوه. وقد روى ابن مَزْدُويه عند تفسير هذه الآية، عن أبي ذر، حديثاً مطولاً غريباً عجيباً جداً. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: هذه آيات الله وَحَجَّجَهُ وَبَيَّنَّاهُ ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس بظالم لهم بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِينَ﴾ أي: الجميع ملك له وعبيد له. ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا ادْمَغَتْ وَإِنْ يَعْتَدِلُوكُمْ يُؤَلِّمُكُمُ الْاَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَعْمُرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ إِنْ مَا تَقَوُّوا إِلَّا جِبِلًّا مِّنَ اللَّهِ وَسَبَلًا مِّنَ النَّاسِ وَيَأْتُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ السِّنَكَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾.

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، عن سفيان، عن مَيْسَرَةَ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. وهكذا قال ابن عباس، ومُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ. والمعنى: أنهم خيرُ الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْتُونَ بِاللَّهِ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سيمك، عن عبد الله بن عُصَيْرَةَ عن زوجِ دُرَّةِ بنتِ أبي لَهَبٍ، عن دُرَّةِ بنتِ أبي لَهَبٍ، قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ فقال: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ». ورواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، والحاكم في مستدركه، من حديث سيمك، عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قَرَنٍ بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثم الذين يَلُونَهُمْ، ثم الذين يَلُونَهُمْ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: خياراً ﴿لِيَتَّكِفُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية. وفي مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم بن معاوية بن حَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ ﷻ». وهو حديث مشهور، وقد حَسَّنَهُ الترمذي. ويروي من حديث معاذ بن جبل، وأبي سعيد الخدري، نحوه. وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْقِ إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرفُ خلقِ الله وأكرمُ الرسلِ على الله، وبعثه الله بشرح كامل عظيم لم يُعْطَ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرسلِ. فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا ابن زُهَيْرٍ، عن عبد الله - يعني ابن محمد بن عَقِيلٍ - عن محمد بن علي، وهو ابن الحنفية، أنه سمع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأَعْطِيَتْ مَقَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَّةِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو العلاء الحسن بن سَوَّارٍ، حدثنا لَيْثٌ، عن معاوية عن أبي حنبلٍ يزيد بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت أم الدرداء، رضي الله عنها، تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ، وما سمعته يكتبه قبلها ولا بعدها، يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعْتُ بِعَدْلِكَ أُمَّةً، إِنَّ أَصَابَهُمْ مَا يُجِبُونَ حِمْدًا وَشُكْرًا، وَإِنَّ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ اخْتِسَابًا وَصَبْرًا، وَلَا حِلْمًا وَلَا

عَلِمَ». قال: «يَا رَبِّ، كَيْفَ هَذَا لَهُمْ، وَلَا جِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟». قال: «أَعْطَيْهِمْ مِنْ جِلْمِي وَعِلْمِي».

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا المسعودي، حدثنا بَكَيْرُ بن الأَخْسَسِ، عن رجل، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ النَّبْرِ، فَلُوِيَهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي، ﷻ، فَرَأَيْتُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال أبو بكر، رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى، ومصيب من حافات البوادي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بن مِهْرَانَ، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال عمر: يا رسول الله، فهلا استزدت؟ فقال: «اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال عمر: فهلا استزدت؟ قال: «قَدْ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا». وفرج عبد الله بن بكر بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، قال هشام: وهذا من الله لا يدري ما عدده.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمُضَمِ بن زُرْعَةَ قال: قال شُرَيْحُ بن عبيد: مَرَضَ ثُوْبَانَ بِحَمَصٍ، وعليها عبد الله بن قُرْطِ الأَزْدِي، فلم يَعهده، فدخل على ثوبان رجل من الكلاعيين عائداً، فقال له ثوبان: أتكتب؟ قال: نعم: فقال: اكتب، فكتب: للأمر عبد الله بن قرط، من ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أما بعد: فإنه لو كان لموسى وعيسى، عليهما السلام، بحضرتك خادماً لعدته. ثم طوى الكتاب وقال له: أتبلغه إياه؟ فقال: نعم. فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قرط، فلما رآه قام فرحاً، فقال الناس: ما شأنه؟ أحدث أمر؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاده، وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حمطيون، فهو حديث صحيح، والله الحمد.

طريق أخرى: قال الطبراني: حدثنا عمرو بن إسحاق بن زُبَيْرِ الجَمْصِي، حدثنا محمد بن إسماعيل - يعني ابن عَيَّاش - حدثنا أبي، عن ضَمُضَمِ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي أسماء الزخبي، عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ رَبِّي، ﷻ، وَعَدَنِي مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا يُحَاسِبُونَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي، بين شريح وبين ثوبان، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْنِ، عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَوْنَا إليه فقال: «غَرَضْتُ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءَ اللَّيْلَةَ بِأَمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْمَصَابِيَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْقُرْآنُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَعَهُ كَنَكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعَجَبُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ هُوَ لَمْ يَمُرْ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ». قال: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: انظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ قَدْ سَدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا الأفقُ قَدْ سَدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ» فقيل لي: «قد رضيت؟» فقلت: «رضيت يا رب». قال: «فقيل لي: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبي ﷺ: «فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَأَفْعَلُوا فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنَ أَهْلِ الظَّرَابِ، فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأفقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ نَمَّ أُنَاسًا يَتَهَاوِشُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم. أي من السبعين، فدعا له. فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: من تروون هؤلاء السبعين الألف؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُوبُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق، ورواه أيضاً عن عبد الصمد، عن هشام، عن قتادة، بإسناده مثله، وزاد بعد قوله: «رَضِيْتُ يَا رَبُّ رَضِيْتُ يَا رَبُّ» قال: «رَضِيْتُ يَا رَبُّ؟» قال: «نَعَمْ». قال: «انظُرْ عَنْ يَسَارِكَ قال: «فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الأفقُ قَدْ سَدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ». فقال: رَضِيْتُ يَا رَبُّ؟» فقلت: «رَضِيْتُ». وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخبره.

حديث آخر: قال أحمد بن مَنِيعٍ: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حَمَادُ، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال النبي ﷺ: «غَرَضْتُ عَلَيَّ الْأُمَّمَ بِالْمُؤَسِمِ قَرَأْتُ عَلَيَّ أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ فَأَعَجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيَأَتُهُمْ، قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ»، فَقَالَ: أَرَضِيْتُ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: «نَعَمْ». قال: «فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ»

وَلَا يَكْتُوبُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم»: فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». رواه الحافظ الضياء المقدسي، وقال: هذا عندي على شرط مسلم.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن محمد الجُدوعي القاضي، حدثنا عُقبَةُ بن مكرم. حدثنا محمد بن أبي عدي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». قيل: من هم؟ قال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُوبُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». رواه مسلم من طريق هشام بن حسان، وعنده ذكر عكاشة.

حديث آخر: ثبت في الصحيحين من رواية الزُّهري، عن سعيد بن المُسَيَّب، أن أبا هريرة حدثه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمَرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، نُضِي وَجُوهُهُمْ إِسَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نَمْرَةً عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ».

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد: أن النبي ﷺ قال: «لِيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةَ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوْلَاهُمْ وَأَخْرَهُمُ الْجَنَّةَ، وَوَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». أخرجه البخاري ومسلم جميعاً، عن قُتَيْبَةَ عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل، به.

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حُصَيْنٌ بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبيرة فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضت البارحة؟ قلت: أنا. ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغث. قال: فما صنعت؟ قلت: استرقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْبِ الأسلمي أنه قال: لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَظَنَرْتُ، فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ، فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ». ثم نهض فدخل منزله، فخاص الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «مَا الَّذِي تَحُوضُونَ فِيهِ؟» فأخبروه، فقال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَزْفُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم». ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». وأخرجه البخاري عن أسيد بن زيد، عن هُشَيْمٍ وليس عنده، «لا يرقون».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا زُوح بن عبادة. حدثنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني أبو الزُّبَيْرِ، أنه سمع جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً، وفيه: «فَتَنْجُو أَوْلَ زُمَرَةٍ وَوَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يُحَاسِبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَأَضْوَاءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ». وذكر بقية، رواه مسلم من حديث زُوح، غير أنه لم يذكر النبي ﷺ.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٍ. وَثَلَاثَ حَيَاتٍ مِنْ حَيَاتِ رَبِّي ﷺ». وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، به، وهذا إسناد جيد.

طريق أخرى عن أبي أمامة: قال ابن أبي عاصم: حدثنا دُحَيْمٌ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، عن أبي اليمان الهوزني - واسمه عامر بن عبد الله بن لُحَيٍّ، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال يزيد بن الأَخْنَسِ: وإله ما أولئك في أمتك يا رسول الله إلا مثل

الذباب الأصهب في الذباب. قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَزَادَنِي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ». وهذا أيضاً إسناد حسن.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عامر بن زيد الكعالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبِّي ﷻ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَخْتِي رَبِّي ﷻ، بِكَفِيهِ ثَلَاثَ حَيَّاتٍ». فكير عمر وقال: إن السبعين الأول يُشْفَعُهُمْ اللهُ فِي آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَنِي اللهُ فِي إِحْدَى الْحَيَّاتِ الْوَأَخْر. قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة. والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام - يعني الدستوائي - حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، حدثنا عطاء بن يسار أن رَفَاعَةَ الْجَهَنِّي حَدَّثَهُ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْكَأْبِدِ - أَوْ قَالَ بَقْدِيدٍ - فَذَكَرَ حَدِيثًا، فِيهِ: ثُمَّ قَالَ: «وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ، أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنِّي لِأَرْجُو الْأَنْ يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبُورُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَاتِكُمْ مَسَاكِينَ فِي الْجَنَّةِ». قال الضياء المقدسي: وهذا عندي على شرط مسلم.

حديث آخر: قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، عن النُّضْرِ بْنِ أَنَسٍ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ». قال أبو بكر: زدنا يا رسول الله. قال: والله هكذا. فقال عمر: حسبك يا أبا بكر. فقال أبو بكر: ذغني، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا. فقال عمر: إن شاء الله أدخل خلقه الجنة بكف واحد. فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ عَمْرٌ».

هذا الحديث بهذا الإسناد انفرد به عبد الرزاق، قاله الضياء. وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا محمد بن أحمد بن مَخْلَدٌ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي مِائَةَ أَلْفٍ». فقال أبو بكر: يا رسول الله، زدنا قال: «وهكذا» - وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك - قلت: يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة. فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عَمْرٌ». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأبو هلال اسمه: محمد بن سُلَيْمِ الرَّاسِي، بصري.

طريق أخرى عن أنس: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عبد القاهر بن السري السلمي، حدثنا حَمِيدٌ، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا». قالوا: زدنا يا رسول الله. قال: «لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» قالوا: زدنا - وكان على كتيب - فقال: هكذا، وحثا بيده. قالوا: يا رسول الله، أبعث الله من دخل النار بعد هذا، وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، ما عدا عبد القاهر بن السري، وقد مثل عنه ابن معين، فقال: صالح.

حديث آخر: روى الطبراني من حديث قتادة، عن أبي بكر بن أنس، عن أبي بكر بن عمير عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ الْجَنَّةَ». فقال عمير: يا رسول الله، زدنا. فقال هكذا بيده. فقال عمير: يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: حسبك، إن الله إن شاء أدخل الناس الجنة بحفنة - أو بِحَيَّتَيْهِ - واحدة. فقال نبي الله ﷺ: «صَدَقَ عَمْرٌ».

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عبد الله بن عامر، أن قيساً الكندي حَدَّثَ أَنَّ أَبَا سَعِيدِ الْأَنْمَارِيِّ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَخْتِي رَبِّي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ بِكَفِيهِ». كذا قال قيس، فقلت لأبي سعيد: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بأذني، ووعاه قلبي. قال أبو سعيد: فقال - يعني رسول الله ﷺ -: «وَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ﷻ، يَسْتَوْعِبُ مُهَاجِرِي أُمَّتِي، وَيُؤْفِي اللهُ بَقِيَّتِهِ مِنْ أَعْرَابِنَا». وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر، عن أبي توبة الربيع بن نافع بإسناده، مثله. وزاد: قال أبو سعيد: فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ، فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألف ألف.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرزئد الطبراني حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني صَنْمَضٌ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُعْتَنُّ

مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يَخْبُطُونَ الْأَرْضَ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؟». وهذا إسناد حسن.

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها على الله، وانها خير الأمم في الدنيا والآخرة: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير، عن جابر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أممي يوم القيامة ربع الجنة». قال: فكبرنا. ثم قال: «أرجو أن تكونوا ثلث الناس». قال: فكبرنا. ثم قال: «أرجو أن تكونوا شطرًا». وهكذا رواه عن روح، عن ابن جريج، به. وهو على شرط مسلم.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» فكبرنا. ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فكبرنا. ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطرًا أهل الجنة».

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حصيرة، حدثني القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم وربع الجنة لكم وليسائر الناس ثلاثة أرباعها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «كيف أنتم وثلثها؟» قالوا: ذلك أكثر. قال: «كيف أنتم والشرط لكم؟» قالوا: ذلك أكثر. فقال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًا». قال الطبراني: تفرد به الحارث بن حصيرة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفًا». وكذلك رواه عن عفان، عن عبد العزيز، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان، به وقال: هذا حديث حسن. ورواه ابن ماجه من حديث سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، به.

حديث آخر: روى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا خالد بن يزيد البجلي، حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من أممي». تفرد به خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه ابن عدي.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا موسى بن غيلان، حدثنا هاشم بن مَخْلَد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان، عن أبي عمرو، عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ لَنْزِلَ مِنَ الْأَوَّلِينَ آيَاتٌ﴾ وَثُمَّ لَنْزِلَ مِنَ الْأَوَّلِينَ آيَاتٌ ﴿١١٠﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نَحْنُ الْأَجْرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بِيَدِ أَنْفُسِهِمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِيَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اِخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، عَدَا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ عَدِيٍّ». رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مرفوعًا بنحوه. ورواه مسلم أيضًا عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْأَجْرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وذكر تمام الحديث.

حديث آخر: روى الدارقطني في الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَذْخَلَهَا، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَّةِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي». ثم قال: تفرد به ابن عقيب، عن الزهري، ولم يرو عنه سواه، وتفرد به زهير بن محمد، عن ابن عقيب، وتفرد به عمرو بن أبي سلمة، عن زهير. وقد رواه أبو أحمد بن عدي الحافظ فقال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق، حدثنا أبو بكر الأعمش محمد بن أبي عتاب، حدثنا أبو حفص التميمي - يعني عمرو بن أبي سلمة - حدثنا صدقة الدمشقي. عن زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيب، عن الزهري. ورواه الثعلبي: حدثنا أبو العباس المخلد، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد، أخبرنا أحمد بن عيسى التميمي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا

صدقة بن عبد الله، عن زهير بن محمد، عن ابن عقيل، به.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس سُرعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شُرط الله فيها. رواه ابن جرير. ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٧]. ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان. ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿لَنْ يَغْرِبَ كُمْ إِلَّا أَذَىٰ ۚ وَإِنْ يَحْسَبُوا كُفْرًا لَّنَّا بَدَّلْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَّا كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا ۚ وَإِن يَسْتَنْصِخْ مِنْكُمْ أَحَدٌ مِّنَ الْكُفْرَانِ لَنَنصِخْهُ مِنْكُمْ وَإِن يُعْذِرْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَنَعْلَمَ عِزَّةَ الَّذِينَ أَنزَلْنَا لَهُمُ الْكِتَابَ ۚ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يَبْتَغُوا إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ ۚ وَكَذَٰلِكَ يَكْفُرُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَٰكِن لَّا تُفْقَهُ أَجْمَعُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر النصارى بالشام كسروهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الدهارين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وهم كذلك، ويحكم عليه السلام بشرع محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿صَبَّرْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ إِنَّا مَا نُنْفِقُوا إِلَّا بِمَحَبَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: ألزهمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِمَحَبَّةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: بذمة من الله، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم، ولإزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمته واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذا عبد، على أحد قولي العلماء. قال ابن عباس: ﴿إِلَّا بِمَحَبَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله وعهد من الناس، وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي، والربيع بن أنس. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ألزموهم بالتزوما بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَصَبَّرْتَ عَلَيْهِمُ﴾ أي: ألزموها قدراً وشرعاً. ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فاعقبتهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدأ، متصلاً بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقبضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعباداً بالله من ذلك، والله المستعان. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر الأزدي، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق بقلهم آخر النهار.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مَاتَةً أَلَيْلٍ وَهُمْ لَا يَسْتَدِينُونَ﴾ [البقرة: ١٧٥] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَرِهُوا فِي الْحُرُوفِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٧٦] ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَلَاكِهِمُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال ابن أبي نجیح: زعم الحسن بن يزيد العجلي، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ. وهكذا قال السدي، ويؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو النضر وحسن بن موسى قالا: حدثنا شيبان، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم». قال: وأنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. والمشهور عن كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطبوعة

لشره، مُتَّبِعَةَ نَبِيِّ اللَّهِ، فِيهِ ﴿قَائِمَةٌ﴾ يعني مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَتْلَىٰ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَجَنَّبُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرُسُوحَاتُ فِي الْحَدِيثِ وَأُوتِيَتْكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشْيَةَ اللَّهِ لَا يَشْرُونَ بِعِبَادَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الآية: ١١٩] وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرَهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْتَهِيَّةِ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لَنْ تَنفِرَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا يرد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا اراده بهم ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد والحسن، والسدي، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بزد شديد، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة وقتادة والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقال عطاء: بزد وجليل. وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد - سيما الجليل - يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْرِ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَلْكَتَهُ﴾ أي: أحرقت، يعني بذلك السفعة إذا نزلت على حرت قد أن جداده أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمره هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بتواها على غير أضل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ دِينِكُمْ وَلَا يَأْتُونَكُمْ خَبْرًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَا تُخْفِي سُودُورُهُمْ أَكْثَرَ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَاتَمٌ أَوْلَاهُ عُيُوبَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقِيتُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْبَاءَ مِنَ النَّبِيِّ قُلْ مَوْثِقًا بِعَيْتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةً سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَصْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَوَقَّعُوا لَا يَصْرَعُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَسْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلَعُونَهُمْ على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم لا يألون المؤمنين خبلاً، أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُغْنِي المؤمنين ويحرجهم ويُشَقُّ عليهم. وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ دِينِكُمْ﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخله أمره. وقد روى البخاري، والنسائي، وغيرهما، من حديث جماعة، منهم: يونس، ويحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، وابن أبي عتيق - عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْضُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ». وقد رواه الأوزاعي ومعاوية بن سلام، عن الزهري، عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه. فيحتمل أنه عند الزهري عن أبي سلمة عنهما. وأخرجه النسائي عن الزهري أيضاً. وعلقه البخاري في صحيحه فقال: وقال عبيد الله بن أبي جعفر، عن صفوان بن سليم، عن أبي سلمة، عن أبي أيوب الأنصاري، فذكره. فيحتمل أنه عند أبي سلمة عن ثلاثة من الصحابة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان، حدثنا عيسى بن يونس، عن أبي حيان التيمي عن أبي الزُّنْبَاعِ، عن ابن أبي الدُّغَانَةَ قال: قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الجيرة، حافظ كتاب، فلو اتخذته كاتباً؟ قال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين. ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذممة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطلاع على المسلمين وإطلاع على دواجل أمورهم التي يُخْشَى أن يُشْوهوا إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ خَبْرًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ﴾. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن إسرائيل، حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا العَوَّامُ، عن الأزهر بن راشد قال: كانوا يأتون أنساً، فإذا حَدَّثَهُمْ بحدِيثٍ لا يدرون ما هو، أتوا الحسن - يعني البصري - فيفسره لهم. قال: فحدثت ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا». فلم يدروا ما هو، فاتوا الحسن فقالوا له: إن أنساً حدثنا أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الشُّرْكِ وَلَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا». فقال الحسن: أما قوله: «لَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» - محمد ﷺ. وأما قوله: «لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الشُّرْكِ» يقول: لا تستشيروا المشركين في أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ دِينِكُمْ﴾.

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى، رحمه الله، وقد رواه النسائي عن مجاهد بن موسى، عن هُشَيْمٍ. ورواه الإمام أحمد، عن هشيم بإسناده مثله، من غير ذكر تفسير الحسن البصري. وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا» أي: بخط عربي، لثلاث يشابه نقش خاتم النبي ﷺ، فإنه كان نقشه محمد رسول الله؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن يَنْقُشَ أحد على نقشه. وأما الاستضاءة بنار المشركين، فعنائه: لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم، بل تَبَاغِذُوا مِنْهُمْ وَهَاجَرُوا مِنْ بِلَادِهِمْ؛ ولهذا روى أبو داود رحمه الله: «لَا تَتَرَايَ نَارَهُمَا» وفي الحديث الآخر: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سَكَنَ مَعَهُ، فَهُوَ بِمِثْلِهِ»؛ فَحَضَلَ الْحَدِيثُ عَلَى مَا قَالَ الْحَسَنُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالِاسْتِشْهَادُ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ»، أي: قد لاح على صَفَحَاتِ وجوههم، وفتلت استنتهم من العداوة، مع ما هم مشتعلون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». وقوله تعالى: «هَاتِمْتُمْ أَوْلَادَكُمْ حُيُوتًا وَلَا يُحْيِيوُنَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كَذِبًا» أي: أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنًا ولا ظاهراً «وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كَذِبًا» أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والخيرة. وقال محمد بن إسحاق. حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كَذِبًا» أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير. «وَإِذَا لَقَوُكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَمَّاوَا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْغَيْبِ وَالْأَنَامِلِ: أطراف الأصابع، قاله قتادة. وقال الشاعر:

أَوْدٌ كَمَا مَابِلَ خَلْقِي رِيْقِي وَمَا حَمَلْتُ كَفَّايَ أَمْلِي الْعَشْرَا
وقال ابن مسعود، والسُّدِّي، والرَّبِيعُ بن أنس: «الْأَنْوَالِ»: الأصابع. وهذا شأن المنافقين يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمُؤَدَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا خَلَوْا عَمَّاوَا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْغَيْبِ» وذلك أشد الغيظ والحقن، قال الله تعالى: «قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيبكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومُعلِّم كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيبكم «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمنون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها. ثم قال: «إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَتُؤْتِيَنَّكُمْ سَيِّئَةً يَغْرُبُوا بِهَا». وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمن خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سئة - أي: جذب - أو أدبيل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: «وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّبَعُوا لَا يَغْرُبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ كَيْدًا»، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الْفُجَّارِ، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشئته، ومن توكل عليه كفاه. ثم شرَّح تعالى في ذكر قصة أُحُد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فقال تعالى:

«وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَهْلِكَ بُيُوتُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْبَلَةً لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فَتَنَ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾».

المراد بهذه الواقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقاتدة والسُّدِّي، وغير واحد. وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب. رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعْمَلُ عليه. وكانت وقعة أُحُد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال. وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم. وكان سببها أن المشركين حين قُتِلَ من قتل من أشرافهم يوم بَدْر، وسَلَمَتِ الْعِيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قتلهم إلى مكة قال أبناء من قُتِلَ، وروساء من بقي لأبي سفيان: ارضد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحباب وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلما قرَّعَ منها صَلَّى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أياخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرُّ محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم،

ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَتَّبِعِي لِئَبِي إِذَا لَيْسَ لَأَمَتِهِ أَنْ يَزِجَعَ حَتَّى يَخُكَّمَ اللَّهُ لَهُ».

فسار، عليه السلام، في ألف من أصحابه، فلما كان بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مُغْضِبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتلاً لا تبغناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عَدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لَا يُقَاتِلُن أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ».

وتهاى رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمئة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جُبَيْرِ أَخْبَنِي عَمْرُو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم: «انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا تُؤْتِيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ. وَالرُّؤْمَا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتْ التُّؤْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَحْطِفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ». وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُضْعَبُ بن عَمِيرِ أَخْبَنِي عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين. وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جئبوا، فجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالد بن الوليد؛ وعلى الميسرة عِكْرَمَةُ بن أبي جَهْلٍ، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: بين لهم منازلهم وجعلهم مَيْمَنَةً وميسرة وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لما تقولون، عليم بضمائركم. وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالاً، حاصله: كيف يقولون: إن النبي ﷺ سار إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن عدوه لبيوتهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار. وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان قال: قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نجب - وقال سفيان مرة: وما يسرني - أنها لم تنزل، لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به. وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي: يوم بدر، وكان في جمعة، وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وحزب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بغيراً، والباقيون مشاة، ليس معهم من العُدَدِ جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزله، وبيّض وجه النبي وقبيله، وأخزي الشيطان وجيله. ولهذا قال تعالى: - مُمْتَنِنًا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَجِزِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العُدَدِ والعُدَدِ؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم ترؤها وعدب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النسبة: ٢٥-٢٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك قال: سمعت عياضاً الأشعري قال: شهدت الزمزمك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حَسَنَةَ، وخالد بن الوليد، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سماكاً - قال: وقال عمر، رضي الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله ﷻ، فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصِرَ يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نُعْطِيَ عن كل ذي رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا، إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تُنْفِزَان وهو خلفه على فرس عزي. وهذا إسناد صحيح. وقد أخرجه ابن جبان في صحيحه من حديث بُنْدَارٍ، عن عُثْدَرٍ، بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه. وبدر محلّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حضرها يقال له: «بدر بن النارين». قال

الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرأ. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبِكُمْ يَتَلَفَتُوا ؕ وَالنَّبِيُّ مِنَ الْمَلَأَةِ مِنَ الْمَلَكِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٤) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَ لِقَابُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٥) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمِبَهُمْ يَتَقَبَّلُوا ؕ وَاللَّيْلُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا تَهُمُّ ظُلُمَاتُ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٦).

اختلف المفسرون في هذا الوعد؟ هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. ورؤي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي، والربيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير. قال عباد بن منصور، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبِكُمْ يَتَلَفَتُوا ؕ وَالنَّبِيُّ مِنَ الْمَلَأَةِ مِنَ الْمَلَكِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: هذا يوم بدر، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب عن داود، عن عامر - يعني الشعبي - أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبِكُمْ يَتَلَفَتُوا ؕ وَالنَّبِيُّ مِنَ الْمَلَأَةِ مِنَ الْمَلَكِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾. قال: فبلغت كرزاً الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية - على هذا القول - وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسْتَبَّابٌ لَّكُمْ أَتَىٰ مُبَدِّلًا مِّنَ الْمَلَكِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٤) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَ لِقَابُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٢٦)؟ [الانفال: ٩، ١٠] فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى يزددهم غيرهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِمَّنْ آهْلِكَ يُؤَيِّدُ الْكُفْرَانَ مَنِاعِدًا لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فزوا يومئذ - زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد. وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعني: تصبروا على مضاربة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري. وقوله: ﴿وَأَتَوْكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا﴾، قال الحسن، وقاتدة، والربيع، والسدي: أي من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أي من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العوفي عن ابن عباس: من سفرهم هذا. ويقال: من غضبهم هذا. وقوله: ﴿يُبَدِّلَكُمْ رَيْبِكُمْ بِحَسَنَةِ الْعَالَمِينَ مِنَ الْمَلَكِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: معلمين بالسَّيِّمِ. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كان سيمما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضاً في نواصي خيلهم. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبو رزعة، حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في هذه الآية: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قال: باليهن الأحمر. وقال مجاهد: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مُحَدِّقَةٌ أَعْرَافُهَا، مُعَلِّمَةٌ نَوَاصِيهَا بِالصُّوْفِ الْأَبْيَضِ فِي أَذْنَابِ الْخَيْلِ. وقال العوفي، عن ابن عباس، قال: أتت الملائكة محمداً ﷺ مُسَوِّمِينَ بِالصُّوْفِ، فَسَوَّمَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْفُسَهُمْ وَخَيْلَهُمْ عَلَى سِيْمَاهُمْ بِالصُّوْفِ. وقال عكرمة وقاتدة: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسيمما القتال، وقال مكحول: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بالعمامم. وروى ابن مَرْزُوقٍ، من حديث عبد القدوس بن حبيب، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قال: «مُعَلِّمِينَ». وكان سيمما الملائكة يوم بدر عمامم سود، ويوم حنين عمامم خمر. وروى من حديث حُصَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَخْرَاقٍ، عن سعيد، عن الحكم، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وقال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَنَّهُمْ، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس قال: كان سيمما الملائكة يوم بدر عمامم بيض قد أَرْسَلُوهَا فِي ظُهُورِهِمْ، ويوم حُتَيْنِ عمامم خمر. ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عُدَاداً وَمُدَدًا لَا يَضْرِبُونَ. ثم رواه عن الحسن بن عمار، عن الحكم، عن مِقْسَمٍ عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن عروة، عن يحيى بن عباد: أن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجِرًا بِهَا، فنزلت الملائكة عليهم عمامم صُفْرًا. رواه ابن مَرْزُوقٍ من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، فذكره. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَ لِقَابُكُمْ

يَوْمَ: أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَكُمْ سَيِّئِهِمْ فَيُصَلِّحَ بِكُم بِاللَّهِ وَيُخَلِّفَهُمُ الْبَقِيَّةَ عَرَفَهَا اللَّهُ لَأَنْتُمْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ يُبَدِّلِ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ يَبْدَأْ بِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [محمد: ٤-٦]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَإِنْ كَفَرْتُمْ يَبْدَأْ بِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [آي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة في قدره والإحكام. ثم قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين. فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أي: ليهلك أمة ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمِبُهُمْ﴾ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لَمَا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْتُمِبُهُمْ فَسَقَلُوا﴾ أي: يرجعوا ﴿عَائِينَ﴾ أي: لم يحصلوا على ما أُمِّلُوا. ثم اعترض بجمله ذلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: بل الأمر كله إلي، كما قال: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْكَلْبُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم. ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يُتَوَّبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مآهم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: يستحقون ذلك. وقال البخاري: حدثنا جبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا معمر، عن الزهري، حدثني سالم، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: «اللَّهُمَّ الْعَن فُلَانًا وَفُلَانًا» بعدما يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فانزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وهكذا رواه النسائي، من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما، عن معمر، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عقيل - قال أحمد: وهو عبد الله بن عقيل، صالح الحديث ثقة - قال: حدثنا عمر بن حمزة، عن سالم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية». فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فتيب عليهم كلهم. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية الغلابي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا محمد بن عجلان، عن نافع، عن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال: فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، قال: وهداهم الله للإسلام. وقال محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يُسَمِّيهِمْ بأسمائهم، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقال البخاري أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد - قَتَّتْ بعد الركوع، وربما قال - إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد: «اللَّهُمَّ انج الوليد بن الوليد، وَسَلِّمْ بِنَ هِشَامَ، وَعِيشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأْتِكَ عَلَى مُضَرَ، وَأَجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِينِي يَوْسُفَ». يجهر بذلك، وكان يقول - في بعض صلواته في صلاة الفجر -: «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقال البخاري: قال حميد وثابت، عن أنس بن مالك: شج النبي ﷺ يوم أُحُد، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوْا نَبِيَّهُمْ؟». فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وقد أسند هذا الذي علَّقه البخاري رحمه الله. وقال البخاري: في غزوة أُحُد: حدثنا يحيى بن عبد الله السلمي، حدثنا عبد الله - أخبرنا معمر، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع، في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعدما يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ». فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. وعن حنظلة بن أبي سفيان قال: سمعت سالم بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة مرسله وقد تقدمت مسندة متصلة في مسند أحمد متصلة آنفاً. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا حميد، عن أنس، رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَسَّرَتْ رَبَاعِيَةَ يَوْمَ أُحُد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، ﷻ». فانزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

ظَلُمُوا ﴿١٣٠﴾ . انفراد به مسلم، فرواه عن القعني، عن حماد، عن ثابت، عن أنس، فذكره . وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن مطر، عن قتادة قال: أصيب النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبي حذيفة، فأجلسه ومسح عن وجهه، فافاق وهو يقول: «كيف يقوم فعلوا هذا بئبيهم، وهو يدعوهم إلى الله؟ فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ . وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، بنحوه، ولم يقل: فافاق . ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَقْبِضُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو المتصرف فلا مُعَقَّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله غفور رحيم .

﴿يَتَأْتِيَكَ لِلزَّيْرِ ءَأْمَأُو لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَمْثَلًا مُمْتَعَةً وَأَتَعُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَأَتَعُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ الَّذِينَ يُفْقَرُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ وَالْكَيْبِطِ وَالْقَالِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَعَفُوا لِدُؤُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الدُّوْبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُسْرِوْا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَآ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ .

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضغافاً مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية - إذ حلَّ أجل الدين -: إما أن يقضي وإما أن يُزْبِي، فإن قضاءه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر، وهكذا كلَّ عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً . وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَأَتَعُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٤﴾ . ثم نذبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارة إلى نيل الغُرات، فقال: ﴿﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿بَطَائِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشئ المُقَبَّب والمستدير عرضُه كطوله . وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الْفِرْدَوْسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرُحْمَنِ» . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢١] . وقد روي في مسند الإمام أحمد: أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فأين الليل إذا جاء الثَّهَارُ؟» . وقد رواه ابن جرير فقال: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن أبي خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مزة قال: لقيت الشنخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بجمنص، شيخاً كبيراً فسأله، قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فتناول الصحيفة رجلاً عن يساره . قال: قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية . فإذا كتاب صاحبي: «إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ قال: فقال رسول الله ﷺ «سُبْحَانَ اللَّهِ! فأين الليل إذا جاء الثَّهَارُ؟» .

وقال الأعمش، وسفيان الثوري، وشعبة، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، أن ناساً من اليهود سألوا عُمَرَ بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعنا مثلها من التوراة . رواه ابن جرير من الثلاثة الطرق، ثم قال: حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر بن بُزْقَان، أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلاً من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾﴾ ، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟ . وقد روي هذا مرفوعاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هشام، حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عمه يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾﴾ فأين النار؟ قال: «أرأيت الليل إذا جاء لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فأين الثَّهَارُ؟» قال: حيث شاء الله . قال: «وَكَذَلِكَ النَّارُ تكون حيث شاء الله ﷻ» . وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله ﷻ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة، عن البزار . الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من

الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، ﷻ: ﴿كَرِيمٍ أَلْسَمَاءُ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمنشط والمكروه، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْكَفَّارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَضِيهِ، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله: ﴿وَالْكَلْبِطِيُّ الْفَسِطَ وَالْعَافِيَةَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا نار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعَفُوا مع ذلك عمن أساء إليهم. وقد ورد في بعض الآثار: «يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكُرني إذا غَضِبْتُ، اذكُركَ إذا غَضِبْتُ، فلا أهلكك فيمن أهلك» رواه ابن أبي حاتم. وقد قال أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الزمن، حدثنا عيسى بن شعيب الضرير أبو الفضل، حدثنا الربيع بن سليمان الجيزي، عن أبي عمرو بن أنس بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ عُدْوَانِهِ» وهذا حديث غريب، وفي إسناده نظر. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». وقد رواه الشيخان من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد، عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيكُم مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، مَالِكٌ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا قَدَّمْتُمْ، وَمَالٌ وَارِثُكَ مَا أَحْزَتْ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعْدُونَ فِيكُمْ الصُّرْعَةَ؟» قلنا: الذي لا تضرعه الرجال، قال: قال: «لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعْدُونَ فِيكُمْ الرُّقُوبَ؟» قال: قلنا: الذي لا ولد له. قال: «لا، ولكن الرُّقُوبَ الَّذِي لَمْ يَقْدَمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا».

أخرج البخاري الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت عروة بن عبد الله الجعفي يحدث عن أبي حصبة، أو ابن حصبة، عن رجل شهد النبي ﷺ يخطب فقال: «تَدْرُونَ مَا الرُّقُوبُ؟» قالوا: الذي لا ولد له. قال: «الرُّقُوبُ كُلُّ الرُّقُوبِ الَّذِي لَهُ وَلَدٌ فَمَاتَ، وَلَمْ يَقْدَمْ مِنْهُمْ شَيْئًا». قال: «تَدْرُونَ مَا الصُّغْلُوكُ؟» قالوا: الذي ليس له مال. قال النبي ﷺ: «الصُّغْلُوكُ كُلُّ الصُّغْلُوكِ الَّذِي لَهُ مَالٌ، فَمَاتَ وَلَمْ يَقْدَمْ مِنْهُ شَيْئًا». قال: ثم قال النبي ﷺ: «مَا الصُّرْعَةُ؟» قالوا: الصريع. قال: فقال ﷺ: «الصُّرْعَةُ كُلُّ الصُّرْعَةِ الَّذِي يَغْضَبُ فَيَسْتَدُّ غَضَبَهُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهَهُ، وَيَقْشَعِرُ شَعْرَهُ، فَيَضْرَعُ غَضَبَهُ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام - هو ابن عروة - عن أبيه، عن الأحنف بن قيس، عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدي، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ، لعلني أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: «لَا تَغْضَبْ». وكذا رواه عن أبي معاوية، عن هشام، به. ورواه أيضاً عن يحيى بن سعيد القطان، عن هشام، به، أن رجلاً قال: يا رسول الله، قل لي قولاً وأقلل عليّ لعلني أعقله. قال: «لَا تَغْضَبْ». الحديث انفرد به أحمد.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ» قال الرجل: فكفرت حين قال ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله. انفرد به أحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي هند عن ابن أبي حَرْبٍ بن أبي الأسود، عن أبي الأسود، عن أبي ذر قال: كان يسقي على حوض له، فجاء قوم قالوا: أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعرات من رأسه فقال رجل: أنا. فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذر قائماً فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذر، لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَالْإِلْقَابُ ضَاطِحٌ». ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل إسناده، إلا أنه وقع في روايته: عن أبي حرب، عن أبي ذر، والصحيح: ابن أبي حرب، عن أبيه، عن أبي ذر، كما رواه عبد الله بن أحمد، عن أبيه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد: حدثنا أبو وائل الصنعاني قال: كنا جلوساً عند عروة بن محمد إذ دخل عليه رجل، فكلمه بكلام أغضبه، فلما أن غضب قام، ثم عاد إلينا وقد توضع فقال: حدثني أبي، عن جدي عطية - هو ابن سعد السعدي، وقد كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعُضْبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خَلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا أُغْضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ». وهكذا رواه أبو داود من حديث إبراهيم بن خالد الصنعاني، عن أبي وائل القاص المُرادي الصنعاني: قال أبو داود: أراه عبد الله بن بدير.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جفونة السلمى، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُغْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، إِلَّا أَنْ عَمَلَ الْجَنَّةَ حَزَنٌ بَرَبْوَةٌ - ثَلَاثًا - إِلَّا أَنْ عَمَلَ النَّارَ سَهْلًا سَهْوَةً، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَقِيَ الْفِتْنَ، وَمَا مِنْ جَزَعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ جَزَعَةٍ غَيْظٌ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفَهُ إِيْمَانًا». انفراد به أحمد، إسناده حسن ليس فيه مجروح، ومثته حسن.

حديث آخر في معناه: قال أبو داود: حدثنا عقبه بن مكرم، حدثنا عبد الرحمن - يعني مهدي - عن بشر - يعني ابن منصور - عن محمد بن عجلان، عن سويد بن وهب، عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيْمَانًا، وَمَنْ تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبٍ جَمَالٌ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ - قَالَ بِشْرٌ: أَحْسِبُهُ قَالَ: «تَوَاضَعًا» - كَسَاهُ اللَّهُ حُلَّةَ الْكِرَامَةِ، وَمَنْ زَوَّجَ اللَّهُ كَسَاهُ اللَّهُ تَاجَ الْمُلْكِ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد، حدثني أبو مَرْحُومٍ، عن سهل بن معاوية بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، حَتَّى يُخِيرَهُ مِنْ أَيْ الْحُورِ شَاءَ». ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سعيد بن أبي أيوب، به. وقال الترمذي: حسن غريب.

حديث آخر: قال: عبد الرزاق: أخبرنا داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن رجل من أهل الشام - يقال له: عبد الجليل - عن عم له، عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً، وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً». رواه ابن جرير.

حديث آخر: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، أخبرنا يحيى بن أبي طالب، أخبرنا علي بن عاصم، أخبرني يونس بن عبيد عن الحسن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ كَظَمَهَا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ». وكذا رواه ابن ماجه عن بشر بن عمر، عن حماد بن سلمة، عن يونس بن عبيد، به، فقله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ. ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، أي: مع كف الشر يعفون عن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان. وفي الحديث: «ثَلَاثٌ أَسْمَى عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ». وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القرشي، عن عبادة بن الصامت، عن أبي بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يُشْرَفَ له البنيان، وترفع له الدرجات فَلْيَتَغَبَّ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويعط من حرمه، ويصبل من قطعه». ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقد أورده ابن مردويه من حديث علي، وكعب بن عجرة، وأبي هريرة، وأم سلمة، بنحو ذلك. وروى عن طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ يَقُولُ: أَيُّنَ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ؟ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَخُذُوا أَجُورَكُمْ، وَحَقَّ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ مَسْلَمٍ إِذَا عَفَا أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام بن يحيى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا، فَلَعِمَ أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي عَمِلَ أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَتَمَلَّ مَا شَاءَ». أخرجه في الصحيح من حديث إسحاق بن أبي طلحة، بنحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المَدَلَّة - مولى أم المؤمنين - سمع أبا هريرة، قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتنا أعجبتنا الدنيا وشجعنا النساء والأولاد، فقال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْفِهِمْ، وَلَزَّازَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْبِنُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِعَورٍ يُذْبِنُونَ كَيْ يُغَيِّرَ لَهُمْ». قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَيْسَتْ دَهَبٌ، وَلَيْسَتْ فِضَّةً، وَمَلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَانُهَا اللَّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الرُّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنَعَمُ وَلَا يَأْسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْتَنُ شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَا تُصْرِنُكَ وَلَوْ بَعْدَ جِينٍ». ورواه الترمذي وابن ماجه، من وجه آخر عن سعد، به. ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا وكيع، حدثنا يسعر، وسفيان - هو الثوري - عن عثمان بن المغيرة الثقفي، عن علي بن ربيعة، عن أسماء بن الحكم الفزاري، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً تفنني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استخلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْبِنُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ - الْوُضُوءَ - قَالَ مِسْعَرٌ: فَيُصَلِّي. وَقَالَ سَفِيَانٌ: ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ - فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ﷻ إِلَّا عَفَرَ لَهُ».

كذا رواه علي بن المَدِينِي، والحَمِيدِي وأبو بكر بن أبي شيبة، وأهل السنن، وابن جِبَّان في صحيحه والبخاري، من طرق، عن عثمان بن المغيرة، به. وقال الترمذي: هو حديث حسن. وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى في مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وبالجملة فهو حديث حسن، وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن خليفة النبي ﷺ أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ: فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه توضع لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدُثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين. وقد قال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: بلغني أن إبليس حين نزلت: ﴿وَالذِّكْرُ إِذَا قَمَعُوا فَجِئَتْهُ أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، بكى. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُخْرِز بن عَزْرَن، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نُصَيْرَةَ عن أبي رجاء، عن أبي بكر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَأَثَرُوا مِنْهُمَا، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَلَمَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ أَهْلَكْتَهُمْ بِالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ». عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان.

وروى الإمام أحمد في مسنده، من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبي الهيثم العنبري، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا أَزَالُ أَعْرِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ». فَقَالَ اللَّهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَلَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمر بن أبي خليفة، سمعت أبا بَدْرٍ يحدث عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أَذْنِبْتُ ذَنْبًا، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَذْنِبْتَ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ». قال: فإني أستغفر، ثم أعود فأذنب. قال: «فَإِذَا أَذْنِبْتَ قَعُدْ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ». فقالت في الرابعة فقال: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَحْسُورُ». وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقوله: «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟» أي: لا يغفرها أحد سواه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مُصََّب، حدثنا سلام بن مسكين، والمبارك، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيح؛ أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ». وقوله: «وَلَمْ يَصِرُوا عَلَيَّ مَا قَمَعُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟» أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله، في مسنده: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره قالوا: حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الجُمَانِي، عن عثمان بن واقد عن أبي نُصَيْرَةَ، عن مولى لأبي بكر،

عن أبي بكر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصْرُ مَنْ اسْتَعْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً». ورواه أبو داود، والترمذي، والبرزاري في مسنده، من حديث عثمان بن واقد - وقد وثقه يحيى بن معين - به، وشيخه أبو نصيرة الواسطي واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد وابن حبان. وقول علي بن المديني والترمذي: ليس إسناد هذا الحديث بذلك، فالظاهر وإنما هو لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تنصر؛ لأنه تابعي كبير، وكفيه نسبه إلى أبي بكر الصديق، فهو حديث حسن، والله أعلم. وقوله: «وَهُمْ يَمْلِكُونَ»: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: «وَهُمْ يَمْلِكُونَ» أن من تاب تاب الله عليه. وهذا كقوله تعالى: «أَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» [التوبة: ١٠٤]، وكقوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جداً. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أخبرنا جرير، حدثنا حبان - هو ابن زيد الشَّرْعَبِيِّ - عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال - وهو على المنبر -: «أَزْحَمُوا تَرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَبَلِّغُوا لَأَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ، وَبَلِّغُوا لِلْمُصْرَبِينَ الَّذِينَ يُصْرَبُونَ عَلَيَّ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». فتردد به أحمد، رحمه الله. ثم قال تعالى - بعد وصفهم بما وصفهم به -: «أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن تَزَيَّجْتُمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَحَسَبَتْ» أي: جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله وجنات تجري من تحتها الأنهار» أي: من أنواع المشروبات «خَلِيدِينَ فِيهَا» أي: ماكينين فيها «وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ» يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [١٣٧] هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَاتَّبِعُوا الْأَعْلُونَ إِنَّ كُفْرًا مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَلْعَنُ اللَّهُ الَّذِينَ أَنَاغَاؤُكُمْ وَيَسْحَقُ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّا بَلَغَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلَكُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقُتل منهم سبعون: «قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين؛ ولهذا قال: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ». ثم قال: «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ» يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم «وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ» يعني: القرآن فيه حَبْرٌ ما قبلكم و «هُدًى» لقلوبكم و «مَوْعِظَةٌ» أي: زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال مسلماً للمؤمنين: «وَلَا تَهْتُوا» أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى «وَلَا تَحْزَنُوا وَاتَّبِعُوا الْأَعْلُونَ إِنَّ كُفْرًا مُّؤْمِنِينَ» أي: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون. «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ»، أي: إن كنتم قد أصابكم جراح وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» أي: تُدبِل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا في ذلك من الحكم؛ ولهذا قال تعالى: «وَيَلْعَنُ اللَّهُ الَّذِينَ أَنَاغَاؤُكُمْ» قال ابن عباس: في مثل هذا النَّزْي، أي: من يصبر على مناجزة الأعداء «وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» يعني: يُقتلون في سبيله، وَيَبْدُلُونَ مُهْجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ. «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَيَلْحَسُ اللَّهُ الَّذِينَ أَنَاغَاؤُكُمْ» أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصابوا به، وقوله: «وَيَسْحَقُ الْكَافِرِينَ» أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا ويطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومخافتهم وفنائهم. ثم قال: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّا بَلَغَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلَكُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْفَاسِقِينَ» أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلُوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ سَمَّيْنَاهُمُ الْبَاسِقِينَ وَالشَّرَّةَ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِمْ قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ جَاهَلَكُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْفَاسِقِينَ» [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: «الْعَرَبُ أَحْسَبُ النَّاسِ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا إِنَّا نَدْعُوا اللَّهَ وَأَن نَّقُولَ مَا نَحْنُ بِعَالِمِينَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» [التكوير: ١-٣]؛ ولهذا قال ههنا: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّا بَلَغَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلَكُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْفَاسِقِينَ» أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلُوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء. وقوله: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ» أي: قد كنتم - أيها المؤمنون - قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحرقون عليهم، وتودون مناجرتهم ومصابتهم، فما قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَأَلُوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». ولهذا قال: «فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ» يعني: الموت شاهدتموه في لمعان السيوف وحد الأمانة واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال. والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس

بمحسوس كالمحسوس، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ آيَاتُنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِيَاذِنِ اللَّهِ كِنْتَا مُؤَجَّلًا وَمَنْ رُذِ قَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ رُذِ قَوَابِ الآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبُّيُونَ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنِيبَتِ أَعْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ قَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ قَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. ورجع ابن قميصة إلى المشركين فقال لهم: قتل محمد. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشق في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. قال ابن أبي نجيج، عن أبيه، أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمداً ﷺ قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة. ثم قال تعالى منكرأ على من حصل له ضعف: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً. وكذلك ثبت في الصحاح والمسند والسنن، وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك في مُسْنَدِي الشَّيْخِينَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رضي الله عنهما؛ أن الصديق - رضي الله عنه - تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقَيْلٍ عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة؛ أن عائشة، رضي الله عنها، أخبرته أن أبا بكر، رضي الله عنه، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْحِ حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيَّم رسول الله ﷺ وهو مغشى بشوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي. والله لا يجمع الله عليك مؤتئين؛ أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها. وقال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يُحدِّث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبي عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمرَ، فقال أبو بكر: أما بعد، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدِ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها. وأخبرني سعيد بن المُسَيَّبِ أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقَرْتُ حتى ما تَقَلَّنِي رَجُلَايَ، وحتى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القنَاد، حدثنا أسباط بن نصر، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن علياً كان يقول في حياة رسول الله: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، والله لا تنقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إنني لأخوه، ووليه، وابن عمه، ووارثه فمن أحق به مني؟. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِيَاذِنِ اللَّهِ كِنْتَا مُؤَجَّلًا﴾ أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كِنْتَا مُؤَجَّلًا﴾، كقوله: ﴿وَمَا يَمُتُّ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَوَّىٰ أَجْلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الانعام: ٢٧]. وهذه الآية فيها تشجيع للجنَّاء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا يتقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدي قال: سمعت أبا معاوية، عن الأعمش، عن حبيب بن ضُهَيْبَانَ، قال: قال رجل من المسلمين - وهو حجر بن عدي -: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو، هذه النقطة؟ - يعني دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِيَاذِنِ اللَّهِ كِنْتَا مُؤَجَّلًا﴾، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا: ديوان، فهربوا. وقوله: ﴿وَمَنْ رُذِ قَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ رُذِ قَوَابِ الآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا كما قال: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْتَ الآخِرَةِ زِدْ لَمْ فِي حَرْبِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْتَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ

يُرِيدُ الْمَسَاجِدَ عَلَّمْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ فَذُرْ حَتَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٤٩﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهكذا قال ههنا: ﴿وَسَجَرِي الشَّكْرِينَ﴾ أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم. ثم قال تعالى - مسلماً للمسلمين عما كان وقع في نفوسهم يوم أُحد -: ﴿وَكَايِنِ بِنِيبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَيْدٍ﴾، قيل: معناه: كم من نبي قُتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، فإنه قال: وأما الذين قرؤوا: ﴿قتل معه ربيون كثير﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عن بقي من الربيين ممن لم يقتل.

قال: ومن قرأ ﴿قَتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال: لو قتلوا لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قتل معه ربيون كثير﴾؛ لأن الله تعالى عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أُحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: «إن محمداً قد قتل». فعذلم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتدتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير. وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قال: أي وكأين من نبي أصابه القتل، ومعه ربيون، أي: جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْعَاصِمِينَ﴾. فجعل قوله: ﴿مَعَهُ رَيْثُونَ كَيْدٍ﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه، وله اتجاه لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ الآية، وكذلك حكاها الأموي في مغازيه، عن كتاب محمد بن إبراهيم، ولم يقل غيره. وقرأ بعضهم: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَيْدٍ﴾، قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود ﴿رَيْثُونَ كَيْدٍ﴾، أي: ألوف. وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وعطاء الخراساني: الربيون: الجموع الكثيرة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن الحسن: ﴿رَيْثُونَ كَيْدٍ﴾ أي: علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار أقياء. وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: أن الربيين هم الذين يعبدون الرب، ﷻ، قال: ورد بعضهم عليه قال: لو كان كذلك لقليل ربيون، بفتح الراء. وقال ابن زيد: «الربيون: الأتباع، والرعية، والربايون: الولاة». ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله. وقال ابن عباس: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: نخسعوا. وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم. وقال محمد بن إسحاق، وقتادة والسدي: أي ما أصابهم ذلك حين قُتل نبيهم. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْعَاصِمِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَبِحَبْلِكَ أَصْرَنَا وَأَنْصِرْنَا عَلَى قَوْمِنَا الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ أي: لم يكن لهم هجيري إلا ذلك. ﴿فَاتْلُوهُمْ اللَّهُ تَوَابًا لَدُنِّي﴾ أي: النصر والظفر والعاقبة ﴿وَحَسَنُ تَوَابٍ الْآخِرَةِ﴾ أي: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَدْرُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥٨﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْمُتَصَرِّينَ ﴿١٥٩﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ بِهِ سُلْطَنًا وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَجَسٌ ﴿١٦٠﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَخَضَعْتُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرْسَلْنَاكُمْ عَنْهُمْ لِبَنَاتِكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ تُبْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوَابِكُمْ فَاتَّبِعْتُمْ عَنْهَا يَصُورُ لَكُمُ الْيَوْمَ كَيْدًا تَحَرَّوْا عَلَىٰ مَا قَاتَلْتُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَكْمُلُونَ ﴿١٦٢﴾.

يحذر تعالى عبادة المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَدْرُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. ثم أمرهم بطاعته وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْمُتَصَرِّينَ﴾ ﴿١٥٩﴾. ثم بشرهم بأنه سيقبض في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والثكال، فقال: ﴿سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ بِهِ سُلْطَنًا وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَجَسٌ﴾ ﴿١٦٠﴾. وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتم خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرغب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأجّلت لي العنائب، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة يبعث إلى الناس عامة». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان - يعني التيمي - عن سيار، عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«فَضَّلَنِي رَبِّي عَلَى الْإِنْبِيَاءِ - أَوْ قَالَ: عَلَى الْأُمَّمِ - بِأَرْبَعٍ» قَالَ: «أُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَأَنَّهُ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ كُلَّهَا وَلَأُمَّتِي مَسْجِدًا وَطَهْرًا فَأَيْتِمَا أَذْرَكَتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي الصَّلَاةَ فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهْرُهُ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْدُفُهُ فِي قُلُوبِ أَغْدَانِي وَأَحْلَ لِي الْغَنَائِمِ». ورواه الترمذي من حديث سليمان التيمي، عن سَيَّارِ الْقُرَشِيِّ الْأُمَوِيِّ مَوْلَاهُم الدَّمَشْقِيُّ - سَكَنَ الْبَصْرَةَ - عَنْ أَبِي أَمَامَةَ صُدِّيِّ بْنِ عَجْلَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ. وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ: أَنَّ أَبَا يُونُسَ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّغَبِ عَلَى الْعَدُوِّ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي بُرْذَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجُعِلْتُ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَجَلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّغَبِ شَهْرًا، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَلَيْسَ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا». فَتَرَدَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وروى العوفي، عن ابن عباس في قوله: «سَلِّقُوا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغَبَ»، قَالَ: قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِ أَبِي سَفِيَانَ الرَّعْبِ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرْفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّغَبَ». وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّه إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَعَدَّهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ. وَقَدْ يَسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْمَتَقَدِّمِينَ فِي قَوْلِهِ: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِكُلِّ مَلَكَةٍ مَلَائِكَةً مُزَلِّينَ ﴿١٧٦﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَأَتَوْكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا يَتُودَّكُمْ رَبُّكُمْ بِحَسَنَةِ مَلَكَةٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ سَمُوِّينَ ﴿١٧٧﴾» أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ لِأَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مَّقَاتِلَ، فَلَمَّا وَاجَهُوهُم كَانَ الظَّفَرُ وَالنَّصْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْإِسْلَامِ، فَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنَ عَصِيانِ الرُّمَاءِ وَفَشَلِّ بَعْضِ الْمَقَاتِلَةِ، تَأَخَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي كَانَ مُشْرُوطًا بِالثَّيَابِ وَالطَّاعَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّه» أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ «إِذْ تَحْسُونَهُمْ» أَي: تَقْتُلُونَهُمْ «بِإِذْنِهِ» أَي: بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ «حَتَّى إِذَا فَشَلَّتْكُمْ مَا تَحْسَبُونَ» وَهُوَ الظَّفَرُ مِنْهُمْ، «مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا» وَهِيَ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ «وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَكَّنَّاكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» ثُمَّ أَدَالَهُمْ عَلَيْكُمْ لِيخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» أَي: غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِكثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعَدَدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ»، قَالَ: لَمْ يَسْتَصَلِّكُمْ. وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا نَصَرَ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أَحَدٍ. قَالَ: فَانْكُرْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي يَوْمِ أَحَدٍ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّه إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ»، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْحَسَنُ: الْقَتْلُ. «حَتَّى إِذَا فَشَلَّتْكُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مَن بَعْدَ مَا أَرْسَلْنَا مَا تَحْسَبُونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» الْآيَةُ، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الرُّمَاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَهُمْ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ قَالَ: «اخْمُوا ظَهْرُونَ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتُلُ فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنَيْتُمَا فَلَا تَشْرِكُونَا». فَلَمَّا غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبَاحُوا عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ أَكْبَتِ الرُّمَاءَ جَمِيعًا وَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْهَبُونَ، وَلَقَدْ التَقَتِ صَفُوفُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَمَّ هَكَذَا - وَشَبِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ - وَانْتَشَبُوا، فَلَمَّا أَخْلَ الرَّمَاةُ تِلْكَ الْحَلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، دَخَلَتْ الْخَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَضْرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالتَّبَسَّوْا، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ كَانَ النَّصْرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ، حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ وَلَمْ يَلْبِغُوا - حَيْثُ يَقُولُ النَّاسُ - الْغَارَ، إِنَّمَا كَانَ تَحْتَ الْجَهْرَاسِ، وَصَاحَ الشَّيْطَانُ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَلَمْ يُشَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشُكُّ أَنَّهُ حَقٌّ، حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدِينَ، نَعْرِفُهُ بِتَلْفَتِهِ إِذَا مَشَى - قَالَ: فَفَرَحْنَا حَتَّى كَانَهُ لَمْ يَصْبِنَا مَا أَصَابَنَا - قَالَ: فَزَوَّيْنَا نَحُونًا وَهُوَ يَقُولُ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمِ دَمَوًا وَجَعَتْ رُسُولُ اللَّهِ». وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهْمٌ أَنْ يَغْلُونَا». حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَمَكَّتْ سَاعَةً، فَإِذَا أَبُو سَفِيَانَ يَصِيحُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ: اغْلُ هَبْلَ، مَرَّتَيْنِ - يَعْنِي آلِهَتَهُ - ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ ابْنُ ابْنِ أَبِي قَحَافَةَ؟ ابْنُ ابْنِ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَحْبَبِيهِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: فَلَمَّا قَالَ: اَعْلُ هَبْلَ. قَالَ عُمَرُ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ. فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ: قَدْ أَنْعَمْتَ عَيْنَهَا فَعَادَ عَلَيْهَا، أَوْ: فَعَالَ! فَقَالَ: ابْنُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ؟ ابْنُ ابْنِ أَبِي قَحَافَةَ؟ ابْنُ ابْنِ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَذَا أَنَا ذَا عُمَرَ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ:

يوم بيوم بدر، الأيام دُول، وإن الحرب سيجال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال: إنكم تزعمون ذلك، لقد جئنا إذاً وحسينا ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون في قتلاكم مثله، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا. قال: ثم أدركته حجة الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نكرهه. هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مراسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أهدأ ولا أبوه. وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي الثضر الفقيه، عن عثمان بن سعيد، عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، من حديث سليمان بن داود الهاشمي، به. ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها، فقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبي، عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلف المسلمين، يُجهزون على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿يَنْصُرُكُمْ مِّنْ يُرِيدُ أَلَدُنَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرْكُومٌ عَنَّمْ يَتَّبِعُكُمْ﴾ فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعصوا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقوه قال: ﴿رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا﴾. قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه أيضاً قال: ﴿رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا﴾. فلم يزل يقول ذا حتى قُبل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ﴿مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا﴾.

فجاء أبو سفيان فقال: اغلُ هُبُلُ. فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجْلُ﴾. فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَمْ يُولُوا لَهُمْ»﴾. ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، يوم علينا ويوم لنا، ويوم نساء ويوم نسر. حَظَلَّةٌ بِحَنْظَلَّةٍ، وفلان بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَا سَوَاءَ. أَمَا قَتَلْنَا فَأَخْيَاءَ يُزْقُونَ، وَقَتَلْنَاكُمْ فِي النَّارِ يَمْدُوبُونَ﴾. قال أبو سفيان: قد كان في القوم مثله، وإن كانت لعن غير ملامنا، ما أمرت ولا نهيت، ولا أخببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سررتني. قال: فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَكَلْتُ شَيْئًا؟﴾ قالوا: لا. قال: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةٍ فِي النَّارِ﴾. قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه، فرفع الأنصاري وترك حمزة، ثم جيء بأخر فوضعه إلى جنب حمزة فصلى عليه، ثم رفع وترك حمزة، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة. تفرد به أحمد أيضاً. وقال البخاري: حدثنا غيبد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق: عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جنباً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله - يعني ابن جبير - وقال: ﴿لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعَيِّنُونَا﴾. فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله: عهد إلي النبي ﷺ ألا تَبْرَحُوا. فأبوا، فلما أبوا صرّف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: ﴿لَا تُجِيبُوهُ﴾. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: ﴿لَا تُجِيبُوهُ﴾. فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قد أبقي الله لك ما يحزنك. فقال أبو سفيان: اغلُ هُبُلُ. فقال النبي ﷺ: ﴿أَجِيبُوهُ﴾. قالوا: ما نقول؟ قال: ﴿قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ﴾. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني. تفرد به البخاري من هذا الوجه، ثم رواه عن عمرو بن خالد، عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق، عن البراء، بنحوه. وسياقياً بأبسط من هذا. وقال البخاري أيضاً: حدثنا غيبد الله بن سعيد، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَخْرَاكُم. فَرَجَعَتْ أَوْلَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ، فَبَصُرَ حُدَيْفَةَ فإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ، فَقَالَ: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَبِي أَبِي. قَالَ: قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا اخْتَجَرُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ. قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي حُدَيْفَةَ بَقِيَّةٌ خَيْرٍ حَتَّى لَقِيَ اللَّهُ ﷻ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ الزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي أَنْظُرَ إِلَى خَدَمِ هِنْدَ وَصَوَاحِبَاتِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبٍ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٍ وَلَا قَلِيلٍ، وَمَالَتْ الرُّمَاءُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ، يَرِيدُونَ النَّهْبَ وَخَلُّوا ظَهْرَنَا لِلخَيْلِ فَاتَّتْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وَصَرَخَ صَارِخٌ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَانْكَفَأْنَا وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللُّوَاءِ، حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمْ يَزَلْ لُؤَاءُ الْمُشْرِكِينَ صَرِيعًا، حَتَّى أَخَذَتْهُ عَمْرَةَ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةُ، فَدَفَعَتْهُ لِقْرِيشَ فَلَاثُوا بِهِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَ فِيْنَا مَا نَزَلَ يَوْمَ أَحَدٍ ﴿يَنْصُرُكُمْ مِّنْ يُرِيدُ أَلَدُنَا وَمِنْكُمْ مَّنْ

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٤٩﴾. وقد رُوِيَ من غير وجه عن ابن مسعود، وكذا رُوِيَ عن عبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة، وراهن ابن مَرْزُوقٍ في تفسيره. وقوله: ﴿كَمْ مَكَرَكُم مِّنْهُمْ يَتَّبِعُكُمْ﴾ قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، أخذ بني عدِي بن النجار قال: انتهى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَمَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيدالله، في رجال من المهاجرين والأنصار، قد أَلْفَوْا بِأَيْدِيهِمْ فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القَوْمَ فقاتل حتى قُتِلَ. وقال البخاري: حدثنا حسان بن حسان، حدثنا محمد بن طلحة، حدثنا حُمَيْدٌ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أن عمه - يعني أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - غاب عن بدر فقال: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِيُنْ أَسْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَجِدُ فَلَقِي يَوْمَ أَحَدٍ، فَهَزَمَ النَّاسُ، فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يعني المسلمين - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَيُّنَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ. فَمَضَى فُقُتِلَ، فَمَا عَرَفَ حَتَّى عَرَفْتَهُ أَخْتَهُ بَيْنَانَهُ بِشَامَةٍ، وَبِهِ بَضْعٌ وَثْمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِسَهْمٍ.

هذا اللفظ البخاري وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أَنَسِ، بنحوه. وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبدان، أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَبٍ قال: جاء رجل حج البيت، فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القَمُودُ؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عَمْرٍ. فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء فحدثني. قال: أتشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيّب عن بدر فلم يشهدا؟ قال: نعم. قال: نعم. قال: فكبر، فقال ابن عمر: تَعَالَى لَأَخْبِرَكَ وَلَأَبَيِّنَ لَكَ عَمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيّبه عن بدر فإنه كان تحته بنتُ النبي ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ». فضرب بها على يده، فقال: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ» أَذْهَبَ بِهَا الْآنَ مَعَكَ. ثم رواه البخاري من وجه آخر عن أبي عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب. وقوله: ﴿إِذْ تُصَيِّرُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: صرفكم عنهم ﴿إِذْ تُصَيِّرُونَ﴾ أي: في الجبل هاربين من أعدائكم. وقرأ الحسن وقتادة: ﴿إِذْ تُصَيِّرُونَ﴾ أي: في الجبل ﴿وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿وَأَرْسَلُوا يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ﴾ أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة. قال السُّدِّي: لما شدَّ المشركون على المسلمين بأحد فهزم موهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ». فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال: ﴿إِذْ تُصَيِّرُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَرْسَلُوا يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ﴾. وكذا قال ابن عباس، وقتادة والربيع، وابن زيد. وقد قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد في قصيدته - وهو مشرك بعد لم يسلم - التي يقول في أولها:

إِنَّمَا تَنُطِئُ شَيْئاً قَدْ فُعِلَ
وَكَلَّا ذَلِكَ وَجْهَهُ وَقَبَلُ

يَا غُرَابَ السَّبْيِينَ أَسْمَفْتَ قُتِلَ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَاللشَّرِ مَدَى
إلى أن قال:

جَزَعَ الْخِزْرَجَ مَنْ وَقَعَ الْأَسْلُ
وَاسْتَحْرَ الْقَتْلَ فِي عِبْدِ الْأَسْلِ
رَقِصَ الْحَفَّانَ يعلو في الجبيل
وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاغْتَدَلْ

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدْرِ شَهْدُوا
حِينَ حَكَّتْ بِقُبَاءِ بَرْكَهَا
ثُمَّ خَفُوا عِنْدَ ذَاكُم رُقُصَا
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ

الحفان: صغار النعم. وقد كان النبي ﷺ قد أفرّد في اثني عشر رجلاً من أصحابه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زُهَيْرٌ، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جُبَيْرٍ قال: ووضعهم موضعاً وقال: «إِنَّ زَائِمُونَا تَحَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَانَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ قال: فهزم موهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل، وقد بدت أسوفهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال

عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لتأتين الناس فلتُصَيِّبَنَّ من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفي القوم محمداً؟ أفي القوم محمداً؟ - ثلاثاً - قال: فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي حَفَافَةَ؟ أفي القوم ابن أبي حَفَافَةَ؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، قد كُفِّمُوهُ. فما ملك عَمْرُ نَفْسَهُ أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عَدَدْتَ لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. فقال: يوم بيوم بدر، الحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلاً لم أمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز، يقول: اعلِّ هُبَيْلٌ، اعلِّ هُبَيْلٌ. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تُجِيبُوهُ؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: اللّهُ أعلى وأجل». قال: لنا العُزَّى ولا عُرَى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تُجِيبُوهُ؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: اللّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُنْمُ». وقد رواه البخاري من حديث زهير بن معاوية مختصراً، ورواه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق بأبسط من هذا، كما تقدم. والله أعلم. وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزّية، عن أبي الزبير، عن جابر قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد الجبل، فليقهم المشركون، فقال: «ألا أحدٌ لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «كَمَا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ». فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتِلَ الأنصاري فلحقوه فقال: «ألا زَجُلٌ لهؤلاء؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه وأصحابه يصعدون، ثم قتل فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول طلحة: فأنا يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له، فيقاتل مثل من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فَعَسَوْهُمَا، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا. فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصببت أنامله، فقال: حس، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: بِاسْمِ اللّهِ، وَذَكَرْتُ اسْمَ اللّهِ، لَرَفَعْتُكَ الملائكة والناس يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، حَتَّى تَلْجَ بِكَ فِي جَوْ السَّمَاءِ»، ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون. وقد روى البخاري، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يعني يوم أحد. وفي الصحيحين من حديث مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن أبي عثمان التَّهْدِي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام، التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما. وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما زهقوه قال: «مَنْ يَزِدُهُمْ عَنَّا وَهُوَ الْجَنَّةُ - أو: وَهُوَ رَيْفِي فِي الْجَنَّةِ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم زهقوه أيضاً، فقال: «مَنْ يَزِدُهُمْ عَنَّا وَهُوَ الْجَنَّةُ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا». رواه مسلم عن هُدَبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، به نحوه. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن هاشم بن هاشم الزهري، قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: نثّل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال: «ازمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

وأخرجه البخاري، عن عبد الله بن محمد، عن مروان بن معاوية. وقال محمد بن إسحاق: حدثني صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، عن سعد بن أبي وقاص؛ أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني الثَّبَلُ ويقول: «ازمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل، فأرمي به. وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن جده، عن سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام. وقال أبو الأسود، عن عروة بن الزبير قال: كان أُبَيُّ بن خَلْفٍ، أخو بني جَمَحٍ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حَلْفَتُهُ قال: «بَلِّ أَنَا أَقْتَلُهُ، إِنْ شَاءَ اللّهُ». فلما كان يوم أحد أقبل أُبَيُّ في الحديد مَقْتَعًا، وهو يقول لا تَجُوزْ إن نجا محمد. فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مُضْعَبُ بن عَمِيرٍ، أخو بني عبد الدار، بقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوةَ أَبِي بن خلف من فَرْجَةٍ بين سابعة الدرع والبيضة، وطعنه فيها بحرته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، لم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتلموه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أَنَا أَقْتَلُ أُبَيًّا». ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي

بأهل ذي المَجَاز لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ. فَمَاتَ إِلَى النَّارِ، فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ. وَقَد رَوَاهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي مَغَازِيهِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمَسَيْبِ بِنَحْوِهِ. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: لَمَّا أَسْنَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الشَّعْبِ، أَدْرَكَهُ أَبِي بِنِ خَلْفٍ وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَجُوتُ إِلَّا نَجُوتُ فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْطِفُ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ» فَلَمَّا دَنَا تَنَاولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَرَبِيَّةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصَّمَّةِ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ كَمَا ذَكَرْتُ: فَلَمَّا أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ انْتَفَضَ بِهَا انْتِفَاضًا، تَطَايَرْنَا عَنْهُ تَطَايِيرَ الشَّعْرِ عِنَ ظَهْرِ الْبَعِيرِ إِذَا انْتَفَضَ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَعَنَهُ فِي عُنُقِهِ تَدَادًا مِنْهَا عَنِ فَرْسِهِ مَرَارًا. وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ، عَنِ يُونُسَ بْنِ بَكِّيرٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ قَتَادَةَ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ أَبِيهِ نَحْوَ ذَلِكَ. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ ابْنُ عَمْرِو يَقُولُ: مَاتَ أَبِي بِنِ خَلْفٍ بِيَطْنِ رَابِعٍ، فَإِنِّي لِأَسِيرٍ بِيَطْنِ رَابِعٍ بَعْدَ هَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ إِذَا أَنَا بِنَارِ تَأْخِيجٍ، فَهَبْتَهَا، فَإِذَا رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْهَا فِي سِلْسَلَةٍ يَجْتَنِبُهَا يَهِيِجُ بِهِ الْعَطَشُ، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: لَا تَسْقَهُ، فَإِنَّ هَذَا قَتِيلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هَذَا أَبِي بِنِ خَلْفٍ.

وَبُثِّبَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّزَاقِ، عَنِ مَعْمَرٍ، عَنِ هَمَّامِ بْنِ مُنْبِهٍ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - وَهُوَ حَيْثُ ذُكِرَ إِلَيْهِ رِبَاعِيَّةٌ - اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنِ عَكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بِيَدِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَعَمُوا وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: أَصَبِيَّتُ رِبَاعِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَجَّ فِي وَجْهِهِ، وَكَلِمَتُ شَفْتَهُ، وَكَانَ الَّذِي أَصَابَهُ عَتَبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ. فَحَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: مَا حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ قَطُّ مَا حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْتَهُ لِسِيءِ الْخُلُقِ، مُبْتَغِضًا فِي قَوْمِهِ، وَلَقَدْ كَفَّانِي فِيهِ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». وَقَالَ عَبْدِ الرَّزَاقِ: أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَثْمَانَ الْجَزْرِيِّ، عَنِ مَقْسَمٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَى عَتَبَةَ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ كَسَرَ رِبَاعِيَّةً وَدَمَى وَجْهَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَحِلَّ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى يَمُوتَ كَافِرًا». فَمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى مَاتَ كَافِرًا إِلَى النَّارِ. ذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي سَبْرَةَ، عَنِ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَرْوَةَ، عَنِ أَبِي الْخُوَيْرِثِ، عَنِ نَافِعِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يَقُولُ: شَهِدْتُ أُحُدًا فَنَظَرْتُ إِلَى الثَّبَلِ يَأْتِي مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطَهَا، كُلُّ ذَلِكَ يُضْرَفُ عَنْهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَهَابِ الزُّهْرِيَّ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ: ذُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، لَا تَجُوتُ إِلَّا نَجَا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنْبِهِ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ جَاوَزَهُ، فَعَاتَبَهُ فِي ذَلِكَ صَفْوَانَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ، أَحْلَفَ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنْهُ مَمْنُونٌ. خَرَجْنَا أَرْبَعَةً فَنَعَاهَدْنَا وَتَعَاهَدْنَا عَلَى قَتْلِهِ، فَلَمْ نَخْلُصْ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: الثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّ الَّذِي رَمَى فِي وَجْهِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ قَمِيئَةَ، وَالَّذِي دَمَى شَفْتَهُ وَأَصَابَ رِبَاعِيَّةً عَتَبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنِ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عَيْسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ: ذَاكَ يَوْمَ كُلِّهِ لَطْلَحَةٌ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْدِثُ قَالَ: كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَهِ - وَأَرَاهُ قَالَ: حَمِيَّةٌ قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْنَ طَلْحَةُ، حَيْثُ فَاتَنِي مَا فَاتَنِي، فَقُلْتُ: يَكُونُ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ، وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ، وَهُوَ يَخْطِفُ الْمَشِيَّ خَطْفًا لَا أَحْفَظُهُ، فَإِذَا هُوَ أَبُو عَيْبَةَ بْنِ الْجِرَاحِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَقَدْ كَسَرَتْ رِبَاعِيَّةً وَشَجَّ فِي وَجْهِهِ، وَقَدْ دَخَلَ فِي وَجْهِهِ حَلْقَتَانِ مِنَ حَلْقِ الْجَمْفَرِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْمَا صَاحِبَكُمَا». يَرِيدُ طَلْحَةَ، وَقَدْ نَزَفَ، فَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَى قَوْلِهِ، قَالَ: وَذَهَبَتْ لِأَنَّ أَنْزَعَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ أَبُو عَيْبَةَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَّا تَرَكْتَنِي. فَتَرَكْتَهُ، فَفَكَرَ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا بِيَدِهِ فَيُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ، فَأَزَمَ عَلَيْهَا بِفِيهِ فَاسْتَخْرَجَ إِحْدَى الْحَلْقَتَيْنِ، وَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ مَعَ الْحَلْقَةِ، وَذَهَبَتْ لِأَصْنَعُ مَا صَنَعُ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَّا تَرَكْتَنِي، قَالَ: فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ الْأُخْرَى مَعَ الْحَلْقَةِ، فَكَانَ أَبُو عَيْبَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحْسَنَ النَّاسِ هُنَا، فَأَصْلَحْنَا مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ فِي بَعْضِ تَلْكَ الْجِفَارِ، فَإِذَا بِهِ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ أَقْلَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَّةٍ وَضْرِبَةٍ، وَإِذَا قَدْ قَطَعَتْ إِصْبَعُهُ، فَأَصْلَحْنَا مِنْ شَأْنِهِ. وَرَوَاهُ الْهَيْشَمُ بْنُ كَلْبٍ، وَالطَّبْرَانِيُّ، مِنْ حَدِيثِ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى بِهِ. وَعِنْدَ الْهَيْشَمِ: فَقَالَ أَبُو عَيْبَةَ: أَنْشَدُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلا تَرَكْتَنِي؟ فَأَخَذَ أَبُو عَيْبَةَ السَّهْمَ بِفِيهِ، فَجَعَلَ يُنْضِضُهُ كِرَاهِيَةً أَنْ يُؤْذِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَلَّ السَّهْمَ بِفِيهِ فَبَدَرَتْ ثَنِيَّةُ أَبِي عَيْبَةَ. وَذَكَرَ تَمَامَهُ، وَاخْتَارَهُ الْحَافِظُ الضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِهِ. وَقَدْ ضَمَّنَّفَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ جِهَةِ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى هَذَا، فَإِنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَّانِ، وَأَحْمَدُ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَالْبُخَارِيُّ، وَأَبُو زُرْعَةَ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ

سعد، والنسائي وغيرهم. وقال ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث: أن عمر بن السائب حدثه: أنه بلغه أن مالكا أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض، فقيل له: مُجَه. فقال: لا، والله لا أمجه أبدا. ثم أدر يقاتل، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا». فاستشهد. وقد ثبت في الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رِباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالبحن، فلما رأت فاطمة رضي الله عنها أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة خصير فأحرقته، حتى إذا صار رمادا أنصقته بالجرح، فاستمسك الدم. وقوله: ﴿فَأَنْذِكُمْ غَمًّا يَبْسُرَ﴾ أي: فجازاكم غما على غم كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان. قال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَأَلْمَيْتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: ٧١) أي: على جدوع النخل. قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل: قتل محمد ﷺ، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلُونَا». وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول: بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد ﷺ، كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. ورواهما ابن مرفويه، وروي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك. وذكر ابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضاً. وقال السدي: الغم الأول: بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني: بإشراف العدو عليهم. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَأَنْذِكُمْ غَمًّا يَبْسُرَ﴾ أي: كزنا بعد كرب، قتل من قتل من إخوانكم، وعلو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: «قتل نبيكم» فكان ذلك متتابعاً عليكم غما بغم. وقال مجاهد وقاتدة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني: ما أصابهم من القتل والجراح. وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه. وعن السدي: الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم، وقد تقدم هذا عن السدي. قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: ﴿فَأَنْذِكُمْ غَمًّا يَبْسُرَ﴾ فأنابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ. بعد الذي أراكم في كل ذلك ما تحبون - بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر النبي ﷺ، غم ظنكم أن نبيكم قد قتل، وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم ﴿وَلَا مَا أَصَبَكُمْ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن عوف، والحسن، وقاتدة والسدي ﴿وَاللَّهُ حَيِيرٌ يَمَا تَمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدِّ السَّمَاءِ سَاسًا يَتَخَبَّطُونَ فِيهِ وَيَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَيْنَا مِن مَّجَالِحِهِمْ وَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُبَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١١) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى مُثَنَّا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلثموا السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يَفِيقُكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةٌ مِّنْ رَبِّكَ عَلَيْهِمْ سَلَامَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَمَنْ يَلْحَقْكُمْ يَلْحَقْكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَيَتَّبِعُكُم بِإِذْنِ اللَّهِ فَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١١١) وقال الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم ووكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين، عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان. قال البخاري: قال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة، رضي الله عنه، قال: كنت فيمن تشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه. هكذا رواه في المغازي معلقاً. ورواه في كتاب التفسير مُسْتَدًّا عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة قال: غَشِينَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ. قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه، ويسقط وأخذه. وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم، من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يמיד تحت حَجَافَتِهِ مِنَ النَّعَاسِ. لفظ الترمذي، وقال حسن صحيح. ورواه النسائي أيضاً، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن أبي قتيبة، عن ابن أبي عدي، كلاهما عن حميد، عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقى عليه النعاس - الحديث. وهكذا روي عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفي، حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي، حدثنا يونس بن

محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ عِوَجَ الْحَيْزِ طَنَ الْجَبْهَلِيَّةِ﴾ كَذِبَ، أهل شك ورب في الله ﷻ. هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة، رحمه الله، وهو كما قال؛ فإن الله ﷻ يقول: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً مَّاسًا مَّسَا يَتَسَنَّ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله ويُنجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ عِوَجَ الْحَيْزِ طَنَ الْجَبْهَلِيَّةِ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمِ أَبَدًا رَّزَوْتُمْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَطَنَنْتُمْ طَرَفَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [التفح: ١٢٧] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِيهِ أَنفُسُهُمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. قال محمد بن إسحاق بن يسار: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذفته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعْتَبِ بن قشير، ما أسمعُه إلا كالحلم، يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لقول مُعْتَبِ بن قشير. رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: هذا قدر مقدر من الله ﷻ، وحكم حتم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه. وقوله: ﴿وَلَيْبَسَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيَحْصُرَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أي: عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنب ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان، رضي الله عنه، وتولية يوم أحد، وأن الله قد عفا عنهم، عند قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، ومناسب ذكره ههنا. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عاصم، عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عتبة، فقال له الوليد: مالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عَيْنَيْنِ - قال عاصم: يقول يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر. قال: فانطلق فحُخِرَ ذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عَيْنَيْنِ فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد. وأما قوله: «إني لم أترك سنة عمر» فإني لا أطيقها ولا هو، فأنه حدثه بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرُبًا أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥٦) ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمُ كَمَقْرَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحِمَهُ حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧) ﴿وَلَكِنْ مَتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لِرَبِّ اللَّهِ تَضَرُّعٌ﴾ (١٥٨).

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُرُبًا﴾ أي: في الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي: ما ماتوا في السفر ولا قتلوا في الغزو. وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزداد في عُمر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء. وقوله: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمُ كَمَقْرَرَةٍ مِنَ اللَّهِ

وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٩﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله، والموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني. ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجه إلى الله، ﷻ، فيجزيه بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فقال: ﴿وَلَيْنَ لَمُنَّمْ أَوْ قُلْتُمْ لِإِلَهِ اللَّهِ تُخَشِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَوَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْتَفِ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ إن يضرركم الله فلا غالب لكم وإن يخدلكم فمن ذا الذي يضرركم من بعدهم وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَمَّا نَسِيحٌ رَضِيَ اللَّهُ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَاهُ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتٍ يَمَا يُعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكَّعَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينًا ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لجزره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي: أي شيء جعلك لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم. قال قتادة: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. و «ما» صلة، والعربُ تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَّضَهُمُ بَيْتَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] [المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا ههنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي: برحمة من الله. وقال الحسن البصري: هذا خُلِّقَ محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حيوة، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الخُبْراني قال: أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي وقال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا أَمَامَةَ، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ». انفراد به أحمد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، والمراد به ههنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سَخَابَ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي، أنبأنا بشر بن عبيد الدارمي، حدثنا عَمَّارُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن المسعودي، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَاوَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ» حديث غريب.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْتَفِ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَثَ، تطيباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاوهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عَرْضَ الْبَحْرِ لَقَطَعْنَاهُ مَعَكَ، ولو سرت بنا إلى بَرْكِ الْعَمَادِ لَسَرْنَا مَعَكَ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم - أيضا - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعنق ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهؤهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامنذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عُبَادَةَ، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحُدَيْبِيَّةِ في أن يميل على دُرَارِيِ الْمُشْرِكِينَ، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابته إلى ما قال. وقال عليه السلام في قصة الإفك: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ آبَائِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَرُؤُوسِهِمْ، وَإِيَّاهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْتُوهُمْ بِمَنْ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا». واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها. فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطيباً لقلوبهم؟ على قولين. وقد قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف بمصر، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهكذا رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حَوَارِيَّيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ووزيره وأبوي المسلمين. وقد روى الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شَهْرَ بْنِ حَوْشَبٍ، عن عبد الرحمن بن عَثْمَانَ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعنا في مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا».

وروى ابن مَرْدُويه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن العَزْمِ؟ قال: «مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ ثُمَّ اتَّبَاعُهُمْ». وقد قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن شيبان، عن عبد الملك بن عُمر، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». ورواه أبو داود والترمذي، وحسنه، والنسائي، من حديث عبد الملك بن عمير بأبسط منه. ثم قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أسود بن عامر، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني، عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». تفرد به. وقال أيضاً: وحدثنا أبو بكر، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وعلي بن هاشم، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مُسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِيرْ عَلَيْهِ. تفرد به أيضاً. وقوله: ﴿وَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنْ يَصْرِمَكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرِمُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَخَبِّرُوا بِخَبَرِ اللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ١١٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن خُصيف، عن عكرمة عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ أي: يخون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا خُصيف، حدثنا مِقْسَم حدثني ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها. قال فأكثروا في ذلك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ وَمَنْ يَقُولْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وكذا رواه أبو داود، رحمه الله، والترمذي جميعاً، عن قتيبة، عن عبد الواحد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم عن خُصيف، عن مِقْسَم - يعني مرسلاً. وروى ابن مَرْدُويه من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقد، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾. وقد روي من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾: أي: بأن يُقسَم لبعض السرايا ويترك بعضاً. وكذا قال الضحاك. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾: بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته. وقرأ الحسن البصري وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ بضم الياء أي: يخان. وقال قتادة والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غلَّ بعض أصحابه. رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه قرأ هذه القراءة بمعنى يُتهم بالخيانة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُولْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عطاء بن يسار، عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَعْظَمُ الْعُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ: تَجْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعاً، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي الصحيحين عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طَوْفَهُ يوم القيامة من سبع أرضين».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن ابن هُبَيْرَةَ والحارث بن يزيد، عن عبد الرحمن بن جبيرة. قال: سمعت المُسْتَوْرِدَ بن شَدَادٍ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنزَلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنزَلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ». هكذا رواه الإمام أحمد، وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال: حدثنا موسى بن مروان الرُّقِّي، حدثنا المعافي، حدثنا الأزاعي، عن الحارث بن يزيد، عن جبيرة بن نَفِير، عن المستورد بن شداد. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ لَنَا عَمَلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا». قال: قال أبو بكر: أُخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اتَّخَذَ عَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ، أَوْ سَارِقٌ». قال شيخنا الحافظ المزني رحمه الله: رواه جعفر بن محمد الفريابي، عن موسى بن مروان فقال: عن عبد الرحمن بن جبيرة بدل جبيرة بن نَفِير، وهو أشبه بالصواب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن بشر، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها رغاء، فينادي: يا مُحَمَّدُ، يا مُحَمَّدُ، فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل جملًا له رغاء، فيقول: يا مُحَمَّدُ، يا مُحَمَّدُ. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً له حَمَمَةٌ، فينادي: يا مُحَمَّدُ، يا مُحَمَّدُ. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قشعاً من آدم، فينادي: يا مُحَمَّدُ، يا مُحَمَّدُ. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. لم يروه أحد من أهل الكتب الستة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، سمع عروة يقول: أخبرنا أبو حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له: ابن اللثبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العالم يتعمه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته إن كان بغيره له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عذرة إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت» ثلاثاً. وزاد هشام بن عروة: فقال أبو حميد: بصرت عيني، وسمع أذني، وسلوا زيد بن ثابت. أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة. وعند البخاري: وسلوا زيد بن ثابت. ومن غير وجه عن الزهري، ومن طرق عن هشام بن عروة، كلاهما عن عروة به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن عروة بن الزبير، عن أبي حميد أن رسول الله ﷺ قال: «هَذَا يَا الْعُمَالِ عُلوٌّ». وهذا الحديث من أفراد أحمد، وهو ضعيف الإسناد، وكأنه مختصر من الذي قبله، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام، حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، عن داود بن يزيد الأزدي، عن المغيرة بن شبل، عن قيس بن أبي حازم، عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أنري فرددت، فقال: «أتدري لم بعثت إليك؟ لا لأصيبن شيئاً بغير إذني فإنه عُلوٌّ، «وَمَنْ يَفْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لهذا دعوتك، فامض لعملك». هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي الباب عن عدي بن عميرة، ويزيد، والمستورد بن شداد، وأبي حميد، وابن عمر.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن علية، حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التيمي، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر العلو فطمعه وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، اغنني. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حَمَمَةٌ، فيقول: يا رسول الله، اغنني. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته راقع تخوف، فيقول: يا رسول الله، اغنني. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله اغنني. فاقول: لا أمليكَ لك من الله شيئاً، قد بلغتكَ». أخرجاه من حديث أبي حيان، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني قيس، عن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عملاً، فَكَتَمْنَا مِنْهُ مِخِيطاً فَمَا فَرَّقَهُ فَهُوَ عَلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فقال رجل من الأنصار أسود - قال مجالد: هو سعد بن عباد - كاني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِيءْ بِقَلْبِيهِ وَكَبِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ. وَمَا نَهَى عَنْهُ انْتَهَى». وكذا رواه مسلم، وأبو داود، من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن ابن جريج، حدثني منبوذ، رجل من آل أبي رافع، عن الفضل بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبي رافع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر رُثِمَا ذهب إلى بني عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر المغرب، قال أبو رافع: فبينما رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالقبعة فقال: «أَفْ لَكَ.. أَفْ لَكَ» مرتين، فكبر في ذرعي وتأخرت وطننت أنه يريدني، فقال: «مَالِكَ؟ امش» قال: قلت: أحدثت حدثاً يا رسول الله؟ قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قلت: أفقت بي. قال: «لا، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ، بَعَثْتُهُ سَاعِيَا عَلَى آلِ فُلَانٍ، فَعَلَّ نَجْمَةَ فَدَرَعَ الْآنَ مِثْلَهُ مِنْ نَارٍ».

حديث آخر: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج - وكان بمكة - حدثنا عبيدة بن الأسود، عن القاسم بن الوليد، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم، ثم يقول: «مَالِي فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُولُ، فَإِنَّ الْغُلُولَ خَزَى عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَدْوَا الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، إِنَّهُ لَيُنْتَجَى اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّهْمِ وَالْعَمِّ؛ وَاقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأْتُمْ». وقد روى ابن ماجه بَعْضَهُ عَنِ الْمَفْلُوجِ، بِهِ.

حديث آخر: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «رُذْوَا الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَسَنَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مطرف، عن أبي جهنم، عن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثني رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال: «انْطَلِقْ - أبا مسعود - لَا أَلْفَيْتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ عَلَيَّ عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَّتْهُ». قال: إذا لا أنطلق. قال: «إِذَا لَا أَكْرَهُكَ». تفرد به أبو داود.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَزْدُويَه: أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أنبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد بن أبان، عن علقمة بن مَرْزُد، عن ابن بُرَيْدَة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْحَجَرَ لَيُرْمَى بِهِ فِي جَهَنَّمَ قَبْلَهُ سَبْعِينَ خَرِيفاً مَا يَبْلُغُ قَعْرَهَا، وَيُرْتَى بِالْغُلُولِ فَيُفْذَفُ مَعَهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ عَلَّ أَنْتَ بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عكرمة بن عامر، حدثني سماك الخنفي أبو زميل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمرو بن الخطاب قال: لما كان يومَ خَيْبَرِ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فَلَانِ شَهِيدٍ، وَفَلَانِ شَهِيدٍ. حَتَّى أَتَوْا عَلَيَّ رَجُلٌ فَقَالُوا: فَلَانِ شَهِيدٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا»، إِنِّي زَائِنَةٌ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٌ». ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَذْهَبَ فَنَادَى فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وكذا رواه مسلم، والترمذي من حديث عكرمة بن عامر به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عبادة مُصَدِّقاً، فقال: «إِيَّاكَ يَا سَعْدُ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ» قَالَ: لَا أَخْذُهُ وَلَا أُجِيءُ بِهِ، فَأَعْفَاهُ. ثم رواه من طريق عبيد الله، عن نافع، به، نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا صالح بن محمد بن زائدة، عن سالم بن عبد الله، أنه كان مع مسكمة بن عبد الملك في أرض الروم، فوجد في متاع رجل غلُول. قال: فسأل سالم بن عبد الله فقال: حدثني أبي عبد الله، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولاً فَأَحْرِقُوهُ»؛ قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَاضْرِبُوهُ. قَالَ: فَأَخْرَجَ مَتَاعَهُ فِي السُّوقِ، فَوَجَدَ فِيهِ مِصْحَفًا، فَسَأَلَ سَالِمًا فَقَالَ: بَعُهُ وَتَصَدَّقْ بِشَمْنِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدِ الدَّرَاوَرْدِيِّ - زَادَ أَبُو دَاوُدَ: وَأَبُو إِسْحَاقَ الْفَزَارِي - كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيِّ الصَّغِيرِ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَائِدَةَ، بِهِ. وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَالبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا: هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي وَاقِدِ هَذَا. وَقَالَ الدَّرَاقُطِيُّ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنْ فِتْوَى سَالِمٍ فَقَطْ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى الْقَوْلِ بِمَقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَابَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَخَالَفَهُ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَالجُمْهُورُ فَقَالُوا: لَا يَحْرَقُ مَتَاعُ الْغَالِ، بَلْ يَعْزَرُ تَعْزِيرَ مِثْلِهِ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَدْ امْتَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى الْغَالِ، وَلَمْ يَحْرَقْ مَتَاعَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

طريق أخرى عن عمر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن موسى بن جبير حدثه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصاري حدثه: أن عبد الله بن أنيس حدثه: أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوماً الصدقة فقال: ألم تسمع رسول الله ﷺ حين ذكر غلُولِ الصَّدَقَةِ: «مَنْ عَلَّ مِنْهَا بَعِيرًا أَوْ شَاةً، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَيْسٍ: بَلَى. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَوَادٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ الْأُمَوِيُّ عَنِ مَعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبِيدٍ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: عَقُوبَةُ الْغَالِ أَنْ يَخْرُجَ رَحْلُهُ وَيَحْرَقَ عَلَى مَا فِيهِ.

ثم روى عن معاوية، عن أبي إسحاق، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه قال: الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد المملوك، ويحرم نصيبه، وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله، وقد قال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حَمَير بن مالك قال: أمر بالمصاحف أن تُغَيَّرَ قال: فقال ابن مسعود: من استطاع منكم أن يقلِّ مصحفاً فليقلِّه، فإنه من غلِّ شيئاً جاء به يوم القيامة، ثم قال: قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، فأفتركت ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟. وروى وكيع في تفسيره عن شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم، قال: لما أمر بتحريق المصاحف قال عبد الله: يأبها الناس، غلُّوا المصاحف، فإنه من غلِّ يأت بما غلِّ يوم القيامة، ونعم الغلُّ المصحف. يأتي به أحدكم يوم القيامة. وقال أبو داود عن سَمْرَةَ بن جُنْدُب قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلائاً فينادي في الناس، فَيَجِيئُونَ بغنمهم يخمسه وَيَقْسِمُه، فجاء رجل بعد النداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان مما أصبنا من الغنيمة. فقال: «أَسْمِعْتِ بِلَايَافِي ثَلَاثًا؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنَّا».

وقوله: ﴿أَمَّنْ أَمِنَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَنْ بَاءٍ يَسْخَعِلُ بَيْنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأَمِيرُ (١٦٦)﴾ أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله والأزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم ويس المصير. وهذه لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمَلِكُ لِيَوْمَ يَأْتُ مِنَ اللَّهِ نَزْلٌ مِنْ رَبِّكَ لَنْتَقَى كَنْ هُوَ أَمِّنٌ﴾ [الرعد: ١٩] وكقوله: ﴿أَمَّنْ وَعَدْتَهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيْدُ كَنْ مَنَعْتَهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (١٦٧)﴾ [القصص: ٦١].

ثم قال: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾. قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة الكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ رِمًا عَمَلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيْرٍ بِمَا يَمَلُوكُ﴾ أي: وسيؤفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كلاً بعمله. وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أي: من جنسكم. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّلْعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْرَارِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِيهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَمَشَّرُ اللَّيْلِ وَالْأَيْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُؤْمِنُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: القرآن والسنة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي سَكَلٍ مُبِينٍ﴾ أي: لفي عي وجهل ظاهر جلبي بين لكل أحد.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً فَذُكِرْتُمْ بِهَا فَلَمْ تَقُولُوا هَذَا قَوْلُ مَنْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٨)﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْمَشْرِكِينَ يَأْتِيهِمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٩) وَيَلْعَنُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ سَأَلُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلُوا لَأَكْفَيْنَاكُمْ هُمْ لِيَكْفُرَ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٧٠) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَدَرُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَاتِلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنِ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧١)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً﴾: وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿فَدُكِرْتُمْ بِهَا﴾ يعني: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً وأسروا سبعين أسيراً ﴿فَلَمْ تَقُولُوا هَذَا﴾ أي: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قُرَاد أبو نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سِمَاك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عَمْر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكسرت رِزَابِيَّتُهُ وَهَشَمَتِ الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وسال الدم على وجهه، فانزل الله ﷻ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً فَذُكِرْتُمْ بِهَا فَلَمْ تَقُولُوا هَذَا قَوْلُ مَنْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن غَزْوَانَ، وهو قُرَاد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال

الحسن البصري. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن عُلَيْبَةَ بن ابن عون، عن محمد عن عبيدة (ح) قال سُئِدَ - وهو حسين - وحدثني حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخبرهم بين أمرين، إما أن يُقدِّموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يُقتل منهم عدتهم. قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عاشرتنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فنقتوي به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر. وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقال محمد بن إسحاق، وابن جرير، والربيع بن أنس، والسدي: «قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» أي: بسبب عصيانكم رسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مُعَقَّبَ لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ النَّجْدِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا قِتَالًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدَقِعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَوْ تَمَنَّوْا لَأَتَّبَعْتُمُوكُمْ﴾ يعني أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ أَدَقِعُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسدي: يعني كثروا سواد المسلمين. وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء. وقال غيره: رابطوا. فتعللوا قاتلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ لَوْ تَمَنَّوْا لَأَتَّبَعْتُمُوكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو تعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ - يعني حين خرج إلى أحد - في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشوط - بين أحد والمدينة - انحاز عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم فخرج وعصاني، والله ما ندري علام تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تدخلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسبغني الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ يَمْتَنُونَ لِلْإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تغلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ يَمْتَنُونَ لِلْإِيمَانِ﴾. ثم قال: ﴿يَقُولُونَ يَا قَوْمِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ لَوْ تَمَنَّوْا لَأَتَّبَعْتُمُوكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَكْتُمِينَ﴾ أي: إن كان الشهود يَسْلَمُ به الشخص من القتل والموت، فينبغي، أنكم لا تموتون، والموت لا بد أت إليكم ولو كنتم في بروج مُشَيَّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿رَحِيمًا مِمَّا بَاتَتْ لَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَكَسْتَشِيرُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَشِيرُونَ بِعَمَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي عَمَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَجَابُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الْكَيْدُ يَحْوِي أَوْلِيَاءَهُمْ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَكَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾.

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مزروق، حدثنا عُمَرُ بن يونس، عن عِكْرِمَةَ، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدري أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك الثَّغْر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا غاراً مُشْرِفاً على الماء فقعدها فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يُبَلِّغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري - : أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حيا منهم فاخْتَبَأَ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رَجُلٌ من كسر البيت يرمُح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فزُتْ ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامرُ بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: أن الله تعالى أنزل فيهم قرآناً: بَلِّغُوا عَنَّا قَوْلَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ ثُمَّ نَسَخَتْ فَرَفَعَتْ بَعْدَ مَا قَرَأْنَاهَا زَمَاناً وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩). وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه: حدثنا محمد بن عبد الله بن ثُمَيْر، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مَرْة، عن مسروق قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩). فقال: أما إننا قد سألتنا عن ذلك فقال: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَنْسُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رُؤُوسُهُمْ اِتِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ ففَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَمْرُكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ نَرُدَّ أَرْوَاخَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرُكُوا». وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حَمَاد، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ». انفرد به مسلم من طريق حماد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله المدني، حدثنا سفيان، عن محمد بن علي بن ربيعة السلمى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أما عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَخِيَا أَبَاكَ فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: أَرُدُّ إِلَى الدُّنْيَا، فَأَقْتُلْ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَضَيْتُ الْحُكْمَ أَنَّهُمْ لِيهَا لَا يَزِجِعُونَ». انفرد به أحمد من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر - وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه - قتل يوم أحد شهيداً. قال البخاري: وقال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: لما قُتِلَ أَبِي جعلتُ أبكي وأكشفتُ الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني، والنبي ﷺ لم يته، وقال النبي ﷺ: «لَا تَبْكِيه - أَوْ: مَا تَبْكِيه - مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تَنْظُرُهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ». وقد أسنده هو ومسلم والنسائي من طريق آخر عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: لما قتل أبي يوم أحد، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي... وذكر تمامه بنحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد، عن أبي الزبير المكي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاخَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَسْرِيهِمْ وَمَأْكِلِهِمْ، وَحَسَنَ مَقْلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِيَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنكُمْ. فأنزل اللهُ ﷻ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩). وما بعدها».

هكذا رواه الإمام أحمد، وكذا رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن إسماعيل بن عيَّاش عن محمد بن إسحاق به. ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس فذكره، وهذا أثبت. وكذا رواه سفيان الثوري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبَّير عن ابن عباس. وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وكذا قال قتادة، والربيع، والضحاك: إنها نزلت في قتلى أحد.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْزُوقِ: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا هارون بن سليمان، أنبأنا علي بن عبد الله المدني، أنبأنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفايه الأنصاري، سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصاري، قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر، مالي أراك مهتما؟» قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك ديناً وعيلاً. قال: فقال: «الْأَخْبِرُكَ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا - قال علي: الكفاح: المواجهة - فَقَالَ: سَلْنِي أَغْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِيكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ أَنَّهُمْ لَأَيُّهَا لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ فَأَبْلَغُ مِنْ وَرَائِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سبيط الأنصاري، عن أبيه، عن جابر، به نحوه. وكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق علي بن المدني، به.

وقد رواه البيهقي أيضاً من حديث أبي عبادَةَ الأنصاري، وهو عيسى بن عبد الرحمن، إن شاء الله، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ لجابر: «يَا جَابِرُ، أَلَا أَبْشُرُكَ؟» قال: بلى. بشرك الله بالخير. قال: «شَعْرَتُ أَنْ اللّٰهُ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ: تَمَنَّ عَلَيَّ عَبْدِي مَا شِئْتَ أَغْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، مَا عَبَدْتُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. أَتَمَّنَى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ، وَأَقْتُلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ: إِنَّهُ سَلَفَ مِنِّي أَنَّهُ لَأَيُّهَا لَا يُرْجَعُ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فضَّيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِنَابِ النَّجَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا». تفرد به أحمد، وقد رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، وغبَّدة، عن محمد بن إسحاق، به. وهو إسناد جيد. وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويُعَدَّى عليهم برزقهم هناك ويُرَاح، والله أعلم. وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكُل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمه الله، رواه عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي، رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلِقُ فِي شَجَرِ النَّجَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». قوله: «يغلق»، أي: يأكل. وفي هذا الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي النَّجَّةِ». وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَرَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾. أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فَرِحُونَ مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدِّمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. قال محمد بن إسحاق ﴿رَسْتَشِيرُونَ﴾ أي: ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. وقال السدي: يُؤْتَى الشهيد بكتاب فيه: «يَقْدَمُ عَلَيْكَ فَلَانَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَيَسِّرُ بِذَلِكَ كَمَا يُسِّرُ أَهْلُ الدُّنْيَا يَقْدُمُونَ عُثَابِيَهُمْ». وقال سعيد بن جبيرة: لَمَّا دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَرَأَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْكِرَامَةِ لِلشَّهَدَاءِ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ فِي الدُّنْيَا يَعْلَمُونَ مَا عَرَفْنَا مِنَ الْكِرَامَةِ، فَإِذَا شَهِدُوا الْقِتَالَ بَاشَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يُسْتَشْهِدُوا فَيَصْبِيحُوا مَا أَصْبَنَا مِنَ الْخَيْرِ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكِرَامَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ - أي ربهم - أنني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم، وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿وَرَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه، في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا في غداة واحدة، وقَتَّت رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويُعَلِّمُهُمْ، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأناه حتى رفع: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا». ثم قال: ﴿رَسْتَشِيرُونَ بِعَمَلِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَضْلَهُ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ قال

محمد بن إسحاق: استبشروا وشروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقُلِّمًا ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم. وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تَنَدَّمُوا لم لا تَنَمُّوا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ نذب المسلمين إلى الذَّهاب وراءهم لِيُرِعِيَهُمْ ويريهم أن بهم قُوَّةٌ وجلداً، ولم يَأْذَنْ لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه - لما سنذكره - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتهم، بثسما صنعتهم، ارجعوا. فسمع رسول الله ﷺ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد - أو: بئر أبي عيينة - الشك من سفيان - فقال المشركون: نرجع من قابل. فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أُولَئِكَ يُعْطِيهِمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. ورواه ابن مَرْدُويه من حديث محمد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره. وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خَلَفَنِي على أخوات لي سَبَعٍ وقال: يا بُنَيَّ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوترك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلفت على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله ﷺ مُزْهَباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليطنوا به قُوَّةً، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحداً قال: شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي - أو قال لي -: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غلب حملته عُقْبَةٌ ومشى عُقْبَةٌ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون. وقال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أُولَئِكَ يُعْطِيهِمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، رضي الله عنهما، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «مَنْ يَرْجِعْ فِي إِثْرِهِمْ؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً، فيهم أبو بكر والزبير، رضي الله عنهما. هكذا رواه البخاري منفرداً به، بهذا السياق. وهكذا رواه الحاكم في مستدرکه عن الأصم، عن عباس الدوري، عن أبي النضر، عن أبي سعيد المؤدب، عن هشام بن عروة به، ثم قال: صحيح ولم يخرجاه. كذا قال. ورواه أيضاً من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن البيهقي، عن عروة قال: قالت لي عائشة: يا بُنَيَّ، إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ابن ماجه، عن هشام بن عمار، وهذبة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة، عن هشام بن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدي في مسنده عن سفيان به. وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه، أنبأنا سمويه، أنبأنا عبد الله بن الزبير، أنبأنا سفيان، أنبأنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ أَبُوكَ لَمِنْ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ: أَبُو بَكْرٍ وَالزَّبِيرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا». ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده، لمخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة كما قدمناه، ومن جهة معناه، فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة، وإنما قالت عائشة لعروة بن الزبير ذلك لأنه ابن أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الله قَدَفَ فِي قَلْبِ أَبِي سَفِيَانَ الرَّغْبَ يوم أحد بعد ما كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرْفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَدَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرَّغْبَ». وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يقدِّمون المدينة في ذي القعدة، فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة، وإنما قدموا بعد وقعة أحد

وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ، واشتد عليهم الذي أصابهم. وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا متبعين، وقال: «إِنَّمَا يَزْتَجِلُونَ الْآنَ فَيَأْتُونَ الْحَجَّ وَلَا يَقْدُرُونَ عَلَىٰ مِثْلِهَا حَتَّىٰ عَامٌ مُّقْبِلٌ». فجاء الشيطان فخوف أوليائه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَبِغْنِي أَحَدٌ». لأحضر الناس، فانتدب معه أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوا حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧١﴾. ثم قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنتين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مر به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خُزاعة - مسلمهم ومشركهم - عيبة نُصح لرسول الله ﷺ بثُهامه، صَفَقْتُهُمْ معه، لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد يومئذٍ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عَزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالزُّوحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا خد أصحابه وقادتهم وأشرفهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم. . لثُكِرَ على بقيتهم فَلتَفْرُغَنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْعٍ لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَقِّ عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - قال: فوالله لقد أجمعتنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك. والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي
كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي
تَزْدِي بِأَشْدِ كِرَامٍ لَا تَكَابِلُهُ
تَزْدِي بِأَشْدِ كِرَامٍ لَا تَكَابِلُهُ
فَظَلْتُ عَذْوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً
فَظَلْتُ عَذْوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً
فَقُلْتُ: وَيَلِ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ
فَقُلْتُ: وَيَلِ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ
إِنِّي نَذِيرٌ لَأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ
إِنِّي نَذِيرٌ لَأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشِي تَكَابِلُهُ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشِي تَكَابِلُهُ

قال: ففتنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومر به ركب من بني عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غداً زيباً بعبكاذ إذ وافئتمونا. قالوا: نعم. قال: فإذا وافئتموه فأخبروه أنا قد أجمعتنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: حسبتنا الله ونعم الوكيل. وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبُّوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ». وقال الحسن البصري في قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ قَدْ رَجَعَ وَقَدْ قَدَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ، فَمَنْ يَنْتَدِبُ فِي طَلْبِهِ؟» فقام النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وناس من أصحاب النبي ﷺ، فاتبعوه، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقى عيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجُعل كذا وكذا، وأخبروهم أنني قد جمعت لهم جمعاً، وأنتي راجع إليهم. فجاء التجار فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال عكرمة، وقتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن غزوة «حمراء الأسد»، وقيل: نزلت في بدر الموعود، والصحيح الأول. وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقَوْهُمْ فَزَادَهُمُ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٢﴾ أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفهم بكثرة الأعداء، فما اكثر ثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ

حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وقد رواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهارون بن عبد الله، كلاهما عن يحيى بن أبي بكير، عن أبي بكر - وهو ابن عياش - به. والمعجب أن الحاكم أباعبد الله رواه من حديث أحمد بن يونس، به، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ثم رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن إسماعيل، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم، عليه السلام، حين ألقى في النار: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وقال عبد الرزاق: قال ابن عيينة: وأخبرني زكريا، عن الشَّعْبِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقى في البنيان. رواه ابن جرير. وقال أبو بكر بن مَزْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن موسى الثوري، أخبرنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري، أنبأنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فأنزل الله هذه الآية. وروى أيضاً بسنده عن محمد بن عبيد الله الرافعي، عن أبيه، عن جده أبي رافع أن النبي ﷺ وَجَّهَ عَلِيًّا فِي نَفَرٍ مَعَهُ فِي طَلَبِ أَبِي سَفْيَانَ، فَلَقِيَهُمْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ خَزَاعَةَ فَقَالَ: إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، قَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فنزلت فيهم هذه الآية. ثم قال ابن مَزْدُويه: حدثنا دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفْيَانَ، أَنبَأَنَا أَبُو حَنِيفَةَ مَضْعَبُ بْنُ سَعِيدٍ، أَنبَأَنَا مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حَيَّوَةُ بْنُ شَرِيحٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ قَالَا: حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ، حَدَّثَنَا بَجِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمُقْضَى عَلَيْهِ لِمَا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَبِيرِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ قُتِلَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث بَقِيَّةِ بْنِ بَجِيرٍ، عَنِ خَالِدِ بْنِ سَيْفٍ - وَهُوَ الشَّامِيُّ، وَلَمْ يَنْسِبْ - عَنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، بِنَحْوِهِ. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا مَطْرَفُ بْنُ عَطِيَّةٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ﴾ [المدر: ٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقِرْنِ قَدْ أَنْعَمَ الْقِرْنُ وَحَتَّى جَيْهَتَهُ، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَعُ». فقال أصحاب محمد ﷺ: فما نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وقد روي هذا من غير وجه، وهو حديث جيد. وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما، أنهما تغافرتا فقالت زينب: رُوجِنِي اللَّهَ وَزَوْجَكَنْ أَهْلِيكَنْ. وقالت عائشة: نزلت براءتي من السماء في القرآن. فسَلَّمَتْ لَهَا زَيْنَبُ، ثُمَّ قَالَتْ: كَيْفَ قَلَبْتَ حِينَ رَكِبْتَ رَاحِلَةَ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعْطَلِ؟ فقالت: قلت: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا يَنِعْمَ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلْ لَمْ يَسْسِئْهُمْ سُوءٌ﴾ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم وَرَدَ عَنْهُمْ بِأَسْ مِنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بِلَدِهِمْ ﴿يَنِعْمَ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلْ لَمْ يَسْسِئْهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد، حدثنا محمد بن نعيم، حدثنا بشر بن الحكم، حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين، حدثنا سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا يَنِعْمَ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلْ﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيرا مرت، وكان في أيام الموسم، فاشترتها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا، فقسمه بين أصحابه. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ: موعدهم بدر، حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ: «عَسَى». فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرًا، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَاتَّقِلُوا يَنِعْمَ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلْ لَمْ يَسْسِئْهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤). قال: وهي غزوة بدر الصغرى. رواه ابن جرير. وروى أيضاً عن القاسم، عن الحسين، عن حجاج، عن ابن جريج قال: لما عمد رسول الله ﷺ لموعده أبي سفيان، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش، فيقولون: قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك، يريدون أن يزعبوهم، فيقول المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى قدموا بدرًا، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد، قال: وقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد، وقال في ذلك:

نَفَرَتْ قُلُوبِي مِنْ خَيْلِ مُحَمَّدٍ وَعَجْوَةٌ مِنْ ثَوْرَةِ كَالْمُنْجِدِ
وَأَتَّخَذْتُ مَاءَ قُدَيْدٍ مَسْزَعِدِي

ثم قال ابن جرير : هكذا أنشدنا القاسم ، وهو خطأ ، وإنما هو :

فَدَنَّفَرْتَ مِنْ رَفَقَتِي مُحَمَّدٍ وَعَجْوَةٌ مِنْ يَثْرِبٍ كَالْعُنْجُدِ
تَهْوَى عَلَى دِينَ أَبِيهَا الْأَتَلِدِ قَدْ جَعَلْتَ مَاءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي
وَمَاءَ ضَجْجَانٍ لَهَا ضَحَى الْعُدِّ

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي : يخوفكم أوليائه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِيَّانَا إِنَّكُمْ مَعِي ﴾ أي : فإذا سول لكم أو همكم فتوكلوا علي والجؤوا إلي ، فأنا كافيتكم وناصركم عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَكُمْ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٦-٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَاقْبَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَيْكَ جُزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ جُزْبَ الشَّيْطَانِ لَمُ لَقِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ اللَّهُ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَنَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا لَنَنْصُرَنَّ مِلَّةَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ﴾ [يوسف : ٥١] ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء العذاب [غافر : ٥١ ، ٥٢] .

﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٧٦] إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلُّهُمْ لَمْ حَرِّ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلُّهُمْ لَمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ يُرِيدُ مِنْ بَيْنِكُمْ فَايَمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ بِنَاءَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ يَتَّعَبُونَ وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَثَلًا لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَبْدَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٠﴾ .

يقول تعالى لنبية ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ ، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعداوة والشقاق ، فقال تعالى : لا يحزنك ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقررأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي : استبدلوا هذا بهذا ﴿ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أي : ولكن يضررون أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلُّهُمْ لَمْ حَرِّ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلُّهُمْ لَمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ أَيْسَرُونَ إِنَّمَا يُثَدَّرُ بِهِنَّ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿١٧٧﴾ شَرَّاحٌ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ بَلْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] ، وكقوله : ﴿ تَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَا لِلَّهِ لِيُذَيِّبَنَّ فِيهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ لَمْ يَكْفُرُوا ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وكقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَهُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] . ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أي : لا بُدَّ أن يعقد سبباً من المحنة ، يظهر فيه ولبه ، ويفتضح فيه عدوه . يُعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر . يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن به المؤمنون ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستر المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ . قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد . وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة . وقال السُّدِّي : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليُخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر . فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أي : حتى يخرج المؤمن من الكافر . روى ذلك كله ابن جرير .

ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أي : أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ثم قال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ يُرِيدُ مِنْ بَيْنِكُمْ فَايَمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى عَجْبِهِ أَحَدًا ﴾ [٢١] إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُولِي فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَرِثَاكُمْ ﴿٢٢﴾ [الحج : ٢٦ ، ٢٧] . ثم قال : ﴿ فَايَمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي : أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ بِنَاءَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ يَتَّعَبُونَ ﴾ ، ثم أخبر بمال أمر ماله يوم القيامة فقال : ﴿ سَيَطْلُقُونَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ، قال البخاري : حدثنا عبد الله بن منير ، سمع أبا النضر ، حدثنا عبد الرحمن - هو ابن عبد الله بن دينار - عن أبيه ،

عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهْ شَجَاعًا أَوْ رَعِ لَهْ زَبِيَّتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِهِمَا مَتْنِيهِ - يَعْنِي بِشِدْقَتَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ يَنْزِلُهُمْ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بِلِ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية. تفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القَعْقَاعِ بن حكيم، عن أبي صالح، به .

حديث آخر: قال الإمام أحمد؛ حدثنا حَجَّين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ يُمَثَّلُ لِلَّهِ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَوْ رَعِ لَهْ زَبِيَّتَانِ، ثُمَّ يُلْزِمُهُ يَطَوِّقُهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا كَنْزُكَ». وهكذا رواه النسائي عن الفضل بن سهل، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، به، ثم قال النسائي: ورواهُ عبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أثبت من رواية عبد الرحمن، عن أبيه عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قلت: ولا منافاة بينهما، فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين، والله أعلم. وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مَرْذُوقٍ من غير وجه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ومن حديث محمد بن أبي حميد، عن زياد الخطمي، عن أبي هريرة، به .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن جامع، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُمِلَ لَهُ شَجَاعٌ أَوْ رَعِ يَتَّبِعُهُ، يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، عن جامع بن أبي راشد، زاد الترمذي: وعبد الملك بن أعين، كلاهما عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود، به. ثم قال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي بكر بن عياش وسفيان الثوري، كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. ورواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن مسعود، موقوفاً .

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَانَ بن أبي طلحة، عن ثوبان، عن النبي ﷺ؛ قال: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهْ شَجَاعًا أَوْ رَعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ زَبِيَّتَانِ، يَتَّبِعُهُ وَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَتِلْكَ». فيقول: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي حَلَفْتَ بَعْدَكَ فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْبِضُهَا، ثُمَّ يَتْبَعُهُ سَائِرَ جَسَدِهِ». إسناده جيد قوي ولم يخرجوه. وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي. ورواه ابن جرير وابن مَرْذُوقٍ من حديث بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَأْتِي الرَّجُلَ مَوْلَاةٌ فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ مَالِهِ عِنْدَهُ، فَيَمْتَنِعُهُ إِثْمًا، إِلَّا دُمِيَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعٌ يَتَلَمَّظُ فَضْلَهُ الَّذِي مَنَعَ». لفظ ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن أبي قَرْظَةَ، عن رجل، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمِهِ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ جَعَلَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَيَبْخُلُ بِهِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَخْرَجَ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شَجَاعٌ يَتَلَمَّظُ، حَتَّى يَطَوِّقَهُ». ثم رواه من طريق أخرى عن أبي قَرْظَةَ - واسمه حَجَّير بن بيان - عن أبي مالك العدي موقوفاً. ورواه من وجه آخر عن أبي قَرْظَةَ مرسلًا. وقال العوفي عن ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب الذي بَخِلُوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها. رواه ابن جرير. والصحيح الأول، وإن دخل هذا في معناه. وقد يقال: إن هذا أولى بالدخول، والله أعلم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَبْرِئُ السَّمْعَانَ وَالْأَرْضَ﴾ أي: فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله ﷻ. فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: يبيناتكم وضما تركزم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْيَهُودِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَخَنٌ أَفَنِيئَهُ سَكَتْنُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَتَّى وَقَوْلِ دُفُوعًا عَدَابَ الْحَرِيِّ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الْيَهُودِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ لِإِنَّا آتَيْنَاكُمْ بِغُرَابٍ تَأْكُلُ الشَّارُّ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَالسَّيِّئِينَ وَالَّذِينَ قُلْتُمْ قَوْلًا مِّن قَوْلِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ نَكْتُمُوكُمْ فَكذب رسول من قبلك جَاهِدُوا يَالسَّيِّئِينَ وَالَّذِينَ قُلْتُمْ قَوْلًا مِّن قَوْلِكُمْ (١٨٤).

قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْثَلًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك. سأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْيَهُودِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَخَنٌ وَأَفَنِيئَهُ﴾ الآية. رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدراس، فوجد من يهود أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فَمَخَاصٍ وكان من علمائهم وأخبارهم، ومع حَبْرٍ يقال له: أشجع. فقال أبو بكر: ويحك يا

فَنَحَاصُ، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطَانَا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فعُضِبَ أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عتقك يا عدو الله، فأَكْذَبُونَا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟» فقال: يا رسول الله، إن عدُوَّ الله قد قال قولاً عظيماً، زَعَمَ أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك عَضِبْتُ الله مما قال، فضررت وجهه فحَجَّحَ ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَقَلَّهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِمَثَرِ حَيْثٍ﴾ أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزيه الله على ذلك شَرَّ الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ دُورُوا عَدَاكَ الْحَرِيِّ ذَلِكَ يَمَّا فَدَمَتْ أَبْيَدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّالٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٦) أي: يقال لهم ذلك تقريماً وتحقيراً وتصغيراً. وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ لِاتِنَا أَلَّا نُؤْمِرَ رَسُولًا يَأْتِينَا بِفُرْقَانٍ تَأْكُلُهُ الْأَشْيَاءُ﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكله. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: بالحجج والبراهين ﴿وَالَّذِي كُفِّرْتُمْ﴾ أي: وينار تاكل القرابين المتقبلة ﴿فَلْيَرْحَمُوا مَا كُفِّرْتُمْ﴾ أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتبمون الحق وتتقادون للرسول. ثم قال تعالى مسلماً لنبية ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَلَا تَكُودُونَ﴾ أي: لا يهدنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالَّذِينَ كُفِّرْتُمْ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالَّذِينَ كُفِّرْتُمْ﴾ أي: التبين الواضح الجلي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ تُؤَفَّقُ﴾ أَمْوَالِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْكُذُورِ ﴿١٨٧﴾ ﴿تُجَلَّدُونَ فِي الْأَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهِينَ﴾ وَمَنْ أَسْرَفَ مِنْكُمْ فَبَدْرٍ عَسِرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ قَسَرَ مِنْكُمْ فَتَوَسَّعَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْوَ الْأَمْوَالِ ﴿١٨٨﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَسَوْفَ نَبْهَتُ رَبِّيَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿١٨٧﴾ فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية - أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَمْوَالِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز الأوسي، حدثنا علي بن أبي علي النهدي، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية، جاءهم أت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَمْوَالِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. إن في الله عزاً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرهماً من كل فانت، فبالله فقوا، وإياه فارجوا، فإن المصائب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قال جعفر بن محمد: فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر، عليه السلام.

وقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعٌ سَوْطٌ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن عمرو هذا. ورواه ابن مردويه أيضاً من وجه آخر فقال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، أنبأنا حُمَيْدٌ بن مَسْعُودَةَ، أنبأنا عمرو بن علي، عن

أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها». قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ زُجِرَ عَنِ الْكِبَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ قَدًّا فَآوَىٰ﴾. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ما رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه ميثته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الضُّرُورِ﴾ تصغيراً للشأن الدنيا، وتحقيراً لأمرها، وأنها دينية فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْتُونَهُنَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿١١٧﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [الاعلى: ١٦، ١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكَ يَفْعَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [النحل: ١٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرِزْقِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠]، وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بهم تزجع إليه؟». وقال قتادة في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الضُّرُورِ﴾: هي متاع، هي متاع، متروكة، أو شكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تَضْمَجَلْ عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله. وقوله: ﴿تَسْتَلْزِمُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَتَلْبَسُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنَ الْقَوْبِ وَالْجُوعِ وَتَقَعْنَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْقَرْبِ وَبَشِيرِ الصَّادِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوكُمْ مُّصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلاة زيد في البلاء ﴿وَلَتَسْتَمِرَّنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلماً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني غزوة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْتَمِرَّنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾ قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم. هكذا رواه مختصراً، وقد ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية مطولاً فقال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير؛ أن أسامة بن زيد أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فديكية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاق من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن ربيعة، فلما غشيت المجلس عجاذة الدابة حَمَّرَ عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تُعْبِرُوا عَلَيْنَا. فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله ﷻ، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن ربيعة: بلى يا رسول الله، فأغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يثأورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عباد، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويُعصَبُوهُ بالعصاية، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شوق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْتَمِرَّنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاسْتَفْؤُا وَأَصْمَحُوا حَتَّىٰ بَيَّنَّ اللَّهُ بِآيَاتِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام وأسلموا.

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، ﷻ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُوهُ فَنبذوه وركاه ظهروهم وأشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّجْتَدِبُونَ أَن يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَيَلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئس الصفقة صفقتهم، وبئس البيعة بيعتهم. وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتنوا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئِلَ عن عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ». وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْتَدِبُونَ أَن يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية، يعني بذلك المرثيين المتكثرين بما لم يُفْعَلُوا، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قَلَةً». وفي الصحيح: «المتشبع بما لم يُفْعَلْ كلابس ثوبَي زور». وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن أبي مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس، رضي الله عنه، فقل: لئن كان كل امرئ مما فرح بما أتى، وأحب أن يحمده بما لم يفعل - معذباً، لتُعَذِّبَنَ أجمعون؟ فقال ابن عباس: وما لكم وهذه؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُوهُ وَرَكَاهَ ظُهُورَهُمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْتَدِبُونَ أَن يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكنتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أزره أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتابهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مَرزُويه، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج، بنحوه. ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن علقمة بن وقاص: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فذكره. وقال البخاري: حدثنا سعيد بن أبي مريم، أنبأنا محمد بن جعفر، حدثني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتدروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْتَدِبُونَ أَن يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم، بنحوه. وقد رواه ابن مَرزُويه في تفسيره من حديث الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم قال: كان أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت عند مروان فقال: يا أبا سعيد، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْتَدِبُونَ أَن يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. ونحن نفرح بما أتينا ونحِبُّ أن نُحْمَدَ بما لم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذلك، إنما ذاك أن ناساً من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بغتاً، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يعلم هذا، فقال مروان: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم، صدق أبو سعيد. ثم قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك - يعني رافع بن خديج - ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة. فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري: ألا تحمديني على ما شهدت لك؟ فقال أبو سعيد: شهدت الحق. فقال زيد: أو لا تحمديني على ما شهدت الحق؟ ثم رواه من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن رافع بن خديج: أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة، فقال مروان: يا رافع، في أي شيء نزلت هذه؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد، رضي الله عنهم، وكان مروان يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم، فقال له ما ذكرناه، ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر، والله أعلم. وقد روى ابن مَرزُويه أيضاً من حديث محمد بن أبي عتيق وموسى بن عُقبة، عن الزهري، عن محمد بن ثابت الأنصاري؛ أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون هلكت. قال: «لم؟» قال: نهى الله المرء أن يُحِبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل، وأجدي أحب الحمد. ونهى الله عن الخيلاء، وأجدي أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امرؤ جهوري الصوت. فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تعيش حبيداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: بلى يا

رسول الله، فعاش حميداً، وقُتل شهيداً يوم مَيْمِلَةَ الكذاب. وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّكُمْ بِمَقَارِفِ بَيْنِ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالناء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي: لا تحسبون أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧٧). أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نعمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٧٨) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَسْمَعُونَ وَأَعْيُنُهُمْ لِّلْذِكْرِ لَا تَصَوِّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَيْبًا مَّا خَلَقَتْ هَذَا بَدَلًا سُبْحَانَكَ فَمَنَّا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧٩﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٨٠﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُبَادِي لِلإِيمَانِ أَن مَأْمُونًا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَتَارِ ﴿١٨١﴾ رَبَّنَا وَمَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَحْنُ بِأَيِّامٍ لِّقِيَمَتِكَ إِنَّكَ لَا تَخْلُقُ إِلِيمًا ﴿١٨٢﴾.

قال الطبراني: حدثنا الحسن بن إسحاق الشُّسْتَرِي، حدثنا يحيى الجُمَانِي، حدثنا يعقوب القُفَيْي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بم جاءكم موسى؟ قالوا: عساه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً. فدعاه، فأنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٧٨)، فليتفكروا فيها. وهذا مُشْكَل، فإن هذه الآية مدنية. وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة، والله أعلم. ومعنى الآية أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتساعها. وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، ومختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتَقَارُضُهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَكَلَّيْنَا بَيْنَ آيَاتِنَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ لَا يَحْسِبُونَ﴾ (١٧٩) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِآيَاتِنَا وَإِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٨٠﴾ إِبْرَاهِيمَ: ١١٥، ١١٦. ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَسْمَعُونَ وَأَعْيُنُهُمْ لِّلْذِكْرِ لَا تَصَوِّرُونَ﴾ كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا، فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ» أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضامئهم وألسنتهم ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله عليّ فيه نعمة، أو لي فيه عبرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار». وعن الحسن البصري أنه قال: تَفَكَّرَ سَاعَةً خَيْرَ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ. وقال الفُضَيْل: قال الحسن: الفكرة مِرَاةُ تَرْبِكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت:

إِذَا الْمِرَّةُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ فَنَفْسِي كُلَّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ
وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: طُوبَى لِمَنْ كَانَ قِيْلُهُ تَذَكُّرًا، وَصَمْتُهُ تَفَكُّرًا، وَنَظْرُهُ عِبْرًا. وقال لقمان الحكيم: إن طول الوحدة أَلْهُمُ لِلْفِكْرَةِ، وطول الفكرة دليل على طَرَقِ باب الجنة. وقال وهب بن مُثَنَّب: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، ﷻ، حَسَنٌ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها، وكان يبكي عند ذلك حتى يُزْفِعَ صَرِيحًا مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ، قَدْ ذَهَبَ عَقْلُهُ. وقال عبد الله بن المبارك: مَرَّ رَجُلٌ بِرَاهِبٍ عِنْدَ مَقْبَرَةٍ وَمَرْبَلَةٍ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا رَاهِبُ، إِنَّ عِنْدَكَ كَنْزِينَ مِنْ كَنْزِ الدُّنْيَا لَكَ فِيهَا مُعْتَبَرٌ، كَنْزِ الرِّجَالِ وَكَنْزِ الْأَمْوَالِ. وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَاهدَ قَلْبَهُ، يَأْتِي الْخَرْبَةَ فَيَقِفُ عَلَى بَابِهَا، فَيُنَادِي بِصَوْتِ حَزِينٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ أَهْلُكَ؟ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [القصص: ٢٨]. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: رَكْعَتَانِ مَقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ، خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ وَالْقَلْبِ سَاوٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كُلِّ فِي ثَلَاثِ بَطْنِكَ، وَاشْرَبْ فِي ثَلَاثِ، وَدَعْ ثَلَاثَ الْأَخْرِ تَتَنَفَّسَ لِلْفِكْرَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْعِبْرَةِ انْطَمَسَ مِنْ بَصَرِ قَلْبِهِ بِقَدْرِ ثَلَاثِ الْعُقُلَةِ. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي: لَوْ تَفَكَّرَ النَّاسُ فِي عِظْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا عَصَوْهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ، عَنْ

عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكير. وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حشما كنت، وكُنْ في الدنيا ضَيِّفًا، وَأَتَّخِذِ المساجد بيئات، وعَلِّمْ عَيْنِكَ البكاء، وَجَسَدَكَ الصُّبْرَ، وَقَلْبَكَ الفِكْرَ، وَلَا تَهْتَمْ بِرِزْقِ غَدٍ. وعن أمير المؤمنين عَمْرُ بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أنه بكى يوماً بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: فَكَّرْتُ في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تَنْقُضِي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواظ لمن اذكر. وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

نُزَهَةُ الْمُؤْمِنِ الْفَكَزُ	لِنُذَةِ الْمُؤْمِنِ الْوَبَبُزُ
نَحْمَدُ اللَّأْلَةَ وَخُدَّهُ	نَخْرُنُ كُلَّ عَلَى خَطْرُ
رُبُّ لَاهٍ وَعُزْمُ رُهُ	قَد تَقَطَّضَى وَمَا شَعَبُزُ
رُبُّ عَيْشٍ قَدْ كَانُ فَو	قِ الْمُنَى مُونِقَ الزَّهَرُ
فِي خَرِيرٍ مِنَ الْمُعِيُو	نَ وَظَلَّ مِنَ الشُّجَرُ
وَشُرُورٍ مِنَ السُّبَابِ	تِ وَطَيَّبَ مِنَ التُّمَمُزُ
غَيُّرْتَهُ وَأَهْلَهُ	سَرَعَةُ الذَّهْرِ بِالسُّبُزُ
نُخْرِمَهُ اللهُ وَحَدَّهُ	إِنْ فِي ذَا لِمَعْتَبِرُ
إِنْ فِي ذَا لِمَعْتَبِرُهُ	لِللَّبِيبِ إِنْ اغْتَابِرُ

وقد ذم الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٩٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [سورف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُهُوبِهِمْ رِنَّكَرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: ما خلقت هذا المخلوق عبثاً، بل بالحق لتجزى الذين أسأوا بما عملوا، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ أي: عَنَ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بِاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: يا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهُ عَنِ النِّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبْثِ، قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيضْنَا لِأَعْمَالِ تَرْضَىٰ بِهَا عِنَا، وَوَقِنَا لِعَمَلِ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَىٰ جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَتَجِيرِنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْآلِيمِ. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة لا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، وَلا مُجِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي: داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ قَامَتًا﴾ أي يقول: ﴿ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ قَامَتًا﴾ أي: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاقْرِئْنَا ذُوقِنَا﴾ أي: بإيماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا، أي: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي: فيما بيننا وبينك ﴿وَتُوفِّقْنَا مَعَ الْآبِرَارِ﴾ أي: إلحقنا بالصالحين ﴿رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على السنة رسلك. وهذا أظهر. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن محمد، عن أبي عَقَالٍ، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَقَلَانِ أَحَدَ الْعُرُوسِينَ، يَبِيعُ اللَّهُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَيَبِيعُ مِنْهَا خَمْسِينَ أَلْفًا شَهْدَاءَ وَقُودًا إِلَى اللَّهِ، وَبِهَا صُفُوفُ الشَّهْدَاءِ، رُؤُوسُهُمْ مَقْطُوعَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ، تَبِيعُ أُرْدَاهُجَهُمْ دَمًا، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْرُبُنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلْعِمَادَ ﴿١٩١﴾﴾ فيقول: صَدَقَ عبيدي، اغسلوهم بنهر البِيضَةِ. فيخرجون منه نقاءً بيضاً، فيسرحون في الجنة حيث شاؤوا». وهذا الحديث يُعَدُّ مِنْ غَرَائِبِ الْمَسْنَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ مَوْضُوعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَا نَحْرُبُنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سُرَيْجٍ، حدثنا المعتمر، حدثنا الفضل بن عيسى، حدثنا محمد بن المنكدر؛ أن جابر بن عبد الله حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «العار والتخزية تبلغ من ابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله، ﷻ، ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار» حديث غريب. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخاري، رحمه الله: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي نُجَير، عن كُرَيْبٍ عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث

رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠)، ثم قام فتوضأ واستن. فصلى إحدى عشرة ركعة. ثم أذن بلالاً فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن إسحاق الصغاني، عن ابن أبي مريم، به. ثم رواه البخاري من طريق عن مالك، عن مخرمة بن سليمان، عن كريب، عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ، وهي خالته، قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل - أو قبله بقليل، أو بعده بقليل - استيقظ رسول الله ﷺ من نومه، ففعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي - قال ابن عباس: فقمتم فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمتم إلى جنبه - فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني اليمنى يفتلها، فصلى ركعتين، ثم ركعتين، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرّج فصلى الصبح. وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طريق عن مالك، به. ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أخرى، عن مخرمة بن سليمان، به.

طريق أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو بكر بن مزدويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أخبرنا أبو يحيى بن أبي مسرة، أنبأنا خلاد بن يحيى، أنبأنا يونس بن أبي إسحاق، عن المنهال بن عمرو، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن عبد الله بن عباس قال: أمرني العباس أن أبيت بال رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته. قال: فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الآخرة، حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيره قام فمَرَّبِي، فقال: «من هذا؟» عبد الله؟ فقلت: نعم. قال: «فمَه؟» قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة. قال: «فالحق الحق؟» فلما أن دخل قال: «افرشن عبد الله؟» فأتى بوسادة من مسوح، قال فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيظه، ثم استوى على فراشه قاعداً، قال: فرَفَع رأسه إلى السماء فقال: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها. وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث علي بن عبد الله بن عباس حديثاً في ذلك أيضاً.

طريق أخرى رواها ابن مزدويه، من حديث عاصم بن بهدلة، عن بعض أصحابه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل، فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩١). ثم قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن بين يدي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، وأعظم لي نوراً يوم القيامة». وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح، من رواية كريب، عن ابن عباس، رضي الله عنه. ثم روى ابن مزدويه وابن أبي حاتم من حديث جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بما جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه ويده البيضاء للناس. وأتوا النصراني فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يُبْرِئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفاً ذهباً. فدعا ربه، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٢). قال: «فليتفكروا فيها». لفظ ابن مزدويه. وقد تقدم سياق الطبراني لهذا الحديث في أول الآية، وهذا يقتضي أن تكون هذه الآيات مكية، والمشهور أنها مدنية، ودليله الحديث الآخر، قال ابن مزدويه: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن علي الحراني، حدثنا شعاع بن أشروس، حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي أبو مكرم، عن الكلبي - هو أبو جَنَاب الكلبي - عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة، رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر:

زُرْ غُيَّبًا تَزُدُّ حُجْبًا

فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. فَبَكَّت وقالت: كُلُّ أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي ﷻ قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القرية فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يُبْكِيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لَا يَنْبَغُ لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٩٥﴾ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها». وقد رواه عبد بن حميد، عن جعفر بن عون، عن أبي جتاب الكلبي عن عطاء، بأطول من هذا وأتم سياقاً. وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن عمران بن موسى، عن عثمان بن أبي شيبة، عن يحيى بن زكريا، عن إبراهيم بن سويد التميمي، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء قال: دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على عائشة، فذكر نحوه. وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار» عن شجاع بن أشرس، به. ثم قال: حدثني الحسن بن عبد العزيز: سمعت سفيان بن عيينة عن سفيان - هو الثوري - رفعه قال: من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيه وثله. يعد بأصابه عشراً. قال الحسن بن عبد العزيز: فأخبرني عبيد بن السائب قال: قيل للأوزاعي: ما غاية التفكير فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني قاسم بن هاشم، حدثنا علي بن عياش، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال: سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجم من هذا الويل؟ فأطرق هنيئاً ثم قال: يقرؤهن وهو يعقلهن. حديث آخر فيه غرابة: قال أبو بكر بن مردويه: أنبأنا عبد الرحمن بن بشير بن نعيم، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم السستي ح وقال: أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو قال: أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سليمان بن موسى الزهري، أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومي، أنبأنا سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة. مظاهر بن أسلم ضعيف.

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ دَكَرَ أَوْ أَنْتُمْ بِعَضُوكُمْ مِنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ آيَاتِنَا وَأَنْزَلْنَا مِنْ سَبِيلِي وَفَعَلُوا وَفَعَلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذِنَ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَوَائِمٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، كما قال الشاعر:

وداع دعا: يَا مَنْ يَجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن سلمة، عن رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ دَكَرَ أَوْ أَنْتُمْ﴾ إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول طعينة قدمت علينا. وقد رواه الحاكم في مستدرکه من حديث سفيان بن عيينة، ثم قال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. وقد روى ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن أم سلمة قالت: آخر آية أنزلت هذه الآية: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ دَكَرَ أَوْ أَنْتُمْ بِعَضُوكُمْ مِنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ سَبِيلِي وَفَعَلُوا وَفَعَلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذِنَ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَوَائِمٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ إلى آخرها. رواه ابن مردويه. ومعنى الآية: أن المؤمنين ذري الألباب لما سألوا - مما تقدم ذكره - فاستجاب لهم ربهم - عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ دَكَرَ أَوْ أَنْتُمْ﴾ هذا تفسير للإجابة، أي قال لهم مجيباً لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أنثى. وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: جميعكم في ثوابي سواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي: تركوا دار الشرك وآتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ سَبِيلِي﴾ أي: ضايقتهم المشركون بالأذى حتى الجؤهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُحْيِيهِمُ الرَّسُولُ وَإِنَّا لَهُمْ قَوَائِمٌ يَا اللَّهُ رَبِّكُمْ﴾ [المنحة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَقْشَرُوا مِنْهُمْ إِيَّاهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]. وقوله: ﴿وَفَعَلُوا وَفَعَلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله، فيمقر جواده، ويعقر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبِرٍ، أي كُفِّرَ اللهُ عني خطاياي؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» فأعاد عليه ما قال، فقال: نعم، إلا الدين، قاله لي جبريل آنفاً. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذِنَ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْنَ رَأَتْ، ولا أذُنَ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وقوله: ﴿قَوَائِمٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزئياً كثيراً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُنَادِبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُغْفِرْ
طِ جَزِيلاً فَلِإِنَّهُ لَا يُبَالِي
وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: عنده حُسنُ الجزاء لمن عمل صالحاً. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن دُحيم بن إبراهيم:

حدثنا الوليد بن مسلم، أخبرني حريز بن عثمان: أن شداد بن أوس كان يقول: يا أيها الناس، لا تنهوا الله في قضائه، فإنه لا يبقي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يجب فليحمد الله، وإذا أنزل به شيء مما يكره فليغضب وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿لَا يَرْزُقُكَ تَعْلُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ لَّدُنَّ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْيَهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مثفرون فيه، من النعمة والغنيطة والسرور، فمعا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ لَّدُنَّ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْيَهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يَجِدُ فِي عَائِيَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَرْزُقُكَ تَعْلُكُ فِي الْيَلْدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [غانر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَقَوَّوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبِ لَا يَلْمُحُونَ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا لَّدُنَّ إِنَّا سَرَّحْنَهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿تُنِيمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْرَفُهمُ لِكِ عَذَابٍ غَاطِظٍ ﴿١٩٦﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَوْحًا ﴿١٩٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، أي: قليلاً، وقال تعالى: ﴿أَمَنْ وَعَدْنَهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيمٌ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر ما لهم إلى النار قال بعده: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ أي: ضيافة من عند الله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾. وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن نصر، أخبرنا أبو طاهر سهل بن عبد الله، أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سعيد بن يحيى، أنبأنا عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنما سُقُوا الْأَبْرَارَ لِأَنَّهُمْ بَرَّوْا الْآبَاءَ وَالْأَبْنَءَ، كَمَا أَنَّ لَوْلَادِيكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوْلَادِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ». كذا رواه ابن مردويه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عيسى بن يونس، عن عُبيدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ الْوَصَافِيِّ، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عن ابنِ عَمْرٍو قال: «إنما سماهم الله أبراراً لأنهم برّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقاً، كذلك لوالدك عليك حق، وهذا أشبه والله أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، عن رجل، عن الحسن قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذر. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خثيمة، عن الأسود قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها، لئن كان برأ لقد قال الله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الأعمش، عن الثوري، به، وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُذَكَّرُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر، عن فرج بن فضالة، عن لقمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُذَكَّرُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَيْرٌ لِيَهُمْ لَوْ لَا يُشْرِكُونَ بِعَائِيَةِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِعَائِيَةِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمنون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٩﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِيَدِ اللَّهِ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ مَشْرُوعِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلْوَائِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿١٩٩﴾﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُوتَ يَلِيقُ بِهِمْ يُؤْتُونَ عِلْمًا وَهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عِزَّةً وَكَرْبًا وَرَبُّهُمْ مُجِيبُ دُعَائِهِمْ وَإِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ نَجِوا رَبَّهُمْ إِذَا كَانُوا بِآيَاتِهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿١٩٩﴾﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَّا بِيَدِ اللَّهِ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْيَوْمَ أَوْفًا أَلَيْسَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ نَجِوا رَبَّهُمْ إِذَا كَانُوا بِآيَاتِهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿١٩٩﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَان وَعْدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٩٩﴾ وَيَحْسَبُونَ لِإِذْقَانِ يَسْكُوتٍ وَيَرْجِعُهُمْ خَشْوَاعًا ﴿٢٠٠﴾﴾ [الاسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أجباز اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما

النصاري فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُهُمْ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فِي يَسِيرٍ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿أَوْلَيْتُكَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الآية. وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لما قرأ سورة ﴿كَهَمَّصَ ﴿٩١﴾﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطارقة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضروا لِحاهم. وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إن أخا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه». فخرج بهم إلى الصحراء، فصمهم، وصلى عليه، وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يا مرنان أن نستغفر للعلاج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ﴾ الآية. ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن، عن النبي ﷺ. ثم رواه ابن مردويه أيضا من طرق عن حميد، عن أنس بن مالك بنحو ما تقدم. ورواه أيضا ابن جرير من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر قال: قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «إن أخاكم أضحمة قد مات». فخرج رسول الله ﷺ فصلى كما يصلي على الجنائز فكبر عليه أربعاً، فقال المنافقون: يصلي على عليج مات بأرض الحبشة، فانزل الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَيْتُكَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٩١﴾﴾.

وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو العباس السيارى بمرو، حدثنا عبد الله بن علي الغزال، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: نزل بالنجاشي عَدُوٌّ مِنْ أَرْضِهِمْ، فجاء المهاجرون فقالوا: نجب أن نُخْرِجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى نَقَاتِلَ مَعَكَ، وتري جرأتنا، ونجزيك بما صنعت بنا. فقال: لا، دواء بنصرة الله ﷻ خَيْرٌ مِنْ دَوَاءِ بِنَصْرَةِ النَّاسِ. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ﴾ الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عمرو الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما مات النجاشي كنا نُحَدِّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَرَى عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: مُسَلِّمَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ. وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ﴾ الآية. قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ، وبالذي اتبعوا محمداً ﷺ. رواهما ابن أبي حاتم. وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنيه وأمن بي». وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المردولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً؛ ولهذا قال: ﴿أَوْلَيْتُكَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعني: سريع الإحصاء. رواه ابن أبي حاتم وغيره. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبَرًا وَصَابِرًا وَرَاطِبًا﴾ قال الحسن البصري، رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوهم لسراء ولا لضرء ولا لثبء ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. وكذا قال غير واحد من علماء السلف. وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله مجاهد وابن عباس وسهل بن حنيف، ومحمد بن كعب القُرظي، وغيرهم.

وروى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي، من حديث مالك بن أنس، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جُحَيْفَةَ علي بن يزيد

الكوفي، أنبأنا ابن أبي كريمة، عن محمد بن يزيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال: أندري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قلت: لا. قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرّون المساجد، يصلون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أنزلت: ﴿أَصْبِرُوا﴾ أي: على الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُوا﴾ على أنفسكم وهو اكم ﴿وَرَابِطُوا﴾ في مساجدكم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وهكذا رواه الحاكم في مستدرکه من طريق سعيد بن منصور بن المبارك عن مصعب بن ثابت، عن داود عن ابن صالح، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - بنحوه. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثني ابن فضيل، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن جده، عن شرحبيل، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يكفر الذنوب والخطايا؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا موسى بن سهل الرملي، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا محمد بن مهاجر، حدثني يحيى بن يزيد، عن زيد بن أبي أنيسة، عن شرحبيل، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمتحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء في أماكنها، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». وقال ابن مردويه: حدثني محمد بن علي، أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام البيروتي، أنبأنا محمد بن غالب الأنطاكي، أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن، أنبأنا الوازع بن نافع، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي أيوب، رضي الله عنه، قال: وقف علينا رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم إلى ما يمحو الله به الذنوب ويعظم به الأجر؟» قلنا: نعم، يا رسول الله، وما هو؟ قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة». قال: «وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ﴾»، فذلك هو الرباط في المساجد» وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً. وقال عبد الله بن المبارك، عن مضعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، حدثني داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قال: قلت: لا. قال: إنه - يا ابن أخي - لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يُرَابِطُ فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه ابن جرير، وقد تقدم سياق ابن مردويه، وأنه من كلام أبي هريرة، فالله أعلم. وقيل: المراد بالمرابطة هنا مرابطة الغزو في نُحُور العدو، وحفظ نُحُور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذكُر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

حديث آخر: روى مسلم، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم ليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجره عليه رزقه، وأمن الفتان».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن حنيفة بن شريح، أخبرني أبو هانيء الخولاني، أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره: أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُحْتَم على عمله، إلا الذي مات مُرَابِطاً في سبيل الله، فإنه يَتَم له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي من حديث أبي هانيء الخولاني. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً.

حديث آخر: وروى الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق وحسن بن موسى وأبي سعيد وعبد الله بن يزيد قالوا: حدثنا ابن لهيعة حدثنا مشرَح بن هاعان، سمعت عقبه بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُحْتَم على عمله، إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يجري عليه عمله حتى يُنَعَّت ويأمن من الفتان». وروى الحارث بن محمد بن أبي أسامة في مسنده، عن المقبري وهو عبد الله بن يزيد، به إلى قوله: «حتى يبعث» دون ذكر «الفتان». وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حسن، ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني الليث، عن زهرة بن معبد، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «من مات مُرَابِطاً في سبيل الله، أجرى عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع».

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى، أنبأنا ابن لهيعة، عن موسى بن زردان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من مات مُرَابِطاً وفي فتنة القبر، وأمن من الفزع الأكبر، وعُدّاً عليه وريح برزقه من

الجنة، وكتب له أجر الرباط إلى يوم القيامة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن عمرو بن حَلْحَلَةَ الدؤلي، عن إسحاق بن عبد الله، عن أم الدرداء ترفع الحديث قالت: «من رباط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجرأت عنه رباط سنة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا كَهْمَسٌ، حدثنا مُضْعَبُ بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان، رضي الله عنه - وهو يخطب على منبره -: إني مُحَدِّثُكُمْ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمتعني أن أحدثكم به إلا الضَّنَّ بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَزَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يَقَامُ لَيْلَهَا وَيَصَامُ نَهَارَهَا». وهكذا رواه أحمد أيضاً عن رُوْحٍ عن كَهْمَسٍ عن مصعب بن ثابت، عن عثمان. وقد رواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مُضْعَبِ بن ثابت، عن عبد الله بن الزبير قال: خطب عثمان بن عفان الناس فقال: يا أيها الناس، إني سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ لم يمتعني أن أحدثكم به إلا الضَّنَّ بكم ويصحبانكم، فليخترَ مُخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَوْ لِيَدِغْ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا».

طريق أخرى عن عثمان رضي الله عنه: قال الترمذي: حدثنا الحسن بن علي الخلال، حدثنا هشام بن عبد الملك، حدثنا الليث بن سعد، حدثنا أبو عَقِيلٍ زَهْرَةَ بن مَعْبُدٍ، عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان قال: سمعت عثمان - وهو على المنبر - يقول: إني كَتَمْتُكُمْ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كَرَاهِيَةً تَفْرُقُكُمْ عَنِّي، ثم بدا لي أن أحدثكموه، ليختار امرأ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال محمد - يعني البخاري -: أبو صالح مولى عثمان اسمه بُزْكَانُ، وذكر غير الترمذي أن اسمه الحارث، فالله أعلم. وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وعنده زيادة في آخره فقال - يعني عثمان -: فليرباط امرؤ كيف شاء، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، حدثنا محمد بن المُثَنَّدِ قال: مر سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ بِشَرْحِبِيلِ بْنِ السَّمْطِ، وهو في مُرَابِطٍ لَهُ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَفَلَا أَحَدُكُمْ - يا ابن السمط - بحديث سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ - أَوْ قَالَ: خَيْرٌ - مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ فِيهِ وَقِيَ فُتِنَةُ الْقَبْرِ، وَنَمِيَ لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». تفرد به الترمذي من هذا الوجه، وقال: هذا حديث حسن. وفي بعض النسخ زيادة: وليس إسناده بمتصل، وابن المنكدر لم يدرك سلمان. قلت: الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل بن السمط وقد رواه مسلم والنسائي من حديث مكحول وأبي عُبَيْدَةَ بن عَقْبَةَ، كلاهما عن شرحبيل بن السمط - وله صحبة - عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانُ» وقد تقدم سياق مسلم بمفرده.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سَمُرَةَ، حدثنا محمد بن يَغْلَى السُّلَمِيُّ، حدثنا عُمَرُ بن صُبَيْحٍ، عن عبد الرحمن بن عمرو، عن مكحول، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُخْتَسِباً، مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَعْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ، صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا. وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً، مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً - أَرَاهُ قَالَ -: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا، فَإِنْ رَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِهِ سَالِماً، لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ سِتِّةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَتَكْتُبْ لَهُ الْحَسَنَاتِ، وَيُجْزَى لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، بَلْ مَنكَرٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَعُمَرُ بْنُ صُبَيْحٍ مُتَّهَمٌ».

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا عيسى بن يونس الرَّمْلِيُّ، حدثنا محمد بن شُعَيْبٍ بن شَابُورٍ، عن سعيد بن خالد بن أبي طويل، سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَزَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صِيَامِ رَجُلٍ وَقِيَامِهِ فِي أَهْلِ أَلْفِ سَنَةٍ: السَّنَةُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْماً، وَالْيَوْمُ كَأَلْفِ سَنَةٍ». وهذا حديث غريب أيضاً، وسعيد بن خالد هذا ضَعَفَهُ أَبُو رُزَّةٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ، وَقَالَ الْعَقِيلِيُّ: لَا يَتَّبِعُ عَلَيَّ حَدِيثَهُ. وَقَالَ ابْنُ حِبَانَ: لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: رَوَى عَنْ أَنَسٍ أَحَادِيثَ مَوْضُوعَةً.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن الصَّبَّاحِ، أنبأنا عبد العزيز بن محمد، عن صالح بن مُحَمَّدِ بن زَائِدَةَ، عن

عُمَرَ بن عبد العزيز، عن عقبه بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله حارس الحرس». فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وبين عقبه بن عامر، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية - يعني ابن سلام عن زيد - يعني ابن سلام - أنه سمع أبا سلام قال: حدثني السلولي: أنه حدثه سهل بن الحنظلية: أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فأطنبوا السير حتى كانت عَشِيَّة، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعيمهم وشانهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى». ثم قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله. فقال: «فاركب» فركب فرساً له، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تُغزَّ من قبلك الليلة» فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مِصَلَّة فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قال رجل: يا رسول الله، ما أحسنه، فثُوب بالصلاة، فجعل النبي ﷺ، وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: «أُبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له: «أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها». ورواه النسائي عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحراني، عن أبي توبة وهو الربيع بن نافع به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، سمعت محمد بن شَمِير الرُّعَيْنِي يقول: سمعت أبا عامر النُّجَيْبِي. قال الإمام أحمد: وقال غير زيد: أبا علي الجَنْبِي يقول: سمعت أبا ربحانة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأتينا ذات ليلة إلى شَرْف فَبَيْتْنَا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيت مَنْ يحضر في الأرض حفرة، يدخل فيها ويلقي عليه الجَحْفَةَ - يعني الثَّرْس - فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: «من يَحْرُسُنَا في هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فقال: «إذن» فدنا، فقال: «من أنت؟» فتسمى له الانصاري، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء، فأكثر منه. فقال أبو ربحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله ﷺ قلت: أنا رجل آخر. فقال: «ادن». فدنوت. فقال: «من أنت؟» قال: فقلت: أنا أبو ربحانة. فدعا بدعاء هو دون ما دعا للانصاري، ثم قال: «حُرِّمَت النار على عَيْنٍ دَمَعَت - أو بَكَت - من حَشِيَّة الله، وحرمت النار على عين سَهْرَت في سَبِيل الله». وروى النسائي منه: «حرمت النار...» إلى آخره عن عَصَمَةَ بن الفضل، عن زيد بن الحباب به، وعن الحارث بن مسكين، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شريح، به، وأتم، وقال في الروایتين: عن أبي علي الجنبِي.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا بشر بن عَمْرٍ، حدثنا شعيب بن رَزِيْق أبو شَيْبَةَ، حدثنا عطاء الخراساني، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَيْنَان لَا تَمْسُهُمَا النار: عَيْنٌ بَكَت من حَشِيَّة الله، وعين باتت تَحْرُسُ في سَبِيل الله». ثم قال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رَزِيْق، قال: وفي الباب عن عثمان وأبي ربحانة. قلت: وقد تقدما، والله الحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن عَمَلَانَ، حدثنا رشدين، عن زَبَانَ عن سهل بن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من حَرَسَ من وراء المسلمين في سَبِيل الله، متطوعاً لا بأجرة سلطان، لم ير النار بعينه إلا تحلَّت القَسَم، فإن الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾ [مریم: ٧١]. تفرد به أحمد رحمه الله تعالى.

حديث آخر: روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «تَوَسَّ عبد الدينار وعبد الدُرَّهَم وعبد الحَمِيصَة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سَخِط، تَمَسَّ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طُوبَى لَعَبْدٍ أَخَذَ بعنان قَرَسِه في سَبِيل الله، أشعث رأسه، مُتَبَرِّة قدماء، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقَة كان في السَّاقَة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفَع لم يُشَفَع». فهذا ما تَبَيَّر إيرادُه من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، والله الحمد على جزيل الإنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مطرف بن عبد الله المدني، حدثنا مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة، رضي الله عنه، إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما يَنْزِلُ بعبد مؤمن من مَنزِلَة شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عُسْر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَمَّا كُنْتُمْ تُلَاهُونَ﴾ (٢٤٠). وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال: أُملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الآيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لَوِ ابْصَرْتَنَا
من كان يخضب خدّه بدموعه
أو كان يُثْعِبُ خَيْلَهُ في باطلٍ
ربح العبير لكم، ونحن عبيدنا
ولقد أتانا من مقال نبينا
لا يستوي وعُبارُ خيل الله في
هذا كتاب الله ينطق بيننا

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرّفت عَيْنَاهُ وقال: صدق أبو عبد الرحمن، ونصحتني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا. وأُملى عليّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله. فقال: «هل تستطيع أن تُصَلِّيَ فلا تُفْتَرُ، وتَصُومَ فلا تُفْطِرَ؟» فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «قوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أو ما علمت أن فرس المجاهد ليستنّ في طوله، فيكتب له بذلك الحسنات». وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حيث بعته إلى اليمن: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُلَاهُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو صخر، عن محمد بن كعب القرظي: أنه كان يقول في قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَمَّا كُنْتُمْ تُلَاهُونَ﴾: واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

آخر تفسير سورة آل عمران،

وشه الحمد والمنة، نساله الموت على الكتاب والسنة



تفسير سورة النساء

وهي مدنية. قال العوفي عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وروى من طريق عبد الله بن لهيعة، عن أخيه عيسى، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا حبس». وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو البختري عبد الله بن محمد بن شاكر، حدثنا محمد بن بشر العبدي، حدثنا وسع بن كدام، عن مَعْن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن في سورة النساء لخمسة آيات ما يُشْرِنِي أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَابِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ أُنْ يَشْرِكُ بِهِ وَيَقْعِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية، و ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظْلِمْ نَفْسَهُ نُرِّدْ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَكَ رَجِيمًا﴾ (١١٦). ثم قال: هذا إسناده صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن ابن مسعود قال في خمس آيات من النساء: لهن أحب إلي من الدنيا جميعاً: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَابِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَصْذِقْهَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ أُنْ يَشْرِكُ بِهِ وَيَقْعِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظْلِمْ نَفْسَهُ نُرِّدْ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَكَ رَجِيمًا﴾ (١١٦)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقْرِؤْا بَيْنَ أَمْرِ نَفْسِهِمْ أُولَئِكَ سَوْءٌ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَكَ رَجِيمًا﴾ (١٢٢). رواه ابن جرير: ثم روى من طريق صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس

وغربت، أولاهن: ﴿رُبِّدَ اللَّهُ يُبِيدُ لَكُمْ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾، والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُبِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَقْتُلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾، والثالثة: ﴿رُبِّدَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ صَاحِبًا ﴿٦٨﴾﴾. ثم ذكر قول ابن مسعود سواء، يعني في الخمسة الباقية. وروى الحاكم من طريق أبي نعيم، عن سفيان بن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن أبي مليكة؛ سمعت ابن عباس يقول: سلوني عن سورة النساء، فإني قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَالَّذِي عَلَّمَكُمْ بِهَا يَتْلُو كِتَابًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَبِيًّا ﴿١﴾﴾.

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومُنَّبِأَ لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم، عليه السلام ﴿وَالَّذِي عَلَّمَكُمْ بِهَا يَتْلُو كِتَابًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرأها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن قتادة، عن ابن عباس قال: خُلِقَتِ المرأة من الرجل، فجعل نَهْمَتُهَا في الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نَهْمَتُهُ في الأرض، فاحسبوا نساءكم. وفي الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتمت بها استمتمت بها وفيها عوج». وقوله: ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهَا رِجَالٌ كَثِيرًا مَنصُورًا﴾ أي: وذرا منها، أي: من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، ونَشَرَهُمْ في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع وغير واحد. وقرأ بعضهم: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في به، أي: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَبِيًّا﴾ أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٤٩]. وفي الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفانهم، وقد ثبت في صحيح مسلم، من حديث جرير بن عبد الله البجلي؛ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مَضَر - وهم مُجْتَابُوا النُّمَار - أي من عُرْبِهِمْ وقُرْبِهِمْ - قام فَخَطَبَ الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ حتى ختم الآية. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] ثم حَضَّوْهُم على الصدقة فقال: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ...» وذكر تمام الحديث. وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في حُطْبَةِ الحاجة، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ الآية.

﴿وَمَا أَوْفَوْا بِاللَّيْلِ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْكَيْفِيَّةَ بِالطَّيْبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ آمَرْتُمْ بِهَا كَانَ حُرْمًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَالْكَفِيلُ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْيَسَارَةِ مَثْوًى وَتِلْكَ رِجَالٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَجِدُوا أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ وَمَا أَوْفَوْا بِاللَّيْلِ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْكَيْفِيَّةَ بِالطَّيْبِ ﴿٤﴾﴾.

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحُلُمَ كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَتَبَدَّلُوا الْكَيْفِيَّةَ بِالطَّيْبِ﴾ قال سفيان الثوري، عن أبي صالح: لا تغفل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك. وقال سعيد بن جبيرة: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام. وقال سعيد بن المسيب والزهري: لا تُغْطِ مهزولاً وتأخذ سميناً. وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً. وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم. وقوله: ﴿وَمَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ آمَرْتُمْ بِهَا﴾ قال مجاهد،

وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حَيَّان، والسدي، وسفيان بن حُسَيْن: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أي إثمًا كبيراً عظيماً. وقد رواه ابن مَرْدُويه، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ قال: «إثمًا كبيراً». ولكن في إسناده محمد بن يونس الكَذْبِي وهو ضعيف. وهكذا زُوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، وقناة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، وأبي سَيَّان مثل قول ابن عباس. وفي الحديث المروي في سنن أبي داود: «اغفر لنا حوبنا وخطايانا». وروى ابن مَرْدُويه بإسناده إلى واصل، مولى أبي عُثَيْنَةَ، عن محمد بن سِيرِينَ، عن ابن عباس: أن أبا أيوب طَلَّق امرأته، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا أيوب، إن طلاق أم أيوب كان حوباً» قال ابن سيرين: الحوب الإثم. ثم قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا بشر بن موسى، أخبرنا هَرُودَةُ بن خليفة، أخبرنا عَوْفُ، عن أنس: أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن رسول الله ﷺ فقال: «إن طلاق أم أيوب لحوب فأمسكها»، ثم رواه ابن مردويه والحاكم في مستدرکه من حديث علي بن عاصم، عن حَمِيد الطويل، سمعت أنس بن مالك يقول: أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم فقال النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب» فكف.

والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنًا﴾ أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيِّق الله عليه. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جُرَيْج، أخبرني هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة؛ أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَدَقٌ. وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾. أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العَدَقُ وفي ماله. ثم قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يا ابن أخي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبها مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنها أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسَتَقُونَكِ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْتَبِئُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال. فنها أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال.

وقوله: ﴿مَتْنًا وَتَلَكَ وَرَبِّعٌ﴾ أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً، كما قال تعالى: ﴿جَائِلِ الْمَلَائِكَةِ رُتُلًا أَوْ لَاحِظِي مَتْنًا وَتَلَكَ وَرَبِّعٌ﴾ [فاطر: ١] أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي، رحمه الله، مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل النبي ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيحين، وإما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري. وقد علقه البخاري، وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع. وهذا عند العلماء من خصائص رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع.

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالوا: حدثنا معمر، عن الزهري. قال ابن جعفر في حديثه: أنبأنا ابن شهاب، عن سالم، عن أبيه: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشرة نسوة، فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعاً. فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك ففدقه في نفسك ولعلك لا تمكث إلا قليلاً. وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم، كما رجم قبر أبي رِغَال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وغيرهم عن

إسماعيل بن عُلَيْبٍ وَعُنْدَرُ وَيَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، وَسَفِيانُ الثَّورِيُّ، وَعَيْسَى بْنُ يُونُسَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُحَارِبِيُّ، وَالْفَضْلُ بْنُ مُوسَى وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْحَفَاطِ، عَنْ مَعْمَرٍ - بِإِسْنَادِهِ - مِثْلَهُ إِلَى قَوْلِهِ: اخْتَرْتُ مِنْهُمْ أَرْبَعًا. وباقِي الْحَدِيثِ فِي قِصَّةِ عُمَرَ مِنْ أَفْرَادِ أَحْمَدَ، وَهِيَ زِيَادَةٌ حَسَنَةٌ، وَهِيَ مُضَعَّفَةٌ لِمَا عَلَّلَ بِهِ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ، حَيْثُ قَالَ بَعْدَ رِوَايَتِهِ لَهُ: سَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: هَذَا حَدِيثٌ غَيْرُ مَحْفُوظٍ، وَالصَّحِيحُ مَا رَوَى شُعَيْبٌ وَغَيْرُهُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، حُذِّثْتُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوَيْدِ الثَّقَفِيِّ أَنَّ غِيلَانَ بْنَ سَلْمَةَ، فَذَكَرَهُ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَإِنَّمَا حَدِيثُ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَتَرَجَعَنَّ نِسَاءُكَ أَوْ لَا رَجَمَنَّ قَبْرَكَ كَمَا رَجَمَ قَبْرَ أَبِي رِغَالٍ. وَهَذَا التَّعْلِيلُ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ مَرْسَلًا. وَهَكَذَا رَوَاهُ مَالِكٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ مَرْسَلًا. قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَهُوَ أَصَحُّ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَرَوَاهُ عَقِيلٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: بَلَّغْنَا عَنْ عَثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سُوَيْدٍ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: وَهَذَا وَهَمٌّ، إِنَّمَا هُوَ الزُّهْرِيُّ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ أَبِي سُوَيْدٍ بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَهُ.

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَرَوَاهُ يُونُسُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سُوَيْدٍ. وَهَذَا كَمَا عَلَّلَهُ الْبُخَارِيُّ. وَهَذَا الْإِسْنَادُ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ مِنْ مَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَجَالَهُ ثِقَاتٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ. ثُمَّ قَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ مَعْمَرٌ، بَلْ وَالزُّهْرِيُّ قَالَ الْحَفَاطُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَفَاطُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَفَاطُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو بُرَيْدٍ عَمْرُو بْنُ يَزِيدَ الْجَرْمِيُّ، أَخْبَرَنَا سَيْفُ بْنُ عُيَيْدٍ، حَدَّثَنَا سُرَّارُ بْنُ مُجَشَّرٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ نَافِعٍ وَسَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ غِيلَانَ بْنَ سَلْمَةَ كَانَ عِنْدَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فَاسْلَمَ وَأَسْلَمَ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهُمْ أَرْبَعًا. هَكَذَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ بْنِ السَّكَنِ: تَفَرَّدَ بِهِ سُرَّارُ بْنُ مُجَشَّرٍ وَهُوَ ثِقَّةٌ، وَكَذَا وَثَقَهُ ابْنُ مَعِينٍ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَكَذَلِكَ رَوَاهُ السَّمِيدِيُّ عَنْ وَهَّابٍ، عَنْ سُرَّارٍ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَرَوَيْنَا مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ الْحَارِثِ أَوْ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسٍ، وَعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ - يَعْنِي حَدِيثَ غِيلَانَ بْنِ سَلْمَةَ. فَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ لَسَوَّغَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاتِرَتَهُنَّ فِي بَقَاءِ الْعِشْرَةِ وَقَدْ اسْلَمْنَ مَعَهُ، فَلَمَّا أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِ أَرْبَعٍ وَفِرَاقِ سَاتِرَتِهِنَّ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ بِحَالٍ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الدَّوَامِ، فَفِي الْإِسْتِنَافِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

حَدِيثٌ آخَرَ فِي ذَلِكَ: رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمَا، مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ حُمَيْضَةَ بْنِ الشَّمْرَذَلِ - وَعِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ: بِنْتُ الشَّمْرَذَلِ، وَحَكَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الشَّمْرَذَلُ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ - عَنْ قَيْسِ بْنِ الْحَارِثِ. وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي رِوَايَةٍ: الْحَارِثُ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْأَسَدِيِّ قَالَ: اسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانِي نِسْوَةٌ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اخْتَرْتُ مِنْهُمْ أَرْبَعًا». وَهَذَا الْإِسْنَادُ حَسَنٌ، وَمَجْرَدُ هَذَا الْإِخْتِلَافُ لَا يَضُرُّ مِثْلَهُ، لِمَا لِلْحَدِيثِ مِنَ الشَّوَاهِدِ.

حَدِيثٌ آخَرَ فِي ذَلِكَ: قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مَسْنَدِهِ: أَخْبَرْتَنِي مِنْ سَمْعِ ابْنِ أَبِي الزُّنَادِ يَقُولُ: أَخْبَرْتَنِي عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ سَهْلٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ نُوْفَلِ بْنِ مَعَاوِيَةَ اللَّيْلِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْلَمْتُ وَعِنْدِي خَمْسُ نِسْوَةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْتَرِ أَرْبَعًا أَيَّتِهِنَّ شِئْتَ، وَفَارِقِ الْآخَرَ»، فَعَمَدْتُ إِلَى أَقْدَمِهِنَّ صَحْبَةَ عَجُوزٍ عَاقِرٍ مَعِي مِنْذُ سِتِّينَ سَنَةً، فَطَلَّقْتُهَا. فَهَذِهِ كُلُّهَا شَوَاهِدُ بَصِيحَةٌ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ غِيلَانَ كَمَا قَالَ الْحَفَاطُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ خِفْتُمْ إِلَّا نَفِيلًا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أَي: فَإِنَّ خَشِيتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ إِلَّا تَعَدَّلُوا بَيْنَهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» [النساء: ١٢٩] فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقْتَصِرُ عَلَى وَاحِدَةٍ، أَوْ عَلَى الْجَوَارِيِّ السَّرَارِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قِسْمُ بَيْنَهُنَّ، وَلَكِنْ يَسْتَحِبُّ فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ لَا فَلَاحِجٌ. وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ أَذَى الْأَلَّا تَمُولُوا» قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ الْأَذَى لَا تَكْثُرُ عَائِلَتُكُمْ. قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَسَفِيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَالشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَهَذَا مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً» أَي: فَقَرَأَ «فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» [التوبة: ٢٨] وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ
وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْجِيلُ
وَتَقُولُ الْعَرَبُ: عَالَ الرَّجُلُ يَعْجِلُ عَيْلَةً، إِذَا افْتَقَرَ وَلَكِنْ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ هُنَا نَظَرٌ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَخْشَى كَثْرَةَ الْعَائِلَةِ مِنْ تَعْدَادِ الْحَرَاثِ، كَذَلِكَ يَخْشَى مِنْ تَعْدَادِ السَّرَارِيِّ أَيْضًا. وَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ: «ذَلِكَ أَذَى الْأَلَّا تَمُولُوا» أَي: لَا تَجُورُوا. يُقَالُ: عَالَ فِي الْحَكْمِ: إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ، وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:

بِمِيزَانِ قَسِطٍ لَا يَخِيْسُ شَعْبِيَّةً
لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ
وَقَالَ هُشَيْمٌ: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: كَتَبَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ فِي شَيْءٍ عَاتَبُوهُ فِيهِ: إِنِّي لَسْتُ بِمِيزَانَ لَا أَعُولُ. رَوَاهُ

ابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو حاتم ابن جبان في صحيحه، من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم ذحيم، حدثنا محمد بن شعيب، عن عمر بن محمد بن زيد، بن عبد الله بن عمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة عن النبي ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَدَبُ آلِ تَمُودَ﴾ قال: «لا تجوروا». قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة. موقوف. وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وأبي مالك، وأبي زرّين، والثّخفي، والشّعبي، والضحاك وعطاء الخراساني، وقتادة، والسّدي، ومقاتل بن حيان: أنهم قالوا: لا تميلوا. وقد استشهد عكرمة، رحمه الله، ببيت أبي طالب الذي قدمناه، ولكن ما أنشده كما هو المروري في السيرة، وقد رواه ابن جرير، ثم أنشده جيداً، واختاره ذلك. وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ مَخْلَّةً﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النحلة: المهر. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: نحلة: فريضة. وقال مقاتل وقتادة وابن جريج: نحلة: أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماة. وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تتكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَبْنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَمَلَّوهُنَّ مَخْلَّةً بَرًّا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن السدي، عن يعقوب بن المغيرة بن شعبة، عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم شيئاً، فليسال امرأته ثلاثة دراهم أو نحو ذلك، فليبتع بها عسلاً، ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئاً مريئاً شفاء مباركاً. وقال هشيم، عن سيار، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ مَخْلَّةً﴾. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان عن عمير الخثعمي، عن عبد الملك بن المغيرة الطائفي، عن عبد الرحمن بن البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ مَخْلَّةً﴾. قالوا: يا رسول الله، فما العلائق بينهم؟ قال: «ما تراضى عليه أهلوه». وقد روى ابن مردويه من طريق حجاج بن أظطة، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيهقي، عن عمر بن الخطاب قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «أنكحوا الأيامي ثلاثاً، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، ما العلائق بينهم؟ قال «ما تراضى عليه أهلوه». ابن البيهقي ضعيف، ثم فيه انقطاع أيضاً.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ مِنْهَا وَأَسْكِنُوهُمْ وَأَقْرَبُوا لَهُمْ قَوْلًا مَرعُومًا ۗ﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْفُرُوا بِهَا وَإِن كَانُوا عَنِيًّا فَلْيَسْتَعِينُوا بِمَا بِالْمَرْءِ إِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾.

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها. ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفلس، وهو ما إذا أحاطت الدين برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل العزماء الحاكم الحجر عليه حَجَرَ عليه. وقد قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بُنُوكِ والنساء، وكذا قال ابن مسعود، والحكم بن عتيبة، والحسن، والضحاك: هم النساء والصبيان. وقال سعيد بن جبّير: هم اليتامى. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن النساء السفهات إلا التي أطاعت قِيَمَهَا». ورواه ابن مردويه مطولاً. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا حَزْبُ بن سُرَيْج، عن معاوية بن قرة، عن أبي هريرة ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: الخدم، وهم شياطين الإنس وهم الخدم. وقوله: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهَا وَأَسْكِنُوهُمْ وَأَقْرَبُوا لَهُمْ قَوْلًا مَرعُومًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول تعالى: لا تَعْمَدُ إلى مالك وما حَوْلَكَ اللهُ، وجعله معيشة، فتعطيهِ امرأتك أو بَنِيكَ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أَسْكِنُ مالك وأصلحهُ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سَيِّئَةُ الخُلُقِ فلم يُطَلِّقها،

ورجل أعطى ماله سفياً، وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه. وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لِمَنْ قَوْلًا مَثَرًا﴾: يعني في البر والصلة. وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل، من الإنفاق في الكساوي والأرزاق والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق. وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمُ اللَّيْلَانَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي، ومقاتل بن حيان: أي اختبروهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾، قال مجاهد: يعني الحُلُم. قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد. وقد روى أبو داود في سننه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «لا يُثم بعد احتلام، ولا صُمات يوم إلى الليل». وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «زُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُعْقِلَ». أو يستكمل خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - لما بلغه هذا الحديث - إن هذا الفرق بين الصغير والكبير. واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، وهو الشُعرة، هل تَدُل على بلوغ أم لا؟ على ثلاثة أقوال، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين، فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغاً في حقهم؛ لأنه لا يتعجل بها إلا ضرب الجزية عليه، فلا يعالجها. والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس، واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن عَطِيَّةِ الْمُقْرَظِيِّ، رضي الله عنه قال: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يوم قُرَيْظَةَ فكَانَ مِنْ أُنْبُتِ قَتْلٍ، ومن لم يُنبِت خَلَى سبيله، فكننت فيمن لم يُنبِت، فخلَى سبيلي. وقد أخرجاه أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإنما كان كذلك؛ لأن سعد بن معاذ، رضي الله عنه، كان قد حكم فيهم بقتل مقاتلة وسبي الذرية. وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الغريب»: حدثنا ابن عليه، عن إسماعيل بن أمية، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمر: أن غلاماً ابتهر جارية في شعره، فقال عمر، رضي الله عنه: انظروا إليه. فلم يوجد أنبت، فذُرَّ عَنْهُ الْحَدُّ. قال أبو عبيد: ابتهرها: أي قذفها، والابتهار أن يقول: فعلت بها وهو كاذب. فإن كان صادقاً فهو الابتيار، قال الكمي في شعره:

قَبِيحٌ بِمِثْلِي نَعْتُ الْفَتَاةِ إِذَا ابْتَهَارًا وَإِنَّا ابْتِيَارَا
وقوله: ﴿فَإِنَّمَا أَنْتُمْ بِتَيْمِّكُمْ يُشَدُّ فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباس، والحسن البصري، وغير واحد من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء متى بلغ الغلام مُضِلِحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَدِيلًا أَنْ يَكْفُرُوا﴾. ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْثًا فَلْيُتَّقِ اللَّهَ فَيَلْتَمِسْهُ﴾: أي: من كان في عُثبة عن مال اليتيم فليستغف عنه، ولا يأكل منه شيئاً. قال الشعبي: هو عليه كالهيئة والدم. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْثًا فَلْيُتَّقِ اللَّهَ﴾ نزلت في مال اليتيم. وحدثنا الأشج وهارون بن إسحاق قالا: حدثنا عبدة بن سليمان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويُصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، حدثنا علي بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْثًا فَلْيُتَّقِ اللَّهَ فَيَلْتَمِسْهُ﴾ وَوَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه. ورواه البخاري عن إسحاق عن عبد الله بن نمير، عن هشام، به، قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يرد إذا أيسر، على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً. وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، حدثنا حسين، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبْذِرٍ وَلَا مُتَأْتِلٍ مَالًا، وَمَنْ غَيْرَ أَنْ تَقِيَّ مَالَكَ - أَوْ قَالَ: تَقْدِي مَالَكَ - بِمَالِهِ» شك حسين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، حدثنا حسين المكتب، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً عنده مال - وليس عنده شيء ما - أكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير مُسْرِفٍ». ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث حسين المعلم، به.

وروى أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه في تفسيره من حديث يعلى بن مهدي، عن جعفر بن سليمان، عن أبي

عامة الخزاز، عن عمرو بن دينار، عن جابر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيم أضرب يتيمي؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واثق مالك بماله، ولا متأثر منه مالا. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد قال: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولي إبل، وأنا أمتح في إبلي وأفقر فماذا يحل لي من ألبانها؟ فقال: إن كنت تبغي ضالتها وتنهأ جربها، وتلوط حوضها، وتسقي عليها، فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب. ورواه مالك في موطنه، عن يحيى بن سعيد، به. وبهذا القول - وهو عدم أداء البديل - يقول عطاء بن أبي رباح، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وعطية العوفي، والحسن البصري. والثاني: نعم؛ لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وقد قال أبو بكر ابن أبي الدنيا: حدثنا ابن خزيمة، حدثنا وكيع، عن سفيان وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة والي اليتيم، إن استغثت استغثت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت. طريق أخرى: قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: قال لي عمر، رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتججت أخذت منه، فإذا أيسرت ردذته، وإن استغثت استغثت. إسناد صحيح، وروى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: القرض. قال: وزوي عن عبيدة، وأبي العالية، وأبي وائل، وسعيد بن جبيرة - في إحدى الروايات - ومجاهد، والضحاك، والسدي نحو ذلك. وروى من طريق السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يأكل بثلاث أصابع. ثم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا ابن مهدي، سفيان، عن الحكم، عن مفسم، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، قال: يأكل من ماله، يقوت على يتيمه، حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم. قال: وزوي عن مجاهد وميمون بن مهران في إحدى الروايات والحكم نحو ذلك. وقال عامر الشَّعْبِيُّ: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه، كما يضطر إلى أكل الميتة، فإن أكل منه قضاء. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن وهب: حدثني نافع بن أبي نعيم القاري قال: سألت يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعه عن قول الله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. فقالا: ذلك في اليتيم، إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره، ولم يكن للولي منه شيء. وهذا بعيد من السياق؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْنِيَا فَلْيَسْتَوْفَّ﴾ يعني: من الأولياء ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: منهم ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالتالي هي أحسن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤]. أي: لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف. وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد منهم، فحينئذ سلموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾، وهذا أمر الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم؛ لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه. ثم قال: ﴿وَكُلِّمُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً وراقياً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة منبؤسة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تليين مال يتيم».

﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ صِيَبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمَا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِسِيًّا مَّقْرُوضًا ٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨﴾ وَلِيَسَّخِرَ الْيَتِيمَ لَوْ تَرَكَ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً فَاصْفَحُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ إِتْمًا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ١٠﴾ .

قال سعيد بن جبيرة وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ صِيَبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمَا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِسِيًّا مَّقْرُوضًا ٧﴾ أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستورون في أصل الورثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله تعالى لكل منهم، بما يدل به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةِ النَّسَبِ. وقد روى ابن مردويه من طريق ابن هراسة، عن سفيان الثوري، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنتين، وقد مات أبوهما، وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وسيأتي هذا الحديث عند آيتي الميراث بسياق آخر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨﴾. قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمسكين فليزضخ لهم

من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام. وقيل: يستحب. واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فقال البخاري: حدثنا أحمد بن حُميد أخبرنا عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَشْجَعِيُّ، عن سُفْيَانَ، عن الشَّيْبَانِيِّ، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ قال: هي مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. تابعه سَعِيدٌ عن ابن عباس. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عَبَادُ بْنُ الْعَوَّامِ، عن الحجاج، عن الحَكَمِ، عن مِقْسَمِ، عن ابن عباس قال: هي قائمة يعمل بها. وقال الثوري، عن ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد في هذه الآية، قال: هي واجبة على أهل الميراث، ما طابت به أنفسهم. وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي العالية، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، وسعيد بن جُبَيْرٍ، ومكحول، وإبراهيم التَّخَعِيُّ، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ويحيى بن يَعْمَرٍ: أنها واجبة. وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن إسماعيل بن عُثَيْبَةَ، عن يونس بن عُبَيْدٍ، عن محمد بن سيرين قال: ولي عبيدة وصية، فأمر بشاة فذبحت، فأطعم أصحاب هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وقال مالك، فيما يروى عنه من التفسير في جزء مجموع، عن الزهري: أن عروة أعطى من مال مضعب حين قسم ماله. وقال الزهري: وهي محكمة. وقال مالك، عن عبد الكريم، عن مجاهد قال: هو حق واجب ما طابت به الأنفس.

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم:

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني ابن مَلَيْكَةَ: أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد أخبراه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية قالاً: فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه. قالاً: وتلا: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَىٰ﴾. قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت أن يوصي لهم. رواه ابن أبي حاتم.

ذكر من قال: إن هذه الآية منسوخة بالكلية:

قال سفيان الثوري، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ﴾ قال: منسوخة. وقال إسماعيل بن مسلم المكي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَىٰ﴾: نسختها الآية التي بعدها: ﴿يُؤْتِيكَ اللَّهُ فِي الْأَمْوَالِ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَىٰ﴾: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض، فأعطى كل ذي حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمي المتوفى. رواه ابن مَرْزُوبِيهِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾: نسختها آية الميراث، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون - مما قل منه أو كثر - نصيباً مفروضاً. وحدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا سعيد بن عامر، عن همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك، نسختها الموارث، فالحق الله بكل ذي حق حقه، وصارت الوصية من ماله، يوصي بها لذوي قرابته حيث يشاء. وقال مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: هي منسوخة، نسختها الموارث والوصية. وهكذا روي عن عكرمة، وأبي الشعثاء، والقاسم بن محمد، وأبي صالح، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّانَ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنهم قالوا: إنها منسوخة. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم. وقد اختار ابن جرير ههنا قولاً غريباً جداً، وحاصله: أن معنى الآية عنده ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ﴾ أي: وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. هذا مضمون ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار، وفيه نظر، والله أعلم. وقد قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ﴾: وهي قسمة الميراث. وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا لا على ما سلكه أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بل المعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمسكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برأ بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم، وجبراً لكسرهم. كما قال الله تعالى: ﴿كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وذم الذين ينقلون المال

خفية؛ خشية أن يطلع عليهم المحاويع وذوو الفاقة، كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَنتُمَا لَمَعْتُمَا مُتَبِينَ﴾ [القلم: ١٧]، أي: بليلى. وقال: ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أن لا يبتخلتها إليهم عيكم منكم ﴿١٤﴾ [القلم: ٢٣، ٢٤] ف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِكَفَرِينَ آتَنَاهَا﴾ [محمد: ١٠] فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه؛ ولهذا جاء في الحديث: «ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسده» أي: منعها يكون سبب محاق ذلك المال بالكلية.

وقوله: ﴿وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْقُوا اللَّهَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يخضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة. وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: فالشطر؟ قال: «لا». قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفي الصحيح أن ابن عباس قال: لو أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي الثلث في وصيته، وإن كانوا فقراء استحب أن يتفص الثلث. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْقُوا اللَّهَ﴾ أي: في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَعْدَ أَنْ يَرْثُوا﴾. حكاها ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: وهو قول حسن، يتأيد بما بعده من التهديد في أكل مال اليتامى ظلماً، أي: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذريتهم إذا وليتهم. ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة. وثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسخر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيدة، أخبرنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هاروي العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: «انطلق بي إلى خلتي من خلتي الله كثير، رجال، كل رجل له مشفران كمشفري البعير، وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتذف في في أحدهم حتى يخرج من أسفلهم حوار وضراخ. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً».

وقال السدي: يبعث أكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا زياد بن المنذر، عن نافع بن الحارث عن أبي بركة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً» قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «الم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم، عن أبي رزعة، عن عقبة بن مكرم، وأخرجه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن أحمد بن علي بن المثنى، عن عقبة بن مكرم. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو عامر العبدي، حدثنا عبد الله بن جعفر الزهري، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرج مال الضعيفين: المرأة واليتيم». أي: أوصيكم باجتناب ما لهما. وتقدم في سورة البقرة من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٦﴾، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيخسب له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ خَرِبَ وَإِنْ تَخَلَطُوهُمْ فَاخْرُؤْهُمْ وَأَلَّا يَمْلَأَ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمَصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿يُؤْيِسُكَ اللَّهُ فِي آتِلِدِكُمْ لِلذِّكْرِ وَمِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ آتِلِدَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْيِسُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهَا الشُّدْشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَمْ وَلَدًا وَإِلَّا فَرِثَ الْوَالِدُ وَالْوَالِدَةُ الْوَالِدُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَخْوَتِهِ الشُّدْشُ مِمَّا تَرَكَ وَصِيَّةٌ يَوْسَى يَهَا أَوْ دِينٍ مَا تَرَكَ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَرُدُّونَ آتِلِدَهُمْ أَقْرَبَ لَكُمْ تَقَرُّبًا فَارِثَةً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧﴾.

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هي كالتفسير لذلك، ولندكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتاب «الأحكام» فالله المستعان. وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك. وقد روى أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عبد الرحمن بن رافع التنوخي، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية مُحْكَمَةٌ، أو سُنةٌ قائمةٌ، أو فريضةٌ عَادِلَةٌ». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، تَعَلَّمُوا الفرائضَ وَعَلِّمُوهُ فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْتَزَعُ مِنْ أُمَّتِي». رواه ابن ماجه، وفي إسناده ضعف. وقد روي من حديث عبد الله بن مسعود وأبي سعيد، وفي كل منهما نظر. قال سفيان بن عيينة: إنما سُمِّيَ الفرائضَ نِصْفَ الْعِلْمِ؛ لأنه يتلى به الناس كلهم. وقال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام: أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رَشَ عَلَيَّ، فافقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج به، ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر.

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية: قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله - هو ابن عمرو الزقي - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِلَ أبوهما معك في أحدٍ شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا يتكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثَّلَاثِينَ، وَأُمَّهُمَا الثَّمَنَ، وما بقي فهو لك». وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من طرق، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، به. قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه.

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري، رحمه الله، فإنه ذكره ههنا. والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم. فقولته تعالى: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضعفُ ما تأخذه الأنثى. وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح: وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقت به صدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أترؤن هذه طارحةً ولدها في النار وهي تُقَدِّرُ على ذلك؟» قالوا: لا يا رسول الله: قال: «قَوْلَ اللَّهِ لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا». وقال البخاري ههنا: حدثنا محمد بن يوسف، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فسَخَّ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض، للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تُعْطَى المرأة الربع أو الثمن وتعطى البنت النصف. ويعطى الغلام الصغير. وليس أحد من هؤلاء يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة... استكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه، أو نقول له فيغير، فقال بعضهم: يا رسول الله، نعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم وتُعْطَى الصبي الميراث وليس يُعْطَى شيئاً... وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً. وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فإن كنَّ نساء اثنتين، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْرَابِ﴾ [الأنفال: ١٢]. وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا

تَزَوَّجَ لَوْ كَانَ الْمَرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: فَلَهُمَا ثَلَاثًا مَا تَرَكَ. وَإِنَّمَا اسْتَفِيدُ كَوْنَ الثَّلَاثِينَ لِلْبَتْنَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي آيَةِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حُكْمُ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَاثِينَ. وَإِذَا وَرَثَ الْأَخْتَانِ الثَّلَاثِينَ فَلَأَنْ يَرِثَ الْبَتْنَانِ الثَّلَاثِينَ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَكَمَ لِابْنَتِي سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثَّلَاثِينَ، فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضًا فَإِنْ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَجِدَةٌ فَلَهَا النِّصْفُ﴾. فَلَوْ كَانَ لِلْبَتْنَيْنِ النِّصْفُ أَيْضًا لَنَصَّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَتْنَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا النِّصْفُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ النِّصْفُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، الْأَبْوَانُ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ، فَيَفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا السُّدْسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا ابْنَتٌ وَاحِدَةٌ، فَرُفِضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبْوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا السُّدْسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ السُّدْسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيَجْمَعُ لَهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ. الْحَالُ الثَّانِي: أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبْوَانُ بِالمِيرَاثِ، فَيَفْرَضُ لِلْأُمِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - الثُّلُثُ وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِيَّ بِالتَّعْصِيبِ الْمُحْضِ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضَعْفِيَّ مَا فَرَضَ لِلْأُمِّ، وَهُوَ الثُّلُثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرَّبِيعَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: مَا تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ فَرَضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِيِّ فِي الْمَسَالَتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْبَاقِيَّ كَانَهُ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلْأَبِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِيِّ وَيَأْخُذُ ثُلُثِيهِ. وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَأَصْحَحَ الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ. وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، وَالْأَثْمَةَ الْأَرْبَعَةَ، وَجُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، فَإِنَّ آيَةَ أَعْمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَوْ لَا. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، نَحْوَهُ. وَبِهِ يَقُولُ شُرَيْحٌ وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ وَاخْتَارَهُ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ اللَّبَّانِ الْبَصْرِيُّ، فِي كِتَابِهِ «الْإِبْجَازُ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ». وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ آيَةِ إِنَّمَا هُوَ مَا إِذَا اسْتَبَدَّ بِجَمِيعِ التَّرْتِيقِ، فَمَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَيَأْخُذُ الزَّوْجُ أَوْ الزَّوْجَةُ الْفَرَضَ، وَيَبْقَى الْبَاقِيَّ كَمَا جَمِيعَ التَّرْتِيقِ، فَتَأْخُذُ ثُلُثَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجَةِ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ الرَّبِيعَ وَهُوَ ثَلَاثَةٌ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ، وَتَأْخُذُ الْأُمَّ الثُّلُثَ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ، فَيَبْقَى خَمْسَةٌ لِلْأَبِ. وَأَمَّا فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِيِّ، لِثَلَاثِ تَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ لَوْ أَخَذَتْ ثُلُثَ الْمَالِ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ سِتَّةٍ: لِلزَّوْجِ النِّصْفُ: ثَلَاثَةٌ، وَلِلْأُمِّ ثُلُثٌ مَا بَقِيَ وَهُوَ سَهْمٌ، وَلِلْأَبِ الْبَاقِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ سَهْمَانِ. وَيَحْكِي هَذَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْرِينَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُ مَرْكَبٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، مُوَافِقٌ كَلَامُهُمَا فِي صُورَةٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ أَيْضًا. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبْوَيْنِ: وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، وَسِوَاهُ كَانُوا مِنَ الْأَبْوَيْنِ، أَوْ مِنَ الْأَبِ، أَوْ مِنَ الْأُمِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْبِسُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى السُّدْسِ، فَيَفْرَضُ لَهَا مَعَ وَجُودِهِمُ السُّدْسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِيَّ. وَحُكْمُ الْأَخْوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ فَقَالَ: إِنَّ الْأَخْوَيْنِ لَا يَرْتُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾. فَالْأَخْوَانُ لَيْسَا بِلِسَانِ قَوْمِكَ إِخْوَةٌ. فَقَالَ عُثْمَانُ: لَا اسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ مَا كَانَ قَلْبِي، وَمَضَى فِي الْأَمْصَارِ، وَتَوَارَتْ بِهِ النَّاسُ. وَفِي صِحَّةِ هَذَا الْأَثَرِ نَظَرٌ، فَإِنَّ شُعْبَةَ هَذَا تَكَلَّمَ فِيهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَلَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لَذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ الْأَخْصَاءُ بِهِ، وَالمَنْقُولُ عَنْهُمْ خِلَافُهُ. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: الْأَخْوَانُ تَسْمَى إِخْوَةٌ، وَقَدْ أَفْرَدَتْ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْمَغْبِرَةِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ النِّصْفُ﴾: أَضْرَبُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرْتُونَ، وَلَا يَحْبِسُهَا الْأَخُ الْوَاحِدُ مِنَ الثُّلُثِ وَيَحْبِسُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرْتُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أَمَّهُمْ مِنَ الثُّلُثِ أَنْ أَبَاهُمْ يَلِي إِتْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أَمَّهُمْ. وَهَذَا كَلَامُ حَسَنِ. لَكِنْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ السُّدْسَ الَّذِي حَجَبُوهُ عَنْ أَمَّهُمْ يَكُونُ لَهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ شَاذٍ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَقْعَرٌ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: السُّدْسُ الَّذِي حَجَبَتْهُ الْإِخْوَةُ لِأُمِّ لَهُمْ، إِنَّمَا حَجَبُوا أَمَّهُمْ عَنْهُ لِيَكُونَ لَهُمْ دُونَ أَبِيهِمْ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا قَوْلٌ مُخَالَفٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا سَفْيَانُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُو، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْكِلَالَةُ مِنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دِينًا﴾: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ سَلْفًا وَخَلْفًا: أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِعْمَانِ النَّظَرِ فِيهِمْ مِنْ فَحْوَى آيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ

وأصحاب التفاسير، من حديث أبي إسحاق، عن الحارث بن عبد الله الأعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرؤون ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوسَىٰ يَهَا أَوْ دِينِ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني أمية يتوارثون دون بني العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب، فإله أعلم. وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾ أي: إنما فرضنا للأبواء وللأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد، وللوالدين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي - أو الأخروي أو هما - من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فهذا قال: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾ أي: كان النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم. وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محلها، ويعطي كل ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ يَصِفُ مَا تَرَكْتُمْ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوسَىٰ يَهَا أَوْ دِينِ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوسَىٰ يَهَا أَوْ دِينِ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُحُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوسَىٰ يَهَا أَوْ دِينِ غَيْرَ مَضَآئِرٍ وَصِيَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ولكم - أيها الرجال - نصف ما ترك أزواجكم إذا مثن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ إلخ، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الثلث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي﴾ إلخ، الكلام عليه كما تقدم. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾ الكلاله: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا: من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروع، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق: أنه سئل عن الكلاله، فقال: أقول فيها برأبي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه: الكلاله من لا ولد له ولا والد. فلما ولي عمر بن الخطاب قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه. رواه ابن جرير وغيره. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان، عن سليمان الأحوال، عن طاوس قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، فسمعت يقول: القول ما قلت، وما قلت، وما قلت. قال: الكلاله من لا ولد له ولا والد. وهكذا قال علي بن أبي طالب وابن مسعود، وصح عن غير وجه عن عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي، والحسن البصري، وقتادة، وجابر بن زيد، والحكم. وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. قال أبو الحسين بن اللبان: وقد روي عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو أنه لا ولد له. والصحيح عنه الأول، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد. وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم، كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه، ﴿فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُحُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾. وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه، أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم. الثاني: أن ذكرهم وأنثاهم سواء. الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن. الرابع: أنهم لا يزدادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإنثاهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس، عن الزهري قال: قضى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثى. قال محمد بن شهاب الزهري: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم بذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي: زوج، وأم أو جدة، وإثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين. فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم. وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين، يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشارك بينهم. وضح التشريك عنه وعن أمير المؤمنين عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، رضي الله عنهم. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح القاضي، ومسروق، وطاوس، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي، وعمر بن عبد العزيز، والثوري، وشريك وهو مذهب مالك والشافعي، وإسحاق بن راهويه. وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه، لأنهم عصبية. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك، وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبي وابن أبي لیلی، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، والحسن بن زياد، وزُفر بن الهذيل، والإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن آدم، ونعيم بن حماد، وأبي ثور، وداود بن علي الظاهري، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي، رحمه الله، في كتابه «الإيجاز». وقوله: ﴿مِنْ بَدَنٍ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ غَيْرٍ مُضَاعَفٍ﴾ أي: لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة فمتى سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمته وقسمته؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر الدمشقي الفراديسي، حدثنا عُمَرُ بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر». وكذا رواه ابن جرير من طريق عُمَرُ بن المغيرة هذا وهو أبو حفص بصري سكن المصيصة، قال أبو القاسم ابن عساكر: ويعرف بمفتي المساكين. وروى عنه غير واحد من الأئمة. وقال فيه أبو حاتم الرازي: هو شيخ. وقال علي بن المديني: هو مجهول لا أعرفه. لكن رواه النسائي في سننه عن علي بن حجر، عن علي بن مُسَهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، موقوفاً: «الإضرار في الوصية من الكبائر». وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن عائذ بن حبيب، عن داود بن أبي هند. ورواه ابن جرير من حديث جماعة من الحفاظ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً. وفي بعضها: ويقرأ ابن عباس: ﴿غَيْرٍ مُضَاعَفٍ﴾. قال ابن جرير: والصحيح الموقوف. ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعي، رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار. وهو مذهب طاوس، وعطاء، والحسن، وعمر بن عبد العزيز. وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه. واحتج بأن رافع بن خديج أوصى ألا تُكسَفَ الفَرَازية عما أُلغِقَ عليه بابها قال: وقال بعض الناس: لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره. انتهى ما ذكره. فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة ﴿غَيْرٍ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ثم قال الله:

﴿وَلِلَّهِ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالْحَلْدِيقِ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تتعدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالْحَلْدِيقِ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه. وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن أيوب، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِمَعْمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فإِذَا أَوْصَى حَافٍ

في وصيته، فيحتم بشر عمله، فيدخل النار؛ وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيحتم له بخير عمله فيدخل الجنة». قال: ثم يقول أبو هريرة: «أقروا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. وقال أبو داود في باب الإضرار في الوصية من سنته: حدثنا عتبة بن عبد الله أخبرنا عبد الصمد، حدثنا نصر بن علي الحُدثاني، حدثنا الأشعث بن عبد الله بن جابر الحُدثاني، حدثنا شهر بن حوشب: أن أبا هريرة حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار» وقال: قرأ علي أبو هريرة من ههنا: ﴿وَمِن بَعْدِ وَصِيحَةٍ يُوحَىٰ بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَاعَرٍ﴾ حتى بلغ: ﴿وَذَلِكَ الْقَوَارُ الْمَغْطِيَةُ﴾. وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عبد الله بن جابر الحُدثاني به، وقال الترمذي: حسن غريب، وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْحَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَسْكِنُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّهَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَالْتَمِئَا نَتَابًا وَأَسْلِمَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ ثَوَابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْحَةُ﴾ يعني: الزنا ﴿مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَسْكِنُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّهَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد، أو الرجم. وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وعطاء الخراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك: أنها منسوخة. وهو أمر متفق عليه. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتردد وجهه، فأنزل الله ﷻ عليه ذات يوم، فلما سُري عنه قال: «خُذُوا عَنِّي، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً: الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة، وزجج بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفى سنة». وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطان، عن عبادة عن النبي ﷺ ولفظه: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي عرف ذلك في وجهه، فلما أنزلت: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ: «خذوا خذوا، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة والثيب بالثيب جلد مائة وزجج بالحجارة». وقد روى الإمام أحمد أيضاً هذا الحديث عن وكيع بن الجراح، حدثنا الفضل بن دهلهم، عن الحسن، عن قبيصة بن حريث، عن سلمة بن المحدث قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وكذا رواه أبو داود مطولاً من حديث الفضل بن دهلهم، ثم قال: وليس هو بالحافظ، كان قصاباً بواسط. حديث آخر: قال أبو بكر بن مرزويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عباس بن حمدان، حدثنا أحمد بن داود، حدثنا عمرو بن عبد الغفار، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبِكْرَانِ يُجْلَدَانِ وَيُنْفَيَانِ، وَالثَّيْبَانِ يُجْلَدَانِ وَيُرْجَمَانِ، وَالشُّيْخَانِ يُرْجَمَانِ». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى الطبراني من طريق ابن لهيعة، عن أخيه عيسى بن لهيعة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا تحبس بعد سورة النساء». وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرحم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعراً والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الجلد ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ أي: واللذان يأتيان الفاحشة فأذوهما. قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة وغيرهما: أي بالشم والتعبير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم. وقال عكرمة، وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا. وقال السدي: نزلت في الفتيان قبل أن يتزوجوا. وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا، لا يكتفي، وكأنه يريد اللواط، والله أعلم. وقد روى أهل السنن، من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمْوه يَعْملُ عَمَلِ قَوْمٍ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ». وقوله: ﴿فَالْتَمِئَا نَتَابًا وَأَسْلِمَا﴾ أي: ألقوا ونزعاً عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: لا تفتنوهما بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من

الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُتْرَب عليها» أي: ثم لا يعيِّرُها بما صنعت بعد الحد، الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَمْسُكُونَ أَلْسِنَهُمْ بِهَيْلَةٍ ثُمَّ يُؤْتُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَمْسُكُونَ أَلْسِنَتِهِمْ حَتَّىٰ إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يُؤْتُونَكَ وَهُمْ كَفَّارٌ أُولَئِكَ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة المَلَك لقبض روحه قَبْلَ العَزْغَةِ. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصِي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وقال ابن جرير: أخبرني عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جرير: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه. وقال أبو صالح عن ابن عباس: من جهلته عمل السوء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ يُؤْتُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته. وهو مروى عن ابن عباس. وقال الحسن البصري: ﴿ثُمَّ يُؤْتُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: ما لم يُعْزَغِر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش، وعصام بن خالد، قالوا: حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَيْر بن نَفِير، عن ابن عُمَرَ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَغِرْ» ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ووقع في سنن ابن ماجه: عن عبد الله بن عمرو. وهو وهم، إنما هو عبد الله بن عمرو بن الخطاب.

حديث آخر: عن ابن عُمَرَ: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا عبد الله بن الحسن الخراساني، حدثنا يحيى بن عبد الله البالبتي، حدثنا أيوب بن نَهيك الحلبي قال: سمعت عطاء بن أبي رباح قال: سمعت عبد الله بن عُمَرَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَتُوبُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِشهرٍ إِلَّا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَأَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ، وَقَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ وَسَاعَةٍ، يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ التَّوْبَةَ وَالْإِخْلَاصَ إِلَيْهِ إِلَّا قَبِلَ مِنْهُ».

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرنا إبراهيم بن ميمون، أخبرني رجل من ملحان. يقال له: أيوب - قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: من تاب قبل موته بعام تيب عليه، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه. فقلت له: إنما قال الله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَمْسُكُونَ أَلْسِنَهُمْ بِهَيْلَةٍ ثُمَّ يُؤْتُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فقال: إنما أحدثك ما سمعت من رسول الله ﷺ. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، وأبو عمر الحَوْضِي، وأبو عامر العَقْدِي، عن شعبة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا محمد بن مطرف، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيهقي قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ». فقال الآخر: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ» فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِصُخْرٍ». قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَغِرْ بِنَفْسِهِ». وقد رواه سعيد بن منصور عن الدَّرَاوَزْدِي، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيهقي، فذكر قريباً منه.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا عمران بن عبد الرحيم، حدثنا عثمان بن الهيثم، حدثنا عَوْف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْزَغِرْ».

احاديث في ذلك مرسله:

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عدي، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغزغ» هذا مرسل حسن، عن الحسن البصري، رحمه الله.

آخر: قال ابن جرير أيضاً، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن العلاء بن زياد، عن أبي أيوب بشير بن كعب؛ أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغزغ». وحدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: فذكر مثله.

أثر آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو داود، حدثنا عمران، عن قتادة قال: كنا عند أنس بن مالك وثم قلابة، فحدث أبو قلابة فقال: إن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النُّظرة فقال: وعزتك وجلالك لا أخرج من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله: وعزتي لا أمتنع التوبة ما دام فيه الروح. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبي الهيثم العنبري كلاهما عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: وعزتك لا أزال أغويهم ما دامت أزواجهم في أجسادهم. فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصيم - فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَمَا كَانُوا بِمُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَفْعَةٌ يَفْعُهُمْ بِإِسْمِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ الآيتين (غافر: ٨٤، ٨٥)، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عابنوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّةٍ بِبَعْضٍ رَيْكًا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِسْتِغْنَاءَ لِمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسِبَتْ فِي لِيْسَتِهَا حَيْرًا﴾ الآية (الانعام: ٤١٥٨). وقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمْؤُوتُكَ وَهُمْ كَافِرًا﴾ الآية يعني: أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض ذهباً. قال ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمْؤُوتُكَ وَهُمْ كَافِرًا﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، قال حدثني أبي، عن مكحول: أن عمر بن نعيم حدثه عن أسامة بن سلمان: أن أباً ذر حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة عبده - أو يغفر لعبده - ما لم يقع الحجاب». قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: «أن تخرج النفس وهي مشركة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً شديداً مقيماً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَضَبٍ مُّبِينٍ وَكَايِمُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سِتْنًا وَيَحْلِلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنَاخُذُوهُنَّ بِهِنْتَنَا وَإِنَّمَا مَيْبِنَا﴾ (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ قُلُوبًا وَمَقَاتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

قال البخاري: حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا أنس بن محمد، حدثنا الشيباني عن عكرمة، عن ابن عباس - قال الشيباني: وذكره أبو الحسن السوائي، ولا أظنه ذكره إلا عن ابن عباس -: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا تزوجها، وإن شاءوا لم يزوجها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. هكذا رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن مزويه، وابن أبي حاتم، من حديث أبي إسحاق الشيباني - واسمه سليمان بن أبي سليمان - عن عكرمة، وعن أبي الحسن السوائي واسمه عطاء، كوفي أعمى - كلاهما عن ابن عباس بما تقدم. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد بن ثابت المزوزي، حدثنا علي بن حسين، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَضَبٍ مُّبِينٍ﴾: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيفضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقتها، فأحكم الله تعالى عن ذلك، أي نهى عن ذلك. تفرد به أبو داود، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس بنحو ذلك، فقال وكيع عن سفيان، عن علي بن بزيمة، عن ميسم، عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا توفيت عنها زوجها فجاء رجل فالتقى عليها ثوباً، كان

أحق بها، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه، فمنعها من الناس. فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت ذميمة حبسها حتى تموت فيرثها. وروى العوفي عنه: كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميمٌ أحدهم ألقى ثوبه على امرأته، فورث نكاحها ولم ينكحها أحد غيره، وحبسها عنده حتى تفتدي منه بغيره، فانزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

وقال زيد بن أسلم في الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجه من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاه، فنهى الله المؤمنين عن ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن مَزْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا علي بن المنذر، حدثنا محمد بن فضيل، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فانزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. ورواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل، به. ثم روى من طريق ابن جريج قال: أخبرني عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة، حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، فنزلت: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. قال ابن جريج: وقال مجاهد: كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه. قال ابن جريج: وقال عكرمة: نزلت في كُبَيْشَةَ بنت مَعْن بن عاصم من الأوس، توفي عنها أبو قيس ابن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية. وقال السدي عن أبي مالك: كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوباً، فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى تشب أو تموت فيرثها، فإن هي انفلتت فأتت أهلها، ولم يلق عليها ثوباً نجت، فانزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وقال مجاهد في الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته، فيتزوجها أو يزوجه ابنه. رواه ابن أبي حاتم. ثم قال: وزوي عن الشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وأبي مجلز، والضحاك، والزهرى، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان - نحو ذلك.

قلت: فالآية نعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَصَلُّوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتهن أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَصَلُّوهُنَّ﴾ يقول: ولا تقهروهن ﴿لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ يعني: الرجل تكون له امرأة وهو كاره لصحبته، ولها عليه مهرٌ فيضرها لتفتدي. وكذا قال الضحاك، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. وقال ابن المبارك وعبد الرزاق: أخبرنا معمر قال: أخبرني سِمَاك بن الفضل، عن ابن البَيْلَمَانِي قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام. قال عبد الله بن المبارك: يعني قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ في الجاهلية ﴿وَلَا تَصَلُّوهُنَّ﴾ في الإسلام. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشَّعْبِيُّ، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والضحاك، وأبو قلابَةَ، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبي هلال: يعني بذلك الزنا، يعني: إذا زنت فللك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتضاجرهما حتى تتركه لك وتخالعهما، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: الشُّوز والعُضَيَان. واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبذاء اللسان، وغير ذلك. يعني: أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تُبْرِثه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا أعلم، والله أعلم، وقد تقدم فيما رواه أبو داود منفرداً به من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَصَلُّوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ قال: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله عن ذلك، أي نهى عن ذلك.

قال عكرمة والحسن البصري: وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، ولكن نُهي المسلمون عن فعله في

الإسلام. قال عبد الرحمن بن زيد: كان الفضل في قريش بمكة، ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه، فيفارقه على أن لا تزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا خطبها الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإلا غصلها. قال: فهذا قوله: ﴿وَلَا تَمْلُؤُنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْوَالَهُمْ لِئَنْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمْلُؤُنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْوَالَهُمْ لِئَنْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمِينَ﴾: هو كالمصل في سورة البقرة. وقوله: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيناتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْلَأُ الْمُشْرِكُونَ الْأَلْبَابَ وَالْمَنَافِقِينَ﴾. وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يُداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسمهم نفقته، ويصاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك. قالت: سأقني رسول الله ﷺ، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقتها بعد ما حملت اللحم فسبقتني، فقال: «هذه بثلك» ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، يأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نساءه في شعار واحد، يضح عن كيفية الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الاحزاب: ٢١]. وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتاب «الأحكام»، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَبِيرًا﴾. أي: فمسي أن يكون صبركم مع إمساكم لهن وكرامتهن فيه، خير كثير لكم في الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يغطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر». وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْهُنَّ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا هَيْبَتُنَا﴾ أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال. وقد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا. وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: ثبت عن أبي العجفاء السلمي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغلوا في صداق النساء، فإنه لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نساءه، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليبتلى بصدق امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: كلفت إليك علق القربة، ثم رواه أحمد وأهل السنن من طرق، عن محمد بن سيرين، عن أبي العجفاء - واسمه هرم بن مسيب البصري - وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

طريق أخرى عن عمر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الرحمن، عن المجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صدق النساء وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا عرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء صداقهن على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَأَتَيْتُمُوهُنَّ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا هَيْبَتُنَا﴾. قال فقال: اللهم غفرأ، كل الناس أئق من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليقبل. إسناد جيد قوي.

طريق أخرى: قال ابن المنذر: حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق، عن قيس بن ربيع، عن أبي حصين، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا في مهر النساء. فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُمُوهُنَّ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً» فقال عمر: إن امرأة خاصمت عمر فخصمته.

طريق أخرى: عن عمر فيها انقطاع: قال الزبير بن بكار حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن جدي قال: قال عمر بن الخطاب لا تزيدوا في مهر النساء وإن كانت بنت ذى العضة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقى الزيادة في بيت

المال. فقالت امرأة - من صُفَّة النساء طويلة، في أنفها فطَس - ما ذاك لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ لِإِمْرَأَتِكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَالٌ مِثْلُ مَالِكَ﴾. فقالت امرأة أصابت ورجل أخطأ. ولهذا قال الله منكرًا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ أَي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: «الله يعلم أن أحكما كاذب. فهل منكما تائب» ثلاثًا. فقال الرجل: يا رسول الله، مالي - يعني: ما أصدقها - قال: «لا مال لك. إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها».

وفي سنن أبي داود وغيره عن بصرة بن أكثم: أنه تزوج امرأة بكرًا في خدرها، فإذا هي حامل من الزنا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له. ففضى لها بالصداق وفرق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: «الولد عبد لك». فالصداق في مقابلة البضع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ أَي: وقوله: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ بُيُوتًا عَظِيمًا﴾: روي عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: أن المراد بذلك العقد. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ بُيُوتًا عَظِيمًا﴾: قال: قوله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك والسدي - نحو ذلك. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في الآية: هو قوله: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فإن كلمة الله هي التشهد في الخطبة. قال: وكان فيما أعطى النبي ﷺ ليلة أسري به قال له: جعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبيد ورسولي. رواه ابن أبي حاتم. وفي صحيح مسلم، عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن رسول الله ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَيْنَ أَلْسِنَةٍ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢) يحرم تعالى زوجات الآباء تكرمه لهم، وإعظامًا واحترامًا أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - كان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعذك ولدًا وأنت من صالحى قومك، ولكن أتى رسول الله ﷺ فاستأمره. فأنت رسول الله ﷺ فقالت: إن أبا قيس توفي. فقال: «خيرًا». ثم قالت: إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحى قومه. وإنما كنت أعده ولدًا، فما ترى؟ فقال لها: «ارجعي إلى بيتك». قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَيْنَ أَلْسِنَةٍ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَيْنَ أَلْسِنَةٍ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية. قال: نزلت في أبي قيس ابن الأسلت، خلف على أم عبيد الله بنت صخر، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد، كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. كما قال: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال: وقد قال ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ». قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أن ذلك كان عندهم يعدونه نكاحاً فيما بينهم، فقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله المخرمي، حدثنا قواد، حدثنا ابن عيينة عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَيْنَ أَلْسِنَةٍ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. وهكذا قال عطاء وقتادة. ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم. على كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُشع غاية التشبع، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الانعام: ١٥١)، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَةَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢). فزاد ههنا: ﴿وَمَقْتًا أَي: بغضاً، أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب للأمة، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَمَقْتًا أَي: يمقت الله عليه﴾ وساء

سَكِيلًا أَي: وبش طريقتاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من طُرُق، عن البراء بن عازب، عن خاله أبي بردة - وفي رواية: ابن عمر - وفي رواية: عن عمه: أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا أشعث، عن عَدِيٍّ بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: مرُّ بي عمي الحارث بن عمرو، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أي عم، أين بعثك النبي ﷺ قال: بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه.

مسألة: وقد أجمع العلماء على تحريم من وطأها الأب بتزويج أو ملك أو بشبهة أيضاً، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية. فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك. قد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة خُدَيْجِ الحِضْنِيِّ مولى معاوية قال: اشترى لمعاوية جارية بيضاء جميلة، فأدخلها عليه مجردة وبیده قضيب. فجعل يهوي به إلى متاعها ويقول: هذا المتاع لو كان له متاع! اذهب بها إلى يزيد بن معاوية. ثم قال: لا، ادع لي ربيعة بن عمرو الجُرَشي - وكان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، فأريت منها ذاك وذاك، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له. ثم قال: نغم ما رأيت. ثم قال: ادع لي عبد الله بن مسعدة الفزاري، فدعوته، وكان آدم شديد الأدمة، فقال: دونك هذه، بيض بها ولدك. قال: وقد كان عبد الله بن مسعدة هذا وهبه رسول الله ﷺ لابنته فاطمة فرتبته ثم كان بعد ذلك مع معاوية من الناس على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهُنَّ لِيَئِيكُمْ وَالَّذِينَ لَهُنَّ الْأُمَّهَاتُ وَالَّذِينَ لَهُنَّ الْأَبْنَاؤُكُمْ الَّذِينَ فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ سَاءَ بِكُمْ الَّذِينَ لَمْ يُحَلِّوْا لَكُمْ فُجُورًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَالَّذِينَ يَبْتَاعُونَ الْإِنْسَانَ بَيْنَ الْبَنَاتَيْنِ إِنْ كَانَ عَقْدُهُ غَيْرًا مِّنْ زِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْتَمَ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوَهُنَّ أُولَئِكَ يَكْفَى اللَّهُ عَذَابَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحامر بالصهر، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان بن حبيب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: حرمت عليكم سبع نساء، وسبع صهراً، وقرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية. وحدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عُمَيْرِ مولى ابن عباس، عن ابن عباس قال: يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾؛ فهن النسب. وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾؛ فإنها بنت فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل. وقد حُكِيَ عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَيِّ صِدْقٍ أَنْتُمْ عَلَىٰ﴾؛ فإنها لا تترث بالإجماع، وكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأُمَّهُنَّ لِيَئِيكُمْ وَالَّذِينَ لَهُنَّ الْأُمَّهَاتُ وَالَّذِينَ لَهُنَّ الْأَبْنَاؤُكُمْ مِمَّنْ سَاءَ بِكُمْ﴾ أي كما تحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك تحرم عليك أمك التي أرضعتك؛ ولهذا روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عُمَرَ بنت عبد الرحمن، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاة تحرم ما تحرم الولادة»، وفي لفظ لمسلم: «يَحْرُمُ مِنَ الرضاة مَا يَحْرُمُ مِنَ النِّسْبِ». وقد قال بعض الفقهاء: كما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع إلا في أربع صور. وقال بعضهم: ست صور، هي المذكورة في كتب الفروع. والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر، فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة، والله الحمد. ثم اختلف الأئمة في عدد الرضاة المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاة لعموم هذه الآية. وهذا قول مالك، ويحكي عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيب، وعُزْرَةُ بن الزبير، والزُّهْرِيُّ. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت في صحيح مسلم، من طريق هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُحْرَمُ المصَّةُ والمصتان». وقال قتادة، عن أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُحْرَمُ الرُّضْعَةُ ولا الرضعتان، ولا المصَّةُ ولا المصتان»، وفي لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجان» رواه مسلم.

وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور، ويحكي عن علي، وعائشة،

وأما الفضل، وابن الزبير، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، رحمهم الله. وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عاتشة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان فيما أنزل الله من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخت بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة نحو ذلك. وفي حديث سهلة بنت سهيل: أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع مولى أبي حذيفة خمس رضعات، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات. وبهذا قال الشافعي، رحمه الله تعالى، وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة، عند قوله: ﴿رَضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [آية: ٢٣٣]. واختلفوا: هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم؟ أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو لبعض السلف؟ على قولين، وتحريم هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل. وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: ﴿وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن خلّاس بن عمرو، عن علي، رضي الله عنه، في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبة. وحدثنا ابن بشار: حدثنا يحيى بن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. وفي رواية عن قتادة، عن سعيد، عن زيد بن ثابت؛ أنه كان يقول: إذا ماتت عنده وأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل. وقال ابن المنذر: حدثنا إسحاق، عن عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: أخبرني أبو بكر بن حفص، عن مسلم بن عويمر الأجدع أن بكر بن كنانة أخبره أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال: فلم أجامعها حتى توفي عمي عن أمها، وأمها ذات مال كثير، فقال أبي: هل لك في أمها؟ قال: فسألت ابن عباس وأخبرته الخبر؟ فقال: أنكح أمها. قال: فسألت ابن عمر فقال: لا تنكحها. فأخبرت أبي ما قال ابن عباس وما قال ابن عمر، فكتب إلى معاوية وأخبره في كتابه بما قال ابن عمر وابن عباس فكتب معاوية: إني لا أحل ما أحرم الله، ولا أحرم ما أحل الله. وأنت وذاك والنساء سواها كثير. فلم يمه ولم يأذن لي، فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سيمّك بن الفضل، عن رجل، عن عبد الله بن الزبير قال: الربيبة والأم سواء، لا بأس بها إذا لم يدخل بالمرأة. وفي إسناده رجل مبهم لم يسم. وقال ابن جريج: أخبرني عكرمة بن خالد أن مجاهداً قال له: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أراد بهما الدخول جميعاً، فهذا القول مروى كما ترى عن علي، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وابن جبير، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن محمد بن الصابوني، فيما نقله الرافعي عن العبادي. وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فرأوا أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على الأم، وإنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد على الربيبة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن محمد بن هارون بن عذرة حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، أنه قال: إنها مبهمه، فكرهاها.

ثم قال: وروى عن ابن مسعود، وعمران بن حصين، ومسروق، وطاوس، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وابن سيرين، وقاتدة، والزهري نحو ذلك. وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة.

قال ابن جرير: والصواب، أعني قول من قال: «الأم من المبهمات»؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه. وقد روي بذلك أيضاً عن النبي ﷺ خبر، غير أن في إسناده نظراً، وهو ما حدثني به المثنى، حدثنا حبان بن موسى، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا

المثنى بن الصباح، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها، دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها، فإن شاء تزوج الابنة». ثم قال: وهذا الخبر، وإن كان في إسناده ما فيه، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره. وأما قوله: ﴿رَبِّبْتِكُمْ أَلْتِي فِي حُبُورِكُمْ﴾: فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج منخرج الغالب، فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتِكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾ [النور: ٣٣]. وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله، انكح אחتي بنت أبي سفيان - وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان - قال: «أو تحبين ذلك؟» قالت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير אחتي. قال: «فإن ذلك لا يحل لي». قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم. قال: إنها لو لم تكن ربيبة في حجري ما حلّت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثوية فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن». وفي رواية للبخاري: «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلّت لي». فجعل المناط في التحريم مجرد تزويجه أم سلمة وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف. وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام - يعني ابن يوسف - عن ابن جريج، حدثني إبراهيم بن عبيد بن رفاعه، أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجدت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، هي بالطائف قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله ﷻ: ﴿رَبِّبْتِكُمْ أَلْتِي فِي حُبُورِكُمْ﴾ قال: إنها لم تكن في حجرك، إنما ذلك إذا كانت في حجرك. هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاها أبو القاسم الرافعي عن مالك، رحمه الله، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، رحمه الله، فاستشكله، وتوقف في ذلك، والله أعلم. وقال ابن المنذر: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا الأثرم، عن أبي عبيدة قوله: ﴿أَلْتِي فِي حُبُورِكُمْ﴾ قال: في بيوتكم.

وأما الربيبة في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس، عن ابن شهاب: أن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توأماً إحداهما بعد الأخرى؟ فقال عمر: ما أحب أن أخبرهما جميعاً. يريد أن أطأهما جميعاً بملك يميني. وهذا منقطع. وقال سئد بن داود في تفسيره: حدثنا أبو الأحوص، عن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له؟ فقال: أحلتها آية وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر، رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وَأَمْتَهُتَّ نِسَاءَكُمْ رَبِّبْتِكُمْ أَلْتِي فِي حُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين هم تبع للنكاح، إلا ما روي عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وروى هشام عن قتادة: بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة. وكذا قال قتادة عن أبي العالية. ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلْتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: نكحتموهن. قاله ابن عباس وغير واحد. وقال ابن جريج عن عطاء: هو أن تهدي إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها. قلت: رأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها. قال: هو سواء، وحسبه قد حُرِّمَ ذلك عليه ابنتها.

وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لا يحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. وقوله: ﴿وَمَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ أي: وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِيَكُنْ عَلَى الْقَوْمِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وقال ابن جرير: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَمَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ قال: كنا نحدث، والله أعلم، أن رسول الله ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. ونزلت: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا الجرح بن الحارث، عن الأشعث، عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿وَمَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ و﴿وَأَمْتَهُتَّ نِسَاءَكُمْ﴾ ثم قال: وروي عن طاوس وإبراهيم

والزهري ومكحول نحو ذلك. قلت: معنى مبهمات: أي عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه. فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاة، كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه؟ فالجواب من قوله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ».

وقوله: «وَأَنْ تَجَمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا» أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. فدل على أنه لا مشنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: «لَا يَدْخُرُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» [الدخان: ٥٦]، فدل على أنهم لا يدقون فيها الموت أبداً. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خير، فيمسك أحدهما ويطلق الأخرى لا محالة. قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي وهب الجيشاني عن الضحاک بن فيروز، عن أبيه قال: أسلمت وعندني امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما. ثم رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أبو داود والترمذي أيضاً من حديث يزيد بن أبي حبيب، كلاهما عن أبي وهب الجيشاني. قال الترمذي: واسمه ديلم بن الهوشع، عن الضحاک بن فيروز الديلمي، عن أبيه، به. وفي لفظ للترمذي: فقال النبي ﷺ: «اختر أيتهما شئت». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد رواه ابن ماجه أيضاً بإسناد آخر فقال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أبي وهب الجيشاني عن أبي خراش الرُعَيْنِي قال: قدمت على رسول الله ﷺ وعندني أختان تزوجتهما في الجاهلية، فقال: «إِذَا رَجَعْتَ فَطَلِّقْ إِحْدَاهُمَا». قلت: فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاک بن فيروز، ويحتمل أن يكون غيره، فيكون أبو وهب قد رواه عن اثنين، عن فيروز الديلمي، والله أعلم. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أحمد بن يحيى الخولاني، حدثنا هشام بن خارجة، حدثنا يحيى بن إسحاق، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي قزوة عن زُرَيْق بن حكيم، عن كثير بن مرة، عن الديلمي قال: قلت: يا رسول الله، إن تحتي أختين؟ قال: «طَلِّقْ أَيَهُمَا شِئْتَ». فالديلمي المذكور أولاً هو الضحاک بن فيروز الديلمي قال أبو زرعة الدمشقي: كان يصحب عبد الملك بن مروان، والثاني هو أبو فيروز الديلمي، رضي الله عنه، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين لولا قتل الأسود العنسي المتنبئ لعنه الله. وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعدم الآية، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة - أو عتبة عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه، فقال له - يعني السائل -: يقول الله ﷻ: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتَانُكُمْ». فقال له ابن مسعود: وبغيرك مما ملكت يمينك.

وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. قال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ قال عثمان: أحلتها آية وحرمتها آية، وما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فسأله عن ذلك فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً. قال مالك: قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب. قال: وبلغني عن الزبير بن العوام مثل ذلك. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر الثمري، رحمه الله، في كتابه «الاستدكار»: إنما كنى قبيصة بن ذؤيب عن علي بن أبي طالب، لصحبته عبد الملك بن مروان، وكانوا يستثقلون ذكر علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. ثم قال أبو عمر، رحمه الله: حدثني خلف بن أحمد، رحمه الله، قراءة عليه: أن خلف بن مطرف حدثهم: حدثنا أيوب بن سليمان وسعيد بن سليمان ومحمد بن عمر بن ليابة قالوا: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، عن موسى بن أيوب الغافقي، حدثني عمي إياس بن عامر قال: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقلت: إن لي أختين مما ملكت يميني، اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً، ثم رغبت في الأخرى، فما أصنع؟ فقال علي، رضي الله عنه: تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى. قلت: فإن ناساً يقولون: بل تزوجها ثم تطأ الأخرى. فقال علي: أرايت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك. ثم أخذ علي بيدي فقال لي: إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله ﷻ من الحرائر إلا العدد. أو قال: إلا الأربع - ويحرم عليك من الرضاة ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب. ثم قال أبو عمر: هذا الحديث رحلة، لو لم يصب الرجل من أقصى المشرق أو المغرب إلى مكة غيره لما خابت رحلته. قلت: وقد روي عن علي نحو ما تقدم عن عثمان، وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن

أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن العباس، حدثني محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي، حدثنا عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال لي علي بن أبي طالب: حرمتها آية وأحلنتها آية - يعني الأختين - قال ابن عباس: يحرمهن على قرابتي منهن، ولا يحرمهن على قرابة بعضهن من بعض - يعني الإمام - وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلما جاء الإسلام أنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: في النكاح.

ثم قال أبو عمر: روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سلمة، عن هشام، عن ابن سيرين، عن ابن مسعود قال: يحرم من الإمام ما يحرم من الحرائر إلا العمد. وعن ابن سيرين والشعبي مثل ذلك. قال أبو عمر، رحمه الله: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف، منهم: ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس، وقد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَوَمَاتُكُمْ وَكَأَنَّهُنَّ كَوْنُكُمْ﴾ إلى آخر الآية: أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها، والله المحمود.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: وحرم عليكم الأجنبية المحصنات وهن المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان - هو الثوري - عن عثمان البتي، عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال: فاستحللنا بها فزوجهن. وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع، عن هشيم، ورواه النسائي من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، ثلاثتهم عن عثمان البتي، ورواه ابن جرير من حديث أشعث بن سوار عن عثمان البتي، ورواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن قتادة، كلاهما عن أبي الخليل صالح بن أبي مريم، عن أبي سعيد الخدري، فذكره، وهكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة عن أبي الخليل، عن أبي سعيد، به.

وقد روي من وجه آخر عن أبي الخليل، عن أبي علقمة الهاشمي، عن أبي سعيد. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن أبي علقمة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأموا من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة - زاد مسلم: وشعبة - ورواه الترمذي من حديث همام بن يحيى، ثلاثتهم عن قتادة، بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولا أعلم أن أحداً ذكر أبا علقمة في هذا الحديث إلا ما ذكر همام عن قتادة. كذا قال. وقد تابعه سعيد وشعبة، والله أعلم. وقد روى الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في سبايا خيبر، وذكر مثل حديث أبي سعيد، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها، أخذاً بعموم هذه الآية. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن مغيرة، عن إبراهيم: أنه سئل عن الأمة تبايع ولها زوج؟ قال: كان عبد الله يقول: يبيعها طلاقاً، ويتلو هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وكذا رواه سفيان عن منصور، ومغيرة والأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود قال: يبيعها طلاقاً. وهو منقطع. وقال سفيان الثوري، عن خالد، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها. ورواه سعيد، عن قتادة قال: إن أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس قالوا: يبيعها طلاقاً. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست: يبيعها طلاقاً، وعتقها طلاقاً، وهبتها طلاقاً، وبراءتها طلاقاً، وطلاق زوجها طلاقاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: هن ذوات الأزواج، حزم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقاً. قال معمر: وقال الحسن مثل ذلك.

وهكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: إذا

كان لها زوج فبيعها طلاقها. وقال عوف، عن الحسن: بيع الأمة طلاقها، وبيعه طلاقها. فهذا قول هؤلاء من السلف رحمهم الله، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، قرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقها؛ لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما؛ فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها ونَجَزَتْ عتقها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيرها النبي ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاخترت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها - كما قال هؤلاء لما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسيبات فقط، والله أعلم. وقد قيل: المراد بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: العفاف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً. حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما. وقال عُمَرُ وعبيدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم. وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقد قال عبيدة وعطاء والسدي في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: يعني الأربع. وقال إبراهيم: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما حرم عليكم. وقوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاةَ ذَلِكَ﴾ أي: ما عدا من ذكركم من المحارم من لكم حلال، قاله عطاء وغيره. وقال عبيدة والسدي: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاةَ ذَلِكَ﴾ ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقال قتادة: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاةَ ذَلِكَ﴾ يعني: ما ملكت أيمانكم. وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمتها آية. وقوله: ﴿أَنْ تَسْتَفْتُوا بِأَمْوَالِكُمْ مَحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفِيحِينَ﴾ أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراي ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿مَحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفِيحِينَ﴾. وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كقوله: ﴿رَكِيفًا تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، وكقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ مِثْلَ﴾ [النساء: ٤]، وكقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك. وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ، ثم أبيع ثم نسخ، مرتين. وقال آخرون أكثر من ذلك، وقال آخرون: إنما أبيع مرة، ثم نسخ مرة، ثم نسخ ولم يبع بعد ذلك. وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى. وكان ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، والسدي يقرؤون: «فما استمتعتن به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة». وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في الصحيحين، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. ولهذا الحديث ألفاظ مقررة هي في كتاب «الأحكام». وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فقال: «أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» وفي رواية لمسلم في حجة الوداع، وله ألفاظ موضعها كتاب «الأحكام». وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾: من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به وزيادة للجمل. قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى - يعني الأجر الذي أعطاه على تمتعه بها - قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وبكذا، فزاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تقضي المدة، وهو قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾. قال السدي: فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه. ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ مِثْلَ﴾ فإن طين لكم عن حقهن قساً فكلوه هَيْبَةً رَبَّيَا ﴿١﴾ [النساء: ٤] أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ يعني: إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، واختار هذا القول ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ والتراضي أن يؤقفا صداقها ثم يخيرها، ويعني في المقام أو الفراق. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات العظيمة.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَنْكِحُكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآهُنَّ وَأُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَتُحْصَنَ بِكُمْ وَتَكْفُرَ عَنْكُمْ وَإِنْ تَصَرُّوا عَنْهَا فَعَصَى اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى: ومن لم يجد ﴿طَوْلًا﴾ أي: سعة وقدرة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر. وقال ابن وهب: أخبرني عبد الجبار، عن ربيعة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قال ربيعة: الطول الهوى، ينكح الأمة يعني إذا كان هواه فيها. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم شرع يشنع على هذا القول ويزده: ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَنْكِحُكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ فَيَنْكِحُكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال ابن عباس وغيره: فليتكح من إماء المؤمنين، وكذا قال السدي ومقاتل بن حيان. ثم اعترض بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: هو العالم بحقائق الأمور وسرايرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور. ثم قال: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أُمَّتِهِ لَا تَزُوجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلِيُّ عِبْدِهِ، لَيْسَ لِعَبْدِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلِيهِ فَهُوَ عَابِرٌ» أَي زَانٍ. فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأُمَّةِ امْرَأَةً زَوَّجَهَا مِنْ بِيْرٍ امْرَأَةً بِإِذْنِهَا؛ لَمَّا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تَزُوجُ نَفْسَهَا». وَقَوْلُهُ: «زَوَّجْتُ أُمَّتِي بِالْمَعْرُوفِ» أَي: وَادْفَعُوا مَهْرَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، أَي: عَنْ طَيْبِ نَفْسِ مَنْكُمُ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِهَانَةً بِهِنَّ؛ لِكُونِهِنَّ إِمَاءَ مَمْلُوكَاتٍ. وَقَوْلُهُ: «وَالْمُحْصَنَاتُ» أَي: عَفَائِفُ عَنِ الزَّوْنِ لَا يَتَعَاطَبْنَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَبْرٌ مُسْتَفْهِمَةٌ﴾، وَهِيَ الزَّوَانِيَةُ اللَّاتِي لَا يَمْتَنَعُ مِنْ أَحَدٍ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا مُنْجَذَاتٍ أَعْدَانُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَسَافِحَاتُ، هِيَ الزَّوَانِيَةُ الْمَعَالِنَاتُ، بِعَيْنِ الزَّوَانِيَةِ اللَّاتِي لَا يَمْنَعُ أَحَدًا أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ. (وَمُنْجَذَاتُ أَعْدَانٍ) بِعَيْنِ: أَخْلَاءُ. وَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَجَاهِدٌ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَالسَّيِّدِيُّ، قَالُوا: أَخْلَاءُ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِعَيْنِ: الصَّدِيقُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَيْضًا: ﴿وَلَا مُنْجَذَاتٍ أَعْدَانُ﴾: ذَاتُ الْخَلِيلِ الْوَاحِدِ الْمَسِيْسُ، الْمَقْرَبَةُ بِهِ، نَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، بِعَيْنِ عَنْ تَزْوِيجِهَا مَا دَامَتْ كَذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَنْكِحُوا فَاحْشَرُوا قَلْبَهُنَّ بِصَفِّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾: ائْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي «أَحْصَيْتُمْ»: فَقَرَأَهُ بَعْضُهُمْ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الصَّادِ، مَبْنِي لِمَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ. وَقُرِئَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالصَّادِ فَعَلٌ لَازِمٌ ثُمَّ قِيلَ: مَعْنَى الْقُرَّاءِ تَيْنِ وَاحِدٍ. وَاسْتَفْتَلُوا فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَانِ هُنَا الْإِسْلَامَ. رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَمْرٍ، وَأَنْسَ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدٍ، وَزُرَّارُ بْنُ حَبِيبٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءُ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالسَّيِّدِيُّ. وَرَوَى نَحْوَهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَهُوَ مَنْقُطٌ. وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي رِوَايَةِ الرَّبِيعِ، قَالَ: وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ اسْتِدْلَالًا بِالسَّنَةِ وَاجْتِمَاعِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا مَرْفُوعًا، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَنِيدِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الدَّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾: قَالَ: «إِحْصَانُهَا إِسْلَامُهَا وَعَفَافُهَا». وَقَالَ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا التَّزْوِيجُ، قَالَ: وَقَالَ عَلِيُّ: اجْلُدُوهُنَّ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ. قُلْتُ: وَفِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ، وَمَنْعُهُمْ مِنْ لَمْ يَسْمُ، وَمِثْلُهُ لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ. وَقَالَ الْقَاسِمُ وَسَالِمٌ: إِحْصَانُهَا: إِسْلَامُهَا وَعَفَافُهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا: التَّزْوِيجُ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَطَاوُسَ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ. وَنَقَلَهُ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْإِبْرَاحِيَّةُ» عَنِ الشَّافِعِيِّ، فِيمَا رَوَاهُ أَبُو الْحَكَمِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْهُ وَقَدْ رَوَاهُ لَيْثُ بْنُ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ مَجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: إِحْصَانُ الْأُمَّةِ أَنْ يَنْكِحَهَا الْحَرُّ، وَإِحْصَانُ الْعَبْدِ أَنْ يَنْكِحَ الْحُرَّةَ. وَكَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَوَاهُمَا ابْنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ. وَقِيلَ: مَعْنَى الْقُرَّاءِ تَيْنِ مُتَبَايِنٌ. فَمَنْ قَرَأَ «أَحْصَيْتُمْ» بِضَمِّ الْهَمْزَةِ، فَمُرَادُهُ التَّزْوِيجُ، وَمَنْ قَرَأَ «أَحْصَيْتُمْ» بِفَتْحِهَا، فَمُرَادُهُ الْإِسْلَامَ. اخْتَارَهُ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَرَّرَهُ وَنَصَرَهُ. وَالْأَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَانِ هُنَا التَّزْوِيجُ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَنْكِحُكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآهُنَّ وَأُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَتُحْصَنَ بِكُمْ وَتَكْفُرَ عَنْكُمْ وَإِنْ تَصَرُّوا عَنْهَا فَعَصَى اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ وَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ سِيَاقُهَا كَلِمَاتُ الْفِتْيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾: أَي: تَزَوَّجْنَ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَبِعَهُ. وَعَلَى كُلِّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ إِشْكَالٌ عَلَى مَذْهَبِ الْجُمْهُورِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأُمَّةَ إِذَا زَنَتْ فَعَلَيْهَا خَمْسُونَ جُلْدَةً، سِوَا مَا كَانَتْ مُسْلِمَةً أَوْ كَافِرَةً، مَزُوجَةً أَوْ بَكَرًا، مَعَ أَنَّ مَفْهُومَ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى غَيْرِ الْمُحْصَنَةِ مِمَّنْ زَانَا مِنَ الْإِمَاءِ، وَقَدْ

اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم. وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإمام، فقدمنها على مفهوم الآية، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن علي، رضي الله عنه، أن خطب فقال: يا أيها الناس، أقيموا على أركانكم الحد من أخصن منهم ومن لم يُخصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدوها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أفتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أحسنْتَ، اتركها حتى تمائل».

وعند عبد الله بن أحمد، عن غير أبيه: «فإذا تعالت من نفسها حدّها خمسين». وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتيّن زناها، فليجلدها الحد ولا يترّب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يترّب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتيّن زناها، فليبعها ولو بخل من شعر». ولمسلم: «إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة». وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي قال: أمرني عمّر بن الخطاب في فتية من قريش، فجلدنا ولاند من ولاند الإمارة خمسين خمسين في الزنا. الجواب الثاني: جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإنما تضرب تأديباً وهو المحكي عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنه، وإليه ذهب طاوس، وسعيد بن جبّير، وأبو عُبَيْد القاسم بن سلام، وداود بن علي الظاهري في رواية عنه. وعقدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط، وهو حجة عند أكثرهم فهو مقدم على العموم عندهم. وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم يبعوها ولو بضيفير»، قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة. أخرجاه في الصحيحين، وعند مسلم: قال ابن شهاب: الضيفير: الحبل. قالوا: فلم يؤت في هذا الحديث عدد كما وقت في المحصنة بنصف ما على المحصنات من العذاب، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك، والله أعلم. وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور، عن سفيان عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أمة حد حتى تحصن - أو حتى تزوج - فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات». وقد رواه ابن خزيمة، عن عبد الله بن عمران العابدي، عن سفيان، به مرفوعاً. وقال: رفعه خطأ، إنما هو من قول ابن عباس. وكذا رواه البيهقي من حديث عبد الله بن عمران، وقال مثل ما قاله ابن خزيمة. قالوا: وحديث علي وعمر رضي الله عنهما قضايا أعيان، وحديث أبي هريرة عنه أجوبة: أحدها: أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعاً بينه وبين هذا الحديث. الثاني: أن لفظ الحد في قوله: فليجلدها الحد، لفظ مقحم من بعض الرواة، بدليل الجواب الثالث، وهو: أن هذا من حديث صحابييين وذلك من رواية أبي هريرة فقط، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقدم من رواية واحد، وأيضاً فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم، من حديث عبّاد بن تميم، عن عمه - وكان قد شهد بدرًا - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعهوها ولو بضيفير». الرابع: أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد، أو أن أطلق لفظ الحد على التأديب، كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بمثكال نخل فيه مائة شمراخ، وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كالإمام أحمد وغيره من السلف، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة، ورجم الثيب أو اللائط، والله أعلم. وقد روى ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة؛ أنه سمع سعيد بن جبّير يقول: لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج. وهذا إسناد صحيح عنه، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب أصلاً لا حداً، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث، وإن كان أراد أنها لا تضرب حداً، ولا ينفي ضربها تأديباً، فهو كقول ابن عباس ومن تبعه في ذلك، والله أعلم. الجواب الثالث: أن الآية دلّت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلدتها مائة كقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢٢] وكحديث عباد بن الصامت: «خُذُوا عَنِّي، خذوا عني، قد جعل الله لهم سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب جلد مائة وزجها بالحجارة». والحديث في صحيح مسلم وغير ذلك من الأحاديث. وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري، وهو في غاية الضعف؛ لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإمام بنصف ما على الحرة من العذاب وهو خمسون جلدة، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان. وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال، وهذا الشارع، عليه السلام، يسأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، فقال: «اجلدوها» ولم يقل: مائة. فلو كان حكمها كما قال داود، لوجب بيان ذلك لهم؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإمام، وإلا فما الفائدة في قولهم: «ولم تحصن» لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية

نزلت، لكن لما علموا حكم أحد الحكمين سألوها عن حكم الحال الآخر، فبينه لهم. كما ثبت في الصحيحين أنهم لما سألوه عن الصلاة عليه، فذكرها لهم ثم قال: «والسلام ما قد علمتم»، وفي لفظ: لما أنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قالوا: هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ وذكر الحديث، وهكذا هذا السؤال.

الجواب الرابع: - عن مفهوم الآية - جواب أبي ثور، فإن من مذهبه ما هو أغرب من قول داود من وجوه، ذلك أنه يقول: فإذا أخصن فإن عليهن نصف ما على المحصنات المزوجات وهو الرجم، وهو لا يتناصف، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت، وأما قبل الإحصان فيجب جلدتها خمسين. فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله: ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، والألف واللام في المحصنات للعهد، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط، من غير تعرض لتزويج غيره، وقوله: ﴿يُصَفِّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه، وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم. ثم قد روى الإمام أحمد حديثاً نصاً في رد مذهب أبي ثور من رواية الحسن بن سعد عن أبيه أن صفية كانت قد زنت برجل من المحسن، فولدت غلاماً، فادعاه الزاني. فاخصمها إلى عثمان بن عفان فرفعهما إلى علي بن أبي طالب، فقال علي: أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» وجلدهما خمسين خمسين. وقيل: بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى، أي: أن الإمام على النصف من الحرائر في الحد وإن كن محصنات، وليس عليهن رجم أصلاً، لا قبل النكاح ولا بعده، وإنما عليهن الجلد في الحالتين بالسنة. قال ذلك صاحب الإفصاح عن الشافعي، فيما رواه ابن عبد الحكم، عنه. وقد ذكره البيهقي في كتاب السنن والآثار، وهو بعيد من لفظ الآية؛ لأننا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية لا من سواها، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها. وقال: بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام، ولا يجوز لسيدتها إقامة الحد عليها والحالة هذه - وهو قول في مذهب الإمام أحمد رحمه الله - فأما قبل الإحصان فله ذلك، والحد في كلا الموضوعين نصف حد الحرة، وهذا أيضاً بعيد؛ لأنه ليس في لفظ الآية ما يدل عليه. ولولا هذه لم ندر ما حكم الإمام في التنصيف، ولو جوب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة أو رجهن، كما أثبت في الدليل عليه، وقد تقدم عن علي أنه قال: أيها الناس، أقيموا على أركانكم الحد من أخصن منهم ومن لم يحصن، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة وغيرها، لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور: «إِذَا زَنَّتْ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يَثْرَبْ عَلَيْهَا». ملخص الآية: أنها إذا زنت أقوال:

أحدها: أنها تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده، وهل تُنْفَى؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تنفي عنه. والثاني لا تنفي عنه مطلقاً. وهو قول علي وفقهاء المدينة. والثالث: أنها تنفي نصف سنة وهو نصف نفي الحرة. وهذا الخلاف في مذهب الشافعي، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد، وإنما هو رأي الإمام، إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال، وأما النساء فلا؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهم، وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا في النساء نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وبإقامة الحد عليه. رواه البخاري، وكل ذلك مخصوص بالمعنى، وهو أن المقصود من النفي الصون وذلك مفقود في نفي النساء، والله أعلم.

والثاني: أن الأمة إذا زنت تُجلد خمسين بعد الإحصان، وتضرب قبله تأديباً غير محدود بعدد محصور، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير: أنها لا تضرب قبل الإحصان، وإن أراد نفيه فيكون مذهباً بالتأويل، وإلا فهو كالقول الثاني. القول الآخر: أنها تجلد قبل الإحصان مائة وبعده خمسين، كما هو المشهور عن داود، وهو أضعف الأقوال: أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده، وهو قول أبي ثور، وهو ضعيف أيضاً. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْمَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإمام بالشرط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فحينئذ يتزوج الأمة، وإن ترك تزوج الأمة، وجاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدتها إلا أن يكون الزوج عربياً فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْرِيحاً خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدلل جمهور العلماء في جواز نكاح الإمام، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من

الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن. وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحزة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضاً، سواء كان واجداً الطول لحرمة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه عموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥٥] أي: العفاف، وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة، وهذه أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿رُبَيْدُ اللَّهِ يُسَبِّحُ لَكُمْ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾.

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم - أيها المؤمنون - ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: طرائقهم الحميدة واتباع شرائع التي يحبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) أي يريد أن يبيح اليهود والنصارى والزناة ﴿أَنْ يُقِيلُوا﴾ يعني: عن الحق إلى الباطل ﴿مِثْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: في شرائع وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح نكاح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف؛ لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن ابن طائوس، عن أبيه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ قال: في أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن. وقال موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، لبينا صلوات الله وسلامه عليه، ليلة الإسراء، حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى، فقال له: ماذا فرض عليك؟ فقال: «أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة». فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً. فرجع فوضع عشراً، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً قال الله ﷻ: «هن خمس وهن خمسون، الحسنه بعشر أمثالها» الحديث.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ جَحَدْتُمُو كِتَابًا مَا تَتَّبِعُونَ عَنْهُ تَكْفِيرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾.

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى قال ابن جرير: حدثني ابن المشي، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس - في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيت أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً - قال: هو الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، عن داود الأودي عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ قال: إنها كلمة محكمة، ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس! فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَعْْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] الآية، وكذا قال قتادة بن دعامة. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قرئ: تجارة بالرفع وبالنصب، وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسبوا بها في تحصيل الأموال. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكقوله: ﴿لَا يَدْخُرُوكَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]. ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي رحمه الله على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نصاً، بخلاف المعاوضة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، فأروا أن الأقوال كما تدل على التراضي، وكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصححو بيع المعاوضة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقرات، وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محقق المذهب، والله أعلم.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحداً أحداً. ورواه ابن جرير ثم قال: وحدثنا ابن

وكيع، حدثنا أبي، عن القاسم، عن سليمان الجعفي، عن أبيه، عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ «البيع عن تراض، والخيار بعد الصفة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً». هذا حديث مرسل. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» وفي لفظ البخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا». وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهما، وجمهور السلف والخلف. ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، كما هو متفق عليه بين العلماء إلى ما هو أزيد من ثلاثة أيام، بحسب ما يتبين فيه مال البيع، ولو إلى سنة في القرية ونحوها، كما هو المشهور عن مالك، رحمه الله. وصحوا بيع المعاطاة مطلقاً، وهو قول في مذهب الشافعي، ومنهم من قال: يصح بيع المعاطاة في المحقرات فيما يعده الناس بيعاً، وهو اختيار طائفة من الأصحاب. وقوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال لما بعته النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جُنُب!» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله ﷻ: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»، فتيمنت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

وهكذا رواه أبو داود من حديث يحيى بن أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب، به. ورواه أيضاً عن محمد بن أبي سلمة، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة وعمرو بن الحارث، كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير المصري، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عنه، فذكره نحوه. وهذا، والله أعلم، أشبه بالصواب. وقال أبو بكر بن مَرْزُوبِه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد البلخي، حدثنا محمد بن صالح بن سهل البلخي، حدثنا عبّيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يوسف بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جُنُب، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له، فدعاه فسأله عن ذلك، فقال: يا رسول الله، حُفْتُ أَنْ يَقْتُلَنِي الْبَرْدُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ. ثم أورد ابن مَرْزُوبِه عند هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمٍ، فَسِمُهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتْرَدٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُدًا فِيهَا أَبَدًا». وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، وكذلك رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وعن أبي قلابة، عن ثابت بن الضحاك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّتْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من طريق أبي قلابة. وفي الصحيحين من حديث الحسن، عن جُنْدُب بن عبد الله الجعفي قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ، فَأَخَذَ سَكِينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ، فَمَارَقَا الدَّمَ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». ولهذا قال الله تعالى: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وظُلْمًا» أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي: عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه «فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فَلْيَحْذَرُ مِنْهُ كُلَّ عَاقِلٍ لِيُبَيِّنَ لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وقوله: «إِنْ تَحَيَّيْتُمْ كَبَائِرَ مَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ نَكَّرْتُمْ عَنْكُمْ سَعْيَاتِكُمْ وَتَدَخَّلْتُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا» أي: إذا اجتنبتكم كبائر الآثام التي نهيت عنها كفرنا عنكم صفات الذنوب، وأدخلناكم الجنة؛ ولهذا قال: «وَتَدَخَّلْتُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا خالد بن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس يرفعه: «الذي بلغنا عن ربنا، ﷻ، ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال أن تجاوز لنا عما دون الكبائر، يقول الله تعالى: «إِنْ تَحَيَّيْتُمْ كَبَائِرَ مَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ نَكَّرْتُمْ عَنْكُمْ سَعْيَاتِكُمْ وَتَدَخَّلْتُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا» (٣١). وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، عن مغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، عن قُرَيْشِ بْنِ الصَّبْيِ، عن سلمان الفارسي قال: قال لي النبي ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم. قال: «لكن أذري ما يوم

الجُمُعَة، لا يتطهر الرجل فيحسبُ طهوره، ثم يأتي الجُمُعَة فيُنصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجْتَنِبَ المقتلة» وقد رَوَى البخاري من وجه آخر، عن سلمان نحوه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثني خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نعيم المَجْمِر، أخبرني صهيب مولى العُتُورِي، أنه سمع من أبي هريرة وأبي سعيد يقولان: حَظَبْنَا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «والذي نَفْسِي بيده» - ثلاث مرات - ثم أَكَبْ، فأكب كل رجل منا بيكي، لا ندري على ماذا حلف عليه ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر، فكان أحب إلينا من حُمْرِ النَّعَمِ، فقال ﷺ: «ما من عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الخَمْسَ، وَيُصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الكِبَائِرَ السَّيِّئَةَ، إِلَّا فَتِيحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثم قيل له: ادْخُلْ بِسَلَامٍ». وهكذا رواه النسائي، والحاكم في مستدرکه، من حديث الليث بن سعد، رواه الحاكم أيضاً وابن جِبَّان في صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

تفسير هذه السبع:

وذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَيَّبَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: «الشُّرْكَ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحْرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ». طريق أخرى عنه: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فهد بن عوف، حدثنا أبو عوانة، عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكِبَائِرُ سَبْعٌ، أولها الإِشْرَاقُ بالله، ثم قَتْلُ النَّفْسِ بغيرِ حقها، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ إلى أن يكبر، وَالفِرَاقُ مِنَ الرَّحْفِ، وَرَمْيُ الْمُحْصَنَاتِ، والانقلاب إلى الأعراب بَعْدَ الهِجْرَةِ». فالنص على هذه السبع بأنهن كِبَائِرٌ لا ينفي ما عداهن، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكِبَائِرِ غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم في مستدرکه حيث قال: حدثنا أحمد بن كامل القاضي، إملاء، حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، حدثنا معاذ بن هانيء، حدثنا حُزْبُ بن شُدَاد، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن عبد الحميد بن سنان، عن عبيد بن عمير، عن أبيه - يعني: عمير بن قتادة - رضي الله عنه، أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا إن أولياء الله المُصَلِّونَ من يقيم الصلوات الخمس التي كُتِبَ عليه، وَيُصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ، يرى أنه عليه حق، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الكِبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا». ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكِبَائِرُ؟ فقال: «تسع: الشُّرْكَ بالله، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بغيرِ حق، وفِرَاقُ يَوْمِ الرَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً، ثم قال: لا يموت رجل لا يعمل هؤلاء الكِبَائِرَ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، إلا كان مع النبي ﷺ في دار أبايها مصارع من دَهَبٍ». وهكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والترمذي مختصراً من حديث معاذ بن هانيء، به. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم يحتج بهم في الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان. قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقد ذكره ابن جِبَّان في كتاب الثقات، وقال البخاري: في حديث نظر. وقد رواه ابن جرير، عن سليمان بن ثابت الجحدري، عن سلم بن سلام، عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبيد بن عمير، عن أبيه، فذكره. ولم يذكر في الإسناد: عبد الحميد بن سنان، فالله أعلم.

حديث آخر في معنى ما تقدم: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن الوليد، عن المطلب بن عبد الله بن حَظَبٍ عن عبد الله بن عمرو قال: سعد النبي ﷺ المنبر فقال: «لَا أَقْسِمُ، لَا أَقْسِمُ». ثم نزل فقال: «أُبَشِّرُوا، أُبَشِّرُوا، من صَلَّى الصلوات الخمس، واجْتَنَبَ الكِبَائِرَ السَّيِّئَةَ، نُودِيَ من أبواب الجنة: ادْخُلْ». قال عبد العزيز: لا أعلمه إلا قال: «بسلاَم». قال المطلب: سمعت من سأل عبد الله بن عمرو: أسمعتم رسول الله ﷺ يذكرهن؟ قال: نعم: «عقوق الوالدين، وإشْرَاقُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالفِرَاقُ مِنَ الرَّحْفِ، وَأَكْلُ الرِّبَا».

حديث آخر في معناه: قال أبو جعفر ابن جرير في التفسير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، أخبرنا زياد بن يخراق عن طيسلة بن مياس قال: كنت مع التُّجَدَاتِ، فأصببت ذنوباً لا أراها إلا من الكِبَائِرِ، فلقيت ابن عُمَرَ فقلت له: إني أصبت ذنوباً لا

أراها إلا من الكبائر. قال: ما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا. قال: ليس من الكبائر قال - بشيء لم يسمه طَيِّسَلَةٌ - قال: هي تسع وسأعدهن عليك: الإشراف بالله، وقتل النفس بغير حقها، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلماً، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين المعقوق. قال زياد: وقال طيسلة: لما رأى ابن عمر فرقي قال: أتخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم. قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم. قال: أحبي والداك؟ قلت: عندي أمي. قال: فوالله لئن أنت أَلَنْتَ لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات.

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا سليمان بن ثابت الجَحْدَرِي الواسطي، حدثنا سلم بن سلام، حدثنا أيوب بن عتبة، عن طَيِّسَلَةَ بن علي النهدي قال: أتيت ابن عمر وهو في ظل أزلك يوم عَرَفَةَ، وهو يصب الماء على رأسه ووجهه، قلت: أخبرني عن الكبائر؟ قال: هي تسع. قلت: ما هي؟ قال: «الإشراف بالله، وقذف المُحْصَنَةِ - قال: قلت: قبل القتل؟ قال: نعم وَرَغْمًا - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الرُّحْفِ، والسُّحْرُ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإلحاد بالبيت الحرام، قَبْلَتِكُمْ أحياء وأمواتاً».

هكذا رواه من هذين الطريقين موقوفاً، وقد رواه علي بن الجَعْدِي، عن أيوب بن عتبة، عن طيسلة بن علي النهدي قال: أتيت ابن عمر عشيّة عَرَفَةَ، وهو تحت ظل أزكاة، وهو يصب الماء على رأسه، فسألته عن الكبائر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هُنَّ سبع». قال: قلت: وما هن؟ قال: «الإشراف بالله، وقذف المحصنة - قال: قلت: قبل الدم؟ قال: نعم ورغماً - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الرُّحْفِ، والسُّحْرُ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وإلحاد بالبيت الحرام قَبْلَتِكُمْ أحياء وأمواتاً». وكذا رواه الحسن بن موسى الأشيب، عن أيوب بن عتبة اليماني - وفيه ضعف - والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا بَقِيَّةُ، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان: أن أبا رُهْمِ السمعي حدثهم، عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عبد الله لا يُشْرِكُ به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجْتَنَبَ الكبائر، فله الجنة - أو دخل الجنة - فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار يوم الرُّحْفِ». ورواه أحمد أيضاً، والنسائي، من غير وجه، عن بقية.

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسيره، من طريق سليمان بن داود اليماني - وهو ضعيف - عن الزهري، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم، قال: وكان في الكتاب: «إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: إشراف بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الرُّحْفِ، وعقوق الوالدين، وزمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم».

حديث آخر: فيه ذكر شهادة الزور؛ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عُبَيْدُ الله بن أبي بكر قال: سمعت أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر - أو سئل عن الكبائر - فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قال: «قول الزور - أو شهادة الزور». قال شعبة: أكبر ظني أنه قال: «شهادة الزور». أخرجه من حديث شعبة، به. وقد رواه ابن مَرْدُويه من طريقين آخرين غريبين عن أنس، بنحوه.

حديث آخر: أخرجه الشيخان أيضاً من حديث عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراف بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

حديث آخر: فيه ذكر قتل الولد، وهو ثابت في الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ - وفي رواية: أكبر - قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

حديث آخر: فيه ذكر شرب الخمر. قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن رجلاً أخذته عن عمارة بن حزم أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص وهو بالجحر بمكة، وسئل عن الخمر، فقال: والله إن

عظيماً عند الله الشيخ مثلي يكذب في هذا المقام على رسول الله ﷺ، فذهب فسأله، ثم رجع فقال: سألته عن الخمر فقال: «هي أكبر الكبائر، وأم الفواحش، من شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته». غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى: رواها الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه من حديث عبد العزيز بن محمد الذَّرَاوَزِي، عن داود بن صالح، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، وعُمَرُ بن الخطاب وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين، جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم ما ينتهون إليه، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر، فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، فوثبوا إليه حتى أتوه في داره، فأخبرهم أنهم تحدثوا عند رسول الله ﷺ أن ملكاً من بني إسرائيل أخذ رجلاً فخير بين أن يشرب خمرأ أو يقتل نفساً، أو يزاني، أو يأكل لحم خنزير، أو يقتله. فاختار شرب الخمر، وإنه لما شربها لم يتمتع من شيء أرادته منه، وإن رسول الله ﷺ قال لنا مجيباً: «ما من أحد يشرب خمرأ إلا لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت أحد وفي مئائتها منها شيء إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة مات ميتة جاهلية». هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وداود بن صالح هو الثمار المدني مولى الأنصار، قال الإمام أحمد: لا أرى به بأساً. وذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر أحداً جرحه.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو وفيه ذكر اليمين الغموس. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشرāk بالله، وعقوق الوالدين، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس» رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث شعبة. زاد البخاري: وشيبان، كلاهما عن فراس، به.

حديث آخر: في اليمين الغموس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث بن سعد، حدثنا هشام بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر بن قُفُذ التيمي، عن أبي أمامة الأنصاري، عن عبد الله بن أنيس الجهني، عن رسول الله ﷺ قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما خلف حالف بالله يمين ضنبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة، إلا كانت وكنته في قلبه إلى يوم القيامة». وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده، وعبد بن حميد في تفسيره، كلاهما، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث بن سعد، به. وأخرجه الترمذي في تفسيره عن عبد بن حميد به. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب، وأبو أمامة الأنصاري هذا هو ابن ثعلبة، ولا يعرف اسمه. وقد رَوَى عن النبي ﷺ أحاديث. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: وقد رواه عبد الرحمن بن إسحاق المدني، عن محمد بن زيد، عن عبد الله بن أبي أمامة، عن أبيه، عن عبد الله بن أنيس. فزاد عبد الله بن أبي أمامة. قلت: هكذا وقع في تفسير ابن مَرْدُويه وصحيح ابن حبان، من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، كما ذكره شيخنا، فسح الله في أجله.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو، في التسبب إلى شتم الوالدين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن مسعر وسفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو - رفعه سفيان إلى النبي ﷺ، ووقفه مسعر على عبد الله بن عمرو - قال: «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه»: قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». وقد أخرج هذا الحديث البخاري عن أحمد بن يونس، عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن عمه حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان وشعبة ويزيد بن الهاد، ثلاثتهم عن سعد بن إبراهيم، به، مرفوعاً بنحوه. وقال الترمذي: صحيح. وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

حديث آخر في ذلك: قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من أكبر الكبائر عِزُّ الرجل المسلم، والسبتان والسببة». هكذا روى هذا الحديث، وقد أخرجه أبو داود في كتاب الأدب في سنته، عن جعفر بن مسافر، عن عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر استطالة المرء في عِزِّ رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسببة». وكذا رواه ابن مَرْدُويه من طريق عبد الله بن العلاء بن زبر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكر مثله.

حديث آخر: فيه ذكرُ الجمع بين الصلاتين من غير عذر؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من جمع بين الصلاتين من غير عذرٍ، فقد أتى باباً من أبواب الكبائر». وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي عن أبي سلمة يحيى بن خَلْف، عن المعتمر بن سليمان، به. ثم قال: حَنَش هو أبو علي الرَّحبي، وهو حُسَيْن بن قيس، وهو ضيف عند أهل الحديث، ضعفه أحمد وغيره.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل بن عُليَّة، عن خالد الحذاء، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة - يعني العدوي - قال: قرئ علينا كتابُ عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني بغير عذر - والفراؤ من الرَّخْف، والنُّهْبَة. وهذا إسناد صحيح. والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بمن يترك الصلاة بالكلية؟ ولهذا روى مسلم في صحيحه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» وفي السنن عنه، عليه السلام، أنه قال: «المهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». وقال: «من ترك صلاة العَصْرِ فقد حبط عَمَلُهُ». وقال: «من فاتته صلاة العَصْرِ فكأنما وتر أهله وماله».

حديث آخر: فيه اليأسُ من رُوحِ الله، والأمنُ من مَكْرِ الله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا أبي، حدثنا شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان متكئاً فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشُّرْكُ بالله، واليأسُ من رُوحِ الله، والقنوطُ من رحمة الله، والأمنُ من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر». وقد رواه البزار، عن عبد الله بن إسحاق العطار، عن أبي عاصم النبيل، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله، واليأسُ من رُوحِ الله، والقنوطُ من رحمة الله ﷻ». وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روى عن ابن مسعود نحو ذلك، قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مطرف، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن أبي الطفيل قال: قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله، والإيأس من رُوحِ الله، والقنوطُ من رحمة الله، والأمنُ من مكر الله. وكذا رواه من حديث الأعمش وأبي إسحاق، عن وبرة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود، به. ثم رواه من طُرُق عدة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود. وهو صحيح إليه بلا شك.

حديث آخر: فيه سوء الظن بالله؛ قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم بن بُندار، حدثنا أبو حاتم بكر بن عبدان، حدثنا محمد بن مهاجر، حدثنا أبو حذيفة البخاري، عن محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله ﷻ». حديث غريب جداً.

حديث آخر: فيه التعرب بعد الهجرة، قد تقدم في رواية عُمرُو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال أبو بكر ابن مُردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين، حدثنا عُمرُو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن محمد بن سهل بن أبي حنمة، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكبائر سبع، ألا تسألوني عنهن؟ الشُّرْكُ بالله، وقَتْلُ النَّفْسِ، والفِرَاقُ يوم الرَّخْفِ، وأكُلُ مالِ الْيَتِيمِ، وأكُلُ الرِّبَا، وقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، والتعرب بعد الهجرة». وفي إسناده نظر، ورفع غلط فاحش، والصواب ما رواه ابن جرير: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن سهل بن أبي حنمة، عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد - مسجد الكوفة - وعلي، رضي الله عنه، يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فقال: يا أيها الناس، الكبائر سبع. فأصاخ الناس، فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: لم لا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هي؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفراؤ يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبي: يا أبت، التعرب بعد الهجرة، كيف لحق ههنا؟ قال: يا بني، وما أعظم من أن يهاجر الرجل، حتى إذا وقع سهمه في الفيء، ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا أبو معاوية - يعني شيبان - عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هن أربع: ألا تشرکوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق، ولا تَزْنُوا، ولا تَسْرِقُوا». قال: فما أنا بأشع عليهن مني، إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. ثم زواه أحمد أيضاً والنسائي وابن مردويه، من حديث منصور، بإسناده مثله.

حديث آخر: تقدم من رواية عُمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال:

«الإضرارُ في الوصية من الكبائر». والصحيح ما رواه غيره، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قوله. قال ابن أبي حاتم: وهو الصحيح عن ابن عباس من قوله.

حديث آخر في ذلك: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عباد بن عباد، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة؛ أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكىء، فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول، والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين تجعلون؟ الَّذِينَ يَشْرَكُونَ يَهْدِ اللَّهُ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ ثُمَّ قَلِيلًا» [آل عمران: ١٧٧]؟! إلى آخر الآية. في إسناده ضعف، وهو حسن.

ذكر أقوال السلف في ذلك:

قد تقدم ما روي عن أمير المؤمنين عمر وعلي، رضي الله عنهما، في ضمن الأحاديث المذكورة. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، عن ابن عَوْن، عن الحسن: أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك؟ فقدم وقدموا معه، فلقبه عمر، رضي الله عنه، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا قال: أباذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك فقال: اجتمعهم لي. قال: فجمعتهم له - قال ابن عون: أظنه قال: في بهو - فأخذ أذنهم رجلاً فقال: نشدتك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللهم لا. قال: ولو قال: نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أمرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم. قال: فشكلت عمر أمه. أتكلّفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟! قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦]. ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمت؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم. إسناده حسن ومتن حسن، وإن كان من رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفي شهرته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا علي بن صالح، عن عثمان بن المغيرة، عن مالك بن جوين، عن علي، رضي الله عنه، قال: الكبائر الإشراف بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسخر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفراق الجماعة، ونكث الصفة. وتقدم عن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشراف بالله، والياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ﷺ. وروى ابن جرير، من حديث الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، كلاهما عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها. ومن حديث سفيان الثوري وشعبة، عن عاصم بن أبي النجود، عن زَرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا صالح بن خيان، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: أكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضول الماء بعد الري، ومنع طروق الفحل إلا بجعل. وفي الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِمَنْعَ بِهِ الْكَلَا». وفيهما عنه ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل»، وذكر الحديث بتمامه. وفي مسند الإمام أحمد، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «من مَنَعَ فَضْلَ الْمَاءِ وَفَضْلَ الْكَلَا، منعه الله فضله يوم القيامة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شَبَّه الواسطي، حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عائشة، قالت: ما أخذ على النساء من الكبائر. قال ابن أبي حاتم: يعني قوله: «عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِإِلَهِ سِوَا اللَّهِ وَلَا يُشْرَفَ وَلَا يُزَيَّنَ وَلَا يُقْتَلَنَّ أَوْلَادُهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَهُنَّ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِيَنَّكَ» الآية [المتحة: ١٢]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا زياد بن مخرق، عن معاوية بن قرة قال: أتينا أنس بن مالك، فكان فيما حدثنا قال: لم أر مثل الذي بلغنا عن ربنا تعالى، ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال. ثم سكت هنية ثم قال: والله لما كلفنا ربنا أهون من ذلك، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر، فما لنا ولها، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦].

أقوال ابن عباس في ذلك:

روى ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن طاوس قال: ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع، فقال: هي أكثر من سبع وسبع. قال سليمان: فما أدري كم قالها من مرة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ليث، عن طاوس قال: قلت لابن عباس: ما السبع الكبائر؟ قال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. ورواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن جرير، عن ليث، عن طاوس قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أرأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله؟ ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع. وقال عبد الرازق: أخبرنا معمر، عن طاوس، عن أبيه قال: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب، وكذلك قال أبو العالية الرياحي، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن قيس بن سعد، عن سعيد بن جبيرة؛ أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر؟ سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث شبل، به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. ورواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الكبائر، كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والحسن البصري. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، أخبرنا أيوب، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن ابن عباس كان يقول: كل ما نهى الله عنه كبيرة. وقد ذكرت الطرفة فيه، قال: هي النظرة. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن حازم، أخبرنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن معدان، عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر؟ فقال: هي كل شيء عصى الله فيه فهو كبيرة.

أقوال التابعين:

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن ابن عون، عن محمد قال: سألت عبيدة عن الكبائر، فقال: الإشرak بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرار يوم الرُخف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة. قال ابن عون: فقلت لمحمد: فالسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرأ كبيراً. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن عبيد بن عمير قال: الكبائر سبع، ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله: الإشرak بالله منهن: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الْقَطَرُ أَوْ تَهَوَّى بِدِ الرِّيحِ﴾ [الحج: ٣١]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ غُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، و ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]، والفرار من الزحف: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِئَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا قَوْلُهُمُ الْاَدْبَارُ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥]، والتعرب بعد الهجرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آزَدُوا عَلَٰنَ اذْبَنِيهِمْ مِنْ بَدِي مَا بَيْنَ لَهْمِ اَلْهُدَىٰ﴾ [محمد: ٢٥]، وقتل المؤمن: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي إسحاق، عن عبيد بنحوه. وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء - يعني ابن أبي رباح - قال: الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، ورمي المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار من الرُخف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مغيرة قال: كان يقال شتم أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من الكبائر. قلت: وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة، وهو رواية عن مالك بن أنس، رحمه الله: وقال محمد بن سيرين: ما أظن أحداً يتقص أبابكر، وعمر، وهو يحب رسول الله ﷺ. رواه الترمذي. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، قال زيد بن أسلم في قول الله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ﴾: من الكبائر: الشرك، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعا الله ولداً أو صاحبة، ومثل ذلك من الأعمال، والقول الذي لا يصلح معه عمل، وأما كل ذنب يصلح معه دين، ويقبل معه عمل فإن الله يغفر السيئات بالحسنات. وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ﴾ الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر. وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: ﴿اجْتَنِبُوا الْكَبَائِرَ وَسُدُّوا، وَأَبْشِرُوا﴾.

وقد روى ابن مردويه من طرق عن أنس، وعن جابر مرفوعاً: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». ولكن في إسناده من جميع طرقه ضعف، إلا ما رواه عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». فإنه إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقد رواه أبو عيسى الترمذي منفرداً به من هذا الوجه، عن عباس العنبري، عن عبد الرزاق ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الصحيح شاهد لمعناه، وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة: «أَتْرَوْنَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؟ لا، ولكنها للخاطئين الْمُتَلَوِّثِينَ». وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع. ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد لخصوصه من الكتاب والسنة. وقيل غير ذلك. قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي، في كتابه الشرح الكبير الشهير، في كتاب الشهادات منه: ثم اختلف الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر، ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه: أحدها: أنها المعصية الموجبة للحد. والثاني: أنها المعصية التي يلحق صاحبها الرعيد الشديد بنص كتاب أو سنة. وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهو إلى الأول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكره عند تفسير الكبائر. والثالث: قال إمام الحرمين في «الإرشاد» وغيره: كل جريمة تنبئ بقله أكثر مراتبها بالدين ورقة الديانة، فهي مبطله للعدالة. والرابع: ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة: كل فعل نص الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره، وترك كل فريضة مأمور بها على الفور، والكذب في الشهادة، والرواية، واليمين. هذا ما ذكره على سبيل الضبط. ثم قال: وفصل القاضي الروياني فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقة، وأخذ المال غصباً، والقذف. وزاد في «الشامل» على السبع المذكورة: شهادة الزور. وأضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا، والإنطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على النبي ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، والياس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال: الوقيعة في أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة. ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال. قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي، الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة هي ما توعده الشارع عليها بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس، وغيره، وتبع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل: كل ما نهى الله تعالى عنه فكثير جداً، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَوْءَ عَالِمًا ﴿٣٢﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا يغزو، ولنا نصف الميراث. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة أنها قالت: قلت: يا رسول الله... فذكره، وقال: غريب. ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أن أم سلمة قالت... ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم في مستدرکه، من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نقاتل فنستشهد، ولا نقطع الميراث! فنزلت: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ ثم نزلت: ﴿أَنَّى لَّا أُضِيعَ عَمَلَ عَمَلِي بَيْنَكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم قال ابن أبي حاتم: وكذا روى سفيان بن عيينة، يعني عن ابن أبي نجيح بهذا اللفظ. وروي يحيى القطان ووكيع بن الجراح، عن الثوري، وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله... وروي عن مقاتل بن حيان وخُصِيفَ نحو ذلك. وروي ابن جرير من حديث ابن جريج، عن عكرمة ومجاهد أنهما قالوا: نزلت في أم سلمة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن شيخ من أهل مكة قال: نزلت هذه الآية في قول النساء: ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعني ابن أبي المغيرة - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾

وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ ﴿٣٣﴾ قال: أنت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، فنحن في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا﴾، فإنه عدل مني، وأنا صنعته. وقال السدي: قوله ﴿وَلَا تَكْتُمُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهامان. وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك، ولكن قال لهم: سلوني من فضلي قال: ليس بعرض الدنيا.

وقد روي عن قتادة نحو ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله! فهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وكذا قال محمد بن سيرين والحسن والضحاك وعطاء نحو ذلك، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لمعلمت مثله. فهما في الأجر سواء» فإن هذا شيء غير ما نهت الآية عنه، وذلك أن الحديث حَصَّ على تَمَنِّي مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تَمَنِّي غير نعمة هذا، فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: في الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضاً لحديث أم سلمة، وابن عباس. وهكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تَمَنِّي ما لفلان، وفي تمنّي النساء أن يكن رجالاً فيغزون. رواه ابن جرير.

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ أي: كل له جزاء على عمله بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهو قول ابن جرير. وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي: كل يرث بحسبه. رواه الترمذي عن ابن عباس. ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا تمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب. وقد روى الترمذي، وابن مردويه من حديث حماد بن واقد: سمعت إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سألوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادات انتظار الفرج». ثم قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبیر، عن رجل، عن النبي ﷺ، وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح. وكذا رواه ابن مردويه من حديث وكيع، عن إسرائيل. ثم رواه من حديث قيس بن الربيع، عن حكيم بن جبیر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «سألوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وإن أحب عباده إليه الذي يُحب الفرج».

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَيْءٌ عَلَيْكَ﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيها منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَيْءٌ عَلَيْكَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًىٰ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًىٰ﴾ أي: ورثة. وعن ابن عباس في رواية: أي عَصَبَة. قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى، كما قال الفضل بن عباس:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تُظْهَرْنَ لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا

قال: ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلکم - أيها الناس - جعلنا عَصَبَة يرثونه مما ترك والدهاء وأقربوه من ميراثهم له. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيبَهُمْ﴾ أي: والذين تحالفتم بالآيمان المؤكدة - أنتم وهم - فأتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاهدات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يُتَشَوُّوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. قال البخاري: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا أبو أسامة، عن إدريس، عن طلحة بن مُصْرَف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًىٰ﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمته؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًىٰ﴾

نُسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له. ثم قال البخاري: سمع أبو أسامة إدريس، وسمع إدريس عن طلحة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودي، أخبرني طلحة بن مضر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ الآية، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمه؛ بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّي جَمَلْنَا مَوَالِي وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نُسخت. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾. وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج - وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل، يقول: ترثني وأرثك وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ عَقْدٌ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا عَقْدٌ وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». فنسختها هذه الآية: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْكَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٧٥]. ثم قال: وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وأبي صالح، والشعبي، وسليمان بن يسار، وعكرمة، والسدي، والضحاك، وقتادة، ومقاتيل بن حيان أنهم قالوا: هم الحلفاء. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شريك، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس - ورفعه - قال: «ما كان من حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا حِدَةً وَشِدَّةً». وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا، وكيع، عن شريك، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾. «لَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَمَا يَسْرُرُنِي أَنْ لِي حُمْزُ النَّعْمِ وَأَنْتِي نَقَضْتُ الْحِلْفَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ التُّدْوَةِ» هذا لفظ ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّةَ، عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري، عن محمد بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَّيِّبِينَ، وَأَنَا غُلَامٌ مَعَ عُمُومَتِي، فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي حُمْزُ النَّعْمِ وَأَنْتِي أَنْكُتُهُ». قال الزهري: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يُصَبِّ الْإِسْلَامُ حِلْفًا إِلَّا زَادَهُ شِدَّةً». قال: «وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». وقد ألف النبي ﷺ بين قريش والأنصار. وهكذا رواه الإمام أحمد عن بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، بتمامه. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا مغيرة، عن أبيه، عن شعبة بن التوام، عن قيس بن عاصم: أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف، قال: فقال: «ما كان من حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». وكذا رواه أحمد عن هُشَيْمٍ. وحدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن داود بن أبي عبد الله، عن ابن جُدْعَانَ، عن جدته، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وحدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق، عن عُمرُو بن شعيب. عن أبيه، عن جده قال: لما كان النبي ﷺ بمكة عام الفتح قام خطيباً في الناس فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». ثم رواه من حديث حسين المعلم، وعبد الرحمن بن الحارث، عن عُمرُو بن شعيب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبيرة بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وهكذا رواه مسلم، عن عبد الله بن محمد، وهو أبو بكر بن أبي شيبه، بإسناده، مثله. ورواه أبو داود عن عثمان بن محمد بن أبي شيبه، عن محمد بن بشر وابن نمير وأبي أسامة، ثلاثتهم عن زكريا - وهو ابن أبي زائدة - بإسناده، مثله. ورواه ابن جرير من حديث محمد بن بشر، به. ورواه النسائي من حديث إسحاق بن يوسف الأزرق، عن زكريا، عن سعد بن إبراهيم، عن نافع بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، قال: مغيرة أخبرني، عن أبيه، عن شعبة بن التوام، عن قيس بن عاصم: أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف، فقال: «مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». وكذا رواه شعبة، عن مغيرة - وهو ابن مِقْسَمٍ - عن أبيه، به. وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين قال: كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَىٰ أُمِّ سَعْدِ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، مَعَ ابْنِ ابْنِهَا مُوسَىٰ بْنِ سَعْدٍ - وَكَانَتْ يَتِيمَةً فِي حَجْرِ أَبِي بَكْرٍ - فَقَرَأْتُ عَلَيْهَا: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. فقالت: لا، ولكن: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قالت: إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن، حين أبى أن يسلم، فحلف أبو بكر ألا يورثه، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف أمر الله أن يؤتية نصيبه. رواه ابن أبي حاتم، وهذا قول غريب، والصحيح الأول، وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف، ثم نسخ

وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود والعهود، والحلف الذي كانوا قد تعاقده قبل ذلك. وتقدم في حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: «لا حلف في الإسلام، وأما حلف كان في الجاهلية لم يزه الإسلام إلا شدة».

وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، رحمه الله. والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: ورثته من أقربائه من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ» أي: اقسموا الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه العصبية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: قبل نزول هذه الآية فاتوهم نصيبهم، أي: من الميراث، فأما حلف عُقِدَ بعد ذلك فلا تأثير له. وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل، وحكم الماضي أيضاً، فلا توارث به، كما قال ابن أبي حاتم. حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودي، أخبرني طلحة بن مُصَرِّف، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قال: من النصر والنصيحة والزفادة، ويوصى له، وقد ذهب الميراث. ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي أسامة. وكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، نحو ذلك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الاحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. وهذا نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا﴾. وقال سعيد بن جبير: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: من الميراث. قال: وعاقد أبو بكر مولى فورته. رواه ابن جرير. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم، ويورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبية وأبى الله للمدعين ميراثاً ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية. رواه ابن جرير. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: من النصر والنصيحة والمعونة، لا أن المراد: فاتوهم نصيبهم من الميراث - حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصر والنصيحة فقط، فهي محكمة لا منسوخة. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعونة، ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة؟! والله أعلم.

﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ يَمَّا فَصَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلَحَتْ قَبَائِلُكَ حَفِظْتَ لِلْعَبِيِّ يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيُّ تَخْلُفُونَ تَخْلُفُكُمْ وَتُظْهِرُونَ وَأَمْوَالُهُمْ فِي الْمَصَابِعِ وَأَمْوَالُهُمْ فَإِنْ أَلْفَلَحْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَيْهِ كَبِيرًا﴾ (٢٤).

يقول تعالى: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ أي: الرجل قِيمَ على المرأة، وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ﴿يَمَّا فَصَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجال خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملوك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه. وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وستة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قِيمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَالزَّيَالُ عَلَيْهِمْ ذَرِيَّةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله. وكذا قال مقاتل، والسدي، والضحاك. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعديه على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «الْقَصَاصُ» فأنزل الله ﷻ: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ الآية، فرجعت بغير قصاص. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طرق، عنه. وكذلك أرسل هذا الخير قتادة، وابن جريج والسدي، أورد ذلك كله ابن جرير. وقد أسنده ابن مردويه من وجه آخر فقال: حدثنا أحمد بن علي النسائي، حدثنا محمد بن عبد الله الهاشمي، حدثنا محمد بن محمد الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد، حدثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري،

وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَهُ». فأنزل الله: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَكَّرَ اللَّهُ بَعَثَهُمْ عَلَى بَعْضِ» أي: قوامون على النساء في الأدب. فقال رسول الله ﷺ: «أَزْدَتْ أَمْرًا وَأَزَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ». وقال الشعبي في هذه الآية: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَكَّرَ اللَّهُ بَعَثَهُمْ عَلَى بَعْضِ» قال: الصداق الذي أعطها، ألا ترى أنه لو قَدَّهَا لاعتها، ولو قَدَفْتَهُ جَلِدَتْ. وقوله: «وَالْمَلَائِكَةُ» أي: من النساء «قَدَّيْنَتْ» قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن «حَفِظْتِ اللَّغِيْبِ». وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: «بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» أي: المحفوظ من حفظه. قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثنا أبو معشر، حدثنا سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ أَمْرَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرْتَكِ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكِ، وَإِذَا غَيْبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكِ». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» إلى آخرها. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسي، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، به مثله سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر: أن ابن قارظ أخبره: أن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا؛ وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ». تفرد به أحمد من طريق عبد الله بن قارظ، عن عبد الرحمن بن عوف.

وقوله: «وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِ» أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعْرِضَةُ عنه، المُبْغِضَةُ له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرٍ الْمَرْأَةُ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مَنْ عَظَّمَتْ حَقَّهُ عَلَيْهَا» وروى البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». ورواه مسلم، ولفظه: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فَرَأَتْ زَوْجَهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»؛ ولهذا قال تعالى: «وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِ» وقوله: «وَأَقْبِرُوهُنَّ فِي اللَّعَنَاتِ» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الهجران: ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره. وكذا قال غير واحد، وزاد آخرون - منهم: السدي، والضحاك، وعكرمة، وابن عباس في رواية -: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحذنها. وقال علي بن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس: يعظها، فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير أن يذرع نكاحها، وذلك عليها شديد. وقال مجاهد، والشعبي، وإبراهيم، ومحمد بن كعب، ومقسم، وقناة: الهجرة: هو ألا يضاجعها. وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمه أن النبي ﷺ قال: «إِن جَفَّتْ سُوءُ بَعْضِ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ». قال حماد: يعني النكاح. وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: «أَنْ تَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا كُنْسَيْتَ، وَلا تَضْرِبَ الْوَجْهَ وَلا تُفْجِحَ، وَلا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ». وقوله: «وَأَسْرُوهُنَّ» أي: إذا لم يَزِدْغَنَّ بالموعظة ولا بالهجران، فلنك أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ قَالَ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلْيُوطْنُ فُرُشِكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح. قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر. وقال الفقهاء: هو ألا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضرب ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظيماً، فإن أقبلت وإلا فقد حل لك منها الفدية. وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن إياس بن عبد الله بن أبي ذئب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ». فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذُيِّرَتِ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. فرخص في ضربهن، فأطاف بال رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بِالِّ مُحَمَّدٌ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أَوْلَتْكَ بَخْيَارِكُمْ» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود - يعني أبا داود الطيالسي - حدثنا أبو عوانة، عن داود الأودي، عن عبد الرحمن المُسْلِي عن الأشعث بن قيس، قال: ضُمَّتْ عَمْرٌ، فتناول امرأته فضربها، وقال: يا أشعث، احفظ عني ثلاثاً حفظتهن عن رسول الله ﷺ: لا تَسْأَلِ الرَّجُلَ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ، وَلا تَتَمَّ إِلَّا عَلَى وَثْرٍ... ونسي الثالثة. وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن

ماجة، من حديث عبد الرحمن بن مهدي، عن أبي عوانة، عن داود الأودي، به. وقوله: ﴿فَإِنْ أَمَنَ كُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ أي: فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنِيهَا فَاَبِئْتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِمْ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهِنَّ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٥﴾.

ذكر تعالى الحال الأول، وهو إذا كان النفر والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني وهو: إذا كان النفر من الزوجين فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنِيهَا فَاَبِئْتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِمْ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهِنَّ﴾. قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تقام أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق. وتُشوف الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله، ﷺ، أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء، حجبا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوا عنها النفقة. فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز. فإن رأيا أن يجمعا، فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كره، ولا يرث الكاره الراضي. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكيمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما، وقال لهما: إن رأيتم أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتم أن تفرقا فرقتما. وقال أنبأنا ابن جريج، حدثنا ابن أبي مليكة، أن عتيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت: تصير إلي وأنفق عليك. فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؟ قال: على يسارك في النار إذا دخلت. فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان، فذكرت له ذلك، فضحك وأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما. فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أخلفا عليهما أبوإيهما، فرجعا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فقام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكّمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تجمعا، جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي. وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله، ﷺ، لك وعليك. رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير، عن يعقوب، عن ابن علي، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، مثله. ورواه من وجه آخر، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، به. وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكّمين إليهما الجمع والفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو طلقتين أو ثلاث فعلاً. وهو رواية عن مالك. وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع ولا يحكمان في التفريق، وكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. وبه قال أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وداود، وما أخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفريق. وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين، فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والفرقة بلا خلاف. وقد اختلف الأئمة في الحكّمين: هل هما منصوبان من عند الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان، أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين: فالجمهور على الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَاَبِئْتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِمْ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهِنَّ﴾ فسامها حكّمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية، والجديد من مذهب الشافعي، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. الثاني منهما، بقول علي، رضي الله عنه، للزوج - حين قال: أما الفرقة فلا - قال: كذبت، حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حاكّمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكّمين - إذا اختلف قولهما - فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلفهما الزوجان، واختلفوا: هل ينفذ قولهما في التفريق؟ ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضاً.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾.

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو

المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»، ثم قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا يَعُذُّهُمْ». ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله، سبحانه، بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: «أَنْ أَسْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ» [لقمان: ١٤]، وكقوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» [الإسراء: ٢٣]. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَىٰ ذِي الرَّحْمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ». ثم قال: «وَالْيَتَامَىٰ» وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم. ثم قال: «وَالْمَسْكِينُ» وهم المحاريج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم. وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة. وقوله: «وَالْحَارِجِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْحَارِجِ الْجُنُبِ». قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَالْحَارِجِ ذِي الْقُرْبَىٰ» يعني الذي بينك وبينه قرابة، «وَالْحَارِجِ الْجُنُبِ» الذي ليس بينك وبينه قرابة. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وميمون بن مهران، والضحاك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، وقناة. وقال أبو إسحاق عن توف المكيالي في قوله: «وَالْحَارِجِ ذِي الْقُرْبَىٰ»: يعني المسلم «وَالْحَارِجِ الْجُنُبِ» يعني اليهودي والنصراني. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود: «وَالْحَارِجِ ذِي الْقُرْبَىٰ» يعني المرأة. وقال مجاهد أيضاً في قوله: «وَالْحَارِجِ الْجُنُبِ» يعني الرفيق في السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فنذكر منها ما تيسر، وبالله المستعان:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمر بن محمد بن محمد بن زيد: أنه سمع أباه محمداً يحدث، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». أخرجه في الصحيح من حديث عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن داود بن شأبور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وروى أبو داود والترمذي نحوه، من حديث سفيان بن عيينة، عن بشير أبي إسماعيل - زاد الترمذي: وداود بن شأبور - كلاهما عن مجاهد، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ.

الحديث الثالث عنه: قال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن يزيد، أخبرنا حيوة، أخبرنا شريح بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ». ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح - به، وقال: حديث حسن غريب.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عباية بن رفاعه عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَشْتَعُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ». تفرد به أحمد.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلابي، سمعت المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حَرَمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرٍ نِسْوَةً، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حَرَمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فهي حرام. قال: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَيْتَابٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ». تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا هشام، عن حفصة، عن أبي العالبي، عن رجل من الأنصار قال: حَرَجْتُ مِنْ أَهْلِ أَرْضِ النَّبِيِّ ﷺ، فإذا به قائمٌ ورجل معه مُقْبِلٌ عليه، فظننت أن لهما حاجة - قال الأنصاري: لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أذني لرسول الله من طول القيام، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرجل حتى

جَعَلْتُ أَرْثِي لَكَ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ. قَالَ: «وَلَقَدْ رَأَيْتَهُ؟» قُلْتُ: نعم. قَالَ: «أَتَذَرِي مَنْ هُوَ؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ، مَا زَالَ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُهُ». ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، رَدَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ».

الحديث السابع: قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يعلی بن عبيد، حدثنا أبو بكر - يعني المديني - عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل من العوالي ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يصلان حيث يصل على الجنائز، فلما انصرف قال الرجل: يا رسول الله، من هذا الرجل الذي رأيت معك؟ قال: «وقد رأيته؟» قال: نعم. قال: «لقد رأيت خيراً كثيراً، هذا جبريل ما زال يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى زُيِّتَ أَنَّهُ سَيُورُهُ». فتردد به من هذا الوجه، وهو شاهد للذي قبله.

الحديث الثامن: قال أبو بكر البزار: حدثنا عبيد الله بن محمد أبو الربيع الحرابي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، أخبرني عبد الرحمن بن الفضل، عن عطاء الخراساني، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الجبيران ثلاثة: جاز له حق واحد، وهو أثنى الجبران حقاً، وجاز له حقان، وجاز له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجبران حقاً. فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار. وأما الذي له حقان فجاز مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجاز مسلم ذو رحم، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم». قال البزار: لا نعلم أحداً روى عن عبد الرحمن بن الفضل إلا ابن أبي فديك.

الحديث التاسع: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي عمران، عن طلحة بن عبد الله، عن عائشة؛ أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً». ورواه البخاري من حديث شعبة، به. وقوله: «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنَبِ» قال الثوري، عن جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة. وقال ابن أبي حاتم: وزوي عبد الرحمن بن أبي ليلى، وإبراهيم التميمي، والحسن، وسعيد بن جبيرة - في إحدى الروايات - نحو ذلك. وقال ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وقادة: هو الرقيق في السفر. وقال سعيد بن جبيرة: هو الرقيق الصالح. وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضر، ورقيقك في السفر. وأما «وَأَبْنِ السَّبِيلِ» فعن ابن عباس وجماعة هو: الضيف. وقال مجاهد، وأبو جعفر الباقر، والحسن، والضحاك، ومقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر. وهذا أظهر، وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء. وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان. وقوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلوة الصلاة وما ملكت أيمانكم». فجعل يؤددها حتى ما يفيض بها لسانه. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بقیة، حدثنا بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن أبي المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ». ورواه النسائي من حديث بقیة، وإسناده صحيح، والله الحمد. وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لِقَهْرَمَانَ له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم». رواه مسلم. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». رواه مسلم أيضاً. وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمَةً أو لقمتين أو أكلةً أو أكلتين، فإنه ولي حره وعلاجته». أخرجه ولفظه للبخاري، ولمسلم: «فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده أكلة أو أكلتين». وعن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتهم، فأعينوهم». أخرجه. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا» أي: مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً، فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغض. قال مجاهد في قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً» يعني: متكبراً فَخُورًا يعني: يعد ما أعطى، وهو لا يشكر الله، ﷻ. يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك. وقال ابن جرير: حدثني القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهزوري قال: لا تجد سبيء المملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً - وتلا: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا» ولا عاقلاً إلا وجدته جباراً شقياً - وتلا: «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا» [مریم: ٣٢]. وروى ابن أبي حاتم، عن العوام بن حوشب، مثله في المختال الفخور. وقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأسود بن شيبان، حدثنا يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: قال

مُطْرَفُ: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويُبغض ثلاثة؟» قال: أجل، فلا إخواني أكذب على خليلي، ثلاثاً. قلت: من الثلاثة الذي يُبغض الله؟ قال: المختال الفخور، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وحدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب بن خالد، عن أبي تميم عن رجل من بلهجين قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة».

﴿الَّذِينَ يَبَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْثُرُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْفُرًا وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْفُرًا فَسَاءَ مَقَرًّا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾.

يقول تعالى ذمًا للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به - من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب الجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء - ولا يدفون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أذوأ من البخل؟». وقال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا». وقوله: ﴿وَيَكْثُرُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخل جحود لنعمة الله عليه لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِحْسَانَ لِرَبِّهِمْ لَكُنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: ٦، ٧] أي: بحاله وشماعله، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ [المعاني: ٨] وقال ههنا: ﴿وَيَكْثُرُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. والكفر هو الستر والتغطية، فالبخل يستر نعمته الله عليه ويكتمها ويحدها، فهو ككفر نعم الله عليه. وفي الحديث: «إن الله إذا أنعم نعمته على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه». وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها - ويروى: قاطليها - وأتممها علينا». وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي ﷺ وكتمانهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقاله مجاهد وغير واحد. ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى؛ فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ فَنَذَرَ الْمَسْكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمُ الْبَخِلَاءُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبَاذِلِينَ الْمَرَاتِينَ الَّذِينَ يَقْضُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السَّمْعَةَ وَأَنْ يَمْدَحُوا بِالْكَرَمِ، وَلَا يَرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ أَوْلُ مِنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ، وَهُمُ: الْعَالِمُ وَالْغَازِي وَالْمُنْفِقُ، الْمَرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، يَقُولُ صَاحِبُ الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تَحِبُّ أَنْ يَنْفِقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي سَبِيلِكَ. يَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ؛ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ. أَي: فَقَدْ أَخَذْتُ جَزَاءكَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الَّذِي أَرَدْتُ بِفَعْلِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَبْدِي: «إِنَّ أَبْلَكَ رَأَى أَمْرًا فَبَلَغَهُ». وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدَعَانَ: هَلْ يَنْفَعُهُ إِنْفَاقُهُ، وَإِعْتَاقُهُ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْفُرًا وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْفُرًا فَسَاءَ مَقَرًّا﴾ أَي: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ هَذَا الْقَبِيحَ وَعَدْلُوهُمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ، وَقَارَنَهُمْ فَحَسَّنَ لَهُمُ الْقَبِيحَ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْفُرًا فَسَاءَ مَقَرًّا﴾. وَهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمَقَارِنِ يَفْتَنُّدِي
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ﴿٣٩﴾ أَي: وَأَيُّ شَيْءٍ يَكْرَهُهُمْ لَوْ سَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ، وَعَدَّلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى الْإِحْلَاصِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أَي: وَهُوَ عَلِيمٌ بِبِنَاتِهِمُ الصَّالِحَةَ وَالْمُفْسِدَةَ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوفِّقُهُ وَيُلْهِمُهُ رَشْدَهُ وَيَقْبِضُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ، الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ بَلَطْفِهِ الْمَجْزِيلِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنَ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرِّسَالَ لَوْ شِئِيَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يُكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيقها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الانبيا: ٤٧] وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَبْنَؤُا إِنَّمَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَلِطِيفُ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ [لقمان: ١٦٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاكًا يُسْرِوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٦١﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٦٣﴾ . وفي الصحيحين، من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فيقول الله ﷻ: ازجفوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار». وفي لفظ: «أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنَ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن هارون بن عترة عن عبد الله بن السائب، عن زاذان قال: قال عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد والأمة يوم القيامة، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليات إلى حقه. فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أخيها أو زوجها. ثم قرأ: ﴿فَلَا أَسْأَبُ بِنَهْمٍ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيغفر الله من حقه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس فينادي: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليات إلى حقه. فيقول: رب، فقيت الدنيا، من أين أوتيهم حقوقهم؟ قال: خذوا من أعماله الصالحة، فاعطوا كل ذي حق حقه بقدر طلبته فإن كان ولياً لله، ففضل له مثقال ذرة، ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا﴾ قال: ادخل الجنة؛ وإن كان عبداً شيئاً قال الملك: رب فنيب حسناته، وبقي طالبون كثير؟ فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار. ورواه ابن جرير من وجه آخر، عن زاذان - به نحوه. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا فضيل - يعني ابن مرزوق - عن عطية العوفي، حدثني عبد الله بن عمر قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الانعام: ١٦٠]. قال رجل: فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: ما هو أفضل من ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنَ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ . وحدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة، ولا يخرج من النار أبداً. وقد استدلل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في سننه: حدثنا عمران، حدثنا قتادة، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة». وقال أبو هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة والضحاك، في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنَ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سليمان - يعني ابن المغيرة - عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة أنه قال: بلغني أن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة. قال: فقضي أني انطلقت حاجاً أو معتمراً، فلقيته فقلت: بلغني عنك حديث أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾ قال أبو هريرة: لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾. ثم تلا: ﴿يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنَ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . فمن يقدره قدره. ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: بلغني أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ قال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت - يعني النبي ﷺ - كذا قال أبي - يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لِيُضَاعَفُ الْحَسَنَةَ الْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾. علي بن زيد في أحاديثه نكارة، فالله أعلم. وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ . يقول تعالى - مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة وحين يجيء من كل أمة بشهيد - يعني الأنبياء عليهم السلام؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَفَتِ

الْأَرْضُ بِئْرَ رَيْبَا وَيُضِعُ الْكُتُبَ وَجَاءَهُ بِالْقُرْآنِ وَالشَّهَادَةَ وَهُنَّ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَبْتَأُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَنُزُلًا لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٨٩].

قال البخاري: حدثنا محمد بن يونس، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تدرفان. ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش، به. وقد روي من طرق متعددة عن ابن مسعود، فهو مقطوع به عنه. ورواه أحمد من طريق أبي حيان، وأبي رزين، عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا الصلت بن مسعود الجحدري، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري، عن أبيه قال: - وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ: - إن رسول الله ﷺ أتاهم في بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر النبي ﷺ قارئاً فقرأ، فأتى على هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾. فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجنابه، فقال: «يارب، هذا شهدت على من أنا بين ظهريه، فكيف بمن لم أراه؟». وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان، عن المسعودي، عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «شاهد عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم». وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في «التذكرة» حيث قال: باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته: قال: أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا رجل من الأنصار، عن المنهال بن عمرو، حدثه أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: ليس من يوم إلا تعرض على النبي ﷺ أمته غداة وعشيّة، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ فإنه أثر، وفيه انقطاع، فإن فيه رجلاً مبهماً لم يسم، وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه. وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده: قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة. قال: ولا تعارض، فإنه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم، ويوم الجمعة مع الأنبياء، عليهم السلام. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُلَ لَوْ شِئِيَ يَوْمَ الْأَرْضِ﴾ أي: لو انشقت وبلغتهم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا وَيَقُولُ الْكَاذِبُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ رُبًّا﴾ [الباء: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾ أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتفون منه شيئاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حكام، حدثنا عمرو، عن مطرف، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعتُ الله، ﷻ، يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا -: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾. فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلننجحذ، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن رجل، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف عليّ في القرآن. قال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك. لكن اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الانعام: ٢٣] وقال: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾؛ فقد كتبوا فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركاً، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره، جحد المشركون، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ رجاء أن يغفر لهم. فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُلَ لَوْ شِئِيَ يَوْمَ الْأَرْضِ وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾. وقال جويزي عن الضحاك: إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يا ابن عباس، قول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُلَ لَوْ شِئِيَ يَوْمَ الْأَرْضِ وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾. قال: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده، فيقولون: تعالوا نقل فيسألهم فيقولون: ﴿وَاللَّهُ

رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾. قال: فَيُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُسْتَنْطَقُ جَوَارِحُهُمْ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ. فعند ذلك تَمْتَلُوا لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ سَوِيَّتْ بِهِمْ ﴿٤٤﴾ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا. رواه ابن جرير.

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَمْلِكُوا مَا تَكْفُرُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَنْتَبِهُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهَقًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكْرِ، الذي لا يدرى معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها - وهي المساجد - للجنِّب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مُكْبِتٍ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا إِنَّمَا أَخَذُوا مِنَ الْمُثَلَّبِينَ الْأَذَىٰ وَالْأَكْلَامَ يَمُوتُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا، وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو - وهو ابن شُرْحَبِيل - عن عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث وفيه: فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَمْلِكُوا مَا تَكْفُرُونَ﴾. فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: ألا يُقْرَبُ الصَّلَاةَ سَكَرَانَ. لفظ أبي داود.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شُعْبَةُ، أخبرني سِمَاكُ بن حَرْبٍ قال: سمعت مُضْعَبَ بن سَعْدٍ يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سَكَرْنَا، ثم افتخرنا فرفع رجل لُحْيٍ بعير ففَزَرَ به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. الآية. والحديث بطوله عند مسلم من رواية شُعْبَةَ. ورواه أهل السُّنَنِ إلا ابن ماجه، من طُرُقٍ عن سِمَاكٍ به.

سبب آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدُّشْتُكِيُّ، حدثنا أبو جعفر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً - قال: فقراً: قل يا أيها الكافرون، ما أعيد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَمْلِكُوا مَا تَكْفُرُونَ﴾. هكذا رواه ابن أبي حاتم، وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حُمَيْدٍ، عن عبد الرحمن الدُّشْتُكِيِّ، به، وقال: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، عن عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن، عن علي: أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى بهم عبد الرحمن فقراً: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. وهكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث الثوري، به.

ورواه ابن جرير أيضاً، عن ابن حُمَيْدٍ، عن جرير، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ قال: كان عَلِيُّ بن نَفَرٍ من أصحاب النبي ﷺ في بيت عبد الرحمن بن عوف، فطعموا فأتاهم بخمر فشربوا منها، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فحضرت الصلاة فقدموا علياً فقراً بهم: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن المُنْهَلِ، حدثنا حَمَّاد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب - وهو أبو عبد الرحمن السُّلَمِيِّ؛ أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشرباً، فدعا نَفَرًا من أصحاب النبي ﷺ فصلى بهم المغرب، فقراً: قل يا أيها الكافرون، أعيد ما تعبدون. وأنتم عابدون ما أعيد. وأنا عابد ما عديتم. لكم دينكم ولي دين. فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَمْلِكُوا مَا تَكْفُرُونَ﴾. وقال العسوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْمُونًا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَمْلِكُوا مَا تَكْفُرُونَ﴾. وذلك أن رجلاً كانوا يأتون الصلاة وهم سَكَزَى، قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ الآية. رواه ابن جرير. وكذا قال أبو زَيْنٍ

ومُجَاهِدٌ. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قَتَادَةَ: كانوا يجتنبون السُّكْرَ عند حضور الصلوات ثم نسخ في تحريم الخمر. وقال الضَّحَّاكُ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾: لم يعن بها سُكْرُ الخمر، إنما عنى بها سُكْرُ النوم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم قال ابن جرير: والصواب أن المراد سُكْرُ الشراب. قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب؛ لأن ذلك في حكم المجنون، وإنما حُوطِبَ بالنهي الثُّجَلُ الذي يفهم التكليف. هذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب توجه إلى من يفهم الكلام، دون السكران الذي لا يدري ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السُّكْرِ بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ سُكْرَى﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّى تَكَلِّمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران: أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أيوب، عن أبي قِلَابَةَ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إذا نَسِ أحدكم وهو يصلي، فليتنصرف فليعلم ما يقول. انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، ورواه هو والنسائي من حديث أيوب، به. وفي بعض ألفاظ الحديث: «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه». وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدُّشْتُكي، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً ولا تجلس. ثم قال: وَرَوَى عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبي عُبَيْدَةَ، وسعيد بن المُسَيَّبِ، وأبي الضُّحَى، وعطاء، ومُجَاهِد، ومسروق، وإبراهيم التَّحَمِي، وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعُمَرُو بن دينار، والحكم بن عُثَيْبَةَ، وعِكْرَمَةَ، والحسن البصري، ويحْيَى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقَتَادَةَ، نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني اللَّيْثُ، حدثني يزيد بن أبي حَبِيبٍ عن قول الله ﷻ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون مراً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حَبِيبٍ، رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «سُدُّوا كلَّ حَوْحَةٍ في المسجد إلا حَوْحَةَ أَبِي بَكْرٍ». وهذا قاله في آخر حياته ﷺ، علماً منه أن أبا بكر، رضي الله عنه، سيلي الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابيه، رضي الله عنه. ومن روى: «إلا باب عليٍّ» كما وقع في بعض السنن، فهو خطأ، والصحيح ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه؛ إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلوث. ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلوث في حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الحُمْرَةَ من المسجد» فقلت: إني حائض. فقال: «إن حيضتك ليست في يدك». وله عن أبي هريرة مثله. ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناه، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث أَفْلَكْتِ بن خليفة العامري، عن جَسْرَةَ بنت دجاجة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أحلُّ المسجد لحائض ولا جنب». قال أبو مسلم الخطَّابي: ضُمَّف هذا الحديث جماعة وقالوا: أفلت مجهول. لكن رواه ابن ماجة من حديث أبي الخطاب الهَجْرِي، عن مَحْدُوجِ الذهلي، عن جَسْرَةَ، عن أم سلمة عن النبي ﷺ، به. قال أبو رُزْغَةَ الرازي: يقولون: جَسْرَةَ، عن أم سلمة. والصحيح جَسْرَةَ عن عائشة. فأما ما رواه أبو عيسى الترمذي، من حديث سالم بن أبي حفصة، عن عطية، عن أبي سعيد الخُدْرِي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، لا يحل لأحد أن يُجْنِبَ في هذا المسجد غيري وغيرك». فإنه حديث ضعيف لا يثبت؛ فإن سالمًا هذا متروك، وشيخه عطية ضعيف، والله أعلم.

قول آخر في معنى الآية: قال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرني ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن زَرِّ بن حَبِيش، عن علي: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء. ثم رواه من وجه آخر، عن المنهال بن عمرو، عن زَرِّ، عن علي بن

أبي طالب، فذكره. قال: وزوي عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، نحو ذلك. وقد روى ابن جرير من حديث وكيع، عن ابن أبي ليلي، عن الجنهال، عن عباد بن عبد الله أو عن زر بن حبيش - عن علي، فذكره. ورواه من طريق العوفي وأبي مجلز، عن ابن عباس، فذكره. ورواه عن سعيد بن جبيرة، وعن مجاهد، والحسن بن مسلم، والحكم بن عتيبة وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، مثل ذلك، وروى من طريق ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قال: كنا نسمع أنه في السفر. ويُستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث أبي قلابة، عن عمرو بن بجدان عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهورُ المسلم، وإن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير».

ثم قال ابن جرير - بعد حكاية القولين -: والأولى قول من قال: «وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ»: إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَلًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» إلى آخره. فكان معلوماً بذلك أن قوله: «وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَنْتَابُوا» لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَلًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك؛ فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة معصليين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مرّاً وقطعاً. يقال منه: «عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً» ومنه قيل: «عبر فلان النهر» إذا قطعه وجاوزه. ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار: هي غير أسفار وغير أسفار؛ لقوتها على قطع الأسفار. وهذا الذي نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحة للصلاة ولمحلها أيضاً، والله أعلم. وقوله: «حَتَّى تَنْتَابُوا» دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعي؛ أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بإسناد صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك؛ قال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد - هو الدراوردي - عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة، وهذا إسناد على شرط مسلم، والله أعلم. وقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَلًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» أما المرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء. ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس عن خصيف عن مجاهد في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَلًا»، قال: نزلت في رجل من الأنصار، كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فيناله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. هذا مرسل. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير.

وقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» الغائط: هو المكان المظلم من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر. وأما قوله: «أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ» فقرئ: «لَسْتُمْ» و «لَامِسْتُمْ» واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك، على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: «وَإِنْ طَلَقْتُهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُمْ فَرِيضَةً فَرْصَتْ مَا فَرَضْتُمْ» [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعَدُوهُنَّ» [الأحزاب: ٤٩]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: «أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ» قال: الجماع. وزوي عن علي، وأبي بن كعب، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقناة، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني حميد بن مسعدة، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: من أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي. قال: غلب فريق الموالي. إن اللمس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتفي بما شاء بما شاء. ثم رواه عن ابن بشار، عن غندر، عن شعبة - به نحوه. ثم رواه من غير وجه عن سعيد بن جبيرة، نحوه. ومثله قال: حدثني يعقوب،

حدثنا هشيم قال: حدثنا أبو بشر، أخبرنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: اللمس والمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتني بما يشاء. حدثنا عبد الحميد بن بيان، أنبأنا إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن عاصم الأحول، عن بكر بن عبد الله، عن ابن عباس قال: الملامسة: الجماع، ولكن الله كريم يكتني بما يشاء. وقد صح من غير وجه، عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك. ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبي حاتم عنهم. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى الله بذلك كل لمس، بيد كان أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه. ثم قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن مَخَارِقِ، عن طارق، عن عبد الله بن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع.

وقد رواه من طرق متعددة عن ابن مسعود بمثله. وروى من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من المس، وفيها الوضوء. وقال: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبيد الله بن عمر، عن نافع: أن ابن عمر كان يتوضأ من قُبلة المرأة، ويرى فيها الوضوء، ويقول: هي من اللباس. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً من طريق شعبة، عن مخارق، عن طارق، عن عبد الله قال: اللمس ما دون الجماع. ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر، وعبيدة، وأبي عثمان التَّهْدِي وأبي عبيدة - يعني ابن عبد الله بن مسعود - وعامر الشَّعْبِي، وثابت بن الحجاج، وإبراهيم التَّخَمِي، وزيد بن أسلم نحو ذلك. قلت: وروى مالك، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسده بيده من الملامسة، فمن قَبِلَ امرأته أو جَسَّها بيده، فعليه الوضوء. وروى الحافظ أبو الحسن الدارَقُطْنِي في سننه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نحو ذلك. ولكن رَوَيْنَا عنه من وجه آخر: أنه كان يقبل امرأته، ثم يصلي ولا يتوضأ. فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب، والله أعلم. والقول بوجود الوضوء من المس هو قول الشافعي وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل، رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية «لَمَسْتُمْ» و «لَمَسْتُمْ»، واللمس يطلق في الشرع على الجنس باليد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَدْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي رُطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]، أي جسوه. وقال رسول الله ﷺ لماعز - حين أقر بالزنا يعرض له بالرجوع عن الإقرار - «لعلك قبلت أو لمست». وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة، رضي الله عنها: قل يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا، فيقبل ويلمس. ومنه ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يَرْجَع إلى الجنس باليد على كلا التفسيرين قالوا: ويطلق في اللغة على الجنس باليد، كما يطلق على الجماع، قال الشاعر:

وَالْمَسْتُ كَفِي كَفْتِهِ أَطْلَبُ الْغِنَى

واستأنسوا أيضاً بالحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن مهدي وأبو سعيد قالوا: حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عُمَيْر - وقال أبو سعيد: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ قال: فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَأَقْبِرَ أَلْسِنَتَهُ لَكَرِيهِ النَّهَارِ وَوَلَعْنَا مِنْ أَيْدِيكَ إِذْ كَسَسْتَ يَدَيْهِنَ أَلْسِنَاتِكِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [مرد: ١١٤] قال: فقال رسول الله ﷺ: «توضأ ثم صل». قال معاذ: فقلت: يا رسول الله، أنه خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة». ورواه الترمذي من حديث زائدة، به، وقال: ليس بمتصل. وأخرجه النسائي من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلًا. قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة ولم يجامعها. وأجيب بأنه منقطع بين بن أبي ليلى ومعاذ، فإنه لم يلقه، ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة للتوبة، كما تقدم في حديث الصديق رضي الله عنه: «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له» الحديث، وهو مذكور في سورة آل عمران عند قوله: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ فَرِحَ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥]. ثم قال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمْ أَنْسَاءَ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قَبِلَ بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ، ثم قال: حدثني بذلك إسماعيل بن موسى السدي قال: أخبرنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ. ثم قال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن حبيب، عن عروة، عن عائشة؛ أن النبي ﷺ قَبِلَ بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت. وهكذا رواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، عن جماعة من مشايخهم، عن وكيع، به. ثم قال أبو داود: روي عن الثوري أنه قال: ما حدثنا حبيب

إلا عن عروة المزني، وقال يحيى القطان لرجل: احك عني أن هذا الحديث شبه لاشيء. وقال الترمذي: سمعت البخاري يضعف هذا الحديث وقال: حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة. وقد وقع في رواية ابن ماجه: عن أبي بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي، عن وكيع، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عروة بن الزبير، عن عائشة. وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وهذا نص في كونه عروة بن الزبير، ويشهد له قوله: من هي إلا أنت، فضحكت. لكن روى أبو داود، عن إبراهيم بن مخلد الطالقاني، عن عبد الرحمن بن مغراء، عن الأعمش قال: حدثنا أصحاب لنا عن عروة المزني، عن عائشة، فذكره، والله أعلم. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو يزيد عمر بن شبة، عن شهاب بن عباد، حدثنا منذل بن علي، عن ليث، عن عطاء، عن عائشة - وعن أبي رزق، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن أبي روق الهمداني، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قبّل ثم صلى ولم يتوضأ. ورواه أبو داود والنسائي من حديث يحيى القطان - زاد أبو داود: وابن مهدي - كلاهما عن سفيان الثوري، به. ثم قال أبو داود، والنسائي: لم يسمع إبراهيم التيمي من عائشة. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن سنان، عن عبد الرحمن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ثم لا يفطر، ولا يحدث وضوءاً. وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهوية عن النبي ﷺ: أنه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن فضيل، عن حجاج بن أظاة، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهوية، عن عائشة، عن النبي ﷺ، به.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعدم الماء إلا بعد تطلبه، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حنث التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين، من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألست برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك». ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. فالتيمم في اللغة هو: القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي: قصدك. ومنه قول امرئ القيس:

ولما رأته العين التي عند ضارج
تيممت العين التي عند ضارج
وأن الحصى من تحت أقدامها ذام
يفيء عليها الفيء عزمضها طام

والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب، والرمل، والشجر، والحجر، والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب فيختص التراب والرمل والزرنيخ، والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [الكهف: ٤٠]، أي: تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ: «وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه. والطيب ههنا قيل: الحلال. وقيل: الذي ليس بنجس. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي قلابة عن عمرو بن بجدان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجد، فليمسه بشرته، فإن ذلك خير». وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضاً، ورواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أبي هريرة وصححه الحافظ أبو الحسن القطان. وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث. رواه ابن أبي حاتم، ورفع ابن مردويه في تفسيره. وقوله: ﴿فَأَتَسَوُّوا بِأَيْدِيكُمْ وَأُكْبِدِكُمْ﴾: التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها: وهو مذهب الشافعي في الجديد - أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرة: ﴿فَأَقْصَوْا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. قالوا: وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية. وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى

المرفقين». ولكن لا يصح؛ لأن في أسانيده ضعفاء لا يثبت الحديث بهم. وروى أبو داود عن ابن عمر - في حديث - أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه. ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات فوقوه على فعل ابن عمر، قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي: وهو الصواب. وقال البيهقي: زُفِعَ هذا الحديث منكر. واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، عن الأعرج، عن ابن الصُّمَّة: أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه. وقال ابن جرير: حدثني موسى بن سهل الرملي، حدثنا نعيم بن حَمَّاد، حدثنا خارجة بن مُضعب، عن عبد الله بن عطاء، عن موسى بن عُقبة، عن الأعرج، عن أبي جُهيم قال: رأيت رسول الله ﷺ يبول، فسلمت عليه، فلم يرد عليّ حتى فرغ، ثم قام إلى الحائط فضرب بيديه عليه، فمسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين، ثم رد عليّ السلام. والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضريتين، وهو القول القديم للشافعي. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، عن ذر، عن ابن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه؛ أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذا أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك». وضرب النبي ﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَةَ، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن عمار؛ أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين».

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا سليمان الأعمش، حدثنا شقيق قال: كنت قاعدًا مع عبد الله وأبي موسى فقال أبو موسى لعبد الله: لو أن رجلاً لم يجد الماء لم يصل؟ فقال عبد الله: لا. فقال أبو موسى: أما تذكر إذ قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ وإياك في إيل، فأصابنتي جنابة، فتمرغت في التراب؟ فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا»، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعاً، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؛ فقال عبد الله: لا جرم، ما رأيت عمر قنع بذلك قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: «فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا؟ قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم. وقال تعالى في آية المائدة: «فَأَمْسُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ» [المائدة: ٦]، استدلل بذلك الشافعي، رحمه الله تعالى، على أنه لا بد في التيمم أن يكون تراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء، كما رواه الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة: أنه مرَّ بالنبي ﷺ وهو يبول، فسلم عليه فلم يرد عليه، حتى قام إلى جدار فحفته بعضا كانت معه، فضرب بيده عليه ثم مسح وجهه وذراعيه. وقوله: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ»، أي: في الدين الذي شرعه لكم «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» فهذا أباح لكم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد «وَالْيَتِيمَ الَّذِي يَحْتَمِلُ عَلَيْكُمْ لِمَالِكُمْ تَتَكْرَهُنَّ». ولهذا كانت هذه الأمة مختصة بشرعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ - وفي لفظ: فعنده طهوره ومسجده - وأجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً». وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم: «فَضَلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثَ: جَعَلْتُ صَفْوَانًا كَصَفْوَانِ الْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلْتُ لَنَا الْأَرْضَ مَسْجِدًا، وَتَرَبَّتْهَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: «فَأَمْسُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا عَفُورًا» أي: ومن عفوه عنكم وغفره لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سُكْرٍ حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله، ﷻ، قد أَرخَصَ في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورافة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك ههنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحت تحريم

الخمير، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب ههنا، وبالله الثقة. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: أنها استعارت من أسماء فلاة، فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً في طلبها فوجدوها، فأدرتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا بغير وضوء، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن الحضير لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً.

طريق أخرى: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنت في البيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمتعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتميموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هو بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة وإسماعيل. ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى، عن مالك.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح قال: قال ابن شهاب: حدثنا عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزَع ظَفَار، فحسب الناس ابتغاء عقدها، وذلك حتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله ﷻ، على رسول الله ﷺ رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الأباط. وقد رواه ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا صيفي، عن ابن أبي ذئب، عن الزُّهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي اليقظان قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فهلك عقد لعائشة، فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الفجر، فتغيظ أبو بكر على عائشة رضي الله عنها، فنزلت عليه الرخصة، المسح بالصعيد الطيب. فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة! نزلت فيك رخصة! فضربنا بأيدينا ضربة لوجوها، وضربة لأيدينا إلى المناكب والأباط.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مزدييه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا العلاء بن أبي سوية، حدثني الهيثم بن زريق المالكي - من بني مالك بن كعب بن سعد، وعاش مائة وسبع عشرة سنة - عن أبيه، عن الأسلع بن شريك قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقته وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأمرت أو أمرض، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحلها، ثم رصفت أحجاراً فأسخت بها ماء، فاغتسلت. ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال: «يا أسلع، مالي أرى رحلتك تغيرت؟» قلت: يا رسول الله، لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار. قال: «ولم؟» قلت: إني أصابني جنابة، فخشيت الفَرَّ على نفسي، فأمرت أن يرحلها، ورضفت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. وقد روي من وجه آخر عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُرْتُوا صَيْبًا مِنْ الْكُتُبِ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٤﴾
 ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَعَنَا شَيْءٌ مَسْمُوعٌ وَعَزَمْنَاهُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنفَعَنَا شَيْءٌ مَسْمُوعٌ وَأَطَعْنَا لَكُنَّا عَنْكُم مَّغْفُورًا ۝٤٥﴾
 ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَعَنَا شَيْءٌ مَسْمُوعٌ وَعَزَمْنَاهُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنفَعَنَا شَيْءٌ مَسْمُوعٌ وَأَطَعْنَا لَكُنَّا عَنْكُم مَّغْفُورًا ۝٤٦﴾

يخبر تبارك وتعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين عليهم السلام، في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به نعماً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من

الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ﴾ أي: هو يعلم بهم ويحذركم منهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَبِئَا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره. ثم قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من» هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَبَيْتُمُ الْيَهُودَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠]. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله، ﴿فَصَدَّقُوا بِهِمْ وَأَفْتَاءُ﴾ وقد تقدم منهم واقتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي يقولون: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم، أنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة. وقوله: ﴿وَأَسْمِعْ عَذَابَ مُسْمِعٍ﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. قال ابن جرير: والأول أصح. وهو كما قال. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ﴿وَرَدَعْنَا لِيَأْ بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْبَانِهِمْ﴾ أي: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرعونة. وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَعْلَمُونَ رَجَعْنَا وَوَلُّوا أَنْظَرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْبَانِهِمْ﴾ يعني: بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَلْكَتَبَ ءَامِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مَصْدِقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا أَوْ نَلْتَمِسَنَّهُمْ كَمَا لَمْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْلُومًا﴾ [٧٧] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغَيِّرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى - أمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم أن يفعلوا، بقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾. قال بعضهم: معناه: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. ويجعل أبطارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. قال الموفى عن ابن عباس: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا﴾، وطمسها: أن تعمي ﴿فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾، يقول: نجعل وجوههم من قبل أفئيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه. وكذا قال قتادة، وعطية العوفي. وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يُهرعون ويمشون القهقري على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً سَفَىٰ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ [٨١] وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّابًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهَيْمَ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨، ٩]، إن هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى. قال مجاهد: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا﴾ يقول: عن صراط الحق، فنردها على أدبارهم، أي: في الضلالة. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، والحسن نحو هذا. قال السدي: ﴿فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾: فنمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفاراً ونردهم قرده. وقال ابن زيد: نردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز.

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية، قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جابر بن نوح، عن عيسى بن المغيرة قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم، قال: أستم تقرأون في كتابكم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوَابَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا﴾ وأنا قد حملت الثوابة. قال: فتركه عمر. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، فسمع رجلاً من أهلها حزينا، وهو يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَلْكَتَبَ ءَامِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مَصْدِقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾ الآية. قال كعب: يا رب آمنت، يا رب، أسلمت، مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر بلفظ آخر، فقال: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيْلٍ، حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حَلْبَسٍ، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال: كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه لينظر أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة، فإذا تال يقرأ القرآن، يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا أَلْكَتَبَ ءَامِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مَصْدِقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطُوسَ وَجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾ فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمسح وجهي مخافة أن أطمس، ثم أسلمت. وقوله: ﴿أَوْ نَلْتَمِسَنَّهُمْ كَمَا لَمْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قرده وخنازير، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْلُومًا﴾ أي: إذا أمر بأمر، فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده. وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا صدقة بن موسى، حدثنا أبو عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٧]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً؛ القصاص لا محالة». تفرد به أحمد.

الحديث الثاني: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن مالك، حدثنا زائدة بن أبي الرقاد، عن زياد التميمي، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله؛ فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال: ﴿إِنَّكَ أَلْسِرَكَ لَطْمُرٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضاً، حتى يدين لبعضهم من بعض».

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ثور بن يزيد، عن أبي عزن، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». رواه النسائي، عن محمد بن مثنى، عن صفوان بن عيسى، به.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا ابن غنم أن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدي، ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك، يا عبدي، إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي، لقيتكم بقرابها مغفرة». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا حسين، عن ابن بريدة أن يحيى بن يعمر حدثه، أن أبا الأسود الذيلي حدثه، أن أبا ذر حدثه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله. ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإني زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على زغم أنف أبي ذر!» قال: فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن زغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن زغم أنف أبي ذر. أخرجاه من حديث حسين، به.

طريق أخرى عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة عشاء، ونحن ننظر إلى أحد، فقال: «يا أبا ذر». فقلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما أحب أن لي أحداً ذاك عندي ذهباً أمسي ثالثةً وعندي منه دينار، إلا ديناراً أرصده - يعني لدين - إلا أن أقول به في عباد الله هكذا». وحثنا عن يمينه وبين يديه وعن يساره. قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر، إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا». فحثنا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره. قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر، كما أنت حتى أتيتك». قال: فانطلق حتى توارى عني. قال: فسمعت لفظاً فقلت: لعل رسول الله ﷺ عرض له. قال: ففهمت أن أتبعه، ثم ذكرت قوله: «لا تبرح حتى أتيتك» فانظرت حتى جاء، فذكرت له الذي سمعت، فقال: «ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقد رواه البخاري ومسلم أيضاً كلاهما، عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن عبد العزيز بن ربيع، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، ليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي مع أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرأيتي، فقال: «من هذا؟» فقلت: أبو ذر، جعلني الله فداك. قال: «يا أبا ذر، تعال». قال: فمشيت معه ساعة فقال: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه عن يمينه وشماله، وبين يديه وورائه، وعمل فيه خيراً». قال: فمشيت معه ساعة فقال لي: «اجلس ههنا»، قال: فأجلستني في قاع حوله حجارة، فقال لي: «اجلس ههنا حتى أرجع إليك». قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه، فلبث عني فأطال اللبث، ثم إنني سمعته وهو مقبل، وهو يقول: «وإن سرق وإن زنى». قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله، جعلني الله فداك، من تكلم في جانب الحرة؟ ما سمعت أحداً يرجع إليك شيئاً. قال: «ذاك جبريل، عرض لي من جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لا

يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر».

الحديث السادس: قال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبيد الله بن موسى، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار». وذكر تمام الحديث. تفرد به من هذا الوجه.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحراني، حدثنا منصور بن إسماعيل القرشي، حدثنا موسى بن عبيدة، الزبدي، أخبر عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت، لا تشرك بالله شيئاً، إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبتها، وإن شاء غفر لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾». ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر؛ أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب». قيل: يا نبي الله، وما الحجاب؟ قال: «الإشراك بالله». قال: «ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى، إن يشأ أن يعذبها، وإن يشأ أن يغفر لها غفر لها». ثم قرأ نبي الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زكريا، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». تفرد به من هذا الوجه.

الحديث الثامن: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا أبو قبيص، عن عبد الله بن ناشر من بني سريج قال: سمعت أبا رهم قاص أهل الشام يقول: سمعت أبا أيوب الأنصاري يقول: إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم، فقال لهم: «إن ربكم، ﷻ، خيرني بين سبعين ألفاً يدخلون الجنة عقواً بغير حساب، وبين الخبيثة عنده لأمتي». فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، أيجب ذلك ربك؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر، فقال: «إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفاً والخبيثة عنده» قال أبو رهم: يا أبا أيوب، وما تظن خبيثة رسول الله ﷺ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا: وما أنت وخبيثة رسول الله ﷺ؟! فقال أبو أيوب: دعوا الرجل عنكم، أخبركم عن خبيثة رسول الله ﷺ كما أظن، بل كالمستيقن. إن خبيثة رسول الله ﷺ أن يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله مصداقاً لسانه قلبه أدخله الجنة».

الحديث التاسع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى بن يونس (ح) وأخبرنا هاشم بن القاسم الحراني - فيما كتب إلي - قال: حدثنا عيسى بن يونس نفسه، عن واصل بن السائب الرقاشي، عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي ابن أخت لا ينتهي عن الحرام. قال: «وما دينه؟» قال: يصلي ويوحّد الله تعالى. قال: «استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه». فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً في دينه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الحديث العاشر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحّاك، حدثنا أبي، حدثنا مستور أبو همام الهناني، حدثنا ثابت عن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة ولا إذا حاجة إلا قد أتيت. قال: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟» ثلاث مرات. قال: نعم. قال: «فإن ذلك يأتي على ذلك كله».

الحديث الحادي عشر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جؤس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب. قال: لا تقلها، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان كان أحدهما مجتهداً في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متأخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: خلني ورّبي! أبعث عليّ رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك! أقصر! قال: خلني ورّبي! أبعث عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك - أو لا يدخلك الله الجنة أبداً - قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للأخر: أكنت بي عالماً؟ أكنت على ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته». ورواه أبو داود، من

حديث عكرمة بن عمار، حدثني ضمضم بن جؤس، به .

الحديث الثاني عشر: قال الطبراني: حدثنا أبو شيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصبهاني، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: من علم أبي ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئاً» .

الحديث الثالث عشر: قال الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذبة - هو ابن خالد - حدثنا سهيل بن أبي حزم، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن توعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار» . تفردا به .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بحر بن نصر الخولاني، حدثنا خالد - يعني ابن عبد الرحمن الخراساني - حدثنا الهيثم بن جَمَاز، عن سلام بن أبي مطيع، عن بكر بن عبد الله المزني، عن ابن عمر قال: كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقاذف المحصنات، وشاهد الزور، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ، فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة . ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن جَمَاز، به . وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا عبد الملك بن أبي عبد الرحمن المعري، حدثنا عبد الله بن عاصم، حدثنا صالح - يعني المرزبي أبو بشر - عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في الكتاب، حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ . قال: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة، وأرجينا الأمور إلى الله، ﷻ .

وقال البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا شيبان بن أبي شيبة، حدثنا حرب بن سريج، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر، حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال: «أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة» . وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، أخبرني مجبر، عن عبد الله بن عمر أنه قال: لما نزلت: ﴿قُلْ يَجَادِبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، قام رجل فقال: والشرك بالله يا نبي الله؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [٤٨] . رواه ابن جرير . وقد رواه ابن مردويه من طريق عن ابن عمر . وهذه الآية التي في سورة «تنزيل» مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجَادِبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك، لأنه، تعالى، قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: وإن لم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم . وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك . . .» وذكر تمام الحديث . وقال ابن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا مَعْن، حدثنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله» ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ، «وعقوق الوالدين» . ثم قرأ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَوَلَدِيكَ إِلَىٰ النَّصِيرِ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكُّونَ مِنِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَتْلُمُونَ قِيْلًا﴾ [٤٨] انظر كيف يتعزّون على الله الكذب وكفى به إثمًا عظيمًا ﴿٤٨﴾
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ آتَوْا قِصِيصًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالشَّجَرِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [٥١]
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْحَقْهُنَّ لَمَّ يَلْحَقْهُنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [٥١] .

قال الحسن وقاتدة: نزلت هذه الآية، وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ﴾ . وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وفي قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١] . وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم . وكذا قال عكرمة، وأبو مالك . روى ذلك ابن جرير . وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا تُوفِّقوا وهم لنا قربة، وسيشفعون ويزكونا، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكُّونَ مِنِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَتْلُمُونَ قِيْلًا﴾ [٤٨] رواه ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا ابن حمير، عن ابن لهيعة، عن بشير بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله تعالى: «إني لا أظهر ذا ذنب بأخر لا ذنب له»، وأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾. ثم قال: وروى عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، وعكرمة، والضحاك - نحو ذلك. وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب، كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم. وقيل: نزلت في ذم التماذج والتزكية. وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحث في وجوه المداحين التراب. وفي الحديث الآخر المخرج في الصحيحين من طريق خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يفتني على رجل، فقال: «ويحك. قطعت عنق صاحبك». ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا يزيكي على الله أحداً». وقال الإمام أحمد: حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه، عن نَعْمِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ قَالَ: أَنَا مُؤْمِنٌ، فَهُوَ كَافِرٌ. وَمَنْ قَالَ: هُوَ عَالِمٌ، فَهُوَ جَاهِلٌ. وَمَنْ قَالَ: هُوَ فِي الْجَنَّةِ، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوبٍ، مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كُرَيْزٍ، عَنْ عُمَرَ قَالَ: إِنْ أَخُوفاً مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ إِعْجَابَ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ. وَحِجْلَجُ، أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُعْتَبِدِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: كَانَ مَعَاوِيَةَ قَلَمًا يَحْدِثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وَكَانَ قَلَمًا يَكَادُ أَنْ يَدْعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِنَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ يَرُدُّ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنْ هَذَا الْمَالُ حَلَوُ خَضِرٍ، فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ يَبَارِكْ لَهُ فِيهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّمَادِحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ». وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مِنْهُ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادِحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ» عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ غُنْدَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ بِهِ. وَمَعْتَبِدُ هَذَا هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثَيْمِ الْبَصْرِيِّ الْقَدْرِيِّ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَسْعُودِي، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مَسْلَمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنْ الرَّجُلُ لِيَغْدُو بِدِينِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ وَمَا مَعَهُ مِنْ شَيْءٍ، يَلْقَى الرَّجُلَ لَيْسَ يَمْلِكُ لَهُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فَيَقُولُ لَهُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ كُنْتَ وَكُنْتَ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَرْجِعَ وَلَمْ يَخْلُ مِنْ حَاجَتِهِ بِشَيْءٍ وَقَدْ أَسْخَطَ اللَّهَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. وَسَيَأْتِي الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ مَطْوَلًا، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَبْزُكُ مِنْ يَسَاءَةٍ أَيْ: الْمَرْجِعِ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، ﷻ، لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَطْلُمُونَ قَيْلًا أَيْ: وَلَا يَتْرِكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُوَازِنُ مِقْدَارَ الْفَتِيلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَعُكْرَمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: هُوَ مَا فَتَلَتْ بَيْنَ أَصَابِعِكَ. وَكَلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَقَارِبٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْدُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبُ﴾ أَيْ: فِي تَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَاؤُهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿كُنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْبَاءًا تَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وَاتِّكَالَهُمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ أَنَّ أَعْمَالَ الْآبَاءِ لَا تَجْزِي عَنِ الْبَنَاءِ شَيْئًا، فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِهِمْ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أَيْ: وَكَفَى بِضَعْفِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نِسِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّرِيقِ﴾، أَمَا «الجبث» فقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبث»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان. وهكذا زوي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، والضحاك والسدي. وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: «الجبث»: الشيطان - زاد ابن عباس: بالحيشية. وعن ابن عباس أيضاً: «الجبث»: الشرك. وعنه: «الجبث»: الأصنام. وعن الشعبي: «الجبث»: الكاهن. وعن ابن عباس: «الجبث»: حيي بن أخطب. وعن مجاهد: «الجبث»: كعب بن الأشرف. وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتابه «الصحاح»: «الجبث» كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: «الطيرة والعيافة والطَّرُق من الجبث» قال: وهذا ليس من محض العربية؛ لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة من غير حرف دَوَلَقِي. وهذا الحديث الذي ذكره، رواه الإمام أحمد في مسنده فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان أبي العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه - وهو قبيصة بن مخارق - أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرُق والطيرة والعيافة» زجر الطير، و«الطَّرُق»: الخط، يخط في الأرض، و«الجبث» قال الحسن: إنه الشيطان. وهكذا رواه أبو داود في سننه والنسائي وابن أبي

حاتم في تفسيريهما من حديث عوف الأعرابي، به. وقد تقدم الكلام على «الطاغوت» في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله أنه سئل عن «الطاغوت» فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين.

وقال مجاهد: «الطاغوت»: الشيطان في صورة إنسان، يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم. وقال الإمام مالك: «الطاغوت»: هو كل ما يعبد من دون الله، ﷻ. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّنَا لَأُنزِلَنَّ عَلَيْنَا السَّمَاءُ حِجَابًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة قال: جاء حَيَّي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد. فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكرماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العثاة، ونسقي الحجاج - ومحمد صُنْبُور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَحَدَّاهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ حِجَابًا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا أَكْفَابًا﴾. وقد روي هذا من غير وجه، عن ابن عباس وجماعة من السلف. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصُنْبُور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية! قال: أنتم خير. قال: فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَأْنُكَ هُوَ الْأَكْبَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَحَدَّاهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ حِجَابًا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا أَكْفَابًا﴾.

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنو قريظة حَيَّي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمار، ووحوش بن عامر، وهودة بن قيس. فاما وحوش وأبو عمار وهودة فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أجداب يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فسألوه: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوه، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَحَدَّاهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ حِجَابًا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا أَكْفَابًا﴾. وهذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَرِهَ اللَّهُ قَوْلَ عَصِيْبَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَمْ نَبْعَثْ فِي نَجْدِكَ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُوسُفَ إِذْ كَانُوا فِي كُفْرٍ كَبِيرٍ﴾ [٢٥] ﴿أَمْ لَمْ نَبْعَثْ فِي نَجْدِكَ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُوسُفَ إِذْ كَانُوا فِي كُفْرٍ كَبِيرٍ﴾ [٢٥] ﴿أَمْ لَمْ نَبْعَثْ فِي نَجْدِكَ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُوسُفَ إِذْ كَانُوا فِي كُفْرٍ كَبِيرٍ﴾ [٢٥].

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَبْعَثْ فِي نَجْدِكَ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُوسُفَ إِذْ كَانُوا فِي كُفْرٍ كَبِيرٍ﴾؟ وهذا استفهام إنكار، أي: ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس - ولا سيما محمد ﷺ - شيئا، ولا ما يملأ «النقير»، وهو النقطة التي في النواة، في قول ابن عباس والأكثرين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكُمُوهَا فَكَيْبًا فَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا وَتَسْتَكْبِرُوا﴾ [١٠٠] أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] بخيلا. ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن السدي، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: نحن الناس دون الناس. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن - وهي الحكمة - وجعلنا فيهم الملوك، ومع هذا ﴿فَتَبْتَ مِنْ آسَافِ بْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: بهذا الإتياء وهذا الإنعام ﴿وَيَتَّبِعُ مَنْ صَدَّقَهُ﴾ أي: كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جسدك، من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني

إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَبَيْنَهُمْ مَن آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَبَيْنَهُمْ مَن صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جنتهم به من الهدى، والحق المبين. ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيبًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ضُلَّالٌ مُّبِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجزائهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، قال الأعمش، عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً أيضاً أمثال القراطيس. رواه ابن أبي حاتم. وقال يحيى بن زيد الحضرمي أنه بلغه في قول الله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال: يجعل للكافر مائة جلد، بين كل جلد من العذاب. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنطاسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن هشام، عن الحسن قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ الآية. قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة. قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن: كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم: עודوا فعادوا. وقال أيضاً: ذكر عن هشام بن عمار: حدثنا سعيد بن يحيى - يعني سعدان - حدثنا نافع، مولى يوسف السلمى البصري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فقال عمر: أعدها علي، فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها: تبدل في ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ. وقد رواه ابن مَرْزُوبِهِ، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن عبدان بن محمد المرزوي، عن هشام بن عمار، به. ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عمران، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع أبو هرمز، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: تلا رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الآية، قال: فقال عمر: أعدها علي - وثم كعب - فقال: يا أمير المؤمنين، أنا عندي تفسير هذه الآية، قرأتها قبل الإسلام، قال: فقال: هاتها يا كعب، فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقتك، وإلا لم نظن إليها. فقال: إني قرأتها قبل الإسلام: «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة». فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ.

وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وسنه تسعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها. وقد ورد في الحديث ما هو أبغ من هذا، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو يحيى الطويل، عن أبي يحيى القنات، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يعظم أهل النار في النار، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقيل: المراد بقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: سرايلهم. حكاه ابن جرير، وهو ضعيف، لأنه خلاف الظاهر. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن، التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجانها حيث شاقوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون ولا يبيغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى. وكذا قال عطاء، والحسن، والضحاك، والنخعي، وأبو صالح، وعطية، والسدي. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف. وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ضُلَّالًا مُّبِينًا﴾ أي: ضللاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أيقناً. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن - وحدثنا ابن المثنى، حدثنا ابن جعفر - قالوا: حدثنا شعبه قال: سمعت أبا الضحاك يحدث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر بآداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن، عن سمره، أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». رواه الإمام وأهل السنن، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله ﷻ،

على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله ﷺ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاءة الجّماء من القرّناء». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة - وإن كان قُتل في سبيل الله - فيقال: أذ أمانتك. فيقول وأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في فعر جهنم، فيهوي إليها فيحملها على عاتقه. قال: فتنزل عن عاتقه، فيهوي على أثره أبدا الأبدين. قال زاذان: فأثبت البراء فحدثه فقال: صدق أخي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: هي مبهمة للبر والفاجر. وقال محمد بن الحنفية: هي مُسَجَّلَةٌ للبر والفاجر. وقال أبو العالية: الأمانة ما أروا به ونهوا عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اثمنت على فرجها. وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: يدخل فيه وعظ السلطان النساء. يعني يوم العيد.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة: عبد الله بن عبد العزّي بن عثمان بن عبد الدار بن قُصي بن كلاب القرشي العبدي، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافراً. وإنما نهينا على هذا النسب؛ لأن كثيراً من المفسرين قد يشبه عليهم هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه. وقال محمد بن إسحاق في غزوة الفتح: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبه؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمان الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد. قال ابن إسحاق فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى، فهو تحت قدّمَي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ، إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وقاءٍ وبر». قال ابن جرير: حدثني القاسم، حدثنا الحسين، عن حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، قال: نزلت في عثمان بن طلحة قبض منه النبي ﷺ مفتاح الكعبة، فدخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه، فدعا عثمان إليه، فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة، وهو يتلو هذه الآية: فداء أبي وأمي، ما سمعته يتلوها قبل ذلك. حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الزنجي بن خالد، عن الزهري قال: دفعه إليه وقال: أعينوه. وروى ابن مزروعيه، من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما أتاه قال: «أرني المفتاح». فأتاه به، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، اجمع لي مع السقاية. فكف عثمان يده. فقال رسول الله ﷺ: «أرني المفتاح يا عثمان». فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتني المفتاح». فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسول الله ﷺ ففتح باب الكعبة، فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم معه قداح يُسْتَقْسَمُ بها. فقال رسول الله ﷺ: «ما للمشركين قاتلهم الله. وما شأن إبراهيم وشأن القداح». ثم دعا بجفنة فيها ماء، فأخذ ماء فغمسه فيه، ثم غمس به تلك التماثيل، وأخرج مقام إبراهيم، وكان في الكعبة فالزقة في حائط الكعبة ثم قال: «يا أيها الناس، هذه القبلة». قال: ثم خرج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين ثم نزل عليه جبريل، فيما

ذكر لنا برد المفتاح، فدعا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. حتى فرغ من الآية. وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد. وقوله: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إنما نزلت في الأمراء، يعني الحُكَمَاءَ بين الناس. وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يَجْزُ، فإذا جار وكله الله إلى نفسه». وفي الأثر: عدل يوم كعبادة أربعين سنة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا يَظُنُّرُ بِهِ﴾ أي: يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾ أي: سمياً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبه بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يُقْرَأُ هذه الآية ﴿سَيِّئًا بَصِيرًا﴾، يقول: بكل شيء بصير. وقد قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يحيى بن عبدك القزويني، أنبأنا المقرئ - يعني أبا عبد الرحمن - عبد الله بن يزيد، حدثنا حرمله - يعني ابن عمران الشَّجْبِي المصري - حدثنا أبو يونس، سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا يَظُنُّرُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾، ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع إصبعه. قال أبو زكريا: وصفه لنا المقرئ، ووضع أبو زكريا إبهامه اليمنى على عينه اليمنى، والتي تليها على الأذن اليمنى، وأرانا فقال: هكذا وهكذا. رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وابن مَرْدُويه في تفسيره، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ بإسناده - نحوه. وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة، واسمه سُلَيْم بن جُبَيْر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا حجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جُرَيْج، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث حجاج بن محمد الأعمور، به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: ليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجتمعوا لي حطياً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فهُمُ القوم أن يدخلوها. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وأخرجه من حديث يحيى القطان. وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في مُشْطَنَا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم فيه من الله بَرُّهان». أخرجه. وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أمرت عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة». رواه البخاري. وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً مُجَدِّعَ الأطراف. رواه مسلم. وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا» رواه مسلم، وفي لفظ له: «عبداً حبشياً مجدوعاً». وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا ابن أبي قُدَيْك، حدثني عبد الله بن محمد بن عروة، عن هشام بن عروة، عن أبي صالح السَّمان، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «سيليكم بعدي ولأه، فليكن البر بیره، وليكن الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم». وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن

رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». أخرجاه. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية». أخرجاه. وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». رواه مسلم. وروى مسلم أيضاً، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلستُ إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فنزلنا منزلاً فمنا من يُصلح خبائه، ومنا من يتنصل، ومنا من هو في جَسْرِهِ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدُلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تُثكرونها، وتجيء فتن يرفُق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يرحح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صَفَقَةً يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال: فدنوت منه فقلت: أتشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ بَيْنَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله.

والاحاديث في هذا كثيرة:

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن المفضل، حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية عليها خالد بن الوليد، وفيها عمار بن ياسر، فساروا قِبَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَرِيدُونَ، فلما بلغوا قريباً منهم عَرَسُوا، وأتاهم ذو الْعَيْتَيْنِ فَأَخْبَرَهُمْ، فأصبحوا قد هربوا غير رجل. فأمر أهله فجمعوا متاعهم، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل، حتى أتى عسكر خالد، فسأل عن عمار بن ياسر، فأنابه فقال: يا أبا اليقظان، إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا، وإني بقيت، فهل إسلامي نافعي غداً، وإلا هربت؟ قال عمار: بل هو ينفعك، فأقم. فأقام، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل، فأخذه وأخذ ماله. فبلغ عماراً الخبر، فأتى خالداً فقال: خل عن الرجل، فإنه قد أسلم، وإنه في أمان مني. فقال خالد: وفيه أنت تجير؟ فاستبا وارتفعا إلى النبي ﷺ، فأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير. فاستبا عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أتترك هذا العبد الأجدع يُسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من يسب عماراً يسبه الله، ومن يبغضه يبغضه الله ومن يلعن عماراً يلعنه الله». فغضب عمار فقام، فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه، فرضي عنه، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من طريق عن السدي، مرسلًا. ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير، عن السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿رَأَوِي الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿رَأَوِي الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾ يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْفِتْنَةُ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِفْءُ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَسَتَلَوْا أَهْلَ الْذِكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرِي فقد أطاعني، ومن عصا أميرِي فقد عصاني».

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: خذوا بسنته ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أبي مُرَّاتَةَ، عن

عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة في معصية الله». وقوله: ﴿فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ قُرْءُونَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله، ﷻ، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهداه بالصححة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومآلاً، كما قاله السدي وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلَ مِنَّا أَنزَلًا مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُنزِلَ أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوكَ ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أَوْلَيْتَكَ الْذِّبَتِ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾.

هذا إنكار من الله، ﷻ، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُنزِلَ أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوكَ﴾ [١٠]، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوكَ﴾ أي: يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [القصص: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٥١] [النور: ٥١]. ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير، إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمتنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صححة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ زَانِدُونَ أَن نُّبَيِّنَ دَابْرَهُمْ فَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدِيرِينَ﴾ [٥٢] [المائدة: ٥٢]. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحنطلي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمر، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: كان أبو بزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلَ مِنَّا أَنزَلًا مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَوْلَيْتَكَ الْذِّبَتِ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية. فاكف به يا محمد فيهم، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: وانهمم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [١٤] فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْئَلُوكَ سَلِيمًا ﴿١٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال

مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني. يعني: لا يطيعهم إلا من وقفته لذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَدْتُمْ اللَّهَ وَعَدَّوْهُ إِذْ تَسُوْنُهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٧] أي: عن أمره وقدره ومشيته، وتسليطه إياكم عليهم. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسأله أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصَّبَّاح في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العُتْبِيِّ، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وقد جئتكم مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي. ثم أنشأ يقول:

يا خَيْرَ مَنْ ذُنِبْتَ بِالْبِقَاعِ أَعْظَمُهُ فطاب من طيبهنَّ القباغ والأكم
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِنُهُ فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي فيشره أن الله قد غفر له. وقوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى نفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّمَ الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكّم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عُرْوَةَ قال: خاصم الزبير رجلاً في شُريج من الحرة، فقال النبي ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فقلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. وهكذا رواه البخاري ههنا أعني في كتاب: «التفسير» من صحيحه من حديث معمر. وفي كتاب: «الشرب» من حديث ابن جُرَيْجٍ ومعمر أيضاً، وفي كتاب: «الصلح» من حديث شعيب بن أبي حمزة، ثلاثهم عن الزهري، عن عروة، فذكره، وصورته صورة الإرسال، وهو متصل في المعنى. وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال فقال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدماء إلى النبي ﷺ في شراج الحرة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبي ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فقلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر». فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه، وكان النبي ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥).

هكذا رواه الإمام أحمد، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك في تفسيره فقال: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا الليث ويونس، عن ابن شهاب، أن عروة بن الزبير حدثه، أن عبد الله بن الزبير حدثه، عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدماء مع رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج في الحرة، كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يُمِر. فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فقلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر». واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ

حَرْجًا مِمَّا قَصَّيْتُمْ وَيَسْلَمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ . وهكذا رواه النسائي من حديث ابن وهب، به. ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث، به. وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم. والعجب كل العجب من الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، فإنه روى هذا الحديث من طريق ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، عن عروة، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير فذكره، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فإني لا أعلم أحداً قام بهذا الإسناد عن الزهري يذكر عبد الله بن الزبير، غير ابن أخيه، وهو عنه ضعيف. وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي أبو دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار، عن سلمة - رجل من آل أبي سلمة - قال: خاصم الزبير رجلاً إلى النبي ﷺ فقصى للزبير، فقال الرجل: إنما قصى له لأنه ابن عمته. فنزلت: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَصَّيْتُمْ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو حَيَّوَةَ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيَّب في قوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية قال: نزلت في الزبير بن العوام، وحاطب بن أبي بلتعنة. اختصما في ماء، فقصى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل. هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصاري.

ذكر سبب آخر غريب جداً:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن لُهيعة، عن أبي الأسود، قال: اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، فقصى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «انطلقا إليه». فلما أتيا إليه قال الرجل يا ابن الخطاب، قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر. فردنا إليك. فقال أكذوك؟ فقال: نعم. فقال عمر: مَكَانَكُمَا حَتَّى أُخْرَجَ إِلَيْكُمَا فَأَقْضِي بَيْنَكُمَا. فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال رُدْنَا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قتل عُمرَ والله صاحبي، ولولا أنني أعجزته لقتلني. فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت أظن أن يجترى عُمرَ على قتل مؤمن». فانزل الله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية فهدر دم ذلك الرجل، ويرى عمر من قتله، ففكره الله أن يسن ذلك بعد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرِيبًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيبًا﴾ [النساء: ٦٦] وكذا رواه ابن مَرْدُويه، من طريق ابن لُهيعة، عن أبي الأسود، به. وهو أثر غريب، وهو مرسل، وابن لُهيعة ضعيف والله أعلم.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دُحَيْم في تفسيره: حدثنا شُعَيْب بن شعيب، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عتبة بن ضَمْرَةَ، حدثنا أبي: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ، فقصى للمحق على المبطل، فقال المقضي عليه: لا أرضى. فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق. فذهب إليه، فقال الذي قضى له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، فقصى لي. فقال أبو بكر: فأنتما على ما قضى به النبي ﷺ. فأبى صاحبه أن يرضى، قال: تأتي عمر بن الخطاب، فأتياه، فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، فقصى لي عليه، فأبى أن يرضى، ثم أتينا أبا بكر، فقال: أنتما على ما قضى به رسول الله ﷺ، فأبى أن يرضى. فسأله عمر، فقال: كذلك، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلَّه، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى، فقتله، فانزل الله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرِيبًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيبًا﴾ [١٦] وَإِنَّا لَأَنتَهُمُ بَيْنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالسَّامِعَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٢٠﴾ .

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طبايعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو زهير، عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السبعي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً، الإيمان

أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير، حدثنا روح، حدثنا هشام، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبِنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال أناس من أصحاب النبي ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي». وقال السدي: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب علينا: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لقتلنا. فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا بشر بن السري، حدثنا مصعب بن ثابت، عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبِنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعت، قال: «صدقت يا أبا بكر». حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العذني قال: سئل سفيان عن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبِنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «لوزنزلت لكان ابن أم عبد منهم». وحدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبِنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ الآية، أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبد الله بن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل» - يعني: ابن رواحة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾، قال السدي: أي: وأشد تصديقاً. ﴿وَرِزْقًا لَّآيَاتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِزًّا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة ﴿وَلَهَدَيْتَنَّهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُبر بين الدنيا والآخرة» وكان في شكواه الذي قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فعملت أنه خير. وكذا رواه مسلم من حديث شعبة، عن سعد بن إبراهيم، به. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، مالي أراك محزوناً؟» قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه؟ قال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فاتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. فبعث النبي ﷺ فيشره. قد روي هذا الأثر مرسلأ عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشُعبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها سنداً. قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقته، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله في ذلك - يعني هذه الآية - فقال: يعني رسول الله ﷺ: «إن الأعلى ينحدرون إلى من هو أسفل منهم، فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه». وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى أتيتك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت

عليه: ﴿وَمَنْ يُعْلِجْ اللَّهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾﴾. وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه: «صفة الجنة»، من طريق الطبراني، عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدي، به. ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً. والله أعلم.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا أبو بكر بن ثابت بن عباس المصري، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن عامر الشعبي، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشوق ذلك عليّ، وأحب أن أكون معك في الدرجة. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُعْلِجْ اللَّهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾﴾. وقد رواه ابن جرير، عن ابن حُمَيد، عن جرير، عن عطاء، عن الشعبي، مرسلًا. وثبت في صحيح مسلم من حديث هُقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت: هو ذلك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكثرة السجود». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن عيسى بن طلحة، عن عمرو بن مَرْة الجُهَنِيّ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله ﷺ: «من مات على هذا كان مع النبيين والصدّيقين والشهداء يوم القيامة هكذا. ونصب إصبعيه - ما لم يعقْ والديه» تفرد به أحمد. قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم، حدثنا ابن لهيعة، عن زَيْان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله». وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري، عن أبي حمزة، عن الحسن البصري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصدّيقين والشهداء». ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصري. وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني أحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم. وقال الإمام مالك بن أنس، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». أخرجه في الصحيحين من حديث مالك ولفظه لمسلم. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا فزارة، أخبرني فُلَيْح، عن هلال - يعني ابن علي - عن عطاء، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون - أو ترون - الكوكب الدرّي الغابر في الأفق والطلع في تفاضل الدرجات». قالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». قال الحافظ الضياء المقدسي: هذا الحديث على شرط البخاري، والله أعلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عُثَيْف بن سالم، عن أيوب بن عُثَيْب، عن عطاء، عن ابن عمر قال: أتى رجل من الحيشة إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «سَلْ واسْتَفْهِمْ». فقال: يا رسول الله، فُضِّلْتُمْ علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به، وعملتُ مثل ما عملت به، إني لكائن معك في الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، والذي نفسي بيده إنه ليضيء بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة» فقال رجل: كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفذ ذلك كله، إلا أن يتطاول الله برحمته» ونزلت هذه الآيات: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿نَبِيًّا وَمَلَكًا كِبْرًا﴾ [الإنسان: ١-٢٠]، فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «نعم». فاستبكي حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: لقد رأيت رسول الله ﷺ يدلّيه في حفرة بيديه. فيه غرابة ونكارة، وسنده ضعيف.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَاصِلُ مِنْكَ اللَّهُ﴾ أي: من عند الله برحمته، هو الذي أهلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ يَأْتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُدُودًا حَذَرْتُمْ فَأَقْرُبُوا يَتَابَاتٍ أَوْ أُنْفِرُوا جَيْمًا﴾ (٧١) ﴿وَأَنْ يَنْكُرَ لَكُمْ لَيْبِلَةٌ فَإِنْ أَسْبَغْتُمْ مِثْبَابًا فَقَدْ آتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢) ﴿وَلَكِنْ أَسْبَغْتُمْ قَسَبًا مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ بَيْنِي وَمَعَهُمْ فَأَفُورٌ فَأَفُورًا عَظِيمًا﴾ (٧٣) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤).

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيله. ﴿يَتَابَاتٍ﴾ أي: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَأَقْرُبُوا يَتَابَاتٍ﴾ أي: عُصبا يعني: سرايا متفرقين ﴿أَوْ أُنْفِرُوا جَيْمًا﴾ يعني: كلكم. وكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وحُصيف الجزري. وقوله: ﴿وَأَنْ يَنْكُرَ لَكُمْ لَيْبِلَةٌ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿لَيْبِلَةٌ﴾ أي: ليتخلفن عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول - قبحة الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويئبط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جرير وابن جرير؛ لهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَأَنْ أَسْبَغْتُمْ مِثْبَابًا﴾ أي: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما الله في ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ آتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل. ﴿وَلَكِنْ أَسْبَغْتُمْ قَسَبًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَلَيْسَ بَيْنِي وَمَعَهُمْ فَأَفُورٌ فَأَفُورًا عَظِيمًا﴾، أي: بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده. ثم قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون دينهم بغير قليل من الدنيا، وما ذلك إلا كفرهم وعدم إيمانهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: كل من قاتل في سبيل الله - سواء قتل أو غلب وسلب - فله عند الله ثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين: «تكفل الله للمجاهد في سبيله، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة».

﴿وَمَا لَكُمْ لَا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالسُّنَمِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦).

يحرّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة، من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة، كقوله ﴿وَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةِ الَّتِي أَخْرَجْتُمْ﴾ [محمد: ١٣] ثم وصفها بقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي: سخر لنا من عندك ولياً وناصرأ. قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن عبيد الله قال: سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين. حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا السُّنَمِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذّر الله ﷻ. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الْقِتَالُ قِيلَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْقَوْمُ وَلَا تظلمون فيلما﴾ (٧٧) ﴿أَيَسَّرْنَا لَكُمْ يَدْرِكَكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْحٍ مُسْتَدِرٍّ وَإِنَّ صَبْرَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُهَيْتُمْ عَنْهَا لَقَدْ كُنْتُمْ فِي عِندِ اللَّهِ قَالِ هَذِهِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَيْثُهَا﴾ (٧٨) ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ فَمِنْ نَحْسِهِمْ وَإِنَّ لَكُمْ لَلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧٩).

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهم بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات الثَّصَب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا

من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لافقاً. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لوما أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، وتثم الأبناء، وتأييم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُظَهِّرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ﴿٧١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَرْبًا لَّهُمْ ﴿٧٢﴾﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة وعلي بن زنجة قالا: حدثنا علي بن الحسن، عن الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة: قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]. ورواه النسائي، والحاكم، وابن مردويه، من حديث علي بن الحسن بن شقيق، به. وقال أسباط، عن السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقالوا ربنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾. وعن مجاهد: إن هذه الآيات نزلت في اليهود. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: آخرة المتقي خير من دنياه. ﴿وَلَا تَطْلُبُونَهَا فِي أَرْبَابِكُمْ﴾ أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن هشام قال: قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، ما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه. وقال ابن معين: كان أبو مُشهر يشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له
 فإن تُعْجِبَ الدُّنْيَا رَجُلًا فَإِنَّهَا
 مِنَّا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسْتَبَدِّينَ﴾ أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِلِّيَّاتٍ فَإِنَّ ﴿٧٢﴾ وَيَسْمَعُ بَعْدَ رَبِّكَ ذُرَّ الْجَبَلِ وَالْأَكْرَادِ ﴿٧٣﴾﴾ [الرحمن: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ نَفْسٌ دَاخِلَةٌ فِي الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَن قَبْلِكَ الْغَلْظَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجناء. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسْتَبَدِّينَ﴾ أي: حصينة منيعة عالية ريفية. وقيل: هي بروج في السماء. قاله السدي، وهو ضعيف. والصحيح: أنها المنيعة. أي: لا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ خَافَ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ يَلْقَها
 وَلَوْ زَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
 ثم قيل: «المشيئة» هي المشيدة كما قال: ﴿وَقَصِّرْ مَشِيئَةً﴾ [الحج: ٤٥]. وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن المشيدة بالتشديد، هي: المطولة، وبالتخفيف هي: المزينية بالشيد وهو الجص. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد أنه ذكر: أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق، فأمرت أجيها أن يأتيها بنار، فخرج، فإذا هو برجل واقف على الباب، فقال: ما ولدت المرأة؟ فقال: جارية، فقال: أما إنها ستزني بمائة رجل، ثم يتزوجها أجيها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: ففكر رجوعاً، فبعج الجارية بسكين في بطنها، فشقها، ثم ذهب هارباً، وظن أنها قد ماتت، فخطأت أمها بطنها، فبرئت وشبت وترعرعت، ونشأت أحسن امرأة ببلدتها، فذهب ذلك الأجير ما ذهب، ودخل البحور فاقتنى أموالاً جزيلة، ثم رجع إلى بلده وأراد التزويج، فقال لعجوز: أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة. فقالت له: ليس هنا أحسن من فلانة. فقال: اخطبها

عَلِيَّ . فذهبت إليها فأجابت ، فدخل بها فأعجبته إعجاباً شديداً ، فسألته عن أمره ومن أين مقدمه؟ فأخبرها خبره ، وما كان من أمره في هربه . فقالت : أنا هي . وأرته مكان السكين ، فتحقق ذلك فقال : لئن كنت إياها فلقد أخبرتني بانثنين لا بد منهما ، إحداهما : أنك قد زنت بمائة رجل . فقالت : لقد كان شيء من ذلك ، ولكن لا أدري ما عددهم؟ فقال : هم مائة . والثانية : أنك تموتين بالعنكبوت . فاتخذ لها قصراً منيعاً شاهقاً ، ليحرقها من ذلك ، فبينما هم يوماً إذا بالعنكبوت في السقف ، فأراها إياها ، فقالت : أهذه التي تحذرها علي ، والله لا يقتلها إلا أنا ، فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلها فقتلتها ، فطار من سمها شيء ، فوقع بين ظفرها ولحمها ، فاسودت رجلها وكان في ذلك أجلها .

ونذكر ههنا قصة صاحب الخضر ، وهو «الساطرون» ، لما احتال عليه «سابور» حتى حصره فيه ، وقتل من فيه بعد محاصرة ستين ، وقالت العرب في ذلك أشعاراً منها :

وأخو الخضر إذ بنناه وإذ دجا
شاده مزماً وجلله كل
لم تهبه أيدي المنون فباد الـ
ولما دخل على عثمان جعل يقول : اللهم اجمع أمة محمد ، ثم تمثل بقول الشاعر :

أرى الموت لا يُبقي عزيماً ولم يدع
يبيت أهل الحصن والحصن مفلق
لعماد ملاً في البلاد ومرىما
ويأتي الجبال في شماريخها معاً

وقوله : ﴿ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً ﴾ أي : خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك هذا ، معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي ، ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً ﴾ أي : قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك . كما يقوله أبو العالية والسدي . ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي : من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك . كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ مَعْمُودًا ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وكما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ آتَاكَ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ خَبَرًا فَكُنْ آمِنًا بِهِ وَإِنْ أَسَأْتَهُ فَمِنَ نَفْسِهِ فَانْقَلِبْ عَلَيَّ وَجْهًا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [الحج : ١١] . وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ وقال السدي : ﴿ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً ﴾ قال : والحسنة الخصب ، تُنتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان قالوا : ﴿ هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً ﴾ والسيئة : الجذب والضرر في أموالهم ، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : ﴿ هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ، يقولون : بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فانزل الله ﷻ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ . فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي : الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البرِّ والفاجر ، والمؤمن والكافر . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي : الحسنة والسيئة . وكذا قال الحسن البصري . ثم قال تعالى منكرأ على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب . وقلة فهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم : ﴿ اللَّهُ قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِيقَتَهُ ﴾ .

ذكر حديث غريب يتعلق بقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا السكن بن سعيد ، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن حماد ، عن مقاتل بن حيان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس ، وقد ارتفعت أصواتهما ، فجلس أبو بكر قريباً من رسول الله ﷺ ؛ وجلس عمر قريباً من أبي بكر ، فقال رسول الله ﷺ : «لم ارتفعت أصواتكما؟» فقال رجل : يا رسول الله ، قال أبو بكر : الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا . فقال رسول الله ﷺ : «فما قلت يا عمر؟» قال : قلت : الحسنات والسيئات من الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : «إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل ، فقال ميكائيل مقاتلك يا أبا بكر ، وقال جبريل مقاتلك يا عمر . فقال : نختلف فيختلف أهل السماء ، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض . فتحاكما إلى إسرائيل ، قضى بينهما أن الحسنات والسيئات من الله» . ثم أقبل على أبي بكر وعمر فقال : «احفظا قضائي بينكما ، لو أراد الله ألا يُعْصَى لم يخلق إبليس» . قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية : هذا حديث موضوع مختلف باتفاق أهل المعرفة .

ثم قال تعالى - مخاطباً - للرسول ﷺ ، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أي : من

فصل الله ومته ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكُ مِنْ سِنَتٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾ أي: فمن قبلك، ومن عملك أنت كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كُنتُمْ تَدْبُرُونَ﴾ [الشورى: ٢٠]. قال السدي، والحسن البصري، وابن جرير، وابن زيد: ﴿مِنْ نَّفْسِكَ﴾ أي: بذنبك. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِنَتٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾: عقوبة يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خذش عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يغفو الله أكثر». وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن، ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها». وقال أبو صالح: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِنَتٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾ أي: بذنبك، وأنا الذي قدرتها عليك. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سهل - يعني ابن بكار - حدثنا الأسود بن شيبان، حدثني عقبة بن واصل بن أخي مطرف، عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر، أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسْرَةٌ بَقُولُوا هَدَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَإِنْ فُتِنَهُمْ سِنَةٌ بَقُولُوا هَدَيْنَا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من نفسك، والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمرؤا وإليه يصيرون. وهذا كلام متين قوي، في الرد على القدرية والجبرية أيضاً، ولبسطه موضع آخر. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه. ﴿وَكُنْ بِأَلَدِّ شَيْدٍ﴾ أي: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كراً أو عناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [٨٠] وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ اللَّهِ حَقًّا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سِنَةٌ مِّنْ نَّفْسِكَ وَمَا كَانَ اللَّهُ بِمُعْجِزًا لَّهُمْ وَلَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكَفَىٰ

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني». وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، عن الأعمش، به. وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه». وقوله: ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرن الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ اللَّهِ حَقًّا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سِنَةٌ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾ أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكتابين، الذين هم مولكون بالعباد. يعلمون ما يفعلون. والمعنى في هذا التهديد، أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيه على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا رَسُولًا فَأَطَاعُوا اللَّهَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَفِيظًا لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [النور: ٤٧]. وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تواخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكَفَىٰ﴾ أي: كفى به ولياً وانصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [٨١] وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْحَرْفِ إِذْ عَاثُوا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٢﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن، ونهاياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم، ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿هَاتِمًا بِهِ كَلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلماذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فقروا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا

مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَّباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلك الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهكذا رواه أيضاً عن أبي معاوية، عن داود بن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، فكأنما يُنْقَأُ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم». قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده. ورواه ابن ماجه من حديث داود بن أبي هند، به نحوه. وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوزي قال: كتب إلي عبد الله بن زياد، يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما فقال: «إنما هلك الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب». ورواه مسلم والنسائي، من حديث حماد بن زيد، به. وقوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ» إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة.

وقد قال مسلم في «مقدمة صحيحه»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن حفص، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّث بكل ما سمع» وكذا رواه أبو داود في كتاب «الأدب» من سننه، عن محمد بن الحسين بن إشكاب، عن علي بن حفص، عن شعبة مسنداً. ورواه مسلم أيضاً من حديث معاذ بن هشام العبدي، وعبد الرحمن بن مهدي. وأخرجه أبو داود أيضاً من حديث حفص بن عمر النمري، ثلاثهم عن شعبة، عن خبيب، عن حفص بن عاصم، به مرسلًا. وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقيل وقال. أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبُّت، ولا تدبُّر، ولا تبيين. وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطيئة الرجل زعموا عليه». وفي الصحيح: «من حدَّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». ويذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يعبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: «أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت: «أطلقتهن؟ قال: «لا». فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَكُوِّدُوهُ إِلَى الرُّسُولِ وَاللَّيْلُ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَكَلِمَةَ الَّذِينَ يَشْتَغِبُونَ مِنْهُمْ» فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. ومعنى قوله: (يستنبطونه) أي: يستخرجونه ويستعلمونه من معانده، يقال: استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قعرها. ومعنى قوله: «لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المؤمنين. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: «لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» يعني: كلكم. واستشهد من نصر هذا القول. بقول الطرماح بن حكيم، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشْرَمُ كَشِيرِ يَدِي النَّوَالِ قَلِيلِ الْمَثَالِبِ وَالْقَادِحَةِ
يعني: لا مثالب له، ولا قادحة فيه.

﴿فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفُفَ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهَا تَوْبِعٌ حَسَنَةٌ سَيَنْتَظِرُ لَهَا كَيْفَ يَنْهَى وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُجِمَ بِبَجْعَةٍ حَسَبًا يَأْحَسِنْ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيرًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَتَمَنَّيَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيَاتًا ﴿٨٧﴾﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عليه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: «لَا تَكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمرو بن نبيح، حدثنا حكام، حدثنا الجراح الكندي، عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقي مائة من العدو، فيقاتل، أيكون ممن يقول الله: «وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيهِ إِلَى الْهَلَكَةِ؟» (البقرة: ١٩٥) قال: قد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ». ورواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى

بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنما ذلك في النفقة. وكذا رواه ابن مردويه، من طريق أبي بكر بن عياش، وعلي بن صالح، عن أبي إسحاق، عن البراء، به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن النصر العسكري، حدثنا مسلم بن عبد الرحمن العزيمي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، قال لأصحابه: «قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا» حديث غريب. وقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: على القتال ورغبتهم فيه وشجعهم عنده كما قال لهم رسول الله ﷺ يوم بدر، وهو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة». ورؤي من حديث معاذ وأبي الدرداء وعبادة نحو ذلك. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة». قال: فعجبت لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعت همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ حَمَلَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ [محمد: ٤]. وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهَا فِجْونًا وَنَجَاتًا﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سيِّئَةً يَكُنْ لَهَا كِذْبًا وَعِقَابًا﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا توجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء». وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل: من يَشْفَعُ. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيَّتًا﴾ قال ابن عباس، وعطاء، وعطية، وقاتدة، ومطر الوراق: ﴿مُقِيَّتًا﴾ أي: حفيظاً. وقال مجاهد: شهيداً. وفي رواية عنه: حسيباً. وقال سعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد: قديراً. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: الواصب. وقال الضحاك: المقيت: الرزاق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن مطرف، حدثنا عيسى بن يونس، عن إسماعيل، عن رجل، عن عبد الله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيَّتًا﴾ قال: يُقِيت كل إنسان على قدر عمله. وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِمَ بِنَجْوَةٍ فَحِيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: إذا سلم عليكم المسلم، فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم به، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. قال ابن جرير: حدثني موسى بن سهل الرملي، حدثنا عبد الله بن السري الأنطاكي، حدثنا هشام بن لاحق، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان التَّهْدِي، عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». ثم أتى آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له: «وعليك». فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وفلان فسلموا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ. فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِمَ بِنَجْوَةٍ فَحِيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم معلقاً فقال: ذكر عن أحمد بن الحسن الترمذي، حدثنا عبد الله بن السري - أبو محمد الأنطاكي - قال أبو الحسن: وكان رجلاً صالحاً - حدثنا هشام بن لاحق، فذكر بإسناده مثله. ورواه أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن لاحق أبو عثمان، فذكره بمثله، ولم أره في المسند، والله أعلم. وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك، لزاده رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير - أخو سليمان بن كثير - حدثنا

جعفر بن سليمان، عن عوف، عن أبي رجاء العطاردي، عن عمران بن حصين؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم. فرد عليه ثم جلس، فقال: ﴿عَشْرٌ﴾. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه، ثم جلس، فقال: ﴿عشرون﴾. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد عليه، ثم جلس، فقال: ﴿ثلاثون﴾. وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن كثير، وأخرجه الترمذي والنسائي والبخاري من حديثه، ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي سعيد، وعلي، وسهل بن حنيف رضي الله عنهم. وقال البزار: قد روي هذا عن النبي ﷺ من وجوه، هذا أحسنها إسناداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن سيمك، عن عكرمة عن ابن عباس قال: من يسلم عليك من خلق الله، فاردد عليه وإن كان مجوسياً؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا يَاحَسَنَ يَنبَأَ أَوْ رُدُّوهُآ﴾. وقال قتادة: ﴿فَحَيُّوا يَاحَسَنَ يَنبَأَ﴾ يعني: للمسلمين ﴿أَوْ رُدُّوهُآ﴾ يعني: لأهل الذمة. وهذا التنزيل فيه نظر، بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام؛ رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبَدُّونَ بالسلام ولا يزفون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك فقل: وعليك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقتهم». وقال سفیان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري قال: السلام تطوع، والرد فريضة. وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّوا يَاحَسَنَ يَنبَأَ أَوْ رُدُّوهُآ﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه...

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمنُ قسماً، لقوله: ﴿لَيْبَسَمَنَّكُمْ إِنْ يَوْوِ الْيَتِيمَ لَا رَبِّ يَتِيمٌ﴾. وهذه اللام موطنه للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خير وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعده ووعده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّينَ يَتَنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَان تَجِدْ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٨٨﴾ وَذُوَا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَنفَعُ دُونَهُمْ وَلَا تَنْفَعُهُمْ إِلَّا الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَحْجُدُوا وَبَيْنَهُمْ وَلَا تَصِيحُوا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَبُولُونَ وَإِلَى الَّذِينَ يَبُولُونَ لَكُمْ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَبُتُونَ أَوْ جَاءتْكُمْ حَصِرَتِ أَعْيُنُكُمْ وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ أَوْ يُغْنِيَلُوكُمْ أَوْ يُغْنِيَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَصَمْتُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوكُمْ وَلَقَدْ آتَيْنَاكُمْ الْبَقْرَةَ وَأَمَرْنَاكُمْ لَتَأْكُلُوا مِنْهَا لَكُمْ عَلَيْهَا حَبْلٌ مِثْلُ بَلْمِثْلٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسُفِّجُوا بِهِ السَّجَالَ وَالْعِزَّةُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ ﴿٩٠﴾ فَذَرُوا آلَ الْكُفْرَانِ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٩١﴾

يقول تعالى منكرأ على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين. واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يهز، حدثنا شعبة قال عدي بن ثابت: أخبرني عبد الله بن يزيد، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: تقتلهم. وفرقة تقول: لا. فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّينَ يَتَنَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة». أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة. وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبنة فاقتلوهم، فإنهم يظهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله! أو كما قالوا: أقتلوا قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم. فكانوا كذلك ففتين، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّينَ يَتَنَتَيْنِ﴾: رواه ابن أبي حاتم، وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم قريب من هذا. وقال زيد بن أسلم، عن ابن لسعد بن معاذ: إنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك. وهذا غريب، وقيل غير ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ردهم وأوقعهم في الخطأ. قال ابن عباس:

﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي: أوقعهم. وقال قتادة: أهلكهم. وقال السدي: أضلهم. وقوله: ﴿يَمَا كَسَبُوا﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه. ثم قال: ﴿وَدَوًّا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَمَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس. وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَرِثًا وَلَا صِبْرًا﴾ أي: لا توالوهم ولا تستصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله، سبحانه، من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْتَنٌ﴾ أي: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم. وهذا قول السدي، وابن زيد، وابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جذعان، عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر - يعني النبي ﷺ - على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم قال سراقه: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي - بني مذلج - فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه. فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟»، قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تَخْشَن قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «أذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا علي رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، ومن وصل إليهم من الناس كانوا على مثل عهدهم. فانزل الله ﴿وَدَوًّا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ورواه ابن مردويه من طريق حماد بن سلمة، وقال: فانزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْتَنٌ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم. وهذا أنسب لسياق الكلام. وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا سَأَلَكَ الظَّاهِرُ لِقَوْمٍ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المُسْتَنِينَ عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أي: ضيقة صدورهم مُنْغَضِينَ أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَاقْتُلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: من لطفه بكم أن كفهم عنكم، ﴿فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ﴾ أي: المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فليس لكم أن تقتلوهم، مادامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهي النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبر بأسره.

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمانهم وأموالهم وذرياتهم، ويصنعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُورُوا إِلَىٰ سَبِيلِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وقال ههنا: ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي: انهمكوا فيها. قال السدي: والفتنة ههنا: الشرك. وحكى ابن جرير، عن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزَلُوا وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا﴾ أي: عن القتال ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: أين لقيتموهم ﴿وَوَقَفْتُمُوهُمْ وَأَوْلَيْتُمْ جَمَلًا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: بينا واضحا. ﴿وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلَ الْمُؤْمِنَ إِلَّا عَدُوًّا حَقًّا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْتَنٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيْسِيًّا مِنْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ حَقًّا فِيهَا وَعَصَبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾.

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني،

والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. وقوله: ﴿إِلَّا حَقًّا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع، كقول الشاعر:

مِنَ الْبَيْضِ، لَمْ تَنْظَعْنَ بَعِيدًا وَلَمْ تَطَّأِ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا زَيْطٌ بُرِّدٌ مُرَحَّلٌ
ولهذا شواهد كثيرة. واختلف في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه - وهي أسماء بنت مَخْرَبَةَ - وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عَيَاشُ السُّوءِ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله. فأنزل الله هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإسلام حين رفع السيف، فأهوى به إليه، فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: إنما قالها متعوذاً. فقال له: «هلا شققت عن قلبه» وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ لِمَنْ أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة. وحكى ابن جرير، عن ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم التَّحِيي، والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان. وروي من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: في حرف أبي: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ لا يجزئ فيها صبي. واختار ابن جرير إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزاء، وإلا فلا. والذي عليه الجمهور: أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً. وقال الإمام أحمد: أنبأنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزُّهري، عن عبد الله بن عبد الله، عن رجل من الأنصار؛ أنه جاء بأمّة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليّ رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها. فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أنني رسول الله؟» قالت: نعم. قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «أعتقتها». وهذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر. وفي موطن الإمام مالك، ومسندي الشافعي وأحمد، وصحيح مسلم. وسنن أبي داود والنسائي، من طريق هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله ﷺ. قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة».

وقوله: ﴿وَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ لِمَنْ أَهْلِيهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القاتل، عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أخماساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن زيد بن جُبَيْر، عن خُشْفِ بْنِ مَالِكٍ، عن ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جَذَعَةً، وعشرين جَفَّةً. لفظ النسائي، وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عبد الله موقوفاً. وكذا روي عن علي وطائفة. وقيل: تجب أرباعاً. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله، قال الشافعي، رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذي أشار إليه، رحمه الله، قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هَذِيلٍ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دية جنيهاً غُرَّةً عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد، لشبهه به، وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صباناً صباناً. فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم، حتى ميلعة الكلب. وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهلها إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مَسْئَلَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مَسْئَلَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُؤْمِنًا ﴿الآية، أي: فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة، وكذا إن كان كافرا أيضا عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، كما هو مفصل في كتاب الأحكام، ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف، واختلفا في السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين: وقوله: ﴿تَوَكُّبًا مِنَ اللَّهِ وَكَرَاهَاتٍ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا﴾ أي: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين. واختلفا فيمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كما في كفارة الظهار؟ على قولين؛ أحدهما: نعم. كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، القول الثاني: لا يعدل إلى الإطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة. ﴿وَكَرَاهَاتٍ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا﴾: قد تقدم تفسيره غير مرة. ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كَسَاوَا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُنتُم عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنَّمَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقْوُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا. من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود، من رواية عمرو بن الوليد بن عبدة المصري، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن ممتنقا صالحا ما لم يصب دما حراما، فإذا أصاب دما حراما بلع». وفي حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم». وفي الحديث الآخر: «لو أجمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم، لا يكبه الله في النار» وفي الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشرط كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله».

وقد كان ابن عباس، رضي الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا مؤمنا. وقال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا مغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾، هي آخر ما نزل. وما نسخها شيء. وكذا رواه هو أيضا ومسلم والنسائي من طرق، عن شعبة، به. ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، عن ابن مهدي. عن سفيان الثوري، عن مغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ فقال: لم ينسخها شيء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قال عبد الرحمن بن أبيزى: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ فقال: لم ينسخها شيء. وقال في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]. قال: نزلت في أهل الشرك. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور حدثني سعيد بن جبير - أو حدثني الحكم، عن سعيد بن جبير - قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنا متعمدا، فجزاؤه جهنم ولا توبة له. فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم. حدثنا ابن حميد، وابن وكيع قالوا: حدثنا جرير، عن يحيى الجابر، عن سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُف بصره، فأتاه رجل فناداه: يا عبد الله بن عباس، ما ترى في رجل قتل مؤمنا متعمدا؟ فقال: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. قال: أفأريت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: نكلته أمه، وأنى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده! لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «نكلته أمه، قاتل مؤمنا متعمدا، جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو بشماله، تُشَخَّب أوداجه دما في قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله بيده الأخرى، يقول: سل هذا فيم قتلني؟» وأيم الذي نفس عبد الله بيده! لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت يحيى بن المُجَبَّر يحدث عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن

عباس؛ أن رجلاً أتاه فقال: أرأيت رجلاً قتل رجلاً متعمداً؟ فقال: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِئًا فِيهَا وَعَصِيبٌ لَّهُ عَلَيْهِ وَلَمَنَّهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ قال: لقد نزلت في آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ، وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ. قال: أرأيت إن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: وأتى له بالتوبة. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثكلته أمه، رجل قتل رجلاً متعمداً، يجيء يوم القيامة أخذاً قاتله بيمينه أو يسارته. وأخذاً رأسه بيمينه أو بشماله - تشخب أوداجه دماً في قُبُل العرش يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلني؟». وقد رواه النسائي عن قتبية، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن عمار الدهني، ويحيى الجابر وثابت الشمالي، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس، فذكره. وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف. زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمر، والحسن، وقادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم.

وفي الباب أحاديث كثيرة: من ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد البُوشنجي وحدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن فهد قال: حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي عمرو بن شُرْحِبِيل، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة، أخذاً رأسه بيده الأخرى فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟» قال: «فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لي». قال: «ويجيء آخر متعلقاً بقاتله فيقول: رب، سل هذا فيم قتلني؟» قال: «فيقول قتلته لتكون العزة لفلان» قال: «فإنها ليست له بؤٍ بإثمته». قال: «يهوي في النار سبعين خريفاً». وقد رواه النسائي، عن إبراهيم بن المُسْتَمِير العوفي، عن عمرو بن عاصم، عن معتمر بن سليمان، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ثور بن يزيد، عن أبي عون، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». وكذا رواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن صفوان بن عيسى، به. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا سَمُؤَيْه، حدثنا عبد الأعلى بن مُسْهَر، حدثنا صَدَقَةُ بن خالد، حدثنا خالد بن دِقْقَان، حدثنا ابن أبي زكريا قال: سمعت أم الدرداء تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو من قتل مؤمناً متعمداً». وهذا غريب جداً من هذا الوجه. والمحفوظ حديث معاوية المتقدم، فالله أعلم. ثم روى ابن مردويه من طريق بَقِيَّة بن الوليد، عن نافع بن يزيد حدثني ابن جبير الأنصاري، عن داود بن الحُصَيْن، عن نافع، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من قتل مؤمناً متعمداً فقد كفر بالله ﷻ». وهذا حديث منكر أيضاً، وإسناده تُكَلِّم فيه جداً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد قال: أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي، فقال لنا: هلما فأنتما أشب شيئاً مني، وأوعى للحديث مني، فانطلق بنا إلى بَشْر بن عاصم، فقال له أبو العالية: حدث هؤلاء حديثك. فقال: حدثنا عقبة بن مالك الليثي قال: بعث النبي ﷺ سرية، فأغارت على قوم، فشد من القوم رجل، فاتبه رجل من السرية شاهراً سيفه فقال الشاد من القوم: إني مسلم. فلم ينظر فيما قال، فضره فقتله، فَنَمَى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل. فبينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ قال القاتل: والله ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل، قال: فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعمن قبله من الناس، وأخذ من خطبته، ثم قال أيضاً: يا رسول الله، ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل، فأعرض عنه وعمن قبله من الناس، وأخذ في خطبته، ثم لم يصبر، فقال الثالثة: والله يا رسول الله ما قال إلا تعوداً من القتل. فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعْرِف المساءة في وجهه، فقال: «إن الله أبى على من قتل مؤمناً» ثلاثاً. ورواه النسائي من حديث سليمان بن المغيرة.

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه ﷻ، فإن تاب وأناب وخضع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٨٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٩]، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج إلى دليل، والله أعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ أُنفُسِهِمْ لَا تَنْظُرُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

الْمَقْتُولِ الرَّجِيمِ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم. وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يغيب الله فيه، فهاجر إليه، فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. كما ذكرناه غير مرة، إن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والأصبار التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة، هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مُؤْمِنًا مَّتَّعِدًا فَجَرَّادًا وَّجَهَنَّمَ حَلَالًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٣﴾، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وقد رواه ابن مردويه مرفوعاً، من طريق محمد بن جامع العطار، عن العلاء بن ميمون العبدي، عن حجاج الأسود، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولكن لا يصح. ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك مُعَارَضٍ من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قول أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. ويتقدير دخول القاتل إلى النار، إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به؛ فليس يخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان. وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً: «عسى» للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً؛ فالنص أنه لا يُغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الأدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغضوب منه، والمقدوف، وسائر حقوق الأدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم للمقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، أما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتب الأحكام. واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام؟ على أحد القولين، كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم، يجب عليه؛ لأنه إذا وجبت الكفارة في الخطأ فلأن تجب في العمد أولى. وطردها هذا في كفارة اليمين الغموس، واعتضدوا بقضاء الصلوات المتروكة عمداً، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ. قال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً فإنهم يقولون: بوجوب قضائها وإن تركت عمداً. وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عازم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن العريفي بن عياش، عن وائلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحبنا لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة، يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن إبراهيم بن أبي عبلة عن العريفي الديلمي قال: أتينا وائلة بن الأسقع الليثي فقلنا: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب، فقال: «أعتقوا عنه، يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار». وكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، به، ولفظ أبي داود عن العريفي الديلمي قال: أتينا وائلة بن الأسقع فقلنا: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب فقال: إن أحدم ليقراً ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص، قلنا: إنا أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار».

﴿يَأْتِيهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامَتًا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَتَيْتُمْ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا كَبِتُّوكَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَيَبَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، وحسين بن محمد، وخلف بن الوليد، قالوا: حدثنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعود منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامَتًا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَتَيْتُمْ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخرها. ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن عبد العزيز بن أبي رزمة، عن إسرائيل، به. وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أسامة بن زيد. ورواه الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، به. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان، كلاهما عن إسرائيل، به. وقال في بعض كتبه غير التفسير - وقد رواه من طريق عبد الرحمن فقط -: وهذا خبر عندنا صحيح سنده، وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيماً، لعل منها: أنه لا يعرف له مخرج عن سيمك إلا من هذا الوجه، ومنها: أن عكرمة في روايته عندهم نظر، ومنها: أن الذي أنزلت فيه الآية مختلف فيه، فقال بعضهم: أنزلت في مُحَلِّم بن جثامة، وقال بعضهم: أسامة بن زيد: وقيل غير ذلك. قلت: وهذا كلام غريب، وهو مردود من وجوه أحدها: أنه ثابت عن سيمك، حديث به عنه غير واحد من الكبار. الثاني: أن عكرمة محتج به في الصحيح. الثالث: أنه مروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس، كما قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنيمته له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه وأخذوا غنيمته فانزل الله ذلك إلى قوله: ﴿كَبِتُّوكَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾: تلك الغنيمة. قرأ ابن عباس: السلام. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمته فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طريق سفيان بن عيينة، به. وأما قصة محلّم بن جثامة فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد عن أبيه عبد الله بن أبي حدرد، رضي الله عنه، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومحلّم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا بيبطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، على قعود له، معه مَتَّعٍ وَوَطْبٍ من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلّم بن جثامة فقتله، بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومَتَّعِهِ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامَتًا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَتَيْتُمْ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا كَبِتُّوكَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَيَبَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾. تفرد به أحمد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير، عن ابن إسحاق، عن نافع؛ أن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ مُحَلِّم بن جثامة مبعثاً، فلقبهم عامر بن الأضبط، فحياهم بتحية الإسلام وكانت بينهم حسنة في الجاهلية، فرماه محلّم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ، فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سنّ اليوم وغير غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الشُّكْلِ ما ذاق نساتي. فجاء محلّم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ». فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، ودفنوه، فلفظته الأرض، فجاؤا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم من جرمتكم» ثم طرحوه بين صدفي جبل، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت: ﴿يَأْتِيهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامَتًا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَتَيْتُمْ﴾ الآية.

وقال البخاري: قال حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل». هكذا ذكر البخاري هذا الحديث معلّقاً مختصراً، وقد روي مطولاً موصولاً. فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حماد بن علي البغدادي، حدثنا جعفر بن سلمة، حدثنا أبو بكر بن علي بن مقدّم، حدثنا حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله . وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لي المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّحْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَ إِلَيْكُمْ االسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتُّوْا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَئِدَ اللَّهِ مَعَانِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَرْجِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَبَيَّنُّوا﴾. فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل». وقوله: ﴿فَوَئِدَ اللَّهِ مَعَانِدُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي آلقى إليكم السلام، وأظهر إليكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغامات الحلال خير لكم من مال هذا. وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَرْجِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَمِّنُونَ فِي الْأَرْضِ تُخَافُونَ أَنَّ أَبِي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين.

ورواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، أخبرني عبد الله بن كثير، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه. وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: وذكر عن قيس، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تورعون عن مثل هذا. وقال الثوري: عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ لم تكونوا مؤمنين ﴿فَمَرْجِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَبَيَّنُّوا﴾ وقال السدي: ﴿فَمَرْجِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تاب عليكم، فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول: ﴿لا إله إلا الله﴾ بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه. وقوله: ﴿فَبَيَّنُّوا﴾ تأكيد لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبيرة: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ قَوْلَ اللَّهِ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَمْراً عَظِيماً ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَنْفَرَةٌ رَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٩٦﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيدا، فكتبها، فجاه ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ﴾. حدثنا محمد بن يوسف، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلانا» فجاهه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضرير فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، حدثني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله ﷺ أملى عليّ: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله». فجاهه ابن أم مكتوم، وهو يملئها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى. فأنزل الله على رسول الله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ﴾. انفرد به البخاري دون مسلم، وقد روي من وجه آخر عن زيد. فقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت: إني قاعد إلى جنب رسول الله ﷺ، إذ أوجي إليه، قال: وغشيتة السكينة، قال: فوقع فخذه على فخذي حين غشيتة السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذي رسول الله ﷺ، ثم سري عنه فقال: «اكتب يا زيد». فأخذت كتفا فقال: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْراً عَظِيماً﴾». فكتبت ذلك في كتف، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم. وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى، وأشباه ذلك؟ قال زيد: فوالله ما مضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - حتى غشيت النبي ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى، ثم سري عنه فقال: «اقرأ». فقرأت عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» فقال

النبي ﷺ: ﴿عِدُّ أُولَى الضَّرِّ﴾ قال زيد: فألحقها، فواله لكأني أنظر إلى مُلْحَقِهَا عند صدع كان في الكتف. ورواه أبو داود، عن سعيد بن منصور، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، به نحوه. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الزمانة ما قد ترى، قد ذهب بصري. قال زيد: فتقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذِي، حتى خشيت أن ترضها، ثم سُريَ عنه، ثم قال: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدُّ أُولَى الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾». ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرني ابن جُرَيْجٍ، أخبرني عبد الكريم - هو ابن مالك الجزري - أن مِقْسَمًا مولى عبد الله بن الحارث - أخبره، أن ابن عباس أخبره: لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجون إلى بدر. انفرد به البخاري دون مسلم. وقد رواه الترمذي من طريق حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عبد الكريم، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس قال: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضر عن بدر، والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدُّ أُولَى الضَّرِّ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضر ﴿وَقَسَلَهُ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضر. هذا لفظ الترمذي، ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحى سريع: ﴿عِدُّ أُولَى الضَّرِّ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العَمَى والعَرَج والمرض - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضر. وكذا ينبغي أن يكون لما ثبت في الصحيح عند البخاري من طريق زهير بن معاوية، عن حُمَيْدٍ، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سيرتُم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر». وهكذا رواه الإمام أحمد عن محمد بن أبي عدي، عن حُمَيْدٍ، عن أنس، به. وعلقه البخاري مجزوماً. ورواه أبو داود، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتهم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر». لفظ أبي داود. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لَقَدْ
إنّا أقمنا على عُدْرٍ وَعَنْ قَدْرٍ
سَرْتُم جُـسُومًا وَسَرْنَا نَحْنُ أرواحاً
وَمِنْ أَقَامَ عَلَى عُدْرٍ فَقَدَ راحاً

وقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمَسْفُوفَ﴾ أي: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية. ثم قال تعالى: ﴿وَقَسَلَهُ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَجَحْتُ بَيْنَهُ وَمَنُورَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٧). وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وقال الأعمش، عن عمرو بن مَرَّةٍ، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغ بسهم فله أجره درجة» فقال رجل يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: «أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عامه».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمُتَكَبِّرَةُ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاتُوا بِجَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) ﴿إِلَّا الْمُتَشَكِّمِينَ مِنْ أَرْجَالِ وَالسَّاءِ وَالْوَالِدِينَ لَا يُسْتَلِيمُونَ جِهَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوَيْلُ فَقَدْ وَعَى أَجْرًا عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠).

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة وغيره قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به فيصيب

أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَمْسِيهِمْ﴾. رواه الليث عن أبي الأسود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا محمد بن شريك المكي، حدثنا عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَمْسِيهِمْ قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش، كانوا تكلموا بالإسلام بمكة، منهم علي بن أمية بن خلف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زئمة. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين، تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَمْسِيهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة: ﴿قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكنتم ههنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتَهُمْ مَا دَرَبُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله». وقال السدي: لما أسر العباس وعقيل وتوفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أفد نفسك وابن أخيك». قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلك، ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصتم فخصتم» ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتَهُمْ مَا دَرَبُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَسْتَضِعُونَ مِنْهُ جِئَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَضِعُونَ مِنْهُ جِئَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدي: يعني طريقاً.

وقوله: ﴿فَأَوْلَيْتَهُمْ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة ﴿وَكَاذِبًا اللَّهُ عَفْوَ غَفُورًا﴾. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا شيبان، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأنك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المقري، حدثنا عبد الوارث، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ رفع يده بعدما سلم، وهو مستقبل القبلة، فقال: «اللهم خلص الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار». وقال ابن جرير: حدثنا المنثى، حدثنا حجاج، حدثنا حماد، عن علي بن زيد عن عبد الله - أو إبراهيم بن عبد الله القرشي - عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يدعو في دُبُر صلاة الظهر: «اللهم خلص الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وضعفة المسلمين من أيدي المشركين، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً». ولهذا الحديث شاهد في الصحيح، من غير هذا الوجه، كما تقدم. وقال عبد الرزاق: أنبأ ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان. وقال البخاري: أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَسْتَضِعُونَ مِنْهُ جِئَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ في الأرض مَرَعًا كَثِيرًا وَسِعَةً: هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، و «المراعم»: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، قال نابعة بني جعدة:

كَطَطَّوْذٍ يُبْلَادُ بِأَرْكَانِيهِ عَزِيْزِ الْمُرَاعِمِ وَالْمَهْرِبِ
وقال ابن عباس: «المراعم»: التحويل من أرض إلى أرض. وكذا زوي عن الضحاك، والربيع بن أنس، والثوري، وقال مجاهد: «مُرَعًا كَثِيرًا» يعني: متزحزحاً عما يكره. وقال سفيان بن عيينة: «مُرَعًا كَثِيرًا» يعني: بروجاً. والظاهر - والله أعلم -

أنه التمتع الذي يُتَحَصَّن به، ويراعم به الأعداء. قوله: ﴿وَسَمِعُ﴾ يعني الرزق. قاله غير واحد، منهم: قتادة، حيث قال في قوله: ﴿يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَمَةً﴾ أي، والله، من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى. وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن، من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص الليثي، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين، في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يَحُولُ بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر، أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء: إنه لم يصل بَعْدُ. فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب كان منها، فأمر الله هذه أن تقرب من هذه، وهذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية: أنه لما جاء الموت ناء بصدوره إلى الأرض التي هاجر إليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن محمد بن عبد الله بن عتيك، عن أبيه عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث: الوسطى والسبابة والإبهام، فجمعهم وقال: وأين المجاهدون؟ - فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات، فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله - والله! إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل قفصاً فقد استوجب المآب». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبه الحزامي، حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي، عن المنذر بن عبد الله، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن جزام إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال الزبير: وكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزنتني شيء حزن وفاته حين بلغني؛ لأنه قل أحد ممن هاجر من قريش إلا معه بعض أهله، أو ذوي رحمه، ولم يكن معي أحد من بني أسد بن عبد العزى، ولا أرجو غيره. وهذا الأثر غريب جداً، فإن هذه القصة مكية، ونزول هذه الآية مدنية. فلعله أراد أنها أنزلت تم حكمه مع غيره، وإن لم يكن ذلك سبب النزول، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن الأشعث - هو ابن سوار - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة عن أبي ضمرة بن العيص الزرقني، الذي كان مصاب البصر، وكان بمكة فلما نزلت: ﴿إِلَّا السُّنَمِيُّونَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فقلت: إني لغني، وإني لدو حيلة، قال: فتجهز يريد النبي ﷺ، فأدركه الموت بالنتيم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن زياد سبيلان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن إسحاق، عن حميد بن أبي حميد، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجاً فمات، كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة». وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿وَلَا مَرَاتٍ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرُبُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِذَا خِفْتُمْ أَنْ بَيِّنْتُمْ أَلَيْسَ كَقَرُوبٍ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا مَرَاتٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرت في البلاد، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَرْحَمِي وَأَعْرُونَ يَصْرُوفِي فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَأَعْرُونَ يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠]. وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرُبُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها، إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر، على اختلافهم في ذلك: فمن قائل لا بد أن يكون سفر طاعة، من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك،

كما هو مروى عن ابن عمر وعطاء، ويحكى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومن قائل: لا يشترط سفر القرية، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله: ﴿كَمَنْ أَضَلَّ فِي مَحْضِهِ غَيْرَ مَتَجَانِبٍ لِإِيْتِمَارِ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، أباح له تناول الميتة مع اضطرابه إلا بشرط ألا يكون عاصياً بسفره. وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة. وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رجل تاجر، اختلف إلى البحرين «فأمره أن يصلي ركعتين» وهذا مرسل. ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحاً أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، تَرَخُّصٌ، لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبي حنيفة، رحمه الله، والثوري، وداود، لعموم الآية وخالفهم الجمهور. وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْيَمِّ إِنْ أَرَدْتُمْ نَجْصًا﴾ [النور: ٢٣]، وكقوله: ﴿رَبِّبْتِكُمْ أَلْتِي فِي جُحُوبِكُمْ مِّنْ نَّسَائِكُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس، حدثنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبي عمار، عن عبد الله بن بابويه عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد آمن الله الناس؟ فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من حديث ابن جريج، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال علي بن المديني: هذا حديث صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه، ورجاله معروفون. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك بن مغول، عن أبي حنيفة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى، حدثنا علي بن محمد بن سعيد، حدثنا منجاب، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن أبي الودَّاع: سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر؟ فقال: هي رخصة، نزلت من السماء، فإن شئتم فردوها. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخاف بينهما، ركعتين ركعتين. وكذا رواه النسائي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن عون، به. قال أبو عمر بن عبد البر: وهكذا رواه أيوب، وهشام، ويزيد بن إبراهيم التُّسْتَرِي، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، مثله. قلت: وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن قتبية، عن هُشَيْم، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة، لا يخاف إلا رب العالمين، فصلى ركعتين، ثم قال الترمذي: صحيح. وقال البخاري: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يحيى بن أبي إسحاق قال: سمعت أنساً يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً. وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفْيَان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن وهب الخُزَاعِي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر بمكة - أكثر ما كان الناس وأمنه - ركعتين. ورواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق، عن أبي إسحاق السَّبْعِي، عنه، به. ولفظ البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أنبأنا أبو إسحاق، سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمكة ركعتين. وقال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ، أخبرنا نافع، عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع النبي ﷺ ركعتين، وأبي بكر وعمر، ومع عثمان صدراً من إمارته، ثم أتمها. وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان الأنصاري، به. وقال البخاري: حدثنا قتبية، حدثنا عبد الواحد، عن الأعمش، حدثنا إبراهيم، سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول: صلى بنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بمكة أربع ركعات، فقيل في ذلك لعبد الله بن مسعود فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمكة ركعتين، وصليت مع أبي بكر بمكة ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمكة ركعتين، فليت حظي مع أربع ركعات ركعتان متقبلتان. ورواه البخاري أيضاً من حديث الثوري، عن الأعمش، به. وأخرجه مسلم من طرق، عنه. منها عن قتبية كما تقدم. فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية. وهو قول مجاهد، والضحاك، والسدي كما سيأتي بيانه، واعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك،

عن صالح بن كيسان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر؛ وزيدي في صلاة الحضر. وقد روى هذا الحديث البخاري عن عبد الله بن يوسف الثنيسي، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن الفعفي، والنسائي عن قتيبة، وأربعتهم عن مالك، به. قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي التنتين، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية؛ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؟ وأصرح من ذلك دلالة على هذا، ما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان - وعبد الرحمن حدثنا سفيان - عن زُبَيْد اليامي، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عمر، رضي الله عنه. قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ. وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، من طرق عن زُبَيْد اليامي، به. وهذا إسناد على شرط مسلم. وقد حكّم مسلم في مقدمة كتابه بسمع ابن أبي ليلى، عن عمر. وقد جاء مصرحاً به في هذا الحديث وفي غيره، وهو الصواب إن شاء الله. وإن كان يحيى بن معين، وأبو حاتم، والنسائي قد قالوا: إنه لم يسمع منه. وعلى هذا أيضاً، فقد وقع في بعض طرق أبي يعلى الموصلي، من طريق الثوري، عن زبيد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الثقة، عن عمر فذكره، وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن أبي زياد بن أبي الجعد، عن زُبَيْد، عن عبد الرحمن، عن كعب بن عُجْرَة، عن عمر، به، فالله أعلم. وقد روى مسلم في صحيحه، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي عَوَانَة الوضاح بن عبد الله اليشكري - زاد مسلم والنسائي: وأيوب بن عائد، - كلاهما عن بكير بن الأحنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، هكذا رواه وكيع وروح بن عباد عن أسامة بن زيد الليثي: حدثني الحسن بن مسلم بن يساف عن طاوس عن ابن عباس قال: فرض الله ورسوله ﷺ الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها، فكذلك يصلي في السفر. ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد، عن طاوس نفسه.

فهذا ثابت عن ابن عباس، رضي الله عنهما، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس، والله أعلم. لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر، رضي الله عنه، وإذا كان كذلك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكُفْرَانَ كَانُوا كَذِبًا عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ﴾ الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته؛ ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف، صدره بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. وهكذا قال جويبر، عن الضحاك في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قال: ذلك عند القتال، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ الآية: إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام، التقصير لا يحل، إلا أن تخاف من الذين كفروا أن يفتنوك عن الصلاة، فالتقصير ركعة. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات، ركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعاً، فهِمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم. روى ذلك ابن أبي حاتم. ورواه ابن جرير، عن مجاهد والسدي، وعن جابر وابن عمر، واختار ذلك أيضاً فإنه قال بعدما حكاها من الأقوال في ذلك: وهو الصواب. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا ابن أبي فديك، حدثنا ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به. فقد سمي صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن. وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء،

ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة. ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْزِجْ بَيْنَهُمْ مِمَّا رَكَعُوا مِنْ رَبِّكَمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَٰلِكُمْ كِتَابٌ لَّكَ يُتْلَىٰ لَعَلَّكُمْ أَتَقْوُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيُضِلُّوكُمْ عَنْ طَرَفِ أُمَّةٍ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضُمُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صُوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتزم الحرب فلا يقدر على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاء، وجابر، والحسن، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وحماد. وإليه ذهب طائوس والضحاك. وقد حكى أبو عاصم العبادي، عن محمد بن نصر المروزي؛ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة، توميء بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله. وقال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة. فعليه أراد ركعة واحدة، كما قاله أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخت المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه، يعني بالنية، رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل بن عيَّاش، عن شعيب بن دينار، عنه، والله أعلم. ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلها بعد الغروب ثم صلى بعدها المغرب ثم العشاء. وكما قال بعدها - يوم بني قريظة، حين جهز إليهم الجيش -: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فأدرتكم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق. وأخر آخرون منهم العصر، فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، ولم يُعْتَفَ رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين. وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة، وبيّنا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا بيّن في حديث أبي سعيد الخدري، الذي رواه الشافعي وأهل السنن، ولكن يشكل على هذا ما حكاه البخاري رحمه الله، في صحيحه، حيث قال:

«باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو»: قال الأوزاعي: إن كان تَهَيُّاً الفتح ولم يقدر على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدر على الإيماء أخرها الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين. فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير، ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدر على الصلاة، فلم نُصَلْ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا، قال أنس: وما يسرني بذلك الصلاة الدنيا وما فيها. انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم. ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم، ولا أحد من الصحابة، والله أعلم. وقال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق؛ لأن ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي. ومن نص على ذلك محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، والواقدي، ومحمد بن سعد كاتبه، وخليفة بن خياط وغيرهم. وقال البخاري وغيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى وما قدم إلا في خيبر، والله أعلم. والعجب - كل العجب - أن المُزَنِي، وأبا يوسف القاضي، وإبراهيم بن إسماعيل بن عُليّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها، عليه السلام، الصلاة يوم الخندق. وهذا غريب جداً، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب، والله أعلم.

فقروله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالاً وركباناً، مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها، ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد. وما أحسن ما استدلل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساء ذلك، وأما من استدلل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعده نفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويُرَدُّ عليه مثل قول مانعي الزكاة، الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أي: دعاؤه، سكن لنا، ومع هذا رُدُّ عليهم الصحابة وأبناؤا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقتلوا من منعها منهم. ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن هاشم، أنبأنا سيف، عن أبي رزق، عن أبي أيوب، عن علي، رضي الله عنه، قال: سألت قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا صَلَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسَّ عَلَيكُمْ جِجَاعٌ أَنْ تَقْعُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾. ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها. قال: فأنزل الله ﷻ بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَعِدُّ لِّلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف. وهذا سياق غريب جداً، ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزُرْقِي، واسمه زيد بن الصامت، رضي الله عنه، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي عياش قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتهم. ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. قال: فحضرت، فأمرهم النبي ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفتنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف. قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم. ثم رواه أحمد، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن منصور، به نحوه. وهكذا رواه أبو داود، عن سعيد بن منصور، عن جرير بن عبد الحميد، والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد، كلهم عن منصور، به. وهذا إسناد صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري حيث قال: حدثنا حَيْوَةَ بن شُرَيْح، حدثنا محمد بن حرب، عن الزُّبَيْدِي، عن الزُّهْرِي، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام الثانية فقام الذين سجدوا، وحرسوا إخوانهم، وأنت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة عن سليمان اليشكري: أنه سأل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة: أي يوم أنزل؟ أو: أي يوم هو؟ فقال جابر: انطلقنا نلتقى عَيْرِ قريش آتية من الشام، حتى إذا كنا بنخل، جاء رجل من القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. قال: «نعم»، قال: هل تخافني؟ قال: «لا». قال: فما يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك». قال: فسل السيف ثم تهدده وأوعده، ثم نادى بالترحل وأخذ السلاح، ثم نودي بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين والآخرين يحرسونهم، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ أربع ركعات، والقوم ركعتين ركعتين، فيومئذ أنزل الله ﷻ في إقصار الصلاة وأمر المؤمنين بأخذ السلاح. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سليمان بن قيس اليشكري، عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خَصَفَةَ، فجاء رجل منهم يقال له: «غورث بن الحارث» حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنعك مني؟» قال: «كن خير أخذ». قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: لا،

ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ. فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا بمكان أولئك الذين بإزاء عدوهم. وانصرف الذين بإزاء عدوهم فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين. تفرد به من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم، حدثنا المسعودي، عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تمام، إنما القصر واحدة عند القتال، بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصاف طائفة، وطائفة وجهها قبل العدو، فصلّى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا، وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلّى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ﷺ جلس وسلم، وسلم الذين خلفه، وسلم أولئك، فكانت لرسول الله ﷺ ركعتين، وللقوم ركعة ركعة، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه، وصف خلفه، فصلّى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا مقام هؤلاء، فصلّى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، ثم سلم. فكانت للنبى ﷺ ركعتين ولهم ركعة. ورواه النسائي من حديث شعبة، ولهذا الحديث طرق عن جابر، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسند. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ثُمَيْم بن حَمَاد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وقد روى هذا الحديث الجماعة في كتبهم من طريق معمر، به. ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْه في سرد طُرُقِهِ وَالْفَاظِهِ، وكذا ابن جرير، ولنحرره في كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله، وبه الثقة. وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَظَلٍّ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا جُدْرَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا اجتمعتم إليها لستموها بلا كلفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَمِينًا وَقُعُودًا وَعَنْ جُوبِكُمْ فَإِذَا أطمأننتم فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾ ﴿وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي آيَتِهِ الْقَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ بِالْمُوتِ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن ههنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَقْلُوبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [النوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهاياً عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَمِينًا وَقُعُودًا وَعَنْ جُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر أحوالكم. ثم قال: ﴿فَإِذَا أطمأننتم فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فإذا أطمأنتم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فاتموا وأقيموا كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وسجودها وركوعها، وجميع شؤونها. وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضا. وكذا روي عن مجاهد، وسالم بن عبد الله، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، والحسن، ومقاتل، والسدي، وعطية العوفي. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾ قال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وقال زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾ قال: متجماً، كلما مضى نجم، جاءتهم يعني: كلما مضى وقت جاء وقت. وقوله: ﴿وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي آيَتِهِ الْقَوْمَ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوه، واقعدوا لهم كل مرصد: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ بِالْمُوتِ كَمَا تَأْمُونُونَ﴾ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال: ﴿إِنْ يَسْتَسْكِمُ فَرِحَ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَتَرَحَّ بِسَلَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم ولياهم سواء فيما يصيبكم ولياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلانها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا أَي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْمُتَلَابِئِينَ حَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَحْجِدُوا عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَيْمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَمْ يَرِضْ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْعَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأَتْهُ هَتَوَلَاءُ حِذْلٌ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِدُلْ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه. وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان، عليه السلام، له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين من رواية هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة؛ أن رسول الله ﷺ سمع جليلة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون الحن يحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أوليذرها». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد، عن عبد الله بن رافع، عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد دَرَسَتْ، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذها فاقتما، ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليخلل كل واحد منكما صاحبه». وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد، به. وزاد: «إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليّ فيه». وقد روى ابن مَرْدُويه، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: إن نقرأ من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرت درع لأحدهم، فأظن بها رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمته بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فآلقها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني عَيَّبْتُ الدرع والقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء. وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذُر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه. فإنه إلا يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْمُتَلَابِئِينَ حَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ يقول: احكم بما أنزل الله إليك في الكتاب، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ ولا تجحدوا عن الذين يختلون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خَوَافًا أَيْمًا ﴿١٠٧﴾. ثم قال للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَمْ يَرِضْ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْعَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ هَتَأَتْهُ هَتَوَلَاءُ حِذْلٌ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِدُلْ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٠٩﴾ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ نُرِّسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدُ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾، يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكَيْبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا يُرْوِ بِهِ رُءُوسًا يَدْرِءُ، رُبَّمَا قَدَّ أَحْتَمَلَ بَهْتِنًا وَإِنَّمَا نُؤَيِّنَا ﴿١٠٧﴾﴾ يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق. وهذا سياق غريب، وكذا ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربة.

وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة، فقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية من جامعه، وابن جرير في تفسيره: حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب أبو مسلم الحراني، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، حدثنا محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عَمَر بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان، رضي الله عنه، قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير ومُبَشَّر، وكان يُشِير رجلاً منافقاً، يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث؟ - أو كما قال الرجل - وقالوا: ابن الأبيرق قالها. قالوا: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من السام من الدُّزْمَك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من

الدرمك فحطه في مشربة له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فَعُدِّي عليه من تحت البيت، فَتَقَبَّت المشربة وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدِّي علينا في ليلتنا هذه. فَتَقَبَّت مشربتنا ودُهَب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتجسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أُبَيْرُق استوفدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أُبَيْرُق قالوا: ونحن نسأل في الدار -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً مثله صلاح وإسلام. فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها. فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فَتَقَبَّوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه. فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: «سأمرُ في ذلك». فلما سمع بنو أُبَيْرُق أتوا رجلاً منهم يقال له: أُسَيْر بن عمرو، فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة؟» قال: فرجعت ولويدت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ حَاصِمًا ﴿١١٥﴾﴾ بني أُبَيْرُق ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَيِمًا ﴿١١٦﴾﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾: ﴿رَحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَن يَكْتِِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْتِيبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. إلى قوله: ﴿وَإِنَّمَا نُيَّبْنَا﴾ قولهم للبيد. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ سَوْفٌ يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فلما نزل القرآن أتني رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة. فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً، قد عشا أو عسا - الشك من أبي عيسى - في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بُشَيْرٌ بالمشركين، فنزل على سُلَافَةَ بنت سعد بن سُمَيَّة، فنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٨﴾﴾ فلما نزل على سُلَافَةَ رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رَحْلَهُ فوضعت على رأسها، ثم خرجت به فَرَمَتْ به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شِغْرَ حسان؟ ما كنت تأتيني بخير. لفظ الترمذي، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. وروى يونس بن بُكَيْرٍ وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عَمْرٍ بن قتادة مرسلًا، لم يذكروا فيه عن أبيه عن جده. ورواه ابن أبي حاتم عن هاشم بن القاسم الحراني، عن محمد بن سلمة، به ببعضه. ورواه ابن المنذر في تفسيره: حدثنا محمد بن إسماعيل - يعني الصائغ - حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة - فذكره بطوله. ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة، به. ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إسرائيل. وقد روى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري هذا الحديث في كتابه «المستدرک» عن أبي العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بُكَيْرٍ، عن محمد بن إسحاق - بمعناه ثم منه، وفيه الشعر، ثم قال: وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقوله: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ لئلا ينكروا معَهُمْ إِذْ يَبْيُتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها لأنه مطلق على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يَبْيُتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمَكُونَ حَاطِمًا﴾ تهديد لهم ووعيد. ثم قال: ﴿هَاتِئِنَّ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُهُ عَنَّمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلِ اللَّهَ عَنَّمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١١٩﴾﴾ أي: هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحاكم الذين يحكمون بالظاهر - وهم مُتَعَبِدُونَ بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله ﷻ، الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم؟ أي: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلا، ولهذا قال: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهُ بِهِ بَرِيكًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَا فُضْلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمَّتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَتِ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

يخبر، تعالى، عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن شعبة، عن عاصم، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً - فقال عبد الله: ما أتاكم الله خيراً مما أتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٣٥] وقال: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾. وقال أيضاً: حدثني يعقوب، حدثنا هُثَيْنٌ، حدثنا ابن عَوْنٍ، عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فُجرت فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله بن مغفل: ما لها؟ لها النار! فانصرفت وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾. قال: فمسحت عينها، ثم مضت. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن عثمان بن المغيرة قال: سمعت علي بن ربيعة من بني أسد، يحدث عن أسماء - أو ابن أسماء من بني فزارة - قال: قال علي، رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه. وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ و﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية. وقد تكلمنا على هذا الحديث، وعزيته إلى من رواه من أصحاب السنن، وذكرنا ما في سنده من مقال في مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. وقد تقدم بعض ذلك في سورة آل عمران أيضاً. وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من وجه آخر عن علي فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا داود بن مهران الدباج، حدثنا عمر بن يزيد، عن أبي إسحاق، عن عبد خير، عن علي قال: سمعت أبا بكر - هو الصديق - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد أذنب فقام فتوضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى واستغفر من ذنبه، إلا كان حقا على الله أن يغفر له؛ لأنه يقول: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾. ثم رواه من طريق أبان بن أبي عياش، عن أبي إسحاق الشيبعي، عن الحارث، عن علي، عن الصديق - بنحوه. وهذا إسناد لا يصح.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيْم حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا موسى بن مروان الرُّفَيْي، حدثنا مُبَشَّر بن إسماعيل الحلبي، عن تمام بن نَجِيح، حدثني كعب بن دُهل الأزدي قال: سمعت أبا الدرداء يحدث قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله، وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع، ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه، وإنه قام فترك نعليه. قال أبو الدرداء: فأخذ ركوة من ماء فاتبته، فمضى ساعة، ثم رجع ولم يقض حاجته، فقال: «إنه أتاني آت من ربي فقال: إنه: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ فأردت أن أبشر أصحابي». قال أبو الدرداء: وكانت قد شقت على الناس الآية التي قبلها: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا يُجَرِّ بِهٖ﴾ فقلت: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر ربه غفر له؟ قال: «نعم» قلت الثانية، قال: «نعم»، قلت الثالثة، قال: «نعم»، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر الله غفر له على رغم أنف عُومِر». قال: فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه. هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق، وفي إسناده ضعف. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْمِهَا لَا يَحْمِلُ مَعَهَا شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٨] يعني أنه لا يجني أحد على أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهُ بِهِ بَرِيكًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾﴾، يعني: كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم

الفيح ذلك الرجل الصالح، وهو ليبيد بن سهل، كما تقدم في الحديث، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ. ثم هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف مثل صفتهم، وارتكب مثل خطيتهم، فعليه مثل عقوبتهم. وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال الإمام ابن أبي حاتم: أنبأنا هاشم بن القاسم الحراني فيما كتب إلي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان - وذكر قصة بني أبيرق، فأنزل الله: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: أسير بن عروة وأصحابه. يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولما وقفتا بين النعمان في كونه اتهمهم، وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوهم إلى رسول الله ﷺ؛ ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسوله ﷺ. ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: من قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ. مَنْ نُشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الفصص: ٨٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا حَرَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ عِبْرَةَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ هَٰمْزٌ وَنَسَاءٌ مُصَبَّرًا ﴿١١٥﴾﴾. يقول تعالى: ﴿لَا حَرَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ يعني: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: إلا نجوى من قال ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن حُثَيْس قال: دخلنا على سفيان الثوري نعوده - وأومأ إلى دار العطارين - فدخل عليه سعيد بن حسان المخزومي فقال له سفيان الثوري: الحديث الذي كنت حدثني به عن أم صالح اردؤه علي. فقال: حدثني أم صالح، عن صفية بنت شيبة، عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له ما خلا أمراً بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكر الله ﷻ»، قال سفيان: فناشدته، فقال محمد بن يزيد: ما أشد هذا الحديث؟ فقال سفيان: وما شدة هذا الحديث؟ إنما جاءت به امرأة عن امرأة، هذا في كتاب الله الذي أرسل به نبيكم ﷺ أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿لَا حَرَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرِّجْسُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿١٦١﴾﴾ [النبا: ٣٨] فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿وَالصَّابِرِينَ ﴿١﴾ إِنْ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَأَسْرَأُ بِالْحَقِّ وَوَأَسْرَأُ بِالصَّابِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١، ٣]، فهو هذا بعينه. وقد روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن حُثَيْس، عن سعيد بن حسان، به. ولم يذكرنا أقوال الثوري إلى آخرها، ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن حُثَيْس. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا صالح بن كيسان، حدثنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب: أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره، أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينهي خيراً - أو يقول خيراً» وقالت: لم أسمعها يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ. وقد رواه الجماعة، سوى ابن ماجه، من طرق، عن الزهري، به نحوه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة».

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث أبي معاوية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، حدثنا أبي، عن حميد، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى. قال: «تسعى في صلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتُقارب بينهم إذا تباعدوا» ثم قال البزار: وعبد الرحمن بن عبد الله العُمري لَين، وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله ﷻ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً

واسعاً. وقوله: ﴿وَمَنْ يَسْأَلِكِ الرِّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿وَوَسَّعَ عَدُوَّ السَّبِيلِ الْكُفْرَيْنِ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريعاً لهم وتعظيماً لنبيهم ﷺ. وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب «أحاديث الأصول»، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي، رحمه الله، في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحزّم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك. ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿قَوْلِهِ مَا تَوَلَّوْا وَنُصَلِّوْهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له - استدراجاً له - كما قال تعالى: ﴿فَذَرْقِ وَمَنْ يَكُذِّبْ يَهْدِكُمُ اللَّهُ فَمَا لَ كَفِرِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَنَذَرْنَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَحْمَرُوا اللَّيْنَ طَلَبُوا وَادْرَأَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١٢١] من دون الله فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَنِيمِ [١٢٢]. [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿وَرَدَّ الْمُجْرِمُونَ نَارًا فَطَقُوا أَنفُسَهُمْ مَوَاقِفُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ صَلَٰ خَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١٢٣] إن يدعوت من دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا تَمْرِيدًا [١٢٤] لَمَعَنَ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدُّنَ مِنْ عِبَادِكُمْ رَبِّيبًا مَقْرُوصًا [١٢٥] وَلَا جِنَّةً وَلَا يَمِينًا وَلَا مَرْثَةً وَلَا مَرْثَةً قَلْبِيكُمْ مَا ذَاكَ الْأَنْصَارِ وَالْمَرْثَةُ قَلْبِيكُمْ خَلْفَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشُّمُطَانَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا [١٢٦] يَعِدُّهُمْ وَيَمِينُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشُّمُطَانُ إِلَّا غُرْبًا [١٢٧] أُولَٰئِكَ مَاؤُنْهَرُ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عِنَّا حِصًّا [١٢٨] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَنِبُ غَنَّتَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا [١٢٩].

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الآية: النساء: ٤٨]، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة. وقد روى الترمذي حديث تُوَيز بن أبي فاختة سعيد بن علقمة، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية، ثم قال: حسن غريب. وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ صَلَٰ خَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبُعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن غنبلان، أنبأنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسن بن واقد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾ قال: مع كل صنم جنية. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن سلمة الباهلي، عن عبد العزيز بن محمد، عن هشام - يعني ابن عروة - عن أبيه، عن عائشة: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾ قالت: أوثانا. وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وأبي مالك، والسدي، ومقاتل بن حيان نحو ذلك. وقال جُوَيز عن الضحاك في قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾ قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما تعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوها أرباباً وصوروهن صور الجوارى، فحكموها وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يُشبهن بنات الله الذي نعبدن، يعنون الملائكة. وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى: ﴿أَمْ رَبِّيمُ اللَّاتُ وَالْعَزَىٰ [١٢٠] وَمَنْوَةُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ [١٢١] أَلَمْ يَكُنِ الْأَنْفُسُ [١٢٢] عَلَيْكَ إِذَا قَسَمْتَ بِرَبِّكِ [١٢٣] إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيحَاتُ مَا تَمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ [١٢٤]﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِيبًا شَهَدَتْهُمْ وَرُسُلُونَ [١٢٥]﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّلُوا بِبَيْنِهِمْ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجِنَّةَ إِتْمَانًا كَلْبَصُونَ [١٢٦] سَخِيبًا اللَّهُ عَنَّا يَعْمُونَ [١٢٧]﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩]. وقال علي بن أبي طلحة والضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾ قال: يعني موتى. وقال مبارك - يعني ابن فضالة - عن الحسن: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً﴾، قال الحسن: الإنثاء كل شيء ميت ليس فيه روح، إما خشبة يابسة وإما حجر يابس. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهو غريب.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا تَمْرِيدًا﴾ أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَقْهَدْ إِيكُمْ بَيْنَهُ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشُّمُطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [١٢٠]﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْوَحْيَ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ

مُؤْمِنُونَ ﴿سبا: ٤١﴾. وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره. وقال: ﴿لَا تُحَدِّثَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيًّا مَفْرُوضًا﴾ أي: مُعَيَّنًا مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. ﴿وَلَا ضَلَمْتُمْ﴾ أي: عن الحق ﴿وَلَا مَيَّبْتُمْ﴾ أي: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا مَرَنْتُمْ فَلَئِنَّكُمْ إِذَا كَانَ الْإِقْتِرَاءُ قَالَ قَتَادَةُ السَّدِيّ وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي تَشْقِيْقَهَا، وَجَعَلَهَا سَمَةً وَعِلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ. ﴿وَلَا مَرَنْتُمْ فَلَيَعْرِزَنَّ خَلَقَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خصاء الدواب. وكذا روي عن ابن عمر، وأنس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وأبي عياض، وأبي صالح، وقَتَادَةُ، والثوري. وقد وَرَدَ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ عَنْ ذَلِكَ. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: يعني بذلك الوشم. وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: «لعن الله من فعل ذلك». وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتملجات للحسن المغيرات خلق الله، ﴿ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَلْعَنُ مِنْ لَعْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، ﷻ، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿وَمَا أَلَانَكُمْ الرَّسُولَ فَحُذِرُوهُ وَمَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْهُ فَأَنَّهُمْ﴾ [الحشر: ٧]. وقال ابن عباس في رواية عنه، ومجاهد، وعكرمة أيضاً وإبراهيم النخعي، والحسن، وقَتَادَةُ، والحكم، والسدي، والضحاك، وعطاء الخراساني في قوله: ﴿وَلَا مَرَنْتُمْ فَلَئِنَّكُمْ خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني: دين الله، ﷻ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلرِّبِّ حَنِيفًا فَنَظَرَتِ اللَّهُ إِلَيْكَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا بَدِيلَ لِإِلَاقِي اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً، أي: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، ويُنصِّرانه، ويُمجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء، هل يُحْسِنُون فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أحللت لهم».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفاتنها. وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ [١٢٣]. وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمينهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافتري في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَكَذَّبَكُمْ وَعَدَّ لِقَائِي وَعَدْدُهُمْ فَلَنفَعَنَّهُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُهُمْ فَاتَّبَعْنَاهُ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ فَلَمَّا تَوَلَّوْنَا أَنفُسَنَا مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَقْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢٢]. وقوله: أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿مَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا حَيْصًا﴾ أي: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص ولا مناص. ثم ذكر حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْجِيهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يصفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُعْزِرْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٢٤] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظَلُمُونَ فِيهَا﴾ [١٢٥] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ لِبَرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [١٢٦] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [١٢٧].

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابتنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُعْزِرْ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية. فأفجع الله حجة المسلمين على من ناوهم من أهل الأديان. وكذا روي عن السدي، ومسروق، والضحاك وأبي صالح، وغيرهم، وكذا روى العوفي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: تخاضم أهل الأديان فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء. وقال أهل الإنجيل مثل ذلك. وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا

نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ، وَبَيْنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَمْرُتُمْ وَأَمَرْنَا أَنْ نُوْمِنَ بِكُتَابِكُمْ وَنَعْمَلْ بِكُتَابِنَا. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، وَخَيْرٌ بَيْنَ الْأَيَادِي فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَأَتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَتِ الْعَرَبُ: لَنْ نُبْعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١]، وَقَالُوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحْلِي وَلا بِالتَّمْنِي، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمَجْرَدِ دَعْوَاهُ، وَلا كُلُّ مَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْمُحِقُّ﴾ سَمِعَ قَوْلَهُ بِمَجْرَدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ وَلا لَهُمُ النِّجَاةُ بِمَجْرَدِ التَّمْنِي، بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَمْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَمْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي زَهْرٍ قَالَ: أَخْبَرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ جَزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تُنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تُحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّوَاءُ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُحْزَنُ بِهِ». وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ خَلْفِ بْنِ خَلِيفَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي يَعْلَى، عَنْ أَبِي حَيْثَمَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ سَعِيدٍ، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، عَنْ زِيَادِ الْجِصَّاصِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ فِي الدُّنْيَا». وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودِيَةَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ هُشَيْمٍ بْنُ جُهَيْمَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، حَدَّثَنَا زِيَادُ الْجِصَّاصِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو: انظُرُوا الْمَكَانَ الَّذِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَصْلُوبًا وَلا تَمْرُنَّ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَهَا الْغُلَامُ، فإِذَا ابْنُ عَمْرِو يَنْظُرُ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ثَلَاثًا، أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا صَوَامًا قَوَامًا وَصَلَاً لِلرَّحْمِ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو مَعَ مِثَالِهِ مَا أَصَبْتَ إِلَّا يَعْذِبُكَ اللَّهُ بَعْدَهَا. قَالَ: ثُمَّ التَفْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا فِي الدُّنْيَا يَجْزَى بِهِ». وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَطَاءٍ، بِهِ مَخْتَصِرًا. وَقَدْ قَالَ فِي مُسْنَدِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُسْتَمِرِّ الْعُرُوفِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلِيمٍ بْنُ حَيَّانَ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي حَيَّانَ بْنِ بَسْطَامٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عَمْرِو، فَمَرَّ بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ مَصْلُوبٌ، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا حَبِيبٍ، سَمِعْتُ أَبَاكَ - يَعْنِي الزُّبَيْرِي - يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى». ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يَرُودُ عَنِ الزُّبَيْرِيِّ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودِيَةَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ كَامِلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدِ الْعَوْفِيُّ، حَدَّثَنَا رُوحُ بْنُ عَبَّادَةَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، حَدَّثَنِي مَوْلَى ابْنِ سَبَّاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرِو يَحْدُثُ عَنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلْ أَقْرَنَكَ آيَةٌ نَزَلَتْ عَلَيَّ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَقْرَأْنِيهَا فَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ انْقِضَاءً فِي ظَهْرِي حَتَّى تَمَطَّاتٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَالِكٌ يَا أَبَا بَكْرٍ؟» قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ، وَإِنَّا لَمَجْرُؤُونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ الْمُؤْمِنُونَ فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ، وَلَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَا الْآخَرُونَ فَيَجْمَعُ لَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَوْسَى، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، عَنْ رُوحِ بْنِ عَبَّادَةَ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَمَوْسَى بْنُ عُبَيْدَةَ يَضْعَفُ، وَمَوْلَى ابْنِ سَبَّاحٍ مَجْهُولٌ.

وقال ابن جرير: حدثنا الغلام، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن أبي رباح قال: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَاءَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ الْمَصَابِتُ فِي الدُّنْيَا».

طَرِيقَ أُخْرَى عَنِ الصَّدِيقِ: قَالَ ابْنُ مَرْثُودِيَةَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ الْعَسْكَرِيِّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَامِرِ السَّعْدِيِّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ يَهْرَانَ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَصَابِتُ وَالْأَمْرَاضُ وَالْأَحْزَانُ فِي الدُّنْيَا جِزَاءٌ».

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أبي زياد وأحمد بن منصور قالا: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثي، حدثنا محمد بن زيد بن قُنْفُذ، عن عائشة، عن أبي بكر قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، كل ما نعمل نؤاخذ به؟ فقال: «يا أبا بكر، ليس يصيبك كذا وكذا؟ فهو كفارة».

حديث آخر: قال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، أن يزيد بن أبي يزيد حدثه، عن عبيد بن عمير، عن عائشة: أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فقال: إنا لنجزي بكل عمل؟ هلكننا إذاً. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم، يجزي به المؤمن في الدنيا، في نفسه، في جسده، فيما يؤذيه».

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن بشير، حدثنا هُشَيْم، عن أبي عامر، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن. فقال: «ما هي يا عائشة؟» قلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فقال: «هو ما يصيب العبد المؤمن حتى التَّكْبَةُ يُنْكِبُهَا». ورواه ابن جرير من حديث هشيم، به. ورواه أبو داود، من حديث أبي عامر صالح بن رستم الخزاز، به.

طريق أخرى: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فقالت: ما سألتني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسول الله ﷺ، سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، هذه مبايعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والتَّكْبَةُ والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمه فيفزع لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التُّبْرُ الأحمر من الكير».

طريق أخرى: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو القاسم، حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن زيد بن المهاجر، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ قال: «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في الفَيْظ عند الموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالْحَزَنِ لِيُكْفِرَها عنه».

حديث آخر: قال سعيد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمر بن عبد الرحمن بن مُخَيَّبِين، سمع محمد بن قيس بن مَخْرَمَةَ، يخبر أن أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يُشَاكها، والتَّكْبَةُ يُنْكِبُهَا». وهكذا رواه أحمد، عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. ورواه ابن مَرْدُويه من حديث روح ومعتمر كلاهما، عن إبراهيم بن يزيد، عن عبد الله بن إبراهيم، سمعت أبا هريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله، ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: «أما والذي نفسي بيده إنها لكما نزلت، ولكن أبشروا وقاربوا وسَدُّوا؛ فإنه لا يصيب أحداً منكم في الدنيا إلا كَفَّرَ الله بها خطيئته، حتى الشوكة يُشَاكها أحدكم في قدمه». وقال عطاء بن يسار، عن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى اللهم يُهَمَّهُ، إلا كَفَّرَ به من سيئاته» أخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سعد بن إسحاق، حدثني زينب بنت كعب بن عُجْرَةَ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: «أرايت هذه الأمراض التي تصيبنا؟ ما لنا بها؟» قال: «كفارات». قال أبي: وإن قلت؟ قال: «وإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوُعْكَ حتى يموت، في ألا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد في سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره، حتى مات، رضي الله عنه. تفرد به أحمد.

حديث آخر: روى ابن مردويه من طريق حسين بن واقد، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾؟ قال: «نعم، ومن يعمل حسنة يُجْزَى بها عشرًا. فهلك من غلب واحدته عشرًا». وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفْرُ﴾ [سبا: ١٧]. وهكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير: أنهما فسرا السوء ههنا بالشرك أيضاً. وقوله: ﴿وَلَا يَحْدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. رواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار

ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَأْوَتْكَ يَدَاكَ الْبِئْسَ مَا تَكُونُ وَلَا يَتْلَمَكُونَ نَبِيًّا﴾ (١٢٣) لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا - وهو الأجود له - وإما في الآخرة - والعباد بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة - شرح في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكراً منهم وإناثهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو: النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقيير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ: أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِرَبِّهِ، ﷻ، فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا﴾ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون متبعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمطابفة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المطابفة كان ضالاً جاهلاً. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين: ﴿الَّذِينَ نَقَبَلْتُمْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْحَنُوفِ وَعَدَّ الْوَسِيْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحزاب: ١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُدْعَىٰ لِلدِّينِ الْكَيِّمِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ كَانُوا وَاللَّهُ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رُوحَ إِلِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] و ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد. وقوله: ﴿وَأَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلقة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ رُوحٌ يَكْفُرُ فَأَتَيْنَاهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الآية [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة شاذان] لَأَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَقَدْ نَدَىٰ إِلِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا تَنبَأُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا فِي الْآخِرَةِ لِيَنَّ لِلصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢]. وقال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى الصبح بهم: فقرأ: ﴿وَأَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. فقال رجل من القوم: لقد قرأت عن أم إبراهيم. وقد ذكر ابن جرير في تفسيره، عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جذب، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل - وقال بعضهم: من أهل مصر - ليمتار طعاماً لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قرب من أهله مَرَّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرأرتي من هذا الرمل، لثلا أغمم أهلي بروجعي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أنني أتيتهم بما يحبون. ففعل ذلك، فتحول ما في غرأرتي من الرمل دقيقاً، فلما صار إلى منزله نام وأهله ففتحوا الغرأرتي، فوجدوا دقيقاً فعمجنوا وخبزوا منه فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جثت به من عند خليلك فقال: نعم، هو من خليلي الله. فسماه الله بذلك خليلاً. وفي صحة هذا وقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يُصدَّق ولا يكذَّب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه، ﷻ، له، لما قام له من الطاعة التي يوجبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». وجاء من طريق جُنْدُب بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وقال أبو بكر بن مرزويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة، حدثنا عبيد الله الحنفي، حدثنا زُمعة بن صالح، عن سلمة بن وهزام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، وإذا بعضهم يقول: عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله! وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً! وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته! وقال آخر: آدم اصطفاه الله! فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وتعجبكم أن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وموسى كلمه، وعيسى روحه وكلمته، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك

ألا وإني حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك جِلْق الجنة، فيفتح الله فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها. وقال قتادة، وعكرمة، عن ابن عباس أنه قال: أتعجبون من أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه الحاكم في مستدرکه وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. وكذا روي عن أنس بن مالك، وغير واحد من الصحابة والتابعين، والأئمة من السلف والخلف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا محمد - يعني ابن سعيد بن سابق - حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن عاصم، عن أبي راشد، عن عُثَيْد بن عُمَيْر قال: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه، فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً، فقال: يا عبد الله، ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتها بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره أن الله قد اتخذ خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته، ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فيم اتخذني الله خليلاً؟ قال: إنك تعطي الناس ولا تسألهم. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن خالد السلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوَجَل، حتى إن كان خفقاناً قلبه لَيَسْمَع من بعيد، كما يسمع خفقان الطير في الهواء. وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ: أنه كان يسمع لصدره أَرِيْرُ كَأَرِيْرِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبِكَاءِ. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبده وخلقه، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله: ﴿وَكَاٰتُ اللَّهِ يَكْلِيْ كُلِّ شَيْءٍ حَيْطَلًا﴾ أي: علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراهي للنظر وما توارى.

﴿وَسَتَفْتٰنُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُكُمْ فِيْهِنَّ وَمَا يُنٰلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰبِ فِي يَسْنَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُيِّبَ لَهُنَّ وَرَغَبُوْنَ أَنْ تَنكِحُوْنَهُنَّ وَالسُّنْمٰنِيْنَ مِنْ أَوْلَادِنَ وَأَنْ تَقُوْمُوْا لِيَتَنَسَّيْنَ يَأْلُقِسُوْا وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ حَرْفٍ فَلَاَ اللَّهُ كَانَ بِهِ عَلِيْمًا﴾.

قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا هشام بن عروة، أخبرني أبي، عن عائشة: ﴿وَسَتَفْتٰنُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُكُمْ فِيْهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَغَبُوْنَ أَنْ تَنكِحُوْنَهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده البتيمة، هو وليها ووارثها قد شَرِكته في ماله، حتى في العَدْق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية. وكذلك رواه مسلم، عن أبي كُرَيْب، وعن أبي بكر بن أبي شيبه، كلاهما عن أبي أسامة. وقال ابن أبي حاتم: قرأت على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أخبرني عروة بن الزبير، قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿وَسَتَفْتٰنُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُكُمْ فِيْهِنَّ وَمَا يُنٰلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰبِ﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتِيْنَ فَانكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٣]. وبهذا الإسناد، عن عائشة قالت: وقول الله ﷻ: ﴿وَرَغَبُوْنَ أَنْ تَنكِحُوْنَهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن بيتته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن. وأصله ثابت في الصحيحين، من طريق يونس بن يزيد الأيلي، به. والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمر الله ﷻ أن يمهرا أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله ﷻ. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة ليدَامَتِها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي يَسْنَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُيِّبَ لَهُنَّ وَرَغَبُوْنَ أَنْ تَنكِحُوْنَهُنَّ﴾ الآية، فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده البتيمة، فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك بها لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوّجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فَحَرَّمَ اللهُ ذلك ونهى عنه. وقال في قوله: ﴿وَالسُّنْمٰنِيْنَ مِنْ أَوْلَادِنَ﴾: كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُيِّبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ [النساء: ١١] صغيراً أو كبيراً. وكذا قال سعيد بن جبير وغيره، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَقُوْمُوْا لِيَتَنَسَّيْنَ يَأْلُقِسُوْا﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات جمال ولا مال فانكحها واستأثرت بها. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ حَرْفٍ فَلَاَ﴾

اللَّهِ كَانَ يَوْمَ عَلِيٍّ تَهِيَّبًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ عَالَمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجِزَاءِ وَأَتَمَّهُ.

﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا قَدِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَكْمِلُ الْكَلِمَةَ فَكْتَرُوهَا كَالْمَلْمُوعَةِ وَإِنْ ضَلُّوا فَاتَّخَذُوا اللَّهَ كَأَنَّهُمْ عَفْوُونَ رَجِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَأْتِنِ اللَّهُ كَلِمًا مِّنْ سَمْعِيٍّ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً عن حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها. فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن يفر عنها، أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾. ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: من الفراق. وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي الصلح عن المشاحة خير من الفراق؛ ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وترك يومها لعائشة فقَبِلَ ذلك منها وأبقاها على ذلك.

ذکر الرواية بذلك:

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليمان بن معاذ، عن سَمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَطْلُقْنِي وَاجْعَلْ لِي يَوْمِي لِعَائِشَةَ. ففعل، ونزلت هذه الآية؛ ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحنا عليه من شيء فهو جائز. ورواه الترمذي، عن محمد بن المثنى، عن أبي داود الطيالسي، به. وقال: حسن غريب. وقال الشافعي: أخبرنا مسلم، عن ابن جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَفَّى عَنْ تِسْعِ نِسَاءٍ، وَكَانَ يَقْسِمُ لثَمَانَ. وَفِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ غَزْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا كَبُرَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ وَهَبْتُ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ لَهَا بِيَوْمِ سَوْدَةَ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، نَحْوَهُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَبَانَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزُّنَادِ، عَنْ هِشَامِ، عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ قَالَ: أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَوْدَةَ وَأَشْبَاهِهَا: ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾، وَذَلِكَ أَنَّ سَوْدَةَ كَانَتْ أُمَّرَأَةً قَدْ أَسْتَنْتُ، فَفَزَعَتْ أَنْ يَفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَضُنْتُ بِمَكَانِهَا مِنْهُ، وَعَرَفْتُ مِنْ حُبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ وَمَنْزِلَتَهَا مِنْهُ، فَوَهَبْتُ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ: عَنْ ابْنِ أَبِي الزُّنَادِ، مُوَصَّوْلًا. وَهَذِهِ الطَّرِيقُ رَوَاهَا الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ الْفَقِيهَ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزُّنَادِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا قَالَتْ لَه: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَفْضَلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مَكْتَبِهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ أُمَّرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيئٍ، حَتَّى يَبْلُغَ إِلَيَّ مِنْ هَوِيومِهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا، وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ - حِينَ أَسْتَنْتُ وَفَرَّقَتْ أَنْ يَفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَوْمِي هَذَا لِعَائِشَةَ. فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ مَزْدُؤِيهٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَلَالٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزُّنَادِ، بِهِ نَحْوَهُ. وَمِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ الدَّرَاؤِزِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، بِنَحْوِهِ مُخْتَصِرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدُّغُولِيُّ فِي أَوَّلِ مَعْجَمِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامُ الدُّسْتَوَائِيُّ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةٍ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ بِطَلْقِهَا، فَلَمَّا أَنَّهَا جَلَسَتْ لَه عَلَى طَرِيقِ عَائِشَةَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ لَه: أَنْشِدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ كَلَامَهُ وَاصْطَفَاكَ عَلَى خَلْقِهِ لَمَّا رَاجَعْتَنِي، فَإِنِّي قَدْ كَبُرْتُ وَلَا حَاجَةَ لِي فِي الرِّجَالِ، لَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ مَعِ نِسَائِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَرَاغَهَا فَقَالَتْ: إِنِّي جَعَلْتُ يَوْمِي وَلِيَّتِي لِحَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَهَذَا غَرِيبٌ مُرْسَلٌ. وَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِقَاتٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ: ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ قَالَتْ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ، لَيْسَ بِمُسْتَكْتَرٍ مِنْهَا، يُرِيدُ أَنْ يَفَارِقَهَا، فَتَقُولُ: أَجْعَلْكَ مِنْ شَأْنِي فِي حُلِّ. فَتَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ: ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَيْتِلِهَا شُؤْرًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قَالَتْ: هَذَا فِي الْمَرْأَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ، فَلَعَلَّه أَلَا يَكُونُ يَسْتَكْتَرُ مِنْهَا، وَلَا يَكُونُ لَهَا وَلَدٌ، وَلَهَا صَحْبَةٌ، فَتَقُولُ: لَا تَطْلُقْنِي وَأَنْتِ فِي حُلِّ مِنْ شَأْنِي. حَدَّثَنِي الْمِثْنِيُّ، حَدَّثَنَا حِجَابُ بْنُ مَنِهَالٍ،

حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام، عن عروة، عن عائشة في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ حَافَتَ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، قالت: هو الرجل يكون له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي ديمية، وهو لا يستكثر منها، فتقول: لا تطلقني، وأنت في حل من شأني. وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، من غير وجه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله الحمد والمنة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد وابن كعب قالوا: حدثنا جرير، عن أشعث، عن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر، رضي الله عنه، فسأله عن آية، فكَرِهَ ذلك وضربه بالدرة، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ حَافَتَ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ فقال: عن مثل هذا فسلوا. ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل، قد خلا من سنهها، فيتزوج المرأة الشابة يلتصق ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهيثجاني، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا أبو الأحوص، عن سِمَاك بن حرب، عن خالد بن عَزْرَةَ قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسأله عن قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ حَافَتَ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ قال علي: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عيناه عنها من دامت، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذوها، فتركه فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج. وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن حماد بن سلمة وأبي الأحوص. ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل أربعتهم عن سِمَاك، به. وكذا فسرها ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد بن جَبْر، والشَّعْبِيُّ، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وعطية العوفي ومكحول، والحكم بن عتيبة والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم في ذلك خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم. وقال الشافعي: أنبأنا ابن عيينة، عن الزهري، عن ابن المسيب: أن ابنة محمد بن مسلمة كانت ما بدا لك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ حَافَتَ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية. وقد رواه الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار بأطول من هذا السياق. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المُرْزِي، أنبأنا علي بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو اليمان، أخبرني شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السُّنَّةَ في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز المرأة وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ حَافَتَ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرأة إذا نشز عن امرأته وأثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه، فإن استقرت عنده على ذلك، وكرهت أن يطلقها، فلا حرج عليه فيما أثر عليها من ذلك، فإن لم يعرض عليها الطلاق، وصالحها على أن يعطيها من ماله ما ترضاه وتقر عنده على الأثرة في القسم من ماله ونفسه، صلح له ذلك، وجاز صلحها عليه، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وقد ذكر لي أن رافع بن خَدِيج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة، وأثر عليها الشابة، فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة أخرى، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق فقال لها: ما شئت، إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقرت على ما تَرْتِي من الأثرة، وإن شئت فارتك، فقالت: لا، بل أستقر على الأثرة. فأمسكها على ذلك، فكان ذلك صلحهما، ولم ير رافع عليه إثمًا حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما أثر به عليها. وهذا رواه بتامه عبد الرحمن بن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، فذكره بطوله، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني التخيير، أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفرق، خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها. والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زَمْعَةَ على أن تركت يومها لعائشة، رضي الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نساته، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعيتها ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولما كان الوفاق أحب إلى الله ﷻ من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، بل الطلاق بغيبض إليه، سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه جميعاً، عن كثير بن عبيد، عن محمد بن خالد، عن مُعَرِّف بن واصل، عن محارب بن دثار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس، عن مُعَرِّف، عن محارب قال: قال رسول الله ﷺ: «فذكر معناه مرسلًا. وقوله: ﴿وَإِنْ تَحَسَّبْتُمْ أَنْ لَا تَكُنَّ أُمَّاتٌ فَارْتَدُّوا إِلَى اللَّهِ كَمَا كُنْتُمْ تَمُوتُونَ حَيًّا﴾ أي: وإن تتجشموا مشقة الصبر على من

تكرهون منهن، وتقسما لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزئكم على ذلك أوفر الجزاء. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ في عائشة. يعني: أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب. لفظ أبي داود، وهذا إسناد صحيح، لكن قال الترمذي: رواه حماد بن زيد وغير واحد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلًا قال: وهذا أصح. وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أي: فإذا ملتكم إلى واحدة منهم، فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَتَذُوهَا كَأَلَمَّةٍ﴾ أي فبقى الأخرى معلقة. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة. وقد قال أبو داود الطيالسي: أنبأنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَيْهِ ساقط». وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث همام بن يحيى، عن قتادة، به. وقال الترمذي: إنما أسنده همام، ورواه هشام الدستواني عن قتادة قال: «كان يقال». ولا نعرف هذا الحديث مرفوعًا إلا من حديث همام. وقوله: ﴿وَإِنْ تَصَلِحُوا وَاتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وإن أصلحتكم في أموركم، وقستم بالعدل فيما تملكون، واتفقتكم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا بَيْنَ اللَّهِ كَلًّا مِنْ سَخَطِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِيعًا حكِيمًا﴾ (١٣٢). وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق، وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَسِيعًا حكِيمًا﴾ أي: واسع الفضل عظيم المن، حكيمًا في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ آتَيْنَا أُولَئِكَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حكِيمًا﴾ (١٣٣) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾ (١٣٤) إن يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ إِنَّمَا تَأْسَفُ الْتَأْسَفَ وَإِن يَأْتِ بِطَافُوتٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٥) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٦). يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ آتَيْنَا أُولَئِكَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وصيناكم بما وصيناكم به، من تقوى الله، بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حكِيمًا﴾، كما قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حكِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿تَكْفُرُوا وَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حكِيمٌ﴾ [التغابن: ٦] أي: غني عن عباده، ﴿حكِيمًا﴾ أي: محمود في جميع ما يقدره ويشرعه. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾ (١٣٦) أي: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء. وقوله: ﴿إِنْ يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ إِنَّمَا تَأْسَفُ الْتَأْسَفَ وَإِن يَأْتِ بِطَافُوتٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٥) أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا لِيَسْتَجِدَّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ وَإِن يَخْلَقْ جَوَابًا﴾ (١٣٧) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٣٨) [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: ما هو عليه بممتنع. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: يا من ليس هُماً إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأعناك وأفتاك، كما قال تعالى: ﴿قَوِّمِ السَّائِبِينَ مَنِ يَكْفُلُ رَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْأَلُ رَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٣٩) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٤٠) [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُفِثْ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١٤١) [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَالَ عَمِلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَلْحُورًا﴾ (١٤٢) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٤٣) كَلَّا نُنمِذُ هَتُولَاءَهُ وَهَتُولَاءَهُ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿١٣٦﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٣٧﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١]. وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» أي: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ وهو ما حصل لهم من المغنم وغيرها مع المسلمين. وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: وعند الله ثواب الآخرة، وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم. وجعلها كقوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَيَبْطُلُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [مرد: ١٥، ١٦]. ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا فيه نظر؛ فإن قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ﴾ ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة، أي: بيده هذا وهذا، فلا يفتتصرون قاصر المهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممن يستحق هذا؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوفًا فَوَمِنَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةٌ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَزَرْتُمْ فَلَانَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾. يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرّفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه. وقوله: ﴿شَهَادَةٌ لِلَّهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرّاً عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه. وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقربتك، فلا تراعهم فيها، بل أشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبيّة وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي ﷺ يخرّص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يترشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياهم وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض». وسياق الحديث مسنداً في سورة المائدة، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَزَرْتُمْ﴾، قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿تَلَوُّوا﴾ أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها، «واللي» هو: التحريف وتعمد الكذب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ الْيَسْتَهْمَ بِالْكِتَابِ لِيُحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨]. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِزْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها». ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: وسيجازيكم بذلك.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّيْلِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانها ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتبنيته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع، بحسب ما يحتاج العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَيِّنًا أَي: فقد خرج عن طريق الهدى، ويَعُدُّ عن القصد كلَّ البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧) **بَيِّنَ الْمُتَفِينِ** بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَخْذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهَا حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ خَرَجُوا إِذْ يُكْفَرُ إِذَا يُسْتَهْزَأُ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِينِ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠).

يخبر تعالى عن دخول الكافر في الإيمان ثم رجوع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا﴾ قال: تَمُّوا على كفرهم حتى ماتوا. وكذا قال مجاهد. وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر الملعلي، عن عامر الشعبي، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد، ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧).

ثم قال: ﴿بَيِّنَ الْمُتَفِينِ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٧) يعني: أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزونون. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلوكه من موالاته الكافرين: ﴿أَيْنِئْتُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ؟﴾ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَفِينِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصر في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ويُتَأَسَّبُ أن يُذَكَّرَ هُنَا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن حَمِيدِ الكندي، عن عبادة بن نُسَيْبٍ، عن أبي ریحانة أن النبي ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزاً وفخراً، فهو عاشرهم في النار». تفرد به أحمد. وأبو ریحانة هذا هو أزدي، ويقال: أنصاري. اسمه شمعون بالمعجمة، فيما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهمله، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهَا حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ خَرَجُوا إِذْ يُكْفَرُ إِذَا يُسْتَهْزَأُ﴾ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزا وينتقص بها، وأقرتموهم على ذلك، فقد شاركنموهم في الذي هم فيه. فلهذا قال تعالى: ﴿إِذْ يُكْفَرُ إِذَا يُسْتَهْزَأُ﴾ أي: في المائم، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُذَارُ عليها الخمر». والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك، هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَيْثُ عَصَوْهُ فَإِنَّهُمْ يُسَبِّحُونَكَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فَكَلَّا تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في الأنعام. يعني نسخ قوله: ﴿إِذْ يُكْفَرُ إِذَا يُسْتَهْزَأُ﴾ لقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرًا لِمَالَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِينِ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي: كما أشركوهم في الكفر، كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً، وجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال، وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿الَّذِينَ يَرْتَابُونَ يَكْفُرُ فَإِنَّ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ فَاتُوا اللَّهَ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَيْبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ عَلَيْكُمْ وَنَنْتَعِمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بِحُكْمِ يَتَّكِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١).

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يرتبسون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿فَاتُوا اللَّهَ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾؟ أي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَيْبٌ﴾ أي: إقالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ عَلَيْكُمْ وَنَنْتَعِمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؟﴾ أي: ساعدناكم في الباطن، وما الوناهم خبالاً وتحديلاً، حتى انتصرت عليهم. وقال السدي: ﴿سْتَعِذْ عَلَيْكُمْ﴾: نغلب عليكم، كقوله: ﴿اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ السُّبُّلُنُ﴾ [المجادلة: ١٩]، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَجْعَلُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيًّا﴾: بما يعلمه منكم - أيها المنافقون - من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بحريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور. وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن ذر، عن يسيع الكندي قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال علي، رضي الله عنه: أدنه أدنه، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ يَجْعَلُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال: ذلك يوم القيامة. وكذا روى السدي عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدي: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: حجة. ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في الدنيا، بأن يُسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ﴿١٤١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِضَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿١٤٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿قَدَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَعْرَبُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فَتَنَ اللَّهِ أَنْ يَقُولَ أَلَمْ نَأْتِ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْ نَمُرَّ بِكُمْ فِي أَصْحَابِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الْمَنْعُ مِنْ بَيْعِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْكَافِرِ لِمَا فِي صِحَّةِ ابْتِئَاعِهِ مِنَ التَّسْلِيطِ لَهُ عَلَيْهِ وَالْإِذْلَالِ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِالصَّحَّةِ يَأْمُرُهُ بِإِزَالَةِ مَلِكِهِ عَنْهُ فِي الْحَالِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى إِرْهَاءِ النَّاسِ وَلَا يُذَكَّرُونَ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٣﴾ تُذَكَّرِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٤﴾﴾.

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَجَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] وقال ههنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. ولا شك أن الله تعالى لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والساد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْهَتُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَمْسِرُونَ أَيْمَهُمْ عَلَىٰ قَوْلِهِ آيَاتُهُمْ كَالْكُذُوبِ ﴿١٤٣﴾﴾ [المجادلة: ١١٨]. وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقِفُونَ وَالْمُتَّقِفُونَ لِلذِّكْرِ آمَنُوا أَنْظَرْنَا نَقِيسَ مِنْ قُرْآنِكَ قِيلَ ارْجِعُوا وَارْجِعُوا وَأَنْتُمْ سُخْرِيٌّ بَيْنَهُمْ يُسْوَِرُ لَمْ يَأْتِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرَتْ مِنْ بَيْنِهِ الْعَذَابُ ﴿١٤٤﴾ يُتَادَوْنَ أَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرْتَبِشْنَ وَعَرْوَكُمْ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الشَّرُّ ﴿١٤٥﴾ قَالَتُمْ لَا يُوَخِّذُ بِنُكْمِكُمْ يَدِيَّةً وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيُقَسِّمُ الْأَمْوَالَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥]. وقد ورد في الحديث: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ»، وفي حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ إِلَى الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَيَعْدِلُ بِهِ إِلَى النَّارِ» عياداً بالله من ذلك. وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى إِرْهَاءِ النَّاسِ وَلَا يُذَكَّرُونَ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾: هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه، من طريق عبيد الله بن زحر، عن خالد بن أبي عمران، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى، وإن الله أمامه يغفر له ويعبده إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾. وروي من غير هذا الوجه، عن ابن عباس، نحوه. فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿إِرْهَاءِ النَّاسِ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يؤتون غالباً فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوأ»، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس،

ثم أنطلق معي برجال، معهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عِرْقاً سميئاً أو مَرْمَاتين حسنتين، لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد - هو ابن أبي بكر المقدمي - حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة، استهان بهاربه ﷺ».

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُكَ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في صلاتهم لا يخشعون فيها ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعماد يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». وكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر المدني، عن العلاء بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتبره الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك ﴿كُلَّمَا أَصَابَهُمُ مَسْئَلٌ فِيهِ وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠]. قال مجاهد: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: اليهود. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تيمر إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع». تفرد به مسلم. وقد رواه عن محمد بن المثنى مرة أخرى، عن عبد الوهاب، فوقف به علي بن عمر، ولم يرفعه، قال: حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك. قلت: وقد رواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف عن عبيد الله، به مرفوعاً. وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلي بن عاصم، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبي شيبة، عن عبدة، عن عبد الله، به مرفوعاً. ورواه حماد بن سلمة، عن عبيد الله - أو عبد الله بن عمر - عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. ورواه أيضاً صخر بن جويرية، عن نافع عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا الهذيل بن بلال، عن ابن عبيد، عن أبيه: أنه جلس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عمر معه، فقال أبي: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربيضين من الغنم، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها» فقال له ابن عمر: كذبت. فأثنى القوم على أبي خيراً - أو معروفاً - فقال ابن عمر: لا أظن صاحبكم إلا كما تقولون، ولكنني شاهد نبي الله إذ قال: كالشاة بين الغنمين. فقال: هو سواء. فقال: هكذا سمعته.

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: بينما عبيد بن عمير يقص، وعنده عبد الله بن عمر، فقال عبيد بن عمير: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة بين ربيضين، إذا أتت هؤلاء نطحتها، وإذا أتت هؤلاء نطحتها». فقال ابن عمر: ليس كذلك قال رسول الله ﷺ، إنما قال رسول الله ﷺ: «كشاة بين غنمين». قال: فاحتفظ الشيخ وغضب، فلما رأى ذلك ابن عمر قال: أما إني لو لم أسمع له لم أردد ذلك عليك.

طريق أخرى: عن ابن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عثمان بن بُوْدِيَه، عن يَغْفَر بن زُوْدِي قال: سمعت عبيد بن عمير وهو يقص يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين». فقال ابن عمر: ويلكم. لا تكذبوا على رسول الله ﷺ. إنما قال ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعب، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك. أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ أرجع عودك على بدتك، وناداه الذي عبر: هَلَمْ إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ والذي مكث الكافر. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا شعبة عن قتادة: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. قال: ودُكِّر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللکافر، كمثل رهن ثلاثة دفَعُوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هَلَمْ إلي، فإني أخشى عليك. وناداه المؤمن: أن هَلَمْ إلي، فإني عندي

وعندي؛ يُحصي له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى ففرقه. وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين، رأت غنماً على نَشْر فأتتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نَشْر فأتتها وشامتها فلم تعرف». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ تَحْجِدْ لَهُ سَبِيلاً﴾ أي: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ تَحْجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْسِداً﴾ فإنه: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ والمناقفون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَنْخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ جَمَعُوا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَناً مُبِيناً﴾ ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَحْجِدَ لَهُمْ نَصيراً﴾ ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ ﴿١٤٧﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَليسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا بِهِمْ فَقَدْ نَبَذَ اللَّهُ رِجْلَهُمْ عَنْكُمْ فَانفَكُوا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهي. ولهذا قال ههنا: ﴿أَرْيَدُونَ أَنْ جَمَعُوا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَناً مُبِيناً﴾ أي: حجة عليكم في عقوبته إياكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَناً مُبِيناً﴾ قال: كل سلطان في القرآن حجة. وهذا إسناد صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب القُرظي، والضحاك، والسدي، والنضر بن عَرَبِي.

ثم أخبر تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال الوالبي عن ابن عباس: ﴿في الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: في أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن ذُكْوَانَ أَبِي صَالِحٍ، عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت ترتج عليهم. كذا رواه ابن جرير، عن ابن وكيع، عن يحيى بن يمان، عن سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن المنذر بن شاذان، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن خثيمة، عن عبد الله - يعني ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من نار تطبق عليهم. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن وكيع، عن سفيان، عن سلمة، عن خثيمة، عن ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْكُفْرَينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مبهمة عليهم، ومعنى قوله: (مبهمة) أي: مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن: أن ابن مسعود سئل عن المنافقين، فقال: يجعلون في توابيت من نار، فتطبق عليهم في أسفل درك من النار. ﴿وَلَنْ تَحْجِدَ لَهُمْ نَصيراً﴾ أي: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب. ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه، وقبِلَ ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: بدّلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زُحْر، عن خالد بن أبي عمران، عن عمرو بن مرة، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أخلص دينك، يكفك القليل من العمل». ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾. ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أي: أصلحتم العمل وأمنتُم بالله ورسوله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ أي: من شكر شكر له ومن آمن قلبه به علمه، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيماً عَلِيماً﴾ ﴿١٤٨﴾ إِنْ بُدِّدُوا خَيْراً أَوْ نَفَعُوا أَوْ تَمَعُّوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ ﴿١٤٩﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وإن صبر فهو خير له. وقال أبو

داود: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن عطاء، عن عائشة قالت: سُرق لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لا تُسْبِخِي عنه». وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، ويلقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه. وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه. وقال عبد الكريم بن مالك الجزي في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنْ آتَاكَ بِهِ بَدَأْ عَلَيْهِ فَاتَّكِبْ مَا عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]. وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المُسْتَبَيَّنَانِ مَا قَالَا، فعلى الباديء منهما، ما لم يعتد المظلوم». وقال عبد الرزاق: أنبأنا المثنى بن الصباح، عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: ضاف رجل رجلاً، فلم يؤد إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس، فقال: «ضفت فلاناً فلم يؤد إليّ حق ضيافتي». فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، حين لم يؤد الآخر إليه حق ضيافته. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته، فيخرج فيقول: «أساء ضيافتي، ولم يحسن». وفي رواية: هو الضيف المحول رحله، فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول. وكذا روي عن غير واحد، عن مجاهد، نحو هذا. وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي، من طريق الليث بن سعد - والترمذي من حديث ابن لهيعة - كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرْزُد بن عبد الله، عن عقبه بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعنا فننزل يقوم فلا يقرؤنا، فما ترى في ذلك؟ قال: «إذا نزلتم يقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا الجودي يحدث، عن سعيد بن المهاجر، عن المقدم أبي كريمة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أبما مسلم ضاف قوماً، فأصبح الضيف محروماً، فإن حقاً على كل مسلم نُصْرُهُ حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله».

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثني منصور، عن الشَّعْبِيِّ عن المقدم أبي كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفتانته محروماً كان ذنباً له عليه، إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه. ثم رواه أيضاً عن عُثْمَرَ بن شعبة. وعن زيادة بن عبد الله البكائي. وعن وكيع، وأبي نعيم، عن سفيان الثوري - ثلاثتهم عن منصور، به. وكذا رواه أبو داود من حديث أبي عَوَّانة، عن منصور، به. ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار. حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا محمد بن عَجْلان، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه! قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أؤذيك أبداً».

وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب، عن أبي تَوْبَةَ الربيع بن نافع، عن سليمان بن حيان أبي خالد الأحمر، عن محمد بن عجلان به. ثم قال البزار: لا تعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه أبو جَحِيْفَةَ وهب بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ويوسف بن عبد الله بن سلام، عن النبي ﷺ. وقوله: ﴿إِنْ يُدْأَوْ حَيْرًا أَوْ تُخْفَوُ أَوْ تَعْفَوُ عَنْ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [١١٦] أي: إن تظهروا - أيها الناس - خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ ولهذا ورد في الأثر: أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك. ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك. وفي الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقْرَفُوا بِبَيْنِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١١٧] أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [١١٨] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقْرَفُوا بَيْنَ أَمْوَالِهِمْ وَأُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا [١١٩]

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى، حيث قرّفوا بين الله ورسله في الإيمان، فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشبه والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية. فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال:

إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم. والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: في الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومسلماً. ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه أو نظروا حق النظر في نبوته. وقوله: ﴿وَأَسْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا﴾ أي: كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أئمة اليهود في زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما أتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلب الله عليهم الذل الديني الموصول بالذل الأخروي: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسُّكُوتَ وَبَاءُوا بِبَعْضِ رِبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦١] في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني بذلك: أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزل الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ فَمَا نُنزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَفَرَّقُ بَيْنَ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: للذنوبهم، أي: إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِثْلَ الَّذِي نَزَّلْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ رَبُّنَا إِنَّ اللَّهَ جَهَنَّمَ أَفْحَذْنَهُمُ الصَّاعِقَةُ يُظَلِّمُهُمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْحِجْلَ مِنْ بَدَنِي مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَمَقَمْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُبِينًا﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿وَرَفَعْنَا قُورَيْشَهُمُ الْفُجُورَ بَيْنِيهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ حُدُودًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال محمد بن كعب القرظي، والسدي، وقناة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء. كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. قال ابن جرير: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به. وهذا إنما قاله على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة «سبحان»: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ بُيُوتًا﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿وَالْإِسْرَاءُ: ٩٠-٩٣﴾ والآيات. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ جَهَنَّمَ أَفْحَذْنَهُمُ الصَّاعِقَةُ يُظَلِّمُهُمْ﴾ أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر في سورة «البقرة» حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ أَفْحَذْنَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ حَتْمِكَ مِنْ مَوْجِ مَوْتِكُمْ لَمْ نُكَمِّرْكُمْ لَنْ تُنْقَرُوا﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْحِجْلَ مِنْ بَدَنِي مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ [البقرة: ٢٤٩] ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿وَالْأَعْرَافُ: ١٣٨، ١٣٩﴾. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل ميسوطه في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله ﷻ، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ثم أحياهم الله ﷻ، فقال الله ﷻ: ﴿فَمَقَمْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُبِينًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا قُورَيْشَهُمُ الْفُجُورَ بَيْنِيهِمْ﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالترنموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجِبَلَ قُورَيْشَهُمْ كَأَنَّهُمْ شُرُكٌ بَيْنَهُمْ وَوَدُّوا أَنْ يُدْبِرُوا بِخُبْرِهِمْ فَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ حُدُودًا﴾ أي: فخالقوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً، وهم يقولون: حطة. أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: شديداً، فخالقوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله ﷻ، كما هو مبسوط في

سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرَزِيِّ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَدْعُوكَ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣] الآية، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وفيه: «وعليكم - خاصة يهود - ألا تعدوا في السبت».

﴿فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْلَقَ بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ مَرِيَمَ بَهْتَتِنَا عِظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّا لَمْ يَكُنْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آيَاتِنَا لِلَّذِينَ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَفِي شِقَاطٍ ﴿١٥٩﴾﴾.

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والمعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء. عليهم السلام. قوله: ﴿وَقَوْلِهِمُ الْآيَاتِيَّةَ بِمَعْرِ حَتَّى﴾، وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جماعاً كثيراً من الأنبياء بغير حق عليهم السلام. وقوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقناة، وغير واحد: أي في غطاء. وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ غُيُوبَهُمْ﴾ [تصلت: ٥]. وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلف للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته. رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وقد تقدم نظيره في سورة البقرة. قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول، لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى: بل هو مطبوع عليها بكفرهم. وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مردت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان. ﴿وَيَكْفُرُهُمْ قَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرِيَمَ بَهْتَتِنَا عِظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يعني أنهم رموها بالزنا». وكذا قال السدي، وجؤبير، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. وقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَكْفُرُ الَّذِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ لَمَجْحُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكفم والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله، ﷻ إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في آذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان - وأنهو إليه: أن يبيت المقدس رجلاً يقتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف آذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امتثل مثنوئي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحضره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلقى عليه شبيهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شابٌ منهم، فكانه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفُتِحَتْ رُؤُوسُهُ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنِّي مُتَوَكِّلٌ بِكَ وَرَأَيْتُكَ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ عَلَىٰ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٥٥﴾﴾. فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصراني ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم. وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في

القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيئات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون -: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَرَأَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَبَّىٰ سَفِيًّا مِّنْهُمَا مَن يَمْ مِنْ غَيْرِ إِلَّا اٰتِيَاحَ الظُّلَمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ اِلَيْهِ﴾ يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ اِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا﴾ أي منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيْمًا﴾ أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه - وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين - يعني: فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة، بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يُلقى عليه شهبي، فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من رُوْزَنَةِ في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه وكفر به بعضهم اثني عشرة مرة، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، بنحوه. وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يُلقى عليه شهبي فيقتل مكاني، وهو رفيقي في الجنة؟ وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن مُنْبِه قال: أتى عيسى وعنده سبعة عشر من الحواريين في بيت وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صَوَّرَهُم اللهُ، ﷻ، كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتونا. ليرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم وقال: أنا عيسى - وقد صوره الله على صورة عيسى - فأخذوه، وقتلوه وصلبوه. فمن تَمَّ شُبِّهَ لهم، فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وهذا سياق غريب جداً. قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول، وهو ما حدثني به المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد بن يعقل: أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً، فقال: أحضروني الليلة، فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عَشَّاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بشيابه، فتعاضوا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من رد علي شيئاً الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه. فأقروه، حتى إذا فرغ من ذلك قال: أمّا ما صنعت بكم الليلة، ما خدمتكم على الطعام، وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنني خيركم، فلا يتعظّم بعضكم على بعض، وليبدّل بعضكم نفسه لبعض، كما بذلت نفسي لكم. وأمّا حاجتي الليلة التي أستعينكم عليها فتدعون لي الله، وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها؟ قالوا: والله ما ندرى ما لنا. لقد كنا نُسْمُرُ فنكثر السُمْرَ، وما نطيق الليلة سَمْرًا، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه. فقال: يُذْهَبُ بالراعي وتفرق الغنم. وجعل يأتي بكلام نحو هذا يعني به نفسه. ثم قال: الحق، ليُكْفُرَنَ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبغيني أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن ثمني، فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، وأخذوا شمعون أحد الحواريين، وقالوا: هذا من أصحابه. فجدد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه، ثم أخذه آخرون، فجدد كذلك. ثم سمِعَ صوت ديك فيكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكُمْ على المسيح؟ فجعلا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلّهم عليه، وكان شُبِّهَ عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، وجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنهر الشيطان، وتبرىء المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه،

ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شئبه لهم فمكث سبعاً.

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى عليه السلام، فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ فقالتا: عليك. فقال: إني قد رفعتني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شئبه لهم فأمرًا الحواريين يلقوني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقدوا الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقال: إنه ندم على ما صنع فاختنق، وقتل نفسه فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام كاد يتبعهم، يقال له: يحيى، قال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيصبح كل إنسان يحدث بلغة قومه، فلينذروهم وليدعهم. سياق غريب جداً. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقنته رجلاً منهم، يقال له: داود، فلما أجمعوا لذلك منه، لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لي - فقطعه ولم يجزع منه جزعه، ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول - فيما يزعمون - «اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني» وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً. فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يَدْخُلُوا عليه فيه ليقنتوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى، عليه السلام، فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين - وكانوا اثني عشر رجلاً: فطرس ويعقوب بن زبدي ويحس أخو يعقوب، وأنذرابيس، وفيلبس، وأبرثلما ومنى وتوماس، ويعقوب بن حلفيا، وتداوسيس، وقثانيا، ويودس زكريا يوطا. قال ابن حميد: قال سلمة، قال ابن إسحاق: وكان فيهم فيما ذكر لي رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى، عليه السلام، جحدته النصراني، وذلك أنه هو الذي شئبه لليهود مكان عيسى عليه السلام. قال: فلا أدري ما هو؟ من هؤلاء الإثني عشر، أو كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقرؤا لليهود بصلب عيسى، وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر، فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم ثلاثة عشر.

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل كان نصرانياً فأسلم: أن عيسى حين جاءه من الله: ﴿وَرَأَيْتَكَ إِذْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، قال: يا معشر الحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يشبهه للقوم في صورتني، فيقتلوه في مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه، ورفع عيسى عليه السلام، فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه وشئبه لهم به، وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم وأحصوا عدتهم. فلما دخلوا عليه ليأخذوه وجدوا عيسى فيما يُزَوَّن وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدة، فهو الذي اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإني سأقبله، وهو الذي أقبل، فخذوه. فلما دخلوا وقد رفع عيسى، ورأى سرجس في صورة عيسى، فلم يشك أنه عيسى، فأكب عليه فقبله، فأخذوه فصلبوه. ثم إن يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه، وهو ملعون في النصراني، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه، وبعض النصراني يزعم أن يودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول: «إني لست بصاحبكم. أنا الذي دلتكم عليه». والله أعلم أي ذلك كان. وقال ابن جرير، عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى، ورفع الله، ﷺ، عيسى إلى السماء حياً. واختار ابن جرير أن شبه عيسى النبي على جميع أصحابه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِمْتَ بِهِ قَبِلُ مَوْجِبَةً وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِمْتَ بِهِ﴾ يعني بعيسى ﷺ. يعني: قبل موت عيسى - يُؤَجَّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير المملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنفية، دين إبراهيم، عليه السلام.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي حُصَيْن، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِمْتَ بِهِ قَبِلُ مَوْجِبَةً﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم. وقال العوفي عن ابن عباس مثل ذلك. وقال أبو مالك في قوله: ﴿إِلَّا لُؤِمْتَ بِهِ قَبِلُ مَوْجِبَةً﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِمْتَ بِهِ قَبِلُ مَوْجِبَةً﴾ يعني: اليهود خاصة. وقال الحسن البصري: يعني النجاشي وأصحابه. ورواهما ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: وحدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، حدثنا أبو رجاء عن الحسن: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِمْتَ بِهِ قَبِلُ مَوْجِبَةً﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا

به أجمعون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن عثمان اللاهقي، حدثنا جويرية بن بشر قال: سمعت رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: «قبل موت عيسى. إن الله رفع عيسى إليه، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر». وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ﴾ قبل موت الكتابي. ذكر من كان يُوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. حدثني المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته - قبل موت صاحب الكتاب - وقال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو نميلة يحيى بن واضح، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح. حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خُصيف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هي في قراءة أبي: «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: رأيت إن حَزَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي. فقيل: رأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُخلج بها لسانه. وكذا روى سفيان الثوري عن خُصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، عليه السلام، وإن ضرب بالسيف تكلم به، قال: وإن هوى تكلم به وهو يهوي. وكذا روى أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي هارون العنوي، عن عكرمة، عن ابن عباس. فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صحَّ عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وبه يقول الضحاك وجوزير، والسدي، وحكاه ابن عباس، ونقل قراءة أبي بن كعب: «قبل موتهم». وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن فرات القزاز، عن الحسن في قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت. وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه، ويحتمل أن يكون مراده ما أراه هؤلاء. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي.

ذكر من قال ذلك:

حدثني ابن المثنى، حدثنا الحجاج بن مثقال، حدثنا حماد، عن حميد قال: قال عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ يعني في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾. ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصححة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موته، أي قبل موت عيسى، عليه السلام، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصراني الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة - التي سنوردها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآية الكريمة أن يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصراني أنه قتل وصلب. ﴿وَيَوْمَ أَلْقَمْتُمْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد، عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة ﴿وَلَيْسَتِ الْكُوفَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُدِّئْتُ بِكَ وَلَا الَّذِينَ يَمْؤُونُ بِهِمْ كُفَّاءُ﴾ الآية للنساء: ١١٨، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ الَّذِي كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَكَ بَعْدَهُمُ ابْتِغَاءُ مَقَاتِلٍ لِمَا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآيةين [غافر: ٨٤، ٨٥] وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا،

لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح، ممن كفر بهما - يكون على دينهما، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته. فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا يتفعله إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «لو تردى من شاهق أو ضرب بسيف واقتسه سَح، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى» فالإيمان في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه، والله أعلم. ومن تأمل هذا جيداً وأمعن النظر، اتضح له أن هذا، وإن كان في الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى، عليه السلام، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتضادات وتعاكست وتناقضت، وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى: تنقَّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظام، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدَّس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخاري، رحمه الله، في كتاب ذكر الأنبياء، من صحيحه المتلقي بالقبول: (نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام): حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لَيُؤشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: واقروا إن شئتم: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ۝». وكذا رواه مسلم عن الحسن الخُلثاني وعبد بن حميد كلاهما، عن يعقوب، به. وأخرجه البخاري ومسلم، أيضاً، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، به. وأخرجه من طريق الليث عن الزهري به. ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين». وقال أبو هريرة: واقروا إن شئتم: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ ۝» موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات.

طريق أخرى عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا زُوَيْحٌ، حدثنا محمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن حنظلة بن علي الأسلمي، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيُهْلَنَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَقَعِ الرَّؤْحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةَ أَوْ لَيْشِيهَمَا جَمِيعاً». وكذا رواه مسلم منفرداً به من حديث سفيان بن عيينة، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، ثلاثهم عن الزهري به. وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان - هو ابن حسين - عن الزهري، عن حنظلة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجتمعهما». قال: وتلا أبو هريرة: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ۝». فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي موسى محمد بن المثنى، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين عن الزهري، به.

طريق أخرى: قال البخاري: حدثنا ابن بَكَيْرٍ، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري؛ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم، وإمامكم منكم؟» تابعه عقيل والأوزاعي. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، وعن عثمان بن عمر، عن ابن أبي ذئب، كلاهما عن الزهري، به. وأخرجه مسلم من رواية يونس والأوزاعي وابن أبي ذئب، به.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّامٌ، أنبأنا قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مَمَّصَرَان، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَلٌ، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله

في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والتمار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون».

وكذا رواه أبو داود، عن هُذَيْبَةَ بن خالد، عن همام بن يحيى. رواه ابن جرير - ولم يورد عند هذه الآية سواه - عن بشر بن معاذ، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة - كلاهما عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم - وهو مولى أم بَرْزَنْ - صاحب السقاية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكر نحوه، وقال: فيقاتل الناس على الإسلام. وقد روى البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي». ثم روى عن محمد بن سنان: عن قُتَيْبِ بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» وقال إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ.

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حرب، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو بدابق - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثلث أفضل الشهداء عند الله ﷻ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعَدُّون للقتال: يسرون الصوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأثمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيرهبهم دمه في حزينته».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْنَم، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن جَبَلَةَ بن سَحِيم، عن مؤثر بن عَفَّازة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتنا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلي ربي - ﷺ أن الدجال خارج قال: ومعني قضيبان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رأني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً فتعال فاقته: قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نثر ريحهم، وينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى تقذفهم في البحر، ففيما عهد إلي ربي - ﷺ - أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً. ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حَوْشَب، به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي نضرة قال: أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم الجمعة؛ لنعرض عليه مصحفاً لنا على مصحفه، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا، ثم أتينا بطيب فطيبنا، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل، فحدثنا الدجال. ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه، فجلسنا فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتنى البحرين، ومصر بالحيرة، ومصر بالشام. فيفرغ الناس ثلاث فرعات، فيخرج الدجال في أعراض الناس، فيهزم من قبل المشرق، فأول مصر يرد المصّر الذي بملتنى البحرين، فيصير أهلهم ثلاث فرق: فرقة تُقيم تقول: نُشَامَه نَظَر ما هو وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم. ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيجان وأكثر من معه اليهود والنساء، ثم يأتي المصّر الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نُشَامَه ونَظَر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم بغرب الشام وينحاز المسلمون إلى عقبه أفيق فيبعثون سرحاً لهم، فيصاب سرحهم، فيشتد ذلك عليهم، وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد، حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من السحر: «يا أيها الناس، أتاكم الغوث ثلاثاً» فيقول بعضهم لبعض: إن هذا لصوت رجل شعبان، وينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: رُوح الله، تقدّم صل. فيقول:

هذه الأمة أمراء، بعضهم على بعض. فيتقدم أميرهم فيصلي، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حزبته، فيذهب نحو الدجال، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص، فيضع حزبته بين ثنودته، فيقتله وينهزم أصحابه، فليس يومئذ شيء يوارى أحداً، حتى إن الشجرة لتقول: يا مؤمن، هذا كافر. ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه المشهورة: حدثنا علي بن محمد، حدثنا عبد الرحمن المحاربي، عن إسماعيل بن رافع أبي رافع، عن أبي زُرعة الشيباني يحيى بن أبي عمرو، عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال، وحذرناه، فكان من قوله أن قال: «لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام، أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يعث نبياً إلا حذر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم، فأنا حجيح لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل امرئ حجيح نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق، فيعيث يمينا ويعيث شمالاً». «ألا يا عباد الله، أيها الناس، فاثبتوا. وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي: إنه يبدأ فيقول: «أنا نبي» فلا نبي بعدي. ثم ينهي فيقول: «أنا ربكم»، ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور وإن ربكم، ﷺ، ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فإِنَّه جنة وجنّة نار. فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار على إبراهيم عليه السلام، وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعث لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني، اتبعه، فإنه ربك. وإن من فتنته أن يُسلط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار، حتى يُلقَى شقين ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري. فيبعث الله، فيقول له الخبيث: من ربك، فيقول: ربي الله. وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم». قال أبو الحسن الطنّاسي: فحدثنا المحاربي، حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك الرجل أرفع أمي درجة في الجنة». قال: قال أبو سعيد: والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب، حتى مضى لسبيله. قال المحاربي: ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت، وإنا من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت. حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر، وأدره ضروعاً، وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، فإنه لا يأتيهما من ثقب من نقابهما إلا لقيه الملائكة بالسيوف صلته، حتى ينزل عند الظرب الأحمر، عند مُنْطَوع السَّبْخَة، فترجع المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتتفي الحَبْت منها كما ينفي الكبير حَبْت الحديد، ويُدعى ذلك اليوم يوم الخلاص. فقالت أم شريك بنت أبي العكر: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل، وجلهم بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقري؛ ليقدم عيسى يصلي بالناس، فيضع عيسى عليه السلام، يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصل، فإنها لك أقيمت. فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى، عليه السلام: افتحوا الباب. فيفتح، ووراء الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تستبقني بها. فيدركه عند باب لُدّ الشريقي، فيقتله، ويهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به اليهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة - إلا العَرَقْدَة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي، فتعال اقتله. قال رسول الله ﷺ: «إن أيامه أربعون سنة، السنة كصيف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي». فقيل له: يا نبي الله كيف نصلي، في تلك الأيام القصار؟ قال: «تقدرون فيها الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم صلّوا». قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم في أمي حكماً عادلاً، وإماماً مُقسطاً، يُدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يُسعى على شاة ولا بعير، وترتفع الشحناء والتباغض، وتُنزَع حُمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتُفَرّ الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها كعهد آدم، حتى يجتمع النفر

على القُطْف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا، من المال، ويكون الفرس بالدرهيمات. قيل: يا رسول الله، وما يرخص الفرس؟ قال: «لا تركب لحرب أبداً» قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال: «تُحْرث الأرض كلها». وإن قَبِلَ خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تَقْطُر قطرة، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله، فلا تُنبِث خضراء، فلا تبقى ذات ظَلْف إلا هلكت، إلا ما شاء الله». فقيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: «التهليل والتكبير والتسييح والتحميد، ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام». قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطَّنَافِسي يقول: سمعت عبد الرحمن المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب، حتى يعلمه الصبيان في الكتاب. هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه، ولبعضه شواهد من أحاديث آخر؛ ولنذكر حديث النواس بن سمعان ههنا لشبهه بسياقه هذا الحديث، قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ زُهَيْر بن حرب، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه جبير بن نَفِير الحضرمي أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي (ح) وحدثنا محمد بن مِهْران الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه جُبَيْر بن نَفِير، عن النواس بن سَمْعَانَ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحَفِضَ فيه ورَقْع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحلنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فحَفِضْتَ فيه ورَقْعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أَحْوَفُنِي عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فانا حَجِيجُه دونكم، وإن يَخْرُجْ ولست فيكم فامرؤٌ حَجِيجٌ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شابٌ قَطَطٌ عينه طافية، كأنني أشبهه بعد العزى بن قَطَن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةٌ بين الشام والعراق، فعاتٌ يميناً وعاتٌ شمالاً. يا عباد الله، فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله، وما لَبِثْتَهُ في الأرض؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهرو، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء تمطر، والأرض تنتبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغه ضروراً، وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمَحْلِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتبتعه كنوزها كيما سبب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شاباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزئتين زَمِيَةً الغرض، ثم يدعو قَيْبِلَ ويتهلل وجهه ويضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرودَيْنِ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونَفْسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد، فيقتله. ثم يأتي عيسى، عليه السلام، قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله ﷻ، إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طَبْرِيّة، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرّة ماء. ويوحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم الثَّغْفَ في رقابهم فيصبحون فَرَسَى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زَهْمُهُمْ وَتَنُّهُمْ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْتِ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنْ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلْفَةِ، ثم يقال للأرض: أخرجي ثَمْرَكَ وَرُذِي بركتك. فيومئذ تَأْكُلُ العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرُّسُلِ حتى إن اللُّقْمَةَ من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللُّقْمَةَ من الفم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يَتَهَارَّجُونَ فيها تَهَارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقوم الساعة». ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وسنذكره أيضاً من طريق أحمد، عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّتِ يَابُجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوكَ﴾ ﴿الأنبياء: ٩٦﴾.

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه أيضاً: حدثنا عبيد الله بن معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل فقال -: ما هذا الحديث الذي تُحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله؟! - أو: لا إله إلا الله، أو كلمة نحوها - لقد هممتُ ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يُحرق البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرج الدجال في أمي، فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير - أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لَدَخَلْتُهُ عليه حتى تُقبضه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في حفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار زُرَقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها، قال: وأول من يسمعه رجل يُلَوِّط حوض إبله، قال: فَيُضَعَّقُ وَيُصَعَّقُ الناس. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الظل - أو قال: الظل - نُعْمَانُ الشاك - فتبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ﴿وَقَفَّوْهُمْ لِيَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. قال: «ثم يقال: أخرجوا بَعَثَ النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: ﴿يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْبًا﴾ [المزمل: ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يَكْفُفُ عَن سَائِقِي﴾ [القم: ٤٢]. ثم رواه مسلم والنسائي في تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن النعمان بن سالم، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن يزيد الأنصاري، عن مُجَمِّع بن جارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لُدّ - أو: إلى جانب لُدّ». ورواه أحمد أيضاً، عن سفيان بن عيينة ومن حديث الليث والأوزاعي، ثلاثهم عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مُجَمِّع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدّ». وكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الليث، به. وقال: هذا حديث صحيح. قال: وفي الباب عن عمران بن حصين، ونافع بن عتبة، وأبي بَرَزَةَ، وحذيفة بن أسيد، وأبي هريرة. وكَيْسَانَ، وعثمان بن أبي العاص، وجابر، وأبي أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسَمْرَةَ بن جُنْدَب، والنواسة بن سمعان، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان، رضي الله عنهم. ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال. وقتل عيسى ابن مريم، عليه السلام، له. فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً، وهي أكثر من أن تحصر؛ لانتشارها وكثرة رواياتها في الصحاح والحسان والمسانيد، وغير ذلك.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن فَرَات، عن أبي الطُّفَيْل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى ترون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَانُ، والدَّابَّةُ، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. نار تخرج من قعر عدن، تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فَرَات القزاري به. ورواه مسلم أيضاً من رواية عبد العزيز بن رُفَيْع عن أبي الطفيل عن أبي سَريحة حذيفة بن أَسِيد الغفاري، موقوفاً. والله أعلم. فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواسة بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجَمِّع بن جارية، وأبي سَريحة حذيفة بن أَسِيد، رضي الله عنهم. وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدمشق، عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصلاة للصبح، وقد بنيت في هذه الأعصار، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأمويّ بيضاء، من حجارة منحوتة، عِوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصراني - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح علمهم، وترتفع شبههم من أنفسهم؛ ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام مُتَابِعَةً لعيسى، عليه السلام، وعلى يديه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلَّا يُؤْمِنُوا بِهِ، قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شِهَادًا﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَأَوْلَمُ لِلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وقرىء: «عَلِمَ» بالتحريك، أي إشارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح: «إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء». ويبعث الله في أيامه ياجوج ومأجوج، فيهلكهم الله به ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [١٦١] وَأَقْرَبَ الْوَعْدَ الْحَقُّ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

صفة عيسى عليه السلام:

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مصوران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل». وفي حديث النواس بن سمعان: «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهزودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجرد ريش نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه». وروى البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى»، قال: «فَنَعَتَهُ «فإذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجُلُ الرأس، كأنه من رجال شنوءة». قال: «ولقيت عيسى» فنعته النبي ﷺ فقال: «زُبْعَةٌ أَحْمَرُ، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به». الحديث. وروى البخاري، من حديث مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط، كأنه من رجال الرُّط». وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة، عن نافع قال: قال عبد الله بن عمر: ذَكَرَ النبي ﷺ يوماً بين ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيَمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَنَبَةً طَافِيَةً وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمٌ، كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ آدَمِ الرِّجَالِ، تُضْرِبُ لِمَتَهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجُلٌ الشَّعْرُ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مِنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطَطًا، أَعْوَرُ عَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَشْبَهُ مَا رَأَيْتُ بَابِنَ قَطْنٍ، وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ». تابعه عبيد الله عن نافع.

ثم رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: لا، والله ما قال النبي ﷺ لعيسى عليه السلام: أحمر، ولكن قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم سبط الشعر، يتهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء - أو يهراق رأسه ماء - فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابن مريم. فذهبت ألتفت، فإذا رجل أحمر جسيم، جعد الرأس، أعور عينه اليمنى، كان عينه عنبة طافية. قلت: من هذا؟ قالوا: الدجال. وأقرب الناس به شبيهاً ابن قطن». قال الزهري: رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. هذه كلها ألفاظ البخاري، رحمه الله، وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة: أن عيسى، عليه السلام، يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون. وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم: أنه يمكث سبع سنين، فيحتمل - والله أعلم - أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة، مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة: أنهم على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاثاً وثلاثين سنة. وأما ما حكاه ابن عساکر عن بعضهم أنه رُفِعَ وله مائة وخمسون سنة، فشاذ غريب بعيد. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساکر في ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه، عن بعض السلف: أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته، فإله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شِهَادًا﴾، قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله، ﷻ، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْعُدُوا لِي وَأَمَّا إِلَهِي مَن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبَ﴾ [١٦١] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ امْعُدُوا لِلَّهِ رَبِّكُمْ وَرَبِّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهَا فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ فَوْزٍ شَهِيدٌ [١٦٢] إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَأْتِيَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَمَا لَهُمْ قَائِلُكَ أَنْتَ الْمَرْبِيُّ الْحَكِيمُ [١٦٣]﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الذَّلِيلِ مَا دَاوُدُ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَتِي أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [١٦٤] وَأَنْزَلْنَاهُمْ الرِّيزًا وَقَدْ هَمُّوا عَنْهُ وَأَكَلْتُمْ أَثْمَارَ النَّارِ بِالنَّيْلِ وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٦٥] لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْمَرِّ وَهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُعْتَصِمِينَ الصَّلَاةَ

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَوُونَ بِاللَّهِ وَالْيَتِيمَ الْأَخْيَرُ أُولَئِكَ سَتُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾

يخبر، تعالى، أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة، حُرِّمَ عليهم طيبات كان أحلها لهم، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقْرِي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، وقال: قرأ ابن عباس: «طيبات كانت أحلت لهم». وهذا التحريم قد يكون قديراً، بمعنى: أنه تعالى قبضهم لأن تناولوا في كتابهم، وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنظماً. ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى: أنه تعالى حُرِّمَ عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلنَّبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد: أن الجميع من الأطمعة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حُرِّمَ إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والأبناها. ثم إنه تعالى حُرِّمَ أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَكَمْتَ فَهُوَ رُحْمًا أَوْ الْخَوَاصِ أَوْ مَا اتَّخَطَطَ يُعَلِّقُ ذَلِكَ جَرْتَهُمْ يَتِيمًا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: إنما حُرِّمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيتهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه. ولهذا قال: ﴿فَيُظَلَّرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ غَنِيٌّ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٩٤] أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سجيئة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلفاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهما. وقوله: ﴿وَأَخْرَجَهُمُ الْأَرْضَ وَقَدْ نَبُوهُنَّ عَنْهُ﴾ أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الْأَكْثَرِينَ فِي الْغَيْبِ مِنْهُمْ﴾ أي: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية. وأسد وزيد بن سعية وأسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ. وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ هكذا هو في جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أبي بن كعب. وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود: «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع. ثم رذ على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالْعَدِينَ فِي الْقِسَاسِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، قالوا: وهذا سائق في كلام العرب، كما قال الشاعر:

لَا يَبْعَدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مَفْتَرِكٍ
سُئِمَ الْعَمْدَةُ وَأَفْسَهُ الْجُزْرُ
وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزْرِ

وقال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: وبالمقيمين الصلاة. وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة، أي: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة، وهذا اختيار ابن جرير، يعني: يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالملائكة. وفي هذا نظر والله أعلم. وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم. ﴿وَالْمُسْتَوُونَ بِاللَّهِ وَالْيَتِيمَ الْأَخْيَرُ﴾ أي: يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيراً وشرها. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَتُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّينِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَغَدْرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [سورة الأَنْعَامِ: ١٢٤] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [سورة الْأَنْعَامِ: ١٢٥] ﴿رُسُلًا مُبْتَلِينَ وَمُؤْتِرِينَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة الْأَنْعَامِ: ١٢٦].

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال سُكَيْنٌ وعدي بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّينِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وإلى آخر الآيات. وقال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مغشَّر، عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وقولهم على مريم

بِهِنَّ عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾ فما تلاها عليهم - يعني على اليهود - وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا موسى ولا عيسى، ولا على نبي من شيء. قال: فَحَلَّ حُبُوتَهُ، وقال: ولا على أحد. فانزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وفي هذا الذي قاله محمد بن كعب القرظي نظر؛ فإن هذه الآية مكية في سورة الأنعام، وهذه الآية التي في سورة النساء مدنية، وهي رد عليهم لما سألو النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، ثم ذكر فضائحهم ومعائبهم وما كانوا عليه، وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء. ثم ذكر تعالى أنه أوحى إليه ربه ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَبَسْتَ وَاسْتَمِعْتَ لِلرَّاسِخَاتِ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ ﴿١٦٤﴾. والزبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود، عليه السلام، وستذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، عند قصصهم في السور الآتية، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان. وقوله: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قُصِّصَتْهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: من قبل هذه الآية، يعني: في السور المكية وغيرها. وهذه تسمية الأنبياء الذين نُصَّ على أسمائهم في القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَرَسُولًا لَمْ نَقْصِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: خلقاً آخرين لم يذكر في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مَرْدُويه، رحمه الله، في تفسيره، حيث قال: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن، والحسين بن عبد الله بن يزيد قالوا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثني أبي عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمَ غَيْرٍ». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، ونوح، وخنوخ - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم - وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبينا يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول النبيين آدم، وآخرهم نبيك».

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه: «الأنواع والتقساميم» وقد وَسَمَهُ بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فإله أعلم. وقد روي الحديث من وجه آخر، عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَمَ غَيْرِ». حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَمَ غَيْرِ». حدثنا أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري، حدثنا مكِّي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة الرَّبِذِي، عن يزيد الرِّقَاشِي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلى سائر الناس». وهذا أيضاً إسناد ضعيف، وعليه بن يزيد ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، حدثنا محمد بن خالد الأنصاري، عن يزيد الرِّقَاشِي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا». وقد رويته عن أنس من وجه آخر، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو الفضل بن عساكر، أنبأنا الإمام أبو بكر القاسم بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمه أبي، عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار، أخبرنا الشريف أبو السنابك هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القُرَشِي، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإِسْفَرَابِي، قال: أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإِسْمَاعِيلِي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن صفوان بن سُلَيْم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت على إثر من ثلاثة آلاف نبي من بني إسرائيل». وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق

هذا، فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح، والله أعلم.

حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام:

قال محمد بن الحسين الآجري: حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفزاري بملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جده عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده، فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة. قال: «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل». قال: قلت: يا رسول الله، فأبي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله». قلت: يا رسول الله، فأبي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». قلت: يا رسول الله، فأبي المسلمين أسلم؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده». قلت: يا رسول الله، فأبي الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر السيئات». قلت: يا رسول الله، أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قلت: يا رسول الله، فأبي الصيام أفضل؟ قال: «فرض مجزئ» وعند الله أضعاف كثيرة. قلت: يا رسول الله، فأبي الجهاد أفضل؟ قال: «من غرر جواده وأهريق دمه». قلت: يا رسول الله، فأبي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». قلت: يا رسول الله، فأبي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل، وسر إلى فقير». قلت: يا رسول الله، فأبي آية ما أنزل عليك أعظم منها؟ قال: «آية الكرسي». ثم قال: «يا أبا ذر، وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة». قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قال: قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة، وثلاثة عشر جَمَّ غَفِيرٌ كثير طيب». قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسوّاه قبيلاً». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وخنوخ - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم - ونوح. وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيك يا أبا ذر. وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد». قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف والإنجيل والزبور والفرقان». قال: قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت كلها: يا أيها الملك المسلط المبتلي المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من كافر. وكان فيها مثال: وعلى العاقل أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ضاعفاً إلا ثلاث: تزود لمعاد، أو مرّة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حبيب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه». قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يتنصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما في أيدي إبراهيم وموسى، وما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَنلَحَ مِنْ زَكَّٰةٍ﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبَّهُ فَصَلَّ﴾ (١٥) بَلْ تُؤَيَّدُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَيُّنَّ﴾ (١٧) إِنَّ هَذَا لَيِّنِي الْأَعْشِيفِ الْأَوْلَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَتُورَتِي﴾ (١٩)﴾ [الاعلى: ١٤ - ١٩]. قال: قلت: يا رسول الله، فأوصني. قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك». قال: قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «عليك بتلاوة القرآن، وذكّر الله، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض». قال: قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «إياك وكثرة الضحك. فإنه يميم القلب، ويذهب بنور الوجه». قلت: زدني. قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي». قلت: زدني. قال: «عليك بالصمت، إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك». قلت: زدني. قال: «انظر إلى من هو تحتك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك ألا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدني. قال: «صل قربانك وإن قطعوك». قلت: زدني. قال: «قل الحق وإن كان مرأ». قلت: زدني. قال: «لا تخف في الله لومة لائم». قلت: زدني. قال: «يُردُّكَ عن الناس ما تعرف عن نفسك، ولا تجد عليهم فيما تحب، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك. أو تجد عليهم فيما تحب». ثم ضرب بيده صدره، فقال: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا وزع كالكف، ولا حسب كحسّن الخلق». وروى الإمام أحمد، عن أبي المغيرة، عن معان بن رفاع،

عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن أبا ذر سأل النبي ﷺ، فذكر أمر الصلاة، والصيام، والصدقة، وفضل آية الكرسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأفضل الشهداء، وأفضل الرقاب، ونبوة آدم، وأنه مُكَلَّم، وعدد الأنبياء والمرسلين، كنعوا ما تقدم. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخطه: حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا مُجَالِد عن أبي الوَدَّاع قال: قال أبو سعيد: هل تقول الخوارج بالدجال؟ قال: قلت: لا. فقال: قال رسول الله ﷺ: «إني خاتم ألف نبي أو أكثر، وما بُعث نبي يُتَّبَع إلا وقد حذر أمته منه، وإني قد بُيِّن لي ما لم يُبيِّن لأحد، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخامة في حائط مُجَصَّص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء تَدَخُن». وقد رويناه في الجزء الذي فيه رواية أبي يعلى الموصلي، عن يحيى بن معين، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا مُجَالِد، عن أبي الوَدَّاع، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أختم ألف نبي أو أكثر، ما بعث الله من نبي إلى قومه إلا حذرهم الدجال...». وذكر تمام الحديث، هذا لفظه بزيادة «ألف» وقد تكون مُفَحَّمة، والله أعلم. وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، ورجال إسناد هذا الحديث لا بأس بهم، وروي هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مُجَالِد، عن الشَّعْبِي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أُنذِر قومه الدَّجَال، وإنه قد بُيِّن لي ما لم يُبيِّن لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور».

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وهذا تشريف لموسى عليه السلام، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم. وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْه: حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مَسِيح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثَّاب، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبد الرحمن السُّلَمِي، وقرأ أبو عبد الرحمن، عَلِيُّ بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيَّاش، رحمه الله، على من قرأ كذلك؛ لأنه حَرَف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى، عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال له: يا ابن اللُّخْنَاء، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. وقال ابن مَرْدُوَيْه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن الحسين بن بَهْرَام، حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا هانئ بن يحيى، عن الحسن بن أبي جعفر، عن قتادة، عن يحيى بن وثَّاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلم الله موسى كان يُبَصِّرُ ديبب التمل على الصفا في الليلة الظلماء». وهذا حديث غريب، وإسناده لا يصح، وإذا صح موقوفاً كان جيداً. وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه، من حديث حميد بن قيس الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كان على موسى يوم كلمه ربُّه جبة صوف، وكساء صوف، وسراويل صوف، ونعلان من جلد حمار غير ذكي». وقال ابن مردويه بإسناده عن جُوَيْر، عن الضَّحَّاك عن ابن عباس قال: إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة، في ثلاثة أيام، وصايا كلها، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم مما وقع في مسامعه من كلام الرب، ﷻ.

وهذا أيضاً إسناد ضعيف، فإن جُوَيْرِيراً ضعيف، والضَّحَّاك لم يدرك ابن عباس، رضي الله عنه. فأما الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدُوَيْه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرُّقَاشِي، عن محمد بن المُتَكَبِّر، عن جابر بن عبد الله قال: لما كلم الله موسى يوم الطور، كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب، هذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: لا يا موسى، أنا كلمتك بقوة عَشْرَةِ آلاف لسان، ولي قوة الألسنة كلها، وأنا أقوى من ذلك. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى، صِف لنا كلام الرحمن. قال: لا أستطيعه. قالوا: فَنَبِّه لنا. قال: ألم تسمعوا إلى صوت الصواعق فإنها قريب منه، وليس به. وهذا إسناد ضعيف، فإن الفضل هذا الرُّقَاشِي ضعيف بمره. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، عن جَزء بن جابر الخُفَّعِي، عن كعب قال: إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها سيوى كلامه، فقال له موسى يا رب، هذا كلامك؟ قال: لا، ولو كلمتك بكلامي لم تَسْتَقِمْ له. قال: يا رب، فهل من خلقك شيء يشبه كلامك؟ قال: لا، وأشد خلقي شبيهاً بكلامي أشد ما تسمعون من الصواعق. فهذا موقف على كعب الأحبار، وهو

يحكي عن الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بني إسرائيل، وفيها الغُثُّ والسَّمِينُ.

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يبشرون من أطاع الله وأتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب. وقوله: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: إنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبيارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَنَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئُكَ بِمَا فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [طه: ١١٣٤]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئُكَ بِمَا فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين» وفي لفظ: «من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه».

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُجُوبٍ وَالْمَلَكُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١١٣٥] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ صَلُّوا سَلْطَلًا بَعِيدًا ﴿١١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَظَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٣٧﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٣٨﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٣٩﴾

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [المرج: ١٠٤] إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: وإن كفر به من كفر به ممن كذب وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيْلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِحُجُوبٍ﴾ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البيئات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يُعَلِّمَهُ اللهُ بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن بن سهل الجعفري وخزرج بن المبارك قالا: حدثنا عمران بن عيينة، حدثنا عطاء بن السائب قال: قرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ: ﴿أَنْزَلَهُ بِحُجُوبٍ وَالْمَلَكُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُشْهَدُونَ﴾ أي: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقد قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم الله - أنكم لتعلمون أني رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُجُوبٍ وَالْمَلَكُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١١٣٦]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ صَلُّوا سَلْطَلًا بَعِيدًا﴾ [١١٣٧] أي: كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والاقتراب به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: سبيلاً إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء ينقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله، ﷻ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم. ثم قال: ﴿وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفر انكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ كَفَرْتُمْ أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وقال ههنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في

أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَأْتِيهَا الْكُتُبُ لَا تَسْأَلُ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَسْأَلُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْ رَبِّهِ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا نَحْنُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [١١٤٠].

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فأدعوا فيهم العصمة واتبعوه في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْقَابَهُم مَّزَكِّاتًا وَمَا يَرْثُهَا إِلَّا عِبَادُهُمْ وَإِنَّمَا آلُ مَرْيَمَ وَمَرْيَمُ وَمَنْ آوَى إِلَهُهَا وَإِلَهُهَا وَإِلَهُهُمُ اللَّهُ الَّذِي يُرِيدُ مَا يُرِيدُ وَاللَّهُ سَعِيدٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٣١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم قال: زعم الزُّهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُنْبَةَ بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُظْرُونِي كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله». ثم رواه هو وعلي بن المدني، عن سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن الزُّهري كذلك. وقال علي بن المدني: هذا حديث صحيح سنده. وهكذا رواه البخاري، عن الحُمَيْدي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري، به. ولفظه: «فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حُمَاد بن سَلَمَةَ، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيكُمْ الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ». تفرد به من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزهه وتقدس وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ وَكَلِمَةٌ أُنثِيَ إِلَيْ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنِّي﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألَّفاهَا إلى مريم. أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل، عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه، ﷻ فكان عيسى بإذن الله، ﷻ وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب ذرعها، فنزلت حتى ولَّجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله، ﷻ؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُثْبُتُ صِدْقُهُ كَمَا بَدَأْنَا الْإِنْسَانَ طِينًا﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا فَفَعَّضْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْآتِينَاتِ﴾ [التحریم: ١٢]. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَتْهَا إِلَيْ مَرْيَمَ﴾، هو كقوله: ﴿كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكان وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذَّ بن يحيى يقول: في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَتْهَا إِلَيْ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنِّي﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى. وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿أَلْفَتْهَا إِلَيْ مَرْيَمَ﴾ أي: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَنْشُرُ لِي كَلِمَةً مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُفَلِّقَ إِلَيْكَ الْكَلِمَتَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى، عليه السلام. وقال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا الوليد، حدثنا الأزاعي، حدثني عُمَيْر بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألَّفاهَا إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عُمَيْر بن هانئ، عن جُنَادَةَ زاد: «من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء». وكذا رواه مسلم، عن داود بن رشيد، عن الوليد، عن ابن جابر، به. ومن وجه آخر، عن الأزاعي، به.

فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِّنِّي﴾، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجناب: ١٣] أي: من خلقه ومن عنده، وليست «من» للتبعيض، كما تقولوه النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى. وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنِّي﴾ أي: ورسول منه. وقال غيره: ومحبته منه. والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾

[أمر: ٦٤]. وفي قوله: ﴿وَلَهُرَّبِّي لِلْغَالِبِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف لها، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد. وقوله: ﴿فَقَائِمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَقَائِمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا ﴿١٧٢﴾﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ١٧٣]. وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْحَدِنِي وَإِنِّي لَمَلَكٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦]، وقال في أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: ١٧٢]، فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضب ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفأ، فكانوا أحراباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بشمانيه عشر نفرأ، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها - وكان فيلسوفأ ذا هيئة - ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دسئت أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبأ وقوانين، وأحدثوا الأمانة التي يلقتونها الولدان من الصغار - ليعتقدوها - ويُعتمدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية. وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا، أو ما اتحدا، بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بِإِيجِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَكَانَ لَهُمْ صُحُفٌ وَمَخَافٌ كُلُّ قَوْمٍ مَعَهُ عِلْمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرَى أَلْبَابُ هَذَا ۗ إِنَّ دَعْوَا الرَّحْمَنِ لَكَا ۗ وَمَا يَبْغِي الرَّحْمَنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَى الرَّحْمَنُ عِبَادًا ۗ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨-٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخِرْ فِسْحَتُهُمْ إِلَيْهِ جِيماً ۗ فَأَمَّا الْيَهُودُ فَأَمَّاؤُا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِي. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَخِيدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا ۗ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جزيج، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وقد استدلل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وليس له في ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا؛ لأنهم اتخذوا الهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَ بِلْ عِبَادِ مَكْرُورًا ۗ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُتَّفِقُونَ ۗ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۗ﴾

[الأنبياء: ٢٦-٢٩]. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنِ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَحَرْنَاهُ إِلَىٰ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفضل بينهم بحكمه العَدْل، الذي لا يجور فيه ولا يَحيِف؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه. وقد روى ابن مَرْدُويه من طريق بَقِيَّة، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن سفيان، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: «أجورهم: أدخلهم الجنة». ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: «الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم». وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عافر: ٦٠]

أي: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين. ﴿يَأْتِيَانِهَا نَارًا مَدْمُومَةً بِيْنِ رِجْلَيْهِمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، سَكَبْتُمْ فِي رَحْمَتِي وَفَضَّلْتُمْ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿١٧٥﴾.

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة المزيله للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جرير وغيره: وهو القرآن. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. وقال ابن جرير: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن. رواه ابن جرير. ﴿فَسَكَبْتُمْ فِي رَحْمَتِي وَفَضَّلْتُمْ﴾ أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: طريقاً واضحاً قاضياً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات. وفي حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين». وقد تقدم الحديث بتامه في أول التفسير، والله الحمد والمنة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَرْتُمَا هَكَاءَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَكُمْ أُنثَىٰ فَهِيَ تَصِفُ مَا تَرَكْتُمْ وَهِيَ رَهْمَةٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْمَانَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْهُنَانُ بَيْنَ تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجَاةً وَلَا نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثَيْنِ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا وَاللَّهُ يَكْتُبُ لِمَنْ يُشَاءُ عَلَيْهِ﴾ ﴿١٧٦﴾.

قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ، ثم صبّ عليّ - أو قال صبوا عليه - فمقلت فقلنت: إنه لا يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ قال: فنزلت آية الفرائض. أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به. وفي بعض الالفاظ: فنزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان وقال أبو الزبير قال: - يعني جابراً - نزلت في: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وكان معنى الكلام - والله أعلم - ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: عن الكلاله قل: الله يفتيكم فيها، فدل المذكور على المتروك. وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنْ أَرْتُمَا هَكَاءَ﴾ أي مات ﴿لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾. وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مغدان بن أبي طلحة قال: قال عمر بن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بأضبعه في صدري وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء». هكذا رواه مختصراً وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك - يعني ابن مغل - سمعت الفضل بن عمرو، عن إبراهيم، عن عمر قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلاله، فقال: «يكفيك آية الصيف». فقال: لأن أكون سألت النبي ﷺ عنها أحب إليّ

من أن يكون لي حُمر التَّعم. وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عُمَر، فإنه لم يدركه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الكلالة، فقال: «يكفيك آية الصيف». وهذا إسناد جيد، رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر بن عيَّاش، به. وكان المراد بآية الصيف: أنها نزلت في فصل الصيف، والله أعلم. ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها - فإن فيها كفاية - نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها؛ ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمر التَّعم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير عن الشيباني، عن عمرو بن مُرة، عن سعيد بن المسيَّب قال: سألت عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة، فقال: «اليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية. وقال قتادة: ذُكر لنا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في خطبته: ألا إن الآية التي أنزلت في أول «سورة النساء» في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد والوالد. والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم. والآية التي ختم بها «سورة النساء» أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها «سورة الأنفال» أنزلها في أولي الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرت الرحمة من العصبية. رواه ابن جرير.

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرْمَأُ هَآئِكَ﴾ أي: مات، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله ﷻ، كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَسْبِقُ نَجْمُهُ زَيْدٌ ذُو الْمُنْتَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾ تسلك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذي رجح إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَدٌ أَخْتٌ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن مكحول وعطية وحمزة وراشد، عن زيد بن ثابت: أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوج النصف والأخت النصف. فكلم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك. تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿إِنْ أَرْمَأُ هَآئِكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ أَخْتٌ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ﴾ قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً، فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور، فقالوا في هذه المسألة: للبت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية وهذه نص أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب؛ فلما رواه البخاري من طريق سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للابنة، والنصف للأخت. ثم قال سليمان: قضى فينا ولم يذكر: على عهد رسول الله ﷺ. وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزبل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأثبت ابن مسعود فسيتابعني. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبي موسى - فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتمدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، والابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحير فيكم. وقوله: ﴿وَمَوْءُؤُا يَرِيهَآ إِنَّمَا يَكُن لَهَا وَوَلَدٌ﴾ أي: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد، أي: ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض، صرف إليه فرضه؛ كزوج، أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحِقُوا الْفَرَايِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبَقَتِ لِلْفَرَايِضِ فَلْأَوْلَى رَجُلٌ ذَكَرَ». وقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ بِمَا تَرَكَ﴾ أي: فإن كان لمن يموت كلاله، أختان، فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات، في قوله: ﴿فَإِن كَانَتْ إِسَاءَةٌ فَوَقَّيْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثَا مَا تَرَكَ﴾. وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. هذا حكم العصبات من البنين وبنين البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطى الذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

وقوله: ﴿يَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله: ﴿أَنْ تَسْلُوا﴾ أي:

لثلاث تطلوا عن الحق بعد البيان. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَلَيْكَ﴾ أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى. وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيْه، أنبأنا ابن عَزْن، عن محمد بن سيرين قال: كانوا في مسير، ورأس راحلة حذيفة عند رذف راحلة رسول الله ﷺ، ورأس راحلة عمر عند رذف راحلة حذيفة. قال: ونزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُتَّبِعُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فلماها رسول الله ﷺ حذيفة، فلماها حذيفة عَمْر، فلما كان بعد ذلك سأل عَمْر عنها حذيفة فقال: والله إنك لأحمق إن كنت ظننت أنه لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتها كما لقانيها، والله لا أزيدك عليها شيئاً أبداً قال: فكان عمر رضي الله عنه يقول: «اللهم إن كنت بيتها له فإنها لم تبين لي». كذا رواه ابن جرير: ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين كذلك بنحوه. وهو منقطع بين ابن سيرين وحذيفة، وقد قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا يوسف بن حماد المغنّي، ومحمد بن مرزوق قالوا: أخبرنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن أبيه: «نزلت الكلاله على النبي ﷺ وهو في مسير له، فوقف النبي ﷺ وإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقه حذيفة عند مؤتزر النبي ﷺ، فلماها إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر، رضي الله عنه، فلماها إياه، فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلاله، فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حذيفة: لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتك كما لقاني، والله إني لصديق، والله لا أزيد على ذلك شيئاً أبداً. ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحد رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق، ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى. وكذا رواه ابن مَرْدُويه من حديث عبد الأعلى. وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن الشيباني، عن عمرو بن مرة، عن سعيد - هو ابن المسيب - أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف يؤت الكلاله؟ قال: فأنزل الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُتَّبِعُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية، قال: فكان عمر لم يفهم. فقال لحفصة: إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسله عنها، فرأت منه طيب نفس فسألته عنها، فقال: «أبوك ذكر لك هذا؟ ما أرى أباك يعلمها». قال: وكان عمر يقول: ما أراني أعلمها، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال.

رواه ابن مَرْدُويه، ثم رواه من طريق ابن عيينة، عن عمرو، عن طاوس: أن عمر أمر حفصة أن تسأل النبي ﷺ عن الكلاله، فأملأها عليها في كتف، فقال: «من أملك بهذا؟ أعمر؟ ما أراه يقيمها، أو ما تكفي آية الصيف؟» قال سفيان: وآية الصيف التي في النساء: ﴿وَإِنْ كَانَتْ زَجَلًا يُؤْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾، فلما سألوها رسول الله ﷺ نزلت الآية التي هي خاتمة النساء، فالتقى عمر الكتف. كذا قال في هذا الحديث، وهو مرسل. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثام، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: «أخذ عمر كتفاً وجمع أصحاب النبي ﷺ، ثم قال: لأقضي في الكلاله قضاء تُحدث به النساء في خدورهن. فخرجت حينئذ حية من البيت، فتفرقوا، فقال: لو أراد الله ﷻ، أن يتم هذا الأمر لأتمه. وهذا إسناد صحيح. وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: حدثنا علي بن محمد بن عقبة الشيباني بالكوفة، حدثنا الهيثم بن خالد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت محمد بن طلحة بن يزيد بن زكاته يحدث عن عمر بن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حُمُر النعم من الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقْرُ في الزكاة من أموالنا ولا نؤديها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلاله. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ثم روي بهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن عمر قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بيتهن لنا أحب إلي من الدنيا وما فيها: الخلافة، والكلالة، والربا. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال: سمعت سليمان الأحول يحدث، عن طاوس قال: سمعت ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعت يقول: القول ما قلت؟ وما قلت؟ قال قلت: الكلاله، من لا ولد له. ثم قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وهكذا رواه ابن مَرْدُويه من طريق زَمْعَةَ بن صالح، عن عمرو بن دينار وسليمان الأحول، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، قال: اختلفت أنا وأبو بكر في الكلاله، والقول ما قلت. قال: وذكر أن عمر شرك بين الأخوة للآب وللأم، وبين الأخوة للأم في الثلث إذا اجتمعوا، وخالفه أبو بكر، رضي الله عنهما. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن حَمِيد المَعْمَرِي، عن مَعْمَر بن الزُهْرِي، عن سعيد بن المسيب: أن عمر كتب في الجَدِّ والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله فيه يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه، حتى إذا طعن دعا بكتاب فمحي، ولم يدر أحد ما كتب فيه. فقال: إني كنت كتبت في الجَدِّ والكلالة كتاباً، وكنت استخرت الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه. قال ابن جرير: وقد روي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أباً بكر. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يقول: هو ما عدا الولد

والوالد. وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة. وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.



تفسير سورة المائدة وهي مدنية

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الثَّضْر، حدثنا أبو معاوية شَيْبَان، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لأخذة بزمام العَضْبَاء ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تُدَقُّ عَضْد الناقه. وروى ابن مَرْذُويه من حديث صالح بن سَهْلِيل، عن عاصم الأحول قال: حدثتني أم عمرو، عن عمها؛ أنه كان في مَسِير مع رسول الله ﷺ، فنزلت عليه سورة المائدة، فاندَقَّ عُنُقُ الرَّاحِلَة من ثقلها. وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لُهَيْعَة، حدثني حُيَيْب بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها. تفرد به أحمد. وقد روى الترمذي عن قُتَيْبَة، عن عبد الله بن وَهَب، عن حُيَيْب، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت: سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١]. وقد روى الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الله بن وهب بإسناده، نحو رواية الترمذي، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الحاكم أيضاً: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا بحر بن نصر قال: فرأى على عبد الله بن وَهَب، أخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نُفَيْر قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألتهما عن حُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: القرآن. ورواه النسائي من حديث ابن مهدي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا بَيْنَ عَلَيْكُمْ عَهْدٌ مُبْلَغٌ الصِّدْقِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْمَاءَ الْكُرَامِ وَلَا الْأَسْدَى وَلَا الْقَلْبَدِ وَلَا آيَاتِ الْكُرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُ قَوْمٍ أَنْ سَدَوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَمْتَدُوا وَتَمَازُوا عَلَى الْبَرِّ وَالْقَوَىٰ وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِمْرِ وَالْمَدْرَىٰ وَأَنْفُوا إِنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مِسْعَر، حدثني مَعْن وَعَوْف - أو: أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فازعها سَمْعَكَ، فإن خَبِرَ بِأمره، أو شَرِيهَ عنه. وقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دُحِيم - حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاعلوا، فالنبي ﷺ منهم. وحدثنا أحمد بن سَيَّان، حدثنا محمد بن عُبَيْد، حدثنا الأعمش، عن حُيَيْبَة قال: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: «يا أيها المساكين». فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدثنا معاوية - يعني: ابن هشام - عن عيسى بن راشد، عن علي بن بُدَيْبَة، عن عِكْرَمَة، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أن علياً سيدها وشريفها وأميرها، وما من أصحاب النبي ﷺ أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب، فإنه لم يعاتب في شيء منه. فهو أثر غريب، ولفظه فيه نكارة، وفي إسناده نظر. قال البخاري: عيسى بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر. قلت: وعلي بن بديمة - وإن كان ثقة - إلا أنه شيعي غال، وخبره في مثل هذا فيه تهمه فلا يقبل. وقوله: «ولم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا علياً» إنما يشير به إلى الآية الأمرة بالصدقة بين يدي النجوى، فإنه قد ذَكَرَ غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي، ونزل قوله: ﴿وَأَنْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُرَيْدِكُمْ سَدَقَتِي إِذْ لَرْتُمْ قَمَلُوا وَتَابَ اللَّهُ﴾ الآية [المجادلة: ١٣]، وفي كون هذا عتاباً نظراً؛ فإنه قد قيل: إن الأمر كان ندباً لا إيجاباً، ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم ير من أحد منهم خلافة. وقوله عن علي: «إنه لم

يعاتب في شيء من القرآن» فيه نظر أيضاً؛ فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء عمت جميع من أشار بأخذه، ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فعلم بهذا، وبما تقدم ضَعُفُ هذا الأثر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس قال: قال محمد بن مسلم: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كُتِبَ لعمر بن حَزْمٍ حين بعته إلى نَجْرَانَ، وكان الكتاب عن أبي بكر بن حزم، فيه: هذا بيان من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها حتى بلغ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا يونس بن بُكَيْرٍ، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا، الذي كتبه لعمر بن حَزْمٍ، حين بعته إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم. فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، حين بعته إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون». قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود: ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني بالعهود: يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حُد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْكُمْ بَدْرٍ يَتَّقُوهُ وَيَقِيمُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُؤْتُوا﴾ إلى قوله: ﴿سَوْءَ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. وقال الضحاك: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: ما أحل وما حرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي ﷺ والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام. وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال: هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. وقال محمد بن كعب: هي خمسة، منها: حلف الجاهلية، وشركة المفوضة. وقد استدلل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة، ومالك. وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وفي لفظ للبخاري: «إذا تابع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا». وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقد.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَمِيرِ﴾ هي: الإبل، والبقر، والغنم. قاله الحسن وقتادة وغير واحد. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. وقد استدلل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من طريق مُجَالِدٍ، عن أبي الودَّاعِ جبر بن نَوْفٍ، عن أبي سعيد، قال: قلنا: يا رسول الله، نحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم ناكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه». وقال الترمذي حديث حسن. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عَتَّابُ بن بشير، حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القُداحِ المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». تفرد به أبو داود.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَبْلُغُ عَلَيْكُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وقال قتادة: يعني بذلك الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ وَلِحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ بَيْتِهِ مِنَ الْمَمْدُونِ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالطَّيْبَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ يعني: منها. فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاحقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَمِيرِ إِلَّا مَا يَبْلُغُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما ستبلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقوله: ﴿غَيْرِ مَجْهُولِ الْقَتِيلِ وَأَنْتُمْ حَرَّمَ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال. والمراد من الأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي ما تقدم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام. وقيل: المراد أحللتنا لكم الأنعام إلا ما استثنى لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، كقوله: ﴿فَمَنْ أَحْبَطَ بِغَيْرِ بَيْعٍ وَلَا عَارٍ﴾ أي: أبحننا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باع ولا عاد، أي: كما أحللتنا الأنعام لكم في جميع الأحوال، فحرموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا

يُرِيدُ ﴿١﴾ . ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْتَكُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج . وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدي والبُدن من شعائر الله . وقيل: شعائر الله محارمه التي حرّمها، أي: لا تحلوا محارم الله التي حرّمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا اتَّخَذْتُمُ الْحَرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشُّرَكَاءِ مِنَ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فَقَالَ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الآية: التوبة: ٣٦] . وفي صحيح البخاري: عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُمٌ، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» . وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا اتَّخَذْتُمُ الْحَرَامَ﴾ يعني: لا تستحلوا قتالاً فيه . وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك الجزري، واختاره ابن جرير أيضاً، وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره . وقد حكى الإمام أبو جعفر رحمه الله الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان . ولهذه المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا .

وقوله: ﴿وَلَا الْمُدَىٰ وَلَا الْأَقْتَبَ﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت؛ فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليديها في أناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هَدْيٍ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً؛ ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة، وهو وادي العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهل بالحج والعمرة وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شِكْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٧] . قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها . وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . رواه أهل السنن . وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا الْأَقْتَبَ﴾: فلا تستحلوا . وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به . رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان: آية القتل، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاعْتَمِدُوا عَلَيْهِمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] . وحدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عوف قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال: لا . وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم، فيأمنون، فنهى الله عن قطع شجره . وكذا قال مطرف بن عبد الله . وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتِغُونَ فِتْنًا وَيَنْهَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَرْضُونَ﴾ أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً لفضل الله وراغباً في رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد، وعطاء، وأبو العالية، ومطرف بن عبد الله، وعبد الله بن عبيد بن عمير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَبْتِغُونَ فِتْنًا وَيَنْهَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني بذلك: التجارة .

وهذا كما تقدم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَتْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] . وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم . وقد ذكر عكرمة، والسُّدي، وابن جرير: أن هذه الآية نزلت في الحطيم بن هند البكري، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتِغُونَ فِتْنًا وَيَنْهَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَرْضُونَ﴾ . وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس؛ فإن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِمَدْعَائِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق على الحجيج -

عَلِيًّا، وأمره أن ينادي على سبيل النياحة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وألا يحج بعد العام مُشْرِكًا، ولا يطوفن بالبيت عُزِيَان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: يعني من توجه قِبَلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام، فهني الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِتَدَابُؤِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ مَأْمَنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنفي المشركين من المسجد الحرام. وقال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَرٌ، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا الْفَلَقِيَدَ وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد. وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا ألا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت، فنسخها قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا الْفَلَقِيَدَ﴾ يعني: إن تقلد قلادة من الحرم فأموتوه، قال: ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك، قال الشاعر:

أَلَمْ تَفْشَلَا الْحَزْجِيْنَ إِذْ أَعْوَرَا لَكُمْ يَمْرَانُ الْإَيْدِي الْلُحَاءِ الْمُسْضَفْرَا
وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السُّبُر: أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة، يرد عليه آيات أخر، والذي ينظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَمْتَدُّوا﴾: ومن القراء من قرأ: «أن صدوكم» بفتح الألف من «أن»، ومعناها ظاهر، أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا في حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد. وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَمْتَدُّوا وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالْقَوَائِمِ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَهْلُ بْنُ عُمَانَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم. فأنزل الله هذه الآية. والشأن هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شَنَانُهُ أَسْنُونُهُ شَنَاَنًا، بالتحريك، مثل قولهم: جَمَزَانَ، وَدَرَجَانَ وَرَفْلَانَ، من جمز، ودرج، ورفل. قال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك في شَنَانٍ، فيقول: شَنَان. قال: ولم أعلم أحداً قرأ بها، ومنه قول الشاعر:

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي وَإِنْ لَمْ فِيهِ ذُو الشُّئَانِ وَقُئِدَا
وقوله: ﴿وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالْقَوَائِمِ وَلَا تَمَآوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم.

قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم، ومجاوزة ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن جده أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحجزه تمنعه، فإن ذلك نصره». انفرد به البخاري من حديث هُشَيْمٍ به نحوه، وأخرجه من طريق ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يحيى بن وثاب، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». وقد رواه أحمد أيضاً في مسند عبد الله بن عمر: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ، قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على

آخرهم . وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وإياك والميتات لا تقربئها ولا تأخذن عظاماً حديداً فتفصدا
أي : لا تفعل كما يفعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه ، فيفصد به بغيره أو حيواناً
من أي صنف كان ، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ؛ ولهذا حُرِّمَ الله الدم على هذه الأمة ، ثم قال الأعشى :

وذا النَّصْبُ الْمَنْصُوبُ لَا تَأْتِيَهُ وَلَا تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَاللَّهُ فاعبدا

وقوله : ﴿وَلَمْ يَنْزِرْ﴾ يعني : إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله : ﴿يَنْزِرُ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ دَمًا مَسْفُورًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] ، أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير ، حتى يعم جميع أجزائه ، وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد ، وفي صحيح مسلم ، عن بُرَيْدَةَ بن الخصب الأسلمي ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من لعب بالترذشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه» فإذا كان هذا التفسير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» . فقيل : يا رسول الله ، رأيت شحوم الميتة ، فإنها تطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبغ بها الناس؟ فقال : «لا ، هو حرام» . وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان : أنه قال لهرقل ملك الروم : «نهانا عن الميتة والدم» .

وقوله : ﴿وَمَا أَهْلٌ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي : ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام ؛ لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك ، من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء في المتروك التسمية عليه ، إما عمداً أو نسياناً ، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام . وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن الهيثمي ، حدثنا نعم بن حماد ، حدثنا ابن فضيل ، عن الوليد بن جُمَيْع ، عن أبي الطفيل قال : نزل آدم بتحريم أربع : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وإن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط ، ولم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم ، فلما بعث الله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم عليه السلام ، وأحل لهم ما سوى ذلك فكذبوه وعصوه . وهذا أثر غريب .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ربيعة بن عبد الله قال : سمعت الجارود بن أبي سبيرة - قال : هو جدي - قال : كان رجل من بني رِيَّاح يقال له : ابن وَثِيل ، وكان شاعراً ، نافر - غالباً - أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة ، على أن يعقر هذا مائة من إبله ، وهذا مائة من إبله ، إذا وردت الماء ، فلما وردت الماء قاما إليها بالسيوف ، فجعلتا يَكْسِفَانِ عَرَاقِيهَ . قال : فخرج الناس على الحميرات والبغال يريدون اللحم - قال : وعَلِيٌّ بالكوفة - قال : فخرج عليٌّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي : يا أيها الناس ، لا تأكلوا من لحومها وإنما أهل بها لغير الله . هذا أثر غريب ، ويشهد له بالصححة ما رواه أبو داود : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا حماد بن مسعدة ، عن عوف ، عن أبي زُرَّحَانَةَ ، عن ابن عباس قال : نهى النبي ﷺ عن معاقرعة الأعراب . ثم قال أبو داود : محمد بن جعفر - هو عُثْدَرُ - وقفه على ابن عباس . تفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضاً : حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء ، حدثنا أبي ، حدثنا جرير بن حازم ، عن الزبير بن خريت قال : سمعت عكرمة يقول : إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل . ثم قال أبو داود : أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس . تفرد به أيضاً .

وقوله : ﴿وَالْمَنْحِقَةُ﴾ وهي التي تموت بالخنق إما قصداً أو اتفاقاً ، بأن تتخبل في وثاقها فتموت به ، فهي حرام . وأما ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ، كما قال ابن عباس وغير واحد : هي التي تضرب بالحشَب حتى تُوقَدَ بها فتموت . وقال قتادة : كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح : أن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إنني أرمي بالمِعْرَاضِ الصيد فأصيب . قال : «إذا رميت بالمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ ، وإن أصابه بَعْرَاضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ» . ففرق بين ما أصابه بالسهم ، أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله ، وما أصابه بعرضه فجعله وقيداً

فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله: أحدهما: أنه لا يحل، كما في السهم، والجامع أن كلاً منهما ميت بغير جرح فهو وقيد. والثاني: أنه يحل؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنه قد دخل في العموم. وقد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب ههنا.

فصل:

اختلف العلماء، رحمهم الله تعالى، فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه، أو صدمه، هل يحل أم لا؟ على قولين: أحدهما: أن ذلك حلال؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]. وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم، وهذا قول حكاها الأصحاب عن الشافعي، رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي. قلت: وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضوعين: «يحتمل معنيين». ثم وجه كلاً منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسألة قولين عنه، اللهم إلا أنه في بحثه حكايته للقول بالحل رشحه قليلاً، ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به. والقول بذلك، أعني الحل، نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة، من رواية الحسن بن زياد، عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاها في تفسيره عن سلمان الفارسي، وأبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر. وهذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه، رحمه الله ورضي عنه.

والقول الثاني: أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعي، رحمه الله، واختاره المُرْزِي ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، والله أعلم. ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه. وهذا القول أشبه بالصواب، والله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، وأمس بالأصول الشرعية. واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدى، أفنذبح بالْقَصْب؟ قال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». الحديث بتمامه وهو في الصحيحين. وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن البتع - وهو نبيذ العسل - فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»، أفيقول فقيه: إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ وهكذا هذا سألوه عن شيء من الذكاة فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذلك المسؤول عنه وغيره؛ لأنه عليه السلام قد أوتي جوامع الكلم. إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غمّه بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث. فإن قيل: هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء؛ لأنهم إنما سألوه عن الآلة التي يذكى بها، ولم يسألوا عن الشيء الذي يذكى؛ ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر، حيث قال: «ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة». والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه، وإلا لم يك متصلاً، فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة، فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم. فالجواب عن هذا: بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضاً، حيث يقول: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». ولم يقل: «فأذبحوا به»، فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً، يؤخذ حكم الآلة التي يذكى بها، وحكم المذكى، وأنه لا بد من إنهار دمه بألة ليست سناً ولا ظفراً. هذا مسلك. والمسلك الثاني: طريقة المُرْزِي، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل، وإن خَزَقَ فُكَل. والكلب جاء مطلقاً، فيحمل على ما قيد هناك من الخَزَق؛ لأنهما اشتركا في الموجب، وهو الصيد، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب، كما وجب حمل مطلق الإعتاق في الظهار على تقيده بالإيمان في القتل، بل هذا أولى. وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي، وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة، فلا بد لهم من جواب عن هذا. وله أن يقول: هذا قتله الكلب بثقله، فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه، والجامع أن كلاً منهما آلة للصيد، وقد مات بثقله فيهما. ولا يعارض ذلك بعموم الآية؛ لأن القياس مقدم على العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلك حسن أيضاً.

مسلك آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو؛ إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، أو منخفقاً أو في حكمه، وأياً ما كان فيجب تقديم حكم هذه الآية على تلك لوجوه: أحدها: أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله». ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيد معتبر حالة الصيد، والطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، وهو محظور عند كثير من العلماء.

الثاني: أن تلك الآية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] ليست على عمومها بالإجماع، بل مخصوصة بما صعدن من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ. المسلك الآخر: أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء؛ لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات، فلا تحل قياساً على الميتة. المسلك الآخر: أن آية التحريم، أعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ﴾ إلى آخرها، محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص، وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية [المائدة: ٤]، فينبغي ألا يكون بينهما تعارض أصلاً، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خَرَقَهُ الْجِرْعَاضُ فيكون حلالاً؛ لأنه من الطيبات، وما دخل في حكم تلك الآية، آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل؛ لأنه وقيد، فيكون أحد أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء، إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل. وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالاً. فإن قيل: فلم لا فصل في حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام؟ فالجواب: أن ذلك نادر؛ لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معاً، وأما اصطداه هو الصيد فنادر، وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتاج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعراض فتارة يخطيء لسوء رمي راميه أو للهواء أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته؛ فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، والله أعلم؛ ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد، ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد، فقال: «إن أكل فلا تأكل، فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»، وهذا صحيح ثابت في الصحيحين وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحل ما أكل منه الكلب، حكى ذلك عن أبي هريرة، وابن عباس. وبه قال الحسن، والشعبي، والنخعي. وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه، وأحمد بن حنبل، والشافعي في المشهور عنه. وروى ابن جرير في تفسيره عن علي، وسعد، وسلمان، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس: أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب، حتى قال سعد، وسلمان، وأبو هريرة وابن عمر، وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة. وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأوماً في الجديد إلى قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر ابن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه.

وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي، عن أبي ثعلبة الحُشَينِي، عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك». ورواه أيضاً النسائي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابياً يقال له: أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، فذكره نحوه. وقال محمد بن جرير في تفسيره: حدثنا عمران بن بكَّار الكَلَاعِي، حدثنا عبد العزيز بن موسى - هو اللاحوني - حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس - وهو معاوية بن قرة - عن سعيد بن المسيب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه، فليأكل ما بقي». ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفاً. وأما الجمهور فقدموا حديث «عدي» على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره. وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعدما انتظر صاحبه وطال عليه الفصل ولم يجيء، فأكل منه لجوعه ونحوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه - والحالة هذه - لا يخشى أنه أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، والله أعلم. فأما الجوارح من الطير فنص الشافعي على أنها كالكلاب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين. واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد، فيعفى عن ذلك، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو علي في «الإفصاح»: إذا قلنا: يحرم ما أكل منه، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب، لنص الشافعي، رحمه الله، على التسوية بينهما، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما ﴿وَالْمُرْتَدَّةُ﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالْمُرْتَدَّةُ﴾: التي تسقط من جبل. وقال قتادة: هي التي تردى في بئر. وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تردى في بئر. وأما ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبوحها. والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي: منطوحة. وأكثر ما ترد هذه البئنة في كلام العرب بدون تاء التأنيث، فيقولون: كَفَّ خضيب، وعينٌ كحيل، ولا يقولون: كف خضيبية، ولا: عين كحيلية؛ وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء

التأنيث؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما في قولهم: طريقة طويلة. وقال بعضهم: إنما أتى ببناء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة، بخلاف: عين كحيل، وكف خضيب؛ لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلِ السَّبْحِ﴾ أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالْمَنْحِقَةَ وَالْمَوْوَدَةَ وَالْمُرْدِيَةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلِ السَّبْحِ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذكي. وكذا زوي عن سعيد بن جبير، والحسن البصري، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: ﴿وَمَا أَكَلِ السَّبْحِ﴾ إلا ما ذكَّيْتُمْ. قال: إن مَصَعَتْ بذئبها، أو زَكَّضَتْ برجلها، أو طَرَفَتْ بعينها فكل. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هشيم وعباد قالا: حدثنا حجاج، عن حصين، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً، فكلها. وهكذا زوي عن طائوس، والحسن، وقتادة، وعبيد بن عمير، والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل. وقال ابن وهب سُئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السَّبْحُ حتى تخرج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكي أي شيء يُذَكِّي منها. وقال أشهب: سئل مالك عن الضبع يعدو على الكيش، فيدق ظهره، أترى أن يذكي قبل أن يموت، فيؤكل؟ قال: إن كان قد بلغ الشُخرة، فلا أرى أن يؤكل وإن كان أصاب أطرافه، فلا أرى بذلك بأساً. قيل له: وثبت عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إن شق بطنها فلا أرى أن تؤكل.

هذا مذهب مالك، رحمه الله، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك، رحمه الله، من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم. وفي الصحيحين: عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مدى، أفندبح بالْقَصْبِ؟ فقال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنُّ والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة» وفي الحديث الذي رواه الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه نظر، وروي عن عمر موقوفاً، وهو أصح: «ألا إن الذكاة في الحلق واللثة، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق». وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والسنن، من رواية حماد بن سلمة، عن أبي العشاء الدارمي، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: «لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك». وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لم يقدر على ذبحه في الحلق واللثة. وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾: قال مجاهد وابن جُرَيْج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب. وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَتَقِيمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي: حرم عليكم أيها المؤمنون الاستسقام بالأزلام: واحداً: زَلَمٌ، وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَمٌ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث غُفْلٌ ليس عليه شيء. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: «أمرني ربي»، وعلى الآخر: «نهاني ربي» والثالث غُفْلٌ ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستسقام. والاستسقام: مأخوذ من طلب القَسَم من هذه الأزلام. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا الحجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ سَتَقِيمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: والأزلام: قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور. وكذا روي عن مجاهد، وإبراهيم الثَّخَفِيِّ، والحسن البصري، ومقاتل بن حَيَّان. وقال ابن عباس: هي القداح، كانوا يستقسمون بها في الأمور. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبَلٌ، وكان داخل الكعبة، منصوب على بثر فيها، توضع الهدايا

وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، مما أشكل عليهم، فما أخرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه. وثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً». وفي الصحيح: أن سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضربهم أم لا؟ فخرج الذي أكره: لا تضربهم، قال: فعصيت الأزلام واتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة، كل ذلك يخرج الذي يكره: لا تضربهم، وكان كذلك، وكان سُرَاقَةَ لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك. وروى ابن مَرْدُويه من طريق إبراهيم بن يزيد: عن رَقِبة، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن رَجَاء بن خَيْثَمة، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُلجج الدرجات من تَكْهَن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً». وقال مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقمارون بها.

وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه وتعالى قد فَرَّقَ بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالْبَيْسُ وَالْأَهْوَاجُ وَالْأَزْلَامُ يُغْنِيَنَّ عَنْ عَمَلِ الْبِطْلَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وهكذا قال ههنا: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما رواه أحمد والبخاري وأهل السنن، من طرق عن عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن الْمُثَنَّبِر، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَعِذُّكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيه بِاسْمِهِ - خَيْرًا فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْذِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَأَقْذِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ». لفظ أحمد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي الموالي.

قوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: يشسوا أن يراجعوا دينهم. وكذا زوي عن عطاء بن أبي رباح، والسدي ومقاتيل بن حَيَّان. وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قد يشس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتخريش بينهم». ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم واخشوني، أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشرف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: هذه أكبر نعم الله، ﷻ، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي؛ فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد آتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. وقال أسباط عن السدي: نزلت هذه الآية يوم عَرَفَةَ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عُمَيْس: حَجَّجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلَّى له جبريل، فمات رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تطلق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت فأتيته فسَجَّيْتُ عليه بُرْدًا كان علي. قال ابن جُرَيْج وغير واحد:

مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً. رواهما ابن جرير، ثم قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن فضيل، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: لما نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ أكملت فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال: «صدقت». ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرّاء». وقال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتُّ عَلَيْكُمْ بِمَعْنَى﴾، فقال: عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت عشية عرفة في يوم جمعة.

ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون، به. ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي، من طرق عن قيس بن مسلم، به. ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري، عن قيس، عن طارق قال: قالت: اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية، لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر: إنني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت: يوم عرفة، وإنما والله بعرفة - قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. وشك سفيان، رحمه الله، إن كان في الرواية فهو تزوّج، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها، والله أعلم، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيْة، أخبرنا رجاء بن أبي سلمة، أخبرنا عبادة بن نَسِيٍّ، أخبرنا أميرنا إسحاق - قال أبو جعفر بن جرير: هو إسحاق بن خَرَشَةَ - عن قَبِيصَةَ - يعني ابن ذؤيب - قال: قال كعب: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية، لظفروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم، فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه. فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت في يوم جمعة، ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا قَبِيصَةَ، حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار - هو مولى بني هاشم - أن ابن عباس قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتُّ عَلَيْكُمْ بِمَعْنَى وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾. فقال يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين: يوم عيد ويوم جمعة. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا يحيى بن الجَحْثَانِي، حدثنا قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سلمان، عن أبي عمر البزار، عن ابن الحنفية، عن علي رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو قائم عشية عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس السكوني: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم جمعة. وروى ابن مَرْدُويه، من طريق محمد بن إسحاق، عن عمر بن موسى بن وجيه، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمْرَةَ قال: نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتُّ عَلَيْكُمْ بِمَعْنَى وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف. فأما ما رواه ابن جرير، وابن مردويه، والطبراني من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَشَّ بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، ونبيء يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ورفع الذكر يوم الاثنين، فإنه أثر غريب، وإسناده ضعيف. وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَشَّ الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبيء يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين. هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين، فإله أعلم، ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين كما تقدم، فاشتبه على الراوي، والله أعلم. وقال ابن جرير: وقد قيل: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، ثم روى من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس قال: وقد قيل: إنها نزلت على رسول الله ﷺ في مسيره إلى حجة الوداع. ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس. قلت: وقد روى ابن مَرْدُويه من طريق أبي هارون العَبْدِي، عن أبي

سعيد الخدري؛ أنها أنزلت على رسول الله ﷺ يوم غدير حُم، حين قال لعلي: «من كنت مولاه فعلي مولاه». ثم رواه عن أبي هرير، وفيه: أنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، يعني مرجعه عليه السلام من حجة الوداع.

ولا يصح هذا ولا هذا، بل الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم الجمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسُمرة بن جندب، رضي الله عنهم، وأرسله عامر الشعبي، وقتادة بن دعامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري، رحمه الله.

وقوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَمَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها تعالى لضرورة الجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وانفكاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته، كما يكره أن تؤتى مغبته»، لفظ ابن حبان. وفي لفظ لأحمد: «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة». ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على مهجته التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرُمق، أو له أن يشبع، أو يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيداً وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تَظْطَهِحُوا، ولم تَتَغْتَبُوا، ولم تَجْتَفِنُوا بَقْلًا فُشَأْنَكُمْ بِهَا». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. وكذا رواه ابن جرير، عن عبد الأعلى بن واصل، عن محمد بن القاسم الأسدي، عن الأوزاعي، به. لكن رواه بعضهم عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن مسلم بن يزيد، عن أبي واقد، به. ومنهم من رواه، عن الأوزاعي، عن حسان، عن مرثد - أو أبي مرثد - عن أبي واقد، به. ورواه ابن جرير عن هناد بن هناد بن السري، عن عيسى بن يونس، عن حسان، عن رجل قد سمي له، فذكره. ورواه أيضاً عن هناد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان، مرسلًا. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن عَزْون قال: وجدت عند الحسن كتاب سُمرة، فقرأته عليه، فكان فيه: ويُجزى من الاضطرار غَبُوقٌ أو صَبُوحٌ.

حدثنا أبو كُزَيْب، حدثنا هُشَيْم، عن الخَصِيب بن زيد التميمي، حدثنا الحسن، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: إلى متى يحل لي الحرام؟ قال: «إلى متى يَرُوى أهلك من اللبن، أو تجيء ميرثهم». حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، حدثنا عمر بن عبد الله بن عروة، عن جده عروة بن الزبير، عن جدته؛ أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذي حرم الله عليه، والذي أحل له، فقال النبي ﷺ: «تَحِلُّ لَكَ الطيبات، وتَحْرُمُ عَلَيْكَ الخبائث، إلا أن تَفْتَقِرَ إلى طعام لا يحل لك، فتأكل منه حتى تَسْتَفْتِي عنه». فقال الرجل: وما فُقِرِي الذي يحل لي؟ وما غناني الذي يغنيني عن ذلك؟ فقال النبي ﷺ: «إذا كنت ترجو نِتَاجاً، فتبلغ بِلُحُومِ ماشيتك إلى نتاجك، أو كنت ترجو غَنَى، تطلبه، فتبلغ من ذلك شيئاً، فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه». فقال الأعرابي: ما غناني الذي ادعاه إذا وجدته؟ فقال النبي ﷺ: «إذا أرويت أهلك غَبُوقاً من الليل، فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام، وأما مالك فإنه ميسور كله، ليس فيه حرام». ومعنى قوله: «ما لم تصطبِحوا»: يعني به: الغداء، «وما لم تغتبقوا»: يعني به: العشاء، «أو تخففوا بَقْلًا فُشَأْنَكُمْ بِهَا» أي: فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله: «أو تخففوا بَقْلًا» على أربعة أوجه: «تخففوا» بالهمزة، «وتخففوا» بتخفيف الياء والحاء، «وتخففوا» بتشديد الفاء، «وتخففوا» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمز، كذا ذكره في التفسير.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا عُقْبَةُ بن وَهَب بن عقبة العامري، سمعت أبي يحدث عن الفجيع العامري؛ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ما يحل لنا من الميتة؟ قال: «ما طعامكم؟» قلنا: نغتبِق ونصطبِح. قال أبو نعيم: فسره لي عقبة: قَدَحُ عُذُوة، وقَدَحُ عَشِيَّة. قال: «ذَلِكَ وَأَبِي الْجُوعِ». وأحل لهم الميتة على هذه الحال. تفرد به أبو داود: وكأنهم كانوا يصطبِحون ويغتبِقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع، ولا يتقيد ذلك بسد الرُمق، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا سماك، عن جابر بن سُمرة؛ أن رجلاً نزل الحرّة، ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لي صَلَّتْ، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت فقالت امرأته: انحرها، فأبى، ففَنَقَتْ، فقالت له امرأته: اسلخها حتى تُفدّد شَحْمَهَا ولحمها فئاكله. فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غنى يُغنيك؟» قال: لا. قال: «فكلوها». قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحرتها؟ قال: استحيت منك. تفرد به. وقد يحتج به من يُجوز الأكل والشبع، والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ أي: غير مُتَعَاظٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا عَادِلَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفاره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَمْ يَسْأَلْ لَكُمْ الْطَيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُؤَلِّهُنَّ لِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاقْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى من استثناءه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿وَوَدَّ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، قال بعدها: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَمْ يَسْأَلْ لَكُمْ الْطَيِّبَاتِ﴾، كما قال في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ: أنه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لُهَيْعَةَ، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبّير، عن عدي بن حاتم، وزيد بن المهلهل الطائبيين سألا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَمْ يَسْأَلْ لَكُمْ الْطَيِّبَاتِ﴾. قال سعيد بن جبّير: يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل بن حيان: في قوله: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ فالطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق. وقد سئل الزهري عن شرب البهول للتداوي فقال: ليس هو من الطيبات. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن وهب: سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس. فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباه ذلك، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: وهن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: روي عن خَيْثَمَةَ، وطاوس، ومجاهد، ومكحول، ويحيى بن أبي كثير، نحو ذلك. وروي عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح. وروي عن علي بن الحسين مثله. ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾. قال: وروي عن سعيد بن جبّير نحو ذلك. ونقله ابن جرير عن الضحاک والسُّدِّي، ثم قال: حدثنا هُنَادٌ، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، عن نافع، عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البُرَاة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه. قلت: والمحكى عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب؛ لأنها تَكَلِّبُ الصيد بمخالبها، كما تكلبه الكلاب، فلا فرق. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير، واحتج في ذلك بما رواه عن هناد، حدثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: «ما أمسك عليك فكل».

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُفْطَعُ الصَّلَاةُ الْحَمَامُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كل أسود بهيم». وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن: جوارح، من الجرح، وهو: الكسب. كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي: كسبهم خيراً. ويقولون: فلان لا جرح له، أي: لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ يَأْتِلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ما كسبتم من خير وشر. وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا زيد بن الحُبَابِ، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبان بن صالح، عن

القعقاع بن حكيم، عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت، فأنزل الله: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه وسمى، فأمسك عليه، فليأكل ما لم يأكل». وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن زيد بن الحباب بإسناده، عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه، فأذن له فقال: قد أذن لك يا رسول الله. قال: أجل، ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب، قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب يبيع عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾. ورواه الحاكم في مستدرکه من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، به. وقال: صحيح ولم يخرجاه.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عِكْرِمَةَ؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب، حتى بلغ العوالي فدخل عاصم بن عَدِيٍّ، وسعد بن خَيْثَمَةَ، وَعَوْنَمَ بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. ورواه الحاكم من طريق سِمَاك، عن عكرمة، وهكذا قال محمد بن كعب القُرَظِيُّ في سبب نزول هذه الآية: إنه في قتل الكلاب. وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَلَّمْتُم﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه الجوارح، بمخالبتها أو أظفارها. فيستدل بذلك - والحالة هذه - على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمة أو بمخالبه وظفره أنه لا يحل، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تَمْلُؤُونَ بِنَاءً عَلَيْكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فمتى كان الجارحة معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع. وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله. فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإني أرمي بالبعوض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالبعوض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد، فلا تأكله». وفي لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرتته حياً فاذبحه، وإن أدرتته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته». وفي رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث. وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك:

قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا وكيع، عن شُعْبَةَ، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: قال سلمان الفارسي: كل وإن أكل ثلثيه - يعني الصيد - إذا أكل منه الكلب. وكذا رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، وعمر بن عامر، عن قتادة. وكذا رواه محمد بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان. ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى، عن يزيد، عن بكر بن عبد الله المُرَينِيِّ والقاسم؛ أن سلمان قال: إذا أكل الكلب فكل، وإن أكل ثلثيه. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مَخْزَمَةُ بن نَكَيْزٍ، عن أبيه، عن حميد بن مالك بن حَنِيْمِ الدُّوَلِيِّ؛ أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل، وإن لم يبق منه إلا جذية - يعني: إلا بضعة. ورواه شعبة، عن عبد ربه بن سعيد، عن بكير بن الأشج، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص قال: كل وإن أكل ثلثيه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المُنْتَنِي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عامر، عن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المُنْتَمِرُ قال: سمعت عبيد الله - وحدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن عبيد الله بن عمر - عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك،

أكل أو لم يأكل. وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد، عن نافع. فهذه الآثار ثابتة عن سلمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عمر. وهو محكي عن علي، وابن عباس. واختلف فيه عن عطاء، والحسن البصري. وهو قول الزهري، وربيعه، ومالك. وإليه ذهب الشافعي في القديم، وأوماً إليه في الجديد. وقد روي من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً، فقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكَّار الكَلَّاعِيّ، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاحوني، حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس معاوية بن قُرَّة، عن سعيد بن المسيَّب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه، وقد أكل منه، فليأكل ما بقي». ثم قال ابن جرير: وفي إسناد هذا الحديث نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان، والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع.

وهذا الذي قاله ابن جرير صحيح، لكن قد روي هذا المعنى مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو داود: حدثنا محمد بن منهل الضرير، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا حبيب المعلم، عن عَمْرُو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابياً - يقال له: أبو ثعلبة - قال: يا رسول الله، إن لي كلاباً مَكْلَبَةً، فأفتني في صيدها. فقال النبي ﷺ: «إن كان لك كلاب مكلبة، فكل مما أسكن عليك». فقال: ذكياً وغير ذكي؟ قال: «نعم». قال: وإن أكل منه؟ قال: «نعم، وإن أكل منه». قال: يا رسول الله، أفتني في قوسي. فقال: «كُلْ ما ردت عليك قوسك». قال: ذكياً وغير ذكي؟ قال: «وإن تغيب عنك ما لم يصل، أو تجد فيه أثر غير سهمك». قال: أفتني في آنية المجوس إذا اضطرونا إليها. قال: «اغسلها وكل فيها». هكذا رواه أبو داود، وقد أخرجه النسائي. وكذا رواه أبو داود، من طريق بُسْر بن عبيد الله، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك». وهذان إسنادان جيدان، وقد روى الثوري، عن سيمك بن حَرْب، عن عَدِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان من كلب ضار أمسك عليك، فكل». قلت: وإن أكل؟ قال: «نعم». وروى عبد الملك بن حبيب: حدثنا أسد بن موسى، عن ابن أبي زائدة، عن الشعبي، عن عَدِيّ، مثله. فهذه آثار دالة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب. وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيمانه عنهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم. وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع، فأكل من الصيد لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم. وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخُشَنِيّ، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجُونِيّ في كتابه «النهاية» أن لو فصل مفصل هذا التفصيل، وقد حقق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عَدِيّ، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن حماد، عن إبراهيم، عن ابن عباس؛ أنه قال في الطير: إذا أرسلته فقتل فكل، فإن الكلب إذا ضربته لم يَعدُ، وإن تعلّم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب، فإذا أكل من الصيد ونفث الريش فكل. وكذا قال إبراهيم التَّخَعِيّ، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان. وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا مُجَالِد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فما يحل لنا منها؟ قال: «يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه» ثم قال: «ما أرسلت من كلب وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتل؟ قال: «وإن قتل، ما لم يأكل». قلت: يا رسول الله، وإن خالطت كلابنا كلاب غيرها؟ قال: «فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك». قال: قلت: إنا قوم ترمي، فما يحل لنا؟ قال: «ما ذكرت اسم الله عليه وخرقت فكل». فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب ألا يأكل، ولم يشترط ذلك في البزاة، فدل على التفرقة بينهما في الحكم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلت كلبك، فأذكر اسم الله، وإذا رميت سهمك فأذكر اسم الله؛ ولهذا اشترط من الأئمة كأحمد بن حنبل - في المشهور عنه - التسمية - عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور، أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السُّدِّي وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْكُرُوا

أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُولُ: إِذَا أُرْسِلَتْ جَارِحُكَ فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَإِنْ نَسِيتَ فَلَا حَرَجَ. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ كَمَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ رَبِيهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلْمَةَ فَقَالَ: «سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا - حَدِيثَ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ - بَلْخَمَانٍ لَا نَدْرِي أَدْرَكَكُمْ أَسْمَ اللَّهُ عَلَيْهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ: «سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا».

حَدِيثٌ آخَرٌ: وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدٌ: حَدَّثَنَا يَزِيدٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ فِي سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلِقَمَتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ لِكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ أَوَّلَهُ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ هَارُونَ، بِهِ. وَهَذَا مُنْقَطِعٌ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَعَائِشَةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا هَذَا الْحَدِيثَ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدٌ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الدُّسْتَوَائِيَّ - عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ؛ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ - يُقَالُ لَهَا: أُمُ كَلْثُومٍ - حَدَّثَتْهُ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ طَعَامًا فِي سِتَّةِ مَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ جَائِعٌ فَأَكَلَهُ بِلِقَمَتَيْنِ، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ لِكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ نَسِيَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». وَرَوَاهُ أَحْمَدٌ أَيْضًا، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ هِشَامِ الدُّسْتَوَائِيِّ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: وَقَالَ أَحْمَدٌ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَابِرُ بْنُ صَبِيحٍ، حَدَّثَنَا الْمُنْثَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَاعِيُّ، وَصَحْبَتُهُ إِلَى وَاسِطٍ، فَكَانَ يَسْمِي فِي أَوَّلِ طَعَامِهِ وَفِي آخِرِ لِقْمَةٍ يَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ تَسْمِي فِي أَوَّلِ مَا تَأْكُلُ، أَرَأَيْتَ قَوْلِكَ فِي آخِرِ مَا تَأْكُلُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ؟ فَقَالَ: أَخْبَرْتُكَ عَنْ ذَلِكَ إِنَّ جَدِي أُمِيَةَ بْنِ مَخْشِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْكُلُ، وَالنَّبِيُّ يَنْظُرُ، فَلَمْ يَسْمِ، حَتَّى كَانَ فِي آخِرِ طَعَامِهِ لِقْمَةً، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ حَتَّى سَمَى، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِي بَطْنِهِ حَتَّى قَاءَهُ». وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ صَبِيحِ الرَّاسِبِيِّ أَبِي بَشْرٍ الْبَصْرِيِّ، وَوَثِقَةَ ابْنَ مَعِينٍ وَالنَّسَائِيِّ، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْأَزْدِيُّ: لَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدٌ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ أَبِي حَذِيْفَةَ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: وَاسْمُهُ سَلْمَةُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنِ صَهْبَابٍ - مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ - عَنْ حَدِيْفَةَ قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى طَعَامٍ، لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَآ حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ، كَأَنَّمَا تُدْفِعُ، فَذَهَبَتْ تَضَعُ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفِعُ، فَذَهَبَ يَضَعُ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَجِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةَ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، وَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ يَدُهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهِمَا» يَعْنِي الشَّيْطَانَ. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ بِهِ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: رَوَى مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السَّنَنِ إِلَّا التِّرْمِذِيُّ، مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيَّتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيَّتَ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيَّتَ وَالْعَشَاءَ». لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدٌ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ ربه، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ وَخْشِيِّ بْنِ حَزْبٍ وَنُحَاشِيِّ بْنِ حَزْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّا نَأْكُلُ وَمَا نَشْبَعُ؟» قَالَ: «فَلْيَعْلَمِكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمَعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، يَبَارِكُ لَكُمْ فِيهِ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَةَ، مِنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَكُمْ وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَكُمْ وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾
 ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَكُمْ وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَكُمْ وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾
 إِذَا أَيُّهُنَّ جُؤْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسْتَفِيزِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَوِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْأَخْرَى مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ حَكْمَ ذُبَانِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو أَمَامَةَ،

ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعتاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النخعي، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم. وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبيح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عن قولهم، تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مَعْقِل قال: ذُلِّي بجرباب من شحم يوم خيبر. قال: فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم. فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم. فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله؛ لقروله تعالى: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾، وقالوا: وهذا ليس من طعامهم. واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر؛ لأنه قضية عين، ويحتمل أنه كان شحماً يعتقدون حله، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم. وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا الرسول الله ﷺ شاة مَضَلِيَّةً، وقد سَمَوْا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله فَتَهَشَّ منه نَهَشَةً، فأخبره الذراع أنه مسموم، فَلَفَّظَهُ وأثر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أظفاره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن مَعْرُور؛ فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فقتلت ببشر بن البراء. ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وإهالة سَنَخَةٍ، يعني: ودكا زنخا. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن مَزِيد، أخبرنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] ثم نسخها الرب، ﷻ، ورحم المسلمين، فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾، وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله، نظر، فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم متعبدون بذلك؛ ولهذا لم يبيح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة، بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة، ومن تَمَسَّكَ بدين إبراهيم وشيت وغيرهما من الأنبياء، على أحد قولي العلماء، ونصاري العرب كيني تَغْلِبَ وتَنُوخَ وبَهْرَاءَ وَجُدَامَ وَلَحْمَ وَعَامِلَةَ ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْمَةَ، عن أيوب، عن محمد، عن عبيدة قال: قال علي: لا تأكلوا ذبائح بني تغلب؛ لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر. وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، والحسن؛ أنهما كانا لا يريان بأساً بذيبيحة نصاري بني تغلب. وأما المجوس، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأحمد بن حنبل، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه! يعني في هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال: «سُنُوا بِهِمْ سُنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي في صحيح البخاري: عن عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجْر. ولو سلم صحة هذا الحديث، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾، فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الديان لا يحل. وقوله: ﴿وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَكُمْ﴾ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها. والأول أظهر في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك، فأما الحديث الذي فيه: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقِيًّا» فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فقيل: أراد بالمحصنات: الحرائر دون الإماء، وحكاها ابن جرير عن مجاهد. وإنما قال مجاهد: المحصنات: الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاها عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحررة العفيفة،

كما قاله مجاهد في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه؛ لتلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشْفًا وَسَوْءَ كَيْلَةً». والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، كما قال في الآية الأخرى: «مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَهْدَانٍ» [النساء: ٢٥]. ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»: هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فسر المحصنة بالعفيفة. وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيلييات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذميات دون الحريات؛ لقوله: «فَتَبَلَّغُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٩﴾» [النسبة: ٢٩]. وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ» الآية [البقرة: ٢٢١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المُرزَبِي - حدثنا إسماعيل بن سميع، عن أبي مالك الغفاري، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ» [البقرة: ٢٢١]، قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، فنكح الناس من نساء أهل الكتاب. وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصراني ولم يروا بذلك بأساً، أخذوا بهذه الآية الكريمة «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، فجعلوا هذه مخصصة للآية التي في البقرة: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ» [البقرة: ٢٢١] إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل لكتاب قد يُفصل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كما قال تعالى: «لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ﴿١٦١﴾» [البينة: ١٦١]، وكقوله: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ إِنَّا أَسْلَمْنَا فَقَدْ أَهْتَدَوْا ﴿١٦١﴾» الآية [آل عمران: ٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّا ءَاتَيْنَاهُمْهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، أي: كما هن محصنات عفائف، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبد الله، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة أفزنت قبل دخوله بها: أنه يفرق بينه وبينها، وتردّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم. وقوله: «مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَهْدَانٍ»: فكما شرط الإحصان في النساء - وهي العفة عن الزنا - كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً؛ ولهذا قال: «غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ» وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عن مجاهدينهم «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَهْدَانٍ»: أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى يتوب ويقطع عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية وللحديث الآخر: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا سليمان بن حَرْب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد هممت ألا أدع أحداً أصاب فاحشة، في الإسلام أن يتزوج محصنة. فقال له أبي بن كعب: يا أمير المؤمنين، الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب. وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى إن شاء الله تعالى عند قوله: «الَّذِينَ لَا يَنكِحُوا إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾» [النور: ٢٣]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: «وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٦٩﴾».

﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَنَسُوا مَا يُؤْتُونَ وَأَيُّدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ بِكُمْ دِينَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

قال كثيرون من السلف: قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ»: معناه وأنتم مُخِدِّثُونَ. وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب. وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ. قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ قال: «إني عمداً فعلته يا عمر». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد. ووقع في سنن ابن ماجه، عن سفيان عن محارب بن

دثار - بدل علقمة بن مرثد - كلاهما عن سليمان بن بُريدة، به وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي، حدثنا الفضل بن المُبَشَّر قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضع ومسح بفضل طهوره الخفين. فقلت: أبا عبد الله، شيء تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه، فأنا أصنعه، كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع. وكذا رواه ابن ماجه، عن إسماعيل بن ثوبة، عن زياد البكائي، به. وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان الأنصاري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: قلت له: رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، عَمَّن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب؛ أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر بن الغسيل حدثها، أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك على رسول الله ﷺ أمر بالسواك عند كل صلاة ووضوع عنه الوضوء، إلا من حدث. فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك، كان يفعله حتى مات. وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن عَوْف الجُمَاصِي، عن أحمد بن خالد الذهبي، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق فقال: عبيد الله بن عبد الله بن عمر، يعني كما تقدم في رواية الإمام أحمد.

وأياً ما كان فهو إسناده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حَبَّان، فزال محذور التدليس. لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سلمة بن الفضل وعلي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن زُكَّانة، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، به، والله أعلم. وفي فعل ابن عمر هذا، ومدامته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور. وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا أزهري، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المشي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَةَ، سمعت مسعود بن علي الشيباني، سمعت عكرمة يقول: كان علي، رضي الله عنه، يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية. وحدثنا ابن المشي، حدثنا وهب بن جرير، أخبرنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سيرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يُحَدِّث. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، عن مغيرة، عن إبراهيم؛ أن علياً اكماز من حُب، فتوضأ وضوءاً فيه تجوز فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذه طرق جيدة عن علي رضي الله عنه يقوي بعضها بعضاً. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا ابن أبي عَدِي، عن حَمِيد، عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز، خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذا إسناده صحيح.

وقال محمد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة. وأما ما رواه أبو داود الطيالسي، عن أبي هلال، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا سفيان، عن عمرو بن عامر الأنصاري، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. وقد رواه البخاري وأهل السنن من غير وجه عن عَمْرُو بن عامر، به. وقال ابن جرير: حدثني أبو سعيد البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، عن هُرَيْم، عن عبد الرحمن بن زياد - هو الإفريقي - عن أبي عَطِيف، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات». ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونس، عن الإفريقي، عن أبي عَطِيف، عن ابن عمر، فذكره، وفيه قصة. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث الإفريقي، به نحوه. وقال الترمذي: وهو إسناده ضعيف. قال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال؛ وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن جابر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عبد الله بن علقمة بن القَعْوَاء، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا، ونسلم عليه فلا يرد علينا، حتى نزلت آية الرخصة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية. ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم، عن أبي كُرَيْب، به نحوه. وهو حديث غريب جداً، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، ضعفه.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن أبي مُلَيْكة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء، فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمتم إلى الصلاة». وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن محمد بن مَنِيح والنسائي عن زياد بن أيوب، عن إسماعيل - وهو ابن علي - به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحويرث، عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأتى بطعام، فقيل: يا رسول الله ﷺ، ألا تتوضأ؟ فقال: «لِمَ؟ أأصلي فاتوضأ؟».

وقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها»، كما تقول العرب: «إذا رأيت الأمير فقم» أي: له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة، عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يَدخُل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يَدْرِي أين باتت يده». وحَدَّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغَمَم - إلى منتهى اللحيتين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، وفي التَّرْتِيبِ والتَّحْذِيفِ خلاف، هل هما من الرأس أو الوجه، وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان، أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. وروي في حديث: أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته، فقال: «اكشفها، فإن اللحية من الوجه». وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبت لحيته: طلع وجهه. ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثرة، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عامر بن شقيق بن جَمْرَةَ، عن أبي وائل قال: رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتُموني فعلت. رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث عبد الرزاق وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البخاري.

وقال أبو داود: حدثنا أبو تَوْبَةَ الربيع بن نافع، حدثنا أبو المَلِيح، حدثنا الوليد بن زَوْرَانَ، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه، يخلل به لحيته، وقال: «هكذا أمرني به ربي، ﷺ». تفرد به أبو داود. وقد رُوِيَ هذا من غير وجه عن أنس. قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمار، وعائشة، وأم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر، والحسن بن علي، ثم عن النخعي، وجماعة من التابعين. وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تَمَضُّضٌ واستنشاق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؛ لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة، عن رفاعة بن رافع الزُّرَقِي؛ أن النبي ﷺ قال للمسيء في صلاته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة؛ أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستثر» وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخربيه من الماء ثم لينثر» والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس؛ أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بهما وجهه. ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ. ورواه البخاري، عن محمد بن عبد الرحيم، عن أبي سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، به.

وقوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢٩]. وقد روى الحافظ الدارقطني وأبو بكر البيهقي، من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. ولكن القاسم هذا متروك الحديث، وجده ضعيف، والله أعلم.

ويستحب للمتوضيء أن يشرع في العصد ليفسله مع ذراعيه؛ لما روى البخاري ومسلم، من حديث نعيم المُجَير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غُرّاً مُحْتَجِلِينَ من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّتَه فليفعل». وفي صحيح مسلم: عن قُتَيْبَةَ، عن خَلْفِ بن خليفة، عن أبي مالك الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحِلْيَةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ﴾: اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإلصاق، وهو الأظهر، أو للتبويض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه؛ أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح يديه، فأقبل بهما وأدير، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا، وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله. ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ريع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه. واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح مسلم، وغيره. فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم. ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه، على قولين. فقال عبد الرزاق: عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد اللبثي، عن حُمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضعاً فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم غسل اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضعاً نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من تَوَضَّأَ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من طريق الزهري به نحو هذا، وفي سنن أبي داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَةَ، عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة. وكذا من رواية عبد خير، عن علي مثله. واحتج من استحَبَّ تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن عثمان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: توضعاً ثلاثاً ثلاثاً. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الضحاک بن مَخْلَدٍ، حدثنا عبد الرحمن بن وَرْدَانَ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضعاً فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضعاً هكذا وقال: «من توضعاً دون هذا كفاه». تفرد به أبو داود، ثم قال: وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة. وقوله: ﴿رَأَيْتَكُمْ إِلَى الْكَمْبَيْنِ﴾ قُرَى: ﴿رَأَيْتَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزْمَةَ، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وَهَيْبٌ، عن خالد، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس؛ أنه قرأها: ﴿رَأَيْتَكُمْ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل. وروى عن عبد الله بن مسعود، وعُزْؤَةَ، وعطاء، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضحاک، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، والزهري، وإبراهيم التيمي، نحو ذلك. وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و «الواو» لا تدل على الترتيب. وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقاً، فمنهم من قال: الآية دلت

على وجوب غسل الوجه ابتداءً عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بفناء التعقيب، وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان، أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع في الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداءً، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارق. ومنهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب، بل هي دالة - كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء. ثم نقول - بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي -: هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم، ولفظ النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البداية بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكره.

وأما القراءة الأخرى، وهي قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجِلِكُمْ﴾ بالخفض. فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح، فقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيْيَّةَ، حدثنا حُمَيْدُ قَالَ: قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الظهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما عراقيهما. فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بآلهما. إسناده صحيح إليه. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا مؤمِلٌ، حدثنا حماد، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة الغسل. وهذا أيضاً إسناده صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا محمد بن قيس الخراساني، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الوضوء غَسْلَتَانِ ومَسْحَتَانِ. وكذا روى سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا أبو مَعْمَرِ المِقْرِي، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا علي بن زيد، عن يوسف بن يهْران، عن ابن عباس: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: هو المسح. ثم قال: وروي عن ابن عمر، وعلقمة، وأبي جعفر محمد بن علي، والحسن - في إحدى الروايات - وجابر بن زيد، ومجاهد - في إحدى الروايات - نحوه. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عليه، حدثنا أيوب، قال: رأيت عكرمة يمسح على رجله، قال: وكان يقوله. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح. ثم قال الشعبي: ألا ترى أن «التيمم» أن يمسح ما كان غسلًا، ويلغي ما كان مسحاً؟ وحدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد، أخبرنا إسماعيل، قلت لعامر: إن ناساً يقولون: إن جبريل نزل بغسل الرجلين؟ فقال: نزل جبريل بالمسح. فهذه آثار غريبة جداً، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: «جَحْرُ ضَبٍ خَرْبٍ»، وكقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ يُأْتِ سُدِّي حُضْرٌ وَإِسْتِرْقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغ ذائع، في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله. ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما وردت به السنة. وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً، لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها. ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي، حيث قال: أخبرنا أبو علي الروذباري، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمود العسكري، حدثنا جعفر بن محمد القلانسي، حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا عبد الملك بن مَيْسَرَةَ، سمعت التَّزَالَ بن سَبْرَةَ يحدث عن علي بن أبي طالب؛ أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعت. وقال: «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري في الصحيح، عن آدم، ببعض معناه. ومن أوجب من الشيعة

مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضل وأضل. وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه؛ لاندراجيه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿وَأَرْيَاكُمْ﴾ خفصاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي، وابن عباس ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معد يكرب؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة، وإما مرتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». وفي الصحيحين، من رواية أبي عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن مالهك، عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرْهَقْنَا الصَّلَاةَ، صَلَاةَ الْعَصْرِ وَنَحْنُ تَوَضُّأً، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «اسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «اسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وروى الليث بن سعد، عن حنيفة بن شريح، عن عتبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث بن جزء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَيُطَوَّنُ الْأَقْدَامُ مِنَ النَّارِ». رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناد صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: أنه سمع سعيد بن أبي كرب - أو شعيب بن أبي كرب - قال: سمعت جابر بن عبد الله - وهو على جمل - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار».

وحدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر بن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ في رجل رجل من مثل الدرهم لم يغسله، فقال: «ويل للعقب من النار». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن الأخص، عن أبي إسحاق، عن سعيد، به نحوه. وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وغير واحد، عن أبي إسحاق السبيعي، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر، عن النبي ﷺ، مثله. ثم قال: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ رأى قوماً يتوضؤون، لم يصب أعقابهم الماء، فقال: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا خَلْفَ بْنِ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ عُثَيْبَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ مُعْتَقِيبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ». تفرد به أحمد. وقال ابن جرير: حدثني علي بن عبد الأعلى، حدثنا المحاربي، عن مطر بن يزيد، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للعقاب من النار، ويل للعقاب من النار». قال: فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع، إلا نظرت إليه يقلب عرقوبيه ينظر إليهما». وحدثنا أبو كريب، حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، حدثني عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة - أو عن أخي أبي أمامة - أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يتوضؤون وفي عقيب أحدهم - أو: كعب أحدهم - مثل موضع الدرهم - أو: موضع الظفر - لم يمسسه الماء، فقال: «ويل للعقاب من النار». قال: فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه».

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما توعد على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله. وقد روى مسلم في صحيحه، من طريق أبي الزبير، عن جابر، عن عمر بن الخطاب؛ أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك». وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى، حدثنا هارون بن معروف،

حدثنا ابن وهب، حدثنا جرير بن حازم: أنه سمع قتادة بن دعامة قال: حدثنا أنس بن مالك؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك». وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن معروف، وابن ماجه، عن خزيملة بن يحيى، كلاهما عن ابن وهب، به، وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، لكن قال أبو داود: وليس هذا الحديث بمعروف، لم يروه إلا ابن وهب. وحدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا يونس وحמיד، عن الحسن؛ أن رسول الله ﷺ... بمعنى حديث قتادة. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثني بجير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي ظهره قدمه لُمة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود من حديث بَقِيَّة، وزاد: «والصلاة». وهذا إسناد جيد قوي صحيح، والله أعلم. وفي حديث حُمران، عن عثمان، في صفة وضوء النبي ﷺ: أنه خلل بين أصابعه. وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير، عن عاصم بن لقيط بن صبرة، عن أبيه قال، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء. فقال: «أسبغ الوضوء، وحلّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال: قال أبو أمامة: حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء. قال: «ما منكم من أحد يقرب وضوءه، ثم يتمضمض ويستنشق وينثر، إلا خرت خطاياها من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنّي، ورُقّ عظمي، واقترب أجلّي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ، ولو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته منه سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناد صحيح، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: «ثم يغسل قدميه كما أمره الله». فدل على أن القرآن يأمر بالغسل. وهكذا روى أبو إسحاق السبيعي، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم. ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير، عن علي؛ أن رسول الله ﷺ رَشَّ على قدميه الماء وهما في التعلين فدل ذلكهما. إنما أراد غسلًا خفيفاً وهما في التعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنتظين من الموسوسين. وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه، وهو من روايته، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سُبَّاطَةَ قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ، ومسح على نعليه. وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ روه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه. قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان، وعليهما نعلان.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ، حدثني يَعْلى، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود عن مُسَدَّد وعبيد بن موسى كلاهما، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سُبَّاطَةَ قوم فبال، وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه. وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث؛ إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عُذْر من انتهى إليه ويلغّه. ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين - كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها - توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن عُلَّانة، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، عن مجاهد، عن جرير بن عبد الله البَجَلِي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت. تفرد به أحمد. وفي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: بال جرير، ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت

رسول الله ﷺ بال، ثم توضع ومسح على خفيه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير»، وما يحتاج إلى ذكره هناك، من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه. وقد خالفت الروافض ذلك كله بلا مستند، بل بجهل وضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم، من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. كما ثبت في الصحيحين عنه، عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها. وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله، وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان، وهما مجمع مفصل السابق والقدم. هذا لفظه. فعند الأئمة، رحمهم الله، أن في كل قدم كعبين كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة، ففي الصحيحين من طريق حُمران عن عثمان؛ أنه توضع ففصل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك. وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به، وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه، من رواية أبي القاسم الحسين بن الحارث الجدلي، عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومُنكبته بمنكبه. لفظ ابن خزيمة. فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث التيمي - يعني الجابر - قال: نظرت في قتلى أصحاب زيد، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه. وقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ» كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لثلاث يطول الكلام. وذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى فيها حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة، فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه، عن أبيه، عن عائشة: سقطت قلادة لي بالبدياء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، ففتى رأسه في حجري راقداً، أقبل أبو بكر فلكرزني لكزة شديدة، وقال: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ، فَبَيَّ الْمَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: «يَتَأْتِيَهَا الْزَّيْرُ مَا تَوَدُّونَ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» هذه الآية، فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» أي: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَليُتِمَّ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ» أي: لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرافة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقبه بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوتبي فرَوَّحتها بعشي، فأدرت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مُقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جثت أنفأ، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبيلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». لفظ مسلم. وقال مالك: عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو: المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء

- أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يدها مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب». رواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن مالك، به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب بن مُرَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه - أو: ذراعيه - إلا خرجت خطاياه منهما، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، فإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله». هذا لفظه. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن مرة بن كعب، أو كعب بن مرة السلمي، عن النبي ﷺ قال: «وإذا توضأ العبد فغسل يديه، خرجت خطاياه من بين يديه، وإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، وإذا غسل ذراعيه خرجت خطاياه من ذراعيه، وإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله». قال شعبة: «لم يذكر مسح الرأس. وهذا إسناد صحيح. وروى ابن جرير من طريق شمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه». وروى مسلم في صحيحه، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده مطور، عن أبي مالك الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وفي صحيح مسلم، من رواية سِمَاك بن حَرْب، عن مُضْعَب بن سعد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور». وقال ابن داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت أبا المَلِيح الهذلي يحدث عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت، فسمعت يقول: «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غُلُول». وكذا رواه أحمد، وأبو داود والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي أَوْفَيْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدَّكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَيْفَ يُبَدِّهْتُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مُذَكِّراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته وموازنته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي أَوْفَيْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه البيعة التي كانوا يبایعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «بأيعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، والأنازع الأمر أهله»، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ، والانتقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: هو تذكير بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الاعراف: ١٧٢]، قاله مجاهد، ومقاتل بن حَيَّان. والقول الأول أظهر، وهو المحكي عن ابن عباس، والسُّدِّي. واختاره ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالف في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله، ﷻ، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نَحْلًا، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشَهِد رسول الله ﷺ. فجاهه ليشهده على صدقتي فقال: «أكل ولدك نحلث مثله؟» قال: لا. قال: «اتقوا الله، واعدلو في أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ

أَتَجْعَلُ فَاتَجْعَلُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴿١٢﴾ [النور: ٢٨]. وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابيَّات لعمر: أنت أظف وأغلظ من رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وسيجزئكم علي ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمته منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعبودته ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَزْكَىٰ لَكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿١٤﴾﴾، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمِهِ الذي لا يجوز فيه، بل هو الحُكْمُ العادل الحكيم القدير. وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكَرُوا يَصْمَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيُودِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، ذكره عن أبي سلمة، عن جابر؛ أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العِصَاءِ يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله!» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله!» قال: فشم الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خَبَرُ الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه - قال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿أَذْكَرُوا يَصْمَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية. وقصة هذا الأعرابي - وهو غورث بن الحارث - ثابتة في الصحيح. وقال الغزفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿بِآيَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكَرُوا يَصْمَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيُودِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾: وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً، ليقتلوه، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يَغْدُرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار، ومجاهد وعكرمة، وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرخي، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرخي من فوقه، فأطلع الله رسوله على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿بِآيَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكَرُوا يَصْمَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيُودِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني:

من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْنِ وَمَقَّامًا مِنْهُمَا أَنفُكَ نَقِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَأُلْجِئَنَّكُمْ إِلَىٰ تَحِيَّتِكُمُ الَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا أَنفُسُكُمْ فَكَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا مِنْكُمْ فَفَعَلْنَا بِهِنَّ مَا عَمِلُوا فَعَلْنَا بِهِنَّ فَتَوَلَّوْنَ الْكِبْرَ عَنْ مَوَاجِبِهِمْ وَسَوَّوْا حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا يَتَّبِعُهُمْ فَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِمْ وَأَسْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُنْتَهِينَ ﴿١٥﴾﴾ وَرَبِّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَكْفَرْنَا وَمِنْهُمْ مَنَّا فَسَوَّوْا حَقًّا وَمِنْهُمْ مَنَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنْفِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردهم عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْنِ وَمَقَّامًا مِنْهُمَا﴾ يعني: عرَّفاه على قبائلهم بالمبايعة والسمع، والطاعة لله، ولرسوله ولكتابه. وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى، عليه السلام،

لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم النقباء، من كل سبط نقيب - قال محمد بن إسحاق: فكان من سبط روييل: «شامون بن زكور»، ومن سبط شمعون: «شافاط بن حُزَي»، ومن سبط يهوذا: «كالب بن يوفنا»، ومن سبط أبين: «فيخايل بن يوسف»، ومن سبط يوسف، وهو سبط أفرايم: «يوشع بن نون»، ومن سبط بنيامين: «فلطمي بن رفون»، ومن سبط زبلون: «جدي بن سودي»، ومن سبط يوسف وهو منشا بن يوسف: «جدي بن سوسي»، ومن سبط دان: «حمللائيل بن جمل»، ومن سبط أسير: «ساطور بن ملكيل»، ومن سبط نفتالي: «نحي بن وفسى»، ومن سبط جاد: «جولليل بن ميكي». وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلى بني روييل: «الصروني بن سادون»، وعلى بني شمعون: «شمواي بن صورشكي»، وعلى بني يهوذا: «يحقشون بن عمبياذاب»، وعلى بني يساخز: «شال بن صاعون»، وعلى بني زبلون: «الياب بن حالوب»، وعلى بني يوسف إفرايم: «منشا بن عمهود»، وعلى بني منشا: «حمللائيل بن يرصون»، وعلى بني بنيامين: «أبيدن بن جدعون»، وعلى بني دان: «جعيدر بن عميشدي»، وعلى بني أسير: «نحاييل بن عجران»، وعلى بني حاز: «السيف بن دعوايل»، وعلى بني نفتالي: «أجزع بن عمينان».

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحَضِير، وسعد بن حَيْثَمَة، ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله: أبو الهيثم بن التيهان - رضي الله عنه، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العَجَلان، والبراء بن مَعْرور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عُبادة، وعبد الله بن عَمْرُو بن حرام، والمنذر بن عَمْرُو بن حُنَيْس، رضي الله عنهم. وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق، رحمه الله. والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين لولا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، عن مُجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتكم رسول الله ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألتنا رسول الله ﷺ فقال: «اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سُمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ما مضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش». وهذا لفظ مسلم، ومعنى هذا الحديث الإشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نَسَق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره: أنه يُواطئ اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه، فيملا الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمتظر الذي يتوهم الراضية وجوده ثم ظهوره من سرداب «سامراء». فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هَوَس العقول السخيفة، وتَوَهُم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقولهم. وفي التوراة الإشارة بإسماعيل، عليه السلام، وأن الله يقيم من صُلْبِه اثني عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سُمرة، وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسَفْهاً، لقلة علمهم وعلم من لقتهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتهم وهم وأزرتهموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم أمحوها وأسترها، ولا أواخذكم بها ﴿وَأُعْطِيَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود. وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْدِه وتوكيده وشده، وجحدِه وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما أحل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعْنَهُمْ أَي: فسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم، أي: أبعدها عن الحق وطردها عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: فلا يتعظون بموعظة لغفلتها وقساوتها، ﴿يَجْرُؤُونَ كَلِمًا عَن مَّوَاضِعِهِمْ﴾ أي: فسدت فهمهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، ﴿وَسَوَّأُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبة عنه. قال الحسن: تركوا عَزَى دينهم ووظائف الله التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمه. ﴿وَلَا تُرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغلدهم لك ولأصحابك. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ. ﴿فَأَعَفَّتْ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصّح عن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَأَعَفَّتْ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ﴾: منسوخة بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدِهِمْ سَخِرَوتٌ﴾ [٢٩] وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدِهِمْ سَخِرَوتٌ﴾ [٢٩] الآية: ابن مريم، عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم الميثاق على متابعة الرسول ومناصرتة ومؤازرتة واقفتاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا الموائيق ونقضوا العهد؛ ولهذا قال: ﴿فَسَوَّأُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَعْضَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تُحرم الأخرى ولا تدعها تلجُ معبداها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم قال تعالى: ﴿وَسَوَّكَ يَتِيهِمُ اللَّهُ يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبهوا من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب، ﷻ، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُبُونَ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَتَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: منخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيتهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الراجم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَمِنَ الْجَنَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاجِجَ السَّقَامَةِ﴾ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَتَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ قَسَمَ بِمَلِكٍ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَهُ مَلَأْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا خَلْقًا مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُوكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَأْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً وحاكماً يكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ قَمَنَ يَمَلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، لقدرة وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَا﴾ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري». فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوا في عيسى، عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى: راداً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟. وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه في النار». فترد به. وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالى هو الحاكم في جميع عبادته ﴿يَعْرِفُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو فعال لما يريد، لا مُعْتَبَرٌ لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَالْيَوْمِ الْمَعْتَبِرِ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَا﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن حاتم، وابن جرير. وروى أيضاً من طريق أسباط عن السدي في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَا﴾ أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَا﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك - بكرمك من الولد - فيدخلهم النار، فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم يناد مناد: أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل. فأخرجوهم، فذلك قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿يَتَأَلَّ الكَتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَرَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَى قَرَرٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة - في رواية عنه -: كانت ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال مَعْمَرٌ، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال: الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى، عليه السلام، عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَيْسُوا فِي كُفُوهِهِمْ لَكُنْكَ مِائَةً سِنِينَ وَازْدَادُوا كِتَابًا﴾ [الكهف: ٢٥] أي: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين

محمد ﷺ خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنه لا نبي بيني وبينه» هذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى عليه السلام نبي، يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره. والمقصود أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتغيّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصليبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطفانيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصراني والصابئين، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مُطَرَف، عن عياض بن جَمَار المُجاشعي، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأصنعتهم عن دينهم، وحَرَمْت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله، ﷻ، نظر إلى أهل الأرض فَمَقَّتْهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَزَّيْبَهُمْ، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، ثم إن الله أمرني أن أحرِّق قريشاً، فقلت: يا رب، إذن يُخْلَعُوا رأسي فيدعوه خُبْزَة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُعْرُك، وأتفق عليهم فَسْتَقِقْ عليهم، وابعث جنداً نبعت خمسة أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُسَيِّط مُتَصَدِّقٌ موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عَفِيفٌ فقير متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تَبَعاً أو تُبَعَاء - شك يحيى - لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يُخْفِي له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانته، ورجل لا يُضِيح ولا يُنْسِي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»، وذكر البخيل أو الكذب، «والسُّنْظِير: الفاحش». ثم رواه الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي من غير وجه، عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير. وفي رواية سعيد عن قتادة التصريح بسماع قتادة هذا الحديث من مطرف. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده: أن قتادة لم يسمعه من مطرف، وإنما سمعه من أربعة، عنه. ثم رواه هو، عن روح، عن عوف، عن حكيم الأثرم، عن الحسن قال: حدثني مطرف، عن عياض بن حَمَار، فذكره. وكذا رواه النسائي من حديث عُثْمَر، عن عوف الأعرابي، به. والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من بني إسرائيل». وفي لفظ مسلم: «من أهل الكتاب». وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشرعة الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي: لتلا تحتجوا وتقولوا - يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيره -: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعني محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكَرُوا يَمَنَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَمَلْ فِيكُمْ آيَاتِهِ وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِ أَهْلًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوِّمُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا فَفَتَحْنَا لَهُمْ مِصْرَ مِصْرَ مِصْرَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْؤَسُؤُا إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِلُهَا عَنْكُمْ غَلَبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمْؤَسُؤُا إِنَّا لَنَنذِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذَنُوا لَهَا وَأَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَحْنَا لَهَا مِصْرَ مِصْرَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُرِثَةٌ لَكُمْ فِيهَا كُنْتُمْ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكَرُوا يَمَنَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَمَلْ فِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته، حتى ختموا بعيسى، عليه السلام، ثم أوحى الله تعالى إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن الحكم أو غيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت. وروى الحاكم في مستدرکه، من حديث الثوري أيضاً، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: المرأة والخادم ﴿وَمَا تَنْتَهُمْ مَا تَمْ يُؤْتِ أَهْلًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ، ثم قال

الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ميمون بن مهران، عن ابن عباس قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار، سمي ملكاً. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو هانيء؛ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار؟ رواه ابن جرير. ثم روى عن منصور والحكم، ومجاهد، وسفيان الثوري نحواً من هذا. وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران. وقال ابن شَوَدْب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم، واستؤذن عليه، فهو ملك. وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم. وقال السُّدي في قوله: ﴿وَجَمَعَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة، كُتِب ملكاً». وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال ابن جرير: حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا أبو صَمْرَةَ أنس بن عياض، قال: سمعت زيد بن أسلم يقول: ﴿وَجَمَعَكُمْ مُلُوكًا﴾ فلا أعلم إلا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك». وهذا مرسل غريب. وقال مالك: بيت وخادم وزوجة. وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم مُعَافَى في جسده، أمناً في سربه، عنده قُوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُوتِي آسَدًا يَنْ أَلْمَلِيَيْنَ﴾ يعني عالمي زمانكم، فكانهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْحَبْزَ وَالنَّبْوَ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الْعَلِيَيْنَ عَلَى الْعَالِيَيْنَ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجَاهِلُونَ﴾ [١٧٦] إِنَّ هَذِهِ تَمَّتْ مَا تَمْ فِيهِ وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ قَالَ آخِرَ اللَّهُ أَيْبُكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِيَيْنَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠]. والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً، قال الله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران. وروى ابن جرير عن ابن عباس، وأبي مالك وسعيد بن جبيرة أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُوتِي آسَدًا يَنْ أَلْمَلِيَيْنَ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ، وكانهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُوتِي آسَدًا يَنْ أَلْمَلِيَيْنَ﴾ مع هذه الأمة. والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا. وقيل: المراد: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُوتِي آسَدًا يَنْ أَلْمَلِيَيْنَ﴾ يعني بذلك: ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، وتظللهم من الغمام وغير ذلك، مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض، موسى، عليه السلام، لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف، عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى عليه السلام فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى، عليه السلام، بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشُرهم بالنصرة والظفر عليهم، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقُولُ أَذْلَلُوا آدَمَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَذْلَلُوا آدَمَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين. وفي هذا نظر؛ لأن أريحا ليست هي المقصود بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي - فيما رواه ابن جرير عنه - لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف العُزُر شرقي بيت المقدس. وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ كَلِمَ اللَّهِ لَكُمْ﴾ أي: التي وعدكموها الله

على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثه من آمن منكم. ﴿وَلَا تَرُدُّوا عِلَّآ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي: ولا تنكسوا عن الجهاد عن الجهاد ﴿فَتَسْتَلِيمُوا﴾ أي: قالوا يمتنعون إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا ندخلون ﴿٢٠﴾ أي: اعتدروا بأن في هذه البلدة - التي أمرنا بدخولها وقتل أهلها - قوماً جبارين، أي: ذوي خلقٍ هائلة، وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مضاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم. وقد قال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان قال: قال أبو سعيد، قال عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين. قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة - وهي أريحا - فبعث إليهم اثني عشر عيناً، من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجثثهم وعظيهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار. وينظر إلى آثارهم، فبتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقت الاثني عشر كلهم، فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فشرهم بين يديه. فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم. وفي هذا الإسناد نظر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلاً - وهم النقباء الذين ذكر الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا، فلقيهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم موسى، بعثنا تأتيه بخبركم. فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدروا قدر فاكهتهم. فلما أتوهم قالوا: يا موسى، ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَتَدْرِكَنَا إِنَّا هَهُنَا قَعِدُونَ﴾. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن يزيد بن الهاد، حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصا، فذرع فيها بشيء، لا أدري كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمساً وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق. وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عتق، بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع، تحرير الحساب! وهذا شيء يستحى من ذكره. ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ﴾. ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته. وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَّا الْكٰفِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْآيَاتِ ﴿٢٢﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعًا﴾ [هود: ٤٣]، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عتق، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له: «عوج بن عتق» نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى، عليه السلام، حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه. وقرأ بعضهم: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ» أي: ممن لهم مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف، والخلف، رحمهم الله، فقالوا: ﴿أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْأَبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَلَّ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذلك منهم شيئاً. ﴿قَالُوا يَبْسُوتُ مِنَّا أَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَتَدْرِكَنَا إِنَّا هَهُنَا قَعِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾. وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء. ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سجد موسى وهارون، عليهما السلام، فدام ملا من بني إسرائيل، إعظماً لما هموا به، وشتى «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا» ثيابهما ولأما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما. وجرى أمر عظيم وخطر جليل. وما أحسن ما أجاب به الصحابة، رضي الله عنهم، يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النضير، الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النضير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في الغدة والبيض

واليلب، فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنك تُعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك. وقال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو صررت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. ورواه الإمام أحمد، عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس، به. ورواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد به، ورواه ابن حبان عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حماد، عن معتمر بن سليمان، عن حميد، به.

وقال ابن مَرْذُويه: أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا محمد بن شعيب، عن الحسن بن أيوب، عن عبد الله بن ناسح، عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تقاتلون؟» قالوا: نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي، رضي الله عنه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق - هو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه من طريق أخرى فقال: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسره بذلك. وهكذا رواه البخاري «في المغازي» وفي «التفسير» من طرق عن مخارق، به. ولفظه في «كتاب التفسير»: عن عبد الله قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن نقول: امض ونحن معك فكأنه سري عن رسول الله ﷺ. ثم قال البخاري: ورواه وكيع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق؛ أن المقداد قال للنبي ﷺ. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية، حين صد المشركون الهذلي وجيل بينهم وبين مناسكهم: «إني ذاهب بالهذلي فناجره عند البيت». فقال له المقداد بن الأسود: أما والله لا نكون كالملا من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تتابعوا على ذلك. وهذا؛ إن كان محفوظاً يوم الحديبية، فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بذر.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: ليس أحد يطيعني منهم فيممثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق: افصل بيننا وبينهم، كما قال الشاعر:

يَا رَبِّ فَافْرِقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي
أَشَدَّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ الثَّنِيْنِ
وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَهَيِّجُوكَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدراً مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسبيرون

دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان. قال يزيد بن هارون، عن أصعب بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَذُوهَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة، يصحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث «الفتون»، ثم كانت وفاة هارون، عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاث سنين مات موسى الكليم، عليه السلام، وأقام الله فيهم «يوشع بن نون» عليه السلام، نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى «يوشع» و «كالب»، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَذُوهَا فِي الْأَرْضِ﴾. فلما انقضت المدة خرج بهم «يوشع بن نون» عليه السلام، أو بمن بقي منهم ويسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تَصَيَّفَتِ الشمس للغروب، وخشي دخول السبت عليهم قال: «إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي»، فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله «يوشع بن نون» أن يأمر بني إسرائيل، حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سُجَّداً، وهم يقولون: حطّة، أي: حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، فدخلوا يزحفون على استاهم، وهم يقولون: حَبَّة في شُعرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العَدَنِيُّ، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَذُوهَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: فتأهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع بن نون»، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قبيل له: «اليوم يوم الجمعة» فهَمُّوا بافتتاحها، وندت الشمس للغروب، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبوا، فنادى الشمس: «إني مأمور وإنك مأمورة» فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقربوه إلى النار فلم تأت فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب، لها عينان من ياقوت، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأنت النار فأكلتها.

وهذا السياق له شاهد في الصحيح. وقد اختار ابن جرير أن قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هو العامل في «أربعين سنة»، وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، وهم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد. قال: ثم خرجوا مع موسى، عليه السلام، ففتح بهم بيت المقدس. ثم احتج على ذلك قال: بإجماع علماء أخبار الأولين أن «عوج بن عنق» قتل موسى، عليه السلام، قال: فلو كان قتله إياه قبل التيه لما رهبت بنو إسرائيل من العماليق، فدل على أنه كان بعد التيه. قال: وأجمعوا على أن «بلعام بن باعورا» أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: وما ذلك إلا بعد التيه؛ لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه. هذا استدلاله، ثم قال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب «عوج» فقتله، فكان جسراً لأهل النيل سنة. وروى أيضاً عن محمد بن بشار، حدثنا مؤمِّلٌ، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن نَوْفِ الْبِكَالِيِّ قال: كان سرير «عوج» ثمانمائة ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، ووثب في السماء عشرة أذرع، فضرب «عوجا» فأصاب كعبه، فسقط ميتاً، وكان جسراً للناس يمرون عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوَرِ النَّاصِبِينَ﴾ تسلية لموسى، عليه السلام، عنهم، أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تفرغ اليهود وبيان فضائهم، ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتها، فيما أمرهم به من الجهاد، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يهدم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والتكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتَفَرُّقِ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلدهم بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدّة أهلها وعُددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذليل، هذا وهم في جهلهم وعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم

البَيْضَاءُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: ﴿مَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ وَأَجْبَدُوا﴾ [المائدة: ١٨]، ففجح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والفرو، والأزهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ أَنَّ بَنِي النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤْتَى سَوَاءً آخِيَهُ قَالَ يُوتَى بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه - في قول الجمهور - وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبَّل القربان الذي أخلص فيه الله ﷻ، فغازا المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي: واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقرودة من اليهود وأمثالهم وأشباههم - خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف. وقوله: ﴿يَا الْحَقُّ﴾ أي: على الجلية والأمر الذي لا ليس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٢٢] وقال تعالى: ﴿مَنْ نَفَسَ عَلَيْكُمُ تِبَاطُهَا بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّي الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مریم: ٣٤]. وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى كان قد شرع لآدم، عليه السلام، أن يزوج بناته من بينه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يُؤلد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل ذميمة، وأخت قابيل وضيمية، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فقربا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه.

ذكر أقوال المفسرين ههنا:

قال السُّدِّيُّ - فيما ذكر - عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّة، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ؛ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها. فأمره أبوه أن يزوجه هابيل، فأبى، وأنهما قربا قرباناً إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية، وكان آدم، عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها، قال الله ﷻ: هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض؟ قال: اللهم لا، قال: إن لي بيتاً في مكة فاتة. فقال آدم للسماة: احفظي ولدي بالأمانة، فأبى. وقال للأرض، فأبى. وقال للجبال، فأبى. فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك. فلما انطلق آدم قربا قرباناً، وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصي والدي. فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمنة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبل عظيم، ففركها فأكلها. فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي. فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن حُثَيْم قال: أقبلت مع سعيد بن جبيرة فحدثني عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أختها أو أمها، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيمية، وولد له أخرى قبيحة ذميمة، فقال أخو الذميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي. قال: لا، أنا أحق بأختي قربا قرباناً، فتقبل من صاحب الكيش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. [إسناده جيد. وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن عبد الله بن عثمان بن حُثَيْم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ قربا قرباناً، فجاء صاحب الغنم بكيش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعام، فقبل الله الكيش فخره في الجنة أربعين خريفاً، وهو الكيش الذي ذبحه إبراهيم ﷺ. [إسناده جيد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو قال: إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وإنهما أمرا أن يقربا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه

وأسمتها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشد حرثه الكودن والزوان غير طيبة بها نفسه، وإن الله، ﷻ، تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وإيم الله، إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن ييسط يده إلى أخيه.

وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص: بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم، وكان أنتج له حَمَل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه. فلما أمر بالقربان قربه لله، ﷻ، فقبله الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى قُدِّي به ابن إبراهيم، عليه السلام. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن علي بن الحسين قال: قال آدم، عليه السلام، لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يُقربُ القربان، فقربا قربانا حتى تَقَرَّ عيني إذا تُقُبِّلُ قربانكما، فقربا. وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكله غنمه، حَينَ ماله، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب مشاققة من زرع، فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما، ثم جلسوا ثلاثتهم: آدم وهما، ينظران إلى القربان، فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل، فانصرفوا. وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه، فقال: ويلك يا قابيل رد عليك قربانك. فقال قابيل: أحببته فصليت على قربانه، ودعوت له، فتُقْبَلُ قربانه، ورد علي قرباني. وقال قابيل لهابيل: لأقتلنك فأستريح منك، دعا لك أبوك فصلى على قربانك، فتقبل منك. وكان يتواعده بالقتل، إلى أن احتسب هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ قال: قال: وتعتني له راعياً؟ لا أدري. فقال له آدم: ويلك يا قابيل. انطلق فاطلب أخاك. فقال قابيل في نفسه: الليلة أقتله. وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو متقلب، فقال: يا هابيل، تقبل قربانك ورد علي قرباني، لأقتلنك. فقال هابيل: قربتُ أطيب مالي، وقربتُ أنت أحببت مالك، وإن الله لا يقبل إلا الطيب، إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك؟ فقتله فطرحه في جوبة من الأرض، وحشى عليه شيئاً من التراب. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم أمر ابنه قيناً أن ينكح أخته توأمة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته توأمة قين، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى ذلك قين وكره، تكروما عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي - ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قين من أحسن الناس، ففَضِنَ بها عن أخيه وأرادها لنفسه، فإله أعلم أي ذلك كان - فقال له أبوه: يا بني، إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بني، قرب قربانا، ويقرب أخوك هابيل قربانا، فأيكما تُقْبَلُ قربانه فهو أحقُّ بها، وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قين قمحا، وقرب هابيل أبقاراً من أبقار غنمه - وبعضهم يقول: قرب بقرة - فأرسل الله ناراً بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قين، وبذلك كان يُقْبَلُ القربان إذا قبله. رواه ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُتَصَدَّقُ عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا: لو قربنا قربانا، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله، أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله حَبَّت النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حَرَائِمًا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرع، فجاءت النار فتزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قَرَبْتَ قربانا فتُقْبَلُ منك وَرَدَّ علي؟ فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلني وأنت خير مني. فقال: لأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير. فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تداريء في امرأة، كما تقدم عن جماعة من تقدم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَكَمْ يَبْغِبَلُ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل، وأن الذي قرب الطعام هو قابيل، وأنه تُقْبَلُ من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره: إنه الكبيش الذي فدى به الذبيح، وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قابيل. كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف، وهو المشهور عن مجاهد أيضاً، ولكن روى ابن جرير، عنه أنه قال: الذي قرب الزرع قابيل، وهو المتقبل منه، وهذا خلاف المشهور، ولعله لم يحفظ عنه جيداً، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ممن اتقى الله في فعله ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زبريق، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، حدثني صفوان بن عمرو، عن تميم، يعني ابن مالك المقرئ، قال:

سمعت أبا الدرداء يقول: لأن أستيغن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾. وحدثننا أبي، حدثننا عبد الله بن عمران، حدثننا إسحاق بن سليمان - يعني الرازي - عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون بن أبي حمزة قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل - يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ - فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى، سمعته يقول: يحبس الناس في بقيق واحد، فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كُف من الرحمن، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة، فيمرون إلى الجنة.

وقوله: ﴿لَيْسَ بَسَطَ إِلَهٌ يَدَكَ يُنْقَلِي مَا آتَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِلَهِي أَخَافُ اللَّهُ رَبَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٨): يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَيْسَ بَسَطَ إِلَهٌ يَدَكَ يُنْقَلِي مَا آتَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِلَهِي﴾ أي: لا أقبلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إِلَهِي أَخَافُ اللَّهُ رَبَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله، إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعني الورع. ولهذا ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا لَيْثُ بن سعد، عن عِيَّاس بن عباس، عن بكير بن عبد الله، عن بُسْرِ بن سعيد؛ أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي». قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقطنني قال: «كن كابن آدم». وكذا رواه الترمذي عن قُتَيْبَةَ بن سعيد وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة، وخبَّاب بن الأرت، وأبي بَكْرَةَ، وابن مسعود، وأبي واقد، وأبي موسى، حَرَشَةُ. ورواه بعضهم عن الليث بن سعد، وزاد في الإسناد رجلاً. قال الحافظ ابن عساكر: الرجل هو حسين الأشجعي. قلت: وقد رواه أبو داود من طريقه فقال: حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا المفضل، عن عياش بن عباس، عن بُكَيْرِ بن سعيد، عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي؛ أنه سمع سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال: فقلت: يا رسول الله، أ رأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده ليقطنني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابن آدم». وتلا يزيد: ﴿لَيْسَ بَسَطَ إِلَهٌ يَدَكَ يُنْقَلِي مَا آتَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِلَهِي أَخَافُ اللَّهُ رَبَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٨). قال أيوب السُّخْتِيَانِي: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَيْسَ بَسَطَ إِلَهٌ يَدَكَ يُنْقَلِي مَا آتَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِلَهِي أَخَافُ اللَّهُ رَبَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٨) لثُثْمَانَ بن عفان، رضي الله عنه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الإمام أحمد: حدثنا مَرْحُومٌ، حدثني أبو عمران الجَوْنِي، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: ركب النبي ﷺ حماراً وأوردني خلفه، وقال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟». قال: قال الله ورسوله أعلم. قال: «تعفف». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس موت شديد، ويكون البيت فيه بالبعد، يعني القبر، كيف تصنع؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تفرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك». قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأت من أنت منهم، فكن فيهم». قال: فأخذ سلاحي؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فآلق طرف رداك على وجهك حتى يبيوه بإثمهم وإثمك». رواه مسلم وأهل السنن سوى النسائي، من طرق عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، به. ورواه أبو داود وابن ماجه، من طريق حماد بن زيد، عن أبي عمران، عن المُشْتَبِّ بن طريف، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، بنحوه. قال أبو داود: ولم يذكر المشعث في هذا الحديث غير حماد بن زيد. وقال ابن مَرْذُوقِيَه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيْمٍ، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا قَبِيصَةُ بن عُثْبَةَ، حدثنا سفيان، عن منصور، عن رَبِيعِي قال: كنا في جنازة حُدَيْقَةَ، فسمعت رجلاً يقول: سمعت هذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: «لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت في داري، فلأجلجته، فلئن دخل علي فلان لأقولن: ها، بوء بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم.

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ إِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٩): قال ابن عباس ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي، في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ إِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ﴾. قال ابن جرير: وقال آخرون: يعني ذلك أنني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي. وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى

أن يكون غلطاً؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه، يعني: ما رواه سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي﴾ قال: بقتلك إياي، ﴿وَإِنَّا﴾ قال: بما كان منك قبل ذلك. وكذا روى عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، مثله. وروى شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي وَوَإِنَّا﴾ يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي، فتبوء بهما جميعاً. قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، فقال: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة بن سعيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصَّبرُ لا يمر بذنب إلا محاه». وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفذت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطُرِحَتْ على القاتل، وربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها، والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تأويله: إني أريد أن تتصرف بخطيئتك في قتلك إياي - وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي﴾ وأما معنى ﴿وَإِنَّا﴾ فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله ﷻ، في أعمال سواه. وإنما قلنا هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله ﷻ، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه في خلقه، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبته قتيله. هذا لفظه ثم أورد سؤالاً، حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله، وإثم نفسه، مع أن قتله له محرّم؟ وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف يده عنه، طالباً - إن وقع قتل - أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرأ له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي وَوَإِنَّا﴾ أي: تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾. وقال ابن عباس: خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر. وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فحسنت وسوّلت له نفسه، وشجعت على قتل أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسين: أنه قتله بحديدة في يده. وقال السُّدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فطلبه ليقته، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فاتاه يوماً من الأيام وهو يرمي عنماً له، وهو نائم فرفع صخرة، فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء. رواه ابن جرير.

وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقاً وعضاً، كما تقتل السباع، وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إيليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقته، فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إيليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه. قال: فأخذها، فالتقاها عليه، فشدخ رأسه. ثم جاء إيليس إلى حواء مسرعاً، فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل. فقالت له: ويحك. أي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك. قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت. فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: مالك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين، فلم تكلمه. فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، أنا وبنيتي منها برآء. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه؟. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووكيع قالوا: حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمه، لأنه كان أول من سن القتل». وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود من طرق، عن الأعمش، به. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج قال: قال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذه من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج - قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم،

أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار رجلاً ابن آدم الذي قتل أخاه، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سنّ القتل. وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كِفْلٌ منه. رواه ابن جرير أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ بِعَجْرَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: لما مات الغلام تركه بالعرزاء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حتى عليه. فلما رآه قال: ﴿يُوتِلَقُ بِعَجْرَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبَحَثَ عليه من التراب حتى وراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يُوتِلَقُ بِعَجْرَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. وقال الضحاك. عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فرأهما يبحثان، فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً، لا يدري ما يصنع به، يحمله، ويضعه إلى الأرض، حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال: ﴿يُوتِلَقُ بِعَجْرَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال عطية العوفي: لما قتله ندم، فضمه إليه حتى أزوح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله. رواه ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سقط في يديه، ولم يدر كيف يواريه. وذلك أنه كان، فيما يزعمون، أول قتيل في بني آدم وأول ميت ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ بِعَجْرَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال: وزعم أهل التوراة أن قينا لما قتل أخاه هابيل، قال له الله، ﷻ: يا قين، أين أخوك هابيل؟ قال: قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً. فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض، والآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها فبلعت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حراثتها حتى تكون فرعاً تائهاً في الأرض. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: ﴿إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل﴾. وهذا ظاهر جلّي، ولكن قال ابن جرير:

حدثنا ابن وكيع، حدثنا سَهْلُ بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن - هو البصري - قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمُ نَبَأُ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كانا قريبان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جداً، وفي إسناده نظر. وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن ابني آدم، عليه السلام، ضربا لهذه الأمة مثلاً، فخذوا بالخير منهما﴾. ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا الشر﴾. وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزني، روى ذلك كله ابن جرير. وقال سالم بن أبي الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أتى فقيل له: حياك الله وبياك. أي: أضحكك. رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال علي بن أبي طالب: لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلِيهَا
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ
فَأَجِيبْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلَا جَمِيعاً
وَجَاءَ بِشْرَةٌ قَدْ كَانَ مِثْلَهَا
وَصَارَ الْجَحِي كَالْمَيْتِ الذَّبِيحِ
عَلَى خَوْفِ فَجَاءَ بِهَا يَضِيحُ

والظاهر أن قابيل عُوجِلَ بالعقوبة، كما ذكره مجاهد بن جبر أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يُعَجَّلَ الله عقوبته في الدنيا مع ما يُدَّخِرُ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

﴿وَمِنَ آجِلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَسُرُورٌ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُجَارُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُكَلَّبُوا أَوْ يُنْقَلَبُوا أَوْ يُنْفَخُوا مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ آجِلٍ﴾ قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، أي: ومن قتل نفساً بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وقال الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرفت مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وإحياؤها: ألا يقتل نفساً حرمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني: أنه من حرم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه جميعاً. وهكذا قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: كفف عن قتلها. وقال العوفي عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نفساً واحدة حرمها الله، فهو مثل من قتل الناس جميعاً. وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً. هذا قول، وهو الأظهر، وقال عكرمة والعوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نبياً أو إماماً عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شد على غضد نبي أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً. رواه ابن جرير. وقال مجاهد في رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً؛ وذلك لأنه من قتل النفس فله النار، فهو كما لو قتل الناس كلهم. وقال ابن جريج، عن الأعرج، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: من قتل النفس المؤمنة متممداً، جعل الله جزاء جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب. قال ابن جريج: قال مجاهد ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، يعني: فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: عفا عن قاتل ولية، فكأنما أحيا الناس جميعاً. وحكى ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير. وقال مجاهد - في رواية -: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة. وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿أَنَّهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: هذا تعظيم لتعاطي القتل - قال قتادة: عظم والله وزرها، وعظم والله أجرها. وقال ابن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن علي الزبعي قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله إلا غيره، كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا. وقال الحسن البصري: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: وزراً. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: أجراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلني على شيء أعيش به. فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة، نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميها؟» قال: بل نفس أحيها. قال: «عليك بنفسك».

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَسُرُورٌ﴾ وهذا تبرع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قنقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروهم، وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة، حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَخَرَجُونَ

قَرِيبًا يَنْجِيكُمْ مِنْ يَدَيْهِمْ تَطَهَّرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ يَأْتَوْكُمْ أَسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ حَرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْشُونَ بَعْضُ
الْكِتَابِ وَكَفَرُوا بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَسَدًا مُتَلَاقًا وَمَا اللَّهُ
يَقْبَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا يَصِفُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق
وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن
قرض الدراهم والدينار من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَوْلُكَ سَكَنَ فِي الْأَرْضِ لِيُقْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ أَعْرَضَكَ
وَالنَّاسُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما قال ابن جرير:
حدثنا ابن حَمَدٍ، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال تعالى:
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى: ﴿أَنْتَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل
أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد، إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله
ورسوله، ثم لحق بالكفر قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب. ورواه أبو داود والنسائي، من طريق
عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا يَصِفُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾: نزلت في المشركين، فمن تاب منهم
قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام فيه الحد الذي أصابه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا يَصِفُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ قال: كان
قوم من أهل الكتاب، بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخيّر الله رسوله: إن شاء أن
يقتل، وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير. وروى شعبة، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن
مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عن أبيه قال: نزلت في الحرورية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا يَصِفُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. رواه ابن
مردويه. والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري ومسلم من حديث
أبي قلابة - واسمه عبد الله بن زيد الخزيمي البصري - عن أنس بن مالك: أن نفرًا من عُكَلِ ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ
فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض، وسَقَمَت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع
راعيانا في إبله فتصيبوا من أبقالها وأبقالها؟» فقالوا: بلى، فخرجوا، فشرّبوا من أبقالها وأبقالها، فَصَحُّوا، فقتلوا الراعي وطرّدوا
الإبل. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم، فأدركوا، فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت
أعينهم، ثم نيدوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم. وفي لفظ لهما: «من عكل أو عُرَيْتَ»، وفي لفظ: «والأقرا في الحرة»
فجعلوا يَسْتَسْقُونَ فلا يَسْقُونَ. وفي لفظ لمسلم: «ولم يَحْسَمُهُم». وعند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا
بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. ورواه مسلم من طريق هُشَيْمٍ، عن عبد العزيز بن صُهَيْبٍ وحَمِيدٍ، عن أنس، فذكر نحوه،
وعنده: «وارتدوا». وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس، بنحوه. وقال سعيد عن قتادة: «من عكل وُعُرَيْتَ». ورواه مسلم من
طريق سليمان التيمي، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرعاء. ورواه مسلم، من حديث
معاوية بن قرة عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ نفرٌ من عُرَيْتَ، فأسلموا وبايعوه، وقد وقع بالمدينة الموم - وهو البزاسم - ثم
ذكر نحو حديثهم، وزاد: وعنده شباب من الأنصار، قريب من عشرين فارساً فارسلهم، وبعث معهم قاتفاً يَقْتَصُّ أثرهم. وهذه
كلها ألفاظ مسلم، رحمه الله. وقال حماد بن سلمة: حدثنا قتادة وثابت البناني وحَمِيدُ الطويل، عن أنس بن مالك: أن ناساً
من عُرَيْتَ قدموا المدينة، فاجتَوَّها، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشرّبوا من أبقالها وأبقالها ففعلوا،
فصَحُّوا فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فجيء بهم، فقطع أيديهم
وأرجلهم من خلاف، وسُمرت أعينهم وألقاهم في الحرة. قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا،
ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه - وهذا لفظه - وقال
الترمذي: «حسن صحيح». وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة، عن أنس بن مالك، منها ما رواه من طريقين، عن سلام بن
أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: ما ندمت على حديث ما ندمت على حديث سألني عنه الحجاج قال: أخبرني
عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: قدّم على رسول الله ﷺ قوم من عُرَيْتَ، من البحرين، فشكوا إلى
رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم، وقد اصفرت ألوانهم، وضُخمت بطونهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة،

فيشربوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم عدّوا على الراعي فقتلوه، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَر أعينهم، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا. فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا ليحال ذؤوب من الإبل، وكان يحتج بهذا الحديث على الناس. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد - يعني ابن مسلم - حدثني سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: كانوا أربعة نفر من عريثة، وثلاثة نفر من عكّل، فلما أتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَل أعينهم، ولم يحسمهم، وتركهم يتلقّمون الحجارة بالحرّة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا أبو مسعود - يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج - حدثنا أبو سعد - يعني البقال - عن أنس بن مالك قال: كان رهط من عريثة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جهْد، مُضَفَّرَة ألوانهم، عظيمة بطونهم، فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصفت ألوانهم وخصمت بطونهم، وسمنوا، فقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في طلبهم، فأتى بهم، فقتل بعضهم، وسَمَر أعين بعضهم، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُرنيين، وهم من بَجيلة. قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام.

وقال حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي الزناد، عن عبد الله بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمر - أو: عمرو، شك يونس - عن رسول الله ﷺ بذلك - يعني بقصة العُرنيين - ونزلت فيهم آية المحاربة. ورواه أبو داود النسائي من طريق أبي الزناد، وفيه: «عن ابن عمر» من غير شك. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن خَلْف، حدثنا الحسن بن حماد، عن عمرو بن هاشم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن جرير قال: قدم على رسول الله ﷺ قومٌ من عريثة حُفَاة مضرورين، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم. قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَل أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء. ورسول الله ﷺ يقول: «النار!» حتى هلكوا. قال: وكره الله، ﷺ، سَمَل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. هذا حديث غريب، وفي إسناده الرُبُذِيّ وهو ضعيف، وفيه فائدة، وهو ذكر أمير هذه السرية، وهو جرير بن عبد الله البجلي. وتقدم في صحيح مسلم أن السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار. وأما قوله: «فكره الله سمل الأعين، فأنزل الله هذه الآية» فإنه منكر، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصاً، والله أعلم. وقال عبد الرزاق، عن إبراهيم بن محمد الأسلمي، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة قال: قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلاً، فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه، فشربوا منها حتى صحوا، ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها، فطلبوا، فأتى بهم النبي ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَر أعينهم. قال أبو هريرة: ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فترك النبي ﷺ سَمَر الأعين بعد. وروي من وجه آخر عن أبي هريرة.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا الحسين بن إسحاق التُسْتَرِيّ، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد، عن عمرو بن محمد المدني، حدثنا محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن سلمة بن الأكوخ قال: كان للنبي غلام يقال له: «يسار»، فنظر إليه يُحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه في لقاح له بالحرّة، فكان بها، قال: فأظهر قوم الإسلام من عريثة، وجأؤوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم، قال: فبعث بهم النبي ﷺ إلى «يسار» فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم، ثم عدوا على «يسار» فذبحوه، وجعلوا الشوك في عينيه، ثم أطردهوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين، أميرهم كُرْز بن جابر الفُهْرِي، فلحقهم فجاء بهم إليه، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَل أعينهم. غريب جداً. وقد روى قصة العُرنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى المحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً، فرحمه الله وأثابه. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، سمعت أبي يقول: سمعت أبا حمزة، عن عبد الكريم - وسئل عن أبوال

الإبل - فقال: حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال: كان أناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام. فبايعوه، وهم كذبة، وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: إنا نجتوي المدينة. فقال النبي ﷺ: «هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها». قال: فيناهم كذلك، إذ جاءهم الصريح، فصرخ إلى رسول الله ﷺ، فقال: قتلوا الراعي، واستاقوا النعم. فأمر النبي ﷺ فتودي في الناس: أن «يا خيل الله اركبي». قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، قال: وركب رسول الله ﷺ على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. قال: فكان نفهم: أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين. وقتل نبي الله ﷺ منهم، وصلب، وقطع، وسَمَر الأعين. قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد. قال: ونهى عن المثلة، قال: «ولا تمثلوا بشيء» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقتهم بالنار بعدما قتلهم. قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بني سليم، ومنهم من عُرينة ناس من بجيلة.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرَينيين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب ببيان تأخر النسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسلم النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فين حكم المحاربين. وهذا القول أيضاً فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سَمَلَ - وفي رواية: سمر - أعينهم. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سَمَلَ النبي ﷺ أعينهم، وتركه حَسَمَهُمْ حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبته في ذلك، وعلمه عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفي، ولم يسلم بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأنكر أن يكون نزلت معاتبته، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَسَوَّوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك - في الذي يقتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ ما معه - إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيبه ويعينه. والله أعلم. وأما قوله: ﴿أَن يُقَاتِلُوا أَوْ يُصَلِّتُوا أَوْ تُفْطَحَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْقَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال: من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله. وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم التَّحِي، والضحاك. وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس، رحمه الله. ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِكُمْ بِهِ ذَرًا عَدْلًا يَتَّقِيكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَيْبَةِ أَوْ كَقَدْرَةِ عَصَاكَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله في كفارة الترفة: ﴿فَن كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَيُذِيهِ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ مَسْئَلٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تَطْبَعُونَ عَلَيْهِمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: أنبأنا إبراهيم - هو ابن أبي يحيى - عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. وقد رواه ابن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية، عن ابن عباس، بنحوه. وعن أبي مجلز، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم التَّحِي، والحسن، وقتادة، والشَّدي، وعطاء الخُراساني، نحو ذلك. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا: هل يُضَلَّب حياً ويُتْرَك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح ونحوه، أو يقتل أولاً ثم

يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان. ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره - إن صح سنده - فقال: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب؛ أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره: أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُرَيبِينَ - وهم من بجيلة - قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام. قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل، عليه السلام، عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقته، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام، فاصلبه.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾: قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس. وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية، وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفي من جُند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حيان: إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه. وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت في الصحيح عند مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نغضه بعضنا بعضاً، فمن وثق منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً في الدنيا، فعوقب به، فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فإله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه». رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روي مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفعه صحيح. وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: شَرٌّ وَعَارٌ وَنَكَالٌ وَذَلَّةٌ وَعَقُوبَةٌ فِي عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة مع الجزء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها - ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: عذاب جهنم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: هي في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجاهد، عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلم رجالاً من قريش منهم: الحسن بن علي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلموا علياً، فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً. قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر. وكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن مجاهد، عن الشعبي، به. وزاد: فقال حارثة بن بدر:

أَلَا أَبْلَغَنَ هَمْدَانِ إِمْلَ لِقَيْتَهَا عَلَى النَّأْيِ لَا يَسْلَمَنَّ عَدُو يَعْيِبُهَا
لَعَمْرُؤِ أَبِيهَا إِنَّ هَمْدَانَ تَشْقِي الْـ إِلَهُ وَيَقْضِي بِالْكِتَابِ خَطِيْبُهَا

وروى ابن جرير من طريق سفیان الثوري، عن السُّدي - ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مراد إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارة عثمان، رضي الله عنه، بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ

بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن يُقدَّر عليّ . فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن يُقدَّر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله. ثم قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا الوليد بن مسلم قال: قال الليث، وكذلك حدثني موسى بن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يُقدَّر عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَبَايَأُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَهُمْ مَا عَنَّا أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الرمر: ٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً. حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلّى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جنت تائباً من قبل أن تقدروا عليّ. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم - وهو أمير على المدينة، في زمن معاوية - فقال: هذا عليّ جاء تائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. قال: فترك من ذلك كله، قال: وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، فقبروا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فافتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، فغرقوا جميعاً.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَ مَا يَدْعُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ مَا نُفِّلْ مِنْهُمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثوري، حدثنا أبي، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أي القربة. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد. وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أَتَلَيْتُكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الْوَأَشُونَ عُذْبًا لِيُوضَلَّأَ
وَعَادَ الثَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ
والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، أت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة».

حديث آخر في صحيح مسلم: من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فسلوا لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن أبي عاصم، عن سفيان - هو الثوري - عن ليث بن أبي سليم، عن كعب قال: حدثني أبو هريرة، به. ثم قال: غريب، وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم.

طريق أخرى: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال أبو بكر بن مَزْدُويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا محمد بن نصر الترمذي، حدثنا عبد الحميد بن صالح، حدثنا أبو شهاب، عن ليث، عن البيهقي، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة رفعه قال: «صلوا عليّ صلواتكم، وسلوا الله لي الوسيلة». فسألوه وأخبرهم: «أن الوسيلة

درجة في الجنة، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونه».

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: أخبرنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً - أو: شفيعاً - يوم القيامة». ثم قال الطبراني: «لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين». كذا قال، وقد رواه ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن عمرو بن عطاء، فذكر بإسناده نحوه.

حديث آخر: روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غزيرة، عن موسى بن زردان: أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يوتيني الوسيلة على خلقه».

حديث آخر: روى ابن مردويه أيضاً من طريقين، عن عبد الحميد بن بحر: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «في الجنة درجة تدعى الوسيلة، فإذا سألت الله فسلوا لي الوسيلة». قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: «علي وفاطمة والحسن والحسين». هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن اللشتكي، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف، عن علي بن الحسين الأزدي - مولى سالم بن ثوبان - قال: سمعت علي بن أبي طالب ينادي على منبر الكوفة: يا أيها الناس، إن في الجنة لولوتين: إحداهما بيضاء، والأخرى صفراء، أما الصفراء فإنها إلى بطنان العرش، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت فيها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأسررتها وكأنها من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هي لمحمد ﷺ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم، عليه السلام، وأهل بيته. وهذا أثر غريب أيضاً.

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغيبهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبديد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يتعم لا يأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِوَجْهِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمُ وَعَدَابُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٣٦) أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بمثل الأرض ذهباً، ويمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه، ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا أَنسَارًا وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ﴾ (٣٧)، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنَّا مِن عَمَّا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردونهم إلى أسفلها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. وقد قال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شرٌّ مضجع، فيقول: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟» قال: «فيقول: نعم، يا رب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل! فيؤمر به إلى النار». رواه مسلم والنسائي من طريق حماد بن سلمة، بنحوه. وكذا رواه البخاري ومسلم، من طريق معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس، به. وكذا أخرجه من طريق أبي عمران الجوزي، واسمه عبد الملك بن حبيب، عن أنس بن مالك، به. ورواه مطر الوراق، عن أنس بن مالك، ورواه ابن مردويه من طريقه، عنه. ثم رواه ابن مردويه، من طريق المسعودي، عن يزيد بن زهير بن ضهيب الفقير، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا أَنسَارًا وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِوَجْهِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر، وهذا أبسط سباقاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شعبة الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك بن فضالة، حدثني يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدث أن أناساً يخرجون من النار - قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد!

ترعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ وَإِنَّهُمْ لَمَّا هُمْ بِنَارٍ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٧). فانتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (١٧٩)؟ [الإسراء: ٧٩]، فهو ذلك المقام، فإن الله تعالى يحتبس أقواماً بخطاياهم في النار ما شاء، لا يكلمهم، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلَجُ بن أحمد، حدثنا عمر بن حفص السُدُوسِي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا العباس بن الفضل، حدثنا سعيد بن المُهَلَّب، حدثني طَلْقُ بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدرد عليها يذكر الله تعالى فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله ﷺ مني؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعدبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهوى يديه إلى أذنيه، فقال: صُمْتُ إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعد ما دخلوا». ونحن نقرأ كما قرأت.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٨) فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَهُ مَلِكًا السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٩).

يقول تعالى حاكماً وأمرأ بقطع يد السارق والسارقة، وروى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي، عن عامر بن شراحيل الشعبي؛ أن ابن مسعود كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما». وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، ففُتِرَ في الإسلام وزيدت شروط آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزيادات هي من تمام المصالح. ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلاً يقال له: «دويك»، مولى لبني مُلَيْحِ بن عمرو من خُزَاعَةَ، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعه عنده. وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً؛ لعدم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فلم يعتبروا نصاباً ولا جزأ، بل أخذوا بمجرد السرقة. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن، عن نُجْدَةَ الحَنَفِي قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: أخاص أم عام؟ فقال: بل عام. وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم. وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي جده، فعند الإمام مالك بن أنس، رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع في يمين ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في الصحيحين. قال مالك، رحمه الله: وقطع عثمان، رضي الله عنه، في أترجة قُومَت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان، رضي الله عنه، قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عُمَرَ بنت عبد الرحمن: أن سارقاً سرق في زمان عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تُقَوِّمَ، فقُومَت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده.

قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية. وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم. وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً. والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن عُمَرَ، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً». ولمسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عُمَرَ، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً». قال أصحابنا: فهذا الحديث فاضل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنه إذ

ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق. ويروى هذا المذهب عن عُمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي، وأصحابه، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مَرْدٌ شرعي، فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة، رضي الله عنهما، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك». وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي: لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار. فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم. وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزُفر، وكذا سفيان الثوري، رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة. واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ، كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا ابن نُمير وعبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم. ثم قال: حدثنا عبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن». وكان ثمن المجن عشرة دراهم. قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات. وذهب بعض السلف إلى أنه تَقَطُّعُ يَدِ السَّارِقِ في عشرة دراهم، أو دينار، أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن علي، وابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وأبي جعفر الباقر، رحمهم الله تعالى. وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس، أي: في خمسة دانير، أو خمسين درهماً. وينقل هذا عن سعيد بن جبير، رحمه الله. وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: «يُسْرَقُ البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة: أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ. والثاني: أن مؤول بيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. الثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهمة. وقد ذكروا أن أبا العلاء المَعْرِي، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله فقال:

يَدٌ بِخَمْسٍ مَثِينٍ عَسَجِدَ وَدَيْتَ مَا بِالْهَاتِفِ قَطَعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَأَنْ تَمُودَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَلَبَّهَ الفقهاء فهرب منهم. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي، رحمه الله، أنه قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه في باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لئلا يُجَنَى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا تَكَلَّلًا مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿تَكَلَّلًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) أي: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور. وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها. وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال: «ما إخاله سرق!» فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: «اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم اتئوتوني به». فقطع فأتى به، فقال: «تب إلى الله». فقال: تبت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك». وقد روي من وجه آخر مرسلًا ورجح إرساله علي بن المديني وابن خزيمة، رحمهما الله، وقد روى ابن ماجه من حديث ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري، عن أبيه؛ أن عمرو بن سُمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني سرت

جمالاً لبني فلان فطهرني! فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جمالاً لنا. فأمر به فقطعت يده. قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول: الحمد لله الذي طهرني منك، أردت أن تدخلني جسدي النار. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كزيب، حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: سرقت امرأة حلياً، فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها اليمنى». فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤٩). وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا، فقال: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا! قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها»، فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار. قال: «اقطعوا يدها». قال: فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك». فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤٩). وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحدثها ثابت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجتريء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أشفع في حد من حدود الله، ﷻ؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، وإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة رضي الله عنها: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ. وهذا لفظ مسلم وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها. وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجحده، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي. وهذا لفظه - وفي لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلبي للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ: «لنتب هذه المرأة إلى الله ورسوله وترد ما تأخذ على القوم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا مَعْقَبَ لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّتُوا لِلْكَذِبِ سَكَّاتٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ كَفَرَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) سَكَّاتٌ لِلْكَذِبِ أَصْلُهُنَّ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءَهُنَّ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُنَّ وَإِنْ تَعَرَّضَ عَنْهُنَّ فَكَانَ بَصُرُوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ﴾ (١٢) وَكَفَى بِكُمْ جُحُودَكُمْ وَعِنْدَهُمُ التَّوْبَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ فَدُرُ بَتَوْلُوتِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْتُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبَانُونَ وَالْأَخْيَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُوا أَنْتُمْ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤).

نزلت هذه الآيات الكريمت في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله، ﷻ: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَكَّاتُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَكَّاتُونَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنهونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. قيل: نزلت في

أقوام من اليهود، قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أخصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يَخني على المرأة يقبها الحجارة. وأخرجاه، وهذا لفظ البخاري. وفي لفظ له: «فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟» قالوا: نُسَخَم وجوههما ونُخرجهما. قال: ﴿فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَقْرَبُوا أَن كُذِّبَتْ صِدْقِيكَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. فجاؤوا، فقالوا للرجل منهم ممن يرضون أعوز: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاثم بينها. فأمر بهما فرجما.

وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نُسَوَّ وجوههما ونُحْمَلهما، ونخالف بين وجوههما ويُطاف بهما، قال: ﴿فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَقْرَبُوا أَن كُذِّبَتْ صِدْقِيكَ﴾ قال: فجاؤوا بها، فقرؤوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ -: مُرَّه فليُرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيت يقيها من الحجارة بنفسه. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، حدثنا ابن وهب، حدثنا هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه، عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود، فدعوا رسول الله ﷺ إلى القُفِّ فأتاهم في بيت المدراس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة، فاحكم. قال: ووضعوا الرسول الله ﷺ وسادة، فجلس عليها، ثم قال: «انتوني بالتوراة». فأتى بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها، وقال: «أمنت بك وبمن أنزلك». ثم قال: «انتوني بأعلمكم». فأتى بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع. وقال الزهري: سمعت رجلاً من مُزَيْنَةَ، ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: زنى رجل من اليهود بامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي، فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتى دون الرجم قبلناها، واحتججتنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدرّاسهم، فقام على الباب فقال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أخصن؟» قالوا: يُحْمَم، ويُجْبَه ويُجلد. والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار، وتقابل أفقيتهما، ويطاف بهما. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، أَلْطَبَ به رسول الله ﷺ التُّشْدَةَ، فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإننا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟» قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخّر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ﷺ: «إني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم. رواه أحمد، وأبو داود - وهذا لفظه - وابن جرير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مَرْوَةَ، عن البراء بن عازب قال: مر على رسول الله ﷺ يهودي محمّم مجلود، فدعاهم فقال: «أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقال: لا، والله، ولولا أنك نُشِدْتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوَضِيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ

الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: انتوا محمداً، فإن افتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن افتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: في اليهود إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها. انفرد بأخراجه مسلم دون البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من غير وجه، عن الأعمش، به. وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيْدي في مسنده: حدثنا سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن مُجَالِدِ بْنِ سَعِيدِ الْهَمْدَانِيِّ، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنى رجل من أهل فَدَكْ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه، فسألوه عن ذلك، قال: «أرسلوا إليّ أعلم رجلين فيكم». فجاؤوا برجل أعور. يقال له: ابن صوريا - وآخر، فقال لهما النبي ﷺ: «أنتما أعلم من قبلكما؟». فقالا: قد دعانا قومنا لذلك، فقال النبي ﷺ لهما: «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله؟» قال: بلى، فقال النبي ﷺ: «فأنشدكم بالذي فلق البحر لبني إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المن والسُّلُوى على بني إسرائيل: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقال أحدهما للآخر: ما نُشِدُّ بِمِثْلِهِ قَط. قال: نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية، والقبل زنية، فإذا شهد أربعة أنهم راوه بيديهم ويعيد، كما يدخل الميل في المُكْحَلَة، فقد وجب الرجم. فقال النبي ﷺ: «هو ذاك». فأمر به فُرْجِمَ، فنزلت: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تَعَرَّضَ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث مُجَالِدِ، به نحوه. ولفظ أبي داود عن جابر قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فقال: «اثنوني بأعلم رجلين منكم». فأتوه بابني صوريا، فنشدهما: «كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟» قال: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المُكْحَلَة رجما، قال: «فما يمنعكم أن ترجموهما؟» قال: ذهب سلطاننا، فكرهنا القتل. فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاؤوا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما. ثم رواه أبو داود، عن الشعبي وإبراهيم التُّخَيْمِي، مرسلًا، ولم يذكر فيه: «فدعا بالشهود فشهدوا». فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله، ﷻ، إليه بذلك، وسؤاله إياهم به مع عملهم على ليقرهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، بان زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿فخذوه﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِنْ لَّمْ تَوَفَّوْهُ فَأَحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَتَعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: الباطل ﴿أَكْتَلُونَ لِلشَّحْوِ﴾ أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أي: ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه؟ وأنى يستجيب له.

ثم قال لنبية: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تَعَرَّضَ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا﴾ أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما وافق هواهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَيْنَ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. ثم قال تعالى - منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم، الزائفة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم - فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ بَتَلَوْكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك الربايون منهم وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿بِمَا اسْتَحْضَرُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿وَكَاوُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْتَبُونَ﴾ أي: لا تخافوا منهم

وخافوني ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِبَائِقِي سَنًا قَبِيلاً وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا أو اصطالحوا على أن كل قتيل قتله العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله ﷺ، ويومئذ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد: دية بعضهم نصف دية بعض. إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وقرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيرة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فندسوا إلى محمد: من يخير لكم رايه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه. فندسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاؤا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْرُوكَ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ففيهم - والله - أنزل، وإياهم عنى الله، ﷺ. ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه، بنحوه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا هناد بن السري وأبو كزيب قالوا: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ إلى: ﴿الظَّالِمِينَ﴾، إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير، كان لهم شرف، تؤدى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يؤدون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء - والله أعلم أي ذلك كان. ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن إسحاق. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن علي بن صالح، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، ودى مائة وسق تمر. فلما بعث رسول الله ﷺ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ. فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم في المستدرک، من حديث عبيد الله بن موسى، بنحوه.

وهكذا قال قتادة، ومقاتل بن حبان، وابن زيد وغير واحد. وقد روى العوفي، وعلي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَيْفَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب - زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذه الأمة بها. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: من السُّحْتِ: قال: فقلا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكفرا ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال السُّدِّيُّ: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت، فتركه عمداً، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير. ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل

في الكتاب. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالَ: لِلْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُنْثَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ ابْنِ أَبِي السَّفَرِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قَالَ: هَذَا فِي الْيَهُودِ، وَابْنُ زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضاً: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: هِيَ بِهِ كُفْرٌ - قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفُسْقٌ دُونَ فَسْقٍ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ وَكَيْعٌ عَنْ سَفْيَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ طَاوُسٍ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يُنْقَلُ عَنْ الْمَلَةِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدِ الْمُقْرِي، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَجْبِيرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِالْكَفْرِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ بْنِ عَيِّنَةَ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ نِيهَاً أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي النَّفْسِ وَالنَّفْسِ وَالْأَنْفِ وَالْأَذُنِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّجُوعِ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وهذا أيضاً مما وَتَحَّتْ بِهِ الْيَهُودُ وَقَرَعُوا عَلَيْهِ، فَإِنْ عِنْدَهُمْ فِي نَصِ التَّوْرَةِ: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ. وَهِيَ يَخَالِفُونَ حُكْمَ ذَلِكَ عَمداً وَعِنَاداً، وَيَقِيدُونَ النَّضْرَى مِنَ الْقَرْطِيِّ، وَلَا يَقِيدُونَ الْقَرْطِيَّ مِنَ النَّضْرِيِّ، بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ، كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ الْمَنْصُوصِ عِنْدَهُمْ فِي رَجْمِ الزَّانِي الْمَحْصَنِ، وَعَدَلُوا إِلَى مَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِشْهَارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَصداً مِنْهُمْ وَعِنَاداً وَعَمداً، وَقَالَ هُنَا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا، وَتَعَدَّى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ يَزِيدٍ - أَخِي يُونُسَ بْنِ يَزِيدٍ - عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَهَا: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ نِيهَاً أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي النَّفْسِ وَالنَّفْسِ وَالْأَنْفِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّجُوعِ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: تَفَرَّدَ ابْنُ الْمُبَارَكِ بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الْأَصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلُنَا شَرْعٌ لَنَا، إِذَا حَكَمِي مَقْرراً وَلَمْ يَنْسَخْ، كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ، وَكَمَا حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي عَنِ نَصِ الشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرِ الْأَصْحَابِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، حَيْثُ كَانَ الْحُكْمُ عِنْدَنَا عَلَى وَقْفِهَا فِي الْجَنَائِيزِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ عَامَةً. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَدْ حَكَى الشَّيْخُ أَبُو زَكْرِيَا النَّوَوِيُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ، ثَالِثُهَا: أَنَّ شَرْعَ إِبْرَاهِيمَ حُجَّةٌ دُونَ غَيْرِهِ، وَصَحَّحَ مِنْهَا عَدَمَ الْحُجِّيَّةِ، وَنَقَلَهَا الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي أَوْ أَلَا عَنِ الشَّافِعِيِّ وَرَجَّحَ أَنَّهُ حُجَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِنْ أَصْحَابِنَا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنِ الصَّبَاغِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي كِتَابِهِ «الشَّامِلُ» إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْإِحْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ احْتَجَّ الْأُمَّةُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يَقْتُلُ بِالْمَرْأَةِ بِعَمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَكَذَا وَرَدَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ فِي كِتَابِ عَمْرُو بْنِ حَزْمٍ: «أَنَّ الرَّجُلَ يَقْتُلُ بِالْمَرْأَةِ» وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَتَلَ الْمَرْأَةَ لَا يَقْتُلُ بِهَا، إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ وَلِيَّهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِ نِصْفَ الدِّيَةِ؛ لِأَنَّ دِيَّتَهَا عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ الرَّجُلِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَتِهِ عَنْهُ، وَحَكَى هَذَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَعَطَاءٍ، وَعَثْمَانَ الْبَتِيِّ، وَرِوَايَةً عَنْ أَحْمَدَ بِهِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَتَلَ الْمَرْأَةَ لَا يَقْتُلُ بِهَا، بَلْ تَجِبُ دِيَّتُهَا.

وهكذا احتج أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، بعُمومِ هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»، وأما العبد فعن السلف في آثار متعددة: أنهم لم يكونوا يُقِيدُونَ الْعَبْدَ مِنَ الْحَرِّ، وَلَا يَقْتُلُونَ حراً بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة. ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ الرَّبِيعَ عَمَةً أَنَسٍ كَسَرَتْ نِثْيَةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْمِ

العفو، فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «القصاص». فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة؟! فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضي القوم، فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». أخرجاه في الصحيحين. وقد رواه محمد بن عبد الله بن المشنى الأنصاري، في الجزء المشهور من حديثه، عن حميد، عن أنس بن مالك؛ أن الرُّبِيع بنت النضر عَمَّتُه لطمت جارية فكسرت ثنيتها فعرضوا عليهم الأرش، فأبوا. فطلبوا الأرش والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال النبي ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخاري عن الأنصاري. فأما الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن عمران بن حصين، أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً. وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه عن قتادة، به. وهذا إسناد قوي رجاله كلهم ثقات - فإنه حديث مشكل، اللهم إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ، فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه. وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقد العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين به فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً، في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة:

الجراح تارة تكون في مفصل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك. وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم، فقال مالك، رحمه الله: فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها؛ لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابن عباس. وبه يقول عطاء، والشعبي، والحسن البصري، والزهري، وإبراهيم الثَّخَمِي، وعمر بن عبد العزيز. وإليه ذهب سفیان الثوري، والليث بن سعد. وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد. وقد احتج أبو حنيفة، رحمه الله، بحديث الرُّبِيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن. وحديث الربيع لا حجة فيه؛ لأنه ورد بلفظ: «كسرت ثنية جارية» وجرى أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص - والحالة هذه - بالإجماع. وتمموا الدلالة. بما رواه ابن ماجه، من طريق أبي بكر بن عيَّاش، عن دَهْمِ بْنِ قُرَّان، عن نَمْرَانَ بن جارية، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي؛ أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل، فقطعها، فاستعدى النبي ﷺ، فأمر له بالدية، فقال: يا رسول الله، أريد القصاص. فقال: «خذ الدية، بارك الله لك فيها». ولم يقض له بالقصاص. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد، ودَهْمِ بْنِ قُرَّان العُكَلِي ضعيف أعرابي، ليس حديثه مما يحتج به، ونمران بن جارية ضعيف أعرابي أيضاً، وأبوه جارية بن ظفر مذكور في الصحابة. ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تُؤدِّم الجراحة المجني عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فلا شيء له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً، قال ابن إسحاق: وذكر عَمْرُو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني. فقال ﷺ: «لا تعجل حتى يبرأ جرحك». قال: فأبى الرجل إلا أن يستقيد، فأفاده رسول الله ﷺ منه، قال: فخرج المستقيد وبرأ المستقيد منه، فأتى المستقيد إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، عرجت وبرأ صاحبي. فقال: «قد نهيتك فعصيتي، فأبعذك الله ويطل عرجك». ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد.

مسألة: فلو اقتص المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص، فلا شيء عليه عند مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عامر الشعبي، وعطاء، وطاوس، وعمر بن دينار، والحارث العُكَلِي، وابن أبي ليلى، وحمام بن أبي سليمان، والزهري، والثوري: تجب الدية

على عاقلة المقتصد له. وقال ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة، وعثمان بن عتيبة: يسقط عن المقتصد له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله. وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: كفارة للجراح، وأجر المجروح على الله ﷻ. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم - في أحد قوله - وعامر الشعبي، وجابر بن زيد - نحو ذلك الوجه الثاني، ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن زاذان، حدثنا حرمي - يعني ابن عمار - حدثنا شعبة، عن عمار - يعني ابن أبي حفصة - عن رجل، عن جابر بن عبد الله، في قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: للمجروح. وروي عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي - في أحد قوله - وأبي إسحاق الهمداني، نحو ذلك. وروي ابن جرير، عن عامر الشعبي وقتادة، مثله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن قيس - يعني بن مسلم - قال: سمعت طارق بن شهاب يحدث، عن الهيثم أبي العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم. وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة. وقال ابن مردويه: حدثني محمد بن علي، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثنا مَعْلَى - يعني بن هلال - أنه سمع أبان بن تغلب، عن أبي العريان الهيثم بن الأسود، عن عبد الله بن عمرو - وعن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: هو الذي تكسر سنه، أو تقطع يده، أو يقطع الشيء منه، أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك، وقال: فَيُحِطَ عنه قدر خطاياه، فإن كان ربع الدية فربح خطاياه، وإن كان الثلث فثلث خطاياه، وإن كانت الدية حطت عنه خطاياه كذلك.

ثم قال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا ابن فضيل، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السُّفَرِّ قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال: شأنك وصاحبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال أبو الدرداء. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده، فيهبه، إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة». فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاء قلبي، فخلى سبيل القرشي، فقال معاوية: مروا له بمال. هكذا رواه ابن جرير، ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا وكيع، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السُّفَرِّ قال: كسر رجل من قريش سنَّ رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال القرشي: إن هذا دق سني؟ قال معاوية: إنا سنر ضيه. فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة». فقال الأنصاري: فإني، يعني: قد عفوت. وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وابن ماجه من حديث وكيع، كلاهما عن يونس بن أبي إسحاق، به. ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السُّفَرِّ سماعاً من أبي الدرداء. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا محمد بن علي بن زيد، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا سفيان، عن عمران بن ظبيان، عن عدي بن ثابت؛ أن رجلاً هَتَمَ فمه رجل، على عهد معاوية، رضي الله عنه، فأعطي دية، فأبى إلا أن يقتصر، فأعطي ديتين، فأبى، فأعطي ثلاثاً، فأبى، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بدم فما دونه، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا هُشَيْم، عن المغيرة، عن الشعبي؛ أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من جسده جراحة، فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به». ورواه النسائي، عن علي بن حُجْر، عن جرير بن عبد الحميد، ورواه ابن جرير، عن محمود بن خَدَّاش، عن هُشَيْم، كلاهما عن المغيرة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن مجالد، عن عامر، عن المحرَّر بن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «من أصيب بشيء من جسده، فتركه الله، كان كفارة له». وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجِدْكُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾،

قد تقدم عن طاروس وعطاء أنها قالا: كُفِّرَ دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَاتِلَا عَلَيْهِم بِبَيْسَىٰ أَيْنَ مِمَّ مَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَمَّا نِسَاءُ الْإِنجِيلِ فَبِهَدْيٍ وَنُورٌ وَمَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَهَدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَلِيَحْكُرَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَخُصَّكُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: اتبعنا ﴿عَلَىٰ الْتَّوْرَةِ﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل عليه السلام ﴿بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَأُحِلِّدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بغض أحكام التوراة. وقوله: ﴿وَهَدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل ﴿هُدًى﴾ يهتدى به، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه. وقوله: ﴿وَلِيَحْكُرَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، قرئ: ﴿وَلِيَحْكُرَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتينا الإنجيل فيه هدى ونور ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿وَلِيَحْكُرَ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالْإِسْلَامِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَوَّلَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا بِهِمْ بِعِزَّةٍ وَنَسْرِوهُ وَاتَّبَعُوا الْوَيْدَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَخُصَّكُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ يَكُلُ جَمَلًا مِّمَّنْ شَرَعْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَابًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَنبُوذَ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقْبُوا الصَّلَاةَ إِلَى اللَّهِ مَرِمُكُمْ جَمِيعًا فَيُنزِلُكُمْ يَمَا كُتِبَ فِيهِ تَحْفِلُونَ﴾ [٤٨] وَأَنَّ أَحْسَنَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَمْرَهُمْ أَن يَتَّبِعُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا رِيبُ اللَّهِ أَن يُصِيبَهُمْ بَعْضُ دُونِهِمْ وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [٤٩] أَحْسَنُكُمْ لِلْجَهَنَّمِيِّينَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠].

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه عليه السلام، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُونَ عَلَيْهِمْ يَجِزُونَ لِرَأْدِ ذَٰلِكَ سُدًّا﴾ [١٧] وَيَتَوَلَّوْنَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [١٧] [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله على السنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد، عليه السلام، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي: لكائن لا محالة ولا بد. وقوله: ﴿وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أي: مؤتمناً عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وروي عن عكرمة، وسعيد بن جببير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، نحو ذلك، وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن الوالبي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّبًا﴾ أي: شهيداً. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّبًا﴾ أي: حاكماً على ما قبله من الكتاب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها، أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّزَّاقُ الذَّاكِرُونَ وَإِنَّا لَمُحِيطُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جببير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيح عن مجاهد؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر. وبالجمله فالصحيح الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا من

صفة ما كان «المصدق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب مهيئنا عليه». يعني من غير عطف. وقوله: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكتبايهم ﴿يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجه ابن جرير بمعناه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. وقوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ قال: سبيلاً. وحدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَا جَاءَ﴾ قال: وسنة. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾: سبيلاً وسنة. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقنادة، والضحاك، والسدي، وأبي إسحاق السبيعي؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ أي: سبيلاً وسنة. وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعطاء الخراساني عكسه: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ أي: سنة وسبيلاً، والأول أنسب، فإن الشريعة وهي الشريعة أيضاً، هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء ومنه يقال: «شرع في كذا» أي: ابتدأ فيه. وكذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء. أما «المنهاج»: فهو الطريق الواضح السهل، والسنن؛ الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد». يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا كُفْرَهُمْ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكم البالغة، والحجة الدامغة. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قنادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطعهم ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا﴾ القرآن ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: أيتها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ أي: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أي: جعلناه، يعني القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ أي: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أي: طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ﴾ أي: أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة، ليعتبر عباده فيما شرع لهم، ويبيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَا آتَيْتُكُمْ﴾ يعني: من الكتاب. ثم إنه تعالى نديهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَأَسْرِعُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزل. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جِيئًا﴾ أي: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فِيئْتِكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزئ الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين

الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة. وقال الضحاك: ﴿فَأَسْتَفِيحُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ. والأظهر الأول. وقوله: ﴿وَأَن آسَأَكُم بِبَنِيكُمْ يَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَن يَقُولُوا إِذْ سَأَلْتَهُمْ لَئِن آتَىَٰنَا آيَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنَعْبُدَنَّ اللَّهَ وَنَعْبُدَنَّ الْآلِهَةَ مَعَ اللَّهِ قَالُوا إِنَّا عُودِلْنَا لَمَّا بَدَأْنَا فَآذَنَّا بِهِم بِآيَاتِنَا فَالْتَمَحُوا بِهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَالْحَقُّ أَن يَدْعُوا بِهِم بِأَسْمَائِهِمْ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿لَئِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن سوريا، وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله، ﷻ، فيهم: ﴿وَأَن آسَأَكُم بِبَنِيكُمْ يَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقَهُمْ أَن يَدْعُوا بِهِم بِأَسْمَائِهِمْ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمِمَّا أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥١]: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحكَّم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم اليساق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. ﴿وَمِمَّا أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هلال بن فياض، حدثنا أبو عبيدة الناجي، قال: سمعت الحسن يقول: من حكم بغير حكم الله، فحكم الجاهلية هو. وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، قال: كان طاموس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدي في النخل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمِمَّا أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥١]. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجيعة الخوطي، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن نافع بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله، ﷻ، مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه». وروى البخاري، عن أبي اليمان بإسناده، نحوه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٥١] قَرَأَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ يُنصَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فِئَتُنَا وَهُمْ أَغْيَابٌ مُّخْتَفٍ إِنَّ شَيْئَنَا دَاهِيَةٌ فَكَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ الْيَتِيمَ إِلَىٰ يَتِيمَةٍ فَضَيَّحُوا عَلَيَّ مَا أَسْرَأُ فِي أَسْمَائِهِمْ تَدِيرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَآءُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآلِهِ إِتْمَانًا يَوْمَ يُؤْتَىٰ السُّعُودَ نَدْعُو بِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُسْوِرُونَ بِهَا آلِهِمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو بِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُسْوِرُونَ بِهَا آلِهِمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو بِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُسْوِرُونَ بِهَا آلِهِمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعدهم من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ يَتِيمًا إِتْمَانًا يَوْمَ يُؤْتَىٰ السُّعُودَ نَدْعُو بِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُسْوِرُونَ بِهَا آلِهِمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو بِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُسْوِرُونَ بِهَا آلِهِمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب، حدثنا محمد - يعني ابن سعيد بن سابق - حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن سيمك بن حرب، عن عبيد بن عمير: أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجُتِبَ هو؟ قال: لا، بل نصراني. قال: فاتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٥١]

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَاحِ: حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ عَمْرٍو، أَنبَأَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيِّرِينَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: لَيْتَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. قَالَ: فَظَنَنَاهُ يَرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ذُبَائِحِ نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: كُلُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وَرَوَى عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أَي: شَكٌّ، وَرَيْبٌ، وَنِفَاقٌ ﴿يَسْتَعْرِضُونَ فِيهِمْ﴾ أَي: يَبَادِرُونَ إِلَى مَوَالِيَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تَصِيبَنَا دَابَّةٌ﴾ أَي: يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمَوَالِيَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ آيَادٌ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي الْقَضَاءَ وَالْفَصْلَ ﴿أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي ضَرْبَ الْجِزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿فَيَصْبِحُوا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿عَلَمًا مَا أَسْرَأُ فِي أَسْهِمِهِمْ﴾ مِنَ الْمَوَالِيَةِ ﴿الْأَنْدَلِيِّينَ﴾ أَي: عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، مِمَّا لَمْ يُجَدِّعْ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْمَفْسُدَةِ، فَإِنَّهُمْ فَضَحُوا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُسْتَوْرِينَ لَا يَدْرِي كَيْفَ حَالِهِمْ. فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةَ لَهُمْ، تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَيَأْتِيهِمْ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِيرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي هَذَا الْحَرْفِ، فَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِثَابِتِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ﴾ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ﴿وَيَقُولُ﴾ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَسَبَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تَقْدِيرُهُ «أَنْ يَأْتِيَ» وَ«وَأَنْ يَقُولَ»، وَقَرَأَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِغَيْرِ وَاوٍ وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مَصَاحِفِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ حِينَ شَذَّ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِيرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾. وَاخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، فَذَكَرَ السُّدِّيُّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ بَعْدَ وَقْعَةِ أَحُدٍ: أَمَا أَنَا فَمَاذَا ذَاهَبَ إِلَى ذَلِكَ الْيَهُودِي، فَأَرَى إِلَيْهِ وَأَتَّهَدُ مَعَهُ، لَعَلَّهُ يَنْفَعُنِي إِذَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ حَدَثَ حَدَثٌ! وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَمَا أَنَا فَمَاذَا هَبَ إِلَى فُلَانِ النَّصْرَانِيِّ بِالشَّامِ، فَأَرَى إِلَيْهِ وَأَتَّهَدُ مَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ﴾ الْآيَاتِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَسَأَلُوهُ: مَاذَا هُوَ صَاحِبُ بِنَا؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، أَي: إِنَّهُ الذَّبِيحُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ عَطِيَّةِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي مَوَالِيٍّ مِنْ يَهُودٍ كَثِيرٍ عَدَدَهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدُّوَابَّ، لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ مَوَالِيٍّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: «يَا أَبَا الْخُبَابِ، مَا يَخْلُتُ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ». قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا هَنَادٌ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ بَدْرٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ يَهُودٍ: آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يَصْبِيحَكُمْ اللَّهُ بِيَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ! فَقَالَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ: أَغْرَمَكُمُ أَنْ أَصْبَحْتُمْ رَهَطًا مِنْ قَرِيشٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ!! أَمَا لَوْ أَمْرُنَا الْعَزِيمَةُ أَنْ نَسْتَجْمَعَ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ بِقِتَالِنَا. فَقَالَ عِبَادَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَوْلِيَائِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ، كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ، شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ، وَلَا مَوْلَى لِي إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: لَكُنِي لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ، أَنَا رَجُلٌ لَا بَدْلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْخُبَابِ أَرَأَيْتَ الَّذِي نَفَسَتْ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ، فَهَوَّلَكَ دُونَهُ؟» فَقَالَ: إِذَا أَقْبَلْتُ! قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَصْمُوكُمْ مِنَ الْأَثَمِ﴾ [المائدة: ٦٢٧].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَتْ أَوَّلَ قَبِيلَةٍ مِنَ الْيَهُودِ نَقَضَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَنُو قَيْنِقَاعَ. فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ، حِينَ امْكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسَنُ فِي مَوَالِيٍّ. وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسَنُ

في موالي. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني». وغضب رسول الله ﷺ حتى زُني لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك أرسلني». قال: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمانه حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك». قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قَيْنِقَاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عَوْف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ﴾ (٥٦) [المائدة: ٥٦]. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهارك عن حب يهود». فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة، فمات. وكذا رواه أبو داود، من حديث محمد بن إسحاق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٦) إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَمُؤْتَوَاتِ الْأُكُوفَةِ وَهُمْ ذِكْرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ ﴿٥٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَتَوَلَّوْنَا يَسْتَدِيلُ قَوْمًا عَيْرَكُمُ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتًا لَكَ﴾ [محمد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ إِنَّمَا تَأْتِي النَّاسَ وَآيَاتٍ يَخَافُونَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ وَإِيَّاتٍ يَخَافُ جَارِيَةً﴾ (٥٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٥٦﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: بممتنع ولا صعب وقال تعالى ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر. ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾: هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قوم من سبأ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن محمد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كِنْدَةَ، ثم من السُّكُونِ. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفي، حدثنا معاوية - يعني ابن حفص - عن أبي زياد الحلفاني، عن محمد بن المُثَكِّدِر، عن جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كِنْدَةَ، ثم من السُّكُونِ، ثم من تجيب». وهذا حديث غريب جداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شُبَّة، حدثنا عبد الصمد - يعني ابن عبد الوارث - حدثنا شعبة، عن يَمَّالِك، سمعت عِيَّاضاً يحدث عن الأشعري قال: لما نزلت: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه. وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي صفة النبي ﷺ أنه: «الضحك القتال»، فهو ضحك لأوليائه قتال لأعدائه. وقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي: لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله، وقاتل أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يرددهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر، عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدين منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإِنَّهُنَّ من كنز تحت العرش. وقال الإمام أحمد:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان عن أبي المثنى؛ أن أبا ذر قال: بايعني رسول الله ﷺ خمساً وواثقني سبعاً، وأشهد الله عليّ تسعاً، أني لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، قال: ويسطت يدي، فقال النبي ﷺ وهو يشترط: على ألا تسأل الناس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: «ولا سوطك وإن سقط منك يعني تنزل إليه فتأخذه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جعفر، عن المعلى الفرزدوسي، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم زهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يُباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم». تفرد به أحمد. وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن زبيد عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَخْفَرُ أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال، فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس. فيقول: إياي أحق أن تخاف». ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به. وروى أحمد وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي طوالة، عن نهار بن عبد الله العبدي المدني، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى إنه ليسأله يقول له: أي عبيدي، رأيت منكراً فلم تنكره؟ فإن لئن الله عبداً حجته، قال: أي رب، وثقت بك وخفت الناس». وثبت في الصحيح: «ما ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه»، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق». «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له، «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه. وقوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ» أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين. وأما قوله: «وَهُمْ ذَكَرُونَ»: فقد توهم بعضهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن تعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب: أن هذه الآية نزلت فيه: ذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان المرادي، حدثنا أيوب بن سويد، عن عتبة بن أبي حكيم في قوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» قال: هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب. وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا الفضل بن ذكّين أبو نعيم الأحول، حدثنا موسى بن قيس الحضرمي، عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راع، فنزلت: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ» . وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا غالب بن عبيد الله، سمعت مجاهداً يقول في قوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية: نزلت في علي بن أبي طالب، فأعطاه خاتمه. وقال عبد الرزاق: حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية: نزلت في علي بن أبي طالب. عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به. وروى ابن مَرْدُويه، من طريق سفيان الثوري، عن أبي سنان، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان علي بن أبي طالب قائماً يصلي، فمر سائل وهو راع، فأعطاه خاتمه، فنزلت: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية. الضحاك لم يلق ابن عباس. وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي - وهو متروك - عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، والناس يصلون، بين راع وساجد وقائم وقاعد، وإذا مسكين يسأل، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم. قال: «من؟» قال: ذلك الرجل القائم. قال: «على أي حال أعطاك؟» قال: وهو راع، قال: «وذلك علي بن أبي طالب». قال: فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك، وهو يقول: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُتَغَلَّبُونَ» ﴿٥٦﴾ .

وهذا إسناد لا يفرح به. ثم رواه ابن مردويه، من حديث علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع. وليس يصح شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها. ثم روى بسنده، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» : نزلت في المؤمنين، وعلي بن أبي طالب أولهم. وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن عبد الملك، عن أبي جعفر قال: سألت عن هذه الآية: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ» ﴿٥٥﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا! قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب! قال: علي من الذين آمنوا. وقال أسباط، عن السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راع في المسجد،

فأعطاه خاتمه . وقال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا . رواه ابن جرير . وقد تقدم في الأحاديث التي أوردنا أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، حين تبرأ من حلف يهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥٦) ، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأُولَئِكَ أَنَا مُسَلِّمٌ إِلَيْكَ اللَّهُ قَوْمٌ غَيْرٌ عَرِيبٌ ﴾ (٥٦) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي أَسَاءُوا إِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ إِلَى اللَّهِ وَبِالْآخِرَةِ وَالْآخِرَةُ لِلَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا عَلَيْكُمْ هُرُوبًا وَكَيْبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) وَإِذَا تَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُرُوبًا وَكَيْبًا ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥٨) .

وهذا تنفير من موالة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذي يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها ﴿ هُرُوبًا وَكَيْبًا ﴾ يستهزئون بها، ﴿ وَكَيْبًا ﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأقنئ من ألفهم السقيم

وقوله: ﴿ يَنْ أُولَئِكَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿ فَاتَّخِذُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾

[الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم: ﴿ وَالْكَافِرَ ﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا عَلَيْكُمْ هُرُوبًا وَكَيْبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ تقديره: ولا الكفار أولياء، أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء. والمراد

بالكفار ههنا المشركون، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: ﴿ ولا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم

هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والذين أشركوا ﴾ . وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: اتقوا الله أن

تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بشرح الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال

تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَدَّرُ

وَيُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ نَفْسًا وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٨) [آل عمران: ٢٨] . وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُرُوبًا وَكَيْبًا ﴾ أي:

وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ أيضاً ﴿ هُرُوبًا

وَكَيْبًا ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي «إذا سمع الأذان أدير وله

حُصَّاص، أي: ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوب بالصلاة أدير، فإذا قضى التثويب

أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل إن يدرى كم

صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدتين قبل السلام». متفق عليه. وقال الزهري: قد ذكر الله تعالى التأذين

في كتابه فقال: ﴿ وَإِذَا تَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُرُوبًا وَكَيْبًا ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥٨) . رواه ابن أبي حاتم. وقال

أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿ وَإِذَا تَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُرُوبًا وَكَيْبًا ﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا

سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: حُرِّق الكاذب! فدخلت خادمه ليلة من الليالي بناه وهو نائم

وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وذكر محمد بن

إسحاق بن يسار في السيرة: أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن

حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون

سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعت. فقال أبو سفيان: لا

أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذا الحصى. فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلت»، ثم ذكر

ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: تشهد أنك رسول الله، والله ما أطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا رُوْح بن عبادة، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة؛ أن

عبد الله بن مُحَيْرِيز أخبره - وكان يتيماً في حجر أبي محذورة - قال: قلت لأبي محذورة: يا عم، إني خارج إلى الشام،

وأخشى أن أسأل عن تأديتك . فأخبرني أن أبا محذورة قال له : نعم خرجت في نفر ، وكنا ببعض طريق حنين ، مقفل رسول الله ﷺ من حُتَيْن ، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق ، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون ، فصرخنا نحكيه ونستهزيء به ، فسمع رسول الله ﷺ الصوت ، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلي ، وصدقوا ، فأرسل كلهم وحبسني . وقال : «قم فأذن بالصلاة» . فقامت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ، ولا مما يأمرني به ، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ ، فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه ، قال : «قل : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله» ، ثم قال لي : «ارجع فامد من صوتك» . ثم قال : «أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله» . ثم دعاني حين قضيت التأذين ، فأعطاني صُرَّة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرها على وجهه ، ثم بين ثدييه ، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سررة أبي محذورة ، ثم قال رسول الله ﷺ : «بارك الله فيك وبارك عليك» . فقلت : يا رسول الله ، مُزني بالتأذين بمكة . فقال : «قد أمرتك به» . وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ . فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ ، وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة ، على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز . هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، وأهل السنن الأربعة من طرق ، عن عبد الله بن محيريز ، عن أبي محذورة - واسمه : سَمْرَةَ بن مغير بن لوذان - أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة ، وهو مؤذن أهل مكة ، وامتدت أيامه ، رضي الله عنه وأرضاه .

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَقْتَفُونَ مِنَّا ؕ إِنَّا ءَنَآءَآ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ مِنَّا مِن ءَايَٰتٍۭ وَمَا نُنزِلُ مِن قَبْلِ وَأَنَّ أَكْثَرَ تَقِيْمُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ دَٰلِكَ تَتُوبُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ مِن لَّعْنَتِهِۦ وَعَنِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ ٱلْقُرْدَةَ ٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ٱلَّتِي تُرَىٰ كَثِيْرًا يَتَّبِعُونَ فِي ٱلْإِيْمَٰنِ ٱلَّذِينَ ءَنَآءَآ عَن سَبْوَةِ ٱلسَّبِيْلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءَكُمُ ٱلْقَآوِمَآءُ فَاَمْسَآءُ وَقَدْ دَسَلُواْ بِٱلْكَفْرِ وَهُمْ قَدَّ حَرَجُواْ بِيَدِ ٱللَّهِ فَعَرَّوْهُمَا كَآوُفًا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَىٰ كَثِيْرًا مِّنْهُمْ يُسَبِّحُونَ فِي ٱلْإِيْمَٰنِ ٱلَّذِينَ ءَنَآءَآ عَن ءَٰحْلِهِمْ ٱلسَّخْتِ لَيْسَ مَا كَآوُفًا يَمْلِكُونَ ﴿٦٢﴾ تَوَلَّآ بِتَهْمِهِمُ ٱلرَّيْبِيْنَوَءَ ٱلْأَخْبَآءَ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِيْمَٰنَ وَأَكْبَهُمْ ٱلسَّخْتِ لَيْسَ مَا كَآوُفًا يَتَّبِعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد ، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿هَلْ تَقْتَفُونَ مِنَّا ؕ إِنَّا ءَنَآءَآ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ مِنَّا وَمَا أُنزِلُ مِن قَبْلِ﴾ أي : هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، كما في قوله : ﴿وَمَا تَقْوُوا مِنْهُمْ إِنَّا أَن نُّؤْمِنُوا بِاللَّهِ ٱلْعَزِيْزِ ٱلْحَمِيْدِ ﴿٥٨﴾﴾ [البروج : ٤٨] ، وكقوله : ﴿وَمَا تَقْوُوا إِنَّا أَن نُّؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِٗ مِّنْ قَوْلِهِ﴾ [التوبة : ٧٤] . وفي الحديث المتفق عليه : «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله» . وقوله : ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَ تَقِيْمُونَ﴾ معطوف على ﴿إِنَّا ءَنَآءَآ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ مِنَّا وَمَا أُنزِلُ مِن قَبْلِ﴾ أي : أي : وأما بأن أكثركم فاسقون ، أي : خارجون عن الطريق المستقيم . ثم قال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ دَٰلِكَ تَتُوبُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ أي : هل أخبركم بشر جزء عند الله يوم القيامة مما تظنون به؟ وهم أتم الذين هم متصفون بهذه الصفات القصيرة ، فقوله : ﴿مَنْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي : أبعده من رحمته ﴿وَعَنِيبَ عَلَيْهِ﴾ ، أي : غضباً لا يرضى بعده أبداً ، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ ٱلْقُرْدَةَ ٱلْخَنَازِيرَ﴾ ، كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . وقد قال سفيان الثوري : عن علقمة بن مرثد ، عن المغيرة بن عبد الله ، عن المعمر بن سُوَيْد ، عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أي مما مسخ الله تعالى؟ فقال : «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال : لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» . وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري وسمر كلاهما ، عن مغيرة بن عبد الله الشكري ، به . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن محمد بن زيد ، عن أبي العين العبدي ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود قال : سألتنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أي من نسل اليهود؟ فقال : «لا ، إن الله لم يلن قوماً فيمسخهم فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم ، جعلهم مثلهم» . ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات ، به . وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقي ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا الحسن بن محبوب ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «الحيات مسخ الجن ، كما مسخت القردة والخنازير» . هذا حديث غريب جداً . وقوله : ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ ، وقرئ : ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ على أنه فعل ماض ، «والطاغوت» منصوب به ، أي : وجعل منهم من عبد الطاغوت . وقرئ : ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ بالإضافة على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أي : خدامه وعبيده ، وقرئ : ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ على أنه جمع الجمع :

عبد وعبيد وعُبد، مثل ثمار وتُمر. حكاها ابن جرير عن الأعمش. وحكي عن بُزْدَةَ الأَسْلَمِي أنه كان يقرؤها: «وعابد الطاغوت»، وعن أبي، وابن مسعود: «وعبدوا»، وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القارىء أنه كان يقرؤها: «وعُبدَ الطاغوت» على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها. والظاهر أنه لا بعد في ذلك؛ لأن هذا من باب التعريض بهم، أي: وقد عبدت الطاغوت فيكم، وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك. وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا، والذي هو توحيد الله وإفراذه بالعبادة دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَسْأَلُ عَنْ سَوَاءِ النَّبِيِّ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْلًا مَأْمُورًا قَدَّ ذَعْلًا يَأْكُرُونَ﴾ وهم قد خَرَجُوا بِدِينِهِمْ. وهذه صفة المنافقين منهم، إنهم يصنعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّ ذَعْلًا﴾ أي: عندك يا محمد ﴿يَأْكُرُونَ﴾ أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدَّ خَرَجُوا بِدِينِهِمْ﴾ فخصهم به دون غيرهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَغْلَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: والله عالم بسرانهم وما تنطوي عليهم ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء. وقوله: ﴿وَرَوَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمُ يُسِرُّونَ﴾ أي: يبادرون إلى ذلك من تعاطي المأثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لبس العمل كان عملهم وبس الاعتداء اعتداؤهم. وقوله: ﴿لَوْلَا بَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ لَفَلَّتِ الْأُمَمُ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: هلا كان ينهاتهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك. والربانيون وهم: العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: وهم العلماء فقط. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الربانيين، أنهم: بس ما كانوا يصنعون. يعني: في تركهم ذلك. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم ينهوا، ولهؤلاء حين عملوا. قال: وذلك الأركان. قال: «ويعملون» و«يصنعون» واحد. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن العلاء بن المسيب، عن خالد بن دينار عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [١٧] يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك. والربانيون وهم: العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: وهم العلماء فقط. حدثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح، حدثنا ثابت بن سعيد الهمداني، قال: رأيت بالرُّيِّ فحدثت عن يحيى بن يعفر قال: خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تبادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع، لم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب». تفرد به أحمد من هذا الوجه. ورواه أبو داود، عن مسدد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون أن يغيروا عليه، فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا». وقد رواه ابن ماجه عن علي بن محمد، عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه، به. قال الحافظ الزُّبَيْرِيُّ: وهكذا رواه شعبة، عن أبي إسحاق، به.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَأُزُومًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَرْزُقُ كَيْفَ يَشَاءُ مَا أَزِلُّكَ مِنْ دُونِكَ طُفِينًا وَكُفْرًا وَاللَّيِّنَاتُ بَيْنَهُمُ الْمَدُونَةُ وَالْمَعْنَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمْنَاهَا اللَّهُ وَسِعَمُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [١٨] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَتَاتِهِمْ وَلَأَعْلَبَنَّكُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿١٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَآتَيْنَهُم مِّنَ اللَّهِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ لَأَكْفَلُوا مِنْ قَوْمِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَكْمُلُونَ ﴿٢١﴾.

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوا الله ﷻ وتعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه بخيل. كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: ﴿مَغْلُوبَةٌ﴾ أي: بخيلة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موقفة، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكذا روي عن عكرمة، وقتادة، والسدي، ومجاهد، والضحاك وقرأ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ بِدِكِّ مَقْلُوبَةٍ إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] يعني: أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، وعبر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ بِدِكِّ مَقْلُوبَةٍ إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فحاص اليهودي، عليه لعنة الله. وقد تقدم أنه الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيْرٌ وَنَحْنُ أَهْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود، يقال له: شاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ غَلَّتْ آيَاتِهِمْ رُلُوبًا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيضُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. وقد رد الله، ﷻ، عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واتفكوه، فقال: ﴿غَلَّتْ آيَاتِهِمْ رُلُوبًا بِمَا قَالُوا﴾. وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ حَيْبٌ مِنَ الْمَلَأِكِ إِذْ لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٩﴾ فَيَنْهَمُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَيَنْهَمُ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٣ - ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا اتَّفَعُوا إِلَىٰ جَنبِ اللَّهِ مِنْ آثَانٍ﴾ الآية [آل عمران: ٤١٢]. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيضُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَسْأَلُوهُ لَنُحَدِّثَْنَّ أَنْ لَا تَمْلِكُوا مِنْهَا شَيْئًا﴾. وقد ورد الله ﷻ، أن يفيضها نفقة، سحَاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يفيض ما في يمينه قال: «وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القنص، يرفع ويخفض»: قال: قال الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين، البخاري في «التوحيد» عن علي بن المديني، ومسلم فيه، عن محمد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿وَلِكَيْ يَذِكرَ كِبْرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَيِّبَةً وَكُفْرًا﴾ أي: يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نفقة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمك ﴿طَيِّبَةً﴾ وهو: المبالغة والمجازاة للحد في الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُفْرًا وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُبَادِلُونَ مِنَ الْمَكَانِ بَيْدًا﴾ [نصفت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْيَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقتهم بعضهم في بعض دائماً؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم السخمي: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْيَةَ﴾ قال: الخصومات والجدال في الدين. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَلْفًا مَا اللَّهُ﴾ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحق مكرهم السيء بهم. ﴿وَيَسْمُونَ فِي الْأَرْضِ نِسَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من سجيبتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمأثم ﴿لَكَبَّرْنَا عَنْهُمْ صِيغَاتِهِمْ وَلَا لَدُنْهُمْ حَنْتٌ نَّعِيمٍ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور ولحصلناهم المقصود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آتَمُوا تَوْبَةَ الْإِنجِيلِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعني القرآن. ﴿لَأَكْفَلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكْفَلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ يعني ذلك: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والناصب لهم من الأرض. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَأَكْفَلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ آمَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِرُكْنَيْ سَمَاءِ الْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الاعراف: ٩٦]، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ آيَاتِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨١﴾ [الروم: ٤١]. وقال بعضهم: معناه ﴿لَأَكْفُلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ يعني: من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء. وقال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: لكانوا في الخير، كما يقول القائل: «هو في الخير من قزته إلى قدمه». ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف. وقد ذكر ابن أبي حاتم، عند قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ حديث علقمة، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله قال: «يوشك أن يرفع العلم». فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلّمناه أبناءنا؟! قال: «ثكلتكم أمك يا ابن لبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾. هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثاً معلقاً من أول إسناده، مرسلأ في آخره. وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلاً موصولاً، فقال: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند ذهاب العلم». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقره أبناءنا، ونقره أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتكم أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يتصفون مما فيهما بشيء». وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع بإسناده نحوه. وهذا إسناده صحيح. قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ قَسِيقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٦] جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة. وقد قال أبو بكر بن مرزويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضُّبِّي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر، عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعاً. واحدة في الجنة، وثمانان وسبعون في النار». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، تلا فيه قرآناً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَبِيحِينَ وَلَاذَلَّلْنَاهُمْ حَتَّىٰ التَّيْبِيرِ﴾ [١٥] إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وتلا أيضاً: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [١٨١] [الاعراف: ١٨١] يعني: أمة محمد ﷺ. وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وبهذا السياق. وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروي من طرق عديدة، وقد ذكرناه في موضع آخر. والله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٧]. يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حدّثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية. هكذا رواه لها مختصراً، وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولاً. وكذا رواه مسلم في «كتاب الإيمان»، والترمذي والنسائي في «كتابي التفسير» من سننهما من طرق، عن عامر الشعبي، عن مسروق بن الأجدع، عنها رضي الله عنها. وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً من القرآن شيئاً لكتّم هذه الآية: ﴿وَتُحْفِي فِي تَفْسِيكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُحْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُحْشَنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إن ناساً يأتوننا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبدعه رسول الله ﷺ للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وهذا إسناده جيد، وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وذهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه: هل عندكم شيء من

الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهُمَ يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكّك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر. وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم.

وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من الصحابة نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقولها إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت». وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا فضيل - يعني ابن عَزْوان - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس، أتى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «أتى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأتى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا». ثم أعادها مراراً. ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت!» مراراً - قال: يقول ابن عباس: والله لو صِئَ إلى ربه ﷻ - ثم قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وقد روى البخاري عن علي بن المدني، عن يحيى بن سعيد، عن فضيل بن غزوان، به نحوه. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: وإن لم تُؤد إلى الناس ما أرسلتكم به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا قَبِيصَةُ بن عَقْبَةَ، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلِغُ مِمَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: «يا رب، كيف أصنع وأنا وحدي؟ يجتمعون علي». فنزلت: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. ورواه ابن جرير، من طريق سفيان - وهو الثوري - به. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُخْرَسُ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا يحيى، سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة، وهي إلى جنبه، قال: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة؟» قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومته. أخرجه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، به. وفي لفظ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مَقْدَمِهِ المدينة. يعني: على أثر هجرته إليها بعد دخوله بعائشة، رضي الله عنها، وكان ذلك في سنة ثنتين منها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري نزيل مصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيْد - يعني أبا قدامة - عن الجُرَيْرِي، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُخْرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: «يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله ﷻ». وهكذا رواه الترمذي، عن عبد بن حُمَيْد وعن نصر بن علي الجهضمي، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال: وهذا حديث غريب. وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه، من طريق مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن الحارث بن عُبَيْد أبي قدامة الإيادي، عن الجُرَيْرِي، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة، به. ثم قال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا عن الجُرَيْرِي، عن ابن شَقِيق قال: كان النبي ﷺ يحرس. ولم يذكر عائشة. قلت: هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن عُلَيْتَةَ، وابن مردويه من طريق وَهْبِيب، كلاهما عن الجُرَيْرِي، عن عبد الله بن شَقِيق مرسلًا، وقد روى هذا مرسلًا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القُرَظِي، رواهما ابن جرير. والربيع بن أنس رواه ابن مردويه، ثم قال:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين المصري، حدثنا خالد بن عبد السلام الصَّدْفِي، حدثنا الفضل بن المختار، عن عبد الله بن مَوْهَب، عن عصمة بن مالك الخطمي قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فترك الحرس. حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي، حدثنا كُرْدُوس بن محمد الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس. حدثنا

علي بن أبي حامد المدني، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار، حدثنا أبي قال: سمعت أبا الزبير المكي يحدث، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلوه، حتى نزلت: ﴿وَأَلَّهِ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فذهب ليعث معه، فقال: «يا عم، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعه». وهذا حديث غريب وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية. ثم قال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الجُماني، عن النضر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يحرس، فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه، حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس». ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني، عن أبي كريب، به. وهذا أيضاً غريب. والصحيح أن هذه الآية مدنية، بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم. ومن عصمة الله ﷺ لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومغانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمة أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كانت بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه، واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قبض الله ﷺ له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة، فلما صار إليها حموه من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخبير، أعلمه الله به، وحماه الله منه؛ ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة: فقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً، اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقبل تحتها. فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله ﷻ»، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَلَّهِ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار، نزل ذات الرُّقاع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله، فقال عَوْرَثُ بن الحارث من بني النجار: لأقتلن محمداً. فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك. فإذا أعطانيه قتلت به، قال: فأتاه فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشيمه. فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷻ: «حال الله بينك وبين ما تريد» فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقصة «عَوْرَثُ بن الحارث» مشهورة في الصحيح.

وقال أبو بكر بن مَزْدُوَيْه: حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷻ: «الله يمنعني منك، ضع السيف». فوضعه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَلَّهِ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وكذا رواه أبو حاتم بن جِبَان في صحيحه، عن عبد الله بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسرائيل - يعني الجُمسي - سمعت جَعْدَةَ - هو ابن خالد بن الصُّمَّة الجُمسي - رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبي ﷺ يوميء إلى بطنه بيده ويقول: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك». قال: وأتى النبي ﷺ برجل فقال: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷻ: «لم تُرْع، لم تُرْع، ولو أردت ذلك لم يسطك الله علي».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: بلغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا عَلِمَ الْكُفْرَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].
﴿قُلْ يَاهَآءِ الْكُفْرَى لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالْآيَاتِ وَالْإِنشِآءِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَازِلَتِ كِبَآءُ مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا

وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالصَّنَائِدَ مَنْ أَمْسَكَ يَدَهُمْ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَيُّ مِنَ الدِّينِ﴾، ﴿حَتَّى تَقِيْمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثه، والاعتداء بشريعته؛ ولهذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم. وقوله: ﴿وَلَيُرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَنْ يُنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَعْنَةً أَكْثَرًا﴾ تقدم تفسيره ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن عليهم ولا يهيدئك ذلك منهم. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم: المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم: حملة التوراة ﴿وَالصَّيِّئِينَ﴾ - لما طال الفصل حسن العطف بالرفع. والصابئون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبيرة: بين اليهود والنصارى، وعن الحسن والحكم: إنهم كالمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقروون الزبور. وقال وهب بن مَثْبُتَه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كُفْرًا. وقال ابن وهب: أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: الصابئون: قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهو يؤمنون بالنبیین كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك. وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل. والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْتَمَيْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَآ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتْنَةً فَمَمُوا وَكَسَبُوا ثَمَامًا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَكَيْفٍ يَنْتَهُمُ وَاللَّهُ بِصَوْرِهِمْ يَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال: ﴿كَلَّمَآ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وحسبوا ألا تكوينة فتنة فمما شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أي: بعد ذلك ﴿وَصَمُوا كَكَيْفٍ يَنْتَهُمُ وَاللَّهُ بِصَوْرِهِمْ يَسْمَعُونَ﴾ أي: مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ فَالِكُ لَقَدْ كَفَرَ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَجِدْ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدْقَةٌ كَمَا يَكْفُلُكَ اللَّهُ أَنْظُرْ كَيْفَ بُرِّئَ لَهُمُ الْأَلْبَابُ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٩﴾﴾ .

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم ونزّهه وتقدس علواً كبيراً. هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَدَنِيٌّ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَدَنِيٌّ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [مریم: ٣٦]. وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، أمرأ لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَى صَاحِبُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَصْبُوا عَلَيَّ مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمْتُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الاعراف: ٥٠]. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»، وفي لفظ: «مؤمنة». وتقدم في أول سورة النساء عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] حديث يزيد بن بَابُثُوسَ عن عائشة: الدواوين ثلاثة،

فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله، وهو الشرك بالله، قال تعالى: ﴿يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾. الحديث في مسند أحمد. ولهذا قال تعالى: إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْسَارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم، حدثنا الفضل، حدثني أبو صخر في قول الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود: ﴿عَزَّزُوا ابْنَ اللَّهِ﴾، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فجعلوا الله ثالث ثلاثة. وهذا قول غريب في تفسير الآية: أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى. والصحيح: أنها أنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد. ثم اختلفوا في ذلك فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية واليسطورية تقول بهذه الأقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة. وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَمَتِ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ لِلنَّهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحٰنَكَ ۖ الْآيَةَ [المائدة: ١١٦]. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات. ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَسْئُرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة من الأغلال والنكال. ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِنَّ اللَّهَ رَشِيدٌ وَيُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذِكْرُهُ﴾ [٧٦]. وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، ثم قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقوله: ﴿وَأَمَّا صِدْقُهُ﴾ أي: مؤمنته به مصدقة له. وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، ويقولون: ﴿رَأَوْحِيْنَا إِلَيْكَ أُرْمِيْنَ أَنَّ أَرْضِيْعِيْهِ﴾ [القصص: ١٧]، قالوا: وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْنَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله، الإجماع على ذلك. وقوله: ﴿كَانَا يَكْفُرَانِ بِطَعْمِكَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ سَيِّئَتْ لَهْمُ الْأَيْكِيْطِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها، ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُوَفِّقُونَ﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟.

﴿قُلْ أَتُبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٧٦] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِيْبِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِمَّا ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [٧٧].

يقول تعالى منكرأ على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتُبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على إيصال ضرر إليكم، ولا إيجاد نفع ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فلم عدلتم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه.

ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِيْبِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتابوا فيه، حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذلك إلا لافتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِمَّا ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس قال: وقد كان قائم عليهم، فأخذ بالكتاب والسنة زماناً، فاتاه الشيطان فقال: إنما تركب أثراً أو أمراً قد عُجِلَ قبلك، فلا تَجُمُدْ عليه، ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه وأجبر الناس عليه، ففعل، ثم أذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب فخلع مُلْكُه وسلطانه، وأراد أن يتعبد، فلبث في عبادته أياماً، فأتني فقيل له: لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك، ولكن ضل فلان وفلان وسببك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة، فكيف لك بهداهم، فلا توبة لك أبداً. ففیه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كَثُرَتْ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وَلَوْ كَانُوا يَوْمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه، عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال العُزَافِي، عن ابن عباس: لعنوا في التوراة وفي الإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: كان لا ينهي أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُؤَكِّبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن علي بن بديمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم - قال يزيد: وأحسبه قال: وأسواقهم - وواكلوهم وشاربوهم. فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تطأروهم على الحق أطراً». وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد الثَّقَلِي، حدثنا يونس بن راشد، عن علي بن بديمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً - أو تقصرنه على الحق قصرأ». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق علي بن بديمة، به. وقال الترمذي: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجه، عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِي، عن سفيان، عن علي بن بديمة، عن أبي عبيدة مرسلأ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمداني قالا: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مَرْة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعديراً، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه - وفي حديث هارون: وشريبه، ثم اتفقا في المتن - فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم»، والسياق لأبي سعيد. كذا قال في رواية هذا الحديث. وقد رواه أبو داود أيضاً، عن حَلْفِ بن هشام، عن أبي شهاب الخياط، عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم - وهو ابن عجلان الأفطس - عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ثم قال أبو داود: وكذا رواه خالد، عن العلاء، عن عمرو بن مَرْة، به. ورواه المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي، عن العلاء، عن عمرو بن مرة، عن أبي موسى. والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام. وقد تقدم حديث جرير عند قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نَبَتْهُمْ كَرِهُنَّ يُرْمَوْنَ

وَالْأَكْبَارُ [المائدة: ٦٣]، وسأني عند قوله: ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَتَرَكُم مِّنْ صَلَّ إِذَا أَهَدَيْتَهُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنهما. فقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشملي، عن حذيفة بن اليمان؛ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، به. وقال: هذا حديث حسن.

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن عمرو بن عثمان، عن عاصم بن عمر بن عثمان، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، قبل أن تَدْعُوا فلا يستجاب لكم». تفرد به، وعاصم هذا مجهول. وفي الصحيح من طريق الأعمش، عن إسماعيل بن رجا، عن أبيه، عن سعيد - وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم مُتَكْرِماً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا سيف - هو ابن أبي سليمان - سمعت عدي بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني: عدي بن عميرة، رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَزُولَ الْمُنْكَرُ بَيْنَ ظَهْرَاتِهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْكُرُوهُ فَلَا يَنْكُرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ». ثم رواه أحمد، عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عدي بن عدي الكندي، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا مغيرة بن زياد الموصلي، عن عدي بن عدي، عن العُرْس - يعني ابن عميرة - عن النبي ﷺ قال: «إِذَا عَمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهْدِهَا فَكْرُهَا». وقال مرة: فأنكرها - كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فَرَضِيهَا كان كمن شهدها». تفرد به أبو داود، ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدي بن عدي، مرسلاً. وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قال: حدثنا شعبة - وهذا لفظه - عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ - وقال سليمان: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ - قال: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا - أَوْ يُعْذِرُوا - مِنْ أَنْفُسِهِمْ». وقال ابن ماجه: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «أَلَا لَا يَمْنَعُنْ رَجُلًا حَيْبَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد - والله - رأينا أشياء، فهبتنا. وفي حديث إسرائيل: عن محمد بن جحادة، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وقال ابن ماجه: حدثنا راشد بن سعيد الرملي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي غالب، عن أبي امامة قال: عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ. فَلَمَّا رَمَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ سَأَلَهُ، فَسَكَتَ عَنْهُ. فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْعَرَزِ لِيُرِكَبَ، قَالَ: «أَيُّ السَّائِلِ؟» قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «كَلِمَةٌ حَقٌّ تَقَالُ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ». تفرد به.

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَخْقِرُ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ». قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمراً لله فيه مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا وَكَذَا؟» فيقول: حَشِيئَةَ النَّاسِ، فيقول: فإياي كنت أحق أن تحشى؟ تفرد به. وقال أيضاً: حدثنا علي بن محمد، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طَوَالَةَ، حدثنا نَهَارُ الْعَبْدِيِّ؛ أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبِيدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تَنْكُرَهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهُ عَبْدًا حَجَّجْتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ». تفرد به أيضاً ابن ماجه، وإسناده لا بأس به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن عاصم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن جُنْدُب، عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذُلَّ نَفْسَهُ». قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بشار، عن عمرو بن عاصم، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال ابن ماجه: حدثنا

العباس بن الوليد الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخُزاعي، حدثنا الهيثم بن حميد، حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرُعيني، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المُلْكُ في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رُذالكم». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «والعلم في رُذالكم»: إذا كان العلم في الفساق. تفرد به ابن ماجه. وسيأتي في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: «كَرِهَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْا الَّذِينَ كَفَرُوا»: قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: «لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالات المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخيراً أنهم «رَفِيَ الْعَذَابُ عَنْهُمْ خَلِيدُونَ» يعني يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مسلمة بن علي، عن الأعمش بإسناده ذكره قال: «يا معشر المسلمين، إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويُنقص العمر. وأما التي في الآخرة: فإنه يوجب سَخَطَ الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار». ثم تلا رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ». هكذا ذكره ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مَرزُويه من طريق هشام بن عمار، عن مسلمة، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ - فذكره. وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عُفَيْر، عن مسلمة، عن أبي عبد الرحمن الكوفي، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ، فذكر مثله. وهذا حديث ضعيف على كل حال، والله أعلم. ثم قال تعالى: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِئَاتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ» أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالات الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ» أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَسبُّونَ وَهَكَذَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَأِلُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا لَقَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ مِنَ الْوَعْدِ وَمَا عَرَفْنَا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَّا فَالْكَبَرَىٰ مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبيشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. وقال سعيد بن جبیر والسُّدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبي ﷺ القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه. قال السدي: فهاجر النجاشي فمات في الطريق. وهذا من أفراد السدي؛ فإن النجاشي مات وهو ملك الحبيشة، وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه مات بمرض الحبيشة. ثم اختلف في عدة هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر، سبعة قساوسة وخمسة زهادين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلاً. والله أعلم. وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبيشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبيشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلغَّمُوا. واختار ابن جرير أن هذه الآية نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبيشة أو غيرها.

فقوله تعالى: «تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجمود ومباينة للحق، وغمط للناس وتقص بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة. وقال الحافظ أبو بكر بن مَرزُويه عند تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن محمد بن الشُّرَيْ: حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرُّقي، حدثنا سعيد بن العلاف، حدثنا أبو النَّضْر، عن الأشجعي، عن سفيان، عن يحيى بن عبد الله عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي قط بمسلم

إلا هم بقتله». ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق اليشكري، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدثنا فرج بن عبيد، حدثنا عباد بن العوام، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلم إلا حدثت نفسه بقتله». وهذا حديث غريب جداً.

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ لِلدِّينِ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى: ﴿وَجَمَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعاً في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون - وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس - والرهبان: جمع راهب، وهو: العابد. مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان. وقال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجمعهم رهابين، مثل قربان وقربانين، وجردان وجرادين، وقد يجمع على رهابنة. ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر:

لَوْ عَايَنْتُ رُهْبَانَ دَيْرٍ فِي الْقُلُلِ
لَانْحَدَرَ الرَّهْبَانَ يَمْشِي وَنَزَلَ
وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم، حدثنا نصير بن أبي الأشعث، حدثني الصلت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سألت سلمان عن قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ فقال: «دع القسيسين» في البيع والخراب، فأقراني رسول الله ﷺ: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا». وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن نصير بن زياد الطائي، عن صلّت الدهان، عن حامية بن رثاب، عن سلمان، به. وقال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا نصير بن زياد الطائي، حدثنا صلّت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سمعت سلمان وسئل عن قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال: هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخراب، فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾، فأقراني: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا».

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَأْنَا فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به. وقد روى النسائي عن عمرو بن علي الفلاس، عن عمر بن علي بن مقدّم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَأْنَا فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٢]. وقال الطبراني: حدثنا أبو شيبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن عبد الجبار بن نافع الضبي، عن قتادة وجعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قول الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم كانوا كرايين - يعني: فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: «ولعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم». فقالوا: لن نتقل عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم. وروى ابن أبي حاتم: وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من طريق سماك عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع محمد ﷺ، وأمته هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ، وللرسول أنهم قد بلغوا. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٤]: وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَيْدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٣٥] الآية [١٤٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥١] ولذا ينزل عليهم قائلوا ءأمأنا بوجه الله الحق من ربنا إنا كنا من قبليهم مسلمين [٥١] أولئك يؤمنون بأجرهم مرتين بما صبروا وببذلهم وبالحسنة التي أتتهم وبما رزقناهم فيفوقوا [٥١] وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالنا سلاماً عليكم، إلى قوله: ﴿لَا تَبْنِي الْجَنَّةَ لِلْجَنَّةِيِّنَ﴾ [القصص: ٥٧ - ٥٥]؛ ولهذا قال تعالى لهنا: ﴿فَأَذَيْنَاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ ﴿٨٧﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان. ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: هم أهلها والداخلون إليها.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ يَوْمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في زهظ من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك: فقالوا: نعم. فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسُنَّتِي فهو مِنِّي، ومن لم يأخذ بسُنَّتِي فليس مِنِّي». رواه ابن أبي حاتم. وروى ابن مردويه عن طريق العوفي، عن ابن عباس نحو ذلك. وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم. وقال بعضهم: لا أزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، ولكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن عثمان - يعني ابن سعد - أبحرني عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وكذا رواه الترمذي وابن جرير جميعاً، عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم النبيل، به. وقال: حسن غريب. وقد روي من وجه آخر مرسلًا وروى موقوفاً على ابن عباس، فالله أعلم. وقال سفيان الثوري ووكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساء قلنا: ألا نستخصي؟ فهنا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن نكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٨٧﴾». أخرجاه من حديث إسماعيل. وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شريح قال: جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرمت فراشي. فتلا هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٨٧﴾». وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجيء بضرع، ففتح رجل، فقال له عبد الله: اذن. فقال: إني حرمت أن أكله. فقال عبد الله: ادن فاطعم، وكفر عن يمينك وتلا هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم. وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه، من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن منصور، به. ثم قال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه: أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يُطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي، هو علي حرام. فقالت امرأته: هو علي حرام. وقال الضيف: هو علي حرام. فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله. ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وهذا أثر منقطع. وفي صحيح البخاري في قصة الصديق رضي الله عنه مع أضيافه شبيه بهذا. وفيه، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً؛ ولقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه - كما في الحديث المتقدم - لم يأمره النبي ﷺ بكفارة. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يواخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مِمَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتِ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٧﴾﴾ [التحرير: ١] ثم قال: ﴿قَدْ قَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلِيلَةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحرير: ٢]. وكذلك ههنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يَتَّبِلُوا ويخضوا أنفسهم ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَذِي أَشْرَبَهُمْ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالم مولى أبي حذيفة في أصحاب، تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخفاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا بِرِثَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَبِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا». فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، والله الحمد والمنة. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا بِرِثَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَبِينَ﴾ ﴿٨٧﴾: وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس، ثم قام ولم يزددهم على التخوف، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نحدث عملاً، فإن النصرى قد حرّموا على أنفسهم، فنحن نحرم. فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والزبد، وأن يأكل بهتار، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأته عائشة، رضي الله عنها، وكان يقال لها: الحولاء، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمتشطين، لا تطيبين؟ قالت: وكيف أمتشط وأنطيب وما وقع عليّ زوجي وما رفع عني ثوباً، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال: «ما يضحكن؟» قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: «مالك يا عثمان؟» قال: إني تركته لله، لكي أتخلّى للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يَحْبُثَ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أفسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك». فقال: يا رسول الله، إني صائم. فقال: «أفطر». فأفطر، وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة زوج رسول الله ﷺ وقد امتشطت واكتحلّت وتطيبت، فضحكت عائشة وقالت: مالك يا حولاء؟ فقالت: إنه أتاها أمس، وقال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عني فليس مني». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا﴾ يقول لعثمان: «لا تجب نفسك، فإن هذا هو الاعتداء». وأمرهم أن يكفروا أيماهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَسَدُّوا﴾. يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تتجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿١٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا بِرِثَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَبِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا أَي: في حال كونه حلالاً طيباً، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانته، ﴿الَّذِي أَشْرَبَهُمْ مُمُتُّوتًا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَثَرَتُمْ أَطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِن أَوْسَطِ مَا نَقَلْتُمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَبِيٍّ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾.

قد تقدم في سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، ويلي والله، وهذا مذهب الشافعي، وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، فكفارتها إطعام عشرة مساكين يعني: محابوب من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه. وقوله: ﴿وَمَنْ

أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَعَكْرَمَةُ: أَيُّ مَنْ أَعْدَلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ: مِنْ أَمْثَلِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ حِجَّاجٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ، عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيِّ قَالَ: خَبِزَ وَلَيْنٌ، خَبِزَ وَسَمْنٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَبَانَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَرَأَهُ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ، عَنْ سَلِيمَانَ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي الْمَغْيِرَةِ - عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ بَعْضَ أَهْلِهِ قُوتًا دُونَ وَبَعْضَهُمْ قُوتًا فِيهِ سَعَةً، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْخَبِزِ وَالزَّيْتِ. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: مِنْ عَسْرِهِمْ وَيَسْرِهِمْ. وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلْفٍ الْجُمَيْصِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ شَابُورٍ - حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّمِيمِيُّ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ، عَنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: الْخَبِزُ وَاللَّحْمُ، وَالْخَبِزُ وَالسَّمْنُ، وَالْخَبِزُ وَاللَّبَنُ، وَالْخَبِزُ وَالزَّيْتُ، وَالْخَبِزُ وَالخَلُّ. وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْمُوصَلِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: الْخَبِزُ وَالسَّمْنُ، وَالْخَبِزُ وَالزَّيْتُ، وَالْخَبِزُ وَالتَّمْرُ، وَمَنْ أَفْضَلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ: الْخَبِزُ وَالتَّمْرُ.

ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع كلاهما عن أبي معاوية. ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود، وشريح القاضي، ومحمد بن سيرين، والحسن، والضحاك، وأبي رزين: أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاها ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيُّ: فِي الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مِقْدَارِ مَا يَطْعَمُهُمْ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ حِجَّاجٍ، عَنْ حُصَيْنِ الْحَارِثِيِّ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: يَغْدِيهِمْ وَيَعْشِيهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: يَكْفِيهِ أَنْ يَطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ أَكَلَةَ وَاحِدَةً خَبِزاً وَلَحْماً، زَادَ الْحَسَنُ: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فخبزاً وَسَمْنًا وَلَبَنًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فخبزاً وزيتاً وَخَلًّا حَتَّى يَشْبَعُوا. وَقَالَ آخَرُونَ: يَطْعَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ أَوْ تَمْرٍ، وَنَحْوَهُمَا. هَذَا قَوْلُ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ، وَعَائِشَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَإِبْرَاهِيمَ التَّخَمِيُّ، وَمِيمُونَ بْنَ مَهْرَانَ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالضَّحَّاكَ، وَالْحَكَمَ، وَمَكْحُولَ، وَأَبِي قَلَابَةَ، وَمُقَاتِلَ بْنَ حَبَّانٍ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، وَصَاعٍ مِمَّا عَدَاهُ. وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الثَّقَفِيِّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ يُونُسَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطُّفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ ابْنَ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهِ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَعْلَى، عَنِ الْمَنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَنِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَكَايِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَعْلَى الثَّقَفِيِّ، عَنِ الْمَنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ. لَا يَصِحُّ هَذَا الْحَدِيثُ لِحَالِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا فَإِنَّهُ مَجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ. وَقَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: مَتْرُوكٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ دَاوُدَ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي هِنْدَ - عَنْ عَكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مُدٌّ مِنْ بُرٍّ - يَعْنِي لِكُلِّ مَسْكِينٍ - وَمَعَهُ إِدَامَةٌ. ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ زَيْدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمَسْبُوحِ، وَمُجَاهِدِ، وَعَطَاءِ، وَعَكْرَمَةَ، وَأَبِي الشَّعْبَاءِ، وَالْقَاسِمِ، وَسَالِمِ، وَأَبِي سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسَلِيمَانَ بْنَ يَسَارٍ، وَالْحَسَنَ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ، وَالزُّهْرِيَّ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: الْوَاجِبُ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ مُدٌّ بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُلِّ مَسْكِينٍ. وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِلأَدَمِ - وَاحْتِجَّ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِلَّذِي جَامَعَ فِي رَمَضَانَ بِأَنْ يَطْعَمَ سِتِينَ مَسْكِينًا مِنْ مَكِيلٍ يَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدٌّ. وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ آخَرَ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ الْمَقْرِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَاجِ، حَدَّثَنَا قَتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ زُرَّارَةَ الْكُوفِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ، عَنْ نَافِعِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقِيمُ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ مَدًّا مِنْ حِنْطَةٍ بِالمَدِّ الْأَوَّلِ. إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، لِحَالِ النَّضْرِ بْنِ زُرَّارَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْرَمِ الذَّهَلِيِّ الْكُوفِيِّ نَزِيلِ بَلْخِ، قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمِ الرَّازِي: هُوَ مَجْهُولٌ مَعَ أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ: رَوَى عَنْهُ قَتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ أَشْيَاءَ مُسْتَقِيمَةً، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ إِنَّ شَيْخَةَ الْعُمَرِيِّ ضَعِيفٌ أَيْضًا. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الْوَاجِبُ مُدٌّ مِنْ بُرٍّ، أَوْ مَدَانٍ مِنْ غَيْرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾: قَالَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ دَفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكِسْوَةِ مِنْ قَمِيصٍ أَوْ سَرَاوِيلٍ أَوْ إِزَارٍ أَوْ عِمَامَةٍ أَوْ مَقْنَعَةٍ أَجْزَاءَهُ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُ فِي الْقَلَنْسُوتِ: هَلْ تَجْزِيءُ أَمْ لَا؟ عَلَى وَجْهَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى الْجَوَازِ، اِحْتِجَاجًا بِمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ،

وعمار بن خالد الواسطي قالاً: حدثنا القاسم بن مالك، عن محمد بن الزبير، عن أبيه قال: سألت عمران بن حصين عن قوله: ﴿أَوْ كَسَوُتَهُمْ﴾ قال: لو أن وفداً قدموا على أميركم وكساهم قننسة قننسة، قلم: قد كُتُوا. ولكن هذا إسناد ضعيف؛ لحال محمد بن الزبير هذا، والله أعلم. وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني في الخف وجهين أيضاً، والصحيح عدم الإجزاء. وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كل بحسبه. والله أعلم. وقال العوفي عن ابن عباس: عباءة لكل مسكين، أو ثملة. وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت. وقال ليث، عن مجاهد: يجزىء في كفارة اليمين كل شيء إلا الثبان. وقال الحسن، وأبو جعفر الباقر، وعطاء، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وحماد بن أبي سليمان، وأبو مالك: ثوب ثوب. وعن إبراهيم النخعي أيضاً: ثوب جامع كالمحففة والرداء، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً. وقال الأنصاري، عن أشعث، عن ابن سيرين، والحسن: ثوبان. وقال الثوري، عن داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه، وعباءة يلتحف بها. وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن ابن سيرين، عن أبي موسى؛ أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من مَعْقَدَةِ البحرين. وقال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن المعلى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن مقاتل بن سليمان، عن أبي عثمان، عن أبي عياض، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿أَوْ كَسَوُتَهُمْ﴾، قال: «عباءة لكل مسكين». حديث غريب.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبٍ﴾: أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقيدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله. فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعَل الحانثُ أجزاءً عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فَرَفِيَّ فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري أنهما قالاً: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام. وقال ابن جرير، حاكياً عن بعض متأخري متفقيهه زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف به لمعاشه ما يكفر به بالإطعام، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه. ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزىء التفريق؟ على قولين: أحدهما أنه لا يجب التتابع، هذا منصوص الشافعي في كتاب «الإيمان»، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَصِيَامٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيرهم أنهم كانوا يقرؤونها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود. وقال إبراهيم: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك. وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن علي، حدثنا محمد بن جعفر الأشعري، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي، حدثنا يزيد بن قيس، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ قال: «أنت بالخيار، إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وهذا حديث غريب جداً. وقوله: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيَّامِنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيَّامِنِكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير. ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها وينشرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَاءُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَلْسَابُ وَالْأَلْزَامُ يَجِئُ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْقَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٢﴾ وَأَلْبِغُوا اللَّهَ وَأَلْبِغُوا الرَّسُولَ وَاعْبُدُوا إِيَّاهُ فَاعْبُدُوا إِنَّمَا

عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغِ النَّبِيِّ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ جُودٌ عَظِيمٌ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: الشُّطْرَنْجُ مِنَ الْمَيْسِرِ. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عُبَيْسِ بْنِ مَرْحُومٍ، عَنْ حَاتِمِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَحْمَسِيُّ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ سَفِيَّانَ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ عَطَاءِ وَمَجَاهِدِ وَطَاوَسٍ - قَالَ سَفِيَّانُ: أَوْ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ - قَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقَمَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ، حَتَّى لَعِبَ الصَّبِيَّانَ بِالْجُوزِ. وَرَوَى عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ وَحَمْزَةَ بْنِ حَبِيبٍ، وَقَالَا: حَتَّى الْكِعَابِ، وَالْجُوزِ، وَالْبَيْضِ الَّتِي تَلْعَبُ بِهَا الصَّبِيَّانَ، وَقَالَ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقَمَارُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقَمَارُ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ. وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْخُصَيْنِ: أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: كَانَ مَيْسِرُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْعُ اللَّحْمِ بِالشَّاةِ وَالشَّاتَيْنِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ، عَنْ الْأَعْرَجِ قَالَ: الْمَيْسِرُ وَالضَّرْبُ بِالْقَدَاحِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالثَّمَارِ. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كُلُّ مَا لَهِيَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورِ الرَّمَادِيِّ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا صَدَقَةُ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاتِكَةِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْكِعَابَ الْمَوْسُومَةَ الَّتِي يَزْجُرُ بِهَا زَجْرًا فَأَنهَا مِنَ الْمَيْسِرِ». حَدِيثٌ غَرِيبٌ. وَكَانَ الْمَرَادُ بِهَذَا هُوَ التَّرْدُ، الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بِهِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْخُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالْتَّرْدِ شِيرٍ فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمَهُ». وَفِي مَوْطَأِ مَالِكٍ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ، وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالْتَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ». وَرَوَى مَوْقُوفًا عَنْ أَبِي مُوسَى مِنْ قَوْلِهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مكِّي بن إبراهيم، حدثنا الجُعَيْدُ، عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي؛ أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول: أخبرني، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ؟ فقال عبد الرحمن: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالترد، ثم يقوم فيصلي، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي». وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شرٌّ من الترد. وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى.

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها.

وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قَدَاحٌ كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿رَيْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي سَخَطٌ من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبيرة: إنهم. وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: الضمير عائذ على الرجس، أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

قال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا أبو مغشَّر، عن أبي وهب مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعُفٌ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، وإنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عز وجل آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهَابُ وَالْأَزْلَامُ رَيْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩١﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا

قال: فأبيعهما يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها قد حرمت وحرمت ثمنها». فانطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هراقها.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد، عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس أكف ما بقي في إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ. أخرجاه في الصحيحين - من غير وجه - عن أنس. وفي رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شربهم إلا الفضيخ البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، قال: اخرج فانظر. فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فخرجت في سبك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها. فهرقتها، فقالوا: أو: قال بعضهم: قيل فلان وفلان وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد، حدثنا عباد بن راشد، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دُجَّانَةَ، حتى مالت رؤوسهم من خليل بُسْر وتمر. فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت! قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَاللَّيْبُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْلَمُ رَيْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ أَتَّيْبُونَ﴾ فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَاللَّيْبُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْلَمُ رَيْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ أَتَّيْبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾. فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات وهو يشربها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، فقال رجل لقتادة: سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم. وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم - أو: حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن بكر بن سودة، عن قيس بن سعد بن عباد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حرم عليّ الخمر، والكوبة، والقنين. وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا فرج بن فضالة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر، والمزرة، والكوبة والقنين. وزادني صلاة الوتر». قال يزيد: القنين: البراط. تفرد به أحمد. وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو عاصم - وهو النبيل - أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام». تفرد به أحمد أيضاً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن أبي طعمة - مولاهم - وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث وكيع، به. وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو طعمة، سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى المريد، فخرجت معه فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكنت عن يساره. ثم أقبل عمر فتحدثت له، فكان عن يساره. فأتى رسول الله ﷺ المريد، فإذا بزقاق على المريد فيها خمر - قال ابن عمر -: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة - قال ابن عمر: وما عرفت المدينة إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشققت، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها، ومعتصرها، وأكل ثمنها».

وقال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن آتبه بمدينة وهي الشفرة، فأتيته بها فأرسل بها فأرهدت ثم أعطانيها وقال: «اغد عليّ بها». ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدينة مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم

أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمشوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك في أسواقها زقاً إلا شققته.

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن شريح، وابن لهيعة، والليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبیره: أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق، فنهته عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فلنقلت ابن عباس، فسألته عن الخمر وثمنها، فقال: هي حرام وثمنها حرام. ثم قال ابن عباس، رضي الله عنه: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن آخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلنعت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر، فقال: سأخبرك عن الخمر، إني كنت عند رسول الله ﷺ في المسجد، فبينما هو محتب حلَّ حُبُونُهُ ثم قال: «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها». فجمعوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي رواية. ويقول الآخر: عندي رواية. عندي زقٌ أو ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني». ففعلوا، ثم آذنه فقام وقمت معه، فمشيت عن يمينه وهو متكى عليّ، فألحقنا أبو بكر، رضي الله عنه، فأخبرني رسول الله ﷺ، فجعلني عن شماله، وجعل أبا بكر مكاني. ثم لحقنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأخبرني، وجعله عن يساره، فمشى بينهما. حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذه» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صدقتم». قال: «إِنَّ الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها». ثم دعا بسكين فقال: «اشحذوها». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق، قال: فقال الناس: في هذه الزقاق منفعة، قال: «أجل، ولكني إنما أفعل ذلك غضباً لله، لما فيها من سخطه». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله؟ قال: «لا». قال ابن وهب: وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث. رواه البيهقي.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادي، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا شعبة، عن سماك، عن مصعب بن سعد، عن سعد، قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث. قال: وصنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا فشرينا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل. فأخذ رجل من الأنصار لخي جَزُور، فضرب به أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزوراً. فنزلت آية الخمر: ﴿إِنَّمَا الْكُفْرُ وَالنَّبِيُّ وَالْأَسَابُ وَالْأَكْلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾، أخرجه مسلم من حديث شعبة.

حديث آخر: قال البيهقي: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، أنبأنا أبو علي الرفاء، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثني أبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن نزل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن -، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْكُفْرُ وَالنَّبِيُّ وَالْأَسَابُ وَالْأَكْلُ بِحَسَبِ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْكُفْرِ وَالنَّبِيِّ وَبِذَمِّكُمْ عَنِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ جُودٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾. ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهل.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، عن أبي ثَمَيْلَةَ، عن سلام مولى حفص أبي القاسم، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا نحن قعود على شراب لنا، ونحن زَمَلَةٌ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْكُفْرُ وَالنَّبِيُّ وَالْأَسَابُ وَالْأَكْلُ﴾ إلى آخر الآيتين: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾؟ ففجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾؟ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجاج، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عُبَيْنَةَ، عن عمرو، عن جابر قال: صبَّح ناس غداة أحد الخمر، فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبل تحريمها. هكذا رواه البخاري في تفسيره من صحيحه، وقد رواه الحافظ أبو

بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهود: فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمِعُوا﴾ ثم قال: وهذا إسناد صحيح. وهو كما قال، ولكن في سياقه غرابة.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمِعُوا﴾ الآية. ورواه الترمذي، عن بُنْدَارٍ، عن عُنْدَرٍ، عن شعبة، به نحوه. وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا جعفر بن حميد الكوفي، حدثنا يعقوب القمي، عن عيسى بن جارية، عن جابر بن عبد الله قال: كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة، فلقبه رجل من المسلمين فقال: يا فلان، إن الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تل، وسجى عليها بأكسية، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أن الخمر قد حرمت؟ قال: «أجل». قال: لي أن أردّها على من ابتعتها منه؟ قال: «لا يصلح ردّها». قال: لي أن أهدبها إلى من يكافئني منها؟ قال: «لا». قال: فإن فيها مالاً ليتامي في حجري! قال: «إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوّض أيتامك من مالهم». ثم نادى بالمدينة، فقال رجل: يا رسول الله، الأوعية تنتفع بها؟ قال: «فحُلُوا أوكيتها». فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي، هذا حديث غريب.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن السدي، عن أبي هبيرة - وهو يحيى بن عبّاد الأنصاري - عن أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرأ، فقال: «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلا؟ قال: «لا». ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، من حديث الثوري، به نحوه.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، حدثنا هلال بن أبي هلال، عن عطية بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذُنُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال: هي في التوراة: «إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب، والمزامير، والزُفْن، والكِبَارَات - يعني البرابيط - والزِمَارَات - يعني به الدف - والطنابير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها. أقسم الله بيمينه وعزة خيله من شربها بعدما حرمتها لأعطشته يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقيته إياها في حظيرة القدس». وهذا إسناد صحيح.

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث؛ أن عمرو بن شعيب حدثهم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرأ مرة واحدة، فكانما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرأ أربع مرات، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل جهنم». ورواه أحمد، من طريق عمرو بن شعيب.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني، قال: سمعت النعمان - هو ابن أبي شيبه الجندي - يقول عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمّر خمر، وكل مُسكّر حرام، ومن شرب مسكرأ بخست صلاته أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديد أهل النار، ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». تفرد به أبو داود.

حديث آخر: قال الشافعي، رحمه الله: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرّمها في الآخرة». أخرجه البخاري ومسلم، من حديث مالك، به. وروى مسلم عن أبي الربيع، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمِنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة».

حديث آخر: قال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار؛ أنه سمع سالم بن عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمُذْمِن الخمر، والمثان بما

أعطى». ورواه النسائي، عن عمرو بن علي، عن يزيد بن زريع، عن عمر بن محمد العُمري، به. وروى أحمد، عن عُثْر، عن شعبة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مئان ولا عاق، ولا مُدِين خمر». ورواه أحمد أيضاً، عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، به. وعن مروان بن شجاع، عن خُصيف، عن مجاهد، به. ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجعفي، عن زائدة، عن ابن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد، به.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا مُدِين خمر، ولا مئان، ولا ولد زنية». وكذا رواه عن يزيد، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به. وقد رواه أيضاً عن عُثْر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نُبَيْط بن شَرِيْط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مئان، ولا عاق والديه، ولا مدمن خمر». ورواه النسائي، من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم أحداً تابع شعبة عن نبيط بن شريط. وقال البخاري: لا يعرف لجابان سماع من عبد الله، ولا لسالم من جابان ولا نبيط. وقد روي هذا الحديث من طريق مجاهد، عن ابن عباس - ومن طريقه أيضاً، عن أبي هريرة، فإله أعلم. وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غرية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة. فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضية عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكني دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر. فسفته كاساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أو شك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي، وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعاً. والموقوف أصح، والله أعلم. وله شاهد في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَتُوا﴾ الآية. قال: ولما حُولت القبلة قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ لِمَنْكُمُ الْجَزَاءَ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا داود بن مهزيب الدباغ، حدثنا داود - يعني العطار - عن ابن خنيم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار». وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَتُوا﴾ فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم». وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريقه. وقال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي، حدثنا علي بن عاصم، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وهاتان الكعبتان الموسمتان اللتان تزرعان زجراً، فإنهما ميسر العجم».

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَبْلُغُوكُمُ اللَّهُ بِتَوْءَمٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بِيحَانِكُمُ بِالْقَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِكُمْ بِهِ دَوَّاءٌ مِمَّنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ أَوْ كَنْدَةً طَمَاضٌ مَسْكِينٌ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَكَالَ أَسْرِهِ عَقَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

قال الوالبي، عن ابن عباس قوله: ﴿يَبْلُغُوكُمُ اللَّهُ بِتَوْءَمٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شأوا ويتناولونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد: «تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ» يعني: صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: كباره. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عُمره الخديبية، فكانت الوحش والطيور والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ بِيحَانَهُ بِالْقَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً، ليظهر طاعة من يطيع

منهم في سره وجهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. وقوله ههنا: ﴿مَنْ أَعْتَدَا بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال السدي وغيره. يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فَلَا عُدَابَ لَهُمْ﴾ أي: لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه. وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها. والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة أم المؤمنين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ، وَالْعُقْرُبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ». وقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْعُقْرُبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ». أخرجاه. ورواه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال أيوب، قلت لنافع: فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، ولا يختلف في قتلها.

ومن العلماء - كمالك وأحمد - من ألحق بالكلب العقور الذئب، والسبع، والثمر، والفهد؛ لأنها أشد ضرراً منه فله أعلم. وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهم سلط عليه كلبك بالشام». فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن فذاه كالضبع والثعلب وهر البر ونحو ذلك. قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي. وقال الشافعي رحمه الله: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره. وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل. وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب؛ لأنه كلب بري، فإن قتل غيرهما فذاه، إلا أن يصلح عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه. وهذا قول الأوزاعي، والحسن بن صالح بن حيي. وقال زُفَرُ بن الهذيل: يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه. وقال بعض الناس: المراد بالغرراب ههنا الأبقع، وهو الذي يطنه وظهره بياض، دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض؛ لما رواه النسائي عن عمرو بن علي القلاس، عن يحيى القطان، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلن المحرم: الحية، والفأرة، والحداة، والغرراب الأبقع، والكلب العقور». والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه. وقال مالك، رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه. وقال مجاهد بن جبر وطائفة: لا يقتله بل يرميه. ويروي مثله عن علي. وقد روى هُشَيْمٌ: حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْمٍ، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ؛ أنه سئل عما يقتل المحرم، فقال: «الحية، والعقرب، والفؤيسفة، ويرمي الغراب ولا يقتله، والكلب العقور، والحداة، والسبع العادي».

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل، والترمذي عن أحمد بن منيع، كلاهما عن هشيم. وابن ماجه، عن أبي كريم، عن محمد بن فضيل، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ يَنْتَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن عُليَّةَ، عن أيوب قال: نبئت عن طاوس قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً. وهذا مذهب غريب عن طاوس، وهو متمسك بظاهر الآية. وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا: القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه. فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه. رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نَجِيحٍ وليث بن أبي سليم وغيرهما، عنه. وهو قول غريب أيضاً. والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. قال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿يَدْرُوكَ وَإِلَّاءَ آثَرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، وإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأموم والمخطيء غير مأموم. وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ يَنْتَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾: وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأها: ﴿فجزاؤه مثل ما قتل من النعم﴾. وفي قوله: ﴿فَجَزَاءٌ يَنْتَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة، رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال:

وهو مخير إن شاء تصدق بشمنه، وإن شاء اشترى به هدباً. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببذنه، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب «الأحكام»، وأما إذالم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بشمنه، يحمل إلى مكة. رواه البيهقي.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو القيمة في غير المثل، عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه قد يُثَمُّ في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك.

والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد. واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا جعفر - هو ابن بُزْقَانَ - عن ميمون بن مهران؛ أن أعرابياً أتى أبا بكر قال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر، رضي الله عنه، لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ أَلْفِهِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقتنا على أمر أمرناك به. وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل لهنا. فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم، فقد قال ابن جرير: حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعي قالا: حدثنا وكيع بن الجراح، عن المسعودي، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر قال: خرجنا حجاجاً، فكننا إذا صلينا الغداة اقتدنا وراحلنا تنماشى نتحدث، قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي - أو: برح - فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حُشَاءً فركب رذعه ميتاً، قال: فَعَظَمْنَا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر، رضي الله عنه، قال: فقص عليه القصة قال: وإلى جنبه رجل كان وجهه قلب فضة - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمدأ قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعدمت رميه، وما أردت قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبها فصدق بلحمها واستبق إهابها. قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عظم شعائر الله، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه: اعمد إلى ناقتك فانحرها، ففعل ذلك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجاناً منه إلا ومعه الذرة. قال: فعلا صاحبي ضرباً بالدرة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم وسفّهت الحكم؟ قال: ثم أقبل عليّ فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحل لك اليوم شيئاً يخزوم عليك مني، قال: يا قبيصة بن جابر، إني أراك شاب السن، فسبح الصدر، بين اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب. وقد روى هُشَيْمٌ هذه القصة، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة، بنحوه. ورواها أيضاً عن حُصَيْنٍ، عن الشعبي، عن قبيصة، بنحوه. وذكرها مرسله عن عُمر: بكر بن عبد الله المزني، ومحمد بن يسيرين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، أخبرني أبو جرير البجلي قال: أصبت ظبياً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك. فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ بتيس أعفر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن مخارق، عن طارق قال: أوطأ أريد ظبياً فقتلته وهو محرم فأتي عمر؛ ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جذياً، قد جمع الماء والشجر. ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد، رحمهما الله.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة، أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعله شرعاً مقررأ لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿أَوْ كَثِيرًا مِّنْ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد

رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب. فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام ويتصدق به، فيصرف لكل مسكين مَدًّا منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعم كل مسكين مُدَّين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدٌّ من حنطة، أو مدان من غيره. فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً. وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً. كما في جزاء المترفة بالحلوق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عُجْرَةَ أن يطعم فَرَقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفَرَقُ ثلاثة أصع. واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن منصور، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثِيرًا طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه، ذبحه فتصدق به. وإن لم يجد نظر كم ثمنه، ثم قوم ثمنه طعاماً، فصام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: ﴿أَوْ كَثِيرًا طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إنما أريد بالطعام الصيام، إنه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه. ورواه ابن جرير، من طريق جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثِيرًا طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد، حكم عليه فيه. فإن قتل طيباً أو نحوه، فعليه شاة تذبح بمكة. فإن لم يجد لإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. فإن قتل إبلاً أو نحوه، فعليه بقرة. فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً. فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حمازٍ وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل. فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً. فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: والطعام مُدٌّ تشبعهم. وقال جابر الجعفي، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد: ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. ورواه ابن جرير. وكذا روى ابن جُرَيْج عن مجاهد، وأسباط عن السدي أنها على الترتيب. وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد - في رواية الضحاك - وإبراهيم النَّخَعِي: هي على الخيار. وهو رواية الليث، عن مجاهد، عن ابن عباس. واختار ذلك ابن جرير، رحمه الله تعالى. وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفٌ﴾ أي: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية. ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام ويلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ قال ابن جُرَيْج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفٌ﴾ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام، فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة، قال: قلت: فهل في العود حدٌ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله، ﷻ، ولكن يفتدى. ورواه ابن جرير.

وقيل معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبير، وعطاء. ثم الجمهور من السلف والخلف، على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، وهو محرم، يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، ﷻ. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي جميعاً، عن هشام - هو ابن حسان - عن عكرمة، عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحُكِمَ عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه. وهكذا قال شُرَيْج، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النَّخَعِي. ورواه ابن جرير، ثم اختار القول الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا الْمُعْتَمِر بن سليمان، عن زيد أبي المعلى، عن الحسن البصري؛ أن رجلاً أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾. وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يقول عز ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَأَنْتُمْ اللَّهُ الْوَعْدُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ جَمَلٌ اللَّهُ الْكُتُبَةَ الْبَيِّنَاتِ الْحَكِيمِ فَتَمَّا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْقَدَى وَالْقَتِيدُ ذَلِكَ لِيَسْلَمُوا أَنْ اللَّهُ يَسَلَّمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اسْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس - في رواية عنه - وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وغيرهم في قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما يتزود منه ملبحاً يابساً. وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظه ميتاً. وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنهم، وعكرمة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري. قال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي بكر الصديق أنه قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: كل ما فيه. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن سَمَاك قال: حَدَّثْتُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ فَقَالَ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾: وطعامه ما قذف. قال: وحدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُليِّه، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجَلَز، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما قذف. وقال عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظ من ميتة. ورواه ابن جرير أيضاً. وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حياً، أو حسر عنه فمات. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بُشَّار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب، عن نافع؛ أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيراً ميتاً أفناكله؟ فقال: لا تأكلوه. فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتى هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَيَّارَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنه طعامه. وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد روي في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً. حدثنا هُثَّادُ بْنُ الشَّرِيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾ قال: «طعامه: ما لفظه ميتاً». ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة: حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: طعامه: ما لفظه ميتاً.

وقوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَيَّارَةِ﴾ أي: منفعة وفوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَالِلسَيَّارَةِ﴾ وهو جمع سَيَّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر، وللسيارة: السفر. وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حضرة البحر، و ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِحَ وَقُدِّدَ زَادًا لِلْمَسَافِرِينَ وَالنَّائِثِينَ عَنِ الْبَحْرِ. وقد روي نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي وغيرهم. وقد استدلل جمهور العلماء على حل ميتة البحر، بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك بن أنس، عن وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجِرَاحِ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ، قَالَ: وَأَنَا فِيهِمْ. قَالَ: فَمَجْرَجْنَا، حَتَّى إِذَا كُنَّا بَعْضَ الطَّرِيقِ فَنِي الزَّادِ، فَأَمَّرَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَبَا زَوَادٍ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجَمَعَ ذَلِكَ كَلَهُ، فَكَانَ مِرْزُوقِي تَمْرٍ، قَالَ: فَكَانَ يُقَوِّتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى فَنِي، فَلَمْ يَكُنْ يَصِيْبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ. فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ: فَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حَوَتْ مِثْلَ الطَّرِبِ، فَأَكَلْنَا مِنْ ذَلِكَ الْجَيْشِ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً. ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَضَبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلْتُ، وَمَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تَضْبِعَهُمَا. وَهَذَا الْحَدِيثُ مَخْرُجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَهُ طَرُقٌ عَنِ جَابِرٍ.

وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير، عن جابر: فإذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا بداية يقال لها: العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطرتهم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنا. ولقد رأيتنا نتغرف من وُقْبِ عَيْنِهِ بِالْقَلَالِ الدَّهْنِ، وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفُذْرَ كَالثَّوْرِ، أَوْ: كَقَدْرِ الثَّوْرِ، قَالَ: وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشْرَ رَجُلًا، فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَاتِقٍ. فَلَمَّا قَدَمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ فَتَطْعَمُونَا؟» قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ. وَفِي بَعْضِ رَوَايَاتِ مُسْلِمٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وَجَدُوا هَذِهِ السَّمَكَةَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ وَاقِعَةٌ أُخْرَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ هِيَ قَضِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكِنْ كَانُوا أَوَّلًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ سَرِيَّةً مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَجَدُوا هَذِهِ فِي سَرِيَّتِهِمْ تَلَكَّ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلْمَةَ - مِنْ آلِ ابْنِ الْأَزْرَقِ: إِنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ أَبِي بَرْدَةَ - وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ

الدار - أخبره، أنه سمع أبا هريرة يقول: سألت رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إننا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته». وقد روى هذا الحديث الإمامان: الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن جبان، وغيرهم. وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، بنحوه.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق، عن حماد بن سلمة: حدثنا أبو المهزّم - هو يزيد بن سفيان - سمعت أبا هريرة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في حج - أو: عمرة - فاستقبلنا رجل جراد، فجعلنا نضربهن بعضنا وسيطانا فقتلن، فأسقط في أيدينا، فقلنا: ما نضع ونحن محرمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ، فقال: «لا بأس بصيد البحر». أبو المهزّم ضعيف، والله أعلم. وقال ابن ماجه: حدثنا هارون بن عبد الله الحَمَّال، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن عُلانة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك، أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال خالد: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إن الجراد نثرة الحوت في البحر». قال هاشم: قال زياد: فحدثني من رأى الحوت يشتره. تفرد به ابن ماجه. وقد روى الشافعي، عن سعيد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد تقدم عن الصديق أنه قال: ﴿وَعَلَّمَآءُ﴾: كل ما فيه. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباج ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع.

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نَقِيهْهَا تَسْبِيح. وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي، رحمه الله. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر؛ لعدم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْآيَاتُ﴾ [المائدة: ٣]. وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي - هو ابن قانع - حدثنا الحسين بن إسحاق الشَّسْتَرِيّ وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالوا: حدثنا الحسين بن زيد الطحان، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما صيدتموه وهو حي فمات فكلوه، وما ألقى البحر ميتاً طافياً فلا تأكلوه». ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية، ويحيى بن أبي أنيسة، عن أبي الزبير عن جابر به. وهو منكر. وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العَبْرُ» المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته»، وقد تقدم أيضاً. وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أجَلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْحَوْتِ وَالْجَرَادِ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ». ورواه أحمد وابن ماجه، والدارقطني والبيهقي. وله شواهد، وروي موقوفاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمُ الصَّيْدَ الْبَرَّ مَا دُمَّتْ حُرُمَاتُ﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد. ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اصطاد المحرم الصيد متمداً أتمَّ وغرم، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله؛ لأنه في حقه كالهيئة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحليين عند مالك والشافعي - في أحد قوليه - وبه يقول عطاء، والقاسم، وسالم، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم. فإن أكله أو شيئاً منه، فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: نعم، قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، قال: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة. والثاني: لا جزاء عليه بأكله. نص عليه مالك بن أنس.

قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار، وجمهور العلماء. ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد، فإنما عليه حد واحد. وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل. وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه، وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذبي قتلته، للخبر عن رسول الله ﷺ: «صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ، مَا لَمْ تُصَيْدُوهُ أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ». وهذا الحديث سياطي بيانه. وقوله بإباحته للقاتل غريب، وأما لغيره ففيه خلاف، قد ذكرنا المنع عن تقدم. وقال آخرون بإباحته لغير القاتل، سواء المحرمون والمحلون؛ لهذا الحديث. والله أعلم. وأما إذا صاد حلال صيداً فأهداه إلى

محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا. حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة، والزبير بن العوام، وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء - في رواية - وسعيد بن جبيرة. قال: وبه قال الكوفيون. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن سعيد بن المسيب حدثه، عن أبي هريرة؛ أنه سئل عن لحم صيد صاده خلال، أياكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله. ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقاً؛ لعموم هذه الآية الكريمة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبي أمية، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة. يعني قوله: ﴿وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمًا﴾ قال: وأخبرني معمر، عن الزهري، عن ابن عمر؛ أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال معمر: وأخبرني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس، وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري، وإسحاق بن راهويه - في رواية - وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب: أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية - والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله؛ لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، وهو بالأبواء - أو: بؤذان - فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرُدُّه عليك إلا آثراً حُرْمًا». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة. قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك. فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه؛ لحديث أبي قتادة حين صاد حماراً وحشياً، كان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله. ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هل كان منكم أحد أشار إليها، أو أعان في قتلها؟» قالوا: لا. قال: «فكلوا». وأكل منها رسول الله ﷺ. وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالوا: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ - وقال قتيبة في حديثه: سمعت رسول الله ﷺ يقول -: «صيد البر لكم حلال - قال سعيد: وأنتم حرم - ما لم تصيدوه أو يصد لكم». وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة. وقال الترمذي: لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر. ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن مولاة المطلب، عن جابر ثم قال: وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقرب. وقال مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعُزج، وهو محرم في يوم صائف، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولاً تأكل أنت؟ فقال:

إني لست كهيتكم، إنما صيد من أجلي.
﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَاللَّيْثُ وَوَأَعْبَجَكَ كَثْرَةُ الْحَيْثِ فَأَتَقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَسِ لَمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سؤُومٌ وَإِنْ تَسْتَلُوا عَنْهَا مِنْ شَرِّكُمْ لَكُمْ سؤُومٌ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَاللَّيْثُ وَوَأَعْبَجَكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْحَيْثِ﴾ يعني: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: «ما قُلُّ وكفَى، خَيْرٌ مما كَثُرَ وألْهَى». وقال أبو القاسم الجعفي في معجمه: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا الحوطي، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا مَعْنان بن رفاعة، عن أبي عبد الملك علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال النبي ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَسِ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، وافنعوا بالحلال واكفوا به ﴿لَمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سؤُومٌ﴾: هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ مما لا فائدة لهم في السؤال والتفتيح عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم ونهي عليهم سماعها، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُبَلِّغني أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وقال البخاري: حدثنا مُنْذِر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن موسى بن

أنس، عن أنس بن مالك قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين. فقال رجل: من أبي؟ قال: «فلان»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

رواه الثَّضْرُ وروح بن عباد، عن شعبة، وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي من طرق عن شعبة بن الحجاج، به. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾ قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بيته لكم». فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حُضِرَ، فجعلت لا التفت يمينا ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لا فأسره في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة». قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله - أو قال: أعوذ بالله - من شر الفتن، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط». أخرجه من طريق سعيد. ورواه معمر، عن الزهري، عن أنس بنحو ذلك - أو قريباً منه - قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولداً أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارفت أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس، فقال: والله لو الحقتني بعد أسود للحقته. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمّاز وجهه حتى جلس على المنبر، فقام إليه رجل فقال: أين أبي؟ فقال: «في النار» فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله حديشو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آباؤنا. قال: فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾ إنساده جيد.

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من السلف، منهم أسباط عن السدي أنه قال في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: «سلوني، فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنباتكم به». فقام إليه رجل من قريش، من بني سهم، يقال له: عبد الله بن حذافة، وكان يُطعن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «أبوك فلان»، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقبل رجله، وقال: يا رسول الله، رضينا بالله رباً، وبك نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضي، فيومئذ قال: «الولد للمفراش وللعاهر الحجر». ثم قال البخاري: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا أبو الثَّضْرُ، حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا أبو الجويرية، عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تفضل ناقتي: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدَانَ الأسدي، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البَخْتَرِيِّ - وهو سعيد بن فيروز - عن علي قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آك عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: «لا»، ولو قلت: نعم لوجبت، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾. وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق منصور بن وردان، به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخاري يقول: أبو البَخْتَرِيِّ لم يدرك علياً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إبراهيم بن مسلم الهَجْرِيِّ، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب عليكم الحج»، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: «من السائل؟» فقال: فلان. فقال: «والذي نفسي بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت عليكم ما أظفتموه، ولو تركتموه لكفرتم»، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ الرَّسُولُ الْغَيْبَ أَن تَأْتِيَهُمْ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا وَلَا يَأْتِيَهُمُ الْغَنَاءُ بِمَا لَمْ يَحْزَنُوا﴾ حتى ختم الآية. ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة - وقال: فقام يَحْضَنُ الأسدي - وفي رواية من هذه الطريق: عكاشة بن محصن - وهو أشبه.

وإبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري قال: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغمر، حدثنا أبو مطيع معاوية بن يحيى، عن صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمامة

الباهلي يقول: قام رسول الله ﷺ في الناس فقال: «كتب عليكم الحج». فقام رجل من الأعراب فقال: أفي كل عام؟ قال: فَمَلَقَ كَلامَ رسولِ الله ﷺ، وأسكت واستغضب، ومكث طويلاً، ثم تكلم فقال: «من السائل؟» فقال الأعرابي: أنا ذا، فقال: «ويحك، ماذا يؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج، والله لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض، وحرمت عليكم منها موضع خُفٍّ، لوقعتم فيه»، قال: فأنزل الله عند ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾ إلى آخر الآية. في إسناده ضعف. وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا أعلم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا حجاج قال: سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغي أحد عن أحد شيئاً؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» الحديث. وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث إسرائيل - قال أبو داود: عن الوليد، وقال الترمذي: عن إسرائيل - عن السدي، عن الوليد بن أبي هاشم، به. ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلْ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتكم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول تُبَدِّلُ لكم، وذلك على الله يسير. ثم قال: ﴿عَمَّا أَتَتْهَا﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك، ﴿وَأَنَّهٗ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلْ لَكُمْ﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعنه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق. وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جُزماً من سأل عن شيء لم يُحَرِّمَ فحرم من أجل مسألته». ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها حينئذ، تبينت لكم لاحتياجكم إليها. ﴿عَمَّا أَتَتْهَا﴾ أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكنوا أنفسكم عنها كما سكنت عنها. وفي الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم». وفي الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير ينسيان فلا تسألوا عنها».

ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ من قبلكم، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بينت لهم ولم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنت والعباد. قال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال: «يا قوم، كتب عليكم الحج». فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال: «والذي نفسي بيده لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذا لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتبهوا عنه». فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصراني من المائدة، فأصبحوا بها كافرين. فنهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه. رواه ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾، قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا». فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كل عام؟ فقال: «لا، بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾. إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. رواه ابن جرير. وقال خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: «لا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ» قال: هي البحيرة والوصيلة والسابعة والحام، ألا ترى أن يقول بعد ذلك: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، قال: وأما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. رواه ابن جرير. يعني عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا مُوسَى الْبُرْقَانَ مُبِينَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَهْوَيْتُمْ﴾ [الاسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنسَأُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لِيَن جَاءَتِهِمْ لَيْلٌ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وَتَغْلِبَ أَقْبَابَهُمْ وَأَصْبَحُوا كَمَا لَوْ يَوْمُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً وَنَدَرْتُمْ فِي طَلَبَتِيهِمْ يَمْتَهِنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنِ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَبْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا مِيسْرَةٍ وَلَا حَاسِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَدَّعْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَأَنَّا بَنَاتُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة» التي يُنْتَعَمُ ذَرْهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فلا يخلبها أحد من الناس. و «السائبة»: كانوا يسيبونها لألتهم، لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتَ عَمْرُوَ بْنَ عَامِرِ الْخَزَاعِيِّ يُجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ» - و «الوصيلة»: الناقة البكر، تُبَكَّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ، ثُمَّ تُثَقَّنُ بَعْدَ بَأْنِثِي، وَكَانُوا يَسِيبُونَهَا لِلطَّوَاغِيتِ، إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ. و «الحام»: فحل الإبل يُضْرَبُ الضَّرْبَ الْمَعْدُودِ، فإِذَا قَضَىٰ ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَعْفُوهُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَسَمَّوهُ الْحَامِي. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث إبراهيم بن سعد، به.

ثم قال البخاري: وقال لنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: سمعت سعيداً يخبر بهذا. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ، نحوه. ورواه ابن الهاد، عن ابن شهاب، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قال الحاكم: أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بُحْتِ، عن الزهري. كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في «الأطراف» وسكت ولم ينه عليه. وفيما قاله الحاكم نظر، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن الزهري نفسه، والله أعلم. ثم قال البخاري: حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكزيماني، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عُرْوَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتَ جَهَنَّمَ يُحِطَّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتَ عَمْرُوًا يَجْرُ قُضْبَهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ». تفرد به البخاري.

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بُكَيْرٍ، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأَکْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ: «يَا أَكْثَمُ، رَأَيْتَ عَمْرُوَ بْنَ لُحَيٍّ بِنَ قَمْعَةٍ بِنِ خَيْدَفٍ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِهِ مِنْكَ». فقال أَكْثَمُ: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَبِحَرِّ الْبَحِيرَةِ، وَسِيبِ السَّائِبَةِ، وَحَمِي الْحَامِي». ثم رواه عن هناد، عن عبدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه أو مثله. ليس هذان الطريقان في الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ، وَعَبْدُ الْأَصْنَامِ، أَبُو خَزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجْرُ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لِأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ، وَأَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ أَحْوَبُنِي كَعْبٌ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ، يُؤْذِي رِيحَهُ أَهْلَ النَّارِ. وَإِنِّي لِأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ بَحَرَ الْبَحَائِرَ». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدَلِجٍ، كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ، فَجَدَعَ آذَانَهُمَا، وَحَرَّمَ الْبَانِيَهُمَا، ثُمَّ شَرِبَ الْبَانِيَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ وَهُمَا يَعْضَانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا وَيَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَاهُمَا». فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمْعَةٍ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خَزَاعَةَ، الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جُزْهِمْ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَأَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا الرَّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبِ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ وِسْئًا ذَرًّا مِنَ الْحَكِيمِ وَالْأَنْعَامِ نَسِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة. وذكر السُّدِّيُّ وغيره قريباً من هذا. وأما السائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكراً، ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسايتهم. وقال محمد بن إسحاق: السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سُمِّيَتْ فَلَمْ تَرْكَبْ، وَلَمْ يُجَزَّ وَبِرْهَا، وَلَمْ يَحْلَبْ لِبَنِيهَا إِلَّا الضَّيْفُ. وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقصيت حاجته، سَيَّبَ مِنْ مَالِهِ نَاقَةً أَوْ غَيْرَهَا، فَجَعَلَهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهَا. وقال السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قُضِيَتْ حَاجَتُهُ أَوْ عُوْفِي مِنْ مَرَضٍ أَوْ كَثُرَ مَالُهُ سَيَّبَ شَيْئاً مِنْ مَالِهِ لِلْأَوْثَانِ، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ مِنَ النَّاسِ عُوقِبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا. وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ الشَّاةُ إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ نَظَرُوا السَّابِعَ،

فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: **«وَلَا وَصِيْلَةٌ»** قال: فالوصيلة من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تنثى بأنثى، فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدهونها لطواغيتهم. وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس، رحمه الله. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم: إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن، سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى، جعلت للذكور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها. وأما الحام، فقال العوفي، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا لقيح فحله عشراً، قيل: حام، فاتركوه.

وكذا قال أبو روق، وقتادة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وأما الحام فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حَمَى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجوزون له وبراً، ولا يمنونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه. وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم، من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص الجشمي، عن أبيه مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِّيَابِ، فقال لي: «هل لك من مال؟» قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: فقلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: «فإذا أتاك الله مالاً فَاثْبُرْ عَلَيْهِ». ثم قال: «تنتج إبلك وافية أذانها؟» قال: قلت: نعم. قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟» قال: «فعلك تأخذ موسى فتقطع أذنان طائفة منها وتقول: هذه بحير، وتشق أذنان طائفة منها، وتقول: هذه حرم؟» قلت: نعم. قال: «فلا تفعل، إن كل ما أتاك الله لك حل»، ثم قال: **«مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْعَةٍ وَلَا سَكَايَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَاْرٍ»**، أما البحية: فهي التي يجدهون أذانهما، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبراها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة: فهي التي يسيبون لأهلهم، ويذهبون إلى أهلهم فيسيبونها، وأما الوصيلة: فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع، جدعت وقطع قرنها، فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث. وقد روي من وجه آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه. وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به. وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم.

وقوله: **«وَلِكُلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِنَا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»** أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكن المشركون افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم. **«وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا كَانَ مَرْجُومًا عَلَى اللَّهِ فَجَعَلْنَا لِيحْيَىٰ الْمَوْلَاةَ لَكُمْ مَتْرًا فَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمْرِهِ إِنَّهُ سَبَّحَ بِحَمْدِهِ فِي الْمَنَابِتِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ أَعْيُنًا»** قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: **«أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا»** أي: لا يفهمون حقاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَمْتَدَّيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجُومًا جِيْعًا فَيُنْفِئَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ﴿١١٥﴾

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفي عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به. وكذا روى الوالبي عنه. وهكذا قال مقاتل بن حيان. فقوله: **«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ»** نصب على الإغراء **«لَا يَضُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَمْتَدَّيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجُومًا جِيْعًا فَيُنْفِئَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»** أي: فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وليس في الآية مستدلاً على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير - يعني ابن معاوية - حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس قال: قام أبو بكر، رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: **«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَمْتَدَّيْتُمْ إِلَى اللَّهِ»** الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، أن يُمهم بعباقبه». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب الإيمان. وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن جبان في صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن

أبي خالد، به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق. وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في مسند الصديق، رضي الله عنه.

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، وحدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عتبة بن أبي حكيم، حدثنا عمرو بن جارية اللخمي، عن أبي أمية الشُعْبَانِي قال: أتيت أبا ثعلبة الخُشَنِي فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم». قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منهم أو منا؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك، ورواه ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عتبة بن أبي حكيم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة. ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا - أو قال: فلا يقبل منكم - فحينئذ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال: فسمعا ابن مسعود فقال: مه، لم يجيء تأويل هذه بعد. إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذُق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، والبسّم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شهاب بن سوار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، إن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». فكان نحن الشهود وأنتم الغائب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيؤون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن يشار، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالوا: حدثنا عوف، عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجل جليل في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يالو، وكلهم بغض إليه أن يأتي ذناء، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك. فقال رجل من القوم: وأي ذناء تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى، لا أبا لك، أني سأمرك أن تذهب فتقتلهم! عظم وانهم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله، ﷻ يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

وقال أيضاً: حدثني أحمد بن المقدام، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا قتادة، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ فقال أكبرهم: لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا ابن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذكروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها!! حتى تمتت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حذت السن، وإنك نزعت بآية ولا تدري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا

اهتديت. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضمره بن ربيعه قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقي، إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله. وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضررك من ضل إذا اهتديت. رواه ابن جرير، وكذا روى من طريق سفيان الثوري، عن أبي العُميس، عن أبي البختري، عن حذيفة مثله، وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن كعب في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: إذا هدمت كنيسة دمشق، فجعلت مسجداً، وظهر لبس الغضب، فحينئذ تأويل هذه الآية.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ مَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ وَلَا نَشْرَى بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانُوا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الْأَلْيِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَزَّ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يُؤْمِنَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَنَمْلِكُنَّ أَخْفَ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا آعْتَدْنَا إِنَّمَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْرَأْ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَحْفَافًا أَوْ يَكْفُرُوا بِالْبَيْتِ بَدَّ آيَاتِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ يُدْرِي الْقَوْمَ الْقَنِيِّينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون - وهم الأكثرون - فيما قاله ابن جرير -: بل هو محكم؛ ومن ادعى النسخ فعليه البيان. فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ فقيل تقديره: «شهادة اثنين»، حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان. وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنتين، بأن يكونا عدلين. وقوله: ﴿يَجِزِّيَكُمُ﴾ أي: من المسلمين. قاله الجمهور. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: روي عن عبيدة، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، والسُّدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقال آخرون: عن ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من حي الموصى. وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما.

وقوله: ﴿أَوْ مَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن عَرْن، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ مَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب. ثم قال: وروي عن عبيدة، وشريح، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وإبراهيم الشَّخمي، وقتادة، وأبي مجلز، والسُّدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ذلك. وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: المراد من قبيلة الموصى، يكون المراد ههنا: ﴿أَوْ مَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير قبيلة الموصى. وقد روي عن ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري، والزهري، رحمهما الله. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾: وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين، أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو معاوية ووكيع قالوا: حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية. ثم رواه عن أبي كُرَيْب، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السَّبَّعي قال: قال شريح، فذكر مثله. وقد روى مثله عن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى. وهذه المسألة من أفراد، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو داود، حدثنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري قال: مضت السنة أنه لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض، وعمل الناس بها. رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ مَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾:

هل المراد أن يوصي إليهما، أو يشهدهما؟ على قولين:

أحدهما: أن يوصي إليهما، كما قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: سئل ابن مسعود، رضي الله عنه، عن هذه الآية قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدرکه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري، وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرها آنفاً، إن شاء الله وبه التوفيق. وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأننا لا نعلم حُكماً يَخْلِفُ فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الرية حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ أَفْسَاوَةً﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما. والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة، أنهما قد خاننا أو غلا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْرَى بِكُمْ﴾ أي: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿مَنَّكَ﴾ أي: لا نتعاض عنه بعوض قليل من الدنيا الغانية الزائلة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحايبه، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضافها إلى الله تشريراً لها، وتعظيماً لأمرها. وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي. وحكى عن بعضهم أنه قرأ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، والقراءة الأولى هي المشهورة. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِيمِ﴾ أي: إنا فعلنا شيئاً من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِن عُرِيَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين، أنهما خاننا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَقَارَئَانِ يَقْرَأَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾: هذه قراءة الجمهور: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾. وروى عن علي، وأبي، والحسن البصري أنهم قرؤوها: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾. وقد روى الحاكم في المستدرک من طريق إسحاق بن محمد القزوي، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب؛ أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾. ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقرأ بعضهم، ومنهم ابن عباس: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾. وقرأ الحسن: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادِينَ﴾، حكاه ابن جرير. فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتها، فليقم اثنتان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا: إنهما خاننا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما. وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمه إليهم، كما هو مقرر في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبي النضر، عن باذان - يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب - عن ابن عباس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ قال: برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء. وكانا نصرانيين، يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم، يقال له: بدليل بن أبي مريم، بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارتها. فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله - قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجاه، فبعنا بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء. فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجاه فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره - قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله:

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾. فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا، ففزعتهما الخمسمائة من عدي بن بَدَاءَ.

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، به فذكره - وعنده: فاتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيعة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فانزل الله: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْكُمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر، فحلفا. ففزعتهما الخمسمائة من عدي بن بَدَاءَ. ثم قال: هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ، وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه.

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بَدَاءَ، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدما جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدي. فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام ليصاحبهم. وفيهم نزلت: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمُ﴾. وكذا رواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن يحيى بن آدم، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث ابن أبي زائدة. ومحمد بن أبي القاسم، كوفي، قيل: إنه صالح الحديث، وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكرنا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسله: مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا زكريا، عن الشعبي؛ أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فاشهد رجلين من أهل الكتاب. قال: فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري - يعني: أبا موسى الأشعري، رضي الله عنه - فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بَدَلًا ولا كتماً ولا غيراً، وإنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي؛ أن أبا موسى قضى بدقوقا. وهذا إنسانان صحيحان إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري. فقولته: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بَدَاءَ، وقد ذكرنا أن إسلام تميم بن أوس الداري، رضي الله عنه، كان في سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال أسباط، عن السدي: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وما عليه، قال: هذا في الحضر، ﴿أَوْ أَخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ في السفر، ﴿إِنْ أُمَّتُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّتْكُمْ مِثْلَهُ الْمَوْتِ﴾، هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما، ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين. وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان. فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَدْوٍ أَلْسَلُوا فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾. قال عبد الله بن عباس: كأي أنظر إلى العَلَجِين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخَوَّنوهما. فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فَيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، فيحلفان: بالله لا نشترى به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربي، ولا نكتم شهادة الله إننا إذا لمن الأئمين: أن صاحبهم لبهذا أوصى، وأن هذه لتركته. فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتمنا أو خُنْتُمَا فَمَضَحْتُمَا في قومكما، ولم تجز لكما شهادة، وعاقبتكما. فإذا قال لهما ذلك، فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسين، حدثنا هشيم، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم وسعيد بن جبير، أنهما قالا في هذه الآية: ﴿يَأْتِيَا

الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ ﴿١٠٩﴾ الآية، قالوا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر، فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموا أحلقا بعد صلاة العصر: بالله ما كنتمنا ولا كذبنا ولا حُخًا ولا غَيْرَنَا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما استحلقا بعد الصلاة بالله: ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلاً. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذباً في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلقا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإن لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَرَّ عَنْ أَهْمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذباً ﴿فَأَحْرَانِ يَوْمَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلقا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإن لم نعتد، ففرد شهادة الكافرين، وتجوز شهادة الأولياء. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس، رواهما ابن جرير. وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف، رضي الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد، رحمه الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَٰ وَجْهًا﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين وقد استريب بهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ آيَاتُنَا بَعْدَ آيَاتِنَا﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ آيَاتُنَا بَعْدَ آيَاتِنَا﴾. ثم قال: ﴿وَآتَوْا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَاسْتَمُوا﴾ أي: وأطيعوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِزْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَنَا الْقُيُوبَ ﴿١١٠﴾﴾

وهذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الْأُولَىٰ أَنْ يَكُنَّ شَهِيدَاتِ الْآخِرَىٰ﴾ [الاعراف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٠﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد، والحسن البصري، والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِزْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا حَكَّام، حدثنا عُثَيْبَةَ قال: سمعت شيخاً يقول: سمعت الحسن يقول في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ الآية، قال: من هول ذلك اليوم. وقال أسباط، عن السدي: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِزْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك: أنهم نزلوا منزلاً ذُهِلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِزْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَنَا الْقُيُوبَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِزْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَنَا الْقُيُوبَ﴾، يقولون للرب، ﷻ: لا علم لنا، إلا علم أنت أعلم به منا. رواه ابن جرير. ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة. ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب، ﷻ، أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبننا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمْتَنَا الْقُيُوبَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَافُ مِنَ الطَّاغُوتِ كَهَيْئَةِ الطَّاغُوتِ إِذْ نَسَفَعْنَا فِيهَا فَتَكُونُ طَائِفًا يَادِي وَتُرَيْدُ الْأَكْثَمِ وَالْأَبْرَصِ يَادِي وَإِذْ نَفَخْنَا فِي السُّوقِ يَادِي وَإِذْ كَفَفْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ فِي يَدَيْكَ التَّابُوتَ فَتَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ نَحْمِلُ الْإِثْمَ الَّذِي هُوَ لَكُمْ إِثْمٌ وَإِذْ نَحْمِلُ إِلَيْهِ أَعْرَابِينَ أَنْ آمَنُوا بِرِيسُولِهِ قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم مما أجزاه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فانطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك. وضمن

«تكلم» تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويُراد به ما هو أعم من ذلك. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك فيكون طائراً بإذني، أي: تفتخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه. وقوله: ﴿وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْسِفُ الْمَوْجَ بِإِذْنِي﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيبته. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا محمد بن طلحة - يعني ابن مضر - عن أبي بشر، عن أبي الهذيل قال: كان عيسى ابن مريم، عليه السلام، إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين، يقرأ في الأولى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو أَلْمَلِكُ﴾ [المك: ١]، والثانية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ [سورة السجدة]. فإذا فرغ منهما مدح الله، وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديم، يا خفي، يا دائم، يا فرد، يا وتر، يا أحد، يا صمد - وكان إذا أصابه شديدة دعا بسبعة آخر: يا حي، يا قيوم، يا الله، يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام، يا نور السموات والأرض، وما بينهما ورب العرش العظيم، يا رب. وهذا أثر عجيب جداً.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا إِلَهٌ آخَرٌ مُثَبِّتٌ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم، ورفعتك إلي، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ. وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى النَّوَارِثِيِّنَ أَنْ مَا مِثْلُكُمْ بِرَسُولِي﴾، وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَهُ أَنْ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِيحِي﴾ الآية [الفصم: ١٧]، وهذا وحي إلهام بلا خوف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ أُخْبِرِي مِنَ اللَّيْلِ بُرُؤًا وَمِنَ النَّجْمِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثم نُفِي مِنْ كُلِّ النَّجْمِ فَاتَّبَعْتَ مَا يُسْمَعُ سُبْحَانَكَ ذُلُّكَ﴾ الآية [النحل: ٦٨، ٦٩]. وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى النَّوَارِثِيِّنَ أَنْ مَا مِثْلُكُمْ بِرَسُولِي قَالُوا مَا مِثْلُكُمْ﴾ أي: بالله وبرسول الله ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا سُلِّمُونَ﴾ أي: الهمو ذلك فامتثلوا ما ألهمو. قال الحسن البصري: ألهمهم الله ذلك، وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك. ويحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿مَا مِثْلُكُمْ بِرَسُولِي﴾.

﴿إِذْ قَالَ النَّوَارِثِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ تُوْثِقِينَ﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبَنَا وَنَقْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشَّكَّاهِينِ﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَزْوَاجِنَا وَآخِرَانَا وَمَا يَكُونُ مِنَّا وَارْتِفَاعًا لِأَنْفُسِنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْنَا عَلَيْكَ مَائِدَةً فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوهُ وَعَلَيْكُمْ بِالْحَنُوفِ حَقِّ عَيْدِكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْمَائِدَةَ وَتَأْكُلُوا مِنْهَا وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ﴾

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فانزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة. وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فانه أعلم. فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ النَّوَارِثِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى، عليه السلام: ﴿يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: ﴿هل تستطيع ربك﴾ أي: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. والمائدة هي: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقاتون منها، ويتقون بها على العبادة. قال: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ تُوْثِقِينَ﴾ أي: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلًا لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنه لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا﴾ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبَنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَنَقْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا﴾ أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك، ﴿وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشَّكَّاهِينِ﴾ أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَزْوَاجِنَا وَمَا يَكُونُ مِنَّا﴾ قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي

نزلت فيه عيداً نعظمه نحن وَمَنْ بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا. ﴿وَمَا يَنْبَغُ لَكَ﴾ أي: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أي: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرْ﴾ أي: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿فَأَيُّكُمْ أَغْدَابُ لَا أَغْدَبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلْأِينِ﴾ أي: من عالمي زمانكم، كقوله: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وقد روى ابن جرير، من طريق عوف الأعرابي، عن أبي المغيرة القواس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

ذكر أخبار رُوِيَتْ عن السلف في نزول المائدة على الحواريين:

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ليث، عن عقيل، عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم؟ فإن أجز العامل على من عمل له. ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجز العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نَفْرُغُ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: ﴿وَأَنْتُمْ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: نُزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبَنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّكَّاهِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرْ فَأَيُّكُمْ أَغْدَابُ لَا أَغْدَبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلْأِينِ ﴿١١٤﴾. قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. كذا رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، قال: كان ابن عباس يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زُرْعَةَ وهب الله بن راشد، حدثنا عُقَيْلُ بن خالد، أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس؛ أن عيسى ابن مريم قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن قُرْظَةَ الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن خلّاس، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا ولا يرفعوا لُغْدَ، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير». وكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن قُرْظَةَ ثم رواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن خلّاس، عن عمار، قال: نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة، فأمروا ألا يخونوا ولا يخبثوا ولا يدخروا. قال: فخان القوم وخبّؤوا وادخروا، فمسخهم الله قردة وخنازير.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن سِمَاك بن حرب، عن رجل من بني عجل، قال: صليت إلى جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل؟ قال: قلت: لا. قال: إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفذ، قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبّؤوا، أو تخونوا، أو ترفعوا، فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، قال: فما مضى يومهم حتى خبّؤوا ورفعوا وخانوا، فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين. وإنكم - معشر العرب - كنتم تتبعون أذنان الإبل والشاة، فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم، تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم أنكم ستظهرون على المعجم، ونهاكم أن تكتنروا الذهب والفضة. وإيم الله، لا يذهب الليل والنهار حتى تكزنوهما، ويعذبكم الله عذاباً أليماً. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني حجاج، عن أبي مَعْشَر، عن إسحاق بن عبد الله؛ أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، يأكلون منها ما شاؤوا. قال: فسرق بعضهم منها وقال: «لعلها لا تنزل غداً». فرفعت. وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين، خوان عليه خبز وسمك، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤوا. وقال حصيف، عن عكرمة ومقسّم، عن ابن عباس: كانت المائدة سمكة وأرغفة. وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة

خبزاً وسمكاً. وقال عطية العوفي: المائدة: سمك فيه طعم كل شيء. وقال وهب بن مُثَبِّه: أنزلها من السماء على بني إسرائيل، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فأكلوا ما شاؤوا من ضروب شتى، فكان يُقَعَّدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم. فلبثوا بذلك ما شاء الله، سبحان. وقال وهب بن مُثَبِّه: نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكل جميعهم وأفضلوا. وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن زاذان ومَيْسَرَةَ، وجريز، عن عطاء، عن ميسرة قال: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم.

وعن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إلي، حدثنا إسماعيل بن أبي أونس، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مزداس العبدري - مولى بني عبد الدار - عن إبراهيم بن عمر، عن وهب بن منبه، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الخير؛ أنه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جداً وقال: اقتنعوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوها نبيهم آية، فابتلوا بها حتى كان بؤارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: ﴿رُبُّدَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية. فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من شعر، وعباءة من شعر، وتوضأ واغتسل، ودخل مصلا فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبلاً القبلة وصف قدميه حتى استويا، فالصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره، وطأ رأسه خشوعاً، ثم أرسل عينيه بالكعب، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: ﴿أَلَلَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غماتين: غمامة فوقها وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتخذها الله عليهم - فيها: أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين - وهو يدعو الله من مكانه ويقول: اللهم اجعلها رحمة، إلهي لا تجعلها عذاباً، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيني، إلهي اجعلنا لك شكارين، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً وجزاء، إلهي اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى، والحواريين وأصحابه حوله، يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخرَّ عيسى والحواريون لله سجداً شكرياً بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجبياً أورثهم كمداً وغماً، ثم انصرفوا بغضب شديد. وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى. قال عيسى: من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وأحسننا بلاء عند ربه؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونأكل من رزقه الذي رزقنا. فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأحقتنا بالكشف عنها. فقام عيسى، عليه السلام، واستأنف وضوءاً جديداً، ثم دخل مصلا فصلى كذلك ركعات، ثم بكى بكاء طويلاً، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً. ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل، وقال: «باسم الله خير الرازقين»، وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية، ليس عليها بواشير، وليس في جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلاً، قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات، وعلى الآخر خمس رمانات.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال: أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تغيير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية! فقال شمعون: وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة. فقال عيسى، عليه السلام: ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة، فقال له: كن. فكان أسرع من طرفه عين، فكلوا مما سألتهم باسم الله، واحمدوا عليه ربكم بمُدكم منه ويَزِدكم، فإنه بديع قادر شاکر. فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحب أن تُرثنا آية في هذه الآية. فقال عيسى: سبحان الله! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى، عليه السلام، على السمكة، فقال: يا سمكة، عودي بإذن الله حية كما كنت. فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية، تَلَمَّظ

كما يتلظظ الأسد، تدور عينها لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها. ففزع القوم منها وانحازوا. فلما رأى عيسى ذلك منهم قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة، عودي بإذن الله كما كنت. فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول. فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله الذي تبدأ الأكل منها، ثم نحن بعد. فقال عيسى: معاذ الله من ذلك! يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها، خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة، فتحاموها. فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم، فيكون مهتؤها لكم، وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله، واختموه بحمد الله، ففعلوا، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شعبان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيته إذ أنزلت من السماء، لم ينتقص منها شيء، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون، فاستغنى كل فقير أكل منها، وبرى كل زمنٍ أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة، سألت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات، قال: فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً: الأغنياء والفقراء، والصغار والكبار، والأصحاء والمرضى، يركب بعضهم بعضاً. فلما رأى ذلك جعلها نواب، تنزل يوماً ولا تنزل يوماً. فلبثوا في ذلك أربعين يوماً، تنزل عليهم غياً عند ارتفاع الضحى، فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم بإذن الله إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم. قال: فأوحى الله إلى نبيه عيسى، عليه السلام، أن اجعل رزقي المائدة، لليتامى والفقراء والزمنى دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس، وعَمَطُوا ذلك، حتى شَكُوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين، حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة، ونزولها من السماء أحق، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير؟ فقال عيسى، عليه السلام: هلكتم وإله المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها، وشككتم فيها، فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله. وأوحى الله إلى عيسى: إني أخذ المكذبين بشرطي، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، قال: فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نساءهم آمنين، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات. هذا أثر غريب جداً، قَطَعَهُ ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل، والله سبحانه وتعالى أعلم. وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل، أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُزِيلٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل. فروى نَيْث بن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: هو مثل ضرب، ولم ينزل شيء. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم - هو ابن سلام - حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم. وقال أيضاً: حدثنا ابن المنثى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن؛ أنه قال في المائدة: لم تنزل. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَكِيِّينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الأحاد، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُزِيلٌ عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرُ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَكِيِّينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق. وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر القيمة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود، عليهما السلام، فإله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فاتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: «بل باب التوبة والرحمة». ثم رواه أحمد، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث سفيان الثوري، به.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَآءَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أُوَلِّ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتَ قٰتِلُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَن أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ وَإِن تَعْفُرْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَآءَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقرير على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هٰذَا يَوْمَ يَنفَعُ الصّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. وقال السُّدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان حين رفعه الله إلى سماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ الماضي. والثاني: قوله: ﴿إِن تَعْبُدُهُمْ﴾ و ﴿وَإِن تَعْفُرْ لَهُمْ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي، ليدل على الوقوع والشبوت. ومعنى قوله: ﴿إِن تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ﴾ الآية: التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريرهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساکر في ترجمة أبي عبد الله، مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة، قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأمهم، ثم يُدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه، فيقر بها، فيقول: ﴿يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ يَسْمَعُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠] ثم يقول: ﴿هَآءَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم، هو أمرنا بذلك، قال: فيطول شعر عيسى، عليه السلام، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله، ﷻ، مقدار ألف عام، حتى ترفع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار»، وهذا حديث غريب عزيز.

وقوله: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أُوَلِّ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَآءَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقاه الله: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أُوَلِّ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي آخر الآية. وقد رواه الثوري، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن طاوس، بنحوه.

وقوله: ﴿إِن كُنتَ قٰتِلُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يارب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه ﴿إِن أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿إِن أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: هذا هو الذي قلت لهم، ﴿وَكُنتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شُعْبَةُ قَالَ: انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملأه على سفيان وأنا معه، فلما قام انتسخت من سفيان، فحدثنا قال: سمعت سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله، ﷻ، حفاة عراة غُزُلًا، كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يُكسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. إِن تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّمَا

عِبَادًا وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ ، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». ورواه البخاري عن هذه الآية عن الوليد، عن أبي شعبة - وعن محمد بن كثير، عن سفيان الثوري، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، به.

وقوله: ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ﴾ ، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله، ﷻ، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددّها. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثني فليّيت العامري، عن جسرّة العامرية، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بأية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ﴾ ، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي، ﷻ، الشفاعة لأمتي، فأعطينها، وهي نائل إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

طريق أخرى وسياق آخر: قال أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا فُدّامة بن عبد الله، حدثني جسرّة بنت دجاجة: أنها انطلقت معتمرة، فانتهت إلى الربرة، فسمعت أبا ذر يقول: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلّفهم انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى، فحجّت فقامت خلفه، فأوماً إليّ بيمينه، فقامت عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه، فأوماً إليه بشماله، فقام عن شماله، فقمنا ثلاثنا يصلي كل واحد منا بنفسه، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو. وقام بأية من القرآن يرددّها حتى صلى الغداة. فلما أصبحنا أوامت إلى عبد الله بن مسعود: أن سلّه ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود بيده: لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ، فقلت: بأبي أنت وأمي، قامت بأية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه، قال: «دعوت لأمتي». قلت: فماذا أجبت؟ - أو ماذا ردّ عليك؟ - قال: «أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلّعت تركوا الصلاة». قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «بلى». فانطلقت مُنْفَعاً قريباً من قُدفة بحجر. فقال عمر: يا رسول الله، إنك إن تبعث إلى الناس بهذا تكلوا عن العبادة. فناداه أن ارجع فرجع، وتلك الآية: ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ تلا قول عيسى: ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ﴾ ، فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي». وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فأسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ابن هُبيرة: أنه سمع أبا تميم الجيشتاني يقول: حدثني سعيد بن المسيب، سمعت حذيفة بن اليمان يقول: غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربي، ﷻ، استشارني في أمتي: ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئت أي: رب هم خلقك وعبادك. فاستشارني الثانية، فقلت له كذلك، فقال: لا أخزيك في أمتك يا محمد، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ليس عليهم حساب، ثم أرسل إليّ فقال: ادع تُجِب، وسل تُعْط. فقلت لرسوله: أو معطي ربي سؤلي؟ قال: ما أرسلني إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي ولا فخر، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأنا أمشي حياً صحيحاً، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تغلب، وأعطاني الكوثر، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي، وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهراً، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج».

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْتِ بِحَرَىٰ مِنْ حَتَمَتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَوْعِدُ كُلِّ نَفْسٍ مَّوْعِدُهَا ﴿١٢١﴾﴾ .

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم، فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، ﷻ، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ . قال الضحّاك، عن ابن

عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ﴿لَمَّ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: ما كثر فيها لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث. وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا المحاربي، عن نَيْث، عن عثمان - يعني ابن عَمِير أبو اليقظان - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم». قال: «فيسألونه الرضا، فيقول: رضي أي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا»، قال: «فيشهدهم أنه قد رضي عنهم». وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ السَّمَكُوتُ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آي: ١١٦] أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه. قال ابن وهب: سمعت حُيَ بن عبد الله يحدث، عن أبي عبد الرحمن العُجَلِي، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الثقة وما توفيقى إلا بالله تفسير سورة الأنعام

وهي مكية.

قال القوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسييح. وقال سفيان الثوري، عن نَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة واحدة، وأنا أخذه بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. وقال شريك، عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو في مسير في رَجُل من الملائكة وقد نظمو ما بين السماء والأرض. وقال السُّدِّي، عن مرة، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وروى نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود.

وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالوا: حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدي، أخبرنا جعفر بن عَوْن، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي، حدثنا محمد بن المُتَكِدِر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّح رسول الله ﷺ، ثم قال: «لقد سَبَّح هذه السورة من الملائكة ما سَدَّ الأفق». ثم قال: صحيح على شرط مسلم. وقال أبو بكر بن مَرْدُوَيْه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن دُرَشْتُوَيْه الفارسي، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي قُدَيْك، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع بن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها مَوْكِب من الملائكة، سَد ما بين الحَافِقَيْن، لهم رَجُل بالتسييح والأرض بهم تَرْتَج»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم». ثم روى ابن مردويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف بن عطية، عن ابن عَوْن، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت عَلَيَّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيئها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم رَجُل بالتسييح والتحميد».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِرَبِّكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شِقَاكُم مِّنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ﴾ يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: الآخرة. وهكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقناة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدي، ومقاتيل بن حیان، وغيرهم. وقول الحسن - في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾: ما بين أن يموت إلى أن يعث - هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْسُطُكُمْ فِيهِ لِيُقَفِّيَ أَجَلَ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠]. وقال عطية، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: النوم، يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: أجل موت الإنسان، وهذا قول غريب. ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿فِيمَ آتَتْ مِن ذِكْرهَا﴾ ﴿١٧٥﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَى﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مَنَازِلَ﴾ قال السدي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِيْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾. اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تحطئة قول الجهمية الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - في كل مكان؛ حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: يعبده ويوحده ويقرله بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه زعباً وزهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَلْمُ بِيْرَكُمْ وَيَجْهَرُكُمْ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهر. فيكون قوله: ﴿يَلْمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سرهم وجهرهم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِيْرَكُمْ وَيَجْهَرُكُمْ﴾، وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: جميع أعمالهم خيرا وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِن آيَةٍ مِن آيَاتِهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُرْمِضِينَ﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبُؤًا مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَعْلَنَّا مِنْ قَبْلِهِم مِّن قَوْلِنَا فَكُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَآرَةً تُكْرَهُ وَآرْسُنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ يَدْرَأُهَا فَجَعَلْنَا الْآلِهَةَ لِقَوْمِ رَبِّهِمْ فَاعْلَنَتْ لَهُمْ بِأَنْبُؤِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾.

يقول تعالى معبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿مِنَ آيَاتِهِ﴾ أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب، ﴿وَصَدَقَ رَسُلُهُ الْكِرَامُ﴾، فإنيهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبُؤًا مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾. وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه، وليذوقن وبالَه. ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباهم ونظرانهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَعْلَنَّا مِنْ قَبْلِهِم مِّن قَوْلِنَا فَكُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَآرَةً تُكْرَهُ لَكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ يَدْرَأُهَا﴾ أي: شيئاً بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْآلِهَةَ لِقَوْمِ رَبِّهِمْ فَاعْلَنَتْ لَهُمْ بِأَنْبُؤِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: فذهب الأولون كأسس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل

ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِأَبْيَرٍ لَقَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ لَقُنِيَ الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَكَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ بَنِي قَبِيلِكُمْ فَحَقَّ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِوَيْهٍ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهنتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِأَبْيَرٍ﴾ أي: عابونه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَطَلَّوْا فِيهِ يَمْرُجُونَ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكْرَاتُ مَا بَصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: فيكون معه نذيراً، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُنِيَ الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُرْهَانَ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِبْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَكُنَّا بِسُحُوتٍ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ ﴿١٠٦﴾﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية. يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون. وقال الوابي عنه: ولشبهنا عليهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ بَنِي قَبِيلِكُمْ فَحَقَّ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِوَيْهٍ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾، هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعدله وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه، من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما أذخر لهم من العذاب الآليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الذِّكْرَ حَسِبُوا أَنْفُسَهُمْ قَهْرًا لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ قُلْ أَقْبَرُ اللَّهُ أَتُحَدِّثُ وَإِنَّا قَائِلُونَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُعْلِمُ وَلَا يُغْمَرُ قُلْ إِنِّي أَرْتُبُ أَنْ آتِيكُمْ أَوَّلَ مَنْ أَسْأَلُ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ مَن يُعْرِفْ عَنَّهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعَهُ وَذَلِكَ الْعَوْرُ الْمُنِينُ ﴿١٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». وقوله: ﴿لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾، هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجتمع عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة، الذي لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. وقال ابن مَرْدُودِيه عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عَفْبَةَ، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَفْبَةَ الْيَمَانِي، عن الزبير بن شَيْبٍ، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ فِيهِ لِمَاءً، إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لِيرُدُّونَ حِيَاضَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ فِي أَيْدِيهِمْ عِصِيَّ مِنْ نَارٍ، يَتَوَدَّدُونَ الْكُفَّارَ عَنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ». هذا حديث غريب.

وفي الترمذي: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتْبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً». ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ

حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴿١٧﴾ أي يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتدبيره، ولا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بركاتهم وضمائرهم وسرائرهم. ثم قال لعبيده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه المستقيم: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهَ رَبِّكَ فَأَيُّ الْفَاطِرِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوكَ وَأَعْيُدُوا إِلَيْهَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يُعْطَى﴾ أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [النار: ٥٦ - ٥٨]. وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يُعْطَى﴾ الآية أي: لا يأكل. وفي حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُودَع ولا مكافأ ولا مكفور ولا مُسْتغْنَى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وفصلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين». ﴿قُلْ إِنِّي أُبْرئتُ أَنْ أَكُونَ أَكْرَهًا أَوْ لِي مِنَ الْأَمَةِ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ يعني: يوم القيامة. ﴿مَنْ يُصِرْ فَعَنْدَهُ﴾ يعني: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَغَدَّ رَجْمُهُ﴾ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ الْقَوْلُ الْقَائِلِينَ﴾، كما قال: ﴿فَمَنْ زُجِرَ عَنِ الْكِبْرِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَغَدَّ قَادِرًا عَلَىٰ عَمْرٍاءَ﴾ [١٨٥]، والفوز: هو حصول الريح ونفي الخسارة.

﴿وَإِنْ يَسْتَسْأَلِ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْتَسْأَلِ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْمُخِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَتَىٰ مَنُوكَ أَكْثَرُ شَهَادَةٍ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُبَيِّنَ لَهُ. وَمَنْ يَلْبَسْ أَلْبِسْكُمْ تَشْهُدُونَ أَنَّهُ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ بِرُؤُوسِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَكْثَرُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِيهِ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا مُعْتَبَرٌ لحكمه، ولا رادٌ لقضائه: ﴿وَإِنْ يَسْتَسْأَلِ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْتَسْأَلِ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمْسِكُ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا مِنْ عَدُوٍّ﴾ [الفاطر: ٢]، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله ﴿الْمُخِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق.

ثم قال: ﴿قُلْ أَتَىٰ مَنُوكَ أَكْثَرُ شَهَادَةٍ﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جنتكم به، وما أنتم قائلون لي: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُبَيِّنَ لَهُ. وَمَنْ يَلْبَسْ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ يَلْبَسْ﴾ قال: من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ - زاد أبو خالد: وكلمه. ورواه ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَأُبَيِّنَ لَهُ. وَمَنْ يَلْبَسْ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي، فَمَنْ بَلَّغْتَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتَهُ أَمْرَ اللَّهِ». وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر. وقوله: ﴿أَلْبِسْكُمْ تَشْهُدُونَ﴾ أي: أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جنتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرٌ وأبو وجود محمد ﷺ وبعثه وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوّهت به في قديم الزمان وحديثه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم ممن تَقُولُ على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح لا هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمْماً ثَمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَنْ نُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٢٢ ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٢٣ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمْماً﴾ يوم القيامة يسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلين لهم: ﴿إِنَّ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُؤَدُّبِهِمْ يَقُولُ إِنَّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٢٢ ﴿الآية: ٦٢﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حججهم. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: أي قيلهم. وكذا قال الضحاك. وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتننا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس، سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جِمْماً فَيَقُولُونَ لِمَ كُنَّا يَجْعَلُونَ لَكُمُ الْمَوْتُ وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ آلَا إِنَّمَا هُمْ الْكٰذِبُونَ﴾ ٢٣ ﴿المجادلة: ١٨﴾. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ٢٥ ﴿وَيَوْمَ يَفْعَلُونَ﴾ ٢٦ ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٢٧ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّمَنِّعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْمَرُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٦ ﴿غافر: ٧٣، ٧٤﴾.

أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والالتحاق بالقرآن، وينسأون عنه أي: ويتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفع ويتبعون. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: ينهون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ، وينهون عنه. وكذا قال مجاهد وقاتدة، والضحاك، وغير واحد. وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى. وكذا قال القاسم بن مخيمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دینار: إنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس

عن قتله. وقوله: ﴿وَيَتَوَكَّرَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتباعدون منه. ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِخَ عَلَىٰ النَّارِ فَمَا آلَتْ بِئْسَ نَارٌ وَلَا تُكذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّهَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُبِّئُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِخَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا المَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَيْتَنَا نَرُدُّ وَلَا نُكذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّهَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا ببسیر: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٧﴾﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]. قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَيَحْمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلْيَعْلَمَنَّ السَّافِهِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعانقون العذاب يظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُبِّئُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في تمنيه الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان. ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿بَلَيْتَنَا نَرُدُّ وَلَا نُكذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّهَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لعادوا لما نهوا عنه، إنهم لكاذبون ولقالوا: ﴿إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِخَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا المعاد بحق وليس يباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا المَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم منه ﴿أَفَبِعَمَلِكُمْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ حَصِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَقْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٣١﴾﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهُوَ المَذَابُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يُنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقاء الله وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعال؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَقْنَا فِيهَا﴾. وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: ويستقبل الكافر - أو: الفاجر - عند خروجه من قبره كأفح صورة رآها وأنتن ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد قبَّح وجهك وتنتن ريحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، طالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾. وقال أسباط، عن السدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبَّح الوجه، أسود اللون، منتن الرائحة، عليه ثياب دنسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحاً! قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك منتناً! قال: ما أدنس ثيابك، قال: فيقول: إن عملك كان دنساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات، وأنت اليوم تحملي. قال: فيركب على

ظهره فيسوقه حتى يُدخله النار، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلٰى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ .
وقوله: ﴿وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا اِلَّا لَبِثٌ وَّكَلْبَةٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَالذُّرَّاءُ الْاٰخِرَةُ حَرٌّ لِّذٰلِكَ يَتَّقُونَ اَفَلَا تَتَّقِلُوْنَ﴾ .

﴿قَدْ نَعَلَمَ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلٰى مَا كُذِّبُواْ وَاُوْدُواْ حَتّٰى اَنْتُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللّٰهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِئِىْ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ اِعْرَاضُهُمْ فَاِنْ اَسْتَلَمْتَ اَنْ تَتَّبِعِيَ فَفَقًا فِى الْاَرْضِ اَوْ سَلَمًا فِى السَّمَآءِ فَاتَّبِعْهُمْ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ لِحَمَمِهِمْ عَلٰى الْهُدٰى فَلَا تُكُوْنُ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿اِنَّمَا يَسْتَجِیْبُ الَّذِيْنَ يَسْمَعُوْنَ وَالْمَوْتُ يَعْزُبُ عَنْهُمْ اِنَّهُمْ ثُمَّ اِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى مسلماً لنبى ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعَلَمَ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَزَنًا﴾ [ناظر: ١٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَقَسَكَ اَلَّا يَكُوْنُوْا مُؤْمِنِيْنَ﴾ ﴿٣﴾ [الشعراء: ٣] ﴿لَمَّا لَمَّكَ بِبَيْحِ نَفْسِكَ عَلٰى اٰثَرِهِمْ اِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوْا بِهٰذَا الْحَدِيْثِ اَسْفًا﴾ ﴿١﴾ [الكهف: ١٦].
وقوله: ﴿اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الْفٰلِغِيْنَ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ يَحْزَنُوْنَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبى ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَكْذِبُوْنَكَ وَلَكِنَّ الْفٰلِغِيْنَ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ يَحْزَنُوْنَ﴾ ورواه الحاكم، من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المُبَشَّر الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي زيد المدني؛ أن النبى ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبى، ولكن متى كنا لنبى عبد مناف تبعاً؟! وتلا أبو يزيد: ﴿اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَكْذِبُوْنَكَ وَلَكِنَّ الْفٰلِغِيْنَ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ يَحْزَنُوْنَ﴾ .

قال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجهدون. وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبى ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحد منهم بالآخر. فاستمعوا إلى الصباح، فلما هَجَمَ الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لثلاث يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً منه أن صاحبه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُزاد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجأنا على الرُكْب، وكنا كَفْرَسِي رَهَان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

وروى ابن جرير، من طريق أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿قَدْ نَعَلَمَ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَلَكِنَّ الْفٰلِغِيْنَ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ يَحْزَنُوْنَ﴾ ﴿٣٤﴾ : لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لنبى زهرة: يا بني زهرة، إن محمداً ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته، فقوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتكم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً. فيومئذ سُمِّي الأخنس، وكان اسمه «أبي» فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصَي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿اِنَّا لَنَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَكْذِبُوْنَكَ وَلَكِنَّ الْفٰلِغِيْنَ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ يَحْزَنُوْنَ﴾ فآيات الله: محمد ﷺ .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلٰى مَا كُذِّبُواْ وَاُوْدُواْ حَتّٰى اَنْتُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللّٰهِ﴾ : هذه تسلية للنبى ﷺ وتغزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعده بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت

لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مِثْلَ لِكَمَتِ اللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِيَأْتِيَنَّ الْأَنْبِيَاءَ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا لَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ﴿١٧٣﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِيكُنَا أَنَا وَرَسُولُنَا إِنَّ اللَّهَ لَمَعْرِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٧٤﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْمُرْسَلَاتُ﴾ أي: من خبرهم كيف نُصيروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَمْتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَقْعًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الثَّقِيُّ: السَّرْبُ، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَيَاتٌ﴾ أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسُّدِّيُّ، وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَاطِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا فَأَنَّكَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ [يونس: ٩٩] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب للذعائن يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْقُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني بذلك: الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبهم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْقُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزاء عليهم.

﴿وَأَنزَلْنَا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ مَائَةٌ مِنْ رَبِّي قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ مَائَةً وَلَكِنْ أَسْأَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَبْطُرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لِكِ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُؤُوبٌ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَسْتَلِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَسْأَلْ بِجَعَلِهِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ مَائَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ نَقْعُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبْطُورًا﴾ [الإسراء: ٩٠]. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ مَائَةً وَلَكِنْ أَسْأَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا نُمُودًا نَاقَةٌ مَجِيئَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا ظُهْرًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْ مَائَةٍ فَظَلَمْتَ أَعْتَقْتَهُمْ لَمَّا خَلصِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَبْطُرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾، قال مجاهد: أي أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَانِهَا. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقال السُّدِّيُّ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: خلق أمثالكم. وقوله: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدييره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [مورد: ٦] أي: مُفْصَحٌ بِأَسْمَانِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمِظَانِهَا، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ [العنكبوت: ٦٠]. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن المنثي، حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المُنْكَدِرِ، عن جابر بن عبد الله قال: قُلُ الْجِرَادِ فِي سَنَةِ مِنْ بَنِي عَمْرِ، رضي الله عنه، التي ولي فيها، فسأل عنه فلم يخبر بشيء، فاغتم لذلك. فأرسل ركباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبير ثلاثاً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَلَقَ اللَّهُ، ﷻ، أَلْفَ أُمَّةٍ مِنْهَا سِتْمَانَةٌ فِي الْبَحْرِ، وَأَرْبَعَمِائَةٌ فِي الْبَرِّ. وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِرَادُ، فَإِذَا هَلَكَتْ تَابَعَتْ مِثْلَ النَّظَامِ إِذَا قَطَعَ سُلْكُهُ».

وقوله: ﴿ثُمَّ لِكِ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لِكِ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: حَشَرُهَا الْمَوْتُ. وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: موت البهائم حَشَرُهَا. وكذا رواه العوفي، عنه. قال ابن أبي حاتم:

وروي عن مجاهد والضحاك، مثله. والقول الثاني: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَنْفُسُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مُنذِرِ الثوري، عن أشياخ لهم، عن أبي ذرٍّ؛ أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر، هل تدري فيم تنتطحان؟» قال: لا. قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما». ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الأعمش، عن ذكره عن أبي ذر قال: «بيننا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطح عئزان، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيم انتطحان؟» قالوا: لا ندري. قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما». رواه ابن جرير، ثم رواه من طريق منذر الثوري، عن أبي ذر، فذكره وزاد: قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسنده أبيه: حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا: حدثنا حجاج بن نصير، حدثنا شُعْبَةَ، عن العَوَّامِ بن مَرَجَمٍ - من بني قيس بن ثعلبة - عن أبي عثمان التُّهَيْدِي، عن عثمان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجَمَاءَ لتقتص من القرناء يوم القيامة». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن جعفر بن بُزْقَانَ، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة في قوله: «إِلَّا أَمْ أَنْتَ أَلَمَّ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْلِ نَبِيِّكُمْ إِنَّهُمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجَمَاءِ من القرناء. قال: ثم يقول: كوني تراباً. قال: فذلك يقول الكافر: ﴿يَكْفُرُ كُفْرًا﴾ [البقرة: ٤٠] وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُدُّوا أَبْصَارَهُمْ﴾ في الظُّلْمَةِ أَي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذي لا يسمع - أبكم - وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟ كما قال تعالى: ﴿مَتَلَّهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَخَمَ فِي ظُلْمَتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [ص: ١٧] مَتَلَّهُمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [البقرة: ١٧، ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالظُّلْمَةِ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ قَوْعِهِ مَوْجٌ مِنْ قَوْعِهِ سَابَّ ظُلْمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهُ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَضِلْهُ وَمَنْ يَسْأَلِ بَعْضَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١١] بَلْ إِنِّي نَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْتَوُونَ مَا نُنشِرُكَونَ [١٢] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبَرْنَا إِلَى آيَاتِنَا وَأَلْفَاظِنَا لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ [١٣] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُثْلَبُونَ [١٥] نَقَطَ ذَائِرُ الْقَوْلِ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا وَاسْتُكْبِرُوا وَلَمْ يُؤْمِرُوا بِالْعَلِينِ [١٦].

يخير تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ﴾ أَي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: في اتخاذكم آلهة معه ﴿بَلْ إِنِّي نَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْتَوُونَ مَا نُنشِرُكَونَ﴾ [١٢] أَي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الشَّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبَرْنَا إِلَى آيَاتِنَا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا وَاسْتُكْبِرُوا وَلَمْ يُؤْمِرُوا بِالْعَلِينِ﴾ وهي الأمراض والأقسام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أَي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أَي: فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا إلينا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: ما رقت ولا خشعت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: من الشرك والمعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكروه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أَي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أَي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُمْ مُثْلَبُونَ﴾ أَي: آيسون من كل خير. قال الوالبي، عن ابن عباس: المبلس: الأيس. وقال الحسن البصري: من وسَّعَ اللهُ عليه فلم ير أنه يمكربه، فلا رأي له. ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾

أَعَدَّ لَهُمْ بَعَثَهُ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾ قال الحسن: مَكَرَ بالقوم ورب الكعبة؛ أَعطُوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة: بَعَثَ القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يفتري بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً. وقال مالك، عن الزهري: ﴿فَحَنَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسترها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين - يعني ابن سعد أباً الحجاج المهري - عن خزيمة بن عمران الشجبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبه بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِزْجَارٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَحَنَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُجِّعَ بِمَا أُوْتُوا لَعْنَتُهُمْ بَعَثَهُ إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٧﴾». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث خزيمة وابن لُبَيْعَةَ، عن عقبه بن مسلم، عن عقبه بن عامر، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عراك بن خالد بن يزيد، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْنَةَ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَقَاءً - أَوْ نَمَاءً - رَزَقَهُمُ الْقَصْدَ وَالْعِفَافَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعاً فَتَحَ لَهُمْ - أَوْ: فَتَحَ عَلَيْهِمْ - بَابَ خِيَانَةٍ». ﴿حَتَّى إِذَا فُجِّعَ بِمَا أُوْتُوا لَعْنَتُهُمْ بَعَثَهُ إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾».

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصَدُّونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعَثَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَانَ وَأَصْلَحَ فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئِمَتِهِمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٢﴾».

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ رَجَعَكُمْ لِكُلِّ سَمْعٍ وَالْأَبْصَرِ وَالْأَفْئِدَةِ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٣٣]. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَأَسْمِعُوا أَنَّ اللَّهَ يُحَوِّلُ بَيْنَ أَلْمَرَةِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنعام: ٢٧٤]. وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال عز شأنه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصَدُّونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه. قال العوفي، عن ابن عباس ﴿يَصَدُّونَ﴾: يعدلون. وقال مجاهد، وفتادة: يعرضون؛ وقال السدي: يصدون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعَثَهُ﴾ أي: وأنتم لا تشعرون به حتى يبتكم وفجأكم. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ﷻ، وبنحو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقات والعقوبات. ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ أَمَانَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئِمَتِهِمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرمانه.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ إِنْ أُنْجِيَ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَشْكُرُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْسِنُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاوِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ بَيْنَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْمَدْفُوعِ وَالْمَشْفِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْرُدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِهِمْ لِيُنذِرَ لِقَوْمِهِمْ كَمَا نَذَرْتُ لِقَوْمِ هَارُونَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَتِهِمْ غَدْرٌ وَجِدْ ﴿٥٩﴾».

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لست أملكها ولا أنصرف فيها، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا

أقول: إني أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله، ﷻ، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يُوحى إلي من الله، ﷻ، شرفني بذلك، وأنعم علي به؛ ولهذا قال: ﴿إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه ولم يتقده؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿... أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَايٌ وَلَا شَيْعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين ﴿وَيُحْشَرُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَايٌ وَلَا شَيْعٌ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم، ﴿لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله، ﷻ ﴿لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وِجْهَهُ﴾ أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصائك، كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وِجْهَهُمْ وَلَا تَقْدِ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقناة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي: أتقبل منكم. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وِجْهَهُمْ﴾ أي: يتبعون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما قال نوح، عليه السلام، في جواب الذين قالوا: ﴿أَنْزِلْ لَكَ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً تَقُولُ لَهُمْ سَمْعًا﴾ قال: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [١١٣] إن حسابهم إلا على ربِّي لو تشعرون ﴿[الشعراء: ١١٢، ١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله، ﷻ، وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. وقوله: ﴿فَتَقَرَّبْهُمْ فَتَقَرَّبْ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط - هو ابن محمد - حدثنا أشعث، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: مر الملا من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده: خَبَابٌ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَعِمَارٌ. فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. رواه ابن جرير، من طريق أشعث، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: مر الملا من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن تبعك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وِجْهَهُمْ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط بن نصر، عن السدي، عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارئ الأزد - عن أبي الكنود، عن خباب في قول الله، ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم». قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وِجْهَهُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وِجْهَهُمْ﴾ ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقَرَّبْهُمْ فَتَقَرَّبْ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٧]، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه. ورواه ابن جرير، من حديث أسباط، به. وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. وقال سفيان الثوري عن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نسبق إلى النبي ﷺ، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يدني هؤلاء دوننا، فنزلت: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالشَّيْءِ﴾. رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان، وقال: على شرط الشيخين. وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدم بن شريح، به.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتنحنا بعضهم ببعض ﴿يَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالباً من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا بِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل. والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفاتهم، ويعذبون من يقدر عليهم منهم، وكانوا يقولوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير- لو كان ما صاروا إليه خيراً- ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلنا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَبِيًّا﴾ [مریم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَرَدَّ أَعْلَانًا قُلُوبَهُمْ مِنْ قَرْنِهِمْ أَهْسَنَ أُنثًا وَرَدَّهَا﴾ [مریم: ٧٤] وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُشْكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالمشكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوقفهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَمِيمِينَ﴾ [المنكوت: ٦٩]. وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْ يُخْشِرُوا لَكَ ذِيَهُمْ﴾ الآية، قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو فعلت ذلك، حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلى ما يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْ يُخْشِرُوا لَكَ ذِيَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [٥١] وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْمَشْرِيقِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُشْكِرِينَ﴾. قال: وكانوا: بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالمأ مولى أبي حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود بن القاري، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو، وذو الشمالين، ومرثد بن أبي مرثد- وأبو مرثد من غني حليف حمزة بن عبد المطلب- وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الآية. فلما نزلت، أقبل عمر، رضي الله عنه، فاعتذر من مقالته، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمٌ الْآيَةُ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: أوجبها على نفسه الرحمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله، فهو جاهل. وقال معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ﴾، قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَدْيِهِ وَاصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَجِيمٌ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». أخرجه في الصحيحين وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. ورواه موسى بن عقیبة عن الأعرج، عن أبي هريرة. وكذا رواه الليث وغيره، عن محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بذلك. وقد روى ابن مَرْزُوبِ، من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق، أخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً، مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله». وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عاصم بن سليمان، عن أبي عثمان التَّهْدِي، عن سلمان في قوله: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قال: إنا نجد في التوراة عطفين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة- أو: جعل مائة

رحمة - قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة. قال: فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبادلون، وبها يتزاورون، وبها تحن الناقة، وبها تتج البقرة، وبها تنغو الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر. فإذا كان يوم القيامة، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع. وقد روي هذا مرفوعاً من وجه آخر. وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الاعراف: ١٥٦].

ومما يناسب هذه الآية الكريمة من الأحاديث أيضاً قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أندري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أندري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» وقد رواه الإمام أحمد، من طريق كميل بن زياد، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيَّ ذَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ قُلْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ صَدَّقْتَ كَذِبَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٥﴾﴾
﴿قُلْ إِنِّي نَذَرْتُ لِذَاتِ هَيْبَةٍ كَذِبَتْ بِيءُ رَبِّي وَكَذَّبَتْ بِيءُ مَا عِنْدِي مَا سَتَعْمَلُونَ بِيءُ إِنْ أَلْمَمْتُمْ إِلَّا بِأَلْوَابِئِهِمْ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ ﴿٥٦﴾﴾
﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾﴾
﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ ﴿٥٨﴾﴾
﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما بيئنا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعداء، ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها: ﴿وَلِقَوْمٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيَّ ذَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ: ﴿وليستين سبيل المجرمين﴾ أي: وليستين يا محمد - أو يا مخاطب - سبيل المجرمين.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نَذَرْتُ لِذَاتِ هَيْبَةٍ كَذِبَتْ بِيءُ رَبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿وَكَذَّبَتْ بِيءُ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِنْدِي مَا سَتَعْمَلُونَ بِيءُ﴾ أي: من العذاب، ﴿إِنْ أَلْمَمْتُمْ إِلَّا بِأَلْوَابِئِهِمْ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتهم من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال: ﴿إِنْ أَلْمَمْتُمْ إِلَّا بِأَلْوَابِئِهِمْ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ﴾ وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده.

وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ﴾ أي: لو كان مرجع ما تستعجلون به إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْبُدُونَ﴾. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد لي ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين»، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئاً»، وهذا لفظ مسلم. فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً.

فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي إِلهٌ مِثْلُ مَا عِنْدَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي يَدْعُونَ﴾؟ فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سأله وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً - فهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [القمان: ٢٤]. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ﷺ فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [القمان: ٢٤].

٢٣٤. وقوله: ﴿وَيَبْعَثُ مَا فِي النَّارِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، برّيتها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:

فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الشَّرُّ إِذَا تَرَاهُ لِلنَّوَاطِرِ أَوْ تَوَارَى
وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنّهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَيَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأخص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها. وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ مِنْ طَلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا - يعني لكم - لم تروا معهم نوراً، على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله، ﷻ، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، ﷻ، إليه في كل يوم ملكاً من عنده. أن احتفظ بما عندك. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن اليسر الزهري: حدثنا مالك بن سَعْبَرٍ، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغزّز إبرة إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويَسْسُها إذا يبست. وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سَعْبَرٍ، به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: خلق الله النون - وهي الدواة - وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْفِخُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ إِلَىٰ رَبِّهَا وَمَا تُكَلِّمُ إِلَّا عَلَىٰ وُجُوهِهَا وَمَا تَسْمَعُ إِلَّا سَمْعًا﴾ [الأنعام: ٦١] وهو الذي ينفخكم بالليل، وهذا هو النفث بالليل، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ بِكَ مَا تَبَعَكَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَابِقِهَا فَمَنِّيكَ الَّتِي قَصَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَجَ إِلَيْهِ أَجَلُ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفايتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْفِخُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ إِلَىٰ رَبِّهَا وَمَا تَسْمَعُ إِلَّا سَمْعًا﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَنفُسِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦١]، أي في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ [الأنعام: ٦١] وجعلنا النهار مماتاً ﴿[الأنعام: ٦١]﴾ [النبا: ١٠، ١١]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْفِخُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ إِلَىٰ رَبِّهَا وَمَا تَسْمَعُ إِلَّا سَمْعًا﴾ [الأنعام: ٦١] أي: ما كسبتم بالنهار ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ إِلَىٰ رَبِّهَا وَمَا تَسْمَعُ إِلَّا سَمْعًا﴾ [الأنعام: ٦١] أي: ما كسبتم بالليل. قاله مجاهد، وقناة، والسدي. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير: أي في المنام. والأول أظهر. وقد روى ابن مَرْزُوبِه بسنده، عن الضحاک، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: ﴿مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه، ويُرذِّله. فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا رد إليه﴾، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْفِخُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ﴾. وقوله: ﴿يُنْفِخُكُمْ أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يعني به: أجل كل واحد من الناس، ﴿يُنْفِخُكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ﴾ أي: فيخبركم ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنفُسُ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ مَعْبُودَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه عليه، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الأنعام: ٦١] كراماً كَثِيرِينَ ﴿[الأنعام: ٦١]﴾ يَحْفَظُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿[الأنعام: ٦١]﴾ [الأنعام: ١٠-١٢] وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ [الأنعام: ٦١] مَا يَلْبِطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ ﴿[الأنعام: ٦١]﴾ [ق: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ

أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴿٦٣﴾ أي: إذا احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك. قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَعْرِطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، ﴿فَلَنْ﴾ إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار في سجين، عباداً بالله من ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ﴾. ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة في ذكر صعود الملائكة بالروح من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله، حيث قال: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول». هذا حديث غريب. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: الخلاق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٤١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ بَعْدَ مَا نَعْلَمُ ﴿١٤٢﴾﴾ [الروامة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَسَرْتَهُمْ فَلَمْ يَقَارِبُوا مِنْهُمْ أَسْءَلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَطَّلِعُ رَبُّكَ أَعْدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوْلَهُمُ الْحَقِّ﴾ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ**.

﴿قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ طَلُوتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْمَنًا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣١﴾ قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَكُمْ آثَمٌ تُشْكِرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُبَدِّلَ بَعْضَ مَا سَاءَ أَنْظَرَ كَيْفَ تَصَرَّفُ الْآيَاتِ لِمَأْتَمَرَتُمْ بِقَهْرَتِ ﴿١٣٣﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عبادته في إنجائه المضطربين منهم ﴿مِنْ طَلُوتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الشُّرُفُ فِي الْبَحْرِ صَلِّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا تَجَنَّدُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٣١﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْتُمْ يَوْمَ يَرْجُحُ الْيَمِينَ وَيَرْجُحُوا بِهَا جَهْتَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجْمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِإِذْنِ بَرِّكَ يَدَىٰ رَحْمَتِهِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [النمل: ٦٣]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ طَلُوتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهراً وسراً ﴿لَئِنِ أَجْمَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: بعدها، قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَكُمْ آثَمٌ﴾ أي: بعد ذلك ﴿تُشْكِرُونَ﴾ أي: تَدْعُونَ معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: بعد إنجائه إياكم، كما قال في سورة سبحان: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمُ السَّحَابَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَفَّسُوا مِنْ فَصْلِهِ إِنَّكُمْ كَأنتُمْ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٣١﴾﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ الشُّرُفُ فِي الْبَحْرِ صَلِّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا تَجَنَّدُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٣٢﴾ فَأَبْيَسْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَابِئُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمُ وُجُوهًا أَوْ أَمْسَتْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ نَارَةٌ أُخْرَىٰ فَرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقْكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمُ عَلَيْنَا يَوْمَ يُبَيِّنُ ﴿١٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩]. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا هارون الأعور، عن جعفر بن سليمان، عن الحسن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ

يَعْتَكُمُ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴿٦٣﴾ : لامة محمد ﷺ، فعفا عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وبه الثقة. قال البخاري، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ لُكُومًا مِّنْ دُونِهَا أَوْ يُنَزِّلُ سِقَابًا مُّسِيلًا أَوْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ عَلَيْكُمْ صَاعِقَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ كَذَابًا مِّن دُونِهَا أَوْ يُنَزِّلُ سِقَابًا غَدِيرًا أَوْ يَمْطُرُهُمْ غَمَامًا كَافِرًا سَوَاءً لَّكُمْ مِنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال زيد، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ لُكُومًا مِّنْ دُونِهَا﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون - أو قال: هذا أسير». وهكذا رواه أيضاً في «كتاب التوحيد» عن قتيبة، عن حماد، به. ورواه النسائي أيضاً في «التفسير»، عن قتيبة، ومحمد بن النضر بن مساور، ويحيى بن حبيب بن عربي، أربعمهم، عن حماد بن زيد، به. وقد رواه الحميدي في مسنده، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمع جابراً عن النبي ﷺ، به. ورواه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن أبي خيثمة، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع، وسفيان بن وكيع، كلهم، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، وعاصم بن علي، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه سعيد بن منصور، عن حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، كلاهما عن عمرو بن دينار، به.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا يَمْدُوم بن داود، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لُيُوعَة، عن خالد بن يزيد، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ لُكُومًا مِّنْ دُونِهَا﴾، قال: «هذا أسير»، ولو استعاده لأعاده.

ويتعلق بهذه الآية الكريمة أحاديث كثيرة:

أحدها: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو اليمان، حدثنا أبو بكر - هو ابن أبي مريم - عن راشد - هو ابن سعد المُقَرَّبِي - عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أما إنها كائنه، ولم يأت تأويلها بعد». وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن أبي مريم، به. ثم قال: هذا حديث غريب جداً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى - هو ابن عبيد - حدثنا عثمان بن حكيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فضلى ركعتين، فضلينا معه، فناجى ربه، ﷻ، طويلاً، قال: سألت ربي ثلاثاً: «سألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطينها. وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطينها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمَنَعَها». انفرد بإخراجه مسلم، فرواه في «كتاب الفتن» عن أبي بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نُمَيْر، كلاهما عن عبد الله بن نمير - وعن محمد بن يحيى بن أبي عُمر، عن مروان بن معاوية، كلاهما عن عثمان بن حكيم، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك؛ أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم. فقال: وأخبرني بهن، فقلت: دعا ألا يُظْهَر عليهم عدواً من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فَأَعْطِيَهُمَا، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمَنَعَهَا. قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة. ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وله الحمد والمنة.

حديث آخر: قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حَنِيْف، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حذيفة بن اليمان قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرة بني معاوية، قال: فصلى ثمان ركعات، فأطال فيهن، ثم التفت إلي فقال: حبيبتك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إني سألت الله ثلاثاً، فأعطيني اثنتين ومعني واحدة. سألته ألا يسلب على أمتي عدواً من غيرهم، فأعطيني. وسألته ألا يهلكهم بغرق، فأعطيني. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم،

فمنعني». رواه ابن مردويه من حديث ابن إسحاق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبيدة بن حميد، حدثني سليمان الأعمش، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله بن شداد، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ أطلبه فقبل لي: خرج قبل. قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال: مر قبل. حتى مررت فوجدته قائماً يصلي. قال: فنجت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت صلاة طويلة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله، ﷻ، ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألته ألا يهلك أمتي غرقاً، فأعطاني. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً ليس منهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فردها علي». ورواه ابن ماجه في «الفتن» عن محمد بن عبد الله بن نمير، وعلي بن محمد، كلاهما عن أبي معاوية، عن الأعمش، به. ورواه ابن مردويه من حديث أبي عوانة، عن عبد الله بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن بكتير بن الأشج، أن الضحاك بن عبد الله القرشي حدثه، عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمانى ركعات. فلما انصرف قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يبتلي أمتي بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى علي». رواه النسائي في الصلاة، عن محمد بن سلمة، عن ابن وهب، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، قال: قال الزهري: حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن خباب، عن أبيه خباب بن الأرت - مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ - أنه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَبٍ وَرَهَبٍ. سألت ربي، ﷻ، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي، ﷻ، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها. وسألت ربي، ﷻ، ألا يظهر علينا عدواً من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، ﷻ، ألا يلبسنا شيعاً، فمنعنيها». ورواه النسائي من حديث شعيب بن أبي حمزة، به، ومن وجه آخر. وابن حبان في صحيحه، بإسناديهما عن صالح بن كيسان - والترمذي في «الفتن» من حديث النعمان بن راشد - كلاهما عن الزهري، به. وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره: حدثني زياد بن عبيد الله المزني، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا أبو مالك، حدثني نافع بن خالد الخزازي، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود، فقال: «قد كانت صلاة رَغَبَةٍ وَرَهَبَةٍ، سألت الله، ﷻ، فيها ثلاثاً، أعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت الله ألا يصيبكم بعباد أصاب به من قبلكم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يسلط عليكم عدواً يستبيح ببيضتكم، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها». قال أبو مالك: فقلت له: أبوك سمع هذا من في رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله ﷺ.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق قال: قال مَعْمَرُ: أخبرني أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أبي أسماء الرَحْبِيِّ، عن شداد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زَوَى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر، وإني سألت ربي، ﷻ، ألا يهلك أمتي بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً». قال: وقال النبي ﷺ: «وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وقد رواه ابن مردويه من حديث حماد بن زيد، وعباد بن منصور، وقتادة، ثلاثهم عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ بنحوه، فإله أعلم.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفي قالوا: حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد

الخزاعي، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليك. قال: «لا، ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم، فأعطانيها. ألا يسلب على أمتي عدواً يستيحبها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً وألا يذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها»، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: أنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعي هذه، عشر أصابع.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس - هو ابن محمد المؤدب - حدثنا ليث - هو ابن سعد - عن أبي وهب الخولاني، عن رجل قد سماه، عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي، ﷻ، أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلالة، فأعطانيها. وسألت الله ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألت الله، ﷻ، ألا يلبسهم شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا مثنى بن الحارث، حدثنا أبو حذيفة الثعلبي، عن زياد بن علاقة، عن جابر بن سمرّة السوّائي، عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، فقلت: يا رب، لا تهلك أمتي جوعاً فقال: هذه لك. قلت: يا رب، لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم - يعني أهل الشرك - فيجتاحهم. قال: ذلك لك. قلت: يا رب، لا تجعل بأسهم بينهم». قال: «فمنعني هذه».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزي، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «دعوت ربي، ﷻ، أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع الله عنهم ثنتين، وأبى عليّ أن يرفع عنهم ثنتين. دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء، والفرق من الأرض، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والفرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنتين: القتل، والهَرَج».

طريق أخرى عن ابن عباس أيضاً: قال ابن مَرْدُويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن مثير، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا عمرو بن قيس، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَائِدُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بِأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ، ثم قال: «اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعاً، ولا تذق بعضهم بأس بعض» قال: فاتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله قد أجاز أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم.

حديث آخر: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط، عن السُّدِّي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها». ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القَطَّان، عن عمرو بن محمد العنقري، به نحوه.

طريق أخرى: وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني، حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُباب، سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألته ألا يسلب على أمتي عدواً من غيرهم، وسألته ألا يهلكهم بالسنين، فأعطاني. وسألته ألا يلبسهم شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعني». ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. ورواه البزار من طريق عُمر بن سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه.

أثر آخر: قال سفيان الثوري، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: أربعة من هذه الأمة: قد مضت ثننان، وبقيت ثننان: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: الرجم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فوهي أربع خلال، منها ثننان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة وعشرين سنة، ألبسوا شيْعًا، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان: الرجم والخسف. ورواه أحمد، عن وكيع، عن أبي جعفر. ورواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها. وهكذا قال سعيد بن جبير، وأبو مالك ومجاهد، والسدي وابن زيد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: الرجم. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وروى ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يصيح وهو في المجلس - أو على المنبر - يقول: ألا أيها الناس، إنه قد نزل بكم: إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: لو جاءكم عذاب من السماء، لم يُبَيِّتْ منكم أحداً ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: لو خسف بكم الأرض أهللكم، لم يُبَيِّتْ منكم أحداً ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾: ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث.

قول ثان: قال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، سمعت خُلاَّد بن سليمان يقول: سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول: إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾: فأما العذاب من فوقكم، فأثمة السوء ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فخدم السوء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: أمراءكم. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم وسفلةكم. وحكى ابن أبي حاتم، عن أبي سنان وعمير بن هانئ، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى. وهو كما قال ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاةِ أَنْ يَخِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا مَرَّتْ تَمُوتُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاةِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَمُوتُونَ كَيْفَ تَذِيرُونَ ﴿١٧﴾ وَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٦ - ١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ» وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أي: يجعلكم ملتبسين شيْعًا فرقا متخالفين. قال الرازي، عن ابن عباس: يعني: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». وقوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: نبينها ونوضحها ونُفَرِّقُهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه. قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف». قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله؟ قال: «نعم». فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً، أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَبْصَارَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾ وَكَذَّبَ بِؤْمُوكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٧ - ١٨]. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿وَكَذَّبَ بِؤْمُوكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾﴾ لكلي تَبْرُ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبِنَا فَأَقْرُبْ مِنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ النَّاصِرُونَ فَلَا تَعْمَدْ بَعْدَ الْإِسْكَرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جِسْمِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَنْفَرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِؤْمُوكَ﴾ أي: بالقرآن الذي جنتهم به، والهدى والبيان. ﴿بؤْمُوكَ﴾ يعني: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَز مَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني، سعد في الدنيا والآخرة، ومن

خالفني، فقد شقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: أي لكل نأ حقيقة، أي لكل خير وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَمَّا لَمْ يَنْبَأْ بِمَعْدٍ جِيْرٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧]. وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَلْمِزُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بالكذب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من الكذب، ﴿وَإِنَّمَا يُبَيِّنُكَ لِنَسِيحَتِكَ﴾، والمراد بهذا كل فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بِعَدِّ الذِّكْرِ﴾ بعد التذکر ﴿بِعَاقِبِ الظَّالِمِينَ﴾. ولهذا ورد في الحديث: «رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقال السُّدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبیر في قوله: ﴿وَإِنَّمَا يُبَيِّنُكَ لِنَسِيحَتِكَ﴾ قال: إن نسييت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حیان. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا جُلِسْتُمْ مَعَهُمْ وَأَقْرَبْتُمْوَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، فقد ساوَيْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ».

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبیر، قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا يَتْلَأُوهَا﴾ [النساء: ١٤٠]. قاله مجاهد، والسُّدي، وابن جُرَيج، وغيرهم. وعلى قولهم، يكون قوله: ﴿وَلَكِن ذَكَرْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

﴿وَدَرِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا دِينَهُمْ لِمَا وَلَّهُمْ وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَذَكَّرْتَهُمْ يَوْمَ أَن يُسْأَلُ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَكِفٌ شَفِيعٌ وَإِن تَعَدَّلَ كُلٌّ فَعَدْلٌ لَا يُؤْعَذُ مِنهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّن جَبَرٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى: ﴿وَدَرِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا دِينَهُمْ لِمَا وَلَّهُمْ وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً، فإنهم صارتوا إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكَّرْتَهُمْ يَوْمَ﴾ أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة. وقوله: ﴿أَن يُسْأَلُ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لتلا تبسل. قال الضحاک عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسُّدي: تبسل: تسلم. وقال الوابي، عن ابن عباس: فُضِّح. وقال قتادة: نُحْبِس. وقال مرة وابن زيد: تُؤَاخِذ. وقال الكلبي: تُجَارَى. وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ [إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ] [المائدة: ٣٩]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَكِفٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَشِيعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَإِن تَعَدَّلَ كُلٌّ فَعَدْلٌ لَا يُؤْعَذُ مِنهَا﴾ أي: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَن يَغْفِرَ لَهُمْ قَوْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ ذَهَابًا وَلَوْ افْتَدَتْ بِهِ أَفُولَةٌ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن تَغْيِيرٍ﴾ [ال عمران: ٩١]، وهكذا قال ههنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّن جَبَرٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿فَلِأَنذَعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَرَدُّ عَلَىٰ أَغْيَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَأَتَيْنَا قُلُوبَهُمْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَرْبَابًا يُسَلِّمُ رَبِّ السَّلَامِيكَ﴾ [٧١] وَأَن أَيْسُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِيَهُمْ تُخْتَارُونَ [٧٢] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُونَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ لَمَقْصِبُ الْغَيْبِ﴾ [٧٣].

قال السُّدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله، ﴿فَلِأَنذَعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَرَدُّ عَلَىٰ أَغْيَابِنَا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونهم إليهم يقولون: «اتننا فإنا على الطريق»، فابى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد

المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾: أضلته في الأرض، يعني: استهوته، مثل قوله: ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية. هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله، ﷻ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: «يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق»، وله أصحاب يدعون: «يا فلان، هلم إلى الطريق»، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة. وإن أجاب من يدعو إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. وقوله: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، هم «الغيلان»، يدعوهم باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصيح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته - أو تلقيه في مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله، ﷻ. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل بعد أن هدى. وقال العوفي، عن ابن عباس، قوله: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ هو الذي لا يستجيب لهدي الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وجار عن الحق وضل عنه، وله أصحاب يدعونهم إلى الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه هدى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول الله: ﴿إِنَّكَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، والضلال ما يدعو إليه الجن. رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونهم إلى ضلال، ويزعمون أنه هدى. قالت: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونهم إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هدى. وهو كما قال ابن جرير، وكان سياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال، أي: في حال حيرته وضلاله وجَهْلِهِ وَجَهْلِهِ وَجَهْلِهِ، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعوهم إليهم وإلى الذهب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولرد به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّكَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمَّ مِنْ ضَلَالٍ﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأَمَّا لِلنَّاسِ لِسَانَ لَأِيمٍ﴾ أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَيْمُونُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة ويتقوا في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ الَّذِي آتَىكَ خَشْرَةَ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدير لهما ولمن فيهما. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: ﴿كُنْ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب. ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾، وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: وخلق يوم يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون. وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَكَذَلِكَ أُنشِئُ الْجِبِلَّانَ مَحَلَّيْنِ﴾، على أنهما صفتان لرب العالمين.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنشِئُ الْجِبِلَّانَ مَحَلَّيْنِ﴾ كقولهم: ﴿لَمَّا أُنشِئُ الْجِبِلَّانَ مَحَلَّيْنِ﴾، وكقوله: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴿الفرقان: ٢٦﴾، وما أشبه ذلك. واختلف المفسرون في قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، فقال بعضهم: المراد بالصور ههنا جمع «صورة» أي: يوم ينفخ فيها فتحيا. قال ابن جرير: كما يقال: سور - لسور البلد - هو جمع سورة. والصحيح أن المراد بالصور: «القرن» الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحني جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان التيمي، عن أسلم العجلي، عن بشر بن شَعَفٍ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه».

وقد روينا حديث الصور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطُّوَالَاتِ» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيلي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيل بن رافع، عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو في طائفة من أصحابه، فقال: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخصاً بصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قلت: يا

رسول الله، وما الصور؟ قال: «الْقَزَن». قلت: كيف هو؟ قال: «عظيم، والذي بعثني بالحق، إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض. ينفخ فيه ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين. يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله. ويأمره فيديهما ويظليلها ولا يفتر، وهي كقول الله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوْقِ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥] فيسير الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سرايا». ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية في البحر، تضربها الأمواج، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش، تترججه الرياح، وهي التي يقول: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّاغِبَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يُومِئِدُ وَجِيفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات: ٦-٨]، فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشتب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع، حتى تأتي الأفطار، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولي الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾﴾. فيبينما هم على ذلك، إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فراوا أمراً عظيماً لم يروا مثله، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما لا به عليهم، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتشرت نجومها، وانخسفت شمسها وقمرها. قال رسول الله ﷺ: «الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: يارسول الله، من استثنى الله، ﷺ، حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند الله يرزقون، وقامه الله فزع ذلك اليوم، وأمهم منه، وهو عذاب الله يعثه على شرار خلقه»، قال: وهو الذي يقول الله، ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤًا رِيَكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنْهَلُّ كُلُّ مُرْمِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الصح: ١، ٢]، فيكونون في ذلك العذاب ما شاء الله، إلا أنه يطول.

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا، وجاء ملك الموت إلى الجبار، ﷺ، فيقول: يارب، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي -: فمن بقي؟ فيقول: يارب، بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وبقيت أنا. فيقول الله، ﷺ: ليمت جبريل وميكائيل. فيُنطِقُ الله العرش فيقول: يارب، يموت جبريل وميكائيل!! فيقول: اسكت، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي، فيموتان. ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار ﷺ فيقول: يارب، قد مات جبريل وميكائيل. فيقول الله ﷺ - وهو أعلم بمن بقي -: فمن تبقى؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقيت أنا. فيقول الله، ﷺ: ليمت حملة عرشي. فيموتوا، ويأمر الله العرش. فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يأتي ملك الموت، فيقول: يارب، قد مات حملة عرشك. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي -: فمن بقي؟ فيقول: يارب، بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا. فيقول الله ﷺ: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فمت. فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، كان آخراً كما كان أولاً، طوى السموات والأرض طي السجل للكتب، ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات، ثم يقول: أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الجبار ثلاثاً. ثم هتف بصوته: ﴿لَيْمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿٤٨﴾﴾، ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد، ثم يقول لنفسه: ﴿لِلَّهِ الرَّجْدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، يقول الله: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيسطهما ويسطحهما، ثم يمدهما مد الأديم العكاظي ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِصْمًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [ته: ١٧]. ثم يزرع الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، ثم ينزل الله ﷺ عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماء أن تمطر، فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنتب كنبات الطرائث - أو: كنبات البقل - حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت، قال الله، ﷺ: لِيَحْيَا حِمْلَةَ عَرَشِي، فيحيون. ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور، فيضعه على فيه، ثم يقول: ليحيا جبريل وميكائيل، فيحييان. ثم يدعو الله الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقبضها جميعاً ثم يلقها في الصور.

ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله: وعزتي وجلالي، ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد كما يمشي السم في اللدغ، ثم تَشَقُّ الأرض عنكم، وأنا أول من تَشَقُّ الأرض عنه، فتخرجون سراعا إلى ربكم تنسلون، ﴿مُهَيِّبِينَ إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْكُوفِرِينَ هَذَا يَوْمَ عَيْرِ ﴿١٨﴾﴾ [الفر: ١٨] حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُلْفًا غُرُلَا، فتقفون موقفاً واحداً مقداره

سبعون عاماً، لا يُنظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً وتغرّفون حتى يلجمكم العرق، أو يبلغ الأذقان، وتقولون: من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بذلك من أياكم آدم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرنون الأنبياء نبياً نبياً، كلما جاؤوا نبياً، أبى عليهم». قال رسول الله ﷺ: «حتى يأتوني، فأنتقل إلى الفحص فأخر ساجداً» قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الفحص؟ قال: «قدام العرش حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي، فيرفعني، فيقول لي: يا محمد، فأقول: نعم، يا رب. فيقول الله ﷻ: ما شأنك؟ وهو أعلم، فأقول: يا رب، وعدتي الشفاعة فشفعني في خلقك، فأقض بينهم. قال الله: قد شفعتهم. أنا أتياكم أقضي بينكم». قال رسول الله ﷺ: «فأرجع فأقف مع الناس، فيبيننا نحن وقوف، إذ سمعنا حساً من السماء شديداً، فهالنا فنزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفياكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو أت. ثم ينزل من أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة، وبمثلي من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفياكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو أت.

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبار، ﷻ، في ظلل من الغمام والملائكة، ويحمل عرشه يومئذ ثمانية - وهو اليوم أربعة - أقدامهم في تخوم الأرض السفلى، والأرض والسموات إلى حُجُزتهم، والعرش على منابهم، لهم زجل في تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي العرش والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سُبح قدوس قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، رب الملائكة والروح، سبحان ربنا الأعلى، الذي يميت الخلائق ولا يموت، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه، ثم يهتف بصوته: يا معشر الجن والإنس، إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. ثم يأمر الله جهنم، فيخرج منها عنق مظلم ساطع، ثم يقول: ﴿أَلَمْ نَعْتَدْ لَكُمْ رَبِّي يَوْمَآدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُوٌّ شَيْئٌ ﴿١٦﴾ وَأَنْ تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مِنْكَ بَيِّنَاتٍ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٨﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٩﴾ - أو: بها تكذبون - شك أبو عاصم - ﴿أَسْمَلْتُمْ أَيْوَمًا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٤] فيميز الله الناس. وتجتو الأمم. يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَيَّنَّ كُلُّ امْرِئًا بِحُلِيِّهَا نَوْمًا لَهَا يَوْمَ تَرْجَعُ إِلَى رَبِّهَا وَتَكْفُرُ بِمَا كَانَتْ تَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النبا: ٤٠].

ثم يقضى الله ﷻ بين العباد، فكان أول ما يقضى فيه الدماء، ويأتي كل قتيل في سبيل الله، ﷻ، ويأمر الله ﷻ كل قتيل فيحمل رأسه تشخّب أوداجه يقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: فيم قتلتم؟ فيقول: قتلتم لتكون العزة لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة. ويأتي كل من قُتل على غير ذلك يحمل رأسه تشخّب أوداجه، فيقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: لم قتلتم؟ فيقول: يا رب، قتلتم لتكون العزة لك ولي. فيقول: تستست. ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه. ثم يقضى الله تعالى بين من بقي من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه إلى أن يخلص اللبن من الماء.

فإذا فرغ الله من ذلك، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم: ألا ليلحق كل قوم بالكهتيم وما كانوا يعبدون من دون الله. فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلث له ألته بين يديه، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عَزِير، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم. ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى، ثم قادتهم ألتهم إلى النار، وهو الذي يقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُونًا لِلْهَيْهَاتَ مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٩]. فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون، جاءهم الله فيما شاء من هيئته، فقال: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بالكهتيم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إل إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فينصرف عنهم، وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يأتيهم فيقول: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بالكهتيم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إل إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساقه، ويتجلى لهم من عظمتهم ما يعرفون أنه ربهم، فيخرون سجداً على وجوههم، ويخر كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر. ثم يأذن الله

لهم فيرفعون، ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة - أو: كحد السيف - عليه كلابيب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان، دون جسر دحض مزلة، فيمرون كطرف العين، أو كلمح البرق، أو كمر الريح، أو كجياذ الخيل، أو كجياذ الركاب، أو كجياذ الرجال. فجاج سالم، وناج مخدوش، ومكردس على وجهه في جهنم.

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فتدخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أيكم آدم، عليه السلام، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوح، فإنه أول رسل الله. فيؤتى نوح فَيُطَلَّبُ ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بإبراهيم، فإن الله اتخذته خليلاً. فيؤتى إبراهيم، فَيُطَلَّبُ ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإن الله قربه نجياً، وكلمه وأنزل عليه التوراة. فيؤتى موسى، فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: لست بصاحب ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم. فيؤتى عيسى ابن مريم، فيطلب ذلك إليه، فيقول: ما أنا بصاحبكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله ﷺ: «فيأتوني - ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنهن - فأنتقل فآتي الجنة، فأخذ بحلقة الباب، فأستفتح فيفتح لي، فأحيتي ويرحب بي. فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خررت ساجداً، فيأذن الله لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، واشفع تُشَفَّعْ، وسل تُعْطَ». فإذا رفعت رأسي يقول الله - وهو أعلم - : ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فَشَفَّعْنِي في أهل الجنة فيدخلون الجنة، فيقول الله: قد شفعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومسكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومسكنهم، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة، سبعين مما ينشئ الله ﷻ، واثنتين آدميتين من ولد آدم، لهما فضل على من أنشأ الله، لعبادتهما الله في الدنيا. فيدخل على الأولى في غرفة من ياقوته، على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ، عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق، ثم إنه يضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مَخِّ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبه الياقوت، كبدها له مرآة، وكبده لها مرآة. فبينما هو عندها لا يملها ولا تملهُ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء، ما يَفْتَرُ ذَكَرَهُ، وما تشتكي قبلها. فبينما هو كذلك إذ نودي: إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل، إلا أنه لا مني ولا مينة إلا أن لك أزواجاً غيرها. فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة، كلما أتى واحدة له قالت: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك».

وإذا وقع أهل النار في النار، وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقهم أعمالهم، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف سابقه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تأخذ جسده كله، إلا وجهه حرم الله صورته عليها. قال رسول الله ﷺ: «فأقول: يا رب، من وقع في النار من أمتي. فيقول: أخرجوا من عرفتم، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد. ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفيع، فيقول الله: أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة الدينار إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يشفع الله فيقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار. ثم يقول: ثلث دينار. ثم يقول: ربع دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم يقول: حبة من خردل. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وحتى لا يبقى في النار من عمل الله خيراً قط، ولا يبقى أحد له شفاعاة إلا شفيع، حتى إن إبليس لينطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له، ثم يقول: بقيت وأنا أرحم الراحمين. فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه غيره، كأنهم حَمَمٌ، فيلقون على نهر يقال له: نهر الحيوان، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ما يلقى الشمس منها أخضر، وما يلي الظل منها أصفر، فينبتون كنبات الطرائث، حتى يكونوا أمثال الذر، مكتوب في رقابهم: «الْجُهَنِيُّونَ عتقاء الرحمن»، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب، ما عملوا خيراً لله قط، فيمكثون في الجنة ما شاء الله، وذلك الكتاب في رقابهم، ثم يقولون: ربنا امح عنا هذا الكتاب، فيمحوه الله ﷻ، عنهم». هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة. تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة. وأما سياقه، فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياًقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا المحافظ أبا الحجلاج الميزي

يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا إِنَّهُ يَبْغُؤُنَا بِهِنَّ وَإِنَّنَا لَمُوقِنُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ أَيْلٌ رَا كَوَّكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآلِهَةَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي الْفَلَاحُ وَالشَّرَافُ إِنَّ رَبِّي لَدَى النَّجْمَاتِ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي الْفَلَاحُ وَالشَّرَافُ إِنَّ رَبِّي لَدَى النَّجْمَاتِ ﴿٧٧﴾ وَمَا أَتَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم شبيب، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا﴾ يعني بأزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مئاني، وامراته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سرية إبراهيم. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: آزر: اسم صنم. قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم. وقال ابن جرير: وقال آخرون: «هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه: مُعْوَج» ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. وقد قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي يقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا﴾ قال: بلغني أنها أوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم، عليه السلام. ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسائين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم. واختلف القراء في أداء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا﴾، فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا﴾، معناه: يا آزر، أنتخذ أصناماً آلهة. وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبت، أنتخذ آزر أصناماً آلهة، فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره. وهو مشهور في قواعد اللغة العربية.

المقصود أن إبراهيم، عليه السلام، وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَيْتَهُ أَصْنَامًا إِنَّهُ يَبْغُؤُنَا بِهِنَّ وَإِنَّنَا لَمُوقِنُونَ﴾ أي: أتتاه لصنم تعبد من دون الله، ﴿إِنَّ رَبِّيَ أَزَلُّ وَأَقْوَمُ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِي سَبِيلِ رَبِّي﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل وأمرمك في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح. وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَقْبَلِ الشِّرْكَانَ إِنَّ الشِّرْكَانَ كَانُوا لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشِّرْكَانِ لِيَتَّبِعُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْ عَنِ الْهَيْبَةِ يَكْتُمُهُمْ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَجْرِنَاكَ وَهَجَرْتَنِي مِنَّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْرَضَ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَاقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مرجم: ٤١-٤٨]، فكان إبراهيم، عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا بِمُغْفِرِي إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّتْهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأْنَا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

وثبت في الصحيح: أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بني، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تمدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، وأني خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراك. فإذا هو بذئخ متلطح فيؤخذ بقواتمه، فيلقى في النار. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُزِّيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأْنَا مِنْهُ﴾، في ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ لَشَأً غَسِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَقِيطَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلْآيَةَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّشْرِبٍ ﴿١١٤﴾﴾ [سبا: ٤٩]. فأما ما حكاه ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والشُدِّي، وغيرهم قالوا- واللفظ لمجاهد-: فرجت له السموات، فنظر إلى ما فيهن، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيهن- وزاد غيره -: فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي فيدعو عليهم، فقال الله له: إني أرحم عبادي منك، لعلهم أن يتوبوا ويُرْجَعُوا. وقد روى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين، عن معاذ، وعلي بن أبي طالب، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم. وروى ابن أبي

حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥)، فإنه تعالى جلالة الأمر: سبزه وعلايته، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فرده الله - كما كان قبل ذلك - فيحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفضاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملا الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت...» وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَ الْيَتِيمِ الَّذِي أَنزَلْنَا رِزْقًا لَّهُ مِنَّا وَكَانَ آتِيًا مِنَّا بِرِزْقٍ كَثِيرٍ﴾ (١٠٥). وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً، ﴿فَقَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: «الأفعول» الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة.

مصائبه ليست باللواتي تُقودها نُجُومٌ، ولا بالآفلات السدوالك ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا؟ قال: ﴿قَالَ لَا أَجِبُ الْآفِلِينَ﴾، قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزوال، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي: جرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: غابت، ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنِّي رَبِّي إِنَّمَا اشْرَكُوا بِي رَبِّي إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِأَيِّهَا أَتَى النَّفْسَ الْيَتِيمَ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق. ﴿حَبِيبًا﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه النمرود بن كنعان، لما أن قد أخرج مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذ. فلما حملت أم إبراهيم به وحنان وضعها، ذهب به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله متيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنِّي رَبِّي إِنَّمَا اشْرَكُوا بِي رَبِّي إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِأَيِّهَا أَتَى النَّفْسَ الْيَتِيمَ وَالْأَرْضَ﴾ (٧٦) أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء ورببه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ رَايَئِي لَئِن لَّمْ يَهِدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧) أي: إن كنت رايئياً لئن لم يهتدني ربي لأكون من القوم الضالين.

مُسَحَّرِينَ بِأَمْرِ آلِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرًا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَصَائِدُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ تَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَحْيَيْنَا لِيَلِكِ أَنْ أَتْبِعَ مِثْلَهُ أُخْرَى حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا يَلَهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء» وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَهَا لَأَبْدِلَ يُخْلِقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَهَا﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] - ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجدة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب.

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ قَوْمُهُ قَالَ لَمُتَّحِجِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتُ وَلَا أَحَافَ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَحَافَ مَا اتَّرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ يَوْمَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَّلَا يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره بشبهه من القول، قال: ﴿أَمُتَّحِجِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتُ﴾ أي: تجادلوني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَا أَحَافَ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعاً ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع. أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله، ﷻ. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينته لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فتزجروا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود، عليه السلام، على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَدْنَا بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآتِمِّدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ مِنْ دُونِهِ فِكَيْدُونِي جَمِيعًا لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن نَّفْسٍ وَلَا يَشَاءُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَكُمْ مَا فِي بُحْبُوحَتِكُمْ إِنِّي خَشِيتُ لِلَّهِ عَذَابَ يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَحَافَ مَا اتَّرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ مِنْكُمْ آلِهَةٌ سِوَاهُ اللَّهِ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِهَا وَمَا يَذْكُرُهَا إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النجم: ٢٣]. وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأَيُّ الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَّلَا يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَا يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الشَّرِكُ لَطَلُّ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَّلَا يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ! أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «يَبُتُّ لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَنتَ الشَّرِكُ لَطَلُّ عَظِيمٌ»، إنما هو الشرك».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ يَلْمِزُوكُمْ لِأَنَّهُمْ يُبَدِّلُونَ﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون، إنما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». وحدثنا عمر بن شبة النمري، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَوْ يَلْمِزُوكُمْ لِأَنَّهُمْ يُبَدِّلُونَ﴾، قال: «قال: «بشرك». قال: رُوي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وأبي بن كعب، وسلمان، وحذيفة، وابن عباس، وابن عمر، وعمرو بن شرحبيل، وأبي عبد الرحمن السلمي، ومجاهد، وعكرمة، والثَّخمي، والضحاك، وقتادة، والسدي نحو ذلك. وقال ابن مردويه: حدثنا الشافعي، حدثنا محمد بن شداد المسمعي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَلْمِزُوكُمْ لِأَنَّهُمْ يُبَدِّلُونَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «قيل لي: أنت منهم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا أبو جناب، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: «كان هذا راكب إياكم يريد». فانتبه إينا الرجل، فسلم فرددنا عليه، فقال له النبي ﷺ: «من أين أقبلت؟» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي. قال: «فأين تريد؟» قال: أريد رسول الله. قال: «فقد أصبته». قال: يا رسول الله، علمني ما الإيمان؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». قال: قد أقررت. قال: ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جزدان، فهوى بعيره وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات، فقال النبي ﷺ: «علي بالرجل». فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها، فقالا: يا رسول الله، قبض الرجل! قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يداusan في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً»، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا من الذين قال الله ﷻ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَلْمِزُوكُمْ لِأَنَّهُمْ يُبَدِّلُونَ﴾» ثم قال: «دونكم أحاكم». قال: فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحظناه وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال: «الحدوا ولا تشقوا، فإن للحد لنا والشق لغيرنا». ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء، عن ثابت، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا ممن عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا مهران بن أبي عمر، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره، إذ عرض له أعرابي فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد خرجت من بلادي وتلادي ومالي لأهتدي بهداك، وأخذ من قولك، وما بلغتك حتى ما لي طعام إلا من خضر الأرض، فأعرض عليّ. فعرض عليه رسول الله ﷺ، فقبل فازدحمتا حوله، فدخل خف بكروه في بيت جزدان، فتردى الأعرابي، فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي بعثني بالحق، لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدي بهداي ويأخذ من قولي، وما بلغني حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض، أسمعتم بالذي عمل قليلاً وأجر كثيراً؟ هذا منهم! أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون؟ فإن هذا منهم». وروي ابن مردويه من حديث محمد ابن معلى - وكان نزل الري - حدثنا زياد بن خيثمة عن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر ومنع فصبور وظلم فاستغفر وظلم فغفر» وسكت، قالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: «﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾».

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ أي: وجهنا حجته على قومه. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ آتَيْنَا مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُوكُمْ لِأَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزل بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ مَعْلُومِينَ﴾ وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَلْمِزُوكُمْ لِأَنَّهُمْ يُبَدِّلُونَ﴾ أولئك لهم الأمن وهم مهْتَدُونَ ﴿١٧٦﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ فرفع درجته من شأنه. فقرأه بالإضافة وبلا إضافة كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ ولو جاءتهم كَلِمَةٌ مِنْ رَبِّكَ فَتَوَلَّوْا وَأُولَئِكَ هُمُ الرَّسُولُ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ

يَجْرِي النَّحْسِيُّنَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ وَعَيْسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ كُلِّ مِّنَ الْمَسْلُوبِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحَمْلَانَ مِمَّن كَفَرْنَا وَعَدُوًّا لَّعِينِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْحَبِيبِينَ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِرِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ بَيْنِكَ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْمَلَائِكَةَ وَالتَّوْرَةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَلَاكُوا فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبُهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيهِمْ قَدْ لَآ آسَأَلْتَهُمْ عَلَيْهِ جَزَاءً إِنَّهُم لَآ يَدْرِكُونَ لِمَالِهِمْ ﴿٩٠﴾.

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته «سارة» من الولد، فجاءت الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، وبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَتْلُقَانِ مَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَتَقْوٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ عَمِيدٌ ﴿٧٧﴾﴾ [مزد: ٧٢، ٧٣]. وبشروه مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعقياً، كما قال: ﴿وَيَكْرِهْتُهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [مزد: ٧١]، أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قررت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، ﷺ، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، نقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، وقال ههنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا. وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالتاس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، ﷺ، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية [المعنكوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّتِهِ آدَمَ وَمَعْنَى حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمَعْنَى ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِسْرَائِيلَ وَمَعْنَى هَدَيْنَا وَجَعَلْنَا إِذَا نُنَادُوا عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ الْآخِرَ إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: وهدينا من ذريته «داوود وسليمان» الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليياً، كما في قوله تعالى: ﴿أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليياً. وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣٠-٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليياً، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من نور. وفي ذكر «عيسى»، عليه السلام، في ذرية «إبراهيم» أو «نوح»، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له. قال ابن أبي حاتم: حدثنا سهل بن يحيى العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا علي بن عابس، عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجد أحد؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى﴾؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلماذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به فتين عظيمتين من المسلمين». فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ دُرُجَاتُ الْبَرِّ وَالْإِنجِيلَ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتهاد شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْإِنجِيلَ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ هَدَىٰ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ مِن بَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إليهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملاسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْقُرْآنِ بَلَدًا لَّيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ لَكِنَّ أَشْرَكَتَ لِكَيْ تَقُولَ لِلَّذِينَ أَتَوْكَ بِبَعْضِ آيَاتِنَا لَمَّا جَاءَكَ قَوْلًا لَّيْسَ بِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿تَوَّابًا﴾ أي: لا يتخذون شيئاً منها، ولا يردون ألفهاز ﴿١٧﴾ ﴿الأنبياء: ١٧﴾ وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَكًا لَأَخْطَأَنَّ بِمَا يَخْتَأَىٰ مَا يَشَاءُ رَبُّكَ سُخْرِيًّا لَخَلَقْتُ لَهُ الْوَالِدِينَ إِن يَشَاءُ لَكِنَّمَا يَخْتَفَىٰ لِيَُبَيِّنَ لَهُ مَا يَشَاءُ لِقَوْمِهِ إِذْ يُؤْتِي السَّمْعَ وَأَبْصَرَ وَلَا يَأْتِيكُمُ الْبُرْهَانُ إِلَّا بِالْحُكْمِ وَالْحُكْمُ بِاللَّهِ﴾ ﴿الزمر: ٦٤﴾.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ وَالَّذِينَ فِي آلِهِمُ الرِّجَالُ كَالرِّجَالِ مَشْرُوعِينَ﴾ أي: إن كفرة بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً ﴿الْحَرِيِّ﴾ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَفَّرُوا بِآلِهِمْ﴾ أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فِيهِدُهُمْ أَتَدْعُو﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم، ويأمرهم به. قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام، أن ابن جزيخ أخبرهم قال: أخبرني سليمان الأحول، أن مجاهداً أخبره، أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَرَوَيْتَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿فِيهِدُهُمْ أَتَدْعُو﴾، ثم قال: هو منهم - زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: نبينا ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوهُنَّ عَلَىٰ أَجْرٍ﴾ أي: لا أطلب منكم على إيلاعي إياكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾ أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به فيؤشردوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا سَمْعًا وَمَعْزُونًا وَمَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ مِن آيَةٍ إِلَّا يَتَّبِعُونَهَا مِن وَّجْهِهِ وَمَا تَنزِيلُ الْكُتُبِ إِلَّا أَنزَالُ رَبِّهِ لِيُبَيِّنَ لِقَوْمٍ أَعْمَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿الأنبياء: ١٧﴾ وهذا كذبوا رسوله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فئحة رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف.

﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا سَمْعًا وَمَعْزُونًا﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْكُتُبَ وَالنَّبِيَّ إِذْ نَبَّأَهُمْ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَمَّا جَاءَهُمْ أَلْهَدَىٰ إِلَىٰ أَنْ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ نَبِيِّرَ الرَّسُولِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿الأنبياء: ١٧﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْكُرُ مَطْمَئِينَ لَمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٧﴾ ﴿الأنبياء: ١٧﴾ وقال لهنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا سَمْعًا وَمَعْزُونًا﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكُتُبَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ؟﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكُتُبَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدي بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿تَجْمَلُونَ قُرْآنًا لِّغَيْرِهِمْ﴾ أي: يجعلها حَمَلًا قرأيس، أي: قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿البقرة: ٧٩﴾ أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تَجْمَلُونَ قُرْآنًا لِّغَيْرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنَّهُ لَوْلَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ لَمَاتُوا بِمَقْصِدِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأُفْحَشَتِ السُّجُودُ﴾ ﴿الأنبياء: ١٧﴾ وقال مجاهد: هذه للمسلمين. وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: قل: الله أنزله.

وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: ﴿الله﴾. وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، والآيتان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. وقوله: ﴿كُذِّبَتْ دَرَجَتُهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْبَسُونَ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون: ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا مُّصَدِّقًا لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة ﴿وَمَنْ حَوْمَلًا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا يُذْرِكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَبْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ مَا نَسَلْتُمْ قَدَرًا مَّا سَلَّمُوا قَدَرًا مِّمَّا كَفَرْتُمْ وَأَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمًا﴾ قال: ﴿أَغْطَيْتُ حَسْبًا لَمْ يَغْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي﴾ وذكر منهن: ﴿وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن، ﴿وَمَنْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ آخِرِينَ أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٧] ولقد جئتمونا فردائى كما خلقناكم أول مرة ونرکم ما حولناکم ولاة ظهورکم وما تری منکم شفاعة الیرین دعتم انهم فيکم شرکوا لقد نفع بیتکم وصل عنکم ما کنتم ترعون ﴿١٧﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾. قال عكرمة وقنادة: نزلت في مسيلة الكذاب لعنه الله. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتْلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا نَوْكَاهُ نُفْسًا لَقْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورٌ الْأُولَىٰ﴾ [الأنفال: ٣١]، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب كما قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيْ يَدِكَ لِنَقْلِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ الآية [المائدة: ٢٨]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَ أَيْدِيكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْيَدِيهِمْ بِالشُّبُهَةِ﴾ الآية [المنحة: ٢٢]. وقال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّؤْنَ الْيَوْمَ أَلْيَدِيكَ يَتَضَوُّونَ وَوَجْهَهُمْ وَأَنْدَرُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿آخِرِينَ أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والثكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فنضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿آخِرِينَ أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسوله. وقد وردت أحاديث متواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُنذِرُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد ذكر ابن مردويه فهنا حديثاً مطولاً جداً من طريق غريبة، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الحجف: ٤٨]، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَنُرَكِّمُ مَا حولناکم﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا ﴿وَرِزْقًا مِّمَّا ظَهَرْتُمْ﴾، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأضيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس». وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بلدج فيقول الله، ﷻ له: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب، جمعت وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدّم شيئاً، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنُرَكِّمُ مَا حولناکم وَرِزْقًا مِّمَّا ظَهَرْتُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا تَرَىٰ مِنْكُمْ شَفِيعَةً أَلَيْسَ لِكُلِّ ذَنْبٍ عَذَابٌ مُّؤْتَمَرًا﴾ أي: تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من

الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تصفهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، ﷻ، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [١٦٦] ﴿لَئِن دُوتِ لَأَبْهَرُنَّكُمْ وَآرَئِبْصَرُونَ﴾ [١٦٧] ﴿الشعراء: ٩٧، ٩٨﴾؛ ولهذا قال لهنا: ﴿وَمَا زَكَّىٰ مَعَكُمْ شُعْعَاءَ كُفْرِكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم. ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾: قرىء بالرفع، أي: شملكم، وقرىء بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُفْرَانَ وَنَقَطَ لَهُمْ أَسْبَابَهُ﴾ [١٦٦] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسُقَيْنَهُمْ فِي السَّمَاءِ سَائِرًا﴾ [١٦٧] ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَلْزِمُونَ﴾ [١٦٨] ﴿السجدة: ١٠١﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَهْمَكَذَا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّمَنَعَتِكُمْ بَعْضًا وَمَا وَبِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ [المنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جِجَاءًا ثُمَّ يَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَصَلَّىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ يُرْجِحُ الْحَنَىٰ مِنَ اللَّيْلِ وَيَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾ قوله: ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: يخرج الحنّى من اللّيل، ويخرج الحنّى من النوى؛ ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَنَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣٣] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [٣٤] ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [٣٥] ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّا تَنْفُسُهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٦] ﴿يسر: ٣٣-٣٦﴾. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾، ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾. وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قال: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره.

يقبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعمها من النوى؛ ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾ أي: يخرج اختلاف أشكالها وألوانها وطعمها من النوى، الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣٣] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [٣٤] ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [٣٥] ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّا تَنْفُسُهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٦] ﴿يسر: ٣٣-٣٦﴾. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾، ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ النَّوَىٰ﴾. وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قال: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَالِقُ الْأَمْشِاجِ وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَنًا﴾ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّوَىٰ﴾، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدأته وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال تعالى: ﴿يَغْشَىٰ آيَاتِ الْفَجْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَنًا﴾ أي: ساجياً مظلماً تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [١] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [٢] ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [١] وقال: ﴿وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَنًا﴾ [١] ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [٢] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [٣] وقال: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰهَا﴾ [٤] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [٥] [الشمس: ٣، ٤]. وقال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهرة: إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب: إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحساب مقيّن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طويلاً وقصراً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ السَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِئَلِمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٥]، وكما قال: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [١٠] ﴿يسر: ٤٠﴾، وقال: ﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحُورَاتٌ آمْرَةٌ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعبارة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ

فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٩٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٨﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة ﴿الآل﴾ ﴿السجدة﴾، قال: ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَعَثْنَا فِيهَا الْقُرْآنَ مُنذِرِينَ وَمَخْرَجِينَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ وَمَا يُغْمِظُ الْأَبْصَارَ وَمَا يُخَالِفُ بِمَا جَعَلْنَا مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ أَدْبَارَ الْأَيْمَنِ أَفْئِدَتَهُمْ غَايِبَةً لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ كَالْإِبْرَةِ الْوَعْدِ﴾ [التكوير: ١٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويُهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد بيناها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا فِي لَوْنِهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّجْحًا وَيَهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ يَمِيزُ بَيْنَ لَبَنِهِ وَنَاقَتِهِ فَغَدَّاقًا وَأَخْرَجْنَا مِنَ الْأَرْضِ أَنْجَامًا وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: اختلغوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي عبد الرحمن السلمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم التَّخَمِي، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام قالوا - أو: أكثرهم -: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب. وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا، ومستودع حيث يموت. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت.

وقال الحسن البصري: المستقر الذي قدمنا فاستقر به عمله. وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة. والقول الأول هو الأظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويعتقون كلام الله ومعناه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي بقدر مباركا، رزقا للعباد وغيانا للخلائق، رحمة من الله لخلقهم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا فِي لَوْنِهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّجْحًا وَيَهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ يَمِيزُ بَيْنَ لَبَنِهِ وَنَاقَتِهِ فَغَدَّاقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. أي: زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والتمر؛ ولهذا قال: ﴿نُّجْحًا وَيَهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل ونحوها ﴿وَمِنَ النَّخْلِ يَمِيزُ بَيْنَ لَبَنِهِ وَنَاقَتِهِ﴾ أي: جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿وَدَائِبَةً﴾ أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوابلي، عن ابن عباس: ﴿قِنَوَانٌ دَائِبَةٌ﴾ يعني بالقنوان الدائبة: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض. رواه ابن جرير. قال ابن جرير: وأهل الحجاز يقولون: قنوان، وقيس يقولون: قنوان، وقال امرؤ القيس:

فَأَثَمْتُ أَعَالِيَهُ وَأَدَّتْ أَصُولُهُ وَمَالَ بِقِنَوَانٍ مِنَ الْبُسْبُرِ أَحْمَرَ

قال: وتميم يقولون: قُنَيَانٌ بالياء - قال: وهي جمع قنو، كما أن صنوان جمع صنو. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهَا غَنَابًا وَتَمْرًا وَزَيْتُونًا كَالِإِشْيَاقِ﴾ أي: ونخرج منه جنات من غناب، وهذان النوعان هما أشرف عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن تعالى بهما على عباده، في قوله: ﴿وَمِنَ الثَّمَرَاتِ أَلْجَمِ وَالْجَبَلِيَّ وَالْأَثْمَةَ تَتَخَدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ جَبَلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤]. وقوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: يتشابه في اللون، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً. وقوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَّوْبَهُ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وقتادة، وغيرهم. أي: فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان خطأ صار عبثاً ورطباً وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَدِّدٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ مُنْتَجِدٌ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ ثَمَرِهِ وَإِلَهُ الْوَجْدِ وَالْفَيْضِ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الرعد: ٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿وَعَمَلُوا لِلَّهِ شُكْرًا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَكَرُّوا لَمْ يَبِينْ وَيَنْتَهِ عِلْمٌ شُكْرَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠١﴾﴾ هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبُدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّطَنَا تَرِيدًا ﴿١٠٧﴾﴾

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٠١﴾ وَلَا يَصِلْنَهُمْ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ لِأَمْرِهِمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ لَعْنَهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٠٢﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٠٣﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذُ الشَّيْطَانَ لِلْظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَأْتِيَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مریم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤٥﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أُمَّتٌ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَوْمَ تُقَامُونَ﴾ [سبا: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَعْبُدُوا مَا تَتَحَوَّنَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلماذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَبِينْ وَبَنَيْتَ بِمَعْرِ عِلْمٍ﴾: بنه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في الغزير، ومن قال من النصارى في المسيح، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة؛ إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَحَرِّفُوا﴾ أي: واختلفوا واختلفوا، وتخزصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَحَرِّفُوا﴾ يعني: أنهم تخزصوا. وقال العوفي عنه: ﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَبِينْ وَبَنَيْتَ بِمَعْرِ عِلْمٍ﴾ قال: جعلوا له بنين وبنات. وقال مجاهد: ﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَبِينْ وَبَنَيْتَ﴾ قال: كذبوا. وكذا قال الحسن. وقال الضحاك: وضعوا، وقال السدي: قطعوا. قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَبِينْ وَبَنَيْتَ﴾ يقول: وتخزصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي إن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

﴿يَبْدِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿يَبْدِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما ومحدثها على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَنَّ يَكُونَ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعُنَّ مِنْهُ وَيَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرُ لِكَيْلٍ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فاعبده وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدرکه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما توارت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب. وفي رواية: على الله. فإن الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾. رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي السجود، عن أبي الضحى، عن مسروق. رواه غير واحد عن مسروق، وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وقد خالفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية،

وعنه أنه رآه بفضاده مرتين. والمسألة تذكر في أول «سورة النجم» إن شاء الله تعالى. وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدؤزقي، حدثنا يحيى بن معين قال: سمعت إسماعيل بن عليّ يقول في قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: هذا في الدنيا. قال: وذكر أبي، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك.

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة. وقال آخرون، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالقوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّازِبَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَٰهَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُونَ عنه تبارك وتعالى. وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجابر، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفيروضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه أمين.

وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: العقول. رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، عن الفلاس، عن ابن مهدي، عن أبي الحسين يحيى بن الحسين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى. وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ ظِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾، وفي صحيح مسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا يحيط بصر أحد بالملك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد، حدثنا أسباط عن سَمَاك، عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: أأنت ترى السماء؟ قال: بلى. قال: فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عرّوبة، عن قتادة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال ابن جرير: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عرّافة، عن عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّازِبَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَٰهَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم، وبصره محيط بهم. فذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث. رواه ابن أبي حاتم ههنا، فقال: حدثنا أبو رزعة، حدثنا منجاب بن الحارث السهمي، حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، قال: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن قُتُوا صُفُوا صفاً واحداً، ما أحاطوا بالله أبداً».

غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم. وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بما رواه الترمذي في جامعه، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» له، وابن أبي حاتم في تفسيره، وابن مردويه أيضاً، والحاكم في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال لي: «لا أم لك. ذاك نوره، الذي هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء». وفي رواية: «لا يقوم له شيء». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينم، ولا ينبغي له أن ينم يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو: النار - لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية: يا موسى، إنه لا يراني حتى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. أي: تدعشر. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنَيْتُ لَكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٣]. ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما

جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تدرکه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة ولا لشيء. وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٠٤﴾ [الملك: ١١٤]. وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: لا يراه شيء وهو يرى الخلائق. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها. والله أعلم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه: ﴿يَبْنِيْ لَهُمَا إِنَّمَا لَكَ شِقَاقَ حَبْرٍ مِّنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِيْ أَسْتَوْدِيَةٍ أَوْ فِيْ الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ [لقمان: ١٦٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٢٤﴾ وكذلك نُصِرْتُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِتَلِيْنَهُمْ لِقَوْمٍ يَلْمُوكَ﴾ ﴿١٢٥﴾.

البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ مثل قوله: ﴿فَمَنْ آمَنَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ حَسَلَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، لما ذكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: ﴿فَأَنبَأَهَا تَمَمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنَّ تَمَمَى الْقَلُوبَ أَلَمْ يَفِي الشُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُصِرْتُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأنهم وتعلمت منهم. هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم. وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن كيسان، سمعت ابن عباس يقرأ: ﴿دَارَسْتَ﴾: تلوت، خاصمت، جادلت. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبيهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا آيَاتُكَ أَتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَرُدُّوا﴾ ﴿١٢٤﴾ وقالوا أساطير الأوليات اكتنتها فهي ثلث على بكرة وأصيلها ﴿٥﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبيهم: ﴿إِنَّمَا فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَوْلَ كَيْفَ نَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَفَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَسَى رَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاشْتَكَبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا بَيْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١٨-٢٥].

وقوله: ﴿وَلِتَلِيْنَهُمْ لِقَوْمٍ يَلْمُوكَ﴾ أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيبتعونه، والباطل فيجتنبونه. فله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ يَوْمَ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ يَوْمَ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزَلَ مَا يَلْقَى السَّيْلُ مِنْ مَّاءٍ فَسَيَلُّنَا فَسَنَةً يَلِيْدِيكَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرْمَرٌ وَالْفَالِاسِيَةَ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّكَ أَطْلُقِيْلِينَ لَنِي شِقَاقِيْ بَعِيْبِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ الْأَنْبَاءِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدِيْبَهُمْ إِلَّا فِئْتَةً يَلِيْدِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَيَرْذَابَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرْمَرٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُضِلُّ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيْدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿١٨٧﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْ آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْبِ﴾ [فصلت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي من يشاء، ولهذا قال ههنا: ﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولتليّن لهم لقوم يلمون﴾. وقرأ بعضهم: ﴿وليقولوا دارست﴾. وقرأ بعضهم: ﴿وليقولوا دارست﴾. وقرأ بعضهم: ﴿وليقولوا دارست﴾. وقال ابن عباس: «دارست» أي: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسدي والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن معمر، قال الحسن: «وليقولوا دارست»، يقول: تقادمت وانمحت. وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت ابن الزبير يقول: إن صبياناً يقرؤون ههنا: «دارست»، وإنما هي: «دارست». وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال في قراءة ابن مسعود: «دارست» بغير ألف، ينصب السين ووقف على التاء.

وقال ابن جرير: ومعناه انمحت وتقادمت، أي: إن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديماً، وتطاولت مدته. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «دارست» أي: قرئت وتعلمت. وقال معمر، عن قتادة: «دارست»: قرئت. وفي حرف ابن مسعود «دارس». وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا حجاج، عن هارون قال: هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: «وليقولوا

دَرَسَ». قال: يعنون النبي ﷺ أنه قرأ. وهذا غريب، فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مَرْزُوبِه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سلمة، حدثنا أحمد بن أبي بَزَّة المكي، حدثنا وَهْب بن زَمَعَةَ، عن أبيه، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: أقرني رسول الله ﷺ: «وليقولوا دَرَسْتَ». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وهب بن زَمَعَةَ، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿أَتَّبِعْ مَا أوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِكَايِلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا لرسوله ﷺ ولمن أتبع طريقته: ﴿أَتَّبِعْ مَا أوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم. واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً ولو شاء الله لجمعهم على الهدى.

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثْرَكُوا﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِكَايِلٍ﴾ أي: موكل على أراقهم وأمورهم ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْكَلْبُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٠٦﴾ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِمُحَيْطٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا كَلَبَتْكُمُ الْبَلَاءُ عَلَيْنَا أَلْبَسْنَا﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِيَّا رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ فَيُنشِئُهُم مِّمَّا كَانُوا يَمْكُونُ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لنتهنن عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا آلهتهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمّية وأبي ابنا خلف، وعقبة ابن أبي مِعِيظ، وعمرو بن العاص، والأسود بن البَحْثَرِي، وبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، قالوا: استأذن لنا علي بن أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وأذى آلهتنا، فنحن أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولنذغعه وإلهه. فدعاه، فجاء النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك. قال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولنذغك وإلهك. قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟» قال أبو جهل: وأبيك لتعطينكها وعشرة أمثالها قال: فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله». فأبوا واشمازوا. قال أبو طالب: يا ابن أخي، قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها. قال: «يا عم، ما أنا بالذي أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها». إرادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك، فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». أو كما قال، عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زيننا

لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿تَمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم ومصيرهم، ﴿يُنذِرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ مَاءٌ لَّيُؤْتِيَهُنَّ لَيَآءًا قَلِيلًا وَإِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ إِلَيْهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَابْتَدَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَّةً وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ مَاءٌ﴾ أي: معجزة وخارق، ﴿لَيُؤْتِيَهُنَّ لَيَآءًا قَلِيلًا﴾ أي: ليصدقنها، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعتنا وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجايبكم، وإن شاء ترككم، كما قال، قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه، فاتنا من الآيات حتى نصدقك. فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن أتاكم به؟». قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبتعنكم أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: لك ما شئت، إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فأتكمهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَجْهَلُونَ﴾. وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه أخر. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُجِيراً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُورِثُ بِالْآيَاتِ إِلاَّ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الاسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ إِلَيْهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المخاطب بـ ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾: المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا القراءة: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقراءة بعضهم: ﴿أنها إذا جاءت لا تؤمنون﴾ بالياء المشناة من فوق. وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾ المؤمنون، أي: وما يدريك أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في: ﴿إنها﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ [الاعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريك - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون. وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلها. قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لي شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري. قال: وقد قيل: إن قول عدي بن زيد العبادي من هذا:

أعاذل ما يُذْرِكُ أَنْ مَنِيَّتِي
إلى ساعة في اليوم أو في ضحَى العَدِ
وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَابْتَدَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَّةً﴾. قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورذت عن كل أمر. وقال مجاهد: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَابْتَدَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَّةً﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلَ حَبِيبٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَيَّ مَا فَرَّقْتَنِي فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [٥١] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يُقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَابْتَدَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَّةً﴾ قال: لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَذَرَهُمْ﴾ أي: تركهم ﴿في طُغْيَانِهِمْ﴾. قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقناة: في ضلالهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك، وغيره: في كفرهم يترددون.

﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ النَّوْقَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَيُحْلِفُونَ ﴿١١١﴾﴾
يقول تعالى: ولو أننا زلنا إليهم الملائكة وكلمهم النوق وحسرتنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا يرجعون إلا أن يشاء الله ولئن أسألتهم ليحلفون ﴿١١١﴾
الملائكة، أي: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] و ﴿وَلَوْ أَنَّ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١]. ﴿وَكَلَّمَهُمُ النَّوْقَ﴾ أي: فأخبرهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ - قرأ بعضهم: ﴿قَبْلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعانية. وقرأ آخرون: ﴿وَقِيلَ الْفَرْوَبِ﴾ بضمهما، قيل: معناه من المقابلة والمعانية أيضاً، كما رواه علي بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عباس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿قَبْلًا﴾: أفواجاً، قبيلاً قبيلاً، أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْإِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٧﴾﴾ وَلَيَسْمَعَنَّ إِلَيْهِ أَقْبَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَيَقَرُّوهُ مَا هُمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

يقول تعالى: وكما جعلنا لك - يا محمد - أعداء يخالفونك، ويعادونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يهيدئك ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [نصفت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنَّ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿١١٦﴾﴾ [الفرقان: ٣١]. وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وقوله: ﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْإِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، ومن هؤلاء وهؤلاء، قبحهم الله ولعنهم. قال عبد الرزاق: أخبرنا مغمّر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْإِنِّ﴾ قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض، قال قتادة: وبلغني أن أبا ذر كان يوماً يصلي، فقال النبي ﷺ: «تَعُوذُ يَا أبا ذر من شياطين الإنس والجن». فقال: أو إن من الإنس شياطين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذر.

وقد روي من وجه آخر عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة، عن ابن عائذ، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ في مجلس قد أطل فيه الجلوس، قال، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قال: لا يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين». قال: ثم جئت فجلست إليه، فقال: «يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟» قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شر من شياطين الجن». وهذا أيضاً فيه انقطاع، وروي متصلاً كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصل». قال: فقمصت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن؟». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم». وذكر تمام الحديث بطوله. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره، من حديث جعفر بن عون، ويعلى بن عبيد، وعبيد الله بن موسى، ثلاثهم عن المسعودي، به.

طريق أخرى عن أبي ذر: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن حميد ابن هلال، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟». قال: قلت: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم».

طريق أخرى للحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الجعفي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاع، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذت من شياطين الجن

والإنس؟ قال: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غروراً». فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته، والله أعلم. وقد روى ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن سعيد بن مسروق، عن عكرمة: «شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال: ليس في الإنس شياطين، ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن. قال: وحدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» قال: للإنسي شيطان، وللجني شيطان، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. وقال أسباط، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» في تفسير هذه الآية: أما شياطين الإنس، فالشياطين التي تضل الإنس، وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضللت أنت صاحبك بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضاً. ففهم ابن جرير من هذا: أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدي: الشياطين من الجن الذين يضلون الناس، لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا، عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، أضلله بكذا. فهو قوله: «يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيء مارد، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلب الأسود شيطان». ومعناه - والله أعلم -: شيطان في الكلاب. وقال ابن جريج: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كفار الجن شياطين، يوحون إلى شياطين الإنس، كفار الإنس، زخرف القول غروراً. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهد بيبي بالليل، قال: فقال لي: اخرج إلى الناس فحدث الناس. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْجِيَنَّكَ إِلَّا بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [يوسف: ٣]، وقال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فهموا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم ذلك، إني مفتيكم وضيفكم. فتركوني. وإنما عرّض عكرمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - بقبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صافية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره. ﴿وَلَوْ سَأَلَ رَبُّكَ مَا فَسَدُوا﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء. ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي: فدعهم، ﴿وَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: يكذبون، أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِصَاحِبِ الْقُرْآنِ﴾ أي: ولتمثيل إليه - قاله ابن عباس - ﴿أَنذَرْتُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم. وقال السدي: قلوب الكافرين، ﴿وَلِصَاحِبِ الْقُرْآنِ﴾ أي: يحبه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذُوا مَا تُنتَجُونَ مِنْ مَاءٍ شَدِيدٍ كَيْفَ يَفْقَهُونَ﴾ [١١٤] ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ﴾ [١١٥] [الصفات: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [٨] ﴿يُؤْتِكُ عَنْهُ مَنْ آفَكَ﴾ [٩] [النداريات: ٨، ٩]. مكتسبون. وقال السدي، وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفَسَرَّ اللَّهُ أَيْتِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُ مُزَكَّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [١١٤] وَتَمَّتْ كَيْفَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١١٥].

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَسَرَّ اللَّهُ أَيْتِي حَكْمًا﴾ أي: بيني وبينكم، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيناً، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِنْ آيَاتِنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [يونس: ٩٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل».

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَيْفَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقاً فيما قال، وعدلاً فيما حكم. يقول: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه باطل، فإنه

لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْعُرْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ إلى آخر الآية [الاعراف: ١٥٧]. ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَلَنْ نُقِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ إِنْ أَلْفَظَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَفْرُسُونَ ﴿١١٦﴾﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ إِنْ أَلْفَظَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَفْرُسُونَ﴾، فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو خرز ما عليها من التمر وكذلك كله قدر الله ومشيئته، ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿تَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، في استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَدَرَدُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿وَدَرَدُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته في السر والعلانية - وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادة: ﴿وَدَرَدُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: قلبه وكثيره، سره وعلانيته. وقال السدي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرابات، وباطنه: الزنا مع الخليفة والصدائق والأخذان. وقال عكرمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم. والصحیح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَعَانَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ الآية [الاعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن النواس بن سمرعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكهرت أن يطلع الناس عليه».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفْرًا إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجِدِلُوكُمْ وَإِنْ أَلْمَسْتُمُوهُمْ فَلْيَمْسِكُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ وَلَا تُذْكَرُوا﴾.

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً. وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولاه، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين. وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين»، واحتجوا المذهب بهذا الآية، ويقولون في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله - وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر

اسم الله عليه فكلوه». وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه». رواه مسلم. وحديث جُنْدَب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». أخرجاه. وعن عائشة، رضي الله عنها، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. رواه البخاري. ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وأنهم خشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحدائث إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله تعالى أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لم تضر. وهذا مذهب الإمام الشافعي، رحمه الله، وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكي عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم.

وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ يُخْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال ابن جرير، عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي رحمه الله قوي، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية، أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا، ولا يكون فسقًا حتى يكون قد أهل به لغير الله. ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿رَبِّكَ الشَّيْطَانُ لِيُوْحِنَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَ يَوْمَهُ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هي الميتة. ثم رواه، عن أبي زرعة، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن لهيعة، عن عطاء - وهو ابن السائب - به. وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، من حديث ثور بن يزيد، عن الصلت السدوسي - مولى سويد بن منجوف، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات - قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم خلال ذكر اسم الله أول لم يُذَكَّرْ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله». وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: إذا ذبح المسلم - ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله. واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة، رضي الله عنها، المتقدم أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سموا أنتم وكلوا». قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: أنه إن ترك البسمة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمدًا لم تحل. هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه: وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن. ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه «الهداية» الإجماع - قبل الشافعي - على تحريم متروك التسمية عمدًا، فلهاذا قال أبو يوسف والمشايخ: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع. وهذا الذي قاله غريب جداً، وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعي، والله أعلم. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: من حرم ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك. يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عباس الأصم، حدثنا أبو أمية الطرسوسي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله». وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزيري، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور، وعبد الله بن الزبير الحميدي رواه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، من قوله. فزاد في إسناده «أبا الشعثاء»،

ورقفا، والله تعالى أعلم. وهذا أصح، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ.

وقد نقل ابن جرير وغيره: عن الشعبي، ومحمد بن سيرين، أنهما كرها متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، والله أعلم. إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليعلم هذا، والله الموفق. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جَهِير بن يزيد قال: سئل الحسن، سأله رجل أنتيت بطير كَرِيٍّ، فمناه قد ذبح فذكر اسم الله عليه، ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه، واختلط الطير، فقال الحسن: كله، كله. قال: وسألت محمد بن سيرين فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وفيه نظر، والله أعلم. وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي، من حديث مروان بن سالم القُرْقَساني، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أ رأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ فقال النبي ﷺ: «اسم الله على كل مسلم». ولكن هذا إسناده ضعيف، فإن مروان بن سالم القُرْقَساني أبا عبد الله الشامي، ضعيف، تكلم فيه غير واحد من الأئمة، والله أعلم. وقد أفردت هذه المسألة على حدة، وذكرت مذاهب الأئمة وما أخذهم وأدلتهم، ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما غنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروي عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حُميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن عكرمة والحسن البصري قالوا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَلَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. وقال ابن أبي حاتم: قرىء على العباس بن الوليد بن يزيد، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان - يعني ابن المنذر - عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾، فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب. ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه. وهذا الذي قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ هنا وإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلاه هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾. وحدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، ووحى المختار بن أبي عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، وزعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس صدق؟! فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله، ووحى الشيطان، فوحى الله عز وجل إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾. وقد تقدم عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا. وقوله تعالى: ﴿لِيُجَدِّدْ لَكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير قال: خاصمت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. هكذا رواه مراسلاً، ورواه أبو داود متصلاً فقال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وكيع، كلاهما عن عمران بن عيينة، به. ورواه البزار، عن محمد بن موسى الحرشي، عن عمران بن عيينة، به. وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية.

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذي، عن محمد بن موسى الحرشي، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه الترمذي بلفظ: أتى ناس النبي ﷺ فذكروه وقال: حسن غريب،

رُوي عن سعيد بن جبيرة مرسلًا.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا موسى بن عبد العزيز، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَتَّىٰ يَتَّخِذَهُ ذَوَاتُ الْحَوَائِطِ سَبِيحًا﴾، أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: كَمَا تَذْبَحُ أَنْتَ بِيَدِكَ بَسْكَيْنِ فَهِيَ حَلَالٌ، وَمَا ذَبَحَ اللَّهُ ﷻ، بِشَمِشِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ - يَعْنِي الْمَيْتَةَ - فَهِيَ حَرَامٌ.

فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَلْيَابَهُمْ لِيُخْذِلُوا لَكُمْ﴾ قال: الشياطين من فارس، وأولياؤهم من قريش. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَلْيَابَهُمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﷻ﴾.

ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم، عن عمرو بن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيل، به. وهذا إسناد صحيح. ورواه ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ، والله أعلم. وقال ابن جرير: قال عمرو بن دينار، عن عكرمة: إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبتهم فارس، وكتبت فارس إلى مشركي قريش: إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكله محمد وأصحابه - للميتة - وما ذبحوا هم يأكلون. فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب محمد ﷺ، فوقع في أنفسهم ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ لِقَوْمٍ إِسْقَاتًا لِّئِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَلْيَابَهُمْ لِيُخْذِلُوا لَكُمْ ﷻ﴾، و﴿يُوحِي بِمَعْشَرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ ذُرِّيَّتِهِ الْقَوْلَ ﷻ﴾.

وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، وما ذبح الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟ فقال الله: ﴿وَإِنَّ أَعْمَتُوهُمْ﴾ فاكلتم الميتة ﴿لَكُمْ لَشُرُوكُمْ﴾. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وغير واحد من علماء السلف، رحمهم الله. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَعْمَتُوهُمْ لَكُمْ لَشُرُوكُمْ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرع إلى قول غيره، فقدتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اعْتَكَدُوا أَعْيُنَكُمْ وَمِنْ مَتَابِعِهِمْ مَاتُوكُمْ ﷻ﴾ و﴿السورة: ٣١﴾. وقد روى الترمذي في تفسيرها، عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

﴿أَرَمِنَ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمْشُونَ ﷻ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة، هالكاً حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له وفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّارِ﴾ أي: يهتدي به كيف يسلك، وكيف يتصرف به. والنور هو: القرآن، كما رواه العوفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السدي: الإسلام. والكل صحيح. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل». كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ مَثَلُهُمُ الظُّلُمَاتُ يَخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﷻ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ يَنْشِي مُبْكًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَنْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ سِرَطٍ مَّرْتَعٍ ﷻ﴾ [المالك: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿نَقُلُ الْقُرْيَقَيْنِ كَالأَصْحَى وَالأَصْحَى وَالأَصْحَى وَالأَصْحَى وَالأَصْحَى وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﷻ﴾ [مرد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﷻ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﷻ وَلَا الظُّلْمُ وَلَا النُّورُ ﷻ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ ﷻ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعُ مَن فِي القُبُورِ ﷻ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﷻ﴾

[فاطر: ١٩ - ٢٣]. والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثيلين ههنا بالنور والظلمات، ما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ١]. وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثيل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ أي: حسنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قدرنا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّجْرِبَةً يُتَكَبَّرُ فِيهَا وَمَا يَتَكَبَّرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يُسْمِعُونَ ﷻ﴾ وَإِنَّا لَهُمْ مَائِدَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَا آيَةً كَآيَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﷻ﴾

تُؤْتِي وَيَسَلْ مَا أَوْقَى رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِخْرِيهِ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَحَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَدَابٌ شَدِيدٌ يَمَا كَانُوا يَسْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ .

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُنتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيَةً أَمَرْنَا مُرُؤَيْهَا فَتَفْسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا كُتُبَهَا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ١٦]، قيل: معناها: أمرناهم بالطاعات، فخالقوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قديراً، كما قال ههنا: ﴿يَسْكُرُوا فِيهَا﴾. وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: سَلَطْنَا شُرَاهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فإذا فعلوا ذلك أهلكتناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عظمائها. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وَقَالُوا خُذْ أَمْوَالَنَا وَأَوْلَادَنَا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبا: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّتِهِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]. والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٦٧﴾﴾ [نوح: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذِ الظَّالِمُونَ مُتَّفِقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِجْعٌ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْفُسَ مَكْرًا عِنْدَ رَبِّكَ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَ أَنْ تُكْفَرَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَمَّا أُنذِرُوا أَنْذَارًا وَقَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ الْغَيْثَ لَنَأْتَاكَ بِسَحَابٍ مِّنْ سَحَابٍ لَّئِن لَّمْ يَأْتِكُمْ مَتَرٌ مِّنْ سَحَابٍ لَّيَكْفُرُوا بِهِ وَلِيَحْمِلُوا فِيهِ أَثْقَالَهُمْ إِنَّهُم مُّقْتَدُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عمل. وقوله: ﴿وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أصلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَسْمَلِكُنَّ أَفْئِدَتَهُمْ وَالْأَلْسِنَةَ مَعَ أَفْئِدَتِهِمْ﴾ [النسكوت: ١٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُزِّلَ الَّذِينَ يُسَلِّطُونَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِمَ آيَةً مَّا بُرِّئُوا مِنَ الْكُفْرِ وَلَئِن كَانُوا لَشَاكِرِينَ﴾ [النحل: ٢٥]. وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مَآ أَوْقَىٰ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مَآ أَوْقَىٰ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله، جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِّنَ رَبِّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٢١]. وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٢١﴾ [الزخرف: ٢١، ٢٢]، يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم ﴿مِنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ﴾ أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَدَيْهِمْ يُخَافُوكَ إِلَّا مُرُوءًا أَهْدَأُ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُم كَافِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَخِذُّوكَ إِلَّا مُرُوءًا أَهْدَأُ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكَ اللَّهُ سَوْغًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ يَرْسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]. وهذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو سفيان» حين سأله «هرقل» ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونون بالكذب قيل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مُصعب، حدثنا الأوزاعي، عن شَدَّادِ أَبِي عِمَارٍ، عن واثلة بن الأسقع، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي - وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام، به نحوه.

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرْنَا قُرْنَا، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، عن سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت رسول الله. قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه،

وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» صدق صلوات الله وسلامه عليه. وفي الحديث أيضاً المروي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم». رواه الحاكم والبيهقي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر، حدثنا عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء. وقال أحمد: حدثنا شجاع بن الوليد قال: ذكر قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا سلمان، لا تبغضني فتفارق دينك». قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: «تبغض العرب فتبغضني».

وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: ذُكِرَ عن محمد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان، عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. قال: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه يصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَلِكُمْ لَدُونِهِمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، لما كان المكبر غالباً وإنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاءً وفاقاً، ﴿وَلَا يَطَّلِرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتٌ لِّبُيُوتٍ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ اسْتِئْثَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ عُدَّةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ». والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَخِيفًا حَرَمًا كَمَا يَجْعَلُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٢٥].

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: يسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَيْسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي صُلْحٍ لَّبِيدٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُنْ اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَبِّكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمَعْصِيَانَةَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّذِيئُونَ﴾ [الحجرات: ٢٧]. قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي جعفر قال: سئل النبي ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأكثرهم لما بعده استعداداً». قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وقالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يُقَدِّفُ فِيهِ، فينشرح له وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، عن سفيان - يعني الثوري - عن عمرو بن مَرْة، عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، فذكر نحو ما تقدم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن الحسن بن الفرات القرظي، عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح». قالوا: يا رسول الله، هل لذلك من أمانة؟ قال: «نعم، الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت». وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي

يحدث عن عبد الله بن مرة، عن أبي جعفر فذكره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن اليسر قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذف به في القلب». قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة؟ قال: «نعم». قالوا: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح». قالوا: فهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتنجي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقي الموت». وقد رواه ابن جرير من وجه آخر، عن ابن مسعود متصلاً مرفوعاً فقال: حدثني ابن سنان القزاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾». قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَحُ صدره؟ قال: «يدخل الجنة فينفسح». قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت». فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة، يشد بعضها بعضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِيًّا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قرىء بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهَيِّنَ وَهَيَّنَ. وقرأ بعضهم: ﴿حَرِيًّا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى أتم. وقال السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرِيًّا﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه. وقد سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر، رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ١٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وقال مجاهد والسدي: ﴿ضَيِّقًا حَرِيًّا﴾ شاكاً. وقال عطاء الخراساني: ﴿ضَيِّقًا حَرِيًّا﴾: ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك، عن ابن جريج: ﴿ضَيِّقًا حَرِيًّا﴾: بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال سعيد بن جبير: يجعل صدره ﴿ضَيِّقًا حَرِيًّا﴾ قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا ضعداً.

وقال السدي: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من ضيق صدره. وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء. وقال الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله قلبه. وقال الأوزاعي: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه. يقول: مثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقة عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته.

وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلب الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصد عنه سبيل الله. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذَرْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿لَمْ دَاؤُ السَّلْمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٢٢﴾.

لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله، الصادين عنها، نبه على أشرف ما أُرْسِلَ به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث، عن علي رضي الله عنه في نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم». رواه أحمد والترمذي بطوله. ﴿فَذَرْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد وضحتها وبينها وفسرناها؛

﴿يَقُولُ يَذْكُرُونَ﴾ أي: لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّكِينِ﴾ وهي: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتضي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَابِتُهُمْ﴾ أي: والسلام - وهو الله - وليهم، أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَمَّشَرُ الْجَيْنَ فَيَذْكُرُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَانُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الجن وأولياءهم ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعودون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ﴿يَمَمَّشَرُ الْجَيْنَ فَيَذْكُرُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي عَادَةَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُوٌّ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٥﴾ وَأَنْ تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ [يس: ٦٥-٦٦]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمَمَّشَرُ الْجَيْنَ فَيَذْكُرُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني: أضللتهم منهم كثيراً. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقناة. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشهب هُوْدَةَ بن خليفة، حدثنا غَوْفٌ، عن الحسن في هذه الآية قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ قال: الصحابة في الدنيا. وقال ابن جرير: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: «أعوذ بكبير هذا الوادي»: فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعادتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن. ﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ قال السدي، أي الموت.

قال: ﴿النَّارُ مَثْوَانُكُمْ﴾ أي: ما واكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كاشين مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها إن شاء الله عند قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح - كاتب الليث -: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوَانُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً. ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال سعيد، عن قتادة في تفسيرها: وإنما يولي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. واختاره ابن جرير. وقال مَعْمَرٌ، عن قتادة في تفسيرها: ﴿نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ في النار، يتبع بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ سَيِّئَاتُنَا فَمَنْ لَّهُمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة عبد الباقي بن أحمد، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زرِّ، عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه». وهذا حديث غريب، وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم
ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك تفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلكت بعضهم ببعض، ومنتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَتَمَتَّعَ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَضِّلُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيُرْسِدُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كٰفِرِينَ ﴿۱۳۲﴾﴾.

وهذا أيضاً مما يقرر الله به سبحانه وتعالى كافرِي الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتهم الرسل رسالاتها؟ وهذا استفهام تقرير: ﴿يَتَمَتَّعَ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جريج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر. وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿۱۹﴾ بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَّا يَتَّصِلَانِ ﴿۲۰﴾﴾، إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ بَيْنَهُمَا التُّؤَمَةُ وَالْمِرْيَاتُ ﴿۲۱﴾﴾ [الرحمن: ۱۹- ۲۲]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرج من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير. والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالذَّكِّيْنِ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي رُؤْيَا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ۱۶۳- ۱۶۵]، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْكُتُبَ وَالْكِتَابَ﴾ [المنكوت: ۲۷]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا تَلْحُمًا وَيَسْخَرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ۲۰]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نَوَاصِحًا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ۱۰۹]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَتَسَوِّمُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَصَرْتَهُمْ قَالُوا أَمْسِرُوا فَمَلَأْنَا فَغْوَ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ ﴿۳۱﴾ قَالُوا يَقْوَمَتَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ رَبِّكَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الْحَقِّ طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿۳۲﴾ يَقْوَمَتَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ بِمَا كُنْتُمْ تُعْجِبُونَ ﴿۳۳﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَيَسْتَجِيبْ فِي الْأَرْزَاقِ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ رَبِّهِ أَوْلِيَاءَ أُولَٰئِكَ فِي سَلَكِ شَيْبَانَ ﴿۳۴﴾﴾ [الحجرات: ۲۹- ۳۲].

وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذي وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن فيها قوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ السَّقْلَانِ ﴿۳۱﴾ فَيَأْتِي آيَةً إِلَيْنَا لِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ أَيْسَرَ السَّقْلَانِ﴾ [الرحمن: ۳۱، ۳۲]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَمَتَّعَ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَضِّلُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيُرْسِدُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. قال تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كٰفِرِينَ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَيِّئًا لِقُرَيْشٍ أَيْتَانٍ وَأَهْلَهُمْ حَافِلُونَ ﴿۳۳﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَيِّئًا لِقُرَيْشٍ أَيْتَانٍ وَأَهْلَهُمْ حَافِلُونَ ﴿۳۳﴾﴾ أي: إنما أعدنا إلى الثقليين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحد بظلمه، وهو لم يبلغه دعوة، ولكن أعدنا إلى الأمم، وما عهدنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ۲۴]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ۳۶]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رُسُلًا﴾ [الاسراء: ۱۰]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا آتَىٰ فِيهَا نَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُ أَلَّا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿۸﴾ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ۸، ۹] والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿يَطْلُرُ﴾ وجهين:

أحدهما: ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من بينهم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ۱۹].

والوجه الثاني: أن ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَيِّئًا لِقُرَيْشٍ أَيْتَانٍ﴾ يقول: لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجع الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم. وقال: وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويشبه بها، إن خيراً أخيراً، وإن شراً أشراً. قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: من كافرِي

الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَمْلِكُونَ﴾ [الاعراف: ٢٣٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُنُّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَعْسُدُونَ﴾ [النحل: ٢٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ مِّنَّا يَمْسُكُونَ﴾ قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذَيِّنْكُمْ رَسْتَلْفٍ مِنْ بَدِينِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوِيمٍ أَحْسَبُكُمْ﴾ [١٣٣] ﴿إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآلَتٍ وَمَا أَنْشَأَ يُعْجِزِينَ﴾ [١٣٤] ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيُنزِلَ فَوْقَ تَعْمَلُونَ مَن تَكُونُ لَمْ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [١٣٥].

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الْغَفِيُّ﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالشَّاكِرِينَ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذَيِّنْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره ﴿رَسْتَلْفٍ مِنْ بَدِينِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي: قوما آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوِيمٍ أَحْسَبُكُمْ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذَيِّنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِتَاخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٣٥] ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذَيِّنْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٣٦] ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [١٣٧] [طاهر: ١٥ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتًا لَكُمْ﴾ [محمد: ٢٣٨]. وقال محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبا بن عثمان يقول في هذه الآية: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوِيمٍ أَحْسَبُكُمْ﴾: الذرية: الأصل، والذرية: النسل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآلَتٍ وَمَا أَنْشَأَ يُعْجِزِينَ﴾ [١٣٤] أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَا أَنْشَأَ يُعْجِزِينَ﴾ أي: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً وفاتاً وعظاماً هو قادر لا يعجزه شيء. وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدثني أبي، حدثنا محمد بن المصطفى، حدثنا محمد بن حمير، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى. والذي نفسي بيده إنما توعدن لآت وما أنتم بمعجزين».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيُنزِلَ فَوْقَ تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، أي: استمروا على طريقكم وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فانا مستمر على طريقي ومنهجي، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [١٣٦] ﴿وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [١٣٧] [مرد: ١٧١، ١٧٢]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: ناحياتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن تَكُونُ لَمْ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أن تكون لي أولكم. وقد أنجز مواعده له، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، رضي الله عنهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنِعْمَ يَوْمُ الْأَشْهَادِ﴾ [٥١] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [٥٢] [طاهر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٥٥] [الأنبياء: ١٥٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنَلْبِثَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣٧] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا عَمِلُوا مِن دُونِ ذَلِكَ لِمَن حَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ [١٣٨] [إبراهيم: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَسْخَرَنَّ لَهُمْ مِنْهُمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِن دُونِهِمْ إِنَّهُنَّ أَصْحَابُ الْأَرْضِ يَوْمَ لَا يُشْرِكُونَ بِشَيْءٍ﴾ [آية: النور: ٥٥]، وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولاً وآخرها، باطناً وظاهراً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَيْبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِسْمِهِ وَهَذَا لَشُرَّاكِنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَّاكِبِهِمْ فَمَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ بِعَمَلِ كُلِّ شُرْكائِهِمْ خَبِيرٌ﴾ [١٣٩].

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبرأ ﴿بِرِسْمِ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزرع والثمار

﴿وَأَلْتَمِمْ نَصِيْبًا﴾ أي: جزءاً وقسماً، ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَعِنْدَكَ شُرَكَائِبْنَا﴾. وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِبِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ بِصِلِ إِلَى شُرَكَائِبِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس؛ أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. وإن سقط منه شيء فيما سُمي للصدمة رده إلى ما جعلوه للوثن. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله وجعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوا لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يردوه إلى ما جعلوه لله. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله، فسقى ما سُمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله، ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ يَمًا ذَرًّا مِّنَ الْحَرِّثِ وَالْأَلْتَمِمْ نَصِيْبًا﴾ الآية. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وغير واحد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسيره: كل شيء جعلوه لله من ذبج يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً في القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة، بل جاروا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْكُمُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَوُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جَزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ الْأَنْثَىٰ وَكُنَّا نَكًا إِذَا فِئْتَةٌ مِنْ يَدَيْكَ ﴿٢١﴾﴾ [الحجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ نَفَعُ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِبَهُمْ لِئُدْخِلُوهُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، وواد البنات خشية العار. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم: زينوا لهم قتل أولادهم. وقال مجاهد: ﴿شُرَكَائِبَهُمْ﴾ شياطينهم، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وإما ﴿يُرَدُّوهُمْ﴾، فيهلكوهم، وإما ﴿وَيَكْسِبُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ﴾ أي: فيخلطوا عليهم دينهم. ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨]، ﴿يُبْذَرْنَ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُنسِفُ عَلَىٰ هَوْنٍ أَمْ يَدُسُّ فِي الْغُرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٩]، ﴿وَإِذَا الْآلُومَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ [يٰٓأَيُّ دُنْيٍ فَلَيْتَ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تاني المال، وقد نهاهم الله عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَكَّرُوهُ﴾ أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ﴿فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْنَةٌ وَحَرِّثُ جِبْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُوا بِحُرْمَتِ طَهُورِهَا وَأَنْعَمُوا لَا يَذْكُرُونَ أَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا قَبْرَةً عَلَيْهِمْ سَبِيْرِهِمْ يَمًا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الحجْر»: الحرام، مما حرّموا الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وكذلك قال مجاهد، والضحاك، والسدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْنَةٌ وَحَرِّثُ جِبْرًا﴾ الآية: تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليب وتشديد، وكان ذلك من الشياطين، ولم يكن من الله تعالى. وقال ابن زيد بن أسلم: ﴿جِبْرًا﴾: إنما احتجروها لآلهتهم. وقال السدي: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِزْقِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نطعم إلا من شئنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدْبَرَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَىٰ اللَّهِ تَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَافٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْرَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السدي: أما ﴿وَأَنْعَمُوا بِحُرْمَتِ طَهُورِهَا﴾: فهي البحيرة والسائبة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال: إذا أولدوها، ولا إن نحرّوها. وقال أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبي النجود

قال لي أبو وائل: تدري ما في قوله ﴿وَأَمَّا حُرْمَتٌ طُهُورُهَا وَأَمَّا لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البحيرة، كانوا لا يحجون عليها. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوها، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا، ولا إن عملوا شيئاً. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَبِينَ﴾ أي: على الله، وكذبنا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه؛ فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضىه منهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليه، ويُسندون إليه. ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَى خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَوْلَا نَحْنُ لَكُنْزِكُمْ عَلَىٰ أَزْوَاجٍ نَّاتِلِينَ لِهُمْ فِي سَعْيِهِمْ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِجَلِ الْغَابِقِ﴾.

قال أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَى خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَوْلَا نَحْنُ لَكُنْزِكُمْ﴾ الآية، قال: اللبن. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَى خَالِصَةٌ إِلَيْنَا﴾ الآية: فهو اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكرائهم. وكانت الشاة إذا ولدت ولدًا ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت تذبج، وإن كانت مية فهم فيه شركاء. فهى الله عن ذلك. وكذا قال السدي. وقال الشعبي: «البحيرة» لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَى خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَوْلَا نَحْنُ لَكُنْزِكُمْ﴾ الآية: هي السائبة والبحيرة. وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: قولهم الكذب في ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُفِّرُوكُمْ وَقَدِرُوهُ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَ إِلَيْكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَخْلَفُونَ﴾ الآية [النحل: ١١٦، ١١٧]. إنه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَاتَلْنَا الَّذِينَ قَاتَلْتُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل يكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَقْلِحُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ مَنَعَ فِي الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهَا مِنْهُمْ نَذْرًا لِيُذَيَّبُوا أَلْعَذَابَ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَاتَلْنَا الَّذِينَ قَاتَلْتُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. وهكذ رواه البخاري منفرداً في كتاب «مناب قريش» من صحيحه، عن أبي نعمان محمد بن الفضل عارم، عن أبي عوانة - واسمه الوضاح بن عبد الله اليشكري - عن أبي بشر - واسمه جعفر بن أبي وحشيته بن إياس، به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَجْرٍ مَعْرُوشَاتٍ وَالزَّيْعَ غُلَجًا أَكَلُهُمُ وَالزُّبُرُوتَ وَالرَّامَاتَ مَتَشَكِّبًا وَعَجْرٍ مَتَشَكِّبًا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَارًا حَقًّا يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا لَكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِيفِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَيَرَى الَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ قُلُوبًا غَافِلَةً وَأَنفُسًا فَاسِقَةً كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا يُذَمُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا حُلُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١١٥﴾.

يقول تعالى بياناً لأنه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزأوها، ففعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَجْرٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: مسموكات. وفي رواية: «المعروشات»: معروشات ما عرش الناس، ﴿وَعَجْرٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما خرج في البر والجبال من الثمرات. وقال عطاء الخرساني، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما عرش من الكرم، ﴿وَعَجْرٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما لم يعرش من الكرم. وكذا قال السدي. وقال ابن جريج: ﴿مَتَشَكِّبًا وَعَجْرٍ مَتَشَكِّبًا﴾: قال: متشابه في المنظر، وغير متشابه في الطعم. وقال محمد بن كعب: ﴿كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾: قال: من رطبه وعنبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاؤُكُمْ مِنْ حَصَادِهِمْ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ﴿وَمَا آتَاؤُكُمْ مِنْ حَصَادِهِمْ﴾: قال: الزكاة المفروضة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا آتَاؤُكُمْ مِنْ حَصَادِهِمْ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم يكال ويعلم كيله. وكذا

قال سعيد بن المسيب. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يخرج مما حصد شيئاً، فقال الله: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وذلك أن يعلم ما كيله وحقه، من كل عشرة واحداً، ما يلقط الناس من سنبله. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه من حديث محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان، عن عمه واسع بن حبان، عن جابر بن عبد الله؛ أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر، بقتو يعلق في المسجد للمساكين، وهذا إسناد جيد قوي. وقال طائوس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن جريج: هي الزكاة. وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب والثمار، وكذا قال ابن زيد بن أسلم. وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة. وقال أشعث، عن محمد بن سيرين، ونافع، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة. رواه ابن مردويه. وروى عبد الله بن المبارك وغيره، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: يعطي من حضره يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة. وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين، طرحت لهم منه. وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: عند الزرع يعطى القبض، وعند الصرام يعطى القبض، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام. وقال الثوري، عن حماد، عن إبراهيم النخعي قال: يعطي مثل الضغث. وقال ابن المبارك، عن شريك، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: كان هذا قبل الزكاة: للمساكين، القبضة الضغث لعلف دابته. وفي حديث ابن أبي عمير، عن ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن سعيد مرفوعاً: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: ما سقط من السنبل. رواه ابن مردويه. وقال آخرون: هذا كله شيء كان واجباً، ثم نسخة الله بالعشر ونصف العشر. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسدي، وعطية العوفي. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

قلت: وفي تسمية هذا نسخاً نظر؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وتبين مقدار المخرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

وقد ذم الله سبحانه الذين يصومون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «الن»: ﴿إِذْ أَنتُمُ لَصَرِيهَاتٍ مُّصِيبِينَ وَلَا يَسْتَبِينَ ﴿٧٨﴾ طَلَقَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ قَائِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالْعِهْرِيِّ ﴿٨٠﴾ أَي: كَاللَّيْلِ الْمُدْلِهِمْ سُودَاءٍ مُحْتَرَقَةٍ ﴿٨١﴾ فَتَنَادُوا مُصِيبِينَ ﴿٨٢﴾ أَنِ انْقُدُوا عَلَيَّ حَرْوُكَ إِن كُنتُمْ مُّسْرِبِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَطْلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٨٤﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَا إِلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ تَسْكِينًا ﴿٨٥﴾ وَغَدَا عَلَيَّ حَرْوُكَ أَي: قِسْوَةٌ وَجِلْدٌ وَهَمَةٌ ﴿٨٦﴾ قَدِيرِينَ فَمَا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَائِرُونَ ﴿٨٧﴾ بَلْ نَحْنُ مُّحْرَمُونَ ﴿٨٨﴾ قَالَ أَوْسَطُ أَلَمْ نَأْكُلْ لَكُم مَّا لَمْ يَكُنْ لَكُم مِّنَّا شَيْئًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضًا يَتَلَوتُونَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا لَمُتَابِعِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّا كُنَّا لَمُتَابِعِينَ ﴿٩٢﴾ كَذَلِكَ أَلْقَيْنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ لَوْ كُنَّا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴿الْقلم: ١٨ - ٣٣﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال ابن جريج: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جدّ نخلأ، فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته. فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رواه ابن جرير، عنه. وقال ابن جريج، عن عطاء: ينهي عن السرف في كل شيء. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال السدي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تعطوا أموالكم، فتقعوا فقراء. وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب، في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا. ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نهى عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَمَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أن يكون عائداً إلى الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة». وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرِيحَ الْأَنْفَكِ حَمُولَةً وَرَشًا﴾ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل. والفرش الصغار منها، كما قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ ما حمل عليه من الإبل، ﴿وَرَشًا﴾ وقال: الصغار من الإبل. رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقال ابن عباس: الحمولة: الكبار، والفرش هي الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:

معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يسمي ذلك نسحاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسحاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعني: المهرق. قال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لتبعت الناس ما في العروق، كما تتبعه اليهود. وقال حماد، عن عمران بن حدير قال: سألت أبا مجلز عن الدم، وما يتلخ من الذبح من الرأس، وعن القدر يرى فيها الحمرة، فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح. وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القدر بأساً، وقرأت هذه الآية. صحيح غريب. وقال الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ، ولكن أبي ذلك البحر - يعني ابن عباس - وقرأ: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُخْرَمًا﴾ الآية. وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني، عن سفيان، به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في مستدركه مع أنه في صحيح البخاري، كما رأيت. وقال أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه: حدثنا محمد بن علي بن دُحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكين، حدثنا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدرأ، فبعت الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُخْرَمًا عَلَىٰ طَاعِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ إلى آخر الآية. وهذا لفظ ابن مردويه. ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صبيح، عن أبي نعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن سيماء بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: «فلم لا أخذتم مسكها؟». قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُخْرَمًا عَلَىٰ طَاعِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزُرٍ﴾، وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتتفعوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فذبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تحرقت عندها. ورواه البخاري والنسائي، من حديث الشعبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نائلة الفزاري، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ، فقرأ عليه: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُخْرَمًا عَلَىٰ طَاعِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزُرٍ﴾ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبيثة من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال. ورواه أبو داود، عن أبي ثور، عن سعيد بن منصور، به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ بَاعَ بَيْعًا وَلَا عَارًا﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حُرِّم في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية. والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البجيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّم ما ذكر في هذه الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايِكُ أَوْ مَا اتَّخَذَتْ يُظْمِرُ ذَلِكَ جَرْتُهُمْ يَتِيمُونَ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمننا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأضابع، كالإبل والنعام والإوز والبط. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾: وهو

البيعر والنعامة. وكذا قال مجاهد، والسدي في رواية. وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، وفي رواية عنه: كل شيء منفرد الأصابع، ومنه الديك. وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ﴾. وكان يقال: البيعر والنعامة وأشياء من الطير والحياتان. وفي رواية: البيعر والنعامة، وحرم عليهم من الطير: البط وشبهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع. وقال ابن جزيج: عن مجاهد: ﴿كَلَّ ذِي طُفْرٍ﴾ قال: النعامة والبيعر، شقاً شقاً. قلت للقساسم ابن أبي بزة وحدثني: ما «شقا شقاً»؟ قال: كل ما لا يفرج من قول البهائم. قال: وما انفرج أكلته اليهود قال: انفرجت قوائم البهائم والعصافير، قال: فيهود تأكلها. قال: ولم تنفرج قائمة البيعر، خفه، ولا خف النعامة ولا قائمة الوز، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوز، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته، ولا تأكل حمار وخش.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الثُّرْبُ وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثُّرْبُ وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَكْتَ ظُهُورَهُمَا﴾: يعني: ما علق بالظهر من الشحوم. وقال السدي وأبو صالح: الآية، مما حملت ظهورهما. وقوله: ﴿أَوْ الْحَوَائِجِ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ﴿الْحَوَائِجِ﴾: جمع، واحدها حاوية، وحاوية وحاوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباغر»، وتسمى «المرايض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمننا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، أو ما حملت الحوايا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَوْ الْحَوَائِجِ﴾: وهي المبعير. وقال مجاهد: ﴿الْحَوَائِجِ﴾: المربيض، والمربيض. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك، والسدي. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الْحَوَائِجِ﴾: المربيض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها، وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تدعى المربيض. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اتَّخَلَفَ بِظُلْمٍ﴾ أي: وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللتناه لهم. وقال ابن جزيج: شحم الآية اختلط بالفضض، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السدي. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَغْتَبِطُونَ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وأزمناهم به، مجازاة لهم على بغيتهم ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَيُطْلَبُونَ وَالَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُجِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ غَيْرُهَا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَصْدَقُوهُمْ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن سمرّة باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرّة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها». أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس، عن عمر، به. وقال الليث: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: قال عطاء بن أبي رباح: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود ويطلى بها السفن، ويستصيح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جعلها لهم، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حبيب، به. وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنه». ورواه البخاري ومسلم جميعاً، عن ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، به. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام، فرجع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، إن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، أنبأنا ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر إلى السماء فضحك، ثم قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». ورواه أبو داود، من حديث خالد الحذاء. وقال الأعمش، عن جامع بن شداد، عن كلثوم، عن أسامة بن زيد قال: دخلنا على رسول الله ﷺ وهو مريض نعوذ، فوجدناه نائماً قد غطى وجهه ببرد عدني، فكشف عن وجهه وقال: «لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون ثمنها»، وفي رواية:

«حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها».

﴿فَإِنْ كَذَبَكُمْ فَلَا تُؤْمِنُوا بِهِمْ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمْ مِنَ الْقَوَرِ الْمُتَّيِّبِ﴾ ﴿١٤٧﴾.

يقول تعالى: فإن كذبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمْ مِنَ الْقَوَرِ الْمُتَّيِّبِ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرب الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]، وقال: ﴿وَلَيْنَ رَبِّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّتَأْتِيَ عَلَىٰ ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَعَ عِبَادَتِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٤٨﴾ وَأَذَّ عَذَابِي هُوَ الْمَدَابِغُ الْأَلْيَسُ ﴿١٤٩﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [عامر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٥٠﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيءُ وَيُؤْتِيهُ ٱلْحَيَاةَ مَن يَشَاءُ ﴿١٥١﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٥٢﴾ [البروج: ١٢ - ١٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَقُورُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَأَبُوا بِأَسْنَانِهِمْ قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا إِنْ نَتَّبِعُ إِلَّا نَتَّبِعُ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا قَوْمٌ مَّوَدَّوْنَ﴾ ﴿١٤٧﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ هَلْ شَهِدْتُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرِيهَمَ يَعْدِلُونَ ﴿١٤٩﴾.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَدَلْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ مِّنْ قَوْمٍ مَّحَنٌ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ أَي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُنَا أَي: فنظيره لنا وتبينوه وتبرزوه﴾، إِنْ نَتَّبِعُ إِلَّا الظَّنُّ أَي: الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا قَوْمٌ مَّوَدَّوْنَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَىٰ هَدًى وَاجِدَةً وَلَا يُرَاوِدُكَ فَتَنَاتِهِمْ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَمِّنَ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَنَا مِن قَبْلِهِمْ كِتَابٌ مُّذَمَّنٌ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [مرد: ١١٨، ١١٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصي الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ شَهِدْتُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافترستم على الله فيه، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرِيهَمَ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَمَّالُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِهْلَقْنَا نَحْنُ نَرَفُؤكُمْ وَإِن سَأَلْتُمْ فَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَرَسْمٌ مِّنْ رَبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾.

قال داود الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَمَّالُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا بكر بن محمد الصيرفي بمر، حدثنا عبد الصمد بن الفضل، حدثنا مالك بن

إسماعيل التُّهَدِي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عباس يقول: في الأنعام آيات محكمة من أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَكَاوَرْنَا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. قلت: ورواه زُهَيْرٌ وقيس بن الربيع كلاهما عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عباس، به. والله أعلم.

وروى الحاكم أيضاً في مستدرکه من حديث يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبائعني على ثلاث؟» - ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَكَاوَرْنَا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من الآيات - فمن وفي فأجره على الله، ومن انتقص ممنهن شيئاً فأدرکه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أحر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وإنما اتفقا على حديث الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً» الحديث. قد روى سفيان بن حُسَيْن كلا الحديثين، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جمع بينهما، والله أعلم.

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بأرائهم وتسويل الشياطين لهم، ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿تَكَاوَرْنَا﴾ أَي: هلموا وأقبلوا: ﴿أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخربوا، ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأ من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكَ وَسَنَكُمْ بِهِ لَمَّا تَكْفُرُونَ﴾، وكما قال الشاعر:

حَجٌّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمِ الْأَعْبُدَا أَنْ لَا تَزْرَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا
وَلَا يَزِرَنَّ شُرَائِبَهُمَا مُبْرَدَا

وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم. وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر». وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه السلام، قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر». فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبي ذر. وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غُفِرَتْ لَكَ». ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة». والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وروى ابن مَرْذُوقٍ من حديث عبادة وأبي الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قطعتم أو ضلّتم أو حرقتم». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَوْفِ الجَنْصِي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد حدثني سيار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قُوْذِرٍ، عن سلمة بن شُرَيْحٍ، عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال: «ألا تشركوا بالله شيئاً، وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم».

وقوله تعالى: ﴿وَيَا لَوْلِيَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أَي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَقَنَّنْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهًا وَيَا لَوْلِيَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرأ بعضهم: ﴿ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً». والله تعالى كثيراً ما يقرب بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ وَإِنْ جَهَنَّمَكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا لَوْلِيَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أتى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أتى؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدرته لزداني. وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْذُوقٍ

يسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما يقول: أو صاني خليلي ﷺ: «أطع والديك، وإن أمرك أن تخرج لهما من الدنيا، فافعل». ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِمْلَاقِيَّكُمْ رِزْقُكُمْ وَإِن كَانُوا يَافِقُونَ﴾: لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِمْلَاقِيَّكُمْ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سئلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يتدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿١٤٨﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقوله: ﴿يَنْتَقِبُ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقِيَّكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خشية حصول فقر، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿عَنْ رِزْقِهِمْ وَإِن كَانُوا يَافِقُونَ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿عَنْ رِزْقِهِمْ وَإِن كَانُوا يَافِقُونَ﴾؛ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْأَنفُسَ الَّتِي بِئْسَ النَّفْسُ وَاللَّهُ مَا تَرَى بِئْسَ سَلْطَنًا وَإِن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: ﴿وَدَرَّوْا ظَهَرَ الْآثِمِ وَالْبَاطِنِ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال عبد الملك بن عمير، عن وِزَاد، عن مولاة المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُضْفَح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد! فوالله أنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». أخرجاه. وقال كامل أبو العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغار، قال: «والله إني لأغار، والله أغير مني، ومن غيرته نهي عن الفواحش». رواه ابن مَرْدُويه، ولم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة، وهو على شرط الترمذي، فقد روي بهذا السند: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي لفظ لمسلم: «والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم...». وذكره، قال الأعمش: فحدثت به إبراهيم، فحدثني عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها، بمثله. وروى أبو داود، والنسائي، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان مُخَصَّن يُرْجَم، ورجل قتل رجلاً مُتَمَدِّداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض». وهذا لفظ النسائي. وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس»، فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي ديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلونني؟. رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد - وهو المستامن من أهل الحرب - كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بدمه الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِرِ لَمَّا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تعلقون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولَئِكَ الْكَفِيلَ وَالْيَتِيمَ الْإِلْقَابَ لَا تَكْلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحس له حتى يأكله ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَسِتْرُوكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ حَرِيحٌ وَإِن تَحْلَلُوهُمْ فَلِخَيْرِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم. وقال السدي: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. قال: وهذا كله بعيد ههنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْكَفِيلَ وَالْيَتِيمَ الْإِلْقَابَ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَانُوا مِنْهُمْ يَتِيمُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَطَّلُوا عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ الْغَالِيينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم ولتيم أمراً أهلكت فيه الأمم السالفة قبلكم». ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين، وهو ضعيف في الحديث، وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً. قلت: وقد رواه ابن مردويه في تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم مَعَشَرُ الموالى قد بَشُرْكم الله بخصلتين بها هلكت القرون المتقدمة: المكيال والميزان».

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكْلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه. وقد روى ابن مردويه من حديث بَقِيَّةَ، عن مُبَشَّرِ بن عبيد، عن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأُولَئِكَ الْكَفِيلَ وَالْيَتِيمَ الْإِلْقَابَ﴾ فقال: «من أوفى على يده في الكيل والميزان، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما، لم يؤاخذ». وذلك تأويل ﴿وُسْعَهَا﴾. هذا مرسل غريب.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا مَّوَدِّعِينَ بِالْوَسْطِ شَهَدَاةً لِّلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [المائدة: ٨]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء [الآية: ١٣٥]، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال. وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول بَوْصِيَّةُ الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا أوصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون وتتنبهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَنْفَعُونَ ﴿١٥٤﴾﴾
قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿أَقْبُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا. قاله مجاهد، وغير واحد. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر: شاذان، حدثنا أبو بكر - هو ابن عياش - عن عاصم - هو ابن أبي النجود - عن أبي وائل، عن عبد الله - هو ابن مسعود، رضي الله عنه - قال: حَطَّ رسول الله ﷺ خطأ بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخط على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُلُ ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. وكذا رواه الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال: صحيح الإسناد، ولم يخبرناه. وهكذا رواه أبو جعفر الرازي، وورقاء وعمرو بن أبي قيس، عن عاصم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود به مرفوعاً نحوه. وكذا رواه يزيد بن هارون ومُسَدَّدُ والنسائي، عن يحيى بن حبيب بن عربي - وابن جَبَّانَ، من حديث ابن وهب - أربعتهم عن حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. وكذا رواه ابن جرير، عن المثني، عن الجماني، عن حماد بن زيد، به. ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن

إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، به كذلك. وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زُرِّ، عن عبد الله بن مسعود. به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوِيَه من حديث يحيى الحماني، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زُرِّ، به. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين، ولعل هذا الحديث عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود، به، والله أعلم.

قال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي، عن جابر، من وجه غير معتمد. يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد، وعبد بن حميد جميعاً. واللفظ لأحمد: حدثنا عبد الله بن محمد. وهو أبو بكر بن أبي شيبة - أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط خطأ هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيل الله»، وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: «هذه سبيل الشيطان». ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾». ورواه ابن ماجه في كتاب السنة من سننه، والبخاري عن أبي سعيد بن عبد الله بن سعيد، عن أبي خالد الأحمر، به. قلت: ورواه الحافظ ابن مَزْدُوِيَه من طريقتين، عن أبي سعيد الكندي، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: خط رسول الله ﷺ خطأ، وخط عن يمينه خطأ، وخط عن يساره خطأ، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾. ولكن العمدة على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روي موقوفاً عليه.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن أبان؛ أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أذناه، وطره في الجنة، وعن يمينه جَوَادٌ، وعن يساره جَوَادٌ، وثم رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية. وقال ابن مَزْدُوِيَه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا أبان بن عياش، عن مسلم بن أبي عمران، عن عبد الله بن عمر: سأل عبد الله عن الصراط المستقيم، فقال له ابن مسعود: تركنا محمد ﷺ في أذناه، وطره في الجنة، وذكر تمام الحديث كما تقدم، والله أعلم. وقد روي من حديث النُّوَّاسِ بن سَمْعَانَ نحوه، قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوَّار أبو العلاء، حدثنا لَيْثٌ - يعني ابن سعد - عن معاوية بن صالح؛ أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه، عن أبيه، عن النُّوَّاسِ بن سَمْعَانَ، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جَنْبَيْهِ الصُّرَاطُ سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». ورواه الترمذي والنسائي، عن علي بن حُجْرٍ - زاد النسائي - وعمرو بن عثمان، كلاهما عن يَقِيَّةَ بن الوليد، عن بَاحِرِ بن سعد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن جُبَيْرِ بن نفير، عن النُّوَّاسِ بن سَمْعَانَ، به. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، إنما وحد سبحانه سبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع لتفرقها وتسبعها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا يَخِرُّونَ مِمَّنْ أَنُورٍ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هذه الآيات الثلاثة؟». ثم تلا: ﴿قُلْ مَا كَلَّمْنَاكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «ومن وفى بهن أجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً أدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه».

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاهُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ﴾

تَكَوَلُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. قلت: وفي هذا نظر، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قيل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد فقبل ذلك جده
وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ
ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا
كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عِزْيَا﴾ [الاحقاف: ١٧]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ
تَجْمَلُونَهُ قَرَأْتُمُ الْبُرْجَانَ وَتَحْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَآرَكٌ﴾ [الآية: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن
المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ يَسْتَلْ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ
قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ﴾ [القصص: ٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَنْفَرُمَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا
أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الاحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في
شريعته، كما قال: ﴿وَكُنَّا لَمْ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية: ١٤٥]، وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على
إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذْ
أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُؤَهُ بِكَيْدِهِ فَاتَمَتَّتْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبْتَاطُ عَهْدِي الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله:
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن
أنس: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تم له
ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. فكانه جعل «الذي»
مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَحَضَمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] أي: كخوضهم وقال ابن زواحة:

فَتَسَبَّتْ اللَّئِي مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصَرَا كَالَّذِي نُصِرُوا
وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى «الدين». قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود، أنه كان يقرؤها: «تماماً على
الدين أحسنوا». وقال ابن أبي نجيب، عن مجاهد: «تماماً على الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً» قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا
قال أبو عبيدة. قال البغوي: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعني: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَمْشُونَ
إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْقَتِي وَبِكَلِمَةٍ﴾ [الاعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما
السلام لأدلة أخر. قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذي أحسن»،
رفعاً، بتأويل: «على الذي هو أحسن»، ثم قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجه صحيح. وقيل:
معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاية ابن جرير والبغوي. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه
جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَمَلَّهُمْ
يُفَاهَهُ رَبُّهُمْ يُؤْمِنُونَ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَآرَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٥]، فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن
اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة.

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ [١٥٦] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ يُسْرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّفَ عَنْهَا سَنَجْرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [١٥٧].

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاثين قولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عذرهم،
كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْنَا رِسَالَةٌ فَفَنُنشِئُ مِنْ آيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنْ
الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم اليهود والنصارى
وكذا قال مجاهد، والسدي، وفتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون:
لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شغل وغفلة عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تمللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا

أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنْمَانِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ هُدًىٰ وَرَحْمَةً﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، أي: صرّف الناس وصدّهم عن ذلك، قاله السدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَقَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السدي ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾، كما تقدم في أول السورة ﴿وَهُمْ يَتُوبُونَ عَنْهُ وَيَتُوبَتِ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبَهُمْ عَذَابًا قَوْفًا فَالْمَدَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سَتَجِدُنِي أَلْيَنَ بِصِدْقُونَ عَنْ مَّآئِنَا سَوْءَ الْمَدَابِ يَمَا كَانُوا بِصِدْقُونَ﴾. وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾ أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا مَنَعَكَ وَلَا مَعَلَ﴾ [٦١] ولكن كَذَبَ وَوَكَّلَ ﴿٦٢﴾ [الغاية: ٣١، ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله تعالى أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا لَّئِنْ تَكُنَّ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ [١٥٨].

يقول تعالى متورداً للكافرين به، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو رزعة، حدثنا أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها. فذلك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا لَّئِنْ تَكُنَّ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾. حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها﴾ ثم قرأ هذه الآية. هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين. ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم إلا الترمذي، من طرق، عن عمارة بن القُقَعَاءِ بن شُبْرَمَةَ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، به. وأما الطريق الثاني: فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقيل: هو ابن منصور الكوسج، وقيل: إسحاق بن نصر والله أعلم. وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع النيسابوري، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الخرقعة، عن أبيه، عن أبي هريرة، به.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ثلاث إذا خرجن ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا لَّئِنْ تَكُنَّ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض.﴾ ورواه أحمد، عن وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة به، وعنده: «والدخان». ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، عن وكيع. ورواه هو أيضاً والترمذي، من غير وجه، عن فضيل بن غزوان، به. ورواه إسحاق بن عبد الله الفَرَوِيُّ، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ولكن لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، لضعف الفَرَوِيِّ، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا شعيب بن الليث، عن أبيه، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا لَّئِنْ تَكُنَّ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية.﴾ ورواه ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. ورواه وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، به. أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ في تفسيره. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، قبل منه.﴾ لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي ذر الغفاري: في الصحيحين وغيرهما، من طرق، عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادَة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَذْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرِبَتْ؟». قلت: لا أدري، قال: «إنها تنتهي دون العرش، ثم تخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾».

حديث آخر عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان، عن فزات، عن أبي الطَّفَيْل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تَرَوُا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذُّخَانُ، وَالِدَابَّةُ، وَخُرُوجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدِّجَالُ، وَثَلَاثَةُ حُسُوفٍ: حَسَفَ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفَ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ - أَوْ: تَحْتَشِرُ - النَّاسَ، تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث فزات القُرَازِ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه:

قال الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن حذيفة قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما آية طلوع الشمس من مغربها؟ فقال النبي ﷺ: «تطول تلك الليلة حتى تكون قُدرَ ليلتين، فبينما الذين كانوا يصلون فيها، يعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا تسري، قد قامت مكانها، ثم يرقدون، ثم يقومون فيصلون، ثم يرقدون، ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم، حتى يتناول عليهم الليل، فيفرغ الناس ولا يصبحون، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس أمتوا، ولا ينفعهم إيمانهم». رواه ابن مردويه، وليس في الكتب الستة من هذا الوجه، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي سعيد الخدري - واسمه: سعد بن مالك بن سنان - رضي الله عنه وأرضاه:

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا» قال: «طلوع الشمس من مغربها». ورواه الترمذي، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. وفي حديث طلوت بن عباد، عن فضال بن جبير، عن أبي أمامة صَدَيِّ بن عَجْلَانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا». وفي حديث عاصم بن أبي النجود، عن زَرِّ بن حَبِيش، عن صفوان بن عَسَّال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بَابًا قَبْلَ الْمَغْرِبِ عَرَضَهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ»، قال: «لا يغلق حتى تطلع الشمس منه». رواه الترمذي وصححه النسائي، وابن ماجه في حديث طويل.

حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفى:

قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دَحِيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صُرَد، حدثنا ابن فضيل، عن سليمان بن زيد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَأْتِينَ عَلَى النَّاسِ لَيْلَةٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِكُمْ هَذِهِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَعْرِفُهَا الْمُتَنَفِّلُونَ، يَقُومُ أَحَدُهُمْ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَضَحَّ النَّاسُ ضَجَّةً وَاحِدَةً، حَتَّى إِذَا صَارَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعِهَا». قال: «حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وليس هو في شيء من الكتب الستة.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أبو حيان، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعه يقول - وهو يحدث في الآيات -: إن أولها خروج الدجال. قال: فانصرف نفر إلى عبد الله بن عمرو، فحدثه بالذي سمعه من مروان في الآيات، فقال: لم يقل مروان شيئاً، قد حفظت من رسول الله ﷺ في مثل ذلك حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ ضَحَى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْآخِرَى عَلَى أَثَرِهَا». ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع، حتى إذا

بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يرد عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، ثم تستأذن فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: ربي، ما أبعد المشرق. من لي بالناس. حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَئِ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِئْتِنِهَا خَيْرًا﴾ الآية. وأخرجه مسلم في صحيحه، وأبو داود وابن ماجه، في سننهما، من حديث أبي حيان التيمي - واسمه يحيى بن سعيد بن حيان - عن أبي رُزَعة بن عمرو بن جرير، به.

حديث آخر عنه:

قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرُّقي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - بن زبير الحمصي - حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي ﷺ: «إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر: إلهي، مُزني أن أسجد لمن شئت». قال: «فيجتمع إليه زبانيته فيقولون: يا سيدهم، ما هذا التضرع؟ فيقول: إنما سألت ربي أن يُنظر إلى الوقت المعلوم، وهذا الوقت المعلوم». قال: «ثم تخرج دابة الأرض من صدع في الصفا». قال: «فأول خطوة تضعها بأنطاكيا، فتأتي إبليس فتخطمه». هذا حديث غريب جداً وسنده ضعيف، ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك، فأما رفعه فمنكر، والله أعلم.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم أجمعين:

قال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمَضَم بن رُزَعة، عن شُرَيْح بن عبيد يورده إلى مالك بن يُخَاصِر، عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما قبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

حديث آخر عن ابن مسعود، رضي الله عنه:

قال عوف الأعرابي، عن محمد بن سيرين، حدثني أبو عبيدة، عن ابن مسعود؛ أنه كان يقول: ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج. قال: وكان يقول: الآية التي تختتم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا﴾ الآية كلها، يعني طلوع الشمس من مغربها.

حديث ابن عباس، رضي الله عنهما:

رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوَيْه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وَهَب بن مُثَنَّب، عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً - فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكرأ رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ مقرونين، وإذا نَصَفَا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كان عليهما». وهو حديث غريب جداً، بل منكر، بل موضوع، والله أعلم، إن ادعى أنه مرفوع، فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه - وهو الأشبه - فغير مدفوع، والله أعلم. وقال سفيان، عن منصور، عن عامر، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا خرج أول الآيات، طُرِحَت الأقلام، وحبست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال. رواه ابن جرير.

فقوله ﷺ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَئِ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مَحَلُطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِئْتِنِهَا خَيْرًا﴾ أي: ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله: ﴿فَلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لا اقتراب وقت القيامة، وظهور أشراتها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الْكَفَاةَ أَنْ

تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَدْجَأَ اشْرَاطُهُمْ فَلَنْ يَكْفُرُوا لَهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٥٩﴾ [محمد: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَوْمَ مَشْرِكِينَ ﴿١٦٠﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعَنِّتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّتْ أَلْوَىٰ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِيهِ وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِسْمًا أَسْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

قال مجاهد، وقناة، والضحاك، والسُّدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ﴾، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، فتنفروا. فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثني سعد بن عمرو السكوني، حدثنا يقيته بن الوليد: كتب إلي عباد بن كثير، حدثني ليث، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في هذه الأمة ﴿الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وليسوا منك، هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة، من هذه الأمة». لكن هذا الإسناد لا يصح، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يخلق هذا الحديث، ولكنه وهم في رفعه. فإنه رواه سفيان الثوري، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طاوس، عن أبي هريرة، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ﴾ قال: نزلت في هذه الأمة. وقال أبو غالب، عن أبي أمامة، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ﴾ قال: هم الخوارج. وروي عنه مرفوعاً، ولا يصح. وقال شعبه، عن مجالد، عن الشعبي، عن شريح، عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا يَشْكُرُونَ﴾ قال: «هم أصحاب البدع». وهذا رواه ابن مَرْدَوَيْهِ، وهو غريب أيضاً، ولا يصح رفعه. والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فرقا كأهل الملل والنحل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد بَرَأَ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَحَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَّا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَنْبِئُوا النَّاسَ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علأت، ديننا واحد». فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل بَرَأَ منها، كما قال: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿إِسْمًا أَسْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٦٠﴾﴾ [الحج: ١٧]. ثم بين فضله يوم القيامة في حكمه وعدله فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمال في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثْلِهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه، ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم، ﷻ، رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمئة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجعد بن أبي عثمان، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعمر بن سُوَيْد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، ﷻ: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قُرَابِ الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلي شيئاً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هزولة». ورواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية، به. وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن الأعمش، به. ورواه ابن ماجه، عن علي بن محمد الطنافسي، عن وكيع، به. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا شَيْبَان، حدثنا حَمَاد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة». واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها الله ﷻ، فهذا كتبت له حسنة على كفه عنها الله تعالى، وهذا عمل وثية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها من

جرائي»، أي: من أجلي. وتارة يتركها نسياناً وذُهوراً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: «إذا توجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

قال الإمام أبو يعلى الموصلي: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا علي - وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو حَيْثَمَةَ - قالوا: حدثنا إسحاق بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عبيدة، عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس، عن جده أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة كتب الله له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإن عملها كتبت عليه سيئة، فإن تركها كتبت له حسنة. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتني». هذا لفظ حديث مجاهد - يعني ابن موسى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الرُّكَيْنِ بن الربيع، عن أبيه، عن عمه فلان بن عَمِيْلَةَ، عن حُزَيْنِ بن فاتك الأسدي؛ أن النبي ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مُوسِعٌ له في الدنيا والآخرة، وموسع له في الدنيا مُقْتَرٌ عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة، وشقي في الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان من مات مُسْلِمًا مؤمنًا لا يشرك بالله شيئًا وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافرًا وجبت له النار. ومن هم بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وَحَرَصَ عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت عليه بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة في سبيل الله، ﷻ، كانت له سبعمائة ضعف». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الرُّكَيْنِ بن الربيع، عن أبيه، عن بشير بن عَمِيْلَةَ، عن حُزَيْنِ بن فاتك، به ببعضه. والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغوا فهو حَطُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبته مسلم ولم يؤذ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مَرْزُدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمَضَمُ بن زرعة، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾». وعن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائي، وابن ماجه، والترمذي وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن. وقال ابن مسعود: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا»: من جاء بـ «لا إله إلا الله»، «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ يَقُولُ: بالشرك. وهكذا ورد عن جماعة من السلف. وقد ورد فيه حديث مرفوع - الله أعلم بصحته، لكنني لم أراه من وجه يثبت - والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول الله تعالى أمرأ نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا أعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ١٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٢﴾ وَمَا تَبَنَّى فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآلِهَةٍ فِي الآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٤﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]. وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر بتابع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام، قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام.

وقد قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن حَفْص، حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، أنبأني سلمة بن كُهَيْل، سمعت ذر بن عبد الله الهَمْداني، يحدث عن ابن أْبُرَي، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَيْن، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى رَفَن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة». أصل الحديث مُخْرَج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾﴾: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذيبحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمر الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النسك: الذبح في الحج والعمرة. وقال الثوري، عن السُّدِّي، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي. وكذا قال السدي والضحاك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَوْف، حدثنا أحمد بن خالد الوهبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن زيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد بَكْبَشَيْن وقال حين ذبحهما: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦١﴾﴾».

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ عَنْ آيَاتِي مِنْ آيَاتِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَارْتُتْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مِثْلَ نَسْتُمْ وَلَقَدْ أَمَطْتَنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِعْ قَالَ أَسْمِعْتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ وَوَحَى بِهَا لِلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِهِ قَائِلُونَ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَتُحْيِي الْمَيِّتِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنِينَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وَجِئْنَا بِحَمَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورًا يُخَيِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كَلِمِ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّنَ أَنْ مَأْمُونًا بِ وَرَسُولِي قَالُوا مَأْمَنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]. فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال قائمة منصوره، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد غلات ديننا واحد». فإن أولاد الغلات هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياض عكس هذا، بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦١﴾﴾، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني

سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والشهد. وقد رواه مسلم في صحيحه.

﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِدُ وَازِرَةً وَنَزَّ أُنزِلَتْ ثُمَّ لِيَ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغْنَىٰ اللَّهُ رَبِّيَ رَبًّا﴾ أي: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يرزني ويحفظني ويكلوني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً في القرآن، كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِهِ نَحْيُوهُ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاعْبُدْهُ وَكَيْلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وأشبه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِدُ وَازِرَةً وَنَزَّ أُنزِلَتْ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَلَيْنَ لَدَعْنَا مُنْقَلَبًا إِلَىٰ جِهَلِنَا لَا يَحْمِلُ إِنْتَهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [ناظر: ١١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَحِاطُ عَلَمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسنة. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَ ﴿٣٨﴾﴾ [آلِ أَنْعَابِ الْيَتِيمِ ﴿٣٩﴾] [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتهة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذريتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وَمَا أَنْتَهُمْ﴾ أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بفضلته ومنته، ثم قال: ﴿كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شر.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَإِنَّ لِقَوْمَ رَبِّكُمْ ﴿١٦٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا نَجْمَكُم مِّنْكَ نُجُجًا فِي الْأَرْضِ لِيَخْلَفُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٦٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدَّتَكُمْ وَيُتَخَلَّفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساويء، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مِّمَّشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿لِيَسْأَلَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتنحتم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَإِنَّ لِقَوْمَ رَبِّكُمْ ﴿١٦٥﴾﴾: ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّ لِقَوْمَ رَبِّكُمْ ﴿١٦٥﴾﴾: لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب. وقال محمد بن إسحاق: يرحم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم. وكثيراً ما يقرب تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال

تعالى: وقوله: ﴿نِعْمَ عِبَادِيَ أَنْيَ أَنَا الْمَقْسُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] وقوله: ﴿وَلِيَنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْرُورٍ لِّتَأْتِيَ عَلَى ظَلَمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ١٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لِيَتَجَعَ فِي كُلِّ بِحْسَبِهِ. جَعَلْنَا اللَّهَ مَن أَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنَهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَصَدَقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مَّجِيبٌ سَمِيعُ الدَّعَاءِ، جَوَادٌ كَرِيمٌ وَهَابٌ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، عَنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِالْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوْضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتْرَاحِمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَزِيِّ، عَنِ الْعَلَاءِ بِهِ. وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى وَقُتَيْبَةَ وَعَلِيَّ بْنِ حُجْرٍ، ثَلَاثَتُهُمْ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنِ الْعَلَاءِ.

آخر تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعراف

﴿التص ﴿١﴾ كُنْتُ أُنزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه. وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: ﴿التص ﴿١﴾﴾: أنا الله أفضل، وكذا قال سعيد بن جببير. قوله: ﴿كُنْتُ أُنزِلُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد، وعطاء، وقتادة والسدي: شك منه. وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ﴾ أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَنْ نُّقِطَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمِ يَن قَرِيبَةً أَهْلَكْنَاهَا فَمَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذِ جَاءَهُمْ بَأْسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُرَنَّهُمْ بِعَلْمٍ وَمَا كُنَّا غَالِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَمِ يَن قَرِيبَةً أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً ببذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْنَا بِرُسُلِنَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَجَاقَ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مَنَهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُلِّينَ مِّن قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاطِبَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَتَرُ مَطَلَعُ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمِ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبَةٍ بَطَرْتِ مَيْمَنَتَهَا فَلِئَلَّا نَسْكُنَهُمْ لَوْ شِئْنَا لَنَزَلْنَا بِهِمُ الْمَائِدَاتُ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَمَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾: من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِمِمْسِ الْأَرْضِ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى عُرُوشِهِمْ فَلَنْ رَكَّبَهُمُ لَازِقَةٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥، ٤٧]. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذِ جَاءَهُمْ بَأْسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسًا إِذَا هُمْ بِهَا يُرْكَضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكَبُوا وَأَارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أَرْفَعْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بَوَلَاءَ إِيَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ مَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَسِيدًا حَٰخِئِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]. وقال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حُمَيد، حدثنا جرير، عن أبي سنان، عن عبد الملك بن مَيْسرة الزرَّاد قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَاسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَكُنَّ الِذِيكَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿١٥١﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرُّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَكُنَّ الِذِيكَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكُنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأل عن الرجل، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده». قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْتَكُنَّ الِذِيكَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكُنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾. وهذا الحديث مُخْرَجٌ في الصحيحين بدون هذه الزيادة.

وقال ابن عباس: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعَلَمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وخفير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ مِنْ تَلْمِذَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَّبِعُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَالَ جَبُونٍ مِنْ حَرْدٍ لَنَنْبَأَنَّ بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَٰشِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَّةً وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعُفُهَا وَزَوْجًا مِنْ ذَلَّةٍ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٣﴾ فَأَمَّهُ هَٰكِيَةٌ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٥﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿٦﴾﴾ [القارعة: ٦-١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

فصل

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً. قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن «البقرة» و «آل عمران» آياتان يوم القيامة كأنهما غماتان - أو: غَيَاتَانِ - أو فِرْقَانِ من طير صَوَافٍ. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك. وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: «فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح». وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق. وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مَدَّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة». رواه الترمذي بنحو من هذا، وصححه. وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح

بَعْوَضَةٍ. ثم قرأ: ﴿فَلَا يُقِيمُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقية، فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد». وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فثارة توزن الأعمال، وثارة توزن محالها، وثارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْأَرْضِ مَجْمَعًا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش، أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَدَّسُوا فَعَلَى اللَّهِ لَا تَعْمَهُوهُمَا إِنَّكُمُ الْإِنْسَانُ لَكَلْبُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد قرأ الجميع: ﴿مَعْيَشٌ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هُرْمُزٍ الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه الأثرون بلا همز، لأن معاش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها مَعْيِشَةٌ فاستقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعْيِشَةٌ، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستقلال، فقيل: معاش. ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١).

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٧) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (١٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ (الآية [الحجر: ٢٨ - ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير «سورة البقرة». وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خلُقوا في أصلاب الرجال، وصُوروا في أرحام النساء. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية. وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَا عَلَيْهِمُ الْقِتَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: أبائهم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام، ولكن لما كان ذلك مئةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُوسَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٨) [المؤمنون: ١٢، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس، لا معيناً، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَ سَمْعَةَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَنِي مِنْ طِينٍ﴾ (١٢).

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَ سَمْعَةَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: لا ههنا زائدة. وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَّكَ آلَ سَمْعَةَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاهما ابن جرير. وردهما، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمتك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ نُّعَةٍ﴾، من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر بالفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر،

ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَنَجِينَ﴾ [ص: ٤٧٢]، فشذ من بين الملائكة بتزك السجود؛ فهذا إبليس من الرحمة، أي: آيس من الرحمة، فأخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيث والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم» هكذا رواه مسلم. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل، عن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم». قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن. وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران». وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوُرَاق، عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنهَا مَنَّا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبُوءُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرتي كوني: ﴿فَاهْبِطْ مِنهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخرورك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: الدليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبُوءُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة المشيئة التي لا تخالف ولا تمنع، ولا مَعْقَبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ يَمِئًا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْذَفَنَّ لَّهُمْ مِرْيَتَكَ الْكَاذِبَةَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَنْبِتُهُنَّ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٦).

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِنَّكَ يَوْمَ يَبُوءُونَ﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿يَمِئًا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْذَفَنَّ لَّهُمْ مِرْيَتَكَ الْكَاذِبَةَ﴾ أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكنتني لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿مِرْيَتِكَ الْكَاذِبَةَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لتلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فلباغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿مِرْيَتِكَ الْكَاذِبَةَ﴾ يعني: الحق. وقال محمد بن سوفة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كله. قلت: لما روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عَقِيل - يعني الثقيفي عبد الله بن عَقِيل - حدثنا موسى بن المسيب، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سَبْرَةَ بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟» قال: «فعضاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟» قال: «فعضاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

وقوله: ﴿ثُمَّ لَأَنْبِتُهُنَّ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَأَنْبِتُهُنَّ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهي لهم المعاصي. وقال ابن أبي طلحة في رواية والعمري، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: فمن قبل دنياهم، وأما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: فأمر آخرتهم، وأما ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: فمن قبل حسناتهم، وأما ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾:

فمن قبل سيئاتهم. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أتاهم ﴿يُرَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَيَرَىٰ عَنفِيهِمْ﴾: من أمر الدنيا فزئبها لهم ودعاهم إليها و ﴿رَعَىٰ أَيْتِيهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطاهم عنها ﴿وَعَنَ شَمَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وكذا رؤي عن إبراهيم الشَّحْمِي، والحكم بن عتيبة، والسدي، وابن جرير، إلا أنهم قالوا: ﴿يُرَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا ﴿وَيَرَىٰ عَنفِيهِمْ﴾: الآخرة. وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن إيمانهم»: حيث يبصرون، «ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يُجيبه لهم. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسْهُ يُرَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَرَىٰ عَنفِيهِمْ وَعَنَ شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مَن حَقَّ هُوَ بِهَا فِي شَأْنِهِ وَرَبُّكَ عَلِيمٌ خَفِيضٌ ﴿٢٦﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مَجْمَع، عن يونس بن خباب، عن ابن جَبْرِ بن مُطْعِم - يعني نافع بن جبير - عن ابن عباس، وحدثنا عمر بن الخطاب - يعني السجستاني - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خباب - عن ابن جبير بن مطعم - عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عورتِي، وأمن زَوْعَتِي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن شمالي، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي». تفرد به البزار، وحسنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جَبْرِ بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وأمن زَوْعَاتِي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن شمالي، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». قال وكيع: يعني الخسف. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جَبَانَ، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ أَمْحَجَ يَتَابَ مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَّا تَمَكَّ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾.

أكد تعالى اللعنة والطرود والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى بقوله: ﴿أَمْحَجَ يَتَابَ مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾. قال ابن جرير: أما «المذموم»، فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب. يقال: «ذامه يذامه ذاماً فهو مذموم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم». قال: «والمذحور»: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المذموم» و «المذموم» إلا واحداً. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿أَمْحَجَ يَتَابَ مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾ قال: مقيتاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صغيراً مقيتاً. وقال السدي: مقيتاً مطروداً. وقال قتادة: لعيناً مقيتاً. وقال مجاهد: منقياً مطروداً. وقال الربيع بن أنس: مذموماً: منقياً، والمذحور: المصغر.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا تَمَكَّ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾. كقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ فَاتَّ جَهَنَّمَ جِرًا وَكَرَّ جِرًا مَوْفُورًا﴾ ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُ مَنِ اسْتَلَطَّ مِنْهُمْ بِصَوْلِكَ وَأَتَيْتَ عَلَيْهِمْ بِعِيْلِكَ وَرَجِيْلِكَ وَشَارَكْتَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْذُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾ [الاسراء: ٦٣ - ٦٥].

﴿وَكَبَادُهُمْ اسْتَكْرَأَتْ وَرَبُّكَ الْجَنَّةُ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١٤﴾ فَوَسَّوْا لِمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لِمَا مَا وُورَىٰ عَنْهَا مِنْ سَوَاءِهَا وَقَالَ مَا نَهَكْنَا رَبَّنَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَقَاسَمْتُمَا إِلَىٰ لَكُمَا لَوْنُ الشَّيْطَانِ ﴿١٦﴾.

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والسوسة ليلسبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لثلاث تكونا ملكين، أو خالدين

ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْبَةِ وَمَلَكَ لَا يَبْلُغُ﴾ [طه: ١٧٠] أي: لثلاثا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَبْقَى اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لثلاثا تزلوا، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوِيًا أَنْ يَنْبَغَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لثلاثا تميم بكم. وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن: ﴿إِلا أن تكونا ملكين﴾، بكسر اللام. وقرأ الجمهور بفتحها. ﴿وَكَاَسَهُمَا﴾ أي: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُلَّا لَيِّنُ النَّصِيحِينَ﴾، فإني من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبي ذؤيب:

وَقَاَسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ
الَّذِي مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورَهَا
أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعتني أرتدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا له».

﴿قَدَلْتُهُمَا بِرُؤُوسِهِمَا فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سَوْسُوتُهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ وَوَادَتْهُمَا رَبُّهُمَا أَوْ أَهْتَكَمَا عَن يَدِكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْبَلُ لَكُمَا إِنَّا السَّيِّئِينَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ قَالَ رَبُّنَا عَلَّمَنَا نَفْسَنَا وَإِن لَّآرْتَفِفْنَا لَنَّا وَرَتَحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه، قال: كان آدم رجلاً طويلاً، كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها. فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه، ﴿يَعْلَى﴾: يا آدم، أمني تفر؟ قال: رب إني استحييتك. وقد رواه ابن جرير، وابن مژدويه من طُرق، عن الحسن، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، والموقوف أصح إسناداً. وقال عبد الرزاق: أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار، عن الميثال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجه، السنبلية. فلما أكل منها بدت لهما سواتهما، وكان الذي وارى عنهما من سواتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض. فانطلق آدم، عليه السلام، مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه: يا آدم، أمني تفر؟ قال: لا، ولكني استحييتك يا رب. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك. قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً. قال: وهو قوله، ﴿يَعْلَى﴾: ﴿وَكَاَسَهُمَا إِنِّي لَكُلَّا لَيِّنُ النَّصِيحِينَ ﴿٢٢﴾﴾. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدأ. قال: فأهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ.

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين. صحيح إليه. وقال مجاهد: جلا يخصفان عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب. وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَبْرُغُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكل من الشجرة بدت لهما سواتهما. رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مغمز، عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أرايت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطي كل واحد منهما الذي سأله. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: ولم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال: فإني قد أعقبته أن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً. قال: فرئت عند ذلك حواء. فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك. وقال الضحاک بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا عَلَّمَنَا نَفْسَنَا وَإِن لَّآرْتَفِفْنَا لَنَّا وَرَتَحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ﷻ.

﴿قَالَ أَهْبَطُوا بِمَشْكُرٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكِنَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفِرِّينَ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ فِيهَا حَيَوَانٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا نَجْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبَطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿أَهْبَطْنَا مِنْهَا جِيئًا﴾ [الآية: ١٧٣]، وحواء تبع لآدم. والحية - إن كان ذكرها صحيحاً - فهي تبع لإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم،

لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسَرَّةٌ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار وأعمار مضمومة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول. وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرًّا﴾: القبور. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُحْرَجُونَ﴾ (٢٦). كقوله تعالى: ﴿يَبْنِي لَكُمْ فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ دُونِهَا يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا فِيهَا جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالْهَيْبَانُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَلْحَاةُ وَمِنْ فَاكِهَةٍ مَّا يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمِنْهَا لَأَنْبَارٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالْجِبَالُ حُمْقٌ مُّسْتَوٍ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْمُومَةٌ وَوُجُوهٌ لَّا يَتَغَيَّرُونَ فِيهَا ثَلَاثُ عِشْرِينَ أُسْبُحًا فِيهَا عِشْرُونَ أُسْبُحًا﴾ (٢٧). يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلأ بعمله.

﴿يَبْنِي ۙ ءَادَمَ ۙ قَدْ آتَيْنَاكَ عَلَيْكَ لِيَأْسَ بِرُؤْيَىٰ سَوَاءَ يَكْفُرْكَ وَرَيْشًا ۙ وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ۙ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦).

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور ههنا لستر العورات - وهي السوات - والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات. قال ابن جرير: «الرياش» في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - وحكاها البخاري - عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعزوة بن الزبير، والسدي والضحاك. وقال العوفي، عن ابن عباس: «الرياش»: اللباس، والعيش، والتعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرياش»: الجمال. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أضحغ، عن أبي العلاء الشامي قال: لبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ تزفوقته قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى، وأتجمل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوقته: الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي خلق أو: ألقى فتصدق به، كان في ذمة الله، وفي جوار الله، وفي كنف الله حياً وميتاً، حياً وميتاً». ورواه الترمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ - هو ابن زيد الجهني - وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرج أحد، والله أعلم. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر؛ أنه رأى علياً، رضي الله عنه، أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارى به عورتى. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارى به عورتى».

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ﴾، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ خيره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال زيد بن علي، والسدي، وقتادة، وابن جرير: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ﴾: الإيثار. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ﴾: العمل الصالح. وقال زياد بن عمرو، عن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه. وعن عزوة بن الزبير: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ﴾: يتقي الله، فيواري عورته، فذلك لباس التقوى. وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام. ثم قال: يأبها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سراً إلا ألبسه الله رداءً علانية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرِيأشًا﴾ - ولم يقرأ: وريشاً - ﴿وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ۙ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ قال: «السميت الحسن». هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف. وقد روى الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري في كتاب «الأدب» من طرق صحيحة، عن الحسن البصري؛ أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام، يوم الجمعة على المنبر. وأما المرفوع منه، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر، حيث قال: حدثنا . . .

﴿يَبْنِي ۙ ءَادَمَ ۙ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۙ كَمَا فَتَحَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَبْرُحُ عَنْهَا لِيَأْسَهَا لِرَبِّهَا سَوَاءً ۙ إِنَّهُ يَرْتَدُّكُمْ ۙ هُوَ وِقِيلُهُ ۙ مَن حَيْثُ لَا يَرْوِمُهُمْ ۙ إِنَّا جَنَّاتُ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧).

يقول تعالى محذراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم، عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورتها بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجِّدُنَهُ وَدَرَيْتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْفَحْشَاءِ أَعْتَلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النسعة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبئدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحلله
فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب - ما عدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة تطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستتره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبئدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحلله
وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ أَي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَعْتَلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنسدون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِذِينَ﴾ أي: أكرمكم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى، وما جاؤوا به عنه من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما بدأكم تعودون يوم القيامة أحياء. وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرأ. واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبيا: ١٠٤]». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، من حديث شعبة، وفي صحيح البخاري - أيضاً - من حديث الثوري به.

وقال وقاء بن إلياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً. وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كتب عليكم تكونون - وفي رواية: كما كتبتم تكونون عليه تكونون. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ على خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ على خلقه. ومن ابتدئ على السعادة، صار على ما ابتدئ على خلقه، إن عمل بأعمال أهل الشقاوة، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه. وقال السدي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تُوَدُّونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَنُكِرَ تَوَكُّبًا﴾ [التغابن: ٢٧]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم، مؤمناً وكافراً. قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدمك ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدمك ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم». هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني، في قصة «فُزَّمان» يوم أحد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «تُبْعَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ». وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به. ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه». قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصرانه ويمجسانه».

وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنثاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث. ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر، في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطرتهم، ومع هذا قدر أن منهم شقيماً ومنهم سعيداً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَنُكِرَ تَوَكُّبًا﴾ [التغابن: ٢٧]، وفي الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَنًا﴾ [الأعلى: ٣]، و﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ يُحْسِنُونَ إِلَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله تعالى بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

﴿يَبْقَىٰ بِرَبِّهِ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٣١]

هذه الآية الكريمة رُدُّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُرة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير - واللفظ له - من حديث شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عرة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجَلَ لهُ
فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عرة، فأمرهم الله بالزينة - والزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جَيِّد البُرِّ والمتاع - فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم الثخعي، وسعيد بن جبَّير، وقتادة، والسُّدي، والضحاك، ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عرة. وقد روى الحافظ ابن مَرْدُويه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً؛ أنها أنزلت في الصلاة في النعال. ولكن في صحته نظر، والله أعلم.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الشباب البياض، كما قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا

عبد الله بن عثمان بن حُثَيْمٍ، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن حُثَيْمٍ، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمْرَةَ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم». وروى الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميم الداري اشترى رداءً بألف، فكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. إسناده صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكِنَاني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي: سمعت المقدم بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أكلات يَمْتَنُّ صُلْبِهِ، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث طعاماً، وثلث شراباً، وثلث لنفسه». ورواه النسائي والترمذي، من طرق، عن يحيى بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن - وفي نسخة: حسن صحيح. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سُوَيْد بن عبد العزيز، حدثنا بَقِيَّة، عن يوسف ابن أبي كثير، عن نوح بن ذُكْوَان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت». ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بَقِيَّة. وقال السُدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، في الطعام والشراب. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله: إن الله تعالى لا يحب المتعدين حذَه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حَرَم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

يقول تعالى رداً على من حَرَم شيئاً من المأكَل والمشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حُصَيْن محمد بن الحسين القاضي، حدثنا يحيى الجُمَاني، حدثنا يعقوب السُّعَفي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون ويصَفِقون. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فأمروا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِقِيَّةِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَقِيقِ، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله». أخرجاه في الصحيحين، من حديث

سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود. وتقدم الكلام في سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَالْإِيمَ وَالْقِيَمَ يَبْتَرِ الْحَقَّ﴾ قال السُّدِّي: أما الإيم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإيم المعاصي كلها، وأخير أن البغي بغيه كائن على نفسه. وحاصل ما فُسر به الإيم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقُولُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكاً في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فَأَجْحَبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ الآية [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ أي: ميقانهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾. ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً، يقصون عليهم آياته، ويشر وحذر فقال: ﴿فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: قرن وحيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: ميقانهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾. ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً، يقصون عليهم آياته، ويشر وحذر فقال: ﴿فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿فَمَنْ آتَقَى﴾ أي: اتقى الله وتوكل عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾.

فيها كلهم، ﴿فَأَنزَلْنَاهُمْ لَأُولَئِهِمْ﴾ أي: أخراهم دخولاً - وهم الأتباع - لأولاهم - وهم المتبوعون - لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكروهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْتِهِمْ عَذَابًا جَزَاءً مِمَّنْ أَتَى النَّارَ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُفُّ بِهِمْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِرِهَاتِنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿١٧٧﴾ رَبَّنَا عَائِمِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَابِ لَعْنَتٌ لِّكَبِيرٍ ﴿١٧٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلَّ بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ يَذُوقُهُمْ عَذَابًا قَوْفًا وَقَوْفًا ضِعْفَيْنِ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أثْمَالَهُمْ وَأَثْمَالًا مَّعَ أَثْمَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقال: ﴿وَمِنَ أَوْلَادِ الَّذِينَ يُبْذَلُونَ لَهُمْ يَتَّبِعُونَ آسَاءَ مَا يَرْبُوتُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْتَهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتكم كما ضللنا. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَتَوْقِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَنَا مُؤْمِنِينَ﴾ قال الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَّهُمْ صَدَدْتَكَ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِلَ كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٢٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْمَلَ لَهُ أَتَادًا وَأَسْرُوا أَتَادَةً لِّمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْمَلَ فِي عَنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧٧﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا فَتْحَ لَهُمْ أَوْبَىٰ أَسْوَءَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٧٨﴾ لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنَ نُّوْقِهِمْ عَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٧٩﴾.

قوله: ﴿لَا فَتْحَ لَهُمْ أَوْبَىٰ أَسْوَءَ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليث، عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال - هو ابن عمرو - عن زاذان، عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُضَعَدُ بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا فَتْحَ لَهُمْ أَوْبَىٰ أَسْوَءَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الآية. هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به.

وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر ولَمَّا يُلْخَدُ. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعذبوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وخُتُوطٌ من خُتُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني: بها - على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبيدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبيدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة». «فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء

بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السُّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فِإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تَلْكَ الْمَسْوُحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لِمَنْ أَوْتِيَ السَّمَاءَ وَلَا يَدْعُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَيرِ الْغِيَابِ﴾، فيقول الله، ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ نَهَى يَدُ الرَّيْحِ مِنْ مَكَانٍ سَبِيحٍ﴾ [الحج: ٣١]. «فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرَّها وسمومها، ويُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن حبيب، عن الجنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، ﷻ، أن يعرج بروحه من قبلهم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، في يده مَرْزَبَةٌ لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، ﷻ، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حَمِيدَةً، وأبشري بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٍ. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله، ﷻ. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذَمِيمَةً، وأبشري بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: مَنْ هَذَا؟ فيقولون: فَلَانٍ. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر». وقد قال ابن جرير في قوله: ﴿لَا تَفْتَحْ لِمَنْ أَوْتِيَ السَّمَاءَ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْعُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَيرِ الْغِيَابِ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في حُزْقِ الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «حتى يلج الجمل في سم الخيام» بضم الخيام، وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يلج الجمل» يعني: فُلُوسُ السَّفِينِ، وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: «لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ» قال: الفرش، «وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ» قال: اللحف. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسدي، «وَكَذَلِكَ تَجْرَى الظَّالِمِينَ»

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَرَبَّنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَلِدْ إِلَى الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَبْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بُرْهَانَ رَبِّنَا﴾

بِالْحَقِّ وَوَدُّوْا أَنْ يَتْلُوهُنَّ الْمُنْتَهَى أَوْرِثْتُمُوهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُّوْنَ ﴿٤٢﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. ونبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا تَكْفُلُ نَفْسٌ إِلَّا بِسَمْعِهَا أَوْ تَلْمِزُكَ أَصْحَابُ الْمُنْتَهَى هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلس المؤمنون من النار حُسِبوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة؛ فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا». وقال السُّدي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية: إن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربو من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم «نضرة النعيم» فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقد روى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي، رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وروى النسائي وابن مَرْدُويه - واللفظ له - من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة». ولهذا لما أوثقوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: ﴿أَنْ يَتْلُوهُنَّ الْمُنْتَهَى بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُّوْنَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأت منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتخمدني الله برحمته منة وفضل».

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْمُنْتَهَى النَّارَ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالَتْ مَوَدُّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَابًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٣﴾]

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقرُّع والتوبيخ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى في سورة «الصفافات» عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿فَطَلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْمَجْمِرِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِأَتْرِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا رِزْمَةٌ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَا تَحْنُ يَمِينِي ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا تَحْنُ بِمُعَدِّيَنِ ﴿٥٩﴾﴾ [الصفافات: ٥٥-٥٩] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَلْ وَجَدْنَا النَّارَ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ أَمِيسِحٌ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ ﴿١٥﴾ أَسْأَلُوهَا قَاسِرِيًّا أَوْ لَا قَاسِرِيًّا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَمَلُّوْنَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٤-١٦]. وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا». وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

وقوله: ﴿قَالَتْ مَوَدُّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم ونادى مُنَادٍ: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَابًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم ببقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه، ولا عقاباً فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَّارٌ يُعَازِرُ وَيَسَدُّ أَعْيُنَ النَّاسِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِنَّ لَهُمْ عِندَهُ حِزْبًا مِمَّنْ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِّنْ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَهُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ .

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَصُرَّتْ بِأَعْيُنِهِمْ بُرُوجٌ لَهُمْ مِّنَ النَّارِ يُصْرَفُونَ فِيهَا مِنَ النَّارِ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَّارٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف». وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عُرْفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الْأَعْرَافُ: هُوَ الشَّيْءُ الْمَشْرُفُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ مَجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْأَعْرَافُ: سُورٌ كَعُرْفِ الدِّيكِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَعْرَافُ، تَلُّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَسِبَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِّنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِّنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ «الْأَعْرَافُ» أَعْرَافاً؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ. وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمَفْسِّرِينَ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ مِنْ هَمٍّ، وَكُلُّهَا قَرِيبَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ. نَصَّ عَلَيْهِ حَذِيفَةُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِّنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا النُّعْمَانُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، حَدَّثَنَا شَيْخٌ لَنَا يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبَّادٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَمَّنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ». وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلْمَةَ بْنِ أَبِي الْحُسَامِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ مَزِينَةَ قَالَ: سئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عَصَاةً بَغَيْرِ إِذْنِ آبَائِهِمْ، فَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَرٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ شَيْبَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَزْنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ «أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ» فَقَالَ: «هَمَّ نَاسٌ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ، فَمَنْعَهُمْ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مَعْصِيَةَ آبَائِهِمْ وَمَنْعَهُمُ النَّارَ قَتَلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقَةَ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرَفٍ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ بِهِ. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ مَرْفُوعاً، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ الْمَرْفُوعَةِ وَقَصَارَاهَا أَنْ تَكُونَ مَوْقُوفَةً فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَا ذَكَرَ.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا حَصِينٌ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ حَذِيفَةَ؛ أَنَّهُ سئِلَ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، قَالَ: فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَعَدَّتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، وَخَلَّتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ. قَالَ: فَوْقَهَا هُنَاكَ عَلَى السُّورِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِمْ. وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَسْطُ مِنْ هَذَا فَقَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حَمْدٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: أَرْسَلَ إِلَيَّ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - وَعِنْدَهُ أَبُو الزَّنَادِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَكْرَانَ مَوْلَى قُرَيْشٍ - وَإِذَا هُمَا قَدْ ذَكَرَا مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ذَكَراً لَيْسَ كَمَا ذَكَرَا، فَقُلْتُ لَهُمَا: إِنْ شِئْتُمَا أَنْبَأْتُكُمَا بِمَا ذَكَرَ حَذِيفَةُ، فَقَالَا: هَاتِ. فَقُلْتُ: إِنْ حَذِيفَةُ ذَكَرَ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ، وَقَعَدَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَهُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ، أُطْلِعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ.

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبيرة، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَهُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمنهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما

رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا﴾ [التحریم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْعُوا وَمَنْ يَدْعُوا﴾ فكان الطمع دخولاً. قال: وقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت واحده أعشاره. رواه ابن جرير، وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: «الأعراف»: السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا الله أن يعافهم، أنطلق بهم إلى نهر يقال له: «الحياة»، حافته قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فالتقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم بياض يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم فيتمنون، حتى إذا انقطعت أميتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً. فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بياض يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد. وقال سنيدي بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي رزعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم». وهذا مرسل حسن.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن موسى»، عن منبه بن عثمان، عن عروة بن رويم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم، فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ». فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنتب فيه الأشجار والشمار». رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به. وقال سفيان الثوري، عن خُصيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿وَيَنْبَغِي حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِيَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْعُوا وَمَنْ يَدْعُوا﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَا أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِيَالًا فِي النَّارِ ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَهَنَّمُ وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَهْوَاؤَهُ الَّذِينَ اسْتَسْنَأُوا إِلَهُهُمُ اللَّهُ رِحْمَتَهُ قَالَ: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق: وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيه غرابة أيضاً. والله أعلم. وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرعوا من فرع الآخرة، دخلوا يظلمون على أخبار الناس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه. وقال العوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعذروا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مَعْمَر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْعُوا وَمَنْ يَدْعُوا﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قالوا: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». وقال السدي: وإذا مروا بهم - يعني بأصحاب الأعراف - بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تحدد وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ الْأَعْرَابِ رِيَاكَ بَرَّوْهُمْ بِيْسَمِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلُوا الَّذِينَ أَمْسَكْتُمْ لَآ يَسْأَلُهُمْ اللهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَآ حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تفرغ أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال.

﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَمْسَكْتُمْ لَآ يَسْأَلُهُمْ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: أصحاب الأعراف ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَآ حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا - يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله تعالى لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَمْسَكْتُمْ لَآ يَسْأَلُهُمْ اللهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَآ حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ . وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. قال: فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: هل تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقة قومه في النار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتوا ابني موسى. فيأتون موسى، عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا عيسى. فيأتونه، عليه السلام، فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: أنا حجيح نفسي. ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتوا محمداً عليه السلام. فيأتونني، فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش، فأتني ربي، عليه السلام، فيفتح لي من السماء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: ربي أمتي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطني بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فأتني بهم الجنة، فاستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافتها قصب مكلل باللؤلؤ، تراه المسك، وحبصاؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة، وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدررية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة.

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْسَ وَعْرَهُمُ الْحِكْمَةُ الَّذِينَ قَالِيَوْمَ نَسُفُهُمْ كَمَا نُسِفُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِبَابِنَا يَدْخُلُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: ﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ يعني: الطعام وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، افض علي الماء. فيقال لهم: أجيئهم. فيقولون: ﴿إِنَّ اللهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ . وروي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنة وشرابها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصغار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس - أو: سئل - أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله». وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعقود من الجنة، لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين. ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا في اتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها

وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَسِّهُمْ كَمَا سُورُوا لِقَاءَ رِيضَةٍ هَذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَحِصُلُ رَدٌّ وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]. وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿سُورُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتَيِّبْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّيكَ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّسُكَ كَمَا نَسَّيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنات: ٣٤]. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَسِّهُمْ كَمَا سُورُوا لِقَاءَ رِيضَةٍ هَذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتزنج؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فالיום أنساك كما نسيتي».

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ مَّهِدًى وَوَحَّيْنَا لِقَوْمِهِمُ الْيَوْمَ يَوْمَهُنَّ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَذَبُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ مِّمَّا يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ لَئِنَّا لَنَنصُرُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَتَمَعَلْ عِزًّا الَّذِي كُنَّا نَمَعَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُوحِيَتْ مَائِيكُمْ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِن لَّدُنَّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الآية [مود: ١]. وقوله: ﴿فَصَلَّيْنَا عَلَىٰ عِبْرَةٍ﴾ أي: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا بِسُلَيْمٍ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أُوحِيَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشَيْءٍ بِهِ وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّيْنَا عَلَىٰ عِبْرَةٍ﴾ الآية. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أراح عليهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزل الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثْنَا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. الربيع: لا يزال يجيء تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس - ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَذَبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ مِّمَّا يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ لَئِنَّا لَنَنصُرُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَتَمَعَلْ عِزًّا الَّذِي كُنَّا نَمَعَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَوْ رَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا لَكُنَّا مُرْتَدِّينَ وَلَا تَكْذِبُ رِيسًا وَكُنَّا مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾ بَلْ بَدَّلْهُم مَّا كَانُوا يَفْقَهُونَ مِن قَبْلُ لَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبُؤُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: قد خسروا أنفسهم بدخلوهم النار وخلودهم فيه، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم، ولا يتقدونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُنذِرُ الْكٰفِرِينَ وَاللَّامِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٥].

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل». فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه، عن حجاج - وهو ابن محمد الأعور - عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، فلنأس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبِيحُ أَتَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَّهُمُ أَتَيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) يس: ٣٧-٤٠. فقوله: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالْجُومَ مَسْحَرَاتٍ بَأْمَرِهِ - منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَلْمُ﴾؟ أي: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَمَعَ فِي أَنْتَكَ رُبُوعًا وَجَمَعَ فِيهَا سَبْعًا وَكَمَرًا ثُنْيَا﴾ (٤١) [الفرقان: ٦١]. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا هشام أبو عبدالرحمن، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا عبدالغفار بن عبدالعزيز الأنصاري، عن عبدالعزيز الشامي، عن أبيه - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح، وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه»؛ لقوله: ﴿وَالْأَلْمُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وفي الدعاء المأثور، عن أبي الدرداء - وروي مرفوعاً -: «اللهم لك الملك كله، والحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

﴿أَدْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦).

أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى دعائه، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قيل: معناه: تذللاً واستكانة، و﴿خُفْيَةً﴾، كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْأَهْمَرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْقَدْرِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَتَّانِينَ﴾ (٥٥) [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، ازعموا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائباً، إن الذي تدعونه سمع قريب». الحديث. وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللاً واستكانة لطاعته. و﴿خُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة. وقال عبدالله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الرزور وما يشعرون به. ولقد أدرتنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿أَدْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٥٥)، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ كَادَتْ رَبُّهُ يَدَّاهُ حَفِيحًا﴾ (١١) [مریم: ١٣]. وقال ابن جُرَيْج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالترضع والاستكانة، ثم روى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجيز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مخرق، سمعت أبا نعام، عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل».

ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبي نَعَامَةَ، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نَعَامَةَ: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعذبه من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور». وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نَعَامَةَ - واسمه: قيس ابن عباية الحنفي البصري - وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضمره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضمر ما يكون العباد. فنهى الله تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً مما عنده من وييل العقاب، وطعماً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنَّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُمْنِي لِذِينَ يَتَّقُونَ الرَّكُوعَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي الْأَتْحَمُ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تَنَجَّزُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُقْنُنُهُ لِيَكُونَ مَاءً بَارِدًا وَفَأَرْجَحْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفِخُ النُّفُوفَ لِمَلَكِكُمْ تَذَكُّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِأَيْدِي رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ نُفِخُ الْأَنْفُسَ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر - نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾ [الروم: ٤٦]. وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٥٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنجِي النُّفُوفِ وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٠]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُنْزُنُ تَحْمَلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمَلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وقوله: ﴿سُقْنُنُهُ لِيَكُونَ مَاءً بَارِدًا﴾ أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبت فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَبَتَّ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَوْتَهُ بِأَكْثُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٢٣]. ولهذا قال: ﴿فَأَرْجَحْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفِخُ النُّفُوفَ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيا الأجساد بعد صيرورتها ربيماً يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما نبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لِمَلَكِكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِأَيْدِي رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقْبَلُهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة، عن بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عن أبي بردة، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نفية قبلت الماء، فأنبتت الكلا والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشرىوا وسقوا

وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت، فذلك مثل من فقهه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به». رواه مسلم والنسائي من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّمَا لَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاعْبُدُوهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَسْتَكْبِرُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُن لَّيْسَ مِن سُلْطَانِي لَأَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مَن مِّن سَمَوَاتِي مَاءً فَتَكُونُ كَالِإِصْنَانِ الَّذِي يَمْلِكُ الْبَرَصَ وَالْمُتَمَثِّلِينَ ﴿٦١﴾ فَصَلِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۚ إِنَّهُمْ أَوْلَىٰ مُبْتَلَىٰ لِكُلِّ قَوْمٍ ۚ وَلِيَمْلِكَنَّ الْفُجَارَ إِنَّهُم لَأَكْثَرُ سَمَاءً ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام - فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم، عليه السلام. هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمان نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام، قاله عبد الله بن عباس. قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين «وداً وسواعاً ويعوثاً ويعوق ونسراً». فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّمَا لَكُمْ فِي سُلْطَانِي لَأَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مَن مِّن سَمَوَاتِي مَاءً فَتَكُونُ كَالِإِصْنَانِ الَّذِي يَمْلِكُ الْبَرَصَ وَالْمُتَمَثِّلِينَ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا رَأَيْنَاهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا يَوْمَ يَسْأَلُونَ هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الأحاف: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُن لَّيْسَ مِن سُلْطَانِي لَأَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مَن مِّن سَمَوَاتِي مَاءً فَتَكُونُ كَالِإِصْنَانِ الَّذِي يَمْلِكُ الْبَرَصَ وَالْمُتَمَثِّلِينَ﴾ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أَتَيْتُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَصْحَحْتُ لَكُمْ وَأَعْلَمْتُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرِكهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

﴿أَوْ يَحْتَسِبُ أَن جَاءَهُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّهِ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِإِسْمِ رَبِّهِمْ وَلَقَدْ كُذِّبُوا وَلَقَدْ نَفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ كَذِبًا لَّيِّنًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿أَوْ يَحْتَسِبُ أَن جَاءَهُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّهِ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِإِسْمِ رَبِّهِمْ وَلَقَدْ نَفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ كَذِبًا لَّيِّنًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا﴾ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنداركم ولتقوا نعمة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبُوا﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْفُلْكِ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا حَبَلَت بِهِمْ أَعْرَافُهُمْ فَأَنجَلُوا نَارًا فَكَلِمَةً يَّجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٦٥﴾﴾ [نوح: ٢٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا﴾ أي: عن الحق، لا يصبرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأولياته من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا لَنصُرَنَّ مَن رَّسَلْنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِضَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العقاب للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح عليه السلام بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. قال

مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح عليه السلام إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم «جزهم»، وكان لسانه عربياً. رواه ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلًا عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ إِذْ أَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَارِفُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ لِقَاءَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْكُ مِنْ أَمْرِ ابْنِهِ يُوسُفَ إِذْ أَخَذَهُ بِالْحَبْلِ وَكَانَ يُوسُفُ نَارِيًّا فَبُذِلَ يَسُفًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الْأَرْضَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِذْ لَرَزْنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّرُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّرُونَ لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ وَلَكِنَّهُ رُسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكِينَ ﴿١٨﴾ أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ رُسُودٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رُءُوسِ أُولَئِكَ لِيُزَكَّيْكُمْ وَأَذَكَّرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ نُوْحًا وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فَذَكَرُوا أَلَاءَ اللَّهِ لَمَّا كَانُوا يَفْجُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم من ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله تعالى، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَعَلْنَا لِبَنِي إِدْرِيسَ إِسْمَهُمْ يُوسُفَ إِذْ كَانُوا الْيَتَامَىٰ ﴿١٦﴾﴾. ﴿وَأَنَّا جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ أُمَّةٍ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَشِدَّ مِنْ بِرِّهِمْ وَسَاءَ لِمَنْ أَشَدَّ قُوَّةً أَزْوَاجًا إِنَّهُمُ اللَّهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [صفت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزازي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيراً أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أزرار وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود، عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هوداً، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يعيثنهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الْأَرْضَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ - والملاء هم: الجمهور والسادة والقادة منهم -: ﴿إِنَّا لَنَظُنُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما تعجب الملاء من قريش من الدعوة إلى إله واحد ﴿فَقَالُوا﴾: ﴿أَجْمَلُ الْآلِهَةِ إِلَهِهَا رَبُّنَا إِذْ هَذَا لِقَاءُ رَبِّنَا﴾ [ص: ٢٥].

﴿قَالَ يَتَقَوَّرُونَ لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ وَلَكِنَّهُ رُسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكِينَ﴾ أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ رُسُودٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنَّا لَنُؤْتِيكُمْ لَكُمُ النَّاصِحَاتِ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة. ﴿أَوْ يَجْعَلُونَ أُمَّةً ذَكَرْتُمْ مِنْ رُسُلِكُمْ عَلَىٰ رُءُوسِ أُولَئِكَ لِيُزَكَّيْكُمْ وَأَذَكَّرُوا﴾ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذرهم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم، ﴿وَأَذَكَّرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ نُوْحًا وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى في قصة طالوت: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فِي الْوَلَدِ وَالْجَسَدِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَأَذَكَّرُوا أَلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه ومننه عليكم ﴿لَمَّا كَانُوا يَفْجُرُونَ﴾ وآلاء جمع الي وقيل: إلي.

﴿قَالُوا أَجْعَلْنَا لِعِبَادِكُمْ اللَّهُ وَحْدَهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَمْبُؤُا مَبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَا نَدَّرْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنَّا لَنُؤْتِيكُمْ لَكُمُ النَّاصِحَاتِ﴾ أي: ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿فَأَجْعَلْنَا وَالَّذِينَ مِمَّنْ رَحِمُوا مِنَّا وَقَلَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجْعَلْنَا لِعِبَادِكُمْ اللَّهُ وَحْدَهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَمْبُؤُا مَبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَا نَدَّرْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حُجْرًا مِنْ عِبَادِكَ فَاطْرُقْ عَلَيْنَا حِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِدْرَابًا آيِسَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صُمُود، وآخر يقال له: الهباء. ولهذا قال هود، عليه السلام:

﴿قَدْ وَفَّعَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجَسًا وَعَظَبًا﴾ أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربحكم رجس وغضب، قيل: هو مقبول من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب. ﴿أَتَجِدُلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَبَيْتُومًا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتجاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وأبائكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾. وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَجْبِنُوا وَالَّذِينَ مَعَهُ يَرْحَمُهُمْ رَبَّنَا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَقْبَرُكُمْ بِرِيحٍ مَسْرُورٍ عَلَيْهِمْ ﴿٦١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَلَيَنَّ آيَاتِهِمْ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًا كَانْتُمْ أَعْمَارًا تَحْلِي حَاوِيَةَ ﴿٧٢﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]. لما تمردوا وعتوا أهلهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتتلغ رأسه حتى تبيته من جنته؛ ولهذا قال: ﴿كَانْتُمْ أَعْمَارًا تَحْلِي حَاوِيَةَ ﴿٧٢﴾﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي أتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكنتمون بإيمانهم، فلما عنت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ رِيحًا يَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَتَتَّبِعُونَ مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا بَلَغَشْرُ بَطْشَتَرٍ جَبْرِينَ ﴿١٤٠﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْمُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٣٨ - ١٤١]. ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابًا مِمَّا يَمْشُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ إِنْ أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَرَأْسُهُ أَتَى بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُونَ بِمَا لَا يَشْطُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَيَزِيدُكُم مِّنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦]. قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحزمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند الملل، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة ابنة الخبيري، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قيتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتين أن تغنياهم به، فقال:

أَلَا يَا قَيْلٍ وَيَحْكُ قُمْ فَهَيْئَتُنْمُ
فَيْسَقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جِهَارًا
وَأَنْتُمْ هَهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ
فَقُفِّحْ وَقُدُّكُمْ مِنْ وَقْدِ قَوْمٍ

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو: «قيل بن عنز»، فأنشأ الله سبحانه ثلاثاً: بيضاء، وسوداء، وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: «تختر لنفسك - أو: لقومك - من هذا السحاب»، فقال: «اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء» فناداه مناد: اخترت زماداً رمداً، لا تبقي من عاد أحداً، لا والدأ ترك ولا ولداً، إلا جعلته همدأ، إلا بني اللوذية المهندا قال: وبنو اللوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصعب ما أصاب قومهم - قال: وهم من بقي من أنسالهم وذريتهم عاد الآخرة - قال: وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكر، التي اختارها «قيل بن عنز» بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث»، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا

عَارِضٌ مُّهِيطًا» يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥] أي: تهلك كل شيء مرت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مهّدد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعبت. فلما أفاقوا قالوا: ما رأيت يا مهّدد؟ قالت: ريحاً فيها شُهْبُ النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله. و «الحسوم»: الدائمة - فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك. واعتزل هود، عليه السلام، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد الطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب، فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أُنْحَاؤُنَا جِئْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالريذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد بسيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الذبيرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألنتي أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فأجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مغزى حَمَلت حنفها»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قُحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: «قيل»، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان، يقال لهما: «الجرادتان»، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به صحابيات سود، فنودي منها: «اختر». فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: «خذها رماً رمدداً، لا تبقي من عاد أحداً». قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به نحوه. ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم - وهو ابن بهذلة - ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب عن زيد بن حَبَاب، به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكري» فذكره، ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن يزيد البكري، فذكره، ولم أر في النسخة «أبا وائل»، والله أعلم.

﴿وَلِكِ ثَمُودَ أَنَا هُمْ مَكِيلًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءُ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَدَا عَادٍ وَتَوَكَّلْ فِي الْأَرْضِ تَنَجَّدْتُم مِّن سُوءِهَا فَضُورًا وَنَجْوَى الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْتِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَن آمَنَ مِنهُم أَن تَكُونُوا أَنتُمْ مَكِيلًا كُرْسَلًا مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُ بِهِ مُؤْتَمِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِينَ آمَنتم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَسَوْا عَلَن أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّقَانًا يَمَّا يَمْدَنَّ إِنَّ كُت مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْمُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيين ﴿٨٠﴾﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جدديس بن عائر، وكذلك قبيلة طَسَم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومسكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومسكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جُويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها

القدور. فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدرور، وعلفوا المعجین الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأصل هذا الحديث مُخْرَج في الصحيحين من غير وجه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينثكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعدابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سأله قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتضدّر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعتروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعتروها، فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

ف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوهُم مَّا لَهُمْ مِنْ دُونِ مَا أَنْزَلْنَا لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَلُونَ عَنْهُ وَيَحْتَسِبُونَ مَا هِيَ إِلَّا أُذُنُ يُسْمَعُ بِهِ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به. وكانوا هم الذين سألوها صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عتيوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشْرَاءَ تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح اليهود والموائيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه؟ فلما أعطوه على ذلك عهدهم وموآثيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، ﷻ، فتحرّكت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ يتحرك جنبها بين جنبها، كما سألوها، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصددهم «ذؤاب بن عمرو بن لبيد» «والحباب» صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جهلس، وكان ل «جندع بن عمرو» ابن عم يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلدة بن لبيد بن جواس»، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له مهوس بن عنمة بن الدميل، رحمه الله:

وكانت غضبة من آل عمرو
عزيز ثمود كلهم جميعاً
لأصبح صالح فينا عزيزاً
ولكن العنوة من آل حنجر
إلى دين النبي دعوا شهاباً
فهم بأن يجيب فلو أجاباً
وما عدلوا بصاحبهم ذؤاباً
تولوا بعد زشدتهم ذباباً

فأقامت الناقة وفصلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بثرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَذَرْنَهُمْ إِنْ أَلَمَّتْ قِسْمًا بِئْتِهِمْ كُلُّ فِرْيَوْنٍ مُتَحَضِّرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الفر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لِمَا يَشْرِبُونَ وَلَكِنَّ يَوْمَ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، عزموا على قتلها،

ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً. قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۗ﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنَ النَّاقَةِ فَكَلَمُوا بِنهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فأسد ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضی جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنى أم غنم، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا بن دهر بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلاً يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصعد بن مهران بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك. ودعت «عنيزة بنت غنم» قدار بن سالف بن جُنْدَع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: «صهيد»، ولكن ولد على فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك، انطلق «قدار بن سالف» و«مصعد بن مهران» فاستفزا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ فِي الْيَدَيْنِ يَتَّبِعُ رَهْطٌ يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۗ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصعد» في أصل أخرى، فمرت على «مصعد» فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت «أم غنم عنيزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار وذمرته فشد على الناقة بالسيف، فكشف عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاء واحدة تحذر سبها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سبها. وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا - فرؤى عبد الرزاق، عن معمر، عن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل في صخرة فغال فيها، ويقال: بل اتبعوه ففعلوه مع أمه، والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحاً، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَسْتَمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آثَارٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرٌ مَكْدُوبٌ﴾ [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح عليه السلام، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألقناه بناقته! ﴿قَالُوا قَتَلْنَا بِاللَّهِ كَيْسَتَكُمْ وَأَهْلَكُمْ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۗ﴾ ﴿مَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۗ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ۗ﴾ ﴿فَبَلَغْتَ يَوْمَهُمْ حَارُونَكَ يَمَا ظَلَمُوا ۗ﴾ الآية [النمل: ٤٩ - ٥٢]. فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله، سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله، عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث في أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نعمة الله وعذابه، عياداً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وقد أشرفت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورزفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَنصَبُوا فِي دَارِهِمْ جَبِينًا ۗ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى - قالوا: إلا جارية كانت مقعدة - واسمها «كلبة ابنة السلتى»، ويقال لها: «الزريقة» - وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأيت من العذاب، أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كاسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت. قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النعمة بقومه مقيماً في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف. قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟»

فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن لهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فمهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن». وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَيْر بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه، أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدرة الناس فاستخرجوا منه الغصن». وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به. قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز. قلت: تفرد بوصله «بُجَيْر بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم. قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنَّمُ وَقَالَ يُقَوِّرُ لَقَدْ أَنبَأْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّوْبَةَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تقييد من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقييداً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب، قلب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم: «بئس عشيرة النبي ﷺ كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس، وقتلتُموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كتم لنبيكم».

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَنبَأْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّوْبَةَ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زُئَمَةُ بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ ببوادي عُسفان حين حج قال: «يا أبا بكر، أي وادي هذا؟» قال: هذا وادي عُسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات خضر حطَّها الليف، أزرهم العباء، وأردبتهم التمار، يلبون، يحجون البيت العتيق». هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ قد أرسلنا ﴿وَلَوْطًا﴾، أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿وَلَوْطًا﴾ إذ قال لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾. ولوط بن هاران بن أزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل «سَدُومَ» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، ﷻ ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تالفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُومَ» عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما نرأى ذكر عليّ ذكر، حتى كان قوم لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، ﷻ قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ﴾ أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ لَّنِي إِن كُنْتُمْ فَعِيلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، فأرشدهم إلى نساتهم،

فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَرَبِّكَ لَعَلَّ مَا تُرِيدُ﴾ [٧٦] ﴿مورد: ٧٦﴾ أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نسائهم كن قد استغنى بعضهم ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾ [٨٧].

أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من المؤمنين من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾، قال قتادة، عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾ من أديار الرجال وأديار النساء. وروي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَأَعْيَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَسْرَأْتَهُ كَانَتْ مِنِ الْفَتَرِيِّينَ﴾ [٨٢] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَّاطِرًا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٨٤].

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٥] ﴿فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمَسْجِدِينَ﴾ [٦٦] ﴿الذاريات: ٣٥، ٣٦﴾، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تاملتهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يسري بأهله أمر ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا أَسْرَأْتَهُ كَانَتْ مِنِ الْفَتَرِيِّينَ﴾ أي: الباقين. ومنهم من فسّر ذلك ﴿مِنِ الْفَتَرِيِّينَ﴾ من الهالكين، وهو تفسير باللائم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَيْبِلٍ مَّضْمُورٍ﴾ [٨٢] ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْأَنْطَلِقِيَّاتِ بِعِيْبٍ﴾ [٨٢] ﴿مورد: ٨٢، ٨٣﴾، ولهذا قال: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من تجهروا على معاصي الله وكذب رسله. وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللانظ يلقى من شاطئ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن. وهو أحد قولي الشافعي، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال آخرون: هو الكالزاني، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً واحداً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَإِلَّ مَدِينَةٍ أَنَاهُمْ شَيْبًا قَالَ يَقْتُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِندِي قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا الْكَيْسَ أَنشَبَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٨٥].

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة «مدين بن مديان بن إبراهيم». وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: «يشرون». قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَقْتُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِندِي﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتمكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتديساً، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِئِينَ﴾ [١] ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [٢] ﴿وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٣] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [٤] ﴿يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [٥] ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦] ﴿المطففين: ١-٦﴾، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة مواعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ. وَتَبْغُوهَا غَوَجًا وَادْكُرُوا إِذَا كُنْتُمْ قِيلًا نَّكَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨٦] ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ. وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [٨٧].

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب لاتباعه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَرْتُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلنتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترانهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَلَمَّا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِرُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليّ ﴿فَأَصْرَبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَبِيرِينَ﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ أَلَمْ آتِ الْذِينَ اسْتَكْرَبُوا مِنْ قَوْمِي لِنَجْرَتِكَ يَسْمِئُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينَاتٍ أَوْ تَتَوَدَّوْنَ فِي مَلِيئَاتٍ قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِتَابًا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاقِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة. وقوله: ﴿أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلوا ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمتنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا تعبير منه عن اتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء علماً، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاقِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿رَفَعْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي لَمَّا كَانُوا فِي أَمْرٍ إِذْ لَخِيرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُودًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْقَهُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْغَافِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليهم قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَمَّا كَانُوا فِي أَمْرٍ إِذْ لَخِيرُونَ﴾، فلهذا عقب ذلك بقوله ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُودًا ﴿٩٠﴾﴾، أخبر تعالى فهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَسْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُنُودًا ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قوله: ﴿أَسَلْنَاكَ أَنْ تَأْمُرَكَ أَنْ تَقُولَ مَا يَغْبَغُ أَهْلَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا فَشَرْنَا بِكَ لَأَنَّ الْكَلِيمَ الرَّشِيدَ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتتهم. وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتَهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلُمِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٩٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخدمت الأجساد، ﴿فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُودًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال مقابلاً لقيهم: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْغَافِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ «شعيب» عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَقُولُوا لَقَدْ آتَيْنَاكَ رَسُولًا مِّنْ رَبِّكَ فَاعْبُدْهُ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فلهذا قال: ﴿فَكَيفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ؟﴾

أي: فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَقُولُوا لَقَدْ آتَيْنَاكَ رَسُولًا مِّنْ رَبِّكَ فَاعْبُدْهُ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فلهذا قال: ﴿فَكَيفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ؟﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويتهللون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا. وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا، ليضرعوا ويُنبيوا إلى الله، فما نَجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء؛ ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نبيئاً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدرى فيم يربطه أهله، ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة كما جاء في الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّعُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَعَمْنَا لِيَمِينِنَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَظَابَ الْخُرُوبِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس: ٩٨] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ يَأْسَافَ أَخِي أَن بُرِّدُوا فَأَنذَرْنَاهُمْ يَوْمَ حِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [سبا: ١٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّعُوا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿فَلَفَتْنَاهُمْ عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أو آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٧﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصري، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُتَّقٍ وَجَلْ خَائِفٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أو لم نبين، وكذا قال مجاهد والسدي، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أو لم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم نبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطَّعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿١٠٠﴾﴾

[طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَاشْتَوْنَ فِي سَكَتِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴿١٠١﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّا قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالِي ﴿١٠٢﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيْنَ لَكُمْ لَكُمُ كَيْفَ فَكُنَّا يَوْمَهُمْ وَخَرَّبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٠٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ نَحِشُ مِنْهُمْ مِنْ آسِئِدٍ أَوْ نَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مریم: ٩٨] أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ مِنْكُمْ لِكُرِّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ بُرُودًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وَقَدْ مَكَتْهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَتْكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمَاءً وَاصْرًا وَآفِئَةً فَمَا آفَتْ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أُفُؤُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَقَابِيمِ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَلْقَوُا عِندَنَا مَا بَدَأْتَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا كَذَلِكَ كَانَ تَكْوِيرٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ كَانَ تَكْوِيرٌ ﴿٩٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ خَرَابٍ مِنْهَا وَيَرَىٰ مُطَبَّرَةً وَقَصِيْرٌ مُشِيدٌ ﴿١٠٣﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٠٤﴾﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَضَيَّرْنَا بِمُوسَىٰ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَخَافَ بِالْبِاطِلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمة بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿يَذَكِّرَ الَّذِينَ يَكْفُرُ تَعَسَّىٰ عَلَيْكَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَقْدَامُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ .

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعد إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿يَذَكِّرَ الَّذِينَ يَكْفُرُ تَعَسَّىٰ عَلَيْكَ ﴿١٠٦﴾ أَي: يا محمد ﴿مِنْ آبَائِهِمْ﴾ أَي: من آباؤهم، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْفُرْقَانِ تَعَسَّىٰ عَلَيْكَ بَيْنَا قَائِمٌ وَصَحِيدٌ ﴿١٠٧﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: الباء سببية، أَي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاها ابن عطية، رحمه الله، وهو متوجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يَبْعُرْكُمْ نَهْمًا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أَي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه عليهم هو ما جبلهم عليه وظهرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وخرمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث. وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنْ لِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْجَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهُهُمُ الْعِبَادُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا بِكَ كِلْتَا أُمَّتٍ رَسُولًا أَنْتَ مُخْبِرٌ اللَّهُ وَتَحْتَابُوا الطَّلُوعَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ما روى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العلية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أَي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال السدي: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبُؤُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسَىٰ بِآيَاتِنَا إِكْرَامًا وَعَفْوَاعًا لَمَّا ظَنَرُوا أَنَّا قَانُظِرٌ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿مَوْسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ أي: قومه، ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلَتْنَاهَا أَفْسُهَا ظَلَمًا وَعُتُوًّا قَانُظِرٌ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [النمل: ١٤] أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقتهم عن آخرهم، برأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي الْعَلِيِّينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْزِلْ لِي بَيِّنَةً إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي الْعَلِيِّينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه. ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به. وقالوا: و «الباء» و «على» يتعاقبان، فيقال: «رميت بالقوس» و «على القوس»، و «جاء على حال حسنة» و «بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بمعنى: واجب وحق عَلَيَّ ذلك ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَنْزِلْ لِي بَيِّنَةً إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك ووبهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم صلوات الرحمن. ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لئراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَةٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدي، والضحاك. وفي حديث «الفتون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل. وقال قتادة: تحوّلت حية عظيمة مثل المدينة. وقال السدي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ﴾. والثبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لخيها، الأسفل في الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه. فلما رآها دعر منها، وثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل. فأخذها موسى، عليه السلام، فعادت عصا. وروي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا. وقال وهب بن منبه: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فرد إليه موسى الذي ردّ، فقال فرعون: خذوه، فبادره موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾، فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت. رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم. وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَةٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعدما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بِيضَةٍ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ﴾ [النمل: ١٢]. وقال ابن عباس في حديث الفتون: أخرج يده من جيبه فأراها بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ﴾، يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا سَتِجْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَنْتُمْ فَآذَانًا تَأْتُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه زوعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّكَ هَذَا سَتِجْرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كملكته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في

أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافتراءهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّيَ فَرَعُونَ وَمَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦]. فلما تشاوروا في شأنه، واتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا آتِنَا آيَةً وَأَنْزِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكَّلْ عَلَيْكَ الْغِيْبُ ﴿١١٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿آتِنَا آيَةً﴾: آخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَنْزِلْ﴾: أي: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾: أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾: أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبه سحرتهم؛ فلهدأ جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراه من البيئات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجْعَلْنَا لِنُحْرِمَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ ﴿١١٣﴾ فَلَسْنَا بِأَتَيْنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِبُهُ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَاثِرٌ ﴿١١٤﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ شُحًى ﴿١١٥﴾ فَتَوَكَّلْ فَرَعُونَ فَجَعَلَ كَعْدَهُمْ ثُمَّ أَنْ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ٥٧ - ٦٠] وقال تعالى ههنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُوا يَمْؤُوسَ إِنَّا أَن تُلْفَىٰ وَإِنَّا أَن نُّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْجَبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٩﴾﴾.

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم: ﴿إِنَّا أَن تُلْفَىٰ وَإِنَّا أَن نُّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: أي: قبلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأِنَّا أَن نُّكُونَ أَوْلَىٰ مَن أَلْفَىٰ﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾: أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْجَبُوهُمْ﴾: أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِّن سِحْرِهِمْ أَتَىٰ نَفْسَهُ ﴿١٢٠﴾ فَأَوَّسَّ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةً مِّمَّا ﴿١٢١﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ بَلَغَتْ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٢٢﴾ وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طويلاً. قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صَفَّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه معه أشرف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَمْؤُوسَ إِنَّا أَن تُلْفَىٰ وَإِنَّا أَن نُّكُونَ أَوْلَىٰ مَن أَلْفَىٰ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي، فإذا حيات كامثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السُّدِّيُّ: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْجَبُوهُمْ﴾ يقول: فَرَفَوْهُمْ: أي: من الفرق. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْبَةَ، عن هشام الدُّسْتَوَائِي، حدثنا القاسم بن أبي بَرَّة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف جبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَرْجَحًا إِلَىٰ مَوْسَىٰ أَنَّ آتَىٰ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٤﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ فَغَلَبُوا هَمَّا بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٦﴾ وَالَّذِي السَّحَرَةُ سَجَدِينَ ﴿١٢٧﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٨﴾ رَبِّ مَوْسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾: أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيء من حبالهم ولا من حُشْبِهِمْ إلا التقتته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من

السماء، وليس هذا بسحر، فخرؤا سجداً وقالوا: ﴿أَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: جعلت يتلع تلك الجبال والعصي واحدة واحدة، حتى ما يُزى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى، فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان فاغر فاه، يتلع حبالهم وعصيهم. فألقى السحرة عند ذلك سجداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمْسِكْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَنَّ لَكَ إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَمْلِكُونَ﴾ لأَطْعَمَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسَلَكُمْ مِنْ خَلْفِ ثُمَّ لأَصْلِحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُقْبَلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا نُنْفِئُهَا إِلَّا أَنْتَ أَمَّا يَا بَنِي لَنَا جَاءَتْهَا رَبَّنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا صَدْرًا وَتَوَقَّأً مُسْلِمِينَ ﴿١٢٥﴾.

يخبر تعالى عما توعده به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا﴾ أي: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الشَّيْخُ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مدين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعا ع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَاقُ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم. وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قالوا: التقى موسى، عليه السلام، وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبت أتؤمن بي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لأتئين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأؤمن بك ولأشهدن أنك حق. وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلماذا قال ما قال. وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿سَوْفَ تَمْلِكُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَطْعَمَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسَلَكُمْ مِنْ خَلْفِ﴾ يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس. و ﴿لَأَصْلِحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٦٧] أي: على الجدوع. قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون. وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُقْبَلُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله ما تدعوننا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَدْرًا﴾ أي: عمن بالصبر على دينك، والثبات عليه، و﴿تَوَقَّأً مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَأَقِمْ وَآتَ قَابِئًا إِنَّمَا نَقْبِي هَذِهِ الْمَلِيزَةَ الذَّنْبِيَّةَ﴾ ﴿١٢٤﴾ إِنَّا أَمَّا رَبِّنَا لِيَفْرَ لَنَا حَطْلِينَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٢٥﴾ إِنَّهُ مِنْ بَاتٍ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى ﴿١٢٧﴾ [طه: ٧٢-٧٥]، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء برة. قال ابن عباس، وعبيد بن عمير، وقناة، وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَدَرَكَ وَالْهَيْكَلُ قَالَ سَقَطَ إِلَهُكُمْ وَسَقَطَ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا قَوْمُهُمْ قَهْرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوَلَيْسَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾.

يخبر تعالى عما تمألا عليه فرعون وملؤه، وما أظهره لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي: أنذعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يالله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَدَرَكَ وَالْهَيْكَلُ﴾، قال بعضهم: «الواو» هنا حالية، أي: أنذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب: ﴿وقد تركوك أن يعبدوك وألهتك﴾، حكاه ابن جرير. وقال آخرون: هي عاطفة، أي: لا تدع موسى يصنع هو

وقومه من الفساد ما قد أقرتهم عليه وعلى تركه آلهتك. وقرأ بعضهم: ﴿إلهتك﴾ أي: عبادتك، وزوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبد في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جمانة في عنقه معلقة يسجد لها. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾: وآلهته، فيما زعم ابن عباس، كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً.

فأجابهم فرعون فيما سألوها بقوله: ﴿سَتَقِيلُ آثَاتَهُمْ وَنَسِيحِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رآه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه هذا أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْمِعُوا بِلِلَّهِ وَأَطِيعُوا﴾، ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَالُوا أُوذِيَنا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِئْسَ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك. فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْيَمِينِ وَنَقَصْنَا مِنَ الْأَمْزَاتِ لَعَلَّهُمْ يَدْعُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحِسَّةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيئَةً يَطْمَئِنُّوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْفَرْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اخترناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالْيَمِينِ﴾ وهي سببي الجوع بسبب قلة الزروع، ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الْأَمْزَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك. وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن خيرة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْعُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحِسَّةُ﴾ أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه، ﴿وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيئَةً﴾ أي: جذب وقحط ﴿يَطْمَئِنُّوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به. ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال الله: ﴿وَلَكِنْ أَكْفَرْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال: إلا من قبل الله.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِيَنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيُضْحِكَنَا بِهَا فَمَا عَنْكَ بِمُؤَيِّنٍ ﴿١٣٢﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْبَعَادِ وَالذَّيْبَ مُضْمَلِينَ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا رَفَعْنَا عَنْهُمْ الْوَيْلَ الَّذِي كَانُوا فِيهِ عَنِ الْجَرَادِ كَذَّبُوا وَلَمَّا عَلَّمْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْجَزَأَ لَكَ أَجَلٌ لَهُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَتَخَوُّونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذا إخبار من الله، ﷻ، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِيَنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيُضْحِكَنَا بِهَا فَمَا عَنْكَ بِمُؤَيِّنٍ﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾. اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مزاحم. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال. وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا الميثال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مينا، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿الطُّوفَانَ الموت﴾. وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان به، وهو حديث غريب. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا عَلَّمْنَا طَائِفًا مِنْ رَبِّكَ وَمَنْ تَابَهُونَ ﴿١٣٢﴾ فَاصْبَحْتَ كَالصَّرِيعِ ﴿١٣٣﴾﴾ [القم: ١٩، ٢٠]. وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد. وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ﴿أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال﴾. ورواه أبو القاسم البغوي، عن داود بن رشيد، عن سويد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وروى أبو داود، عن محمد بن الفرج، عن محمد بن الزبير عن الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: ﴿أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرمه﴾. وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوطين، ولا الضب، من غير أن يحرمها. أما الجراد: فرجز وعذاب. وأما الكلوطان: فلقرهيهما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً»، ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشتهي ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: لست أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبي ﷺ يتهاذين الجراد على الأطباق. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن زُهير، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن ثُمَيْر بن يزيد القِنَبي، حدثني أبي، عن صُدَي بن عَجَلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها ﷻ، أن يطعمها لحماً لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أشهه بغير رضاع، وتابع بيته بغير شياخ». وقال ثُمَيْر: «الشياخ»: الصوت. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك الزَّيْني، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن صَمُضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي زُهَيْر النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جداً. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجُرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برجل من جراد في السماء، وإذا برجل راكب على جَرَادَة منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قبح الله الجراد. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وقد قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أَيْلُكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَمَامُهُ مَتْنًا لَكُمْ وَالسِّيَّارَةُ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبي المَهْزَم، عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة، فاستقبلنا رجلٌ جراد، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «لا بأس بصيد البحر». وروى ابن ماجه، عن هارون الحمالي، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلَانة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ؛ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم اهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت في البحر». قال هاشم: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك: أن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يققس كله جراداً طياراً. وقد مرنا عند قوله: ﴿إِلَّا أُمَّ أُمَّتِكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، حديث عُمَر، رضي الله عنه: «إن الله خلق ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد». وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب.

وأما ﴿وَالْقُمَّلُ﴾ فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبى - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَالْقُمَّلُ﴾: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْقُمَّلُ﴾: البراغيث. وقال ابن جرير: ﴿القمل﴾: جمع واحدها «قُمَّلة»، وهي دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغني، وهي التي عنانا الأعشى بقوله:

قوم تمالج قُمَّلاً أبناؤهم
وسلاسلاً أجدأ وباباً مؤصداً
قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحمنان»، واحدها «حمناة»، وهي صغار القردان فوق القمقامة. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى، عليه السلام، فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله

عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فتؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والتمر والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ، عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فتؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرقوا في البيوت، فقالوا: قد أحرقنا. فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى، فلا يرد منها ثلاثة أفقرة. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فتؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق الضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ قال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى دُفته في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فتؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم فلم يؤمنوا. وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا عن ابن عباس، والسدي، وقادة وغير واحد من علماء السلف.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذ بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدر على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الْجَرَادَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرِيَنَّكَ مَلَكًا بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى، عليه السلام، أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه. فلما جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عبيطاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن يزيد، عن عكرمة، قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون، انطلق ضفدع منها فوق في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسييح. وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَانقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِكَ الْأَرْضِ وَعَصَيْبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَتَ رَبُّكَ الْخَصْقَ عَلَيَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، أنه انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَشَارِكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرُودُ أَنْ تَتَنَزَّلَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلُهُمْ أَيْمَةً وَجَمَلُهُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٣٧﴾ وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبَّى فِرْعَوْنَ وَجَمَلَهُمَا وَتَمَكَّنَ مَا كَانُوا يَحَدِّثُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

[الفصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَجُجُونَ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعَمُوا كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وعن الحسن البصري وقناة، في قوله: ﴿مَشْرُوكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَدَرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَكَمَّتْ كِلْمَتُ رَبِّكَ الْحَسَقُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَوَيْدُ أَنْ تَتَنَزَّلَ عَلَى الذَّرَبِ اسْتَضْمِيئُوا فِي الْأَرْضِ وَيَحْمِلُهُمْ آيْمَةٌ وَيَحْمِلُهُمُ الزُّبُرِيُّكُ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَرُبُّوا فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنَ وَجُودُهُمَا يَنْهَمُ مَا كَانُوا يَحْتَدِرُونَ ﴿٦﴾﴾. وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ أَي: وخرينا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَمْرُسُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَمْرُسُونَ﴾: ينون.

﴿وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَسْنَابٍ لَهُمْ قَالُوا يَتَمَوَّى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ لَمَثَلٌ لِمَنْ تَطَّلَى مَا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَاتُوا﴾ أي: فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَسْنَابٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَتَمَوَّى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل. ﴿إِنَّ هَذِهِ لَمَثَلٌ لِمَنْ تَطَّلَى مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾. أي: هالك ﴿تَطَّلَى مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل، ومعمر، كلهم عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَذِهِ لَمَثَلٌ لِمَنْ تَطَّلَى مَا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿١٣٩﴾﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه «ذات أنواط»، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده مرفوعاً.

﴿قَالَ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَّبِعُونَ إِنَّهَا رَهْمٌ فَلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَا مِيثَاقًا بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَشُومُونَكُمُ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَلْقَاوْنَ أَنَاءَكُمْ يُنْسَخُونَ نَسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

يذكرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتهاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّا رَزَيْتَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَجْزِهِ هَؤُلَاءِ اخْتَلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَسْلَيْتُ وَلَا تَنْبَغُ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين. وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْبَيْتُكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدَنَّاكَ جِيبَ الْطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية (طه: ٨٠)، فحينئذ

استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي لِجِبَلِكِ قَالَ لَنْ رَتِّنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ لِي آيَاتِكَ قَالَ رَبُّهُ إِنَّكَ قَالَ لَنْ رَتِّنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ لِي آيَاتِكَ قَالَ رَبُّهُ إِنَّكَ قَالَ لَنْ رَتِّنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ لِي آيَاتِكَ قَالَ رَبُّهُ إِنَّكَ قَالَ لَنْ رَتِّنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ لِي آيَاتِكَ﴾ [١٤٣].

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي لِجِبَلِكِ قَالَ لَنْ رَتِّنِي﴾. وقد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنورها عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَارُ﴾ [١٧] ﴿لَنْ رَتِّنَا نَظَرًا﴾ [١٣] ﴿الغنيمة: ٢٢، ٢٣﴾. وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [١٥] ﴿المطففين: ١٥﴾. وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١٧] وقد تقدم ذلك في الأنعام [الآية: ١٠٣].

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا﴾. قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سَهْلُ الواسطي، حدثنا قُرَّةُ بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لما تجلَّى ربه للجبل، أشار بإصبعه، فجعله دكاً» وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة. هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا حَمَادُ، عن لَيْثِ، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا﴾ قال: «هكذا بإصبعه - ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر - فساخ الجبل». وهكذا وقع في هذه الرواية «حماد بن سلمة، عن لَيْثِ، عن أنس». والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا هُدَيْبُ بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل - قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقول رسول الله ﷺ، ويقولون أنس، وأنا أكنمه؟. وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا﴾ قال: «هكذا - يعني أنه خرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ، فتقول أنت: ما تريد إليه؟!».

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن سلمة، به. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. وهكذا رواه الحاكم في مستدرکه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، عن محمد بن علي بن سُوَيْدِ، عن أبي القاسم البغوي، عن هدية بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب، ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر، بنحوه. وأسنداه ابن مردويه من طريقيين، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه، وأسنداه ابن مردويه من طريق ابن البيهقي، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً، ولا يصح أيضاً.

وقال السُّدِّي، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ﴾ قال: ما تجلَّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُمْ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا﴾ قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا﴾ قال: ميتاً. وقال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. وقال سُوَيْدِ، عن حجاج بن محمد الأعمور، عن أبي بكر الهذلي: ﴿فَلَمَّا جَحَلْنَا رُؤْيُ الْجِبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا﴾ انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شُبَيْبَةَ، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك؛ أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبال، طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور». وهذا حديث غريب، بل منكر. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حُصَيْن بن عَلَاق، عن غَزْوَةَ بن رُوَيْم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلّى الله لموسى على الطور صُماً مُلْساً، فلما تجلّى الله لموسى على الطور ذلك، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل ذلك من الدكان. وقال بعضهم: «جَمَلًا دَكًّا» أي: فته.

وقال مجاهد في قوله: «وَلَكِنْ أَنْظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ إِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ سَوَفَ رَنِينًا»: فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعباً. وقال عكرمة: «جعلته دكاء» قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه. والمعروف أن «الصَّعِقُ» هو الغشي ههنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرِهِمْ» [الزمر: ٦٨]، فإن هنا قرينة تدل على الموت كما أن هناك قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ»، والإفاقة إنما تكون من غشي.

«قَالَ سُبْحَانَكَ»: تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله: «بُئِيَثَ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الرؤية. «وَأَنَا أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ»، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «وَأَنَا أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ» أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله تعالى أعلم.

وقوله: «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ: فأما حديث أبي سعيد، فأسنده البخاري في صحيحه ههنا، فقال: حدثنا حمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم في وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنني مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة، فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفأق قبل أم جوزي بصعقة الطور». وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه، وأبو داود في كتاب «السنن» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري، به. وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استنأه الله، ﷻ». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الزهري، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، رحمه الله: أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم. والكلام في قوله، عليه السلام: «لا تخيروني على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي

والشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلي الرب، ﷺ، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة، حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»، ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى. انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى متناه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَمْسُوحٌ إِنِّي أَسْطَلُّكَ عَلَى النَّاسِ يَرْسَلُوكَ وَيَكْفِيكَ فَمَذَّ مَا آتَيْتُكَ وَكَرَّ مَتَّ الشُّكْرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمُورٌ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسْبِ سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يذكر تعالى أنه خاطب موسى عليه السلام بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه تعالى، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخَذَّ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام والوحي والمناجاة ﴿وَكُرَّ مَتَّ الشُّكْرِينَ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصِكَايِرَ لِلنَّاسِ﴾ [الفصم: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم. وقوله: ﴿فَخَذَهَا يَمُورٌ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسْبِ﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟ قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القاتل لمن يخاطبه: «سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري. وقيل: معناه ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام، وأعطيك إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا سَيْلًا رُشِدًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا سَيْلًا رُشِدًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةَ حِطَّتْ عَنْهُمْ هَلْ يَجُوزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾ [الانعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٢٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حبي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذلك التعلم ساعة، بقي في ذلك الجهل أبداً. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا سَيْلًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ حَقًّا يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا سَيْلًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشده، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً. ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

يَتَابِعْتَنَا ﴿١٤٨﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَاثُرًا عَنَّا غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعملون شيئاً مما فيها. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجِزُّونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَكْمُلُونَ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تदान.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّؤَسِّسِينَ مِنْ مُّبَدِّينَ مِنْ حُبِّهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَمْ خَوَّارٌ أَلَدَّ بَرًّا أَنَّهُ لَا يَكْفُلُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٩﴾﴾
وَلَا سِقْطٌ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرِحْنَا رَبَّنَا وَفَعَّرَ لَنَا لَكَوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلًا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلًا جسداً له خوار، و «الخوار» صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَيْنِكَ وَأَخْلَصْنَا النَّبِيِّينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [طه: ٨٥]. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُؤَسِّسٌ فَنَسُوا﴾ [طه: ٨٨]، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بُرْجًا لِأَيْدِيهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْفٌ وَلَا نَقْمًا ﴿١٤٩﴾﴾ [طه: ٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَدَّ بَرًّا أَنَّهُ لَا يَكْفُلُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، ودُهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلًا له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غطى على أعين بصائرهم غمى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُعمي ويُصم».

وقوله: ﴿وَلَا سِقْطٌ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرِحْنَا رَبَّنَا وَفَعَّرَ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: ﴿لئن لم ترحمنا بآلاء الميثاء من فوق، وربنا منادى، وتغفر لنا﴾ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من المهالكين وهذا اعتراف منهم بذنوبهم والتجاء إلى الله ﷻ.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْمًا قَالَ تَمَسَّا خَلْقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي عَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ إِنَّ أُمَّةً إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَكْفُرْ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: «الأسف»: أشد الغضب. ﴿قَالَ تَمَسَّا خَلْقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بنس ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم. وقوله: ﴿عَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ يقول: استعجلتم مجيبي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زمرود. وقيل: من ياقوت. وقيل: من يزد، وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبير كالمعاينة». ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد زده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة. وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خروفاً أن يكون قد قصّر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهُودُؤُا مَا مَنَّكَ لِي وَرَأَيْتُمْ ضَالُّوا ﴿١٧١﴾﴾ أَلَّا تَتَّبِعُونَ أَمْرِي ﴿١٧٢﴾ قَالَ يَسْتَوُونَ لَا تَأْخُذْ بِهِنَّ إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿١٧٣﴾﴾ [طه: ٩٢-٩٤]، وقال ههنا: ﴿إِنَّ أُمَّةً إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَكْفُرْ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسقني مساقمهم، ولا تخلطني معهم. وإنما قال: ﴿إِنَّ أُمَّةً﴾؛ لتكون أراف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقْوَرٍ لَئِنَّمَا فَإِنِ شِئْتُمْ بِرَبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاقْبَلُونِي وَاقْبَلُوا أَمْرِي ﴿١٥١﴾﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاین كالمخبر؛ أخبره ربه، ﷻ، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَعْتَدُوا لِلْجَهَنَّمَ سِتَاتِلُمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْمَيِّتَةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قُتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتَوَلَّوْا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هَمَلَجَت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أبواب السُّخْتِيَانِي، عن أبي قِلَابَةَ الجُزْمِي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبي النور، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُرْفِي، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَصْحُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي سِتْرَيْنِ أَهْدَىٰ وَرَحِمَةً لِّذَٰلِكَ هُم رَضَوْنَ ﴿١٥٤﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْفَصْحُ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة لله وغضباً له ﴿وَفِي سِتْرَيْنِ أَهْدَىٰ وَرَحِمَةً﴾. يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة. ﴿لِّذَٰلِكَ هُم رَضَوْنَ﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عداها باللام. وقال قتادة: في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ قال: رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخَلْقِ - السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها - كتابهم - وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تُرُكَّت، فتأكلها السباع والطيور، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقركم - قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسينة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سينة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبيون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيقَاتٍ قُلْنَا أَعِدْتَهُمْ الرِّجْفَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَىٰ لِقَابِكُمْ بِمَا فَعَلْتُمْ أَسْهَقَةً يَتَىٰ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَاصْبِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْتَرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ وَأَكْتَسَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِيَّكَ .

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً

فبزز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَائِي﴾ الآية. وقال السُّدِّي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختر موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناهُ. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَائِي﴾.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخَيْرَ الفَخَيْرِ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا، وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وُتِّه له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تَغَشَّى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الرجفة - وهي الصاعقة - فافلئت أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَائِي﴾ قد سفهوا، أفنهلك من ورائي من بني إسرائيل.

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السُّلُولِي، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: انطلق موسى وهارون وشبير وشبير، فانطلقوا إلى سفح جَبَلٍ، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله، ﷻ. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله، ﷻ. قالوا له: أنت قتلته، حَسَدْنَا على خُلُقِهِ ولينِه - أو كلمة نحوها - قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلنا؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى، لن نعصى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى، عليه السلام، يرجع يميناً وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَائِي أَتَيْتَنَا بِمَا فَكَّرَ السَّمْعَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم. هذا أثر غريب جداً، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق عن رجل من بني سلول عن علي، فذكره. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيْج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزيلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتَيْتَنَا بِمَا فَكَّرَ السَّمْعَاءُ مِنَّا﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلٌّ لمن هَدَيْت، ولا مُعْطِي لما مَنَنْت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَسْبُ الْغَافِرِينَ﴾: الغفر هو: الستر، وترك المواخلة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل. ﴿وَأَنْتَ حَسْبُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت، ﴿وَاصْكُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَاصْكُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة [١٧١: ٢٠١]. ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأبنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسُّدِّي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لُغَةً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجَيْي، عن علي رضي الله عنه قال: إنما سميت اليهود اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾. جابر - هو ابن يزيد الجعفي - ضعيف.

﴿قَالَ عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ وَرُوذَكَ الرِّكَوَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِتَابِعِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦]. قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية: ﴿عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾ أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك،

سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجوزيري، عن أبي عبد الله الجشمي، حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلي، رضي الله عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيه؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله، ﷻ، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنبها وإنساها وبها تمها، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيه؟». ورواه أبو داود عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة». تفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان - هو ابن طرخان - وداود بن أبي هند كلاهما، عن أبي عثمان - واسمه عبد الرحمن بن مل - عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي ﷺ، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «الله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الله مائة رحمة، فقس منها جزءاً واحداً بين الخلق، فيه يتراحم الناس والوحش والطير». ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليدخلن الجنة الفاجر في دينه، الأحق في معيشته. والذي نفسي بيده، ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشَتْهُ النار بذنبه. والذي نفسي بيده، ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه». هذا حديث غريب جداً، «وسعد» هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿فَسَأَلْنَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾ الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِمُ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتفنون، أي: الشرك والعظائم من الذنوب. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَنْفُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُهُمْ كُفْرًا إِذْ دَعَاَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ قَالُوا بِهِ عَصْرًا وَأَعْتَبُوا التَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾.

﴿الَّذِينَ يَنْفُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ كُفْرًا إِذْ دَعَاَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجوزيري، عن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب، قال: جليت جلوداً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه، قال: فلتقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فبتعتهم في أقبانهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرأها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتیان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أشك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي، والذي أنزل التوراة إننا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله ﷺ. فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيك». ثم ولي كفته والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرک: أخبرنا أبو محمد - عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شريحيل بن مسلم، عن أبي أمامة الباهلي، عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعني غوطة دمشق - فنزلنا على جيلة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا

تكلم رسولاً، إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه، وإلا لم نكلم الرسول. فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا فقال: تكلموا، فكلمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثياب سواد، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، والله لناخذنه منك، ولناخذنك ملك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملىء وجهه سواداً فقال: قوموا. وبعث معنا رسولا إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شتتم حملناكم على براذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على واصلنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر الله يعلم لقد تنفّضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح، فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقه من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيي بها لا تحل لنا أن نحيكك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تنفّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتوها حيث تنفّضت الغرفة، كلما قلتوها في بيوتكم تنفّضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتُم تنفّض كل شيء عليكم، وأني خرجت من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدد ألا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألتنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا، فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثاً.

فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيء كههيئة الرُبْعَة العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقللاً، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين، عظيم الألتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية، وإذا له ضفيران أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذ هو أكثر الناس شعراً. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر كسعر القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض، حسن العينين، صلّت الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه بيتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول الله ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ﷺ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة أدماء سحماء، وإذا رجل جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأستان، مقلّص الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى، عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مدّهان الرأس، عريض الجبين، في عينيه قبل، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سبط رُبْعَة، كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حمرة، أفتى، خفيف العارضين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أفتى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، عليهما السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها آدم، عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمَش الساقين، أخفش العينين، ضخم البطن، رُبْعَة متقلد سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام. ثم فتح باباً

آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرساً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا شاب شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزنة آدم، عليه السلام، عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإني كنت عبداً لأشركم ملكه، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، فحدثناه بما أَرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فيكى أبو بكر وقال: مسكين! لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم اليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم. هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي، رحمه الله، في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غُلُفاً، وأذناناً صماً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفنا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وأذناناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن سنان، عن فُلَيْح، عن هلال بن علي - فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس وراق الحميدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جبير بن مطعم - قال: حدثني أم عثمان بنت سعيد - وهي جدي - عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجت تاجراً إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام، لقيني رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل نبياً؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيته؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورة النبي ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ، وإذا رجل أخذ بعقب النبي ﷺ، قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي، فإنه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبي بكر، رضي الله عنه. وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر أبو عمر الضرير، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريري أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلى الأسقف، فدعوته، فقال له عمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجذك قرناً. قال: فرفع عمر الدرة وقال: قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفة صالحاً، غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر: يرحم الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجد صداً حديد. قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا ذفراه، يا ذفراه! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأزعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ [التحلل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو العقدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعت

الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه». هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن علي، رضي الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنا، والذي هو أنجى والذي هو أتقى. ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الْقَيْبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَايِثَ﴾ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوايب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى. وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار في البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المأكَل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبتته. وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال لأمرية معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تسعرا، وتطوعا ولا تخطفا». وقال صاحبه أبو برة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تسييره. وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ نَسَاكَ أَوْ نَسَاكَ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِئْتُ لَكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَأْتِي النَّاسَ إِلَّا مَعَهُ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يَكُونَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والمعجمي، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِئْتُ﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ٢١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِئْتُ لَكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَأْتِي النَّاسَ إِلَّا مَعَهُ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يَكُونَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

حدثنا عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زبير، حدثني بسر بن عبيد الله، حدثني أبو إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء، رضي الله عنه، يقول: كانت بين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أي: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخرأ-: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخترتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً». إسناده جيد، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحللت لي الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم، والخامسة هي ما هي، قيل لي: سل؛ فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله». إسناده جيد قوي أيضاً ولم يخرجوه. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي، لم يدخل الجنة». وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي أو نصراني، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي بزة، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب شهراً، وأعطيت الشفاعة - وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإني قد اختبأت شفاعتني، ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئاً». وهذا أيضاً إسناده صحيح، ولم أرهم خروجه، والله أعلم، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضاً، من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأما رجل من أمتي أدرسته الصلاة فليصل، وأحللت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه، ويبعث إلى الناس عامة».

وقوله: ﴿الَّذِي لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَإِلَهٍ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى، في قوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم. وقوله: ﴿فَتَأْتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله ﷺ إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمَنْ قَوِيَ مَوْسَىٰ أَنَّهُ يَهْدُونَ﴾ وَالْحَقُّ وَبِهِ يَهْدُونَ ﴿١٥٩﴾ يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بِعَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَٰذَا يَتَلَطَّفُونَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٦١﴾ أَوْلَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَدَقُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابِ يَتْلُوهُ حَتَّىٰ تَلَاوِيَهُ أَوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْوَعْدِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٦٣﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٤﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُسُوفًا ﴿١٦٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا

الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٍ يَّهْدُونَ إِلَيْهِ وَيُقَدِّمُونَ لَهُمْ﴾ قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثني عشر سبطاً - تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، ﷻ، أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، و «وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم - قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً. وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السُّدي: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٍ يَّهْدُونَ إِلَيْهِ وَيُقَدِّمُونَ لَهُمْ﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شُهد.

﴿وَقَلَّمْنَهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُسْبُلًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانجَحْتَهُ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنثَىٰ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَطَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَوْرَثْنَا لِعَلْمِهِمُ الْمَرَاعَ وَالسَّلَاطِينَ كَلَّمُوا مِنْ رَبِّكَ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٦٠] وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكَلَّمُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَوَلُّوا حِطَّةً وَادْخَلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْتُمْ لَكُمْ حِطَّاتِكُمْ سَبْعِينَ مِائَةً مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [١٦١] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ عِبَادِهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مِمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [١٦٢].

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا السياق مكِّي، ونبها على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَبْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [١٦٣].

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوْمَ الَّذِينَ حَنِيفِينَ﴾ [البقرة: ١٦٥]، يقول الله تعالى، لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ أي: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، فجاجتهم نعمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي وجدونها في كتبهم؛ لتلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقنادة والسُّدي. وقال عبد الله بن كثير القاري، سمعنا أنها أيلة. وقيل: هي مدين، وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها «مقنا» بين مدين وعيذوني. وقوله: ﴿إِذْ يَبْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذا ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال الضحاک، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿شُرَّعًا﴾: من كل مكان. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ﴾: نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطه، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ وَعَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِي رَبِّكَ وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [١٦٤] فَلَمَّا سَأَلُوا مَا دُعُوا بِهٖ آمَنُوا بِالَّذِينَ يَهْتَدُونَ عَنِ الشُّرِّعَةِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِمَذَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا سَأَلُوا عَنَّا قَالُوا مَا نُهِيَ قَوْمًا عَنْ مَا هُمْ عَنْهُ فَلَمَّا سَأَلُوا مَا دُعُوا بِهٖ آمَنُوا بِالَّذِينَ يَهْتَدُونَ عَنِ الشُّرِّعَةِ﴾ [١٦٥].

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطیاد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ وَعَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكهم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مَعذِرَةٌ لِي رَبِّكَ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا

معدرة، وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَمْدُورَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتكفرون، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَجْمَعَتِ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّرُوبِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِمَذَابٍ بَيْنَيْنَا﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ يَظْهَرُ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُدْبِرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة» فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيمهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرُوا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتوّاً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النواة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُدْبِرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَمْدُورَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾، وكل قد كانوا يهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَمْدُورَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة. وروى العوفي، عن ابن عباس قريباً من هذا.

وقال حماد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُدْبِرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أتعظون قوماً الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا، فكساني حلة. قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، حدثني رجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس، جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من يهود سبقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرُون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيمهم يوم السبت شرعاً أيضاً سماناً كأنها الماخض، تتبطح ظهورها لبطونها بأفئيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتهم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتحتت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله، الله، الله نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: ﴿لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُدْبِرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَمْدُورَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾، إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعدرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلباً، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة والله تعارَى لها أذنان. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القروء أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القروء يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول: ألم نهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعَتِ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّرُوبِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِمَذَابٍ بَيْنَيْنَا﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟ قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَقْتُولُونَ﴾ لا تأتيهم؟ قال: كانت تأتيمهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهب، فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ - لذلك - رجل خيطاً وتودأ، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد، أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فاتوه فسألوه عن ذلك، فوجدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: «إنه جلد حوت

وجدناه. فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدري لعله قال: ربط حوتين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة، فجاؤوا فسألوه، فقال لهم: لو شتمت صنعتكم كما أصنع - فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ربح يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فغدوا عليهم جيرانهم مما كانوا حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به. وقد قدمنا في سورة «البقرة» من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، والله الحمد والمنة.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت، شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت، ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرم أنفه، ثم ضرب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد، أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يتكرونها، ولا ينهأ منهم أحد، إلا عصبية منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَطْلُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَزْدَرٌ إِنَّ رِيكَرًا﴾، فقالوا: سخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُرَّةٌ حَسْبِي﴾، قال ابن عباس: كانوا اثلاثاً: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَطْلُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين، أولى من القول بهذا؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَئِيسًا﴾: فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و ﴿بَئِيسًا﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: «الشديد»، وفي رواية: «الليم». وقال قتادة: موجه. والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿حَسْبِي﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيَكٌ لِيَمَنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رِيَكٌ لَسَرِيعٌ أَلْيَقَابٍ وَإِنَّهُ لَفَعْرٌ رَّجِيذٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّتْ﴾: تفعل من الإذن أي: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلْقِيَتْ باللام في قوله: ﴿لِيَمَنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود: ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة - وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم وإبائهم، أخذهم منهم الجزى والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزى. قال العوفي، عن ابن عباس في تفسير الآية قال: هي المسكنة، وأخذ الجزية منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وابن جزي، والسُّدِّي، وفتادة. وقال عبد الرزاق: عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رِيَكٌ لَسَرِيعٌ أَلْيَقَابٍ﴾ أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَفَعْرٌ رَّجِيذٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ أَصْلِحُونَ وَمَنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ ﴿فَطَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ وَرَبُّوا الْكِنَانِ بِأَعْدُوهُمْ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَقَوْلُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ أَنَّى مِنْهُمْ عَرَضَ بِنُفْلِهِ يَأْخُذُهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ وَيَسْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفَعُونَ أَمَّا تَقُولُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَمْرَ النَّصَلِيِّينَ ﴿١٧٠﴾﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَّمًا، أي: طوائف وفرقاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا مِنْ بَدْوِهِمْ لِيُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفًا وَرَبُّوا الْآخِرَةَ حَيْرًا لِيَكُونَ لِيَقِينًا ﴿١٦٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ﴿مَنْهُمْ أَصْلِحُونَ وَمَنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ﴾ أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قال

الجن: ﴿وَأَنَا وَمَنْ أَلَّصَّ بِحُجْرَتِنَا وَمَنْ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفَةً قَدِيدًا﴾ [الجن: ١١١]، ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَاللَّسْتُيَاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَعَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفًا وَرَبُّوا الْكُتُبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة هذا الكتاب وهو التوراة - وقال مجاهد: هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: يعناضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ كما قال سعيد بن جبيرة: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عَرَضَ ذلك الذنب أخذه. وقول مجاهد في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن وجدوا عَرَضاً مثله يأخذوه. وقال قتادة في: ﴿فَعَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفًا﴾: أي والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسولهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿فَعَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفًا أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَعُوا الشُّهُورَ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أماني، وغرغوا بغيرها، ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يباليون حلالاً كان أو حراماً. وقال السدي في قوله: ﴿فَعَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفًا﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتضى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض اليهود ألا يفعلوا ولا يرتضى، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتضى، فيقال له: ما شأنك ترتضى في الحكم، فيقول: «سيغفر لي»، يطمعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطمعن عليه، فيرتضى. يقول: وإن يأت الآخري عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤَخِّدْ عَلَيْهِمْ يَتِيقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكرأ عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، ولا يكتمونه كقولهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ يَتِيقُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَقُوا بِوَجْهِهِمْ كَلِيلًا فَيُتْسَمَّ مَا يُشْرَكُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤَخِّدْ عَلَيْهِمْ يَتِيقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَارِ الْأَخْرَجُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: يرغبه تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أتى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ جَنَّةَ الْمُصَلِّينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَيْتِهِمْ قَوْفَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظِلَّةٌ وَظَلَمْنَا اللَّهُ وَرَأَى مِنْهُمْ خُدُوءًا مَا آتَيْنَهُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكَ تَتَّقُونَ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم. وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى به أن يبلغهم من الوظائف، فنقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها حتى يتنق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله. وقال سنيد بن داود في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي، ﷻ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمتكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقاً من أن يسقط عليه، فكدلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض

جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. أي: حرك كما قال تعالى: ﴿فَسَيَتَوَشَّوْنَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أي يحركونها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَأَهُمْ عَنْ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمَسْئُلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجلبهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فآبواها يهودا، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بني سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علي، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصري، به. وأخرجه النسائي في سننه من حديث هُشَيْمٍ، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود، بن سريع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكننت مفتدياً به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي». أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة، به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جابر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان. يعني: عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمَسْئُلُونَ﴾». وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المرزوي، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد، به. إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدرکه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبيرة، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبيرة. هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فوقفه. وكذا رواه إسماعيل بن علي ووكيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن جبيرة، عن أبيه، به. وكذا رواه عطاء بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلي بن بزيمة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قوله، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيعة، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جمرَةَ الضَّبَعِيِّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أخرج الله ذرية آدم عليه السلام من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذي من الماء. وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود عن جرير قال: مات ابن للضحاك بن مُزَاجِمٍ، وهو ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحد، فأبرز وجهه، وحل عنه عقده، فإن ابني مُجَلِّسٌ، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عم يُسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يُسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس رضي الله عنه؛ أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة

هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل بهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة. فهذه الطرق كلها مما تقويّ ووقف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طيبة، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك وعن - منصور، عن مجاهد - عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَذَّأ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِ مَادَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: «أخذوا من ظهره، كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»، قالت الملائكة: «شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ». أحمد بن أبي طيبة هذا هو: أبو محمد الجرجاني قاضي قوس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في سننه، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عدي: حدث بأحاديث أكثرها غرائب. وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قوله، وكذا رواه جرير، عن منصور، به. وهذا أصح، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح - هو ابن عباد - حدثنا مالك، وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: «وَأَذَّأ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِ مَادَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فميم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود عن القعنبى - والنسائي عن قتيبة - والترمذي، عن إسحاق بن سعيد بن عبد الحميد بن جعفر. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به. قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عُمر. وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيْم بن ربيعة. وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود في سننه، عن محمد بن مصفى، عن بَقِيَّة، عن عمر بن جُعْثَم القرشي، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سئل عن هذه الآية: «وَأَذَّأ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِ مَادَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»، فذكره. وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثَم يزيد بن سنان أبو قزوة الرهاوي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخر: قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله عز وجل آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصبأ من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطف آدم فخطفت ذريته». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي نُعَيْم الفضل بن ذكّين، به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدثه عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فذكر نحوه

ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظَهَرَ الناس نوراً؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

حديث آخر: قال عبد الرحمن بن قتادة الضري، عن أبيه، عن هشام بن حكيم، رضي الله عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أبدأ الأعمال، أم قد قُضِيَ القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه» ثم قال: «هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة مُيسَّرُونَ لعمل أهل الجنة، وأهل النار مُيسَّرُونَ لعمل أهل النار». رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عنه.

حديث آخر: روى جعفر بن الزبير - وهو ضعيف - عن القاسم - عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق، وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم عليه السلام». رواه ابن مردويه.

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى، الآية. قال: فلني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلما أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقرأوا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ يُوجِبُوا لَكُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَخِذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا يَبْدَئُكَ إِلَّا أَكْثَرُومٍ مِّنْ عَمَلٍ وَإِنْ يَبْدَئُكَ أَكْثَرُومًا لِّغَافِقِينَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

الأعراف: ١٠٢. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي، به. وروي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المُجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآرْضَ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنْتَ كُمْ مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ مَّكَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنْتُمْ بَرِيكُمُ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العنكبوت: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِغَةٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في

الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: لتلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: عن التوحيد ﴿غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَاَسْلَخْنَا مِنْهَا ءَايَاتِنَا فَاَسْلَخْنَا مِنْهَا فَاَتْبَعَهُمُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَكُلَّمَا هَمَّ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ الْكَافِرِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾.

قال عبدالرزاق، عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَاَسْلَخْنَا مِنْهَا فَاَتْبَعَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن أبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو صيفي بن الراهب. قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة، عن خصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو بلعم بن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هو بلعام - وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وقد روي من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بلعنة، قبحه الله تعالى. وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعمش، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَاَسْلَخْنَا مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة. قال: فلك واحدة، فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبية، فصارت كلبية، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبية يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسميت اليسوس. غريب.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: «بلعام»، وكان يعلم اسم الله الأكبر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان رجلاً مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه. وأغرب، بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد أوتي النبوة فانسخ منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم، ولا يصح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم - يعني بالجبارين - ومن معه، آتاه - يعني بلعام - آتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وأخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَاَسْلَخْنَا مِنْهَا فَاَتْبَعَهُمُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾. وقال السدي: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿وَإِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا سِتَّةَ﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه. وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: «بلعم» وكان عالماً، يعلم الاسم

الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء، يعظمن، فكان ينكح أتاناً له، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾.

وقوله: ﴿فَأَتَيْمَةُ النَّيِّطَيْنِ﴾ أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فهما أمره امثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ النَّاصِرِينَ﴾ أي: من المهالكين الحائرين البائسين. وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جُنْدُبُ الْجَلِي فِي هَذَا الْمَسْجِدِ؛ أَنَّ حَاضِرَةَ - يَعْنِي ابْنَ الْيَمَانِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَدَّثَتْهُ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِمَّا أَنْتَخَوْفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا رُوِيَ بِهِجْتَهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِذَّةَ الْإِسْلَامِ اعْتَرَاهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، انْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسِّيفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشَّرْكِ: الْمَرْمِيُّ أَوْ الرَّامِيُّ؟ قَالَ: «بِلِ الرَّامِيِّ». هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَالصَّلْتُ بْنُ بَهْرَامٍ كَانَ مِنْ ثِقَاتِ الْكُوفِيِّينَ، وَلَمْ يَرَمْ بِشَيْءٍ سِوَى الْإِرْجَاءِ، وَقَدْ وَثَّقَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَغَيْرُهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي. وقال أبو الزاهرية في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على غلوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ الْوَيْلِ ؕ آتَيْنَاهُ ؕ إِنَّا إِنَّا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام - أو قال: الشام - قال: فزُعب الناس منه رعباً شديداً، قال: فاتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربي - أو: حتى أوامر - قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامر ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يُخْرِ إِلَيْهِ شَيْءٌ. فقال: قد وامر فلم يُخْرِ إِلَيْ شَيْءٍ! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه، دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحواً من ذلك إن شاء الله. قال: ما نراك تدعو إلا علينا. قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء يستقبلنهم؛ فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزونا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها - أو بلعام -: لا تمكني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكيتي، قال: وأيتيها رجل من بني هارون ومعه الرمح فقطعنها. قال: وأيده الله بقوة. فانظمتها جميعاً، ورفعها على رمحه، فرأها الناس - أو كما حدثت - قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً.

قال أبو المعتمر: فحدثني سيار: أن بلعاماً ركب حمارة له حتى أتى العلولى - أو قال: طريقاً من العلولى - جعل يضربها ولا تُقَدِّمُ، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ الْوَيْلِ ؕ آتَيْنَاهُ ؕ إِنَّا إِنَّا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره. قلت: هو بلعام - ويقال: بلعم - بن باعوراء، ابن أبر. ويقال: ابن باعور بن شهوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران - ويقال: ابن حران - بن أزر. وكان يسكن قرية من قرى البلقاء. قال ابن عساکر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه، له ذكر في القرآن. ثم أورد من قصته نحواً مما ذكرنا ههنا، وأورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر؛ أنه حدث: أن موسى، عليه السلام، لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فأخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسبان، فلما سار عليها غير كثير، رضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أدلقتها قامت فركبها. فلم تسر به كثيراً حتى رضت به، فضربها حتى إذا أدلقتها أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم: أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حَسبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه! قال: واندلع لسانه فوق وقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمر لكم وأحتال، حَمَلُوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنهن فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتهم، ففعلوا. فلما دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبي ابنة صور، رأس أمته» برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم، رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هي حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قيته فوق وقع عليها. وأرسل الله، ﷻ، الطاعون في بني إسرائيل، كان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانظمتها بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرقفه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته - وكان بكر العيزار - وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجده قد هلك منهم سبعون ألفاً - والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً - في ساعة من النهار. فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللُحي - لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ تَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاَسْتَلَخَ مِنْهَا فَأَتَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُمُ كَذِبَ الْكَأْبِ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثَ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره - فتشبيبه بالكلب في لهته في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهته في حالتيه، إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عذمه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال، ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنصُرِ الْعَصَى لِمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَأَنصُرِ الْعَصَى لِمَلَّهُمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطي، وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كلم الله موسى بن عمران، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من

خالف منهم في كتابه وكتبه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة. وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [١٧٧]: يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه». وقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَبْدَأْ اللَّهُ فَرَقَ الْمُهَيْمِينَ وَمَنْ يَضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١٧٨].

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستعديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم.

﴿رَلَقَدْ دَرَأْنَا إِبْهَتَهُ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَمْ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَتَيْنِ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٧٩].

يقول تعالى: ﴿رَلَقَدْ دَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِبْهَتِهِ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ﴾ أي: هيأناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أنها قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثم يعثب إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد». وتقدم أن الله تعالى لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا آبالي، وهؤلاء للنار ولا آبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَتَيْنِ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ليس يتفهمون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ قَهْمٌ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ قَهْمٌ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صماً بكماً عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَمَعَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَمَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقْرَأْ﴾ [الأنعام: ١١]، وَأَنْتُمْ يَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْسِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى دُعَاةٍ وَإِنَّمَا يُدْعِي إِلَى دُعَاةٍ مِّمَّنْ لَّا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَبِدَاةً مِّمَّنْ بِكُمْ عَمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أيسر بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سُبُحَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٨٠].

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. رواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد به. وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق صفوان، به. وقد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم. ثم ليعلم أن الأسماء الحسنی ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا تتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله. وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: «الأحوذ في شرح الترمذي»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِيَّ اسْمَكِي﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللوات» في أسماء الله. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِيَّ اسْمَكِي﴾ قال: اشتقوا «اللوات» من الله، واشتقوا «العزى» من العزيز. وقال قتادة: ﴿يُبَدِّلُونَ﴾ يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَيَمَنَّ خَلْقًا أَنَّهُ يَحُدُّونَ بِالْحَقِّ وَيَدَّ يَبْدُلُونَ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: ﴿وَيَمَنَّ خَلْقًا﴾ أي: ومن الأمم «أُمَّةٌ» قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَبْدُلُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَيَدَّ يَبْدُلُونَ﴾: يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية. قال سعيد، عن قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمَنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ أَنَّهُ يَبْدُلُونَ بِالْحَقِّ وَيَدَّ يَبْدُلُونَ﴾ (١٥٩)». وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَيَمَنَّ خَلْقًا أَنَّهُ يَحُدُّونَ بِالْحَقِّ وَيَدَّ يَبْدُلُونَ﴾ (١٨١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفي الصحيحين، عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة». وفي رواية: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك؛ وفي رواية: وهم بالشام.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَتَلْبَثُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَلِ لَهُمْ إِنْ كَذَّبُوا مِنْكُمْ ﴿١٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَتَلْبَثُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَحَنَنَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٨٤﴾ فَمَقَطَ دَائِرَ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَكَلِمَةَ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَلِ لَهُمْ﴾ أي: وسألمي لهم، أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنْ كَذَّبُوا مِنْكُمْ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً - صلوات الله وسلامه عليه، ﴿مِنْ حِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿١٨٦﴾﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِوَحْيِهِ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنٌ وَفِرْدَيْنٌ ثُمَّ تَنفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٨٦﴾﴾ [سبا: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَثْنٌ وَفِرْدَيْنٌ﴾ أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَنفَكَّرُوا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريباً فجعل يفتحهم فخذاً فخذاً: «يا بني فلان، يا بني فلان»، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح - أو: حتى أصبح -، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ - هؤلاء المكذبون بآياتنا - في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العباد والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصبروا إلى عذاب الله واليم عقابه. وقوله: ﴿هَيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي آتاهم به من عند الله في أي كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، ﷺ؟! وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعفان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقي، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق»، قال: «وأنت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يخرّفون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». علي بن زيد بن جُدعان له منكرات. ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَمْ يَذَرُهُمْ فِي مَقَلِيمٍ يَعْمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ أُمَّةٌ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نَلَقَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَتَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكديباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَأْتِي الْإِنِّ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [السورى: ٤١٨]. وقوله: ﴿أَيَّانَ

سُرَّسَهَا ﴿ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «مَنْتَهَاها» أَي: مَتَى مَحَطُّهَا؟ وَأَيَّانَ آخِرَ مَدَّةِ الدُّنْيَا الَّتِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ؟. ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾: أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ إِذَا سئِلَ عَنِ وَقْتِ السَّاعَةِ، أَنْ يَرُدَّ عَلِمَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّبُهَا لَوَقْتِهَا، أَي: يَعْلَمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا، وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ، أَي: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ نُنْفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ ﴾. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ نُنْفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ ﴾: قَالَ: نَقَلَ عَلِمَهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا جَاءَتْ، ثَقُلَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَقُولُ: كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ نُنْفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ ﴾، قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا يَصِيبُهُ مِنْ ضَرَرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿ نُنْفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ ﴾: قَالَ: إِذَا جَاءَتْ انشَقَّتِ السَّمَاءُ، وَانْتَشَرَتِ النُّجُومُ، وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ، وَسِيرَتِ الْجِبَالُ، وَكَانَ مَا قَالَ اللَّهُ ﷻ، فَذَلِكَ ثَقُلَهَا. وَاخْتَارَ ابْنُ جُرَيْجٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنْ الْمُرَادُ: نُقِلَ عِلْمُ وَقْتِهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ. وَهُوَ كَمَا قَالَاهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَتَّةٍ ﴾، وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ ثِقَلُ مَجِيئِهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نُنْفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ ﴾ يَقُولُ: خَفِيَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا حِينَ تَقُومُ مَلِكٌ مَقْرَبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَتَّةٍ ﴾: قَالَ: يَبْغِثُهُمْ قِيَامَهَا، تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَتَّةٍ ﴾: قَضَى اللَّهُ أَنَّهَا ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَتَّةٍ ﴾. قَالَ: وَذَكَرْنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيجُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَصْلِحُ حَوْضَهُ، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ، وَالرَّجُلُ يَقِيمُ سَلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيُخَفِّضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ». وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَنْبَأَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِهَا أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَفْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلْبِطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا». وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلِبُ اللَّفْحَةَ، فَمَا يَصِلُ الْإِنَاءُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثُّوبَ فَمَا يَتَبَايَعَانَهُ حَتَّى تَقُومَ. وَالرَّجُلُ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّى تَقُومَ».

وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال الأعوفى عن ابن عباس: ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة. فقال الله ﷻ: ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسُّدِّيِّ، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي نجيح وغيره -: ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾، قال: استخفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾. وقال معمر، عن بعضهم: ﴿ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا ﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية [القصص: ٣٤]. ولهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ نُفِثُ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَتَّةٍ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، في صورة أعرابي، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية. وفي رواية: فسأله عن أشرار الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله». وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه». وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، والله الحمد والمنة. ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «ها» - على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى

الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: «ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين. ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى عمله، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتكم». يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم. وحدثنا حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هُتَيْه، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمَرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». قال أنس: ذلك الغلام من أتريبي. وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقراني - فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». ورواه البخاري في كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس؛ أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره. وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر، قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منقوسة، تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم. وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَاة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى»، قال: «فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، ﷻ، وفيما عهد إلي ربي، ﷻ، أن الدجال خارج»، قال: «ومعي قضييان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، ﷻ، إذا رأيته، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافرًا تعالى فاقته». قال: «فيهلكهم الله، ﷻ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم، فادعوا الله، ﷻ، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوز الأرض من نتن ريحهم - أي: تَنْتِن - قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر». قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: وفيما عهد إلي ربي، ﷻ، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولدها ليلاً أو نهاراً. ورواه ابن ماجه، عن بُنْدَار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حَوْشَب بستنه، نحوه. فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراتها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عبيد الله بن إباد بن لَيْط قال: سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يُجَلِّها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاء»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «وُلِّقَى بين الناس التَّنَاكُرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال وكيع: حدثنا ابن

أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُرْتَبِنًا﴾ الآية [النازعات: ٤٢]. ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. وهذا إسناد جيد قوي. فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُقَفِّي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضي الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يَرُدَّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفٌ إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعَثَةٌ يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَورِيُّ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَعْمًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَنَسَخْتُ مِنَ الْكُفْرِ مَا سَخَّرْتُهُ إِنَّمَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ يُرْسِلُونَ﴾.

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٢٦] إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُلِهِ فَإِنَّمَا يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد. ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾: قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً. وكذلك روى ابن أبي نجيح عن مجاهد: وقال مثله ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديممة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته. فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله ﷻ، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعملت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، وما مسني السوء، قال: ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدية من المخضبة، ولعرفت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا سَخَّرَ اللَّهُ مَا يَسْتَكْبَرُ﴾: قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته. ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتُرُّهُ بِلسَانِكَ لِئَلَّا يُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُذِيرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا﴾ [مریم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَبَّهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَبِيبًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ زَوْجَهَا لَبَسَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا صَلِيمًا حَلَالًا وَتَكْوِينًا مِنَ الشَّكْرِ﴾ [١٨٨] فَلَمَّا أَهْتَمَّا صَلِيمًا فَفَعَلَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٨٩].
 ينيه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعْبًا وَفِصَالًا لِيَتَّعَرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَيْنَهُمَا رِجَالًا كَبِيرًا فَسَاءَ الْآيَةَ [النساء: ١]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيفية إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَشَبَّهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا حَبِيبًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي اللطيفة، ثم العلقة، ثم المصغرة. وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروي عن الحسن، وإبراهيم النخعي، والسُّدِّي، نحوه. وقال ميمون بن مهران: عن أبيه استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به. وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت. وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهُ زَوْجَهَا لَبَسَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا صَلِيمًا﴾ أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً. وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاماً. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فَلَمَّا أَهْتَمَّا صَلِيمًا حَلَالًا لَمْ شُرَكَاهُ فِيمَا ءَاتَيْنَاهَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٩٠]، ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم تتبع ذلك بيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سُمرة، عن النبي ﷺ قال: «ولما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سَمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره». وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، عن بُنْدَار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. ورواه الترمذي في تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدرکه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبي زُرْعَةَ الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوْبِيه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. قلت: «وشاذ» هذا، هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَزْدُوْبِيه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً فإله أعلم.

الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه. وحدثنا ابن عليه، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث».

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: «جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا»، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعني: قوله: «جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا». وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهودوا ونصروا. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله ووَرَعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فَيُعْبِدُهُمُ اللهُ وَيُسَمِّيهِ: «عبد الله» و «عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: «جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ» إلى قوله: «فَمَرَّتْ بِهِ»، شَكَّتْ: أَحْبَلَتْ أم لا؟ «فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاَ اللهُ رَبَّهُمَا لِيْنَ آتَيْنَا صَليماً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ»، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون؟ أبهيمة يكون أم لا؟ وزَيْن لهما الباطل؛ إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج سويماً، ومات كما مات الأولان، فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله تعالى: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَليماً جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا» الآية.

وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصِيف، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس في قوله: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَليماً جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا» قال: قال الله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ مِثْلًا رِزْقَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَنَّهَأْ آدَمُ حَمَلَتْ حَمَلًا حَنِيئًا»، فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعني أو لأجعلن قرني له أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - فسمياه «عبد الحارث» فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدركما حب الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: «جَمَلًا لَكُمُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا» رواه ابن أبي حاتم. وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكانه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي

حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد - يعني ابن بشير - عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أنها الشيطان، فقال لها: أنطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سمي «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن طيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهبيهما فأطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري، رحمه الله، في هذا والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَقَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال:

﴿إِشْرَاكُوكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلِيَكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَالِحُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أُتْلِقْتُمْ قَوْلَهُمْ فَلَيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَنهَمْ أَرْسَلْنَا بِمَشْجُونَةٍ أَمْ لَهُمْ آيَاتٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي ذَكَرَ الْكَذِّبُ وَهُوَ بِتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْبَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنصير لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿إِشْرَاكُوكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي: أنشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِاللَّهِ عَشْرًا وَمَلَائِكَتُ اللَّهِ يَشْفَعُونَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَرُّ ذُو الْبَرِّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَخْلُقُ ذِكَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذِّكَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئِدُوا مِنْهُ شَيْئًا وَالظَّلْمُ لَوَالِبٌ ﴿١٩٦﴾ مَا كَذَبُوا اللَّهَ حَقًّا كَذِبًا إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٩٧﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطار، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿١٩٨﴾ وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل، عليه الصلاة والسلام، يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْبَلْبَلِيِّينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَمَعَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ قَلْبًا يَلْمِزُوكَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - كان له صنم يعبده ويطلبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالغبرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انصبر». ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مُسْتَنَدَن لَم تَكُ وَالْكَلْبُ جَنْبِعاً فِي قَرْنِ
ثم أسلم فحسب إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلِيكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَالِحُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحها، كما قال إبراهيم: ﴿يَتَّبِعُونَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٤]؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد، مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبتش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي تَرَكَّ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه الجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ إِيَّا شَيْدًا فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَاصْبِرُوا سَوَاءً مَا يُنزِلُ عَلَيْنَا لَدَىٰ ذِكْرِهِمْ كَمَا نَحْنُ لَدَىٰ ذِكْرِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وكقول الخليل عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَشْتَرًا وَمَبَاطِئَةً لَا تُفِيدُونَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْتُمْ عَنْهَا كَائِفُونَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي خَلَقْتُمْ فَهُوَ يَهَيِّئُ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾﴾ الآيات (الشعراء: ٧٥-٨٠)، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَسِعَلَهَا كَلِمَةً بَاطِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُلْكِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٤﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَكَلِمَاتُهُمْ كَلِمَاتُ الْمُرْتَدِّينَ يُنظِرُونَ بِأَن يُغْرِبَهُمْ فَكَيْدُهُمْ أَشَدَّ حَرِيصًا﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال: ﴿وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فغير عنها بضمير من يعقل. وقال السدي: المراد بهذا المشركون وروي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ وَأُمِّرَ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّقِيظِينَ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: مثل ذلك، والله أعلم. وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لا أخذته منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس حدثنا سفيان - هو ابن عيينة - عن أمي قال: لما أنزل الله، ﷻ، على نبيه ﷺ: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ وَأُمِّرَ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴿١١٥﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أضغ بن الفرج، عن سفيان، عن أمي عن الشعبي. نحوه، وهذا - على كل حال - مرسل، وقد روي له شاهد من وجه آخر، وقد روي مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عباد، عن النبي ﷺ، أسندهما ابن مردويه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاع، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عقبه بن عامر، رضي الله عنه، قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبه، صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك». وروى الترمذي نحوه، من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، به، وقال: حسن. قلت: ولكن «علي بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»، فيهما ضعف.

وقال البخاري قوله: ﴿حُدِّدَ الْمَعْتَقُ وَأُمِّرَ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴿١١٥﴾﴾ «العرف»: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كهُولاً كانوا أو شباناً - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس:

فاستأذن الحر لعبيته، فأذن له عمر رضي الله عنه، فلما دخل عليه قال: هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله ﷻ. انفراد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع؛ أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلُجُلُ الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وقول البخاري: «العرف: المعروف» نص عليه عروة بن الزبير، والسُّدِّي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عرفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله ﷻ بها نبيه ﷺ، ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ كَمَا
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنْبَاءِ
أُيِّرَتْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
فُسِّتْ خَسَنَ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِينَ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يجرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةَ عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١٩٩) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (٢٠٠) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا لِي ﴿٢٠١﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيحَةَ وَلَا السَّبِيحَةَ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٠٢) وَمَا يُلْقِنَهَا ﴿٢٠٣﴾ أَي هَذِهِ الْوَصِيَّةُ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢٠٤) وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠٥﴾ [نصفت: ٣٤-٣٦]، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٦﴾ فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف» و «المؤمنون» و «حم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾: وإما يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ، ويحملك على مجازاتهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعبد به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه من شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يا رب، كيف بالغضب؟»، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٧). قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنه يتمزغ غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون. وأصل «النزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَكِدَى يَقُولُوا أَلَيْهِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْعُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، و «العياذ»: اللجوء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» ففي طلب الخير، كما قال أبو الطيب الحسن بن هانئ المتنبّي:

يَا مَنْ أَلْسُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ
وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذُهُ
وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وقد قدما أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هنا.

﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَوَّلِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَنَدُّ لَا يَفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم ﴿طِيفٌ﴾ وقرأ آخرون: ﴿طَلِيفٌ﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيدته، فتأبوا وأتابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر ولا حساب علي. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أصرع وأتكشف، فداع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله ألا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف. وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: أن شاباً كان يتعبد في المسجد، فهوته امرأة، فدعته إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَوَّلِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى، ﴿وَلَيْتَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ ﴿٢٠١﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي، ﷻ، في الجنة مرتين.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمَيِّتِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي﴾ أي: تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد: الزيادة. يعني: يزيديهم في الغي، يعني: الجهل والسفه. ﴿تَنَدُّ لَا يَفْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَنَدُّ لَا يَفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم. قيل: معناه كما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَنَدُّ لَا يَفْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿تَنَدُّ لَا يَفْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدي وغيره: يعني: أن الشياطين يمدون أوليائهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتري فيه ولا تطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرِينَ تَؤْتِيهِمْ آثًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصِيرَةٌ مِّنْ رَبِّي وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أخذتها فأنشأتها. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله، ﷻ. وقال الضحاک: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فنجت بها من السماء. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ﴾ معجزة، وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَسْفًا نُّزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَهُ ﴿١﴾﴾ [الشمراء: ٤٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحى إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ مِّنْ رَبِّي وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تُرْجَوْنَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده

كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلَكٌ تَلِيُونَهُ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»، وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرج في كتابه. وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، وسلام على فلان، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا؟ أما أن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم الله. قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معي أنفأ؟» قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: «إني أقول: مالي أنازع القرآن؟» قال: فاتته الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازي.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطن مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضع، وقد أورد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المغفل. وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعد؟ قال: فنظرا إلي، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقال سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة. وكذا رواه غير واحد عن مجاهد. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد، قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشعبي، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حرة يحدث أنه سمع مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء، مثله. وقال هشيم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر. وقال ابن المبارك، عن بَقِيَّة: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبيرة يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطة؛ لما

جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن، فأنصت له. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن مسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد، رحمه الله.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فَأَسْبِرْ عَلَيَّ مَا يَبُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٢٠٦﴾﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال ههنا بالغدو - وهو أوائل النهار -، ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الإيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً ولا جهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألو رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب». وقد يكون المراد من هذه الآية كما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد منافق للإنصات المأمور به، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قاله لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾. وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله، ﷻ، كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدة القرآن.

آخر تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والمنة



تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي مدنية، آياتها سبعون وست آيات، كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم. حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. أما ما عَلَّقَهُ عن ابن عباس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم. وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لِيُبَيِّدَ:

إِنْ تَقْوَى رَبًّا خَيْرٌ تُنْفَلُ وَيَأْذَنُ اللَّهُ لِرَبِّهِ وَيَعْجَلُ
وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن «الأنفال»، فقال ابن عباس، رضي الله عنهما: الفرس من النفل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُخرجها، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صَبِيح الذي ضربه عمر بن الخطاب.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا سئل عن شيء قال: لا أملك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً أمراً محجراً. قال القاسم: فسُلِّطَ على ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صَبِيح الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سألت الدماء على عقيه - أو على رجليه - فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأقسام، فنزلت: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما. وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالقيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حي قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: السرايا. ويعني هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبد الله الثقفى، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخي عَمَيْرٌ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأتيته به نبي الله ﷺ، فقال: «أذهب فاطرحه في القُبْضِ». قال: فرجعت

وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي. قال: فماجاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سيفك».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعت، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي! قال: رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفاً يوم بدر، فأنتيت النبي ﷺ فقلت: نُفَلِّبِيهِ. فقال: «ضعه من حيث أخذته». مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ﴾. وتام الحديث في نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِسْرَافِيلَ بِبَلَادِهِمْ حَسْبًا﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنُفَرٌ وَأَقْمِيصٌ﴾ [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث شعبة، به. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله ﷺ، فأعطاه إياه. ورواه ابن جرير من وجه آخر.

سبب آخر في نزول الآية:

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا - أصحاب بدر - نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزع الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول: عن سواء. وقال أحمد أيضاً: حدثنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا، نحن أهدقنا برسول الله ﷺ، وحفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَمْلِكُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعاً، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عوف، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى أبو داود والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغائم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداء لكم، لو انكشفتم لفتتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا

سورة الأنفال، الآية: ١

رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يَتَلَوْنَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّا غَنِمْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ فَمَا كَانَ لِلَّهِ مُمْسِكُمْ وَالرَّسُولِ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريها»: أما الأنفال: فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَتَلَوْنَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أَرَادَهُ اللهُ من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى. قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسُّدِّي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة. قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خَصَّهُم اللهُ به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، ففعلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل. قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلًا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والتكايه في العدو. وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: فإحداهن: في النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

والثانية: في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءه به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة: في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس في يد الإمام نفل منه على قدر ما يرى.

والرابعة: في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسُّوق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال: ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي ﷺ؛ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من يزاونه من المسلمين، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل. والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فله بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تخمس»، تظن. ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلوا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد. وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا. ونذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي المثنى الموصلي، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عباد بن شيبه الحبطي، عن سعيد بن أنس، عن أنس، رضي الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة، تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يارب، خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمتك. قال: يارب، لم يبق من حسناتي شيء. قال: رب، فليحمل عني من أوزاري» قال: قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء،

ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة».

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَدْرَجْنَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَقْفَرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٦٣﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فرقت وخافت. وكذا قال السدي وغير واحد. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِيُؤْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً وَيُحْمِلُهُمُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا قَلَّمُوا وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ لِنَفْسٍ عَنِ الْكُوْلِ ﴿١٦٥﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١٦٦﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهيم بمعضية - فيقال له: اتق الله فيجل قلبه. وقال الثوري أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب إحراق السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول الشرح البخاري، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبيرة: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦٢﴾﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السكسكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري؛ أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «انظر ماذا تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عرفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم ثلاثاً. وقال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر

حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَمْ دَرَجَتْ عِنْدَ رَبِّهِنَّ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا يَمْلُوكُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: ﴿لَمْ دَرَجَتْ عِنْدَ رَبِّهِنَّ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه أفضل عليه أحد. ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراوون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأتعا».

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا كَلِمَاتِنَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَرْجُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يُبَدِّدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَذَا لَكُمْ وَتُؤَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ كَتُوكْتُ لَكُؤُ وَرَبِّدُ اللَّهُ أَنَّ يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَتَيْهِ وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكُفْرَيْنِ ﴿٧﴾ لِيَحِقُّ الْحَقُّ وَيَبْطُلَ الْبَطْلُ وَتُؤَكِّرَهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا. ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحتم فيها فانتزعتها الله منكم، وجعلها إلى قسمة وقسم رسول الله ﷺ، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم - فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رَشْدًا وَهْدَى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روي نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السُّدِّي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٥﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً للغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَمَ بن عمرو نذيراً إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَعٍ، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فتجا، وجاء النفيير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيير، أوحى الله إليه بعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتُؤَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ كَتُوكْتُ لَكُؤُ وَرَبِّدُ اللَّهُ أَنَّ يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَتَيْهِ وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكُفْرَيْنِ﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغْنِمَنَاها؟» قلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سِرْنَا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم؟ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» قلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» قلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا مَهْمُنَا فَيُؤَدُّونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم،

قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكٰرِهُونَ ۝٥﴾ وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه. ورواه ابن مَرْدُوَيْهِ أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالزُّوحاء، خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر. ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك بالحق وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت بنا حتى تأتي «بِرِّكَ الغمام» من ذي يمن لتسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، ففضل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكٰرِهُونَ ۝٥﴾ الآيات.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبثوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكٰرِهُونَ ۝٥﴾ يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦﴾.

وقال مجاهد: يجادلونك في الحق في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم. وقال السدي: ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين. حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأ لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سيمال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعبير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه - ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك. إسناده جيد، ولم يخرج به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَن عَصِيْرٌ ذَاتَ آسْوَةٍ تَكُوْنُ لَكُمُ ۝٦﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العبير ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مَنٍّ ۝٦﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كَيْبَ عَلَيْنَكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق، رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام نذب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها». فانتدب الناس، فخف بعضهم ونقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خيراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذِر عند ذلك، فاستأجر ضُمَّضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضُمَّضَم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له «دَفْرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار النبي ﷺ

الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوِّدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بئرك الغمامة - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدداً للناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من إمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قال: فقال: فقد أمانك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسيرنا على بركة الله. فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم». وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُطَلِّبِ كُرَيْبٍ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَيَضْمِنُ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَمَا الْقَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قزاد، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة وثيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»، قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُطَلِّبِ كُرَيْبٍ ﴿١٠﴾﴾، فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تُمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هواده للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تبكيت لبيكائكما! قال النبي ﷺ: «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة»، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَتْ لِيِّنِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَشْرَى حَتَّى يُتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبِقًا لَمَسْتُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا مما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّْا أَصْبَحْتُمْ مُمْسِيئَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَتَلَبِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جرير، وابن مَرْذُويه، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالوا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني.

وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة والقوفي، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أنها في دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد بن يُعَيْع، والسُّدِّي، وابن جريج. وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَيْن، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النبي ﷺ يناشدره أشدَّ النَّشْدَةِ يدعو، فاتاه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، بعضُ نَشَدَتِكَ، فوالله لَيُفِين الله لك بما وعدك.

وقال البخاري في «كتاب المغازي»، باب قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَرَّ اللهُ شَدِيدُ الْقَرَابِ﴾: حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا إسرائيل، عن مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود شهيداً لأن أكون صاحبه أحبَّ إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا تقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره - يعني قوله. وحدثنا محمد بن عبد الله بن حَوْشَب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبِدْ»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمُ لِمَعْمُومٍ وَبُولُونَ الذُّبُرُ ۝١٥﴾ [الفرع: ٤٥]. ورواه النسائي عن بُنْدَار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ أي: يُزِدُفُ بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن عنترة، عن ابن عباس: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾: متتابعين. ويحتمل أن يكون المراد ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال القوفي، عن ابن عباس: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾، يقول: المَدَّد، كما تقول: اتت الرجل فزده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القاري، وابن زيد: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾: مُمَدِّين. وقال أبو كُدَيْبَةَ، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿مُيَدِّكُمْ بِأَنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ قال: وراء كل مَلَكٍ ملك. وفي رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو ظَبْيَانَ، والضحاك، وقتادة. وقال ابن جرير: حدثني المشي، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزُّمَيْعِي، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَيْر، عن علي، رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا في الميسرة. وهذا يقتضي - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجْتَبِيَةً، وميكائيل في خمسمائة مُجْتَبِيَةً. وروى الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْلِ سِمَاك بن وليد الحنفي، عن ابن عباس، عن عمر، الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُمَيْل: حدثني ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «أقدم حَيْرُوم» إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حُطِمَ أنفه، وشقَّ وجهه كضربة السوط، فاحضر ذلك أجمع، فجاه الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت»، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

وقال البخاري «باب شهود الملائكة بدرأ»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاع بن رافع الزُّرْقِي، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة. انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله تعالى أعلم. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدرأ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَيُغْلِبَنَّ بِهِ أُولَئِكَ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فَرْجٌ فَجَبَّ الرِّقَابُ حَتَّىٰ إِذَا أَغْتَسَمُوا فَشُدُّوا الرِّقَابَ قَالُوا مَا بَدَأَ فِتْنَةَ هٰؤُلَاءِ هٰؤُلَاءِ هٰؤُلَاءِ أَوْلَادُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَأَنْصَرُنَا بِهِمْ وَلَٰكِنِ اسْتَكْبَرُوا عَنْهُ لَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْحِجَابَ لَعَلَّهُمْ يُعْذَرُونَ﴾ [محمد: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ

مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَيُنَجِّصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقِ الْكُفْرَ ﴿١١﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي نعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالذبور، وشمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث تعالى موسى عليه السلام وأهلك عدوه فرعون وقومه بالفرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَى مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصاص: ٤٣]، وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَشَدَّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ فِيهِمْ قُوَّةً مُمْرِئَةً﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قتل صنديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدراهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ورسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [٥١] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يَتَّبِعُكُمْ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُنَبِّئَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [١١] إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِئِكَةِ أَنْ مَنِّمْ قِتْلَاتِ الْيَوْمِ آمِنًا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الْيَوْمِ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كَلًّا بَنَانٌ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذَرَوْهُ وَانْتَبَهُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾.

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إقائه النعاس عليهم، أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَى النَّعَاسِ أَمَنَةً نَسَاً يَشْعُرُ بِهَا يَسْكَنُ بِهَا يَوْمَ وَقَفُوا فَذَلِكَ أَمْنُهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحَجَفِ. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْرٌ، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مُضَرَّبٍ، عن علي، رضي الله عنه، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ، يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم عن أبي رزين، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً وكان ذلك كان سحياً للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشروا يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناباه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَرُومُ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ﴿١٤﴾﴾ [القدر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ - يعني: حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبيين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرّب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل في خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وكذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظم، فجعلوا يصلون مجنبيين محدثين، حتى تعاضموا ذلك في

صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسيقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبت عليها الأقدام. ونحو ذلك زوي عن قتادة، والضحاك، والسدي. وقد روي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك. وفي مغازي «الأموي» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به «الحباب بن المنذر». فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل، عليه السلام، فقال: «هل تعرف هذا؟» فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان. وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي»، رحمه الله: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء - وكان الوادي دهساً - فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فاطفاً بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي، رضي الله عنه، قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر. ويات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!» فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة، عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرص على القتال.

وقوله: ﴿يُطَهِّرْكُمْ بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سييء، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ يَأْكُفُ سُنَّيْنِ خَضِرٍ وَإِسْتَرْقٍ وَمَطْوَأِ أَسَاوِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَنَّتُهُمْ زِينَتَ سَرَكَابٍ طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلْيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَرَبَّيْتُمْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ قَبَائِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لنتكشفن»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاها ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ أي: ثبتوا أنتم المسلمين وقروا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سألتني الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري، وكذب رسولي. ﴿فَأَضْرَبُوا قَوْقُ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿قَوْقُ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة. وقيل: معناه: ﴿قَوْقُ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفي. ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أُرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فَاغْلِبْ إِذَا كَفَرُوا فَضْرَبِ الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَغْلَقْتَهُمْ فَشُدُّوا الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤]. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعداب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق». واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام. قلت: وفي مغازي «الأموي» أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول: «نُفَلِّقْ هاماً...». فيقول أبو بكر:

... من رجال أعضزة علينا وهم كانوا أعنت وأظلمما
 فيبتدىء رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر، رضي الله عنه، إنشاد آخره؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال
 تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا
 هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف
 أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر:

أَلَا لَيْتَنِي قَطَعْتُ مِنْي بَنَانَةً وَلَا قَيْئُهُ فِي السَّبِينِ يَنْظَانُ حَاذِرًا

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن
 جريج. وقال السدي: البنان: الأطراف، ويقال: كل مفصل. وقال عكرمة، وعطية العوفي والضحاك - في رواية أخرى -: كل
 مفصل. وقال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا
 أخذته حرم ذلك كله عليك. وقال العوفي، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال -: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً،
 ولكن خذوهم أخذاً، حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى
 الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَخَيَّرُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل
 أبو جهل لعنه الله، في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين - يعني: قتيلاً. ولذلك
 قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق -
 وهو مأخوذ أيضاً من شق العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرِهَ اللَّهُ شَيْئَهُ الْعَاقِبَةُ﴾ أي: هو الطالب
 الغالب لمن خالفه وناراه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿ذَلِكَ قَدْ وُفِّقُوا
 وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤): هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين
 عذاب النار في الآخرة.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ إِلَيْكُمْ كُفْرُوا رَحْمًا فَلَا تُؤْهِمُ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالِ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِنْ فَتَرَوْ
 فَعَدَّ كِبَاءً يَنْصَبُ رَبُّكَ اللَّهُ وَمَا أُنْتِ بِهِمْ وَبِئْسَ الْعَوِيرُ﴾ (١٦).

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ إِلَيْكُمْ كُفْرُوا رَحْمًا﴾ أي: تقاربتم
 منهم ودنوتهم إليهم، ﴿فَلَا تُؤْهِمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تفروا وتركوا أصحابكم، ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالِ﴾ أي: يفر
 بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيبتعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير،
 والسدي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مَتَحَرِّفًا إِنْ فَتَرَوْ﴾ أي: فر من ههنا إلى فته
 أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في
 هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر،
 رضي الله عنهما، قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة - وكنت فيمن حاص - فقلنا: كيف
 نصنع وقد فررنا من الزحف ويؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن
 كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «لا، بل أنتم
 العكَّارون، أنا فنتكم، وأنا فته المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق
 عن يزيد بن أبي زياد، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به.
 وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مَتَحَرِّفًا إِنْ فَتَرَوْ﴾. قال أهل العلم: معنى قوله: «العكَّارون» أي: أي:
 العطاؤون. وكذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من
 ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إلي كنت له فته. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر. وفي رواية أبي عثمان النهدي،
 عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فنتكم. وقال مجاهد: قال عمر: أنا فته كل مسلم. وقال
 عبد الملك بن عمير، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا فته لكل مسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفتن: إمامنا أو عسكرينا؟ فقال: إن الفتنة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَيْسَتْ الْآيَةُ كَثُرُوا رَحَافًا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَذْبَاكَ﴾، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها. وقال الضحاک في قوله: ﴿أَوْ مَتَحَرِّبًا إِنْ يَفْقَهُ﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه. فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتؤذي يوم الرّخف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَكَاهُ﴾ أي: رجع عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو الزّبي، عن زيد بن أبي أنيسة، حدثنا جبلة بن سحيم، عن أبي المثنى العبدي، سمعت السدوسي - يعني ابن الخصاصية، وهو بشير بن معبد - قال: أتيت النبي ﷺ لأبايه، فاشترط علي: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله». فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولي الدُّبُر فقد بَاء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله ما لي إلا غنيمته وعشر ذؤدٍ هُنَّ رَسَلٌ أهلي وحمولهم. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذا؟» فقلت: يا رسول الله، أنا أبايك. فبايعته عليهن كلهن. هذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه في الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف». وهذا أيضاً حديث غريب جداً. وقال الطبراني أيضاً: حدثنا العباس بن الفضل الأسفطاطي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشّثي، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد - مولى رسول الله ﷺ - قال: سمعت أبي حدث عن جدي قال: قال رسول الله: «من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف». وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى بن إسماعيل، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ، عنه سواء. وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة؛ لأنه - يعني الجهاد - كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكروه. وقيل: إنما المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وعكرمة، وقادة، والضحاک، وغيرهم. وحثهم في هذا: أنه لم تكن عصاة لها شوكه فيؤذون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض»؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك ابن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم: فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال: فلا بأس عليه. وقال ابن المبارك أيضاً، عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّبًا إِنْ يَأْتِيَنَّكَ إِلَّا مَتَحَرِّبًا إِلَّا مَتَحَرِّبًا إِلَّا مَتَحَرِّبًا﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانَ إِذَا مَا آسَرْتَهُمْ النَّسِيطُونَ يَعْصُونَ مَا كَسَبُوا﴾، «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُتَيْنَ بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَرَثَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٢٥]، «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» [التوبة: ٢٧]. وفي سنن أبي داود، والنسائي، ومستدرک الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مَرْذُويه، من حديث داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: إنما أنزلت في أهل بدر. وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله تعالى أعلم.

﴿لَقَدْ تَقَالُوهُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ قَلْبَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِالنُّزُومِ لَفِي بَلَاءٍ حَسْبًا إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُرْهُنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ فَمَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ وَرَبَّتُمْ مَذْرُوبًا﴾ [التوبة: ٢٥]، يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللامة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى، كما قال: ﴿كَمْ مِنْ فِئْتَةٍ بَعَلَتْ لَيْلَةَ غَلَّتْ فِيهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَبُذُنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثم قال لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال: «يارب، إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض أبداً». فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وقال السدي: قال رسول الله ﷺ لعلي، رضي الله عنه، يوم بدر: «أعطني حصباً من الأرض». فنأوله حصباً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فانزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾: قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في منسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد وعكرمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زععة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حنيفة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتاً وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمتنا. غريب من هذا الوجه. ولهننا قولان آخران غريبان جداً:

أحدهما: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر، دعا بقوس، فأني بقوس طويلة، وقال: «جيووني غيرها». فجاؤوا بقوس كبداء، فرمى النبي ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فانزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسباق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

والثاني: روى ابن جرير أيضاً، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً، حتى كانت وفاته بها بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولاً بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة. وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناول بهمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَالْيَسِيلُ الْيُسُورُ﴾ ينة بلاء حسناً؛ أي: ليُعَرَفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضاً. وفي الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي:

سميع الدعاء، عليهم بمن يستحق النصر والغلب. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فيما يستقبل، مصغراً أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تيار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِن تَسْتَفِيحُوا فَتَدِّجُوا جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَدُّوا نَعْدَ وَنَ تَقِي عُنُقَكُمْ فَنُتَكِّمُ شَيْئًا وَكُو كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفِيحُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغبر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأخذه الغداة - وكان ذلك استفتاحاً منه - فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفِيحُوا فَتَدِّجُوا جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأخذه الغداة، فكان المستفتح. وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، به. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروي نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن زومان، وغير واحد. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى يثرب، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفِيحُوا فَتَدِّجُوا جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانظُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَدَابِيبِ الْآيَةِ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقوله: ﴿وَإِن تَنْهَوْا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَإِن تَوَدُّوا نَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَإِن عُدْتُمْ عَدَاً﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي: ﴿وَإِن تَوَدُّوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعْدَ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى. ﴿وَكَانَ تَقِي عُنُقَكُمْ شَيْئًا وَكُو كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجمع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ مَن سَمِعْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَمَنْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴿٢١﴾ وَكَو عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَهُمْ وَلَا أُسْمَهُمْ تَوَلَّوْا وَمَنْ مَعْرُوفُونَ ﴿٢٢﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره، ﴿وَاتَّبَعْتُمْ مَن سَمِعْتُمْ﴾ أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَمَنْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك. ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿إِلَيْكُمْ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله ﷻ فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُمُوءَ وَنَدَاءَ مِمَّ يَكْفُرُ عَمِّي فَهَرُّ لَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّيْهُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش. روي عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَكَو عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَكَو أُسْمَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، ﴿وَمَنْ مَعْرُوفُونَ﴾ عنه.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: اجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن

خبيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له - وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا - وقال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، السبع المثاني». هذا لفظه بحروفه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتقاء الحياة. وقال السدي: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ففي الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي. وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى تركه لا يعقل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ إِلَهُ مِنْ حَيْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنت بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقبلها». وهكذا رواه الترمذي في «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش - واسمه سليمان بن مهران - عن أبي سفيان - واسمه طلحة بن نافع - عن أنس، ثم قال: حسن. وهكذا روي عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

حديث آخر: قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو - مع ذلك - على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله الحضرمي: أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت النواس بن سَمْعَانَ الكلابي، رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك». قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه». وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن؛ أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب الأدمي بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاعه، وإذا شاء أقامه».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، ﷻ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحببتي».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرني أبو هانيء، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه

سمع عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصْرَفُ كيف شاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصْرَفُ القلوب، صَرَفْ قلوبنا إلى طاعتك». انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حَيَّوَةَ بن شُرَيْح المصري، به.

﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غيلان بن جرير، عن مُطَرَف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير، رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم تكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت. وقد رواه البزار من حديث مطرف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مطرفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث. وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا. وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعني قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أنها خصصنا بها خاصة. وكذا رواه حُمَيْد، عن الحسن، عن الزبير، رضي الله عنه. وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان، وطلحة والزبير، رضي الله عنهم. وقال سفيان الثوري عن الصُّلْت بن دينار، عن عقبه بن صُهَيْبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أراها من أهلها فإن نحن المعنيون بها: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾. وقد روي من غير وجه، عن الزبير بن العوام. وقال السُّدِّي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابته يوم الجمل، فاقتلوا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصة. وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعظمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك، وزيد بن أبي حبيب، وغير واحد. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [النبا: ١٥]، فأبكم استعاذ فليستعذ بالله من مُصْلَات الفتن. رواه ابن جرير. والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفرده بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عدي بن عدي الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني عدي بن عميرة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله، ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّبَ الله الخاصة والعامة». فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه في الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل - يعني ابن جعفر - أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حذيفة بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونهم فلا يستجيب لكم». وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُعَيْم، حدثنا زَيْن بن حبيب الجُهَنِي، حدثني أبو الرُّقَاد قال: خرجت مع مولاي، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيفصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتَحَاضُنَّ على الخير، أو لَيَسْتَحْتَكِمَنَّ الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، رضي الله عنه، يخطب يقول: - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها - أو المدهن فيها -

كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَرَّوا على من فوقهم فأدوهم، فقالوا: لو حَرَقْنَا نَصِينَا حَرْقًا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هَلَكُوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَّوْا جميعاً. انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و «الشهادات»، والترمذي في الفتن من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعشى، عن عامر بن شراحيل الشعبي، به .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خَلْف بن خليفة، عن لَيْث، عن عَلْقَمَةَ بن مَرْثَد، عن المعرور بن سُؤَيْد، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عَمَّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب - أو: أصابهم العقاب». ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأخرص، عن أبي إسحاق، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عُبيد الله بن جرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب». ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن إسرائيل - وعن عبد الرزاق، عن مَعْمَر - وعن أسود، عن شريك ويونس - كلهم عن أبي إسحاق السبيعي، به. وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به .

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنْذِر، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله».

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَخَافُوا أَنْ يَخَطَبَكُمْ النَّاسُ فَتَوَلَّوْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم، ومستضعفين خائفين فقوّاهم ونصرهم، وقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطرين، يخافون أن يتخطبهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها، وقبض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسوا بأموالهم، وبدلوا مُهْجهم في طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادة بن دَعَامَةَ السُّدُوسِي، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضللاً، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما تعلم قَبِيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر من نزلهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُتِمِّع يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُفُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخُفُوا أَنْتَظَرُكُمْ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آتَيْنَاكُمْ وَأَوْلَانَا فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخبر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلّه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني

كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به». وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضي الله عنه: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُغُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شيبان بن سوار، حدثنا محمد بن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في كذا وكذا. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتبوا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فانزل الله عز وجل: ﴿لَا تَحْرُغُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْرُغُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي الصحيحين قصة «حاطب بن أبي بلتعة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بداراً، ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَحْرُغُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: الأمانة الأعمال التي اتتمن الله عليها العباد - يعني الفريضة - يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. وقال في رواية: ﴿لَا تَحْرُغُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم. وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُرُكُمُ وَأُؤْتِدُكُمْ فِتْنَةً﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونها فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا آمُرُكُمُ وَأُؤْتِدُكُمْ فِتْنَةً وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْحَبْرِ فِتْنَةً﴾ [الانبيا: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافرون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الآية [التغابن: ١٤]. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يعني عنك شيئاً، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدينا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول الله تعالى: «ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدته في كل شيء، وإن فُتق فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه». بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين».

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَلْفُوا اللَّهَ بِجَمَلِ كُمْ فُرْقَانًا وَتَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٦]. قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿فُرْقَانًا﴾: مخرجاً. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾: نجاة. وفي رواية عنه: نصرأ. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعله وأمره وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه - وهو محوها - وغفرها - سترها عن الناس - سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَلْفُوا اللَّهَ وَأَمْسُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْمَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. ﴿وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [١٧].

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليقيدوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليجسوك. وقال السُّدِّي: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال عطاء: سمعت عُمَيْرَ بن عُمَيْرٍ يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبته أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني»، فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، استوص به خيراً فقال: «أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي». وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري، المعروف بالسوساني، أخبرنا عبد الحميد بن أبي رُوَاد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبي وداعة، أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. «قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية. وذكر أبي طالب في هذا، غريب جداً، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاثتار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنتوا منه واجتروا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه.

والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس؛ أن نفرًا من قريش من أشرف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل. فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به رب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء؛ زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجن ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجكم من بلادكم قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق الله، فانظروا باباً غير هذا. قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا القتل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتى لا رأي غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٢٩)، وأنزل الله في قولهم: «تربصوا به رب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرَ نَزَّهَ بِهِ رَبِّي أَلَمْ نَلْمُوكَ﴾ (الطور: ٣٠)، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»، للذي اجتمعوا عليه من الرأي. وعن السُّدِّي نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٦). وكذا روى العَوْفِيُّ، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعُرْوَةَ بن الزبير، وموسى بن عُقْبَةَ، وقتادة، ومقسّم، وغير واحد، نحو ذلك.

وقال يونس بن بُكَيْرٍ، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) إلى

قوله: ﴿فَاعْتَبِرْتُمْ لَهُمْ لَّا يَصِيرُونَ﴾ [يس: ١ - ١٩]. قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا. وقد روى أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنتي؟» قالت: يا أبت، وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قدر أروك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنتي، انتني بوضوء». فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رآه قالوا: إنما هو ذا. فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافراً. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخبره، ولا أعرف له علة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، عن يقسم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْرَكُوا﴾. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فائتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي، رضي الله عنه، على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رآوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقصدا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمزوا بالغار، فرأوا على بابة نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابة، فمكث فيه ثلاث ليال. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتكم منهم.

﴿وَإِذْ تَنَزَّلُ عَلَيْهَا الْبَنَاتُ قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوِ شَاءَ لَوْلُنَا لَمَنَّا بِمَنْزِلِ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حُرًّا لَحِيٍّ مِنِّي وَعَيْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَدَائِبِ الْيَسْرِ﴾ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعَثْوهم وتمزدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تنلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَعَيْنَا لَوِ شَاءَ لَوْلُنَا لَمَنَّا بِمَنْزِلِ هَذَا﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحذوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا قول منهم يُعْتَرُونَ به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم. وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد بن جبيرة، والسدي، وابن جرير وغيرهم؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُشتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر وقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك، والله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: قُتِلَ النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبه بن أبي مُعَيْط وطُعَيْمة بن عدي، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله، ﷻ، ما يقول». فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أغن المقداد من فضلك». فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَنَزَّلُ عَلَيْهَا الْبَنَاتُ قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوِ شَاءَ لَوْلُنَا لَمَنَّا بِمَنْزِلِ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣١﴾. وكذا رواه هُشَيْنَم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَخْشِيَّة، عن سعيد بن جبيرة؛ أنه قال: «المطعم بن عدي» بدل «طعيمة». وهو غلط؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان المطعم حياً، ثم سألتني في هؤلاء الثثنى، لو هبتهم له» - يعني: الأسارى - لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَتَبْنَاهَا فِيهِ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَسِيلاً﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَوَماً رَحِيماً﴾ ﴿٦١﴾ [الفرقان: ٥، ٦] أي: لمن تاب إليه وأتاب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١): هذا من كثرة جهلهم وَعَثْوِهِمْ وَعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيَّبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووقفنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّعُوا فِي الْعَذَابِ وَكُلًّا أَسْمَىٰ لِمَا هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٣٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلًا لَنَا وَقَدْ قَدَّرَ بِوَجْهِكَ الْحِسَابَ﴾ (٣٤) [ص: ١٦٦]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (٣٥) ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ (٣٦) ﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣٧) [المعارج: ١-٣]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسِطِرْ عَلَيْنَا كَيْفَمَا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٨) [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال شُعْبَةُ، عن عبد الحميد، صاحب الزبدي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٩) الآية. رواه البخاري عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مَعَادٍ، عن أبيه، عن شعبة، به. وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب. قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، والله أعلم، وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١) قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (٣٥) [المعارج: ١، ٢]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والسدي: إنه النضر بن الحارث - زاد عطاء - فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلًا لَنَا وَقَدْ قَدَّرَ بِوَجْهِكَ الْحِسَابَ﴾ (٣٤) [ص: ١٦٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا فِيهِ بضع عشرة آية من كتاب الله، ﷻ. وقال ابن مَرْزُوقِ: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أُحُدٍ على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقاً، فأخسف بي وبفرسي. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سَفَهَةُ هذه الأمة وجَهْلَتِهَا، فعاد الله بعائذته ورحمته على سَفَهَةِ هذه الأمة وجَهْلَتِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٩) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي رُئَيْبِلِ سِمَاكِ الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك. فيقول النبي ﷺ: «قَدْ قَدَّرَ!» ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٩) قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مَعَشَرٍ، عن يزيد بن رُوْمَانَ ومحمد بن قيس قالوا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٩) إلى قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْرَهْتُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار - يستغفرون - يعني: يصلون - يعني بهذا أهل مكة. وروي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جبيرة، والسدي نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبِيِّ قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجازين من قوارع العذاب ما دام بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٩). قال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا، أن النضر بن عربي حدثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس. وروى ابن مَرْزُوقِ وابن جرير، عن

أبي موسى الأشعري نحواً من هذا، وكذا زوي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ. وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن ثُمَيْر، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عَبَاد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمْتِي: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)»، فإذا مضيت، تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ، لَا أْبْرِحُ أُعْرِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أُرَالُ أَغْفِرْ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رُشَيْدِينَ - هو ابن سعد - حدثني معاوية بن سعد الشَّجْبِي، عن حدثه، عن فَصَّالَةَ بن عُبَيْد، عن النبي ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله، ﷺ».

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِذْ أُوتِيَواهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥).

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرت سراتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَهُمُ الْبَلَاءَ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْتَمِرُونَ لَمُنَّوْا أَنْ تَلَاقُوهُمْ فَجِيحَتِكُمْ فِيهِمْ مَعْرَةٌ لَكُمْ لَسَبَأَ الَّذِي آتَى إِلَهُكَ مِنَ الْبَيْتِ لَوْ تَرَكُوا مَلَدَبَانَ الرَّيْثِ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٥) [الفتح: ٢٧٥]. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أْبْرِي قال: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون - يعني بمكة - فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. وزوي عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٤)، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ففوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي ثُمَيْلَةَ يحيى بن واضح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتْ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِذْ أُوتِيَواهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بيته، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ وَالْكَافِرُ أَوْلِيكَ حَتَّى تَعْمَلَهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللهُ فَسَسَى أَوْلِيكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨) [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفِّرْ بِهِ. وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]. وقال الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوب في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: من ألك؟ قال: «كل تقى»، وتلا

رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون». ثم قال: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه.

وقال عزوة، والسدي، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا. ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾: قال عبد الله بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وأبو رجاء العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وحجر بن عثس، وثيب بن شُرَيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصغير - وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدي: المكاء: الصغير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء»، ويكون بأرض الحجاز. والتصدية: التصفيق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب - يعني ابن عبد الله الأشعري - حدثنا جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفيق. والمكاء: الصغير، وإنما شبهوا بصغير الطير وتصديده التصفيق. وهكذا روى علي بن أبي طلحة والقفطي، عن ابن عباس. وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفي، وحجر بن عثس، وابن أبزى نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عمر، حدثنا قرة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصغير. والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر، فصفه ابن عمر، وأمال خذه، وصدق بيديه. وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه. وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد بن جبیر وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ قال: صدّهم الناس عن سبيل الله، ﷻ. قوله: ﴿فَذَرَوْا الذَّابَّ بِمَا كَثُرَ تَكْفُرُوكَ﴾ قال الضحاك، وابن جرير، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حَسْرَةٍ ثُمَّ يَغْتَابُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَّ اللَّهُ الَّذِينَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ الْخَبِيثِ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ تَزَكَّيْكُمْ يَوْمَ الَّذِي فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَاءُكُمْ هُمْ الْخَبِيثُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن جبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب أبائهم، وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد تزكّم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ففعلوا. قال: ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله، ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾. وهكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، والحكم بن عتيبة، وقتادة، والسدي، وابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ. وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليعصوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجد شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُغَلِن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبدي

والعذاب السزيمى؛ ولهذا قال: ﴿نَسِيْبُوْنَهَا ثُمَّ تَكَوْثٌ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُوْنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ .

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيْرَ اللّٰهُ اَلْحَيٰتِ مِنَ اَلْطَّيِّبِ﴾ قال علي بن ابي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيْرَ اللّٰهُ اَلْحَيٰتِ مِنَ اَلْطَّيِّبِ﴾: فيميز اهل السعادة من اهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُوْلُ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَكَانَكُمْ اَنْتُمْ وَّشُرَكَآؤُكُمْ فَرِيْقًا مِّبَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُوْمُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُوْنَكُمُ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُوْنَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوْا اَلْيَوْمَ اِيْمًا اَلْمُجْرِمُوْنَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]. ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون في الصدع عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيْرَ اللّٰهُ اَلْحَيٰتِ مِنَ اَلْطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا اَصْبَحْتُمْ يَوْمَ اَلتَّقِي الْجَمْعَانِ فَيٰٓاَيُّ اللّٰهِ وَيَعْلَمُ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٦٦﴾﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَمَّوْا قَاتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اَوْ اَدْعَوْهُمُ اِلٰى دِيْنِهِمْ لَوْ نَدْعُوْهُمُ اِلٰى دِيْنِهِمْ لَقَاتِلُوْا اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَكُمْ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى مَا اَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيْرَ اَلْحَيٰتِ مِنَ اَلْطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُعْلِمَكُمْ عَلٰى اَلنَّبِيِّ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿اَمْرٌ حَسِيْمٌ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَمُرُّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جِهَدْتُمْ مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصّٰبِرِيْنَ ﴿٢٤١﴾﴾ [آل عمران: ٢٤٢]، ونظيرتها في براءة أيضاً. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ لتمييز الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿فَيَرْكَبُوْهُمُ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رَّكَابًا﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكماً متراكباً، ﴿فَيَجْعَلُهُمُ فِيْ جِهَتِكُمْ اَوْلِيٰتِكُمْ هُمُ اَلْخٰسِرُوْنَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِنْ يَنْتَهُوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَاِنْ يَمْوَدُوْا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْاَوَّلِيْنَ﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا حَتّٰى لَا تَكَوْثَ فِتْنَةً وَيَكُوْنُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِنْ يَنْتَهُوْا﴾ أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر». وفي الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يُجَبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها». وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْوَدُوْا﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْاَوَّلِيْنَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا تعالجهم بالعذاب والعقوبة. وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْاَوَّلِيْنَ﴾ أي: في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدي ومحمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَالُوْهُمْ حَتّٰى لَا تَكَوْثَ فِتْنَةً وَيَكُوْنُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ﴾ قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا خنوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن بكير، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِنْ يَمْوَدُوْا﴾؟ قال: «وإِنْ يَمْوَدُوْا مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اَقْتُلُوْا» الآية [الحجرات: ٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أعير بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله، ﷻ: ﴿وَمَنْ يَمْتَسِلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَالُوْهُمْ حَتّٰى لَا تَكَوْثَ فِتْنَةً﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ، إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولني في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وحنته. وأشار بيده - وهذه ابنته - أو: بنته - حيث ترون. وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا تيبان أن وبرة حدثه قال: حدثني سعيد بن جبيرة قال: خرج علينا - أو: إلينا - ابن عمر، رضي الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك. هذا كله سياق البخاري، رحمه الله. وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَالُوْهُمْ حَتّٰى لَا تَكَوْثَ فِتْنَةً وَيَكُوْنُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِلَىٰ جِهَتِكَ مُجْرَمُوْنَ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله،

وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنت عند عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، فأثاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مَرْدُويه.

وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال ذو البطين - يعني أسامة بن زيد - لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾؟ فقالوا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ يعني: حتى لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾: حتى لا يفتن مسلم عن دينه. وقوله: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله. وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر. ويشهد له ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ﷻ». وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقال حَيِّية، ويقال رِياء، أي ذلك في سبيل الله، ﷻ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ﷻ».

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَنْتَهُمْ﴾ أي: بقتلكم عما هم فيه من الكفر، فكفروا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَسْمُونُ بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَا تَحْزَنْكُمْ فِي الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ١١]. وقال: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾: لا إله إلا الله، فكيف عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥٦﴾ [البقرة: ١٩٣]. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة - لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله، فقال لأسامة -: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوداً. قال: «هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمتيت أبي لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَانْقَلَبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهُكُمْ لِلَّهِ وَمَنْ يُقَلِّبْهُمُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حِصْنٍ﴾ [التوبة: ١٦]. أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعِمَّ النَّبِيُّ، ونعم السيد، ونعم العشيبة، فجزاه الله خير، وعزفنا وجهه في الجنة، وأحياناً على ملته، وأمانتنا وبعثنا عليها، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدها منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكروه ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يقتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم، وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فُجِّل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُنْتَى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكناً لتجارهم، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك،

استرخوا استرخاءً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلازل، فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم، تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه: قد استرخى عن من كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطلق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تأمرت على أن يفتنوهم ويشددوا، فأخذوهم، فحرسوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها - وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جنتنا، فإننا نمنعك مما تمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ﷻ، فيها: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَئِلَ لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكَوِّنُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ﴾. ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد - يعني ابن عبد الملك بن مروان - بهذا، فذكر مثله. وهذا صحيح إلى عروة، رحمه الله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللَّيْلُ وَالنَّوْلُ وَالزُّرَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبْيَ وَالْحَشْرَ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية «الأنفال» تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر. هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغنم. ومن يجعل أمر المغنم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ﴾: توكيداً لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]. وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللَّيْلُ وَالزُّرَىٰ﴾: اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرِّيَاحِي قال: كان رسول الله ﷺ يؤتي بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله عليه السلام.

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، حَسَسَ الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللَّيْلُ وَالزُّرَىٰ﴾، قال: وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ﴾ مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. وهكذا قال إبراهيم النَّحْعِي، والحسن بن محمد بن الحنفية، والحسن البصري، والشعبي، وغطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة، وقادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «الله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم». وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال:

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، حَسَسَ الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللَّيْلُ وَالزُّرَىٰ﴾، قال: وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ﴾ مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. وهكذا قال إبراهيم النَّحْعِي، والحسن بن محمد بن الحنفية، والحسن البصري، والشعبي، وغطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة، وقادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «الله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم». وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال:

أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه.

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة: فربع لله وللرسول ولذي القربى - يعني: قرابة النبي ﷺ. فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو مَعْمَرُ المُنْقَرِي، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللَّيْسُ لَهُ فَلَئِنِ يَشَاءُ، والذي للرسول لأزواجه. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعني: النبي ﷺ. وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدم بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي، رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة، يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وَبَرَةً بين أنمليته فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيظ والمخيظ، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي به الله من الهم والغم». هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول. وعن عمرو بن عَبَّسَةَ أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم». رواه أبو داود والنسائي. وقد كان للنبي ﷺ من المغنم شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنقل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت صفيية من الصّفي. رواه أبو داود في سننه. وروي أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمزبد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي وسهم الصّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ.

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوتها؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه. وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع. وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين. وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق. وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المِثْهَالُ بن عمرو، وسألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالوا: هو لنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا. وقال سفيان الثوري، وأبو نُعَيْمٍ، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية، رحمه الله

تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَطِئُوا أَمْرًا غَيْرَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِنَّ لَكُم مِّنْهُ مَوْجِبَاتٌ لِّأُولِي النَّسَبِ﴾ قال: هذا مفتاح كلام، الله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقراءة النبي ﷺ. وقال قائلون: سهم القرابة لقراءة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. قال الأعمش، عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان علي أشدهم فيه. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله. وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ورسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وألفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربهم وناذبوهم، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قريتهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

جَزَى اللهُ عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلَا عُقُوبَةَ شَرِّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
بِمِيزَانٍ قَنِطٍ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَةً لَهْ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عَائِلٍ
لَقَدْ سَفُهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بِنِسِي خَلْفٍ قَنِضًا بِنَا وَالغِيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصُّمَمِيمُ مِنْ ذَوَابَةِ هَاشِمٍ وَأَلْ قُصَيِّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان - يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس - إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد». رواه مسلم. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفرقونا في جاهلية ولا إسلام». وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روي عن خُصَيْفٍ، عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة. وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة. ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها. حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري قال: كتب نَجْدَةَ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذي القربى»، فكتب إليه ابن عباس: كنا نقول: إنا هم، فأبى ذلك علينا قوماً، وقالوا: قريش كلها ذوو قربي. وهذا الحديث في صحيح مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمز أن نَجْدَةَ كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قوماً» والزيادة من أفراد أبي معشر نَجِيج بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حنَّش، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غَسَّالَةِ الأيدي؛ لأن لكم من خُمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم». هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتي بمنكير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَلَيْتَنِي﴾ أي: يتامى المسلمون. واختلف العلماء: هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين. و﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: هم المحاوِج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكتهم. ﴿وَأَبِّ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر، أو المرید للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك. وسأيتني تفسير ذلك في آية الصدقات في سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان. وقوله: ﴿إِنْ كَثُرَ مَا مَنَّمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَ عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم.». الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد يؤب البخاري على ذلك في «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في «شرح البخاري» والله الحمد والمنة. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: في القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ نَلَقَى الْجَمْعَانَ وَاللَّهَ﴾

عَلَّ كَلْبِي شَيْءٌ قَدِيرٌ ﴿٤٢﴾ بينه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فَرَّقَ به بين الحق والباطل بيدرسى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه. قال علي بن أبي طالب والمؤلفي، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر، فَرَّقَ الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم. وكذا قال مجاهد، ويقسم وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة بيقين فإن صبيحتها يوم بدر. وقال: على شرطهما. وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن يُرْقَان، عن رجل، عنه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عَوْنٍ محمد بن عبيد الله الثقفي، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة «الفرقان يوم التقى الجمعان» لسبع عشرة من رمضان. إسناد جيد قوي. ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير. وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاجْتِمَاعٍ فِي الْيَمِينِ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَبَدَّلَ أَمْرَكُمْ كَمَا مَقُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ﴾ أي: إذ أنتم تُزُولون بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي: البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لِاجْتِمَاعٍ فِي الْيَمِينِ﴾. قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ لَيَقْفَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَمَا مَقُولًا﴾. ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملا منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلفظه. وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْة، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة، ونهذ الناس بعضهم لبعض.

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من «الصفراء» بعث بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الرُّغَبَاءِ الجُهَنِيِّين، يلتصقان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بديراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شُرْنٍ لهما من الماء، فسمعا جارتين يختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي. وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد، فأقضيك حقلك. فحلَّص بينهما مجدي بن عمرو، وقال: صدقت، فسمع ذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد خَير، فتقدم أمام غيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أنني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شُرْنٍ لهما، ثم انطلقا. فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، فقتَّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب. ثم رجع سريعاً فضرب وجه غيره، فانطلق بها فسأخل حتى إذا رأى أن قد أحرز غيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى تأتي بديراً - وكانت بدرُ سوقاً من أسواق العرب - فتقيم بها ثلاثاً، فنطعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُرَ، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. فقال الأخنس بن شَرِيق: يا معشر بني زُهرة، إن الله قد نجى أموالكم، ونجى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدي.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبير فأصابوا سقاة لقريش: غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فاتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب: العَقْفَل - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندري. قال: «كم ينخرون كل يوم؟» قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عَشْراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن جزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وثبته وثبته ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، وثنيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذلك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حياً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأتى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما.

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت وراها رسول الله ﷺ نُصِبَ من العَقْفَل - وهو الكتيب - الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بفسخها وخيلائها تُحَادِّثُكَ وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة». وقوله: «لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَرِيحٍ مِّن حَمٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ»: قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد، ويَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير معاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، لبصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحيث «لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ»: أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، «وَرِيحٍ مِّن حَمٍّ»: أي: يؤمن من آمن «عَنْ بَيِّنَةٍ»: أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: «أَوْ مَن كَانَ مَيِّمًا فَجَنَّبْنَاهُ مَجْمَلًا لَّمْ يُؤَرِّكَ يَمِينَهُ فِي النَّاسِ» [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: «فِي هَلِكٍ مِّن هَلِكِ أَي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك». وقوله: «وَلَا تَكُ اللَّهُ لَسَمِيحًا»: أي: لدعاتكم وتضرعكم واستغاثتكم به «عَلِيَّةً»: أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيدُكُمْ اللَّهُ فِي مَنَابِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَّخْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ وَاللَّسِنَةُ فِي الْأَمْرِ وَاللَّسِنَةُ وَاللَّسِنَةُ وَاللَّسِنَةُ﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَّخْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ﴾

﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ﴾

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشبثاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي نام بها. وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: «إِذْ يُرِيدُكُمْ اللَّهُ فِي مَنَابِكُمْ قَلِيلًا»: قال: بعينك. وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. وقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَّخْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ»: أي: لجتبتم عنهم واختلفتكم فيما بينكم، «وَلَا تَكُ اللَّهُ لَسَمِيحًا»: أي: من ذلك، بأن أراكم قليلاً: «إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ»: أي: بما توجه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَّخْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ قَلِيلًا»: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم قليلاً في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم. قال أبو إسحق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لقد قُلُّوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جاني: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَّخْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ»: قال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن حرب،

حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخزيم، عن عكرمة: ﴿وَأَذِ بَرِيكُمُومَ إِذِ التَّقِيْمَتِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حمض بعضهم على بعض. إسناده صحيح. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿يَقِيضُ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْعُودًا﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب، للنعمة ممن أراد الانتقام منه. والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَيْتِنِ النَّعْتِ إِذِ اتَّخَذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ يَنْفَيْهِمْ وَأَمَّا الْأَمْرُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَطْشَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٣] قال عمران: [١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيهَا الْآيَاتُ مَأْتُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكُمْ فَاتَّبِعُوا وَأَذِكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٤] وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [١٥].

هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الْآيَاتُ مَأْتُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكُمْ فَاتَّبِعُوا﴾ ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم، منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم». وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاتبعتهم فاصبروا، فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت». وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الرُخف، وعند الجنابة». وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبيدي كل عبيدي الذي يذكرني وهو مناظر قرنه» أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعائتي. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الرخف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم. وقال أيضاً: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قوزر، عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولو لا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الْآيَاتُ مَأْتُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكُمْ فَاتَّبِعُوا وَأَذِكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٥]. قال الشاعر:

ذَكَرْتِكَ وَالْخَطِيءُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا
وَقَدْ نَهَلْتُ فِينَا الْمُتَقَفَّةَ السُّمُرُ
وقال عنتر:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ شَوَاجِرُ
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ الْمِيوْفِ لِأَنَّهَا
فينا وببيض الهند تقطر من دمي
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا يتكلموا ولا يجنبوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلموا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به اتتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وقد كان للصحابه - رضي الله عنهم، في باب الشجاعة والانتصار بأمر الله، وامتنال ما أرشدهم إليه - ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والخبوش وأصناف السودان والقبظ، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علقت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك

الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زميرتهم، إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلْيَسَ النَّاسُ بِصُدُورِكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَلَيْسَ اللَّهُ بِمَا يَمْلِكُونَ مُحِيطًا ﴿٤٧﴾ وَإِذْ رَمَى لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيُنَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَلْيَسَ النَّاسِ وَإِنْ جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ وَهُمْ مَوَّكَلُونَ عَلَى اللَّهِ فَلَوْلَا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفاعاً للحق، ﴿وَرِيقَةً النَّاسِ﴾، وهو: المفارقة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجموا - فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدى أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَمْلِكُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلْيَسَ النَّاسُ بِصُدُورِكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَمْلِكُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ رَمَى لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيُنَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَلْيَسَ النَّاسِ وَإِنْ جَارَ لَكُمْ﴾ الآية: حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم، سيد بني مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَبْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَبْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برأيته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين: أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رابته، في صورة رجل من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَلْيَسَ النَّاسِ وَإِنْ جَارَ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقاة، أنت زعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾، فتشبث الحارث بن هشام فنخر في وجهه، فخر صعقاً، فقيل له: ويلك يا سراقاة، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عقبة، عن شعبة - مولى ابن عباس - عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس أعني على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف. وإبليس قد تصور في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم المدلجي، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدو الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقاة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني. وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه، ذكرناه في السيرة. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يشبههم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم المدلجي - وكان من أشرف بني كنانة -

فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكروهه، فخرجوا سراعاً. قال محمد بن إسحاق: فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقه بن مالك لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو: عمير بن وهب - فقال: أين، أي سراق؟ ومثل عدو الله فذهب - قال: فأوردتهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهكذا روي عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعباده لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّجَلِيِّ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِقَىٰ وَعَدَّكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرَةٌ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمَّوْا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصَوِّرِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخَوِّعِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَقْتُمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَقْلِيلِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعني بصري، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى. فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم: أني معكم ففتنوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولتكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزرى لا ترجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلهم وخذوهم أخذاً. وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ النَّجْمَ﴾ [طه: ٧١]، وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة. وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي إبليس في يوم هوفيه أصغر ولا أحقر ولا أدر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر».

قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل، عليه السلام، يزع الملائكة». هذا مرسل من هذا الوجه. وقوله: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾. وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتواً. وقال ابن جزيج في قوله: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قاله يوم بدر. وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾. وقال مجاهد في قوله، ﷺ: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ قال: فنة من قريش: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح فحبسهم ارتياحهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواء. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين - قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنبه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾ أي: لا يُضَامُ من التجأ إليه، فإن الله عزيز منبع الجناب، عظيم

السلطان، حكيم في أنعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ بِأَنَّهُمْ وَأَدْبُرُهُمْ وَوُجُوهُهُمُ الْخَبْرِيُّ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ آيَاتِكُمْ وَرَأَىٰ اللَّهُ لَيْسَ يَظُنُّرَ لَعْنِيدٍ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكرأ؛ إذ يصربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَدُّوْهُرَا عَدَابَ الْخَبْرِيِّ﴾. قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبُرَهُمْ﴾: أستاذهم، قال: يوم بدر. قال ابن جريج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد قوله: ﴿إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ بِأَنَّهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾: يوم بدر. وقال وكيع، عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿يَصْرِيحُونَ بِأَنَّهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾: قال: وأستاذهم، ولكن الله يَكْنِي. وكذا قال عمر مولى عُقْرَةَ. وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله، إنني رأيت يظهر أبي جهل مثل الشراك قال: ما ذاك؟ قال: «ضرب الملائكة». رواه ابن جرير، وهو مرسل. وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ بِأَنَّهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ لَنَفَتْنَ فِي عَمَزَاتِ الْكُوفِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْسُوَ أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء: إن ملك الموت - إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة - يقول: أخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سُموم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَدُّوْهُرَا عَدَابَ الْخَبْرِيِّ﴾. وقوله تعالى: ذلك: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ آيَاتِكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظُنُّرَ لَعْنِيدٍ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، رحمه الله، من رواية أبي ذر، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»، ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَابَ مَالٍ رُفَعَتْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّتْ اللَّهُ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذوبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ تَمَّ بِكَ مَعِيرًا نَقَمَةً أَنْصَحَا عَلَى قَوِيٍّ حَتَّىٰ يَبْرُؤَا مَا يَأْتِسُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَابَ مَالٍ رُفَعَتْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِمَا بَيَّنَّتْ رَبَّهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنفَرْنَا مَالَ رُفَعَتْ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [المرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَذَابَ مَالٍ رُفَعَتْ﴾ أي: كصنعه بال فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَبْغُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ فَإِنَّمَا تَتَفَنَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَرَسَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَمَلَهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه

بِالْإِيمَانِ نَكَتْهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام. ﴿إِنَّمَا تَتَفَنَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَنَزَرْتَهُمْ مِنْ عُلُقَّتِهِمْ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأنخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾. وقال السدي: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمِ خِثَانَةٍ فَاذْنَيْهِمْ عَلَى سِوَاهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمِ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِثَانَةٍ﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَاذْنَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَى سِوَاهِ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْرِبْ وَجْهَهُ الشُّبْرُ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يَجِيْبُوكَ إِلَى السِّوَاءِ
وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فَاذْنَيْهِمْ عَلَى سِوَاهِ﴾ أي: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضاً. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلُّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضي الله عنه. وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البخترى عن سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حصن - أو: مدينة - فقال لأصحابه: دعوني أذعوه كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منهم، فهداني الله، ﷺ، للإسلام، فإذا أسلمتم فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناکم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِتْمَهُمْ لَا يَجْرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُوهُمْ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِهِمْ وَلَا تَلْمِزُوهُمْ اللَّهُ يَغْلِبُهُمْ رَمًا شَفِيفًا مِنْ تَحْتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْتِي لِكُلِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴿٦٠﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحسبن﴾ يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ أي: فاتونا فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [النكوت]: أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهَبْنَا لَكَ الْوَيْسُورَ﴾ ﴿٥٧﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١٦١﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ رَيْسَ لِهَآءِ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفيق، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي. رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثهم عن عبد الله بن وهب، به. ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث صالح بن كيسان، عن رجل، عنه. وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا».

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج - أو: روضة - فما أصابت في طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنة، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأروائها حسنة له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به، كان ذلك حسنة له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً

ونواة فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفادة: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَسْمَلْ دَرَوَ حَيْبَرَ يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَسْمَلْ دَرَوَ سَكْرًا يَسْرُ﴾ (٨) [الزلازلة: ٧، ٨]. رواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم، كلاهما من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الركين بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلقه وروثه ويوله، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر».

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهشام قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماسه: أن معاوية بن حديج مر على أبي ذر، وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده. قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سؤيد بن قيس؛ عن معاوية بن حديج؛ عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه» أو «أحب أهله وماله إليه». رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، به. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعني: سهلاً -: حَدَّثَنَا حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يده بالصدقة لا يقبضها». والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارقى: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم».

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ﴾ أي: تخفون ﴿يَوْمَ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، قال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرغ الجنصي، حدثنا أبو حيوه - يعني: شريح بن يزيد المقرئ - حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب - يعني: يزيد بن عبد الله بن عريب - عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾، قال: «هم الجن». ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دحيم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان، عن يزيد بن عبد الله بن عريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخيل بيت فيه عتيق من الخيل». وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه. وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون. وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكَ يَبِ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّى تَعْلَمَهُمُ﴾ [التوبة: ١٠١]. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُغْلَبُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِي يُنْفِقْ آمَنًا لَمْ يَغْلِبْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتْ مَعَ سَائِلِ فِي كُلِّ صَبْغَةٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين. وهذا أيضاً غريب.

﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِبْ مَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٠) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِمَقْرِبَةٍ وَيَكْفُرُونَ لَكَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَاكَ مِنْ نَحْوِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٢). يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانذِرْ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنايذتك فقاتلهم، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْتَنِبْ لَهَا﴾ أي: فعمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب

المشركون عام الحديدية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني: النيميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف - أو: أمر - فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل». وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله. وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديدية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقوله: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتفقوا ويستعدوا، ﴿فَاتَّخَذَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بِقُرُونِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّيْلِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِقَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَمْسَحَ بِمَنِّيهِمْ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألتفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكَ اللَّهُ الْآلِفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن القندليبي الاسترابادي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشروذ، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مَثَّ ذُو الْقَرْبَىٰ إِلَيْكَ بِرَحْمِهِ
ولكن ذَا الْقَرْبَى الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ
قَالَ: وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَاتِلِ:

ولقد صحبت الناس ثم سببرتهم
فإذا القرابة لا تُقَرَّبُ قاطمًا
وبلوت ما وصلوا من الأسباب
وإذا الممودة أقرَّبُ الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة؟ وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرححها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. رواه الحاكم أيضاً. وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد - ولقيته فأخذ بيدي - فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحانت خطاياهما كما يتحانت ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزي، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَعَلَّكَ اللَّهُ الْآلِفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني. وكذا روى طلحة بن

مُصْرَفٌ، عن مجاهد. وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث أن أول ما يرفع من الناس - أو قال: عن الناس - الألفة. وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحار».

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَلْبِغُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِغُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ حَفَنَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مَارِدًا يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَلْبِغُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يحرص تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن شوذب، عن الشعبي في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. قال: وروى عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مثله. ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وذمر عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ، بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه.

وقد روي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون. وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم. ثم قال تعالى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِغُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كل واحد بعشرة. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الجريت، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ حَفَنَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿أَلَنْ حَفَنَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفرؤا من مائتين. وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به نحوه. وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿أَلَنْ حَفَنَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من العدو لهم لم ينبغ لهم أن يفرؤا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم. وروى علي بن أبي طلحة والوعوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو ذلك. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ. وروى الحاكم في مستدركه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿أَلَنْ حَفَنَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتْرَابِي حَتَّى يُنْخَبِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْتَدْتُمْ عَدَاؤُكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلْالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في

الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، نرى أن تغفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فغفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، ﷻ: ﴿لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك. وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستنتهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في واد كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقيهم فيه. قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَنْ يَمَعِي فَأَنَا مَعِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِنْ تَدْبِرْتُمْ فِئَتَكُمْ عِبَادَتِي وَإِنْ تَقَرُّوا لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيبُ لِمَنْ كُنْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّهَا أَرْضُ الْكَافِرِينَ وَالْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق». قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ إلى آخر الآية. رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً - واللفظ له - والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أتم الليل من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: فأتهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَّرَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال سفيان الثوري، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خيّر أصحابك في الأسارى: إن شأوا الفداء، وإن شأوا القتل على أن يقتل منهم مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا. رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري، به وهذا حديث غريب جداً. وقال ابن عوف عن محمد بن سيرين عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فادبتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه. ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلأ، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: «مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى»، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قيل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحداً شهد بداراً. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿أَوَلَا كُنْتُمْ مِنْ اللَّهِ سَبِقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة ونحوه عن سفیان الثوري، رحمه الله. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَا كُنْتُمْ مِنْ اللَّهِ سَبِقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغنم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن البصري، وقناة والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿أَوَلَا كُنْتُمْ مِنْ اللَّهِ سَبِقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا». ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفیان بن جبیب، حدثنا شعبة، عن أبي العنيس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة. وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل ببني قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتها من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَنْ يَنْفِيَنَّ عَنْكُمْ بَرَكَاتِ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِينَ اسْتَنَسُوا بَدْرًا لَقُوا بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أَخْرَجُوا كِرْهًا، لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَي: مِنْ بَنِي هَاشِمٍ - فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بَنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرَجَ مُسْتَكْرَهًا﴾ فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقذت آباءنا وأبنائنا وإخواننا وعشائرتنا وترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمته بالسيف! فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كنتاني فيه رسول الله ﷺ - أياضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، انذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً، رضي الله عنه. وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ. قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً مؤسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً. وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنا رسول الله ﷺ فقالوا: انذن لنا فلنتزكك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا، والله لا تذررون منه درهما». وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زومان، عن عروة - وعن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: - بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: أن أصبغت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقثم». قال: والله يا رسول الله، إنني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبغت مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله، ﷻ فيه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ

قُلْ لَيْنَ فِي أَيُّوبَكَ تَبَكُّرَ الْأُنسَرِيِّ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾ . قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، ﷺ. وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس عن ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: في نزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْرَكَ فِي الْأَرْضِينَ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجر، مالي في يده. وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: في نزلت - والله - حين ذكرت رسول الله ﷺ إسلامي - ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِي النَّبِيَّ قُلُوبُ لَيْنٍ فِي أَيُّوبَكَ تَبَكُّرَ الْأُنسَرِيِّ﴾: عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبي ﷺ: أمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ﴾، إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون غفر لي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسريوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله، ﷺ، خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر ففقدت نفسي بأربعين أوقية. فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله، جل ثناؤه. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضع لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم ساكتاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشي، فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة. وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد. قال: فنشرت على حصير ونودي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضاً، قال: وجاء العباس بن عبد المطلب يحيي في خصيصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسّم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكاً - أو: نابه - وقال له: «أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول - وهو منطلق -: أمّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَتَأْتِي النَّبِيَّ قُلُوبُ لَيْنٍ فِي أَيُّوبَكَ تَبَكُّرَ الْأُنسَرِيِّ﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى، فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منهم درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

حديث آخر في ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعدي، حدثنا مَحْمَشُ بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهّمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه في المسجد». قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عَقِيلًا. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحشا في ثوبه، ثم ذهب يَقْلُهُ فلم يستطع، فقال: مُرُّ بعضهم يرفعه إليّ. قال: «لا». قال: فإرفعه أنت عليّ. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه، عَجَبًا من جزّسه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم. وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طهّمان» ويسوقه، وفي بعض السياقات أتم من هذا.

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا جِبَانَتَكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ حَاثُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمَّا كَنْتُمْ﴾ أي: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليهم بما يفعل، حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسرها السُّدِّيُّ على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ أَنْ تَنْصَرُوا إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وهاجروا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبدلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواثيق، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس، ورواه العوفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه. وقال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير - هو ابن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاقاء من قريش والعنقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شبيران، حدثنا عكرمة - يعني ابن إبراهيم الأزدي - حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلاقاء من قريش والعنقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْبِرَّ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١١٠﴾﴾، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْجَاةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفَقْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُضْرَبُونَ اللَّهُ يُرْسِلُهُمْ اللَّهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿١١٠﴾﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩]. وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة. ثم قال: لا تعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يهاجِرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغنم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: بريدة بن الحُصَيْبِ الأسلمي، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو: خلال - فأبئهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكُف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفياء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم». انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر.

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ أَنْ تَنْصَرُوا إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾: يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: مهادة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمِيثَاقِهِمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ إِلَّا تَقَعَّلُوهُ نَكُنَّ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَسَاءَ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاتة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدرکه: حدثنا محمد بن صالح بن هاني، حدثنا أبو سعد يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِ أَوْلِيائِهِمْ إِلَّا تَعْمَلُوا تَكْفُرًا﴾ في الأرض وَقَسَادٌ كَثِيرٌ ﴿٧٤﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»، وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري: أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: «تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنت لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب». وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلًا من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهرائي المشركين»، ثم قال: «لا يتراءى ناراهما». وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرّة بن جُنْدُبٍ حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرّة عن سمرّة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله». وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات. وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به نحوه. ثم روي من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، عن ابن وثيمة النضري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَعْمَلُوا تَكْفُرًا﴾ في الأرض وَقَسَادٌ كَثِيرٌ ﴿٧٤﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَكُنْ مَفْرُوقًا وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَنْزَارُ بِعُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾».

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسَامُ ولا يُمَلُّ لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَنْزَارُ﴾ يَأْتِيهِمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٠٠﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الحشر: ١٠٠] وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حُشِرَ معهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاق من قریش والعقاة من تقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة». قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَنْزَارُ بِعُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَنْزَارُ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبه، بل يُدَلُّون بوارث، كالأخالة، والأخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالأية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم

يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «الأنفال»، والله الحمد والمنة،
وعليه الثقة والتكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل تفسير سورة التوبة

مدنية.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِرِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ تُخْرَى الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري. حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُتَّبِعُكُمْ فِي الْكَلْبَلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لا يبسل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسلة في أولها في المصحف الإمام، والافتداء في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعد، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فوضعتها في السبع الطول. وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر، عن عوف الأعرابي، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، أميراً على الحج هذه السنة، ليقم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه غصبة له، كما سيأتي بيانه. فقله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذري اليهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِذْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ مَدَّتِهِمْ لَأَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤]. ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، وزوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسبحون في الأرض حيشما شاؤوا، وأجل أجل من ليس له عهد،

انسلخ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس. وقال الضحاك بعد قوله: فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف، حتى يدخلوا في الإسلام. وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من «براءة» فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّل المشركين عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشرا من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: «لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان». وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» إلى أهل العهد: خزاعة، ومذليج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عرّاة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا. وهكذا روي عن السدي، وقتادة. وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم. وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَّنَ رَبُّنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِيرٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى: وإعلام: «مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» وتقدم وإنذار إلى الناس، «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»: وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً، «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»: أي بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: «فَإِنْ تَبْتُمْ»: أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ»: أي: استمررتم على ما أنتم عليه «فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ»، بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، «وَبَشِيرٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ»: أي: في الدنيا بالخزي والتكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر، رضي الله عنه، في تلك الحجّة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمعنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أرفد النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. وهذا لفظ البخاري في كتاب «الجهاد».

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، في قوله: «بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» قال: لما كان النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجعرانة، ثم أمر أبا بكر على تلك الحجّة - قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر. قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً، وأمره أن يؤذن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو، أو قال: على هيئته. وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع. وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مَحْرَر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ب «براءة»، فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي: ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت أنادي حتى صُحِل صوتي. وقال الشعبي: حدثني مَحْرَر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب، رضي الله عنه، حين بعث رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صُحِل ناديت. قلت:

بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك. رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى أربعة أشهر. وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سماك، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي». فبعث بها مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. ورواه الترمذي في التفسير، عن بُنْدَار، عن عفان وعبد الصمد، كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس، رضي الله عنه. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان - لؤين - حدثنا محمد بن جابر، عن سماك، عن حنّش، عن علي، رضي الله عنه، قال: لما نزلت عشر آيات من «براءة» على النبي ﷺ، دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعاني فقال: «أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقراه عليهم». فلحقته بالبحُففة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نزل في شيء؟ فقال: «لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك». هذا إسناد فيه ضعف. وليس المراد أن أبا بكر، رضي الله عنه، رجع من فوره، بل بعد قضائه المناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حنّش، عن علي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لست باللسن ولا بالخطيب، قال: «ما بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت». قال: فإن كان ولا بد فساد ذهب أنا. قال: «انطلق، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وضع يده على فيه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيَع - رجل من همدان -: سألتنا علياً: بأي شيء بعثت؟ يعني: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجّة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. ورواه الترمذي عن قلابة، عن سفيان بن عيينة، به، وقال: حسن صحيح. وكذا قال، ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن يُثيَع، وهم فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي، رضي الله عنه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيَع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت «براءة» بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن أبي ثور، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمرت بأربع. فذكره. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيَع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل علياً، فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر قال: نزل في شيء؟ قال: «لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي». فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدته.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُثَيْف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي». ثم دعا علياً فقال: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطّف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته». فخرج علي، رضي الله عنه، على ناقة رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، ثم مضى، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذا ذك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام، ولا يطّف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطّف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ. فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حَيَوَة بن شريح: أخبرنا أبو

صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج، ويعثني معه بأربعين آية من «براءة»، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ فقال: قم، يا علي، فأذ رسالة رسول الله ﷺ، فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صدّرنا فأتينا منى، فرميت الجمره ونحرث البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم، فمن ثمّ إخال حسبت أنه يوم النحر ألا وهو يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جُحَيْفَةَ عن يوم الحج الأكبر، قال: يوم عرفة. فقلت: أمِنَ عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك.

وقال عبد الرزاق أيضاً، عن جُرَيْج، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر، يوم عرفة. وقال عُمَرُ بن الوليد الشُّنِّي: حدثنا شهاب بن عباد العَصْرِيُّ، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر، فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأنته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرك عن هو أفضل مني مائة ضعف عمر - أو: ابن عمر - كان ينهى عن صومه، ويقول: هو يوم الحج الأكبر. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهكذا روي عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس: أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر. وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيْج: أخبرت عن محمد بن قيس بن مَخْرَمَةَ أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المشوَر بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ، أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر».

والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال هُشَيْمٌ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي، رضي الله عنه، قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال أبو إسحاق السَّبَّيْعِي، عن الحارث الأعور، سألت علياً، رضي الله عنه، عن يوم الحج الأكبر، فقال: هو يوم النحر. وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي، رضي الله عنه، أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها. وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروي شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى. وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر. وقال حماد بن سلمة، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر.

وكذا روي عن أبي جُحَيْفَةَ، وسعيد بن جُبَيْر، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جبير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم التَّخَعِي، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشِي - عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَزُودِيه من حديث أبي جابر - واسمه محمد بن عبد الملك، به، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به. وقال شعبة، عن عمرو بن مَرَّة عن مرة الهَمْدَانِي، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضرة، فقال: «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «صدقتم، يوم الحج الأكبر».

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميهم سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر». وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح. وقال أبو الأحوص، عن شَيْبِ بن غَرْزَةَ، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت

رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها. وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحج»، و «يوم الجمل»، و «يوم صفين» أي: أيامه كلها. وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عام حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً - يعني ابن سيرين - عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوم وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْصُرُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْيَوْمَ إِلَيْهِمْ وَعَاهَدُوا بِيَدِهِمْ إِنَّ اللَّهَ بِحَيْثُ الْكُفَّيْنَ لَعَلِيمٌ﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عاهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْتَفِقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَبَدَّعْتُمُوهُمْ وَنَدَّوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْمَدُوا لَهُمْ كَعَدَّ الرَّصَادُ حِينَ تَأْتِيهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرَ آيَاتِهِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَا بَدَّعْتُمْ فَلَا تَقْتُلُوا فِيهَا أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم. وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿يَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢٧]، ثم قال: ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوه؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ حَيْثُ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ تَنَلَّوْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿وَبَدَّعْتُمْ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْمَدُوا لَهُمْ كَعَدَّ الرَّصَادُ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معارقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَأْتَوْا وَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ولهذا اعتمد الصديق، رضي الله عنه، في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدائها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله، ﷻ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يترك فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أباي الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم». ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارقها والله عنه راضٍ». قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ - قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]. ورواه ابن مردويه. ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكام بن سلم، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال الله: ﴿تَأْتِلُوا إِلَيْهِمُ الْحَبْلَ وَمَا يَشَاءُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا سَلْبًا وَإِنَّ اللَّهَ يَكُونُ لِمَا يَفْعَلُونَ عَلِيمًا﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. والرابع: قتال الباغيين في قوله: ﴿وَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]. والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْمَوَالِفِ وَلَا تَعْلَمُوا لَهُمْ مِثْلَ مَا عُلِّمْتُمْ خَالِصِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. والرابع: قتال الباغيين في قوله: ﴿وَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَنَافِقُهُ وَمَا يَدْعُوا﴾ [محمد: ٤]. وقال قتادة بالمعكس.

﴿وَإِن أَمَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُمْ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَنَةً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١١].

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن أَمَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَنَةً﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عبادته. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ويكز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فأروا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عتقك». وقد قبض الله له ضرب العتق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن ستة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَفَيْتَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِمَّا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَغِيثُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٧].

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتة إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين تقفوا، فقال تعالى:

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ وَأَمَانٌ وَيَتْرَكُونَ فِيهَا هِمَّ فِيهِمْ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، ﴿٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقْتُم مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَنَ مَكْرُوهًا أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ﴾ الآية [الفتح: ١٢٥]، ﴿ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ تَأْسِيئُهُمْ لَكُمْ أَن يَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالوا وحلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، وقتلوه معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد الفجر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَنْوَاهِمَ وَإِن قُلُوبُهُمْ رَاقِبَةٌ لَهُمْ فَيَسْخَرُونَ ﴾ (٨)

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة، وعكرمة، والعمري عن ابن عباس: «الإل»: القرابة، «والذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسدي، كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناس خُلُوفَ خلفوا قسطعوا الإل وأعسراق الرحم
وقال حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

وجدناهم كاذباً إلههم وجدواهم كاذباً إلههم
وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا» قال: الله. وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مجلز في قوله تعالى: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً»: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، كأنه يقول: يضيف «جبر»، و «ميكائيل»، و «إسرافيل»، إلى «إيل»، يقول عبد الله: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا» كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً: «الإل»: العهد. وقال قتادة: «الإل»: الحلف.

﴿ اشْتَرَوْا بِبَابَتِ اللَّهِ تَكْفِيلاً قَلِيلاً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِهْتِمَّ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَخَوَّفُواكُمْ فِي الدِّينِ وَفَضَّلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقَوْلِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩)

يقول تعالى ذمماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: «اشْتَرَوْا بِبَابَتِ اللَّهِ تَكْفِيلاً قَلِيلاً» يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة، «فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ» أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، «إِهْتِمَّ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً» تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» إلى آخرها، تقدمت. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المنثري، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هزج الأحاديث واختلاف الأهواء». وتصديق ذلك في كتاب الله: «فَإِن تَابُوا» يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ»، وقال في آية أخرى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَخَوَّفُواكُمْ فِي الدِّينِ». ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم: «فارقها وهو عنه راض»، وبقايع عندي من كلام الربيع بن أنس.

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا أَيْمَنْتُمْ مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْتُمْ فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا مَّا أَيْمَنَ الْكَافِرُ إِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴾ (١٠)

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، «وَطَعْتُمْ فِي دِينِكُمْ» أي: عابوه وانتقصوه. ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتقص؛ ولهذا قال: «فَقَلِيلًا مَّا أَيْمَنَ الْكَافِرُ إِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ» أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر

والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمّية بن خلف، وعدد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه. وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد. وروي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مثله. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم. وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر، رضي الله عنه، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَتَلُوا أَهْمَةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

﴿أَلَا تَعْلَمُونَ قَوْمًا نَكَّبُوا آيَاتِنَاهُمْ وَكَفَرُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَزْكَ مَرْءًا مَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ نَبَلْتَهُمْ بِعُدْبَتِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفُ سُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تهيب و تحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنَّ كُفْرَكُمْ خَرَجْتُمْ جَهَنَّمَ فِي سَبِيلِ الْبَغْيِ وَأَنْبَغَةَ مَرْصَاتٍ﴾ [المنحنة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَسُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَيْلًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَزْكَ مَرْءًا﴾: قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت و علموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك. وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد. وقوله: ﴿أَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فيبدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فَقَتَلُوا بِعُدْبَتِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفُ سُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية ﴿وَيَسْفُ سُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة. وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذْهَبُ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً. وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، عن مسلم بن يسار، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عويش، قولي: اللهم، رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن». ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجون، عنه. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجوز أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الْمُ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُؤْتُوا أَمْثَلًا وَأَنْ يَكُونُوا مِنْكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ وَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المنكوب: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسَّرْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَائِدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ

الطَّيِّبُ وَمَا كَانَ اللَّهُ يُغْلِبَ عَلَيْكَ عَلَى النَّبِيِّ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٧٩]. والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ومن قرأ: ﴿مسجد الله﴾ فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسس خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بشركهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَوِّنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَوِّنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾. فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد، كما قال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دراجاً أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَوِّنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾. ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب، به. وقال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سياه، وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله». ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح. وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاعة، نظر إلى أهل المساجد، فصرف عنهم». ثم قال: غريب. وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم». ثم قال ابن عساکر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل؛ أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذنب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجد». وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتي المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، رواه ابن مردويه. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها. وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَمَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله - ثم قال: ﴿فَمَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لبيبة ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: و «عسى» من الله حق.

﴿أَجَلْتُمْ سَفَاةَ الْمَلَأِجِ وَحَرَاةَ الْمَسْجِدِ لِمَرَارِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجْهَهُدَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَتَّظَمَ دَرَمَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَتِهِ

مِنَهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَمْ فِيهَا قِيَمَةٌ ثَقِيْمَةٌ ﴿٢٣﴾ خَلِيْلِيكَ فِيهَا اَبَدًا اِنَّ اللهَ عِنْدَهُ اَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴿٢٤﴾ .

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ مَائِنَتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَغْفِيكُمْ نَنَكِسُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِرِيءٍ سَمِيْرًا تَهْجُرُونَ ﴿٢٤﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿بِرِيءٍ سَمِيْرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبى ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع نبى الله ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه. قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسامهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسرى يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، ويعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحج البيت، ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَصَارَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي قال: نزلت في علي، والعباس، رضي الله عنهما، تكلمنا في ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد. فقال علي، رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؟ الآية كلها. وهكذا قال السدي، إلا أنه قال: افتخر علي، والعباس، وشيبه بن عثمان، وذكر نحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي، وعباس، وعثمان، وشيبه، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا. فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً». ورواه محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن فذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره ههنا، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن رجل عن النعمان بن بشير، رضي الله عنه، أن رجلاً قال: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت. فزجرهم عمر، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَصَارَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

طريق أخرى: قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَصَارَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود - وابن جرير وهذا لفظه - وابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفسيرهم وابن حبان في صحيحه.

﴿يَأْتِيَا الْبَيْتَ مَأْمُرًا لَا تَجِدُوا عَلَيْهِ أُمَّةَكُمْ وَإِن كَانَ آيَاتُكُمْ وَإِنَّا لَكُم بِرُؤُوسِكُمْ وَأَنْتُمْ كَسَادَةٌ وَمَسْلُوكٌ رِضْوَانًا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَزَرَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ .

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا «استخروا» أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحِهِ وَمَنْ يَبْدَأْ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية

[المجادلة: ٢٢]. وروى الحافظ أبو بكر البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْفِكُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الآية: ٢٢]. ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقربائه وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَبُحَيْرَةٌ مَّخْشُونٌ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهَيْعَةَ، عن زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر». انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حَيْوَةَ بن شَرِيح، عن أبي عَقِيلِ زهرة بن مَعْبُدٍ، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وروى الإمام أحمد، وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تابعتهم بالعين، وأخذتكم بأذناب البقر، ورضيتم بالزروع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك، وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَاءٍ رَجِيَّتٍ ثُمَّ لَمْ تُؤْتِكُمْ مَدِينًا﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُدُودًا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مِمَّا يَشَاءُ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾

قال ابن جرير، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من سورة «براءة». يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، ويتأيده وتقديره، لا بعددهم ولا بعددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبيته إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإماده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا يستند كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجؤن، عن رسول الله ﷺ، بنحوه. والله أعلم.

وقد كانت وقعة: «حنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكماهما، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاة والتنعم، وجاءوا بقصصهم وقصصهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولي المسلمون

مدبرين، كما قال الله، ﷻ، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر، يتقلانها لثلاث تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «أين يا عباد الله؟ إليّ أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت شزيمة منهم، أمرهم، عليه السلام، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أفضاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهري - واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس، ويقال: كُرْز - قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم فأنظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح؟ فقال: «أجل». فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك، فقال: «أسرج لي فرسي». فأخرج سرجاً دفتاه من ليف، ليس فيها أشر ولا بطر. قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصاففناهم عشيقتنا وليتنا، فنشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، ﷻ: ﴿ثُمَّ وَتَيْتُمْ مَدْرِينًا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله». قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه». فhezهم الله ﷻ. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كما مرار الحديد على الطست الجديد. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، به.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيؤوا في مضائق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِلُ أحد عن أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس، هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة». فأجابوه: لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بغيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يؤمّ الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقبلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخراً بالخزرج، وكانوا صُبراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم، فقال: «الآن حمي الوطيس». قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ ملقون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبنائهم. وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمار، أفررت من رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفِرْ، إن هوازن كانوا قوماً زَمَاةً، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينزّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِّينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف - هو ابن أبي جميلة الأعرابي - قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُزْئُن، حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حَلْب شاة - قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ - قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شأهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانزمتنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بألويه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن خصيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدماً، فحادثت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولني كفاً من التراب». فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلات أعينهم تراباً، قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك. قال: «اهتف بهم». فهتفت بهم، فجاؤوا وسيوفهم بأيانهم، كأنها الشهب، وولى المشركون أديارهم. ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان، به نحوه. وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد غرى، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمة إياهما، فقلت: اليوم أدرك نأري منه - قال: فذهبت لأجيته عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عمُّه ولن يخذله - قال: فجثته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه ولن يخذله. فجثته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف، إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تمحسني، فوضعت يدي على بصري ومشيت الفهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيب، يا شيب، ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان». قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيب، قاتل الكفار». رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره، ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلُغاً، فقال: «يا شيبه، إنه لا يراها إلا كافر». فضرب بيده في صدري، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبه». قال: فوالله ما رفع يده من صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانزهازم المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين.

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل الجراد الأسود بهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي - وكان شهد حينئذ مع المشركين ثم أسلم بعد - فكننا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا. وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد، فالله أعلم. وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر، عن هَمَّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم». ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِّينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

وقوله: ﴿كُنَّا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٧): قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الواقعة بقریب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سببهم وبين أموالهم، فاختاروا سببهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونقل أناساً من الطفلاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدِي
وَإِذَا الْكُتَيْبَةُ عَزَدَتْ أَنْبِيَاءَهَا
فَكَأَنَّهُ لَيْتَ عَلَيَّ أَشْبَالَه

فِي النَّاسِ كُنْهَمُ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
وَمَتَى تَشَاءُ يُخْبِزُكَ عَمَّا فِي عُدٍ
بِالسُّنْهَرِيِّ وَضَبَ كُلُّ مُهْتَدٍ
وَسَطَ السُّهْبَاءَةَ خَادِرٍ فِي مَرْصَدٍ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فلا يقرئوا التَّسْبِيحَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَابِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) قَتِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صاحباً أبي بكر، رضي الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فلا يقرئوا التَّسْبِيحَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَابِهِمْ هَكَذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شريك، عن الأشعث - يعني: ابن سوار - عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل مسجداً بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم». تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً. وقال الإمام أبو عمرو الأزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا التَّسْبِيحَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَابِهِمْ هَكَذَا﴾. ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم. وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنتقطن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك. «إِنَّ شَاءَ» إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من اعتناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا زوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة والضحاك، وغيرهم. «إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»: أي: بما يصلحكم، «حَكِيمٌ»: أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَتِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)، فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لتقدم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء الأقدمين بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهم لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَتِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جذب، ووقت قيظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة، رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسي، وثني، وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبُطُواَ الْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَنْ يَدِي﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَبْرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحبي منها ما كان خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتفي بكثامهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجزم مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيشما كنا، وأن نشد الزناير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبتنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّؤُنَا مِنْ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٠﴾ أَتَفَكَّرُونَ أَجْرَهُمْ وَذَمَّتْهُمْ رَبُّكَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا كُنْتُمْ بِمُعْتَرِفِينَ بِرَبِّكُمْ وَمَا أَسْرَأُوا إِلَّا لِيَسْبُدُوا إِلَيْهَا وَجِدًّا لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفريضة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير: «إنه ابن الله»، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك، أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، بقي العزير يكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانة، وإذ امرأة تكي عند قبر وهي تقول: وامطعما! واكاسيا! فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا عزير

فمن كان يُعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وُعد به. ثم قيل له: إذهب إلى نهر كذا فاعتسل منه، وصلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه. فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة، ثلاث مرات، فرجع غزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا غزير، ما كنت كذاباً. فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء، وأخبروا بشأن غزير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعض جهلهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله. وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم، ﴿بِضُنُوفِهِمْ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿فَتَكَلَّمُوا لَهُ﴾. قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنْ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

وقوله: ﴿أَتَعْبُدُوا أَجْسَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَيْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم، رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ قرأ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، ورغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيساً في قومه طيبى، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَتَعْبُدُوا أَجْسَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَيْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيفرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون». وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿أَتَعْبُدُوا أَجْسَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَيْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا. وقال السدي: استنصحو الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْرَوْا إِلَّا لِيَسْبُدُوا إِلَهِهَا وَجِدَادًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِقُوا دُونَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ أَن يُبَدِّلَ دِينَهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِقُوا دُونَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذا ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ أَن يُبَدِّلَ دِينَهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافراً»؛ لأنه يستر الأشياء، والزراع كافرأ؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: ﴿عَجَبَ الْكُفَّارُ بِنَاءِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع- ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. ﴿لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة- أو: قبيصة بن مسعود- يقول: صلى هذا الحي من «مُحَارِب» الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإنما عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وتر إلا

أدخله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو يبدّل ذليل، عزّأ يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والحزبة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدّر ولا وبر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز، أو بذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها». وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي حذيفة، عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألتست من الرُّكُوسِيَّةِ، وأنت تأكل مرباع قومك؟». قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه صَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتْهُمُ العرب، أتعرف الحيرة؟». قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبذل المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقائبي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُبَدَلَ اللَّاتُ والعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ﷻ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان يبقَى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَفْلِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَذْهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّرَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَفُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَيَطْرُقُهُمْ هُنَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنْتُمْ كَفَرْتُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

قال السدي: الأخبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأخبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْ لَا يَهْتَمُّ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّعْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماءهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء؟». والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قالت تعالى: ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَفْلِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَزَجٌ وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، واستمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفاها الله بنور النبوة، وسلمهم إياها، وعوضهم بالدلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله. وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَذْهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّرَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم:

وَهَلْ أَفْسَدَ السُّدَىٰ إِلَّا الْمَلُوكُ وَأَحْبَبَ أَرْسُلُ سُوءٍ وَزُهَبَ بَأْسُهُمْ؟
وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة. وروى الثوري وغيره

عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب، نحوه، رضي الله عنهم: «أيما مال أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوي به صاحبه وإن كان على وجه الأرض». وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال. وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعزّك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خَذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقال سعيد بن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أحذتكم إلا ما سمعت. وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة، عن علي، رضي الله عنه، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما كان أكثر منه فهو كنز. وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقليل من الذهب والفضة وذم التكثير منهما، أحاديث كثيرة؛ ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي، فقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين، عن أبي الضحى، ابن جعدة بن هبيرة، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتُوبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «تبا للذهب، تبا للفضة» يقولها ثلاثاً، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأبي مال نتخذ؟ فقال عمر، رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأبي مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهذيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: «تبا للذهب والفضة». قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: «تبا للذهب والفضة»، ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين على الآخرة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأبي المال نتخذ؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضع على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم في أمر الآخرة». ورواه الترمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد. وقال الترمذي: حسن، وحكى عن البخاري أن سالمًا لم يسمعه من ثوبان. قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غنيلان بن جامع المحاربي، عن عثمان أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر واتبه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال نبي الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكثر المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أسرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته». ورواه أبو داود، والحاكم في مستدركه، وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى، به. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضي الله عنه، في سفر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: اتنا بالشفرة نعبث بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزئها غير كلمتي هذه، فلا تحفظونها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم، إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك أن تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [٣٥] أي: يقال لهم هذا الكلام تبيكناً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ الْحَمِيمِ﴾ [٤٨] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤٩] أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من

أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عُدب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهداً في عداوة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وامراته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: في عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضرب الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحتمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته. وقد رواه ابن مرزويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معاذ بن أبي طلحة، عن ثوبان أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزاً مثلاً له يوم القيامة شجاعاً أفرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضيها ثم يتبعه سائر جسده». ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث. وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالذَّبَّ يَكْفُرُونَ الْأَذْهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَبَّيَّرَهُمْ عَدَابُ آيَاتِهِ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم. ورواه ابن جرير من حديث عثر بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر، رضي الله عنه، فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليّ عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تتخّ قريباً. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول. قلت: كان من مذهب أبي ذر، رضي الله عنه، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه. فنها معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات، رضي الله عنه، في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، رضي الله عنه، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به. وهكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامة. وقال السدي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برضف يحتمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة تذي أحدهم حتى يخرج من نفض كنفه، ويوضع على نفض كنفه حتى يخرج من حلمة تذي يتزلزل - قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً - قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرنى أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة وعندني منه شيء، إلا دينار أرسده لدين». فهذا - والله أعلم - هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت، رضي الله عنه، أنه كان مع أبي ذر، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تتوبك وللضيف ينزل بك قال: إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أوكي عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله، ﷻ. ورواه عن يزيد، عن همام، به وزاد: إفراغاً. وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته،

عن محمد بن مهدي: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فزوة الزهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «القي الله فقيراً ولا تلقه غنياً». قال: يارسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «ما سُئِلت فلا تمنع، وما رُزقت فلا تَحْتَبِأ»، قال: يارسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»، إسناده ضعيف. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عتيبة، عن يزيد بن أسرم قال: سمعت علياً، رضي الله عنه، يقول: مات رجل من أهل الصُّفَّة، وترك دينارين - أو: درهمين - فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ، صلوا على صاحبكم». وقد روى هذا من طرف آخر. وقال قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة صُدِّي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كَيْة». ثم تُوفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسي، حدثنا معاوية بن يحيى الأطرابلسي، حدثني أرتاة، حدثني أبو عامر الهوزي، سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خِدَاش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوسَّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون». سيف - هذا - كذاب، متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقِيَامُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِمْ أَنْفُسُكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ كُفَّارٌ أَعْمَى وَقَاتِلُوا اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكر، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم - أحسبكم - ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه». ورواه البخاري في التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن عبد الرحمن ابن أبي بكر، عن أبيه، به. وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ورجب مضر بين جمادى وشعبان». ورواه البزار، عن محمد بن معمر، به. ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عَوْنٍ وَفَرَّة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، به. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، حدثنا صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبٌ مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم». وروى ابن مَرْدُويه من حديث موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمرو، مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة: حدثني علي بن زيد، عن أبي حُرَّة: حدثني الزقاشي، عن عمه - وكانت له صحبة - قال: كنت أخذاً بزمام ناقه رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا تغلبوا فيهن أنفسكم». وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ» قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة. وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار

كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه، صَلَّوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض. وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء. وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

حاشية فصل

ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تَتَقَلَّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرقات، ومحارم، ومحاريم. صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: «صَفَرَ المكان»: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال. شهر ربيع أول: سمي بذلك لارتباعهم فيه. والارتباع الإقامة في عمارة الرُّبْع، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصاء، وعلى أربعة، كرغيف وأرغفة. ربيع الآخر: كالأول. جُمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور. وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولا بد من دورانها، فلعلم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ لَا يُبْصِرُ الْعَبْدُ فِي ظَلَمَاتِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبِغُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَسْبَى يَلْفُ عَلَى خُرْطُومِهِ الذُّنْبَا

ويُجمع على جُمَادِيَّاتٍ، كحبارى وحُبَارِيَّاتٍ، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأولى، وجمادى الآخر والآخرة. رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورجاب، ورجبات. شعبان: من تشعب القبائل وتفرقتها للغارة ويجمع على شَعْبَانِينَ وشَعْبَانَاتٍ. رمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: «رمضت الفصال»: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ ورَمَاضِينَ وأرْمُضَةٌ قال: وقول من قال: «إنه اسم من أسماء الله»؛ خطأ لا يرجع عليه، ولا يلتفت إليه. قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام. شوال: من شالت الإبل بأذنانها للطراق، قال: ويجمع على شواول وشَوَائِلٍ وشَوَائِلَاتٍ. القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرها - لعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة. الحجة: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد ويجمع على آحاد، وأحاد ووحد. ثم يوم الاثنين، ويجمع على اثنين. الثلاثاء: يمد، ويُذَكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأربيع. والخميس: يجمع على خمسة وأخماس، ثم الجمعة - بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضاً - ويجمع على جمع وجُمُعَاتٍ. السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع؛ لانتفاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام: أول ثم أهون، ثم جُبَار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر - من العرب العاربة المتقدمين -:

أَرْجُبِي أَنْ أَعْيِشَ وَأَنْ يَوْمِي بِأَوَّلِ أَوْ بِسَاهَسُونَ أَوْ جُبَارِ
أَوْ السَّبَالِي دُبَارِ فَإِنْ أَفْشَى فمؤنس أو عسروبة أو شيار

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ بِرَبِّكَ حَرَمٌ﴾: فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البئسل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تسمى أيضاً «ثلاث متواليات»: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، عليه الصلاة والسلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرَّدٌ وواحد فرد؛

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُبَدِّلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْمِنُونَ عَامًا وَيُكْفِرُونَ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القرة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أخذوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرها إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم - وهو عمير بن - قيس المعروف بجذال الطعان:

لَقَدْ عَلِمْتَ مَفْدَانٌ قَوْمِي كَرَامَ النَّاسِ أَنْ لَهْمُ كِرَامًا
الشُّنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَد شُهُورَ الْجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا
فَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُنْزِكْ بِوَتْرٍ؟ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُفْلِكْ لَجَامًا؟

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكتاني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكتنئ «أبا ثمامة»، فينادي: إلا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول حلال. فيحله للناس، فيحرم صفرًا عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، يقول: يتركون المحرم عامًا، وعامًا يحرمونه. وروى العوفي عن ابن عباس نحوه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يا أيها الناس، إني لا أعاب ولا أحاب، ولا مزد لما أقول، إنا قد حرّمنا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرّمنا صفر، وأخرنا المحرم. فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، قال: يعني الأربعة ﴿فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام. وروي عن أبي وائل، والضحاك، وقتادة نحو هذا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: «القلّمس»، وكان في الجاهلية، وكانوا في الجاهلية لا يغيّر بعضهم على بعض في الشهر الحرام، يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمدّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المحرم! قال: ننسئه العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرّمين. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزوا في صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان. فهذه صفة غريبة في النسيء، وفيها نظر؛ لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَامًا وَيُكْفِرُونَ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟. وقد روي عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً، فقال عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله، ﷺ، الحج في ذي الحجة. قال: وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالاً، وذا القعدة. وذا القعدة يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة، ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في القعدة، ثم حج النبي ﷺ حجة التي حج، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

وهذا الذي قال مجاهد فيه نظر أيضاً، وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأنى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولًا إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية [التوبة: ٣]، وإنما نودي بذلك في حجة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾، ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره، من دوران السنة عليهم، وحجهم في كل شهر عامين؛ فإن النسيء حاصل بدون هذا، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عامًا يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتروكونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عامًا ويحرمونه عامًا؛ ليواطئوا عدة ما

حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسونه إلى صفر، أي: يؤخروه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أي: أن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما يعتمد به جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «وإنما النسيء من الشيطان، زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً». فكانوا يحرمون المحرم عاماً، ويستحلون صفر، ويستحلون المحرم، وهو النسيء. وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب «السيرة» كلاماً جيداً ومفيداً حسناً، فقال: كان أول من نسا الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، ﷺ، «القلّمس»، وهو: حذيفة بن عبد مذكاة فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجياً، وذو القعدة، وذو الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ الْأَرْضِيشِرَ بِالْحِكْمَةِ الَّذِينَ مِنَ الْآخِرَةِ مَا مَنَعُ الْحِكْمَةَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا بِكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيط، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرْضِيشِرَ بِالْحِكْمَةِ الَّذِينَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورجب في الآخرة، فقال: ﴿مَا مَنَعُ الْحِكْمَةَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أصبعه هذه في اليم، فلينظر به ترجع؟». وأشار بالسبابة. انفرد بإخراجه مسلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الجضمي، حدثنا الربيع بن رزح، حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد - يعني الجصاص - عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا مَنَعُ الْحِكْمَةَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿مَا مَنَعُ الْحِكْمَةَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب. وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: اتنوني بكفني الذي أخفن فيه، أنظر إليه. فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار، إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

ثم تواعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا نَفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فنتاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم. ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا بِكُمْ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا بِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتًا لَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتكولكم وتناقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم. وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْفِرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَقَرٌ مِنْ كُلِّ فَرْقَةٍ يَنْتَهَمُ طَائِفَةٌ﴾

[التوبة: ١٢٢]، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه. وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا ثَابِتِينَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا ثَابِتِينَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ﴾ أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطُّلُبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم سيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر، رضي الله عنه، يجزع أن يطَّلِعَ عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، عليه السلام، منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يَسْكُنُهُ وَيَبْنِيهِ ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين. وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينه، وهذا لا ينافي تجدد سكينه خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك و﴿كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضَامُ من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة. وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم خضرمي أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني لا أتم، فأنزل الله: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية. أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحثَّ على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المُنَشَّطِ والمَكْرَهَةِ والعسر واليسر، فقال: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولاً وشباباً، ما أسمع الله عذر أحداً، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِلَ. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها. وهكذا روي عن ابن عباس، وعكرمة وأبي صالح، والحسن البصري، وشمر بن عطية، ومقاتل بن حيان، والشعبي وزيد بن أسلم: أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولاً وشباباً. وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شباباً وشيوخاً، وأغنياء ومساكين. وكذا قال أبو صالح، وغيره. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط. وكذا قال قتادة. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة والشغل، والمتيسر به أمر، فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقلاً وعلى ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقلاً، وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة. وقد روي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وسبأتي الكلام على ذلك

إن شاء الله. وقال السدي: قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنياً وفقيراً، وقوياً وضعيفاً، فجاهه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّمَعَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْبَةَ، حدثنا أبو يوب، عن محمد قال: شهد أبو يوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاماً واحداً قال: وكان أبو يوب يقول: قال الله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلا أجديني إلا خفيفاً أو ثقیلاً. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السُّكُونِي، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا حَرِيْزُ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الخُبْرَانِي قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة «البحوث»: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وبه قال حريز: حدثني حبان بن زيد الشَّرْعِي قال: نَفَرْنَا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَلَ الأفسوس، إلى الجرامة فلقيت شيخاً كبيراً هماً، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك. قال: فرجع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيقيه. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله، ﷻ.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاه رسوله، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلاً، فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة. كما قال النبي ﷺ: «وَتَكْتُمُ الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَصَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَصَى أَنْ تُجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجديني كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَخَّطُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٤٢].

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً، ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَخَّطُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتهم إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الْآيَاتِ صَدَقُوا وَتَعَلَّمُوا الْكُذِبَ﴾ [٤٣] ﴿لَا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عِندَهُ بِالشُّكِيِّينَ﴾ [٤٤] ﴿إِنَّا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِيدُونَ﴾ [٤٥].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن يحيى بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ﴾. وكذا قال موزق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿وَإِذَا اسْتَنْذَرُوكَ لِيَتَعْضَ شَأْنَهُمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. وكذا زوي عن عطاء الخراساني. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الْآيَاتِ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعدار، ﴿وَتَعَلَّمُوا الْكُذِبَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصريين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَنْذِرُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما نذبهم إليه بادروا وامتلوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّيِبِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَأَرْزَأْتِ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جنتهم به، ﴿فَهَمَّ فِي زِينَتِهِ بِرَدُّكَ﴾ أي: يتحiron، يُقدِّمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم خيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجده سبيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انمَاعَاتَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْمَرُوا لَكُمْ يَتَّوَنُكُمْ الْفِتْنَةَ وَيَكْزُرُ سَعَتُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تاهبوا له، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انمَاعَاتَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً، ﴿فَتَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخرجهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قدراً. ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جناء مخدولون، ﴿وَلَا أُضْمَرُوا لَكُمْ يَتَّوَنُكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولا سرعوا السير والمشى بينكم بالتميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَيَكْزُرُ سَعَتُونَ لَكُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَيَكْزُرُ سَعَتُونَ لَكُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين. وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغني - من استأذن - من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي بن سلول والجعد بن قيس، وكانوا أشرفاً في قومهم، فبسطهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَيَكْزُرُ سَعَتُونَ لَكُمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَبْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُرْتَضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنْ أَفْشَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا مَقُولُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّكُمْ قُلُوبًا مَا يُوعَطُونَ بِهَا لَكَانَ خَبْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيْهَا﴾ [٤٦] وَإِذَا لَقَيْتَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٤٨﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَكَلِمَاتِكَ الْأُمُورَ حَقَّ حَقِّكَ وَالْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَكَلِمَاتِكَ الْأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رتمه العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَقَّ حَقِّكَ وَالْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنَنَ لِي وَلَا تَقْتَتِيْ الْآلَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أَتَدْنَنَ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَقْتَتِيْ﴾ بالخروج معك، بسبب الجوارى من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿الْآلَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن زومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه، للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جد العام في جلاذ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنَنَ لِي وَلَا تَقْتَتِيْ﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجد بن قيس. وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بني سلمة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس،

على أنا نبخله. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داء أودأ من البخل، ولكن سيديكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور». وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لا محيد لهم عنها، ولا محيص، ولا مهرب.

﴿إِنَّ نُصِيبَكَ حَسَنَةً فَنُؤِثِّرُهَا وَإِنَّ نُصِيبَكَ مُصِيبَةً يَأْتِيكَهَا فَنُصِيبُكَ بِهَا وَلَوْلَا إِذْ يَبِيبُكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَأَكَا هُوَ مُوَلَّدُكَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِنَّ نُصِيبَكَ مُصِيبَةً يَأْتِيكَهَا فَنُصِيبُكَ بِهَا﴾ أي: قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا، ﴿وَيَكُونُوا وَهُمْ نَارُ النَّارِ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم ﴿لَنْ يُبِيبَنَّ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: ونحن تحت مشيئة الله، وقدره، ﴿هُوَ مُوَلَّدُكَ﴾ أي: سيدنا وملجونا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: نحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُبِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَضُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْبِئُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلُ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَةٌ وَلَا يُفْقَهُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ ﴿٥٤﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا﴾؟ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقناة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُبِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ﴾، أي: تنتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، ﴿فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَضُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَنْبِئُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: قد كفروا، والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَةٌ﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿وَلَا يُفْقَهُونَهَا﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَزَقَهُمْ مِنْهُمْ كَثِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾.

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤَدُّ عَيْنَكَ لِأَنْ مَأْتَنًا بِهِمْ أَوْلَادُهُمْ زَهْرَةَ لُحْيٍ الدُّنْيَا لِيُنْفِقُ فِيهَا مِنْ مَالِ رِيبٍ فِيهِ زِينَةٌ وَرِيحٌ رِيحٌ خَيْرٌ وَأَقْيَنُ﴾ ﴿١١٢﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ مِنْ مَالٍ رَبِّينَا﴾ ﴿٥٥﴾ نَسِجَ لَمْ فِي الْفَيْرِ بَلْ لَا يَتَعَرَّونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [المونسون: ٥٥، ٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله. وقال قناة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن. وقوله: ﴿وَرَزَقَهُمْ مِنْهُمْ كَثِيرًا﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْمِلُونَ وَاللَّهُ بِهِمْ لِيُنْفِقَهُمْ وَمَا هُمْ بِشَاكِرِينَ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُوتُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَكَةً أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿وَيَحْمِلُونَ وَاللَّهُ بِهِمْ لِيُنْفِقَهُمْ﴾ أي: يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ بِشَاكِرِينَ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُوتُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا﴾ أي: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يحترزون به، ﴿أَوْ مَعْرَكَةً﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس، ومجاهد، وقناة: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَكَةً أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلِرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُقْضُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُقْضُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْفُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْبِغْكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أَعْطُوا مِنَّا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْمَلُوا مِنَّا إِذَا هُمْ يَسْحَطُونَ﴾ أي: يفضبون لأنفسهم. قال ابن جرير: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ﷺ بصدقة، فقسّمها ههنا وههنا حتى ذهبت. قال: ووراء رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل! فنزلت هذه الآية. وقال قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَلْبِغْكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية، أتى رسول الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي». ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده، ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن». وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة - واسمه حُرْقُوص - لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد جئت وخسرت إن لم أكن أعدل». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرج من ضيضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرْوق السهم من الرميّة، فأبنا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شرّ خلقي تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث.

ثم قال تعالى مُتَّبِعاً لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَوَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾، فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والافتقار بآثاره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْيُوبِينَ وَالْمَوْلَىٰ وَتِلْكَ الْأَجْزَاءُ لِأُولِي الْأَرْزَاقِ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَسْأَلُونَ﴾

لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزههم إياه في قَسَمِ الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسّمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف - عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصّدائقي، رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك». وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة. والثاني: أنه لا يجب استيعابها؛ بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقيين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبّير، وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم. وإنما قدم الفقراء ههنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْتَةَ، أنبأنا ابن عَوْنٍ، عن محمد قال: قال عمر، رضي الله عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأخلق: المحارّف عندنا. والجمهور على خلافه. ورؤي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين: هو الذي يسأل ويظوف ويتبع الناس. وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم. وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني: ولا يُعْطَى الأعراب منها شيئاً. وكذا روي عن سعيد بن جبّير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى. وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما «الفقراء»، فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوي». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. ولأحمد أيضاً والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله. وعن عبيد الله بن

عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب إليهما البصر، فرأهما جلدنين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حَظَّ فيها لغيري ولا لقوي مكتسب». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسناد جيد قوي. وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العسي قال: قرأ عمر، رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلشُّرَكَاءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب. روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك. قلت: وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». رواه الشيخان: البخاري ومسلم.

وأما العاملون عليها: فهم الجبابة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس». وأما المؤلفات قلوبهم، فأقسام: منهم من يعطى لمسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهداها مشركاً. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، أنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي. ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به. ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها من اليمن قسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن غلاثة، وزيد الخير، وقال: «أنا لفهم». ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطى ليحيي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم. وهل تعطى المؤلفات على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعطون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يُعطون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب: فروي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبيرة، والثخفي، والزهري، وابن زيد: أنهم المكاتبون، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث. وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذلك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا تُحْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩]. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والنائح الذي يريد العفاف». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود. وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليسوا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تُفرد بعقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم.

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكشّر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه». فتصدق الناس، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجوزي، عن قيس بن زيد عن قاضي المصريين، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول يا رب، إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أصعب، ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيعة. فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم. فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته».

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحدِيث. وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني». وقد رواه السفينان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلًا. ولأبي داود في عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك». وقوله: «فَرِيضَةً مِنْ أَلَيْهِ»: أي حكمًا مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه، «وَأَنَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»: أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباد، «حَكِيمٌ»: فيما يفعله ويقوله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمَنْ أَلْفَيْتَ يَتُودُونَ النَّيِّقَ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ مَقَلِّ أَدْنَىٰ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُعَذِّبْ أَلَيْهِمْ﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: «هو أدنى» أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقتنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقناة. قال الله تعالى: «قَلَّ أَدْنَىٰ خَيْرٌ لَّكُمْ»: أي: هو أدنى خير، يعرف الصادق من الكاذب، «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ»: أي: ويصدق المؤمنين، «وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ»: أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُعَذِّبْ أَلَيْهِمْ».

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [١٦] أَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَاتَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [١٧].

قال قناة في قوله تعالى: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمْ» الآية، قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرفنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله، ﷻ: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [١٦].

وقوله تعالى: «أَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَاتَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا»: أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حدّ والله ورسوله في حدّ «قَاتَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا»، أي: مهاناً معذباً، «ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ»: أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَجِدُ الْمُتَّبِقُونَ أَنْ تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ تَخْرِجُ مَا تَحَدَّرْتُمْ﴾ [١٨].

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَكَ حَتَّوَكْ يَمَّا تَرَىٰ جَمْعًا بِدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَمَنْ أَلْمُصِرُّ» [المجادلة: ٨]. وقال في هذه الآية: «قُلِ اسْتَزَيِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ تَخْرِجُ مَا تَحَدَّرْتُمْ»: أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَسْخَتَهُمْ﴾ [١٩]. إلى قوله: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» [محمد: ٢٩،

٣٠؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَأَيُّوبَ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتَرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدُرُونَ أَفْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَتِكُمْ شَدِيدٌ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قال أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا السنة، وأجبننا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِإِلَهِكُمْ وَأَيُّوبَ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يُجْرِمُونَ﴾، وإن رجله لتسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب السنأ، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحق ناقه رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِإِلَهِكُمْ وَأَيُّوبَ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتَرُونَ لَا تَعْدُرُونَ أَفْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُحَشَّن بن حُمَيْر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاذ بني الأصفر قتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكانا بكم غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مُحَشَّن بن حُمَيْر: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نُنْفَلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه. وقال رسول الله ﷺ: فيما بلغني - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلمهم عما قالوا، فإن أنكروا قتل: بلى، قلمت كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال ودیعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو أخذ بحقها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. فقال مُحَشَّن بن حُمَيْر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُحَشَّن بن حُمَيْر، فسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. وقال قتادة: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيئات هيئات. فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عليّ بهؤلاء النفر». فدعاهم، فقال: «قلمت كذا وكذا». فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إني أسمع آية أنا عنتي بها، تقشع منها الجلود، وتجيب منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. وقوله: ﴿لَا تَعْدُرُونَ أَفْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَتِكُمْ شَدِيدٌ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَذَكَّرُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ سَوْأَ اللَّهِ فَيَسْئَلُهُمْ إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ هُمْ الْقَائِمُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْكَافِرَاتِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَالْهَرَمُ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى منكرأ على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَذَكَّرُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿سَوْأَ اللَّهِ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيهِمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الَّذِينَ نَسَكُوا كَمَا نَسَكُوا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنابة: ١٣٤]، ﴿إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْكَافِرَاتِ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها مخلدين، هم الكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾، أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَالْهَرَمُ عَذَابٌ مُؤِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِحُلِيِّكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ

قِيلَ لَكُمْ بَخْلِقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَأَنزِي كَخَاشُوا أَوْلِيَّكَ حَيْطَلُ أَعْمَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّكَ هُمْ الْخَاشِرُونَ ﴿٦٩﴾ .

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ﴿فَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾: قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الْزَيْتُ مِنْ قَيْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَأَنزِي كَخَاشُوا﴾ أي: في الكذب والباطل، ﴿أَوْلِيَّكَ حَيْطَلُ أَعْمَلْتُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّكَ هُمْ الْخَاشِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عُمَرُ بن عَطَاءَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَأَنزِي مِنْ قَيْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَأَنزِي مِنْ قَيْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده، لتبتعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه». قال ابن جرير: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتبتعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمَه». وهكذا رواه أبو مَعْشَر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَأَنزِي مِنْ قَيْلِكُمْ كَأَنزَا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الْزَيْتُ مِنْ قَيْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ قال أبو هريرة: الخلاق: الدين. ﴿وَخَضْتُمْ كَأَنزِي كَخَاشُوا﴾ قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم». وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الْزَيْتِ مِنْ قَيْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِينَنَّهُ فَمَا كَانُوا أَنزِيًا لَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الْزَيْتِ مِنْ قَيْلِهِمْ﴾ أي: ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وما أصابهم من العرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام، و﴿عَادَ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً، عليه السلام، و﴿ثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً، عليه السلام، وعقروا الناقة، و﴿قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، و﴿أَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين. ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِينَنَّهُ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانُوا أَنزِيًا لَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ بَعْضُ أَوْلِيَآءَ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسِرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّكَ سَيَرِّبُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ .

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُ أَوْلِيَآءَ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالنبيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَوْلِيَّكَ هُمْ الْمُقْتَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿يُسِرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أَوْلِيَّكَ سَيَرِّبُهُمْ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ وَلَيْسَ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَمَسْكَنٌ لَيْسَ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لَحْيَمَةً من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفَةٌ، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه. وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَنْفَعِرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... فذكر مثله. وللترمذي، عن عباد بن الصامت، مثله.

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الثُّرَّة في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين. ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليت علي فسلوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة». وفي صحيح البخاري، من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة».

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المذله، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه». وروي عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه. وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لَعْرَافِيْرٍ يَرَى ظُهورها من بطونها، ويطونها من ظهورها». فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». ثم قال: حديث غريب. ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ، بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو «أبو مالك»، فالله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُسْمَرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنة لا حَظَرٌ لها، هي - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تَهْتَزُّ، وقصر مُشِيدٌ، ونهر مُطْرَدٌ، وثمرة نُضِيْجَةٌ، وزوجة حسناء جميلة، وحُلٌّ كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبيرة ونعمة في محلة عالية بهية». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وَيَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد

الخُدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجه من حديث مالك. وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدثنا الفضل الرُخامي، حدثنا الفيزياني، عن سفيان، عن محمد بن المُكْدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله، ﷻ: هل تشتهون شيئاً فأريدكم؟ قالوا: يا ربنا، ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر». ورواه البزار في مسنده، من حديث الثوري، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا كَفَارًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَفْلَحَ عَلَيْهِمْ وَأَمَانُهُمْ جَهَنَّمُ بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُمُوا بِمَا لَمْ يَبَالُوا وَمَا نَعَمْنَا إِلَّا أَنْ نَغْنَمَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ يُؤْتُوا بِكَ شَيْئًا فَهُوَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ يَسْتَوْفُونَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أساف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا اسْتَلَعَ الْأَشْهُرَ لِلرُّمِّ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ أَتَوْا أَلْكُتُبِ حَتَّى تَطُورَ الْحِزْبَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَبْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٢٩]، وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبَيَّنَ حَتَّى تَفِجَ: إِنَّكَ أَمْرٌ اللَّهُ﴾ [الحجرات: ٩]. وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه فإن لم يستطع فليكنه في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الفرق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله. وقال الحسن وقناة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، وقال: ﴿لَنْ نَجْعَلَ إِلَى الْكَلْبِ لَيْحًا حَتَّى يَخْرِجَ الْأَعْرَابَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية. وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة، عن عمه موسى بن عتبة قال: حدثنا عبد الله بن الفضل، أنه سمع أنس بن مالك، رضي الله عنه، يقول: حزنت على من أصيب بالحزرة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار». وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار - قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعض من كان عنده زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأذنه» وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول - ورسول الله ﷺ يخطب -: لئن كان هذا صادقاً فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رُفِعَ ذلك إلى رسول الله، فجدده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد - يعني قوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. رواه البخاري في صحيحه، عن إسماعيل بن أبي أريس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة، إلى قوله: «هذا الذي أوفى الله له بأذنه». ولعل ما بعده من قول موسى بن عتبة، وقد رواه محمد بن فضال، عن موسى بن عتبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب. والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

حاشية

قال «الأموي» في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ، أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر، فإن شئت أن تعذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة، ثم

يكون ذنباً تستغفر الله منه . . وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ﷺ: الجلاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير قال: فسمعها عمير بن سعد فقال: والله - يا جلاس - إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرت لها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني، وإلحادهما هون علي من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس. فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي ﷺ، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب علي. فأنزل الله، ﷻ، فيه: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية. فوقفه رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع. هكذا جاء هذا «مدرجاً» في الحديث متصلاً به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك. وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُبا، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعب: أما والله - يا عدو الله - لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأثبت النبي ﷺ، وخفت أن ينزل في القرآن، أو تصيبني قارعة، أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قُبا، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية. وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة - فيما بلغني - الجلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب وحسنت توبته، فيما بلغني.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سَمَك، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشمتني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله، ﷻ، ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة - أو أنا، أسوقه، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا مثلثين، ولكننا قد عرفنا الركاب. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة، فيلقوه منها». قلنا: يا رسول الله، أولاً تبعث إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل يقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»، ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا: يا رسول الله، وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فننادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط مثلثون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار، رضي الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مثلثون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينزفوا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الآثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. وهكذا روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشی الناس في بطن الوادي، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأردلون، وهم مثلثون، فأرادوا

سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ، فأمر حذيفة فرجع إليهم، فضرب وجوه رواحهم، ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم، وما كانوا هموا به من الفتك به، صلوات الله وسلامه عليه، وأمرهما أن يكتما عليهما. وكذلك روى يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمَى جماعة منهم، فالله أعلم. وكذا قد حكى في معجم الطبراني، قاله البيهقي.

ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جَمِيع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأَشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة فمَشَى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ. وما رواه مسلم أيضاً، من حديث قتادة، عن أبي نَضْرَةَ، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية تكفيكمم الدُبَيْلَة: سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم». ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السر، الذي لا يعلمه غيره» أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم. وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز، عن الزبير بن بكار أنه قال: هم مُعْتَب بن قشير، ووديعه بن ثابت، وجد بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سُوَيْد، وسعد بن زُرَّارة، وقيس بن فهد، وسويد وداعس من بني الحبلي، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت، وسلالة بن الحمام، وهما من بني قينقاع أظهرها الإسلام.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال، عليه السلام، للأَنْصار: «ألم أجِدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمرٌ. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وكما قال، عليه السلام: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناهُ الله». ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿إِنْ يَسْأَلُوكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ يَسْأَلُوا بِمَنْزِلِهِمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿بِمَنْزِلِهِمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهَم والغَم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصفار، ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَرَثَةٍ وَلَا نَصِيرَةٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك. وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصري: أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في «ثعلبة بن حاطب الأنصاري». وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم، من حديث مُعَات بن رِفَاعَة، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فولذي نفسي بيده، لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، ففتحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، وترك ما سواهها. ثم نمت وكثرت، ففتحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال

رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿حُدِّثُوا عَنْ آبَائِكُمْ صَدَقَاتِهِمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مراً بشعلبة، وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغاً ثم عودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي له. فأخذوها منه. فلما فرغاً من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بشعلبة، فقال: أروني كتابكما فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمِنَّمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ لَنْ يُبَدِّلَنَّكُمْ دِينَكُمْ فَمَا لَكُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ حِجَابٍ وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ﴾ قال: وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة. قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحشو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني». فلما أبى أن يقبض رسول الله ﷺ رجوع إلى منزله، فقَبِضَ رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى أبو بكر، رضي الله عنه، حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله، وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولي عمر، رضي الله عنه، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك! فقبض ولم يقبلها؛ ثم ولي عثمان، رضي الله عنه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَكَاذِبِينَ﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلالهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ إِذْ كَفَرُوا إِنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

وهذه أيضاً من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبيهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. كما قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأتي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه، من حديث شعبة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال: حدثني أبي - أو: عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع، وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة؟» قال: فحللت من عماتي لوثاً أو لوئين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فمقدت على عماتي. فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد سواداً ولا أصغر منه، ولا آدمٌ ببعير ساقه، لم أر بالبيع ناقة أحسن منها، فقال: يا رسول الله، أصدقة؟ قال: «نعم» فقال: فدونك هذه الناقة. قال: فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فوالله لبي خير منه. قال: فسمعا رسول الله ﷺ فقال: «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً. قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المزهذ المجهد» ثلاثاً: المزهذ في العيش، المجهد في العبادة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، وقال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من

طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجري الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا. وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال «لا». فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون. قال: فعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله، ﷻ، عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية. وكذا روي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذي تصدق بهجده: أبو عقيل أخو بني أنيف الإراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فيني أريد أن أبعث بعثاً». قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت». وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء! وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلًا. قال: ولم يسنده أحد إلا طلوت. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن موسى بن عبيدة، حدثني خالد بن يسار، عن ابن أبي عقيل، عن أبيه قال: بت أجر الجرير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلعون به، وجئت بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «انثره في الصدقة». قال: فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية. وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب، به. وقال: اسم أبي عقيل: حباب. ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اسمع ربي قدر خص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) [المنافقون: ٦٦]. وقال الشعبي: لما نزل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه. فقال النبي ﷺ: «ما اسمك». قال: الحباب بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم

شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَعْتِفْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولا تستغفرون له سبعين وسبعين». وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير، وقادة بن دغامة. رواها ابن جرير بأسانيد.

﴿كَرِهَ الْمُتَلَوُونَ بِمَعْنِيهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِكَيْبُوتِهِمْ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى ذمًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهمذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضلت عليها تسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذا أيضاً إسناده صحيح. وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه، عن عباس الدوري، عن يحيى بن أبي بكير، عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم». ثم قال الترمذي: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى. وكذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مكرم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك - وهو ابن عبد الله النخعي - به. وروى أيضاً ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَأَوْهَدَهَا لِلنَّاسِ وَالْحِجَارَةَ﴾ [التحریم: ٦]، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل، لا يضيء ليهيأ».

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيح - وقد اختلف فيه - عن الحسن، عن أنس مرفوعاً: «لو أن شرارة بالمشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب». وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتفتن فاصابهم نفسه، لاحترق المسجد ومن فيه». غريب. وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشرakaan من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرزجل، لا يرى أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش. وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يتنعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه». وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم. والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْزَلٌ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوْءِ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٧﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَاللَّكُودُ ﴿١٨﴾ وَهُمْ مَقْلَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٧، ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة الأخرى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عُمُرُكَ بِالْحَمِيَةِ أَفْنَيْتَهُ مَخَافَةَ الْبَارِدِ وَالْحَارِ
وَكَأَنَّ أَوْلَىٰ بِكَ أَنْ تَسْتَقِي مِنَ الْمَعَاصِي حَذَرَ النَّارِ

ثم قال الله، تعالى جل جلاله، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو زرین، والحسن، وقناة، والربيع بن خثیم، وعون العقيلي، وزيد بن أسلم. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خدّاش، حدثنا محمد بن حميد، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتفرح العيون. فلو أن سفناً أُرْجِيَتْ فيها لَجَرَتْ». ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرقاشي، به. وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رُقَيْع، رفعه قال: «إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القيح زماناً» قال: «فتقول لهم الحزنة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المحروم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيذعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكَ تَكْفُرُ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيأسون من كل خير».

﴿فَإِن رَّجَمَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَشَدُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

يقول تعالى أمرًا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِن رَّجَمَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً، ﴿فَاسْتَشَدُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى، ﴿فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُ أَقْدَبَتْ وَأَصْبَحْتُمْ كَمَا تَرَىٰ يُؤْمِنُونَ يَوْمَ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عمرة الحديبية: ﴿سَكَّرُوا الْمُحَلَّفِينَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَكَانَ بِنَاءِ خَيْبَةَ ذُرْوَانَ تَبِعَكُمْ بُرَيْدُكُمْ أَنْ يَسُدُّوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَنَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي: مع النساء. قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالقات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَتَّبِعْهُ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرَأَ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله - هو ابن أبي - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يَكْفُنُ فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ. فأنزل الله، ﷻ، آية: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَتَّبِعْهُ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾. وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به. ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به وقال: فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به.

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن

ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلیٰ عَدُوُّ الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا - يُعَدُّ أيامه - قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: «أخز عني يا عمر، إني خُيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، لو أعلم أنني إن زدت على السبعين غُفر له لذت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فَعَجِبْتُ لِي وَجِزَاتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَأْتِيهِمْ فَتَنَسُوتُمْ﴾ (٨٣). فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، ﷺ. وهكذا رواه الترمذي في «التفسير» من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به، وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عُقَيْل، عن الزهري، به، فذكر مثله وقال: «أخز عني يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيرت فاخترت، ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين يُغفر له لذت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبت بعد من جزأتي على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عبيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي، أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأت لم نزل نُعير بهذا. فأثاب النبي ﷺ، فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخله! فأخرج من حفرته، وتقل عليه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه. ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك - وهو ابن أبي سليمان به. وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، ونقث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم. وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة، به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين - قال يحيى بن سعيد - بالمدينة - فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك - وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء - قال يحيى في حديثه: فصلى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلى عليه، وقام على قبره، فأثاب جبريل، عليه السلام، لما ولى قال: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يزيد الرقاشي، وهو ضعيف. وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حبّ يهود». قال: يا رسول الله، إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنّبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه إياه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص، فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي؛ لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ، مكافأة له، فإله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنائز سأل عنها، فإن أتني عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أتني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها. وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة. وقال أبو عبيد في كتاب «الغريب»، في حديث عُمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل، فمَرَّه

خديفة، كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو: القَرَصُ بأطراف الأصابع. ولما نهى الله ﷻ، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجر الجزيل، لما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنّاة حتى يصلّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد». وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحِير، عن هانئ - وهو أبو سعيد البربري، مولى عثمان بن عفان - عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل». انفرد بإخراجه أبو داود، رحمه الله.

﴿وَلَا تُجِيبِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الْآلِئَاتِ وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَاذِبُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَّهْتُمْ مَعَ رَسُولِهَا اسْتَذْنَكَ أَفَلَا الْغُلُوبَ وَشَهُتُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَهُرَّ لَأَفْقَهُتُمْ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى منكرأ واذمأ للمتلخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان آمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال الله، تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لَقُوفُ رَبِّتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ لَغُوفُ مَا كُنْتُمْ جَادِلِينَ﴾ [الاحزاب: ١٩]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أفسي السنلم أعباراً جفاءً وغلظةً
وفي الحزب أشباه النساء العوارك
وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا لَأَنزَلْنَا سُورَةً مُخْتَكِمَةً وَذَكَرْنَا فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْضِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَفُوا اللَّهُ لَكَانَ خِيَرًا لَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [محمد: ٢٠-٢٢]. وقوله: ﴿وَطَبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُرَّ لَأَفْقَهُتُمْ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ لَهُمُ الشَّعَائِرُ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ الْمُتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومالكهم. وقوله: ﴿وَأَوْلِيَّتِكُمْ لَهُمُ الشَّعَائِرُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤَدَّ عَنْهُمْ وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعدار في ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: ﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ﴾ بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء. قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار منهم: خُفاف بن إيماء بن رَحْضة. وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا. وقال ابن جُرَيْج عن مجاهد: ﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعذَرهم الله. وكذا قال الحسن، وقناة، ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّمَعَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْسِيْنَ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ حَرْجًا إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيَتَّخِذَهُمْ قُلُوبٌ لَا أُهْلِكُمْ عَلَيْهِمْ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَيَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقِدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِشْوًا يَافِكُونَ﴾ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا يفتك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاء في الجهاد، ومنه العمى والعمى ونحوهما، ولهذا بدأ به. ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يبتطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة، رضي الله عنه، قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران - أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة - بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا. وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، اللهم، وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فأسفوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن قزوة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب «براءة» فإني لو اضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَالْأَبْيَةِ وَالْمَرْغُومِ﴾ الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبيعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مَعْقِلُ المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَفْقِدُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيَتَّخِذَهُمْ قُلُوبٌ لَا أُهْلِكُمْ عَلَيْهِمْ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَيَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقِدُونَ﴾: نزلت في بني مرقن من مزينة. وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير - ومن بني واقف: هزمي بن عمرو - ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى - ومن بني المعلى: سلمان بن صخر - ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه قبله الله منه ومن بني سلمة: عمرو بن عمة، وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعبلة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبد الله بن المعقل المزني؛ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهزمي بن عبد الله، أخو بني واقف، وعزيباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم نفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيَتَّخِذَهُمْ قُلُوبٌ لَا أُهْلِكُمْ عَلَيْهِمْ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَيَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقِدُونَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتهم مسيراً إلا وهم معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حسبهم العذر». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر، حسبهم المرض». ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأتبعهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَتَدَبِّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَمْدِدُونَنَا أَنْ نُنَازِلَكُمْ قَدْ تَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ أَجَابِكُمْ وَسِرِّي اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّدًا إِلَيَّ عَلَيْهِ الْقَتِيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَتَّخِذُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ سَيَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يُعْرَضُونَ عَنْهُمْ فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ يَرْتَدَّوْنَ عَنْ رِجْلِ رَبِّهِمْ

جَهَنَّمَ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَجْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا لَن تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ تَبَيَّنَ اللَّهُ مِنْ أَعْيَابِكُمْ﴾ أي: قد علمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْبِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرا وشرها، ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ﴾ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا يُرِيدُهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾، ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة «فوسقة» لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَنَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدُّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَائِقَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيُدِّطُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ .

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتربيني فقال زيد: ما يريك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن». ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حسن غريب، لا تعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يسف: ١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي، أو ثقيفي أو أنصاري، أو ذؤبيتي»؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم اللطف أخلاقاً من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء.

حديث الأعرابي في تقبيل الولد: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة وابن نمير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قديم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: لكننا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «وأمنك أن كان الله نزع منكم الرحمة؟». وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة». وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدُّوَابِّ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ ذَائِقَةُ السَّوْءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله، ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سِيُدِّطُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِفِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبليتين مع

رسول الله ﷺ. وقال محمد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ السَّابِقِينَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا فِي سُرَاتٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبي بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَقْبَلُوا بِهَا عَلَى كُرْهِهَا وَالَّذِينَ هُم مِّنَ السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ﴾ وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَقْبَلُوا بِهَا عَلَى كُرْهِهَا وَالَّذِينَ هُم مِّنَ السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ﴾ وفي سورة الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَقْبَلُوا بِهَا عَلَى كُرْهِهَا وَالَّذِينَ هُم مِّنَ السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٧٥]، رواه ابن جرير. قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأها برفع «الأنصار» عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾. فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يتبدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَتَلْبَثُهُمْ صَعْدَاتٍ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ﴾ أي: مروا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر. وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ لَأَرَيْنَهُمْ كَيْفَ كَفَرْتُمْ وَلَسَنَّا لَمُنْفِقِينَ فِي أَعْيُنِنَا﴾ [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لأتأينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب». وأصغى إلي رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين». ومعناه: أنه قد يوبح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَكَمْ مِمَّنْ يَمَاتُ يَأْكُلُ﴾ [التوبة: ٧٤]، أنه عليه السلام أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «أبي عمر البيروتي» من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء: أن رجلاً يقال له «حرملة» أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ههنا - وأشار بيده إلى لسانه - والنفاق ههنا - وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارضقه حُبِّي، وحب من يحبني، وصبر أمره إلى خير». فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا أتيتك بهم؟ قال: «من أنا أنا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فإله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا». قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عمار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلمون علم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلِيٌّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان، فإنك منافق، وأخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضحهم. فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاحتبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد

فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد فضح الله المنافقين اليوم. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر. وكذا قال الثوري، عن السدي، عن أبي مالك نحو هذا. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَعَّذْتَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسب، وقال - في رواية - بالجوع، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جريج: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تَتَّبِعَنَّ أَهْوَاهُمْ وَلَا تُرْزِقَهُمُ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَعَّذْتَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: هو - فيما بلغني - ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّونَ إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه. وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَعَّذْتَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «سته منهم تكفيكم الذبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». وذكر لنا أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه. وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أشدك بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أمن منها أحداً بعدك.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَنِبُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٢).

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن العزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَنِبُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ﴾ أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية - وإن كانت نزلت في أناس معينين - إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوئين. وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لُبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبيح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لُبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم. وقال البخاري: حدثنا مُؤَمَّلُ بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سُمْرَةَ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبين ذهب وأبن فضة، فقتلنا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقتلوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطّر منهم حسن وشطّر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم». هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية.

﴿حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لِمَنْ هُمْ وَأَلَّهِ سَجِيحٌ عَلَيْهِمْ ۗ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٣).

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لِمَنْ هُمْ﴾، وقد ردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقتلواهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عيلاً - وفي رواية: عناقاً - يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتيت بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل علي وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك، وعلى زوجك». وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾: قرأ بعضهم: «صلواتك» على الجمع، وآخرون قرؤوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الأفراد. ﴿سَكَنٌ لِمَنْ هُمْ﴾: قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَأَلَّهِ سَجِيحٌ﴾ أي: لدعائك «عليهم» أي: بمن

يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُمَيْس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته ولده، وولد ولده. ثم رواه عن أبي نُعَيْم، عن مسعر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة - قال مسعر - وقد ذكره مرة عن حديفة: إن صلاة النبي ﷺ لشدة الرجاء لولده وولد ولده.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحسها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ. كما قال الثوري وكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم، كما يربي أحدكم مهره، حتى إن القملة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله، ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿يَمْسُحُ اللَّهُ أَلْبَانًا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: إن الصدقة تقب في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾. وقد روى ابن عساکر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي - وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي - قال: غزا الناس في زمان معاوية، رضي الله عنه، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فقتل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قتل الجيش ندم وأتى الأمير، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرئ الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال: أمطعيني أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: أقبل مني خُمسك، فدافع إليه عشرين ديناراً، وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. ففعل الرجل، فقال معاوية، رضي الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا سِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ إِلَى عِلِّيِّ النَّبِيِّ وَالنَّبِيَّةِ فَيَشْكُرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال مجاهد: هذا وعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أو أمره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان». وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك». وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عن سمع أنسأ يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا». وقال البخاري: قالت عائشة، رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ، فقل: ﴿أَعْمَلُوا سِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حُمَيْد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا به يخطم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: برهة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته». قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿وَأَخْرَجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّا بَعْدُهُمْ وَإِنَّا بِيُوبِ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة زبطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجي هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ لِمَنْ هَلَكَ عَلَى الْوَعْدِ إِذَا عَصَى اللَّهَ فَجَاءَ تَوْبَةً مِنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ لِيَمَّا يُؤْتِيهِمْ مِنْهُمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْقَوْلِ الْغَيْرِ الْمُبِينِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ لِمَنْ هَلَكَ عَلَى الْوَعْدِ إِذَا عَصَى اللَّهَ فَجَاءَ تَوْبَةً مِنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ لِمَنْ هَلَكَ عَلَى الْوَعْدِ إِذَا عَصَى اللَّهَ فَجَاءَ تَوْبَةً مِنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١١٨].

سبب نزول هذه الآيات الكريزمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرف اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش فألبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنحهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكسرت رباغيته اليمنى السفلى، وشج رأسه، صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فالتة هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومثاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لآداء كئبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله». فلما قفل، عليه السلام، راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخير مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْقَوْلِ الْغَيْرِ الْمُبِينِ﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتني بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وكذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ - يعني: من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والمحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن

تأتينا فتصلي لنا فيه . فقال : «إني على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ - ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» . فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي - أو : أخاه عامر بن عدي - أخا بلعجلان فقال : «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه» . فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل أهله فأخذ سَعْفًا من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَّكًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خدام بن خالد، من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وتعلبه بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير، من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأذعر، من بني ضبيعة بن زيد، وعَبَاد بن حُنيْف أَخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه : مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية وتَبَل بن الحارث، وهم من بني ضبيعة، وبهزج وهو من بني ضبيعة، وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

وقوله : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ أي : الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ﴾ أي : ما أردنا بيننايه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى : ﴿وَأَلَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي : فيما قصدوا وفيما نَوُوا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرساداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له : «الراهب» لعنه الله . وقوله : ﴿لَا نَقَدُ فِيهِ أَدْنًا﴾ : نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تبع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي : يصلي فيه أبداً . ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعْقلاً وموتلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَعْرَفَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قُباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجد قُباء كعُمرة» . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قُباء راكباً و ماشياً . وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّن له جِهَةَ القبله، فالله أعلم . وقال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «نزلت هذه الآية في أهل قُباء» : ﴿فِي رِجَالٍ يُجَاهِدُونَ أَنْ يَبْطَلُوا﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية . ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث، وهو ضعيف، وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه . وقال الطبراني : حدثنا الحسن بن علي المعمرى، حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿فِي رِجَالٍ يُجَاهِدُونَ أَنْ يَبْطَلُوا﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عُوَيْم بن ساعدة فقال : «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟» . فقال : يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال : مقعدته - فقال النبي ﷺ . «هو هذا» . وقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل، عن عُوَيْم بن ساعدة الأنصاري : أنه حدّثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قُباء، فقال : «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا : والله - يا رسول الله - ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا . ورواه ابن خزيمة في صحيحه . وقال هشيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري : أن رسول الله ﷺ قال لعُوَيْم بن ساعدة : «ما هذا الذي أثنى الله عليكم : ﴿فِي رِجَالٍ يُجَاهِدُونَ أَنْ يَبْطَلُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ . قالوا : يا رسول الله، إنا نغسل الأديبار بالماء . وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عُمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خُزَيْمَةَ بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية : ﴿فِي رِجَالٍ يُجَاهِدُونَ أَنْ يَبْطَلُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾، قال : كانوا يغسلون أديبارهم من الغائط .

حديث آخر : قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك - يعني : ابن مغول - سمعت سياراً أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ، يعني : قُباء، فقال : «إن الله، ﷻ، قد أثنى عليكم في الطهور خيراً، أفلا تخبروني؟» . يعني : قوله تعالى : ﴿فِي رِجَالٍ يُجَاهِدُونَ أَنْ يَبْطَلُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ . فقالوا : يا رسول الله، إنا نجده مكتوباً علينا في التوراة : الاستنجاء بالماء . وقد صرح بأنه مسجد قُباء جماعة من السلف، رواه علي بن

أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير، وقتادة. وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا». تفرد به أحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا». تفرد به أحمد أيضاً.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا». تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي». وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث، وصححه الترمذي، ورواه مسلم كما سيأتي. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خَدْرَةَ، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال القمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «في ذلك خير كثير» يعني: مسجد قباء. طريق أخرى: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد. حدثنا حميد الخراط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نساؤه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصياء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا». ثم قال: فقلت له: هكذا سمعت أباك يذكره؟. رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به. ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد الخراط، به. وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّهِ رِجَالٌ مُّحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابس القاذورات. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شيبياً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ صَلَّى بِهِم الصبح فقراً بهم الروم فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء». ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شيبان أبي روح من ذي الكلاع: أنه صلى مع النبي ﷺ، فذكره. فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهورون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك. وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أتى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» قالوا: نستنجي بالماء. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُّحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾. فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إننا نئثج الحجارة الماء. ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن

الزهري، ولم يرو عنه سوى ابنه. قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَمَّنَ أَمْسَكَ بُيُوتَهُمْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِثْلِ اللَّهِ وَرِضْوَانِ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَّسَ بُيُوتَهُمْ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَا يَزَالُ بُيُوتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراباً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف خفيفة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضراباً يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ. وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حفرها فوجدوا الدخان يخرج منه. وكذا قال قتادة. وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مزبلة. رواه ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُيُوتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابده العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُغْنِيوُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ مِنِّي لَوْلَا ذَلِكَ فَكُنَّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإذا قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقاتدة: بايعهم والله فأعلى ثمنهم. وقال شير بن عطية: ما من مسلم إلا والله، ﷻ، في عُنُقِهِ بيعة، وقى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قبل هذا العقد ووفى به. وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ - يعني ليلة العقبة - اشتراط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «اشتراط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشتراط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع، لا ثقيل ولا نستقبل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿يَغْنِيوُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ مِنِّي لَوْلَا ذَلِكَ فَكُنَّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرج إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾: تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كُتُبِهِ الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَمَدَّقَ مِنَ اللَّهِ حَبِيبًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَمَدَّقَ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٧٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبِشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والتعظيم المقيم.

﴿التَّكْبِيرُ الَّذِي تَدْعُونَ السُّكْرَانَ الرَّكْبُونَ السُّكْرَانَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَبِّهِمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

هذا نعت المؤمنين الذين اشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّكْبِيرُ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿السُّكْرَانَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد؛ ولهذا قال: ﴿التَّكْبِيرُ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا؛ ولهذا قال: ﴿السُّكْرَانَ﴾، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْتَبِئْنَ﴾ [التحرير: ٥]، أي:

صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَيَسِّرِ الْيُسْرَى﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

بيان أن المراد بالسياحة الصيام:

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زرز، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿الصَّائِمُونَ﴾ الصائمون. وكذا روي عن سعيد بن جبيرة، والعمري عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سياحة هذه الأمة الصيام. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون. وقال الحسن البصري: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الصائمون شهر رمضان. وقال أبو عمرو العدي: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الذين يديمون الصيام من المؤمنين. وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون». ثم رواه عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الصائمون. وهذا الموقوف أصح. وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون». وهذا مرسل جيد. فهذه أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سننه، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عمارة بن غزينة: أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شَمَفَ الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن». وقال العمري وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْفَظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَالْمُحْفَظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَدْوٍ مَا نَبَأَكُمُ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَبَابِغِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارًا لِّإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوَدِعَةٍ وَعَدَّهَا نَسَاءً فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أبي عم، قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لا تستغفرون لك ما لم أنه عنك». فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَدْوٍ مَا نَبَأَكُمُ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَبَابِغِ ﴿١١٣﴾﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي، رضي الله عنه، قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: يستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾، قال: «لما مات»، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لما مات». قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زيد بن الحارث الياامي، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن

معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرِفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وقَداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي، ﷺ، في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء ولا تشربوا مسكراً».

وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى رَسَمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رابنا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رُوِيَ بأكباً أكثر من يومئذ. وقال ابن أبي حاتم، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خِدَاش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جُرَيج عن أيوب بن هانيء، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فبجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجا طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلسك عنده قبر أُمته، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»، ثم أوردته من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ مَأْمُورًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قَرَبًا﴾، فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة».

حديث آخر في معناه: قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيْسَانَ، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتصر، فلما هبط من ثنية عُسفان أمر أصحابه: أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه، فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث في أمته شيء لا تُطبقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أحدث في أمتك شيء لا تُطبقه، قال: «لا»، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أُمي فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أُمي، فبكيت، ثم جاءني جبريل فقال: «وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبراهيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدَدٌ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ»، فتنبرأ أنت من أمك، كما تنبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهي أُمي، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنين، وأبى أن يرفع عنهم اثنين: دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج». وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء، وكانت عُسفان لهم. وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت. وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض» بسند فيه جماعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه، فأمن به. وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرًا﴾ [النساء: ١٨]. وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... ورد على ابن دحية في هذا الاستدلال بما حاصله: أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلى عليّ العصر، قال الطحاوي: وهو حديث ثابت، يعني: حديث الشمس. قال القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب، فأمن به. قلت: وهذا كله متوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ مَأْمُورًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبراهيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبراهيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية. وقال قتادة في هذه الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آياتنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذم؛ أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه». فأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ مَأْمُورًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم، فقال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبراهيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ

عَدُوًّا لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ ﴿١١٣﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله قال: «أوحى إلي كلمات، فدخلن في أذني ووقرن في قلبي: أمزرت ألا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضّل ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌّ له، ولا يلوم الله على كفاف». وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جبيرة قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمسي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكُله إلى شأنه ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ آسْتَفْقَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ﴾، لم يدع. قلت: وهذا يشهد له بالصححة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «أذهب فواره ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث. ويروى أن رسول الله ﷺ لما مرّت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وَصَلَّتْكَ رَحِمٌ يَا عَمَّ».

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حشية حلي من الزنا؛ لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله، ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن جرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ﴾: قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، رحمهم الله. وقال عبيد بن عمير، وسعيد بن جبيرة: إنه يتبرأ منه في يوم القيامة حين يلقي أباه، وعلى وجه أبيه العُبرة والفُثرة فيقول: يا إبراهيم، إنني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك. فيقول: أي ربي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ فأني خزني أخزي من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما ورائك، فإذا هو يذبح متلطح، أي: قد مسخ ضِعْبَانَا، ثم يسحب بقواتمه، ويلقى في النار.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، قال سفيان الثوري وغير واحد، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه: الدعاء. وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود. وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن منهل، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: المتضرع: الدعاء. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين عن أبي العبيد بن أبي مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم. وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شُرْحَبِيل، والحسن البصري، وقتادة: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأواه: الموقن بلسان الحشية. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن - زاد علي بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحشية. وكذا قال ابن جُرَيْج: هو المؤمن بلسان الحشية. وقال أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبه بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له «ذو الجادين»: «إنه أواه»، وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء. ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جبيرة، والشعمي: الأواه: المسبح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبيرة بن نفيير، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه. وقال سُفْيَانُ بن مانع، عن أيوب: الأواه: الذي إذا ذكر خطاياهم استغفر منها. وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل، يذنب الذنب سراً، ثم يتوب منه سراً. ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يناق: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه». وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يمان، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حجاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ دفن ميتاً، فقال: «رحمك الله إن كنت لأواها!» - يعني: تلاءة للقرآن. وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي قال: سمعت رجلاً بمكة - وكان أصله رومياً، وكان قاصاً - يحدث عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: «أوه! أوه»، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إنه أواه. قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح. هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوه من النار».

وقال ابن جرير عن ابن عباس: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾، قال: فقيه. قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدغاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعده وعداها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن ظلمه وأناله مكروهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيكًا﴾ ﴿١١٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِجْئًا إِنَّهُ كَانَ فِي حُجُوبٍ ﴿١١٧﴾ [مریم: ٤٦، ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعاه واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بُيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَكُمْ لَمُتَّكِنٌ وَالْأَرْضُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا قَوْمٌ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْمَلْئِكَةَ عَلَىٰ الْمَرْئِيَّةِ﴾ الآية [نصحت: ١٧]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بُيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، قال: بيان الله، ﷻ، للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به ورسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهاي عنه، ثم تعدوا نهييه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم يئنه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَكُمْ لَمُتَّكِنٌ وَالْأَرْضُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٩﴾: قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يتقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مخرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِمَّنْهُمُ إِذْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَوْمَ رَوْفٍ حَجِيمٌ﴾ ﴿١٢٠﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهْبَانِ الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم. وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، حتى إن الرجل لينحدر بعيره فيعصر قرته فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله ﷻ، قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك»؟ قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأطلت ثم سكت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكرة. وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: من النفقة والظفر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِمَّنْهُمُ﴾ أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُمْ يَوْمَ رَوْفٍ حَجِيمٍ﴾.

﴿وَعَلَّ الْكَلْبَةَ الْكَلْبَةَ خَلْفًا حَيْثُ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَكَلَّمُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاه رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجئني للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، ﷺ. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى شمر بالناس الجذ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم الحقه. فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدرتهم - وليت آتني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، ﷺ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سلمة: حسبه يا رسول الله بؤداه، والنظر في عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه فافلاً من تبوك حضرني نبي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فرجع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تك قد اشتريت ظهرك؟» قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنه والله لقد علمت لئن حدثت اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه، إني لأرجو أقرب عقي ذلك عفواً من الله، ﷺ، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». فقممت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤثرونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالوا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف

بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفثيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فواه ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناوي وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا ببطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضئبة، فالحق بنا نؤاسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمنت به التنوير فسجرت، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامراتي: الحق بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبيل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أمكك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، يلقياني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخبير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَكَذَلِكَ أَكَلْنَا مِنَ الذَّيْتِ حُلُقُومًا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أُسْهُمُهُمْ وَظَلُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم من نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ إلا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُحْضِرُنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآزُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٠﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا،

فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْأَلْفَنْتُو الْأَزِيكَ خُفْرًا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبنا الصحيح: البخاري ومسلم من حديث الزهري، بنحوه. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا زُوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْأَلْفَنْتُو الْأَزِيكَ خُفْرًا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد. وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة. وكذا في مسلم: مُرارة بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مُرارة بن الربيع. وفي رواية عن سعيد بن جبيرة: ربيع بن مُرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مُرارة، أو: مُرارة بن ربيع. وفي رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب. وقوله: «فسموا رجلين شهدا بدرًا»، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعْرَفُ شهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم. ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رُحبت، أي: مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا الْأَزِيكَ ءَأَمُّوْا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: اصدقوا والزمو الصدق تكونوا مع أهله وتتجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم، ومخرجًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق؛ عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا». أخرجه في الصحيحين. وقال شعبة، عن عمرو بن مُرارة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَأْتِيهَا الْأَزِيكَ ءَأَمُّوْا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. هكذا قرأها - ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة. وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فليكن بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُطْعَمُونَ سَوْطًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخَصَّةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يُطْعَمُونَ سَوْطًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَتَأَلَوْنَ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٣٠].

﴿وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَوِيْرَةً وَلَا كَعِيْرَةً وَلَا يُفْقِرُونَ وَادِيًا إِلَّا كَعَجِبَ لَهُمْ يَصْبِرُهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ﴾.

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَوِيْرَةً وَلَا كَعِيْرَةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يُفْقِرُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كَعَجِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿يَصْبِرُهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ﴾. وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو موسى العنزري، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سكن بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة،

عن عبد الرحمن بن حَبَاب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مِرْقَاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا». وقال عبد الله أيضاً: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضَمْرَةَ، حدثنا عبد الله بن شَوَدْب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرَةَ، عن عبد الرحمن بن سمرَةَ قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَزَ النبي ﷺ جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما صَرَ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مراراً. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَقْطَعُونَ وَآدِيًا إِلَّا كَيْتَٰبٌ لَّهُمْ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهلهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْتَفْرِؤْا كَأَفَّةً فَلَؤَلَا نَقَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً لِيَسْتَفْفَهُوْا فِي الدِّينِ وَيَسْتَدْرِؤْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من تَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب التفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْكَلْبِئِيَّةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من تفير الأحياء كلها، وشردمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، ويندروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: التفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْتَفْرِؤْا كَأَفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون ليفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَؤَلَا نَقَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً﴾ يعني: عصابة، يعني: السرايا، ولا يَتَسَرُّوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَسْتَفْفَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البداية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، ﴿فَلَؤَلَا نَقَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً﴾ يبتغون الخير، ﴿لِيَسْتَفْفَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيَسْتَدْرِؤْا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يُعْرَوْا نبيَّهُ ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن، تلاه رسول الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيِّه قرآنًا. فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْتَفْرِؤْا كَأَفَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فَلَؤَلَا نَقَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً﴾ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله ﷺ تسرت السرايا، وقعد معه عظم الناس. وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْتَفْرِؤْا كَأَفَّةً﴾: فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مَضْر بالسنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقْبِل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيَسْتَدْرِؤْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ، فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبينا الله: ما تأمرنا أن نفعل؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرتنا إذا قدما انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم

نادوا: إن من أسلم فهو منا، ويندرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام ويندرونهم النار ويشرونهم بالجنة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية الشريفة: ﴿إِلَّا تَتَّبِعُوا بُدْبُذَكُمْ عَدَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسِنَفُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ قَرْعٍ وَنَهَمْنَا طَائِفَةً﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ الآية [الشورى: ١٦]. وقال الحسن البصري: ﴿فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ قَرْعٍ وَنَهَمْنَا طَائِفَةً لَسَفَفَهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال: ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، ويندروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا فَدَلُّوا أَلْيَبَ كَيْفَ يُؤْتِيَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهاجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته، عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده. وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله. وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأزاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. وفرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسا الإسلام بجلاله رياسة حلة سابعة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحثيفة من أعداء الله غاية مآربها، فكلموا علواً أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا فَدَلُّوا أَلْيَبَ كَيْفَ يُؤْتِيكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ يُؤَيِّدُكُمْ وَيُصَيِّرُنَا اللَّهُ الْكُفْرَانَ﴾ [الفتح: ٢٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَهَيِّجُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والنحر: ٩]، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضُّحُوكُ الْقَتَالُ»، يعني: أنه ضُحُوكٌ في وجه وليه، قُتِلَ لهامة عدوه.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تنزل الفتوحات كثيرة، ولم تنزل الأعداء في سفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلمنا قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، ويقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَتَيْكُمْ زَادَتْهُ هُدًىوَهُوَ إِيْمَانًا فَآمَنُوا فَآمَنُوا فَآدَاتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِيحُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَآدَاتُهُمْ رِجْسًا لِكِ رِجْسِهِمْ وَمَا تَأْوَىٰ لَهُمْ كَفْرُهُمْ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَتَيْكُمْ زَادَتْهُ هُدًىوَهُوَ إِيْمَانًا﴾؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَآدَاتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِيحُونَ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رحمه الله، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَآدَاتُهُمْ رِجْسًا لِكِ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيْمًا فَجَعَلْنَاهُ حَمَلًا مَبْنُوعًا وَلَا يَذُقُّهُ الْغَالِبِينَ إِلَّا حَسْرًا ﴿١٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًىوَسَبَابًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَاتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيْدٍ﴾ [نصفت: ٤٤٤]، وهذا من جملة صفاتهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سبب المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خيلاً ونقصاً.

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَارٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَطَّعَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ أَنْصَرَفُوا مَرْحَمًا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَيْتِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: أولاً يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَارٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وقال شريك، عن جابر - هو الجعفي - عن أبي الضحى، عن حذيفة: ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَارٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير. وفي الحديث عن أنس: ﴿لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحاً، وما من عام إلا والذي بعده شر منه﴾، سمعته من نبيكم ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَطَّعَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ أَنْصَرَفُوا مَرْحَمًا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَيْتِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، ﴿تَطَّعَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تلتفتوا، ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ أَنْصَرَفُوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يشتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَفِرُوا مِنْهُ لِيُنذِرُوا سِرَّةً أَنََّّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُطَّلِعِينَ ﴿٦٦﴾ عَنِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ حِرْمٌ مَشْتَرِطَةٌ ﴿٥٨﴾ فَتَرْتَمِي قَسْوَرَةً ﴿٥٩﴾﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا السَّمَاءَ مَاءً زَوَّاجًا سَائِغًا فَشَاءَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، كقولهم: ﴿لَقَدْ رَأَوْا نَزْحًا مِنَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿بِأَيْتِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهه ولا يريدونه، بل هم في شدة عنه ونفور منه فلهدأ صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَعْتَدْ لِنَفْسِنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِمَّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث. وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح». وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الراهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يمسنني من سفاح الجاهلية شيء». وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها؛

ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفة السمحة»، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر»، وشرعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً - قال: وقال ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو فظن، حدثنا السعدي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة التهدي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطلمعها منكم مَطْلَعٌ، ألا وإني أخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش، أو الذباب». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان، فيما يرى النائم، ففعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفاضة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفاضة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حَبْرَة فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألتكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لتبتهن، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا تقيم عليه.

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قال: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي، عن عكرمة عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء - قال عكرمة: أراه قال: «في دم» - فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «أحسن إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ إليهم: أن كفوا. فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت فزاده رسول الله ﷺ شيئاً، وقال: «أحسن إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي، قال: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناك، فقال ما قال، وإنا قد دعوناك فأعطيناك فزعم أنه قد رضي، كذلك يا أعرابي؟» قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقه، فشردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها، وأعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها من قَتَام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رخلها، وإنه لو أظعتكم حيث قال ما قال لدخل النار».

ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه. قلت: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَهْوتٌ رَجِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِئِن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٢٥] فَإِنَّ عَصَاكَ قُلِّ لِي بِرَبِّكَ مِمَّا تَمَلَّكُونَ ﴿١٢٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَيْبِ الرَّجِيمِ ﴿١٢٧﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧] وهكذا أمره تعالى. وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَنُقَلِّبْ حَسْبَ اللَّهِ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّكَ الْكَفِيُّ وَالْقَرِيبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٤٩]. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالفه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيها وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرته الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه؛ أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثُمَّ أَصْرَفْنَا مَرْكَ اللَّهِ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من

القرآن. فقال لهم أبي بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧) إلى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: «هذا آخر ما أنزل من القرآن» قال: ففتح بما فتح به، بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) غريب أيضاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إنني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ. ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها، فوضعوها في آخر براءة. وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة «براءة» مع خزيمة بن ثابت - أو: أبي خزيمة. وقد مننا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم. وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عمر - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين، عن مدرك بن سعد - قال يزيد: شيخ ثقة - عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمه. وقد رواه ابن عساکر في ترجمة «عبد الرزاق بن عمر» هذا، من رواية أبي رزعة الدمشقي، عنه، عن أبي سعد مذكور بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حليس، عن أم الدرداء، سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، صادقاً كان بها أو كاذباً، إلا كفاه الله ما همم. وهذه زيادة غريبة. ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عمر، يسنده فرغه، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده



تفسير سورة يونس

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَكَيْفَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّكَ هٰذَا لَسِحْرٌ شَيْدٌ ﴿٢﴾ .

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل سورة البقرة. وقال أبو الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى: «الرَّ»، أي: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاک وغيره. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين. وقال مجاهد: «الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» قال: التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزيور. وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن. وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه. وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَكَيْفَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرأ على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشْرٌ يَّهْدُونَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الاعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَعْمَلُ الْآلِهَةِ إِنَّمَا رَجَّعْنَاهَا بِإِلٰهِهَا وَمَا نَكُنَّ لِرَجُلٍ مِّنْ حِجَابٍ﴾ [ص: ٥]. وقال الضحاک، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكروا منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة،

عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجرأ حسناً، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ الصَّالِحِينَ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٧﴾ مَكْتُوبِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٢، ٣]. وقال مجاهد: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسييحهم. وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان. وقال قتادة: سلفُ صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد - أنها الأعمال الصالحة التي قدموها - قال: كما يقال: «له قدم في الإسلام»، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَاؤْلُنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ
وقول ذي الرُّمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكَرُ النَّاسُ أَنَّهَا
مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ
وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّا هَذَا كَسْبٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّا هَذَا كَسْبٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّا رَكَّبْنَا اللَّهَ الذِّي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسفهاها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعد الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء. وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره. وهذا غريب. ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يدبر أمر الخلاق، ﴿لَا يُعْرَبُ عَنْهُ شَيْءٌ دَرَجَةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار وال عمران والقفار، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدِعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [مرد: ٦٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَلَا يَبْسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال الدروردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا رَكَّبْنَا اللَّهَ الذِّي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ ﴿٦٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. وقوله: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ قَالُوا اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَعْيُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِنَّهُ مَرْحَمٌ حَمِيمٌ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلاق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٩١﴾ وَظُلْمٍ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٢﴾﴾ [الراعدة: ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا قَلْبُ قَوْمٍ حَمِيمٍ وَمَسَاقٍ ﴿٩٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَاهُ ﴿٩٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٧﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَانٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ النُّجُومَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَلِمُوا عَدَدَ النُّجُومِ وَالْحَسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾﴾ إِنَّ فِي آخِذَاتِ أَيْلٍ وَالتَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِكَيْتَ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثيها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوُونِ الْقَدِيرِ ﴿٦٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدَرَهُ﴾ أي: القمر ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَسْمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِجَابِ﴾، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهِنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقوله: ﴿فَتَعَلَّىٰ الْآلِهَتِ﴾ أي: نيين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَسْمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي مَخْلُوقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يُنْفِثُ آيِلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الاعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالقَائِلُ الْإِصْبَاحِ وَيَجْعَلُ آيِلُ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَايِنَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال: ﴿قُلْ أَظْهَرُ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنَى الْآيَاتِ وَأَلْتَدْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا أَنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَكُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: العقول، وقال ههنا: ﴿آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُعْتَبِرُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَطَمَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشريعة فلا يأمرون بها، بأن ماوهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ مَأْمُورًا وَنَحِيلًا فَاصْلَحَتِ يَدَيْهِمْ رَبُّهُمْ يُبَيِّنُ لَهُمْ جَعَلَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ فِي حَتَّىٰ النَّبِيِّ ﴿١﴾ دَعَوْتَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآجِرٌ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُدْعَىٰ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون «الباء» ههنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾، قال: يكون لهم نوراً يمشون به. وقال ابن جريج في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾، قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويشيره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلازمه حتى يقذفه في النار. وروي نحوه عن قتادة رسلاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿دَعَوْتَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآجِرٌ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُدْعَىٰ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ أي: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعَوْتَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مر بهم الطير يشتهونهم، قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَآجِرٌ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُدْعَىٰ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحيفة من ذهب، فيها

طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن. وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ نَبَأًا وَلَا تَأْتِيَهُمْ﴾ [٥٥] إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ [الراعدة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ [٥٨] [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [٦٢] سَلَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِمَا عَفَى اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الزمر: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِخْرَاجُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ لَمْ تُدْعَى إِلَيْهِمْ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدأ، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ لِكِتَابٍ﴾ [الكهف: ٤١]، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ هَلَكَ مِنْ دُونِكُمْ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ لَيْلَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَذِّبُونَ﴾ [الأنعام: ١١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول، وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهُمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما يُلْهُمُونَ النَّفْسَ». وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْرِضُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسُنَهُمْ سَتِغْبَايَهُمْ بِإِلْحَاقِهِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١١]. يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهاذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعْرِضُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسُنَهُمْ سَتِغْبَايَهُمْ بِإِلْحَاقِهِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَةَ، عن عبادة بن الوليد بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم». ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به. وقال البزار: وتفرد به عبادة بن الوليد بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقولته تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالسُّرِّ دُعَاءَهُ بِالْقَرِيبِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يَعْرِضُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسُنَهُمْ سَتِغْبَايَهُمْ بِإِلْحَاقِهِ﴾: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يجعل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لا يهلكهم.

﴿وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ لِقَاءَ رَبِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرًّا كَانَتْ تَوْبَتُهُ إِلَىٰ مَرٍّ مِثْلَ ذَلِكَ ذُنُوبَ الْمُتَطَرِّفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢].

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْبَأْسُ قَدُوْهُ دُعَاؤَ عَرِيضٍ﴾ [نمل: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، ﴿مَرًّا كَانَتْ تَوْبَتُهُ إِلَىٰ مَرٍّ مِثْلَ ذَلِكَ ذُنُوبَ الْمُتَطَرِّفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسادد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْفُجُورَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَّمُوا لَيْسَ لَهُمْ رُشْدٌ يَلْتَمِذُونَ وَمَا كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [١٣] ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [١٤].

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فأنظروا ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد، حدثنا حماد، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً ذلي

من السماء، فانتشط رسول الله ﷺ، ثم أعيد، فانتشط أبو بكر، ثم ذرّع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أربّ لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أو لم تنتهري؟ فقال: ويحك! إني: كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذرّع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)، فقد استخلفت يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «إفاني لا أخاف في الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: إني شهيد فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به.

﴿وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَيْتُمُونَا بِشُرُونٍ مِّنْ حَيْدَرٍ أَوْ يَذَّبُونَ قُلُوبَهُمْ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَ مِن تِلْقَائِي نَفْسًا إِنِّي أَخِيفُ إِلَّا مَا يُرِيدُ إِلَهِي إِنِّي لَأَنذَرْتُ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّيَّاسًا لَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يَكُونُ مِن قَوْمِ الْمَكِيدِينَ﴾ (١٥)

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحق المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: «آتَيْتُمُونَا بِشُرُونٍ مِّنْ حَيْدَرٍ هَذَا» أي: رد هذا وجننا بغيره من نمط آخر، أو بدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَ مِن تِلْقَائِي نَفْسًا﴾ أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنِّي أَخِيفُ إِلَّا مَا يُرِيدُ إِلَهِي إِنِّي لَأَنذَرْتُ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّيَّاسًا لَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يَكُونُ مِن قَوْمِ الْمَكِيدِينَ﴾. ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشينته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷺ، لا تنتقدون علي شيئاً تغصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَيِّنْتُ فِيكُمْ عُصْرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت لا - وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليبدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً تعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦)

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بزه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنه الله لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنوس الظلماء، فومن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاج، والأسود الغنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكننت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». ولما قدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسطح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم سأل عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص. فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه،

بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْلَمْ تُكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ ثَانِيكَ بِالْحَبْرِ
وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفضيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وبين غلاك مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي كما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله - قُبِحَ ولعن -: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسْمَةٌ تسعى، من بين صفاق وحشى». وقوله - حَذَرَهُ اللهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَدْ فَعَلَ -: «القبيل وما أدراك ما القبيل؟ له زُلْفُومٌ طويل»، وقوله - أبعده اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ -: «والعاجنات عجنأ، والخابزات خبزأ، واللقامات لقمأ، وإهالة وسمنأ، إن قريشأ قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيان والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حفته، ومَزَقَ شمله، ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عنه - أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضي الله عنه: ويحكم! أين كان يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من آل. وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعني: رسول الله ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العنكبوت]. ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل عليّ مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَيْرُ، إنما أنت أذنان وصدر، وساترك حَقْرَ نَفْر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو: «والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة - لعنه اللهُ - وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ أَكْثَرُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ انْفَضُّوا مِنْ عَمَلِهِمْ وَإِذِ اللَّهُ مُنَادٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتل نبياً».

﴿وَسَيُؤَدَّبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَحْسَبُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَّلَانِهُمَا شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ لَكَ الْكَاشُ إِلَّا أَمَةٌ وَجَدَةٌ فَأَخَذْتُمُوهُمُ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لفضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعتت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْكِتَابُ لِلَّهِ فَأَنْظِرُوا لِي مِنْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون المكذبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آية من ربه»، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جِئْتِ بِمِثْلِهِ مِنَ قَبْلِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُجُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سِوَاهَا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٩]، يقول تعالى: إن سستي في خلقي أي إذا آتيتهم ما سألو، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطي ما سألو، فإن أجابوا وإلا عُجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه إلى الجواب عما سألو: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السُّنْتِينِ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله في فيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام، أعظم مما سألو حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق بانتين: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألو وما لم يسألو، ولو علم الله منهم أنهم سألو ذلك استرشاداً وتنبأً لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَأْنَا اللَّعْنَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا لَأْتَيْنَاهُمُ الْكَلْبَ كَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤِينَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ بَرَأْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَائِطًا يُقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ زُلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فُرْقَانٍ فَلَسْتُمْ بِأَبْدِينِهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْئٍ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألو؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السُّنْتِينِ﴾.

﴿وَإِذَا دَعَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ سَرَّاهُ سَمَّتْهُمْ إِذَا لَهَمُ تَكْرُرًا فِي مَا يَأْتِيهِمْ اللَّهُ أَنْزَلَ قَوْلًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ تَكْوِينٌ مَا تَكْوِينُ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي اللَّيْلِ وَاللَّيْلَةَ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَزَيْتُمْ بِهِم بِرِيحٍ لَيْلِيَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ رَمَتْهُمُ الرَّمْلَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحْطِ بِهِمْ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَعْيَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ إِذَا هُمْ يَسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَدِيرِ الْعَيْ يُبَايِعُوا النَّاسَ أَنَّمَا بَيْنَكُمْ عَلَىٰ أُنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّكُمْ رَجَعْتُمْ فَتَشْتَكِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَمْتَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهَمُ تَكْرُرًا فِي مَا يَأْتِيهِمْ﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْأَنْزِلُ فَكَانَ الْغَيْثُ أَوْ قَائِلًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَتْهَا عَنْهُ ضَرْبٌ مَرَّ كَانَ لَوْ يَدْعَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَسْمُومٍ﴾ [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرؤن ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِبَنَاءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ». وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَنْزَلَ سَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعل، ويحصىونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقيق والجليل، والتقير والقَطْمِير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي اللَّيْلِ وَاللَّيْلَةَ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَزَيْتُمْ بِهِم بِرِيحٍ لَيْلِيَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ﴿رَمَتْهُمُ الرَّمْلَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحْطِ بِهِمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَعْيَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ السَّارِعُ فِي اللَّيْلِ صَلَّ صَلَّ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا جَنَّكَ إِلَىٰ آلِهِمُ اقْرَبْتُمُوهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال لهنا: ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَعْيَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾ أي: هذه الحال ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفردك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء لهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَدِيرِ الْعَيْ﴾ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء، ﴿كَانَ لَوْ يَدْعَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَسْمُومٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يُبَايِعُوا النَّاسَ إِنَّمَا بَيْنَكُمْ عَلَىٰ أُنفُسِكُمْ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تصرون به

أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجد أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقوله: «مَنَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا» أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿كُنَّا إِنَّا مَرْجُومًا﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنَنْتَقِمُكُمْ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا لَخَدَّتِ الْأَرْضُ رُفُوفَهَا وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِزُرُوا عَلَيْهِمْ أَنُمَاتُهُمْ أَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْرَأْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ فَتَفْصِلُ الْأَيَّاتِ لِئَقْوَمَ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضاءها وزوالها، بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آب وقصب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَخَدَّتِ الْأَرْضُ رُفُوفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَازْيَنْتَ﴾ أي: حَسُنْتَ بما خرج من رُباها من زهور نُصْرَة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها، ﴿أَنَّهُمْ قَدِزُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جَذَاها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنبَتْنَا أَرْضَنَا نَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: يَبَسًا بعد تلك الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَقْرَأْ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وقال قتادة: «كَأَن لَّمْ تَقْرَأْ»: كأن لم تنعم. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث: «يوتى بأنعم أهل الدنيا، فيغمس في النار غَمْسَةً ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا. ويوتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا». وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا كَأَن لَّمْ يَسْتَوْا رَبًّا﴾ [مرد: ٩٤، ٩٥]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَتَفْصِلُ الْأَيَّاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة، ﴿لِئَقْوَمَ يُفَكِّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وثقلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا تَدْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر، والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان - يعني: ابن الحكم - يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرأها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا قرأني أبي بن كعب. وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة عطبها وزوالها، رَغِبَ في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أي: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾. قال أبووب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لتتم عينك، وليعقل قلبك، ولتسمع أذنك، فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني. ثم قيل: سيّد بنى داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيد، فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ. وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلاً من حديث الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مَثَلُكَ ومثل أمثلك كمثلك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير. وقال قتادة: حدثني خُليد العَصْرِي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا ويجنبتُها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأبها الناس، هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى، خير مما كثر وألهي». قال: وأنزل ذلك في القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَىٰ وَإِيسَىٰ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦٠]. وقوله: ﴿وَرِيسَادَةٌ﴾: هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من الفُضُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلهم وبرحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، قال البغوي وأبو موسى وعبادة بن الصامت، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف. وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَىٰ وَإِيسَىٰ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُقَلِّ موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به.

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان، عن أبي تميمه الهخيمي؛ أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يُسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى: الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن ﷻ». ورواه أيضاً ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهذلي، عن أبي تميمه الهخيمي، به. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن كعب بن عُجْرَةَ، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَىٰ وَإِيسَىٰ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن ﷻ. وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، سمعت زهيراً أعمن سمع أبا العالية، حدثنا أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَىٰ وَإِيسَىٰ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ». ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير، به. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قاتم وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجه الكفرة الفجرة من القُترة والغُبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرًا وَسُرُورًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ١١] أي: نصرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَبُرُوا آلْسَنَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِيَسْئَلٍ وَيُرْمَهُمْ وَإِلَهُمَّ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعَانٌ مِنْ آثِلٍ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُصاعف لهم الحسنات، ويزادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَرْمَهُمْ﴾ أي: تعثرهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَرْمَهُمْ بِمِثْلِهِمْ عَلَىٰ سِنِينَ حَتَّىٰ مِنَ الظَّلْمِ الَّذِي تَطَّوَرُوا مِنْ ظُلْمٍ خَيْرٍ﴾ [النورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَصَلُّونَ إِنَّمَا يُوَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَخِضُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾﴾ مهبطيت مغيبي رؤسهم لا يَرُدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ وَأَقْيَدُ مِنْ هَوَاهُ ﴿٢٧﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: من مانع ولا واق يقبهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي لَمَفْرُوقٌ ﴿٢٧﴾ كَلَّا لَا وَدَّ ﴿٢٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِمُؤَيَّدٍ لِلنَّصْرِ ﴿٢٧﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢]. وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعَانٌ مِنْ آثِلٍ مُظْلِمًا﴾: إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ رَحْمَةً أَلَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْوِرَةٌ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٨﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ تُرْمَعُهَا قَتَرٌ ﴿٢٨﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٢٨﴾﴾ [الآية (عبر): ٣٨ - ٤٢].

﴿يَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جِمْعًا ثُمَّ يَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا مَنكُم مَّنْ أَسْرَدَنَا رَبَّنَا وَشَرَّكَاءُ زُكَّرْنَا بِبَنَاتِنَا إِنَّا كُنَّا شُرَكَاءُكُمْ مَا كُنَّا بِمُعْتَدِينَ لَهَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿فَكَلَىٰ بِاللَّهِ شَيْدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ مُّغْلِبِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فَمَالِكُ تَبَوُّؤًا كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْتَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُدْنًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿مَنْ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمْنَا بِكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِهَا النَّجْمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤَيِّدُ بِنَفْسِهِ أَفْرَاقَ الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿يَوْمَ يُصَلِّدُ الْعُرُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صديعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كؤوم فوق الناس». وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأولادهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ لِآبَائِكُمْ قُدُّونَ﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨٢]. وقال: ﴿إِذْ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَعْدِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِكْرَامُ يُورِثُ الْفَيْسَمَةَ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ [٥] وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لِمَنْ أَعَادَهُمْ كَانُوا بِبِعَادَتِهِمْ كَفِرِينَ﴾ [الأحاف: ٥، ٦].

وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [٢٦] أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تنبكت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراد، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥] [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَحْمَلْنَا مِنْ دُونِكَ حِزْبِي وَاللَّهُ يُعَذِّبُ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبَرَّأ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْكَارُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يُرِيدُ بِمَا كَفَرَ وَأَنْتَ أَتَىٰ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُحِجُّكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ كَتَبًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [١٣] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. وقد قرأ بعضهم: ﴿هنالك تلتل كل نفس ما أسلفت﴾، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث. وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْعَلِيِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، فصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿وَسَلِّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٢١] فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَزَقُكُمْ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدَاً بَدَّ الْحَيِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَلْفُ شُرُوفَاتٍ﴾ [٢١] كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكَيْتِ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٢].

يحتج تعالى على المشركين باعتبار فهم بوحانيته وربوبيته على وحدانية الإله، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيبته، فيخرج منها ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا وَغُلًّا وَنَخْلًا﴾ [٢١] وَوَدَّائِينَ غُلًّا﴾ [٢٠] وَفَكِهِمَ وَأَبًا﴾ [٢١] [عبس: ٢٧-٣١]، إله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَسْكَبْتُمْ بِهِ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [٢١] [الملك: ٢١]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله. وقوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا

معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ فِي الْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيروا إليه، عبيده، خاضعون لديه، ﴿فَسَبِّحُوا اللَّهَ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بأرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَمَاذَا بَدَأَ الْحَيِّ إِلَّا الضَّلٰلَ فَمَا كَانَ تَصَرُّوٰتُ﴾ [٣٤] أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم والهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَدَأَ الْحَيِّ إِلَّا الضَّلٰلَ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له. ﴿فَمَا كَانَ تَصَرُّوٰتُ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟. وقوله: ﴿كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٥] أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [٣٦] أي: قل هل من شركائكم من يهتدي إلى الحق في الله يهتدي للحق أفمن يهتدي إلى الحق أحق أن يتبع أم لا يهتدي إلا أن يهتدي فما لكم كيف تحكمون ﴿٣٥﴾ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يهدي إلى الحق شيئاً إن الله عليم بما يعملون ﴿٣٦﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلاق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها بقاء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ ﴿قُلْ اللَّهُ﴾، هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿فَأَن تَوَدَّقُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشd إلى الباطل؟! ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحبارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشd الله، الذي لا إله إلا هو. ﴿فَأَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَدٌ أَن يَتَّبِعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ﴾ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي، لعماه وبكهم؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَأْتِيَنِي لَيْلٌ مِّن قَبْدِي مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتُوبُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ [٣٥] والله خلقكم وما تعملون ﴿٣٦﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما بالكم يذهب بعقولكم، كيف سويتهم بين الله وبين خلقه، وعدلتهم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإجابة. ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تهديد لهم، ووعد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْصِصُ الْكَلِمَاتِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٧] أم يقولون أفترتة قل فأقروا بسورة ينزلها وأدعوا من استظفرت من دونه الله إن كنتم صديقه ﴿٣٨﴾ بل كذبوا بما لم يُحيطوا به ليهبوا ولما يأتيهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظروا كيف كانت عاقبة الظالمين ﴿٣٩﴾ ومنهم من يؤمن بيه ومنهم من لا يؤمن بيه وربك أعلم بالمفسدين ﴿٤٠﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيرة للعزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَيَقْصِصُ الْكَلِمَاتِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خبر ما قبلكم، ونبا ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أي: خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترتة قل فأقروا بسورة ينزلها وأدعوا من استظفرت من دونه الله إن كنتم صديقه ﴿٣٨﴾ أي: إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله، وقتلتهم كذباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا

القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان. وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمِينِ ظَهْرِ الْآخِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنزَّلَهُ قُلُوبُنَا فَأَنزَلَهُمْ سُورًا يَتَّبِعُونَ مُتَّبِعِينَ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَإِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنزَّلَهُ قُلُوبُنَا فَأَنزَلَهُمْ سُورًا يَتَّبِعُونَ مُتَّبِعِينَ وَإِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَنَنْزِلَنَّهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَقْسَمًا لَّا تَعْلَمُونَ فَاتَّبَعُوا لَآئِنِ نَّزَّلْنَاهُ بِاللُّغَةِ الْغَرِيبَةِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [البقرة: ٢٤]. هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا يقبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذي فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيد مُسَدِّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا وَيَلْبِسُوا بِهَا كَذِبًا لَّيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنهُمْ مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ. وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٣]، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتزهر، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنشُرْ رِيحًا مِّمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠] ﴿وَمِنهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأنتَ تُسْمِعُ الْكُفْرَ كَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ لَوْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [المائدة: ١١].

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَإِن كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكُفْرَانُ﴾ [١] ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [٢] ﴿وَلَا أَنشُرْ عِبِيدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ [٣] ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [٤] ﴿وَلَا أَنشُرْ عِبِيدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ [٥] ﴿لَكُرْ دِينِكُمْ وَلِي دِينِ﴾ [٦] [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَذَّبًا بَرًّا وَمِنَّا بِيِّنًا وَبَيْنَكُمْ أَلْدَادُ وَالنَّحْسَاءُ أَدَا حَتَّىٰ تُوَفِّرُوا فِئَتَكُمْ وَتَهْتَدُوا﴾ [المتحنة: ٤]. وقوله: ﴿وَمِنهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمِنهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التوبة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولي البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوفاق، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَبْعَثُوكَ وَإِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [١١] ﴿لِنَكْفُرَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَهْلٌ سَيَلًا﴾ [١٢] [الفرقان: ٤١، ٤٢]. ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى من الغي وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن لَّا يَظْلِمُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا وَلَئِن كَانَتْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٣]. وفي الحديث عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إني حرمت

الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا- إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. رواه مسلم بطوله.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ كَأَن لَّيْسَتْ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ النَّارِ يَتَعَارَفُونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: كأنهم يوم يوفونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ النَّارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كأنهم يَوْمَ يَوْمِئَاتٍ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النزعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٤٦﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ أَلْمَأْمَأُكُمْ لَمِيعَةً أَنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهكذا يوم البعث ولكلكنكم كنتم لا تعلمون ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَدْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةَ سِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ فأولوا لبثوا يوماً أو بعض يوم فستل الأمانين ﴿٥٢﴾﴾ فقل إن لبثتم إلا قليلاً أو أنكم كنتم تعلمون ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]. وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ فِيهَا﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَشْتَأُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حِمِيًّا ﴿٥٥﴾ يَصْرَفُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّجْوَى وَلَوْ يَدْعَوْا بِأَيِّ عِيَالٍ يَوْمَئِذٍ يَسْتَجِيبُ ﴿٥٦﴾ وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ ﴿٥٧﴾ وَصَيْلِيهِ أَتَى تَرْوِيحًا ﴿٥٨﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمِيًّا ثُمَّ يَأْتِيهِ ﴿٥٩﴾﴾ [المعارج: ١٠ - ١٥]. وقوله: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّامُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته، يوم الحسرة والندامة.

﴿وَإِنَّمَا زُجِجْتُ بِعَصِ الْأَرْتِ الَّذِي نُودِمْتُ أَوْ نَوَيْتُكَ فَإِنَّمَا مَرَجِمْتُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ولكل أمة رسولٌ فإذا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّمَا زُجِجْتُ بِعَصِ الْأَرْتِ الَّذِي نُودِمْتُ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أَوْ نَوَيْتُكَ فَإِنَّمَا مَرَجِمْتُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبه بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: «عرضت علي أمي البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خلق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صُوروا لي في الطين، حتى إنني لأعترف بالإنسان منهم من أحدمكم بصاحبه». رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن عقبه بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة. ﴿فَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالسَّاعَةُ سَاعَةٌ وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعرض على الله بحضرة رسوله، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهوداً أيضاً أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»، فأتمه إنما حازت قصب السبق لشرف رسوله، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾﴾ قُلْ لَا أَنبَأُكُمْ بِتَقْدِيرِ رَبِّي إِذْ أَنبَأَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلَ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ سَاعَةٌ وَلَا يَسْتَجِيرُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ أَنبَأْتُكُمْ عَذَابِي إِنَّمَا كُنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهَا وَأَنبَأْتُ مِمَّا لَمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أَنبَأْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهَا وَأَنبَأْتُ مِمَّا لَمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّاقِ هَلْ كُنْتُمْ تُكْسِبُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿٦٨﴾﴾ [الشورى: ١٨] أي: كائنه لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أُرشد رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَنبَأُكُمْ بِتَقْدِيرِ رَبِّي إِذْ أَنبَأَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلَ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ﴾ [الشورى: ١٨]، فأناب عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم أي: لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني عليه، فأناب عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم

بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْتَبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَنَارًا﴾، أي: ليلاً أو نهاراً، ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ أَتَرَى إِذَا مَا وَقَعَ آمَنُوا بِهِ﴾، يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّوَعْنَا فَمَا صَبَحْنَا وَمَا عَلَّمْنَا وَفَجَاءَنَا الْمَاءُ كَمَا كَانَ الْمَاءُ فِي الْغَابِ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثُ رَسُولِهِ لَمَّا كُنَّا فِي الْمَشْكِمَاتِ وَكُنَّا بِمَا كُنَّا بِهٖ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَعْضُهمْ يَنْفَعُهمْ مِنْ بَعْضِهِمْ إِنَّمَا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَتَ اللَّهُ أَلْفِي قَدِّ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿أَفَصِحْرُ هَذَا أَمْ أَسْتَرْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿أَسْلَمُوها فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿وَيَسْتَعْتَبُونَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَسَقٌ وَمَا أَشَدُّ بِمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَبْرِ نَجْمًا فَلَمَّتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفِىٰ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْقِلُ﴾ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى: ويستعجبونك «أهقُ هو؟» أي: المعاد والقيامة من الأحداث بعد صيرورة الأجسام تراباً. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَسَقٌ وَمَا أَشَدُّ بِمُجْرِمِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجزه عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيات أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، وفي التغابن: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنْ يُعْتَبَأُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُنَبِّئَنَّهُمْ ثُمَّ لَنَنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يوذ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفِىٰ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْقِلُ﴾، أي: بالحق، ﴿وَمَنْ لَا يظلمون﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿هُوَ بِجَوِّ رَبِّيِّتٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجل ثناؤه. ﴿تَأْتِيهِ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَبَرٍ مُّتَّبِعٍ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿تَأْتِيهِ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: من الشبهة والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَبَرٍ مُّتَّبِعٍ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾، أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَبَرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: «وذكر عن بقرته - يعني ابن الوليد - عن صفوان بن عمرو، سمعت أئيف بن عبد الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر، رضي الله عنه، خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاة: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَبَرٍ مُّتَّبِعٍ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾، وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني، فرواه عن أبي زرعة الدمشقي، عن حنيفة بن شريح، عن بقرته، فذكره.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّي جَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَعَلَىٰ قَوْلِ اللَّهِ أَنْزَلَ لَكُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَفَرُّوتَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْعَكْبَابَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَكَدُ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقعادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ مَقَادِرًا مِنَ الْحَرِّ وَالْأَنْكَبِ صَبِيحًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص - وهو

عوف بن مالك بن نضلة - يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشَفُ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا أتاك ما لا قَلْبِيَّ عَلَيْكَ». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحاً أذائها، فتعتمد إلى موسى فتقطع أذائها، فنقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صُرْمٌ، وتحرمها عليك وعلى أهلِكَ؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك، وذكر تمام الحديث. ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص، وعن بَهْز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به. وهذا حديث جيد قوي الإسناد. وقد أنكر الله تعالى على من حَرَمَ ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله ﷻ، فيقومون بين يدي الله ﷻ ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي وأظمأت نهارى شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أن أعطتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة. قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، قال: فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحومها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهارى خوفاً منها. فيقول: عبدي، إنما عملت ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعطتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي. فيدخل هو ومن معه الجنة. ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: رب، حباً لك، وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهارى شوقاً إليك وحباً لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدي، إنما عملت حباً لي وشوقاً إلي، فينجلي له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلي. ثم يقول: من فضلي عليك أن أعطتك من النار، وأبيحك جنتي، وأزيرك ملائكتي، وأسلم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَمُرُّبُّ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ لَّا يَنْفَعُكَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا آمَنَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْفَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦١﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه، أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأن لحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حفاترها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَصَدُّوا مَقَابِلَ النَّبِيِّ لَّا يَعْلَمَهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَسْمَعُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أَسْأَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّكَ بِرَبِّهِمْ مُحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ نَفْسٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّمَا وَسُودَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦٦﴾ [هود: ٦٦]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف يعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَرْبِكُ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿٦٩﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام، لما سأله جبريل عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُتْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةَ لَا يَدْبِلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسره ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار: حدثنا علي بن حَرْب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري - وهو القمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روي عن سعيد مرسلًا. وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرُّفاعي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرَّعة بن عمرو بن جرير الجَحلي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نجيبهم. قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلَمْ أَلِكْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾. ثم رواه أيضاً أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بمثله. وهذا أيضاً إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنَم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفرح الناس ولا يفرعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث متطول. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذُكْران أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له». وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: سألت رجل أبا الدرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله، فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرى له، بشرها في الحياة الدنيا، وبشرها في الآخرة الجنة». ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى، فذكر نحوه سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عباد بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران القطان، عن يحيى بن أبي كثير، به. ورواه الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه علي بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سلمة قال: بُشِنَا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره. وقال ابن جرير: حدثني أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسي، عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألتني عنها أحد قبلك، سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك: «ما سألتني عنها أحد قبلك، الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن في المنام أو تُرى له». ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءاً أو سبعين جزءاً من النبوة».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا بهز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر؛ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمله الناس عليه، ويشنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن». رواه

مسلم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا حسن - يعني الأشيب - حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ذرّاج ، عن عبد الرحمن بن جبّير ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال : «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن ، هي جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليختره ، فلينفث عن يساره ثلاثاً ، وليكبر ، ولا يخبر بها أحداً» لم يخرجوه . وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، حدثني عمرو بن الحارث ، أن ذرّاجاً أبا السمع حدثه عن عبد الرحمن بن جبّير ، عن عبدالله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن ، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . وقال أيضاً ابن جرير : حدثني محمد بن حاتم المؤدّب ، حدثنا عمار بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال : «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة ، يراها العبد أو تَرَى له ، وهي في الآخرة الجنة» . ثم رواه عن أبي كُرَيْب ، عن أبي بكر بن عَاشِش ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرى من الله ، وهي من المبشرات . هكذا رواه من هذه الطريق موقوفاً . وقال أيضاً : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الرؤيا الحسنة هي البشرية ، يراها المسلم أو تَرَى له» .

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن حماد الدُّولابي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن سَبَاع بن ثابت ، عن أم كُرْز الكعبية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ذهبت النبوة ، وبقيت المبشرات» . وهكذا روي عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعُرْوَة بن الزبير ، ويحيى بن أبي كثير ، وإبراهيم النَّخعي ، وعطاء بن أبي رباح : أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة . وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ تَحُنُّ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا مَن عَظُمَ فَجْرُهُ ﴿٣٧﴾﴾ [صفت: ٣٠-٣٢] . وفي حديث البراء : «أن المؤمن إذا حضره الموت ، جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان . فتخرج من فمه ، كما تسيل القطرة من فم السقاء» . وأما بشرهم في الآخرة ، فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الانباء: ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمْنٍ مِنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمُنُّونَ بِمَا هُمْ قَائِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [التكوير: ١٧] . وقوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي : هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جِئِمًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾﴾ أَلَا إِنَّكَ لَمِنَ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْشُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْأَلُونَكَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ آيَاتِهِ لِيَسْأَلُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ ثَبِيرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قول هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ؛ فإن العزة لله جميعاً ، أي : جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي : السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم . ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهي لا تملك شيئاً ، لا ضرراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم . ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي : يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ، ﴿وَالنَّهَارَ ثَبِيرًا﴾ أي : مضيقاً لمعاشهم وسعيهم ، وأسفارهم ومصالحهم ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي : يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدرها ومسيرها . ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَكَلَّمَ سُبْحَانَ هُوَ النَّقِيُّ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ قُلْ إِنَّكَ الْبَرُّ بَشَرٌ عَلَى اللَّهِ الْكُذُوبُ لَا يُلَهِهُمُ ﴿١٩﴾ نَسَخَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ يَدْبِقُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً : ﴿سُبْحَانَ هُوَ النَّقِيُّ﴾ أي : تقدر عن ذلك ، هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، ﴿لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : فكيف يكون له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له ، عبد له؟! ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ أي : ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ : إنكار

ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ الرِّجْنَ وَلَكِنَّا أَقْدَرُ مِنْكُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرْنَ مِنِّي وَتَشْتَقِي الأَرْضُ وَيَحْتَرُّ لِبَالِهَا هَذَا ﴿٧١﴾ أَنْ دَعَا لِلرِّجْنِ وَلَكِنَّا ﴿٧٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرِّجْنِ أَنْ يَنْحَدَّ وَلَكِنَّا ﴿٧٣﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَكُوتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ مَا فِي الرِّجْنِ عَيْدًا ﴿٧٤﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٧٥﴾ وَكَلَّمَهُمْ بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقَيْمَةِ قَرْدًا ﴿٧٦﴾﴾ (مریم: ٨٨-٩٥). ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفتريين، ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدركهم وأملى لهم متعهم قليلاً، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال ههنا: ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِنَّا جِئْنَاكُمْ بِمَتَّعٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُدْفِعُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أي: الموضع المولم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَرِهَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِبَابِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عِشَّةً تُوَجِّهُ إِلَى وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٧٧﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَعْرَبَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الدُّنْيَا جَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا ﴿٧٩﴾ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقتصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَرِهَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عظم عليكم، ﴿مَقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذَكَّرِي﴾ أي: بياكم ﴿بِبَابِ اللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عِشَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتسماً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ولا تنظرون، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هِيَ آخِذَةٌ بِأَئِتِيهِ إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً، ﴿إِنْ أَعْرَبَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ؛ والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨). قال ابن عباس: سبيلاً وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (النمل: ٩١)، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْإِسْلَامَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِذْ قَالَ لَهُمْ صَلُّوا لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ حَيَّةٍ فَسَلُّوا وَأَسْلِمُوا ﴿١٣١﴾﴾ (البقرة: ١٣١، ١٣٢)، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحْكَامِ فَاطْرَ السَّمَكُوتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَى فَوَكَّلْتُ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ بِأَعْيُنِنَا وَالْقُرْآنُ يُرْسَلُ فِي سَكِينٍ مِّنْ رَبِّنَا وَمَا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف: ١٠١)، وقال موسى: ﴿يَتَقَرَّبُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤)، وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا سَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الاعراف: ١٢٦)، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُنِيرُكُمْ بِهَا أَنْبِيَائُنَا الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْعِبْرَانِيِّينَ أَنْ آتُوا بِآيَاتِنَا فَآلُوا ءَامِنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُلَيْمُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المائدة: ١١١) وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣) أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد غلات، ديننا واحد». أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد غلات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِكْ قَوْمِهِمْ لِحَاثِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِّعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُكذِّبِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلكم، بسبب تكذيبهم إياهم

أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَقُولُ آبِدْتَهُمْ وَأَبَصَرْتَهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوْلَىٰ مَرَوْ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْمَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَشَكِّينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَانَ رِزْقُكَ يُدْفَعُ بِأَيْدِي خَيْرٍ بِصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والتكاليف، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسَىٰ وَهَارُونَ ابْنَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مَوْسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَسْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَلَاءٍ غَآءٍ وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَاءً تَائِبًا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ .

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسَىٰ وَهَارُونَ ابْنَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ﴾ أي: قومه. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: حججنا وبراهيننا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيَسْحَرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٦﴾ كأنهم - قبحهم الله - أفسحوا على ذلك، ويعلمون أن ما قاله كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَمَعَدُوا بِهَا وَأَسْقَيْنَهَا نَحْسَهُمْ ظُلْمًا وَطُلُوقًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. ﴿قَالَ لَهُمْ مَوْسَىٰ﴾ منكرأ عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَسْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَلَاءٍ غَآءٍ وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَاءً تَائِبًا﴾ أي: تبتينا ﴿غَآءٍ وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَاءً تَائِبًا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا تَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون خذ من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رزى هذا الذي يُحذَر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوظهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الأبواب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتيه به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يزد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوَائِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَكَلَّمْتُ لَهُ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُنْفِقُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ أَيْسْرًا إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعِلْمِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَيَقُولُ اللَّهُ الْحَقُّ يَكْفُرُونَ، وَكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ .

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يتفوّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبدن، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و ﴿قَالَتِ السَّحْرَةُ سَجِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ قَالُوا مَاءً رَبَّنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّي مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨] فظن فرعون أن يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُنْفِقُونَ ﴿٧٧﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل - ﴿قَالُوا بِمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تَلْفَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْفَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْفَاؤُكُمْ ﴿٥٦﴾، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿أَلْفَاؤُكُمْ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَتْهُمُ وَجَاهَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَرْجَسَ فِي قَلْبِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ﴾ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٨﴾ وَالْوَيْ مَآ فِي يَمِينِكَ لَلْقَفْ مَا

صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُغْنِي السَّيْرُ حَيْثُ أَقْبَلُوا ﴿٨٦﴾ [طه: ٦٧-٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما القوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِغُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُخَوِّذُ اللَّهُ النَّصِيبَ بِحِكْمَتِهِ وَكَرِهَةِ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٧﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكي - أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن نَيْث - وهو ابن أبي سليم - قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا الْقَوْأُ قَالَ مَوْسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِغُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَيُخَوِّذُ اللَّهُ النَّصِيبَ بِحِكْمَتِهِ وَكَرِهَةِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٨﴾، والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [الاعراف: ١١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُغْنِي السَّيْرُ حَيْثُ أَقْبَلُوا﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَمَا مَنَّ لِيُؤَسِّدَ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْتُلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَلِكٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنْ الْأَرْضَ لَمَنْ الشُّرَيْكِينَ﴾ ﴿٨٧﴾. يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن مئله، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعنت، وكانت له سَطْوَةٌ ومَهَابَةٌ، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿فَمَا مَنَّ لِيُؤَسِّدَ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْتُلَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا مَنَّ لِيُؤَسِّدَ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل. وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل. وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات أبائهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين. وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذْرُ كل الحذر فلم يُجِدْ عنه شيئاً. ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ [الاعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: وأشرف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يقتل عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به، متعلقاً بحباله. ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه - فقد أبعده، وإن كان ابن جرير قد حكاها عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مَوْسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَائِمَةً بِاللَّهِ فَمَلِّئُوهُمُ اللَّهُ قُلُوبًا إِن كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَجَحَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَائِمَةً بِاللَّهِ فَمَلِّئُوهُمُ اللَّهُ قُلُوبًا إِن كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿إِن كُنتُمْ مَائِمَةً بِاللَّهِ فَمَلِّئُوهُمُ اللَّهُ قُلُوبًا﴾ [الزمر: ١٣٦]، ﴿وَمَنْ يُؤَكِّدْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّهِ لِلشُّرْقِيِّ وَاللُّغْبَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٢٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٩٠﴾ [الفاتحة: ٥]. وقد امثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز، وأبي الضحى. وقال ابن أبي نجیح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نجیح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا. ﴿وَجَحَنَّا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْمُرْ كِفَاؤَكَ بِمُوسَىٰ وَأَجْمَلْ يُونُسَ قِيسَةَ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٨٧).

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿أَنْ تَمُوتَا﴾ أي: يتخذتا لقومهما بمصر بيوتاً. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ﴾، فقال الثوري وغيره، عن حُصَيْفٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ﴾ قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وقال الثوري أيضاً، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ﴾ قال: كانوا خانفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو زيد بن أسلم. وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ الَّذِينَ نَسُوا أَسْمَاءَهُمْ أَتَدَّبَّرُوا الصَّلَاةَ وَالصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: بالشواب والنصر القريب. وقال العوفي، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ﴾، قال: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبله الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَجْمَلُوا يُونُسَ قِيسَةَ﴾ أي: يقابل بعضها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَلَىٰ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَبْغُوا سَبِيلَ الْبَرِّ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبيراً وعتواً، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَلَىٰ سَبِيلِكَ﴾ - بفتح الياء - أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لَتَفْنِينَ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿لِيُصَلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة. وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سكرهم حجارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي مغش، حدثني محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ﴾ إلى قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ إلى آخرها فقال له عمر: يا أبا حمزة، أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: انتني بكيس. فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة. وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَاذِبِينَ دِيَارًا﴾ (٦٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التي آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾. قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون آمن».

وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَبْغُوا سَبِيلَ الْبَرِّ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما أجببت دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوماً.

﴿وَجَوَّزْنَا بِسَبِيحِ إِشْرَاقِ الْبَحْرِ فَاتَّبَعْتَهُمْ وَرَعَوْنَا رِجْلَهُمُ الْغِيَا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكْتُمُ الْفَرَقَ قَالَ مَا أَنتَ إِلَّا الْوَيْتُ مَا أَنتَ بِهِ بَنُو

إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ وَاللَّهُنَّ وَكَذَلِكَ بَقِيَ الْكُفْرُوكَ لِيَوْمِ تَنْجِيكَ يَدَيْكَ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كِبْرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا إِنَّا لَغَفْلُونَ ﴿٩١﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حَقُّ فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ﴿٩١﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى، عليه السلام، عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهِينُ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، ففضربه فانفلق البحر، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الرياح فنشفت أرضه، ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا فَخْشًا﴾ [طه: ١٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايبك، ليرى كل قوم الآخرين لثلاثاً يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيب الدعوة. وجاء جبريل، عليه السلام، على فرس وديق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاتحم البحر ودخله، فاتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم، لا يترك أحداً منهم، إلا الحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيتهم سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَأَمْسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمْسَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فأمس حيث لا ينفعه الإيمان. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَأَمْسَ بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسُكْرَتُنَا يَمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَكَتَ اللَّهُ لئِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]. وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَأَلْتَنَّهُ وَكَذَلِكَ بَقِيَ الْكُفْرُوكَ لِيَوْمِ تَنْجِيكَ يَدَيْكَ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كِبْرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا إِنَّا لَغَفْلُونَ﴾ [القصاص: ٤١].

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ءَأَمْسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمْسَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالاً من حال البحر، فدستته في فيه مخافة أن تناله الرحمة». ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا أخذ من حال البحر، فادسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً، وابن جرير أيضاً، من غير وجه، عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. ووقع في رواية عند ابن جرير، عن محمد بن المنثري، عن عُثْرَةَ، عن شعبة، عن عطاء وعدي، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما - وكان الآخر لم يرفعه، فالثاني أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿ءَأَمْسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمْسَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه. وكذا رواه ابن جرير، عن سفیان بن وكيع، عن أبي خالد، به موقوفاً. وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً، فقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حَكَّامٌ، عن عُبَيْسَةَ - هو ابن سعيد - عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعني: فرعون. كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو زُرْعَةَ وأبو حاتم: مجهول، وباقي رجاله ثقات. وقد

أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمي، وميمون بن مهران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فإله أعلم.

وقوله: ﴿يَالْيَوْمِ نَسِيكَ يَدْيِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقى بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَالْيَوْمِ نَسِيكَ﴾ أي: نرفعك على نَشْر من الأرض، ﴿يَدْيِكَ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويّاً صحيحاً، أي لم يتمزق ليتحققه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم. وقوله: ﴿لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾، أي: لا يعظون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاك فرعون وملته يوم عاشوراء، كما قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه».

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بُيُوتًا مَبْنُوعَةً لِّمَنْ خَلَقْتُمْ مِمَّنْ كَانُوا فِيهَا يَخْتَلِفُونَ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، و﴿بُيُوتًا مَبْنُوعَةً﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِيقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَكُنَّ كَتْمٌ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغُرُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ حَتَّىٰ وَيُصُونَ ﴿٧٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ﴿٧٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٧٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، ولكن استمروا مع موسى، عليه السلام، طالين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم باختصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة.

وبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، في تلك المدة، فاستعانت اليهود - قبهم الله - على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا، فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشبه لهم بعض الحواريين بمشيتة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ [البقره: ١٧٧]، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]. ثم بعد المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين - أحد ملوك اليونان - في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصراني قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار، واستحوذت يد النصراني على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن خوزان كبصري وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول. والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة، رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْوَعْدُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم

وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، واستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنان وسبعون في النار. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدرکه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ نِيحًا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ لِنَرْكَبْ إِلَيْكَ مُنْقَلَبَ الْبُرُوقِ يَوْمَ تَكُونُ الْكُتُبُ مِنْ يَمِينِكَ وَقَدْ حَاطَّ بِكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْعَذَابِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل». وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ آمَنُوا بِاللَّهِ الَّذِي بِهِدْوَانَا كُفَرْنَا بِعَدْوَانَا وَأَنبِيَاءَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا أَلِمْسَ عَلَيْنَا أُمُورَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَكَلَّمَهُمُ الْكَلِمَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَلِيلًا مَا كَانُوا لِلْحُكْمِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَصْرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النعام: ١١١]، ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكُمْ آسَاتٍ كَسَفْنَا عَنْكُمْ عَذَابَ الْخَزْزِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكاملها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَحْزَنُونَ عَلَىٰ الْعِبَادِ مَا يُأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [يس: ٢٥]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرًا أَوْ حُجُومًا ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي عَلَيْكُمْ مُنْقَلَبُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «عرض عليّ الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي. والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه، واستكانوا وأحضرُوا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكُمْ آسَاتٍ كَسَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْزِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الآخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كُشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية، والقول الثاني فيها لقروله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَىٰ آيَاتِهِ آتٍ أَوْ يُرِيدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ فَأَمَّا قَوْمٌ فَسَمِعْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الصفوات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الآخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم. قال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كُشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم - قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنين أرض الموصل. وكذا روي عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فهلا كانت قرية آمنت». وقال أبو عمران، عن أبي الجعد قال: لما نزل بهم العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى، لا إله إلا أنت. قال: فكُشف عنهم العذاب. وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصفات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ الْآرْضِ كَلِمَةً هَيِّئًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كُنْتَ لِتَنفِيسَ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ - يا محمد - لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جنتهم به، فأمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٠٠﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّةٍ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَمَّا بَلَغَ بَيْعُ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصاص: ٥٦]، ﴿فَأَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٠٣﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ لِتَنفِيسَ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدي، وإضلال من ضل.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ ﴿١٠٦﴾ ثُمَّ نَتَجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير، وصبغ النبات، وما ذرا فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم، ﴿قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ ثُمَّ نَتَجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسول، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقا أوجبه تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَٰهُ رَبُّكَ يَخْتَارُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُخَيِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شك من صحة ما جنتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، فما أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرنني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفا، أي: منحرفا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده، لا شريك له. روى الحافظ ابن عساکر، في ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن

وهب: أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن الله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وأسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم». ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبي هريرة مرفوعاً؛ بمثله سواء. وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَعْضِلُ عَلَيَّهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٧٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٩﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.



تفسير سورة هود

وهي مكية. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شئيك؟ قال: «شيبتي هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتي هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخواتها». وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتي هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخواتها». وقد روي من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الراثي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة». عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْتُ أَكَيْتُ مَائِنْتُمْ ثُمَّ نُفَيْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْبَنَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفْهَرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ نَسْأَةً حَسَنًا إِنَّهُ أَجَلٌ سَمِيُّ وَوُتِبَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته له هنا، وبالله التوفيق. وأما قوله: ﴿أَكَيْتَ مَائِنْتُمْ ثُمَّ نُفَيْتَ﴾ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ما روي عن مجاهد، وفتادة، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، والخير بعواقب الأمور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا كُفْرَهُمْ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُرْبَنَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالشواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم، أستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير

لكم بين يدي عذاب شديد». وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبْعَثْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِنَّكَ أَعْلَمُ سُرِّيَّ وَنَجْوَى كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿يُبْعَثْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَّا أَعْلَمُ سُرِّيَّ وَنَجْوَى كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ آمَنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا مُّسَبِّغَةً وَنَجْعَزَنَّهٗمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك». وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره. وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَرَجِحُكُمْ﴾ أي: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ إِتْمَ عَلَيْهِمْ إِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر؛ أن ابن عباس قرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾، فقلت: يا أبا عباس، ما تنونني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي - أو: يتخلى فيستحيي فنزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾. وفي لفظ آخره: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفوضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفوضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾. قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم. وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُغْلِبُونَ إِتْمَ عَلَيْهِمْ إِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فَلَا تَكْثُمُنَّ اللهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيخْفِي، فمهما يُكْتَم اللهُ يَغْلَم
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُتَجَلَّ فَيُنْتَقَمُ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد والجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة. وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثني صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّمَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّمَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من كرها، وهو مستودعها. وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّمَا﴾ أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّمَا﴾ في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام: وكذا روي عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يُظْهِرُ بِضَاحِهِ إِلَّا أُمُّ أُمَّتِكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْمٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ لَمُنشَرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٩]، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْتَوِيكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا وَلَيْتَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَدَنِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَقْتَدُونَ لَيَقُولَنَّ مَا يُحْيِيهِمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْتَنَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَنَدَّاهُمْ يَوْمَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن مخرز، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «أقبلوا بشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطينا. قال: «أقبلوا بشرى يا أهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء». قال: فأتاني آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي. وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسالك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية: غيره - وفي رواية: معه - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض». وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاة الليل والنهار» وقال: «أفرايم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده، وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخفض ويرفع». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عُدس، عن عمه أبي زرين - واسمه لقيط بن عامر بن المتفق العُقَيْلي - قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك». وقد رواه الترمذي في التفسير، وابن ماجه في السنة من حديث يزيد بن هارون به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئاً. وكذا قال وهب بن مُنبه، وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: يبنشكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فلما خلق السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه. وقال إسماعيل بن أبي خالد، سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوته حمراء. وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد. وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. وقوله تعالى: ﴿يَلْتَوِيكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهَاتُنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلَايِكَةَ الْحَقَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُمُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥١﴾﴾ [النار: ٥٦].

وقوله: ﴿يَلْتَوِيكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملاً، بل ﴿أَنْتُمْ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط. وقوله: ﴿وَلَيْتَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَدَنِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيعذبهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٨]، ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [المنكوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عِلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا بِعَشْكُمْ إِلَّا كَفْتُمْ وَرَجَدُوا﴾ [القصص: ٢٨] وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: يقولون كفرةً وعناداً ما نصدقك على

وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِنَّكَ أُمَّتٌ مَّعْدُودَةٌ لَيَقُولُنَّ مَا نَحْنُ بِمُحْسَبِيهِ﴾. يقول تعالى: ولئن أخرجنا العذاب عنهم ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا نَحْنُ بِمُحْسَبِيهِ﴾ أي: يوزر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألقت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. «والأمة» تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة، فإرادتها: الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّكَ أُمَّتٌ مَّعْدُودَةٌ﴾ وقوله في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّتِهِ﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَزِيغُ مِنَ الشُّرُكِيِّنَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَدَّعْنَا مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَاسِ يَسْتَفُونَ﴾ [القصاص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا بِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاتِ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُتِلُوا بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]. والمراد من الأمة ههنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما جاء في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي الصحيح: «فأقول: أمي أمي». وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْتَمِنٌ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿يَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَيُؤْتُونَ وَهُمْ يَسْتَفُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَكِنْ آذَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ زَعَمْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ [١] ﴿وَلَكِنْ آذَنَّا نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [٢] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [٣].

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له بأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً، ولم يرحم بعد تلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده، بطرف فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الرخاء والعاقبة، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»، وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْمَصْرِبُ﴾ [٤] إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيٌّ [٥] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ [٦] وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ [٧] (سورة العصر)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلُقٌ هَلُوعٌ﴾ [٨] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا [٩] وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ مَنُوعًا [١٠] إِلَّا الصَّالِحِينَ [١١]﴾ الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكَ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ وَكَبِيرٌ﴾ [١٢] أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبِئُهُمْ بِأَنْبِيَاءِهِمْ قُلْ فَأَنبِئُوهُمْ بِشُرُوبِهِمْ نُجِسًا وَمَفْرَقَتِهِمْ وَأَذْعَانِهِمْ أَسْتَفْتَحُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٣] فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُوا لَكُمْ فَأَعْتَمُوا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِن لَّا هُوَ قَهْلٌ أَنشُرْ سُلَيْمَانَ﴾ [١٤].

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ، عما كان يتعنن به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم -: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِي فِي الْأَمْوَالِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [١٥] أَوْ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَشْهُورًا﴾ [١٦] [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشدته إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يبيدته ذلك ولا يئيبه عن دعائهم إلى الله ﷻ آتاء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ بِصِدْقِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [١٧] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [١٨] وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [١٩] [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا فصبوا حتى أتاهم نصر الله ﷻ. ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام

الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُرُوفَهَا لَا يَخْشَوْنَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّوْا فِيهَا وَنُطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد. وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء. وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدومه وطيبته ونيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَسَاجِدَ عَلَنًا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ نُعْزِمَنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾ كَلَّا نُنَادِي هُنَّ أَوْلَاءٌ وَهُنَّ أَوْلَاءُ مِنْ عَمَلِهِمْ وَمَا كَانَ عَمَلُهُمْ مُحْطُورًا ﴿١٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ نَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢٠].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْرُوبٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ. كَذَّبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحِمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآتَاهُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَنْفِكُ فِي رِيْبِهِ مِنْهُ إِنَّهُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَوَدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرثت عليهم ما أحللت لهم». وفي المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملة، حتى يعرب عنه لسانه» الحديث، فالؤمن باق على هذه الفطرة. وقوله: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكتملة المعظمة المختتمة بشرية محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام. وعن علي، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة. وقيل: هو علي. وهو ضعيف لا يثبت له قائل، والأول والثاني هو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعية من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْرُوبٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن، بلغه جبريل إلى النبي محمد ﷺ، وبلغه النبي محمد إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ. كَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحِمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآتَاهُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَأَنْزِلَنَّهُمْ بِهِ وَمَنْ يَلُغُ﴾ [الأنعام: ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَأَنَا نَذِيرٌ﴾ [الاعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآتَاهُ مَوْعِدُهُ﴾. وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وقال أيوب السخيتاني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه - أو قال: تصديقه - في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار». فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: «وقلها سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَوْمَ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْأَسَارُ مَوْعِدُهُ﴾، قال: «من الملل كلها».

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الْبَقَرَةِ: ١٠١﴾. وقال تعالى: ﴿الْبَقَرَةِ: ١٠١﴾. وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ نَقْطَعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَيُسْأَلُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ ظَنُّهُمْ فَاتِمِرُهُمْ إِلَّا قَرِيحًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوِيهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ] ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٠﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢١﴾.

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ يذني المؤمن، فيضع عليه كتفه، ويستره من الناس، ويقره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسنة، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوِيهَا عِوَجًا﴾ أي: يرثون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويحبوهم الجنة، ﴿وَيَعْتَوِيهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وفي الصحيحين: «إن الله ليُعَلِّي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا ضماً عن سماع الحق، غمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفه عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَحَايْتُمْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. و ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تجد عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [كُلًّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا] ﴿١٨﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَكَلِمَتُكُمْ بِمَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [المنكبر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَفْتُمْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢١]. يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان

بحميم أن، وعن شرب الرحيق المختوم، بسُموم وحميم، وظلٌ من يحموم، وعن الجور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۗ أَلَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون ولا يتغطون، ولا ييصقون لا يتمخظون، إن هو إلا رشح يسك يعرفون. ثم ضرب الله تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَآسْمَعَهُمْ وَلَا نَسْمَعُهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. ﴿أَلَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٧﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٣٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ قَالَ لَهُمْ رَبِّي أُنذِرُوا إِنِّي اتَّخَذْتُ عَلَيْكُمْ عَبْدًا بِرِيءٍ أَلَيْسَ لَكُمُ الذِّكْرُ بِمَا تَرْكَبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر التذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي اتَّخَذْتُ عَلَيْكُمْ عَبْدًا بِرِيءٍ أَلَيْسَ لَكُمُ الذِّكْرُ بِمَا تَرْكَبُونَ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه غذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾، والملاهم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا تَرْكَبُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما تراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاقة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجاوبك فاتبعوك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَرْكَبُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: في أول بادي الرأي، ﴿وَمَا تَرْكَبُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نُنَفِّسُكُمْ كَذِبًا﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس يعار على الحق زدالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونهم هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي عَلَيْكُمْ مُّثْقَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل. وقولهم: «بادي الرأي» ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضع لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، ولا يفكر وينزوي ههنا إلا عيبي أو غيبي، والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كثرة، غير أبي بكر، فإنه لم يتلغَّم» أي: ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً، فبادر إليه وسارع. وقولهم: ﴿وَمَا تَرْكَبُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم غمى عن

الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأزدلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِي فَصَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ عَلِيمٌ ۖ أَنْزِلْ كِتَابَكُمَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما رد على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فَصَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿أَنْزِلْ كِتَابَكُمَا﴾ أي: نفضيكم بقبولها وأنتم لها كاهرون.

﴿وَيَتَوَكَّرُ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْكُمْ مَالًا إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّثَقَّفُوا بِرَبِّهِمْ وَلِكَيْفَ أَنْزَلُوا قَوْمًا يَهْتَلِكُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَتَوَكَّرُونَ مِّنْ بَصُرِي مَنِ اللَّهُ إِنْ كَرِهْتُمْ فَلَا تَنْكَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالا؛ أجره أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُقِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ﴾ [الانعام: ٥٢]، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ رَحْمَةً مِنَّا وَلَا تَقَدْ سَبَّحْنَا عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَتَقُولُوا أَهُؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُنَافِقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الانعام: ٥٣].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَوَّجْتُم مِّنْ بَنَاتِكُمْ إِنَّ رَبَّهُمُ اللَّهُ خَيْرٌ أَلَمْ يَعْلَم بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِيَّيَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف وضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقروهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم، الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالماً قاتلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَتَّبِعُ قَدَّ جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلْنَا فَأَيْنَا بِمَا يَدَّعَىٰ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ إِنَّمَا بِأَيْدِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَا بِمُفَكَّرٍ نَّصِيحٍ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤَيِّدَ كُمْ هُوَ رُكْبَتُكُمْ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُ قَدَّ جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلْنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأَيْنَا بِمَا يَدَّعَى﴾ أي: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ إِنَّمَا بِأَيْدِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ﴿٤٢﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا بِمُفَكَّرٍ نَّصِيحٍ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤَيِّدَ كُمْ﴾ أي: أي شيء يُجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رُكْبَتُكُمْ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَمَعَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَبِّي مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكدها ومقرر بشأنها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَمَعَىٰ إِجْرَائِي﴾ أي: فإنم ذلك علي، ﴿وَأَنَا بِرَبِّي مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً، ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ وَاعْبُدْنَا وَوَحْيًا وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٤٨﴾ فَسَوَّ قَلْبَهُمْ مِّنْ بَيْنِهِمْ عَدَابٌ يُّزِيدُهُمْ وَيُحِلُّ عَلَيْهِ عَدَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّي لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلْبُوثٌ فَلْنَصِّرْ﴾ [القصص: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهْمك أمرهم. ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعني:

السفينة ﴿يَأْتِينَا﴾ أي: بمرأى منا، ﴿وَوَحْيَنَا﴾ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنع، ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾. فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرّز الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجرها في مائة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق عن الثوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظهرها بالبقار، وأن يجعل لها جوجواً أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، في عرض خمسين. وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة. وقيل طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم. قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرأ غريباً، من حديث علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قال: قال الحواريون ليعسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كتيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكتيب بعصاه، قال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسى، عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا. ولكني مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: إن طولها ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب، أوحى الله ﷻ إلى نوح، عليه السلام، أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخرز السفينة يقرضه وحبالها، أوحى إلى نوح؛ أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى، عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت. قال: فطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقالوا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد تراباً.

وقوله: ﴿وَوَسَّخُ الْفُلُوكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يَطْبُرُونَ به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنِّي فَإِنَّا سَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُونَ مِنْ نُوحٍ تَلْمُوزًا﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَانَ الْثَنُورُ قَلْبًا أُنْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهَيَّان الذي لا يُقْلَع ولا يُفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَقَنَعْنَا آوَابَ السَّمَاءِ بِالرِّيحِ وَحَمَلْنَا الْبُحْرَانَ فِي سُنُوفِهِ وَأَعْرَجْنَا الْمَاءَ عَلَيْهِ إِذْ أَمْرٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ وَكَلَّمْنَا عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ ذُكْرًا ﴿١٢﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿١٣﴾ [القم: ١١-١٤]. وأما قوله: ﴿وَوَكَرُّوا الْكُتُورُ﴾، فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: التنور: فُلُقُ الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه. والأول أظهر. وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الورد. وهذه أقوال غريبة. فحينئذ أمر الله نوحاً، عليه السلام، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات - اثنين: ذكراً وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرّة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخل في السفينة. وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقى عليه الحمى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمن - أو: تطمن - المواشي

ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حُمى نزلت الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفُورِسقة تفسد علينا طعمانا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعض، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقربته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نذر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائبه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ أَنْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيحاً وَمُرْسَهُاً إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) ﴿وَهُوَ جَعَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَسْرَلٍ﴾ ﴿يَبْتَغِي أُنْكَبَ مَعًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٢) ﴿قَالَ سَوَّاهُ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا وَإِلَى رَبِّكَ أَنتَ الْوَارِثُ﴾ (١٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنَافِقُونَ﴾ (١٤).

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿أَنْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيحاً وَمُرْسَهُاً﴾ أي: باسم الله يكون جريحاً على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها. وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيحاً وَمُرْسِيحاً﴾. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَكْبَرْتُمْ أَن تَقُولُوا عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَلَا تَقُولُوا عَلَى الْفُلِكِ شَيْئاً وَتَقُولُوا عَلَى الْفُلِكِ شَيْئاً﴾ (١١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنَافِقُونَ﴾ (١٢) ﴿قَالَ سَوَّاهُ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا وَإِلَى رَبِّكَ أَنتَ الْوَارِثُ﴾ (١٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنَافِقُونَ﴾ (١٤).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ الْآفَاقِينَ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) ﴿لَسْتُ أَعْلَمُ عَلَى ظُهُورِهِمْ قُدْرَةً﴾ (١٣) ﴿تَذَكَّرُوا يَوْمَئِذٍ﴾ (١٤) ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ (١٥) ﴿وَإِنَّا لَكُنَّا بِرَبِّنَا لَسْقَاتِينَ﴾ (١٦) ﴿الزخرف: ١٢ - ١٤﴾، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله وبه الثقة. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي - وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي - قالوا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهاللي، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاک، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بَقَصَتْهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَالسَّمَاءُ طَطَوَتْ﴾ (١١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَتْرُكُونَ﴾ (١٢) ﴿الزمر: ٦٧﴾، ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَرِيحاً وَمُرْسَهُاً﴾ (١٣) ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الاعراف: ١٦٧)، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّنَا لَدُوٌّ مُّفِرٍّ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (العد: ٦)، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهُوَ جَعَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا لَمَّا كَلَّمْنَا الْمَاءَ حَمَلْتُمْ فِي اللَّيْلِ﴾ (١١) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَنَبَيًّا أُنْتُمْ مِنْ مُّذَكِّرِي﴾ (١٢) ﴿[الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُشِّرَ﴾ (١٣) ﴿جَعَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ (١٤) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا بَابَةَ فَهْلٍ مِنْ مُّذَكِّرِي﴾ (١٥) ﴿[الفرق: ١٣ - ١٥]﴾. وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَسْرَلٍ يَبْتَغِي أُنْكَبَ مَعًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، والذي سَوَّاهُ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا. وقيل: إنه اتخذ له مركباً من رُجَاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَوَّاهُ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنتجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاس»، بمعنى مطعموم ومكسور، ﴿وَمَا كُنَّا بِرَبِّنَا لَسْقَاتِينَ﴾ (١٤).

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَنَسَخْنَا أُولَىٰ وَغَضِبْنَا الْمَاءَ فَقُوْا أَنتُمْ وَالْمَرْءُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤).

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلح عن المطر، ﴿وَيَصِرَ الْمَاءُ﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وَقَفِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دينار، ﴿وَأَسْرَتَ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامتخ الجبال يومئذ من الفرق وتطارلت، وتواضع هو الله ﷻ، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبى الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي من أرض الجزيرة عبدة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً. وقال الضحاك: الجودي: جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زرز بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك، فسألت إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة! قال: بلغني أن سفينة نوح أرسئت من ههنا. وقال علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح الغراب ليأبته بخبر الأرض، فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح، عليه السلام، أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداهما اللسان العربي. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعَبِّرُ عنهم. وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي. وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير. وأنهم صاموا يومهم ذاك، فإله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شيبيل، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوح وموسى، عليهما السلام، شكرًا لله ﷻ. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غداه أهله، فليتم بقية يومه». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولبعضه شاهد في الصحيح.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحرير أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما، من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن قائد - مولى عبيد الله بن أبي رافع - أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخيره: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح، عليه السلام، مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعني وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ وتبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبته رفعت يديها ففرقا، فلورحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

﴿وَأَدَّاهُ نُوْحٌ رَبِّيُمْ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ رَانَ وَعَدَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَسْتَوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَيْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ اعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتْلُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغَيَّرْ لِي وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَسْتَوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ يعود:

[٤٨]، فكان هذا الولد ممن سَبَقَ عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً، عليه السلام. وقد نص غير واحد من الأئمة على تحطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زينة، ويحكى القول أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جرير، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَّمُ عَزْرٌ صَالِحٌ﴾، ويقول: ﴿فَعَاتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم. وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتكم نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغبر من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِثْمِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَهُمْ لِشَبَاهِهِمْ لَوْلَا رَأْسُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَمَسَ فِي الْفُجُورِ لَشِيمٌ﴾ [التحريم: ١٠]، إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْا رَبَّكُمْ بِالْحَقِّ وَقُولُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لِلَّهِ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهَوَّ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة وغيره، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ﴾، والخيانة تكون على غير باب. وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ﴾، وسمعت يقول: ﴿يَكِيدُونَ الْآيَاتِ أَنْتَرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البناني، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ﴾. أعاده أحمد أيضاً في مسنده. أم سلمة هي أم المؤمنين، والظاهر - والله أعلم - أنها أسماء بنت يزيد، فإنها تكنى بذلك أيضاً. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قُتَيْبَةَ قال: سمعت ابن عباس - سئل - وهو إلى جنب الكعبة - عن قول الله: ﴿فَعَاتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَلَّمُ عَزْرٌ صَالِحٌ﴾. قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدهني أنه سأل سعيد بن جبيرة عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿وَوَدَّعَى نُوحٌ آبَتَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. وكذا زوي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه. وقوله:

﴿قِيلَ يَتْرُفُ أَعْيُظُ بِنْتِ رِبْعَةَ عَيْتِكَ وَعَلَى أُمِّرٍ يَمُنْ مَمْلَكٌ وَأُمَّمٌ سَنَّتَهُمْ ثُمَّ يَسْتَهْرُ مِنَّا عَدَابٌ أَلِيدٌ﴾ [٤٨].

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أُرست السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينانيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَأْسُ ابْنِي مَاءَكُ وَبَسْمَاةُ ابْنِي وَبِصَى الْمَاءِ وَحُصَى الْأَمْرِ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٩] فجعل الماء ينقص ويغيب ويذبر، وكان استواء الفلك على الجودي، فيما يزعم أهل التوراة، في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر، رئي رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه الأرض، وظهر اليبس، وكشف نوح غطاء الفلك ورأى وجه الأرض، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَتْرُفُ أَعْيُظُ بِنْتِ رِبْعَةَ عَيْتِكَ وَعَلَى أُمِّرٍ يَمُنْ مَمْلَكٌ﴾ إلى آخر الآية.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقَبْرِ تُجِيبًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَمْلِكُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا قَاصِرِينَ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْتَوِكِ﴾ [٤٩].

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحها إليك على وجهها وجليتها، كأنك شاهدها، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿مَا كُنْتَ تَكْتُمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك المرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِضَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غانر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتُنَا لِإِِبَادِنَا الرُّسُلِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّهُمْ لَمُ مِّنْهُمُ الْمُنْصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقْتَرِبُونَ أَتَّخَذُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ غَيْبًا إِن شَاءَ إِلَّا مَفْرُوكًا ﴿٥٦﴾ يَقْتَرِبُونَ لَآ أَتَسْتَكْبِرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أُجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَقْتَرِبُونَ اسْتَفْهَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَبِّدْكُمْ قُوَّةَ إِلِك قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا، ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه على ذلك وأجره من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره. ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتالي عما يستقبلون من الأعمال السابقة، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ عليه شأنه وقوته؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، وكما جاء في الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِينَ بِالَّذِينَ آمَنُوا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِن نُّقُولُ إِلَّا أَفْرِيكَ بَعْضُ الْمَلِيحَاتِ يَسُوُّ قَالَ إِنِّي أَنشُدُ اللَّهَ بِأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِّنَّا فَتُرْكُونَ ﴿٥٧﴾ مِن دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جِيئًا ثُمَّ لَا يَشْطُرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِنِهَا إِن رَّبِّي عَلَي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبيه: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة ولا دلالة ولا برهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِينَ بِالَّذِينَ آمَنُوا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين، ﴿إِن نُّقُولُ إِلَّا أَفْرِيكَ بَعْضُ الْمَلِيحَاتِ يَسُوُّ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أَنشُدُ اللَّهَ بِأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِّنَّا فَتُرْكُونَ﴾ أي أنتم أيضاً ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّنَّا فَتُرْكُونَ﴾ من دُونِهِ، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَيَكِيدُونِي جِيئًا﴾ أي: أنتم وألهتكم إن كانت حقاً، فذروها تكيدني، ﴿ثُمَّ لَا يَشْطُرُونَ﴾ أي: طرفه عين واحدة.

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِنِهَا﴾ أي: هي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه، فإنه على صراط مستقيم. قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبيع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِنِهَا إِن رَّبِّي عَلَي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال: فيأخذ بنواصي عبادته فيلقى المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانطار: ٦٦]. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا ثوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ الْبُرْكَ وَنَسَخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَي كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أُمَّتُنَا جَنِيحًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِحُسْنِهِمْ مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَمَدُوا بَيْنَهُمْ رِجْلَهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ آلَاءَ عَادًا كَذُرُوا رَجِيمًا آلَاءَ عَادٍ لِمَا عَادُوا قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول لهم رسولهم هود: فإن تولوا عما جنتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَنَسَخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعيدونه وحده لا يشركون به شيئاً ولا يبالي بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعودون وبال ذلك عليكم، ﴿إِن رَّبِّي عَلَي كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: شاهد وحافظ لأقوال عبادته وأفعالهم ويجزيهم عليها إن

خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وهو ما أرسل الله عليهم من الريح العقيم التي لا تمر بشيء إلا جعلته كالرميم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى من بينهم رسولهم هوداً وأتباعه المؤمنين من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه. ﴿وَتِلْكَ آيَاتُ مَا كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كفروا بها، وغصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا يهود، فنزل كفرهم به منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهمذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾. قال السُّدِّي: ما بُعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿أَمْرًا صَالِحًا﴾، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له الخالق الرازق؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: ابتداء خلقكم منها، من الأرض التي خلق منها أبائكم آدم، ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم فيها عمَّاراً تعمارونها وتستغلونها، لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ نُبِّئُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ أَنتَ الَّذِي كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ فَأَنْبَأْهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ أَنتَ الَّذِي كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ فَأَنْبَأْهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال يعقوب آية بشر إن كنت على بينة من ربِّي وإنني منه رَحْمَةٌ مَّن يَصْرِفُ رِجْلَهُ لِيُقِاسَ أَيْدِيَهُمْ أَرْسَالًا مِّنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢٤﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ فَأَنْبَأْهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿وَأَنْتَ الَّذِي كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ فَأَنْبَأْهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: في شك كثير. ﴿قَالَ يَعْقُوبُ آيَةُ رَبِّي أَن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان من الله، ﴿وَأَنْتَ الَّذِي كُنْتَ إِذْ جَاءَكَ رَبُّكَ فَأَنْبَأْهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ أي: خسارة.

﴿وَيَعْقُوبُ هَلْ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَئِن دَعَوْتُهُمْ لَيَقْبُنَّ وَجْهًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

﴿وَيَعْقُوبُ هَلْ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَئِن دَعَوْتُهُمْ لَيَقْبُنَّ وَجْهًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ خِزْيُومًا زَاكِيًّا﴾

﴿فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ خِزْيُومًا زَاكِيًّا﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾

وتقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة «الأعراف» بما أغنى عن إعادته ههنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٢﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٦﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٨﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَةِ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ ﴿١٥٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا﴾، وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للآول قوله تعالى: ﴿لَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّغْوُ وَجَاءَهُ آلُ بَشْرَتِهِ لِيُعَذِّبُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿مُودٍ﴾ [١٧٤]، ﴿قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَدْ جَاءَنَا نَارٌ مِنَ اللَّهِ غَالِيَةٌ فَجَاهِلْ﴾ أي: عليكم. قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيته به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام. ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَبِيبٍ﴾ أي: ذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فنى البقر، حينئذ: وهو مشوي شيئاً ناضجاً على الرضف، وهي الحجارة المخممة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد، وقتادة والضحاك، والسدي، وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَمْلِيَّةً يَمْجِلُ بِسِينٍ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿الذاريات: ٢٦، ٢٧﴾. وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة. وقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَبِيبٍ﴾ لا يصلح إليه نكروته، ﴿تَنكِرُهُمْ﴾، ﴿وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهمذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكروهم، ﴿وَأَرْجَسَ

يَتَمِّمُ خَيْفَةً ﴿٧٤﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيقوه، فلما راهم إبراهيم أجلمهم، ﴿فَرَأَى لَيْكَ أَهْلِهِمْ فَبَعَثَ يَجْعَلُ سِينًا ﴿٧٥﴾﴾، فذبحه ثم شواه في الرضف. فهو الحنيد حين شواه وأتاهم به فقعده معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود: «فلما قرب به إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشئ. قال فإن لهذا ثمناً. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمده على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذ به خليلاً»، ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيُّهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ﴿٧٦﴾﴾ يقول: فلما راهم لا يأكلون فرع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، حدثنا نوح بن قيس، عن عثمان بن مخصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فرغم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، ف قرب إليهم العجل، مسح جبريل بجانحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَابِلَةٌ فَصَحَّتْ ﴿٧٧﴾﴾ أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم. فضحكت سارة استبشاراً منها بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقال قتادة: ضحكت امرأته وعجبت من أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة فضحكت من ذلك وعجبت فيسرها بإسحاق. وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِهِمْ يَسْعَى ﴿٧٨﴾﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَصَحَّتْ ﴿٧٧﴾﴾ أي: حاضت. وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروح بإبراهيم - ضعيفان جداً، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ يَسْعَى ﴿٧٩﴾﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِسَيِّدِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِمَا وَاحِدًا وَنَحْنُ أَنْعَمُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٣] ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فيكف يومر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبينه، والله الحمد. ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا تَبْلَى سَيِّئًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٨١﴾﴾: حكي قولها في هذه الآية، كما حكي فعلها في الآية الأخرى، فلإنها ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴿٨٢﴾﴾، وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوا أَمْحَجَّيْنِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟ ﴿٨٤﴾﴾ أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزاً كبيرة عقيماً، وبعلك وهو زوجها الخليل عليه السلام، وإن كان شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ الَّذِينَ عَلَى عَيْتِكُمْ أَنْتُمْ حَيِّدٌ حَيْدٌ ﴿٨٥﴾﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحُ وَجَاءَهُ الْمَلَائِكَةُ يُبَسِّدُونَ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٨٦﴾﴾ إن إبراهيم كليم أواه شديد ﴿٨٧﴾ يكذبهم أعرض عن هذا إن قد جاء أمر ربك وإنيهم منيهم عذاب عير مژور ﴿٨٨﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروح، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد وطابت نفسه، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال عنه سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم إبراهيم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرايتمك إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لَوْطًا قَالَ نَحْنُ أَكْثَرُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴿٩٠﴾﴾ الآية

[العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه. وقال قتادة وغيره قريباً من هذا - زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿تَحْتِ أَعْلَمَ بَيْنَ فِتْيَانِ لَنْتَجِسَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَدِيمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٍ مُنِيبٌ﴾ (٧٥)، مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها في سورة براءة. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِيعٌ عَدَابِ عَذَابِ رَبِّكَ دُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي:

إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ يَوْمَ وَصَّاهُ يَوْمَ ذُرْبَانَ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ رَبَّاهُ قَوْمَهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَنَجَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَلَيْسَ لَكَ بِرَبِّكَ قَوْلٌ يَنْفَعُ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَافِيَةِ أَلْسِنِكُمْ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا مِن بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّىٰ وَرَأَيْتُمْ أَنَّهُ لَمَّا رُبِدْ ﴿٧٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فاتوا لوطاً، عليه السلام، وهو - على ما قيل - في أرض له يعمرها، وقيل: بل كان في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله واختباراً، وله الحكمة والحجة البالغة، فنزلوا عليه فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه، فبإلهم بسوء، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة ومحمد بن إسحاق، وغير واحد من الأئمة: شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع قومه عنهم، ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى رثيا والصغرى زغرتا، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم حتى آتيكم، وقرت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا أبتاه، أدركتني أنا على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال. فجاج بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجلاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاؤوا يهرعون إليه.

وقوله: ﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون في مشيتهم ويجمرون من فرحهم بذلك، وروي في هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقاتدة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة. وقوله: ﴿وَنَجَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَلَيْسَ لَكَ بِرَبِّكَ قَوْلٌ يَنْفَعُ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يرشدهم هذا من سجيبتهم إلى وقت آخر حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿قَالَ يَنْفَعُ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للامة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَتَلْبِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَسْأَلِكُمْ عَنِ الْمَتَلْبِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦، ٧٧]، أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [الحجر: ٧٦] لَمَّا كُنَّ لِي سَكْرَتِي لِي سَكْرَتِي يَمْتَهُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٦، ٧٧]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته. وكذا روي عن قتادة، وغير واحد. وقال ابن جرير: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبيرة: يعني نساءهم، هن بناته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾. وكذا روي عن الربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَافِيَةِ أَلْسِنِكُمْ﴾ أي: اقبلوا ما أمركم به من الاقتصاد على نساءكم، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: ليس منكم رجل فيه خير، يقبل ما أمر به، ويترك ما نهاه عنه؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا مِن بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّىٰ﴾ أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهين، ﴿وَأَلَيْسَ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وَأَلَيْسَ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ﴾: إنما تريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَةٌ أَوْ كَرِيٌّ شَدِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَلْبُوطُ إِنَّا رُئُسُ رَبِّكَ لَنَاصِرُونَ إِنَّكَ فَاكِرٌ بِأَهْلِكَ يَقِطِعُ مِنَ الْبَيْتِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ مِصْبَاتًا مَّا أَسْمَاهُمْ إِنَّ مُوْعِدَهُمُ النَّارُ فَاصْبِرْ إِلَىٰ صَبْرِكَ وَاصْبِرْ إِلَىٰ صَبْرِكَ﴾ [الحجر: ٨١].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَةٌ أَوْ كَرِيٌّ شَدِيدٌ﴾ أي: لكنت

نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله ﷻ - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه». وروي من حديث الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً ومن حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به، ومن حديث ابن لهيعة عن أبي يونس سمع أبا هريرة به وأرسله الحسن وقتادة. فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول لهم إليه ولا خلوص، ﴿قَالُوا يَلْبُوثُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَبِيلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أديارهم، أي: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْفَيْتُمْ مِنْكُمْ أُمَّدًا﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين كما أنتم. ﴿إِلَّا أَنْزَلْنَاكَ﴾: قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت، وهو قوله: ﴿فَأَنْزَرْنَا بِأَهْلِكَ﴾، تقديره: ﴿إِلَّا أَنْزَلْنَاكَ﴾. وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت، فوجب نصبه عندهم. وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلْفَيْتُمْ مِنْكُمْ أُمَّدًا﴾، فجوزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء وغيرهم من الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوحبة التفتت وقالت: واقوما! فجاءها حجر من السماء فقتلها. ثم تزوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ صَبِيِّهِ فَلَمَّسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَدَفَوْا عَلَيْهِمْ وَذَرَوْهُمُ سَبِيحَهُمْ بِكُورَةٍ عَدَاةٍ مُنْمَوِّرَةٍ ﴿٣٧﴾ فَذَفَوْا عَلَيْهِمْ وَذَرَوْهُ ﴿الفر: ٣٧ - ٣٩﴾.

وقال معمر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم، عليه السلام، يأتي قوم لوط، فيقول: أتهاكم الله أن تعرّضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله لمحل عذابهم وسطوات الرب بهم قال: انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يُعذّبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر والدواهي العظام، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرأ منهم. أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم من أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم، إن قومي أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومي أشر من خلق الله! أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرأ منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهب عجز السوء فصعدت فلوّحت بثوبها، فأتاها الفساق يُهرعون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضيّف لوطاً قوم، ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيّب ربحاً منهم. فهُرَعُوا يسارعون إلى الباب، فمالجهم لوط على الباب، فدافعه طويلاً، هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقام الملك فلزّ بالباب - يقول: فسد - واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه. ولجبريل جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبْكُ حُبْكُ مثل المرجان وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة. فقال: يا لوط: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَبِيلُوا إِلَيْكَ﴾، امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شلخ أعينهم، فصاروا عمياً لا يعرفون الطريق ولا يهتدون بيوتهم ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال: ﴿فَأَنْزَرْنَا بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ﴾. وروي عن محمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ تَنْشُورٍ ﴿٣٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ ﴿٣٨﴾﴾. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾، وهي قرينتهم العظيمة وهي سدوم ومعاملتها ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٣٧﴾ فَجَعَلْنَاهَا مَا غَتَّى ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] أي: أمطرتنا عليها حجارة من «سجّيل»، وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقال بعضهم: أي من «سنگ» وهو الحجر، و «كل» وهو الطين، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَابًا مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، وقال بعضهم: مطبوخة

قوية صلبة، وقال البخاري: «سجبل»: الشديد الكبير. سجبل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل:
 وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجْبِينَا
 وقوله: ﴿تَنْضُورٌ﴾: قال بعضهم: منضودة في السماء، أي: معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿تَنْضُورٌ﴾ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم. وقوله: ﴿شُؤْمَةٌ﴾ أي: مُغْلَمَةٌ مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. وقال قتادة وعكرمة: ﴿شُؤْمَةٌ﴾ أي: مُطَوَّقَةٌ، بها نَضْحٌ من حُمْرَةٍ. وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، فاتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سزجهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفاهم وقال: وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شذائنها. وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم أتبع شذاذ القوم سُخْرًا. قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف - وفي رواية: كانوا ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم. قال: وبلغنا أن إبراهيم، عليه السلام، كان يشرف على سدوم، ويقول: سدوم، يوم، مآلك؟. وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتصف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمَدَمَ بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجبل. وقال محمد بن كعب القُرَظِي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهي العظمى، و«صعبة» و«صعوة» و«عشرة»، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نايحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجْبِيلٍ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقطلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَ الْكَلْبِ﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: في القرى حجارة من سجبل. هكذا قال السدي.

وقوله: ﴿وَمَا مِنَّ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبِيدُ﴾ أي: وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم، يبيد عنه. وقد ورد في الحديث المروي في السنن، عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللواط يقتل، سواء كان محصناً أو غير محصن، عملاً بهذا الحديث. وذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أنه يلقي من شاقق، ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.
 ﴿وَإِلَّا مَدِينٌ مَّا نَهَارُ شُعْبًا قَالَ يَنْتَوِي أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّكُمْ مِّنْ عِندِ رَبِّكُمْ لَنَاكُتٌ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين - وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعبياً، وكان من أشرفهم نسباً. ولهذا قال: ﴿أَنَاهُرُ شُعْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنَّكُمْ مِّنْ عِندِ رَبِّكُمْ لَنَاكُتٌ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله، ﴿وَإِنَّا لَنَافُكُتٌ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾ أي: في الدار الآخرة.
 ﴿وَيَنْتَوِي أَوْثُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ تَسْبَاةً هُمْ وَلَا تَحْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ﴾ ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله خير

لكم. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و «البقية» في الرحمة. وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَيِّنْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الريح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي: من أخذ أموال الناس قال: وقد روي هذا عن ابن عباس. قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمِصْرِطٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله ﷻ. لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله ﷻ.

﴿قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَقَعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيدُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧). يقولون له على سبيل التهكم، قبحهم الله: ﴿أَمْوَالُنَا﴾، قال الأعمش: أي: قرآنك، ﴿تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَنْ نَقَعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي﴾، فترك التطفيف على قولك، هي أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: ﴿أَمْوَالُنَا تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: إي والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم. وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ نَقَعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي﴾: يعنون الزكاة. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيدُ الرَّشِيدُ﴾: قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جُرَيْج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فعل.

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ رَبِّي إِذْ يَنْشُرُ مِنْ كُنْهٍ عَلَى يَمِينِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ وَإِلاَّ الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَمْتُ وَمَا تَرْفَعِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨).

يقول لهم أرايتم يا قوم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينِهِ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أَدْعُو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين. وقال الثوري: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فافعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾، يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبته، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَمْتُ﴾ أي: فيما أمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَرْفَعِي﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قُرَّة سُوَيْد بن حَجِير الباهلي، عن حكيم بن معاوية عن أبيه: أن أخاه مالكا قال: يا معاوية، إن محمداً أخذ جبراني، فانطلق إليه، فإنه قد كلمك وعرفك، فانطلقت معه فقال: دع لي جبراني، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه. فقام مَتَمَطًا، فقال: أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك تأمر بالامر وتخالف إلى غيره. وجعلت أجزه وهو يتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك، إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالامر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أَوْ قَدْ قَالُوا - أَوْ قَاتَلَهُمْ - ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا علي، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه». وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تَهْمَةٍ فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جبرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أَوْ قَدْ قَالُوا - أَوْ قَاتَلَهُمْ - والله لو فعلت لكان علي وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه».

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكروه قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدهم منه». هذا إسناد صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم، افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل: اللهم، إني أسألك من فضلك». ومعناه - والله أعلم - : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدهم منه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾. وقال قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُزْني، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق، أن امرأة جاءت ابن مسعود قالت: أنتهى عن الواصلة؟ قال: نعم. فقالت المرأة: فلعله في بعض نساءك؟ فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾. وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي قال:

كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

﴿وَيَتَقَوَّرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَنْ يَسْعَىٰ ۗ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾

يقول لهم: ﴿وَيَتَقَوَّرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النعمة والعذاب. قال قتادة: ﴿وَيَتَقَوَّرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي. وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غنينة، حدثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلي الكندي قال: كنت مع مولاي أمسك دابته، وقد أحاط الناس بعشمان بن عفان؛ إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿وَيَتَقَوَّرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، يا قوم، لا تقتلونني، إنكم إن تقتلونني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه. وقوله: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَنْ يَسْعَىٰ﴾، قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَنْ يَسْعَىٰ﴾ يعني: إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَأَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾، أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ دُونُ﴾ أي: لمن تاب وأتاب.

﴿قَالُوا يَسْعَىٰ مَا نَفَعَهُ كَيْفًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا نَظُنُّكَ لِرَجْمِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قال يَتَقَوَّرُوا أَرَهَطِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَأَعْتَدْتُمُوهُ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩١﴾

يقولون: ﴿يَسْعَىٰ مَا نَفَعَهُ كَيْفًا مِمَّا نَقُولُ﴾ أي: ما نفهم ولا نعقل كثيراً من قولك، وفي آذاننا وفر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. قال سعيد بن جبیر، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خطيب الأنبياء. وقال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد. وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فأنت ذليل ضعيف. ﴿وَلَا نَظُنُّكَ لِرَجْمِكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببتك، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك عندنا معزة. ﴿قَالَ يَتَقَوَّرُوا أَرَهَطِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ بَيْنَ اللَّهِ﴾: يقول: أنتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظماً لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَأَيْتُمْ ظَهْرًا﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيك بها.

﴿وَيَتَقَوَّرُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَسِيلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّجْزِيٌّ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا شُعَيْبًا وَآلِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي دِينِهِمْ حَبِيبٌ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا آيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ لِّمَن يَدَّبْطَحُ بِطَبْعِهِ﴾ ﴿٩٤﴾

لما ينس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد شديد، ﴿إِنِّي عَسِيلٌ﴾، على طريقتي ومنهجي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّجْزِيٌّ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم، ﴿وَأَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا شُعَيْبًا وَآلِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم قومه، ﴿الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي دِينِهِمْ حَبِيبٌ﴾، وقوله: ﴿حَبِيبٌ﴾ أي: هامدين لا جراك بهم. وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُحْرَجَنَّكَ يَسْعَىٰ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أسأوا الأدب في مقالاتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغربية الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً. وقوله: ﴿كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا آيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ﴾، أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَنَيْنِ كَمَا بَعْدَ ثَمُودَ﴾، وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً شبيهاً بهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَوْهَُا أُتْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أُمِرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ بِقَدْمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسِّرَ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ ﴿٩٨﴾ وَأَتَيْتَهُمْ فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسِّرُ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته وبياناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿فَأَتَوْهَُا أُتْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلحه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال، ﴿وَمَا أُمِرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مقدّمهم ورئيسهم، كذلك هو مقدّمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رذاها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ فِرْعَوْنُ الَّذِي كَفَرَ فَأَخَذْنَاهُ كَأَنزَالِ الْوُرْدِ ﴿١٠١﴾ وَالْمَنْعَمِ ﴿١٠٢﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ أَذْرَبَ بِعَبْنَ ﴿١٠٤﴾ فَجَسَّرْنَا نَادِي ﴿١٠٥﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿١٠٦﴾ فَلَعَنَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَجْرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٠٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ٢١-٢٦]، وقال تعالى: ﴿بِقَدْمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسِّرَ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ ﴿٩٨﴾﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مؤفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ نَجْمٍ صِغْفٌ وَلَكِنْ لَا تَهْلِكُونَ ﴿٣٨﴾﴾، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْصَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَهُنَّ فَاصْبِرْنَا لِحُكْمِ رَبِّنَا فَأَصْلِحْ لَنَا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَمِينٌ صِغْفٍ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّهْمِ لَنَا كَبِيرًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْنٌ، حدثنا أبو الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرو القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار».

وقوله: ﴿وَأَتَيْتَهُمْ فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسِّرُ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسِّرُ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَسِّرُ الْوُرْدَ الْمَرْوُودَ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقائدة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَعَنَتُهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩١﴾ وَأَتَيْتَهُمْ فِي هَٰذِهِ آذَانًا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا تَرَىٰ بُعْرَثُوهَا عَذَابًا وَعَجِيبًا وَيَوْمَ يَقُومُ النَّارُ أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشدَّ الْعَذَابِ ﴿٩٣﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَفْضُهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿٩٤﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا نَّيِّبٍ ﴿٩٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ﴾ أي: من أخبارها ﴿نَفْضُهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِدٌ﴾ أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك دائر، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا نَّيِّبٍ﴾. قال مجاهد، وقائدة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فلهاذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِن يَدَيْهِ ظِلْمَةً إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا أَوْلَادَكَ الْقُرُونِ الظَّالِمَةِ الْمَكْذِبَةِ لِرَسُولِنَا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِظَنَائِرِهِمْ وَأَشْيَابِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ﴾، ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِن يَدَيْهِ ظِلْمَةً إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿٩٧﴾ وَمَا يُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿٩٨﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ سِقَافٌ وَسَعِيدٌ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿آيَةً﴾ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٩٥﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴿١٢﴾ الْمُسَكِّنَاتِ الْأَرْضِ مِن بَدِينِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَابِي وَتَآفَىٰ وَعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَمَحْشَرَهُمْ فَلَمَّ تُقَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الحجف: ٤٧]. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور

والوحوش والدواب، ويحكم فيهم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها. وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَاتِهَا﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد يومئذ إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّمْنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ الْبَاقِيَاتُ الدَّاعِيَاتُ لَا عُوجَ لَهُمْ وَخَسَمَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم». وقوله: ﴿فَيَنْهَرُ شَقِيًّا وَسَجِيدًا﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقال المحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿فَيَنْهَرُ شَقِيًّا وَسَجِيدًا﴾، سألت النبي ﷺ، قلت: يا رسول الله، علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقاليم، ولكن كل ميسر لما خلق له». ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ رَبَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [النار: ١٦] ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ لَمَّا يُرِيدُ﴾. يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشَهِيْقٌ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك. ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمير، وما لآلات العفر بأذناها. يعنون بذلك كلمة: «أبداً»، فخطابهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ لَمَّا يُرِيدُ﴾، كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَوَدَّةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النار: ١٦]، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاهما الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير»، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحاك، وقتادة، وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على الغصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة. وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مجلز، والشعبي، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة - أقوال غريبة. وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير، عن أبي أمامة صُدِّي بن عجلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بشيئه. وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُّوا فَيُنَادُونَ رَبَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [النار: ١٦] ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَا غَيْرَ مَبْدُودٍ﴾. يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُّوا﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿فَيُنَادُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فماواهم الجنة، ﴿خَلِيلِكِ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مقيمين

فيها أبداً، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسيب والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدنين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ أي: غير مقطوع. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَالٌ لِمَا يَرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾. وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلّود فلا موت، ويا أهل النار، خلّود فلا موت». وفي الصحيحين أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهتموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعملوا فلا تباؤوا أبداً».

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا عَبَّدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ بَصِيحٌمٌ غَيْرَ مَنُوصٍ﴾ [١١٥] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [١١٦] ﴿وَأَنَّ كَلِمًا لَّمَّا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١٧].

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذب أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ بَصِيحٌمٌ غَيْرَ مَنُوصٍ﴾، قال: ما وعدوا فيه من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهمنك ذلك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لفضى الله بينهم. ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مَعَدِّينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكُنَّا لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [١١٦] ﴿فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠]. ثم أخبر أن الكافرين في شك - مما جاءهم به الرسول - قوي، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنَّ كَلِمًا لَّمَّا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١٧] ﴿أَي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها. وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كَلِمًا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ [١١٦] ﴿لَيْسَ: ٣٢﴾.

﴿فَأَنصَبْتُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ وَمِن قَابِ مَعَكُمْ وَلَا تَلْعَلُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٧] ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ شَرٌّ لَّا تُصْرَفُونَ﴾ [١١٨].

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد. ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء. وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تذهبوا. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم. وقال ابن جزي، عن ابن عباس: ولا تملوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتهم بباقي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ شَرٌّ لَّا تُصْرَفُونَ﴾: أي: ليس لكم من دونه من ولي يقدّمكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَنزِلُ السَّلْوةَ طَرَفًا لِّقَابِ رُؤُفًا مِّن أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَوِّبُنَّ الشَّرَّاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ الَّذِينَ لِلذَّكْوَاتِ﴾ [١١٩] ﴿وَأَصْبَرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْرَابَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٠].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الحسن - في رواية - وقناة، والضحاك، وغيرهم: هي الصبح والعصر. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، والضحاك في رواية عنه. وقوله: ﴿وَرُكْعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعني صلاة العشاء. وقال الحسن - في رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عنه: ﴿وَرُكْعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء، قال رسول الله ﷺ: «هما رُكْعَتَا اللَّيْلِ: المغرب والعشاء». وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقناة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، في قول، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ الْمَسْتَنَبِتِ يَدُهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلقتَه، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً، فيتوضأ ويصلي ركعتين، إلا غفر له». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسه، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه». وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبي عقيل زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مُدٍّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، من توضأ هذا وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات.

وفي الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرايتم لو أن بياض أحدكم نهراً غمراً يقتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا». وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قال: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدّث عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفَّرَاتُ ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». وقال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُصَمَ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، أن أبا رَهم السلمي كان يحدث: أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن النبي ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة». وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضَمُصَمَ بن زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن؛ فإن الله قال: ﴿إِنَّ الْمَسْتَنَبِتِ يَدُهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾». وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيْعَ، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَرُكْعًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْمَسْتَنَبِتِ يَدُهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير عن مُسَدَّدٍ، عن يزيد بن زُرَيْعَ، بنحوه. ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مَلٍّ، به.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير - وهذا لفظه - من طُرُقٍ: عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحدِّثُ عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجامعها، قَبَلْتُها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصَرَهَ ثم قال: «ردوه علي». فردوه عليه، فقرأ عليه: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَرُكْعًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْمَسْتَنَبِتِ يَدُهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾. فقال معاذ - وفي رواية عمر -: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة». وقال

الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مَرَّة الهَمْدَانِي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ولا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن معتب رجلاً من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت على امرأة فبئت منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أنني لم أجمعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ الْيَلِّ إِنَّ الْمَسْكِنَتِ يَدْهَيْنِ السَّتَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِي﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه. وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غزيفة الأنصاري التمار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر: كعب بن عمرو.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد - يعني: ابن سلمة - عن علي بن زيد، قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى عمر قال: امرأة جاءت تباعه، فأدخلتها الدولج، فأصبحت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مُغَيِّبَةٌ في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فأتت أبا بكر فأسأله. قال: فاتاه فسأله، فقال: لعلها مُغَيِّبَةٌ في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغَيِّبَةٌ في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ الْيَلِّ إِنَّ الْمَسْكِنَتِ يَدْهَيْنِ السَّتَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، إلي خاصة أم للناس عامة؟ ف ضرب - يعني: عمر - صدره بيده وقال: لا، ولا تُعَمِّمَ عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر». وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنني من أهل النار، حتى تمنيت أنني أسلمت ساعتئذ. فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: «أين أبو اليسر؟». فنجت، فقرأ علي: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ الْيَلِّ﴾ إلى ﴿ذِكْرِي لِلذَّكْرِي﴾، فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة». وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل؛ أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امراته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضاً وضوءاً حسناً، ثم قم فصل». قال: فأنزل الله ﷻ هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ الْيَلِّ﴾، فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة». ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة؛ أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدِير، فدفع في صدرها وجلس بين رجلها، فصار ذكره مثل الهذبة، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفر ربك، وصل أربع ركعات». قال: وتلا عليه: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ الْيَلِّ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أحمد بن شُبوِّيه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن سليم بن عامر؛ أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم في حد الله؟» قال: أنا ذا. قال: «أتتمت الوضوء وصليت معنا أنفاً؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ

وَرُفَعًا مِّنَ الْأَيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكَّورِ ﴿١١٦﴾ . وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاث ورقة، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها يابساً فهزه حتى تحاث ورقة، فقال: «يا سلمان، ألا تسألني: لم أفعل هذا؟». قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضع فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاثت خطاياهم كما يتحاث هذا الورق. وقال: ﴿وَأَوْرَثَ الْكَلْبَةَ طَرَفَى الْبَهْرِ وَرُفَعًا مِّنَ الْأَيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكَّورِ ﴿١١٦﴾﴾» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وقال الإمام أحمد، رضي الله عنه: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شمر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات». وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجعاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عَبْدٌ: لا إله إلا الله، في ساعة من ليل أو نهار، إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات». عثمان بن عبد الرحمن، يقال له: الواقسي. فيه ضعف. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أكرم قالوا: حدثنا الضحاک بن مَخْلَد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجة ولا داجة، فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟». قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتي على ذلك». تفرد به من هذا الوجه مستور.

﴿فَتَوَلَّوْا كَانٍ مِنَ الْفُرُونَ مِنْ قَلْبِكُمْ أَوْلَا يَبْتَوُونَ عَنِ النَّسَاءِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنُوا وَهُمْ رَأْسُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِمْ وَكَانُوا تَجْمِيرِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يهتدون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيِّره، وفجأة يقمعه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَىٰكُمْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَهُمْ يُرْمَوْنَ بِالْكُفْرِ وَهُمْ يُعْتَبُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَوَّلَتْكُمْ هُمُ الْمُصَلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا كَانٍ مِنَ الْفُرُونَ مِنْ قَلْبِكُمْ أَوْلَا يَبْتَوُونَ عَنِ النَّسَاءِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنُوا وَهُمْ رَأْسُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِمْ﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجاهم العذاب، ﴿وَكَانُوا تَجْمِيرِينَ﴾ . ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [مرد: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَيْمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤٩]. وقوله: ﴿وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: ﴿مَخْتَلِفِينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مَخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق، يُسَخَّر بعضهم بعضاً، والمشهور الصحيح الأول. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضاً: «إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افرقتوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟

قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدرکه بهذه الزيادة. وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: الحنيفية. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللأختلاف خلقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيحٌ وَسَمِيدٌ﴾ [هود: ٢١٠]. وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثر، فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتدة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والأختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة، والفراء. وعن مالك فيما رواه عنه في التفسير: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿رَتَمَتْ كَلِمَةً رَبُّكَ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعةُ الناس وسقطهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمكثربين والمتجبرين. فقال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشأ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قَطُّ قَطُّ، وعزتك».

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَرْعِطَةٌ وَذِكْرُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٢١].

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين - كل هذا مما ثبت به فؤادك - يا محمد - أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن - في رواية عنه - وقاتدة: في هذه الدنيا. والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجَّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصٌ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون.

﴿رَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [١٢٢] ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [١٢٣].

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أي: على طريقتم ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أي: فستعملون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢٤].

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأتاب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة،

وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود» والله أعلم.

تم تفسير سورة هود



تفسير سورة يوسف

وهي مكية. روى الثعلبي وغيره، من طريق سلام بن سلم - ويقال: سليم - المدائني، وهو متروك، عن هارون بن كثير - وقد نص على جهالته أبو حاتم - عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقامكم سورة يوسف، فإنما أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما ملكت يمينه، هُوَنَ الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلماً». وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به - ومن طريق شَبَابَة، عن مخلد بن عبد الواحد البصري، عن علي بن جدعان - وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حُبَيْش، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ - فذكر نحوه. وهو منكر من سائر طرقه. وروى البيهقي في «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يفسح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن. وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو - هو ابن قيس الملائي - عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلًا. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن سعيد العطار، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلَادُ الصَّفَارِ، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد عن سعد بن سعيد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ثم تلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث. ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن إهويه، عن عمرو بن محمد القرشي العنقري، به. وروى ابن جرير بسنده، عن المسعودي، عن عَوْنِ بن عبد الله قال: مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا. فأنزل الله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ﴾، ثم مَلَّوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾، فأرادوا الحديث، فدُلِّمَهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْجُ بن النعمان، أخبرنا هُشَيْمُ، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهم كون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي

نفسي بيده، لقد جتتكم بها بيضاء نفية، لا تسألوه من شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو يباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً، لما وسعه إلا أن يتبعني». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مرت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم، إنكم حطّي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْفُطَةَ قال: كنت جالساً عند عمر، إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الرَّأْيَ تَلَكَّ آيَاتُ الْكِتَابِ الْيُسُفِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا كَانَتْ ثَلَاثًا، وَضُرِبَ ثَلَاثًا، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَسَخْتَ كِتَابَ دَانِيالَ! قَالَ: مَرِنِي بِأَمْرِكَ أَتْبِعُهُ. قَالَ: انْطَلِقْ فَاْمَحْهُ بِالْحَمِيمِ وَالصَّوْفَ الْأَبْيَضَ، ثُمَّ لَا تَقْرَأْهُ وَلَا تُقْرَأْهُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، فَلَنْ يَبْلُغَنِي عَنْكَ أَنْكَ قَرَأْتَهُ أَوْ أَقْرَأْتَهُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لِأَنَّكَ كَتَبْتَ عَقُوبَةَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اجلس، فجلس بين يديه فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداده به علماً إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نفية فلا تهوؤكوا، ولا يفرنكم المتهوؤكون». قال عمر: فقمعت فقلت: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً. ثم نزل رسول الله ﷺ. وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبَةَ الواسطي، وقد ضعفه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه. قلت: وقد روي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَيْرَ بن نُفَيْرٍ حَدَّثَهُمْ: أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر، رضي الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اکتبا من اليهود صلاصة فأخذها معها يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضينا لنا أمير المؤمنين ازدنا فيها رغبة، وإن نهانا عنها رفضناها. فلما قدما عليه قال: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاماً تشعر منه جلودنا، أفناخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً. قال: لا. قال: سأحدثكما، انطلقت في حياة رسول الله ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هل أنت مكتبي ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يملئ علي، حتى كتبت في الأكرع. فلما رجعت قلت: يا نبي الله، وأخبرته، قال: «أنتني به». فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون أتيت رسول الله ﷺ ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ علي». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلون، فتحيرت من الفرق، فما استطعت أجز منه حرفاً، فلما رأى الذي بي دفعه، ثم جعل يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوكوا وتهوؤكوا»، حتى محا آخره حرفاً حرفاً. قال عمر، رضي الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالاً لهذه الأمة! قال: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجا بصلاصفتهما، فحفر لها فلم يألوا أن يعمّقا، ودفناها فكان آخر العهد منها. وكذا روى الثوري، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث أبي قلابَةَ، عن عمر نحوه. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدًا ۝﴾

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». انفرد بإخراجه البخاري، فرواه

عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به. وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاهُمْ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله.

وقال ابن عباس: روي الأبناء وحى. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. روي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: «وَعَزَّوَالَهُ لَمْ سَجْدًا وَقَالَ يَتَّابِتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» [يوسف: ١٠٠]. وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً - فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودي»، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان، والطارق، والذئبال، وذو الكتفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمضبخ، والضروح، وذو الفرج، والضياء، والثور»، فقال اليهودي: إني والله، إنها لأسماؤها. ورواه البيهقي في «الدلائل»، من حديث سعيد بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف فقصها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر منتشر يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه». تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري، وقد صغفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحب حديث حسن يوسف.

﴿قَالَ بَيْتَى لَا تَقْضُ رُبَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فخشي يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أجداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الفوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْضُ رُبَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يزدونك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يجب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليبتل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرَتْ وقعت». ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهَبُ رَبُّكَ وَيَمْلِكُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِّرُ يَمَتِّعُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَىٰ آبَائِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿وَكَذَلِكَ يَجْهَبُ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَيَمْلِكُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا. ﴿وَيُسِّرُ يَمَتِّعُ عَلَيْكَ﴾ أي: يبرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَىٰ آبَائِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرَجِيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الْبَالِغِينَ ﴿٧﴾﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحْمَقٌ مِنَ الْآيَاتِ مِمَّا وَجَّعْنَاهُ مِنْهُ إِنَّ آيَاتَنَا لَكُنْ لِي سَكَلًا تِيْنًا ﴿٨﴾ أَفْتَلَوْا يُوسُفَ أَوْ امْرَأَتَهُ أَرْسُلْنَا بِحُلٍّ لَكُمْ وَجَعْنَا أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ

يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرة ومواعظ للساثلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه. ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَابْنَ أُمَّةٍ﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؛ ﴿إِنْ أَبَانَا لَيْ سَلَكُنَّ سُبُلَيْنِ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبتة إياهما أكثر منا. واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكره سوى قوله تعالى: ﴿فَوَلَوْ كُنَّا إِلهًا مَا كُنَّا نَمُنُّ بِأَخِيكُمْ وَبِأَخِيكُمْ وَبِأَخِيكُمْ وَبِأَخِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿أَتَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ نَارُخُوهُ أَرْضًا بَعْلًا لَكُمْ وَعَهُ أَيْكُمُ﴾: يقولون: هذا الذي يراحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي - تستريحوا منه، وتختلوا انتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمرنا التوبة قبل الذنب. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبييل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصر فهم الله عنه بمقالة روبييل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس. ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه، ورفقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُهَيَّبُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير روبييل، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَأْتَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُهَيَّبُونَ﴾، وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي: ابعثه معنا. ﴿غدا نرتع ونلعب﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾. قال ابن عباس: يسمى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسدي، وغيرهم. ﴿وَإِنَّا لَمُهَيَّبُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يشق علي مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لقرظ محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم وزغيتكم فبأنه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَيْرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْبَيْتِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ لَتَنِتَّهَرُ بِأَرْسَالِنَا وَمَنْ لَّا يَشْعُرْ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْبَيْتِ﴾، هذا فيه تعظيم

لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذه من عند أبيه فيما يُظهِرُونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدرة، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبَّله ودعا له. قال السدي وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرَبَ ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة»، فقام فوقها. قال الله تعالى: ﴿وَأَرْحَبْنَا آيَاتِنَا لِلَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ذكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجاتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ - قال مجاهد وقناة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: سنبئهم بصنيعهم هذا في حقل، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جئني بالصواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يذنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب - قال: ثم نقره فطن - فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب - قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿لَتُنَبِّئَهُمْ بِآثَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا تَوْأَمَتُهُمْ شِئَاءٌ يَكُونُ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَوَكَّعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا فَكَلَّمَهُ الْذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى، ﴿وَوَكَّعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ﴾، وهو الذي كان قد جزع منه، وحذر عليه. وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يَحَاوِلُونَهُ، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابية ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا. ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخَلَةٍ - فيما ذكره مجاهد، والسدي، وغير واحد - فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال. وقال الثوري، عن سِمَاك، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبي، والحسن، وقناة، وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه. وروى هُشَيْمٌ، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حَيَّان بن أبي جبَّلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبر لا شكوى فيه» وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق: قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. وذكر البخاري ههنا حديث عائشة، رضي الله عنها، في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وَكَلَّمَ سَيِّدَهُ فَأَرْسَلَهُ وَارْتَدَّتْ رَأْسَهُ فَأَدْبَرَ وَارْتَدَّتْ رَأْسُهُ فَبَلَغَهُ هَذَا عِلْمُهُ وَأَسْرَهُ يَضَعُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَمًا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وَسَرَّوهُ بِعَسَبٍ يَخْفَى مِنْهُمْ مَقَدُّوهُ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش. وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما

يصنع وما يُصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تثبت يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمًا﴾. وقرأ بعض القراء: ﴿يَا بَشْرَى﴾، فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً أنه أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يُسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبري»، و «يا غلامِ أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿يَبْشُرِي﴾، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةً﴾ يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمًا﴾، يباع، فباعه إخوته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَسْمُوكَ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتره، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة. والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ يَحْضًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سأله بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائذ على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائذ على السيارة. والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الرَّاهِدِينَ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجع من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لأخوته. وقيل: المراد بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾: الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهماً، وكذا قال ابن عباس، وثؤف البكالي، والسدي، وقاتدة، وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً. وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله ﷻ. وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوتقوا منه لا يأتى حتى وقوه بمصر، فقال: من يبتاعني وليشتر؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْمِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى بالطهارة بيوسف، عليه السلام، أنه قبض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. قال العوفي، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير. وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعايل. وقال غيره: اسمها زليخا. وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك ابن دعر بن بويب بن عتقا بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ يَسْتَفْرِضْ إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا رَبُّكَ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا

يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: فعال لما يشاء. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وتلفه لما يريد.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَهْلِي﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشَدَّهُ﴾ أي: استكمل عقله، وتم خلقه. ﴿وَأَيَّتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى. وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَائِي هُورَفِ بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمِينَ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَائِي هُورَفِ بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبتة حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقبله بالفاحشة في أهله، ﴿إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقد اختلف القراء في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زب بن حبش، وعكرمة، والحسن وقتادة. قال عمرو بن عبَّيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسرانية، أي: عليك. وقال السدي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها. وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هلم لك بالخوزانية. هكذا ذكر معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن سُهَيْل الواسطي، حدثنا قُرَّة بن قيسي، حدثنا النضر بن عربي الجزي، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هي بالخورانية. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة - يعني: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ - ويقول: هي لغة لأهل خوزان، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها. واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه:

أَبْلَغُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا السَّمِيعِ إِذَا أَتَيْتَنَا
إِنَّ السَّمِيعَ وَأَفْرَاقَهُ عُثِقُوا إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَنَا

يقول: فتعال واقترب.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هتت للأمر أهي هَيْتَةً، وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق: ﴿هَيْتَ﴾، بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غريبة. وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء، وضم التاء، وأشد قول الشاعر:

لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْسَدِينَ إِذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْقَشِيرَةِ: هَيْتَ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القراءة فسمعتهم متقاربين، فاقروا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و «تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤونها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؟ فقال عبد الله: إني أقرأها كما علمت، أحب إلي. وقال ابن جرير: حدثني ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؟ فقال: دعوني، فإني أقرأ كما أقرئت، أحب إلي. وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا بهمز. وقال آخرون: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «هيت» لا تنثى ولا تجمع ولا تؤنث، بل

يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لِكَمَا، وهَيْتَ لَكُمْ، وهَيْتَ لَهِنَ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ يَهْرَأُ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَّمَهُ﴾ (٢٤).

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف في ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم. وقال بعضهم: المراد بهم بما همَّ بخطر حديث النفس. حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكْتُبها له حسنة، فإن عملها فاكْتُبها له بعشر أمثالها، وإن همَّ بسيسة فلم يعملها فاكْتُبها حسنة، فإنما تركها من جزائي، فإن عملها فاكْتُبها بمثلها». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة، هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنأها زوجة. وقيل: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَّمَهُ﴾ أي: فلم يهم بها. وفي هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبي صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاصباً على أصبعه بضمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي، عن ابن عباس: رأى خيال الملك، يعني: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢). وكذا رواه أبو مَعْمَرٍ المدني، عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر قال: سمعت القرظي يقول في: «البرهان» الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَظِيمًا﴾ (١٧) الآية [الانتظار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الزمر: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. قال: وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ عَنْهُ الشُّؤْمَ وَالْفَحِشَةَ﴾ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ﴾ أي: المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَأَسْتَفْتَا الْبَابَ فَأُبْجِئَ مِنْ دُونِهِ فَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ لَكَ مِنْ دُونِنِي مَنْ نَسِيَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ دُونِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ دُونِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَعْرَضَ لِذُنُوبِكُمْ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْغَاطِيينَ﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه ففقدته قدأ قطعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: فاحشة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ لَكَ مِنْ دُونِنِي مَنْ نَسِيَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارأ صادقا: ﴿هُوَ زَوَّدَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قدامه، ﴿فَصَدَّقَتْ﴾ أي: في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت. ﴿وَإِنْ كَانَ قَيْصِمُهُ قَدْ مِنْ دُونِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧)، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه. وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سيمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال: ذو لحية. وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلاً. وقال زيد بن أسلم، والسدي: كان ابن عمها. وقال ابن عباس: كان من

خاصة الملك . وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد .

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿رَوَيْدٌ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: كان صبياً في المهدي . وكذا زوي عن أبي هريرة، وهلال بن يساف، والحسن، وسعيد بن جبيرة والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار . واختاره ابن جرير . وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف . ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُزَيْج، وعيسى ابن مريم . وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسياً . وهذا قول غريب . وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَبِيضَهُ قَدْ بِيْنَ دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ﴾ أي: إن هذا البهت واللُطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدك، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ . ثم قال امرأ ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ اعْرِضْ عَن هَذَا﴾ أي: اضرب عن هذا الأمر صفحاً، فلا تذكره لأحد، ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ﴾، يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلاً، وأنه أذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ﴾ أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْفَاطِيِنِ﴾ .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّيْنَ فَلَمَّا رَأَتْهُنَّ أَكْرَهْتُهُنَّ وَوَقَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَلَا تَنصَرِحَ لَهُ بِنِفْسِهِ لِكَيْ تَلْجَأَ إِلَىٰ إِلَهِهِ وَيَأْتِيَهُ مِنَ الْبَشَرِ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً وَمِمَّا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ اللَّاعِنِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمُ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، ينكرون على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعين ذلك عليها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها . وهو غلافه . قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَفُ: الحب القاتل، والشَّغَفُ دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب . ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ضيعها هذا من حبا فتاها، ومرادوتها إياه عن نفسه . ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن . وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفنهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ . قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه . ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّيْنَ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَتْهُ أَكْرَهْتُهُ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهْشاً برؤيته، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد: أنهم حزرن أيديهن بها، قاله غير واحد . وعن مجاهد، وفتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم . وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وأتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم . فبعثت إليه تأمره أن أخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، وهن يحزرن في أيديهن، فلما أحسنن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلنن هكذا، فكيف الأم أنا؟ فقلن حاش الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريباً منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم، كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، في السماء الثالثة، قال: «إفذا هو قد أعطي شطر الحسن» . وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن» . وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن . وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به . ورواه الحسن البصري مرسلأ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حسن

أهل الدنيا، وأعطي الناس الثلاثين - أو قال: أعطي يوسف وأمه الثلاثين والناس الثلث». وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجُرشي قال: قسم الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق. وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه. فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَسَنٌ يَدُّهُ﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي: بمشترى. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله. ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَعْتِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد: ﴿وَلَكِنْ لَمْ نَفْعَلْ مَا ءَامُرُ لِيَسْتَجَنَّ وَلِكِنَّا مِنَّا الصَّغِيرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة، ﴿وَالإِلَّا نَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي. ﴿أَصْبُ إِلَيْنَّ وَأَكُنْ مِنَّا لِنَهَيْنَا فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ﴾، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إنني أخاف الله».

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَمْ يَنْبَغِ مَا رَأَى الْأَيَّاتِ لِيَسْتَجَنَّهُ حَتَّى جِيءَ بِهِ﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رآوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات - وهي الأدلة - على صدقه في عفته ونزاهته. فكانهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو تقى العرض، صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لثلاث يشع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَعَلَ مَعَهُ أَلَيْسَ نَبِيًّا قَالَ أَعْدَهُمَا إِلَيَّ أَرَأَيْتَ أَصْعُرُ حَمْرًا وَقَالَ الْأَخْرَجُ إِلَيَّ أَرَأَيْتَ أَحْوَلُ فَوْقَ رَأْسِي حَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنِّي نَبِيًّا وَيَأْوِلُهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه. قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث». قال السدي: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالأ على سمه في طعامه وشرابه. وكان يوسف، عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجدود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمات وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة مرضاهم والقيام بحقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تألفا به وأحباها حباً شديداً، وقالاه: والله لقد أحبيناك حباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر، أحببني عمتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببها، وأحببني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى أنه يعصر خمراً - يعني عنباً - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُ أَعَصْرُ عُنْبًا﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: ﴿أعصر عنباً﴾. وقال الضحاک في قوله: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُ أَعَصْرُ حَمْرًا﴾ يعني: عنباً. قال: وأهل عمان يسمون العنب خمراً. وقال عكرمة: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حَبْلَةً من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمراً. وقال الآخر - وهو الخباز -: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُ أَحْوَلُ فَوْقَ رَأْسِي حَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنِّي نَبِيًّا وَيَأْوِلُهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم،

عن عبد الله قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماً ليحربا عليه.

﴿قَالَ لَا يَايُكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَايُكُمَا ذَلِكَ مَا عَلِمْتُمَا رَبِّيَ إِلَيَّ تَرْتَكِبُ مَلَّةً قَوْمِي لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُ مَلَّةً مَائِدَاتِهِ إِتْرَاهِيهِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما مهما رأيا في نومهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَايُكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَايُكُمَا﴾. قال مجاهد: يقول: ﴿لَا يَايُكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ في نومكما، ﴿إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَايُكُمَا﴾، وكذا قال السدي. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد بن يزيد - شيخ له - حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأنني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَايُكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلواً أو مرأاً اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم. وهذا أثر غريب. ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد. ﴿وَأَتَيْتُ مَلَّةً مَائِدَاتِهِ إِتْرَاهِيهِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد - وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿يَدُلُّوا بِقَمَتِ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعْلَوُا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله فمن شاء لاعناه عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى - يعني إخباراً عن يوسف: ﴿وَأَتَيْتُ مَلَّةً مَائِدَاتِهِ إِتْرَاهِيهِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَصْجِي السَّجْنِ مَائِدَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الَّذِي أَلْفَهَارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَتَشِئْتُمْهَا أَشْتَرًا وَابْتَئْتُمْ مَا أُنزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم إن يوسف، عليه السلام، أقبل على الفتيتين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلق ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿مَائِدَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الَّذِي أَلْفَهَارُ﴾ أي: الذي ولي كل شيء بجز جلاله، وعظمة سلطانه. ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويستمنونها آلهة، إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَا أُنزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة ولا برهان. ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده فأطبعوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾﴾ يوسف: ٤١٠٣. وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرّف أنها غزاة لأحدهما، فأحب أن يشغلها بغير ذلك، لثلا يعاودوه فيها، فعادوه، فأعاد عليهم المعرظة. وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه قد وعدّهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُضلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال: ﴿يَصْجِي السَّجْنِ أَمَا أَعَدُّكُمْ فَيَسِّي رَبِّي حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الْفَطِيرُ مِنْ رَأْيِهِ. فَضَى الْأَمْرُ لِلَّهِ فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول لهما: ﴿يَصْجِي السَّجْنِ أَمَا أَعَدُّكُمْ فَيَسِّي رَبِّي حَمْرًا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لثلا يحزن ذلك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الْفَطِيرُ مِنْ رَأْيِهِ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ. وقال الثوري، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قال ما قال، وأخبرهما، قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿فَضَى الثَّوْرِي، عَنِ عِمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ عَنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَأَخْبَرَهُمَا، قَالَ: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا. فَقَالَ: ﴿فَضَى

الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٢﴾. ورواه محمد بن فضيل، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلّم باطل وفسره، فإنه يلزم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حنيفة، عن النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت». وفي مسند أبي يعلى، من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عابر».

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَيْبَهُ فَوَلَّى فِي التَّجْوِيفِ يَضَعُ سِنَّيْنِ ﴿٤٣﴾﴾.

لما ظن يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما - وهو الساقى - قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتي عند ربك - وهو الملك - فسي ذلك الموصى أن يُذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلا يطلع نبي الله من السجن. هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَيْبَهُ﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضاً، وعكرمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ههنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني: يوسف - الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يتبغي الفرج من عند غير الله». وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد - هو الخواري - أضعف منه أيضاً. وقد زوي عن الحسن وقتادة مرسلان عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم. وأما «الضعف»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مثنبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً ويوسف في السجن سبعاً، وعذاب بختنصر سبعاً. وقال الضحاک، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: فلبث في السجن بضع سنين قال: ثنتا عشرة سنة. وقال الضحاک: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ النَّيْلِكُ إِنَّكَ أَخِي سَمِعَ بِفَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُمْ سَمْعٌ عِجَافٌ وَسَمِعَ سُبُلَيْدِي خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَتِي يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا مَعْرِفُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قَالَوَا أَشْنَدْتَ أَعْلِيَّ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَعْلَمِ بِعَلِيٍّ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِمَّا وَبَّيْنَا وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٦﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَا فِي سَمْعِ بِفَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُمْ سَمْعٌ عِجَافٌ وَسَمِعَ سُبُلَيْدِي خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَتِي لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا مَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن مُعزّزاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والخزاة وكبراء دولته وأمرائه وقصص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَشْنَدْتَ أَعْلِيَّ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَعْلَمِ بِعَلِيٍّ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تذكّر ذلك الذي نجا من ذنك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة - وقرأ بعضهم: ﴿بعد أمة﴾ أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أُنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا. فجاء. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَا﴾، وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي سُتغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضرة، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿مَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما استغلتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُخَل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السمان؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهم لا يبنين شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْمِلُونَّ﴾. ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل

فيه حلب اللبن أيضاً. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ بَعَصْرٌ﴾: يحلبون.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا مَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُمْ إِنْ رَبِّي يَكْفِيهِمْ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدُّنَاكَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ. قُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُزِيئُ نَفْسِي إِذْ النَّفْسُ لِأَمَارَةٍ بِالنَّوَى إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣).

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من يبده من رعاياه، فقال: ﴿أَتَأْتُونِي بِهَذَا﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُمْ إِنْ رَبِّي يَكْفِيهِمْ عَلِيمٌ﴾. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحاحين من حديث الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أُرَبِّي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُمْ إِنْ رَبِّي يَكْفِيهِمْ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر». وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عبيثة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئِلَ عن البقرات العجاف والسَّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشرط أن يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدُّنَاكَ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن - وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز -: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَوَدُّنَاكَ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف مثهما، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك: ﴿قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَّ حَصَصَ الْحَقُّ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول: الآن تبين الحق وظهر وبرز. ﴿أَنَا رَوَدُّنَاكَ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هُوَ رَوَدُّنَاكَ عَن نَّفْسِهِ﴾. ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ ولهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ وَمَا أُزِيئُ نَفْسِي﴾، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتمتنى؛ ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الآيتين أي: إنما رَدَدْتُكَ الرَّسُولَ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ بَرَاءَتِي وَلِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ ﴿أَنَّ لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ وَمَا أُزِيئُ نَفْسِي إِذْ النَّفْسُ لِأَمَارَةٍ بِالنَّوَى﴾ الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سَمَاك، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ (٥١)، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿وَمَا أُزِيئُ نَفْسِي إِذْ النَّفْسُ لِأَمَارَةٍ بِالنَّوَى﴾. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبّير، وعكرمة، وابن أبي الهذيل، والضحاك، والحسن، وقَتَادَةَ، والسُّدِّي. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا مَا كَلَّمْتُكَ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ أَجْمَلِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْكَ﴾ (٥٥).

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿أَتُونِي بِوَدِّ اسْتِخْلَافِهِ لَيْفِي﴾ أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلقٍ وخلقٍ وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيضٌ عَلَيْكَ﴾، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَافِظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلَيْكَ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه. قال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجذب. رواه ابن أبي حاتم. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَا مَنَّا وَكَانُوا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُونَ مَا مَنَّا وَكَانُوا بِقَوْلِ اللَّهِ﴾. قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلماذا عقبه الله ﷻ السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا نُجْزِي الْآخِرَةَ خَيْرَ لِّذِيْنَ مَأْمُونًا وَكَانُوا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿٥٧﴾﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف، عليه السلام، في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان، عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ اسْكُتْ بِمِزَانِ حِسَابِ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَظَنِينَ وَمَنْ مَتَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولأه الملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد. وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيضٌ عَلَيْكَ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَا مَنَّا وَكَانُوا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿٥٧﴾﴾ فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدني؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة في ملك ودينا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف. وولد أفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام. وقال الفضل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَنْعَامِكُمْ لَعَلَّكُمْ أَتَى أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ إِنْ لَرُّ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُونَ عَنْهُ آبَاءَهُمْ وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَهُ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِيُنْيَبِيهِ أَجْعَلُوا بِصَنَمِهِمْ فِي يَدَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ذكر السُّدِّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصصة، ثم تلتها سنين الجذب، وعم القحط بلاد مصر بكما لها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفي الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر. وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب. والغرض أنه كان في جملة من ورد

للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعترضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، وعليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَمْ تُكْرَهُنَّ﴾ أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلماذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمعكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ﴾ أي: وفاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا عَتِيرٌ أَلْتَزِينُ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رَهَبَهُمْ فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٤) أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَرَّوُدُ عَنْهُ آتَاءُ وَإِنَّا لَنَلْعَبُونَ﴾ (٦٥) أي: ستحرص على معيئة إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: غلمانها ﴿اجْمَعُوا بَصَائِرَكُمْ﴾، وهي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِبَائِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم ترحجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مِثْعَ مِثَا الْكَيْلِ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ (٦٦) قَالَ هَلْ أَمَانَتُكُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا أَمَانَتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٧).

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مِثْعَ مِثَا الْكَيْلِ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل. وقرأ بعضهم: ﴿يكتل﴾ بالياء، أي يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَمُحْفِظُونَ﴾ (٦٦)؛ ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ أَمَانَتُكُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا أَمَانَتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حفظاً﴾، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَنَافِعَهُمْ وَجَدُوا بِصَنَعَتِهِمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِيٌّ هَذَا بَصَائِرُ الَّذِينَ رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِيٌّ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَادَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ﴾ (٦٨) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَأُنْتَبِي بِوَيْهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٩).

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِيٌّ﴾؟ أي: ماذا نريد؟ ﴿هَذَا بَصَائِرُ الَّذِينَ رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة. ما نبني وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أرفى لنا الكيل. ﴿وَنَبِيٌّ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت آخانا معنا تأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَادَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا. ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَأُنْتَبِي بِوَيْهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرن على تخليصه. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدُوا دَخَلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْمَأْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٧٠) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَبْتَغُونَ فَضْنًا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧١).

يقول تعالى، إخباراً عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يبصيهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه. وروى ابن أبي حاتم، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿وَأَدْخَلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب. وقوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رَبِّكَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿إِن لَّمْ تَكُنْ إِلَّا لِبَيْتِهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ رَبُّهُم مِّنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا قَالُوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿وَأَنَّهُ لَدُوٌّ غَلِيظٌ لِّمَا عَلَّمْتَهُ﴾ قال قتادة والثوري: لئذ عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لئذ علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ فَلِئِنَّ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: «لا تبتس» أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده، مُعزِزاً مكرماً معظماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَمَعَ النَّبَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

لما جهَّزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتياته أن يضع «السقاية»، وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب. قاله ابن زيد. كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد. وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجمالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن يُجِدْ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قِيلَ وَعَاةٌ لِّخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مَتَنَ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أننا جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟﴾ أي: السارق، إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن يُجِدْ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فنشأ قبله، تورية، ﴿ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةِ أَخِيهِ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره. وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مَتَنَ شَاءَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْهَدْيَ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادة: ١١]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله ﷻ. وكذا روى عبد الرزاق، عن سفیان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم، وكذا روى سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله

فوق كل عالم . وهكذا قال عكرمة . وقال قتادة : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بُدِئَ وتعلمت العلماء ، وإليه يعود ، وفي قراءة عبد الله ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْوِيهِ . وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أُنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصُّوع قد أخرج من متاع بنيامين : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، يتصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فَعَلَ كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف ، عليه السلام . قال سعيد بن جبيرة ، عن قتادة : كان يوسف قد سرق صنماً لجده ، أبي أمه ، فكسره . وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ، فيما بلغني ، أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت إليها منطقة إسحاق ، وكانوا يتراثون بها بالكبر ، فكان من اختيارها ممن وليها كان له سَلْمًا لا يَنَازِعُ فيه ، يصنع فيه ما يشاء . وكان يعقوب حين وُلِدَ له يوسف قد حَضَّتْه عمته ، فكان منها وإليها ، فلم يُحِبْ أَحَدٌ شيئاً من الأشياء حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها ، فقال : يا أُخْتِي ، سلمني إلي يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة . قالت : فوالله ما أنا بتاركته . ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه ، لعل ذلك يسليني عنه . أو كما قالت . فلما خرج من عندها يعقوب ، عمدت إلى منطقة إسحاق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق ، عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت . فكشفوهم فوجدوها مع يوسف . فقالت : والله إنه لي لَسَلَّمٌ ، أصنع فيه ما شئت . فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر . فقال لها : أنت وذاك ، إن كان فعل ذلك فهو سَلَمٌ لك ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت . قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْوِيهِ ﴾ يعني : الكلمة التي بعدها ، وهي قوله : ﴿ أُنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي : تذكرون . قال هذا في نفسه ، ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير ، كقول الشاعر :

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغَيْلَانِ عَنْ كَبِيرٍ وَحَسُنَ فَعَلَ كَمَا يُجَزَى سَنَمَارٍ
وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة ، في مثورها وأخبارها وأشعارها . قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْوِيهِ ﴾ . قال : أسر في نفسه : ﴿ أُنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْمُرْزِقُ إِنَّ لَكَ أَبًا شَيْئًا كَبِيرًا فَخَذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمَّنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَطَّلِمُوكَ ﴿٧٩﴾ .

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ، ف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْمُرْزِقُ إِنَّ لَكَ أَبًا شَيْئًا كَبِيرًا ﴾ يعنون : وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ، ﴿ فَخَذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أي : بدله ، يكون عندك عوضاً عنه ، ﴿ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴾ أي : من العادلين المنصفين القابلين للخير . ﴿ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمَّنًا عِنْدَهُ ﴾ أي : كما قلتم واعترفتم ، ﴿ إِنَّا إِذَا نَطَّلِمُوكَ ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكَمُوا بَيْنَهُمَا قَالَ كَيْفَ أَلَمْ تَكُنْ أُمَّ تَكُنْ أُمَّ أَنْتُمْ قَدْ أَحَدْتُمْ عَلَيْنَا مَوْتِيًا مِنْ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا قَرَأْتُمْ فِي يَوْسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ بَأْسَ اللَّهِ لِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا بِنَاتَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَكَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَةَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف : أنهم لما يتسوا من تخليص أخيه بنيامين ، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك ، ﴿ حَكَمُوا ﴾ أي : انفردوا عن الناس ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ يتناجون فيما بينهم . ﴿ قَالَ كَيْفَ أَلَمْ تَكُنْ أُمَّ تَكُنْ أُمَّ أَنْتُمْ قَدْ أَحَدْتُمْ عَلَيْنَا مَوْتِيًا مِنْ اللَّهِ ﴾ ، وهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أُمَّ تَكُنْ أُمَّ أَنْتُمْ قَدْ أَحَدْتُمْ عَلَيْنَا مَوْتِيًا مِنْ اللَّهِ ﴾ لتردته إليه ، فقد رأيتم كيف تعذرت عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي : لن أفارق هذه البلدة ، ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ بَأْسَ اللَّهِ لِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ، قيل : بالسيف . وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ . ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع ، حتى يكون عذراً لهم عنده ويتصلوا إليه ، ويبرؤوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ قال عكرمة وقاتدة : ما كنا نعلم أن ابنك سرق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم: ما علمنا في الغيب أنه يسرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَسَلَّيْنَا الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْوَيْلَ الَّتِي أَقْلَمْنَا فِيهَا﴾ أي: التي راققتها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به، من أنه سرق وأخذه بسرته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٨﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَرُونَ تَذَكَّرْ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرماً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزْرِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُجِبَ حكم الأول عليه، وضح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، ورويبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدَى عَلَى يَوْسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا سَعْدَى عَلَى يَوْسُفَ﴾، جَدَّدَ له حُزْنَ الابنِينِ الحُزْنَ الدفين. قال عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن سفيان العُصْفَرِيِّ، عن سعيد بن جبيرة أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَا سَعْدَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: كמיד حزين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو موسى، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبي ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يا رب، إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقى في النار بسببي فصبر، وتلك بلية لم تتلك، وإن إسحاق بذل مهجة دمه في سببي فصبر، وتلك بلية لم تتلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تتلك». وهذا مرسل، وفيه نكارة؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن علي بن زيد بن جُدعان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم. وأقرب ما في هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بني إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَرُونَ تَذَكَّرْ يَوْسُفَ﴾ أي: لا تفارق تَذَكَّرْ يوسف، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرماً﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزْرِي﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سوف أسجد له. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنينة، عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبي، عليه السلام، أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك؟ قال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بني وحزني إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكون». وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿يَكْفِيكَ أَذْهَاباً تَمَحَّكُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٩١﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُّ وَحَسْبَا يَصْعَقُ مَرْحَلَةً فَأَوْبَى لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ بَيِّنُ الْمُضْهِفِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر. ونَهَضَهُم وبشرهم وأمرهم ألا يياسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا

رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْمَرْيُومُ سَنَا وَأَهْلَنَا الْمُرُّ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَرِحْنَا بِبَصْعَةٍ ثَرْجَةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء لا يتفق، مثل خَلَقَ الْغِرَارَةَ، والحيل، والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدي. وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هي الدراهم المُسُول. وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبه الخضراء. وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق. وقال أبو صالح: جاؤوا بِحَبِّ الْبُطْمِ الأخضر والصنوبر. وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لَيْبِكَ عَلِيٍّ مَلْحَانَ ضَيْفٍ مُدْفَعٍ وَأَرْمَلَةَ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلًا
وقال أعشى بني ثعلبة:

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ هَجَاهُ وَعَبِيدُهَا عُرُودًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا
وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَرْبَى لَنَا الْكَيْلُ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَأَوْقَرَ رُكَابَنَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾. وقال ابن جرير: ﴿وَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ وقال سعيد بن جبير والسدي: ﴿وَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجاوز فيها. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَرْبَى لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهداً وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَتَتْهُمُ جَهْلُوتُ﴾ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَحْيَى قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَصِيرٌ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَ رَبُّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ تَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف، عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَتَتْهُمُ جَهْلُوتُ﴾؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه ﴿إِذْ أَتَتْهُمُ جَهْلُوتُ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْبَةَ يَجْهَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. والظاهر - والله أعلم - أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فَرَجَّ اللهُ تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ﴾؟ وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَوَأَنْتَ يُوْسُفُ﴾، وقرأ ابن محيصين: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ﴾. والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستهفام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستهفام: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَحْيَى﴾، ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد العدة، ﴿إِنَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَصِيرٌ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَ رَبُّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضاً - على قول من لم يجعلهم أنبياء - وأقروا له بأنهم أسأروا إليه وأخطؤوا في حقه. ﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿تَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم. وقال ابن إسحاق والثوري: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿تَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوا بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴿٩٥﴾ .

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾، وكان قد عمي من كثرة البكاء، ﴿ وَأْتُوا بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: بجميع بني يعقوب. ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعني: يعقوب، عليه السلام، لمن بقي عنده من بنيه: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ﴾: تنسبوني إلى الفئدة والكبر. قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجات يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه سفیان الثوري، وشعبة، وغيرهما عن أبي سنان، به. وقال الحسن وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افتراقا ثمانون سنة. وقوله: ﴿ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبئير: تُسَفِّهون. وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تُهزِّمون. وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السدي، وغيره.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِرَاطٍ قَالِ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَا لَا تَلْمُوتُ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَفْزِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَفْزِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ .

قال ابن عباس والضحاك: ﴿ الْبَشِيرُ ﴾: البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهودا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأراد أن يغسل ذاك بهذا، فجاه بالقميص فالتفاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً. وقال لبيبة عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَا لَا تَلْمُوتُ ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ؟ ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له: ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَفْزِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ اسْتَفْزِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٩٨﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه. قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر، رضي الله عنه، يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أضر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿ سَوْفَ اسْتَفْزِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾. وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿ سَوْفَ اسْتَفْزِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبيبة. وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

﴿ فَكَلَّمْنَا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ۚ إِن شَاءَ اللَّهُ مَآبِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَا مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّبْحِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَحَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ .

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، وقدمه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن أتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ ءَأَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ۚ إِن شَاءَ اللَّهُ مَآبِينَ ﴾، وأوى إليه أبوه، ورفعها على العرش. وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد في ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف أوى إليه أبوه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ ۚ إِن شَاءَ اللَّهُ مَآبِينَ ﴾. وفي هذا نظر أيضاً؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ ءَأَوَىٰ إِلَيْهِ أَحَاةٌ ﴾، وفي الحديث: «من أوى محدثاً وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وأواهم إليه: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾، وضمنه: اسكنوا مصر ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ

﴿يَأْتِيَنَّ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم -: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجذبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فُرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام. وقوله: ﴿مَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَوِيًّا﴾، قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخلته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره. ﴿وَحَرَّوْا لَهُ سُجْدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَتَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال: «لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سُجْدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَتَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالقربات من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل. ﴿وَمِن بَدْوٍ أُنزِعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: إذا أراد أمراً قويض له أسباباً ويسره وقدره، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النهدي، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب. وقال هُشَيْمٌ، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة وعشرة سنة - قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر، وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأناشهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الْأَحْيَاتِ وَرَؤْيَايَ مُتَمَلِّمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاتِ﴾ [١١].

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة

والملك، سأل ربه ﷻ، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى». ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: «أماك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين والحقنا بالصالحين». ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَكَّلْ مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنَا بِالصَّالِحِينَ﴾: لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف، عليه السلام. وكذا ذكر ابن جرير، والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: ﴿زَيْتٌ أَعْفَبِي لِي وَلَوْلَدِي وَلَكِن دَخَلَ بَيْتِي مَثُومًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاة ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به، فإن كان لا بد متمنياً الموت فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي». ورواه البخاري ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعقب، ولكن ليقل: اللهم، أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورقتنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني مت! فقال النبي ﷺ: «يا سعد أعندي تمنى الموت؟» فردد ذلك ثلاث مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال عمرك، أو حسن من عملك، فهو خير لك». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - هو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعون به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» تفرد به أحمد. وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، أما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهديدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدًا تَوَفَّاكَ مُسْتَلِيمًا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاهها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَلَيَّتَنِي وَتَقَبَلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا: ﴿يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [٢٧] يَأْتَحَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَوْلَاكَ أَمْرًا سَوُو وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ يَوِيًّا ﴿[مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث معاذ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو بن عاصم عن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب». فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذني إليك، فقد سئمتهم وسئموني. وقال البخاري، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبور - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك»، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون. قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى

لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه، خلا ولده نجيماً، فقال بعضهم لبعض: أستم قد علمت ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغزكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمر، لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حُرِّكوه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: أألمت قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أولستما قد عَفَوْتما؟ قال: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نُريدُ أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قَرَّتْ أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرَّةَ عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين. قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يُجب فيهم عشرين سنة - قال صالح المري: يخيفهم - قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد موثيقهم من بعدك على النبوة. هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً. وذكر السدي: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صَبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقَبْرِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَنْتَهُمُ عَلَيْهِ مِنْ آجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْمَلِئِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يقول تعالى لعبيده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرأ عندهم ولا مشاهدأ لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: على لقائه في الحب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَّلْنَا آلَ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ نَادِيًا لِأَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّكَ كُنَّا مُسِيئِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّذَرِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٦]، وقال: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِيَّاكَ أَن تَبَرَأَ مِنْ النَّاسِ فَبَرَأْ مِنْهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا شَرِيكِينَ﴾ [النجم: ٦٩]، [٧٠]. يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أبناء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديانهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، وقال: ﴿لَنْ تَقِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُعْصِلُونَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا تَنْتَهُمُ عَلَيْهِ مِنْ آجْرٍ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جُعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقك. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْمَلِئِينَ﴾ أي: يتذكرون به ويبتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَايِنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ فَأَيُّ تَوْبَةٍ آبَأْتُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَيْبَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات. وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهكذا في الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أي حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَكْثَرُكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين: عن ابن مسعود قلت: يا

رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». وقال الحسن البصري في قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾» قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٧﴾» [النساء: ١٤٢]. وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن عُرْوَةَ قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو: انتزعه - ثم قال: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾».

وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر. وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالْتِمَائِمَ وَالتَّوَلَّةَ شُرَكَاءُ». وفي لفظ لهما: «الطَّيْرَةُ شُرَكَاءُ وَمَا مِثْلُهَا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُ بِالتَّوَكُّلِ». ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن يحيى الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح ويزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحُمْرَةِ فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقي لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرقي والتائم والتولة شرك». قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقئها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذلك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقول كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، أشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً».

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكَّيم، وهو مريض نعوده، فقيل له: «تَعَلَّقْتَ شَيْئاً؟» فقال: أتعلق شيئاً! وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وَكَلَّ إِلَيْهِ». ورواه النسائي عن أبي هريرة. وفي مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ» وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أْتَمُّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ». وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». رواه مسلم. وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني: ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هُبَيْرَةَ، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العَرَزَمِيُّ، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْنٌ وقيس بن المضارب فقالا: والله نتخرجن مما قلت أو لناتين عمر ماؤنا لنا أو غير ماؤنا، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه». وقد روي من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن مَعْقَلِ بْنِ يَسَّارٍ قال: شهدت النبي ﷺ - أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». وقد رواه الحافظ أبو القاسم البيهقي، عن

شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النصر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه». وزاد أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن أبي بكر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول... فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وأن أترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم».

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٧٧) ﴿أَي: أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْكَذَّابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٤) أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى نَهْوَيْهِ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْدٌ رَجِيمٌ﴾ (١٣)﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ لَا يَحْسَبُونَ أَنَّ الْغُرُوبَ أَنَّ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُرْحِي وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ (١٧٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٩)﴾ [الاعراف: ٩٧-٩٩].

﴿قَدْ هَدَوْا سَبِيلَ آدَمَ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبَّحَ لِلَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧٨)﴾.

يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، أمره أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، وهو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي. وقوله: ﴿وَسَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدس، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ التَّوَكُّلِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَمَنْ فِيهِمْ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤)﴾ [الاسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكِنَّا الْأَخْرَجُوا خَيْرَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧٩)﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقولون: ﴿وَأَحْسَبُ أَنَّ إِلَهَ أُمَّمُوسَى أَنْ أَرْضِيئَهُ﴾ [النص: ١٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، ويقولون تعالى: ﴿وَلَوْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ كَيْتَمِينَ إِنَّ اللَّهَ أَحْسَبُكَ وَطَهَّرَكَ عَلَى سِكِّهِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) ﴿يَتَمَرَّتْ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ (٢٢)﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ أَبْتُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُنْتُمْ صَدِيقَةٌ كَذَلِكَ كُنَّا يَتَكَلَّمُ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن. وقال الضحاک، عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جُنُودًا لَا يَأْكُلُونَ

أَطْعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْبَيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَمْلَكْنَا الْمَشْرِفِينَ ﴿٩﴾ [الانبيا: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُمْ بِدَعَايِنِ الرَّسُولِ﴾ الآية [الاحقاف: ١٩].

وقوله: ﴿مِنَ أَهْلِ الْفَرَجِ﴾: المراد بالفرج: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجنف الناس طباعاً وأخلاقاً. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]. وقال قتادة في قوله: ﴿مِنَ أَهْلِ الْفَرَجِ﴾: لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العمود. وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت ألا أتهدب هبة إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقيفي، أو ذؤبي». وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش: هو ابن عمر - عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». وقوله: ﴿أَقْلَرُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض، ﴿يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسول، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَقْلَرُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضاً، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَادِرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و«مسجد الجامع» و«عام الأول» و«بارحة الأولى» و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمَدَّحٌ فُقِّمَسَا وَتُذَمُّ عُنْبَا
لَوْ أَثَوْتُ عَلَيْكَ دِيَارَ عَنبِسِ
أَلَا اللَّهُ أَمْسَكَ مِنْ هَجَجِينَ
عَرَفْتَ الذَّلَّ عَرَفَانِ الْيَقِينِ

﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّسُولُ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَهُمْ فِي مَنَاجِبِ مِنَ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٠﴾.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوال الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُلُّوهُمَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾، وكذلك كانت عائشة، رضي الله عنها، تقرؤها، قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّسُولُ﴾، قال: قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كُذِّبوا فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمرى لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّسُولُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كُذِّبوا، جاءهم نصر الله عند ذلك. حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرنا عروة، قلت: لعلها قد كُذِّبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره. وقال ابن جرير: أخبرني ابن أبي مليكة: أن ابن عباس قرأها: ﴿وَلَمَّا كَانَتْ هُدُودُهُمْ قُلُوبُهُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جرير: وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كُذِّبوا. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ مثقلة، للتكذيب. وقال ابن أبي حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾، فقال القاسم: أخبره عني أنني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّسُولُ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، تقول: كذبهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً. والقراءة الثانية بالتخفيف،

واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره. وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضي الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، قال: لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك، ﴿فَنَجَّى﴾. وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمي، وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة، والوعوفي عن ابن عباس بمثله. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب، حدثنا إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال: سألت فتى من قرش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾؟ قال: نعم، حتى إذا استيسر الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوا. فقال الضحاک بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلک! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلاً. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر: أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني. وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جبر، وغير واحد من السلف، حتى إن مجاهداً قرأها: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾، بفتح الذال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا - مخففة - فيما وعدوا به من النصر. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل، عن جحش بن زياد الضبي، عن تميم بن حذلم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا، بالتخفيف. فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور، وزيغ القول الآخر بالكلية، وردة وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكتنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويخلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المعجزة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهاذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتفون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف ولله الحمد والمنة وبه الاستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

تفسير سورة الرعد

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَٰهًا يُشْرِكُونَ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عِندِ رَبِّهِمْ لَأَكْبَارًا مِّنْ أَلْوَانٍ يَّسْتَفْتُونَ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدّمنا أن كل سورة تبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر، بل هو بعيد. ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَزْمِ وإبنِ الهُمَامِ وَآيَاتِ الكِتَابِ فِي المُزْدَحَمِ
وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والتناق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ فَبُصِّلُ الْأَبْصَارَ لَعَلَّكُمْ تَرِيكُمْ تَرَوْنَهَا﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، بل بإذنه وأمره، وتسخيره رفعها عن الأرض بُعْدًا لا تنال ولا يدرك مداها، فالسما الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، ﷻ»، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عَمَدٌ ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللاتق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَمِثْلِكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. هذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد في الحديث، ويروي لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورصي عنه:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَخِمَةٌ بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مُنَادِيًا
فَقُلْتَ لَهُ: فَادْعُ بَ وَهَارُونَ فَادْعُوا إِلَى اللَّهِ فَزَعُونَ الَّذِي كَانَ طَاعِيَا
وَقُولُوا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوِيَتْ هَذِهِ بَلَا وَتَدَحَّى اطمأننت كَمَا هِيََا
وَقُولُوا لَهُ: أَلَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ بَلَا عَمَدَ أَرْفَعُ إِذَا بِكَ بَانِيَا؟
وَقُولُوا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَيْتَ وَسَطَهَا مُنِيرًا إِذَا مَا جُنْتُكَ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولُوا لَهُ: مَنْ يُزِيلُ الشَّمْسَ عُدُوَّةً فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا؟
وَقُولُوا لَهُ: مَنْ يُنْبِتِ السَّحْبَ فِي الثَّرَى فَيُصْبِحُ مِنْهُ العُشْبُ يَهْتَرُ رَابِيَا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: تقدم تفسير ذلك في سورة «الأعراف»، وأنه يُمرَّر كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوًا كبيراً. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿رَأْسُ الشَّمْسِ يَجْرِي لِئُسْتَقَرَّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٧٨﴾ [يس: ٣٨]. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك،

يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائم وحملة يحملونه. ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التنسخر سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ الْمُسَخَّرَاتُ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْغَلْظُ وَالْأَلَمُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد المخلوق إذا شاء كما ابتداء خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتْرَافًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَنْفَكُونَ﴾ [١] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَجِيلٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَدٍ وَيُقْفَضُ بِعَصَا عَاقٍ بَعْضٌ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢].

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان. ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشبه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف في المكان والسكان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَنْفَكُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمته ودلالته. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ أي: أراضٍ تتجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سيخة مالحة لا تنبت شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببير، والضحاك، وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفقتها، وهذه بصفقتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَجِيلٌ﴾: يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿وَجَنَّتْ﴾، فيكون ﴿زَرْعٌ وَنَجِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟». وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَدٍ وَيُقْفَضُ بِعَصَا عَاقٍ بَعْضٌ فِي الْأَكْثَلِ﴾ قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: ﴿يُقْفَضُ بِعَصَا عَاقٍ بَعْضٌ فِي الْأَكْثَلِ﴾ قال: «الدقل والفارسي، والحلو والحامض». رواه الترمذي وقال: حسن غريب. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها. فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِصٌ، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَصَّحَّبَا فَقُلُّوا هَذَا كَمَا تَرَبَّأْنَا لَهَا لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَلْبٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّيُمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْظَمُ فِي عُنُقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٣].

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ تَصَّحَّبَا﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن

لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سعيده العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَوَدَا كُفْرًا أَهْنَا لَمِي خَلَقِي جَدِيدًا﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ المخلوق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ بِخَلْقِهِنَّ بِغْيِيرِ عَلَنٍ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣]. ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أَوَلَيْكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَابُ فِي آخِنَاهُمْ﴾ أي: يُسْحَبُونَ بها في النار، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما كسبون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالنَّبِيَّةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَّاسٍ عَلَى ظُهُبِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالنَّبِيَّةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا نُظِرُوا فِيهَا ﴿٨﴾﴾ [الحجر: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْمَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُ الْمَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وَسَتَجْلِبُونَ بِالْمَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [المنكبر: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿سَأَلْنَا سَأَلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿٦١﴾﴾ [المعارج: ٦١]، وقال: ﴿وَسَتَجْلِبُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ فِيهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿٦٨﴾﴾ [الشورى: ٦٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا نَجِّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا وَعَدَ اللَّهُ فَأَطِرْنَا جِحَادًا مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ آخِيْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ أي: قد أوقعنا نعمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة لمن اتعظ بهم. ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه وغفره لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابِئِهِمْ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَّاسٍ عَلَى ظُهُبِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الاعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿يَنْجِي عِبَادِي أَنْ يَأْتِيَ الْقَوْمَ الرَّجِيمُ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَّاسٍ عَلَى ظُهُبِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «الولا عفو الله وتجاوزة، ما هنا أحدأ العيش، ولولا وعيده وعقابه، لاتكل كل أحد». وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزياتي: أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَّاسٍ عَلَى ظُهُبِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتهت.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُدْرِكٌ وَلَكِنْ قَوْمٌ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفوراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وانهاراً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا مُؤَدَّةً مُبِينَةً فَنظَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَهْوَيْتُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُدْرِكٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: ولكل قوم داع. وقال العوفي، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك. وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي. كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: قائد. وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل. وعن عكرمة، وأبي الضحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: هو محمد رسول الله ﷺ. وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من يدعوهم إلى الله، ﷻ. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين

الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم يباع الهروي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأوماً بيده إلى منكب علي، فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي». وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدي، عن عبد خير، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادي: رجل من بني هاشم، قال الجنيد: هو علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، في إحدى الروايات، وعن أبي جعفر محمد بن علي، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْفٍ وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَرَدَّدُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِمُ ﴿٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْكَامِ﴾ [الغمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُرَادِ أَنْثَا كُرَيْرِ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتَرُ أَجَنَةَ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فَيُطَلِّبُ تَلَكُّشًا﴾ [الزمر: ٦] أي: خلقكم طوراً بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَكَانَتْهَا عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن خَلَقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ مَلِكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعَمْرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِي أَوْ سَعِيدًا». وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك». وقوله: ﴿وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَرَدَّدُ﴾: قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ﴾ يعني: السقط: ﴿وَمَا تَرَدَّدُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَرَدَّدُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها. وقال الضحاك: وضعتني أُمِّي وقد حملتني في بطنها ستين، وولدتني وقد نبئت ثنتي. وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من ستين، قدر ما يتحرك ظل مغزّل. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَرَدَّدُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما ترداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد. وقال مجاهد أيضاً: ﴿وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ﴾: إراقة المرأة حتى يخسّر الولد ﴿وَمَا تَرَدَّدُ﴾ إن لم تهرق المرأة ثم الولد وعظم. وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاها استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أتى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك! غَدَاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أتى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْفٍ وَمَا يَنْبِئُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَرَدَّدُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾. وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وأجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتنصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء.

﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَمَالِكِ﴾ أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلْيَلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿١٠﴾ لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ ﴿١١﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿وَإِنْ جَهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿٧﴾ [طه: ٧٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ﴾ [النمل: ٢٥]، وقالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وأنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلْيَلٍ﴾ أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ أي:

ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَفْتُونَ يَا بَهْمَ يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُنْهَوْنَ﴾ [هود: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُؤَيِّسُونَهُمْ وَمَا يَبْتَرُونَ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَنْقَالِ دَرُّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١﴾ [يسونس: ٢٦]. وقوله: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس

بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحوادث، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحداً من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً،

حافظان وكتابتان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرمهم». وقال

علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهي الملائكة. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريد إلا قال الملك: ورايك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن

جبير، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: ولي الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر، والله أعلم، أن مراد ابن عباس وعكرمة

والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير لهننا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثني المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح الفُشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله،

أخبرني عن العبد، كم معه من ملك؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمر على الذي على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشراً، فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا

قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته الله وأقل استحياءه منا». يقول الله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَئِيبٌ عِيدٌ﴾ ﴿١٨﴾ [آف: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَمْ مَعْنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفقتك، ليس

يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يدع الحية أن تدخل في فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من

منصور، عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من

الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن أعانني الله عليه، فلا يأمرني إلا بخير». انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم التَّخَمي، وغيرهم. وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: وفي بعض القراءات: ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾. وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شيء من ذلك شياطين لولا أن الله وكلَّ بكم ملائكة عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذا لُحِطْتُمْ. وقال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يُدَوِّدُ عنه، حتى يسلمه للذي قُدر له. وقال أبو ميْجَلَز: جاء رجل من مُراد إلى علي، رضي الله عنه، وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدرُ خَلِيَا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أ رأيت رَقِي نَسْرَقِي بها، هل ترد من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدَرِ الله». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غِيَاث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرَ مَا يَشَاءُ﴾. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليمامي الأنصاري، عن عمير بن عبد الله قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكنتُ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألتُه عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه، ﷻ، قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي». وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الرِّزْقَ حَوْثًا وَطَلْمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَاللَّيْلُ نَسُوبًا وَالصَّوْبُ قَبِيضَاتٌ يَهَا مِنْ يَسَاءَ وَهُمْ يُعْدِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ سَدِيدٌ الْحَكَامِ﴾ ﴿١٣﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجَند يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء. وقوله: ﴿حَوْثًا وَطَلْمَعًا﴾: قال قتادة: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشاءً جديدة، وهي لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ مِنْ شَعْرَةٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخي، وسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه. فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك». والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد، وضحكها البرق. وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكاً، ولا أسس منه منطوقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَضَعُ بذنبه فذاك البرق. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمِعَ الرعد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». ورواه الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدرکه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر - ولم يسم به.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا إسرائيل، عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسَبِّحُ الرعد بحمده». وروي عن علي، رضي الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحت له. وكذا روي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك. وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة. وعن عبد الله بن

الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شئب بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم ﷻ: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد». وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النصر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرة».

وقوله: ﴿وَرَسُولٌ أَتَى بِنهَا مِنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من ضُيعت تلكم الغداة؟ فيقولون: ضُيع فلان وفلان وفلان». وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق، حدثنا علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «أذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أين ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينما هو يكلمه، إذ بعث الله ﷻ، سحابة حيال رأسه، فرعدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بيقحف رأسه فأنزل الله: ﴿وَرَسُولٌ أَتَى بِنهَا مِنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُكْفَرُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِقَابِ﴾. ورواه ابن جرير، من حديث علي بن أبي سارة، به. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة بن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه. وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجوفي، عن عبد الرحمن بن ضحار العبدي: أنه بلغه أن نبي الله بعثه إلى جبار يدعوه، فقال: أرايتم ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ أو لؤلؤ هو؟ قال: فبينما هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بيقحف رأسه، ونزلت هذه الآية. وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَرَسُولٌ أَتَى بِنهَا مِنْ يَشَاءُ﴾. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿وَرَسُولٌ أَتَى بِنهَا مِنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل - لعنه الله -: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مُرداً. فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قبيلة، يعني: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك بالنبي ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجعلان الناس لحربه، عليه السلام، فأرسل الله على أريد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غدة كغدة البكر، وموت في بيت سُلولية؟ حتى ماتا، لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَرَسُولٌ أَتَى بِنهَا مِنْ يَشَاءُ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أريد يرثيه:

أخشى على أزيد الحُشوف ولا
فجعتني الرعد والصواعق بال
أزهب نسوء السمك والأسد
فارس يوم الكريهة التجد

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أريد بن قيس بن جزء بن جليل بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهايا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك،

ولكن لك أعنة الخيل». قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوتر ولك المذر. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنحك الله». فلما خرج أريد وعامر، قال عامر: يا أريد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلتم محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية. قال أريد: أفعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسئل أريد السيف، فلما وضع يده على السيف نيست يده على قائم السيف، فلم يستطع سئل السيف، فأبطأ أريد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أريد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأريد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرّة، حرّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: اشخصا يا عدويّ الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكنائب. فخرجا حتى إذا كانا بالرّوم، أرسل الله على أريد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخرم، أرسل الله فرجة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس فرجه في حلقه ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَلْعَلُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا يَدْعَىٰ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مَنِ إِلَّا﴾ [الرعد: ٨-١١] قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أريد وما قتله به، فقال: ﴿وَرُسُلٌ أَلْفَرِيقٍ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَجِيدُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾. قال ابن جرير: شديدة ماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَخْتَرُونَ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١] وعن علي، رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ اللَّغْوِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَتَبَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْتَقِيَ بِهِ مَا فِيهِمْ فَيَنْقَسِبَ وَمَا يَسْمَعُ إِلَّا فِي سَكْنٍ﴾. قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ اللَّغْوِ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن عباس، وقادة، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ اللَّغْوِ﴾ قال: لا إله إلا الله. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبْسِطٍ كَتَبَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْتَقِيَ بِهِ﴾: قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يتاله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبْسِطٍ كَتَبَهُ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد: كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فإنني وإياكم وثوقاً إليكم
كقابض ماء لم تسمع أنه أتاكم

وقال الآخر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها
من الوذ مثل القابض الماء باليد

ومعنى الكلام: أن هذا الذي يسط يده إلى الماء، إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، وكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي سَكْنٍ﴾.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَتٰدُوهُ وَالْأَصٰلُ﴾ [١٥]

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿وَيُظَلِّمُهُم بِالْعُدْوَىٰ﴾ أي: البكر، والأصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن قَبْلِهِمْ يَنْفَعِيهِمْ ظُلْمُهُمُ مِنَ الْعَيْمِينَ وَالشَّامِلِ إِلَيْهِ وَهُوَ دٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْتَدُّونَ مِن دُونِهِ أُولِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلْقًا كَمَا خَلَقَ فَتَسْتَوِي لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوٰحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [١٦]

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبادها بطريق الأولى ﴿تَنَّمَا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَوْنِي الضُّلُمَاتِ وَالنُّورَ أَمْ جَعَلْنَا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما عبد هؤلاء المشركون مع آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تليبتهم: لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يُشْفَعُ عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِيَ اللَّهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُنْفِي عَنْهُمْ شَفَاعَتَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ أَنْ يُدْعَى اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [١٧] لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿٤٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٤٥﴾ [مریم: ٩٣-٩٥]، فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؛ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تترجمهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سِوَى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحققت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَنْظُرُ رَبُّكَ أَعْمَاءً﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ لِحَافَةٍ أَوْ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ يَنْزِلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [١٧].

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضرابين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً، فسالت أودية بقدرها أي: أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيّق عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ لِحَافَةٍ﴾ أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زيد منه. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزيد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: لا يتنفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك حَبَّتِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةَ وَالْحَدِيدَ والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ [النسكوت: ٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فاما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمته ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والتمتع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد حَبَّتِ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزيد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وكذلك روي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقناة، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهو قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانُهُمْ كَكَرْبِهِمْ يَقِيمُهُمْ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٢٣٩]، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال

لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي زبنا، عطشنا فاسقتنا. فيقال: ألا تَرُدُونَ؟ فَيَرُدُونَ النار فإذا هي كالسراب يَخْطُم بعضها بعضاً». ثم قال في المثل الآخر: ﴿أَزْ كَطَلْمُنِي فِي بَحْرِ لَيْحِي يَنْشَلُهُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ. مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ. صَحَابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وروعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». فهذا مثل ماتي، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن مثنى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفَرَّاش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجُرُهُنَّ ويغلبهن فيقتحمن فيها». قال: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحُجْرِكُمْ عن النار، هَلُمَّ عن النار هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ، فتغلبوني فتقتحمون فيها». وأخرجه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.

﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالذِّبْرَةَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهَا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

يخبر تعالى عن مال السعداء والأشقياء فقال: ﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَنَّرَ سَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا﴾ (٢٧) وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٢٨)، وقال تعالى: ﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله: ﴿وَالذِّبْرَةَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهَا﴾ أي: لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقيير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقس الحساب عذب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

﴿أَمَّن يَمَلِكُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ أَعْمَىٰ إِمَّا يَنْذَرُكَ أُولَٰئِكَ الْأَتَّابِ﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ رَبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَوَقَّتْ كَيْفَ رَزَقَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انتقاده، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا يَنْذَرُكَ أُولَٰئِكَ الْأَتَّابِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَمَّن يَمَلِكُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ أَعْمَىٰ؟﴾ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إِمَّا يَنْذَرُكَ أُولَٰئِكَ الْأَتَّابِ﴾ (١٩) أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم بفضلهم وكرمه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ وَلَا يَقْفُضُونَ الْيَتِيمَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَعْمَلُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِيًّا وَكَلِيمَةً يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢) جَنَّتٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَمَنْ صَبَرَ وَصَلَّىٰ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (٢٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَّقْتُمْ بِمِثْلِ عُنُقِ الدَّارِ﴾ (٢٤).

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ وَلَا يَقْفُضُونَ الْيَتِيمَ﴾ (٢٠)، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اتتمن خان. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (٢١): أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك الله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ (٢٢): أي: على الذين يجب

عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحايير ومساكين، ﴿بِرّاً وَعَدْلَانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ النَّيْتَةَ﴾ أي: يدعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتاملاً وصفحاً وعتقاً، كما قال تعالى: ﴿أَذْفَعُ بِأَلْمِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ [نفسلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها. وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصرأ يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حجرة، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. وقال الضحاك في قوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْهُمُ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٣٥). أي: وتدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفر عليهم الملائكة مسلمين مهنتين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثنا معروف بن سُوَيْد الجذامي عن أبي عُشَّانَةَ المعافري، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفأمرنا أن تأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً، وتُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤)». ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي عُشَّانَةَ سمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أول ثلثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقَضَّ حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار ونُقدِّس لك، من هؤلاء الذين أثارتهم علينا؟ فيقول الرب ﷻ: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤)». وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلاً من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج» يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول أقصى الخدم الذي يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذي يليه للذي يليه: «ملك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه. وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤) وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان. ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنِي سُلَيْمَانَ وَبَنِي إِدْرِيسَ وَمَنْ سَلَّمَ مِنْهُمْ وَهُمْ كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٥)

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء «يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنِي سُلَيْمَانَ وَبَنِي إِدْرِيسَ وَمَنْ سَلَّمَ مِنْهُمْ وَهُمْ كَانُوا يَتَّقُونَ» (١٥)، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا

وعد أخلف، وإذا أوتمن خان» وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَمْ أَكُنْ لَهُم مِّنَ الرِّحْمَةِ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَمْ يَسُوْا الدَّارَ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار. وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْضُغُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهيرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهيرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَرَحْمًا يَلْكِيوُا الدُّنْيَا وَمَا لِكِيوُا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَنَعَ﴾ ﴿٢٦﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لعله في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ أَنَّمَا يُثْمِرُ بِهِ مِنْ تَالِ وَيَتَّبِعُونَ مَا فِي كُفْرِهِمْ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا لِكِيوُا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَنَعَ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قِيْلَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيْلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٧﴾ [الآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿٧٧﴾ [الاعلى: ١٦، ١٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجذبي أسك ميت - والأسك: الصغير الأذنين - فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه».

﴿وَقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا آتَانَا اللَّهُ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يَعْزِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ﴾ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَابَ﴾ ﴿٧٩﴾.

يخبر تعالى عن قبل المشركين: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أَنْزَلَ الْآلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سأله أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يَعْزِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ﴾ أي: هو المفضل والهادي، سواء بعث الرسول آية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجهبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تَنْفِي الْآيَاتِ وَالْكَذُّبُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَكَلَّمَهُمْ لَأَتَيْنَهُمْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَيَكْفُرُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يَعْزِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَابَ﴾ ﴿٧٩﴾. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فرح وثرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: «طوبى لك»، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم. ﴿وَحَسُنَ مَا تَنَابَ﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، قال: هي أرض الجنة بالحشبية. وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدي، عن عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ أي: الجنة. وبه قال مجاهد. وقال العوفي، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَابَ﴾ ﴿٧٩﴾، وذلك حين أعجبه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: ﴿طُوبَى﴾ شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا زوي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سمي، وأبي إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، عَزَسَهَا بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من غسل وخمر وماء ولبن. وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن دَرَجًا أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، مرفوعاً: «طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكامها». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن نُهَيْعَةَ، حدثنا دَرَجٌ أبو السَّمْح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكامها». وروى البخاري ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» قال فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقفي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها».

وفي صحيح البخاري، من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾ [الرأفة: ٣٠]، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾». أخرجه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو: مائة - سنة هي شجرة الخلد».

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة - أو قال: يستظل في الفنن منها مائة راکب -، فيها قرأش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي. وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكامها، فيأخذ من أي ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن». وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: طوبى شجرة في الجنة، يقول الله لها: «تَقْتَفِي لعبدِي عَمَّا شاء؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعمَّا شاء من الكسوة».

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب، رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رباط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترباها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فيبناهم في مجلسهم إذ أنتهم ملائكة من ربهم يقدرون نجياً مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصاييح حسناً، ووبرها كخز المزعزي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودوفونها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجياً من غير مهتة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتتنحى عن طريقهم، لثلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رآه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى عند ذلك: «أنا السلام ومني السلام، وعليكم حق رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري». قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار مُلْك ونعيم، وإنني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أميته» فيسألونه، حتى إن أنصرهم أمية ليقول: رب، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فأتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى:

«لقد قصرت بك أمينتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحنك بمنزلتي؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريد». قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيتهم، ولم يخطر لهم على بال». قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُرغَّعة، في كل قبة منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جاريتة منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبة إلا قد عبقنا به، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراها أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحيانه ويقبلانه ويعتقانه به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفًا في الجنة، حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزله التي أعدت له.

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرّي في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عشرين من الياقوت يزهر نورها، فلولا أنه مُسخر، إذا لالتمع الأَبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروش بالحريز الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقبري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزّه بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجواهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها عُرف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُربت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تجنّبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بزدون من تلك البراذين، ولجمها وأعتنها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سُروجها سُررٌ موضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ببطن رياض الجنة. فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قُعوداً على منابر من نور، ينتظرونهم ليزورهم ويصافحهم ويهنئوهم كرامةً ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان، جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مذهبتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبيّنتوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم حقاً؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا قال: برضاي عنكم حللتكم داري، ونظرتم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عَطَاةٌ عَجْرٌ مَجْدُوفٌ﴾ [مرد: ١٠٨]، ليس فيه تنغيص ولا تصريد. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأدخلنا دار المقامة من فضله، لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور. وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففي الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة: «تمنّ»، فيتمنى، حتى إذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى: «تمن من كذا وتمن من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله». وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله، ﷻ: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل في البحر»، الحديث بطوله. وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سَقَطَ المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَزْجِنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لَبِثُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَزْجِنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك، فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مُوسَى بِنَاصِيَةٍ قَالِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَاتَّقُوا يَوْمَ تُرْجَفُونَ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنْهَبْنَا عَنْهُمْ صَبْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤] أي: كيف

نصرناهم، وجعلنا العقاب لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي: إليه أرجع وأنبئ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِيَنَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا فَلَمَّا بَيَّنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَنًّا يَأْتِي وَعَدَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعَهْدَ﴾ (٣١).

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كفرون به، جاحدون له، ﴿بَلْ لِيَنَّ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله، ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له. وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن مثنى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَتْ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابْتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابْتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ». انفراد بإخراجه البخاري. والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَنَّ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشيع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمار، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحيت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ. وكذا روى ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والثوري، وغير واحد في سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فعمل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بَلْ لِيَنَّ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾: قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: ﴿أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾. وقال أبو العالية: قد يشك الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذبيهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَابِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿حَنًّا يَأْتِي وَعَدَّ اللَّهُ﴾ قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، في رواية. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل

عليهم ﴿أَوْ نَحُلَّ قَرْيَبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقاتله إياهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عكرمة في رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةً﴾ أي: نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ اللَّيْلِينَ كَفَرْتُمْ أَمْ لَمْ نَأْخُذْكُمْ بِكَيْفِ كَذِبِكُمْ إِنَّكُمْ لَأَعْيَابٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمَلَيْتُمُ اللَّيْلِينَ كَفَرْتُمْ﴾ أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿أَمْ لَمْ نَأْخُذْكُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَايُنَ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّهَا وَلَمْ تُخْلِفُوا الْوَعْدَ إِنَّ اللَّهَ لَمُجِيبٌ لِّلظَالِمِ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِهِنَّ شُرَكَاءَ لَّهُنَّ لِيَتَّبِعُنَّهُنَّ بِمَا لَبَّغْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَطَّهَّرْنَ مِنَ الْقَوْلِ بَل لَّيْلِينَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منقوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقٍ إِلَّا يَسَلِّمُهُا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيُسَلِّمُ سُوقَهَا وَتُسَوِّدُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١٦١﴾﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِّنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآيَاتِنَا وَسَائِرٌ بِآيَاتِنَا﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَىٰ﴾ [طه: ٧]. وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].
أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرّفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ بِلَّغًا لَّا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أَمْ يَطَّهَّرْنَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول. أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أُنزِلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].
بل زين لليدين كَفَرُوا مَكْرَهُمْ: قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَسَّيْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ فَرَسَاتًا لَّهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْآيَاتِ وَإِن هُمْ إِلَّا نَجْمٌ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [نصلت: ٢٥]. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعَوَا إِلَيْهِ وَصَّدُوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ. ومن قرأها ﴿وَصُدُّوا﴾ أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدُّوا بِهِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ رِيحَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال: ﴿إِن تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن نَّاصِرٍ ﴿٢٦﴾﴾ نَتْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا لَا يَغْفَىٰ فِيهَا إِلَٰهٌ سِوَى اللَّهِ يَتَوَقَّعُ الْكٰفِرِينَ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ ﴿٢٦﴾﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدخر لهم، مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عِبَادَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يَبُوءُونَ بِوَفَائِهِمْ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفرج: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعَدَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِوَاكَ ﴿١١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن كَمَا يَمِيرُ جَمْعًا لَّمَّا تَتَبَعُوا لَهَا تَتَبِعُوا زَوْجَكُمَا ﴿١١٢﴾ وَإِلَّا أَلْقَا مِنهَا مَكَانًا سَبِيحًا مَّقْرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١١٣﴾﴾

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَاذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا ﴿١٥﴾ [الفرقان: ١١ - ١٥]. ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها، ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذِي لَيْسَرِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعِينٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿أَكُلُوهَا ذَائِبًا وَظُلُمًا﴾ أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء. وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكفكت فقال: «إني رأيت الجنة - أو: أريت الجنة - فتناولت منها عقوداً، ولو أخذته لأكلت من ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يتفصونه». وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهداً لبعضه. وعن عتبة بن عبد السلمي: أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتقر». رواه أحمد. وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المشي، حدثنا علي بن المدني، حدثنا ربحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى». وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتفديس كما يلهمون النفس». رواه مسلم. وروى الإمام أحمد والنسائي، من حديث الأعمش، عن ثمامة بن عتبة، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه». وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشويماً». وجاء في بعض الأحاديث: أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان ياذن الله تعالى. وقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّهِمْ كَيْفَةٌ ﴿٣٦﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا تَمْرُوعٌ ﴿٣٧﴾﴾ [الرواقع: ٣٢، ٣٣]. وقال: ﴿وَأَوْدِيَةٌ عَلَيْهِمْ يُنْزَلُهَا وَأُولَئِكَ يَنْظُرُوهَا نُزُلًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإنسان: ١٤]. وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَرْجٌ مَطْمَئِنَّةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]. وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿وَظِلٌّ مُدْوِرٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الرواقع: ٣٠]. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عِشَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِشَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٦١﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحشر: ٤٢٠]. وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تُقبَلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]. والله لو عَجَل لكم الثواب في الدنيا لاستقلتمت كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة ﴿أَكُلُوهَا ذَائِبًا وَظُلُمًا تِلْكَ عِشَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِشَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٦٤﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْرَبُوا مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ يُبْرِكُمْ بَصُرَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُرْسِلْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَرْجِعُ ﴿٦٥﴾﴾ وكذلك أُرْسِلْتُ حَكْمًا عَرَبِيًّا وَإِلَيْهِ تَبَعَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَنْ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَكِيلٍ وَلَا وَاقٍ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْرَبُوا مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبيارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْرَبُوا مِنَ الْأَعْرَابِ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْمَعُ عَلَيْهِمْ يَحِزُونَ لِإِلْدِقَانِ سَجْدًا ﴿١٧﴾﴾

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفْعُولاً لا محالة، وكائناتاً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَحْشُرُونَ لِأَلَدَقَانٍ يَتَوَكَّرُ وَيَزِيدُهُمْ حُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَخْرَابِ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِبَيْعَتِ اللَّهِ تَمَتُّنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُرِثُ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِمْ﴾ أي: إنما بعثت عبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس، ﴿وَأَلِّهِمْ مَقَابِلَهُمْ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا عربيًا، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم، ﴿بَعَدَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: من الله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رُبٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على ما جاء بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا سُورَةَ آلِ يَسَّافَةَ مِنْ قَبْلِكَ وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ مِنْكَ قِسْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا سُورَةَ آلِ يَسَّافَةَ مِنْ قَبْلِكَ وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ مِنْكَ قِسْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا سُورَةَ آلِ يَسَّافَةَ مِنْ قَبْلِكَ وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ مِنْكَ قِسْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١١٠].

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال الله تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل الدسم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء». وقد رواه أبو عيسى الترمذي، عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ مِنْكَ قِسْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لم يكن يأتي قومهم بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدة مضرورية كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاک بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضرورية عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووكيع، وهشيم، عن ابن أبي ليلى، عن الجنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأنبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُرَرِّكَ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠] فيها يُفَرِّقُ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١١٠﴾ [الدخان: ٣، ٤]، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكن في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يُغَيَّرُ. وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأنبنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيم عضمة، عن أبي عثمان النهدي؛ أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

وقال حماد عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكَّيم، عن ابن مسعود، بمثله. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خضاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ (٣٦). ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به.

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن الله لو حأ محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من باقوت - والدفتان: لوحان - لله، ﷻ، كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبْقِين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير. وقال الكلبي: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، عن النبي ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب. وقال عكرمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ (٣٦) يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو - والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، فهو الذي يثبت. وروي عن سعيد بن جبیر: أنها بمعنى: ﴿فَيَقْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْرِثُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ﴾: كقوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفاً، ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فنمحو ونثبت ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم. وقال الحسن البصري: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فَذَهَبَ، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله. وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ قال: الحلال والحرام. وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين. وقال سُنَيْد بن داود، حدثني معتمر، عن أبيه، عن سيار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عليم الله، ما هو خالق، وما خلقه عاملون، ثم قال لعلمه: «كن كتاباً» فكانا كتاباً. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ قال: الذكر، والله أعلم.

﴿وَإِنَّمَا تَرْتَبِكُ بَعْضَ الَّذِي يَدْعُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَدِلَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١).

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنَّمَا تَرْتَبِكُ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي يَدْعُهُمْ﴾ أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَقَّعُكَ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَعَذَابُهُ

اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ لَنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴿٤٤﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ أَتَى الْأَرْضَ نَفْثَهَا مِنْ أَرْطِفِهَا؟﴾ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟ وقال في رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية؟ وقال مجاهد وعكرمة: ﴿نَفْثَهَا مِنْ أَرْطِفِهَا﴾ قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه، ولكن هو الموت. وقال ابن عباس في رواية: خرابها يموت فقهاؤها وعلماؤها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء. وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ، سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرثي بدمشق، أنشدنا أبو بكر الأجرى بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال نفسه:

الأرض تحيياً إذا ما عاش عالمها متى يمُت عالم منها يمُت طرفُ
كالأرض تخيياً إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التُّلُفُ
والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، وكفراً بعد كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله.

﴿وَلَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا بِمَا لَمْ يَكْتُفِبْ كُلُّ نَفْسٍ وَبِعَمَلِهِمُ الْكَثِيرِ لِيَنَّ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَمْكُرُونَ بِمَكَرِكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمْكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فأنظر كيف كانت عاقبة مكرهم أننا دمَرناهم وقومهم أجمعين ﴿٥١﴾ قِتْلِكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠-٥١]. وقوله: ﴿بِعَمَلِهِمُ الْكَثِيرِ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله. ﴿وسيعلم الكافر﴾ وقرئ: ﴿الْكُفْرُ﴾ ﴿لِيَنَّ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لاتباع الرسل؟ كلا، بل هي لاتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِمْ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِمْ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذوبون فيما تفترونه من البهتان. وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد. وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر في هذا ما قاله العوفي، عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى. وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الداري. وقال مجاهد - في رواية عنه -: هو الله تعالى. وكان سعيد بن جبّير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، ويقول: من عند الله. وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري. وقد روى ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات. قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم - وهو ضعيف - عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك. ولا يثبت، والله أعلم. والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَفَسَّخْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَخْلُفُ فِي الْبُرْجَانِ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الآية [الاعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَآئِنَةٌ أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَكَانُوا مُعْتَدِلِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ الآية [الشعراء: ١٥٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتاب جليل: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مفضل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأخبار

اليهود: إني أردت أن أجدد بمسجد أينا إبراهيم وإسماعيل عهداً. فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافقهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله، بمنى، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم. قال: «إذن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدني في التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدًا ۝﴾ [سورة الإخلاص]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتب إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لي أجدها، فألقيت نفسي، فقالت أمي: لله أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقي نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأنني أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث. وهذا حديث غريب جداً.



تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَعَاتُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ لِتُفْجِحَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْمَعْتَدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابِ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ الْحَبْرَةَ الذُّنُوبَ عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُوتَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي صَلَاحٍ بَعِيدٍ ۝﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿رَكَعَاتُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم. ﴿لِتُفْجِحَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿اللَّهُ وَبِئْسَ الْأُولَىٰ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يَخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مَائِدَةً يَنْتَظِرُ يَخْرِجُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْمَعْتَدِ﴾ أي: المعزب الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو الفاهر لكل ما سواه، ﴿الْمَعْتَدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتيان صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك. ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿وَيَبْغُوتَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحججة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، يفضل من

يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت حسماً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَكْفِيهَا أَنَاؤُا إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: وهي التسع الآيات. ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث قال: حدثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾، قال: «ينعم الله تبارك وتعالى». ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به. ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعمرة لكل صَبَّارٍ، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلي صَبْرًا، وإذا أعطي شُكْرًا. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عَجَبٌ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنجيتكم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعُونَ إِلَى اسفَاتِكُمْ وَسَتَجِدُونَ يَسَاءَ كُفْرَهُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١) وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُمْ لِيَن شُكْرُهُمْ لِأَزِيدَنكُمْ وَلِيَن كُفْرُهُمْ إِذْ عَدَّي لَشِيدٌ (٢) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَنفِي حَيْدٍ (٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعهم بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ مِلْسَتَاتٌ وَأَلْسِنَاتٌ لَّهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُمْ﴾ أي: أذنتكم وأعلمكم بوعدهم لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وألى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِيَعْمَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْآيَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿لِيَن شُكْرُهُمْ لِأَزِيدَنكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلِيَن كُفْرُهُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها. وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وفي المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فتمسَّخها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بآربعين درهماً، أو كما قال. قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصبيداني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - أو: وحش بها - قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبي إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها». تفرد به الإمام أحمد. وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو رزعة: لا بأس به. وقال أبو

حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمعين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ نَاظِرِينَآ أَنَاْ وَأَنَاْ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ ١٥ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا فَأِنَّكَ اللَّهُ عَنِّي عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَوَلَّوْا وَأَمْسَقَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٤٦]. وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، ﷻ، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر». فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قِبَلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْهُ بِهِ وَإِنَّا لَبِئْسَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَبٌ﴾ ١٦.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه. يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل. وفيما قال ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خير مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم إلا الله ﷻ أنتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال ابن إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان. وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمروهم بالسكوت عنهم، لما دعواهم إلى الله، ﷻ. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقاتدة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: في الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيْطٍ وَرَهْطِهِ عَنْ يَثْرِبِيسَ لَسْنَا زُغَبِ

يريد: أرغب بها. قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَبِئْسَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَبٌ﴾، فكان هذا والله أعلم تفسير لمعنى «رد أيديهم في أفواههم». وقال سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: قال: عضوا عليها غيظاً. وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرَةَ ابْنِ مَرْيَمَ، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَالِيَكُمْ الْأُنْيَالِ مِنَ النَّبِيِّ وَالْعَوْفِي، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَبِئْسَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَبٌ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عدنانا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَدْبَرُوا خُبْرًا قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّكُمْ لَشَاطِرُونَ مُّبِينٌ﴾ ١٧ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّكُمْ لَشَاطِرُونَ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ أَنْ يَخْلَقَ مَا يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا خَلْقًا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَيَنْزِلَنَّ عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ وَالنَّارُ الْمُنْتَظَّةُ ﴿١٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَيَنْزِلَنَّ عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ وَالنَّارُ الْمُنْتَظَّةُ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ أَنْ يَخْلَقَ مَا يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا خَلْقًا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَيَنْزِلَنَّ عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ وَالنَّارُ الْمُنْتَظَّةُ ﴿١٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَيَنْزِلَنَّ عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ وَالنَّارُ الْمُنْتَظَّةُ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟﴾ وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومحولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، ففتحناج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ الَّذِي خَلَقَهَا وَابْتَدَعَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالِ سَبْقٍ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحُدُوثِ وَالْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا، فَلَا بَدَلَ لَهَا مِنْ صَانِعٍ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَاللَّهُ وَمَلِيكُهُ. وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَفَى اللَّهِ سَكُتٌ﴾ أَي: أَفَى إِلَهِيَّتِهِ وَتَفْرُدِهِ بِوَجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مَقْرَعَةً بِالصَّنَاعِ، وَلَكِنْ تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَقْرِبُهُمْ مِنَ اللَّهِ زُلْفَى. وَقَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ: نَدْعُوكُمْ لِیَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ أَسْتَفْهِرُوا بِرَبِّكُمْ ثُمَّ تُلَاقُوا رَبَّكُمْ مَتَاعًا ضَآئِبًا إِلَّا لِمَنْ أَسْفَلُ مِنَ الْأَجَلِ مُسَمًّى وَرَبُّهُ كَلَّ ذِي قَبْلِ قَضَائِهِ﴾ [المراد: ٢٣]، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّبِينَ فِي مَقَامِ الرِّسَالَةِ، بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمْ لِلْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ: ﴿إِنْ أَسْرَأْنَا إِلَّا نَسْرًا نَبْتًا﴾ أَي: كَيْفَ تَتَّبِعُكُمْ بِمَجْرَدِ قَوْلِكُمْ، وَلِمَا تَرَى مِنْكُمْ مَعْجَزَةٌ؟ ﴿فَأَنْتُمْ أَسْأَلُنَا مُبْتَلًى﴾ أَي: خَارِقٌ نَقَرْتَهُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ لَهُمُ رُسُلُهُمْ: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أَي: صَاحِبٌ أَنَا بَشَرٌ مِثْلِكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنزِّلُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَي: بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبِيَّةِ ﴿وَمَا كَاكَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ ﴿إِلَّا بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ أَي: بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ، وَإِذْنَهُ لَنَا فِي ذَلِكَ، ﴿وَعَلَّ اللَّهُ قَلْبَكَ لِلزُّمُرَاتِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. ثُمَّ قَالَتْ الرُّسُلُ: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُنَوِّكُكَ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ أَي: وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبْيَنَهَا، ﴿وَلَمَّا بَشَّرْنَا عَلَىٰ مَا آدَّبْتُمُونَا﴾ أَي: مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ، ﴿وَعَلَّ اللَّهُ قَلْبَكَ لِلزُّمُرَاتِ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي بِلَادِنَا فَأَرْجَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣] ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَدْوِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِلَ وَعَدَا وَعِيدٍ﴾ [١٤] ﴿وَأَسْتَفْهِرُوا وَخَافَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] ﴿مِنْ دَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَنُفِثَ مِنْ مَاءٍ صَافٍ﴾ [١٦] ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسْمِعُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيعٍ وَبَصِيرٍ وَرَأَيْتُمْ عَذَابَ عَلِيٍّ﴾ [١٧].

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةَ رُسُلَهُمْ، مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَطْرَافِهِمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِصَغْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْبَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي بِلَادِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وَقَالَ قَوْمُ لُوطٍ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قَرِيْبٍ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزْنَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَسُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَكْفُرُونَ وَبَشَّرْنَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْبَشِيرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وَكَانَ مِنْ صَنْعَةِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجِنْدًا، بِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ، حَتَّىٰ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا، وَأَرْغَمَ آثَافَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ، وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ دَخَلَ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَدِينُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَدْيَانِ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أَيْسَرِ زَمَانٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْجَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُكَفِّرَنَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَدْوِهِمْ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَبْرَاهِيمَ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [المجادلة: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَدْوِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْمِعُوا بِلِلَّهِ وَأَصِرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَذِيرًا﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرُوقِ الْأَرْضِ وَمَعْرُوبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَتَتْ رُبُّكَ الْحَشِقَ عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِلَ وَعَدَا وَعِيدٍ﴾ أَي: وَعِيدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ يَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي، وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ [١٧] ﴿وَدَانَ لِنُفْسِهِ الدُّنْيَا﴾ [١٨] ﴿فَلَا يَرْجِعُ إِلَىٰ الْمَأْمُونِ﴾ [١٩] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ﴾ [٢٠] ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْمُونَةُ﴾ [التازعات: ٢٧ - ٤١]، وَقَالَ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [٢١] [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَأَسْتَفْهِرُوا﴾ أَي: اسْتَنْصَرَتْ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَىٰ قَوْمِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: وَاسْتَفْتَحَتْ الْأُمَمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهَا، كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أُمَّةً مِنْ عِبَادِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِسْمًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَتِقْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَرَادًا وَهَذَا مَرَادًا، كَمَا أَنَّهُمْ اسْتَفْتَحُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاسْتَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ وَاسْتَنْصَرَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنْ تَسْتَفْهِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ فَتْحٌ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الآية [الأنفال: ١٩]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿وَخَافَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أَي: مُتَجَبِّرٍ فِي نَفْسِهِ مَعَانِدٌ لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [٢٢] ﴿مَتَاعًا لِلْمَغْتَرِبِ مَغْتَرِبٍ﴾ [٢٣] ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَا فِي الدَّهَابِ النَّبِيدِ﴾ [٢٤] [ق: ٢٤ - ٢٦]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّهُ يُؤْتِي بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَنَادَى الْخَلَائِقَ فَتَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» الْحَدِيثِ. خَابَ وَخَسِرَ حِينَ اجْتِهَادِ الْأَنْبِيَاءِ فِي

الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر. وقوله: ﴿بَيْنَ رِجَالِهِمْ جَهَنَّمَ﴾: و «وراء» ههنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ رِجَالُهُمْ عَلَيْهِمْ يُخَافُونَ﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرأها: ﴿وكان أمامهم ملك﴾. أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد.

﴿رِسْقًا مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والتشنج، كما قال: ﴿هَذَا قِدْرُهُمْ جَبْرٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْزَاقٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]. قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم. وفي حديث شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» وفي رواية: «غصارة أهل النار». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بَرٍّ، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿رِسْقًا مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ بَجَرَعَةٍ﴾، قال: «يَقْرُبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُهُ، فَإِذَا أَدْنَى مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فِرْوَةٌ رَأْسَهُ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دَبْرِهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَثُورًا مَاءً حَمِيمًا فَفَقَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَيْبَسُوا بِعَاثِرًا يَمَكُو كَالْمُهْلِ يَشْوَى الْوُجُوهُ يَسُكُ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به. ورواه هو وابن أبي حاتم: من حديث بَقِيَّةَ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به. وقوله: ﴿بَجَرَعَةٍ﴾ أي: يتخصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فيه حتى يضره الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَكُمْ مَقْتَبِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيئُهُ﴾ أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطيع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يالم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال ميمون بن مِهْرَانَ: من كل عظم، وعرق، وعصب. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره. وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْنَنُ عَلَيْهِمْ قَبْرُهُمْ وَلَا يَحْفَتُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ كَفِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس، رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من هذا العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾. وقوله: ﴿وَيَمِينٌ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ الزَّقْمِ فِي أَرْضِ الْجَحِيمِ ﴿٤٦﴾ طَلْحُهَا كَأَنَّهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٤٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا الْقَائِلِينَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم، عباداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٢﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَبِيمٍ مَلُوفٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقْمِ ﴿٤٣﴾ طَلْعَامُ الْاَلْبِيبِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ ﴿٤٥﴾ كَمَلِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ عَذْوُهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا قَوْلَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَسِيرُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّيْطَانِ مَا أَصْحَابُ الشَّيْطَانِ ﴿٤١﴾ فِي سُورٍ رَجِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَيَلْبَسُونَ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرائعة: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَرَأْيُكَ لِلظَّالِمِينَ لَسْرٌ مِنْ رَبِّكَ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَ بِهَا يَمْسُكُ الْيَهُودَ ﴿٥١﴾ هَذَا قِدْرُهُمْ جَبْرٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْزَاقٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصىه إلا الله، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ عَلَى النَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْتَلَهُمْ كَرَامًا أَشَدَّتْ بِهِ الرَّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِنْهَا كَسْبًا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْاَلْبِيدُ ﴿٧٨﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْتَلَهُمْ﴾ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلها إلا كما يتحصل

من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرון على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْئَةً مِّنْهُنَّ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مَثَلٌ مَّا يَتَّبِعُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَاطَ حَرَّتْ قَوتِرَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكْنَاهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْتَغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً تَلَوْنَهَا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابٌ فَفَرَغَتْهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال في هذه الآية: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْجَبِيدُ ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أوحج ما هم إليه، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْجَبِيدُ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [١٩] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ .
يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد وواد وأوتاد، وبراري وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَتَلَفِهِينَ بَقْدِيرٍ عَلِيمٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشمس: ٧٧] وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَيْتِ عَلَقَهُمْ قَالِ مَنْ يُعْطِي الْعِلْمَ وَيُعْطِي رَيْبَهُمْ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُعْطِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتَهُ مِنْهُ تُؤْتُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ الَّذِي خَلَقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ فَسَمِعَ الَّذِي يَدْعُو يَكُونُ لَهُ مِن قَوْتِهِ وَإِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ ﴿٨٤﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣]. وقوله: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال: ﴿ وَإِلَٰهٌ تَتَوَلَّوْنَ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا مِّمَّنْ لَهُمْ كَيْدٌ فَهُمْ يُبْغُونَ ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَبِّدٍ مِنْكُمْ عَنِ يَدِهِمْ قَوْتٌ وَإِلَى اللَّهِ يَفْجُرُ جُحُومُهُمْ ﴾ [السناء: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ حِينًا فَقَالَ السَّمْعَوِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمْ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَجْرَعًا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴾ ﴿٢١﴾ .
يقول: ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ ﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا. ﴿ فَقَالَ السَّمْعَوِيُّ ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا ﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾؟ أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمْ ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَجْرَعًا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بكنائهم وتضرعهم إلى الله، ﴿ تَعَالُوا نَبِكَ وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَجْرَعًا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴾. قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهٌ يَتَخَوَّنُ فِي النَّارِ فَيَقُولُ السَّمْعَوِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنْ النَّارِ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْوَيْسَاءِ ﴿١٨﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَتَدْعُونِي فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا لَحْنٌ حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمُوهَا فِيهَا حِينًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لَأُدْنِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَسْأَلُونَا فَغَايِبُهُمْ عَدَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ أَخْرِجْنَاهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فَنُؤْفِكُمْ وَنُؤْفِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُصُّ بِحُجَّتِهِمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِرِهْنَا فَأَغْوَيْنَا سَبِيلًا

﴿١٧﴾ رَبَّنَا تَاتِبْهُمْ صَعِيدًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْمَتَّعْ لَنَا كَيْدًا ﴿١٧﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُوا مَوْتًا عِنْدَ رَبِّهِمْ رَجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا افْعَلْ سَدِّدْ نُكْرًا عَنِ الْمَلَكِ بَعْدَ إِذِ جَاءَكَ بِذِكْرِ كَثْرٍ تَحْمِيصِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارُ إِذِ تَأْمُرُونَا أَنْ نَعْبُدَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَدْنَاءًا وَأَسْرُوا النَّدْمَاءَ لَنَا رَأَوْنَا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزَبُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سبا: ٢١ - ٢٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَلَقَ رِعْدًا فَأَعْتَصَمْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِجِكُمْ إِلَىٰ كَفْرٍ يُدْعَىٰ بِمَا كُفَرْتُمْ إِنَّمَا أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ مِنْ قَبْلِ إِنْ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغناً إلى غنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَلَقَ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدهم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صادقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يُؤَدِّعُهُمْ وَيُؤَمِّنُهُمْ وَمَا يُؤَدِّعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوَةً ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٧٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، وهذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلَوْ مَوْأ أَنفُسِكُمْ﴾، فإن الذنب لكم، لكنكم خالفتهم الحجج واتبعتهم بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ﴾ أي: بنفاعي ومنفدكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنَا بِمُخْرِجِكُمْ﴾ أي: بنفاعي بإفقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ مِنْ قَبْلِ﴾. قال قتادة: أي بسبب ما أشرکتتموني من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله، ﴿وَالَّذِي قَالَ لَهُ الرَّاجِحُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَاهُمْ عُفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا خَيْرٌ لِّمَا كَانُوا لَهُمْ أَعْيَادًا وَكَانُوا يُبَادِيهِمْ كَيْفَ يَكُونُ ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿١٧﴾﴾ [مریم: ١٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دخين الحنجري، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلسي من أليب ریح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أتت ریح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَلَقَ رِعْدًا فَأَعْتَصَمْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسِكُمْ﴾. وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْنِ عَنْ عُقْبَةَ، بِهِ مَرْفُوعاً. وقال محمد بن كعب الفُرطَي، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحْجِرٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَلَقَ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَقَدْ أَتَىٰ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُنْعِرُونَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ فَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]. وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي مِنَ دُونِ اللَّهِ»، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَلْ يَبْعَثُ الْفَالِقِينَ صِدْقَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٩]، قال: ويقوم إبليس - لعنه الله - فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية. ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ما كثرين أبداً لا يحولون ولا يزولون. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَوُحِّتَ أَبُوْنَهَا وَقَالَ لَمْ تُحَرِّزْنَاهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

٢٣، ٢٤، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَرَّبْنَا فِيهَا خَيْبَةَ وَسَلَمَاءَ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ اعْلَمُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كُنْجَرٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا نَائِثٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّكَاةِ﴾ (٢٤) تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلَّ جَبِينٍ يَأْذَنُ رَيْبَهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كُنْجَرٌ خَبِيثَةٌ أَجْنَثٌ مِّنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كُنْجَرٌ طَيِّبَةٌ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا نَائِثٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّكَاةِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء. وهكذا رواه السُّدِّيُّ، عن مرة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة. وشعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس: هي النخلة. وحماة بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقتاع بُسْرَ فقال: «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هي النخلة». وروي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وقتادة وغيرهم. وقال البخاري: حدثنا غُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحاث ورقها ولا، ولا، ولا، تؤتي أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمركم: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا. وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمع حديثاً عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاني بجُمَارٍ. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فسكتُ، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه. وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». أخرجاه أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان - يعني ابن يزيد العطار - حدثنا قتادة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور! فقال: «أرايت لو عمد إلى متاع الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء». وعن ابن عباس: ﴿كُنْجَرٌ طَيِّبَةٌ﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلَّ جَبِينٍ﴾: قيل: عُذْوَةٌ وَعَشِيَاءٌ. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة. والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آتاء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين. ﴿يَأْذَنُ رَيْبَهَا﴾ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كُنْجَرٌ خَبِيثَةٌ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشربان». رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل. وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس - أحسبه رفعه - قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كُنْجَرٌ خَبِيثَةٌ﴾، قال: هي الشربان». ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن عُثْرَدِ، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كُنْجَرٌ خَبِيثَةٌ﴾ هي الحنظلة. فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع. ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به. ورواه أبو يعلى في مستنده بأبسط من هذا فقال: حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى

بقتاع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هي النخلة» **﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْرَةٍ مِنْ كَشَجَرَةٍ خَيْرَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾** (٢٦)، قال: «هي الحنظل». قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع. وقوله: **﴿أَجْتَنَّتْ﴾** أي: استوصلت **﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾** أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّلُ منه شيء.

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا يُنَّسَىٰ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عُبَيْدة، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: **﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**. ورواه مسلم أيضاً وبقِيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتھينا إلى القبر ولما يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود يتكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعذوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وخُطوب من خُطوب الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السَّقَاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخُطوب، ويخرج منها كأطيب نَفْحَة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها، يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عِلْبَيْن، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة - قال: فيأتيه من رُوحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله و«غَضَب». قال: «فتفارق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السُّفُود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأفج أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لَا تَقْعُ ظَهْرُ أُولَئِكَ أَنفَرًا وَلَا يَشُكَّرُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ حَتَّى يَلْبِغَ كَيْدُكَ فِي سَوَاءٍ لِيَأْتِيَهُمْ﴾** [الاعراف: ٤٥]، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً». ثم قرأ: **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَنَّهُ الظَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِه الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيءٍ﴾** [الحج: ٢٣]. فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّقُ عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعَد. فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة». ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن يونس بن خباب، عن الجُنْهَالِ بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، ﷻ، أن يعرج بروحه من قبلهم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً. ثم يعيده الله، ﷻ، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعا كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار. وقال سفيان الثوري، عن أبيه، عن خَيْثَمَةَ، عن البراء في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودي، عن عبد الله بن مُخَارِقٍ، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيشته الله، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد، به. وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْجٍ، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتأني القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجأك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراها كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا ذَرَيْتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار». قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه». إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد المخدري قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، فيقول له: صدقت. ثم يفتح له باباً إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فيفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له في قبره». «وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً. فيقول: لا ذَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ولا اهدتيت. ثم يفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، ﷻ، أبدلك به هذا. فيفتح له باباً إلى النار، ثم يَمْعَهُ قَمْعَةً بالمطراق يسمعا خلق الله، ﷻ، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾. وهذا أيضاً إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد، التميمي روى له البخاري مقروناً، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: «فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري

بحميم وعَسَاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء. فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب بنحوه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ كُنْتَ تَعْمُرُنِيهِ، فَيُنْتَظَرُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ﷺ، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه، قال حماد: وذكر من ثنتها وذكر مقمًا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ رِبْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أحمز، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الرياح الطيبة التي جاءت من قِبَل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهُم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فأتية ملائكة العذاب بمنسج فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ». وقد روي أيضاً من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فَيَسْأَلُ: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الْأَرْضِ تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه. فَيُنْبَغُ بِهَا الْأَرْضُ السُّفْلَى». قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجافية، وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبخة بضر موت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُسْحَاحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِينَ. ثم ينزل فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهل إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه. فتلتثم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْبِئُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ». قال: «ذاك إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ودينني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فأمنت به وصدقت. فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث». وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالوا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: «إن الميت ليسمع حقيق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل. فيؤتى من عند رجله فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل. فيقال له: اجلس. فيجلس. قد تمثلت له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك. فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ نسألوني؟ فيقال: أرايت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك خبيث، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويؤتى له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال

له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة وسروراً، ثم يجعل نسمة في التسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بديء منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. ورواه ابن حبان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال الزبار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - أحسبه رفعه - قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيؤذ لو خرجت - يعني نفسه - والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا. وإن المؤمن يجلس في قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربي الله. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيي. فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيفتح له باب في قبره، فيقول - أو: يقال -: انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَةً. وإذا كان عدُو الله نزل به الموت وعاین ما عاین، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره - أو: أجلس - يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري. فيقال: لا ذريت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب ضربة يسمعاها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينم المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره. ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حَجَّين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء - يعني بنت الصديق - رضي الله عنها، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أَحَفَّ به عمله: الصلاة والصيام»، قال: «فباتية الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث. وإن كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يَرُدُّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد. قال: يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. قال له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث. قال: وتسَلَطَ عليه دابة في قبره، معها سوط تَمَرْتِه جَمْرَةٌ مثل غَرَب البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه».

وقال العوفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَرَه الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشُوا مع جنازته، ثم صَلُّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في قبره مد بَصَره. وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة، فيسبطون أيديهم - والبسط: هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرُجِع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بُعِثَ إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له في ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك في النار لو رُغِت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: المسألة في القبر. وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيبثهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «نوادير الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فُذَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سُمْرَةَ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن

في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برؤه بوالديه فرد عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، كلما ورد حوضاً مُنِع منه، فجاءه صياحه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلاً من أمتي والنيبون قعود حلقاً حلقاً، وكلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجه من الظلمة وأدخله النور، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار أو شررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترأ على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وأدخله مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جائياً على ركبته، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، ﷻ. ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه وجله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يُرعد كما ترعد السَّعْفَة، فجاءه حسن ظنه بالله، فسكن رِغْدته، ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحيو أحياناً، فجاءته صلاته عليّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة». قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة. أورده هكذا في كتابه «التذكرة».

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثاً غريباً مطولاً فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم التُّكْرِي، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطي - وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبي مطيع - حدثنا بكر بن حُنَيْس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الداري، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله، ﷻ، لملك الموت: انطلق إلى وليي فأتني به، فإني قد ضربته بالسراة والضراء، فوجدته حيث أحب. انتني به فلأريحته. فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحُوط من الجنة، ومعهم ضيائر الرِّيحان، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسُط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويفتح له باب إلى الجنة، فإن نفسه لتَعَلَّل عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجا مرة ومرة بكسواتها ومرة بشمارها، كما يَعَلَّل الصبي أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً». قال: «وتنزوا الروح». قال البرساني: يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب. قال: «ويقول ملك الموت: اخرجي يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلع منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولمَلِك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحبباً لديه رضاء للرب عنه، فتَسَلُّ روحه كما تسلم الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، ﷻ: ﴿الَّذِينَ نُوَلِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٢٧]» وقال: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتْرِبِينَ ﴿١٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَبِيْرُ ﴿١٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عني خيراً، فقد كنت سريعاً بي إلى طاعة الله، بطيئاً بي عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك». قال: «وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطبع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم، وحُوط قبل حنوط بني آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تصدع منها عظام جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبداً معصوماً». قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة

صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، حَزَرَ الروح ساجداً». قال: «يقول الله، ﷻ، لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «فإذا وضع في قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاء القرآن فكان عند رأسه، وجاء مشيه إلى الصلاة فكان عند رجله، وجاء الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فبيعت الله، ﷻ، عُنُقاً من العذاب». قال: «فياثيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره». قال: «فياثيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يآثيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يآثيه من عند رجله، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يآثيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساعاً إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته». قال: «فيتنقم العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أنني نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان». قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصيافي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين مَنْكِب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نرعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليهما ربعة ومضر لم يَقْلُوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوي جالساً». قال: «وتقع أكفانه في حَقْوِه». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟». قال: قالوا: يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكِين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُيَسِّرُ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُصَلِّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَمَا يَشَاءُ اللَّهُ﴾. قال: «فيقول ربي الله وحده لا شريك له، ودينني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعين ذراعاً، وعن شماله أربعين ذراعاً، ومن خلفه أربعين ذراعاً، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً، ومن عند رجله أربعين ذراعاً». قال: «فيوسعان له مائتي ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعاً تحاط به. قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولي الله، هذا منزلك إذا أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولي الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يآثيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، ﷻ، وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك الموت: انطلق إلى عدوي فآثني به، فإنني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي، فآثني به لأنتقم منه». قال: «فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطُّ، له اثنتا عشرة عيناً، ومعه سفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجمر من جمر جهنم، ومعهم سباط من نار، لينها لين السياط وهي نار تأحج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه لياً شديداً». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» في عقبه ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبه، فيلقيها في ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذنقه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجني أيها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُومٍ وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عني شراً، فقد كنت سريعاً بي إلى معصية الله، بطيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار».

قال: «فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، حتى تدخل اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعي دهماً كأعناق الإبل يأخذن بأرنبته وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه». قال: «ويبعث الله

ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنبياهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكبتي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعتهما الرفقة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوي جالساً» قال: «وتقع أكفانه في حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا تليت». قال: «فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا - عدو الله - منزلك لو أطعت الله». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً». قال: «فيقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً». قال: «وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار، يأتيه من حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي - رواه عن أنس - له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم. ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن عبد الله بن بحير، عن هانيء مولى عثمان، عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالثبث، فإنه الآن يسأل». انفرد به أبو داود. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَكَ إِذِ الْكٰفِرِيْمُوْنَ فِيْ غَمْرٰتِ الْكُوْنِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ بٰسِطُوْا اَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاک، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً.

﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا وَّاسْلٰوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [٢٨] ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَ بِهَا وَيَسْكُنُ الْفَكَرٰرُ﴾ [٢٩] ﴿وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ اٰنْدَادًا لِّيُضِلُّوْا عَن سَبِيْلِهِ قُلْ تَتَّبِعُوْا اِنَّا مِمِّسِكُمْ اِلَى النَّارِ﴾ [٣٠].

قال البخاري: قوله: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿اَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوْا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، و ﴿قَوْمًا بُرًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٧]: هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جيلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار. وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا وَّاسْلٰوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر. حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام - هو الصيرفي - عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيث قال: قرأت على مغفل، عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال العدوي في قوله: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهي جهنم. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَسْلٰوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فاهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتنعوا إلى حين. ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن علي، نحوه، وروي من غير وجه عنه. وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، في قوله: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتنعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا وَّاسْلٰوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش:

أخوالي وأعمامك فاما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملئ الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقناة بن زيد: هم كفار قریش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَمَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدهم معه، ودَعُوا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهذَّباً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرجعكم وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُفِيتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتَهُمْ لَكُمْ عَذَابٍ غَلِيظًا﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَّعَ فِي الذُّنُوبِ ثُمَّ إِذْ يَسْتَأْذِنُ مِنْهُمْ تُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِمَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ لِلصَّلَاةِ وَتُذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يبيح فيه ولا حلال ﴿٣١﴾. يقول تعالى أمرأ العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها. وأمر تعالى بالإتفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْتَلَى﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن يتباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَخْتَلَى﴾ قال ابن جرير: ليس هناك مخاللة خليل، فيصنع عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلاناً، فانا أخاله مخاللة وخلال»، ومنه قول امرئ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّؤْيَى
وَلَسْتُ بِمُفْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالِي

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا يبيعاً وخلاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان الله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه. قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً يبيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ فِيهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْاَنْهَارَ﴾ [٣٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وسَخَّرَ لَكُمْ الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَسْأَلُوهُ يَنْتَهَى إِلَهُ لَ تَحْصُرُوهُمَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلْبُومٌ كَفَّارٌ﴾ [٣٤].

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ههنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي: يسيران لا يقران ليلاً ولا نهاراً، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اَلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يَنْفِئُ اَلَيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ سَخَّرْتِ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ اَلْحَقُّ وَالْاَلَهُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يُولِجُ اَلَيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اَلَيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَهُ تَجَلَّى مُسْتَوًى وَرَأَى اللهُ يَمَّا تَمَلُّونَ خَيْرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَكْبُرُ اَلَيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْبُرُ النَّهَارُ عَلَى اَلَيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَهُ تَجَلَّى مُسْتَوًى﴾ [الزمر: ٥١].

وقوله: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم ممن تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه. وقرأ بعضهم: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوهُ يَنْتَهَى إِلَهُ لَ تَحْصُرُوهُمَا﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن

يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفوفي ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا». وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر نعمه - أحسبه. قال: في ديوان النعم -: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تتخى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال - ووهبت لك نعمي». غريب، وسنده ضعيف. وقد روي في الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لهالة
لكن ما زاد شكري إذ شكرت به
ثم نفي عليك بما أوليت من حسن
إليك أبلغ في الإحسان والمنن
﴿وَأَلَّا يَأْتِيَهُمْ رَبِّي أَعْمَلُ هَذَا الْبَلَدَ أَيْمَانًا وَأَجْتَنِي وَيَقُولُ مَنْ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْآثَارِ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، أهلة تبرا ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ أَعْمَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَيْمَانًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُومًا وَنَحْنُ عَلَى الْكُفْرَانِ ﴿٣٧﴾﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾﴾. في أيتها بيتك مقام إلهي ومن دخله كان آمناً ﴿٣٩﴾﴾ قال عمران: ٩٦، ٩٧، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ أَعْمَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَيْمَانًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ أَعْمَلْ هَذَا بَلَدًا أَيْمَانًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً. وقال: ﴿وَأَجْتَنِي وَيَقُولُ مَنْ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلانق من الناس وأنه بريء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِنْ قَدِّمْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادَةٌ وَإِنْ تَقَرَّرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجوز وقوع ذلك. قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْآثَارِ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ قَدِّمْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادَةٌ وَإِنْ تَقَرَّرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٠﴾﴾ ورفع يديه، ثم قال: «اللهم أمي، اللهم أمي، اللهم أمي»، وبكى فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك؟ فأناه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: قال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سرضيك في أمك ولا نسووك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّي عَزِيذٍ وَإِنِّي عَزِيذٌ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَجَعَلْنَا آفَئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْتَقَاهُمْ وَمِنَ الْآفَئِدَةِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورجية إلى الله، ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده. ﴿فَجَعَلْنَا آفَئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «آفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاخص به المسلمون. وقوله: ﴿وَارْتَقَاهُمْ مِنَ الشَّكْرِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَإِنِّي عَزِيذٌ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَرَ أَنَّ الْوَالِدِينَ كَانُوا يُفَكِّهُونَ أَبْنَاءَهُمْ لِئَلَّا يُفَكِّهُوا عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَجْرُهُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْوَعْدَ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ يُوَفِّهِهُ اللَّهُ عَزْزَ وَجَلَّ﴾ [النساء: ٦].

إِلَيْهِ فَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نَحْنِي وَمَا تَعَلَّمْتُ وَمَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيَامًا مِّنَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نَحْنِي وَمَا تَعَلَّمْتُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء. ثم حمد ربه، ﴿اللَّهُ﴾، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾، أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيَامًا مِّنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ أي: فيما سألتك فيه كله. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: ﴿ولوالدي﴾، على الأفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، ﴿اللَّهُ﴾، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله أعلم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا تَعْمَلُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا يُخِزُّهُمْ لِیَوْمٍ تَنْخَسُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٣﴾ مُهْطِعِينَ مُنْقِبِينَ رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَتُهُمْ وَأُنقِبَتُّهُمُ هَوَاءٌ ﴿٤٤﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا إِلَهُ الْعَالَمِينَ﴾.

يقول تعالى شأنه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَفِيلاً عَمَّا تَعْمَلُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: لا تحسبه إذ انظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عدّاً، أي: ﴿إِنَّمَا يُخِزُّهُمْ لِیَوْمٍ تَنْخَسُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأحوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى النَّارِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القدر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْبُيُوتُ كَالْعِزَابِ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهَا طَرْفَةٌ وَأَنْقِبَتُّهُمُ الْأَعْيُنُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٥٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَعَسَتْ الْأَوْدُنُ لِحَيِّ الْقَبْرِ وَقَدْ حَابَ مِنْ حَمَلٍ غُلًّا ﴿١٥٩﴾﴾ [طه: ١٥٨ - ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرْكَبُهَا كَأَنَّهُمْ إِلَهٌ نُصِبُوا نُصُوبًا ﴿١٦٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]. وقوله: ﴿مُنْقِبِينَ رُؤُوسِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم. ﴿يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَتُهُمْ﴾ أي: بل أبصارهم طائفة شاخصة، يديمون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأُنقِبَتُّهُمُ هَوَاءٌ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَاءٌ﴾: خراب لا تعي شيئاً. ولشدة ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا إِلَهُ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْلَمْ تَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن ذُرِّيَّتٍ وَأَنَّكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَكُم بَأْسٌ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا أَن نَّسْأَلَهُمْ لَكُم بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَ بِهَا أَن قَاتِلُوهُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ أَكْبَرُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن ثَلَاثِ آيَاتٍ: الْأُولَى أَن يُقَالُ لِمَ لَمْ تُدْعَوْنَ لِلْقِيَامَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَوْلَا تَفَضُّلُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَأَكْبَرْنَا بِكُمْ وَلَكِن لَّا نَدْعُوهُمُ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْآخِرَةُ أَن يُقَالُ لِمَ لَمْ تُدْعَوْنَ لِلْقِيَامَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَوْلَا تَفَضُّلُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَأَكْبَرْنَا بِكُمْ وَلَكِن لَّا نَدْعُوهُمُ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْأُولَى أَن يُقَالُ لِمَ لَمْ تُدْعَوْنَ لِلْقِيَامَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَوْلَا تَفَضُّلُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَأَكْبَرْنَا بِكُمْ وَلَكِن لَّا نَدْعُوهُمُ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قبيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن رَّبِّهِمْ بَرَكَةٌ إِنَّ رَبِّي لَبِيعُوتُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١﴾ وَأَلْفَاظًا مِّن مَّا رَفَعْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّي لَوْلَا أَلْحَقْتَنِي إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا بَلَيْتْنَا رَبُّهُ وَلَا كَذِّبَ يَدَايَ رَبَّنَا وَكُنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُم مَّا كَانُوا يَحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوهُمَا لَمَادُوا لِبَاسِهِمْ عَلَيْهِمْ لَكِذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَصْطِرْحِقْ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُحَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْآذَانُ فَرَدُّوهُمَا لِّلظٰلِمِينَ فَمَا لِّلظٰلِمِينَ مِن نّٰصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [طافر: ٣٧]. وقال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا

أَنْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٧﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَن يُمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٨﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللتنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقفنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةٌ بَيِّنَةٌ فَمَا تُحِنُّ أَلْسِنُكَ﴾ [القم: ٥٥]. وقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن داوود بن علي، رضي الله عنه، قال في هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه تسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا. قال: فأرثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت قال: - ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم - قال: فطارا قال: وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صَوَّبَ الْعَصَا، فصوبها، فهبط. قال: فهو قول الله، ﷻ: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: ﴿وَإِن كَادَ مَكْرَهُمْ﴾.

قلت: وكذا زوي عن أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، أنهما قرآ: ﴿وَإِن كَادَ﴾، كما قرأ علي. وكذا رواه سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان، عن علي، فذكر نحوه. وكذا زوي عن عكرمة أن سياق هذه القصة للتمرد ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فجزأ وضعفا، وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر. وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي: أيها الطاغية: أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصوبت النسور، ففزعت الجبال من هذتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها: ﴿لَتَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، بفتح اللام الأولى، وضم الثانية. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول من الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم. قلت: ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَانَ تَبَاقُ الْجِبَالُ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكْذَابُ السَّمَوَاتِ يَنْظُرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَأُ الْأَرْضُ وَيَخِرُّ لِلْجِبَالِ هَدًّا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٥٠﴾، وهكذا قال الضحاك، وفتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدَهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾. يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدَهِ رُسُلَهُ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء، وأراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿قَوْلًا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الطور: ٢١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرفة التقي، ليس فيها معلّم لأحد». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجه، من حديث داود بن أبي هند، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أحمد أيضاً، عن عفان، عن وهيب، عن داود، عن الشعبي، عنها. ولم يذكر مسروقاً. وقال فتادة، عن حسان بن بلال المزني، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قال: قالت: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي، ذلك أن الناس على جسر جهنم». وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَبِيمًا وَقُبُورُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم».

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألتني عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة». ورواه أحمد، عن عفان، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به. وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الخُلَواني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد - يعني: أخاه - أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو أسماء الرُّحَيْبِي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه خبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ يعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تُخفِّتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعاً فعَلَا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أثنا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به».

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: أتى النبي ﷺ خبر من اليهود فقال: أرايت إذ يقول الله في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به. وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل - فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياماً حتى يُلجِمهم العرق. وروي من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زر، عن ابن مسعود، به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. وأورد ذلك كله ابن جرير. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبيد بن عَقِيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عَثَاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله، ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوي. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان، عن جابر الجعفي، عن أبي جَبْرِ، عن زيد قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألتهم فقالوا: تكون بيضاء مثل الثَّيْبِي. وهكذا روي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن علي، رضي الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسماوات ذهباً.

وقال الربيع: عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: تصير السماوات جناناً. وقال أبو يعشر، عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: تبدل خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم. وكذا زَوَى وَكَيْع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه. وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: الأرض كلها يوم القيامة نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويُلجِم الناس العرق، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب. وقال الأعمش أيضاً، عن المُنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه

الحساب. قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾، قال: تصير السموات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها. وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حجاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً - أو: تحت النار بحراً». وفي حديث الصور المشهور المروري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيسطها ويمدها مد الأديم الكماطي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة». وقوله: ﴿وَيَبْرزُوا لِلَّهِ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَجِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الأبواب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فِطْرَانٍ وَتَقَنَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجروا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿أَخْتَرُوا لِبَيْنَ عَلَمًا وَأَرْوَاهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا الْقُرُوءُ وَجَّتْ ﴿٤٩﴾﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا الْقُرُوءُ وَجَّتْ مَكَانًا صَبِيحًا مُّقَرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَانٍ وَعَوَاسِ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَيْرٌ مَّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥١﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. والأصفاة: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

فَأَبَا بِالشَّيَابِ وَبِالشَّبَابِ وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فِطْرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من فطران، وهو الذي تُهنا به الإبل، أي: تطفى، قاله قتادة. وهو الصق شيء بالنار. ويقال فيه: «فطران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين

الطاء، ومنه قول أبي النجم:

كَأَنَّ قَطْرَانَنَا إِذَا تَلَامَا تَزْمِي بِهِ الرِّيحَ إِلَى مَنَاجِرَاهَا

وكان ابن عباس يقول: القَطْرَانُ هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: ﴿سَرَابِلِهِمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقاتدة. وقوله: ﴿تَقَنَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلَفَّحَ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يتركن: الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تنب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من فطران، ودزع من جرب». انفرد بإخراجه مسلم. وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تنب، توقف في طريق بين الجنة والنار، وسرابيلها من فطران، وتغشى وجهها النار».

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]. ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِمَثَلِكُمْ إِلَّا كَفَتْ يَدُ وَاحِدَةٍ﴾ [القمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿مَنْذًا يَلْعَقُ لِلنَّاسِ وَيَسْتَدْرَأُ بِهِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيَذَكِّرُ أَتْلُؤًا الْأَلْتِبِ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِيَذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَقُ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الَّذِي كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيَسْتَدْرَأَ بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُونَ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيَذَكِّرَ أَتْلُؤًا الْأَلْتِبِ﴾ أي: ذوو العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَّانٍ تُوخِّدُونَ ﴿١﴾ ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَرَتَمَتُوا وَيَلْهَمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُرُونَ ﴿٣﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله: ﴿ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا. ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار لما عرضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِخُ نَافِثَاتُ الْفِئْتَانِ يَنْزِفْنَ مِنَ الْأَثْمَانِ كَغُلَابٍ مُّتَّبِعِينَ ﴿٢٧﴾﴾. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار. وقال ابن جرير: حدثنا المشني، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي قزوة العبدي؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كانوا يتأولان هذه الآية: ﴿ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، يتأولونها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: ﴿ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا روي عن الضحاك، وقتادة، وأبي العالية، وغيرهم.

وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، حدثنا صالح بن إسحاق الجهيد، دلي عليه يحيى بن معين، حدثنا مَعْرَفُ بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقبهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمّون فيها الجهنميين». فقال رجل: يا أنس، أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. ثم قال الطبراني: تفرد به الجهيد.

الحديث الثاني: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحسن الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَّانٍ تُوخِّدُونَ ﴿١﴾﴾ ذُبَابًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو روق - واسمه عطية بن الحارث - حدثني صالح بن أبي طريف قال: سألت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل سمعت

رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿١﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نعمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة لهم فتشفع الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢﴾»، فيسمون في الجنة الجهنميين، من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم.

الحديث الرابع: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد الثرسي، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حوزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مئتي ألف سنة من الدنيا منذ خلقتم إلى أن تفتى، فإذا أراد الله أن يخرجها منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣﴾».

وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا﴾: تهديد لهم شديد، ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَشَبَّهُوا قَبِيلًا إِنَّكُمْ بِعُجْرَتِكُمْ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيَهُمُ الْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَمَانُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ مَلُومًا﴾ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٥﴾.

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحججة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك. ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٦﴾ لَوْ مَا آتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي يدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْ مَا آتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ﴾ أي: هلاً ﴿آتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال فرعون: ﴿فَقُلْ لَأَنْزِلُنَّ عَلَيْكَ آيَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَمَّةٍ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ يَوْمَ نَزَّلْنَا الْمَلَكَةَ لَا تَشْرَبُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٢﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٩﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَأَلَّهُ يَصْصَلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله في تكذيب من كذب من كفر قريش: أنه أرسل من قبلة في الأمم الماضية، وأنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١﴾: يعني: الشرك. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء واتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا لَمْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا

بذلك، بل قالوا: ﴿شَكَرَتْ أَبْصَرْنَا﴾. قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا. وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شُبه علينا، وإنما سحرنا. وقال الكلبي: عميت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿شَكَرَتْ أَبْصَرْنَا﴾، السكران الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَافِظَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ فَنَظَرْنَا عَنْهَا وَنَجَّيْنَا الْعَيْنَ مِنَ النَّظَرِ ﴿١٨﴾ وَمَا يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْغَمْرُ مِنْ أَدْنَى السَّمَاءِ بَلَىٰ أَلْهَىٰ أَبْصَارَهُمْ وَعَمَّ أَصْحَابَهُمْ ﴿١٩﴾ وَتَوَلَّىٰ وَرَاءَهُمُ الْمَلَائِكَةُ نَقُودِيَّةً ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَتَمَنَّ كَيْدًا أَنْ يَلْمِزَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْ طَاعَتِنَا أَلْفُ مَلَكَةٍ أَوْ مِائَةُ مَلَكَةٍ أَوْ مِثْقَلٌ ذِرْوَيْ عِلْمٍ فَإِنَّهُمْ مُسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَلْمِزُهُمْ فِي طَاعَتِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ وَمَا يَفْقَهُوا شيئا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا فَهُمْ مُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّهُمُ بِهِمْ لَخَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما رُزِّقها به من الكواكب الثواب، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وفتادة: البروج ههنا هي: الكواكب. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج ههنا: هي قصور الحرس. وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين، لئلا يسمعوها إلى الملا الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه ﴿سَهَابٌ مُنِيرٌ﴾ فأتلفه، وربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان يَفْذُهُمْ ذلك، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فَفَرَّجَ بين أصابع يده اليمنى، نُصِبَها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يَرْمِي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سمعت من السماء».

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عتيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وفتادة. ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما تزنه أهل الأسواق. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقِينَ ﴿٢٤﴾﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم في الأرض في صنوف من الأسباب والمعاش، وهي جمع معيشة. وقوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقِينَ﴾: قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد أنه، تعالى، يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى. وقوله:

﴿وَإِنْ يَنْ شَاءِ اللَّهُ إِنَّا جَمَعْنَا لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْ طَاعَتِنَا أَلْفُ مَلَكَةٍ أَوْ مِائَةُ مَلَكَةٍ أَوْ مِثْقَلٌ ذِرْوَيْ عِلْمٍ فَإِنَّهُمْ مُسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَلْمِزُهُمْ فِي طَاعَتِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ وَمَا يَفْقَهُوا شيئا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا فَهُمْ مُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّهُمُ بِهِمْ لَخَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على وجه الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً ههنا، و عاماً ههنا. ثم قرأ: ﴿وَإِنْ يَنْ شَاءِ اللَّهُ إِنَّا جَمَعْنَا لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٢١﴾﴾. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما كان في البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحْضُونَ كل قطرة حيث تقع وما تنبت. وقال البزار: حدثنا داود - وهو ابن بكر الشُّثري - حدثنا حبان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان». ثم قال: لا يرويه إلا

أغلب، ولم يكن بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: تلتح السحاب فتدبر ماء، وتلفح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردا، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيتين فصاعداً. وقال الأعمش، عن الميّمثال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة. وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحها، فيمتلىء ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المباشرة فتقوم الأرض فما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلفح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾. وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المهزوم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس». وهذا إسناد ضعيف. وقال الإمام أبو بكر بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جعدي الليثي: أنه سمع عبد الله بن يخزاق، يحدث عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح يسبح سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأريزب، وهي فيكم الجنوب». وقوله: ﴿فَلْيَسْتَكْفُرُوا﴾ أي: أنزلناه لكم عذباً يُمَكِّنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاباً. كما ينه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة» [٧٠-٦٨]، وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَكُمْ بَحْرَيْنِ﴾: قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وبنابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليقبى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُؤْتِي﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ [٧١]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مزوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ [٧٢]. وقد ورد في هذا حديث غريب جداً، فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرثي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأة - قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلها قط - وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا - يعني: لثلا يراها - وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ [٧٢]. وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني. وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة و ﴿الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر. وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم. وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ [٧٣]، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾: الميت والمقتول و ﴿الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾: من يُخلَق بعد، ﴿وَأَن رَّبَّكَ هُوَ بِمَشْرِئِهِمْ عَلِيمٌ﴾ [٧٤]، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ﴾ [٧٥] وَكَلَّمَا تَخَلَّقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ [٧٦].

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال ههنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقولہ تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المتنن. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر:

رَأَى نَفْسِي فِي مَزْمَرٍ مَسْنُونٍ خَاصَرْتَهَا إِلَى الثُّقْبَةِ الْخَضِ

أي: أملس صقيل. ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المتنن. وقيل: المراد بالمسنون ههنا: المصبوب. وقوله: ﴿وَالجَّانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل. وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ: ﴿وَالجَّانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧). وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد في الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من نار، وخلق بنو آدم مما وصف لكم» ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مآخذته.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (١٤) ﴿إِذْ أَسْرَأْتُهُ وَفَقَحْتُ يَدِي مِنْ رُوحِي فَقَعَا لَهُمْ سَجِيدٌ﴾ (١٥) فَسَجَدَ الْمَلَكَةَ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَا أَيْدِي مَا لَكَ أَلَّا تَكُونِ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآتِيَنَّكَ دَرَجَتَهُ إِلَّا فَلَيْلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا سويته فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. قالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين. وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَاطْرَجْنَا بِهَا وَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٢٢) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٥﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٦﴾

يقول امرأ لإبليس امرأ كونيأ لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم. وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مراد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿قَالَ رَبِّ يَا اغْوَيْتَنِي لِأَلْسِنَتِي لَهْمٌ فِي الْأَرْضِ وَالْأَغْوَيْتَنِي أَجْمَعِينَ﴾ (٢٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءَجَةٌ أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُرَّةً مَقْسُومًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿يَا اغْوَيْتَنِي﴾: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما اغويتني وأضللتني ﴿لَأَلْسِنَتِي لَهْمٌ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، ﴿وَالْأَغْوَيْتَنِي﴾ أي: كما اغويتني وتذرت على ذلك، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧﴾، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآتِيَنَّكَ دَرَجَتَهُ إِلَّا فَلَيْلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمَرَّضَاتِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ قَبِيضَ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ١٩]. وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ فِي أَرْكَانِ كِتَابٍ لَدَيْنَا لَعَلَّكُمْ تَحْكُمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى. وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب، حدثنا يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبيه ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني: إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقال عدو الله: رأيت الذي تعوذ منه؟ فهو هو. فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال: فردد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول: ﴿وَلَمَّا يَبْزُغَنَّكَ مِنَ السُّجُودِ تَرَاعُ قَاسِتَوَيْدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعدت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني. فقال النبي: «أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟» قال: أخذه عند الغضب والهوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْجِدٌ أَعْمَى﴾ [١٣] أي: جهنم موجد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ يَمَسُّهُ الْآخِرَآبُ فَاتَّخَذَ مَوْجِدٌ﴾ [مرد: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذلك بقدر فعله. قال إسماعيل بن علية وشعبة كلاهما، عن أبي هارون العنوي، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون: أطباقاً بعضها فوق بعض. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن علي، رضي الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً. وقال قتادة: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: وهي والله منازل بأعمالهم. رواه ابن جرير. وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرَجَى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً. وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغول، عن جُنَيْد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمي - أو قال: على أمة محمد». ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني: ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نصر، عن سمره بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

﴿إِنَّ السُّجُودَ فِي حَسَنَةٍ وَبُخْرِينَ﴾ [١٥] أَتَّخَلَّوْهَا بِسَلْمٍ وَأَبْيَيْنَ [١٦] وَوَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَيْرِ الْإِنْفِرَاتِ عَلَى سُورٍ مُّقْتَدِلِينَ [١٧] لَا يَسْهَمُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِبُخْرِينَ [١٨] نَزَّ عِبَادِي أَفَى أَنَا الْعَفُورُ الرَّجِيمُ [١٩] وَأَنَّ عِبَادِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٢٠].

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿أَتَّخَلَّوْهَا بِسَلْمٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿أَبْيَيْنَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء. وقوله: ﴿وَوَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَيْرِ الْإِنْفِرَاتِ عَلَى سُورٍ مُّقْتَدِلِينَ﴾ [١٧] روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ: ﴿وَوَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَيْرِ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن - في روايته عن أبي أمامة - ضعيف. وقد روى سُئَيْد في تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غل، حتى

ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يُخَلِّصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبِسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، مِثْلَ مَا كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَتَقَوَّا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: استأذن الأشرع عليّ رضي الله عنه، وعنده ابن طلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضريري، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخل عمران بن طلحة عليّ رضي الله عنه، بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخواناً! فقال عليّ رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله. وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله الجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربيعة بن خراش، عن عليّ رضي الله عنه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به عليّ صيحة، فظننت أن القصر تدهه لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هو؟ وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة - وذكره - فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه عليّ رضي الله عنه، فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم تكن نحن؟ وقال سفيان الثوري: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرير قاتل الزبير يستأذن عليّ رضي الله عنه، فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم. فقال عليّ: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليّ رضي الله عنه، بنحوه. وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سمع الحسن البصري يقول: قال عليّ: فينا والله - أهل بدر - نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وقال كثير النواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن عليّ فقلت: وليبي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربكم. إني أسألك بالله: أتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْكَاهِنِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما يا كثير، فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) قال: أبو بكر، وعمر، وعليّ رضي الله عنهم أجمعين. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، في الله، ينظر بعضهم إلى بعض. وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَسَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِتَنَابُؤِهِمْ﴾، كما جاء في الحديث: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظنموا أبداً»، وقال الله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْدَأُ آتَى أَنَا الْعَفْوَ الرَّجِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَدَائِي هُوَ الْعَدَاةُ الْأَلِيمُ (٥٠) أي: أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عقاب أليم. وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقام الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿يَوْمَ يَبْدَأُ آتَى أَنَا الْعَفْوَ الرَّجِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَدَائِي هُوَ الْعَدَاةُ الْأَلِيمُ (٥٠)، رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل. وقال ابن جرير، حدثني المنثي، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقري، فقال: «إني لما

خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿٤٩﴾ نَبِيَّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْعَفُورُ الرَّجِيضُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَدَايَ هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيْسُ ﴿٥٠﴾. وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿٤٩﴾ نَبِيَّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْعَفُورُ الرَّجِيضُ ﴿٤٩﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه».

﴿وَيَنْهَيْهُمْ عَنْ صَيْفِ إِزْهِيمٍ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئْنَا بِبَشِيرٍ وَإِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٢﴾ قَالَ أَشْرَطْنَا مِنْهُ عَنَ أَنْ سَمِعَىٰ الْكِبْرَ يَدَ بُشِّرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٥﴾﴾. يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿صَيْفِ إِزْهِيمٍ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسفر - وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئْنَا بِبَشِيرٍ﴾ أي: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الحنيد. ﴿قَالُوا لَا تَوَجَّلْ﴾ أي: لا تخف، ﴿وَبَشِّرُهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم في سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي عَنَ أَنْ سَمِعَىٰ الْكِبْرَ يَدَ بُشِّرُونَ﴾، فأجابوه مؤكداً لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وقرأ بعضهم: ﴿الفنطين﴾ - فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسئت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَا لَوْ لُوِطُ إِنَّا لَمُنشِقُومُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُوهُ فَرْدًا إِنَّمَا كَيْفَ الْعَنِيَّةِ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُوهُ فَرْدًا إِنَّمَا كَيْفَ الْعَنِيَّةِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ شٰكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَكِيدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ شٰكِرُونَ﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ يعنون: بعدابهم وهلاكهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿وَأَيُّنَا لَمَكِيدُونَ﴾: تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، والله أعلم.

﴿فَأَمْرٌ بِأَيْدِيكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْتُمْ أَدْبُرَهُمْ وَلَا يَلْتَمِئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَصَبْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذٰلِكَ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقية، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَمِئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل. ﴿وَقَصَبْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَذٰلِكَ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [مود: ٨١].

﴿رَبِّمَا أَمَلُ الْمَدِينَةَ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَذٰلِكَ صَبِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْتُمْ اللَّهُ وَلَا تَحْزُرُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَسْهَلْكَ عَنِ الْمَلٰٓئِكَةِ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَذٰلِكَ بَنِيٌّ إِنْ كُنْتُمْ فَعٰلِمِينَ ﴿٧١﴾ لَمَرَكْ إِيَّاهُمْ لَيْ سَكْرَتِهِمْ يَمْهَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَذٰلِكَ صَبِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْتُمْ اللَّهُ وَلَا تَحْزُرُونِ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما في سياق سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوْلَمْ نَسْهَلْكَ عَنِ الْمَلٰٓئِكَةِ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تصيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسايتهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضاً القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصحبهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَمَرَكْ إِيَّاهُمْ لَيْ سَكْرَتِهِمْ يَمْهَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يَعْمَهُونَ ﴿٧٣﴾ ، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض. قال عمرو بن مالك الثُّكْرِي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا تَرَاكَ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون، رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَمَّا تَرَاكَ﴾: لعيشك، ﴿إِنَّمَا لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَتَحَيَّرُونَ.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُثْرِقِينَ ﴿٧٤﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

يقول: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنَانِ السَّمَاءِ ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السججل عليهم. وقد تقدم الكلام على السججل في سورة هود بما فيه كفاية. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِالْمُتَفَرِّسِينَ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِالْمُتَمَلِّينَ﴾: للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العَبْدِي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾. رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن يهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». وقال ابن جرير: حدثني أبو شرحبيل الجُمُصِي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا الْمُؤَمَّلُ بن سعيد بن يوسف الرُّحْبِي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي، حدثنا وهب بن مُنْبَه، عن طاوس بن كَيْسَانَ، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ». وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ». ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا أبو بشر - يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة - عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ».

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَسِيبٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَهُمْ مَصِيحِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وَيَأْتِيهِمْ أَفْلا تَقُولُ ﴿٧٨﴾﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨]. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿وَإِنَّا لَنَسِيبٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ قال: مُعَلِّمٌ. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقال السدي: بكتاب مبین، يعني كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾، ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجاتنا لوطاً وأهله، للدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحْصَى الْآيَاتِكَ لَظَلِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

أصحاب الآية: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وقاتدة، وغيرهما: الآية: الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَانِ، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي: طريق مبین. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ يَنْصَبُوا بِعِيبِئِهِ﴾ [مرد: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحْصَى الْجَبْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَيْنَتَهُمْ مَا يَنْتَنُوا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَحْتَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَآ مَا يُبِينُ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصِيبِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَغْرَقْنَاهُمْ تَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق

عليهم تكذيب المرسلين. وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾ [مرد: ٢٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَبَحُوا الْقَوْمَ عَلَى الْكَلْبِ﴾ [فصلت: ١٧]. وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا لِآبَائِهِمْ﴾ [٨٧] أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ففُتِحَ رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذيين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم». وقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الْفَيْصِمَةَ مَاضِينَ﴾ [٨٧] أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٨٧] أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضُتُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلاث تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصِّحٌ فَاصِّحٌ الْجَمِيلِ﴾ [٨٥] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿لِيُخَبِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُخَبِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لَّيِّنٌ لِّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنه لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالوا، فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨٦]: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيْنَ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَكْتُمُ﴾ [٨٧] إِذَا أَرَادَ مَشِيئًا أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾ فَسَيَحْنُ الَّذِي يَبِيدُ مَلَكُوتَ كُلِّ قَوْمٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَلِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ﴾ [٨٧] لَا تَدْعُ عِبِيدَكَ إِلَّا مِمَّا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَكَفِيفٌ جَنَاحَكَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذبيهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَكَفِيفٌ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَكَيْتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغير واحد: هي السبع الطول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نض عليه ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقال سعيد: بين فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والحبر والغير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: «المثاني»: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأطفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يُعْطَ أحداً إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار، عن سعيد بن جبير عنه. وقال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعا من المثاني الطول، وأوتي موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم. وقال خُصِيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَلِي﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنهى، وأبشر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدد النعم، وأبنتك نبأ القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روي ذلك عن عمر وعلي، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصمك الله بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم

فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، والله الحمد. وقد أورد البخاري، رحمه الله، ههنا حديثين:

أحدهما: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عُذْر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

والثاني: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم». فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام، لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عده إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُنَّ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، إلى أنه يُستغنى به عما عده، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقتاً إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إنني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو بعاني لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُنَّ زَهْرَةً لَخَيَورِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]. كأنه يعزبه عن الدنيا. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتعمى مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إِن مَّا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُنَّ﴾: هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي آتَىٰ أَنَا النَّذِيرُ الْكَبِيرُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَّبِعِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَسَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ قَوْلِكَ لَسْتَأْتَهُمْ آجْمِينَ ﴿٩٢﴾ عَا كَاوًا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للناس: إنه ﴿النَّذِيرُ الْكَبِيرُ﴾، البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُتَّبِعِينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿قَالُوا قَاتِلُوا قَاتِلَهُمْ بِاللَّهِ لَيْسَتْ لَهُ وَهْلُهُمْ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: تقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿أَوَلَمْ تَكْفُرُوا أَفْسَقْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبوته وأهله. وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إنني رأيت الجيش بعيني، وإنني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَسَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: جَزَوْا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأ أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿جَسَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: هم

أهل الكتاب، جَزَّوْهُ أجزاء، فَأَمَنُوا ببعضه، وكفروا ببعضه.

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَسِفِينَ﴾ (٩٤) قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: السحر. وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة. وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين. وكذا روي عن الضحاك وغيره. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً تقول به. قال: بل أنتم قولوا لأسمع. قالوا: نقول: «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. ففترقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩٥): أصنافاً، ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتَلَّهُنَّ الْغَمِينَ﴾ (٩٦) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)، ﴿ذُوْنِكَ النَّفْرَ الَّذِينَ قَالُوا: ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ قَوْلِهِ: ﴿لَتَشْتَلَّهُنَّ الْغَمِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) قال: عن لا إله إلا الله. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد، في قوله: ﴿لَتَشْتَلَّهُنَّ الْغَمِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) قال: عن لا إله إلا الله. وقد روى الترمذي، وأبو يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بشير بن نهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتَلَّهُنَّ الْغَمِينَ﴾ (٩٧) قال: عن لا إله إلا الله. ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير، عن أنس موقوفاً. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا عركتني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبحت المرسلين؟. وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن حلتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عمك، وعن مالك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينه، وعن فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة، وأحد أسعد بما أتى الله منك». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتَلَّهُنَّ الْغَمِينَ﴾ (٩٧) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)، ثم قال: ﴿فَوَرَيْكَ لَا يُشْكَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٩٨) [الرحمن: ٢٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم

كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَمْضَىٰ عَنِ الشُّرَكِيِّ﴾ (٩٤) إِنَّا كُنَيْنَاكَ السُّتْرِيْنَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ تَمَنَّاهُ أَنَّكَ يَبِئْسَ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩).

يقول تعالى أمرأ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به وبإفادته والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أمضه. وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً، حتى نزلت ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه. وقوله: ﴿وَأَمْضَىٰ عَنِ الشُّرَكِيِّ﴾ إِنَّا كُنَيْنَاكَ السُّتْرِيْنَ (٩٥) أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٩٦) [العلق: ٩]، ولا تحفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْصُرُكَ مِن آتَائِكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهمس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنساً يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ السُّتْرِيْنَ﴾ (٩٥) الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزه فوق في أجسادهم - كهينة الطعنة حتى ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قُصي: الأسود بن المطلب أبو زعمة، كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهم، أعم بصره، وأثكله ولده. ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سَعِيد بن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطَّلَاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان - فلما تَمَادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿فَأَسَدْعُ بِمَا نَزَّمُ وَأَعْرِضْ عَنِ الشُّرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كُنَّا كَاتِبِينَ الْمُسْتَهِزِينَ ﴿٩٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْمُرُونَ﴾. وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه جنباً، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله - كان أصابه قبل ذلك بستتين وهو يجز إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتفض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخصم قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فريص على شبرقة فدخلت في أخصم رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطَّلَاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحاً، فقتله. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذين جمعهم. وهكذا روى عن سعيد بن جبيرة وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غبيلة، وعكرمة يقول: الحارث بن قيس. قال الزهري: وصدقاً، هو الحارث بن قيس، وأمه غبيلة. وكذا روى عن مجاهد، ومُقَسَّم، وقاتدة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة. والمشهور الأول.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَا خَرَّ سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا نَبَأً بِبَيْتِكَ صَدْرًا بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك تحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهدئك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميدِهِ وتسيبِهِ وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همار، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره». رواه أبو داود، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه. ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾: قال البخاري: قال سالم: الموت. وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾. قال: الموت. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره. والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَكُن مِنَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُن نُطْعِمُ الْيَتَامَىٰ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْمِلُ مَعَ الْكَلْبَاتِ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْتُمُ بِبُيُوتِ الْيَتَامَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [المدر: ٤٣-٤٧]. وفي الصحيح من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقدمت - قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير». ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلح بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». ويستدل بها على تخطفة من ذهب من الملاحظة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه.

ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إما خلق ليكون عبداً لا خادماً، كما قال تعالى: ﴿رَبُّوْهُ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَنَسَبًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ وَبَسُوْنَ مِنْ دُوْبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿أَوْلَىٰ لِلَّذِي أَنْشَأَهَا أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَفْسِهِ فَإِذَا هُوَ خَاطِبٌ مُّبِيْنٌ ۝٧٧﴾ وَصَرَّفَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعَظْمَ وَهِيَ رِيْسَةٌ ۝٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٧-٧٩]. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه: عن بشر بن جَحَاش قال: بصق رسول الله في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أتني تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأني أوان الصدقة؟».

﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفًا وَمَنْعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَنْزِعُونَ ۝٦﴾ وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكَرَّرُوا بِبَلَدِهِ لِآيَاتِنَا لَأَكْثَرُ إِلَيْكُمْ لِرُؤُفٍ رَّحِيْمٍ ۝٧﴾.

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأرباها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيأ من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَنْزِعُونَ﴾ أي: عُذوة حين تبعثونها إلى المرعى. ﴿وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ﴾: وهي الأحمال المثقلة التي تُعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكَرَّرُوا بِبَلَدِهِ لِآيَاتِنَا لَأَكْثَرُ إِلَيْكُمْ﴾: وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكُلِّ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٦١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ۝٦٢﴾ [المومنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٦٤﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ وَاسْتَلْفَعُوا عَلَيْهَا حَالِبَةً فِي سُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ۝٦٥﴾ وَرَبِّكُمْ مَا يَبِيْنُهُ فَأَيُّ آيَاتِنَا اللَّهُ تُنْكِرُونَ ۝٦٦﴾ [غافر: ٧٩-٨١]؛ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ﴾ أي: ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوْلَىٰ لِلَّذِي أَنْشَأَهَا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ۝٦٧﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٦٨﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ ۝٦٩﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِيْنَ ۝٧٠﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّكَ لِلسَّٰفِلِيْنَ ۝٧١﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌ﴾ أي: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿دِفٌ وَمَنْعٌ﴾: نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُركب، ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفٌ وَمَنْعٌ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبلغة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٦٨﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فضلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلل من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، أنبأنا هشام الدُسُوْثاني، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفٌ وَمَنْعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوا﴾ فهذه للركوب. وكذا روي من طريق سعيد بن جببير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة، رضي الله عنه، أيضاً، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معد يكره، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير. وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم - وفيه كلام - به.

ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدم، عن جده المقدم بن معد يكره قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة،

فقرم أصحابنا إلى اللحم، فسألوني زَمَكَة، فدفعتها إليهم فحبَلوها وقلت: مكانكم حتى آتي خالدًا فأسأله. فأتيته فسأته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: «الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم» ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتُن الأهلية وخيلها وبيغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير». والرمكة: هي الجنزة. وقوله: حَبَلوها، أي: أوثقوها في الجبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران. وكان هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصًّا في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل. ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبيغال والحمر، فهانا رسول الله ﷺ عن البيغال والحمر، ولم ينهنا عن الخيل. وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة. فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلها الله لإسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. وذكر وهب بن منبه في إسرائيليته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله أعلم. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب، ومنها البيغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل. قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبي، عن ذخية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حمارًا على فرس، فنتج لك بغلاً، فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون».

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَمَدَنَّاكُمْ أَجْمِينَ﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَسَكَرْذُؤًا قَارِبًا خَيْرَ الرَّبَابِ الْقَفْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَتَّبِعْ آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ لِيَأْسُرَ سَوَاءَ يَكْفُرْ وَيَسْمَأُ وَيَلْبَسُ الْقَفْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦]. ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة - شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١]. قال مجاهد: في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله. وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي: تبين الهدى والضلال. وكذا روى علي بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿ومنها جائز﴾. ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيبته، فقل: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَمَدَنَّاكُمْ أَجْمِينَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْتَلِفِينَ﴾ [١٧٧]، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأتقن جهمته من الجنة والناس أجمعين ﴿١٧٨﴾ [عود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٧٩﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالتَّخْلِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذباً زلالاً، يسوغ لكم شربه، ولم يجعله ملحاً أجاباً. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقاتة وابن زيد، في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي. وروى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس. وقوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالتَّخْلِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾

أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ مِنْ قَوْمٍ يَعِدُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُم فِي الْأَرْضِ مَخْلِفَاتٍ آلُوتَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يبني تعالى عباده على آياته العظام، ومنته الجسم، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءَ يَظُنُّ حَيْثُمَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: للدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُم فِي الْأَرْضِ مَخْلِفَاتٍ آلُوتَهُ﴾: لما نبه سبحانه على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَمَوْءَدٍ الذِّي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوَسَّسًا وَيَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ مَرْجَانًا وَحِلْيَةً تَلْبَسُوهَا وَمِمَّا يُغْتَنَّبُ فِيهَا ثَمَرٌ كَثِيرٌ وَأَمَّا غَدَارُ الْبِحْرِ فَمَاءٌ حَمِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥] ﴿وَمِمَّا يُغْتَنَّبُ فِيهَا ثَمَرٌ كَثِيرٌ وَأَمَّا غَدَارُ الْبِحْرِ فَمَاءٌ حَمِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللؤلؤ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه. وقيل: تمخر الرياح. وكلاهما صحيح، بجؤننها - وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هناك، وما هنالك إلى هنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْمَلُوا فِيهَا مِمَّا يُغْتَنَّبُ فِيهَا ثَمَرٌ كَثِيرٌ﴾ أي: نعمه وإحسانه. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه قال: كلم الله هذا البحر الغربي، وكلم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عبادة من عبادي، فكيف أنت صانع فيهم؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك في نواحيك. وأحملهم على يدي. وحزمه الحلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عبادة من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون لهم كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد. ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عياش، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنا لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا ﴿١٧﴾﴾ [النبا: ١٧]. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، لم تدر الملائكة مِمَّ خلقت الجبال. وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: أن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رب، تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخيطا ويجعلون عليّ الخبث؟ قال: فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج.

وقوله: ﴿وَأَنْهَزْنَا سُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والأكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّرَ لأهله. وهي سائره في الأرض يمئة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي: دللنا من جبال كبار وأكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأ ويحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار. وقوله: ﴿وَيَا لَتَجْمَمَنَّ هُمْ بِهَدُونٍ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾: يقولون: النجوم، وهي الجبال. ثم قال تعالى منبهاً على عظمتها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٧). ثم نبههم على كثرة نعمه وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَدْرَأُوهُمَ اللَّهُ لَا تَحْضُرُوهُمَ إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُورٌ رَجِيمٌ﴾ (١٨). أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتهم وتركتهم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُورٌ رَجِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَجِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم، أي: بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ﴾ (١٩) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) ﴿أَنْزَلْتُ عِزًّا لِّأَحِبَّاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١).

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنَتُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَنْزَلْتُ عِزًّا لِّأَحِبَّاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ لَا يَتُوبُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ سَتَكْبُرُونَ﴾ (٢٢) ﴿لَا جَنَمَ لَكُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُنْفِقُونَ إِنَّهُ لَا يَحِثُّ السُّتَكْبِينَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿إِعْمَلُوا الْإِيمَةَ لِلَّهِ أَلَيْسَ إِنَّ هَذَا لَنَجْوً عَنَّا﴾ (٥) [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٥٥) [الزمر: ٤٥]. وقوله: ﴿وَهُمْ سَتَكْبُرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيد، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَا جَنَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يَحِثُّ السُّتَكْبِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِينِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ آلَ سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَسْطِينِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِينِ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَجِيلًا﴾ (٥) [الفرقان: ٥] أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً مختلفة متضادة، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤) [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَرَّ قَدَرًا﴾ (٧) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ (٨) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ (٩) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (١٠) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (١١) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (١٢) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا لَأَنبِيٌّ يُؤْتِرُ﴾ (١٣) [المدثر: ١٨ - ٢٤] أي: ينقل ويحكي، ففترقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا

ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إخوانهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». وقال الله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَ كِفْلَهُمْ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْتَأْذِنَ بَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المنكوت: ١٣]. وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: إنها كقولها: ﴿وَلِيَحْمِلَ كِفْلَهُمْ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت: ١٣]. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيِّنَتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَتَنَتُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَنْ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُورُوا أَلَمَلَةً إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو نمرود الذي بنى الصرح. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بَعُوضَةً، فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله. وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيِّنَتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾. وقال آخرون: بل هو بختنصر. وذكروا من المكر الذي حكى الله ههنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ وِنْدِهِ الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿وَتَكْفُرُوا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٧] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكَرَ الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ إِذِ تَأْمُرُونَ أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية [سبا: ٣٣]. وقوله: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيِّنَتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتنه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفْأَمَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢٧]. وقال ههنا: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيِّنَتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَتَنَتُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ أَي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنته ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَالُ السُّكَرِيُّ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر عذرته، يقال: هذه عذرة فلان بن فلان». وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿أَنْ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أي: أين هم عن نصركم وخلصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَضُرُّكُمْ أَوْ يُنصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَا لَمْ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نَامِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُورُوا أَلَمَلَةً﴾ - وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَدَّعْتُمْ التَّلَاحِقَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَأَدْخَلُوا أُتْرُبَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمة أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلْفَوْا السَّلَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ يَسْعَى اللَّهُ جَمْعًا يَحْفَتُونَ لَمْ كُنَّا يَحْفَتُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَأَدْخَلُوا أُتْرُبَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [١٩] أي: بس المقيبل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿لَا يَفْضَنُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَتُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [٤١] [غافر: ٤٦].

﴿ وَفِي لَيْلَيْنِ أَنْتَرْنَا مَاذَا أَنْزَلْنَا رَبِّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَقَّعْتُمْ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا مَا كُنَّا بِكُمْ آخِذِينَ بِالْجَنَّةِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ۞

هذا خير عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قبل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلْنَا رَبِّكُمْ؟﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبروا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُوْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أنتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ تَوَابٌ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [الاعلى: ٤٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [الضحى: ٤١]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾: بدل من قوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ أي: إقامة يدخلونها ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿فَمَنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْخَلَائِدِ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: إن السحابة لتمر بالملا من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً، فيكون ذلك. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَضَعُوا تَكْتُمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفَاؤُا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِاللَّيْلِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٥٠﴾ تَحْنُ أُولِيَ الْأَكْمَامِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَوْنَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٥١﴾ تِلْكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ ﴿٥٢﴾﴾ [نص: ٣٠ - ٣٢]. وقد مرنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُنْفِثُ اللَّهُ الذُّبَابَ﴾ [النمل: ١٧] في آية ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤١] ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فآسأبهم سبباً ما عيلاً وساق بهم ما كانوا يهتبهون ﴿٣٣﴾.

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وَسَاقٍ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿فَمَا كَانُوا يَهْتَبُونَ﴾ أي: يسخرّون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلًا أَنْ عَبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتُ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلٰلَةُ فَمِمْرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ إن تحريص على هديهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من نصير ﴿٣٧﴾.

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوسائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطاناً. ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه. قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ؟﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم

يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولا، أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه: ﴿أَبْأَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿الأنبياء: ٢١٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿الزخرف: ٢٤﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، فمشيتته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيتته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَكَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَمَسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٨﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ يَفْعَلْهُ فَمَنْ تَمَلَّكَ لَمْ يَرْبِكْ اللَّهُ شَيْعًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصَدِّقٌ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَيَّ مُدْبِرُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَأُ الْقَدَابَ الْأَلْيَسَ﴾ [برنس: ٩٦، ٩٧]. فقلوه: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلماذا قال: ﴿لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرٍ﴾ أي: يقدونهم من عذابه وناقه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَسْمِعُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿يَسِّرْ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كاذِبِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿وَاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبا لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَى﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فليجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿يَسِّرْ لَهُمْ﴾ أي: للسناس ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعو يوم القيامة إلى نار جهنم دعاء، ويقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوْفَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٠﴾ [الفرق: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلا بِشَأْنِكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٣٠﴾ [النحل: ٤٠] أي: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فلإنما يقول له: «كن»، فولة فيكون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: سُبَّحِنا ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن

يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن بَعُوثًا﴾، قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّكَ تَالِكٌ مُّكْدَقٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الإخلاص]. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصحيحين مرفوعاً، بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوذَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنَبُوذَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فوعضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمؤمنين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَآجِرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيتاهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال مُشْتِمٌ، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاه يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنَبُوذَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: صبروا على أقل من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَعْلَى الدُّرِّ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ بِالنَّبِيِّ وَالرُّبِيِّ وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكروا منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فأنزل الله: ﴿أَكَاذِبٌ لِلنَّاسِ عَجَبًا إِنَّهُ يَوَدُّ أَنَّ لَكَ بُعْدٌ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَعْلَى الدُّرِّ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتهم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً؟ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾، ليسوا من أهل السماء كما قلتهم. وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش. وقول عبد الرحمن بن زيد - الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحجر: ٩] - صحيح، ولكن ليس هو المراد ههنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه. وكذا قول أبي جعفر الباقر: «نحن أهل الذكر» - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر - صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم السلام والرحمة، من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبنو علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر - وهو محمد بن علي بن الحسين - وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين. وبالفرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٦﴾﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ ﴿٢٠﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَعْلَسْنَا السُّرُوفِينَ ﴿٨٢﴾﴾

[الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُمْ بِدَعَايَ مِنِّي الرَّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبيؤهم بشرًا أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلالات والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزبور: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ مَن قَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القم: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنبياء: ١٥٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِتُنذِرَ لِّلنَّاسِ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل، ﴿وَلَقَلَّهِمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهدتون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَحْبِطَ اللَّهُ بِمِثْمِثِ الْأَرْضِ أَوْ بِأَيْدِيهِمُ الْعَذَابَ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝٥٧﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِفٍ وَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرِئُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٥٨﴾.

يخبر تعالى عن حلمه وإمهاله وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَحْبِطَ اللَّهُ بِمِثْمِثِ الْأَرْضِ أَوْ بِأَيْدِيهِمُ الْعَذَابَ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِنِّي أَن يَسْمَكَنَّ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١١٠﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِنِّي أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَأْمَنُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ۝١١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي: في قلبهم في المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: ﴿تَقْلِبُهُمْ﴾ أي: أسفارهم. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَيْشِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ مِّنَّا يَوْمَئِذٍ ۝١٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَيْشِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْمِزُونَ ۝١٨﴾ [الاعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يُعْجِزُونَ الله على أي حال كانوا عليه.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرِئُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيتهم»، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٧٢﴾ [مرد: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿وَكَايِنِ مِنَ قَرَابَةٍ أُنثِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ تُدْ أَخَذَتْهَا وَلَئِنَّمُ الْمَصِيرُ ۝١٨٨﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن نَّفْسِهِ يَخْتَفِتُ مِنهَا ظِلْمَةٌ عَنِ السَّمَاوَاتِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّهُ يَسْتَجِيبُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨٩﴾ بِخَافُونَ رَبَّهُمْ مِن قُوَّتِهِ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝١٩٠﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ﷻ. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِاللُّغْوِ وَالْأَسْمَالِ ۝١٩٥﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿بِخَافُونَ رَبَّهُمْ مِن قُوَّتِهِ﴾ أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ ۝١٩٦﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَرَّ اللَّهُ نَفْعُونَ ۝١٩٧﴾ وَمَا يَكُم مِّن يَوْمٍ مِّن قَوْمٍ مِّنَ اللَّهِ تُدْ إِذَا كُنتُمْ أَكْفَرْتُمْ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ يَرِيحُهُمْ يُشْرِكُونَ ۝١٩٨﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَانَبْتُهُمْ فَتَسْمَعُوا سَوَاقٍ تَقْلَمُونَ ۝١٩٩﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه ورب. ﴿وَلَهُ الَّذِينَ

وَأَصِحَّ: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي، وقناة، وغير واحد: أي دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَقْفَرٌ بَيْنَ أَلْوَيْبِئُونَ وَوَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: اربهاوا أن تتركوا به شيئاً، وأخلصوا له الطلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢٣]. ثم أخبر أنه مالك النفع والضرب، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه، وإحسانه إليه، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرَّةُ فَمَا لَكُمْ بِمَجْتَرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرَّةُ فِي الْبَحْرِ مَدَّ يَدَاكَ إِلَى الْبَحْرِ فَأَنْجَيْكُمْ وَكَانَ الْإِنشَاءَ كَقَوْلِهِ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ههنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّةَ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٥٤] لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ. قيل: «اللام» ههنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قاتلاً: ﴿فَتَسْمَعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَمْلِكُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ لِمَا لَا يَمْلِكُونَ صَيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتَأْنَسَ عَمَّا كَفَرْتُمْ فَتَعَرَّوْنَ﴾ [٥١] وَيَجْمَعُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سَوْءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ أَيَّتُكَ عَلَىٰ هَوًىٰ أَمْ يَدُسُّ فِي الْغُرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾.

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ وَهَذَا لَشُرْكائِكُمْ فَكَا كَاتِ لَشُرْكَائِكُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَاتِ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرْكَائِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لأنفسهم نصيباً مع الله وفضلوه أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه، وانتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَسْتَأْنَسَ عَمَّا كَفَرْتُمْ فَتَعَرَّوْنَ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاءً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسامين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [٦١] تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٦٢﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال ههنا: ﴿وَيَجْمَعُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم، ﴿أَلَا إِنَّمَا يَنْفَكُونَ لِقَوْلِهِمْ﴾ [٥٨] وَلِلَّهِ وَاللَّهُ وَبَيْنَهُمْ لَكَاؤُونَ ﴿٥٧﴾ أَصْلَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٥٩﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوا إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيباً من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْرِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سَوْءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ أَيَّتُكَ عَلَىٰ هَوًىٰ أَمْ يَدُسُّ فِي الْغُرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّ فِي الْغُرَابِ﴾ أي: يتدها؛ وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُرَايِدُ اللَّهُ النَّاسَ ظُلْمًا لَرَفَعَهُمْ تَارِكًا عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِهِمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِينُونَ﴾ [٦١] رَحْمَتُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصَفَ آيَاتِنَهُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ لِقَاءَ رَبِّهِمْ لَأَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٦٢﴾.

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجعفل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُرَايِدُ اللَّهُ النَّاسَ ظُلْمًا لَرَفَعَهُمْ تَارِكًا عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِهِمْ﴾. وكذا روى الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجعفل أن يهلك في جحره بخيطة بني آدم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثني، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحنفي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: سمع

أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه. قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها هُزلاً يظلم الظالم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مسرح، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربيعة، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة، يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر».

وقوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَّهُ مَا يُكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم من عبئده، وهم يأفنون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وَيَصِفُ أَسِنَّهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ النَّسْتُ﴾: إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد فيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا حَقُورًا﴾ (١) ﴿وَلَكِنْ أَدَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتَهُ لِقَوْلِهِ ذَهَبَ النَّسْتَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ (٢) [مسرود: ١٠، ٩]، وكقوله: ﴿وَلَكِنْ أَدَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّتَهُ لِقَوْلِهِ هَذَا لِي وَمَا أَطْرُقُ النَّسَاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَيْ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَنُذِقْتَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٣) [نصحت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْآيَةَ أَمُ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مریم: ٧٧، ٧٨] وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْرُقُ أَن يَبْدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَطْرُقُ النَّسَاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُودْتُ إِلَيْ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السيئات ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب. وقال مجاهد، وقناة: ﴿وَيَصِفُ أَسِنَّهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ النَّسْتُ﴾ أي: الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّسْتُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، والله الحمد. ولهذا قال الله تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لَا جِزْمَ﴾ أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقناة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْتَهْمِكُمْ كَمَا كُفِّرُوا بِلِقَائِكُمْ يَوْمَهُمْ هَذَا﴾ [الاعراف: ٥١]. وعن قناة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أي: معجلون إلى النار، من الفِرَاط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يجعل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الْفِتْنَةُ أَغْلَبَهُمُ قَهْرٌ وَإِيَّاهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا إِشْرَافًا لِّذِي أَسْخَلُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦). يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيندك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿قَهْرٌ وَإِيَّاهُمْ أَيُّومٌ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزل عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُوفِي الْأَنْفِيرِ لَعِبْرَةً شَتِيكَرًا مِنَّا فِي بُطُوبِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَرٍ لَبَّنًا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّدِيدِينَ﴾ (٧) ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ لَنَجْدُونَ مِنْهُ سَكَرًا رَزَقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٨).

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُوفِي الْأَنْفِيرِ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْفِيرِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿شَتِيكَرًا مِنَّا فِي بُطُوبِهِمْ﴾، وأفرد لهنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى: ﴿مِمَّا فِي بُطُوبِهِمَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ سَاءَ ذَكَّرٌ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ رِيحِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦] أي: السمال. وقوله: ﴿وَمِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَرٍ لَبَّنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه

بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. وقوله: ﴿كَيْتَابًا خَالِصًا سَابِقًا لِشَدِيدِينَ﴾ أي: لا يغص به أحد. ولما ذكر اللبنة وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، تئى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعنان، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السكر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكْم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما ييسر منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء - وهو الدبس - وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعَلَّامِينَ﴾: ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن تَحْتِهَا وَأَعْنَابٌ وَفَجْرَتًا فِيهَا مِّنَ الْعُمُورِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ كَمَا هِيَ وَمَا تَنبَتِ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يس: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَأَرْسَلْنَا رَبَّنَا إِلَى الْغُلَّامِ آيَاتٍ مِّن لَّبَّالٍ يَبُوأُكًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا فَسُرَّابًا فَنُفِثَتْ فِيهَا رَبَّنَا لِلنَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعَلَّامِينَ﴾ [يس: ٢٨].

المراد بالوحي ههنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورسها، بحيث لا يكون بينها خلل. ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذلة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقي العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مطبوعة. فجعلها حلالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لِمَن قَمِنَهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦] قال: ألا ترى أنهم يقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح. وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا سكين بن عبد العزيز، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمرُ الذباب أربعون يوماً، والذباب كله في النار إلا النحل».

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا فَسُرَّابًا فَنُفِثَتْ فِيهَا رَبَّنَا لِلنَّارِ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: «فيه الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بوضده. وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَرِيمًا فَشَرَبْنَا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الْأَفْئِدَةِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هو العسل - الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال: «اسقه عسلاً». فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال: «أذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! أذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه فبريء. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرع في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفق، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسماق والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلواء

والعسل. هذا لفظ البخاري. وفي صحيح البخاري: من حديث سالم الأفلس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شُرْطَةِ مِخْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كِيَّةٍ بِنَارٍ، وأنهى أمتي عن الكي». وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن العيسيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شُرْطَةِ مِخْجَمٍ، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي». ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبي الخير، عن عقة بن عامر الجُهني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان في شيء شفاء: فشرطه مِخْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كِيَّةٌ تصيب ألماً، وأنا أكره الكي ولا أحبه». ورواه الطبراني عن هارون بن مخلو المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، عن حيوة بن شريح عن عبد الله بن الوليد، به. ولفظه: «إن كان في شيء شفاء: فشرطه محجم»... وذكره وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد بن ماجه القزويني في سننه: حدثنا علي بن سلمة - هو اللبقي - حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان بن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن». وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان - هو الثوري - به موقوفاً - وهو أشبه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه بذلك، فإنه شفاء. أي: من وجوه، قال الله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿٩﴾ وَقَالَ: ﴿فَإِنْ طِغْنَ لَكُمْ عَنْ قَوْلِ رَبِّهِمْ قَسَا فَعَلُوهُ هَبْنَا لِرَبِّيكَ ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ٤]، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خدّاش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِقَ العسل ثلاثَ عَدْوَاتٍ في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء». الزبير بن سعيد متروك. وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سزح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكر السكسكي، حدثنا إبراهيم بن أبي عنبلة. سمعت أبا أيوب بن أم حزام - وكان قد صلى القبلتين - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسُّنْتِ والسُّنُوتِ، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت». قال عمرو: قال ابن أبي عنبلة: «السُّنُوتُ»: الشُّبْتُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي يكون في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السُّنُونُ بِالسُّنُوتِ لَا أَلْسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنُونُ الْجَارَ أَنْ يُقَرَّدَا
كذا رواه ابن ماجه. وقوله: «لا ألس فيهم» أي: لا خلط. وقوله: «يؤمنون الجار أن يقردا»، أي: يضطهد ويظلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، ﴿لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ رِيْدٍ لَمْ أَزَلْ أَعْمُرُ لَكُمْ لَا يَمَلُّ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهزم - وهو الضعف في الخلقة - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ جَعَلٍ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. وقد روي عن علي، رضي الله عنه، في أرذل العمر قال: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لَيْكُنْ لَا يَمَلُّ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفئد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهزم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات». ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به. وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَالَكَ - يَسَامِ
زَابِثُ الْمَنَابِيا خَبِطَ عَشْوَاهُ مِنْ تَعِيبِ تَمَثُّهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ
﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَقْبَيْتَهُمُ اللَّهُ بِمَحَدُونَ﴾ (٧١).

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه الله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكرأ عليهم: إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَعَاوَنْتُمْ كَيْفَ يَنْفَكُمُ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية (الروم: ٢٧٨). قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَقْبَيْتَهُمُ اللَّهُ بِمَحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فإله أحق أن يتزّه منك. وقوله: ﴿أَقْبَيْتَهُمُ اللَّهُ بِمَحَدُونَ﴾ أي: إنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فحجدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّلَ بعض عباده على بعض في الرزق، بل يتلي به كلاً، فيتلي من بسط له، كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدِّدَ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وزبيهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اختلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور. ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ وَحَدِّدَ﴾: هم الولد وولد الولد. وقال سُنَيْدٌ: حدثنا حجاج عن أبي بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدَ الْوَالِدُ حَوْلَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بِأَكْفَفِهِنَّ أَزْوَاجَ الْأَجْمَالِ

وقال مجاهد: ﴿بَيْنَ وَحَدِّدَ﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام. وقال طائوس: الحفدة: الخدم. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ مِنْ وَلَدِكَ وَوَلَدِ وَلَدِكَ. قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدِّدَ﴾ يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا قال: ويزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل. وهذا القول الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضحى، وإبراهيم الثعني، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والفَرُظِي. ورواه عكرمة، عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار. قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى: «الحفد» وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: «واليك نسمي ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدِّدَ﴾. قلت: فمن جعل «وَحَدِّدَ» متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة، كما قال الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بصرة بن أكنم: «الولد عبد لك» رواه أبو داود. وأما من جعل الحفدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وجعل لكم الأزواج والأولاد. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرأ على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفِيَالْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم: الأصنام والأنداد، ﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممثناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك تراس وتزيع؟».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَلِيمُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَشْأَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَشْأَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباحاً وأمثالاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الِْمَعْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما بيناً واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿الْمَعْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ثَلَاثِينَ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ أي: بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فقال له حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدي، وفتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق، السُّلَمِيُّ، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن إبراهيم، عن عكرمة، عن يَغْلَى بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ثَلَاثِينَ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال هو: عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيها.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنفِخِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّنِيرِ مُسْحَرَتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله تعالى على ما يشاء. وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَنَفِخِ الْبَصْرِ ﴿٧٧﴾﴾ [الفر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هُنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفِخِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْنَ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى مثته على عباده، في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة - وهي العقول - التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوي عقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جراحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه». فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعيناً بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: «ورجله التي يمشي بها»: «فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤]. ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْمَهُمْ صَفَّوَتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِحِجَابِ قَوْمِهِمْ صَيْرٌ﴾ ﴿١١﴾ [الملك: ١٩]. وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى جِبِينَ﴾ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقًا ظَلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لِقَوْمِهِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٤﴾ يَرْفُوقُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ شَرًّا يُكْفِرُونَ وَأَكْفَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأرون إليها، ويستترون بها، ويتنفون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً من جلود الأنعام بيوتاً. أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز - والضمير عائد على الأنعام - ﴿أَثْنَا﴾ أي: تتخذون منه اثناً، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة. وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والضحاك، وقتادة. وقوله: ﴿إِلَى جِبِينَ﴾ أي: إلى أجل مسمى وقت معلوم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقًا ظَلَالًا﴾: قال قتادة: يعني: الشجر. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: حصونا ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ﴾، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لِقَوْمِهِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون - عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿شَلِيُوتُكُمْ﴾ أي: من الإسلام. وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لِقَوْمِهِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام، عن حنظلة السدوسي، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه كان يقرأها ﴿تَسْلُمُونَ﴾ بفتح اللام، يعني من الجراح. ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجيهين، وردّ هذه القراءة. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقًا ظَلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى جِبِينَ﴾ وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيَرْزُقُ مِنْ أَسْمَانٍ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرِّ﴾ [النور: ٤٣]، لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ﴾، وما بقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾، وقد أدبته إليهم. ﴿يَرْفُوقُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ شَرًّا يُكْفِرُونَ﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره، ﴿وَأَكْفَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ - كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرا عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ

طَعَنَكُمْ وَيَوْمَ إِفْتِكُمْ﴾، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُبَدِّلُ فِعْلَهُ عَلَيْكُمْ لَمَلَكُمْ تُسَلِّطُونَ﴾، فأنزل الله: ﴿يَعْرِضُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفُرُوا بِالْكَافِرُونَ﴾ (٨٢).
 ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٣) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٥﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ بِوَيْحِ السَّلَامَةِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٧﴾.

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبياها، يشهد عليها بما أجبته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بظلمته وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطُرُونَ﴾ (٨٥) وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ يُعْتَذِرُونَ ﴿٨٦﴾ والمرسلات: ٣٥، ٣٦. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بهجنتم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتلقطهم من الموقف كما تلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ مِمَّا تَخِطُا وَرَوَّيَا﴾ (٨٦) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا مَتَّعِيًا مَفْرَقِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨٧﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِنًا وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨٨﴾ [الفرقان: ١٢-١٤]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَلْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَطَوَّأْنَا مِنْهُمْ ثَمَرَهَا وَكَمْ يَحِدُّوا عَنْهَا مَصْرُفًا﴾ (٨٤) [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٥) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٦﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرىء الله منهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الألهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كافرين ﴿٨٦﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَضَعْتُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَحِمْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٨٧) [الكهف: ٥٢] والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ بِوَيْحِ السَّلَامَةِ﴾ - قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿أَمْسَجَ يَوْمٌ وَأَبْصِرَ يَوْمٌ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّوَعْنَا لَمْعَلِّ مَصِيبًا إِنَّا مُوَفَّقُونَ﴾ (٨٧) [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنَ الشَّيْءِ نَصْرٌ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ بِوَيْحِ السَّلَامَةِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٨٦) أي: ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٧) أي: عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَتَّوَعُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: يبهون الناس، عن اتباعه، ويتعدون هم منه أيضاً ﴿وَأَنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَنَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَأْتِيكُمُ الْأَمْثَالُ فِي الْحَافِظِ أَبُو يَعْلَى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿ذُنُوبَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنبيائها كالنخل الطوال. وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿ذُنُوبَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق العرش يعذبون ببعضها بالليل وبعضها بالنهار.
 ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَبَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابُ يُبَيِّنُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَنُذُرًا لِلْمُذَلِّينَ﴾ (٨٨).

يقول تعالى: مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أمته. أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك». قال ابن مسعود، رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان. وقوله: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: قال ابن مسعود: وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم. ﴿وَهَلْكَ﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةٌ وَبَشْرٌ لِّلْمُتَلَبِّينَ﴾. وقال الأوزاعي: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسنة. ووجه اقتران قوله: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله أعلم -: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٦١]، ﴿وَرَزَّلْنَاكَ تَنْزِيلَهُمْ أَمْجِينًا﴾ [النساء: ١٧] عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [النساء: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ لِكُلِّ مَعَاوٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيُنَهَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيُنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٧].

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ لَمَجْلُوبٌ يَمْجِلُ مَا عُرِضَ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٧٦]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَسَا وَأَمْلَحَ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْفُرُوجَ قِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُمْ﴾ [النساء: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والتدب إلى الفضل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً. والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته. والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته. وقوله: ﴿وَالْبَغْيَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَمَا مَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْيَسِيرَ وَالَّذِينَ يَبِذَرُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقوله: ﴿وَيُنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الاعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقوله: ﴿يعظكم﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قال الشعبي، عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية. رواه ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سييء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها. قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها». وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنكدر، حدثنا عمر بن علي المقدمي، عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه! قال: فليأت من يبلغني عن يبيغني عنه. فانتدب رجلان فاتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكرم بن صيفي، وهو يسالك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما أنا فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْيَتَامَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيُنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٧]، قالوا: اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه. فاتيا أكرم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاعي النسب، واسطاً في مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعنا أكرم قال: إنني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناناً.

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن، رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخّص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينته في الأرض، فتحرّف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخّص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخّص أول مرة. فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخّص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعت على يمينك، فتحرّفت إليه وتركتني، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك. قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله ﷻ أتفا وأنت جالس». قال: رسول الله ﷻ؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١). قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ. إسناد جيد متصل حسن، قد بين فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شخّص بصره فقال: «أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١)». وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَّتْ عَنْهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا نَسْخَرُونَ مِنْكُمْ دَخَلْنَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ إِنْ أَمَرُوا بِمَا يَنْهَى اللَّهُ بِهِ وَيُحْيِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩١).

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لِمَيْمَنِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا بِبَنَاتِ الْأَثْنِ﴾ (البقرة: ٢٢٤) وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام، فيما ثبت عنه في الصحيحين: «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها». وفي رواية: «وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحلف، أي: حلف الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا - هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة». وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبة، به. ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وأما ما ورد في الصحيحين، عن عاصم الأحول، عن أنس، رضي الله عنه، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا - فمعناه: أنه أخطى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمار الأسدي، حدثنا عبید الله بن موسى، أخبرنا ابن أبي ليلى، عن مزينة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي تابعتهم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جويرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر

بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه عُذرة فلان، وإن من أعظم العُذرة - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبيع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صليماً بيني وبينه». المرفوع منه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عباس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفني له به، فهو كالمدلي جاره إلى غير مَنعة». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ مَا تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاةً﴾: قال عبد الله بن كثير، والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَاةً﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر؛ نقضت غزلها أنكائاً، أي: أنقاضاً. ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكائاً، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَنْجِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرأ، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنون إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم عُذرتهم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلان ينهى عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى. وقد قدمنا - والله الحمد - في سورة «الأنفال» قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمّ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عبّسة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا عُذراً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقدة حتى ينقضى أمدها». فرجع معاوية بالجيش، رضي الله عنه وأرضاه. قال ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحّاك، وقتادة، وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَلْوُكُمُ اللَّهُ بِبَيْعِهِ﴾: قال سعيد بن جبّير: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء والعهد. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْتَكَئَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَنْجِدُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلُ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَرُونَ أَلْسِنَتَكُمْ يَمُودُ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا بِأَرْحَمِ مَا كَانَوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافاً ولا تباعض ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٩٣] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ [مرد: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتل والنقير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعة ومكرأ، لثلاث نزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَلْسِنَتَكُمْ يَمُودُ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا﴾ أي: لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عَرَضَ الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر مُتَّاه، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا بِأَرْحَمِ مَا كَانَوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب ﷻ مُتَلَقَى بِاللَّامِ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُجِيبَنَّهُ جَوْزًا طَيِّبًا وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانَوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها

بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه فسرها بالقتاعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أنها: السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقاتدة: لا يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانسراح بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقَعَّه الله بما آتاه». ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به. وروى الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ، عن أبي علي الجنبي عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به». وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم.

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر نذير ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسطة في أول التفسير، والله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لثلاث يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمتنع من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة، وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجوا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعي. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾: قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [ص: ١٨٣]. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: قال مجاهد: يطيعونه. وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ﴾ أي: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً﴾ أي: رفعتها وأثبتنا غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِخَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل، ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتثبت له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هادياً مهدياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَزَّلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعِيمُهُمْ نَسْرٌ لِسَاتٍ آلِيَةٍ يُلْحِقُونَ إِلَيْهِمْ أَحْسَنُ مِنْهَا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ حَبِيثٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يزد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهاذا قال تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِسَاتٍ آلِيَةٍ يُلْحِقُونَ إِلَيْهِمْ أَحْسَنُ مِنْهَا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ حَبِيثٌ﴾ يعني: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة

الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَة العقل. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَمَرْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَثٍ ثَبِيثٍ﴾. وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلغام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنما يعلمه بلغام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَمَرْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَثٍ ثَبِيثٍ﴾. وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة. وقال عبيد الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانها، فكان النبي ﷺ يمر بهما، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية. وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافتري هذه المقالة، فيحه الله!

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة. ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ﴾ على الله وعلى رسوله شراً الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحددين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سأله من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أو كنتم تتهمونون بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَصْرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰٓسِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَءَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰٓسِرُونَ ﴿١٠٩﴾.

أخبر تعالى عن كفره بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمان به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم. ﴿لَا جَرَءَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰٓسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكراً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكراً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجَزْرِيِّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعدوا فعد». ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر ألهتهم بخير، وأنه قال: يا رسول الله، ما ثركت حتى سببتك وذكرت ألهتهم بخير! قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال: «إن عادوا فعد». وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يؤالي المكروه على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليعضون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أعظم لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أنتهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أنتهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إزياً إزياً وهو ثابت على ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن علياً، رضي الله عنه، خرّق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعداب الله». وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن عباس. رواه البخاري. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال الغدوي، عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ - قال: أحسب - شهرين فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه. فضربت عنقه. فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه - أو قال: من بدل دينه فاقتلوه. وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن خذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤا به إلى ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشرك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقتله. وفي رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعا فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تلتقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن خذافة، وأنا أبدأ. فقام فقبل رأسه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَ لَهُمْ مَا نَفَعْتُمْ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنُوا رَبَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ نَجْدَتَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هؤلاء صف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لعفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ نَجْدَتُهَا﴾ أي: تحتاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون تقيراً.

﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَكَارِئَهُ كَانَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَةً بِأَيْهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُبْحِ وَالْخَوْفِ يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت أمينة مطمئنة مستقرة يُخطف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِئِ الْهَدْيِ مَكَّاءَ نَنخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يبلغ إليهم ثمرة كل شئ ورزقنا من لدنا﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا قال ههنا: ﴿بِأَيْهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئاً سهلاً، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعنة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَدَلًا كَثِيرًا وَاسْأَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآلِيَاءِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَمْسُكُ الْقَرَائِ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُبْحِ وَالْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبح يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا

العِلْزِ - وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه. وقوله: ﴿وَالْحَوَفِ﴾، وذلك بأنهم بُدِلُوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبغيمهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأَقْبَلُوا إِلَى الْتَوَارِثِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرُكُوعَكُمْ وَيُكَلِّمُكُمُ الْكَلِمَاتِ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بُدِّلَ اللهُ المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العَيْلَةِ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأنتمهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفي، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاها مالك عن الزهري، رحمهم الله. وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن زيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه، أنه سمع مَشْرُحَ بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ، وعثمان، رضي الله عنه، محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قتل. فقالت حفصة: والذي نفسي بيده، إنها القرية التي قال الله: ﴿وَصَرِيحٌ أَنْتَ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ آيَةً مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة، عن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة.

﴿فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرَاتِهِ لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا كَذَبْتُمْ هَذَا فَحَلَّلْهُ هَذَا حَرَامٌ لَيْفَتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِذْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [متن قليل ومم عذاب أليم] ﴿١١٧﴾.

يقول تعالى أمر عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، ويشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم وديانهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير. ﴿وَمَا أُهْلَ لِقَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنْ أَشْطَرُّ عَرَبٌ بَاغٍ وَلَا عَاكِفٌ لَكَ اللَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: احتاج في غير بغي ولا عدوان. ﴿فَلَيْتَ اللَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة «البقرة» بما فيه كفاية عن إعادته، والله الحمد والمنة. ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا كَذَبْتُمْ هَذَا فَحَلَّلْهُ هَذَا حَرَامٌ لَيْفَتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾. ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشبهه. و«ما» في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لو وصف ألسنتكم. ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُفِثْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمْ بِهِمْ إِكْرَامًا غَليظًا﴾ [نساء: ٢٤] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [متن في الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ] ﴿١١٧﴾.

[يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٦].

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حراماً على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأضرار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ﴾ يعني: في «سورة الأنعام» في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كَلَّ ذِي ظُلْفَرٍ وَرِيسَ الْبَقْرِ وَالْقَنْسِرَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شَوْهَمًا إِلَّا مَا حَكَّكَ ظُهُورُهُمَا أَوْ أَعْرَابِيًّا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُلْفَرٍ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغُونَ وَيَأْتُوا لَمِدْفُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فِي ظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْوِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَبِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين: أن من

تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لَلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوكَ بِمَهْدَلَةٍ﴾. قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَذِي إِذْنٍ لَبِيبٍ﴾ أي: تلك الفعل والذلة ﴿لَمَعْرُوفٍ رَحِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِيهِ أَجْتَنَبَهُ وَهَدَنَهُ إِنْ صَرَفَ مُشْتَمِيمٍ﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا فِيهِ فِي الْآخِرَةِ لَئِنِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾.

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليه إبراهيم، إمام الحنفاء والوالد الأنبياء، وبيته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فأما «الأمّة»، فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمّة القانت، فقال: الأمّة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمّة الذي يعلم الناس دينهم. وقال الأعمش، عن الحكم بن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين: أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نَسَأَلُ إِذَا لَمْ نَسَأَلْكَ؟ فكان ابن مسعود رقيق له، فقال: أخبرني عن الأمّة، فقال: الذي يعلم الناس الخير. وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾، فقال: أتدري ما الأمّة وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمّة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله. وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة: كان إمام هدي، والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِيهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿النجم: ٣٧﴾، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿أَجْتَنَبَهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿الأنبياء: ٥١﴾. ثم قال: ﴿وَهَدَنَاهُ إِنْ صَرَفَ مُشْتَمِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَلَا فِيهِ فِي الْآخِرَةِ لَئِنِ الضَّالِّينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال في «الأنعام»: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِنْ صَرَفَ مُشْتَمِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿الأنعام: ١٦٦﴾، ثم قال تعالى متكرراً على اليهود: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَبَحْكُهُمْ يَوْمَ يَحْمَدُونَ فِيَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾.

لا شك أن الله شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمّة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت الناس فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فالزهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذ موثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة. ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصراني بعده في زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». لفظ البخاري. وعن أبي هريرة، وحذيفة، رضي الله عنهما، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد،

فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق». رواه مسلم، والله أعلم.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِنِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ .
يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحُكْمِ﴾ . قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [المنكوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَكُمَا بِدَعْوَى وَلَا نَبِيٍّ﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِنِينَ﴾ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّالِحِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَتَكَّبُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .
يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاد والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة «النحل» كلها بمكة، وهي مكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قتل حمزة، رضي الله عنه، ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة. وهذا مرسل، وفيه رجل مبهم لم يسم، وقد روي هذا من وجه آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه - أو قال: لقلبه منه -، فنظر إليه وقد مثل به فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت - لما علمت - لوصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك، لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك، لأمثلهن بسبعين كمثلتك». فنزل جبريل، عليه السلام، على محمد ﷺ بهذه السورة، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ - يعني: عن يمينه - وأمسك عن ذلك. وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحاً - هو ابن بشير المري - ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبي وابن جُرَيج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك. وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هديّة بن عبد الوهاب المروري، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لثُرْبِينٌ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قریش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّالِحِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب».

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّالِحِينَ﴾ .

وقوله: ﴿وَأَسْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي صَبَقٍ﴾ أي: غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [١٧١] أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَبَيِّنُوا لِي مَا أَسْمَأُ﴾ [الأنفال: ١٧٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَىٰ اللَّهُ يَتْلَمَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ شَيْءٍ فَلَنُحِثِّبَهُنَّ إِلَّا هُوَ رَئِيْبُهُمْ وَلَا حَسْمَهُ إِلَّا هُوَ سَادِمُهُمْ وَلَا أَدَقَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَهْمُهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْصُرُ عَنْ رَبِّكَ فِي السَّمَاءِ ذَرَقٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَسْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٦١]. ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفينهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا مسعر، عن ابن عون، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان، رضي الله عنه، من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

آخر تفسير سورة النحل والله الحمد أجمعه والمنة،

وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة الإسراء

وهي مكية

قال الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود، رضي الله عنه، قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان، عن أبي لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل»، و«الزمر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرٰهِيْمَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١]. يعني بمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرتة على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً، صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَيْلًا﴾ أي في جح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي هو إيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل، ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فأتهم في مجلتهم، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي: محمداً ﴿مِّنَ الْإِبْرٰهِيْمَ﴾ أي: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾ [النجم: ١٨]. وستذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم

ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قيل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغأديه - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناده أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يُعلمهم. ووجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الكوثر الذي حبا لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً وأهلاً وسهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، وقد وعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع عليّ أحداً» ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيريه في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلا به إلى الجبار تعالَى، فقال وهو في مكانه: «يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: «يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضغفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يا محمد، قال: «ليبيك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لديّ، كما فرضت عليك في أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: «قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد - والله - استحييت من ربي مما اختلف إليه» قال: «فاهبط باسم الله»، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخاري في «كتاب التوحيد»، ورواه في «صفة النبي ﷺ»، عن إسماعيل بن أبي أُويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهَب، عن سليمان قال: «فزاد ونقص، وقدم وأخر». وهو كما قاله مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد الله بن أبي نعيم اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتي بيانه في الأحاديث الأخرى. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطنه لما وقع بعد ذلك، والله أعلم. وقال البيهقي:

في حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل - أصح. وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أتى أراه». وفي رواية «رأيت نوراً». أخرجه مسلم، رحمه الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصابت الفطرة» قال: «ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعالي بخير. ثم قال: يقول الله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ فقال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى الله إلي ما أوحى، وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك علي أمتك؟» قال: «قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة». قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإنني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلى ربي، فقلت: أي رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمسا. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت: قد حط عني خمسا». قال: «إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، ويحط عني خمسا خمسا حتى قال: يا محمد، هي خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشرا. ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت». ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسري به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس.

وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسري به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه. قال: فإرفض عرقاً. ورواه الترمذي عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه. وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي، ﷺ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على موسى، عليه السلام، قائماً يصلي في قبره». ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس. قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر على موسى وهو يصلي في قبره. وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عزرة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلي في قبره. قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق - فأوثق الدابة - أو قال: الفرس - قال أبو بكر: صفها لي. فقال رسول الله ﷺ، وذكر كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، قد رآها. وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكز بين كتفي، فقممت إلى شجرة فيها كوكري الطير، فقعده في أحدهما وقعدت في الآخر فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلي جبريل، عليه السلام، كأنه جالس لاط، فعرفت فضل علمه بالله علي، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، وأوحى إلي ما شاء الله أن يوحي» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة.

ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحُثَيْن، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في الحديث في آخره: «ولطُ دوني - أو قال: دون الحجاب - رفرف الدر والياقوت». ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد: أن النبي ﷺ كان في ملا من أصحابه، فجاءه جبريل، فنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكري الطير، فقعده في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لنتتها، فدلي بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغطياً عليه كأنه جالس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي. فأوحى إلي: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة؟ ما أنت؟ فأوماً إلي جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت لا. بل نبياً عبداً. قلت: وهذا إن صح يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم. وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، ﷻ، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكانها أمرت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله إن ركبك مثله. وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بمعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعو متحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد. فقال له جبريل: سر يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقية خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصابت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من

الأنبياء، عليهم السلام، فأثمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب، وفي بعض ألفاظه نكارة وخرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها خرابة ونكارة جداً، وهي في سنن النسائي المجتبى، ولم أرها في الكبير قال: أخبرنا عمرو بن هشام، حدثنا مَخْلَد - هو ابن الحسين - عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أنت بداية فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعني جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بيت لحم، حيث ولد عيسى، عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام، فقدمني جبريل حتى أمتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بي فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً فقيل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فرجعت فخفف عني عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربي، ﷻ، فسالته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من الله ﷻ، فرجعت إلى موسى، عليه السلام، فقال: ارجع، فعرفت أنها من الله صرئى - يقول: أي حتم - فلم أرجع».

طريق أخرى:

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بداية فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهي خلفها حيث ينتهي طرفها. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريل بأصبغه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علي السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدنونا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل، عليه السلام، فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد، أتدري من صلى خلفك؟» قال: «قلت لا». قال: «صلى خلفك كل نبي بعثه الله ﷻ».

قال: «ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لي جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علي وقال: مرحباً بابني والنبي الصالح». قال: «ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام». قال: «ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال:

محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». «فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام». قال: «فعرج بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها هارون، عليه السلام». قال: «ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: نعم. فتفتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تسلّم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فاتيتهم فسلمت عليه، فرد عليّ السلام وقال: مرحباً بك يا بني والنبي الصالح.

ثم انطلق بي عليّ ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم قال: يا محمد، أكله أنعم منه، ثم قال: يا محمد، أتدري أي نهر هذا؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجري على رصراض من الياقوت والزمرّد، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن» قال: «فأخذت منه آنية من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشدّ رائحة من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتني سحابة فيها من كل لون، فرفضني جبريل، وخررت ساجداً لله، فقال الله لي: يا محمد، إنني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك». قال: «ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل، فانصرفت سريعاً فأتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: فرض ربي عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتني السحابة، ورفضني جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتي، فخفف عنا. قال: قد وضعت عنكم عشراً. قال: ثم انجلت عني السحابة، وأخذ بيدي جبريل وانصرفت سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لي: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: وضع ربي عني عشراً، فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: «إني قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما لي لم آت على سماء إلا رحبوا بي وضحكوا إليّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام فرحب بي ولم يضحك إليّ. قال: يا محمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك». قال: ثم ركب منصرفاً، فبينما هو في بعض طريقه مرّ بغير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالبعير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر. ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع في ليلته. فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن كان قاله فقد صدق، وإننا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: «مررت بغير لقريش، وهي في مكان كذا وكذا، فنفرت العير منا واستدارت، وفيها بغير عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فصرع فانكسر». فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبي ﷺ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق. وسألوه وقالوا: هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى؟ قال: «نعم». قالوا: فصفهم. قال: «نعم، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزد عمان، وأما عيسى فرجل ربعة، سَبَط، تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شمره الجمان». هذا سياق فيه غرائب عجيبية.

رواية أنس، رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت - فجعل

يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة» قال: «فأتاني فقدُ - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول: من قَصَّته إلى شِعْرته قال: «فاستخرج قلبي» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل، عليه السلام، حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء»، قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال:

هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال: فسلمت فردا السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء» قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبى الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح».

قال: «ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقتها مثل قلال حجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال: ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟» قال: قلت: «خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عن أمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرأ، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعت فوضع عني عشرأ آخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرأ آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك،

وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرين عاماً، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات في كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: لقد سألت ربي ﷻ حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم، فنفذت، فناداني مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي». وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه.

رواية أنس عن أبي ذر:

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضي الله عنه، يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئاً حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودَةٌ وعلى يساره أسودَةٌ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى ابن مريم، ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهري: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فارجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي. فرجعت إلى موسى: فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق آخر، عن يونس، به. ورواه مسلم في صحيحه في «كتاب الإيمان» منه، عن حَزْملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سأله فقال: «إني قد رأيته نوراً أنى أراه».

هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وعن محمد بن بشَّار، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً».

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري، رضي الله عنه:

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقفي بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئى حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء فافتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى».

قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لي كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم».

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لي موسى: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربي. فوضع شرطها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحيت من ربي» قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدري ما هي؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسنده أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم.

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمي:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم - واللفظ له - قالوا: حدثنا أبو نؤيلة، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري به قال: فأتى جبريل الصخرة التي بيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق». ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نؤيلة، ولا نعلم هذا الحديث يروى إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدؤبقي به وقال: غريب.

رواية جابر بن عبد الله، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه في الصحيحين من طرق، عن الزهري، به. وقال البيهقي: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدرين: قدهم من لبن وقدهم خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قده اللبن. فقال

جبريل: أصبت، هديت للفطرة، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسري به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنني أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخير السماء. قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر: الصديق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمتم في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

رواية حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: أتيت حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسري بمحمد ﷺ، وهو يقول: «فانطلقنا حتى أتينا بيت المقدس». فلم يدخلا. قال: قلت: بل دخله رسول الله ﷺ ليلتذ وصلّى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف وجهك ولا أدري ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حبيش. قال: فما علمك بأن رسول الله ﷺ صلّى فيه ليلتذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فليج، اقرأ. قال: فقلت: «سُبْحَانَ الَّذِي أُنزِلَتْ بِهِ الْقُرْآنُ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا» قال: يا أصلع، هل تجد «صلّى فيه»؟ قلت: لا. قال: والله ما صلّى فيه رسول الله ﷺ ليلتذ، ولو صلّى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زايل البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعدا الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: وتحدثوا أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله، أي دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث عاصم - وهو ابن أبي النجود - به، وقال الترمذي: حسن صحيح. وهذا الذي قاله حذيفة، رضي الله عنه، نفي، وما أثبتته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس، مما سبق وما سيأتي مقدّم على قوله، والله أعلم بالصواب.

رواية أبي سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحماني، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلة أسري بك فيها، قال: قال الله عز وجل: «سُبْحَانَ الَّذِي أُنزِلَتْ بِهِ الْقُرْآنُ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَكُنُوزًا لِرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧١﴾»، قال: فأخبرهم فقال: «فبينما أنا نائم عشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آت فأيقظني، فاستيقظت فلم أر شيئاً، وإذا أنا بكهينة خيال، فأتبعته بصري حتى خرجت من المسجد، فإذا أنا بدابة أدنى في شبهه بدوابكم هذه، بفالكم هذه، مضطرب الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلي، يقع حافره عند مدّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك يا محمد، انظرني أسألك، فلم أجه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد انظرني أسألك، فلم أجه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أنفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها. فأتاني جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيت في وجهك هذا؟ قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبته - أو: وقتت عليه - لتهودت أمتك» قال: «فبينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يساري قال: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أنفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تقول: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبها ولم أقم عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبته أو أقمته عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال: «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلّى كل واحد منا ركعتين. ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلاق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْدُه مائة ألف ملك». قال: «وقال الله: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيته يوم خلقه الله ﷻ على صورته، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين.

ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأتنن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام».

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال: «فتجيء السابلة فتطوهم». قال: «فسمعتهم يضحجون إلى الله ﷻ». قال: «قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانُ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأقوام مشافزهم كمشافر الإبل». قال: «فتفتح على أفواههم ويلقون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضحجون إلى الله، ﷻ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بشديهن فسمعتهن يضحجن إلى الله، ﷻ، قلت: يا جبريل، من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك». قال: «ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك للمازون». قال: «ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله، ﷻ، قد فضل الناس في الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ. ثم صعدت إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلم عليّ. ثم صعدت إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم عليّ».

قال: «ثم صعدت إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرتة من طولها، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا المحبب في قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ. ثم صعدت إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان عليه قميصان لفضد شعره دون القميص، فإذا هو يقول: يزعم الناس أنني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله تعالى مني». قال: «قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ».

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ، وإذا أنا بأمتي شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رُمد». قال: «فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي». قال: «والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة». قال: «ثم دفعت لي سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: سلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، ففغر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. ثم إنني دفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا أنا بأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه».

فقال عندها ﷻ: «إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: «ثم عرضت عليّ النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لاكلتها، ثم أغلقت دوني. ثم إنني دفعت إلى سدرة المنتهى، فتغشاني فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من

الملائكة». قال: «وفرضت علي خمسون وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشرًا، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة. ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تطبيقه تكفر. فرجعت إلى ربي ﷻ فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني عشرًا، وجعلها أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربي، كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لي: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك ﷻ فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربي سبحانه وتعالى فقلت: أي رب، خفف عن أمتي، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني خمسًا، وجعلها خمسًا، فناداني ملك عندها: تمتت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأمتك». «فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إني أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء، ورأيت كذا وكذا». فقال أبو جهل - يعني ابن هشام -: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا، ومقفلة شهرًا، فهذا مسيرة شهرين في ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بعير لقريش: «لما كنت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبعيه كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيته؟ وكيف قربه من الجبل؟ فإن يك محمد صادقًا فسأخبركم، وإن يك كاذبًا فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني كيف بناؤه؟ وكيف هيته؟ وكيف قربه من الجبل. قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا الكلام.

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، به. ورواه، أيضاً، من حديث محمد بن إسحاق: حدثني روح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عتبة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري، فذكره بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة. ثم ذكره البيهقي، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الخُداني وهشيم ومعمر، عن أبي هارون العبدى - واسمه عمارة بن جوين وهو مضعف عند الأئمة. وإنما سقنا حديثه ههنا لما في حديثه من الشواهد لغيره، ولما رواه البيهقي: أخبرنا الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حكيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: «سفيان الثوري» لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري، عنك ليلة أسري بك، قلت: «رأيت في السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لي: «نعم». فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السرى بعجائب؟ فقال لي: «ذلك حديث القصاص».

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جبير بن نفير: حدثنا شداد بن أوس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أمرى بك؟ قال: «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتمًا». قال: «فأتاني جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض - أو قال: بياض - فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت علي، فرازها بأذنها، ثم حملني عليها. فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيثرب صليت بطيبة.

فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. فنزلت ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا: فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى. ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال: صل. فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هداني الله ﷻ، فأخذت اللبن فشربت حتى قرعت به جبیني، وبين يدي شيخ متكئ على مشواة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدي. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي، قلت: يا رسول الله، كيف وجدتها؟ قال: مثل الحمة السخنة. ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة؟ فقد التمسك في مظانك. فقال: «علمت أنني أتيت بيت المقدس الليلة؟». فقال: يا رسول الله، إنه مسيرة شهر، فصفه لي. قال: «فتفتح لي صراط كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه». قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كئشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال: فقال: «إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بغير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغزراتان سوداوان». فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبل العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ.

هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مرفقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، به. ولا شك أن هذا الحديث - أعني الحديث المروري عن شداد بن أوس - مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو منكر، كالصلاة في بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. والله أعلم.

رواية عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسري بنبي الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها وجساً فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤمن». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقية موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحباً بالنبي الأمي»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما»، فقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا موسى». قال: فمضى، فلقى عيسى فرحب به، وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عيسى». قال: فمضى فلقى شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدهين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسناد صحيح ولم يخرجوه.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثني عكرمة، عن ابن عباس قال: أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول!

فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزيداً فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. فسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيتُه فيلماً نياً أقمر هجاناً، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كان شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه». ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال - وهو ابن خباب - به، وهو إسناد صحيح.

طريق أخرى:

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأري مالكا خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَمَ مِنْ لِقَائِهِ» [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِمَنْ إِشْرَاهُ» قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان. وأخرجه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً.

طريق أخرى:

قال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا دؤيب المعداد، حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي، مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقطت مشطها من يدها فقالت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي وربك ورب أبيك. قالت: أو لك رب غير أبي؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب أبيك الله». قال: «فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، ﷻ». قال: «فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع، قال: ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، قعي ولا تقاعسي، فإنك على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار، هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام». إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى قالوا: حدثنا عوف، عن زُرارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة، فظلت بأمرى وعرفت أن الناس مكذبي» ففقد معتزلاً حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة». قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرانيها؟! قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: رأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال: هيا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانيها؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب - زعم - قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد - قال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنت، فما زلت أنت حتى التبس علي بعض النعت» قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - ففتته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه - يقول عوف -: قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب. وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة - وهو الأعرابي، به. ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، أحد الأئمة الثقات، به.

رواية عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مضرّف، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ، فانتهى إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ مَا يُنشئُ﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله المقحّمات، يعني الكبائر. ورواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نمير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلًا دون ذكرهما»، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم.

قلت: وقد روي عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» في جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمي، حدثنا أبو ظبيان الجنبلي قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله - يعني ابن مسعود - ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسري بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملني عليه، ثم انطلق يهوي بنا، كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يده مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول - فيرفع صوته يقول - أكرمه وفضلته». قال: «فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد، قال: مرحباً بالنبي الأمي العربي، الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته». قال: «ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران». قال: «قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن الله ﷻ قد عرف له حذته». قال: «ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كان ثمرها الشرج تحتها شيخ وعباله». قال: «فقال لي جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: «فقال: مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلاها في أمتك فافعل». قال: «ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راعع وقائم وساجد». قال: «ثم أتيت بكأسين من غسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل، عليه السلام، منكبي وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأمتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا». إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب: سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أن جبريل عليه السلام كان يعلمهم بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكرّ راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن موثر بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ﷻ، وفيما عهد إلي ربي أن الدجال خارج». قال: «ومعي قضيبان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فيهلكه الله إذا رأني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافرًا، فتعال فاقتله» قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فنعند ذلك يخرج بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: «ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم. فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى

تجوى الأرض من تنن ربحهم - أي: تنتن» قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلي ربي: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً». وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدَار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخي عبد الله بن قرط الثمالي:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون - مؤذن مسجد الرملة - حدثني عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقاً من ذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى». ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿سُبْحٰنَ لَهٗ اَكْبَرُۙ اَسْمٰعُ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ قال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلّى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس. فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلّي وراءها وهي بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن من الله عليه بالإسلام، فهدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذى، وكنس عنها الكناس بردائه. وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم عن أبي مرثد العنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلّوا إليها».

رواية أبي هريرة، رضي الله عنه:

وهي مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حدثنا علي بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - في قول الله ﷻ: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ السَّجْدِ الْاَكْثَرِ اِلَى السَّجْدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِيُرِيَهُ مِّنْ اٰيٰتِنَاۤ اِنَّهٗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ ﴿١﴾﴾ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: انتني بطست من ماء زمزم، كيما أظهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، فغسله ثلاث مرات، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غل، وملاه حلاًماً وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة. ثم أتاه بفرس فحمل عليه، كل خطوة منه منتهى بصره - أو: أقصى بصره - قال: فسار وسار معه جبريل عليهما السلام قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنه بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاوع وعلى أديارهم رقاوع، يسرعون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً وما الله بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم آخري في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النية الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح. قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقتة، قال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونهم، ثم تلا ﴿وَلَا تَقْعُدُوا

يَكُنِّي صِرَاطٌ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أداؤها وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء خطباء الفتنة. ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج، فلا يستطيع، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: «يا جبريل، ما هذه الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت غرفي، وإستبرقي وحريري وسندسي، وعقبيري ولؤلؤي ومرجاني، وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي، وأباريقي ومرابي، وعسلي ومائي، وخمري ولبني فأتني ما وعدتني. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألتني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت. قال: «ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة، فقال: «ما هذه الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟» فقال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي، وسعيري وحميمي، وضريعي، وغساقبي وعذابي، وقد بعد قعري، واشتد حري، فأتني كل ما وعدتني، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المحيي جاء.

قال: ثم لقي أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى، عليه السلام، أثنى على ربه، ﷻ، فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود، عليه السلام، أثنى على ربه ﷻ فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه ﷻ فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتمائيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهية الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذنه، ورفعني وطهرني، وأعادني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل. قال: ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربه، ﷻ، فقال: «فكلكم أثنى على ربه، وإني مثن على ربي ﷻ» فقال: «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً» فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد ﷺ. قال أبو جعفر الرازي: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآية ثلاثة مغطاة أفواهاها، فأتي بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روي. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد رويت». فقال له جبريل عليه السلام: أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل. قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة،

ونعم المجيء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى وحزن، فقلت: «يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم عليه السلام، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال: «يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام. قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: «من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام. قال: ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه الله تعالى مكاناً علياً.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب في قومه وهؤلاء بنو إسرائيل. ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء. فإذا هو برجل جالس، فجاوزه فبكى الرجل، فقال: «يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى، قال: «فما باله يبكي؟» قال: زعم بنو إسرائيل أنني أكرم بني آدم على الله، ﷻ، وهذا رجل من بني آدم قد خلفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «يا جبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤوا وقد صفت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام أول من شمس على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهت إلى السدرة فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والورقة منها مغطية للامة كلها. قال: فتعشيتها نور الخلاق، ﷻ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة قال: فكلمه الله تعالى عند ذلك، قال له: سل، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيته داود ملكاً عظيماً، وأنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيته سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته له ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعدته وأمه من الشيطان

سورة الإسراء، الآية: ١

الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه ﷻ وقد اتخذتكم خليلاً - وهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن - وأرسلتكم إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفع لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتكم أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك الثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتكم فاتحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: «فضلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف في قلوب عدوي الرعب من مسيرة شهر، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض كله طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة، فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: «بمخمين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشرين». قال: ارجع إلى ربك، فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشر»، قال: ارجع إلى ربك، فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع على حياءً إلى ربه، فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى، عليه السلام، فقال: بكم أمرت؟ قال: «بخمسة»، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: «قد رجعت إلى ربي حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت على نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضي محمد ﷺ كل الرضا، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه.

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أبي سعيد الماليني، عن ابن عدي، عن محمد بن الحسن السكوني البلسي بالرملة، حدثنا علي بن سهل، فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه، وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيری، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني: أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿مُتَّبِعَنَّ الَّذِينَ أُسْرِيَ مِنْكُمْ لَيْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾» فذكر الحديث بطوله كنعنو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازي» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازي يهيم في الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيء الحفظ فصيماً تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ حين أسري به: «لقيت موسى» قال: فنتعته فإذا رجلاً - حسبته قال: - مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» - فنتعته النبي ﷺ - ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام. قال: «ورأيت

إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: «وأنت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة - أو: أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجه من وجه آخر عن الزهري - به نحوه.

وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَيْنِ بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق». قال: «وأنت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به.

رواية جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله - يعني الحاكم - أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمدان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا عمر بن سعد النصرى من بني نصر بن قعين، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سليم وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب - بعضهم يزيد في الحديث على بعض - عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس - ومحمد بن إسحاق بن يسار، عن حدثه عن ابن عباس - وعن سليم بن مسلم العقيلي، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود - وجوبير، عن الضحاك بن مزاحم قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتب المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية.

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة الله عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

قال الإمام البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا محمد بن كثير الصنعاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قال: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدق بما هو أبعد من ذلك، أصدق به خبير السماء في غداة أو روضة. فلذلك سمي أبو بكر: الصديق، رضي الله عنه.

رواية أم هانئ بنت أبي طالب، رضي الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح ياذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: «يا أم هانئ، لقد صليت

معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترون». الكلبى: متروك بمرّة ساقط، لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضمرة بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن أبي صالح، عن أم هانئ بأبسط من هذا السياق، فليكتب ههنا.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول الله ﷺ «إن جبريل، عليه السلام، أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها، ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأراني موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة، وأراني عيسى ابن مريم زنبعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي، وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بقطن بن عبد العزى» قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقاتلتك، فأخاف أن يسطروا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فاتأهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني، فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد لو كنت شاباً كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا. فقال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: «نعم، والله قد وجدتهم أضلوا بعيداً لهم فهم في طلبه». قال: فهل مررت بإبل لبني فلان؟ قال: «نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة. قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً». فنام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي مصبحتكم من الغداة على الثنية». قال: فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوه: هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فصدقه أبو بكر رضي الله عنه وآمن به، فسمي يومئذ الصديق.

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جازئ على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرارات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام، أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرار. قال موسى بن عقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام، أسري به بقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج - وهو كالمسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فنتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء عليهم السلام الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقدام: أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى

الجنة والنار، وفرض الله ﷺ عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلّى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآية عليه من اللين والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقدام، والله أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله ﷺ: ﴿سَبَّحْنِ الَّذِي أَسْرَى بِمَبْدِيهِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال عز شأنه: ﴿أَسْرَى بِمَبْدِيهِ لَيْلًا﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلِهَتِكَ إِلَّا فَتَنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملحونة: شجرة الزقوم. رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿مَا نَزَعْنَا الْأَبْصَرَ وَمَا كُنَّا لِنُؤْتِيَهُ الْبَصَرَ بِإِذْنِنَا إِلَّا لَنَعْلَمَ أَنَّ هُوَ جَاهِلٌ لِمَا يَعْبُدُ فَإِنَّمَا هُوَ يَعْبُدُ وَإِنَّمَا يَكْفُرُ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ إِذْ يَعْبُدُ إِلَّا رَبَّهُ﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براق لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب ترتكب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة. وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسري بروحه. قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلِهَتِكَ إِلَّا فَتَنَةً لِلنَّاسِ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا تَرْمَعُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً. فكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عينا، وقلبي يقظان» فله أعلم أي ذلك كان قد جاء، وعالين فيه من الله ما عاين، على أي حالته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق. وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله ﷺ ذخية بن خليفة إلى قيصر - فذكر وروده عليه وقدمه إليه. وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل - ثم استدعى من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما يمتعني أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ، ولا يصدقني بشيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا - أرض الحرم - في ليلة فجاء مسجداً هذا - مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة

أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبي، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فغلبي، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه الناجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية الباب مثقوب، وإذا فيه أثر مربوط الدابة قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا. وذكر تمام الحديث.

فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد. ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرظ، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملمحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْرَابِهِمْ وَاللَّهُ مَبِينٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [٨: الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ۖ ﴿١﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَكَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۖ ﴿٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات الله وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبده وكليمه عليه السلام أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ أي لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَكَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبه على المنمة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهاً بأبيكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالني إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله تعالى على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً.

قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بزة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها﴾. وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة، به. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي رزعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة - بطوله، وفيه: - فياتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكامله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ ﴿١﴾ إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَمَا سَأُوا غَلَّلَ الذِّيَابِ وَكَانَ وَعْدًا مَّقْفُولًا ۖ ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴿٣﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۖ إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَبُورَهُمْ وَيَتَخَلَّوْا السَّجَدَ كَمَا كَفَرُوا أَوْ لَسِرَتْهُمُ الرَّسْفُورُ ۖ وَمَا عُلُوًّا تَبِيرًا ۖ ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنَّ عُذْمَ عُذْمًا ۖ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلمون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ كَابِرَ هَتُوكَ مَقْفُولٌ مُّصْحِحٌ﴾ [الحجر: ٦٦] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَشَأًا عَلَيْهِمْ عَذَابًا لَّنَا أَوَّلُ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة ﴿فَتَبَأَسُوا خَلَلَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائئين لا يخافون أحداً ﴿وَكَاكَ وَعَدَا مَفْعُولًا﴾. وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فمن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أدبلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَنِسَاءٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقية من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، قتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غُثَّةِ عنها، والله الحمد. وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرفهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَسْنَتُّ أَسْنَتَهُ لَأَخْسَرَنَّ لَأَفْئِكُهُ وَإِنْ أَسَأْتُ فَلَهَا﴾ أي: فعلها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [نصت: ٤٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْتَفْؤُا وَجُوهَكُمْ﴾ أي: يهنؤكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا السَّجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَسْتَفْؤُا﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَنْبِيْرًا عَنِّي رَيْكُونَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَلَنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عَدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجناً. وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره. وقال الحسن: فراش ومهاد. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحي، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَوْفَىٰ وَيُذَرُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنْ لَمْ أَجْرَأْ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعدَاءُ لِمَنْ عَدَاكَ أَيْسًا﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُذَرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لِمَنْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لِمَنْ عَدَاكَ أَيْسًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لن عمران: ٢٢١].

﴿وَيَبِّغُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاهُ بِالْحَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ حَجُولًا﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْمَلَهُمْ لَأَبْخَرَهُمْ لَقِصَىٰ

إَتَيْتَهُمْ أَجْلَهُمْ ﴿١١﴾، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم في هذا الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها». وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جَوَلًا﴾. وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس -رضي الله عنهما- ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين هم بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجله، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهتم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجله فلم يستطع، وقال: يا رب عجل قبل الليل.

﴿وَحَمَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ ءَابَتَيْنِ فَوَحَوْنَا ءَايَةَ أَلِيلٍ وَحَمَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبِصِرَةً لِنَتَّبِعُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ وَلِنَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْتُهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتسروا في النهار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الأجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِنَتَّبِعُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِنَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسفاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِنْ يَوْرَ الْقَيْمَةِ مَن لَّهُ عِزٌّ اللَّهُ بِأَيْكُمْ بِضِعْفٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٣﴾﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِنْ يَوْرَ الْقَيْمَةِ مَن لَّهُ عِزٌّ اللَّهُ بِأَيْكُمْ بِضِعْفٍ أَفَلَا تَعْبُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ وَمَنْ تَحْتَبِيهِ جَعَلَ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِنَسْكُوتٍ فِيهِ وَلِنَبْتِغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾﴾. [القصص: ٧١-٧٣]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبَكُمَا وَسُمْرًا مَبِينًا ﴿١٦﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٧﴾﴾ [السفران: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَيْنَاكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴿١٩﴾﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَءَايَةُ لَهُمْ أَنَّ اللَّيْلَ نَسَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي: علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَسْكُوتٍ عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَكُنَّ لِقَوْمٍ يُسَخَّرُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الْأَمْرِ قُلٌ مِّن مَّوْقِيَّتِ النَّاسِ وَالصَّحِّحِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]. قال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَوَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَحَمَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبِصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَوَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَوَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَوَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَوَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أي: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن أبي نجيع عن ابن عباس: ﴿وَحَمَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ ءَابَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، ﷻ.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمِزْتَهُ طَلَبُ رُؤْيُ فِي عُنُقِهِ وَنُحْرُجُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ أَقْرَأَكَ كِتَابَكَ كَمْ يَتَفَسَّكُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حِسْبًا ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمِزْتَهُ طَلَبُ رُؤْيُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطاقاره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٥﴾﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١٦﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدَ ﴿١٧﴾﴾ مَا يَلْفُظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِينَ ﴿١٩﴾﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يَمْشُونَ مَا يَحْمِلُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ وَأَنَّ الْفَجَارَ لَفِي نَجِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْر بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وقال الإمام

أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطَّاطَرُ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي عَقْبِهِ». قال ابن لهيعة: يعني الطيرة. وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث، غريب جداً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو شماله إن كان شقيماً ﴿مَنْشُورًا﴾ أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنْفِثُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُنْفِثُ يَمَانًا وَقَدَّمَ وَأَثَرَ﴾ ﴿بِئْسَ الْإِنْسَانُ عَلَى تَقْوِيمِ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ لَاقَى مَعَادِيرَهُ﴾ ﴿الْقِيَامَةَ: ١٣-١٥﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿١٤﴾ أي: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله تعالى: ﴿الزَّيْنَةُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر:

أذهب بها أذهب بها طوقتها طرق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لا عَذْوَى وَلَا طَيْرَةٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ الزَّيْنَةُ طَائِرُهُ فِي عَقْبِهِ». كذا رواه ابن جرير. وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، في مسنده متصلًا، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر [رضي الله عنه] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طير كل عبد في عاقبه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت». إسناده جيد قوي، ولم يخرجوه. وقال معمر، عن قتادة: ﴿الزَّيْنَةُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدَ مِثْقَالٍ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكلك بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، واما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿١٤﴾ قد عدل - والله - عليك من جعلك حسب نفسك. هذا من حسن كلام الحسن، رحمه الله.

﴿تَنَزَّلَتْ آفَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ صَلَّى فَلَنَا مِيزَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كَأَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى وتابع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ صَلَّى﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ نُدْخِ مُنْفَعًا إِلَىٰ جَهَنَّمَ لَآ يَحْمِلَ مِثْرَهُ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أُزَابِرُ الَّذِينَ يُضْلَوْنَهُمْ يَغْتَابِرُ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَأَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا فَوْجَ سَالِمٍ خَزَنَتَهَا أَلَّا يَأْتُواكُم بَدِيلٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمَاءٍ إِلَّا فِي سَحَابٍ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ وَكُنَّا لَا نَحْمِلُهُمْ فِيهَا﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَصْحَابُهُمْ قَالُوا هَذَا الَّذِينَ كَفَرْنَا أَنذَرْنَاكُمْ عَنْهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مِّنْ أَنْثَىٰ مُطَهَّرَةٍ مِمَّا يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّذِينَ آمَنُوا فِيهَا رِزْقٌ مِّنْ لَّدُنَّا يَافُورًا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِشُونَ فِيهَا رِزْقًا أُخْرَىٰ نَعْمَلْ صَلَاتًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوْلَتْ نَعْمَلُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَحَاءَكُمْ أَلَّذِينَ قَدْ قُوفُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مقحمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الاعراف: ٥٦].

حدثنا عبد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار خلقاً

فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟» ثلاثاً، وذكر تمام الحديث. فإن هذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجه في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار»، فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فينشئ الله لها خلقاً».

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة، رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهي: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصمّ والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا ذكراها لك بعون الله تعالى وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

فالحديث الأول: عن الأسود بن سريع:

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل قَرَمٍ، ورجل مات في فترة، فأما الأصمّ فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثيقهم ليطيعته فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً».

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «من دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها». وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المدني، به. وقال: هذا إسناد صحيح، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلي على الله بحجة» فذكر نحوه. ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْتَلِيَٰهُمْ رَسُولًا﴾. وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة موقوفاً.

الحديث الثاني: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة».

الحديث الثالث: عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن ليث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم: ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب، أتى ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار». وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله.

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب، رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبه، حدثنا عبد الله - يعني ابن داود - عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم». فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم». ورواه عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره.

الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ربحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان؛ أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة، قال: «إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكتنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تعظيلاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا - أو: أجزنا - منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أنني إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك موثيقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فرقتنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبي الله ﷺ: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ربحان بن سعيد. قلت: وقد ذكره ابن حبان في ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به.

الحديث السادس: عن أبي سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك في الفترة والمعتوه والمولود؛ يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل. فترفع لهم نار فيقال لهم: ردوها» قال: فيردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان من علم الله شقيماً لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيتم، فكيف لو أن رسلي أتتكم؟». وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي، عن عبيد الله بن موسى، عن فضيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه، وقال في آخره: «فيقول الله، إياي عصيتم فكيف برسلي بالغييب؟».

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه:

قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حليس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن نبي الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوخ: يا رب، لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني - وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك - فيقول الرب ﷻ: إني أمرتكم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار - قال: ولو دخلوها ما صرتمهم - فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلك ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب ﷻ: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضميهم، فتأخذهم النار».

الحديث الثامن: عن أبي هريرة، رضي الله عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضي الله عنه. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصرانه ويُمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟». وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «فيما أعلم، شك موسى - قال: «ذاري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم عليه السلام». وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ، عن الله، ﷻ، أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء». وفي رواية لغيره «مسلمين».

الحديث التاسع: عن سمرة، رضي الله عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي، عن سمرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «أولاد المشركين». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبه بن مكرم الضبّي، عن عيسى بن شعيب، عن

عباد بن منصور، عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألتنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة».

الحديث العاشر: عن عم حسناء:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، يعني الأزرق، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة». فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري: أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «نعم، وأولاد المشركين». ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم». ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمري بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم يتكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟! والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَن سَائِقٍ وَيَنْدَعُونَ إِلَى الْكُفُودِ﴾ [ن: ٤٢]، وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود خراً لفقاه.

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن الله يأخذ عهوده وموآبته ألا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له في دخول الجنة. وأما قوله: «وكيف يكلفهم دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟» فليس هذا بمنع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم المشاي، ومنهم من يحب حيوياً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك، وأيضاً فإن الله تعالى قد أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عمية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل

فإذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال:

أحدها: أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرَةَ أنه، عليه السلام، رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد عن حسناء، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود في الجنة». وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه. فمن علم الله ﷻ أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله

الأشعري عن أهل السنة والجماعة، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد، عن أنس، عن أبي داود الطيالسي. وهو ضعيف، والله أعلم.

القول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطفان، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يا رسول الله، بلا عمل؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب، عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول، سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين قال: «هم من آبائهم». قلت: فذراري المشركين؟ قال: «هم مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». ورواه الإمام أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عقيل يحيى بن المتوكّل - وهو متروك - عن مولاته بُهية عن عائشة؛ أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعك تضاعفهم في النار».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان عن علي، رضي الله عنه، سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال: «هما في النار». قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: فولدي منك؟ قال: قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار». ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقرّي الضيف وتصل الرحم، وإنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: «الوائدة والموودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم». وهذا إسناد حسن.

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله، ﷻ. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توفقوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة الله، ﷻ. قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة. انتهى كلامه وهو غريب جداً. وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له عصفور من عصفائر الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه. ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده

عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة موتياً - أو مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدرة». قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين. وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفياً ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَاهُمَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناها: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناها: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج، عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبيرة أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناها جعلناهم أمراء. قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا﴾ ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعامه العدوي، عن مسلم بن يزيد، عن إياس بن زهير، عن سؤيد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأمورة». قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأمورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «ما زورات غير ماجورات».

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَدُونِ نُوحٍ وَكَانَ رِيبُكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رِيبُكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَغَالِةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَبْلُوَهُ إِنْ يُرِيدُ نَجْدًا لَمْ يَجْعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال: ﴿جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَبْلُوَهُ إِنْ يُرِيدُ نَجْدًا لَمْ يَجْعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿يَصَلِّهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الغاني على الباقي ﴿مَدْحُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا زيد، عن أبي إسحاق، عن زرعة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: وقلبه مؤمن، أي: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

﴿كَلَّا يُبَدِّلُ مَنَاقِبَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ رِيًّا وَإِنَّهُمْ لَكَ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ رِيًّا﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راداً لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا

مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عِطَاءَ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عِطَاءَ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ أي: منقوصاً. وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: ممنوعاً. ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مآخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُورًا﴾ (٢٢)

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿مَحْدُورًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينضرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغي، إما أجل عاجل وإما غنى عاجل». ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكَاذِبُ أَطْعَمَهُمْ أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَىٰ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا (٢٤)

يقول تعالى أمرآ بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء هنا بمعنى الأمر. قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِن شَكَرْتُمْ لِي وَلِوَالِدِكُمْ إِلَيَّ النَّصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿إِمَّا يَلْعَنُ عِنْدَكَ الْكَاذِبُ أَطْعَمَهُمْ أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَىٰ﴾ أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾.

قال ابن عباس: ثم أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ مِنْهُنَّ﴾ [التوبة: ١١٣]. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «أمين أمين أمين». فقالوا: يا رسول الله، علام أمّنت؟ قال: «أنا نبي جبريل فقال: يا محمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: أمين. فقلت: أمين. ثم قال: رغم أنف امرئ ذكرت عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: أمين. فقلت: أمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: أمين. فقلت: أمين».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زرارة بن أوفى، عن مالك بن الحارث - رجل منهم - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ضمّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار، يجزي بكل عضو منه عضواً منه». ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد - فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: «ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زرارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القشيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، مكان كل عظم من عظامه مُحَرَّزَهَ بِعَظْمٍ مِنْ عَظَامِهِ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ثُمَّ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ﷻ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ

وشرا به حتى يغنيه الله، وحببت له الجنة».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالوا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن أبي بن مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه». ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به. وفيه زيادات أخرى.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبير ولم يدخل الجنة». صحيح من هذا الوجه، ولم يخرج سوى مسلم، من حديث أبي عوانة وجريير وسليمان بن بلال، عن سهيل، به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا ربعي بن إبراهيم - قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيْبَةَ، وكان يفضل على أخيه - عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي! ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلخ قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخل الجنة» قال ربعي: لا أعلمه إلا قال: «أحدهما». ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدؤزقي، عن ربعي بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من بزّ أبوي شيء بعد موتهما أبزهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلّة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان - وهو ابن الغسيل - به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمي؛ أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجنتك أستشيرك؟ فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم. فقال: «الزها». فإن الجنة تحت رجلها» ثم الثانية، ثم الثالثة في مقاعد شتى، كمثل هذا القول. ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن جريج، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَجِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد يكرب الكندي، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالآقرب فالآقرب». وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث عبد الله بن عياش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العُرُوقي، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه؛ أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أدبت حقها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة» أو كما قال. ثم قال البزار: لا نعلم يروى إلا من هذا الوجه. قلت: والحسن بن أبي جعفر ضعيف، والله أعلم.

﴿زَيْكُرُ أَقْرَبُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَنُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلى الخير بذلك - فقال: ﴿زَيْكُرُ أَقْرَبُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَنُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسيحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَنُورًا﴾ قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمّر، عن يحيى بن سعيد، عن

ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، به. وكذا قال عطاء بن يسار. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿لَئِنَّمْ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه على ذلك مجاهد. وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله: ﴿لَئِنَّمْ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو النائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «أبيون تائبون عابدون، لربنا حامدون».

﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾ [٢٦] إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَرَضُّونَهُمْ أَيْمَانًا رَّحِمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [٢٨].

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم في الحديث: «أملك وأباك، ثم أدناك أدناك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهما «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي، وحמיד بن حماد بن أبي الخوار. وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وقدك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة فكيف يلتزم هذا مع هذا؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته هنا. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [٢٧] [الفرقان: ٦٧]. ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أشباههم في ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبدراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان تبديراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾ [٢٦]. فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أدبت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أدبتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا﴾ أي: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَرْضَوْنَ لَهُمْ أَيْمَانًا رَّحِمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [٢٨] أي: وإذا سألك أقرابك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: عداهم وعدأ بسهولة، ولين إذا جاء رزق الله فنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله ﴿فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة وغير واحد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَرْغُولًا إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [٢٩] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِبَادِيهِمْ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [٣٠].

يقول تعالى أمراً بالاعتصام في العيش ذاماً للبلخ ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَرْغُولًا إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَرْغُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب. وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتفقد

ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسیر، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت
ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسیر، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ
مِن تَفَوتٍ فَاتَّجِجْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن تَطْوِيرٍ﴾ ثم أتجج البصر كزئب ينقلب إليك البصر حايئاً وهو حيدر ﴿٣١﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن
أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وابن جرير وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحين، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل
والمنفق، كمثل رجلين عليهما جتان من حديد من نديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على
جلده، حتى تخفي بناه وتعفر أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع». هذا
لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال
رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا توعي فئوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك» وفي لفظ: «ولا
تُحصي فيحصي الله عليك». وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه،
قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك». وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرعة، عن سعيد بن
يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول
أحدهما: اللهم أعط منقفاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وروى مسلم، عن قتبية، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مال من صدقة، وما
زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إياكم والشح،
فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا». وروى البيهقي من
طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل
صدقة، حتى يفك لخبئي سبعين شيطاناً». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا
إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وقوله تعالى:
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من
يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَبْأُوهُ خَيْرًا بِبَصِيرَةٍ﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى
ومن يستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي
من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياداً
بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَوْلَادَكُمْ حَيْبَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّذْرِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَلْبَهُمْ كَانَ خِطَاءً كَبِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم عباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى تعالى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد
في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فهى الله تعالى عن ذلك
فقال: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَوْلَادَكُمْ حَيْبَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿مِّنْ نَّذْرِهِمْ
وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِثْلَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: من فقر ﴿مِّنْ نَّذْرِهِمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقوله: ﴿إِنَّ
قَلْبَهُمْ كَانَ خِطَاءً كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيراً» وهو بمعناه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن
مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك
خشيته أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فِتْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقارنته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فِتْحَةً﴾ أي: ذنباً عظيماً

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبش طريقاً ومسلكاً. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، انذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالكتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقیة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له».
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي السنن: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم». وقوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطٰنًا» أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضي الله عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضي الله عنه، أن يسلمه قتله حتى يقتص منهم؛ لأنه أموي، وكان علي، رضي الله عنه، يستمهل في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنتب من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب، وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا صَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شُوذْب، عن مطر الوراق، عن زُهْدَم الجرمي قال: كنا في سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم حديثاً ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان - يعني عثمان - قلت لعلي: اعتزل، فلو كنت في حجر طلبت حتى تستخرج، فعصاني، وإبم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ» الآية وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعْرَف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك. وقوله تعالى: «فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ» قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: «إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا» أي أن الولي منصور على القاتل شرعاً، وغالباً قداراً.
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ مَنزُورًا بِالْقِسْطِ الَّتِي سَفَّيْتُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أي: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالَكُمْ إِلَهُ كَانَ حُوبًا كِبِيرًا» [النساء: ٢٦] «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالًا إِيمَانًا وَبَدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْفِهْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» [النساء: ٢٦]. وقد جاء في صحيح مسلم؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمزن على اثنين، ولا تولين مال يتيم». وقوله تعالى: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والمقد كل منهما يسأل صاحبه عنه «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا» أي: عنه. وقوله تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ» أي: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم. «وَرَبُّوْا بِالْقِسْطِ» قرئ به بضم القاف وكسرهما، كالقسطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقوله: «الَّتِي سَفَّيْتُمْ» أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب. «ذَلِكَ خَيْرٌ» أي: لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم. قال سعيد، عن قتادة: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: خير ثواباً وعاقبة. وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال،

وهذا الميزان. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدهه، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول: لا تقل. وقال العوفي عنه: لا تزم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿أَخْبِرُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِتَّمَّ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل: زعموا»، وفي الحديث الآخر: «إن أفرى القري أن يري عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقده». وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمَّ المَنَازِلُ بِنَدَمِ نَزَلَةِ اللُّوَى وَالْمَعِيشُ بِبِنْدِ أَوْلَئِكَ الأَيَامِ
﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الأَرْضِ مَرَمًا إِنَّك لَن تَحْرِقَ الأَرْضَ وَكَانَ تَبْلَغَ لَيَالٍ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجَبُّرِ والتَّبَخُّرِ في المشية: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الأَرْضِ مَرَمًا﴾ أي: متبخرًا متميلاً مشي الجبارين ﴿إِنَّك لَن تَحْرِقَ الأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وقاتم الأعماق خاوي المُخْتَرِقِ

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَبْلَغَ لَيَالٍ طُولًا﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَانٌ يتبختر فيهما، إذ حُفَّسَ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخموم والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مر عليه ابن الأهمم - يريد المنصور - وعليه جبابٌ حَزَزٌ قد نُصِدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفجر عنها قباؤه، وهو يمشي ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصعر خده، ينظر في عطفه، أي حَمِيقٌ ينظر في عطفه في نَعَمٍ غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدي حق الله منها! والله إن يمشي أحدهم طبيعته يتلجلج لتلجلج المجنون، في كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة، فسمعه ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلي، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الأَرْضِ مَرَمًا إِنَّك لَن تَحْرِقَ الأَرْضَ وَكَانَ تَبْلَغَ لَيَالٍ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ورأى البخترى العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن معدان: إياكم والخطر، فإن الرجل يده من سائر جسده. رواهما ابن أبي الدنيا. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى، عن سعيد، عن يَحْسَنَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض».

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٣٨﴾﴾ أما من قرأ: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسِيَةً إِمْلَأُوا﴾ إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُومًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاتِهِ﴾ إلى ههنا فسيئته، أي: فقيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير، رحمه الله.

﴿ذَلِكَ مِنَّا أَحْسَنُ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به

الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿تَدْحُرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: مطروداً. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصْفَكَ رُحْمًا يُبْتِغَىٰ مِنَ الْبَاطِنِ أَنْ تَأْخُذَ بِهِ نِجْمًا كَمَا آتَىٰ الْأُولَىٰ﴾ (٤٠).

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادَّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحْمًا يُبْتِغَىٰ مِنَ الْبَاطِنِ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ أي: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم لله ولداً، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنَّ لكم، وربما قتلتموهن بالواد، فتلك إذا قسمة ضيزى. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَكَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَحِجْرٌ لِّبَالٍ هَذَا﴾ (٤١) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٤٢) ﴿وَمَا يُبْتِغَىٰ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٤٣) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا تَرَىٰ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (٤٤) ﴿لَقَدْ أَصْنَمْتُمْ بَدَنَهُمْ عَدَا﴾ (٤٥) ﴿وَكُلَّهُمْ مَّاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (٤٦) ﴿مريم: ٨٨ - ٩٥.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ، فينزعوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا بِكَ ذِي الْعَرْشِ سَبِيحًا﴾ (٤٧) ﴿سُبْحٰنَهُ وَمَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٨).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقَدَّسها فقال: ﴿سُبْحٰنَهُ وَمَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿سُبْحٰنَهُ وَمَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَانَ إِيَّاهُ يَعْبُدُ وَإِنَّهُ لَكَا فِى سَمٰوٰتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٨).

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلِّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

﴿فَنَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ﴾: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَكَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَحِجْرٌ لِّبَالٍ هَذَا﴾ (٤٥) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٤٦) ﴿وَمَا يُبْتِغَىٰ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٤٧) ﴿مريم: ٩٠ - ٩٢. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤدِّن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن زويم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ ليلة أُسري إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السموات السبع، فلما رجع قال: سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقاً لذي العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى.

وقوله ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَانَ إِيَّاهُ يَعْبُدُ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم أجمعين، وهو حديث مشهور في المسانيد. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زيان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ على قوم وهم قوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نفيقها تسبيح». وقال قتادة، عن عبد الله بن بابي، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: «سبحان الله»، فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصّفْعَب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالة مكفوفة ببدياج - أو: مزورة ببدياج - فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبي ﷺ مغضباً، فأخذ بمجامع جيبه فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنه فقال: إني قاصٌّ عليكما الوصية: أمركما بآئيتين وأنهاكما عن آئيتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وأمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت «لا إله إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة، فوضعت «لا إله إلا الله» عليهما لفصمتها أو لقصمتها. وأمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء».

ورواه الإمام أحمد، أيضاً، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصّفْعَب بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به. وقال ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلی، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً، عليه السلام، قال لابنه: يا بني، أمرك أن تقول: «سبحان الله»، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. إسناده فيه ضعف، فإن الربذي ضعيف عند الأكثرين. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح - الأسطوانة: السارية. وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخزير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يسبح. ويشهد لهذا القول آية السجدة أول سورة الحج. وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء في الروح يسبح من شجر أو شيء فيه.

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء في الروح. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قال: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخوان؟ فقال: كان يسبح مرة. قلت: الخوان هو المائدة من الخشب. فكان الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حياً فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجه في الصحيحين. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: أنه تعالى لا يعاجل من عساه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمَةٍ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [الأنعام: ١١٧] وقال الله تعالى: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مَا كَفَرُوا وَنَبِيَّهَا عَصِيْبٌ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْتَلِفُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ سَمَرٍ مِنْ بَدْوِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الأنعام: ١١٠] إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ شَيْءًا وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يُمْسِكُ اللَّهُ لَهُمْ عَسَاوِيرًا﴾ [طاهر: ٤١ - ٤٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [١٥] وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرَتْ

رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَيَّ آدَبُ رَبِّهِ نُورًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يا محمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة، وابن زيد: هو الأكمة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتُمٍ مِّمَّا نَدْعُوهُ لِيُدْعَىٰ إِلَيْنَا وَقَدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ أي: بمعنى ساتر، كميون ومشووم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يمتهم وشأمهم. وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فُهر وهي تقول: مُدَّمَا أُنِينَا - أو: أُنِينَا، قال أبو موسى: الشك مني - ودينه قَلْبِنَا، وأمره عَصِينَا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه - أو قال: معه - قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرأتاً اعتصم به منها: ﴿وَإِنَّا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَمَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤٥] قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها. وقوله: ﴿وَجَمَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ أَكْتَةً﴾: جمع «كنان»، الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَقْفُوهُ﴾ أي: لثلا يفهموا القرآن ﴿وَقَدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهدون به. وقوله: ﴿وَإِنَّا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ﴾ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ عَلَيَّ آدَبُ رَبِّهِ نُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا ذَكَرْنَا اللَّهَ وَحَدَّثَ أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِنَّا ذَكَرْنَا الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادة في قوله: ﴿وَإِنَّا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَيَّ آدَبُ رَبِّهِ نُورًا﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكروا ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فثام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرون بها.

قول آخر في الآية:

وروي ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الذارع، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَيَّ آدَبُ رَبِّهِ نُورًا﴾: هم الشياطين. هذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن، أو نودي بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا.

﴿عَمَّنْ أَمَرَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَحْوَكَ إِذْ يَقُولُ الْفَلْسُفُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [٤٦] أَنْظَرَ كَيْفَ صَرَّوْا لَكَ الْأَمْنَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَعِيمُونَ سَبِيحًا ﴿٤٦﴾

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بما تناجي به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أي: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - ﴿إِلَّا بَشْرًا﴾ يأكل ويشرب، كما قال الشاعر:

فإن تسألينا فيم نخنن فلئنا عصفابير من هذا الأتام المسحور
وقال الراجز:

وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

أي: نُغذَى. وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رثي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه. ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن» ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظَرَ كَيْفَ صَرَّوْا لَكَ الْأَمْنَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَعِيمُونَ سَبِيحًا﴾ [٤٦] أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف ابن زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ،

وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهاتكم لأوقفتم في أنفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن أريك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيت فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكب، وكنا كقرسي رهان قائلو: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق. قال: فقام عنه الأحنس وتركه.

﴿قَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُبِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ رِجْسًا مِّنْ سَمَوَاتِهِمْ وَيَقُولُ لَكُمْ مَن هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا لَآئِلًا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخيراً عن الكفار المستعبدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفًا﴾ أي: تواباً. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غباراً. ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بلىنا وصرنا عدماً لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَوَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْمَكَارِمِ ﴿٤٩﴾ أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا حِجَارَةً ﴿٥٠﴾ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿٥١﴾﴾ [النزاعات: ١٠-١٢]، قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ وهما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم موتاً الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراه. وقد ذكر ابن جرير ما هنا حديث: «جاء بالموت يوم القيامة كأنه كئيب أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، وبلا أهل النار، خلود بلا موت».

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكُونُوا؛ فسيعيدكم الله بعد موتكم. وقد وقع في التفسير المروري عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبي ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُبِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا؛ إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بيشراً تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿سَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ رِجْسًا مِّنْ سَمَوَاتِهِمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وهذا الذي قاله هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنفاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم - وهو ولد النعمة -: نفضاً؛ لأنه إذا مشى عجل في مشيته وحرك رأسه. ويقال: نَفَضْتُ سَهْلًا إِذَا تَحَرَّكَ وَارْتَفَعَتْ مِنْ مَبْتَتَاهَا؛ قال الراجز:

وَنَفَضْتُ مِنْ هَرَمِ أَسْنَانِهَا

وقوله: ﴿يَقُولُ لَكُمْ مَن هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَن هَذَا أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ حُكْمٌ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سبائتكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي الرب تعالى:

﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةَ مِنَ الْآرَضِ إِذَا أَنْتُمْ عَرَضُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالف ولا يُمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمُورًا إِلَّا وَجِدَةً كَلِمَةٍ بِالصَّمْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿قَالَ هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ [١٦] ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [١٤] [النزاعات: ١٣، ١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشة في قبورهم، وكانى بأهل «لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: ﴿لَمَسْتُمْ بِهِ إِلَهَ آدَمَ عَنَّا لَمَسْنَا﴾ [فاطر: ٣٤] وسيأتي في سورة فاطر إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَتَنْظُرُونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَيْسَتْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَلِمَةٍ يَوْمَ يَرَوْنَهَا كَرِيمًا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النزاعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ [١٦] ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [١٦] ﴿مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [١٦] [طه: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا نَشَاءُ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنْ كَفَّ كَيْفَ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةٌ سَبْعِينَ﴾ [١٦] ﴿قَالُوا لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ تَقْتُلُ الْمَآئِينَ﴾ [١٦] ﴿فَلَنْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا أَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ مَقْتُولُونَ﴾ [١٦] [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَقُلْ لِيَأْمُرُوا بِقَوْلِهِمْ إِنْ أَحْسَنَ إِنْ الشَّيْطَانُ يَرِغُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَتْ لِرَبِّهِمْ عَذَابًا مَكِينًا﴾ [٥٦].

يأمر تظلي رسول الله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بيته؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: وربما أصابه بها. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مغمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار». أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حدثني رجل من بني سليط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أزقة من الناس، فسمعتة يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ها هنا - قال حماد: وقال بيده إلى صدره - ما تواد رجلان في الله ففترق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر».

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [٥٦] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [٥٥].

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ كما قال: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشبه والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنْكَرٍ مِمَّنْ نَفَخَ فِي أَعْيُنِهِمْ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَحْنَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا رَمَضْنَا بِهِ وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِئَةً﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مغمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لَتُشْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ». يعني القرآن.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَفْتِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا خَوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَفْتِ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي: بالكلية، ﴿وَلَا خَوِيلًا﴾ أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَفْتِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا خَوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ . روى البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ﴾ قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نراً من الجن، فأسلم الجيئون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية.

وفي رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال: عيسى وأمه، وعزير. وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى، وعزير، والشمس والقمر. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَيْبَهُمُ الْوَيْسِلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والويسيلة هي القرية، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ . وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ : لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرَيْبٍ إِلَّا مَعْنُ مَهْلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ الْآيَاتِ أَوْ مَعْدُومًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ .

هذا إخبار من الله بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبید أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [مرد: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَنْزِيلُ قُرَيْبٍ عَنَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَتَبْتَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَابًا عَذَابًا نَكِرًا ﴿٥٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُمْ أَمْرًا حَسْرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُورًا لِنُؤْمِنَ أَلْفَاةً مَبِينَةً لِنُظَاهِرَهُمْ بِهَا وَمَا تُرِيدُ إِلَّا الْآيَاتِ إِلَّا خَوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ .

قال سئيد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبیر قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخِّرَتْ له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سَرَكَ أن تؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: «إني قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأنى بقومك استأنيت بهم؟» قال: «يا رب، استأن بهم». وكذا قال قتادة، وابن جرير، وغيرهما. قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقبل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤْتِيَهُم الذي سألوا، فإن كفروا أهلکوا كما أهلکت من كان قبلم من الأمم. قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُورًا لِنُؤْمِنَ أَلْفَاةً مَبِينَةً﴾ . رواه النسائي من حديث جرير، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران أبي الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأنه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: «بل باب التوبة والرحمة» .

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي، عن

عبد الجبار بن عمار الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: «يا آل عبد مناف، إني نذير! فجاءته قریش فحذروهم وأنذروهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً، فنحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهنتهم! قال: فبينما نحن حوله، إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: «والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيّرني بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلّوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين» ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسِلٌ عَلَيْكَ مَن يَكْفُرُ بَدِّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوها آية: ناقة تخرج من صخرة عيئوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوها ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا إِنَّا مُؤَدِّوُ النَّاقَةِ﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَوْبَهُمَا﴾ قال قتادة: إن الله خوف الناس بما يشاء من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعقبكم فأعتبروه. وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، ﷻ، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ النَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحِفُّهُمْ فَمَا يَرِيهِمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [١٦].

يقول تعالى لرسوله ﷺ محزناً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ النَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم.

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به، وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، والله الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وقيناً لآخرين؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّمُوا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم. وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف. قال ابن

جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القروذ، فساء ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آرْتِيَا الَّذِي أُرْتِيْتُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية. وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زبالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة. وقوله: ﴿وَنُحُوفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْمَأُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

يذكر تعالى عذارة إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْمَأُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ ، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ . قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لاستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متفارية، والمعنى، أنه يقول: أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم!

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَنَنْبَعُ بِنهْرٍ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُ مَنِ اسْتَفْرَزَ مِن آسَفْرَزٍ مِّنْهُمْ يَصُوتُكَ وَأَجِبَتْ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَلُكُمْ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَبْدُهُمْ اسْتَيْبَلُونَ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لما سأل إبليس عليه اللعنة النظره قال الله له: ﴿أَذْهَبَ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُنظَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الحجر: ٢٧، ٢٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَنَنْبَعُ بِنهْرٍ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾ . قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مَوْفُورًا عليكم، لا ينقص لكم منه. وقوله: ﴿وَأَسْتَفْرِزُ مَنِ اسْتَفْرَزَ مِّنْهُمْ يَصُوتُكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْتَفْرِزُ مَنِ اسْتَفْرَزَ مِّنْهُمْ يَصُوتُكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله، ﷻ، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿وَأَجِبَتْ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و«صحب» جمع «صاحب». ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرتي، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَرِ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تُوهُمْ أَنَّا﴾ [مریم: ٨٣] أي: نزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجِبَتْ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ قال: كل راكب وماشى في معصية الله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه. وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى في المسابقة عن الجلب والجنب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: هو جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعني: من البحائر والسوابغ ونحوها. وكذا قال الضحاك وقاتة. ثم قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله. وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين، وكذا قال قتادة سواء. وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس»، و«عبد فلان». قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصي الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله أو به، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصي الله فيه - أو به، وأطبع فيه الشيطان - أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّجِه، وكل من السلف، رحمهم الله، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم، عن

عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي خنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً».

وقوله: ﴿وَعِدَّهُمْ وَإِن يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَّ لَمِيقٍ وَعَدَّتْكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُفْرِحِيكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُفْرِحِينَ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَيْكَ وِكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيداً وناصرأ. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وزدان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن ليُنْضِي شياطينه، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر». ينضي، أي: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيُنْفِئَكُمْ مِنْ فُضَيْلِهِ إِنَّهُ كَانَتْ يَكُمُ رَيْبًا﴾ ﴿٦٦﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده، لا ابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَتْ يَكُمُ رَيْبًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا يَشْكُرُوا إِلَى اللَّهِ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿٦٧﴾.

يخبر تعالى أنه إذا مسَّ الناس ضرر، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارأ من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلا جدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَشْكُرُوا إِلَى اللَّهِ أَعْرَضُوا﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويجهدها، إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَنْتُمْ أَنْ تَحْيِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ ﴿٦٨﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم إلى البر أمتمت من انتقامه وعذابه! ﴿أَنْ تَحْيِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ لَمَّيْنَهُمْ إِسْحَارًا﴾ [القصص: ٣٤] وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَنْظُرْنَا عَلَيْهَا جِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [مرد: ٨٢]، وقال: ﴿مَا أَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْآرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ ﴿٦٩﴾ أم أينتم مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمِرُونَ كَيْفَ نُذِيرُ ﴿٧٠﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ أي: ناصرأ يريد ذلك عنكم، ويتقدم من الله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُبِيدَكُمْ فِيهِ نَادَةٌ أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ ﴿٦٩﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَنْ يُبِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويفرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ قال ابن عباس: نصيراً. وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا تخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾.

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بضمه - وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله ويتنفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية. ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْآبِ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم والبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهة اللذيذة،

والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي. ﴿وَقَضَّيْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة، يا ربنا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون منها ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة. فقال الله: «وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان». وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلاً. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان».

وقد روى ابن عساکر من طريق محمد بن أيوب الرازي، حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عروة بن رُوَيْم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله ﷻ: لا أجعل من خلقت بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان». وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شِغاف عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر». وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبِسْمِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُلْطَمُونَ فِيهَا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هُدًى أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَصْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقناة: أي نبينهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُولَهُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِمَا يُعْطُونَ﴾ [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبينهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ تُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَرُويَ الْكِتَابُ فَقرَى الْمُتَجَرِّمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَطَّلِعُ لِرَبِّكَ أَحَدًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ حِسَابَهَا كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ هذا كِتَابُنَا يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الجناب: ٢٨، ٢٩]، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشَّهَادَةُ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبِسْمِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبِسْمِهِ فَيَقُولُ قَدْ أَتَىٰهُ آتُورًا كِتَابِيَّةً ﴿١٩﴾﴾ [إني ظننت أني ملئت حِسَابِيَّةً ﴿٢٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِشِئْلِهِ فَيَقُولُ يَا وَيْلَتَىٰ لَرَأَيْتُ لَوْ أَنَّ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ١٩-٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا يُلْطَمُونَ فِيهَا﴾ هو الخيط المستطيل في شق النواة. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يَعْمَرٌ، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالوا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم اتتنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر

فَيُسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَيَمْدُدُهُ فِي جَسَمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا - أَوْ: مِنْ شَرِّ هَذَا - اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْزِهِ. فيقول: أبعدمكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدْيِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٦) قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدْيِهِ أَعْمَىٰ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِينَ آوَىٰ إِلَيْكَ لِيَفْتَنُوا عَلَيْنَا عَذَابٌ إِذَا لَأَخَذُوكَ خَيْلًا﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرْتَكُنُ مِنْ أَيْمَانِنَا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِمَمًا آخِرَةً وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥).

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) ﴿سِنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ آرَسْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِيُسْتَفِزُّوكَ مِنْهَا﴾ (٧٧).

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة. وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر. قال البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن عثم، أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك، أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث. وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقصص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، والله أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُمير بن معدان، عن سُلَيْم بن عامر، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام». قال الوليد: يعني بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس والله أعلم.

وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرفهم، وسبى سراتهم، ولهذا قال: ﴿سِنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ آرَسْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأدوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم، ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٧٣) [الأنفال: ٣٣].

﴿أَفَرَأَيْتَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْرًا فَإِذَا سَأَلُواكَ لَدُلُوكَ السُّبُلِ إِذْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلَ لَكَ عَشَقَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٨).

يقول تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَفَرَأَيْتَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْرًا فَإِذَا سَأَلُواكَ لَدُلُوكَ السُّبُلِ﴾ قيل: لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد. وقال هُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلي، عن رجل، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن

شاء من أصحابه فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «أخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس». ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنزي، عن جابر عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿إِنَّ لَوْلِكَ أَلْتَمِسِينَ إِلَيْكَ عَسَىٰ إِلَيْكَ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر. وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، والله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال ابن مسعود - وعن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار». وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن أبي سلمة - وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ - وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثهم عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به، وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي لفظ في الصحيحين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». وقال عبد الله بن مسعود: يجمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في تفسير هذه الآية. وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا - من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطه، من يدعني فاستجب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده الله، وملائكة الليل، وملائكة النهار - فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل». ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضي الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه، والله الحمد والمنة. وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء. ويحمل على ما بعد النوم. واختلف في معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فاجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رحمه الله، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه. وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لتقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعاة للناس، ليربحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، يتادي: يا محمد، فيقول: «ليبك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجي ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله ﷻ.

ثم رواه عن بُنْدَار، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد. وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أن المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾. قلت: لرسول الله ﷺ تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث ركباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن ذُوْنَهُ تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع، إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب «السيرة» في باب الخصائص، والله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبإياه المستعان:

قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ. قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شعيب بن الليث، حدثني الليث، عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً». يحمده أهل الجنة كلهم. وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيى بن بكير، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به. وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم». قال البخاري: وحدثنا علي بن عيَّاش، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة». انفرد به دون مسلم.

حديث أبي:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر». وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عمرو القَعْدِي، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا في حديث: «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ في آخره: «فقلت: اللهم، اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام».

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه، ﷻ، من ذلك، ويقول: ولكن اتنوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ولكن اتنوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتنوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة.

فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ولكن اتنوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن اتنوا محمداً عبداً عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني».

قال الحسن هذا الحرف: «فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين». قال أنس: «حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعَلَّمُنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلَّمُنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود في الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلَّمُنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن. فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّةً، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة». أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إن لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال: يجتمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله، لغم ما هم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فينشأ الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل. فأوحى الله ﷻ، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فشفعت في أمتي: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربي، ﷻ، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطاني الله من ذلك، أن قال: يا محمد، أدخل من أمتك من خلق الله، ﷻ، من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك».

حديث بريدة، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حصيرة، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم - وهو يرى أنه يتكلم بمثل ما قال الآخر - فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة» قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها علي، رضي الله عنه؟!!

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البُنَّاني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مَلَيْكَةَ إلى النبي ﷺ فقالا: إن أمنا كانت تكرم الزوج، وتعطف على الولد - قال: وذكر الضيف - غير أنها كانت وأدت في الجاهلية؟ فقال: «أمكما في النار». قال: فأدبرا والسوء يرى في وجوههما، فأمر بهما فَرَجَعَا والسرور يرى في وجوههما، رجاء أن يكون قد حدث شيء، فقال: «أمي مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغني هذا عن أمه شيئاً! ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار - ولم أرب رجلاً قط أكثر سؤلاً منه -: يا رسول الله، هل عندك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظن أنه من شيء قد سمعه، فقال: «ما شاء الله ربي، وما أطمعني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصاري: يا رسول الله، وما ذاك المقام المحمود؟ قال: «ذاك إذا جيء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلي. فيؤتى بريطتين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتي فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيبغطني فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر من الكوثر إلى الحوض». فقال المنافقون: إنه ما جرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول الله ﷺ: «حاله المسك،

ورضراضه الثوم». قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلما جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصاري: يا رسول الله، هل له نبت؟ قال: «نعم، قضبان الذهب». قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فإنه قلما نبت قضيب إلا أورك، وإلا كان له ثمر! قال الأنصاري: يا رسول الله، هل له ثمرة؟ قال: «نعم، ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يزؤ بعده».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزغراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله، ﷻ، في الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى - قال أبو الزغراء: لا أدري أيهما - قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذي قال الله ﷻ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي، ﷻ، حلة خضراء. ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود».

حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فانظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك». فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ محجلون، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم».

حديث أبي هريرة، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زُرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فزُفِعَ إليه الذراع - وكانت تعجبه - فتهَسَسَ منها تهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ﷻ؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم! فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم».

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى».

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى».

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه - قال: هكذا هو - وكلمت الناس في المهدي، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم

يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد. فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاضفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ﷺ، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده وحسن الشاء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب، أمّتي أمّتي، يا رب أمّتي، يا رب، أمّتي أمّتي! فيقال: يا محمد: أدخل من أمّتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب». ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لما بين مصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه في الصحيحين.

وقال مسلم، رحمه الله: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هُفْلُ بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشْفَع». وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن داود بن يزيد الزعفراني، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، سئل عنها فقال: «هي الشفاعة». رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مدّ الله الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه». قال النبي ﷺ: «فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن والله ما رآه قبلها، فأقول: رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ. فيقول الله تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض». قال: «فهو المقام المحمود»، وهذا حديث مرسل.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾. وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما اتتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾. وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزع ملك فارس، وعز فارس، وليجعل له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعل له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ، علم الأمانة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولقرائم الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة.

واختار ابن جرير قول الحسن وكتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَضُرُّهُ وَمَنْ يَنْفَعُهُ بِالْقَبْضِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواضح.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ تهديد ووعد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ تَقْرِفُ بِلِقَائِي عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْبٍ، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، جاء

الحق يوماً بيدي الباطل وما يعيد. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به. وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري عن ابن أبي نجيح. وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شبابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر، رضي الله عنه، قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يعبدون من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد - إنه: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقته واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَكَ بِمَادُونِكَ مِن تَحْتِهَا يَنَادُونَ ﴿فَصَلِّ لِنَا فِي حُكْمِكُمْ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِيْمَانًا فَآمَنُوا أُولَٰئِكَ هُم مَّرْسُومٌ ﴿١٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَيُكْفَرُوا بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَا لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٥، ١٢٦]. والآيات في ذلك كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمحه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاءً، ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِلَىٰ مَسَآئِلِ الْاُنسَانِ ﴿١٢٧﴾ قُلْ كُلٌّ عِندَ اللَّهِ يَمَلُّ عَلَىٰ شَاكِلِيهِ فَرِحْتُمْ بِعِلْمٍ بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (٨٣).

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد: بعد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصَّتَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]. وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وبأنه إذا مسه الشر - وهو المصائب والحوادث والنواب - ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَّسَّهُ﴾ أي: فقط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن أَدْبَنَهُ نَمَامَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَّسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخْرًا ﴿١٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ حَقِّيْقَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [معد: ١٠، ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ عِندَ اللَّهِ يَمَلُّ عَلَىٰ شَاكِلِيهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه. وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَاكِفُونَ ﴿١٣١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [معد: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ عِندَ اللَّهِ يَمَلُّ عَلَىٰ شَاكِلِيهِ فَرِحْتُمْ بِعِلْمٍ بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (٨٣). أي: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٤).

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حِزْتِ في المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٤). فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش، به. ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حِزْتِ، وهو متوكئ على عسيب، إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رايكم إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقممت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية.

وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن

السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا : بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوهم بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهي هذه الآية : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً . قال : وأنزل الله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْدَانِ وَقَدْ خَشِيَ رَبِّي لَآتَىٰ جَنَّتِي بِمِثْقَالِ مَدْيَانَ ۝٨٦ ﴾ [الكهف: ١٠٩] . وقد روى ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾ فقالوا : يزعم أنا لم نوت من العلم إلا قليلاً ، وقد أوتينا التوراة ، وهي الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۝٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] قال : فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَمْعَةٌ أَبْحُرُ مَا فَتَدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ۝٨٦ ﴾ [القمان: ٢٧] . قال : ما أوتيتم من علم ، فنجاكم الله به من النار ، فهو كثير طيب وهو في علم الله قليل . وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، أتاه أحبار يهود . وقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أفعتبتنا أم عنيت قومك ؟ فقال : « كلاً قد عنيت » . قالوا : إنك تتلو أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هي في علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به استقمتم » ، وأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَمْعَةٌ أَبْحُرُ مَا فَتَدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٨٧ ﴾ [القمان: ٢٧] .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال :

أحدها : أن المراد بالروح : أرواح بني آدم . قال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فلم يُجِبْ إليهم شيئاً . فاتاه جبريل فقال له : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : « جاءني به جبريل من عند الله » فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدولنا . فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] . وقيل : المراد بالروح ههنا : جبريل ، قاله قتادة ، قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل : المراد به ههنا : ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ يقول : الروح : ملك . وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرْس المصري ، حدثنا وهب بن زرق أبو هريرة ، حدثنا بشر بن بكر ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا عطاء ، عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لله ملكاً ، لو قيل له : التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفاعل ، تسيحه : سبحانه حيث كنت » . وهذا حديث غريب ، بل منكر .

وقال أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله : حدثني علي ، حدثنا عبد الله ، حدثني أبو نمران يزيد بن سمرّة صاحب قيسارية ، عن حدثه عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أنه قال في قوله : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ قال : هو ملك من الملائكة ، له سبعون ألف وجه ، لكل وجه منها سبعون ألف لسان ، لكل لسان منها سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، يخلق الله من كل تسيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . وهذا أثر غريب عجيب ، والله أعلم . وقال السهيلي : روي عن علي أنه قال : هو ملك ، له مائة ألف رأس ، لكل رأس مائة ألف وجه ، في كل وجه مائة ألف فم ، في كل فم مائة ألف لسان ، يسبح الله تعالى بلغات مختلفة . قال السهيلي : وقيل : المراد بذلك : طائفة من الملائكة على صور بني آدم . وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم .

وقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي : من شأنه ، ومما استأثر بعلمه ، دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح ما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر : أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، أي : شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ، ما علمي وعلمك وعلم الخلاق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر . أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قِيلَ لَا. وقال السهيلي: قال بعض الناس: لم يجيبهم عما سألوا، لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم، وعول السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ أَرَأَيْتُمْ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من شرعه، أي: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما يتال من جهة الشرع. وفي هذا المسلك الذي طرقة وسلكه نظر، والله أعلم. ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر. وقرر أن الروح التي يتفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو آمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُضْطَّاراً أو خمرأً، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم. قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها ووصفوا في ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، في كتاب سمعناه في: الروح.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَهِيبًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَيْنَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِبِئْسَلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَيْكَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَافِرًا ﴿٨٩﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود، رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية. ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟! وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود، جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية. وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَلَيْكَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَافِرًا﴾ أي: جحوداً ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ سَكِينًا أَوْ تُنَادِيَ بِأَلِهَتِكِ قِيلَ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ السَّمَاءِ سَكِينٌ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ فِي السَّمَاءِ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّوَى وَالْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٩٠﴾ أَوْ يُنَادِيَ بِأَلِهَتِكِ قِيلَ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ السَّمَاءِ سَكِينٌ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ فِي السَّمَاءِ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّوَى وَالْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وثبيها ومثبها ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذبوا فيه. فبعثوا إليه: أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحبُّ رُشدَهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لتُعذِّرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسقمت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جثت فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعذِّرَ فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جتتكم بما جتتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جتتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليما. فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقت منا بلادا، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ولييسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضي من آباءنا، وليكن فيمن يبعث لنا قضي بن كلاب، فإنه كان شيخا صدوقا، فنسألهم عما تقول، حتى هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألتناك وصدقتك، صدقتك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جتتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناتا، وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، ويفتيك بها عما نراك تبغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتبس المعاش كما نلتسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعث إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جتتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألتناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعتنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم تقبل عنك ما جتتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة، يقال له: الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلا. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وإيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادعتهم إياه.

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق، حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء. وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيابا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كضرا وعنادا، فقبل للرسول: إن شئت أعطيناهم ما سألوها فإن كفروا عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضا، عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا نُمُودَ النَّفْسِ الْمُبِرَّةِ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْتِهَا ٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَنْشَارِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَالًا لَكُنَّا فِيكَ لَمَّا نَذِيرًا ٧﴾ أو يُقَالُ: لَيْتَ إِلَيْهِ كَعَزْ أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةً يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ٨ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَفُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ سَبِيلًا ٩ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ١٠ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوعًا﴾ البينوع: الجارية، سألوها أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولاجلهم إلى جميع ما سألوها وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٦﴾ وَوَجَّهْتُمْ كُلَّ مَالِيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ١٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَيْهِمُ اللَّيْلَةَ وَكَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا لِلْحَيَاةِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ

أَكْتَرَهُمْ يَهْلِكُونَ ﴿١١١﴾ [الأنعام: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهب، وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسقط أي: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَابِ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الأنفال: ٢٢٧]. وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفَمَا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فصالحهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله ابن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّيَّتِكَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرَفُّقَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْعِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّشْرُوهُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصيح موضوعة عن رأسه. وقوله ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفقاع لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض ربي عز وجل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشيع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». ورواه الترمذي في «الزهد» عن سؤيد بن نصر، عن ابن المبارك، به. وقال: هذا حديث حسن. وعلي بن يزيد يَضَعُفُ في الحديث.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَلَّزْنَا بِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُ لِلنَّاسِ عَجَبٌ إِنَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُسُلًا مِنْهُمْ أَنْ يُذِخِرَ النَّاسَ وَبَشِيرِ الْآلِوتِ مَأْسُومًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا بَعَدُوا وَأَنْتَفَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩٦﴾﴾ [التغابن: ٦]. وقال فرعون وملؤه: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ بِبَشَرٍ مِّثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الهمون: ٤٧]. وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُؤُنَا آبَاءُؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكينهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَكُونُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْرِكُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَنْفِكُونِي لِئَلَّا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. ولهذا قال ههنا: ﴿لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَلَّزْنَا بِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جنتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَرْنَا عَلَيْنَا بَعَثْنَا الْأَقَابِلِ ﴿٩٨﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٩٩﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ وَمَنْ يَظِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُضَاهَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عَمِيَائًا وَنَسَاءً وَأَوْلِيَاءَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْقُهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضل له ﴿وَمَنْ يُضِلِّ لَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ لَنْ يَجِدَ لَهُمْ وَوَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ﴿الكهف: ١٧﴾. وقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نافع قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشي، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يا بني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: يلقي الله، ﷻ، الأفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيهها بالشارف ذات القتب، فلا يقدر عليها. وقوله: ﴿عَمِيًّا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَسَمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمياً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ كُنَّا خَبْتًا﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهاً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَدَرَوْهُمْ فَلَنْ تَرِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿النبا: ٣٠﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَوْدَا كَمَا عَطَلْنَا رَرْفًا لَوْ كُنَّا لِنَعْمُوتَنَّ خَلْقًا بَدِيدًا﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَيِّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٣٩﴾.

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البيعت على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقوع البيعت ﴿وَقَالُوا أَوْدَا كَمَا عَطَلْنَا رَرْفًا﴾ بالية نخرة ﴿أَوْدَا لِنَعْمُوتَنَّ خَلْقًا بَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى عليهم، وبنههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غان: ٥٧]. وقال: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَمِيًّا يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عِلْمٍ أَنْ يُجَيِّدَ الْمَوْتَىٰ بَلْ يَكْفُرُ لِقَمِّ عَالٍ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عِلْمٍ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ [يس: ٨١-٨٣]. وقال ههنا: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ [معد: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَيِّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بعد قيام الحججة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٥﴾.

يقول تعالى لرسوله صلوات الله عليه وسلامه: قل لهم يا محمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. قال ابن عباس، وقادة: أي الفقر أي: خشية أن تذهبوا، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طابعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقادة: أي بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَمَيِّضْ بَيْنَ الْمُتْلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ قَبُولًا﴾ ﴿٥٢﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقيراً، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿إِذَا سَأَلَ سَأَلًا بِرُؤُوسِ أُولِي الْأُنْفُسِ إِذَا تُسَأَلُ أَجْرًا حَرُومًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَ أَخْبَرٌ مُرُوعًا﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٢١﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]. ولهذا نظرنا كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يعيضا نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يعيضا ما في يمينه».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نَجْعَ آيَاتٍ يَتَّبِعُهُ فَمَسَّ بِسَيْفِ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكُونُ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنتَ لَكَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَوِيحَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِيَّ إِسْرَائِيلَ اسْكُنْ الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكَ لَيبًا﴾ ﴿١٠٩﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطُمَسَة والحجر. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوها منك سألوها، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات -: ﴿إِنِّي لَأظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مُّسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْ عَصَاكَ لَمَّا رَاهَا نَهْتًا كَانَهَا جَانًا وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَوْ يَمْقَبُ يَمْشُونَ لَا يَخَفُ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَىٰ الرَّسُولِ﴾ [١٠] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُورَةٍ لَّوِيٍّ وَقَوَّيْنًا ﴿١١﴾ وَأَجْعَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَمْسَةً مِنْ تَحْتِ سُورَةٍ فِي يَمِينِ يَدَيْكَ إِنِّي قَرِيعٌ ﴿١٢﴾ فَذَكَرَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفضلها.

وقد أوتي موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربته الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدتها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث، عن صفوان بن عَسَّال المرادي، رضي الله عنه، قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي ﷺ حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال: لا تقل له: نبي فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسألاه، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربوا، ولا تشموا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف - شعبة الشاك - وأنتم يا يهود، عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت. فقبلا يديه ورجليه، وقال: وشهد أنك نبي. قال: «فما يمنكما أن تتبعاني؟» قال: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود. فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها ووصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا آتَيْنَا هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ﴿وَأِنِّي لَأظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبِرًا﴾ أي: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مُشْبِرًا﴾ أي: مغلوباً. والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزبيري:

إِذْ أَجَارِيَ الشَّيْطَانَ فَنِي سَنَنْ النَّارِ يَوْمَ تَمُنُّ مَالٌ مَّيْلُهُ مَثْبُورٌ

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿عَلِمْتُمْ﴾ وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُّجْرِبَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [١٣] وَعَصَاؤُهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْرِيقِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي مما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الهمم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة» فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم. ولعل ذنك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَحِرَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِئَ إِسْرَائِيلَ أَنْتَنَادُوا الْأَرْضَ﴾ وفي هذا إشارة

لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنَّا لَا بِمَلَكُوتِكَ إِلَّا لِقِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أوردت الله رسوله مكة، فدخلها غنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلاًماً وكرماً، كما أوردت الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١١﴾﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً.

﴿وَالْحَقِّيَّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّيَّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١١٥﴾ وَرَبَّنَا فَارْحَمْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَارِفُونَ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُوتُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦] أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطَّلِعَكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَالْحَقِّيَّ نَزَّلَ﴾ أي: ووصل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُسَبَّ بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، القوي الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَرَبَّنَا فَارْحَمْهُمْ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفْرَقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالشدديد، أي: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِيَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكَّةٍ﴾ أي: مهل ﴿وَرَبَّنَا نَزَّيْنَاكَ﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ مَا يَأْتِيكُمْ بِهِ آيٌ إِلَّا لَا تُوَفُّوا أَلَّذِينَ آتَوْا الْيَمَانَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُشَلِّ عَالِيَهُمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾ وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٩﴾﴾

يقول تعالى لبنيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿مَا يَأْتِيكُمْ بِهِ آيٌ إِلَّا لَا تُوَفُّوا﴾ أي: سواء أنتمت به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَوْا أَلِيمًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسِّكون بكتابتهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُشَلِّ عَالِيَهُمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله، ﷻ، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقوله: ﴿وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآمَنَهُمْ قُلُوبُهُمْ ﴿١١٧﴾﴾ [محمد: ١١٧]. وقوله: ﴿وَيُخْرُونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْظَمِ وَابْنِ الْهَمَامِ
﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَمَّا وَابْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٧﴾﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ لَكُمْ دِينًا وَلَا يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الشَّرْكِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينًا مِنْ الدِّينِ كَرِهًا لَكُمْ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أبو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقَنِيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٧﴾﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٨﴾﴾ [الحشر: ١٧٧-١٧٨]. وقد روى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فانزل الله هذه الآية. وكذا روي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ الآية، قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَمَّا وَابْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَأَبْسَخْ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا روى الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أي ذلك شاء». وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يستمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرفع إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَأَبْسَخْ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصري، وقاتدة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبي سليم عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخَافَتْ بِهَا مَنْ أَسْمَعُ أُذُنِيهِ. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْبَةَ، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقراً خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أنا جبي ربي، ﷺ، وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرده الشيطان، وأرقت الوسنان. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَأَبْسَخْ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وهكذا روى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد، ومكحول، وعروة بن الزبير. وقال الثوري عن ابن عباس العامري، عن عبد الله بن شداد قال: كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾.

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها: نزلت هذه الآية في التشهد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ قال: لا تصل امرأة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثوري، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسمى سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن بن وهشيم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَبْسَخْ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك، الذي سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخُدْ وَلَدًا﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخُدْ وَلَدًا وَوَلَّهُ لَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَوَلَّهُ مِنْ الدَّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى شأنه خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَوَلَّهُ مِنْ الدَّلِّ﴾: لم يحالف أحداً ولا يبتغي نصر أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ كَبِيرًا﴾ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً. قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخُدْ وَلَدًا﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقال العرب: لبيك لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخُدْ وَلَدًا وَوَلَّهُ لَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَوَلَّهُ يَكُنْ لَمْ وَوَلَّهُ مِنْ الدَّلِّ وَكَبِيرَةٌ كَبِيرًا﴾. وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخُدْ وَلَدًا وَوَلَّهُ لَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَوَلَّهُ يَكُنْ لَمْ وَوَلَّهُ مِنْ الدَّلِّ وَكَبِيرَةٌ كَبِيرًا﴾ الصغير من أهله

والكبير . قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سماها آية العز . وفي بعض الآثار : أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصبيه سرق أو آفة . والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا بشر بن سيحان البصري ، حدثنا حرب بن ميمون ، حدثنا موسى بن عبيدة الرِّبَدي ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، عن أبي هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ، ويدي في يده ، فأتى على رجل رث الهيئة ، فقال : «أي فلان ، ما بلغ بك ما أرى؟» . قال : السقم والضَّرَّ يا رسول الله . قال : «ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضَّرُّ؟» قال : لا ، قال : ما يسرنى بها أن شهدت معك بديراً أو أحداً . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : «وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع؟» . قال : فقال أبو هريرة : يا رسول الله ، إياي فعلمني . قال : فقل يا أبا هريرة : «توكلت على الحي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدل ، وكبره تكبيراً» . قال : فأتى عليّ رسول الله ﷺ وقد حَسُنَّتْ حالي ، قال : فقال لي : «مُهَيِّم» . قال : قلت : يا رسول الله ، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني . إسناده ضعيف وفي منته نكارة . والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

تفسير سورة الكهف

وهي مكية .

ذكر ما ورد في فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف ، وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضيابة - أو : سحابة - قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : «اقرأ فلان ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن» . أخرجاه في الصحيحين ، من حديث شعبة ، به . وهذا الرجل الذي كان يتلو هو : أشيدُ بن الحَضْرِي ، كما تقدم في تفسير البقرة . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عُصِمَ من الدجال» . رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي من حديث قتادة ، به . ولفظ الترمذي : «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف» ، وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن قتادة : سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال» . ورواه مسلم أيضاً والنسائي ، من حديث قتادة ، به . وفي لفظ النسائي : «من قرأ عشر آيات من الكهف» ، فذكره .

حديث آخر : وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، فإنه عصمة له من الدجال» . فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زيان بن فايد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها ، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين الأرض إلى السماء» انفرد به أحمد ولم يخرجوه . وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْه في تفسيره ، بإسناد له غريب ، عن خالد بن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء ، يضيء له يوم القيامة ، وغُفِرَ له ما بين الجمعتين» . وهذا الحديث في رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى الإمام : «سعيد بن منصور» في سننه ، عن هُشَيْم بن بشير ، عن أبي هاشم ، عن أبي يعجلز ، عن قيس بن عباد ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . هكذا وقع موقوفاً ، وكذا رواه الثوري ، عن أبي هاشم ، به . من حديث أبي سعيد الخدري . وقد أخرجه الحاكم في مستدركه ، عن أبي بكر محمد بن المؤمل ، حدثنا الفضيل بن محمد الشَّعْراني ، حدثنا نُعَيْم بن حمَّاد ، حدثنا هُشَيْم ، حدثنا أبو

هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه، عن الحاكم، ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة». والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب وفقني

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَحْمَلُ لَمْ عِوَجًا ۝١ قِيمًا يُنذِرُ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَصْلَحْتُ بِنِعْمَةِ رَبِّي أَيَّمَنِ فَحَسْبُ ۝٢ تَنْذِيرًا لِّذِيكَ قَالُوا أَتُحَدِّثُ اللَّهُ وَلَوْ كَذِبًا ۝٣﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَحْمَلُ لَمْ عِوَجًا ۝١﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيفاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿قِيمًا ۝٢﴾ أي: مستقيماً. ﴿يُنذِرُ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ۝٣﴾ أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة ﴿مِّنْ لَّدُنْهُ ۝٣﴾ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّبُ عباده أحد، ولا يوتق وثاقه أحد. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَن لَّهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٤﴾ أي: مثوبة عند الله جميلة ﴿تَنْذِيرًا لِّذِيكَ ۝٥﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله. ﴿مَّا لَّهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۝٥﴾ أي: بهذا القول الذي افتروه وانتفكوه من علم ﴿وَلَا يَلْبِغُهُمْ ۝٦﴾ أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً ۝٦﴾: نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة. وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم يزيد رجلاً، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً ۝٦﴾، كما يقال: عظم قولك، وكبر شأنك. والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تشبيح لمقالتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۝٦﴾ أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُوكَ إِلَّا كَذِبًا ۝٦﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط، إلى أحيار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أحيار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوْلٌ فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طَوَّافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحيار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوهم عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: ﴿أخبركم غداً بما سألتهم عنه.﴾ ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحَدِّثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألتناه

عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، ﷻ، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله ﷻ: ﴿وَسْتَذُكَّرُ عَنِ الرَّجْحِ قُلِ الرَّجْحُ مِنَ الْأَرْحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٥﴾ [الإنسراء: ١٨٥].

﴿فَلَمَّا كَانَتْ نَجْمٌ فَتَسَّكَ عَلَى عَائِزِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَا اسْتَلَوْهُرَ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾.

يقول تعالى مسلماً رسول الله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا كَانَتْ نَجْمٌ فَتَسَّكَ عَلَى عَائِزِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾، يعني: القرآن. ﴿أَسْفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا. قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن امتدى لفتنسه، ومن ضل فلإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مَرْبُوعَةً مَرْبُوعَةً زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَا اسْتَلَوْهُرَ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾. قال قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾. أي: وإنا لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكا ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لا يُثْبِت ولا يتنفع به، كما قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾ يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بقلعاً. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرُزُ فَتَخَرَّجُوا فِيهَا زُرْعًا فَتَأْكُلُ مِنْهُ أَرْبَابُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾ يعني الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لآلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَمَّةٌ وَعَيْنٌ لَنَا مِنْ آفَرِنَا رَبَّنَا ﴿١٠﴾ فَفَرَّقْنَا عَلَيْهِمْ أَهَادِنَهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا قَلْبَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾ لَمَّا لَبَسُوا مَا كَانُوا فِيهِ عَسَفًا ﴿١٣﴾ وَأَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ أي: ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك! وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفي، وقاتدة. وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو: غار الوادي، و«الرقيم»: اسم الوادي. وقال مجاهد: «الرقيم»: كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «الرقيم»، قال: يزعم كعب أنها القرية. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذي فيه الكهف. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس. وقال ابن جريج: أخبرني وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حناناً، والأواه، والرقيم. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بناية؟ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبیر: الرقيم: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص

أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْسُومٌ﴾ [المطففين: ٤٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَرَى الْفَنِيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَنَاقِلُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَمَّةٌ وَمَهْيَئِ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٣]: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم فلدجؤوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَمَّةٌ﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَمَهْيَئِ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشداً»، وفي المسند من حديث بسر بن أبي أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة». وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [١٤]: أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَوْجِدًا مِّن رِّجْلِهِمْ﴾ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدهام معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا لَيَمًّا أَيْ لِحْزِينَ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْسَنَ لِمَا يَسْتُرُوا أَمْدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبَقَ الْجَوَادُ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ

﴿مَنْ نَفْسٌ عَلَيْكَ تَبَاهَمُ بِالْحَقِّ إِيَّاهُمْ فَسَبِّهْ أَمْثِلُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ [١٣] وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ إِنَّا لَنَدْعُوكَ قَوْمَنَا أَغْتَدُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوَلَّا بَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [١٤] وَإِذْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَاءً يَسْبُرُونَ إِلَّا اللَّهُ فَآوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَهْيَئِ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ نَصْرًا﴾ [١٥].
من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للتحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني: الحلق فآلهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربههم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾: استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَشْكُورَةً﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الْكُوفُورُ فَمَا اسْوَأُ فِرَادَتَهُمْ مِنَّا﴾ [التوبة: ١٧٤]، وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم - والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أجيال اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايئتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أجيال اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوا عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.
وقوله: ﴿وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدببتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وساداتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. ففعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إلىهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث

سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

والناس يقولون: الجنسية علة الضم. والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتف ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله ﷻ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّنا وَعَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا قَلائِماً قالُوا رَبُّنا رَبُّ الأَرْضِ لَنا نَدْعُها مِن دُونِهِ إِنَّها لَنا﴾ ولن: لنفي التأييد، أي: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لم فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قلنا إِذا سَطَطنا﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً. ﴿هُؤُلَواتِ قَولِنا أَتَعَدُّوا مِن دُونِنا ما إِلَهِةٌ لَّولا يَأْتُوكَ عَلَیْهِم بِسُلْطانٍ بَیِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَما أَطَلَّ مِن مَّناجِئِنا عَلى اللَّهِ كُذُبا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبي عليهم، وتهذّبهم وتوعدّهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلّهم لينظروا في أمرهم، لعلمهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خبز مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما بقوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ آمَنَّا نُنوِّمُ ما يَسُدُّوكَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأَوتُوا إِلى الكَهفِ يَنشُرْ لَکُم رَیْبَکُم مِّن رَّحْمَتِنا﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَکُم مِّن أَمْرِکُمْ﴾ أي: الذي أنتم فيه، ﴿مِرْقاتاً﴾ أي: أمراً ترفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأوتوا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبیه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ نُنصِرُهُ فَما نَصَرَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ كَفَرُوا تائِبِ إِذْ هُما فِي الفِجَارِ إِذْ یَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّنا أَنهَما مَعنا فَانزَلَ اللَّهُ سَکِینَةً عَلَیْهِ وَأَنبَدَهُ یَحْضُرُهُمْ لَمَّا تَرَوْکَ وَجَعَلَ کَلِیْمَةَ الَّذِینَ کَفَرُوا السُّقْطانَ وَکَلِیْمَةَ اللَّهِ هِکَ العُلَیْسِیا وَاللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] قصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم من قصة أصحاب الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، ففعل لهم ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشبة، كما قال تعالى:

﴿وَرى السَّمْسُ إِذا طالَتْ تُزَوِّرُ عَن کَهفِهِمْ ذاتَ اللَّیْلِ وَإِذا غَرَبَتِ نَقَرَضُهُمْ ذاتَ السَّماکِ وَهمُ فِي فِجَواتِ بَیْنَهُ ذَکِ مِن ما بَیَّنا اللَّهُ مَن یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَما یَضِلُّ فَلانَ حِجْدَ لَمَ وَلیکَ مُرْشِداً﴾ ﴿١٧﴾

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذاتَ اللَّیْلِ﴾ أي: يتقلص الفيء بمئة، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة: ﴿تُزَوِّرُ﴾ أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذا غَرَبَتِ نَقَرَضُهُمْ ذاتَ السَّماکِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يمينا ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين ما ذكرناه والله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿نَقَرَضُهُمْ﴾: تركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا

الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأي بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوَّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبَتْمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ مَثَرًا مُشِيدًا﴾ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَحَسِبْتُمْ أَنْطَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْتَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَّهْمُ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على أذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لثلاث يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَحَسِبْتُمْ أَنْطَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهِ وَيَتَّقِي

بقاخرى الرزايا فهو يَظْطَانُ نَائِمٌ
وقوله تعالى: ﴿وَنَقَلْتَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿وَكَلَّهْمُ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس، وقناة ومجاهد وسعيد بن جبير: الوصيد: الفناء. وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [البقرة: ٨]. أي: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد». يرض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب. قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يرض بياهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد في الصحيح - ولا صورة ولا جنب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن. وشملت كلبهم بركتهم، فأصابها ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحيحة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباطب الملك، وكان قد وافقهم على الدين فضحبه كلبه، فالله أعلم. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صدقة بن عمر الغساني، حدثنا عباد المثقري، سمعت الحسن البصري، رحمه الله، يقول: كان اسم كلب إبراهيم: جريز، واسم هدهد سليمان: غنقر، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبده: بهموت. وهبط آدم، عليه السلام، بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان. وقد تقدم عن شعيب الجبائي أنه سماه: حمران. واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أي: أنه تعالى التقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما البسوا من المهابة والذعر، لثلاث يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحجج والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاعَةِ نَوْمِهِمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَاسْتَفْتَاكُمْ يَرْفَعُ رُءُوسَكُمْ هُنْدِيَةً إِلَى السَّمَاءِ فَلْيَتَنظَّرُوا بِهَا آذَانَ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقِ مِنْهُ وَيَلْتَكَلَّفْ وَلَا تَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٦] ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْحَمُكُمْ أَوْ يُبَدِّلُكُمْ فِي مَلِيئِهِمْ وَكَانَ تَنظُرُهُمْ إِذَا أُنكَبُوا﴾.

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ؟﴾ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك،

وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿تَأْتِيهِمْ مِّنْ جَانِبِ غِيَابِكُمْ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ سَحَابًا مِّنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾. ففتكهم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها، فلماذا قالوا: ﴿تَأْتِيهِمْ مِّنْ جَانِبِ غِيَابِكُمْ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ سَحَابًا مِّنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد. ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ﴾ أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّن لَّمْعٍ مِّن نَّارٍ لَّا تَأْكُلُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ [الاعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

قَبَائِلُنَا سَبِغَ وَأَتَيْتُمْ ثَلَاثَةً
وَالسَّبِغُ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ
والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقوله: ﴿وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٦] إنهم إن يظهروا عَلَيْكُمْ بِرَحْمَتِكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم، ﴿بِرَحْمَتِكُمْ أَوْ يَبْغِيكُمْ فِي مَنَابِتِكُمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن أتوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ نُّعْطِيَهُمْ إِذَا أَبَاكُمَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ مِنَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ عَهْدَ أَنَّكَ لَآتِيَهُمْ سَحَابٌ مِّنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّن لَّمْعٍ مِّن نَّارٍ لَّا تَأْكُلُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ [الاعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

قَبَائِلُنَا سَبِغَ وَأَتَيْتُمْ ثَلَاثَةً
وَالسَّبِغُ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ
والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقوله: ﴿وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٦] إنهم إن يظهروا عَلَيْكُمْ بِرَحْمَتِكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم، ﴿بِرَحْمَتِكُمْ أَوْ يَبْغِيكُمْ فِي مَنَابِتِكُمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن أتوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ نُّعْطِيَهُمْ إِذَا أَبَاكُمَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ مِنَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ عَهْدَ أَنَّكَ لَآتِيَهُمْ سَحَابٌ مِّنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّن لَّمْعٍ مِّن نَّارٍ لَّا تَأْكُلُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ [الاعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

قَبَائِلُنَا سَبِغَ وَأَتَيْتُمْ ثَلَاثَةً
وَالسَّبِغُ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ
والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقوله: ﴿وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خَلَقَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٦] إنهم إن يظهروا عَلَيْكُمْ بِرَحْمَتِكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم، ﴿بِرَحْمَتِكُمْ أَوْ يَبْغِيكُمْ فِي مَنَابِتِكُمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن أتوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ نُّعْطِيَهُمْ إِذَا أَبَاكُمَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ مِنَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ عَهْدَ أَنَّكَ لَآتِيَهُمْ سَحَابٌ مِّنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّن لَّمْعٍ مِّن نَّارٍ لَّا تَأْكُلُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ تَحْتِهَا يُمُوتُونَ﴾ [الاعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَقُولُونَ فَلَيْسَ لَنَا فِيهِمْ إِلَّا رَمَاهُ ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِي فِيهِمْ رَبُّنَا أَحَدًا﴾ (٢٢).

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَبَّنَا بِالْقَيْبِ﴾ أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَنَائِمُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَعْنَاهُمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراساني عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه. وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجیح، عن مجاهد قال: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حدائثه سنة وضع الورك. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، ويكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا، وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم، ومجسيميلينا وتمليخا، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش. وهكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلبهم حمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك مُتَّفَقٌ من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا رَمَاهُ ظَهْرًا﴾ أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِي فِيهِمْ رَبُّنَا أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِنَبِيِّنَا إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ عُدَاً﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرَنَّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَحْمَةً﴾ (٢٤).

هذا إرشاد من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علماً الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان»، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله» لم يحنث، وكان ذكراً لحاجته»، وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجييكم». فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري. وقال هشيم، عن الأعشى، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرَنَّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعشى: سمعته من مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى ذهب كسائي هذا. ورواه الطبراني عن حديث أبي معاوية، عن الأعشى، به.

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس، والله أعلم. وقال عكرمة: ﴿وَأَذْكُرَنَّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم. وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الخلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم،

عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايَءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وهذا تفسير باللازم. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجبيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حصّين، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايَءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وروى الطبراني، أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثن إذا ذكرت. وقال: هي خاصة برسول الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تُفْرَدُ به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين. ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، ﷻ، قد أُرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْتَيْئِرُ إِلَّا الشَّيْطَانَ أَنْ أَذْكَرُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال: ﴿وَادَّكُرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلِيُؤَيِّدَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَفِى حِكْمِهِمْ أَحَدًا﴾ (٢٦).

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقميرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: إذا سُئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله، ﷻ، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلع الله عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلِيُؤَيِّدَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَفِى حِكْمِهِمْ أَحَدًا﴾ (٢٦): ﴿هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ رَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قَالَ: وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا: وَلَبِثُوا﴾، يَعْنِي أَنَّهُ قَالَ النَّاسُ. وَهَكَذَا قَالَ - كَمَا قَالَ قَتَادَةُ - مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. وَفِي هَذَا الَّذِي زَعَمَهُ قَتَادَةُ نَظْرًا، فَإِنَّ الَّذِي بَأْيَدِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَبِثُوا ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ غَيْرِ تِسْعٍ، يَعْنُونَ بِالشَّمْسِيَّةِ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ قَدْ حَكَى قَوْلَهُمْ لَمَا قَالَ: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سمياً بصيراً. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَأَ لِكَلِمَتَيْهِمْ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَسَلِّمًا﴾ (٢٧) ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالنَّيِّبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِمْ رَيْبٌ رِيسَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُلْعَبُ مِنْ أَغْفَلَاتِ قَلْبِهِمْ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

يقول تعالى أمراً رسوله عليه الصلاة والسلام بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مَبْدَأَ لِكَلِمَتَيْهِمْ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مؤول. وقوله: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَسَلِّمًا﴾: عن مجاهد: ﴿مُتَسَلِّمًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: ولياً ولا مولى. قال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَمْ تَلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾. كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِبَيِّنَاتٍ مِمَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ لَفَعَلًا فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ لَكُمْ مَعَادٌ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالنَّيِّبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشرف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، ويفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُقُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالنَّيِّبِ﴾ الآية [الانعام: ٥٢]، وأمره أن

يُصْبِرُ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْرَةِ وَالنَّشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْرَةِ وَالنَّشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الثَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هاشم، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت كُرْدُوسَ بن قيس - وكان قاص العامة بالكوفة - يقول: أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب». قال شعبة: فقلت: أي مجلس؟ قال: كان قاصاً. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم - وهو الكوفي - أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم». هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلًا. وحدثناه يحيى بن المعلى، عن منصور، حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد قالوا: جاء رسول الله ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون المرثي، حدثنا ميمون بن سبياه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلَتْ سيئاتكم حسنات». تفرد به أحمد، رحمه الله.

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ، وهو في بعض أبياته: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْرَةِ وَالنَّشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ناثر الرأس، وجافي الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم». عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادات الصحابة، رضي الله عنهم. وقوله: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة. ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْمَهُ عَنْ دِكْرَانَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَأَتَّبَعَهُ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطُلًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح، ولا تكن مطيعاً له ولا محبباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَوَرِّقْ رَبِّكَ حَبْرًا وَابْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيضُوا بِمَا أَمْكَنُوا بِالْمُهْلِ يُغْتَوَىٰ أَلْوَجْهُهُ يَنْسُكَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ [٢٩].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: «وقل يا محمد للناس: هذا الذي جنتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: أرضنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للسرادق النار أربعة جُدُر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة». وأخرجه الترمذي في «صفة النار» وابن جرير في تفسيره، من حديث دراج أبي السَّمْح به. وقال

ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ شُرَادِفُهُمْ﴾، قال: حائط من نار. قال ابن جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالوا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حيي بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» قال: فقيل له: كيف ذلك؟ ففلا هذه الآية - أو: قرأ هذه الآية -: ﴿فَأَرَاكَ أَحَاطَ بِهِمْ شُرَادِفُهُمْ﴾، ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً - أو: ما دمت حياً - ولا تصيبني منها قطرة».

وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِيشُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل دردي الزيت. وقال مجاهد: هو كالدوم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿بِئْسَ الْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سُرادق النار عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل». قال: «عكس الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»، وهكذا رواه الترمذي في «صفة النار» من جامعه، من حديث رُشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به. ثم قال: لا تعرفه إلا من حديث «رُشدين»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن دراج، والله أعلم. وقال عبد الله بن المبارك، وبقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن بسر، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿بِئْسَ عَمَلٌ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِيشُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾». وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ما رأوا من بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ يَابِسَةٍ﴾ ﴿٥﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة، كما قال: ﴿وَيَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَجْعَبْ عَنِّي مِنْ حَقِّهِمُ الْآتُورُ مَلَكُونٌ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ نِعَمَ الثَّرَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٦٦﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿حَسَنَتْ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة. ﴿عَجْرِي مِنْ حَقِّهِمُ الْآتُورُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال لهم فرعون: ﴿وَهَلْ يَدْرِي الْآتُورُ عَجْرِي مِنْ حَقِّهِ﴾ [الزخرف: ٥١]. ﴿مَلَكُونٌ﴾ أي: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلَوْلَا أَلْبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله هنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس: لباس رقيق رفاق كالفصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديداج وفيه بريق. وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ﴾: الالتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث في الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكئاً» فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرْبَابِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر، وقال غيره: السُرر في الحجال. وقوله: ﴿نِعَمَ الثَّرَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْرَزُونَ أَفْزُقَةً بِمَا صَبَرُوا وَلَنَقُوتَنَّهُمْ فِيهَا حَمِيمًا وَالسُّدُودُ فِيهَا حَمِيمًا وَحَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٦٧﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿وَأَمْرٌ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْتَابٍ وَحَفَّتْهُمَا بُخُلٌّ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رَمًا﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿كُنَّا لِنَنْتَهِنَّ مَائَتَ أَكْهَابٍ وَلَمْ نَطَّلِرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿وَقَدَّرْنَا عَلَيْهِمَا نَجْرًا﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَكَانَ لَهُمْ نَمْرٌ فَكَانَ لِصَحْبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا

أَطْرُقَ أَنْ يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٧﴾ وَمَا أَطْرُقَ النَّسَاءَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُؤِدْتُ لِإِكِّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَبْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٨﴾ .

يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوظتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَأْتًا أَكْهَمًا﴾ أي: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَطْلُرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ أي: والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا. ﴿وَكَاثَ لَمْ تُسْرُ﴾ قيل: المراد به: المال. روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثمر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَةٍ، كخَشْبَةٍ وَخُشْبٍ، وقرأ آخرون ﴿تُسْرُ﴾ بفتح الثاء والميم. فقال- أي صاحب هاتين الجنتين -: ﴿لِصَنْجِيهِ وَهُوَ بِحَاوِيَةٍ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - الله - أمانة الفاجر: كثرة الماء وعزة الفخر. وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَطْرُقَ أَن يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تنفي ولا تفرغ ولا تهلك ولا تلتف، وذلك لقلته عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَطْرُقَ النَّسَاءَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِنْ رُؤِدْتُ لِإِكِّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَبْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومراد إلى الله، ليكون لي هناك أحسن من هذا لأنني محظى عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ لِإِكِّ رَبِّي لَأَن لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾ (فصل: ٥٠) وقال: ﴿أَفَرَبَيْتَ الْآلِي كَفَرًا بِآبَائِنَا وَقَالَ لَأُؤْتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة، تألى على الله، ﴿وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِيهِ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ رَبِّي أَعَدَا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ سَكْرَانَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَسَمِنَ رَبِّيَ أَنْ يُؤَيِّنَ حَبْرًا مِمَّنْ جَنَّتِكَ وَرَسُولَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِمَّنْ السَّمَاءِ فَصَبَّحَ صَبِيحًا رَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصَبِّحُ مَاؤَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَمْ يَطَّلِكَ ﴿٤١﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أحابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَّرَةً فَأَخْبَتْكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُصْبِحُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أي: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جليلة، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابة، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا قال: ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: أنا لا أقول بمقاتلك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿وَلَا أُشْرِكُ رَبِّي أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ سَكْرَانَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرارة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ . قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصح حديثه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي زهم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله». تفرد به أحمد. وقد ثبت في الصحيح، عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟». قال: قلت: نعم، فذاك أبي وأمي. قال: «أن تقول

لا قوة إلا بالله». قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم». قال: فقلت لعمرؤ - قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وقوله: ﴿فَمَنْ رَجَعِ أَنْ يُؤْذِنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَرُسُلٌ عَلَيْهِمْ أَيْ: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبديد ولا تفسى ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَنُصِّحَ صَبِيحًا زَلْفًا﴾ أي: بلقماً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا ينبت شيئاً. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد التابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْبَحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَن يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أي: جارٍ وسائح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ [٤٢] والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَظَلَّ جِيَادُهُ نَزْحاً عَلَيْهِ تَقَلَّدَهُ أَعْيُنُهَا صُفُوفاً
بمعنى: ناثحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِضَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَلْبُثُ كَفَيْتُ عَلَيَّ مَا أَتَقَّ فِيهَا وَهِيَ غَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَغْتُ لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [٤٢] ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصُورُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [٤٣] هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ حَيُّ تَوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ [٤٤].
يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِضَمْرِهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسينان على جنته، التي اغتر بها وألهمته عن الله، ﴿فَاصْبَحَ يَلْبُثُ كَفَيْتُ عَلَيَّ مَا أَتَقَّ فِيهَا﴾ قال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ بَلَغْتُ لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلم تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَصُورُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدىء بقوله ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ويبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾. ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالية لله، أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا يَمَّا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٤٨] [عافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا دَرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْ لَيْتَ لَوْلَا إِلَهِي إِلَّا الْوَالِيَّةُ آمَنْتُ بِهِ بِنُورِ إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩٠] هُنَالِكَ الْحَكَمُ لِلَّهِ الْحَقِّ. ثم منهم من رفع ﴿وَالْحَقِّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [٦٦] [الفرقان: ٢٦]. ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله ﷻ، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسُوبِ﴾ [١٧] [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ تَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله، ﷻ، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَانْحَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا لَدْرُهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ [٤٥] الْمَالِ وَالنَّوْتِ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ [٤٦].

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ يَا محمد للناس مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أَنْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَانْحَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنصرة ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَيْبًا﴾ يابساً ﴿لَدْرُهُ الرِّيحُ﴾ أي: تفرقه وتطرحة ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَانْحَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُومَهَا وَأَذَىتَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نَجَّيْنَا بِهِ رِزْقًا مُخْتَلِفاً لَكُمْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ مَصْفَقًا ثُمَّ يُعْجِبُ قَوْمًا مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَدْرٌ فِي الْأَمْوَالِ الْأُولَى الْأَلْتَبِ﴾ [٦١] [الزمر: ٢١]. وقال في سورة الحديد: ﴿أَطْلَعُوا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِثٌ وَمَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاؤُفٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَنْزِلٌ غَيْثٌ عَجَبٌ الْكُفَّارَ بِنَاهِهِ ثُمَّ يُعْجِبُ قَوْمًا مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِطْلًا وَفِي الْأَخْرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [٦١] [الحديد: ٢٠]. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة».

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقولهِ: ﴿رَبِّنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأَوَلَدَكُمْ فِئَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾: الصلوات الخمس. وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد.

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضي الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بقاء في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلّى صلاة الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلّى العشاء غُفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلّى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهي الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. تفرد به. وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألت سعيد بن المسيب عن ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾ فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن حُثَيْم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك. وقال مجاهد: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَأَلْبَيْتَيْكَ أَصْلِحْ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات. قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، من الباقيات الصالحات». قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الملة». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله». وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به.

وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حدثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي، فقال: قل له: القني عند زاوية القبر، فإن لي إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال له سالم: متى جعلت فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: ما زلت أجعلها. قال: فراجعه مرتين أو ثلاثاً، فلم ينزع، قال: فأثبت. قال سالم: أجل فأثبت، فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عرج بي إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا معك؟ فقال: محمد. فرحب بي وسهّل، ثم قال: مرأيتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة. فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثني رجل من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض، حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدي أمراء، يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالهم على ظلمهم، فليس مني ولا أنا

منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم فهو مني وأنا منه. ألا وإن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر هُنَّ الباقيات الصالحات». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن كثير، عن زيد، عن أبي سلام عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بخ يخ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده». وقال: «بخ يخ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب».

وقال الإمام أحمد: حدثنا رُوح، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضي الله عنه، في سفر فنزل منزلاً، فقال لغلامه: «اتنا بالشفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزعمها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب». ثم رواه أيضاً والنسائي، من وجه آخر عن شداد، بنحوه. وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفع الجدي، عن سعد بن جنادة، رضي الله عنه، قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السراة غدوة، فأثبت مني عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأثبت النبي ﷺ فأسلمت، وعلمني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض. وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنَّ الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ نُبْرِئُ السُّيُوفَ لِيَجَالَ وَرَى الْأَرْضِ بَارِزَةً وَحَحَرْتَنَّهُمْ فَمَنْ نَادَوْا مِنْهُمْ أَعْدَاءُ﴾ [٤٧] وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكُتُبِ قَدَرَى الْمُعْرَبِينَ مِنْهُنَّ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلُكُمَا مَالِ هَذَا الْكُتُبِ لَا يَبَادُرُ صَيْرَةً وَلَا كِبَرَةً إِلَّا أَحْصَنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [١] وَيَبِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴿٢﴾ [الطور: ٩، ١٠] أي: تذهب من أماكنها وتنزل، كما قال: ﴿وَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [٥] [الفرع: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٦﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٧﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]. يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستويًا لا عوج فيه ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا وادي ولا جبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلّم لأحد ولا مكان يوارى أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد، وقناة: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لا حَصْرَ فيها ولا غِيَابَةَ. قال قتادة: لا بناء ولا شجر. وقوله: ﴿وَحَحَرْتَنَّهُمْ فَمَنْ نَادَوْا مِنْهُمْ أَعْدَاءُ﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم تترك منهم أحدًا، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ بَعْدٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ جَمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ [مرد: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمُ الرُّوحِ وَالْمَلِكَةِ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا مَنْ أَدْرَكَ لَهُ الرِّجْمُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبا: ٢٨]، يحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿رِيَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلِكِ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقرير للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبِ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفنيل والقطمير،

والصغير والكبير ﴿فَرَى الْمُعْرَبِينَ مُسْفِينَ بِمَا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَبُولُنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَا لَ هَذَا الصَّكَبِ لَا يُقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُتَيْنَ، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا»، من وجد غوداً فليات به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليات به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: «أترون هذا؟ فكذاك تُجَمِّع الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هذا. فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاةٌ عليه». وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا﴾ أي: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يُرِيدُ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلُ الْكَلْبَإِثِمَ ﴿١٩﴾﴾ [الطارق: ١٩] أي: تظهر المخبات والضمائر. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به». أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «يُرْفَعُ لكل غادر لواء يوم القيامة عند آسته بقدر غدرته، يقال: هذه غَدْرَةٌ فلان بن فلان».

وقوله: ﴿وَلَا يَظَلِرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملاً النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظَلِمُ شَيْئًا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَنْصِبْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ شِقَاقَ خَبْرٍ مِنْ خَدَلٍ أَيُّسًا يَهَأُ وَكَفَىٰ بِمَا حَسِبْتِ ﴿٤٧﴾﴾ [الانبيا: ٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا ممام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشترت بغيراً ثم شددت عليه رجلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبوب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يظأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله، ﷻ، الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عُزَاءً عُزَاءً بَهُمَا» قلت: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء». ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب. أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه، حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف، ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه منه حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله، ﷻ، عُزَاءً عُزَاءً بَهُمَا؟ قال: «بالحسنات والسيئات». وعن شعبة، عن العوام بن مَرَّاحِم، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة». رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه آخر، قد ذكرناها عند قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الانبيا: ٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّ أُنثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَبْلُ لَكُمْ رِجْمٌ يُحْشَرُونَ﴾ [الانعام: ٣٨]. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ عَدُوًّا يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خلقه ومولاه، الذي أنشأه وابتداه، وبالطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة». ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُونٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]. وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خُلِقَتْ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأعمال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة. ونبه تعالى ههنا

على أنه ﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ أي: إنه خلق من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة - قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلقته الملائكة من نور غير هذا الحي - قال: وخلقته الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا تهبت. وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا ولسان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: من خزان الجنان، كما يقال للرجل: مكبي، ومدني، وبصري، وكوفي. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به. وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا: وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس - قبل أن يركب المعصية - من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جنّاً. وقال ابن جريج، عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط الله عليه، ففسخه شيطاناً رجيماً - لعنه الله - مسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا تزجه، وإذا كانت في معصية فارجه. وعن سعيد بن جبيرة أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون في الجنة.

وقد روي في هذه آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غثية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء، من الجهادة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد. ثم قال تعالى مفرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَسْتَدْرِكُهُمْ دُرَيْتُهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ أي: بدلاً عني؛ ولهذا قال: ﴿يَقْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأموالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وَأَمَّا نَسْوَا الزَّيْمِ الْيَوْمَ إِنَّمَا الْغُجْرُونَ ﴿٥١﴾ أَلَمْ نَعْتَدَ لَكُمْ رَبِّي يَتَوَكَّلْ عَلَى آلِهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَنَا طَبَقٌ أَمَّا أَن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَفُورًا ﴿٥٢﴾ وَأَن تَتَّبِعُوا الْأَنْبِيَاءَ فَإِنَّ لَكُمْ عَذَابًا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ وَأَن تَقُولُوا لِمَا كُفِرْنَا بِهِ ضُرَّاحًا فَتَرْجَمُوا فَتَمُوتُوا فَتَمُوتُوا ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢].

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَصَا﴾ ﴿٥١﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبدي أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ ادْعُوا إِلَهُكُم مِّمَّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ﴿١٦﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ أَخَذُوا أَمْرَهُمْ بَعَثُوا لَهُمْ خُلَافًا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ لِيَأْخُذُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَإِن تَبَدَّلَ الْأَمْرُ بِالْغَيْبِ لَنُؤْتِيَهُم مَّا يُشَاءُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٦، ١٧]. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَصَا﴾ قال مالك: أعواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٦﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَعْنَا بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَى الْمُنَافِقُ أُوَّابَهُمْ كَانَ فِي خُتُوبِهِمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِكْرَامًا وَلَا قِيَامًا وَمَنْ عَن دُعَائِهِمْ غَائِبُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقناة، وغير واحد: مهلكاً. وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالي حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة. وقال قتادة: ﴿مَوْبِقًا﴾: وادياً في جهنم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم، من قبيح ودم. وقال الحسن البصري: ﴿مَوْبِقًا﴾: عداوة. والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهو عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤَيِّدُ بَقَرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَأْذِنُوا الْيَوْمَ أَيْنَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَكُنُ شُهَدَاءَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِكُمْ ﴿٦١﴾﴾ [فصلت: ٦١]، ﴿هَذَا كَلَّمَ بَلَاغًا كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَصْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها. قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن ذراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر يرى جهنم، فيظن أنها واقعة من مسيرة أربعين سنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها واقعة من مسيرة أربعين سنة».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني علي بن الحسين، أن حسين بن علي أخبره، أن علي بن أبي طالب أخبره، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُسْتَفْعِرُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُكَ ﴿٥٩﴾ وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مِثْقَلَيْنَ وَسِدْرَيْنَ وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ بِلَدْحُسُوا بِهِ أَلْفًا وَأَتَّخَذُوا لِيَّاقِي وَمَا أُذِرُوا هَرَبًا ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسِطِرْ عَلَيْنَا كَمَا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أْتِنَا بِعَذَابِ آلِيسِرِ﴾ [الانسفال: ٢٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْهُونٌ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْآيَاتِ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَبْتَغُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ وَآمَنُوا بِآيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُرُوقًا﴾ ﴿٥٩﴾ أي: قبل العذاب مبشرين من صدقيهم وآمن بهم، ومنذرين من كذبهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿يَدَّجِرُوا بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به ﴿لَمَقًّا﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُرُوقًا﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُرُوقًا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِذَا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَعْلَنُكُنَّهِنَّ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْجِدًا﴾ ﴿٦٢﴾.

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لتلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمم معنوي عن الرشاد، ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنَبِ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَّاسٍ عَلَى ظَهْرِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا﴾ أي: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَعْلَنُكُنَّهِنَّ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْجِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لَآ أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَنْبِئَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَسَا حَتَّىٰ تَوَخَّاهُمَا فَأَغْرَقْنَاهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَوْمِهِ إِئِنَّا عُذِّدْنَا لَلَّذِينَ نَبَسْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبَيْتُ الْخَوْتِ وَمَا أُنشِئُهُ إِلَّا الشَّيْطَانَ أَنْ أَذْكَرُ وَأَخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيَنَّهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٦٨﴾.

سبب قول موسى عليه السلام لفته - وهو: يوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفته ذلك: ﴿لَآ أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَنْبِئَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرَحُوا حَتَّىٰ تَهَادَتْ نَسَاؤُهُمْ
بِطَطْحَاءِ ذِي قَارِ عِيَابِ اللَّطَائِمِ
قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير، رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ في لغة قيس: سنة. ثم قدرى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله:

﴿أَوْ آمِنِي حُفْيًا﴾ قال: دهرأ. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبِيًّا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطُفِر من المِكتَل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر. وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. وقال محمد - هو ابن إسحاق - عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾. وقال قتادة: سرب من البر، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل ماء جامداً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نسيبا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ يَتِيمًا لِلزُّلْمِ وَالْمَكْرِهَاتِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن: ٤٢٢]، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين. فلما ذهب عن المكان الذي نسيه فيه مرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِقَتْنَهُ ءَأَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَبِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعني: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان، ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَيْلَهُ﴾ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ أي: هذا الذي نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَى ءَأَثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿فَمَصَا﴾ أي: يقصان أثر مشيها، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَسَدًا عَبْدًا مِنَ عِبَادِنَا ءَأَتَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٨﴾﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. بذلك قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فُسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا فعتب الله عليه إذ لم يزد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكتل، فحينما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً، فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكتَل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَأَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَبِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ءَأَثَارِهِمَا فَمَصَا﴾». قال: «فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجِي بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأتى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٩﴾﴾، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ابْتِغَيْتَ فَلَ تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمسيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلهم أن يحملوه، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يبق إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدنا إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٠﴾﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿٧١﴾﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فنزل على حرف السفينة فنقر البحر نقرة، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمسيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَلَّتْ نَفْسًا رَكِيظًا يَغِيْرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٢﴾﴾ قال أتر أقل لك أنك لن تستطيع معي صبراً ﴿٧٣﴾؟ قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَدَّهَا فَلَا تَصْنَعْهُ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾﴾ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريّة استظلموا أهلها فأبوا أن يعصيوهم فوجدوا فيها جداراً يريد أن

يَنْقُصَ قَالَ: قال: مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقْصَمْ﴾، فقال موسى: قوم أنبتاهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَحَدَّثَ عَلَيْكَ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي رَيْبِكَ سَأَيْتُكَ بِأَوَّلِهِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبیر: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا﴾، وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾. ثم رواه البخاري عن قتبية، عن سفيان بن عيينة... فذكر نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها - قال: فوضع موسى رأسه فنام - قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكمل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿إِنِّي أَعَدَّاهُ نَأً﴾. كذا قال، وساق الحديث. ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقداراً ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جزيج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبیر - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبیر قال: إنا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني. فقلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لي: قال: كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله، ذكر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، وركت القلوب، ولئى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أي رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أي رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به». قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله في مكمل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني حيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عند سعيد بن جبیر، قال: «فيينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان، إذ تَصْرَبُ الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتَصْرَبُ الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جزية الماء حتى كأن أثره في حجر». قال: فقال لي عمرو: هكذا كان أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه والتي تليهما: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النسب» ليست هذه عن سعيد - أخبره، فرجعا فوجدا خضراً. قال: قال عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد البحر. قال سعيد بن جبیر: مُسَجَى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جنتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيك التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك! يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح؟ قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، ووثد فيها وتدا. قال موسى: ﴿أَفْرَقْنَا لِنَعْرِفَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. قال مجاهد: منكرأ. قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَجِيتُ وَلَا تُرَفِّقْ بَيْنَ أَمْرِي وَعَمْرٍ﴾ ﴿فَانطَلَقَا﴾ حتى لقيا غلاماً قتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلاماً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿أَنْتَكَ نَسَا زَكِيَّةً﴾ لم تعمل بالحنث. وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ ﴿زَاكِيَةً﴾: مسلمة، كقولك: غلاماً زكياً. فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن يقض فأقامه، قال سعيد بيده هكذا، ورفع يده فاستقام - قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام - قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَحَدَّثَ عَلَيْكَ أَجْرًا﴾ قال سعيد: أجراً نأكله ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: ﴿أمامهم ملك﴾ يزعمون عن غير سعيد أنه هُدُ بْنُ بُدَّةٍ، والغلام المقتول اسمه - يزعمون - جيسور ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعبيها، فإذا جازوه أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ﴾ وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حُبّه على أن يتابعه على دينه ﴿فَأَرَادْنَا أَنْ يُدِيلَهُمَا رُجْحًا وَكُنَّا مِنْهُمْ رَاكِبِينَ﴾ كقوله: ﴿أَنْتَكَ نَسَا زَكِيَّةً﴾، ﴿وَأَقْرَبُ رُحْمًا﴾. هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر. وزعم غير سعيد بن جبیر أنهما أبدا

جارية . وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : إنها جارية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خطب موسى ، عليه السلام ، بني إسرائيل فقال : ما أحد أعلم بالله وبأمره مني . فأمر أن يلقي هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن عمار ، عن الحكم بن عتيبة ، عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم : يا أبا العباس ، إن نوحاً بن امرأة كعب ، يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميثاق ؟ قال سعيد : فقال ابن عباس : أنوف يقول هذا ؟ قال سعيد : فقلت له : نعم ، أنا سمعت نوحاً يقول ذلك .

قال : أنت سمعته يا سعيد ؟ قال : قلت : نعم . قال : كذب نوح . ثم قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : إن موسى بن إسرائيل سأل ربه فقال : أي رب ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني ، فدلني عليه . فقال له : نعم ، في عبادي من هو أعلم منك . ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ، ومعه حوت ملبح ، قد قيل له : إذا حيي هذا الحوت في مكان ، فصاحبك هنالك ، وقد أدركت حاجتك . فخرج موسى ومعه فتاه ، ومعه ذلك الحوت يحملانه ، فسار حتى جهده السير ، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ، وذلك الماء ماء الحياة ، من شرب منه خلد ، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي .

فلما نزل ومس الحوت الماء حيي ﴿ فَأَخَذَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ فانطلقا فلما جاوز مُثْقَلِيهِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : ﴿ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسِيًا ﴾ ، قال الفتى - وذكر - : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ جَجًا ﴾ . قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها ، فإذا رجل متلفف في كساء له ، فسلم

موسى ، فردّ عليه العالم ثم قال له : ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل ؟ قال له موسى : جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (١٧) . وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك - فقال موسى : بلى . قال : ﴿ وَكَيْفَ صَبْرٌ عَلَى مَا تَرَى تُحْمَلُ بِهِ حَمْلًا ﴾ (١٨) ؟ أي : إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم . ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (١٩) . وإن رأيت ما يخالفني ، قال : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَتَّبِعُنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ وإن أنكرته ﴿ حَتَّىٰ أُبَدِّلَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس ، يتلمسان من يحملهما ، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة ، لم يمر

بهما من السفن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها . فسألا أهلها أن يحملوهما ، فحملوهما ، فلما اطمانا فيها ولججت بهما مع أهلها ، أخرج متقاراً له ومطرقة ، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها . ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ، ثم جلس عليها يرقعها ، فقال له موسى - ورأى امرأاً أظنّ به - : ﴿ أَخْرَقْنَا لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٢٠) . قال له نوحاً : ﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي إِيَّاهُ كُنْتُ بَالِغًا أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ ﴾ (٢١) .

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي إِيَّاهُ كُنْتُ بَالِغًا أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ ﴾ (٢١) . ثم خرجا من السفينة فانطلقا ، حتى أتيا أهل قرية ، فإذا غلمان يلعبون خلفها ، فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أظرف منه ولا أثرى ولا أواضاً منه ، فأخذه بيده ، وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله ، قال : فرأى موسى امرأاً فظيعاً لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له قال : ﴿ أَفَلَيْتَ نَسَا زَكِيًّا ﴾ (٢٢) أي : صغيراً . ﴿ يَبْغِي نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ (٢٣) . قال لَوْ أَنِّي إِيَّاهُ كُنْتُ بَالِغًا أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ ﴾ (٢٤) . قال إن سألتك عن شئٍ بعدنا فلا

تصنحني قد بلغت من لذي عدوك ﴿ (٢٥) ﴾ أي : قد أعذرت في شائي . ﴿ فَأَنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَا أُمَّةً قَرْيَةً اسْتَظَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَا أَن يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَّقَضُ ﴾ ، فهدمه ثم قعد بينه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف ، وما ليس عليه صبر ، قال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَّدْتَ عَلَيْهِ جُرًا ﴾ (٢٦) أي : قد استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضمناهم فلم يضيّفونا ، ثم قعدت تعمل من غير صنعة ، ولو شئت لأعطيت عليه أجرأ في عمله ؟ قال : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَابِقَةٌ إِنِّي أَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ كُنْتَ كَذِبًا ﴾ (٢٧) . وفي قراءة أبي بن كعب : ﴿ كل سفينة صالحة - وإنما عبثها في البحر فأردت أن أعبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ (٢٨) .

فلسنت حين رأى العيب الذي صنعت بها . ﴿ وَأَمَّا الْفُلُّ فَأَنَّ أَوْهَامَ الْمُؤْمِنِينَ فَخَسِبْنَا أَنْ نُرِيحَهُمَا طَيْفِينَا وَكَفَرْنَا ﴾ (٢٩) فأردنا أن يبذلها رهبنا صبرا منه ذكوة وأقرب رهبنا ﴿ (٣٠) ﴾ وأما الجدار فكان لفلانين يقيمون في المدينة وكان تحتهم كهف لهما وكان أبوهما صليحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كذبهما رحمة من ربك وما قلناه عن أمرئ ﴾ (٣١) أي : ما فعلته عن نفسي ، ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا تَرَى تَسْطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٣٢) . وكان ابن عباس يقول : ما كان الكثر إلا علماً .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكروهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما أتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكروهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكروهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

رجل من بني إسرائيل: هم كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذي تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام، فقال: إن الله ﷻ يقول: وما يدريك أين أضع علمي؟ بلى، إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك - قال ابن عباس: هو الخضر - فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن اتب البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذ فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب. فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ وَمَا أُنْسِينَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ لَكَ﴾، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس، حتى يكون صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام، وأنى يكون السلام بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخضر: أصحاب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَى أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٧﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا﴾.

وقال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبني هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيته، فهل سمعت رسول الله ﷻ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷻ يقول: «بيننا موسى في ملا من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا؛ فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لقيته، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فهو ثمة فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فوجدا عبدنا خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه.

﴿قَالَ لَمْ مُوسَىٰ هَلْ آتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ وَكَيْفَ نَصِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خَيْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا ﴿٨١﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَمْ مُوسَىٰ هَلْ آتَيْتَكَ﴾ سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿آتَيْتَكَ﴾ أي: أصحيك وأرافقتك، ﴿عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح. فعندما ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: أنت لا تقدر أن تصاحبني، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله، ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي. ﴿وَكَيفَ نَصِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ نُحِط بِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٧٩﴾، فإنا نعرف أنك ستترك علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصطلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: ولا أخالفك في شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أي: ابتداء ﴿حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه، ﷻ، فقال: رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأبي عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أي رب، فهل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني. قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى.

قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْتَأْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً! قال: يا موسى، فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر. وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَا بِئِنَّهَا لَمَآءٌ لِّغُرُقٍ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطجبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول - يعني بغير أجرة - تكرامة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكرأ عليه: ﴿أَخَرَقْنَا بِئِنَّهَا لَمَآءٌ لِّغُرُقٍ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لَدُوا لِلْمَوْتِ وَإِنُّوا لِلْخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكرأ. وقال قتادة: عجباً. فعنها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾ أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تضيق علي وتشدد علي؛ ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فَنَقَسَا نَفْسًا رَكِيَةً يَغِيْرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧١﴾﴾ قال آزر أفل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿٧٢﴾ قال إن سألتك عن شئيم بعدها فلا تصبحني قد بلغت من لدني عذراً ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فَنَقَسَا نَفْسًا رَكِيَةً﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضاهم، فقتله، فروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم. فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَنْقَلْتُمْ نَفْسًا رَكِيَةً﴾ أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا حملت إثمًا بعد، فقتلته؟! ﴿يَغِيْرُ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهدأ قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصِحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إلي مرة بعد مرة. قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً» مثقلة.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْت عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَسَبِّحْ بِمَاءٍ لَّهٍ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأولىين ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأيلة، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهل قرية لتأما» أي: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ إسناده الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل. والانتقاض هو: السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه، ودعمه حتى رده ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْت عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سَبِّحْ بِمَاءٍ لَّهٍ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: بتفسير: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُوْبِيهَا وَكَانَ وَرَثَتُهَا كُلٌّ سَفِينَةً عَصِيًّا ﴿٧٦﴾﴾.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على باطنه فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أي: جيدة ﴿عَصَبًا﴾ فأردت أن أعيبها، لأرده عنها لعبيها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام. وقد روى ابن جريج عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي، أن اسم ذلك الملك هُذُدُ بن بُدَدُ، وقد تقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكور في التوراة في ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا سَيِّئًا بِنْتَهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿٨١﴾.

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور. وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملهما حبه على متابعتها على الكفر. قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحرنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا سَيِّئًا بِنْتَهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿٨١﴾ أي: ولداً أركى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبر بالديه. وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا كُنَّا نَمُرُّ بِكَ إِلَّا أَنَّا لَأَبْهَرُنَا مَا لَمَّ نَسِطٌ عَلَيْهِ صَدْرًا﴾ ﴿٨٢﴾.

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ نَجْمٍ مِّنَ السَّمَاوَاتِ لَكُنَّا مِنَ الْغَابِطِينَ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقاتدة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله الخَضْبِيُّ، عن عياش بن عباس القتباني، عن ابن حُجْبِرَةَ، عن أبي ذر، رضي الله عنه، رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجب لمن أيقن بالقدر لم نصب؟ وعجب لمن ذكر النار لم ضحك؟ وعجب لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله». بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم. وقد روي في هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب، حدثني الحسن بن حبيب بن نديبة، حدثنا سلمة، عن نعيم العنبري - وكان من جلساء الحسن - قال: سمعت الحسن - يعني البصري - يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجب لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجب لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن عُمَرُ مولى عُفْرَةَ قال: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصَمَّتٌ مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك! عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وحدثني أحمد بن حازم الغفاري، حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبي حماد ابن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجب للموقن بالرزق كيف يتعجب؟ وتعجب للموقن بالحساب كيف يغفل؟ وعجب للموقن بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا مِنكُمْ شُرَكَاءَ لَلَّذِينَ هَبُوا بِهَا وَكُنَّا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ سَاهِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا

بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان ناسجاً. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالا، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَرْهُمَا﴾: ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانُا﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، والله أعلم. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ آيَاتِي﴾ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، ووالدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ آيَاتِي﴾، لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبو الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عَلِيمًا﴾. وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. والله أعلم. وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام. قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث التعزية، وإسناده ضعيف. ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ آخِذًا﴾ [الأنبياء: ٣٤] ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض». ويأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن مُتَبِّه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تحته تهتز خضراء». ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري، عن همام، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فَرْوَةٍ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ نُؤْوِيلُ مَا لَرَّ تَسْلَعُ عَلَيَّ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَرَّ تَسْلَعُ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال: ﴿سَأَيْتُكَ يُنْأْوِيلُ مَا لَرَّ تَسْلَعُ عَلَيَّ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَسْأَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا أَسْأَلَعُوا لَمْ يَنْبَأْ﴾ [الكهف: ٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها إنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى يذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذ العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب. إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَسَمَّوْنَاكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ ﴾ أي : عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف . وقد أورد ابن جرير ههنا ، والأموي في مغازيه ، حديثاً أسنده وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر ، أن نقرأ من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به : « أنه كان شاباً من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك في السماء ، وذهب به إلى السد ، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب » . وفيه طول ونكارة ، ورفع لا يصح ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل . والعجب أن أبا زُرْعَةَ الرازي ، مع جلاله قدره ، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة ، وذلك غريب منه ، وفيه من النكارة أنه من الروم ، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني ابن فيليب المقدوني ، الذي تُوِرِخ به الروم ، فأما الأول فقد ذكره الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، أول ما بناه وآمن به واتبعه ، وكان معه الخضر ، عليه السلام . وأما الثاني ، فهو إسكندر بن فيليب المقدوني اليوناني ، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور ، والله أعلم . وهو الذي تُوِرِخ به من مملكته ملة الروم . وقد كان قبل المسيح ، عليه السلام ، بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقى وغيره ، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ، عليه السلام ، وقرب إلى الله قرباناً ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره في كتاب « البداية والنهاية » ، بما فيه كفاية ، والله الحمد .

قال وهب بن منبه : كان ملكاً ، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين ، وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطفيل قال : سئل علي ، رضي الله عنه ، عن ذي القرنين ، فقال : كان عبداً ناصحاً الله فناصره ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات ، فسمي ذا القرنين . وكذا رواه شعبة ، عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل ، سمع علياً يقول ذلك . ويقال : إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب ، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب . وقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً ، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : يعني علماً . وقال قتادة أيضاً في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ : قال : منازل الأرض وأعلامها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ : قال : تعليم الألسنة ، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لهيعة : حدثني سالم بن عجلان ، عن سعيد بن أبي هلال ؛ أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى؟ فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ . وهذا الذي أنكره معاوية ، رضي الله عنه ، على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية في الإنكار ؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب : « إن كنا لنبلو عليه الكذب » يعني : فيما ينقله ، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحيفته ، ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق ، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية ، فإنه دخل منها على الناس شر كثير ، وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثرى غير صحيح ولا مطابق ؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك ، ولا إلى الترفي في أسباب السموات . وقد قال الله في حق بلقيس : ﴿ وَأَوْيَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قَنُوزًا ﴾ [النمل : ٢٣] أي : مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب ، أي : الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء ، وبيت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك . قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً ، والله أعلم . وفي « المختارة » للحافظ الضياء المقدسي ، من طريق قتيبة ، عن أبي عوانة ، عن سماك بن حرب ، عن حبيب بن حماز قال : كنت عند علي ، رضي الله عنه ، وسأله رجل عن ذي القرنين : كيف بلغ المشارق والمغارب؟ فقال : سبحان الله سخر له السحاب ، وقدر له الأسباب ، وبسط له اليد .

﴿ فَأَتَى سَبَبًا ﴾ (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَرْبَ السَّمْسِ وَجَبَّهَا مُرْبًى فِي عَرَبٍ حَنَظَلَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلِيلًا يَدْعُونَ الْقُرْنَيْنَ بِمَا كَانُوا يَعْبَدُونَ وَإِنَّا لَنَنحِذُ فِيهِمْ حَسَبًا ﴿٨٦﴾ قَالَ مَا مَنَ مِنْكُمْ فَرْقٌ فَجَعَلْنَاهُمْ نَجْمًا كَالنُّجُومِ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَجَعَلَ صَاحِبًا فَهُوَ لَهُ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ وَسَمَّوْا لَهُ مِنْ أَمْرِنَا مُتَرَاكِبًا ﴿٨٧﴾

قال ابن عباس: ﴿فَأَنْبَغُ سَبِيًّا﴾ يعني: بالسبب المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَأَنْبَغُ سَبِيًّا﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبِيًّا﴾ قال: طريقاً في الأرض. وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال الضحاك: ﴿فَأَنْبَغُ سَبِيًّا﴾ أي: المنازل. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَنْبَغُ سَبِيًّا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدي. وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الْمَتَمِّسِ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم. وقوله: ﴿وَبَدَعْنَا قُرْبُورًا فِي عَيْبِ حِمْرَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. والحمة مشتقة على إحدى القراءتين من «الحمة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ شَجْرًا مِّنْ صَلَاطِئِ مِثْنِ حَكْمٍ مُّسْتَوِيٍّ﴾ [الحجر: ٢٨] أي: طين أملس. وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول: ﴿فِي عَيْبِ حِمْرَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكنني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مضدع، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب؛ أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حِمْرَةٍ﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وجدتها تغرب في عين حامية» يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنيهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حِمْرَةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «في نار الله الحامية في نار الله الحامية، لولا ما يزعمها من أمر الله، لأحرق ما على الأرض». قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدتهما يوم اليرموك، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد - يعني ابن بشر - حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية: ما نقرأها إلا ﴿حِمْرَةٍ﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرأها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أني عندكما أفدتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمته. قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول نبي، فيما ذكر به ذا القرنين في تخلفه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَنْبَغِي
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
أَسْبَابَ أَمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُّزْشَد
فِي عَيْنِ ذِي خُلُوبٍ وَثَاطَ حَزْمَدِ

قال ابن عباس: ما الخُلب؟ قلت: الطين بكلامهم. يعني بكلام حمير. قال: ما الثاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحزمد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَجَدْنَا قُرْبُورًا فِي عَيْبِ حِمْرَةٍ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس، فإننا نجدتها في التوراة: تغرب في مدرة سوداء. وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج ﴿وَجَدْنَا عِنْدَهَا قُرْبُورًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب. وقوله: ﴿وَجَدْنَا عِنْدَهَا قُرْبُورًا﴾ أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَدَّا الْأَرْضَيْنِ لَمَّا أَنْ تَدْبَرْتَهُمَا أَنْ نَلْبِذَ فِيهِمْ حَسَنًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيّرهم: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿أَلَمْ نَمَنْ طَلَّرَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نَعْتَذِرُهُمْ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم ويوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرُدُّ لَكَ رَبُّكَ فِعْذُكَ عَذَابًا نُكَرًا﴾ أي: شديداً بليغاً وجيماً أليماً. وفيه إثبات المعاد والجزاء. وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أي: تابعا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءُ أَجْرٍ لَّهُ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله، ﴿سَعِيدٌ لَّهُ مِنَ الْأَمْرِ شَرٌّ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَنْبَأْنَا سَيِّئًا ٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّجْمِ مِمَّا عَدَا تَلْعُوقَ عَنُقِ قَوْسٍ لَّهُمْ يُرِيدُ يُجْعَلُ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَيِّئًا ٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ٩١﴾ يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آتافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمئة سنة يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْسٍ﴾ أي: أمة ﴿لَهُمْ يُجْعَلُ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَيِّئًا﴾ أي: ليس لهم بناء يكتنهم، ولا أشجار تظلمهم وتستترهم من حر الشمس. قال سعيد بن جبیر: كانوا حُمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ يُجْعَلُ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَيِّئًا﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغروروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال الحسن: هذا حديث سمرة. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم. وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليس لهم أكتان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلا حدهم أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْسٍ لَّهُمْ يُجْعَلُ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَيِّئًا﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيفُ جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين في الأرض. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ٩١﴾ قال مجاهد، والسدي: علماً، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْنَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَنْبَأْنَا سَيِّئًا ٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ مَدْرَ مِنْ دُونِهَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣ قَالُوا بِنَاءَ الْقُرَيْنِ إِنْ يَأْتِجْ وَيَأْتِجْ مُؤَيَّدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يُجْعَلُ لَكَ خَيْرًا عَلَىٰ أَنْ تُجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَيْبُونِي فَعُوًّا يُعْجَلُ يَتَنَزَّلُ فِيهِمْ رَسُولٌ مِّنَ رَبِّكَ لِيُخَبِّرَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا سَاءَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلْنَا نَارًا قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا أُفْجُوقٌ عَلَيْنَا قَطْرًا ٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَنْبَأْنَا سَيِّئًا ٨٩﴾ أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعد بعتُ النار. فيقول: وما بعتُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فيحيتلُ شيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج». وقد حكى النووي، رحمه الله، في شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم. وفي مسند الإمام أحمد، عن سُمرة، أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَدْنَا نُوحَ ثَلَاثَةَ: سَامَ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامَ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافَثَ أَبُو التُّرْكِ». فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سما هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراة. وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجبياً في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وأذنانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدُها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْسٍ لَّهُمْ يُجْعَلُ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَيِّئًا﴾ أي: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس. ﴿قَالُوا بِنَاءَ الْقُرَيْنِ إِنْ يَأْتِجْ وَيَأْتِجْ مُؤَيَّدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يُجْعَلُ لَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس: أجرأ عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا

له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعبق وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَا لِي فَأَنَا أَتِيدهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَّمَا آتَيْتُكُمْ بِلَا أَنْتُمْ بِعِدَّتِكُمْ فَتَمَنَّوْنَ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوْرٍ﴾ أي: بمعلمكم وآلات البناء، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿أَتَأْتُونَ ذُرِّيَةَ الْمَلِيكِيَّةِ﴾، والزبير: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة. وهي كاللبنة، يقال: كل لبنة زنة قطار بالدمشقي، أو تزيد عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَتْ بَيْنَ الْعُذَيَّةَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿قَالَ أَنْعُمُوا﴾ أي: أجيح عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿قَالَ أَتَأْتُونَ أَفْرَغَ عَلَيْهِ وَظَنَّا أُولَئِكَ وَمَجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ، وقاتدة، والسُّدِّيُّ: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَنِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحير. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعت لي» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل.

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أفتال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك. وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال شائق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿مَّا اسْتَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَلَعُوا لَمْ نَبْقَا﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَكُومٌ فِي بَعْضٍ يَخْفِئُ فِي الْأَشْوَْرِ لِمَجْمَعَتِهِمْ جَمًّا﴾ ﴿٩٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقيه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقيه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿مَّا اسْتَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَلَعُوا لَمْ نَبْقَا﴾ ﴿٩٧﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقيه، ولا على شيء منه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كاشداً ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيبته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشقون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء. فبيعت الله عليهم نفاقاً في أفتانهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرأ من لحومهم ودمائهم». ورواه أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان، عن قتادة، به. وكذا رواه ابن ماجه، عن أزره بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا إسناد قوي، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقيه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم أتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحها. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحها. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء الله»، فيصبحون وهو كما فارقه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجِه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه - من أنهم لم يتمكنوا من نقيه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع - قول الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة، بنت أبي سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه، وهو محمر وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحلَّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا

الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخرجه، من حديث الزهري، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإستاذ، منها رواية الزهري عن عروة، وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده، كلهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية، ثم ثنتان ربيتان وثنان زوجتان، رضي الله عنهن. وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «فُتِحَ اليوم من ردم بأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين. وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهيب، به.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين مأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَدِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ أي: ساواه بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ رِثْمُ الْجِبِلِّ جَعَلَهُمْ دَكَّاءً﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: مساوياً للأرض. وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَدِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ قال: طريقاً كما كان. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائناً لا محالة. وقوله: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ أي: الناس يومئذ أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ قال: ذلك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ فَأُجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ وَيَفْجَعُ فِي الْأُصُورِ لِمُحَمَّدَتَهُمْ جَمًّا﴾ [٩٩] قال ابن زيد في قوله: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَيَفْجَعُ فِي الْأُصُورِ﴾ على أثر ذلك ﴿لِمُحَمَّدَتَهُمْ جَمًّا﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن. روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عترة، عن شيخ من بني فزارة في قوله: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يمينا وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا الأرض فيقول: «ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن في الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض عليّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبدته مثلها أحد من خلقه. فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتكأ عليه، فيقول به ويذريته بجناحيه فيقذفهم في النار. فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبته.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عترة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَقْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْنٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض. وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتاميس، ومنسك». هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف. وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً».

وقوله: ﴿وَيَفْجَعُ فِي الْأُصُورِ﴾: والصور كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة. وفي الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنتم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحتى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وقوله: ﴿لِمُحَمَّدَتَهُمْ جَمًّا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [٤٩] ﴿لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [٥٠، ٤٩]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُعْدَاءً﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [٥١] الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا [٥٢] أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخْلَوْا

عِبَادِي مِنَ ذُوِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تعاملوا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَصِّ لَّهُ مَا شَاءْنَا فَمَا هُوَ لَمْ يَرِيٓنِ﴾ ﴿الزخرف: ٢٣٦﴾، وقال ههنا: ﴿وَكَاثُرًا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه. ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخَذُوا مِنَّا مِن دُورِ أَوْلِيَآءِنَا﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿مريم: ٨٢﴾؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ صَدَّ سَبْعُهُمْ فِي لَهْوِ اللَّيْلِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَطَبَعَتْ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا عَائِيَّتِي وَرُسُلِي هُرُوا﴾ ﴿١٠٣﴾ .

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مضعب قال: سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص -: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾: «أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنّة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينتقصون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضي الله عنه، يسميهم الفاسقين. وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي، رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لأنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكّية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطيء، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ بِرُؤْمِهِمْ خَشِيْعَةً﴾ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِيَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَآيِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مِّنْهُمْ لِيَهْتَفُوا بِهِ كَرَاهِيَةَ رَبِّهِمْ وَمَا يَخْبَرُهُمْ﴾ ﴿١٠٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَآهِبٍ يُقِيعُوهُ بَخْسِهِ أَلْظَمَتَانِ مَاءٌ حَرٌّ إِذَا جَاءَهُ لَرَّ بِجِدَّةٍ شَيْخًا﴾ [النور: ٢٣٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسره فقال: ﴿الَّذِينَ صَدَّ سَبْعُهُمْ فِي لَهْوِ اللَّيْلِ﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ أي: لا تنقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لِيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمَ السَّمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» وقال: «اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ»: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾. وعن يحيى بن بكير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله. هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً. وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾. وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي الصلت، عن ابن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، مرفوعاً فذكره بلفظ البخاري سواء. وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عمارة، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له. فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة، هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً». ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبسة وعون بن عمارة، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم

طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، افروا: ﴿فَلَا تَعْبُدُوا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَذُنَا﴾

وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَن يَكْفُرُ﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسوله هزواً، استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عبادة السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية. وقال كعب، والسدي، والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب. وقال أبو أمامة: الفردوس: سرّة الجنة. وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها. وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ: «الفردوس: ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها». وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله ابن جرير، رحمه الله. وفي الصحيحين: «إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة». وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة، فإن النزول هو الضيافة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿لَا يَدْخُلُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يجوبون سواها، وكما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُودًا الْقَلْبَ لَا آتَا بَاغِيَا سَوَاهَا وَلَا عَن حُسْبَاهَا أَتْحَوْلُ
وفي قوله: ﴿لَا يَدْخُلُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأله أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَأَكْبَتِي رَبِّي لَأَيَّدَ الْبَحْرُ قُلْ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ مِّدَادًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مِثْقَالَ الرِّيبِ الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة عليه، ﴿لَأَيَّدَ الْبَحْرُ﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمدده ويكتب بها، لما نفذت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَأَكْبَتِي رَبِّي لَأَيَّدَ الْبَحْرُ قُلْ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ مِّدَادًا ﴿١٠٩﴾﴾. يقول: لو كان البحر مِثْقَالَ كلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يشي عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يشي على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدَّ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿١١٠﴾﴾

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت. يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أنني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَهُ وَجِدَّ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركن العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجَزْرِي، عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وغير واحد. وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك عنه: أرايت رجلاً يصلي، يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَدَ، ويصوم ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال

عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فبيعتنا. فكثير المحتسبون وأهل الثوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم أنهكم عن النجوى؟». قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟» قال: قلنا: بلى. قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد - يعني ابن بهزيم - قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يميني بشماله، وشمال أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجي، والله أعلم بما نتناجي به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين - يعني من وسط - قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم حرامه، ونزل عند منزله، لا يخور فيكم إلا كما يخور رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضي الله عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من الشهوة الخفية والشرك». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفرأ. أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يتس أن يعبد في جزيرة العرب. وأما الشهوة الخفية فقد عرفناها، هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرايتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل، أو يصوم لرجل، أو تصدق له، أترون أنه قد شرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يراني فقد أشرك، ومن صام يراني فقد أشرك، ومن تصدق يراني فقد أشرك» فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد الله إلى ما ابتغي به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، وأنا عنه غني».

طريق أخرى لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس، رضي الله عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية». قلت: يا رسول الله، أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «نعم»، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه». ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي به. وعبادة فيه ضعف وفي سماعه من شداد نظر.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كله». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه، ﷻ أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك». تفرد به من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبد الحميد - يعني ابن جعفر - أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمد بن بكر وهو البُرسانى، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِعَ سَمِعَ الله به، ومن رأى رأى الله به». وقال الإمام أحمد:

حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «من يراني يراني الله به، ومن يسمع يسمع الله به».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة؛ أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سَمِعَ الناس بعمله سَمِعَ الله به، سامع خلقه وصغره وحقره» قال: فذرفت عينا عبد الله. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله، ﷻ، يوم القيامة في صحف مختومة، فيقول الله: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي». ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصري ليس به بأس.

وقال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياء وسمعة، لم يزل في مقت الله حتى يجلس». وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عوف بن مالك، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه، ﷻ». وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكندي؛ أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَوْنَ﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَوْنَ﴾، كان له من نور، من عدن آيين إلى مكة حشوة الملائكة». غريب جداً.

آخر تفسير سورة الكهف

وله الحمد



تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية. وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَيْمَقَسَ ﴿١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِكَ مِن دَوْلَى وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرَبُّنِي ذَرِكْنِي مِن مَّالٍ يَتَّقُونَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا. وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾. و ﴿زَكَرِيَّا﴾ يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً، أي: كان يأكل من عمل يديه في النجارة. وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لثلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا﴾: إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف

بريه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفت وخارت القوى، ﴿وَأَسْتَعَلُّ الرَّأْسَ شَيْبًا﴾ أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دُرَيْدٍ في مقصورته:

إِنَّمَا تَرَنِّي رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طُورَةٌ صُنِجٌ تَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى
وَأَسْتَعَلُّ الْمُنْبِيضَ فِي مُسْوَدِّهِ بِمِثْلِ اسْتِعْمَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ النَّضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك. وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من «الْمَوَالِيَ» على أنه مفعول، وعن الكسائي أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ فِي السَّقَاعِ الْفَرْقُ أَيْدِي جَوَارٍ يَسْتَقَاطِبِينَ الْوَرْقُ
وقال الآخر:

فَتَى لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارِي لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا
ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تَغَايِرُ الشُّعْرُ فِيهِ إِذَا سَهَرَتْ لَهُ حَشَى ظَلَمْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَلُ

وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: أراد بالموالي العصبية. وقال أبو صالح: الكلالة. وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه كان يقرؤها: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ﴾ بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصباتي من بعدي. وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثته عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهذ شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ، ما تركنا فهو صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثَنِي﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشبهه ما صح في الحديث: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة». قال مجاهد في قوله: ﴿بِرِثِي وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب. وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿بِرِثِي وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: قد يكون نبياً كما كانت أباه أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، يرث نبوته وعلمه. وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿بِرِثِي وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثته، ويرحم الله لوطاً، إن كان ليأوي إلى ركن شديد». وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك - هو ابن فضالة - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثته ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثَنِي وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾». وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَجْمَلُ رَبِّيَرْضِيًّا﴾ أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَرْزُقْنَا إِنَّا نَبْتَرُكَ يُعَلِّمُ بَيْنَهُمْ كَمْ يَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ سَيِّئًا﴾.

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿يَرْزُقْنَا إِنَّا نَبْتَرُكَ يُعَلِّمُ بَيْنَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٨] فَدَادَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعَلِّمُ فِي الْعَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَنْبَرِكُ بِحَمْدِكَ مِنْ رَبِّكَ مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ [٣٩] قال عمران: ٣٨، ٣٩. وقوله: ﴿كَمْ يَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ

سَيِّئًا: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا﴾ أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿فَاعْتَدِهِمْ وَاسْتَخِرْ لِيُنذِرَهُمْ هَلْ تَعْلَمُ لَهُمْ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٦٥] أي: شبيهاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العوافر قبله مثله. وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿أَنْبَشْرُئُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّقَ الْكَبِيرَ فِيمَ تَنْبَشْرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿يَبُولِقْهُ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ أَلَا أُنصَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَّبْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ آلِيَيْبٍ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾﴾ [مرد: ٧٢، ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. تقول العرب للعود إذا يسس: ﴿عَتَا يَغْتُو عَتِيًّا وَعُتُوًّا، وَعَسَا يَغْسُو عَسُوًّا وَعَسِيًّا﴾. وقال مجاهد: ﴿عِتِيًّا﴾ بمعنى: نحول العظم. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِتِيًّا﴾ يعني: الكبر. والظاهر أنه أخص من الكبر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حُصَيْنٌ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو ﴿عَسِيًّا﴾. ورواه الإمام أحمد عن سُريج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم، به. ﴿قَالَ﴾ أي الملك محبباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيْنٌ﴾ أي: يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْسَالٍ سَوِيًّا ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَصِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً﴾ أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [الأنبياء: ٢٦٠]. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْسَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وهب بن منبه، والسدي وقاتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات. والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في أول آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكُرُكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالْمُتَشَبِّهِ وَالْإِنْجَارِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَصِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار. وبه قال وهب، وقاتادة. وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتب لهم في الأرض. كذا قال السدي.

﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ يَقْرُؤُ وَءَايَتُهُ لَكُمْ مَبِينًا ﴿١٣﴾ وَحَسْبَا مِّنْ لَّدُنَّا وَرَكُوعًا وَكَانَ تَبِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَبَّحًا بِرَأْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ جَنَازًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأخبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلماذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ يَقْرُؤُ﴾ أي: تعلم الكتاب ﴿يَقْرُؤُ﴾ أي:

بجد وحرص واجتهاد ﴿وَمَا آتَيْنَهُ لَكُمْ صَيْبًا﴾ أي: الفهم والعلم والجهد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السن. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت، قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ لَكُمْ صَيْبًا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُجم بها زكريا. وقال مجاهد: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾: وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾ قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾، قال: تعظيماً من لدنا. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا والله ما أدري ما حناناً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾، فقال: سألت عنها ابن عباس، فلم يحرف فيها شيئاً. والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَّاكَ يَنْ لُدْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ لَكُمْ صَيْبًا﴾ أي: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحننت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حنتاً» من الحنت، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر:

تَحْنُنْ عَلَيَّ مَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا
وفي المستند للإمام أحمد، عن أنس، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان». وقد يُثني، ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أَنَا مُنْذِرُ أَنْفِيَتٍ فَاسْتَبِقْ بَغْضًا
حَنَانِيكَ بَغْضِ الشَّرِّ أَنْهَوْتُ مِنْ بَغْضِ
وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَّاكَ﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب. وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح. وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَاةً قِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنب. وقوله: ﴿وَوَبَّرًا يَوَدُّهُ وَيَرَى كَيْفَ يَكْفُرُ بِآرَائِهِمْ﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبزبه بهما، ومجانبة عقوقهما، قولاً وفعلًا وأمرًا ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَوَدَّ يَكْفُرُ بِآرَائِهِمْ﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥) أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥). رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبي ﷺ: «ما من أحد يلقي الله يوم القيامة إلا إذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا». قال قتادة: ما أذنب ولا هم بامرأة، مرسل. وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا». ابن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فإله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو هم بخاطئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». وهذا أيضاً ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له الآخر: استغفر لي فأنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك، فُقرَفَ والله فضلها.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْمَ إِذْ أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ (١٦) فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حَبَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنَّيَأَعْرَضُ بِأَرْحَمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتُ نَبِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ نَبِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتِبًا (٢١) ﴿١٦﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته، ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا - عطف بذكر قصة

مريم في إيجاده ولدها عيسى، عليهما السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهنما وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في «آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذلك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا كُرْنُهَا أَلْمِحَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران». فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا﴾ أي: اعترلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس. قال السدي: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كذبة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرفياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله تعالى: ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرِيفًا﴾: شاسعاً متنجياً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقي من الماء. وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فالله أعلم. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليهم جبريل، عليه السلام، ﴿فَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد، والضحاك، وقاتة وابن جريج، وهب بن منبه، والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبريل، عليه السلام.

وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [١٣٦] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم، وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها. وهذا في غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلي. ﴿قَالَتْ إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ يَنْكَرُ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾ أي: لما تبدي لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد على نفسها، فقالت: ﴿إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ يَنْكَرُ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾ أي: إن كنت تخاف الله. تذكير له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، ﷻ. قال ابن جرير: حدثني أبو كزيب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل - وذكر قصة مريم - فقال: قد علمت أن التقى ذو نهيمة حين قالت: ﴿إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ يَنْكَرُ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها ومزياً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني رسول ربك، أي: بعثني إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً وعاد على هيئته وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [١٣٧] أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا بتصور مني الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغي: هي الزانية؛ ولهذا جاء في الحديث نهي عن مهر البغي. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيمٌ هَدِيدٌ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً سِنًا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ لَكَلِمَةٌ إِنَّهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي آدْنِيَا وَالْآخِرَةَ وَمِنَ الْمُتَرَبِّينَ ﴿٤٠﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمَكَلِيمِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة الله ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم - دُحَيْمٌ - حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم: عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبَّح في بطني وكبَّر.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خير الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَسَمَّيْنَا ابْنَتَ عِمْرَانَ آيَةَ أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَنْفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [الرحيم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَنْفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ أي: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَّا جَنَاحَ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى. فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعاً به، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفضت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتقتها، وقالت: أشعرت يا مريم أنني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أنني حبلى؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في جوفها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، عليه السلام، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك، رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَلِ مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَّا جَنَاحَ النَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَلَقَةً ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَتَزَلَّ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَصَبَّحُ الْأَرْضِ تُخْضِرُهُ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]. فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها وزهايتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، «وهل خلق يكون من غير أب؟»، فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلم لها حالها. ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالرية، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لثلاث تراهم ولا يروها. قال محمد بن

إسحاق: فلما حملت به وملاّت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فطّر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: «إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجبا، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِنَّكِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَخَلَّيْهِ﴾ أي: فاضطرها والبجاءها الطلق إلى جذع النخلة. وهي نخلة في المكان الذي تنحت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس. وقال وهب بن منبّه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق. وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقال لها: «بيت لحم». قلت: وقد تقدم في حديث الإسراء، من رواية النسائي عن أنس، رضي الله عنه، والبيهقي عن شدّاد بن أوس، رضي الله عنه: أن ذلك ببيت لحم. فإله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس. وقد ورد به الحديث إن صح. وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي بَيْتٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾، فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتنح بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خيرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي بَيْتٌ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئا. قاله ابن عباس. وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل - استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بغل ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ نسي فترك طلبه، كخزق الحيض التي إذا ألقيت وطرحتم لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي. وقال قتادة: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ أي: شيئا لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدري من أنا. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ وهو السقط. وقال ابن زيد: لم أكن شيئا قط. وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَحَقِّقْ بِالْعَمَلِ وَالْجَنَّةِ﴾ يوسف: ١٠١.

﴿فَأَدْنَاهَا مِنْ نَحْمِيٍّ آلَا تَحْزَنِي قَدْ جَمَلَ رَبُّكِ تَحَمُّكَ سَرِيًّا﴾ ٢٤ ﴿وَهَوَّيْتُ إِلَيْكَ يُجْنِعُ النَّخْلَةَ لِنُسُقِظَ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا﴾ ٢٥ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ٢٦.

قرأ بعضهم: ﴿مِنْ نَحْمِيًّا﴾ بمعنى: الذي تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِنْ نَحْمِيًّا﴾ على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَأَدْنَاهَا مِنْ نَحْمِيًّا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقاتدة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: ﴿فَأَدْنَاهَا مِنْ نَحْمِيًّا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى الروایتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿آلَا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداها قائلًا: لا تحزني، ﴿قَدْ جَمَلَ رَبُّكِ تَحَمُّكَ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَمَلَ رَبُّكِ تَحَمُّكَ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السري: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه. وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية. وقال سعيد بن جبير: السري: النهر الصغير بالنبطية. وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال وهب بن منبّه: السري: هو ربيع الماء. وقال السدي: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الخزازي: حدثنا يحيى بن عبد الله البابلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَمَلَ رَبُّكِ تَحَمُّكَ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه الله لتشرب منه». وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

وقال آخرون: المراد بالسري: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر. وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَهَوَّيْتُ إِلَيْكَ يُجْنِعُ النَّخْلَةَ﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مشمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثوري، عن أبي داود نفع الأعمى: كانت صرقانة. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿سُنُقِظَ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا﴾ فكلّي واشربي وقري عينا، أي: طيبي

نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عروة بن زؤم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلْفَح غيرها». وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران». هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به.

وقرأ بعضهم قوله: «سَنَقَطُ» بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نهبك: «سَنَقَطُ عَلَيْكَ رُطْبًا حَبِيئًا»، وروى أبو إسحاق عن البراء، أنه قرأها: «سَنَقَطُ» أي: الجذع، والكل متقارب. وقوله: «فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أي: مهما رأيت من أحد، «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لأن المراد به القول اللفظي، لثلاثين يانفي: «فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا». قال أنس بن مالك في قوله: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا» أي: صمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفي رواية عن أنس: «صوما وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كَلِمَ النَّاسِ وَسَلِمَ عَلَيْهِمْ، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم، عليها السلام، - ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: «الْأَحْرَبِي»، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟! لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: «فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

«فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ فَأَلَوْا يَمْزِمُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» (٢٧) يَتَأَخَّتْ هُنُورٌ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَيْتًا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْهَيْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّانِي الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مَرَاكَاةً أَنْ مَأْكُتُ وَالرَّؤْسِي بِالصَّلَاةِ وَالرَّكُوعِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣).

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله ﷻ، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها «فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ»، فلما رآها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: «يَمْزِمُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي، وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا منها شيئاً، فرأوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعتها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها سجدتاً نحو هذا الوادي. قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيّار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاءوا حتى قاموا عليها، «فَأَلَوْا يَمْزِمُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» أمراً عظيماً. «يَتَأَخَّتْ هُنُورٌ» أي: يا شبيهة هارون في العبادة «مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَيْتًا» أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة، والسدي: قيل لها: «يَتَأَخَّتْ هُنُورٌ» أي: أخي موسى، وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر. وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم، يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة. وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم. حدثنا علي بن الحسين الهسجاني، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا المفضل بن فضالة، حدثنا أبو صخر، عن القُرظي في قول الله ﷻ: «يَتَأَخَّتْ هُنُورٌ»، قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى، «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» [القصص: ١١]. وهذا القول خطأ محض؛ فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قَتَمَ بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعناً وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا ثبت في الصحيح عند البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه ليس بيني وبينه نبي» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب

القرظي، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. وكان قبل سليمان وداود؛ فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدَدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتَ لَا تَأْتِيكُ فِي سَبِيلِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، والذي جراً القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بني إسرائيل. فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى. وهي هفوة وغلطة شديدة، بل هي باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره عن سماك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: رأيت ما تقرأون: ﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَسْمَوْنَ بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». انفراد بإخراجه مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك، به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْبَةَ، عن سعيد بن أبي صدقة، عن محمد بن سيرين قال: بُنِيَ أن كعباً قال: إن قوله: ﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ﴾ ليس بهارون أخي موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت. وفي هذا التاريخ نظر. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقَالُوا متهمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾ قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيًّا! . وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسَخَرْتُمَا بِنَا حِينَ تَأْمُرْنَا أَنْ نَكَلِمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاها. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. قال نوف الكالبي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فترج الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البناني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿ءَأَتْنِي الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. يحيى بن سعيد العطار الحمصي: متروك.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير. وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً. وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن حُنَيْسٍ المخزومي، سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَأَعِذْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتنا لأهل القدر. وقوله: ﴿وَبِعَبْرَةِ بُولَاقٍ﴾ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله

تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَصِّنْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَإِلَّا تَزِلَّيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ١٧٣]، وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى النَّصِيرِ﴾ [القسمان: ١١٤]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يقبل على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [٣٣]، قال: ولا تجد سيء المملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ أَلَّهَ لَا يُحِثُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويرى الأكمة والأبرص، في آيات سلطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام الله، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿وَأَسَلْتُمْ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُهْبِتُ حَيًّا﴾ [٣٤]: إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيى، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٣٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وِلْدَانٍ سِجِّينَ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ بَيْنَ بَنِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكِي يَوْمِ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصنا عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبتطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْكُفَّارِينَ﴾ [١٦] [آل عمران: ٦٠]. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وِلْدَانٍ سِجِّينَ﴾ أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمُر به، فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩] [الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْكُفَّارِينَ﴾ [١٦] [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [٣٦] أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جنتكم به عن الله صراط مستقيم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضلّ وغوى. وقوله: ﴿فَأَخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ بَيْنَ بَنِيهِمْ﴾ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصمّمت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنيّة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين. وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٣٦]، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء - وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه. قال: هو ابن الله - وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنتين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله - وهم الإسرائيلية ملوك النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فظهِرَ على المسلمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَلْبِذُوا بِالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَأَخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ بَيْنَ بَنِيهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً.

وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلَفوا في عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافاً متبايناً، فقالت كل شُرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع

على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصموا عليه، ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، قدمهم ونصرهم وطردهم من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدءاً كثيرة، وخرّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبتت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا، بل رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله، وافتري، وزعم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يجعل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [مرد: ١٠٢]. وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيتهم». وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَايْنِ بْنِ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَلِيَّ الْقَبْرِ﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيْلًا عَمَّا يَفْعَلُ الْقَلِيْلُوْنَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَكَ لِنِكِ الْفَلَقِيْلُوْنَ الْيَوْمَ فِي ضَلَكِ تَمِيْنٍ﴾ [٧٨] وَأَيُّذُرُهُمْ يَوْمَ لَمَسْرَةَ إِذْ فُئِي الْقَمْرُ وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ﴿٧٩﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا بِرُحُومِنَا﴾ [٨٠].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة أنهم أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُوْنَ نَاكِسُوْا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْتَعِبْنَا نَعْمَلْ صَليْحًا إِنَّا مُوقِنُوْنَ﴾ [السجدة: ١٧] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ﴾ ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَكَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لِنِكِ الْفَلَقِيْلُوْنَ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَكِ تَمِيْنٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَأَيُّذُرُهُمْ يَوْمَ لَمَسْرَةَ﴾ أي: انذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ فُئِي الْقَمْرُ﴾ أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَمَنْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾ أي: لا يصدقونه.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَيُّذُرُهُمْ يَوْمَ لَمَسْرَةَ إِذْ فُئِي الْقَمْرُ وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا». هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، من حديث الأعمش، به. ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفي سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحوه. وهو في الصحيحين عن ابن عمر. ورواه ابن جرير قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون. وقال سفیان الثوري، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة. فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعد الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتكم صالحاً، كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة. فتأخذهم الحسرة. قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال: لولا أن من الله عليكم... .

وقال السدي، عن زياد، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَيُّذُرُهُمْ يَوْمَ لَمَسْرَةَ إِذْ فُئِي الْقَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت في صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة،

هذا الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبدأ الأبدية، ويا أهل النار، هو الخلود أبدأ الأبدية، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْنَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يذمى ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة. قال ابن أبي حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسي: حدثنا حزم بن أبي حزم القطعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَاحِبًا نَبِيًّا﴾ [١١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٥﴾ .

يقول تعالى لنبينا محمد ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم وإله على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو كان صديقاً نبياً مع أبيه - كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينعفك ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنني أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهروب. ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْمَدْ لَكُمْ بَنِيَّ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا نَرِيدُهُ﴾ [النساء: ١١٧]. وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما أمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصر ولا مغنياً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتبعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ غَافِلٌ مِّنْهُ لِيَمَسَّ الْكُفُورَ أَهْلَهُمْ فَهُوَ وَرَثَتُهُمْ يَوْمَ ذُكُرْتُمْ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْبَثْتَ مِنْهَا﴾ [١٦] قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ مِنْ حَفِيًّا ﴿١٧﴾ وَأَعْرَضَ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَ آكُونَ بِدَعْوَةِ رَبِّي سَوِيًّا ﴿١٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت عن سبها وشتمها وعيها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمت وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدي، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَأَهْبَثْتَ مِنْهَا﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن إسحاق: يعني دهرأ. وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: ﴿وَأَهْبَثْتَ مِنْهَا﴾: قال: أبدأ. وقال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿وَأَهْبَثْتَ مِنْهَا﴾: قال: سويماً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقناة وعطية الجدلي وأبو مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير. فغندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلِذَا حَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلِذَا سَأَلُواكَ الْكُفُورَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَكُنْكُمْ أَعْمَلُنَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا بُنْيَىٰ لِلْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: ولكن سأسال الله تعالى فيك أن

يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَيْرَاتٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَيْرَاتٍ﴾ قال: وعوّذه الإجابة. وقال السدي: «الحفي»: الذي يهْتَمُّ بأمره. وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلبيهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِنَا وَبَيْنًا مِّنْ بَيْنِنَا وَاللَّعَنَةُ عَلَى الْكُفْرَاءِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [المنحنة: ٤٤]، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أفلح عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاتُكَ لِمَنِ اتَّبَعْتُمْ أَفَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن مَنَعْنَا رَبِّي أَيُّهَا الْعَالَمِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. وقوله: ﴿وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِذْ تَعَرَّكَا مِنَ الْكُفْرَانِ﴾ أي: أجتنبكم واتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ آلَ أَكْرَهٍ يَدْعُوهُ رَبِّي حَقًّا﴾، و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا اعْتَرَفْتُمُوهُمْ وَآبَىٰ إِلَى اللَّهِ وَهُنَا لَهُوَ الْإِسْحَاقُ يَعْقُوبُ وَكَانَ جَمَلًا نَبِيًّا﴾ [٤٩] وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٠﴾. يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ [مريم: ٥١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِقَوْلِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَلَّامًا نَبِيًّا﴾، فلولا لم يكن يعقوب قد نبىء في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله، ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله». وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ [٥٠]: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الشئ الحسن. وكذا قال السدي، ومالك بن أنس. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيمًا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانَ مُخْلِصًا كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [٥١] وَتَدْبِيرُهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكريم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانَ مُخْلِصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. قال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ آبَائِكَ عَلَىٰ الْوَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، جمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وصلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَتَدْبِيرُهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب بيتغي من تلك النار جذوة، وأها تلوح فقصدتها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، عند شاطئ الوادي. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه وناجاه. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى - هو القطان - حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أذني حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: نجوا بصدقه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبي الوصل، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة

تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمِنَا أَنْهَ هَؤُلَاءِ نِيَّاتًا ۖ﴾ أي: وأجينا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخَى هَارُونَ هُوَ أَصْحَبُ مِنْهُ لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا فِي رِجْلَيْهِ إِذْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبَوكَ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ لَنَا هَارُونَ ۖ وَلَمْ عَلَ ذَنْبٌ فَآخَافُ أَنْ يُقْتَلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمِنَا أَنْهَ هَؤُلَاءِ نِيَّاتًا ۖ﴾. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْتَةَ، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمِنَا أَنْهَ هَؤُلَاءِ نِيَّاتًا ۖ﴾، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته. وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي، به.

﴿وَأَذِّنْ فِي الْكِتَابِ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّا كَانُوا صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۗ﴾ [٥٤] ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۗ﴾ [٥٥].

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني: ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاهما حقها. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبي، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسي الرجل، فظل به إسماعيل ويات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني. فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه. وقال ابن شوذب: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً. وقد روى أبو داود في سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طهمان، عن عبد الله بن ميسرة، عن عبد الكريم - يعني: ابن عبد الله بن شقيق - عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علي بقية، فوعده أن آتبه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: «يا فتى، لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك» لفظ الخرائطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك. ورواه ابن منده أبو عبد الله في كتاب «معرفة الصحابة» بإسناده عن إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به. وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَدِيرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق في ذلك. فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] [٢] [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضعدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدي فوفى لي». ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عذة أو دين فليأتني أنجز له، فجاءه جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لوجاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعني: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعبده، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ﴾: في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۗ﴾ [٥٥]: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا عَنْ رِزْقِكَ وَالْمَرْيَمُ لِلْقَوِيِّ ۗ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْلُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ﴾ [الآية: التحريم: ٦] أي: مروهم بالمعروف، وانهموم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نصح

على وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبي نضحت في وجهه الماء» أخرجه أبو داود، وابن ماجه. وعن أبي سعيد، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

وهذا ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سألت ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله - ﷻ - لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً، فاتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلم لي ملك الموت، فليؤخرني حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قول الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾. هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيلية، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحوه ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله - يعني: ملك الموت - كم بقي من أجلي لكي أزداد من العمل؟ وذكر باقيه، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدريس، فإذا هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به. ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يفرغ إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسى حين يمسى، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: إدريس رفع ولم يموت، كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: رفع إلى السماء الرابعة. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال الحسن، وغيره، في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالَّذِي عَنِى بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِي عَنِى بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ: إِسْحَاقَ وَلِلَّذِي فَزَقْنَا أَنْسَابَهُمْ، وَإِنْ كَانَ يَجْمَعُ جَمِيعَهُمْ آدَمُ؛ لِأَنَّ فِيهِمْ مِنْ لَيْسَ مِنْ وَلَدٍ مِنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَهُوَ إِدْرِيسُ، فَإِنَّهُ جَدُّ نُوحٍ. قُلْتُ: هَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ أَنَّ إِدْرِيسَ فِي عَمُودِ نَسَبِ نُوحٍ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَخْذًا مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، حَيْثُ قَالَ فِي سَلَامِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ»، وَلَمْ يَقُلْ: «وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ»، كَمَا قَالَ آدَمُ وَإِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي ابْنُ لَهَيْعَةَ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ إِدْرِيسَ أَقْدَمَ مِنْ نُوحٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَمْرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَيَعْمَلُوا مَا شَاؤُوا فَأَبَوْا، فَأَلْهَكَهُمُ اللَّهُ ﷻ.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية. قال السدي وابن جرير، رحمه الله: فالذي عني به من ذرية آدم: إدريس، والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عني به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عني به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح. قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»، ولم يقل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله ﷻ.

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ

وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثَمِيمًا وَكُفُلًا فَضَلَّنا عَلَ الْمَلَكِينِ ﴿٥٩﴾ وَمِنَ آباءِهِمْ دُؤَبَينَ وَيَحْيَىٰ نَبِيًّا وَأَمْرًا إِلَىٰ آلِهِمَّ بِمَكَّةَ مُقِيمًا وَالْحَبَشَةَ وَأَصْحَابَ الْأُحُدِيِّنَ ﴿٦٠﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وقال تعالى: ﴿يَنْهَاهُمْ مِّنْ قَصَصِنَا عَلَيْكَ وَيَنْهَاهُمْ مِّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهْدِهِمْ آقَدُوهُ أَقَدُوهُ﴾، فنبئكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قال: وهو منهم، يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْكَ مَائِدَتَكَ الرِّجْزِينَ حَرُورًا سَجْدًا وَنَبِيًّا﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجْجِه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهيم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والنبِّي: جمع باك، فهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسقط من روايته ذكر «أبي معمر» فيما رأيت، والله أعلم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْلُغُونَ سَنًا ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدبين فرائض الله، التاركين لزوجره- ذكر أنه ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ﴾ أي: قرون آخر، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾- وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد- وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غياً، أي: خساراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكليّة، قاله محمد بن كعب القرظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٥٩﴾﴾ و﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ ذَاهِبُونَ﴾ و﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ يَخْلَوْنَ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك الكفر. وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهم عن وقتهن. وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وكذا روى ابن جرير، عن مجاهد، مثله. وروى جابر الجعفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون في آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ﴾، قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحمير في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتباعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً». ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو ترائيقهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به. وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، عن مالك، عن أبي الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الضقة، وتقول: لا تعطوا منه بربرياً ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾». هذا حديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحك، حدثنا الوليد، حدثنا حريز، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع

محمد بن كعب القرظي يقول في قوله: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب، يملكون وهم شر من ملك.
وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷺ: شرايين للقهوات تراكين للصلوات، لعابيين بالكعبات، رقادين عن العتبات، مفترطين في الغدوات، تراكين للجمعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾. وقال أبو الأشهب العطاردي: أوحى الله - تعالى - إلى داود: يا داود، حَذَّرْ وَأَنْذِرْ أَصْحَابِكَ كُلَّ الشُّهُورِ؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته علي أن أحرمه طاعتي. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو السمح التميمي، عن أبي قبيل، أنه سمع عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف على أمتي اثنتين: القرآن واللبن، أما اللبن فيتبعون الرِّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين». ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبه، به مرفوعاً بنحوه تفرد به. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ أي: خساراً. وقال قتادة: شراً. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ قال: واد في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عبيد بن جراح: حدثنا محمد بن زياد بن زيان، حدثنا شريقي بن قطامي، عن لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أمامة صُدِّي بن عجلان الباهلي فقلت: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من سفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غي وآثام». قال: قلت: وما غي وآثام؟ قال: «بئران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان ذكر الله في كتابه: ﴿أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ وقوله في «الفرقان»: ﴿وَلَا يَزُورُكَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. هذا حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلْمَعُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»؛ ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرأً وترك نسياً، وذهب مجاناً، من كرم الكريم، وحلم الحليم. وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٧٨) يُصْعَقُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُحَدِّثُ فِيهِ مَهْمًا (٧٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٨٠) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالتَّوْبَةِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (١١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَأَلًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا لَبَّاءٌ وَعَشِيًّا (١٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (١٣).

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيمانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبده، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أي: كأننا لا محالة. وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه. ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًا﴾ بمعنى: آتياً؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيت، كما تقول العرب: أتت عليّ خسوس سنة، وأتيت عليّ خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَأَلًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَأَلًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (١٦) [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا رَبُّهُمْ فِيهَا لَبَّاءٌ وَعَشِيًّا﴾ أي: في مثل وقت البُكرات ووقت العشيات، لأن هناك ليلاً أو نهراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورههم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مَنُحُ

ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباعض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا. أخرجه في الصحيحين، من حديث معمر به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بياب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا» تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ويفتح الأبواب. وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن حُلَيْد، عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة، فقال: «أبواب يرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتَهْتَمُّهُمْ انْفَتْحِي انْغَلَقِي، فتفضل. وقال قتادة في قوله: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا»: فيها ساعتان: بكرة وعشي: ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد ليس فيها بكرة ولا عشي، ولكن يُؤْتُونَ به على ما كانوا يشتبهون في الدنيا. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: كانت العرب، الأتعم فيهم، من يتغذى ويتعشى، ونزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم، فقال تعالى: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا». وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شمشاط، عن عبد الله بن جرير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التي خلقت من الزعفران». قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

وقوله تعالى: «بَلَّغْ أَمْرَهُ الَّذِي بُرِّئَ مِنْ عِبَادَتَا مَنْ كَانَ قَبْلَ» أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله - ﷻ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنین: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خِشْيُونَ ﴿٢﴾» إلى أن قال: «أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيضُونَ الرَّبَّ وَيَرْضَوْنَ ﴿١١﴾» [المؤمنون: ١-١١].

«وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا ﴿١٦﴾ رَبُّكَ سَيِّئًا ﴿١٧﴾»

قال الإمام أحمد: حدثنا يعلَى ووكيع قالوا: حدثنا عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴿١٦﴾» إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم، عن عمر بن ذر، به. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر، به. وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ. وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأثاه جبريل وقال: يا محمد، «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا ﴿١٦﴾». وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون قَلْبِي، فلما جاءه قال: يا جبريل، لقد رثت علي، حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا ﴿١٦﴾» قال: وهذه الآية كالتي في «الضحى». وكذلك قال الضحاك بن مزاحم، وقاتدة، والسدي، وغير واحد: إنها نزلت في احتباس جبريل. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النزول على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: «ما نزلت حتى اشتقت إليك». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكن مأمور، فأوجي إلى جبريل أن قل له: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴿١٦﴾» الآية. رواه ابن أبي حاتم، رحمه الله، وهو غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف أتيتكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنْفِثون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴿١٦﴾» إلى آخر الآية. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النهدي، حدثنا محمد بن إبراهيم السوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ أن جبريل أبطأ

عليه، فذكر ذلك له، فقال: وكيف أنتم لا تستنون، ولا تقلّمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تئفنون رواجبكم. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب - ختن مالك بن دينار - حدثني شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أصليح لنا المجلس، فإنه ينزل ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط».

وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلقنا: أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَرَكْ ذَلِكَ﴾: ما بين النفتخين. هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، في رواية عنهما، والسدي، والربيع بن أنس. وقيل: ﴿مَا بَرَكْ أَيْدِينَا﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَرَكْ ذَلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة. يروي نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا﴾: قال مجاهد والسُّدِّيُّ: معناه: ما نسيك ربك. وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقولته: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا قَالَ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان - يعني أبا الجماهر - حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيِّئًا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شهياً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، وابن جريج وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا ۝١١﴾ أَوْلاً يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ سَيِّئًا ۝١٢﴾ فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝١٣﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝١٤﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَكْبَرُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوَدَا مَا يَظُنُّ كَاذِبِينَ ۝١٥﴾ وقال: [الرعد: ١٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝١٧﴾ وَصَرَّبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ مَنَعِي الْعِظَامَ وَهِيَ رِييَمٌ ۝١٨﴾ قُلْ جِئِبَا آلِيَّتِ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ يَكْفُلُ خَلْقَ عَلِيْمٌ ۝١٩﴾ [يس: ١٧-١٧]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا ۝١١﴾ أَوْلاً يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ سَيِّئًا ۝١٢﴾ يستدل، تعالى، بالبداية على الإعادة، يعني أنه، تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقولته: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقولته: إن لي ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

وقوله: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أَسْمَسَ الرَّبِّ، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني: قعوداً، كقولته: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جِثِيًّا﴾ [الجناب: ٢٧٨]. وقال السدي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: يعني قياماً، وروى عن مرة، عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾. قال الثوري، عن علي بن الأقرم، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: يجس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝١٤﴾. وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝١٤﴾ قال: ثم لنزاعن من أهل كل دين قادتهم رؤساءهم في الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقولته تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّنَا أَخْبَأَتْ حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جِيمًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لَأُوَلِّنَهُمْ رِبًّا هَنُوءًا أَسْأَلُونَ قَاتِلَهُمْ عَذَابًا يَضَعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَّا تَكْتُمُونَ ۝٢٥﴾ وَقَالَتْ أُوَلِّنَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُرِّ عَلَيْنَا مِن فَضْلِي فَذَرُّوا الْمَذَابَ يَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٢٦﴾ [الاعراف: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَكْبَرُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوَدَا مَا يَظُنُّ كَاذِبِينَ ۝١٥﴾: «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿لَمَنْتُ أَخْبَأَتْ حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جِيمًا قَالَتْ

أَخْرَجَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَسْأَلُونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَمْتَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدَّ الْأَطْلِيلُ مِن مَّيْمَانِهِمْ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسانِي، عن أبي سُمَيْة قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الورد، فقال: يردونها جميعاً. وقال سليمان مرةً خلونها جميعاً - وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: ضُمتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً». غريب ولم يخرجوه. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن أبي مروان، عن خالد بن معدان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورد على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خادمة. وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن زُوَاحَة واضعاً رأسه في حنجر امرأته، فبكت، فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾، فلا أدري أنجو منها أم لا؟، وفي رواية: وكان مريضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق: كان أبو مسيرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني ثم يبكي، فقيل: ما يبكيك يا أبا مسيرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردة، ولم نُخْبِر أنا صادرون عنها. وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك واردة النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ قال: فما زُني ضاحكاً حتى لحق بالله. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورد: الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَسْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الْكُنَّارُ﴾ [مرد: ٩٨]: أورد هو أم لا؟ أما أنا وأنت فستدخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرج منها بتكديك، فضحك نافع. وروى ابن جرير، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري - وهو نافع بن الأزرق -: ﴿لَا تَسْمَعُونَ حَيْسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك! أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الْكُنَّارُ﴾ [مرد: ٩٨]، ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَارِدًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فاتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، رأيت قول الله: ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل تصدر عنها أم لا. وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائب، عن سمع ابن عباس يقرؤها كذلك: ﴿وإن منهم إلا واردة﴾ يعني: الكفار. وهكذا روى عمرو بن الوليد الشُّنِّي، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: ﴿وإن منهم إلا واردة﴾، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ يعني: البر الفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الْكُنَّارُ وَيَسْأَلُ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَارِدًا﴾ ﴿٨٦﴾، فسمى الورد في النار دخولاً، وليس بصادر. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾: قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي به. ورواه من طريق شعبة، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً.

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضعي إبهامي قدميه، يمر يتكفاً به الصراط، والصراط دَخُضٌ مَزَلَةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسَكِ الْقَتَادِ، حافته ملائكة، معهم كلاب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله: قوله: ﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا

وَأَرَادَهَا قَالَ: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضي الله عنهم. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة عن الجُريري، عن أبي السليل، عن عُثَيْم بن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس كأنها مثن إهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن أمسكي أصحابك، ودعي أصحابي. قال: فتخسف بكل ولي لها، ولهي أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكب الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين، يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمئة ألف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مَبَشَّر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ «إني لأرجو ألا يدخل النار - إن شاء الله - أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾؟ قالت: فسمعت يقول: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرْنَا الْقُلُوبَ فِيهَا حِينًا﴾. وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وفي الصحيحين، من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تحلَّه القسم». وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلَّه القسم» يعني الورد. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زَمْعَةُ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، تمسه النار إلا تحلَّه القسم». قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾. ﴿كَانَ عَلَى رَيْكٍ حَتَّىٰ مَقْضِيًّا﴾ (٧١).

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعمود رجلًا من أصحابه وعكًا، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن؛ لتكون حظه من النار في الآخرة» غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه. وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يخطمها عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة». فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب». وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية في سبيل الله، كُتِبَ يوم القيامة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجرة سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلَّه القسم، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾. وإن الذكر في سبيل الله يُضَعَّفُ فوق النفقة بسبعمئة ضعف». وفي رواية: «بسبعمئة ألف ضعف». وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب كلاهما عن زبّان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف». وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾ قال: هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا أَبَدًا﴾ قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزَّلَوْن والزلات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطَان من الملائكة، دعاؤهم: يا الله سلم سلم». وقال السدي، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكٍ حَتَّىٰ مَقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً. وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: إذا مرَّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين بحسب أعمالهم. فجازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهي مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً

من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله» وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَّ تَسْبِيَّ الَّذِينَ أَقْفَوْا وَقَدْ نَزَّلَ الْفَلِيلُ وَإِنَّمَا جُنْدًا﴾ .

﴿وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَهْلَانَا قَبْلَهُمْ بَيْنَ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَهْلَانَا وَرَبِّهَا ﴿٧٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا﴾ أي: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندباً، وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أجمع وأكثروا وبارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْكَ﴾ [الاحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَأَتَجَمَّعُ الْأَزْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتْلَىٰ أَهُلْوَالَاءَ مَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَّرَّ أَهْلَانَا قَبْلَهُمْ بَيْنَ قَرِينٍ﴾ أي: وكمن من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكتناهم بكفرهم، ﴿هُم أَحْسَنُ أَهْلَانَا وَرَبِّهَا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمنعة ومناظر وأشكالاً. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا﴾ قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرائي: المنظر. وقال العوفي، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندي: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكتهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ وَزُجُجٍ وَمَقَابِرٍ كَرِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال الله فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَأَتَاكَ فِي كَادِيكُمُ النَّكَرُ﴾ [التكوير: ٢٩]، والعرب تسمي المجلس: النادي. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قسافة، تعرّض أهل الشرك بما تسمعون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئي: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري: يعني الصور. وكذا قال مالك: ﴿أَهْلَانَا وَرَبِّهَا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَبْذُذْهُ الرِّجْمُ مَدًّا حَرًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّا الْكَذَّابُ وَإِنَّا السَّاعَةَ فَنَسْعَلُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَقَامًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ .
يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَبْذُذْهُ الرِّجْمُ مَدًّا حَرًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿إِنَّا الْكَذَّابُ﴾ يصيبه، ﴿وَرَأَى السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَنَسْعَلُونَ﴾ حينئذ من هو شرٌّ مَقَامًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَبْذُذْهُ الرِّجْمُ مَدًّا حَرًّا﴾: فليدعه الله في طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن رَضِمْتُمْ أَنْكُمُ أَوْلِيَاكُمْ يَلِيهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الجمعة: ٦١] أي: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، والله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة «آل عمران» حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ مَا تَأْتَاؤُنَّ مِنْ آيَاتِنَا كَمَا وَهَّاءْنَا وَهَّاءْنَا وَهَّاءْنَا وَأَنْفُسِكُمْ كُنْتُمْ نَسِيتُمْ فَمَنْجَعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَرَبِّهِ اللَّهُ الَّذِي هَدَىٰ الْفَرِيقَيْنِ وَاللَّذِينَ هَدَىٰ وَالَّذِينَ ضَلَّوْا هَدَىٰ اللَّهُ فَرِيقًا لِيُحْجِجَهُمْ وَيَعْلَمَ مَا هُمْ عَلَيْهِ﴾ .

لما ذكر الله تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَنْهَرُ مَنْ يَرْجُو إِلَيْكُمْ زَادَتْهُ هُدًى لِيُحْجِجَهُمْ وَأَنْفُسِكُمْ كُنْتُمْ نَسِيتُمْ فَمَنْجَعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] .

قُلُوبِهِمْ مَرْمَضٌ فَزَادْتَهُمْ رِيْجًا إِلَىٰ رِيْجِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله: ﴿وَالْيَقِيْنَتِ الصَّٰلِحِيْنَ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ذُنُوبًا﴾ أي: جزاء ﴿وَيَسِّرْ مَرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومردًا على صاحبها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ بيذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فحطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء، إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللن الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رأني الجاهل حسب أني مجنون. وهذا ظاهره أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سنن ابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن عمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٩﴾ كَلَّا سَكَتَ مَا يَقُولُ وَوَدَّ لَوْ كَانَ الْعَذَابُ مَدًّا ﴿٨٠﴾ وَرَزَقْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨١﴾﴾

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأنيتہ انتقاضه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جنتي ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت انتقاضه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة، فكننت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لانتقاضه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وقال العوفي عن ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي يدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كان الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل. وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الْحَمْدُ لُلهِ الْعَزِيزِ فَزْدَا لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدِ شَيْءٍ وُلْدًا
وقال الحارث بن حلزة:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَمَاشِرًا قَدْ تَمَمَرُوا مَالًا وَّوَلْدًا
وقال الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وُلْدَ جِمَارٍ
وقيل: إن «الوُلْد» بالضم جمع، و«الوُلْد» بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل، ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ يعني: يوم القيامة، أي: أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري: أنه الموثق. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف رذع لما قبلها، وتأکید لما بعدها، ﴿سَكَتَ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَوَدَّ لَوْ كَانَ الْعَذَابُ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَرَزَقْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في

الآخرة يُسَلَّب مِنَ الذي كان له في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: نثره. وقال مجاهد: ﴿وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ﴾ ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَلِدْ﴾ وفي حرف ابن مسعود: ﴿ونثره ما عنده﴾ وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا مال له، ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَأَقْبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْتُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَجْعَلْ عَلَيْهِمْ إِيمَانًا تَمُدُّ لَهُمْ عَدَا﴾ (٨٤)

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طعموا، فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ يَكْفُورُ مِنْ لَدُنْ اللَّهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَسْتَجِيبْ لَهُ إِذْ يَدْعُوهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا خَيرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِبِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) ﴿[الاحقاف: ٦٠، ٥]. وقرأ أبو نهيك: ﴿كَلَّ سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾ وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما زجروا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعواناً. قال مجاهد: عوناً عليهم، تُحَاصِمُهُمْ وتُكَدِّبُهُمْ. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء. وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض. وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء. وقال ابن زيد: الضد: البلاء. وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْتُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواء. وقال العوفي عنه: تعرضهم على محمد وأصحابه. وقال مجاهد: تُشْلِيهِمْ إشلاء. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً. وقال السدي: تطغيهم طغياناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقِضْ لَمْ يَشِطَلْنَا فَهُوَ لَمْ يَرَيْنَ﴾ (٦٦) ﴿[الزخرف: ٣٦]. وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلْ عَلَيْهِمْ إِيمَانًا تَمُدُّ لَهُمْ عَدَا﴾ (٨٤) أي: لا تجعل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا تَمُدُّ لَهُمْ عَدَا﴾ أي: إنما تؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا أَفْعَلُوا﴾ (٦٧) ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيُوزِنَ قَسْطَ فِيهِ الْأَنْفُسِ﴾ (٦٧) ﴿[إبراهيم: ٤٢]، ﴿تَهْوِيلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُؤِيًا﴾ (٦٧) ﴿[الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَذَادُوا إِيمَانًا﴾ (٦٧) ﴿[آل عمران: ١٧٨]، ﴿تَمَتُّهُمْ قِيلًا تَمْ نَضَّرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ حَلِيمٍ﴾ (٦٨) ﴿[لقمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَتُّوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. قال السدي: ﴿إِنَّمَا تَمُدُّ لَهُمْ عَدَا﴾ السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا تَمُدُّ لَهُمْ عَدَا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) ﴿وَنُحِشُّ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا﴾ (٨٦) ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٨٧) ﴿[الزمر: ٢١]. وقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) أي: يوم نحشُرهم إلى الله وفداً، وهم القادمون ركبياً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار، ﴿وَرِذًا﴾ عطاشاً، قاله عطاء، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: أئى أئىهقين خير مقاماً وأحسن نوباً [مريم: ٧٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رأها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عمك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبك في الدنيا، فهلم اركبني. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: ركبياً. وقال ابن جرير: حدثني ابن المنثى، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: على الإبل. وقال ابن جرير: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سُؤيد بن سعيد، أخبرنا علي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علي، رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقي مثله. وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو: يؤتون - بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شُرُك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فينتهون أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث فيهما فيفتح له، فإذا رآه خَرَّ له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه، ثم تقول: أنت جيتي، وأنا حيتك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن، فيدخل بيتاً من أمته إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبته. وفي البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتها تتردد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صافٍ لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلي الثمار، فإن شاء أكل قانماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَوْدَانُهَا نَدِيًّا﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهي الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أي الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿وَبَلَكَ لَكِنَّةٌ أَلَيْحٍ أُرْوِيَتْهُمَا بِمَا كَتَبَتْ تَمَلُّوكَ﴾ [الزخرف: ١٧]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد في نور». هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه في المقدمات من كلام علي، رضي الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ الْمُرْسَلِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾ [٨٨] أي: عطاشاً، ﴿لَا يَلِكُونَ الشَّقَمَةَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا بِنُوحَيْنِ إِلَّا سَوِيٌّ حِمْ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعَلِمْنَا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عمل تقربني من الشر وتباعدي من الخير، وإني لا أتق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤدبه إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، رهاباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٨٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْصُرُنَّ بِهِ وَنَشَقَّتْ الْأَرْضُ وَغَوَّى الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَلْبِغِي الرَّحْمَنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِنْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدَا ﴿٩٦﴾ وَكَلَّمَهُمَّ أَيَّامَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَدْرًا ﴿٩٧﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٩٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ أَي: في قولكم هذا، ﴿شَيْئًا إِذَا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيماً. ويقال: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مذهبنا أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْمَبَالِ هَذَا﴾ ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٧﴾ أَي: يكاد يكون ذلك عند سماعهم هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولده له، ولا صاحبة له، ولا كفه له، بل هو الأحد الصمد:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَنِّي أَنَّهُ وَاجِدٌ

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْمَبَالِ هَذَا﴾ ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٧﴾ قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَائِمَ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: «تِلْكَ أَوْجِبُ وَأَوْجِبُ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ جِئْتُ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوَضَعْنِي فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعْتَ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى، لَرَجَحْتُ بِهِنَّ». هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم. وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أَي: يتشققن فرقاً من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أَي: غضباً لله، عز وجل. ﴿وَخَيْرُ الْمَبَالِ هَذَا﴾ قال ابن عباس: هدماً. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿هَذَا﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْدِ المَقْبِرِيِّ، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا سَعْرٌ، عن عون بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكُرُ الله ﷻ فيقول: نعم، ويستشير. قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمع الزور والباطل إذا قيل ولا يسمع غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْمَبَالِ هَذَا﴾ ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٧﴾. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هُوْدَةُ، حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَدٍ، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكك الشجر. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار، حين قالوا ما قالوا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَشْرِكُ بِهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَعْافِيهِمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ، وَيَرْزُقُهُمْ». أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه». وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٧﴾ أَي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفه له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِبَادٌ﴾ ﴿٩٧﴾ لَقَدْ أَحْضَرْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدَاً ﴿٩٨﴾ أَي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأثامهم، وصغيرهم وكبيرهم، ﴿وَكَلَّمَهُمَّ أَيَّامَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَدْرًا﴾ ﴿٩٥﴾ أَي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الْآيَةَ مَأْمُورًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ سَمِعَلْتُمْ لَمْ الرَّحْمَنُ دَنَا﴾ ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْكِبُ بِسَائِكَ لِتَبَشَّرَ بِهِ الْمُتَوَكِّبُ وَتَذِيرٌ بِهِ قَوْلًا لَنَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ بَنِينَ قَرِينٍ هَلْ نَحْسُ بَيْنَهُمْ مِنْ آخِرٍ أَوْ سَمِعْتُمْ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله، ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ غير وجه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سُهَيْلٌ، عن أبيه، عن أبي

هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنني أبغض فلاناً فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فَيَبْغُضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض». ورواه مسلم من حديث سُهَيْل. ورواه أحمد والبخاري، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى بن عتبة، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله، فلا يزال كذلك فيقول الله، ﷻ، لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني؛ ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: «رحمة الله على فلان»، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض». غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن محمد بن سعد الواسطي، عن أبي ظَبْيَةَ، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقرة من الله - قال شريك: هي المحبة - والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إنني أحب فلاناً، فينادي جبريل: إن ربكم يمق - يعني: يحب - فلاناً، فأحبوه - وأرى شريكاً قد قال: فتتزل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إنني أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادي جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال: «فيجري له البغض في الأرض». غريب ولم يخرجوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو داود الحفري، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد، وهو الدرأوزدي - عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنني قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله، ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾». رواه مسلم والترمذي كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾ قال: حياً. وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرِّزْقَ وَرِزْقًا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جبيرة، عنه: يحبهم ويحببهم، يعني: إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم. وقال العوفي، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾: إي والله، في قلوب أهل الإيمان، ذكر لنا أن هَرَمَ بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، ﷻ، رداء عمله. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن البصري، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرثي»، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بَشْرًا، لأجعلن عملي كله لله، ﷻ، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل، فكان يمر بعد القوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾. وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿يَسْأَلُكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿يُنَبِّئُكَ بِهِ الصَّالِحِينَ﴾ أي: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أي: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: لا يستقيمون. وقال الثوري: عن إسماعيل - وهو السدي - عن أبي صالح: ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظي: الألد: الكذاب. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: صماً. وقال غيره: صم آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: يعني قريشاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: فجاراً. وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصُ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وقوله: ﴿وَكَرِهْنَا أَن نَّكَفِّرَ عَنْ قَوْمٍ مِنْهُمْ إِذْ كَفَرُوا بآياتِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ﴾، ﴿هَلْ نُحِشُّ بِتَمِّمٍ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسَعَّ لَهُمْ وَكْرًا﴾ أي:

هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتاً. وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً. والركز في أصل اللغة: الصوت الخفي، قال الشاعر:

فَتَوَجَّسْتُ رَجْمَ الْأَنْبِيِّ فَرَاغَهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأَنْبِيِّ سَقَامَهَا

آخر تفسير «سورة مريم» والله الحمد والمنة.

ويتلوه إن شاء الله تعالى

تفسير «سورة طه» والحمد لله.



تفسير سورة طه

وهي مكية. روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الحُرقة - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لآلسن تتكلم بهذا». هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ٣ تَزِيلًا وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤ أَلَمْ نَجْعَلْ عَلَى الْبَشَرِ ٥ لُحْمًا وَأَلْمَمْنَا بِهِ عِظًا وَفَعَلْنَا مِنْهُ فِئَافًا فَتَنْسَى ٦ وَإِنْ يَجْهَرُونَ بِأَقْوَابِهِمْ فَاتَمَّ كَيْدَهُمْ وَأَخْفَى ٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٨ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَسْقَى ٩

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شعبة الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني: الزبيري - أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفضس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن أبيزيم أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل. وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثوري: أنها كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح: هي مُعْرَبَةٌ. وأسد القاضي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾ ١، يعني: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ٢. ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة.

وقوله: ﴿﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾﴾ ٢ قال جوبير، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿﴿طه﴾﴾ ١ ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ٢ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾ ٣. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سيمك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء إذا قعد على كرسيه لفضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالي». إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي ذكره أبو عمر في استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب. وقال مجاهد في قوله: ﴿﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾﴾ ٢: هي كقولها: ﴿﴿قَاتَرُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدرهم في الصلاة. وقال

شيثاً، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال ابن عدي: لا يعرف.

قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يُختمل أنه تعمّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) ﴿أَي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسرّ ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فإله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفْتِنٍ وَجِدْوً﴾ [الفرقان: ٢٨]. وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً. وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: الوسوسة. وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) ﴿أَي: الذي أنزل القرآن عليك هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى. وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة «الأعراف» الله الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أُنْتَلَىٰ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (٩) ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم بِهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَلٍ عَلَىٰ نَارٍ هُدًى﴾ (١٠) من هنا شرع، تبارك وتعالى، في ذكر قصة موسى عليه السلام، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأصل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدر بزند معه ليُوري نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدر شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشروهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم بِهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَدْوًى مِّنَ النَّارِ﴾ [الفصص: ٢٩]، وهي: الجمر الذي معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [الفصص: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجْدَلٍ عَلَىٰ نَارٍ هُدًى﴾ (١٠) ﴿أَي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثوري، عن أبي سعد الأعرابي، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجْدَلٍ عَلَىٰ نَارٍ هُدًى﴾ قال: من يهديني إلى الطريق. وكانوا شاتين وفضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَىٰ بِمُوسَىٰ﴾ (١١) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَمْلِكُ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٢) ﴿وَأَنَا أَنْتَزَعْتُكَ لِمَا يُؤْتِي﴾ (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ﴾ (١٥) ﴿فَلَا يُصَدِّقُكَ عَنَّا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَزِدْ﴾ (١٦).

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي: النار واقرب منها، ﴿تُودَىٰ بِمُوسَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أُنْتَلَىٰ تُودَىٰ مِنْ سَطْحِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ بِمُوسَىٰ إِرْتَانًا أَنَا رَبُّكَ﴾ [الفصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَمْلِكُ﴾ قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي. وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة. قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالوطة بقدميه. وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت. والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النزعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا أَنْتَزَعْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي أَسْطَلِّفُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه. وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأنني لم يتواضع لي أحد تواضعك. وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وخذني وقم بعبادتي من

غير شريك، ﴿وَأَقْرَبَ الْمَلَأَةَ إِلِكْرِي﴾ قيل: معناه: صَلُّ لذكركني. وقيل: معناه: وأتم الصلاة عند ذكرك لي. ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا زَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا، فَلْيَصِلْهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَقْرَبَ الْمَلَأَةَ إِلِكْرِي﴾. وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك».

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ﴾ أي: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها. وقوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيًا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: ﴿أَكَادُ أَخْفِيًا مِنْ نَفْسِي﴾، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أَخْفِيًا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيري. وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿إِنِّي أَكَادُ أَخْفِيًا مِنْ نَفْسِي﴾، يقول: كتمتها من الخلاق، حتى لو استطعت أن أكتهما من نفسي لفلتت. وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أَخْفِيًا﴾ وهي في بعض القراءة أخفيتها من نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، من الأنبياء والمرسلين. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿نُفِّثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِكُمْ إِلَّا بُعْثَةٌ﴾ [الاعراف: ١٨٧] أي: نثقل علمها على أهل السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب، حدثنا أبو نميلة، حدثني محمد بن سهل الأسدي، عن وقاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبیر: ﴿أَكَادُ أَخْفِيًا﴾، يعني: بنصب الألف وحفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

دَابَّ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ شَهْرًا ذَمِيكَأ
بَارِيكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرَا
وقال الأسدي: الغومير: نبت رطب، ينبت في خلال يبس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَنْجِزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْتَعِي﴾، أي: أقيمها لا محالة، لأجزئ كل عامل بعمله، ﴿فَمَنْ يَمَسَلْ وَيَسْكَالْ دَرُّوْ خَيْرًا يَسْرُمُ﴾ ومن يمسَلْ يسْكَالْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُمُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، و﴿إِنَّمَا يَجْرُونَ مَا كُتِبَ لَهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُغَانٍ سَمَكًا﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾، المراد بهذا الخطاب أحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَى﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُفِي عَهْدَ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيئِكَ يَمْوَسَى﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوْكَعْتُهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَيَّ وَنِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَفَهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْتَفِ سَتُيَبِّدُنَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيئِكَ يَمْوَسَى﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فستري ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيئِكَ يَمْوَسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوْكَعْتُهَا﴾ أي: اعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَيَّ﴾ أي: أهرز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي. قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المخجن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وتقره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً. وقوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوْكَعْتُهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَيَّ وَنِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ أي: مصالح ومنتافع وحاجات أخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المنارِب التي أبهت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة. والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَهَا يَمْوَسَى﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: صارت في الحال حَيَّةٌ عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه

صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْتَعْلِمُ﴾ أي: تمشي وتضطرب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبيدة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فَأَلْقَنَاهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعْلِمُ﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مديراً، فنودي أن: يا موسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له في الثالثة: إنك من الآمنين. فأخذها. وقال وهب بن مُثَنَّب في قوله: ﴿فَأَلْقَنَاهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعْلِمُ﴾ قال: فآلقاها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، فذُبت يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخَلْفَةِ من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالتاب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توددان ناراً، وقد عاد المنحجن منها عُرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبان منها مثل القلب الواسع، فيه أضرار وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مديراً ولم يُعَقِّب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي: يا موسى أن: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُكَ سَيِّئَتَهَا الْأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مئزرعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: رأيت يا موسى، لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنني ضعيف، ومن صَغَف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حس الأضرار والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهداها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكل بين الشيعتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَتُعِيدُكَ سَيِّئَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿وَأَضْمْتُمْ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ فَتَخَرَّجَ بَيْضَةً مِنْ عَيْرِ سَوْءٍ مَاءٍ أُنْزِيَ لِرَبِّكَ مِنْ مَائِنَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ أَسْرَجَ لِي صَدْرِي ﴿٢٤﴾ وَتَرَى لِي آثَرِي ﴿٢٥﴾ وَأَسْلَمَ عَقْدَةَ بَيْنَ سِلَاحِي ﴿٢٦﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٧﴾ وَأَجْمَلُ لِي وَرِيًّا مِنْ أَمَلِي ﴿٢٨﴾ هَرُونَ أَيْ ﴿٢٩﴾ أَشَدُّ يَوْمَ أُزْرِي ﴿٣٠﴾ وَأَثَرِكُمْ فِي آثَرِي ﴿٣١﴾ كَيْ سَيِّئِكَ كَثِيرًا ﴿٣٢﴾ وَتَذَكَّرَكُ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا ﴿٣٤﴾.

وهذا برهان ثانٍ لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهانئا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمْتُمْ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمْتُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ أَرْوَاحٍ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [الفصم: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمْتُمْ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده. وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألاً كأنها فلققة قمر. وقوله: ﴿تَخَرَّجَ بَيْضَةً مِنْ عَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد قد لقي ربه ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ مَائِنَاتِنَا الْكُبْرَى﴾. وقال وهب: قال له ربه: أذنته: فلم يزل يدينه حتى شد ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿٢٣﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجَتْ فاراً منه وهارياً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبتغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى. قال وهب بن مُثَنَّب: قال الله لموسى: انطلق برسالتني فإنك بعيني وسمعي، واني معك أيدي ونُضْرِي، واني قد البستك جُمَّة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بظر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جَحَدَ حقِّي، وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني، فإني أقسم بعزتي، لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصيته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان عليّ، وسقط من عيني، ووسع حلمي، واستغفنت بما عندي، وحقني إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره نعمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى، وخبره أنني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما البسته من لباس الدنيا، فإن ناصبته بيدي، ليس ينطق ولا يظرف ولا يتنفس إلا بإذني. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمئة سنة، في كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتمثل به وتصدُّ عباده عن سبيله وهو يطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، ولم تسقم ولم تهرم ولم تفتر ولم تغلب ولو شاء أن يعجِّل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسيبان بجهاده. فإني لو شئت أن آتية بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبت نفسه وجموعه أن الفئة القليلة - ولا قليل مني

- تغلب الفئة الكثيرة بإذني، ولا تعجبينكما زينت، ولا ما متع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهر الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما. وكذلك أفعل بأوليائي، وقديماً ما جرت عاداتي في ذلك، فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً لم تكلفه الدنيا. واعلم أنه لم يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ مما عندي من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُغرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقاً حقاً، فإذا لقبتهم فاحفض لهم جناحك، ودلل قلبك ولسانك، واعلم أنه من أهان لي ولياً أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة، وبإدائي وعرض لي نفسه ودعائي إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصره أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني. وكيف وأنا الكاثر لهم في الدنيا والآخرة، لا أكمل مضطربهم إلى غيري. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٦﴾﴾ : هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه ﷻ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغانهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٦﴾﴾ أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿وَاسْأَلْ عَقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٣٧﴾ بِقَهْقَرَاتِي ﴿٣٨﴾﴾ ، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العمى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧] أي: يفسح بالكلام. وقال الحسن البصري:

﴿وَاسْأَلْ عَقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٣٧﴾﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي. وقال ابن عباس: شكى موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفسح به لسانه، فأتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه. وقال ابن أبي حاتم: ذكّر عن عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أرطاة بن المنذر، حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له، فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن في كلامك، ولست تعرب في قراءتك؟ فقال القرظي: يا بن أخي، ألسنت أفهملك إذا حدثت؟ قال: نعم. قال: فإن موسى، عليه السلام، إنما سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٤٠﴾﴾ : وهذا أيضاً سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فُتِيَ هَارُونَ سَاعَتَهُدَّ حِينَ نَبِيءُ مُوسَى، عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن ثَمِيرٍ، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندري. قال: والله أنا أدري. قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق والله. قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الشاء على موسى، عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿١٠١﴾﴾ [الاحزاب: ٦٩] وقوله: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي ﴿٤١﴾﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ﴿٤٢﴾﴾ أي: في مشاورتي، ﴿كَيْ تَسْمَعَكَ كَثِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٤٤﴾ ، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٤٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٤٨﴾ أَنْ أَتَيْنَاهُ بِالْحَقِّ فَرَجَعْنَا إِلَيْهِمْ بِالسَّلْبِ الْيَسْبِغِ الْيَسْبِغِ لِي وَعَدُوُّكُمْ لِي وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِيُضَمَّ عَلَيَّ عَيْبِي ﴿٤٩﴾ إِذْ تَسْتَشِئُ لِحُكْمِكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُمْ فَجَمَعْنَاكَ إِلَيْكَ إِلَيْكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْبَهُمْ وَلَا تَحْزَنَ وَقُلْنَا نَفَسًا فَتَنَيْتَكَ مِنَ الْفِرِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٥٠﴾﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه ﷻ، وتذكيره بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين

كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر - وهو النبل - وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتَسْدِيقَ يَوْمَ لَوْلَا أَنْ رَطَقْنَا عَنَّا قُلُوبَنَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْقَلْبَ مَاءً لِّمَنْ يَرْجُو﴾ [القصص: ١٨]، أي قدراً مقدوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال: حبيبك إلى عبادي. ﴿وَلْيَصْنَعِ عَلَيَّ عَيْبًا﴾ قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله. وقال قتادة: تغذى على عيني. وقال معمر بن المنذر: ﴿وَلْيَصْنَعِ عَلَيَّ عَيْبًا﴾ بحيث أرى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَسُوخُ آتْمَانُكُ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَمْنَاكَ إِلَىٰ آيَاتِكِ كَيْ فَتَرَ عَيْنَاهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه الأمراض، فأبأها، قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْفَرَاغِيعَ مِن قَبْلِ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِي يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَحْصُرُوا﴾ [القصص: ١٢]. تعني: هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء في الحديث: «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها». وقال تعالى هاهنا: ﴿فَرَجَمْنَاكَ إِلَىٰ آيَاتِكِ كَيْ فَتَرَ عَيْنَاهَا وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: عليك ﴿وَقُلْتَ نَسُأُ﴾ يعني: القبطي، ﴿فَتَجِدَنَّكَ مِن آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَحْزَنْ بَحْرَتَ بِنْتِ الْقَوْمِ الْفَظْلِيِّينَ﴾ [القصص: ٢٥]. وقوله: ﴿وَقُلْتَ فُؤَادُ﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، رحمه الله في كتاب التفسير من سننه، قوله ﴿وَقُلْتَ فُؤَادُ﴾.

حديث الفتون

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبيرة، قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله ﷻ، لموسى، عليه السلام: ﴿وَقُلْتَ فُؤَادُ﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يابن جبيرة، فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام، أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فاتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفتنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فيقتل أبناؤهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يابن جبيرة - ما دخل عليه في بطن أمه، مما يراد به، فأوحى الله جل ذكره إليها أن: ﴿وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ مُجَاعًا لَمَّا أَتَىٰ بِنْتَكِ﴾ [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنتها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني، لو ذبح عندي فواريته وكفنته، كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْصَةٍ مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالأ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملته كهيئته لم يخرج منه شيئاً حتى رفعناه إليها. فلما فتحته رأته فيه غلاماً، فألقي عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم

موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يابن جبير، فقالت لهم: أفروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستويه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحستتم وأجلمتم، وإن أمر بذبحه لم أَلْمُكُمْ. فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرْتُ صَيِّبِي لِي وَأَكِّ﴾ [القصاص: ١٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُخَلِّفُ به لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له، كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حرمة ذلك».

فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يتمتع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ، فقالت لأخته: قضى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحيى ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون. والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به. فقالت من الفرحة حين أعياهم الظُّؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخير. فجات أمه، فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإنني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينييه فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا أكله خيراً فعلت، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتري ابني؟ فَوَعَدْتُهُ يوماً تريه إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لحزانتها وظُورها وقهارمتها: لا يبيقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فَلَئِنِ خَلَّه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به.

فجات امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا تريه يزعم أنه يصرعني ويعلونني! فقالت: اجعل بيتي وبينك أمراً يعرف فيه الحق، انت بجمرتين ولؤلؤتين، فَقَرَّبَهُنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فأعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانترعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكر موسى الفرعوني قتلته، وليس يراهما أحد إلا الله ﷻ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصاص: ١٥]. ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لِي كَمَا إِسْكُرُ هُوَ الْغَافِرُ الرَّحِيمُ﴾ [القصاص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بيته ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبناً، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك

الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَمَوْءُؤٌ مُّبِينٌ﴾. فظفر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَمَوْءُؤٌ مُّبِينٌ﴾ [النصص: ١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعوني. فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَمْوِءُؤُ أَرِيدُ أَنْ قَتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [النصص: ١٩] وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته، فنتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَرِيدُ أَنْ قَتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره. وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ﷻ، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَوْتُ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ لَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُوتُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [النصص: ٢٢، ٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [النصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لساناً، فأخبرتهما بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ جَمْرَتٌ مِّنَ الظُّلُمِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَأْتِي أَسْتَجِيرَةٌ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجِرَتِ الْقَوْمِ الْأَمِينِ﴾ [النصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لهما: ما يدريك ما قوته؟ وما أماته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعها، حتى بلغت رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنْكِمَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيْ هَتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٌ وَإِنِّي عَلِيمٌ﴾ [النصص: ٢٧] ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت ستان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرأ. قال سعيد - وهو ابن جبير -: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة، لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردهأ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فاتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، عليهما السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَمَوْكَ زَيْنُوكَ﴾ [طه: ٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان؟ وذكره القتل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بني إسرائيل. فأبى عليه وقال: ﴿فَأَبَىٰ يَكِيَّةَ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فافتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فأراها بيضاء من غير سوء - يعني من غير برص - ثم ردها فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملائكة حولها فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران ﴿رِيْدَانِ أَنْ يَخْرُجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ النَّهْلَ﴾ [طه: ٦٣]، يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببت،

فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى - لقدرتهم بسحرهم - ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ مَحْنُ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿قَالِقُوا جَاهِلْتُمْ وَصَيْبَهُمْ وَقَالُوا بَعْرُ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألْقِ عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاهاً، فجعلت العصي تلتبس بالجمال حتى صارت جَزْراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا جبلاً إلا ابتلعت، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله ﷻ، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَقَالُوا هَذَا كَمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وأمرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى. فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بأية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف مواعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواتقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف مواعده، ونكث وعده. حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبيدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بَعْدُ من فرعون وأشياعه. فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قَصِيفٌ، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجازه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له بيده حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧٨]، ﴿كُلُّكُمْ مَتَّبِعَةٌ تَأْتِي فِيهِ وَبَطْلٌ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيت من العبر وسمعت ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون، فإنني قد استخلفته عليكم، فإنني ذاهب إلى ربي. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يارب، إنني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم اتنتي. ففعل موسى. عليه السلام، ما أمر به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا براءين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقصي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامري، ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقىها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقىتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح، وله خوار. قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط،

إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا تكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم تكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلمنا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا أَفْتَضِر بِرَبِّ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ٩٠] قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه. فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفتنت لها وعُتبت عليكم فقدفتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [١٦] قَالَ فَادَّهَبَ فَإِنَّكَ لَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّكَ لَكَلَّ مَوْعِدًا لَنْ نَخْلَعَنَّ وَأَنْتُمْ لَكُمْ إِلَهُكُمُ الَّذِي ظَلَمْتُمْ عَلَيْهِ عَاقِبَاتِكُمْ لَنْ نُحَرِّقَنَّهُمْ لَنْ تَنصِفَنَّهُمْ فِي آيَاتِنَا سَمَاءًا ﴿١٧﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغضب الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختر موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يالو الخير، خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَتِيلِكُمْ بِمَا فَعَلْتُمْ أَتَسْهَلُكُمْ مِّنَّا﴾ [الاعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ الزُّكُوتَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ آبَائِهِمْ وَأُولَادِهِمْ فَهُمْ كَنُفُسِهِمْ يَفْعَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا آخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد ولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فنقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرؤا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصفون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلفهم خلق منكر - وذكروا من ثمارهم أمراً عجبياً من عظمها - فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين - أمنا بموسى، وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون - ويقول أناس: إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا كَانَ نَدْعُكُم مَّا دَامُوا فِيهَا فَادَّهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَكَذَّبْنَا وَإِنَّا هَمْنَا بِقَوْلِكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين، فحرما عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مريعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبب عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس. رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟. فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني، بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره. هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من

حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضي الله عنه، مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأخبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً.

﴿إِذْ نَسِيْنَا لَهٗ أَهْلًا مَدِيْنًا ثُمَّ جِئْتَنَا بِهٖ فَجَعَلْنَاهُ مَخْرَجًا وَأَدْخَلْنَاهُ فِي سِدْرٍ مَّيْمُوْنٍ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُ نَافِثَةً فِي تَرَافُؤِهِ ﴿٤١﴾ فِئْتَانٍ يَنْفِثَانِ فِي سِدْرٍ مَّيْمُوْنٍ ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَاهُ نَافِثَةً فِي تَرَافُؤِهِ ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَاهُ نَافِثَةً فِي تَرَافُؤِهِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدین» فأرأ من فرعون وملئه، يرمى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير معاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا بِهٖ فَجَعَلْنَاهُ مَخْرَجًا وَأَدْخَلْنَاهُ فِي سِدْرٍ مَّيْمُوْنٍ﴾ قال مجاهد: أي على موعد. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا بِهٖ فَجَعَلْنَاهُ مَخْرَجًا وَأَدْخَلْنَاهُ فِي سِدْرٍ مَّيْمُوْنٍ﴾ قال: على قدر الرسالة والنبوة. وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي سِدْرٍ مَّيْمُوْنٍ﴾ أي: اصطفتك واجتبتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء. وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصُّلْتُ بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسائه واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى» أخرجاه. ﴿أَذْهَبَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تُبْتَطِنَا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْمُفَا. والمراد أنهما لا يفترقان في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني وهو مُتَاجِرٌ قِرْزَنُهُ». ﴿أَذْهَبَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤١﴾﴾، أي: تمزّد وعتا وتجهّم على الله وعصاه، ﴿فَقَوْلًا لَّهُ فَرَاغًا لِّمَا يَذُكَّرُ أَوْ يُحْشَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ فَرَاغًا لِّمَا يَذُكَّرُ﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ وقال وهب بن منبه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وعن عكرمة في قوله ﴿فَقَوْلًا لَّهُ فَرَاغًا لِّمَا يَذُكَّرُ﴾، قال: لا إله إلا الله، وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ فَرَاغًا لِّمَا يَذُكَّرُ﴾: أغذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ناراً. وقال بقرّة، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحّاك بن مُرْاحِمٍ، عن الثَّوَالِ بن سَبْرَةَ، عن علي في قوله: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ فَرَاغًا لِّمَا يَذُكَّرُ﴾ قال: كُتِبَ. وكذا روى عن سفيان الثوري: كُتِبَ بأبي مرّة.

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُوكَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُمُ الْبَالِغَةَ أَحْسَنَ﴾ الآية [النحل: ١٢٥]. قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَحْشَوْنَ﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يُحْشَوْنَ﴾ أي: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى» فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يُحْشَوْنَ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر إليه. وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

بعثت إلى موسى رسولاً منادياً
إلى الله فرعون الذي كان باغياً
بلا وتد حتى استقلت كما هيا
بلا عمد؟ أرفق إذن بك بانياً
منيراً إذا ما جئته الليل هادياً
فيصبح ما مست من الأرض ضاحياً
فيصبح منه البقل يهتز راياً
ففي ذلك آيات لمن كان واعياً

وأنت الذي من فضل من ورحمة
فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا
فقولا له هل أنت سويت هذه
وقولا له آنت زعمت هذه
وقولا له آنت سويت وسطها
وقولا له من يخرج الشمس بكرة
وقولا له من ينبت الحب في الثرى
ويخرج منه حبه في رؤوسه

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّا نَحْنُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْلُعَ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَجْعَلْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ يَا بَنِي رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَيْعِ الْمَلَكَةِ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِّبِكَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجبرين بالله تعالى شاكئين إليه: ﴿إِنَّا نَحْنُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْلُعَ﴾، يعنيان أن يتدبر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ يَقْرُطَ﴾: يتعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَنْ يَطْلُعَ﴾: يعتدي. وقال لا تخافا إني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾: أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفي علي من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأبيدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْثَةَ، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما بعث الله ﷺ موسى إلى فرعون قال: رب، أتني شيء أقول؟ قال: قل: هيا سراهما. قال الأعمش: فسّر ذلك: الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء. إسناده جيد، وشيء غريب.

﴿فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قد تقدم في حديث «الفتون» عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل رب العالمين، فأذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغني سنتين يغدون ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً غيرك أرسله إليك. قال: بيابي؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفي يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إني رسول رب العالمين. فعرفه فرعون. وذكر السدي أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما ليلتذ الطعثل وهو اللقت، ثم عرفاه وسلموا عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله، وأمر أن تعاوتني. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال: من يجترىء على هذا الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول الله. فقال: علي به. فلما وقفا بين يديه قالوا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه. وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ يَا بَنِي رَبِّكَ﴾: أي: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَيْعِ الْمَلَكَةِ﴾: أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى. ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين». وكذلك لما كتب مسيلاً إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته: «من مسيلاً رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريش قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلاً الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَيْعِ الْمَلَكَةِ إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِّبِكَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾﴾: أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٤٧﴾ وَاتَّخَذَ اللَّيْلَةَ الدُّنْيَا ﴿٤٨﴾ فَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِ هِيَ النَّارُ ﴿٤٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى ﴿٤٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿٤٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٦﴾﴾ [الدليل: ١٤-١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا سَلٰٓءَ ﴿٣١﴾ وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أي: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ قال فما بال القومين الأولك ﴿٥١﴾ قال علمها عند ربّي في كتبٍ لَّا يعصِلُ ربّي وَلَا ينسى ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربّه ومليكه، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾، أي: الذي بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: خلق لكل شيء زوجة. وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سَوَى خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى

كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيتاً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الاعلى: ٣] أي: قدر قادراً، وهدى الخلائق إليه، أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد. ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [٥١]: أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَعْزِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنهه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [٥٢] ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِنَا لِأُولَى الْأَنْهَى﴾ [٥١] ﴿يُنَبِّئُكُمْ فِيهَا بِنَبَأِكُمْ وَمِنْهَا تَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [٥٠] ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [٥٣].

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، ﷻ حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وفي قراءة بعضهم: «مهادا» أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها، ﴿وَسَوَّلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في منابها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الانباء: ٣١]. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: من ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِنَا﴾ أي: لآياتنا وحججنا وبراهيننا ﴿لِأُولَى الْأَنْهَى﴾ أي: لذوي العقول وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويابساً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٥١]. وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما سلمت المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿يُنَبِّئُكُمْ فِيهَا بِنَبَأِكُمْ وَمِنْهَا تَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [٥٠] أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُبَيِّدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبلبتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٥٢] [الاسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [٥٣] [الأعراف: ٢٥]. وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿وَفِيهَا خَلَقْتُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُبَيِّدُكُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا تَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [٥٣]، يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره، فكذب بها وأباهها كفراً وعناداً وبيغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنًا وَبَيْنَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فَمِنْهُمْ مَرْئِيٌّ مَغْلُوبٌ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٤] [النمل: ١٤].

﴿قَالَ آجَعْتَنَا يَتَخَرَّجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [٥٤] ﴿فَلْيَأْتِنَكَ بَسْحَرٌ بِسِحْرِي﴾ [٥٤] ﴿فَلْيَأْتِنَكَ بَسْحَرٌ بِسِحْرِي﴾ [٥٤] ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضَحِيًّا﴾ [٥٥].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرتنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرِكَ، فلا يفرنك ما أنت فيه ﴿فَلْيَأْتِنَا بَسْحَرٌ بِسِحْرِي﴾ [٥٤] أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتمرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضَحِيًّا﴾ أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهراً ضحى. قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي، وقتادة، وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبيرة: يوم سوقهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح. وقال وهب بن مثنبه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أمر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى

أربعين يوماً. ففعل. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: مَنْصَفًا. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: مستوي يتبين الناس ما فيه، لا يكون صَوْبٌ ولا شيء يتعجب بعض ذلك عن بعض مستوي حتى يرى.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّلَتْ لَهُمْ أَمْرُؤُهُمْ بَيْنَهُمْ وَاسْتَبْرَأُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَجَرٌّ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ فَمِنْ أَمْتًا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْتَوِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيِّر﴾ ﴿٦١﴾ [يونس: ٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾: أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكبر دولته، ووقفت الرعايا بمنه ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفواً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿إِنَّا لَنَآجِرٌ إِنْ كُنَّا مَعَنَ الْفَالِيِّينَ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ نَسَمَ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ فَتَنَزَّلَتْ لَهُمْ أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَاسْتَبْرَأُوا النَّجْوَى﴾: أي: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَجَرٌّ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرَانٌ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم. وقوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾: أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم. وقد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس قال في قوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾: يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هشيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾: قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾: قال: أولي الشرف والعقل والأسنان. وقال أبو صالح: ﴿بَطْرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾: أشرفاكم وسرواكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بَطْرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ﴾، بالذي أنتم عليه. وقوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ فَمِنْ أَمْتًا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفواً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾: أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَسْمُونَ إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَوَيْلًا أَنْ تَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ تَلْقَىٰ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَىٰ فَإِذَا جِئْتُمْ بِعَصِيْبَتِكُمْ يُجِئِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّىٰ تَسْتَعِي ﴿٦٦﴾ فَأَلْحَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةَ مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي بَيْتِكَ تَلَقَّفَ مَا صَعَوْا إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ الشَّارِحُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَىٰ السَّحْرَةَ حَيْدًا قَالُوا مَا مَأْمَأَ رَبِّي هَذِهِ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى: عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ﴾: أي: أنت أولاً ﴿وَيْلًا أَنْ تَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ تَلْقَىٰ﴾: أي: أنتم أولاً ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم، ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ بِعَصِيْبَتِكُمْ يُجِئِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّىٰ تَسْتَعِي﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بِعَزَّةٍ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحْرًا أَعْيَتِ النَّاسِ اسْتَعْجَبُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَجِيبٍ﴾ [الاعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ بِعَصِيْبَتِكُمْ يُجِئِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّىٰ تَسْتَعِي﴾. وذلك أنهم أودعوا من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناس أنها تسعي باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماعاً عفيراً وجماعاً كبيراً، فألقى كل منهم عصا وحبلًا، حتى صار الوادي ملآن حيات يركب

بعضها بعضاً. وقوله: ﴿فَأَرْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ويغفروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَأَنْتَ مَا فِي بَيْنِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿لَقَفَ مَا سَتَرُوا﴾ وذلك أنها صارت تبتناً عظيماً هائلاً ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلففته وابتلعتة، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جَهْرَةً، نهراً ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سَتَرُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْفَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشيباني، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن، عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أخذتم - يعني: الساحر - فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْفَ﴾ قال: «لا يؤمن به حيث وجد». وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً.

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجْدًا لله وقالوا: ﴿يَا مَنَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة. قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً. وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً. وقال الثوري عن عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي ثمامة: كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً. وقال محمد بن أبي إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً. وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن حمزة، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما حُرِّ السحرة سُجْدًا رُفِعَتْ لهم الجنة حتى نظروا إليها. قال: وذكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأقفطس، عن سعيد بن جبيرة قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبني لهم وهم في سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

﴿قَالَ مِمَّنْ لَمْ بَدَأْ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَكُمُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَوْمَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْبِرَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلَكُم مِّنْ جُلُودِكُمْ وَأَلْهِيَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَيَنظُرَنَّ أَيُّكُمْ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْيِرَكَ عَنْ مَا جَاءَنَا مِن بَرَكَاتِنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَائِلٌ إِنَّمَا تَقْوَىٰ هَذِهِ الْخَيْوةُ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا مِمَّنَّا بِرَبِّنَا يَسْتَفِرُّ لَنَا خَلْقِنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ سَبِيحٌ وَاقِعٌ﴾ ﴿٧٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعنده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم، وقال ﴿مِمَّنْ لَمْ بَدَأْ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَكُمُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَوْمَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: أنتم وافتمم علي في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، وافتممتم أنتم وإياه علي وعلى رعييتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا يَتَهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأَقْبِرَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلَكُم مِّنْ جُلُودِكُمْ وَأَلْهِيَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لاجعلنكم مثلة ولاقتلنكم ولأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَيَنظُرَنَّ أَيُّكُمْ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ، و﴿قَالُوا لَنْ نُؤْيِرَكَ عَنْ مَا جَاءَنَا مِن بَرَكَاتِنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات. يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خالقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت. ﴿فَأَقْضِ مَا أَنتَ قَائِلٌ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصّلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْوَىٰ هَذِهِ الْخَيْوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال ونحن قد رغبتنا في دار القرار. ﴿إِنَّا مِمَّنَّا بِرَبِّنَا يَسْتَفِرُّ لَنَا خَلْقِنَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقرآن، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّا مِمَّنَّا بِرَبِّنَا يَسْتَفِرُّ لَنَا خَلْقِنَا وَمَا

أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّجْرِ ﴿٧٤﴾. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: آدم ثواباً مما كنت وعدتنا وميتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: منك عذاباً إن عصي. وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّكَ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِمْ جُحِيمًا فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٥﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ حَتَّىٰ تَدْعُو جَبْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّكَ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِمْ جُحِيمًا﴾ أي: يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُحْيَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْرَىٰ كُلُّ كَفُورٍ﴾ [طاهر: ٣٦]، وقال: ﴿وَتَنَجَّيْنَهَا الْأَنْفُسَ ﴿١١﴾ الَّتِي يَصَلُّ الْأَنْرَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الاعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَدَّاعُوا لِيَكُلَّ يَلْقَىٰ عَيْنًا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ تُكَلِّمُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن الناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتمت لهم إمامة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن في الشفاعة، جيء بهم ضباط، ضباط، فبُتوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيصوا عليهم، فينتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد به. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيان، سمعت سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّكَ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِمْ جُحِيمًا فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٥﴾﴾، قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضباط، فيؤتى بهم نهراً يقال له: الحياة - أو: الحيوان - فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل». وقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا همام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتهم الله فأسأله الفردوس». ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلي، في كل درجة أمير، يرون له الفضل والسودد. وفي الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعماء». وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَدْعُو جَبْرِي﴾ أي: إقامة وهو يدل من الدرجات العلى، ﴿جَبْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كثرين أبداً، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خير وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ لِيَنجُوا مِنْ يَدَيْكَ وَكَلَّمَنَا فَرْعَوْنَ فَأَنجَيْنَاهُمْ ﴿٧٦﴾ فَأَتَيْنَاهُمْ فَرْعَوْنَ يَكُونُونَ مِنْ الْقَوْمِ ﴿٧٧﴾ وَأَضَلَّ فَرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبي فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه وزنسانيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ لَأَشْرِدِيمَةٌ لِقُلُوبِ ﴿٥١﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِقَائُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتَبَعُونَهُمْ فَسُورِقُوكَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ﴾ أي: نظر كل من

الفرقيين إلى الآخر ﴿قَالَ أَسْحَبٌ مُّثَوِّقٌ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (١٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَدِينُ ﴿١٦٢﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿فَأَنْزَلْنَا لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: ﴿انفلق بإذن الله﴾، ﴿فَأَلْفَلَقَ مَكَانَ كُلِّ فُرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا أَي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك. ثم قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتَهُمْ عُرُوقًا يَجْنُونَ. فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَاتُكُمُ الْأَعْيُنُ﴾ (٥٤، ٥٣) [النجم: ٥٤، ٥٣]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النُّجُومِ وَشِغْرِي شِغْرِي

أي: الذي يعرف، وهو مشهور. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْمَوْرُودُ﴾ (١٦٨) [هود: ٩٨].

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنبَتْنَا مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ حَابِ الْأَطْوَارِ الْأَيْمَنَ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوَى﴾ (١٦٩) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ (١٧٠) ﴿وَإِنِّي لَفَعَّالٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (١٧١).

يذكر تعالى نعمة على بني إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَسْنَا نَظْرَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]. وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا رُوح بن عباد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضاً في صحيحه. ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك. وفي غُضُونِ ذَلِكَ عَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، كما يقصه تعالى قريباً. وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» وغيرها. فالمن: حُلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله، ورحمةً بهم، وإحساناً إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقناكم، ولا تظنوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: فقد شقي. وقال شُفَيْي بن مَاتِع: إن في جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَإِنِّي لَفَعَّالٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وَأَمَّنَ﴾ أي: بقلبه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه. وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. وروي نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: علم أن لهذا ثواباً. وثم ها هنا ترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَمَةِ﴾ (١٧١) [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى﴾ (١٧٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجَبْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَقْتُلَنِي فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ النَّاسِرِيُّ﴾ (١٧٣) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا مُقَامَ لَكَ بِمَدْيَنَ وَعَدَا حَسْبًا أَطَّالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُوعِدِي﴾ (١٧٤) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارَاكَ مِنْ رَبِّكَ الْقَوِيُّ فَعَذَّبْنَاكَ الْكَافِيَ النَّاسِرِيُّ﴾ (١٧٥) ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا حَسْبًا لَّهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ فَنسَى﴾ (١٧٦) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ بَرِيعًا إِلَهُهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (١٧٧).

لما سار موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافتوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَكْفُرُونَ عَلَىٰ آصْنَابِهِ لَهُمْ قَالُوا يُشْمِئُ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (١٧٦) لَمَّا هَوَّلَاهُ مُتَّبِعًا مَاتَهُمْ فِيهِ وَيَطُولُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧٧) [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له شعراً، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع

موسى، عليه السلام، مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَنْزَى ﴿٨٣﴾ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد عني رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُودُ وَآمَرُوا قَوْمَهُمْ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ سَأْوَرِكُمْ دَارَ الْقَيُومِينَ﴾ (٨٦) [الاعراف: ١٤٥] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمرى. وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب. وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: جزعاً. وقال قتادة، والسدي: ﴿أَسِفًا﴾ أي: حزينا على ما صنع قومه من بعده. ﴿قَالَ يَقُولُ النَّاسُ لِمَ يُعَذِّبُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندهم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِمَّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمُ مَوْجِدِي قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْجِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا. ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَدِّفْتَهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. وقد تقدم في حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفيرة فيها نار. وفي رواية السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً. حتى إذا رجع موسى يرى فيه ما يشاء. ثم جاء بعد ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون - وهو لا يعلم ما يريد - فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار، أي: صوت، استندراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبَكَ آلَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خَوَارٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عباد بن البخاري، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد عن سماك، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس؛ أن هارون مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخوز، فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم. ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: أعمل ما ينفع ولا يضر. وقال السدي: كان يخوز ويمشي. فقالوا - أي: الضلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه - ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَتِيلٍ﴾ أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَتِيلٍ﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم. وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، قال: فعكفوا عليه وأجبهوه حياً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: ﴿قَتِيلٍ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري. قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريماً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ رِجْعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْسًا﴾ (٨٨) أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْسًا﴾ أي: في دنياهم ولا في آخرهم. قال ابن عباس، رضي الله عنه: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت. وقد تقدم في متون الحديث عن الحسن البصري: أن هذا العجل اسمه بهموت. وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعّلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعني: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَاةً حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾.

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَاةً حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهُدُوثُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَبَّيْتَهُمْ سَلَوًا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفَصَبِتْ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَوثُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخير كالعمانية». وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَّكَ إِذْ رَبَّيْتَهُمْ سَلَوًا أَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَصَبِتْ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿تَخَلَّفِي فِي قَوْمِي وَأَسْلَيْتُ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْكٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَوثُ﴾ تَرَقَّبَ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَوثُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ أَتْبِعَكَ فَأَخْبِرَكَ بِهَذَا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: وما رعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطعياً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسَيْرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادَّبْتُ فَاتَكَ لَكَ فِي الْحَيَوَاتِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرِقَنَّهُ نَارًا لَتَنَسِفْنَاهُ فِي إِلْهِئٍ نَسَاكًا ﴿٩٧﴾ اِكْسَا إِلْهِكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرؤما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبَّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل. وكان اسم السامري: موسى بن ظفر. وفي رواية عن ابن عباس: إنه كان من كرمان. وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمارة، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن جبربيل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبربيل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقدام في الألواح. فلما أخبره أن قومه قد قتلوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب. وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبربيل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع. قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المدني، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة؛ أن السامري رأى الرسول، فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر الفرس قبضة فألقيتها في شيء، فقلت له: «كن» فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول، فيست أصابعه في القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فراه السامري فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: «كن»، كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلًا له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلْهِكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى﴾. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقىتها مع من ألقى،

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِى نَفْسِى﴾ أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿فَقَالَ قَادَهُبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿أَنْ تُخَلَّفَهُ﴾ أي: لا محيد لك عنه. وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقايامهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخَلَّفَهُ﴾ قال الحسن، وقاتدة، وأبو نهيك: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهَهُ﴾ أي: معبودك، ﴿الَّذِى ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أقمت على عبادته، يعني: العجل ﴿لَتُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاک عن ابن عباس، والسدي: سحله بالمبارد، وألقاه على النار. وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لهماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رماده في البحر؛ ولهذا قال: ﴿فَتَرَى لَتَيْسِفَهُ فِي الْيَمِّ سَفِينًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عاجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً. وهكذا قال السدي. وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسط ذلك. وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد لربه. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَمَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الطلاق: ١٧]، ﴿وَأَحْمَى كُلِّ شَيْءٍ عَدَاً﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يُعْرَبُ عَنْهُ بِمُقَالَ ذَرًّا﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ زَرْقَةٍ إِلَّا يَلْمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ طَلْحَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهِ مَسْفُوفًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [مرد: ٦] والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿كَذَلِكَ نَفَسْ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِهِ مَا قَد سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [٩٩] ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] ﴿خَلِيلَيْنِ بِهِ وَسَاءَ لَمَمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا﴾ [١٠١].

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيلٌ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا، بمحمد ﷺ تسليماً، كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى في غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] أي: إثمًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرد: ١٧]. وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْتِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام: ١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] ﴿خَلِيلَيْنِ بِهِ﴾ أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكك، ﴿وَسَاءَ لَمَمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا﴾ أي: بشس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [١٠١] ﴿يَخْحَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [١٠٢] ﴿مَنْ أَقْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ أَلْمَمْتُ لَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [١٠٣].

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: ﴿قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ﴾. وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرائيل، عليه السلام. وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحتى جهته، وانتظر أن يؤذنا له» فقالوا: يا رسول الله، كيف تقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرُق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال. ﴿يَخْحَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس: يتسازون بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَقْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ

أَتْلَاهُمْ طَرِيقَةً أَي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِنْ لَيْدُنْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة؛ وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كَمَا نَسُوا فِي يَوْمِئِذٍ﴾ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُنزِّلْ فِي الْبُرُوجِ الْقُرْآنَ فَتَسْمَعُوهُ أَمْ نَحْنُ الْعَالَمِينَ أَمْ نَبْنِي الْعِبَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا وَكِبْرًا﴾ ﴿٥٧﴾ وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلَ الْمَآدِينَ ﴿٥٩﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أي: إنما كان لبئكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لأترتم الباقي على الغاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، فقدمتم الحاضر الغاني على الدائم الباقي.

﴿وَسَأَلْتَهُ عَنِ الْجِبَالِ فَقَالَ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿٦١﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٦٢﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٦٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٦٤﴾.

يقول تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقَالَ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصاف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿٦٣﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حينما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَتَبِيعَ يَوْمٍ يَا تُوتُنَا﴾ [مریم: ٢٨]، وقال: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْكُوفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيبٌ﴾ ﴿٨﴾ [الفر: ٨].

قال محمد بن كعب الفرطبي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾. وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾: لا عوج عنه. وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السدي: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: يعني: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصوت الخفي. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك. وقال سعيد بن جبیر: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ بَاتَ لَكُمْ نَفْسٌ إِلَّا يُادِيئُهُ فَيَنْتَهَرُ شَيْئًا وَسَعِيدًا﴾ ﴿١٥﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١٧﴾ وَعَنَتِ الصُّوُفُ لِلْغَيْبِ فَانْبَسَتْ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَمَسَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٩﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿٢١﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الانبيا: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٢٨﴾ [النبا: ٢٨]. وفي الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلاق على الله ﷻ أنه قال: «أنتي تحت العرش، وأخر الله ساجداً، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع». قال: «فيحذل لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود»، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وفي الحديث أيضاً: «يقول تعالى: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما وزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان» الحديث. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علماً بالخلاق كلهم، ﴿وَلَا

يُحِطُونَ بِهِ. عَلَمًا، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿وَعَسَىٰ أَلْوَجْهُ لِلَّهِ الْفَتِيرِ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤذي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاءة الجَمَاء من الشاءة القرناء. وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم». وفي الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ [المنان: ١٣]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [١١٣]: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَمْ يُحَدِّثْهُمْ وَذَكَرَ﴾ [١١٣] فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَقُّ وَلَا تَعَجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصَّلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١٤].

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين فصيح، لا لبس فيه ولا عني، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَمْ يُحَدِّثْهُمْ﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى الأ يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لتلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة. وقوله: ﴿وَلَا تَعَجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصَّلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تَحْرَجْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١١٤] إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُ وَقُرْآنِهِ ﴿١١٥﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ﴿١١٦﴾ ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نِجَانُهُ ﴿١١٧﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وثبت في الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لتلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تَحْرَجْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١١٤] إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُ وَقُرْآنِهِ ﴿١١٥﴾ أَي: أن نجتمع في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ﴾ [١١٦] ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نِجَانُهُ ﴿١١٧﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعَجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصَّلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً. قال ابن عيينة، رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم، حتى توفاه الله ﷻ. ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفى رسول الله ﷺ». وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نعيم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال». وأخرجه الترمذي، عن أبي كريب، عن عبد الله بن نعيم، به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عبيدة، به، وزاد في آخره: «وأعوذ بالله من حال أهل النار».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسْفِ وَنَمْ جَدُّ لَمْ عَزَمْنَا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَارْتَضَيْكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَفْتَحُ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجْمَعُ فِيهَا وَلَا تَمَرُّ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْلُمُونَ فِيهَا وَلَا تَضْحَكُونَ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوْا لِيَابَهُ السَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذْكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْغُلَّةِ وَمُلْكٌ لَّا يَبَلُغُ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لِمَا سَوَّاهُمَا وَطُفِفَا بِيضْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَبِّي لِحِيَةٍ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ آجَنِيَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنفسي. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عنه. وقال مجاهد والحسن: ترك. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً. وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف»، وسيأتي في آخر سورة ص إن شاء الله تعالى. يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، وبين عداوة إبليس لبني آدم ولأيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَارْتَضَيْكَ﴾ يعني: حواء، عليهما السلام،

﴿فَلَا يَجْرَحَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتغنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿١٢٣﴾: إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ﴿١٢٤﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظما: حر الباطن، وهو العطش. والصحى: حر الظاهر. وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدَّبَكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخَلْدِ وَمَلَكَ لَا بَيْتَ﴾ ﴿١٢٥﴾: قد تقدم أنه ﴿قَدَّ لَهُمَا يَهْرُؤًا﴾ [الاعراف: ٢٢]؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُلَّ لَيْنٍ أَنتَهِيكُمَا﴾ [الاعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه -. وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي الضحك، سمعت أبا هريرة يحدث، عن النبي ﷺ قال: ﴿إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، ما يقطعها وهي شجرة الخلد. ورواه الإمام أحمد. وقوله: ﴿فَأَسْكَلْنَا فِيهَا قَدَّتْ لَهَا سَوَاهِمُهَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته. فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة، فنازعها، فنازعها الرحمن: يا آدم، مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء، أرايت إن تبت ورجعت، أعاندي إلى الجنة؟ قال: نعم﴾ ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿١٢٦﴾. وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً. وقوله: ﴿وَطَيفًا بَيْنَهُمَا يَنْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهية الثوب. وكذا قال قتادة، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر، عن عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَطَيفًا بَيْنَهُمَا يَنْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سواتهما. وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٢٧﴾ ثم ﴿تَبَتَّ رَبُّهُ فَذَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى﴾ ﴿١٢٨﴾، قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني - أو: قدره الله عليّ قبل أن يخلقني - قال رسول الله ﷺ: ﴿فحج آدم موسى. وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: ﴿حج آدم موسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيتك؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: ﴿فحج آدم موسى. قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ أَعِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَبْنَاءَ اللَّهِ إِنَّكُمْ مَعِيَ مَدَى فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْفَى﴾ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٣٠﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٣١﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَسِيبَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْفِئُ﴾ ﴿١٣٢﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم. وقد بسطنا ذلك في سورة «البقرة». ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَأِمَّا يَا أَبْنَاءَ اللَّهِ إِنَّكُمْ مَعِيَ مَدَى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتتاساه وأخذ من غيره هداة، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: الشقاء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: كل مال أعطيته عبداً من عبادي، قل أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة. ويقال: إن

قوماً ضلّالاً، أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلقاً لهم معاشهم، من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله، وسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار. وقال سفيان بن عيينة، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةُ ضَنْكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. قال أبو حاتم الرازي: النعمان بن أبي عياش: يكنى أبا سلمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «ضمة القبر». الموقوف أصح. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجيرة - اسمه عبد الرحمن - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون في جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون». رفعه منكر جداً. وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حُجيرة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «المعيشة الضنك الذي قال الله تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «عذاب القبر». إسناده جيد. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: لا حجة له. وقال عكرمة: عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَرُ أو يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَوْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال كذلك أنك ما ابتأنا قسيبنا وكذلك اليوم نسئ ﴿١٢٧﴾ أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينسك، ﴿فَالْيَوْمَ نَسْفَعُكُمْ كُلًّا نَسُفًا لِيَاكَةً يَوْمَئِذٍ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتَرَعِّدًا عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن نفسه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجدم». ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عباد بن الصامت عن النبي ﷺ، فذكر مثله سواء.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَلَمُّ﴾ ﴿١٢٧﴾ .

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَمَّ عَذَابٌ فِي الْحُورِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَلَمُّ﴾ أي: أشد المأ من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَوْلَا كَيْفَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿١٣٠﴾ فَأَصْرِعْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ مَا بَيْنَ أُولَئِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لَمَّا وَقَفْتَ عَلَىٰ الْغَدَاةِ وَأَمَّا أَنْ تَلْعَلَّكَ رَمَضٌ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به يا محمد: كم أهلكتنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: العقول الصحيحة والالباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال في سورة «آلم السجدة»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [السجدة: ٢٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَيْفَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿١٣٠﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجأهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنيبه مسلماً له:

﴿فَأَسِرَّ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذبيهم لك، ﴿وَسَيَحِبُّ بَحْدَ رَبِّكَ بَلَّ طُلُوحِ السَّمْتَيْنِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَبَلَّ غُرُوبَهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن زُوَيْبَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به. وفي المسند والسنن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أذناه، وإن أعلاهم منزلة لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ». وقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: من ساعاته فتسجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل، ﴿لَمَلَكٌ رَّمَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ [الضحى: ٥٥]. وفي الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً». وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه». فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجونها، ويشغل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ زُرُقًا رَبِّكَ خَبِيرٌ وَأَنفِقْ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَسْطَرِ عَلَيْهَا لَا تَسْتَأْذِنُ رِزْقًا مِّنْ رَبِّكَ وَالنَّفِيسُ لِلنَّفْسِ﴾ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى لنبية محمد، صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرانهم، وما فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد أتاك الله خيراً مما أتاهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّنَائِبِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَكَفِيفٌ جَلَّالٌ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره تعالى لرسوله في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدِّد ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ [الضحى: ٥٥] ولهذا قال: ﴿وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَبِيرٌ وَأَنفِقْ﴾. وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين ألى منهن، فرأه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس في البيت إلا صُبْرَةٌ من قُرْظٍ، وأنب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عَجَلت طيباتهم في حياتهم الدنيا». فكان، صلوات الله وسلامه عليه، أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد. قال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله من زهرة الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض». وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني: زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: ﴿لِيَفْتَنَهُمْ بِهِ﴾. لنتبليهم. وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَسْطَرِ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِبُوا نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا وِرْقًا، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام - يعني: أهله - وقال: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَسْطَرِ عَلَيْهَا﴾. وقوله: ﴿لَا تَسْتَأْذِنُ رِزْقًا مِّنْ رَبِّكَ﴾ يعني: إذا أتمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ﴾ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا تَسْتَأْذِنُ رِزْقًا مِّنْ رَبِّكَ﴾ وقال الثوري: ﴿لَا تَسْتَأْذِنُ رِزْقًا﴾ أي: لا تكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنْ رَبِّكَ﴾ ثم يقول: الصلاة الصلاة، رحمكم الله. وقال ابن أبي

حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَوَانِي، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا، صلوا». قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر، فزغوا إلى الصلاة.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأث صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وروى ابن ماجه من حديث الضحك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الهموم همأً واحداً، همَّ المعاد، كفاه الله همَّ دنياه. ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك». وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عُمَر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همُّه، فزق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتبت له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». **﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ لِلْقَوِيِّ﴾** أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنما في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّجَ عَيْنَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخْزِنَ﴾** ﴿١٣٤﴾ **﴿قُلْ كُلُّ مُرْسِلٍ فَرِيسٌ فَتَرَى صَوْرًا مِمَّا سَمِعْتُمُوهُ مِنْ آيَاتِ الْبُرْجِ وَمِنْ أَنْفِكَ﴾** ﴿١٣٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: **﴿يَسْتَرْيِدُ وَلَا﴾** أي: هلا **﴿يَأْتِينَا﴾** محمد **﴿يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّهِ﴾** أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: **﴿أَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾** يعني: القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله، وهو أمي، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها، يُصدق الصحيح، ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** **﴿أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** ﴿٥١﴾ **﴿[العنكبوت: ٥٠، ٥١]﴾** وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيتها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه، ومقرر في مواضعه. ثم قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾** أي: لو أننا أهلكتنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: **﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾** قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: **﴿فَنُتِّجَ عَيْنَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخْزِنَ﴾**، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون **﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** ﴿١٣٧﴾ **﴿[يونس: ٩٧]﴾**، كما قال تعالى: **﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِمِثَارِكٍ فَأَتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** ﴿١٣٥﴾ **﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ مِنْ قِبَلِكُمْ وَإِن كُنَّا مِنْ قَبْلِكُمْ لَنُفِيكَ﴾** ﴿١٣٦﴾ **﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرَى الَّذِينَ يَصِدُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدُونَ﴾** ﴿١٣٧﴾ **﴿[الأنعام: ١٥٥-١٥٧]﴾** وقال: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ لَنَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ مِمَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾** ﴿١٣٨﴾ **﴿[طه: ٤٢]﴾** وقال: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُهُمْ إِنَّمَا إِذَا جَاءَتْهُمُ آيَاتُهُمْ لَيُؤْمِنُونَ﴾** ﴿١٣٩﴾ **﴿وَقَالُوا أَفَلَنُحْيِيهِمْ وَإِنصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَّوهُمْ فِي مَطْلَبَتِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾** ﴿١٤٠﴾ **﴿[الأنعام: ١٠٩، ١١٠]﴾** ثم قال تعالى: **﴿قُلْ﴾** أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده **﴿كُلُّ مُرْسِلٍ﴾** أي: منا ومنكم **﴿فَرِيسًا﴾** أي: فانتظروا، **﴿فَسَمِعْتُمُوهُ مِنْ آيَاتِ الْبُرْجِ وَالسَّوِيِّ﴾** أي: الطريق المستقيم، **﴿وَمِنْ أَنْفِكَ﴾** إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: **﴿وَسَوْفَ يَسْمَعُونَ جِبَّ بَرُونَ الْعَذَابِ مِنْ أَصْلُ سَيْلًا﴾** **﴿[الفرقان: ٤٢]﴾** وقوله: **﴿سَمِعْتُمُوهُ عَدَا مِنْ الْكُذَّابِ الْأَلِيمِ﴾** ﴿١٤١﴾ **﴿[الفرق: ٢٦]﴾**.

آخر تفسير سورة طه، والله الحمد والمنة.



سورة الأنبياء

وهي مكية. قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عُثْمَرُ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلاميذ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا بَأْيُهُمْ بَيْنَ ذِكْرِ مِن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَصْنَعُوهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا آتَيْنَاهُم فَلَا يَحْكُمُهُمْ أَتَشْرُونَ ﴿٢﴾ الْخَوَالِقَ كُلَّهَا أَعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْتَلِعُونَ فِي آيَاتِهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ اقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٤﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾﴾

هذا تنبيه من الله، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها. وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «في الدنيا»، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَجِيبُوا﴾ [النحل: 1]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَسْقَى الْقَمَرِ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُرْسُوا بَآيَةً يُرْسُوا وَيُحِرُّوا مُسْتَبِرًّا ﴿٢﴾﴾ [القم: ١، ٢]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

الْبُئْسَاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

ف قيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ وروى في ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الأمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾. ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا بَأْيُهُمْ بَيْنَ ذِكْرِ مِن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ﴾ أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَصْنَعُوهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَلَا يَحْكُمُهُمْ أَتَشْرُونَ﴾. كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حُرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابتكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. ورواه البخاري بنحوه. وقوله: ﴿وَأَشْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلَكُمُ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستعدون كونه نبياً؛ لأنه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَآتَى بَصِيرَتَهُ﴾ أي: أفتبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واخترقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعد. وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ اقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ و«أضغاث أحلام»، و«شاعر» به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفتري، كما قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيحًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩]. وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّكَ أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بَيْنَ الْأُولُونَ وَمَا نِنَّا نَمُودَ أَلْفَاةً مَبِيعَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: ما أتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن أبيه، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يُقْرَأُ بعضنا بعضاً القرآن، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول، ومعه نُمْرُقَةُ وَزَيْتِيَّةُ، فوضع وانكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جداً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة. فبكى أبو بكر، رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المناق. فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يقام لي، وإنما يقام لله ﷻ». فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المناق. فقال: «إن جبريل قال لي: أخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك، وفضيلته التي فضلت بها، فبشرني أني بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجن، وأتاني كتابه وأنا أُمِّي، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان وأيديني بالملائكة، وأتاني النصر، وجعل الرعب أمامي، وأتاني الكوثر، وجعل حوضي من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعو رؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب، وأتاني السلطان والملك، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم، فليس فوقني أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لي الغنائم، ولم تحل لأحد كان قبلنا». وهذا الحديث غريب جداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جندًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءِ وَأَمَلَكْنَا الشَّرِيفِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من أنكروا بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٤٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَنْتُمْ يَهُودُنَا﴾ [التغابن: ٢٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جندًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِذْ هُمْ يُسْئَلُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أي: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضر لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِقَ إِلَيْهِ كَثْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَشْهُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّكَ قَبْلَكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وخاصتهم أنهم يوحي إليهم من الله ﷻ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه مما يأمر به وينهى عنه. وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءِ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَمَلَكْنَا الشَّرِيفِينَ﴾ أي: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَآتٍ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا مِنْهَا قَوْمًا مَآخِرِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ نَبَأٌ وَإِذَا هُمْ بِنَبَأٍ يُكْفَرُونَ ﴿١٩﴾ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَثَّلُوا لَهُمْ كَمَا تَمَثَّلْتُمْ لَهُمْ قُلْ الْغَالِبِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ لَقَدْ دَعَوْتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْتَهُمْ حِجَابًا حَيْدِينَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَك وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَآتٍ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكشير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَدُونِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال

تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْ قَرِيبٍ عَلَيْنَا عَرْشُهَا وَيَوْمَ تُطَلَّوْهُ وَصَّرِ مُشِيدٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ٤٥].
 وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَدَاً فَوْماً آخِرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَسَاءً﴾ أي: يتقنوا أن العذاب واقع بهم، كما وعدهم
 نبيهم، ﴿إِنَّا هُمْ إِنَّمَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: يفرعون هاربيين، ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأُرْجِعُوا إِلَيْكَ مَا تَرْكَبْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾: هذا تهكم بهم نزرأ أي: قيل
 لهم نزرأ: لا تركضوا هاربيين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة. قال
 قتادة: استهزاء بهم. ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾، اعترفوا
 بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِثِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: ما زالت تلك المقالة، وهي
 الاعتراف بالظلم، هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخدمت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٨﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٩﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
 قِدْمَهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِنْ نَصِيفِهِ ﴿٢٠﴾ وَلَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿٢١﴾
 يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَبُوا أَن لَمْ يَسْتَقِ
 [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لَلَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾: قال ابن أبي نجیح، عن
 مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا
 حساباً. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم
 الثخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً﴾ من الحور العين. وقال عكرمة والسدي: المراد باللهو هاهنا: الولد. وهذا والذي قبله
 متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَكَ﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ
 الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزيز، أو الملائكة، ﴿سُبْحَانَكَ وَقَوْلُكَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
 كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٣]. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدي، وإبراهيم النخعي، وغيره بن مفسم، أي: ما كنا
 فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض
 الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد، ﴿وَمَا نَصِيفُونَ﴾
 أي: تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَكْبِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
 عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخِرْ لِي سَخِرْ لِي وَمَنْ يَجْعَلْ لِي جِيعًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَمَا
 يَسْتَحِيرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً
 وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَصْغُرُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا
 علي بن أبي ذلامه البغدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحَرِّز، عن حكيم بن
 حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال
 رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم
 يخرجوه. ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة مرسلأ. وقال أبو إسحاق، عن حسان بن
 محارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: رأيت قول الله للملائكة:
 ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أما يشغلهم عن التسيب الكلام والرسالة والعمل؟. فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من
 بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يا بني، إنه جعل لهم التسيب، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت
 تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

﴿أَبَرِ أَخَذُوا إِلَهُهُ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يَثِيرُونَ ﴿٢٣﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا وَسَبَّحَنَّ اللَّهُ رَبَّ الْأَرْضِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
 وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل ﴿أَخَذُوا إِلَهُهُ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يَثِيرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم
 من الأرض؟ أي: لا يقدرن على شيء من ذلك، فكيف جعلوا لله نداً وعبدوها معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود
 آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدِهِ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدِيمٍ يَمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُعْبَثُونَ ﴿٤١﴾ [المؤمنون: ٤١]، وقال ها هنا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ أَرْضِي عَمَّا يُعْبَثُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً. وقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿تَوَرَّكْتَ لَسْتَانَهُمْ أَمْرًا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْجِزُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ نَعَىٰ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَمَقًّا فَعِمُّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٤٦﴾ يقول تعالى: بل ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ما تقولون، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ نَعَىٰ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٤٦﴾ كما قال: ﴿وَسْتَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يبرهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يُعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ بَيْنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنْ يَجزيه جَهَنَّمُ كَذَلِكَ يَجزي الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يُعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُمْ بَيْنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي: مع الله، ﴿فَذَلِكَ يَجزيه جَهَنَّمُ كَذَلِكَ يَجزي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ لَأَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِلَنَّ عَنَّا﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَرْمُونُ﴾ ﴿٥٢﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشركه به ما سواه، ألم يروا ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا﴾ أي: كان الجميع متصلاً ببعضه بعض متلاصق مترام، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فامطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَرْمُونُ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فِي يَوْمِ كُلِّ شَيْءٍ لِنَا آيَةٌ نُنْزِلُ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَاحِدٌ
قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: رأيتهم السموات والأرض حين

كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض **﴿كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾** ؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق - هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت. وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: **﴿الْأَرْضَ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا﴾**، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين. وقال سعيد بن جبيرة: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن، وقاتدة، كانا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾** أي: أصل كل الأحياء منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قرت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئتني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئتني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة سلاماً». ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبهز، عن همام. تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبي عزوبة، عن قتادة مرسلًا، والله أعلم. وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾** أي: جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: **﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾** أي: لئلا تميد بهم. وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا وَجَعَلْنَا فِيهَا سُبُلًا﴾** أي: نغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ ولهذا قال: **﴿لَمَكَّنْهُمْ سُبُلًا﴾**. وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَاءً﴾** أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: **﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِي رَبِّهَا وَإِنَّا لَمُؤَيَّدُونَ﴾** [الذريات: ٤٧]، وقال: **﴿وَأَسْمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾** [الشمس: ٥]، **﴿أَفْتَرَى بَطُورًا إِلَى السَّمَاءِ قُوفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾** [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، على ما تعهده العرب. **﴿تَحْفُوظًا﴾** أي: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث - يعني ابن إسحاق القمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال رجل: يا رسول الله، ما هذه السماء، قال: «موج مكفوف عنكم» إسناد غريب. وقوله: **﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾**، كقوله: **﴿وَكَاذِبِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** [يوسف: ١٠٥] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلاها، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذي قدرها وسخرها وسيرها. وقد ذكر ابن أبي الدنيا، رحمه الله، في كتابه «التفكير والاعتبار»: أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلمت غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يا بني، فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا، ولا هممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا آيتي.

ثم قال منها على بعض آياته: **﴿وَمَوْأَدَى حَقِّ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ﴾** أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر. **﴿وَاللَّسَّ وَالْقَمَرَ﴾**، هذه لها نور يخصها، فلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير

خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالْقَائِلُ الْأَمْسِجَاجُ وَيَجْمَلُ أَيْدِلُ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَاتًا ذَلِكَ تَقْوِيرُ الْمَرْيَمِ الْكَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفْأَيْنَ مِنْ فَهْمُ الْخَلْدِ﴾ [٢٤] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكم بِالشَّرِّ وَالْفَقِيرُ فَتَنَةٌ وَإِنَّا نُرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ .
يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفْأَيْنَ مِنْ فَهْمُ الْخَلْدِ﴾ أي: يا محمد، ﴿الْخَلْدُ﴾ أي: في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٢٦] وَمَنْ وَجَّهَ رَبُّكَ ذُو الْمَقَالِ وَالْإِكْرَارِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس يحيى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾. وقوله: «أفان مت» أي: يا محمد، ﴿فَهْمُ الْخَلْدِ﴾؟! أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روي عن الشافعي، رحمه الله، أنه أشهد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَنَّى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أُمْتُ فَتَلِكُ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَزْجِدُ
نَفْسٌ لَلَّذِي يُبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى: نَهْيًا لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَانَ قَدْ

وقوله: ﴿وَبَلَّوكم بِالشَّرِّ وَالْفَقِيرُ فَتَنَةٌ﴾ أي: نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَبَلَّوكم﴾، يقول: نتبليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال. وقوله: ﴿وَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخْذَرُكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَمَنْ يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٢٦] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢٧﴾ .

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَخْذَرُكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ﴾ يعنون: أهذا الذي يسب أهلكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَىكَ إِنْ يَخْذَرُكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَمُنُّ بِاللَّهِ رَسُولًا﴾ [٢٨] إِنْ كَادَ لَيْبَسُنَا عَنْ الْهَيْكَلِ لَوْلَا أَنْ مَبْرَأْنَا عَلَيْهِمْ وَمَوْفَقَ يَمْلُونُ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جَمُولًا﴾ [الإسراء: ٤١] أي: في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار، من يوم خلق الخلاق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله قال: يا رب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وقبض أصابعه قلأها - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [٢٧]. والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُعْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ رَدْمًا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكديباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨]، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن

تحت أرجلهم، ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ قَتْمِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الاعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَنَشْنَشَىٰ وَوُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي: «تأتيهم النار بغتة»، أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تدعهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَسْنَبْنَا يُرُشَلِيمَ بَيْنَ قَيْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١١] ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [١٢] ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [١٣].

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَبْنَا يُرُشَلِيمَ بَيْنَ قَيْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١١] يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَمُ فَمَرًّا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ؟﴾ أي: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمُرْقُوقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتُقَا
أي: لم تذوق بدل البقول الفستق. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكفلهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [١٣] قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يجارون، وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يمتنون.

﴿بَلْ مَعَنَّا هَوَالِدٌ وَآبَاءٌ لَهُمْ حَقٌّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَنهَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [١٤] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْرِكُمُ الْوَعْدُ بِالْوَعْدِ وَلَا يَسْمَعُ الضُّعْفُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [١٥] ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِتَقُولُوا لِنَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٦] ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [١٧].
يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْفَرِّقِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٢٧] [الاحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعترفون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخرسون الأردلون. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْرِكُمُ الْوَعْدُ بِالْوَعْدِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الضُّعْفُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِتَقُولُوا لِنَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٦] أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٥] [النساء: ٤٠] وقال لقمان: ﴿يَبْنِيْهَا إِنَّمَا تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنُ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [١٦] [لقمان: ١٦]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟ قال: فيبته الرجل فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء» بسم الله الرحمن الرحيم». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، به، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن أبي عمير، عن عمرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع ما أحصى عليه، فتمايل به الميزان» قال: «فيبعث به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا صاح من عند الرحمن ﷻ يقول: «لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح قراد، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين، يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأضربهم وأشتهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك عليهم، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي يبقى قبلك». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ماله أما يقرأ كتاب الله؟» «وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكْفٌ بِمَا حَسِبْتَ» ﴿١٧﴾. فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكًا وَذَكَرًا لِلنَّاسِ آيَاتٍ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذَكَرَ مُبَارَكُ أَرْزَلُهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكُونُوا ﴿٥٠﴾﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكًا وَذَكَرًا لِلنَّاسِ آيَاتٍ﴾. قال مجاهد: يعني: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعني: النصر. وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيكًا وَذَكَرًا لِلنَّاسِ آيَاتٍ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة. ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ وَرَبَّهُ بِالْغَيْبِ﴾، ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون. ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذَكَرَ مُبَارَكُ أَرْزَلُهُ﴾ يعني: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكُونُوا﴾ أي: أفتكفرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الصَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا آيَاتُ مَا هِيَ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم - فعامتها

أحاديث بني إسرائيل - فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك ردناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبيتته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيه من تضییع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة. والمقصود ها هنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشه من قبل، أي: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ أي: وكان أهلاً لذلك. ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله، ﷻ، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصم بن نباتة، قال: مر علي، على قوم يلعبون بالشرطنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لا يمس صاحبكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسه. ﴿قَالُوا وَيَدَّنا يَا أَبَانَا مَا لَنا عِيْدِيكَ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيتهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم. فلما سفه أحلامهم، وضل آباءهم، واحترق ألبتهم ﴿قَالُوا أَلَمْ نَجِدْنا يَلْحَقْنا بِنا أَنْتُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محققاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَلْ زَكَّرْنا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَ ذِكْرٍ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ قَوْلُوا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَعَمَلُهُمْ جُدًّا إِلا كَبِيرًا لَمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَكَيْنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِنا أَن تَأْتِيَهُمْ بَشِيرَةٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَتَلَتْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا ابْنِ إِسْرَائِيلَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوَهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٦٣﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذهام وتكسيهم بعد أن يولوا مدبرين، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إني سقيم، فجعلوا يمزون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكُمْ﴾ فسمعه أولئك. وقال أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ قَوْلُوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم. وقوله: ﴿فَعَمَلُهُمْ جُدًّا﴾ أي: حطاماً كسرها كلها ﴿إِلا كَبِيرًا لَمْ يَعْني﴾ إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرِيًّا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٦٢﴾ [الصافات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَكَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتَى﴾ أي: شاباً ﴿يَذُكُرُهُمْ يُقالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِنا أَن تَأْتِيَهُمْ بَشِيرَةٌ﴾. وقوله: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِنا أَن تَأْتِيَهُمْ بَشِيرَةٌ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَتَلَتْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا ابْنِ إِسْرَائِيلَ﴾ قال بل فَعَلَهُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَتَنَّاوَهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿بَلْ نَحْكُمُكُمْ عَلَيْهِمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَمِيمٌ﴾، قال: «وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاه، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألتني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي. فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مَتَيْمٌ؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر» قال محمد بن سيرين: وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فلتك أمكم يا بني ماء السماء.

﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَعَلُوا أَتْيَهُمْ فَكَالُوا أَدْمُومًا ۖ كَذِبًا لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَيْهِ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَتَعْتَبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۗ أَيُّ لَوْ كَرِهْنَا لَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحرصاتهم لألهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَيْهِ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ﴾. وقال السدي: ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَيْهِ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي. وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ﴾، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَتَعْتَبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أَيُّ لَوْ كَرِهْنَا لَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم

الحجة، وأزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ حُجَّتَنَا تَأْتِيهَا بِنُورٍ عَلَى قَوْمٍ﴾ [الأنعام: ١٢٣].
﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا يَبْنَؤُا كَوْفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٨﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

لما دحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. فجمعوا حطباً كثيراً جداً - قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتندر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم - ثم جعلوه في جوبة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن - فحسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. وقال شعيب الجبائي: كان عمره ست عشرة سنة. فإله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله قبلي. وقال سعيد بن جبيرة - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أوامر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله ﷻ: ﴿يَنبَأُ كَوْفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: لم يبق نار في الأرض إلا لطفنت. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُا كَوْفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٨﴾

قال: بَرَدَتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَقْتَلُهُ، حَتَّى قِيلَ: ﴿وَسَلَّمْنَا﴾، قَالَ: لَا تُضْرِبُهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَبُو الْعَالِيَةِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: ﴿وَسَلَّمْنَا﴾ لَأَدَّى إِبْرَاهِيمَ بَرْدُهَا. وَقَالَ جُوَيْرِرٌ، عَنِ الضَّحَّاكِ: ﴿كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ قَالَ: صَنَعُوا لَهُ حَظِيرَةً مِنْ حَطَبٍ جَزَلٍ، وَأَشْعَلُوا فِيهِ النَّارَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَصْبَحَ وَلَمْ يَصِبْهُ مِنْهَا شَيْءٌ حَتَّى أَخْضَعَهَا اللَّهُ. قَالَ: وَيَذْكُرُونَ أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ مَعَهُ يَمْسَحُ وَجْهَهُ مِنَ الْعَرَقِ، فَلَمْ يُعِيبْهُ مِنْهَا شَيْءٌ غَيْرَ ذَلِكَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ مَعَهُ فِيهَا مَلِكُ الظِّلِّ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا يَوْسُفُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا مِهْرَانٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَخْبَرْتُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَلْقِيَ فِي النَّارِ، فَقَالَ: كَانَ فِيهَا إِمَّا خَمْسِينَ وَإِمَّا أَرْبَعِينَ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَيَّامًا وَلِيَالِي قَطُّ أَطِيبَ عَيْشًا إِذْ كُنْتُ فِيهَا، وَدَدْتُ أَنْ عَيْشِي وَحَيَاتِي كُلُّهَا مِثْلَ عَيْشِي إِذْ كُنْتُ فِيهَا. وَقَالَ أَبُو رُزَيْعَةَ بْنُ عَمْرٍو بْنُ جَرِيرٍ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: إِنَّ أَحْسَنَ شَيْءٍ قَالَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ - لَمَّا رَفَعَ عَنْهُ الطَّبِيقَ وَهُوَ فِي النَّارِ، وَجَدَهُ يَرْشَحُ جَبِينَهُ - قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: نَعْمَ الرَّبُّ رَبُّكَ يَا إِبْرَاهِيمَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَأْتِ يَوْمَئِذٍ دَابَّةٌ إِلَّا أَطْفَأَتْ عَنْهُ النَّارَ، إِلَّا الْوَزْغَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ وَسَمَاهُ فَوْسِقًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنُ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنِي عَمِّي، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، أَنَّ نَافِعًا حَدَّثَهُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَوْلَاةُ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغْبِرَةِ الْمُخَزُومِيَّةِ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَرَأَيْتُ فِي بَيْتِهَا رَمْحًا. فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا الرَّمْحِ؟ فَقَالَتْ: نَقُتِلُ بِهِ هَذِهِ الْأَوْزَاعَ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَلْقِيَ فِي النَّارِ، لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا تَطْفِئُ النَّارَ، غَيْرَ الْوَزْغِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفِخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، فَأَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ.

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِوَيْهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧١) أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بني النبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك. وقال عطية العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفية.

﴿وَيَجْنَيْتُهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧٢) وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ يَا مَرْيَمُ وَأَرْحَمْنَا إِلَيْهِمْ فَقَدِ الْأَعْيُنَ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبْدِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْطًا ءَأَيْنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعْنَاهُ مِنْ الْقُرْبَى الَّتِي كُنْتَ تَعْمَلُ الْفَبْتِخِثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَسَيَقِينُ ﴿٧٥﴾ وَأَدَخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص في الشام زيد في فلسطين. وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال. وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: إلى حران. وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حران، وقد طمعت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها. رواه ابن جرير، وهو غريب. والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده. وقال العوفي، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٢٥) [آل عمران: ٩٦].

وقوله: ﴿وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية. وقال ابن عباس، وقَتَادَةُ، والحكم بن عُيَيْنَةَ: النافلة ولد الولد، يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَكَلَّا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مرد: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٥١) [الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة. ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ يَا مَرْيَمُ﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَرْحَمْنَا إِلَيْهِمْ فَقَدِ الْأَعْيُنَ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عِبْدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط - وهو لوط بن هاران بن آزر - كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّاهُ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْثٍ﴾ [النكبت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فاهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعْنَاهُ مِنْ الْقُرْبَى الَّتِي كُنْتَ تَعْمَلُ الْفَبْتِخِثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَسَيَقِينُ وَأَدَخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

﴿وَوُجُوهٌ إِذْ كَادَتْ مِنْ قَبْلٍ أَنْ تَسْتَحْسِبْنَ لَهُمْ نَجَاتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَصَرَّهِنَّ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿٧٦﴾﴾ [القمr: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٦﴾﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُسَلِّطُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ كَادَتْ مِنْ قَبْلٍ أَنْ تَسْتَحْسِبْنَ لَهُمْ نَجَاتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. قوله: ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه. وقوله: ﴿وَصَرَّهِنَّ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناها وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حَاكِمًا وَعَلَّمَا سَخِرَانَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطُّيُورَ وَكُنَّا لِعَمَلِهِمْ تَحِيَّاتًا ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَوِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَمْلُوكُنَّ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ .

قال أبو إسحاق، عن مروة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرت كرمًا قد نبئت عناقيده. وكذا قال شريح. قال ابن عباس: الثُّغُشُّ: الرعي. وقال شريح، والزهرى، وقتادة: الثُّغُشُّ بالليل. زاد قتادة: والهمل بالنيهار. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قالا: حدثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مروة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، حدثنا خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم داود بالغنم لأصحاب الحرت، فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرت، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويؤدر أصحاب الغنم لأهل الحرت مثل حرتهم، فإذا بلغ الحرت الذي كان عليه أخذ أصحاب الحرت الحرت وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج، عن أبي إسحاق، عن مروة، عن مسروق قال: الحرت الذي نفشت فيه الغنم إنما كان كرمًا نفشت فيه الغنم، فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمره حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يُعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم. وهكذا قال شريح، ومروة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برىء صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضامن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ﴾ الآية. وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حزام بن مَحِيصَةَ؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنيهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد عُثِلَ هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حَاكِمًا وَعَلَّمَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى آتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة:

رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتِنَا فَأَرْسَلْنَا فِيهِ غَمِّ الْقَوْرِ وَكُنَّا لَهُنَّ حَكِيمِينَ شَهِيدِينَ﴾ (٧٨)، فأنسى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعني: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترتون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا نَهَىٰ عَنْهَا وَلَا يَخْشَىٰ فِيهَا أَحَدًا﴾ (٧٦) وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَالْخَشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم. وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار. وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا علي بن حفص، أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، ففرض به للكبرى، فخرجتا. فدعاها سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنتها، لا تشقه، ففرض به للصغرى». وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء: (باب الحاكم يوم خلاف الحكم ليستعلم الحق).

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس - فذكر قصة مطولة ملخصها -: أن امرأة حسنة في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه ولدان، مثله، فانتصب حاكماً وتزياً أربعة منهم بزى أولئك، وآخر بزى المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فورهم بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويماً؛ ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود». قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنّج ولا بربط ولا مزار مثل صوت أبي موسى، رضي الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتي مزامراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْيِيَكُمْ مِنْ ظُلْمٍ﴾ يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً. كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُدِيدُ أَنْ أَتَمَّلَ سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أي: لا توسع الحلقة فتلتق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقذ الحلقة؛ ولهذا قال: ﴿لِيُحْيِيَكُمْ مِنْ ظُلْمٍ﴾ يعني: في القتال، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم. وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾ يعني أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكَّاءً حَيْثُ أَسَآبَ﴾ [ص: ٣٦]، وقال: ﴿عُدُوهُمْ شَرٌّ وَّوَلَّأُهَا شَرًّا﴾ [سبأ: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبيرة قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فنظلمهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷻ. وقال عبد الله بن

عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتمع كالطُود العظيم، كالجيل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفُرس من ذوات الأجنحة، فترفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطء رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالاً، تعظيماً لله ﷻ وشكراً لما يعلم من صغرها هو فيه في ملك الله تعالى حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه.

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُوَسْوِسُ لَكُمُ أَي: في الماء يستخرجون اللآلئ وغير ذلك. ﴿وَيَسْأَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ مَنَّا وَعَوَايِسٌ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ (ص: ٣٧، ٣٨). وقوله: ﴿رَكْنَا لَهُمْ مَحْفُوظِينَ﴾ أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحَكَّم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾. ﴿وَأُورِي إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسَى الْفَسْرُ وَأَتَىٰ أَرْحَمَ الرَّحِيمِ ﴿٣٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا يَبْغِي مِنْ سُورٍ وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُم مَّمَّهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْمُذِنِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرح شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلى في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى في جسده - يقال: بالجدام - في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله ﷻ حتى عافه الجليس، وأقرذ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل» وفي الحديث الآخر: «يبلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه». وقد كان نبي الله أيوب، عليه السلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني. قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب، عليه السلام: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبي حاتم. وقد ذكر عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول.

وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهرًا، تلقى على كُتاسة بني إسرائيل، تختلف الدواب في جسده ففرج الله عنه، وعظّم له الأجر، وأحسن عليه الثناء. وقال وهب بن منبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدي: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل الله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما نصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وآخرين، فأتاهما فقال: أخوكم أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أَرْضِكَمَا، فإنه إن شرب منه بَرَأَ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا: نحن فلان وفلان! فرحب بهما وقال: مرحباً بمن لا يحفوني عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يعلم، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه بَرَأْتَ. قال: ففضب وقال: جاء كما الخبيث فأمر كما بهذا؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علي حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصاً، وكان ابنهم نائماً، فكهوا أن يوقظوه، فوهبه لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: ففعل الصبي قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله. فانطلق به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فطاحتها شاة لهم، فقالت: تمس أيوب الخطاء! فلما سعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكي على أهله، لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب. فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاه في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد

طال سُقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بني فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. لله عليّ إن برأت أن أجلك مائة جلدة. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً كثيراً فأنت به أيوب، فلما رآه أنكروه وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فاطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأنت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها مخلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه ﷻ: ﴿إِنِّي مَسْنِيٌّ فَصُرُّ وَاتَّ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نَوْفِ الْبِكَالِيِّ؛ أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له: «سوط»، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاء يوماً، فلم يستطيعوا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجعز أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبهان وأنا أعلم مكان جانح، فصدقتني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فصدقتني. فصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم بعزتك، ثم خر ساجداً، ثم قال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني. فما رفع رأسه حتى كشف عنه. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيْلِ، عن الزهري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أحص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّمْ - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج في حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى أيوب في مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب». رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذي كان هاهنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد ردّ الله علي جسدي. وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عياناً، ومثلهم معهم. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاك، وقرب عن صاحبك قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نُهَيْك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله في ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب، أما تشيع؟ قال: يا رب، ومن يشيع من رحمتك». أصله في الصحيحين، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَمَا كَيْفَ تَأْتِيهِمْ سَاعَةٌ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً. وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقاتدة. وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد التَّجَمُّعَ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساکر في تاريخه - رحمه الله تعالى - قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مَسْنَأَ بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البَتِّيَّة. وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهللك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل

اتركهم لي في الجنة. فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: أوتي أجرهم في الآخرة، وأعطي مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مطرفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم. وهكذا روي عن قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿ذَحَّةٌ مِّنْ عَيْنِنَا﴾ أي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَوَكَّرْنَا لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدرات الله وإبتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدَخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وقال ابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لئني قومه أن يكفبه أمر قومه وقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي: ذا الكفل، وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل مني بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردم ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك، قال: دعوني وإياه، فاتاه في صورة شيخ كبير فقير، فاتاه حين أخذ مضجعه للقائلة. وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النوم. فذق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا بي وفعلوا. وجعل يطول عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال: إذا رحمت فأتني أخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس، وينتظره ولا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فذق الباب، فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا تعدت فأتني؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدوني. قال: فانطلق، فإذا رحمت فأتني. قال: ففاته القائلة، فراح فجعل ينتظره ولا يراه، وشق عليه التعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق عليّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إني قد أتيتك أمس، فذكرت له أمري، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت، فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم أمرك؟ فقال: أما من قبلي والله فلم توت، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعيبتني في كل شيء، ففعلت ما تَرَى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض في بني إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامي على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمي ذا الكفل. قال: فكان ليله جبيعاً يصلي، ثم يصبح صائماً يقضي بين الناس. قال: وله ساعة يقبلها. قال: فكان كذلك، فاتاه الشيطان عند نومه، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبن عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ. قال: وهو فوق نائم. قال: فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فقل الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا تعده ينام؟. فجعل يصيح: من أجل أنني إنسان مسكين، لو كنت غنياً؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني. قال: امش حتى أجيء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففر.

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان - يعني: في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل. وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعري: . . . فذكره منقطعاً، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «كان الكفل من بني إسرائيل، لا يتوزع من ذنب عمله، فأنته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً، على أن يطأها، فلما تعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة. قال: فتضلعين هذا ولم تفعليه قط؟ فنزل فقال: اذهبي فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل». وهكذا وقع في هذا الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَدَا الثُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُنْضِبًا فَلَمْ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِجْنَاهُ مِنَ الْقَدْرِ وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة «الصفات»، وفي سورة «ن» وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى قرية «نينوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا من ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله ﷻ، وجأروا إليه، ورجت الإبل وفُضلاتها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُملائها، فرجع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَكَا ءَامِنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُّهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٩٨]. وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقيه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿سَأَلَهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الصفات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تاكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: ﴿وَدَا الثُّونَ﴾ يعني: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُنْضِبًا﴾: قال الضحاک، لقومه، ﴿فَلَمْ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاک، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِقْمٌ فَلْيَبْقُ بِمَا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَدَلًا عَسِيرًا مِمَّا﴾ [الطلاق: ٤٧]. وقال عطية العوفي: ﴿فَلَمْ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب، تقول: قدر وقدر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

فَلَا عَائِدَ ذَلِكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى تَبَارَكَتْ مَا تَقْدِرُ يَكُنْ، فَلَيْكَ الْأَمْرُ
ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى أَلَمًا عَلَىٰ أَمْرِ قَدِيرٍ﴾ [الفر: ١٢]، أي: قدر. وقوله: ﴿فَكَادَ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روي عن ابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والضحاک، والحسن، وقاتدة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت، في ظلمة البحر. قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ .

وقال عوف: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع ما اتخذته أحد. وقال سعيد بن الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جبير. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحمًا ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم». قال: «شفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ سَيِّئٌ﴾ [الصفات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير، ورواه البزار في مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي مرفوعاً: لا ينبغي لعبد أن يقول: «أنا خير من يونس بن متى»؛ سبح الله في الظلمات. وقد روي هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدنا في سورة «ن». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي: حدثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أن يونس النبي، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: لا، يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرْفَعُ له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب، أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجي من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَوْنَا مَبِينِينَ لَيْنَا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد، - وهو ابن أبي وقاص - قال: مررت بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، في المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه مني ثم لم يرُذِّدْ عليَّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذلك؟ قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه مني، ثم لم يرُذِّدْ عليَّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدْتَ عليَّ أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أخذت نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرت قط إلا تُعَشَى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشقها، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشقها. قال: «نعم، دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». ورواه الترمذي، والنسائي في «اليوم واللييلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعني: ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استجيب له». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكَّار الكَلَاعِي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى، دعوة يونس بن متى». قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﷻ ﴿تَسَاءَلُونَ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا تَسْتَعِينُ﴾ إني كنتُ من الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْتَهُ مِنَ الْغَيْبِ وَكَذَلِكَ نُصَيِّحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٨﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريح، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قُحْذَم المقدسي، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿التَّوْبِينَ﴾﴾ ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

﴿وَرَكِبْنَا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿١٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبياً. وقد تقدمت القصة ميسوطة في أول سورة «مريم» وفي سورة «آل عمران» أيضاً، وما هنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا أَي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت. وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان في لسانها طول فأصلحها الله. وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدي. والأظهر من السياق الأول. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في عمل القُرْبَاتِ وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و ﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سبتان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَشِيعِينَ﴾ أي: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أي: متذللين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضي الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وثُثُوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرغبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أنشئ على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِكَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩١﴾﴾

هكذا قرآن تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك موطنه لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة «آل عمران» وفي سورة «مريم»، وما هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا﴾ يعني: مريم، عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا﴾ [التحريم: ١٢٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٩٧﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن شبيب - يعني: ابن بشر - عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِسْنَةٍ رَجُوعٌ ﴿١٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿١٩٤﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري؛ في هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَجِدَّةٌ ﴿٩٥﴾ أي: ستكنم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن وأسمها، و﴿أَمْتَكُمْ﴾: خبر إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ﴾: نصب على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كَلِمًا مِّنَ السَّيِّئَاتِ وَعَمَلًا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٩٧﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد علاتٍ ديننا واحد»، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿يَكُلِّي جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُنَّ مَا هِيَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَنَقَطَعُوا أَرْهَامَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾: أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجُومٌ﴾: أي: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ مِّنَ الصَّالِحَاتِ يَرَهُ﴾ [الكهف: ٢٠]؛ أي: لا يخفى سعيه، وهو عمله، بل يُشكر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا لَهُ كَاتِبُونَ﴾: أي: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَدِّمُوا عَلَى قَرِيْبِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٨﴾ حَقَّتْ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٩﴾ وَأَقْرَبَ آلَؤُدَى الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شِخْمَةٌ أَصْبَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْمِنُونَ قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَدِّمُوا عَلَى قَرِيْبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعني: قدراً مقدراً أن أهل كل قرية أهلوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقادة، وغير واحد. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿أَنْتُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي: لا يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿حَقَّتْ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين. وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلَةٌ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْثَتُهُمْ جَمًّا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقَّتْ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٩﴾﴾: أي: يسرعون في المشي إلى الفساد. والحَدَبُ: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كان السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يَبْيِثُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا يتزود بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج.

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد المخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فيخرجون كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: «ثم يهزأ أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مَخْتَضِبَةً دماً؛ للبلاء والفتنة. فيبيناهم على ذلك إذ بعث الله ﷻ دوداً في أعناقهم كَنَفَجِ الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم جس، فيقول المسلمون: ألا رجل يُشْري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسباً نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسْرِحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كأحسن ما شُكِرَتْ عن شيء من النبات أصابته قط. ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي - قاضي حمص - حدثني عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فَحَفَّضَ فِيهِ وَرَقَع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحْنَا إليه

عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل . فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب جعد قَطَط عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعات يميناً وشمالاً، يا عباد الله اثبتوا». قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكنيفنا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، أقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «يمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت دُزَى، وأمدّه خواصر، وأسبغه ضروعاً. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمحلين، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيما سيب النحل».

قال: «ويأمر برجل فيُقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمِيَّةَ العَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلل وجهه. فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله ﷺ المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ واضعاً يَدَهُ على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُد الشرقي». قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله ﷻ إلى عيسى ابن مريم: أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَوِّزْ عبادي إلى الطور، فيبعث الله ﷻ ياجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿وَمِن كُلِّ حَدْبٍ يَسْلُوكُ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله ﷻ، فيرسل الله عليهم نَعْفًا في رقابهم، فيصبحون فَرَسَى، كموت نفس واحدة. فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملاء زَهْمُهُم وتَنَنَّهُم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُحْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله». قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السُكْسَكِي، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمُهَيْل. قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المُهَيْل؟ قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يَكُنْ منه بيت مَدَر ولا وِبَر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَلَقَةِ، ويقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وُردي بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمان ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى إن اللَّفْحَةَ من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللَّفْحَةَ من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت». قال: «فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله ﷻ ريحاً طيبة تحت آباطهم، ففقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حَزْمَلَةَ، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرَب، فقال: «إنكم تقولون: لا عدو، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً، حتى يأتي ياجوج ومأجوج عراض الوجوه، صفار العيون، ضُهَبُ الشُعاف، من كل حَدْب ينسلون، كأن وجوههم المَجَان المَطْرَقَة». وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حَزْمَلَةَ المدلجي، عن خالته، عن النبي ﷺ، فذكره مثله.

الحديث الرابع: قد تقدم في تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْمِ، عن العَوَام، عن جَبَلَةَ ابن سُحَيْمِ، عن مؤثر بن عَفَّازَةَ، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. قال: «ومعي قضيبان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رأني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافرأ، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فغند ذلك يخرج ياجوج ومأجوج وهم من كل حَدْب ينسلون، فيطوون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلي يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من تنن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم في البحر. فبينما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المَيِّم، لا يدري أهلها متى تَفْجُؤُهُم بولادها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَام بن حَوْشَب، به، نحوه

وزاد: «قال العوام، ووجد تصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُجِعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾». ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به. والأحاديث في هذا كثيرة جداً، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث معمر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجىء غداً فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم بقول: نجىء غداً فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقدم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مخصبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يدين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمنابرها فتلقبهم في البحر، ويبعث الله عيناً يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشع منها الشكن». قيل: وما الشكن يا كعب؟ قال: أهل البيت - قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصرخ إن ذا السويقتين يريدك». قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس، فيستأفدون كما تستأفد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي هذا شيئاً - أو بعد علمي هذا شيئاً - فهو المتكلف. هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار. وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحْجِرَنَّ هَذَا الْبَيْتَ، وَلِيُخْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ». انفرد بإخراجه البخاري. وقوله: «وَأَقْرَبَ الزَّوْعَدَ الْحَقُّ» يعني: يوم القيامة، إذا وجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: «هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ» [القم: ٢٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَنْفَرُوا مِنَهَا لَأَنْتُمْ كَأَنَّكُمْ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَتَوَلَّوْنَآ﴾ أي: يقولون: ﴿يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَوَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَوَاآءَ آلهةَ مَا وَدَّعَهَا وَكَلَّ فِيهَا مَخْلُودِينَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَلَيَقْنَهُنَّ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٢٦]. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفي رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: حطب جهنم، بالزنجية. وقال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة: حطبها. وهي كذلك في قراءة علي وعائشة - رضي الله عنهما. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَوَدُونَ﴾ أي: داخلون، ﴿لَوْ كَانَتْ هَوَاآءَ آلهةَ مَا وَدَّعَهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكَلَّ فِيهَا مَخْلُودِينَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنّافسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد الرحمن - يعني: المسعودي - عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار، جُعلوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خباب، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُولَٰئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله

السعادة، وأسفلوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لَّذِينَ آمَنُوا لَتُضَاعَفْ أَجْرُهُمْ سَعَةً عَمَّا يَحْسَبُونَ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً﴾ أي: حريقها في الأجساد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريري، عن أبي عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً﴾، قال: حيات على الصراط لتسمعهم، فإذا لتسمعهم قال: حَسَنَ حَسَنَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحجوب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيْج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن ليث بن أبي سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال- وسَمَرُ مع علي ذات ليلة، فقرا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [١١١] قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم- أو قال: سعد منهم- قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجز ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً﴾. وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المكِّي، عن محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: عثمان وأصحابه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد- وليس بابن مالهك- عن محمد بن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عثمان منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [١١١]: فأولئك أولياء الله يعمرون على الصراط مرأ هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً. فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عُزَيْرُ والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فيقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: نزلت في عيسى ابن مريم وعزير، عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمغ، عن علي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعزير، والملائكة. وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روي عن سعيد بن جبَّير، وأبي صالح وغير واحد. وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّحَاطِي، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبي سليم، عن مُغِيث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [١١١] قال: عيسى، وعزير، والملائكة.

وذكر بعضهم قصة ابن الزُّبَيْرِ ومناظرة المشركين، قال أبو بكر بن مَرْذُوبِ: حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم - يعني: ابن أبان - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبير إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [١١١]، فقال ابن الزبير: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة، وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع الهنأ؟ فنزلت: ﴿وَلَكَّا حَرِيبٌ إِنَّ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ [١١٧] وقالوا: ألهتنا خير أم هو ما صرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُوَ قَوْمٌ حَصُونُ [١١٨]، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [١١١]. رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه «الأحاديث المختارة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة بن عبة، حدثنا سفيان - يعني: الثوري - عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [١١١] قال المشركون: فالملائكة، وعزير، وعيسى يُعْبَدُونَ من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ آلِهَةٍ مَّا وَرَدُوهُآءَ﴾، والآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وروي عن أبي كُدَيْبَةَ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [١١١].

وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، في كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله - فيما بلغني - يوماً مع الوليد بن

المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٠٤) إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفأ ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لأخصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس، من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته». وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿١٠٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: عيسى وعزير ومن عبدوا من الأبحار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٠٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَقْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿١٠٩﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَاصِمُونَ ﴿١١٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَمْشُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِنَّمَا لِمَنْ لَشَاءَ فَلَا تَحْتَرِكْ فِيهَا﴾ [الزخرف: ٥٧-٦١] أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَحْتَرِكْ فِيهَا وَتَأْتِيُونَهَا هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]. وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعبادها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما، ممن له عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبده. وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجي المسلمين أولاً، ثم قال معتدراً:

يَا زُسُولَ الْمَلِيكِ، إِنَّ لِسَانِي
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ النَّبِيِّ
وَمَنْ مَالٌ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ
رَاتِقٌ مَا فَتَنَفْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النسخة في الصور. قاله العوفي عن ابن عباس، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يُؤمر بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصري. وقيل: حين تُطبق النار على أهلها. قاله سعيد بن جبير، وابن جريج. وقيل: حين يُدبَح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلي، فيما رواه ابن أبي حاتم، عنه. وقوله: ﴿وَنَلَقْنَهُمْ أَلْحَبَكَةً هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: قابلوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كُلِّي السَّجَّاءَ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا فِيهَا يَسْتَعِيدُونَ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كُلِّي السَّجَّاءَ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخاري: حدثنا مقدم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه». انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرُّقِّي، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي الواصل، عن أبي المليح الأزدي، عن أبي الجوزاء الأزدي، عن ابن عباس قال: يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها

من الخليفة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة .

وقوله: ﴿كَلَّمَا السَّجِّلَ لِلْكَتُوبِ﴾: قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: مَلَكٌ من الملائكة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّكَّاءَ كَلَّمَا السَّجِّلَ لِلْكَتُوبِ﴾ قال: السجل: مَلَكٌ، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْبٍ، عن ابن يمان، به. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك. وقال السدي في هذه الآية: السجل: مَلَكٌ موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل فطواه، ورفعه إلى يوم القيامة. وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّكَّاءَ كَلَّمَا السَّجِّلَ لِلْكَتُوبِ﴾، قال: السجل: هو الرجل.

قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب - هو المؤذي - عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب للنبي ﷺ ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي، كما تقدم. ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك الثُّكْرِيُّ عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ كاتب يسمى السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّكَّاءَ كَلَّمَا السَّجِّلَ لِلْكَتُوبِ﴾، قال: كما يطوي السجل الكتاب، كذلك نطوي السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ. وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نعيم، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجل: كاتب للنبي ﷺ وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه - وإن كان في سنن أبي داود - منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي، فسح الله في عمره، ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة، والله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، وردة أتم رد، وقال: لا يُعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّكَّاءَ كَلَّمَا السَّجِّلَ لِلْكَتُوبِ﴾ أي: على هذا الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿كَلَّمَا أَسْلَمْنَا وَقَلَّمَ لِلْحَبِيبِ ﷺ﴾ [الصفات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعني، قالوا: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراة غزلأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وذكر تمام الحديث، أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة. ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه. وقد روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي ﷺ نحو ذلك. وقال العمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ قال: نهلك كل شيء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاغِ لَعَوْبٍ عَجِيبَةٍ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الاعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَكَلَّمُوا الصَّلَاتِ لَيْسْتَ تُفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

كَمَا اسْتَخَلَفَ الذِّكْرَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿١٠٥﴾. وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال: الزبور التوراة، والإنجيل والقرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكتاب. وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذکر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال سعيد بن جبيرة: الذکر: الذي في السماء. وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذکر، والذکر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي نُزِلت على الأنبياء، والذکر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أَنْتَ الْأَرْضَ بِرِثْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري رحمهم الله تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاءَ لَعَلَّوْا عِبَادِي﴾ ﴿١٠٦﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لِبَلَاءًا: لِمَنْفَعَةٍ وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَلَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ هَدًى وَرِشْقًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصل: ٤٤].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن ابن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لَعْنًا، وإنما بُعثت رحمة». انفرد بإخراجه مسلم. وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبي عرابة، وغيره، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي: وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلاً. قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن شعير بن الخنيس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». ثم أورده من طريق الصُّلْت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن يسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بُعثت برفع قوم وخفض آخرين».

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم مكة منصوره عن حَمْرَةَ: يا معشر قريش، إن محمدًا نزل يشرب وأرسل طلائعته، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمرؤا طريقه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري؛ إنه حينئذ عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفي القُرْدَان عن المناسم، والله إن له لسحرة، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَةَ - يعني: الأوس والخزرج - لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم، والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذي طردتم، وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشد ما كنتم عليه، إن ابني قَيْلَةَ إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وإن أطمعتموني الجأتموهم خير كتابة، أو تخرجوا محمدًا من بين ظهرانيهم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيْلَةَ فوالله ما هما وأهل ذلك في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم، وقال:

سَأْمَنْتُحْ جَانِباً مِنِّي عَلِيْظاً عَلى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُغْد
رَجَالِ الْخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذَلِكَ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَغْدُ جَد
فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبئهم ولأهدينهم وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله، ولا يتوقفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحي الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبي قزعة الكندي قال: كان حذيفة بالمدين، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتي سبته سباً في غصبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة». ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة. فإن قيل: فأبي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودي، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سعد - وهو سعيد بن المرزبان البقال - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم. وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرُّملي، عن أيوب بن سُويد، عن المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَادَنْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَرَبٌ بَعِيدٌ مَّا رُءُودُكَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ بِرِكَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهٗ فَتَنَةٌ لِّكَرٍ وَمَنْعٌ لِّكَ جِبِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمَرَ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ .

يقول تعالى أمرأ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك، مستسلمون متقادون له. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقَدْ ءَادَنْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني حزب لكم، كما أنكم حزب لي، بريء منكم كما أنكم براء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِن قَوْمٍ خِيفَةٌ فَأَيُّدِ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]: ليكن علمك وعلمهم بنيد اليهود على السواء، وهكذا ها هنا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَادَنْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني؛ لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ أَرَبٌ بَعِيدٌ مَّا رُءُودُكَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ بِرِكَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهٗ فَتَنَةٌ لِّكَرٍ وَمَنْعٌ لِّكَ جِبِينَ﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومنع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومنع إلى أجل مسمى. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قُلْ رَبِّ أَعْمَرَ بِالْحَقِّ﴾ أي: افضل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الاعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد فتلاً قال: ﴿رَبِّ أَعْمَرَ بِالْحَقِّ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوِيهَا تَدْحَلُ كُلُّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٩﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿١﴾ وَسُمَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاً مُّكْبَّتًا ﴿٣﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة. ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروي عن الشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، نحو ذلك. وقال أبو كديبة، عن عطاء، عن عامر الشعبي: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستنداً من قال ذلك في حديث الصور، من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضع في فيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفحات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصّغق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزع أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتت، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥] فيسبر الله الجبال، فتكون سراباً وتُرج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجُثُّ الرَّجُلُتُ ﴿١﴾ تَبْتِمُّهَا الرَّادِفَةُ ﴿٢﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٣﴾﴾ [النازعات: ٦-٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة في البحر، تضربها الأمواج تكفوها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولي الناس مدبرين، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّاسُ يَوْمَ نُولَىٰ مُدْبِرِينَ مَّا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِئَلَّا يَهْدِيَ اللَّهُ قَوْمًا لَّا هَادِيَ لَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [غافر: ٢٢، ٢٣] فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فأروا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وخسف قمرها، وانتشرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم؛ قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَقَرَعْنَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقام الله شر ذلك اليوم وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوِيهَا تَدْحَلُ كُلُّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد، مطولاً جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم. وقال

آخرون: بل ذلك هول وفتنة وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] يَوْمَ تَرَوْنها تَهْجُرُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [٢]، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تاشبوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ يوم ينادي آدم، عليه السلام، فيناديه ربه ﷻ، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة». قال: فألبس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خَلِيقَتَيْنِ ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: ففسرني عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعيرة، أو الرقمة في ذراع الدابة». وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو القَطَّان - عن هشام - وهو الدستوائي - عن قتادة، به بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن النبي ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [٢]، قال: أنزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت والأكمل من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟ وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي، عن عمران بن الحصين، فذكره. وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَار، عن عُثْدِر، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] وذكر الحديث، فذكر نحو سياق ابن جُدعان، فأنه أعلم.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان - يعني المعمرى - عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] وذكر - يعني: نحو سياق الحسن عن عمران - غير أنه قال: «ومن هلك من كفره الجن والإنس». رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر.

الحديث الثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعني ابن العوام - حدثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء».

الحديث الرابع: قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [١] فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة»

فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا. وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار بن محمد - ابن أخت سفيان الثوري - وعبيدة المعني، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبتعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا رب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا التاجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: «هل تدرون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير». انفراد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة؛ أن القاسم بن محمد أخيره، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة خفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». أخرجه في الصحيحين.

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى يمينه أو يعطى شماله، فلا. وحين يخرج عُتُق من النار فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العتق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، وكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوي عليهم، ويرميهم في غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخذن من شاء الله، والناس عليه كالطرف والبرق والريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سلم، سلم. فجاج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكثور في النار على وجهه».

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مقطع، وحادث هائل، وكائن عجيب. والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع والرعب، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ الْأُمُوتُ وَذَلَّلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ وقرئ: ﴿سُكْرَى﴾ أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكْرَى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ بُعْدُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يترون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشبابهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كَيْبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده، ﴿فَأَتَهُ بُعْدُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: يضل في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزجج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك قال ابن جريج. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم البصري، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبيثاء قريش: أخبرنا عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعمت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب: الرعد - فإذا يخف رأسه ساقط بين يديه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك: من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ اللَّعْنَةِ فَإِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِيِّنَ لَكُمْ وَبِقُرْفٍ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُحْيِيكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِ وَيُنْفِقُ مِمَّا يَرِثُ إِنَّكَ أَرْدَلُ الْعُمُرِ لِيَكْتَلِبَ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْحَامَ هَادِيَةً فَلِذَا أَرْثْنَا عَلَيْهَا أَلْمَاءَ أَهْرَاقَتْ وَيَتَّ وَابْتَسَتْ مِنْ كُلِّ رُوعٍ يَبِيجُ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ لَقِيٌّ وَاتَّقِي الْتَمَوَّقَ وَأَنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ اللَّعْنَةِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: أصل بزيته لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تقلب علقه حمراء بإذن الله، فمكثت كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر ووطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقبها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها، ﴿لَّئِيِّنَ لَكُمْ وَبِقُرْفٍ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقبها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله ﷻ من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب عمله وأجله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها ملك بكفه قال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفها الأرحام دماً. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أي رب، ذكر أم أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ اللَّعْنَةِ فَإِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست في الخلق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص». ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق آخر، عن أبي الطفيل، بنحو معناه.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُحْيِيكُمْ طِفْلاً﴾ أي: ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، ويطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عتفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِ﴾ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرِثُ إِنَّكَ أَرْدَلُ الْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهزم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الحزف وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِيَكُنَّ لَا يَتَلَبَّزَنَّ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي الموصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه

أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمته الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿لِيَكَيْلًا يَلْعَلُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه. هذا حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة.

ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعاً وموقوفاً فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامري، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمته الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين كُتِبَ الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله. ثم قال: حدثنا هشام، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله.

ورواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذرة الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص...» وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قتادة العذري، عن ابن أخي الزهري، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعاً من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله، وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في أرضه، وشفع في أهل بيته».

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي الفحلثة التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غيراه متهشمة. وقال السدي: ميتة. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، ومن ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْتَهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنْتُمْ نَجْمِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاكَ لَسَمِي السَّمَوَاتِ﴾، ﴿إِنَّهُمْ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّمَاءَ مَاتِيَةٌ لَا رَازِبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى خَلْقَهُمْ قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعِظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِينَ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَلَيْسَ جَمَلٌ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ تَأْرًا فَإِذَا أَنْشَرْتَهُ ثَوَدُونَ ﴿٨٠﴾ [يس: ٧٨-٨٠] والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع بن حُدَس، عن عمه أبي زرين العقيلي - واسمه لقيط بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربك يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فإنه أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك محلاً؟» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به. ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي زرين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أمرت بأرض من أرضك مُجَدَّبَةٌ، ثم مررت بها مخصبة؟» قال: نعم.

قال: «كذلك الشور». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيس بن مرحوم، حدثنا بكير بن أبي الشميط، عن قتادة، عن أبي الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور - دخل الجنة. والله أعلم.

﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُحْدِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابَ تُبَيِّرُ ﴿٨﴾ تَأْتِي عَطْفِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيغُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يظَلْمُ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُحْدِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابَ تُبَيِّرُ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُحْدِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابَ تُبَيِّرُ﴾ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿تَأْتِي عَطْفِيهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه. وقال مجاهد، وقاتدة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿تَأْتِي عَطْفِيهِ﴾ أي: لاوي عنقه، وهي رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَقِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِكْرَامًا يُشَلِّطُنِي مِيثِينَ ﴿٣٨﴾ فَوَلَّىٰ رُكُوبِهِ وَقَالَ سَنَرُ أَوْ مَجْرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِنَّكَ مَأْسُورٌ رَبِّي إِلَهُكُمْ وَمَا إِلَهُكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَسْتَخَفُّ لَكُمْ فَسَوَّلَ اللَّهُ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَدِّقُونَ وَهُمْ لَمُسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المنافقون: ٦٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْكَ أَيْدَانُنَا وَأَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّ بِدَعَابِ أَيْسُرِ ﴿٧٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيغُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يظَلْمُ لِلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَبِيرِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٨﴾ ذُقْ إِفَّاكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الدخان: ١٧ - ٢٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يُحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُعِدُّ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْبٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَوْفَرَ مِنْ تَقْوَاهُ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَكَيْلَسَ الْغَيْبِ ﴿١٣﴾﴾

قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ على شك. وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: ﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُعِدُّ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت خيله، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسألون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسكوا به». وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: «ما في ديننا هذا خير». فانزل الله على نبيه: ﴿وَمَنْ آتَايَ مِنْ يُعِدُّ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْبٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة، وهي أرض وبيته، فإن صح بها جسمه، وتنجت فرسه مهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً، رضي به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً». وإن أصابته فتنة - والفتنة: البلاء - أي: وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت

على دينك هذا إلا شراً. وذلك الفتنة. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جريج، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المناق، إن صلحت له دنياه أقام على العباد، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العباد إلا ليمّا صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾ أي: ارتد كافرًا.

وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَسْخُ الْكَلْبِيُّ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره، ﴿ذَلِكَ هُوَ السُّنْدُلُ الْعَبِيدُ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَيْسَ أَلْمُولُ وَلَيْسَ الْمَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني: ينس هذا الذي دعا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصرًا، ﴿وَلَيْسَ الْمَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾. وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُم مِّنَ الدُّنْيَا الَّتِي كَانُوا فِيهَا يَكْتُمُونَ﴾ (١١)

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات. ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يظُنُّ أَنْ لَّنْ يَضُرَّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْفَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنُهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ (١٣)

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لِيَقْفَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لِيَقْفَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غافظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ (١٤) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ﴾ (١٥) (غافر: ٥١، ٥٢)؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾. قال السدي: يعني: من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ يُبَيِّنُهَا﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (١٦) (الأنبياء: ٢٣)، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا مقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَتَوْا بِكُفْرٍ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧)

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا في سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى: ﴿يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرهم، وما تكن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعِقَابُ وَمَن يَمُنْ بِاللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٨)

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به،

كما قال: ﴿أَوْلَتْ يَرَأَىٰ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَنْفَرُونَ ظُلْمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالِدُّوَابِّ وَالطَّيْرِ، ﴿وَلَيْنَ لَمِنَ قَوْمٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [نصفت: ٣٧].

وفي الصحيحين عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت». وفي المسند وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَجَلَّى لشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ». وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بقيء ظللهما عن اليمين والشمال. وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم، اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه.

وقوله: ﴿وَالذَّوَابُّ﴾ أي: الحيوانات كلها. وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر. فرب مركوب خير وأكثر ذكراً لله من ركبها. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمِن مِّمَّنْ اللَّهُ لَمَّا لَهُ مِنْ مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إن ها هنا رجلاً يتكلم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار» رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالوا: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا مَسْرَحُ بْنُ هَاعَانَ أَبُو مُصْعَبِ الْمَعَاوَرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَقِبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْضَلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ بِهِمَا فَلَا يَقْرَأْهُمَا». ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقال الترمذي: «ليس بقوي» وفي هذا نظر؛ فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما تقدموا عليه تديسه.

وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جَاشِبٍ، عن خالد بن معدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْهِ». ثم قال: أبو داود: وقد أسند هذا، يعني: من غير هذا الوجه، ولا يصح. وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجدة في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدة. وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العتقي، عن عبد الله بن مثنى، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في الْمُفْضَلِ، وفي سورة الحج سجدة. فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً.

﴿هَذَانِ حَصَمَانِ أَخْضَمُوا فِي رِيحٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطِعَتْ لَهُمْ يَابَتْ بَيْنَ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ قَوْقُوزِهِمْ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَيَلْبَثُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿١٣﴾ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ ﴿١٤﴾﴾.

ثبت في الصحيحين، من حديث أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي ذر؛ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ حَصَمَانِ

أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في بدر. لفظ البخاري عند تفسيرها، ثم قال البخاري: حدثنا الحجاج بن مثقال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هَذَانِ حَصَمَانَ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ حَصَمَانَ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلام على من ناواه، وأنزل: ﴿هَذَانِ حَصَمَانَ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وقال شعبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ حَصَمَانَ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ قال: مُصَدِّقٌ وَمَكْذِبٌ. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث. وقال - في رواية: هو عطاء في هذه الآية -: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ حَصَمَانَ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة. وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ أَوْيَ: أي: فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبيرة: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي. ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْفِ رُؤُسِهِمْ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبيرة: هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأعماة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد، عن أبي السَّمْح، عن ابن حَجَّيرة، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيُصَبُّ عَلَى رُؤُسِهِمْ، فَيَنْقُذُ الْجَمْعَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسَلَتْ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ». ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، سمعت عبد الله بن السُّرَيْمِيِّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبَتَيْنِ مِنْ حَرَارَتِهِ، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْ وَجْهِهِ تَكَرَّهَهُ، قَالَ: فَيَفْرَعُ بِمَقْمَعَةٍ مَعَهُ فَيَضْرِبُ بِهَا رَأْسَهُ، فَيَفْرَعُ دِمَاغَهُ، ثُمَّ يُفْرَغُ الْإِنَاءَ مِنْ دِمَاغِهِ، فَيَصِلُ إِلَى جَوْفِهِ مِنْ دِمَاغِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾.

وقوله: ﴿وَكَمْ مَقْمَعٍ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ ضُرِبَ الْجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ، لَتَفَتَّتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ، وَلَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ عَسَاقٍ يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لِأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا». وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَكَمْ مَقْمَعٍ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون. وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها. وقوله: ﴿وَدُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا كُفْرُكُمْ فَذُوقُوا كُفْرَكُمْ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّىٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسْفَلٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْالُوا وَرِيشُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَهَذَا إِلَى الْكَلْبِيِّ مِنْ الْقَوْلِ وَهَذَا لَمْ يَصِرْ لِمَعْنَى ﴿٢٤﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والثكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الشياطين من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، بصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنَ الْحِلْيَةِ﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَوَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الجنة من المؤمن حيث يبلغ الضوء» وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها - أي: سوار منها - لرد شعاع الشمس، كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسنُدسه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أُخْضَرُ مِنْ يَاقُوتٍ وَسَقَمْتُمْ رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَشُكِّرُوا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الدباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْتِينَ فِيهَا نَبَاتٌ بَعْضُهَا لِيَوْمٍ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ﴿٢٣﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَاللَّذِئْبَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بابٍ﴾ ﴿٢٤﴾ سَلَّمَ عَلَيْكَ بِمَا صَدَقْتَ فِيمَنْ عَقَى الذَّابِرَ ﴿٢٥﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ [الراعدة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُقْرَأُ فِيهَا حَمِيدَةٌ وَسَلَامٌ﴾ [الفرقان: ٢٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُرْوَعُونَ بها ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيرِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسده إليهم، كما جاء في الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون التمسس». وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ بُرِدَ فِيهِ يَأْكُمِ يَطْلُبُ نُذُقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى منكر على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ إِلَّا الْمُشْكُورُونَ وَلَكِنْ أَكْفَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿يَتَكَلَّمُونَ عَنْ الثَّنَائِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قَوْلٌ نَقَالَ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالسَّجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِيهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: يصدون عن المسجد الحرام من إرادته من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَقَلَّ قَلْبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا يَذْكُرُوا اللَّهُ قَلَمِينَ الْقَلْبُوبِ﴾ ﴿٢٧﴾ [الرعد: ٢٨] أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباح مكة وسكنها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن رباح مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباح». ثم قال: «لا يرب

الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخْرَج في الصحيحين وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، ففعلها سجناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها تورث ولا تُوجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عُمَر بن سعيد بن أبي حُسَيْن، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نُضْلة قال: تُؤفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباغ مكة إلا السواائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن. وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها. وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُيَوب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عَرَصَاتِهَا، فكان أول من يَوب داره سُهَيْل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرنِي يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأة تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يجلسان لي ظهري قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا الدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء. قال: وأخبرنا مَعْمَر، عن سمع عطاء يقول في قوله: ﴿سَوَاءَ أَلَمِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا. وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقفاً: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً. وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه فقال: تملك وتورث ولا تُوجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَبَّتْ يُالِئِنَّ﴾ [المومنون: ٢٠] أي: تَبَّتْ الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ﴾ تقديره الحادأ، وكما قال الأعشى: ضَمَمْتُ بَرَزُقَ عِيَالِنَا أَزْمَاخُنَا بَيْنَ الْمَرَاجِلِ وَالضَّرِيحِ الْأَجْرَدِ وقال الآخر:

بِوَادِ يَمَانٍ يُثَبِّثُ الشُّثَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلَهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَّهَانَ
والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى «يَهْم»، ولهذا عدها بالباء، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ يُظَلِّمْ﴾ أي: يَهْمُ فيه بأمر فظيح من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿يُظَلِّمْ﴾ أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يُظَلِّمْ﴾: بشرك. وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يُظَلِّمْ﴾: هو أن تستحل من الحرام ما حَرَّمَ الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا قُتِلَ ذلك فقد وَجِبَ له العذاب الأليم. وقال مجاهد: ﴿يُظَلِّمْ﴾: يعمل فيه عملاً سيئاً. وهذا من خصوصية الحرم أن يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أحمد بن سَيَّان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّي: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله - يعني: ابن مسعود - في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ يُظَلِّمْ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بالحداد بظلم، وهو بعدن أبين، أذاقه الله من العذاب الأليم. قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قدره، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون به.

قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثوري، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقفاً، والله أعلم. وقال الثوري، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهيم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلاً بعدن أبين هَمَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد [الحاد فيه]، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وقال سعيد بن جبَّير: شتم الخادم ظلم فما فوقه. وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَانَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ يُظَلِّمْ﴾ قال: تجارة الأمير فيه. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد. وقال حبيب بن أبي ثابت: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايِمِ يُظَلِّمْ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني

سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَمَنْ بُرِدَ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَأْتُرْهُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ بُرِدَ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَأْتُرْهُ﴾ يعني: من لجأ إلى الحرم بالحاد يعني يميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿لِيَجْلَزِمَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أي: دمرهم وجعلهم عبدة ونكالا لكل من أراد بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خيف بأولهم وآخرهم» الحديث. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كنانة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو تورن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو. وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن هو. ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ ﴿٦٧﴾﴾.

هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بناءه. واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَهُ إِنَّهُ لَإِلَهُ الْإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدما ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي، ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له. فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه. فذكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لييك اللهم لييك». هذا مضمون ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جرير، وابن أبي حاتم مطولة.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ﴾: قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً، لمن قدر عليه، أفضل من الحج ركباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، والذي عليه الاكثرون أن الحج ركباً أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج ركباً مع كمال قوته، عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ﴾ يعني: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَبَابًا شَدِيدًا﴾ [الانبيا: ٣١]. وقوله: ﴿عَبِيبٍ﴾ أي: بعيد. قاله

مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثوري، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاتَّجَمَلْ أَقْبَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَةً إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّسْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَيْمَاتِهِمُ الْأَنْعَامِ فَلَكَؤُومًا وَأَلْمَمُوا بِاللَّيْلِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْتَضُوا فَتْحَهُمْ وَيُخْرِجُوا نُورَهُمْ وَيَلْعَنُوا جَلْبُوتَ الْعَبِيِّ ﴿٢٩﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والريح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّسْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَيْمَاتِهِمُ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبة وهُشَيْم عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به. ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم التُّخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل. وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم النخعي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر. قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، أنبأنا أبو عَوَّانَةَ، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» وروي من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه. وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً: أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ عَسْفِرِ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١، ٢] وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَّتْهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر. وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية».

ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله. وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم التُّخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المدني، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثني نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات من جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر. هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي. وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَيْمَاتِهِمُ الْأَنْعَامِ﴾ يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: أنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة. وقال ابن وهب: حدثني ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَيْمَاتِهِمُ الْأَنْعَامِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿فَمَنْبِئَةَ أَرْوَاحٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣]. وقوله: ﴿فَلَكَؤُومًا وَأَلْمَمُوا بِاللَّيْلِ الْفَقِيرِ﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي وهو قول غريب، والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها. وقال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛

لأن الله يقول: ﴿كَلُوا مِنهَا﴾. قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿كَلُوا مِنهَا﴾. قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروي عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك. قال هُشَيْمٌ، عن حُصَيْنٍ، عن مجاهد في قوله: ﴿كَلُوا مِنهَا﴾: هي كقولهم: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿كَلُوا مِنهَا وَأَطِيعُوا أَلْيَاسَ الْفَقِيرِ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿كَلُوا مِنهَا وَأَطِيعُوا أَلْيَاسَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٣٦] وسيأتي الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة. وقوله: ﴿أَلْيَاسَ الْفَقِيرِ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، والفقير: المتعفف. وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزمين. وقال مقاتل بن حيان: هو الضير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس وليس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفت: المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل. وقال عكرمة: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: حجهم. وكذا روى الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمي الجمار، على ما أمروا به. وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أنقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمره، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض. وقوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْرٍ، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه. وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خصيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة. وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يردده أحد بسوء إلا هلك. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار». وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجاري، عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلًا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ أَلْسِنُكُمْ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَرْبَابِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاةٌ لِلَّهِ عَبِيدٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَكُلَّمَا نَزَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّغْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، ﴿فَهُوَ حَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل. فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ قال: الحرمه: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد. وقوله: ﴿وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْتُمْ إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحللتنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم: ﴿الْبَيْتَةِ وَاللَّحْمِ وَنَمْرِ الْغَنَازِ وَمَا أَهْلَ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْعِقَةَ وَالْمَوْزِقَةَ وَالْمَرَدِيَّةَ وَالنَّطِيعَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]. قال ذلك ابن جريج، وحكاه عن قتادة. وقوله: ﴿فَأَجْتَبَيْنَا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبَيْنَا فَوْكَ الزُّورِ﴾: «من هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِتَوْبَةٍ أَلْحَىٰ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ أَشْرَكْنَا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبتكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان منكناً فجلس، فقال: - ألا وقول الزور، أو شهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَأَجْتَبَيْنَا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبَيْنَا فَوْكَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفَرِيُّ، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان الأسدي، عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، ﷺ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَأَجْتَبَيْنَا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبَيْنَا فَوْكَ الزُّورِ حَقًّا لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية. وقوله: ﴿حَقًّا لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها، ﴿فَتَحَطَّفَهُ الطُّيُورُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهَوَّىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرْحاً من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقة. وقد ضرب الله تعالى للمشرك مثلاً آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَنْهُ أَفْعَابًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يُدْعُونَ إِلَى الْهُدَىٰ أُفْتِنَا قُلْ لِمَ هَدَىٰ اللَّهُ هَوًى هُوَ الْهُدَىٰ وَأُزِنَّا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [٣٢] لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمُقْبِلِ﴾ [٣٣].

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَرَ اللَّهِ﴾ أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مفسم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسَمِّونَ. رواه البخاري. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفرأ أحب إلى الله من دم سَوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه. قالوا: والعفرأ هي البيضاء بياضاً ليس بتاصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضاً؛ لما ثبت في صحيح البخاري، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين. وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحبل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد. رواه أهل السنن، وصححه الترمذي، أي: بكبش أسود في هذه الأماكن.

وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوعين. قيل: هما الحَصِيَّان. وقيل: اللذان رُضَّ حَضِيَاهُمَا، ولم يقطعهما، والله أعلم. وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى

رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجودين . والموجودين قيل : هما الخصيين . وعن علي رضي الله عنه ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وألا نضحى بمقابلة ، ولا مدابرة ، ولا شرقاء ، ولا خرقاء . رواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي . ولهم عنه ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعضب القرن والأذن . وقال سعيد بن المسيب : العضب : النصف فأكثر . وقال بعض أهل اللغة : إن كُسِرَ قرنها الأعلى فهي قصماء ، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل ، وعضب الأذن قطع بعضها . وعند الشافعي أن التضحية بذلك مجزئة ، لكن تكره . وقال الإمام أحمد : لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن ، لهذا الحديث . وقال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ ، وإلا أجزأ ، والله أعلم . وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة : من مؤخر أذنها . والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولاً ، قاله الشافعي . والخرقاء : هي التي خَرَقَت السِّمَةَ أذنها خرقاً مُدَوِّراً ، والله أعلم .

وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مَرَضُها ، والعرجاء البين ظَلَعُها ، والكسيرة التي لا تُنْفِي» . رواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي . وهذه العيوب تنقص اللحم ، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة ، كما هو ظاهر الحديث . واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً ، على قولين . وروى أبو داود ، عن عُتْبَةَ بن عبد السَّمِيّ ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُضْفَرَةِ ، والمستأصلة ، والبِخْقَاء ، والمشيمة والكسراء . فالمصفرة قيل : الهزيمة . وقيل : المستأصلة الأذن . والمستأصلة : المكسورة القرن . والبخقاء : هي العوراء . والمشيمة . هي التي لا تزال تُشْبَعُ خَلْفَ الغنم ، ولا تُتَبَعُ لضعفها . والكسراء : العرجاء . فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء ، فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة . وقد روى الإمام أحمد ، عن أبي سعيد قال : اشترت كيشاً أضحي به ، فعدا الذئب فأخذ الألية . فسألت النبي ﷺ ، فقال : «ضَحَّ به» . ولهذا جاء في الحديث : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . أي : أن تكون الهدية أو الأضحية سميحة حسنة ثميحة ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود ، عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيباً ، فأعطي بها ثلاثمائة دينار ، فأثنى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أهديت نجيباً ، فأعطيته بها ثلاثمائة دينار ، فأبيعها وأشترت بثمنها بذناً؟ قال : «لا ، انحرها إياها» .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : البدن من شعائر الله . وقال محمد بن أبي موسى : الوقوف ومزدلفة والحجار والرمي والبدن والحلق : من شعائر الله . وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

وقوله : ﴿لَكَرُ فِيهَا مَنَفِعٌ﴾ أي : لكم في البدن منافع ، من لبنها ، وصوفها وأوبارها وأشعارها ، وركوبها . ﴿إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ قال مِقْسَم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿لَكَرُ فِيهَا مَنَفِعٌ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ قال : ما لم يُسَمَّ بُدْناً . وقال مجاهد في قوله : ﴿لَكَرُ فِيهَا مَنَفِعٌ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ ، قال : الركوب واللبن والولد ، فإذا سُمِّيت بدنةً أو هدياً ، ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء ، والضحاك ، وقتادة ، ومقاتل وعطاء الخراساني ، وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً ، إذا احتاج إلى ذلك ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنةً ، قال : «اركبها» . قال : إنها بدنة . قال : «اركبها ، ويحك» ، في الثانية أو الثالثة . وفي رواية لمسلم ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اركبها بالمعروف إذا لجنثت إليها» . وقال شعبة ، عن زهير بن أبي ثابت الأعمى ، عن المغيرة بن حذاف ، عن علي ؛ أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها ، فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها .

وقوله : ﴿ثُمَّ جِئَها إِلَى الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ﴾ أي : مجل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلَّغَ الْكُتُبِ﴾ [المائدة: ٩٥] ، وقال : ﴿وَالَّذِي مَعَكُمْ أَن بَلَّغَ جِئَها﴾ [الفتح: ٢٥] . وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريباً ، والله الحمد . وقال ابن جرير ، عن عطاء : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت ، فقد حل ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ جِئَها إِلَى الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ﴾ .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا يَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهَمَةٍ أَنْعَمَ فَإِلَهُهُمُ إِلَهُ وَجِدْ فَالَهُ أَسْلِمُوا وَيَتَّبِعِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقْسِمِينَ أَسْلَمُوا وَهَآ رَزَقْنَهُمْ يُفْقَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال : عيداً . وقال عكرمة : ذبحاً . وقال زيد بن أسلم في قوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا

مَسْكَاً: إنها مكة، لم يجعل الله لامة قط منسكاً غيرها. وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَى وكبر، ووضع رجله على صفاحهما. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو يُفَعِّع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت - أو: قالوا - يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ فقال: «بكل شعرة من الصوف حسنة». وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه من سننه، من حديث سلام بن مسكين، به.

وقوله: ﴿فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَعَلَّكَ أَهْلُهُمْ أَهْلٌ﴾ أي: معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَتَمُّوا﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿وَيَسِّرَ الْخَيْرَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس: المختبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: ﴿وَيَسِّرَ الْخَيْرَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلْتُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: من المصائب. قال الحسن البصري: والله نصيرن أو لتهلكن. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة. السبعة، وبقية العشرة أيضاً. وقرأ ابن السَّمِيع: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾ بالنصب. وقال الحسن البصري: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾، وإنما حذف التثنية هاهنا تخفيفاً، ولو حذف للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت. أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُقْرُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقاتهم وقرباتهم، وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة «براءة» فله الحمد والمنة.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرٍ اللَّهُ لَكَ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِنَّا رَجَبٌ جُؤْبًا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَابَ وَالْمَعَزَّ كَلَالًا سَحْرَتَهَا لَكَ لَمَلِكُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [١٣٦].

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدي إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحْمَلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَتْلَ وَلَا آتِينَ الْكَيْتَ الْحَرَامَ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ الآية [المائدة: ٢٧]. قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرٍ اللَّهُ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا زوي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البدن من الأبل. قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث. ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله وغيره، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وقال إسحاق بن زَاهَوِيه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة. وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد، وسنن النسائي، وغيرهما، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثواب في الدار الآخرة. وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عجل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هزقة دم، وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً». رواه ابن ماجه، والترمذي وحسنه. وقال سفيان الثوري: كان أبو حاتم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد». رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهد: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع

رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعن من لم يُضَحَّ من أمتي». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمه». ثم سُمى الله وكُبر وذبح.

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً المساكين، ويأكل هو وأهله منهما. رواه أحمد، وابن ماجه. وقال الأعمش، عن أبي طيبان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عَنِّيَ صَوَافً﴾، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس، نحو هذا. وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُثِلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورؤي ابن أبي نجيح، عنه، نحوه. وقال الضحاك: تُعقل رجل واحدة فتكون على ثلاث. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أُنخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: ابعتها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ.

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البُدن معقولة اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قف من شقها الأيمن، وانحر من شقها الأيسر. وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صفة حجة الزدّاع، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنَةً، جعل يُطعنها بحربة في يده. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: ﴿صَوَافً﴾، أي: مُعقولة قياماً. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: مَنْ قرأها ﴿صَوَافً﴾ قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافً﴾، قال: تصف بين يديها. وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صوافً﴾ يعني: خالصة لله ﷻ. وكذا رواه مالك، عن الزهري. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿صَوَافً﴾: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُ﴾ قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان. وقال العمري، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُ﴾ يعني: نحرت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُ﴾ يعني: ماتت. وهذا القول هو مُرَاد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَةِ إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرَد حركتها. وقد جاء في حديث مرفوع: «ولا تُعجلوا النفوس أن تَرْهَقَ». وقد رواه الثوري في جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبي كثير، عن فرافصة الحنفي، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك. ويؤيده حديث شَدَاد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»، فإذا قتلتم فأحسنتوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنتوا الذبح، ولْيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُثْرِخْ دَبِيحَتَهُ». وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطِع من البهيمة وهي حية، فهو ميتة». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطِمْؤُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْتَرَ﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾ أمر بإباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف في المراد بالقناع والمعتر، فقال العمري، عن ابن عباس: القناع: المستغني بما أعطيته، وهو في بيته. والمعتر: الذي يتعرض لك، ويَلْمُ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرظي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القناع: المتعطف. والمعتر: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النَّخعي، ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكرمة، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومقاتل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: القناع: هو الذي يَقْتَع إليك ويسألك. والمعتر: الذي يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبيرة: القناع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَاخ:

لَمَّا لَ الْمَزْرَهُ يُضَلِّحُهُ فَيُثْنِي مَفَاقِرَهُ، أَعْفُ مِنْ الْقُنُوعِ

قال: يعني من السؤال، وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القناع، المسكين الذي يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف الذي يزور. وهو رواية عن عبد الله بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القناع: جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك.

والمعتر: الذي يعترك من الناس. وعنه، أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذي يَعتَر بالبدن من غني أو فقير. وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أقتع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتزار، وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطْعَمُوا الْأَقْبَانِيَّةَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم». وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا».

والقول الثاني: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطْعَمُوا الْأَقْبَانِيَّةَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئاً. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعي. وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها». ومن العلماء من رخص في ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

مسألة: عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجله لأهله، ليس هو من النسك في شيء» أخرجاه. فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحية إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: «وإذا تذببحوا حتى يذبح الإمام». وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم، فلمهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأضاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجمع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان. وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النخعي، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَمَلَكًا تَشْكُرُونَ﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَا لَكُمُ﴾ أي: ذللناها لكم، أي: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتهم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ۚ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَكَمْ فِيهَا مِنْ نَفْعٍ وَمَسَارِبٍ أَفَلَا يَتَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٦-٧٧]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَمَلَكًا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِمَآوِهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ النَّفْرَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا هَدَّكُمْ وَيُبَيِّنُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه. وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لأهلتهم وضعوا عليها من لحوم قربانهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِمَآوِهَا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِمَآوِهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ النَّفْرَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه. كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وما جاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه ابن ماجه، والترمذي وحسنه عن عائشة مرفوعاً. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم. وقال وكيع، عن يحيى بن مسلم أبي الضحاك: سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي، فقال: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِمَآوِهَا﴾، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن، ﴿لِشُكْرِكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا هَدَّكُمْ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم

لدينه وشرعه وما يحبه، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقوله: ﴿وَيَبْرَأَ الْمُخْسِنِينَ﴾ أي: وبشر يا محمد المحسنين، أي: في عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه ﷻ.

مسألة: وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من وجد سعة فلم يضح، فلا يقربن مصلانا» على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل. وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى. رواه الترمذي. وقال الشافعي، وأحمد: لا تجب الأضحية، بل هي مستحبة؛ لما جاء في الحديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة». وقد تقدم أنه، عليه السلام، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم. وقال أبو سريحة: كنت جاراً لأبي بكر وعمر، فكنا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما. وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقيين؛ لأن المقصود إظهار الشعار. وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن - وحسنه الترمذي - عن مختف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت في كل عام أضحية وعتيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هي التي تدعونها الرجبية». وقد تكلم في إسناده. وقال أبو أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى. رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه. وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخاري.

وأما مقدار سن الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن». ومن هنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزىء. وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزىء من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزىء الثني من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثني من الإبل: فهو الذي له خمس سنين، ودخل في السادسة. ومن البقر: ما له سنتان ودخل في الثالثة، وقيل: ما له ثلاث ودخل في الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنه، وما دونه فهو حَمَلٌ، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد اتعدل صدعين، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَثُورٍ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَمِمَّا يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ يُؤْتُونَ مَالَهُمْ ذِكْرًا وَيُؤْتُونَ مَالَهُمْ ذِكْرًا﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَثُورٍ﴾ أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْرِهِ لَشَدِيدٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فَمَلَّتْ ذُرُوعُهُمْ وَإِلَىٰ يَدَيْهِ يُرْسِلُ رُسُلَهُ وَجُوعًا وَبُرْءًا وَصَلَواتٌ وَمَنْعَةً وَعِلْمًا فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي كَسَبَتْ لَهُمْ أَرْبَابُهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ﴿١٤﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقناة، وغير واحد. وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن داود الواسطي: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البطين - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله ﷻ: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْرِهِ لَشَدِيدٌ﴾، قال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به. وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سنتيها، وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف - زاد الترمذي: ووَكَيْعٌ، كلاهما عن سفيان الثوري،

به. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثوري، وليس فيه ابن عباس.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَرَبَ الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَغْتَسِمُوا فَشَدُّوا الرِّقَابَ فَمَا مَتَّ بَدُ وَإِنَّا فِدَاةٌ حَتَّىٰ تَضَعَ كُمُوتُ أَرْزَاقًا ذَلِكُمْ وَلَوْ أَنشَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بَعْضَكُم بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْطِيَ أَمْوَالَهُمْ سَهِيْرًا وَمَصْلُوحًا بِأَلْمَمِ ﴿١٠٦﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿١٠٧﴾﴾ [محمد: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿فَقَتَلُوهُمْ يَوْمَئِذٍ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِمُهُمْ وَيَضْرِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِمُهُمْ وَيَضْرِبُهُمُ اللَّهُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ آلَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا وَعَدِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَتَّبِعَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ سَبِيلَ اللَّهِ وَلَوْ أَنشَاءَ اللَّهُ لَوْلَا فَتَنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ سَبِيلَ اللَّهِ وَلَوْ أَنشَاءَ اللَّهُ لَوْلَا فَتَنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبِّئَنَكُمْ حَتَّىٰ تَسْمَأَ الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبِّئَنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُدْعِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾﴾ [محمد: ٣١]. والآيات في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. وقد فعل. وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لسُقِّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل يثرب - ليالي متى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهو ما بقتله، وشردوا أصحابه شذراً مذبذباً، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومغفلاً يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَوَلَيْدِينَ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُم بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١١٢﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمداً وأصحابه. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِنَّا لَهُمْ لَقَدِيرٌ ﴿١١٣﴾﴾ [المتحنة: ٤١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا تَقَمُّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١١٤﴾﴾ [البروج: ٢٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق، ويقولون:

لَأَهْمَ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
وَلَبَّيْتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقْبَيْنَا
إِنِ الْأَلْسَى قَدِ بَغَتْ عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أُبَيْنَا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أبيننا»، يقول: «أبيننا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف. ﴿مَلَأْتُمْ صَوْبَهُمْ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع المجوس. وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق. ﴿وَبَيْعٌ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهي للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقاتدة، والضحاك، وابن سحر، ومقاتل بن حيان، وحُصَيْفٌ، وغيرهم. وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدي، عمن حدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس، والله أعلم.

وقوله ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقاتدة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صلواتاً. وحكى السدي، عمن حدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً؛ لأن هذا هو

المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقُّبٌ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عَمَاراً وأكثر عباداً، وهم ذُو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ نَصْرِ اللَّهِ يُصَرِّمُ وَيُبَيِّنُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَمُمْ وَأَسْلَمُوا أَصْلَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتَنَا لِيَأْتِيَنَا الرِّسَالَيْنِ﴾ [١٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَمَمَ لَمْ نَسُورُونَ﴾ [١٧٢] ﴿وَلَنْ جُنْدًا لَمْ نَقْتُلْهُمْ﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣] وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبُّهُ عَقِيبٌ الْأُمُورِ﴾ [١٧١].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مكثنا في الأرض، فآقمنا الصلاة، وآتينها الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي. وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال الصباح بن سودة الكِنْدِيُّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ بعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبروزة ولا المستكرهة، ولا المخالفة سرها علانيتها. وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْفِنَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخَفَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣]. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ [١٧٢] ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [١٧٣] ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ قَوْمًا فَأَمَاتِيَ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [١٧٤] ﴿فَلَكُلِّينَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرَ مَشِيدِ﴾ [١٧٥] ﴿أَقَلَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْمَلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَنْصُرَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [١٧٦].

يقول تعالى مسلماً بنبيه محمداً ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات. ﴿فَأَمَاتِيَ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟! ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الشَّرِيكَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٧٦]. [هود: ١٧٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَكُلِّينَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ﴾ أي: لا يستقى منها، ولا يردها أحد بعد كثرة واردة والازدحام عليها. ﴿وَفَصَّرَ مَشِيدِ﴾: قال عكرمة: يعني المُنْبِيضُ بالجم. وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وأبي المليح، والضحاك، نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يخم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَقَلَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سيخ في الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان وتكسر العصا. وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أخي قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وموته بالزهد، وقوه باليقين،

وَذَلَّلَهُ بِالْمَوْتِ، وَقَرَّزَهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصَّرَهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَدَّرَهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفَحَشَ تَقَلُّبَ الْأَيَّامِ، وَاعْرَضَ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكَرَهُ مَا أَصَابَ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَبَيَّنَّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَرِهِمْ، وَانظُرْ مَا فَعَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا، وَعَمَّ انْقِلَابُوا. أَي: فَانظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَّمِ الْمَكْدُوبَةِ مِنَ النِّقْمِ وَالنِّكَالِ، ﴿فَتَكُونُ لَمْ قُلُوبٌ يَعْزِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَي: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَمَسُّ الْأُضْغُرَ وَلَكِنْ تَمَسُّ الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الْأَسْدِيرِ﴾ أَي: لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصْرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفِذُ إِلَى الْعَبْرِ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى - وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَارَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ الشُّتْرِينِيِّ، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاتَهُ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةَ:

يَا مَنْ يُصَيِّخُ إِلَى دَاعِي الشُّقَاءِ، وَقَدْ
إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ الذُّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى
لَيْسَ الْأَضْمُ وَلَا الْأَعْمَى سَوَى رَجُلٍ
لَا الدَّهْرُ يَنْقُصِي وَلَا الدُّنْيَا، وَلَا الْفَلَكُ الْـ
لَيَزْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَرِهَهَا
﴿وَسَيَسْأَلُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ وَكَأَنَّ مِنْ قَرَابَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
تُرُ أَخَذْتَهَا وَإِنَّ الْكَبِيرَ ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى لنبينه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَيَسْأَلُكَ بِالْعَذَابِ﴾ أَي: هُوَ لَاءُ الْكُفَّارِ الْمَلْحُدُونَ الْمَكْدُوبُونَ بِاللَّهِ وَكُتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَابَكَ مِنْ أَسْمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابِ آيِسٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَوْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَي: الَّذِي قَدْ وَعَدَ، مِنْ إِقَامَةِ السَّاعَةِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَالْإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، فَجَاءَ عَمْرٍو بْنُ عَبِيدٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، وَهَلْ يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ؟ فَقَالَ: لَا. فَذَكَرَ آيَةَ وَعِيدٍ، فَقَالَ لَهُ: أَمِنَ الْعَجْمُ أَنْتَ؟ إِنْ الْعَرَبُ تَعُدُّ الرَّجُوعَ عَنِ الرَّعْدِ لَوْمًا، وَعَنِ الْإِبْعَادِ كَرَمًا، أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَا يُزْهِبُ ابْنَ الْعَمِّ مَنِي سَطُوتِي
فَبَاتِي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ
وَلَا أُخْتَبِي مِنْ سَطُوتِ الْمُتَهَذِّدِ
لَمْخَلِيفِ لِإِعَادِي وَمُسْتَجِرِ مَوْعِدِي

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أَي: هُوَ تَعَالَى لَا يُعَجَّلُ، فَإِنْ مَقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ، لَعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَإِنْ أَجَّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمَلَى؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرَابَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ تُرُ أَخَذْتَهَا وَإِنَّ الْكَبِيرَ ﴿٤٨﴾﴾. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنِي عَبِيدَةُ بْنُ سَلِيمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلْمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسِمِائَةَ عَامًا».

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبي هريرة موقوفًا، فقال: حدثنا يعقوب، حدثني ابن عُليَّة، حدثنا سعيد الجُزيري، عن أبي نَضْرَةَ، عن سُمَيْرِ بْنِ نَهَارٍ قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمَقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ. قُلْتُ: وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: أَوْ مَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي آخِرِ كِتَابِ الْمَلَا حِمِّ مِنْ سَنَتِهِ: حَدَّثَنَا عَمْرٍو بْنُ عَثْمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَغِيرَةِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تُعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا، أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفُ يَوْمٍ». قِيلَ لِسَعْدٍ: وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَنَانَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قَالَ: مِنْ الْأَيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ بَشَّارٍ، عَنْ ابْنِ مَهْدِيٍّ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَنَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ». وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنْ أَسْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَمُرُّ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم - محمد بن الفضل - حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عتيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ

سَنَةً وَمَا تَعُدُّونَ ﴿٤٩﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت السنة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، في أية لحظة ولدت كان تماماً.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأَنَّ بَأْسَ اللَّهِ كَأَن يَأْتِي السَّمَاءَ بِحُجَابٍ مُّطَوِّقٍ ۖ وَجَعَلَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهْرِ لَمَّا تَعَدُّونَ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَخَبِيرٌ بِّمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ حين طلب منه الكفار وقووع العذاب، واستعملوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، و ﴿لَا مَعْشَرَ لَشَيْءٍ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فَأَلِّزْتُ أَنَسًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أنتم قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. وقال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد، يُسَبِّطُونَ النَّاسَ عَنِ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وكذا قال عبد الله بن الزبير: مشطين. وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ذَنَبَهُمْ عَذَابًا قَوْقُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَقْسِدُونَ﴾ ﴿النحل: ٢٨﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّوْا لِقَى الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ لِيَجْمَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَيَنْتَهِي لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَكُنْ يَشَقَّاقِي بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيَتَّقُوا بِهِ فَتُخَفِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسله، ولم أرها مستندة من وجه صحيح، والله أعلم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرْوَةَ﴾ ﴿١٧﴾ وَمَوَازِيَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَةَ ﴿١٨﴾ قال: فالقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتكن لترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّوْا لِقَى الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾. رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن عُثْرَد، عن شعبة، به نحوه، وهو مرسل، وقد رواه البزار في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس - فيما أحسب، الشك في الحديث - أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرْوَةَ﴾ ﴿١٧﴾، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالقة، وعن السدي، مرسلًا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلًا أيضاً.

وقال قتادة: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نَسَسَ، فالقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتكن لترتجى. وإنما لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فزلت بها سنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّوْا﴾ الآية، فدَحَرَ الله الشيطان. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبِي، حدثنا محمد بن قُلَيْح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرنناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان يمتنى هُداهم، فلما أنزل الله سورة «النجم» قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرْوَةَ﴾ ﴿١٧﴾ وَمَوَازِيَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَةَ ﴿١٨﴾ أَلَمْ أَذْكُرْ وَلَهُ الْأُنْفُ ﴿١٩﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتكن لهن»

التي ترتجى». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، ف وقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً، فرفع على كفه تراباً، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود، لسجود رسول الله ﷺ. فأما المسلمون فوجدوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين - ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التي ألقى الشيطان في مسامع المشركين - فاطمأنوا أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم ألهتهم. ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحذثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه من الفرية، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٧﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَائِسَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٨﴾﴾، فلما بين الله قضاءه، وبراه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل. وفي تفسير ابن جرير عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه. وقد رواه الإمام أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فلم يجز به موسى بن عقبة، ساقه في مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة. قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألفتها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم. وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضي عياض، رحمه الله، في كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله.

وقوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه، أي: لا يهيدنك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا تَمَنَّيَ﴾، يعني: إذا قال. ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾: قراءته، ﴿إِلَّا آمَانٌ﴾ [البقرة: ٤٧٨]، يقولون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّيَ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تَمَنَّيَ كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَأَخْرَجَهَا لِأَقْسَى حَمَامِ الْمَقَادِرِ
وقال الضحاك: ﴿إِنَّا تَمَنَّيَ﴾: إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فيبطل الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَالْقَائِسَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم الكافرون اليهود. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعدا بعيد، أي: من الحق والصواب.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلَهًا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرصه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٥٧﴾﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتَخِيتَ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: في

الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوقفهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ نَكُ يَوْمَئِذٍ لَكُمْ بِمَعِينٍ كَذَلِكَ مَا آتَيْنَا مِنْكُمْ مَوْجِبَاتٍ فِي جَنَّةِ النَّبِيِّ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك ورب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مما ألقى الشيطان. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغربتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ﴾: قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقاتدة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصري. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوردوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ نَكُ يَوْمَئِذٍ لَكُمْ بِمَعِينٍ﴾، كقوله: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤١﴾﴾ [الناحية: ٤]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَكُ يَوْمَئِذٍ لَكُمْ بِمَعِينٍ﴾، وكان يوماً على الكافرين عيباً ﴿٥٦﴾ [الفرقان: ٢٦]. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِي جَنَّةِ النَّبِيِّ﴾ أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِمٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَشْرَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن من هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والجلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أي: حتف أنفسهم، أي: من غير قتال على فرسهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليُجْرِنَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانًا﴾ أي: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ ﴿٨٨﴾ فَرُجِحَ وَرُحَانٌ وَجَنَّتٌ يَمِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتركهم عليه. فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه برزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُّونَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن ابن الحارث - يعني: عبد الكريم - عن ابن عتبة - يعني: أبا عبيدة بن عتبة - قال: حدثنا شريح بن السنط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان - يعني: الفارسي - رضي الله عنه، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفئتين» وقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرني همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المعافري يقولان: كنا برودس، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري - صاحب رسول الله ﷺ - فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال

الناس على القتل، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتل في سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرَازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لهيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشيباني، أن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرَازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رِزْوَانَهُ، فما تبغى أيها العبد إذا دخلت مدخلاً ترزاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن شريح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرياع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتل والآخر متوفى... فذكر نحو ما تقدم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت في سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لثلاث يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَزُوفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ يُؤَلِّمُ الْيَسَلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّمُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٦٢﴾.

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِجُ الْمَلِكَ وَمَنْ تَشَاءُ وَتُفْرِغُ مِنْ تَشَاءُ وَتُؤَلِّمُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّمُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الْعَلِيِّ وَتُفْرِغُ مِنَ الْعَلِيِّ وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءُ بِخَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٦٧﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، دليل لديه، ﴿وَإِنَّكَ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْعَلِيُّ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، ﴿وَعَلَىٰ مَا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَرِّ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْغَيْثُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّيْلَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِأَنْتَابِنِ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِمَّا يُسَبِّحُكُمْ ثُمَّ يُنَسِّبُكُمْ ثُمَّ يُغِيثُكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾.

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح، فتثير سحباً، فيمطر على الأرض الجزل التي لا نبات فيها، وهي هامة يابسة سوداء قحلة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [الحج: ٥٠]. وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقْنَا السَّمْعَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْبَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُنْبِتَةَ عِطْلًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت في الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوماً» ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: خضراء بعد يبسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبغ عقب المطر خضراء، فإله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه

خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَبْنِيْ لِهَا إِنْ تَكُ يَسْقَالُ حَبَّوْنَ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّهَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [السل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَّزْقٍ إِلَّا يَسْلُمُهَا وَلَا حَبْوَةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ دَرَقَةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن أبي الصلت - أو: زيد بن عمرو بن نفيل - في قصيدته:

وَقَوْلَا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ زَابِيَا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ
فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَعَايَا
وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَرْجُوعُ الْحَكِيمُ﴾ [آي: ١٦]؛ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجناب: ١٣] أي: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَأَلْفَاكُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾ أي: بتسخيره وتسييره، أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيَسْئَلُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِلَازِنَةٍ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي الرُّؤُوفَ رَحِيمٌ﴾ أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّئَلَّا عَلَى ظَهْرِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [آي: ١٦]، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ لَعِندَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَوْتٌ﴾ [آي: ١٧]، ﴿وَاللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْكُمُ لَكُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَدَّ فِيهِ﴾ [الجناب: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آيَاتِنَا وَأَحْيِنَا أَفْتِنِينَ﴾ [غان: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نَسِكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبْدِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكَّنَ هَذِهِ مُسْتَقِيمًا﴾ [آي: ٢٧] وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً. قال ابن جرير: يعني: لكل أمة نبي منسكاً. قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نَسِكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُبْدِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: لكل أمة جعلنا منسكاً جلالاً قديراً. كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْجِبٌ﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾، أي: فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمناعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكَّنَ هَذِهِ مُسْتَقِيمًا﴾ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [النص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آي: ٢٨]، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيحٌ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَكْبَرُ بِمَا يُفْسِدُونَ فِيهِ كَثِيرٌ بِوَيْهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحاف: ٤٨]؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آي: ٢٩]. وهذه كقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْمَلُ بِبَيْنِكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق - وهو على العرش تبارك وتعالى -: اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادِبَتٍ يُسْطُونَ بِالَّذِينَ نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ شَرٌّ مِن ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَدَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ لَكُمْ الْيُسْرَى ﴿٧٢﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكروه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فما يحل بهم من العذاب والنكال. ثم قال: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿بِكَادِبَتٍ يُسْطُونَ بِالَّذِينَ نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم والسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ شَرٌّ مِن ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَدَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأظم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تتناولون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَيَسَّرَ لَكُمْ الْيُسْرَى﴾ أي: ويسر النار منزلاً ومقيلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً، ﴿إِنَّمَا سَاءتْ مَسَاقِفُهُمْ وَمَقَامُهُمْ﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ مِثْلَ مَثَلٍ فَاستَعْمُوا لَهُمْ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَمَمَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٢﴾﴾ مَا كَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ كَدَرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٣﴾﴾ .

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ مِثْلَ مَثَلٍ﴾ أي: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فاستَعْمُوا لَهُمْ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد. حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: «ومن أظلم ممن خلق خلقاً كخلفي؟ فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة». وأخرجه صاحبها الصحيح، من طريق عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله ﷻ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلفي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَلَن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَمَمَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ . قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب:

الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعضعها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْرَأُ الْحَاقَّ إِذَا يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْنَ رَبِّكَ لَسَدِيدٌ﴾ [١٧] ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ رَبِّهِ يُؤَيِّدُ﴾ [١٣] ﴿[السجود: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [٥٨]﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَسْطَلِفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُؤْسًا وَمَنْ النَّاسِ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [٧٥] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٧٦].

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَمْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٧٦] أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٦١] ﴿إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولِي فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رِسَالًا﴾ [٧٧] ﴿لَيْسَ أَنْ تَدَّبَّقُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [٧٨] ﴿[الجن: ٢٦-٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يُنَادِي السُّورُوتُ بِمَنْ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْسُطُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يُنَادِيهَا أَلَيْسَ آتِيًا أَرْكَبُوا وَأَسْعَدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْبَلُوا الْحَبَرَ لَمَلَكْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ [٧٧] ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاصْبِرُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [٧٨].

اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبه بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فضلت سورة الحج بسجدة، فمن لم يسجد بها فلا يقرأها».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فسق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحضر أربعاً وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلَّى رجالاً وركباناً، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلبها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشِّرَا وَلَا تَفْرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُعْسِرَا». والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: قال ابن جرير: نصب على تقدير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق، بل وسعه عليكم كلمة أبيكم إبراهيم. قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَسَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١]. وقوله: ﴿هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ قال: الله ﷻ. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَيْتَكُمْ وَمَا جَمَل عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء، يتلى على الأحيار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّيْتُمُ الْمَسِيحِينَ مِنْ قَبْلِ آي: من قبل هذا القرآن ﴿وَقَدْ هَدَا﴾، وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جحني جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلّى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلّى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنین عباد الله». وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُمَّتَكُمْ فَرَكَبُوا عَلَيْكُمْ ذُكُورًا مِمَّنْ قَبْلَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من سورة البقرة (الآية: ٢٢١)؛ ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً، مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلَ بِكَ الْبَيْتَ وَمَا جَعَلْنَاكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاريج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة «التوبة». وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِآلِهَتِكُمْ﴾ أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فَتَمِّمُوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بصبرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، في سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
وشرف وكرم، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين



تفسير سورة المؤمنون

مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ النَّفْعِ مَعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ إِذْ يَدْعُونَكَ تَجَسَّؤُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ مَن آتَيْنَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَرْدُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى علي يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يسمع عند وجهه كدوي النحل فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) حتى ختم العشر. وكذا روى الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال الترمذي: منكر، لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه. وقال النسائي في تفسيره:

أنبأنا قَتِيْبَةَ بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران عن يزيد بن بابئوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قالت: هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ.

وقد رُوِيَ عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْكِرَامَةِ. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه. وقد رُوِيَ ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجُرَيْرِي، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبِنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزل الملوك! ثم قال: وحدثنا بَشْرُ بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرِي، حدثنا عَدِي بن الفضل، حدثنا الجُرَيْرِي، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لَبِنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث: «حائط الجنة، لَبِنَةً من ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك». فقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك! ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدِي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّةُ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما خلق الله جنة عَدْنٍ، خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. بَقِيَّةُ عن الحجازيين ضعيف. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا مُنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد بن عيسى العَبْسِي، عن إسماعيل السُّدِّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - يرفعه -: «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾». قال: وعزتي لا يجاورني فيك بخيل».

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البُرَّار، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لَبِنَةً من ذرَّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبْرَجَدَةِ خضراء، ملاطها المسك، وحضابها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي. قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾». فقال الله: وعزتي، وجلالي، لا يجاورني فيك بخيل». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَنَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٤٩]. فقله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا رُوِيَ عن مجاهد، والحسن، وقاتدة، والزهري. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: الخشوعُ، خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم التُّخَيْمِي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿٢﴾ خَفَضُوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. وقال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُضْلَاءً، فإن كان قد اعتاد النظر فليُغْمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم رَوَى ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلًا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية. والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقوة عين، كما قال النبي ﷺ، في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطَّيِّبُ والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكَيْعٌ، حدثنا يسعر، عن عمرو بن مَرْثَةَ، عن سالم بن أبي الجعد، عن رجل من أسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مُهْدِي، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي علي صهر لنا من الأنصار، فحَصَّرت الصلاة، فقال: يا جارية، اثنتي بوضوء لعلني أصلي فاستريح. فرأنا أنكرونا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة».

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْوُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كَرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَّدهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة ما هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ حَقِّ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشعر: ١٧] وقد حاب من دَسَنَها ﴿١٧﴾ [النسب: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [نصبت: ٦، ٧]، على أحد القولين في تفسيرها. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٧] أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٧] أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٧] أي: المعتدون. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تأزلت آية من كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال: فأتي بها عمر بن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ: تأزلت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فغرب العبد وجز رأسه، وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم. هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في أول تفسير سورة المائدة، وهو هاهنا البقي، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بقبض قصدتها، والله أعلم. وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناة باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٧] [٧] أي: لا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ آتَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٧]. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجوزي، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره». هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يعرف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتِثْنَاهُمْ وَوَعْدِهِمْ رَعُونَ﴾ [٨] أي: إذا أوتعنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٩] أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجاه في الصحيحين. وفي مستدرک الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها». وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٩] يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الصَّحَى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

ولما وصفهم الله تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١٠] الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآلِهَةَ وَرَسُولَهُ فِيهَا حَلِيدُونَ [١١]. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفرج أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان:

منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرَثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا مِنذُ قَدِيمٍ﴾. وقال ابن جرير، عن ليث، عن مجاهد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا مِنذُ قَدِيمٍ﴾. قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنى بيته الذي في الجنة، ويُهَدَمُ بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهَدَمُ بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار. وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك. فالْمُؤْمِنُونَ يرثون منازل الكفار؛ لأنهم كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنين بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له - أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بردة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى». وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دُفِعَ الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكاكك من النار». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَتْلُوكَ لِحِطَّةٍ أَلَيْسَ لِيُؤْتِيَنَا مِن غَدَاةٍ مَّا كَانَ قَدِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، كقوله: ﴿يَتْلُوكَ لِحِطَّةٍ أَلَيْسَ لِيُؤْتِيَنَا مِن غَدَاةٍ مَّا كَانَ قَدِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، كقوله: ﴿يَتْلُوكَ لِحِطَّةٍ أَلَيْسَ لِيُؤْتِيَنَا مِن غَدَاةٍ مَّا كَانَ قَدِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُنْفُصَةَ عِظْمًا فَكَسَرْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَمُوتُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: ﴿بِنِ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صفوة الماء. وقال مجاهد: ﴿بِنِ سُلَالَةٍ﴾ أي: من مني آدم. قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استل آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنشَأْتُمْ بَشَرًا تَنشُرُونَهُ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ٢٠]. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك». وقد رواه أبو داود والترمذي، من طرق، عن عوف الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَدَأُ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ وَاللَّيْنُ هَرَامٌ لِّمُنْتَبِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِكُونَ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٧، ٨] أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكَ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٦﴾﴾، يعني: الرحم مُعد لذلك مهياً له، ﴿إِن كَادَ لَقَدَّرُ مَقُورٍ ﴿١٧﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْتَّيِّدُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أي: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتثقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثم صَبَرْنَا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الشنودة - فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهي قطعة كالْبَضْعَة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُنْفُصَةَ عِظْمًا﴾ يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبتها وعروقها. وقرأ آخرون: ﴿نَخَلَقْنَا الْمُنْفُصَةَ عِظْمًا﴾. قال ابن عباس: وهو عظم الصلب. وفي الصحيح، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنْبِ، منه خلق ومنه يركب». ﴿فَكَسَرْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾. ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر - يعني: ابن كثير، مولى بني هاشم - حدثنا زيد بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: إذا أمتت النطفة أربعة أشهر، بُعِثَ إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح. وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نُفِخَ الروح. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني به: الروح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا. وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم. قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خلقه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه من حديث سليمان بن وهبان الأعمش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خيثمة قال: قال عبد الله - يعني: ابن مسعود -: «إن النطفة إذا وقعت في الرحم، طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تحدر في الرحم فتكون علقه».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: قال مَرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودي، من كلُّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عمرو، عن أبي الطفيل، حُدِّثَ بن أسيد الغفاري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ﷻ، فيكتبان ويكتب عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص». وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو - وهو ابن دينار - به نحوه. ومن طُرق أخرى، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب، نطفة. أي رب، علقه، أي رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب في بطن أمه». أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به. وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس، قال: قال عمر - يعني: ابن الخطاب رضي الله عنه -: وافقت ربي ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية، قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أُملي علي رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾».

جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا رَعَيْنَاهُ إِذْ نَحْنَحْ﴾ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّا رَعَيْنَاهُ إِذْ نَحْنَحْ﴾ يعني: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ إِنَّا رَعَيْنَاهُ إِذْ نَحْنَحْ﴾ [المعكوت: ٢٠] يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلاق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِفٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْغَالِقِ غَفِيلِينَ﴾.

لما ذكر تعالى خَلَقَ الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلَقَ السموات والأرض، مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿الآلَةِ﴾ ﴿السَّجْدَةِ﴾، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلَقَ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَجَّ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿سُجِّ لَه السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا كَيْفَ خَلَقْنَا سَجَّ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَجَّ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَجَّ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْفَلَاقِ غَافِلِينَ﴾ [١٧] ﴿أَي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وغره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَسْلُبُهَا وَلَا حَبَّةٍ مِنْ تَلْمِذَةِ الْأَرْضِ وَلَا رَمَلٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَبَنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِوَيْهِ لَقَدِيرُونَ﴾ [١٨] ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [١٩] ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَرِيحٌ لِلذَّكَايِنِ﴾ [٢٠] ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِمَعْرَافَةً لِّمَنْ فِيهَا فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا وَلَهُ الْحَمْدُ وَإِنَّكُمْ لَفِيهَا لَكَاظِمُونَ﴾ [٢١] ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٢٢] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاقِ تُحْمَلُونَ﴾ [٢٣].

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض وال عمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحتمل دمتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجزز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سبخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَبَنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِوَيْهِ لَقَدِيرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرناه عنكم إلى السبخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاباً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجز على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتفعلون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ يعني: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده، أي: يده. وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو تأتي بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصَرِيحٌ﴾ أي: آدم، قاله قتادة. ﴿لِلذَّكَايِنِ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام

أحمد: حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد - واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري - قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة». وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مغمّر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «انتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة». ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق. قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، وربما ذكر فيه عمر، وربما لم يذكره. قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصغب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضفت عمر بن الخطاب ليلة عاشوراء، فأطعمني من رأس بعير بارد، وأطعمتنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي آلَتِنَا لَبَؤُورَةً تُشْفِيكَرُ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكِنَّ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ لِّهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لَحْمَكُم مَّحْمُولُونَ ﴿٢٢﴾﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلق في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين قرن ودم، ويأكلون من حُمْلانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ آتِنَا لَكُمْ لِكَيْ تَكُونُوا بِلَيْبِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ أَفْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٦﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَدَّ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَصَصُوا بِهِ حَتَّى جَاءَهُ ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٦﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ - وهم السادة والأكابر منهم -: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعاطم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَوَدَّ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية.

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَرَصَصُوا بِهِ حَتَّى جَاءَهُ﴾ أي: انتظروا به رب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ اضْرِبْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ مَسِّحِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَجَّعْنَا فَإِذَا جَاءَ أَهْلُهَا وَقَارَ النَّارُ فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِن كُلِّ زَنْجِيٍّ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنهُمْ وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٢﴾ فَإِذَا اسْتَرَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلَمُدَّ إِلَهُ الَّذِي جَعَلْنَا مِنَ الْقَوَارِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرِنِي مِثْلَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَاظِمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾﴾ [القم: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿قَالَ رَبِّ اضْرِبْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها واتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنهُمْ﴾ أي: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطه في سورة «هود» بما يعني عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَرَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلَمُدَّ إِلَهُ الَّذِي جَعَلْنَا مِنَ الْقَوَارِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكَ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١١﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّغْرِبِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَإِكْرَامًا يُغْتَمَبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وقد امثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ آتِكُم مِّنَ اللَّهِ بِحَبْرٍ مَّاءٍ وَمُرْسَهُمْ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرِنِي مِثْلَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّا لَمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لحججاً ودلالات

واضحات علمي صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وَلَا كُنَّا لِنُبَيِّنَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ اللَّهُ نَنْفَعُ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَآزَلْنَاهُمْ فِي اللَّغْوِ الْأُنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَلْعَنَهُ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِلَّا نَكْرًا إِذَا لَعْنَتُهُمْ (٣٤) أَعْيَدَكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تَخْرُجُونَ (٣٥) هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الْاُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَيْلٌ أَقْرَبُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤَيَّنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَّةً فَجَعَلْنَا لِقَوْمِ الْفَالِغِينَ (٤١)

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، فكذبوا بآيات الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ﴿أَعْيَدَكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٣٥) ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ (٣٦) أي: بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَيْلٌ أَقْرَبُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤَيَّنِينَ﴾ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) أي: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ﴾ (٤٠) أي: بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة، ﴿تُدْرِي كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا سَسَكُهُمْ﴾ [الأخفاف: ٢٥]. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَّةً﴾ أي: صرعى هلكى كغشاء السيل، وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا يتفجع بشيء منه. ﴿فَجَعَلْنَا لِقَوْمِ الْفَالِغِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤١) مَا تَسْبِيحٌ مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَمَّا وَمَا يَسْتَعْتُونَ (٤٢) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا نَزَّ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٣)

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤١) أي: أمة وأمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا نَزَّ﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٦٣]، وقوله: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ١٣٠]. وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ وَمَرَقَنَّهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ الآية [سبأ: ١٩] ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥) إِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والالقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملاه، وأغرقتهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهي، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥١)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أي حجة قاطعة على قدرته على

ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة. قال ابن عباس: وقوله ﴿ذَاتَ قُرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينًا﴾ يعني: ماء ظاهراً. وقال مجاهد: ربوة مستوية. وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتَ قُرَارٍ وَمَعِينًا﴾ استوى الماء فيها. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينًا﴾: الماء الجاري.

ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة في أي أرض الله هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى. وروي عن وهب بن مثنبه نحو هذا، وهو بعيد جداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾، قال: هي دمشق. قال: وزوي عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن معدان نحو ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتَ قُرَارٍ وَمَعِينًا﴾ قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾. قال: عيسى ابن مريم وأمها، حين أوىا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول في قوله: ﴿إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾ قال: هي الرملة من فلسطين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا زوّاد بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيباني، عن ابن وعلّة، عن كزيب السحولي، عن مروة البهري قال: سمعت النبي ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت بالربوة» فمات بالرملة. وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾، قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ فِيهَا نَهْرًا﴾. وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِيَّكَ رِزْقًا ذَرِيرًا وَمَعِينًا﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَأْتِيهَا الرِّسْلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ رَبُّكُمْ ﴿٥٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ رَبُّكُمْ ﴿٥٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ رَبُّكُمْ ﴿٥٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ رَبُّكُمْ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسْلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة بن شريحيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه. وفي الصحيح: «ما من نبي إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم»، كنت أرحاها على قراريط لأهل مكة. وفي الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده. وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يقر إذا لاقى».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت شداد بن أوس بعثت إلى النبي ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أتى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله، بعثت إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلي الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً».

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن

ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طُيِّبَ لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١). قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يده إلى السماء: يا رب، يا رب، فأني يستجاب لذلك». وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.

وقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ ثُمَّ أَتَتْهُمُ آيَاتُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَسْتَعْجِلُونَ بِهَا وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ﴾. ولهذا قال: ﴿وَأَنَّا رَزَقْنَاهُمْ قُلُوبَهُمْ وَأَنَّا رَزَقْنَاهُمْ قُلُوبَهُمْ وَأَنَّا رَزَقْنَاهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةٌ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ منسوبة على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَزِمَتْهُمْ فِرْحُونٌ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْنَاهُمْ فِي عَمَزَجِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْبُرْجَانِيزِينَ﴾ أي: إلى حين حينهم وملاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَكْفُرُونَ لِحَيْبِهِمْ رَبِّكَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ إِنَّمَا يَبْغُونَ الْعِلْمَ مِنَ الْبُرْجَانِيزِينَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيُّسَبِّحُونَ أَنَّمَا تُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا فِي الْفُرْقَانِ﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿تَحَنَّنْ أَمْوَالُكَ وَأَوْلَادُكَ وَمَا تَحَنَّنْ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعنا بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا تُحِبُّونَ الْمَالَ وَالْبَنِينَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَالْمَنَاجِمَ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ حَقَّ يَدَاكَ يُكَلِّبُ بِهَا الْقَلْبَ مَن تَشَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَأُخْرَىٰ أَبَدُ الْآخِرِينَ﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥]، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ حَقَّ يَدَاكَ وَجَعَلْتَ لَمْ مَالًا مُّتَدَوِّكًا وَبَيْنَ شُهُودِكَ وَبَيْنَ شُهُودِكَ لَمْ تَهَيْدِكُمْ أَن تَقُولُوا أَنَّمَا يُنَادِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَسْتَعْجِلُونَ بِهَا وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [سبا: ٢٧] والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿أَيُّسَبِّحُونَ أَنَّمَا تُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا فِي الْفُرْقَانِ﴾ قال: مكرز والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبيان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه - قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشمه وظلمه - ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْكُرُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْقُبُورِ وَهُمْ لَمْ يَسْفُحُوا (٦١).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناء.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨) أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْبَارِتَاتِ﴾ [التحريم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْكُرُونَ﴾ (٥٩) أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفه له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله ﷻ». وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مغول، به نحوه. وقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُولَٰئِكَ سُرِّحُونَ فِي الْفِرْيَةِ﴾». قال الترمذي: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا. وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن البصري في تفسير هذه الآية. وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُوَيْرِيَةَ، حدثنا إسماعيل المكي، حدثني أبو خلف مولى بني جُمَح: أنه دخل مع عُيَيْد بن عُمَيْرِ عَلَى عَائِشَةَ، رضي الله عنها، فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا - أو: تلم بنا؟ - فقال: أخشى أن أمُلك. فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل عن آية في كتاب الله ﷻ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: آية آية؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ أو ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ فقالت: أيتهما أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده، لإحداهما أحب إلي من الدنيا جميعاً - أو: الدنيا وما فيها - قالت: وما هي؟ فقلت: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف. إسماعيل بن مسلم المكي، وهو ضعيف. والمعنى على القراءة الأولى - وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم - أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَٰئِكَ سُرِّحُونَ فِي الْفِرْيَةِ وَمَا سَيَقُونَ ﴿٦٦﴾﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ مِّنْ هَذَا وَفَمَّ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَائِلُونَ ﴿٦٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٨﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِكُرْبَىٰ لَا نَصْرُونَ ﴿٦٩﴾ فَذَكَرْنَا عَلَيْكُمْ فَكْرَكُمْ فَفَكَّرْتُمْ عَلَىٰ أَصْفَادِكُمْ فَتَكُونُونَ ﴿٧٠﴾ سَتَجِدُنِي فِي سَبِيلِ مَنَاصِبٍ نَّهَجْرُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عذله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ﴾ أي: لا يبغضون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

ثم قال منكرأ على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ﴾ أي: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ أي: القرآن الذي أنزله الله تعالى علي رسول الله ﷺ. وقوله: ﴿وَفَمَّ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَائِلُونَ﴾: قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَمَّ أَعْمَلٌ﴾ أي: سيئة من دون ذلك، يعني: الشرك، ﴿هُمَّ لَهَا عَائِلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَفَمَّ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَائِلُونَ﴾ أي: قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقق عليهم كلمة العذاب. وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوي حسن. وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَدَرَجَاتٍ وَالْمُكَذِّبِينَ أَزْوَاجًا وَمُهَلَّجًا قِيلًا ﴿٦٩﴾﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَطَعَامًا ذَا غَضُوٍّ وَذَبَابًا أَلِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [المزمل: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿كَرْهُوا كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قُرْآنٍ فَتَادُوا وَذَكَرَ جِبْنَ مَنَاصِبٍ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ١٣].

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِكُرْبَىٰ لَا نَصْرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا نجبركم مما حل بكم، سواء جارتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا

وَرَزَّ لَزِمَ الْأَمْرَ وَوَجِبَ الْعَذَابُ. ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿مَنْ كَانَتْ آيَاتِي تَنْتَلِعُ عَنْكَ فَكُنْتُ عَلَيَّ أَغْلَبُكَ نَكْحُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أي: إذا دعيتم أبيتكم، وإن طلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْتُمِكُمْ لِلَّهِ الْعَمَلِ الْكَبِيرِ﴾ ﴿٦٩﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَآ تَهْجُرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾: في تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولاهله، فعلى هذا الضمير في ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهجر من الكلام.

والثاني: أنه ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أدلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا بهم، كما قال النسائي في التفسير من سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَآ تَهْجُرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سِمَرَآ﴾ قال: يتكبرون ويسمرون فيه، ولا يعمرونه، ويهجرونه. وقد أظن ابن أبي حاتم هاهنا بما ذا حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَنْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَرِهْتُمْ لِالْحَقِّ كُرْهُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ أَسْبَحَ الْهَقُّ أَهْوَاهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتُمْ بِذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُماً فَتَرْجُحُ رَبِّكَ حَبْرٌ وَمَوْ حَبْرٌ الرَّزْفِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَنصِفُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُوكَ﴾ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ شَرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٥﴾.

يقول تعالى منكرأ على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآبائهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا آتاهم نذير، فكان اللاتق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكرأ على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ ﴿٧٩﴾ أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيائته التي نشأ بها فيهم، أفيدرون على إنكار ذلك والمباينة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد آتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدان؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَرِهْتُمْ لِالْحَقِّ كُرْهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره. فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله: «أرأيت لو كنت في طريق وعرة وعت، فلقيت رجلاً تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه؟» قال: نعم. فقال: «فوالذي نفس محمد بيده، إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنني لأدعوك إلى أسهل

من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً، فقال له: «أسلم» فَصَعَّدَهُ ذَلِكَ، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت فتيتك، أحدهما إذا حَدَّثَكَ صدقك، وإذا ائتمنته أدى إليك أهدى أحب إليك، أم فتاك الذي إذا حَدَّثَكَ كذبك وإذا ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاي الذي إذا حَدَّثَنِي صدقي، وإذا ائتمنته أدى إلي. فقال النبي ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿أَوَلَا نُرَىٰ هَذَا الْفِرْعَوْنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ [الاسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَّا إِذْ لَا يُؤْمِنُ الْإِنْسَانُ نَدِيمًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتديبره لخلقته، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ثم قال: ﴿بَلْ آتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ فَمَن نَّهَىٰ عَنْ ذِكْرِهِمْ فَصَرَّتْ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ تَشَاءُ لَهُمْ حَرَمًا﴾: قال الحسن: أحرأ. وقال قتادة: جعلاً ﴿فَمَنْ نَّهَىٰ عَنْ ذِكْرِهِمْ فَصَرَّتْ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنِ اجْتَبَيْتُمْ آلَ اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَلَّةٌ مِّنَ الْأَقْصَا الْمَدِينَةِ لَعَلَّ الْيَتِيمَ قَالَ يَقْوِمُوا الْمُتْرَكِينَ﴾ [١٧] اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَلَيْكَ لِنَدْوِهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [١٧] وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُونَ﴾ [١٧] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعده أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سُفِّرَ انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبيناهم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرية، فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجركم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتقاومون فيها تقاوم الفرائش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجركم وأنا فَرَطُكُمْ على الحوض، فتدرون علي معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكم وأسماكنم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فَيُذْهِبُ بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أي رب، قومي، أي رب أمتي. فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها نغاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت. ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعبيراً له رغاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة، فينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت».

وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي. قلت: بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائي وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُونَ﴾ [١٧] أي: لعادلون جاثرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُنْفَنَّا مَا بِهِمْ مِنْ سُوءٍ لَّجَأُوا فِي مُّغَيَّبَتِهِمْ بِعَمَّهُونَ﴾ [١٧]: يخبر تعالى عن

غلظهم في كفرهم بأنه لو أراح عَظْمَهُمْ وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطينانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال: ﴿وَلَوْ رَفَعْنَا عَنَّا الْكُفْرَ فَكَلَّوْا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا لَوْلَا تَعْلَمُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧-٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون. وقال الضحاک، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَصْعَقُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَكَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا يَسْئَلُ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوْدَا يَسْتَأْذِنُ وَكُنَّا نَرَاهُ غَضْبًا أَوْدَا تَسْمِعُ مَا نَحْنُ مُبْشِرُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَصْعَقُونَ﴾، أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغييهم. ﴿فَمَا اسْتَعَاذُوا﴾ أي: ما خشعوا، ﴿وَمَا يَصْعَقُونَ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي، عن يزيد-يعني: النحوي- عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقال أكلنا العلهز-يعني: الوبر والدم- فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَصْعَقُونَ ﴿٧٦﴾﴾. وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، عن وهب بن عمر بن كيسان قال: حُيس وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَصْعَقُونَ ﴿٧٦﴾﴾. قال: وصام وهب ثلاثاً متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدث لنا فأحدثنا. يعني: أحدث لنا الحيس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانفطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم، التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في بزمته الخليفة وذرته لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما أبدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتَلَفَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمام غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبُئُنَّ لَمَّا أَنْ تَدْرُكُ أَقْصَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدلکم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبراً عن منكري البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا يَسْئَلُ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوْدَا يَسْتَأْذِنُ وَكُنَّا نَرَاهُ غَضْبًا أَوْدَا تَسْمِعُ مَا نَحْنُ مُبْشِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني يستعدون وقوع ذلك بعد صبرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يعني: أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿إِذْ ذَا كُنَّا غَضْبًا يُخْرِعُ ﴿٧٦﴾ قَالُوا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا لَوْلَا تَعْلَمُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنفال: ٧٦] فإذا هم

بِالْهَرَاةِ ﴿٨٤﴾ [النازعات: ١١-١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَوِيصٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مَلِكُكُمْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْرِكُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَابْتِهَارٍ لَكُمْ ذُنُوبٌ ﴿٩٠﴾﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبداً غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٤﴾﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعني: الذي هو سقف المخلوقات، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة. وفي الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة». ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه. وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض في العرش، كالتعديل المعلق بين السماء والأرض. وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفي رواية: إلا الله ﷻ. وقال بعض السلف: العرش من ياقوته حمراء. ولهذا قال هاهنا: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: الكبير: وقال في آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ أي: الحسن البهي. فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوته حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟ قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب «التفكير والاعتبار»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرني عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أمه، من خلقتك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلقتني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإني أسمع الله شيئاً ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع. قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث. قال عبد الله بن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث. قلت: في إسناد عبد الله بن جعفر المدني، والد الإمام علي بن المدني، وقد تكلموا فيه، والله أعلم.

﴿قُلْ مَنْ مَلِكُكُمْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيده الملك، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأُصْبُعَيْهَا﴾ [مرد: ٥٦]، أي: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذي نفسي بيده»، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَرُ في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن،

وقال الله: ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَعْمَلُ وَهُمْ يَسْتَأْتُونَ﴾ [١٢٣]، أي: لا يستل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبيته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلِكَ لَسْتَأْتَهُمْ آجِمِينَ﴾ [٩٦] عَنَّا كَانُوا يَسْأَلُونَ ﴿٩٧﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيُؤْتُونَكَ اللَّهُ﴾ أي: سيترفون أن السيد العظيم الذي يجبر ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له، ﴿قُلْ فَأَن تَسْخَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنْتُمْ كَكَذِبُونَ﴾ أي: في عبادتكم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَبْعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِيهِمْ كَثِيرُونَ﴾ [١٢٧]، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلِيمَةٍ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَيْلٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [١٢٨] عَلِيمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَمَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢٩﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فقال: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَيْلٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعمل بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَمَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى و﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ مَا يُعَدُّونَ﴾ [١٣٠] رَبِّ فَلَا تَحْمِلْنِي فِي الْقَبْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٣٢﴾ أَدْفَعْ يَا إِلَهِي مِنْ أَحْسَنِ أَلْسِنَتِهِ مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٣٣﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٣٤﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي ﴿١٣٥﴾.

يقول تعالى أمرأ نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ مَا يُعَدُّونَ﴾ أي: إن عاقبتهم - وإني شاهد ذلك - فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي - وصححه -: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون».

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [١٣٠] أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال مرشداً له إلى التزيق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿أَدْفَعْ يَا إِلَهِي مَنْ أَحْسَنَ أَلْسِنَتِهِ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ يَا إِلَهِي مَنْ أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٢٤] وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ [نصفت: ٣٤، ٣٥] أي ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدانهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [١٣٤] أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا يتقادون بالمعروف. وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفسه».

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ [١٣٥] أي: في شيء من أمري؛ ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني

أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدْم ومن العرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها في عنقه. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال الترمذي: حسن غريب.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن دُونِهَا يَبْرَحُ ﴿١٠٠﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّي لَوْلَا أَلْتَمِنتُ إِلَيْكَ أَجَلِي قَرِيبًا فَاصْدَقْ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَكَانَ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرَّسُلُ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ أَلَمْ تَسْتَمِعُوا مِن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِن قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِآيَاتٍ فَتَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدْهُمْ فَأَمْكَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الاعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِحُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَاهُنَا وَإِنِ اسْتَعْجَلْنَا لَنَحْمِلْهَا إِنَّا مُفْرَقُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ بَلْ دَبَّاهُمْ مَا كَانُوا يَحْفَرُونَ ﴿١٧﴾﴾ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرْرٌ مِّن سَبِيلِ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَاهُنَا وَإِنِ اسْتَعْجَلْنَا لَنَحْمِلْهَا إِنَّا مُفْرَقُونَ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَبَعَثْنَا الَّذِينَ نَادَوْا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله: ها هنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: كلا: حرف ردة وزجر، أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أي: لأنها كلمة، أي: سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً، وكان يكذب في مقالهته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾. وقال عمر بن عبد الله مولى عُفْرَةَ: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلَّا﴾، فإنما يقول: كذب. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله ﷻ. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه.

وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل - يعني: ابن عياض - عن نَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني: الكافر - في قبره، فيرى مقعده من النار. قال: فيقول: رب، ارجعوني أتوب وأعمل صالحاً. قال: فيقال: قد عُمرت ما كنت مُعَمَّراً. قال: فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوي إليه هَوَامُ الأرض وحياتها وعقاربها. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثني سلمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور!! تدخل عليهم في قبورهم حيات سود - أو: دُهم - حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهَا يَبْرَحُ ﴿١٠٠﴾﴾ وَمِن دُونِهَا يَبْرَحُ ﴿١٠٠﴾﴾. وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهَا يَبْرَحُ﴾: يعني: أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع

أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون. وفي قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِم بِرَزْخٍ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِم جَهَنَّمَ﴾ [الجنانية: ١٠] وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِم عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها»، أي: في الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ (١٠٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ لَكَرْهُهُمْ فِيهَا كَلِيلُ حُوتٍ﴾ (١٠٤).

يخبر تعالى أنه نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والد لولده، ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيًّا حِمِيًّا﴾ (١٠١) ﴿يَصْرُوفُهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه - كان - في الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَيِّهِمْ﴾ (٣٤) ﴿وَأَيُّهُمُ أَلْبَسُوا﴾ (٣٥) ﴿وَصَحِيحُوهُ وَيَتَّبِعُهُ﴾ (٣٦) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ يَوْمَئِذٍ نَّاسٌ يَنْبَغِيهِ﴾ (٣٧) [عبس: ٣٤-٣٧]. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه. قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن المسور - هو ابن مخرمة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويُسْطِنِي ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري. هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، يربيني ما رابها، ويؤذيها ما أذاها». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني - أيها الناس - فرط لكم، إذا جتتم» قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان، وقال أخوه: أنا فلان بن فلان فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدي وارتدتم الفهري».

وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق متعددة عنه، رضي الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، قال: أما - والله - ما بي إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي». رواه الطبراني، والبخاري، والبيهقي، والحافظ الضياء في «المختارة» وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً؛ إعظماً وإكراماً، رضي الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله ﷺ - من طريق أبي القاسم البغوي: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري». وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربي ﷻ ألا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إلي أحد منهم، إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك»، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿فَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (١٠٣) أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا، وبأوا بالصفقة الخاسرة. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المرزبي، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكاً موثقاً بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً». إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَشْتَبِي وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿أَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ [٣٩]. [الأنبياء: ٣٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قزوة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصهباني، عن أبي سنان ضَرَّار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن جهنم لما سبق إليها أهلها يلقاهم لهبها، ثم تلعفهم لفة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب». وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفَرَّاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان، حدثنا سعد بن سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهمُ النَّارُ﴾، قال: «تلعفهم لفة، فتسيل لحومهم على أعقابهم». وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُسْتَبِط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك، رحمه الله - أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السَّمْح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدَري، عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سُرته». ورواه الترمذي، عن سُويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَنْقُلُ عَلَيْكَ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْفِرُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقُونَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تفریع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمأثم والمحارم والعظائم، التي أربقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَنْقُلُ عَلَيْكَ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْفِرُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أَلِيقَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلْ كَذَّبْنَا وَكُنَّا مَا تَرْكَبُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي صُكُلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك: ٨-١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقُونَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها، فضللتنا عنها ولم نُرَوقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ أي: رُدنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ فُؤُوسًا فَلَئِمَّا لِلَّهِ الْكِبِيرِ ﴿١٧﴾ [غافر: ١١، ١٢] أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ أَخَشُّوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ قَوْلِي مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَعَدَّتُمْ سِجْرَتًا حَقِّقَ أَسْوَأَكُمْ يَذَرُونَهَا فِيهَا يَمْتَسِكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنْ حَزَبْتُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَخَشُّوا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مُهَانِينَ أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَخَشُّوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن سليمان المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرده عليهم؛ إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم - والله - على مالك ورب مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقُونَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿أَخَشُّوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. قال: والله ما تبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، وأولها زفير وآخرها شهيق. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزُّعْرَاء، قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله ألا يخرج منهم أحداً - يعني: من جهنم - غير وجوههم والوأنهم، فيجيء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾، فعند ذلك يقول: ﴿أَخَشُّوا فِيهَا

وَلَا تَكْفُرِينَ ﴿١١٢﴾. وإذا قال ذلك، أطقت عليهم فلا يخرج منهم بشر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ قَوْمٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٤﴾ فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ أَي: فسخرت منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، ﴿حَتَّىٰ أَنْزَلْنَاهُ بِذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم علي أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَاعِفُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَنْجَلْنَا مِنَ النَّارِ يَأْتِيهِمْ الْيَوْمَ الْمَوْتُ بَمَا كَانُوا عَمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أي: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: علي أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهَمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار.

﴿قُلْ كَمْ لِيَنْتُرُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا لَيْتَنَا بَوْمًا أَوْ بَعْشَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ قُلْ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢٠﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٢١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً لهم علي ما أضعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أوليائه المتقون، ﴿قُلْ كَمْ لِيَنْتُرُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا بَوْمًا أَوْ بَعْشَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: الحاسبين ﴿قُلْ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مدة يسيرة علي كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما أترتم الفاني علي الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتكم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم علي طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيقبع بن عبد الكلاعي؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبستم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبشنا يوماً أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم: رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين. ثم يقول: يا أهل النار، كم لبستم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبشنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم: ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين».

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَن لِيَرْكَبَهُ سَكَنٌ ﴿١٢١﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني هملأ.

وقوله: ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ﴾ أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَابْتَلْنَا فِيهَا مِينَ كَعْبٍ نَّجِيبٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن محمد الطنابيسي، حدثنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أبنانا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحرمت جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقيين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ قد قضى نجه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وياشر التراب، وواجه الحساب، مُرْتَهَنٌ بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواليقه، ونزول الموت بكم. ثم جعل طرف رده على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصر الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي هُبَيْرَةَ عن حَسَنَ بن عبد الله؛ أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٩﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ﴾، حتى ختم السورة قَبْرًا، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن رجلاً موقناً قرأها علي جبل لزال».

وروى أبو نعيم من طريق خالد بن زيار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خنيس، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك بن مزاجم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿يَسِّرْ اللَّهُ يَجْرَبُهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

﴿الرَّحِيمِ﴾ ﴿١٧٨﴾.

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا دليل له على قوله - فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخير: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا - حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأتيهم إذا أصابكم ضرر فدعوته، كشف عنك؟» قال: الله ﷻ. قال: «فأتيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله ﷻ. قال: «فما يملكك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا تعلمون» قال الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلاً خصمني. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَغْفِرُ وَأَرْحَمُ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغفر - إذا أطلق - معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون



تفسير سورة النور

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: قال مجاهد وقاتدة: أي بينا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود. وقال البخاري: ومن قرأ «فَرَضْنَاهَا» يقول: فرضنا عليكم وعلى من بعدكم.

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مفسرات واضحات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾: هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكاراً، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل. فأما إذا كان بكاراً لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغْرَبَ عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة، رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غُرِبَ وإن شاء لم يُغْرَب. وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عسيفاً - يعني: أجييراً - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني مائة تغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأقضي بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغدا يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها». فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها. ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة

إذا كان بكرة لم يتزوج، فأما إن كان محصناً فإنه يرجم، كما قال الإمام مالك: حدثني ابن شهاب، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن ابن عباس أخبره، أن عمر، رضي الله عنه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعينناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيصلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو الحبل، أو الاعتراف.

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذا قطعة منه، فيها مقصودنا ها هنا. وروى الإمام أحمد عن هُشَيْم، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن عباس: حدثني عبد الرحمن بن عوف؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعتة يقول: ألا وإن أناساً يقولون: ما بال رجم؟ في كتاب الله الجلد. وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. ولولا أن يقول قائلون - أو يتكلم متكلمون - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه، لأثبتها كما نزلت. وأخرجه النسائي، من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله، به. وقد روى أحمد أيضاً عن هُشَيْم، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال: لا تُخَذَعْنَ عنه، فإنه حدٌ من حدود الله، ألا إن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه، لكتبت في ناحية من المصحف: وشهد عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان وفلان: أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده. ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالرجال وبالشفاعة وبعداب القبر، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتجشوا. وروى أحمد أيضاً عن يحيى القطان، عن يحيى الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم. الحديث رواه الترمذي، من حديث سعيد بن عُمر، وقال: صحيح. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبَيْدِ اللَّهِ بن عمر الفواريري، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا ابن عَوْن، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: بُنِيتُ عن كثير بن الصلت قال: كان عند مروان وفينا زيد، فقال زيد: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة فارجموهما البتة». قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، قال: فذكر كذا وكذا، وذكر الرجم، فقال: يا رسول الله، أكتبني آية الرجم: قال: «لا أستطيع الآن». هذا أو نحو ذلك.

وقد رواه النسائي عن محمد بن العثني، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جُبَيْر، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت، به. وهذه طرق كلها متعددة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها، وبقي حكمها معمولاً به، والله الحمد. وقد أمر رسول الله ﷺ بـرجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير. ورجم النبي ﷺ ماعزاً والغامدية. وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم. وإنما وردت الأحاديث الضحاح المتعددة الطرق والألفاظ، بالانقصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد، رحمه الله، إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه لما أتى بشرحة، وكانت قد زنت وهي مُحْسَنَةٌ، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله، ورجمها بسنة رسول الله ﷺ. وقد روى الإمام أحمد ومسلم، وأهل السنن الأربعة، من حديث قتادة، عن الحسن، عن جَطَّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم». وقوله: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» أي: في حكم الله. لا ترجموهما وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية إلا تكون حاصلة على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز له ذلك. قال مجاهد: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» قال: إقامة الحدود، إذا رفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا روي عن سعيد بن جُبَيْر، وعطاء بن أبي رباح، وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍ فقد وجب». وفي الحديث الآخر: «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً». وقيل المراد: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»: فلا تقيموا الحد كما ينبغي، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبي: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»: قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن حماد بن أبي سليمان، يجلد القاذف وعليه ثيابه، والزاني تخلع ثيابه، ثم تلا: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد - يعني في إقامة الحد، وفي شدة الضرب. وقال ابن أبي

حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن نافع، عن ابن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجلها - قال نافع: أراه قال: وظهرها - قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِمَا رَأَيْتُمْ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدتها في رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك: أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك. وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إنني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: ﴿ولك في ذلك أجر﴾.

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريباً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: علانية. ثم قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الطائفة: الرجل فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى الألف. وكذا قال عكرمة؛ ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد. وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان. وبه قال إسحاق بن راهويه. وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: يعني: رجلين فصاعداً. وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً. وقال عبد الرزاق: حدثني ابن وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: أربعة نفر فصاعداً؛ لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعي. وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابها طائفة من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا بقية قال: سمعت نصر بن علقمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة. أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: عاص بزناها، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾: لا يعتقد تحريمه. قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه، وقد روي عنه من غير وجه أيضاً. وقد روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والضحاك، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وغير واحد، نحو ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفاف بالفجار من الرجال. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حرّم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة، ومقاتل بن حيان: حرّم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وتقدم في ذلك فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالْمَعْرُوفُ مُحْصَنَتِي غَيْرَ مُسْلِفِحَتِي وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْلِفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ الآية [المائدة: ٥]. ومن ها هنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا مَعْتَمِر بن سليمان قال: قال أبي: حدثنا الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أن رجلاً من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة - يقال لها: «أم مهزول» - كانت تسافح، وتشرط له أن تنفق عليه - قال: فاستأذن رسول الله ﷺ - أو: ذكر له أمرها - قال: فقرا عليه رسول الله ﷺ: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة - يقال لها: «أم مهزول» - وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله ﷻ: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا روح بن عبادة بن عبادة بن عبد الله بن الأحنس، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له «مَرْتَدٌ بن أبي مرتد»، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت

امراً بغي بمكة يقال لها «عناق»، وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله. قال: فبحثت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت «عناق» فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفنتني، فقالت: مَرْتَدٌ؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناق، حرم الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحندمة، فانتهيت إلى غار - أو كهف - فدخلت فيه، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني - قال: ثم رجعوا، فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً؟ أنكح عناقاً؟ مرتين - فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت: ﴿الرَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد، الران لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ»، فلا تنكحها. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود والنسائي، في كتاب النكاح من سنتهما، من حديث عبيد الله بن الأحنس، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُفْدُ أَبُو الْحَسَنِ، حدثنا عبد الوارث، عن حبيب المعلم، حدثني عمرو بن شعيب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ». وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر - عبد الله بن عمرو - كلاهما عن عبد الوارث، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال: أشهد لسمعت سالم يقول: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة - المتشبهة بالرجال - والديوث. وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومُذْمِنُ الخمر، والمثان بما أعطى». ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس، عن يزيد بن زريع، عن عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعُمَرِيُّ، عن عبد الله بن يسار، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا الوليد بن كثير، عن قطن بن وهب، عن عُوَيْمِرِ بْنِ الْأَجْدَعِ، عن حدثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدثني عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق والذويث الذي يقر في أهله الخبيث». وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة، حدثني رجل - من آل سهل بن حَنِيْفٍ - عن محمد بن عَمَّار، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث». يستشهد به لما قبله من الأحاديث. وقال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سلام بن سَوار، حدثنا كثير بن سُلَيْمِ، عن الضحاک بن مَرْحَمٍ: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مَطْهُراً، فليتزوج الحرائر». في إسناده ضعف. قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتاب «الصحاح في اللغة»: الذويث الفندع وهو الذي لا غيره له. فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «النكاح» من سننه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عَلِيَّةَ، عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة وغيره، عن هارون ابن رثاب، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم، عن عبد الله بن عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ، عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي امرأة هي من أحب الناس إلي، وهي لا تمنع يد لأمس. قال: «طلقها». قال: لا صبر لي عنها. قال: «استمتع بها». ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. قلت: وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث، وقد خالفه هارون بن رثاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي. لكن قد رواه النسائي في كتاب «الطلاق»، عن إسحاق بن راهويه، عن النضر بن شميل، عن حماد بن سلمة، عن هارون بن رثاب، عن عبد الله بن عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ، عن ابن عباس مستنداً، فذكره بهذا الإسناد، رجاله على شرط مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل». ورواه غير النضر على الصواب.

وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيْثٍ، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسين بن واقد، عن عَمَّارِ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره. وهذا إسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مُضَعَّفٍ له، كما تقدم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وحكاها النسائي في سننه عن بعضهم فقال: وقيل: «سخية تعطي»، ورُدَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تَرُدُّ دَيْمِمْسَ.

وقيل: المراد أن سجيتها لا تزد يد لأمس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها. فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ذيوثاً، وقد تقدم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها معانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله ﷺ بفرقتها. فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها؛ لأن محبته لها محققة، ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يُصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. قالوا: فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سمعت شعبة - مولى ابن عباس، رضي الله عنه - قال: سمعت ابن عباس وسأله رجل قال: إني كنت ألم بامرأة آتتني منها ما حرم الله، ﷻ، عليّ فرزق الله، ﷻ، من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية. فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، قال: كان يقال: نسختها الآية التي بعدها: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يقال الأيماى من المسلمين. وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ»، له، عن سعيد بن المسيب. ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلْيَأْتُوا بِشَهَادَتِهِمْ ثَلَاثَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَأْتُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء. فأما إن أقام القاذف بيعة على صحة ما قاله، زد عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلْيَأْتُوا بِشَهَادَتِهِمْ ثَلَاثَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بيعة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته دائماً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس يعدل، لا عند الله ولا عند الناس. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَأْتُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾، اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى، سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف - فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. ونص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. ومن ذهب إليه من السلف القاضي - شريح، وإبراهيم التَّحَوِّي، وسعيد ابن جُبَيْر، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ أَرْبَعَهُمْ وَلَا يُشْهِدُ شَهَادَةً أَوْ يَشْهِدُ شَهَادَةً بِأَلْفٍ مِنْهُ لِيَنْصَرِفُونَ ﴿٦﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ أَلْفٌ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ أَلْفٌ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٩﴾ وَلَا تَنْصَرِفُ إِلَّا أَنْ عَشَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرُّهُ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعرض عليه إقامة البيعة، أن يلاعنها، كما أمر الله، ﷻ، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: فيما رماها به من الزنا، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ أَلْفٌ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾. فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيتها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ أَلْفٌ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾. ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾. فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه. ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه، ورأفته بهم، وشرعه لهم الفرغ

والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لحررتم ولشق عليكم كثير من أموركم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أي: على عبادته - وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة - ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، وفيمن نزلت فيه من الصحابة، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَمْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ﴾ يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيديكم؟ قالوا: يا رسول الله، لا نلّمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرأ، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، من شدة غيرته. فقال سعيد: والله - يا رسول الله - إنني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكنني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرکه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه، وسمع بأذنيه، فلم يهتجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني جئت أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني، وسمعت بأذني. فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في المسلمين. فقال هلال: والله إنني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً. وقال هلال: يا رسول الله، إنني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إنني لصادق. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ أنزل الله على رسول الله ﷺ من الوحي - فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُرْمُونَ زَوْجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدُوا آمَنًا﴾ الآية، فسرى عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا هلال، قد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً» فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي، ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها». فأرسلوا إليها، فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله - يا رسول الله - لقد صدقت عليها. فقالت: كذب. فقال رسول الله ﷺ: «لا عنوا بينهما». فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب. فقال: والله لا يعذبني الله عليها، كما لم يعذبني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب. فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي. فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى ألا بيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق، ولا متوفى عنها. وقال: «إن جاءت به أصيبت أريسخ حنّس الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جُماليّاً خدلج الساقين سابقين، فهو الذي رميت به». فجاءت به أورق جعداً جُماليّاً خدلج الساقين سابقين الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب. ورواه أبو داود عن الحسن بن علي، عن يزيد بن هارون، به نحوه مختصراً.

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة، فمنها ما قال البخاري:

حدثني محمد بن بشر، حدثنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، حدثني عكرمة، عن ابن عباس؛ أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سخماء، فقال رسول الله ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا أرى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إنني لصادق، ولينزل الله ما يبريء ظهري من الحد. فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يُرْمُونَ زَوْجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾. فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «الله يشهد أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابقين الأليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سخماء». فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي ولها شأن». انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه، عن ابن عباس وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا

أحمد بن منصور الزياتي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعني: ابن كليب - عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله، فرمى امرأته برجل، ففكر ذلك رسول الله ﷺ، فلم يزل يُرَدِّده حتى أنزل الله ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَكُنَّ لَهُنَّ شَهَدَاتٌ مِّنْ أَيْمَانِهِمْ﴾، فقرأ حتى فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: «إن الله، ﷻ، قد أنزل فيكما». فدعا الرجل فقرأ عليه، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه، فقال له: «كل شيء أهون عليه من لعنة الله». ثم أرسله فقال: ﴿لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، ثم دعا بها، فقرأ عليها، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها، وقال: «ويحك. كل شيء أهون من غضب الله». ثم أرسلها، فقالت: ﴿عَصَبَ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأقضين بينكما قضاءً فصلًا». قال: فولدت، فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر غاشية منه، فقال: «إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا». فجاءت به يشبه الذي قُذفت به.

وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جبير قال: سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرق بينهما - في إماره ابن الزبير؟ فما ذريت ما أقول، فقممت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت: أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أيفرق بينهما؟ فقال: سبحان الله، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلمت تكلم بامر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك. فسكت فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به. فأنزل الله ﷻ هذه الآيات في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، حتى بلغ: ﴿أَنَّ عَصَبَ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فبدأ بالرجل فوعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبتك. ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. قال: فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فرق بينهما. رواه النسائي في التفسير، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان، به. وأخرجه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت عن غيظ؟ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله ﷺ. قال: فسأله. فقال: يا رسول الله، إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن سكت سكت عن غيظ؟ اللهم احكم. قال: فأنزل آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طُرق، عن سليمان بن مهران الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو كامل: حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن سهل بن سعد، قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: سل رسول الله ﷺ: أرايت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل. قال: فلقبه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل. فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله. فأتاه فوجده أنزل عليه فيهما. قال: فدعا بهما فلا عن بينهما. قال عويمر: لئن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها. قال: ففارقتها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الألتين، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحره فلا أراه إلا كاذباً». فجاءت به على النعت المكروه. أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي، من طرق، عن الزهري، به.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يثيع، عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لورايت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به؟ قال: كنت والله فاعلاً به شراً. قال: «فأنت يا عمر؟». قال: كنت والله فاعلاً، كنت أقول: لعن الله الأعجز، وإنه خبيث. قال: فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَكُنَّ لَهُنَّ شَهَدَاتٌ مِّنْ أَيْمَانِهِمْ﴾. ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل، عن يونس بن أبي إسحاق، ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع مرسلًا، فإله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجزمي، حدثنا مُخَلَّدُ بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال:

لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سَحْمَاء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إن الله يعلم اني لصادق، ولينزلن الله عليك ما يريى به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميته بها من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له في الخامسة: «ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميته بها من الزنا» ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا». فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا»، فقالت: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم. فمضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «انظروا، فإن جاءت به جعداً حَمَشَ الساقين، فهو لشريك بن سَحْمَاء، وإن جاءت به أبيض سبطاً فضيء العينين فهو لهلال بن أمية». فجاءت به آدم جعداً حَمَشَ الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله، لكان لي ولها شأن».

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُونَ لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِفْكِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله ﷻ اعتبارها صيانة لعرض الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزوه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً: ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سافراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاه، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنأ أحمل في هودجتي وأنزل في مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة وقفل ودنونا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل، فقممت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقدة من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحيسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجتي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب - وهم يحسبون أنني فيه - قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْلِيَهُنَّ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجمت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فقيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فتمت - وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش - فاذلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأته. وقد كان يراني قبل أن يضرَب عليّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤخرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول. فقدمت المدينة فاشتكت حين قدمنا شهراً، والناس يُفِيضُونَ في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكُم؟» فذلك يرييني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع - وهو مَتَبَّرُنا - ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَحْدَ الكُفَّ قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكُفَّ أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة ضخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن

أثانة بن عبّاد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: «تس مسطح». فقلت لها: بنسما قلت. تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هتئاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخير من قبلهما - فأذن لي رسول الله ﷺ، فجنحت أبوي فقلت لأمي: يا أمّاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: أي بئتي، هوّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قطّ وضئته، عند رجل يجبهها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلّت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيك تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله ﷺ عليّاً، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدّقك الخير. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريدة، فقال: «أي بريدة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريدة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قطّ أغمضه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عمجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلؤل. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني آذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرک. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأنني شيء - قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنني قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلّص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقول للرسول. فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيراً من القرآن -: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله ﷻ يعلم أي بريئة تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٤١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أي بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأنني وحي يتلى، ولشأنني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق في اليوم الثاني، من نقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد برّأك». فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ، وهو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا﴾ عشر آيات. فأنزل الله هذه الآيات براءتي قالت: فقال أبو بكر، رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقربائه منه وقرهه - : «والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ أَوْلِيَاءَ الْأَقْرَبِ يَنْكُرُوا وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا حَسِبُونَ أَن يُغْفَرَ اللَّهُ لَكُلِّهُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمري: يا زينب، ما علمت، أو: ما رأيت أو ما

بلغنك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تُحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة. وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

ثم قال البخاري: وقال أبو أسامة، عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمتُ به، قام رسول الله ﷺ في خطيباً، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أشيروا علي في أناس أتوا أهلي، وإيّم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبئوهم بمن والله ما علمتُ عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: ائذن يا رسول الله أن تضرب أعناقهم، فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال: كذبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم. حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد، وما علمتُ. فلما كان مساء ذلك اليوم، خرجت لبعض حاجتي ومعني أم مسطح، فعثرت فقالت: تمس مسطح، فقلت: أي أم، أتسبين ابنك؟ وسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تمس مسطح. فقلتُ لها: أي أم، تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة فقالت: تمس مسطح. فانتهرتها فقالت: والله ما أسبه إلا فيك، فقلت: في أي شأني؟ قالت: فبقرت لي الحديث. فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله. فرجعتُ إلى بيتي كان الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً، ووععتك، وقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي. فأرسل معي الغلام، فدخلتُ الدار، فوجدت أم رومان في السفلى، وأبا بكر فوق البيت يقرأ، فقالت لي أُمي: ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، فقالت: يا بنية، خُفّضي عليك الشأن؛ فإنه - والله - لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا حسدنها، وقبل فيها وإذا هو لم يبلغ ما بلغ مني، فقلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسول الله ﷺ. فاستعَبْرْتُ وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي، وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأُمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها. ففاضت عيناه وقال: أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك. فرجعتُ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيّتي، فسأل عني خادمي، فقالت: لا، والله ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها - أو: عجبتها - وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدّقي رسول الله ﷺ، حتى أسقطوا لها به، فقالت: سبحان الله. والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله. والله ما كشفتُ كَنَفَ أنثى قط - قالت عائشة: فقتل شهيداً في سبيل الله - قالت: وأصبح أبواي عندي، فلم يزا إلا حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتفني أبواي عن يميني وعن شمالي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد يا عائشة، إن كنت قارفتُ سوءاً أو ظلمت فتوبني إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده». قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار، فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً؟ فوعظ رسول الله ﷺ، فالتفت إلى أبي، فقلت له: أجه. قال: فماذا أقول؟ فالتفتُ إلى أُمي فقلت: أجيبي. قالت: أقول ماذا؟ فلما لم يجيبها، تشهدتُ فحمدتُ الله وأثنت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد، فوالله لئن قلت لكم إنني لم أفعل - والله ﷻ يشهد إنني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به، وأشربته قلوبكم، وإن قلت، إنني قد فعلت - والله يعلم أنني لم أفعل - لتقولن: قد باءت به على نفسها، وإنني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً والتمسّت اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال: «فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهِ الْكُفْرَانُ عَلَيَّ مَا قَوْمُونَ» [يوسف: 1٨]، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فزُفِعَ عنه وإنني لأتبين السرور في وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»، قالت: وكنت أشد ما كنتُ غضباً، فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلت: لا، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمده، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه، وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدِينها، فلم تقل إلا خيراً. وأما أختها حمنة بنت جحش، فهلكت فيمن هلك. وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت. وأما المناق عبد الله بن أبي بن سلول فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة. قالت: وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً فأنزل الله: «وَلَا يَأْتِي أَوْلِيَاءَ الْفَضْلِ وَيَكْفُرُ وَالسَّعَةِ» إلى آخر الآية، يعني: أبا بكر، «وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتَى أَوْلِيَاءَ الْفَرِيقِ وَالْمَسْكِينِ» يعني: مسطحاً، إلى قوله: «وَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَتَفَرَّ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ» [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى والله يا ربنا، إنا لَنُحِبُّ أَنْ نتغفر لنا وعاد له بما كان يصنع.

هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلَّقاً بصيغة الجزم، عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات. وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع، عن أبي أسامة، به مطولاً، مثله أو نحوه. ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، ببعضه. وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلْمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عَزْدَرِي مِنَ السَّمَاءِ، جَاءَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبِرَنِي بِذَلِكَ، فَقُلْتُ: نَحْمَدُ اللَّهَ لَا نَحْمَدُكَ. وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عَزْدَرِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمْرُ بَرَجَلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَضْرِبُوا حُدُومَهُمْ. وَأَخْرَجَهُ أَهْلُ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَوَقَعَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ تَسْمِيَّتِهِمْ: حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمُسَطَّحُ بْنُ أَثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ. فَهَذِهِ طَرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي الْمَسَانِيدِ وَالصَّحَاحِ وَالسَّنَنِ وَغَيْرِهَا. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّهَا أُمِّ رُومَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، أَخْبَرَنَا حُصَيْنُ بْنُ أَبِي وائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عَائِشَةَ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ -بَابِنهَا- وَفَعَلَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَأَيُّ حَدِيثٍ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا. قَالَتْ: وَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَخَرَّتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مَغْشِياً عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قَالَتْ: قَعَمْتُ فَدَثَرْتُهَا، قَالَتْ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَتْهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قَالَ: فَلَعَلَهُ فِي حَدِيثٍ تُحَدِّثُ بِهِ». قَالَتْ: فَاسْتَوْتُ لَهُ عَائِشَةُ قَاعِدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ لَكُمْ لَا تَصْدُقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَذَرْتُ إِلَيْكُمْ لَا تُعَذِّرُونِي، فَمَثَلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا يَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٤١٨]. قَالَتْ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَاهَا، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَدَخَلَ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَذْرَكَ». فَقَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ. فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: تَقُولِينَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَكَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ رَجُلٌ كَانَ يَعْوَلُهُ أَبُو بَكْرٍ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَصِلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ. ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ أَوْلِيَاءُ الْفَضْلِ وَنِكَرٌ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [النور: ٢٢]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى. فَوَصَلَهُ.

تفرد به البخاري دون مسلم، من طريق حُصَيْنٍ. وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة - وعن محمد بن سلام - عن محمد بن فضيل، كلاهما عن حُصَيْنٍ، به. وفي لفظ أبي عوانة: حَدَّثَنِي أُمُّ رُومَانَ. وهذا صريح في سماع مسروق منها، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ، منهم الخطيب البغدادي، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمان النبي ﷺ، قال الخطيب: وقد كان مسروق يرسله فيقول: «سئلت أم رومان»، ويسوقه، فلعل بعضهم كتب «سئلت» بألف، فاعتقد الراوي أنها «سألت»، فظنه متصلاً. قال الخطيب: «وقد رواه البخاري كذلك، ولم تظهر له علته». كذا قال، والله أعلم. فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب والبهت والافتراء، ﴿عَصِيَّةٌ﴾ أي: جماعة منكم، ﴿لَا تَصْبِرُوا شَرًّا لَكُمْ﴾ أي: يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسأن صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعته الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس، رضي الله عنه، وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري، فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء. وقال ابن جرير في تفسيره: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ، عَنْ الْمَعْلِيِّ بْنِ عِرْفَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ: تَفَاخَرَتْ عَائِشَةُ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: أَنَا الَّتِي نَزَلَ تَزْوِجِي مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: وَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَنَا الَّتِي نَزَلَ عَزْدَرِي فِي كِتَابِهِ، حِينَ حَمَلْتِي ابْنَ الْمَعَطَّلِ عَلَى الرَّاحِلَةِ. فَقَالَتْ لَهَا زَيْنَبُ: يَا عَائِشَةُ، مَا قُلْتِ حِينَ رَكَبْتِيهَا؟ قَالَتْ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ. قَالَتْ: قُلْتُ كَلِمَةَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْتَهُمُ مَا آكَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بشيء من الفاحشة، نصيب عظيم من العذاب. ﴿وَاللَّيْلِ نَزْوَى كِبْرُؤُ﴾: قيل: ابتداء به. وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، ﴿لَمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول - قبحه الله ولعنه - وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد. وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يذنب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك». وقال الأعمش: عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنتُ عند عائشة، رضي الله عنها، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فالتقى له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني: يدخل عليك - وفي

رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ بِأَذْنِهِمْ لَمَّا نَبَذُوا فِيهَا مَذْحِجَةً﴾. وفي رواية العمى - وكان قد ذهب بصره - لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم. ثم قالت: إنه كان يُفانخ عن رسول الله ﷺ. وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزْنَ بِرَيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَزْزَى مِنْ لَحُومِ التَّوَافِلِ
فَقَالَتْ: أما أنت فلست كذلك. وفي رواية: لكنك لست كذلك. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن قزعة، حدثنا سلمة بن علقمة، حدثنا داود، عن عامر عن عائشة أنها قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان - يعني ابن الحارث ابن عبد المطلب -:

هَجَرَتْ مُحَمَّدًا، فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْخِزَاءِ
فَلِإِنْ أَبِي وَوَالِدِهِ وَعَرْضِي لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ
أَتَشْتُمُهُ، وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ؟ فَشَرَكُمَا لِحَيْرِكُمَا الْفِدَاءِ
لِسَانِي صَارَ لَا عَيْبَ فِيهِ وَيَخْبِرِي لَا تُكْذِرُهُ الْبِدَاءِ

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء. قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ بِأَذْنِهِمْ لَمَّا نَبَذُوا فِيهَا مَذْحِجَةً﴾، قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم؟ أليس قد ذهب بصره وكُتِعَ بالسيف؟ تعني: الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمى، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله.

﴿تَوَلَّى إِذْ سَمِعَتْهُ نَوَى الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ قَالُوا لَيْتَ كَذَبُوهُمْ﴾.

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة، رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿تَوَلَّى﴾ بمعنى: هلا ﴿إِذْ سَمِعَتْهُ﴾ أي: ذلك الكلام، أي: الذي رميت به أم المؤمنين ﴿طَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى. وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته، رضي الله عنهما، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة، رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن ذكر الله، ﷻ من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: ١١]، وذلك حسان وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿تَوَلَّى إِذْ سَمِعَتْهُ نَوَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبه. وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان، عن أفلح مولى أبي أيوب، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله خير منك: فلما نزل القرآن، وذكر أهل الإفك، قال الله، ﷻ: ﴿تَوَلَّى إِذْ سَمِعَتْهُ نَوَى الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال. ويقال: إنما قالها أبي بن كعب. وقوله: ﴿طَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بالستهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رابحة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرغوة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة. قال الله تعالى: ﴿تَوَلَّى﴾ أي: هلا ﴿جَاءَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ قَالُوا لَيْتَ كَذَبُوهُمْ﴾ أي: في حكم الله كذبة فاجرون.

﴿وَتَوَلَّى فَصَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكَتُ فِي مَا أَقْسَمْتُ بِهِ وَعَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ إِذْ تَلَقَوْهُمْ بِالَيْتِنِكُمْ وَقَوْلُونَ يَا أُوْهُرَكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَحَسْبُوهُمْ فِيْنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

يقول: الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَكْتُمْ فِي مَا أَفْسَرْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفك، ﴿عَلَّابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش، أخت زينب بنت جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازئه أو يرجع عليه. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾: قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا. وقرأ آخرون ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾. وفي صحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرأها كذلك. وتقول: هو من ولَّتْ القول. يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: ولَّتْ فلان في السير: إذا استمر فيه. والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مزوية عن أم المؤمنين عائشة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة أنها كانت تقرأ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾، وتقول: إنما هو ولَّتْ القول - والوَلَّتْ: الكذب. قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها.

وقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك سياراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! الله يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى، لا يُقدَّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدرى ما تَبْلُغُ، بهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقى لها بالا».

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ يَبْطِئُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِيُذِلَّنَا أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لِكُلِّ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾.

هذا تأديب آخر بعد الأول: الأمر بالظن خيراً، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة، فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، ولا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». أخرجاه في الصحيحين. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله. ثم قال تعالى: ﴿يَبْطِئُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِيُذِلَّنَا أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي: فيما يستقبل. فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر. ثم قال: ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لِكُلِّ الْآيَاتِ﴾ أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي علم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذمته منه شيء، وتكلم به، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فردوا الأمور إليه ترضدوا. وقال الإمام أحمد، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون بن أبي محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المحزومي، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «لا تُؤذوا عباد الله ولا تُعبروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته».

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْتِ بِالْفَاحِشَةِ وَالنَّكْرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ آدَمٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف

عباده، رحيم بهم. فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وظهر من ظهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال: ﴿تَابَهَا الَّذِينَ أَسَاءُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: هذا تنفير وتحذير من ذلك، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ عمله. وقال عكرمة: نزغاته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان. وقال أبو مجلز: النور في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن أكل طعاماً؟ فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفر عن يمينك، وكل. وقال الشعبي في رجل نذر دَبِجَ ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا الشُّرَيْبِيُّ بن يحيى، عن سلمان التيمي، عن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية، ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر، فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَرَحْمَتُهُ مَا كُنَّا مِنْكُمْ مِنْ أُمَّةٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها وفسادها وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، من يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ أَوْلُو الْأَقْرَبِينَ مِنَ السَّبِيلِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَتَّقُوا اللَّهَ وَيَصِفُّوا أَلْفَاظَهُمْ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَوَالِدِهِمْ يَكْفُرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ﴾ من الآية، وهي: الحلف، أي: لا يحلف ﴿أَوْلُو الْأَقْرَبِينَ مِنَ السَّبِيلِ﴾ أي: الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّبِيلَةَ﴾ أي: الجدة، ﴿أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْأَقْرَبِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا تحلفوا إلا تصلوا قريباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيَتَّقُوا اللَّهَ وَيَصِفُّوا أَلْفَاظَهُمْ﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم. وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفق مسطح بن أثانة بنافقة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث. فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى، وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثانة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولت ولقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها. وكان الصديق، رضي الله عنه، معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَّا يُجْرَبُوا أَنْ يُعْفَرُوا اللَّهُ لَكُفْرًا وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك تغفر لك، وكما تصفح نصف عك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافقة أبداً، فلماذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحُرْمَةِ الَّتِي أَمَرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جُنُودٌ عَلَيْهِمْ سَبِيحٌ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خُرُجٌ مخرج الغالب - المؤمنات. فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء، رحمهم الله، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهني، والله أعلم. وقوله: ﴿لَعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جُنُودٌ عَلَيْهِمْ سَبِيحٌ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿[الاحزاب: ٥٧]﴾. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحُرْمَةِ الَّتِي أَمَرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة. وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال: حدثنا أحمد بن عبد الصبَّي، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُميت بما رميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك. قالت: فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي، إذ أوحى إليه.

قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة الشبات، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يسمح على وجهه، وقال: «يا عائشة، أبشري». قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك. فقرا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حتى قرأ: ﴿أُولَئِكَ مَرْءُونَ يَدْعُونَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]. هكذا أوردته، وليس فيه أن الحكم خاص بها، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضحاك، وأبو الجوزاء، وسلمة بن نبيب: المراد بها أزواج النبي خاصة، دون غيرهن من النساء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية: يعني أزواج النبي ﷺ، رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب، وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمَةٍ فَهِيَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة تُرد.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هُثَيْم، أخبرنا العوام بن حوشب، عن شيخ من بني أسد، عن ابن عباس - قال: فسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَيْسُوا﴾ الآية - قال: في شأن عائشة، وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة، وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمَةٍ فَهِيَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا﴾ الآية [النور: ٤، ٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله: «وهي مبهمة»، أي: عامة في تحريم قذف كل محصنة، ولعنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات، فله ما قال الله، ﷻ، ولكن عائشة كانت إمام ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثنا عمي، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل ما اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن بلال، به.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني، حدثني أبي، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب، حدثنا موسى بن عيين، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: «قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة». وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ [٢٤]، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرَف، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني: المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد. فيجحدوا فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً. وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصمتم الله، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يدخلهم النار». وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي، حدثنا مُنْجَب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المُكْتَب، عن قُضَيْل بن عمرو الفُقيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أصبحكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، ألم تُجزني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجز عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهدوا. فيختم على فيه، ويقال لأركانها: انطقي، فتطلق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنْ وسُخْطاً، فنعنكُ كُنْ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبيه، عن عُبيد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري، به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله أعلم. هكذا قال. وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمه في بدنك، فراقبهم واتق الله في شرك وعلايتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن، فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ بِيَوْمِهِمُ اللَّهُ وَيَسْمَعُ اللَّهُ دَعْوَهُمْ﴾، قال ابن عباس: ﴿وَيَسْمَعُ﴾ أي: حسابهم، وكل ما في القرآن ﴿وَيَسْمَعُ﴾ أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد. ثم إن قراءة

الجمهور بنصب ﴿الْحَقِّ﴾ على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع، على أنه نعت الجلالة. وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب: «يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم». وقوله: ﴿وَيَمْلِكُونَ أَنْ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْكَلِيمُ﴾ أي: وعده ووعيدته وحسابه هو العدل، الذي لا جور فيه.

﴿لَقَدْ بَدَأَ الْخَيْبَينَ وَالْخَيْبِثِينَ لِلْخَيْبِثِئِ وَالطَّيِّبِئِ وَالطَّيِّبِئِ وَالطَّيِّبِئِ لِلطَّيِّبِئِ أُولَئِكَ مُبَرَّوكٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَرَزَقَ كَرِيمٌ﴾. قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول، للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك. وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبیر، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك. واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّوكٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللائم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعاً ولا قدراً؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّوكٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرَزَقَ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى. فقال: عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة غير طيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها رجل عنده يتلها فيضعها إليه. وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضعها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿لَقَدْ بَدَأَ الْخَيْبَينَ وَالْخَيْبِثِينَ لِلطَّيِّبِئِ وَالطَّيِّبِئِ وَالطَّيِّبِئِ لِلطَّيِّبِئِ﴾. ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً: «مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يُحدث إلا بشر ما سمع، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم، فقال: أجزرني شاة. فقال: اذهب فخذ بأذن أيها شئت. فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم». وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها».

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَّا لَمْ تَكُونُوا تَدْرُوكُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾.

هذه آداب شرعية، أذب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، وأمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له، وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعتك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليصرف». فقال: لتأتين على هذا بيينة إلا أوجعتك ضرباً. فذهب إلا ملا من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصنفق بالأسواق. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ثابت، عن أنس - أو: غيره - أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادَةَ فقال: «السلام عليك ورحمة الله». فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً. ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يُسمعه. فرجع النبي ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت، فقرب إليه زيبياً، فأكل نبي الله. فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون».

وقد روى أبو داود والنسائي، من حديث أبي عمرو الأزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد - هو ابن عبادَةَ - قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم

ورحمة الله»، فرد سعد رداً خفيفاً، قال قيس: فقلت ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: دَزه يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله»، فرد سعد رداً خفيفاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأرد عليك رداً خفيفاً، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ، فأمر له سعد بغسل، فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران - أو: ورس - فاشتعل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة». قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام، فلما أراد الانصراف قَرَّب إليه سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ، فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب». فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف». قال: فانصرفت. وقد روى هذا من وجه آخر، فهو حديث جيد قوي، والله أعلم. ثم لِيُعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف لتلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره؛ لما رواه أبو داود: حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني - في آخرين - قالوا: حدثنا بَقِيَّة، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن بسر، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم». وذلك أن الدور لم يكن عليها يؤمنذ ستور. تفرد به أبو داود. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، (ح) قال أبو داود: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن طلحة، عن هُزَيْل قال: جاء رجل - قال عثمان - سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب - قال عثمان: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك - أو: هكذا - فإنما الاستئذان من النظر». وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن رجل، عن سعد عن النبي ﷺ. رواه أبو داود من حديثه.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة، ففقت عينه، ما كان عليك من جُنَاح». وأخرج الجماعة من حديث شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدفقت الباب، فقال: «من ذا؟ قلت: أنا. قال: «أنا، أنا، كأنه كرهه. وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا، فكل أحد يُعبر عن نفسه بـ «أنا»، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان. وكذا قال غير واحد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا﴾ قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا». وهكذا رواه هُشَيْم عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا»، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال هُشَيْم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا زَوْح، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان: أن عمرو بن أبي صفوان أخبره، أن كَلْدَةَ بن الحنبل أخبره، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبا وجداية وضغائيس، والنبي ﷺ بأعلى الوادي. قال: فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟»، وذلك بعدما أسلم صفوان. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج، به. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه. وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ، وهو في بيته، فقال: أَلِج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل. وقال هُشَيْم: أخبرنا منصور، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد الثقفي - أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أَلِج - أو: أَلِج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له، يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول: السلام عليكم أَدْخَلَ». فسمعها الرجل، فقالها، فقال: «ادْخُلْ». وقال الترمذي: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا سعيد بن زكريا، عن عَنَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «السلام قبل الكلام». ثم قال الترمذي: عنسمة ضعيف الحديث ذاهب، ومحمد بن زاذان مُنْكَر الحديث. وقال هُشَيْم: قال مغيرة: قال مجاهد: جاء ابن

عمر من حاجة، وقد آذاه الرضا، فأتى فسطاط امرأة من قریش، فقال: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ قالت: ادخل بسلام. فأعاد، فأعاد، وهو يُرَاح بين قدميه، قال: قولي: ادخل. قالت: ادخل، فدخل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم الأحول، حدثنا خالد بن إياس، حدثني جدي أم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن لصاحبتكم: تستأذن. فقالت: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية. وقال هشيم: أخبرنا أشعث بن سوار، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. قال أشعث، عن عدي بن ثابت، إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقال ابن جُرَيْج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: ثلاث آيات جردها الناس: قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً. قال: والإذن كله قد جرده الناس. قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعتهم أيضاً، فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن. قال ابن جُرَيْج: وأخبرني ابن طاوس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إلي أن أرى عريتها من ذات محرم. قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن جريج، عن الزهري: سمعت هُزَيْل بن شَرْحَبِيل الأوديّ الأعمى، أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا. وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، قال حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرَّة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخي زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب، رضي الله عنها، كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنتحنح وبزق؛ كراهية أن يهجم منا على امرئ يكرهه. إسناده صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نَمَيْر، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مَرَّة، عن أبي هُبَيْرَةَ قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس - تكلم ورفع صوته. وقال مجاهد: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: تنتحنحوا - أو: تَنَحَّمُوا. وعن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، أنه قال: إذا دخل الرجل بيته، استحبه له أن ينتحنح، أو يحرك نعليه. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية: ليلاً يتخونهم. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهراً، فأناخ بظاهرها، وقال: «انتظروا حتى تدخل عشاء - يعني: آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة».

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سورة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، وينتحنح فيؤذن أهل البيت». هذا حديث غريب. وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: هو الاستئذان. قال: وكان يقال: الاستئذان ثلاث، فمن لم يؤذن له فيهن، فليرجع. أما الأولى: فليسمع الحي، وأما الثانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه، لا يسلم عليه، ويقول: حُبَيْت صباحاً وحييت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم. وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت». فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن، فقال: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنى: هو خير للطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَأْتِجُوهَا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: إذا ردوك من الباب قبل الإذن أو بعده، ﴿فَاتَّجِمُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: «ارجع»، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَأْتِجُوهَا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا

تَمَلُّونَ عَلَيْهِمْ . وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَنْ قِيلَ لَكُمْ أَرَجِعُوا فَأَرْجِعُوا﴾ أي: لا تقفوا على أبواب الناس. وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٦) : هذه الآية الكريمة أحص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن له فيه أول مرة، كفى. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ، ثم نسخ واستثنى فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ . وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري. وقال آخرون: هي بيوت التجار، كالحانات، ومنازل الأسفار، وبيوت مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهر، والله أعلم. وقال مالك عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشُّعر.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَنْصَدِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي رزعة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير بن عبد الله الجبلي، رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُثَيْم، عن يونس بن عبيد، به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديثه أيضاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي رواية لبعضهم: فقال: «أطرق بصرك»، يعني: انظر إلى الأرض. والصراف أعم؛ فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا شريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلني: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة». ورواه الترمذي من حديث شريك، وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديثه. وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقاً». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضل بن جبیر: سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفوا لي بست أكل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا أوتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف. وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم». وفي صحيح البخاري: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أكفل له الجنة». وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كل ما عُصِيَ الله به، فهو كبيرة. وقد ذكر الطرفين فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَنْصَدِهِمْ﴾ . ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: «النظر سهام سم إلى القلب»، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَنْصَدِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) [المعارج: ٢٩، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: «من حفظ بصره، أوره الله نوراً في بصيرته». ويروي: «في قلبه».

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها». وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم، ولكن في إسناده ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم - أو: لتكسفن وجوهكم». وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التُّسْتَرِي قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُرَيْرُ بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٦) [غافر: ١٩]. وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظ من الزنا، أدرك ذلك لا محالة».

فزنا العينين: النظر. وزنا اللسان: النطقُ. وزنا الأذنين: الاستماع. وزنا اليدين: البطش. وزنا الرجلين: الخطى. والنفس تمتئ وتشتهي، والفرج يُصدّق ذلك أو يكذبه. رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مسنداً من وجه آخر، بنحو ما تقدم. وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا يبهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد. وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدّد آخرون في ذلك كثيراً جداً. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن ضُبَهان، حدثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة، إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب، من خشية الله، ﷻ».

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ وَيَخْفَتْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِمَؤْلِئِهِنَّ أَوْ مَبَآئِبِهِنَّ أَوْ مَبَآئِبِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءَهُنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّحِيْبِكُ غَيْرَ أُولِي الْإَرْوَءِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الْذَكْرُ لَمْ يُظْهِرُوا عَلَى عَوْدَاتِ النَّسَاءِ وَلَا يَصْرِيْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبَآءاً إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنَاتُ لَعَلَّكُمْ تُقْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيره من أزواجهن، عبادة المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث: أن أسماء بنت مُرْشدة كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتآزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوابهن، فقالت أسماء: ما أفتيح هذا. فأنزل الله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ وَيَخْفَتْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية. فقله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ﴾ أي: عما حُرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه: لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجناب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً. واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي، من حديث الزهري، عن نبهان - مولى أم سلمة - أنه حدث: أن أم سلمة حدثته: أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجناب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه: وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت.

وقوله: ﴿وَيَخْفَتْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: قال سعيد بن جبّير: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَخْفَتْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ألا يراها أحد. وقال: ﴿وَلَا يُبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: ولا يُظْهِرْنَ شيئاً من الزينة للأجناب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب: يعني: على ما كان يتعاناه نساء العرب، من المقنعة التي تُجَلُّ ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه. ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود: الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم السّخمي، وغيرهم. وقال الأعمش، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يُبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبي الشعثاء، والضحّاك، وإبراهيم السّخمي، وغيرهم - نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السّبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزينة المُزْطُ والذَّمْلُج والخلخال والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجناب، وهي الظاهر من الثياب. وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأحمرّة والأقرطة من غير حسر، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الخاتم والخلخال. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكي ومؤمّل بن الفضل الحرّاني قالوا: حدثنا الوليد، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن ذريك عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها

إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة، فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ يعني: المقانع يعمل لها صنفاً ضاربات على صدور النساء، لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها؛ ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة أذانها. فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هياتهن وأحوالهن، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ تَلْعَبُ بِنِسَائِكَ وَبِتِلْكَاتِكِ وَيَتَّكِبُ عَلَيْكِنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ يَذُوبُونَ كَمَا يَذُوبُ السَّلْطَنُ إِذْ يَمَسُّهُ الْكَوْكَبُ إِنَّ سُلْطَنَهُمْ لِلَّهِ عِندَ الْقُدْرَةِ الْكُبْرَىٰ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ والخمر: جمع خمار، وهو ما يُخمر به، أي: يغطي به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع. قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: وليشددن: ﴿بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ يعني: على النحر والصدر، فلا يرى منه شيء. وقال البخاري: وقال البخاري: وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبي، عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ شققن مروطهن فاختمرن به. وقال أيضاً: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة؛ أن عائشة، رضي الله عنها، كانت تقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ أخذن أزهرن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثني الزنجي بن خالد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة، رضي الله عنها: إن نساء قريش لفضلأ، وإني - والله - وما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى ميزطها المرشل فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات، كأن علي رؤوسهن الغربان.

ورواه أبو داود من غير وجه، عن صفية بنت شيبة، به. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أن قرة بن عبد الرحمن أخبره، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة؛ أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُبُرِهِنَّ عَلَىٰ صُدُورِ النِّسَاءِ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن به. ورواه أبو داود من حديث ابن وهب، به. وقوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: أزواجهن، ﴿أَوْ لِأَبَائِهِنَّ أَوْ لِأُمَّهَاتِهِنَّ أَوْ لِأَخْوَانِهِنَّ أَوْ لِأَخَوَاتِهِنَّ أَوْ لِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج. وقال ابن المنذر: حدثنا موسى - يعني: ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني: ابن أبي شيبة - حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا داود، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ لِأَبَائِهِنَّ أَوْ لِأُمَّهَاتِهِنَّ﴾ - حتى فرغ منها قال: لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما يتعنان لأبائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره. وقوله: ﴿أَوْ لِأَبَائِهِنَّ﴾ يعني: تُظهر زيتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك - وإن كان محذوراً في جميع النساء - إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتجزر عنه. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها». أخرجاه في الصحيحين، عن ابن مسعود. وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغاز، عن عباد بن نسي، عن أبيه، عن الحارث بن قيس، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ لِأَبَائِهِنَّ﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نساوتهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة. وروى عبد في تفسيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿أَوْ لِأَبَائِهِنَّ﴾ قال: من المسلمات لا تبديه لليهودية ولا نصرانية، وهو الثحر والقرط والوشاح، وما لا يحل أن يراه إلا محرم.

وروى سعيد: حدثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ لِأَبَائِهِنَّ﴾، فليست من نساوتهن. وعن مكحول وعبادة بن نسي: أنها كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير، حدثنا صفرة قال: قال ابن عطاء، عن أبيه: ولما قدم

أصحاب النبي ﷺ بيت المقدس، كان قوايل نساءهم اليهوديات والنصرانيات فهذا - إن صح - محمول على حال الضرورة، أو أن ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد، والله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قال ابن جريج: يعني: من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها. وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها. قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قُتعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك». وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة حُذَيْجِ الحَصَنِيِّ - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة، فربته ثم اعتقه، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نُبَهان، عن أم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مَكاتب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه» ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن سفيان، به. وقوله: ﴿أَوْ النَّبَاتِ غَيْرَ أُولَى الْأَرْزِيِّ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يعني: كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوث، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتھونهن. قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله. وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذُبه. وكذلك قال غير واحد من السلف. وفي الصحيح من حديث الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هنا، لا يدخلن عليكن» فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستظعم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك». أخرجاه في الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نساءه، وهو ينعت امرأة. فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هنا؟ لا يدخلن عليكم هذا»، فحجبه. ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طريق عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿أَوْ الْوَلَدِ الْأَنْثِيِّ لَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْ عَوْرَتِ الْنِسَاءِ﴾ يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء. فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك وبدريه، ويفرق بين الشواء والحساء، فلا يمكن من الدخول على النساء. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء». قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمؤ؟ قال: «الحمؤ الموت». وقوله: ﴿وَلَا يَصْرِيحُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ يُعْلَمَنَّ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طينته، فهي الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ يُعْلَمَنَّ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد القَطَّان، عن ثابت بن عَمَّار الحَقْفِي، عن عُثَيْمِ بْنِ قَيْسٍ، عن أبي موسى، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية. قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح. رواه أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رُهم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت حبي أبا القاسم يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان - هو ابن عيينة - به. وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد؛ أن رسول الله ﷺ

قال: «الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها». ومن ذلك أيضاً أنهم يُنهين عن المشي في وسط الطريق؛ لما فيه من التبرج. قال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز - يعني: ابن محمد - عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحقطن الطريق، عليكن بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار، من لصوقها به. وقوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان وعليه التكلان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ وَلَسْتَ تَعْلَمُ الَّذِينَ لَا يُحَدِّثُونَ كِتَابًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ لَا يَلْمِزُونَ أَلْسِنًا وَلَا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُكُمُ الَّذِينَ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمَ الْآلِهَةِ إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ لَنَنْزِعَنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُمِيزَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمة المبينة على جعل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾: هذا أمر بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه، على كل من قدر عليه. واحتجوا بظاهر قوله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». أخرجاه من حديث ابن مسعود. وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا، توالدوا، تناسلوا، فإني مَبَاهُ بكم الأمم يوم القيامة». وفي رواية: «حتى بالسقط». الأيماي: جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له. وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاها الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيم وامرأة أيم أيضاً. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرق، حدثنا عمر بن عبد الواحد، عن سعيد - يعني: ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. رواه ابن جرير، وذكر البيهقي عن عمر بنحوه. وعن الليث عن محمد بن عجلان، عن سعيد المثبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد المغاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله». رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه وإياها ما فيه كفاية له ولها. فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث: «تزوجوا فقراء يغنكم الله»، فلا أصل له، ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غنية عنه، وكذا هذا الحديث الذي أورده، والله الحمد. وقوله: ﴿وَلَسْتَ تَعْلَمُ الَّذِينَ لَا يُحَدِّثُونَ كِتَابًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَيَنْتَهِبْنَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَيَكْفِيَهُنَّ أَهْوَؤُهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْمَنْتَكَ وَمَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، أي صبركم عن تزويج الإماء خيراً؛ لأن الولد يجيء رقيقاً، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال عكرمة في قوله: ﴿وَلَسْتَ تَعْلَمُ الَّذِينَ لَا يُحَدِّثُونَ كِتَابًا﴾: قال: هو الرجل يرى المرأة فكانه يشتها، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فليتنظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَلْمِزُونَ أَلْسِنًا وَلَا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُكُمُ الَّذِينَ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمَ الْآلِهَةِ إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ لَنَنْزِعَنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرٌ إرشاد واستحباب، لا أمر تحتّم وإيجاب،

بل السيد مخير، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكتبه. وقال الثوري، عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه.

وقال ابن وهب، عن إسماعيل بن عياش، عن رجل، عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ يكتبه وإن لم يشأ لم يكتبه وكذا قال مقاتل بن حيان، والحسن البصري. وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك، أن يجيبه إلى ما طلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر: قال البخاري: وقال روح، عن ابن جُرَيْجٍ قلت لعطاء: أوجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره، أن سيرين سأل أنساً المكاتب - وكان كثير المال، فأبى. فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: كاتبه. فأبى، فضربه بالذرة، وبتلو عمر، رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكتبه. هكذا ذكره البخاري تعليقاً، ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أوجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار، قال: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكتبه، فتلأ على، فقال له عمر: لتكاتبته. إسناد صحيح. وقال سعيد بن منصور: حدثنا هُشَيْمُ بن جُوَيْرٍ، عن الضحاک قال: هي عَزْمَةٌ. وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي، رحمه الله، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب؛ لقوله، عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مَسْلُومٍ إِلَّا بَطْبِيبٍ مِنْ نَفْسِهِ﴾. وقال ابن وهب: قال مالك: الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده. قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله، وإذن منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية. وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال بعضهم: أمانة. وقال بعضهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالا. وقال بعضهم: حيلة وكسباً. وروى أبو داود في كتاب المراسيل، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: إن علمتم فيهم حرفة، ولا ترسلوهم كلاً على الناس» وقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾، اختلف المفسرون فيه، فقال قائلون: معناه اطرحوها لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: جزء من الكتابة من غير واحد. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات. وهذا قول الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل ابن حيان. واختاره ابن جرير.

وقال إبراهيم التَّخَمِيّ في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ قال: حثّ الناس عليه، مولاه وغيره. وكذلك قال بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْبِ الأَسْلَمِيّ، وقاتدة. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وقد تقدّم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: فذكر منهم المكاتب يريد الأداء، والقول الأول أشهر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كاتب عبداً له، يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل، فقال: يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتي. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك. ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾، قال عكرمة: كان أول نجم أذي في الإسلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن عنبسة، عن سالم الأفلس، عن سعيد بن جبيرة قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته. ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته، وضع عنه ما أحب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ قال: يعني: وضعوا عنهم من مكاتبته. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزة، وعبد الكريم بن مالك الجزري، والسدي. وقال محمد بن سيرين في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام ابن يوسف، عن ابن جُرَيْجٍ، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندب أخبره، عن علي، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ربيع الكتابة». وهذا حديث غريب، ورفع منكر، والأشبه أنه موقوف على علي، رضي الله عنه، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا قِيَابَكُمْ عَلَى أَيْمَانِكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَحْسِنُوا لِنَبِيِّكُمْ عَرَضَ الْيَوْمِ الدُّنْيَا﴾ الآية: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام، نهى الله المسلمين عن ذلك. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي بن سلول المنافق،

فإنه كان له إمام، فكان يكرهن على البغاء طلباً للخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم قبحه الله ولعنه.

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، رحمه الله، في مسنده: حدثنا أحمد ابن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني: محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها: معاذة، يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ﴾ قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها: مُسْنِكَةَ، كان يكرهها على الفجور - وكانت لا بأس بها - فتأبى. فأنزل الله، ﷺ، هذه الآية إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وروى النسائي، من حديث ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر نحوه. وقال الحافظ: أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمش، حدثني أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها: مسكية، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. صرح الأعمش بالسماع من أبي سفيان طلحة بن نافع، فدل على بطلان قول من قال: «لم يسمع منه، إنما هو صحيفة» حكاة البزار.

قال أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن معاذ، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولاداً من الزنا، فقال لها: ما لك لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني. فضربها، فأنزل الله، ﷺ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ إِنَّ أَرَدْنَ حَمَصًا﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري: أن رجلاً من قريش أسرى يوم بدر، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً، وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها: معاذة، وكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تتمتع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها، رجاء أن تحمل للقرشي، فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ إِنَّ أَرَدْنَ حَمَصًا﴾.

وقال السدي: أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى معاذة، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها، إرادة الثواب منه والكرامة له. فأقبلت الجارية إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها. فصاح عبد الله بن أبي: من يَغْدُرني من محمد، يغلبنا على مملوكتنا؟ فأنزل الله فيهم هذا. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما، إحداهما اسمها مُسْنِكَةَ، وكانت للأنصاري، وكانت أم مسيكة لعبد الله بن أبي، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزل، فأنت مسيكة وأما النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِعْلَاقِ﴾ يعني: الزنا. وقوله: ﴿إِنَّ أَرَدْنَ حَمَصًا﴾: هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له. وقوله: ﴿لِيَبْتَلُوا عَزْزَ النَّبِيِّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجاج، ومهر البغي وخلوان الكاهن - وفي رواية: «مهر البغي خبيث، وكسب الحجاج خبيث، وثمن الكلب خبيث». وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرهن: وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقاتدة. وقال أبو عبيد: حدثني إسحاق الأزرق، عن عوف، عن الحسن في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: لهن والله. لهن والله. وعن الزهري قال: غفور لهن ما أكرهن عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمكراهات. حكاها ابن المنذر في تفسيره بأسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جبيرة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإثمهن على من أكرهن. وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفِعَ عَن أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ».

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحة مفسرات، ﴿وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن بَيْنِكُمْ﴾ أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما حل بهم في مخالفتهم وأوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبا ما بعدكم،

وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٍ فِيهَا يَصْلَحُ الْمَصْلُحُ فِي دِيَارِهِ الرَّجَاءُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَبَصُرْتُ اللَّهُ الْأَمْتَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السموات والأرض. وقال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما. وقال ابن جرير: حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن فرقد، عن أنس بن مالك قال: إن إلهي يقول: نوري هادي. واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به. قال: فكان أبي بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره. وهكذا قال سعيد بن جبير، وقيس بن سعد، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك: «نور من آمن بالله». وقرأ بعضهم: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». وعن الضحاك: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فبنوره أضاءت السموات والأرض. وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». وفي الصحيحين عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» الحديث. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. وقوله: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾: في هذا الضمير قولان: أحدهما: أنه عائد إلى الله، ﷻ، أي: مثل هداية في قلب المؤمن، قاله ابن عباس ﴿كَيْشْكُورٍ﴾. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام: تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه، كمشكاة. فشبّه قلب المؤمن وما هو مفظور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفظور عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن زَيْدٍ وَتَوَلَّوْهُ شَاهِدًا مِّنْهُ﴾ [نور: ١٧]، فشبّه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشريعة بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف. فقوله: ﴿كَيْشْكُورٍ﴾: قال ابن عباس: ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل. هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا يَصْلَحُ﴾، وهو الذبالة التي تضيء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٍ فِيهَا يَصْلَحُ﴾: وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾. والمشكاة: كوة في البيت - قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته. فسمى الله طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: الكوة بلغة الحبشة. وزاد غيره فقال: المشكاة: الكوة التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المشكاة: الحداث التي يعلق بها القنديل. والقول الأول أولى، وهو: أن المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل، ولهذا قال: ﴿فِيهَا يَصْلَحُ﴾، وهو النور الذي في الذبالة.

قال أبي بن كعب: المصباح: النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدي: هو السراج. ﴿الْمَصْلُحُ فِي دِيَارِهِ﴾ أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية. قال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن. ﴿الرَّجَاءُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة، من الدر، كأنها كوكب من دُرٍّ. وقرأ آخرون: «دُرِّيٌّ» و«دُرِّيٌّ» بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدرء وهو الدفع؛ وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب دراري. قال أبي بن كعب: كوكب مضيء. وقال قتادة: مضيء مبين ضخم. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلص عنها الفياء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تفرعه الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، أخبرنا عمرو بن أبي قيس، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا

عَرَبِيَّةٌ ﴿٣٥﴾ قال: شجرة بالصحراء، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف، ولا يواربها شيء، وهو أجود لزيتها. وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حُدَيْر، عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي بصرحاء، وذلك أصفى لزيتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا عُمَرُ بن فَرُوحٍ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة - وسأله رجل عن: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: تلك زيتونة بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت. وقال مجاهد في قوله: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: ليست بشرقية، لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية، تصيبها إذا طلعت وإذا غربت. وقال سعيد بن جُبَيْر في قوله: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يَبْسُؤُكُمْ﴾ قال: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية. وقال السدي في قوله: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ يقول: ليست بشرقية يحوزها المشرق، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل، أو في صحراء، تصيبها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: إنها في وسط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت. قال: فكذاك هذا المؤمن، قد أجبر من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فيشته الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مُسَدَّدٌ قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً. وقال عطية العوفي: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي شجرة في موضع من الشجر، يرى ظل ثمرها في ورقها، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدُّشْتُكِيُّ، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية وغربية. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي القبلية. وقال زيد بن أسلم: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: الشام. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله لنوره. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿يُؤَدُّ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ قال: رجل صالح، ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني. وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس، تفرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها والطف، كما قال غير واحد ممن تقدم؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَبْسُؤُكُمْ وَكَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراق الزيت. وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد، والسدي: يعني نور النار ونور الزيت. وقال أبي بن كعب: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: فهو يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَبْسُؤُكُمْ وَكَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء. وقال السدي في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماعاً أضاء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله بن الدليمي، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى، ومن أخطأه ضل. فلذلك أقول: جف القلم على علم الله، ﷻ». طريق أخرى عنه: قال البزار: حدثنا أيوب بن سُؤَيْدٍ، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل». ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر، بلفظه وحروفه. وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكْتُبُ ثَوْبَهُ عَلَيْهِ﴾:

لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر: حدثنا أبو معاوية - يعني شيبان - عن ليث، عن عمرو ابن مرة، عن أبي البخترى، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهو، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُضْفَع: فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر. وأما القلب المُضْفَع فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يَمُدُّها القيح والدم، فأَي المديتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». إسناده جيد ولم يخرجوه.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُرْسَكَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبَّحُ لَمْ فِيهَا يَأْتُوا وَالْأَصْوَالُ ﴿٣٦﴾ رِيَالٌ لَا لِنَهْمِهِمْ مَعْرَةَ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارَ صَلَاةٍ وَإِنَاءٍ الرَّكُوعَ بِحَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلَ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَنَّ بَرَزُوا مَن بَيْتَهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾.

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالتقديس، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يعبد فيها ويؤخذ، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالى برفعها، أي: بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ قال: نهى، الله سبحانه، عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحاك، ونافع بن جبيرة، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حشمة، وسفيان بن حسين، وغيرهم من علماء المفسرين. وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله، سبحانه، ببنائها ورفعها، وأمر بعمارتها وتطهيرها. وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: إن في التوراة مكتوباً: «ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من تواضاً فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحق على المزور كرامة الزائر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطيبها وتبخيرها. وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمنة. ونحن بعون الله تعالى نذكرها هنا طرفاً من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان: فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يتغني به وجهه الله، بنى الله له مثله في الجنة». أخرجه في الصحيحين. وروى ابن ماجه، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتاً في الجنة». وللنسائي عن عمرو بن عَبَسَةَ مثله. والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي. ولأحمد وأبي داود، عن سُمرة بن جُنْدَب نحوه. وقال البخاري: قال عمر: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وروى ابن ماجه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم». وفي إسناده ضعف. وروى أبو داود عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرْتُ بتشيد المساجد». قال ابن عباس: لَتَزَخَرَفْتَهَا كما زَخَرَفَت اليهود والنصارى. وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي. وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أَنشَدَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَن دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا وجدت، إنما بُنِيَت المساجد لما بُنِيَت له». رواه مسلم. وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع وعن تناشد الأشعار في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك. وإذا رأيتم من يُنشد ضالة في المسجد، فقولوا: لا ردُّ الله عليك». رواه الترمذي، وقال: حسن غريب. وقد روى ابن ماجه وغيره، من حديث ابن عمر مرفوعاً، قال: «خصال لا تنبغي في المسجد لا يتخذ طريقاً، ولا يُشهر فيه سلاح، ولا يُنبض فيه بقوس، ولا يثر فيه نبل، ولا يَمْرُ فيه بلحم نبيء: ولا يَضْرَبُ فيه حَدٌّ، ولا يقتص فيه من أحد، ولا يُتخذ سوقاً». وعن وائلة بن الأسقع، عن رسول الله ﷺ قال: «جئوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيفوكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع». ورواه ابن ماجه أيضاً، وفي إسنادهما ضعف. أما أنه: «لا يتخذ طريقاً»، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه. وفي الأثر: «إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه». وأما أنه «لا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا يثر فيه نبل»، فلما

يخشى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها؛ لئلا يؤدي أحداً، كما ثبت في الصحيح. وأما النهي عن المرور باللحم النبوي فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث. وأما أنه «لا يضرب فيه حد أو يقتص»، فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع. وأما أنه «لا يتخذ سوقاً»، فلما تقدم من النبي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة كما قال النبي، عليه الصلاة والسلام، لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبَن لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسجل من ماء، فأهريق على بوله. وفي الحديث الثاني: «جئبوا مساجدكم صبيانكم»؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم، وقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمخفقة - وهي الدرة - وكان يُعَسِّس المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحداً. و«مجانينكم» يعني: لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها، ولما يخشى من تذكيرهم المسجد، ونحو ذلك. «وبيعكم وشراءكم»، كما تقدم. «وخصوماتكم» يعني: التحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا يتصب لفصل الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط الذي لا يناسبه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا الجعفي بن عبد الرحمن قال: حدثني يزيد بن خَصِيْفَةَ، عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ. وقال النسائي: حدثنا سُوَيْدُ بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وهذا أيضاً صحيح. وقوله: «وإقامة حدودكم، وسل سيوفكم»؛ تقدماً. وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر»، يعني: المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ أبار يستقون منها، فيشربون ويتطهرون، ويتوضؤون وغير ذلك. وقوله: «وجمروها في الجُمُع» يعني: بخروها في أيام الجُمُع لكثرة اجتماع الناس يومئذ. وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر؛ أن عمر كان يُجَمِّرُ مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة. إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاة الرجل في الجماعة تُصَغِّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه، خمساً وعشرين ضعفاً. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجها إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رُفِعَ له بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصَلَّاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة». وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد». وفي السنن: «بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة». والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: أقط؟ قال: نعم. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظَ مني سائر اليوم. وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو: أبي أسيد - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم اني أسألك من فضلك». ورواه النسائي عنهما، عن النبي ﷺ مثله.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم». ورواه ابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ثيب بن أبي سليم، عن عبد الله بن حسن، عن أمه فاطمة بنت حسين، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال: «اللهم، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك». ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى. فهذا الذي ذكرناه، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك لحال الطول، كله داخل في قوله تعالى: «فِي بُرُوجٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تَرَفَعَ». وقوله: «وَيَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمَاءُ» أي: اسم الله، كقوله: «يَبْنِي بَادِمٌ عُدُوًّا زَيْنَتُكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف: ٣١]، وقوله: «وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»

[الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]. قال ابن عباس: ﴿وَيَذَكَّرَ فِيهَا أَسْمَاءُ﴾ يعني: يتلى فيها كتابه. وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: في البُكْرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما وأن يذكرهما بهما عباده. وكذا قال الحسن، والضحاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني: الصلاة. ومن قرأ من القراءة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ - بفتح الباء من ﴿يُسَبِّحُ﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله - وقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وفقاً تاماً، وابتدأ بقوله: ﴿رَبِّالَّذِينَ لَا تُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يُبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وكأنه مُفسِّر للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ، ضَارِعٌ لِحُضُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْبِیحُ الطَّوَانِحُ
كانه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكأنه قيل: من يسبح له فيها؟ قال: رجال. وأما على قراءة من قرأ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ - بكسر الباء - فجعله فعلاً، وفاعله: ﴿الرِّجَالِ﴾، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل؛ لأنه تمام الكلام. فقوله: ﴿الرِّجَالِ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَارًا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن؛ لما رواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو، عن أبي السمح، عن السائب - مولى أم سلمة - عن أم سلمة - رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير مساجد النساء قمر بيوتهن». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هارون، أخبرني عبد الله بن وهب، حدثنا داود بن قيس، عن عبد الله بن سُوَيْدِ الأَنْصَارِيِّ، عن عمته أم حميد - امرأة أبي حميد الساعدي - أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حُجْرَتِكَ خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي». قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله، ﷻ. لم يخرجوه.

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال، بشرط ألا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عُمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». رواه البخاري ومسلم، ولأحمد وأبي داود: «بيوتهن خير لهن»، وفي رواية: «وليخرجن وهن ثفلات» أي: لا ريح لهن. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً». وفي الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كان نساء المؤمنین يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بُمُرُوطهن، ما يُعْرَفْنَ مِنَ الْغُلَسِ. وفي الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد، كما منعت نساء بني إسرائيل. وقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يُبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وما لا بيعها، وريحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يُبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّكَ لَآتِكُمُ الْوَعْدَ وَمَرَادُهُ ومحبته على مرادهم ومحبتهم. قال هُشَيْمٌ: عن سيار: قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق، حيث نودي بالصلاة، تركوا بيعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يُبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وهكذا روى عمرو بن دينار القَهْرَمَانِيُّ، عن سالم، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقت حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يُبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن جبير، حدثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء، رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربع كل يوم ثلاثمائة دينار،

أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: «إن ذلك ليس بحلال»، ولكن أحب أن أكون من الذين قال الله: ﴿يَسْأَلُ لَا لَتَلِيهِمْ يَحْتِرَ وَلَا يَبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وقال عمرو بن دينار الأعمش: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى امتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿يَسْأَلُ لَا لَتَلِيهِمْ يَحْتِرَ وَلَا يَبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ثم قال: هم هؤلاء. وكذا قال سعيد بن أبي الحسن، والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها. وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه، وأقبل إلى الصلاة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُ لَا لَتَلِيهِمْ يَحْتِرَ وَلَا يَبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة. وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان. وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وعن مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها، وما استحفظهم الله فيها. وقوله: ﴿يَحْفَافُونَ يَوْمًا نَنقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي: من شدة الفزع وعظمة الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْقُوفِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُلْمِزُونَ اللَّهَمَّ عَلَن حَيْدٍ وَسَيِّئًا وَسَيِّئًا وَآسِرًا﴾ [٨]، ﴿إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ لِسَبِّهِ لَيْسَ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَا تُرِيدُ مَسْئَرًا وَلَا شُكْرًا﴾ [٩]، ﴿إِنَّا نَحْنُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَسَىٰ قَطْرِيكُمَا﴾ [١٠]، ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَٰلِكَ الْوَيْدِ وَلَقَّتْهُمُ نَصْرًا وَسُرُورًا﴾ [١١]، ﴿كَرَّرْتَهُمْ بِمَا صَبَرُوا حَتَّىٰ وَحَرِيرًا﴾ [١٢]، [الإنسان: ٨-١٢]. وقال ها هنا ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّغَلَبِ مَا نَفْسُهُ إِنَّمَا يَخْشَىٰ لِيُذِيقَهُمْ سَهَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَذُرِّيَّتَهُ إِنَّهَا لَأَكْثَرُ مَا يَحْسَبُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَمْ أَشْعُرْ بِكَيْفِيَّتِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، كما قال ها هنا: ﴿وَاللَّهُ يَزِيدُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعن ابن مسعود: أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود وكان مغطراً فشربه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَحْفَافُونَ يَوْمًا نَنقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، رواه النسائي، وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عنه. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا سُوَيْدُ بن سعيد، حدثنا علي بن مُسَهِرٍ عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فناد بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولي الكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فيقومون، وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق». وروى الطبراني، من حديث بقيته، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يُؤَفِّقُهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠] قال: «أَجْرُهُمْ» يدخلهم الجنة، «وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ»: الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَبَهُمْ كِبَرُ سِنِيهِمْ بِمِيقَاتِهِمْ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لُرْ يَحِيدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمُ جَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٣]، ﴿أَوْ كَظَلَمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْلِي بِشَنَّةِ مَوْجٍ مِّنْ فَوْقِهِ. مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ. صَابٌ طَلَمْتُمْ بِمَعْضَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّ لُرْ يَكُدُّ بِرَبِّهَا وَمَنْ لُرْ يَجْعَلُ اللَّهُ لُرْ نُورًا فَمَا لُرْ مِّنْ نُورٍ﴾ [١٤].

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول «البقرة» مثلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة «الرعد» مثلين مائياً ونارياً، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة. فاما الأول من هذين المثلين: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى فيه القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام. والقيعة: جمع قاع، كجار وجيرة. والقاع أيضاً: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار. وأما الآل فإنما يكون أول النهار، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء، حسب ما فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لُرْ يَحِيدُهُ شَيْئًا﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً، وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبًّا مِّنْ شُرُوقٍ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال ها هنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمُ جَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وهكذا زوي عن أبي بن

كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد. وفي الصحيحين: أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَيْرَ ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: أي زَيْنًا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا ترون؟ فمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها. وهذا المثل مثال لذوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطغام المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَلُمَتْنِي فِي بَحْرِ الْمَوْتِ﴾. قال قتادة: وهو العميق. ﴿يَقْسِنُهُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْيِهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوْيِهِ﴾. يعني بذلك: الغشوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿حَسَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى صَمْرِهِ عِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجنانية: ٢٣]. وقال أبي بن كعب في قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ بَعْضًا قَوْمَ بَعْضٍ﴾: فهو يتقلب في خمسة من الظلم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات، إلى النار. وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّيُّ نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾: أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَّمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾: فنسال الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شماننا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِعُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمِ اللَّاتِيَّاتِ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ١١] ﴿وَاللَّهُ مَنَّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ الْكَاسِبُ﴾ [النور: ١٢].

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُه من في السموات والأرض، أي: من الملائكة والأناسي، والجان والحيوان، حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَمَلًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَالظُّلُمِ اللَّاتِيَّاتِ﴾: أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح الهمها وأرشدوا إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾: أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله، ﷻ. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. ثم أخبر تعالى: أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿وَاللَّهُ الْكَاسِبُ﴾: أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء؛ ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئَةِ﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، أله الحكم في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأولى والآخرة!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَقٍ فَتَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ كَيَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ١٣] ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ١٤].

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإجزاء، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يجمعه بعد تفريقه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: أي: مترامكماً، أي: يركب بعضه بعضاً، ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾: أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلِيهِ﴾: أي: من خلله. وكذا قرأها ابن عباس والضحاك. قال عبيد بن عمير اللبثي: يبعث الله المثيرة فتتم الأرض قمأً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواحق فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمهما الله. وقوله: ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَقٍ﴾: قال بعض النحاة: «من الأولى: لا ابتداء للغاية، والثانية: للتبعيض، والثالثة: لبيان الجنس. وهذا إنما يجيء على قوله من ذهب من المفسرين إلى قوله: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَقٍ﴾ ومعناه: أن في السماء جبال بَرَد ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال ها هنا عبارة عن السحاب، فإن «من» الثانية عند هذا لا ابتداء للغاية أيضاً، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ﴾: أي: بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر، فيكون قوله: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾: رحمة لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾: أي: يؤخر عنهم الغيث. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ﴾: أي: بالبرد نعمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم. ويصرفه عن من يشاء أي: رحمة بهم. وقوله: ﴿كَيَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾: أي: يكاد ضوء برفقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته. وقوله: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: أي: يتصرف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا،

ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: لدليلاً على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَيْضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، وما بعدها من الآيات الكريمة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ نَّوْمٍ فِيهِمْ مَّن يَبْسُئُ عَلَى بَلِيغِهِ وَيَنْهَى مَن يَبْسُئُ عَلَى بَيْتِهِ وَيَنْهَى مَن يَبْسُئُ عَلَى رَجُلٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤٥).

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها والأوانها، وحرركاتها وسكناتها، من ماء واحد، ﴿فِيهِمْ مَّن يَبْسُئُ عَلَى بَلِيغِهِ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَيَنْهَى مَن يَبْسُئُ عَلَى بَيْتِهِ﴾ كالإنسان والطيور، ﴿وَيَنْهَى مَن يَبْسُئُ عَلَى رَجُلٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِهِ الرَّسُولِ وَأَلْعَنَّا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٍ مِّنْهُم مَّن يَبْدُوَنَّ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَّهُم لَمَقٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ﴾ (٤٩) ﴿أَيُّ قُلُوبِهِمْ مَّرْضٌ أَمْ أَرْبَابًا أَمْ يَحْقِرُونَ أَنْ يَحِبَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٥١) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ رَبَّهُ فَقَلِيلٌ مِّنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ (٥٢).

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالستهم: ﴿ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِهِ الرَّسُولِ وَأَلْعَنَّا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٍ مِّنْهُم مَّن يَبْدُوَنَّ ذَلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ﴾ (٤٨) أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، عرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقولهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَغَالَةً بَعِيدًا﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَّقِينَ يُضَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١) [النساء: ٦٠، ٦١] وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبيه عن الحسن، عن سمرّة مرفوعاً: «من دُعي إلى سلطان فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَّهُم لَمَقٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ﴾ (٤٩) أي: إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِبِينَ﴾، وإذا كانت الحكومة عليه عرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم. فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده، عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَيُّ قُلُوبِهِمْ مَّرْضٌ أَمْ أَرْبَابًا أَمْ يَحْقِرُونَ أَنْ يَحِبَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم. وأيا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منطوق هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٠) أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو مُحَقٌّ أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق. وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان. فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعي إلى حكم من حُكِّمَ المسلمين فأبى أن يجيب، فهو ظالم لا حق له». وهذا حديث غريب، وهو مرسل. ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (٥١) أي: سماعاً وطاعة؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المهراب، فقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: دُكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقبياً بدرياً، أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا

أنتيك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك. وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمر أهله، إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحا، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله. وقال قتادة: وذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله، وللخليفة وللمؤمنين عامة. قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يقول: غروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم: والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله كثيرة جداً، أكثر من تحصر في هذا المكان. وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمره به وترك وما نهاه عنه، ﴿وَيُخَشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقِ﴾ فيما يستقبل. وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِرُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَسْرَأُ بِاللَّهِ جَهَنَّمَ لَيْسَ مِنْهُمْ يَخْرُجُ قُلٌ لَّا نَقْسِمُ بِاللَّهِ مَآ مَوعُودَةٌ إِنَّا اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ: لئن أمرهم بالخروج في الغزو، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَّا نَقْسِمُ بِاللَّهِ﴾ أي: لا تحلفوا. وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناها: طاعتكم طاعة معروفة، أي: قد علمت طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِیَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَوَضَّعُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَٰسِقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المنافقون: ٢٢]، فهم من سببتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَدِ افْتَرَقُوا فَمَقُولُ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ مِن آهِلِ الْكُفِّبِ لَیْنٌ أَتَرْتَهُمْ لَمَنْعٍ مَّعَكُمْ وَلَا تَطِيعُ فِکْرَ أَحَدٍ أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ بِيَدِهِ لِيَكْمُنَّ إِلَیْهِمْ لَیْنٌ أَتَرْتَهُمْ لَیْنٌ مِّمَّنَّ وَلَیْنٌ قُوتِلُوا لَیْضُرُّهُمْ وَلَیْنٌ نَّصَرُوهُمْ لَیُوَلِّبُنَّ الْأَدْبَارَ لِمَن لَّا یُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١١، ١٢]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: لیکن أمرکم طاعة معروفة، أي: بالمعروف من غیر حلف ولا إقسام، كما يطیع الله ورسوله المؤمنون بغیر حلف، فكونوا أنتم مثلهم. ﴿إِنَّا اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو خیر بکم وبمن یطیع ممن یعصي، فالحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه، وإن راجع على المخلوق - فالخالق، تعالى، یعلم السر وأخفی، لا یروج علیه شیء من التذلیس، بل هو خیر بضمائر عباده، وإن أظهرها خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتبعوا کتاب الله وسنة رسوله. وقوله: ﴿فَأِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا عنه وتترکوا ما جاءکم به، ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: من ذلك وتعظیمه والقیام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ وذلك لأنه یدعو إلى صراط مستقیم ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِی لَمْ یَلْمِ فِی السَّمَوَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِیُّرُ الْأُمُورِ ﴿٥٨﴾﴾ [النوری: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿تَوَلَّوْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَیْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٦٦﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الغاشية: ٢٦، ٢٧]. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيا: - أن قم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحى. فقام فقال: يا أسماء اسمعي، يا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدير أمراً هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والأجام في الغيطان، والأنهار في الصحارى، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أمياً من الأميين، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشی على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه. أبعته مُبَشِّراً ونذيراً، لا يقول الختا، أفتح به أعينا غُمياً، وأذانا صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعتق والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأزف به بعد الخمالة، وأعرف به بعد الثكثرة، وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحدین مؤمنین مخلصین، مصدقین بما جاءت به رُسُلِي، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَسْبَدُونَنِي لَا يَبْرُكُونَ فِي شَيْئٍ مِّن كَفَرٍ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع

لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكمأ فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهي عند موته، عليه الصلاة والسلام، وأطد جزيرة العرب ومهداها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدرك الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، فتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ما ضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: «كلهم من قريش». ورواه البخاري من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، به. وفي رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم معاذ بن مالك، وذكر معه أحاديث أخر.

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيراً من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش، يكونون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في وقت يعلمه الله. ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً. وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث سعيد بن جهمان، عن سفيته - مولى رسول الله ﷺ - قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكاً عضوضاً». وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِيهَا دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ حَوَائِبِهِمْ أُنثًا﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرّاً وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يُمسسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغُيِّرُوا بذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله، أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تغُيِّرُوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليست فيهم حديدة». وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله ﷻ، قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيره بهم. وقال

بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية. وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية، ونحن في خوف شديد.

وهذه الآية الكريمة كقولها تعالى: ﴿وَأَذَكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَأَوَّذْتُمُ النَّاسَ فَوَاتَكُمْ وَيَأْتِيكُمْ يَبْصُرُهُمْ وَرَدَّكُمْ مِنَ الْظَلَمِ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقُولُونَ﴾ [الاعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٩﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٥٠، ٦١]. وقوله: ﴿وَلْيَسْخَبَنَّ لَهُمْ فِيهِمُ الَّذِينَ آذَنُوا لَهُمْ وَلْيَسْبِئْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمَّا﴾، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، ليؤمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبذلن المأل حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكون الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبي سلمة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب». وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يَشْكُرُونَ بِي شَيْئًا﴾، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة عن أنس، أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل، قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال: ثم سار ساعة. ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم». أخرجه في الصحيحين من حديث قتادة.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد فسق عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابه، رضي الله عنهم، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك». وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجال». وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون». وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَوْجِدُ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضعفانهم وفقرانهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك. ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، أي: لا تظن يا محمد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوذِيهِمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿النَّارُ وَلَيْسَ الْمَوْجِدُ﴾ أي: بشس المال مأل الكافرين، وبشس القرار وبشس المهاد.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَرْزُوقٌ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بِغَضَبٍ عَلَى بَعْضِكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ يَدَيْهِنَّ عِزِّ مَثَرَةٍ رِسْوًا وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَبِيحٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيماهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذا ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وَيَسِّرْ تَصَعُّونَ يَأْبَئِكُمْ مِنَ الظُّهُورَةِ﴾ أي: في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَيَسِّرْ بَعْدَ صَلَاةِ الْوُضْءِ﴾؛ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، ونحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ثَلَاثٌ عَوْرَتٌ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿مَلُوفُونَ﴾ عليكم، أي: في الخدمة وغير ذلك، ويفتقر في الطوافين ما لا يفتر في غيرهم؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - الطوافات». ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَأْتِيهَا الذَّرْبُ﴾ أَمْثَلُ لِيَسْتَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثٌ مَرَّةٍ ﴿إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَالآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقَوْمَ أَوْلَادُ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْتَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن: ﴿يَأْتِيهَا الذَّرْبُ﴾ أَمْثَلُ لِيَسْتَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾ .

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس - آية الإذن - وإني لأمر جاريتي هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عباس يأمر به. وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي: ﴿لِيَسْتَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، قال: لم تنسخ قلت: فإن الناس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله سئير يحب السترة، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله. ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود، عن القعقبي، عن الدراوذي، عن عمرو بن أبي عمرو، به، وقال السدي: كان أناس من الصحابة، رضي الله عنهم، يحبون أن يواقوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرسد صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد، غلامهما بغير إذن! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الذَّرْبُ﴾ أَمْثَلُ لِيَسْتَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثٌ مَرَّةٍ ﴿وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ لَمْ تَنْسَخْ، قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ . ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجنابهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث. قال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه. وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: قال سعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، وقتادة، والضحاك، هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويشسن من الولد، ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهن تشوف إلى

التزويج. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعَنَّ يَدَيْهُمَا عَلَىٰ فَرْجِهَا بِنِيَّةٍ﴾ أي: ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء. قال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد المرزوي حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّخِذْنَ مِنْ أَبْوَابِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١] فسخ، واستثنى من ذلك ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية. قال ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعَنَّ يَدَيْهُمَا﴾ قال: الجلباب، أو الرداء؛ وكذا روي عن ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والزهري، والأوزاعي، وغيرهم. وقال أبو صالح: تضع الجلباب، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار.

وقال سعيد بن جبير وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعود: «أن يضعن من ثيابهن»: وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره، بعد أن يكون عليها خمار صفيق. وقال سعيد بن جبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب، أن يرى ما عليها من الزينة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثنا طلحة بنت عاصم، عن أم المصاعن، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: دخلت علي فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخضاب، والنفاض، والصباغ، والفُرطين، والخلخال، وخاتم الذهب، وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء، فستكن كلها واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات. أي: لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً. وقال السدي: كان شريك لي يقال له: «مسلم»، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوق وأثر الحناء في يده، فسألته عن ذلك، فأخبرني أنه خضب رأس مولاته - وهي امرأة حذيفة - فأنكرت ذلك. فقال: إن شئت أدخلتك عليها؟ فقلت: نعم. فأدخلني عليها، فإذا امرأة جليلة، فقلت: إن مسلماً حدثني أنه خضب رأسك؟ فقلت: نعم يا بني، إني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً، وقد قال الله في ذلك ما سمعت. وقوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَفِفْنَ حَيْرَ لَهْتُمْ﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزاً - خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ كَلْبَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَوْ مَسَاكِينِكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَسْتَأْتُوا إِذَا فَتَرْتُمْ بِيُوتِكُمْ قَلْبًا مَلِكًا أَوْ أَتَيْتُمْ بِذُنُوبِكُمْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ تَقْوَاتُ﴾ ﴿٦١﴾

اختلف المفسرون - رحمهم الله - في المعنى الذي رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ما هنا، فقال عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في الجهاد. وجعلوا هذه الآية ما هنا كالتي في سورة الفتح. وتلك في الجهاد لا محالة، أي: أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد؛ لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُنُوبَهُمْ﴾ ﴿٦١﴾ ولا على الذين إذا ما أتوا لتحملتهم فقلت: لا أحد ما أهلككم عليه قولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴿٦١﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]. وقيل: المراد ما هنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك. ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه. والمريض لا يستوفي من الطعام كثيره، فكهروا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير، ومفسم. وقال الضحاك: كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقدرًا وتقزراً، ولئلا يفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الآية قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه، أو بيت أخته، أو بيت عمته، أو بيت خالته. فكان الزمن يتخرجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه، أو ابنه، فتشغفه المرأة بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم. فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَسْتَأْتُوا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليستأديه ما بعده في الحكم. وتضمن هذا بيوت الأبناء؛ لأنه لم ينص عليهم. ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ قال: «أنت ومالك لأبيك». وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، هذا

ظاهر . وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، في المشهور عنهما .

وأما قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾ : فقال سعيد بن جبّير ، والسُدّي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وقال الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان المسلمون يرغبون في النفي مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمّانهم ، ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن آمناء . فأنزل الله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾ . وقوله : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ : أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يشقّ عليهم ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَشْتَانًا﴾ : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَهْمَنِ﴾ ، إلى قوله : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ . وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك ، فقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَشْتَانًا﴾ . وقال قتادة : وكان هذا الحي من بني كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحنظل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكلة ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَشْتَانًا﴾ . فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وحشي بن حرب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : «فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» . ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم ، به . وقد روى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرماني ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن البركة مع الجماعة» . وقوله : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ : قال سعيد بن جبّير ، والحسن البصري ، وقاتة ، والزهري : فليسلم بعضهم على بعض . وقال ابن جريج : حدثنا أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلت على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجهه . قال ابن جريج : وأخبرني زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته ، فليسلم . قال ابن جريج : قلت لعطاء : أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال : لا ، ولا أتز وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلي ، وما أدعه إلا نائياً . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وروى الثوري ، عن عبد الكريم الجزري ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : بسم الله ، والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فإنه كان يؤمر بذلك ، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن العثنى ، حدثنا عوبد بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه ، عن أسس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال ، قال : «يا أنس ، أسبغ الوضوء يرد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعني : بيتك - فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقائي يوم القيامة» . وقوله : ﴿وَبِحَيْثُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ : قال محمد بن إسحاق : حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَيْثُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ، فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم . هكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث ابن إسحاق . والذي في صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا ، والله أعلم . وقوله : ﴿كَذَلِكَ بَيَّتَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَكِكُمْ تَقُولُونَ﴾ : لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نبه تعالى على أن يبين

لعباده الآيات بياناً شافياً، ليتدبروها ويتعقلوها.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا مِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ لَئِن لَّمْ يَأْذِنُوا لَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوا لَمِنْ شَأْنِهِمْ لَمِنْ شَيْءٍ مِّنْهُم وَاسْتَفْهَرَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦٢﴾ ۝

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة الجمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد، قالوا: حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن عجلان عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». وهكذا رواه الترمذي والنسائي، من حديث محمد بن عجلان، به. وقال الترمذي: حسن.

﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَّبِعْكُمْ كُدُوعًا بِعَضَائِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بِكُمْ لِيُخَذَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ۝

قال الضحك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷺ، عن ذلك، إعظاماً لنبية، صلوات الله وسلامه عليه. قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة. وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود. وقال مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَّبِعْكُمْ كُدُوعًا بِعَضَائِكُمْ بَعْضًا﴾ يقول: لا تُسَمِّوه إذا دعوتوه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله. وقال مالك، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَّبِعْكُمْ كُدُوعًا بِعَضَائِكُمْ بَعْضًا﴾ قال: أمرهم الله أن يشرفوه. هذا قول. وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِيعًا وَقُولُوا نَنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [آي: ١]. إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِن رَّبِّكَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [آي: ١]. ولو أنهم صدقوا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ [الحجرات: ٢-٥]. فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما أمرنا بتقديم الصدقة قبل مناجاته. والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَّبِعْكُمْ كُدُوعًا بِعَضَائِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن

دعائه على غيره كدعاء غيره، فإن دعائه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي، والله أعلم. وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بِكُمْ لِيُخَذَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾ قال مقاتل بن حيّان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلذون ببعض الصحابة - أصحاب محمد ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة، بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب، بطلت جماعته. قال السدي كانوا إذا كانوا معه في جماعة، لأذ بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه، فلا يراه. وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بِكُمْ لِيُخَذَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: لو أذن عن نبي الله وعن كتابه.

وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بِكُمْ لِيُخَذَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾ قال: من الصف. وقال مجاهد في الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بِكُمْ لِيُخَذَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾ قال: خلافاً. وقوله: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مَرْدُودٌ على قائله وفاعله، كأننا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتقحمن فيها»: قال: «فذلك مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها». أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ وَبُرُّ بِرُحْمَتِكُمْ إِيَّاهُ فَيَتَّبِعُهُمُ بَآءَ عَذَابِكُمْ إِنَّ إِلَىٰ عِزِّ اللَّهِ عَوْدًا﴾ [١٦١].

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم غيب السموات والأرض، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ عَلَيْهِ﴾ و«قد» للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنكُمْ لِرَادَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنكُمُ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الاحزاب: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. وقال: ﴿قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّلَّذِي يَقُولُونَ لِآبَائِهِمْ لَا بُدَّوَنُوكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣] [الانعام: ٢٣]، وقال: ﴿قَدْ رَأَى نَفْسٌ تَقَلَّبَتْ مِن جِهَتِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَتَوَلَّىٰكَ رَبُّكَ فَارْتَضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل ب«قد»، كما يقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: «قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة»: فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَوَّلَ عَلَىٰ الرَّزِيزِ الرَّجِيمِ﴾ [٧٧] الَّذِي رَبَّكَ جِئِن نَقَوْمُ [٧٨] وَقَلْبِكَ فِي السَّجْدِ [٧٩] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٨٠] [الشعراء: ٧١٧-٧٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِن عَمَلٍ إِلَّا كَأَنَّا عَلَنَّا شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن شَيْءٍ إِذْ تَقُولُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ وَلَا أَصْفَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [١١] [يونس: ٦١] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَاهِرٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَفْشِقُونَ أَيَّاهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرَأُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّعَدِ﴾ [الرعد: ٥] وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [١٠] [الرعد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [١٦] [الرعد: ٦]. وقال: ﴿يَعْبُدُهُمْ مَقَاتِعُ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْعَطُ مِن رَّحْمَتِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِشْوَةٌ فِي عِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا طَمَبٌ وَلَا يَأْسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [٥٩] [الانعام: ٥٩]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿وَبُرُّ بِرُحْمَتِكُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم ترجع الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة - فَيَتَّبِعُهُمُ بَآءَ عَذَابِكُمْ﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقير، وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يَبْنُوا الْإِنشَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمُوا وَأَنزَلَ﴾ [١٣] [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَرُؤِوسَ الْكَانِبِ قَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ لَمَنًا﴾ [٤٩] [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال ها هنا: ﴿وَبُرُّ بِرُحْمَتِكُمْ إِلَيْهِ فَيَتَّبِعُهُمُ بَآءَ عَذَابِكُمْ إِنَّ إِلَىٰ عِزِّ اللَّهِ عَوْدًا﴾ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.



تفسير سورة الفرقان

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [٢].

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا نَزَّلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [١] تَمَامًا يُنذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الصَّٰلِحِينَ أَنَّهُمْ لَكُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَشْدَقًا﴾ [٢] [الكهف: ١-٣]، وقال ها هنا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو تفاعل من البركة المستمرة الدائمة الثابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نزل: فعل، من التكرار، والتكسر، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل متجماً مفرقاً مفضلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سؤر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [٣٦] وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَبِيلًا﴾ [٣٣] [الفرقان: ٣٢، ٣٣]. ولهذا سماه ها هنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام. وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال:

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَاِنَّهٗ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوْا يَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِ لَيْلًا﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلٰى عَبْدِهٖ. لَيَكُوْنَنَّ لِلْمَلٰٓئِكَةِ نٰزِرًا﴾ [١٦]. وقوله: ﴿يَكُوْنَنَّ لِلْمَلٰٓئِكَةِ نٰزِرًا﴾ أي: إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهٖ، نَزِيْلٌ مِّنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾ [٤٦] ﴿فصلت: ٤٢﴾، الذي جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - : «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي»، فذكر منهن: أنه «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة»، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللَّهِ اِلَيْكُمْ جَمِيْعًا الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ اَلْمَلٰٓئِكَةُ وَرٰٓسًا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا هُوَ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ﴾ [الاعراف: ١٥٨] أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال ها هنا: ﴿الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ اَلْمَلٰٓئِكَةُ وَرٰٓسًا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا هُوَ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ﴾، فنزه نفسه عن الولد، وعن الشريك. ثم أخبر أنه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَوْهُ نٰظِرًا﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء ورببه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتسخيره، وتدييره وتقديره.

﴿وَالَّذِيْنَ اٰتٰى مِنْ مَّوَدِّعَةِ اَللّٰهِ لَآ يَخْلُقُوْنَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُوْنَ اَللّٰهُ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ، الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكُ لِاَزْمَةِ الْاُمُوْر، الَّذِيْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَمَعْ هٰذَا عٰبَدُوْا مَعَهُ مِنَ الْاَصْنَامِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلٰى خَلْقِ جَنَاحٍ بِعَوْضَةٍ، بَلْ هُمْ مَخْلُوْقُوْنَ، وَلَا يَمْلِكُوْنَ لِاَنْفُسِهِمْ ضَرًا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَمْلِكُوْنَ لِعٰبِدِيْهِمْ؟﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُوْنَ مَوْتًا وَلَا حَيٰوةً وَلَا نَشُوْرًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله ﷻ، الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ اِلَّا كَفٰٓسٍ رَّجِيْدًا﴾ [المناف: ٢٨]، ﴿وَمَا اٰمَرْنَا اِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ [القم: ٥٠]، ﴿فَاِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٦] ﴿فَاِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [التازعات: ١٣، ١٤]، ﴿فَاِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَاِذَا هُمْ بِظُلُوْرٍ﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿اِنْ كٰتَبْتَ اِلَّا صٰحِحَةً وَاحِدَةً فَاِذَا هُمْ جَمِيْعٌ لَدِيْنَا مُخْضَرُوْنَ﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِنْ هٰذَا اِلَّا اِنْفٰكٌ اَنْتَرْتَهُ وَاَمَانَةٌ عَلَيْهِ قَوْمٌ اٰخَرُوْنَ فَقَدْ جَاءُوْا عَلٰنًا وَّرُوْدًا﴾ [١] ﴿وَقَالُوْا اَسْطِطِرُّ الْاَوَّلِيْنَ اَكْتَنَبَهَا فِهِنْ ثَمَلًا عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَّاٰصِيْلًا﴾ [٢] ﴿قُلْ اَنْزَلَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ الْاٰتِرَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِيْنَ اِنَّهٗ كَانَ عَفُوْرًا رَّحِيْمًا﴾ [٣]. يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهالة من الكفار، في قولهم عن القرآن: ﴿اِنْ هٰذَا اِلَّا اِنْفٰكٌ﴾ أي: كذب، ﴿اَنْتَرْتَهُ﴾ يعنون النبي ﷺ، ﴿وَاَمَانَةٌ عَلَيْهِ قَوْمٌ اٰخَرُوْنَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوْا عَلٰنًا وَّرُوْدًا﴾ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿وَقَالُوْا اَسْطِطِرُّ الْاَوَّلِيْنَ اَكْتَنَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل استنسخها، ﴿فِهِنْ ثَمَلًا عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةٌ وَّاٰصِيْلًا﴾ أي: في أول النهار وآخره. وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاووا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوْا لَكَ الْاَمْثَالَ فَضَلُّوْا فَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ سَبِيْلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]. وقال تعالى في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا: ﴿قُلْ اَنْزَلَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ الْاٰتِرَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِيْنَ﴾ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً ﴿اَنْزَلَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ الْاٰتِرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر. وقوله: ﴿اِنَّهٗ كَانَ عَفُوْرًا رَّحِيْمًا﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّكَ اَنْتَ اَللّٰهُ تَلٰكُفٌ تَكْتُمُ مَّكٰنَ اِلٰهِهِ اِلَّا اِلٰهُ وَاحِدٌ وَاِنْ لَّمْ يَسْتَهْمُوْا عَمَّا

يَكُونُونَ لَيْسَتِ الْآيَاتُ كَقُرْآنِ الْفَجْرِ يُعْرَفُهَا الْعَالَمُونَ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْقُرْآنَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يُبَايِعُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [البورج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة سبحانه وتعالى.

﴿وَأَلَّا مَالٍ هَذَا أَرْسَلُوا بِأَكْثَلِ الطَّعَامِ وَيَتَّبِعِي فِي الْأَشْرَافِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يَنْزِلَ إِلَيْنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ لَمْ يَجِدْ بِأَكْثَلِ يَنْهَأُ وَكَأَنَّ الظُّلُمَاتِ إِذَا تَجَمَّعَتْ إِلَّا نَجْمًا مُسْتَضِيئًا ﴿٨﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَسَاءَلُوا فَكَلَّا يَسْتَظْهِرُونَ سَيْلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي أَنْ سَكَنَ جِوَارًا لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ فِيهَا مِمَّا كُنْتُمْ يَكْتَسِبُونَ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِوَارًا ﴿١٠﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَبُّوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ فَجَاءَتْهُمْ سَحَابٌ مُمِيزًا ﴿١١﴾ لَمْ يَدْعُوا يَوْمَ ثُبُورِكُمْ بِحَدِّهَا وَلَا دَعُوا يَوْمَ ثُبُورِكُمْ بِحَدِّهَا كَذِبًا ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن نعمت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَالٍ هَذَا أَرْسَلُوا بِأَكْثَلِ الطَّعَامِ﴾، يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿وَيَتَّبِعِي فِي الْأَشْرَافِ﴾ أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلا أنزل إلينا ملك من عند الله، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ حَبَّةٍ مَعَهُ الْمَلَكُ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْنَا كِتَابٌ﴾ أي: علم كنز يكون ينفع منه، ﴿لَوْ كُنَّا لَمْ يَجِدْ بِأَكْثَلِ يَنْهَأُ﴾ أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَكَلَّمَ الظُّلُمَاتِ إِذَا تَجَمَّعَتْ إِلَّا نَجْمًا مُسْتَضِيئًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: جاؤوا يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم «ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر»، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ أي: عن طريق الهدى، ﴿فَكَلَّا يَسْتَظْهِرُونَ سَيْلًا﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لأناه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي أَنْ سَكَنَ جِوَارًا لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ فِيهَا مِمَّا كُنْتُمْ يَكْتَسِبُونَ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِوَارًا ﴿١٠﴾﴾. قال مجاهد: يعني: في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرأ، سواء كان كبيراً أو صغيراً. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيشمة، قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا يعطى أحد من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله؟ فقال: اجمعوها لي في الآخرة، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي أَنْ سَكَنَ جِوَارًا لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ فِيهَا مِمَّا كُنْتُمْ يَكْتَسِبُونَ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِوَارًا ﴿١٠﴾﴾. وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأرصدنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِوَارًا﴾ أي: عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبيرة، «السعير»: واد من قبح جهنم. وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أي: جهنم ﴿بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿بِوَعْرًا لَهَا تَنْطَبَأُ وَرَوْبِرًا﴾ أي: حقناً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُنْفِثَتْ فِيهَا سِوَارًا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْقَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض؛ من شدة غيظها على من كفر بالله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخييف الواسطي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن ذريك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷻ: «من يقل علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ مقعده من النار». وفي رواية: «فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً». قيل: يا رسول الله، وهل لها من عينين؟ قال: «أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الآية. ورواه ابن جرير، عن محمد بن خدش، عن محمد بن يزيد الواسطي، به. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنفاصي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سليم، عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله - يعني: ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَبُّوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فصعق - يعني: الربيع بن خيثم - فحملوه إلى أهل بيته، وربطه عبد الله إلى الظهر فلم يبق، رضي الله عنه. وحدثنا أبي: حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن العبد ليجر إلى

النار، فتشبهت إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصراً، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدؤزقي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار، فتزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَزَّر إلى النار، فيقول: يا رب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَزَّر إلى النار، فتشبهت إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وهذا إسناد صحيح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن منصور، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَهَيُّبًا وَزَفِيرًا﴾ قال: إن جهنم تزفر زفرة، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خر ترعداً فرائضه، حتى إن إبراهيم، عليه السلام، ليجثوا على ركبتيه ويقول: رب، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وقوله: ﴿وَأَيُّ أَلْفَاؤًا مِمَّا مَكَانًا صَحِيحًا﴾ قال قتادة: عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: مثل الزُجج في الرمح، أي: من ضيقه. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أنه سئل عن قول الله: ﴿وَأَيُّ أَلْفَاؤًا مِمَّا مَكَانًا صَحِيحًا مَقْرَبِينَ﴾ قال: «والذي نفسي بيده، إنهم ليُشْتَكِرُونَ في النار، كما يستكره الوتد في الحائط». وقوله: ﴿مَقْرَبِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة، ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حُلَّةً من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثوراه. وينادون: يا ثورهم. حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثوراه، ويقولون: يا ثورهم. فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن عفان، به: ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة به. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً. وقال الضحاك: الثبور: الهلاك. والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَأَيُّ لَأُظَنُّكَ يَفِرُّونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكاً. وقال عبد الله بن الزبير:

إذ أجازى الشيطان في سنن العنبي، ومن مآل منبلة منبوز
﴿قُلْ أَدَّبَكُ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا﴾ ﴿١٥﴾ لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلِينَ كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثْبُورًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويُلْقُونَ في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكاً، ولا انتصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه. - وهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها. ﴿لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومسكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، لا ييغون عنها حولاً. وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم. ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثْبُورًا﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعَدَا مَثْبُورًا﴾ أي: وعداً واجباً. وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثْبُورًا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم - أو قال: واعدناكم - نُجْزِ. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثْبُورًا﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غانم: ٨]. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله ﴿وَعَدَا مَثْبُورًا﴾. وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة «الصفات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحسور، ثم قال: ﴿أَدَّبَكُ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقِيمِ﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْبُلِ الْجَبْرِ ﴿١٧﴾ طَلْمُهَا كَأَنَّهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٨﴾ فَأَنْبِئِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لَكُلِّ لَعِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَاؤًا بَدِيعَةً قَبْلُ النَّارِ ﴿٢٢﴾ فَهُمْ عَلَى عَذَابٍ مُهِينٍ ﴿٢٣﴾ [الصفات: ٦٢ - ٧٠].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يُعْتَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا نُنْتِزِعُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْتُمْ كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَوَاذَعَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ يَنْصُرْهُ يَوْمَهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبودا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْتَدْرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال مجاهد: عيسى، والغزير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ مَا نُنشِئُ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَالُوا السَّبِيلِ﴾ أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰبَنِي آدَمَ إِنِّي مَرَّمٌ بِكُمْ مَاءً أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَابْنِي مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٩﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ﴾، إلى آخر الآية (المائدة: ١١٦، ١١٧)؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبدون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأ الأمثرون بفتح "النون" من قوله: ﴿تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن دعوانهم إلى ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَلُكُمْ أَهْلُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. وقرأ آخرون: «ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء» أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإن عبيدك، فقراء إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَوَاذَعَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزله إليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾: قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن البصري، ومالك عن الزهري، أي لا خير فيهم. وقال ابن الزبير حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنْ لَسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدْوِ وَمِنْ مَالٍ مَنِيْلِهِ مَثْبُورٌ

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إليه زلفى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلَ بِمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَجَابَةً عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا حِجْرٌ أَنَا شُكْرًا كَانُوا لَمْ أَهْدَاكُمْ وَكَانُوا يَسَاءَلْتُمْ كَفِيرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥، ٦]. وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدران على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ أي: يشرك بالله، ﴿يَنْصُرْهُ يَوْمَهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّلْعَ وَيَتَشْتُونَ فِي الْآسْوَابِ وَحَمَلْنَا بِكُمْ يَمْعًا يَمْعًا وَنَسُوا أَنْصَارَهُمْ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به ﴿وَيَتَشْتُونَ فِي الْآسْوَابِ﴾ أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاؤوا به من الله ﷻ. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ [يسوف: ١٠٩]، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّلْعَ وَمَا كَانُوا حَافِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقوله: ﴿وَحَمَلْنَا بِكُمْ يَمْعًا يَمْعًا يَمْعًا يَمْعًا وَنَسُوا أَنْصَارَهُمْ﴾ أي: اخترنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي؛ ولهذا قال: ﴿أَنْصَارُهُمْ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَحَمَلْنَا بِكُمْ يَمْعًا يَمْعًا يَمْعًا يَمْعًا وَنَسُوا أَنْصَارَهُمْ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون، لفعلت، ولكني قد أردت أن أبلي العباد بهم، وأبتليهم بهم. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلَىٰ بِكَ». وفي المسند عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»، وفي الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نُنزَلُ رَبًّا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يَرْوَى الْمَلَائِكَةُ لَأَ﴾

تَشْرَى بِمِثْلِ الشَّجَرِ الْعَجْرِيمِ وَيَقُولُونَ جِبْرًا عَجْرًا ﴿٢٠﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَّنْشُورًا ﴿٢١﴾ أَسْمَعُ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ حَثِيرًا مَّسْتَقَرًّا ﴿٢٢﴾ وَأَسْمَعُ سِجَالًا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثعنت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: بالرسالة كما نزل على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِنْ آوْفَىٰ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم ها هنا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ فنراهم عياناً، فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيُؤَيِّدُ بِنُوحٍ﴾ [الإسراء: ٩٢]. وقد تقدم تفسيرها في سورة «سبحان»؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا﴾؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْكَرْنَا بِأَبْصَارِهِمْ فَوْضَوْا عَنْ حُبِّهِمْ كَيْدًا﴾. وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَىٰ يَوْمِ الْمَلَائِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةَ لَا تَحْسِرُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِبْرًا عَجْرًا﴾ [٢٠] أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشيء يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحمم. فتأبى الخروج وتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرُهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ أَلْفًا بِعِلَّةٍ يَوْمَ الْمَلَائِكَةَ بَاطِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَدْوً كَلِمًا وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةَ لَا تَحْسِرُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَعَتٍ مُّبِينَةٍ وَكَانُوا فِي سَكِينَةٍ مَّا كَانُوكُمْ إِلَّا أَهْلًا مَّخَافًا وَلَا تَحْزَنُوا وَاتَّبِعُوا بِالْحَقِّ آيَاتِي كُنْتُمْ تُوَعِّدُونَ﴾ [٢١] ﴿تَحَنَّنْ أَوْيَاتِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [٢٢] ﴿زَلْنَا مِنْ عَفْوَرٍ رَّحِيمٍ﴾ [٢٣] ﴿فصلت: ٢٠-٣٠﴾.

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان» وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم». عند قوله تعالى: ﴿يُنَادِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُغِيبُ اللَّهُ الظُّلُمَاتِ وَيُفَعِّلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةَ﴾ يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك؛ وغيرهما. ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشيء يومئذ للمجرمين. ﴿وَيَقُولُونَ جِبْرًا عَجْرًا﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم. وأصل «الحجر»: المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان، إذ منعه التصرف إما لسفه، أو فلس، أو صغر، أو نحو ذلك. ومنه سمي «الحجر» عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه. ومنه يقال للعقل «حجر»؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة. هذا قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقادة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، وخصيف، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو نعيم، حدثنا موسى - يعني ابن قيس - عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: ﴿وَيَقُولُونَ جِبْرًا عَجْرًا﴾ قال: حراماً مُخَرَّماً أَنْ يُبَشَّرَ بِمَا يَبْشُرُ بِهِ الْمُتَّقُونَ. وقد حكى ابن جرير، عن ابن جريج، أنه قال: ذلك من كلام المشركين: ﴿يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةَ﴾، أي: يتعوذون من الملائكة؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: ﴿جِبْرًا عَجْرًا﴾. وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه. ولكن قد روى ابن أبي نعيم، عن مجاهد؛ أنه قال في قوله: ﴿جِبْرًا عَجْرًا﴾ أي: عوداً معاداً. فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نعيم، عن مجاهد أنه قال: ﴿جِبْرًا عَجْرًا﴾ أي: عوداً معاداً، الملائكة تقول. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَّنْشُورًا﴾ [٢١]: وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَّنْشُورًا﴾ [٢١]. قال مجاهد، والشوري: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أي: عمدنا. وقال

السدي: قدمنا: عمدنا. وبعضهم يقول: أتينا عليه. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾: قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾، قال: شعاع الشمس إذا دخل في الكوة. وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي. وزوي مثله عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد، ابن جبير، والسدي، والضحاك، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: هو الماء المهرق. وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: الهباء رجع الدواب وزوي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة في قوله: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: أما رأيت يبسس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريح الطائي، عن يعلى بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد. وحاصل هذه الأقوال التنبية على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، إذا إنها لا شيء بالكلية. وشبهت في ذلك بالشيء النافه الحقيق المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ كَسَبَّ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْعَبِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِئُ مَالَهُ رِقًا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَمَّصَهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَلَأً فَصَدَّاهُ فَكَرِهَهُ عَلَى النَّاسِ وَمِمَّا كَسَبُوا ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيمَةٍ يَخَّسِبُهَا الظُّلُمَاتُ مَا هِيَ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُمُ سَئِمًا ﴿٢٩﴾﴾. وتقدم الكلام على تفسير ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: يوم القيامة: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الحشر: ٢٥]، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الأمانات، فهو من مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَاتٍ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦] أي: بس المنزل منظرًا وبئس المقيل مقامًا؛ ولهذا قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: بما عمله من الأعمال المتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: إنما هي ضحوة، فيقبل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: هي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قبلوتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت، فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ وقال سفيان، عن مسيرة، عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: لا يتصف النهار حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ قال: قالوا في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب السيسر، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨]، ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال قتادة في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: ماوى ومنزلاً - قال قتادة: وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين، أحدهما كان ملكاً في الدنيا - إلى الحمرة والبياض فيحاسب، فإذا عبد، لم يعمل خيراً فيؤمر به إلى النار. والآخر كان صاحب كساء في الدنيا، فيحاسب فيقول: يا رب، ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به. فيقول: صدق عبيد، فأرسلوه. فيؤمر به إلى الجنة، ثم يترك ما شاء الله. ثم يدعى صاحب النار، فإذا هو مثل الحُممة السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شر مقيل. فيقال له: عد. ثم يدعى بصاحب الجنة، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: رب، خير مقيل. فيقال له: عد. رواها ابن أبي حاتم كلها. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا

عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصوّاف حدثه، أنه بلغه: أن يوم القيامة يقصّر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَسْفُكُ السَّمَاءَ وَالنَّهْمِ زَيْلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَبْصُرُ الْقَلْبُ عَلَى بَدَنِهِ كِئُوفًا يَلْتَمِسُ أَلْفَاكًا مَعَ رَسُولٍ سَيِّئًا ﴿٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ لَكَ إِعْتِدَالٌ فَلَا تَأْكُلُ يَدُكَ يَدَكَ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَصَلَّيْنَا عَنِ الذُّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَتْكَ رِكَاكُ الْقَيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغنم، وهو ظُللُ النور العظيم الذي يبهّر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذٍ، فيحيطون بالخالق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَسُيُوفَ الْأَنْهَارِ وَالِإِلَهُ رُجُوعُ الْأُمُورِ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ابن زيد، عن يوسف بن مهزيان، عن ابن عباس، أنه قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَسْفُكُ السَّمَاءَ وَالنَّهْمِ زَيْلًا ﴿٢٥﴾﴾ قال ابن عباس: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد، الجن والإنس والبهائم والطيور وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا، فينزل أهلها - وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق - فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق. ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا، فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق، فتنشق السماء الثالثة، فينزل أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم، وبالجن والإنس وجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، حتى تنشق السماء السابعة، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام، وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السموات السبع والجن وجميع الخلق، لهم قرون كأكعب القنا، وهم تحت العرش، لهم زجل بالتيسيم والتهليل والتقدیس لله ﷻ، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ركبته إلى حُجْزته مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام، وجهنم مجنبتة، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق.

وقال ابن جرير، حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج، عن مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهزيان، أنه سمع ابن عباس يقول: إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس، وهو يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء ربنا؟ فيقولون: لم يجيء، وهو أت. ثم تنشق السماء الثانية، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة. فينزل منها الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والإنس. قال: فتنزل الملائكة الكروبيون، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة. قال: وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه، وكل ملك منه واضع رأسه بين يديه يقول: سبحان الملك القدوس. وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القباء، والعرش فوق ذلك. ثم وقف، فمداره على علي بن زيد بن جُدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة. وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا، والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٥ - ١٧]، قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حملك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرك، رواه ابن جرير عنه. وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كلاًهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا معتمر بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عمرو قال: يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور والظلمة، فُبصّرت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع منه القلوب. وهذا موقف على عبد الله بن عمرو من كلامه، ولعله من الزاملتين، والله أعلم. وقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَكُ يَوْمَئِذٍ أَحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيبًا ۝٦٦﴾ ، كما قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْأُمَّلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ [إعجاز: ١٦]. وفي الصحيح: «إن الله يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون». وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيبًا﴾ أي: شديداً صعباً؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّمَاءِ ۝٨﴾ ، ﴿فَذَلِكَ يَوْمًا يَوْمَ عَذِيبٍ ۝٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيبٌ ۝١٠﴾ [المدرس: ٨-١٠]، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحَتُهُ هَذَا يَوْمَئِذٍ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله: «يَوْمَ كَانَ يَمْدَارُهُ حَسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»: ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا». وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا نَبِيَّيْنِي أَنفَعْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۝٦٧﴾: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعرض على يديه حسرة وأسفاً. وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُتُّ تُرُجُمُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا نَبِيَّنَا أَلْمَنَّا اللَّهَ وَالْمَعْنَى الرَّسُولَ ۝٦٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَسَلْنَا السَّبِيلَ ۝٦٩﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمِ لَمَّا كَذَبْنَا كَذِبًا كَبِيرًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، وبعض على يديه قاتلاً: ﴿يَا نَبِيَّيْنِي أَنفَعْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا يَبُولُكَ لَيْتِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَيْلًا ۝٧١﴾ يعني: من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاء الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوة أبي بن خلف، أو غيرهما. «لَقَدْ أَهْبَأْنِي عَنِ الْكِبَرِ» وهو القرآن «بَمَدِّ إِذْ جَاءَنِي» أي: بعد بلوغه إلي، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ السَّيِّطُونَ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٧٢﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المشركين وكفى برئيتك هادياً ونصيراً ۝٧٣﴾ . يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد- صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين- أنه قال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا يَا الْقُرْآنُ وَالْقُرْآنُ فِيهِ لَمَلَكٌ تَلْوِينٌ ۝٧٤﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره، حتى لا يسمعه. فهذا من هجرانه. وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره- من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يُسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناه الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما حصل لك- يا محمد- في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية؛ لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ذُكُرَ الْقُرْآنِ عُرُودًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَهُمْ قَدْزُومًا وَمَا يَصْمُرُونَ ۝٧٥﴾ وَتَلَوْنَهُمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقَسِّمُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: لمن اتبع رسوله، وأمن بكتابه وصدقته واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلها قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٧٦﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: هل أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزيور، وغيرها من الكتب الإلهية. فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال: ﴿وَرَوَّعْنَا أَفْوَاهَهُ لِنَقَرِ عَلَىٰ أَلْسِنِهِمْ عَلَىٰ مَكْنٍ وَرَلَّيْنَاهُ نَزِيلًا ۝٧٧﴾ [الاسراء: ١٠٦]؛ ولهذا قال:

﴿لِنُنَبِّئَكَ بِهِ مُؤَادَكَ وَرَزَلْنَاهُ رِزْقًا﴾: قال قتادة: وبيناه تبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ أَي: بحجة وشبهة﴾ ﴿إِلَّا يَحْتَنِكُ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَقْيِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم. قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ أَي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول﴾ ﴿إِلَّا يَحْتَنِكُ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَقْيِيرًا﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله بجوابهم. ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملا الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا يَحْتَنِكُ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَقْيِيرًا﴾ ﴿٣٥﴾، وقوله: ﴿رُؤُوسًا فَرَفَعَهُ لِيَفْقَرَهُ عَلَى آثَارِهِ عَلَى مَكِّيٍّ وَرَزَلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ١٠٦]. ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْسِنُونَ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَيُحِبُّونَهَا إِلَىٰ جِهَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ سَكَنًا وَأَسْخَرًا سَبِيلاً﴾ ﴿٣٧﴾. وفي الصحيح، عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشي به على وجهه يوم القيامة». وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وغير واحد من المفسرين، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَمَلْنَا مَمْعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا﴾ ﴿٣٥﴾ فقلنا آتينا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذرناهم ندميراً ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ لَمَّا كَذَبُوا أُرْسِلْ أَخْرَقْتَهُمْ وَحَمَلْتَهُمْ لِلنَّاسِ مَائَةً وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كِبِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا صَبَّأْنَا لَهُ الْآسَنَاءَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقُرَيْشِ آيَاتٍ مُّطَّرَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا مِّنْ سَمَوَاتٍ لَّا يَرْجِعُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه، من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذره من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمة الماضية المكذبين لرسوله، فبدأ بذكر موسى، عليه السلام، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا، أي: نبياً موازراً ومؤيداً وانصراً، فكذبهما فرعون وجنوده، فذم الله عليهم وللكافرين أنثالها [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً، عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرَّسُولَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويحذره من نقمه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط. ﴿وَحَمَلْتَهُمْ لِلنَّاسِ مَائَةً﴾ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِئِ﴾ ﴿١١﴾ لِنَجِّلَ الْكُفْرَ لَدُنْكِ وَنَجِّنَا أَذُنَ رِيحَةٍ ﴿١٧﴾ [الحاقة: ١١، ١٧]. أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجاج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره. وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، منها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج، عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بقلج وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قال: بشر بأذربيجان. وقال سفيان الثوري عن أبي بكر، عن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم. أي دفنوه بها.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي، فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخمة» قال: «فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت». قال: «فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجمع

حطبه وحزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة، فاضطجع فنام. فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هب فتعطى، فتحول لشفه الآخر فاضجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هب واحتمل حُرْمَتَهُ ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع. ثم ذهب إلى الحفيرة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمس فلم يجده. وكان قد بدأ لقمه فيه بدءاً، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه. قال: «فكان نبينهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل؟ فيقولون له: ما ندري. حتى قبض الله النبي، وأهب الأسود من نومه بعد ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة». هكذا رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب مرسلًا. وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا في القرآن؛ لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدأ لهم فأمنوا بنبيهم، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم، والله أعلم. واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود، الذين ذكروا في سورة البروج، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَقَرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأما بين أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا صَبْرًا لَهُ الْأَمْتَلُ﴾ أي: بينا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة - كما قال قتادة: أزحنا عنهم الأعداء - ﴿وَكَلَّا صَبْرًا لَهُ الْأَمْتَلُ﴾ و﴿وَكَلَّا تَبَرًّا تَنْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. والقرن: هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا مَآخِزِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]. وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة سنة. وقيل: بشمانين سنة. وقيل: أربعين وقيل غير ذلك. والأظهر: أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ الْقُرْيَةِ آلَئِيَّ أَنْبَأْتِمْ مَطَرًا سَوِيًّا﴾ يعني: قرية قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكها الله بالقلب، وبالمطر الحجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ النَّارِذِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. وقال: ﴿وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الحجر: ٧٦]. وقال: ﴿وَأَنبَأْتِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِمْ﴾ [الحجر: ٧٦]؛ ولهذا قال: ﴿أَنبَأْتِمْ بِكُفْرَانِهِمْ﴾ أي: فاعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والتكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله. وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شُورًا﴾ يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً، أي: معاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَبْعُدُونَكَ إِلَّا هُمْزًا أَهْدَأْ أَلَّذِي بَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [١١] **إِنْ كَادَ لَيُغِيْبُنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرًا عَلَيْهَا وَسَوَّكَ يَتَلَمَّذُونَ** **بِرَبِّكَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا** [١٢] **أَوْتِيتَ مِنْ أَنفَعِ إِلَهُهُمْ هَوْنَةً فَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا** [١٣] **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** [١٤].

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذا رآوه، كما قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَبْعُدُونَكَ إِلَّا هُمْزًا أَهْدَأْ أَلَّذِي بَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [١١] يعنون بالعبعب والنقص، وقال ها هنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَبْعُدُونَكَ إِلَّا هُمْزًا أَهْدَأْ أَلَّذِي بَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [١١]. أي: على سبيل النقص والازدراء - قبحهم الله - كما قال: - ﴿وَلَقَدْ أَسْتَشْرَيْتَ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]. وقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُغِيْبُنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرًا عَلَيْهَا﴾ يعنون: أنه كاد ينهبهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَسَوَّكَ يَتَلَمَّذُونَ بِرَبِّكَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾. ثم قال تعالى لنبيه، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله. ﴿أَوْتِيتَ مِنْ أَنفَعِ إِلَهُهُمْ هَوْنَةً﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورأه حسناً في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَمَنْ رَبِّئِمْ لَمْ سَوْهُ عَلَيْهِمْ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتِي﴾ [فاطر: ٢٨]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿أَفَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول. ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [١٤]. أي: أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا للعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحججة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ لَكَ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [١٥] **ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِتْنَا قَبْضًا بَیْبَرًا** [١٦] **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَأْسَا وَالتَّوَمَّ سُبْحَانَ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا** [١٧].

من ها هنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟﴾ قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبير وإبراهيم الثخعي، والضحاك، والحسن البصري، وقناة، والسدي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْيَسَّرَ لِي بَعَثَ اللَّهُ فِيَّ إِلَهُ أَلْتَمَسُ بَدَلًا﴾. ﴿قُلْ أَوْيَسَّرَ لِي بَعَثَ اللَّهُ فِيَّ إِلَهُ أَلْتَمَسُ بَدَلًا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بوضده. وقال قناة: والسدي: دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله. وقوله: ﴿ثُمَّ قَفْزَهُنَّ إِيَّانَا فَضًا يَبِيرًا﴾ (٦١) أي: الظل. وقيل: الشمس ﴿يَبِيرًا﴾ أي: سهلاً. قال ابن عباس: سريعاً. وقال مجاهد: خفيفاً. وقال السدي: قبضاً خفيفاً، حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى: ﴿ثُمَّ قَفْزَهُنَّ إِيَّانَا فَضًا يَبِيرًا﴾ (٦٢) أي: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسَا﴾ أي: يلبس الوجود ويُعْشيه، كما قال: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا تَفَنَّى﴾ (٦٣) [الليل: ١] وقال: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَسْتَفْهِنُ﴾ (٦٤) [الشمس: ٤]. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: قطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكلم من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: ينشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسيهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَيْلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَذَكَّرُوا مِنْ نِعْمَتِي﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَرَكٌ يَدُورُ فِي سَحَابٍ﴾ (٦٥) [القصص: ٧٣]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٦٦) [التخوي: ٤٨] لِنُحْيِي بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا وَنُحْيِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أُمَّتًا وَأَنبَأِيهِمْ كَثِيرًا﴾ (٦٧) [القصص: ٧٣]. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمُ لَدُنْكُمْ قَائِلًا أَكْثَرَ النَّاسِ إِلاَّ كَفُورًا﴾ (٦٨).

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يبث السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل يقم الأرض، ومنها ما يلقي السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسُحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فعول بمعنى فاعل، أو: إنه مبني للمبالغة أو التعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حميد الطويل، عن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قدرة، فصلى، فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: طهره ماء السماء. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وهيب، عن داود، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ قال: أنزله الله ماء طاهراً لا ينجسه شيء. وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟ - وهي بئر يُلقى فيها الثنن ولحوم الكلاب - فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء». رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي، وحسنه، والنسائي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث، حدثنا معتمر، سمعت أبي يحدث عن سيار، عن خالد بن يزيد، قال: كان عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيغذيه الرعد والبرق. فأما ما كان من البحر، فلا يكون له نبات، فأما النبات فما كان من السماء. وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البربر، وفي البحر دُرٌّ. وقوله: ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا﴾ أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْزَلْنَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَكْبَّتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ [الحج: ٥٠]. ﴿وَنُحْيِيهِمْ مِمَّا خَلَقْنَا أُمَّتًا وَأَنبَأِيهِمْ كَثِيرًا﴾ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الَيْلِ مِنْ بَدْوٍ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَيْدُ﴾ (٦٨) [الشورى: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ لِلَّهِ أَشْرَقَتْ رَحْمَتُ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْرِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٩) [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمُ لَدُنْكُمْ قَائِلًا أَكْثَرَ النَّاسِ إِلاَّ كَفُورًا﴾ (٦٩) أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فأمطرتها وكفتها فجمعناها عدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن مسعود وابن عباس: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ

صَرَفَتْهُ يَتِيمٌ لِيَذْكُرُوا فَأَيُّ أَكْثَرِ الْأُنَاسِ إِلَّا كَفُورًا ﴿٥٠﴾. أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات. أو: ليذكر من منع الفطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه. وقال عُمَرُ مولى عُفْرَةَ: كان جبريل، عليه السلام، في موضع الجنائز، فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل، إني أحب أن أعلم أمر السحاب؟» قال: فقال جبريل، يا نبي الله، هذا ملك السحاب فسله. فقال: تأتينا صكاك مُحْتَمَةٌ: استق بلاد كذا وكذا، كذا وكذا قطرة. رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل. وقوله: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرِ الْأُنَاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾: قال عكرمة: يعني: الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَسْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطَّلِعُ الْكٰفِرِيْنَ وَجَهَنَّمَ بِوَجْهَاتِكَ كَبِيْرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ أَمْجًا وَعَمَلٌ يَنْتَهَا بَرَزَاتًا وَّجِبْرًا تَحْجُرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَسْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾: يدعوهم إلى الله ﷻ ولكن خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن، ﴿لَا تُؤْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَمَ الثَّمَلُومَ﴾ [مرد: ١١٧]، ﴿وَلَنُنَزِّلُ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنْ رَأَوْا إِلَهُكُمُ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨] وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود». وفيهما: «وكان النبي يعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة؟» ولهذا قال: ﴿فَلَا تَطَّلِعُ الْكٰفِرِيْنَ وَجَهَنَّمَ بِوَجْهَاتِكَ﴾ يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جَهَاتِكَ كَبِيْرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا النَّبِيَّ فِي حَيْثُ كَفَرُوا وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٢٩]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ أَمْجًا﴾ أي: خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وعو عذب فرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السراح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله: ﴿وَهَذَا يَمْلِحُ أَمْجًا﴾ أي: مالح مُرُّ زعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتغتمل في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مألحة الماء، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجرى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟» فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته». رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسناد جيد. وقوله: ﴿وَعَمَلٌ يَنْتَهَى بَرَزَاتًا وَجِبْرًا تَحْجُرًا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرَزَاتًا﴾ أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض، ﴿وَجِبْرًا تَحْجُرًا﴾ أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْتَهَيَا بِرَجْحٍ لَا يَخْتَلِيَانِ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيَانِ مَاءً آوَّاءً رِيَكًا تَكَادِيَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢١]، وقال تعالى: ﴿أَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوِيحًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَدَلٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعذله، وجعله كامل الخلق، ذكراً أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات. وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ سَيَلَّامٌ ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ نُذُوبًا عِبَادَهُ هَيِّبًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً، بلا دليل قادم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنون فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْزَبُوا مِن دُونِ اللَّهِ ؕ أَلَيْسَ لَهُمُ لَعْنَةُ اللَّهِ ؕ وَاللَّهُ لَمُبْتَئِرٌ﴾ [٧٦] لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمُ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة. قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ يقول: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ قال: موالياً. ثم قال تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٥١] أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجره أطلبها من أموالكم، وإنما أفعال ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَئِن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ مِن رَّبِّهِ سَبِيْلًا﴾ أي: طريقاً ومسلحاً ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به. ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ إِلَٰهٍ إِلَهٍ لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أموركم كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله دُخْرُك وملاجئك، وهو الذي يُتوكَّل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ؕ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الَّتِي هِيَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزَعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نُقَيْل قال: قرأت على مَعْقِل - يعني ابن عبيد الله - عن عبد الله بن أبي حسين، عن شهر بن حَوْشَب قال: لقي سلمان رسول الله ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسجد له، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت». وهذا مرسل حسن. وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّ بِحَدِيْبٍ﴾ أي: اقرب بين حمده وتسيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ لَشَرْقٍ وَلِغَرْبٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ كِبْرًا﴾ [الزمر: ٩]. وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مؤد: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ مَنَّانٌ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. وقوله: ﴿وَكُنْ بِمِ يَدَيْهِ عَادِيْبٌ حَبِيْرًا﴾ أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء ورببه ومليكه، خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاضلين. وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبَّحُ بِحَمْدِهِ حَبِيْرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه، على سيد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى - فما قاله فهو حق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله، وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائننا من كان، قال الله تعالى: ﴿إِن نَشَاءُ نَمُوتُهُمْ فِي شِعْرِهِمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُوْلُ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ فِيْهِ مِن شَيْءٍ فَسَمُّهُ إِلَٰهٌ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿رَبَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿فَسَبَّحُ بِحَمْدِهِ حَبِيْرًا﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿فَسَبَّحُ بِحَمْدِهِ حَبِيْرًا﴾ قال: ما أخبرتكم من شيء فهو كما أخبرتكم. وكذا قال ابن جريج. وقال شمر بن عطية في قوله: ﴿فَسَبَّحُ بِحَمْدِهِ حَبِيْرًا﴾ قال: هذا القرآن خبير به. ثم قال تعالى منكرأ على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرف الرحمن. وكانوا ينكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديدية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرفه ولا نقر به؟﴾ ﴿أَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك؟ ﴿وَرَادَهُمْ نُفُوْرًا﴾، أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفَرِّدونه بالإلهية ويسجدون له. وقد

اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَمَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَمَلَ فِيهَا يَرِينَا وَمَعْرًا مُبِينًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى ممجداً نفسه، ومعظماً على جميل ما خلق في السماء من البروج - وهي الكواكب العظام - في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَمَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴿٥٥﴾﴾؛ ولهذا قال: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَمَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَمَلَ فِيهَا يَرِينَا﴾، وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَمَلْنَا يَرِينَا وَمَعْرًا ﴿٦١﴾﴾ [النبا: ١٣]. ﴿وَمَعْرًا مُبِينًا﴾ أي: مضيئاً مشرقاً بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. وقال مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿أَوَّ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَمَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَمَلَ الشَّمْسَ يَرِينًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥، ١٦]. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذلك، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٦٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال: ﴿يُقَيِّمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِطَلَبِهِ حَيْثُمَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتاً لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو حرة، عن الحسن: أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتبه - أو قال: أقضيه - وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا ﴿٦٢﴾﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل، أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير. والحسن. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مختلفين، هذا بسواده، وهذا بضيائه.

﴿وَيَسَّادُ الرَّحْمَنَ الَّذِيكَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَكَ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ رِزْقَهُمْ شَحَدًا وَيَمِينًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَكَ﴾ أي: بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكُن تَبْلَغُ لِيَجَالَ طُولًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧]. فإما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر، ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً وزياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صيب، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما باللك؟ أنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهون ها هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أنيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا».

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَيَسَّادُ الرَّحْمَنَ الَّذِيكَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَكَ﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُّ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنهم من الدنيا علمهم بالأخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. أما والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ أي: إذا سفه عليهم الجهال بالسيء، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون

ويفصحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلُواكَ الْفُرْقَانَ عَنِهَا قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهَا نَبَأٌ خَلِيفَةٌ لَّمَّا أَعْلَمْتُهَا وَكَلَّمَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِّنْ عَنِّي وَإِنِّي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ: وسب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به. وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به». إسناده حسن، ولم يخرجوه. وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ يعني: قالوا: سداداً. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ قال: حلماً لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلماًوا. يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون. ثم ذكر أن ليلهم خير ليل. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَسْتَفْتُونَ﴾ [الدورات: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿سَجَّافٍ جَنُودِهِمْ عَنِ الْمَصَائِبِ يُدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦] وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتًا فَمَاءَ أَيْلٍ سَائِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، ولهذا قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذَّبَ يَكُنْ غَرَامًا، وَإِنْ يُعَاذَ طَجَزِيلاً، فَلِإِنَّهُ لَا يُبَالِي
ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نعموا في الدنيا، إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾﴾ أي: بسئ المنزل منظرًا، وبسئ المقيل مقامًا. وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾﴾: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طرح الرجل في النار هوى فيها، فإذا انتهت إلى بعض أبوابها قيل له: مكانك حتى تحذف، قال: فيسقى كأساً من سُمِّ الأسود والعقارب، قال: فيميز الجلد على حدة، والشعر على حدة، والعصب على حدة، والعروق على حدة. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال الدلثم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاهمم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت النار رجعت. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام - يعني ابن مسكين - عن أبي ظلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان، يا منان. فيقول الله لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا. فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُتَكَبِّينَ يبكون، فيرجع إلى ربه ﷻ فيخبره، فيقول الله ﷻ: أتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه على ربه ﷻ، فيقول له: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان، شر مقيل. فيقول: ردوا عبدي. فيقول: يا رب، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها! فيقول: دعوا عبدي.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾﴾ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكونون، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن ضمرة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل رفقه في معيشته» ولم يخرجوه. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَيْنُ بن عبد العزيز العبدي، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». ولم يخرجوه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال - يعني العبيسي - عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة». ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله. وقال الحسن البصري: ليس النفقة في سبيل الله سرف والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري، عن أبي معاوية، به. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري: وواصل - ثلاثتهم عن أبي وائل، شقيق بن سلمة، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، عن ابن مسعود، به، فالله أعلم، ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ الحديث. طريق قريب: وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا عامر بن مذك، حدثنا السري - يعني ابن إسماعيل - حدثنا الشعبي، عن مسروق قال: قال عبد الله: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته، فجلس على نَشْرٍ من الأرض، وقعدت أسفل منه، ووجهي حيال ركبتيه، واغتنمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تدعو الله نداً وهو خلقك». قلت: ثم مه؟ قال: «أنت تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك». قلت: ثم مه؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. إلى آخر الآية. وقال النسائي: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع - فما أنا بأشع عليهم مني منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ -: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن المديني، رحمه الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا طيبة الكلاعي، سمعت المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حَرَمَهُ اللهُ ورسوله، فهو حَرَامٌ إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أسير عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أسير عليه من أن يسرق من جاره». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ: قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رجم لا يحل له». وقال ابن جرير: أخبرني يعلى، عن سعيد بن جبيرة أنه سمعه يحدث عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزلت: ﴿فَلْ يَجِبَادُوا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا بن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي فاخته قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهك أن تزني بحليلة جارك». قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾: روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «أثاماً»: واد في جهنم. وقال عكرمة: «يَلْقَى أَثَامًا»: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وكذا زُوي عن سعيد بن جبيرة، ومجاهد. وقال قتادة: «يَلْقَى أَثَامًا»: نكالا، كنا نحدث أنه واد في جهنم. وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإنه أوله مخافة، وآخره ندامة. وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره، عن أبي أمامة الباهلي - موقوفاً ومرفوعاً -: أن «غيا» و «أثاماً» بئران في قعر جهنم. أجازنا الله منها بمنه وكرمه. وقال السدي: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾: جزاء. وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، و﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ أي: حقيقاً ذليلاً. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ حَكِيمًا﴾ فيها وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٤٣﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من

لم يتب، لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، وقبل منه، وغير ذلك من الأحاديث. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان: أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وروى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية:

بُدِّلْنَ بَغْدَ حَرَّةٍ خَرِيفًا وَيَغْدُ طُورَ الثُّغَمَسِ السُّوجِيْفًا
يعني: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها.

وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يبده الله بها خيراً. وقال سعيد بن جبیر: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السبيء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاماً. وهذا قول أبي العالية، وقاتدة، وجماعة آخرين. والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسناً، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى. وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يوتي برجل فيقول: نَحْوَا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوهُ عَن صَفَارِهَا، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً - فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة. فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها هنا». قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. وانفرد به مسلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، حدثني ضَمُضَمُ بن رُزْعة، عن شَرِيحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك. فيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان، وكتبهن حسناً، فإذا أراد أن ينام أحدهم فليكبّر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، فتلك مائة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا: حدثنا ثابت - يعني: ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يعطي رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسناً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود، حدثنا أبو العتّيس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لياتين الله ﷻ بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبذل الله سيئاتهم حسناً. وقال أيضاً: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو حمزة، عن أبي الضيف - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال: يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف: المتقين، ثم الشاكرين، ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لم سما أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم عملوا الحسنات والسيئات، فأعطوا كتبهم بأيمانهم، فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً - قالوا: يا ربنا، هذه سيئاتنا، فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسناً، فعند ذلك قالوا: هاؤم اقرأوا كتابيه، فهم أكثر أهل الجنة. وقال علي بن الحسين بن زين العابدين: ﴿يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسناً: رواها ابن أبي حاتم، وروى ابن جرير، عن سعيد بن المسيب مثله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو جابر، أنه سمع مكحولاً لا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أسلمت؟» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فقال النبي ﷺ: «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسناً». فقال: يا

رسول الله، وَعَدْرَاتِي وَفَجْرَاتِي؟ فقال: «وَعَدْرَاتِكَ وَفَجْرَاتِكَ». فَوَلَّى الرَّجُلُ يَهْلِلُ وَيَكْبِرُ. وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي قزوة - شَطْبٌ - أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال: «أسلمت؟» فقال: نعم، قال: «فافعل الخيرات، واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها». قال: وَعَدْرَاتِي وَفَجْرَاتِي؟ قال: «نعم». قال فما زال يكثر حتى توارى. ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الراوي، عن ياسين الزيات، عن أبي سلمة الجهمي، عن يحيى بن جابر، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً. وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان، عن فُلَيْحِ الشَّمَّاسِ، عن عبيد بن أبي عبيد عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاتني امرأة فقالت: هل لي من توبة؟ إني زينت وولدت وقتلته. فقلت: لا، ولا نعتت العين ولا كرامة. فقامت وهي تدعو بالحسرة. ثم صليت مع النبي ﷺ الصبح، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها، فقال رسول الله ﷺ: «بِسْمَا قُلْتَ! أَمَا كُنْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ آيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؟ فقَرَأَتْهَا عَلَيْهَا. فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم. وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه، وعنده: فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتا! أخلق هذا الحسن للنار؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ، تَطَلَّبَهَا فِي جَمِيعِ دُورِ الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَجِدْهَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ الْمُقْبِلَةِ جَاءَتْهُ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَّتْ سَاجِدَةً وَقَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ لِي مَخْرَجًا وَتُوبَةً مِمَّا عَمَلْتُ. وَأَعْتَقْتُ جَارِيَةَ كَانَتْ مَعَهَا وَابْنَتَهَا، وَتَابَتْ إِلَى اللَّهِ ﷻ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَمُومِ رَحْمَتِهِ بَعَادَهُ، وَأَنَّهُ مِنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ، جَلِيلٌ أَوْ حَقِيرٌ، كَبِيرٌ أَوْ صَغِيرٌ. فَقَالَ: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾. أَي: فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَمَلِكُ سَوْأًا أَوْ يظَلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَلْمِزْنَا أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَقَالَ: ﴿قُلْ يَبِيَّادَى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، أَي: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٦) وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَيْنًا (٧٧) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْزِلِنَا قِسْرَةً غَمْرًا وَأَعْمِرْنَا لِنَشْكُرَكَ إِنَّمَا (٧٨).

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن، أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمد بن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك، عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر». وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما ثبت في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العجلي، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً، فقال النبي ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود، وأمسى كريماً». وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا جبان، أنا عبد الله، أنا محمد بن مسلم، أخبرني ابن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً لم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً»، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَيْنًا﴾ (٧٧) وهذه من صفات المؤمنين ﴿الْكُتُبِ الَّذِينَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه لا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَلَاوَةً إِيَّانَا قُلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيَّانَا وَعَمَّا كَفَرُوا فَرَادَتْهُمْ إِيَّانَا وَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٨) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فقروله: ﴿لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي ذكر آيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعهما أصم أعمى. قال مجاهد: قوله: ﴿لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى.

وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ (٧٦)، يقول: لم يصموا عن الحق ولم يصموا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُمران، حدثنا ابن عَوْن قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ (٧٦) يعني: أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره، ويقين واضح بين. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزُرِّيَعَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصري - وسئل عن هذه الآية - فقال: أن يُرى الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدأ، أو ولد ولد، أو أخا، أو حميماً مطيعاً لله ﷻ. وقال ابن جرير في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزُرِّيَعَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقال الإمام أحمد: حدثنا يَغْمَر بن بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! لوددنا أنا وأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا عَيْبِهِ الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بقران فرقَ به بين الحق والباطل، وفرقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُلُوبَ قلوبهم للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينيه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزُرِّيَعَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

وقوله: ﴿وَأَجَعَلْنَا لِلنَّفِيِّتِ إِمَامًا﴾: قال ابن عباس، والحسن، وقاتدة، والسدي، والربيع بن أنس: أئمة يقتدي بنا في الخير. وقال غيرهم: هداة مهتدين ودعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ الْفَرْقَةَ بِمَا سَكَّرُوا وَتَقَرَّتْ فِيهَا حَيَّةٌ وَسَلَمًا﴾ (٧٥) خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَسْئُرُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ وَسْوَءَ يَكْفُرًا إِذْمَا (٧٧).

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة - قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يَجْزِيكَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْفَرْقَةَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والسُدِّي: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا سَكَّرُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَتَقَرَّتْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿حَيَّةٌ وَسَلَمًا﴾ أي: يُتَبَدَّرُونَ فِيهَا بالنجاة والإكرام. ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليها من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار. وقوله: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولُونَ ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ يَجْدُونَ﴾ (١٧٨) [مود: ١٠٨]. وقوله: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا﴾ أي: حسنت منظرا وطابت مَقِيلًا ومنزلاً. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَسْئُرُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق

ليعبده ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلا. وقال مجاهد، وعمرو بن شعيب: ﴿مَا يَسْبُؤُا بِكَرِّي﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَرِّي لَوْلَا إِيمَانُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة لهم بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب الإيمان كما حبه إلى المؤمنين. وقوله: ﴿فَقَدَّ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: أيها الكافرون ﴿فَسَوَّوْا يَكْفُرُونَ لِرِأَمَاءِ﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني: مقتضياً لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوَّوْا يَكْفُرُونَ لِرِأَمَاءِ﴾ يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.



تفسير سورة الشعراء

وهي مكية. ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها: سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَسَرَّةً ١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢﴾ لَمَّا بَلَغَ نَقْصَ الْآلِ يَكْفُرُونَ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَكَ أَصْنَفُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَا ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُذْهِبٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدَّ كَذَّبُوا فَسَاءَتْ لَهُمْ أَلْبَابُهُمْ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البين الواضح، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد. وقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَقْصَ الْآلِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: مهلك ﴿نَقْصَ الْآلِ﴾ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿الآلِ يَكْفُرُونَ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَقْصَ الْآلِ يَكْفُرُونَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْأَمْرِ لَمَّا سَأَلْنَا﴾ [الكهف: ٦]. قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَقْصَ الْآلِ﴾ أي: قاتل نفسك. قال الشاعر:

أَلَا آتِيهِذَا الْبَاخِعُ الْحُزْنَ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ نَحَشَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَكَ أَصْنَفُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَا﴾ ﴿١﴾ أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكنا لا فعل ذلك؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَلِمَةً تَجِيءُ أَقَانَتْ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكْفُرُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يس: ١٩]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلَفِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨، ١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم. ثم قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِنَا إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٢﴾ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُؤْمِنِينَ﴾ [يس: ١٧]. وقال: ﴿يَنْصَرِفُونَ عَلَى الْأَيْمَانِ مَا يُأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣﴾ [يس: ٣٠]. وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَهُ أُمَّةً رُسُلُنَا كَذَّبُوا فَاتَّبَعْنَا لَهُمْ بَعْضًا وَوَعَدْنَا لَهُمْ آجَلًا لَيْسَ لَهُمْ لِقَاؤُنَا إِلَّا يَنْصَرِفُونَ﴾ ﴿٤﴾ [المؤمنون: ٤٤]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدَّ كَذَّبُوا فَسَاءَتْ لَهُمْ أَلْبَابُهُمْ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٥﴾ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نباء هذا الكتاب بعد حين، ﴿وَسَيَمَّاكُ الَّذِينَ ظَلَمُوا آيَةً مُنْقَلَبًا يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٧٧]. ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبث فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان. قال سفيان الثوري، عن رجل، عن الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩﴾ أي: الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ﴾

أي: بخلقه، فلا يجعل على من عساه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبيرة: الرحيم بمن تاب إليه وأتاب.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ فَاصْبِرْ صَدْرِي وَلَا تَبْطُلْ لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِنَّهَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِصَالِحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ وَكَّلْنَا لَهُمُ لُوطًا فَإِنَّمَا أَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ لَّيْسَ لَهُنَّ صِغَارُ الصِّبْيَانِ ﴿١٨﴾ وَكَلَّمْنَا هَارُونَ وَكَلَّمْنَا شَاكِرًا إِذْ وَكَّلْنَا لَهُمُ الْبَنِيَّاتِ وَدَلَّاهُم بِآيَاتِنَا إِذْ كُنُوا كَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَا إِذَا وَكَّلْنَا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْنَا بِكُمْ لُوطًا حِفْظًا فَهَبَّ لِي رَبِّي حُكْمًا وَحَمَلْنَا مِنَ الْمَرْسِيِّينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ يَوْمَ تَبَايَعْنَا عَلَىٰ أَنْ

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه عليه، حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١١﴾ و﴿فَاصْبِرْ صَدْرِي وَلَا تَبْطُلْ لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي هَارُونَ﴾ ﴿١٢﴾ و﴿وَلَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٣﴾. هذه أعداء سال من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٢٥﴾ و﴿وَبَرِّزْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿٢٦﴾ و﴿وَأَحْمِلْ عَقْدَهُ بَيْنَ لِسَانِي﴾ ﴿٢٧﴾ و﴿وَأَحْمِلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿٢٨﴾ و﴿أَشَدُّ بِوَجْهِ أَرَبِي﴾ ﴿٢٩﴾ و﴿وَأَشْرِكِي فِي أَمْرِي﴾ ﴿٣٠﴾ و﴿شَيْعَتِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ و﴿تَذَكَّرَكُ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾ و﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ و﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٣٤﴾ و﴿طه: ٢٥-٣٦﴾ و﴿وَلَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾ أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كما قال: ﴿قَالَ سَنَدُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْمَلُ لَكَ سُلْطَنًا﴾ أي: برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَا وَمَنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَالِغُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. ﴿فَأَذْهَبَا بِأَيَّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ شَهِيدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ سَمْعًا وَآرُفٌ﴾ [طه: ٤٦] أي: إنني معكما بحفظي وكلايتي ونصري وتأييدي. ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] أي: كل منا رسول الله إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِصَالِحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ وَكَّلْنَا لَهُمُ لُوطًا فَإِنَّمَا أَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ لَّيْسَ لَهُنَّ صِغَارُ الصِّبْيَانِ﴾ ﴿١٨﴾ و﴿كَلَّمْنَا هَارُونَ وَكَلَّمْنَا شَاكِرًا إِذْ وَكَّلْنَا لَهُمُ الْبَنِيَّاتِ وَدَلَّاهُم بِآيَاتِنَا إِذْ كُنُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلاً، ووجدت نعمتنا عليك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ وَمَنْ أَلْفَكُنِي﴾ أي: الجاحدين. قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. ﴿قَالَ فَعَلْنَا إِذَا﴾ أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليّ بالرسالة والنبوة. قال ابن عباس، رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الجاهلين. قال ابن جزيج: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه. ﴿فَفَرَزْنَا بِكُمْ لُوطًا حِفْظًا فَهَبَّ لِي رَبِّي حُكْمًا وَحَمَلْنَا مِنَ الْمَرْسِيِّينَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطيت. ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ يَوْمَ تَبَايَعْنَا عَلَىٰ أَنْ عٰبَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: وما أحسنت إليّ ورأييتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخداماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ لَيْسَ بِحَوْلِي وَلَا سَمْعِي أَتَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ الْأَرْبَابُ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ إِلَهُكُمُ الَّذِي بِكُمْ لَخَشُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾. يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقولته تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَزَقَكُمْ مِمَّا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْظَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقط غلط؛ فإنه لم يكن مقرأ بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت

الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكة، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿يَلَيْكُمُ الْكِتَابُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: خالقكم وخالق آباءكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه. ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿الَّذِي حَلَّجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِالْحُكْمِ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا مُبْرِهَمٌ فَأَبَتْ لَهُ أُمِّي فَقَالَ أَيُّكُمْ يَرْجُو أَنْ يُؤْتِيَ مِنْ شَرِّ الْمَشْرِقَيْنِ مَاءً كَالَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [البقرة: 258]؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى، عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِجَعَلْتَنِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٩) قَالَ أَوْلُو حِجَّتِكَ يَقْتَدُوا حِجَّتِي (٣٠) قَالَ فَأَتَى بِهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْفَنَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُجْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَرَجَعَ بَدْرٌ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبُتْ فِي الَّذِينَ حَشِينِ (٣٦) يَا تَأْوِكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ (٣٧).

لما قامت على فرعون الحججة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِجَعَلْتَنِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوْلُو حِجَّتِكَ يَقْتَدُوا حِجَّتِي﴾ أي: ببرهان قاطع واضح، ﴿قَالَ فَأَتَى بِهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) فألقى عصاه فإذا هي ثُجْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج، ﴿وَرَجَعَ بَدْرٌ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾ أي: تتلأأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون - بشقائه - إلى التكذيب والعدا، فقال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضل بارع في السحر. فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥)؟ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره واتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي في ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبُتْ فِي الَّذِينَ حَشِينِ﴾ (٣٦) يَا تَأْوِكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ (٣٧) أي: آخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليهم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَمِصْحَ الْأَسْحَرِ لِيَقْدِتَ بَوْرٌ مَمْلُورٌ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَمَلْنَا نَبْعَ الْأَسْحَرِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ الْأَسْحَرُ قَالُوا لِيَرْجِعُوا إِلَيْنَا لَنَا لُحْمٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِلَيْكُمْ إِذَا لَوِينُ الْمَقْرِبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلَمْ تَقُولُوا أَنكُمْ إِعْتَدْتُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَكُنْتُمْ عَلَى آخُوتِكُمْ عَدُوًّا حَرَسْتُمْ أَنْ تُتَمَادَّتُمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا رَبُّكُمْ فَأَنْبِئُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) قَالُوا رَبُّنَا رَبُّكُمْ فَمَكِّنْ لَهُ سَبِيلًا (٤٤) فَأَلْفَنَ مُوسَى أَيْدِيَهُمْ وَأَقْبَضَ رِيسَهُمْ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مَعَ رِبِّهِ الْمَلَائِكَةَ الْكَافِرِينَ (٤٥) قَالُوا رَبُّنَا رَبُّكُمْ فَمَكِّنْ لَهُ سَبِيلًا (٤٦) قَالُوا رَبُّنَا رَبُّكُمْ فَمَكِّنْ لَهُ سَبِيلًا (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨).

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه»، وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ تَقْدِفُ عَلَى الْبَطِيلِ قِدْمَهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصَبْتُمْ﴾ (٤٧) [الأنبياء: ٤٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَوَهَقَ الْبَطِيلُ إِنَّ الْبَطِيلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٤٨) [الإسراء: ٤٨]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذلك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وجماعاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: خمسة عشر ألفاً. وقيل: سبعة عشر ألفاً وقيل: تسعة عشر ألفاً. وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك، والله

أعلم يعدتهم . قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور وحطحط ويصقي . واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرُ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤٩) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّمَا لَيْنَ الْمُفْرِيِّنَ ﴾ (٥٠) ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم . ﴿ فَلَمَّا جَاءَ النَّحْرُ ﴾ أي :

إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطافاً ، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَيْنَ لَنَا لَبَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّمَا لَيْنَ الْمُفْرِيِّنَ ﴾ (٥١) أي : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا يَبْسُوتُ إِيَّانَا أَنْ نَلْفَىٰ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ آلِئِنَّ ﴾ (٥٢) قَالَ بَلْ الْفُلُوكِ ﴾ (طه : ٦٥ ، ٦٦) ، وقد اختصر هذا ههنا . فقال لهم موسى : ﴿ الْفُلُوكِ مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ فَالْقَوْمُ جَاهِلَةٌ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بَعْرُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥٣) ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا شباب فلان . وقد ذكر الله في «سورة الأعراف» : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَوْهُم بِمَا وَكَلُوا وَيَسْخَرُ عَظِيمٌ ﴾

[الأعراف : ١١٦] ، وقال في «سورة طه» : ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجَلِّ أَيْتِي مِنْ سِحْرِهِمْ نَهَا سَتَعِى ۖ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُّوسَىٰ ﴾ (٥٤) فَلَمَّا لَا نَعَفَ أُنْكَتَ أَنْتَ الْأَعْمَلُ ﴾ (٥٥) وَأَلْفَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا سَمِعُوا وَإِنَّا سَمِعُوا كَيْدَ سِحْرِهِمْ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ ﴿ (٥٦) ﴾ (طه : ٦٦-٦٩) . وقال ههنا ﴿ فَالْفَىٰ مُّوسَىٰ عَصَاهُ فَإِنَّا هِيَ نَلَقَفَ مَا يَأْلِكُونَ ﴾ (٥٧) أي : تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى :

﴿ وَفَعَّاهُ الْمَلَأَىٰ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥٨) تَغْلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَفِيرِينَ ﴾ (٥٩) وَأَلْفَىٰ كَيْدَ السَّاحِرِينَ سَجِدِينَ ﴾ (٦٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ ﴾ (٦١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعدر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وأمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فعُلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقفاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعددهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ (طه : ٧١) ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُؤُهُ فِي الْمِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْتَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

﴿ قَالَ آمَنَتُّ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ إِنَّهُ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَسْبِطَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٦٢) قَالُوا لَا صَبْرَ لِيَا إِلَهِ رَبَّنَا مُتَّفِقِينَ ﴾ (٦٣) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَاتِنَا أَن كُنَّا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) .

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسلماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أیده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنَتُّ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ إِنَّهُ لَكَايِرُكُمْ ؟ أَي : كان ينبغي أن تستأذوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم . وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع ؛ ﴾ إِنَّهُ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل . ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا صَبْرَ ﴾ أي : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿ إِنَّا إِلَهِ رَبَّنَا مُتَّفِقُونَ ﴾ أي : المرجع إلى الله ، وهو لا يضع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَاتِنَا ﴾ أي : ما قارفناه من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ أَن كُنَّا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ وَكَايِرَاتِنَا إِلَهِ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرَ بِبِيَادِي إِكْرَامُؤُهُمْ ﴾ (٦٥) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَشِيرَتَهُ ﴾ (٦٦) إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ (٦٧) وَإِنَّمَا لَنَا لَمَطُونَ ﴾ (٦٨) وَإِنَّا لَجَمِيْعٌ خَلْدُونَ ﴾ (٦٩) فَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَيُؤْمِرُونَ ﴾ (٧٠) وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ﴾ (٧١) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٧٢) .

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حجاج الله وبراهينه على فرعون وملكه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يُؤَمَّرُ ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، ﷻ . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه الله ، أنه كُشف القمر تلك الليلة ، فإله أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حمله بنفسه ، وعليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم ، رحمه الله ، فقال : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن

صالح، حدثنا ابن فضيل، عن عبد الله بن أبي إسحاق، عن ابن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: تعاهدنا. فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ: «ما حاجتك؟» قال: ناقة برحلهما وأعتر يحتلبها أهلي، فقال: «أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟» فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف، عليه السلام، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى نقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأياكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل. فأرسل إليها فقال لها: دليني على قبر يوسف. فقالت: والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي. قال لها: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة. فكأنه نزل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها. قال: فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم: انضبوا هذا الماء. فلما أنضبوه قالت: احضروا، فلما احتضروا استخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار». هذا حديث غريب جداً، والاقرب أنه موقوف، والله أعلم. فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي: من يحشر الجند ويجمعه، كالنقباء والحجاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ - يعني: بني إسرائيل - لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ - أَي: لطائفة قليلة، ﴿وَلَهُمْ لَأَقْطُونَ﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا، ﴿وَلَا يَجِيعُ حَدْرُونُ﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبهد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٩﴾ وَكُنُوزٍ وَقَبَإٍ كَثِيرٍ ﴿٦٠﴾ أَي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرَهًا يَكُونُ بِرُكْنِكُمْ فِيهَا وَكَمَّتْ رِمَكُ الْهَضْبُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَسْطَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَسْتُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَرُئِيَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلَتْهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الزُّرِّيذَ ﴿٦١﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَبَنِي فِرْعَوْنَ وَهَمَكَنَ وَهَوَّاهُمْ بِمَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولى الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دهم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم - ففي ذلك نظر. والظاهر من مجازفات بني إسرائيل، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم. ﴿فَأَتَوْهُمْ تُشْرِيقَ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها: ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَحْسَبُ مَوْجِعَ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهدأ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَدِينُ﴾ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد. وكان هارون، عليه السلام، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى، عليه السلام، في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى، عليه السلام: يا نبي الله، ههنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل. فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد، حدثنا محمد بن حمزة بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أن موسى، عليه السلام، لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء، والكائن قبل كل شيء، اجعل لنا مخرجاً. فأوحى الله إليه: ﴿أَنْضِرْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة، وله اضطراب، ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله، أين أمرك ربك؟ قال: أمرني أن أضرب البحر. قال: فاضربه. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر:

أن إذا ضربك موسى بعضاه فانفلق له . قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره الله ، وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَوْ أَضْرِبْ يَمَّصَاكَ الْبَحْرُ ﴾ ، فضربه بها ، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق . وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق عليّ أبا خالد بحول الله .

قال الله تعالى : ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم . وقال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين . وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق - وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار يبساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا عَجْنًا ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال في هذه القصة : ﴿ وَأَرْزَأْنَا ﴾ أي : هنالك ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ . قال ابن عباس ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدي : ﴿ وَأَرْزَأْنَا ﴾ أي : قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه . ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ [١٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل إلا هلك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا ، والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فانفرق لك؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يا نبي الله؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعني : البحر ، فأقحم فرسه ، فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يا نبي الله؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه . قال : والله ما كذبت ولا كُذبت . ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبي الله؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه؟ قال : والله ما كذبت ولا كُذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعضاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يتراوون ، فلما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم . وفي رواية إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رُئي سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ للدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٦﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ تَنَازَّلُ ﴾ [١٦] إذ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْ لَها عَنكَيْهِمْ ﴿١٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ يَعْنِي : ﴿ وَإِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء ، أمر الله رسوله محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقنطوا به في الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ، فقال : ﴿ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ ؟ أي : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْ لَها عَنكَيْهِمْ ﴾ ﴿١٨﴾ أي : مقبمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَعْبُدُونَ أَشْرَكُ بَعْضُكُمُ الْآفَكُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ يعني : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إلي بالمساءة ، فإني عدو لها لا بأليها ولا أفكر بها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام . ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْصِرُوا إِلَّكَ وَلَا تَشْطَرُوا ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنْ قَوْلُ إِلَّا اعْتَرَفَكَ بِمَعْصِيَتِنَا يَسُورًا قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [٥٤] مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَلَّكَ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكَ مَا مِنْ دَائِكُمْ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِئَابِينِنَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [مرد : ٥٤ - ٥٦] . وهكذا تبرا إبراهيم من الكهنتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَنْتُمْ مَا أَنْتُمْ كُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَنْتُمْ كُمْ وَاللَّهُ مَا لَمْ يَرْزُقْ يَوْمَ عَلَيْكُمْ سَأَلْتُنَا ﴾ [الانعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرِهَ لَكُمْ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ

الْمَدْوَةَ وَالْبُضْغَةَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿٧٤﴾ [المتحة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله. ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٨﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٩﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٠﴾﴾.

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٧﴾﴾ أي: هو المخلوق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُرْنُ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقًا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالًا ﴿وَشَقِيقُهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأِيمًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٩﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبًا، كما قال تعالى أمرًا للمصلي أن يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فأسند الإنعام إلى الله، سبحانه وتعالى، والغضب حذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٩﴾﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدى ويعيد ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي: هو الذي لا يقدر على غفر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْعَفْوَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَجَعَلَنِي مِنَ رَفِيقِ حَسَّةٍ النَّصِيرِ ﴿٨٣﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَوْنَ ﴿٨٥﴾ يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا مَنْ آتَاهُ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

وهذا سؤال من إبراهيم، عليه السلام، أن يؤتبه ربه حكماً. قال ابن عباس: وهو العلم. وقال عكرمة: هو اللب. وقال مجاهد: هو القرآن. وقال السدي: هو النبوة. وقوله: ﴿وَالْعَفْوَ بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً. وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحيينا مسلمين، وأممتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدين». وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويفتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٩﴾ كَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨-١١٠]. قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني: الشناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أُجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المنكوت: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢]. قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاها. وكذا قال عكرمة. وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ رَفِيقِ حَسَّةٍ النَّصِيرِ ﴿٨٣﴾﴾ أي: أنعم علي في الدنيا بقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم. وقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مارجع عنه إبراهيم، عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِسَاءَةً فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]. وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِنَا وَبَيْنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَمْتُمْ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٤٤﴾﴾ [المتحة: ٤٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَوْنَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم بيعت الخلائق أولهم وآخروهم. قال البخاري في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَوْنَ ﴿٨٥﴾﴾: وقال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والقترة». حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزني يوم يعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين». هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترَةٌ وَعَبْرَةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزني يوم

يعثون، فأى خزى أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو ذبيح متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير قوله: ﴿وَلَا تُحْزِنُ يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾ (٨٧): أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والقفرة، وقال له: قد نهيتك عن هذا فعصيتني. قال: لكنتي اليوم لا أعصيك واحدة. قال: يا رب، وعدتني ألا تخزيني يوم يعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد. قال: يا إبراهيم، إني حرمتها على الكافرين. فأخذ منه، قال: يا إبراهيم، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني. قال: انظر أسفل منك. فنظر فإذا ذبيح يتمرغ في ننته، فأخذ بقوائمه فألقى في النار». هذا إسناد غريب، وفيه نكارة.

والذبيح: هو الذكر من الضباع، كأنه حول آذر إلى صورة ذبيح متلطح بعذرتة، فيلقى في النار كذلك. وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وفيه غرابة. ورواه أيضاً من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد العافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، بنحوه. وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٧): أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو اقتدى بمن في الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٨): أي: سالم من الدنس والشرك. قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في قبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٨) حبي يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: ﴿وَفِ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة.

﴿وَأَلْفَيْتَ أَهْلَ الْمَدِينِ﴾ (٩٠) ﴿وَوَيْتَ الْمَجِيمَ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) ﴿قِيلَ لِمَ إِنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) ﴿يَنْ دُونَ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ (٩٣) ﴿فَكَيْفَ يُهَا مُمْ وَالْفَاوُونَ﴾ (٩٤) ﴿وَيَحْتَوُونَ إِلَيْسَ أَجْمُونَ﴾ (٩٥) ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْمَالِيَيْنِ﴾ (٩٨) ﴿وَمَا أَسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ﴾ (٩٩) ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَلَا صَافِيٍّ حَمِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْرَبٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٤).

﴿وَأَلْفَيْتَ أَهْلَ الْمَدِينِ﴾ (٩٠): أي: قريت الجنة وأدريت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها عملها في الدنيا. ﴿وَوَيْتَ الْمَجِيمَ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١): أي: أظهرت وكشفت عنها، وبدت منها عنق، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿إِنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) ﴿يَنْ دُونَ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ (٩٣): أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون. وقوله: ﴿فَكَيْفَ يُهَا مُمْ وَالْفَاوُونَ﴾ (٩٤). قال مجاهد: يعني: فذهوروا فيها. وقال غيره: كبروا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر. والمراد: أنه ألقى بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك، ﴿وَيَحْتَوُونَ إِلَيْسَ أَجْمُونَ﴾ (٩٥): أي: القوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْمَالِيَيْنِ﴾ (٩٨) ﴿وَمَا أَسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ﴾ (٩٩) ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ عَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الاعراف: ٥٣] وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَلَا صَافِيٍّ حَمِيمٍ﴾ (١٠١): أي: قريب. قال قتادة: يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو، سبحانه وتعالى، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص: ٦٤). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) ﴿أَي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْرَبٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٤).

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٠٨﴾ وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿١٠٩﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ، عن عبده ورسوله نوح، عليه السلام، وهو أول رسول بعث إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، وابتذل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ أي: أني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ﴿ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٠٨﴾ وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١١٠﴾ ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به واتممتني عليه.

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالُوا وَمَا عَلَيْنَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ جِئْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ نَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

يقولون: تؤمن لك وتتعبدك، وتتسارى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا، ولهذا قالوا: ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ قَالُوا وَمَا عَلَيْنَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله، ﷻ، ﴿ إِنْ جِئْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ نَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَرُ نَنْتَهُ يَنْشُرُ لَكَوَنَ مِنَ الرَّمْضِيِّ ﴿١١٦﴾ قَالِ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْجَع بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا وَجَّي وَتَمَّ مَعِي مِنَ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَعْيَنَتُهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْفُلَّابِ الْمَشْهُورِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وجهراً وإسراراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿ لَيْنَ لَرُ نَنْتَهُ ﴾ أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ لَكَوَنَ مِنَ الرَّمْضِيِّ ﴾ أي: لترحمتك. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَأَفْجَع بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا وَجَّي وَتَمَّ مَعِي مِنَ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ مَلَّوْهُ فَانْتَصِرَ ﴿١١٥﴾ فَفَنَحْنَا يُوْبَ السَّمَاءِ بِمَاوْ مُنْتَهِرِ ﴿١١٦﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَلَأَ عَلَىٰ أَمْرِ قُدْرٍ ﴿١١٧﴾ وَحَلَّلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُشِرَ ﴿١١٨﴾ تَجْرِي وَيَأْمُرُنَا بِرِجَالِنَا لَمَنْ كَانَ كَيْفَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الفسر: ١٠-١٤]، وقال ههنا: ﴿ وَأَعْيَنَا مَوْسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَمْجِينِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ . والمسحون: هو المملوء بالامتنعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين، أي: نجيناه ومن معه كلهم، وأغرقتنا من كذبه وخالف أمره كلهم، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٢٦﴾ وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿١٢٧﴾ أَتَيْتُونَهُ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ مَبْثُورَةٍ ﴿١٢٨﴾ وَتَسْجُدُونَ مَسَاجِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَشَّرْتُمْ بِشَرِّهِمْ جَائِفَةً ﴿١٣٠﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٣١﴾ وَاقْتُلُوا آلِيهَ إِذْ يَأْتِيكُمْ بِمَلَكُونِ ﴿١٣٢﴾ أَمْدُكُ بِأَنْتُمْ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَسْبَتْ وَعِيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَنذَرْتُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود، عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكانوا قوموا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريباً من بلاد حضر موت متاخمة لبلاد اليمن، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في «سورة الأعراف»: ﴿ يَسْتَنْزِلُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نعمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿ أَتَيْتُونَهُ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ مَبْثُورَةٍ ﴿١٢٨﴾ ﴾، اختلف المفسرون في الريح بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جوار الطرق المشهورة. تبون هنالك بناء محكماً باهراً هائلاً؛ ولهذا قال: ﴿ أَتَيْتُونَهُ بِكُلِّ رِيحٍ

مَائَةً* أَي: معلماً بناء مشهوراً، تعبثون، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكروا عليهم نبيهم، عليه السلام، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاث للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة. ثم قال: ﴿وَتَتَخَذُونَ مِصَاعَ لَعَلَّكُمْ تُخْلَدُونَ﴾ (١٣٦)، قال مجاهد المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي ماخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون». وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُخْلَدُونَ* أَي: لكي تقيموا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عَوْْنُ بن عبد الله بن عتبة، أنا أبا الدرداء، رضي الله عنه، لما رأى ما أحدث المسلمون في العُوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأمّلون ما لا تدركون، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فيرعون، ويبنون فيوثقون، ويأمّلون فيطيلون، فأصبح أمهلهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قيوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟ وقوله: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَائِلَ﴾ (١٣٧) وصفهم بالقوة والغلظة والجيروت، ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ وَالْطُّغْيُونَ﴾ (١٣٨) أَي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَأَنْقَرُوا الَّذِينَ أَمْذَرُوا مَا تَلْمِزُونَ﴾ (١٣٩) أَمْذَرُوا بِأَنْعَمَ وَبَيْنَ (١٣٩) بَحَثْنَا وَبِحُورِ (١٤٠) إِنْ أَعَاَفَ عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٤٠) أَي: إن كذبتهم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْزَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠).

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، ورغبتهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) أَي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (العهد: ٥٣). وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦٦)؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ نَّوْءًا لَمَنْعُوا (١٧)﴾ (يونس: ١٦، ١٧). وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧). قرأ بعضهم: «إن هذا إلا خلق» بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود، والوعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّوا الْأَوَّلِينَ أَسْتَنْتَهَا فِيهِ شَكْلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ (١٣٧) [الفرقان: ٥]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (١٣٨) [الفرقان: ٤، ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤). وقرأ آخرون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) - بضم الخاء واللام - يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨). قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) يقول: دين الأولين. وقال عكرمة، وعطاء الخراساني، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ* أَي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعنى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعنى منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ (١) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٢)﴾ [الفجر: ٦، ٧]، وهم عاد الأولى، كما قال: ﴿وَأَنذَرْتُكَ عَادًا الْأُولَى (٥٥)﴾ [النجم: ٥٥]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ* أَي: الذين كانوا يسكنون العمدة، ومن زعم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب وهوب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ فِي الْآلِئِ فِي الْآلِئِ فِي الْآلِئِ (٨)﴾ [الفجر: ٨]، أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبين مثلها في البلاد، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْتَدُونَ﴾ (١٥) [فصلت: ١٥]. وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عنت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا

يُرِيحُهُ إِلَّا مَسْكُوتُهُمْ ﴿١٤١﴾ الآية (الأحزاب: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَآمَلِكُمْ يُرِيحُ مَسْرَرٍ عَائِيَةً ﴿١٤٢﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنُوزَهُ أَتَابًا ﴿١٤٣﴾ حُسُومًا ﴿١٤٤﴾ الْحَاقَّةُ: ٦، ٧، أي: كاملة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًا كَانْتُمْ أَعْجَابُ نَحْلِ حَاوِيَةَ ﴿١٤٥﴾﴾ الْحَاقَّةُ: ٧، أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فقتلته وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدهخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إِنَّ أَمَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴿١٤٦﴾﴾ (نوح: ٤٤)؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿كَذَّبتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحُومُ صَلِّحُوا وَلَا تَقْتُلُوا ﴿١٥٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وهذا إخبار من الله، ﷻ، عن عبده ورسوله صالح، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عربياً يسكنون مدينة الحجر، التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومسكنهم معروفة مشهورة. وقد قدمنا في «سورة الأعراف» الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل، عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما يبلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يتبغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطالب ثواب ذلك من الله، ﷻ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَنْتَرَكُونَهُ فِي مَا هُنَّآ آيَاتِنَا ﴿١٥٤﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٥﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ ﴿١٥٦﴾ وَتَجْحُونَهُ مِنَ الْجِبَالِ يُبْرَأُ قُرْبِينَ ﴿١٥٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٨﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشُّرَيْكِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نعم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدائرة، وجعلهم في أمن من المحذورات. وأنبأ لهم من الجنات، وأنعم لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم من الزروع والثمار؛ ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبلغ، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ﴾ يقول: مُعْشِبَةٌ. وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس؛ في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ﴾ قال: إذا رطب واسترخى. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروى عن أبي صالح نحو هذا. وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ﴾ قال: هو المذنب من الرطب. وقال مجاهد: هو الذي إذا كبس تهشم وتفتت وتناثر. وقال ابن جريج: سمعت عبد الكريم أبا أمية، سمعت مجاهد يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَهُهَا هُضِيمٌ﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه فتعضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهضيم، تقبض عليه فتعضمه. وقال عكرمة، وقتادة: الهضيم: الرطب اللين. وقال الضحاک: إذا كثر حمل الشمرة، وركب بعضه بعضاً، فهو هضيم. وقال مرة: هو الطلح حين يتفرق ويخضر. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: ما رأيت الطلح حين يُشَقُّ عنه الكم، فترى الطلح قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم، وقوله: ﴿وَتَجْحُونَهُ مِنَ الْجِبَالِ يُبْرَأُ قُرْبِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شهرين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وطبراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكنائها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٨﴾﴾ أي: أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحده وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشُّرَيْكِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ يعني: رؤسائهم وكبراهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِـئْ بِإِثَابِكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَمَا يَزِيدُ وَلَكُرْ شَيْءٌ يَوْمَ تَمْلُؤُونَ ﴿١٦٣﴾ وَلَا تَسْؤُمَا بِسُؤْمِي فَإِذَا هُمْ بِنُورٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٤﴾ فَمَقْرُومًا قَاسِبْحًا تُنِيدِينَ ﴿١٦٥﴾ فَاتَّخَذَهُمُ الْمَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح، عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦١﴾﴾. قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: يعني من المخلوقين، واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر. يعني الذين لهم سُحُور، والسُحر: هو الرقة. والأظهر

في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك. ثم قالوا: ﴿وَمَا آتَى إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعني: فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [الفر: ٢٥، ٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملوهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عُشراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوها ليؤمنن به، وليصدقته، وليتبعنه، فأنعموا بذلك. فقام نبي الله صالح، عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله، ﷻ، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشراء، على الصفة التي وصفوها. فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ﴾ [١٦٥] يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم، ﴿وَلَا تَسْوَمُوا يَسْوًا فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِرُ عَظِيمٌ﴾ [١٦٦] فحذرهم نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتاكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، ﴿فَمَقْرُومًا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [١٦٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ. وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جائمين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٦٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٦٩].

﴿كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧٠] إِذْ قَالَ لَهُمْ تَوَكُّمٌ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ [١٧١] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٧٢] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [١٧٣] وَمَا أَسْتَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَنِ رَبِّ الْمَلَائِكِ [١٧٤].

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون «سدوم» وأعمالها التي أهلها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك. فدعاهم إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، فما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكران دون الإناث؛ ولهذا قال تعالى:

﴿آتَيْنَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْمَلَائِكِ [١٧٥] وَذَكَرُوا مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [١٧٦] قَالُوا لَيْنَ لَرَّ تَسَوَّاهُ يَكُونُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ [١٧٧] قَالَ إِنِّي لَمَلَكٌ مِنَ الْقَالِينَ [١٧٨] رَبِّي بَحْتِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ [١٧٩] فَجِئْتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ [١٨٠] إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ [١٨١] ثُمَّ دَرَجْنَا الْأَخْرِينَ [١٨٢] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاةً مَطَرُ السُّنْدِيِّ [١٨٣] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٨٤] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٨٥].

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: ﴿لَيْنَ لَرَّ تَسَوَّاهُ يَكُونُ﴾ يعنون: عما جئتنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: نفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِيهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ [١٨٦]﴾ [الأعراف: ٨٢]، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّي لَمَلَكٌ مِنَ الْقَالِينَ [١٨٧]﴾ أي المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ فأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال: ﴿رَبِّي بَحْتِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ [١٨٨]﴾ قال الله تعالى: ﴿فَجِئْتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ [١٨٩]﴾ أي: كلهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ [١٩٠]﴾. وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هود»، وكذا في «الحجر» حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَرَجْنَا الْأَخْرِينَ [١٩١] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاةً مَطَرُ السُّنْدِيِّ [١٩٢]﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٩٣] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٩٤].

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٩٥] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ [١٩٦] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٩٧] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [١٩٨] وَمَا أَسْتَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَنِ رَبِّ الْمَلَائِكِ [١٩٩].

هؤلاء - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلماذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛

للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يتفظن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً، عليه السلام، بعثه الله إلى امتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - حدثني ابن السدي، عن أبيه - وذكريا بن عمر، عن خصيف، عن عكرمة قال: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعداب يوم الظلة. وروى أبو القاسم البغوي، عن هذبة، عن هشام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾. [ق: ١٤] قوم شعيب. قال إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «شعيب»، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان، بعث الله إليهما شعيباً النبي، عليه السلام». وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فذل ذلك على أنهم أمة واحدة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿وَرِزْقًا بِالْقَيْطَانِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُؤْسِدِينَ﴾ ﴿وَأَقْرَبُوا لِلَّهِ خَلْقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾.

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافية، ولكن خذوا كما تعطون، واعطوا كما تأخذون. ﴿وَرِزْقًا بِالْقَيْطَانِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والقسطاس: هو الميزان، وقيل: القيان. قال بعضهم: هو معرب من الرومية. وقال مجاهد: القسطاس المستقيم: العدل - بالرومية. وقال قتادة: القسطاس: العدل. وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: تنقصوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُؤْسِدِينَ﴾ يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْهَرُوا يُكَلِّمُ صَرِيحًا تُوْعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لَهَا وَيُخَسِّمُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. وقوله: ﴿وَأَقْرَبُوا لِلَّهِ خَلْقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾: يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى، عليه السلام: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ [الصافات: ١٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ يقول: خلق الأولين. وقرأ ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا نَجْمًا كَبِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّي عَلَّمَ بِنَا تَمَلُّونَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُؤْرَثُونَ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يُؤْرَثُونَ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءِمِرٌ رَّحِيمٌ﴾.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ يعنون: من المسحورين، كما تقدم. ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: قال الضحاك: جانباً من السماء. وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْتِيكَ لَكَ حَقَّ تَنْجُرٍ لَّنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُؤُهَا﴾، إلى أن قالوا: ﴿أَوْ نَسْقُطُ السَّمَاءَ كَمَا رَسَمْتَ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ نَأْتِي بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ بِيَدٍ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَانظُرْ عَلَيْنَا مِمَّا جَعَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّي عَلَّمَ بِنَا تَمَلُّونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوها، جزء فاقاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُؤْرَثُونَ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يُؤْرَثُونَ عَظِيمٌ﴾. وهذا من جنس ما سألوها، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يكتفهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يُؤْرَثُونَ عَظِيمٌ﴾. وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْعَبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

[الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَمْ لَكُمْ تَأْتِيكُم مِّن تَأْتِيكُم مَّا يَبْدَأُ أَتَاوَنًا أَوْ لَمْ يَأْتِكُمْ مَّا نَسْتَوِي لَأَنَّكَ لَآتٍ صَّالِحِينَ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فانسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وههنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢] على وجه التعنت والعناد، فانسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمِةِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال قتادة: قال عبد الله بن عمر، رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فاتوا جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً. وهكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقاتدة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كالיום ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا. هلموا أيها الناس. فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمِةِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة، حدثني يزيد الباهلي: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمِةِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بعث الله عليهم ومدة وحرراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا البيوت فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلمت من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٣﴾ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٣] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَرِيتَهُمْ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلِهِ﴾ الآية. ﴿لَنُنزِّلَنَّ رِيَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقاتدة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج. وهذا ما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]. وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تاكله الأرض. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعدر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي، حدثنا عباد بن عباد المهلب، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم: «كيف ترون بواسقها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها. قال: «فكيف ترون قواعدها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها. قال: «فكيف ترون جوتها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد سواده. قال: «فكيف ترون رحاها استدارت؟» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: «فكيف ترون برقتها، أو مبيض أم خفوم يشق شقاً؟» قالوا: بل يشق شقاً. قال: «الحياة الحياء إن شاء الله». قال: فقال رجل: يا رسول الله، بأبي وأمي ما أفصحك، ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: «حق لي، وإنما أنزل القرآن بلساني، والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾». وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحياً إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٣] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٦﴾.

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالشارة بأحمد: ﴿وَأَذَّأ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصافات: ٦٦]، والوزير ههنا هي الكتب وهي جمع زبور، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ مَنْ حَسِبَهُمْ فِي التَّوْبَةِ إِذْ يَسْتَعِذُّ بِالْحَبْلِ الْعَلِيِّ الَّذِي فِي يَمِينِهِ لَقَدْ خُلِفُوا إِذْ يَحْبُرُونَ عَلَى الذُّلِّ وَالْجَبْرِ﴾ [الملائكة: ١٥٧]. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَذِيرٌ أَن يَدْعُوهُمَ عَلِيمًا بِمَا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَكَاذِبِينَ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٠٠] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٢٠١] ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٠٢] ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ [٢٠٣] ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٠٤] ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [٢٠٥] ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٠٦] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَمَّا سُذِّبُوا﴾ [٢٠٧] ﴿وَكُفِرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٢٠٨].

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالحق، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يمتنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعلموا من فزعهم بطاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا لِيَكُنْ لَنَا حُجَّةٌ دَعَوْنَاكَ وَنَسِجَ الرُّسُلِ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُمْ مِن زَوَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَعْتَدٌ لِّرَجُلٍ وَعَمَلًا زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سِبْطِكَ رَبَّنَا مُبِينًا﴾ [الشعراء: ٢٤٧]، قال قد أُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا نَبِيًّا سَبِيلَ الْآلِيَّةِ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [٢٠٨] ﴿يونس: ٨٨، ٨٩﴾، فآثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الإليم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَجُ قَالَ يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ بَرًّا بِرَسُولِهِ وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٢٠٩] ﴿وَالَّذِينَ قَدَّ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [٢١٠] ﴿يونس: ٩٠، ٩١﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُنَّا مِنْ أَشْقٰقِ الْأُمَّةِ﴾ [٢١١] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُنَّا مِنْ أَشْقٰقِ الْأُمَّةِ﴾ [٢١٢] ﴿يونس: ٨٤، ٨٥﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفِيضُوا بِأَعْيُنِكُمْ قُدْرَتَكُمْ عَلَى الْأَتْقِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [٢١٣] ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢١٤] ﴿أَي: لو أخرناهم وأنظرناهم، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم، ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَوْمِهِمْ أَنْ يَبْعُثُوا إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١٥] ﴿السازعات: ٤٦﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ أَهْلَهُمُ نُورٌ فَسَمُّوا نُورًا بِمَنْزِلَةِ نُورِكُمْ وَإِن يُرْمَوْا بِالنُّجُومِ لَا يُخِيفُهُمُ النَّارُ فِيهَا يُخْرَجُونَ﴾ [٢١٦] ﴿الليل: ١١﴾، ولهذا قال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢١٧]. وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يارب» أي: ما كان شيئاً كان. ولهذا كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يمثّل بهذا البيت:

كأنتك لم تُؤتِ من الدهر ليلة
إذا أنت أذرتك الذي كنت تُطلبُ
ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَمَّا سُذِّبُوا﴾ [٢٠٧] ﴿وَكُفِرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٢٠٨] ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥٠﴾ [الإسراء: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا يُخَوِّفُهُمْ مَائِدَةً وَمَا تُنذِرُكَ بِوَالِدَيْكَ إِلَّا وَهْلَهَا ظِلْمًا ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَمَا تَنْزِيلُكَ فِي الشَّيْطَانِ ﴿٦١﴾ وَمَا يُبَلِّغُنَاكَ مَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٥٩].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، ﴿وَمَا تَنْزِيلُكَ فِي الشَّيْطَانِ ﴿٦١﴾﴾. ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدي وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُبَلِّغُنَاكَ مَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: ولو أنبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيماً مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿٦٣﴾﴾ [الحشر: ٢١]. ثم بين أنه لو أنبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتهبه الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٦٤﴾﴾، كما قال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَمَةٌ فَجَعَلْنَا فِجْرًا تَشْدِيدًا وَنُفِثْنَا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعُودِ السَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدَا رَصْدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨-١٠].

﴿فَلَا تَبِعْ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٦﴾ وَخَفِضْ جَانِحَ لِسَانِكَ لِئَلَّا يَتَّبِعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرٌّ ﴿٦٨﴾ وَإِنِّي أَخَافُ الْعَذَابَ الَّذِي بَرَكْتُ عَلَيْكَ فِي السَّجْدِ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٩].

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى أمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدينين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه، ﴿وَإِنِّي بَرٌّ ﴿٦٨﴾﴾. ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبوأ عاقبته؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي بَرٌّ ﴿٦٨﴾﴾. وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وقال: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ الْقُرَبَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿٧٠﴾﴾ [الشورى: ٧٠]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٨]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِوَالِدَيْكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّ يَكْفُرًا لَّكَ رَبِّهِمْ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠].

الحديث الأول:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن نعيم، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله، ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه». فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤى، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً سبغ هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [سورة المسد]. ورواه البخاري ومسلم والترمذي، من طرق، عن الأعمش، به.

الحديث الثاني:

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم». انفرد بإخراجه مسلم.

الحديث الثالث:

قال أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعم وخص، فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من

النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبْلِها لبلاها». ورواه مسلم والترمذي، من حديث عبد الله بن عمير، به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلًا، لم يذكر فيه أبا هريرة. والموصول هو الصحيح. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد - يعني ابن إسحاق - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله. يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما من الله، لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما». تفرد به من هذا الوجه، وتفرد به أيضاً، عن معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه أيضاً عن الحسن، ثنا ابن لهيعة، عن الأعرج: سمعت أبا هريرة مرفوعاً. وقال أبو يعلى: حدثنا سُوَيْد بن سعيد، حدثنا ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وَرْدَانَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف. أنا النذير والموت المغير. والساعة والموعد».

الحديث الرابع:

قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قبيصة بن مُخَارِق وَرْهَيْر بن عمرو قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٦)، صعد رسول الله رُضْمَةَ من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: «يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يربأ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صباحاه». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن طرخان التيمي، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مُلِ الثُّهَلْدِي، عن قبيصة وَرْهَيْر بن عمرو الهلالي، به.

الحديث الخامس:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك عن الأعمش، عن المثقال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي، رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٦)، جمع النبي ﷺ من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: «من يضمَّن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟». فقال رجل - لم يسمعه شريك - يا رسول الله، أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟ قال: ثم قال الآخر، قال: فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق: قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، عن علي، رضي الله عنه، قال: جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب، وهم رَهْفُطٌ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرْق - قال: وصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا - قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس. ثم دعا بَعْمَرَ فشرَّبوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال: «يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيت من هذه الآية ما رأيت، فأيكم يباعدني على أن يكون أخي وصاحبي؟». قال: فلم يبق إليه أحد. قال: فقمث إليه - وكنت أصغر القوم - قال: فقال: «اجلس». ثم قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اجلس». حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي.

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة»: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يُونُس بن بَكَيْر، عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٦) وَكُنْضَ جَنَاحِكَ لِيْنَ أَيْمَانِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٦)، قال رسول الله ﷺ: «عرفت أتي إن بادأت بها قومي، رأيت منهم ما أكره، فصممت. فجاءني جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك». قال علي، رضي الله عنه: فدعاني فقال: «يا علي، إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرنين، فعرفت أنني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره، فصممت عن ذلك، ثم جاءني جبريل فقال: يا محمد، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك. فاصنع لنا يا علي شاة علي صاع من طعام، وأعد لنا عُسْ لبن، ثم اجمع

لي بني عبد المطلب». ففعلت فاجتمعوا له، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً. فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث. فقدمت إليهم تلك الجفنة، فأخذ رسول الله ﷺ منها جذية فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها، وقال: «كلوا بسم الله». فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم: والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي». فجتت بذلك القعب فشربوها منه حتى نهلوا جميعاً، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم، بذره أبو لهب إلى الكلام فقال: لَهْدُ ما سحركم صاحبكم. ففارقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، عُدْ لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب؛ فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم». ففعلت، ثم جمعهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي». فجتت بذلك القعب فشربوها منه حتى نهلوا جميعاً. وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بذره أبو لهب بالكلام فقال: لَهْدُ ما سحركم صاحبكم. ففارقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب؛ فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم». ففعلت، ثم جمعهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، إني - والله - ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

قال أحمد بن عبد الجبار: بلغني أن ابن إسحاق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث. وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار ابن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة». «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأبكم يوازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي، وكذا وكذا؟» قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت - وإني لأحدثهم سناً، وأرمضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحشمهم ساقاً. أنا يا بني الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ يزقني ثم قال: «إن هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع. تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي ابن المدني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة رحمهم الله.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي، رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، قال لي رسول الله ﷺ: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لنا». قال: ففعلت، ثم قال: «ادع بني هاشم». قال: فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو: أربعون ورجل - قال: وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها. قال: فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال: «كلوا»، فأكلوا حتى شبعوا، وهي على هيتها لم يرزؤوا منها إلا يسيراً، قال: ثم أتيتهم بالإناء فشربوها حتى رزؤوا. قال: وَفَضَّلَ فَضَّلُ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم، فبذروه الكلام، فقالوا: ما رأينا كالسيوم في السحر. فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام». فصنعت قال: فدعاهم فلما أكلوا وشربوا، قال: فبذروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لي: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام» فصنعت، قال: فجمعتهم، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال: «أبكم يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي؟». قال: فسكنوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله، قال: وسكت أنا لسن العباس. ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس، فلما رأيت ذلك قلت: أنا يا رسول الله. فقال: «أنت» قال: وإني يومئذ لأسوأهم هيئة، وإني لأعشى العينين، ضخم البطن، حمش الساقين. فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي، رضي الله عنه. ومعنى سؤاله عليه الصلاة والسلام، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه، ويخلفوه في أهله، يعني إن قتل في سبيل الله، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل، ولما أنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ وَاللَّهُ يَبْصُرُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك أمن. وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَبْصُرُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي، رضي الله عنه؛ ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطن قريش عموماً وخصوصاً، حتى

سَمَى مِنْ سَمَى مِنْ أَعْمَامِهِ وَعَمَاتِهِ وَبَنَاتِهِ، لِيُنَبِّهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَي: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنَ عَسَاكِرَ فِي تَرْجُمَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشْقِيِّ - غَيْرِ مُنْسَوْبٍ - مِنْ طَرِيقِ عَمْرُو بْنِ سَمُرَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوْقَةَ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشْقِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَحْدُثُ النَّاسَ وَيَقْتِهِمْ، وَوَلَدَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ جُلُوسًا فِي جَانِبِ الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُونَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا بَالَ النَّاسَ يَرِغِبُونَ فِيَمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَهْلَ بَيْتِكَ جُلُوسًا لَاهِينَ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْأَنْبِيَاءُ، وَأَشْدَهُمْ عَلَيْهِمُ الْأَقْرَبُونَ». وَذَلِكَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢٢١﴾، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ أَهْلَهُ حَتَّى يَفَارِقَهُمْ». وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢٢٢﴾ وَكُلْفِضْ جَنَامَكَ لِيَنْ أَنْصَحَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٢٣﴾ فَإِنَّ عَصَوَكَ فَقُلْ إِنِّي بِرَبِّهِمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٢٢٤﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٢٢٥﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ؛ فَإِنَّهُ مُؤَيِّدٌ وَنَاصِرٌ وَحَافِظٌ وَمُظْفِرٌ وَمُغْلٌ كَلِمَتِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ بَيْنَ نَفْسٍ ٢٢٦﴾ أَي: هُوَ مَعْتَنُ بِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور: ٤٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ بَيْنَ نَفْسٍ ٢٢٦﴾ يَعْنِي: إِلَى الصَّلَاةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ بَيْنَ نَفْسٍ ٢٢٦﴾: إِذَا صَلَّيْتَ وَحَدَّكَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ بَيْنَ نَفْسٍ ٢٢٦﴾ أَي: مِنْ فِرَاشِكَ أَوْ مَجْلِسِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ﴾: قَائِمًا وَجَالِسًا وَعَلَى حَالَاتِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَقَبَّلْ فِي السَّجْدِ ٢٢٧﴾: قَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ بَيْنَ نَفْسٍ ٢٢٦﴾ وَتَقَبَّلْ فِي السَّجْدِ ٢٢٧﴾ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ، يَرَاكَ وَحَدَّكَ وَيَرَاكَ فِي الْجَمْعِ. وَهَذَا قَوْلُ عِكْرَمَةَ، وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيِّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرَى مِنْ خَلْفِهِ كَمَا يَرَى مِنْ أَمَامِهِ؛ وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «سَوَّوْا صَفُوفَكُمْ؛ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وِرَاءِ ظَهْرِي». وَرَوَى الْبِزَارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي تَقْلِبُهُ مِنْ صُلْبِ نَبِيِّ إِلَى صُلْبِ نَبِيِّ، حَتَّى أَخْرَجَهُ نَبِيًّا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ ٢٢٨﴾ أَي: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الْآيَةُ: يُونُسُ: ٦١].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَدْعُلُ السَّيْطِينُ ٢٢٩﴾ تَدْعُلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أُتِيْرَ ٢٣٠﴾ يُلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُكُمْ كَذِبُونَ ٢٣١﴾ وَالشَّعْرَةَ يَبْعِمُهُمُ الْفَأْوُونَ ٢٣٢﴾ أَرَىٰ رَأَيْتُمْ فِي كَلْبٍ وَإِدْبَاهِيمُونَ ٢٣٣﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَسْتَوُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىٰ مُتَقَلِّبِينَ يَقْلِبُونَ ٢٣٥﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِمَنْ زَعَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ لَيْسَ حَقًّا، وَأَنَّهُ شَيْءٌ أَفْتَعَلَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ أَنَاهُ بِهِ رَيْتِي مِنَ الْجَنِّ، فَتَزَهُ اللَّهُ، سَبْحَانَهُ، جَنَابَ رَسُولِهِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، وَنَبِيٌّ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ وَوَحْيُهُ، نَزَلَ بِهِ مَلِكٌ كَرِيمٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُونَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاكِلُهُمْ وَيَشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُهَّانِ الْكَاذِبَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أَي: أَخْبِرْكُمْ ﴿عَلَىٰ مَن تَدْعُلُ السَّيْطِينُ تَدْعُلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أُتِيْرَ ٢٣٠﴾ أَي: كَذُوبٌ فِي قَوْلِهِ، وَهُوَ الْآفَاكُ الْأَتِيمُ، أَي: الْفَاجِرُ فِي أَعْمَالِهِ. فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنْزَلَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ كَالْكُهَّانِ وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَاذِبَةِ الْفَسَقَةِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينُ أَيْضًا كَاذِبَةٌ فَسَقَةٌ. ﴿يُلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ أَي: يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَاذِبَةٍ، ثُمَّ يَلْقَوْنَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ فَيَتَحَدَّثُونَ بِهَا، فَيُصَدِّقُهُم النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ، بِسَبَبِ صَدَقَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثِ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي يَحْيَىٰ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزَّبَيْرِ يَقُولُ: قَالَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سَأَلْتُ نَاسَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يَحْدُثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجَنِّي، فَيَقْرَأُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقِرْقَرَةِ الدَّجَاةِ، فَيَخْلَطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَاذِبَةٍ». وَقَالَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا الْحَمِيدِيُّ، حَدَّثَنَا سَفِيَانٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرَمَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسَلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُوا السَّمْعَ، وَمُسْتَرْقُوا السَّمْعَ، هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ». وَوَصَفَ سَفِيَانٌ يَدَهُ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيَلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يَلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ - أَوْ الْكَاهِنِ - فَرِيْمَا أَدْرَكَ الشَّهَابَ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيهَا، وَرِيْمَا أَقَاها قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَاذِبَةٍ. فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ». انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ. وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رِجَالٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قَرِيبًا مِنْ هَذَا. وَسِيَّاتِي عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سَبَأٍ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [سبأ: ٢٣]، إن شاء الله تعالى.

وقال البخاري: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال: أن أبا الأسود أخبره، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان: الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة». وقال البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث، عن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة، بنحوه. وقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ آفَاوُنٌ﴾ (٢٢١): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن. وكذا قال مجاهد، رحمه الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فقام من الناس، ولهذا فقام من الناس، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ آفَاوُنٌ﴾ (٢٢١). وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا ليث، عن ابن الهاد، عن يُحْسَن - مولى مصعب ابن الزبير - عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج، إذ عَرَضَ شاعر يُشَدُّ، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً». وقوله: ﴿أَلَزَّرْنَا لَهُمْ فِي صَكِّ وَادٍ يَبِهُونَ﴾ (٢٢٢): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد - والله - رأينا أوديتهم التي يبهمون فيها، مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل، ويذم قوماً بباطل. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٣): قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه - وهم السفهاء - فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ آفَاوُنٌ﴾ (٢٢٤) أَلَزَّرْنَا لَهُمْ فِي صَكِّ وَادٍ يَبِهُونَ (٢٢٥) وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس، رضي الله عنه، هو الواقع في نفس الأمر؛ فإن الشعراء يتبححون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم؛ ولهذا اختلف العلماء، رحمهم الله، فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً: هل قام عليه بهذا الاعتراف أم لا، لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ على قولين. وقد ذكر محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد في الطبقات، والزيبر بن بكار في كتاب الفكاهاة: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، استعمل النعمان بن عدي بن فضالة على «ميسان» - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر، فقال:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها
إذا شئت غئتني دهاقين قرينة
فإذا كنت نذماني فبالأكبر اسقني
لعل أمير المؤمنين يسوؤه

بميسان، يسقى في زجاج وحنثم
ورقاصة تجذو على كل مئثم
ولا تسقني بالأضغر المئثم
نناذمنا بالجوسق المئثم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين قال: أي والله، إنه ليسؤني ذلك، ومن لقيه فليخبره أنني قد عزلته. وكتب إليه: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ
الْكُفْرَ الرَّجِيحَ﴾ (١) ﴿حَمَّ﴾ (٢) ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣) ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ إِلَهُ الْمُصِيبِ﴾ (٤) [غانر: ٣-١]، أما بعد فقد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

نناذمنا بالجوسق المئثم

وايم الله، إنه ليسؤني وقد عزلتك. فلما تقدم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفق على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي على عمل أبداً، وقد قلت ما قلت. فلم يذكر أنه حذبه على الشراب، وقد ضمنه شعره؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمه عمر، رضي الله عنه، ولامه على ذلك وعزله به. ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً، يريه خير له من أن يمتلىء شعراً». والمراد من هذا: أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَلَمَتُهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٦) [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٦٥) ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ (٦٧) ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكِ﴾ (٦٨) [الحاقة: ٤٠-٤٣]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَهُمْ لَنْزِيلٌ مِنَ الْمَلَائِكِ﴾ (٦٧) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٦٨) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٦٩) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٧٠) [اليس: ٦٩]، ﴿وَمَا تَنزَّلُ بِالشُّعْرِ طِينٌ﴾ (٧١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَبِغُونَ﴾ (٧٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَتْرُونَ﴾ (٧٣) [إلى أن قال: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشُّعْرَ﴾ (٧٤) ﴿نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاةٍ نَبِيٌّ﴾

﴿يَقُولُونَ كَذِبًا﴾. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله ابن قُنيط، عن أبي الحسن سالم البرزاد - مولى تميم الداري - قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بَيِّعُوهُم بِمِثْلِهِمُ الْفَاوِرُونَ﴾ [٢٢٢] أَلَزَّزَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله ابن قُنيط، عن أبي الحسن سالم البرزاد - مولى تميم الداري - قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بَيِّعُوهُم بِمِثْلِهِمُ الْفَاوِرُونَ﴾ [٢٢٢]، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: «أنتم»، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِبًا﴾ قال: «أنتم»، ﴿وَأَنصَرَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: «أنتم». رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق. وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل، أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بَيِّعُوهُم بِمِثْلِهِمُ الْفَاوِرُونَ﴾ [٢٢٢]، يبكيان، فقال رسول الله ﷺ، وهو يقرؤها عليهما: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بَيِّعُوهُمُ الْفَاوِرُونَ﴾ [٢٢٦] حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: «أنتم». وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بَيِّعُوهُمُ الْفَاوِرُونَ﴾ [٢٢٦] إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾. وهكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم. ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بدمه، كما قال عبد الله بن الزبغري حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارِي الشُّنَيْطَانَ فِي سِنَنِ الْعَدُوِّ، وَمَنْ مَالٌ مَنِيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجو، ويتولا بعد ما كان قد عاداه. وهكذا روى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس: أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال: يا رسول الله، ثلاث أعطينهن قال: «نعم». قال: معاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وتؤممني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم». وذكر الثلاثة: ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه: ذكروا الله كثيراً في كلامهم. وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفَّر لما سبق. وقوله: ﴿وَأَنصَرَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾: قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد. وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو قال: هاجهم - وجبريل معك». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ، قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترمونهم به نضح النبل». وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾ [٥٢] [غافر: ٥٢] وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». وقال قتادة بن دعامَةَ في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يعني: من الشعراء وغيرهم. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا إياس بن أبي تيممة، قال: حضرت الحسن ومُرَّ عليه بجنازة نصراني، فقال الحسن: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وقال عبد الله بن زباج، عن صفوان بن محرز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول: قد اندق قضيب زوره -: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وقال ابن وهب: أخبرني ابن سريج الإسكندراني، عن بعض المشيخة: أنهم كانوا بأرض الروم، فبينما هم ليلة على نار يشتون عليها - أو: يسطلون - إذا بركاب قد أقبوا، فقاموا إليهم، فإذا فضالة بن عبيد فيهم، فأنزلوه فجلس معهم - قال: وصاحب لنا قائم يصلي - قال: حتى مرَّ بهذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ قال فضالة بن عبيد: هؤلاء الذين يخربون البيت. وقيل: المراد بهم أهل مكة. وقيل: الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم: ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجبر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كتب أبي وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما

أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة، عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب: إنني استخلفت عليكم عُمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به، ورجائي فيه، وإن يجُر ويبدل فلا أعلم الغيب، ﴿وَسِعَ الْعَرْشُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

آخر تفسير سورة «الشعراء» والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة النمل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ ١ هُدًى وَبَشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّكَ لَهُمْ أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ جَهَنَّمَ هُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ ٤ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ ٥﴾ ﴿وَلَيْكَ لِلْفُرْقَانِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾

قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف المتقطعة في أوائل السور. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ أي: هذه آيات: ﴿الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ أي: بين واضح، ﴿هُدًى وَبَشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشْرًا ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِنَاهُمْ يَوْمَهُمْ وَعَسَاءَ جَزَاءُ عَمَلِهِمْ نِعْمَ أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۗ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿لِيُبَيِّنَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَشَدِيدَ بِهِ قَوْلًا لِّدُنَا﴾ [مریم: ٩٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿رَبَّكَ لَهُمْ أَعْتَدْتُمْ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا آيَاتِهِمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر. وقوله: ﴿وَلَيْكَ لِلْفُرْقَانِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ أي: ﴿وَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ - قال قتادة: ﴿لَلْفُرْقَانِ﴾ أي: لتأخذ - ﴿الْفُرْقَانِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم، أي حكيم في أوامره، ونواهيها، عليم بالأمور جليلها وحقيقتها، فخيرها هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سائِكَةً مِنِّي بَحِيرٍ أَوْ مَائِكُمْ يَسْهَابٍ قَبْسٍ لَمَلَكٌ تَصْطَلِقُونَ ٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَنَحْوَهَا وَسَخَّنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨﴾ ﴿يَمْشُونَ إِنَّمَا أَنَا اللَّهُ الْمُهَيَّبُ لَكُمْ ٩﴾ وَأَنْتَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَدٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَّىٰ مُعَقَّبٌ يُتَمَوَّنُ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمَرْسُولِ ١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءِ قَوْلِي لَعْنَةُ الرَّجِيمِ ١١﴾ وَأَدْخِلْ بَدَاكَ فِي جَنَّتِكَ فَخَرَجَ يَعْصَاةً مِنْ عَيْرٍ مُؤَمَّرٍ لَكُمْ فِرْعَوْنُ وَرَأُوسُ يَهُودٍ كَأُولَىٰ قَوْمٍ قَبِيضِينَ ١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبِينَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ طُلُوعًا وَعُلُوقًا فَأَنظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملته، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأنس من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تاجج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِيهِ أَمْكَنُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعْنَةُ مَائِكُمْ يَسْهَابٍ قَبْسٍ لَمَلَكٌ تَصْطَلِقُونَ﴾ أي: تتدفقون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَنَحْوَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهج. وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوقف موسى متعجباً مما

راى، فنودي أن يورك من في النار قال ابن عباس: أي قُدس. ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ أي: من الملائكة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جببر، والحسن، وقتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود - وهو الطيالسي - حدثنا شعبة والمسعودي، عن عمرو بن مَرْة، سمع أبا عُبَيْدَةَ يحدث، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا يبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل». زاد المسعودي: «وحجابه النور - أو النار - لو كشفها لأحرقت سُبحات وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَنْ يُّورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾. وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو بن مَرْة، به. وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ الْعَلِيِّ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعات، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات. وقوله: ﴿يَتَّبِعُ آيَاتِنَا أَنَّا اللَّهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤): أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله. ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حيّة عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا فَتَرَّ كَهْتًا فَجَازَىٰ﴾ والجنان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً - وفي الحديث نُهي عن قتل جنّات البيوت - فلما عين موسى ذلك ﴿وَرَأَىٰ مُدْرِكًا الَّذِي يَنْفَعُ﴾ أي: لم يلتفت من شدة فرقه، ﴿يَتَّبِعُونَ لَا تَخَفْ إِيَّيَ لَا يَخَافُ لَدَيَّْ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن اصطفيك رسولاً، وأجعلك نبياً وجيهاً. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسْبًا بَعْدَ سُوْرٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٥): هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم أقبل عنه، ورجع وأتاب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي لَفْظًا لَمِنَ تَابٍ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٢٤: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوْرًا أَوْ يَطْلُبْهُ نَفْسَهُ نَدْمًا يُسْتَعْفِرُ اللَّهُ بِحَدِّهِ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠) والآيات في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا بِكَ فِي جَبِّكَ نَجْمًا بَيِّنَةً مِّنْ غَيْرِ سُوْرٍ﴾: هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده في جيب دزعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف. وقوله: ﴿فِي يَتَبَّعُ آيَاتِي﴾ أي: هاتان نثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَافِرًا قَوْمًا فَيَقِينُ﴾. وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُجْرِبَةً﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة، ﴿فَقَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿رَحِمًا وَإِيَّاهُ﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿وَأَسْتَفِينَنَّهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْمًا وَظُلُومًا﴾ أي: ظلماً من أنفسهم، سجيّة ملعونة، ﴿وَعُظُومًا﴾ أي: استكباراً عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْرِيقِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبه كفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذوبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى؛ فإن محمداً، صلوات الله وسلامه عليه، أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ الموثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَرَبِّكَ سَلِيمٌ دَاوُدُ وَقَالَ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَطِيقَ الظُّلْمِ وَأَوْسَاتٍ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْعَلِيِّ (١٦) وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْعِزِّ وَالْإِنْسَانِ وَالظُّلْمِ فَهَمْ يُوْضَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا نَزَّ عَلَىٰ وَادٍ اتَّكَلَتْ فَالْتَمَلَتْ بِمَا جَاءَهَا أَدْخَلُوا سَكَبَتِكُمْ لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) تَبَسَّرَ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِعِتْمَتِكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَكْرِهِينَ (١٩) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥). قال ابن أبي حاتم: ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام: أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمدُه أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥)، وأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان، عليهما السلام.

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة. ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة». وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يُعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كمنطق بني آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم. ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله، سبحانه وتعالى، كان قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عَلَّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْبَرُّ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا.

قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود، عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع». قال: «فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لفتضحن بداود، فجاء داود، عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذاً ملك الموت. مرحباً بأمر الله، فتزمل داود، عليه السلام، مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان، عليه السلام، للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً» قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذ المضرجية. قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرجية: النسور الحمر. وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ لِيُضَيِّقَ جُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلوونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطيور ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لثلاث يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولها على آخرها، لثلاث يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا تَوَّأْنَا عَلَى الْوَادِىِ أَنَّا لَسَمِعْنَا مِنَ الْمَلَأِئِمَّةِ كَمَقُورَةٍ لَّا يَحِطُّ بِمَنَاطِقِ سُلَيْمَانَ وَجُودُهُمْ وَقُرْ لَّا يَتَّقَرُونَ﴾. أورد ابن عساکر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذيب. أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِمَنِّكَ الَّذِي أَمَمْتَنِي عَلَى وَعَلَى وَالدُّعَى وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والذي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكِ الْمَصَلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فالحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

وعن توفى البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذباب. هكذا رأيت مضبوطاً بالياء العثاة من تحت. وإنما هو بالياء الموحدة، وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض أن سليمان، عليه السلام، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا يسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان، عليه السلام، يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم، إنا خلقنا من خلقك، ولا غنى عن سقيائك، وإلا تسقتنا تهلكنا. فقال سليمان، عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام،

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قُرِصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَفِي أَنْ قُرِصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ!».

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعْيَبْتَهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً، يدل سليمان، عليه السلام، على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان، عليه السلام، الجان حفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قواره، فنزل سليمان، عليه السلام يوماً، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحشو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي. فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته. فقال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزقي - من أهل «بَرْزَةَ» من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم يوم الاثنين والخميس، وكان أمور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد: أنه سأله عن سبب عوره، فامتنع عليه، فألح عليه شهوراً، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة في قرية برزة، وسألاه عن واد بها، فأرتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً، حتى عجمج الوادي بالدخان، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما، فلا يلتفتان إلى شيء منها، حتى أتبلت حية نحو الذراع، وعيناها توقدان مثل الدينار. فاستبشرا بها عظيماً، وقالوا: الحمد لله الذي لم يُخَيِّبْ سفرنا من سنة، وكسرا المجامر، وأخذنا الحية فأدخلنا في عينها ميلاً فانتحلا به، فسألتهما أن يكحلنا، فأبيا، فألححت عليهما وقلت: لا بد من ذلك، وتوعدتهما بالدولة، فكحلا عيني الواحدة اليمنى، فحين وقع في عيني نظرت إلى الأرض تحتني مثل المرأة، أنظر ما تحتها كما ترى المرأة، ثم قال لي: سر معنا قليلاً، فسرت معهما وهما يحدثان، حتى إذا بعدت عن القرية، أخذاني فكتفاني، وأدخل أحدهما يده في عيني ففقاها، ورمى بها ومضيا. فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً، حتى مر بي نفر ففك وثاقه. فهذا ما كان من خبر عيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني، حدثنا عباد بن ميسرة المقرئ، عن الحسن قال: اسم هدهد سليمان، عليه السلام: عنبر. وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان، عليه السلام، إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه: تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوبٌ من كل صنف من الطير، كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر؟ وقوله: ﴿لَأَعْيَبْتَهُ عَدَابًا شَدِيدًا﴾: قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني تنف ريشه. وقال عبد الله بن شداد: تنف ريشه وتشميسه. وكذا قال غير واحد من السلف: إنه تنف ريشه، وتركه مُلْقَى يأكله الذر والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني: قتله، ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بعذر واضح بين. وقال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خلفك، فقد نذر سليمان دمك! فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأَعْيَبْتَهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، فقال: نجوت إذا. قال مجاهد: إنما دفع الله عنه بيرة بأمه.

﴿فَمَكَتْ عَنَزَ بَيْرِيقَ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَرٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَلْبِكُمُ وَأُوتِيَتْ مِنْ كَلِّ تَيْبُو وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَوَرَمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَمْتَدُونُ ﴿٢٤﴾ إِلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ وَالنَّارِ وَالْأَرْضِ وَمَلَكًا مَخْفُونًا وَمَا تُحْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدهد ﴿عَنَزَ بَيْرِيقَ﴾ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِمْ﴾ أي: اطلمت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَرٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صدق حق يقين. وسبأ هم: جُمَيْر، وهم ملوك اليمن. ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَلْبِكُمُ﴾، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة، من بيت مملكة. وقال زهير بن محمد: هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، وأمها فارعة الجنية. وقال ابن جرير: بلقيس بنت ذي شرخ، وأمها يلتقة. وقال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سفيان - يعني ابن عيينة - عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان ألف قَيْل، تحت كل قَيْل مائة ألف مقاتل. وقال الأعمش، عن مجاهد: كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قَيْل، تحت كل قَيْل: مائة ألف مقاتل. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَتَّبِعُهُمْ﴾: كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. وكانت بأرض يقال لها مَأْرِب، على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقرب، على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كَعْبِيِّ قَتْرٍ﴾ أي: من متاع الدنيا ما يحتاج الملك المتمكن ﴿وَلَمَّا عَزَّزْتُ عَظِيمَةً﴾ يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ. قال زهير بن محمد: كان من ذهب صفحتاه، مرمول بالياقوت والزبرجد. طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً. وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، لها ستمائة امرأة تلي الخدمة. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرفه ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْنَانَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ معناه: ﴿وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْنَانَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِي أَلْبَسَ وَأَلْبَسَهُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقرأ بعض القراء: «ألا يا اسجدوا لله»، جعلها «ألا» الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحذف المنادى، تقديره عنده: «ألا يا قوم، اسجدوا لله». وقوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي الشَّجَرِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقاتدة، وغير واحد. وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذي جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض ودواخلها. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْفُونَ وَمَا تُلْقُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَّنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِيحٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والضرّد. وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٧] أَذْهَبَ يَكْتُبِي هَكَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا بَرِّحُونَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ أَلْفِقَ إِنَّكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ ﴿٩﴾ إِنَّهُ مِنْ شَيْئَانٍ وَإِنَّهُ يُسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ أَلَا تَقْلُوبُوا عَلَيَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ يَكْتُبِي هَكَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا بَرِّحُونَ﴾ [٨] وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحملة، قيل: في جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوّة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولّى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَانٍ وَإِنَّهُ يُسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٩] أَلَا تَقْلُوبُوا عَلَيَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكته، ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ أَلْفِقَ إِنَّكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولّى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَانٍ وَإِنَّهُ يُسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [١٠] أَلَا تَقْلُوبُوا عَلَيَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿يُسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قبل سليمان، عليه السلام. وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الحنط، حدثنا أبو

يوسف، عن سلمة بن صالح، عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود». قال: قلت: يا رسول الله، أي آية؟ قال: «سأعلمكما قبل أن أخرج من المسجد»، قال: فانتهى إلى الباب، فأخرج إحدى قدميه، فقلت: نسي، ثم التفت إلي وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف. وقال ميمون بن مهران، كان رسول الله ﷺ يكتب: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقوله: ﴿أَلَّا تَمْلَأُوا عَلَيَّ﴾ يقول قتادة: لا تجيروا عليّ ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تكبروا عليّ. ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: موحدين. وقال غيره: مخلصين. وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِمَةً أَلْفَ حَقٍّ تَنْهَدُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿قَالُوا مَخَنُ أَوْلَادِ قَوْمٍ وَأَوْلَادُ بَاسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ رَجِعِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾. لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِمَةً أَلْفَ حَقٍّ تَنْهَدُونَ﴾ أي: حتى تحضرون وتشيرون. ﴿قَالُوا مَخَنُ أَوْلَادِ﴾ أي: منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن نقصدية وتحاربه، فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمثله ونطيعه. قال الحسن البصري، رحمه الله: فوضوا أمرهم إلى عذبة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخِّر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد امرأة عجيبةً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً غنوةً أفسدوه، أي: حزبوه ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾. قال الرب، ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ رَجِعِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ما يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك وبترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها! علمت أن الهدية تقع موقفاً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْتُكُمْ بِمَالٍ مِمَّا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَرْتَجِعُ إِلَيْكُمْ فَلْتَأْتِيَنَّهُمْ بِحُجُورٍ لَّا يَكِلُ لَكُمْ بِهَا وَكَلْفَاحَهُمْ مِّنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر والآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت إليه بلينة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب. قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهما: وأرسلت جواربي في زي الغلمان، وغلمان في زي الجواربي، وقالت: إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي. قالوا: فأمرهم سليمان، عليه السلام، أن يتوضؤوا، فجعلت الجارية تُفَرِّغ على يدها من الماء، وجعل الغلام يغترف، فيميزهم بذلك. وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها، والغلام بالعكس. وقيل: بل جعلت الجواربي يغتسلن من أكفهن إلى مرافقهن، والغلمان من مرافقهن إلى أكفهن. ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم. وذكر بعضهم: أنها أرسلت إليه بقدر ليملاه ماء رواء، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرفت، ثم ملأه من ذلك. وبخرزة وسلك ليجعله فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرأ عليهم: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِمَالٍ﴾ أي: أنصاعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟! ﴿فَمَّا آتَيْنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تتقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف. قال الأعمش، عن الجهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فمحوها له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأته رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تبيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد. ﴿أَرْتَجِعُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: بهديتهم، ﴿فَلْتَأْتِيَنَّهُمْ بِحُجُورٍ لَّا يَكِلُ لَكُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿وَكَالْفَاحَهُمْ مِّنْهَا﴾ أي: من

بلدهم، ﴿أَذَلَّةٌ وَمِمَّ ضَلُّوا﴾ أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلاً بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعتها في الإسلام. ولما تحقق سليمان، عليه السلام، قدامهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ بِرِيهِمْ قِيلَ أَن بَأْتُوهُ سُلَيْمَانَ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيثُ بْنُ لَيْثَانَ أَنَا عَلَيْكَ بِهِ. قِيلَ أَن تَقْوَمَ مِنْ مَقَابِلِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا عَلَيْهِ بِهِ. قِيلَ أَن بَرْدًا إِنَّكَ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفت، ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نضع بمكائرته شيئاً. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مُفَصَّص بالياقوت والزربرد واللؤلؤ - فجعل في سبعة آيات، بعضها في بعض، ثم أفلتت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يزيتُهُ أحد حتى آتيك. ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قبيل منهم الوف كثيرة. فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومتنهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس، ممن تحت يديه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ بِرِيهِمْ قِيلَ أَن بَأْتُوهُ سُلَيْمَانَ﴾. وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحريز، وكانت عليه تسعة مغاليق، ففكر أن يأخذها بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دنانهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ بَأْتُوهُ بِرِيهِمْ قِيلَ أَن بَأْتُوهُ سُلَيْمَانَ﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني، والسدي، وزهير بن محمد: ﴿قِيلَ أَن بَأْتُوهُ سُلَيْمَانَ﴾ فتحرم علي أموالهم بإسلامهم. ﴿قَالَ عِفْرِيثُ بْنُ لَيْثَانَ﴾ أي مارد من الجن. قال شعيب الجبائي: وكان اسمه كوزن. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان. وكذا قال أيضاً وهب بن منبه. قال أبو صالح: وكان كأنه جبل. ﴿أَنَا عَلَيْكَ بِهِ. قِيلَ أَن تَقْوَمَ مِنْ مَقَابِلِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي، وغيره: كان يجلس للناس للقبض والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حملة، أمين على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان، عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخره له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. ولينخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا روى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس، واسمه آصف. وكذا قال أبو صالح، والضحاك، وقاتة: إنه كان من الإنس - زاد قتادة: من بني إسرائيل. وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم. وقال قتادة - في رواية عنه -: كان اسمه بليخا. وقال زهير بن محمد: هو رجل من الأندلس يقال له: ذو النور. وزعم عبد الله بن لهيعة: أنه الخضر. وهو غريب جداً. وقوله: ﴿أَنَا عَلَيْكَ بِهِ. قِيلَ أَن بَرْدًا إِنَّكَ طَرَفُكَ﴾ أي: أرفع بصرك وانظر مُدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال وهب بن منبه: امدد بصرك، فلا يبلغ مدها حتى آتيك به. فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ، ودعا الله ﷻ.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، اثنتي عشرها. قال: فتمثل له بين يديه. قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن إسحاق، وزهير بن محمد، وغيرهم: لما دعا الله ﷻ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس - وكان في اليمن، وسليمان، عليه السلام، بيت المقدس - غاب السرير، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان، عليه السلام. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمله بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر، فلما عين سليمان ومَلَوْهُ ذلك، ورآه مستقراً عنده، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي من نعم الله علي، ﴿لِيَتْلُوَنَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [نصت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبه أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة

إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِأَنَّ اللَّهَ لَنُؤَيِّدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإيها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

﴿قَالَ نَكُرُوا لِمَا عَرَّضْنَا أَنْتَهُدَى أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيئِينَ﴾ (١٢) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٣) ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرَمَدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤).

لما جيء سليمان، عليه السلام، بعرض بلقيس قبل قدمها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿نَكُرُوا لِمَا عَرَّضْنَا أَنْتَهُدَى أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه. وقال مجاهد: أمر به بغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله. وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أي: عرض عليها عرشها، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيئِينَ﴾ قال مجاهد: سليمان يقول. وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٣): هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام - في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، رحمهما الله - أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيئِينَ﴾، وهي كانت قد صدتها، أي: منعها من عبادة الله وحده. ﴿مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله، ﷻ، تقديره: ومنعها، ﴿مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صدتها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سياتي. وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان، عليه السلام، إلى اتخاذها، فقيل: إنه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فسأه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ - هذا قول محمد بن كعب القرظي، وغيره - فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس وأحسن قدمًا، ولكن رأى على رجلها شعراً؛ لأنها ملكة ليس لها بعل، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له الثُّورَةَ. وكان أول من اتخذت له الثُّورَةَ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي، وابن جرير وغيرهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: ثم قال لها: ادخلي الصرح، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح مُرَمَدٌ من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. وقال الحسن البصري: لما رأت العُلْبَجَةَ الصرح عرفت - والله - أن قدرأت ملكاً أعظم من ملكها. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً. ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصرح، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرَمَدٌ مِّن قَوَارِيرٍ﴾، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، ﷻ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ - قال: وأنسيت ما قالت - فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأسلمت

وحسن إسلامها. وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرأ غريباً عن ابن عباس، قال: حدثنا الحسين بن علي، عن زائدة، حدثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد - ونحن في الأزد - قال: حدثنا ابن عباس قال: كان سليمان، عليه السلام، يجلس على سريره، ثم توضع كراسي حوله، فيجلس عليها الإنس، ثم يجلس الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح فترفعهم، ثم تظلمهم الطير، ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً، قال: فبينما هو ذات يوم في مسير له، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال: ﴿مَا لَآ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٤٥ لأَعْدَيْتُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحُنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ ثُبِينٍ﴾ ٤٦، قال: فكان عذابه إياه أن ينتفه، ثم يلقيه في الأرض، فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض.

قال عطاء: وذكر سعد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿فَمَكَتْ عَنِّي بَعِيرٌ﴾ - فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿مَا لَآ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٤٥ ﴿أَذْبَحُنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحُنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ ثُبِينٍ﴾ ٤٦، فلما ألقى الهدهد بالكتاب إليها، ألقى في روعها: إنه كتاب كريم، وإنه من سليمان، وأن لا تلعوا علي واتنوني مسلمين. قالوا: نحن أولو قوة. قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وإني مرسله إليهم بهدية. فلما جاءت الهدية سليمان قال: أتمدونني بمال، أرجع إليهم. فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة، قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد - قال سليمان: أيكم باتيني بعرشها؟ قال: وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين، ﴿قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْيَمَنِ أَنَا أَعْيَابُكَ بِهٖ قِيلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَابِكْ﴾ - قال: وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال: ﴿أَنَا أَعْيَابُكَ بِهٖ قِيلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَابِكْ﴾، قال سليمان: أريد أعجل من ذلك. فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنظر في كتاب ربي، ثم أتيك به قبل أن يترد إليك طرفك. قال: فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله، ثم يصعد إلى السرير. قال: فلما رأى سليمان عرشها مستقراً عنده قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾، ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ فلما جاءت قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو. قال: فسألته عن أمرين، قالت لسليمان: أريد ماء من زيد رواء ليس من أرض ولا من سماء - وكان سليمان إذا سئل عن شيء، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال فقالت الشياطين: هذا هين، أجر الخيل ثم خذ عرقها، ثم املا منه الآنية. قال: فأمر بالخيول: فأجريت، ثم أخذ عرقها فملا منه الآنية. قال: وسألت عن لون الله، ﴿قَالَ: فَوُثِبَ سَلِيمَانَ عَنْ سَرِيرِهِ، فَخَرَّ سَاجِدًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ، لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرٍ إِنْهُ يَتَكَابَدُ، أَيُّهُ يَتَعَاطَمُ فِي قَلْبِي أَنْ أَذْكَرَهُ لَكَ. قَالَ: أَرْجِعْ فَقَدْ كَفَيْتَهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ: مَا سَأَلْتُ عَنْهُ؟ قَالَتْ: مَا سَأَلْتُكَ إِلَّا عَنِ الْمَاءِ. فَقَالَ لَجُنُودِهِ: مَا سَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: مَا سَأَلْتُكَ إِلَّا عَنِ الْمَاءِ. قَالَ: وَنَسِوهُ كُلَّهُمْ. قَالَ: وَقَالَتْ الشَّيَاطِينُ لِسَلِيمَانَ: تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهَا لِنَفْسِكَ، فَإِنْ اتَّخَذَهَا لِنَفْسِهِ ثُمَّ وَلَدَ بَيْنَهُمَا وَلَدًا، لَمْ نَنْفَكْ مِنْ عِبُودِيَّتِهِ. قَالَ: فَجَعَلُوا صِرْحًا مَمْرَدًا مِنْ قَوَارِيرِ، فِيهِ السَّمَكُ. قَالَ: فَقِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الصَّرْحَ. فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا، فَإِذَا هِيَ شَعْرَاءُ. فَقَالَ سَلِيمَانَ: هَذَا قَبِيحٌ، مَا يَذْهَبُهُ؟ فَقَالُوا: تَذْهَبُهُ الْمَوَاسِي. فَقَالَ: أَثَرُ الْمَوْسَى قَبِيحٌ! قَالَ: فَجَعَلَتْ الشَّيَاطِينُ النُّورَةَ. قَالَ: فَهِيَ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَتْ لَهُ النُّورَةَ. ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ أَبِي شَيْبَةَ: مَا أَحْسَنَهُ مِنْ حَدِيثٍ. قُلْتُ: بَلْ هُوَ مِنْكَرٌ غَرِيبٌ جَدًّا، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَوْهَامِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ. وَالْأَقْرَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ أَنَّهَا مُتَلَقَاةٌ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِمَّا يَوْجَدُ فِي صَحْفِهِمْ، كَرِوَايَاتِ كَعْبِ وَوَهْبٍ - سَامِحَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - فِيمَا نَقَلْنَا إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ أَحْبَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنَ الْأَوَابِدِ وَالْغُرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ، مِمَّا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَمِمَّا حَرَفَ وَبَدَّلَ وَنَسَخَ. وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، عَنْ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَصْحَحُ مِنْهُ وَأَنْفَعُ وَأَوْضَحُ وَأَبْلَغُ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. أَصْلُ الصَّرْحِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: هُوَ الْقَصْرُ، وَكُلُّ بِنَاءٍ مَرْتَفِعٍ، قَالَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ لُوذِيْرَهُ هَامَانَ: ﴿أَبِي لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَشْيَبَ أَسْبَبَ السَّمَكِ فَاطْلُجْ إِلَيَّ إِنَّهُ مُوسَى﴾ الآية (تغافر: ٣٦، ٣٧). وَالصَّرْحُ: قَصْرٌ فِي الْيَمَنِ عَالِي الْبِنَاءِ، وَالْمَمْرَدُ أَيُّ: الْمَبْنِي بِنَاءً مُحْكَمًا أَمْلَسَ ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أَيُّ: زَجَاجٍ. وَتَمْرِيْدُ الْبِنَاءِ تَمْلِيْسُهُ. وَمَارِدٌ: حَصْنٌ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ. وَالْغُرْضُ أَنْ سَلِيمَانَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، اتَّخَذَ قَصْرًا عَظِيمًا مَنِيْفًا مِنْ زَجَاجٍ لِهَذِهِ الْمَلِكَةِ؛ لِئَرِيْبَهَا عَظْمَةَ سُلْطَانِهِ وَتَمَكَّنَتْهُ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا آتَاهُ اللَّهُ، تَعَالَى، وَجَلَالَةَ مَا هُوَ فِيهِ، وَتَبَصَّرَتْ فِي أَمْرِهِ انْقَادَاتٍ لِأَمْرِ اللَّهِ وَعَرَفَتْ أَنَّهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ، فَاسْلَمَتْ لِلَّهِ، ﷻ، وَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أَيُّ: بِمَا سَلَفَ مِنْ كَفْرِهَا وَشُرْكِهَا وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سَلِيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: مُتَابِعَةً لِدِينِ سَلِيمَانَ فِي عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَنَاثَهُمْ صَالِحًا أَنْ اقْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرْقَانٍ يُخْتَصِمُونَ﴾ ٤٥ قَالَ يَقْتَرِبُ لِمَ سَتَعْمَلُونَ بِالْحِسَابِ قَوْلَ الْكَافِرِ لَوْلَا سَتَعْمَلُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٤٦ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَحَّرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ٤٧.

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح، عليه السلام، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ - قال مجاهد: مؤمن وكافر - كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَنْ صِلُوا فِرْسَانَكَ مِنْ رَبِّكَ قَالُوا إِنَّا يَمَسُّكُ أَزْمِيلُ بِهٖ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] قَالَ يَقُولُونَ لِمَ اسْتَجَلُونُ بِالْحَيَّةِ قَبْلَ الْحَسَةِ ﴿٧٧﴾، أي: لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمة؟ ولهذا قال: ﴿لَوْلَا سَخَّرْنَا اللَّهُ لِمَلَكِكُمْ لِرَجْمِكَ قَالُوا أَطَرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً. وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحد منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي: بقضاء الله وقدره، وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَّارْنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمَّا تَتَّبَعُوا لِرَجْمِكُمْ وَبَسْتُمْ مَنَا عَذَابُ الْآلِ ﴿٧٩﴾ قَالُوا طَرِكْنَاكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٨، ١٩]. وقال هؤلاء: ﴿أَطَرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالِ طَرِكْنَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الله يجازيك على ذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿رَكَاتٍ فِي الْمَدِينَةِ بِنَمَةِ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿٨٠﴾﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨١﴾ وَتَكَرَّرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَرَجَتُهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ فَبَلَغْتَ يَوْمَهُمْ خَارِجَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ وَأَخْبَسْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتْلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاء قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهما يقتل صالح أيضاً، بأن بيئوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأولياؤه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿رَكَاتٍ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود، ﴿بِنَمَةِ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة نفر، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كباراً فيهم ورؤساءهم. قال العوفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - قبحهم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: كان أسماء هؤلاء التسعة: دعى، ودعى، وهرما، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، ومسطح، وقدار بن سالف عاقر الناقة، أي: الذي باشر ذلك بيده. قال الله تعالى: ﴿فَأَدَا صَاحِبُهَا نَمَطًا مَقَرَّ ﴿٨٠﴾﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَيْمَنَ آبَاؤُهُمْ﴾ [الشمس: ١٢]. وقال عبد الرزاق: أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني، سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿رَكَاتٍ فِي الْمَدِينَةِ بِنَمَةِ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿٨٠﴾﴾ قال: كانوا يقرضون الدرهم، يعني: أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون. وقال الإمام مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قُطِعَ الذهب والورق من الفساد في الأرض. وفي الحديث - الذي رواه أبو داود وغيره -: أن رسول الله ﷺ نهي عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس. والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدر عليهم، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك. وقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح، عليه السلام، من لقيه ليلاً غيلة. فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم. قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. وقال قتادة: توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه، وذكر لنا أنهم بينما هم معانق إلى صالح ليفتكوا به، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهدمتهم. وقال العوفي، عن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: بُيِّتَ صالحاً وأهله وقومه فقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فدمرهم الله أجمعين.

وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة: هَلُمَّ لَنَقْتُلْ صَالِحًا، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَلْنَا قَبْلَنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا كُنَّا قَدْ أَحَقَّنَا بِنَاقَتِهِ! فَاتَوْهُ لَيْلًا لِيُبَيِّتُوهُ فِي أَهْلِهِ، فَمَدَمْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا أَبْطَوْا عَلَى أَصْحَابِهِمْ، أَنَا مَثْرَلٌ صَالِحٌ، فَوَجَدُوهُمْ مُنْشَدِّخِينَ قَدْ رَضَخُوا بِالْحِجَارَةِ، فَقَالُوا لَصَالِحٍ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ، ثُمَّ هُمَا بِهِ، فَقَامَتْ عَشِيرَتُهُ دُونَهُ، وَلبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك. وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة

وقال لهم صالح: ﴿تَسْمَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [مؤد: ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف: أي: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَكَرَّوهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥٥﴾ فَبَلَغْتَ يَوْمَهُمْ حَارِبًا ﴿٥٦﴾ أَي: فارغة ليس فيها أحد: ﴿يَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْلُمُونَ وَأَجْبَسْنَا أَعْيُنَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَرَأْسَهُمْ كَالْجِبَالِ كَذَاتٍ فَكُنْتُمُ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ مَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَنَا نُورُ الْعَالَمِينَ وَأَنْتُمْ تُجِيرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أَي: إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴿٥٩﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أَي: فاجبئنا وأهلنا إلا أمرائنا قدرننا من الغيب ﴿٦١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءَ الْمَطَرِ الْمُتَذَيَّبِ ﴿٦٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده لوط، عليه السلام، أنه أذدر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء - قال: ﴿أَنَا نُورُ الْعَالَمِينَ وَأَنْتُمْ تُجِيرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أَي: يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديتكم المنكر؟ ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٥٩﴾﴾ أَي: لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أَي: يتخرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم. فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فَأَجْبَسْنَا وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٦١﴾﴾ أَي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت رداً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيغان لوط، ليأتوا إليهم، لأنها كانت تفعل الفواحش تكرمه لنبي الله ﷺ لا كرامة لها. وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿٦٢﴾﴾ أَي: حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعباد، ولهذا قال: ﴿سَاءَ الْمَطَرِ الْمُتَذَيَّبِ ﴿٦١﴾﴾ أَي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهووا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ قَالَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أَي: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى أمر رسول الله ﷺ أن يقول: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أَي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلَى والأسماء الحسنَى، وأن يُسَلِّمَ على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ رَبَّكَ رَبَّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وَسَلِّمُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وَلَعْنَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وروى نحوه عن ابن عباس. ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار. وقد قال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمار بن صبيح، حدثنا طارق بن غنم، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي - إن شاء الله - عن أبي مالك، عن ابن عباس: ﴿وَسَلِّمُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ، اصطفاهم الله لنبيه، رضي الله عنهم. وقوله: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله أهلة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿إِنَّ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: تلك السموات بارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والقيافي والقفار، والأشجار والزرع، والثمار والبحور، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَي: جعله رزقاً للعباد، ﴿فَأَلْبَسْنَا بِرَبِّهِمْ حُلُوتًا﴾ أَي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا

شَجَرَهَا^{٦١} أي: لم تكونوا تقدرزون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّلَ مِنْكَ السَّمَاءَ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [المنكسوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعيدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفْرَدَ بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ نَعِ اللَّهَ﴾ أي: إلهه مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق. ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعِ اللَّهَ﴾ أي: إلهه مع الله فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله ههنا: ﴿أَفَمَنْ خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ﴾: في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ أَمْ نَبْرُسُكُمْ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ﴾ أي: يجعلون الله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَنِيئٌ مَائِتَةٌ آتِيَةً سَائِحِيًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْشُونَ بِالْبَيْنِ وَلَا يَمْلِكُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٢٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُومًا﴾ [الرعد: ٢٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها.

﴿أَفَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهْرًا تَجْرِي لَهَا رَوَاسِيٌّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]. يقول: ﴿أَفَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تنزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاصِيَّةً﴾ [غان: ٦٤]. ﴿وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهْرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًّا﴾ أي: جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس. والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالاً تسقي الحيوان والنبات والشمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار: من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً، لئلا يفسد الهواء بريحتها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَجْجُرًا﴾ [الفرقان: ٥٣]؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ نَعِ اللَّهَ﴾ أي: فعل هذا؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَفَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاً وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال ههنا: ﴿أَفَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي تيمية الهجيمي، عن رجل من بلهجم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوتك كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوتك ردة عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوتك أنبت لك». قال: قلت: أوصني. قال: «لا تُسَبِّحْ أحداً، ولا تُزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسطة إليه وجهك، ولو أن تُفرغ من ذلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين. وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة». وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة الهجيمي، عن أبي تيمية

الهُجَيْمِي، عن جابر ابن سُلَيْمِ الهُجَيْمِي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو مُخْتَبِ بِسَمَلَةٍ، وقد وقع هُذْبُها على قدميه فقلت: أيكم محمد- أو: رسول الله؟- فأوماً بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفي جفاؤهم، فأوصني. فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُتَبَسِّط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره. وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تُسَبِّئُ أحداً». قال: فما سببت بعده أحداً، ولا شاة ولا بعيراً. وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقتاً، وعندهما طرف صالح منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا علي بن هاشم، حدثنا عبدة بن نوح، عن عمر بن الحجاج، عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل علي طاروس يعودني، فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن. فقال: ادع لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن، والأرض بمن فيها، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، فأكله إلى نفسه. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الذينوري، المعروف بالذقي الصوفي - قال هذا الرجل: كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا على بعض الطريق، على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه، فإنها أقرب. فقلت: لا خيرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب. فسلكناهما فانهينا إلى مكان وعر وواد عميق، وفيه قتلى كثير، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل. فنزل وتشمر، وجمع عليه ثيابه، وسل سكيناً معه وقصدي، ففرتت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه. فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك. فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين؟ فقال: صل وعجل. فقممت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه. أفرغ. فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاً وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي، وبيده حربة، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً. وذكر في ترجمة «فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجالية»، قالت: هزم الكفار يوماً المسلمين في غزاة، فوقف جواد جيد بصاحبه، وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: مالك؟ وملك؟ إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم. فقال له الجواد: ومالي لا أقصر وأنت تكل علقوتي إلى السواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك علي عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجري. فجرى الجواد عند ذلك، ونجى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره. واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمره، فقال: ما نضام بلدة يكون هذا الرجل فيها. واحتال ليحصله في بلده، فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه، حتى استوثق، ثم خرج يوماً يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم لیتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذه رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالماً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ﴾ أي: يُخَلَفُ قَرْنَا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا سَلْفًا، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَنْ يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ يَنِ الْغَوَايِينِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدما تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجدتهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميمت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأسابيهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحد، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذراهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاً وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو إله مع الله يُعْبَد، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قِيلَ مَا تَدَّكُرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما

يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بَشْرًا يَمَسُّ يَدَى رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول: ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: ﴿وَعَلَّمْنِي وَبِالْتَّجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الانعام: ١٧٧]. ﴿وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بَشْرًا يَمَسُّ يَدَى رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المُتَجِدِّينَ الأزلين القنطين، ﴿اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ تَرْبِيئُهُ وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: هو الذي يقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدئُ وَيُعِيدُ ﴿١١٧﴾﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا الْغُلُقُوتَ ﴿١١٨﴾﴾ [الطارق: ١١، ١٢]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَلَّغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْرِغُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤٤]، فهو، تبارك وتعالى، ينزل من السماء ماء مباركاً فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا. وعلى القول الآخر: يعيد؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا مَّآخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [المومنون: ١١٧].

﴿قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٢١﴾﴾ بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ فِيهَا عَمُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يَعْلَمُ أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، ﷻ، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَيَعْبُدُهُمْ مَنَافِقُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الانعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَبَشِّرُ مَا فِي الْأَرْكَانِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [القصص: ٣٤]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: من زعم أنه يعلم - يعني لنبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَمْلِكُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبِ إِلَّا اللَّهُ﴾. وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات. جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ خطه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وإن ناساً جهلة بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن ولد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين صحيح، وقوله: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ﴾ أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة - ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، أي: تساوى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: غاب. وقال قتادة: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: يُجْهَلُهُمْ ربهم، يقول: لهم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني، والسدي: أن علمهم إنما يُدْرِكُ

ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَتَجِيبُ يَوْمَ يَدْعُوكَ وَيَوْمَ يُبْعَثُونَ قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ الْكَاذِبِينَ﴾ [٢٨]. وقال سفيان، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بل أدرك علمهم»، قال اضمحل علمهم في الدنيا، حين عاينوا الآخرة. وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعَرِضاً عَلَى رَبِّكَ صَعًا لَقَدْ خِشَعْتُمْ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ لَكُمْ مُوعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨] أي: الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَأَوَابًا إِنَّا لَمُعْرَبُونَ﴾ [٧] لَقَدْ مُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٨] قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١٦] وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [٧].

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: ﴿لَقَدْ مُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وأبائنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخذه قوم عن قبلهم، من قبلهم يتلقاه عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ - يا محمد - لهؤلاء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نعم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاء به الرسل وصحته. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَقَوْلُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٧١] قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْمِلُونَ﴾ [٧٢] وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٧٣] وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٤] وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٧٥].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَقَوْلُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٧١] قال الله مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْمِلُونَ﴾. قال ابن عباس أن يكون قرب - أو: أن يقرب - لكم بعض الذي تستعملون. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقناة، والسدي. وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلُوا مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْمِلُونَ بِالْعَدَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [٥٤]. وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿رَدٌّ لَكُمْ﴾؛ لأنه ضمن معنى «عجل لكم»، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ﴾: عجل لكم. ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: في إسباغهم نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٤] أي: يعلم السررات والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مِمَّنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفِيٍّ﴾ [طه: ٧]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَعْشِرُونَ يُنَاجِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهده - فقال: ﴿وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء، ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْحَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٧١] وَإِنَّهُ لَذُو رَحْمَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٢] إِنَّ رَبَّكَ بِمَقْعَدِمْ جَهَنَّمَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [٧٣] تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [٧٤] إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ اللَّعْنَةَ إِذَا لَوَّأَ مَدِينِينَ﴾ [٨٠] وَمَا أَنْتَ بِبَدِيءِ الْأَمْرِ عَن صَلَاتِنَاهُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِحَاكِمَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٨١].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان: أنه يقص على بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿أَصْحَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كما ختلافهم في عيسى وتبانيهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٢٤]. ﴿مَرْيَم: ٣٤﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو رَحْمَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٢] أي:

هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليات. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، ﴿الْعَلِيمُ﴾. بأفعال عباده وأقوالهم. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في أمورك، وبلغ رسالة ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ السَّبِيلِ﴾ أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك، ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ أي: لا تسمعهم شتاً ينفعهم، وكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وقْر الكفر؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الضُّعْفَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَتَى بِهَيْدِي الْعُنَى عَنْ صَلَاتِنَهُمْ إِنْ شِئْتُ لَأَمِّنَّ مِنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على السنة الرسل، عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتزكيتهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تفصيله - فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة - وزوي عن علي، رضي الله عنه -: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويروى هذا عن علي، واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس - في رواية -: تجرحهم. وعنه رواية، قال: كلاً تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم. وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها، والله المستعان: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن قُرَات، عن أبي الطفيل، عن حُدَيْفِ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ أَمْرَ السَّاعَةِ فَقَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدُّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ - أَوْ: تَحْشُرُ - النَّاسَ، تَبِيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا. وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من طرق، عن قُرَاتِ الْفَزَارِيِّ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ، عَنْ حُدَيْفِ مَوْقُوفًا. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رُقَيْعٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، عَنْهُ مَرْفُوعًا. والله أعلم.

طريق أخرى: قال أبو داود الطيالسي، عن طلحة بن عمرو، وجرير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي: أن أبا الطفيل حدثه، عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة، وأما جرير فقال: عن عبد الله بن عبيد، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني: مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية» يعني: مكة. قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرهما: المسجد الحرام، لم يرغهم إلا وهي تَرُغُو بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ. فَارْفُضُ النَّاسَ عَنْهَا شَتَّى وَمَعَا، وَيَقِيْتُ عَصَابَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْجُزُوا اللَّهَ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَّتْ وَجُوهُهُمْ حَتَّى جَعَلَتْهَا كَأَنَّهَا الْكُوكَبُ الدَّرِّيُّ، وَوَلَّتْ فِي الْأَرْضِ لَا يَدْرِكُهَا طَالِبٌ، وَلَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ لِيَتَعَوَّذَ مِنْهَا بِالصَّلَاةِ، فَتَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ فَتَقُولُ: يَا فُلَانُ، الْآنَ تَصَلِّي؟ فَيَقْبَلُ عَلَيْهَا فَتَسْمُهُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي الْأُمُورِ، وَيَصْطَبِحُونَ فِي الْأَمْصَارِ، يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ، حَتَّى إِنْ الْمُؤْمِنُ لَيَقُولُ: يَا كَافِرُ، اقْضِنِي حَقِّي. وَحَتَّى إِنْ الْكَافِرُ لَيَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ، اقْضِنِي حَقِّي». ورواه ابن جرير من طريقين، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً. فالله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم، وهو يطوف بالبيت، ولكن إنسانه لا يصح.

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حنّان، عن أبي رزعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على أثرها قريباً». حديث آخر: روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولي الحُرَقَةَ - عن أبيه: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة». وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس، من مغربها، وأمر العامة وخوصة

أحدكم». حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا حزملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث وابن لبيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة». تفرد به. حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي أيضاً: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر». ورواه الإمام أحمد، عن بهز وعفان ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة، به. وقال: «فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد المؤدب، عن حماد بن سلمة، به.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو، حدثنا أبو تميلة، حدثنا خالد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية، قريب من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا فتر في شبر». قال ابن بريدة: فحججت بعد ذلك بسنين، فأرانا عصاه، فإذا هو بعصاي هذه، كذا وكذا. وقال عبد الرزاق عن مغمّر، عن قتادة، أن ابن عباس قال: هي دابة ذات زغب، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية تهامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدابة من صدع من الصفا كجزى الفرس ثلاثة أيام، لم يخرج ثلثها. وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة، فقال: الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد، والله لو كنت معهم - أو لو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها. قيل: فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان. قيل: ثم ماذا؟ قال: لا أعلم. وعن عبد الله بن عمر، أنه قال: تخرج الدابة ليلة جمع. ورواه ابن أبي حاتم: وفي إسناده ابن البيهان.

وعن وهب بن منبه: أنه حكى من كلام عذير، عليه السلام، أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل سماعها، وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجاً، ويتعادى الأخلاء، وتُحرق الحكمة، ويُرفع العلم، وتكلم الأرض التي تليها. وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيما لا يتالون، ويعملون فيما لا يأكلون. رواه ابن أبي حاتم، عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني معاوية بن صالح، عن أبي مريم: أنه سمع أبا هريرة، رضي الله عنه، يقول: إن الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنها فرسخ للراكب. وقال ابن عباس: هي مثل الحربة الضخمة. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إنها دابة لها ريش وزغب وحافر، وما لها ذنب، ولها لحية، وإنها لتخرج حُضر الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلثها. ورواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدورها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعضا موسى نكتة بيضاء، ففتشوا تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، ففتشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنة؟ ويا فلان، أنت من أهل النار. فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاثِرُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِيمًا أَنَاذًا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْفَرُونَ ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُنَّا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا لِّكَ فِي ذَلِكَ لَآئِبَتٌ لِّعَاوِرٍ يَّوْمُئِذٍ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله، ﴿لَسْأَلُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، تَقْرِيعًا وَتُوبِيحًا، وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا﴾ فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قوم وقرن فوجاً، أي: جماعة، ﴿مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ كما قال تعالى: ﴿نَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْزَقَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ

زُيِّنَتْ ﴿٧٧﴾ [التكوير: ٢٧]. وقوله: ﴿فَهُمْ يُرْجَعُونَ﴾: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة وَرَعَةً ترد أولهم على آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي: أوقفوا بين يدي الله، ﷻ، في مقام المسائلة ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِتَابِي وَرَبِّ تَحِيطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ﴾؟ أي: ويسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَا مَكْرَ وَلَا مَكِيلَ﴾ [٧٦] وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٧٨﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٧٥] وَلَا يُؤَدُّنَ لَكُمْ فَيْمَنْزِيلًا ﴿٧٦﴾ وَيَلَّيْزُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٧﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَفَعَّ الْأَقْوَالُ عَلَيْهِمْ مِمَّا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٨٥] أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِئَلِكُمْ آيَاتٍ﴾ أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم. ﴿وَالشَّهَارُ مُجْزِئًا﴾ أي: منيراً مشرقاً، فيسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنَعَنَّ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْفُوسٍ ذَائِرَةٌ﴾ [٨٧] وَرَوَى الْجِبَالُ تَحْسَبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ فَنٍّ مِنْهُ إِتْمَ حَيْثُ يَمَّا تَمَكَّرُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ فَلَهُ حِزْبٌ مِمَّنْ هُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ مَأْمُونُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَهُ بِالْكَذِبِ فَكَذَّبَتْ مُجُوهَةً فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ ﴿٩٠﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» وفي حديث الصور أن إسرئيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا عُبيد الله بن مُعَاذِ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم: سمعت يعقوب بن عاصم بن عَزْوَةَ بن مسعود الثقفي، سمعت عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله - أو: لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه. ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها». قال: «وأول من يسمعه رجل يُلُوط حوض إبله». قال: «فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال: الظل - نعمان الشاك - فتنتب منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وفقوهم إنهم مسؤولون. ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال كم: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: «فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق». وقوله: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها»، اللبت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً. فهذه نفخة الفزع. ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت. ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ أَنْفُوسٍ ذَائِرَةٌ﴾ - فرى بالمد، وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحد - ﴿ذَائِرَةٌ﴾ أي: صاغرين مطيعين، لا يختلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال: ﴿فَمِمَّا إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]. وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح، فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرئيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، توهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله، ﷻ، وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يدب السم في اللدغي، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَمْثَانِ يَرَاءُ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفَّوْنَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩١﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٩٢﴾﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال: ﴿وَسَتَلَوْنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٩٣﴾ فَيَذَرُهَا قَانًا فَصْفًا ﴿٩٤﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِصْمًا وَلَا آمَنًا ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ فَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ تَدْرِكْنِهِمْ سَاعًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدُنْيَا آفَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أنقذ كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عليهم بما يفعل عبادته من خير وشر فيجازيهم عليه. ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَتَّبَعُ قَالَ قَتَادَةَ: بِالْإِخْلَاصِ. وَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الْمَكَانِ الْآخِرِ أَنْ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا: ﴿وَمَنْ يَنْفَعُ يَنْفَعُ وَيُؤَيِّدُ مَأْمُونٌ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِتْنُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال: ﴿أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا أَمْ مَنْ يَأْتِي مَلُونًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [نصفت: ٤٠]، وقال: ﴿وَمَنْ فِي الْفُرْقَتِ مَأْمُونٌ﴾ [سبا: ٣٧]. وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسُّيْئَةِ فُكِّتَتْ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو: قدر جت سيئاته على حسناته، كل بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يُحْزِنُوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس، رضي الله عنهم، وأنس بن مالك، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم التخمي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهري، والسدي، والضحاك، والحسن، وقَتَادَةَ، وابن زيد، في قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسُّيْئَةِ﴾ يعني: بالشرك.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَهْبُدَ رَبَّكَ هَكَذَا الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ السُّلَيْبِ ﴿٩٦﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْبَدَكَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّى فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٧﴾ وَقُلْ لِمَنْدُ اللَّهِ سَبِيحًا مَائِنِيهِ فَمَعْرُوفًا وَمَا رَبُّكَ بِغَيْبٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمره له أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَهْبُدَ رَبَّكَ هَكَذَا الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾، كما قال: ﴿قُلْ يَأْتِيهِ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَهْبُدُ الَّذِينَ صَبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَهْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾ - يونس: ١٠٤. وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٩٦﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ حَوْفٍ ﴿٩٧﴾﴾ [قريش: ٣، ٤]. وقوله: ﴿الَّتِي حَرَمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً، بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْصَدُ شُوكُهُ، وَلَا يَنْفَرُ صِيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقَطُ لِقَطْعُهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يَخْتَلِي خِلَافَهَا»، الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة نفي القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، والله الحمد. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾: من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، ﴿وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ السُّلَيْبِ﴾ أي: الموحد من المخلصين المتقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله: ﴿ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله: ﴿تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ تَبَا مُوسَى وَفُورَعُونَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النقص: ٣] أ: أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنْ أَهْبَدَكَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّى فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

أي: لي سوية الرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدهم، وحساب أمهم على الله، كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتَنَّاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَطَلَبْنَا الْحِسَابَ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١٢]. ﴿وَقُلْ لِمَنْدُ اللَّهِ سَبِيحًا مَائِنِيهِ فَمَعْرُوفًا﴾ أي: الله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: ﴿سَبِيحًا مَائِنِيهِ فَمَعْرُوفًا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ مَائِنِيَّتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [نصفت: ٥٣]. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَيْبٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي عمر الحوضي حفص بن عمر: حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفي، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «يأبها الناس، لا يَغْتَرُّ أَحَدُكُمْ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لِأَغْفَلَ الْبِعُوضَةَ وَالْخُرْدَلَةَ وَالذَّرَّةَ». قال أيضاً: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا نصر بن علي، قال أبي: أخبرني خالد بن قيس، عن مطر، عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم. وقد ذكر عن الإمام أحمد، رحمه الله، أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدُّمُورَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ
وَلَا تَخُشِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً
خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلِيٌّ رَقِيبٌ
وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بفضلك تفسير سورة القصص

وهي مكية.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طس﴾ (١) المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ: حناب بن الأرت. قال: فأتينا حناب بن الأرت، فقرأها علينا، رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيكًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَصِيحُ مِنْهُمْ آثَاهُمْ وَيَسْتَخْفِي بَيْنَهُمْ مِنْهُ يَبْغِي كَأَنَّهُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَعْمَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمْ الْأُورِيكَ (٥) وَنَسْجَنَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ نُزُيًّا فَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣)، كما قال تعالى: ﴿يَحْتَنُّ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك شاهد وأنت حاضر. ثم قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبج وطغى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيكًا﴾ أي: أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. وقوله: ﴿يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو أهل مملكته من أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم، عليه السلام، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَعْمَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمْ الْأُورِيكَ (٥) وَنَسْجَنَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ نُزُيًّا فَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾. وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكَمَتَ كَيْفَ رَيْكَ الْخَسْفِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَسْرُورُونَ (١٣٧)﴾ [الاعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿كَذَلِكَ وَأُورِثْنَا بِقِيِّ إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩]، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه الرفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغداؤه من طعامك، وأنت تربيته وتدلله وتتفاده، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلاء هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَرْحَمًا إِلَكَ أَوْ مُوسَى أَنْ أَضْمِرَ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَكَلِمَةٍ فِي آيَةٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَالْقَطْعَةُ، أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزْبًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ (٨) وَقَالَتْ أُمَّرَأْتِ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِنْ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا بَشِيرُونَ (٩)﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل، فيلوثون هم ما كانوا يلونه من

الأعمال الشاقة. فقالوا لفرعون: إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيخوهم، وغلماهم لا يعيشون، ونسأؤهم لا يمكن أن يَمُنَّ بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون، عليه السلام، في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى، عليه السلام، في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدْرُونَ على النساء، فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وزهن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قَبْحَهُم الله. فلما حملت أم موسى به، عليه السلام، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تظن لها الدايات، ولكن لما وضعت ذكراً أضافت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى، عليه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿وَأَلَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها، وألقى في خلدتها، ونفت في روعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَرْجِيئَا إِلَهُ أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهَا فَإِذَا حَفَّتْ عَلَيْهِ فَكَأَلْفِيهِ فِي أَلِيمٍ وَلَا تَحْزَانِي وَلَا تَحْزَنْيَ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾. وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيره في البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجوارى فاحتلمته، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها. فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها؛ ولهذا قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

قال محمد بن إسحاق وغيره: «اللام» هنا لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله، تعالى، قبضهم لالتقاطه ليجعل لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق: وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالى: ﴿وَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً، والله يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا بَشِيرُونَ ﴿٩﴾﴾ يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فجعلت امرأته أسية بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتذب دونه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ﴾ فقال: أما لك فتعّم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه، وقد تقدم في حديث الفتون في سورة «طه» هذه القصة بطولها، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائي وغيره. وقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة.

﴿وَأَمْسَحَ فُوَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا بِإِنْ كَادَتْ لِتُبَدِعَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّمَهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِي قُصِيصِي قَصْرَتِ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يُكَلِّمُوكُمْ وَهُمْ لَهُ نَسِيحُونَ ﴿١٢﴾﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقْنَا عَنْهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَلَمْنَا أَنَا وَنَدَّ أُوهُ حَتَّىٰ وَلَكِنَّ أَسْرَفَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فواد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبو عبيدة، والضحاك، والحسن البصري، وقناة، وغيرهم. ﴿إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِعَ بِهِ﴾ أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله بُتَّتها وصبرها قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّمَهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِي قُصِيصِي﴾ أي: أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعي ما يقال لها - فقالت لها: ﴿قُصِيصِي﴾ أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد. فخرجت لذلك، ﴿قُصِرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ - قال ابن عباس: عن جانب. وقال مجاهد: ﴿قُصِرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾: عن بعيد. وقال قناة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريد. وذلك أنه لما استقر موسى، عليه السلام، بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقت منه، عرضوا

عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك. فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ﴾ أي: تحريماً قديراً، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة. فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت: ﴿هَلْ أَذْكَرَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ﴾ قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذوها، وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في طؤورة الملك ورجاء منفعتهم. فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها. ثم سألتها أسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلأً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك. ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت. فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوى والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً، في عز وجه ورزق دار. ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحسب في صنعة الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل: يوم وليلة، أو نحوه، والله سبحانه أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَاتِهِ. كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليه، ﴿تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وعدها من رده إليها، وجعله من المرسلين. فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حُكِمَ الله في أفعاله وعواقبها المحموده، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، وربما يقع الأمر كرهها إلى النفوس، وعاقبته محموده في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وقال تعالى: ﴿فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آيَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٤] وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْتَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَفَسْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَسَرَ لَهُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّجِيسُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ فَنَنْ أَكْرَمَ ظَهْرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى، عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده، واستوى، آناه الله حكماً وعلماً. قال مجاهد: يعني النبوة، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدر له من النبوة والتكليم: قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء. وقال ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار. وكذلك قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان، ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: قبطي، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، عليه السلام، ووجد موسى فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. قال مجاهد: وكزه، أي: طعنه بجمع كفه. وقال قتادة: وكزه بعضا كانت معه. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: كان فيها حنقه فمات، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَفَسْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَسَرَ لَهُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّجِيسُ﴾ [١٦] قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ أَي: بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة ﴿فَلَنْ أَكْرَمَ ظَهْرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِبًا يَرْتَفِعُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوَيْتُ مَبِيئًا ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَيُّدِي أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [١٧].

يقول تعالى مخبراً عن موسى، عليه السلام، لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِبًا﴾ أي: من معرة ما فعل، ﴿يَرْتَفِعُ﴾ أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر موسى، استصرخه على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَنَوَيْتُ مَبِيئًا﴾ أي: ظاهر الغواية كثير الشر. ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه:

﴿يَسْأَلُ أَيُّدِي أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى، عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لفقها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَمَا رِيءَ مِنْ أَصْحَابِ الدِّيَارِ بَعَثَ قَالَ يَسْأَلُونَ إِيكَ الْمَلَأَ بِأَتْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ النَّصِيِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَمَا رِيءَ رِيءٌ﴾ وصفه بالزجولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى، ﴿إِيكَ الْمَلَأَ بِأَتْمُرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ﴾ أي: من البلد، ﴿إِيَّكَ لَكَ مِنَ النَّصِيِّينَ﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقْيَ لَنَا سَقِيَ حَتَّى يَصْدِرَ الرِّجْمَاءُ وَأَيُّوكَا سَبَّحُ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمألاً عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألّف ذلك قلبه، بل كان في رفاهة ونعمة ورياسة، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه. فذكروا أن الله، سبحانه وتعالى، بعث له ملكاً على فرس، فأرشده إلى الطريق، فإله أعلم. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخذ طريقاً سالكاً مهيباً فرح بذلك، ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: إلى الطريق الأقوم. ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفكان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لثلا يؤذيا. فلما رآهما موسى، عليه السلام، رق لهما ورحمهما، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما خبركم لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقْيَ لَنَا سَقِيَ حَتَّى يَصْدِرَ الرِّجْمَاءُ﴾ أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وَأَيُّوكَا سَبَّحُ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾. قال أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن موسى، عليه السلام، لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثناه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم. إسناده صحيح. وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه. وجلس في الظل وهو صفة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهوره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمره. وقوله: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾: قال ابن عباس، وابن مسعود، والسدي: جلس تحت شجرة. وقال ابن جرير: حدثني الحسين بن عمرو العنقري، حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثت على جبل ليلتين، حتى صبحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي - وكان جائعاً - فأخذها جملي فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى، عليه السلام، ثم انصرفت. وفي رواية عن ابن مسعود: أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها لموسى، كما سياتي والله أعلم. وقال السدي: كانت من شجر السمر. وقال عطاء بن السائب: لما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أسمع المرأة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِيَةٌ بِكِبَرٍ إِذْ يُرِيدُ أَنْ يُكَلِّمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتِي عَلَيَّ أَنْ تَأْخُذَنِي ثُمَّ يُحْيِي جَسَدِي فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ سَأَلْتَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنَ وَيَسَّكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما رجعت المرأتان سراعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما ومجبئهما سريعاً، فسألها عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى، عليه السلام. فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، أنه قال: كانت مستتره بكم درعها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو

نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمر بن ميمون قال، قال عمر: رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفح خُرَاجَة ولاجة. هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السلفح من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السلطة، ومن النوق: الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي دَعْوِكَ لِجَعْرِكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ربية، بل قالت: ﴿إِنَّكَ أَبِي دَعْوِكَ لِجَعْرِكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصُ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده، ﴿قَالَ لَا تَحْفََّ بِحَوَّتٍ مِنَ الْقَوْرِ الظَّلِيلِينَ﴾ يقول: طب نفساً وقز عينا، فقد خرجت من مملكتهم فلا حُكْمَ لهم في بلادنا. ولهذا قال: ﴿بِحَوَّتٍ مِنَ الْقَوْرِ الظَّلِيلِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي، عليه السلام، الذي أرسل إلى أهل مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم. حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز الأوسي، حدثنا مالك بن أنس؛ أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه موسى القصص، قال: ﴿لَا تَحْفََّ بِحَوَّتٍ مِنَ الْقَوْرِ الظَّلِيلِينَ﴾. وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى، هديت». وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى، عليه السلام، بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٌ يَنْصَحُونَكُمْ بِعَيْبِهِ﴾ [عرد: ٩٥]. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل، عليه السلام، بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل، عليهما السلام، مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده، كما سنذكره قريباً إن شاء الله. ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: «ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: وأثرون وهو ابن أخي شعيب، عليه السلام. وعن أبي حمزة، عن ابن عباس: الذي استأجر موسى يثري صاحب مدين. رواه ابن جرير، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خير تجب به الحجة في ذلك. وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْفَقِيرِ الْأَمِينِ﴾ [٢١] أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل. قيل: هي التي ذهبت وراء موسى، عليه السلام، قالت لأبيها: ﴿يَأْتِيَنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْفَقِيرِ الْأَمِينِ﴾، قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْفَقِيرِ الْأَمِينِ﴾، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورثتي، فإذا اجتنبت الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدي إليه. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْثَرِي مَوْتَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَأْتِيَنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْفَقِيرِ الْأَمِينِ﴾. قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكُمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَنْتَيْنِ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين. قال شعيب الجبائي: وهما صفوراً، وليتا. وقال محمد بن إسحاق: صفوراً وشرقا، ويقال: ليا. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة رحمه الله تعالى بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال: «بعتك أحد هذين العبدین بمائة». فقال: اشتريت أنه يصح، والله أعلم. وقوله: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِّي حَجَجٍ فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: على أن ترعى علي ثمان سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمان كفاية، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَتَقُوَّ عَلَيْكَ سَخِجَاتٍ إِنَّ سَكَاةَ اللَّهِ مِنَ الظَّلِيلِينَ﴾ أي: لا أشاقك، ولا أوذيك، ولا أماريك. وقد استدلو بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال: «بعتك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة» أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح. وحُمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «من باع بيعتين في بيعة، فله أو كسهما أو الربا» على هذا المذهب. وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر، ليس هذا موضع بسطه لطوله. والله أعلم.

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن، حيث قال: «باب استئجار الأجير على طعام بطنه»: حدثنا محمد بن المصطفى الجمضي، حدثنا بقمية بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن الثدري يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقراً ﴿طَسَّرَ﴾ [٢١]، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى

أَجْرَ نَفْسِهِ ثَمَانِي سَنِينَ - أَوْ: عَشْرَ سَنِينَ - عَلَى عَفَّةٍ فَرَجَهُ وَطَعَامَ بَطْنِهِ. وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف؛ لأن مسلمة بن علي وهو الخشنيّ الدمشقيّ البلاطيّ ضعيف الرواية عند الأئمة، ولكن قد رُوِيَ من وجه آخر، وفيه نظر أيضاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن التدر السلمي - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى أجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه». وقوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تُفْعَلُونَ وَكَذَّبُوا عَنْ قَوْلِ رَبِّهِمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾، يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإذا أتممت عشراً فمن عندي، فإنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط؛ ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرج علي مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى، بدليل من خارج. كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي، رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر - فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فافطر»، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر. هذا وقد دل الدليل على أن موسى، عليه السلام، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما؛ قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبيرة قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس، رضي الله عنه، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. هكذا رواه البخاري، وهكذا رواه حكيم بن جبيرة وغيره، عن سعيد بن جبيرة. ووقع في «حديث الفثون»، من رواية القاسم ابن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة؛ أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية. والأول أثبت، والله أعلم، وقد رُوِيَ من حديث ابن عباس مرفوعاً، قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني إبراهيم بن يحيى ابن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى قال: أكملهما وأتمهما». ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحميدي، عن سفيان - وهو ابن عيينة - حدثني إبراهيم ابن يحيى بن أبي يعقوب - وكان من أسناني أو أصغر مني - فذكره. قلت: وإبراهيم هذا ليس بمعروف. ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أمين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، فذكره. ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي الحاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأ ابن وهب، أنبأ عمرو بن الحارث، عن يحيى بن ميمون الحضرمي، عن يوسف بن تريح: أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «لا علم لي». فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لي، فسأل جبريل ملكاً فوجه فقال: لا علم لي. فسأل ذلك الملك ربه - ﷻ - عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى: «قضى أبرهما وأبقاهما - أو قال: أركاهما». وهذا مرسل، وقد جاء مرسلًا من وجه آخر، وقال سُئِدٌ: حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ قال: قال مجاهد: إن النبي ﷺ سأل جبريل: «أي الأجلين قضى موسى؟» فقال: سوف أسأل إسرافيل. فسأله فقال: سوف أسأل الرب ﷻ. فسأله فقال: «أبرهما وأوقاهما».

طريق أخرى مرسله أيضاً: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، حدثنا أبو مغشّر، عن محمد بن كعب القرظي قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوقاهما وأتمهما». فهذه طرق متعاضدة، ثم قد روي هذا مرفوعاً من رواية أبي ذر، رضي الله عنه، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عُوَيْدٌ بن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر: أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوقاهما وأبرهما»، قال: «وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل الصغرى منهما». ثم قال البزار: لا نعلم يروي عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران - وهو ضعيف - ثم قد روى أيضاً نحوه من حديث عتبة بن التدر بزيادة غريبة جداً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن التدر يقول: إن رسول الله ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبرهما وأوقاهما». ثم قال النبي ﷺ: «إن موسى، عليه السلام، لما أراد فراق شعيب، عليه السلام، أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به. فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون. قال: فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه، فولدت قوالب ألوان كلها، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فشوش ولا

ضُوب، ولا كميشة تُقَوَّت الكف، ولا تُعُول». وقال رسول الله ﷺ: «إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهي السامرية». هكذا أورده البزار. وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا، فقال:

حدثنا أبو زُرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُدُر السلمي - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى، عليه السلام، آجر نفسه بعفة فرجه وطُعْمَة بطنه. فلما وفى الأجل - قيل: يا رسول الله، أي الأجلين؟ قال -: أبرهما وأوفاهما. فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناء، فانطلق موسى، عليه السلام، إلى عصاه فسأها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال: «فاتمت وأثلت، ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش - قال يحيى: ولا ضبون. وقال صفوان: ولا ضُوب. قال أبو زُرعة: الصواب ضُوب - ولا عَزُور ولا تُعُول ولا كميشة تُقَوَّت الكف». قال النبي ﷺ: «فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية. وحدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان قال: سمعت الوليد قال: فسألت ابن لهيعة: ما الفشوش؟ قال: التي تُفَشُّ بلبنها واسعة الشُخب. قلت: فما الضُوب؟ قال: الطويلة الضرع تجره. قلت: فما العَزُور؟ قال: ضيقة الشُخب. قال فما الثُعُول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهيشة حلمتين. قلت: فما الكميشة؟ قال: التي تُقَوَّت الكف، كميشة الضرع، صغير لا يدركه الكف. مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم. وينبغي أن يُرَوَى ليس فيها فشوش ولا عزوز، ولا ضُوب ولا تُعُول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة. وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك - موقوفاً عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد، فقال: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لم ادعي نبي الله موسى، عليه السلام، صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك. فعمد فرغ حبالاً على الماء، فلما رأت الخيال فرزت فجالت جولة، فولدت كلهن بلقاً إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِيهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ مِنْ نَارٍ لَمَلَكُمْ نَضْلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْبُنْدُوكِيَّةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكَ آتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّكَ الْكَلِيمَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْ جَانًّا وَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يَمُوقِبْ يَمْسُكَ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْمٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقَبِ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ فَرَعُونَ وَمَلَائِكَةُ لَهُمْ كَاتِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى، عليه السلام، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكمل منهما، والله أعلم. قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: قضى عشر سنين، وبعدها عشرًا آخر. وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ﴾: قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي: رأى ناراً تضئء له على بعد، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أذهب إليها، ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وذلك لأنه كان قد أضل الطريق، ﴿أَوْ جَدَّوهُ رَبُّكَ النَّارَ﴾ أي: قطعة منها، ﴿لَمَلَكُمْ نَضْلُونَ﴾ أي: تتدفقون بها من البرد. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى الْأَمْرَ﴾، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجددها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فتاداه ربه: ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْبُنْدُوكِيَّةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها موسى، عليه السلام، سمرة خضراء ترف. إسناده مقارب. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض من لا يتهم، عن وهب بن منبه قال: شجرة من التَلِّيق، وبعض أهل

الكتاب يقول: من العوسج. وقال قتادة: هي من العوسج، وعصاه من العوسج. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَمُوسِحَ إِرْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَكَلِيمِينَ﴾ أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!

وقوله: ﴿وَأَنْ أَنْتَ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك. كما قرره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسِحَ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَاكَ أَوْ كَرُؤًا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَّ عَنِّي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى (١٨) [طه: ١٧، ١٨]. والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ألقتها فألقها فإذا هِيَ حِيَةً سَتَعِي (١٩)، وعرّف وتحقّق أنّ الذي يخاطبه ويكلّمه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. كما تقدّم بيان ذلك في سورة طه. وقال ما هنا: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّرْتُ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: في حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها، فتجنّدر في فيها تتقعق، كأنها حادرة في واد. فعند ذلك ﴿وَلِي مَدِيرًا وَلَرَّ بَعُوثًا﴾ أي: ولم يكن يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك. فلما قال الله له: ﴿يَمُوسِحَ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِيرِينَ﴾، رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله له: ﴿أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألاً، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق؛ ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص. وقوله: ﴿وَأَسْتَمُ إِلَيْكَ جَانْحَلِكَ مِنَ الرَّقَبِ﴾: قال مجاهد: من الفزع. وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية. والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر، عليه السلام، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فواده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف، إن شاء الله، وبه الثقة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم، عن مجاهد، قال: كان موسى، عليه السلام، قد ملئ قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم، إني أدرك بك في نحره، وأعوذ بك من شره، ففرغ الله ما كان في قلب موسى، عليه السلام، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمام. وقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنُ وَمَلَكِيَّةٌ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيئِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٢٢) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٢٣) قَالَ سَنُنَدُّ عَصَدَكَ بِخَيْكَ وَنَجْمَعَلْ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَا وَمَنْ أَنْتَكُمَا الْقَلِيلُونَ (٢٤).
لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَسًا﴾ يعني: ذلك القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي: إذا راوني. ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وذلك أن موسى، عليه السلام، كان في لسانه لغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير؛ ولهذا قال: ﴿وَأَسْأَلُ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي﴾ (٢٧) بِقَهْرٍ قَوْلِي (٢٨) وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِرِيءَ أَرَى (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) [طه: ٢٧-٣٢]، أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد. ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾، أي: وزيراً ومعيناً ومقرباً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ، لأن خير اثنين أتجع في النفوس من خير واحد؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾. وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي: يبين لهم عني ما أكلّمهم به، فإنه يفهم عني. فلما سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿سَنُنَدُّ عَصَدَكَ بِخَيْكَ﴾ أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً مملوك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٣) [مریم: ٥٣]. ولهذا قال بعض السلف، ليس أحد أعظم مئة على أخيه، من موسى على هارون، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملته، ولهذا قال الله تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وقوله تعالى: ﴿وَنَجْمَعَلْ لَكُمَا سُلْطَنًا﴾ أي: حجة قاهرة، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكم بسبب إبلاغكم آيات الله، كما قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ لَقُدْرَةً فَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْصُرُ مَا تَكْتُمُ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يُكْتُمُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَكْتُمُ لَهُمْ جُودَتَهُمْ وَيَجْزِي اللَّهُ الْكَاذِبِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَيِّبًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٩]، أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا. ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنْشَأْ وَمَنْ أَتَعَبَكُمُ الْعَالِيُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحِبِّكَ أَنْتَ أَرْسِلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَوْلًا غَيْرَ ﴿٣٧﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْقَلِيلِينَ مَعْرَضَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ أَلَدًا ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. ووجه ابن جرير على أن المعنى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ﴾، ثم يتبدى فيقول: ﴿بِإِيَّتَيْنَا أَنْشَأْ وَمَنْ أَتَعَبَكُمُ الْعَالِيُونَ﴾، تقديره: أنما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا. ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبر عن الله ﷻ من توحيده واتباع أوامره. فلما عين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ أي: مفتعل مصنوع. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك. وقوله: ﴿وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى. فقال موسى، عليه السلام، مجيباً لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابَةُ الدَّارِ﴾ أي: النصره والظفر والتأييد، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْذَىٰ بِرِيهَتَيْنِ عَلَىٰ الْعُلَيْنِ فَاجْتَمَلَ فِي صَرَخًا لَعَلِّي أَلْمِجُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُّوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّكُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَصِيٍّ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِتْسَانًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَحْذَنَّهُ وَخُودُهُ فَسَبَّحْنَاهُمْ فِي الْآيَةِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذُوقُونَ إِلَى الْأَشْكَارِ وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَعَبْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ هُمْ مِنَ الْمُقْتَبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطمغيانه وافتراءه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِذْ هُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٨﴾ [الزخرف: ٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وقال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَحَسَّرْنَا نَادِيًا ﴿٣٩﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٤٠﴾ فَأَعَذَّهُ اللَّهُ تَكَاثُرًا الْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿٤١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات: ٢٣-٢٦] يعني: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مَضْرَحًا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقوله: ﴿فَأَوْذَىٰ لِي بِرِيهَتَيْنِ عَلَىٰ الْعُلَيْنِ فَاجْتَمَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَلْمِجُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُّوسَىٰ﴾ أي: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له أجزاً لبناء الصرح، وهو القصر المتيف الرفيع - كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير. وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَصِيٍّ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِتْسَانًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: طغوا وتجبروا، وأكشروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، ﴿فَسَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٤٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَاتِ ﴿٤١﴾﴾ [الفرج: ١٣، ١٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَأَحْذَنَّهُ وَخُودُهُ فَسَبَّحْنَاهُمْ فِي الْآيَةِ﴾ أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذُوقُونَ إِلَى الْأَشْكَارِ﴾ أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وقوله: ﴿وَأَتَعَبْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع الله

لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم في الدنيا ملمعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك، **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُورِينَ﴾**. قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هُدًى لِمَنْ هَدَىٰ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** **﴿يَسِّرْ لِرَفْدِ الْمَرْفُودِ﴾** (مرد: ٩٩).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمٍ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِسَكَيرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ رِزْقَهُمْ لَمَلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣).

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاه. وقوله: **﴿مِنْ بَدَمٍ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾** يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامه، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال: **﴿وَجَاءَ رِزْقُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالنُّفُوكُتُ بِالْحَالِطَةِ﴾** (٩) **﴿فَمَصَّرَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾** (١٠) [الحاقة: ٩، ١٠]. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالوا: حدثنا عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قومًا بعد ما أهلك الله قومًا من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوا قرده، ألم تر أن الله يقول: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمٍ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾**. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد موقوفًا. ثم رواه عن نصر بن علي، عن عبد الأعلى، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد - رفعه إلى النبي ﷺ - قال: **﴿ما أهلك الله قومًا بعد ما أهلك الله من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى﴾**، ثم قرأ: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمٍ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾**. وقوله: **﴿بِسَكَيرٍ لِلنَّاسِ﴾** أي: من العمى والغي، **﴿وَهَدَىٰ﴾** إلى الحق، **﴿وَرِزْقَهُ﴾** أي إرشادًا إلى الأعمال الصالحة، **﴿لَمَلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** أي: لعل الناس يتذكرون به، ويهتدون بسببه.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ فَصَّلْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) **﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْأُمَمُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾** (٤٥) **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِمَّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** (٤٦) **﴿وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبًا يَمَّا قَدَّمْتُمْ أَبْيَاتَهُمْ قَبُولًا رَتًا لَوَلَّوْا أَرْسُلَنَا رَسُولًا فَتُنذِرَ آيَاتِنَا وَتُكْفِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (٤٧).

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد، صلوات الله وسلامه عليه، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها، قال تعالى: **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** (آل عمران: ٤٤)، أي: ما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه. ثم قال تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَكْتُمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَ لِلشَّاقِقِينَ﴾** (مرد: ٤٤٩) وقال في آخر السورة: **﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْفُرْقَيْنِ نَقِضْ عَلَيْكَ﴾** (مرد: ١٠٠)، وقال بعد ذكر قصة يوسف: **﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** (يوسف: ١٠٢)، وقال في سورة طه: **﴿كَذَلِكَ نَقُضْ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِنَا مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾** (طه: ٩٩)، وقال ها هنا - بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له -: **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ فَصَّلْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾** يعني: يا محمد، ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، **﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا، ونسوا حجاج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين. وقوله: **﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾** أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبيها شعيب، وما قال لقومه، وما ردوا عليه، **﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾** أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولاً. **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾** - قال أبو عبد الرحمن النسائي، في التفسير من سننه: أخبرنا علي بن حنجر، أخبرنا عيسى - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مذكرك، عن أبي نضرة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾**، قال: نودوا: يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث جماعة، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش. ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن علي بن مذكرك، عن أبي نضرة - وهو ابن عمرو بن جرير - أنه قال ذلك من كلامه، والله أعلم.

وقال مقاتل بن حيان: **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾**: أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة: **﴿وَمَا**

كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنِي ﴿١٦٦﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْمَرْيَةِ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ . ثم أخبرها هنا بصيغة أخرى أنص من ذلك، وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدِيمِ طُوًى ﴿١٦٦﴾﴾ [النازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَوَدَّيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتَهُ يَمِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧]. وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: ما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يهتدون بما جنتهم به من الله ﷻ. ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ وَنُكْفِرَ بِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة وتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيْنَا مِن قِبَلِكُمْ وَإِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ حَسَدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿رُسُلًا مُّبْتَلِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَهْتَكِلُ الْكَافِرُ بِالَّذِينَ هُوَ يُنَادِيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْسَبُوا بِكَفْرِهِمْ كَبِيرًا ﴿١٦٨﴾﴾ [النساء: ١٦٨]، وقال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٩]، والآيات في هذا كثيرة والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُرْوِي بِئْسَ مَا أُرْوِي مَوْسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُرْوِي مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا يَسْحَرَانِ تَطَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ قُلْ قَالُوا يَكْتُمُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُمَا أَيُّعَمَّ إِنَّ كُتْمَهُ صَدِيقٌ ﴿١٦٨﴾ فَإِنَّ لَوْ سَتَجِدُنَا لَكَ فَأَعْلَمُ أَنَّمَا يُعْمُرُ أَمْوَئَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أُنْتَجَّ هَوْنَهُ بِعَيْرٍ هُدَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لِمَنْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ . يقول تعالى مخبرًا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد، صلوات الله وسلامه عليه، قالوا على وجه التعنت والعداوة والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَا أُرْوِي بِئْسَ مَا أُرْوِي مَوْسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُرْوِي مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلِ﴾، يعنون - والله أعلم -: من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد، والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتنقص الزروع والشمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله على يدي موسى، عليه السلام، حجة وبراهين له على فرعون وملته وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجح في فرعون وملته، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أَجْتَنَّا لِنُلْقِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَنَكُونُ لَكُمْ الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُكْفِرِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٨]. ولهذا قال هاهنا ﴿أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُرْوِي مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَطَاهَرَا﴾، أي تعاونًا، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أي: بكل منهما كافرون. ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمُنْتُ أَرْضًا
أَرِيدُ السَّخِيرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أي: فما أدري أيليني الخير أو الشر. قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُرْوِي مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سَاحِرَانِ تَطَاهَرَا﴾ قال: يعني موسى وهارون ﷺ ﴿تَطَاهَرَا﴾ أي: تعاونوا وتناصروا وصدق كل منهما الآخر. وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رزين في قوله: ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قوي، والله أعلم. وقال مسلم بن يسار، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَطَاهَرَا﴾ يعني: موسى ومحمدًا، صلوات الله وسلامه عليهما. وهذا رواية عن الحسن البصري. وقال الحسن وقتادة: يعني: عيسى ومحمدًا، صلى الله عليهما وسلم، وهذا فيه بعد؛ لأن عيسى لم يجر له ذكرها هنا، والله أعلم. وأما من قرأ ﴿سَاحِرَانِ تَطَاهَرَا﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس. يعنون التوراة والقرآن: وكذا قال عاصم الجندي، والسُدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال السدي: يعني صدق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون: التوراة والإنجيل. وهو رواية عن أبي زُرْعَةَ، واختاره ابن جرير. وقال الضحاک وقتادة: الإنجيل والقرآن. والله، سبحانه، أعلم بالصواب. والظاهر على قراءة: ﴿سَاحِرَانِ﴾ أنهم يعنون: التوراة والقرآن؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ قَالُوا يَكْتُمُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُمَا أَيُّعَمَّ﴾، وكثيرًا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أُنزِلَ الْكِتَابُ الْأَوَّلِيُّ جَاءَ بِهِ مَوْسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا ﴿١٧١﴾﴾ [النعام: ٩١، ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ﴾، إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتَمُّوهُ وَأَتَّقُوا لِمَلِكُمْ رَبِّكُمْ ﴿١٧٠﴾﴾ [النعام: ١٥٥]، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ

مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٣٠﴾ [الاحقاف: ١٣٠] وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد، ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران، عليه السلام، وهو التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْيَارُ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُزِمَ على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الْفَارِسِيِّ﴾ [١٤٩] ﴿١٤٩﴾ أي: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أَي: فَإِنْ لَمْ يَجِيبُواكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ فَاعْلَمْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ أَعْمَاءٌ﴾ أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا لَكُمْ الْقَوْلَ﴾، قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بينا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع، ﴿لَقَدْ لَعْنَهُمُ الْبَشَرُ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَّيْنَا لَكُمْ﴾ يعني: قريشاً. وهذا هو الظاهر، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن رفاعة - رفاعة هذا هو ابن قُرظَةَ القُرظي، وجعله ابن منده: رفاعة بن سمؤال، خال صفية بنت حيي، وهو الذي طلق تميمه بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا، كذا ذكره ابن الأثير - قال: نزلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا لَكُمْ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْتُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا نُلِقَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٣﴾ أَوَّلِيكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ الْشَيْئَةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُبْفِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَأَعْمَلُكُمْ عَلَيْكُمْ لَا يَبْنِي السَّيِّئِينَ﴾ [٥٥].

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَوَّلِيكَ يُؤْتُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَرَبِّنا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [١٧١] عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا الْقَوْلَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا نُلِقُوا لَمْ يَخُفُوا إِذَا نُلِقُوا لَمْ يَخُفُوا لِأَذْقَانِ سَجْدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا وَعَدُّ رَبَّنَا لَمَقُولًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيُنسَبُ وَرَهْبَانًا وَأَنْهَرُوا لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولِ تَرَكُوا آيَاتِنَاهُمْ تَفِيضًا مِنْ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨]. قال سعيد بن جبیر: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ يقرأ عليهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْتُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا نُلِقَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله: ﴿أَوَّلِيكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني، ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس. وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بريدة، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأذنبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السليحي، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين، فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا». وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ الشَّيْئَةَ﴾ أي: لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون. ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُبْفِرُونَ﴾ أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقربات.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]. ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَأَعْمَلُكُمْ عَلَيْكُمْ لَا يَبْنِي السَّيِّئِينَ﴾ أي: إذا سفه عليهم سفيه، وكلمهم بما لا

يليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿أَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا يُبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا تُريد طريق الجاهلين ولا نُحبها. قال محمد بن إسحاق في السيرة، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خيره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوهم. ورجال من قريش في أنديةهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تراءون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركباً أحق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، والله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ كَتَبَ مِن قَلْبِهِ لَهُمْ يَوْمَ يَوْمَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾. قال: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن، قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن أنزلن في النجاشي وأصحابه، رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُنَّ كَتَبْنَ عَلَيْهِنَّ أَلْفًا مِّن دُونِ آيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا فَاتَنَّكَ مَعَّ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وَقَالُوا إِنْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ مَكَتَ تُخَاطَبُ مِن نَّرَضٍ أَوْلَمْ تُسْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّيْمَنًا يَجُوزُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَبَّنَا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت. أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والخجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وهذه الآية أخص من هذا كله؛ فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفة ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة. قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه - وهو المسيب بن حزن المخزومي، رضي الله عنه - قال: لم حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبي أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيٍِّّ وَأَلِيٍّ مَّامُونًا أَلَّا يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾. [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. أخرجه من حديث الزهري. وهكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذي، من حديث يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمه، قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة». فقال: لولا أن تُعترني بها قريش، يقولون: ما حملة عليه إلا جزع الموت، لأقررتُ بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه.

وهكذا قال ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي، وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: «لا إله إلا الله»، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابن أخي، ملة الأشياخ. وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد قال: كان رسول قيصر جاء إلي قال: كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً، فأتيته فدفعت الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال: «من الرجل؟» قلت: من تنوخ. قال: «هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة؟» قلت: إني رسول قوم، وعلى دينهم

حتى أرجع إليهم. فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيِّكَ الْمُدَيُّ مَكَكَ نُحْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾. يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ ﴿إِن نَّبِيِّكَ الْمُدَيُّ مَكَكَ نُحْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، فقال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ تَمَنَّكَ لَهْمُ حَرَمًا مَّا إِنَّا بِعِنْيٍ: هذا الذي اعتدروا به كذب وباطل؛ لأن الله جعلهم في بلد أمين، وحرّم معظم أمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله: ﴿يَجِيئُ إِلَيْهِ مَمْرُتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَ﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿وَرَزَقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا. وقد قال النسائي: أنبأنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجّاج، عن ابن جرّيج، أخبرني ابن أبي مليكة قال: قال عمرو بن شعيب، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه -: أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿إِن نَّبِيِّكَ الْمُدَيُّ مَكَكَ نُحْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾

﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِن قَرْبَةٍ بَطَرْت مَيْسَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكُكُهُمْ لَرُ شَكُنُ يُن بَدِيرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا عَنُ الْوَرِيئِ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُنْهَاهَا رَسُولًا يَتْلُوا آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مَهْلِكُ الْقُرَى إِلَّا وَأَمَلُهَا غَلِيظٌ ﴿٥٩﴾﴾. يقول تعالى مُعْرِضاً بأهل مكة في قوله: ﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِن قَرْبَةٍ بَطَرْت مَيْسَتَهَا﴾ أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ مَائِنَةً مُطْمَئِنَةً بِأَيْمَانِهَا يَرْفُهَا رَعْدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُرْعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] ولهذا قال: ﴿فَبَلَكَ مَسْكُكُهُمْ لَرُ شَكُنُ يُن بَدِيرِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم. وقوله: ﴿وَكُنَّا عَنُ الْوَرِيئِ﴾ رجعت خراباً ليس فيها أحد. وقد ذكر ابن أبي حاتم ما هنا عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر: إن سليمان، عليه السلام، قال للهامة - يعني البومة -: ما لك لا تأكلين الزرع؟ قالت: لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة. قال: فما لك لا تشربين الماء؟ قالت: لأن الله أغرق قوم نوح به. قال: فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب؟ قالت: لأنه ميراث الله ﷻ ثم تلا: ﴿وَكُنَّا عَنُ الْوَرِيئِ﴾ ثم قال الله مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُنْهَاهَا وَهُيَ مَكَّةُ رَسُولًا يَتْلُوا آيَاتِنَا﴾. فيه دلالة على أن النبي الأمي، وهو محمد، صلوات الله وسلامه عليه، المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى، من عرب وأعاجم، كما قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آيَاتِنَا إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيمًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا نُذِكرُ بِهِ وَمَنْ يَلْعَبْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدٌ﴾ [مرد: ١٧]. وتام الدليل قوله: ﴿وَإِن مِن قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مَهْلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨]. فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى؛ لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود». ولهذا ختم به الرسالة والنبوّة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُنْهَاهَا﴾ أي: أصلها وعظمتها، كأمهات الرساتيق والأقاليم. حكاها الزمخشري وابن الجوزي، وغيرهما، وليس ببعيد.

﴿وَمَا أَرْبِيئُهُ مِن شَيْءٍ فَفَتَحَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَرَبَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدَّنَهُ وَعَدَّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَن مَّتَعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾. يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال: ﴿مَا عِنْدَكَ يَفْعَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال: ﴿وَمَا لِكَيْفُوهُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿بَلْ تُؤَيِّدُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال رسول الله ﷺ «والله ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يغمس أحدكم لإصبغ في اليوم، فلينظر ماذا يرجع إليه». وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة؟ وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدَّنَهُ وَعَدَّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَن مَّتَعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيدته، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل، ثم هو يوم

الْيَقِيمَةَ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ ﴿٦٢﴾ قال مجاهد، وقتادة: من المعديين. ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدرجات: ﴿وَلَوْلَا يَمَنَةٌ رَبِّي لَكَثُرَ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْمِثْمَةَ إِتْمَانًا كَثِيرًا وَبَدَّوهُمُ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَةً لَكَ فَخَسَبْ عَنْهُمُ الْجِنَّةَ شُجْرًا ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَمَعِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ بِوَيٍّ مُرِيدٍ فَهُمْ لَا يَنْسَأُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَجَمَلَ صَاحِبًا فَسَقَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَوَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْكُمْ وَرَأَوُا ظُهُورَهُمُ الْيَوْمَ بِأَكْبَامِهِمْ فَبُذِلُوا ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: من الشياطين والمرتدة والدعاة إلى الكفر، ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَةً لَكَ﴾، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِئَابِهِمْ وَيُكْفُرُونَ بِعَالِيهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَسْبَلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَفِيلُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحق: ٦٥، ٦٤]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَبَلَغَتْ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [المكوت: ٦٦]، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٦٧﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]؛ ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صابرون إلى النار لا محالة. وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودوا حين عابنوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا ﴿٥٦﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَهَا مَصْرِفًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧، ٥٨]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾: النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله. وأما الكافر فيقول: هاه... هاه... لا أدري؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَعِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ بِوَيٍّ مُرِيدٍ فَهُمْ لَا يَنْسَأُونَ ﴿٦٧﴾﴾. وقال مجاهد: فمعيت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب. وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَجَمَلَ صَاحِبًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿فَسَقَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة، «وعسى» من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَبْرُ وَالْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ وَالْأُولَىٰ وَالْآخِرَةُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦]. وقد اختار ابن جرير أن «ما» هاهنا بمعنى «الذي»، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة. وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجود مراعاة الأصلح. والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم، عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفرادة تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئاً. ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِوَعْمَنْ

هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ﴿٦٦﴾ [الرمع: ١٠]. وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿كُلُّ أَحَدٍ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ أَي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْمَكْرُمُ أَي: الذي لا معقب له، لقهره وغلبيه وحكمته ورحمته، ﴿وَلِلَّهِ تَرْجُومُونَ أَي: جميعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما. وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولسمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِي أَي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَي: خلق هذا وهذا، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ أَي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أَي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿يَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧١﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٢﴾.

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَي: في الدار الدنيا. ﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ أَي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ أَي: لا إله غيره، أي: فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أَي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ وَوَأَيَّتَهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَنُوا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْ كُفُورًا لِنَسْ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفَرِينَ ﴿٧٤﴾.

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ قال: كان ابن عمه. وهكذا قال إبراهيم الخثعمي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جُرَيْج، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى، عليه السلام. قال ابن جُرَيْج: هو قارون بن يهصر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. وزعم محمد بن إسحاق بن يسار: أن قارون كان عم موسى، عليه السلام. قال ابن جرير: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم. وقال قتادة بن دعامة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالثورة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طويلاً، ترفعاً على قومه. وقوله: ﴿وَأَيَّتَهُ مِنَ الْكُفُورِ أَي: من الأموال ﴿مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَنُوا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ أَي: لِيُثْقَلَ حَمْلُهَا الْفَنَاءُ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِهَا. قال الأعمش، عن خثيمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفاتح مثل الأصبع، كل مفاتح على خزانة على حدته، فإذا ركب حُمِلت على ستين بعلًا أغر محجلاً. وقيل: غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ أَي: وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: المرحين. وقال مجاهد: يعني: الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقوله: ﴿وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْ كُفُورًا لِنَسْ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا أَي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات،

التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة. ﴿وَلَا تَسْكُ نَفْسِكَ مِنَ الذُّنُوبِ أَي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشرب والملابس والمسكن والمناجح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه. ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أَي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿وَلَا تَبْخِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ أَي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض، وتسيء إلى خلق الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِذِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ أولم يعلم أنك الله قد أهلك من قبليه من القرون من هو أشد منه قوةً وأكبر جمماً ولا يستل عن ذنوبهم المتجرئون ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ أي: أنا لا افتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أي أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْأَمِينُ مِنِّي فَأَنَا ظَنَمٌ إِذَا حَوَّلْتُهُ يُعَمَّهُ مَنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنِّي مِنْ بَعْدِ صِرَاطٍ مَسْتَقِيمٍ لِيُقُولَ هَذَا لِي﴾ [تصلت: ٥٠]. أي: هذا أستحقه. وقد زوي عن بعضهم أنه أراد: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ أي: إنه كان يعاني علم الكيمياء، وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ قال الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ حَرِيْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَعْمُوا لَهُمُ الْكَلِمَ الَّذِيكَ تَدْعُوهُ مِنَ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ١٧٣]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زور ومحال، وجعل وضلال. وإنما يقدر على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهو كذب وزغل وتمويه، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات واختياره وفعله، كما روى عن خبيرة بن شريح المصري، رحمه الله، أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها. وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتمول بسببه. والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال - : ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمًّا﴾ أي: وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْتَلَّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾: على خير عندي. وقال السدي: على علم أي أهل لذلك. وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمًّا﴾ ولا يستل عن ذنوبهم المتجرئون. وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ بُرِيْدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَيَّنَّتْ لَنَا مَثَلًا مَّا أُوتِيَ قَرْيُونَ إِنَّهُ لَأُوْحَىٰ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قارون: إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجميل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، قالوا: ﴿بَيَّنَّتْ لَنَا مَثَلًا مَّا أُوتِيَ قَرْيُونَ إِنَّهُ لَأُوْحَىٰ عَظِيمٌ﴾ أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقاتلهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ قال السدي: وما يلقى الجنة إلا الصابرون. كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من

كلام أولئك، وجعله من كلام الله ﷻ وإخباره بذلك.

﴿فَتَسْنَا بِهِ وَيَدَارُو الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصِمِينَ ﴿٨١﴾ وَأَسْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُطْرِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَذِّبُنَا لَا يَعْلَمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم - أن أباه حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بُرْدَيْنِ أخضرين يخالن فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة». تفرد به أحمد، وإسناده حسن. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خنيفة - حدثنا أبو معلى بن منصور، أخبرني محمد بن مسلم، سمعت زياداً النميري يحدث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر - شكر - في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال: رأيت شاباً في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتماحه وجماله، فقال: ما لك تنظر إلي؟ فقلت: أعجب من جمالك وكمالك. فقال: إن الله ليعجب مني. قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذ بعض قرابته في كفه وذهب. وقد ذكر أن هلاك قارون عن دعوة نبي الله موسى، عليه السلام، واختلف في سببه، فعن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تبته موسى بحضرة الملا من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله، فتقول: يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا. فلما قالت في الملا ذلك لموسى، عليه السلام، أزعج من الفرق، وأقبل عليها وصلى ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجاك من فرعون، وفعل كذا وفعل كذا، لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت؟ فقلت: أما إذ نَشَدْتَنِي فَإِنَّ قَارُونَ أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا، على أن أقول لك، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فعند ذلك خر موسى ﷺ ساجداً، وسأل الله في قارون. فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبته وداره فكان ذلك. وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدومه الثياب الأرجوان الصبغة، فمر في جفلة ذلك على مجلس نبي الله موسى، عليه السلام، وهو يذكرهم بأيام الله. فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله، ينظرون إلى ما هو فيه. فدعاه موسى، عليه السلام، وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى، أما لئن كنت فُضِّلْتُ عليَّ بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنترجن، فلنتدعون عليَّ وأدعو عليك. فخرج وخرج قارون في قومه، فقال موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال: بل أنا أدعو. فدعا قارون فلم يجب له، ثم قال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم، مُرِ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَنِي الْيَوْمَ. فأوحى الله إليه أني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم. ثم قال: خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى منابهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأمواهم. قال: فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عباس أنه قال: خُسف بهم إلى الأرض السابعة. وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة. وقد ذكرها هنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصِمِينَ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله وما جمعه، ولا خدمه ولا حشمه. ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله به، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له لا من نفسه، ولا من غيره. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينته ﴿يَبْتَغِي لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَظِيمٌ﴾، فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُطْرِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال ببدل على رضا الله عن صاحبه وعن عبادته، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب». ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا لأطف الله بنا وإسنانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله. ﴿وَيَكَذِّبُنَا لَا يَعْلَمُ الْكَافِرُونَ﴾: يعنون: أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى ها هنا: ﴿وَيُكَذِّبُنَا﴾، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن»، ولكن خُفِّفْتُ فقيل: «ويك» ودل فتح «أن»

على حذف «اعلم». وهذا القول ضعّفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكان». والكتابة أمر وضعي اصطلاحى، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل: معناها: ويكان، أي: ألم تر أن. قاله قتادة: وقيل: معناها: «وي كان»، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، و«كان» بمعنى «أظن وأحسب». قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى: ألم تر أن، واستشهد بقول الشاعر:

سَالَتَانِي الطَّلَاقُ أَنْ رَأَيْتَانِي قَلَّ مَالِي، قَدْ جِئْتُ مَانِي بِنُكْرٍ
وَيَكُنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُخْبِرُ يَبِّ، وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضَرِّ
﴿تِلْكَ أَدَارُ الْأَخِرَةِ جَمَعَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْقِيَمَةَ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ الْكَيْدُ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعبادة المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، أي: ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة: العلو: التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو: البغي. وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور، عن مسلم البطين: العلو في الأرض: التكبر بغير حق. والفساد: أخذ المال بغير حق. وقال ابن جرير: «لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ» تعظماً وتجبراً، «وَلَا فُسَادًا»: عملاً بالمعاصي. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أشعث السمان، عن أبي سلام الأعرج، عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شركائه نعله أن يكون أجود من شركائه صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ أَدَارُ الْأَخِرَةِ جَمَعَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْقِيَمَةَ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾. وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتناول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجلُّل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أضمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا»، إن الله جميل يحب الجمال». وقال: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» أي: يوم القيامة «فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا مقام الفضل. ثم قال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ الْكَيْدُ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعُرُونَ»، كما قال في الآية الأخرى: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعُرُونَ ﴿٩٠﴾ [النمل: ٩٠]». وهذا مقام الفصل العدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارِ قُلِّ رَبِّي أَطْلَمَ مَنْ جَاءَ بِالْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَائِدَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رِبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس، ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسأل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ إِلَيْكَ أَنزِيلًا لِتَهْمَرُوا وَنَسْتَأَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦١]، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٣١﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا تَقَىٰ بِالْأَيْدِي وَالشُّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال السدي عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾، يقول: لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن. قال السدي: وقال أبو سعيد مثلها. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزهري. وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾: إلى الموت. ولهذا طُرِّقَ عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وفي بعضها: لرادك إلى معدنك من الجنة. وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة. وكذا روي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبي قزعة، وأبي مالك، وأبي صالح. وقال الحسن البصري: أي والله، إن له لمعاداً، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة. وقال زوي عن ابن عباس غير ذلك، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل، أنبأنا يعلى، حدثنا سفيان الثوري، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾ قال: إلى مكة. وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطنافسي - به. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَارٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. وقال محمد بن

إسحاق، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَارٍ﴾: إلى مولدك بمكة. قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس، ويحيى بن الجزار، وسعيد بن جبيرة، وعطية، والضحاك، نحو ذلك. وحدثننا أبي، وحدثننا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: فسمعنا من مقاتل منذ سبعين سنة، عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ أَلَدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدَكَ إِلَيَّ مَعَارٍ﴾ إلى مكة. وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكيًا، والله أعلم. وقد قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَارٍ﴾ قال: هذه مما كان ابن عباس يكتبها، وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القاري أنه قال في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَارٍ﴾ قال: إلى بيت المقدس. وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر، والله الموفق للصواب. ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجله، صلوات الله وسلامه عليه، كما فسره ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَقْبِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ أنه أجل رسول الله ﷺ نُعي إليه، وكان ذلك بحضور عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَارٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق. وقوله: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ يَاهُنْدِي وَمَنْ هُوَ فِي سَلْبِي ثُبِينٌ﴾ أي: قل - لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم - قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبية نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُفْتَحَ إِلَيْكَ الْكُتُبُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحتك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: ولكن فارقههم وناذهم وخالفهم. ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك لا تلوي على ذلك ولا تناله؛ فإن الله مُغْلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلت به على سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَأَذْعُ إِلَيَّ رِبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ النَّاشِرِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ها هنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له. قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

اسْتَشْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُخْصِيَةً رَبَّ الْعِبَادِ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ
وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله ﷻ من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة. والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار»: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا عمر بن سليم الباهلي، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه، يأتي الخبرة فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. وقوله: ﴿لَهُ الْفُكْرُ﴾ أي: الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه، ﴿وَرَأَيْتُ شُجْعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيحزركم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله أعلم.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَةُ ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا يد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء». وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءَ وَذُلًّا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَعَى نَصْرِ اللَّهِ إِنْ أَنْصَرْتُمْ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبِقَرَةَ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ ﴿١﴾ أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَسَلِمَنَّ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣﴾ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا واطم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا﴾ أي: يفوتونا، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بشس ما يظنون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [نصحت: ٤٦]. أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف. ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَيْئًا وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال ها هنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَبًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنَّ مَرْجِعَكُمْ فَأْتِيخُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى أمراً بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَبًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ﴿٨﴾. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَبًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ﴿٨﴾.

يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَغْلُ قُلُوبَنَا أَتَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لِهَٰمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٤﴾ وَأَنْفِضْ لِهَٰمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٥﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَأِنْ جَهَدَكَ لِتَشْرِكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حيا دينيا؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٦﴾. وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، حدثنا ابن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب قال: سمعت مضعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد، قال: نزلت في أربع آيات. فذكر قصة، وقالت أم سعد: ليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطمع طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَهَدَاكَ إِلَىٰ آلِيهِمَا فَاصْبِرْ لَهُمَا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ﴾ وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَذَّابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾. يقول تعالى مخبرا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَذَّابِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي اللَّهَ عَلَىٰ حَرْبٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الَّذِي وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْفَسْرُ الْعَمِيدُ﴾ ﴿١١﴾ [الحج: ١١]. ثم قال: ﴿وَلَئِن جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إننا كنا معكم، أي كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا آلَهُ نَكُن مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا آلَهُ نَسْتَجُودُ عَلَيْهِمْ وَنَمْسَعُهُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَمَبْصُرًا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ يَكِيدُ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقال تعالى مخبرا عنهم ها هنا: ﴿وَلَئِن جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: وليخبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطبع الله في الضراء والسراء، إنما يطبعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَتَسَلَّلُوا لَكُمْ حَتَّىٰ تَقَرَّ الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالْعَادِينَ وَيَبْلُغُوا أَرْبَابَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ [محمد: ٢٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطِيئَتِهِمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَابًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَغْنَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾ ﴿٣١﴾. يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش: أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، ﴿وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: وأثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تكذيبا لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطِيئَتِهِمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِزْلِهَا لَا يَحْمِلُ بِئْسَ شَيْءًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿٣٢﴾ [يوسف: ١١]، [المعارج: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَابًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزار آخر بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَرْزَابَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَرْزَابِ الَّذِينَ يُبْغُونَهُمْ بَعِيرٌ عَلَيْهِ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [النحل: ٢٥]. وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا» وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل». وقوله: ﴿وَلَيَسْتَغْنَىٰ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٤﴾ أي: يكذبون ويختلقون من البهتان. وقد ذكر ابن أبي حاتم ما هنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية، حدثني سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به، ثم قال: «إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم! ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس إليها بأبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن ﷻ ثم يأمر المنادي فينادي. من كانت له تباعة - أو: ظلامة - عند فلان ابن فلان، فهلّم. فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي. فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناته. فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي. فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه». ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِيَحْلِلْ أَرْقَامَهُمْ وَأَتَاكَ مَعَ أَقْبَابِهِمْ وَلِيَسْتَأْذِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٥﴾. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا أبو بشر الحذاء، عن أبي حمزة الثمالي، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كحل عينيه، وعن فئات الطيبة بإصبعيه، فلا ألقينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما أتاك الله منك».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيرَ عَلَمًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، يخبره عن نوح، عليه السلام: أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً، وجهراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق، وإعراضاً عنه وتكديباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيرَ عَلَمًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٦﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويبيد الأمر وإليه ترجع الأمور، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُوْثِقُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾. أيونس: ٩٦، ٩٧، واعلم أن الله سيظهورك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. قال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً، حتى كثر الناس وفشوا. وقال قتادة: يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً. وقال عون بن أبي شداد: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة. وهذا أيضاً غريب، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وقول ابن عباس أقرب، والله أعلم. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً. قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا. وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوح عليه السلام. وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة «هود»، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمة على الخلق، كيف نجّاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَّمْ تَأْتِ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُورِ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا لِمَنْ يَنْصَلِحُ لِمَنْ يَنْصَلِحُ مَا يَكُونُ ﴿١٩﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لِمَنْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾﴾. يس: ٤١ - ٤٤، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُومٌ فِي الْفَارِيَةِ ﴿١٨﴾ لِيَجْعَلَ لِكُلِّ تَكْوِينٍ وَصِيًّا أَذُنٌ وَغِيبةٌ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال ما هنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾، وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّاطِينِ ﴿٥٠﴾﴾ [الملك: ٥٠] أي: وجعلنا نوعها، فإن التي يرمي بها ليست هي التي زينة للسماء وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٧، ١٨]، ولهذا نظائر كثيرة. وقال ابن جرير: لو قيل: إن الضمير في قوله ﴿وجعلناها﴾، عائد إلى العقوبة، لكان وجهاً، والله أعلم.

﴿وَأَنزَلْنَاهُ فِي قُرْآنٍ لِّعَرَبٍ عَرَبِيًّا وَتَعْلَمُونَهُ ﴿١٩﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لِمَنْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾﴾

كَذَّبَ أُمٌّ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء؛ أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسَدِّدٌ لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: اخلصوا له العبادة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتوها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدي. وروى الوالبي، عن ابن عباس: وتصنعون إنفاً، أي: تحتونها أصناماً. وبه قال مجاهد - في رواية - وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير، رحمه الله. وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِنِّي أَنْتَ نَعْبُدُ وَإِنَّا أَنْتَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاطحة: ٥]، ﴿رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَاعْبُدُوا وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من رزقه وعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِنِّي لَرَجْمٌ مَكِينٌ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَدَبٌ كَذَّبَ أُمٌّ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَدَبٌ كَذَّبَ أُمٌّ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يُعْزِي نَبِيَّهُ ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل، عليه السلام لقومه يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْغَنِيُّ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَمَا أُنشِرُ بِمُجْرِبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ لِلَّهِ وَاللَّهُ يَبْشُرُ بِمَا يُكْمَلُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤).

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، ونمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩)، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْغَنِيُّ﴾ (٢٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١). وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَهُمْ اللَّهُ السَّمْعُ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٦) [الطور: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢٢) أي: ترجعون يوم القيامة. وقوله: ﴿وَمَا أُنشِرُ بِمُجْرِبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٣) أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا بالمعاد، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ لِلَّهِ وَاللَّهُ يَبْشُرُ بِمَا يُكْمَلُونَ لَهُمْ فِيهَا،﴾ لا نصيب لهم فيها، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ لِلَّهِ وَاللَّهُ يَبْشُرُ بِمَا يُكْمَلُونَ لَهُمْ فِيهَا﴾ (٢٤) أي: موجع في الدنيا والآخرة. ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقُولُونَ أَنَّا خَلَقْنَا أَمْ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقُولُونَ الْقُرْآنَ أَزَّوْجًا وَأَوْجًا مُخْتَلِفًا أَمْ كَلِمَاتٍ مِنْ أَنْبَاءِ الْآخِرِينَ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿قَالُوا إِنَّا لَمُبْتَلُونَ فَانقُذْنَا وَلَا نَكُفِّرُ بِنِعْمَتِكَ إِلاَّ بِطَوْلِكَ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨]، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحزطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب عنان السماء: ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً. ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقرابان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان. وقوله: ﴿فَأَجَسَّهُ اللَّهُ بِرَبِّكَ النَّارِ﴾ أي: سلّمه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنَ اللَّهِ حُجَّةً بَيْنَكُمْ﴾، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يُحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنًا، ﴿يَكْفُرُ بِمَا كُنْتُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: تتجاهدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْمِزُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ يَلْمِزُكُمْ﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَدُنَّ آيَاتُنَا فَأَنبَأُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ يُرْمَوْنَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال ها هنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: ومرجعكم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فيخلاف ذلك. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو عاصم الثقفي حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي، عن أبيه، عن جده، عن أم هانئ - أخت علي بن أبي طالب - قالت: قال لي النبي ﷺ: «أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين الطرفان»، فقالت الله ورسوله أعلم ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، فيشربون» قال أبو عاصم: يرفعون رؤوسهم ثم ينادي يا أهل التوحيد، ثم ينادي الثالثة: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم» قال: «فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعني: المظالم - ثم ينادي: يا أهل التوحيد، ليغف بعضكم عن بعض، وعلى الله الثواب».

﴿فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّحْمِ أَلْبَسْهُ إِلاَّ يَتَّبِعِ الْفِتْنَةَ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ جَمَعًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكَنَزَ وَمَوَاتِنَ آخَرًا فِي الذِّكْرِ وَآخِرُ لَيْسَ الْمَسْلُومِينَ﴾ [١٧].

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم: أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط ابن هاران بن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواء، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح: أن إبراهيم حين مرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: هي أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: «إنك: أختي»، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين. وكان المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً، عليه السلام، آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل «سدوم» وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾: يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿قَالَ﴾، على لوط، لأنه أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال ابن عباس، والضحاك، هو المكنى عنه بقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّحْمِ﴾ أي: من قومه. ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمسك من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَيْبُ﴾ أي: له العزة ولسروله وللمؤمنين به، ﴿الْمَكِيدِ﴾، في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية. وقال قتادة: هاجرا جميعاً من «كوثي»، وهي من سواد الكوفة إلى الشام. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها، حتى تلفظهم أرضهم وتقذّرهم روح الله، وتحشرهم النار مع القرودة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل ما سقط منهم». وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث، فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية، قدمت الشام فأخبرت

بمقام يقومه نوف البكالي، فجنته؛ إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضوهم، تقدروهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتببت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل منهم من تخلف». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن فُطع، كلما خرج منهم قرن قطع» حتى عذها زيادة على عشرين مرة «كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج الدجال في بقيتهم». ورواه أحمد عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدستوائي، عن قتادة، به. وقد رواه أبو داود في سننه، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنى الشام: حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض أزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقدروهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية، عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثم لقد رأيتنا بأخرة الآن، والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد في سبيل الله، ليلزمنكم الله مذلةً في أعناقكم، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم، وتقدروهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تقبل حيث يقولون، وتببت حيث يبيتون، وما سقط منهم فلها». ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من أمتي قوم يسئون الأعمال، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد: لا أعلمه إلا قال -: يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه. كلما طلع منهم قرن قطعه الله». فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة، أو أكثر، وأنا أسمع.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيين قالا: حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الأزاعي، عن نافع - وقال أبو النضر، عن حدثه، عن نافع - عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة، إلى مهاجر إبراهيم، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها، تلفظهم الأرضون وتقدروهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تببت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا، لها ما سقط منهم». غريب من حديث نافع. والظاهر أن الأزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته عن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ وَمَا عْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] أي: إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولده ولد صالح في حياة جده. وكذلك قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُنَّ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَقَالُوا بَشَرًا مِّثْلَ آبَائِكُمُ الَّذِي بَدَعُوا وَإِسْحَاقُ لِلَّهِ وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالَكُتُبَ﴾، هذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام، إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام: ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله تعالى. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَنَلَقْنَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ أي: جمع الله

له بين سعادته الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرُخْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِزْهِيهِ الَّذِي وَقَّ (٢٧)﴾ [النجم: ٢٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِزْهِيَةَ كَاتِبٌ أُمَّةٌ فَأَيُّهَا اللَّهُ حَيْفًا وَلَوْ بَلَغَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢٨)﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَنَبَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَأَنْتَوْنَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرُ فَمَا كَاتِبٌ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿وَأَنْتَوْنَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرُ﴾، أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قاتل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا، قاله مجاهد. ومن قاتل: كانوا يتضارطون ويتصاحكون؛ قالته عائشة، رضي الله عنها، والقاسم. ومن قاتل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سماك بن حرب، عن أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿وَأَنْتَوْنَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرُ﴾، قال: «يحدفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة عن أبي يونس الششيري، حاتم بن أبي صغيرة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا يعرف إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة، عن سماك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿وَأَنْتَوْنَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرُ﴾ قال: الصغير، ولعب الحمام والجلاط، والسؤال في المجلس، وحل أزرار القباء. وقوله: ﴿فَمَا كَاتِبٌ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزأتهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِفِ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَهْلُهَا يَمِينُ فِيمَا لَنْنَجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَنْرَأَيْتَ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيبِ ﴿٣٥﴾﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَكْ بِهِمْ دَعَا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَحْرَنْ إِنَّا مَسْجُوكٌ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَنْرَأَيْتَ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيبِ ﴿٣٦﴾﴾ إِنَّا مَرْبُوكٌ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجَزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً يَسْتَكْفِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

لما استنصر لوط، عليه السلام، الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم، عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤوانسونه ويشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة «هود» و«الحجر». فلما جاءت إبراهيم بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يظنون، لعل الله يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَهْلُهَا يَمِينُ فِيمَا لَنْنَجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَنْرَأَيْتَ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيبِ ﴿٣٤﴾﴾. أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك، ﴿سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَكْ بِهِمْ دَعَا﴾، أي: اهتم بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. ﴿وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَحْرَنْ إِنَّا مَسْجُوكٌ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَنْرَأَيْتَ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيبِ ﴿٣٥﴾﴾ إِنَّا مَرْبُوكٌ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجَزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً يَسْتَكْفِرُونَ﴾ أي: واضحة،

﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لِكَرْبَتِهِمْ عَلَيْهِمْ تُصَيِّبِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنِّي لَأَنذَرْتُ لَكُمُ الْيَوْمَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].
 ﴿وَلَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ بِأَنْتَ إِذْ قَالَ يَنْفِرْ أَغْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب، عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمة وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَنْفِرْ أَغْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [المتحنة: ٦]. ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسطة في سورة «الأعراف»، وهود، والشعراء». وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾، قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿وَعَسَاؤُكُمْ وَسُوءُكُمْ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْوَاءَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبِيرِينَ ﴿٤١﴾ وَقَرَّبْتَ مَوْجِبَاتٍ وَمَهْمَاتٍ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُوسُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٤٢﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مَن آرَأَيْتُمْ أَن كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿كَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَبَدَّلْنَا مَن آرَأَيْتُمْ أَن كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقي بدأ بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُمْ مَن آخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألو سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدتهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخذت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فحسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُمْ مَن آغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم. وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿كَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَبَدَّلْنَا مَن آرَأَيْتُمْ أَن كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، قال: قوم لوط. قال: قوم نوح. وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جريج لم يدركه. ثم قد ذكر في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق. وقال قتادة: ﴿فَبَدَّلْنَا مَن آرَأَيْتُمْ أَن كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُمْ مَن آخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، قوم شعيب. وهذا بعيد أيضاً لما تقدم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَتَبَلِ الشَّكْرِيِّنَ إِذْ جَاءَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه

شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها. ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به. إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم. ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ (٤٤) أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال: عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل. وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حيث يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ (٤٤). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابن سنان، عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحرزني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ (٤٤).

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤) أتلى ما أوحى إليك من الكتاب وأوتيت السكوة إنك السكوة تنه عن الفحشاء والشكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ (٤٥).

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، ﴿لِيُتَجَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [طه: ٤٥]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: للدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية. ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقْرِءْ السَّكُوتَ إِنَّ السَّكُوتَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعداً».

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد، حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنَّ السَّكُوتَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: «من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر، فلا صلاة له». وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً» ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المسيب، عن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ السَّكُوتَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: فمن لم تأمره صلواته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزد بصلواته من الله إلا بعداً. فهذا موقوف. قال ابن جرير: وحدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن جوير، عن الضحاك، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر» قال: وقال سفيان: «قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ» [مود: ٨٧] قال: فقال سفيان: أي والله، تأمره وتنهاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن جوير، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم تنه عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً». والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وقتادة، والأعمش وغيرهم، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر - شك الأعمش - قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي فإذا أصبح سرق، قال: «سينهاه ما يقول». وحدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه - ولم يشك - ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي

صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال جرير وزباد: عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش قال: أنا أبو صالح، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إنه سينهاه ما يقول». وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أفعالكم وأعمالكم. وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه. وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: ولذكر الله لعباده أكبر، إذا ذكروه من ذكركم إياه. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك. قلت: فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول: قال: وأي شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله: ﴿فَأَذْكُرُوا مَا كُنتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه. قال: صدق. قال: وحدثنا أبي، حدثنا النفيلي، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُثَيْبٌ، أخبرنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم. قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولاً عجباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس. وروى أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِيدٌ وَنَحْنُ كَأَمَّ مُسْلِمُونَ﴾.

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿أَوْعِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْوَعظِ لَنْسَوَ وَحَدِيثُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَ إِلَهًا إِلَّا الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلال، ويقانلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصِرُ فِي سَبِيلِهِ وَمَنْ يَرْسَلْ بِالْقَبِيحِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف. قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية. وقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً. وقال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة: أن أبا نملة الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ، جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «الله

أعلم: قال اليهودي أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله وكتبه، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم». قلت: وأبو نملة هذا هو: عُمارة: وقيل: عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصاري، رضي الله عنه. ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة بن عمير، عن حُرَيْث بن طُهَيْر، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا باطلاً، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية، تدعوه إلى دينه كتالية المال. وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يُشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيره وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حُميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحبار - فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحديثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك، كُلُّ بحسبه، والله الحمد والمنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِبَيِّنَاتِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمَطْلُونُ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُمْ آيَاتٌ يَبْعَثُ فِي سُؤْمُرِ اللَّيْلِ أَوْتُوا الْوَيْلَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْفٰلْسِفُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزل الكتابُ على من قبلك - يا محمد - من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد. وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما. وقوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصلات، وهيهات. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِبَيِّنَاتِكُمْ﴾، أي: قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقراً كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقراً ولا تكتب. وهكذا صفة في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه، عليه السلام، كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»: فإنما حملة على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل - أعني الباجي، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لأنه كان يحسن الكتابة، كما قال، عليه الصلاة والسلام، إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن»، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت، عليه السلام، حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أي: تقراً ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾، لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَحْطُ بِبَيِّنَاتِكُمْ﴾ تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا ظَهَرَ بَطْرٌ بِمُحَاطَبِيهِ﴾ [الانعام: ١٣٨]. وقوله: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمَطْلُونُ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِيكَ أَكْتَبَهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَوْسِيلاً﴾ [الفرقان: ٥٠]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْبَيْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، وقال ها هنا: ﴿بَلْ هُوَ

ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَي: هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهيّاً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القم: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

وفي حديث عياض بن حمار، في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني مبتليكم ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان». أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل، كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب، ما أحرقته النار». لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم». واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنَاتٍ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك، آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَحْكُمُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٦] ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٠] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ رَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥١] ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بِنِيَّ وَإِنَّكُمْ تَشْهَدُونَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٥٢].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّمَا تُمَوِّدُ الْآفَاقَةَ مَيْمَنَةً فَنَقَلْمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين التذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله ﴿وَمَنْ يَبْدُ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ مَوْجِدًا مَرشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم، وسخافة عقلمهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجننتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا بِآيَاتِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ أَلَمْ تأتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [١٦٣] [طه: ١٣٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». أخرجاه من حديث الليث. وقال الله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن: ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: بياناً للحق، وإزاحة للباطل و﴿ذِكْرٌ﴾ بما فيه حلول التقدمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، ﴿رَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ثم قال تعالى: قل: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بِنِيَّ وَإِنَّكُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لاتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقْوَابِ﴾ [٤٤] ﴿لَكُنَّا مِنْهُ بَالِغِينَ﴾ [٥٠] ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾ [٤٦] ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ سُوءِ عَثَرِهِ حَيْرِينَ﴾ [٤٧] [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات. ﴿يَعَذَّرُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفي عليه خافية. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم

على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّمَنَ مَرَّ الْعَذَابُ وَبِأَيْدِيهِمْ بِنْتَةٌ وَمَنْ لَا يَشْكُرْ ٥٣﴾ ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّمَنَ مَرَّ الْعَذَابُ وَبِأَيْدِيهِمْ بِنْتَةٌ وَمَنْ لَا يَشْكُرْ ٥٤﴾ ﴿يَوْمَ يَنْشُرُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قُوفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُرُّوهُمَا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانتَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّمَّا تُنزِلُ﴾.

[الأنفال: ٢٢]، وقال ها هنا: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ جَهَنَّمَ لِحِطَّةٍ﴾ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴿أَي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَبِأَيْدِيهِمْ بِنْتَةٌ﴾ أَي: فجأة، ﴿وَمَنْ لَا يَشْكُرْ ٥٤﴾

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ جَهَنَّمَ لِحِطَّةٍ﴾ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ أَي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة، عن سِمَاك، عن عكرمة قال في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانتَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّمَّا تُنزِلُ﴾

الحسين، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدثنا أبي عن مجالد، عن الشعبي؛ أنه سمع ابن عباس يقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانتَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّمَّا تُنزِلُ﴾

﴿لِحِطَّةٍ﴾ بِالْكَافِرِينَ: وجهنم هو هذا البحر الأخضر، تنثر الكواكب فيه، وتكرر فيه الشمس والقمر، ثم يستوقد فيكون هو جهنم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حُيَي، حدثنا صفوان بن يعلى، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «البحر هو جهنم»، قالوا: ليعلى، فقال: ألا ترون أن الله يقول: ﴿فَأَنزَلَ مِنْ سَمَوَاتِهِمُ سُرَادِقًا﴾

[الكهف: ٢٩]، قال: لا، والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله، ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله ﷻ. هذا تفسير غريب، وحديث غريب جداً، والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْشُرُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قُوفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قُوفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُمْ مِنْ قُوفِهِمْ ظُلُلٌ مِمَّنِ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ظُلُلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارِ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُرُّوهُمَا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديد

وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهمُ ذُرُّوهُمَا مَسَّ سَرُّهُمُ ٥٦﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٥٧﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ٥٨﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ يَهَايِكُمْ بِهَا كُذِّبْتُمْ ﴿٥٩﴾ أَمْسَحُوا هَٰذَا أَمْ أَسْرَ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٠﴾ أَسْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْرَمُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿يَعْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَبِعَدَّةِ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ٥٣﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَلَمْ يُنْفَكُوا عَنْ حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَلَمْ يُنْفَكُوا عَنْ حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَلَمْ يُنْفَكُوا عَنْ حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدر على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدهوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿يَعْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَبِعَدَّةِ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ٥٣﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثني جُبَيْر بن عمرو القرشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم». ولهذا

لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحابه النجاشي ملك الحبشة، رحمه الله، آراهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيُوماً ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة. ثم قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٤﴾ أَي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: ماكثين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً، ﴿يَتَمَّزُّ أَعْرَ الْعَالَمِينَ﴾: نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق مواعده. قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه

زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معاتق الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة عُرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة، والناس نيام. قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ زِينَتَهُمْ﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطيور في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَمُنُّ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ يَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبتون رزق سنتهم بضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ زِينَتَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أخبئ رزقاً لغد». وهذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف. وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك، نفرأ عنهم أياماً حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه، فيقيض الله له طيراً صغيراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رآوه أبيض الريش نفرأ عنه، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفاً عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعاب في عُشِّه وجابر العظْم الكسير المهيض
وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر، كقول النبي ﷺ: «سافروا تصحوا وترزقوا». قال البيهقي أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رداد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا». قال: ورويناه عن ابن عباس. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لُهيعة، عن دزاج، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا ترحبوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا». وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً، وعن معاذ بن جبل موقوفاً. وفي لفظ: «سافروا مع ذوي الجدود والميسرة». وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ اللهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ سَمَاءٍ مَاءً فَالْحَيَاةُ بِرِزْقِ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَبِئْسَ الْفِتْنَىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مقررأ أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تليبتهم: «لييك لا شريك لك، إلا شركاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿وَمَا هِيَ الْحَبْرَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْمٌ وَلَيْبٌ وَلَيْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤَ اللَّهِ تَحْوِيلِينَ لَهُ

الَّذِينَ فَلَّمَا جَاءَهُمْ إِلَى الْآلِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا بِشَوْفٍ يَمْلِكُونَ ﴿٦٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ الْآلِ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله: ﴿وَأَن تَكُونُوا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لأنثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعوونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً، ﴿فَإِنَّا رَكِبُوا فِي النُّجِيِّ دَعْوَا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الشُّرَكَاءُ فِي الْبَحْرِ مَدَدًا مِّنْ دَعْوَانَا فَلَا تَجُنُّرْنَا إِلَى الْبِئْرِ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال ها هنا: ﴿فَلَّمَا جَاءَهُمْ إِلَى الْآلِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهله: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا يتنجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضاً، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، وكان كذلك. وقوله: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا﴾: هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصص: ٢٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَّتَحَنَّنًا فَمَا كَانَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَقْبَالًا لِّبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقَرَّنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ .

يقول تعالى ممتازاً على قريش فيما أحلهم من حرمة، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبَ بِهِنَّ وَلِيُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَقْبَالًا لِّبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و ﴿بَدَلُوا بِمَنِّ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أتافهم وأذل رقابهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقَرَّنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه شيء. ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنبصرنهم سبلنا، أي: طرقتنا في الدنيا والآخرة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكا - في قول الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر - قاضي الري - حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم، عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. وفي حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

انتهى تفسير سورة العنكبوت،

وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الروم

مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٤) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٥) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٦) ﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ (٧).

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، كما سيأتي. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ قال: غلبت وغلبت. قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعلوا بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دون» أراه قال: «العشر». قال سعيد بن جبيرة: البضع مادون العشر ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ في بضع سنين لله الأثر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿يَتَصَرَّ اللَّهُ بِصُورٍ مِّنْ بَيْنِكُمْ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾. هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن الحسين بن حريث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان بن سعيد الثوري، به، وقال الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان، عن حبيب. ورواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق الصاغانى، عن معاوية بن عمرو، به. ورواه ابن جرير: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا محمد بن سعيد - أو سعيد الثعلبي الذي يقال له: أبو سعد من أهل طرسوس - حدثنا أبو إسحاق الفزاري، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر.

حديث آخر: قال سليمان بن مهران الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان واللزام، والبطشة، والقمر، والروم. أخرجاه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال: كان فارس ظاهراً على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم. وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ في بضع سنين، قالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس بضع سنين؟! قال: صدق. قالوا: هل لك إلى أن نقامرك. فبايعوه على أربع فلانص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ما بضع سنين عندكم؟» قالوا: دون العشر. قال: «أذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل». قال: فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحِلُّ لَّهِ وَالْعَدَمُ﴾. حديث آخر: قال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي، حدثنا مؤمل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ أَجْدَدَ﴾ قالوا: ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس. قال: صدق صاحبك. قالوا: هل لك أن نخاطرك؟ فجعل بينه وبينهم أجلا، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسأه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: «تعرض لهم وأعظم الخطر واجعله إلى بضع

سنين». فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: هذا السحت، قال: «تصدق به». حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، أخبرني ابن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت، ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ ﴿١﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴿٢﴾ سَبْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ في بضع سنين، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قوله الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِبَصَرِ اللَّهِ يَبْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ ﴿١﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴿٢﴾ سَبْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ في بضع سنين، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينك. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا تراهنك على ذلك؟ قال: بلى - وذلك قبل تحريرم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع: ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فسقوا بينهم ست سنين. قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: ﴿فِي بضع سنين﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير.

هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد. وقد روى نحو هذا مراسلاً عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والزهري، وغيرهم. ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام شئيب بن داود في تفسيره حيث قال: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إنني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشير علي، أيهم أستعمل؟ قالت: هذا فلان، وهو أروغ من ثعلب، وأخذ من صقر. وهذا فرخان، وهو أنفذ من سنان. وهذا شهريراز، وهو أحلم من كذا - تعني أولادها الثلاثة - فاستعمل أيهم شئت. قال: فإني قد استعملت الحلیم. فاستعمل شهريراز، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وحزب مدائنهم، وقطع زيتونهم. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع. فأنتيت الشام بعد ذلك فرأيت. قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر: أن أقيصر بعث رجلاً يدعى قطعة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز، فالتقى بأذرع وتُصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون. قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ ﴿١﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴿٢﴾ سَبْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ في بضع سنين. لله الأشر من قبل ومن بعد. ويومئذ يقرُّ المؤمنون ﴿١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَبْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٢﴾، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أنا حبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزياده في الخطر وماده في الأجل». فخرج أبو بكر فلقى أياً فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمة: لما أن ظهرت فارس على الروم، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز، فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى. فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي هذا فابعث إلي برأس فرخان. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، له نكاية وصوت في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فمجل إلي برأسه. فراجعه، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس: إنني قد نزعتم عنكم شهريراز، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا ولي فرخان الملك، وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة، قال: اتنوني بشهريراز، وقدمه ليضرب عنقه، قال: لا

تعجل عليّ حتى أكتب وصيتي، قال: نعم. فدعا بالسُّفَط فأعطاه الصحائف وقال: كل هذا راجعٌ فيك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد. فرد الملك إلى أخيه شهريزاد، وكتب شهريزاد إلى قيصر ملك الروم: إن لي إليك حاجة لا تحملها البُرْد ولا تحملها الضحف، فالقني، ولا تلقني إلا في خمسين رومياً، فإني ألقاك في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مكر به، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً. ثم بسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين، فدعيا ترجماناً بينهما، فقال شهريزاد: إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني. وقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما. ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا. قال: أجل. فقتلا الترجمان جميعاً بسكينيهما. قال: فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وفرح المسلمون معه.

فهذا سياق غريب، وبناء عجيب. ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَئِن أُسْرُوا سَأَلُوا لِيُرْسَلُوا وَيُرْسَلُوا يُنَادُوا لِلشَّرِّ فِيكُمْ كَفَرُوا﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، في أول سورة «البقرة». وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محارب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً، فتابعها - يقال: تقيّة - واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضب، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا القسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين - يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيروا دين المسيح، عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعائين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشمامسة. وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محارِب، وبنيت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسبورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة». والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل. وكان عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهامهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، وملك البلاد كالعراق وخراسان والزي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحمافة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار. فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك. فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه، ويشترط عليه ما شاء. فأجابته إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة. فطأوه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره، وسأل كسرى أن يُمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواسله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام. فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة من جيش متوسط، هذا وكسرى مُخَيَّم على القسطنطينية

ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحرимه، وحلق رأس ولده، وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ. فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله ﷻ، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنوده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون. لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم. فكان هذا من غلب الروم فارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصري، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فإله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمحي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مناجبة: ﴿الَّذِي خَلَّتِ أَرْوَمُ﴾: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وروى ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو: أنه قال ذلك. وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قُطع المضاف، وهو قوله: ﴿قَبْلُ﴾ عن الإضافة، وثويت: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِبَصْرِ اللَّهِ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس. وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدي، وغيرهم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِبَصْرِ اللَّهِ يُبَصِّرُ اللَّهُ بَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديدية؛ قاله عكرمة، والزهري، وقتادة، وغيرهم، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظهره الله بكسرى ليمش من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله ﷻ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ، الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر. فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش كانوا في غزة، فجيء بهم إليه، فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه -: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأتروا عليّ الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته، فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها - يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديدية على وضع الحرب بينهم عشر سنين، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديدية؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديدية، والله أعلم.

وأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي إصلاحه وتفقد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره، والله أعلم. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أُمَّتَكَ أَتَىٰ عِدَاةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَاكَ ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِتِييسِيَّةٍ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَعِينُونَ﴾ وَإِذَا

سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ رَجَعْنَاهُمْ قَبِيضًا مِنَ الذَّلِيلِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا كُنَّا بِنَاكَ مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى ههنا: ﴿فِي بَضْعِ سَبِيحٍ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ بَصُرَ اللَّهُ يَئُورًا مَنْ بَصُرَ مِنْ بَصَائِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثني أسيد الكلابي، قال: سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه، قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا يد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغْفَلٌ لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله بلغ من أحدهم بدياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨١﴾ أَوْلَىٰ يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَبَعَثْنَا فِي نَفْسِهِمْ رَسُولًا بِمَا لَا يُشِيقُونَ فَمَا كَانُوا يَنْظُرُهُمْ وَلَا يَنْظُرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فعملوا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾. ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوْلَىٰ يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمرها فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين باس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١٠﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَعْقَابَهُمْ لِيَبْهَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُنَا بِهِمْ أَوْلَىٰ مَرَرًا وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنَّنِي يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وعلى هذا تكون السواى منصوبة مفعولاً لأساؤوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّؤَالَ﴾ أي: كانت السواى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السواى منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْشِرُ الْمُشْرِكُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفِرُونَ ﴿١١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلَّوْا الصَّلَاةَ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْتَصِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بدائه فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم

القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ الْمَجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ قال ابن عباس: يبأس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكتب المجرمون. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانواهم أوحج ما كانوا إليهم. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ تَتَقَرَّبُونَ ﴿١٨﴾﴾ قال قتادة: هي - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني: إذا رفع هذا إلى عليين، وخفض هذا إلى أسفل السافلين، فذاك آخر العهد بينهما؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ فَهَبَّرَ فِي رَوْضَةٍ يُوَخَّشِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحبرة أعم من هذا كله، قال العجاج:

الحمد لله الذي أعطى الحَبَزَ مَوَالِي الْحَقِّ إِنْ الْمَوْلَى شَكَرَ
﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يُخْرِجُ النَّعْيَ مِنَ النَّعْيِ وَيُخْرِجُ
النَّعْيَ مِنَ النَّعْيِ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا تسييح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسييحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده، مناسبة للتسييح وهو التحميد، فقال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض. ثم قال: ﴿عَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا، فائق الإصباح وجاعل الليل سكناً، كما قال: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ﴿٢٣﴾﴾ وَأَلْيَلٍ إِذَا يَشْتَمُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [المسمر: ٣، ٤]، وقال: ﴿وَأَلْيَلٍ إِذَا يَفْتَنُ ﴿٢٥﴾﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَمَّلَ ﴿٢٦﴾﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَاللَّسْخِ ﴿٢٧﴾﴾ وَأَلْيَلٍ إِذَا سَجَى ﴿٢٨﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]، والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين تمشون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون». وقال الطبراني: حدثنا مطلب بن شبيب الأزدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بشير، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيهقي، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآية بكاملها، أدرك ما فاتته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته». إسناد جيد، ورواه أبو داود في سننه. وقوله: ﴿يُخْرِجُ النَّعْيَ مِنَ النَّعْيِ وَيُخْرِجُ النَّعْيَ مِنَ النَّعْيِ﴾: هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كقوله: ﴿وَمَا آيَةٌ لَهُمْ إِلَّا الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وَحَمَلْنَا فِيهَا جَبَلًا مِّنْ نَّجْمٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَائِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ﴿٥﴾﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْفَعْلُ وَأَنذَرُ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ لِّرَبِّهَا لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُغْنَتْهُ لِيَكُونَ مِنَ الْمَاءِ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفْجِعُ الْمَوْتِ لَكُمْ ذِكْرًا ﴿٥٧﴾﴾ [الاعراف: ٥٧]، ولهذا قال ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ مِنْ تُرَابٍ نُّمًّا إِذَا أَسْفَرْتُمْ تَنْتَفِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿تُرَابٍ نُّمًّا إِذَا أَسْفَرْتُمْ تَنْتَفِرُونَ﴾، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سمع بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرّفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ مِنْ تُرَابٍ نُّمًّا إِذَا أَسْفَرْتُمْ

بَشَرٌ نَّتَشَبَّهِتُمْ ﴿٢٢﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وعُذْرَة، قالوا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك». ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقوله: ﴿وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إنثاءً يَكُنْ لكم أزواجاً، ﴿لِتُكْرَبُوا بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الاعراف: ١٨٩] يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأضراس الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتها لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للالفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيِّئَاتِ وَالذِّكْرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ مَتَاكِرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيَّامًا وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثابتة والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار. وقوله: ﴿وَأَخْلَفَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتز لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بزير، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالية، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي خلاهم، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان. وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلَمِينَ وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ مَتَاكِرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيَّامًا وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: ومن الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون. قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السدوسي، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلانة، حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهذأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أتم عيني وأهدى ليلي، فقلتها، فذهب عني.

﴿وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ بِرَبِّكُمْ الرَّبِّقَ حَوَاقٍ وَكَلِمًا وَيَزُلُّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنبِي. بِوَالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿بِرَبِّكُمْ الرَّبِّقَ حَوَاقٍ وَكَلِمًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة تخرجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيَزُلُّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنبِي. بِوَالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْوَيْتَ وَرَبَّتْ وَأَكْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَيْحٍ بَهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَمِن مَّا بَدَأْنَاهُ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾، كقوله: ﴿يَسْمِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمِيهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ إِذْ لَيْسَتْ إِلَّا كَيْلَافًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات:

١٣، ١٤، وقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿يس: ٥٣﴾.

﴿وَلَمْ يَنْفِرُوا فِي الْحَمْرِ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْحَمْرِ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٨﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْفِرُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبده، ﴿كُلُّ لَمْ يَنْفِرُوا﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وفي حديث دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، مرفوعاً: «كل حرف في القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة». وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أسير عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداية، والبداة عليه هين. وكذا قال عكرمة وغيره. وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس أو الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته - أيضاً - من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، أو مثله. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. قال العوفي، عن ابن عباس: كل عليه هين. وكذا قال الربيع بن خثيم. ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق، أي: وهو أهون على الخلق. وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كقولهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وقد أشهد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنُبٌ أَنْ يُحْرَكَهُ التُّسَيْمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلا انْتِزَاءٍ كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالْتِجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أَزْبابِ التَّجْلِي يُرَى فِي صَفْوِهَا اللهُ الْعَظِيمُ
﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرعاً وقدرًا. وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكدر، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ بَلْ أَنْتُمْ أَلْتُمُوا هَوَاهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ﴿٢٩﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاء من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك، كذلك الله لا شريك له. والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون الله الأنداد من خلقه. وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات. وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبده وخلقهِ، وأحدهم يأنف غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه. ولو شاء لقاومه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. قال الطبراني: حدثنا محمود بن الفرج الأصبهاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا حماد بن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله:

﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ﴾. ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لَقِيبَ يَعْقُوبَ﴾. ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سقياً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاطِلُ الْفَيْتَنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَانْقَرَضَتْ وَافِقُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جَزِئٍ مِّمَّا لَدَيْهِمْ فِرْيُونٌ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملمها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَأَنْتُمْ بَرِيكُم قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الاعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين عن دينهم». وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية. وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فغيروا الناس على فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم التيمي، وسعيد بن جببير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله. وقال البخاري: قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، خلقت الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام. حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاطِلُ الْفَيْتَنُ﴾. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وأخرجاه - أيضاً - من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة، فمنهم الأسود بن سريع التيمي. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع التيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وغازت معه، فأصبحت ظهراً، فقتل الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناء المشركين؟ فقال: «ألا إنما خياركم أبناء المشركين». ثم قال: «لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية». وقال: «كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها». ورواه النسائي في كتاب السير، عن زياد بن أيوب، عن هشيم، عن يونس - وهو ابن عميد - عن الحسن البصري، به.

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً». ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جببير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم». أخرجاه في الصحيحين، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس الشُّكْرِيُّ، عن سعيد بن جببير، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك. وقد قال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أباناً عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: أتى عليّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قال: فلقيت الرجل فأخبرني. فأمسكت عن قولي. ومنهم عياض بن حمار المجاشعي، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مطرف، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي، ﷻ، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا،

كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله، ﷻ، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: يا رب، إذا يئسوا رأسي فيدعوه خبزاً. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزمهم نُفُزك، وأنفق عليهم فسنفق عليك. وابتعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبْر له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك». وذكر البخيل، أو الكذاب، والشنظير: الفحاش. انفراد بإخراجه مسلم، فرواه من طرق عن قتادة، به. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ أَي: التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَلْمَنَّا لَهَا لِكُلِّ أُمَّةٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَبِيٌّ قَبْلُ﴾ أي: فلها لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّكَاثِينَ وَلَوِ حَرَّصْتَ يَمُومِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَنْ نُنْفِخَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خِطْبَةً إِلَّا سَعِيدًا لِلَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: قال ابن زيد، وابن جرير، أي راجعين إليه، ﴿وَأَنْفِرَهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مریم قال: مر عمر، رضي الله عنه، بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن من المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت. حدثني يعقوب، حدثنا ابن عثمة، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة: أن عمر، رضي الله عنه، قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكره نحوه. وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه وأمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم» أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ بِإِتِّهِمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل، عليه السلام، عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ شُرَّ دَعْوَاهُمْ ثُبِينٌ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِحَ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آذَيْنَهُمْ فَمَنْعُوا سُبُوتَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ ﴿٣٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسخ عليهم النعم، إذا فرح منهم، أي في حالة الاختبار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره. وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آذَيْنَهُمْ﴾، هي لام العقاب عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد هنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. ثم قال منكرأ على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، ﴿فَهُوَ يَسْكُرُ﴾ أي: ينطق بما كانوا يمشركون؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك. ثم قال: ﴿وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ﴾ ﴿٣٩﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [عمر: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية؛ قال الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [عمر: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو

المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿فَإِنَّ ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّتْ وَالْيَسِيرِينَ وَإِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ حَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرَوُّا فِي أَمْوَالِ
 النَّاسِ فَلَا يَرَوُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمَرُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِثْقَلُ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بإعطاء ذي ﴿الْقَرْيَةِ حَقَّتْ﴾ أي: من البر والصلة، ﴿وَالْيَسِيرِينَ﴾ وهو: الذي لا شيء له يفتق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَإِنَّ السَّبِيلَ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ حَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرَوُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسرهُ ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي - وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا تَمَنَّوْا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [المدثر: ٦] أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الرياء رياء، فربا لا يصح، يعني: ربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرَوُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة؛ ولهذا قال ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيزيئها لصاحبها كما يربي أحدكم فلؤه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أحد». وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو المخلوق الرزاق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قو، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام أبي شرحبيل، عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه، فقال: «لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ». وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. وقوله: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله، ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِثْقَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث المخلقات يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله. ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو، أو ولد أو

والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.
 ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: المراد بالبر ههنا: الفَيَافِي، وبالبحر: الأمصار والقري، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقري، وما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون: بل المراد بالبر هو المعروف، وبالبحر: البحر المعروف. وقال زيد بن رُقَيْع: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾، يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمي دوابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، عن سفيان، عن حُمَيْد بن قيس الأعرج، عن مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غصباً. وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقري، وبالبحر: جزائره. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره، يعني: ببلده. ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بأن النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لحُدِّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يَمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا». والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت، انكف الناس - أو أكثرهم، أو كثير منهم - عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فيأكل من الرمانه الفثم من الناس، ويستظلون بقحفها،

ويكفي لين اللقحة الجماعة من الناس. وما ذلك إلا بركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ ولهذا ثبت في الصحيح: «إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب». ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد والحسين قالا: حدثنا عوف، عن أبي قحدم قال: وجد رجل في زمان زياد - أو: ابن زياد - صرة فيها حب، يعني من بر أمثال النوى، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل. وروى مالك، عن زيد بن أسلم: أن المراد بالفساد ها هنا الشرك. وفيه نظر. وقوله: ﴿لِيُرِيَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والشمرات، اختباراً منه ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُهُمْ بِالْمَسْكَتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَأَقْزَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيصِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَّةَ لَمْ يَن آتَى مِن اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّقُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَنَّ عَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْسِدُ بِهِدُونَ ﴿٤٤﴾ يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقْزَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيصِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَّةَ لَمْ يَن آتَى مِن اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّقُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَنَّ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ بِهِدُونَ ﴿٤٤﴾ يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل. الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَيُذِيقُكُم مِّثْرَتَ رَبِّكُمْ وَيُجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَيُكْفِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا لَّن يَكْفُرُوا بِالآيَاتِ فَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا فَكَم يُؤْتَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها؛ ولهذا قال: ﴿وَيُذِيقُكُم مِّثْرَتَ رَبِّكُمْ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَيُجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، ﴿وَيُكْفِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا لَّن يَكْفُرُوا بِالآيَاتِ فَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا فَكَم يُؤْتَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حق أوجهه على نفسه الكريمة، تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفي، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يزد عن عرض أخيه، إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَعْمَلُ مَا كَفَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن جَلْبَابٍ فَإِذَا صَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ولما كانوا من قبل أن يترك عليهم من قبليه لئلا يسيروا ﴿٤٨﴾ فانظر إلى ما أنعم الله ﷻ كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمنى الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿٤٩﴾ ولما أرسلنا رجا قراؤه مضطراً لعلنا من بعدهم يكفرون ﴿٥٠﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ، ﴿يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَعْمَلُ مَا كَفَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن جَلْبَابٍ فَإِذَا صَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ وهو الذي يرسل الريح فتمتلأ بهن يدى رحمتيه حتى إذا أقلت سحاباً يقال سقنته ليكره ميتة فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴿٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَعْمَلُ مَا كَفَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن جَلْبَابٍ فَإِذَا صَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ أي: فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب، ﴿فَإِذَا صَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ أي:

لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله: ﴿وَلَنْ كَأَنَّوْا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ تِبْقُلٌ قَلِيلٌ﴾ (١٩)، معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً. وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ تِبْقُلٌ قَلِيلٌ﴾، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: الإنزال ﴿لَتَمْلِكُنَّ﴾. ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله - أيضاً - قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إيبانه فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبئت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ إِلَى مَأْتَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يَخْرُجُ الْأَرْضُ بِمَدِّ مَوْتِنَا﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفريقها وتمزقها، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى الْمَوْتِ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَمَنْ عَلَا كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ بِكُفْرِهِمْ﴾ (٢١)، يقول: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾، يابسة على الزرع الذي زرعه، ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفراً، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أي: بعد هذا الحال يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (١٧) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) لَوْنًا لَجَعَلْنَاهُ حُمْلًا فَطَلْتُمْ تَفَكُّورًا﴾ (١٥) ﴿إِنَّا لَمَكْرُومُونَ﴾ (١٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (١٧) ﴿الواقعة: ٦٣ - ٦٧﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا هُشَيْمٌ، عن يَغْلَى ابن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، قال: الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات. وأما العذاب فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسهاب تلقحه بحمله الماء، كما يلحق الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نعمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه، والرياح مختلفة في مهابها: صبا ودبور، وجنوب، وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عبد الله بن عباس، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصديقي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعني الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، فقال: يا رب، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور. قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذا تكفأ الأرض وما عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم»، فهي التي قال الله في كتابه: ﴿مَا نَدَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْمِصْبِيِّ﴾ (٢٢) ﴿الذاريات: ٤٢﴾. هذا حديث غريب، ورفعه منكر. والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الضُّعْفَ الدُّعْفَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢٣).

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدانها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَسْمَعُهُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ﴾ (٢٦) ﴿الأنعام: ٣٦﴾. وقد استدللت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جئوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وتاولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق». وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرحاً وتوبيحاً ونعمة.

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر

مصححاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام». وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». وروى عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه، رد عليه السلام. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بستين، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا - والله - في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة الجمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فتتلقى أخبارهم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته. قال: وحدثنا محمد بن الحسين، ثنا بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أجدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى تأتي أهل الجبان، فنقف على القبور فنسلم عليهم، وندعو لهم ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: ثنا محمد، ثنا عبد العزيز بن أبيان قال: ثنا سفیان الثوري قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خدّاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التّياح يقول: كان مُطَرَّفٌ يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج. قال: وسمعت أبا التّياح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطة، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة ويصلون عندهم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلام عليكم. حدثني محمد بن الحسن، ثنا يحيى بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفیان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إنني آتيته يوماً، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناى فتمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأنني بكيت لما رأيته. قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك، قال: فكنت آتية بعد ذلك كثيراً. حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطَّقَاوي قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي من عليه اعتمادادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت. فكننت آتيتها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت لكرية شديدة، وإني بحمد الله لفني برزخ محمود يفرش فيه الريحان، وتتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتانا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك، قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيتكم، وقبل حسناكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم أت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها، قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد. وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد، عن إبراهيم، عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به. وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمد أخي قال: دخل

عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال: عظمي، قال: بم أعظك، أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، ثنا خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شرة سمجة، فمات أبي فبنت وندمت على ما فرطت، ثم زلت أهما زلة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني، ما كان أشد فرحي بك وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحيت لذلك حياء شديداً، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات، قال: فكنت أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسألك إياته لا رجعة فيها ولا حور، يا مصلح الصالحين، ويا هادي المضلين، ويا أرحم الراحمين. وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة. وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزي به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله. وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية»، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

يبني تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم من بصير عظاماً ثم يكسى لحماً، ويُنفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللثة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن فضيل ويزيد، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، قال: قرأت على ابن عمر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، ثم قال: قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت علي، فأخذ علي كما أخذت عليك. ورواه أبو داود والترمذي - وحسنه - من حديث فضيل، به. ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر، عن عطية، عن أبي سعيد، بنحوه.

﴿وَيَوْمَ نَعْمُؤُا السَّاعَةَ يُقْسِمُ الْمُكْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنظروا حتى يُعذر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال، ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ بِمُعْتَبِينَ﴾ [نصت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ حَسَبَتْهُمْ آيَاتُنَا لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا سُنُدٌ إِلَّا سُبُلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحنا لهم، وضرينا لهم في الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَكِنْ حَسَبَتْهُمْ آيَاتُنَا لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا سُنُدٌ إِلَّا سُبُلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقراهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال

ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٠﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ ﴿٦١﴾﴾ بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه. قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً، رضي الله عنه، وهو في الصلاة - صلاة الغداة - فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْجَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٣﴾ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ ﴿٦٤﴾﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن عثمان بن أبي زُرْعَةَ، عن علي بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج علياً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْجَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾، فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٦﴾ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ ﴿٦٧﴾﴾. طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شريك، عن عمران بن ظَنِيان، عن أبي تحيا قال: صلى علي رضي الله عنه، صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٨﴾ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ ﴿٦٩﴾﴾.

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب - أبا روح - يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها الروم فأوهم، فقال: «إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء». وهذا إسناد حسن ومتن حسن، وفيه سر عجيب، ونبا غريب، وهو أنه، عليه السلام، تأثر بنقصان وضوء من اتهم به، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

آخر تفسير سورة «الروم»



تفسير سورة لقمان

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَهُ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْكَبِيرِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

تقدم في أول سورة «البقرة» عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراباتها وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزءاً من الناس ولا شكوراً، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴿٦﴾﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي بِلَهْوِهِمْ وَأَسْخَفَا هُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ عَادَاتُ مِثْلِهِمْ ﴿٨﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّ مُصَافِرًا كَانَتْ تَرْتَعْبَهُمْ كَانَتْ فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ فِيهِمْ يَعْدَابُ أَلَيْسَ ﴿٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتنفعون بسماعه، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ حَسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَيَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِرُؤْيُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فََمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان والآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿١١﴾﴾ قال: هو - والله - الغناء. قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي

صخر، عن أبي معاوية الجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - فقال عبد الله: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا حُمَيْدُ الخراط عن عمار، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء: أنه سأل ابن مسعود عن قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: الغناء. وكذا قال ابن عباس، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومكحول، وعمرو بن شعيب، وعلي بن بذيمة.

وقال الحسن البصري: أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: والله لعله لا يفتق فيه مالا، ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: عني بقوله: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: اشتراء المغنيات من الجواري. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي: حدثنا وكيع، عن خلاد الصفار، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله ﷻ علي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾. وهكذا رواه الترمذي وابن جرير، من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وضُفَّ علي بن يزيد المذكور. قلت: علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء. والله أعلم. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله. وعلى قراءة فتح الياء، تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلاً للأمر القدري، أي: فَيُضِلُّوا لذلك ليكونوا كذلك. وقوله: ﴿وَيَتَّخِذُوا هُزُوًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزوا، يستهزئ بها. وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هزوا. وقال مجاهد أولى. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَازِينٌ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطًا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا نزلت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها، ﴿فَيَسْتَهْزِئُ بِهَا﴾ أي: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَازِينٌ﴾ ﴿١٠﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

هذا ذكر مال الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَازِينٌ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المأكول والمشرب، والملابس والمسكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون ولا يبيغون عنها حولاً. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾، في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [نصفت: ٤٤]، ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿١١﴾ [الإسراء: ٤٨].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى أَن يَنبِتَ يَكُمُ وَيَتَّخِذُ مِن كُلِّ دَابَّةٍ مِّنْ أَسْمَاءٍ مَا فَخَّرْنَا بِهَا مِن كُلِّ ذِي كَرِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوُفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ﴾، قال الحسن وقاتة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة «الرعد» بما أغنى عن إعادته. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾ يعني: الجبال أرسدت الأرض وتقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: ﴿أَن يَنبِتَ يَكُمُ﴾ أي: لئلا تميد بكم. وقوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها. ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس - أيضاً - من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛

ولهذا قال: ﴿فَأَرْوِفْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِي﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بَلِ الْكٰفِرُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره، ﴿فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: جهل وعمى، ﴿ثِيْنٍ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به. ﴿وَلَقَدْ مٰاٰنَا لَقْمٰنَ اَلْحِكْمَةَ اِذْ اَشْكُرَ لِلّٰهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَاِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهٖ وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾.

اختلف السلف في لقمان، عليه السلام: هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفضس من النبوة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي، رحمه الله: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب، لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الزبيعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولا: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها، فقال: أخرج أطيب مضعتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضعتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولا: أمرتك أن تخرج أطيب مضعتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضعتين فيها فأخرجتهما. فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا. وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً. وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشفق القدمين. وقال حكام بن سلم، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين، مُصْفَح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل. وذكر غيره: أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن داود، عليه السلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان، عليه السلام، عبداً أسود غليظ الشفتين، مُصْفَح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: أأنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا، قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: أأنت عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدَّرَ اللهُ، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني. فهذه الآثار منها ما هو مُصْرَح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبداً قد مسَّه الرق ينافي كونه نبياً؛ لأن الرسل كان تبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة فقال: كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القُتَيْبَانِي، عن عُمَر مولى عُفْرَةَ قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادِي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك وغشيتهم بابك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك. قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيقي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيْل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عُبْدَةَ بن رِيَّاح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أنه قال يوماً - وذكر لقمان الحكيم - فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صَمْفَامة سَكِيْتاً، طويل التفكير، عميق النظر، لم ينم نهارة قط، ولم يره أحد قط يَبْزُق ولا يَتَنَفَّح، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياها أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبق عليهم. وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي. وقد ورد أثر غريب عن قتادة، رواه ابن أبي حاتم، فقال: حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختر الحكمة على النبوة. قال: فأتاه جبريل

وهو نائم فذُرَّ عليه الحكمة - أو: رش عليه الحكمة - قال: فأصبح ينطق بها. قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرَكَ ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عَزَمْتُ لرجوت فيه الفوز منه، ولكنك أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيَّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليَّ. فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه، فالله أعلم. والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله، ﷻ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَسِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَلَوْ قَالَ لَقَمَانُ لَأَنْبِيَاءُ وَهُوَ بِعَظْمِ بَيْتِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الْبَازِرِيُّ لَطُغْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣] وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُمُ مِّنْكُمْ عَلَىٰ وَهِنٍ وَفِصْلَةٌ فِي عَامِيْنَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ [١٤] وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرِّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١٥].

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وهو: لقمان بن عتقاء بن سدون. واسم ابنه: ثاران في قول حكاة السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبههم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّكَ الشِّرْكُ لَطُغْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم. قال البخاري حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَآلِهِمْ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يلبس إيمانهم بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿بَيْتِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الْبَازِرِيُّ لَطُغْرٌ عَظِيمٌ﴾. ورواه مسلم من حديث الأعمش، به. ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين. كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَآلَافِينَ مِّنْ قَبْلِهِ لِيُحْسِنُوا الصَّالَةَ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُمُ مِّنْكُمْ عَلَىٰ وَهِنٍ﴾. قال مجاهد: مشقة وهن الولد. وقال قتادة: جهداً على جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف. وقوله: ﴿وَفِصْلَةٌ فِي عَامِيْنَ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُمْ وَفِصْلَتُهُمُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا كَارِئِيكَمَا صَبِيْرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي شيبة، ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، وكان بعثه النبي ﷺ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا ألوكم خيراً، وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت. وقوله: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمتنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿نُرِّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: «يا قاتل أمه». فقلت: لا تفعلني يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت، قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لكي مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فآكلت.

﴿يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْقَىٰ أَقْبَرُ الْفَسَادَةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا آصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْبِدْ فِي مَتْنِكَ وَأَعْمَضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَمْوَرِ لَصَوْتُ الْمُنْجِرِ ﴿١٩﴾﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلومة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِلَهُهَا﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأول أولى. وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِهَا حَسِيبًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضائلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم. وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾: أنها صخرة تحت الأرضين السبع، ذكره السُّدِّيُّ بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالك، والثوري، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا والله أعلم، كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد: أن هذه الحبة في حقاتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيديها ويظهرها بلطيف علمه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كأنها ما كان». ثم قال: ﴿يَبْقَىٰ أَقْبَرُ الْفَسَادَةِ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا آصَابَكَ﴾، علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور. وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُتَبَسِّطٌ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله». قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وكذا روى العوفي وعكرمة عنه. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تكلم وأنت معرض. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وابن يزيد، وغيرهم. وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك: التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصُّعْر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تثلث أعناقها عن رؤوسها، فشبّه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حُنَيِّ التُّغَلْبِيُّ:

وَكُنْتُ إِذَا الْجَبَّازُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَفْمَأَلَهُ مِنْ مَنِيْلِهِ فَتَنَقَّوْمَا
وقال أبو طالب في شعره:

وَكُنْتُ قَدِيمًا لَا نَقْرَ ظِلَامَةٍ إِذَا مَا ثَنُوا صُعْرَ الرَّوْسِ نُقِيمَهَا
وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا﴾ أي: جذلاً متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا إِنَّكَ لَنْ تَصْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمران ابن أبي ليلى، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبير عند رسول الله ﷺ فشد فيه، فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور». فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شركا نعلي، وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغتم الناس». ورواه من طريق أخرى بمثله، وفيه قصة

طويلة، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته. وقوله: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَتْنِكَ﴾ أي: امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المثبط، ولا بالسرير المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين. وقوله: ﴿وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: لا تباعغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، قال مجاهد وغير واحد: إن أقيح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوتك أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو يغيض إلى الله تعالى. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه». وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه، من طرق، عن جعفر بن ربيعة به، وفي بعض الألفاظ: «بالليل»، والله أعلم. فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني نهشل بن مُجَمِّع الضبي عن قرعة، عن ابن عمر، رضي الله عنه، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مَخْمِرة يحدث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل، مذلة بالنهار». وقال: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، عن ضمرة، حدثنا السري بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك. وقال: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني: إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم. وحدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضمرة، عن حفص بن عمر، رضي الله عنه، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد وعظتكم موعظة لو وعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرافي، حدثنا أبي بن سفيان المقدسي، عن خليفة ابن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن». قال أبو القاسم الطبراني: أراد الحبش.

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان، عليه السلام، لابنه، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً ونحن، نذكر منه مقاصده، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رُبَّ أشعث ذي طمرين يُضْفَع عن أبواب الناس، إذا أقسم على الله لأبره». ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ، فذكره، وزاد منهم البراء بن مالك. وروي أيضاً عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة». وقال أبو بكر بن سهل التميمي: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، عن عياض بن عباس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، رضي الله عنه، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة». حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عثمان بن علي، عن حميد بن عطاء الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رُبَّ ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقال

أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، ولم يمنعه إياه لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره». وهذا مرسل من هذا الوجه. وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوف قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن من ملوك الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم يتكحوا، وإذا قالوا لم يُنصت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم». قال: وأنشدني عمر بن شبة، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

ألا رَبُّ ذِي طَمْرَيْنِ فِي مَنَزَلِ غَدَا زَرَابِيهِ مَبْتُوثَةٌ وَنَمَارُكُهُ
قَدْ أَطْرَدَتْ أَنْهَارَهُ حَوْلَ قَضْرِهِ وَأَشْرَقَ وَالتَّفَّتْ عَلَيْهِ حَدَائِقُهُ

وروي - أيضاً - من حديث عبيد الله بن زحر، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «قال الله: من أعبط أوليائي عندي: مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع. إن صبر على ذلك». قال: ثم نقد رسول الله ﷺ بيده وقال: «عُجِّلَتْ منيته، وقل ترائه، وقلت بواكيه». وعن عبد الله بن عمرو قال: أحب عباد الله إلى الله الغريب. قيل: ومن الغريب؟ قال: الفرارون بدينهم، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أنعم عليك؟ ألم أعطك؟ ألم أسترك؟ ألم...؟ ألم...؟ ألم أحمل ذكرك؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألا تُعرف فافعل، وما عليك ألا يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محموداً عند الله. وكان ابن مُحَبَّرِيز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك. ثم قال:

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري، حدثنا ابن وهب، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم». وروي مثله عن إسحاق بن البهلول، عن ابن أبي فديك، عن محمد بن عبد الواحد الأُخْسَسي، عن عبد الواحد بن أبي كثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً، مثله. وروي عن الحسن مرسلًا نحوه، فقييل للحسن: فإنه يشار إليك بالأصابع؟ فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق. وعن علي، رضي الله عنه، قال: لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار، وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم، رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب: ما صدق الله عبده إلا سره إلا يشعر بمكانه. وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس. وقال سماك بن سلمة: إياك وكثرة الأخلاء. وقال أبان بن عثمان: إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم. وقال: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن عوف، عن أبي رجاء قال: رأى طلحة قوماً يمشون معه، فقال: ذباب طمع، وفراس النار. وقال ابن إدريس، عن هارون بن عنترة، عن سليم بن حنظلة قال: بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال: إنها مذلة للتابع، وقتنة للمتبوع. وقال ابن عون، عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتبعه أناس، فقال: والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي، ما اتبعني منكم رجالان. وقال حماد بن زيد: كنا إذا مررنا على المجلس، ومعنا أيوب، فسلم، ردوا رداً شديداً فكان ذلك يغمه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر: كان أيوب يطيل قميصه، فقييل له في ذلك، فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص، واليوم في تشميره. واصطنع مرة نعلين على حدو نعلي النبي ﷺ، فلبسهما أياماً ثم خلعهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما. وقال إبراهيم التَّخَعي: لا تلبس من الثياب ما يُشهر في الفقهاء، ولا ما يزدريك السفهاء. وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد، التي يُشهر بها، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم. والثياب الرديئة التي يحترق فيها، ويستذل دينه. وحدثنا خالد بن خدّاش: حدثنا حماد، عن أبي حسنة - صاحب الزياتي - قال: كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه

أكسية، فقال: إياكم وهذا الحمار النهاق. وقال الحسن، رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه، مالهم تفاقداً. وفي بعض الأخبار أن موسى، عليه السلام، قال لبني إسرائيل: ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وآلبتوا قلوبكم بالخشية.

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح، عن أنس، رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً. وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». وعن نوح بن عباد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد». وعن سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعاً: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»، وعن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار». وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرني أبي وعمي، عن جدي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج». وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله ﷺ، فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق». وقال يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء - يبلغ به - قال: «ما من شيء أنقل في الميزان من حسن الخلق»، وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء، به. وعن مسروق، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً». حدثنا عبد الله بن أبي بدر، حدثنا محمد بن عبيد، عن محمد بن أبي سارة، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه الأجر وبروح». وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون». وعن أبي أويس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً، أحاسنكم أخلاقاً، الموثون أكنافاً، الذين يؤلفون ويألفون». وقال الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حسن الله خلق رجل وحلّقه فتطعمه النار». وعن عبد الله بن غالب الحدّاني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «حصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»، وقال ميمون بن مهران، عن رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر». حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجل من قريش قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الحديد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق». وقال محمد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدين.

فصل في ذم الكبر

قال علقمة، عن ابن مسعود - رفعه -: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان». وقال إبراهيم بن أبي عيّلة، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، أكبه الله على وجهه في النار». حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين، فيصبيه ما أصابهم من العذاب، وقال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود، عليها السلام، ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرُفِعَ حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخشف به أبعد مما رفع. حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليقدر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين. وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبار، ثم تلا: ﴿أَتَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا لَمْ يُنَّزِلْ عَلَيْنا مِنْ آيَاتِنَا مِنْ سَمَوَاتِنَا وَمَا نَحْنُ بِمُنَّزِلَاتِ﴾ [القصص: ١٩] وقال الحسن: عجباً لابن آدم، يغسل الخرة بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر! يعارض جبار السموات، قال: حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا

حماد بن زيد، عن علي بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث. ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم. وقال الحسن، عن يحيى عن أبي قال: إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قرّحه وملّحه. وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - ما دخل قلب رجل شيء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك. وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق. ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يستخلف، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرم؟ فقال: له كالمعتز إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية.

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه مرفوعاً: «من جرّ ثوبه خيلاً لم ينظر الله إليه». ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وحدثنا محمد بن بكّار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره». «وبينما رجل يتبختر في برديه، أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وروى الزهري عن سالم، عن أبيه: «بينما رجل...» إلى آخره.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِمَّا ظَهَرَهُ وَيَاطِنُهُ مِن النَّاسِ مِنْ مُجْدِلٍ فِي اللَّهِ يَغْيِرُ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِيٍّ مِمَّا يَدْعُونَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا كَالشَّيْطَانِ بِدْعُوهُمْ إِنَّ عَذَابَ الشَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيد وإرسال الرسل. ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرُ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: مبين يضيء. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: ﴿أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَسْقَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا الشَّيْطَانُ بِدْعُوهُمْ إِنَّ عَذَابَ الشَّعِيرِ﴾.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُوهٗٓ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَيُنْفِثُهُمْ فِي سَاءِ عَمَلٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنْفِثُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُوهٗٓ﴾ أي: لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافع فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزئهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلا تخفى عليه خافية. ثم قال: ﴿نُنْفِثُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْكُرُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَقْلِحُونَ ﴿١٦﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ يُدْفِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٦، ١٧].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: إذ قامت عليكم المحجة باعترافكم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ وَالْبَعْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفْتِيرٍ وَجِدْوٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ وَالْبَعْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومدته سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مداً. وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَوَدَّ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِحَيْثُ مَدَدًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِحَيْثُ﴾ آخر فقط، بل يمثله ثم يمثله، ثم يمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته. وقا الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله: «إن من أمري كذا، ومن أمري كذا» لنفذ ما في البحور، وتكسرت الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ﴾ الآية. يقول: لو كان ذلك البحر مداداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاماً، لانكسرت الأقلام، وفنى ماء البحر. وبقيت. كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يشئ عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يشئ على نفسه. إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول. وقد روي أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود، قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد، رأيت قولك: ﴿وَمَا أُنْتَشِرُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا؟﴾ [الإسراء: ٨٥]، إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ «كلا». فقالوا: ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم». وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ﴾ الآية. وهكذا روي عن عكرمة، وعطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه. وقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفْتِيرٍ وَجِدْوٍ﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةٌ كَمَفْجٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾﴾ [القمr: ٥٥] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده. ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [إذًا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفْتِيرٍ وَجِدْوٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْدِئُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَيِّدُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه ﴿يُبْدِئُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر، رضي الله عنه، الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت». وقال ابن أبي الحاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر. إسناده صحيح. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٧٠﴾ [الحج: ٧٠]. ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق للعالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ رِيًا مِمَّا يَنْزَلُ الْأَمْثَرَ بَيْنَهُنَّ لِيُعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّ أَصْلًا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الطلاق: ١٧]. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطِيلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطِيلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع فقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبْتِ اللَّهُ لِرَبِّكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٧٣﴾﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَاؤُا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا يَجْتَنِبُهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَيَنْتَهُمُ مُقْتَصِدًا وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِرَبِّكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء. ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَاؤُا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمَكَ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ مَضَلَّ مَنْ دَعَاؤُا إِلَّا إِلَى اللَّهِ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿وَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَاؤُا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. ثم قال: ﴿قَلَّمَا يَجْتَنِبُهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَيَنْتَهُمُ مُقْتَصِدًا﴾ قال مجاهد: أي كافر. كأنه فسر المقتصد هنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿قَلَّمَا يَجْتَنِبُهُمْ إِلَى الْآخِرِ إِذَا هُمْ يَشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَيَنْتَهُمُ طَائِفًا لِنَفْسِهِمْ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْحَتِيزِ﴾ [فاطر: ١٣٢]، فالمقتصد هنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾: فالخسار: هو الغدار. قاله مجاهد، والحسن، وقاتدة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخسر: أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب:

وَأَنْتَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا غَمِيرٍ مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ غَدْرِ وَخَسْرِ
وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَظْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَظْكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وأمرأ لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَعْرَظْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَفْرَظْكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة. فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤَيِّسُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ النَّاطِقِينَ إِلَّا غُرُورًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ١٢٠]. قال وهب بن منبه: قال عزيز، عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي، وأرق نومي، فضرعت إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع أرواح المصدقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر، ليس فيه رخصة، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد بغيره ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهتم همه ويبكي عوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره. رواه ابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيَّاتِ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي

مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يَخْبِيَا لَوْهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك؛ ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدتها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي - بريدة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَبِيرٌ ﴿٣١﴾». هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه. حديث ابن عمر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَبِيرٌ ﴿٣١﴾». انفرد بإخراجه البخاري فرواه في «كتاب الاستسقاء» من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري، به. ورواه في التفسير من وجه آخر فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، انفرد به أيضاً. ورواه الإمام أحمد عن عُثْرٍ، عن شعبة، عن عمر بن محمد؛ أنه سمع أباه يحدث، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَبِيرٌ ﴿٣١﴾». حديث ابن مسعود، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني عمرو بن مَرْة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَبِيرٌ ﴿٣١﴾. وكذا رواه عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، به. وزاد في آخره: قال: قلت له: أنت سمعت من عبد الله؟ قال: نعم. أكثر من خمسين مرة. ورواه أيضاً عن وكيع، عن مسعر، عن عمرو بن مرة به. وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجه.

حديث أبي هريرة: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق، عن جرير، عن أبي حيان، عن أبي رُزعة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر». قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». فقال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أسرارها: إذ ولدت الأُمُّ ربُّتها، فذاك من أسرارها. وإذا كان الحفوة الغرأة رؤوس الناس، فذاك من أسرارها، في خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾...». ثم انصرف الرجل فقال: «ردوه علي». فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم». ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان»، ومسلم من طرق، عن أبي حيان، به. وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري. وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله وهو من أفراد مسلم.

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: جلس رسول الله ﷺ مجلساً له، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام: أن تسلم وجهك لله ﷻ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله». قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت». قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبیین، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره». قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت». قال: يا رسول الله، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان:

أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله. في خمس لا يعلمهن إلا هو: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِزُّكَ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك؟». قال: أجل، يا رسول الله، فحدثني. قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو: ربهما - ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها». قال: يا رسول الله، ومن أصحاب الشاء والحفاة والجياع العالة؟ قال: «العرب». حديث غريب، ولم يخرجوه.

حديث رجل من بني عامر: روى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن رجل من بني عامر؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: «ألح؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «أخزجني إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولي له: فليقل: «السلام عليكم، أدخل؟» قال: فسمعته يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن، فدخلت، فقلت: بم آيتنا به؟ قال: «لم آتكم إلا بخير، أنيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات؛ وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم». قال: فقال: فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: «قد علم الله ﷻ خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ﷻ: الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِزُّكَ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». وهذا إسناد صحيح. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا جدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِزُّكَ الْغَيْثَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. قال مجاهد: وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُكَ الْمُفْتِيَّ لَّا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُرِزُّكَ الْغَيْثَ﴾، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أني بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟ وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة»، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير، في مسند أسامة بن زيد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة». وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن مطر بن عكاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى الله ميتة عبد بأرض، جعل له إليها حاجة». وهكذا رواه الترمذي في «القدر»، من حيث سفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. وقد رواه أبو داود في «المراسيل»، فإله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن أبي المليح بن أسامة، عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال: بها - حاجة». وأبو عزة هذا هو: يسار بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الهذلي. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل بن إبراهيم - وهو ابن غلثة، وقال: صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يقدمها». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِزُّكَ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعي قالا: حدثنا عُمَرُ بن علي، حدثنا إسماعيل، عن قيس، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة». ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمَرُ بن علي المُقَدَّمي. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي مسيح

قال: أنشدني محمد بن الحكم لأعشى همدان:

فما تزود مَما كان يجمعه
وغيرَ نَفحةِ اغوَاد تُشْتَبِ لهُ
لا تأسينَ على شيءٍ فكلَّ فتى
وكلَّ من ظنَّ أن الموت يُخطئهُ
بأيما بلدة تُفدز منيته

سوى خُوط غَدَاة البَين مَخ خرق
وقلَّ ذلك مِن زاد لُمُنْطَلق!
إلى منيته سيَّار في عنق
مُعَلَّل بأعالييل من الحمق
إن لا يُسَيِّر إليها طائعا يُسَق

أورده الحافظ ابن عساكر، رحمه الله، في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى همدان، وكان الشعبي زوج أخته، وهو مُزَوَّج بأخت الشعبي أيضاً، وقد كان ممن طلب العلم وتفقه، ثم عدل إلى صناعة الشعر فَعُرِفَ به. وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمر بن شبة، كلاهما عن عمر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبته إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله ﷻ، فتقول الأرض يوم القيامة: رب، هذا ما أودعنتي». قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض، إلا جعل له إليها حاجة».

آخر تفسير سورة «لقمان» والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل



تفسير سورة السجدة

وهي مكية. قال البخاري في «كتاب الجمعة». حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْإِنسَانِ﴾. ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ لا رَبَّ يَدِينُ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحًا وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ فِيهِمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل، ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثم قال مخبراً عن المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحًا وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ فِيهِمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: اختلفه من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ يُنذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِن نَّذِيرِهِ﴾ أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَيْءٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١﴾ يَذُرُ الْأَمْثَالَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ بِالنَّوَالِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَيْءٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخالقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عدل، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقد أورد النسائي ههنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا الأخضر بن عجلان، عون ابن جُرَيْج المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد

العصر، وخلق من أديم الأرض، بأحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث. هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتمناً، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً من حديث الحجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جُرَيْج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق. وقد علله البخاري في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح»، وكذا علله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم. وقوله: ﴿بَدِيرُ الْأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي: ينتزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ الْأَمْرُ إِلَيْهِنَّ لِتَعْلَمْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٧﴾﴾ [الطلاق: ١٧]. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسلك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيقتها، وصغيرها وكبيرها - هو ﴿الْمُعْزِزُ﴾ الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الزَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَفَوَّحَ فِيهِ مِّن رُّبُوبِهِ وَحَمَلَكُمُ اللَّسْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأنقنها وأحكمها. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾، يعني: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وتراث المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سواً مستقيماً، ﴿وَفَوَّحَ فِيهِ مِّن رُّبُوبِهِ وَحَمَلَكُمُ اللَّسْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، يعني: العقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ. فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوا أَوَآءَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَوْآءَا لَنِي خَلْقِي جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَتُوفَنكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَوَآءَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿أَوْآءَا لَنِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾ أي: أئنا لنعود بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾. ثم قال: ﴿قُلْ يَتُوفَنكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة «إبراهيم»، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حوت له الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ، بنحوه مرسلأ. وقاله ابن عباس، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر عن جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن». فقال ملك الموت: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً فإنني بكل مؤمن رفيق، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر، في بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفح في كل يوم خمس مرات، حتى إنني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد، لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها. قال جعفر: بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان، ولقنته الملك: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في تلك الحال العظيمة. وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين. وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات. ينظر هل فيه أحد أمر أن

يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم . وقوله : ﴿ شَرُّ لِي رَيْكُمُ تُرَعْمُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الشَّجَرُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانجِعْنَا نَمَلْ صَليحًا إِنَّا مَوْفِقُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾ فَذُوقُوا يَمَّا تَسْبِتُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسَبُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ .

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسي رؤوسهم ، أي : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ يُنصَرُّ يَوْمَ يَأْتُونَ ﴾ [مرم: ٢٨] . وكذلك يعددون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّيْرِ ﴾ [الملك: ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانجِعْنَا ﴾ أي : إلى الدار الدنيا ، ﴿ نَمَلْ صَليحًا إِنَّا مَوْفِقُونَ ﴾ أي : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقائك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ نُفِثُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ [الانعام: ٢٧ - ٢٩] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًىهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا ﴾ [يسر: ٩٩] . وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ أي : من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا يَمَّا تَسْبِتُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : يقال لأهل النار على سبيل التعرُّيع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسَبُكُمْ ﴾ أي : إنا سنعاملكم معاملة الناس ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَسَبُكُمْ كَمَا نَسَبْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجناب: ٣٤] . وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ﴿١٢﴾ إِلَّا حَيِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿١٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿١٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٠﴾ [البأ: ٢٤ - ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ نَسَجَاتٍ جُؤُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَمَلُّمْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَدْرِ أَنعِيمٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] . ثم قال تعالى : ﴿ نَسَجَاتٍ جُؤُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ نَسَجَاتٍ جُؤُوبُهُمْ ﴾ ، يعني بذلك : قيام الليل ؛ وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبي حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء في جماعة ، وصلاة الغداة في جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه .

وفينا رسول الله يثألوكتابه
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
ببيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا اشتقت من الصبح ساطع

وقال الإمام أحمد : حدثنا روم وعفان قالوا : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : «عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطنه ولحافه ، ومن بين أهله وحيه إلى صلاته ، فيقول ربنا : أيا ملائكتي ، انظروا إلى عبدي ، ثار من فراشه ووطنه ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي . ورجل غزا في سبيل الله ﷻ ، فانهمزوا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه ، رغبة فيما عندي

وشفقة مما عندي. فيقول الله، ﷻ للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهرق دمه». وهكذا رواه أبو داود في «الجهاد»، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى، يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عليك هذا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: «ثكلتكم أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد السنتهم». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سنتهم، من طرق عن معمر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه ابن جرير من حديث شعبة، عن الحكم قال: سمعت عُرْوَةَ بن الزنرال يحدث عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تكَفِّرُ الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل»، وتلا هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ورواه أيضاً من حديث الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، عن النبي ﷺ بنحوه، ومن حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ مرفوعاً بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن ابن النجود، عن شهر، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، قال: «قيام العبد من الليل». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا فطر بن خليفة، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحكيم بن جُبَيْر، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعد، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فينادي بصوت يُسمعُ الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليل». وقال البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر، حدثنا عبد الحميد بن سليمان، حدثني مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال بلال لما نزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، كنا نجلس في المجلس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فافروا وإن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله. قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأني شيء؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، دُخْرًا من بله ما أطلعت عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، قرأ أبو هريرة: «قُرَاتٍ أُعْيِنَ».

انفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق. ورواه الترمذي في التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال حماد: أحسبه عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وروى الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، أن أبا حازم حدثه قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَنَجَّاهُمْ جَنَّاتُهُمْ مِنَ الْمَصَاحِبِ يَدْخُلُونَ رَبَّهُمْ حَقًّا وَطَمَعًا﴾، إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف، وهارون بن سعد، كلاهما عن ابن وهب، به. وقال ابن جرير: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن عقبه بن عبد العافر، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، يروي عن ربه، ﷻ، قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». لم يخرجوه. وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر وغيره، حدثنا سفيان، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر - يرفعه إلى النبي ﷺ - قال: «سأل موسى، عليه السلام ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يحيى بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فيقال له: رضيت رب. فيقول: أولئك هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما انتهت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»، قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). ورواه الترمذي عن ابن عمر، وقال: حسن صحيح، قال: ورواه بعضهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير المدائني، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا زياد ابن خزيمة، عن محمد بن جحادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب؟ فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيدي. فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم، وذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ويخبرون أن الله عنهم راض. وقال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبي اليمان الهوزني - أو غيره - قال: الجنة مائة درجة، أولها درجة فضة وأرضها فضة، ومساكنها فضة، وآبئتها فضة وترابها المسك. والثانية ذهب، وأرضها ذهب، ومساكنها ذهب، وآبئتها ذهب، وترابها المسك. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكنها اللؤلؤ، وآبئتها اللؤلؤ، وترابها المسك. وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، عن الروح الأمين قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيناته، ينقص بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة واحدة ومع الله له في الجنة»، قال: فدخلت على «يزداد» فحدثت بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فإين ذهب الحسنات؟ قال: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْمَنَازِلِ وَعَدَّ الْأَشِدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦). قلت: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، قال: العبد يعمل سرّاً أسرّه إلى الله، لم يُعلم به الناس، فأسر الله له يوم القيامة قُرّة أعين.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ نَسُوا مَا وَعَدْنَاهُمْ النَّارَ كَمَا أَزَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفَهُنَّ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسوله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسوله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْكَاتِ أَنْ نَحْمِلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْمِلُهُمْ وَمَا نَحْمِلُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجناب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَالضَّالِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢]، ولهذا قال تعالى: ههنا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: عند الله يوم القيامة. وقد ذكر عطاء بن يسار والسُّدِّي وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط؛ ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿فَأُوذِنَهُمْ النَّارَ كَمَا أَزَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿كَمَا أَزَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]. قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموتقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً. وقوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفَهُنَّ ﴿٢١﴾﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا، وما يحل بأهلها مما يتبلى الله به عبادة ليتوبوا إليه. وروى مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجزري، وخصيف. وقال ابن عباس- في رواية عنه -: يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال: البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر. وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُزَني، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أبي ليلي، عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام. ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم. قال السُّدِّي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجعلها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة، رحمه الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوذ أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام. وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نسي، عن جنادة بن أبي أمية، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم، من عقد لواء في غير حق، أو عق والدية، أو مشى مع ظالم ينصره، فقد أجرم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، به، وهذا حديث غريب جداً. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَحَعَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَحَمَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِآثَرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَوْمُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِبَصُلٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَّا كَانُوا فِي مِخْلَقَاتِهِ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى محبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه أتاه الكتاب وهو التوراة. وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾: قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. ثم روى عن أبي العالية الزباجي قال: حدثني ابن عم نبيكم- يعني ابن عباس- قال: قال رسول الله ﷺ: «رايت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طوالاً جفداً، كأنه من رجال شنوءة. ورايت عيسى رجلاً مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، مبسط الرأس، ورايت مالكا خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه»، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي

مَرِيضٍ مِّن لِّقَائِهِ، أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن علي الحلواني، حدثنا روح بن عباد، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾، قال: من لقاء موسى ربه ﷻ. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا به هدى لبني إسرائيل، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَّهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [٢٦]، أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحزفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَّهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا؛ وكذلك قال الحسن بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز.

وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي علي عمي - أو: عمي علي أبي - سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَّهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنَا بِهِم مِّن الذَّلِيلِينَ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١٦]، ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَسْتَوِينَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الحجرات: ١٦]، كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٢٦]، أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَستَوُونَ فِي مَسْئَلِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لَهُمُ الْأَرْضَ الْجُرْزَ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٧].

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ نَحْشُ وَنُحْمٌ مِّنْهُم مِّنْ أَمْدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا﴾ [مریم: ٩٨]؛ ولهذا قال: ﴿يَسْتَوُونَ فِي مَسْئَلِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، ﴿كَأَن لَّمْ يَتَّبِعُوا فِيهَا﴾ [الاعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَتَكَايُنَ مِّن قَرْبِكِ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَغْمَلًا وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [٥٥] أفقر يسيراً في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا تسمى الأصنفر ولكن تسمى القلوب التي في الصنفر [٥٥ - ٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لَهُمُ الْأَرْضَ الْجُرْزَ﴾: يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾، وهي الأرض التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: يتيسر لا تنبت شيئاً. وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج إلى الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحيشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سيخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً ليثبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لبيبة، عن قيس بن حجاج، عن حدثه قال: لم فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص - وكان أميراً بها - حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا سئة لا يجري إلا بها. قال: وما ذلك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشر ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أوبوها، فأرضينا أوبوها، وجعلنا عليها من الحل والثلث أفضل ما يكون، ثم

ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري ، حتى هموا بالجللاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا ، فألقها في النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد . . . فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجري ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسال الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له .

ولهذا قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لَهُمُ الْأَرْضَ فَتَخَوَّجَ بِهَا رَبُّكَ تَأْكُلُ مِنْهُ أَمْثَلَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ، كما قال تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا مَبْنِيَاءٌ الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَصَبَّأً وَقَصًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّا لِلْإِنْسَانِ عُلُقَاهُ ﴿٢٩﴾ وَصَدَقْنَا بِعَلَقِهَا ﴿٣٠﴾ وَفَكَفَّرَهُ بِمَالٍ ﴿٣١﴾ وَتَمَنَّاهُ كَثْرًا ﴿٣٢﴾ وَوَعَدْنَاهُ الْآخِرَ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَاسِحًا ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٣٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٣٦﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٣٧﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٣٨﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٣٩﴾ وَجَعَلْنَاهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَلْعَقُ رَأْسَهَا ﴿٤٠﴾﴾ . وقال ابن أبي نجیح ، عن رجل ، عن ابن عباس في قوله : ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغيث عنها شيئاً ، إلا ما يأتيها من السيول . وعن ابن عباس ، ومجاهد ، هي أرض باليمن . وقال الحسن ، رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : الأرض الجزر : التي لا نبات فيها وهي مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿وَأَيُّكُمْ لَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْأَرْضِ الْبَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَفْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٣﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ . (يس : ٣٣ - ٣٥) .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ مُنْتَهَرًا ﴿٣٠﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعاداً وتكديباً وعناداً : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ؟ مَتَى تَنْصُرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنْ لَكَ وَقْتًا تُدَالِ عَلَيْنَا ، وَيُنْتَقِمُ لَكَ مِنَّا ، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا؟ مَا تَرَاكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ إِلَّا مَخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ وَمَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَنَحْنُ نَسْتَعِينُ ﴿٨٣﴾ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا يَكُفُّرُ عَنْهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلْنَا اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادِهِ خَيْرٌ مِمَّا لَكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ . (غافر : ٨٣ - ٨٥) ،

ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ السلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من الفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى : ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ . (الشعراء : ١١٨) ، وكقوله : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾﴾ . (سبا : ٦٦) ، وقال تعالى : ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَصَابَ كُلُّ جُنَّادٍ عَنِيبٍ ﴿١٥﴾﴾ . (إبراهيم : ١٥) ، وقال : ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . (البقرة : ٨٩) ، وقال : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ . (الأنفال : ١٩) . ثم قال : ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيْمَانَهُمْ مُنْتَهَرًا ﴿٣٠﴾﴾ . أي : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْعَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ . (الأنعام : ١٠٦) ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : ﴿إِيْمَانَهُمْ مُنْتَهَرًا﴾ . أي : أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِرَبِّهِ الْأَعْمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ . (الطور : ٢٥) ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، في نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة «الم السجدة»



تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية. قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم ابن بهدلة، عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كآين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كآين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل «سورة البقرة»، ولقد قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليهم حكيم». ورواه النسائي من وجه آخر، عن عاصم - وهو ابن أبي النجود، وهو ابن بهدلة - به. وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ أَنزِلُكَ اللَّهُ كَانَ يَمَّا تَمَعَّلُونَ خَيْرًا ﴿٢﴾ وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليهم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَمَعَّلُونَ خَيْرًا﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِّنْهُنَّ أَشْهُدَاكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْيَابَكُمْ أَيْمَانَكُمْ ذَلِكَمُ قولكم بآفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلْيَخُونَكُم فِي الدِّينِ وَمَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ. وَلَكِن مَّا تَمَدَّدْتُمْ لِقَوْلِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى موطناً قبل المقصود العنوي أمراً حسيباً معروفًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا نصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت علي كظهر أمي أمأ له، وكذلك لا يصير الدعي ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِّنْهُنَّ أَشْهُدَاكُمْ﴾، كقوله: ﴿مَا هُنَّ أَشْهُدَاؤُهُنَّ إِن أَشْهَدْتُهُنَّ إِلَّا الَّتِي وَدَّهْتُهُنَّ وَإِهْتُم لَيَقُولُونَ مُسْكِرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢٧]. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْيَابَكُمْ أَيْمَانَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفي؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْيَابَكُمْ أَيْمَانَكُمْ﴾، كما قال في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّتِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿ذَلِكَمُ قولكم بآفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المستقيم. وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له: «ذو القلبين»، وأنه كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر. فأنزل الله هذه الآية رداً عليه. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. قاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، واختاره ابن جرير. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس - يعني ابن أبي ظبيان - أن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: رأيت قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، ما عني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرته، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن صاعد الحراني - وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس - كلاهما عن زهير، وهو ابن معاوية، به. ثم قال: وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زهير،

به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْتٍ فِي جَوْفِهِ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرب له مثل، يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة. وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير، والله أعلم. وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأعداء، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا مَعْلَى بن أسد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا موسى ابن عقبة قال: حدثني سالم عن عبد الله بن عمر؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن موسى بن عقبة، به. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، كنا ندعو سالمأً أبناءً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عليّ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعني تحرمي عليه» الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة، وقال: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٤٣٧]، وقال في آية التحريم: ﴿وَلَسَلَّ إِلَيْنَا بَنَاتُكُمْ الَّذِينَ مِنْ أُمَّلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعي، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاة، فمَنْزِل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله، عليه السلام في الصحيحين: «حرموا من الرضاة ما يحرم من النسب». فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحيب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديث سفيان الثوري، عن سلمة بن كَهَيْل، عن الحسن العُزَينِي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على خُمُرَات لنا من جَمْع، فجعل يَلَطُخُ أفخاذنا ويقول: «أُبَيِّنِي لَا ترموا الجمره حتى تطلع الشمس». قال أبو عُيَيد وغيره: «أُبَيِّنِي»: تصغير بني. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر، وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ في شأن زيد بن حارثة، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم، من حديث أبي عَوَانَةَ الوضاح بن عبد الله التَشْكُرِي، عن الجَعْدِ أبي عثمان البصري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنِي». ورواه أبو داود والترمذي. وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِحْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ﴾: أمر الله تعالى برد أنساب الأعداء إلى آبائهم، إن عرفوا، فإن لم يعرفوا آباءهم، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي: عوضاً عما فاتهم من النسب. ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام غُمره القضاء، وتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فأخذها علي وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فاحتملها. فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيهم يكفلها، فكل أدلى بحجة؛ فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عميس - وقال زيد: ابنة أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحت - يعني أسماء بنت عميس. ففضى النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعلي: «أنت مني، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقِي وَخَلْقِي». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها، أنه، عليه الصلاة والسلام، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»، كما قال تعالى: ﴿فَلِإِحْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بَكْرَةَ: قال الله ﷻ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِحْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ﴾، فأنا ممن لا يُعرف أبوه، وأنا من إخوانكم في الدين. قال أبي: والله إنني لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتفى إليه. وقد جاء في الحديث: «من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر». وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِحْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمهم، كما أرشد إليه في قوله أمرأ عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وفي صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر». وفي الحديث الآخر: «إن الله رفع عن أمي الخطأ والسيان، وما يَكْرَهُونَ عليه». وقال هانئ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَمَدَّدْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْدِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ﴾. وفي الحديث

سورة الأحزاب، الآية: ٦

المتقدم: «من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر». وفي القرآن المنسوخ: «فإن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم - أو: إن كفرأ بكم - أن ترغبوا عن آبائكم»، وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله». وربما قال مَعْمَرُ: «كما أطرت النصراني ابن مريم». ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُ الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُمْ أَوْلِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». وفي الصحيح أيضاً أن عمر، رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عمر». ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وقال البخاري عندها: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فليح، حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عُمَرَ، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأبما مؤمن ترك مالا فليتره غضبته من كانوا. فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه». تفرد به البخاري. ورواه أيضاً في «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرُ، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأبما رجل مات وترك ديناً، فإلي. ومن ترك مالا فلورثته». ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل، به نحوه. وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُ الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليظاً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله. وقد روي عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجَلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستديرها، ولا يستطب بيمينه»، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان. والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: وقوله: ﴿وَأَوْلَادُ الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: القربيات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبیر، وغير واحد من السلف والخلف. وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبی - من ساكني بغداد - عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله ﷻ، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأَوْلَادُ الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾،

وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نغم الإخوان، فواخبتهم ووارثناهم. فواخى أبو بكر خارجه بن زيد، وأخى عمر فلاناً، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق، سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجننته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيْهِ أَوْلِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية. وقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَتِ الضَّالِّينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَبَعَثْتُ فِيكُمْ رَسُولًا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ قال عمران: [٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [النورى: ١١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب. فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه - صلوات الله وسلامه عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله وسلامه عليهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة الدمشقي، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية: قال النبي ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، فبدىء بي قبلهم» سعيد بن بشير فيه ضعف. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلأ، وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم. وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا علي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين. موقوف، وحمزة فيه ضعف. وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الدر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالمة، عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم - يعني: ذريته - وأن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوصاً بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية وهذا قول مجاهد أيضاً. وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد. وقوله: ﴿لَيْسَتِ الضَّالِّينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤيدين عن الرسل. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ الْحَكَائِرُ وَنظَرْتُمْ يَالَهُ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباد المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عتبة وغيره كانت في سنة أربع. وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرأ من أشرف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن يشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشرف قريش، واليهم

على حرب رسول الله ﷺ ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورهم إلى سلع وجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذاري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد عن النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حَيَّي بن أخطب النَّضْرِي اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فَعَطَّم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ آتَتْكَ الْمُؤْمِنُونَ مِنِّي وَإِلَيْكَ يَبُغُونَ﴾. ومكشوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فافتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي، رضي الله عنه، فكان علامة على النصر. ثم أرسل الله ﷻ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا ثوق لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾. قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي فنصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل. قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكره. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: اتنا بطعام ولحاف. وقال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي، وقال: «من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا». قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأفذهها إلى الأرض.

وقوله: ﴿رَحْمَةً لِمَنْ تَرَاهُمْ﴾: وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتهم؟ قال: نعم يا بن أخي. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نهجد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يا بن أخي، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل، ثم التفت فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشرط له النبي ﷺ أنه يرجع - أدخله الله الجنة». قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرحمة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة». فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يبق أحد، دعاني رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله ﷻ، تفعل بهم ما تفعل، ولا تُقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: ما معشر قريش، لينظر امرؤ من جلسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصيحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح الذي ترون. والله ما

تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مُرْتَحِل، ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقَّالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ: «ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت، ولقتله بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مِرْطَ لبعض نسائه مُرْحَل، فلما رأني أدخلني بين رجله، وطرح عليّ طرف المِرْطَ، ثم ركع، وسجد واني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غَطْفَان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت. فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخير القوم، يكون معي يوم القيامة؟». فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله. ثم قال: «يا حذيفة، قم فأنا بخير من القوم». فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «الئنني بخير القوم، ولا تدعُزهم عليّ»، قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمَام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يفضلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تدعُزهم عليّ»، ولو رميته لأصبته. قال: فرجعت كأنما أمشي في حَمَام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغتُ وقررتُ فأخبرني رسول الله ﷺ، والبسني من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان». ورواه يونس بن بكير، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة، رضي الله عنه: نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ؛ إنكم أدركتموه ولم ندرکه، ورأيتموه ولم نره. فقال حذيفة: ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله لا تُذري يا بن أخي لو أدركته كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة... ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً. وروى بلال بن يحيى العنسي، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً. وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله اللؤلؤي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة مشاهدتهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكانا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك. لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحو صافون قعود، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرائنا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحداً أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: «إن بيوتنا عورة وما هي بعورة». فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليّ وما عليّ جثة من العدو ولا من البرد إلا مِرْطَ لامرأتي، ما يجاوز ركبتي. قال: فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جاث على ركبتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. قال: «حذيفة». فتقاصررت بالأرض فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم. قال: قم، فقممت، فقال: «إنه كائن في القوم خير فأتني بخير القوم». قال: وأنا من أشد الناس فرعاً، وأشدهم قرأً. قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته». قال: فوالله ما خلق الله فرعاً ولا قرأً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً. قال: فلما وليت قال: «يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني». قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توفد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إنني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شيراً، فوالله إنني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرستهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمِنين، فقالوا: أخبز صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم. فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعتني القرُ وجعلت أقرقُ، فأوماً إليّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل عليّ شملته. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أنني تركتهم يترحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾. وأخرج أبو داود في سننه منه: كان رسول الله ﷺ: إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار، به. وقوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ﴾: تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

الْحَسَلِجِ ﴿١١﴾ أي: من شدة الخوف والفرع، ﴿وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الطُّنُونَا﴾. قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الطُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال مُعْتَب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف -: كان محمد يَعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقبصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله: ﴿وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الطُّنُونَا﴾: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبي، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا الزبير - يعني: ابن عبد الله، مولى عثمان بن عفان - عن رَجَب بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نعم»، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا». قال: فضرب وجهه أعدائه بالبرج، فهزمهم بالبرج. وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي.

﴿هَذَاكَ أَبَيْلُ الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوْا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْرَكُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: أنهم ابتلوا واخترتوا وزلزلوا زلزلاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٣﴾﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة، كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دار هجرتكم، أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر، فإذا هي يثرب»، وفي لفظ: «المدينة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد ابن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُمِّي المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة».

تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم. ويقال: إنما كان أصل تسميتها «يثرب» برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السهيلي، قال: وروي عن بعضهم أنه قال إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكنة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة. وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكنة، لا تغلي الكنوز، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى. وقوله: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السُّرُق. وكذا قال غير واحد. وذكر ابن إسحاق: أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْظِي، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون، ﴿إِنَّ بُيُوتَهُمْ لَأَلَّا فِرَاكًا﴾ أي: هَرَبًا من الزحف.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْفَارِهِمْ ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَقُوا وَمَا نَلَبَسُوا بِهَا إِلَّا لِيَسِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَلِّقَهُمُ الْوَعْدَ أَنَّ اللَّهَ مُشْوَلَكٌ ﴿١٦﴾ قُلْ لَنْ يَمَّعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قِيلًا ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِيطُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ وَلَا تَسِيرُوا ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ بُيُوتَهُمْ لَأَلَّا فِرَاكًا﴾: أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقَطُر من أقطارها، ثم سألوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعاً. وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفرع. هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى: يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأعداء ولا يفرؤا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُشْوَلَكًا ﴿١٦﴾﴾ بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غزوة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قِيلًا﴾ أي: بعد هربكم وفراركم، ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سَوْماً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِدُونَهُ لَمَّمِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَلَا وَلَا يَصِيرُ ﴿١٨﴾ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

﴿قَدْ يَمُرُّ اللَّهُ الْمُعَوِّظِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٩﴾﴾ أَيْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ لَقُوفٌ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْكَ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ لَلْقُوفِ سَلُوكُمْ بِاللَّيْلِ جِدَارٌ أَوْ يَمِينٌ وَلَا يُوقِنُونَ إِلَّا نَسْرَ اللَّهِ أَغْلَبَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم، أي: أصحابهم وعشرائهم وخططانهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والشمار، وهم مع ذلك ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً أَيْحَةَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم.

وقال السدي: ﴿أَيْحَةَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الغنائم.

﴿فَإِذَا جَاءَ لَقُوفٌ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْكَ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَلْقُوفِ سَلُوكُمْ بِاللَّيْلِ جِدَارٌ﴾ أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً نصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس: ﴿سَلُوكُمْ﴾ أي: استقبلوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأ مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق. وهم مع ذلك أشح على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أَفِي السَّلْمِ أَغْيَاراً جَفَاءً وَغُلُظَةً وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاءِ السَّوَارِكِ
أي: في حال المسالمة كأنهم الحمير. والأعيار: جميع غير، وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الخبيثات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَوْ يَتَّبِعُونَ لَقَدْ كَانُوا مِنَ الْآخِرِينَ بَأْسًا بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: سهلأ حينئذ.

﴿يَمْسُرُونَ الْآخِرَاتِ لَمْ يَدْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْآخِرَاتُ يَدْعُونَ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ مِنْ آبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢١﴾﴾.

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخور، ﴿يَمْسُرُونَ الْآخِرَاتِ لَمْ يَدْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْآخِرَاتُ يَدْعُونَ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ مِنْ آبَائِكُمْ﴾ أي: ويؤذون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢٢﴾﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْآخِرَاتِ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبِيِّ ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تفلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؛ ولهذا قال: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْآخِرَاتِ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. قال ابن عباس وفتادة: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَذُرُوقًا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٢٤]. أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختيار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾: دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، والله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ما زادهم ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُسَالُّ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَبُ مِنْ قَضَىٰ نَحْبِهِمْ وَمَن يَنْظُرْ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ لِيَعْرِىَ اللَّهُ الصَّالِحِينَ بِصِدْقِهِمْ

وَمَدَّبَ الْمُتَّقِينَ إِنْ سَأَ أَوْ يُؤَبِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ .

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأديار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَمُ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ ، قال بعضهم : أجله . وقال البخاري : عهده . وهو يرجع إلى الأول . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه . قال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري قال : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه قال : لما نسخنا الصُّحُفَ ، فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها ، لم أجدها مع أحد إلا مع حُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصاري - الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين - : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

انفرد به البخاري دون مسلم . وأخرجه أحمد في مسنده ، والترمذي والنسائي - في التفسير من سنتيهما - من حديث الزهري ، به . وقال الترمذي : «حسن صحيح» . وقال البخاري أيضاً : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثني أبي ، عن ثُمَامَةَ ، عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ . انفرد به البخاري من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال : قال أنس : عمي أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فسق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَتْ عنه ، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرِيَنَّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو ، ابن . وهاهنا لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتِلَ قال : فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةِ وَطْعَنَةِ وَرْمِيَةٍ ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمْتِي الزُّبَيْعَةُ ابْنَةُ النَّضْرِ - : فما عرفت أخي إلا ببنائه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَمُ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ . قال : فكانوا يَزُورُونَ أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه . ورواه مسلم والترمذي والنسائي ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به . ورواه النسائي أيضاً وابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه - يعني : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غُيِّبَتْ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ قَاتِلِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَشْرُوكِينَ ، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ، لَيَرِيَنَّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعوذ بك مما صنع هؤلاء - يعني : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعني : المشركين - ثم تقدم فلقبه سعد - يعني : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ وأخرجه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد والنسائي فيه أيضاً ، عن إسحاق بن إبراهيم ، كلاهما ، عن يزيد بن هارون ، به . وقال الترمذي : حسن . وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان ، عن محمد بن طلحة بن مُصْرَفٍ ، عن حميد ، عن أنس ، به ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير ، من حديث المعتمر بن سليمان ، عن حميد ، عن أنس ، به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني ، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، حدثني أبي ، عن جدي ، عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبي ﷺ من أحد ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ . فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء؟ فأقبلت وعليّ ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّانِ فقال : «أيها السائل ، هذا منهم» . وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحِي ، به . وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً ، وابن جرير ، من حديث يونس بن بُكَيْرٍ ، عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابني طلحة ، عن أبيهما ، به . وقال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يونس . وقال أيضاً : حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري ، حدثنا أبو عامر - يعني : العقدي - حدثنا إسحاق - يعني : ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : دخلت على معاوية ، رضي الله عنه ، فلما خرجت ، دعاني فقال : ألا أضع عندك يابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : «طلحة ممن قضى نجه» . ورواه ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا عبد الحميد الجِمَّانِي ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلْحِي ، عن موسى بن طلحة قال : قام معاوية بن أبي سفيان فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «طلحة ممن قضى نجه» . ولهذا قال مجاهد في قوله : ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ قال : عهده ، ﴿وَمِنْهُمْ

تَنْ يَنْظُرَ ﴿٢٥﴾ قال: يوماً. وقال الحسن: ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ قَضَى حَبَبَهُ﴾ يعني: موته على الصدق والوفاء. ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبذل تديلاً. وكذا قال قتادة، وابن زيد. وقال بعضهم: ﴿حَبَبَهُ﴾: نذره. وقوله: ﴿وَمَا يَدُلُّوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنْ يَبُوءُنَا عَهْدًا وَمَا مِنْ بَعْوَدٍ مِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَاذَبُوا عَهْدَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يَأْتُونَ الْأَذْيَانَ﴾. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا لَكُمْ حَتَّىٰ تَقَالَ الْمُجَاهِدِينَ سَكْرًا وَالصَّادِقِينَ وَيَتْلُوا نَبَأَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده. وكذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظةهم عليه. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم النافضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن الفساق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهزى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، ورددهم خائبين خاسرين بغيطهم وحقنهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هم بشيء وصدق همة بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله. وقوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». أخرجاه من حديث أبي هريرة. وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم، اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم. وقال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوه بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة. وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحاق حديث صحيح، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني أبو إسحاق قال: سمعت سليمان بن صرد يقول: قال رسول الله ﷺ: «يوم الأحزاب: «الآن نغزوه ولا يغزونا». وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ أي: بحوله وقوته، ردهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبُ فَرِيقًا تَقَاتَلَتْ وَأُخْرِيَةٌ قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَرِّيهِمْ وَأَنْوَلَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَحْتَضَرُوا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٨﴾﴾.

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم بين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حَيٍّ بن أخطب النَّضْرِيِّ - لعنه الله - دخل حصنهم، ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتكم بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر. ويحك يا حيي، إنك مشؤوم، فدعنا منك. فلم يزل يقتل في الذروة

والغراب حتى أجاهه، واشترط له حبي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم. فلما نَقَضَتْ قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه، وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيد الله ونصر، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدي له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وفي رواية فقال له: عذيرك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكننا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: «أين؟». قال: بني قريظة، فإن الله أمرني أن أزلزل عليهم. فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة». فسار الناس، فأدرتكم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعْتَفْ واحداً من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نالهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً، رضي الله عنه، كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد فيما دعا به: اللهم، وإن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها ولا تمتني حتى تُفَرَّ عيني من بني قريظة. فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّؤوا له عليه، جعل الأوس يلودون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم. ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه من الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك، فأحكم فيهم بما شئت». قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قال: «نعم». قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال: وعلى من هاهنا. وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظماً - فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، وفي رواية: «لقد حكمت بحكم المَلَك». ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فحَدَّتْ في الأرض، وجيء بهم مكنتين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم يُنبت منهم من النساء وأموالهم، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً، والله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿وَيَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً، طَمَعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٩]، فعليهم لعنة الله. وقوله: ﴿مِنْ صِيَاحِهِمْ﴾ يعني: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم ومنه سميت صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها. ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب الفال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَرِيبًا نَتَقَلَّبُ وَنَايَسُوتُ قَرِيبًا﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال: عُرِضَتْ على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلى عني وألحقني بالسبي. وكذا

رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه. وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضاً تَمْ تَكُونُ لَهُمْ﴾: قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفوا الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجتة، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دُرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا خَانَ الْأَجَلَ

قالت: فمقت فافتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تسبعة له - تعني المغفر - فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة، وما يؤمئك أن يكون بلاء أو يكون تحوُّز. قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ، فدخلت فيها، ففرغ الرجل التسبعة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوُّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمي سعداً رجل من قریش، يقال له ابن العرقه بسهم، وقال له: خذها وأنا ابن العرقه فأصاب أتحله قطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمنني حتى تفر عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقاً كلُّمهُ، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيههم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: ففجاء جبريل، عليه السلام، وإن على ثناباه لنقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله فقال: ومن مر بكم؟ قالوا: مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه، وحُف به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل التكاية ومن قد علمت، قالت: ولا يَزُجِعُ إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي إلا أبا لي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أنزلوه». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسي ذراريهم، وتقسّم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله». ثم دعا سعد فقال: اللهم إني كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها. وإن كانت قطعت الحرب بينه وبينهم، فأقبضني إليك. قال: فانفجر كلُّمهُ، وكان قد برىء منه إلا مثل الحُرْص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ. قالت عائشة: فحَصَّرَهُ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، وعمر: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وأنا في حجرتي. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْهُمْ﴾. قال علقمة: فقلت: أي أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو أخذ بلحيته. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة نحواً من هذا، ولكنه أخصر منه، وفيه دُعاء سعد، رضي الله عنه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ أَدْرَأُكُمْ عَنْ الدُّنْيَا وَرَبَّتِهَا فَمَا لَكُمُ أَلْتَمَعْتُمْ وَأَسْرَعْتُمْ سَرْعًا سَرْعًا وَإِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يَحْتَرِ نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحْصُلُ لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. قال البخاري: حدثنا أبو

اليمن، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاك لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوِجُكُمْ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وكذا رواه معلقاً عن الليث: حدثني يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت. وقد حكى البخاري أن مَعْمَرًا اضطرب، فتارة رواه عن الزهري، عن أبي سلمة، وتارة رواه عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إني أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمري أبويك». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوِجُكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا﴾ إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النبي ﷺ. وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «يا عائشة، إني عارض عليك أمراً، فلا تفتاني فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رومان». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «قل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوِجُكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا فَمَا لَكُم مِّنْ أَمْرٍ أَلَمْ تُؤْمِرُوا أَن تُبَدِّلُوا سَلَامًا حَيْثُمَا ؕ وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾». قالت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أوامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقر الحُجْر، فقال: «إن عائشة قالت كذا وكذا». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن كلهن.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن محمد بن عمرو، به. قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نساته أمر أن يخيرهن، فدخل عليّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستشيرني أباك». فقلت: وما هو يا نبي الله؟ قال: «إني أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذي تقول لا تعجلي حتى تستشيرني أباك؟ فإني اختار الله ورسوله، فسرّ بذلك، وعرض على نساته فتبايعن كلهن، فاخترن الله ورسوله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن سنان البصري، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عُثَيْل، عن الزهري، أخبرني عُبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نساته، فقال: «إني ذاك لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوِجُكُمْ﴾ الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساته كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن. وأخرجه البخاري ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، مثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجه من حديث الأعمش. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضي الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس يباه جلوس، والنبي ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آفناً، فوجأت عنقها. فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناخذه وقال: «هن حولي يسألنني النفقة». فقام أبو بكر، رضي الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضي الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، ﷻ، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوِجُكُمْ﴾ الآية، قالت عائشة، رضي الله عنها: أفليك أستأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساتك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يعثني معنفاً، ولكن يعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها». انفرد بإخراجه مسلم دون

البخاري، فرواه هو والنسائي، من حديث زكريا بن إسحاق المكي، به .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد الله بن علي ابن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خيّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق. وهذا منقطع، وقد روي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَمَّا لَبِثَ أُمَّتَكُمْ وَأَنتِ بِكُمْ سَرَامًا جَمِيلًا﴾ أي: أعطيتكن حقوقكن وأطلق سراحكن. وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَيِّ النَّضْرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن. ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فأمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضي الله عنها، في الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريره مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة. واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف. وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختلفت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تُسَلِّي رسول الله ﷺ وتبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدرت غرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكان نصرته للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصر والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيتها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضي الله عنه. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيها إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة، من قصب، لا صخب فيه ولا نصب وهذه لعمر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأما عائشة، رضي الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبي ﷺ، فروى البخاري بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». وعلية السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ. ومن خواص خديجة، رضي الله عنها: أنه لم تسوء قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إبلاء، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه متعبة وفضيلة. ومن خواصها: أنها أول امرأة أمنت بالله ورسوله من هذه الأمة. فصل: فلما توفاهما الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضي الله عنها، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جيل بن عامر بن لؤي، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها أثرت بيومها حب النبي ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحباً له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بستين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في البخاري وغيره، أنه سئل أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكرة غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دون غيرها. ومن خصائصها: أن الله، ﷻ، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ فيها فخيرها، فقال: «ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷻ، وقلن كما قالت. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رامها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبرأيتها، وحيأ يتلى في محاريب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصاب لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من متعبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف

والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبيها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلفظهم، ويُعْتَمَن بصلح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيرهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل تُرى اعتبارهم، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إهمال، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم. ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعنات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإهمال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسال الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً، وهو عند الله حقيراً، ومن خصائص عائشة، رضي الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضي الله عنهم، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين، استفتوها فيجدون علمه عندها. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتها. ومن خصائصها: أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في خرقه حرير، فقال النبي ﷺ: «إن يكن هذا من عند الله يمضه». ومن خصائصها: أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقريباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، رضي الله عنهم أجمعين، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً، ولا يثبت ذلك.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدرأ، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة: أن النبي ﷺ طلقها، فأناه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة. وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدي حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبا الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبي ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشي أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبي ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: أنبت أن جبريل أتى النبي ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وإيم الله، ما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد. وزوجها ابنها - عمر - من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم في صحيحة أن عمر بن أبي سلمة - ابنها - سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إني أتفاكم لله وأعلمكم به» أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جداً، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال

اليهقي: وقول من زعم أنه كان صغيراً، دعوى ولم يثبت صفه بإسناد صحيح.

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بني خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات، وأنزل عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نِّهَاً وَطَرَكَ زَوْجَهَا﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، وهذا من خصائصها. وتوفيت بالمدينة سنة عشرين، ودفنت بالبقيع. وتزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت تحت عبد الله بن جحش، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمى أم المساكين، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، رضي الله عنها. وتزوج رسول الله ﷺ جويرة بنت الحارث من بني المصطلق، وكانت سببت في غزوة بني المصطلق، فوعدت في سهم ثابت بن قيس، فكتبها، ففقد رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين، وهي التي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكان ذلك من بركتها على قومها.

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، من ولدها هارون بن عمران أخي موسى، سنة سبع، فإنها سببت من خير، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق، فقتله رسول الله ﷺ، توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها. قال أنس: أمهرها نفسها، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريتها صداقها، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد، رحمه الله. قال الترمذي: حدثنا إسحاق بن منصور، وعبد بن حميد، قالا: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: صفية بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فيما تفخر عليك؟» ثم قال: «اتق الله يا حفصة». قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. وهذا من خصائصها، رضي الله عنها.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية تزوجها بسرف وهو على تسعة أميال من مكة، وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين، توفيت سنة ثلاث وستين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهي التي اختلف في نكاح النبي ﷺ لها. هل نكحها حلالاً أو محرماً؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفيق في نكاحها.

قال الحافظ أبو محمد المقدسي وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهن، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة، وأهنن نساؤه ﷺ في الدنيا والآخرة، فمن فارقه في حياتها ولم يدخل، ولا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتي دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليمًا.

﴿يَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ بِخَبَرٍ مُبِينٍ يَكْفُرْ بِهِ فَمَنْ حَتَّ لَهَا الْغَدَابَ يُصْغَفْ لَهُ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَفْتَرْ عَلَى اللَّهِ كُفْرًا يَكْفُرْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ عَنِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من أت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق - وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الرقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرِّجَالِ وَلَدٌ لَأُتْرِكُوا إِلَى الْكُفْرَانِ وَلَئِنْ لَأُتْرِكُوا إِلَى الْكُفْرَانِ وَلَئِنْ لَأُتْرِكُوا إِلَى الْكُفْرَانِ وَلَئِنْ لَأُتْرِكُوا إِلَى الْكُفْرَانِ﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْطَأَ وَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَعْدُ الْفَعْدُ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ٢٤]. فلما كانت محلتهن ريفية، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنايبهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ بِخَبَرٍ مُبِينٍ يَكْفُرْ بِهِ فَمَنْ حَتَّ لَهَا الْغَدَابَ يُصْغَفْ لَهُ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الزمر: ٢٤]. قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُصْغَفُ لَهَا الْغَدَابُ يُصْغَفُ﴾ قال: في الدنيا والآخرة. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً. ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْتَرْ عَلَى اللَّهِ كُفْرًا يَكْفُرْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ عَنِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْدَتَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَسَاءَ النَّبِيِّ لَسَاءٌ كَعَدْرِ مِنَ الْيَسَاءِ إِنْ أَتَيْتَهُمْ فَلَا تُخَضِّعْهُمْ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٠﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا

تَرَجَّعَ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ وَأَطَعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذَكَّرَنَ مَا يَسْكُنُ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ بَيْنَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ .

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ﴾ . قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترفيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَقَطِّعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دَعَلَ، ﴿وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجنبيات بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجنبيات كما تخاطب زوجها. وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلِيُخْرِجَنَّ مِنْهُنَّ تَقِيَّاتٍ﴾، وفي رواية: ﴿وبيوتهن خير لهن﴾. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس، رضي الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿من قعد - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله﴾. ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور. وقال البزار أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مَورِق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: ﴿إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة بها وهي في فغر بيتها﴾. ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه. وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: ﴿صلاة المرأة في مَخْدَعِهَا أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها﴾. وهذا إسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَجَّعَنَّ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَرَجَّعَنَّ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتفتعج - فنهى الله عن ذلك. وقال مقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَرَجَّعَنَّ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج. وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود - يعني ابن أبي الفرات - حدثنا علي بن أحمر، عن عكرمة عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَرَجَّعَنَّ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُرْمَرُ فيه الرُعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هَجَمَ عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَجَّعَنَّ تَرَجُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وقوله: ﴿وَأَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ وَأَطَعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر في أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطَعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير: عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلهت أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس ابن مالك، رضي الله عنه، قال:

إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: «الصلاة يا أهل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عفان، به. وقال: حسن غريب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: «الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». أبو داود الأعمى هو: نفيح بن الحارث، كذاب.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد أبو عمار قال: دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً، رضي الله عنه، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه - زاد في آخره: قال وائلة: فقلت: وأنا يا رسول الله - صلى الله عليك - من أهلك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال وائلة: إنها من أرحى ما أرتجى. ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمار قال: إني لجالس عند وائلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشمموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى ﷺ عليهم كساءه له، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله، وأنا: قال: «وأنت». قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأنته فاطمة، رضي الله عنها، بمرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادعي زوجك وإبنيك». قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان تحته كساء خبيري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فآلوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إني خير، إني خير، إني خير». وفي إسناده من لم يسم، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المعدل، عن عطية الطفاوي، عن أبيه: أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعلياً بالسدة قالت: فقال لي: «قومي فتتحي عن أهل بيتي». قالت: فقممت فتتحت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقبّل فاطمة وقبّل علياً، وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال: «اللهم، إليك لا إلى النار وأنا وأهل بيتي». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: «وأنت». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة: أن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألسنت من أهل البيت؟ قال: «إني خير، أنت من أزواج النبي ﷺ». قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، رضي الله عنهم. طريق أخرى: رواه ابن جرير أيضاً، عن أبي كريب، عن وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة بنحوه. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا خالد بن مخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زُمعة قال: أخبرني أم سلمة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جار إلى الله، ﷻ، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم.

فقال: «أنت من أهلي». طريق أخرى: رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه بنحو ذلك. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مصعب بن المقدم، حدثنا سعيد بن زريق، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ بيرة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت: في البيت. فقال: «ادعهم». فجاءت إلى علي فقالت: أحب رسول الله أنت وابناك. قالت أم سلمة: فلما رأهم مقبلين مديده إلى كساء كان على المنامة، فمده وبسطه، وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه، ﷺ، فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير».

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صافية بنت شيبة قالت: قالت عائشة، رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرْطٌ مَرْحُلٌ من شَعْرٍ أَسْوَدٍ، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به. طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام - يعني: ابن حَوْشَب - عن عم له قال: دخلت مع أبي علي عائشة، فسألته عن علي، رضي الله عنه، فقالت، رضي الله عنه: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحِّي، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زَبَان العَنَزِي، حدثنا مَيْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾». قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم. وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي».

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حرب، وشُجَاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُليَّة - قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَيْن بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً؛ حَدَّثْنَا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا ابن أخي، والله لقد كَبَّرْتَ بيّتي، وقدم عهدني، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثْتُمْ قَابِلُوا، وما لا فلا تَكَلَّفُونِي. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يديعي حُما - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فَحَثَّ على كتاب الله وَرَغَّبَ فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ فقال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من

للنبي ﷺ: يا نبي الله، مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وقد رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أيدكر الرجل في كل شيء ولا تذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية. طريق أخرى: قال سفیان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا تذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزِي، حدثنا أبو كُذَيْبَة يحيى بن المهلب، عن قابوس بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد؛ عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ، فقلن: قد ذُكرن الله في القرآن، ولم تُذكر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية.

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا قَلِيلٌ لَّمْ يُمْسِكُوا وَكَلِمَةً لَّعَنَّا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَلَمْنَآ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». فبفسله الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قرناه في أول شرح البخاري. وقوله: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَاتِ﴾: القنوت: هو الطاعة في سكون، ﴿أَمَنَ هُوَ فَنَبَتْ أُمَّةً أَلْبَنًا سَاعِدًا وَقَائِمًا يَبْعُدُ الْآخِرَةَ وَرَبِحُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِينُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَنْزِمُهُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] ﴿وَقَوْمًا لِلَّهِ قَنِينَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها، ثم القنوت ناشيء عنهما. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً والأحاديث فيه كثيرة جداً. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذه سَجِيَّة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقَّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجبة وثباتها. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: الخشوع: السكون والطمأنينة، والتوادة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وَالْمُسْرِفِينَ وَالْمُسْرِفَاتِ﴾: الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث الآخر: «والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار». وفي الترمذي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء». وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة». وفي حديث أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «ترضخ مما خولك الله»، أو: «ترضخ مما رزقك الله»؛ ولهذا لما خطب النبي ﷺ يوم العيد قال في خطبته: «يا معشر النساء تصدقن ولو في حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار». وكانه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار، وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ذكر لي أن الأعمال تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ، مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهم جتان من حديد، أو جتان من حديد. قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وترقيهما، فجعل المتصدق، كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها. قال أبو هريرة: فأن رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جيبه. فلو رأته يوسعها ولا يتسع. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْمَ نَفْسِهِ فَلَئِنَّكَ هُمُ الْمَخْلُوعُونَ﴾ [التاب: ١٦]. فوجد الرجل يجيبه إلى أضداده، ويخله يبغضه إلى أولاده. كما قيل:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله
تعط بأثواب السخاء فلأنني
وتستره عنهم جميعاً سخاؤه
أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً، له موضع بذاته. ﴿وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ﴾: في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «والصوم زكاة البدن» أي: تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً. قال سعيد بن جبيرة: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، دخل في قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» - ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾: أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿٧﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٨﴾ فَمَنْ أَكْفَىٰ ذَلِكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٩﴾ (المؤمنون: ٥-٧). وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وقد رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي ﷺ، بمثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمدان فقال: «هذا جُمدان، سيروا فقد سبق المُفْرَدُونَ». قالوا: وما المُفْرَدُونَ؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً». ثم قال: «اللهم اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرين؟ قال: «اللهم، اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرين؟ قال: «والمقصرين». تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره. وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجَّين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد - مولى عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة - أنه بلغه عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله». وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ذكر الله، ﷻ». وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم لله ذكراً». قال: فأي الصائمين أكثر أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أكثرهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر، رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «أجل». وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٢﴾ الآية [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: أي: هيا لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجر عظيم وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَبْصِرْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ﴿١٣﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بل فانكحيه». قالت: يا رسول الله، أوامر في نفسي. فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قد رضيت لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: «نعم». قالت: إذا لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي. وقال ابن لهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ﴾ الآية كلها. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش الأسدية حين خطبها

رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة، فامتعت ثم أجابت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول من هاجر من النساء - يعني: بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت. فزوجها زيد بن حارثة - يعني والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ إلى آخر الآية. قال: وجاء أمر أجمع من هذا: ﴿الَّتِي أَرْكَبُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنْفُسِهِمْ﴾ قال: فذاك خاص وهذا جماع. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت البناني، عن أنس قال: خطب النبي ﷺ على جُلَيْبِ امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها. فقال: النبي ﷺ: نعمم إذا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاهها الله ذاء، وما وجد رسول الله ﷺ إلا جُلَيْبِيا، وقد منعنا من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تزودوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيكم فأنكحوه. قال: فكانها جَلَّتْ عن أبيها، وقالوا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيته. قال: «فإني قد رضيته». قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جُلَيْبِ فوجوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني: ابن سلمة - عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي برزة الأسلمي أن جُلَيْبِيا كان أمرا يدخل على النساء يَمُرُّ بهن ويلعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكم جُلَيْبِيا، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم: هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك». قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونعمة عين. فقال: إني لست أريدها لنفسي. قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: لجُلَيْبِيا. فقال: يا رسول الله، أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجُلَيْبِيا. فقالت: أجُلَيْبِيا إنه؟ أجُلَيْبِيا إنه؟ لا، لعمر الله لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها. قالت: أتريدون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضعيني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها. فزوجها جُلَيْبِيا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «لكني أفقد جُلَيْبِيا». قال: «فاطلبوه في القتلى». فطلبوه فوجده إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه. مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له، ماله سرير إلا ساعد النبي ﷺ. ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضي الله عنه. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: «اللهم، صب عليها الخير صبا، ولا تجعل عيشها كذا» كذا قال، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتريدون على رسول الله ﷺ أمره؟ تلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. وقال ابن جُرَيْجٍ أخبرني عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس، رضي الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَشْتَدُوا فِي أَفْسِهِمْ حَرِمًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَقِصْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، كقوله تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْلُومًا﴾ [٦٤].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، كان سيداً كبير الشأن جليل القدر،

حبيباً إلى النبي ﷺ، يقال له: الحب، ويقال لابنه أسامة: الحب ابن الحب. قالت عائشة، رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي عنها. وقال البزار: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عوانة (ح)، وحدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة، أخبرني عمران بن أبي سلمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: «لكني أدري»، قال: فأذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أي أهلك أحب إليك؟ فقال: «أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد»، قالا: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامة بن زيد بن حارثة، الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه». وكان رسول الله ﷺ قد رُزَّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأما أئمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهماً، وخِمَاراً، ومِلْحَمَةً، ودِرْعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرة أمداد من تمر. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله». قال الله تعالى: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ». ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف، رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صَفْحاً لعدم صحتها فلا نوردها. وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً، من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً. وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن علي ابن زيد بن جُدْعَانَ قال: سألتني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ»؟ فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أنني مُرْزُوجُكِها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه. وهكذا روى عن السُّدِّي أنه قال نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داود عن عامر، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله، لكنتم: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ».

وقوله: «فَلَمَّا فَصَّي زَيْدٌ يَتِيمًا وَطَرَا رَزَقْتَهَا» : الـوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرغ منها، وفارقها، رَزَقْتَهَا، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله، ﷻ، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - يعني: ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، رضي الله عنه، قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «أذهب فاذكرها علي». فانطلق حتى أتتها وهي تُحَمَّرُ عَجِينَهَا، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، ﷻ. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حُجْرَ نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى السر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» الآية. ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سليمان بن المغيرة، به. وقد روى البخاري، رحمه الله، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات. وقد قدمنا في «سورة النور» عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب، رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذْرِي من السماء، فاعترفت لها زينب، رضي الله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل

عليه السلام. وقوله: ﴿لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِجِ أَدْعِيَابَهُمْ إِذَا قَفَسُوا مِنْهُمْ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحن لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأعداء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ أَنْتَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٢] ليحترز من الابن الذمعي؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله مستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨).

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة. وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه، الذي كان قد تبناه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يُلْفُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَ اللَّهَ وَيَحْشَوْنَ أُمَّةً إِلَّا اللَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ حَيَاتٌ﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠).

يمدح تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْفُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدون بها بامانتها، ﴿وَيَحْشَوْنَ أُمَّةً﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَلَكِنْ يَلْفُونَ حَيَاتًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام - محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرايع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنوهم يقتدي المهدتون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن ثُمَيْرٍ، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي اليختر، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَخْفَرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا يَقُولُهُ، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فإنا أحق أن يخشى». ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن الثوري، عن زيد، عن عمرو بن مرة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كُرَيْبٍ، عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش به. وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، نهي تعالى أن يقال بعد هذا: «زيد بن محمد» أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه، صلوات الله عليه وسلامه، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لسته أشهر. وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَحَاتَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة». ورواه الترمذي، عن بُنْدَارٍ، عن أبي عامر العقدي، به، وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار بن قُفْلٍ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي». قال: فسُق ذلك على الناس قال: قال:

«ولكن المبشرات». قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة». وهكذا روى الترمذي عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن عفان بن مسلم، به. وقال: صحيح غريب من حديث المختار بن قُفْل.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليم بن حَيَّان، عن سعيد بن مينا، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء، عليهم السلام». ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طرق، عن سليم بن حيان، به. وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة، فجت أنا فأتممت تلك اللبنة». انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عبيد الراسبي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات». قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة». أو قال: - الرؤيا الصالحة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مَثْبُة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابنتى بيوتاً فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويمعجبهم البنيان ويقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟! قال رسول الله ﷺ: «فكنت أنا اللبنة». أخرجه من حديث عبد الرزاق.

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضاً: قال: الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِلت على الأنبياء بست: أُغْطِيت جوامع الكلم، وتُصِرْتُ بالرعب، وأجَلْتُ لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة، فجت أنا فأتممت تلك اللبنة». ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كُرَيْب، كلاهما عن أبي معاوية، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العزْباض بن سارية قال: قال النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيئته».

حديث آخر: قال الزهري: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي». أخرجاه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن مُبَيَّرَة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولاني بعدي: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوّز بي، وعُوفِيتْ وعُوفِيتْ أمتي؛ فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله، وحزّموا حرامه». تفرد به الإمام أحمد. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن مريح الخولاني، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء. والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتبرجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العنسي باليمن،

ومسيلة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختوما بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفسور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلْنَا السَّنِينَ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكَلِمَ الْكَلِيمَ ﴿٢٢٢﴾﴾ الآية [الشراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَيُحِبُّهُ بَكْرًا وَأَسِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ حَيَّتْهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بكثرة ذكركم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عياش عن أبي بحرية، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله، ﷻ». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد - مولى ابن عياش - عن أبي بحرية - واسمه عبد الله بن قيس التراغمي - عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: ورواه بعضهم عنه فأرسله. قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مسند الإمام أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه فأنه أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فروح بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم، اجعلني أعظم شكر، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك». ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريب. وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فروح بن فضالة، عن أبي سعيد المدني عن أبي هريرة فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بسر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمربي بأمر أتشبهت به. قال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله». وروى الترمذي وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إن ذراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم العمي، حدثنا سعيد بن سفيان الجحدري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثبيت الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً حتى يقول المنافقون: تراؤن». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا رآه حسرة يوم القيامة». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَيُحِبُّهُ بَكْرًا وَأَسِيلًا ﴿٤١﴾﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالسنائي والمعمرى وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي، رحمه الله تعالى. وقوله:

﴿وَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٤١) أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨) [الروم: ١٧-١٨]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهيج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا بِحَاثِلِ الْأَعْيُنِ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥٩) فَادْرُكُوا أَذْرُكُمُ وَأَنْتُمْ كُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥٩) [البقرة: ١٥١-١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملا خير منهم». والصلاة من الله ثاؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم. وأما الصلاة من الملائكة، فيمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ آمْرًا مِنْ حَوْلِهِمْ يَقُولُونَ آمْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَيُوْثِقُونَ يَدَهُمْ وَسَتْمُرِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ (٩) الآية [عامر: ٧-٩]. وقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاء إلى الكفر أو البدعة وأشباعهم من الطعام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته بتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذلك إلا لمحبتهم لهم ورافته بهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنيها في النار. قال: فَحَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: «ولا الله، لا يلقي حبيبه في النار». إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فالصقت إلى صدرها، وأرضعت فقال: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها». وقوله: ﴿يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾: الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿يَجِيئُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلَامٌ﴾ أي: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) يس: ٥٨. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة. واختاره ابن جرير. قلت: وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سَمْعُكَ اللَّهُمَّ وَجِيئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَبِأَجْرٍ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (١١) [يونس: ١٠]. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشرب، والملابس والمسكن، والمناجك والملاذ والمناظر وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَأْتِيهَا النَّوْءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦) وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَأْنِ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ (٤٧) وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَعَنْ أَدْبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨).
قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فُلَيْحُ بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّوْءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وحرزا للاميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وأذناناً صماً، وقلوباً غلفاً.

وقد رواه البخاري في «اليوبوع» عن محمد بن سنان، عن فُلَيْحُ بن سليمان، عن هلال بن علي به. ورواه في التفسير عن عبد الله - قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، به. وقال البخاري في اليوبوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. وقال وهب بن منية: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيب - أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطلق لسانك بوحى وأبعث أمياً من الاميين، أبعثه مبشراً ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت

قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كُفها، وأذانا صماً، وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والغفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمالة، وأعرف به بعد التُّكْرَة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستفد به فتاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي: اللهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومشاهم، يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزُحوناً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجليهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم. أجعلهم ورثة لنتيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيته من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أُرْسِلَتْكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٩) - وقد كان أمر علياً ومعاداً أن يسيرا إلى اليمن - فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تسعرا، إنه قد أنزل علي: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أُرْسِلَتْكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾». ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله. وقال في آخره: «فإنه قد أنزل علي: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن». وقوله: ﴿شَهِيدًا﴾ أي: لله بالوحدانية، أنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَمُبَشِّرًا وَمُنذِرًا﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجدها إلا معانده. وقوله: ﴿وَلَا يُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَوَعَّ أَدْنَاهُمْ﴾ أي: لا تطعمهم ولا تسمع منهم في الذي يقولونه ﴿وَدَعَّ أَدْنَاهُمْ﴾، أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَمُدُّونَهَا فَمِعُوهُنَّ وَسَبَّوهُنَّ سَرَامًا حَبِيلاً﴾ (٤٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطاء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكثابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى. وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»: فعندهما متى تزوجها طلقته منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه،

فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس - يعني: ابن أبي إسحاق - سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يثاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟! وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق قبل النكاح. وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمسنون بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح». وفي الآية دليل على أن الميسس مطلق، ويراد به الوطء.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعَدُّوهُنَّ﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله: ﴿فَتَعَوَّهْنَ وَسِرَّوهُنَّ سِرًّا جَيْلًا﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةً مِمَّا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوهُنَّ عَلَى التَّرْبِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْقَفْرِ قَدَرُهُ مِمَّا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أسيد؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين زرافيين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً فأمتعتها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ لِكَفَالِ الْأَنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّ هَاجِرًا مَلَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَبَّعْتَ نَفْسًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْفِكَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٥٠].

يقول تعالى مخاطباً نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن، وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهرهن لثنتي عشرة أوقية ونشاً وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي، رحمه الله، أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سني خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أذى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عن جميعهن. وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقتهما وتزوجهما. وملك ربحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السرايري، رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّ هَاجِرًا مَلَكَ﴾ هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصراري لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحداهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصراري، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فطبع. وإنما قال: ﴿وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ عَمَلِكِ وَنِكَاحِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّ هَاجِرًا مَلَكَ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لَشَرَفِهِ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِنَقْصِهِنَّ كَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُعْرَفُهُمْ مِنَ الْأَطْلَاقِ إِلَى الْوُجُودِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَمَلُ الْأُنثَى وَالنُّورُ﴾ [الانعام: ٤١]، وله نظائر كثيرة. وقوله: ﴿النَّبِيِّ هَاجِرًا مَلَكَ﴾ قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازي، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي صالح، عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله ﷺ فأعتدت إليه بعذري، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ لِكَفَالِ الْأَنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِكَاحِ عَمَلِكِ﴾ إلى قوله: ﴿النَّبِيِّ هَاجِرًا مَلَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من المطلقات. ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن عبيد الله بن موسى، به. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنه بنحوه. ورواه الترمذي في جامعه.

وهكذا قال أبو رزين وقتادة: إن المراد: من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللّٰثِي هَاجَرَ مَعَكَ».

وقوله: ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: ويحل لك - يا أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَفْعَلُوا شَيْحًا إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَصَحَ لَكُمْ إِنَّ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتَوَكِّبَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى: ﴿يَتَوَكَّمُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَقَلِّبْهُ فَوَكَّلُوا بِكُمْ مُّشْلِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك. فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، رَوِّجِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِهِ؟» فقال: ما عندي إلا إزار ي هذا. فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمَسْ شَيْئًا». فقال: لا أجد شيئاً. فقال: «الْتَمَسْ لَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ: «زَوِّجْتِكِهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». أخرجاه من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سمعت ثابتاً يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك في حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها: فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها». انفرج بإخراجه البخاري، من حديث مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن ثابت البناني، عن أنس، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسناتها وجمالها، فأثرتك بها. فقال: «قد قبلتها». فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدق ولم تُشكك شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك». لم يخرجوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مَرْحَم، حدثنا ابن أبي الوضاح - يعني: محمد بن مسلم - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم. وقال ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص، من بني سليم، كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ. وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة. فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأة أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين - امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء - وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعادت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس: ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث. فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فإله أعلم. والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير، كما قال البخاري، حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: هشام بن عروة حدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول: أنهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تَرَجَى مَن نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مَن نَشَاءُ وَمَن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس بن بكير، عن عتبة بن الأهر، عن سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن يونس بن بكير. أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل

له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما. أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بزّوع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدّق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صدّق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش، رضي الله عنها. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقاتدة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾: أي: من خضرتهم في أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً فيه؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نِسَاءِ وَمِنْ أَنْبَغَيْتِ يَمَنَ عَزَّتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَ وَرَضَتِ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أنها كانت تُعَرِّبُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صدّق؟ أنزل الله ﷻ: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نَسَاءِ وَمِنْ أَنْبَغَيْتِ يَمَنَ عَزَّتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرى رَبِّكَ يسارع لك في هواك. وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أسامة، عن هشام بن عروة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجَىٰ﴾: أي: تؤخر ﴿مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ﴾ أي: من الواهيات أنفسهن ﴿وَتَقَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نَسَاءِ﴾: أي: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُذَّتْ فيها فأوتيتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ أَنْبَغَيْتِ يَمَنَ عَزَّتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشعبي في قوله: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نَسَاءِ﴾: كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنكحن بعده، منهن أم شريك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نَسَاءِ﴾: أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القسَمَ لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتراجع من شئت، وتترك من شئت. هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وأبي زرّين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان، صلوات الله وسلامه عليه، يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسَمَ واجباً عليه، صلوات الله وسلامه عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة. وقال البخاري: حدثنا حبان بن موسى، حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا عاصم الأحول، عن معاذة عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَسَاءِ يَتَنَوَّوْنَ إِلَيْكَ مِنَ نَسَاءِ وَمِنْ أَنْبَغَيْتِ يَمَنَ عَزَّتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً. فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسَم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهيات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهيات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَ وَرَضَتِ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾: أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسَم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرون به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهما وإنصافك لهن وعدلك فيهن. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة - وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تلمني فيما تملك ولا أملك: يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: أي: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾: أي: يحلم ويفغر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا عَلِيمًا﴾. ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت

مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراير فلا حرج عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء. ورواه أيضاً من حديث ابن جزيج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سنتيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبه، حدثني عمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي، عن أبي النصر مولى عمر بن عبيد الله، عن عبد الله بن وهب بن زُمْعَةَ، عن أبي سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله، ﷻ: ﴿تَزَوَّجْ مِنْ نِسَاءِ مِثْنٍ وَتَوَفَّى إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللتنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمت والخال والخالات والواهبه وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مروى عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك - في رواية - وأبي رزین - في رواية عنه - وأبي صالح، والحسن، وقادة - في رواية - والسدي، وغيرهم. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن داود بن أبي هند، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زياد - رجل من الأنصار - قال: قلت لأبي بن كعب: رأيت لو أن أزواج النبي ﷺ تُوفين، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾. ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود، به. وروى الترمذي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّ مَا تَبَتَّ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلى قوله: ﴿حَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء. وقال مجاهد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد ما سمي لك، لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة. وقال أبو صالح: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة وقال عكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: التي سمي الله.

واختار ابن جرير، رحمه الله، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. ثم أرود ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم. فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها، وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ حَاثَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَآغْرَا صَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ الآية [النساء: ١٧٨]. وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حي عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد قوي. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا يونس بن بكير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الصحيحين. وقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فهناك عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا، فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتي. أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَا أَنْ يَبَدَّلَ بَيْنَ مَنْ مِنْ آفَافٍ وَلَوْ أَنْعَمَ لَكَ خُسْفَانٌ﴾ قال: فدخل عينيه بن حصن على النبي ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين الاستئذان؟ فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحُمَيْرَاءُ إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين». قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق؟ قال: «يا عبيبة إن الله قد حرم ذلك». فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: هذا أحق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه». ثم قال البزار إسحاق بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيننا العلة فيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبِذِينَ إِنَّهُ وَلَئِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَشْفِينَ لِيُذَيَّبَ إِنْ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَيِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَجْهِ جِهَابٍ ذَلِكُمْ أَهْلُهُنَّ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ: لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [التحریم: ٥]، فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة. وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّدٌ، عن يحيى، عن حُمَيْدٍ، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما. وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم. قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا مُعْتَمِرُ بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهاى للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فنجت أخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به. ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، بنحوه. ثم قال: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ﷺ بزینب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه. قال: «ارفعوا طعامكم»، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فَتَقَرَّرَى حجر نساته كُلَّهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع رسول الله ﷺ فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم حَرَجُوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة، وأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، سوى النسائي في اليوم واللييلة، من حديث عبد الوارث. ثم رواه عن إسحاق - هو ابن منصور - عن عبد الله بن بكر السهمي، عن حُمَيْدٍ، عن أنس، بنحو ذلك، وقال: «رجلان» انفرد به من هذا الوجه. وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفر بن سليمان، عن الجعد - أبي عثمان الشَّكْرِي - عن أنس بن مالك قال: أعرض

رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً ثم وضعته في تَوْر، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، وأقرنه مني السلام، وأخبره أن هذا منا له قليل - قال أنس: والناس يومئذ في جهد - فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعت في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً». وسمى رجالاً كثيراً، وقال: «ومن لقيت من المسلمين». فعدوتُ مَنْ قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفّة والحجرة ملأى من الناس - فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة - قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جئ به». فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه، ودعا وقال: «ما شاء الله». ثم قال: «ليتحلّق عَشْرَةَ عَشْرَةَ، وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه». فجعلوا يسمون ويأكلون، حتى أكلوا كلهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه». قال: فجئتُ فأخذت التَوْرَ فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت؟ قال: وتخلّف رجال يتحدثون في بيت رسول الله، وروجُ رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مَوْلِيَةٌ وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياءً - ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً - فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حُجْرِهِ وعلى نسائه، فلما رآه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَلُوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أَرخى الستر، ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً، وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طُعِمْتُمْ فَلْيَشْكُرُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَيْسَاءً﴾. قال أنس: فقراهن عليّ قبل الناس، فانا أخذتُ الناس بهن عهداً. وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به. وقال الترمذي: حسن صحيح وعلّقهُ البخاري في كتاب النكاح فقال: وقال إبراهيم بن طَهْمَانَ، عن الجَعْدِ أَبِي عَثْمَانَ، عن أنس، فذكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الجعد، به. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى البخاري والترمذي، من طريقين آخرين، عن بيان بن بشر الأحمسي الكوفي، عن أنس، بنحوه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، من حديث أبي نُضْرَةَ العبدي، عن أنس بن مالك، بنحوه. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري، عن أنس، بنحو ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهزُّ وهاشم بن القاسم قالوا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ: «اذهب فاذكرها عليّ». قال: فانطلق زيد حتى أتاهها، قال: وهي تُحْمَرُ عَجِينَهَا، فلما رأيتها عَطَمْتُ في صدري. . . وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿كَلِمًا فُضِيَّتْ رَيْدٌ تَتَهَا وَطَرًا﴾، وزاد في آخره بعد قوله: وَوَرَعْتَ القوم بما وعظوا به. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طُعِمْتُمْ فَلْيَشْكُرُوا﴾ وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِجَبِيَّتِي إِنَّ دَالِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَجِبِي بِكُمْ وَاللَّهِ لَا يَسْتَجِبِي مِنْ آلِهِ. وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثني عمي عبد الله بن وهب، حدثني يونس عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرصاً أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب.

هكذا وقع في هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، من حديث هشام بن عُرْوَةَ، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جَسِيمَةً لا تُخْفِي علي من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تُخْفِينِ عَلَيْنَا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عَرَقٌ، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إلي، ثم رَفَعَ عنه وإن العَرَقُ في يده، ما وضعه. فقال: «إنه قد أذُنْ لكن أن تخرجن لحاجتكن». لفظ البخاري. فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾: حَظَرَ على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء». ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ﴾. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحنيين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب

الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَنْظِرُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجِب، عُرْساً كان أو غيره». وأصله في الصحيحين وفي الصحيح أيضاً، عن رسول الله ﷺ: «لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدى إليّ كُرَاع لقبلت، فإذا فَرَعْتُم من الذي دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض!» ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَفِيسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِى مِنْكُمْ﴾. وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حياته، عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَلَّا لَا يَسْتَجِىَ مِنْ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن يسعر، عن موسى ابن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي ﷺ خَيْساً في قُعب، فمر عمر فدعاه، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: حَسَن - أو: أَوْه - لو أطاع فيكن ما رأتك عين. فنزل الحجاب. ﴿ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أظهر وأطيب. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. قال رجل لسفيان: أمي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك. وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المشنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قبيلة بنت الأشعث - يعني: ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيَّرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها. قال: فاطمان أبو بكر، رضي الله عنهما، وسكن. وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثم قال: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٥٤) أي: مهما تكنه ضمائمكم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ﴾ (٥٥) [غانر: ١١٩].

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْنَّ فِي مَا بَيْنَهُنَّ وَلَا آبَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا أَبْنَاءَهُنَّ إِخْوَانَهُنَّ وَلَا إِسَاءِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآلِهِنَّ اللَّهُ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٥٥)

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله: ﴿وَلَا يَبْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعض السلف فقال: لِمَ لَمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي: بأنهما لم يذكر؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المشنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْنَّ فِي مَا بَيْنَهُنَّ وَلَا آبَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا أَبْنَاءَهُنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا إِسَاءَهُنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قلت: ما شأن العم والخال لم يذكر؟ قال:

هما ينعتانها لأبناتهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾: يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: يعني به: أرقاءهن من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه. قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به: الإمام فقط. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَأَقْبَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ اللَّهُ كَأَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبركون. هكذا علقه البخاري عنهما. وقد رواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك. وروى مثله عن الربيع أيضاً. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم. وقال أبو عيسى الترمذي: وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش عن عطاء بن أبي رباح: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال: صلاته تبارك وتعالى: سُبْحُ قدوس، سبقت رحمتي غضبي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يشي عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعني: ابن المغيرة - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى، عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناده ربه: يا موسى، سألوك: «هل يصلي ربك؟» فقل: نعم، إنما أصلي أنا وملائكتي على أنبيائي ورسلي. فأنزل الله، ﷻ، على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦). وقد أخبر أنه، سبحانه وتعالى، يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ (١١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (١٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُثَبِّرَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (١٣) ﴿الأحزاب: ٤١-٤٣﴾. وقال تعالى: ﴿رَبِّكَ الشَّدِيدُ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف». وفي الحديث الآخر: «اللهم، صل على آل أبي أوفى». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها -: «صلى الله عليك، وعلى زوجك». وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمم بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان. قال البخاري - عند تفسير هذه الآية -: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي، عن مسعر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم: قال: سمعت ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عُجْرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا - أو: عرفنا - كيف الصلاة عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر، عن يزيد بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦). قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم. ورواه الترمذي بهذه الزيادة. ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه»: هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خَبَاب، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». وفي رواية: قال أبو صالح، عن الليث: «علي محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والذَّراوَزدي، عن يزيد - يعني: ابن الهاد - قال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم». وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن الهاد، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيْم أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذي، من حديث مالك، به.

حديث آخر: قال مسلم: حدثنا يحيى التميمي قال: قرأت على مالك، عن نَعِيم بن عبد الله المُجَمَّر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري - قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أَرِي النداء بالصلاة - أخبره عن أبي مسعود الأنصاري - قال: أئانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبَّادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم». وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خُزَيْمة، وابن حِبَّان، والحاكم في مستدرکه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبي مسعود البدری أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد...». وذكره. ورواه الشافعي، رحمه الله، في مسنده، عن أبي هريرة، بمثله. ومن هاهنا ذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإنه تركه لم تصح صلاته. وقد شرَّع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَسَفَّ القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع على ذلك، وقال ما لم يحيط به علماً، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البدری، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقي، به. وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَاز المالكي، رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آل ممن حكاه البَنْدِينَجِي، وسُلَيْم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، والله أعلم. والغَرَض أن الشافعي، رحمه الله، لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة - سَلَفَ وَخَلَفَ كما تقدم، لله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم. ومما يؤيد ذلك: الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي - وصححه - والنسائي وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، من رواية حَيوة بن شُرَيْح المصري، عن أبي هانئ حميد بن هانئ، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنَبي، عن فضالة بن عبيد، رضي الله عنه، قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله، ﷻ، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليبدأ بعد بما شاء».

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه، من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار». ولكن عبدالمهيمن هذا متروك. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أبي بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيم»، والله أعلم. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُريدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد». أبو داود الأعمى اسمه: نفع بن الحارث، متروك. حديث آخر موقوف: رواه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب وزيد بن هارون، ثلاثهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندي: أن علياً، رضي الله عنه، كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللهم داخي المدحوات، وباريء المسموكات، وحبّار القلوب على فطرّتها شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحنّتك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفتاح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حُمّل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، غير نكل في قَدَم، ولا واهن في عزم، وإعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قيساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأقام موضحات الأعلام، ومُبيّرات الإسلام وناترات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وتعيّتك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مُفسحات في عدلك، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمعول. اللهم، أعل على بناء البانين بنيانه، وأكرم مثواه لديك ونزله. وأنتم له نوره، وأجزه من ابتعائكم له مقبول الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخُطة فصل، وحجة وبرهان عظيم. هذا مشهور من كلام علي، رضي الله عنه، وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ، إلا أن في إسناده نظراً. قال شيخنا الحافظ أبو الحجّاج المزني: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً. وكذا قال: وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصانع، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندي قال: كان علي، رضي الله عنه، يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول: «اللهم، داخي المدحوات» وذكره.

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: حدثنا الحسين بن بيان، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرّون لعل ذلك يُعرض عليه. قال: فقالوا له: فعلمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغِيْظُه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو - أو: عمر - على الشك من الراوي قريباً من هذا. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خَبَاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَيْكَتُهُ يَصُلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَكْتَبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَواتٍ عَلَيْهِ وَسَلَامًا تَسْلِيمًا﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا - أو: قالوا - يا رسول الله، علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد». فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويسعده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت واسعاً». وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليّ، فليُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر». ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، ويونس - هو ابن محمد - قال: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي

الحوirth، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد فأطال السجود، حتى خفت - أو: خشيت - أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لي: ألا أبشرك؟ إن الله، ﷻ، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه». طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجداً، فأطال السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله، سجدت سجدة خشيت أن يكون الله، ﷻ، قبض نفسك فيها. فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله، ﷻ، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه - فسجدت لله، ﷻ، شكراً».

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحِير بن عبد الله بن معاوية بن بَحِير بن ريسان، حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة، وحدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله بن عمر، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم التَّمَعِي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فاتاه بمظهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مشربة، فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسن يا عمر حين وجدتي ساجداً فتنتحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القعني، عن سلمة بن وُرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه. ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وُرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عَمَّة، حدثني موسى بن يعقوب الرُّمَعِي، حدثني عبد الله بن كَيْسَانَ، أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة». تفرد بروايته الترمذي، رحمه الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرًا». فقام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ - كان بمكة - يقال له: مَنيع - لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدري.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان - يعني: الثوري - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراحفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». قال أبي: يا رسول الله، إني أصلي من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلثان». قال أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن يغفر الله لك ذنبك كله». وقد رواه الترمذي بنحوه فقال: حدثنا هَنَاد، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراحفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا نرى السرور في وجهك. فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك، ﷻ، يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من

أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً؟ قال: بلى». ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عبيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أبي طلحة، بنحوه. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا أبو مَعْشَر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَةَ، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس، يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يرى في وجهك البشر؟ قال: «أجل، أتاني آت من ربي، ﷺ، فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة، كَتَبَ اللهُ له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها». هذا أيضاً إسناد جيد، ولم يخرجوه. حديث آخر: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه؛ عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عَلَيَّ واحدة، صلى الله عليه بها عشراً». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلوا علي؛ فإنها زكاة لكم. وسلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها درجة في أعلى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو». تفرد به أحمد، وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة، بنحوه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البكالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا داود بن عُثَيْبَةَ، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي، فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة» فسالناه - أو: أخبرنا - فقال: «هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل». في إسناده بعض من تُكَلِّمُ فيه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لُهَيْبَةَ، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مَرِيح الخولاني، سمعت أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فَلْيُقَلِّبْ عبد من ذلك أو ليكثر. وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولانبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعلمتكم كم خزنة النار وحملة العرش، وتجاوز بي، عُوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه». حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو سلمة الخراساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذُكِرَتْ عنده فَلْيُصَلِّ علي، ومن صَلَّى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشراً». ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داود الطيالسي، عن أبي سلمة - وهو المغيرة بن مسلم الخراساني - عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي، عن أنس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو - يعني: يونس بن أبي إسحاق - عن بُرَيْدِ بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات». حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد قالا: حدثنا سليمان بن بلال، عن عمارة بن عَزِيْةَ، عن عبد الله بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البخيل من ذُكِرَتْ عنده، ثم لم يصل علي». وقال أبو سعيد: «فلم يصل علي». ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. ومن الرواة من جعله من مسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مسند «علي» نفسه. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا حجاج بن مُنْهَال، حدثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن هلال العَنَزِي، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذر، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبخل الناس من ذُكِرَتْ عنده فلم يصل علي». حديث آخر مرسل: قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي علي»، صلوات الله عليه.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا رُبَيْعِي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقُبَّرِي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذُكِرَتْ عنده فلم يصل علي. ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخلا الجنة». ثم قال: حسن غريب. قلت: وقد رواه البخاري في الأدب، عن محمد بن عبيد الله، حدثنا ابن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة، مرفوعاً، بنحوه. ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به.

قال الترمذي: وفي الباب عن جابر وأنس. قلت: وابن عباس، وكعب بن عُجْرَةَ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلْفُحْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحلي، ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه: حدثنا جِبَارَةُ بن المَعْلَس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عَلَيَّ حَطَىء طريق الجنة». جِبَارَةُ ضعيف. ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عَلَيَّ حَطَىء طريق الجنة». وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله والله أعلم. وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب. نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن يشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تَزَةٌ، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم». تفرد به الترمذي من هذا الوجه. ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون، كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة، مرفوعاً مثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد رُوِيَ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، من غير وجه، وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن دُكْرَانَ، عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ، إلا عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب». وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه، عليه السلام، في العمر مرة واحدة، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبراني أن محملاً الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام، وشعار أهله. قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب على ما بينه. فمنه: بعد النداء للصلاة؛ للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا كعب بن علقمة، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى عَلَيَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن علقمة. طريق أخرى: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عمرو بن علي، عن أبي بكر الجُشَمِي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة، حَقَّتْ عليه شفاعتي يوم القيامة».

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب - هو كعب الأحبار - عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا عَلَيَّ، فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة». قال: فإما حَدَّثنا وإما سألناه، فقال: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون ذلك الرجل». ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن معتمر، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - به. وكذا الحديث الآخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سواده، عن زياد بن نعيم، عن وُفَاء الحضرمي، عن زُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى على محمد وقال: اللهم، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي». وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

أثر آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثني مَعَمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه في الآخرة والأولى، كما أتيت إبراهيم وموسى، عليهما السلام. إسناد جَيِّد قوي صحيح. ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك». وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عمر التميمي، عن سليمان الصُبَيْي، عن

علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ. وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع الشافعي، رحمه الله. وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تستحب؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك: الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة: فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده. قال الشافعي، رحمه الله: حدثنا مُطَرِّفُ بن مازن، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري: أخبرني أبو أمامة ابن سهل بن حُنَيْفٍ أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه. ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة في الصلاة على الجنازة... فذكره. وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة، وابن عمر، والشعبي. ومن ذلك: في صلاة العيد: قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا حَمَادُ بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو، وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وترتكع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن. إسناده صحيح. ومن ذلك: أنه يُسْتَحَبُّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذي: حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر بن شميل، عن أبي قرة الأسدي، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك. وهكذا رواه أيوب بن موسى، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قوله. ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً. وكذا رواه زَيْن بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي ﷺ قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد حتى يصلي علي، فلا تجعلوني كَعُمَرَ الرَّاكِبِ، صلوا علي أول الدعاء وأوسطه وآخره». وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي حيث قال: حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسى بن عبيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الراكب، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملاه من الماء، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه، اجعلوني في أول الدعاء، وفي وسط الدعاء، وفي آخر الدعاء». فهذا حديث غريب، وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث.

ومن أكد ذلك: دعاء القنوت: لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، من حديث أبي الحوراء، عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: قال: عَلِمَتِي رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت». وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على النبي محمد. ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه في يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الشقفي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أُرْمِتْ؟ - يعني: وقد بليت - قال: «إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في الأذكار. حديث آخر: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَادٍ المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادَةَ بن نُسَيْبٍ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهد الملائكة. وإن أحداً لن يصلي علي إلا عرضت علي صلواته حتى يفرغ منها». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء» فنبى الله حي يرزق. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين

عبادة بن نسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروي مرسلًا عن الحسن البصري، فقال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن - هو البصري - يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل الأرض جسَدًا من كلمه رُوحُ القدس». مرسل حسن. وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة علي». هذا مرسل. وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك؛ لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة. هذا مذهب الشافعي وأحمد، رحمهما الله. ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه: قال أبو داود: حدثنا ابن عوف - هو محمد - حدثنا المقري، حدثنا حنيفة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رَدَّ الله علي رُوحِي، حتى أُرَدَّ عليه السلام». تفرد به أبو داود، وصححه النووي في الأذكار. ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المُقْبِري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم». تفرد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمد عن سُريج، عن عبد الله بن نافع - وهو الصائغ - به. وصححه النووي أيضاً: وقد روى من وجه آخر عن علي، رضي الله عنه. قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»: حدثنا إسماعيل بن أبي أنس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عن ابن جعفر بن أبي طالب عن ابن جعفر بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي بن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبي ﷺ. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال: نعم. فقال: له علي بن الحسين: أخبرني أبي، عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي وسلموا حيثما كنتم فتبلغني صلاتكم وسلامكم». في إسناده رجل مبهم لم يُسم. وقد روي من وجه آخر مرسلًا، قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل - يقال له: سهيل - عن الحسن بن الحسن بن علي؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهأهم، وقال: إن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني». فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهأهم. وقد روي أنه رأى رجلاً يتتاب القبر فقال: يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، أي: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رشد بن المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني». ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾؟» فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتوني عنه لما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلني علي إلا قال ذلك الملكان: «غفر الله لك». وقال الله وملائكته جواباً لذئب الملكين: «آمين». ولا يصلي أحد إلا قال ذلك الملكان: «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جواباً لذئب الملكين: «آمين». غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغوني من أمتي السلام». وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب، به. فأما الحديث الآخر: «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد بلغته» - ففي إسناده نظر، تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال أصحابنا: ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ: لما روي عن الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا

فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال. وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ، ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. إسناده جيد حسن قوي. وقالوا: ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح: واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤٤]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: «لا أذكر إلا ذكرت معي». وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى، كما عند الأكل، والدخول، والوقاع وغير ذلك، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عمر بن هارون، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله؛ فإن الله بعثهم كما بعثني». في إسناده ضعيفان، وهما عمر بن هارون وشيخه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن موسى بن عبيدة الزبدي، به.

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن، إن صح الخبر في ذلك، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله، عن أبيه محمد، عن أبيه أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل عليّ، وليقل: ذكّر الله من ذكركني بخير». إسناده غريب، وفي ثبوته نظر، والله أعلم. وهاهنا مسألة: وقد استحبه أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة، عن نَهْشَل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في كتاب، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب». وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة، وقد روي من حديث أبي هريرة، ولا يصح أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا: أحسبه موضوعاً. وقد روي نحوه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء، والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه: «الجامع لأدب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: ويلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: «اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم: فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي صَلَّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، ويقولون: ﴿أَوْلَيْتَكُمْ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةً﴾ [البقرة: ١٥٧]، ويقولون تعالى: ﴿حَدِّثْ مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ صَدَقَاتِهِمْ وَطَهُرُهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ بِمَا وَسَّيَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». أخرجاه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صل عليّ وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك». وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صلى الله عليه». أو: «قال علي صلى الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال محمد، ﷺ»، وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامرأته. وهذا مسلك حسن. وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثر أن كراهة تنزيه؛ لأن شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في اللسان بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا: «ﷻ»، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «محمد ﷻ»، وإن كان عزيزاً جليلاً، لا يقال: «أبو بكر - أو - علي - صلى الله عليه». هذا لفظه بحروفه. قال: وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا

يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليكم، أو سلام عليك، أو السلام عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه. انتهى ما ذكره. قلت: وقد غلب هذا في عبارة كثير من النسخ للكتب، أن يفرد علي، رضي الله عنه، بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة، أو: «كرم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين. قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عبّاد بن حنيفة، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة.

وقال أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حسين بن علي، عن جعفر بن بزّان قال: كتب عمر بن عبد العزيز، رحمه الله: أما بعد، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمُرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة، ويدعوا ما سوى ذلك. أثر حسن. قال إسماعيل القاضي: حدثنا معاذ بن أسد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا ابن لهيعة، حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نُبَيْه بن وهب؛ أن كعباً دخل على عائشة، رضي الله عنها، فذكروا رسول الله ﷺ، فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه. فرج: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه فقط»، ولا: «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزح من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فالأولى أن يقال: ﷺ تسليماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَهُمْ وَالَّذِينَ يَحْنَبُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ فَأُولَٰئِكَ يَجْزِي اللَّهُ كَيْفَ يُرِيدُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى: متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بعبث أو تنقص، عياداً بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نزلت في المصوِّرين. وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره». ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله، ﷻ، فهني عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء، رحمهم الله. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، من آذاه فقد أذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة بن أبي راطة الحذاء التميمي، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل المزني قال: قال النبي ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه». وقد رواه الترمذي من حديث عبيدة بن أبي راطة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَهُمْ وَالَّذِينَ يَحْنَبُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ فَأُولَٰئِكَ يَجْزِي اللَّهُ كَيْفَ يُرِيدُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾: أي: ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدْ أَحْضَرُوا بُهْتًا وَإِنَّمَا تُحْيَا﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرَّاهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، ﷻ، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين. وقال أبو داود: حدثنا العَقَتِيُّ، حدثنا عبد العزيز - يعني: ابن محمد - عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرُ أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتبه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته». وهكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراودي، به. قال: حسن صحيح. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَيُّ الرِّبَا أَرَبِي عِنْدَ اللَّهِ؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم». قال: «أَرَبِي الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ اسْتِحْلَالُ عَرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا﴾ (٥٨).

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيُوهَا وَبَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ لِيُبَيِّنَ لِمَنِ الْوَيْلُ لِمَنِ الْبُرْءَانُ﴾ (٥٩) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦١) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٢) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٣) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٦) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٧) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٨).

يقول تعالى أمراً رسولاً، صلى الله عليه وسلم تسليماً، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيبهن، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإمامة. والجلباب هو: الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد. وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلاب: الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تَمْشِي النَّسْرَ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ
مَمْشِي السَّذَارَى عَلَيْنَهُنَّ الْجَلَابِيبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويدين عيناً واحدة. وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى: ﴿يُدْرِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. وقال عكرمة: تغطي نحرها بجلابيبها تدنيه عليها. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن خنيس، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْرِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، خرج نساء الأنصار كأن علي رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسهنها. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه - يعني: الزهري - هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلابيب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات. وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيُوهَا وَبَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ لِيُبَيِّنَ لِمَنِ الْوَيْلُ لِمَنِ الْبُرْءَانُ﴾ (٥٩) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦١) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٢) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٣) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٦) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٧) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٨).

﴿يَسْتَأْذِنُ الْبَاطِنُ عَنِ السَّاعَةِ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيُوهَا وَبَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ لِيُبَيِّنَ لِمَنِ الْوَيْلُ لِمَنِ الْبُرْءَانُ﴾ (٥٩) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦١) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٢) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٣) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٦) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٧) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنِبًا تُوْفِرُوا﴾ (٦٨).

يقول تعالى مخبراً الرسول ﷺ: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك. وأرشده أن يرد علمها إلى الله، ﷻ، كما

قال له في سورة «الأعراف»، وهي مكة وهذه مدينة، فاستمر الحال في رَدِّ علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يَدْرِكُ لَمَلُ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَسْنَأُ الْقَمَرُ ۗ﴾ [القمر: ١١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ٢١]. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكٰفِرِينَ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدار الآخرة: ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم مغيب ولا معين يتقدمهم مما هم فيه. ثم قال: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [١٦]، أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [١٧] ﴿يَوْمَ تَلْقَىٰ نَبِيُّكَ لَوْ اتَّخَذْتَ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [١٨] ﴿لَقَدْ أَهَلَّتْكَ عَنِ الدَّرَكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَتْكَ وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنسٰنِ خَدْلًا﴾ [١٩] [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [٢٠] [الحجر: ٢٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَةًنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [٢١]، وقال طائوس: ساداتنا: يعني الأشراف، وكبراءنا: يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم. أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِمَّا ضَعُفَتِ مِنْ الْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿وَالْعَذَابَ لَعْنَا كَبِيرًا﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثناة، وهما قريباً المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أَدْعُوهُ فِي صَلَاتِي. قال: «قل: اللهم، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». أخرجه في الصحيحين يروى «كبيراً» و «كثيراً»، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحَسَنَ، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضَرَارُ بْنُ صُرْدٍ، حدثنا علي بن هاشم، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي، رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غزِيَّةَ، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَةًنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِمَّا ضَعُفَتِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَذَابَ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ [٢٢]. ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [٢٣].

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن عباد، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلص، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حَيِّيًا، وذلك قوله: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [٢٣]. هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً، وقد رواه في أحاديث «الأنبياء» بهذا السند بعينه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى، عليه السلام، كان رجلاً حَيِّيًا سَيِّئاً، لا يَرَى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أذرة وإما آفة، وإن الله ﷻ، أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجْر، ثوبي حَجْر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فأراه عرياناً أحسن ما خلق الله، ﷻ، وأبراه مما يقولون، وقال الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوآه إن بالحجر لَتَدْبِي من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [٢٣]. وهذا سياق حسن مطول، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن النبي ﷺ - وخلص، ومحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: قال النبي ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِّيًا سَيِّئاً، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه». ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولاً، ورواه في تفسيره عن روح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو هذا. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مَهْرَانَ الأعمش، عن المُنْهَالِ بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له: إنك أدر. فخرج ذات يوم يغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بني

إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾. وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلي الأدمي قالا: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «كان موسى، عليه السلام، رجلاً حَيِّياً، وإنه أتى - أحسبه قال: الماء - ليغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، وكان لا يكاد تبدو عورته، فقال بنو إسرائيل: إن موسى آدر - أو: به آفة، يعنون: أنه لا يضع ثيابه - فاحتلمت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى كاحسن الرجال، أو كما قال، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، في قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: سعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: أنت قتلتنا، كان ألين لنا منك وأشد حياءً. فأذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرِّحْمَ، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسي، عن عباد بن العوام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله ﷻ. قالت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر». أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم - مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». فأتى رسول الله ﷺ ما لقسمة، قال: فمررت برجلين أحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمة وجهه الله ولا الدار الآخرة. قال: فَتَبَّتْ حتى سمعت ما قالا، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنك قلت لنا: «لا يبلغني أحد من أصحابي شيئاً»، وإن مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه، ثم قال: «دعنا منك، لقد أودى موسى بأكثر من هذا، فصبر».

وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به مختصراً: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وكذا رواه الترمذي في «المناقب»، عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السُّدِّيِّ، عن الوليد بن أبي هاشم، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السدي، ثم قال: غريب من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ أي: له وجهة وجاء عند ربه، ﷻ. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله، ﷻ. وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسًا اللَّهُ وَقَوْلُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يَصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَتَقَرَّبْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١). يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كانه يراه، وأن يقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك، أتابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: وذلك أنه يجاز من النار، ويصير إلى النعيم المقيم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عَوْنٍ، حدثنا خالد، عن لَيْثٍ، عن أبي بَزْدَةَ، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركن: أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً». وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سُمْرَةَ، عن هشام بن عَزْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما قام رسول الله ﷺ على المنبر

إلا سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٢) الآية. غريب جداً. وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً، من سره أن يكون أكرم الناس، فليتنق الله. قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنَّا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَدْبِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٢).

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، وإن أدورها أثابهم. وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم قبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غراً بأمر الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنَّا﴾ قال: عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة. وقد روى الضحاك، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن البصري، وغير واحد: إلا إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاحتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أتيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدثنا حماد بن واقد - يعني: أبا عمر الصغار - سمعت أبا معمر - يعني: عون بن معمر - يحدث عن الحسن - يعني: البصري - أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال: عرضها على السبع الطبايق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شدت بالأوتاد، وذلت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. وقال مقاتل بن حيان: إن الله حين خلق خلقه، جمع بين الإنس والجن، والسموات والأرض والجبال، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة. ؟ فقلن: يا رب، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة، ولكننا لك مطيعين. ثم عرض الأمانة على الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنني مني، وأعطيكن الفضل والكرامة؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطق، ولكننا لك سامعين مطيعين، لا نعصيك في شيء تأمرنا به. ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: مالي عندك؟ قال: يا آدم، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة، فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة. وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت، فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار. قال: رضيت يا رب. وتحمّلها، فقال الله ﷻ: قد حمّلنكها. فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السموات فقالت: يا رب، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض فقالت: يا رب، غرست في الأشجار، وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في عاقبة أمره. وهكذا قال ابن جريج. وعن ابن أسوع أنه قال: لما عرض الله عليهن حمل الأمانة، ضججن إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن، وقلن: ربنا. لا طاقة لنا بالعمل، ولا نريد الثواب.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الآية، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى: إني مُعِينك عليها، أي: معينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق. ومعينك على فرجك بلباس، فلا تكشفه إلى ما أكره. ثم روى عن أبي حازم نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال: إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً، ويستأنهن على الدين. فقلن: لا، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً. قال: وعرضها الله على آدم فقال: بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجاباً، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابها، وأجعل للسانك باباً وغلقاً، فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السُّكُونِي، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: قال النبي ﷺ: «إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء، فأرسلوا به، فمنهم رسول الله، ومنهم نبي، ومنهم نبي رسول، ونزل القرآن وهو كلام الله، ونزلت العربية والعجمية، فعملوا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بالسنتهم، ولم يدع الله شيئاً من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم، إلا بينه لهم. فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبیح، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها، حتى وصل إلي وإلى أمتي، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يغفله إلا تارك. فالحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما ييلوكم أيكم أحسن عملاً». هذا حديث غريب جداً، وله شواهد من وجوه أخرى. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العوام القطان، حدثنا قتادة، وأبان بن أبي عياش، عن خُلَيْدِ الْعَصْرِيِّ، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن، ومواقبتهن، وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها - وكان يقول: وإيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن - وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأدى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، فإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره. وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن أبي العوام عمران بن ذاور القطان، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها - أو قال: يكفر كل شيء - إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية. فيذهب به إلى الهاوية، فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها، فيجدها هنالك كهيتها، فيحملها فيضعها على عاتقه، فيصعد بها شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت فهوى في أثرها أبد الأبدین». قال: والأمانة في الصوم، والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع. فقليت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق. قال شريك: وحدثنا عياش العامري، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ولم يذكر «الأمانة في الصلاة وفي كل شيء». إسناده جيد، ولم يخرجوه. ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة». ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: «ينام الرجال النوم فتقبض الأمانة من قلبه، فيظلم أثرها مثل أثر الوكت، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظلم أثرها مثل أثر المجمل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُتَبَرِّأً وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله، قال: «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجمله وأظرفه وأعقله. وما في قلبه حبة من خردل من إيمان. ولقد أتى عَلِيٌّ زَمانَ وما أبالي أيكم بايعت، إن كان مسلماً ليردنه على دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال

الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة». هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدثني يحيى بن أيوب العلاف المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حَجيرة، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة». فزاد في الإسناد: «ابن حَجيرة»، وجعله من مسند ابن عمر.

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن حُنَّاس بن سُحيم - أو قال: جَبَلَة بن سُحيم - قال: أقبلت مع زياد ابن حُدَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يبكي ويبكي، فظننت أني أتيتُ أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يكره هذا؟ فقال: نعم. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»، تفرد به أبو داود، رحمه الله. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ اللَّهُ التَّائِبِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرن الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله، ﷻ، ومخالفة رسله، ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

آخر تفسير سورة «الأحزاب»



تفسير سورة سبأ

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأ فِي السَّمَوَاتِ وَمَأ فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَأ بَازِئًا مِنْ السَّمَاءِ وَمَأ يَبْحُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأ فِي السَّمَوَاتِ وَمَأ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَلَهُ لَنَا الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾﴾ [البلبل: ١٣]. ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره؛ ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَأ بَازِئًا مِنْ السَّمَاءِ وَمَأ يَبْحُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور من ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّمَاءُ قُلْ بَلَّ رَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الَّذِي لَا يُغْنِي عَنْهُ شِقَاقُ ذُرِّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْحَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْفَرُ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ ﴿٣﴾﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم مَفْزَعُ رَبِّي كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَاتِنَا مُجْرِمِينَ أُولَئِكَ هُم عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ آيَاتِ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَبِهِدَى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٥﴾﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره

من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ أَحَىٰ هُوَ قُلُوبِي أَمْ قُلُوبُ الْبَاقِيَاتِ﴾، والثالثة في التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَكَيْفَ تُمْسِكُونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتَّبِعَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عَلَيْهِ الْغَنِيْبُ لَا يَعْرُبُهُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْمَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لَيَجْزِيكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [والَّذِينَ سَمَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ] أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقوله: ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَرْثُوا أَوْلِيَاءَهُمْ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رآه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الاعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَمَدْفَعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَيْتِ فَكَيْدًا يَوْمَ الْبَيْتِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَرْثُوا أَوْلِيَاءَهُمْ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾ [العنكبوت: ١٨]. العزيز هو: المنيع الجنب، الذي لا يُغالب ولا يُمانع، بل قد قهر كل شيء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَادِيكَ عَلَىٰ سُبُلِ بَيْتِكُمْ إِذَا مَرَّ قَدْ كَلَّمَكَ لَيْ خَلِّي جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَدَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَوْنَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِهَمٍّ الْآرِضِ أَوْ شَوْطِ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يَرَوْنَ السَّمَاءَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَادِيكَ عَلَىٰ سُبُلِ بَيْتِكُمْ إِذَا مَرَّ قَدْ كَلَّمَكَ لَيْ خَلِّي جَدِيدٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَيْ خَلِّي جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن بُس عليه كما يُبَس على المعتوه والمجنون؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفَدَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟﴾ قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا. ثم قال منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَوْنَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا فالسماة مظلمة مظلمة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُنَّ يَابِتُ وَرَأَىٰ لَمُوسُونَ﴾ [١٧] وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمُهَيَّوْنَ ﴿١٨﴾ [الدُّرَارَات: ٤٧-٤٨]. قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَوْنَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾؟ قال: إنك نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله: ﴿إِنْ شَأْنًا نَخْفِي بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ شَيْطَانًا عَلَيْهِمْ كَيْفَ يَرَوْنَ السَّمَاءَ﴾ أي: لو شئنا لفلعنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾: قال معمر، عن قتادة: ﴿مُنِيبٍ﴾: تائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله ﷻ. أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٧] [غافر: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا فَلَاحًا يُجِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالْكَبِيرُ وَأَلْنَا لَهُ لُحْيِدًا﴾ [١١] أَنْ عَمَلٌ سَيِّئَةٍ وَقَدِرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العُدَدِ والعُدَدِ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبَحَ به تسبَّحَ معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «لقد أوتي هذا مزمَاراً من زمَامير آل داود». وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنَجٍ ولا بَزْبُطٍ ولا وَتْرَ أحسن من صوت أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. ومعنى قوله: ﴿أُوتِيَ﴾ أي: سبَّحِي. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وزعم أبو مسيرة أنه بمعنى سَبَّحِي بلسان الحبشة. وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطيور أن ترجع معه بأصواتها. وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه «الجمَل» في باب النداء منه: ﴿يَجْأَلُ أُوتِيَ مَعَهُ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسَادُ: سير الليل كله. وهذا لفظه، وهو غريب جداً لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أُوتِيَ مَعَهُ﴾ أي: رَجَّعِي مُسَبَّحَةً معه، كما تقدم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾: قال الحسن البصري، وقتادة، والأعشى وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدْخَلَهُ ناراً ولا يضره بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِي﴾ وهي: الدرور. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سَمَاعَةَ، حدثنا ابن ضَمْرَةَ، عن ابن شُوذْبَ قال: كان داود، عليه السلام، يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحُوَارِي. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾: هذا إرشاد من الله لنبيه داود، عليه السلام، في تعليمه صنعة الدرور. قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾: لا تُدْبِقُ المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تُغْلَظْه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عتيبة: تُغْلَظْه فيفصم، وتُدْبِقْه فيقلق. وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حَلَقُ الحديد. وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وعليهما منسردتان قضاهما «داود»، أو صنع السوابغ «تبغ»

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود، عليه السلام، من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبي إلياس، عن وهب بن مُنْبِه ما مضمونه: أن داود، عليه السلام، كان يخرج متكرراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته ومعدلته، صلوات الله وسلامه عليه. قال وهب: حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل، فلقبه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني: بيت المال، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام، إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فألأن له الحديد، وعلمه صنعة الدرور، فعمل الدرر، وهو أول من عملها، فقال الله: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾ يعني: مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرر، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابيط والصنوج إلا على أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطى سبعين مزمَاراً في خلقه. وقوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صِلِحاً﴾ أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفي علي من ذلك شيء.

﴿وَالسَّيِّئَاتِ الَّتِي رِيحٌ غَدُوها شَرٌّ وَرَوَّاحها شَرٌّ وَأَسَلْنَا لَمْ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْذِنُ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدِثٍ وَتَنْزِيلٍ وَجَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِمَاتٍ أَعْمَلُوا مَا لَ داودُ شُكْرًا وَقِيلَ مَنْ جَآوِزٍ الْشُّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى سليمان، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها، ويذهب راثحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع. وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَمْ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن

زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان، عليه السلام. قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ مَن يَمْلَأُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك. ﴿وَمِنَ النَّجْمِ مَن يَرَىٰ رُؤْيَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ثُمَّ يَكْفُرُ بِهِ مَن عَادَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهو الحريق. وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن أبي ثعلبة الخشني؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظنون». رفعه غريب جداً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حزملة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر، عن محمد، عن ابن أنعم أنه قال: الجن ثلاثة: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب. قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنسان ثلاثة: صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة. وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين.

وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة - يعني: ابن الفضل - عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَمَتَّبِعِ﴾ أما المحارِب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة. وقال مجاهد: المحارِب بانيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور، وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله: ﴿رَيْفَانَ كَلْبُوبٍ وَقُدُورٍ رَاسِبِينَ﴾: الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمَحَلِّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ
وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كَلْبُوبٍ﴾ أي: كالجوبة من الأرض. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتة، والضحاك وغيرهم. والقُدُور الراسيات: أي الثابتات، في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمتها. كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثافيها منها. وقوله: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين. وشكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مَنَى ثَلَاثَةً: يَدِي، وَلسَانِي، وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا
قال أبو عبد الرحمن الحُبلي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر. وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرظي قال: الشكر تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود، عليه السلام، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر - يعني: ابن سليمان - عن ثابت البناني قال: كان داود، عليه السلام، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ لَهُمْ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكْرُ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يفر إذا لاقى». وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنيِد بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قلت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة». وروى ابن أبي حاتم عن داود، عليه السلام، هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو يزيد فيض بن إسحاق الرقي قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني». وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكْرُ﴾: إخبار عن الواقع.

﴿لَمَّا قَفَّيْنَا عَلَى الْمَوْتِ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْقَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان، عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجنّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب، وفي صحته نظر، قال ابن جرير:

حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان نبي الله، عليه السلام، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم، عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصاً، فتوكتاً عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل. فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين». قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال: «فشكرت الجن الأرضة، فكانت تأتيها بالماء». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طهمان، به. وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نكارة. وقال السدي، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: كان سليمان يتحرر في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها، فيقول: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبت دواء قالت: نبت دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها: الخروبة، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. قال: ولأي شيء نبتت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان: ما كان الله ليخزبه وأنا حي؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه، فمات ولا تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألسنت جلدأ إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فمر ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يتحرك. ونظر إلى سليمان، عليه السلام، قد سقط ميتاً. فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه. ووجدوا منسأته - وهي: العصا بلسان الحبيشة - قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. وهي في قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة، وذلك قول الله ﷻ: ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْقَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ . يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين - قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت - قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين، شكرأ لها.

وهذا الأثر - والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب، وهي وقف، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب. وقال ابن وهب وأصعب بن الفرج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ قال: قال سليمان، عليه السلام، لملك الموت: إذا أمرت بي فاعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أمرت بك، وقد بقيت لك سوية. فدعا الشياطين فنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك

فراأ من ملك الموت. قال: والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنه حي. قال: بعث الله، ﷺ، دابة الأرض. قال: والدابة تأكل العيدان - يقال لها: القادح - فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعف، وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَعَّمُ عَلَى رَبِّي إِلَّا دَأَبَةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾. قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخرب. وقد ذكر غير واحد من السلف نحوه من هذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَلٍ فِي مَسْكَيهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ بَيْتِنِ وَشِمَالِي كُلًّا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَمْ يَلِدْهُنَّ نِسَاءٌ رَبَّيْكُمْ وَرَبِّيَ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَبَلَ الْكُرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْغَلٍ حَمَلٌ وَأَقْلِي وَشَوْو مِنْ سِنْدٍ لَيْسِلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمِ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُعْزِيهِ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾﴾.

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، ففوقوا بإرسال السبل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذرو مذرب، كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرَةَ، عن عبد الرحمن بن وعلَةَ قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةٌ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحَمِيرٌ. وأما الشامية فُلُحْمٌ، وَجَذَامٌ، وَعَمَلَةٌ، وَغَسَّانٌ. ورواه عبدُ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به. وهذا إسناده حسن، ولم يخرجوه، وقد روي من طرق متعددة. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القصود والأُمَم» بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم»، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلَةَ، عن ابن عباس فذكر نحوه. وقد روي نحوه من وجه آخر. وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَابٍ يحيى بن أبي حِيَةَ الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَةَ، عن فروة بن مَسِيكٍ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: «نعم»، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم». فلما وليت دعائي فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام». فقلت: يا رسول الله، أرايت سبأ؛ أراد هو، أو رجل، أو ما هو؟ قال: «لا، بل رجل من العرب، ولد له عشرة فتيانَ ستة وتشاءم أربعة، تيامن الأزدي، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار الذي يقال لهم: بجيلة وخثعم. وتشاءم لحم، وجذام، وعاملة، وغسان». وهذا أيضاً إسناده جيد وإن كان فيه أبو جَنَابٍ الكلبي، وقد تكلموا فيه. لكن رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ، عن العتقري، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانئ المرادي، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال: قدم فروة بن مَسِيكٍ على رسول الله ﷺ، فذكره.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا ابن لهيعة، عن توبة بن نمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً: ما أظن قوماً بأرض إلا هم من أهلها. فقال علي بن رباح: كلا، قد حدثني فلان أن فروة بن مَسِيكٍ العُطَيْفِيُّ قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية، وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: «ما أمرت فيهم بشيء بعد». فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَلٍ فِي مَسْكَيهِمْ آيَةٌ﴾ الآيات، فقال له رجل: يا رسول الله، ما سبأ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله: أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: «بل رجل، ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أم اليمانيون: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةٌ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحَمِيرٌ غير ما حلها. وأما الشام: فُلُحْمٌ، وَجَذَامٌ، وَعَمَلَةٌ.»

فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة، والسورة مكية كلها، والله أعلم. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو أسامة، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سَبْرَةَ التَّحَمِيُّ، عن فروة بن مَسِيكٍ العُطَيْفِيُّ قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ: ما هو؟ أرض، أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد، فتيان ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فُلُحْمٌ وَجَذَامٌ وَعَمَلَةٌ وَغَسَّانٌ، وأما الذين تيامنوا: فكندة: والأشعريون، والأزدي، ومذحج، وحمير، وأنمار». فقال رجل: ما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة». ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كُرَيْبٍ وعبد بن حميد قالوا: حدثنا أبو أسامة، فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري؛ أن رجلاً أتى

رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ، فذكر مثله، فقوى هذا الحديث وحسنه. قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشاً ورياشاً. وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكُ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنْنا مُلُوكُ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِي
وَسُمِّيَ أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي
فَاعْضُدُهُ وَأَحْبِسُهُ بِئَضْرِي
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «الإكليل». واختلفوا في قحطان في ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. والثاني: أنه من سلالة عابر، وهو هود، عليه الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. والثالث: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري، رحمه الله، في كتابه المسمى: «الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة». ومعنى قوله عليه السلام: «كان رجلاً من العرب» يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل، عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ مر بنفر من «أسلم» ينتضلون، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً». فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسان بما نزلوا عليه قيل: باليمن. وقيل: إنه قريب من المشلل، كما قال حسن بن ثابت:

إِنَّمَا سَأَلْتُ قَبَائِلًا مَفْعَشَرَ نُجُبٍ
الْأُزْدُ بِسَبَبِئُثْثَا، وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله: «ولد له عشرة من العرب» أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لأنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستة، وتشاء منهم أربعة» أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم من قام ببلادهم، ومنهم من نزع عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبليين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبليين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطاف، لكثرتهم ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنَتِهِمْ آيَةٌ﴾، ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحتي الجبليين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد. وقوله: ﴿فَاعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَيَسْتَلِكَ مِنْ سَبِيلِ رَبِّكَ يَمِينًا﴾ ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَلِيكُمْ وَأَوْيَتْ مِنْ كَلِّ شَعْرٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَجِدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَتَمَّانَهُمْ فَصَدَّمَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَمْتَدُونَ﴾ ﴿النمل: ٢٢ - ٢٤﴾. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السدي: أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي، والله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ﴾: قيل: المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي.

وقيل: الجُرْدُ. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع». و«سعيد كُرْزُ» حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك؛ أن الله، ﷻ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: «الجُرْدُ» نقتبه - قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرْدُ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السد فنقتبه، فانهار عليهم. وقال قتادة وغيره: الجُرْدُ هو الخلد، نقتب أسافله حتى إذا ضعف وهى، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخزب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ يَخْبِتُونَ مِنِّي حَيْثُ يَدْعُونَ أَكْثَلُ حَمَلٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن، وقتادة، والسدي: وهو الأراك، وأكلة البيرير. ﴿وَأَثَلُ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطرفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السمر. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَفَقُّوْا مِنِّي سِدْرٌ قَلِيلٌ﴾: لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال: ﴿وَفَقُّوْا مِنِّي سِدْرٌ قَلِيلٌ﴾، فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجرة الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم بالحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَهْلُ أَهْلِهِمْ أَكْثَرُ﴾ أي: عاقبتهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طائوس: لا يناقش إلا الكفور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبي، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب علي، رضي الله عنه - قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يتغصه إياها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّرِيرَ سِيرًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْدًا لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾.

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغنطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرتهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمر، ويقبل في قرية وبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك. وقال مجاهد: والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك بن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد وغيرهم: يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها: بيت المقدس. وقال العوفي، عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿قُرًى ظَهَرَ﴾ أي: بيعة واضحة، يعرفها المسافرون، يقبلون في واحدة، وبيوتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّرِيرَ﴾، أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: «بعد بين أسفارنا». وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد - وأحبوا مغاوزه ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحُرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثانها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من مأكول ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَسْتَدِيرُونَ الَّذِي هُوَ أَذَقَ بِاللَّيْلِ هُوَ خَيْرٌ أَمْجَلُوا مَضْرًا إِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَنَسَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿البقرة: ٦١﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قُرْبِكُمْ بَطَرْت مَيْسَتَهُمَا﴾ ﴿القصص: ٥٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ إِسَاءَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿النحل: ١١٧﴾. وقال في حق هؤلاء: ﴿وُظَلِمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسماً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول

العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيدي سبأ» و«أيادي سبأ» و«تفرقوا شَدْرَ مَدْرَ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ، قال: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِئِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى قوله: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمَرِ»: وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وإنه خُبر أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلمهم. فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه - وهو أعزهم أخوالاً -: إذا كان غداً وأمرك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرت فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمر عظيم، وأمر شديد، قال: يا بني، قد حدث أمر لا بد منه. فلم يزل به حتى وافاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمع الناس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا، فأبى، فانتهره أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه، فوثب على أبيه فطممه، فقال: ابني يطمني؟ عَليّ بالشفرة. قالوا: وما تصنع بالشفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تذبح ابنك. الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيهِ وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحزره، قال: أي قوم، إن العذاب قد أظلمكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم داراً جديداً، وجمالاً شديداً، وسفراً بعيداً، فليلحق بعمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والتصبير - وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها - فليلحق بيثرب ذات نخل. فأطاعه قومه، فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت غسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل. قال: فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلاً. فأقاموا به، فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انخرعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان، وتوجهت غسان إلى بصرى. هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن، بسبب استشارته بإرسال العرم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثني أبو زيد الأنصاري -: أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم. فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على الثقله عن اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أعظم له ولطمه أن يقوم إليه فيطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي. وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتتموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد «عك» مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، وكانت حربهم سجالاً. ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى:

وَعَكَ بِنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَقَلَّبُوا بِقَسَّانَ، حَتَّى طَرَدُوا كُلَّ مَطَرَدٍ
وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَزا. ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عَمَانَ عُمَانَ، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات. وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه»، مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، أخبرنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهناً، فرأى في كهنته أن قومه سيمزقون ويباعدون بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد علمت أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذاهماً بعيد وجمالاً شديداً، ومزاداً جديداً - فليلحق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادعة بن عمرو. ومن كان منكم ذاهماً مُدُن، وأمر دَعْن، فليلحق بأرض شُن. فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يريد عيشاً أنبياً، وحرماً آمناً، فليلحق بالأرزين. فكانت خزاعة. ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل، والمطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج، وهما هذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريد خمراً وخميراً، وذهباً وحريراً، وملكاً وتاميراً، فليلحق بكوثي وبُصري، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام. ومن كان منهم بالمرق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أي ذلك كان. وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيبسرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزدي فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشي - أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه: ميمون بن قيس:

وَفِي ذَلِكَ لِلْمُؤْتَسِي أَسْوَةٌ وَمَأْرُبٌ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرْمُ
رُخَامٌ بَيْتُهُ لَهُمْ حَمِيرٌ إِذَا جَاءَ مَوَارُهُ لِمَ يَـمْرُ
فَأَزَى الزَّرْوَعُ وَأَعْنَابُهَا عَلَى سَعَةِ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمَ
فَصَارُوا أَيْدِي مَا يَفْتَدِرُو نَ مِنْهُ عَلَى شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرة وذلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني، قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العنبر بن حريث عن عمر بن سعد، عن أبيه - هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابه مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السبيعي، به - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا، إن أصابه سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيرا له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا لِيَعْلَمَنَّ مِنَ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ ﴿٢١﴾ .

لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشیطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ . قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَٰ لِّئِنِ أُخْرَجْتَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْنَنَكَ دَرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ثم قال: ﴿مِمَّنْ لَّا يَتَّبِعُهُمْ فِي بَيْنِ أَيَّامٍ وَمِنَ اللَّيْلِ وَمِنَ نَّوْمِهِمْ وَعَنِ اللَّيْلِ وَلَا يُجِدُ كَرَمَهُمْ شُكْرِيكَ﴾ ﴿٢١﴾ [الأعراف: ١٧] والآيات في هذا كثيرة. وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحا بما أصاب منهما، وقال: أصبت من الأيوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظنا من إبليس، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ فقال عند ذلك إبليس: «لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأمتيه وأخذعه». فقال الله: «وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يفرغ بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأمانيا دعاهم إليها فأجابوه. وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْلَمَنَّ مِنَ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليطهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسب عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلامه سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَضَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِن قِطَابِ دَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن مِّمَّةٍ مِّنْ ظَهْمٍ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَضَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِن قِطَابِ دَرَّةٍ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَوَعْدُ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ﴾ ﴿٢٢﴾ .

بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَضَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِن قِطَابِ دَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطَابِ دَرَّةٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا كُنْمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس الله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُ مِنْ ظَهِيرٍ﴾، من عون يعينه بشيء. وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجتريء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. وقال: ﴿وَمَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ مِنْ حَشِيَرَةٍ مَشْفُوعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢٨]. ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم، وأكبر شافع عند الله -: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه واشفع تشفع» الحديث بتمامه. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾. وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أزعدهوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قال ابن عباس، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي، وإبراهيم النخعي، والضحاك والحسن، وفتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: جُلِّيَ عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعاً -: «حتى إذا فرغ» بالغين المعجمة، ويرجع إلى الأول. فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾: كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك، قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيتهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقرأوا حين لا ينفعهم الإقرار. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره: قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عكرمة، سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير فيسمعها مُسْتَرْقِ السمع، ومسترق السمع - هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده - فحرفها ويبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة، فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن: فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها، وربما ألقتها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: ليس قد قال لنا يوم كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق: «من الأنصار» - فَرَمَى بنجم فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول يُؤلَد عظيم، أو يموت عظيم - قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غَلَطَتْ حين بعث النبي ﷺ - قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا، تبارك وتعالى، إذا قضى أمراً أصبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذي يَلُوتُ حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء؛ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتختطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون. هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله، وأربعتم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس عن رجل من

الأنصار، به. ورواه وقال يونس: عن رجال من الأنصار. وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزبيدي، عن الزهري، به. ورواه الترمذي فيه عن الحسين بن حريث؛ عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، رضي الله عنه، والله أعلم. حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف - قالوا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سَمْعَانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوْحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ: رَعْدَةً - شَدِيدَةً؛ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ صَعَقُوا وَخَرُوا لِلَّهِ سُجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَجْهِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَمْضِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد، به. قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله. وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي، عن ابن عباس - وعن قتادة: أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا أَنْزَلْنَا وَلَا تَسْتَلُّوا عَمَّا نَمَلُّونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق، وانفراجه بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله، وكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة وزبيد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وقوله: ﴿قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا أَنْزَلْنَا وَلَا تَسْتَلُّوا عَمَّا نَمَلُّونَ ﴿٢٥﴾﴾: معناه: التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدهِ وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون]. وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾: أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزئ كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤَيِّدُ بَقَرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَوْسَعُوا لِيَاسَاتِهِمْ فِي رُوضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْتَصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤-١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾: أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور. وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها الله أنداداً وصيرتموها له عدلاً. ﴿كَلَّا﴾: أي: ليس له نظير ولا نديد، ولا شريك ولا عدل، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾: أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَعَلَّيْتُ كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾: أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، ﴿بَارِكْ أَلَيْسَ تَرَكَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَيْبِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: أي: تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَنْ نُقِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِنْ حُصِرُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمد ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم لله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العَدَنِي، حدثنا الحكم - يعني: ابن أبان - عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ لِئَلْبَسَكَ لَهُمْ﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلى الجن والإنس. وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رُفِعَ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل. وأحللت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر». قال مجاهد: يعني: الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٦]، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٦]، كما قال: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ﴾ [٢٦]، أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محدد، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَمِلَّ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُوَخَّرُ﴾ [نوح: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّتَدَوِّرٍ﴾ [٢٦]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكْفُلُمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَضُكُمْ سُوقًا وَنَسِيغًا﴾ [٢٦]، [مرد: ١٠٤-١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صدقناك عن الهدى بعد إذ جاءك بل كنتن تجرمن. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَسَأُرَوْا الْعَذَابَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَرَجَعْنَا الْكُفْرَانَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٦].

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً، ومخبراً عن مواقفهم الدلالية بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا مِنْهُمْ وَهُمْ الْإِتْبَاعُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكننا اتبعنا الرسل وآمننا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنْتُمْ صَدَقْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنادعوناكم فاتبعتونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتُفَرِّقُونَا وَتُؤَمِّنُونَا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين. قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكرهم بالليل والنهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي نظراءه، وتقيمونا لنا شُبهاً وأشياء من المحال، تضلوننا بها ﴿وَسَأُرَوْا الْعَذَابَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والاتباع، كُلُّ نَدْمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ. ﴿وَرَجَعْنَا الْكُفْرَانَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلُّ بِحَسَبِهِ، وللقيادة عذاب بحسبهم، وللاتباع عذاب بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَقْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فرقة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصباهي، عن أبي سنان ضرار بن صرد، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لها بها، ثم لفتحتهم لفتحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب». وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخشني قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثني أبا سليمان - يعني: الداراني، رحمة الله عليه - فبكى ثم قال: ويحك. فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجله، والغُل في يديه والسلسلة في عنقه، ثم أدخل الدار وأدخل المغار؟!!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ جَزَاءَ الصَّغِيرِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُوبَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَجْرًا وَإِنَّا لَبِئْسَ مَا تَجْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبية، وأمر له بالناسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَكْفُرُكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا تَزِلُّكَ أُنْعَمُكَ إِلَّا الْاُذْيُوتُ هُمُ أَرَادُوا لَكَا بَادَى الْأَرَى﴾ [مرد: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْعَفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ آتَتْهُمْ أَنْتُ صَالِحًا مِّن رَّبِّكَ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْمِلُونَ بِمُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ الْاُذْيُوتُ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الاعراف: ٧٥-٧٦] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيُتْلَوْا أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَإِن يَنبَغْ لَكَ أَن يَكُونَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالسَّكِينِ ﴿٣٦﴾﴾ [الانعام: ٥٣]؟ وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ لِيَحْكُمُوا فِيهَا﴾ [الانعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَرِوَادًا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرًا مَّرْقِبًا فَتَسْأَلُوا مِنَّا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال هاهنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورووسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم، عن أبي زرين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه. قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يعث نبي إلى اتبعه زذالة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الآيات، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت». وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك. قال الله: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّا نُلَدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٣٥﴾ شَارِحٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْغُرُوبَاتِ بَلْ لَا يَسْعَوْنَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقَ وَجِدًا ﴿٣٨﴾ وَجَعَلَتْ لَهُمْ مَالًا مُمْدُودًا ﴿٣٩﴾ وَبَيْنَ شُهُوبٍ ﴿٤٠﴾ وَمَهَّدَتْ لَهُمْ مَعِيبًا ﴿٤١﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَن يَأْتِيَهُمْ ﴿٤٢﴾ كَلَّا إِنَّكَ كَانَتْ لَابْنًا عَيْدًا ﴿٤٣﴾ سَأَرْفَعُهُ صَوْرًا ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: ١١-١١]. وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئاً، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا كثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه ومسلم وابن ماجه، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بزقان، به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ جَزَاءَ الصَّغِيرِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: تضاعف لهم الحسنه بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُوبَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحذر منه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قزوة بن المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَجْرًا وَإِنَّا لَبِئْسَ مَا تَجْعَلُونَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته، ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْأَعْدَابِ مَحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مُجْرَبُونَ بأعمالهم فيها بحسبهم. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي:

بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مَوْسَع عليه، وكذلك هم في الآخرة: هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في العَمَرَات في أسفل الدرجات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم وزُوق كَفَافاً، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم من حديث ابن عمرو. وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك». وفي الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُنْسِكاً تَلْفَافاً»، ويقول الآخر: «اللهم أعط منفقاً خلفاً» وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلائاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

وقال ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس، حدثنا هُشَيْمٌ عن الكوثري بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعدكم زمان عضوض، يعرض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هُشَيْمٌ، عن الكوثري بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعرض الموسر على ما في يديه حذار الإنفاق»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾، وَيَنْهَلُ شَرَارَ الْخَلْقِ يَبَايِعُونَ كُلَّ مِضْطَرٍّ، أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمِضْطَرِّينَ حَرَامٌ، أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمِضْطَرِّينَ حَرَامٌ الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلَمُهُ، وَلَا يَخْذَلُهُ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَعْرُوفٌ، فَعُدَّ بِهِ عَلَى أَخِيكَ، وَإِلَّا فَلَا تَزِدْهُ هَلَاكاً إِلَى هَلَاكِهِ». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سفیان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾؛ إِنْ كَانَ عِنْدَ أَحَدِكُمْ مَا يَقِيمُهُ فَلْيَقْصِدْ فِيهِ، فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا بِعِبَادَتِكُمْ لَأَكْثَرُ الْكَاثِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون آلهم فأكثرهم يوم مؤمنون ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ آثَارِ آلِي كَثُوبٍ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا بِعِبَادَتِكُمْ لَأَكْثَرُ الْكَاثِرِينَ﴾؟ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿مَا أَنتُمْ أَهْلُوا لِي بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسى: ﴿مَا أَنتَ قَلْتُ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي مِنَ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَإِلَهِنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا بِعِبَادَتِ الْآلِ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم، ﴿أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تُمُوتُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِي إِلَى آلِي إِنتَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَى سَبْطَانَا مُرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]. قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشداذكم وكذبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ - وهم المشركون - ﴿ذُوقُوا عَذَابَ آثَارِ آلِي كَثُوبٍ﴾ أي: يقال لهم ذلك، تقريباً وتوبيخاً.

﴿وَلَا تَنْتَهِ عَنِّيمْ إِنَّمَا لَنَا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكَ عَنَّا كَانَ عَبْدًا مَبْذُورًا وَمَا نَدَّاهُ مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَقْتَدَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَنَا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وما آياتهم من كتب يدرونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَارِ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولًا كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آيات بينات يسمعونها غصّة طرية من لسان رسوله ﷺ، ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكَ عَنَّا كَانَ عَبْدًا مَبْذُورًا وَمَا نَدَّاهُ مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَقْتَدَى﴾، يعنون أن دين آباؤهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آباؤهم لعائن الله - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَنَا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [الأنبياء: ٢٤] أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب، لكننا أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعَارِ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذلك

قال قتادة، والسدي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِن كُنَّا نَمُنُّكُمْ فِيْمَا وَحَمَلْنَا لَهُمُ سَمًا وَابْصَرْنَا وَقَدِيدَةً فَمَا آغَيْنَا عَنْهُمْ سَمَهُمْ وَلَا ابْصَرَهُمْ وَلَا أَفِيدَهُمْ مِن مَّوْنٍ إِذْ كَانُوا يَحْسُدُونَ بِكَيْبَتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الاحقاف: ٢٦]، ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَذَّبَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كان نکالي وعبابي وانتصاري لرسلتي؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِرِجْدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَدَرِكُمْ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِرِجْدَةٍ﴾ أي: إنما أمركم بواحدة، وهي:

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَدَرِكُمْ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَدَرِكُمْ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنما أَعْطَاكُمْ بِرِجْدَةٍ، وهذا معنى ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسدي، وقاتدة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعطيت ثلاثة لم يعطهن من قبلي ولا فخر: أحلت لي الغنائم، ولم تحل لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها. ويُعث إلى كل أحمر وأسود، وكان كل نبي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أقيم بالصعيد، وأصلي حيث أدرتني الصلاة، قال الله: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَدَرِكُمْ﴾، وأعت بالربع مسيرة شهر بين يدي» - فهو حديث ضعيف الإسناد، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد، ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾: قال البخاري عندها: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خازم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعنا؟ فانزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد]. وقد تقدم عند قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، تدرنوا مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بشوبه: أيها الناس، أوتيتم. أيها الناس، أوتيتم - ثلاث مرات». وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني». تفرد به الإمام أحمد في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُم مِّنْ آجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن صَلَّيْتُ فَلَيْسَ إِلَّا مَعَهُ وَلَا أَسْأَلُهُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْ دُونِهِ إِنَّ رَبِّي لَشَدِيدُ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُم مِّنْ آجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله، ﴿إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرَّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَنِي حَبَابٍ﴾ [غافر: ١٥]. أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض. وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿قُلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يقطعن الصنم بسببه قوسه، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٥٠﴾﴾، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري،

عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سخبيرة، عن ابن مسعود، به. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة. وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ امْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِلُ إِلَيَّ رِيحٌ﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله ﷺ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه. وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجب دعوة الداعي إذا دعاه. وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ اتِّنَانُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْقَلْبِ مِنَ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوتُوا بِإِسْبَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَن يَبْلُغَ أَكْفَادَهُمْ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولو ترى - يا محمد - إذا فزع هؤلاء المكذوبون يوم القيامة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يكونوا يُمنعون في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقاتدة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عباس والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك. وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس، ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية. ثم لم يبنه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه. ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ اتِّنَانُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ اتِّنَانُشُ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسول؟ ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْقَلْبِ مِنَ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْقَلْبِ﴾ قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَبِّمَا بِالْقَلْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِن نُّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُشْفِقِينَ﴾ [الجنانية: ٣٢]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار. وقوله: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني: الإيمان. وقال السدي: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعة. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فلنذكره بطوله فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرْقِيِّ بن قُطَامِي، عن سعد بن طريف، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إلى آخر الآية، قال: كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً - أي: فتح الله له ما لا - فمات فورته ابن له تافه - أي: فاسد - فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت، ثم رحل فأتى عيناً ثجاجة فسرح فيها ماله، وابتنى قصراً. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً - أي: ريحاً - فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يَهْنِك العيش ولا زوجة

لك؟ قال: قد كان ذلك. فهل لك من بعل؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزود زاد يوم واثنتي، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يهولك. فلما كان من الغد تزود زاد يوم، وانطلق فانهى إلى قصر، ففرغ راتجة، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أزجاً - أي: ربحاً - فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي. قال: فما حاجتك؟ قال: دعنتي صاحبة هذا القصر إلى نفسها. قال: صدقت، فهل رأيت في طريقك هولاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس عليّ، لهالني الذي رأيت؛ أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بكلية فاتحة فاهها، ففرغت، فَوُتِّبْتُ فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها ينبحن في بطنها. فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويَبْزِهم حديثهم. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بمائة عتْر حُفْل، وإذا فيها جَدِّي يمضها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً، فتح فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، ملك يجمع صامت الناس كلهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر، فأردت قطعه، فنادتني شجرة أخرى: «يا عبد الله، مني فخذ». حتى ناداني الشجر أجمع: «يا عبد الله، منا فخذ». قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقل الرجال ويكثر النساء، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين، يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تصدعوا عنه صبّ في جرتّه فلم تعلق جرتّه من الماء بشيء. قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز، وإذا بقوم قد أخذوا بقواتهما، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذنبها، وإذا رجل قد ركبها، وإذا رجل يحلبها. فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقواتها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فبُخ، ذهب ذلك بها. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، وإذا أنا برجل يمتح على قلبه، كلما أخرج دلوه صبّه في الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القلب. قال: هذا رجل ردّ الله عليه صالح عمله، فلم يقبله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل يبذر بذراً فيستحصد، فإذا حنطة طيبة. قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله، وأزكاه له. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال: يا عبد الله، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقتني الله فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عمر الأبعد نَفْد، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتك. . . أمرني الله بقبض روح الأبعد من هذا المكان، ثم أصيره إلى نار جهنم قال: ففيه نزلت هذه: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآية.

هذا أثر غريب، وفي صحته نظر، وتنزيل هذه الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة، وحيل بينه وبين ما يشتهي. وقوله: ﴿كَمَا قِيلَ يَا شَأْبِيعُ بَيْنَ قَبَلٍ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨١) ﴿لَقَدْ يَكْفُرُ بِكَ بِعَفْوِهِمْ يُبَيِّنُ لِمَا رَأَوْا بَأْسًا سَكَتَ اللَّهُ أَلْقَى قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَحَسْرَ هَذَا الْكُفْرُونَ﴾ (٨٥) [غانر: ٨٤-٨٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكِّ رَيْبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

آخر تفسير سورة «سبا»، وبه الحمد والمنة



تفسير سورة فاطر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُؤُلًا أُولِي أجنَحٍ مثنًى وَثَلثَ وَرُبَعًا بَرِيدٌ فِي اللَّيْلِ مَا يَهْدَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلَنَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قال سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بشر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض. وقوله: ﴿عَاجِلَ أَمْرِكُمْ رَسُولًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه، ﴿أُولَئِكَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: يطيطون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَنْقُ وَتَلَّتْ وَرَبَّعًا﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب؛ ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري، وابن جرير في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: حسن الصوت. رواه عن الزهري البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقرئ في الشاذ: ﴿يَزِيدُ فِي الْحَلْقِ﴾، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدُونِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن وزاد- مولى المغيرة بن شعبة- قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إلي بما سمعت من رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات. وأخرجاه من طرق عن وزاد، به. وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم، أهل الثناء والمجد. أحق ما قال العبد، لكننا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَسْكِنَنَّ اللَّهُ يَسْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَجْعَرُونَ فَلَا رَادَّ لِقَوْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. ولهذا نظائر كثيرة. وقال الإمام مالك: كان أبو هريرة إذا مطروا يقول: مُطْرَنَا بِنُؤءِ الْفَتْحِ، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدُونِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَتَّبِعُ النَّاسُ أَلْدَارًا نَسَتْ اللَّهُ تِلْكَ هَلْ مِنْ خَلْقِ عِبْرِ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالَّذِ تَتُفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيدهم في أفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق وكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالَّذِ تَتُفَكَّرُونَ﴾، أي: فكيف توفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟

﴿وَإِن يَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكُمْ وَلَئِن يَكْفُرُوا لَكُنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤﴾﴾

يقول: وإن يكذبوك يا محمد- هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وَلَئِن يَكْفُرُوا لَكُنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: وستجزئهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال: ﴿يَتَّبِعُ النَّاسُ أَلْدَارًا نَسَتْ اللَّهُ تِلْكَ هَلْ مِنْ خَلْقِ عِبْرِ اللَّهِ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فَلَا تَرْزُقُكُمْ الْهِمَّةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأولياته وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهاوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿وَلَا يَرْزُقُكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾ وهو الشيطان. قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرار كذاب أفك. وهذه الآية كآلية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَرْزُقُكُمْ الْهِمَّةُ الدُّنْيَا وَلَا يَرْزُقُكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾ [لقمان: ٢٣]. قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿بَيْنَهُمْ يَسْرًا لَمْ يَأْتِ بِإِلَهٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَمَهُمْ مِنْ قَبْلِ الْمَلَكِ ﴿٥﴾ يَتَادَبَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿٦﴾ [العنكبوت: ١٣-١٤]. ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقار بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقولته: ﴿وَرَادَ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِقَرَابَةِ الظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عاديتم إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن تولوه؟ بل اللاتق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى عذاب السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسون أنهم يحسنون صنعا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الجهمي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني - أو: ربيعة - عن عبد الله بن الدليمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الروط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله ﷻ». ثم قال: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بن شرحبيل، عن زيد ابن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب». وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَخَابًا سَفَقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَتَّيٍّ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ اللَّيْلِيُّ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَوْمٌ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا كَحَمَلٍ مِنْ شَيْءٍ وَلَا تَصْعَقُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُمْرَةٍ وَلَا يَمُتُّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما في أول سورة الحج - بينه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزل عليها، ﴿أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَّتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾. وتقدم في «الحج» حديث أبي رزين: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك مخلاً ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى». وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليزِم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَيْنَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوَسْوَءَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليستعزز بطاعة الله ﷻ. وقيل: من كان يريد علم العزة، لمن هي، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ اللَّيْلِيُّ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. قاله غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، أخبرني جعفر بن عون، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء

فلا يُعْمَرُ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يحيى بهن وجه الرحمن ﷻ، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الْغَلِيْبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْبَةَ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرِيُّ، عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدويماً حول العرش كدوي النحل، يُدَكَّرْنَ بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن. وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار، رحمه الله، وقد روي مرفوعاً. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن ثُمَيْرٍ، حدثنا موسى - يعني: ابن مسلم الطحان - عن عون بن عبد الله، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسيبحة وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به؟». وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى ابن أبي عيسى الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير، به.

وقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله، ﷻ، والعمل الصالح: أداء فرائضه. ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم التَّخَمِيُّ، والضحاك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وشَهْر بن حَوْشَب، وغير واحد من السلف. وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّاتِ﴾: قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وشهر بن حوشب: هم المرأون بأعمالهم، يعني: يمشرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم يُعْضَأُ إلى الله ﷻ، يراؤون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى؛ ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾، أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فالمرآئي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَفُ لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ﴾ أي: ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم، لتسكنوا إليها. وقوله: ﴿وَمَا تَحْوِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يُعْلِيوَهُ﴾ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ تُرْبٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: لا يفتقر شيء من ذلك شيء. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْوِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضَعُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَمَلِّ﴾ [الرعد: ٨-٩]. وقوله: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل لعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. وروي من طريق العَوْفِيِّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمرٍ وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة بالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لَفَطَت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السدي، وعطاء الخراساني. واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال. وقال النسائي

عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليصل رَجْمَهُ». وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا عثمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربيعي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله يأخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر». وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّي تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ مَوَازِرٌ لِيَنْتَفِرُوا مِنْ قِطْبِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة رُغَاقاً مَرَّةً، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر. ثم قال: ﴿وَمَنْ كُلِّي تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُودُ وَالزَّيْتُ وَاللَّهُ يَبْدِئُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ وَكَوْنًا يُدْرِكُهُ﴾ ﴿٢٢﴾ [الرحمن: ٢٢-٢٣]. وقوله: ﴿وَرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ مَوَازِرٌ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسْتَم الذي يشبه جَوْجُ الطير - وهو: صدره. وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمحخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: ﴿لِيَنْتَفِرُوا مِنْ قِطْبِهِ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْآلَاءُ وَالذِّكْرِ تَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ مَا يَلِيكُوكَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٢٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَوَ كَيْفَ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانة العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابث الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿وَالذِّكْرِ تَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿مَا يَلِيكُوكَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء وعطية العوفي، والحسن، وقناة، وغيرهم: القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير. ثم قال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرتون على ما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلْ يَمُنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَفِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا حُيِّرُوا النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ [الاحقاف: ٥-٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ دُونَهُ يَدْعُونَ لَكُمْ عِبَادَةً كَمَا دَعَاؤُكُمْ سَيَكْفُرُونَ بِسَادَتِهِمْ وَيَكْفُرُونَ عَنْكُمْ صِدْقًا ﴿٢٦﴾ [مریم: ٨١-٨٢]. وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل خبير بها. قال قناة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿٢٧﴾ إِنْ بَنَىٰ ذُبْحَكُمْ وَبَاتَ يَخْلِي جَبِيرٌ ﴿٢٨﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٩﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَلِيلٍ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِهِمْ بِالْقَيْبِ وَأَقَامُوا

الْمَكْرَهُ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ. وَإِلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾.

يخبر تعالى بغناها عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشعره. وقوله: ﴿إِن بَشَأً يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿١٧﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ جِهْلَاهَا﴾، أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُسَاعِدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، ﴿لَا يَحْمِلُ وِثْرَهُ شَيْءٌ﴾ ولو كان ذا قُرْبَىٰ، ﴿أَي: ولو كان قريباً إليها، حتى ولو كان أباًها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ﴾ ﴿٢٤﴾ وأخيه وأبيه ﴿٢٥﴾ وَصَحْبِيهِ وَيَوِيئِهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أُمَّيٍّ يَتَمَتَّى يَتَمَتَّى شَاءَ نَفْسِهِ﴾ ﴿عيس: ٢٤-٢٧﴾. قال عكرمة في قوله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ جِهْلَاهَا﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب، سل هذا: لم كان يعلق بابه دوني. وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك بدأ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا؟ وقد احتجت إليك اليوم. فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار: وأن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أتني والد كنت لك؟ فيشي خيراً، فيقول له: يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجوب بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجه فيقول: يا فلانة - أو: يا هذه - أي زوج كنت لك؟ فتشي خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهيبنيالي، لعلني أنجوب بها مما ترين فتقول: ما أيسر ما طلبت. ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ جِهْلَاهَا﴾ الآية، ويقول الله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان: ١٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ﴾ ﴿٢٤﴾ وَأَخِيهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبِيهِ وَيَوِيئِهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أُمَّيٍّ يَتَمَتَّى شَاءَ نَفْسِهِ﴾ ﴿٢٧﴾. رواه ابن أبي حاتم، رحمه الله، عن أبي عبد الله الطهراني، عن حفص بن عمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، به. ثم قال: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إنما تعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون من أمرهم به، ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه، ﴿وَإِلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الظُّلُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يُشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ فَرَأَوْهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَنْ تُكَلِّمُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِضَاحٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّبْعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فالمؤمن سميع بصير في نور يمضي، على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمضي، لا خروج له منها، بل هو يشبه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، ﴿وَظَلِيٍّ مِّن يَمِينِهِ﴾ ﴿٢٢﴾ لَا يَأْبُو وَلَا كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ [الروافعة: ٤٣-٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يُشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجّة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا يسمع وينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقارة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلّت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذير، وأزاح عنهم العليل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ابْتَدُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ فَاتَّعَفَتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ السَّلَاطَةُ﴾ الآية [النحل: ١٣٦]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٢٧﴾ وهي : المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات، **﴿وَالَّذِينَ﴾** وهي الكتب، **﴿وَالَّذِينَ﴾** أي : الواضح البين. **﴿فَرَأَىٰ أَكْثَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسَلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي : بالعقاب والنكال، **﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾** أي : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْتَمُونَ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد في تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى : **﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَّبَعُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ أَشْجَلِهَا وَرَبْعٌ وَفِيهَا صِنُونٌ وَعَبْرٌ صِنُونٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَدٍ وَيُقْبَلُ مِنْهَا بِضْعَةٌ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعُلُوِّ بَقُولِكُمْ ﴿٢٨﴾﴾** [الرعد: ٤٤]. وقوله تبارك وتعالى : **﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾** أي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمرة، وفي بعضها طرائق - وهي : الجُدَد - جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضاً. قال ابن عباس، رضي الله عنهما : الجُدَد : الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادة، والسدي. ومنها **﴿وَعَرَابِيبُ سُودٌ﴾**، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراساني وقتادة. وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا : أسود غريب. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : **﴿وَعَرَابِيبُ سُودٌ﴾** أي : سود غرابيب. وفيما قاله نظر. وقوله تعالى : **﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾** أي : وكذلك الحيوانات من الأناس والدواب - وهو : كل مادد على قوائم - والأنعام، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وخبوش وطمطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : **﴿وَاصْنَعْنَا الْبَشَرِ الْأَكْثَرِ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَلِكِينَ﴾** [الروم: ٢٧]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أبيض ربك؟ فقال : «نعم صبغاً لا ينفص، أحمر وأصفر وأبيض». ورؤي مرسلًا وموقوفًا، والله أعلم. ولهذا قال تعالى بعد هذا : **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْتَمُونَ﴾** أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المتنوع بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْتَمُونَ﴾** قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال ابن لهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله. وقال سعيد بن جبيرة : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ. وقال الحسن البصري : الإيمان من خشى الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، زهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن : **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْتَمُونَ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾**. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب. قال أحمد بن صالح المصري : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وأما العلم الذي فرض الله ﷻ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة، وما جاء عن الصحابة، رضي الله عنهم، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : «نور» يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه. وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان التميمي، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله : الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله ﷻ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَنْتَوُونَ عِجْرَةً لَّيِّنٌ تَبَوَّءُوا لِيُؤْفِكُوهُمُ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبادته المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ كِتَابَكَ يُخَافُونَ أَنْ يَنْبَغِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله. كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ أُجْرَهُمْ حَسْبُ مَا فَعَلُوا وَيُضَاعَفَ لَهُمْ بِزِيَادَاتِهِمْ لِمَ تَخَطَّرُوا لَهُمْ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شُكُورًا﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مُطْرَفٌ، رحمه الله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوه، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دزاجاً أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أتى عليه سبعة أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أتى عليه سبعة أصناف من الشر لم يعمله». غريب جداً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا إِنَّكَ مِنَ الْكُتُبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا عِبَادُوا لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا إِنَّكَ مِنَ الْكُتُبِ﴾، يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتبويه، وأنه منزل من رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا عِبَادُوا لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ انبَغَى ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذي اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ انبَغَى﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَرُ لَهُ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُثَيْبِيُّ قالا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثني ابن جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكباير من أمتي». قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعته محمد ﷺ. وهكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب. قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، قال: هو الكافر. وكذا روى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والحسن، وقاتدة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقاتدة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة «الواقعة» وآخرها. والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة. وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ، من طرق يشد بعضها بضعاً، ونحن نورد منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار؛ أنه سمع رجلاً من ثقيف يُحَدِّثُ عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ انبَغَى﴾، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسم. وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾، فأما الذي سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿لَمَحَدِّدٌ لِلَّهِ الَّذِي آذَهَبَ عَنَّا الْكُرْهَ وَإِنَّا لَكَاغُورٌ شُكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣١)». طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾. قال: «فأما الظالم لنفسه فيحسب حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة». ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم، آس وحشتي، وارحم غربتي، ويسر لي جليساً صالحاً، قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لانا أسعد بك منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، «فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿لَمَحَدِّدٌ لِلَّهِ الَّذِي آذَهَبَ عَنَّا الْكُرْهَ﴾».

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلي، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة».

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز، حدثنا سلامة، عن عقييل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحسون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: «لا إله إلا الله وحده». يقول الله ﷻ: صدقوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: «لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلِيَجْلِبَ أَتْقَانُكُمْ وَأَتْقَالُكُمْ أَتْقَالُكُمْ﴾ [التكوير: ١١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويمحس». غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثني ابن حميد، حدثنا الحكيم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن عبد الله بن عيسى، عن يزيد بن الحارث، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلاث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول: ما هؤلاء؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي: وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية. أثر آخر: قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شعيب، عن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، عن قول الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية، فقالت لي: يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم. قال: فجعلت نفسها معنا. وهذا منها، رضي الله عنها، من باب الهمضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الشريد على سائر الطعام. وقال عبد الله بن المبارك، رحمه الله: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: هي لأهل بدونا، ومقتصدنا أهل حضرنا، وسابقنا أهل الجهاد. رواه ابن أبي حاتم. وقال عوف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأبحار قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار. ورواه ابن

جرير من طرق، عن عوف، به. ثم قال: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثني ابن عُليّة، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿يُؤَذِّنُ اللَّهُ﴾ قال: تماست منابكهم ورب كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج. ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن محمد بن الحنفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سميع، عن رجل، عن محمد بن الحنفية، بنحوه. وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعني: الباقر - عن قوله: ﴿فِيَنَّهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر». وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول: قيس بن كثير - عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواية فيه في شرح «كتاب العلم» من «صحيح البخاري»، والله الحمد والمنة. وقد تقدم في أول «سورة طه» حديث ثعلبة بن الحكم، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي».

﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لَمَنَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَلْمَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الخلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من ليس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة». وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سواد السرحي، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لبيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلى أهل الجنة فقال: «مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من دُرٍّ وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جُرْدُ مُرْدُ مكحلون». ﴿وَقَالُوا لَمَنَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل ﴿لا إله إلا الله﴾ وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل ﴿لا إله إلا الله﴾ ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: ﴿لَمَنَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾». رواه ابن أبي حاتم من حديثه. وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا يحيى بن موسى المروزي، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل ﴿لا إله إلا الله﴾ وحشة في الموت ولا في قبورهم ولا في النشور. وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: ﴿لَمَنَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾».

قال ابن عباس، وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات. ﴿الَّذِي أَلْمَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾: يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن

رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة». قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتخمدني الله برحمة منه وفضل». ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَجَسٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسنها فيها عتاء ولا إعياء. والنصب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب. وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم. فمن ذلك أنهم كانوا يذنبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ مَا سَلْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْمَأْتِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَىٰ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [٣٦] ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مَعَلِّمْ سَلِيمًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَهَاءَ كُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [٣٧].
 لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». قال الله تعالى: ﴿وَأَنذَرْنَا بِمَنَّا لِقَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَشْرُوبَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِئٌ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ يَبْسُوتُونَ﴾ [٧٤-٧٥]. وقال: ﴿كُلَّمَا حَبَسْتَ ذُنُوبَهُمْ سَمِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [٧٦]. [النبا: ٣٠]. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب بالحق. وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجارون إلى الله، ﷻ، بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مَعَلِّمْ سَلِيمًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب، جل جلاله، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١١-١٢]، أي: لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتهم عنه؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة. وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نُعَمِّرَ بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة. وكذا قال أبو غالب الشيباني. وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن رجل، عن وهب بن مَثَبَةَ في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾، قال: عشرين سنة. وقال هُشَيْمٌ، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ قال: أربعين سنة. وقال هشيم أيضاً، عن مجاهد، عن الشعبي، عن مسروق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ.

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ أربعون سنة. هكذا رواه من هذه الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم رواه من طريق الشوري وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير، من أن الحديث لم يصح؛ لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره. وقد روى أصبغ بن نباتة، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: العمر الذي غيرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ ستون سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا دُحَيْمٌ، حدثنا ابن أبي قُدَيْبٍ، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَيْنِ المكي؛ أنه حدثه عن عطاء - هو ابن أبي رباح - عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَهَاءَ كُمُ النَّذِيرُ﴾». وكذا رواه ابن جرير، عن علي بن شعيب، عن محمد بن إسماعيل بن أبي قُدَيْبٍ، به. وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي قُدَيْبٍ، به. وهذا الحديث فيه نظر؛ لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن رجل من بني غفَّار، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه».

وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» من صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، عن عَمَر بن علي، عن مَعْن بن محمد الغفاري، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله ﷻ إلى امرئ آخر عمره حتى بلغه ستين سنة». ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابن عجلان، عن سعيد المقبري. فأما أبو حازم فقال ابن جرير: حدثنا أبو صالح الفزاري، حدثنا محمد بن سوار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القاري الإسكندراني، حدثنا أبو حازم، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمَّره الله ستين سنة، فقد أعذر إليه في العمر». وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، به. ورواه البزار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». يعني: «أَوْ لَمْ تُعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ». وأما متابعة «ابن عجلان» فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ﷻ، إليه في العمر». وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ، به. ورواه أحمد أيضاً عن خلف عن أبي مغشَّر، عن سعيد المقبري. طريق أخرى عن أبي هريرة: قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرج أبو عُثْبَةَ الحمصي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكناني، حدثني مَعْمَر بن راشد قال: سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله ﷻ، إلى صاحب الستين سنة والسبعين». فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت. وقول ابن جرير: (إن في رجاله بعض من يجب التثبيت في أمره)، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم. وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا فَقَدْ ذُقَبَ الْمَسْرَةَ وَالْفَتَاءَ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عرفة، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد، عن الحسن بن عرفة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا عَجَبٌ من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هريرة، حيث قال: حدثنا سليمان بن عمر، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وقد رواه الترمذي في «كتاب الزهد» أيضاً، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد بن ربيعة، به. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روى من غير وجه عنه. هذا نصه بحروفه في الموضوعين، والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني إبراهيم بن الفضل - مولى بني مخزوم - عن المقبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُعْتَرَكُ الْمَنِيَا ما بين الستين إلى السبعين». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقل أمتي أبناء سبعين». إسناده ضعيف. حديث آخر في معنى ذلك: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانيء، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن ربيعة عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أنبتنا بأعمار أمتك. قال: «ما بين الخمسين إلى الستين». قالوا: يا رسول الله، فأبناء السبعين؟ قال: «قل من يبلغها من أمتي، رحم الله أبناء السبعين، ورحم الله أبناء الثمانين». ثم قال البزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة. وقيل: ستين. وقيل: خمسا وستين سنة. والمشهور الأول، والله أعلم. وقوله: «وَجَاءَكُمْ التَّذْيِيرُ»: روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني: الشيب. وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد: «هَذَا تَذْيِيرٌ مِنَ التَّذْيِيرِ الْأَوَّلِ» [النجم: ٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول. وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: «وَأَدَاؤُكُمْ بِمَا لَكُمْ لِقَايَ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ قَالِ إِنَّكُمْ مَعَكُمْ لَبِئْسَ مَا لَكُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَجَعِي كَذِبُونَ» [٧٨]

[الزخرف: ٧٧-٧٨]، أي: لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل، فأبستم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ لَمَّا أُنقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمْتِهِ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨-٩]. وقوله: ﴿فَذَرُونَا فَمَا لِغُلَّابِيِّينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فدوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَيْهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلَيْهُ بِذَاتِ الْعُدُورِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا مِّنَ الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُمْ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسْرًا ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَمَّا خَلَقْنَا الْإَرْضَ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، ﴿وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئته رب العالمين، فسبحان المقدر المدبر رب العالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرْبَا مَادَّا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَاتُنزِلُ السَّمَوَاتُ مَاءً غَلَقُوا فِيهَا فَسَقُوا لَئِن يَدْعُونَ الْفَلَّاحِينَ بِمِثْمٍ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُودَا وَلَكِن زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَهُمَا مِن مَّاءٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَسِيمًا غُورًا ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿أَرْبَا مَادَّا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير. وقوله: ﴿أَمْ لَاتُنزِلُ السَّمَوَاتُ مَاءً غَلَقُوا فِيهَا فَسَقُوا لَئِن يَدْعُونَ الْفَلَّاحِينَ بِمِثْمٍ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَدْعُونَ الْفَلَّاحِينَ بِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض من أمره، وما جعل فيهما من القوة العاسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُودَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُصَلِّكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِن مَّائِنِيهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥] ﴿وَلَكِن زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَهُمَا مِن مَّاءٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾، أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حلیم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستتر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَسِيمًا غُورًا﴾. وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً بل منكراً، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى، عليه السلام، على المنبر قال: «وقع في نفس موسى، عليه السلام: هل ينام الله، ﷻ، فأرسل الله إليه ملكاً، فأرقيه ثلاثاً، وأعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يدها تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومه، فاصطفقت يده فتكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض». والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة؛ فإن موسى، عليه السلام، أجل من أن يجوز على الله، سبحانه وتعالى، النوم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: ﴿أَلَمْ يَلِكُ الْفُؤُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسطن ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله - هو ابن مسعود - فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً. قال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السموات تدور على منكب ملك. قال: أفصدته أو كذبه؟ قال: ما صدقته ولا كذبه. قال: لوددت أنك اتدبت من رحلتك إليه براحتك ورزخها، كذب كعب. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُودَا وَلَكِن زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَهُمَا مِن مَّاءٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود. ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: ذهب جُنْدُبُ الْبَجَلِيُّ إِلَى

كعب بالشام، وذكر نحوه. وقد رأيت في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليلي، سماه «سير الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع، وكيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زونان - يعني: عبد الملك بن الحسن - عن ابن وهب، عن مالك أنه قال: السماء لا تدور. واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إن بالمغرب باباً للتوبة لا يزال مفتوحاً حتى تطلع الشمس منه». قلت: وهذا الحديث في الصحيح، والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْأُمَمِ الْأُولَىٰ ۚ فَكَيْفَ يُنظَرُونَ إِلَّا سَأْتِ الْأَرْضَ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَأْتِ الْأُولَىٰ ۚ فَلَنْ نَجِدَ لِشَيْءٍ آلَاءَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ وَلَنْ نَجِدَ لِشَيْءٍ آلَاءَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٢)

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهداً بآيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْأُمَمِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ بَنِي آدَمَ ۖ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَلغَفِيلِينَ﴾ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْكُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَظْلَمُ وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا سَجْرَىٰ الَّذِينَ يَصِدُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوَاءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدُّونَ﴾ (١٥٧) ﴿الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ (١١٦) لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنَ الْمُتَحَصِّنِينَ﴾ (١١٦) فَكَفَرُوا بِهِمْ سَوَافٍ يَلْمُزُونَ﴾ (١١٧) ﴿الصفافات: ١١٧ - ١١٧﴾. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ - وهو: محمد ﷺ - بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين، ﴿فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا سُورًا﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفرةً إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدمهم إياهم عن سبيل الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياك ومكر السوء، فإنه لا يحيق المكر السوء إلا بأهله، ولهم من الله طالب»، وقد قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿مَنْ لَكَ لَنْتًا فَإِنَّمَا يَنْتُكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَأْتِ الْأُولَىٰ﴾ يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسوله ومخالفتهم أمره، ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِشَيْءٍ آلَاءَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِشَيْءٍ آلَاءَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ﴿رِزْقًا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد.

﴿أَوْلَدٌ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنَّا لَهُمْ قِوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ۚ﴾ (٤٣) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ وَأَلَسُوا بِالْعَاقِبَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَىٰ النَّاسِ ۚ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتُخَذَتْ مِنْهُمْ سُؤْرًا يُدْعَوْنَ بِهَا إِلَىٰ آسَافٍ مَدْرُورَةٍ ۖ وَسُورَتُهُمْ فِيهَا رِجٌّ مُبْدِرٌ ۚ﴾ (٤٥)

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فُخِّلِيَتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والغدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض؟ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليهم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ أي: لو أخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجعل أن يعذب في حُجْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ وقال سعيد بن جبيرة، والسُّدِّيُّ في قوله: ﴿مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب. ﴿وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن يُنظَرُهُمْ إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتُخَذَتْ مِنْهُمْ سُؤْرًا يُدْعَوْنَ بِهَا إِلَىٰ آسَافٍ مَدْرُورَةٍ ۖ وَسُورَتُهُمْ فِيهَا رِجٌّ مُبْدِرٌ﴾.

آخر تفسير سورة «فاطر» والله الحمد والمنة



تفسير سورة يس

وهي مكية. قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس. ومن قرأ يس كتب الله له بقراتها قراءة القرآن عشر مرات». ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمد شيخ مجهول. وفي الباب عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة منظور فيه. أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول. وأما حديث أبي هريرة فقال أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا زيد - هو ابن الحباب - حدثنا حميد - هو المكي، مولى آل علقمة - عن عطاء - هو ابن أبي رباح - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس». ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا حجاج بن محمد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له. ومن قرأ: «حم» التي فيها الدخان أصبح مغفوراً له». إسناده جيد. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم - مولى ثقيف - حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني، حدثنا أبي، حدثنا زيد بن خثيمة، حدثنا محمد بن جحادة، عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله، غفر له». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنم القرآن وذُوتُه، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو: فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة، إلا غفر له، وأقرؤها على موتاكم». وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن معمر بن سليمان، به. ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا ابن المبارك، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرؤها على موتاكم» - يعني: يس.

ورواه أبو داود، والنسائي في «اليوم والليلة» وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به إلا أن في رواية النسائي: عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة: أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله. وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله أعلم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قرأت - يعني يس - عند الميت خُفِّف عنه بها. وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» - يعني: يس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَئِن لَّمْ تُرْسِلْهُ ٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزَّلَهُ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول «سورة البقرة»: ورؤي عن ابن عباس وعكرمة، والضحاك، والحسن وسفيان بن عيينة أن «يس» بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جبيرة: هو كذلك في لغة الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. «وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾»: أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، «إِنَّكَ ﴿١﴾» يا محمد «لَئِن لَّمْ تُرْسِلْهُ ٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾»: أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم، «نَزَّلَهُ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾»: أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنْزَلًا من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ٥٦﴾ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٦﴾» [الشورى: ٥٢-٥٣]. وقوله تعالى: «لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾» - يعني بهم: العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا يفتي من

عدهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المواترة في عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفِيهَا الْكَافِرُ فِي رَسُولِ اللَّهِ لِيَكْتُمَ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]. وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾: قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ .

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحا؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾، والمقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: «وأشرب فأقمح» أي: أشرب فأروي، وأرفع رأسي تهيناً وتزويهاً. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَمَا أَدْرَىٰ إِذَا يَمُنْتُ أَزْضَا أُرِيدَ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا ابْنُغْنِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتِلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ ﴿٨﴾ قال: هو كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً لِّكَ عُنُقًا﴾ [الاسراء: ٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يسطوها بخير. وقال مجاهد: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال: رافعوا رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا﴾: قال مجاهد: عن الحق، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: الضلالات. وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «فأغشيناهم» بالعين المهملة، من العشا وهو داء في العين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَكُلُّ جَاءَتِهِمْ كُفْلٌ مَا يَبِيحُ حَقِّ يَرُؤُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١١﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] ثم قال: من منعه الله لا يستطيع. وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمد. فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. رواه ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جناتٌ خير من جنات الأزدن. وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تعذبون بها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك، وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه، فجعل يذرها على رؤوسهم، وقرأ: ﴿يَسَّ﴾ ﴿١١﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ﴾ ﴿٢﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٩﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وابتأوا رضاء على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً. قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فجعل كل رجل منهم ينفخ ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك: إن لهم مني لذبحاً، وإنه أحدهم». وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ أي: قد حتم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَكُلُّ جَاءَتِهِمْ كُفْلٌ مَا يَبِيحُ حَقِّ يَرُؤُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٢﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، ﴿بَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الملك: ١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من

يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿أَعْمَوْا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]. وقوله: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: من الأعمال. وفي قوله: ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باسروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجزائها شيئاً»، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً». رواه مسلم، من رواية شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، وفي قصة مُجْتَابِي الثَمَارِ الْمُضْرِبِينَ. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحية يحيى بن يَمَلَى، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله، فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾. وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوانَةَ، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه، فذكره. وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده». وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهداً يقول في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ قال: ما أورتوا من الضلالة.

وقال ابن أبي عمير، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ يعني: ما أثروا. يقول: ما سنوا من سنة، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثل أجزائها، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم. وهذا القول هو اختيار الثوري.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال ابن أبي نجیح وغيره، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾: أعمالهم. ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم. وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ يعني: خطاهم. قال قتادة: لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليعمل. وقد وُزِدَتْ في هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيْرِي، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». وهكذا رواه مسلم، من حديث سعيد الجريري وكهَمَسُ بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة - واسمه: المنذر بن مالك بن قطعة العبدي - عن جابر.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب». فلم ينتقلوا. انفرد بإخراجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: (حسن غريب من حديث الثوري). ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سفيان الثوري، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي - عن أبي نضرة، به. وقد رُوِيَ من غير طريق الثوري، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن زياد الساجي، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾، فأقاموا في مكانهم. وحدثنا ابن المنثري، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، بنحوه. وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكاملها مكية، فالله أعلم.

الحديث الثالث: قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا

قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ»، فقالوا: ثبتت مكاننا. هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع. ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن يوسف القريابي، عن إسرائيل، عن سيماك، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَتَكْتُمُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فثبتوا في منازلهم.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حُتَيْبُ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو قال: توفي رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي ﷺ وقال: «يا ليت مات في غير مولده». فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة».

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى، وابن ماجه عن حرمله، كلاهما عن ابن وهب، عن حيي بن عبد الله، به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو تَمِيْلَةَ، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيت مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشينا رويدا، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شعرت أن الآثار تكتب؟ أما شعرت أن الآثار تكتب؟

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلان تكتب تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَرُويحُ الْكَيْتِبِ وَيَاجُوتَ وَالْيَاقُوتِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُوحِ الْكَيْتِبِ فَكِّي الْمُتَمَرِّينَ مُتَّفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَقْرَأُ بِهِ سَابِقٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا لَمَسْنَاهَا وَمِنْدُوا مَا عَلِمُوا خَبِيرًا وَلَا يَخْلُقُ رَبُّكَ لَمَّا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَحْصَبَ الْقَرْيَةَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَاكِلِ إِخْوَانِهِمُ ثُلَاثًا فَأَلَّا إِلَيْكُمْ تُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا آتَيْنَا إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِلَّا نَشْرٌ إِلَّا تَكْذِيبٌ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا بَعَثَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ كَذُوبًا (١٦) وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ (١٧) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ (١٨)﴾
يقول تعالى: واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَحْصَبَ الْقَرْيَةَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه -: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: انطيوخس بن انطيوخس بن انطيوخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصدق وشلوم، فكذبهم. وهكذا روي عن يزيد بن الخصب، وعكرمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية. وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية، بما سنذكره بعد تمام القصة، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالكذب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِشَاكِلِ﴾ أي: قوتناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث. قال ابن جرير، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي قال: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية.

﴿فَقَالُوا﴾ أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبو العالية. وزعم قتادة بن دعامة: أنهم كانوا رسل المسيح، عليه السلام، إلى أهل أنطاكية ﴿قَالُوا مَا آتَيْنَا إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلُونا﴾ [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ آتَيْنَاهُمْ إِلَّا بَشْرًا مِثْلًا يُرِيدُونَ أَنْ نُصَدِّقُوا عَمَّا كَانَتْ تَأْتِيهِمْ آيَاتُنَا فَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٦١]. وقوله حكاية عنهم في قوله: ﴿وَلَمَّا أَطْعَمَهُمْ بَشْرًا مِثْلًا كَذَّبُوا﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا وَمَا يُبْدُونَ إِلَهُاتِهِمْ إِلَّا نَجْمٌ بِالْإِصْبَاحِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ إِلَّا بَشْرًا مِثْلًا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِلَّا نَشْرٌ إِلَّا تَكْذِيبٌ﴾ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا بَعَثَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ كَذُوبًا (١٦) أَي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتم منا أشد الانتقام، ولكنه سبحانه وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَشِيرًا﴾ [الأنبياء: ٢١]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (١٨). يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإن أظعتم كانت لكم

السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تحبوا فستعلمون غيب ذلك، والله أعلم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ بِعَذَابِنَا أُولِي السُّمُوعِ﴾ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ بِعَذَابِنَا أُولِي السُّمُوعِ ﴿١٨﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها.

﴿لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ﴾ قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشم. ﴿وَلَيْسَتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُخَذَتْ عَلَيْهِمْ السَّيْرَةُ﴾ أي: عقوبة شديدة.

فقلت لهم رسالهم: ﴿طَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ السَّيْئَةُ قَالُوا لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا بِمُعَذِّبِهِمْ وَمَا كَانَ عَلَيْنَا جُنُودُهُمْ﴾ وقال قتادة، وهوب بن منبه: أي أعمالكم معكم. وقال تعالى: ﴿وَلِئِن نُّصَبِّحُهمْ صَبَاحًا يَلْعَنُوا يَوْمَئِذٍ آلَ أَهْلِهِمْ سِوَاهِ أَبْنَاءَ ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَسْكِينِ﴾ وقال قتادة: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: طهرنا بكم ويمن معك قال

طبريزي عن أبيه: ﴿النمل: ٤٧﴾. وقال قتادة، وهوب بن منبه: أي أعمالكم معكم. وقال تعالى: ﴿وَلِئِن نُّصَبِّحُهمْ صَبَاحًا يَلْعَنُوا يَوْمَئِذٍ آلَ أَهْلِهِمْ سِوَاهِ أَبْنَاءَ ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَسْكِينِ﴾ وقال قتادة: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: طهرنا بكم ويمن معك قال

عند الله وإن نصبتهم سيئة يقولوا هذوب من عندك قل كل من عند الله قال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴿النساء: ٧٨﴾. وقوله: ﴿إِن

ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام،

وتعدتمونا وتهدتمونا؟ بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا، بل أنتم قوم مسرفون.

﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَمَا مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِلَّا فِي وَسْوَءٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ﴾ ﴿١٩﴾

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار وهوب بن منبه: - إن أهل القرية هموا بقتل رسالهم فجاءهم رجل من

أقصى المدينة يسمي، أي: لينصرهم من قومه - قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجريز - وهو الحبال - وكان رجلاً سقيماً قد

أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم النظرة. وقال ابن إسحاق عن رجل سماه، عن الحكم،

عن مقيس - أو: عن مجاهد - عن ابن عباس قال: كان اسم صاحب يس حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وقال الثوري، عن

عاصم الأحول، عن أبي مجلز: كان اسمه حبيب بن مري. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس أيضاً قال: اسم

صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه.

وقال السدي: كان قصاراً. وقال عمر بن الحكم: كان إسكافاً. وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك. ﴿قَالَ يَقُولُ أَتَيْتُمُ

الْمُرْسَلِينَ﴾: يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم، ﴿أَتَيْتُمُ مَنْ لَا يَسْتَلِكُوا آجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِيَ لَا آتِيَهُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنيني من إخلاص العبادة للذي

خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَالَّذِي تَرْتَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَالَّذِي تَرْتَعُونَ

مِن دُونِهِ﴾ أي: استفهام إنكار وتوبيخ وتقرح، ﴿إِن يُرِيدِ الْزَّخْمُ أَنْ يُضْرِبَ لَا تَعْنِ عَنَّا﴾ أي: هذه

الآلئة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله لو أرادني بسوء، ﴿فَلَا حَاسِبٌ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقدونني مما أنا فيه، ﴿إِنِّي إِذْ لَأُبِي سَلْبِلَ ثَيْبِي﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من

دون الله. وقوله: ﴿إِنِّي إِذْ لَأُبِي سَلْبِلَ ثَيْبِي﴾ قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهوب - يقول

لقومه: ﴿إِنِّي إِذْ لَأُبِي سَلْبِلَ ثَيْبِي﴾ الذي كفرتم به، ﴿فَأَسْمِعُونِي﴾ أي: فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسول بقوله:

﴿إِنِّي إِذْ لَأُبِي سَلْبِلَ ثَيْبِي﴾ أي: الذي أرسلكم، ﴿فَأَسْمِعُونِي﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال

آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إنني قد آمنت بربكم

وآبعتكم. وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهوب - فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد

يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرمونهم بالحجارة، وهو يقول: اللهم، اهد قومي، فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به حتى أقعصوه

وهو يقول كذلك، فقتلوه، رحمه الله.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَرَجَعَنِي مِنَ الْمَكْرِهِينَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِّنَ

السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: إنهم وطشوا بأرجلهم حتى خرج فضبه من دبره وقال الله له:

﴿أَنْخَلِ الْجَنَّةَ﴾، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا وحزنها وَنَصَبَهَا. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة. وذلك أنه قُتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلتقي المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشياً؛ لَمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُومِينَ ﴿١٧﴾. تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له، وما هجم عليه. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَقْتَوِرُوا أَيْعُورُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُومِينَ ﴿١٧﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: ﴿يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُومِينَ﴾: بإيماني بربي، وتصديقي المرسلين. ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن عبد الملك - يعني: ابن عمير - قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ: ابغثني إلى قومي أَدْعُوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك». فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق». فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحنك غداً بما يسوؤك. فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عُزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا. قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكله فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس» قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُومِينَ ﴿١٧﴾. وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزْم: أنه حدث عن كعب الأحبار: أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم - أخو بني مازن بن النجار - الذي كان مسيلمة الكذاب قَطَعه باليامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فيقول له مسيلمة: أتسمع هذا ولا تسمع ذلك؟ فيقول: نعم. فجعل يَقْطَعه عضواً عضواً، كلما سأله لم يزد على ذلك حتى مات في يديه. فقال كعب حين قيل له: اسمه حبيب، وكان الله صاحب يس اسمه حبيب.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ ﴿١٨﴾: يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود، فيما رواه ابن إسحاق، عن بعض أصحابه، عنه أنه قال في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: ما كثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّغَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَبِيدُونَ﴾ ﴿١٩﴾، قال: فأهلك الله ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من رسالة أخرى إليهم. قاله مجاهد وقاتدة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّغَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَبِيدُونَ﴾ ﴿١٩﴾. قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عليه السلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تبق بهم روح تردد في جسد. وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح، عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله، ﷻ، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِطَالِك فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبَّنَا بَعَثْ لَنَا رَسُولًا مِّنْكَ لَتَمُنَّ بِهَا وَنَكْفُرَ بِمَا كُفَرْنَا وَمَا كُنَّا كَاذِبِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [يس: ١٤-١٧]. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصراني إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بئاركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البئاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين. ثم رومية لأنها مدينة الملك

قسطنطين الذي نصر دينهم وأطّده. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البتريك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة أمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلهم بصيحة واحدة أخدمتهم، فالله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعدذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني، حدثنا حسين الأشقر، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السُّبُّ ثلاثة: فالسُّبُّ إلى موسى يوشع بن نون، والسُّبُّ إلى عيسى صاحب يس، والسُّبُّ إلى محمد علي بن أبي طالب»، فإنه حديث منكر، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعي متروك، والله أعلم.

﴿يَحْضَرَةُ عَلَى الْوَيْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَحْضَرَةُ عَلَى الْوَيْدِ﴾ أي: يا ويل العباد. وقال قتادة: ﴿يَحْضَرَةُ عَلَى الْوَيْدِ﴾: أي يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله، فرطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءة: ﴿يا حسرة العباد على أنفسهم﴾. ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عابوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويحسدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٢٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله، ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيراً وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا يُرْفِئُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ﴾ [هود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف؛ فمنهم من قرأ: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا﴾ بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد «لَمَّا»، وجعل «إن» نافية، و«لَمَّا» بمعنى «إلا» تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَأَيُّ مُمْ الْأَرْضِ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوتِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سَخِنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثِثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَيُّ مُمْ الْأَرْضِ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضِ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾: إذا كانت مينة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء امتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلنا رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوتِ﴾ أي: جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنتها، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره. لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذلك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقاتدة؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ؟﴾ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم

من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ واختار ابن جرير - بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً - أن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عَيْلَتَهُ أَبِيهِمْ﴾ بمعنى: «الذي»، تقديره: لياكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَيْلَتَهُ أَبِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥). ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ كَمَا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ فَوْءٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ لِمَلَكٍ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩). [الذريات: ٤٩].

﴿وَمَا عَيْلَتَهُ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا أَلْمَسْتُ بِنَبِيِّ لَهَا أَنْ تَذَرَكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠).

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال: ﴿يَبْقَىٰ أَيْلُ النَّهَارِ يَلْبِغُ حَيْثُكَ﴾ [الارباب: ٥٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا عَيْلَتَهُ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب، فيقبل الليل؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾، كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم». هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقولها تعالى: ﴿يُولِجُ الْأَيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي الْأَيْلِ﴾ [المع: ٦١]. وقد ضعف ابن جرير قول قتادة هاهنا، وقال: إنما معنى الإيلاج: الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية. وهذا الذي قاله ابن جرير حق. وقوله: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨)، في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفاها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨)». حدثنا عبد الله بن الزبير الحمدي، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: «مستقرها تحت العرش». كذا أورده هاهنا. وقد أخرجه في أماكن متعددة، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت. فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾». وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين هذا؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت. فتطلع من مغربها، فذلك قوله: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨)». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو قال في قوله: ﴿وَاللَّسْتُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت، واستأذنت فلا يؤذن لها، فنقول: إن المسير بعيد وإني لا يؤذن لي لا أبلغ، فتحبس ما شاء الله أن تجبس، ثم يقال لها: «اطلعي من حيث غربت». قال: «فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً». وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾: هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزمني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه. وقيل: المراد: أنها

لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتقر ولا تقف. كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يخالف ولا يُمانع، ﴿الْعَلِيِّ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقتَه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا أَلَمْ يَجْعَلْ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ﴾ [فصلت: ١٢]. ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ اللَّيَالِي وَالْأَحْجُثِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ النَّهَارِ عَآيَاتٍ مَّحُونًا آيَةَ الْآيِلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْيُسُوبِ وَالْحِسَابِ وَكُلٌّ مِّنْ قَوْلِنَا فَتَحِيصًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري. وأما القمر، فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالمرجون القديم. قال ابن عباس: وهو أصل العذق. وقال مجاهد: المرجون القديم: أي العذق اليابس. يعني ابن عباس: أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما. ثم بعد هذا بيديه الله جديداً في أول الشهر الآخر، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول «عُزْر» واللواتي بعدها «نُفْل»، واللواتي بعدها «تُسْع»؛ لأن أواخرهن التاسعة، واللواتي بعدها «عُشْر»؛ لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها «البيض»؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن «ذُرْع» جمع ذُرْعاء؛ لأن أولهن سُود؛ لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود. وبعدهن ثلاث «ظلم» ثم ثلاث «حَنَادَس» و ثلاث «دَادِيء»، وثلاث «مَحَاق»؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن. وكان أبو عبيد ينكر التسع والعُشْر. كذا قال في كتاب «غريب المصنف».

وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعده ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الحسن في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال: ذلك ليلة الهلال. وروى ابن أبي حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للريح جناحاً، وإن القمر يأوي إلى غلاف من الماء. وقال الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾: يعني: أن لكل منهما سلطاناً، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل. وقوله: ﴿وَلَا أَيْلَ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا. وأوماً بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿وَلَا أَيْلَ سَابِقُ النَّهَارِ﴾: يطلبان حثيثين، ينسلخ أحدهما من الآخر. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنيهما مسخران دائبين يتطلبان طلباً حثيثاً.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء. قاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فلك بين السماء والأرض. رواه ابن أبي حاتم، وهو غريب جداً، بل منكر. قال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فلكية كفلكة المغزَل. وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرُحَى، أو كفلكة المغزَل، لا يدور المغزَل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَلَمًا ذُرِّيَّتِهِمْ فِي الْفَلَكِ الشَّحُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَتَلَقْنَا لَمَّا مِن تَيْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نَفْرِقَهُمْ فَلَا صِرَاحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِكْ حِينَ ﴿١٤﴾.

يقول تعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تعالى: تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح، عليه السلام، التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَلَمًا ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: آباءهم، ﴿فِي الْفَلَكِ الشَّحُونَ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من

كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: الموقر. وكذا قال سعيد بن جبير، والشبي، وقتادة، والضحاك، والسدي. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَعَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤١): قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك: الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة- في رواية- وعبد الله بن شداد، وغيرهم. وقال السدي- في رواية -: هي الأنعام. وقال ابن جرير: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: تدرؤن ما ﴿وَعَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤١)؟ قلنا: لا. قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال غير واحد وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، وأبو صالح، والسدي أيضاً: المراد بقوله: ﴿وَعَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤١): أي السفن. ويُقوي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْوَابِيَةِ﴾ (١١) لِتَجْمَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَنِعْمًا أَذُنٌ وَصِيَّةٌ﴾ (١٢) [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَلَمَّا نَسُوا نَفْسَهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن، ﴿فَلَا صَرِيحٌ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ أي: مما أصابهم، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾. وهذا استثناء منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم في البحر والبحر، ونُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجْلِ مَسْمِيٍّ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦) أَتَقْوُوا مِمَّا زَكَّاهُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَلِقُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَلِقُ مِنْ لَوْ أَشَاءَ إِلَّا فِي سَكَتٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧).

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكرانهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه. وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن بذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا يتفكرون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا زَكَّاهُ اللَّهُ﴾ أي: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به: ﴿أَنْطَلِقُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَلِقُ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي سَكَتٍ مُبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي سَكَتٍ مُبِينٍ﴾، وفي هذا نظر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠).

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ يَهَيِّئُ﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ (٤٩) أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه- والله أعلم- نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرأفيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها، ورفع ليتها- وهي صفحة العتق- يسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمرهم من ذلك، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَا بَنِيَّانَا مِنْ مَتَىٰ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَنِيَاسًا مُخَضَّرَةٌ﴾ (٥٣) قَالِيمٌ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَيْكًا وَلَا تُجْرَوَاتُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤).

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، والتسلان هو: المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاكُمَا كَأَنَّكُمْ إِلَىٰ نُفُسٍ يُوَفِّقُونَ﴾ (١٢) [المعارج: ٤٣].

﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ؟ يعنون: من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. وقال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفتختين. فذلك يقولون: ﴿مِنْ بَعْثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من السلف -: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ . وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار: ﴿يَبُولْنَا مِنْ بَعْثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تعالى في الصفات: ﴿قَالُوا يَبُولْنَا هَذَا يَوْمَ الْيَوْمِ هَذَا يَوْمَ الْقَضِيلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ نَكَذِبُونَ﴾ (١١) [الصفات: ٢٠، ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْرًا عَرِّ سَاعَةَ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُورُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانِ لَعْدَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيَّ يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) [الروم: ٥٥، ٥٦]. وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٦) ، كقوله: ﴿فَأَنبَأَهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنبَاءِهِمْ﴾ (١٦) [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿رَمَّا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسْرَةٍ وَقُلْتُمْ لَنْ يَسْتَأْذِنَ لَنَا إِلَّا وَلَدًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. أي: إنما نامرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿فَأَنبَأَهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنبَاءِهِمْ﴾ (٥٦) ، من عملها، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْمِنَّةِ الْيَوْمَ فِي سُجُلٍ فَكِهِونَ﴾ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكَبِّرُونَ (٥٦) لَمْ يَبَايَعُواكُمْ وَكُنْتُمْ تَدْعُونَ (٥٧) سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيحٍ (٥٨) .

يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات: أنهم ﴿فِي سُجُلٍ فَكِهِونَ﴾ أي: في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم. قال الحسن البصري: وإسماعيل بن أبي خالد: ﴿فِي سُجُلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي سُجُلٍ فَكِهِونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: ﴿فَكِهِونَ﴾ أي: فرحون. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والأعمش، وسليمان التيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْمِنَّةِ الْيَوْمَ فِي سُجُلٍ فَكِهِونَ﴾ (٥٥) قالوا: شغلهم افتضاض الأبيكار. وقال ابن عباس - في رواية عنه -: ﴿فِي سُجُلٍ فَكِهِونَ﴾ أي: بسماع الأوتار. وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو افتضاض الأبيكار. وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلِّ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكَبِّرُونَ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والسدي، وحُصَيْف: ﴿الْأَرْبَابِكِ﴾: هي السرر تحت الحجال. قلت: نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله أعلم. وقوله: ﴿لَمْ يَبَايَعُواكُمْ﴾ أي: من جميع أنواعها، ﴿وَكُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا محمد بن مهاجر، عن الضحاک المَعَاوَرِي، عن سليمان بن موسى، حدثني كَرْيَبُ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشْتَمِر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا آخر لها، هي - ورب الكعبة - نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مُطَرِد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وخبزة ونعمة، ومحلة عالية بهية». قالوا: يا رسول الله، نحن المشتمرون لها. قال: «قولوا: إن شاء الله». قال القوم: إن شاء الله. وكذا رواه ابن ماجه في «كتاب الزهد» من سننه، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، به. وقوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيحٍ﴾ (٥٨) : قال ابن جرير: قال ابن عباس في قوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيحٍ﴾ (٥٨) : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة. وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً في إسناده نظر، فإنه قال: حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العباداني، حدثنا الفضل الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سَطِعَ لَهُمْ نَورٌ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَى قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ». فذلك قوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيحٍ﴾ (٥٨) . قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم». ورواه ابن ماجه في «كتاب السنة» من سننه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، به. وقال ابن جرير: حدثنا

يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا حَزْمَلَةُ، عن سليمان بن حَمِيد قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظُلل من الغمام والملائكة، قال: فيسلم على أهل الجنة، فيردون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في كتاب الله ﴿سَلِّمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ مِنَ رَبِّ رَبِّكُمْ﴾. فيقولون: ماذا نسألك أي رب؟ قال: بلى سلوني. قالوا: نسألك أي رب - رضاك. قال: رضائي أحلكم دار كرامتي. قالوا: يا رب، فما الذي نسألك، فوعزتكم وجلالك وارتفاع مكانك، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا ينقصنا ذلك شيئاً. قال: إن لدي مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في درجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم التحف من الله، ﷻ، تحملها إليهم الملائكة. ثم ذكر نحوه. وهذا أثر غريب، أورده ابن جرير من طرق.

﴿وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنِعْمِ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نوحاً كثيراً ما نكراً جِلاً كثيراً أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَشْرِكُوا وَشِرْكُكُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدغين فرقين، ﴿أَشْرَكُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ من دون الله فَاَلْمُدُومُ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾ [الصفات: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنِعْمِ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾: هذا تفرغ من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نوحاً كثيراً ما نكراً جِلاً كثيراً﴾، يقال: «جِلاً» بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: «جِبلاً» بضم الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يسكن الباء. والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد، والسُدِّي، وقتادة، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدو لكم إلى اتباع الشيطان؟! قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع، عن عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عشق ساطع مظلم، يقول: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنِعْمِ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نوحاً كثيراً ما نكراً جِلاً كثيراً أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون. فيتميز الناس ويجشون، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ كُلُّ أُمَّةٍ حَابِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعِي إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَبُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الجنانية: ٢٨].

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿أَسْمَلْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ نُحُورٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَكُلَّمَا أَدبَسُوا لِسَانَهُمْ سَمِعْتُمْ حَمِيماً﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْ يَسِيرُوا فِيهَا لَآتَيْنَهُمْ مَكَاتِبُهُمْ فَمَا اسْتَقْبَلُوا فَجِيئاً وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ أي: هذه التي حذرتمك الرسل فكذبتموهم، ﴿أَسْمَلْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٢﴾ هَذِهِ آتَارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أَسِيرٌ هَذَا أَمْ أَشْرٌ لَا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الطور: ١٣-١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ نُحُورٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَكُلَّمَا أَدبَسُوا لِسَانَهُمْ سَمِعْتُمْ حَمِيماً﴾ ﴿٦٥﴾: هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموا في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبه إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبه، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن الفضيل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً،

وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي. فتنتطق بعلمه، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكن وسُحقاً، فعنكَنْ كُنْتُ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان - هو الثوري - به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم. كذا قال، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي - وهو القَدي - عن سفيان.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تُدْعَوْنَ مُقَدِّمَةَ أفواهكم بِالْقِدَامِ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذُه وكتفه». رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به. وقال سفيان بن عيينة، عن سُهَيْل، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك، وأمنت بك وبنبيك وكتابك، وصمت واصلت وتصدقت - وبشيء بخير ما استطاع - قال: فيقال له: ألا نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسه، من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال لفضله: انطقي. فتنتطق فخذُه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه. وذلك الذي سخط الله عليه». ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عيينة، به بطوله. ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَةَ عن شُرَيْح بن عبيد، عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَم على الأفواه، فخذُه من الرجل اليسرى». ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، به مثله. وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد، رحمه الله، فقال: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عُبَيْد الحَضْرَمِي، عن حَدَّثَه عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَم على الأفواه، فخذُه من الرجل الشمال».

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، حدثنا يونس بن عُبيد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى - هو الأشعري، رضي الله عنه -: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أي رب، عملتُ عملتُ عملتُ. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله، فيجحد فيقول: أي رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك أي رب ما عملته. فإذا فعل ذلك ختم على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليميني، ثم تلا: ﴿أَلَيْسَ نَحْنُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَكَلِمَاتٍ أَيْدِيهِمْ وَشَهِدَتْ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ بُيُوتِكُمْ﴾ ﴿١٥٨﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون.

وقال السدي: لو شئنا أعمينا أبصارهم. قال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يعني: الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراف هاهنا: الحق، ﴿فَأَنْتَ بُيُوتِكُمْ﴾ وقد طمسنا على أعينهم؟ وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَنْتَ بُيُوتِكُمْ﴾ يقول: لا يبصرون الحق.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾: قال العوفي عن ابن عباس: أهلكتناهم. وقال السدي: يعني: لغيرنا خلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة. وقال الحسن البصري، وقتادة: لأقدمهم على أرجلهم. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا﴾ أي: إلى أمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون. ﴿وَمَنْ قَسَمْنَا نَكَاحَهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٦٠﴾ يُسَنِّدُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكُفْرَيْنِ ﴿١٦١﴾.

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رَدَّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿١٥٤﴾. وقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَوَّلِهِ أَلْمُومِ لِكَيْ لَا يَلْمَهُ بَعْدَ عِلْمِهِ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار

زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى نفس الشَّبِيبة، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلِقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا مجدد عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلته؛ ولهذا ورد أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده رُخِّفه أو لم يتمه. وقال أبو رزعة الرازي: حَدَّثت عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر، إلا رسول الله ﷺ. ذكره ابن عساکر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب» الذي أكله السُّجج بالزرقاء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن - هو البصري - قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

فقال أبو بكر: يا رسول الله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وهكذا روى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمي: «أنت القائل:

أتجعل نَهبي ونَهْب العُبَيْدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةَ

فقال: إنما هو: «بين عينته والأقراع» فقال: «الكل سواء». يعني: في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر السهيلي في «الروض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه، عليه السلام، في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها شَرَف الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْرِ الفزاري؛ لأنه ارتد أيام الصديق، بخلاف ذلك، والله أعلم. وهكذا روى الأموي في مغازيه: أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: «فَلَقْتُ هَامَأً.....». فيقول الصديق، رضي الله عنه، متمماً للبيت:

..... مَن رَجَا لِعَمْرَةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْيُنًا وَأَظْلَمًا

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له، وهي في الحماسة. وقال الإمام أحمد؛ حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخير، تمثل فيه بيت طَرْفَةَ:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها. ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شُرَيْح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، كذلك. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أسامة، عن زائدة، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

ثم قال: رواه غير زائدة، عن سيمك، عن عكرمة، عن عائشة. وهذا في شعر طرفة بن العبد، في معلقته المشهورة، وهذا المذكور هو عجز بيت منها، أوله:

سُئِدِي لَكَ الْإِيَامُ مَا كُنْتِ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبْعِ لَهُ
بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتِ مَوْعِدِ

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم - وكيل المتقي ببغداد - حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير، حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري،

عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفَاءَلُ بِمَا تَهْوَى يُكْسَنُ فَلَقَلَّمَا
يُقَالُ لَشَيْءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقُّقًا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني عن هذا الحديث، فقال: هو منكر. ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضرير. وقال

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا. فقال رسول الله ﷺ: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي». رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذا لفظه. وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سألت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طرفة:

سُئِدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتِ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
فجعل يقول: «من لم تُزَوِّدِ بِالْأَخْبَارِ». فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي». وثبت في الصحيحين أنه، عليه الصلاة والسلام، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعاً لقول أصحابه، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتِ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّىْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَبِيْنَا
ويرفع صوته بقوله: «أبينَا» ويمدها. وقد روى هذا بزحاف في الصحيح أيضاً. وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة، يُقدم بها في نحور العدو:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه. وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فَنَكِبْتَ أَصْبَعَهُ، فقال:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبِيعَ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ
وسأيت عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٣٢] إنشاداً:
إِنْ تُنْفِرِ اللَّهُمَّ تُنْفِرْ جُمَا وَأَيَّ عَبْدِكَ مَا أَلْمَمَا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [الفصل: ٤٢]. وليس هو بشاعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يُؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال. وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً، كما رواه أبو داود قال:

حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا شرحبيل بن يزيد المَعَاوِرِي، عن عبد الرحمن بن رافع التُّوْخِي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت تريباقاً، أو تعلقت تميمة، أو قلت الشعر من قبل نفسي». تفرد به أبو داود. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل قال: سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك.

وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لأن يمتليء جوف أحدكم قيقحاً، خير له من أن يمتليء شعراً». تفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بريد، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْدِ البَاهِلِي، عن عاصم بن مَخْلَد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأَشْيِبُ فَقَالَ: عن ابن عاصم، عن أبي الأشعث، عن شَدَّادِ بن أَوْسِ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة، لم تقبل له صلاة تلك الليلة». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وأمثالهم وأضرابهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظ وأدب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي ﷺ: «أمن شعره وكفر قلبه». وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي ﷺ مائة بيت، يقول عقب كل بيت: «هيه». يعني يستطعمه، فيزيده من

ذلك. وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب، وبريدة بن الحُصَيْب، وعبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعني: محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً، ﴿وَمَا يَلْبَسِي لَهْمًا﴾ أي: وما يصلح له، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال: ﴿يُسْتَدْرَجُ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن البين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لَا يُذَكِّرُ بِهِ وَمَنْ يَلِكْ﴾ [الانعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلْتَأْرُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر. وقال الضحاك: يعني: عاقلاً، ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

﴿أَوَلَمْ نَرَا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِغَاتٍ أَبْنِيَاءَ أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةً وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ﴾. قال قتادة: مطيقون أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لآناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذلك دليل متقادم معه. وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر، لسار الجميع بسير صغير. وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شأوا ونحروا واجتزروا، ﴿وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثناً ومناخاً إلى حين، ﴿وَمَسَارِبٌ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ؟﴾ أي: أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشكرون به غيره؟

﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٌ لَّهُمْ لَمَّا نُمِيتُوهُمْ ﴿٧١﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ وَمَنْ لَّهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدخر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أَرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل. وقوله: ﴿وَمَنْ لَّهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾: قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خزيبهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ﴾ يعني: الآلهة، ﴿وَمَنْ لَّهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾، والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً، إنما هي أصنام. وهكذا قال الحسن البصري. وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وستجزئهم وضمهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧١﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعَظْمَ وَهِيَ رِيْسَةٌ ﴿٧٢﴾ قُلْ بِحَيْثُ أَلَدَيْهِ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَلَدَى جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُنْفَخُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قال مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسُّدِّي. وقاتدة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفْتَتَهُ ويدريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أنزع من الله بيعت هذا؟ فقال: «نعم، يميئك الله ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلى آخره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سعد الزيات، عن هُشَيْمِ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أياحيي الله تعالى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميئك الله ثم يحبيك، ثم يدخلك جهنم». قال: ونزلت الآيات من آخر «يس». ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيْمِ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، فذكره ولم يذكر «ابن عباس». وروى من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن أبي يعظم ففته وذكر نحو ما تقدم. وهذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة. وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت

في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث. والألف واللام في قوله: ﴿أَوْلَتْ بَرَّ الْإِنْسَانِ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث. ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَوَّلَ نَفْثَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿فَجَلَلْتُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿إِلَّا قَدَرٍ مَقَلُوبٍ﴾ [المراسلات: ٢٠-٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَشْجَارٍ بُتُّوهُ﴾ [الإنسان: ٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا خريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ، عن بُشَيْرِ بْنِ جَحَّاشٍ؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم، أتني تُعْجِزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَيْتَكَ وَعَدَلْتُكَ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغْتَ التراقي قلت: أتصدق وأتى أوان الصدقة؟». ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن يزيد بن هارون، عن خريز بن عثمان، به. ولهذا قال: ﴿وَصَوَّرْنَا لَنَا مَكَالًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَوِيَّةٌ﴾؟ أي: استبعد إعادة الله تعالى - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهب، وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيع بن خزيمة، عن عمرو لحديفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحششت، فخذوها فذروها في البيم. ففعلوا، فجمعهم الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له». فقال عقبه بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نباشاً. وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة، منها: أنه أمر بنبيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، في يوم راتح، أي: كثير الهواء - ففعلوا ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن. فإذا هو رجل قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم. فما تلافاه أن غفر له».

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشأ مِنْهُ تُوفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨١] أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وريح، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشأ مِنْهُ تُوفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨١] يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك سرح المرخ والعفّار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قذح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدهما أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس. رضي الله عنهما. وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفّار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَدِيرٍ عَلَنَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٨٢] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غانر: ٥٧]. وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَدِيرٍ عَلَنَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم. قاله ابن جرير. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَّلَ بَرزًا أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَخْلُفًا﴾ ﴿يَقْدِرُ عَلَنَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ إِنَّهُمُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٢٣]، وقال: ﴿بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أي: يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَلَئِمَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا موسى بن المسيب، عن شهر، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي ذر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. وكلكم

فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فلإنما أقول له كن فيكون». وقوله: ﴿تَسْبِخْنَ أَلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٨٣) أي: تنزيهه وتقديسه وتبرئته من سوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازى كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل.

ومعنى قوله: ﴿تَسْبِخْنَ أَلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة وزحمت، وزهبة ورهبوت، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حماد، عن عبد الملك بن عمير، حدثني ابن عم لحذيفة، عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطول في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال: «الحمد لذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاي.

وقد روى أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة - مولى الأنصار - عن رجل من بني عتب، عن حذيفة؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: «لربي الحمد». ثم سجد، فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب، اغفر لي، رب اغفر لي». فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة - أو الأنعام - شك شعبة - هذا لفظ أبي داود.

وقال النسائي: «أبو حمزة عندنا: طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة». كذا قال. والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة، كما تقدم في رواية الإمام أحمد، والله أعلم. فأما رواية صلة بن زفر، عن حذيفة، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حميد، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة». ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة. ورواه الترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

آخر تفسير سورة «يس»
ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً



تفسير سورة الصافات

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد - يعني ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ۝١ فَالَّتِي جَرَّتْ رَجْرًا ۝٢ فَالَّتِي نَسَبَتْ وَكُرًّا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾

قال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالْقَائِلَاتِ صَفًّا ۝١﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٢﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣﴾ هي: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربيع، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُوفُنَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ لَنَا تُرْبَتُهَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّبِ بن رافع، عن تميم بن طرفة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِينَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصَّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ». وقال السدي وغيره: معنى قوله: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣﴾: أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣﴾: ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣﴾ قال السدي: الملائكة يحيون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣﴾ [المسرات: ٥، ٦]. وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝٥﴾ أي: من المخلوقات، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٦﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثابتة، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالاتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الْكُنُوفَ وَاللِّجَابِ إِذَا لَقَيْتَهُنَّ ۝٧﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝٨﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمِينَا أَلْمِينَا أَلْمِينَا ۝٩﴾ وَحَفَافٌ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿١٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَلْوَانِ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿١١﴾ مُخَوَّرًا وَمَنْ عَدَاثٍ وَاسِعَةٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ لِنَفْسِهِ فَاتَّبَعَهُمْ سَهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٣﴾.

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بَيْنَةَ الْكُرُوكِ﴾، قرىء بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ۝١١﴾ وَحَفَافٌ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ لِنَفْسِهِ فَاتَّبَعَهُمْ سَهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٣﴾ [الحجر: ١٦-١٨]. وقوله هاهنا: ﴿سَهَابٌ ثَائِبٌ﴾، تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتعمد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ناقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَلْوَانِ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهو السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحى الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. ولهذا قال: ﴿يُقَدِّفُونَ﴾ أي: يرمون، ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿مُخَوَّرًا﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَمَنْ عَدَاثٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ حَفِظَ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إلا من احتفظ من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعونها من السماء فيلقونها إلى الذي تحته، ويلقونها الآخر إلى الذي تحته، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ حَفِظَ لِنَفْسِهِ فَاتَّبَعَهُمْ سَهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: مستنير. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قدم مقعده جاء شهاب فلم يُحطِّطْهُ حتى يُحرقه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فَبَتَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة - قال وكيع - يعني بطن نخلة. قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث.

وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَسْنَا أَلْمِينَا فَوَجَدْنَاهَا مُلَيَّتَاتٍ

حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعُودَ لِسْتَجٍّ فَمَنْ يَسْتَجِجْ أَلَّا نَجِدْ لَهُ مِنهَا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَكْرَهْتَ أُرِيدَ مِنَّا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ يَوْمَ نُنْفِثُ رَسَدًا ﴿١٠﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿كَأَنفُسِنَاهُمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنَ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا نَأْتُوا بِنَارٍ يُسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكُم وَصَلْنَا لَهَا لَكِبُورًا ﴿١٦﴾ أَوْ نَائِبَاتًا الْأُولُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ خَيْرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرًا وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: فَنَسِلْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَيْتِ: أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: ﴿أَمْ مِنْ عَدْنَانَا﴾. فإنهم يَقْرُونَ أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكروا البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق ببعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فناها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسخر ضلَّال بني آدم. ﴿وَإِنَّا نَأْتُوا بِنَارٍ﴾: أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْخَرُونَ﴾ قال مجاهد، وفتادة: يستهزئون. ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكُم وَصَلْنَا لَهَا لَكِبُورًا ﴿١٦﴾﴾ أو نَائِبَاتٍ الْأُولُونَ ﴿١٧﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ خَيْرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وَأَنْتُمْ خَيْرُونَ﴾ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَخِيرَةٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْيَاطَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٨]. ثم قال: ﴿فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنما هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ من دون الله فَأَمْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾ وَفَقَّوهُمْ إِلَيْهِمْ فَسَمِعُوا لَكُمْ مَا لَكُمُ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٣﴾ بَلْ هُمْ أَلِيمٌ مِّنْتَسِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندَّموا كلَّ الندم حيث لا يتفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾، فقتل لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمَ النَّصْلِ إِلَيْكَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقرُّع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُمَيِّزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير، رضي الله عنه: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة ومجاهد، والسُّدِّي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم وغيرهم. وقال سفيان الثوري، عن سماك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم. وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يحيى صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. وقال خُصَيْف، عن بقسم، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْوَجَهُمْ﴾: نساءهم. وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبيرة، عنه: ﴿وَأَرْوَجَهُمْ﴾: قرناءهم. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَأَمْدُوهُمْ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أمكتهم. وقوله: ﴿فَأَمْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَيْنًا وَإِخْمًا رَّصَدًا فَأَرْوَجَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا كَانَتْ ذُنُوبُهُمْ سَبِيلًا﴾ [الاسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَفَقَّوهُمْ إِلَيْهِمْ فَسَمِعُوا لَكُمْ مَا لَكُمُ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ففهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الثمالي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت لياً يُحدِّث عن بشر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ: ﴿وَفَقَّوهُمْ إِلَيْهِمْ فَسَمِعُوا لَكُمْ مَا لَكُمُ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ورواه الترمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس

وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره كما أخبروا، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [نصت: ٤٣].

﴿إِنكُم لَذَاهِبُوا الْمَدَابِ الْآلِيَةِ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا جَزَّوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ﴾ (٤١) ﴿فَوَكَّهَ وَهُمْ نَكَرُونَ﴾ (٤٢) ﴿فِي جَنَّتِ النَّجْمِ﴾ (٤٣) ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ﴿يَطَّافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّوْبِينٍ﴾ (٤٥) ﴿بِيَمِينِهِ لَدُنْهُ السُّرِّيْرِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَا فِيهَا عُزْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُمْ بِيَمِينٍ مَّكُونُونَ﴾ (٤٩).

يقول تعالى: مخاطباً للناس: ﴿إِنكُم لَذَاهِبُوا الْمَدَابِ الْآلِيَةِ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا جَزَّوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩)، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَصْرِيُّ﴾ (١) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن كَفِرٌ﴾ (٢) ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المصر: ١-٣]. وقال: ﴿لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٢) ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦]، وقال: ﴿وَلَيْنَ يُنكَرُوا إِلا وَأَرَدُّهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (١) ﴿ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدَّرُ الْقَلْبِيلِيكَ فِيهَا جِنِّيًا﴾ (٢) [سريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (١) ﴿إِلا أَصْحَابَ الْآيَاتِ﴾ (٢) [المدر: ٣٨، ٣٩]؛ ولهذا قال: هاهنا: ﴿إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ﴾ (٤١) قال قتادة، والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَكَّهَ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُمْ نَكَرُونَ﴾ أي: يُخْدَمُونَ ويرزقون ويرفهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّتِ النَّجْمِ﴾ (٤٣) ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ينظر بعضهم إلى بعض. حديث غريب. وقوله ﴿يَطَّافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّوْبِينٍ﴾ (٤٥) بِيَمِينِهِ لَدُنْهُ السُّرِّيْرِينَ﴾ (٤٦) لا فِيهَا عُزْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (٤٧)، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَطَّوَّفُ عَلَيْهِمْ ولَدَانٌ مُّخَدَّوْنَ﴾ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّوْبِينٍ﴾ (١٨) لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ﴾ (١٩) [الواقعة: ١٧-١٩]، فزهه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يَطَّافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّوْبِينٍ﴾ (٤٥) أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. وقوله: ﴿لَدُنْهُ السُّرِّيْرِينَ﴾ (٤٦) أي: طعامها طيب كلونها، وطيب الطعام دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا عُزْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولا - وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من الفولنج ونحوه، لكثرة مايتها. وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تُغْتَالُنَا وَتَذُهِبُ بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ

وقال سعيد بن جبيرة: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس: ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم. وقال الضحاک، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة «الصافات».

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُّرْفِ عِينٌ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملة وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَدَلِّكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّ فِيهِ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَمَعَهُمْ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، فأرتتهن جماله الظاهر وأخبرتتهن بجماله الباطن. وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَتْ جَسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨). وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ بِيَمِينٍ مَّكُونُونَ﴾ (٤٩)؛ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُمْ بِيَمِينٍ مَّكُونُونَ﴾ (٤٩) يقول: اللؤلؤ المكنون. وينشد هاهنا بيت أبي دهلبي الشاعر في قصيدة له:

وَفِي زَهْرَاءَ مَثَلٌ لِّلْوَلْوِ النَّوْرِ اص مُبَيَّرَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ
وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهَا بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ (١٩) يعني: محصون لم تمسه الأيدي. وقال السدي: البيض في عشه مكنون. وقال
سعید بن جبیر: ﴿كَأَنَّهَا بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٢٠)، يعني: بطن البيض. وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته
العليا ولباب البيضة. وقال السدي: ﴿كَأَنَّهَا بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٢١) يقول: يبيض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله:
﴿مَّكَوْنٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتناها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا
أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفي الهمداني، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن
هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله: ﴿كَأَنَّهَا بَيْضٌ
مَّكَوْنٌ﴾ (٢٢) قال: «رقتهم كرقفة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة، التي تلي القشر، وهي الغزقي».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أبو غسان النهدي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن
أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا
حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ﷻ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم
كانهم البيض المكنون - أو: اللؤلؤ المكنون».

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥١) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَهَآءَ لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَهَآءَ مَنَّا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعَظْمًا أَوَّآ
لَيْدِيُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مَّظْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرَوِّينَ ﴿٥٧﴾ وَوَلَا يَنْمُو رَبِّي لَكُفْتٌ مِّنَ الْمُحْضَرِينَ
﴿٥٨﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَيْنِ ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَٰذَا لَمَوْ الْقَوْرَ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾ لِيَلَّ هَٰذَا قَلْبِعَمَلِ الْعَمَلُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون
فيها؟ وذلك من حديثهم على شرايبهم، واجتماعهم في تنادهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين
أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مأكول ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا
خطر على قلب بشر. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو
الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من
الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاماً متعاديان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾
إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ - سورة
الناس؛ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) يقول أهك لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أي: أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب
والجزاء؟ يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَهَآءَ مَنَّا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعَظْمًا أَوَّآ
لَيْدِيُونَ﴾ (٥٣) قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟ قال: ﴿قَالَ
هَلْ أُنتُمْ مَّظْلَمُونَ﴾ (٥٤) أي: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٥٥). قال
ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وخليفة المصري وقادة، والسدي، وعطاء الخراساني وغيرهم: يعني في وسط الجحيم. وقال
الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي. وذكر لنا أن كعب
الأحبار قال: في الجنة كوي إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها، فازداد شكراً. ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ
لَتُرَوِّينَ﴾ (٥٦)، يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ﴿وَوَلَا يَنْمُو رَبِّي لَكُفْتٌ مِّنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٥٧) أي:
ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني
للإيمان، وأرشدني إلى توحيد، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَبْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَيْنِ﴾ (٥٨) إلا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ
﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ (٥٩)، هذا من كلام المؤمن مغيباً نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت
فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَوْ الْقَوْرَ الْعَظِيمِ﴾ (٦٠). قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا
حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قول الله تبارك وتعالى
لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦١) [الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أي: لا
يموتون فيها. فعندها قالوا: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَيْنِ﴾ (٥٨) إلا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ (٥٩). وقال الحسن البصري: علموا أن كل

نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ٥٩، قيل لهم: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْفُورُ الْعَظِيمِ﴾ ٦٠. وقوله: ﴿لِيُنزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمَلُونَ﴾ ٦١ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا التعميم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصبروا إليه في الآخرة. وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنِّي كَأَن لِّي فَرِينٌ﴾ قال: إن رجلين شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاومه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك داراً من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاماً. فلما أتاه قال: إنني تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من المحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنني ابتعت هذين البستانين. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة. فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرأه في سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿تَأَلَّوْا إِن كِدَّتْ لَأَرْوِيَنَّ وَوَلَّوْا يَمَّةَ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٧ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوي قراءة من قرئ: ﴿أئنك لمن المُصْذِقِينَ﴾ بالتشديد. وقال ابن حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ لِّئِنَّهُمْ إِنِّي كَأَن لِّي فَرِينٌ﴾ ٥٩ يُعُولُ أَوْلَئِكَ لَيَنَّ الْمُصْذِقِينَ ٥٧؟ قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلًا وثماراً بألف دينار، ثم يموت غداً ويتركها، اللهم إنني اشتريت منك بهذه الألف دينار، أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح قسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك، أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها، فاشترت رقيقاً بألف دينار، يقومون بي فيها، ويعملون لي فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غداً ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنني اشترت منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة. ثم أصبح قسمها على المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقته ألف دينار، فجاءتني بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا، فيموت غداً فيتركها، أو تموت فتتركه، اللهم وإنني أخبط إليك بهذه الألف الدينار حوراء عينا في الجنة. ثم أصبح قسمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمن ليس عنده شيء. قال: فليس قميصاً من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مراً فجعله على رقبتة، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتأجرني نفسك مشاهرة، شهراً بشهر، تقوم على دواب لي تعلقها وتكس سرقبها؟

قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لأتبن شريك الكافر، فلاعملن في أرضه فيطعمني هذه الكسرة يوماً، ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد في السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لي صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقاً فتم في ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالك. قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل في أرضك هذه، فتطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضته؟ قال: من؟ قال: الملىء الوفي. قال: من؟ قال: الله ربي. قال: وهو مصافحه، فانزع يده من يده، ثم قال: ﴿أَمْ لَيْسَ الْمَصَّيْبُ لَكُمْ إِذْ سَأَلْتُمْ لِيَدْرَأَ وَكُنَّا نُرَاءُكُم مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. قال السدي: محاسبون. قال: فانطلق الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوي عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانُ لِي فَرِيضًا ﴿٥٨﴾﴾ يُعْطَى أُولَئِكَ لِمَنْ الصَّيْبُ ﴿٥٩﴾ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ لَأَنْتَ لَكَيْدُونَ ﴿٦٠﴾﴾. قال: فالجنة عالية، والنار هاربة، قال: فبريه الله شريكه في وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٦١﴾﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمَحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أَمْ نَحْنُ بِمَبِينٍ ﴿٦٣﴾﴾ إِلَّا مَوْنَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٦٤﴾﴾ إِنَّ هَذَا لَكُو الْفَوْرُ الْعَظِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا فَيُعْمَلُ الْعَمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾. بمثل ما من عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت.

﴿أَلَمْ يَكُنْ خَيْرٌ لِّئَلَّا تُكَلِّمَ شَجَرَةً الزَّقِيمِ ﴿٦٧﴾﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٩﴾﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٧٠﴾﴾ فَأَنْهَى لَأَكُونَ مِنْهَا فَعَالُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٧١﴾﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَنَّا لَشَوْكًا مِنْ جَبِيمٍ ﴿٧٢﴾﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٧٣﴾﴾ إِنَّهُمْ الْقَوْمَ الْبَاطِلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فَهُمْ عَلَىٰ نَارِهِمْ مُّجْرَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول الله تعالى: أهدا الذي ذكره، من نعيم الجنة وما فيها من مأكول ومشرب ومناكح وغيره ذلك من الملاذ - خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقِيمِ؟﴾ أي: التي في جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا السَّالُّونَ الْكَاذِبُونَ ﴿٥١﴾﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الراقة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتنت بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم يبتئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فانزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾﴾ غدت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، قال أبو جهل - لعنه الله -: إنما الزقوم الثمر والزبد أتزقه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَعْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾﴾، أي: أصل منبتها في قرار النار، ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٧٠﴾﴾ تبشيع لها وتكرهه لذكرها. قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر. وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى

وأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ لَأَكُونَ مِنهَا مَمْلُوءًا مِّنْهَا لَطْوُونَ﴾ (١٦٦)، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبضع منها، ولا أقيح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن شَرِيحٍ﴾ (١) ﴿لَا يَسِينُ وَلَا يَتْنِي مِن جُوعٍ﴾ (٢) [الغاشية: ٦، ٧]. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حتى تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟». ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَكًا بَيْنَ حَيْبٍ﴾ (١٧٧) قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم.

وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوَكًا بَيْنَ حَيْبٍ﴾: مزجاً من حميم. وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا حنيفة بن شريح الحضرمي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عترة، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فيها، فلما رأوا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل - وهو الذي قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَلْبَحِيمِ﴾ (١٧٨) أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لآلى نار تتأجج، وحجيم تنوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطْرُقُونَ بِهَا مَبِيتٍ حَيْبٍ مَّا كَانَ﴾ (٤٤) [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. وقال السدي في قراءة عبد الله: ﴿ثم إن مقلهم لآلى الحجيم﴾ وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٧٩) [الفرقان: ٢٤]. وروى الثوري، عن مسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٨٠)، ﴿ثم إن مقلهم لآلى الحجيم﴾. قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ الْفِرَّاءَ مَاتَاءَ مَرَّ سَالِينَ﴾ (١٨١) أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ مَأْتَرِهِمْ شَرُّوعُونَ﴾ (١٨٢) قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبيرة: يسفون.

﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذَرِّينَ﴾ (١٨٤) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَرِّينَ﴾ (١٨٥) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٨٦).

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يندرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَرِّينَ﴾ (١٨٥) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٨٦).

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلِ الْمُجِيبُونَ﴾ (١٨٧) ﴿وَيَجْتَنِبْ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١٨٨) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا يَبْتَاطِينَ﴾ (١٨٩) ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٩٠) ﴿سَلَّمَ عَلَا نُوْحًا فِي الْمَكِينِ﴾ (١٩١) ﴿إِنَّا كَذَّبْنَا نَبِيَّيَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٢) ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٣) ﴿ثُمَّ أَضْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ (١٩٤).

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلِ الْمُجِيبُونَ﴾ (١٨٧) أي: فلنعم المجيبون له، ﴿وَجَتَنِبْ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١٨٨)، وهو التكذيب والأذى،

﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧)، قال: «سام، وحام، ويافث». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الروهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم». ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العَقَدِيِّ، عن يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد - وهو ابن أبي عروبة - عن قتادة، به. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: وقد روى عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ مثله. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأول، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام العربَ وفارسَ والروم، وولد يافثَ التركَ والصقالبةَ وأجوجَ وأماجوجَ، وولد حامَ القبطَ والسودانَ والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨)، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿سَلِّطْ عَلَٰنُوحٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٩) مفسر لما أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك. ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) أي: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢) أي: أهلكتناهم، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبِهِ سَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ عِبَادَةٍ ذَوْنَ اللَّهِ تَرْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبِهِ سَلِيمٌ﴾ (٨٤) قال ابن عباس: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عَوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعائناً. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥): أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَفَبِكُلِّ عِبَادَةٍ ذَوْنَ اللَّهِ تَرْبُدُونَ﴾ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾. قال قتادة: يعني: ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟! ﴿فَنظَرَ نَظْرًا فِي الْآنُجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَىٰ إِلَٰهَ الْغَيْبِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ سَمْرًا يَالَتِيَيْنِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُؤْنَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا لَمْ بَيْنُنَا فَأَلْقَوْهُ فِي الْجُبِّ مِرًّا فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَشْقَىٰ ﴿٩٧﴾.

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ ليقم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أذف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالكهتهم فيكسرهما، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٠) قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم: يعني قتادة: أنه نظر في السماء متفكراً فيما يلهمهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف. فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: هي أختي». فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن في المعارض لمندوحة عن الكذب». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثالث التي قال: «ما منها كلمة إلا ما حمل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هي أختي». قال سفيان في

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بالكهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٨﴾، فقالوا له وهو في بيت الكهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون. وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾. وقال آخرون: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله ﷻ. وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى الكهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُنْبِتِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعاماً قرباناً لتبزيك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الألهة، فإذا هم في بؤر عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه صنم آخر أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الألهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بزكت الألهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿آلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَطْعَمُونَ﴾ ﴿٩١﴾؟! وقوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ سُرَّتًا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٢﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَرُوا إِلَيْهِ زُرُورًا﴾ ﴿٩٣﴾: قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مسبوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبتهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ؟﴾ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٤﴾: يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربيعة بن حراش، عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعتة». وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٥﴾. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿إِنبُؤْنَا لَمْ يَبْتَأْنَا فَالْقُوَّةُ فِي الْخَيْبِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْأَوْا يَوْمَ كَيْدًا جَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلَٰلِينَ﴾ ﴿٩٦﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٨﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَسْبٍ ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ قَالَ بَشِّرْهُ بِرَبِّي إِنِّي أَرَىٰ فِي السَّمَاءِ آيَاتٍ أُبَشِّرُكَ بِمَاذَا تَرْتَجِبُ قَالَ يَا بَشِّرْ أَفَمَلَّ مَا تَزْمُرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهَا نَذْرًا لِّجَبِينِ ﴿١٠١﴾ وَتَنبَذْنَاهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَذْبَحُهُمْ قَدْ صَدَفَتْ أَرْوَاهُ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُشْكِرِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْبَشَرُ الْبَشِيرُ ﴿١٠٣﴾ وَتَنبَذْنَاهُ بِذَنْبِهِ عَظِيمٍ ﴿١٠٤﴾ وَرَوَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٥﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٦﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُشْكِرِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَتَنبَذْنَاهُ بِإِسْحَاقَ يَبْنَؤًا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٩﴾ وَتَبَرَكَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَبِنُورٍ دُرِّيَّتَيْهِمَا حَسْبٌ وَعَلَىٰ لِقَابِهِ يُبْرِكُ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَبِّحِينَ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٩٧﴾: يعني: أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقههم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَسْبٍ﴾ ﴿٩٨﴾، وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل ولد لإبراهيم عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أجبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه

إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَذَرْنَهُ يَا سَمِيعَ بَيْنَ الْعَلَمِينَ﴾ (١١٣). ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا بُشِّرُكَ بِإِبْرَاهِيمَ عِيسَى﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَآلِهِ إِسْحَاقَ يَسْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ كَقَالَ يَبْقَى إِنَّ أَرْنَ فِي الْمَنَارِ إِنَّ أَدْبَحَكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَوْنَ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَبْقَى إِنَّ أَرْنَ فِي الْمَنَارِ إِنَّ أَدْبَحَكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَوْنَ﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو عبد الملك الكردي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وحي» ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه. ﴿قَالَ يَبْقَى أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (١١٤) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (١١٥) [مریم: ٥٤، ٥٥].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا أَتَاهَا ذِكْرُهَا لِيَأْتِ بِهَا آيَاتِنَا أَلَمَّا أَتَتْهَا آتَتْ بِهَا سَائِرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١١٦) أي: فلما شهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبيح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَتَيْنَاهَا﴾، يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم. ومعنى ﴿وَتَلَّمَّ لَبَّيْنَ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّمَّ لَبَّيْنَ﴾: أكبه على وجهه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْجُ وَيونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم العَنَوِيُّ، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسابقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمره العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمره الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثم تله للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفني فيه. فعالجه ليخلعه، فتودى من خلفه: ﴿أَنْ يَتَّزِرَ بِهِ قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش. وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق». فعن ابن عباس في تسمية الذبيح روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتي بيانه.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَدَعَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَدِيمٍ﴾ (١١٧) قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمره الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلقته عندها، فجاء الجمره الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلقته فأدركه عند الجمره الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرينه في ميزاب الكعبة قد حش، يعني: يبس. وقال عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُبِ، فقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني قد حَبَّأتُ دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فذاك أبي وأمي - أو: فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أرى ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفنن هؤلاء عند هذه لم أفنتهم أبداً. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان في

أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: إنه لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحني؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فينس منه فلحق بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويش أن يطاع. وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره، أن كعباً قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إني أدعو أن تستجيب لي: أئماً عبد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبئ شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكفر الجحيم لأمي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كزب الذبح قيل له: يا إسحاق، سل ثغطة. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتبعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاعفر له وأدخله الجنة». هذا حديث غريب منكر. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مُذْرَجَة، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حسداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبايح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق عليهما السلام، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبَرِّئَهُ﴾ (١١٧) قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا أَي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨١) أَي: هكذا نصرنا عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (١) وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٢) [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكّن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزومه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الَّذِي نَبَّأْتَهُ﴾ (١١٦) أَي: الاختيار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، متقاداً لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (١١٧) [النجم: ٢٧].

وقوله: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١١٧) قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي، رضي الله عنه: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١١٧) قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة - قال أبو الطفيل وجده مربوطاً بسمرة في ثبير. وقال الثوري أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العطار، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق. وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر. وعن الحسن البصري: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير. وقال ابن جريج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وقال هُشَيْمٌ، عن سيار، عن عكرمة؛ أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١١٧). والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فدى بكبش. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١١٧) قال: وَعَلَّ. وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأزوى، أهبط عليه من ثبير. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مسافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم - ولدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك

النبى ﷺ؟ قال: قال: «إني كنت رأيت قرني الكبيش، حين دخلت البيت، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما، فحَمَرُهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». قال سفيان: لم يزل قرناً الكبيش معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا. وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشاً توارثوا قرني الكبيش الذي فدي به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟ ذكر من قال: هو إسحاق عليه السلام: قال حمزة الزيات، عن أبي ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا - والله - يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله. وقال الثوري، عن أبي سنان، عن ابن أبي الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضاً. وقال سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يا رب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه. وإن إسحاق جاد لي بالذبيح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زده بلاء زادني حسن ظن». وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله صلوات الله وسلامه عليهم. وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلي بن أبي طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبي بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضرة، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق. وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهرى، عن أبي سفيان بن العلاء بن جارية، عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق. وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضي الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضي الله عنه، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوه عنه غشها وسميتها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده. وقد حكى البخوي هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدي - قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس. وقد ورد في ذلك حديث - لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده - قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: هو إسحاق. ففي إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، به مرفوعاً. ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا أشبه وأصح.

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل - عليه السلام - وهو الصحيح المقطوع به: قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبيرة، وعامر الشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران. وقال الشعبي: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرني الكبيش في الكعبة. وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل. قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل. وأنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَيَذَرْنَهُ يَا حَقَّ يَا كَيْفَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُنَّ بِإِسْحَاقَ وَيَنْزِلُ وَإِسْحَاقُ يَمُوتُ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل. وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم؛ أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر

فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك - قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز - فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أير بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله ﷻ. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاها أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُذَّ علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني. وهذا حديث غريب جداً. وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبه من نسخة مغلوطة. وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿بَشَّرْتَهُمْ يُغْلَبُ حَلِيمٌ﴾، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿وَيَبَشِّرُوهُم بِغُلَامٍ كَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القران اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَيَبَشِّرُهُمْ يُبَشِّرُكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي «هود» و«الحجر». وقوله: ﴿يَبَشِّرُكَ﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَيَبَشِّرُهُمْ يُبَشِّرُكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنبوتة. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَهْلَهُ هَرُونَ يَبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته. وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَيَبَشِّرُهُمْ يُبَشِّرُكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبياً حين فداء الله من الذبيح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَيَبَشِّرُهُمْ يُبَشِّرُكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبى. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَيَبَشِّرُهُمْ يُبَشِّرُكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد الله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾. وقوله: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِمَا حِينَ وَعَلَىٰ لِقَائِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَتْلُجُ أَحْيَطُ بِإِسْلَامِ مَنَا وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّرٍ مِّن مَّعْلَمٍ وَأُمُّ سَمِيْعَهُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُم مِّنَّا عَدَابَ آيَةٍ﴾ [عمر: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَسَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الطَّيِّبِ ﴿١١٥﴾ وَصَرَّفْنَاهُمْ فَأَكَاثَرُوا هُمُ الْفَتَلِيَيْنِ ﴿١١٦﴾ وَوَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ

الْمُشْتَبِينَ ﴿١٢٧﴾ وَهَدَيْتُهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٨﴾ وَرَكَّعَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أحس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في الأقوال والأفعال، ﴿وَرَكَّعَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: أبقينا لها من بعدهما ذكراً جميلاً وثناء حسناً، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

﴿رَبِّ إِيَّاسَ لَمَّا الْوَصِيكَ ﴿١٣٣﴾﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٣٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْأُولَى ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُّخَضَّرُونَ ﴿١٣٧﴾ أَلَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٨﴾ وَرَكَّعَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ .

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إياس هو إدريس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. . وقال وهب بن منبه: هو إياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يبهه، فجاءته فرس من نار فركب، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والسدي: «بَعْلًا» يعني: رياً. قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها «بعلبك»، غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْأُولَى ﴿١٣٦﴾﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُّخَضَّرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي للعداب يوم الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت. وقوله: ﴿وَرَكَّعَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: ثناء جميلاً، ﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعيل. وهي لغة بني أسد. وأنشد بعض بني نمير في صَبِّ صَاده.

يَقُولُ رَبِّ السُّوقِ لَمَّا جِينَا هَذَا رَبِّ السَّبِيَّتِ إِسْرَائِيلِيْنَا

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائيلين، طور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: ﴿سلام على إدراسين﴾، وهي قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: ﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، يعني: آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿وَلَيْدٌ لُّوطًا لَمَّا الْوَصِيكَ ﴿١٣٣﴾﴾ إِذْ جِيَّتْهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعُونَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَرَجْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكَ لَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِأَيِّ آيَاتِنَا أَتَى الْقَوْمَ ﴿١٣٨﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلثهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرين ليلاً ونهاراً؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وَبِأَيِّ آيَاتِنَا أَتَى الْقَوْمَ ﴿١٣٨﴾ .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ : أي: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ مِمَّنْ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَبْعَثُ إِلَيْكَ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَتَنَبَّأَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنَاتِ آلِ فِئَةٍ أَوْ بَرِيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَاسْتَوْسَقْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، في سورة الأنبياء. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ونسبته إلى أمه»، وفي رواية قيل: «إلى أبيه». وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٩﴾﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أي: المملوء بالامتعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: فارح، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين. وذلك أن السفينة تلعّبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام، ثلاث مرات، وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يهشّم له لحماً، ولا يكسر له عظماً. فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قدمات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمعة، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مجالد، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضْلِ مَنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لِيَالِيَا
وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحّاك بن قيس، وأبو العالية، وهب بن مُنْبِه، وقاتدة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفي حديث عن ابن عباس: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدي، والحسن، وقاتدة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، يعني: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلحين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبيه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، هو قوله: ﴿فَكَادَنِي فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبّير وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدّثه: أنه سمع أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أن يونس النبي ﷺ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبيد يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل مقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعراء. ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حُميد بن زياد: فأخبرني ابن قُسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهباً الله له أزوية وحشية تأكل من خشاش الأرض - أو قال: هشاش الأرض - قال: فتتمشّح عليه فتزويه من لبنها كل عشيّة وبكرة حتى تبت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّئَةُ الْفِي ضَاحِيَا
وقد تقدم حديث أبي هريرة مسنداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء. ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَنَبَّأَهُمْ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. والله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كهنية الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدي: كهنية الصبي: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضاً. ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس،

ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وهب بن منبه، وهلال بن يساف، وعبد الله بن طاس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وقال هُشيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين. وفي رواية عنه: كل شجرة تُهْلِك من غابها فهي من اليقطين. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبيره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الذَّبَابَ، ويتبعه من حواشي الصُّحُفَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُكَ﴾ ﴿١٤٧﴾: روى شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ الحوت. رواه ابن جرير: حدثني الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال، عن شهر، به. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُكَ﴾ قال ابن عباس - في رواية عنه -: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البزقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية قال: حدثني أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُكَ﴾ ﴿١٤٧﴾، قال: يزيدون عشرين ألفاً. ورواه الترمذي عن علي بن خنجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فُيِّتُنَّهُمْ مَعَشَرَ النَّاسِ كَفَشِيَةٌ أَلْوًا أَوْ أَشَدُّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد. وقوله: ﴿فَاتَمَّوْا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَبَعَثْنَا مِثْلَهَا لَخَلَقْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ آيَاتِكُ الْبَنَاتِ وَلَهُنَّ الْبَنَاتُ﴾ ﴿١٤٦﴾: أم خلقنا الملائكة إننا وهم شهدوت ﴿١٥٥﴾: آلا إنيهم ين إنيهم ليقولوت ﴿١٥٦﴾: ولدا الله وإنيهم لكذبتون ﴿١٥٧﴾: أصطفى البنات على البنين ﴿١٥٨﴾: ما لكز كيف تمكثون ﴿١٥٩﴾: أفلا تذكرون ﴿١٥٥﴾: أم لكز سلطانك شيت ﴿١٥٦﴾: فأتوا يكذبون إن كنتم صديقين ﴿١٥٧﴾: وجعلوا بينهم وبين الجنة نساءً ولقد علمت الجنة إنيهم لتمحرون ﴿١٥٨﴾: سبحن الله عما يصفون ﴿١٥٩﴾: إلا عباد الله المخلصين ﴿١٦٠﴾.

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات، سبحانه ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي: يسووه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿الْآيَاتِ الْبَنَاتِ وَلَهُنَّ الْبَنَاتُ﴾ كقوله: ﴿الْكُفْرُ الذَّكْرُ وَلَكِنَّ الْأُنثَىٰ لِلَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا بِرَبِّكَ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾: أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْسَانًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَخَطُكُ مِنْهُمْ سَهْدَتُهُمْ وَتُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿آلا إنيهم ين إنيهم﴾ أي: من كذبهم ﴿ليقولوت﴾ ﴿ولدا الله﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وإنيهم لكذبتون﴾، فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكرأ عليهم: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ﴿١٥٨﴾: أي: أي شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أَفَأَسْفَضْتُمْ بَنِيكُمْ عَلَى الْبَنَاتِ وَأَخَذْتُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا لِّتَقُولُوا قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾: أي: ما لكم عقول تندبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾: أم لكز سلطانك شيت ﴿١٥٦﴾: أي: حجة على ما تقولونه، ﴿فَاتُوا بِكَيْبِكُمْ﴾ إن كنتم صديقين ﴿١٥٧﴾: أي: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوز العقل بالكلي.

وقوله: ﴿وَجَمَلُوا بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ كَلِمَاتِهِمْ نَسْبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سُرّوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْمَلَائِكَةَ إِلهًا﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَهَا كَهَيْئَةِ الْبُحَارِ الْمُجْجِنَةِ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب ليكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَمَلُوا بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ كَلِمَاتِهِمْ نَسْبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعمّا يصفه به الظالمون الملمحدون علواً كبيراً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَهَا كَهَيْئَةِ الْبُحَارِ الْمُجْجِنَةِ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وفي هذا الذي قاله نظر.

﴿فَأَنذَرْنَا وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٦١ ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ كَلِمَاتٍ إِلَّا تَوَلَّوْا﴾ ١٦٢ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَأَنذَرْنَا وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٦١ ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ كَلِمَاتٍ إِلَّا تَوَلَّوْا﴾ ١٦٢ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذرى للنار. فهذا الضرب من الناس هو الذي يتنادى لادين وهم مآكدة لا يسمعون بها أولئك كالأصمير بل هم أضل أولئك هم الضالون ﴿[الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي يتنادى لادين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَهَا كَهَيْئَةِ الْبُحَارِ الْمُجْجِنَةِ﴾ ١٦١ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٢ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

ثم قال تعالى متهماً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطت السماء وحق لها أن تيط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راجع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

وقال قتادة: كانوا يصفون في الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦١ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٢ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٣ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٤ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٥ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٦ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٧ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٨ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٩ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٧٠

الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦١ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٢ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٣ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٤ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٥ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٦ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٧ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٨ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٩ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٧٠

نُضْرَةَ: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦١ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٢ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٣ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٤ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٥ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٦ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٧ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٨ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٩ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٧٠

وابن جرير. وفي صحيح مسلم عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفْرُنَا كَصُفْرِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتَرْتِبَتِهَا طَهوراً» الحديث. ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦١ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٢ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٣ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٤ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٥ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٦ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٧ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٨ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٩ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٧٠

ففسح الرب ونمجده ونقدسه ونزحه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقرأ إليه، خاضعون لديه. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

يسبحون الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦١ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٢ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٣ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٤ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٥ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٦ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٧ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٨ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٦٩ ﴿وَأَلْقَيْنَا لَهَا نَجْوَى﴾ ١٧٠

﴿وَقَالُوا أَفَتَدْعُوا الرَّحْمَنَ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ١٦١ ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِالْقَوْلِ وَأَلْقَيْنَاهُم مَّوَدًّا﴾ ١٦٢ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٤ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٥ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٦ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٧ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٦٩ ﴿وَمَا يَسْمَعُونَ إِلَّا نَجْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ١٧٠

أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنصُرُوا بِاللَّهِ جِهَادَ أَتَيْنَاهُمْ لَيْتَ جَاهَهُمْ نَذِيرٌ لِّكُلِّ هَادِيٍّ إِلَىٰ ضَلَالٍ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا فُجُورًا﴾ ١٦١ ﴿ناظر: [٢٤]، قال: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ عَلٰٓى طَائِفَتَيْنِ مِن بَيْنِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ ١٦٢ ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا

أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَعَلَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمُ فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكْفُرُوا بِهِمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧١﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم - رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا الْفَرَسَيْنِ﴾ ﴿١٧١﴾ إِبْتِهَامٌ لِمَنْ الْمَصْرُورَةَ ﴿١٧٢﴾ وَلَيْلًا حُنْدًا لِمَنْ الْفَلِيلُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئْنَا بِأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٧٤﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمَسَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٥﴾ وَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئْنَا بِأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٧٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا الْفَرَسَيْنِ﴾ ﴿١٧١﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نُؤْتِيهِمُ الْأَشْهَادَ﴾ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا الْفَرَسَيْنِ﴾ ﴿١٧١﴾ إِبْتِهَامٌ لِمَنْ الْمَصْرُورَةَ ﴿١٧٢﴾ أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿وَلَيْلًا حُنْدًا لِمَنْ الْفَلِيلُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ أي: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئْنَا بِأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾؛ ولما بعدوا أيضاً في معناها. وقوله: ﴿وَأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ أي: انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾. ثم قال عز وجل: ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَعِجِلُوا بِالْحَقِّ﴾ ﴿١٧٦﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمَسَاحُ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم. قال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ الْمَسَاحُ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون، أي: ببس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيْيَةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضي الله عنه، قال: صَحَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبِرَ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم وأروا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». ورواه البخاري من حديث مالك، عن حميد، عن أنس. وقال الإمام أحمد: حدثنا زُوح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: لما صَحَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبِرَ، وقد أخذوا مساحيهم وعَدُّوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولو مدبرين، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئْنَا بِأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿١٧٦﴾ وَأَنْبِيَاءِنَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٧٧﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَلَقَدْ نَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلَقِيكَ ﴿١٨٠﴾

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدها ويربها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي ذي العزة التي لا تُرَام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٩﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيقته، ﴿وَلَقَدْ نَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلَقِيكَ﴾ ﴿١٨٠﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين». هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك. وقد أسند ابن أبي حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعمش، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالوا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: «لأنه كان إذا سلم قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾» ثم يسلم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا شيبان، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكئال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل

آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَنَّا يَصِفُونَ ﴿١٧٦﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٨﴾﴾. وروى من وجه آخر متصل موقوف على علي، رضي الله عنه. قال أبو محمد البغوي في تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصمعي بن نياته، عن علي، رضي الله عنه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَنَّا يَصِفُونَ ﴿١٧٦﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٨﴾﴾. وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَنَّا يَصِفُونَ ﴿١٧٦﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر». وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانه اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءاً على حدة. فلتكتبها هاهنا إن شاء الله تعالى.

آخر تفسير سورة الصافات



تفسير سورة ص

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِقَافِي ﴿٢﴾ كَرِ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بِنِ قَرْنٍ فَادَا وَكَانَ جِبْنَ مَنَاسِ ﴿٣﴾﴾. أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴿١٠﴾﴾ [الانبيا: ١٠] أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عينة، وأبو حصين، وأبو صالح، والسدي: ﴿ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾: ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِنْ كُلُّ لَأِ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: ٦٦]، حكاهما ابن جرير، وهذا الثاني فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير. وقال قتادة: جوابه: ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِقَافِي ﴿٢﴾﴾، واختاره ابن جرير. وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم. ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق القرآن ذي الذكر. وقوله: ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِقَافِي ﴿٢﴾﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون ولأنهم ﴿فِي عِزِّ ﴿٢﴾﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَبِقَافِي ﴿٢﴾﴾ أي: مخالفة له ومماندة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَرِ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بِنِ قَرْنٍ ﴿٣﴾﴾ أي: من أمة مكذبة، ﴿فَادَا وَكَانَ جِبْنَ مَنَاسِ ﴿٣﴾﴾ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأوا إلى الله. وليس ذلك بمُجِدِّ عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا نَأْسًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الانبيا: ١٧٦] أي: يهربون ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجَعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَبِكُمْ لَكُمْ لَسْتُمْ تَتَلَوْنَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الانبيا: ١٧٧]. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَادَا وَكَانَ جِبْنَ مَنَاسِ ﴿٣﴾﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّرْ لِيْلَى لَاتِ حِينَ تَذَكَّرْ

وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿فَادَا وَكَانَ جِبْنَ مَنَاسِ ﴿٣﴾﴾، يقول: نادوا بالتحديد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿فَادَا وَكَانَ جِبْنَ مَنَاسِ ﴿٣﴾﴾، ليس

بحين فرار ولا إجابة. وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء في غير حين النداء. وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء، كما تزداد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب فيقولون: ربت. وهي مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب حين، وتقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّرْ حُبَّ لَيْلَى لَاتٍ حِينَا وَمِنْهُمْ مَنْ جَوَزَ الْجَزَّ بِهَا، وَأَنْشَدَ:

طَلَبُوا ضُلْحَنَا وَلَا تَأْوِيْنَا فَاجْبُنَا أَنْ لَيْسَ حِينُ بَقَاءِ وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا:

وَلَاتٌ سَاعَةٌ مَنُودٌ

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَجَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ أَحْمَلُ الْآيَةَ إِلَيْهَا وَجَعَلْتُ إِنَّ هَذَا لَكُنْهُ عَجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَطْلَقُ اللَّأْلَأَ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَأَمْسِرُوا عَلَيَّ وَالْهَيْكُورُ إِنَّ هَذَا لَكُنْهُ بُرَادٌ ﴿٣﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْبِلَادِ الْأَخْرَى إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْخِرُ ﴿٤﴾ أَنْزَلَ عَلَيَّ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنَا بَلْ كَمْ فِي سَفْكِ بَيْنَ ذِكْرِي بَلْ لَنَا بِذَوْقِ عَذَابٍ ﴿٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرٌ رَمَتْكَ رَبِّكَ الْعَرِينِ الرَّهَابِ ﴿٦﴾ أَمْ لَكُمْ فَلَكَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْنَابِ ﴿٧﴾ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْآخِرَابِ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ الْكُفْرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ [يونس: ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ أَحْمَلُ الْآيَةَ إِلَيْهَا وَجَعَلْتُ﴾ أي: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكروا المشركون ذلك - فبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آباؤهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَحْمَلُ الْآيَةَ إِلَيْهَا وَجَعَلْتُ إِنَّ هَذَا لَكُنْهُ عَجَابٌ﴾ وَأَطْلَقُ اللَّأْلَأَ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤسائهم وكبرائهم قائلين: ﴿إِنْ أَمْسُوا﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَأَمْسِرُوا عَلَيَّ وَالْهَيْكُورُ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله: ﴿إِنْ هَذَا لَكُنْهُ بُرَادٌ﴾. قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات: قال السدي: إن أناساً من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكيف عن شتم ألهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد؟ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء. فتعيرنا به العرب، يقولون: «تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه». فبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، فاستأذن لهم علي أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم ألهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألتك أن تكف عن شتم ألهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا. قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضاباً، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿وَأَطْلَقُ اللَّأْلَأَ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَأَمْسِرُوا عَلَيَّ وَالْهَيْكُورُ إِنَّ هَذَا لَكُنْهُ بُرَادٌ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ١٥٦].

وقال أبو جعفر بن جبير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم أهلكنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهتته؟ فبعثت إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم أهلكهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرأ، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: «أَجْمَلُ الْآيَةِ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ»، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: «لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابًا» لفظ أبي كريب. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي، من حديث محمد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه، ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عمارة الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذي: حسن.

وقولهم: «مَا تَعْتَمِدُنَا بِهَذَا فِي الْيَلْمَةِ الْآخِرَةِ» أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: «مَا تَعْتَمِدُنَا بِهَذَا فِي الْيَلْمَةِ الْآخِرَةِ»، يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْزَلْنَا» قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص. وقولهم: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا» يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَرِيِّينَ عَظِيمٍ» [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: «أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: «بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابًا» أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دَعَا. ثم قال مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرأ عليهم: «أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَعَابِ» أي: العزيز الذي لا يرام جنابة، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة، بقوله: «أَمْ لَمْ نَكُنْ نَبِيًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَبِيًّا» [٥٢] أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [٥٤] فَبَيْنَهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا [٥٥] [النساء: ٥٣-٥٥]، وقوله: «فَلَوْ لَوِ اتَّخَذْتُم مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ آلًا لَكُنْتُمْ كَافِرِينَ» [٥٦] [الأنعام: ٢٤] وقوله: «وَلَقَدْ أَخْبَرْنَا نَبِيًّا مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا: «أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَوِيٌّ» [١٥] سَيَمْلِكُونَ عَذَابًا مِنَ الْكُذَّابِ الْاَوِيِّ» [١٦] [القصص: ٢٥، ٢٦]. وقوله: «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ» [١٧] أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعني طرق السماء. وقال الضحاک: فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال: «جُنْدٌ مَا هَؤُلَاءِ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» [١٨] أي: هؤلاء الجند المكذوبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكثبون، كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ» [١٩] سَيَوْمَ لَجَعُ يَوْمَ النَّارِ وكان ذلك يوم بدر، «بَلِ السَّاعَةُ مَوْجِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْخِلُهُ وَأَمْرٌ» [٢١] [الفرقان: ٤٤-٤٦].

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ» [١٧] وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ [١٨] إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ مَعَقَّ عِقَابِ [١٩] وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا سَيْحَةً رَجِيحًا مِمَّا لَهَا مِنْ فَوْقِ [٢٠] وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَا بِقَلْبِنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [٢١] أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ. يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء. وقد تقدمت قصصهم مبسوطه في أماكن متعددة. وقوله: «أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ» أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة، وأكثر أموالاً

وأولاداً، فما دافع ذلك عنهم عن عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أُرْسِلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١٦) فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. وقوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَنِدَاءً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٧): قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثوية، أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي: قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلَلٌ لَنَا وَقِنَا قَلْبُ بَوْرِ الْحِسَابِ﴾ (١٨) هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوأ تعجيل العذاب - زاد قتادة: كما قالوا: ﴿أَلَيْسَ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٣٢). وقيل: سألوأ تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوأ تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

﴿وَأَذَكَّرَ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي إِذْهُ أَوَّاهُ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْحَمْدِ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالظُّلُمَ حَشْرَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَمَدَدَنَا مَلَكَةً وَمَأْتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ لَطْفًا ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس وابن زيد والسدي: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَأَلَمَّا بَيَّنَّتْهَا بِأَيْدِيهِ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُونَ﴾ (٤٧) ﴿الذاريات: ٤٧﴾. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة، وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقول ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر. وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفطر إذا لاقى». وإنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْحَمْدِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾ (١٨) أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْجُدُ أَوْي مَعَهُ وَالظُّلُمَ﴾ (سبا: ١٠). وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيحه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا محمد بن بشر، عن مسعر، عن عبد الكريم، عن موسى بن أبي كثير، عن ابن عباس أنه بلغه: أن أم هانئ ع ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات، قال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْحَمْدِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾. ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاة عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقالت: أخبرني هذا ما أخبرتي به، فقالت أم هانئ: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صب في قسعة، ثم أمر بشوب، فأخذ بيبي وبيته، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْحَمْدِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق. ولهذا قال: ﴿وَالظُّلُمَ حَشْرَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له. قال سعيد بن جبيرة، وقاتدة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿وَمَدَدَنَا مَلَكَةً﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً. وقال السدي: كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف. وقال بعض السلف: بلغني أنه كان حرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل. وقال غيره: أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، من رواية علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن نقرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرأ، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بيعة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال: يا نبي الله، علام تقتلني وقد اغتصبني

هذا بقري؟ فقال: إن الله ﷻ أمرني بقتلك، فأنا فانتك لا محالة. فقال: والله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه، وإني لصادق فيما ادعيت، ولكنني كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل. قال ابن عباس: فاشتدت هيئته في بني إسرائيل، وهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُةَ﴾. وقوله: ﴿وَأَيَّاتِنَا الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل والفتنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدي: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة. وقوله: ﴿وَقَصَّلَ لِنُطَابٍ﴾ قال شريح القاضي، والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل - أو قال: المؤمنون والصلحاء - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهد، والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميري، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز ابن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بردة، عن أبيه عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود، عليه السلام، وهو فصل الخطاب. وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿وَهَلْ أُنْتَلَىٰ نَبِيُّكَ الْحَصَمِ إِذْ تَسْرَوُا بِالْحَرَابِ﴾ (٢١) إِذْ تَسْلَوُا عَلٰٓى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُم مَّا لَوْ لَا تَخَفْتُمْ خَصَمَانِ بَعَثْنَا عَلٰٓى بَعْضِ قَوْمِكَ نَبِيًّا بِالْحَقِّ وَلَا تَسْلُطُ وَآدِمْنَا إِلَيْكَ سَوَاءَ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَسْعَ وَنَعْمَ نِعْمَةً وَلِي نِعْمَةٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيَا وَعَزَّفِي فِي الْخَطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْغُلَاطَةَ لَبَيْنِي بَيْنَهُمْ عَلٰٓى بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ وَقُلْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَفَعَّرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَتَابٍ (٢٥)

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس - وي زيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله ﷻ؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. وقوله: ﴿إِذْ تَسْلَوُا عَلٰٓى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُم﴾، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿وَعَزَّفِي فِي الْخَطَابِ﴾ أي: غلبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿وَقُلْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اخترناه. وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. ويحتمل أنه رجع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً، ﴿فَفَعَّرْنَا لَمْ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد اختلف الأئمة، رضي الله عنهم، في سجدة ص، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديدي من مذهب الشافعي، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسماعيل - وهو ابن علي - عن أيوب، عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن - هو المقسمي - حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: «سجدنا داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكراً». تفرد بروايته النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع: أخبرنا أبو إسحاق المدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامي، أخبرنا أبو سعد الكنجروذي، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جرير: يا حسن، حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم، اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذكراً، وضع عني بها وزراً، وأقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة. رواه الترمذي عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر بن خالد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس، نحوه. وقال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا

محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن دُرِّيِّهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْتِيَكَ الْوَيْبَةَ هَذَى اللَّهُ فِيمَدَّهُمْ أَعْيُودَهُ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر - هو ابن عبد الله المزني - أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رأى رؤياً أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال: فقصها على النبي ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به الإمام أحمد. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ الناس للسجود، فقال: [إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَرَّنْتُمْ]. فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً، إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر]. ورواه الترمذي من حديث فضيل - وهو ابن مرزوق الأغر - عن عطية، به. وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردت عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿يَنَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ يَٰلَٰحِقَ وَلَا تَنجُ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦).

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلون عنه فيضلوا عن سبيله. وقد تواعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - ﷻ - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعد في كتابه فقال: ﴿يَنَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ يَٰلَٰحِقَ وَلَا تَنجُ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا اليوم الحساب. وهذا القول أمشئ على ظاهر الآية، والله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَر جَعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَر جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ﴾ (٢٨) كَتَبَ آيَاتِهِ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَتَذَكَّرُوا أَيْتِي وَيَتَذَكَّرُوا أَوْلَادَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (٢٩).

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبده ويوحده، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَر جَعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَر جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ﴾ (٢٨) أي: لا تفعل ذلك، ولا يستون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمد، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل،

الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذُرَ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهَيَّا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ يَمُّوهُمُ الْكَلْبُ إِنَّهُ أَوْلَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالنَّبِيِّ الصَّفِيْنَتَ الْيَمِيَّةَ ﴿٢٨﴾ فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ حَبَّ الْخَمْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴿٢٩﴾ رُدُّوهُمَا عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَسْمُومًا بِالْأَسْوَقِ وَالْأَغْصَانِي ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً، كما قال: ﴿وَوَرِّثْ سُلَيْمَنَ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿يَمُّوهُمُ الْكَلْبُ إِنَّهُ أَوْلَىٰ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه السلام، قال له: يا بني، ما أحسن؟ قال: سكينه الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبي. وقوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالنَّبِيِّ الصَّفِيْنَتَ الْيَمِيَّةَ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالنَّبِيِّ الصَّفِيْنَتَ الْيَمِيَّةَ﴾ ﴿٢٨﴾ قال: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس، فعقرها. وهذا أشبه، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عُمارة بن عَزْرَةَ: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبث الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُئِبَ - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقا، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!». قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ.

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ حَبَّ الْخَمْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد المغرب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضي الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضاً للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. ويحتمل أنه كان سائفاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تتراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضي الله عنهم، في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهُمَا عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَسْمُومًا بِالْأَسْوَقِ وَالْأَغْصَانِي﴾ ﴿٣٠﴾. قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقبيها بالسيف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقبيها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقية، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله ﷻ بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهي الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء. وكانا يكثران السفر نحو البيت -

قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما عمله الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله -ﷻ- إلا أعطاك الله خيراً منه».

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَلْبَسُ لِجَمِيعِ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ ﴿٣٦﴾ فَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رَبَّاهُ حَيْثُ أَسَابَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّانٍ وَعَوَاسٍ ﴿٣٨﴾ وَالْأَصْفَادَ ﴿٣٩﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ خِطَابَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَآيَاتٍ لَوْ كُنْتُمْ رَوَّابِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعني شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبته. قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرأ. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: أصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضاً. وقيل: حقيق. قاله السدي. وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة. وقد قال سعيد بن أبي عرّوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسْمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين في البحر يردها في كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خمر، فجاء يوم وزده فإذا هو بالخمير، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصيبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصيبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كنفه فذُل. قال: وكان ملكه في خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعون فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرِي بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به. حتى أنضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء -أو: الحمام- لم يدخل بخاتمه فانطلق يوماً إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريه، وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبي الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجرينه. قال: فقال: يا نبي الله -وهو لا يرى إلا أنه نبي الله- أهدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فبينما هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾، قال: هو الشيطان صخر. وقال السدي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوماً. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: جرادة، وهي أثر نسائه وآمَنَتْهُ عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولم يأت من عليه أحداً من الناس غيرها، فأعطاه يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذ قبلي؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلمائهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا، فأحذقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه، فقالوا بش ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل دمه، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاء الطير التي حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعترفون مما صنعوا به، فقال: ما أحمدكم على عذرکم، ولا ألومکم على ما كان منکم، كان هذا الأمر لا بد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر

به فألقى في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حقيق. قال: وسخر له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَعَبَّ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَعْمَىٰ مِنْ بَيْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَقَّابُ﴾.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: شيطاناً يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن - ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفوني؟ أطمعوني، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى اعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فأراً. وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجراد خاتمه - وكانت الجراد امرأته، وكانت أحب نساته إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَفَ أنه من أمر الله ﷻ. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتتكرون من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُضُّص، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتاباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤها على الناس. وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحة في البحر، فتلقت سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فليس. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَبَ الشيطان حتى دخل جزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرن عليه، حتى وجدوه يوماً نانماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر له تحت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢٤)، قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه. إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريعاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها مثقلة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبي عمرو السيباني: وجد سليمان خاتمه في عسقلان، فمشى في خرقة إلى بيت المقدس، تواضعاً لله ﷻ، رواه ابن أبي حاتم. وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبراً عجبياً، فقال: حدثنا أبي، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرني عن كرسي سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أي شيء هو؟ فقال: كان كرسي سليمان من أنياب الفيلة مُفَصَّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جعل له درجة منها مُفَصَّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فحُفَّت من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسي طواويس من ذهب، ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسدان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدها دراً

وياقوتاً أحمر. ثم جعل فوق دَرَجِ الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكاً وعنبراً. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أجباز بني إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب، يعقد عليها سبعون قاضياً من بني إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبراً من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه، وبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسرج جناحه الأيسر، ثم يصعد سليمان على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسرج جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضي الله عنه: وما الذي يدبره يا أبا إسحاق؟ قال: تين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسي دَوَّنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان ابن داود عليه السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراة فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان على الناس. وذكر تمام الخبر، وهو غريب جداً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْتَئِي لِإِخْرَاجِي مِنْ بَدِينِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تَقَلَّتْ عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصحبوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْتَئِي لِإِخْرَاجِي مِنْ بَدِينِي﴾» قال روح: فرده خاسئاً. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادِي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» - ثلاثاً - وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يديك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخي سليمان، لأصبح موقاً يلعب به صبيان أهل المدينة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردي، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بزء لعابه بين إصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل». وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبي سُرَيْج، عن أبي أحمد الزبير، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الدليمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائطه له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُحَاصِرُ فتي من قريش يَزُونُ يُشْرَبُ الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خمر لم يقبل الله ﷻ»، له توبة أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يتَهَرَّه إلا الصلاة فيه، خرج من خطيبته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عَلَيَّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد - الثالثة أو الرابعة - فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه

من رَدَعَةِ الخيال يوم القيامة». قال: «وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيماً رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها». وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، ﷻ، خلا لا ثلاثاً...» وذكره.

وقد روي من حديث رافع بن عمير، رضي الله عنه، بإسناد وسياق غريبيين، فقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبَةَ العسقلاني، حدثنا محمد بن أيوب بن سُؤَيْد، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن أبي الزاهرية، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ لداود، عليه السلام: ابن لي بيتاً في الأرض. فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتي؟ قال: يا رب، هكذا قضيت، من ملك استأثر. ثم أخذ في بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثاً، فشكا ذلك إلى الله ﷻ فقال: يا داود، إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بني إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتي، فسلني أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَرُ بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوخ، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يدعو دعاءً إلا استفتحته بـ «سبحان الله ربّي الأعلى العلي الوهاب». وقد قال أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقَانَ، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما السلام: أن سلني حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك، كما كان قلب أبي، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبيدي وسألته حاجته، فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني، وأن أجعل قلبه يحبني. لأهَبَنَ له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

قال الله تعالى: ﴿مَسْحَرًا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحًا حَيْثُ أَسَابَ﴾ (٣٦) والتي بعدها، قال: فأعطاه الله ما أعطاه، وفي الآخرة لا حساب عليه. هكذا أورده أبو القاسم ابن عساکر في ترجمة سليمان، عليه السلام، في تاريخه. وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغني عن داود عليه السلام أنه قال: «إلهي، كن لسليمان كما كنت لي»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لي كما كنت لي، أكون له كما كنت لك. وقوله: ﴿مَسْحَرًا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحًا حَيْثُ أَسَابَ﴾ (٣٦): قال الحسن البصري، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضباً لله، ﷻ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر. وقوله: ﴿حَيْثُ أَسَابَ﴾ أي: حيث أراد من البلاد. وقوله: ﴿وَالسَّيْلِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧) أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماميل وجفان كالجواب وقدرور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللؤلؤ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَأَخْرَجَ مَقْرَبِينَ فِي الْأَنْفَادِ﴾ (٣٨) أي: موثوقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرَّدَ وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى. وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمِيزَانٍ﴾ (٣٩) أي: هذا الذي أعطيتك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُيِّرَ بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختر المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرأ عند الله وأعلى منزلة في المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان في الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُومًا وَمَنْ مَتَابَ﴾ (٤٠) أي: في الدار الآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَيْنًا أَيْبُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكَضَ بِرَيْحِكَ هَذَا مُنْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴿٤٢﴾ وَوَعَيْنَا لَهُ أَهْلَهُمْ وَنَهَلَهُمْ مِنْهُمْ رَحْمَةً يَتَنَا وَذِكْرِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَنَعُدُّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَتْرِبُ بِهِ وَلَا نَحْسُثُ إِنَّكَ وَجَدْتَهُ صَابِرًا يَتَمَّ الْعَيْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاءه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مفرغز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فُسَلِبَ جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساءً إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدر، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الْكُفْرُ وَأَنَّتْ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهب ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَرْكَضَ بِرَيْحِكَ هَذَا مُنْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴿٤٢﴾﴾ .

قال ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحداً من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، ﷻ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿أَرْكَضَ بِرَيْحِكَ هَذَا مُنْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴿٤٢﴾﴾، فاستبطأته، فتلقتته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سبحانه، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن همام بن مَثَبَةَ قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، حَرَ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناده ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك». انفرد بإخراجه البخاري، من حديث عبد الرزاق، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ أَهْلَهُمْ وَنَهَلَهُمْ مِنْهُمْ رَحْمَةً يَتَنَا وَذِكْرِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾، قال الحسن، وقاتدة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. وقوله: ﴿رَحْمَةً يَتَنَا﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

وقوله: ﴿وَنَعُدُّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَتْرِبُ بِهِ وَلَا نَحْسُثُ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجِدَ عليها في أمر فعلته. قيل: إنها باعت ضميرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليعرضها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها من هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفاته الله، ﷻ، أن يأخذ ضغثاً - وهو: الشُمْرَاخُ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد بَرَّتْ يمينه، وخرج من حنثه ووفى بندره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأتاب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَتَمَّ الْعَيْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿يَتَمَّ الْعَيْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجَاعٌ منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدلل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وأخذوها بمقتضاها، ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب، عليه السلام،

فلذلك رخص له في ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة.

﴿وَأَذْكُرْ عِدَّةً لِمَنْزِلِهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرَ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْتِمْعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ هَذَا ذِكْرٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَأَذْكُرْ عِدَّةً لِمَنْزِلِهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرَ ﴿٤٥﴾﴾ يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ نَفَائِدٍ﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾، يعني: القوة في طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ يعني: البصر في الحق. وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين. وقوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدي: ذكروهم للأخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جبيرة: يعني بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أختيار مختارون. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْتِمْعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي: هذا فصل فيه ذكر لم يتذكر. وقال السدي: يعني القرآن.

﴿وَأَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ لِحُسْنَ مَنَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ قَبْلُ هَٰؤُلَاءِ لَمْ يَدْخُلُوهَا فَسَاءُوا بِأَنفُسِهِمْ فِيهَا وَعَبَدُوا مُشْرِكِينَ ﴿٥٠﴾ وَمِنْ قَبْلِ هَٰؤُلَاءِ جَنَّاتٌ عَدْنٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا قَبْلَ هَٰؤُلَاءِ لَمْ يَدْخُلُوهَا فَسَاءُوا بِأَنفُسِهِمْ فِيهَا وَعَبَدُوا مُشْرِكِينَ ﴿٥١﴾﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقًا مَّا لَمْ يَنْفَكُوا مِنْهُ قَبْرًا ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة ﴿لِحُسْنَ مَنَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها أي: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهباري، حدثنا عبد الله بن نُمَيْرٍ، حدثنا عبد الله بن مسلم - يعني: ابن هرمز - عن ابن سابط، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله - أو: لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل». وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُشْكِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال، ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضروا كما أرادوا. ﴿وَمَنْزِلٍ﴾ أي: من أي أنواعه شأوا أو اتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّيْمِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِدْنُهُمْ تُصَوَّرُ بِالْمَقْرِ ﴿٥١﴾﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَنْزَابٍ﴾ أي: متساويات في السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والسدي. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدنا لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقًا مَّا لَمْ يَنْفَكُوا مِنْهُ قَبْرًا ﴿٥٣﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿١٦١﴾﴾ [النحل: ١٦١]، وكقوله: ﴿عِلَّةٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ﴾ [مرد: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكْثَلُهَا كَأْسٌ مِّنْ مَّيْمِينٍ لَّيْسَ فِيهَا مِنْ يَسَابِغٍ وَلَا يَشْرَبُونَ فِيهَا نَقِيرٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿هَذَا وَرِثَةٌ لِلَّذِينَ هَامُوا بِهَا ﴿٥٤﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا لَمَسَ السَّامِيُّ لَهَا ﴿٥٥﴾ هَٰذَا قَلْبُدُقُهُمْ حَبِيبٌ وَمَسَّاكٌ ﴿٥٦﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَنْزَابٌ ﴿٥٧﴾ هَذَا قَوْجٌ مُّقْتَصِمٌ مِّمَّكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا مَسَكِينًا ﴿٥٨﴾ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ أَشْتَرُ قَدْ شَتَّوْهُ لَكُمْ فَتَشَّارْتُمْ ﴿٥٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَرْدَةً عَذَابًا يُعَذِّبُنَا فِي النَّارِ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِيسَالًا كَمَا نَرَىٰ لَكُمْ نَسْتَدْعُمُ مِنَ الْأَنْشَارِ ﴿٦١﴾ أَفَتَدْعُونَهُمْ سِغْرِيًّا أَمْ ذَاعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجَائِبِ قَوْلِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٦٣﴾﴾

لما ذكر تعالى مال السعداء، ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هَذَا وَرِثَةٌ لِلَّذِينَ هَامُوا بِهَا﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسول الله، ﴿لَمَسَ السَّامِيُّ لَهَا﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿لَمَسَ السَّامِيُّ هَٰذَا قَلْبُدُقُهُمْ حَبِيبٌ وَمَسَّاكٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الساق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المولم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ﴾

أَرْجُحُ ﴿٥٨﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن ذلّوا من عَسَاق يهراق في الدنيا، لأنتن أهل الدنيا». ورواه الترمذي، عن سُؤيد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رُشد بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رُشد بن سعد». وكذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به. وقال كعب الأحبار: عساق: عين في جهنم، يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستقع، فيؤتى بالأدمي فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبه، ويُجر لحمه كما يُجر الرجل ثوبه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ ﴿٥٨﴾: ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه..

وقوله: ﴿هَذَا قَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ بِهِمْ سَأَلُوا النَّارَ ﴿٥٩﴾﴾، هذا إخبار عن قبل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ آتَةٌ لَأْتَتْ أَصْحَابَهَا بِضَغُفٍ مُّبِينٍ فَلْيَنْسَوْا نَارَهُمْ وَذُرَّتُمُوسًا مِنْهَا وَمَنْ يَنْسَوِهَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَذَبٌ﴾ ﴿٥٩﴾، يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا قَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ﴾ أي: داخل معكم، ﴿لَا مَرْجَأَ لَكُمْ بِهِمْ سَأَلُوا النَّارَ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم. ﴿قَالُوا بَلْ أَنْشَرْنَا لَكُمْ مَرْجَأًا يَكْفُرُ﴾ أي: يقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنْشَرْنَا لَكُمْ مَرْجَأًا يَكْفُرُ﴾ أي: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿يَنْسَوْنَ الْآزْوَاجَ﴾ أي: ينسى المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا يُضَعَّفُونَ﴾ ﴿٦٠﴾، كما قال ﷺ: ﴿قَالَتْ أَرْوَاهُ رَبَّنَا هَذَا أَكَلْنَا مِنْ رِزْقِكَ فَآذَى رَبَّنَا لَوْلَا أَعْتَدْنَا لَكُمْ عَذَابًا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنین يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَدْعُهُمْ بَيْنَ الْأَشْرَارِ أَتُخَذِّبُهُمْ سَخِرَآءٌ﴾ أي: في الدنيا، ﴿أَمْ رَأَيْتُ أَنَّ الْأَبْصِرَ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلمهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿وَأَدَاةُ أَحْسَبُ الْجِنَّةِ أَحْسَبُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُونَ أَنَّ لَهُنَّ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٦١﴾، إلى قوله: ﴿وَأَدَاةُ أَحْسَبُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَهْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾، إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٦٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٤﴾، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٥﴾، ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلِكِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾، ﴿إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ النُّجُومِ﴾ ﴿٦٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٠﴾.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٠﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤١﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٤﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٥﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٦﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٨﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٩﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥٠﴾.

أنا بري في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أدري رب - أعادها ثلاثاً - فأرأته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلوة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقريني إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله بقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به. وقال: «حسن صحيح» وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن إن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيٰ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَفَضَحْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجَمُوْنَ ﴿٧٣﴾ اِلَّا اِبٰلِيْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَاۤاِبٰلٰٓيْسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدِّيْ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِيْنَ ﴿٧٥﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهَا خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَسَخَّرْتَنِيْ مِنْ طِيْنٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاَخْرِجْهَا مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٧٧﴾ وَاِنَّ عَلَيْكَ لَعٰنَتِيْ اِيَّ يَوْمَ الْاٰلِئِيْنَ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِيْ اِلَى يَوْمِ يُعْتَبٰرُ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِيْنَ ﴿٨٠﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿٨١﴾ قَالَ فِعْرٰٓيْكَ لَاغْوِيْنَهُمْ اٰجَمِيْنَ ﴿٨٢﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْنَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ ﴿٨٤﴾ لَاۡمَلٰٓئِكَةَ جَهَنَّمَ بِيْنَكَ وَمَعَن يَمِيْنِكَ مِنْهُمْ اٰجَمِيْنَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سبحان، والكهف، وهاهنا. وهي أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامثالاً لأمر الله ﷻ. فامتثلت الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً؛ كان من الجن فخانته طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وادم خلق من طين، والنار خير من الطين، في زعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه إبليس، إعلماً له بأنه قد أنلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحلیم الذي لا يتعجل على من عصاه فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطمع، وقال: ﴿لَاغْوِيْنَهُمْ اٰجَمِيْنَ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِيْنَ﴾ ﴿٨٣﴾ كما قال: ﴿اَرٰٓيْتَكُ هٰذَا الٰٓلٰهِيْ كَرَّمْتَ عَلٰٓى لَيْنٍ اٰخَرٰٓنِيْ اِلَى يَوْمِ الْاٰلِئِيْمَةِ لَاخْتِيٰكُنْ دَرِيْسَتُهُ اِلَّا قَلِيْلًا﴾ [الإسراء: ١٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَفٰنٌ بِرَبِّكَ وَّكَيْلًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ﴾ ﴿٨٤﴾ لَأَمَلَانَ جَهَنَّمَ بِيْنَكَ وَمَعَن يَمِيْنِكَ مِنْهُمْ اٰجَمِيْنَ﴾ ﴿٨٥﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أن الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّيْ لَأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ اٰجَمِيْنَ﴾ [السجدة: ١١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اَذْهَبْ فَمَنْ يَمِيْنِكَ مِنْهُمْ فَاِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاؤًا مَّوْفُوْرًا﴾ ﴿٧٣﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَّمَا اَنَا مِنَ الْمُنْتَكَفِيْنَ ﴿٨٦﴾ اِنَّ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَتَلَمَّتْ نَبَاؤُكُمْ بَعْدَ جِيْنٍ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا اَنَا مِنَ الْمُنْتَكَفِيْنَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة. قال سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَّمَا اَنَا مِنَ الْمُنْتَكَفِيْنَ﴾ ﴿٨٦﴾. أخرجاه من حديث الأعمش، به. وقوله: ﴿اِنَّ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ ﴿٨٧﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ قال: الجن والإنس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا تُؤْتِكُمْ بِهِ وَّمَنْ يَلْبَسْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يَمِّنَ الْاَحْزَابِ فَالتَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]. وقوله: ﴿وَتَلَمَّتْ نَبَاؤُكُمْ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ جِيْنٍ﴾ أي: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ﴾ قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة ص،

وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الزمر

وهي مكية. قال النسائي: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبي لبابة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمزم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ آلَ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَقُوا وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْتَلَفَ لِمَا يَخْتَلِفُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مويه فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آلِ فِرْعَانَ﴾ (١٦١) نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٦٢﴾ عَلَيَّ فَلْيَكُونِ مِنَ الْفَاعِلِينَ ﴿١٦٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢١٥]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَزِيزٌ ﴿١٦٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٦٦﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال

ها هنا: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجنب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿آلَ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا من أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له. وقال قتادة في قوله: ﴿آلَ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر تعالى عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صورة الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصورة تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا بِكَ لَمَّا نَزَّلْنَا آيَاتِنَا أَنْتَ عَابِدُوا اللَّهَ وَحَسْبُوا الظَّالِمِينَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنتهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يُسْأَلُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتَوْلَايَ إِنَّا كُنَّا بِعِبَادَتِكَ كَانُوا يَسْتَدُونَ﴾ (٤١) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ [سبا: ٤٠، ٤١]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته وحججه وبراهينه. ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْتَلَفَ

مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٥﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِعَهُنَّ لَمْوَ لَأَنْزَعْنَهُنَّ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا نَفْعِلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الانبيا: ١٧]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ فَاتِنًا أَوْلَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. وقوله: ﴿سَخَّخْتُمْهُ هُوَ اللَّهُ الرَّاحِدُ الْفَهْمَانُ﴾ أي: تعالى وتزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾﴾ خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منبأ زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواجٍ يخلفكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقي في ظلماتٍ ثلاثٍ ذلكم الله ربكم له الشانك لا إله إلا هو فأنصتوا ﴿٦﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقبل ليله ونهاره، ﴿يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقران، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله: ﴿يُنشِئُ آيَاتِ النَّهَارِ يُظَلِّمُهُ حَيْثُ مَا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضي يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه. وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم والسننكم والأوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِطَاعًا وَيَكُونُ مِنَ النَّفْسِ وَاحِدَةٍ وَنَحَلَهُ مِنْهَا زَوْجَهَا وَيَتَّخِذُ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْفِئَافِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْغَنَمِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَعِيرِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. وقوله: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة - التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم. وقوله: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنْتُمْ شُرُوفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم!؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَنْكُرُوا بِرِضَتِهِ لَكُمْ وَلَا تَرَوْا وَارِزَةً وَرَدَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنْ رَزَقْتُمْ مَرْجِعَكُمْ فَيُنشِقْكُمْ يَمَّا كُنتُمْ تَمْتَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ سُوءٌ دَخَا بِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّهُ مِمَّا كُنتُمْ تَمْتَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَإِذَا مَسَّ الْفُؤَادَ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَىٰ آيَاتِهِ فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ بِتَرْتِيبٍ مِمَّا كَانَ يَدْعُوا إِلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْسِي ذَلِكَ الدَّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا نَدَاءً يَلْحَسِبُهُ أَوْ قَائِمًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانًا لَرَّ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُومًا ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٧].

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً». وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِنْ تَنْكُرُوا بِرِضَتِهِ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله. ﴿وَلَا تَرَوْا وَارِزَةً وَرَدَّ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِنْ رَزَقْتُمْ مَرْجِعَكُمْ فَيُنشِقْكُمْ يَمَّا كُنتُمْ تَمْتَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ سُوءٌ دَخَا بِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّهُ مِمَّا كُنتُمْ تَمْتَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَىٰ آيَاتِهِ فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ بِتَرْتِيبٍ مِمَّا كَانَ يَدْعُوا إِلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْسِي ذَلِكَ الدَّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا نَدَاءً يَلْحَسِبُهُ أَوْ قَائِمًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانًا لَرَّ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُومًا ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٧]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً. ﴿قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكُمْ قَلِيلًا إِنَّكُمْ مِنْ أَعْيُنِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه تمتع بكفركم قليلاً وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَنَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، وقوله: ﴿نَسِيتُمْ قَلِيلًا مِمَّا نَضَّطَّرْتُمْ إِلَيْهِ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

﴿أَتَنْ هُوَ قَتَيْتُ مَائَةَ آلِي سَائِدَا وَقَائِمًا بِحَدْرُ الْأَخْرَةِ وَرَجُلًا رَحِمَهُ رَبِّي. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستونون عن الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَن أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ مَائَةَ اللَّهِ مَائَةَ آلِي وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال هاهنا: ﴿أَتَنْ هُوَ قَتَيْتُ مَائَةَ آلِي سَائِدَا وَقَائِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال الثوري، عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس، الحسن، والسدي، وابن زيد: ﴿مَائَةَ آلِي﴾: جوف الليل. وقال الثوري، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن، وقتادة: ﴿مَائَةَ آلِي﴾: أوله وأوسطه وآخره. وقوله: ﴿بِحَدْرُ الْأَخْرَةِ وَرَجُلًا رَحِمَهُ رَبِّي﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿بِحَدْرُ الْأَخْرَةِ وَرَجُلًا رَحِمَهُ رَبِّي﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال الإمام عبد بن حميد في مستده. حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه». ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه، من حديث سيّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به. وقال الترمذي: «غريب». وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا عمر بن شبة، عن عبيدة النميري، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزاز، حدثنا يحيى البكاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿أَتَنْ هُوَ قَتَيْتُ مَائَةَ آلِي سَائِدَا وَقَائِمًا بِحَدْرُ الْأَخْرَةِ وَرَجُلًا رَحِمَهُ رَبِّي﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضي الله عنه، وقال الشاعر:

ضُحُوا بِأَسْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُنْقَطِعُ اللَّيْلُ تَشْبِيحًا وَقُرْآنًا

وقال الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية في ليلة، كتب له قنوت ليلة». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به. وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ مَاتُوا أَمْوَالُهُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ عَبُدَ اللَّهَ خَلصًا لَهُ الْإِيْنُ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ مَاتُوا أَمْوَالُهُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم. وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان. وقال شريك، عن منصور، عن عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾: قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَابِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفًا. وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدادون على ذلك. وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعني في الجنة. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ عَبُدَ اللَّهَ خَلصًا لَهُ الْإِيْنُ ﴿١١﴾﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَغْبُدُ خَلصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْكَلْبَيْنِ الَّذِينَ حَبَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفِتْنَةُ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفِتْنَةُ تَلْذُّقٌ مِنَ النَّارِ وَمِنَ تَحِيَّتِهِمْ تَلْذُّقٌ ذَلِكَ حَبِخْتُ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاتَّقُونِ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبُدُ خَلصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، وهذا أيضاً تهديد وتبّير منهم،

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، سواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِي﴾ أي: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح. ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُمْ مِّنْ قُوهِمْ عُذْلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ مَخْرَجٌ﴾ كما قال: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنَ قُوهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٤٤]، وقال: ﴿يَوْمَ يَشْهَدُهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي نَسِيتُمْ وَمِنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ مَخْرَجٌ﴾ [المكوت: ٥٥]. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَقْوَدِ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله: ﴿يَعْبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسى وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْحَاتِ أَنْ يَبْدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْحَاتِ أَنْ يَبْدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي. والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿فَمَهَّزَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ الْوَاقِفِينَ عَلَيْهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الاعراف: ١٤٥]. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كِتَابٌ فَلْيُؤْتِهِ أَقْسَمًا عَلَىٰ أَنْ يُصَدِّقَهُ فَمَنْ يَنْصَرِفْ فَلْيُنَادِ بِأَلْوَمٍ مِّنْهُ وَمَنْ يَنْصَرِفْ فَلْيُنَادِ بِأَلْوَمٍ مِّنْهُ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي تُقدَّرُ تُنقِذُهُ مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له. ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف في الجنة، وهي القصور الشاهقة، ﴿مِنَ قُوهِمْ عُذْلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ مَخْرَجٌ﴾ أي: طابق فوق طابق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يُرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى الله بالليل والناس نيام». ورواه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبل حفظه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن معانق - أو: أبي معانق - عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام». تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن معانق الأشعري، عن أبي مالك، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء». قال: فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: «كما تراءون الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي». أخرجاه في الصحيحين، من حديث أبي حازم، وأخرجاه أيضاً في الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا فزارة، أخبرني فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل». ورواه الترمذي عن سويد، عن ابن المبارك، عن فليح، به. وقال: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل قالوا: حدثنا زهير: حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المدلّه - مولى أم المؤمنين - أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إننا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممتنا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأقنعتهم، ولزارتكم في بيوتكم. ولو لم تُدنيوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبِنَةٌ فِضَّةٌ، وملاطها المسك الأذفر، وحضباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا

بلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحْمَلُ على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأُنصرك ولو بعد حين». وروى الترمذي، وابن ماجه بعضه، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي - وكان ثقة - عن أبي المُدَلَّة - وكان ثقة - به. وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤون وأين أرادوا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ اللَّهُ الِّيمَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مِصْفَكًا ثُمَّ يُعْمَلُ مِنْ خِطْمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِقَائِيهِمْ فَلَوْهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتِكَ فِي يَوْمِئِذٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَّ في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِئُه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾. قال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده. وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء. وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعني؛ أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها. وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: أشكاله وطعومه وروائح و منافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيَجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿فَتَرَاهُ مِصْفَكًا﴾، قد خالطه اليبس، ﴿ثُمَّ يُعْمَلُ مِنْ خِطْمًا﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرمياً كبيراً ضعيفاً قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زرعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك خطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَلَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]. وقوله: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثَاكًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِقَائِيهِمْ فَلَوْهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتِكَ فِي يَوْمِئِذٍ﴾.

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْقَسِرُ بِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا مُدْخٌ من الله - ﷻ - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاک: ﴿مَثَانٍ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم ﷻ. وقال عكرمة، والحسن: ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَثَانٍ﴾: مُرَدَّدٌ، زُودَ موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء، عليهم السلام، في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويزدُّ بعضه على بعض. وقال بعض العلماء: ويُرْوَى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾: أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء ووضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نِيعٍ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الإنفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٨﴾﴾ [المطففين: ٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَّابٍ ﴿٩﴾﴾ [ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَرَأَى لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَكَّابٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿بِهِ تَنْقَسِرُ بِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَنْقَسِرُ بِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام

الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه. أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لآيات، من أصوات القيثات. الثاني: أنهم إذا تلبت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٧٣] أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم أي يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعاً له. الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضي الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارعون ولا يتكفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلن في الدنيا والآخرة. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان. وقال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إلى وعد الله. وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: هذه صفة من هداة الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَنْجُ﴾ [الرعد: ٢٣].

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابَاتُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاذْقَاهُمْ اللَّهُ لَذَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ويُفْرغ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. كمن يأتي أمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَنْ يَشِيءُ مِثْلًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَشِيءُ سَوَاءً عَلَىٰ سِرَطٍ مَسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾﴾ [المك: ٧٧]. وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَرُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٧٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنْ يَلْفُ فِي النَّارِ حَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [نص: ٤٠]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر:

فَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنُّنْتُ أَرْضًا أَرِيدُ الْخَيْرَ: أَيُّهَا يَلِينِي؟
يعني: الخير أو الشر. وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابَاتُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكتهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق. وقوله: ﴿فَاذْقَاهُمْ اللَّهُ لَذَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذي أعدّه الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرْسَلَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلَمْ نَدِّ لَهُ بِلِ أَكْذِبِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ يَتَّبِعُ وَلَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. فإن المثل يُقَرَّبُ المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿وَالَّذِي الْأَمْثَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنكحوت: ٤٣]. وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله ﷻ كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. ثم قال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا أَرْسَلَ﴾ أي: خالصاً لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا. وكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد

إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيننا جلياً، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحججة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا بشركون بالله .

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٢) : هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣٣) [آل عمران: ١٤٤] . ومعنى هذه الآية: سنتقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة . قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن أبي حاطب - يعني يحيى بن عبد الرحمن - عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال الزبير: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم» . قال: إن الأمر إذا لشديد . وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: أي رسول الله، أي نعيم نسال عنه؟ وإنما - يعني: هما الأسودان: التمر والماء - قال: «أما إن ذلك سيكون» . وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان، به . وقال الترمذي: حسن . وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد - يعني ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣٤) قال الزبير: أي رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه» . قال الزبير: والله إن الأمر لشديد . ورواه الترمذي من حديث محمد بن عمرو، به وقال: حسن صحيح . وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي عسانة، عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : «أول الخصمين يوم القيامة جاران» . تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده، إنه ليختصم، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد . وفي المسند عن أبي ذر، رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا . قال: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما» . وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبي، حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «يجاء بالإمام الخائن يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركناً من أركان جهنم» . ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) ، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضال، والضعيف المستكبر . وقد روى ابن منده في كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت . ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت . فبيعت الله ملكاً يفضل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً، ولكن لا أصل ليها . فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما . فيقول لهما الملك . فإنكما قد حكمتما على أنفسكما . يعني: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عؤسجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعي منصور بن سلمة، حدثنا القمي - يعني يعقوب بن عبد الله - عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا - ﷻ - نختصم فيه . ورواه النسائي عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به . وقال أبو العالية في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال: يعني أهل القبلة . وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر . وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم .

﴿فَنَنْظُرُ مَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْيَسْرُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٥) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقَرَّبُونَ ﴿٣٦﴾ لَمْ يَأْتُواكَ بِدِينٍ لَّهِ إِذْ جَاءَهُمْ ﴿٣٧﴾ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذا جاءهم على السنة رسل الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو الرسول. وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسول الله ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا بالصدق» يعني: الأنبياء، «وصدقوا به» يعني: الأتباع. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتونا، فعلمنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنين، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقَرَّبُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَمْ يَأْتُواكَ بِدِينٍ لَّهِ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَّبَلْنَا عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَقْبَامِ وَالَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَاتُ فُجُورِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ عَمَلُهُمْ عَلَى مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم: عباده - يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. وقال ابن أبي حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو هانئ، عن أبي علي عمرو بن مالك الجنبني، عن فضالة بن عبيد الأنصاري؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كاففاً، وقَّع به». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني به. وقال الترمذي: صحيح. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دونه؛ جهلاً منهم وضلالاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَاتُ فُجُورِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر. وذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقاليم، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابُكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسُوُّ قَالَ إِنَّهُ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا تَدْعُونَ﴾ [هود: ٥٤] من دُونِهِ

فَكِدُونِي جِيماً ثَمَّ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَبْصَابِهَا وَإِنَّ رَبِّيَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾
 ٤٥٦. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدم - مولى آل عثمان - عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليقت الله». وقوله: ﴿قُلْ يَتَقَوَّرُ عَسَلًا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَجِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَيَجِئُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّيمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ. وَلَنْ نَفْسِهِ. وَمَنْ صَدَّقَ فَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ مِنْ مَوَاطِنَ فِي مَوَاطِنَ فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَيْهِ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَنْ صَدَّقَ فَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٥٤﴾، ﴿فَلَمَّا عَلِمَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿الرعد: ٤٤﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَصَلِّمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْسُطُكُمْ فِيهِ لِيُقَفَّىٰ أَجَلَ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿الأنعام: ٦١﴾. ذكر الوفايتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ مِنْ مَوَاطِنَ فِي مَوَاطِنَ﴾ كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره. وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وقال بعض السلف رحمهم الله: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. وقال السدي: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُونَ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الشَّفَعَاتُ وَالَّذِينَ نَدُّوا إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حدهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير. ثم قال: قل: أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عن الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾. ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الشَّفَعَاتُ وَالَّذِينَ نَدُّوا إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلا بعمله. ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت. وقال السدي: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿الصفات: ٣٥﴾، أي: عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَتَوَّانَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جِمْعًا وَمَشَكَّلًا مِمَّا لَفْتَدُوا بِهِ مِنْ سَوَاءِ الْقَدَابِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبِذَا لَمْ يَنْتَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبِذَا لَمْ يَنْتَ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهام الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلواته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلواته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلمتني إلى نفسي تقريني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أائق إلا برحمتك، فأجعل لي عندك عهداً تؤقينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله ﷻ، لملائكته يوم القيامة: إن عبيدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة». قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما في أهلنا جارية إلا وهي تقول هذا في خدرها. انفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبيبي بن عبد الله؛ أن أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاساً وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجره إلى مسلم». قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضاً. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الخبزي قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله، علمني، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، به، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جِمْعًا وَمَشَكَّلًا مِمَّا﴾ أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه، ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سَوَاءِ الْقَدَابِ﴾ أي: الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبِذَا لَمْ يَنْتَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، وظهر لهم جزء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَخَا ثُمَّ إِذَا حَوْلَتُهُ نِعْمَةٌ مَكَآ قَالَ إِنَّمَا أَنِشْتُمْ عَلَيَّ جَلْمٌ بَلْ هِيَ فَسَنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ فَذَ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يَضْرَعُ إلى الله، ﷻ، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ أَيْ: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أنني عند الله تعالى خصيصة لما حَوَّلَنِي هذا! وقال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِيَّةٌ﴾ [القصص: ٢٧٨]: على خير عندي. قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ أَيْ: ليس الأمر كما زعموا، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أَيْ: اختبار، وَلِكَلِمَةٍ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَيْ: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ﴾ أَيْ: من المخاطبين ﴿سُبُحٰنَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتٰتَكَ اللَّهُ الثَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِيَّةٌ أَوْلَمْ يَلْمِزْكُمْ أَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْفُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤَيْهِمُ الْمُتَعَبُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [القصص: ٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْضَدِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ [سبا: ٣٥]. وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَلْمِزُوا أَنَّهُ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يوسع على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾ أَيْ: لغيراً وحججاً.

﴿قُلْ يٰٓبَيَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ وَأَيُّهَا مَن رَّبَّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَمْ يَنبَغِ لَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُسْأَلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَأَجْعَلُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مَن قَبْلُ أَل تَأْتِيكُمُ الْمَلَائِكَةُ بَعَثَ وَأَسْرَأَ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أُن نَقُولُ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطَتْ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِن كُنْتَ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ نَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ أَوْ نَقُولُ بَيْنَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءآيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبيرة أخبره عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي نقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءآخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل قوله: ﴿قُلْ يٰٓبَيَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، ومن حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، به. والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المري يقول: سمعت ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يٰٓبَيَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحداني، عن مكحول، عن عمرو بن عبسة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصاه، فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال: «ألسنت تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهُ عَمَلٌ عَزِيزٌ صَالِحٌ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعت يعلى بن عبد الله ﷺ يقول: «يٰٓبَيَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يسألني ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ورواه أبو داود والترمذي، من حديث ثابت، به. فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠]،

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ تَلَفَعُوا وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِيدٌ وَإِنْ لَمْ يَكْتُمُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَكُمُ الْعَذَابُ الَّذِي كُفِّرُوا عَنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِنَّ اللَّهَ رَهِيمٌ فَذَلِيلٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْقُرْبَىٰ وَمَنْ هُوَ ذَاكُم مِّمَّنْ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والوجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات في هذا كثيرة جداً. وفي الصحيحين عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عبادة بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصد ما فاتاه الموت في أثناء الطريق، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فألى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدده عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد. هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: ﴿قُلْ يَكِيدَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِنَّ اللَّهَ رَهِيمٌ فَذَلِيلٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَكُ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب الله عليه. وروى الطبراني من طريق الشعبي، عن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الغفر: ﴿قُلْ يَكِيدَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تصرفاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت. وقال الأعمش، عن أبي سعيد، عن أبي الكنود قال: مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَكِيدَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفي القنوط: قال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله، حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملاً خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به الإمام أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ليث، حدثني محمد بن قيس - قاص عمر بن عبد العزيز - عن أبي صرمة، عن أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذبنون، لخلق الله قوماً يذبنون فيغفر لهم». هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي جميعاً، عن قتبية، عن الليث بن سعد، به. رواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صرمة - وهو الأنصاري صحابي - عن أبي أيوب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك الثكوري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة» وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذبنوا لجاء الله بقوم يذبنون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني عبد الأعلى بن حماد الثريسي، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي، عن أبي عمرو البجلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحמיד، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس - عليه لعائن الله - قال: يا رب، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإنني لا أستطيعه إلا بسطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يا رب، زدني. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يا رب، زدني. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يا رب، زدني. قال: أجلب

عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً. فقال آدم عليه السلام: يا رب، قد سلطته علي، واني لا أمتنع منه إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرأه سوء. قال: يا رب، زدني، قال: الحسنه عشر أو أزيد، والسيئه واحده أو أمحوها. قال: يا رب، زدني. قال: باب التوبه مفتوحه ما كان الروح في الجسد. قال: يا رب، زدني، قال: ﴿يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضي الله عنه، في حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبه، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا لَكُمْ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ (٥٩) وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ مَن قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٦٠). قال عمر، رضي الله عنه: فكتبته بيدي في صحيفه، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أضعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فالقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة. ثم استحث سبحانه وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبه، فقال: ﴿وَأَنْبِئُوا لَكُمْ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبه والعمل الصالح قبل حلول العقبه، ﴿وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿مَن قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون. ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبه والإنابه، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥٩) أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) أي: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال: ﴿وَلَا يَنْتَعِبُ مِثْلَ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فآخبر الله تعالى: أن لو زدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا بُنِيتُ لَهُمُ الْمَكِيدَاتُ﴾ (الأنعام: ٢٨). وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني؟! قال: «فيكون له الشكر». ورواه النسائي من حديث أبي بكر بن عياش، به. ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (٥٩) أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها. ﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ الْاَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) وَيَسْمَعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِمَقَارِنَهُمْ لَا يَسْمَعُهُمُ السَّمَوَاتُ وَلَا هُمْ يَسْمَعُونَ (٦١).

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ﴾ أي: بكذبهم وافتراءهم. وقوله: ﴿الْاَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: ليست جهنم كافية لها سجنًا وموتلاً، لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبانهم عن الانقياد للحق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس، يعلمهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له بولس، من نار الأنبار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخبال» وقوله: ﴿وَيَسْمَعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِمَقَارِنَهُمْ﴾ أي:

مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَسْتَهُمُ الشُّوْهُ﴾ أي: يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفوز الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، مؤمنون كل خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٣) ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) ﴿بَلِ اللَّهِ قَاتِعِدٌ وَكَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦).

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكتها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة. وقال السدي: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أزمة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً - وفي صحته نظر - ولكن نذكره كما ذكره، فإنه قال: حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلَدِ بْنِ هَذِيلِ الْعَبْدِيِّ، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألتني عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخِر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطي خصلاً ستاً: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطي قطاراً من الأجر، وأما الثالثة: تفرغ له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكاً، وأما السادسة: فيعطي من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزيور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء». ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد، به مثله. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٦٤): ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥). وهذه كقولها: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ قَاتِعِدٌ وَكَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦): أي: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧). يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمتهم. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. قال البخاري: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية. وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي - من طرق - عن الأعمش، به .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه - قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية . وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصلت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أنا أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض». تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر . وقال البخاري - في موضع آخر - : حدثنا مقدّم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك». تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ حَيْثُ قَبَسْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «بمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أن العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخزن به . وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم - زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر، به، نحوه . ولفظ مسلم - عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه وبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إنني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ وقال الزوار: حدثنا سليمان بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عباد المُنْقَرِي، حدثني محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء ذهب ثلاث مرات . ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح .

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية الغنبي، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن حُثَيْس، عن أبي شيبه، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إني قارىء عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة؟» فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكي، فلم نبك؟ فقال: «إني سأقرأها عليكم، فمن لم يبك فليتبك». هذا حديث غريب جداً . وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن مُرْزَد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبَهُنَّ عن عبادي، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً: لو كشفت غطائي فرآني حتى يستيقن ويعلم كيف أعمل بخلقنا إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأرض والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذي له الملك دوني؟ ثم أريتهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها . وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم». وهذا إسناد متقارب، وهي نسخة تروى بها أحاديث جمعة، والله أعلم .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ نُفْحًا فَإِذَا هُمْ بِنُفْحِ الْبَطْرُونَ﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكُتُبُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَوَقِيتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ .
يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقلوه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٧١﴾، هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسراً في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ [غانر: ١١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْفَهَارُ﴾ أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِخْ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِيدَةٌ ﴿٧٢﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٧٣﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمُولِهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَإِنْ لِبَسْتُمْ إِلَّا لِغَيْبًا ﴿٥٧﴾﴾ [الاسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ نَقُومَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ بِخَرْقَاتٍ مُخْرَجَةٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الروم: ٢٥]. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً بارداً من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكرأ». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقَفُّوا لَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فيومئذ تبعث الولدان شبيهاً، ويومئذ يكشف عن ساق». انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه. وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آبيت، ويلى كل شيء من الإنسان إلا عَجَبُ ذنبه، فيه يركب الخلق. وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسرون في الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، ﷻ، لننظر كيف يقضي بين خلقه، يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه». رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلافت لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَوُجِّعَ بِاللَّيْتِنِ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوه رسالات الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْمَوْزَنُ الْقِسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَالَ فِجَالٍ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إِنْ تَرَىٰ مِنْ خِزْيَانٍ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الانبيا: ٤٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُعْزِمُوهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُحِتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَيْدَةُ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ قِيلَ أَطْلَوْا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيَسَّرَ مَوْتَى السَّكَرِينِ ﴿٧٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٧] أي: يدفعون إليها دفعاً. هذا وهم عطاش ظمأء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نُحْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَقَدْ آسَأُ﴾ [٨٥] وَنُوقُ الْمُتَمِرِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَذَكَ [٨٦] [مرسب: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال ضُمُّ وبيكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنُحْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبِكَاً وَسَمّاً مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ فَتَحْتُ أَبْوَابَهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التفرع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَكِنْ حَسَبْتَ كَيْفَ أَلْعَابِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أُنقِذُوا فِيهَا مِنْ سُلْطَمٍ خَرْنَاهُمْ إِلَىٰ آتَاكَ يُدِيرُ﴾ [٨٧] قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّنَا وَلَمَّا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمَوَاتِهِ آيَاتٍ فِي سَكَنٍ كَبِيرٍ [٨٨] وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ [٨٩] [الملك: ٨-١٠] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والتندامة ﴿هَازِرٍ مَّشَلِّمٍ بَنِيْسِرٍ﴾ [٩٠] [الملك: ١١] أي: بعداً لهم وخساراً.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يستند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كئبن فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَيَسَّرَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبسبب تكبركم وبسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبسبب الحال وبسبب المال.

﴿وَسِيْقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ فَادْخُلُوهَا خَلِيلِينَ﴾ [٩١] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [٩٢].

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وقد أُلحقت بهم إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصدديقون مع أشكالكهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قطرة بين الجنة والنار، فاقصت لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذَّبوا وثُقِّوا أُذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله، ﷻ، أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة» وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أني باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم عن عمرو الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان - وهو ابن المغيرة القيسي - عن ثابت، عن أنس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر بن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من رواء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً». رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمَّرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العيمن، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء». وأخرجاه أيضاً من حديث جرير. وقال الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زُمَّرة، هم سبعون ألفاً، رضي وجوهم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عَكاشة بن مِحصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم: فقال: «سبقت بها عَكاشة». أخرجاه. وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة الجهني، وأم قيس بنت محصن. ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «لبدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً - أو: سبعمئة ألف - أخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوهم على صورة القمر ليلة البدر». وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربي ﷻ، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَيَّات من حَيَّات ربي ﷻ. وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، وأبي اليمان عامر بن عبد الله بن لُحي عن أبي أمامة رضي الله عنه. ورواه الطبراني، عن عتبة بن عبد السلمي: «ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفاً» وروى مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنباري. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: «**حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَقِيحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ يُنشَرُ فَادَّخُلُوهَا خَالِدِينَ**»: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهن الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدُوا وطابوا، وسُروا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل. ومن زعم أن الواو في قوله: «**وَقِيحَتْ أَبْوَابُهَا**» واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد التَّجَعُّعَ، وأغرق في النَّزْعَ. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله، دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» فقال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي، من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». ورواه البخاري ومسلم، من حديث الزهري، بنحوه. وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون». وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». وقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَيْن، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله».

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها: في الصحيحين من حديث أبي زُرْعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر. والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفي رواية: «مكة وبصرى». وفي صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام». وفي المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله. وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دُرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة».

وقوله: ﴿وَقَالَ لَمَسْرُ حَزَنَتْهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالهم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادي بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفي رواية: «مؤمنة». وقوله: ﴿فَأَذَلُّوهُمَا خَلِيلَيْنِ﴾ أي: ماكتين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رَسُولِكَ وَلَا نُخَوِّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٢٤]، ﴿الَّذِي أَسْلَمْنَا مَا بَرَأْنَاهُ مِن قَضِيَّتِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [٢٥] [فاطر: ٣٤، ٣٥]. وقولهم: ﴿وَأَرْزُقْنَا الْأَرْضَ نَجْبًا مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة. وهذه الآية كقولها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبيا: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَجْبًا مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعمة الأجر أجرتنا على عملنا. وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن أنس في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنايز اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عباد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: «دزْمَكَة بيضاء مسك خالص» فقال رسول الله ﷺ: «صدق». وكذا رواه مسلم، من حديث أبي سلمة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به. ورواه مسلم أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دزْمَكَة بيضاء، مسك خالص».

وقول ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُرًى﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فظهوروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تُغَيِّرْ أبشارهم بعدها أبداً، ولم تُشَعَثْ أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوها منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلامان صاحبهم يُطِيقُونَ به، فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أُبْشِرْ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلامه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن: أنت رأيت؟ فيقول: نعم. فيستخفن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي مبوثة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لآلم أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل التهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً، رضي الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقْبَلُونَ - أو: يُؤْتُونَ - بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فيتتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيَغْسَلُ ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فيتتهون - أو: فيأتون - باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة، فيسمع لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيْمَهَا فيفتح له، فإذا رآه حَزْرَ له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيْمُكَ، وكُلْتُ بأمرِكَ. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: يا حبي، وأنا حبيك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه من جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها

طريقة تشاكل صاحبها، في البيت سبعون سريراً، على كل سريرة سبعون حَشِيَّةً، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخَّ ساقها من باطن الحُلُلِ، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تَطْرُدُ، أنهار ماء غير آسن - قال: صاف، لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال: لم يخرج من ضروع الماشية - وأنهار من خمر لذة للشاربين - قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من غسل مصطفى - قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً - ثم تلا: ﴿وَدَائِبُهُمْ يَلْفُلْهُمَا وَأَزَلَّتْ قُرُونُهُمْ نِزِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] - فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض - قال: وربما قال: أخضر. قال: - فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أي الألوان شاء، ثم يطير فيذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً في نور». هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِبَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُيُنُّنَّ إِلَيْهِمْ بِالْحَمْدِ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٥٥]

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نَزَلَ كُلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور - أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقصدونه ويتزاهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُيُنُّنَّ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَمْدِ﴾. ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمه - الله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَتْ له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُيُنُّنَّ إِلَيْهِمْ بِالْحَمْدِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر وبه الحمد أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً



تفسير سورة غافر

وهي مكية. قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم». قال عبد الله بن مسعود: آل حم ديباج القرآن. وقال ابن عباس: إن لكل شيء لباباً، وللباب القرآن آل حم - أو قال: الحواميم. قال مسعود بن كيدام: كان يقال لهن: العرائس. روى ذلك كله الإمام العَلَمُ أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب: فضائل القرآن. وقال حُميد بن زَنْجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبيد الله قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه، إذ هبط على روضات دُمَثَاتٍ فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقبل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم في القرآن. وأورده البغوي. وقال ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن الجِرَاحَ بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شيء لباب، وللباب القرآن الحواميم. وقال ابن مسعود: إذا وَقَعَتْ في آل حم فقد وَقَعَتْ في روضات أتأقق فيهن. وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مسعود - هو ابن كيدام - عن حدثه: أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل آل حم. وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركة وبركة ما وُضِعَ له، فإذا هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن يَتِمَّ الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفي رواية: «لا تنصرون». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خَلْفِ المازني، ومحمد بن الليث الهمداني قالوا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن، عُصِمَ ذلك اليوم من كل سوء». ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا

بهذا الإسناد. ورواه الترمذي من حديث المليكي، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيَ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد قيل: إن ﴿حَمَّ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ، وأنشدوا في ذلك:

يُذَكِّرُنِي حَامِيَمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَا تَلَا حَامِيَمَ قَبْلَ التُّقَدُّمِ
وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْتَ اللَّيْلَةِ فَقُولُوا: حَم، لَا يَنْصُرُونَ» وهذا إسناد صحيح. واختار أبو عبيد أن يُرَوَى: «فَقُولُوا: حَم، لَا يَنْصُرُوا» أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جملة جزء لقوله: فقولوا. وقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنباه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه. وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ عِبَادَئِيَ أُمَّةً مُّشَقَّاتٍ بَيْنَ يَدَيْ أُنَاسٍ كَفَّارًا﴾ [براهيم: ٣٤]. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن؛ ليقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقناة. وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعني: الخير الكثير. وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذي المن. وقال قتادة: يعني: ذي النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وَإِنْ تَمَدُّوا نَمَتَ اللَّهُ لَا تُعْصِمُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا النَّاسُ نَفْسُهُمْ﴾ [براهيم: ٣٤]. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَهِيَ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَكِرَتِ الْأَعْيُنُ مِنَ رِجْوَاهُ﴾ [الرعد: ٤١]. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلْتُ، فهل لي توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٣﴾ وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مروان الرُّقْمِيُّ، حدثنا عمر - يعني ابن أيوب - أخبرنا جعفر بن بزقان، عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان ينفذ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يرددُها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر رضي الله عنه خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم زل زلَّةً فسددوه ووقفوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعراناً للشيطان عليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا حماد بن واقد - أبو عمَر الصفاري -، حدثنا ثابت البناني، قال: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين، فافتتحت: ﴿حَمَّ ١﴾ ﴿حَمَّ ١﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيَ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لي ذنبي». وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتي». وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبني». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مَرَّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُرَوْنَ أنه إلياس. ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿مَا يَجِدُكَ فِي آيَاتِنَا إِلَّا الْآيَةَ الْكُرْهُ فَإِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافِئِكُمْ وَبَدَّوهُمْ وَمَسَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

رَسُولِهِمْ يَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقَوْلَ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧﴾ .

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَرْجِعُ قَوْلُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ أي: في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لَا يَرْجِعُ قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿٦﴾ مَعَ قِيلَ ثُمَّ مَاؤَيْتُهُمْ جَهَنَّمَ وَيُقِيمُنَّ فِيهَا ﴿٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿تُؤْمِنُهُمْ قِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتَهُمْ إِلَيْكَ عَذَابَ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [العن: ٢٤]. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿وَالْأَنْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقَوْلَ﴾ أي: ما حللوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. وقد قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مَعْتَمِر بن سليمان قال: سمعت أبي يحدث عن حَتَّش، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله». وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿وَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً مرجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان الله شديداً. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿٧﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَجُولُونَ عَلَى الْغُرِّ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يَسْتَحْجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّخَابَ وَمَنْ تَبَى السَّخَابَ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي: يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكة المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهور الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهور الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهور الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا عدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ صَدَّقَ أُمِيَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَقَالَ:

رَجُلٌ وَتُورٌ تَخْتُ رَجُلٍ يَمِينُهُ وَالنُّسْرُ لِلْأُخْرَى، وَلَيْتَ مُرْضُدُ
فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ
تَأْبَى فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رَسْلِهَا
فقال النبي ﷺ: «صدق».

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَجُولُ عَرَشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يُؤْمِنُ تَنْبِيَةً﴾ [الحاقة: ١٧]. وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود. حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عُمَيْرَة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والتعان؟» قالوا: والتعان. قال أبو داود: ولم ألقن التعان جيداً. قال: «هل تدرؤن بَعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بعد ما بينهما إما واحدة، أن اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّ سبع سموات ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أسفل

وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، ﷻ، فوق ذلك، ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية، كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حملك بعد علمك». وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كَلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنبأوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَرَهْمَ عَذَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب المجمع الأليم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَلِيلًا مِمَّا دَرَسَتْهُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا الناقص في العمل، فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنه. قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل. فيقول: إني إنما عملت لي ولهم. فيُلحَقُونَ به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصَحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾، وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرتك. ﴿وَرَهْمَ السَّعَاتِ﴾ أي: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَنْ نَقِ السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْنَا﴾ أي: لطفنا به ونجيتنا من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَننَا أَسْنَيْنَ وَأَحْيَيْنَا أَننَيْنَ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ نُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَائِنَتِهِ. وَيُرِيكَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم ينادون يوم القيامة وهم في عَمَرَات النيران يتلظنون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا يقبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبار عالياً، نادوهم به نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة في قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنهم حين عابنوا عذاب الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسن البصري، ومجاهد، والسدي، وذُرَّ بن عبد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري، رحمهم الله.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَننَا أَسْنَيْنَ وَأَحْيَيْنَا أَننَيْنَ﴾ قال الثوري: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رضي الله عنه. هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَيْكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك. وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية. وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياوا في قبورهم فخطبوا، ثم أميتوا ثم أحياوا يوم القيامة. وقال ابن زيد: أحياوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وهذا القولان - من السدي، وابن زيد - ضعيفان؛ لأنهما يلزمهما على ما قالنا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، ﷻ، في عرصات القيامة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُتَجَرِّثُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتْرَعْنَا فَتَمَلَّ صَلْبًا إِنَّآ مَوْفُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا

عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والثكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَىٰ ذَرَّةً مِّنَ النَّارِ فَقَالُوا يَا نَبِيَّنَا ثَرَدٌ لَّا نَكْتُمُ بِرَبِّنَا وَمَا نَحْمِلُ مِنْهُ حَتَّىٰ نُنزَّلَ بِهِ سُلْطٰنًا مِّنَ السَّمَاءِ مَوْجِدَةً مَّا يُدْرِكُهُمْ إِلَّا النَّارُ عُدْلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَّلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عَدْنَا فَإِنَّا ظٰلِمُونَ﴾ [١٦٧] قال أحسبوا فيها ولا تكلمون ﴿١٦٨﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿أَمْثَلْنَا أَنْتَيْنِ وَأَبْيَيْنَا أَنْتَيْنِي﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم امتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا ألا سبيل إلى عودتكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا.

ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تتجده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَدَّةَ كَعْفَرْتُهُ وَإِن يَشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلُوا﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَمَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقوله: ﴿فَالْتَكُمُ اللَّهُ الْعَمَلِ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجوز، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقها بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والشمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، وبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله، ﴿سَبِّحْهُ﴾.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾ أي: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - يعني بن عروة بن الزبير - عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين سلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يَهْتَلِ بِهِن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبي عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثهم عن أبي الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وذكر تمامه. وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الحَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح - يعني الجرِّي - عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه».

﴿رَفِيعَ الدَّرَجٰتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٦٩﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزَخُونَ لَا تَخَفُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الرَّحِيمِ الْقَهَّارِ ﴿١٧٠﴾ أَيُّومَ تُجْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ رَبُّكَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧١﴾ يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالمسقف لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ فِيهَا زَيْتُ زَبَدٍ مِّمَّا يَشَاءُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [المعارج: ٢٠، ٢٤]، وسيأتي بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم في حديث الأوعال ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ بِالرُّوحِ مِنَ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَن يُذَرِّبُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿١٧٠﴾ [النحل: ٢٢]، وكقوله: ﴿وَالَّذِي نُنزِّلُ رَبِّيَ الْعَلَمِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُذْرِبِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿يُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة، والسدي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم. وقد يقال: إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون. وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنهُمُ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ إِلَهَ الْوَجْدِ الْفَهَّارُ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أن الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المكتوبون؟. وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿إِلَهَ الْوَجْدِ الْفَهَّارُ﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ إِلَهَ الْوَجْدِ الْفَهَّارُ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٧﴾: يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكي عن ربوبيته - أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» - إلى أن قال -: «يا عبادي، إنما هو أعمالكم أحصيتها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا بَعْثَكُمْ إِلَّا لَكُنْتُمْ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَمَتِّجٍ بِالْبَصْرِ﴾ [الفر: ٥٠].

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ يَقُولُ لَدَى الْمَخَاجِرِ كَظِيمٌ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسَابٍ وَلَا يُشْفِعُ عَمَلُهُمْ وَلَا يَنْفَعِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٨﴾ والله يَقْبِضُ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٩﴾.

يوم الأرزاق هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِيدُكُمْ وَأَنْزِلُكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿أَقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَأَشَقَّتِ الْقُرْآنُ﴾ [الفر: ١] وقال: ﴿أَقْرَبَتْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٤١] وقال: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ٤١] وقال: ﴿كَلِمَاتٌ رَاوَةٌ زَلْفَةٌ يَبِيَّتْ وَجْهُ الْوَيْبِكِ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الْكَلِمَ الَّذِي كُنتُمْ بِهَذَا تَدْعُونَ﴾ [الملك: ٢٧]. وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْمَخَاجِرِ كَظِيمٌ﴾ أي ساكتين، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد. ومعنى ﴿كَظِيمٌ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلى بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالنَّفْسُكَةُ صَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]. وقال ابن جريج: ﴿كَظِيمٌ﴾ أي: ساكتين. وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسَابٍ وَلَا يُشْفِعُ عَمَلُهُمْ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يَسْمَعُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَسْمَعُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضَّ، فإذا فطنوا لحظ، فإذا فطنوا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدَّ ولو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحاك: ﴿حَاطَةَ الْأَعْيُنِ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: من الوسوسة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل. وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنه، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢١). وهذا الذي فسره به ابن عباس في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسْرَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَاتِ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مَثَلًا فِي الْأَرْضِ فَلَا تَذَكَّرُهُمْ إِلَّا بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ (٢٢) ذلك يأتيهم رؤسهم بالبينت فكفروا فأخذهم الله إنهم قوي شديد العقاب (٢٢). يقول تعالى: أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَمَا آتَاكَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أثروا في الأرض من البنائيات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الاحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الْأَرْضُ وَعَمْرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمْرُوهَا﴾ [الروم: ٩]. ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلمهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق. ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموا، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا ووجدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكتهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة ويطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٣) إِنْ فَرَعُونَ وَهَمَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا أَأَنبَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُكَيِّدٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحججة والبرهان ﴿إِنْ فَرَعُونَ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَمَنَ﴾، وهو: وزير في مملكته، ﴿وَقُرُونِ﴾، وكان أكثر الناس في زمانه ملاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمخراً قاً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله. وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ جُنُونٌ﴾ (٥١) أَوَّاهُوا بِرَبِّهِمْ فَلَمْ يُؤْمَرُوا بِأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ أَهْلُهُمْ عَلَيْهِمْ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا أَأَنبَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوَدَيْتَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَبِنَاصِيَتِنَا قَالَتْ إِنَّ رَبِّي مُبَدِّلُ دِينِكُمْ وَأَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ لَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الاعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يتصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، وهذا عزم من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى، عليه السلام، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد. وقوله - قبجه الله -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، يعني: موسى، يخشى فرعون أن يفضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذْكَراً»، يعني: واعظاً، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام. وقرأ الآخرون: «أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: «يظهر في الأرض الفساد»، بالضم. وقال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُكَيِّدٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي:

لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى: استجرت بالله وغدثت به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أيها المخاطبون، ﴿بَيْنَ كُلِّ مُمْكِرٍ﴾ أي: عن الحق، مجرم، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِتَوَارِثِ السَّابِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، ونندرا بك في نحورهم».

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِيْنَ فِي الْأَرْضِ مَن يَصْرَفُنَا مِنْ بَنِي اللَّهِ إِنَّ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْوَىٰكُمْ إِلَّا سَيْدَ الرَّسَادِ﴾ ﴿٢٩﴾.

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون. قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابن جرير، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعِل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ كَتَمَ بِأَيْمُونِهِ بِكَ يَقْتُلُونَكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، فأخذت الرجل غضبة لله ﷻ، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: لأجل أن يقول ربي الله، اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبيد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فحنقه حنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه ودفع عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عُبدَةُ، عن هشام - يعني ابن عروة - عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِلَ: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها. وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: «ربي الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه يعلو على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد أذيتموه بصيبيكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه، وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه المودعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذْرَأَ إِلَهَ عِبَادِ اللَّهِ إِلَهِي لَكُرْ رَسُولُ آيَاتٍ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهِي آيَاتِكُمْ سُلْطَانِي مُبِينٍ﴾ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَأَوْنَا لِي قَامَرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الدخان: ١٧-٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعوا إلى الله تعالى عباد الله، ولا يمسه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيتهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. على هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجاً مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله. ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِيْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور

في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نعمة الله إن كذبت رسوله، ﴿فَمَنْ يَبْشُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ رَادُوا عَلَيَّ مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارِ الرَّاشِدُ الَّذِي كَانَ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْ فِرْعَوْنَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَاتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا آسَاتِيْنَهَا أَنْفُسَهُمْ غُلَامًا وَطَوْرًا﴾ [النمل: ١٤]. فقولوه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافتري، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَأَبْتَوْا أَتْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَتْرَ فِرْعَوْنَكَ بِرِشِيدٍ﴾ [هود: ٤٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَيْتُمْ﴾ [طه: ٤٧]، وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يحرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام».

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَقَوَّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْمًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ﴿يَتَقَوَّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: كذبوا رسلاً الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صدهم عنهم صاد. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَتَقَوَّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْمًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ١٤] يعني: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً. وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هرباً، ففتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام الحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الحاشية: ١٧]، وقوله: ﴿يَتَمَشَرُّ الْمَلِكُ وَالْإِنْسُ إِذْ اسْتَظَلَّتْهُمُ أَنْ تَفْعَلُوا مِنَ الْأَرْضِ فَأَنْفَعُوا لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقد روي عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التناد»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقي فلان بن فلان. وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم: ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ يَبْدَأُ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَرِضُوا عَلَيْكَ مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُولُتُونَ مُدْيُونٍ﴾ أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَوَدَّ﴾ [١١] ﴿إِنَّ رَبَّهُ يَوْمَئِذٍ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ﴾ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلِيَّتَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي سُلْبِكُمْ مِمَّا جَاءَكُمْ بِئِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: يستم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِعَدْرِ سُلْطَانِ أَتْلُهُمْ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَرَّ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفة، فإن من كانت هذه صفة يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد

ذلك معروفاً، ولا ينكر منكرأ؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة - وحكى عن الشعبي - أنهما قالاً: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسه. وقال أبو عمران الجوني، وقناة: آية الجبابة القتل بغير حق.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنَّ ابْنِي بِي صَبَاً لَمَلِي أَتَيْتُكَ مِنَ الْبَنَاتِ ذِيئًا فَاتَّبَعْتَنِي وَأَنتَ كَذِبٌ مُّذْتَبِعٌ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ سَوْءَ عَمَلِيهِ وَسُوءَ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ﴿٣٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقَدَ ابْنُ يَهْمَكُنَّ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْمَلَ فِي صَرْحٍ﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿أَتَيْتُكَ مِنَ الْبَنَاتِ ذِيئًا﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَسُوءَ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد: يعني إلا في خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ ﴿٤٦﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا آيَاتِكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾. ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷺ، فقال: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾. أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل، ﴿وَأَنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إيمانهم وإيمانهم وإيمانهم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَوْمَهُ﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله، ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاذ.

﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٦﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالي أذعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَتَقُولُ مَا يَصُدِّقُكَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَصَاقٌ يَأْكُلُ فِرْعَوْنَ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ وهو: الفرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده المأ وأعظمه نكالاً. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿أَنَارٌ يَرْمُوكَ عَلَيْهَا فُعْفُوعًا وَعَشِيًّا﴾. ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلووا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النصر - حدثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص - حدثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة: أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وياك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا تصنع لي شيئاً من المعروف إلا قالت: وياك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبيكنم كثيراً وضحكتم قليلاً. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه. وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة - قال: سألتها امرأة يهودية فأعطينها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وانه أوحى إليّ أنكم تختنون في قبوركم».

وهذا أيضاً على شرطهما. فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تختنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليلي، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إليّ أنكم تختنون في القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرمله، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلما أوحى إليه في ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخاري من حديث شعبة، عن أشعث بن أبي الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقرر عليه. وفي الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة في قوله: ﴿عُدْوًا وَعَشِيًّا﴾: صباحاً ومساءً، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيحاً ونقمة وضغارة لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغذى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة على العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها. وقد رواه الثوري، عن أبي قيس، عن الهزليل بن شرجبيل، من كلامه في أرواح آل فرعون. وكذلك قال

السدي . وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبيدي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا». **﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**، وآل فرعون كالإبل المسومة يخطون الحجارة والشجر ولا يعقلون». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا زيد بن أخرم، حدثنا عامر بن مُذْرِك الحارثي، حدثنا عتبة - يعني ابن يقظان - عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن شهاب، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أتاه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أتاه الله المال والولد والصحة وأشبه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: **﴿أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**. رواه البزار في مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسناداً غير هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزاري البلخي قال: سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيوراً تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضاً، فوجاً فوجاً، لا يعلم عددها إلا الله، ﷻ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً. قال: وفطمت إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدواً وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سوداً، فنيبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تعدو على النار غدواً وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فلذلك دؤبهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: **﴿أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**، قال: وكانوا يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدأة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حيث بيعتلك الله، ﷻ، إلى يوم القيامة». أخرجه في الصحيحين، من حديث مالك، به.

﴿وَإِذْ يَتَحَاكَّرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الْمُضْمَرُّ لِلذِّبْرِ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا صَيْبًا مِنَّ النَّارِ﴾ قَالَ الذِّبْرِ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَيْنِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الذِّبْرِ فِي النَّارِ لِحَزْنِهِ جَهَنَّمَ أَدْعَاؤُكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا مَا دُعَيْتُمُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٥٠﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿فَيَقُولُ الْمُضْمَرُّ﴾** وهم: الأنبياء **﴿لِلذِّبْرِ اسْتَكْبَرُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾** أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا صَيْبًا مِنَّ النَّارِ﴾** أي: قسماً تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الذِّبْرِ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَيْنِ﴾** أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨]. **﴿وَقَالَ الذِّبْرِ فِي النَّارِ لِحَزْنِهِ جَهَنَّمَ أَدْعَاؤُكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾** (٤٩)؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألو الخزنة - وهم كالوابين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾** أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: **﴿وَمَا دُعَيْتُمُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾** أي: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالذِّبْرِ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعٰذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيْلَ الْكِتٰبَ ﴿٥٣﴾ هٰذِي ذِكْرٰى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذٰنِكَ وَمَسِّحْ بِمَدْيَنَ رِيكَ بِالْمَسْحِ وَالْإِبْرٰكِرَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الذِّبْرِ يُجٰدِلُونَ فِي ءَايٰتِ اللَّهِ بِمَنِّ سُلْطٰنِ أَنَّهُمْ إِنْ فِي سُوءِوَبِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّآ هُمْ بِيٰسْتَعِدُّوهُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّكِيْبُ ﴿٥٦﴾.

قد ورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالذِّبْرِ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾** سؤالا فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيباء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين. أحدهما: أن يكون

الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائق في اللغة. الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن أذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً، يقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». وفي الحديث الآخر: «إني لأثار لأوليائي كما يثار لليث الحرب»، ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين، فلم يقلت منهم أحداً.

قال السدي: لم يبعث الله رسولاً قط، إلى قوم فيقتلون، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذ الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) أي: يوم القيامة تكون النصرمة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأَشْهُدُ: الملائكة. وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾. وقرأ آخرون: ﴿يَوْمَ بِالرَّفْعِ، كانه فسره به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعَذَرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَالَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الإبعاد والطرده من الرحمة، ﴿وَالَهُمْ سُوءُ النَّارِ﴾ وهي النار. قاله السدي، بش المنزل والمقيل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَهُمْ سُوءُ النَّارِ﴾ أي: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْثَقْنَا بِحَبْلِ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفي الكتاب الذي أورثوه - وهو التوراة - ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢) وهي: العقول الصحيحة السليمة. وقوله: ﴿فَأَصْبَرَ﴾ أي: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: وعدناك أنا سنعلني كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. وقوله: ﴿وَأَسْتَفِيزُ لَدَيْكَ﴾، هذا تهيج للامة على الاستغفار، ﴿وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَاللَّيْلِ﴾، وهو أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ سُلْطَانَهُمْ﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِنَّ فِي سُوءِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَأَسْتَوِدُّ بِاللَّهِ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّكُمْ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾، أو: من شرمثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير. وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ سُلْطَانَهُمْ﴾ إن في سُوءِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ أمراً له أن يستعذ من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَوِدُّ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾. وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

يقول تعالى منبهاً على أنه بعيد الخلاق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بداية وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَدًا يَخْلُقْهُنَّ يَتَذَكَّرُ عَلَيَّ أَنْ يَخْبِيَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَيَّ كُلِّ قَوْمٍ قَدِيرٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ فلماذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا. ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿فَدَخَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ مَهَالِكِ الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ .

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه نذب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفیان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سَوْأَلَهُ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وليس كذلك غيرك يا رب. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللُّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْأَلَهُ وَوَسْنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ
وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وكان يقال له: «ادعني أستجب لك» وقال لهذا الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقال الإمام الحافظ أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترمذاني، حدثنا صالح المري قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ - فيما يروى عن ربه ﷻ - قال: «أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك عليّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي: فأرض لهم ما ترضى لنفسك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يسيع الكندي، عن النعمان بن بشير، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير أيضاً، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به. وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به. ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مريح المدني - شيخ من أهل المدينة - سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، ﷻ، غضب الله عليه». تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا مروان الفزاري، حدثنا صبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه». قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صبيح. كذا قيده بالضم عبد الغني بن سعيد. وأما أبو صالح هذا فهو الخوزي، سكن شعب الخوز. قاله البزار في مسنده. وكذا وقع في روايته أبو المليح الفارسي، عن أبي صالح الخوزي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه». وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن

الرامهرمزي: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثني عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية دهركم نفحات، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً».

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي: ﴿سَيَخْلُقُونَ جَهَنَّمَ ذَخِيرًا﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلَمُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ - يُقَالُ لَهُ: بُولَسٌ - تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يَسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ: عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس: سمعت أبي يحدث عن وهيب بن الورد: حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفاً من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك! يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك - قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى - قال: ثم عاد الثانية فقال: يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضي غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى، قال: فناديته: أجنبي أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك بما يعينك عما لا يعينك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لَتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو قَصْبٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١) ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلَهُ تُوقَفُونَ﴾ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَزْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَمَوْرِدًا مَحْضًا فَاصْحَسْنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٤) هُوَ الَّذِي لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٥).

يقول تعالى ممثنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعاش بالنهار، وجعل النهار مبصراً، أي: مضيئاً، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَدُو قَصْبٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم. ثم قال: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله إلا غيره، ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة منحوتة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٦٢) أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته. وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَزْرًا﴾ أي: جعلها مستقراً لكم، بساطاً مهاداً تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وَمَوْرِدًا مَحْضًا﴾ أي: من المأكول والمشرب في الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكن، والأرزاق - فهو الخالق الرازق، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ رِزْقًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَبَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) [البقرة: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عدل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين له مقربين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرؤن من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٦٥) وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلا الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٦٥).

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَا جَاهَةٌ فِي الْيَوْمِ الَّذِي نُرْتَدُّ مِنْ رَبِّي وَأُورَثُ أَنْ أُسْلِمَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) هُوَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى مِنْ قَبْلٍ وَيَلْبَغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي يخلقكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله: ﴿لَيْسَ لَكُمْ وَقْفٌ فِي الْأَمْوَالِ مَا نَكَهَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قال ابن جريج، تذكرون البعث. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَاجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ بَصُرُونُ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَغْتَابِهِمُ وَالسَّلِيلُ ﴿٨١﴾ فِي لَعِينٍ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ شُرَكَائُ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سَلُوا عَنَّا لِمَ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ ذَلِكَ بِمَا كَفَرْتُمْ تَقْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْشُونَ ﴿٨٤﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَمَ لَنَا الْكَاذِبِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا﴾ أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿قَوْلًا يَوْمَهُ لِلْمُذَكِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: ١٥]. وقوله: ﴿إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَغْتَابِهِمُ وَالسَّلِيلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْجَرُونَ فِي لَعِينٍ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، كما قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُتَكِبُونَ ﴿٧٩﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ ذِيئِ عَمِيرٍ آتٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَىٰ الْجَحِيمِ ﴿٧٨﴾﴾ [الصفات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْفِجَالِ مَا أَصْحَابُ الْفِجَالِ ﴿٨١﴾ فِي سُورٍ وَجِيمٍ ﴿٨٢﴾ وَظِلٌّ مِنْ جَهَنَّمَ ﴿٨٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٨٥﴾ لَأَكُونُ مِنْ سَجَرٍ مِنْ زُؤَمٍ ﴿٨٦﴾ قَالِقُونَ فِيهَا الْبُلْبُلُونَ ﴿٨٧﴾ فَتَرْوُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَيْمِ ﴿٨٨﴾ فَتَرْوُونَ شَرْبَ الْغَيْمِ ﴿٨٩﴾ هُنَا تُرْمَلُ بِرِمَّ الْإِنِّ ﴿٩٠﴾﴾ [الرافعة: ٤١-٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٨٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٨٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٨٥﴾ كَغَلِّ الْحَمِيمِ ﴿٨٦﴾ خُدُودُهُمْ فَاتَّعَلَوْا إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٨٧﴾ ثُمَّ سُيُوفُ قُورٍ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٨٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٨٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْشُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير بن طلحة الخزامي، عن خالد بن ذريك، عن علي بن منية - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - قال: «يشيء الله سبحانه لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أي شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سبحانه الدنيا فيقولون: نسأل بزد الشراب، فتمطرهم اغلاً لا تزيد في اغلالهم، وسلاسل تزيد في سلاسلهم، وجرماً تُلهب النار عليهم». هذا حديث غريب.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ شُرَكَائُ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا سَلُوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تَدْعُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ . وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَقْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْشُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأسرركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَمَ لَنَا الْكَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾﴾

أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه. ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُكَ بَعْضُ الَّذِي تَدْعُهُمْ أَوْ تَوَعَّيْتُكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ينهونهم عن قسصنا عليك وينهونهم عن أن تقصص عليك وما كان رسولاً أن يأتيك بكاتباً إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله فاقبض بالحق وخير هنالك المتبطلون ﴿٧٨﴾﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من

النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَكَيْفًا تَرِيَّتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَدُّمُكُمْ﴾ أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ. وقوله: ﴿أَوْ تَرَوَيْتَكَ فَإِنِّي نَارِيحُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِن نَّهْمِهِمْ مَّن لَّمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال في سورة النساء سواء، أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة، والنصرة، ﴿وَيُنهَمُ مَّن لَّمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَيِّفٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿يَقْضَىٰ بِالْحَقِّ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَحَسِيرَ هَذَا لِكَالْمُتَلَبِّطِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِرِزْقِكُمْ وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يقول تعالى ممثلاً على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿فِيهَا رِزْقُهُمْ وَمِنَهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٧]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحترث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأربابها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فضل وتبين في أماكن تقدم ذكرها في «سورة الأنعام»، و«سورة النحل»، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِرِزْقِكُمْ وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾. وقوله: ﴿وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَلَمْ يَجْعَلُوا فِي الْأَرْضِ مَنَظَرًا كَيْفَ كَانَ عِزَّةُ الْبَرِّ مِّن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَاطِرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَالِغِ وَجَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسُكْرَتْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَحَسِيرَ هَذَا لِكَالْكُفْرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فاتاهم من بأس الله ما لا يقبل لهم به. ﴿وَجَافَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسُكْرَتْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿مَآءَتْ أَنفُؤُنَا إِلَى اللَّهِ وَاللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَآءَتْ وَأَلْفَنَّا وَقَدْ حَصَبَتْ قَبْلُ وَكُنْتُمْ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاه عليه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وهكذا هاهنا قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحجر، وعابن الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَحَسِيرَ هَذَا لِكَالْكُفْرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة غافر،

وبه الحمد والمنة



تفسير سورة فصلت

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَرَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِمْ لَّا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَاوِلُونَ ﴿٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَرَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنَتْ معانيه وأحكامه، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه لفظاً عربياً، بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشككة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِمْ لَّا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَاوِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك. وقال الإمام العَلَمُ عبد بن حَمِيد في مسنده: حدثني ابن أبي شيبه، حدثنا علي بن مُسَهر، عن الأجلح، عن الذَّيَال بن حَزْمَةَ الأَسدي، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أَعْلَمَكُم بالسحر والكهانة والشعر، فليات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. قالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبَّت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، وإنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً! والله ما نظر إلا مثل صبيحة الحُبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيف، حتى نتفاني! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباء فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَعْتُ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْأَكْرَبَ الرَّجِيمَ﴾ ﴿١﴾ ﴿حَرَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿٣﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلى كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، قالوا: فما قال؟ قال: لا، والذي نصبها نبياً ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة. وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن أبي بكر بن شيبه بإسناده، مثله سواء. وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل، عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي - وقد ضَعَفَ بعض الشيء عن الذَّيَال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿٣﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة قد أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حسبك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله، لقد علمتني أنني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما

هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب. وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثْتُ أَنْ عْتَبَةَ بِنَ رِبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَكَلِمُهُ وَأَعْرُضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا، فَتَنْعِيهِ أَيُّهَا شَاءَ وَيَكْفُ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَمِمَّ إِلَيْهِ فَكَلِمُهُ. فَجَاءَ إِلَيْهِ عْتَبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مَنَا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَفَرَقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبْتَ بِهِ أَلْهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهِ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمِعْ مِنِّي أَعْرُضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا بَعْضُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمِعْ». قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أُمُورِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أُمُورًا. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ شَرْفًا سَوْدَانِكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ مَلِكًا مَلِكْنَاكَ عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَيْبًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَهُ عَن نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أُمُورِنَا حَتَّى نَبْرُتَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلِبَ النَّابِعَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَارِيَ مِنْهُ - أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ - حَتَّى إِذَا فَرَّغَ عْتَبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ: «أَفَرِغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟». قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «فَاسْتَمِعْ مِنِّي» قَالَ: أَفْعَلُ. قَالَ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْمُكْتَبِينَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿حَمْدٌ ﴿١٥﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ كَتَبْتُ فَبَصَلْتُ عَائِشَةَ قَوْمًا عَرَبِيًّا لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ بَيْبِئًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ فَهَمَّ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾. ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرُؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَ عْتَبَةَ أَنْصَتَ لَهَا، وَالْقَى بِيَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتُ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ»، فَجَاءَ عْتَبَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَقْسَمُ - يَحْلِفُ بِاللَّهِ - لَقَدْ جَاءَ كُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وِرَاءُكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهُ مَا هُوَ بِالسَّحْرِ وَلَا بِالشَّعْرِ وَلَا بِالْكِهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونَهَا لِي، خَلُوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزَلُوهُ، فَوَاللَّهِ لِيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأًا، فَإِنْ تَصَبَّه الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مَلِكِكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ. قَالُوا: سَحَرَكُ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ! قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ أَشْبَهَ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ جَدِّهِمْ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم هلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الذي لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهُ ﴿١٤﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهُ ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهُ ﴿١٤﴾ وَوَيْلٌ لِّمَنْ زَكَّاهُ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات. وقال السدي: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: الذين لا يدينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمتنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَايِهِ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١]، فاما الزكاة ذات النصب والمقادير فلإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، والله

أعلم. ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨) قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا محبوب، كقوله: ﴿تَنكِحِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٢) [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ غَيْرَ يَحْدُوثٍ﴾ [مرد: ٢١٠٨]. وقال السدي: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَدِيًّا وَوَقَفْنَا عَدَابَ السُّمُورِ﴾ (١٧) [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتعمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيَّاسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسْأَلَهُمْ عَنْهَا يَوْمَئِذٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٠) ﴿مَنْ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتْ أَنْبَا طَائِبِينَ﴾ (١١) ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢).

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ آيَاتٍ﴾ [الاعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يُبَدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٨]. فأما قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشْدُّ عَلَىٰ أَرْسَالِكُمْ أُبَاطَةً بَلِّغُوا فِيهَا مَا نَحْنُ بِمَسْكُومِينَ مِنْهَا وَنَسَىٰ مَقْوَمُهَا﴾ (١٧) ﴿وَنَسَىٰ مَقْوَمُهَا وَنَسَىٰ مَقْوَمُهَا﴾ (١٨) ﴿وَأَنْطَلَقَتْ إِلَيْهَا وَأُخْرِجَتْ مِنْهَا﴾ (١٩) ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَىٰ﴾ (٢٠) ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَرَعَعْنَهَا﴾ (٢١) ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَاءً لِمَا كُنَّ يَلْقَوْنَ فِيهَا كَبْعًا﴾ (٢٢) ﴿فَمِنْ حَيْثُ خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَبِئْتُهُنَّ بِمَا كُنَّ يَعْمَلْنَ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَرَعَعْنَهَا﴾ (٢٣) ﴿وَكَانَ هَذَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ فَمَا خَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ بِالضُّمِّ، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية في صحيحه، فإنه قال: وقال المنهال، عن سعيد بن جبيرة قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلَا أُنْسَابَ يَنْتَهَرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونٌ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كنتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَيْنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَىٰ﴾ [التازعات: ٢٧-٣٠]؛ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّامِينَ﴾، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكُنَّا اللَّهُ عَقْرًا رَجِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿سَيِّمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فكانه كان ثم مضى. قال - يعني ابن عباس -: ﴿فَلَا أُنْسَابَ يَنْتَهَرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونٌ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور، ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧). وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيَاتِكُمْ﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم تكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنتطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتنم حديثاً، وعنده ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢٢].

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيتها: أن أخرج منها الماء والمرعي، وخلق الجبال والجماد والأكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ (١٠)، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين. ﴿وَكُنَّا اللَّهُ عَقْرًا رَجِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، سمي نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلاماً من عند الله ﷻ. قال البخاري: حدثني يوسف بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال - هو ابن عمرو - بالحديث. فقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيَّاسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبدن والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسْأَلَهُمْ عَنْهَا﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال مجاهد وعكرمة في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابري بسابور، والطبالسة بالري. وقال ابن عباس، وقتادة، والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسْأَلَهُمْ عَنْهَا﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسْأَلَهُمْ عَنْهَا﴾ أي: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه. وهذا

القول يشبه ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ كَلِمَةٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. قال الثوري، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسماوات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي. وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجني ثمارك. فقالتا: ﴿أَيْنَا طَائِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير - رحمه الله. ﴿فَالْتَأْتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعاً مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما. وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم. وقال الحسن البصري: لو أبا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه. رواه ابن أبي حاتم. ﴿فَفَصَّنَهُمْ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين، أي: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. ﴿وَأَوْسَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتب مقررراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحَفَظْنَا﴾ أي: حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملا الأعلى. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم. قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس - قال هناد: قرأت سائر الحديث - أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة» ﴿فَلْ أَيْنُكُمْ لِلتَّكْفُورِ﴾ والذي خلق الأرض في يومئذٍ ﴿وَتَحْمَلُونَ لَهُهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَحَمَلَهَا فِيهَا رِيسٌ مِنْ قَوْفِهَا وَبَكَرٌ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْتَانًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّسَائِلِينَ﴾ ﴿١٣﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أنمتم! قالوا: ثم استراح. فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً: فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ لَيْلٍ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَصْبِرْ عَلَٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٥﴾. هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائي في كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به. وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن كعب الأحبار وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغْفَةً يَسْتَلِ صِغْفَةَ عَادٍ وَمُودَ﴾ ﴿١٦﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَيَتِ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِمَاءٍ أُرْسِلَتْ بِهِ كَثِيرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَّلَ بَرَاءٍ أَنْكَرَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْمَدُونَ ﴿١٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُبَيِّنَهُمْ عَذَابَ الْغَيْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعْدَابَ الْآخِرَةِ آخِرِينَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صِغْفَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَتَّقُونَ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين ﴿صِغْفَةً يَسْتَلِ صِغْفَةَ عَادٍ وَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَيَتِ خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرْتُ لَهَا عَادٌ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْ خَلْفَهُ﴾ [الاحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِمَاءٍ أُرْسِلَتْ بِهِ كَثِيرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرْتُ لَهَا عَادٌ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْ خَلْفَهُ﴾ [الاحقاف: ٢١] أي: لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا

أُرْسِلْتُمْ بِهِ، أي: أيها البشر ﴿كُفِرُونَ﴾ أي: لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادًا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّمَاةَ يَلْبِثُنَهَا بِأَثَرِي وَإِنِّي لَأَكْبِرُونَ﴾ [الدريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً، كقوله تعالى: ﴿بِإِيجِ مَرَصِرٍ عَلَيْهِمْ﴾ [الحاقة: ٦٦] أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصراً، لقوة صوت جريه. وقوله: ﴿فِي آيَاتٍ مَّخْسَاتٍ﴾ أي: متتابعات، ﴿سَمِعَ لَيْلًا وَمَكِينًا يُشْرِيهِمْ أَيُّهَا الضُّلَّالُ﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسِرَ﴾ [القم: ١٩] أي: ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليالٍ وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزري الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَلَّآ الْآخِرَةُ أَخْزَى﴾ أي: أشد خزيًا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُصْزَرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقبهم العذاب ويدراً عنهم النكال. وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والسدي، وابن زيد: بينا لهم. وقال الثوري: دعوانهم. ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْمَمَىٰ عَلَى الْمَدِينِ﴾ أي: بصرانهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ، فخالقوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعَةً أَلْعَابٍ مِّمَّا هُمْ كَارِهِونَ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود. ﴿وَوَيْحُنَا لَآلِئِنَّا وَكَلَانَا أَفَأَنْتُمْ تُبْذَرُونَ﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله ﷻ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا صَبَّحْتُمُ مِنَ الْمَتْلَبِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: تجتمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُتْرِبِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَذُكَّارًا﴾ [ريم: ٤٨٦] أي: عطاشاً. وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا﴾ أي: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يكتُم منه حرف. ﴿وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾ أي: لا موا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه يرجعون. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا علي بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكْتَبِ، عن الشعبي، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، اليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مراراً». قال: «فيختم على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لَكُنْ وسُحْقاً، عنكن كنت أجادل». ثم رواه هو وابن أبي حاتم، من حديث أبي عامر الأسدي، عن الثوري، عن عبيد المُكْتَبِ، عن فضيل بن عمرو، عن الشعبي ثم قال: «لا نعلم رواه عن أنس غير الشعبي». وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن الثوري، به. ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُليّة، عن يونس ابن عُبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بُرْذَةَ: قال أبو موسى: ويدعي الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ﷻ عمله، فيجحد ويقول: يا رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا

وعزتك، أي رب ما عملته. قال: فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه - قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذة اليمنى. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا حسن، عن ابن لهيعة: قال ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُزِفَ الكافر بعمله، فوجد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم السننهم، ويدخلهم النار». وقال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبي: حدثنا علي بن زيد، عن مسلم بن ضبيح أبي الضحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتدرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختتم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ وَكَلِمَةٍ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي، عن رافع أبي الحسن - وصف رجلاً جحد - قال: فيشير الله إلى لسانه، فيرو في فمه حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لأرابه كلها: تكلمي واشهدي عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويده وأرجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا. وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ١٠]. بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي، عن ابن خُتَيْم، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبي ﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا عُذْر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقْتُ، وصدقته، كيف يُقدِّس الله قوماً لا يؤخذ لضعفهم من شديدهم؟». هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لَّظَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمُ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟﴾ أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم. قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمار، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: كنت مستترأ بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشي، وختناه ثقفيان - أو: ثقف وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال: الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾. إلى قوله: ﴿وَيَنْ لَّخَبِيرِينَ﴾. وكذا رواه الترمذي عن هناد، عن أبي معاوية، بإسناده نحوه. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً، من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن عمار بن عمير، عن وهب بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، نحوه.

ورواه البخاري ومسلم أيضاً، من حديث السفيانيين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سَجْبَرَةَ، عن ابن مسعود، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَوْنَ مُقَدِّمًا على أفواهكم بالندام، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذة وكفه». قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمُ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني»، ثم أفتى الحسن ينظر في هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَبْرِئُونَ أَنْ يَنْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ ﴿٢٥﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ فَاصَّيْحَتُمْ مِنَ الْمَخْسِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ . وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص - وهو أبو المغيرة - حدثنا ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أراهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ فَاصَّيْحَتُمْ مِنَ الْمَخْسِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ . وقوله: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَمْتَنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿فَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم - قال: وهذه كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢٨﴾﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالَ اخْتَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

﴿وَقَسَمْنَا لَكَ فَرَاقَهُ فَرَقَتُوا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ رَحْمَةً عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْفَرَوَانَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلَكٌ تَقْلِبُونَ ﴿٣٦﴾ فَلْيَذِيقُوا الْعَذَابَ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجِزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَمْتَلُونَ ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ عَادَآءِ اللَّهِ أَن تَأْتَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ صَلَّأْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ جَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَبِضَ لهم من القرآن من شياطين الإنس والجن: ﴿فَرَزَقْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ رَحْمَةً عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ . كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْبَثْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ سَيْطَانًا فَيُفَوِّ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَسُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْضَبُونَ أُنُوفَهُمْ مُتَمَدِّدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب كما حق على أمم قد حلت من قبلهم، ممن فعل كفعالهم، من الجن والإنس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: استوروا هم وإياهم في الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْفَرَوَانَ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي: تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا يتقادوا لأوامره، ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي: إذا تلي لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن فريش تفعله. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾: عيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَمَلَكٌ تَقْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٤١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلْيَذِيقُوا الْعَذَابَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَتَجِزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَمْتَلُونَ﴾ أي: بشر أعمالهم، وسبى أعمالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ عَادَآءِ اللَّهِ أَن تَأْتَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ صَلَّأْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ جَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ . قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مالك بن الحصين الفزاري، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿الَّذِينَ صَلَّأْنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. وهكذا رواه حبة الغُرني عن علي، مثل ذلك. وقال السدي، عن علي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان علي ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». وقوله: ﴿جَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف من سؤال الأنبياء من الله أن يعذب قاداتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿يَكْفُرُ ضِعْفًا وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: إنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَكَلَّمْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ لَا تَحْفَاؤُوا وَلَا تَحْزَنْتُمْ وَأَنْصِتُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَكَّدُوا ﴿٤٢﴾﴾ تَحْنُ أُولَآئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ذَلَا مِنْ غَفْوَةٍ رَجِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ . يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الجراح، حدثنا سلم بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعْبِي، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾، قد قالها ناس ثم

كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها. وكذا رواه النسائي في تفسيره، والبخاري وابن جرير، عن عمرو بن علي الفلاس، عن سلم بن قتيبة به. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلاس به، ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد، عن سعيد بن نمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، أخبرنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس، رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله أرخص؟ قال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - بطاعته، ولم يروغوا وروغان الثعالب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم. قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه. ورواه النسائي من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر اعتصم به. قال: قل: ربي الله، ثم استقم. قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم. وذكر تمام الحديث.

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿الآن نَحْنُ أَقْوَامٌ﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنما نخلفكم فيه، ﴿وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء، رضي الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريته، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً قرأ سورة «حم السجدة»، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً. وهو الواقع. وقوله: ﴿مَنْ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقرب به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي: كما اخترتم، ﴿فَلَا يَنْغُورُ رَجِيمٌ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ما هنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ فلا يَنْغُورُ رَجِيمٌ ﴿٣٢﴾، فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد، حدثنا

الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه، فقال أبو هريرة: نسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة في أيام الدنيا فيزورون الله، ﷻ، ويرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس فيه أذنهم وما فيهم دنيء على كئيب المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً. قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نعم، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ - يذكرك ببعض غدراته في الدنيا - فيقول: أي رب، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط». قال: «ثم يقول ربنا - ﷻ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فتأتي سوقاً قد حُفَّتْ به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتيننا، ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزل الرفيعة، فيلقى من هو دونه - وما فيهم دنيء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها. ثم تنصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بجنبنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار - ﷻ - وبحقنا أن نقبل بمثل ما اقبلنا به».

وقد رواه الترمذي في صفة الجنة من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله كره لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه» قال: «وإن الكافر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره لقاءه». وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَأَنَّ لَهَا سَمْعًا وَمَا يُفْقَهُهَا إِلَّا دُرٌّ حَظِيظٌ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يُرِيتُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فضعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد به المؤذنون الصالحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». وفي السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عروة الهروي، حدثنا غسان قاضي هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمشحط في سبيل الله في دمه». قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذناً ما باليت ألا أرحم ولا أعتمر ولا أجاهد». قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذناً لكمل أمري، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثاً، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتدل على الأذان بالسيف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفانهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين». قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حي على

الصلاة» فقد دعا إلى الله . وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين . وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، أنه قال في قوله: ﴿وَعَجَلْ صَلَاتَكَ﴾ ، قال: يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة . ثم أورد البغوي حديث عبد الله بن المغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قاله في الثالثة: «لمن شاء» وقد أخرجه الجماعة في كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه وحديث الثوري، عن زيد العمى، عن أبي إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال الثوري: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبي ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة». رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي في «اليوم واللييلة»، كلهم من حديث الثوري، به . وقال الترمذي: هذا حديث حسن . ورواه النسائي أيضاً من حديث سليمان التيمي، عن قتادة، عن أنس، به . والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أراه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه، فقصه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذاً أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصري: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلَاتِهِ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إني من المسلمين، هذا خليفة الله .

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِيَ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه، «أدفع يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ» أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتة تلك الحسنه إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك . ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة . قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفر عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالفه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده . وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه» . وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفي سورة المؤمنین عند قوله: ﴿أَدْفَعْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ مِمَّنْ أَلَمُّ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] . لكن الذي ذكر في الأعراف أخف على النفس مما ذكر في سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان في هذه الحال، فتفعل له وتستعصي على صاحبها . فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ الْبَلَاءُ وَبَلَغَتِ الْقِسْمَاتُ أَلْفَ نَفْسٍ وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [٧٧] فَإِن سَأَلْتَهُنَّ فَاذْكُرْنَ أَنَّهُنَّ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ الْوَالِدُ وَوَلَدٌ لَهُمْ لَكُمُ الْوَالِدُ وَرَبُّكُمْ رَبُّكُمْ فَادْعُوهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلٍ عَنَّا وَإِذْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَإِذْ خَلَقْنَا الْبَشَرِ الْفَاسِقِينَ﴾ [٧٨] وَمَنْ يَأْتِيهِ الْبَلَاءُ وَبَلَغَتِ الْقِسْمَاتُ أَلْفَ نَفْسٍ وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [٧٩] وَمَنْ يَأْتِيهِ الْبَلَاءُ وَبَلَغَتِ الْقِسْمَاتُ أَلْفَ نَفْسٍ وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [٨٠]

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ الْبَلَاءُ وَبَلَغَتِ الْقِسْمَاتُ أَلْفَ نَفْسٍ وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ أي: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضيائه وتقدير منازل في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، يُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع

عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشكروا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة، ﴿سَيُحَوِّنُ لَهُمْ يَأْتِيهِمُ وَالنَّارُ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعني ابن وكيع - حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذاباً لقوم». وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: هامة لانبثاب فيها، بل هي ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والشمار، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لَحَيَاهَا لَمَتَّى الْمَوْتِ إِنَّهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا لَقَدْ قَرَأُوا فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٤٠] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَنُفٌ عَرِيبٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِمُ النَّظِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيلٌ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرَةٌ وَدُوٌّ عِقَابٍ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ .

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير موضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالمعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ قَرَأُوا فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي: أيسوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال - ﷻ - تهديداً للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد، أي: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدي، وقاتدة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَنُفٌ عَرِيبٌ﴾ أي: منيع الجانب، لا يرام أن يأتي أحد بعثله، ﴿لَا يَأْتِيهِمُ النَّظِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَرْجِيلٌ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته. ثم قال: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدي، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبي حاتم وغيره. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: لمن تاب إليه، ﴿وَدُوٌّ عِقَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غفر الله وتجاوزه ما هتأ أحدنا العيش، ولولا وعيده وعقابه لانكل كل أحد».

﴿وَلَوْ جَمَعْتُمْ قُوَّةَنَا أَجْمَعِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُنَا لَأَنجَمِيَّ وَعَرَفِيَّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُبَادِرُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَحْتَفَبَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُوعِن بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِيَّاتِ لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُنَا لَأَنجَمِيَّ وَعَرَفِيَّ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولا نكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه. هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُنَا لَأَنجَمِيَّ وَعَرَفِيَّ﴾ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿لَأَنجَمِيَّ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبيرة. وهو في التعنت والعناد أبلغ. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿أُولَئِكَ يُبَادِرُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كان من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا كَمَنْ أَلْفَىٰ يَتِيمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَبَدَاةً صُمٌّ بَعْمٌ سُمٌّ قَهْرٌ

لَا يَتَّبِعُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال الضحاک: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم. وقال السدي: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالساً عند رجل من المسلمين يقضي، إذ قال: يا ليبيكاه. فقال عمر: لِمَ ليبي؟ هل رأيت أحداً، أو دعاك أحداً؟ قال: دعاني داع من وراء البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. . رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّبَ وأوذى ﴿فَأَمِيرٌ كَمَا صَبَّرَ أَوْلَادُ الْعَزِيزِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كِتَابُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [التورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقَبَضُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً، ﴿وَأَيْتُهُمْ لَمِىَ شَيْءٌ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿إِنِّي بَرِّدُ يَوْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ كُمُومٍ وَمَا تَكْمُلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَائِهِمْ قَالُوا مَا أَذْنَابُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيحٍ﴾ ﴿١٨٠﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه. ثم قال: ﴿إِنِّي بَرِّدُ يَوْمَ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما قال تعالى: ﴿إِن كَرِهَ اللَّهُ مُشَاهَبَكُمْ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقِيهَا إِلَّا هُرٌّ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ كُمُومٍ وَمَا تَكْمُلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي: الجميع يعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْطُرُ مِنْ ذَرَفَةٍ إِلَّا يَسْمَعُهَا﴾ [الانعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يَسْمَعُ مَا تَقُولُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَضِيضُ الْأَرْكَامِ وَمَا تَرْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعْتَمِرٍ وَلَا يُفْضِلُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: آين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا مَا أَذْنَابُكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكاً، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفوهم، ﴿وظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيحٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيحٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَوَّاءُ الْمَجْرُومِ النَّارُ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥١﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعْوَى الْآخِرِ وَإِنَّمَا أَنشَأَ الشَّرُّ فَيَقُولُ قَتُولًا﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَدْوٍ ضَرَّاهُ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَادِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَنبِئَهُمْ مِنْ عَذَابٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ ظُرُومًا وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

يقول تعالى: لا يَمَلُ الإنسان من دعائه ربه بالخير - وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك - وإن مسه الشر - وهو: البلاء أو الفقر - ﴿فَيَقُولُ قَتُولًا﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَدْوٍ ضَرَّاهُ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقول: هذا لي، إن كنت أستحقه عند ربي، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خول نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿أَن ذَرَاهُ أَسْفَىٰ﴾ ﴿٧﴾ [العلق: ٦، ٧]. ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثم معاد فليحسبن إلي ربي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله، ﷻ، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَادِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَنبِئَهُمْ مِنْ عَذَابٍ عَلِيمٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال. ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ ظُرُومًا وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَكَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَسْأَلُ مَنْ مَوْ فِي شِقَاقِ بَعِيهِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ

يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٢﴾ .
 يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا﴾ هذا القرآن ﴿مِن عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ؟﴾ أي: كيف تُزَوِّن حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَسْأَلْ وَمَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أي: في كفر وعناد ومشاقفة للحق، ومثلك بعيد عن الهدى. ثم قال: ﴿سَرَّيْهِمْ أَإِنِّي نَبِيٌّ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلائلنا وُحَجَّجْنَا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مِثْلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ، عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِدَلَالِلٍ خَارِجِيَّةٍ ﴿فِي الْآفَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد، والحسن، والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بِهِمْ، نصر الله فيها محمداً وصحبه، وخذَلْ فِيهَا الْبَاطِلَ وَجَزَيْهِ. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته، وحيلته، وحذره أن يجوزها، ولا يتعدها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار، عن شيخه أبي جعفر القرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُغْتَابِرًا فَاَنْظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُغْتَابِرٌ
 أَنْتَ الَّذِي يُنْسَى وَيُضْبَحُ فِي الدِّ دُنْيَا وَكُتِلَ أَمْرُهُ عِبْرٌ
 أَنْتَ الْمَصْرُوفُ كَانَ فِي صَفْرِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِشَخْصِكَ الْكَبَرُ
 أَنْتَ الَّذِي تَنْفَعُ خَلْقُهُ يَنْفَعُهُ مِنْهُ الشُّغْرُ وَالْبِشْرُ
 أَنْتَ الَّذِي تُفْطِي وَتُشْلِبُ لَا يُنْجِيهِ مَنْ أَنْ يُسْلَبَ الْحَذْرُ
 أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَبَّ وَأَخْتُ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقُدْرُ

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِوَيْحِهِ وَاللَّكُمِ كَذِبٌ يُشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾؟ أي: في شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدْرٌ لَا يَعْبُودُونَ بِهِ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ وَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ. قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق، والمكذب به هالك ثم نزل. ومعنى قوله، رضي الله عنه: «أن المصدق به أحق» أي: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهوته وذنوبه، فهو أحق بهذا الاعتبار، والأحق في اللغة: ضعيف العقل. وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم. ثم قال تعالى - مقررأ على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

آخر تفسير سورة

حم السجدة



تفسير سورة الشورى

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الْحَقُّ أَهْلُ الْبَيْتِ وَوَلِيُّ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (١)

كَأَدَّ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرُكَ مِنْ قَوْفِهِنَّ وَالْمَلَأَكُنَّةَ لِيَسْجُوهْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَتَسْتَعْفِفُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْقَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً مكرراً، فقال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوَظِي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة بن اليمان - : أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقاله فأعرض عنه، فلم يجبه بشيء وكره مقاله، ثم كررها الثالثة فلم يُجِزْ إليه شيئاً. فقال حذيفة: أنا أنبتك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله - أو: عبد الله - ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنِي عليه مدينتان، يشق النهر بينهما شقاً، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فنصبح سواداً مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾، يعني: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حَمْدٌ ﴿١﴾، عين: يعني عدلاً منه، سين: يعني سيكون، ق: يعني واقع بهاتين المدينتين. وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس، وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ في ذلك، ولكن إسناده ضعيف جداً ومنقطع، فإنه قال: حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الله الملك الحسن بن يحيى الخُشَنِي الدمشقي، عن أبي معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾﴾ اسم من أسماء الله تعالى، قال: فعين؟ قال: «عاين المولود عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴿٦﴾﴾ أي: في انتقامه، ﴿الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ في أقواله وأفعاله. قال الإمام مالك - رحمه الله - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري. وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني وقد وعيت ما قاله» قال: «وهو أشده عليّ» قال: «وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني، فأعي ما يقول». وقال الإمام أحمد: حدثنا فتية، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلصلة ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تُقْبَضُ». تفرد به أحمد. وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ في أول شرح البخاري، بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿لَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿كَأَدَّ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرُكَ مِنْ قَوْفِهِنَّ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأخبار: أي فرقاً، من العظمة ﴿وَالْمَلَأَكُنَّةَ لِيَسْجُوهْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَتَسْتَعْفِفُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَرْضَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ لِيَسْجُوهْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقوله: ﴿إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْقَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: إعلام بذلك وتنويه به. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عدداً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَيُنذِرَ يَوْمَ الْمَجْزِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ بَيْنَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحا جلياً بينا، ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة المذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وهو واقف بالبحرزة في سوق مكة: - «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». وهكذا رواية الترمذي والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَلِنُنذِرَ يَوْمَ الْمَعْجَمِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كان لا محالة. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْمَعْجَمِ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [التغابن: ٩] أي: يمتحن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ لَمَعَةٍ قَدْ خَلَتْ أَرْبَابُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ تَكْفُرُ﴾ ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ نَفَسٌ إِلَّا بِلَذِينِهِ فَيُنْفَخُ شَفِيرٌ وَسَكِينٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥]. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثني أبو قبيل المغافري، عن شُفَى الأصحبي، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فإي شيء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدَدُوا وَقَارِبُوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإن عَمِلَ أي عمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار، وإن عمل أي عمل» ثم قال بيده فقبحها، ثم قال: «فرغ ربكم ﷻ من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق في الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق في السعير».

وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن قتبية، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبي قبيل، عن شُفَى بن ماتع الأصحبي، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل من الله ﷻ». ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، به. ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قبيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره. ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث وخَيَّوَةَ بن شُرَيْح، عن يحيى بن أبي أسيد؛ أن أبا فراس حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفثه نفث المزدود، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال التُّعَفِّ، فقبحهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا الموقف أشبه بالصواب، والله أعلم. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أخبرنا الجُرَيْرِي، عن أبي نصر، أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله - دخل عليه صحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا. وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمعة. وقوله: ﴿رَوَى سَاءَ اللَّهُ لِمَعْلَمِهِمْ أَنَّهُمْ وَجِدَهُ﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه أن موسى، عليه السلام، قال: يا رب خلقت الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع دُزُك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿أَبْرَأْتُمْ أَزْوَاجًا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَنْخَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَمَكِّمُكُمْ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفِيهِ

شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكْفِي شَىءٍ عَٰلِمٌ ﴿١٤﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير. ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور. وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، مئةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي، رحمه الله ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: في بمعنى الباء، أي: يذروكم به. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ يَكْفِي شَىءٍ عَٰلِمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كَثْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُبِغِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَمَا تَقْرَفُوا لِأَن يُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُوقِ وَلَئِن كَانَتْ سِبْقَتُ مِّن رَّيْكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِي بَيْنَهُمْ وَلَئِن الْبُرُوقُ أَكْثَرُ عَلَيْكُمْ فَفَرَّجْنَا فِيهَا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيهَا لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا﴾

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ فُجَّعٍ لِّإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ وَإِن مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا لَمَعْنَا أَجْرًا مِّن رَّبِّكَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيهَا لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا﴾. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحدة أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلَةٍ مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَنَهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾ أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَثْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُبِغِ﴾ أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، وكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا لِأَن يُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُوقِ﴾ أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. ثم قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَانَتْ سِبْقَتُ مِّن رَّيْكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً. وقوله: ﴿وَإِن الْبُرُوقُ أَكْثَرُ عَلَيْكُمْ فَفَرَّجْنَا فِيهَا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيهَا لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأولى المكذب للحق ﴿لِي شَيْءٍ مِّنْهُ مَرْيَبٌ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَقْدَمَ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُبْرَتْ وَلَا تَنبَعِ أَمْوَالُهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِن كُنُوزٍ وَأَمْرٌ وَعَلِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿لَقَدْ عَلَّمْتُمُ الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتُمْ لَمِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَّا لِقَاءِ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ أَجْرًا﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه - قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُوتِيتُ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله ﷻ. وقوله: ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَوْهَاتِكُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُوتِيتُ لِأَعْمَلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله. وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نفر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً. وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجِهٌ؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [سبا: ٢٦]. وقوله: ﴿وَأَلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ عَدَمِ آسْتِحْبَابٍ لَهُمْ جَنَّةٌ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ الله الذي أَنْزَلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ وَالْإِبْرَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلِ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ﴿٢٤﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ وَمِنَّا يَوَعِّلُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَيُصَلِّينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى - متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به -: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ عَدَمِ آسْتِحْبَابٍ لَهُمْ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿جَنَّةً دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولي بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْإِبْرَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقاتة. وهذه كقولته تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكُتُبَ وَالْإِبْرَانَ لِيُقِيمُوا النَّاسَ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْإِبْرَانَ ﴿٧﴾ آلا تَقْلُقُوا فِي الْإِبْرَانَ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّكُوتَ وَالْقِسْطَ وَلَا تَحْسَبُوا الْإِبْرَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧-٩]. وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلِ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وترهيد في الدنيا. وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا: ٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكديباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ وَمِنَّا﴾ أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر، في الصحاح والحسان، والسنن والمسائيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبي ﷺ نحواً من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله: ﴿آلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يحاجون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَيُصَلِّينَ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قاذر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ بَرْزُقٌ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّؤُوفُ ﴿٢٦﴾﴾ من كات يُرِيدُ حَرْتَ الْآخِرَةَ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْفِهِ وَمَنْ كَات يُرِيدُ حَرْتَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنَّا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ اللَّهُ وَلَا كَلِمَةً الْفَصْلِ لِقَوْمٍ يَتَّبِعُهُمُ الْفَالِطِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ تَرَى الْفَالِطِينَ مُشْفِقِينَ وَمِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحد منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ٦]. ولها نظائر كثيرة. وقوله: ﴿بَرْزُقٌ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّؤُوفُ﴾ أي: لا يعجزه شيء. ثم قال: ﴿مَنْ كَات يُرِيدُ حَرْتَ الْآخِرَةَ﴾ أي: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْفِهِ﴾ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَنْ كَات يُرِيدُ حَرْتَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنَّا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان

إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همة البتة بالكلية، حَزَمَهُ اللهُ الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُنزِّلُ الْهَوَانَ وَهُوَ وَرَاءَ مِنْ عَطَلَةِ رَيْكٍ وَمَا كَانَ عَطَلَةَ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]. وقال الثوري، عن مغيرة، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّاءِ والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب». وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِهِ اللَّهُ؟﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحَيْبِ بْنِ قَمْعَةَ يَجْرُ قَضِيْبَهُ فِي النَّارِ». لأنه أول من سبب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَلَ قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُيِّنَ بِهِمْ﴾، أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الْأَعْلِيَّيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الْأَعْلِيَّيْنَ مُشْفِقِينَ مِنَّا كَسَّبُوا﴾ أي: في عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا: أين من هو في العَرَصَاتِ في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشرب وملابس ومسكن ومناظر ومناكح وملاد، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طيبة، قال: إن الشُّرْبَ من أهل الجنة لتظلمهم السحابة فتقول: ما أمطرُكم. قال: فما يدعوا داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترباً. رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْنَا لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلْنَا عَلَى اللَّهِ كِتَابًا فَلَن يَكُنَّا اللَّهُ يَحْتَرُّ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَنَحْمُكَ اللَّهُ الْبَطِيلُ وَنَحْنُ الْمَقْتُلُونَ﴾ [النجم: ٢٢].

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبيرة: قريبي آل محمد. فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. انفرد به البخاري. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبي، والضحاك، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، ويوسف بن مهزيان، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد الطبراني وجعفر القلانسي قال: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤذوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم».

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعَةُ، يعين ابن سُوَيْد - وابن أبي حاتم - عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعَةَ بن سويد - عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً، إلا أن تؤادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته». وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري، مثله. وهذا كأنه تفسير بقول

ثان، كأنه يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. وقول ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره، رواية عن سعيد بن جبیر، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم. وقال السدي، عن أبي الدليلم قال: لما جرىء بعلي بن الحسين أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلکم واستأصلکم، وقطع قرني الفتنة. فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؟ فقال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم. وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال: قرى النبي ﷺ. رواهما ابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد بن أبي زياد، عن قسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخرُوا. فقال ابن عباس -أو: العباس، شك عبد السلام -: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تحيوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآريناك؟ أو لم يكذبوك فصدناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد -وهو ضعيف - بإسناده مثله، أو قريباً منه. وفي الصحيحين - في قسم غنائم حنين - قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكر نزولها في المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام». وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي متخرق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام خبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري رحمه الله: ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرأ وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بتقدير حَم: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم بقوهم بشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله». ثم قال أحمد: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فرى قريشاً تُحَدِّث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودرَّ عرقاً بين عينيه، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم الله ولقرابتي». وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبي يحدث عن ابن عمر، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: أرقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي، رضي الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل في قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب. فحال الشيخين، رضي الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيَّان التيمي، حدثنا يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا

وَحُسَيْنَ بْنِ مَيْسَرَةَ، وَعَمْرَ بْنَ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حَصِينٌ: لَقَدْ لَقَيْتُ يَا زَيْدٌ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعْتُ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتُ مَعَهُ، وَصَلَيْتُ مَعَهُ. لَقَدْ رَأَيْتُ يَا زَيْدٌ خَيْرًا كَثِيرًا. حَدَّثَنَا يَا زَيْدٌ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: يَا أُخِي، وَاللَّهِ كَثُرَتْ سَنِي، وَقَدِمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْمَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَأَقْبَلُوهُ، وَمَا لَافِلَا تُكَلِّفُونِيهِ. ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطِيبًا فِينَا، بِمَاءٍ يَدْعَى خَمًّا - بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ - فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ وَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبْ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، أُولَهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَبَ فِيهِ، وَقَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكَرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي». فَقَالَ لَهُ حَصِينٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدٌ؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: إِنَّ نِسَاءَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرْمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمُ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ الْعَبَّاسِ. قَالَ: أَكَلْ هَؤُلَاءِ حَرَمَ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْفَضَائِلِ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرَفٍ عَنْ يَزِيدِ بْنِ حَيَّانَ بِهِ. وَقَالَ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَطِيَّةٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - وَالْأَعْمَشُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْآخَرُ عِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهِمَا».

تَفَرَّدَ بِرَوَايَتِهِ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حُجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا: كِتَابُ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي». تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، وَحَدِيقَةَ بْنِ أَسِيدٍ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ سَلِيمَانَ بْنِ الْأَشْعَثِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ النَّوْفَلِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحْبَبُوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحْبَبُونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحْبَبُوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي». ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ أوردنا أَحَادِيثَ أُخْرَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الاحزاب: ٣٣]، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَاهُنَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا مُفَضَّلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ حَنْشَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ وَهُوَ أَخَذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا مِثْلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ دَخَلَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ». هَذَا بِهَذَا الْإِسْنَادِ ضَعِيفٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَفْرَقْ حَسَنَةً زَيْدٌ لَمْ يَفِرْ حَسَنَةً﴾ أَي: وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً ﴿زَيْدٌ لَمْ يَفِرْ حَسَنَةً﴾ أَي: أَجْرًا وَثَوَابًا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠]. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَمِنْ جِزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أَي: يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَكْتُمُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ، وَيَضَاعَفُ فَيَشْكُرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ عَلَ اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَي: لَوْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَي: لَطَبَعَ عَلَى قَلْبِكَ وَسَلَبَكَ مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَوْفًا نَقُورًا عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَامِ﴾ [٤٤] ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٤٥] ﴿ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْتِينَ﴾ [٤٦] ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَشَدِّ عَنَّا حَجْرِينَ﴾ [٤٧] أَي: لَا نَتَقَمْنَا مِنْهُ أَشَدَّ الْإِتْقَامِ، وَمَا قَدَّرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمَسَّحَ اللَّهُ الْكَبِيرَ﴾ لَيْسَ مَعْتُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَخْتِمْ﴾ فَيَكُونُ مَجْزُومًا، بَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: وَحَذَفْتُ مِنْ كِتَابَتِهِ «الواو» فِي رَسْمِ الْمَصْحُفِ الْإِمَامِ، كَمَا حَذَفْتُ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَمِعْتُ الرَّبَّ يَنْتَقِظُ﴾ [الملقن: ١٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَبِخُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحْيِي الْمَوْتَى يَكْتُبُ فِيهِ مَعْتُوفًا عَلَى ﴿وَتَمَسَّحَ اللَّهُ الْكَبِيرَ﴾ وَيُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أَي: يَحْفَقُهُ وَيُشِيئُهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوضِحُهُ بِكَلِمَاتِهِ، أَي بِحُجَّتِهِ وَبِرَاهِنِهِ، ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ أَي: بِمَا تَكُنُهُ الضَّمَائِرُ، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْمُرُ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢٥] ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [٢٦] ﴿وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ الرَّزْقَ لِيَأْتِيَهُ لَجَاءَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَزِيلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِبَاطِلٍ يُحْيُونَ بَعِيرٌ﴾ [٢٧] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَزِيلُ الْعَقَبَةَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ﴾ [٢٨].

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سَوْماً أَوْ يظَلِّمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح». وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه». وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام، فذكره. وقوله: ﴿وَمَعُواذٍ عَنِ النَّسِيئَاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنني أرجو أن يدخل الله من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدكم عملاً - قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل مثل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا بقرية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا». وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنین وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَسَخَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِيَأْذِيَهُ لَبَخُوا فِي الْآزْمِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتي الخير بالشر؟ الحديث. وقوله: ﴿وَلَكِنْ يَرْزُقُ يَدْرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبِئَابِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيعني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْغَنِيَّ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلِيئِينَ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، فحط المطر وقت الناس؟ فقال عمر، رضي الله عنه: مطرتهم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْغَنِيَّ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْغَنِيَّ﴾ أي: هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ مِّمَّا يَخْلُقُ الْفِئَاطَةَ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا نُفِخُ فِي السُّورِ فِي الْآرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانة القاهر ﴿خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ذرا فيهما، أي: في السموات والأرض، ﴿مِنَ دَابَّةٍ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم للداعي، ويتفقدهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَلِّمُ اللَّهُ النَّاسَ لَيُظْهِرُوا مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها». وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قلابة قال: نزلت: ﴿فَمَنْ يَسْعَلْ يَسْعَلْ دَرَّةً خَيْرًا يَسْرَهُ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَسْعَلْ يَسْعَلْ دَرَّةً شَرًّا يَسْرَهُ ﴿٣٠﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إني لراء ما عملت من خير وشراً؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذر الشرى، وتدخر مثاقيل الخير حتى تمطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنني أرى مصداقها في كتاب الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قلابة، عن أنس، قال: والأول أصح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخضمر بن القوأس الجلي، عن أبي سخيلة، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ﷺ، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فيما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه». وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعبد، عن أبي سحيلة قال: قال علي: ... فذكر نحوه مرفوعاً. ثم رواه ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه، فبلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فإله تعالى أكرم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة - يعني ابن يحيى - عن أبي بريدة، عن معاوية - هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذي إلا كفر الله عنه به من سيئاته». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحرز ليكفرها». وقل ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن - هو البصري - قال في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم إنا لنبتئس لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا جرير، عن أبي البلاد قال: قلت للعلاء بن بدير: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك. وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطنفاصي، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرى الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا

عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٦﴾ . ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٧﴾ إِنَّ يَأْسَ بُسْكِي الرِّيحِ قَطْلَلَنْ رَاكِدًا عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٨﴾ أَوْ يُوقِنَهُمْ يَأْسَ كَسْبًا وَيَعْتَفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخير البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجوارى في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك، أي: هي في البحر كالجبال في البر، ﴿إِنَّ يَأْسَ بُسْكِي الرِّيحِ﴾ أي: التي تسيير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخير البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، للدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء. وقوله: ﴿أَوْ يُوقِنَهُمْ يَأْسَ كَسْبًا﴾ أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿وَيَعْتَفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوقِنَهُمْ يَأْسَ كَسْبًا﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفها ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقت لا تسيير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحاً من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمنا، فإنهم مهوورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ فَمَتَّعْ لِحْيَتَهُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَلْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضُ الْاِيْمَةِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْرَمُوا شُرُكِيَّيَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا اسْأَلَهُمُ النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا أَنَا نَسِيتُهُمْ وَمَا يَعْنِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

يقول تعالى محقراً بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهر والنعيم الفاني، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ فَمَتَّعْ لِحْيَتَهُ الدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيسة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَلْقَى﴾ أي: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضُ الْاِيْمَةِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ ، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيبتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيبتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمت الله. وفي حديث آخر: «كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ماله؟ تربت جيبينه». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفا.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ، وهي أعظم العبادات لله ﷻ ، ﴿وَأَنْرَمُوا شُرُكِيَّيَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿رَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فِإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْأَلَهُمُ النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا أَنَا نَسِيتُهُمْ وَمَا يَعْنِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفا عن عوزة بن الحارث، الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام، وهو في يده صلتاً، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ

السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخبيري الذي قتله محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والحمد لله.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَمَا أَمْسَلَ فَاجْزُرْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَلَمَنْ سَبَرَ وَصَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله: ﴿وَلَنْ عَاقِبَهُمْ فَعَاقِبَاتٌ يَمْثِلُ مَا عُوقِبُوا بِهِ وَلَنْ صَرِمَهُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَمَا أَمْسَلَ فَاجْزُرْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح في الحديث: «وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً». وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسبئية. وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَمَا أَمْسَلَ فَاجْزُرْ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم. ثم قال: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١١﴾﴾، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد - امرأة أبيه - قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة - قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئاً فلم يُفطن لها، فقلت بيده حتى فطنتها لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي. فقال لعائشة: «سئبها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب آتت علياً فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال لها: «إنها حبة أبيض ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلي: إني قلت له كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا. قال: وجاء علي إلى النبي ﷺ فكلمه في ذلك. وهكذا ورد هذا السياق، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفء، عن عبد الله الجهي، عن عروة قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلت لك ابنة أبي بكر دُرَيْعَتَيْهَا ثم أقبلت علي فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها، ما ترد علي شيئاً. فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائي. وقال الزبار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا علي من ظلمه فقد انتصر». ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص، عن أبي حمزة - واسمه ميمون - ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه».

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء في الحديث الصحيح: «المُسْتَبْتَانِ ما قالا، فعلى الباديء ما لم يُعْتَدِ المظلوم». ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجه. قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثنا عثمان الشحام، حدثنا محمد بن واسع، قال: قدمت مكة فإذا على الخندق منظره، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عدي. قال: ومن أخو بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقاً لمرّة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقيه من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١١٢] فقال: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي. قال: نعم. رواه ابن أبي حاتم.

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَكَلِمَ سَوِيٍّ وَصَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفضيل بن عياض - قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: «يا أخي، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ. فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى - يعني ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلومة فينضي عنها الله، إلا أعز الله بها نضرة، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة - قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان. ورواه من طريق الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلًا. وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو سبب سبه للصدق.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَدِيِّ بْنِ بَدْرِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشِيبُونَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَيْثُ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْمُتَحِيرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه من شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَىٰ ذُرِّيِّهِمْ وَقَفُّوا عَلَىٰ الْآرَاءِ فَقَالُوا بَلْ يَنْتَظِرُونَ لَوْلَا نَكَّيْنَا نُرْدُ وَلَا نَكَّيْنَا بِإِيَادِي رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْسِنُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. وقوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿حَشِيبُونَ مِنَ الذَّلِيلِ﴾، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَيْثُ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجازنا الله من ذلك. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْمُتَحِيرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٦﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مَنِ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُ مِنْ رَبِّكَ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُؤَمِّرُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُ سَيْئَةٌ مِنَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ ﴿٤٨﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مَنِ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُ مِنْ رَبِّكَ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُؤَمِّرُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يُؤَمِّرُنِي لَنْ أَمُرَّ﴾ ﴿٤٧﴾ كَلَّا لَا وَوَدَّ أَنَّ رَبَّهُ يَوْمَئِذٍ لَأَنْتَشُرُ﴾ ﴿٤٨﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقوله: ﴿إِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَنصُرْكَ بِمَقَالِكَ الْبَلْغُ وَظَنَّا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ أي: كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا

إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّجْهَا أَي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِنْ ضَعَبْنَاهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةً﴾ أي: جذب ونقمة وبلاء وشدّة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة ينس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: «ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكايه، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً قالت: ما رأيت منك خيراً قط». وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرُوحَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً﴾ أي: يرزقه البنات فقط - قال البغوي: ومنهم لوط، وعليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل، وعليه السلام - لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ بُرُوحَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾ أي: يعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد، وعليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ أي: لا يولد له. قال البغوي: كيعقوب وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإنثاءً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلَنَجْجِلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق المخلوق على أربعة أقسام، فآدم، وعليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، وعليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى، وعليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْجِلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَهًا وَحَيًّا أَوْ يَنبَأَ يَوْمًا أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِن تَرْتِيبٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن رُوحَ القُدُسِ نَفثَ في رُوعي: أن نَفْسًا لَن تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ زَرْعَهَا وَأَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ». وقوله: ﴿أَوْ يَنبَأَ يَوْمًا أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً الحديث، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ﴾، فهو علي عليم خبير حكيم. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِن تَرْتِيبٍ﴾ يعني: القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آفَاتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ أَيُّهَا مُحَمَّدُ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، أي ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

آخر تفسير سورة «حم الشورى»

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّمَا فِي أُرِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴿٣﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِكِينَ ﴿٤﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْعْنَا مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَمِّ﴾ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿وَأَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ أي: نفهمونه وتندبرونه، كما قال: ﴿يَلْسَانُ عَرَبِيٌّ شَبِيحٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا فِي أُرِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ (٣): بين شرفه في الملا الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا﴾ أي: القرآن ﴿فِي أُرِّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدِينَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّمَا لَقَرْنَاكُمْ كَرِيمٌ﴾ (٧) فِي كِتَابٍ مَكْرُومٍ ﴿٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَنْطَرُونَ ﴿٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٠﴾ [الواتعة: ٧٧ - ٨٠]. وقال: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكُّرٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُفْحٍ مَمْكُومٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١ - ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحَدِّثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملا الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّمَا فِي أُرِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ (٣). وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِكِينَ﴾ (٤): اختلف المفسرون في معناها، ف قيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس: ومجاهد وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال قتادة في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي من قَدَّرَ هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى - مسلياً لنبية في تكذيب من كذبه من قومه، وأمرأله بالصبر عليهم -: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ (٦) أي: في شيع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٧) أي: يكذبون ويسخرون به. وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة. وقوله: ﴿وَمَنْعْنَا مِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لم بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٥١) [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الإحزاب: ٦٢].

﴿وَلَنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴿٣﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ النَّارِ وَالْأَنْفُسِ مَا تُرْكَبُونَ ﴿٤﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ إِذْ تُدْعَوْنَ بِهِمْ سَمْعًا إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَنَا مُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ﴿٦﴾ .

يقول تعالى: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْغَلِيْبُ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتة، يسرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلاثاً تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا شُبُلًا﴾ أي: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لَمَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أي: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك أي من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَفَّاكِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذلها لكم وسخرها لآكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا يَوْمَ يَوْمِهِمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد: ﴿مُقْرِبِينَ﴾ أي: مطيقين. ﴿وَلَا إِلٰهَ إِلَّا رَبُّنَا لَسْقَلِيُونُ﴾ (١٤) أي: لصائرون إليه بعد ممانتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَتَكْرَهُوْا قِلَابَ حَبْرَ الرَّآدِ الْقَفْوِيَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيْسًا وَّلِيَّاسَ الْقَفْوِيَّ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ مَّآئِيْتِ اللَّهِ﴾ [الاعراف: ٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً، رضي الله عنه، أتى بدابة، فلما وضع رجله على الركاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ وَإِنَّا لَإِن رَّبَّنَا لَلْمُتَّقِلُونَ﴾ (١٤)، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك، فقلت له: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي الأحوص - زاد النسائي - ومنصور - عن أبي إسحاق السبيعي، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد قال عبد الرحمن بن مهدي، عن شعبة: قلت لأبي إسحاق السبيعي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فقلت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من علي بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدي، عن علي بن ربيعة الوالبي، به.

حديث عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أُرِدَّه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وحمد ثلاثاً، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، ﷻ، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد.

حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ وَإِنَّا لَإِن رَّبَّنَا لَلْمُتَّقِلُونَ﴾ (١٤). ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم، أصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلتنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «أيون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جريج، والترمذي من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبي الزبير، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عمرو بن

الحكم بن ثوبان، عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا في فروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتوها كما أمركم، ثم امتنهاها لأنفسكم، فإنما يحمل الله ﷻ». أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خلف.

حديث آخر في معناه: قال أحمد: حدثنا عتاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتوها فسموا الله ﷻ، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم».

﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْتَلِقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُنِيَ أَعْدَهُمْ بِمَا صَرَّبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ عَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخُكَبُ شَهْدَتِهِمْ وَسَتُّوْنَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُنِيَ أَعْدَهُمْ بِمَا صَرَّبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفه، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، ويقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتسبونوه إلى الله ﷻ؟ ثم قال: ﴿أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ عَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلبي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلبي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْتَلِقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُنِيَ أَعْدَهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفه، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، ويقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتسبونوه إلى الله ﷻ؟ ثم قال: ﴿أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ عَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلبي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلبي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الْحَلَى إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيسَةٍ
يَتَمَّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصُرَا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالَ مَوْفُورَا
كَحُسْنِكَ، لَمْ يَخْتَجِ إِلَى أَنْ يَزُورَا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة». وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدهم وقد خلقهم الله إناثاً، ﴿سَخُكَبُ شَهْدَتِهِمْ﴾ أي: بذلك، ﴿وَسَتُّوْنَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جعلهم لله ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً. والثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطب في الجاهلية الجهلاء. الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرراً والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحَبُوا الصُّلُوبَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِيسِرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال في هذه الآية - بعد أن ذكر حجبتهم هذه -: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويقولون. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾

إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أي: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنَّانُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَبْسِكُونَ ﴿٢٣﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٤﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ أُولُوا بِخَشْرِكٍ يَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آثَارَهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنَّانُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَبْسِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٣٥] أي: لم يكن ذلك. ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ ﴿٢٦﴾﴾ وراءهم ﴿مُهِتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أُولُوا بِخَشْرِكٍ يَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آثَارَهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾؟ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جنتهم به، لما اتقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴿٣٠﴾ بَلْ مَنَعْتَ هُوْلَاءَ وَمَا تَهْمُ عَنْهُمْ هُوْلَاءَ ﴿٣١﴾ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مِثْقَلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْخَدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَافًا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ سَعِيرٌ ﴿٣٥﴾ وَمِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِكَنَّهُمْ سَخِفًا مِمَّنْ يَفْقَهُ مَعَارِجَ عَلِيًّا يَظْهَرُونَ ﴿٣٧﴾ وَلِيُؤْمِنَهُمْ آتُونَ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. وروي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَنَعْتَ هُوْلَاءَ ﴿٣١﴾ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ أي: بين الرسالة والنذارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرةً وحسدًا وغبياً، ﴿وَقَالُوا ﴿٣٤﴾﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القرئتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقد ذكر غير واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضاً: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبیب بن عمرو بن عمير الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد الليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلديتين كان. قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله، ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال

تعالى مبينا أنه قد فaut بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿عَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضا في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَمَعْتَ رَبِّكَ حَرًّا مِمَّا يَجْتَمِعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال - هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُؤْسِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: سلاسل ودرجات من فضة - قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: وابن زيد، وغيرهم - ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعدون، ﴿وَيُؤْتُونَهم آتِيًّا﴾ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُنْكَرُونَ﴾، أي: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُقًا﴾، أي: وذخبا: قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد. ثم قال: ﴿وَإِنْ كُئِلَ ذَلِكَ لَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى أي: يجعل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليؤفوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح. وقد ورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، فما سقى منها كافراً شربة ماء»، أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، فذكره. ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافراً منها شيئاً». ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركون فيها أحد غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما ألى من نسائه، فراه عمر على رمال حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقبصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكتفاً فجلس وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». وإنما حولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذي وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»، قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمَنْ يَبْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَمْ يَسْطَلْنَا فَهَوْ لَمْ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَأَنَّهُمْ لَيَسْتَدُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَفْعَلَهُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُشْعِقُ الْقَوْمَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ وَنَسُوا اللَّهَ فَنَسُوا مَا وَعَدْنَاهُمْ وَإِنَّا لَمُتَّقُونَ ﴿٤٠﴾ فَأَسْتَسِيحِبُّ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْسُ﴾ أي: يتعامى، ويتغافل ويعرض، ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نَقِيضَ لَمْ يَسْطَلْنَا فَهَوْ لَمْ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ وَسَاءَ مَا يَصِيرُوا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَوَعَسَا لَهُمْ قِرَاءَةُ فَرِيضًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنبِيَاءِ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَسْتَدُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقبض له من الشياطين من يضلّه، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به، ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينُ﴾ أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا» يعني: القرين والمقارن. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجزيري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَمِعَ بيده شیطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينُ﴾. والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعملها هنا تغليبا، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، والعسران. قاله ابن جرير وغيره. ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَيَّ قَنَاطِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسْلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِي

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسليه ولا تخفيف. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُتَسَدِّدِينَ﴾ (٣٩) أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله: ﴿فَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمْرَ أَوْ تَهْدِي السَّمَاءَ وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِكَ مِثْبَاتٌ﴾ (٤٠) أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هدايم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك. ثم قال: ﴿فَأَمَّا نَذَاهِنَ يَكُ فِئَاثًا مِثْمُ مُنْتَمِرَاتٍ﴾ (٤١) أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ تَرِيكَ الْآرِيَّ وَعَدَّتْهُمْ فِئَاثًا عَلَيْهِمْ مُتَقَدِّرُونَ﴾ (٤٢) أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصبيهم، وملكه ما تضمنته صياصبيهم. هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَأَمَّا نَذَاهِنَ يَكُ فِئَاثًا مِثْمُ مُنْتَمِرَاتٍ﴾ (٤١) فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه، حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده، فما رُئي ضاحكاً منسبطاً حتى قبضه الله ﷻ. وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً. وفي الحديث: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه. وأورد البغوي هاهنا حديث الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخاري. وقيل: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أنهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠) ﴿الأنبياء: ١٠﴾، وكقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١) ﴿الشعراء: ٢١٤﴾. ﴿وَسَوْفَ تَسْكُنُونَ﴾ (١٢) أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (١٣) أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا بِكُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْتُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وأسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاة قتادة والضحاك والسدي، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وأسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جميعوا له. واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّي الْعَلِيِّينَ﴾ (١٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْعَقُونَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَعْدَتْهُمُ بِأَلْمَدَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦) ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدْتَ عِنْدََنَا إِنَّا كَافِرُونَ﴾ (١٧) ﴿فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُمْ الْمَدَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ (١٨)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء، والقادة، والأنبياء والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظيمة، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا على اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخيالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه

الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له في العبادة بقولهم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّسَاجُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يبعُدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل. وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ مَائِنَ مَفْصَلَتِكَ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ لَّهُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الاعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٣٥﴾ أَرَأَيْتَ إِذْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ مِصْرَ لَا يَكَادُ بِئْسَ ﴿١٣٦﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ سُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مِّن مَّاءٍ الْمَلَكِكَةَ مُتَرَبِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ ﴿١٣٨﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَسَرَ فَادَىٰ ﴿١٣٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿١٣٧﴾ فَأَعْنَدَهُ اللَّهُ تَكَالُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣٨﴾﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ مِصْرَ لَا يَكَادُ بِئْسَ ﴿١٣٦﴾﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذي هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ مِصْرَ لَا يَكَادُ بِئْسَ ﴿١٣٦﴾﴾؟ على الاستفهام. قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون - عليه اللعنة - أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ بِئْسَ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمره حين وضعها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة بيهار أبصار ذوي الأبصار والألباب. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خُلقة وخلقاً ودينياً. وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ بِئْسَ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمره، فقد سأل الله، ﷻ، أن يحل عقده من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في ذلك في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٣٧﴾﴾ [طه: ٣٦]، وتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ سُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: وهي ما يجعل في الأيدي من الحلبي، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جِلَّةٌ مِّن مَّاءٍ الْمَلَكِكَةَ مُتَرَبِّبِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاک، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وغيرهم من المفسرين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾﴾. وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجُماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال:

تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْقَضْنَا مِنْهُمْ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: وجدت النعمة مع الغفلة، يعني قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْقَضْنَا مِنْهُمْ فَاَعْرَفْتَهُمْ اَجْمَعِينَ﴾ (٥٧). وقوله: ﴿فَحَمَلْنَهُمْ سَلَكًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (٥٧): قال أبو مجلز: ﴿سَلَكًا﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَاٰلِهَتُنَا خَيْرٌ اَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ اِلَّا جَلَالًا بَلْ هُوَ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ اِنْ هُوَ اِلَّا عَبْدٌ اَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي اِسْرٰٓءِيْلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلٰٓئِكَةً فِى الْاَرْضِ يَخْلُقُوْنَ ﴿٦٠﴾ وَاِنَّهُمْ لَيَسٰٓءُوْنَ فَلَا تَمَّزُكْ بِهَا وَالْمُؤْمِنُوْنَ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ اَلشَّيْطٰنُ اِنَّهٗ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسٰٓى بِالْبَيِّنٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِاُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُوْنَ فِيْهِ فَاْتَقُوا اللهَ وَاَطِيعُوْا اِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّىْ رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُوْهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ ﴿٦٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْاَخْرَآءُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْ عَذَابٍ يُّورِى الْاِيْمَ ﴿٦٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدي: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون. وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغني - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿اِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَرِدْوَةٌ﴾ (٥٧) الآية [الانبيا: ١٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبير التميمي، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، قد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لَحَصَمْتُهُ، سلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله ﷻ: ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنٰى اُولٰٓئِكَ عَنْهَا مُسَبَّحُوْنَ ﴿٦١﴾ [الانبيا: ١٠١] أي: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، ﷻ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اَتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُوْنَ ﴿٦٢﴾ [الانبيا: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿اِنْ هُوَ اِلَّا عَبْدٌ اَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي اِسْرٰٓءِيْلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلٰٓئِكَةً فِى الْاَرْضِ يَخْلُقُوْنَ ﴿٦٠﴾ وَاِنَّهُمْ لَيَسٰٓءُوْنَ فَلَا تَمَّزُكْ بِهَا وَالْمُؤْمِنُوْنَ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ﴾ (٦١) أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمَّزُكْ بِهَا وَالْمُؤْمِنُوْنَ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ﴾.

وذكر ابن جرير من رواية العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿اِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَرِدْوَةٌ﴾ (٥٨) [الانبيا: ١٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذة رباً، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوْهُ لَكَ اِلَّا جَلَالًا بَلْ هُوَ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شببان، عن عاصم بن أبي السُّجود، عن أبي زرين، عن أبي يحيى - مولى ابن عقيل الأنصاري - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألتني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفظنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غداً. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفظنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً كان آلهتهم كما تقولون؟ قال: فانزل الله: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧). قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَاِنَّهُمْ لَيَسٰٓءُوْنَ فَلَا تَمَّزُكْ بِهَا وَالْمُؤْمِنُوْنَ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ﴾. قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾: قال قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾: قال قتادة: يقولون: ألهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا ألهتنا خير أم هذا»، يعنون محمداً ﷺ. وقوله: ﴿مَا صَرِيحُكَ إِلَّا جَدلاً﴾: أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس يوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانبيا: ٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتمتين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقد قال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا صَرِيحُكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُرِّقُوا حَصِصُونَ﴾. وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به. ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال. وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة - قال حماد: لا أدري رفعه أم لا؟ - قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا صَرِيحُكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُرِّقُوا حَصِصُونَ﴾. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كبير، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا صَرِيحُكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُرِّقُوا حَصِصُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِن هُوَ إِلَّا عَيْدٌ أَتَمْنَا عَلَيْهِ﴾: يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَمَمْلُوكَةٌ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾: أي: بدلکم ﴿أُمَّةً يَتَّبِعُكَ فِي الْأَرْضِ مَخْلُوعُونَ﴾، قال السدي: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقاتدة: يخلف بعضهم بعضاً، كما يخلف بعضهم بعضاً. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلکم. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصري وسعيد بن جبیر: أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: أي: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النسا: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ»: أي: أماره دليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾: أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعْتُمْ بَآءَ﴾: أي: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾: أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾: أي: من اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُرْ عَذْرٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾: أي: بالنبوة ﴿وَلَا يَتَّبِعَنَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾. قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَرَكَ أُمَّكَ إِذَا لَمْ أَزْضِهَا أَوْ يَغْتَلِقْ بَغْضَ النَّفْسِ حَمَاهَا
وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر البعض عنها. وهذا الذي قاله محتمل. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، فيما جئتمكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [١١٤]: أي: أنا

وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جنتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، ﷻ، وحده. وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيَةِ الْبُرُوجِ﴾ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦) ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) ﴿يَعْبَادُ لَا حَورٌ عَلَيْكَ الْبُيُوتَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُ مِنَ النَّفْسِ كُلِّ لَذَّةٍ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣) .

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين لها فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان الله، ﷻ، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقرومه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُمُ مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) قال: خليلان مؤمنان، وخليتان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملائكتك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تراه مثل ما أرتبني، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكك كثيراً وبكيت قليلاً. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليئن أحدكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تراه مثل ما أرتبني، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليئن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بش الأخ، وبش الصاحب، وبش الخليل. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساکر - في ترجمة هشام بن أحمد - عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببته في﴾ .

وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا حَورٌ عَلَيْكَ الْبُيُوتَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرح، فينادي مناد: ﴿يَعْبَادُ لَا حَورٌ عَلَيْكَ الْبُيُوتَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) فيرجوها الناس كلهم، قال: فينبئها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩)، قال: فيياس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: زيادي آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ وهي: آنية الشراب، أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا غرّ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُ مِنَ النَّفْسِ كُلِّ﴾ - وقرأ بعضهم: تشتهيه الأنفس - ﴿وَكُلُّ لَذَّةٍ الْأَعْيُنِ﴾ أي: طيب الطعم والريح وحسن المنظر. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد، عن عكرمة - مولى ابن عباس - أخبره أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد فيسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحيفة من ذهب، ليس فيها صحيفة إلا فيها لون ليس في الأخرى، مثله شهرته في آخرها كشهوته في أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة: أنا أبا أمامة، رضي الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم - وذكر الجنة - فقال: «والذي نفس محمد بيده، لياخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي انتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن - هو ابن موسى - حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضريير، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحيفة - ولا أعلمه إلا قال: من ذهب - في كل صحيفة لون ليس في الأخرى، وإنه ليلدز أوله كما يلدز آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، في كل إناء لون ليس في الآخر، وإنه ليلدز أوله كما يلدز آخره، وإنه يقول: يا رب، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن لياخذ مقعدها قدر ميل من الأرض». ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) أي: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعني الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّكَ اللَّهُ هَدَيْتَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ليكون له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤). وقوله: ﴿لَكُرْ فِيهَا فَكَيْهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُوفُونَ﴾ (٧٥) أي: من جميع الأنواع، ﴿فِيهَا تَأْكُوفُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لشم هذه النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَغْفَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَكَادُوا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ قَالَ إِنَّكَ تُنكِرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهِونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَرْمُوهَا أَمْ قَاتِلْنَا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ﴿٨٠﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَغْفَرُ عَنْهُمْ أَي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَكَادُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهو: خازن النار. قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَكَادُوا يَكْفُرُونَ لِيَقْضَىٰ عَيْنَا رَبِّكَ﴾ أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْقَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَنْ نُوَا وَلَا يَغْفُغُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿وَتَجَنَّبَا السَّقَاتِ الَّذِي يَصَلُّ أُنْقَارَ الْكِبْرِيِّ﴾ (٧٧) ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٨﴾ [الأعلى: ١١-١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكَ تُنكِرُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ما كنون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا معيد لكم عنها. ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهِونَ﴾ أي: ولكنكم لا تقبلون عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا عليه أنفسهم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَرْمُوهَا أَمْ قَاتِلْنَا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكذبناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: سرهم وعلاقتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنَّ كَادَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَأَنَّا أَوْلَىٰ الْمَلَكِينَ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ قَدَرَهُمْ بَحْوَثًا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٦﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ لَتَلَكِبُ الْكَلْبِ ﴿٨٧﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ يَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّ يُزَكَّوْنَ ﴿٩٠﴾ وَيَقِيلُ يَرْبِّ إِنَّا هَنَّا قَوْمٌ لَا يَدْعُونَ ﴿٩١﴾ فَاسْمَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ قَسَمْتُ لَكُمْ بِمَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٢﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَلِّدًا فَآتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْذَلَ لَوَلَدًا لَأَمْطَلَنَّا مِنَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْكَفَّارُ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ٤٤]. وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَأَتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ أي: الأنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قُتَيْبَةَ، عن بَعْجَةَ بن زيد الجهني؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها - وهو رجل منهم أيضاً - فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفَصَلُّوا لَتَلَوْنُ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفَصَلُّوا فِي عَمَزِينَ﴾ [القمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضي الله عنه، أن بعث إليها: ترد - قال يونس: قال ابن وهب: عبد: استكف. وقال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الْوُدِّ يَضْرِبُ خَلِيلَهُ
وَيُعْبَدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا
وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأننا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطاً، وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَلِّدًا﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأننا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَلِّدًا فَآتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي. وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَلِّدًا فَآتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ أي: فأننا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿فَأَتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم.

وقال البخاري: ﴿فَأَتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾: الأنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع. وقال السدي في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَلِّدًا فَآتَانَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولداً، لكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية. ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّي الْمَرْشِدِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له، فلا ولد له. وقوله: ﴿نَذَرَهُمْ يَتُوسُوا﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْبِغُوا﴾ في دنياهم ﴿حَقًّا يَلْتَفُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ لَتَلَكِبُ الْكَلْبِ﴾. وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعة عنده بإذنه له. ثم قال: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ يَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّ يُزَكَّوْنَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّن خَلَقَهُمْ يَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّ يُزَكَّوْنَ﴾. وقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّا هَنَّا قَوْمٌ لَا يَدْعُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: وقال محمد: قيله، أي: شكاً إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا

رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذي قلناه هو معنى قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ عبد الله - يعني ابن مسعود -: «وقال الرسول يا رب». وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٠] قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكوا قومه إلى ربه ﷻ. ثم حكى ابن جرير في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿تَسْمَعُ يَرْهَمَ وَيَحْمِلُهُمُ﴾ [الزخرف: ٨٠] والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قِيلَهُ. والثانية: الخفض، وقيل، عطفًا على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله. وقوله: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَّمَ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغرب.

آخر تفسير سورة الزخرف



تفسير سورة الدخان

وهي مكية. قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمَرُ بن أبي خَنَفَم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خنعم يضعف. قال البخاري: منكر الحديث. ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبي المقدم، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة، غفر له». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يضعف، والحسن لم يسمع منه أبي هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد. وفي مسند البزار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صَيَّاد: «إني قد خبات خباً فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «أخساً ما شاء الله كان». ثم انصرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ ۝٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٦ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَهُنَّ ثَمَرَاتٍ ۝٨ وَنُسَيْبُ رَبِّكَ وَسَبَّ مَا بَابِكُمْ الْأُولَى ۝٩

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد التَّعَجُّبَ، فإن نص القرآن أنها في رمضان. والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه في الموتى» فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الأجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم، لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالفهما ومالكهما

وما فيهما، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُوفِّيكَ﴾ أي: إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكَ وَرَبُّ مَائَاتِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولٌ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٩) فَأَرْتَبْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا أَكَيْفَ عَذَابَ الْعَذَابِ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ نَكُنْ لَكَ الْوَكِيلَ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجَمٌ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ إِنَّا كَائِفُونَ الْعَذَابِ فَلْيَلْزِمْنَا الْكَافِرِينَ إِنَّا مُنْفِقُونَ ﴿١٤﴾ .

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿فَأَرْتَبْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ . قال سليمان بن مهران الأعمش، عن أبي الضحى مسلم بن ضبيح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كنده، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففرغ فقعده، وقال: إن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٨٦) [ص: ٢٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فبرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال: قال الله تعالى: ﴿فَأَرْتَبْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فسقوا، فانزل الله: ﴿إِنَّا كَائِفُونَ الْعَذَابِ فَلْيَلْزِمْنَا الْكَافِرِينَ﴾ (١٤) قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يقوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فانزل الله: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْظُّلْمَةُ الْكَافِرِينَ إِنَّا مُنْفِقُونَ﴾ (١٤) ، قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، البطشة، والزلزلة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به. وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة. وهذا القول غريب جداً، بل منكر. وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري، رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس -: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إني خبات لك خبأ»، قال: هو الدُخ. فقال له: «أخساً فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَأَرْتَبْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) . وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُخ»، يعني: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقال له: «أخساً فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن زُوَاد بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رباعي بن جَرَّاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان - قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَرْتَبْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ . - يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون

بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره». قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرأه عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءني به قوم فعرضوه علي، وقالوا لي: اسمعه منا. فقرأوه علي ثم ذهبوا به، فحدثوا به عني، أو كما قال. وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه في أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما في أول سورة «بني إسرائيل» في ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه». ورواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري موقفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَم بن زُرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال». ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به. وهذا إسناد جيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهية الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد. وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن اليلماني، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهية الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد، أي المشوي على الرُضف. ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن ابن جريج، عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضي الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرقت، فما نمت حتى أصبحت. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن. قال الله تعالى: ﴿فَأَرْبَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسره ابن مسعود، رضي الله عنه: إنما هو خيال راوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويغهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْفَرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقَالُ لِلْكَافِرِينَ أَكْفَرْتُمْ وَلَا تُكْفِرُونَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهُ أَحْسَنُ فَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَسِيَ الرَّسُولَ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلَ مَا لَكُمْ مَن زَوَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَن لَّمْ يَذْكُرُوا مَن رَّبُّهُمْ يُبِينُ ﴿١٣﴾﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْوِ اللَّهِ فَوَلَلُوا مِنِّي بَدْعًا كَلْبًا لَّيْسَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣، ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَفِرُّوْنَ مِنَ الْعَذَابِ مِنَ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَيَقُولُونَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ رَبٌّ يُبِينُ لَنَا رَبَّهُمْ قَدَّ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ عَلَيْهٍ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]. وقوله: ﴿إِنَّا كَانِيفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكَ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾، يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدمت إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ سُرٍّ لَلْحَوَىٰ فِي عُقْبَتَيْهِمْ يَبْغَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَمَادُوا لَنَا بِهَا عَنْهُ وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]. والثاني: أن يكون المراد: إن مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه وصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون

بأشهرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا آمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٤٨]، ولم يكن العذاب بأشهرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه ووصله عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقبلوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كِرِهِينَ قَدْ أَقْرَبْنَا عَلَىٰ آلِهِ كُرْبًا إِنْ هَدَانَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَفَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَيْبٍ عَمَّا يَعْبُدُونَ﴾ [الشعيب: ١٠٦]، وقال قتادة: ﴿إِتَّكَرَ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ بُطُنُ السُّعْيَةِ الْكَبِيرَةِ إِنْهَا مُنْفُوسُونَ﴾ [١١٦]: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس وجماعة من رواية العوفي، عنه. وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين، عنه.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ وَجَاهَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدْرَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِفْكًا أَيُّهُ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرُبُّهُمُ إِلَىٰ فَاعْتَلُونَ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَا قَوْمٌ جُرْمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَنشَأَ بِبِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَرُزُقٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَتَمَنَّوْا كَانُوا فِيهَا فَكَيْهَيْنِ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا نَجْحَ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِذْ هُوَ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَابْتَلَيْتَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ لَبَلٌ لِيُحَيَّتِ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاهَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يعني: موسى كلميه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَدْرَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا نَجْحَ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِبِيَادِي مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْمُنْتَدَىٰ﴾ [طه: ٤٤٧]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ﴾: أي: لا تستكبروا على اتباع آياته، والافتقار لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [إعافر: ١٦٠]. ﴿إِنِّي مَأْتِيكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾: أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة. ﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [٢٠]: قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: هو الرجم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل. ﴿وَإِنْ لَرُبُّهُمُ إِلَىٰ فَاعْتَلُونَ﴾ [٢١]: أي: فلا تتعرضوا إلي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعاه ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتٌ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُجَالِسُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا طِمَاسًا وَعَشُدُّوا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٨٨] قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمًا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَا قَوْمٌ جُرْمُونَ﴾ [٢٢]، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنشَأَ بِبِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [٢٣]، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْعَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِبِيَادِي فَأَسْرَبَ لَمْ نَطْرُقْ فِيهَا فِي الْبَحْرِ بَيْتًا لَا تَخْفَىٰ دَرْكًا وَلَا تَخْفَىٰ﴾ [طه: ٧٧]. وقوله هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ﴾ [٢٤]، وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، لبصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مفروقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾: كهيئته وامضه. وقال مجاهد ﴿رَهَوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد. ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَعُيُونٍ وَرُزُقٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: ﴿وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر. وقال ابن لُهَيْمَةَ، عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلك له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

وقال في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَرُزُقٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَتَمَنَّوْا كَانُوا فِيهَا فَكَيْهَيْنِ ﴿٢٧﴾﴾، قال: كانت الجنان

بحاقتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا يتقطع منها شيء عن شيء، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا وديروا من قناطرها وجسورها وخلجها. ﴿وَتَمَّتْ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهَيَّ﴾ ﴿١٧﴾ أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلموا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّذِينَ يُدْرِكُوا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَعَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدانهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلماذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا للكفرهم وإجرامهم، وعتموهم وعنادهم. قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني يزيد الرقاشي، حدثني أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكى عليه»، وتلاه هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي عليهم. ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الرزدي. وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبير - حدثنا العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سألت رجلاً علياً، رضي الله عنه: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي، رضي الله عنه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن عثام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبيرة قال: أتى ابن عباس رجلاً فقال: يا أبا عباس، أرايت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ﴿٢١﴾، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم. إنه ليس أحد من الخلاق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيى القنات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد. وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيبته فيها دوي كدوي النحل؟ وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض. وقال ابن حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكنب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن علي لما قتل احمرت السماء. وحدثنا علي بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو - زُنيج - حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل حسين بن علي، رضي الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكأؤها. وهكذا قال

السدي الكبير. وقال عطاء الخراساني: بكأوها: أن تحمر أطرافها. وذكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم غيبط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخِّف الشيعة وكذبهم، ليعظمو الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من ذلك - قتل الحسين، رضي الله عنه - ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: الشمس خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِنَبِيِّ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمَدْيَنِ الْكَلْبِ (٣٤) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣٥)﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣٦)﴾: أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ [القصص: ٤٤]. وقوله: ﴿فَأَنْتَكُنَّ رَأً وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، وقوله: ﴿فَأَنْتَكُنَّ رَأً فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَبِيْقَةً﴾ [المنكبت: ٣٩]، فكان فرعون سيراً في أمره، سخيف الرأي على نفسه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ (٣٧)﴾ - قال مجاهد: ﴿أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اخبروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَسُوْهُنَّ إِلَىٰ آسَافٍ إِلَىٰ آسَافٍ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَأَمَّا طِفْلُكَ فَكُنَّا آلُ الْكَلْبِ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿وَأَيُّنَّاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: من الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ يَلْكُوا تُبِيْعًا﴾ أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَذِهِ لَبَلَدٌ لَّيْقُولُونَ (٣٨)﴾ إن هي إلا مرتنا الأول وما نحن بمشركين ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٩)﴾ أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيْعَ وَالَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَهْلُكُنْتُمْ بِهِمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٤٠﴾.

يقول تعالى منكرأ على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بأبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضاءها وذهابها وفراغها بعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرانهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وحزب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مندر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرَةٌ بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه بُعْجاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقبصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرأ، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مَصَّرَ الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار، وجعلوا يَفْرُوْنَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجِرٌ نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بنات إبراهيم الخليل وإنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه، وكان إذا ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة. وقد ترجمه المحافظ ابن عساکر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى

اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تبع لعينا كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا؟». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حماد الظهراني، عن عبد الرزاق. قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق، ثم روى ابن عساکر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مرفوعاً: «عَزِيرٌ لا أدري أنبيأ كان أم لا؟ ولا أدري العين تُبَعُ أم لا؟». ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي. وكانه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت في زمن الجُرْهُمِيِّين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساکر، من طرق متعددة مطولة مبسطة، عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحماس. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مَثْبُة، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساکر في بعض السياقات ترجمة تُبَعُ هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، والله الحمد والمنة. وقال سعيد بن جبیر: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه. وتُبَعُ هذا هو تُبَعُ الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلَكِيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجرة نبي آخر في الزمان، اسمه أحمد، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي السَّمَمِ
فَلَوْ مُدَّ عُنُقِي إِلَى عُنُقِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَإِن عَمِ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَغْدَاءَهُ وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُسْلَ عَمِ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفِرَ قبر بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صريحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبي وليس - وروى: حبي وتماضر - ابنتي تُبَعُ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما». وقد ذكرنا في «سورة سبأ» شعر سبأ في ذلك أيضاً. قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تبع: تُبَعُ نَعْتُ الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَعاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن أبي زُرْعَةَ - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَعاً؛ فإنه قد كان أسلم». ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزَّة، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سَمَّاك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد أسلم». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري، تُبَعُ نبياً كان أم غير نبي».

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساکر: «لا أدري، تُبَعُ كان لعينا أم لا؟». فالله أعلم. ورواه ابن عساکر من طريق زكريا بن يحيى البدي، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي رباح: لا تسبوا تُبَعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيُبَدَّ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْقَهُتُهُمْ أَجْوَابُ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتزيهه نفسه عن اللعب والعيب والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾﴾ (ص: ٢٧)، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهو يوم القيامة،

يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين. وقوله: ﴿يَمَقِّتُهُمْ أَجْوَابُ﴾ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَىٰ سَيِّئًا﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيْدٌ حَمِيْداً﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخاه عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرَتُونَ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، ﴿لَخَلِخَ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِوْرِ﴾ [٤٣] ﴿طَلَمَامُ الْأَيْبِ﴾ [٤٤] ﴿كَأَلْتَهْلِي بِقَلِي فِي الْبَطْوِيِّ﴾ [٤٥] ﴿كَعَلَى الْحَبِيْبِ﴾ [٤٦] ﴿خُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ [٤٧] ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ [٤٨] ﴿يَوْمَئِذٍ سُبُوًا قَوْقُ رَأْسِيهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيْبِ﴾ [٤٩] ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ﴾ [٥٠] ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنْتَرُونَ﴾ [٥١].

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به عباده الكافرين الجاحدين للقاته: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِوْرِ﴾ [٤٣] ﴿طَلَمَامُ الْأَيْبِ﴾ [٤٤] ﴿وَالْأَيْبِمْ: أي في قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِوْرِ﴾ [٤٣] ﴿طَلَمَامُ الْأَيْبِ﴾ [٤٤]، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أي: ليس له طعام غيرها. قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً. وقوله: ﴿كَأَلْتَهْلِي﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿بِقَلِي فِي الْبَطْوِيِّ﴾ كَعَلَى الْحَبِيْبِ [٤٥]، أي: من حرارتها ودرءاتها. وقوله: ﴿خُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: خذوا الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزانية: ﴿خُدُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم. ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: سرقوه سحياً ودفعاً في ظهره. قال مجاهد: ﴿خُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرزدق:

لَيْسَ الْكِرَامُ بِنَاجِلِيْكَ أَبَافُمْ
خَتَّى تُرْزَدَ إِلَى عَطِيَّةٍ تُفْتَلُ
﴿إِنَّ سَوَاءَ الْحَجِيْرِ﴾ أي: وسطها، ﴿ثُمَّ سُبُوًا قَوْقُ رَأْسِيهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيْبِ﴾ [٤٩]، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْقِ رُؤُسِهِمْ الْحَمِيْمُ﴾ [١٩] ﴿يُضَهُرُّ بِهِ مَا فِي بَطْوِيْنِهِمْ وَلَبَلُوْدُ﴾ [٢٥] [الحج: ١٩، ٢٠]. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقعة من حديد، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تمرق من كعبه - أعانها الله تعالى من ذلك. وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ﴾ [٤٩]، أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحاك، عن ابن عباس: أي ليست بعزيز ولا كريم. وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل - لعنه الله - فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أَنْتَ لَكَ قَوْلُكَ﴾ [٢٤] ثُمَّ أَنْتَ لَكَ قَوْلُكَ﴾ [٢٥]» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أنني أمتع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: قتلته الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ﴾ [٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنْتَرُونَ﴾ [٥١]، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [١٢] ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ﴾ [١٤] ﴿أَفَيْسَرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [١٥] [الطور: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنْتَرُونَ﴾ [٥١].

﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي مَقَابِرِ آيِبِينَ﴾ [٥١] ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾ [٥٢] ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [٥٣] ﴿كَذَلِكَ وَوَدَّعْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٤] ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آيِبِينَ﴾ [٥٥] ﴿لَا يَدْعَوْنَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ وَوَدَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْحَبِيْبِ﴾ [٥٦] ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيْمُ﴾ [٥٧] ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلَيْسَالِكٍ لَعَلَّهُمْ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [٥٨] ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَبِقُونَ﴾ [٥٩].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء - ولهذا سُمي القرآن مثاني - فقال: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ﴾ أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَابِرِ آيِبِينَ﴾ أي: في الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾ [٥٢]. وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشرب الحميم. وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهروه إلى غيره. وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَوَدَّعْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٤]، أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسن اللاتي ﴿أَنْتَ يَلْبَسُهُنَّ إِسْتَبْرَقٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦ - ٥٧]، ﴿كَأَنَّ الْيَابُوتَ وَالْمَرْيَانَ﴾ [٥٨]

[الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس - رفعه نوح - قال: لو أن حوراء بَزَقَتْ في بحر لُجِّي، لَعُدَّتْ ذلك الماء لعذوبة ريقها. وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ غَايِبَةً﴾ [٥٧] أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

﴿لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يدعون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كيش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث في سورة مريم. وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، عن أبي سعيد وأبي هريرة، رضي الله عنهما، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسُوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به. هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون: «أبو عبد الله الأغر». وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَانَ، عن الحجاج - وهو ابن حجاج - عن عبادة، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يئس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفتن شبابه». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان بن عبيد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، رضي الله عنه، قال: سُئِلَ نبي الله ﷺ: أيُّنا أهل الجنة؟ فقال: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون». وهكذا رواه أبو بكر بن مُزْدُوَيْهِ في تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري، حدثنا المقدم بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون». وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوري، ولا عن الثوري، إلا الفريابي» هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَدَّهَرٌ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛ ولهذا قال: ﴿فَصَلَا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٥٧] أي: إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل». وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَرَفْتُهُ بِلسَانِكَ لَمَلَهُمْ تَتَكَبَّرُونَ﴾ [٥٨] أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَمَلَهُمْ تَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَأَرْتَبْ أَي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَظْهَرَ أَنَا وَرَسُولُ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ قَوْلًا عَرَبِيًّا﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ رُشْدًا وَذِكْرًا مَّا مَنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [٥٩] يوم لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَادِرُهُمْ وَلَهُمُ اللّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٩﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان،
 والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة
 * * *

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلَ الْكَوْبِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَائِيهِمْ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آياته ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياته، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء. وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أي: جنوباً وشاماً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقمح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرْقُّقٌ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّوْطِ الَّذِي جَعَلَ فِي الْبَحْرِ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ وَالْمَاءِ الَّذِي كَفَّوْا بِهِ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَمَا خَلَقَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبي حاتم ما هنا عن وهب بن منبه أنراً طويلاً غريباً في خلق الإنسان من الأخلط الأربعة.

﴿ذَلِكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلْوَعًا عَلَيْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ ٦﴾ وَإِلَى كُلِّ أَفَّاكٍ آيَةٌ ٧﴾ بِسْمِ اللَّهِ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُبْرِئُ سَتَكْرًا كَانَ رُؤْيُهَا فَيَنْزِعُ بِعَذَابِ آيَةٍ ٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَائِنَتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُوًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٩﴾ بَيْنَ رِجْلَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ جَهَنَّمَ ١١﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله - يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيّنات - تَلْوَعًا عَلَيْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ ﴿٦﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يتقادون لها، فأبى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَإِلَى كُلِّ أَفَّاكٍ آيَةٌ﴾ ﴿٧﴾ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أئيم في فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُبْرِئُ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَانَ رُؤْيُهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَيَنْزِعُ بِعَذَابِ آيَةٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً ليماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَائِنَتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُوًا﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذة سخرية وهزواً، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو. ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿بَيْنَ رِجْلَيْهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصبرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: لا تتفهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني القرآن، ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ ﴿١١﴾ وهو المؤلم الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ رَبَّنَا وَمِنَ الْفُلُكِ لِكُلِّ قَوْمٍ مَنَافِعُ ١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَتْنًا ١٣﴾ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٤﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٥﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٥﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِيَجْتَرَى الْفُلُكُ﴾، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلِيَتَذَكَّرُوا﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والأفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مَتْنًا﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في

ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ صَمَوَةٍ فِئِنَّ إِلَهًا ثَرًّا إِذَا مَسَّكُمْ الْعُرَّةُ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ٥٣]. وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيمًا مِّمَّنَّهٗ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفيزياني، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سألت رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: واثت ابن عباس فأسأله. فإثاه فقال له مثل ذلك، فقال: أرجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فأسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيمًا مِّمَّنَّهٗ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿يَجْزَى قَوْمًا مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَآ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرا وشرها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَا عَلَىٰ الْعَمَلِينَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ مِمَّا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُمُ إِذْ رَبَّكَ يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَكَىٰ الْمُنْفِقِينَ ﴿١٩﴾﴾ هَذَا بَصِيْرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَا عَلَىٰ الْعَمَلِينَ﴾ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: في زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضاً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿وَاللَّهُ وَكَىٰ الْمُنْفِقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا وألباؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيْرٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّا يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّاءَ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ وَالْحَقَّ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ هُدًى مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ وَعَلَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَلِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ ﴿عَلَّ بَصِيرَةً غَشِيَّةً مِّنْ تَبْوِينٍ مِّنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْمَىٰ أَبْصَرٌ وَأَعْمَىٰ أَبْصَرٌ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّا يَكْفُرُونَ﴾ أي: نساوهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا بكير بن عثمان التتويحي، حدثنا الوضيين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد الباجي، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله وهو من الفاسقين. قيل: وما هي يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله، وحرام الله، وأمر الله، ونهي الله، لا يؤتمن عليهن إلا الله. قال أبو القاسم: ﴿كما أنه لا يجتني من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتني من الشوك العنب. وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي

الضحى، عن مسروق؛ أن تميم الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالثِّينِ ؕ أَمْ نَشَاءُ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؟﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَالشَّجَرَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه، فهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتفويض العقلين. وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾، يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا يعكس. ﴿وَحَمَّ عَلَىٰ سَبِيلِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشَبًا﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَا هَادِيَ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طَلْعِهِمْ يَسْمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [٢٤] ﴿وَإِذَا نُنقِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنْتَسِبُونَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٥] ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعْمِدُكُم بِاللَّيْلِ الْيَمِينَةَ لَا رَبَّ فِئْتَنَ لَا رَبَّ فِئْتَنَ لَا رَبَّ فِئْتَنَ﴾ [٢٦].

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداء والرجعة، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل سنة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: يتوهمون ويتخيلون. فأما الحديث الذي أخرجه صاحبنا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً فقال: حدثنا أبو كزيب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا، يمينا ويحينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾». قال: «ويسبون الدهر، فقال الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وأخرجه صاحبنا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن زيد، به. وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وادهره. وأنا الدهر». قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله ﷻ، فكانهم إنما سبوا، الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدوم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذوا من هذا الحديث. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنقِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنْتَسِبُونَ﴾ أي: إذا استدلل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر على البداء قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَمَسُّكُمْ إِلَهُكُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَمَسُّكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [النسب: ٩] ﴿يَوْمَ يَوْمِ أَمَلْتُمْ﴾ [١٧] ﴿يَوْمَ الْقَوْلِ﴾ [١٦] [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [١٥] [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَمَسُّكُمْ إِلَهُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد،

ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۗ﴾ [المعارج: ٦، ٧] أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ الْأَسْتَوْرِبُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُنَاطِلُوتُ ۗ﴾ [٢٧] وَرَأَى كُلُّ أَتْمَرٍ جَائِعَةً كُلُّ أَتْمَرٍ نَدَعَىٰ إِلَىٰ كَيْفِيهَا أَلَيْمٌ مُّجْرَمٌ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كَيْفِيهَا يَطْلُقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما، في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُنَاطِلُوتُ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن الله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله، ﷻ. ذكره ابن أبي حاتم.

ثم قال: ﴿وَرَأَى كُلُّ أَتْمَرٍ جَائِعَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا يكون إذا جيء بهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتنني. وقال مجاهد، وكعب الأحمير، والحسن البصري: ﴿كُلُّ أَتْمَرٍ جَائِعَةٍ﴾ أي: على الركب. وقال عكرمة: ﴿جَائِعَةٌ﴾: متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«كأنني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم». وقال إسماعيل بن رافع المدني، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، مرفوعاً في حديث الصورة: فيتميز الناس، وتجتو الأمم، وهي التي يقول الله: ﴿وَرَأَى كُلُّ أَتْمَرٍ جَائِعَةً إِلَىٰ كَيْفِيهَا﴾.

وهذا فيه جمع بين القولين: ولا منافاة، والله أعلم. وقوله: ﴿كُلُّ أَتْمَرٍ نَدَعَىٰ إِلَىٰ كَيْفِيهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ وَجَاءَهُ بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْمٌ مُّجْرَمٌ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرا وشراها، كقوله تعالى: ﴿يُنَادُوا الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۗ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ لَوْ أَنفَىٰ مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣-١٥]. ثم قال:

﴿هَذَا كَيْفِيهَا يَطْلُقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكُتُبِ لَا يَأْتِيهِمْ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا مَا أَحْصَيْنَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَبْلُغُهُمْ رَبُّكَ أَلْحَاكُمُ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما

بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَابِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَمَا تَكْفُرُومُ ۗ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ اسْبَعُوا لِمَ تُعْبَدُونَ إِلَّا لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ حَقَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا أَنشَأَ مِنْ نَفْسِهِ إِذْ لَطَفَ إِلَيْهَا وَأَنَا نَسِيْتُ بَيْنَهُمَا وَمَا كُنْتُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَأُبَيِّنَنَّ لَكُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَعْيُنَكُمْ وَمَا تُنَاصِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ لِلْيَوْمِ نَسْأَلُوكَ أَنَّ تَبَيَّنَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَخَذْتُمُ ءَايَاتِي اللَّهُ هُرُودًا وَعَزَّكَوْا لَمِيْرَةً الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْمَقْدُورُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَاللَّهُ الْكَبِيرُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾.

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء». ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح. ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَابِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَمَا تَكْفُرُومُ ۗ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ اسْبَعُوا لِمَ تُعْبَدُونَ إِلَّا لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ حَقَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا أَنشَأَ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِنْ نَطَّقَ إِلَّا لَطْفًا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَيَدَّ لَهَا مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَسَاقَ يَوْمٍ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ لِلْيَوْمِ نَسْأَلُوكَ أَنَّ تَبَيَّنَ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَأَنِّي سَبَّحْتُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا وَكَلْنَا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء». ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح. ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَابِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَمَا تَكْفُرُومُ ۗ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ اسْبَعُوا لِمَ تُعْبَدُونَ إِلَّا لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ حَقَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا أَنشَأَ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِنْ نَطَّقَ إِلَّا لَطْفًا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَيَدَّ لَهَا مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَسَاقَ يَوْمٍ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ لِلْيَوْمِ نَسْأَلُوكَ أَنَّ تَبَيَّنَ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَأَنِّي سَبَّحْتُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا وَكَلْنَا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك

الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتزيع؟ فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني». قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَهْلَدْتُمْ بِلَادِي اللَّهِ هُرُوجًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرى، تسخرون وتستهنئون بها، ﴿وَعَرَّضْتُمُ الْقَبِيلَ الَّذِينَ﴾ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَصْرَحُونَ مِنهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَنْزَلُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُكْمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِينَ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِي كَفَرُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجّد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء رداثي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه. وقوله: ﴿وَهُوَ الْمَوِزُّ﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْمَكْبَرِ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلَ الْكَذِبِ مِنَّ اللَّهِ الْمَرْبِزِ الْمَكْبَرِ ٢ ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ٣﴾ قَدْ أَرَبَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَتَوَكَّلُونَ بِكُتُبٍ يُكْتَبُ مِن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَنَزَّلَتْ مِن قَبْلِ هَذَا أَمْ كُنتُمْ مَكِيدِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِكَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِيلُونَ ٥ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦﴾

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معينة مضرورية لا تزيد ولا تنقص. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غيب ذلك. ثم قال: ﴿قَدْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَبَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قضمير، إن المُلْك والتصرف كله إلا الله، ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أم هو أمركم به؟ أم هو شيء افترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿اتَّقُوا يَكْتَبُ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَتْ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنتُمْ مَكِيدِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثره من علم» أي: أو علم صحيح يأترونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَتْ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: أو أحد ياتر علماً. قال العوفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ: «أو أثره من علم» قال: «الخط». وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَتْ﴾ شيء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضاً: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَتْ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ يعني الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَتْ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِكَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِيلُونَ ٥﴾ أي: لا أضل ممن يدعو أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه

إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطن؛ لأنها جماد، حجارة، صَم. وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَمْ أَعْدَاءَهُمْ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَرِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاقْتَدُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يُكُونُوا لَكُمْ عِرًا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٧) ﴿مریم: ٨١-٨٢﴾ أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (١٥) ﴿العنكبوت: ٢٥﴾.

﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنسِفُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ فَلَإِن أُنزِلَتْ آيَاتٌ مِّن لَّدُنَّا لَآئِبًا إِلَّا نَحْنُ نَعْلَمُ مَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَلَّا بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّجِيمُ﴾ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَايَ الرُّسُلِ وَمَا آدَرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِن أَنبَأَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٩).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلالها، يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ﴾ يعنون: محمداً ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن أُنزِلَتْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن مُّبِيرٍ مِّنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أُجِدَّ مِّن دُونِهِ مَلْتَمًا﴾ (١٧) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ [الحج: ٢٢، ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَزَعْنَا مِنكُمُ النَّاسَ بِأَنبِيَاءٍ مِّن دُونِ مُحَمَّدٍ لَّكُنَّا لَمُفْرَقِينَ﴾ (١٦) ﴿قُلْ لَقَدْ أَنبَأْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَن مَّا آتَيْنَاكُم مِّن دُونِ اللَّهِ هَدًى بَل لَّعَنَّا لِمَن كَفَرَ بَعْدَ مَا هَدَيْنَاهُ لِمَا كَفَرْنَا مِنكُمْ إِن تَكُونُونَ لِمَن أَتَىٰهُ مِن دُونِ اللَّهِ شَيْئًا مَّا تَفْعَلُونَ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَلَّا بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَيُنذِرُ كَذِبًا﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِن أُنزِلَتْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ آتَمُّ مِمَّا تُفَعَّلُونَ فِيهِ كَلَّا بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، هذا تهديد لهم، ووعد أكيد، وترهيب شديد. وقوله: ﴿وَمَا الْعَفْوَ الرَّجِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر لكم ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسْأَلُكُمْ بِالْأَوْلَادِ اسْتَنْبَهَّا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأُجَيْبًا﴾ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَسْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّمَا كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا﴾ (٦) [الفرقان: ٥، ٦]. وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَايَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستكروني وتستبعدوا بعثي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَايَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا آدَرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿يَعْبُرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن دُونِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿يَعْبُرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن دُونِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاک: ﴿وَمَا آدَرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾: ما أدري بماذا أمر، وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال أبو بكر الهذلي، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا آدَرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾: قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرج الأنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللاتق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون فسيتأصلون بكفرهم؟ فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - وهي امرأة من نسايتهم - أخبرته - وكانت بايعت رسول الله ﷺ - قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون. فاشتكى عثمان عندما فمَرَّ صنائه، حتى إذا توفي أدرجناه في آثابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: ﴿وما يدريك أن الله أكرمهم؟﴾ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: ﴿أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!﴾ قالت: فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً. وأحزنتني ذلك، فتمت فرأيت لعثمان عينا تجري، فجنحت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ذاك عمله﴾. فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: ﴿ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به﴾. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: ﴿فأحزنتني ذلك﴾. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على

تعينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا بيثر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء. وقوله: ﴿إِن آتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ أي: إنما أتبع ما ينزل الله علي من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين التذارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا إِن كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ حَرَكًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ وَسَبِقُونُوا هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا عَرَّبْنَا عَلَيْهِ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا حَلِيدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوَلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله علي لأبلغكموه وقد كفرتم به، وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله: ﴿فَأَمَّا إِن كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَأَسْتَكْفِرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبئكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُنَادِيهِمْ فَوَقَا أَمَانًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الفصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا أَلْعَمَّ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِيهِمْ يَجْرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]. قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير. وقال مالك، عن أبي الثَّغْر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾. رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث مالك، به. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسُّدِّي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ حَرَكًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالاً وعماراً وصُهَيْباً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، وأخطؤوا خطأ بيناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ حَرَكًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَبِقُونَا هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ﴾ أي: كذب ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ماثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول ﷺ: «بطر الحق، وغمط الناس». ثم قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِمَا عَرَّبْنَا﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على التذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾: تقدم تفسيرها في سورة «حم، السجدة». وقوله: ﴿فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَٰئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا حَلِيدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَحَمْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَنَبَغَ رَبُّكَ قَالَ رَبِّ ارْحَمْهُ أَبْنَاءَ اللَّهِ أَنَا أَسْكُرُ لِمَنْ تَكُنَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وَالِدَيْهِ وَأَنْ أَحْسَنُ صِلَاً لِمَنْ رَزَقْتَهُ وَأَسْلِحْ لِي فِي دُونِهِ إِنِّي ثَبَّثْتُ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقُولُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَتَتَأَوَّلُونَ عَنْ سِقَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْمَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَوَقَفْنَا رَبَّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنْ أَسْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَعْبُودِ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرني سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُضْعَب بن سعد يحدث

عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [النكبت: ٢٨]. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حملها مشقة وتعباً، من وحام وغشيان وثقل وكره، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وَحَمَلَهُ وَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدلل علي، رضي الله عنه، بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا فِي عَمَتَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضي الله عنهم. قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جُحَيْنَةَ، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسته أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿يُرْضِعَنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة أشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَّا أَوْلَى الْمَعْيِبِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةَ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مِسْهَر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتحل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تنهى عقله وكمل فهمه وحمله. ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبيد الله الفواريري، حدثنا عَزْرَةَ بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولي عنه وزادني قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حساباه، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحاسناته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشقعه الله في أهل بيته، وكتب في السماء: أسير الله في أرضه». وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله، ﷻ. وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّىٰ عَلا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلا قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْطُلْ

﴿قَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي﴾ أي: اللهمني ﴿أَنَّ أَشْكُرَ فِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْمَتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَاوَالِدِي وَإِنَّ أَعْمَلَ صَالِحًا رَضْتَهُ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَأَمْسِلِحْ لِي فِي دُرَيْقٍ﴾ أي: نسلي وعقبي، ﴿إِنِّي بَنَيْتُ لِيكَ وَابْنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، ﷻ، ويعزم عليها. وقد روى أبو داود في سننه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبيل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجتنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتممها علينا». قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَلْنَا عَنْهُمْ آمَنًا مِمَّا عَمِلُوا وَنَجَّوْهُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِي أَحْسَنِ جَمَلَةٍ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأتاب؛ ولهذا قال: ﴿وَعَدَ الصَّادِقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا الْمُعْتَمِر بن سليمان، عن الحكم بن

أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدثت بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: «أولئك الذين تقبل عنهم الحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» ﴿١٧﴾. وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله - وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته... فذكره، وهو حديث غريب، وإسناده جيد لا بأس به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مغنبد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلابي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً، وعنده عماراً وضعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فقالوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: «أولئك الذين تقبل عنهم الحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» ﴿١٧﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان - قالها ثلاثاً - قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: الله سمعت هذا من علي؟ قال: الله سمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَبِي لَكُمَّا أَبْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتَ الْفُرُونَ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنْبِئَانِ اللَّهَ وَرَبَّكَ مَا يَنْ إِذْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ قَوْلِهِ مَا هَذَا إِلَّا أُسْطُورٌ الْأُولَى ﴿١٧﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ أَلَيْمٍ وَالْإِيمَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ دَخَلْنَا مَا عَمِلُوا وَيَوْمَ يَوْمِهِمْ أَهْلُهُمْ وَمَنْ لَا يظلمون ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يَمْشُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَنهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي سَيِّئِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَمْتُمْ بِهَا قَالِيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهَوْنِ يَمَا كُفَرْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ لِي وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَبِي لَكُمَّا﴾ - وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقلوه ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وروى العوفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق. وفي صحة هذا نظر، والله أعلم. وقال ابن جريج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. وهذا أيضاً قاله ابن جريج. وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وقاله السدي. وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَبِي لَكُمَّا﴾ عقهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد الله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مزوان، فقال: إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده لا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألسنت الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألسنت ابن اللعين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت، يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف. وقد رواه البخاري بإسناده آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك قال: كان مزوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَبِي لَكُمَّا أَبْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتَ الْفُرُونَ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري. طريق آخر: قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سئته أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سئته هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَبِي لَكُمَّا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسमितه، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فضض من لعنة الله. وقوله: ﴿أَبْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أن أبعث ﴿وَقَدْ خَلَيْتَ الْفُرُونَ مِنْ قَبْلِي﴾ أن: قدم مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَنْبِئَانِ اللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَبَلَّكَ مَا يَنْ إِذْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ قَوْلِهِ مَا هَذَا إِلَّا أُسْطُورٌ الْأُولَى﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ أَلَيْمٍ وَالْإِيمَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.
 وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقناة:
 هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث. وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن
 عمار: حدثنا حماد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبير قال الحلبي، عن سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة
 الباهلي، عن النبي ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مضل المساكين - قال خالد: الذي
 يهوى يده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء - والذي يقول للمكفوف: اتق الدابة، ليس بين
 يديه شيء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذي يضرب الوالدين حتى يستغيثا» غريب جداً. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ
 دَرَجَاتٍ عَذَابٌ مُّغْتَلِبًا﴾ أي: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوقِبَهُمْ وَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال
 عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلاً، ودرجات الجنة تذهب علواً. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
 النَّارِ أَلَيْسَ لَهَا عَذَابٌ مُّطِينٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقيحاً وتوبيخاً. وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،
 رضي الله عنه، عن كثير من طبقات المأكّل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم
 ﴿وَقَرَعَهُمْ﴾: ﴿أَلَيْسَ لَهَا عَذَابٌ مُّطِينٌ﴾ في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا. وقال أبو مجلز: ليتفقدن أترام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم:
 ﴿أَلَيْسَ لَهَا عَذَابٌ مُّطِينٌ﴾ في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهَوْنِ يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُونَ يَا كَيْفَ أَهْلُ
 مِنْ جَنَسٍ عَمَلِهِمْ، فكما نعوّم أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو
 الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتابعة، والمنازل في الدرجات المفطعة، أجازنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذْكُرُ لَكُمْ عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُمُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْوُدُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا عَذَابٌ يُؤْتِيهِمْ عَذَابٌ مُّطِينٌ﴾
 قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَ عَنْ آلِهَاتِنَا فَأَلَيْنَا يَمَّا تَوَدَّعْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَابْتُغِيَ لَكُمْ بِهِ وَيَكْفِيكُمْ أَنْتُمْ قَوْمًا
 مُّجَاهِلُونَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْمَئِنٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ
 رَبِّهَا قَامَسْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكَنَاتٍ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى مسلماً لئيبه في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكُرُ لَكُمْ عَادَ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى،
 وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حفف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال
 علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بزهور، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قناة: ذكر لنا
 أن عاد كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بارض يقال لها: الشحر. قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»:
 حدثنا الحسين بن علي الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس
 قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله وأخا عاد». وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْوُدُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلى
 من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿بِمَعْلَدِنَاهَا نَكَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ
 عَرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةَ مِثْلَ صَوْفَةِ عَادَ وَتَمُودَ ﴿٢٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا
 لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا يَمَّا آتِيَتْكُمْ بِهِمْ كَفَرْتُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [نصفت: ١٣، ١٤] أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَ﴾ أي:
 لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَاتِنَا فَأَلَيْنَا يَمَّا تَوَدَّعْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله:
 ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل
 العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلِكَيْفَ آتَاكُمْ قَوْمًا مُّجَاهِلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا
 تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبليهم، اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا به
 واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو
 العذاب الذي قلت: ﴿فَأَلَيْنَا يَمَّا تَوَدَّعْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾. ﴿تُدْمِرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه
 الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا نَدَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّيْرِ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي:
 كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿قَامَسْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكَنَاتٍ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
 الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو

المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالزبدة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأنتب بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال مقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فأجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مِعْرَى حَمَلَتْ حَنْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعابرة بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان» - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم، إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: «خذها رماداً رمداً، لا تبقي من عاد أحداً». قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما تجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، كما تقدم في سورة «الأعراف». وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسّم. قالت: وكان إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، قد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه من حديث ابن وهب.

طريق أخرى: قال أحمد حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من شر ما فيه». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيبنا نافعاً».

طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جرير يحدث عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إني أسألك خيراً، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تحوّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا﴾». وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي «الأعراف» و«هود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة. وقال الطبراني: حدثنا عبيد بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضرم فلما رآها أهل الحضرم قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فالقى أهل البادية على أهل الحضرم حتى هلكوا. قال: عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب».

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ كُنْتُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْصُرًا وَأَفَيْدَهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمُّهُمْ وَلَا ابْصُرُهُمْ وَلَا أَفَيْدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَلَوْلَا نَضْرَمُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْصُرًا وَأَفَيْدَهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمُّهُمْ وَلَا ابْصُرُهُمْ وَلَا أَفَيْدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد

أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدین وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يملون بها أيضاً. وقوله: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها ووضعناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا فَصَّرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرؤهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ سَأَلُوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَلِكَ إِنْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: وافترأؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سُلْبِكُمُ الْيُبْنَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة، ﴿كَأَدْوَى يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيكًا﴾ [الجن: ١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض. تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نصيبين. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) - وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خير السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآناً عجيباً، يهدي إلى الرشd فأمتنا به، ولن نشرك بربنا أحداً، وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَرْجِعَ الْجِنُّ إِلَى قَوْمِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاعْتَدُوا يَوْمَ الْمَعَادِ نَارًا أَضْغَاثًا مِنْ نَارٍ كَمَا أَضْغَاثُ السِّجِّيقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الجن: ١٩]، وإنما أوحى إليه قول الجن. رواه البخاري عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبي عوانة، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير، من حديث أبي عوانة.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرأ، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سنتيهما، من حديث إسرائيل، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم. وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ، وإبانتهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سُلْبِكُمُ الْيُبْنَ ﴿٣٢﴾﴾.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما سيأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة. فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً، عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقاً: من أذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه أذنته بهم شجرة - فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنته بهم الشجرة، أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما، إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، دعاهم إلى الله، ﷻ، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

ذكر الرواية عنه بذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبي - وابن أبي زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبي - عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال: في السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذي كانوا فيه - فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد - قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان عليه لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن علي، به نحوه. وقال مسلم أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود - وهو ابن أبي هند - عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضي الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقدناه فالتمسناه في الأدوية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم».

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس الليلة أقرأ على الجن ربياً بالحجون».

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان ابن سنة الخزاعي - وكان من أهل الشام - أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «ومن أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروت أو عظم. ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلي، به. ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، عن يونس، به. وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم. ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضاً.

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تميم، عن عمرو - ولعله قد يكون قال: البكالي - يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: استتبعني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطأ فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة.

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطأ، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريباً من الصبح، أتاني النبي ﷺ فقال: «أنت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تفرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئاً؟» فقلت: نعم، رأيت رجلاً سوداً مستشعرين ثياباً بيضاً. قال: «أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعة، أو روثة» - فقلت: يا رسول الله، وما يعني ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثاً إلا وجدوا فيها جيبها يوم أكلت، فلا يستقيين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعة ولا روثة».

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن - خمسة عشر بني إخوة وبني عم - يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطأ وأجلستني فيه، وقال لي: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة حُممة فقال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمي حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبارك ستين بعيراً.

طريق أخرى: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمود الدورى، حدثنا عثمان بن عمر، عن المستمر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لي خطأ، ثم تقدم إليهم فاذحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجيرني من الله أحد.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبي فزارة العبسي، حدثنا أبو زيد - مولى عمرو بن حريث - عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لي النبي ﷺ: «أمعلك ماء؟» قلت: ليس معي ماء، ولكن معي إداوة فيها نبيذ. فقال النبي: «تمر طيبة، وماء طهور» فتوضأ. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي زيد، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعلك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة، فقال: «أصيب علي». فتوضأ، فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور». فتردد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطني من طريق آخر، عن ابن مسعود، به.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». هكذا رأيت في المسند مختصراً، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر بن الخطاب. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلي نفسي». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب.

قال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين». وهو حديث غريب جداً، وأحرى به ألا يكون محفوظاً، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجا، نزلت سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَمِعْ لَهُ إِنَّكَ تَكُنُ مِنْ أَتَابِعِهِ ﴿٣﴾﴾، وهي السورة التي نعتت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافق عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضاً، عن الطبراني عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن علي بن الحسين بن أبي بردة، عن يحيى بن سعيد الأسلمي، عن حرب بن صبيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبي مرة الصنعاني، عن أبي عبد الله الجدلبي، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ خط حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل، وقال لي: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الرُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتروأ به.

طريق أخرى مرسله: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، أخبرنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبي ﷺ لابن مسعود: «أنظرنني حتى أتيتك»، وخط عليه خطأ، وقال: «لا تبرح حتى أتيتك». فلما خشيم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة». طريق أخرى مرسله أيضاً: قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى، وأن نبي الله ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني؟» فاطرقوا، ثم استبهم فاطرقوا، ثم استبهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذنو نذبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبي ﷺ شعباً يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال السنور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على نبي الله ﷺ ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغظ الذي سمعت؟ قال: «اختصموا في قتل، فقضيت بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، ﷻ، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن ولم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي. وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم: ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم في تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخله فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقي على أنه يقول: «فتبتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «انثني بأحجار أستنج بها، ولا تأتني بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار في ثوبي، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة؟ قال: «أتاني وفد جن نصيبين، فسالوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاماً». أخرجه البخاري في صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريباً منه. فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك. وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر عنه أولاً من وجه جيد، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، حدثنا النضر بن عريبي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. فهذا يدل على أنه قد روى القصة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز: حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴿٢٩﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حبي وحسي ومسي، وشاصر وناصر، والأرد وإيبان والأحمق. وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً، وهم كانوا عامة جنود إبليس. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن دُرِّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة. وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عمر - هو ابن محمد - أن سالمًا حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني - أو: إن هذا على دينه في الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - عليّ بالرجل، فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كالذي استقبل له رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتِكَ. قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

أَلَمْ تَكُنْ الْجِنُّ وَإِنْسَانَهَا
وَلَحُرُوقَهَا بِالْقُلُوبِ وَأَخْلَاسَهَا

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقممت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. هذا سياق البخاري، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يومه أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم». وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر، رضي الله عنه، فمن أراد فليأخذه من ثم، والله الحمد والمنة. قال البيهقي: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح». أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الأصبهاني، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفي بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصري، حدثنا محمد بن النواس الكوفي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسوله الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدءاً إسلامه شيئاً عجيباً، قال: فيينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلاً بالهند، وكان لي رتي من الجن، قال: فيينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول الله من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأَنْجَاسِهَا
تَهَوَّى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْهُدَى
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
قال: ثم أنبئني فأفزعني، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فأنهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبئني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلَاسِهَا
تَهَوَّى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْهُدَى
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبئني، ثم قال:

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارَهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى آتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأيته النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

وَشَدَّهَا الْعَمِيْسَ بِأَنْكُوَارَهَا
لَيْسَ ذُووُ الشُّرِّ كَأَخْيَارَهَا
مَا مُؤْمِنُو الْجَنِّ كَكُفَّارَهَا
قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى آتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأيته النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

أَتَانِي رَيْئِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ
ثَلَاثٍ لَيْالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ:
فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَطْتُ
فَأَشْهَدُ أَنْ اللُّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
وَأَنَّكَ أَذْنَى الْمُزْسَلِينَ شَفَاعَةٌ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ بِأَخِيرِ مُزْسَلٍ
وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا دُوَّ شَفَاعَةٍ
قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: «أفلحت يا سواد؟» فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال:

وَلَمْ يَكْ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَادِبٍ
أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤْيِي بِنِ عَالِبٍ
بِي الدُّعْلَبِ الوَجْتَاءِ عِنْدَ السَّبَاسِبِ
وَأَتَكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
إِلَى اللُّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطْيَابِ
وَأَنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبِ الدَّوَائِبِ
سِوَاكَ بِمَمْنُونٍ عَنِ سِوَادِ بِنِ قَارِبٍ
قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: «أفلحت يا سواد؟» فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال:

منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حدثه عمرو بن غيلان الثقفي قال: آتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثني كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه، وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق ليلي أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركتني ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعتك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفت بثوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية، فقالت: أجب رسول الله ﷺ. فاتبعته وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي، خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب من نخل، فعرض به على صدري فقال: «أنتطلق أنت معي حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها علي ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطأ، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت العجاجة السوداء، ففرقت فقلت ألحق برسول الله ﷺ، فإني أظن أن هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فاستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني: ألا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتاني رسول الله ﷺ فقال: «أنتم بعدي؟» فقلت: لا، ولقد فرغت الفرعة الأولى، حتى رأيت أن آتي البيوت فاستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما منهم عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستشعرين بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتوني فسألوني الزاد والمتاع، فمعتهم، بكل عظم حائل أو روثة أو بكرة». قلت: وما يغني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبيها الذي كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقي أحد منكم بعظم ولا بكرة». وهذا إسناد غريب جداً، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثني نعيم بن زيد القنبر، حدثنا أبي، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثني

الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثاً، فمر بي فأخذ بيدي، فجعلت أمشي معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم، وهذا حديث غريب، والله أعلم. ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدؤزي، حدثنا الوليد بن بكير التميمي، حدثنا حصين بن عمر، أخبرني عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج، حتى إذا كانوا في بعض الطريق، إذا هم بحية تنشي على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابي: امضوا، فليست يبارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها من الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنا لنعوذ إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت: واحدة منهن: أيكم دفن عمرأ؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صوماً قوماً، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا الله، ثم قضينا حجتنا، ثم مرت بعمر بن الخطاب في المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة». وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثوري، عن أبي إسحاق، عن الشعبي، عن رجل من ثقف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والظهراني، عن صفوان بن المعطل - هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة - وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن. وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عمه، عن معاذ بن عبيد الله بن معمر قال: كنت جالساً عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنني كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفخ من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها في عمامتي ودفنتها. فبينما أنا أمشي إذ ناداني مناد: يا عبد الله، لقد هديت! هذان حيان من الجن بنو أشعيان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذي دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ: قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقاً فقد رأيت عجيباً، وإن كنت كاذباً فعليك كذبك. فقله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: استمعوا وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «مالي أراكم سكوتا، فلنجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ﴿٣٦﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك - أو نعمك - ربنا نكذب، فلك الحمد». ورواه الترمذي في التفسير، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به. قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله. وقوله: ﴿فَلَمَّا قُيُوسٍ﴾ أي: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سِحَّ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [نصفت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ شَأْبِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَوْ أَنَّ إِلَيْكُمْ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدلل بهذه الآية على أنه في الجن نذُر، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [المنكوب: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَمَعِّرَ بَنِيَّ وَالْإِنْسِ أَلَدَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا التُّرُوقُ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَتَقَوَّمَتَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواظ وترفقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: **بَخ**، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَالَّذِي طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين خبير وطلب، فخبيره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق؛ وهو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَالَّذِي طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: في العمليات. ﴿يَتَقَوَّمَتَا أَيُّوبًا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّوبًا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وَدَاعِيًا يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ﴾. وقوله: ﴿يَتَقَوَّمَتَا لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُحْزِنُكُمْ مِنْ عَذَابِ آيَاتِهِ﴾ أي: ويقبكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة. والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَوْ يَطِيعْتُمْ إِنْ شَاءَ رَبُّكُمْ لَآبَدًا﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١٦﴾ فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّكُمْ فَكُذِّبَانِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا يَشَىء من الآثك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْوَسْطَىٰ نُزُلًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، والله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحاً؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عمر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون في رزقها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنو آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها. ثم قال مخبراً عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَئِكَ فِي سُنُلُقٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجح في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً، كما تقدم بيانه.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَتَدَبَّرْنَ عَلَّ أَنْ يَخْرِقَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ تَأْسِيرًا كَمَا صَدَّرْنَا الْقُرْآنَ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَرَبِّ لَبِئْسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَابٍ يَبْلُغُ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ أي: ولم يكرمه خلقهن، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة

مجيبة خائفة وجلية، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (إعانة: ٥٧). ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ أَي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ قُدُوا لِقَاءَ أَلْقَادٍ بِنَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى أمراً رسوله بالصبر على تكذيب من كذبه، من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿يَوْمَ الرَّسُولِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي، حدثنا السري بن حبان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً، ثم قال: يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ وإني - والله - لأصبرن كما صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَىٰ الْقَوْلِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المزمل: ١١١]، وكقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا وَمَوَالِيَهُمْ﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ كَانُوا يَلْبِسُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ﴾، كقوله: ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ كَانُوا يَلْبِسُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّارِ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَبِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها. وقوله: ﴿بَلِّغْ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف



تفسير سورة القتال

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَّ أَهْلَهُمْ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْمَانَهُمْ﴾ (٣).
يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَّ أَهْلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثواباً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا لَكَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً تَنْشُرُوكَ﴾ [الفرقان: ٢٣]. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء في حديث تسميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم». ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْمَانَهُمْ﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

﴿فَإِذَا لَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فَرْجٌ إِلَّا أَعْيُنُهُمْ فَشَدُّوا الرِّبَاطَ فَإِنَّا تَأْتِي بَدُوءَ غَيْبِنَا وَهُوَ بِأَيْدِيهِمْ إِنَّهُ كَانَ مَلَكًا مَكْرُومًا﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ لَاحِظَهُمْ وَلَكِنَّ

يَبْلُغُوا بِصَدَقَاتِكُمْ يَتَعْنُ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدَّلَ أَعْمَلُهُمْ ﴿١٤﴾ سَبَّيْتُمْ وَيَصْلِحُ بِاللَّهِ ﴿١٥﴾ وَيَتْلُوهُمُ لِنَفْسِهِ عَرَفَهَا لَمْ ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُصَرِّمَكُمْ وَيُنَبِّتُ أَفْئَادَكُمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَسْأَلْ أَعْمَلُهُمْ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَبُ أَعْمَلُهُمْ ﴿١٩﴾.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرِّبْ الرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَمْتُمُوهُمُ فَشَدُّوا﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿شُدُّوا﴾ وثاق الأسارى الذين أسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتهم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً، وإن شئتم فادبتموهم بما لا تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ لياخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أُشْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدِّينِيَّةِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ مِمَّا أَخَذْتُمْ عِنْدَكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]. ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَكْثَرُ الْأَكْثَرَ لِكُلِّ مَشْرُوكٍ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَعَدُوهُمُ وَأَضْرَبُوهُمُ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جرير. وقال الآخرون - وهم الأكثرون - : ليست منسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفادته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: «إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعطاً منه ما شئت. وزاد الشافعي، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفادته أو استرقاقه أيضاً. وهذه المسألة محزنة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقًا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ؛ أن سلمة بن نُفَيْلٍ أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: «إني سبيت الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزَيِّعُ اللهُ قلوب أقوام فيقاتلونهم؛ ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن سلمة بن نُفَيْلٍ السكوني، به. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رُشَيْدٍ، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جبير بن نُفَيْرٍ، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فتح فقالوا: يا رسول الله، سبيت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يرفع قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وعقر دار المسلمين الشام». وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشَيْدٍ، به. والمحمفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْلٍ كما تقدم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى الأبدى حرب. وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقًا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقًا﴾ أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتربوا إلى الله ﷻ. وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله، ﷻ. وقوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَمَرْتُمْ بِهِمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَكِنْ يَبْلُغُوا بِصَدَقَاتِكُمْ يَتَعْنُ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتل الأعداء ليختركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا بِكُمْ وَرَسُولَهُ الَّذِينَ الَّذِينَ جَاهَلُوا بِكُمْ وَرَسُولَهُمْ يَدْعِيهِمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَدِّبَهُمْ وَيَتَذَكَّرُ بِهِمْ وَيُصَرِّمَهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهَبُ عِظَتُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَنَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدَّلَ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: لن يذهب بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول بزوخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مرة، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يكفر عنه كل خطيئة،

ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة الإيمان. تفرده به أحمد، رحمه الله. حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بجير بن سعيد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد كرب الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجاز من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوفاء، لياقوته منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه». وقد أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبي قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدين». وروي من حديث جماعة من الصحابة، وقالوا أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله: ﴿سَبِّحْهُمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُ رَبَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ رِجْسُهُمْ فَبِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ الْكُورِ﴾ [يونس: ٢٩]. وقوله: ﴿وَيَصْبِحُ بِأَلَمٍ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيَذَلُّهُمْ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَمْ يَكُنْ﴾ أي: عرفهم بها وهدهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومسكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن ابن أبي حاتم، رحمه الله. وقد روى الحديث الصحيح بذلك أيضاً، رواه البخاري من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمن من النار حبسوا بقطرة بين الجنة والنار، يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا». ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن نَّصْرُوا اللَّهَ بِنُصْرَتِهِ وَيُنِيبُ أَتَانَاكَ﴾، كقوله: ﴿وَلَسَنُصْرَةُ اللَّهِ مِن بَصُرَةٍ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنِيبُ أَتَانَاكَ﴾، كما جاء في الحديث: «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَمَعَا لَمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعمس عبد الدينار، تعمس عبد الدرهم، تعمس عبد القطيفة - وفي رواية: تعمس عبد الخميصة - تعمس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»، ألا: فلا شفاء الله. وقوله: ﴿وَأَصَلَّ أَعْتَلَهُمْ﴾ أي: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْتَلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا فِي الْأَرْضِ قِنطَرًا فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ﴾ ذلك بأن الله مولى الذين ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَا أَهْلَهَا مِمَّا قَلَبْنَا لَكُمْ ﴿١٣﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ قِنطَرًا فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عذدت لأحياء كلهم. فقال أبو سفيان: يو بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثلاً لم أمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبْل، اعل هُبْل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضَمًا وقَضَمًا ليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل من معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم. وقوله: ﴿وَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَا﴾

يعني: مكة، ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفى على الكافرين به في معادهم، ﴿يَضَعُفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [مؤد: ٢٠]. وقوله: ﴿مِن قَرَيْبِكَ إِلَيْنِ أَعْرَجْنَاكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حنّس، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة - وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك». فأعدى الأعداء من عددا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرَيْبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرَيْبِكَ إِلَيْنِ أَعْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣).

﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْتِن مِّن رَّبِّهِ كَن زَيْن لَّم سُوهُ عَلَيْهِ وَأَبْعُوا أَهْوَاهُم﴾ (١٤) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّدَ بَعْرٍ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّن حَمْرٍ لَّدَو لِلشَّرْبِ وَأَنْهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى وَفَم فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَفَطَعَ أَسْمَاءَهُمْ﴾ (١٥).

يقول: ﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْتِن مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، ﴿كَن زَيْن لَّم سُوهُ عَلَيْهِ وَأَبْعُوا أَهْوَاهُم﴾ أي: ليس هذا، كهذا كقولهم: ﴿أَفَن يَقُولُ أَنَّا نَزَّلْنَا آيَاتِنَا لَكُن مِّن رَّبِّكَ لَقَوْلٌ هُوَ آسَفٌ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقولهم: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) [الحشر: ٢٠]. ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير متتن. والعرب تقول: آسِن الماء، إذا تَغَيَّرَ رِيحُهُ. وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعني: الصافي الذي لا كَدْرَ فِيهِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرّة، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّرُ مِنْ جَبَلٍ مِنْ مَسْكٍ.

﴿وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّدَ بَعْرٍ طَعْمُهُ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والندسومة. وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوعِ الْمَاشِيَةِ». ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن حَمْرٍ لَّدَو لِلشَّرْبِ﴾ أي: ليست كريمة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ﴾ (١٧) [الصافات: ٤٧]، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُؤْفُونَ﴾ (١٨) [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَاتٌ لَّدَو لِلشَّرْبِ﴾ (٢١) [الصافات: ٤٦]، وفي حديث مرفوع: «لم تصهرها الرجال بأقدامها». وقوله: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُريري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبَن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في «صفة الجنة»، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجُريري، به. وقال: حسن صحيح. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإباضي، حدثنا أبو عمران الجَوَني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تُشْحَبُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ فِي جَوْبَةٍ، ثُمَّ تَصْدَعُ بَعْدَ أَنْهَارِ». وفي الصحيح: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وفوقه عرش الرحمن».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري، وعبد الله بن الصقر السكري قالوا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلي، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنه أيضاً أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط ابن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد». وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن

عبيدة، عن يزيد بن هارون، أخبرني الجريري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطبيها المسك الأذفر. وقد رواه أبو بكر ابن مزديويه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعاً. وقوله: ﴿وَلَمْ يَبَأْ مِنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينٌ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ وَجَبَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٧]. وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: مع ذلك كله. وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أهولاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حاراً شديد الحر، لا يستطيع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَيَوْمَ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَشَّةٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْآيَةَ مَاذَا قَالَ آيَاتُكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ ﴿٧٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَتَوَلِّيَكُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْآيَةَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آيَاتُكَ﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكثرثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم. وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِمَّنْ نُنذِرُ الْأُولَى﴾ [٥٧] ﴿أَرَأَيْتِ الْآيَةَ﴾ [النجم: ٥٦-٥٧]، وكقوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةَ وَأَنْتَ قَلْبُ الْقَوْمِ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا سَتَجِدُونَ﴾ [النحل: ١] وقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر - صلوات الله وسلامه عليه - بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدِيمِهِ، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا حازم، حدثنا سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى، والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَدْعُوكَ الْأَسِنَّةَ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرُونَ﴾ [الفرج: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا أَمَّا بِنَا وَأَنْتَ لَمْ أَتَانَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٧]. وقوله: ﴿فَأَعْلَمُ أَنَّ لَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يأتي كونه أمراً بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطي وعمدي، وكل ذلك عندي». وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت». وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى ثغص كفته الأيمن - أو: كفته الأيسر، شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه التالكيل. رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به. وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا محرز بن عون، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نصيرة، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منها، فإن إبليس قال: أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ«لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون». وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم». فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني». والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ سُلُوكَكُمْ وَمَتَّوَدِكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليالكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَصْلَحْهُمُ اللَّهُ وَيَسْتَوِدِعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرْنَا فِيهَا الْفِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [٢٠] طاعةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حِزْبًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمَّ وَأَغَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [٢٣].

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷺ، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُونُوا بَيْنَهُمْ وَأَفِيمَا الْعِصَّةِ وَمَاتُوا الزُّكُورَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى نَحْنُ مِنَ الْأَجَلِ قَرِيبٍ لِمَنِ الْأَنْفَى وَلَا تَظْلَمُونَ قَبِيلًا﴾ [٧٧] النساء:

١٧٧. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتتلة على حكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرْنَا فِيهَا الْفِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجنبهم من لقاء الأعداء. ثم قال: مشجعاً لهم: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ حِزْبًا لَّهُمْ﴾. وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمَّ وَأَغَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [٢٣]، وهذا نهى عن الإسناد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال.

وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة. قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مَرْزَد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحق الرحمن ﷺ، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك». قال أبو هريرة: أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [٢٢]. ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مَرْزَد، به. قال رسول الله ﷺ: «أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [٢٢]». ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مَرْزَد، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل - هو ابن عُليّة - به. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه». تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأغفو ويظلمون، وأحسن ويسيتون، أنا فكأنهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكن جُذْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ، ما كنت على ذلك». تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يَغْلَى، حدثنا فطُر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخاري. وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثمامة الثقفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّةٌ كحججة المغزل، تتكلم بلسان طَلْقٍ ذَلْقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها

بنته». وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به. وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رحم، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعها فأبته - أو قال: من بيتها أبته». تفرد به من هذا الوجه. ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرداد - أو أبي الرداد - عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سلمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علانة، عن الحجاج بن الفرافصة، عن أبي عمر البصري، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ مِنْ بَدَى مَا بَيْنَ لَهْمِ الْهُدَى السَّجَلِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَلِيمٌ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ وَاللَّهُ يَمَسُّكُمْ إِسْرَارُهُ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِضَرْبِوتِمْ وَجُوهُتُمْ وَأَذَانِرْتُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَجْمَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَآحْطَ أَعْمَلُهُتُمْ ﴿٢٨﴾﴾
يقول تعالى أمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، ونهاياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾﴾، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله ﷻ يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب في نفس عمر، رضي الله عنه، حتى ولى، فاستعان به. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿مِنْ بَدَى مَا بَيْنَ لَهْمِ الْهُدَى السَّجَلِ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ أي: غرهم وخدعهم، ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَلِيمٌ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ﴾ أي: ما لثوهم وناصحوهم في الباطل على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَمَسُّكُمْ إِسْرَارُهُ﴾ أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٤٨١]. ثم قال: ﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِضَرْبِوتِمْ وَجُوهُتُمْ وَأَذَانِرْتُمْ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَأْسُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَجْمَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَآحْطَ أَعْمَلُهُتُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْسَخْنَاهُمْ لَمَرَاتِنَهُمْ سِيمَانَهُمْ وَلَتَعْرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَعْرَفْنَهُمْ حَقَّ نَمَرِ الْعَجْهِيِّينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَلَوْنَا لِنِسَائِكُمْ ﴿٣١﴾﴾
يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إما كانت تسمى الفاضحة. والأصغان: جمع صغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْسَخْنَاهُمْ لَمَرَاتِنَهُمْ سِيمَانَهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفجواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلت لسانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على

نفاق العمل والاعتقاد في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: «إن فيكم - أو: منكم - فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم. وقوله: ﴿وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ تَمْلَأَ الْجَاهِلِيَّةَ مِنكُمُ وَالَّذِينَ يُفَلِّتُونَ أَفْئِدَتَهُمْ﴾. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصْرِفُوا أَلَيْسَ اللَّهُ شَيْئًا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَا يُطِيلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَلَا تَهْتَفُوا بِهَا لِيَتَقَلَّبَ إِلَىٰ السَّنَةِ وَأَنْتُمْ بِالْأَعْتَابِ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْزَعَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٥﴾.

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يشبهه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُطِيلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُطِيلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكننا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيها. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِيلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّنَةِ﴾ أي المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدوكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّنَةِ وَأَنْتُمْ بِالْأَعْتَابِ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَفْزَعَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا لِلدِّينِ الدُّنْيَا لَيْسَ وَهِيَ دِينٌ وَإِنْ تُؤْسُوا وَتَنْفَرُوا يُؤَيِّدْكُمْ لِحُرُوبِكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنِ الدِّينِ فَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَاللَّهُ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿هَٰذَا نَسْأَلُكَ اللَّهُ لِيُخَيِّرَ بَيْنَ مَا بَدَّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا لِلدِّينِ الدُّنْيَا لَيْسَ وَهِيَ دِينٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُؤْسُوا وَتَنْفَرُوا يُؤَيِّدْكُمْ لِحُرُوبِكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنِ الدِّينِ فَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: يجرركم تبخلوا: ﴿وَيُخَيِّرَ بَيْنَ مَا بَدَّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. قال قتادة: «قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. وقوله: ﴿هَٰذَا نَسْأَلُكَ اللَّهُ لِيُخَيِّرَ بَيْنَ مَا بَدَّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَسْأَلْكُمْ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك

عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ أَلْفُكْرَةٌ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي لا ينفكون عنه. وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره. وقال ابن أبي حاتم: وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب يده على كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس». تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال



تفسير سورة الفتح

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا شُعْبَةَ، عن معاوية بن قره قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلْ يُسْمَتًا عَلَيْكَ وَهَدْيًا مِّمَّا شِئْتُمْ ﴿٢﴾ وَبَشِّرِ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾ .
 نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكوره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله ﷻ، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح ببيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم تترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأناها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركانها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾﴾ . ورواه البخاري، والترمذي والنسائي، من طرق، عن مالك، رحمه الله، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مدني جيد لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بين الله ﷻ، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُنْزِلَ الْتَّوْبَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿قَوْمًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به. وقال الإمام

أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري - وكان أحد القراء الذي قرؤوا القرآن - قال: شهدنا الحديدية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا مَتَعْنَاكَ فَمَا تَبُيِّنَا﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديدية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديدية، فقسّمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الرجل سهماً. رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: لما أقبلنا من الحديدية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا مَتَعْنَاكَ فَمَا تَبُيِّنَا﴾. ﴿١﴾

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي من غير وجه، عن جامع بن شداد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه بوقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه. فقالت له عائشة: يا رسول الله، أنصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟». أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخزاز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال: ساقاه - فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه. فقوله: ﴿إِنَّا مَتَعْنَاكَ فَمَا تَبُيِّنَا﴾ ﴿١﴾ أي: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديدية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان. وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله ﷻ، وأكثرهم تعظيماً لأمره ونواهي، قال حين بركت به الناقة: «حسبها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها». فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا مَتَعْنَاكَ فَمَا تَبُيِّنَا﴾ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُؤَيِّدَ بِيَمِينِهِ عَيْنَكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيُضَرِّكُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ﴿٣﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله يعرفك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت - أي في الدنيا والآخرة - أحداً عصى الله تعالى فيه بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَاللَّهُ جُودٌ أَسَدَدٌ وَالْأَرْضُ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴿١﴾ لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يُكْفَرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ اللَّهُ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَوَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَرْحَ السُّوْءِ عَلَيْهِمْ كَذَابُ السُّوْءِ وَعَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَنْهَنَّهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَاللَّهُ جُودٌ أَسَدَدٌ وَالْأَرْضُ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قال ابن عباس، وعنه: الرحمة. وقال قتادة: الوفاء في قلوب

المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمانت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم . وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب . ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلَوْ جُئِدُوا لَأَسْتَوَتْ وَالْأَرْضُ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عِيَا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَّيْتُ النَّوْبَيْنِ وَالنَّوْبَيْنِ حَتَّى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَّيْنِ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيَخْلُ النَّوْبَيْنِ وَالنَّوْبَيْنِ حَتَّى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَّيْنِ فِيهَا﴾ أي: ما كئيب فيها أبداً، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ رُحِمَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَأَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمْنَ نَفْسَهُنَّ﴾ أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ النَّوْبِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَقَدْ هَمَمْتُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ . ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين -: ﴿وَلَوْ جُئِدُوا لَأَسْتَوَتْ وَالْأَرْضُ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٨] لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَتُؤْمِرُهُ وَيُؤْمِرُهُ وَتُسَبِّحُهُ بِكُفْرٍ وَأَسِيلاً ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَكُفُّ عَنْ نَفْسِهِ . وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ اللَّهُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿١٠﴾ .
يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في سورة «الأحزاب» ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْمِرُهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿تُؤْمِرُهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَتُسَبِّحُهُ﴾ أي: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَسِيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ طَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطه رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُغْنِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِمْ﴾ [التوبة: ١١١] . وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله، فقد بايع الله». وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله لبيعه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ . ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَكُفُّ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ اللَّهُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلاثمائة . وقيل: أربعمائة . وقيل: وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك: قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة . ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به . وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبي الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم . وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته، فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة، ولو كان مائة ألف لكفاننا . وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة . وروى البخاري من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة . قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة . قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة . قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة . وروى العوفي عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة

وعشرين. والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرج صاحبنا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين. وروى محمد بن إسحاق في السيرة، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة. كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة: قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة ليلبغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة. فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحملة بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ البيعة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا تبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجعد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكانني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضباً إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل.

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان بن عفان سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتعن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفرو أبداً، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المودعة والصلح. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم. قال ابن هشام: وحدثني من أثق به عن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى. وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان أبو سنان الأسدي. وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي رضي الله عنه، فقال: ابسط يدك أبياعك. فقال النبي ﷺ: «علام تباعين؟». فقال أبو سنان: على ما في نفسك. هذا أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه. وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر بن الربيع، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل

سورة الفتح، الآيات: ٨ - ١٠

عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاه به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعني عمر -: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع. وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثني الوليد بن مسلم فذكره.

وقال الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه. وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر. وقال البخاري: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن زيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وقال البخاري أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يا سلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبي عبيد. وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاه لا تروها، فقدم رسول الله ﷺ على جباها - يعني الركي - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقيناً واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وباع، حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ: «بايعني يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس. قال: «وأيضاً». قال: ورأيت رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجلة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضاً». فبايعته الثالثة، قال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه. فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبياً من أحب إلي من نفسي» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، أسقي فرسه وأحسه وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكةا، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى منادي من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قتل ابن زيم. فاخرطت سيفي، فشدت على أولئك الأربعة وهم رقاد، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور ونشأه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤]. وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم. وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئاً تحت إبط بعيره. رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به. وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان، عن

عمرو، سمع جابراً، قال: كنا يوم الحديدية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعد بن عمرو الأشعبي، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، عن خدّاش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدئه فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرة، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الشنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم عن عبيد الله، به. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: «وَلَيْنَ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» [مریم: ٧١]، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَزَّلْنَا الظُّلُمَاتِ فِيهَا﴾ [٧١]» [مریم: ٧٢]، رواه مسلم. وفيه أيضاً عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر: أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بداراً والحديبية». ولهذا قال تعالى في الشفاء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مَن تَوَكَّلْ فَلَمَّا يَكُنْ عَلَى قَعْبِهِ وَمَن تُؤَوِّقْ مِمَّا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَوْفَ يَجْرُ عَذَابًا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَمِعُوا لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَخَطْنَا أَمْوَالًا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرَ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَبْدَأُ لَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ سَخَطْنَا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَخَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَوَيْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَطَمَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّرَ بُزُورًا بِلَآهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَوَسَّلُ لِمَن يَشَاءُ لِنَفْسِهِ إِنَّهُ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَبْدَأُ لَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ سَخَطْنَا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَخَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴿١١﴾﴾ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراه فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أرائكم وضمائركم، وإن صانعتونا وتابعتونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾. ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَوَيْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَطَمَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَوَيْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَطَمَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: هلكتكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هي بلغة عمان. ثم قال: ﴿وَمَن لَّرَ بُزُورًا بِلَآهِ وَرَسُولِهِ ﴿١٣﴾﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَتَوَسَّلُ لِمَن يَشَاءُ لِنَفْسِهِ إِنَّهُ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب، وخضع لديه.

﴿سَمِعُوا لَكَ الْمُخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَكَايِدَ لِتَأْخُذُوا دَرُونًا نَّيْمَكُم بِيُدُوتِمْ أَن يَبْدُلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَن نَّيْمُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ قَدِيرًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحذمهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدرأ؛ ولهذا قال: ﴿يَبْدُلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَن نَّيْمُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ﴾.

مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذي وعده به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَاهِرٍ يَبْتَغِ فَاسْتَدْرِكْ لِخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعَهُ أَبَدًا وَكَنْ نَقْتُلُوا مَعَهُ عَدُوًّا لِمَنْ رَضِيَ بِالْمُؤْمِنِ أَوْلَىٰ مَرَّةً فَاقْعَدُوا مَعَ الْحَمِيلِينَ (١٨٣)﴾ [التوبة: ٢٤]. وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في «براءة» نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن غزوة الحديبية. وقال ابن جرير: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ يعني: بتبسيطهم للمسلمين عن الجهاد. ﴿قُلْ لَنْ نَتَّبِعَنَّكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونًا﴾ أي: أن نشرككم في المنعم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلنَّبِيِّينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُنْدَعُونَ إِنَّ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْبَلُوهُمْ أَوْ يُسَلُّوْنَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمُرْصِلِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَؤَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾.

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذي يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة، أو جميعاً - ورواه هشيم عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. وروي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة - في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جرير، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، في قوله: ﴿سُنْدَعُونَ إِنَّ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد. وحدثنا أبي، وحدثنا ابن أبي عمر، وحدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة في قوله: ﴿سُنْدَعُونَ إِنَّ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون. قال: وحدثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين، ذلف الأنف، كان وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك. قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر: ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قوماً نعالهم الشعر»، قال: هم البارزون، يعني الأكراد. وقوله: ﴿تُقْبَلُوهُمْ أَوْ يُبَدِّلُونَهُمْ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكن النصره عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، ﴿يؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغياً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل عن المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمدلة، وفي الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَاهِتُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾ وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوتَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم. وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوتَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى - يعني ابن عبيدة - حدثني إياس بن سلمة، عن

أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فقرأنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان، طوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا ما طاف حتى أطوف».

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَايِرَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَكَوْ قَتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَلَدْبَرُ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَايِرَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا﴾: هي جميع المغنمات إلى اليوم، ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر. وروى العوفي عن ابن عباس: ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: لم يملككم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحریمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعهم طاعته، وموافقتم رسول الله ﷺ. وقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العوفي عن ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلي، والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن سيمك الحنفي، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتح التي تفتح إلى اليوم. وقوله: ﴿وَكَوْ قَتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَلَدْبَرُ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ يقول تعالى مبشراً لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فأراد مذبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرغ الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وشدتهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤا بأولئك السبعين الأساري فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم يده الفجور وثأنا». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان: ففعا عنهم - ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود في سننه، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال أحمد - أيضاً -: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البناني، عن عبد الله بن مَعْقِلِ الْمُزَنِيِّ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب. وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب:

«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جنتم في عهد أحد؟ أو: هل جعل لكم أحد أماناً؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلْحٍ مِّمَّا بَعْدَ أَنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾». رواه النسائي من حديث حسين بن واقد، به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا جعفر، عن ابن أبيزى قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة، قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حزب بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملة، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأنه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك في الخيل»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله - فيومئذ سمي سيف الله - يا رسول الله، أرم بي أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلْحٍ مِّمَّا بَعْدَ أَنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى: ﴿عَدَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبيزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديدية؛ لأن خالد لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عزمزم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شيء فليتأمل، والله أعلم. وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أنهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمرهم أن يطبقوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُتَيْم» اطلع على الثنية من الحديدية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً، فأتوه باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم: «هل لكم علي عهد؟ هل لكم علي ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلَّغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا إِيمَانُ بَعْضِكُمْ لَفِي أَسْفَهَاتٍ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلَّغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا إِيمَانُ بَعْضِكُمْ لَفِي أَسْفَهَاتٍ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلَّغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا إِيمَانُ بَعْضِكُمْ لَفِي أَسْفَهَاتٍ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلَّغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا إِيمَانُ بَعْضِكُمْ لَفِي أَسْفَهَاتٍ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: أنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلَّغَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِيمَانُ بَعْضِكُمْ لَفِي أَسْفَهَاتٍ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتن إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سألطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفانهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَنْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَاصْلِحُوا أَوْ أَصْلِحْ لَنَا إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: إنهم غراممة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُبْلِغَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لَوْ تَرَكْنَا أَهْلَ الْكَفَرِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَآتَيْنَهُمْ مَكْرَهُمْ وَالْقَوَى وَأَكْرَهُمْ﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَدَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسألطانكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزُّنْبَاعِ - روح بن الفرج - حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف يقول: سمعت جنيد بن سبع يقول:

قالت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّئَاتُ هُنَّ لَمَّامَاتٌ لِّمَنْ جَاءَهُنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْبُرُوجِ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه: عن أبي جمعة جنيد بن سبغ، فذكره والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف، به. وقال: كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّئَاتُ هُنَّ لَمَّامَاتٌ لِّمَنْ جَاءَهُنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْبُرُوجِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّبْنَا الذُّرِيَّةَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذاباً أليماً يقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الذُّرِيَّةَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّيْمَةَ حِيَّةً لِّلْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبو أن يكتبوا: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّزْمَةَ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾، وهي قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير، عن أبيه، عن الطفيل - يعني: ابن أبي بن كعب رضي الله عنه - عن أبيه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾، قال: «لا إله إلا الله». وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا رزعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بقره، وحسابه على الله»، وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى وَكَانُوا لَمَّامَاتٌ لِّمَنْ جَاءَهُمْ﴾ وهي: «لا إله إلا الله»، محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري، والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾: الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عباية بن ربيعة، عن علي: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضي الله عنهما. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال قتادة: عبد الله بن المبارك، عن مَخْمَرٍ، عن الزهري: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: ﴿وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةُ النَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله. ﴿وَكَانُوا لَمَّامَاتٌ لِّمَنْ جَاءَهُمْ﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر. وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شيبان بن سوار، عن أبي رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبير، عن بسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الذُّرِيَّةَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّيْمَةَ حِيَّةً لِّلْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولو حميتكم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما عمله الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرا وأعلم مما علمك الله ورسوله.

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقضية الصلح: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أردوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس

فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة . قال : فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأته خيل قريش قترت الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش ، فخرج رسول الله ﷺ ، حتى إذا سلك ثنية المرار ، بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت ، وما ذلك لها بخلق ، ولكنها حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعونني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » . ثم قال للناس : « انزلوا » . قالوا : يا رسول الله ، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس . فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل في قلب من تلك القلب ، فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن . فلما اطمان رسول الله ﷺ ، إذا بُدِّل بين ورفاء في رجال من خزاعة ، فقال لهم كقولهم لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه ، فاتهموهم .

قال محمد بن إسحاق : قال الزهري : وكانت خزاعة في عيبة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها ، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة ، فقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة ، ولا يتحدث بذلك العرب . ثم بعثوا إليه وكرز بن حفص ، أحد بني عامر بن لؤي ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى في وجهه » ، فبعثوا الهدى ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله ، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى ، فقال : يا معشر قريش ، قد رأيت ما لا يحل صدّه ، الهدى في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله . قالوا : اجلس ، إنما أنت أعرابي لا علم لك . فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي ، فقال : يا معشر قريش ، إن قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ، فقال : يا محمد ، جمعت أوباش الناس ، ثم جئت بهم لبيضتكم لتفضها ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمرور ، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفتوا عنك غداً . قال : وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ ، فقال : امصص بظر اللات ! نحن نكشفت عنه؟! قال : من هذا يا محمد؟ قال : « هذا ابن أبي حنيفة » . قال : أما والله لولا لا يد كانت لك عندي لكفاتك بها ، ولكن هذه بها . ثم تناول لحية رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن شعبه واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد ، قال : ففرع يده . ثم قال : أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك . قال : ويحك ! ما أفظعك وأغلظك ! فتبسّم رسول الله ﷺ . قال : من هذا يا محمد؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه » . قال : أغدر ، وهل غسلت سوانك إلا بالأمس؟! قال : فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . قال : فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه ، ولا يصبق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إنني جئت كسرى في ملكه ، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما ، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم . قال : وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل له يقال له : « الثعلب » ، فلما دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا قتل خراش ، فمنعهم الأحابيش ، حتى أتى رسول الله ﷺ ، فدعا عمر ليعثه إلى مكة ، فقال : يا رسول الله ، إنني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بها من بني عدي أحد يمتعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني : عثمان بن عفان . قال : فدعا رسول الله ﷺ ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمة . فخرج عثمان حتى أتى مكة ، فلقية أبان بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه ، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . قال : واحبسته قريش عندها ، قال : وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل .

قال محمد : فحدثني الزهري : أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو ، وقالوا : أنت محمداً أوصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد

القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطلا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه حيث كان، فإنني أشهد أنه رسول الله. ثم قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: ما زلت أصوم وأصلي وأصدق وأعتق من الذي صنعت مخالفة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطالح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريش ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنتك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغ من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحروه واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره. ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح. هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزيد البكائي، عن ابن إسحاق، بنحوه، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، به نحوه وخالفه في أشياء.

وقد رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه، فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر: أخبرني الزهري: أخبرني غزوة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك. فقال: «أشيروا أيها الناس علي، أترون أن نميل على عيالهم، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانواهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزوبين وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فممن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر، رضي الله عنه: الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين، ولم نجى لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله». حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نديراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فآلحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعنا يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سقهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال: ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تهمونني؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. قالوا: آتة. فآتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أشواهاً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: امصص بظفر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بتعل السيف، وقال له: أخرج يدك من لحية النبي ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألت أسمى في غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروه جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنتخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آتة. فقالوا: آتة، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُذُن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يُبُتون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُذُن قد قُذت وأشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعوني آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب، عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهّل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال

النبي ﷺ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال: سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضُعْفَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرُسْفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أفاضيك عليه أن تُرَدَّه إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نُفِضْ الكتاب بعد». قال: فوالله إذاً لأصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرِّدَ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذَّبَ عذاباً شديداً في الله ﷻ. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرني»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت نطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا تأتيه العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعُرْزِهِ، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه ونطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جريت منه ثم جريت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى يَرُدَّ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأيت هذا دُعْرًا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه يسعَّرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَلَدَى كَلَّ أَبْيَهُمْ عَنْكُمْ وَالْيَدِيكُمُ عَنْهُمْ يَغْنَى مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حِجَّةَ الْبَيْتِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري، به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والجسور بن مخزومة، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك. وهذا أشبه

والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم. وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِيُّ، حدثنا يعلي، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْفٍ: اتهموا أنفسهم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلاتنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً»، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة، عن سهيل بن حنيف به، وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقراها عليه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: اكتب من محمد رسول الله. قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم من أرددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعترضوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أنني رسولك، امح يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من علي، وقد محاه نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي، بنحوه. وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن يقسَم، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صُذت عن البيت حثت كما تحن إلى أولادها.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آيَاتٍ بِالْحَقِّ لَنُدْخِلَنَّهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ تَبَتُّوا لَكُمْ وَمَقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ قَوْلَ مَا لَمْ يَمَلُّوا فَمَكَرَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَتَمًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

كان رسول الله ﷺ قد أرى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونظوف به؟ قال: «بلى»، فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال: «فإنك آتية ومظوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضاً حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آيَاتٍ بِالْحَقِّ لَنُدْخِلَنَّهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله: ﴿آمِينَ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله ﷺ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: «المقصرين» في الثالثة أو الرابعة. وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبضعها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل

والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديدية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحيشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجاجة سِمَاك بن خَرْشَةَ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديدية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخييل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قريها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش بكرز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال: دخلت: علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثين يوماً إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديدية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينه	باسم الذي لا دين إلا دينه
خَلَوْا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ	خَلَوْا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ
كما ضربناكم على تنزيله	كما ضربناكم على تنزيله
ويذهل الخليل عن خليله	ويذهل الخليل عن خليله
في ضُحْفٍ تتلى على رسوله	في ضُحْفٍ تتلى على رسوله
يا رب إنسى مؤمناً بقيلته	يا رب إنسى مؤمناً بقيلته

فهذا مجموع من روايات متفرقة. قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة أخذ بخطام ناقته ﷺ، وهو يقول:

إنسى شهيداً أنه رُسُولُهُ	إنسى شهيداً أنه رُسُولُهُ
يا رب إنسى مؤمناً بقيلته	يا رب إنسى مؤمناً بقيلته
كما قتلناكم على تنزيله	كما قتلناكم على تنزيله
ويذهل الخليل عن خليله	ويذهل الخليل عن خليله
وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفي رواية وابن رواحة أخذ بغرزه، وهو يقول:	

خَلَوْا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ	خَلَوْا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ
بأن خير القتل في سبيله	بأن خير القتل في سبيله
نحن قتلناكم على تأويله	نحن قتلناكم على تأويله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله	ضرباً يُزيل الهام عن مقيله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل - يعني: ابن زكريا - عن عبد الله - يعني: ابن عثمان - عن أبي الطفيل، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مر الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرننا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَوْنَا من مَرَقِهِ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَةً. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَلَ، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنقرنن نقرَ الأطباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّةً. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس: أن

رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد هتتهم حُمى يثرب، ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد هتتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركبتين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد هتتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أي من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد هتتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال البخاري: وزاد ابن سلمة - يعني: حماد بن سلمة - عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل عقيقان. وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته. ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به. وقال أيضاً: حدثنا علي بن أبي عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم. وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم ولا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً، أمره أن يخرج فخرج. وهو في صحيح مسلم أيضاً. وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نفر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتيته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاخصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، ففضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاة» انفرد به من هذا الوجه. وقوله: «فَمَلِمَ مَا لَمْ تَلْمُوا فَمَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَّ قَرِيبًا» أي: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تلموهم، فمَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ، «فَتَمَّ قَرِيبًا» وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى، مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَبِالْحَقِّ أَي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، «يُظهِرُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين، «وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا» أي: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَنْ لَعَنُوا فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٌ أَخْرَجَ مِنْهُمُ سُلْطَةً فَتَارَةً تَاسْتَنْظَفُونَ عَنْ سُجُودِهِمْ الْمُكْفَرُ وَتَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر،

وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم نثى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَسَّوْقَ بَأْسِ اللَّهِ قِوَامٍ حَكِيمٍ وَنُصْرَةَ اللَّهِ وَتَصَدَّقَهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برأ بالأخيار، غضوباً عوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا قِتْلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٧٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح. وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَقْتَفُونَ فَلَا يَنَالُونَ اللَّهَ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، وصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ١٧٧]. وقوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي رُحُوبِهِمْ﴾ يعني: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «سَيَمَاهُمْ فِي رُحُوبِهِمْ» يعني: السمعت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنّافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد: «سَيَمَاهُمْ فِي رُحُوبِهِمْ مِّنْ أَثَرِ الشَّجَرِ» قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أسمى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقد أسنده ابن ماجه في سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضيء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحاته وجهه، وفلّات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر في صفحات الوجه، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، العرزمي متروك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفلبي، عن زهير، به. فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديبهم. وقال مالك، رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هانئا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيحٍ أَخْرَجَتْ سَلْطَمًا فَأَتَرَهُ فَأَسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُرْقِيٍّ﴾: «أَخْرَجَتْ سَلْطَمًا» أي: فراخه، ﴿فَأَتَرَهُ» أي: شده ﴿فَأَسْتَقْلَطَ» أي: شب وطال، ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُرْقِيٍّ» أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَصِيَّبَهُمُ الْكَلْبُ» ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله - في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يبغضونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم. ثم قال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِثْمًا﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مُتَّفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

آخر تفسير سورة الفتح، والله الحمد والمنة



تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَبِّحٌ عَلَيْهِ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَمْوَنَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هذه آداب، أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانفَعُوا اللَّهَ﴾، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، إذ قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، لما يرضى رسول الله». وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما فكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال العوفي عنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه. وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضي الله على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل. وقال الحسن البصري: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه. ﴿وَانفَعُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِّحٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. وقال البخاري: حدثنا بشر بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأفزع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر. قال نافع: لا أحفظ اسمه. فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فانزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعني أبا بكر، رضي الله عنه. انفرد به دون مسلم. ثم قال البخاري: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخيره: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن مغبد. وقال عمر: بل أمر الأفزع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى - أو - إلا - خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، حتى انقضت الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥]. وهكذا رواه هانها منفرداً به أيضاً. وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عمر، عن مُحَارِق، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كاخِي السَّرَار. حصين بن عمر هذا - وإن كان ضعيفاً - لكن قد روينا من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة رضي الله عنه بنحو

ذلك، والله أعلم. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى ابن أنس، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأناه فوجده في بيته مُتَكَسِّماً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «إذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَن تَرَفَعُوا صَوْتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينا، ففقدته رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم البمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط وليس كفته، فقال: بشما تُعَوِّدُون أفرانكم. فقاتلهم حتى قُتِل. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال: سعد إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فأناه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي، عن حَيَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعد بن معاذ. وعن قطن بن نُسير عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ. حدثنا هَرِيم بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتصر الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رَجُلٌ من أهل الجنة. فهذه الطرق الثلاث مُعَلَّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ قال: فقد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها: إذا دخلت بيت فَرَسِي فشدي عَليّ الضبّة بمسمار، فضرته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، ﷺ، أو يرضى عني رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «إذهب فادع لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: أكره الضبّة. قال: فخرجاً فأتى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال: له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت بيشري الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصُفُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله ﷻ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حياً وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه

ممن عده، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقوله: ﴿أَنْ تَحْطَأَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض. ثم نذب الله ﷻ، إلى خفض الصوت عنده، وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْتَابُونَ آبَاءَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ﴾ أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً، ﴿لَهُمْ مَقْصِرَةٌ وَتَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَقْصِرَةٌ وَتَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢﴾. ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ثم ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد - وفي رواية: يا رسول الله - فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله، ﷻ». وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رسول الله ﷺ قال: يا محمد، إن حمدي زين، وذمي شين. فقال: «ذاك الله، ﷻ». وهكذا ذكره الحسن البصري، وقاتدة مرسلًا. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب وليد بن عطار - أو بشر ابن عطار وليد بن غالب - وهما عند الحجاج جالسان - فقال بشر بن غالب للبيد بن عطار: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة فقال: أما إنه لو علم بأخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدما، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُبَيِّنُوا قَوْمًا يَمْهَلُونَ فَتَضَيَّرُوا عَلَى مَا قَلَّمْتُمْ نَدْوِينَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُظَاهِرُ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمٌ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْيَمِينَاتِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَرَضَمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦﴾.

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحْتَاط له، لثلاث يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالثبوت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، والله الحمد والمنة. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضَرَار، والد جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن

ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويُرسل إلي رسول الله رسولا لإبّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطاً من الله ورسوله، فدعا بسراوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقتاً لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطه كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق - أي: خاف - فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيم قال لهم: إلى من يُبعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟». قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي قَايِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿حِكْمَةٍ﴾. ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق، به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الواقعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي قَايِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي قَايِقَاقٍ﴾. وروى ابن جرير أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إننا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإننا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإننا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبي ﷺ استغشهم وهم بهم، فأنزل الله عذره في الكتاب، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي قَايِقَاقٍ﴾ إلى آخر الآية. وقال مجاهد وقاتدة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليصدقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك - زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام - فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عينه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التَّبِينُ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ». وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حَيَّان، وغيرهم في هذه الآية: أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، وتادبوا معه، واتقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. ثم بيّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُلَيْمُكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَسْتِمَّ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وخرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ لَغَرِبْنَا عَنْهُ لَعَسَا نَكُونُونَ مِنَ الْخَائِبِينَ﴾ [الزمر: ٢١]. وقاله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [المؤمنون: ٧١].

في قُلُوبِكُمْ أَي: حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. قال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا علي بن مسعدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا». «وَكُرَّةٌ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْمِصْيَانُ» أَي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ» أَي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. قال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزرقعي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استوتوا حتى أثنى على ربي، ﷻ فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم، إني أسألك النعيم يوم العَيْلَةِ، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عاتذك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حبيب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَانَ بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ، عن أبيه، به. وفي الحديث المرفوع: «من سرتة حسنته، وساءتة سيئته، فهو مؤمن». ثم قال: «فَضَّلَا مِنَّا اللَّهُ وَرِضْمَةً» أَي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أَي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَخْشَى إِلَهَ اللَّهِ فَإِن فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠).

يقول تعالى أمرًا بالإصلاح بين المسلمين الباغيين بعضهم على بعض: «وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدلال البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكره أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. وقوله: «وَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَخْشَى إِلَهَ اللَّهِ» أَي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرته إياه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عني، فوالله لقد أذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ طيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: «وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا». ورواه البخاري في «الصلح» عن مُسَدَّدٍ، ومسلم في «المغازي» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه. وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما. وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في عُيْلَةٍ له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله. وقوله: «وَإِن فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» أَي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، «وَإِن اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن

عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا». ورواه النسائي عن محمد بن المثني، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح. وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: أمين، ولك بمثله». والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وكمل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر». وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس». تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَأَصْحَابُ بَيْتِ الْحَوَكِ﴾ يعني: الفئتين المقتتلين، ﴿وَأَقْرَبُ اللَّهِ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ إِلَاتِمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأكبر بطر الحق وغمص الناس»، ويروى: «وغمط الناس». والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحققر أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحققر له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ مِنْ يَسَاءَ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهي النساء. وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهمّاز اللّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَازِرٌ مَّشَمٌ يَنْبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١] أي: يحقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنيمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضاً. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقاتدة، ومقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يظمن بعضكم على بعض. وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حدثني أبو جيرة بن الضحاك قال: فبينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وهيب، عن داود، به. وقوله: ﴿بِئْسَ إِلَاتِمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بشئ الصفة والاسم الفسوق وهو: التنازع بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْبِيًا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّك بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَحْتَسِبُوا وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم مَّبْعَأُ أَجْمَعٌ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَحِبِّهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إنشأً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس التُّصْرِي، حدثنا عبد الله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ربحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم من عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خيراً». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه. وقال مالك، عن أبي الرُّنَاد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب

الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتيبي ثلاثتهم، عن مالك، به. وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذي - وصححه - من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القزويني العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمت لأمي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض». وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضي الله عنه، برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرأ. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ليث، عن إبراهيم بن نسيط الحولاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دحّين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دحّين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دحّين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها». ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد، به نحوه. وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، ففعل الله بها. رواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري، به. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمَضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب، وأبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم، وقوله: ﴿وَلَا يَجْسُرُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يَكْفُرْ أَذْهَبُوا مَنَسُّوْا مِن يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتجسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابير: الصُرْم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَنْكُمْ بَعْضًا﴾: فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القَعْتَبِي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي عن قتيبة، عن الدَّرَاوَزْدِي به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن العلاء. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرّة. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقرم، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حبسك من صفة كذا وكذا! - قال غير مسدد: تعني قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مُرَّجَتْ بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا». ورواه الترمذي من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقرم، عن أبي حذيفة سلمة بن صهيب الأرحبي، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق: أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ - أي: إنها قصيرة - فقال النبي ﷺ: «اغبتيتها». والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصح، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اذنوا له، بش أخو العشيرة»، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد

خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُّبُ أَدْكُرُ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ﴾؟ أي: كما تكهون هذا طبعاً، فاكهوا ذلك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، في العائد في هبته: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذي عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال: حسن غريب. وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله بن جريج، عن أبي بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته». تفرد به أبو داود.

وقد روي من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته». طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دلهم، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفَضِّصِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك. قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقیة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن قاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود. وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقیة وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبيرة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العبدی، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك؟... قال: «ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرُضِ جَنبِ أَحَدِهِمْ فَيَحْدُونُ مِنْهُ الْحُدُودَ مِنْ مِثْلِ النَّعْلِ ثُمَّ يَضَعُونَهُ فِي فِي أَحَدِهِمْ، فيقال له: «كل كما أكلت»، وهو يجد من أكله الموت - يا محمد - لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون اللمازان أصحاب النيمة. فيقال: ﴿أَيُّبُ أَدْكُرُ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ﴾ وهو يكره على أكل لحمه. هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة سبحان» والله الحمد. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطرن أحد حتى أذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظلمت منذ اليوم صائماً، فائذن لي فأفطر، فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فليفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيتا». ففعلتا، فقأت كل واحدة منهما علقة علقة فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لوماتنا وهما فيهما لأكلتهما النار». إسناد ضعيف، ومتن غريب.

وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان التّهدي عن عبيد - مولى رسول الله - أن امرأتين صامتاً على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتاً، وإنهما كادتا تموتان من العطش - أراه قال: بالهجرة - فأعرض عنه - أو: سكت عنه - فقال: يا نبي الله، إنهما - والله قد ماتتا أو كادتا تموتان. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجيء بقدرح - أو عُس - فقال لإحدهما: قيثي. فقوات من قيح ودم وصيد، حتى قاتت نصف القدرح. ثم قال للأخرى: قيثي فقوات قيحاً ودماً وصيداً ولحمياً ودماً عبيطاً وغيره حتى ملأت القدرح. فقال: إن هاتين صامتاً عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس. وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمي، به مثله أو نحوه. ثم رواه أيضاً من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد - مولى رسول الله ﷺ - أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «ادعهما». فجاء بئس - أو: قَدَح - فقال لإحدهما: «قيثي»، فقوات لُحْماً ودماً عبيطاً وقيحاً، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتاً عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحدهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحاً». وقال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول - وهو عبيد - أصح. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاک بن مَخْلَد، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنت فأعرض عنه - قالها أربعاً - فلما كان في الخامسة قال: «زنت؟» قال: نعم. قال: «وتدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الجمل في المكحلة والرشاء في البر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجمَ رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار؟» قال: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: «فما نلتما من أخيكما أنفاً أشد أكلانه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» إسناده صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي، حدثنا واصل - مولى ابن عيينة - حدثني خالد بن عُرْفُطَةَ، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين». طريق أخرى: قال عبد بن حُميد في مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: «إن نقرأ من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح». وقال السدي في قوله: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: زعم أن سلمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ في سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً، لم يسر معهم، فجعل صاحبه يكلمانه فلم يجده، ففرض الخباء فقالا: ما يريد سليمان - أو: هذا العبد - شيئاً غير هذا: أن يجيء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لتؤدبهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد اتدموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذي بعثك بالحق، ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال: «إنكما قد اتدمتما بسلمان بقولكما». قال: ونزلت: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، إنه كان نائماً.

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فانما فاستيقظا ولم يهبيء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: انت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقربانك السلام، ويستأدمانك. فقال: «إنهما قد اتدمتا» فجاء فقالا: يا رسول الله، بأي شيء اتدمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده، إني لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاه فليستغفر لكما». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه في الدنيا، قُرِب له لحمه في الآخرة، فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً. قال: فيأكله ويكَلِّح ويصيح».

غريب جداً. وقوله: ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أكرمكم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهني أخبره، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعبه، بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يأخذ امرأ مسلماً في موضع تنتك فيه حرمة ويتقص فيه من عرضه، إلا أخذله الله في مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع يتقص فيه من عرضه، ويتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القصص والأمم»، في معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت جُمَيْر ينتسبون إلى مُخَالِيفِهَا، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها. وقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك ابن عيسى الثقفي، عن يزيد - مولى المنبعت - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ أي: إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان. ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به.

حديث آخر: قال مسلم، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام، به. حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». تفرد به أحمد. حديث آخر: وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خزاش العَصْرِي، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى».

حديث آخر: قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس - يعني ابن الربيع - عن شبيب بن عرقدة، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونون أهون على الله من الجحان». ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه. حديث آخر: قال: ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القُصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنبخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بأبائنا، فالناس رجلان: رجل يرتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُرُوبًا وَقَوَائِلَ لِيَعْرِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ﴾». ثم قال: «أقول قولِي هذا واستغفر الله لي ولكم». هكذا رواه عبد بن حميد، عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد، عن موسى بن عبيدة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طُفَّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيئاً بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، به. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يملؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سماك، عن عبد الله بن عبيدة زوج درة ابنة أبي لهب، عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف، ونهأهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم». حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذوقتي. تفرد به أحمد رحمه الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة. وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفْكُمْ مِنْ أَعْيُنِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُكْفَرُونَ بِاللَّهِ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ لَآتِيٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مغمراً، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبو في النار على وجوههم». أخرجه في الصحيحين من حديث الزهري، به. فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلتنا في أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» والله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذلك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من

الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقناة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبیر، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَكِنْ قَوْلُوا أَتَمَنَّا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسياسة. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمه. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تَمُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَتَمَنَّا وَلَكَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكَنَّ مِنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله: ﴿وَمَا أَنتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لم يشكوا ولا تنزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَيَهْتَدُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وبدلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه الله ﷻ». وقوله: ﴿قُلْ أَتَمَنُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائرهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفي عليه من مقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ يَكْفِي شَأْنَهُ عَلَيْهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمَنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للانصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فالفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمرٌ. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن قيس، عن أبي عون، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمَنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧). ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبیر، غير هذا الحديث. ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَلْمِزُ عَنبَثَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

آخر تفسير الحجرات، والله الحمد والمنة



تفسير سورة ق

وهي مكية. وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عَم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه، باب «تجزيب القرآن» ثم قال: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا قُرَّانُ بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان - وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة - ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له - قال مسدَّدٌ: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتيان بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتى

يرواح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين - قال مُسَدَّدٌ: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى الطائفي به. إذا علم هذا، فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء: وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصاص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، ووص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجنات. والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه والله الحمد والمنة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك، عن ضمرة بن سعيد، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به. وفي رواية لمسلم عن فليح عن ضمرة، عن عبيد الله، عن أبي واقد قال: سألتني عمر، فذكره. حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ﴿١﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. ورواه مسلم أيضاً من حديث ابن إسحاق، به. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت ﴿ق﴾ إلا من في رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً. وكذا رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، به. والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ﴿١﴾ بَلْ يَجْمُرُونَ أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَكَأَلُوا الْكُفْرَانَ هَذَا نَوْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّا رَبُّكَ ذَلِكَ نَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَيَوْمَئِذٍ كَيْفَ حِطَّتْ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٥﴾ .

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ﴿١﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندني أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائهم وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوز العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يضح سنده عن ابن عباس فقال: حدثنا أبي قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي: حدثنا ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد

سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٤٧]. فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذي رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ق﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، ح، ط، س، أ، م) ونحو ذلك. فهذه تُبَعِدُ ما تقدم عن ابن عباس. وقيل: المراد «قضي الأمر والله»، وأن قوله: ﴿ق﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم كقول الشاعر:

قَلتَ لَهَا: قَفِي قَفَا لَهَا قَفَا

وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟ وقوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَيْضٌ﴾. وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [١] ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَيَقُولُوا ١-٢﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [١] ﴿بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا نَسْءٌ عَجِيبٌ﴾ [٢] أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رِجُلًا مِنْهُمْ أَنْ نُذِيرَ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢٧] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستعدادهم لوقوعه: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكَ آيَةً أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِسَمِّ الْخَيْلٍ وَقُتِلَ الْبَاقِعُ مِنْهُ خَالِكَةً وَتُجْرِبُهُمْ رَبُّهُمْ سَوْتًا وَمَا يَرْجِعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْغُرُبَاتِ وَالرَّجَبَاتِ وَلَا يُجِيبُهُمْ بِالنَّارِ إِلَّا السَّعِيرُ﴾ [٣] أي: يقرولون: أنذا متنا وبلينا، وتقطعت الأرواح منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كَنْزٌ حَيْضٌ﴾ أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستعدادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلِ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [٤] أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمرج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَمِنَ الْخٰلِفِينَ﴾ [٥] ﴿وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [١] ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِزْقًا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [٢] ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّشِيحٍ﴾ [٣] ﴿وَرَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَالْتَبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْمُغْوِيِّينَ﴾ [٤] ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ مُّشِيحٌ﴾ [٥] ﴿رِزْقًا لِلْيَاسِدِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْفُرُوجُ﴾ [٦].

يقول تعالى منها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا﴾؟ أي: بالمصاييح، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [١] ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرِّيحٍ يَنفِثُ إِلَيْكَ الْغَبَرَ خَابِثًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [٢] [الملك: ٣-٤] أي: كليل، أي: عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِزْقًا﴾ وهي: الجبال؛ لئلا تמיד بأهلها وتضطرب؛ فإنها مفرقة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من جميع الزروع والشمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ مَثْوٍ خَلَقْنَا رِزْقًا لِّمَنْ يَمْلِكُ الذِّكْرُونَ﴾ [٣] [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن نضرة، ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّشِيحٍ﴾ [٤] أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل رجوع إلى الله ﷻ. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ أي: نافعاً، ﴿فَالْتَبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْمُغْوِيِّينَ﴾ وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوالاً شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَمَّا طَلَعَ مُّشِيحٌ﴾ أي: منضود. ﴿رِزْقًا لِلْيَاسِدِ﴾ أي: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾، وهي الأرض التي كانت هامة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزهاير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته

بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَخْلُقْهُنَّ يَتَّبِعُهُنَّ يَمْشِي وَيَمْشِي عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ اللَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعةً فَإِنَّ آتِنَا عَلَيْهَا أَلْمَاءً مَغْرَّتَ وَرَبَّتْ وَإِنَّ لِذَلِكَ حَاكِمًا لَخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [نمل: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَرَمُوهُ ﴿١٦﴾ وَعَادٌ وَرَعَوَةٌ وَبَنُو لُوطٍ ﴿١٧﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَّعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٨﴾ أَمَّا بِنَا بِأَلْمَلِكِ الْأَوَّلِ بَلْ هُرِّ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَبِيرٍ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباحهم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة «الفرقان» ﴿رَمُوهُ وَعَادٌ وَرَعَوَةٌ وَبَنُو لُوطٍ ﴿١٦﴾﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمٌ تَبَّعَ﴾ وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكانما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمٌ نُوْحٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنعكس فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك. وقوله: ﴿أَمَّا بِنَا بِأَلْمَلِكِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أفاعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُرِّ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَبِيرٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيَّ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَاءَ وَهُوَ رَمِيذٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَهَلَكُوا مَا نُؤْتُوا بِهِ فَتَسَمَّ وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَلْقَى السَّمَكَاتِ عَنِ الْبَيْنِ وَرَبِّ أَيْمَانٍ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ تَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِعَ فِي السُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْفَا عَنكَ غَفْلَةُكَ فَصَرَكَ إِلَيْهِ حَبِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل». وقوله: ﴿وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلاثا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، فالملائكة نزلت بالذکر - وهو القرآن - بإذن الله، ﷻ. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَلْقَى السَّمَكَاتِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْبَيْنِ وَرَبِّ أَيْمَانٍ قَيْدٌ﴾ أي: مترصد ﴿تَا يَلْفُظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٦﴾ كِرَامًا كَبِيرِينَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٠-١٢]. وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقناة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿تَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت. يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث

محمد بن عمرو به . وقال الترمذي : حسن صحيح . وله شاهد في الصحيح . وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير ، وهو أمير على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبي كتبها . رواه ابن أبي حاتم . وقال الحسن البصري وتلاه هذه الآية : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدٌ﴾ : يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول : ﴿وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْمَنَةَ طَلِيمِهِ فِي عُنُقِهِ وَنُحِرَ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ (١٤) [الإسراء: ١٣-١٤] ثم يقول : عدل - والله - فيك من جعلك حسيب نفسك . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿مَا يَلْبِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَبِّكَ حَيْدٌ﴾ (١٥) قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله : «أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت» ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقى سائره ، ذلك قوله : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢٦) [الرعد: ٢٩] ، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه ، فيبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأئين . فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةَ الْتَوْتِ يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ (١٦) ، يقول تعالى : وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق ، أي : كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ أي : هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص . وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةَ الْتَوْتِ يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ (١٦) ، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو . وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد - سبلان - أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن محمد بن علقمة ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص أن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : حضرت أبي وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه ، فأخذته غشيبة فتمثلت ببيت من الشعر :

من لا يزال دمه مُمْتَعًا فإنه لا بد مرةً مدقوق
قالت : فرفع رأسه فقال : يا بنية ، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةَ الْتَوْتِ يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ (١٦) . وحدثنا خلف بن هشام ؛ حدثنا أبو شهاب الخياط ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن البهي قال : لما أن تقل أبو بكر ، رضي الله عنه ، جاءت عائشة ، رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغنني الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فكشفت عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولني : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةَ الْتَوْتِ يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ (١٦) . وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق عند ذكر وفاته ، رضي الله عنه . وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : «سبحان الله ! إن للموت لسكرات» . وفي قوله : ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيْدٌ﴾ قولان : أحدهما : أن «ما» هاهنا موصولة ، أي : الذي كنت منه تحيد - بمعنى : تبتعد وتناهي وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن «ما» نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه . وقد قال الطبراني في المعجم الكبير : حدثنا محمد بن علي الصائغ المكي ، حدثنا حفص بن عمر الحدي ، حدثنا معاذ بن محمد الهذلي ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن سمره قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب ، تطلبه الأرض يذئن ، فجاء يسعى حتى إذا أعى وأسهر دخل حجره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب ، ديني . فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات» . ومضمون هذا المثل : كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله : ﴿وَنُحِرَ فِي السُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَيْدِ﴾ (١٧) . قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفرع والصعق والبعث ، وذلك يوم القيامة . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحني جيته ، وانتظر أن يؤذن له» . قالوا : يا رسول الله كيف نقول؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل . ﴿وَبِمَاءَتِ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَبِيذٌ﴾ (١٧) أي : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير ، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان يخطب ، فقرأ هذه الآية : ﴿وَبِمَاءَتِ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَبِيذٌ﴾ (١٧) ، فقال : سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . وقال مَطْرَفٌ ، عن أبي جعفر - مولى أشجع - عن أبي هريرة : السائق : الملك ، والشهيد : العمل . وكذا قال الضحاک والسدي . وقال العوفي عن ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد : الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه . وبه قال

الضحاك بن مزاحم أيضاً. وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٣). أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالقيظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس. والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا يفهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَتَجِئُ يَوْمَ وَيُصِرُّ يَوْمَ يَأْتُونََنَا﴾ [سريم: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِوًا رُّؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّوَعْنَا فَمَا تَمَلَّ صَلَاحًا إِنَّا مَوْجُودُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٤) ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَدَابِ عَيْنِي﴾ (٢٥) ﴿مَتَاعٌ لِلْعَذَابِ مُتَوْتِرٌ﴾ (٢٦) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّآخَرًا فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي سَلْطَنِ بَيْبِئٍ﴾ (٢٨) ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ بِالْوَيْدِ﴾ (٢٩) ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ رَبِّ أُنَا يُظَلِّئُ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ (٣٠).

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٣) أي: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرتة. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَدَابِ عَيْنِي﴾ (٢٤). وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾، فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية، كما روي عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجراني - يا ابن عفان - أنزجر
وإن تتركاني أحمر عرضاً ممنعاً
وقيل: بل هي نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبش المصير. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَدَابِ عَيْنِي﴾ (٢٤) أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَيْنِي﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَتَاعٌ لِلْعَذَابِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُتَوْتِرٌ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقة وسيرته وأمره. ﴿مُتَوْتِرٌ﴾ أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّآخَرًا﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم في الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوت يسمع الخلائق: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تلوى عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية - هو ابن هشام - حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس. فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم». ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغيرهم: وهو الشيطان الذي وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ﴾ أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ﴾ أي: ما أضللتك، ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي سَلْطَنِ بَيْبِئٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ لِقَىٰ وَعَدَدْتُكُمْ وَأَنَا لَبِئْسَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٥) ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُبْمَهِقٌ بِمَا لَسَّوْكَتُوكَ مِن قَبْلُ إِنَّ الْأَعْلَىٰ لِيَوْمَئِذٍ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢٢]. وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّْ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقريته من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي سَلْطَنِ بَيْبِئٍ﴾ أي: عن منهج الحق. فيقول الرب ﷻ لهما: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّْ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ بِالْوَيْدِ﴾ أي: قد أعدرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ رَبِّ أُنَا قَاضٍ﴾ يعني قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّمَنْ يَّظْلِمُ﴾ أي: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِي وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَنزَلْنَا لِقَابَةَ الْيَتِيمِ عَبْرَ بَيْدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَوِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خِيفَ الرَّحْمَنُ بِالْيَتِيمِ وَالْيَتِيمَ وَالْيَتِيمَ يَنْفَلِقُ نَيْبٍ ﴿٣٣﴾ أَتَدْعُونَهَا إِسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهَا يَوْمَ الْقَوْلِ ﴿٣٤﴾ لَمْ يَكُنْ لَهَا يَتِيمَةٌ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هلا امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حزمي بن عمار حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكركم ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في فضول الجنة». ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه. ورواه أبان العطار وسليمان التيمي، عن قتادة، بنحوه.

حديث آخر: قال البخاري، حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد ابن يحيى بن مهدي، حدثنا عوف، عن محمد، عن أبي هريرة - رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان -: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، ﷻ، قدمه عليها، فتقول: قط قط». رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به. طريق أخرى: قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله ﷻ، للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتليء حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتليء ويزوي^(١) بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً آخر».

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم. ففضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخاري من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبي سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: حدثنا حسن وروح قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أي رب، يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله ﷻ، للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي، وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى في النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها ﷻ، فيضع قدمه عليها، فتزوي وتقول: قدني، قدني. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقاً ما يشاء».

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زر بن حبیش، عن أبي بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفني الله ﷻ، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عني، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر امتي على الصراط - مضروب بين ظهري جهنم - فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهي الأعمال. وجهنم تسأل المزيد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك. وأتبعه أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظلم أبداً، ولا يصرف فيروى أبداً». وهذا القول هو اختيار ابن جرير. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الجعاني عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِي وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل في من مكان يزداد في. وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: وهل في مدخل واحد، قد امتلأت. وقال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي

مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل في من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَمْتَلَأْتِ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتزوي وتقول حينئذ: هل بقي في من مزيد؟ يسع شيئاً. قال العوفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبره. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلشَّيْطَانِ بَعِيدٌ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدي: ﴿وَأَزَلَّتْ﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿بَعِيدٌ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت. ﴿هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَزْوَاجٍ﴾ أي: رجاء نائب مقلع، ﴿حَافِظٌ﴾ أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته. وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله، ﴿مَنْ حَيَّى الرَّحْمَنَ بِالْحَيِّ﴾ أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله عليه السلام: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه».

﴿وَمَا يَقْبَلُ تُبَيِّبٌ﴾ أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم متيب إليه خاضع لديه. ﴿أَسْأَلُوكَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يطعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: ﴿كَمْ مَا يَنكُرُونَ بَيْتًا﴾ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، عن بَجِيرِ بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمرطه لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزيئات. وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهي الطير في الجنة، فيخرب بين يديك مشروباً». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن عامر الأحول، عن أبي الصديق، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة، كان حمله ووضع وسنه في ساعة واحدة». ورواه الترمذي وابن ماجه عن بُنْدَارِ، عن معاذ بن هشام، به. وقال الترمذي: حسن غريب، وزاد «كما يشتهي». وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد تقدم في صحيح مسلم عن ضَهَبِ بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاض، عن عثمان بن عمير أبي اليقظان، عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يظهر لهم الرب، ﷻ، في كل جمعة.

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرأة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبي ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضِّلَتْ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود، والنصارى، ولكم فيها خير، ولكن فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبي ﷺ: «يا جبريل، وما يوم المزيد؟» قال: إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفتح فيه كتب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته، وحوله من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله ﷻ: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسألوني أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة. وهكذا أورده الإمام الشافعي في كتاب «الجمعة» من الأم، وله طرق عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا، وذكرها هنا أثراً موطولاً عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكىء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من رواء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب». وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن ذراج، به.

﴿وَكَمْ أَعْلَمْنَا بِلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَشدُّ مِنْهُمْ بِلَهُمْ فَاقْبَلُوا فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ مَحْسَبٍ﴾ [٣٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ لِحِكْمًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ نُجُوبٍ ﴿٣٧﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين: ﴿مِن قَرِينٍ هُمْ أَشَدُّ بِئْتَهُمْ بَطْشًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هانئا: ﴿فَتَقَبَّرُوا فِي الْيَلْدِ﴾ قال ابن عباس: أثاروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَتَقَبَّرُوا فِي الْيَلْدِ﴾: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَقَاقِ حَتَّى رَضَيْتُ مِنَ الْعَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ
وقوله: ﴿هَلْ مِنْ عَجِيسٍ﴾ أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ أي: لعبرة ﴿لِئِنْ كَانَ لَكُمْ قَلْبٌ أَوْ لَبُيْمِي بِهِ﴾ وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد بالقلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ نُجُوبٍ﴾ ﴿٣٧﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأخرى. وقال قتادة: قالت اليهود- عليهم لعائن الله -: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَا مِنْ نُجُوبٍ﴾ أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّيَّمْ بِمَنْ يَخْلُقْنَهُنَّ يَتَدَبَّرْ عَنْ كُلِّ عُنُقٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٨﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿يَأْتِمُّ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَىٰ اللَّهُ بِهَا﴾ ﴿٣٩﴾ [التازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٧٩]: ﴿وَأِدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأِدْبَرَ الشُّجُورِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلي، وابنه الحسن وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والثخفي والحسن وقاتدة، وغيرهم. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمره، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به. زاد النسائي: ومطرف، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن

فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال: يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إيدار النجوم، وركعتين بعد المغرب إيدار السجود. ورواه الترمذي عن أبي هشام الرفاعي، عن محمد بن فضيل، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وحديث ابن عباس، وأنه بات في بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت في الصحيحين وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة ولا تعرف إلا من هذا الوجه، ورشدين بن كريب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفاً عليه، والله أعلم.

﴿وَأَسْتَفِيعُ يَوْمَ يَبْدَأُ السَّاعِدَاتُ مِنْ مَكَّانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَحْمِي وَنُؤَيِّثُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشْتَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَسْتَفِيعُ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يَبْدَأُ السَّاعِدَاتُ مِنْ مَكَّانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجدات، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْمِي وَنُؤَيِّثُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلأ بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْتَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾. وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله ﷻ، ﴿مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الفر: ٤٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض».

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَفَجَ بِالصَّبْرِ ﴿٥٥﴾﴾ [الفر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا عَمَلَكُمْ إِلَّا كَفْتُمْ وَجِدَةً إِنَّ اللَّهَ مَبِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٥٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨]. وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَلَّأْنَاكَ بِضَبِّكَ سَدْرًا لِيَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. وقال مجاهد، وقاتدة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ. قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا، بمعنى أجبره. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَأَنصَبْ عَلَيْكَ الْبَلْغَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢٢﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّطٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الغاشية: ٢٢-٢٣]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَسَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرًّا ﴿١﴾ فَالْحَامِيَاتُ كَفْرًا ﴿٢﴾ فَالْمُرِيَاتُ يُرًا ﴿٣﴾ فَالْمُغِيرَاتُ كَغَرًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتُ أُنْرًا ﴿٥﴾ إِنَّمَا نُؤَدُّنَ لِمَادٍ ﴿٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٧﴾ وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الْمُرْتَبِ

﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَيْكَ ﴿٩﴾ قِيلَ الْفَرْصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى أَنْتَارٍ يَمُنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَّاكَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَجِلُونَ ﴿١٤﴾ .

قال شعبة بن الحجاج، عن سيماك، عن خالد بن عزرعة أنه سمع علياً وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، سمع علياً . وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب : أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك . فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى : ﴿وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوكًا﴾ ﴿١﴾ ؟ قال : الريح قال : ﴿فَالْمَلَيْكَةِ وَرَقًا﴾ ﴿٢﴾ ؟ قال : السحاب . قال : ﴿فَالْمَجْرِيَّتِ يُسْرًا﴾ ﴿٣﴾ ؟ قال : السفن . قال : ﴿فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا﴾ ﴿٤﴾ قال : الملائكة . وقد روى في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن هانيء، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سبزة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال : جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوكًا﴾ ﴿١﴾ ؟ فقال : هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته . قال : فأخبرني عن ﴿فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا﴾ ﴿٤﴾ قال : هي الملائكة، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته . قال : فأخبرني عن ﴿فَالْمَجْرِيَّتِ يُسْرًا﴾ ﴿٣﴾ قال : هي السفن، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته . ثم أمر به فضرب مائة، وجعل في بيت، فلما برأ دعا به وضربه مائة أخرى، وحمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : امنع الناس من مجالسته . فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً . فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر : ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس . قال أبو بكر البزار : فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث . قلت : فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صبيغ بن عسل مشهور مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتاً وعناداً، والله أعلم . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة . وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة، والسدي، وغير واحد . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك . وقد قيل : إن المراد بالذاريات : الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرأ : السحاب كما تقدم ؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمَرْزُؤُ كَحَمِلٍ غَذْبًا زَلَالًا

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم - : أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً . وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّمَا وَعْدٌ لَعَادُكُمْ﴾ ﴿٥﴾ أي : لخبر صدق، ﴿وَأَنَّ الْيَوْمَ لِلْحَسْبِ﴾ ﴿٦﴾ أي : لكائن لا محالة . ثم قال : ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمَلِكِ﴾ ﴿٧﴾ ، قال ابن عباس : ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء . وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو صالح، والسدي، وقاتدة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم . وقال الضحاك، والمثنى بن عمرو، وغيرهما : مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك . قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علقمة، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ : أنه قال : «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبْكُ حُبْك» يعني بالحبك : الجعودة . وعن أبي صالح : ﴿ذَاتِ الْمَلِكِ﴾ : الشدة . وقال خصيف : ﴿ذَاتِ الْمَلِكِ﴾ : ذات الصفاقة . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : ﴿ذَاتِ الْمَلِكِ﴾ : حبكت بالنجوم . وقال قاتدة : عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَانَ بن أبي طلحة، عن عمرو البكالي، عن عبد الله بن عمرو : ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمَلِكِ﴾ ﴿٧﴾ يعني : السماء السابعة . وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما، فإنها من حسنهما مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأجزاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات . وقوله : ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ﴿٨﴾ أي : إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع . وقال قاتدة : إنكم لفي قول مختلف، يعني ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَيْكَ﴾ ﴿٩﴾ أي : إنما يروج على من هو ضال في نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما يتقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال عَمْرٌ، لا فهم له، كما قال تعالى : ﴿فَلْيَكْفُرُوا وَمَا رَبُّكَ بِدَاخِرِ الْغَيْبِ﴾ ﴿١٠﴾ مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٢﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣] . قال ابن عباس، والسدي : ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ﴾

أُولَئِكَ ﴿٩﴾ : يضل عنه من ضل . وقال مجاهد: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أُولَئِكَ﴾ ﴿٩﴾ يؤفّن عنه من أفن . وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به .

وقوله: ﴿قِيلَ لَفَرَّضُونَ﴾ ﴿١٠﴾ - قال مجاهد: الكذابون . قال: وهي مثل التي في عبس: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرًا﴾ ﴿١٧﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قِيلَ لَفَرَّضُونَ﴾ ﴿١٠﴾ أي: لعن المرتابون . وهكذا كان معاذ، رضي الله عنه، يقول في خطبه: هلك المرتابون . وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون . وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُو سَاهُونَ﴾ ﴿١١﴾ : قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر ولاشك غافلون لاهون . ﴿يَسْتَكْبِرُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ﴿١٢﴾ : وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً . قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُنْتَوُونَ﴾ ﴿١٣﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُنْتَوُونَ﴾ : يعذبون قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار . وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضاً، وعكرمة، وإبراهيم التَّخَمِي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: ﴿يُنْتَوُونَ﴾ : يحرقون . ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ : قال مجاهد: حريقكم . وقال غيره: عذابكم . ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَجِلُّونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تفرعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً .

﴿إِنَّ السَّمْعِينَ فِي حَنَّتِ وَيَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ . ﴿أَيُّزِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ رَبَّهُمْ﴾ ﴿١٦﴾ . ﴿كَاؤًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿١٧﴾ . ﴿وَالْأَنْصَارُ هُمْ يَسْتَفْهِنُونَ﴾ ﴿١٨﴾ . ﴿وَقَى أَمْوَالَهُمْ حَتَّىٰ لِلصَّالِبِ وَاللَّحْرِورِ﴾ ﴿١٩﴾ . ﴿وَقَى الْأَرْضِ بَابُكَ لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿٢٠﴾ . ﴿وَقَى أَمْسَكْنَا أَفْلا تَصِيرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ . ﴿وَقَى السَّمَاءَ زُجْجًا وَمَا تُؤَدُّونَ﴾ ﴿٢٢﴾ . ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلَىٰ مَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ تَلْفِينًا﴾ ﴿٢٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله، ﷻ: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال . وقوله: ﴿أَيُّزِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ رَبَّهُمْ﴾ : قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض . ﴿إِنَّهُمْ كَاؤًا بَلَّ ذَلِكَ تَحْسِينًا﴾ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً . ثم روي عن ابن حميد، حدثنا مهزبان، عن سفيان، عن أبي عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَيُّزِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ : قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَاؤًا بَلَّ ذَلِكَ تَحْسِينًا﴾ : قبل الفرائض يعملون . وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح عن ابن عباس . وقد رواه عثمان بن أبي شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي عمر البزار، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فذكره . والذي فسر به ابن جرير فيه نظراً؛ لأنه قوله: ﴿أَيُّزِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي حَنَّتِ وَيَعُونَ﴾ ، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة . وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَاؤًا بَلَّ ذَلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿تَحْسِينًا﴾ ، كقوله: ﴿كَاؤًا وَاتْرَبُوا حَنَّتًا بِمَا أَسْفَهْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّيَالِيَةِ﴾ ﴿٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤] .

ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال: ﴿كَاؤًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ، اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه . قال ابن عباس: لم تكن تضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً . وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قل ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، ﷻ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال مجاهد: قل ما يرددون ليلة حتى الصباح لا يتهددون . وكذا قال قتادة: وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة . والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم . واختاره ابن جرير . وقال الحسن البصري: ﴿كَاؤًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿١٧﴾ : كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر . وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَاؤًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿١٧﴾ : كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية . وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد بابنونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا تبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله ويرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوماً فقال: ﴿كَاؤًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ، ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم . فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعى، واتقى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكننت فيمن انجفل . فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» . وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من

باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً، والناس نيام».

وقال معمر في قوله: ﴿كَأَنَّهُ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ (١٧): كان الزهري والحسن يقولان: كانوا كثيراً من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي: ﴿كَأَنَّهُ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ (١٧): ما ينامون. وقال الضحاك: ﴿يَهَيِّمُ كَأَنَّهُ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ (١٧): ثم ابتدأ فقال: ﴿يَهَيِّمُ كَأَنَّهُ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ (١٧): وقوله: ﴿وَيَا لَأَحْسَنَ مِمَّ يَسْتَفْتُونَ﴾ (١٨): قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالسَّجِينِ يَأْتَسِحَارًا﴾ (١٧) عمران: ١٧، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فبعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب: أنه قال لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر. وقوله: ﴿وَقَدْ أَمْرَلَهُمْ حَقًّا لِّسَائِلِ الْكَلْبِ وَاللَّحْرِورِ﴾ (١٩): لما وصفهم بالصلاة ثني بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَقَدْ أَمْرَلَهُمْ حَقًّا﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّسَائِلِ الْكَلْبِ وَاللَّحْرِورِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذي يبستدىء بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري، به ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب. وروى من حديث الهزماس بن زياد مرفوعاً. وأما ﴿وَاللَّحْرِورِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال ابن عباس أيضاً: وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، ونافع - مولى ابن عمر - وعطاء ابن أبي رباح ﴿وَاللَّحْرِورِ﴾: المحارف. وقال قتادة، والزهري: ﴿وَاللَّحْرِورِ﴾: الذي لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه». وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر. وقال سعيد بن جبيرة: هو الذي يجيء وقد قُسم المغنم، فيرضخ له. وقال محمد بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم. وقال الشعبي: أعيانى أن أعلم ما المحروم. واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها. وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَقَدْ أَمْرَلَهُمْ حَقًّا لِّسَائِلِ الْكَلْبِ وَاللَّحْرِورِ﴾ (١٩). وهذا يقتضي أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هي مكية شاملة لما بعدها. وقوله: ﴿وَقِي الْأَرْضِ رَبَائِي لِقَائِهِمْ﴾ (٢٠): أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإيرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَقِي أَنْشِكْرًا أَفْلا تَبْصُرُونَ﴾ (٢١): قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَقِي أَلْتَمَاءَ رَزْدَقٍ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمَا تَوْعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَقِي أَلْتَمَاءَ رَزْدَقٍ وَمَا تَوْعَدُونَ﴾ (٢١) فقال: ألا إنني أرى رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربة فمكث فيها ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بذرّخة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ نِّبَأٌ مَّا أَنْكُم تَلْبُوتُونَ﴾ (٢٢): يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضي الله عنه، إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا. قال مسدد، عن ابن أبي عدي، عن عوف،

عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا». ورواه ابن جرير، عن بُدَّار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلًا.

﴿هَلْ أَنْتَ حَبِطٌ صَبِإً بِرَبِّهِمْ الْمُنْكَرِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ شُكْرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَمَجَّأَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ ﴿٢٦﴾ فَفَرَّهٖ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَخَفُ وَبَشَّرُوهُ بِغُلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَتَيْتَ أُمَّرَأَتَهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْمُكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

هذه القصة قد تقدمت في سورة «هود» و«الحجر» أيضاً. وقوله: ﴿هَلْ أَنْتَ حَبِطٌ صَبِإً بِرَبِّهِمْ الْمُنْكَرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: الذين أُرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزول، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل. وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمَ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُجِّمٌ يَنْجِيهِ فُجُورًا يَأْحَسَنُ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهُآ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: ﴿قَوْمٌ شُكْرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ شُكْرُونَ﴾. وقوله: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فَمَجَّأَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لِي بِأَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَبِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [مرد: ٦٩] أي: مشوي على الرضف، ﴿فَفَرَّهٖ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تلتطف في العبارة وعرض حسن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل، وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تنفضل وتحسن وتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَخَفُ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ لُوطٌ ﴿٢٥﴾ وَأُمَّرَأَتُهُ قَاهِمَةٌ فَصَحَّكَتْ﴾ [مرد: ٧٠-٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَتُوبَلِّغُ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢٦﴾ قَالُوا أَمْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَبِيبٌ حَمِيدٌ ﴿٢٧﴾﴾ [مرد: ٧٢-٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلْمٍ عَلَيْهِ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به. وقوله: ﴿فَأَتَيْتَ أُمَّرَأَتَهُ فِي صَرَرٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس: ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي، وهي قولها: ﴿أَلَا تَسُدُّونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ تَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبت كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْمُكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِئُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَنْتَرَحَنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ مَا سَدَدْنَا فِيهَا عَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّاعًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال الله مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشِيرُ مُجْتَمِعًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهٌ ﴿٤٥﴾ يَخَافُ رَبَّهُمْ عِزًّا وَعَنْ مَوْلَاهُ اللَّهُ فَذَلِكِ إِلهٌ قَدِ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبُّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَدَاوَةِ عَيْرِ مَرَدُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [مرد: ٧٤-٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما شأنكم وفيهم جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لِئُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةٌ﴾ أي: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مكتوبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَنْتَرَحَنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿مَا سَدَدْنَا فِيهَا عَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾. احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال. وقوله: ﴿وَرَكَّاعًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلثهم

بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿لِّلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مَوْجٍ إِذْ أُرْسِلْتُمْ إِلَىٰ رِعْوَانَ يَشْطَلُونَ فِيهِ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ رِيكِيومًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ يَوْمَئِذٍ مُّصَدِّقًا لِّمَا فِي آيَاتِنَا وَمَوْجٌ مَّيْمَنٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَدْرُونَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلَةٌ كَالْمِيرِ ﴿٤٢﴾ وَفِي نُوحٍ إِذْ قَالَ لَهُمْ تَضَرَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ ﴿٤٣﴾ فَمَتَرْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ رَغْمًا يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا اسْتَلْقَوْا مِنْ قِبَابِهِ وَمَا كَانَ لِمُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَفِي مَوْجٍ﴾ آية ﴿إِذْ أُرْسِلْتُمْ إِلَىٰ رِعْوَانَ يَشْطَلُونَ فِيهِ﴾: أي: بدليل باهر وحنة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ رِيكِيومًا﴾: أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ رِيكِيومًا﴾: أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي يَدٌ مِّمَّ قُوَّةٍ أَرْوَاهُ إِلَىٰ رِجِّي سَدِيدًا﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿ثَائِي عَظِيمِهِ يُضِلُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سِرُّرٌ أَوْ جَبُونٌ﴾: أي: لا يخلو أمرك فيما جنتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُ يَوْمَئِذٍ مُّصَدِّقًا لِّمَا فِي آيَاتِنَا وَمَوْجٌ مَّيْمَنٌ﴾: أي: القيامة في اليوم، وهو البحر، ﴿وَمَوْجٌ مَّيْمَنٌ﴾: أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند. ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾: أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما. ولهذا قال: ﴿مَا تَدْرُونَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾: أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَمَلَةً كَالْمِيرِ﴾: أي: كالشيء الهالك البالي. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله - يعني: ابن عياش - القتيابي، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدْفِي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعني من الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي رَبِّ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم، بقدر خاتم. فهي التي يقول الله في كتابه: ﴿مَا تَدْرُونَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلَةً كَالْمِيرِ﴾ ﴿٤٢﴾. هذا الحديث رفعه منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو، من زاملته اللتين أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هي الجنوب. وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». ﴿وَفِي نُوحٍ إِذْ قَالَ لَهُمْ تَضَرَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿٤٣﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا نُوحٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ عَلَىٰ الْكُفْرِ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُلُوكِ﴾ [فصلت: ١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي نُوحٍ إِذْ قَالَ لَهُمْ تَضَرَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَمَتَرْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ رَغْمًا يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكثرة النهار ﴿فَمَا اسْتَلْقَوْا مِنْ قِبَابِهِ﴾: أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾: أي: ولا يقدر أن ينصروا مما هم فيه. وقوله: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ﴾: أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسولة في أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِإِبْرَهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ لِنَهَىٰ أَحَدًا إِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ نُورًا إِلَىٰ اللَّهِ﴾ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا﴾: أي: جعلناها سقفاً محفوظاً ربيعاً ﴿بِإِبْرَهِيمَ﴾: أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد، ﴿وَأَنَا لَمُوسَىٰ﴾، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ قَرَشْنَمَا﴾: أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَتَمِّمُ السَّمْعُونَ﴾: أي: وجعلناها مهداً لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، وحتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَمَلَكٌ تَدْعُونَ﴾: أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَتَوَرَّأُوا إِلَى اللَّهِ﴾: أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُرَيْمٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ لِنَهَىٰ أَحَدًا إِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ نُورًا إِلَى اللَّهِ﴾: أي: ولا تشركوا به شيئاً، ﴿إِنِّي لَكُرَيْمٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرُ أُنْحُسٍ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿أَتَوْسَوْا بِهِمْ بِلِطْمٍ فَوَسَّطُوا﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿فَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَامَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الْآكِرِينَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٧﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ زِينَةٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٩﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا بِئْسَ ذُنُوبًا كَسَبَتْ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مسلماً نبيه ﷺ: ﴿وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرُ أُنْحُسٍ﴾﴾

رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاءَ أَوْ حَيْرُوهٗ ﴿١٦﴾ ! قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغَوْنَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ عَنَّهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلْمُومٍ﴾ يعني: فما تلومك على ذلك ﴿وَذَكَرْنَا لَكَ الْذِكْرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة. ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿١٨﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحّاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ بِكُمْ مِنْ زُرْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ ﴿٢٠﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين﴾. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن صحيح. ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران - يعني ابن زائدة بن ثييب - عن أبيه، عن أبي خالد - هو الوالبي - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قال الله: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي مملأاً صدرك غنى، وأسد فركك، وإلا تفعل ملاءت صدرك شغلاً ولم أسد فركك﴾. ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: حسن غريب. وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي شُرْحِبِيل، سمعت حَبَّةَ وسواء ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً أو يبني بناءً - وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً - فاعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه. وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبي تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب، ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٢١﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات



تفسير سورة الطور

وهي مكية. قال مالك، عن الزهري، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً - أو قراءة - منه. أخرجاه من طريق مالك وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن تُوْقَل، عن عُرْوَةَ، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿١﴾ وَكُنْتَ مَسْجُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَوْحٍ مَشْجُورٍ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ أَمْسُورٍ ﴿٤﴾ وَالسَّجِّدِ الْمَرْجُومِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَمْ يَنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَكْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْصٍ يُلَعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ نَارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَسِخْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَسْلَمُوا مَا سِوَهَا أَوْ لَا تَضُرُّوهُ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا نَحْنُ نَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذي يكون

فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، وإنما يقال له: جبل. ﴿وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً؛ ولهذا قال: ﴿وَرَبِّي مُتَشَوِّرٌ﴾. ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء - بعد مجاوزته إلى السماء السابعة -: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني: يتعدون فيه يطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذلك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مستنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفي السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخبر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يؤتوا البيت المعمور، فيصلوا فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفاً يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة». هذا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد الدمشقي، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني، والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، وغيرهم. قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة، ولا سعيد، ولا الزهري.

وقال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعة؛ أن رجلاً قال لملي: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له: «الضراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون فيه أبداً. وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري، عن سماك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبي كريب، عن طلحة بن غنم، عن زائدة، عن عاصم، عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: «الضراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيل، عن علي بمثله. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدي، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الجن، من قبيلة إيليس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْقَى الَّتِي تَرَوْنَ﴾: قال سفيان الثوري: وشعبة، وأبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عرعة، عن علي: ﴿وَأَسْقَى الَّتِي تَرَوْنَ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن جزي، وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور. وقوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي يحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورَ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿وَإِذَا أَلْمَأُزَّ سَمَرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أضمرت فتصير ناراً تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب، وزوي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبي حاتم. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ يعني: المرسل. وقال قتادة: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، عن ذي الرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾: قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعني: فارغاً. رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس،

وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفذ عليهم، فيكفه الله ﷻ». وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد - وهو ابن هارون - عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسي لم يخرج أحد من الحرس غيري، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيّل إلي أن البحر يشرف يحاذي رؤوس الجبال، فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفذ عليهم، فيكفه الله ﷻ». فيه رجل مبهم لم يسم. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧): «هذا هو المقسم عليه، أي: الواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨): أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يمس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقراً: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨) قال: قسم - ورب الكعبة - حق. فنزل عن حمارة واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه. وقال الإمام أبو عبيد في «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨)، فربما لها ربوة، عيد منها عشرين يوماً. وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ أَسْهَكُ مَمْرًا﴾ (٩): قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة: قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كَانَ مَشْيَئَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا
مَوْزُ السَّحَابَةِ، لَا زَيْتٌ وَلَا عَجَلُ
﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (١٠): أي: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١): أي: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (١٢): أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ (١٣): أي: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٤): وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدي، والثوري: يدفعون فيها دفعاً ﴿هَذِهِ آتَارُ آلِي كُثْرٍ يَهَيَأُ كُذُوبُونَ﴾ (١٥): أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريباً وتوبيخاً، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٦): أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ﴾ (١٧): أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿عَلَيْكُمْ إِنَّمَا جَزَاءُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨): أي: ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَسِيرُونَ﴾ (١٧) فَكَرِهِينَ بِمَا أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَرَقَنَّهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (١٨) كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى مُرْرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّحَتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٢٠).

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَسِيرُونَ﴾ (١٧)، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَكَرِهِينَ بِمَا أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ (١٧) أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومرابك وغير ذلك، ﴿وَرَوَّحَتُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (١٨) أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومرابك وغير ذلك، ﴿وَرَوَّحَتُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (١٨) أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حديثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)، كقوله: ﴿كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا آسَأْتُمْ فِي الْآيَاتِ لَقَالُوا﴾ (٢٤) [الحاقة: ٢٤]. أي: هذا بذاك، تفضلاً منه إحساناً. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى مُرْرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ (٢٠) قال الثوري، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر في الحجال. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئى المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتبهت نفسه ولدت عينه». وحدثنا أبي، حدثنا هذبة بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً. ومعنى «مَصْفُوفَةٍ» أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله:

﴿عَلَّ سُرُرٌ مَّقْفُولِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بَحُورَ عَيْنٍ﴾ أي: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسناً من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلْفَقَانِ إِيَّاهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتُمْ مِنْ شَعْوَىٰ مِنْ شَعْوَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكُمَا وَكَلِمَةً وَلَاحِرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يَسْتَعْرِفُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْيِيدٌ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفَانُ لَهُمَا كَأَنَّهُمْ نُورٌ مِّمَّا كَانُوا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي ءَأَهْلِنَا مُتَفَوِّينَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿فَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ أَكْبَرُ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٢٨﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر عين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله، للتساوي بينه وبين ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْفَقَانُ إِيَّاهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتُمْ مِنْ شَعْوَىٰ مِنْ شَعْوَىٰ﴾. قال الثوري، عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلْفَقَانِ إِيَّاهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتُمْ مِنْ شَعْوَىٰ مِنْ شَعْوَىٰ﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري، به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مَرْة به. ورواه البزار، عن سهل بن بحر، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعاً، فذكره، ثم قال: وقد رواه الثوري، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروني، أخبرني محمد بن شعيب أخبرني شبان، أخبرني ليث، عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله، ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلْفَقَانِ إِيَّاهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آباءهم أرفع من منازلهم ألقوا بأبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً.

وقال الحافظ الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - أظنه عن النبي ﷺ - قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لي ولهم. فيؤمر بالحقاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلْفَقَانِ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم. وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذلك مفسر أصح من هذا. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا حمد بن فضائل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار». فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لورأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدي منك. قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلْفَقَانِ﴾. وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب، أني لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك». إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وقوله: ﴿كُلُّ أُنثَىٰ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يواخذ أحداً بذنوب أحد، بل ﴿كُلُّ أُنثَىٰ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ أي: مرتين بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا أَنْصَبَ آلِيْنِ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فِي جَنَّتٍ يَسْتَسْأَلُوْنَ﴾ عَنِ الْمُتَجَرِّبِيْنَ﴾ ﴿٢٩﴾ [المدر: ٣٨-٤١]. وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكُمَا وَكَلِمَةً وَلَاحِرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهي. وقوله: ﴿يَسْتَعْرِفُونَ فِيهَا كَأَسَا﴾ أي: يتعاطون فيها كأساً، أي: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْيِيدٌ﴾ أي: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أي: هذيان، ولا إثم، أي: فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأييم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان.

فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها - كما تقدم - صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بِضَعَةِ لَدْرٍ لِّلشَّرِيبِينَ ﴿٢٩﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يَصَدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُرْفَوْنَ ﴿٣١﴾﴾ [الرواقع: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَنْتَفِعُونَ فِيهَا كَأَنَّمَا لَا تَلَوُّ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ﴿٣٢﴾﴾ .

وقوله: ﴿وَيَلُوفٌ عَلَيْهِمْ عِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكُونٌ ﴿٣٣﴾﴾ : إخبار عن خدمتهم وحشمهم في الجنة كأنهم لؤلؤ الرطب، المكون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَلُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مَّخْلُودُونَ ﴿٣٤﴾ يَا كُوفٍ وَأَبَارِقٍ وَكَأَنَّ مِنْ مَّيْمِنٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الرواقع: ١٧ - ١٨]، وقوله: ﴿وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنَا مُتَشَفِّينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَرَجَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ آلَسَمُورِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴿٣٨﴾﴾ أي: نتضرع إليه، فاستجاب الله لنا وأعطانا سؤالنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٣٩﴾﴾ . وقد ورد في هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكى هذا ويتكى هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله ﷻ - فغفر لنا». ثم قال البزار: لا نعرفه يُرْوَى إلا بهذا الإسناد. قلت: وسعيد بن دينار دمشقي قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة في نفسه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَرَجَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ آلَسَمُورِ ﴿٣٧﴾﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ ، فقالت: اللهم من علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم.

﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّذَرْنَا بِهِ رَبَّ السَّمُونِ ﴿٤٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٤١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ آلِهَتُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُكُمْ بَلْ لَا يَوْمَئِذٍ لَّكُمْ قَوْلٌ مِّنْ لَّدُنَّا صَدِيقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ . يقول تعالى أمرأ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان الفجور فقال: ﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرُّبِّيُّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ : وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس .

ثم قال تعالى منكرأ عليهم في قولهم في الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّذَرْنَا بِهِ رَبَّ السَّمُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت؛ يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: انتظروا فإنني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك في قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّذَرْنَا بِهِ رَبَّ السَّمُونِ ﴿٣٩﴾﴾ . ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ آلِهَتُهُمْ بِهَذَا﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قاله فيك. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُكُمْ﴾ أي: اختلقه واقتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَلْ لَا يَوْمَئِذٍ لَّكُمْ قَوْلٌ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تقولوه واقتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُحْسِبِينَ ﴿٤٧﴾ أَمْ لَمْ يَسْأَلُوا فِيهِ قَلْبًا مِّنْ سَمْعِهِمْ يُسْأَلُونَ يَوْمَ ﴿٤٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونَ ﴿٤٩﴾ أَمْ تَنْظُرُهُمْ كَمَا نَظَرْتُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَلْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَلْبٌ وَكُنْتُمْ أَصْغَارًا ﴿٥٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴿٥١﴾﴾

فَعَمَّ يَتَّبِعُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾ .

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجود؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٤٧﴾ كاد قلبي أن يطير. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، عن الزهري، به. وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملته على الدخول في الإسلام بعد ذلك. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ أي: أهم يتصرفون في الملك ويدهم مفاتيح الخزائن، ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُرٌّ مَخْتُونَ فِيهِ﴾ أي: مرقاة إلى الملا الأعلى، ﴿فَلْيَأْتِكُمْ سُلْطَنٌ مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: فليأتهم يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل. ثم قال منكرأ عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَتَّخِذُونَ أَنْبَاءَ رَسُولِ اللَّهِ عِبْرَةً لِّئَلَّا تُكْفِرُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُنْذَرُونَ أَوْ يَخَسِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٤١﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء يقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٣﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبَحَ لِمَكْرٍ رَبِّكَ فَاغْنِيَنَّا وَصَبَّحَ بِحَيْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُوءُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ نَسِيتُمْ وَاذُنَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أي: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا «سحابٌ مَرْكُومٌ» أي: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّشْجُونُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر: ١٤-١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي: دعهم- يا محمد- «حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ»، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلْيَذُوقْنَهُمْ يَوْمَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي عَذَّبُوا بِهِ بِسَبْأِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: تعذبهم في الدنيا، وتبليهم فيها بالمصائب، لعلمهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المتناق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله: يا عبدي، كم أعافيك وأنت لا تدري؟. وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ لِمَكْرٍ رَبِّكَ فَاغْنِيَنَّا﴾ أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَصَبَّحَ بِحَيْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُوءُ﴾: قال الضحاك: أي إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم في صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك.

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ أي: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسدد، حدثنا الأوزاعي، حدثني عَمِيرُ بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ قال: من كل مجلس. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء بن أبي رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيراً، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له. وقد قال عبد الرزاق في جامعه: أخبرنا مَعْمَرُ، عن عبد الكريم الجَزْرِي، عن أبي عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال مَعْمَرُ: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس. وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مستندة من طرق - يقوى بعضها بعضاً - بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذي - وهذا لفظه - والنسائي في اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: إسناده على شرط مسلم، إلا أن البخاري عله.

قلت: عله الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرْعَةَ، والدارقطني، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْج. على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه أبو داود - واللفظ له - والنسائي، والحاكم في المستدرک، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم، عن أبي العالية، عن أبي بَزْرَةَ الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون في المجلس». وقد روي مرسلًا عن أبي العالية، والله أعلم. وهكذا رواه النسائي والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن رافع بن خديج، عن النبي ﷺ مثله سواء. وروي مرسلًا أيضاً، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَيْر بن مطعم. ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعله، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ. نَافِلَةً لَكَ عَمَّا كَانَ يَبْعَثُكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقوله: ﴿وَإِذْ نَزَّ النُّجُومُ﴾: قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيوبية. وقد روي في حديث ابن سيلان، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تَدْعُوهُمَا، وإن طردتكم الخيل». يعني: ركعتي الفجر، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات في اليوم والليلة». قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع». وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر. وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

آخر تفسير سورة الطور
والله أعلم

تفسير سورة النجم

وهي مكية. قال البخاري: حدثنا نصر بن علي، أخبرني أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً، وهو أمية بن خلف. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق، عن أبي إسحاق، به. وقوله في الممتنع: إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا صَلَ صَاغِبُكَ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتَىٰ ۝٣ إِن مَوْءَاظُهُمْ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ لَا يَخْفَىٰ ۝٤﴾ .

قال الشعبي وغيره: الخالق يُقسِمُ بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبي حاتم. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: يعني بالنجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر. وكذا زوي عن ابن عباس، وسفيان الثوري. واختاره ابن جرير. وزعم السدي أنها الزهرة. وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ يعني: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَكَسْرٌ لِّوَيْتَلْمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُكَ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَنْطَلِقُونَ ۝٧٩ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠]. وقوله: ﴿مَا صَلَ صَاغِبُكَ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فتره الله سبحانه وتعالى رسوله وشرعه من مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتَىٰ ۝٣﴾ أي: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، ﴿إِن مَوْءَاظُهُمْ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ لَا يَخْفَىٰ ۝٤﴾ أي: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موثقاً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن ميسرة، عن أبي أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة شفاععة رجل ليس بنبي مثل الحسين - أو: مثل أحد الحسين - ربيعة ومضر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن الأحنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهِك، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق». ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبي بكر بن أبي شيبه، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذي من عند الله، فهو الذي لا شك فيه». ثم قال: لا تعلمه يروى إلا بهذا الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقا».

﴿عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُخْرَجُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزَلَةً أُنزِلَتْ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَ مَا جَاءَتْ النَّارَ ۝١٥ إِذْ يَنْفَى السُّدْرَةَ مَا يَشْفَىٰ ۝١٦ مَا نَزَعَ الْبَصَرُ وَمَا طَمَنَ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه ﴿عَلَّمَ﴾ الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٦ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝١٧ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٩-٢١]. وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾

أي: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة وابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني»، ولا لذي مرة سيئ». وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعني: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقاتدة، والربيع بن أنس ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ يعني: جبريل، استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا مُصْرَفُ بن عمرو اليمامي أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثني أبي، عن الوليد - هو ابن قيس - عن إسحاق بن أبي الكهتلة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾. وقد قال ابن جرير ما هنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ أي: استويا جميعاً بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافق أحد على ذلك. ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَاً وَأَبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فعطف بالأباء على المكثي في ﴿كُنَّا﴾ من غير إظهار «نحن»، فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَى وَهُوَ﴾ قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

الْم تَرَاَ أَنَّ النَّبِيعَ يَضْلُبُ عُودَهُ
وَلَا يَسْتَوِي وَالْخَزْرُوعُ الْمُنْتَقِصُفُ

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلّى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاء جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليتدردى من رؤوس الجبال، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدّى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله، ﷻ، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظيمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه. فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حيث قال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوزي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوَكَّرَ بين كفتي، فقمت إلى شجرة فيها كوكزي الطير، فقعدي في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لا ط يعرف فضل علمه بالله علي. وفتح لي باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرقة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى». ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة. قلت: الحارث بن عبيد هذا هو أبو قدامة الإيادي، أخرج له مسلم في صحيحه إلا أن ابن معين ضعفه، وقال: ليس هو بشيء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازي: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كثر وهمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيباً، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد. وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن مئنه، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. فدعاه، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق، فأناه فتنعشه ومسح الزقاق عن شذقه. انفرد به أحمد. وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هبار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأودينه في ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذي دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبي ﷺ: «اللهم

ابعث إليه كلباً من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بني، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» قال: يا بني، والله ما آمن عليك دعاءه فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهي مأسدة، ونزلنا إلى صؤمعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأشد فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة - والله - ما أمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، ففجاء الأسد فشمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تقبّض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هزيمة ففضخ رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (١) أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد قباب قوسين، أي: بقدرهما إذا مَدَا. قاله مجاهد، وقتادة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ يَوْمَ يَدْعُ ذَٰلِكَ نَفْسُكَ بِالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بالئين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَحْتَسِبُونَ النَّاسَ كَقَهْفِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ حَسْبَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ بِاللَّيْلِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هائنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. وهذا الذي قلناه، من أن هذا المقرب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله. وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». فجعل هذه إحداهما. وجاء في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ رِجْدَةِ الْغُتَّافِ﴾ (٢)، فهذه هي ليلة الإسراء، والأولى كانت في الأرض. وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا زر بن حبیش قال: قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح». وقال ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجساد، ثم إنه خرج ليقتضي حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً - ثلاثاً - ثم رفع بصره فإذا هو ثاب إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريل - يسكنه - فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس، فنظر فلم ير شيئاً، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرأه، فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرأه، فذلك قول الله ﷻ: ﴿رَأَيْتَ جِبْرِيلَ إِذَا هَوَىٰ﴾ (٤) مَا سَلَ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ (٥)، إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ (٦)، يعني جبريل إلى محمد، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٧) ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث ابن وهب. وفي حديث الزهري عن أبي سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخاري عن طلحة بن غنم، عن زائدة، عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٨) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (٩) قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وقال ابن جرير: حدثني ابن بزيع البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١٠) قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلثا رفر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١١) معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذكر عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٢)، قال: أوحى إليه: «الم أجدك يتيمًا»، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١٣) [الشرح: ٤٤]. وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك. وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١٤) أَمْتَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٥) قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١٦)، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧) قال: رأى بفؤاده مرتين. وكذا رواه سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رأى بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي

محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة، رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن عمرو بن تبهان بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العبيري، عن سلم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تجلّى بنوره الذي هو نُورُهُ، وقد رأى ربه مرتين. ثم قال: حسن غريب. وقال أيضاً: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شيء فكبر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلتُ على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقلت: لقد تكلمت بشيء قف له شعري. فقلت: رُويًا، ثم قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٧﴾. فقلت: أين يُدْهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كنتم شيئاً مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ الْقَلْبَاتِ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الغيبة، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جباد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقال النسائي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعبون أن تكون الحُلَّةُ لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟! وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت ربك؟ قال: «رأيت بفؤادي مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾. ورواه ابن جرير، عن ابن خُميد، عن مهران، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعيني، ورأيت بفؤادي مرتين». ثم تلا: ﴿مَنْ ذَا فَتْنِكَ﴾ ﴿٨﴾. ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرني عباد بن منصور قال: سألت عكرمة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعظّمته ورداءه. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العقدي، أخبرنا أبو خلدة، عن أبي العالية قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهراً، ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غير». وذلك غريب جداً، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي ﷻ». فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام.

كما رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن أيوب، عن أبي قلابة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كفتي حتى وجدت بَرْدَهَا بين ثديي» - أو قال: نُحْرِي - ففعلت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجُمُعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إني أسألك الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بَدَلُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام». وقد تقدم في آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال: حدثني أحمد بن عيسى التميمي، حدثني سليمان بن عُمَرُ بن سَيَّار، حدثني أبي، عن سعيد بن زُرَيْبٍ، عن عمر بن سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ فقلت: لا يارب. فوضع يده بين كفتي فوجدت بَرْدَهَا بين ثديي، ففعلت ما في السموات والأرض، فقلت: يارب، في الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يارب، إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، وفعلت وفعلت، فقال: ألم

أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟ قال: «فأفضي إلي بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله في كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾»، فجعل نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي. إسناده ضعيف. وقد ذكره الحافظ ابن عساکر بسنده إلى هبار بن الأسود، رضي الله عنه؛ أن عتبة بن أبي لهب لما خرج في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أنني كافر بالذي دنا فتدلى. فبلغ قوله رسول الله ﷺ، فقال: «سَلَطَ اللهُ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كَلَابِهِ». قال هبار: فكننت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسود، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشْمُ رؤوس القوم واحداً واحداً، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم. وذكر ابن إسحاق وغيرهم في السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسرارة، وأنه خاف ليلتذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزار، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾، هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضي الله عنهما، كان يشبث الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعين وغيرهم. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت». وهذا إسناد جيد قوي. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن جامع بن أبي راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. إسناده حسن أيضاً. وقال أحمد أيضاً: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة قال: سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدر المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصماً عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذا أيضاً إسناد جيد. وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة، حدثني شقيق قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، عليه السلام، في حُضْر معلق به الدر». إسناده جيد أيضاً. وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه ﷻ؟ قالت: سبحان الله لقد قَفَّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تَدْرِيكَ الْوَبْصُرُ وَهُوَ يَدْرِيكَ الْوَبْصُرُ﴾ [الانعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُبْرِكُ اللَّيْلُ وَمَا فِي الْأَرْكَانِ﴾ الآية [القصص: ٣٤]، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عظيم خلقه ما بين السماء والأرض. أخرجه في الصحيحين، من حديث الشعبي، به.

رواية أبي ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، ﷻ؟ فقال: «إني قد سألته فقال: «قد رأيت، نوراً أتى أراه». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نوراً أتى أراه». وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً». وقد حكى الخلال في «علله» أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال: ما زلت منكراً له، وما أدرى ما وجهه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عون الواسطي، أخبرنا هُشَيْم، عن منصور، عن

الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه. وحاول ابن خزيمة أن يدعي انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجاب به بما أجابه به، ولو سأل بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه - كابن خزيمة في كتاب التوحيد - فإنه هو المخطيء، والله أعلم. وقال النسائي: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن علي بن مسهر، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أنه قال في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣)، قال: رأى جبريل، عليه السلام. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين. وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْيَنبُتَ مَا يَنْشَأُ﴾ (١٦): قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي. وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن مغول، حدثنا الزبير بن عدي، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْيَنبُتَ مَا يَنْشَأُ﴾ (١٦) قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المفقحات. انفرد به مسلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى السدر، فقيل له: هذه السدرة قال: فغشيها نور الخلاق، وغشيها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلمه عند ذلك، فقال له: سل. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْيَنبُتَ مَا يَنْشَأُ﴾ (١٦) قال: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً، فرأها محمد، ورأى ربه بقلبه. وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أتى شيء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: رأيت يغشاها قرأش من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله، ﷻ. وقوله: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرَ وَمَا كَلَّمَ﴾ (١٧) قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، ﴿وَمَا كَلَّمَ﴾: ما جاوز ما أمر به. وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رَأَى جَسَّةَ الْمَأْرَى وَمَا نَوَّهَهَا، وَلَوْ
رَأَى غَيْرَهُ مَا قَدَرَهُ لِنَافَا
وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٧)، كقوله: ﴿لِيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ (٢٣) أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدلل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٧)، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقدير ذلك في سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبي الكهتلة قال محمد: أظنه عن ابن مسعود - أنه قال: إن محمداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأل أن يريه نفسه في صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَوَقَّوْا بِالْأَنْفِ الْأَخْرَى﴾ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْجَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْجَىٰ ﴿١٠﴾ قال: فلما أحس جبريل ربه، ﷻ، عاد في صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) عِنْدَ بَيْتِهِ الْمُشْتَرَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْرَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَتَنَبَّأُ الْيَنبُتَ مَا يَنْشَأُ ﴿١٦﴾ مَا رَأَى الْبَصَرَ وَمَا كَلَّمَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ قال: خلق جبريل، عليه السلام. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) وَمَوَدَّةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَكُنَّ الْأُنثَىٰ وَهِيَ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتْحُ ﴿٢٢﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَكْفُرُ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ الْخَبِيرُ ﴿٢٤﴾ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرَّ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَنفَىٰ سَفْعَتُهُمْ سَيْتًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِىٰ ﴿٢٦﴾ .

يقول تعالى مفرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهة للكعبة التي بناها خليل الرحمن، عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ ؟ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهو تقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وحكي

عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللات» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يَلْتُكُ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وقال البخاري: حدثنا مسلم - هو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس: «الَّتْ وَالْعَزَى» قال: كان اللات رجلاً يَلْتُ السَّوِيقَ، سويق الحاج. قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز. وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخله، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم». وروى البخاري من حديث الزهري، عن حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعالى أقامرك، فليصدق». وهذا محمول على ما سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية، كما قال النسائي: أخبرنا أحمد بن بكار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَدٌ، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بش ما قلت! قلت هجراً! فأنت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وانفت عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد». وأما «مناة» فكانت بالمُشَلَّلِ - عند قُذَيْدٍ، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها. قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها سدة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافياتها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخله، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هشام. قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عَزَى، كُفِّرْنَاكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ
وقال النسائي: أخبرنا علي بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جُمَيْعٍ، عن أبي الطُّفَيْلِ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سُمُرَاتٍ، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة - وهم حجبها - أمعنوا في الجحيل وهم يقولون: «يا عزى، يا عزى». فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى». قال ابن إسحاق: وكانت اللات لتقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني مُعْتَبٍ. قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلها مكانها مسجد الطائف. قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّلِ بقديد، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: علي بن أبي طالب. قال: وكانت ذو الخَلَصَةِ لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بَبَّالَةَ. قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية. فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه. قال: وكانت فُلَسُ لطيء ولمن يليها بجبلي طيء من سلمى وأجا. قال ابن هشام: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرُّسُوبَ والمُخَدَّم، فنقله إياهما رسول الله ﷺ، فهما سيفا علي. قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: رِيَام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذبها مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت. قال ابن إسحاق: وكانت «رُضَاء» بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستورغ بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام:

وَلَقَدْ شُدِّدْتُ عَلَى رُضَاءِ شُدَّةٍ فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا يَبْقَاعُ أَسْحَمَا
قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة، وهو القائل:
وَلَقَدْ سَنَّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوْلَهَا وَعُمَرْتُ مِنْ عَدَدِ السَّنِينَ مِثْلَهَا
وازدادت مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سَنِيئًا

هَلْ مَا بَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ قَاتْنَا يَوْمَ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَخَدُّوتَا قال ابن إسحاق: وكان ذو الكعبات لبركر وتغلب ابني وائل، وإياد بسنداد وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الْحَوَزَتَيْنِ وَالسُّدَيْرِ وَبَارِقِ وَالْبَيْتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سَنَدَادِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْزَةَ الْعَذَىٰ ﴿٢٠﴾؟ ثم قال: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟ أي: أنجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿بِئْسَ مِثْقَالٌ يُزِينُ﴾ أي: جوراً باطلاً، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً. ثم قال منكر عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها الهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة، ﴿إِنْ يَبْغُورُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: ليس لها مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفِتْنَةُ﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤهم به، ولا انقادوا له. ثم قال: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَكْفُرُ﴾ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿أَلَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له. قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عروانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أميته». تفرد به أحمد. وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا بِأَمْرٍ وَأَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِيهِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا نُنْفَعُ الشَّافِعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْكَلَ لَّهُمْ﴾ [سبا: ٢٣]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَّوُنَ اللَّيْلَةَ نَسِيَةً الْآخِرَةَ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَبْغُورُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ اللَّغْوِ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ سَبَلُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَٰءَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا اللَّيْلَةَ نَسِيَةً الْآخِرَةَ﴾ أي: الذين هم عند الرحمن إننا أشهدوا خلقهم سكتهم شهدتهم ومُسْتَوُونَ ﴿٢٩﴾ [الزخرف: ١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِنْ يَبْغُورُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ اللَّغْوِ شَيْئًا﴾ أي: لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره. وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ سَبَلُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَٰءَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجوز أبداً، لا في شرعه ولا في قدره.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَنْتَابُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئِئِ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ كَثِيرَ الْاِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَبِعِ الْمَقْفُورِ هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِذْ أَنْشَأَكَ رَبُّكَ الْأَرْضَ وَإِذْ أَنْشَأَ رِجْلَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَنْتَابُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئِئِ﴾ [الأنعام: ٣١]؛ أي: يجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوُّونَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُعَذِّبْكُمْ مَذْحَلًا كَرِيمًا﴾ [الأنعام: ٣٢]

[النساء : ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ . وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صفات الذنوب ومحقرات الأعمال. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان الطلق، والنفس تئمت وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن ثور، حدثنا معمر، عن الأعمش، عن أبي الضحى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم». وكذا قال مسروق، والشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع - الذي يقال له: ابن لبابة الطائفي - قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: في هذه الآية: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه، قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عِبْدِكَ مَا أَلَمَّا؟
وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد في قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عِبْدِكَ مَا أَلَمَّا؟
وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعاً. قال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عِبْدِكَ مَا أَلَمَّا؟
وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن عثمان أبي عثمان البصري، عن أبي عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبي حاتم والبيهقي من حديث أبي عاصم النبيل، وإنما ذكره البيهقي في تفسير سورة «تنزيل»، وفي صحته مرفوعاً نظر. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبي هريرة - أراه رفعه -: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك الإمام». وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود. وحدثني يعقوب، حدثنا ابن علقمة، عن أبي رضاء، عن الحسن في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها. وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: يلم بها في الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ﴿اللَّمَمُ﴾: الذي يلم المرأة. وقال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿اللَّمَمِ﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم. حكاها البيهقي. وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح - وهو ضعيف - عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله بن عمرو قال: ﴿اللَّمَمُ﴾: ما دون الشرك. وقال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ رَسِيمٌ مُّعْتَفِرٌ﴾ أي: رحمته وسبغت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ

يَبِيدَايَ الَّذِينَ أَصْرَفُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ لَأَن تَقْسَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَ لَكُمُ الْوَسْطَ الْأَرْضِيَّ﴾ أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ إياكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿وَرَادَّ أَنْتَرُ أَجْنَةً فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذي يُؤَكِّلُ به رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد. قال مكحول: كنا أجنة في بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقي ثم كنا مرضع فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا نَقَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخاً - لا أباً لك - فماذا بعد هذا تنتظر؟ رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَنشَأَ لَكُمُ الْوَسْطَ الْأَرْضِيَّ﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ يَا اللَّهُ يَزُكُّونَ مِنِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ قَبِيلاً﴾ [النساء: ٤٩]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي بزة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهي عن هذا الاسم، وسميت بزة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب». وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! طلعت عنق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً - والله حسبي، ولا أركي على الله أحداً - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك». ثم رواه عن عُثْمَر، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعبد الرحمن قالوا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحشو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثوري، عن منصور، به.

﴿أَنزَيْتَ الْوَيْلَ الَّذِي نَزَلَ فِي سُلَيْمَانَ وَآدَمَ﴾ [٣٢] وَأَعْطَى قَبِيلاً وَآدَمَ ﴿٣١﴾ أَمَّنْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٠﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٢٩﴾ أَلَا نَزِدُّ بِرِزْوَانٍ لِّدِينِ الْوَيْلَ الَّذِي نَزَلَ فِي سُلَيْمَانَ وَآدَمَ ﴿٢٨﴾ وَأَنْ سَعَيْتُمْ سَوَافِرِي ﴿٢٧﴾ ثُمَّ يُجِزِيهِ الْعَجْرَةَ الْأَوْفَى ﴿٢٦﴾. يقول تعالى إذا لمن تولي عن طاعة الله: ﴿فَلَا مَنَكُ وَلَا سَلَا﴾ [٢٦] وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَوْلٌ ﴿٣٠﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]، ﴿وَأَعْطَى قَبِيلاً وَآدَمَ﴾ [٣٢] قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقناة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعْنَدُ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ﴾ [٣٥] أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفة، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفة، فهو يرى ذلك عياناً؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وطمعاً؛ ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلائاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالا»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن قَوْلٍ فَهُوَ يُحِلِّفُهُمْ وَهُوَ كَذِبٌ أَلْفَيْتُمْ﴾ [سج: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمَّنْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [٣٠] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٢٩﴾ قال سعيد بن جبير، والثوري: أي بلغ جميع ما أمر به. وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّى﴾ ما أمر به. وقال قناة: ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ قَاتِلُونِي إِنِّي بَارِئٌ مِّنْكُمْ وَإِنِّي عَلَى الْبِرِّ تَوَكِّلٌ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الجمنسي، حدثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [٢٩]، قال: «أندري ما وفي؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفي عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار». ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وقال الترمذي في جامعه: حدثنا أبو جعفر السفستاني، حدثنا أبو مسهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء وأبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، ﷻ، أنه قال: «ابن آدم، اركع لي أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره». قال ابن أبي حاتم،

رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لُهيبة، حدثنا زُبان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [١٧]» [الروم: ١٧] حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن رُشْدَيْن بن سعد، عن زُبان، به. ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَّا نُرِي زُرَّةً وَرَزَّ أُنزُرًا﴾ [١٨] أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحملها عنها أحد كما قال: ﴿وَلَيْنَ دَعَتْ مُثَقَّلَةٌ إِلَىٰ جِزْلِهَا لَا يَحْمِلُ مَعَهَا شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [١٩] أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي، رحمه الله، وما اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما. وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». والصدقة الجارية كالوقوف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَحْيِي مَا كُفُّوا وَعَاقِرُكُمْ﴾ [الآية: ١٢]. والعلم الذي نشره في الناس فاقنتى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». وقوله: ﴿وَأَنْ سَعَيْتُمْ سَوَّيْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [٢٠] أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَعْيِكُمْ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَوَّيْتُمْ لِأَنْ عَلَيْ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَسْئَرُ مِنكُمْ كَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أي: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ يَزِيحَ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [٢١] أي: الأوفر.

﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [٢٢] وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَعْيَا﴾ [٢٣] وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّزْمَيْنِ الذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٢٤] مِنْ تَلْفَعَةٍ إِذَا شَقَّ﴾ [٢٥] وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَأُ الْأُخْرَىٰ﴾ [٢٦] وَأَنْتُمْ هُوَ أَفْقَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [٢٧] وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْبَيْعَتَىٰ﴾ [٢٨] وَأَنْتُمْ هَالِكٌ عَادَا الْأُولَىٰ﴾ [٢٩] وَتَمُودًا مَا أَفْقَىٰ﴾ [٣٠] وَقَوْمَ نُوحٍ مِمَّنْ بَدَلْنَا فِيهِمْ كَأُولَىٰ هُمِ أَظْلَمُ وَأَفْقَىٰ﴾ [٣١] وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [٣٢] فَسَخَّرْنَا مَا عَشَىٰ﴾ [٣٣] فَأَقَىٰ مَالَةَ رَبِّكَ تَنَمَّأَىٰ﴾ [٣٤].

يقول تعالى مخبراً: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [٢٢] أي: المعاد يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أورد، إنني رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار. وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرة في الرب. قال البغوي: وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنه لا تحيط به الفكرة». كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ، وإنما الذي في الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتته». وفي الحديث الآخر الذي في السنن: «تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذات الله، فإن الله خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمْحَاكُ وَأَبْكَىٰ﴾ [٢٣] أي: خلق في عباده الضحك والبكاء وسبهما وهما مختلفان ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَعْيَا﴾ [٢٤]، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢٢]، ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّزْمَيْنِ الذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٢٥] مِنْ تَلْفَعَةٍ إِذَا شَقَّ﴾ [٢٥]، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٦] أَوَّ يَكُ تَلْفَعَةٍ بَيْنَ مَوْتَيْنِ﴾ [٣٧] فَمَنْ كَانَ عَقْلُهُ فَتَاكُ فَتَوَيْتُ﴾ [٣٨] جَعَلَ بَيْنَهُ الرَّزْمَيْنِ الذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٣٩] لَيْسَ ذَلِكَ بِعْدِيدٍ عَلَيْكَ أَنْ يُحْيِيَ لَكُلُّوْفًا﴾ [٤٠] [القيامة: ٣٦-٤٠]. وقوله: ﴿وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَأُ الْأُخْرَىٰ﴾ [٢٦] أي: كما خلق البداية هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَفْقَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [٢٧] أي: مَلِكٌ عباده المال، وجعله لهم قِنْيَةً مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعة، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَفْقَىٰ﴾: مؤل، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس، ومجاهد أيضاً: ﴿أَفْقَىٰ﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رضى. وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق. وقيل: ﴿أَقْنَىٰ﴾ من شاء من خلقه، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير، وهما بعيدان من حيث اللفظ. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْبَيْعَتَىٰ﴾ [٢٨] قال ابن عباس، ومجاهد،

وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له: «مِرْزَمُ الْجُوزَاءِ»، كانت طائفة من العرب يعبدونه. ﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥٦) وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِرَبِّكَ يَمَادٍ ﴿٦١﴾ إِذْ نَادَىٰ الْأَمَّادُ ﴿٦٢﴾ أَيُّ لَمْ يَخْلُقْ بِمَثَلِهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٦٣﴾﴾ [الفجر: ٦-٨]، فكانوا من أشد الناس وأقوامهم وأعتابهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ سَرْسَرٍ عَلَيْهِمْ ﴿٦٤﴾ سَحْرًا عَلَيْهِمْ سَجَّ يَلَالٍ وَفَنِيَّةً آيَاتٍ حُسُومًا ﴿٦٥﴾﴾ [الحاقة: ٦-٧]. وقوله: ﴿وَكُمُودًا مَا أَتَيْنَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: دمرهم فلم يبق منهم أحداً، ﴿وَقَوْمٌ نُوِجٌ مِنْ قَبْلِ آي: من قبل هؤلاء، ﴿إِنَّمَا كَانُوا هُمْ أَهْلَكُمْ وَأَلَمْنَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: أشد تمرداً من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ الْهُوَّىٰ ﴿٥٨﴾﴾ يعني: مدائن لوط، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَشْنَاهَا مَا عَشْنُ ﴿٥٩﴾﴾ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَطْرَقَنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٧٣]. قال قتادة: كان من مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادي شيئاً من نار ونفط وقطران كقم الأتون. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد بن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جداً.

﴿يَأَيُّ مَالِكٍ رَبِّكَ تَسْمَأُكَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى؟ قاله قتادة. وقال ابن جُرَيْجٍ: ﴿يَأَيُّ مَالِكٍ رَبِّكَ تَسْمَأُكَ ﴿٥٥﴾﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير. ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أَرَفَتِ الْأَرِيفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَفَبْتُمْ ﴿٥٩﴾ وَتَضَعُونَ لِئَلَّا تَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾ فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرَّسُولِ﴾ [الاحقاف: ٩]. ﴿أَرَفَتِ الْأَرِيفَةَ﴾ (٥٧) أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨) أي: لا يدفعها إذاً من دون الله، ولا يطلع على علمها سواه. ثم قال تعالى منكرأ على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلبيهم: ﴿تَجَبُّونَ﴾ من أن يكون صحيحاً، ﴿وَتَضَعُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلَا تَكُونَ﴾ أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ وَرِيذَهُمْ حُشُومًا ﴿٦٠﴾﴾ [الاسراء: ١٠٩]. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هي يمانية، اسمها لنا: عَن لَنَا. وكذا قال عكرمة. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿سَيِّدُونَ﴾: معروضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدي. ثم قال أمراً عباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴿٦٢﴾﴾ أي: فاضعوا له وأخلصوا ووحدوا. وقال البخاري: حدثنا أبو مَعْمَرٍ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي وأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي في الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به. ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أَرَفَتِ الْأَرِيفَةَ ﴿٥٧﴾﴾، فإن النذير هو: الحذر لما يعانين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦]. وفي الحديث: «أنا النذير الغريان». أي: الذي أعجله شدة ما عانين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم غريباناً مسرعاً، مناسب لقوله: ﴿أَرَفَتِ الْأَرِيفَةَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: اقتربت القريبة، يعني: يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القدر: ١]، قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم - لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا حَبْرَتَهُمْ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ - قال أبو صَمْرَةَ - لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل قَرْسِي رَهَانَ»، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشى أن يسبق ألح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا

ذلك». وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان، والله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر تفسير سورة النجم وشه الحمد والمنة



تفسير سورة القمر

وهي مكية. قد تقدم في حديث أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُرْسِلُوهَا فِي سِحْرِ مُنْتَسِرٍ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلاَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُنِنِ الذُّرُّ ﴿٥﴾﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة و فراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَنَّ أُمَّرًا أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْمِلُوهُ سُبْحَانَكَ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ١]. وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالوا: حدثنا خلف بن موسى، حدثني أبي، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شيف يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيراً». قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العمري، عن أبيه. وقد ذكره ابن جبان في الثقات، وقال: ربما أخطأ. حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كهيل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على فُعيقَعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطَرَف، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ والساعة هكذا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السوائي قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأزاعي، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين». تفرد به أحمد، رحمه الله. وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرْم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابَة كصبابة الإناء يتصا بها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلْقَى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قرعاً، والله لتملونه، أفعمجتكم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِضْرَاعِي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُليَّة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكننا منها على فُرْسَخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انتشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفرار، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، فقلت لأبي: أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال. ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله ﷻ، يقول: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾، ألا وإن

الدنيا قد أذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضممار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة. وقوله: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قدمين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر». وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

رواية أنس بن مالك: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق. وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يرهم آية، فأراه القمر شقين، حتى رأوا جزءاً بينهما. وأخرجاه أيضاً من حديث يونس بن محمد المؤدب، عن شيبان، عن قتادة. ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي داود الطيالسي، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به.

رواية جبير بن مطعم، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن كثير، عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، به. وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به. ورواه البيهقي أيضاً من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم، كلاهما عن حصين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عزال بن مالك، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه البخاري أيضاً ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عزال بن مالك، به مثله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه. وروى العوفي، عن ابن عباس نحو هذا. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى الفطعي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُيِّفَ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: سُحْرُ الْقَمَرِ. فنزلت: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾.

رواية عبد الله بن عمر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلَقَتَيْنِ: فِلَقَةٌ من دون الجبل، وفِلَقَةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم والترمذي، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذي: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَرٍ، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظرنا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَةَ، عن ابن مسعود، به. وقال ابن جرير: حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي، حدثنا عمي يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا». قال البخاري: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن

يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السَّفَار فقالوا: ذلك. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدُّورِي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كَبْشَةَ، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدما من كل وجهة، فقالوا: رأيناه. رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به، وزاد: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَآنَشَقَّ أَلْفَكُرٌّ ۝٦﴾. ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيْة، أخبرنا أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: ثبت أن ابن مسعود، رضي الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق. ورواه الإمام أحمد عن مَوْمِل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر. وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق. وقوله: ﴿رَأَى بَرُّؤًا مَائَةً ۝٧﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يَعْرُشُوا ۝٨﴾ أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَبِرٌّ ۝٩﴾ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُسْتَبِرٌّ ۝٩﴾ أي: ذاهب. قاله مجاهد، وفتادة، وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝١٠﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝١١﴾ قال فتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشرايع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝١١﴾ أي: يوم القيامة. وقال السدي: ﴿مُسْتَقَرٌّ ۝١١﴾ أي: واقع. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ ۝١٢﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المذكبين بالرسول، وما حل بهم من العذاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۝١٣﴾ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتماذي على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۝١٤﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تَتَنَّى النَّذُرَ ۝١٥﴾ يعني: أي شيء تغني النذر عن كتب الله عليه الشقاوة، واختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٥﴾ [الانعام: ١١٤]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتَنَّى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قَوْلَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۝١٦﴾ حُشْمًا أَنْصَرَفَرُ بِمَجْرُوحٍ مِنَ الْأَجْدَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَنَبِّرٌ ۝١٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝١٨﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۝١٦﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، ﴿خاشعاً أبصارهم﴾ أي: ذليلة أبصارهم، ﴿بِمَجْرُوحٍ مِنَ الْأَجْدَانِ﴾ وهي: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَنَبِّرٌ ۝١٧﴾ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي ﴿جَرَادٌ مُّتَنَبِّرٌ ۝١٧﴾ في الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ ۝١٧﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝١٨﴾ أي: يوم شديد الهول عبوس قمطيرير ﴿فَلَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝١٩﴾ على الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ يَبِيرٌ ۝٢٠﴾ [المدثر: ٩-١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُّوحٌ كَذَّبُوا عِدَانًا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَآذُرٌ ۝١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْتَهِرٍ ۝٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَنْجَارِ وَوَسَّرَ ۝٥﴾ نَحْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا ۝٦﴾ وَلَقَدْ زَكَّيْنَاهَا بِآيَةٍ قَهْلٍ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذِيرٍ ۝٨﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذَّكَرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٩﴾.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمٌ نُّوحٌ كَذَّبُوا عِدَانًا﴾ أي: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَآذُرٌ﴾ قال مجاهد: ﴿وَآذُرٌ﴾ أي: استظير جنوناً. وقيل: ﴿وَآذُرٌ﴾ أي: انتهروه وزجروه وأوعده: ﴿قَالُوا لَنْ لَرَّتْنَاهُ يَنْتُوحُ لَكُونُ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝٢﴾ أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَانْتَصِرَ﴾ أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْتَهِرٍ ۝٣﴾. قال السدي: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: من السماء ومن الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝٤﴾ أي: أمر مقدر. قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْتَهِرٍ ۝٣﴾:

كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماء على أمر قد قدر. وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكوّاء سأل علياً عن المجرة فقال: هي شرح السماء، ومنها فتحت السماء بماء منهمر. ﴿وَحَلَّلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَجٍ وُضْرًا ۝١٨﴾. قل ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحداه دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبْك. وقال مجاهد: الدر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدر: طرفها وأصلها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُهَا. وقوله: ﴿يَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿بِحِرَاءٍ لِّمَن كَانَ كِرْبًا﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّمَن كَانَ حَمَلًا دُونَ ذِي نَبْتٍ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُورِ ۝١٩﴾ ﴿وَحَقَّقْنَا لَمْ يَنْ يَتَلَبَّهٖ مَا يَرْكَبُونَ ۝٢٠﴾ [يس: ٤١-٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَا كَلِمَاتٌ مَّخْتَصِرَةٌ لِّلْآيَةِ ۝٢١﴾ لِنَجْعَلَهَا لِكُرِّ تَذَكُّرٍ وَمَعَهَا أَذُنٌ رَّعِيَّةٌ ۝٢٢﴾ [الحاقة: ١١-١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ يَنْ مُّدْكِرًا﴾ أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنْ مُّدْكِرًا﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدْكِرٌ أو مُدْكِرٌ؟ قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿مُدْكِرًا﴾. وهكذا رواه البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾. وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾. وقال: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زهير، عن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾، أو: ﴿مُدْكِرًا﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي إسحاق. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝١٩﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذْرِي، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر. ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّنَا آيَاتِنَا لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ عَلَىٰ لِسَانِكَ بِوَيْحٍ يُخَبِّرُ بِآيَاتِنَا يُذَكِّرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝٢٠﴾ [مریم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّنَا آيَاتِنَا لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هَوَّنَا قِرَاءَتَهُ. وقال السدي: يسرنا تلاوته على اللسان. وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسّر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضمرّة، عن ابن شوذب، عن مطّر - هو الوراق - في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْ مُدْكِرًا﴾: هل من طالب علم قِيَعَانٍ عليه؟ وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم، عن مطر الوراق وكذا رواه ابن جرير، وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَبْرِرٍ ۝١٩ نَزَّحَ النَّاسُ ظَنَّوْا أَنَّهُمْ آصِفَاءُ غَلِيٍّ مُّثْقَرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٢١ وَلَقَدْ بَيَّنَّنَا آيَاتِنَا لِلذِّكْرِ فَهَلْ يَنْ مُّدْكِرًا ۝٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَبْرِرٍ﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدي. ﴿مُسْتَبْرِرٌ﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. وقوله: ﴿نَزَّحَ النَّاسُ ظَنَّوْا أَنَّهُمْ آصِفَاءُ غَلِيٍّ مُّثْقَرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتتلخ رأسه فيبقى جثة بل رأس؛ ولهذا قال: ﴿نَزَّحَ النَّاسُ ظَنَّوْا أَنَّهُمْ آصِفَاءُ غَلِيٍّ مُّثْقَرٍ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّنَا آيَاتِنَا لِلذِّكْرِ فَهَلْ يَنْ مُّدْكِرًا ۝٢٢﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣﴾ فَقَالُوا أَبْنَاؤُنَا وَمَا نَحْنُ بِأَبْنَاءِكُمْ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا سَبَلًا مُّسْتَبْرِرًا ۝٢٤ أَلَمْ نَقُلْ لِلذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنَّا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِّنْ كَذَّابٍ أَثِيمٍ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُونَ آتَانَهُ فَنَنفِثُ لَهَا فَنَرْتَجِبَنَّهُمْ وَأَصْلَحُوا ۝٢٧ وَيَتَّبِعُهُمُ الْآلَاءُ إِنَّهُمْ لَمَّا يَلْمِزُونَهُمْ لَمَنِ لَّمْ يَرْبُزْهُمُ اللَّهُ فَأَعَاظَنَ فَتَقَالُوا مَعَهُ ۝٢٨ فَتَقَالُوا مَعَهُ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَافَرُوا كَمَا شِيبُوا لِلْخَطِيرِ ۝٣١ وَلَقَدْ بَيَّنَّنَا آيَاتِنَا لِلذِّكْرِ فَهَلْ يَنْ مُّدْكِرًا ۝٣٢﴾. وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً، ﴿فَقَالُوا أَبْنَاؤُنَا وَمَا نَحْنُ بِأَبْنَاءِكُمْ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا سَبَلًا مُّسْتَبْرِرًا ۝٢٤﴾، يقولون: لقد خبنا

وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَوِيٌّ﴾ أي: متجاوز في حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَبِيْرِ ٣٦﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَيْتُمْ لَهَا قَبْلاً﴾ أي: اختاروا لهم؛ أخرج الله لهم ناقه عظيمه عُشراء من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به. ثم قال أمراً لعبده ورسوله صالح: ﴿فَأَرْسَلْنَا وَاصِلًا إِلَىٰ آلِ مُرْيَسٍ لِيُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ نَاقَةَ اللَّهِ لَأُنبِتُ لَكُمْ إِلَٰهًا مُّبِينًا ٣٧﴾ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَبَيِّنُهُمْ لَكَ وَتُبَيِّنُهُمْ لِيَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْغَارُ ٣٨﴾ أي: يوم لهم ويوم للناقه؛ كقوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّأْلُومٍ ٣٩﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ مَّحْضَرٌ ٤٠﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضرو الماء، وإذا جاءت حضرو اللبن. ثم قال تعالى: ﴿فَأَادُوا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنُوهُ فَعَمَزَ ٤١﴾ قال المفسرون: هو عافر الناقة، واسمه قُذَار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ٤٢﴾ [الشمس: ١١٢]. ﴿فَطَعْنُوهُ ٤٣﴾ أي: فَجَسَسَ ﴿فَمَمَرٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابٌ وَنَذِيرٌ ٤٤﴾ أي: فعاقتبهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّغَةً رَّجِيَةً فَمَا كَانُوا كَهَيِّبِ الْخَاطِرِ ٤٥﴾ أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخدموا وهمدوا كما يهدم بييس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحظر - قال السدي -: هو المرعى بالصحراء حين يبس وتحرق ونسفته الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حطاراً على الإبل والمواشي من بييس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَيِّبِ الْخَاطِرِ ٤٥﴾. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَهَيِّبِ الْخَاطِرِ ٤٥﴾ هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى، والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَمِيَّتُمْ بِسَخَرٍ ٣٤ ﴿بَعَثْنَا نَارًا فَصَارُوا فَالذُّرِّ ٣٥﴾ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ سَيِّئِهِمْ فَلَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذَرَفُوا عَيْنًا وَنَذَرُوا ٣٦ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا النَّارَانَ لَلذُّرِّ فَمَلَّ مِنْ تَكْبَرٍ ٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهللكم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدانهم حتى وصل بها إلى عتات السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبع بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ٣٣﴾ وهي: الحجارة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ حَمِيَّتُمْ بِسَخَرٍ ٣٤﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسنه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجِّيَنَّكَ مِنَ الشَّرِّ أَفْعَاءً ٣٥﴾ ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ سَيِّئِهِمْ ٣٦﴾، وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مُرد حسان محبته من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهَرَّغُونَ إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَذِهِ بَنَاتِي ٣٧﴾ يعني: نساءهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ٣٨﴾ أي: ليس لنا فيهن أرب، ﴿وَأِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا تُرِيدُونَ ٣٩﴾ [مرو: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أديارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً، عليه السلام، إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَجَّعْنَاهُمْ بِحَارِهِمُ الْحَرِّ فَكَانُوا سُوءَ الْعَذَابِ أَلْوَعِينَ ٤٠﴾ أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿فَذَرَفُوا عَيْنًا وَنَذَرُوا ٣٦﴾ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا النَّارَانَ لَلذُّرِّ فَمَلَّ مِنْ تَكْبَرٍ ٣٧﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَالذُّرِّ ٤٢ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ ٤٣﴾ أَرْتَبُّونَ ٤٤ ﴿أَرْتَبُّونَ ٤٤﴾ سَبَّحْنَاهُ لَمَسَعٍ لُيُوتُونَ الذُّبُرَ ٤٥ ﴿يَكُ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْخَىٰ وَأَمَرٌ ٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والندارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً. ثم قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ ٤١﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ ٤٢﴾ يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئك؟ ﴿أَرْتَبُّونَ ٤٣﴾ أي: أم معكم من الله براءة إلا ينالكم عذاب ولا نکال؟ ثم قال مخبراً عنهم: ﴿أَرْتَبُّونَ ٤٤﴾ أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً،

وأن جمعهم يعني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَسَعٌ لُولُؤُنَ الذُّبُرِ﴾ (٤٥) أي: سيتفرق شملهم ويغلبون. قال البخاري: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد - وقال أيضاً: حدثنا محمد، حدثنا عفان بن مسلم، عن وهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو في قبة له يوم بدر -: «أشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً». فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، بيده وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يشب في الدرع وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَسَعٌ لُولُؤُنَ الذُّبُرِ﴾ (٤٥) بِلِ السَّاعَةِ مَوَعِدَهُمُ وَالسَّاعَةُ أَدَهْنُ وَأَمْرٌ (٤٦). وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع، من حديث خالد - وهو يهران الحذاء - به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَسَعٌ لُولُؤُنَ الذُّبُرِ﴾ (٤٥) قال: قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَسَعٌ لُولُؤُنَ الذُّبُرِ﴾ (٤٥) فعرفت تأويلها يومئذ. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: أخبرني يوسف بن مارك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة - وإني لجارية العلب - ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوَعِدَهُمُ وَالسَّاعَةُ أَدَهْنُ وَأَمْرٌ (٤٦)﴾ هكذا رواه هاهنا مختصراً. ورواه في فضائل القرآن مطولاً، ولم يخرجها مسلم.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم دُورًا مَسَّ سَرَّ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرًا إِلَّا رَجَدُهُ كَلِمَةٍ بِالْأَمْرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ (٥١) وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلَوُهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ (٥٣) إِنَّ الَّذِينَ فِي حِجَّتٍ مِنَّنَا وَتَمَّرٍ (٥٤) فِي مَقْعِدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ (٥٥)﴾.

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُور مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق. ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم﴾ أي: كما كانوا في سُورٍ وشك وتردد أورتهم ذلك النار، وكما كانوا ضللاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿دُورًا مَسَّ سَرَّ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩)، كقوله: ﴿وَسَخَّلَ كُلَّ شَيْءٍ فَعَدَدَهُ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَخَّجَ أَسْرَ رَبِّكَ الْأَكْلَ (١) أَنَّى خَلَقَ سَوَوْنِ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الاعلى: ١-٣]، أي: قدر قدرًا، وهدى الخلاق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقهم، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخاري»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: قال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم دُورًا مَسَّ سَرَّ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾. وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثوري، به. وقال البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا يونس بن المحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم دُورًا مَسَّ سَرَّ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾، إلا في أهل القدر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن صالح الأنطاكي، حدثني ثروة بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جعدة، عن ابن زُرارة، عن أبيه، عن النبي ﷺ؛ أنه تلا هذه الآية: ﴿دُورًا مَسَّ سَرَّ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾، قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله». وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزري، عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء ابن أبي رباح، قال: أتيت ابن عباس وهو يتزعج من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر. فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿دُورًا مَسَّ سَرَّ (٤٧) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٨)﴾، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تَصَلُّوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، عن بعض إخوته، عن محمد بن عبيد المكي، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر فقال: دلوني عليه - وهو أعمى - قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأنني بنساء بني فهز يظفُن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك

هذه الأمة، والذي نفسي بيده، ليتهاين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدْر خيراً، كما أخرجه من أن يكون قدر شراً. ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة، عن الأوزاعي، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله. لم يخرجوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر». رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به. وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى عُقْرَةَ، عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمي الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». لم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين، عن أبي صخر حُمَيْد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزندقية». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صخر حميد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخيرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طائوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم مفرداً به، من حديث مالك. وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان». وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقاليم وطويت الصحف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا الليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا ابتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا ابتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البلخي، عن أبي داود الطيالسي، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن ربيع بن خراش، عن رجل، عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شميل، عن شعبة عن منصور، به. ورواه ابن ماجه حديث أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن منصور عن ربيع، عن علي فذكره وقال: «هذا عندي أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربيع، عن علي، به. وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَاكَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ١٧]. ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. وقوله: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ [٥١]. وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجْدَةٌ﴾ أي: إنما نامر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نامر به حاصلًا موجدًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَمِنْ أَمَّا يَتَقُولُ لَهُ: كُنْ، قَوْلًا فَيَكُونُ
وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا شِيَاعَكُمْ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبتين بالرسول، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿رَجِيلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِمَّنْ قَبْلَ﴾ [سبا: ٥٤].
وقوله: ﴿وَكُلٌّ شَيْءٌ فَمَلَوْهُ فِي الرَّزْبِ﴾ [٥١] أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلٌّ صَغِيرٌ وَكَبِيرٌ﴾ أي: من أعمالهم ﴿سُتْتَرُ﴾ أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني عوف بن

الحارث - وهو ابن أخي عائشة لأمها - عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدني. وثقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم. وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره، فأناه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لَا تُخْجِرَنَّ مِنَ الذَّنُوبِ صَغِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ لَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ
إِنَّ الْمَحُوبَ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ
فَسَأَلَ هِدَايَتَكَ إِلَهُهُ بِنِيَّةٍ
إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
عِنْدَ إِلَهِ مُسْطَرَّ تَسْطِيرًا
صَعِبَ الْقِيَادَ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا
طَارَ الْفُؤَادَ وَأَلْهَمَ التَّفْكِيرًا
فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّئِيمَ فِي جَنَّتِ رَهْرَهٍ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو - يبلِّغ به النبي ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفراد بإخراجه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله.

آخر تفسير سورة «اقتربت»

وشه الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة



تفسير سورة الرحمن

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زرّ، أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: أهذا كهذا الشعر، لا أبأ لك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فِي أَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكَ كُنَّا نَكْذِبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد». ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد ابن شيبويه، عن هشام بن عمار، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصري، قالوا: حدثنا يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» - أو: فُرئت عنده - فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟» قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله: ﴿فِي أَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكَ كُنَّا نَكْذِبَانِ﴾ إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمتنا ربنا نكذب». ورواه الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك، به. ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ① عَمَّ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ④ الْفُؤَادَ وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ يَسْجُدَانِ ⑥

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿١﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٢﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٣﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٤﴾ فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَالشَّجَرِ ذَاتِ الْأَكْمَامِ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴿٦﴾ فَإِنِّي آتَاةٌ مَّا لَمْ تَرَ كَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٧﴾ .

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَمَّ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها. وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (٥) أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّ لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ بَلَّغِي لَمَّا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٦) [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٧) [الأنعام: ٩٦]. وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطيور في عيني عبد، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكروسي، ونور الكروسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٨) قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جببر، والسدي، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٩) يعني: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (١٠) أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (١١) أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وَرِزْقًا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٢) أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم والأونهم والستهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق. ﴿فِيهَا فَكَيْهَةٌ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالشَّجَرُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: أفرده بالذكر لشرفه ونفحه، رطباً ويابساً. والأكام - قال ابن جرير، عن ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنوط ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينثفه واستواؤه. قال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن عمرو بن علي الصيرفي: حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، عن الشعبي قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلي أنتني من قبلك، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير، ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم يتبع وتنضج فتكون كأطيب فالودج أكل، ثم تبيس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتي فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك، هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله، فإن ﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٣) ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُنْتَرَبِينَ﴾ (١٤) [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]. وقيل: الأكام: رفاتها، وهو: الليف الذي عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ (١٥) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ﴾ يعني: التين. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْعَرْشُ﴾: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تينه. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضر الزرع. ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبل، وريحان، وهو: الورد الملتف على ساقها. وقيل:

العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلأً. والريحان: الورق، يعني: إذا أوجن وانعقد فيه الحب. كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة.

وَقَوْلًا لَهُ: مَنْ يُنْبِتِ الْحَبَّ فِي الثُّرَى
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ؟
فَيُضِيحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيًا؟
فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاَعْيَا

وقوله: ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (١٣) أي: فبأي الآلاء- يا معشر الثقلين، من الإنس والجن- تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أي: النَّعْمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنین: «اللهم، ولا بشيء من الآثك ربنا نكذب، فلك الحمد». وكان ابن عباس يقول: «لا، بأبيها يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُرْوَةَ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (١٣).

﴿عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ صَلَاسِلِ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَطَلَقَ الْجَانُّ مِنَ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الشَّرِيقِ وَرَبُّ الشَّرْقِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الْحَمْرُ الْبَيْضُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَكْثَمِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾.

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجن من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾: من لهب النار، من أحسنها. وقال علي بن أبي طلحة، وعن ابن عباس: ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم، عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (١٣): تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الشَّرِيقِ وَرَبُّ الشَّرْقِ﴾ (١٧) يعني: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَا أُنْمِئُ بِرَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَرْجِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَرْجِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغرب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغرب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (١٣) ؟

وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٨) قال ابن عباس: أي أرسلهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الفاصل بينهما. والمراد بقوله: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَالِحٌ أَمَاجٍ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروي عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطية، وابن أبيزى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لثلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله على صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢١) أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَمْتَسِرَّ كَيْفِيٌّ وَالْإِنْسَانُ أَلْمُ بِأَيْكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو زر، والضحاك. وروي عن علي. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه عن السدي عن خديته، عن ابن عباس. وروي مثله عن علي، ومجاهد أيضاً، ومرة الهمداني. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. قال السدي، عن أبي مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدي هو البُسْدُ بالفارسية. وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيحًا وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا لَبَسًا لَئِيمًا﴾ [ناظر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هي من الملح

دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر، فوَقَعَتْ في صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع في صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعني: من قطر - فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٢٦). وقوله: ﴿وَلَهُ الْكَمَلُ الْأَكْمَلُ﴾ يعني: السفن التي تجري في البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعة فليس بمنشأة، وقال قتادة: ﴿الْمُنْتَنَاتُ﴾: يعني المخلوقات. وقال غيره: المنتشآت - بكسر الشين - يعني: البادات. ﴿كَالْأَكْمَلِ﴾ أي: كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٢٦). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العرار بن سويد، عن عميرة بن سعد، قال: كنت مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على شاطئ الفرات، إذا أقبلت سفينة مرفوع شراعها، فبسط علي يديه ثم قال: يقول الله ﷻ: ﴿وَلَهُ الْكَمَلُ الْأَكْمَلُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَكْمَلِ﴾ (٢٦). والذي أنشأها تجري في بحر من بحوره ما قتلت عثمان، ولا مالات على قتله.

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّا فَاِنَّ (٢٦) رَبِّيَّ رَبَّهُ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَارِ (٢٧) فَيَأْتِي آيَةً رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٢٨) يَسْتَلْهُمْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَيَأْتِي آيَةً رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٣٠)﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله كان. وفي الدعاء المأثور: يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك. وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّا فَاِنَّ (٢٦)﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَبَيْنَ رَبِّهِ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَارِ (٢٧)﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَارِ﴾ أي: هو أهل أن يجلب فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَأَسْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْوَسْطِ بِرُيُوتٍ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرَبِّهِ أَهْلُ﴾ [الإنسان: ٢٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَارِ﴾: ذو العظمة والكبرياء. ولما أخبر عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٢٦)﴾. وقوله: ﴿يَسْتَلْهُمْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآفات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: من شأنه أن يجيب داعياً، أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً، أو يشفي سقيماً. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً. وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يحيى حياً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم، ومنتهى شكواهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الجفني، حدثنا حرير بن عثمان، عن سُوَيْدِ بْنِ جَبَلَةَ - هو الفزاري - قال: إن ربكم كل يوم هو في شأن، فيعتق رقاباً، ويعطي رغباً، ويقدم عقاباً.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد بن عمرو الغزالي، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثني عمرو بن بكر السكسكي، حدثنا الحارث بن عبدة بن رباح الغساني، عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن، قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، وسليمان بن أحمد الواسطي، قالوا: حدثنا الوزير بن صبيح الثقفي أبو روح الدمشقي - والسياق لهشام - قال: سمعت يونس بن ميسرة ابن حلبس، يحدث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة، عن هشام بن عمار، به. ثم ساقه من حديث أبي همام الوليد بن شجاع، عن الوزير بن صبيح قال: ودلنا عليه الوليد بن مسلم، عن مُطَرِّفٍ، عن الشعبي، عن أم الدرداء، عن أبي

الدرء، عن النبي ﷺ، فذكره. قال: والصحيح الأول. يعني إسناده الأول. قلت: وقد روى موقوفاً، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء، فالله أعلم. وقال البزار: حدثنا محمد بن المشي، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن اليلماني، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: «يفغر ذنباً، ويكشف كرباً». ثم قال ابن جرير: وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، أن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفنناه ياقوتة حمراء، قلمه نوره، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَنَّهُ الْفَلَّانُ ﴿٣١﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يَتَمَتَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَنَّهُ الْفَلَّانُ ﴿٣١﴾﴾، قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جرير: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾ أي: ستقضي لكم. وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: «لأنقرغز لك» وما به شغل، يقول: «لأخذنك على غررتك». وقوله: ﴿أَبَهُ الْفَلَّانِ﴾: الثقلان: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: «يسمعها كل شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الجن والإنس». وفي حديث الصور: «الثقلان الإنس والجن» ﴿يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٢﴾﴾. ثم قال: ﴿يَتَمَتَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾. أي: لا

تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ الْفَرُّ ﴿٣٤﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿٣٥﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِتُنْفَرُوا ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَفْعَلُهَا وَيَرْجِعُهُمْ إِلَيْهَا مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْهَا مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَفْحَمْتُمْ وَجْهَهُمْ وَقَلَمًا مِنْ أَيْدِي مَلَائِكَةٍ أَعْطَتْهُمُ النَّارَ لَمَّهَا فَخَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٧]؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار. وقال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: الشواظ: الدخان. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾: سيل من نار. وقوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دخان النار. وروى مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبيرة، وأبي سنان. قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاساً - بضم النون وكسرهما - والقراءة مجمعة على الضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَّاجِ السُّلَيْبِ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاسًا

يعني: دخاناً، هكذا قال. وقد روى الطبراني من طريق جُوَيْرِي، عن الضحاك: أن نابع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهب الذي لا دخان معه. فسأله شاهداً على ذلك من اللغة، فأنشدته قول أمية بن أبي الصلت في حسان:

أَلَا مَنْ مَبْلُغُ حَسَّانِ عَسَى ط، مَنَّانَةً تَدْبُ إِلَى عُكَازِ

أَلَيْسَ أَبُوكَ فَيَسَّانِ كَانَ قَبِينًا ط، لَدَى الْقَبِيَّاتِ فَسَلَّ فِي الْحَفَاطِ

يَمَّانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كَيْرًا ط، وَيَنْفَخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاطِ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له. قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بني ذبيان يقول:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَّاجِ السُّلَيْبِ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاسًا

وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْرُ، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة: وقال الضحاك: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا انشَبَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٣٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ إِشْرٌ وَلَا جَدًّا ﴿٣٩﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُونَ النَّجْمُونَ بِسْمَتِهِمْ يَقُودُونَ وَالنُّجُومَ وَالْأَقْدَامَ ﴿٤١﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا النَّجْرِيُّونَ

﴿يَطُوفُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ حَيْبِ مَآءٍ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِذَا أُنشِقَتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذِي قَبْرٍ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ وَالْقَمَرُ نُورًا وَرُجُلُ السَّمَكِ تَنَزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشِقَتْ ﴿١﴾ وَأُوتِيَتْ رِجَالًا مَّحْفُوتًا ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ١-٢]. وقوله: ﴿فَكَانَتْ زُرَّةً كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آي: تذوب كما يذوب الذردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الصهباء، حدثنا نافع أبو غالب الباهلي، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم». قال الجوهرى: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَزَّةٌ كَالَّذِينَ هُمْ﴾، قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبو كُدَيْبَةَ عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ زُرَّةً كَالَّذِينَ هُمْ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفي، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كاليزدون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وحكى البَغَوِيُّ وغيره: أن الفرس الورد تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد اغبر لونها. وقال الحسن البصري: تكون ألواناً. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردي الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالَّذِينَ هُمْ﴾: كألوان الدهان. وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة. وقال قتادة: هي اليرم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذي ألوان. وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن. وقال أبو صالح بن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يُصَيِّبُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٦﴾﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَكُمْ فَيْعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المزملات: ٣٥-٣٦]، فهذا في حال، وثم حال يسأل الخلاق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿قَوْلِيكَ لَسْتَ لَهَا أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ٩٦-٩٧]؛ ولهذا قال قتادة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُونَ بِسِمَاهِمُ. وهذا قول ثالث. وكان هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَقْبَلَتْ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤَدُّنَ بِالنَّوْصِيِّ وَالْأَقْدَامِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك. وقال الأعمش، عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدمه، فيكسر كما يكسر الحطب في التنور. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره. وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، أنه سمع أبا سلام - يعني جده - أخبرني عبد الرحمن، حدثني رجل من كندة قال: أتيت عائشة فدخلت عليها، وبينها حجاب، فقلت: حدثك رسول الله ﷺ أنه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد فيها شفاعاً؟ قالت: نعم، لقد سألته عن هذا وأنا وهو في شِعَارٍ واحد، قال: «نعم، حين يوضع الصراط، ولا أملك لأحد فيها شفاعاً، حتى أعلم أين يسلك بي؟ ويوم تبيض وجهه وتسود وجهه، حتى أنظر ماذا يفعل بي - أو قال: يوحى - وعند الجسر حين يستحد ويستحرق» فقالت: وما يستحد وما يستحرق؟ قال: «يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويستحرق حتى يكون مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه لا يضره، وأما المنافق فيتعلق حتى إذا بلغ أوسطه خر من قدمه فيهور بيده إلى قدميه، فتضربه الزبانية بخطاف في ناصيته وقدمه، فتقذفه في جهنم، فيهور فيها مقدار خمسين عاماً». قلت: ما نثقل الرجل؟ قالت: ثقل عشر خلفات سمان، فيومئذ يعرف المجرمون بسِمَاهِمُ فيأخذ بالنواصي والأقدام. هذا حديث غريب جداً، وفيه ألفاظ منكر رفعها، وفي الإسناد من لم يُسَمِّمْ، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا النَّجْرِيُّونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ حَيْبِ مَآءٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: تارة يعذبون في الحجيم، وتارة يسقون من الحجيم، وهو الشراب الذي هو كالحناس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَقْتُلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّكِينُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ في كَلْمِيبِ ثَمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آخِرُ] [٧١-٧٢]. وقوله: ﴿مَآءٍ﴾ أي: حار، وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطيع من شدة ذلك. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ حَيْبِ مَآءٍ ﴿٤٤﴾﴾ قد انتهى عليه، واشتد حره.

وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي. وقال قتادة: قد أتى طيحه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحزك بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس. وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿فِي اللَّيْلِ تُهَوِّى فِي أَلْتَارِ يُسْجَرُونَ ٥٧﴾. والحميم الآن: يعني الحار. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿جَبِيرٌ أَلَى ٥٨﴾ أي: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر، لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿شَقَقْنَا مِنْ عَيْنِ آيَاتٍ ٥٩﴾ [الغاشية: ٥٩]، أي حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿فَعَرَّ نَظِيرٌ إِنَّهُ ٦٠﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿جَبِيرٌ أَلَى ٥٨﴾ أي: حميم حار جداً. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على برته: ﴿يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ٦١﴾.

﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾ يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ﴿٦١﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانَ ﴿٦٢﴾ يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ﴿٦٣﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٦٤﴾ يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ﴿٦٥﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَكْبَةٍ زَيَّانَ ﴿٦٦﴾ يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ﴿٦٧﴾.

قال ابن شوذب، وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾ في أبي بكر الصديق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطية بن قيس في قوله: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾: نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار، لعلي أضل الله، قال: تاب يوماً وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله، ﷻ، يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ٤٠﴾، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال البخاري، رحمه الله. حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العنمي، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه - قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه - في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّانَ ٦٢﴾ قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين. وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، عن محمد بن أبي حزملة، عن عطاء بن يسار، أخبرني أبو الدرداء؛ أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾، فقلت: وإن زنى أو سرق؟ فقال: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾. فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «إن رغم أنف أبي الدرداء». ورواه النسائي من حديث محمد بن أبي حزملة، به. ورواه النسائي أيضاً عن مؤمل بن هشام، عن إسماعيل، عن الجزي، عن موسى، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبي الدرداء، به. وقد روي موقوفاً عن أبي الدرداء. وروى عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق. وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتفقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانَ ٦١﴾ يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ﴿٦٢﴾. ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانَ ٦٣﴾ أي: أغصان نظيرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿يَأْتِي آلَاءَهُمْ كَذَّبَايَ ٦٣﴾. هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر، يمس بعضها بعضاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله بن النعمان، سمعت عكرمة يقول: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانَ ٦٣﴾، يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

مَا هَاجَ شَوْقُكَ مِنْ هَدِيلِ حَمَامَةٍ تَدْعُو عَلَى فَنَّ الْغُصُونِ حَمَامَا
تَدْعُو أَبَا فَزَحْخِينَ صَادِفِ طَاوِيَا ذَا مَخْلِبِينَ مِنَ الصَّقُورِ قَطَامَا

وحكى البغوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الغصن المستقيم طوياً. قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانَ ٦٣﴾: ذواتا ألوان.

قال: وقد روي عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدي، وخُصيف، والنضر بن عربي، وأبي سنان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَرَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨): واسعتا الفناء. وكل هذا الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَرَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ينبت بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى - فقال: «يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة - أو قال: يستظل في ظل الفتن منها مائة راكب - فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي من حديث يونس بن بكير، به. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ جَمْرَيْنِ﴾ (٥٠): أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥١) قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين. ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَرِيَّةٌ رِجْوَانٍ﴾ (٥٢): أي من جميع أنواع الشمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٢). قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة. وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً بيناً في التفاضل.

﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْجٍ وَحَىٰ آلَ الْخَنِينِ ذَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٠) ﴿فِيهِ قَصِيرَتٌ أَلْطَرَفِ لَوْ يَطْمِئِنُّنَّ إِسْ قَلْبُهُمْ وَلَا جَادٌ﴾ (٥١) ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٢) ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٥٣) ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٤) ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٥٥) ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦).

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ يعني: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة الترتيع. ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْجٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة. وقال أبو عمران الجوني: هو اللديباج المغزى بالذهب. فنه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. قال أبو إسحاق، عن هُبيرة بن يريم، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيت الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور. وقال سفيان الثوري - أو شريك -: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد. وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة. وقال ابن شُؤذب، عن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم. ﴿وَحَىٰ آلَ الْخَنِينِ ذَانِ﴾ أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا، كما قال: ﴿فَطُوفُهَا دَائِبَةٌ﴾ (٥٢) ﴿الْحافاة: ٢٣﴾، وقال: ﴿وَكَايَةٌ عَلَيْهِمْ يَلْتَلِفُهَا وَذَلَّتْ فُطُوفُهَا تَدْلِيكًا﴾ (٥٤) ﴿الإنسان: ١٤﴾ أي: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥١). ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿بَيْنَ﴾ أي: في الفرش ﴿قَصِيرَتٌ أَلْطَرَفِ﴾ أي غصبيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً أحسن في الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعولها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك. ﴿لَوْ يَطْمِئِنُّنَّ إِسْ قَلْبُهُمْ وَلَا جَادٌ﴾ أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنسان والجن. وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة. قال أوطاة بن المنذر: سئل ضمرّة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَوْ يَطْمِئِنُّنَّ إِسْ قَلْبُهُمْ وَلَا جَادٌ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥١). ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٥٣)، قال مجاهد، والحسن، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبيدة بن حميد، عن عطاء بن السائب، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير، حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٥٣)، فاما الياقوت فإنه حَجَرٌ لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من ورائه». وهكذا رواه الترمذي من حديث عبيدة بن حميد وأبي الأحوص، عن عطاء بن السائب، به. ورواه موقوفاً، ثم قال: وهو أصح. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيْتَةَ، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا،

الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكب دُرِّي في السماء، لكل امرئ منهن زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب». وهذا الحديث مُخْرَج في الصحيحين، من حديث هَمَام بن مَتَبه وأبي رُزَعة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَدُوَّة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابُ قوس أحكم - أو موضع قيده - يعني: سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملاات ما بينهما ربحاً، ولطاب ما بينهما، ولتصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق، عن حميد، عن أنس بنحوه. وقوله: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟» أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَثُوقٍ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦]. وقال البغوي: أخبرنا أبو سعيد الشريحي، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجوية، حدثنا ابن شيبه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام، حدثنا الحجاج بن يوسف المكنب، حدثنا بشر بن الحسين، عن الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله ﷺ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟» قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». ولما كان في الذي ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: «فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٥٩)». ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤١)﴾، ما رواه الترمذي والبغوي، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي عقيل الثقيفي، عن أبي فروة يزيد بن سنان الزهاوي، عن بكير ابن فيروز، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، إلا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة». ثم قال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر. وروى البغوي من حديث علي بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبي حزملة - مولى حويطب بن عبد العزى - عن عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤١)﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤١)﴾. فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤١)﴾. فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبي الدرداء».

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ (٤٦)﴾ فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٦) مَدَاهَاتَانِ (٤٦) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٦) فِيهِمَا عَيْنَانِ فَصَاحَتَانِ (٤٦) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٦) فِيهِمَا فَتَكْمَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٤٨) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٨) فِيهِمْ حَبَابٌ حَبَابٌ (٤٧) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٧) حُرٌّ مَقْصُورَةٌ فِي الْفِيَاوِي (٤٧) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٧) لَمْ يَطْمِئِنُّوا إِلَيْهِمْ وَلَا جَانٌّ (٤٧) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٧) مُتَّكِبِينَ عَلَى رَقَبَتَيْ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَابٍ (٤٦) فَيَأْتِي مَاءٌ مَّا لَمْ يَكُنْ كَذَّبَانَ (٤٦) بَرَكَاتٌ مِنْ رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ (٤٨)﴾.

هاتان الجنةان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (٤٦)﴾. وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب آيتهما وما فيها، وجنتان من فضة آيتهما وما فيها، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين». وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (٤٦)﴾: من دونهما في الدرج؛ وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (٤٦)﴾. وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني. وقال هناك: ﴿ذَوَاتًا أَقْبَانٍ (٤٧)﴾: وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مَدَاهَاتَانِ (٤٦)﴾ أي: سوداوان من شدة الري. قال ابن عباس في قوله: ﴿مَدَاهَاتَانِ (٤٦)﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من الماء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿مَدَاهَاتَانِ (٤٦)﴾: قال: خضراوان. وروى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومجاهد - في إحدى الروايات - وعطاء، وعطية العوفي، والحسن البصري، ويحيى بن رافع، وسفيان الثوري، نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مَدَاهَاتَانِ (٤٦)﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضروان من الري ناعمتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكية بعضها في بعض. وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ (٥٩)﴾، وقال هاهنا: ﴿فَصَاحَتَانِ (٤٦)﴾، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فياضتان. والجري أقوى من النضخ. وقال الضحاك: ﴿فَصَاحَتَانِ (٤٦)﴾ أي: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر من الأفراد والتنوع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما. قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان». قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم وأضعاف». قالوا: فيقصون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرفون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان، عن حماد، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم، ومنها خللهم وكرؤها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم. وحدثنا أبي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب». ثم قال: ﴿فِيهَا خَيْرٌ حَسَنٌ﴾، قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وروى مرفوعاً عن أم سلمة. وفي الحديث الآخر الذي سنوره في سورة «الواقعة»: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خيرات»، بالتشديد ﴿الْحَسَنِ قِيَامِيءَ آيَةٍ مَّا آتَا رَبُّكَ تَكَذِّبًا﴾.

ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُقَاعِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهَا خَيْرٌ حَسَنٌ﴾، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت، وإن كان الجميع مخدرات. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي عبيدة، عن مسروق، عن عبد الله قال: إن لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طمحات، ولا بخرات ولا ذفرات، حور عين، كأنهن بيض مكنون. وقوله: ﴿فِي الْبُقَاعِ﴾، قال البخاري: حدثنا محمد بن المشي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون». ورواه أيضاً من حديث أبي عمران، به. وقال: «ثلاثون ميلاً». وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران، به، ولفظه: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، أخبرني خُلَيْدُ الْعَصْرِيِّ، عن أبي الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون باباً من در. وحدثنا أبي، حدثنا عيسى بن أبي فاطمة، حدثنا جرير، عن هشام، عن محمد بن المشي، عن ابن عباس في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُقَاعِ﴾، قال: في خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن ذراجاً أبا السَّمْحِ حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء». ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث، به. وقوله: ﴿أَمْ تَطْمِئِنُّنَّ إِسْتِنْ تَهَلَّتْ وَلَا جَانٌّ﴾: قد تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ آيَاتُ الْوَعْدِ وَالرَّحْمَانِ﴾، قِيَامِيءَ آيَةٍ مَّا آتَا رَبُّكَ تَكَذِّبًا.

وقوله: ﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ حُضِرَ وَتَبَقَّرِي حَسَانٌ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس. وقال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلي. وقال عاصم الجحدري: ﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ حُضِرَ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وقال أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ حُضِرَ﴾، قال: الرفرف: رياض الجنة. وقوله: ﴿وَتَبَقَّرِي حَسَانٌ﴾: قال: ابن عباس، وقاتدة، والضحاك، والسدي: العبقرى: الزرابي. وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابي، يعني: جباها. وقال مجاهد: العبقرى: الديباج. وسئل الحسن البصري عن قوله: ﴿وَتَبَقَّرِي حَسَانٌ﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة - لا أبالكم - فاطلهاها. وعن الحسن البصري رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْرَةَ

يعقوب ابن مجاهد: العبقري: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقري: الطنافس المخمّلة، إلى الرقة ما هي. وقال القتيبي: كل ثوب مَوْشِي عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء يسر من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرياً. ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فريه». وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُكَيَّبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿مَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهيات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيرين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿بَنَزَلْنَا نَمْرُودًا وَرَأَيْنَاهُ كَالْهَبَاءِ وَكُلَّمَا نَزَّلْنَا سَمْرُودًا نَبَتَتْ حَرًا حَرًّا نَارًا لَوَّاهًا وَجَارًّا لَمَّامًا﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذي العظمة والكبرياء. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عمير ابن هانئ، عن أبي العذراء، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَجِدُوا اللَّهَ يَغْفِرُ لَكُمْ». وفي الحديث الآخر: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم، وذو السلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الجيزي، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الظُّوْأُ بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». وكذا رواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به، ثم قال: غلط المؤمل فيه، وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبي ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حسان المقدسي، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّوْأُ بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك، به. قال الجوهري: أَلْظُ فُلَانٌ بِفُلَانٍ: إذا لزمه. وقال ابن مسعود: «الظُّوْأُ بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر. والله أعلم. وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعني: بعد الصلاة - إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام».

آخر تفسير سورة الرحمن،

ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الواقعة

وهي مكية. قال أبو إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصري: حدثنا الشري بن يحيى الشيباني، عن أبي شجاع، عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا أمر لك بعباءة؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقرا؟ إني أمرت بناتي يقرآن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً». ثم قال ابن عساكر: كذا قال، والصواب: عن «شجاع»، كما رواه عبد الله بن وهب، عن السري. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه، عن أبي ظبية، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». فكان أبو ظبية لا يدعها. وكذا رواه أبو يعلى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن منيب، عن السري بن يحيى، عن شجاع، عن أبي ظبية، عن ابن مسعود، به. ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن محمد بن منيب العدني، عن السري بن

يحيى، عن أبي ظبية، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً». لم يذكر في سنده «شجاعاً». قال: وقد أمرت بناتي أن يقرأنها كل ليلة. وقد رواه ابن عساکر أيضاً من حديث حجاج بن نصير وعثمان بن اليمان، عن السري بن يحيى، عن شجاع، عن أبي فاطمة، قال: مرض عبد الله، فأتاه عثمان بن عفان يعود، فذكر الحديث بطوله. قال عثمان بن اليمان: كان أبو فاطمة هذا مولى لعلي بن أبي طالب. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب؛ أنه سمع جابر بن سَمْرَةَ يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف. كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رَحَّتِ الْأَرْضُ رَحًا ﴿٤﴾ وَمَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاةً مُؤْبِتًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْشَّمَائِلِ وَالشَّفْئِثَةِ ﴿٩﴾ وَالشَّفِيفُونَ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمَعْرُوفُونَ ﴿١١﴾ فِي حَتِّبِ النَّبِيِّ ﴿١٢﴾﴾

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقيق كونها ووجودها، كما اقل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ١٥]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ يَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [النورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلًا بِمَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ الْكَاذِبِينَ لَيْسَ لَكُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْمُضَوِّجُ الْمُنْفِخُ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٣]. ومعنى «كاذبة» - كما قال محمد بن كعب -: لا بد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة. قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية. وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: تحفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء. وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. وهكذا قال الحسن، وقاتدة وغيرهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن أبيه، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾: تخفض أناساً وترفع آخرين. وقال عبيد الله العنكي، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وقال محمد بن كعب: تخفض رجلاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجلاً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال السُّدِّي: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين. وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاک، وقاتدة.

وقوله: ﴿إِذَا رَحَّتِ الْأَرْضُ رَحًا ﴿٤﴾﴾ أي: حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغير واحد في قوله: ﴿إِذَا رَحَّتِ الْأَرْضُ رَحًا ﴿٤﴾﴾ أي: زلزلت زلزالاً شديداً. وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغريال بما فيه. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُؤًا رِيحًا ﴿١﴾ زَلْزَلَةَ السَّكَوَةِ شَقِيحًا عَظِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١]. وقوله: ﴿وَمَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾﴾ أي: فُتَّتَتْ فُتًا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، وغيرهم. وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَيْبًا مَهْيَلًا ﴿٥﴾﴾ [الزمل: ١٤] وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاةً مُؤْبِتًا ﴿٦﴾﴾: قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه: ﴿هَبَاةً مُؤْبِتًا﴾ كرهج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وقال العَوْفِيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاةً مُؤْبِتًا ﴿٦﴾﴾: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطربت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقال عكرمة: المنبث: الذي ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَاةً مُؤْبِتًا﴾: كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها - أي قلعاها - وصيرورتها كالهعن المنفوش. وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السُّدِّي: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عباداً بالله من صنعهم - وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من

أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذُنَ اللَّهِ ۝٣٢﴾، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۝٣٢﴾ وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة. وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قال: أصنافاً ثلاثة. وقال مجاهد: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قال: يعني: فرقاً ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة. وقال عبيد الله العتكي، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾: اثنان في الجنة، وواحد في النار. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سيمك عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّا لَنَرُوهُنَّ رُجُجَتٍ ۝٧﴾ [التكوير: ٧] قال: الضرباء، كل رجل من قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ فأصحب اليمين ما أصحب اليمين ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾ قال: هم الضرباء. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله المشي، حدثنا البراء الغنوي، حدثنا الحسن، عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٧﴾، وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٧﴾ فقبض بيده قبضتين فقال: «هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

وقال محمد بن كعب وأبو حزره يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾، قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيل المدائني البزاز، عن شعيب بن الضحاك المدائني، عن سفيان ابن عيينة، عن ابن أبي نجیح، به. وقال ابن أبي حاتم: وذكر محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن خارجة، عن قرة، عن ابن سيرين: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾: الذين صلوا للقبليتين. ورواه ابن جرير من حديث خارجة به. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾: أي: من كل أمة. وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾ أَوْلَيْكَ الْمَقْرُونِ ۝١١﴾، ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَابِقُونَ إِلَى مَعْقِرُونَ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلْنَا عَرِشَهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٣٣﴾، وقال: ﴿سَابِقُونَ إِلَى مَعْقِرُونَ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلْنَا عَرِشَهَا كَعَرِشِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٣٤﴾ [الحديد: ١٣٤]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ الْمَقْرُونِ ۝١١﴾ في جَنَّتِ النَّبِيِّينَ ۝١٢﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن زكريا الفزاز الرازي، حدثنا خارجة بن مصعب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، قال: قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبي آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثاً، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان. ثم قرأ عبدالله: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الشَّيْئُونَ ۝١٠﴾ أَوْلَيْكَ الْمَقْرُونِ ۝١١﴾ في جَنَّتِ النَّبِيِّينَ ۝١٢﴾. وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعد الدارمي في كتابه: «الرد على الجهمية»، ولفظه: فقال الله ﷻ: «لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان».

﴿ثَلَاثَةً مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ۝١٥ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧ يَكْرُمُونَ وَيَكْرُمُونَ وَيَأْتِيهِمْ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ۝١٩ وَفِيهَا مِمَّا يَنْخَرِطُونَ ۝٢٠ وَيَحْرُغُونَ فِيهَا مِمَّا يَنْشَبُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِماً ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤). وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾، و﴿الْآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة». ولم يحك غيره، ولا عزاه إلى أحد. ومما يستأنس به لهذا القول، ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا شريك، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤)، شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة - أو: شطر أهل الجنة - وتقاسمونها النصف الثاني». ورواه الإمام أحمد، عن أسود بن عامر، عن شريك، عن محمد، بباع الملاء، عن أبيه، عن أبي هريرة فذكره. وقد روى من حديث جابر نحو هذا، ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار: حدثنا عبد ربه بن صالح، عن عروة بن رويم، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: لما نزلت: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٣)، ذكر فيها ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين، قال عمر: يا رسول الله، ثلثة من الأولين وقليل منا؟ قال: فأمسك آخر السورة ستة، ثم نزل: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، تعال فاسمع ما قد أنزل الله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤)، ألا وإن من آدم إلي ثلثة، وأمتي ثلثة، ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل، ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

هكذا أورده في ترجمة «عروة بن رويم»، إسناداً ومنتناً، ولكن في إسناده نظر. وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» الحديث بتمامه، وهو مفرد في «صفة الجنة» والله الحمد والمنة. وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) أي: من صدر هذه الأمة، و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) أي: من هذه الأمة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا عبد الله بن بكر المزني، سمعت الحسن: أتى على هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٥) أَوْلَئِكَ الْمَرْغُوبُونَ (١٦)، فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمن. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا الشَّريُّ بن يحيى قال: قرأ الحسن: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٥) أَوْلَئِكَ الْمَرْغُوبُونَ (١٦) فِي حَبَّتِ التَّيْمِيرِ (١٧) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) ثَلَاثَةٌ مِمَّنْ مَضَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وحدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المنقري، حدثنا أبو هلال، عن محمد بن سيرين، أنه قال في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث بتمامه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر، لا يدري أوله خير أم آخره»، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتشبيث الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه أكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال، عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة». وفي لفظ: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. وفي لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفاً». وفي آخر: «مع كل واحد سبعون ألفاً». وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هشام بن مرثد الطبراني، حدثنا محمد - هو ابن إسماعيل بن عياش - حدثني أبي، حدثني صَمَّصَمٌ - يعني ابن زُرَّعة - عن شريح - هو ابن عبيد - عن أبي مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، ليعيشن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة

جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء، عليهم السلام.

وحسن أن يذكر هاهنا عند قوله: ﴿ثَلَاثَةَ مِائَاتٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» حيث قال: أخبرنا أبو نصر ابن قتادة، أخبرنا أبو عمرو ابن مطر، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن المستفاض الفريابي - حدثني أبو وهب الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مُسْرَحِ الحِزْزَانِي، حدثنا سليمان بن عطاء القرشي الحِزْزَانِي، عن مسلمة ابن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مُشْجَعَةَ بن رُبَيْعِي، عن ابن زَمَلِ الجهني، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال، وهو ثابن رجله: «سبحان الله وبحمده. أستغفر الله، إن الله كان تواباً» سبعين مرة، ثم يقول: «سبعين بسبعائة، لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعائة». ثم يقول ذلك مرتين، ثم يستقبل الناس بوجهه، وكان يعجبه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحد منكم شيئاً؟» قال ابن زمل: فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: «خير تلقاه، وشر توقاه، وخير لنا، وشر على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين. أنقص رؤياك». فقلت: رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب، والناس على الجادة منطلقين، فبينما هم كذلك، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم ترى عيني مثله، يرف رفيفاً، يقطر ماؤه، فيه من أنواع الكلال، قال: وكأني بالرعدة الأولى حين أشفوا على المرح كبروا، ثم أكبوا وراحلهم في الطريق، فلم يظلموه يميناً ولا شمالاً. قال: فكأني أنظر إليهم منطلقين. ثم جاءت الرعدة الثانية وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفوا على المرح كبروا، ثم أكبوا وراحلهم في الطريق، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث. ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرح كبروا وقالوا: (هذا خير المنزل). كأني أنظر إليهم يميلون يميناً وشمالاً، فلما رأيت ذلك، لزمت الطريق حتى أتى أقصى المرح، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت على أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل آدم شتل أفتى، إذا هو تكلم يسمو فيفرع الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربة باذ كثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعره بالماء، إذا هو تكلم، أصغيت إكراماً له. وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقاً ووجهاً، كلكم تؤمونه تريدونه، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعها. قال: فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سرى عنه، وقال رسول الله ﷺ: «أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب، فذاك ما حملتم عليه من الهدى وأنتم عليه. وأما المرح الذي رأيت، فالدنيا مضيت أنا وأصحابي لم تتعلق بها بشيء، ولم تتعلق منا، ولم نردها ولم تردنا. ثم جاءت الرعدة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافاً، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث، ونجوا على ذلك. ثم جاء عظم الناس، فمالوا في المرح يميناً وشمالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأما أنت، ففضيت على طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني. وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة، فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً. وأما الرجل الذي رأيت على يميني الآدم الشتل، فذاك موسى، عليه السلام، إذا تكلم، يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه. والذي رأيت عن يساري الباز الربة الكثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعرة بالماء، فذاك عيسى ابن مريم، نكرمه لإكرام الله إياه. وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقاً ووجهاً فذاك أبونا إبراهيم، كلنا نؤمه ونقتدي به. وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أبعثها، فهي الساعة، علينا تقوم، لا نبي بعدي، ولا أمة بعد أمتي». قال: فما سألت رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل، فيحدثه بها متبرعاً.

وقوله: ﴿عَلَى شُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وزيد بن أسلم، وقاتدة، والضحاك، وغيره. وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدرر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمي وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضمفور، وكذلك السرر في الجنة مضمفورة بالذهب واللاكيء. وقال: ﴿تُنَكِّبِينَ عَلَيْنَا مُنَافِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿يَأْكُوبُوكُمْ وَآبَائِيكُمْ وَكُلَّ مَنِ مَّيْمَنٍ ﴿١٨﴾﴾، أما الأكواب، فهي: الكيزان التي لا خراطيم لها ولا أذان. والأباريق: التي جمعت الوصفين. والكوؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة. وقوله: ﴿لَا يَصَدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطرية واللذة الحاصلة. وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهاها عن هذه الخصال. وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعطية، وقاتدة، والسدي: ﴿لَا يَصَدُّونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس. وقالوا في قوله: ﴿وَلَا يَرْفُونَ﴾ أي: لا تذهب بعقولهم. وقوله: ﴿وَفَكَهَّرُوا مِمَّا يَتَخَبَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِمَّا يَتَخَبَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار.

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، ويدل على ذلك حديث «عكراش بن ذؤيب» الذي رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله، في مسنده: حدثنا العباس بن الوليد التزيسي، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي سوية، حدثنا عبيد الله بن عكراش، عن أبيه عكراش بن ذؤيب، قال: بعثني بنو مرة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار، وقدمت عليه بلبل كأنها عروق الأرطي، قال: «من الرجل؟» قلت: عكراش بن ذؤيب. قال: «ارفع في النسب»، فانتسبت له إلى «مرة بن عبيد»، وهذه صدقة «مرة بن عبيد». فتنبسم رسول الله ﷺ. قال: هذه إبل قومي، هذه صدقات قومي. ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها. ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: «هل من طعام؟» فأتينا بحفنة كثيرة الشريد والوزر، فجعل يأكل منها، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى، فقال: «يا عكراش، كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد». ثم أتينا بطبق فيه تمر، أو رطب - شك عبيد الله رطباً كان أو تمرأ - فجعلت أكل من بين يدي، وجالت يدر رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: «يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد». ثم أتينا بماء، فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح بيده كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً، ثم قال: «يا عكراش، هذا الوضوء مما غيرت النار». وهكذا رواه الترمذي مطولاً وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بشار، عن أبي الهذيل العلاء بن الفضل، به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز بن أسد وعفان - وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان - قالوا: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا ثابت، قال: قال أنس: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أتني عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنني أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وجبة انتحيت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسئمت اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البليدخ - أو: البليدخ - قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسر فأكلوا من بسر ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان. حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصي رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ريحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة في الجنة، عادت مكانها أخرى». وقوله: ﴿وَلَتَرِ لَطِيرٌ مِّنَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١)، قال الإمام أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان الضبيعي، حدثنا ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، يرفع في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه «صفة الجنة» من حديث إسماعيل بن علي الخطيبي، عن أحمد بن علي الخيوطي، عن عبد الجبار بن عاصم، عن عبد الله بن زياد، عن زُرَّعة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ذكرت عن النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، هل بلغك ما طوبى؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً، ورقها الحلل، يقع عليها الطير كأمثال البخت». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيراً ناعماً؟ قال: «أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله». وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَتَرِ لَطِيرٌ مِّنَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١): «ذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إنني أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون. قال: «من يأكلها - والله يا أبا بكر - أنعم منها، وإنها لأمثال البخت، وإني لأحسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني مجاهد بن موسى، حدثنا معن بن عيسى، حدثني ابن أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي، ﷺ، في الجنة، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلها أنعم منها». وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الفعَّاني، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أبيه، عن أنس وقال: حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنَّافسي، حدثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن الوليد الوصَّافي، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة

يفتنفص، فيخرج من كل ريشة - يعني: لونا - أبيض من اللب، وألين من الزبد، وأعذب من الشهد، ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير». هذا حديث غريب جداً، والوصافي وشيخه ضعيفان. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حازم، عن عطاء، عن كعب، قال: إن طائر الجنة أمثال البخت، يأكل مما خلق من ثمرات الجنة، ويشرب من أنهار الجنة، فيصطفن له، فإذا اشتهى منها شيئاً أتاه حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء. صحيح إلى كعب. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشوباً».

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٧) كَأَمْثَلِ الزُّلْفَىٰ أَمْثَلُ كُنُوزٍ ﴿٢٨﴾: قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٢٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارَيقٍ وَكُاسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٢٨﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ ﴿٢٩﴾ وَفَكَهْرٌ مِّمَّا يَخْرُجُ ﴿٣٠﴾ وَيَلْبَسُونَ ظِيْرًا مِّمَّا يَبْتَسُونَ ﴿٣١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٣٢﴾»، كما قال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْسُلُكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدِّي حُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور، لا بين بعضهم بعضاً، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالهور العين، والله أعلم. وقوله: ﴿كَأَمْثَلِ الزُّلْفَىٰ أَمْثَلُ كُنُوزٍ﴾ (٢٨) أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، كما تقدم في «سورة الصافات» ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ فُكْرُونَ﴾ (١٩) [الصافات: ٤٩] وقد تقدم في سورة «الرحمن» وصفهن أيضاً؛ ولهذا قال: ﴿حِرَاءَ بِنَا كَأَوْ يَتَلَوَّنُ﴾ (٢٤) أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَهَا وَلَا تَأْتِيَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيْلًا سَلْمًا سَلْمًا﴾ (٢٦) أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، أي: غثاً خالياً من المعنى، أو مشتعلاً على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْعَةً﴾ (١١) [الغاشية: ١١] أي: كلمة لاغية ﴿وَلَا تَأْتِيَا﴾ (١١) أي: ولا كلاماً فيه قبح، ﴿إِلَّا قِيْلًا سَلْمًا سَلْمًا﴾ (٢٦) أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿وَحَيْرَاتُهُمْ فِيهَا سَلْمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْرٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْلُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ ﴿٣٣﴾ وَفُورٍ مَّرْفُوعٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّمْنَهُمْ إِنْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرِيًّا أَرْكَانًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوْلَادِ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾.

لما ذكر تعالى مآل السابقين - وهم المقربون - عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين - وهم الأبرار - كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) أي: أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مالهم؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٢٨). قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو الأحوص، وقسامة بن زهير، والسفر بن نسير، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وأبو حزره، وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه. وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر. وهو رواية عن عكرمة، ومجاهد. وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه. والظاهر أن المراد هذا وهذا؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجاد. حدثنا محمد بن محمد هو البغوي، حدثني حمزة بن عباس، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ليفننا بالأعراب ومسائلهم؛ قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟». قال: السدر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٢٨)، حَصَّدَ اللَّهُ شُوكَهُ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنتب ثمرأ تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر».

طريق أخرى: قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن المصفي، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثني ثور بن يزيد، حدثني حبيب بن عبيد، عن عتبة بن عبد السلمي قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها؟ يعني: الطلح، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل حُصْوَةِ التيس الملبود، فيها سبعون لونا من الطعام، لا يشبه لون آخر». وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ (٢٨): الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العصاة، واحده طلحة،

وهو شجر كثير الشوك، وأشد ابن جرير لبعض الحداء:

بَشَّرَهَا ذَلِيلَهَا وَقَالَ: غَدَا تَرَيْنَ الطَّلْحَ وَالْجَبَّالَا

قال مجاهد: ﴿تَنْضُورٌ﴾ أي: متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشاً؛ لأنهم كانوا يعجبون من وِجِّه، وظلاله من طلع وسدر. وقال السدي: ﴿تَنْضُورٌ﴾: مصفوف. قال ابن عباس: يشبه طلع الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. قال الجوهري: والطلع لغة في الطلع. قلت: وقد روى ابن أبي حاتم من حديث الحسن بن سعد، عن شيخ من همدان قال: سمعت علياً يقول: هذا الحرف في ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾ قال: طلع منضود، فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو معاوية، عن إدريس، عن جعفر بن إياس، عن أبي نصره، عن أبي سعيد: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾ قال: الموز. قال: وروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، والحسن، وعكرمة، وقسامة بن زهير، وقتادة، وأبي حزرّة، مثل ذلك، وبه قال مجاهد، وابن زيد - وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح. ولم يحك ابن جرير غير هذا القول. وقوله: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾ قال: إن في الجنة شجرة علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾». ورواه مسلم من حديث الأعرج، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾».

وكذا رواه البخاري، عن محمد بن سنان، عن فليح، به، وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة. وكذا رواه حماد بن سلمة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، والليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، وعوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالوا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين، أو مائة سنة، هي شجرة الخلد». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾». إسناده جيد، ولم يخرجوه. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كزيب، عن عبدة وعبد الرحيم، عن محمد بن عمرو، به. وقد رواه الترمذي، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهزبان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن زياد - مولى بني مخزوم - عن أبي هريرة قال: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾. فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق، والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد، لو أن رجلاً ركب جحفة أو جذعة، ثم دار حول تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرَمًا، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن رواء سورة الجنة، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن منهل الضبر، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿وَطَّلِحَ تَنْضُورٌ﴾، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». وكذا رواه البخاري، عن روح بن عبد المؤمن، عن يزيد بن زريع، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران بن داود القطان، عن قتادة، به. وكذا رواه معمر، وأبو هلال، عن قتادة، به. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها». فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيد، وثقة رجاله. وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كزيب، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو حُصَيْن قال: كنا على باب في موضع، ومعنا أبو صالح وشقيق - يعني: الضبي - فحدث أبو صالح قال: حدثني أبو هريرة قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً. قال أبو صالح: أتكذب أبا هريرة؟ قال: ما أكذب أبا هريرة، ولكنني أكذبك أنت. فشق ذلك على القراء يومئذ. قلت: فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث، مع ثبوته وصحته ورفعته إلى رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا زياد بن الحسن بن الفرات القزاز، عن أبيه، عن جده، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب». ثم قال: حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، حدثنا أبو عامر العقدي، عن زعمة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الظل الممدود شجرة في الجنة ساق ظلها، قدر ما يسير الراكب في نواحيها مائة عام.

قال: فيخرج إليها أهل الجنة؛ أهل الغرف وغيرهم، فيتحدثون في ظلها. قال: فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا. وهذا أثر غريب، وإسناده جيد قوي حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن يمان، حدثنا سفيان، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون في قوله: ﴿وَيَلِي مَمْدُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾ قال: سبعون ألف سنة. وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، مثله. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يهْران، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون: ﴿وَيَلِي مَمْدُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾ قال: خمسمائة ألف سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا حُصَيْن بن نافع، عن الحسن في قول الله تعالى: ﴿وَيَلِي مَمْدُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾ قال: في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها.

وقال عوف، عن الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». رواه ابن جرير. وقال شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس: في الجنة شجرة لا يحمل، يُستظل به. رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحاک، والسدي، وأبو حَزْرَةَ في قوله: ﴿وَيَلِي مَمْدُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾: لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر. وقال ابن مسعود: الجنة سَجَسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَتَدَّجَلَهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وقوله: ﴿أَكْطَلَهَا دَائِبَرٌ وَظَلْمَاءٌ﴾ [الزمر: ٣٥]، وقوله: ﴿فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا وَتَسْكُوبُ﴾ ﴿٢٨﴾ قال الثوري: يعني يجري في غير أخدود. وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِمَا أَنْتَبَرْتَنِ مَلَوَ غَيْرَ مَاسِينٍ﴾ الآية [محمد: ١٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿وَفَكَهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ ﴿٢٩﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْرُوعَةٌ ﴿٣٠﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم. وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى قال: «فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال حجر». وفيهما أيضاً، من حديث مالك، عن زيد، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس قال: حُسِبَتِ الشمس، فصلى رسول الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة. وفيه: قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت. قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا ابن عقيل، عن جابر قال: بينا نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فنقدمنا معه، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنة، وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لأنيكم به، فجعل يبني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه». وروى مسلم، من حديث أبي الزبير، عن جابر، نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامر بن زيد اليكالي: أنه سمع عُبَيْة بن عَبْدِ السلمي يقول: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى»، فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجرة أرضنا تشبه؟ قال: «ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك». فقال النبي ﷺ: «أنتيت الشام؟» قال: لا. قال: «تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفخ أعلاها». قال: ما عظم أصلها؟ قال: «لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوقتها هراماً». قال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر». قال: فما عظم الحبة؟ قال: «هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً؟» قال: نعم قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذني لنا منه دلو؟». قال: نعم. قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك». وقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْرُوعَةٌ﴾ ﴿٣٠﴾ أي: لا تنقطع شتاء ولا صيفاً، بل أكلها دائم مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدره الله شيء. قال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوكة ولا بعد. وقد تقدم في الحديث: «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى». وقوله: ﴿وَرُؤُسٌ مَرْمُوعَةٌ﴾ ﴿٣١﴾ أي: عالية وطيبة ناعمة. قال النسائي وأبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَرُؤُسٌ مَرْمُوعَةٌ﴾ ﴿٣١﴾ قال: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه، إلا من حديث رشدين بن سعد. قال: وقال بعض أهل العلم: معنى هذا الحديث: ارتفاع الفرش في الدرجات، وبعد ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

هكذا قال: إنه لا يعرف هذا إلا من رواية رشدين بن سعد، وهو المصري، وهو ضعيف. وهكذا رواه أبو جعفر بن جرير،

عن أبي كُرَيْبٍ، عن رشدين. ثم رواه هو وابن أبي حاتم، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، فذكره. وكذا رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن نعيم بن حماد، عن ابن وهب. وأخرجه الضياء في صفة الجنة من حديث حرملة، عن ابن وهب، به مثله. ورواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا دراج، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي سعيد الأشج، حدثنا أبو معاوية، عن جُوَيْرٍ، عن أبي سهل - يعني: كثير بن زياد - عن الحسن: ﴿وَفُؤُوسٌ مَّرْوَعَةٌ﴾ (٢٧) قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة. وقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ (٢٥) ﴿جَعَلْنَهُمْ أُنثَىٰ كَمَا كَانُوا﴾ (٢٦) ﴿عَرَبًا أَرَبًا﴾ (٢٧) لَأَمْحَابِ النَّبِيِّينَ (٢٨) : جرى الضمير على غير مذكور. لكن لمادل السياق، وهو ذكر الفرش، على النساء اللاتي يضاجنن فيها، اكتفي بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْكَ بِالْكَفِيِّ أَلَصَدَفَاتُ الْجِبَادِ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَلْقِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) [ص: ٣١-٣٢] يعني: الشمس، على المشهور من قول المفسرين. قال الأخفش في قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ (٢٥) : أضمهرن ولم يذكرهن قبل ذلك. وقال أبو عبيدة: ذكرن في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْكَوْنِ (٢٣) [الواقعة: ٢٢-٢٣]. فقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أي: أعدناهن في النشأة الآخرة بعدما كنَّ عجائزاً رُمصاً، صرن أبكاراً عرباً، أي: بعد الثبوبة عدن أبكاراً عرباً، أي: متحبيبات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة. وقال بعضهم: ﴿عَرَبًا﴾ أي: غنجات. قال موسى بن عبيدة الرزدي، عن يزيد الزرقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ (٢٥) ، قال: «نساء عجائز كنَّ في الدنيا عُمُشاً رُمصاً». رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال الترمذي: غريب، وموسى يزيد ضعيفا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا آدم - يعني: ابن أبي إياس - حدثنا شيبان، عن جابر، عن يزيد بن مَرَّة، عن سلمة بن يزيد قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ (٢٥) يعني: «الطيب والأبكار اللاتي كنَّ في الدنيا».

وقال عبد بن حميد: حدثنا مصعب بن المقدم، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز». قال: فَوَلَّتْ تَبْكِي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ (٢٥) ﴿جَعَلْنَهُمْ أُنثَىٰ كَمَا كَانُوا﴾ (٢٦) ». وهكذا رواه الترمذي في الشمائل، عن عبد بن حميد. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدماطي، حدثنا عمرو بن هاشم البيروتي، حدثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) [الواقعة: ٢٢]، قال: «حور: بيض، عين: ضخام العيون، شُفْرُ الحوراء بمنزلة جناح النسر». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْكَوْنِ﴾ (٢٣) [الواقعة: ٢٣]، قال: «صفاوهن صفاء الدار الذي في الأصداف، الذي لم تَمَسَّه الأيدي». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (٢٧) [الرحمن: ٢٧]، قال: «خَيْرَاتُ الأخلاق، حسان الوجوه». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَمْثَلُ يَاقُوتٍ مَّكَوْنٍ﴾ (٢٤) [الصفات: ٤٩]، قال: «ورقهن كرقعة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر، وهو: الغزقي». قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿عَرَبًا أَرَبًا﴾ (٢٧) . قال: «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رُمصاً شُصطاً، خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عُرُباً متعشقات متحبيبات، أتراباً على ميلاد واحد». قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة». قلت: يا رسول الله، وبم ذلك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب صفر الحلوى، مَجَابِرُهُنَّ الدَّرَّ، وأمشطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا ننسخط أبداً، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا». قلت: يا رسول الله، المرأة منا تزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: «يا أم سلمة، إنها تَحْتَرُّ فتختار أحسنهم خلقاً، فتقول: يا رب، إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة». وفي حديث الصور الطويل المشهور: أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم في دخول الجنة فيقول الله: قد شفعتك وأذنت لهم في دخولها. فكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومسكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومسكنهم، فيدخل الرجل منهم على نثتين وسبعين زوجة، وسبعين مما ينشئ الله، ونثتين من ولد آدم، لهما فضل على من أنشأ الله، بعبادتهما الله في الدنيا، يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوتة، على سرير من ذهب مُكَلَّلٌ باللؤلؤ، عليه سبعون زوجاً من سُندُسٍ وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت، كبده لها

مرأة - يعني: وكبدها له مرأة - فبينما هو عندها لا يملها ولا تملة، ولا يأتيتها من مرة إلا وجدها عذراء، ما يفتر ذكره ولا تشتكي قُبُلها إلا أنه لا مني ولا منية، فبينما هو كذلك إذ نودي: إنا قد عرفنا أنك لا تملم ولا تمل، إلا أن لك أزواجاً غيرها، فيخرج، فيأتيهن واحدة واحدة، كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيء أحسن منك، وما في الجنة شيء أحب إلي منك.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن ابن حُجيرة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أن قال له: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده، دُخْمًا، دَحْمًا، فإذا قام عنها رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بَكَرًا». وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي، حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيق الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن الواسطي، حدثنا شريك، عن عاصم الأحول، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً». وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عمران، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطي المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء». قلت: يا رسول الله، وتُطَيِّق ذلك؟ قال: «يعطي قوة مائة». ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال: صحيح غريب. وروى أبو القاسم الطبراني من حديث حُسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل إلى نساتنا في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم. وقوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يعني متحبيبات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة، هي كذلك. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: العُرب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون. وكذا قال عبد الله بن سَرْجس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، ويحيى بن أبي كثير، وعطية، والحسن، وقاتدة، والضحَّاك، وغيرهم. وقال ثور بن زيد، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال: هي المِلْفَةُ لزوجها. وقال شعبة، عن سِمَاك، عن عكرمة: هي الغَنَجية. وقال الأجلح بن عبد الله، عن عكرمة: هي الشُّكْلة. وقال صالح بن حَيَّان، عن عبد الله بن بريدة في قوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال: الشُّكْلة بلغة أهل مكة، والغنجة بلغة أهل المدينة. وقال تميم بن حذلم: هي حسن التَّبَعْل. وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: العُرب: حسنات الكلام. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سهل بن عثمان العسكري: حدثنا أبو علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عُرْبًا﴾ قال: «كلامهن عربي». وقوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾ قال الضحَّاك، عن ابن عباس يعني: في سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد: الأتراب، المستويات. وفي رواية عنه: الأمثال. وقال عطية: الأقران. وقال السدي: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: في الأخلاق المتواخيات بينهم، ليس بينهم تباعض ولا تحاسد، يعني: لا كما كن ضرائر في الدنيا ضرائر متعديات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عبد الله بن الكهف، عن الحسن ومحمد: ﴿عُرْبًا أَزْوَاجًا﴾ قالوا: المستويات الأسنان، يأتلفن جميعاً، ويلعبن جميعاً. وقد روى أبو عيسى الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن أبي معاوية، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعاً للهور العين، يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكُنَّا له». ثم قال: هذا حديث غريب. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حَيْثَمَةَ، حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا ابن أبي ذئب، عن فلان بن عبد الله بن رافع، عن بعض ولد أنس بن مالك، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحور العين ليغنين في الجنة، يقلن: نحن خَيْرَات حسان، خبثنا لأزواج كرام». قلت: إسماعيل بن عَمْرٍو هذا هو أبو المنذر الواسطي أحد الثقات الأثبات. وقد روى هذا الحديث الإمام عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدَحْمِمْ، عن ابن أبي قُدَيْك، عن ابن أبي ذئب، عن عون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع، عن ابن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحور العين يغنين في الجنة: نحن الجوار الحسان، خلقنا لأزواج كرام».

وقوله: ﴿لَا مَحْجَبَ لِيَبِينِ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: خلقنا لأصحاب اليمين، أو: ادخرن لأصحاب اليمين، أو: زوجن لأصحاب اليمين. والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿٢٥﴾ جَعَلْنَهُمْ أَتَكَالًا ﴿٢٦﴾ عُرْبًا أَزْوَاجًا ﴿٢٧﴾ لَأَمْحَبَ لِيَبِينِ ﴿٢٨﴾ فتقديره: أنشأناهم لأصحاب اليمين. وهذا توجيه ابن جرير. روي عن سليمان الداراني - رحمه الله - قال: صليت ليلة، ثم جلست أدعو، وكان البرد شديداً، فجعلت أدعو بيد واحدة، فأخذتني عيني فتمت، فرأيت حوراء لم ير مثلاً وهي تقول: يا أبا سليمان، أتدعو بيد واحدة وأنا أغدئ لك في النعيم من خمسمائة سنة! قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَأَمْحَبَ لِيَبِينِ﴾ متعلقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أَزْوَاجًا لَأَمْحَبَ لِيَبِينِ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: في أسنانهم. كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، من حديث جرير، عن

عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب ذَرَى في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة - وروى الطبراني، واللفظ له، من حديث حماد بن سلمة - عن علي بن زيد بن جَدْعَانَ، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مُرداً بيضاً جَعَاداً مُكْحَلِينَ، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع». وروى الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن عمران القطان، عن قتادة، عن شُهْر بن حَوْشِب، عن عبد الرحمن بن غَنَم، عن مُعَاذ بن جَبَل؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مُرداً مكحليين أبناء ثلاثين، أو ثلاث وثلاثين سنة». ثم قال: حسن غريب. وقال ابن وهب: أخبرنا عمرو بن الحارث أن ذَرَجَا أبا السمح حَدَّثَهُ عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير، يُرَدُّون بني ثلاث وثلاثين في الجنة، لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار». ورواه الترمذي عن سُؤَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، به. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا القاسم بن هاشم، حدثنا صفوان بن صالح، حدثني رَوَاد ابن الجراح العسقلاني، حدثنا الأزاعي، عن هارون بن رثاب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم، ستين ذراعاً بذراع الملك! على حُسْن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكْحَلُونَ». وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمود بن خالد وعباس بن الوليد قالا: حدثنا عمر، عن الأزاعي، عن هارون بن رثاب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين، جرداً مُرداً مكحليين، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم». وقوله: «ثَلَاثٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٧﴾» أي: جماعة من الأولين، وجماعة من الآخرين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بَشِير، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حَصِين، عن عبد الله بن مسعود - قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه، فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتَابِعُهَا بِأَمْعِهَا، فيمر عليّ النبي، والنبي في العصابة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هو: ١٧٨] - قال: حتى مرّ عليّ موسى ابن عمران في كَنَبَةٍ من بني إسرائيل، قال: «قلت: ربي، من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل». قال: «قلت: رب، فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظراب». قال: «فإذا وجوه الرجال». قال: «قال: أرضيت؟». قال: «قلت: قد رضيت، رب». قال: انظر إلى الأفق عن يسارك. فإذا وجوه الرجال. قال: أرضيت؟ قلت: «رضيت، رب». قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً، يدخلون الجنة بغير حساب». قال: وأنشأ عُنْكَاشَةَ بن مَخْصَن من بني أسد - قال سعيد: وكان بَدْرِيّاً - قال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: فقال: «اللهم اجعله منهم». قال: أنشأ رجل آخر، قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة». قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن استطعتم - فداكم أبي وأمي - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا، وإلا فكونوا من أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فأني قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشّبوا حوله». ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة». قال: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٧﴾». قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك، فقال: «بل هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين، عن قتادة، به نحوه. وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مِهْرَان، حدثنا سفيان، عن أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٧﴾» قال: قال رسول الله ﷺ: «هُمَا جَمِيعاً مِنْ أُمَّتِي».

﴿وَأَحَبُّ النَّبِيَّاتِ مَا أَحَبَّ النَّبِيَّاتِ ﴿٤١﴾ فِي سُبُورٍ وَكَبِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظَلَّ بَيْنَ يَمِينِهِ ﴿٤٣﴾ لَا بَأْسَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَبِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُمِرُّونَ عَلَى لَيْسَتِ الطَّيْمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَظَمْنَا لِمَا لَمْ نَعْمُرُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ مَا بَأْتَانَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَيْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَحْبُورُونَ لَيْتَ يَمِينَتِي يَوْمَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَسْأَلُونَ الْمَكْتُوبُونَ ﴿٥١﴾ لَكُلُّونَ بَيْنَ سَحَرٍ مِّنْ نُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ مَنَّا الْبَلُورُونَ ﴿٥٣﴾

فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنْ اللَّيْمِ ﴿٥١﴾ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْخَبِيرِ ﴿٥٢﴾ هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا اصْتَبَتْ الشِّمَالُ﴾ (٥١) أي: أي شيء هم أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سُورٍ﴾ وهو: الهواء الحار ﴿وَجَبِيحٍ﴾ وهو: الماء الحار ﴿وَطَلِّينَ﴾ (٥٢) قال ابن عباس: ظل الدخان. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِنَّمَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ (٥٣) أَطْلِقُوا إِلَى طَلٍّ ذِي تَلَكُّ شُعْبٍ ﴿٥٤﴾ لَا طَلِيلَ وَلَا يَقِيْنَ مِنَ اللَّهْبِ ﴿٥٥﴾ إِنَّمَا تَرَىٰ بُسْبُورًا مِّنَ الْقَصْرِ ﴿٥٦﴾ كَأَنَّ جَنَّتِكَ سُورٌ ﴿٥٧﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٨﴾ [المرسلات: ٢٩-٣٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَطَلِّينَ يَوْمَئِذٍ﴾ (٥٣) وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ (٥٤) أي: ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ (٥٤) أي: ولا كريم المنظر. وقال الضحاک: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم. وقال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: «هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذا الدار ليست بنظيفة ولا كريمة». ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَبِينَ﴾ (٥٥) أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلون على ما جاءتهم به الرسل. ﴿وَكَاؤُا يَبُورُونَ﴾ (٥٦) أي: يَصْمَمُونَ ولا ينون توبة ﴿عَلَىٰ لَيْثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله. قال ابن عباس: ﴿لَيْثِ الْعَظِيمِ﴾: الشرك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والضحاک، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس. وكانوا يقولون: ﴿أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَظَمْنَا أَوْثَانًا لِّمَبْعُوثُونَ أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ (٥٦)؟ يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْمَاتٍ يَّوْمَتُهُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) أي: آخرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة، لا تغادر منهم أحداً، كما قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (٥٨) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ ﴿٥٩﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَرٌّ وَسَمِيحٌ ﴿٦٠﴾ [مرد: ١٠٣-١٠٥]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لَمَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْمَاتٍ يَّوْمَتُهُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) أي: هو موقت بوقت مُّحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَلْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥٨) لِأَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَيْتُونٍ ﴿٥٩﴾ قَالَتِ يَنبَا أَلطُّونَ ﴿٦٠﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملؤوا منها بطونهم، ﴿فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّيْمِ﴾ (٥٩) فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْخَبِيرِ ﴿٥٩﴾ وهي الإبل العطاش، واحدها أهيم، والأشئ هيماء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة: الهميم: الإبل العطاش الظماء. وعن عكرمة أنه قال: الهميم: الإبل المراض، تمص الماء مصاً ولا تزوي. وقال السدي: الهميم: داء يأخذ الإبل فلا تزوي أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً. وعن خالد بن معدان: أنه كان يكره أن يشرب شَرْبَ الهميم عبته واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥١) أي: هذا الذي وصفناه هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٧) [الكهف: ١٠٧] أي: ضيافة وكرامة.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴿٥٨﴾ مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ أَمْ تَخُوفُ الْفَلِيقُونَ ﴿٥٩﴾ عَن قَدَرْنَا يَنْتَكِرُ الْمَوْتَ وَمَا عَن يَسْبُورِينَ ﴿٦٠﴾ عَن أَنْ نُبَدِّلَ أَسْمَاطَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مُّقررًا للمعاد، ورداً على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد، من الذين قالوا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَاكُمْ﴾ (٦١) أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداية بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى؛ فلهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٦١) أي: فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ (٥٨) مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ أَمْ تَخُوفُ الْفَلِيقُونَ ﴿٥٩﴾ أي: أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال: ﴿عَن قَدَرْنَا يَنْتَكِرُ الْمَوْتَ﴾ (٦٠) أي: صرفناه بينكم. وقال الضحاک: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض. ﴿وَمَا عَن يَسْبُورِينَ﴾ (٦٠) أي: وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَسْمَاطَكُمْ﴾ (٦١) أي: نغير خلقكم يوم القيامة، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) أي: من الصفات والأحوال. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهل تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداية - قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى، وكما قال: ﴿وَمَوْا الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَيْنُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ (٦٢) [مريم: ٦٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَمَرْبٍ لَنَا مَلَكٌ وَبَدَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِينِي الْعَظِيمُ وَهُوَ رَؤِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ نَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٧-٧٩]، وقال

تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٦٣﴾ أَوَّلُ بَيْتٍ نَفَعَهُ مِنْ قَوْلِ بَيْتٍ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلْيَقْ قَوْلَهُ ﴿٦٥﴾ جَعَلَ بَيْنَهُ الرَّيْسَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ﴿٦٦﴾ آتَى ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَّ أَنْ يُحْيِيَ الْوَلَدَ ﴿٦٧﴾؟ [الغاية: ٣٦ - ٤٠].

﴿أَوَّلَ بَيْتٍ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ مَا أَشْرَ تَزْرَعُونَهُ، أَمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلًا فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُحْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ تَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾ أَوَّلَ بَيْتٍ الْمَاءِ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ مَا أَشْرَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ تَحْنُ التَّزْلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَوَّلَ بَيْتٍ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ مَا أَشْرَ أَنْشَأْتُمْ شَجَرًا أَمْ تَحْنُ الْمُنِشُونَ ﴿٧٢﴾ تَحْنُ جَعَلْتُمَا تَذَكْرًا وَمَتْنًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

يقول: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، ﴿مَا أَشْرَ تَزْرَعُونَهُ؟﴾ أي: تنبتونه في الأرض ﴿أَمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ﴾ أي: بل نحن الذي نفره قراره ونسبته في الأرض. قال ابن جرير: وقد حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجزمي، حدثنا مخلد بن الحسين، عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولن: زرعث، ولكن قل: حرثت»، قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ مَا تَحْرُثُونَ﴾؟ ﴿مَا أَشْرَ تَزْرَعُونَهُ؟﴾ أَمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٣﴾. ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم، عن مسلم الجميع به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن: لا تقولوا: زرعنا، ولكن قولوا: حرثنا. وروى عن حنبل المديري أنه كان إذا قرأ: ﴿مَا أَشْرَ تَزْرَعُونَهُ؟﴾ أَمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٣﴾ وأمثالها، يقول: بل أنت يا رب. وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلًا﴾ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاماً، أي: لأيسناه قبل استوائه واستحصاده، ﴿فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَمُحْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ تَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: لو جعلناه حطاماً لفلظتم تفكهن في المقالة، تنوعون كلامكم، فتقولون تارة: ﴿إِنَّا لَمُحْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لمُلقون. وقال مجاهد، وعكرمة: إننا لمولع بنا. وقال قتادة: معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرمون. وقال مجاهد أيضاً: ﴿إِنَّا لَمُحْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ملقون للشر، أي: بل نحن مُحَارِفُونَ، قاله قتادة، أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد: ﴿بَلْ تَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: محدودون، يعني: لا حظ لنا. قال ابن عباس، ومجاهد: ﴿فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ﴾: تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: ﴿فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ﴾: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في الماهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ﴾: تلامون. وقال الحسن، وقاتدة، والسدي: ﴿فَلَقَدْ نَفَعَكُمُوهُنَّ﴾: تندمون. ومعناه إما على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكته بمعنى تنعمت، وتفكته بمعنى حزنت. ثم قال تعالى: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ الْمَاءِ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾، مَا أَشْرَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، يعني: السحاب. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. ﴿أَمْ تَحْنُ التَّزْلُونَ﴾ يقول: بل نحن المنزلون. ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا﴾ أي: زُعاقاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبا زلالاً! ﴿لَكُرْبَتُهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ شَيْمُونٌ ﴿٧٠﴾ يُبْتِ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: ١٠ - ١١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عثمان بن سعيد بن مرة، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن جابر، عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ: أنه إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا». ثم قال: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: تقدحون من الزناد، وتستخرجونها من أصلها، ﴿مَا أَشْرَ أَنْشَأْتُمْ شَجَرًا أَمْ تَحْنُ الْمُنِشُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العقار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شر النار. وقوله: ﴿تَحْنُ جَعَلْتُمَا تَذَكْرًا﴾: قال مجاهد، وقاتدة: أي تَذَكَّرَ النَّارَ الْكَبِيرَى. قال قتادة: ذكر لنا رسول الله ﷺ قال: «يا قوم، ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية! قال: «قد ضربت بالماء ضربتين - أو: مرتين - حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها». وهذا الذي أرسله قتادة رواه الإمام أحمد في مسنده فقال: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وقال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها تسعة وستين جزءاً». رواه البخاري من حديث مالك، ومسلم من حديث أبي الزناد، ورواه مسلم، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن همام، عن أبي هريرة، به. وفي لفظ: «والذي نفسي بيده، لقد فضلت عليها تسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا مَعْنُ بن عيسى القزاز، عن مالك، عن

عنه أبي السهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً». قال الضياء المقدسي: وقد رواه ابن مصعب، عن مالك ولم يرفعه، وهو عندي على شرط الصحيح. وقوله: ﴿وَمَتَّعًا لِلْمُتَّقِينَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والنضر بن عربي: معنى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: المسافرين، واختاره ابن جرير، وقال: ومنه قولهم: «أقوت الدار إذا رحل أهلها». وقال غيره: القى والقواء: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوي هنا الجائع. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَمَتَّعًا لِلْمُتَّقِينَ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار. وكذا روى سفيان، عن جابر الجعفي، عن مجاهد. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: المستمتعين، الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة.

وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والإصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم. وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خُدَّاش حَبَّان بن زَيْد الشَّرْعَبِي الشَّامِي، عن رجل من المهاجرين من قُرْن، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء». وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يُمتنعن: الماء والكلأ والنار». وله من حديث ابن عباس مرفوعاً مثل هذا وزيادة: «وثمته حرام»، ولكن في إسناده «عبد الله بن خِرَاش بن حَوْشَب» وهو ضعيف، والله أعلم. وقوله: ﴿فَنَسِجَ بَاسِرٍ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاباً كالبهار المغرقة. وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجراً لهم في المعاد.

﴿فَلَا أُنسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَنَسْفٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا أَلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ السَّمَاوَاتِ ﴿٨٠﴾ أَهَذَا الْكِتَابُ أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ مُتَمَدِّدًا ﴿٨١﴾ وَيَتَجَمَّلُونَ رِزْقَكُمْ أَنكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٨٢﴾.

قال جَوْبِر، عن الضحاك: إن الله لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتح يستفتح به كلامه. وهذا القول ضعيف. والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله ﷻ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: «لا» هاهنا زائدة، وتقديره: أقسم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير، عن سعيد بن جبیر، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧). وقال آخرون: ليست «لا» زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى، كقول عائشة، رضي الله عنها: «لا، والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» وهكذا هاهنا تقدير الكلام: «لا»، أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم». وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَا أُنسِئُ﴾: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقيل: أقسم. واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، فقال حكيم بن جبیر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، يعني: نجوم القرآن؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفْرَقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك، عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السُّفْرَةِ الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة، فهو قوله: ﴿فَلَا أُنسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥): نجوم القرآن. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والسدي، وأبو حَزْرَةَ. وقال مجاهد أيضاً: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقتها. وكذا قال الحسن، وقتادة، وهو اختيار ابن جرير. وعن قتادة: مواقعها: منازلها. وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة. وقال الضحاك: ﴿فَلَا أُنسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) يعني بذلك: الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مَطَرُوا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَسْفٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتكم المقسم به عليه، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم. ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (٧٨) أي: معظم في كتاب معظم محفوظ موفو. قال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن حكيم - هو ابن جبیر - عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا أَلْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: الكتاب الذي في السماء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا أَلْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) يعني: الملائكة. وكذا قال أنس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نَهِيك، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن

عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، حدثنا مَعْمَرُ، عن قتادة: ﴿لَا يَسْتَهْءَىٰ إِلَّا الْمُنَظَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمناقق الرجس. وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿ما يمسه إلا المطهرون﴾. وقال أبو العالية: ﴿لَا يَسْتَهْءَىٰ إِلَّا الْمُنَظَّرُونَ﴾ (٧٩): ليس أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: رَعِمَتْ كَفَّار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال: ﴿وَمَا تَزَكَّىٰ بِهِ الشَّيْطَانُ﴾ (٧٦) ﴿وَمَا يَلْبَسُ هُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُونَ﴾ (٧٦) [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال آخرون: ﴿لَا يَسْتَهْءَىٰ إِلَّا الْمُنَظَّرُونَ﴾ (٧٩) أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو. واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: ألا يمسه القرآن إلا طاهر. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمسه القرآن إلا طاهر». وهذه وجادة جيدة. قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به. وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي، وفي إسناد كل منها نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٨٠) أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر، أو كهانة، أو شعر، بل هو الحق الذي لا مزية فيه، وليس وراءه حق نافع. وقوله: ﴿أَنْبِئَا الَّذِينَ أَنْتُمْ مَكْرَهُونَ﴾ (٨١) قال العوفي، عن ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين. وكذا قال الضحاك، وأبو حزر، والسدي. وقال مجاهد: ﴿تُدْهِنُونَ﴾ أي: تريدون أن تمسحواهم فيه وتركوا إليهم. ﴿وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٨٢) قال بعضهم: يعني: وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر. وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» كما سيأتي. وقال ابن جرير: وقد ذكر عن الهيثم بن عدي: أن من لغة أزد شئونة: ما رزق فلان بمعنى: ما شكر فلان. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، يقول: «شكركم» ﴿أَنْكُمْ تَكْفُرُونَ﴾، تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا. وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ النَّهْدِيِّ - وابن جرير، عن محمد بن المنثري، عن عبيد الله بن موسى، عن يعقوب بن إبراهيم، عن يحيى بن أبي بكير، ثلاثتهم عن إسرائيل، به مرفوعاً. وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن ميثع، عن حسين بن محمد - وهو المروزي - به، وقال: «حسن غريب». وقد رواه سفيان عن عبد الأعلى، ولم يرفعه. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما مُطِرَ قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون». وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

وقال مالك في الموطأ، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد بن الجهتي أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب». أخرجاه في الصحيحين، وأبو داود، والنسائي، كلهم من حديث مالك، به. وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادي وعَمْرُو بن سَوَاد، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، أن أبا يونس حَدَّثَهُ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الغيث، فيقولون: بكوكب كذا وكذا». تَفَرَّدَ به مسلم من هذا الوجه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا سفيان، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليُضِيحُ الْقَوْمَ بالنعمة أو يُمَسِّحُمُ بها، فيصبح بها قوم كافرين، يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا». قال محمد - هو ابن إبراهيم -: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب، فقال: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو يستسقي، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس، يا عم رسول الله، كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعاً. قال: فما مضت سابعة حتى مُطِرُوا. وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن

ذلك النوء يؤثر بنفسه في نزول المطر؛ فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده. وقد تقدم شيء من هذه الأحاديث عند قوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢٢]. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا سفیان، عن إسماعيل بن أمية - أحسبه أو غيره - أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً - مطروا - يقول: مطرنا ببعض عَشَانِينِ الْأَسَدِ. فقال: «كذبت! بل هو زرق الله». ثم قال ابن جرير: حدثني أبو صالح الصراري، حدثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك الأزدي، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «ما مطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين». ثم قال: ﴿وَيَحْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٨٣)، يقول قائل: مطرنا بنجم كذا وكذا. وفي حديث عن أبي سعيد مرفوعاً: «لَوْ قُحِطَ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ مَطَرُوا لَقَالُوا: مطرنا بنوء المجدح». وقال مجاهد: ﴿وَيَحْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٨٣): قال: قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وبنو كذا، يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاک وغير واحد. وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بشس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكلذب. فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به؛ ولهذا قال قبله: ﴿أَفَيْدَا الْحَبِيبِ أَنْتُمْ تُدْهِنُونَ﴾ (٨٤) وَيَحْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٨٣).

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلْكُومُ﴾ (٨٣) وَأَنْشَرَ جِبَدَهُمْ نَظْرُونَ﴾ (٨٤) وَتَحَنَّنَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْشِرُونَ﴾ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح ﴿الْمُلْكُومُ﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ﴾ (٦٧) وَيَلْمِ رَبَّهَا تَقِيًّا﴾ (٧٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٧٨) وَاللَّتِي آتَتْهُ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ﴾ (٧٩) إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاءُ﴾ (٨٠) [القيامة: ٢٦ - ٣٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأَنْشَرَ جِبَدَهُمْ نَظْرُونَ﴾ (٨٤) أي: إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿وَتَحَنَّنَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْشِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ (٦١) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَانَهُمْ الْحَقِّ آلَا لَهُ الْكُلُّمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْغَاسِقِينَ﴾ (٦٢) [الانعام: ٦١ - ٦٢]. وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا﴾ (٨٦) معناها: فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد إن كنتم غير مدنيين. قال ابن عباس: يعني محاسبين. وروي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاک، والسدي، وأبي حذرة، ومثله. وقال سعيد بن جبیر، والحسن البصري: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ﴾ (٨٦) غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون، فردوا هذه النفس. وعن مجاهد: ﴿عَيْرَ مَدِينٍ﴾: غير موقنين. وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَبِينَ﴾ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَفْسُهُ﴾ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَمْسَبِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) فَسَلْبٌ أَلَّا مِنْ أَمْسَبِ الْيَمِينِ﴾ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الْعِبَابِينَ﴾ (٩٢) فَزَلٌّ مِنَ جَبِيرٍ﴾ (٩٣) وَصَلِيَةٌ مِنْ جَبِيرٍ﴾ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَمَوْ حَىٰ الْيَمِينِ﴾ (٩٥) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦).

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَبِينَ﴾ (٨٨) وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَفْسُهُ﴾ (٨٩) أي: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول: «أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريته، أخرجني إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». وقال علي بن طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَرَوْحٌ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة. وكذا قال مجاهد: إن الروح: الاستراحة. وقال أبو حذرة: الراحة من الدنيا. وقال سعيد بن جبیر، والسدي: الروح: الفرح. وعن مجاهد: ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ﴾: جنة ورخاء. وقال قتادة: فروح ورحمة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: ﴿وَرِيحَانٌ﴾: ورزق. وكل هذه الأقوال متقاربة، صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، ﴿وَحَنَّتْ نَفْسُهُ﴾. وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ریحان الجنة، فيقبض روحه فيه. وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم: أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ وقد قدما أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسِّرْتُ اللَّهُ الْأَيَاتِ أَمْثَلًا بِالْقَوْلِ الْكَلَامِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ولو كتبت هاهنا لكان حسناً! ومن جعلتها حديث تميم الداري، عن النبي ﷺ، يقول: «يقول الله لملك الموت: انطلق إلى فلان فانتني به، فإنه قد جرت به بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب، انتني به فلأريحنه. قال: فينطلق إليه ملك الموت ومعهم خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحشوط من الجنة، ومعهم صَبَابِرُ الریحان، أصل الریحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح

صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك». وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا هارون، عن بُذيل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَرَجَّحَ وَرَجَّحَانَ﴾ برفع الراء. وكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث هارون - وهو ابن موسى الأعمور - به، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديثه.

وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده، وخالفه الباقرن فقرؤوا: ﴿فَرَجَّحَ﴾ بفتح الراء. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل: أنه سمع دُرَّة بنت معاذ تحدث، عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «تكون النَّسَمُ طيراً يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها». هذا الحديث فيه إشارة كل مؤمن، ومعنى «يعلق»: يأكل، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما تُسَمُّ المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه». وهذا إسناد عظيم، ومتن قوي. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى قناديل معلقة بالعرش» الحديث. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة، فسمعتة يقول: حدثني فلان بن فلان، سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله كره لقاءه». قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يُبْكِيكُمْ؟» فقالوا: إنا نكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكنه إذا خُضِرَ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَرَجَّحَانَ وَحَنَّتْ نَجِيمِ ﴿٨٤﴾»، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ، والله ﷻ، للاقته أحب ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨٦﴾ نَزَّلَ مِنَ جَبِيمِ ﴿٨٧﴾ وَنَصَلِيَّةُ جَبِيمِ ﴿٨٨﴾»، فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله للواقته أكره. هكذا رواه الإمام أحمد، وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - شاهد لمعناه. وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِبِ أَلْيَيْنِ﴾ ﴿٨٦﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، ﴿سَلِّتْ لَكَ مِنَ الْمُحْسِبِ أَلْيَيْنِ﴾ ﴿٨٦﴾ أي: تبشرهم بالملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، وأنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة، وابن زيد: سَلِّمَ من عذاب الله، وسَلِّمَتْ عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفَؤُا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْإِيمَانِ أَلْتَبْتُوا لَعْنَتَنَا نَعُدُّكُمْ ﴿٦٠﴾ تَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٦١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ قَعُورِ رَجِيمِ ﴿٦٢﴾﴾ [تفصلت: ٣٠-٣٢]. وقال البخاري: ﴿سَلِّتْ لَكَ﴾ أي: مُسَلِّمَ لك، إنك من أصحاب اليمين. والغيت «إن» هو: معناها، كما تقول: أنت مُصَدِّق مسافر عن قليل. إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل. وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقياً لك من الرجال، إن رفعت «السلام» فهو من الدعاء. وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية، ومال إليه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨٦﴾ نَزَّلَ مِنَ جَبِيمِ ﴿٨٧﴾ وَنَصَلِيَّةُ جَبِيمِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أي: فضيافة ﴿مِنَ جَبِيمِ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، ﴿وَنَصَلِيَّةُ جَبِيمِ﴾ ﴿٨٨﴾ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْعَيْنِ﴾ ﴿٥٥﴾ أي: إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه. ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٤﴾ قال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن أيوب الغافقي، حدثني عَمِّي إياس بن عامر، عن عقبه بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٤﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ [الأعلى: 1]، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم». وكذا رواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، عن موسى بن أيوب، به. وقال روح بن عبادة: حدثنا حَجَّاجُ الصَّوْفِ، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِسَتْ له نخلة في الجنة». هكذا رواه الترمذي من حديث روح، ورواه هو والنسائي أيضاً من حديث حماد بن سلمة، من حديث أبي الزبير عن جابر، عن النبي ﷺ، وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير.

وقال البخاري في آخر كتابه: حدثنا أحمد بن إشكاب، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عمارة ابن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث محمد بن فضيل، بإسناده، مثله.



تفسير سورة الحديد

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقة بن الوليد، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن ابن أبي بلال، عن عرباض بن سارية، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من طرق عن بقة، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه النسائي عن ابن أبي السرح، عن ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ... فذكره مرسلاً، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال، ولا العرباض بن سارية. والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١)، كما سيأتي بيانه إن شاء الله وبه الثقة.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) لَمْ تَكُنْ الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ بِحَيْثُ وَوُجِّدَتْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤﴾.

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْعَزِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿لَمْ تَكُنْ الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ بِحَيْثُ وَوُجِّدَتْ﴾ أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية: أنها أفضل من ألف آية. وقال أبو داود: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا النضر بن محمد، حدثنا عكرمة - يعني ابن عمار - حدثنا أبو زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: - وضحك - قال: ما نجا من ذلك أحد. قال: حتى أنزل الله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَلَبَّذْ بِالْبُرُوقِ يَقْرَأُونَ﴾ (٤٤) [النجم: ٤٤] الآية [يونس: ٩٤] قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢). وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. قال شيخنا الحافظ المزني: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه: «معاني القرآن». وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم، رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر». ورواه مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام: أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: اللهم، رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر. وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا، فقال: حدثنا عقبه، حدثنا يونس، حدثنا السري بن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى، ثم همس - ما يُدرى ما يقول - فإذا كان في آخر الليل رفع صوته فقال: «اللهم، رب السموات السبع ورب العرش العظيم، إله كل شيء، ورب كل شيء، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى،

أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم، أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر . السري بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبي، وهو ضعيف جداً، والله أعلم . وقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد وغير واحد - المعنى واحد - قالوا : حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة قال : حدث الحسن، عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه، إذ أتى عليهم سحب، فقال نبي الله ﷺ : «هل تدرؤن ما هذا؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «هذا العنان، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» . ثم قال : «هل تدرؤن ما فوقكم؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف» . ثم قال : «هل تدرؤن كم بينكم وبينها؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «بينكم وبينها خمسمائة سنة» . ثم قال : «هل تدرؤن ما فوق ذلك؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإن فوق ذلك سماء بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض» . ثم قال : «هل تدرؤن ما فوق ذلك؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين» . ثم قال : «هل تدرؤن ما الذي تحتكم؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة» . ثم قال : «والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله»، ثم قرأ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾ .

ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب ويونس - يعني ابن عبيد - وعلي بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش، كما وصف في كتابه . انتهى كلامه . وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سريج، عن الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره، وعنده بعد ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام، وقال : «لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله»، ثم قرأ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾ . ورواه ابن أبي حاتم والبخاري من حديث أبي جعفر الرازي، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة . . . فذكر الحديث، ولم يذكر ابن أبي حاتم آخره وهو قوله : «لو دليتم بحبل»، وإنما قال : «حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام»، ثم تلا : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾ . وقال البخاري : لم يروه عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة . ورواه ابن جرير، عن بشر، عن يزيد، عن سعيد، عن قتادة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس في أصحابه إذ ثار عليهم سحب، فقال : «هل تدرؤن ما هذا؟»، وذكر الحديث مثل سياق الترمذي سواء، إلا أنه مرسل من هذا الوجه، ولعل هذا هو المحفوظ، والله أعلم . وقد روي من حديث أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه وأرضاه، رواه البخاري في مستنده، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولكن في إسناده نظر، وفي متنه غرابة ونكارة، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْهَلْنَ ﴿١٢﴾﴾ [العلاق : ١٢] : حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة قال : التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض، فقال بعضهم لبعض : من أين جئت؟ قال أحدهم : أرسلني ربي، ﷻ، من السماء السابعة وتركته ثم، قال الآخر : أرسلني ربي من المغرب وتركته ثم . وهذا حديث غريب جداً، وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما روي هاهنا من قوله، والله أعلم .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَلْمِزُ مَا يَلْبِغُ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَا يَمَسُّهُ مِنَّا وَمَا يَمَسُّهَا مِنَّا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَىٰ اللَّهُ رُحْمَ الْأُمُورِ ﴿٢﴾ يُؤْتِي الْبَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِي الْبَلَّ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن إعادته هنا . ﴿يَلْمِزُ مَا يَلْبِغُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَمَسُّهُ مِنَّا﴾ من زرع ونبات وثمار، كما قال : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن دَرَكَةٍ إِلَّا يُعَلِّمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي حُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقوله : ﴿وَمَا يَزِيدُ مِن آتَمَةٍ﴾ أي : من الأمطار، والثلوج والبرد، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة «البقرة» أنه

ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقزرها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى. وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ». وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُزٌ أَيَّنَّ مَا كُتِبُ وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم، من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعته، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ سُودُوهُمْ لِيَسْتَعَفُوا مِنْهُ أَلَّا يَجِئَ يَسْتَفْشُونَ بِأَيْهَمِهِمْ بِمَا جِئُوا وَمَا يَلْتَمِثُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتُ أَصْغُرُوا﴾ [هود: ٥٥]. وقال: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِيحًا وَالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل، لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة، حدثني أبي، عن نصر بن علقمة، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن عائذ قال: قال عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: زدني كلمة أعيش بها. فقال: «استح الله كما تستحي رجلاً من صالح عشيرتك لا يفارقك». هذا حديث غريب، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً: «ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة، ولا الشَّرَطَ للثيعة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم. وزكى نفسه». وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان». وقال نعيم بن حماد، رحمه الله: حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي، عن محمد بن مهاجر، عن عروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن غنم، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله مَعَكُ حَيْثَمَا كُنْتَ». غريب. وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلست الدهر يوماً فلا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبٌ
ولا تَحْسَبَنَّ اللهُ يَغْفِلُ سَاعَةً ولا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغْفِي
وقوله: ﴿لَمْ تَكُنْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آي: ٣٠] أي: هو المالك للعالمين والآخرة، كما قال: ﴿وَرَأَى لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْاَحْسَدُ فِي الْاُولَى وَالْآخِرَةَ﴾ [القصاص: ٧]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فجميع ما في السموات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ مَتَى الرَّحْمَنِ عِبادٌ﴾ [١٣٠] ﴿لَقَدْ أَحْضَمْتُمْ وَأَعْدَمْتُمْ عِباداً﴾ [١٣١] ﴿وَكُلُّهُمْ مَآئِيهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [١٣٢] [مریم: ٩٣-٩٥]. ولهذا قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما شاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، ﴿وَيُؤْتِي مَنْ أَرَادَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وكما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي السُّورِ الْقَسَطِ يُرْوَى الْقِيَامَةَ فَلا تَطْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِنْكُلا مِقْطالَ حَبْرَةٍ مِنْ خَدَلٍ أَنْبأُ بِها وَكَفَى بِنا حَسِيبًا﴾ [١٣٧] [الانبيا: ٤٧]. وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: هو المتصرف في الخلق، يقبض الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين. وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قِظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلقه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت.

﴿مَآئِماً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَضُوا بِمَآ جَعَلَكُمُ سَخَطِيَّةً يَدِي قَالِيْنَ مَآئِماً يَنْكُرُوا وَأَنْقَضُوا لَمَّ أَجْرٍ كَبِيرٌ﴾ [٧] ﴿وَمَا لَكُمْ لَوْ لا تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَحَدَ بَرِيَّةً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٨] ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِيهِ آتِيَةً يُبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ رَّحِيمٌ﴾ [٩] ﴿وَمَا لَكُمْ لَوْ لا أُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَهُ يَرْجِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يُؤْتُوا لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْهُنَّ إِلَى اللَّهِ لَأَنْتُمْ لَرَجِيبٌ﴾ [١٠] ﴿لَقَدْ أُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ [١١] ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢]

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه. وقوله: ﴿بِمَآ جَعَلَكُمُ سَخَطِيَّةً يَدِي﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا

شعبة، سمعت قتادة يحدث، عن مُطَرَفٍ - يعني ابن عبد الله بن الشَّخِيرِ - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَنَكُمْ الْكَافِرُ ۗ﴾ [التكاثر: ١]، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأمضيت؟. ورواه مسلم من حديث شعبة، به، وزاد: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس». وقوله: ﴿قَالَتِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكُمْ وَأَنْفِقُوا لَمْ آخِرْ كَبِيرٌ ۗ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ۗ﴾؟ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به؟ وقد روينا في الحديث من طُرُق في أوائل شرح «كتاب الإيمان» من صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن؟ قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها». وقد ذكرنا طرفاً من هذا في أول سورة «البقرة» عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۗ﴾ [البقرة: ٣]. وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيفَكُكُمْ ۗ﴾ كما قال: ﴿وَأَذَكُرُوا بِمَعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيفَكُكُمْ الَّذِي وَأَفَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَكَمًا وَأَطْمَنًا ۗ﴾ [المائدة: ٧]. ويعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير: أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ عَائِيَةً يَبْتَسِ ۗ﴾ أي: حججاً واضحات، ودلائل باهرات وبراهين قاطعات، ﴿يَشْرَحُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَكُونُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۗ﴾ أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العليل وإزالة الشبهة. ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ الْأَنْزَارُ ۗ﴾ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، ويبيده مقاليدهما، وعنده خزائنها، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُقُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِقِينَ ۗ﴾ [سبا: ٣٩]، وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سيخلفه عليه. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مَن أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا ۗ﴾ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلًا ۗ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى ۗ﴾. والجمهور على أن المراد بالفتح ها هنا فتح مكة. وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ها هنا: صلح الحديبية، وقد يُستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا زهير، حدثنا حميد الطويل، عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد - أو: مثل الجبال - ذهباً، ما بلغت أعمالهم». ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ. خالد بن الوليد بعد الفتح، فجمعوا يقولون: «صباناً، صباناً»، فلم يحسنوا أن يقولوا: «أسلمنا»، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر وغيرهما. فاخصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك. والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث ابن وهب: أخبرنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم». فقلنا: من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً» فقلنا: هم خير منا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِي مَن أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا ۗ﴾ أي: من الذين أنفقوا من بعد وَقَتْلًا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۗ». وهذا الحديث غريب بهذا السياق، والذي في الصحيحين من رواية جماعة، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد - ذكر الخوارج -: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». الحديث. . . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر، فقال: حدثني ابن البرقي، حدثنا ابن أبي مریم، أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرني زيد بن أسلم، عن أبي سعيد التمار، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم

مع أعمالهم». قلنا: من هم يا رسول الله؟ قريش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، لأنهم أرق أفئدة، وألين قلوباً». وأشار بيده إلى اليمن، فقال: «هم أهل اليمن، ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية». فقلنا: يا رسول الله، هم خير منا؟ قال: «والذي نفسي بيده، لو كان لأحدكم جبل من ذهب ينفق ما أدى مُدَّ أحدكم ولا نصفه». ثم جمع أصابعه ومد خنصره، وقال: «ألا، إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِي سَكَرٌ مِّنْ أَنْقٍ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أَوْلَيْكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِكَ وَكَذَلِكَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٢﴾». فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديدية، فإن كان ذلك محفوظاً كما تقدم، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده، كما في قوله تعالى في سورة «المزمل» - وهي مكية، من أوائل ما نزل -: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية (المزمل: ٢٠) فهي بشارة بما يستقبل، وهكذا هذه. والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِكَ وَكَذَلِكَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدَّةً أُولَى الْقَتْلِ وَالَّذِينَ هَمُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُكْفِينِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكَذَلِكَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ وَقَضَى اللَّهُ لِلْمُكْفِينِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ (النساء: ٩٥). وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»، وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه؛ ولهذا قال: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيقة. وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف». ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر، رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، ﷺ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي عند تفسير هذه الآية: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبدالله بن حامد بن محمد، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب، أخبرنا محمد بن يونس، حدثنا العلاء بن عمرو الشيباني، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، حدثنا سفيان بن سعيد، عن آدم بن علي، عن ابن عمر قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل جبريل فقال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله عليّ قبل الفتح». قال: فإن الله يقول: اقرأ عليه السلام، وقل له: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله: «يا أبا بكر، إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟» فقال أبو بكر، رضي الله عنه: أسخط على ربي ﷺ؟! إني عن ربي راض. هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، قيل: هو النفقة على العيال. والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيضوِّفَهُ لَهُمْ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْضَاكَ كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أي: جزاء جميل، ورزق باهر - وهو الجنة - يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيضوِّفَهُ لَهُمْ﴾ قال أبو الدرداء الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدرداء». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدرداء فيه وعيالها - قال: فجاء أبو الدرداء فناداهما: يا أم الدرداء. قالت: لبيك. فقال: اخرجي، فقد أقرضت ربي، ﷺ. - وفي رواية -: أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدرداء. ونقلت منه متاعاً وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدرداء». وفي لفظ: «رب نخلة مدلاة عروقها درّ وياقوت، لأبي الدرداء في الجنة».

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُرْسُكُمُ الْيَوْمَ جَسَّتْ نَجْوَى مِنْ تَحْتِ الْأَمْخَرِ خَلِيلِينَ فِيمَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ هَمُّوا أَنْظَرْنَا نَقِيصَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَسْجَمُوا وَرَأَيْتُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِاللَّهِ فِي الرَّحْمَةِ وَظَاهَرُوا مِنْ بَيْنِهِ الْمَدَابِ ﴿١٨﴾ يَأْتُواهُمْ آلَمُ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرْتَضَوْنَ وَارْتَبْتُمْ وَعَرَضْتُمْ الْأَمَانَةَ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَمْتُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ ﴿١٩﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْعَذُ بِكُمْ قُدْبَةٌ وَلَا يَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْرَتِكُمْ أِنَارٌ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَشْرُ الْهَيْدِ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسمى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم،

كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يَسَعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقدّم مرة ويطلق مرة. ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه». وقال سفيان الثوري، عن حُصَيْن، عن مجاهد عن جُنَادَة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسياكم وحُلاككم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة، قيل: يا فلان، هذا نورك. يا فلان، لا نور لك. وقرأ: ﴿يَسَعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. وقال الضحاك: ليس لأحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِيَء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طُفِيَء نور المنافقين، فقالوا: ربنا، أتمم لنا نورنا. وقال الحسن في قوله: ﴿يَسَعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: يعني: على الصراط. وقد قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، أخبرنا عمي، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن مسعود: أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَيْر يحدث: أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم». فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «أعرفهم، مُحَجَّلُونَ من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيامهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم». وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ قال الضحاك: أي وبأيامهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ يَسْبِيحُ﴾ [الإسراء: ٧١]. وقوله: ﴿يُسْرَتَكُمْ أَيُّومَ حَسَبَتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿حَدِيدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كُتِبَ فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾: وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمر الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله، وترك ما عنه زجر.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنائز وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه، قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ لِي بَحْرٍ لَبِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً فيصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب، ﴿بِأَيْمَانِهِمْ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ وَبَيْهِ الْعَذَابُ﴾ الآية. يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق معتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ابن حيوة، حدثنا أرطاة بن المنذر، حدثنا يوسف بن الحجاج، عن أبي أمامة قال: بُعِثَ ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. وقال العوفي، والضحاك، وغيرهما، عن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾، فإننا كنا معكم في الدنيا. قال المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا﴾ من حيث جثتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسن بن علوية القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة، حدثنا ابن جريج، عن ابن مَلِيكَة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استروا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورًا﴾ [التحریم: ٢٨]. فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً». وقوله: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لِمَنْ أَبَى بَابُ بَابِطُهُ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ وَبَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قال

الحسن، وقناة: هو حائط بين الجنة والنار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَيَبْنِيهَا حِبَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وهكذا زُوي عن مجاهد، رحمه الله، وغير واحد، وهو الصحيح. ﴿بَابِلُتُّ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿وَكَلْبُهُمْ مِنَ يَكْبِهِ الْمَذَابُ﴾ أي: النار. قاله قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

قال ابن جرير: وقد قيل: إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم. ثم قال: حدثنا ابن البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن عطية بن قيس، عن أبي العوام - مؤذن بيت المقدس - قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إن السور الذي ذكر الله في القرآن: ﴿فَصَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمُ بَابٌ بَابِلُتُّ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَكَلْبُهُمْ مِنَ يَكْبِهِ الْمَذَابُ﴾ هو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه، وظاهره وادي جهنم. ثم روى عن عبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلي بن الحسين زين العابدين، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عليين، والنار في الدركات أسفل سافلين. وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيلياته وثر هاته. وإنما المراد بذلك: سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة ﴿يَادُّوهُمْ أَمْ نَكَّرْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتم معنا، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْتُمْ وَمَنْ بَعَثْتُمْ وَمَنْ بَعَثْتُمْ﴾ أي: فأجاب السلف: أي فنتتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿وَمَنْ بَعَثْتُمْ﴾ أي: بالحق وأهله ﴿وَمَنْ بَعَثْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَعَزَّزْنَاكُمْ الْآمَنَاتِ﴾ أي: قال بعض السلف: أي فنتتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿وَمَنْ بَعَثْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلت في هذا حتى جاء الموت ﴿وَعَزَّزْنَاكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُّورِ﴾ أي: الشيطان. قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين، أنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك، فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً. قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويعشونهم ويعاشرهم، وكانوا معهم أمواتاً، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفا النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ. وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله به عنهم، حيث يقول - وهو صدق القائلين -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١٧﴾ إِلَّا أَرْحَمَ الرَّحِيمِينَ ﴿١٨﴾ فِي حَتَّىٰ يَسْأَلُوا ﴿١٩﴾ عَنِ النَّجْمِينَ ﴿٢٠﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا لَوْ نَدَّوْنَا مِنَ الْغَيِّ لَوَدَّعْنَا نَفْسَنَا نَحْمَ الْيَتِيمَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ نَدَّوْنَا مِنَ الْغَيِّ لَوَدَّعْنَا نَفْسَنَا نَحْمَ الْيَتِيمَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدر: ٣٨-٤٧]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَتَّخِذُونَ لِلشَّيْئِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المدر: ٤٨]، كما قال تعالى ها هنا: ﴿قَائِلِينَ لَا يُؤْعَذُكُمْ مِنْكُمْ فَذِيهِ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله، ما قبل منه. وقوله: ﴿مَارَيْنَكُمْ أَنْتَارُ﴾ أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم. وقوله: ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وإرتيابكم، ﴿وَيَسِّرُ الْبَصِيرَةَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾

يقول الله تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، ففهمه وتناقله وتسمع له وتطيعه. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا صالح المرّي، عن قتادة، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن حسين المرزوي، عن ابن المبارك، به. ثم قال هو ومسلم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال - يعني الليث - عن عون بن عبد الله، عن أبيه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية إلا أربع سنين. كذا رواه مسلم في آخر الكتاب. وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية، عن هارون بن سعيد الأيلي، عن ابن وهب، به. وقد رواه ابن ماجه من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن أبي حزم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، مثله. فجعله من مسند ابن الزبير. لكن رواه البزار في مسنده من طريق موسى بن

يعقوب، عن أبي حازم، عن عامر، عن ابن الزبير، عن ابن مسعود، فذكره. وقال سفيان الثوري، عن المسعودي، عن القاسم قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى: ﴿تَحَنَّنْ نَفْسَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٢٣) قال: ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟﴾ وقال قتادة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع». وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا أَلْوَنًا أَلْوَنًا لَكُنَّ مِنْ قَبْلُ فَمَا لَكَ عَلَيْهِمْ أَلَمٌ فَمَسَّتْ قُلُوبَهُمْ﴾: نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، ولما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً، وبنذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتفككة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. ﴿ذِكْرٌ مِّنْهُمْ نَسِيَوا فِيهَا فِي الْأَعْمَالِ، فَعَلُّوهُمُ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ. كَمَا قَالَ: ﴿فِيمَا نَنسِيهِمْ تَبَلَّغْهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، أي: فسدت قلوبهم فقسست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها. وارتكبوا ما نهوا عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا شهاب بن خراش، حدثنا حجاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، عن الربيع بن عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إلي منه، إلا شيئاً من كتاب الله - أو: شيئاً قاله النبي ﷺ - قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقسست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهوراتهم فقالوا: تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه، ومن كره أن يتابعنا قتلناه. ففعلوا ذلك، وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف، ثم أدرجه، فجعله في قرن ثم علق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، إنكم قد أفضيتم القتل في بني إسرائيل، فادعوا فلاناً فاعرضوا عليه كتابكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس، وإن أبي فاقتلوه. فدعوا فلاناً ذلك الفقيه فقالوا: تؤمن بما في كتابنا؟ قال: وما فيه؟ اعرضه علي. فعرضه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم، آمنت بما في هذا - وأشار بيده إلى القرن - فتركوه، فلما مات نشوه فوجدوه متعلقاً بذلك القرن، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله، فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة. فافتقرت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة، وخير ملهم ملة أصحاب ذي القرن». قال ابن مسعود: وإنكم أو شك بكم إن بقيتم - أو: بقي من بقي منكم - أن تروا أموراً تنكرونها، لا تستطيعون لها غيراً، فيحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره. وقال أبو جعفر الطبري: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم قال: جاء عترس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال: يا عبد الله، هللك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فقال عبد الله: هللك من لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً؛ استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه. قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين قنوديه فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به - ويومئذ إلى القرن بين قنوديه - ومالي لا أؤمن بهذا الكتاب؟ فمن خير ملهم اليوم ملة صاحب القرن. وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾: فيه إشارة إلى أنه، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضللتها، ويفرّج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجردة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمفضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصْبِقِينَ وَأَرْضُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسْبًا يُضَعَّفَ لَهُمْ وَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالنَّبَهَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾. يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقير والمسكنة، ﴿وَأَرْضُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسْبًا﴾: أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً؛ ولهذا قال: ﴿يُضَعَّفَ لَهُمْ﴾: أي: يقابل لهم الحسنة

بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب ﴿كَرِيمٌ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هذا تمام الجملة، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صادقون. قال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هذه مفصلة ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. وقال أبو الضحى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. وقال الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين، والصديقين، والشهداء، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، ففرق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان. ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، في كتابه الموطأ، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث مالك، به. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صادقون وشهداء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، ثم قال ابن جرير: حدثني صالح بن حرب أو مغمر، حدثنا إسماعيل بن يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مؤمنوا امتي شهداء». قال: ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾. هذا حديث غريب. وقال أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ قال: يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين. وقوله: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أول مرة. فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون». وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن أبي يزيد الخولاني قال: سمعت فضالة بن عبيد يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدو فصدق الله فقتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا - ورفع رأسه حتى سقطت فلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر - والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح، جاء سهم غرّب فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة». وهكذا رواه علي بن المديني، عن أبي داود الطيالسي، عن ابن المبارك، عن ابن لهيعة، وقال: هذا إسناد مصري صالح. ورواه الترمذي من حديث ابن لهيعة وقال: حسن غريب. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿أَصْلَمُوا أَنَا الصَّادِقُونَ الَّذِينَ لَمْ يَكُفُّوا رَيْبَهُمْ وَنَفَخُوا بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرًا فِي الْأَمْزَلِ وَالْأَوْلَادِ كَثِيلٌ غَيْثٌ أَحَبَّ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حَطْلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ زُخْرُورٌ ﴿٢٠﴾ سَابِقًا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَحَسْبَ عَرَضًا كَرِيمٍ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤَيِّدُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها: ﴿أَنَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَيْبٌ وَهَوٌ وَرَيْبَةٌ وَنَفَاخٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرًا فِي الْأَمْزَلِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: ﴿يُنِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَسَةِ وَالْخَبِيلِ الْمُسَوَّمِ وَالْأَنْعَامِ وَالْعَرَبِيُّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْعَمَالِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَثِيلٌ غَيْثٌ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَيْنَ مَن بَدَا مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقوله: ﴿أَحَبَّ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ﴾ أي: يعجب الزرع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزارع ذلك كذلك تعجب الحياة الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حَطْلَمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله

حطاماً، أي: يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتمل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غصاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرف في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. ولما كان المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها و فراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: هي متاع فانٍ غارٍ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. قال ابن جرير: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرووا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿٥٥﴾﴾. وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير ووكيع، كلاهما عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك». انفرد بإخراجه البخاري في «الرقاق»، من حديث الثوري، عن الأعمش، به. ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال ما هنا: ﴿أَعِدَّتْ لِلذَّبِّكَ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: «وما ذاك؟». قالوا: يُصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تصدق، ويُعتقون ولا نُعتق. قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقت من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِ الْأَرْضِ وَلَا فِ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِ كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ بِأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِغْتَابِ وَمَن يَبُولُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِ الْأَرْضِ وَلَا فِ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِ كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمه. وقال بعضهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾: عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة. والأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها، كما قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علفيّه، عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن، فقال رجل: سله عن قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِ الْأَرْضِ وَلَا فِ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِ كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾. فسألته عنها، فقال: سبحان الله! ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمه. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِ الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون. يعني: الجذب، ﴿وَلَا فِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض. قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - فيحهم الله - وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة وابن لهيعة قالوا: حدثنا أبو هانئ الخولاني: أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». ورواه مسلم في صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن يزيد، ثلاثهم عن أبي هانئ، به. وزاد ابن وهب: «وكان عرشه على الماء». ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها، سهل على الله ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا

فَاتَّكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿٢٥﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: جاءكم، ويقرأ: «أتاكم» أي: أعطاكم. وكلاهما متلازمان، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله وورقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَحْلِ﴾ أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِئِمَا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعَفَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُهُ وَرَسُولُهُ بِالْقَبِيِّ إِنَّ اللَّهَ لَبُورٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو: النقل المصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو: العدل. قاله مجاهد، وفتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [مرد: ٤١٧]، وقال: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٢٣٠]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروه به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَوَكَّمتْ كِمَتْ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الانعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الاعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلما قامت الحججة على من خالف، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن حسان بن عطية، عن أبي المنيب الجرشي الشامي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصُّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح كالسيوف، والحرايب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها. ﴿وَمَنْعَفَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معاشهم كالسكة والفأس والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. قال علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان والكلبتان والميعة - يعني المطرقة -. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُهُ وَرَسُولُهُ بِالْقَبِيِّ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرته الله ورسوله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَبُورٌ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلبوا بعضكم ببعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَيَتِمُّ مِثْمَثٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَتَسْفُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَانَ إِسْرَائِيلَ بِرُسُلِنَا وَقَفَّسْنَا بِيَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ ابْتَدَعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتِنَا يَرْضَوْنَ اللَّهَ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَتَسْفُونَ﴾ ﴿٢٧﴾.

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً، عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكان إبراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ يعني: حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَانَ إِسْرَائِيلَ بِرُسُلِنَا وَقَفَّسْنَا بِيَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رافة وهي الخشية ﴿وَرَهَابَانَةٌ ابْتَدَعُوا﴾ أي: ابتدعوا أمة النصاري ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم

التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله: ﴿إِلَّا آيَةَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾: فيه قولان، أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قال سعيد بن جبير، وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقر بهم إلى الله، ﷻ.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا إسحاق بن أبي حمزة أبو يعقوب الرازي، حدثنا السندي بن عبدويه، حدثنا بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود، عن أبيه، عن جده ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن مسعود». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة؟ لم ينح منها إلا ثلاث فرق، قامت بين الملوك والجبابة بعد عيسى ابن مريم، عليه السلام، فعدت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال، فقامت بين الملوك والجبابة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران، فصبرت ونجت. ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط، فلحقت بالجبالات فتعبدت وترهبت، وهم الذين ذكرهم الله، ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾. وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال: حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا الصعق بن حزن، حدثنا عقيل الجعدي، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم...» وذكر نحو ما تقدم، وفيه: ﴿فَقَاتَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا بِنَهْمِ آجْرِهِمْ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ كَذَبُوا عِندَ رَسُولِي﴾. ولا يقدح في هذه المتابعة لحال داود بن المحبر، فإنه أحد الواضعين للحديث، لكن قد أسنده أبو يعلى، وسنده عن شيبان بن فروخ، عن الصعق بن حزن، به مثل ذلك. فقوي الحديث من هذا الوجه.

وقال ابن جرير، وأبو عبد الرحمن النسائي - واللفظ له -: أخبرنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان بن سعيد، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كان ملوك بعد عيسى، عليه السلام، بدلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، فليل ملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا هؤلاء، إنهم يقرؤون: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، هذه الآيات، مع ما يعيونا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا. فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا: فقالت طائفة منهم: ابنا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة: ابنا لنا دوراً في الفيافي، ونحفر الآبار ونحترق البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم. وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ والآخرون قالوا: نتعب كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ داراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل، انحط منهم رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به وصدقوه، فقال الله، ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أَجْرَيْنِ بِلِيْمَانِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَبِالتَّوْرَةِ وَبِالتَّوْرَةِ وَبِالتَّوْرَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصَدِّقُهُمْ قَالَ: ﴿وَيَجْمَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٧]: القرآن، واتباعهم النبي ﷺ، قال: ﴿تَلَا بِمَاءِ الْكَيْسِ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. هذا السياق فيه غرابة، وسيأتي تفسير هاتين الآيتين الأخيرين على غير هذا، والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن عيسى، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء: أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلم قال: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أم شيء تنقلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم». ثم غدوا من الغد فقالوا: بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم». ثم غدوا من الغد قالوا: تركب فنظن ونعتبر. قال: نعم،

فركبوا جميعاً، فإذا هم بديار فقر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا، خاوية على عروشها فقالوا: تعرف هذه الديار؟ قال: ما أعرفني بها وبأهلها. هؤلاء أهل الديار، أهلكم البغي والحسد، إن الحسد يطفئ نور الحسنات، والبغي يصدق ذلك أو يكذبه، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعمر، حدثنا عبد الله، أخبرنا سفيان، عن زيد العمي، عن أبي إياس، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله، ﷺ». ورواه الحافظ أبو يعلى، عن عبد الله بن محمد بن أسماء، عن عبد الله بن المبارك به ولغظه: «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين - هو ابن محمد - حدثنا ابن عياش - يعني إسماعيل - عن الحجاج بن مروان الكلاعي، وعقيل بن مدرك السلمي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رجلاً جاءه فقال: أوصني. فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض. تفرد به أحمد.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ ءَامِنُوا رَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَتَوَقَّرْ لَكُمْ ءَ اللَّهُ غُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا بَعَثَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ءَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس: أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران». أخرجاه في الصحيحين. ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ ءَامِنُوا رَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ضعفين، وزادهم: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم. فضلهم بالنور والمغفرة. ورواه ابن جرير عنه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ قُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ءَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبراً من أجراء يهود: كم أفضل ما ضعفت لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. ثم ذكر سعيد قول الله، ﷺ: ﴿يؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير. ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذي عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيته من أشياء». قال أحمد: وحدثنا مؤمل، عن سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، نحو حديث نافع، عنه. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن سليمان بن حرب، عن حماد، عن أيوب، عن نافع، به. وعن قتبة، عن الليث، عن نافع، بمثله. وقال البخاري: حدثني محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقي من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» انفرد به البخاري. ولهذا قال تعالى: ﴿يَنَالُ بَعَثَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا على إعطائه ما منع الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ءَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. قال ابن جرير: ﴿يَنَالُ بَعَثَ﴾ أي: ليعلم. وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها: «لكي يعلم». وكذا حطان بن عبد الله،

وسعيد بن جبير، قال ابن جرير: لأن العرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿مَا تَنكَّهَ إِلَّا تَنكَيْدٌ﴾ [الأعراف: ١١٢]، ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ﴿وَحَكْرَمٌ عَلَى قَرْبَى أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].



تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله، ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقا فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، فذكره. وأخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من غير وجه، عن الأعمش، به. وفي رواية لابن أبي حاتم عن الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. وقال: وزوجها أوس بن الصامت. وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة: هو أوس بن الصامت، وكان أوس امرأ به لم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئا. فأتت رسول الله تستفتيه في ذلك، وتشتكي إلى الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وهكذا روى هشام بن عروة، عن أبيه: أن رجلا كان به لم، فذكر مثله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - قال: سمعت أبا يزيد يحدث قال: لقيت امرأة عمر - يقال لها: خولة بنت ثعلبة - وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجالات قریش على هذه العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا. قال: هذه امرأة سمع الله شكاوها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها. هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب. وقد روي من غير هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى، حدثنا زكريا عن عامر قال: المرأة التي جادلت في زوجها خولة بنت الصامت، وأمها معاذة التي أنزل الله فيها: ﴿وَلَا تَكْرِهُوا قَوْلَهُنَّ عَلَى الْفَلَعِ إِنَّ أَرْدَنَ مَحْضًا﴾ [النور: ٣٣]. صوابه: خولة امرأة أوس بن الصامت.

﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَنفُسُهُمْ إِلَّا نَجْسٌ وَمَا يَقُولُونَ مُحْكَمًا إِنَّ الْقَوْلَ رُزُومًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعْلُومٌ غَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَنفُسُهُمْ إِلَّا نَجْسٌ وَمَا يَقُولُونَ مُحْكَمًا إِنَّ الْقَوْلَ رُزُومًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعْلُومٌ غَفُورٌ شَرِّينَ مُتَابِعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآتَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قالوا: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة، عن ابن عبد الله بن سلام، عن خويلة بنت ثعلبة قالت: في - والله - وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدَرَ سُورَةِ «المجادلة»، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوماً فراجعت بشيء فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا، والذي نفسي خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواتبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى

جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابنُ عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُري عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك». ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فليعتق رقبة». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فلأنا سنعيته بعرقٍ من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعيته بعرقٍ آخر، قال: «فقد أصبت وأحسنت، فذهبي فتصدق به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً». قالت: ففعلت. ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين، عن محمد بن إسحاق بن يسار، به. وعنده: خولة بنت ثعلبة، ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة. وقد تصغر فيقال: خُوَيْلَة. ولا منافاة بين هذه الأقوال، فالأمر فيها قريب، والله أعلم.

هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنتُ امرأً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فاتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا: لا، والله لا نفعل؛ نتخوف أن ينزل فينا- أو يقول فينا رسول الله ﷺ- مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجتُ حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته خبري. فقال لي: «أنت بذاك». فقلت: أنا بذاك. فقال: «أنت بذاك». فقلت: أنا بذلك. قال: «أنت بذاك» قلت: نعم، ها أناذا فامض في حكم الله تعالى، فإني صابر له. قال: «أعتق رقبة». قال: ففرضت صفحة رقبتي بيدي وقلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فتصدق». فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بنتا ليلتنا هذه وحشي ما لنا عشاء. قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ. فدفعوها إليّ. وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي وحسنه. وظاهر السياق: أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت، وزوجته خُوَيْلَة بنت ثعلبة، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل.

قال خَصِيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أوساً ظاهر مني، وإنما إن افترقنا هلكتنا، وقد نثرْتُ بطني منه، وقد قدمت صُحْبَتَهُ. وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها؟». قال: لا، والله يا رسول الله ما أقدر عليها؟ قال: فجمع له رسول الله ﷺ، حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله رواه ابن جرير. ولهذا ذهب ابن عباس والأشعثون إلى ما قلناه، والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن سَائِبِهِمْ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حُرِّمَتْ عليه فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها: «خويلة بنت ثعلبة». فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرِّمْتَ علي. وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقني إلى رسول الله ﷺ. فأنت رسول الله فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فقال: «يا خويلة، ما أمرنا في أمرك بشيء». فأنزل الله على رسوله ﷺ، فقال: «يا خويلة، أبشري» قالت: خيراً. فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ إلى

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبْلِ أَن يَتَّسَأَلُوا﴾. قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري.
قال: ﴿فَمَنْ لَوْ حِيدَ فَمِيسَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾. قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَنْ لَوْ يَسْتَكْبِخُ
فَاطْعَامَ بَيْتَيْنِ سِكِّينًا﴾. قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: فدعا بشطر وسق - ثلاثين صاعاً، والوسق: ستون صاعاً
- فقال: «ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك»، وهذا إسناد جيد قوي، وسياق غريب.

وقد روي عن أبي العالية نحو هذا، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا علي بن عاصم، عن
داود بن أبي هند، عن أبي العالية قال: كانت خولة بنت ذُلَيْج تحت رجل من الأنصار، وكان ضيرير البصر فقيراً سبىء الخلق،
وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، قال: «أنت علي كظهر أمي». وكان لها منه عَيْلٌ أو عَيْلان، فنازعته
يوماً في شيء فقال: «أنت علي كظهر أمي». فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة، وعائشة
تغسل شق رأسه، فقدمت عليه ومعها عيئها، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي ضيرير البصر، فقير لا شيء له سبىء الخلق،
وإني نازعته في شيء فغضب، فقال: «أنت علي كظهر أمي»، ولم يرد به الطلاق، ولي منه عَيْلٌ أو عَيْلان، فقال: «ما أعلمك إلا
قد حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبيبي. قال: ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر، فدارت معها،
فقالت: يا رسول الله، زوجي ضيرير البصر، فقير سبىء الخلق، وإن لي منه عَيْلاً أو عَيْلين، وإني نازعته في شيء فغضب،
وقال: «أنت علي كظهر أمي»، ولم يرد به الطلاق! قالت: فرفع إلي رأسه وقال: «ما أعلمك إلا قد حرمت عليه». فقالت:
أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبيبي؟ قال: ورأت عائشة وجه النبي ﷺ تَغْيِيرًا، فقالت لها: «وراءك وراءك؟» فتنحت، فمكث
رسول الله ﷺ في غشيانه ذلك ما شاء الله، فلما انقطع الوحي قال: «يا عائشة، أين المرأة» فدعتها، فقال لها رسول الله ﷺ
«إذهبي فأنني بزوجك». فانطلقت تسمى فجاءت به. فإذا هو - كما قالت - ضيرير البصر، فقير سبىء الخلق. فقال النبي ﷺ
«أستعيز بالله السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. قال النبي ﷺ «أتجد رقبة تعتقها من قبل أن تمسها؟». قال: لا. قال:
«أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟». قال: والذي بعثك بالحق، إنني إذا لم أكل المرتين والثلاث يكاد أن يعيش بصري.
وقال: «أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟». قال: لا، إلا أن تعينني. قال: فأعانه رسول الله ﷺ فقال: «أطعم ستين مسكيناً».
قال: وحول الله الطلاق، فجعله ظهاراً. ورواه ابن جرير، عن ابن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، سمعت أبا العالية،
فذكره نحوه، بأخصر من هذا السياق.

وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة. رواه
ابن أبي حاتم، بنحوه. وقد استدلل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ فالخطاب للمؤمنين،
وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿مِنْ نِّسَابِهِمْ﴾ على أن الأمة لاظهار
منها، ولا تدخل في هذا الخطاب. وقوله: ﴿مَا هُرِكَ أُمَّهَاتُهُمْ إِن أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَكَدَتْهُمُ أَي: لا تصير المرأة بقول الرجل:
«أنت علي كأمي» أو «مثل أمي» أو «كظهر أمي»، وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدتها؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيْتَهُمْ
لَيَقُولُونَ مَسْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ زَوْرًا أَي: كلاماً فاحشاً باطلاً﴾ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُوفٌ أَي: عما كان منكم في حال الجاهلية. وهكذا
أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، كما رواه أبو داود: ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك؛ لأنه لم
يقصده، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما
أشبه ذلك. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرهه، وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم، وقول داود،
وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بَكْرِ بْنِ الْأَشْجِجِ والفراء، وفرقة من أهل الكلام. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً
يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة.
وقد حكى عن مالك: أنه العزم على الجماع والإمساك، وعنه أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه،
ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. وإليه ذهب أصحابه،
والليث بن سعد. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء، عن سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يعني: يريدون أن يعودوا في
الجماع الذي حرموه على أنفسهم. وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج. وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج
قبل أن يكفر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مِنْ قَبْلِ أَن يَتَّسَأَلُوا﴾ والنكاح. وكذا قال عطاء، والزهرى،

وقادة، ومقاتل بن حيان. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر. وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة، عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر. فقال: «ما حملك على هذا يرحمك الله؟» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ﷻ». وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مرسلًا. قال النسائي: وهو أولى بالصواب. وقوله: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي، رحمه الله، ما أطلقها هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده، عن معاوية بن الحكم السلمي، في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». وقد رواه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن نمير، عن إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: إني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر. فقال رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَنَاسَأَ﴾». قال: أعجبتني؟ قال: «أمسك حتى تكفر». ثم قال البزار: لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا، وإسماعيل بن مسلم تكلم فيه، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم. وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة. وقوله: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ تُعْظَرُونَ بِهِ﴾ أي: تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بما يصلحكم، علم بأحوالكم. وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِّينَ مَشِيكًا﴾. وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان. ﴿ذَلِكَ لَكُمْ يُؤْمَوُا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: شرعنا هذا لهذا. وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: محارمه فلا تنتهكوها. وقوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزاموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا، ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتِنَا يَنْتَبِهُنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أهينوا ولعنوا وأخزوا، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتِنَا يَنْتَبِهُنَّ﴾ أي: واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً. ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلفه وإطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا﴾ أي: يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٧٨]. وقال: ﴿أَلَمْ يَحْسُبُوا أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء. ثم قال: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هَرَأُوا مِنَ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ بِمَا هَرَأُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدْدِينَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْزُكَ بِمَا لَمْ يَحْكُ بِهِنَّ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَتَّمَهُمْ حَتْمَهُمْ بِسَلْوَاتِنَا فَيَسَّوْنَ الْعَصِيدَ ﴿٨١﴾ تَأْتِيهَا الْبَرْقَاتُ مُرْسِلًا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَسَّجُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدْدِينَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبَاطِلِ وَالْقَوَى وَأَتَوْا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ حُشْرُونَ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ يَحْزُقُ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يُؤَذِّنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَيَسْتَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾ قال: اليهود. وكذا قال مقاتل بن حيان، وزاد: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقلته - أو: بما يكره المؤمن - فإذا رأى المؤمن ذلك خشيمهم، فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَوْمُونَ بِمَا هُوَ عَنَّهُ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني سفيان بن حمزة، عن كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده؛ يطرقة من الليل أمر، وتبدوله حاجة. فلما كانت ذات ليلة كثر أهل التوب والمحسبون، حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟». قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح، فرقا منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل». هذا إسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء. وقوله: ﴿وَنَنْتَعِمُوا بِالْأَثَرِ وَالْمَذْذُونَ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصرون عليها ويتواصون بها. وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جَيْدٌ مِمَّا تَرْحَبُ بِهِ اللَّهُ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن مسلم عن مسروق، عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقالت عائشة: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو ما سمعت أقول: وعليكم؟». فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جَيْدٌ مِمَّا تَرْحَبُ بِهِ اللَّهُ﴾. وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة. وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا». وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودي فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟». قالوا: سلم يا رسول الله. قال: «بل قال: سام عليكم، أي: تسامون دينكم». قال رسول الله ﷺ: «ردوه». فردوه عليه. فقال نبي الله ﷺ: «أقلت: سام عليكم؟». قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك» أي: عليك ما قلت. وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة، بنحوه. وقوله: ﴿وَقَوْلُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسرره، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفائتهم في الدار الآخرة ﴿يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْآمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جَيْدٌ مِمَّا تَرْحَبُ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْآمِنِينَ﴾. إسناد حسن ولم يخرجوه. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جَيْدٌ مِمَّا تَرْحَبُ بِهِ اللَّهُ﴾ قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: «سام عليك»، قال الله: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْآمِنِينَ﴾. ثم قال الله مؤذياً عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يَكْتُمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّوْا فَلَا تَنْتَعِمُوا بِالْأَثَرِ وَالْمَذْذُونَ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يتناجى به الجهله من كفره أهل الكتاب ومن مالههم على ضلالهم من المنافقين، ﴿وَتَنْبَعُوا إِلَيْهِ وَالْقَوِيُّ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم، وسيجزىكم بها. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدين المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنبك كذا؟ أتعرف ذنبك كذا؟ أتعرف ذنبك كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين». أخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ اللَّطِيفِ لِيَحْزَرَكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما النجوى - وهي المُسَاةة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿وَمِنَ اللَّطِيفِ لِيَحْزَرَكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، ﴿لِيَحْزَرَكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي:

ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله. وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». أخرجاه من حديث الأعمش. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه». انفرد بإخراجه مسلم عن أبي الربيع وأبي كامل، كلاهما عن حماد بن زيد، عن أيوب، به.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْخُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْفَحُوا بَشَحَ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ فَانفَحُوا فَانفَحُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا أَوْلَىٰ دَرَجَةً وَأَلَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مؤبداً عباده المؤمنين، وأمر لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْخُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾، وقرىء: ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾، ﴿فَانْفَحُوا بَشَحَ اللَّهِ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي الحديث الآخر: «ومن يسر على مفسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». ولهذا أشباه كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿فَانْفَحُوا بَشَحَ اللَّهِ لَكُمْ﴾. قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم جُمعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فرد النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار، من غير أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان». فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: أستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأينا قبلاً عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبئهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه. فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً فسح لأخيه». فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً، فتفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. رواه ابن أبي حاتم.

وقد قال الإمام أحمد، والشافعي: حدثنا سفيان، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». وأخرجاه في الصحيحين من حديث نافع، به. وقال الشافعي: أخبرنا عبد المجيد، عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى، عن جابر بن عبد الله. أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقبل: افسحوا». على شرط السنن ولم يخرجوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا فليح، عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صغصعة، عن يعقوب بن أبي يعقوب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم». ورواه أيضاً عن سريج بن يونس، ويونس بن محمد المؤدب، عن فليح، به. ولفظه: «لا يقوم الرجلُ للرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم» تفرد به أحمد. وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم». ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار» ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرأه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك. وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالباً عثمان وعلي؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك، كما رواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن أبي معمر، عن أبي مسعود، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليليني منكم أولو الأحلام

والثهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا أمر أولئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر، إما لتقصير أولئك في حق البدرين، أو لياخذ البدريون من العلم بنصيبهم، كما أخذ أولئك قبلهم، أو تعليماً بتقديم الأفاضل إلى الأمام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمار بن عمير التيمي، عن أبي معمر، عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافاً. وكذا رواه مسلم وأهل السنن، إلا الترمذي، من طرق عن الأعمش، به. وإذا كان هذا أمرهم لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة. وروى أبو داود من حديث معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، وليثوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفًا وصله الله، ومن قطع صفًا قطعه الله». ولهذا كان أبي بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس، ويدخل هو في الصف المقدم، ويحتج بهذا الحديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهي». وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه. ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضوع، وفي الحديث الصحيح: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها، وأما الآخر فجلس وراءه، وأدبر الثالث ذاهباً. فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير الثلاثة، أما الأول فأرى إلى الله فأواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض الله عنه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عثاب بن زيد، أخبرنا عبد الله، أخبرنا أسامة بن زيد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما». ورواه أبو داود والترمذي، من حديث أسامة بن زيد الليثي، به. وحسنه الترمذي. وقد زوي عن ابن عباس، والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْبَحُوا﴾، يعني: في مجالس الحرب، قالوا: ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي: انهضوا للقتال. وقال قتادة: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي: إذا دعيت إلى خير فأجيبوا. وقال مقاتل بن حيان: إذا دعيت إلى الصلاة فارتفعوا إليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده، فربما يشق ذلك عليه - عليه السلام - وقد تكون له الحاجة، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا، كقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتَّجِعُوا﴾ [النور: ٢٨]. وقوله: ﴿يَرْجِعُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْكُمْ وَأَلَّذِينَ أَرَادُوا إِلَيْكُمْ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ومزية عند الله، والله تعالى لا يضع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره، ونشر ذكره؛ ولهذا قال: ﴿يَرْجِعُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ أَرَادُوا إِلَيْكُمْ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أزي. قال: وما ابن أزي؟ فقال: رجل من مولينا. فقال عمر بن الخطاب: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض. فقال عمر، رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين». وهكذا رواه مسلم من غير وجه، عن الزهري، به. وزوي من غير وجه عن عمر بنحوه. وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في شرح «كتاب العلم» من صحيح البخاري، والله الحمد والمنة.

﴿يُنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطَهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢] ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَقْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٣].

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطَهَرُ﴾. ثم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فما أمر بها إلا من قدر عليها. ثم قال: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، ﴿فَإِذَا لَمْ تَقْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

الزُّكُوةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَصَلُونَ ﴿١٤﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه . قال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة . وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، قال علي رضي الله عنه : آية في كتاب الله ، ﷺ لم يعمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان عندي دينار فصرفته بعشر دراهم ، فكننت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهرا ، عن سفيان ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن علي بن علقمة الأنماري ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « نصف دينار؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « ما ترى؟ » . قال : شعيرة ، فقال له النبي ﷺ : « إنك زهيد » . قال : قال علي : فبي خفف الله عن هذه الأمة ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ ، فنزلت ﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ . رواه الترمذي عن سفيان بن وكيع ، عن يحيى بن آدم ، عن عبيد الله الأشجعي ، عن سفان الثوري ، عن عثمان بن المغيرة الثقفي ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن علي بن علقمة الأنماري ، عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى آخرها ، قال لي النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار؟ » قلت : لا يطيقونه . وذكر بتامه ، مثله ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه » . ثم قال : ومعنى قوله : « شعيرة » : يعني وزن شعيرة من ذهب . ورواه أبو يعلى ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يحيى بن آدم ، به . وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدي التجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، عليه السلام . فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا : ﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً لِرَّ تَعْمَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزُّكُوةَ ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق . وقال عكرمة والحسن البصري في قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ : نسختها الآية التي بعدها : ﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى آخرها . وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ لَرَّ قَدِّمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقال معمر ، عن قتادة : ﴿ إِذَا تَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ : إنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار . وهكذا روى عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن مجاهد قال علي : ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وأحسبه قال : وما كانت إلا ساعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوَّماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ بِنِسْمٍ وَلَا يَنْتَهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَلْمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾ لَنْ نُنْفِقَهُنَّ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى قَوْلٍ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ اتَّخَذُوا عَلَيْهِمْ السَّلْطَنَ فَلْيَسْأَلْهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى منكرأ على المنافقين موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُدْبِرِينَ بَيْنَ يَدَيْكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَمَنْ يَشْكُرْ لِلَّهِ فَكُلْ مِنْ حَيْثُ شَاءَ وَلَا يَشْكُرْ لِلَّهِ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾ [النساء: ١٤٣] . وقال ها هنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوَّماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن . ثم قال : ﴿ مَا هُمْ بِنِسْمٍ وَلَا يَنْتَهُمْ ﴾ أي : هؤلاء المنافقون ، ليسوا في الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود . ثم قال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَلْمُونَ ﴾ يعني : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهي اليمين الغموس ، ولا سيما في مثل حالهم اللعين ، عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا بالله له أنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم في إيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [١٥] : أي : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهي موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين

وغشهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَعْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ يُخَذَّ أُولَئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ أي: في مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحائنة. ثم قال: ﴿أَنْ تَصِيحَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا يَزِدَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً، ﴿فَيَطَّلِنُونَ لِمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لَكُمْ أَنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يحلفون بالله، ﷻ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: حلفهم ذلك لربهم، ﷻ. ثم قال منكرأ عليهم حسابهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فاكد الخبر عنهم بالكذب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا زهير، عن سماك بن حرب، حدثني سعيد بن جبيرة، أن ابن عباس حدثه: أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجروه، وعنده نفر من المسلمين قد كان يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه». فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تستمني أنت وفلان وفلان؟» نفر دعاهم بأسمائهم - قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتدوا إليه، قال: فانزل الله، ﷻ، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين، عن سماك، به. ورواه ابن جرير، عن محمد بن المنثري، عن عثد بن عثد، عن شعبة، عن سماك، به نحوه. وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثوري، عن سماك، بنحوه. إسناد جيد ولم يخرجوه. وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَطَّلَقَ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ [الانعام: ٢٣، ٢٤]. ثم قال: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله، ﷻ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ ولهذا قال داود: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زائدة، حدثنا السائب بن حبیب، عن معدان بن أبي طلحة اليعفری، عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية». قال زائدة: قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوْمِي عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بُوَّادُونَ مَنْ كَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين للمحادين لله ورسوله، يعني: الذي هم في حدٍّ والشرع في حدٍّ، أي: مجانبون للحق مشاققون له، هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل، بأن النصر له وكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿١٩﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٠﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وقال ها هنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوْمِي عَزِيزٌ﴾ ﴿٢١﴾ أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بُوَّادُونَ مَنْ كَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يــــوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَّصَلْ بِذَلِكَ فَلْيَتَّصَلْ بِهِمْ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿أَلَا إِنَّ كَادَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْسَبُوكُمْ كَسَادًا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَفَعُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ [التوبة: ٢٤]. وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة، رضي الله عنهم: «ولو كان أبو

عبدة حياً لاستخلفته». وقيل في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: في الصديق، هم يومئذ يقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾: في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: في عمر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم. قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكني من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين... القصة بكاملها. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.

وقال السدي: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: قواهم. وقوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة. وفي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرابت والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. وقوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ اللَّهِ الْإِيمَانَ الَّذِي جَزَاءُ اللَّهِ الْإِيمَانَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله، أي: عباد الله وأهل كرامته. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ جَزَاءَ اللَّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ جَزَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن حميد الواسطي، حدثنا الفضل بن عتبة، عن رجل قد سماه - يقال: هو عبد الحميد بن سليمان، انقطع من كتابي - عن الذبالب بن عباد قال: كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري: أعلم أن الجاه جاهان، جاه يجريه الله على أيدي أوليائه لأوليائه، وإني الخامل ذكرهم، الخفية شخصوهم، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الأخفاء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُنتقدوا، وإذا حضروا لم يُدعوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة». فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ اللَّهِ الْإِيمَانَ الَّذِي جَزَاءُ اللَّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقال نعيم بن حماد: حدثنا محمد بن ثور، عن يونس، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم، لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيت إلي: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾». قال سفيان: يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان. ورواه أبو أحمد العسكري.



تفسير سورة الحشر

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير. وهي مدنية. قال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير. ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر، عن هشيم، به. ورواه البخاري من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَانِعْمَتِهِمْ خُصِمُوا مِنْ اللَّهِ فَآذَنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يُخْرَجُونَ بِوُجُوهِهمْ وَأَيْدِيهمْ وَأَنْوَاعِهِمُ الْقَوْعِينَ قَاسِقِينَ كَأُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآةَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَبْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْمُؤْمِنِينَ (٥).

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدمه، ويصلي له ويوحده، كقوله: ﴿سَبَّحَ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: منيع

الجناب ﴿الْمَكِيدُ﴾ في قدره وشرعه. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس، ومجاهد، والزهري، وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرع من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمُ وَالْيَدِ الْأُمُورِيْنَ فَاَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

قال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي، ومن كان معه يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم أوتيتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لقاتلته، أو لتخرجته، أو لتسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لتفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء. وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقي بمكان المنصف فيسمعوا منك، فإن صدقوك وأمنوا بك آمننا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، قال لهم: «إنكم والله لا تأمنوا عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه». فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم. وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم، حتى نزلوا على الجلاء. فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة. ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير: أنه لما قتل أصحاب بئر معونة، من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين، لأديئهما». وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكان منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شريقها. قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فيما حدثني يزيد بن رومان، وكان بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيرحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدكم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبت النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخل المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم

الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير لهم. ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتشريق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعته، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعه، ومالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمتعوا فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فرتبصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سهل بن خنيفة وأبا دجاجة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ. قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلموا على أموالهما فأحرزاهما. قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين: أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك، وما هم به من شأني». فجعل يامين بن عمير لرجل جعل على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله فيما يزعمون. قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها. وهكذا روى يونس بن بكير، عن إسحاق، بنحو ما تقدم. فقله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يعني: بني النضير: «مَنْ دِينِهِمْ لِأَوْلَى الْحَشْرِ».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من شك في أن أرض المحشرها هنا - يعني الشام فليثل هذه الآية: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوْلَى الْحَشْرِ»، قال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجوا». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف، عن الحسن قال: لما أجلي رسول الله ﷺ بني النضير، قال: «هذا أول الحشر، وأنا على الأثر». ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، به. وقوله: «مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» أي: في مدة حصاركم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها؛ ولهذا قال: «وَلَطَمُوا أَنفُسَهُمْ مَائِعَتَهُمْ حُصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَوْ يَحْسَبُونَ» أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَالَتْ لَأَن يُدْرِكُنَا اللَّهُ لَنُكْفَرَنَّ مِنْكَ الْوَعْدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦]. وقوله: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نُصِرَ بالربح مسيرة شهر، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «يَخْرُجُونَ يَوْمَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ»: قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسناه من سقوفهم وأبوابهم، وتحملها على الإبل، وكذا قال عروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال. وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على دَرَبٍ أو دار، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها، يقول الله تعالى: «فَاعْتَرِبُوا يَتَّوَلَى الْأَبْصَرَ». وقوله: «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَمَذَّبْتُمْ فِي الدِّيَارِ» أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسيب، ونحو ذلك، قاله الزهري، عن عروة، والسدي وابن زيد؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب في نار جهنم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر. وكان منزلهم بناحية من المدينة، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة، وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قِبَلَ الشَّامِ. قال: والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة، وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» إلى قوله: «وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ». وقال عكرمة: الجلاء: القتل. وفي رواية عنه: الفناء. وقال قتادة: الجلاء: خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء، فهذا الجلاء. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضي، حدثنا محمد بن سعيد العوفي، حدثني أبي، عن عمي، حدثني أبي عن جدي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصروهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على

أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم يعبراً وسقاه، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى. وروي أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهري، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمة، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن مسلمة؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَخْرَجَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي: حتم لازم لا بد لهم منه. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيِّمَةٌ عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَذَنِ اللَّهُ وَيُخْرِئُ الْفَلْسَفِينَ﴾ (٥) اللين: نوع من التمر، وهو جيد. قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبزني من التمر. وقال كثيرون من المفسرين: اللينة: ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل. ونقله عن مجاهد: وهو البؤيرة أيضاً؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشيبته وقدرته ورضاه، وفيه نكايه العدو، وخزي لهم، وإرعام لأنوفهم. وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغنم المسلمين. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعته من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وقد روي نحو هذا مرفوعاً، فقال النسائي: أخبرنا الحسن بن محمد، عن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيِّمَةٌ عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَذَنِ اللَّهُ وَيُخْرِئُ الْفَلْسَفِينَ﴾ (٥) قال: يستزلونهم من حصونهم وأمرؤا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسالن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾.

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا حفص، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن جابر - وعن أبي الزبير، عن جابر - قال: رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، علينا إثم فيما قطعنا؟ أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيِّمَةٌ عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَذَنِ اللَّهُ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق. وأخرجه صاحبنا الصحيح من رواية موسى بن عقبة، بنحوه، ولفظ البخاري من طريق عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأمواهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة. ولهما أيضاً عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع - وهي البؤيرة - فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيِّمَةٌ عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَذَنِ اللَّهُ وَيُخْرِئُ الْفَلْسَفِينَ﴾ (٥). وللبخاري، رحمه الله، من رواية جؤيزية بن أسماء، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير. ولها يقول حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

وهان على سرة بنني لؤي
فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام الله ذلك من صننيع
ستعلم أيها منها يئز

كذا رواه البخاري، ولم يذكره ابن إسحاق. وقال محمد بن إسحاق: وقال كعب بن مالك يذكر إجماع بني النضير وقتل ابن الأشرف:

لقد خزيت بغلذرتها الحبور
وذلك أنهم كفروا برت

كذلك الدهر ذو صرّف يذو
عظيم أمره أمر كبير

وقد أوتوا معاً فهماً وعِلماً
 نذير صادق أذى كتاباً
 فقال: ما أتيت بأمر صدق
 فقال: بللى لقد أديتُ حقاً
 فمن يثبعه يهد لِكُل رُشد
 فلما أشربوا غُذراً وكُفراً
 أرى الله النبيّ برأي صدق
 فأيدّه وسلطه عليهم
 فتودرّ منهمو كعب صريعاً
 على الكفّين ثمّ وقذ علثه
 بأمر مُحَمّد إذ دس ليلاً
 فما كره فأنزله بِمَكْر
 فتلك بئس التّضير بدار سوء
 غداة أتاهمُور في الزّخف رهواً
 وغسان الحمماة مُوازروه
 فقال: السلم ويحكمو فصبوا
 فلذاقوا غيب أنرهمو وبالاً
 وأجلوا عامدين لقبيلتّاع
 قال: وكان مما قيل من الأشعار في بني النضير قول ابن لقيم العنسيّ - ويقال: قالها قيس بن بحر بن طريف، قال ابن هشام الأشجعي:

وجاءهُمُور من الله التّذيرُ
 وآيات مُبَيّنة تُنيرُ
 وأنت بمنكر منا جديرُ
 يُصدّقني به الفهم الخبيرُ
 ومن يكفّر به يُجزر الكفورُ
 وجذبهم عن الحقّ النّفورُ
 وكان الله يحكم لا يجورُ
 وكان نصيره نعم النصيرُ
 فذلت بعد مضرعه التّضيرُ
 بأيدينا مُشهُرة ذكورُ
 إلى كعب أخا كعب يسيرُ
 ومحمود أخو ثقة جُصورُ
 أبادهمُور بما اجترموا السُّبيرُ
 رشوّل الله وهو بهم بصيرُ
 على الأعداء وهو لهم وزيرُ
 وحالف أمرهم كذب وزورُ
 لِكُل ثلاثة منهم بميرُ
 وغودرّ بنثهمُور نخل ودورُ
 وكان مما قيل من الأشعار في بني النضير قول ابن لقيم العنسيّ - ويقال: قالها قيس بن بحر بن طريف، قال ابن هشام الأشجعي:

أهلي فداة لامرئ غير هالك
 يقبلون في جمر الغضاة ويُذلوا
 فإن يك ظني صادقاً بمُحمد
 يؤم بها عمرو بنُ بهثة إنهم
 عليهم أبطال مساعير في الوغى
 وكُل رقيق الشّفرتين مُهتد
 فمن مبلغ عني قريشاً رسالة
 بأن أخاكم فاعلمن مُحَمّداً
 فديئوا له بالحقّ تجسّم أموركُم
 نبي تلافته من الله رحمة
 فقد كان في بذل لعنري عبيرة
 غداة أتى في الحزرجية عامداً
 معاناً بروح القدس يثكي عدوه
 رسولاً من الرّحمن يثلو كتابه
 أرى أمره يزداذ في كل مَوطن

أحلّ اليهود بالحسيّ المُزتم
 أهيبض عودا بالودي المُكتم
 يروا خيله بين الضلا ويرمز
 عدو وماحي صديق كُمجرم
 يهزون أطراف الوشيح المُسقّم
 ثورثن من أزمان عاد وجزهم
 فهل بعدهم في المجد من مُتكرم
 تليد التّدى بين الحجون وزمزم
 وتسنموا من الدنيا إلى كل مُعظم
 ولا تسألوه أمر غيب مُرجم
 لكم يا قريش والقليب المُلتم
 إليكم مُطيعاً للعظيم المُكرم
 رسولاً من الرّحمن حقاً بمعلم
 فلما أنار الحقّ لم يتلغتم
 علواً لأمر حمّه الله مُحكم

وقد أورد ابن إسحاق، رحمه الله، ها هنا أشعاراً كثيرة، فيها آداب ومواعظ وحكم، وتفصيل للقصة، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه، والله الحمد والمنة. قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة. وحكى

البخاري، عن الزهري، عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾
 آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آفَاةُ الرَّسُولِ فَخْدُوهُ وَمَا نَبَّهْتُكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى مبيناً لعمال الفيء، وما صفته؟ وما حكمه؟ فالفيء: كل مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبه رسول الله ﷺ، فأفاهه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله، ﷺ، في هذه الآيات، فقال: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني: الإبل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء. ثم قال: ﴿مَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: جميع البلدان التي فتحت هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها. فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو ومَعْمَر، عن الزهري، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر، رضي الله عنه، قال: كانت أموال بني النضير مما آفاه الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته - وقال مرة: قوت سنته - وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله، ﷺ. هكذا أخرجه أحمد ما هنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم - إلا ابن ماجه - من حديث سفيان، عن عمرو بن دينار، عن الزهري، به. وقد رويناه مطولاً، فقال أبو داود، رحمه الله: حدثنا الحسن بن علي ومحمد بن يحيى بن يحيى بن فارس - المعنى واحد - قالوا: حدثنا بشر بن عمر الزهراني، حدثني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين تعالى النهار، فجنته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مال، إنه قد دفأ أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم بشيء، فأقسم فيهم. قلت: لو أمرت غيري بذلك؟ فقال: خذه. فجاءه يرفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص؟ فقال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفاً فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا - يعني: علياً - فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وارحهما. قال مالك بن أوس: خُيِّلَ لِي أَنَّهُمَا قَدَمَا أَوْلَتْكَ النَّفْرَ لَذَلِكَ. فقال عمر، رضي الله عنه: انتدا. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». فقالوا: نعم. فقال: فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس، فقال: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾. فكان آفاه الله على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة - أو: نفقته ونفقة أهله سنة - ويجعل ما بقي أسوة المال. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض: هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض: هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم. فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: «أنا ولي رسول الله»، فجنحت أنت وهذا إلى أبي بكر، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة». والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق. فوليتها أبو بكر، فلما توفي قلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجنحت أنت وهذا، وأنتما جميع وأمركما واحد، فسألتما عنها، فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يوليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جتتما لاقضي بينكما بغير ذلك. والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرذاها إلي. أخرجه من حديث الزهري، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم وعفان قالوا: حدثنا معتمر، سمعت أبي يقول: حدثنا أنس بن مالك، عن نبي الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات، أو كما شاء الله، حتى فتحت عليه قريظة والنضير. قال: فجعل يرذ بعد ذلك، قال: وإن

أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن، أو كما شاء الله، قال: فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول: كلا، والله الذي لا إله إلا هو لا يُعطيكمهن وقد أعطانيهن، أو كما قالت، فقال نبي الله: «لك كذا وكذا». قال: وتقول: كلا، والله. قال: ويقول: «لك كذا وكذا». قال: وتقول: كلا والله. قال: ويقول: «لك كذا وكذا». قال: حتى أعطها، حسبت أنه قال: عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله، أو كما قال. رواه البخاري ومسلم من طريق عن معتمر، به. وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة. وقد قدمنا الكلام عليها في سورة «الأنفال» بما أغنى عن إعادته ها هنا، والله الحمد. وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي: جعلنا هذه المصارف لعمال الفداء لئلا يبقى ما أكله يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء. وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن العوفي، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ. قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت الذي تقول! قال: فما وجدت فيه: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة. قالت: فعله في بعض أهلك. قال: فادخلي فانظري. فدخلت فنظرت ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً. فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ لَهُ الْحُكْمُ وَأَنَا آلِفُ الْكَلِمَةِ﴾ [مرد: ٨٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتمصصات، والمُتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله ﷻ. قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها: «أم يعقوب»، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته. أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه. قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه. قال: اذهبي فانظري. فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً. قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا. أخرجها في الصحيحين، من حديث سفيان الثوري. وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقال النسائي: أخبرنا أحمد بن سعيد، حدثنا يزيد، حدثنا منصور بن حبان، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عمر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ: أنه نهى عن الدباء والحنتم والثعير والمزقت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. وقوله: ﴿وَأَتَوْا اللَّهَ إِذْ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجه، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْلِهِمْ يَسْتَغْنُونَ فَصَلَّاءٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَبَشِيرَةً مِنَ اللَّهِ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ نَسُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ هُمْ لِرَبِّهِمْ كَانُوا فَخَصَّصَهُمْ وَنَزَّلَهُمْ مِنْ قِبَلِهِ قُرْآنًا مَكْرُومًا ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبَهُمْ وَكَانُوا يُؤْتُونَ خَلْقَهُمْ حَسَابًا مِمَّا كَانُوا يَمْسِكُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبَهُمْ وَكَانُوا يُؤْتُونَ خَلْقَهُمْ حَسَابًا مِمَّا كَانُوا يَمْسِكُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لعمال الفداء أنهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْلِهِمْ يَسْتَغْنُونَ فَصَلَّاءٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَرِضْوَانًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين. ثم قال تعالى مادحاً للأنصار، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وأمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم. وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم. رواه البخاري ها هنا أيضاً. وقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يُحيتون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا حميد، عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل

ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: «لا، ما أنثيتهم عليهم ودعوئهم الله لهم». لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ للأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثره». تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال البخاري: حدثنا الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. تفرد به دون مسلم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة. قال الحسن البصري: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ يعني: الحسد. ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾: قال قتادة: يعني فيما أعطى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد. ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ: مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى. فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: «إني لأحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت». قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعازى وتقلب على فراشه، ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمع يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن احتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن أوي إليك لأنظر ما عملك فأقنتي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعائي فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا تنطق. ورواه النسائي في اليوم والليلة، عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك، عن معمر به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ يعني: ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾: المهاجرون. قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم من الأنصار، فعاتبهم الله في ذلك، فقال: ﴿رِمَا اللَّهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كِنَافٍ اللَّهُ لَسَلِطٌ رَسُولُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾، قال: وقال رسول الله: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم». فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر». فقالوا: نعم يا رسول الله. وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاييج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل». وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُلْمِزُونَ الظُّلَمَاءَ عَلَى حِيْمَةٍ﴾ [الإنسان: ٨]. وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ كَمَا عَلَى حِيْمَةٍ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحيون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق، رضي الله عنه، بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟». فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وهذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير، حدثنا أبو أسامة، حدثنا فضيل بن غزوان، حدثنا أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة، رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً. فقالت: والله ما

عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فتزيمهم وتعالى فأطغني السراج وتطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «لقد عجب الله، عز وجل - أو: ضحك - من فلان وفلانة». وأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وكذا رواه البخاري في موضع آخر، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق، عن فضيل بن غزوان، به نحوه. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح. قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا داود بن قيس الغراء، عن غبيد الله بن مفسم، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، وإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن القعقبي، عن داود بن قيس، به. وقال الأعمش وشعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن زهير بن الأقرم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التمثش، وإياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة، والنسائي من طريق الأعمش، كلاهما عن عمرو بن مرة، به. وقال الليث، عن يزيد بن الهاد، عن سهيل بن أبي صالح، عن صفوان بن أبي يزيد، عن القعقاع بن الجلاج، عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا المسعودي، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وأنا رجل شحيح، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً! فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تاكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبس الشيء البخل. وقال سفيان الثوري، عن طارق بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: «اللهم قني شح نفسي». لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل»، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه. ورواه ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسحاق، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا مجمع بن جارية الأنصاري، عن عمه يزيد بن جارية، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائية». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يُلْحَقُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لأنارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ أي: بغضاً وحسداً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبواهم! ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. وقال إسماعيل بن علية، عن عبد الملك بن عمير، عن مسروق، عن عائشة قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم. سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها». رواه البيهقي. وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن الزهري قال: قال عمر، رضي الله عنه: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خُبْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قال الزهري: قال عمر: هذه لرسول الله ﷺ خاصة، قرى عربية: فذك وكذا وكذا، فما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فله ولرسوله ولذي القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ﴿وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ بِآيَاتِهِ وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ بِآيَاتِهِ﴾

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق - قال أيوب : أو قال : حظ - إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَرٍ ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحداث قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿إِنَّمَا كَفَرْتُمْ لِلْفَقْرَةِ وَالْمَسْكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِمَ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ مِثْلَهُ خَمْسًا وَاللَّذِينَ فِي الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿مَا آفَأَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت لياتين الراعي - وهو بسرو جدير - نصيبه فيها ، لم يعرق فيها جبينه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَأْتُوا بَقَوْلِهِمْ لَإِنْ جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ آيَاتٌ أَوْ سُرُورٌ مِنْهُمَا إِنْ كُنَّا لِلَّهِ قَرِينًا وَأَلَّا يَجِدُوا بِهِمِ مَكْرَهًا وَأَلَّا يَخْتَفُوا مِنْهُمَا وَإِنَّ لَهُمْ لَعَذَابًا يَذُقُونَ﴾ [١١] ﴿لَيْنَ أَرْجُلًا لَا يَجْرُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُرُونًا لَا يَصُرُّونَمْ وَلَيْنَ نَصْرُهُمْ لِيُؤَكِّدُوا أَعْنَاقَهُمْ وَأَلَّا يَصُدُّوا عَنْهُمُ صُدُورُهُمْ وَمِنْ اللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَى الصَّاعِقَةِ وَأَنَّ الْقَوْمَ يَكْفُرُونَ﴾ [١٢] ﴿لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [١٣] ﴿لَا يَتَذَكَّرُونَ جَمِيعًا إِلَّا فِي فَرَى مُخَصَّنَةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٤] ﴿كُنَّ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قُرْبًا دَافُوا وَكَالَ أُمَّرِهِمْ وَقَمَّ عَدَاؤُكُمْ أَيْمًا﴾ [١٥] ﴿كُنَّ لِلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُنَّ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [١٧] .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَأْتُوا بَقَوْلِهِمْ لَإِنْ جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ آيَاتٌ أَوْ سُرُورٌ مِنْهُمَا إِنْ كُنَّا لِلَّهِ قَرِينًا وَأَلَّا يَجِدُوا بِهِمِ مَكْرَهًا وَأَلَّا يَخْتَفُوا مِنْهُمَا وَإِنَّ لَهُمْ لَعَذَابًا يَذُقُونَ﴾ [١١] ، قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَيْنَ قُرُونًا لَا يَصُرُّونَمْ﴾ أي : لا يقاتلون معهم ، ﴿وَلَيْنَ نَصْرُهُمْ﴾ أي : قاتلوا معهم ﴿لِيُؤَكِّدُوا أَعْنَاقَهُمْ﴾ [١٢] ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿لَا تَنْتَفِئْ عَنْهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أي : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . ثم قال : ﴿لَا يَتَذَكَّرُونَ جَمِيعًا إِلَّا فِي فَرَى مُخَصَّنَةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يعني : أنهم من جبنهم واهلهم لا يقدر على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة ، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال : ﴿بَأْسُهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة ، كما قال : ﴿وَلِيَقْبِضُوا بِأَسْبَاطِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . ثم قال : ﴿كُنَّ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قُرْبًا دَافُوا وَكَالَ أُمَّرِهِمْ وَقَمَّ عَدَاؤُكُمْ أَيْمًا﴾ [١٥] ، قال مجاهد ، والسدي ، ومقاتل بن حيان : يعني : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿كُنَّ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني : يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا . وقوله : ﴿كُنَّ لِلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ يعني : مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا لِنَصْرِكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثلهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر ، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتصل ، وقال : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ . وقد ذكر بعضهم ما هنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، فقال ابن جرير : حدثنا خالد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شميل ، أخبرنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت عبد الله بن نهيك قال : سمعت علياً ، رضي الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراد فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجتها ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها . قال : فجاءوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده . فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبت ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعيينني ، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك ، أسجد لي سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال : إنني بريء منك ، إنني أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿كُنَّ لِلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [١٦] . وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، حدثنا أبي ، عن أبيه ، عن جده ، عن

الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانِي إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنَّي آتَاكَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة أخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب. قال: فنزل الراهب ففجر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مُصدِّقٌ يسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال: أتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا، بل قصها علينا. قال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. فقالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء. قال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فانزلوه، ثم انطلقوا به فلقبه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل. وكذا روي عن ابن عباس، وطاوس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا، والله أعلم. وهذه القصة مخالفة لقصة جريج العابد، فإن جريجاً اتهمته امرأة بغى بنفسها، وادعت أن حملها منه، ورفعت أمره إلى ولي الأمر، فأمر به فانزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول: ما لكم؟ ما لكم؟ فقالوا: يا عدو الله، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا. فقال جريج: اصبروا. ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال: يا غلام، من أبوك؟ قال: أبي الراعي - وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه - فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب. قال: لا، بل أعيدوها من طين، كما كانت. وقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ فِي آثَارِ خَلِيلَيْنِ يَبِيئًا وَكَذَلِكَ جَرَأُوا الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها، ﴿وَكَذَلِكَ جَرَأُوا الظَّالِمِينَ﴾ أي: جزاء كل ظالم.

﴿يَبِيئًا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَرَتَّبْتُمْ نَفْسًا مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَيْرِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن المنذر بن جبر، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتأبي النمار - أو: العباء - متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَبِيئًا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّهُمْ الَّذِي خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَوْدٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَؤُوبًا﴾ [النساء: ٤١]. وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَتَتَنظَّرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِهِ﴾، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بؤره، من صاع تمره - حتى قال -: ولو بشق ثمره. قال: فجاء رجل من الأنصار بصره كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجزورها شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». انفراد بإخراجه مسلم من حديث شعبة، بإسناد مثله. ف قوله تعالى: ﴿يَبِيئًا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ﴾: أمر بتقواه، وهي تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر. وقوله: ﴿وَتَتَنظَّرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِهِ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾: تأكيد ثان، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال: ﴿يَبِيئًا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [المتفقون: ٤٩].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا حريز بن عثمان، عن نعيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله، ﷻ، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله، ﷻ. إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت

الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تنفى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة، واتضحوا بسنائه وبيانه. إن الله أننى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبِّاً وَرَبِّاً وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الانبيا: ٩٠]، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم. هذا إسناد جيد، ورجاله كلهم ثقات، وشيخ حريز بن عثمان، وهو نعيم بن نمحة، لا أعرفه بنفي ولا إثبات، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات. وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه آخر، والله أعلم. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله يوم القيامة، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْضَةً وَمِمَّا هُمْ شَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ الآية [غافر: ٥٨]. وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [مر: ٢٨]؟ في آيات أخر دلالات على أن الله، سبحانه، يكرم الأبرار، ويهين الفجار؛ ولهذا قال ما هنا ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله، ﷻ.

﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعاً مُتَّصِداً بَيْنَ خَشِيَةِ اللَّهِ وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَصْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّكَ الْقُدْرُوسُ السَّلْمُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقِينَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُكْرِبُ سَبَّحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعاً مُتَّصِداً بَيْنَ خَشِيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، ﷻ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَصْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾. قال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعاً﴾ إلى آخرها، يقول: لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله. فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع. ثم قال: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَصْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾. وكذا قال قتادة، وابن جرير. وقد ثبت في الحديث المتواتر: أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده. ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراد: «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع». وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ﴾ الآية [المرء: ٣١]. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي لكان هذا القرآن. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَابَةِ لَمَا يَنْفَعُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَنْفَعُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٢﴾: أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات. وقوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ما هنا. والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [البقرة: ٥٨]. وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّكَ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة. وقوله: ﴿الْقُدْرُوسُ﴾: قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد، وقاتة: أي المبارك. وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام. ﴿السَّلْمُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. وقوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم. وقال قتادة: أمن بقوله إنه حق. وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به. وقوله: ﴿الْمُهَيَّبِينَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو

رقيب عليهم، كقوله ﴿وَاللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]. وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَاهِبٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الآية [الرعد: ٣٣]. وقوله: ﴿الْمَرْزُوقُ﴾ أي: الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ ولهذا قال: ﴿الْجَبَّارُ الْمَكْرُورُ﴾ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبير إلا لعظمته، كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عدبته». وقال قتادة: الجبار: الذي جبر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار: المصلح أمور خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم. وقال قتادة: المتكبر: يعني عن كل سوء. ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾: الخلق: التقدير، والبرء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً وربته يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ. قال الشاعر يمدح آخر:

وَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ — خُسُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
 أي: أنت تفد ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير. والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدر الجلال ثم فرى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريد. وقوله تعالى: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئاً قال له كن، فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. كقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنعام: ٨] ولهذا قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريد. وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: قد تقدم الكلام على ذلك في «سورة الأعراف»، وذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». وتقدم سياق الترمذي وابن ماجه له، عن أبي هريرة أيضاً، وزاد بعد قوله: «وهو وتر يحب الوتر» - واللفظ للترمذي - «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور». وسياق ابن ماجه بزيادة وتقصان، وتقديم وتأخير، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا. وقوله: ﴿يَسْجُدْ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿سُجِّدَ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسْجِدُ يَسْجُوداً وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْمَرْزُوقُ﴾ أي: فلا يرهم جنباه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره. وقد قال الإمام أحمد. حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا خالد - يعني: ابن طهمان، أبو العلاء الخفاف - حدثنا نافع بن أبي نافع، عن معقل بن يسار، عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكلَّ الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة». ورواه الترمذي عن محمود بن غيلان، عن أبي أحمد الزبيري، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.



تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ ثَلُوفَتِ لِيَنَّهُم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ حَرَحْتُمْ جَهْدًا فِي سَبِيلِ وَابْنَةِ مَرْصَانَ فَيُرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَنْفَعْتُمْ وَمَا أَعْنَتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾
 إِنْ يَتَفَقَّهُوا بِكُفْرَانِكُمْ أَقْدَاءُ وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ يَأْسُوهُ وَيُؤْذُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْسَانَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان. فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم، عمّ عليهم خبرنا». فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله رسوله على ذلك، استجابة لدعائه. فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بين في الحديث المتفق على صحته. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، أخبرني حسن بن محمد بن علي، أخبرني عبيد الله بن أبي رافع - وقال مرة: إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره -: أنه سمع علياً، رضي الله عنه، يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لثلثن الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأ مخلصاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفوراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بداراً، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وهكذا أخرج الجماعة إلا ابن ماجه، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة، به. وزاد البخاري في كتاب «المغازي»: فأنزل الله السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وقال في كتاب التفسير: قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال: لا أدري الآية في الحديث أو قال عمرو. قال البخاري: قال علي - يعني: ابن المدينة -: قيل لسفيان: في هذا نزلت: ﴿لَا تَتَّبِعُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؟ فقال سفيان: هذا في حديث الناس، حفظته من عمرو، ما تركت منه حرفاً، وما أرى أحداً حفظه غيري. وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد، والزبير بن العوام، وكلنا فارس، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فأدر كناها تسيّر على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ قلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخأها فالتمسنا فلم نر كتاباً، قلنا: ما كذب رسول الله ﷺ! لتخرجن الكتاب أو لتجردنك. فلما رأته الجذ أهوت إلى حُجْزتها وهي مُحْتَجِزَةٌ بكساء فأخرجته. فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟». قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يَدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: «صدق، لا تقولوا له إلا خيراً». فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه. فقال: «ليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو: قد غفرت لكم. فدمعت عينا عُمر، وقال: الله ورسوله أعلم. هذا لفظ البخاري في «المغازي» في غزوة بدر، وقد روي من وجه آخر عن علي.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني، حدثنا عبيد بن يعي، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، عن أبي سنان - هو سعيد بن سنان - عن عمرو بن مرة الجملي، عن أبي البخترى الطائي، عن الحارث، عن علي قال: لما أراد النبي ﷺ أن يأتي مكة، أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة، فيهم حاطب بن أبي بلتعة وأثنى في الناس أنه يريد خيبر. قال: فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم. فأخبر رسول الله ﷺ، قال: فبعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد، وليس منا رجل إلا وعنده فرس، فقال: «اتوا روضة خاخ، فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذكر رسول الله ﷺ. قلنا لها: هات الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فوضعنا متاعها وفتشناها فلم نجده في متاعها، فقال أبو مرثد: لعله ألا يكون معها. فقلت: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا. قلنا لها:

لتخرجه أو لنعريتك. فقالت: أما تتقون الله؟! أستم مسلمين؟ فقلنا: لتخرجه أو لنعريتك. قال عمرو بن مرة: فأخرجه من حُجْرَتِهَا. وقال حبيب بن أبي ثابت: أخرجته من قُبَلِهَا. فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة. فقام عمر فقال: يا رسول الله، خان الله ورسوله، فائذن لي فلاضرب عنقه. فقال رسول الله: «أليس قد شهد بدرًا؟». قالوا: بلى. قال عمر: بلى، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك. فقال رسول الله ﷺ: «فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، إنني بما تعملون بصير». ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم. فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فقال: «يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟». فقال: يا رسول الله، إنني كنت امرأةً مُلصقةً في قريش، وكان لي بها مال وأهل، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله، فكتبت إليهم بذلك ووالله - يا رسول الله - إنني لمؤمن بالله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً». قال حبيب بن أبي ثابت: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ لَهُم بِالْمُودَّةِ الْآيَةَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ ابْنِ حَمِيدٍ، عَنْ مَهْرَانَ، عَنْ أَبِي سَنَانَ - سَعِيدِ بْنِ سَنَانَ - بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَصْحَابُ الْمَغَازِي وَالسَّيْرِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ فِي السَّيْرَةِ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزَّبِيرِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزَّبِيرِ وَغَيْرِهِ مِنْ عِلْمَانِنَا قَالَ: لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يَخْبِرُهُم بِالَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَمْرِ فِي السَّيْرِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهَا امْرَأَةً - زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَّهَا مِنْ مَزِينَةَ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهَا: سَارَةُ، مَوْلَاةُ لَبْنِيِّ عَبْدِ الْمَطْلُبِ - وَجَعَلَ لَهَا جُعْلًا عَلَى أَنْ تَبْلُغَهُ قُرَيْشًا فَيَجْعَلْتَهُ فِي رَأْسِهَا، ثُمَّ فَتَلَّتْ عَلَيْهِ قُرُونَهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ. وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبِيرَ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا صَنَعَ حَاطِبُ، فَبَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ فَقَالَ: «أَدْرَاكِ امْرَأَةً قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبُ بِكِتَابٍ إِلَى قُرَيْشٍ، يَحْذَرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ». فَخَرَجَا حَتَّى أَدْرَاكَهَا بِالْخَلِيفَةِ - خَلِيفَةَ بَنِي أَبِي أَحْمَدٍ - فَاسْتَنْزَلَاهَا بِالْخَلِيفَةِ، فَالْتَمَسَا فِي رِحْلِهَا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنِّي أَحْلَفُ بِاللَّهِ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا كَذَبْنَا، وَلَتُخْرِجُنَّ لَنَا هَذَا الْكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكَ. فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ مِنْهُ قَالَتْ: أَعْرَضَ. فَأَعْرَضَ، فَحَلَّتْ قُرُونَ رَأْسِهَا، فَاسْتَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْهَا، فَدَفَعْتَهُ إِلَيْهِ. فَأَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبًا فَقَالَ: «يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ، وَلَكِنْ كُنْتُ امْرَأَةً لَيْسَ لِي فِي الْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَلِدٌ وَأَهْلٌ فَصَانَعْتُهُمْ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي فَلَاضْرِبْ عُنُقَهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يَدْرِيكَ يَا عُمَرُ! لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرِ يَوْمَ بَدْرِ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ، فِي حَاطِبٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ لَهُم بِالْمُودَّةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَمْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي زِينَتِهِمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِيَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْسِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذْرًا يَكْفُرًا وَيَدًّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَعْدَاؤُهُ وَالْمَعْصَاةُ أَبَدًا حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدِيثَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة.

وروي مَعْمَرُ، عَنْ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ نَحْوَ ذَلِكَ. وَهَكَذَا ذَكَرَ مِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: أَنَّهُ بَعَثَ سَارَةَ مَوْلَاةَ بَنِي هَاشِمٍ، وَأَنَّهُ أَعْطَاهَا عَشْرَةَ دِرَاهِمٍ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ فِي أَثَرِهَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَدْرَاكَهَا بِالْحَجْفَةِ... وَذَكَرَ تَمَامَ الْقِصَّةِ كَنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ. وَعَنْ السَّدِيِّ قَرِيبَ مِنْهُ. وَهَكَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمِجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ لَهُم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يَعْنِي: الْمَشْرِكِينَ وَالْكَفَّارَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ شَرَعَ اللَّهُ عِدَاؤَهُمْ وَمِصْرَاتِهِمْ، وَنَهَى أَنْ يَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَخْلَاءَ، كَمَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ تَبْغُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ بَعْضُهُمْ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ فَإِنَّهُمْ فِيكُمْ فَأُولَئِكَ مِينُهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا عَلَيْكُمْ هُرُوكًا وَإِلِيًّا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ تُمُونُونَ﴾ [٥٧]. [المائدة: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكُفْرَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَوْمَ أَنْ يَحْشُرُوا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا شَدِيدًا﴾ [النساء: ١٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ وَلِهَذَا قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَذْرَ حَاطِبٍ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِصْنَعَةً لِقُرَيْشٍ، لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

ويذكرها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبي مسلم، عن رباعي بن حراش، سمعت حذيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً: واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة، وتسعة، وأحد عشر - قال: فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء، فأظهر الله أهل

الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه». وقوله: ﴿يَخْرُجُونَ الرُّسُلَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهيج على عدواتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله: ﴿وَمَا تَقْمُوا بِهِمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِئْسَ رَحْمَةً لِقَوْلِهِمْ رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَانِي﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حقاً عليكم وسخطاً لدينكم. وقوله: ﴿يُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ مَيْتَكُمْ فَقَدْ سَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ إِنْ يَتَقَوْمَكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطَرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال. ﴿وَوَدُّوا لَوْ كَفَرُوا﴾ أي: ويحرصون على ألا تتلوا خيراً، فهم عدواتهم لكم كاملة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهيج على عدواتهم أيضاً. وقوله: ﴿إِنْ تَتَعَمَّكُمُ أَسْمَانُكُمْ وَلَا تَأْوَلُكُمْ يَوْمَ الْآفَاتِ يَقْبَضُوا بِئْسَ الْيَوْمِ اللَّهُمَّ بِمَا تَمَلَّوْنَ نَبِيَّ﴾ [٣] أي: قراياتكم لا تتفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قُيِّ دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنْ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ». ورواه مسلم وأبو داود، من حديث حماد بن سلمة، به.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ وَإِنَّا لَنَنُوحُوا الْكُفْرَ وَالنَّفْسَ أَعْدَىٰ لِلنَّفْسِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِقِينَ﴾ [١] وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ وَإِنَّا لَنَنُوحُوا الْكُفْرَ وَالنَّفْسَ أَعْدَىٰ لِلنَّفْسِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِقِينَ ﴿١﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَّخِذِ اللَّهَ هُوَ الْغَيْنَ الْمَلِيَّةَ ﴿٢﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعدواتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ﴾ أي: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ﴾ أي: بدينكم وطريقكم، ﴿وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً تبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إلى أن توحّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَفِرَّكَ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه. وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله، ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَدَىٰ مَا تَبَرَأَ مِنْهُمُ الَّذِينَ أَحَبُّهُمُ لِلْجَاهِلِيَّةِ﴾ [١١٣] وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعَدَةٍ وَوَعْدَهَا إِتْرَاءً فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَفِرَّكَ لَكَ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ وَإِنَّا لَنَنُوحُوا الْكُفْرَ وَالنَّفْسَ أَعْدَىٰ لِلنَّفْسِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِقِينَ﴾ هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، والضحاك وغير واحد. ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلّمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة لا تطهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه. واختاره ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وقوله: ﴿وَأَعِزَّنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يضيأ من لاذبناحك، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك. ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المبيّنة هاهنا هي الأولى بعينها. وقوله: ﴿لَمَّا كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: تهيج إلى

ذلك كل مقر بالله والمعاد. وقوله: ﴿وَمَنْ يَزُكْ﴾ أي: عما أمر الله به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الغنيُّ﴾: الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفه، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار. ﴿الحَمِيدُ﴾: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَبْنَ الْزَيْنَ عَادِيَتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الْبَيْنِ وَلَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ يَبْرُؤُوا وَيُفْسِدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الْبَيْنِ وَالْمُرْكُضَ تَيْنَ دِينِكُمْ وَظَنَّهُمْ عَلَنَ لِخُرَاجِكُمْ أَنْ تَرُدُّوهُمْ وَمَنْ يَتَّكِرْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَبْنَ الْزَيْنَ عَادِيَتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد البقرة، وألفة بعد الفرقة. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأسماء المتناقضة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار: ﴿وَأَذْكُرُوا يَمَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]. وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟». وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرِّهِمْ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. وفي الحديث: «أحب حبيبي هوناً ما، فمعى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما، فمعى أن يكون حبيبي يوماً ما». وقال الشاعر:

وقد يجمعُ الله الشنيتين بعدما يظنُّنان كُـل الظنِّنِ الأتلاقيا

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنبأوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان. وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان، صخر بن حرب، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه. وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر؛ فإن رسول الله تزوج بأب حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف. وأحسن من هذا ما رواه ابن أبي حاتم حيث قال: قُرى على محمد بن عزيز: حدثني سلامة، حدثني عقيل، حدثني ابن شهاب؛ أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً، فقاتله، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين. قال ابن شهاب: وهو ممن أنزل الله فيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَبْنَ الْزَيْنَ عَادِيَتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾. وفي صحيح مسلم، عن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاث أعطينهن. قال: «نعم». قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم»، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وعندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجها. . . الحديث. وقد تقدم الكلام عليه. وقوله تعالى: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الْبَيْنِ وَلَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم، «أَنْ يَبْرُؤُوا» أي: تحسنوا إليهم «وَيُفْسِدُوا إِلَيْهِمْ» أي: تعدلوا «إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُفْسِدِينَ». قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء - هي بنت أبي بكر، رضي الله عنهما - قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك». أخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مصعب بن ثابت، حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: قدمت قتيبة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: صناب وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الْبَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مصعب بن ثابت، به. وفي رواية لأحمد وابن جرير: قتيبة بنت عبد العزي بن عبد أسعد، من بني مالك بن حسل. وزاد ابن أبي حاتم: في المدة التي كانت بين قريش، ورسول الله ﷺ. وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو قتادة العدوي، عن ابن أخي الزهري، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة وأسماء أنهما قالتا: قدمت علينا أمنا

المدينة، وهي مشركة، في الهدنة التي كانت بين قريش وبين رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، إن أمتنا قدمت علينا المدينة راغبة، أفصلها؟ قال: «نعم، فصلها». ثم قال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن الزهري، عن عروة، عن عائشة إلا من هذا الوجه. قلت: وهو منكر بهذا السياق؛ لأن أم عائشة هي أم رومان، وكانت مسلمة مهاجرة، وأم أسماء غيرها، كما هو مصرح باسمها في هذه الأحاديث المتقدمة، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبْئِرُ الْمُقْتَبِينَ﴾: تقدم تفسير ذلك في سورة «الحجرات»، وأورد الحديث الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم، وأهاليهم، وما وكروا». وقوله: ﴿إِنَّمَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِخْرَاجِكُمْ أَن تَقُولُوا مَعْ أَيُّ: إِنَّمَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ نَاصِبُكُمْ الْعَدَاوَةَ، وَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ مَوَالِيهِمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِمَعَادَاتِهِمْ. ثُمَّ أَكَّدَ الرَّعِيدَ عَلَى مَوَالِيهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَاذْنَبْتُمْ لَهُمْ وَالَّذِينَ هُمْ أَكْفَارُكُمْ﴾ كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَاذْنَبْتُمْ إِلَيْهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاتَّخِذُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي سُرُورِ قُلُوبِكُمْ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَمَّا كُنَّ يَهُودِيَّاتٍ وَلَا نِسَائِهِمْ مَا أَتَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَهْرُوسَهُنَّ وَلَا تَنْكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَتَسَلُّوا مَا أَتَفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ كُفَّارًا كَمَا كُنْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَإِنْ فَادَكَ زَوْجٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا تُبَدِّلْهُنَّ لَهُنَّ مَا تَفَقَّهْتُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ بِرِءَافَتِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾

تقدم في سورة «الفتح» ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: «على ألا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا». وفي رواية: «على أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد، والزهري، ومقاتل، والسدي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله ﷻ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعهن إلى الكفار، لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن. وقد ذكرنا في ترجمة عبد الله بن أبي أحمد بن جحش، من المسند الكبير، من طريق أبي بكر بن أبي عاصم، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن يعقوب بن محمد، عن عبد العزيز بن عمران، عن مُجَمِّع بن يعقوب، عن حسين بن أبي لبانة، عن عبد الله بن أبي أحمد قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة، فخرج أخاها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة، ومنعهن أن يُزْدَدْنَ إلى المشركين، وأنزل الله آية الامتحان. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بكير، عن قيس بن الربيع، عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حصين، عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله؟ ثم رواه من وجه آخر، عن الأغر بن الصباح، به. وكذا رواه البزار من طريقه، وذكر فيه أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاتَّخِذُوهُنَّ﴾: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله. وقال مجاهد: ﴿فَاتَّخِذُوهُنَّ﴾: فاسألوهن: ما جاء بهن؟ فإن جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطه أو غيره، ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن. وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله؟ وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك؟ فذلك قوله: ﴿فَاتَّخِذُوهُنَّ﴾. وقال قتادة: كانت محتنتهن أن يستحلفن بالله: ما أخرجكن النشوز؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك ذلك منهن. وقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً. وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾: هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جاثراً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب، رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعث امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمتها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ برق لها رقعة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا». ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة، رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا ابن إسحاق، حدثني داود بن

الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ ورد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. ومنهم من يقول: «بعد سنتين»، وهو صحيح؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بستين. وقال الترمذي: ليس بإسناده بأس، ولا نعرف وجه هذا الحديث، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين. وسمعت عبد بن حميد يقول: سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث، وحديث ابن الحجاج - يعني ابن أرتأة - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ ورد ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد. فقال يزيد: حديث ابن عباس أجود إسناداً، والعمل على حديث عمرو بن شعيب. قلت: وقد روى حديث الحجاج بن أرتأة، عن عمرو بن شعيب الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد، والله أعلم. وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه. وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾ يعني: أزواج المهاجرات من المشركين، اذفعوا إليهم الذي غرموه عليهم من الأصدقة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وغير واحد. وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ نَكَحُوهُنَّ إِذَا بَلَغَتُمُوهنَّ أَهْرُسَهُنَّ﴾ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك. وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾: تحريم من الله ﷻ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن. وفي الصحيح، عن الزهري، عن عروة، عن المسور ومروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساء من المؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْ جَزِيرِئِ الْمُؤْمِنِينَ فَمَتَّحُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. وقال ابن ثور، عن معمر، عن الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو بأسفل الحديبية، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، وقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري: طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها معاوية، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية، وهي أم عبيد الله، فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم، رجل من قومه، وهما على شركهما، وطلق طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص. وقوله: ﴿وَسَتَلُوا مَّا أَنْفَقْتُمْ وَاسْتَلُوا مَّا أَنْفَقُوا﴾ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حَكْمٌ أَلْفٌ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه. ﴿وَأَلْفٌ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أي: عليهم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك.

ثم قال: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ مِنْهُنَّ مِنَ الْأَنْكَارِ فَمَاقِبَتُمْ فَاتُوا الذَّيْبَ ذَهَبَتْ أَرْوَاهُمْ يَنْدَلُ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال مجاهد، وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن الزهري قال: أقر المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسايتهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ مِنْهُنَّ مِنَ الْأَنْكَارِ فَمَاقِبَتُمْ فَاتُوا الذَّيْبَ ذَهَبَتْ أَرْوَاهُمْ يَنْدَلُ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الذَّيْبَ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمره رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق. وهكذا قال مجاهد: ﴿فَمَاقِبَتُمْ﴾: أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَمَاقِبَتُمْ فَاتُوا الذَّيْبَ ذَهَبَتْ أَرْوَاهُمْ يَنْدَلُ مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني: مهر مثلها. وهكذا قال مسروق، وإبراهيم، وقتادة، ومقاتل، والضحاك، وسفيان بن حسين، والزهري أيضاً. وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي

تؤخذ من أيدي الكفار. وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير، والله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرَكَنَّكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَمْتَيْنِ بَعَثْتَنِي بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لِمَنْ أَلَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي ابن شهاب، عن عمه قال: أخبرني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ، أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكم»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتكم على ذلك». هذا لفظ البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لبنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: «أَنْ لَا يُشْرَكَنَّكَ بِاللَّهِ شَيْئًا» الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن»، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولني لامرأة واحدة كقولني لمائة امرأة». هذا إسناد صحيح، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة - والنسائي أيضاً من حديث الثوري - ومالك بن أنس كلهم، عن محمد بن المنكدر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر. وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن أميمة، به. وزاد: «ولم يوافق منا امرأة». وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر الرازي، عن محمد بن المنكدر: حدثتني أميمة بنت رقيقة - وكانت أخت خديجة خالة فاطمة - من فيها إلى في، فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني سليل بن أبيوب بن الحكم بن سليم، عن أمه سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ - وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «ولا تغششن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ: ما غشش أزواجنا؟ قال: فسألته فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن محمد بن حاطب، حدثني أبي، عن أمه عائشة بنت قدامة - يعني: ابن مظعون - قالت: أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول: «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين بيهتان نفتريه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف». قالت: فأطرقن. فقال لهن النبي ﷺ: «قلن: نعم فيما استطعتن». فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقني قولني أي بنية: نعم فيما استطعتن فكنت أقول كما يقلن. وقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن حفصة بنت سيرين، عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَنَّكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها. فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها. ورواه مسلم. وفي رواية: «فما وفي منهن امرأة غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان». وللبخاري عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح، فما وقت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامراتان - أو: ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى.. وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني ابن جريج: أن الحسن بن مسلم أخبره، عن طاروس، عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصلها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكانني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهيم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرَكَنَّكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَمْتَيْنِ بَعَثْتَنِي بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾، حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟». فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله - لا يدري الحسن من هي - قال: «فتصدقن»، قال: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن سليمان بن سليم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن

جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تباعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقِي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي بيهتان تفتريه بين يديك ورجليك، ولا تنوحِي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى». وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عباد بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿إِذَا جَاءَكَ النَّؤُوسُ﴾ - فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه». أخرجاه في الصحيحين. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي عبد الله عبد الرحمن بن عسيلة الضنابجي، عن عباد بن الصامت قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعه النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على ألا تشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادنا، ولا تأتي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال: «فإن وقيتم فلکم الجنة» رواه ابن أبي حاتم. وقد روى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال: «قل لهن: إن رسول الله ﷺ يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً» - وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التي شقت بطن حمزة مَنكُرة في النساء - فقالت: إني إن أتكلم بعرفني، وإن عرفني قتلني. وإنما تنكرت فرقا من رسول الله ﷺ، فسكت النسوة اللاتي مع هند، وأبين أن يتكلمن. فقالت هند وهي مَنكُرة: كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال؟ ففطن إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر: «قل لهن: ولا تسرقن». قالت هند: والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات، ما أدري أحلهن لي أم لا؟ قال أبو سفيان: ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي، فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فدعاها فأخذت بيده، فعادت به، فقال: «أنت هند؟». قالت: عفا الله عما سلف. فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال: «ولا تزنين»، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟ قال: «لا، والله ما تزني الحرة». فقال: «ولا يقتلن أولادهن»، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، فأنت وهم أبصر. قال: «وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَدَايُكَ بِقَدْرِيتهُ بَيْنَ يَدَيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ» قال: «وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ». قال: ممنعهن أن ينحن، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه، ويقطعن الشعور، ويدعون بالثبور. والثبور: الويل. وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يخيفهما، بل أظهرهما الصفاء والود له، وكذلك كان الأمر من جانب، عليه السلام، لهما. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الفتح، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ، فذكر بقيقته كما تقدم وزاد: فلما قال: «وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ»، قالت هند: ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً. فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثتني غبطة بنت سليمان، حدثتني عمتي، عن جدتها، عن عائشة قالت: جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتباعه، فنظر إلى يدها فقال: «اذهبي فغيري يدك». فذهبت فغيرتها بحناء، ثم جاءت فقال: «أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً»، فبايعها وفي يدها سواران من ذهب، فقالت: ما تقول في هذين السوارين؟ فقال: «جمرتان من جمر جهنم». فقلوه: «يَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ النَّؤُوسُ يَبَاعِعُكَ» أي: من جاءك منهن على هذه الشروط، فبايعها، «عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَدْرَقَنَّ» أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثاله، وإن كان بغير علمه، عملاً بحدِيث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك». أخرجاه في الصحيحين. وقوله: «وَلَا يَزِينَنَّ» كقولها: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فَجْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾ [الإسراء: ٣٢]». وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تباع النبي ﷺ فأخذ عليها: «أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَدْرَقَنَّ وَلَا يَزِينَنَّ» الآية، قالت: فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجب ما رأى منها، فقالت عائشة: أفزِي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا. قالت: فنعم إذاً. فبايعها بالآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، عن حصين، عن عامر - هو الشعبي - قال: بايع رسول الله ﷺ النساء، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه، ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن». فقالت امرأة: تقتلن آباءهم وتوصينن بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يبايعنه، جمعهن فعرض عليهن، فإذا أقررن رجعن. وقوله: «وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ»: وهذا يشمل قتله بعد

وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتلته وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ بَقْرَاتٌ بَيْنَ أَثَدَيْنَ وَأَرْطَابُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. ويؤيد هذا، الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمرو - يعني: ابن الحارث - عن ابن الهاد، عن عبد الله بن يونس، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعة: «أيا امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء»، ولن يدخلها الله جنته، وأيا رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين». وقوله: ﴿وَلَا يَصِيَّبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يعني: فما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر. قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي قال: سمعت الزبير، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَصِيَّبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن بهرآن: لم يجعل الله لنبية طاعة إلا لمعروف، والمعروف: طاعة. وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله، وهو خيرة الله من خلقه في المعروف. وقد قال غيره عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسالم بن أبي الجعد، وأبي صالح، وغير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح. وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة في هذه الآية: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن النياحة، ولا تحدثن الرجال إلا رجلاً ممنك محرماً. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا نبي الله، إن لنا أضيافاً، وإننا نغيب عن نسائنا. فقال رسول الله ﷺ: «ليس أولئك عَنَيْتُ، ليس أولئك عَنَيْتُ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء، أخبرنا ابن أبي زائدة، حدثني مبارك، عن الحسن قال: كان فيما أخذ النبي ﷺ: «ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يمضي بين فخذي». وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون، عن عمرو، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا الأناج، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وقى منهن غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك. وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين، عن أم عطية نسيبة الأنصارية، رضي الله عنها. وقد روى نحوه من وجه آخر أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا عُمر بن فروخ القَتَّاب، حدثني مصعب بن نوح الأنصاري قال: أدركت عجزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ. قالت: فأتيت لأبايعه، فأخذ علينا فيما أخذ الأناج. فقالت عجزوز: يا رسول الله، إن ناساً قد كانوا أسعدوني على مصائب أصابتنني، وإنهم قد أصابتنهم مصيبة، فأنأريد أن أسعدهم. قال: «فانطلقني فكافئتهم». فانطلقت فكافأتهن، ثم إنها أتته فبايعته، وقال: هو المعروف الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَصِيَّبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا القَعْتَبِيُّ، حدثنا الحجاج بن صفوان، عن أسيد بن أبي أسيد البراد، عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ: ألا نعصيه في معروف: ألا نخمش وجوهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً، ولا ندعوا وديلاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن يزيد مولى الصهباء، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَا يَصِيَّبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، قال: «النوح». ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن أبي نُعَيْمٍ - وابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع - كلاهما عن يزيد بن عبد الله الشيباني مولى الصهباء، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إسحاق بن عثمان أبو يعقوب، حدثني إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية، عن جدته أم عطية قالت: لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقام على الباب وسلم علينا، فرددت - أو: فرددنا - عليه السلام، ثم قال: «أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكن». قالت: فقلنا: مرحباً برسول الله ورسول رسول الله. فقال: «تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن ولا تزنين؟» قالت: قلنا: نعم. قالت: فمديده من خارج الباب - أو: البيت - ومددنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: «اللهم اشهد». قالت: وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحُيُص والعواتق، ولا جمعة علينا، ونهانا عن اتباع الجنائز. قال إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله: ﴿وَلَا يَصِيَّبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾. قالت: النياحة. وفي الصحيحين من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا أبان بن يزيد،

حدثنا يحيى بن أبي كثير: أن زيدا حدثه: أن أبا سلام حدثه: أن أبا مالك الأشعري حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «الناحية إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». ورواه مسلم في صحيحه منفرداً به، من حديث أبان بن يزيد العطار، به. وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ لعن النائحة والمستمعة. رواه أبو داود.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّوَلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر «هذه السورة» كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّوَلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يشسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ. وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: فيه قولان، أحدهما: كما يشس الكفار الأحياء من قرباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاءهم منهم فيما يعتقدونه. قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّوَلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر السورة، يعني: من مات من الذين كفروا فقد يشس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يعيهم الله ﷻ. وقال الحسن البصري: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قال: الكفار الأحياء قد يشسوا من الأموات. وقال قتادة: كما يشس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. وكذا قال الضحاك. رواه ابن جرير. والقول الثاني: معناه: كما يشس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. قال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قال: كما يشس هذا الكافر إذا مات وعابن ثوابه واطلع عليه. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، ومقاتل، وابن زيد، والكلبي، ومنصور. وهو اختيار ابن جرير.



تفسير سورة الصف

وهي مدنية. قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة - وعن عطاء بن يسار، عن أبي سلمة - عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها. وهكذا رواه الإمام أحمد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباد بن الوليد بن مزيد البيروتي قراءة قال: أخبرني أبي، سمعت الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني عبد الله بن سلام. أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نساله عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ؟ فلم يذهب إليه أحد منا، وهبنا أن نساله عن ذلك، قال: فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة سبح «الصف» قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها. قال أبو سلمة: وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها، قال يحيى بن أبي كثير: وقرأها علينا أبو سلمة كلها. قال الأوزاعي: وقرأها علينا يحيى بن أبي كثير كلها. قال أبي: وقرأها علينا الأوزاعي كلها. وقد رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ لعملناه. فأنزل الله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة. قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي. قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير. ثم قال الترمذي: وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي، فروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن سلام - أو: عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام. قلت: وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يَعمَر، عن ابن المبارك، به. قال الترمذي: وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعي، نحو رواية محمد بن كثير. قلت: وكذا رواه الوليد بن يزيد، عن الأوزاعي، كما رواه ابن كثير. قلت: وقد أخبرني بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو المُنَجَّج عبد الله بن عَمَر بن اللَّيْثي، أخبرنا أبو

الوقت عبد الأول بن عيسى بن شُعيب السُّجَزي قال: أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود الداودي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَمَوِيَّة السرخسي، أخبرنا عيسى بن عُمَر بن عمران السمرقندي، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بجميع مسنده، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي... فذكر بإسناده مثله، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبي العباس والحجار، ولم يقرأها، لأنه كان آمياً، وضاق الوقت عن تلقينها إياه. ولكن أخبرني الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، رحمه الله: أخبرنا القاضي تقي الدين سليمان ابن الشيخ أبي عمر، أخبرنا أبو المنجا بن اللّتي، فذكره بإسناده، وتسلسل لي من طريقه، وقرأها علي بكمالها، والله الحمد والمنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ مُتَضَمِّنُونَ ﴿٤﴾﴾.

تقدم الكلام على قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غير مرة، بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ إنكار على من يعد عداً، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عُرم للموعد أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها» - فذكر منهن إخلاف الوعد.. وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول «شرح البخاري»، والله الحمد والمنة. ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله: تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تُعطيه؟». قالت: تمرأ. فقال: «أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة». وذهب الإمام مالك، رحمه الله، إلى أنه إذا تعلق بالوعد عُرم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغیره: «تزوج ولك على كل يوم كذا». فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق أممي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إل أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِ الَّذِي لَقِيَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظُنُّونَ قِيْلًا ﴿٧٧﴾ أَيْمَنَّا تَكُونُوا يَدْرِكِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُجٍ مُّشْتَبِهَةٍ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَظُنُّونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿٧٩﴾ [محمد: ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله - ﷻ - دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيماناً به لا شك فيه، وجاهد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ وهذا اختيار ابن جرير.

وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به. فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ مُتَضَمِّنُونَ﴾، فبين لهم، فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين، فانزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي. ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: «قاتلت»، ولم يقاتل. «وطعنت»، ولم يطعن. «وضربت»، ولم يضرب. «وصبرت»، ولم يصبر. وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: «قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا». ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن يزيد: نزلت في قوم من المنافقين، كانوا يعدون المسلمين النصر، ولا يفون لهم بذلك. وقال مالك، عن يزيد بن أسلم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ قال: في الجهاد. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إلى قوله:

﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ فما بين ذلك: في نفر من الأنصار، فيهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله، لعلمنا بها حتى نموت. فأنزل الله هذا فيهم. فقال عبد الله بن رواحة: لا أبرح حبساً في سبيل الله حتى أموت. فقتل شهيداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مُشهر، عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدبلي، عن أبيه قال: بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل، كلهم قد قرأ القرآن، فقال: أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم. وقال: كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسححات، فأنسيناها، غير أني قد حفظت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾. فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٣﴾﴾، فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجيهن لأعداء الله في حومة الوغي، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا هُشَيْمٌ، قال مُجَالِدٌ أَخْبَرَنَا عَنْ أَبِي الْوَدَّاعِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ: الرَّجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلَاةِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلْقِتَالِ». ورواه ابن ماجه من حديث مجالد، عن أبي الوُدَّاعِ جبر بن نوف، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْنٍ، حدثنا الأسود - يعني ابن شيبان - حدثني يزيد بن عبد الله بن الشُّخَيْرِ قال: قال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتيه لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث، فكنت أشتيه لقاءه، فقال: لله أبوك! فقد لقيت، فهات. فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة؟ قال: أجل، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله؟ قال: رجل غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقتل، وأنتم تجدون في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٣﴾﴾. . . . وذكر الحديث.

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق، وبهذا اللفظ، واختصره. وقد أخرجه الترمذي والنسائي من حديث شعبة، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن زيد بن طيبان، عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم وقد أوردناه في مواضع آخر، والله الحمد. وعن كعب الأبحار أنه قال: يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: «عبد المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشام، وأمه الحمادون يحمّدون الله على كل حال، وفي كل منزلة، لهم دوي كدوي النحل في جو السماء بالسحر، يؤصّون أطرافهم، ويأتررون على أنصافهم، صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة». ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٣﴾﴾، «رعاة الشمس، يصلون الصلاة حيث أدرتهم، ولو على ظهر دابة» رواه ابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾: ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال. وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾: مُتَّبِعٌ، لا يزول، ملتصق بعضه ببعض. وقال قتادة: ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾: ألم تر إلى صاحب البنيان، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله ﷻ يحب أن لا يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفحهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به. أورد ذلك كله ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن يحيى بن جابر الطائي، عن أبي بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض، لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٣﴾﴾ قال: وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفت في الصف فنجثوا في لحيي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْتَلُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِنَّكُمْ قُلْتُمُ أَنَّهُ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَرَىٰ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قُلُوبٌ كَارِيَةٌ ﴿٢١﴾﴾ كَذَٰلِكَ سَمِعْتُمْ هَٰذَا ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكنيته موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم تصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ

فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أودى بأكثر من هذا فصبر». وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يؤصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَقَلْبًا أَفْجَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَرُّ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَرُوا وَنَدَرْتَهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَمْمَهُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَصْحَبْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١١٥] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي المكي أحمد. فعيسى، عليه السلام، هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نوبة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به. وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخْرَجْتُكُمْ مِنَ مِصْرَ وَمَعَكُمْ حُكْمًا ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِمَّنْ لَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِمَّا قَدَّرْتُمْ قَالَ أَقْبِرْتُمْ قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصره. وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام». وهذا إسناد جيد. وروى له شواهد من وجوه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيته، وسأنتبكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورويا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين». وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاء له قصور الشام». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى: سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عرفة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى. فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدي، فلما دخلا على النجاشي سجداً له، ثم ابتدرا عن يمينه وعن شماله، ثم قالوا له: إن نقرأ من بني عمنا نزلوا أرضك، وورغوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالوا: هم في أرضك، فابعت إليهم. فبعث إليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله ﷻ. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد إلا لله ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص، فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله ﷻ: هو كلمة الله وروحه ألهاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسهما بشر ولم يقرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضه. وأمر بهدية الآخزين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرأ، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته. وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم

سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة. والمقصود أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمروهم بتابعه ونصره وموازرته إذا بعث. وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: «أخبرنا عن بدء أمرك» يعني: في الأرض، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأيت» أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد، أي المبشر به في الأعصار المتقدمة، المئوّه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِ ثَوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينٍ مُلْتَمَسٍ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أندادا وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يرد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ مُنِ ثَوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينٍ مُلْتَمَسٍ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة «براءة»، بما فيه كفاية لله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى بَحْرٍ تُجْرِكُ مِنْ عَدَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَتَوَسَّوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُخْجِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفِّرُ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَجْزِيَكُمْ أَجْرًا بِمَا عَمِلْتُمْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ نَفْسَهُمْ نَضْرًا مِنْ اللَّهِ وَنَضْحَةً قَرِيبًا وَيَخْرُجُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة، رضي الله عنهم، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى بَحْرٍ تُجْرِكُ مِنْ عَدَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ ثم فسره هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: ﴿تَتَوَسَّوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُخْجِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أي: من تجارة الدنيا، والكد لها والتصدي لها وحدها. ثم قال: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به وادلتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمسكن الطيبات، والدرجات العاليات، ولهذا قال: ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفِّرُ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَجْزِيكُمْ أَجْرًا بِمَا عَمِلْتُمْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ نَفْسَهُمْ نَضْرًا مِنْ اللَّهِ وَنَضْحَةً قَرِيبًا﴾ وهي: ﴿نَضْرًا مِنْ اللَّهِ وَنَضْحَةً قَرِيبًا﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتهم دينه، تكفل الله بنصركم. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَضْرُوا اللَّهَ يَنْصُرَهُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله: ﴿وَنَضْحَةً قَرِيبًا﴾ أي: عاجل. فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال: ﴿وَيَخْرُجُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفْرًا أَصَارَ اللَّهُ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْكُفْرَؤُونَ غَنَى أَصَارَ اللَّهُ فَأَمَاتَ غُلَاقَهُ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ غُلَاقَهُ فَأَبْدَأَ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَذُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى أمرآ عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي: من ميعني في الدعوة إلى الله ﷻ؟ ﴿قَالَ الْكُفْرَؤُونَ﴾ - وهم أتباع عيسى عليه السلام -: ﴿غَنَى أَصَارَ اللَّهُ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازيك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين، واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي». حتى قبض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازره، وشارطوه أن يمنعه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفواله بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم، رضي الله عنهم، وأرضاهم. وقوله: ﴿فَأَمَاتَ غُلَاقَهُ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ غُلَاقَهُ﴾ أي: لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته،

ورموه وأمه بالعظام، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقا وشيعا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله. وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء. وقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصراري، ﴿فَأَسْبَحُوا طَهْرِينَ﴾ أي: عليهم، وذلك بعبثة محمد ﷺ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال - يعني ابن عمرو - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا، من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبيهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنا فقال: أنا. قال: فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، وُزِعَ عيسى عليه السلام من روزة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق. قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ، ﴿فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَرَّرتَ عَلَيْهِمُ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَسْبَحُوا طَهْرِينَ﴾، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَسْبَحُوا طَهْرِينَ﴾. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة. وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه، عن أبي كُرَيْبٍ محمد بن العلاء، عن أبي معاوية، بمثله سواء. فامة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.



تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية. عن ابن عباس، وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْبِغْ يَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَلَّذِينَ اتَّقَوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَلْفُؤُسٍ لَّكَبِيرٍ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِينَ رَسُوْلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ سَكَلِي مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَأْتِيَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْهُمْ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ ﴿٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يسبغ له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَنَسَبِحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ثم قال: ﴿لَلَّذِينَ اتَّقَوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَلْفُؤُسٍ لَّكَبِيرٍ﴾ أي: المتمزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْأَلْفُؤُسُ لَكَبِيرٌ﴾ أي: المتمزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْأَلْفُؤُسُ لَكَبِيرٌ﴾: تقدم في تفسيره غير مرة. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِينَ رَسُوْلًا مِنْهُمْ﴾: الأميرون هم: العرب كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَهْتَكَدُوا رَبَّاتٍ تَوَلَّوْنَا فَمَا كَسَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِمِيسِرٍ يَا لَيْبَادُ﴾ [ال عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عاداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكد، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذَكَرُ لَكُمْ وَلَقَوْمِكُمْ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به. وكذا قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿لَا تُذَكِّرْكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْبَسْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثه صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام، بالآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله

إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، وطُمُوسٍ من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب - أي: نزرأ يسيراً - ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُوْلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ صَلَّيْ ثِيْبِيْنَ ﴿٥﴾. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه، وقلوبه وخالقوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله. حاكم، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع. وجمع له تعالى، وله الحمد والمنة، جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يُعط أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾: قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفيها سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سليمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لنالته رجال - أو: رجل - من هؤلاء». ورواه مسلم، والترمذي، والنسائي وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق عن ثور بن زيد الديلي، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة، به. ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله ﷻ، وإلى اتباع ما جاء به؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: قال: هم الأعاجم، وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب». ثم قرأ: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ. وقوله: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره. وقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧﴾﴾ يعني: ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الذُّرَّةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوا كَثَلَهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِعْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِاللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَوُونَ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي ذُكِّرْتُمْ بَشَرًا لَأَبْرَأَهُنَّ مِنْكُمْ لَمَّا مَلَكْنَا بِيَدِنَا لَمَّا كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿١١﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتاباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيماً ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمير لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال ها هنا: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا ابن نمير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له «أنصت»، ليس له جمعة». ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِعْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِاللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فيما تزعمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ أَيْدِيَهُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وقد قدمنا في سورة «البقرة» الكلام على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ حَالِكَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا

الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩﴾ وَكَانَ يَمْتَوِيهِ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ يُؤَدُّنَهُمْ حَتَّىٰ تَضُمُّوهُمْ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ وَلَا يَرْحَمُونَ ﴿١١﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].
وقد أسلفنا الكلام هناك، وبيننا أن المراد أن يدعو على الضال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباحلة النصارى في آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُو مَا جَاءَكَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا نَحْنُ آبَاءُكُمْ وَإِن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبَابٌ طَائِفَةٌ فَاقْبَلْهُ وَخُذْ صِلَاهُ إِنَّكُمْ لَرَأْسُ عَصَا جَعَلْنَا لِلشُّرَكِيَّةِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] ومباحلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا﴾ [مريم: ١٧٥].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقي أبو يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لأتيتنه حتى أطأ على عُنُقِهِ. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تموتوا لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً». رواه البخاري والترمذي والنسائي، من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن عبد الكريم، به. قال البخاري: «وتبعه عمرو بن خالد، عن عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم». ورواه النسائي أيضاً عن عبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي، عن عبيد الله بن عمرو والرقي، به أتم. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتِ الْآخِرَةُ تَكُونُ بِدِينِكُمْ وَالْمَوْتُ لَوْ كُنْتُ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ١٧٨]. وفي معجم الطبراني من حديث معاذ بن محمد الهذلي، عن يونس، عن الحسن، عن سمره مرفوعاً: «مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانهر دخل حجره، فقالت له الأرض: يا ثعلب ديني. فخرج له خصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه، فمات».

﴿يَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ مَأْتُوا إِذَا تَوَدَّى السُّلُوكَ مِنَ الْبُرُوجِ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَرِّ الْجُمُعَةِ قَامَسُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْتَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كُمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها. وفيه تقوم الساعة. وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبيدة بن حُميد، عن منصور، عن أبي معشر، عن إبراهيم، عن علقمة، عن قرظ الضبي، حدثنا سلمان قال: قال أبو القاسم ﷺ: «يا سلمان، ما يوم الجمعة؟». قلت: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «يوم جُمع فيه أبواك - أو: أبوك». وقد زوي عن أبي هريرة، من كلامه، نحو هذا، فانه أعلم. وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة. وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن مثنى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا. ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلّفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». لفظ البخاري. وفي لفظ لمسلم: «أضل الله من كان قبلنا. فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد. وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق». وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال: ﴿يَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ مَأْتُوا إِذَا تَوَدَّى السُّلُوكَ مِنَ الْبُرُوجِ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَرِّ الْجُمُعَةِ قَامَسُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مسيركم إليها، وليس المراد بالسعي ها هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]. وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها: «فامضوا إلى ذكر الله». فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه، لما أخرجه في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا». لفظ البخاري. وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نُصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم؟». قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيت الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا». وأخرجه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، رضي الله عنه،

قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن اتتوها تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا». رواه الترمذي من حديث عبد الرزاق كذلك، وأخرجه من طريق يزيد بن زريع، عن معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بمثله. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة في قوله: ﴿فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصفات: ١٠٢] أي: المشي معه. روي عن محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وغيرهما نحو ذلك. ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل». ولهما عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده». رواه مسلم.

وعن جابر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة». رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها». وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» أخرجاه. ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب ويتسوك، ويتنظف ويتطهر. وفي حديث أبي سعيد المتقدم: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله». وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، عن عمران بن أبي يحيى، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبي أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله - إن كان عنده - وليس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركب - إن بدا له - ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى». وفي سنن أبي داود وابن ماجه، عن عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته». وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب التمار، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه، سوى ثوبي مهنته». رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّىٰ لِبَسْوَةٍ﴾: المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله حيث قال: حدثنا آدم - هو ابن أبي إياس - حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء يعني: يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة، بقرب المسجد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا محمد بن راشد المكحولي، عن محكول: أن النداء كان يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام، ثم تقام الصلاة، وذلك النداء الذي يحرم عنده البيع والشراء إذا نودي به، فأمر عثمان، رضي الله عنه، أن ينادي قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقِيم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب الفروع. وقوله: ﴿وَدَّزُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة. ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم. وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم، أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون. وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغ منها، ﴿فَانشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَنْبَتُوا مِنْ قَضَلِ اللَّهِ﴾: لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من

فضل الله. كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: اللهم، أجيبت دعوتك، واصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين. رواه ابن أبي حاتم. وروي عن بعض السلف أنه قال: من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا لِّمَلَكٍ يُقَلِّحُونَ﴾ أي: في حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كُتبت له ألف ألف حسنة، ومُحي عنه ألف ألف سيئة». وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ الْبَيْعَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

عبات تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب. هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم: أبو العالية، والحسن، وزيد بن أسلم، وقتادة. وزعم مقاتل بن حيان: أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم. وقد صح بذلك الخبر، فقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: قدمت عيِّر المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾. أخرجاه في الصحيحين، من حديث سالم، به. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هُشيم، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عيِّر إلى المدينة، فابتدعها أصحاب رسول الله ﷺ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي ناراً»، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾، وقال: كان في الاثنى عشر الذين تَبَتُّوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما. وفي قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾: دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً. وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس. لكن ها هنا شيء ينبغي أن يعلم وهو: أن هذه القصة قد قيل: إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل: حدثنا محمود بن خالد، عن الوليد، أخبرني أبو معاذ بَكِير بن معروف، أنه سمع مُقاتل بن حَيَّان يقول: «كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يومٌ والنبي يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة. يعني: فانفضوا، ولم يبق معه إلا نفر يسير. وقوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ الْبَيْعَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته.



تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ قَالُوا تَهْدِي إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَهْدِي إِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خَشَبٌ مُّسْتَدَدٌ بِحُيُورٍ كُلِّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمُدُودُ فَلَا تُدْرِكُهُمُ النَّارُ وَاللَّهُ أَنَّى يُؤْكِرُونَ ﴿٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين: أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ قَالُوا تَهْدِي إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون؛ ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. ثم قال:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم. وقوله: ﴿أَتَّخَذُوا آيَاتِنَا حُجَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اتقوا الناس بالإيمان الكاذبة والحلفات الآتمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خيلاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس. ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا لَهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرأها: ﴿أَتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ حُجَّةً﴾ أي: تصديقهم الظاهر حجة، أي: تقية يتقون به القتل. والجمهور يقرأوها: ﴿أَيُّنَّهُمْ﴾ جمع يمين. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَّ عَلَ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أي: إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿فَطَحَّ عَلَ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خيراً، فلا تمي ولا تهتدي. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: كانوا أشكلاً حسنة وذوي فصاحة والسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم بلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبين؛ ولهذا قال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِدْقَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف، يعتقدون لجنبتهم، أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيُّحَةَ عَلَيْهِمْ إِذَا جَاءَهُمْ الْكُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنِّي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْكُوفُ سَلَفَكُمْ يَأْتِيَنَّهُ جِدَاؤُ أَيُّحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَعَبَّ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ [الاحزاب: ١٤]، فهم جهامات وصور بلا معاني. ولهذا قال: ﴿هُرُّ الْمَدَدُ فَاصْدَرْتُمْ قَوْلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجُمحي، عن إسحاق بن بكر بن أبي الفرات، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري. عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهن لعنة، وطعامهن نُهبة، وغنيمةن غلول، ولا يقربون المساجد إلا هَجْراً ولا يأتون الصلاة إلا ذُبْراً، مستكبرين لا يألون ولا يؤلفون، حُشْبٌ بالليل، صُحْبٌ بالنهار.» وقال يزيد مرة: سُحْبٌ بالنهار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا وَوَسِعَ رَبِّيهِمْ بَصُورًا وَهُمْ سُتُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبَشِّرْنَا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْبَيْزَةُ وَرَسُولُهُ وَرَلِّمُونِيهِ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا وَوَسِعَ رَبِّيهِمْ بَصُورًا﴾ أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكباراً عن ذلك، واحتقاراً لما قيل لهم. ولهذا قال: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ بَصُورًا وَهُمْ سُتُورُونَ﴾. ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٦﴾، كما قال في سورة «براءة»، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير المدني قال: قال سفيان ﴿لَوَّا لَوًّا وَوَسِعَ رَبِّيهِمْ بَصُورًا﴾: قال ابن أبي عمير: حول سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شُزْراً، ثم قال: هو هذا. وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان. وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعني مرجعه من أحد - وكان عبد الله بن أبي ابن سلول - كما حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يقرمه كل جُمعة لا يُنكر، شرفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخاطب الناس قام، فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا. ثم جلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع - يعني مرجعه بثلك الجيش - ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكانما قلت بجرأ، أن قمت أشدد أمره. فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكانما قلت بجرأ، فقالوا: ويلك. ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره، فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكانما قلت بجرأ، أن قمت أشدد أمره. قالوا: ويلك. ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي. وقال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذموه،

وأُنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ؟ فجعل يلوي رأسه، أي: لست فاعلاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي سلول قال: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار، وقيل لعبد الله بن أبي: أتت النبي ﷺ حتى يستغفر لك. فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُؤُوسَهُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح لك. سعيد بن جبير. وقوله: إن ذلك في غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد؛ فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش. وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق.

قال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، في قصة بني المصطلق: فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري - وكان أجيراً - لعمر بن الخطاب، وسنان بن وبرة قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين - وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي - فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك». والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كفتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيْمٌ - وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله مُرَّ عِبَادِ بْنِ بَشْرٍ فليضرب عنقه. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل». فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أنه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل. وراح رسول الله ﷺ مُهَجِراً في ساعة لا يروح فيها، فلقبه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رُحْتُ في ساعة مُنْكَرَةٌ ما كنت تروح فيها. فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغنا ما قال صاحبك ابن أبي؟». زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل». قال: فأتت - يا رسول الله - العزيب وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتتوجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكاً. فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشرح لهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فاناموا، ونزلت سورة المنافقين. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوا فإنها منتنة». وقال عبد الله بن أبي ابن سلول - وقد فعلوها -: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي، عن سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن الحميدي، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن سفيان، به نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن محمد بن كعب القرظي، عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك. قال: فلأمتي قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فمتمت كتيباً حزيناً، قال: فأرسل إلي نبي الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عُذْرَكَ وَصَدَقَكَ». قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَيْنَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ حتى بلغ: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. ورواه البخاري عند هذه الآية، عن آدم بن أبي إياس، عن شعبة، ثم قال: وقال ابن أبي زائدة، عن الأعمش، عن عمرو، عن ابن أبي ليلى، عن زيد، عن النبي ﷺ. ورواه الترمذي والنسائي عنده أيضاً من حديث شعبة، به.

طريق أخرى عن زيد: قال الإمام أحمد، رحمه الله، حدثنا يحيى بن آدم، ويحيى بن أبي بكير قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي

إسحاق قال: سمعت زيد بن أرقم - وقال ابن أبي بكير: عن زيد بن أرقم - قال: خرجت مع عمي في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إليّ رسول الله ﷺ فحدثته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا ما قالوا: فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، وجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك. قال: حتى أنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: فبعث إليّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله علي، ثم قال: «إن الله قد صدقك». ثم قال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق: أنه سمع زيد بن أرقم يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل. فقالوا: كذب زيد يا رسول الله. فوقع في نفسي ما قالوا، حتى أنزل الله تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾. قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَا لَا يَرْجُو عَوْنًا﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء. وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث زهير. ورواه البخاري أيضاً والترمذي من حديث إسرائيل، كلاهما عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الكوفي، عن زيد، به.

طريق أخرى عن زيد: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد الله بن حميد، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي قال: حدثنا زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب، فكانت تبتدئ الماء، وكان الأعراب يسبقونا يسبق الأعرابي أصحابه يملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل التطح عليه حتى يجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار الأعرابي، فأرخصى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدعه، فانتزع حجراً ففاض الماء، فرفع الأعرابي خشية، فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبي، ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا من حوله - يعني الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام. فقال عبد الله لأصحابه: إذا انفصوا من عند محمد فاتوا محمداً بالطعام، فليأكل هو ومن عنده، ثم قال لأصحابه: إذا رجعت إلى المدينة فليخرج الأعرض منها الأذل. قال زيد: وأنا ردف عتي، فسمعت عبد الله فأخبرت عتي، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه رسول الله، فحلف وجحد، قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني، فجاء إلى عمي فقال: ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون. فوقع علي من الغم ما لم يقع على أحد قط، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفقت برأسي من الهم، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني، وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقتي وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت: ما قال لي رسول الله ﷺ، غير أن عرك أذني وضحك في وجهي. فقال: أبشر. ثم لحقتي عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر. فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين. انفرد بإخراجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. وهكذا رواه الحافظ البيهقي عن الحاكم عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي، عن سعيد بن مسعود، عن عبيد الله بن موسى، به. وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ﴾ حتى بلغ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نَبْفِقُوكَ عَلَىٰ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ حتى بلغ: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ﴾. وقد روى عبد الله بن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير - في المغازي - وكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أيضاً هذه القصة بهذا السياق، ولكن جعلها الذي بلغ رسول الله ﷺ كلام عبد الله بن أبي ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم، من بني الحارث بن الخزرج. فلعله مبلغ آخر، أو تصحيف من جهة السمع، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عزيز الأيلي، حدثني سلامة، حدثني عقيل، أخبرني محمد بن مسلم، أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه: أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع، وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة، فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك، أحدهما من المهاجرين، والآخر من بهز، وهم حلفاء الأنصار، فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي، فقال البهزي: يا معشر الأنصار، فنصره رجال من الأنصار، وقال المهاجري: يا معشر المهاجرين. فنصره رجال من المهاجرين، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال، ثم حُجز بينهم فانكفا كل منافق - أو: رجل في قلبه مرض - إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال: قد كنت تُرَجِي وتدفع فأصبحت لا تضرو ولا

تنفع، قد تناصرت علينا الجلابيب - وكانوا يدعون كل حديث هجرة: الجلابيب - فقال عبد الله بن أبي عدو الله: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال مالك بن الدخشم - وكان من المنافقين -: أو لم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا. فسمع بذلك عمر بن الخطاب، فأقبل يمشي حتى جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس، أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبي - فقال رسول الله ﷺ لعمر: «أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله؟». قال عمر: نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «اجلس». فأقبل أسيد بن الحضير - وهو أحد الأنصار، ثم أحد بني عبد الأشهل - حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس حتى أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله؟». قال: نعم، والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه. فقال رسول الله ﷺ: «اجلس». ثم قال رسول الله ﷺ: «آذنوا بالرحيل». فهجر بالناس، فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار، ثم نزل. ثم هجر بالناس مثلها، فصبح بالمدينة في ثلاث سارها من قفا المشلل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه، فقال له رسول الله ﷺ: «أي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله؟» قال عمر: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه فيحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً». وأنزل الله ﷻ: ﴿هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ﴾ الآية. وهذا سياق غريب، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن عبد الله بن أبي - يعني لما بلغه ما كان من أمر أبيه - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمروني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترقب به ونحسن صحبته، ما بقي معنا». وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنة وراة. فقال: ما لك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من هنا حتى يآذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقه - فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن. وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير في مسنده: حدثنا سفيان بن غيينة، حدثنا أبو هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل. قال: وجاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فولذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي.

﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تِلْكَ أَمْثَلُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَعْرَجْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من انتهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ثم حشهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَعْرَجْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعجب ويستدرك ما فاته، وهيئات! كان ما كان، وأتى ما هوأت، وكل بحسب تفریطه، أما الكفار فكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْنَا أَلَمْ تَكُنْ أَعْلَمَ بِمَا نَكُونُوا أَفَسْتَحْتَمُ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو جناب الكلبي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب فيه عليه

زكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار. فقال: سأتلو عليك بذلك قرآناً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لَهَاكُمْ آمَالٌ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ ﴿١﴾ وَأَيُّقُوا مِنْ مَا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً. قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير. ثم قال: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عبد الرزاق، عن الثوري، عن يحيى بن أبي حية - وهو أبو جناب الكلبي - عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، بنحوه. ثم قال: وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره، عن أبي جناب، عن الضحاك، عن ابن عباس، من قوله. وهو أصح، وضعف أبا جناب الكلبي. قلت: رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفي، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة الجهني، عن عمه - يعني أبا مشجعة بن ربيعي - عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره».

آخر تفسير سورة «المنافقون»، والله الحمد والمنة



تفسير سورة التغابن

وهي مدنية، وقيل: مكية. قال الطبراني: حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد الخلال، حدثنا الوليد بن الوليد، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن». أورده ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن صالح»، وهو غريب جداً، بل منكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَكَرَكَ كَافِرًا وَنَسَكَرَ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوْرَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحْسِرُونَ وَمَا تُظُنُّوْنَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة هي آخر المُسَبَّحات، وقد تقدم الكلام على تسيح المخلوقات لبارئها ومالكها؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَكَرَكَ كَافِرًا وَنَسَكَرَ مُؤْمِنًا﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزئهم بها أتم الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوْرَهُ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّهُ بِرَبِّكَ الْكَبِيْرُ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٢﴾ أَي صَوَّرَكَ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿٣﴾﴾ [الإنفاطار: ٦-٨]، وكقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيْبَاتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ﴾ أي: المرجع والمآب. ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحْسِرُونَ وَمَا تُظُنُّوْنَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمِ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبْتَدَأْنَا فَذَرَكُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حل بهم من العذاب والنكال؛ في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَمْ يَعْلَمِ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ مِّمَّنْ بَدَّوْنَا؟﴾ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فَكَفَرُوا وَقُولُوا﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿وَأَسْتَفَىٰ اللَّهُ﴾ أي: عنهم، ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَيِّدٌ﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿قَائِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْمَعْجَمِ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيَأْتِيهِ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار أنهم يزعمون أنهم لا يعثون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لشخبرون بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، ﴿وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم. وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه، ﴿عَلَىٰ وَقَوْلِ الْمَعَادِ وَوَجُودِهِ، فَالْأُولَىٰ فِي سُورَةِ يُونُسَ﴾: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ أَحَىٰ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَيٌّ وَمَا أَنْشُرْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿يُونُسَ: ٥٣﴾، والثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية (سبأ: ٣)، والثالثة هي هذه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَائِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية. وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْمَعْجَمِ﴾: وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الألوان والآخرون في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ تَشْهَدُونَ﴾ (هود: ١٠٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٥٠﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة. وذلك أن أهل الجنة يغنون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد. وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيَأْتِيهِ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٧﴾. وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَأَلْبِيسُوا اللَّهَ وَأَلْبِيسُوا الرَّسُولَ فَمِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلَئِن كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَهَا﴾ (الحديد: ٢٢)، وهكذا قال ما هنا: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته. ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وما أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، وقيتاً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرأه عنده هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، فُسِّلَ عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جببر، ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يعني: يسترجع، يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦). وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول: سمعت عبادة بن الصامت يقول: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تهتم الله في شيء، قضى لك به». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَأَلْبِيسُوا اللَّهَ وَأَلْبِيسُوا الرَّسُولَ﴾: أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿فَمِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّلَ من البلاغ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلَئِن كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾، فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

وأخلصوا لدي، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا فَاصْفَحُوا وَتَوَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٤] ﴿إِنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ يَتَنَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٥] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَيْئًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٦] ﴿إِنْ تَرَوْهُوَ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [١٧] ﴿عَلَيْهِ الْقَيْمُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨].

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تِلْكَ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَعْصِلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١٤] [المنافقون: ٩]، ولهذا قال ما هنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ لَكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفريابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ - قال: فهو لاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين، فهموا أن يعاقبوه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا فَاصْفَحُوا وَتَوَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى، عن الفريابي - وهو محمد بن يوسف - به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير والطبراني، من حديث إسرائيل، به. ورؤي من طريق العوفي، عن ابن عباس، نحوه، وهكذا قال عكرمة مولاة سواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ يَتَنَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٥]: يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلق. ليعلم من يطعمه ممن يعصيه. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَلَدِ وَالْأَنْثَى وَالنَّسَبِ وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْحِسَابِ﴾ [١٦] والتي بعدها [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين، رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». ورواه أهل السنن من حديث حسين بن واقد، به. وقال الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا مجالد، عن الشعبي، حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقال لي: «هل لك من ولد؟» قلت: غلام ولدي في مخرجي إليك من ابنة جمد، ولوددت أن بمكانه: شيع القوم. قال: «لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرعة عين، وأجر إذا قبضوا»، ثم قال: «ولئن قلت ذلك: إنهم لمجينة محزنة إنهم لمجينة محزنة» ففرد به أحمد، رحمه الله تعالى. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر، حدثنا أبي، عن عيسى بن أبي وائل، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مجينة مبجلة محزنة» ثم قال: لا يعرف إلا بهذا الإسناد. وقال الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنا أبي، حدثني ضَمْضَمٌ بن زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك، وإن قتلتك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدوك مالك الذي ملكت يمينك». وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جهدكم وطاقتكم. كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقد قال بعض المفسرين - كما رواه مالك، عن زيد بن أسلم - إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي في «آل عمران» وهي قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء - هو ابن دينار - عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى رمت عراقيبهم وتفرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فنسخت الآية الأولى. وروي عن أبي العالية، وزيد بن أسلم، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: كونوا منقادين لما

يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وابتدلو مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في سورة «الحشر» وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته ها هنا، والله الحمد والمنة، وقوله: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاءه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلم ولا عديم». ولهذا قال: ﴿يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة ﴿يُّضَاعِفْهُ لَهُ أَشْفَاكَ كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿عَدْلٌ أَلْبَسَ وَالشَّهَادَةَ الْعَزِيمَةَ لِقَوْمِهِ﴾ تقدم تفسيره غير مرة.



تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَضَبٍ مُّبِينٍ وَأُولَئِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

خوِّط النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثوبان بن سعيد الهباري، حدثنا أسباط بن محمد، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأنت أهلها، فأنزل الله، ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ فقبل له: راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة. ورواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة. . . فذكره مرسلًا وقد ورد من غير وجه: أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث وعقيل، عن ابن شهاب، أخبرني سالم: أن عبد الله بن عمر أخبره: أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله، ﷺ». هكذا رواه البخاري ها هنا وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم، ولفظه: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء». ورواه أصحاب الكتب والمسناد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة، ومواضع استقصاها كتب الأحكام. وأمس لفظ يورد ها هنا ما رواه مسلم في صحيحه، من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال رسول الله ﷺ: «ليراجعها» فردّها، وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك». قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾. وقال الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع. وروي عن ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وفتادة، وميمون بن مهران، ومقاتل بن حيان مثل ذلك. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ قال: لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن: تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾: العدة: الطهر، والقرء الحيضة، أن يطلقها حبلً مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلها هي أم لا. ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه

ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها، وتحريم الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَأَحْصُوا أَيَّامَ الْعِدَّةِ﴾ أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لثلاث تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في ذلك. وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ عَنْهَا بِيوتَهُنَّ﴾ أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنْتَهَى﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جببر، وأبو قلابة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسُّدي، وسعيد بن هلال، وغيرهم. وتشمل ما إذا نشرت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم. وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بفعل ذلك. وقوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رجعته، فيكون ذلك أيسر وأسهل. قال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قال: هي الرجعة. وكذا قال الشعبي، وعطاء، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والثوري. ومن ها هنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير - يعني: نفقة - فتسخطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة. فأنت رسول الله ﷺ، فقال: «ليس لك عليه نفقة». ولمسلم: ولا سكنى، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه أعمى تضعين ثيابك» الحديث.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر، فقال: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد، حدثنا عامر قال: قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ، فبعته رسول الله ﷺ في سرية. قالت: فقال لي أخوه: أخرجني من الدار. فقلت: إن لي نفقة وسكنى حتى يحل الأجل. قال: لا. قالت: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن فلاناً طلقني، وإن أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة، فأرسل إليه فقال: «مالك ولابنة آل قيس»، قال: يا رسول الله، إن أخي طلقها ثلاثاً جميعاً. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى. أخرجني فانزلي على فلانة». ثم قال: «إنه يُحَدِّثُ إليها، انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك» وذكر تمام الحديث. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الله البزار الشُّسْتَرِيُّ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا بكر بن بكار، حدثنا سعيد بن يزيد البجلي، حدثنا عامر الشعبي: أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أوليائه النفقة علي والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً، ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فطلبت السكنى والنفقة علي، فقال أوليائه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى». وكذا رواه النسائي عن أحمد بن يحيى الصوفي، عن أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سعيد بن يزيد وهو الأحمسي البجلي الكوفي. قال أبو حاتم الرازي: هو شيخ، يروى عنه.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَهْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِمَّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي:

محصناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن. وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلِي نِكَاحٌ﴾ أي: على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجه، عن عمران بن حصين: أنه سُئِلَ عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا رجعتها فقال: طَلَّقْتُ لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها، ولا تُعَذِّبُ. وقال ابن جريج: كان عطاء يقول: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلِي نِكَاحٌ﴾ قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهدا عدل، كما قال الله، ﷻ، إلا أن يكون من عذر. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتيه من يؤمن بالله وأنه شرع هذا، ويخاف عقاب الله في الدار الآخرة. ومن ها هنا ذهب الشافعي - في أحد قوليهِ - إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح. وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها. وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا كهشم بن الحسن، حدثنا أبو السليل، عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو علي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، حتى فرغ من الآية، ثم قال: «يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم». قال: فجعل يتلوها ويردها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟». قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟». قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة. قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟». قلت: إذا - والذي بعثك بالحق - أضع سيفي على عاتقي. قال: «أو خير من ذلك؟». قلت: أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبداً حبشياً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا زكريا، عن عامر، عن شُتَيْرِ بْنِ شَكْلٍ قَالَ: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾. وفي المسند: حدثني مهدي بن جعفر، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الحكم بن مصعب، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يقول: ينجيهِ من كل كرب في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وقال الربيع بن خثيم: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من كل شيء ضاق على الناس. وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً. وكذا روي عن ابن عباس، والضحاك. وقال ابن مسعود، ومسروق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾: يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى ﴿مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يدرى. وقال قتادة: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل. وقال السدي: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾: يطلق للسنة، ويراجع للسنة، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: «عوف بن مالك الأشجعي» كان له ابن، وأن المشركين أسروه، فكان فيهم، وكان أبوه يأتي رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر، ويقول له: «إن الله سيجعل لك فرجاً». فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدو فمر بغنم من أغنام العدو، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بغني قد أصابه من الغنم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. رواه ابن جرير. وروي أيضاً من طريق سالم بن أبي الجعد مرسلأ نحوه. وقال الإمام أحمد، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليُحَرِّمَ الرزق بالذنب يُصِيبُهُ، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان - وهو الثوري - به. وقال محمد بن إسحاق: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له: أسرابني عوف. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله». وكانوا قد شدوه بالقدر فسقط القدر عنه، فخرج، فإذا هو بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها، فلم يفتأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة. فقالت أمه: واسواته. وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القدر - فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفنا إيلاً، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه: ففاحتني أتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها. فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله ﷺ: «اصنع بها ما أحببت، وما كنت

صانعاً بمالك». ونزل: ﴿وَمَنْ بَنَىٰ اللَّهُ جَعَلَ لَهُ بَحْرًا مَّوْرُوقًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن هشام بن حسان، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، وورقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها». وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، حدثنا قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن عبد الله بن عباس: أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف». وقد رواه الترمذي من حديث الليث بن سعد، وابن لهيعة، به. وقال: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل، أو يموت أجل». ثم رواه عبد الرزاق، عن سفيان، عن بشير، عن سيار أبي حمزة، ثم قال: وهو الصواب، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ أُمَّرُوءَ﴾ أي: من نفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد، ويشاؤه ﴿فَدَّ جَمَلَ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ كقوله: ﴿وَسَكَّلَ شَيْءٌ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَأَلَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ بَنَىٰ اللَّهُ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ سَبِيلاً﴾ ذلك أمر الله أنزله إِيَّاكَ وَمَنْ بَنَىٰ اللَّهُ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُظْمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾.

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة - وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها - : أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية «البقرة»، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال: ﴿وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾. وقوله: ﴿إِنْ أَرَبْتَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما - وهو قول طائفة من السلف، كمجاهد، والزهري، وابن زيد - : أي إن رأين دماً وشككتن في كونه حيضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروى، عن سعيد بن جبيرة. وهو اختيار ابن جرير، وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه عن أبي كُرَيْبٍ وأبي السائب قالوا: حدثنا ابن إدريس، أخبرنا مطرف، عن عمرو بن سالم قال: قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال. قال: فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَأَلَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾. ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق فقال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن مطرف، عن عمر بن سالم، عن أبي بن كعب قال: قلت لرسول الله ﷺ: إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في «البقرة» في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدداً لم يذكروا في القرآن: الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل. قال: فأنزلت التي في النساء القصوى: ﴿وَأَلَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾. وقوله: ﴿وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾: يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفوق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية. وقد روي عن علي، وابن عباس، رضي الله عنهم، أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملاً بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة «البقرة». وقد قال البخاري: حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس - وأبو هريرة جالس - فقال: أنتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾. قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريياً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِلَ زَوْجٌ سَبِيعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حَبْلِي، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخَطَبْتُ، فَأَنكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا. هكذا أورد البخاري هذا الحديث ها هنا مختصراً. وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرنا هشام، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة، أن سببها الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلمت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح،

فأذن لها أن تُنكح، فُنكحت. ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عنها، كما قال مسلم بن الحجاج: حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، حدثني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته. فكتب عُمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة - وكان ممن شهد بدرًا - فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشْر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ علي ثيابي حين أمسيتُ فأنثت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم. ورواه البخاري مختصراً، ثم قال البخاري بعد ذلك، أي: بعد رواية الحديث الأول عند هذه الآية: وقال سليمان بن حرب وأبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى، رحمه الله، وكان أصحابه يعظمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدثتُ بحديث سبيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة، قال: فضمّر لي بعض أصحابه، قال محمد: ففطنت له فقلت: إني لجريء أن أكذب على عبد الله وهو في ناحية الكوفة. قال: فاستحيا وقال: ولكن عمّه لم يقل ذلك. فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته، فذهب يحدثني بحديث سبيعة، فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبد الله فقال: أنجعلون عليها التغليف، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصص بعد الطولي: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ورواه ابن جرير، من طريق سفيان بن عُيينة وإسماعيل بن عُليّة، عن أيوب به مختصراً. ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد بن الحارث، عن ابن عون، عن محمد بن سيرين، فذكره. وقال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثني ابن شَبْرمة الكوفي، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس، أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها. قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت. يريد بآية المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقد رواه النسائي من حديث سعيد بن أبي مريم، به. ثم قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا إسماعيل بن خالد، عن الشعبي قال: ذُكر عند ابن مسعود آخر الأجلين، فقال: من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي في النساء القصص نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر ثم قال: أجل الحامل أن تضع ما في بطنها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً، رضي الله عنه، يقول: آخر الأجلين. فقال: من شاء لاعنته، إن التي في النساء القصص نزلت بعد البقرة: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي، حدثني المثنى، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن أبي بن كعب قال: قلت للنبي ﷺ: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، المطلقة ثلاثاً أو المتوفى عنها؟ فقال: «هي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها». هذا حديث غريب جداً، بل منكر؛ لأن في إسناده المثنى بن الصباح، وهو متروك الحديث بمرّة، ولكن رواه ابن أبي حاتم بسند آخر، فقال: حدثنا محمد بن داود السُّنماني، حدثنا عمرو بن خالد - يعني: الحراني - حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي بن كعب، أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله ﷺ: لا أدري أمشركة أم مبهمة، قال رسول الله ﷺ: «آية آية؟». قال: ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم». وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن موسى بن داود، عن ابن لهيعة، به. ثم رواه عن أبي كريب أيضاً، عن مالك بن إسماعيل، عن ابن عيينة، عن عبد الكريم بن أبي المخارق أنه حدث عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال: «أجل، كل حامل أن تضع ما في بطنها». عبد الكريم هذا ضعيف، ولم يدرك أياً. وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ يَسْراً﴾ أي: يسهل له أمره، ويسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً. ثم قال: «ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ، ﴿وَمَنْ يَبْقِ اللَّهُ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير. ﴿أَتَكْفُرُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَّرْتُمْ بَيْنَ رُؤْيَيْكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لَنْ يُغْنِيَكُمْ عَنْهُمْ وَإِنْ كُنْ أَوْلَاتٍ حَمَلٌ فَلْيَقْرَأُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَامْسُوهُنَّ

أَجْرَهُنَّ وَأَتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَرْوٍ وَإِنْ تَمَسَّرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ الْآخَرَ ﴿٦﴾ يُسْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَبَّحَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ يُسْرًا ﴿٧﴾ .

يقول تعالى امرأ عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿أَنْتِكُمْ مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أي: عندكم، ﴿بَيْنَ رَيْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني سعتكم. حتى قال قتادة: وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه. وقوله: ﴿وَلَا تُضَاوِرُنَّ لِنُضَيْقُوا عَلَيْنَّ﴾: قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنها. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى: ﴿وَلَا تُضَاوِرُنَّ لِنُضَيْقُوا عَلَيْنَّ﴾ قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حَمَلًا فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: قال كثير من العلماء منهم ابن عباس، وطائفة من السلف، وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً. وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة. واختلف العلماء: هل النفقة لها بواسطة الحمل، أو للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره، ويتفرع عليها مسائل مذكورة في علم الفروع. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعت حملهن وهن طوالق، فقد برن بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ - وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالباً إلا به - فإن أرضعت استحققت أجره مثلها، ولها أن تعاقده أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾. وقوله: ﴿وَأَتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَرْوٍ﴾ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال في سورة «البقرة» ﴿لَا تُضَاوِرُوا وَايَةً وَلَا مَوْلًوَهُمْ وَلَا يُولِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَمَسَّرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ الْآخَرَ﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبهها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استوجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها. وقوله: ﴿يُسْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾ أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته، ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾ كقوله: ﴿لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. روى ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، عن أبي سنان قال: سألت عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أحسن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها: فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله، تناول هذه الآية: ﴿يُسْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، أخبرني أبي، أخبرني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري - واسمه الحارث - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق، فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق». فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء، كل قد تصدق بعشر ماله، قال الله تعالى: ﴿يُسْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقوله: ﴿سَبَّحَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ يُسْرًا﴾: وعد من الله تعالى، ووعدته حق، وهو لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره ها هنا، فقال: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب قال: قال أبو هريرة: بينا رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مَسْعَبَةٌ شديدة، فقال لامرأته: عندك شيء؟ قالت: نعم، أبشر، أنك رزق الله. فاستحسها، فقال: ويحك! ابتغي إن كان عندك شيء. قالت: نعم، هنيئة - ترجو رحمة الله - حتى إذا طال عليه الطوى قال: ويحك! قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتيني به، فإني قد بلغت وجهي. فقالت: نعم، الآن يضحج التنور فلا تعجل. فلما أن سكنت عنها ساعة وتحيتت أن يقول لها، قالت من عند نفسها: لو قمث فظنرت إلى تنوري؟ فقامت فظنرت إلى تنورها ملآن جنوب الغنم، ورحيها تطحنان. فقامت إلى الرحي فنفضتها، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم. قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده، هو قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحبيها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة». وقال في موضع آخر: حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها، وإلى التنور فسجرتة، ثم قالت: اللهم ارزقنا.

فظنرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلأ، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، من رينا. فأمر إلى الرحي، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو لم ترفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة».

﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَمَا سَأَلْتَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَدْتَهَا عَدَابًا لَكَرَّ ۗ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حَسْرًا ۗ ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَمَنْ قَوْلِ الْآلِئِيبِ الَّذِيْنَ أَمَاتُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۗ ﴿١٠﴾ رَسُوْلًا يَتْلُوَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّوْرِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَعَلَ صَليْعًا يَدْخُلْهُ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۗ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال:

﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿فَمَا سَأَلْتَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَدْتَهَا عَدَابًا لَكَرَّ﴾ أي: منكراً فظيماً، ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غب مخالفتها، وندموا، حيث لا ينفع الندم، ﴿وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حَسْرًا ۗ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، مع ما عجل لهم في الدنيا. ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿فَمَنْ قَوْلِ الْآلِئِيبِ الَّذِيْنَ أَمَاتُوا﴾ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الَّذِيْنَ أَمَاتُوا﴾ أي: صدقوا بالله ورسله، ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن. كقوله: ﴿إِنَّا عَسَىٰ نَرْزُقُكَ الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقوله: ﴿رَسُوْلًا يَتْلُوَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾: قال بعضهم: ﴿رَسُوْلًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملاسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني: تفسيراً له؛ ولهذا قال: ﴿رَسُوْلًا يَتْلُوَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: في حال كونها بيينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ كقوله: ﴿كَتَبْتُ أَنْزَلْتُكَ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم. وقد سمي الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحُوْبًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ عَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَعَلَ صَليْعًا يَدْخُلْهُ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ نَزْلًا الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ نَزْلًا﴾ أي: كل شيء وديراً وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ﴾ أي: سبعا أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خُصِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ». وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول «البداية والنهاية» عند ذكر خلق الأرض، والله الحمد والمنة. ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزاع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند. وقد تقدم في سورة «الحديد» عند قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع، وبعد ما بينهن، وكشافة كل واحدة منهن خمسمائة عام. وهكذا قال ابن مسعود وغيره، وكذا الحديث الآخر: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة». وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ﴾ قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفرتم تكذيبكم بها. وحدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب بن عبد الله بن سعد القمي الأشعري، عن جعفر بن أبي المغيرة الخزاعي، عن سعيد بن جبيرة قال: قال رجل لابن عباس: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ﴾ الآية. فقال ابن عباس: ما يؤمنك إن أخبرتك بها فكفر. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي ومحمد بن المثنى قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ﴾ قال عمرو: قال في كل أرض مثل إبراهيم، ونحو ما على الأرض من الخلق. وقال ابن المثنى في حديثه: في كل سماة إبراهيم.

وقد روى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» هذا الأثر عن ابن عباس بأبسط من هذا السياق، فقال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وحدثنا أحمد بن يعقوب، حدثنا عبيد بن غنام النخعي، أخبرنا علي بن حكيم، حدثنا شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس أنه قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ﴾ قال: سبع أرضين، في كل أرض

نبي كنيبكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. ثم رواه البيهقي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن ابن عباس في قول الله، ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: في كل أرض نحو إبراهيم، عليه السلام. ثم قال البيهقي: إسناده هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمره، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً، والله أعلم. قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتابه «التفكير والاعتبار»: حدثني إسحاق بن حاتم المدائني، حدثنا يحيى بن سليمان، عن عثمان بن أبي دهرش قال: بلغني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون، فقال: «ما لكم لا تتكلمون؟». فقالوا: نتفكر في خلق الله، ﷻ. قال: «فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء، نورها ساحتها - أو قال: ساحتها نورها - مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق الله لم يعصوا الله طرفه عين قط». قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: «ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق؟». قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق». وهذا حديث مرسل، وهو منكر جداً، و«عثمان بن أبي دهرش» ذكره ابن أبي حاتم في كتابه فقال: روي عن رجل من آل الحكم بن أبي العاص، وعنه سفيان بن عيينة، ويحيى بن سليم الطائفي، وابن المبارك. سمعت أبي يقول ذلك.

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَزُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكَ ذِكْرَ نَجْمَةِ آمِنَتِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكَ وَمَوْءَاظُكَ لِلنَّبِيِّينَ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِمْ حِينًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِهِ وَأَنظَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُمُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَيَّنَ الْأَلْمَلَةُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبِّئْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُنَا وَإِنْ تَنظَّرْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا وَجَزِيلٌ وَّصِيلٌ الْمُنْزِيلِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفْنَاكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمِينَ مَوْتِينَ قَبْلَكَ عَيْدَاتٍ سَخِرَ مِنْتَ وَأَنْتَ كَارٍ ﴿٥﴾﴾.

اختلف في سبب نزول هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَرْوَاحِكَ...﴾ الآية. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد، حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حراماً. فقالت: أي رسول الله، كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ قال زيد: فقوله: أنت عليّ حرام لغو. وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، قال: قل لها: «أنت عليّ حرام، والله لا أطوك». وقال سفيان الثوري وابن علية، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق قال: ألقى رسول الله ﷺ وحرّم، فعُوتب في التحريم، وأمر بالكفارة في اليمين. رواه ابن جرير. وكذا روى عن قتادة، وغيره، عن الشعبي، نفسه. وكذا قال غير واحد من السلف. منهم الضحاك، والحسن، وقاتدة، ومقاتل بن حيان، وروى العوفي، عن ابن عباس القصة مطولة. وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله، لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي. قال: «ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها؟». قالت: بلى فحرّمها وقال: «لا تذكرني ذلك لأحد». فذكرته لعائشة، فأظهر الله عليه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَرْوَاحِكَ﴾ الآية. . . فبلغنا أن رسول الله ﷺ كَفَّرَ عن يمينه، وأصاب جاريتته. وقال الهيثم بن كليب في مسنده: حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام». فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله

لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأُنزل الله: ﴿قَدْ فَوَّضَ اللَّهُ لَكُمْ حِجْلَةَ أَيْمَنِكُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا هشام الدستوائي قال: كتب إلي يحيى يحدث عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني: أن رسول الله ﷺ حرم جاريتها فقال الله: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِرَ حُرْمٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَوَّضَ اللَّهُ لَكُمْ حِجْلَةَ أَيْمَنِكُمْ﴾، فكفر يمينه، فصير الحرام يميناً. ورواه البخاري عن معاذ بن فضالة، عن هشام - هو الدستوائي - عن يحيى - هو ابن كثير - عن ابن حكيم - وهو يعلى - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الحرام: يمين تكفر. وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائي به.

وقال النسائي: أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد بن علي، حدثنا مخلد - هو ابن يزيد - حدثنا سفيان، عن سالم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أنه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً؟ قال: كذبت ليست عليك بحرام. ثم تلا هذه الآية: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِرَ حُرْمٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ عليك أغلظت الكفارات، عتق رقبة. تفرد به النسائي من هذا الوجه، بهذا اللفظ. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِرَ حُرْمٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ قال: حرم رسول الله ﷺ سُرْبَتَهُ. ومن ها هنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريتها أو زوجته أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة. وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حرّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطبراني، أخبرنا حفص بن عمر العدني، أخبرنا الحكم بن أبان، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِرَ حُرْمٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على: أيتنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير. قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً»، ﴿بَتْنِي مَرَّتَاتٍ أَرْوَيْبَكُ﴾. هكذا أورد هذا الحديث ها هنا بهذا اللفظ. وقال في كتاب «الآيمان والنذور»: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول: سمعت عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً. فتواصيبت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير؟ أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له». فنزلت: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِرَ حُرْمٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذَ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَابِهِ حَيْدًا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». وقال إبراهيم بن موسى، عن هشام: «ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً». وهكذا رواه في كتاب «الطلاق» بهذا الإسناد، ولفظه قريب منه. ثم قال: المغافير: شبيه بالصمغ، يكون في الرّثم فيه حلاوة، أغفر الرّثم: إذا ظهر فيه. واحداً مغفور، ويقال: مغافير. وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعُشْر والثَّمَام والسَّلْم والطلح. قال: والرّثم، بالكسر: مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض. قال: والعرفط: شجر من العضاة ينضح المغفور منه.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب «الطلاق» من صحيحه، عن محمد بن حاتم، عن حجّاج بن محمد، عن ابن جريج، أخبرني عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة، به. ولفظه كما أورده البخاري في «الآيمان والنذور». ثم قال البخاري في كتاب «الطلاق»: حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مُسَهَّر، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر فاتحبتس أكثر ما كان يحبتس، ففُزْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكّة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له. فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا. فقولي له: ما هذه الرياح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي: جرّست نحلّه العرفط. وسأقول ذلك، وقولي أنت له يا صفية ذلك، قالت - تقول سودة -: والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أتأديه

بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا». قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل». قالت: جرت نحلته العرفط. فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه». قالت: تقول سودة: - والله لقد حرمتناه. قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم عن سويد بن سعيد، عن علي بن مُشهر، به. وعن أبي كُرَيْب وهارون بن عبد الله والحسن بن بشر، ثلاثهم عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن هشام بن عروة، به. وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن يوجد منه الريح يعني: الريح الخبيثة، ولهذا قلن له: أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء. فلما قال: «بل شربت عسلاً». قلن: جرت نحلته العرفط، أي: رعت نحلته شجر العرفط الذي صمغُه المغافير؛ فلهذا ظهر ريحُه في العسل الذي شربته. قال الجوهري: جرت نحلته العرفط تجرس: إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس، قال الشاعر:

نظَّلَ عَلَى الثُّمَرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ

وقال: الجَرْسُ والجَرْسُ: الصوت الخفي. ويقال: سمعت جرس الطير. إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وفي الحديث: «فيسمعون جرس طير الجنة». قال الأصمعي: كنت في مجلس شعبة قال: «فيسمعون جرس طير الجنة» بالشين المعجمة، فقلت: «جرس»؟! فنظر إلي فقال: خذوها عنه، فإنه أعلم بهذا منا. والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن خالته عائشة. وفي طريق ابن جريج عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة توطأتا عليه، فانه أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا يُعَدُّ في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة، رضي الله عنهما، هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة. ففبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري: كره - والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال: هي حفصة وعائشة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قوماً نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، قال: وكان منزلي في دار بني أمية بن زيد بالعوالي. قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعي، فأنكرت أن تراجعي، فقلت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفأتمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ولا تسأليني شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فباتيني بخبر الوحي وغيره، وآتبه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابي ثم ناداني، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم! فقلت: وما ذلك؟ آجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول! طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً. حتى إذا صليتُ الصبح شدت علي ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ فقلت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة. فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت. فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج فقال: فقد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمت. فوليت مديراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، قد أذن لك. فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكى على رُمالٍ حصير.

قال الإمام أحمد: وحدثنا يعقوب في حديث صالح: رُمالٍ حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا». فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، فغضبت علي امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعي، فأنكرت أن تراجعي،

فقلت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحدانك أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت. فتسبم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، فدخلت على حفصة فقلت: لا يغرثك أن كانت جارتك هي أوسم - أو: أحب - إلى رسول الله ﷺ منك. فتسبم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: «نعم». فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة. فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا». فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أفسم ألا يدخل عليهن شهراً؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله، ﷻ. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن الزهري، به. وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبيد بن خنيس، عن ابن عباس، قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبته له، حتى خرج حاجباً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان، تظاهرتا على النبي ﷺ؟. هذا لفظ البخاري، ولمسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ قال: عائشة وحفصة. ثم ساق الحديث بطوله، ومنهم من اختصره.

وقال مسلم أيضاً: حدثني زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك بن الوليد - أبي زميل - حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصي، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم... فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ... فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية، آية التخبير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزُقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّىٰ الْمُرْسَلِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. فقلت: اطلقتهن؟ قال: «لا». فقمتم على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَنْثَىٰ أَوْ الْأَخْرَافِ أَذَاعُوا بِدِينِهِمْ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ أَكْبَرُ الْأَمْرِ﴾. فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَصَلَّىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾: أبو بكر وعمر - زاد الحسن البصري - عثمان. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَصَلَّىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: علي بن أبي طالب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى علي قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَصَلَّىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. إسناده ضعيف. وهو منكر جداً. وقال البخاري: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا هشيم، عن حميد، عن أنس، قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزُقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فنزلت هذه الآية. وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَأَعْتَدْنَا مِنْ مَقَامِهِمْ مَصَلًّا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ، فاستقرتني أقول: لتكفن عن رسول الله أو لبيدته الله أزواجاً خيراً منكن. حتى أتيت علي آخر أمهات المؤمنين، فقلت: يا عمر، أما لي برسول الله ما يعظ نساءه، حتى تعظهن؟! فأمسكت، فأنزل الله، ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزُقًا خَيْرًا مِنْكَ مُتَّعِينَ بِمَوْلَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْأَرْزُقَ الَّذِي كَرِهُوا أَرْزُقَهُمْ وَاللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾. وهذه المرأة التي رذته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري. وقال الطبراني، حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا إسماعيل الجلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي سنان، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا أَمَرَ الْأَتْيَٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْزُقِهِمْ حَيْدًا﴾، قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يبطأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة، فإن أباك يلي الأمر من بعد أبي بكر إذا أنا مت». فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة لرسول الله ﷺ: من أنبأك هذا؟ قال: ﴿يَبَايَأُ الْعَلِيُّ الْحَبِيرَ﴾. فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية. فحرمها، فأنزل الله: ﴿يَبَايَأُ الْأَتْيَٰ لِرَبِّهِمْ﴾.

عُرِّجَ ﴿٦﴾ . إسناده فيه نظر، وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات. ومعنى قوله: ﴿مُسَلِّمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَلْبَتْ تَبَيَّنَتْ عَيْدَاتٍ﴾ ظاهر. وقوله: ﴿سَيِّئَةٍ﴾ أي: صائمات، قاله أبو هريرة، وعائشة، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مالك، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسُدِّي، وغيرهم. وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله: ﴿الْكُفَّهُونَ﴾ من سورة «براءة»، ولقطة: «سياحة هذه الأمة الصيام». وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿سَيِّئَةٍ﴾ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: ﴿الْكُفَّهُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] أي: المهاجرون. والقول الأول أولى، والله أعلم. وقوله: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع ييسط النفس؛ ولهذا قال: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾.

وقال أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أبو بكر بن صدقة، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثنا عبد القدوس، عن صالح بن حيّان، عن ابن بريدة، عن أبيه: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب: آسية امرأة فرعون، وبالأبكار: مريم بنت عمران. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «مريم عليها السلام» من طريق سُوَيْد بن سعيد: حدثنا محمد بن صالح بن عمر، عن الضحاك ومجاهد، عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب، لا نصب فيه ولا صحب، من لؤلؤ جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم. ومن حديث أبي بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دخل على خديجة، وهي في الموت، فقال: «يا خديجة، إذا لقيت ضرائك فاقريهني مني السلام». فقالت: يا رسول الله، وهل تزوجت قبلي؟ قال: «لا»، ولكن الله زوجني مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وكلثم أخت موسى. ضعيف أيضاً. وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن عرعة، حدثنا عبد النور بن عبد الله، حدثنا يونس بن شعيب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ زَوْجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرِيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ، وَكَلْثَمَ أُخْتِ مُوسَى». فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله. وهذا أيضاً ضعيف وروي مرسلًا عن ابن أبي داود.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَنْفَعُهُمُ الْيَوْمَ شُرَكَائُهُمْ إِنَّمَا يُجْرَمُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا إِلَى اللَّهِ نَبِيًّا يَقُولُ لِلَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بِيَدَيْهِمْ وَيَأْتِيَهُمْ يَقُولُونَ بَرَئًا وَإِنَّمَا كُنَّا نُرِيكُمُ الْأَنْفُسَ الَّتِي نَرَى وَكُلٌّ فِي أَفْئَادِكُمْ﴾.

قال سفيان الثوري، عن منصور، عن رجل، عن علي، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدبهم، علمهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار. وقال مجاهد: ﴿قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله. وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقوم عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت الله معصية، ردعتهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرباته، وإمانته وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه. وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروى أبو داود، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ مثل ذلك. قال الفقهاء: وهكذا في الصوم، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق. وقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: «وَقُودُهَا» أي: حطها الذي يلقي فيها جثث بني آدم. ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وقال ابن مسعود، ومجاهد، وأبو جعفر الباقر، والسدي: هي حجارة من كبريت - زاد مجاهد: أنتن من الجيفة - وروى ذلك ابن أبي حاتم، رحمه الله، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقري، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن أبي رواد - قال: بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وعنده بعض أصحابه، وفيهم شيخ، فقال الشيخ: يا رسول الله، حجارة جهنم كحجارة الدنيا؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها». قال: فوق الشيخ مغشياً عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال: «يا شيخ، قل: لا إله إلا الله».

فقالها: فبشره بالجنة، قال: فقال أصحابه: يا رسول الله، أمن بيننا؟ قال: «نعم»، يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ [إبراهيم: ١٤]. هذا حديث مرسل غريب.

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَّظُ شِدَادًا﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادًا﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أول أهل النار إلى النار، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم، سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر، ثم يجدون على الباب التسعة عشر، عرض صدر أحدهم سبعون خريقاً، ثم يهون من باب إلى باب خمسمائة سنة، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول، حتى ينتهوا إلى آخرها. وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَعْصُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياداً بالله منهم. وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ﴾ (٧) أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتدوا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنئات. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب: سمعت النعمان بن بشير يخطب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال الثوري، عن سماك، عن النعمان، عن عمر قال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يعود فيه. وقال أبو الأحوص وغيره، عن سماك، عن النعمان، سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبداً. وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله: ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود. وقد روي هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود فيه». تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والموقوف أصح، والله أعلم. ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يُقْلَع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عبد الكريم، أخبرني زياد بن أبي مريم، عن عبد الله بن معقل قال: دخلت مع أبي علي بن عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة؟». قال: نعم. وقال مرة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة». ورواه ابن ماجه، عن هشام بن عمار، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الكريم - وهو ابن مالك الجزري - به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني الوليد بن بكير أبو خباب، عن عبد الله بن محمد العدوي، عن أبي سنان البصري، عن أبي قلابة، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب قال: قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. ومنها: نكاح الرجل الرجل، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. ومنها: نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا، حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً. قال زر: فقلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرض منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عباد بن عمرو، حدثنا أبو عمرو بن العلاء، سمعت الحسن يقول: التوبة النصوح: أن تُبْغَض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته. فأما إذا حزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تُجِب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يُجِب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات، كما تقدم في الحديث وفي الأثر: «ثم لا يعود فيه أبداً»، أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم، لعموم قوله، عليه السلام: «التوبة تجب ما قبلها؟». وللال أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ و ﴿عَسَىٰ﴾ من الله موجبة، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: ولا يخزيهم معه يعني: يوم القيامة،

﴿تُورَثُهُنَّ يَسَعْنَ بَيْتَ آبَائِهِمْ وَيَأْتِيهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طمىء. وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا محمد بن مقاتل المروزي، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم». فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم. قال: «عُرِّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن يحيى بن حسان، عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ، عام الفتح، فسمعتة يقول: «اللهم، لا تخزني يوم القيامة».

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ وَأَوْرَثَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَغَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾. يقول تعالى أمر رسول الله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، ﴿وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَأَوْرَثَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة. ثم قال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في مخالفتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي: نبين رسولين عندهما في صحبتها ليلاً ونهاراً، يؤاكلنهما ويصاحبانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَغَاتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقهما على الإيمان، ولا صدقهما في الرسالة، فلم يُجد ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمرأتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾. وليس المراد: ﴿فَغَاتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء، كما قدمنا في سورة النور. قال سفيان الثوري، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة: سمعتُ ابن عباس يقول في هذه الآية: ﴿فَغَاتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفي، عن ابن عباس قال: كانت خيانتها أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتها في الدين. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يآثره كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له. وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر له؟ قال: «لا»، ولكني الآن أقوله.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بِئْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمِمَّنْ آتَيْنَا عِمْرَانَ آلِيًّا أَحْسَنَتْ فَرَجَهَا فَفَضَّلْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجَاتِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنِيَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرمهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ لَآ أَنْ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَكَمٌ عَدْلٌ، لَا يُوَٰخِذُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَفْصِ الْأَبْلِيِّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ، عَنْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذِّبُ فِي الشَّمْسِ، فَإِذَا انْصَرَفَ عَنْهَا أَظْلَمَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمُحَارَبِيِّ عَنْ أَسْبَاطِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْبٍ، عَنْ هِشَامِ الدُّسْتُوَائِيِّ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةٍ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تَسْأَلُ: مَنْ غَلَبَ؟ فَيَقَالُ: غَلَبَ مُوسَى وَهَارُونَ. فَتَقُولُ: آمَنْتُ بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهَا فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ: انظُرُوا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت

بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح. فقولها: ﴿رَبِّ آتِنِي بِعِنْدِكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾: قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع، ﴿وَيَجِيءُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله، ﴿وَيَجِيءُ مِنَ الْقَوَارِ الْأَقْلَابِيِّينَ﴾. وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان إيماناً امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوقع المشط من يدها، فقالت تعس من كفر بالله؟ فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شيء الله. فلطمتها بنت فرعون وضربتها، وأخبرت أباها، فأرسل إليها فرعون فقال: تعبدين رباً غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب كل شيء الله، وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً، فشد رجلها ويديها وأرسل عليها الحيات، وكانت كذلك، فأتى عليها يوماً فقال لها: ما أنت منتبهة؟ فقالت له: ربي وربك ورب كل شيء الله. فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تعلمي. فقالت له: اقض ما أنت قاض. فذبح ابنها في فيها، وإن روح ابنها بشرها، فقال لها: أبشري يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له، مثل ذلك، فذبح ابنها الآخر في فيها، فبشرها روحه أيضاً، وقال لها: اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فأمنت امرأة فرعون، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً و يقيناً وتصديقاً، فأطلع فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأنتروا عليها، فقال لهم: إنها تعبد غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتاداً، فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي بِعِنْدِكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. فوافق ذلك أن حضرها فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذبها وهي تضحك، فقبض الله روحها، رضي الله عنها. وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته. الإحصان: هو العفاف والحرية، ﴿فَتَفَخَّخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى، عليه السلام. ولهذا قال: ﴿فَتَفَخَّخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا إِحْسَانٌ﴾ أي: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانَنِينَ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن علباء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون». وثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمداني، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث والألفاظها والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم، عليهما السلام، في كتابنا «البداية والنهاية» والله الحمد والمنة، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هي وآسية بنت مزاحم من أزواجه، عليه السلام، في الجنة عند قوله: ﴿تُنَبِّئُ وَأُنْبَأُ وَبِأَنْبَاءِ﴾.



تفسير سورة الملك

وهي مكية. قال أحمد: حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالوا: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن عباس الجشمي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى عُفِرَ له: ﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْعُو الْمُتْلُكَ﴾». ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث شعبة، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي، من طريق سلام بن مسكين، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْعُو الْمُتْلُكَ﴾». وقال الترمذي: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا يحيى بن مالك الثكري، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خيابه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خيائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿بِئْرَكَ﴾ حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر». ثم قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن أبي هريرة. ثم روى الترمذي أيضاً من طريق ليث بن

أبي سليم، عن أبي الزبير، عن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الَّذِي تَوَلَّى﴾ (سورة السجدة)، ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكَ﴾. وقال ليث عن طاوس: يفضلان كل سورة في القرآن سبعين حسنة. وقال الطبراني، حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان الأصبهاني، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» يعني: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكَ﴾.

هذا حديث غريب، وإبراهيم ضعيف، وقد تقدم مثله في سورة «يس»، وقد روى هذا الحديث عبد بن حميد في مسنده بأبسط من هذا، فقال: حدثنا إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحنك بحديث تفرح به؟ قال: بلى. قال: اقرأ: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكَ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية والمجدلة، تجادل - أو تخاصم - يوم القيام عند ربها لقارتها، وتطلب له أن ينجيها من عذاب النار، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي». وقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة أحمد بن نصر بن زياد أبي عبد الله القرشي النيسابوري المقرئ الزاهد الفقيه، أحد الثقات الذين روى عنهم البخاري ومسلم، لكن في غير الصحيحين، وروى عنه الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة، وعليه تفقه في مذهب أبي عبيد بن خزيمه، وخلق سواهم، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً ممن كان قبلكم مات، وليس معه شيء من كتاب الله إلا ﴿تَبَرَكَ﴾، فلما وضع في حفرته أتاه الملك فثارت السورة في وجهه، فقال لها: إنك من كتاب الله، وأنا أكره مساءتك، وإني لا أملك ولا له ولا لنفسي ضراً ولا نفعاً، فإن أردت هذا به فانطلقني إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعني له. فتنتطق إلى الرب فتقول: يا رب، إن فلاناً عمد إلي من بين كتابك فتعلمني وتلاني أفتحرقه أنت بالنار وتعذبه وأنا في جوفه؟ فإن كنت فاعلاً ذاك به فامحني من كتابك. فيقول: ألا أراك غضبت؟ فتقول: وحق لي أن أغضب. فيقول: اذهبي فقد وهبت لك، وشقمتك فيه. قال: فتحيء فيخرج الملك، فيخرج كاسف الببال لم يخل منه شيء. قال: فتحيء فتضع فاهها على فيه، فتقول: مرحباً بهذا الفم، فربما تلاني، ومرحباً بهذا الصدر، فربما وعاني، ومرحباً بهاتين القدمين، فربما قامتا بي. وتؤنس في قبره مخافة الوحشة عليه». قال: فلما حدث بهذا رسول الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُر ولا عبد، إلا تعلمها، وسماها رسول الله ﷺ المنجية. قلت: وهذا حديث منكر جداً، وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو حاتم، والدارقطني وغير واحد. وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر، عن الزهري، من قوله مختصراً. وروى البيهقي في كتاب «إثبات عذاب القبر» عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا وقد كتبه في كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى، والله الحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنظِرْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ أَنظِرْ الْبَصَرَ كَيْفَ يَنقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَايِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ رزقنا السلسلة الدنيا بمغيب وجعلنا فيها لئسطين وأعدنا لهم عذاب السعير (٥).

يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله. ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾: واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلاق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملاً؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْرِكًا فَأَحْسِبْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ لِمَن يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خُلَيْدٌ، عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء». ورواه معمر، عن قتادة. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خير عملاً، كما قال محمد بن عجلان: ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: هو العزيز العظيم المنيع الجنتاب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز. ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متواصلات بينهما خلاء؟ فيه قولان، أصحابهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والثوري، وغيرهم في قوله: ﴿فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق. وقال السدي: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: من خروق. وقال ابن عباس في رواية: ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من وُجْهِ. وقال قتادة: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً يا ابن آدم؟ وقوله: ﴿فَإِنَّمَا أَتَىٰ بِالْبَصَرِ كَثِيفٌ﴾ قال: مرتين. ﴿بِقَلْبِكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا﴾ قال ابن عباس: ذليلاً؟ وقال مجاهد، وقاتدة: صاغراً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: وهو كليل. وقال مجاهد، وقاتدة، والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء. ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر، مهما كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر، ﴿حَاسِبًا﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار، ولا يرى نقصاً. ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة، كما قال: في أول الصفات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الثَّلَاةِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿مُحُورًا وَلِمَن عَذَابٌ وَاسِعٌ﴾ ﴿إِلَّا مَن حَفِيَ الخَطْفَةَ فَآتَيْنَاهُ مِنهَا ثَابِتٌ﴾ ﴿الصفات: ٦-١٠﴾. قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تناول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُهُمُ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿إِذَا أُنقِذُوا فِيهَا سُمُورًا مَّا شِيقًا وَهِيَ تَقُورٌ﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُنقِذُوا فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُم خَرْنَبَ آلِ يَأْتُوكُم تَبِيبٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَارٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمُومَةٍ إِن أَنشُرَ إِلَّا فِي سَلْبِكِ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿فَاتَّعَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُهُمُ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿وَهِيَ تَقُورٌ﴾: قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنفها بهم، ﴿كُلَّمَا أُنقِذُوا فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُم خَرْنَبَ آلِ يَأْتُوكُم تَبِيبٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَارٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمُومَةٍ إِن أَنشُرَ إِلَّا فِي سَلْبِكِ كَبِيرٍ﴾: يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فُجِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول نتنتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّعَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم». وفي حديث آخر: «لا يدخل أحد النار، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْورُ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، فذكر منهم: «رجلاً دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا الحارث بن عبيد، عن ثابت، عن أنس قال: قالوا: يا رسول الله، إنا نكون عندك على حال، فإذا فارتناك كنا على غيره؟ قال: «كيف أنتم وربكم؟» قالوا: الله ربنا في السر والعانية. قال: «ليس ذلكم النفاق». لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عبيد

فيما نعلمه. ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِنَّ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٦) أي: بما خطر في القلوب، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟﴾ أي: ألا يعلم الخالق. وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى، لبقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيرهم لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تמיד ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهياها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاقْتَسِمُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً، إلا أن يسره الله لكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا خزيمة، أخبرني بكر بن عمرو، أنه سمع عبد الله بن هبيرة يقول: إنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: إنه سمع عمر بن الخطاب يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث ابن هبيرة، وقال الترمذي: حسن صحيح. فائت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق، مع توكلها على الله، وهو المسخر المسير المسبب. ﴿وَالْيَوْمَ الْأَشْرُورُ﴾ أي: المرجح يوم القيامة. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافها وفجاجها ونواحيها. وقال ابن عباس وقتادة: ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: الجبال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن حكيم الأزدي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن بشير بن كعب: أنه قرأ هذه الآية: ﴿فَاقْتَسِمُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ فقال لأم ولد له: إن علمت ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ فأنت عتيقة. فقالت: هي الجبال. فسأل أبو الدرداء فقال: هي الجبال.

﴿ءَأَئِنَّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٧) أم أينتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستمتون كيف نذير ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَكَثَ كَانٌ كَبِيرٌ﴾ (١٨) أولئك يروا إلى الطير قوهتم صفتهم ويقضن ما يسكنهن إلا الرحمن إنه بكل شئ بصير ﴿١٩﴾.

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويوجل ولا يعجل، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا شَيْءًا وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَهْلِ مَسْئَرٍ فَإِذَا جَاءَهُمْ فَأَلَمَ اللَّهُ كَانٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٠) ﴿فاطر: ٤٥﴾. وقال ها هنا: ﴿ءَأَئِنَّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٧) أي: تذهب وتجيء وتضطرب، ﴿أم أينتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: ريحاً فيها حصباء تدمغكم، كما قال: ﴿أَتَأْتِئْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَابَ الدَّرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٨).

وهكذا توعدهم ها هنا بقوله: ﴿فَسَتَمْتُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السابقة والقرون الخالية، ﴿فَمَكَثَ كَانٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيماً شديداً أليماً. ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ قَوَاهِمَ صَفَاتٍ وَيَقِضْنَ﴾ أي: تارة يصفون أجنحتهم في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يَسْكَنُهُنَّ﴾ أي: في الجو ﴿إِلَّا الرِّيحُ﴾ أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّبِينٌ﴾ أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته. وهذه كقولته: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يَسْكَنُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعِزِّ قُوَّتِهِ﴾ (النحل: ١٧٩).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُ مَن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾ (٢١) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْتَفِكُ إِنْ أَمْسَكَ رِقْعَهُ بَلْ لَحْرًا فِي عُرْوٍ وَتَوَفِيرٍ ﴿٢٢﴾ أَمَّنْ يَبْنِي مِثْكَ عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْنِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَرَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِنَّ تَدْعُونَ ﴿٢٨﴾.

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره، يبتغون عندهم نصراً ووزقاً، مُكراً عليهم فيما اعتقدوه، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل ما أملوه، فقال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُ مَن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾. ثم قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْتَفِكُ إِنْ أَمْسَكَ رِقْعَهُ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله، وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَحْرًا﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي عُرْوٍ وَتَوَفِيرٍ﴾ أي: معاندة واستكباراً ونفوراً على أديبارهم عن الحق، أي: لا يسمعون له ولا يتبعونه. ثم قال: ﴿أَمَّنْ يَبْنِي مِثْكَ عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْنِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢)؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو كمثل من يمشي مُكْبِتاً على وجهه، أي:

يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدي ﴿أَنْ يَتَّبِعُوا سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ سِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفَضَّضٌ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفِيحَاءِ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿لَا تَنْصَرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُّسْتَنْبِتُونَ ﴿٢٦﴾ [الصفوات: ٢٢-٢٦]. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا ابن ثمير، حدثنا إسماعيل، عن نُفَيْعٍ قَالَ: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «اليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طريق يونس بن محمد، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، به نحوه. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: العقول والإدراك، ﴿فَبَلَّغْنَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم، في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بشكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف الأستكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم، ﴿وَأَيَّامَ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم. ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلِيقُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله، ﴿لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، ﴿وَأِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثَبِّتٌ﴾ وإنما علي البلاغ، وقد أدبته إليكم. قال الله تعالى: ﴿كَلَّمْنَا رَأُوهُ رَأْفَةً يَبِينَةً وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وَبَدَأْنَا لَهُمْ بِرَبِّكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَبَدَأْنَا لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨]، ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي سَلْبِ مِثْبِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾: يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والثكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: أمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مرد: ١٧٣]. ولهذا قال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي سَلْبِ مِثْبِينَ﴾؟ أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟ ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغانث: عكس النابع، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾؟ أي: نابع سافع جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله، ﴿فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجرها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة «تبارك»، والله الحمد



تفسير سورة «ن»

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تٰٓ وَآلْفَلَقِ وَمَا يُنظُرُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِعِندَ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَسْثُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِّيَ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبِغَيْرُونَ

﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿٧﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول «سورة البقرة»، وأن قوله: ﴿ت﴾ كقوله: ﴿صن﴾، ﴿ت﴾، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. وقيل: المراد بقوله: ﴿ت﴾: حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل للأرضين السبع، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان - هو الثوري - حدثنا سليمان - هو الأعمش - عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة. ثم خلق «النون» ورفع بخار الماء، ففتقت منه السماء، وبسطت الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإنها لتفخر على الأرض. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان، عن أبي معاوية، عن الأعمش. به. وهكذا رواه شعبة، ومحمد بن فضيل، ووكيع، عن الأعمش. به. وزاد شعبة في روايته: ثم قرأ: ﴿ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. وقد رواه شريك، عن الأعمش، عن أبي ظبيان - أو مجاهد - عن ابن عباس، فذكر نحوه. ورواه مَعْمَرٌ، عن الأعمش: أن ابن عباس قال... فذكره، ثم قرأ: ﴿ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلق ربي، ﷻ، القلم، ثم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. ثم خلق «النون» فوق الماء، ثم كسب الأرض عليه. وقد روى الطبراني ذلك مرفوعاً فقال: حدثنا أبو حبيب زيد بن المهدي المروزي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت، قال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب، قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ: ﴿ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فالنون: الحوت. والقلم: القلم.

حديث آخر في ذلك: رواه ابن عساکر عن أبي عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق «النون» وهي: الدواة. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون - أو: ما هو كائن - من عمل أو رزق أو أثر أو أجل. فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت». وقال ابن أبي نجیح: إن إبراهيم بن أبي بكر أخبره عن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة. وذكر البغوي وجماعة من المفسرين: إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن، وعلى منته الأرضون السبع وما فيها وما بينهن، فالله أعلم. ومن العجيب أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا حميد، عن أنس: أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي، قال: ما أول أشراف الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه؟ والولد ينزع إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفاً». قال ابن سلام: فذاك عذر اليهود من الملائكة. قال: «أما أول أشراف الساعة فتأخرهم من المشرق إلى المغرب. وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع». ورواه البخاري من طرق عن حميد، ورواه مسلم أيضاً. وله من حديث ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - نحو هذا. وفي صحيح مسلم من حديث أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان: أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل، فكان منها أن قال: فما تحفتهم؟ - يعني أهل الجنة حين يدخلون الجنة - قال: «زيادة كبد الحوت». قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً».

وقيل: المراد بقوله ﴿ت﴾: لوح من نور. قال ابن جرير: حدثنا الحسين بن شبيب المكتب، حدثنا محمد بن زياد الجزري، عن فرات بن أبي الفرات، عن معاوية بن قرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. لوح من نور، وقلم من نور، يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة. وهذا مرسل غريب. وقال ابن جريج: أخبرنا أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام. وقيل: المراد بقوله: ﴿ت﴾: دواة، والقلم: القلم. قال ابن جرير: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٌ، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿ت﴾ قالوا: هي الدواة. وقد روي في هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا أبو عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله النون، وهي الدواة». وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، حدثنا

أخي عيسى بن عبد الله، حدثنا ثابت الشمالي، عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون - وهي الدواة - وخلق القلم، فقال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، بر أو فاجر، أو رزق مقسوم حلال أو حرام. ثم أزم كل شيء من ذلك، شأنه: دخوله في الدنيا، ومقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العباد حفظه، وللكتاب خزناً، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزانة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزانة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا. قال: فقال ابن عباس: أستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل. وقوله: ﴿وَالْقَلَمِ﴾: الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿أَتَرَأَىٰ الرَّبِّكَ الْأَكْرَمَ﴾ [الذي عَمَّرَ بِالْقَلَمِ] عَمَّرَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَمَمَّ [العلق: ٣-٤]. فهو قسم منه تعالى، وتنبه لخلقته على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون. وقال أبو الضحى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يعملون. وقال السدي: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يعني الملائكة وما تكتب من عمل العباد.

وقال آخرون: بل المراد ها هنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة. وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالوا: حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم السلمي، عن عطاء - هو ابن أبي رباح - حدثني الوليد بن عباد بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يارب ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق، عن الوليد بن عباد، عن أبيه، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، به. وقال: حسن صحيح غريب. ورواه أبو داود في كتاب «السنن» من سننه، عن جعفر بن مسافر، عن يحيى بن حسان، عن ابن رباح، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة - واسمه حُيَيْش بن شريح الحبشي الشامي - عن عباد، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله الطوسي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، حدثنا رباح بن زيد، عن عمر بن حبيب، عن القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شيء». غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ يعني: الذي كتب به الذكر. وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، كما تقدم. وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِعَمَّوْرَةٍ رَبِّكَ بِمَجْرُونٍ﴾ أي: لست، والله الحمد، بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، والمكذبون بما جنتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك إلى الجنون، ﴿وَإِنَّ لِلَّهِ لَآخِرًا عَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٢] أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبديد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى ﴿عَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع كقوله: ﴿عَطَاءٌ عَيْرَ مَجْدُوْرٍ﴾ [معد: ١٠٨]، ﴿قَلَمَهُ أَجْرٌ عَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي: غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: ﴿عَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ لِّخَلْقِ عَظِيمٍ﴾ [التين: ١] قال العوفي، عن ابن عباس: أي: وإنك لعلی دین عظیم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وقال عطية: لعلی أدب عظیم. وقال معمر، عن قتادة: سُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ، تَقُولُ: كَمَا هُوَ فِي الْقُرْآنِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عُرْوَةَ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ لِّخَلْقِ عَظِيمٍ﴾ [التين: ١]: ذَكَرْنَا أَنَّ سَعِدَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خَلْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنُ. وَقَالَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ سَعِدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِيْنِي يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَتْ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَتْ: كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ. هَذَا حَدِيثٌ طَوِيلٌ. وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بِطَوْلِهِ. وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ «الْمِزْمَلِ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن رجل من بني سواد قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: أما تقرأ القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ لِّخَلْقِ عَظِيمٍ﴾ [التين: ١]؟ قال: قلت: حدثيني عن ذلك. قالت: صنعت له طعاماً، وصنعت له حفصة طعاماً، فقلت لجاريتي: اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعه قبل فاطمحي الطعام! قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقت الجارية، فوقعت القصعة فانكسرت - وكان نطعاً - قالت: فجمعه رسول الله ﷺ وقال: «اقتضوا - أو:

اقتضي - شك أسود - طرفاً مكان ظرفك». قالت: فما قال شيئاً. وقال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أبياس، حدثنا أبي، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال: أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها: أخبريني بخلق النبي ﷺ. فقالت: كان خلقه القرآن. أما تقرأ؟ ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾. وقد روى أبو داود والنسائي، من حديث الحسن، نحوه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، وأخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، رضي الله عنها، فسألته عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. هكذا رواه أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي. ورواه النسائي في التفسير، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، به. ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطرأ كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُبر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمت الله، فيكون هو ينتقم لله ﷻ. وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق». تفرد به. وقوله: ﴿سَنَسِيرٌ وَيُبَيِّرُونَ﴾ (٢) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونَ (١) ﴿أَي: فَسَتَعْلَمُ يَا مُحَمَّد، وَسَيَعْلَمُ مَخَالِفُوكَ وَمَكْذِبُوكَ: مِنَ الْمَفْتُونَ الضَّالِّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكَذَّابِ الْأَكْبَرِ﴾ (١٦) [الفر: ٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَلَكٌ هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونَ﴾ (١) ﴿أَي: أُولَى بِالشَّيْطَانِ. وَمَعْنَى الْمَفْتُونَ ظَاهِر، أَي: الَّذِي قَدْ افْتَنَ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونَ﴾ (١) لَتَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَسِيرٌ وَيُبَيِّرُونَ﴾ (٥) وَقَدِيرِهِ: فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ، أَوْ: فَسَنُخَبِّرُ وَيُخَبِّرُونَ بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونَ. وَاللَّهُ أَعْلَم. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَرِينَ﴾ (٧) ﴿أَي: هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى أَي الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ هُوَ الْمَهْتَدِي، وَيَعْلَمُ الْحَزْبَ الضَّالَّ عَنِ الْحَقِّ.

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) ﴿وَدَاؤُا لَوْ تَدَّهَنُ قِدْرَهُنَّ﴾ (٩) ﴿وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَالٍ مُهِينٍ﴾ (١٠) ﴿هَازٍ مَشَامٍ يَبْسِرُ﴾ (١١) ﴿تَنَاجٍ لِلْمَعْرِ مَعْتَا أَيْبِرُ﴾ (١٢) ﴿عَلَّلِي بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرُ﴾ (١٣) ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْبِرُ﴾ (١٤) ﴿إِذَا نَتَلَّ عَلَيَّو مَائِنُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٥) ﴿سَيَسْمُو عَلَى الْمَرْطُورِ﴾ (١٦).

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨). ﴿وَدَاؤُا لَوْ تَدَّهَنُ قِدْرَهُنَّ﴾ (٩): قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون. وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى أهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَالٍ مُهِينٍ﴾ (١٠): وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانتة إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترى بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. قال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وقوله: ﴿هَازٍ﴾: قال ابن عباس وقناة: يعني الاغتيال. ﴿مَشَامٍ يَبْسِرُ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرس بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث. وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم، من طرق عن مجاهد، به. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، أن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات». رواه الجماعة - إلا ابن ماجه - من طرق، عن إبراهيم، به. وحدثنا عبد الرزاق،

حدثنا الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات» يعني: نماماً. وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول، عن الأعمش، حدثني إبراهيم - منذ نحو ستين سنة - عن همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - أو قال -: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات». وقال أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا مهدي، عن واصل الأحذب، عن أبي وائل قال: بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَرُ، عن ابن حُثَيْمٍ، عن شَهْرٍ بن حَوْشَبٍ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن؛ أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ، ﷻ». ثم قال: «ألا أخبركم بشراكم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراءة العنت». ورواه ابن ماجه، عن سويد بن سعيد، عن يحيى بن سليم، عن ابن حُثَيْمٍ، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسَيْنٍ، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم - يبلغ به النبي ﷺ -: «خيار عباد الله الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراءة العنت». وقوله: ﴿مَنْعَ لِلنَّحْرِ مَمْتَدٍ أُتِيرَ﴾ (١٧) أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مَمْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أُتِيرَ﴾ أي: يتناول المحرمات. وقوله: ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِ﴾ (١٧): أما العتل: اللفظ الغليظ الصحيح، المجموع المَنُوعُ. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن مَعْبُدِ بن خالد، عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعَّفٌ لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جَوَاطٍ مستكبر». وقال وكيع: «كل جَوَاطٍ جعظري مستكبر». أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة، إلا أبا داود، من حديث سفيان الثوري وشعبة، كلاهما عن معبد بن خالد، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن علي قال: سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جَوَاطٍ مستكبر جماع مناع». تفرد به أحمد. قال أهل اللغة: الجعظري: اللفظ الغليظ، والجَوَاطُ: المجموع المَنُوعُ. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن العُتَلِ الزنيم، فقال: «هو الشديد الخلق المصحح، الأكل والشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، رحيب الجوف». وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجَوَاطُ الجعظري، والعتل الزنيم» وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا مَقْضَماً، فكان للناس ظلوماً. قال: فذلك العُتَلُ الزنيم». وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين، ونص عليه غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أن العتل هو: المَصْحُوحُ الخلق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك، وأما الزنيم فقال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِ﴾ (١٧) قال: رجلٌ من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة. ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها. وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدَّعِيُّ في القوم. قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة، قال: ومنه قول حسان بن ثابت، يعني يذم بعض كفار قريش:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم
كما نيط خلف الزاكب القدح الفزد
وقال آخر:

زْنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مِنْ أَبْوَةِ
بَغْيِي أُمِّ دُو حَسَبِ لَسِيمِ
وقال ابن أبي حاتم: حاتم عمار بن خالد الواسطي، حدثنا أسباط، عن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيْنِ﴾ (١٧) قال: الدعوي الفاحش اللئيم. ثم قال ابن عباس:

زْنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرَّجَالُ زِيَادَةً
كما زيد في عرض الأديم الأكارغ
وقال العوفي عن ابن عباس: الزنيم: الدعوي. ويقال: الزنيم: رجل كانت به زنمة، يعرف بها. ويقال: هو الأخسن بن شريق الثقفي، حليف بني زهرة. وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري، وليس به. وقال ابن أبي نجيع،

عن مجاهد، عن ابن عباس: أنه زعم أن الزنيم المُلحق بالنسب. وقال ابن أبي حاتم: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني سليمان بن بلال، عن عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المُسَيَّب، أنه سمعه يقول في هذه الآية: ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ قال سعيد: هو المُلصق في القوم، ليس منهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عقبة بن خالد، عن عامر بن قدامة قال: سئل عكرمة عن الزنيم، قال: هو ولد الزنا. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ قال: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء. والزنماء من الشياه: التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها. وقال الثوري، عن جابر، عن الحسن، عن سعيد بن جبيرة قال: الزنيم: الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها. والزنيم: المُلصق. رواه ابن جرير. وروى أيضاً من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في الزنيم: قال: نُعت فلم يعرف حتى قيل: زنيم. قال: وكانت له زئمة في عنقه يُعرف بها. وقال آخرون: كان دعياً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، عن أبيه، عن أصحاب التفسير قالوا: هو الذي تكون له زئمة مثل زئمة الشاة. وقال الضحاك: كانت له زئمة في أصل أذنه، ويقال: هو اللثيم المُلصق في النسب. وقال أبو إسحاق: عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: هو المريب الذي يعرف بالشر. وقال مجاهد: الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة. وقال أبو رزين: الزنيم علامة الكفر. وقال عكرمة: الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزئمتها. والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا». وفي الحديث الآخر: «ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه».

وقوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٧) إذا تَلَّى عَلَيْهِ مَا يَكُنُّ قَالَ اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ (١٥): يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿ذَرَفَ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِدَا (١١) بَعَلَتْ لَهُ مَا لَمْ مَسْجُودًا (١٧) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٦) وَمَهَّدَتْ لَهُ مَهْيَدًا (١٥) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانًا عِندَنَا (١٦) سَأَوْفُهُمْ صَفُودًا (١٧) إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ (١٨) فَنَقَلَ كَيْفَ يَقْدَرُ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ يَقْدَرُ (٢٥) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَخْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَذْرُكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَئِكَ لَبئْسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢٩)﴾ (المدر: ١١ - ٣٠). وقال تعالى ها هنا: ﴿سَيَسْأَلُ عَلَى الْأَرْطُورِ (١٦)﴾. قال ابن جرير: سنيين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمّة على الخراطيم. وهكذا قال قتادة: ﴿سَيَسْأَلُ عَلَى الْأَرْطُورِ (١٦)﴾: شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَيَسْأَلُ عَلَى الْأَرْطُورِ (١٦)﴾: يقاتل يوم بدر، فيخطم بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿سَيَسْأَلُ﴾: سمّة أهل النار، يعني: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو مُتَّجِه. وقد قال ابن أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٦): حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني خالد عن سعيد، عن عبد الملك بن عبد الله، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد يكتب مؤمناً أحقأباً ثم أحقأباً ثم يموت والله عليه ساخط. وإن العبد يكتب كافراً أحقأباً ثم أحقأباً، ثم يموت والله عليه راض. ومن مات هزازاً لُمأزاً مُلقباً للناس، كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم، من كلا الشفتين».

﴿إِنَّا يَوْمَئِذٍ نَخْلَعُ كَمَا نَلَوْنَا أَصْنَافَ لَمَجُودٍ إِذْ أَصْمَأُ لَيْرَمْتَهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فَطَالَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ مِنْ رَبِّكَ وَهُوَ قَائِمُونَ (١٩) فَاصْبَحْتَ كَالصَّيْرِ (٢٠) فَتَنَادَا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ أَتَدَا عَلَى حَرْوِكُورٍ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيحِينَ (٢٢) فَطَلَعُوا وَهُمْ يَتَمَتَّعُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّ الْيَوْمَ عَلَيْكَ يَسْتَبِينَ (٢٤) وَقَدَا عَلَى حَرْوٍ قَدِيدُونَ (٢٥) فَمَا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَمَعْلُونَ (٢٦) بَلْ عَنْ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ لَوْسَطَهُمْ أَوْ أَمَلُ لَكُورٍ وَلَا يَسْتَوْفُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ غَائِبِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُونَ (٣٠) قَالُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا لَمَعْلِينَ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَا حَرْوًا يَنْهَا إِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا رَغِيْبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْفُتَاتُ وَالْفُتَاتُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو يُعْتَهُ محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمহারية؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا يَوْمَئِذٍ نَخْلَعُ﴾ أي: اخبرناهم، ﴿كَمَا نَلَوْنَا أَصْنَافَ لَمَجُودٍ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَصْمَأُ لَيْرَمْتَهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليُجِدَنَّ ثمرها ليلاً، لثلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حثهم الله في إيمانهم، فقال: ﴿فَطَالَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ مِنْ رَبِّكَ وَهُوَ قَائِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية، ﴿فَاصْبَحْتَ كَالصَّيْرِ﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود. وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشياً يساً. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن أحمد بن الصباح:

أبانا بشير بن زاذان، عن عمر بن صباح، عن ليث بن أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليدنّب الذنّب فيحرم به رزقاً قد كان هنيئاً له»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْكَ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالْعِهْرِيِّ ﴿٢٠﴾﴾، قد حرموا خير جنتهم بذنبيهم. ﴿فَتَأَذُوا نَعِيمِيْنَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ، ﴿أَنْ أَتَذُوا عَلَىٰ حَرْبٍ إِنْ كُنْتُمْ مُرِيدِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تريدون الصرام. قال مجاهد: كان حرتهم عنياً ﴿فَأَطْلَقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم. ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: ﴿فَأَطْلَقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ نَسِيكٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكثوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم! قال الله تعالى: ﴿وَعَذَابًا عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ أي: قوة وشدة. وقال مجاهد: ﴿وَعَذَابًا عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ أي: جد. وقال عكرمة: غيظ. وقال الشعبي: ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾: على المساكين. وقال السدي: ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ أي: كان اسم قريتهم حرد. فأبعد السدي في قوله هذا! ﴿قَدِيدُونَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَاءِلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله، ﷻ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مذلّمة، لا يُنتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَسَاءِلُونَ﴾ أي: قد سلكتنا إليها غير الطريق فثبتنا عنها. قاله ابن عباس وغيره. ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب. ﴿قَالَ أَسْأَلُكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس، والضحاك، وقناة: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَزَّرَ أَقْلَ لَكَوْ لَوْلَا سَيِّئُونَ﴾ قال مجاهد، والسدي، وابن جريج: ﴿لَوْلَا سَيِّئُونَ﴾ أي: لولا تستنون. قال السدي: وكان استناؤهم في ذلك الزمان تسيحاً.

قال ابن جريج: هو قول القائل: إن شاء الله. وقيل: معناه: ﴿قَالَ أَسْأَلُكُمْ أَزَّرَ أَقْلَ لَكَوْ لَوْلَا سَيِّئُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينفع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلْ بِسُئْتِهِمْ عَلَىٰ بَعْضِ يَتْلُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قَالُوا بَرَأْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: اعتدنا وبغينا وطيننا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يُؤْتِيَنَا حِكْمًا رَبَّنَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا نَبْغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا: وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، والله أعلم. ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن - قال سعيد بن جبيرة: كانوا من قرية يقال لها ضروان، على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة - وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويذخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحقّ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك غوqبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، ورأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المساكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرة ﴿وَلَمَّا لَبِثُوا أَكْثَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق. وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد بالليل.

﴿إِنَّ لِلنَّاسِ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتَ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ أَتَجَمَّلُ النَّاسِيَةَ كَالْمُرِيَةِ ﴿٣٥﴾ مَا لَكَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكَوْ كَيْفَ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكَوْ فِيهِ لَأَ تَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكَوْ أَيْتَنُّ عَيْنًا بِلَعْنَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْيَقِينِ إِنَّ لَكَوْ لَأَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَّمَهُ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَيْبٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَمْ تَشْرَكْ قَلْبًا وَأَشْرَكَوْهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله، ﷻ، وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ثم قال: ﴿أَتَجَمَّلُ النَّاسِيَةَ كَالْمُرِيَةِ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أفساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: كيف تظنون ذلك؟ ثم قال: ﴿أَمْ لَكَوْ كَيْفَ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إِنَّ لَكَوْ فِيهِ لَأَ تَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: أفبايديكم كتاب منزل من السماء تدرسون وتحفظونه وتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكماً مؤكداً كما تدعون؟ ﴿إِنَّ لَكَوْ فِيهِ لَأَ تَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أَمْ لَكَوْ أَيْتَنُّ عَيْنًا بِلَعْنَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْيَقِينِ إِنَّ لَكَوْ لَأَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أمعكم عهدونا ومواثيق مؤكدة، ﴿إِنَّ لَكَوْ لَأَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتنون، ﴿سَلَّمَهُ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَيْبٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: قل لهم: من هو

المتمضمّن المتكفل بهذا؟ ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (٤٢) خَيِّمَةً أَمْرَهُمْ رَعَفَهُمْ وَإِنَّ قَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَمَنْ سَلَّطُوا ﴿٤٣﴾ فَذَرَى وَمَنْ يَكْذِبُ يَدْعَا لَوْلِيَيْهِ سَتَدْرِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْتَأْذِنُ لِمَنْ فَرَّحَ بِفَرَحِهِمْ مَقْرَرٌ مُتَقَلِّبُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾.

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (٤٢) يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمر العظام. وقد قال البخاري ها هنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور. وقد قال عبد الله بن المبارك، عن أسامة بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ قال: هو يوم كُزِبَ وشدة. رواه ابن جرير ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن المغيرة، عن إبراهيم، عن ابن مسعود - أو: ابن عباس، الشك من ابن جرير - : ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ قال: شدة الأمر. وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ قال: شدة الأمر وجده. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. وكذا روى الضحاك عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبة، حدثنا هارون بن عمر المخزومي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح، عن مولى لعمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنِ سَائِي﴾ قال: «عن نور عظيم، يخرون له سجداً». ورواه أبو يعلى، عن القاسم بن يحيى، عن الوليد بن مسلم، به. وفيه رجل مبهم، فالله أعلم. وقوله: ﴿خَيِّمَةً أَمْرَهُمْ رَعَفَهُمْ وَإِنَّ قَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَمَنْ سَلَّطُوا﴾ (٤٣) في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا ببقية ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب، ﷻ، فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد ختر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿فَذَرَى وَمَنْ يَكْذِبُ يَدْعَا لَوْلِيَيْهِ﴾ يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني ولياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف استدرجه، وأمه في غيبه وأنظر، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَتَدْرِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيُّسْبُونَ أَمَّا يُدْعَرُ بِهِ مِنْ تَالِي وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ أَسْأَلُ لِمَنْ فِي كَلْبِيَّزٍ لَمْ يَلْ يَسْمَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المونسون: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا دُعُوا بِهِ فَمَحَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ مَنْ حَقَّ إِذَا رَحُوا بِمَا أَوْفُوا كَفَرْتَهُمْ بَعَثَهُ إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الانعام: ٤٤]. ولهذا قال ها هنا: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: وأوخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يقبله». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٥٧﴾﴾ [معد: ٥٧]. وقوله: ﴿أَمْ تَسْتَأْذِنُ لِمَنْ فَرَّحَ بِفَرَحِهِمْ مَقْرَرٌ مُتَقَلِّبُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أم عندهم الغيب فهم يكتُمون ﴿٤٧﴾: تقدم تفسيرهما في سورة «الطور». والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله، ﷻ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، ﷻ، وهم يكذبون بما جنتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَأَسْرِ بِمَنْزِلِكَ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْقَوْمِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْهُومٌ ﴿٥٨﴾ لَوْلَا أَنْ نَدْرَكَهُ يَمَنَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَكُنْتُمْ أَجْزَاءً مِمَّا دَمَّرْنَا ﴿٥٩﴾ فَاحْتَسِبْ رَبَّهُ نَعْلَمَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ يَأْتِرَ لَكَ إِلَهُكَ وَتَوَلَّوْنَ إِيَّاهُمْ لَمَجُوعٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَأَسْرِ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْقَوْمِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى، عليه السلام، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشروء الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسييح

البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يَزِدُ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٥٣]، ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِيهِ إِلَّا يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وقال ههنا: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْشُوفٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: مغموم. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروب. وقد قدمنا في الحديث أنه لما قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، خرجت الكلمة تحف حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال الله: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا يونس. قالوا: يا رب، عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمل في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ رَبُّهُ فَسَمَّاهُ يُونُسَ﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري. وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة. وقوله: ﴿وَلَنْ يَكْفُرُ الْكُفْرَانُ لِكَبْرُوتِكَ بِأَصْرَفِهِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿لِكَبْرُوتِكَ﴾ لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينوك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك بغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة:

حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه: قال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود العتكي، حدثنا شريك (ح)، وحدثنا العباس العنبري، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن العباس بن ذريح، عن الشعبي - قال العباس: عن أنس - قال: قال النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ». لم يذكر العباس العين. وهذا لفظ سليمان. حديث بريدة بن الحصيب، رضي الله عنه: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر الرازي، عن حصين، عن الشعبي، عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة». هكذا رواه ابن ماجه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، عن سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عامر الشعبي، عن بريدة موقوفاً، وفيه قصة. وقد رواه شعبة، عن حصين، عن الشعبي، عن بريدة. قاله الترمذي. وروى هذا الحديث الإمام البخاري من حديث محمد بن فضيل، وأبو داود من حديث مالك بن مِقْوَل، والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، ثلاثتهم عن حصين، عن عامر الشعبي، عن عمران بن حصين موقوفاً. حديث أبي جندب بن جنادة: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البرند السامي، حدثنا ديلم بن غزوان، حدثنا وهب بن أبي دبي، عن أبي حرب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حلقاً، ثم يتردى منه» إسناده غريب، ولم يخرجوه. حديث حابس التميمي: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثنا حية بن حابس التميمي: أن أباه أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل». وقد رواه الترمذي عن عمرو بن علي، عن أبي غسان يحيى بن كثير، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، به. ثم قال غريب. قال: وروى شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حية بن حابس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قلت: كذلك رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى وحسين بن محمد، عن شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حية، حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا بأس في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل».

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الوليد، عن سفيان، عن دويد، حدثني إسماعيل بن ثوبان، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، العين حق، تستنزل الحالق» غريب. طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا اغشتم فاغسلوا». انفرد به دون البخاري. وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، ويقول: «هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذُ إسحاق وإسماعيل، عليهما السلام». أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث المنهال، به. حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، رضي الله عنه: قال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سفيان،

عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف، وهو يغتسل، فقال: لم أر كالיום ولا جلد مخبأة. فما لبث أن لُطَّ به، فأتي به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً. قال: «من تهمون به؟». قالوا: عامر بن ربيعة. قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدغ له بالبركة». ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وربكته، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان: قال معمر، عن الزهري، وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه. وقد رواه النسائي، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس، كلاهما عن الزهري، به. ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة: ويكفأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبي ذئب عن الزهري، عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، عن أبيه، به. ومن حديث مالك أيضاً، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، به. حديث أبي سعيد الخدري: قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس. فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك. ورواه الترمذي والنسائي من حديث سعيد بن إياس أبي مسعود الجُريري، به. وقال الترمذي: حسن.

حديث آخر عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، حدثني عبد العزيز بن صهيب، حدثني أبو نضرة، عن أبي سعيد: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال: «نعم». قال: باسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أريقك. ورواه عن عفان، عن عبد الوارث، مثله. ورواه مسلم وأهل السنن - إلا أبا داود - من حديث عبد الوارث، به. قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن أبي نضرة، عن سعيد - أو: عن جابر بن عبد الله - أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل فقال: باسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين الله يشفيك. ورواه أيضاً، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن داود، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به. قال أبو زرعة الرازي: روى عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه، عن عبد العزيز، عن أبي نضرة، وعن عبد العزيز، عن أنس، في معناه، وكلاهما صحيح. حديث أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن هُشام بن مُثَنَّب قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن العين حق». أخرجه من حديث عبد الرزاق. وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عُلَيْة، عن الجُريري، عن مُضارب بن حزن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق». تفرد به. ورواه أحمد، عن إسماعيل بن عُلَيْة، عن سعيد الجُريري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا ثور - يعني ابن يزيد - عن مكحول، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ويحضرها الشيطان، وحسد ابن آدم». وقال أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن قيس: سئل أبو هريرة: هل سمعت رسول الله يقول: الطيرة في ثلاث؛ في المسكن والفرس والمرأة؟ قال: قلت: إذا أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل! ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصدق الطيرة الفأل، والعين حق». حديث أسماء بنت حُمَيْس: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَة بن عامر، عن عُبَيْد بن رفاعة الزُرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفاسترقى لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به. ورواه الترمذي أيضاً والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَة بن عامر، عن عُبَيْد بن رفاعة، عن أسماء بنت عميس، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث عائشة، رضي الله عنها: قال ابن ماجه: حدثنا علي بن أبي الخصيب، حدثنا وكيع، عن سفيان، ومِسْعَر، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن شَدَّاد، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين. ورواه البخاري عن محمد بن كثير، عن سفيان، عن معبد بن خالد، به. وأخرجه مسلم من حديث سفيان ومِسْعَر، كلاهما عن معبد، به. ثم قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو هشام المخزومي، حدثنا وهيب، عن أبي واقد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق». تفرد به. وقال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين. حديث سهل بن حنيف: قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار - من الجحفة - اغتسل سهل بن حنيف - وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد - فنظر إليه عامر بن ربيعة، أخو بني عدي بن كعب، وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد

مُخْبَاءً. فَلْيَبْطِ سَهْلًا، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل. والله ما يرفع رأسه ولا يُفِيق. قال: «هل تنهمون فيه أحد؟». قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامراً، فتغيظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟». ثم قال له: «اغسل له». فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخله إزاره في قذح - ثم صب ذلك الماء عليه. يصبه رجل على رأسه وظهروه من خلفه، ثم يكفأ القذح وراءه. ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس، ليس به بأس.

حديث عامر بن ربيعة: قال الإمام أحمد في مسند عامر: حدثنا وكيع، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عيسى، عن أمية بن هند بن سهل بن حنيف، عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: - فانطلقا يلتمسان الخمر - قال: فوضع عامر جُبةً كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعيني فنزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له في الماء فرقة، فأثبته فنأثبته ثلاثاً فلم يجبني. فأثبت النبي ﷺ فأخبرته. قال: فجاء يمشي فحاض الماء كأنني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: «اللهم، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها» قال: فقام. فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليزيك، فإن العين حق». حديث جابر: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصاري - ويقال له: ابن الضجيع، ضجع حمزة، رضي الله عنه - حدثني عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس». قال البزار: يعني العين. قال: ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلت: بل قد روي من وجه آخر عن جابر؛ قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشكر - في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة: حدثنا الرهاوي، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا علي بن أبي علي الهاشمي، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، لثورد الرجل القبر، والجمل القدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين». ثم رواه عن شعيب بن أيوب، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْعَيْنُ فِي الْقَبْرِ، وَتَدْخُلُ الْجَمَلُ الْقَدْرَ». حديث عبد الله بن عمرو: قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين بن سعد، عن الحسن بن ثوبان، عن هشام بن أبي رُثِيَةَ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا حسد، والعين حق». تفرد به أحمد. حديث عن علي: روى الحافظ ابن عساكر من طريق خَيْثَمَةَ بن سليمان الحافظ: حدثنا عبيد بن محمد الكشوري، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصري، عن أبي رجاء، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، أن جبريل أتى النبي ﷺ فوافقه مغتماً، فقال: يا محمد، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك؟ قال: «الحسن والحسين أصابتهما عين». قال: صدق بالعين، فإن العين حق، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: «وما هن يا جبريل؟». قال: قل: اللهم ذا السلطان العظيم، ذا المن القديم، ذا الوجه الكريم، ولي الكلمات التامات، والدعوات المستجابات، عاف الحسن والحسين من أنفس الجن، وأعين الإنس. فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه. فقال النبي ﷺ: «عوذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله». قال الخطيب البغدادي: تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحيطي من أهل سُتْر. ذكره ابن عساكر في ترجمة «طراد بن الحسين»، من تاريخه. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَمْجُونٌ﴾ أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: ﴿إِنَّهُمْ لَمَجُونٌ﴾ أي: لمجيئه بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾.



تفسير سورة الحاقة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَائَةِ﴾ ① مَا لَمَائَةٍ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَمَائَةٌ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ ④ فَذَرَاهُ ⑤ بِالْقَارِعَةِ ⑥ فَأَتَاهَا ثَمُودٌ فَأَمْلِكُوا بِالطَّائِفَةِ ⑦ وَأَنَا عَادٌ ⑧ فَأَمْلِكُوا بِرِبْعِ مَدْيَنَ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنَّيْنِ أَتْيَابٍ حُشُومًا ⑨ فَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَحْمَارٌ تَحْتَ حَاوِيَةٍ ⑩ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ⑪ وَجَاءَ رِعْدُونَ مِنْ قَلْبِهِ ⑫ وَالنُّفُثُوكُمْ بِالنَّاطِقَةِ ⑬ فَصَمَّرَ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَأَنْذَرَهُمْ لِنَذْرَةٍ رَآيَةً ⑭ إِنَّا لَأَنَّا طَعْنَا لَمَائَةً

حَمَلَتْكَ فِي الْبَآرِيَةِ ﴿١١﴾ لِيَجْهَلَكَ لِذِكْرِكُمْ وَتَبَيَّأَ أُذُنٌ رَعِيَّةٌ ﴿١٢﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة، لأن فيها يتحقق الرعد والوعيد، ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْوَعْدُ ﴿١٣﴾﴾؟ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطِلَافِيهِ ﴿١٤﴾﴾، وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكتتهم. هكذا قال قتادة: الطاغية الصيحة. وهو اختيار ابن جرير. وقال مجاهد: الطاغية الذنوب. وكذا قال الربيع بن أنس، وابن زيد: إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١١]. وقال السدي: ﴿فَأَهْلِكُوا بِطِلَافِيهِ ﴿١٦﴾﴾ قال: يعني: عاقر الناقة. ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ سَرَصٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: باردة. قال قتادة، والربيع، والسدي، والثوري، ﴿عَلَيْهِمْ ﴿١٨﴾﴾ أي: شديدة الهبوب. قال قتادة: عنت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم. وقال الضحاك: ﴿سَرَصٍ ﴿١٩﴾﴾: باردة ﴿عَلَيْهِمْ ﴿٢٠﴾﴾: عنت عليهم بغير رحمة ولا بركة. وقال علي وغيره. عنت على الخزنة فخرجت بغير حساب. ﴿سَخَّرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿٢١﴾﴾ أي: سلطها عليهم ﴿سَخَّرَ لِيَالٍ وَكَنِينِيَّةٍ آيَاتٍ حُسُومًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والثوري، وغير واحد: ﴿حُسُومًا﴾: متتابعات. وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم، كقوله: ﴿فِي آيَاتٍ نَّجَسَاتٍ ﴿٢٣﴾﴾ [نصفت: ١١٦] قال الربيع: وكان أولها الجمعة. وقال غيره الأربعاء. ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز؛ كان الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿فَتَرَفَّ الْقَوْمُ فِيهَا سَرَعًا كَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ غِيَابٍ ﴿٢٤﴾﴾. وقيل: لأنها تكون في عجر الشتاء، ويقال: أيام المعجوز؛ لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرى فقتلتها الريح في اليوم الثامن. حكاه البيهقي. والله أعلم. قال ابن عباس: ﴿حَاوِيَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: خربة. وقال غيره: بالية، أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرب مبيتاً على أم رأسه، فينشد رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان. وقد ثبت في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالصُّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بِالذُّبُورِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الصُّرَيْسِ العبيدي، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم، فمَرَّتْ بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم، فجعلتهم بين السماء والأرض. فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا. فالتقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة». وقال الثوري عن ليث، عن مجاهد: الريح لها جناحان وذنب. ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِثْرًا بَأَيْسَرٍ ﴿٢٦﴾﴾؟ أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً. ثم قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴿٢٧﴾﴾: قرئ بـ كسر القاف، أي: ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار القبط. وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله: ﴿وَالْمُؤْتِنِكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ وهم المكذبون بالرسول. ﴿بِطِلَافِيَّتِهِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بالفعل الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: ﴿بِطِلَافِيَّتِهِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: بالمعصية. وقال مجاهد: بالخطايا.

ولهذا قال: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴿٣١﴾﴾: وهذا جنس، أي: كل كذب رسول الله إليهم. كما قال: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أَرْسِلْ مِنْ رَعِيدٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لق: ١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤١]. وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَنْزَلْنَاهُمْ آعْدَةً رَابِيَةً ﴿٣٥﴾﴾ أي: عظيمة شديدة اليممة. قال مجاهد: ﴿رَابِيَةً﴾: شديدة. وقال السدي: مهلكة. ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴿٣٦﴾﴾ أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود. قال ابن عباس وغيره: ﴿طَغَا الْمَاءُ ﴿٣٧﴾﴾: كثير. وذلك بسبب دعوة نوح، عليه السلام، على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهرا، عن أبي سنان سعيد بن سنان، عن غير واحد، عن علي بن أبي طالب قال: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان فخرج، فذلك قول الله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتْكِ فِي الْبَآرِيَةِ ﴿٣٨﴾﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك، إلا يوم عاد، فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله: ﴿بِرِيحٍ سَرَصٍ عَلَيَّتِهِ ﴿٣٩﴾﴾ عنت على الخزان. ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتْكِ فِي الْبَآرِيَةِ ﴿٤٠﴾﴾، وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿لِيَجْهَلَكَ لِذِكْرِكُمْ ﴿٤١﴾﴾ عاد الضمير على الجنس للدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وَجَحَلْ لَكَ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سُورَةُ عَلَى طُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِوَعْدِهِمْ إِذْ أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَيْتُمْ هُمْ إِذْ أَنَا جَمَلًا ذَرِيَّتُهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٤﴾﴾ [سُورَةُ عَلَى طُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِوَعْدِهِمْ إِذْ أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿٤٥﴾﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة. والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّيئًا أُذُنٌ رَعِيَّةٌ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وتفهم هذه النعمة، وتذكرها أذن واعية. قال ابن عباس: حافظة سامعة. وقال قتادة: ﴿أُذُنٌ رَعِيَّةٌ ﴿٤٧﴾﴾: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من

كتاب الله، وقال الضحاك: ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَجِيحٍ﴾: سمعتها أذن ووعت. أي: من له سمع صحيح وعقل رجيح. وهذا عام فيمن فهم، ووعي. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى، حدثنا علي بن حوشب، سمعت مكحولاً يقول: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَجِيحٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي». قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط فستيته. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن سهل، عن الوليد بن مسلم، عن علي بن حوشب، عن مكحول، به. وهو حديث مرسل. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا جعفر بن محمد بن عامر، حدثنا بشر بن آدم، حدثنا عبد الله بن الزبير أبو محمد - يعني والد أبي أحمد الزبيري - حدثني صالح بن الهيثم، سمعت بريدة الأسلمي يقول: قال رسول الله ﷺ لعلني: «إني أمرت أن أذنيك ولا أتصيك، وأن أعلمك وأن تعي، وحق لك أن تعي». قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَجِيحٍ﴾. ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف، عن بشر بن آدم، به. ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن أبي داود الأعمى، عن بريدة، به. ولا يصح أيضاً.

﴿وَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَبَيَّضَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَا ذَكَّةً وَجِدَّةً ﴿١٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٧﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٨﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة. وقد أكدها ها هنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأکید. وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة. والظاهر ما قلناه؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿وَجِلَّتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَا ذَكَّةً وَجِدَّةً ﴿١٦﴾﴾ أي: فمدت مذ الأديم المُكَاطِي، وتبدلت الأرض غير الأرض، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٧﴾﴾ أي: قامت القيامة. ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾. قال سماك، عن شيخ من بني أسد، عن علي قال: تنشق السماء من المجرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: هي كقوله: ﴿وَوَيْحَاتِ السَّمَاءِ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٧﴾﴾ [النبا: ١٧]. وقال ابن عباس: منخرقة، والعرش بحدائنها. ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾: الملك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء. قال ابن عباس: على ما لم يه منها، أي: حافتها. وكذا قال سعيد بن جبير، والأوزاعي وقال الضحاك: أطرافها. وقال الحسن البصري: أوابها. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يقول: على ما استدق من السماء، ينظرون إلى أهل الأرض. وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وفي حديث عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو السمع البصري، حدثنا أبو قبيل حُبي بن هانيء: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: حملة العرش ثمانية، ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: كتب إلي أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابوري: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش: بُعِدَ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام». وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات. وقد رواه أبو داود في كتاب «السنة» من سننه: حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». هذا لفظ أبي داود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةٌ﴾. قال: ثمانية صفوف من الملائكة. قال: ورؤي عن الشعبي وعكرمة، والضحاك. وابن جريج مثل ذلك. وكذا روى السدي عن أبي مالك، عن ابن عباس: ثمانية صفوف. وكذا روى العوفي، عنه. وقال الضحاك: عن ابن عباس: الكُروبيُّون ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بقدر الإنس والجن والشياطين والملائكة. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. وقد قال ابن أبي الدنيا: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن جعفر بن بزقان، عن ثابت بن الحججاج قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزنيتموا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا علي بن علي بن رفاعة، عن الحسن، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجداً ومعادير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، به. وقد رواه الترمذي عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن علي بن علي، عن الحسن، عن أبي هريرة، به. وقد روى ابن جرير عن مجاهد بن موسى، عن يزيد، عن سليمان بن حيان، عن مروان الأصغر، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان، معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي. ورواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا، مثله.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِسَيْسِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي ۖ إِنَّ لِي لَمُنَىٰ حِسَابِي ۗ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿إِن لَّنُنْكَرُكَ ۖ إِنَّكَ لَمُنَىٰ حِسَابِي ۗ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۗ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۗ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۗ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّائِيَةِ ۗ﴾ ﴿٢٣﴾.

يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي﴾ أي: خذوا أقرؤوا كتابي؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسانات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد: معنى: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي﴾ أي: ها أقرؤوا كتابي، و«ؤم» زائدة. كذا قال، والظاهر أنها بمعنى: هاكم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مطر الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم الأحوال، عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها، فيرجع إليه لونه. ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، قال: فعند ذلك يقول: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي﴾. وحدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سلمة، حدثنا روح بن عباد، حدثنا موسى بن عبيدة، أخبرني عبد الله بن عبد الله بن حنظلة - غسيل الملائكة - قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فييدي سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول له إنني لم أفضحك به، وإنني قد غفرت لك. فيقول عند ذلك: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي﴾ ﴿إِن لَّنُنْكَرُكَ ۖ إِنَّكَ لَمُنَىٰ حِسَابِي﴾ ﴿٢٠﴾، حين نجا من فضحه يوم القيامة. وقد تقدم في الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُدْنِي اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْرَأُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا، حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ اللهُ: إِنَّي سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَمْوَالُهُمْ كَيْدِي﴾ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا لَسَنَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۗ لَمَّا كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَن هَذَا الْيَوْمَ كَانُوا لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ يَبْطِئُونَ أَنفُسَهُمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٤٦]. قال الله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۗ﴾ ﴿٢١﴾ أي: مرضية، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۗ﴾ ﴿٢٢﴾ أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عتبة الحسن بن علي بن مسلم السُّكُونِي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمانة قال: سألت رجلاً رسول الله ﷺ: هل يتزاور أهل الجنة؟ قال: «نعم، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى، فيحيونهم ويسلمون عليهم، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلى، تقصر بهم أعمالهم». وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۗ﴾ ﴿٢٢﴾ قال البراء بن عازب: أي قريبة، يتناولها أحدهم، وهو نائم على سريرته. وكذا قال غير واحد. قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن عطاء بن يسار، عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز: (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه الجنة عالية، قطوفها دانية». وكذا رواه الضياء في صفة الجنة من طريق سعدان بن سعيد، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان، عن رسول الله ﷺ قال: «يعطى المؤمن جوازاً على الصراط: (بسم الله الرحمن الرحيم)، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان، أدخلوه الجنة عالية، قطوفها دانية». وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّائِيَةِ ۗ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: يقال لهم ذلك؛ تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. وإلا فقد ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولأنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتخمدني الله برحمته منه وفضل».

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَتَّبِعِي ۗ لَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا كَيْدِي ۗ﴾ ﴿٣٧﴾.

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم، ﴿يَقُولُ يَتَيْبَنِي لَوْ أُرْتُ كَيْبَةً وَرَوْ أَدْرَ مَا حَسَابَةً ﴿٣٦﴾ يَتَيْبَنِي كَانَتْ الْقَائِيَةَ ﴿٣٧﴾﴾. قال الضحاك: يعني مودة لا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب، والربيع، والسدي. وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ﴿مَا أَفْقَرُ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٣٨﴾ هَلَكَ عَنِّي شَأْنِيَةَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير. فعندها يقول الله، ﴿عُدُّهُ فَنَلُّهُ ﴿٤٠﴾ تَرُّ لِحْجِمِ سَلْوُهُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنقاً من المحشر، فتعقله، أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم توردّه إلى جهنم فتصلبه إياها، أي: تغمره فيها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن الجثنهال بن عمرو قال: إذا قال الله، ﴿عُدُّهُ ﴿٤٠﴾﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار. وروى ابن أبي الدنيا في «الأهوال»: أنه يبتدره أربعمئة ألف، ولا يبقى شيء إلا دقه، فيقول: ما لي ولك؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان، فكل شيء غضبان عليك. وقال الفضيل - هو ابن عياض -: إذا قال الرب، ﴿عُدُّهُ فَنَلُّهُ ﴿٤٠﴾﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه. ﴿تَرُّ لِحْجِمِ سَلْوُهُ ﴿٤١﴾﴾ أي: اغمره فيها. وقوله: ﴿تَرُّ فِي سَيْلَةٍ دَرَّعَهَا سَبْعُونَ دَرَّاعًا فَاسْتَلْكُوهُ ﴿٤٢﴾﴾: قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال العوفي عن ابن عباس، وابن جرير: بذراع الملك. وقال ابن جرير، قال ابن عباس: ﴿فَاسْتَلْكُوهُ﴾ تدخل في أسته ثم تخرج من فيه، ثم ينظّمون فيها كما ينظّم الجراد في العود حين يشوى. وقال العوفي، عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجله. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن عيسى بن هلال الصّدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رصاصة مثل هذه - وأشار إلى مثل جُفْمُجَة - أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة، لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها». وأخرجه الترمذي، عن سُوَيْدِ بْنِ نَصْرٍ، عن عبد الله بن المبارك، به. قال: هذا حديث حسن. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْغَيْبِ ﴿٤٣﴾ وَلَا يُحِصُّ عَن طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم؛ فإن الله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة»، وما ملكت أيمانكم». وقوله: ﴿فَنَلَّ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٤٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم - وهو القريب - ولا شفيح يطاع، ولا طعام له ها هنا إلا من غسلين. قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع، والضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، عن خُصَيْفٍ، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين، ولكني أظنه الزقوم. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحمهم. وقال علي بن أبي طلحة عنه: الغسلين: صديد أهل النار.

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُشِّرُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا لَا بُشَيْرُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٥٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا يَقُولُ كَافِرٍ قَلِيلًا مَا نَذْرُونَ ﴿٥٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْكَلِيمِ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى مقسماً لخلقها بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُشِّرُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا لَا بُشَيْرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يعني: محمداً، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوثير إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٥٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٥١﴾ شَلَّاحٌ تَمَّ أَمِينٍ ﴿٥٢﴾﴾ وهذا جبريل، عليه السلام. ثم قال: ﴿وَمَا سَاجِدٌكُمْ بِمَجْتُونٍ ﴿٥٣﴾﴾ يعني: محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴿٥٤﴾﴾ يعني: أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِصَبِيرٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [التكوثير: ١٩ - ٢٥]، وهكذا قال ها هنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا يَقُولُ كَافِرٍ قَلِيلًا مَا نَذْرُونَ ﴿٥٢﴾﴾، فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْكَلِيمِ ﴿٥٣﴾﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا شريح بن عبيد الله قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن. قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قریش. قال:

فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾. قال: فقلت: كاهن. قال: فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تُذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٢٠﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾ مَّا يَنْكَرُ مِّنْ أَمْرِ عَنَّا حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب، كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة، والله الحمد.

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٢٠﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾ مَّا يَنْكَرُ مِّنْ أَمْرِ عَنَّا حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَنْكَرُ مُكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢٦﴾ فَسَبِّحْ بِإِثْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة. ولهذا قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾﴾ قيل: معناه لانتمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطن. وقيل: لأخذنا بيمينه. ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾﴾: قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العزق الذي القلب معلق فيه. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبیر، والحكم، وقتادة، والضحاك، ومسلم البطين، وأبو صخر حميد بن زياد. وقال محمد بن كعب: هو القلب ومرأته وما يليه. وقوله: ﴿مَّا يَنْكَرُ مِّنْ أَمْرِ عَنَّا حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله، ﷻ، مقرر له ما يبلغه عنه، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: القرآن كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [صافات: ٤٤]. ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَنْكَرُ مُكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله. وروى ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن أبي مالك: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَنَبِّهِينَ ﴿٢٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَجِبَالٌ بِهِمْ مِّمَّنْ مَا يَشْتَبِهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولهذا قال ها هنا: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك ولا ريب. ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِإِثْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة «الحاقة»، وبه الحمد



تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُم دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَسَائِعِ ﴿٣﴾ تَتَجَافَىٰ لَهُمُ الْعِلْمُ فَمَا لَهُم بِمَعْرِفِهِ ﴿٤﴾ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ يَوْمَ تَصِيرُ الْآصْفَاءُ ﴿٥﴾ فَأَمِيرٌ صَبَرًا فَجِيحًا ﴿٦﴾ وَأَمِيرٌ يُرَاوِدُ بِهَا ﴿٧﴾ وَتَرْتَهُ قَرِيبًا ﴿٨﴾﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾: فيه تضمين دل عليه حرف «الباء»، كأنه مُقدر: يستعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: ﴿وَسَتَسْمِعُونَ لَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُمْ ﴿٤٧﴾﴾، أي: وعذابه واقع لا محالة. قال النسائي: حدثنا بشر بن خالد، حدثنا أبو أسامة، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ قال: النضر بن الحارث بن كلدة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال: وهو قولهم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ إِذْ كُنَّا هَذَا حَمَلًا عَلَيْنَا عِنْدَ رَبِّكَ عَلِيمًا حَقًّا مِّنَ السَّمَكِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقال ابن زيد وغيره: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ أي: واد في جهنم. يسئل يوم القيامة بالعذاب. وهذا القول ضعيف، بعيد عن المراد والصحيح الأول لدلالة السياق عليه. وقوله: ﴿وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مُرصد مُعد للكافرين. وقال ابن عباس: ﴿وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾: جاء ﴿لَيْسَ لَهُم دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَسَائِعِ ﴿٣﴾﴾ قال الثوري، عن الأعمش، عن

رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾ قال: ذو الدرجات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾ يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهد: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾: معارج السماء. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم. وقوله: ﴿تَتَجَرَّعُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿تَتَجَرَّعُ﴾: تصعد. وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله. يشبهون الناس، وليسوا ناساً. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام. ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث المنهال، عن زاذان، عن البراء مرفوعاً - الحديث بطوله في قبض الروح الطيبة - قال فيه: «فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله». والله أعلم بصحته، فقد تكلم في بعض رواته، ولكنه مشهور، وله شاهد في حديث أبي هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عنه. وهذا إسناده رجاله على شرط الجماعة، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُنشِئُ اللَّهُ الذَّرِيَّةَ أَمْثَلًا بِالْقَوْلِ أَلْقَابًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَلِيلِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز في وسط الأرض السابعة. وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة، وأنه من ياقوتة حمراء، كما ذكره ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش. وقد قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا حكام، عن عُمَرَ بن معروف، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة ويوم كان مقداره ألف سنة. يعني بذلك: تنزل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة. وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن حكام بن سلم؛ عن عُمَرَ بن معروف، عن ليث، عن مجاهد قوله، لم يذكر ابن عباس. قال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا نوح المؤدب، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، وذلك سبعة آلاف عام. وغلظ كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف سنة، فذلك قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة. وذلك عمرها يوم سماها الله تعالى يوم، ﴿تَتَجَرَّعُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قال: اليوم: الدنيا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد - وعن الحكم بن أبان، عن عكرمة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة، لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي إلا الله، ﷻ. القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جداً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا بَهْلُولُ بن المورق، حدثنا موسى بن عبيدة، أخبرني محمد بن كعب: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة. القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: يوم القيامة. وهذا إسناده صحيح. ورواه الثوري عن سماك بن حرب، عن عكرمة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يوم القيامة. وكذا قال الضحاك، وابن زيد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَتَجَرَّعُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة. وقد وردت أحاديث في معنى ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قيل لرسول الله ﷺ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا». ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به. إلا أن

دزاجاً وشيخه ضعيفان، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي عمر الغُداني قال: كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة، فقيل له: هذا أكثر عامري مالاً. فقال أبو هريرة: ردوه. فقال: نبئت أنك ذو مال كثير؟ فقال العامري: إي والله، إن لي لمائة حُمْراً ومائة أدماء، حتى عد من ألوان الإبل، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم - يُردد ذلك عليه، حتى جعل لوّن العامري يتغير - فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كانت له إبلٌ لا يعطي حقها في نجاتها ورسولها قلنا يا رسول الله: ما نجاتها ورسولها؟ قال: «في عُسرها ويسرها فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشهره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطوّه بأخفافها، فإذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، وإذا كانت له بقر لا يعطي حقها في نجاتها ورسولها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشهره ثم يبطح لها بقاع قرقر فتطوّه كل ذات ظلف يظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله. وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجاتها ورسولها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وأشهره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطوّه كل ذات ظلف يظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، فيرى سبيله». فقال العامري: وما حق الإبل يا أبا هريرة؟ قال: أن تعطي الكريمة، وتمنح الغزيرة، وتفقر الظهر، وتسقي اللبن، وتطرق الفحل. وقد رواه أبو داود من حديث شعبة، والنسائي من حديث سعيد بن أبي عَرُوبة، كلاهما عن قتادة، به.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار». وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم، وفيه: «الخيول لثلاثة لرجل أجر، وللرجل ستر، وعلى رجل وزر» إلى آخره. ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخاري، من حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة في «الأحكام»، والغرض من إيراده هنا قوله: «حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد روى ابن جرير عن يعقوب عن ابن عُلَيْه وعبد الوهاب، عن أيوب، عن ابن أبي مُثَيْبَةَ قال: سأل رجل ابن عباس عن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ يُقَدَّرُ حَسْبُ أَلْفِ سَنَةٍ﴾ قال: فاتهمه، فقيل له فيه، فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال: إنما سألتك لتحديثي. قال: هما يومان ذكرهما الله، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم. وقوله: ﴿فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَبِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْمِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقِينَ يَنظُرُونَ إِلَيْهَا لِيُخْلَقُوا لَهَا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ﴾ [الشورى: ١٨] قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى استحصال الوقوع، ﴿وَرَوْنَهُ قَرِيبًا﴾ أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله، ﷻ، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا (١٠) يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَوْ يَفْقَدُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَسِيرًا (١١) وَصَحْبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِمْ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمِيمًا ثُمَّ يَبْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَرْضٌ لَظُن (١٥) تَرْتَاةٌ لِلشَّوْءِ (١٦) تَلْعَاوُنَ مِنْ دَرَبٍ وَتَوَلَّى (١٧) رَجْعًا فَاذْرَعِي (١٨).

يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ (٨). قال ابن عباس: ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والسدي، وغير واحد، كدردي الزيت ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٩). أي: كالصوف المنفوش، قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٥) [القارة: ٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ (١٠) يُصْرَوْنَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريب عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره. قال العوفي عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول: ﴿لِكُلِّ أُمَّيٍّ يَتَنَمَّرُ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣٧). وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْفِصَالًا وَمَشْوَيًا يَوْمَئِذٍ لَا يُجْرَى عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَنْ وَلِيِّهِمْ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ جَارٌ عَنْ وَلِيِّهِمْ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [القمان: ٣٣]. وكقوله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثَلَهُ إِلَى جَمِيلِهَا لَا يُجْمَلُ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [ناظر: ١٨]. وكقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَتَنَمَّرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ (١١) [المؤمنون: ١٠١]. وكقوله: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ أَسْبَابِهِ (٢٤) وَأَسْبَابَهُ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَرَبِّهِ﴾ (٢٦) لِكُلِّ أُمَّيٍّ يَتَنَمَّرُ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٢٧) [عبس: ٣٤-٣٧]. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَوْ يَفْقَدُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَسِيرًا وَأَسْبَابِهِ﴾ (٢٨)

وَصَلِيَّهِ الَّذِي تَوْبَهُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ؕ أَي: لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهل أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه. قال مجاهد والسدي: ﴿وَصَلِيَّهِ﴾: قبيلته وعشيرته. وقال عكرمة: فخذته الذي هو منهم. وقال أشهب، عن مالك: ﴿وَصَلِيَّهِ﴾: أمه. وقوله: ﴿إِنَّمَا لَطْفٌ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ ﴿١١﴾. قال ابن عباس، ومجاهد: جلدة الرأس. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ ﴿١١﴾: الجلود والهام. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جبير: العصب. وقال أبو صالح: ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ ﴿١١﴾ يعني: أطراف الديدن والرجلين. وقال أيضاً: نزاعة لحم الساقين. وقال الحسن البصري، وثابت البناني: ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ ﴿١١﴾ أي: مكارم وجهه. وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح. وقال قتادة: ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ ﴿١١﴾ أي: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبرى اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئاً. وقال ابن زيد: الشوى: الآراب العظام. فقوله: نزاعة، قال: تقطع عظامهم، ثم يُجدد خلقهم وتبدل جلودهم. وقوله: ﴿تَقَعَّرُوا مِنْ أَذْرٍ وَقَوَّكُ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلك، ثم تلتفتهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب. وذلك أنهم - كما قال الله، ﷻ كانوا ممن ﴿أَذْرٍ وَقَوَّكُ﴾ أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ﴿١٨﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أركاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة. وقد ورد في الحديث: «ولا تؤعي فيؤعي الله عليك». وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ﴿١٨﴾. وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا. وقال قتادة في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ﴿١٨﴾ قال: كان جموعاً قوموا للخبيث.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾ إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ حَزُوعًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْغِنَىٰ سُوَاعًا ﴿١٣﴾ إِلَّا الْآتِصِينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتْمٌ مِّمَّا لَعَنُوا ﴿١٦﴾ لَسَّالِيٍّ وَالْمُتَّوِّبِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُهَيِّئُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ حَسِيطُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢١﴾ فَمَنْ أَتَيْنَ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ لِأُيُسْرِهِمْ ذَرَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾﴾، ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ حَزُوعًا ﴿١٢﴾﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْغِنَىٰ سُوَاعًا ﴿١٣﴾﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن علي بن رباح: سمعت أبي يحدث عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في رجل شح هال، وجبن خال». ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وليس لعبد العزيز عنده سواه. ثم قال: ﴿إِلَّا الْآتِصِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووقفه، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿١٥﴾﴾ قيل: معناه يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم. قاله ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم النخعي. وقيل: المراد بالدوام ها هنا السكون والخشوع، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. قاله عتبة بن عامر. ومنه الماء الدائم، أي: الساكن الراكد. وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوماً عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». وفي لفظ: «ما داوم عليه صاحبه»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه. وفي لفظ: أثبته. وقال قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿١٥﴾﴾: ذكر لنا أن دانيال، عليه السلام، نعت أمة محمد ﷺ فقال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة. فعليكم بالصلاة فإنها خلقت للمؤمنين حسن. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتْمٌ مِّمَّا لَعَنُوا ﴿١٦﴾ لَسَّالِيٍّ وَالْمُتَّوِّبِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة الذاريات». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: خائفون وجلون، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُهَيِّئُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ حَسِيطُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: من الإماء، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ أَتَيْنَ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ لِأُيُسْرِهِمْ ذَرَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿٣٦﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ نَحِيمٌ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي : إذا أوتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغلروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد في الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» . وفي رواية : «إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ أي : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، ﴿وَمَنْ يَكْتُمْنَهَا فَإِنَّهُ فَإِنَّهُ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] . ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم في أول سورة : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَارِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] ، وقال ها هنا : ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ يُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيَّبٌ ﴿٣٦﴾ عَنِ آلِيِّينَ وَعَنِ الْإِنَّمَالِ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ آتَمِيٍّ إِنَّهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَا أُنْمِئُ بِرَبِّكَ الشَّرِيقَ وَالْعَرَبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ أَنْ يُدَلَّ خَيْرًا يَتَمَّ وَمَا عَنْ يَسْتَوِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ حَوْسًا وَيَلْمُوا حَتَّىٰ يَلْفُحُوا بِأَنَّهُمْ يُؤْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَرْجُفُونَ مِنَ الْجَبَابِكِ يَرْكَبُونَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُوبٍ يُوفُونَ ﴿٤٣﴾ خِيَمَةٌ أُنصُرُهُمْ زَعَمَهُمْ وَلَهُ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

يقول تعالى منكرأ على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً ، فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٤﴾ كَأَنَّهُمْ خُمٌ مُّنتَبِرَةٌ ﴿٤٥﴾ فَزَيَّتْ مِنْ صَوْرَتِهِ ﴿٤٦﴾ الْآيَةَ [المدر: ٤٩-٥١] . وهذه مثلها ، فإنه قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيَّبٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهَيَّبٌ﴾ أي : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصري : ﴿مُهَيَّبٌ﴾ أي : منطلقين ، ﴿عَنِ آلِيِّينَ وَعَنِ الْإِنَّمَالِ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾﴾ واحداً عزرةً ، أي : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أي : في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء : فهم مخالفتون للكتاب ، مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال العمري ، عن ابن عباس : ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيَّبٌ ﴿٣٦﴾﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿عَنِ آلِيِّينَ وَعَنِ الْإِنَّمَالِ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾﴾ قال : العزير : العصب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا قرة ، عن الحسن في قوله : ﴿عَنِ آلِيِّينَ وَعَنِ الْإِنَّمَالِ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿مُهَيَّبٌ﴾ : عامدين ، ﴿عَنِ آلِيِّينَ وَعَنِ الْإِنَّمَالِ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي : فرقاً حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ، ولا في نبيه ﷺ . وقال الثوري ، وشعبة ، وعيسى بن يونس ، وعبثر بن القاسم ، ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وأبو معاوية ، كلهم عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم بن طرفة ، عن جابر بن سمرة ، أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق ، فقال : «ما لي أراكم عزين؟» . رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، من حديث الأعمش ، به . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق ، فقال : «ما لي أراكم عزين؟» . وهذا إسناد جيد ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه . وقوله : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ آتَمِيٍّ إِنَّهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي : أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق ، أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل ما واهم نار الجحيم . ثم قال تعالى مقررأ لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلأ عليهم بالبداة التي الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي : من المنى الضعيف ، كما قال : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّا تَوَّاهِبُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المسرات: ٢٠] . وقال : ﴿فَنَحْنُ الْإِنْسَانُ بِمِثْلِ خَلْقِ ﴿٤٠﴾ خَلْقٍ مِنْ مَّا تَوَّاهِبُونَ ﴿٤١﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَالْأَرْبَابِ ﴿٤٢﴾ إِنَّهُمْ عَلَىٰ تَجْوِيهِ لِقَائِهِ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَكِلُ الْأَنْفُسُ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴿٤٤﴾ مَا لَمْ يَنْفُذْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿٤٥﴾﴾ [المسرات: ٤٠-٤٥] . ثم قال : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرِ وَالْعَرَبِ ﴿٣٧﴾﴾ الذي خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقاً ومغرباً ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب من مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى به «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيها من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يُعَدِّدِ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَخْلُقَ لَكُنَّ لَكُنَّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٧﴾﴾

[الاحقاف: ١٣٣]. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَيْنَ وَهوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١، ٨٢]. وقال هاهنا: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّي السِّرِّي وَاللَّتْرِبَ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴿٨٣﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: يوم القيامة تعيدهم بأبدان خیر من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ أي: يعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أَمْسَسَ الْإِنْسَانَ أَلْحَقَ عِظَامَهُ ﴿٨٤﴾ بَلْ نَدْرِينُ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٨٥﴾﴾ [القيامة: ٤، ٣]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٨٦﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]. واختار ابن جرير: ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: أمة طيعنا ولا تعصينا وجعلها، كقوله: ﴿وَأَيُّ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿مَنْذَرٌ﴾ أي: يا محمد ﴿يُؤْمِنُونَ وَيَلْمِئُونَ﴾ أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: فيعلمون غيب ذلك ويدفون وباله، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَابِ بَرَكًا كَانَتْ لَهُمْ إِنْ نَسَبَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَهُمْ﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب، تبارك وتعالى، لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إلى علم يسعون. وقال أبو العالية، ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها. وقد قرأ الجمهور: «نصب» بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصب. وقرأ الحسن البصري: ﴿نُسَبَ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم، أي: كأنهم في إسرعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون، يبتدون، أيهم يستلمه أول. وهذا مروى عن مجاهد، ويحيى بن أبي كثير، ومسلم البطين، وقاتدة، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صالح، وعاصم بن بهدلة، وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿خَيْمَةً أَهْرَافُهُ﴾ أي: خاضعة رُفْعُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

آخر تفسير سورة «سأل سائل» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة نوح

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بُيِّنٌ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ كَأَنَّكُمْ كُفْرًا بَيْنَ دُونِكُمْ لَا يَأْتِي الْقَوْمَ بِآيَاتِنَا إِلَّا بَأْسٌ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ رَبَّهُمْ لَنْ نُرْسِلَ إِلَهًُا إِلَّا لِيُعَذَّبَ النَّاسَ﴾ [١-٣].

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه أمرأله أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بُيِّنٌ ﴿١﴾ أي: بين التذارة، ظاهر الأمر واضح، ﴿أَلَمْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ كَأَنَّكُمْ كُفْرًا بَيْنَ دُونِكُمْ﴾ أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمهم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه. ﴿يَنْفَعُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم. و«من» ها هنا قيل: إنها زائدة. ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل. ومنه قول بعض العرب: «قد كان من مطر». وقيل: إنها بمعنى «عن» تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم. واختاره ابن جرير. وقيل: إنها للتبويض، أي: يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم ويدرك عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه، أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزداد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر». وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَاثِ ﴿٦﴾ فَأَسْرَبُوا وَأَنْسَبُوا وَتَوَلَّوْا وَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي آذَنْتُكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿٩﴾ فَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿١٠﴾ وَإِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿١١﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿١٢﴾ وَإِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿١٣﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿١٤﴾ وَإِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿١٥﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿١٦﴾ وَإِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿١٧﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿١٨﴾ وَإِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا عَذَابُكَ لَكُنْتُمْ أَشْجَارًا ﴿١٩﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَنْسَبُوا وَأَسْرَبُوا تِلْكَ صِغَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ أَسْوَدٌ كَالْإِسْفَارِ ﴿٢٠﴾﴾

وَيُخْرِجُهُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٧﴾ وَأَلَّهَ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سِطًا ﴿١٨﴾ لِيَسْتَلْكُوا مِنْهَا شُكْلًا فِيمَا بَاءَ ﴿١٩﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح، عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه، ﷻ ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه، ﴿وَرَبِّي كُنْماً دَعْوَتُهُمْ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ جَعْلًا أَسِيمًا فِي مَا دَانِيَهُمْ وَأَسْتَفْتُوا بِنَابِهِمْ﴾ أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما ادعوههم إليه. كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَاعِ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْتَنُونَ﴾ [نص: ٢٧٦]. ﴿وَأَسْتَفْتُوا بِنَابِهِمْ﴾ قال ابن جريج، عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبيرة، والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿وَأَصْرُوا﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي: واستكفوا عن اتباع الحق والانقياد له. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾ أي: جهره بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَفْتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال، ﴿وَأَنْزَلْتُ لَهُمْ إِنْزَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجح فيهم ﴿فَقُلْتُ اسْتَفْتُوا رَبِّيمْ إِنْهَ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَفْتُوا رَبِّيمْ إِنْهَ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿بُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ نِدْرَارًا﴾ أي: متواصلة الأمطار. ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَفْتُوا رَبِّيمْ إِنْهَ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿بُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ نِدْرَارًا﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي ستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضاً. وقوله: ﴿وَيَذُرُّكُمْ آمُولًا وَيَبِينُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ حَبِيبًا وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأبنت لكم من بركات الأرض، وأبنت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدمكم بأموال وبينين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب. ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿بَاءَ لَكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: عظيمة. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قيل: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وقادة، ويحيى بن رافع، والسدي، وابن زيد.

وقوله: ﴿أَنْزَرْنَا كَيْفَ نَحْنُ خَلَقَ اللَّهُ سَخَّ سَخَّرَاتٍ بِيَابَا﴾ أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هي من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التسيير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكشف بعضها بعضاً، فأدانها القمر في السماء الدنيا وهو يكشف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة. وأما بقية الكواكب - وهي الثوابت - ففي فللك ثامن يسمونه فللك الثوابت. والمشرعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع، وهو الأطلس. والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك، وذلك أن حركته مبدأ الحركات، وهي من المغرب إلى المشرق؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق. وكل يقطع فلكه بحسبه، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وذلك بحسب اتساع أفلاكها، وإن كانت حركة الجمع في السرعة متناسبة. هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام، على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة، لسنا بصدد بيانها، وإنما المقصود أن الله سبحانه ﴿خَلَقَ اللَّهُ سَخَّ سَخَّرَاتٍ بِيَابَا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ النَّهْرَ سِرَابًا﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلا منهما نموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهي ثم يشرع في النقص حتى يستتر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَلِمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. وقوله: ﴿وَأَلَّهَ أَنْتَكُمُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَا﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به هنا أحسن، ﴿ثُمَّ يُبَدِّدُ فِيهَا﴾ أي: إذا تم ﴿وَيُخْرِجُهُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَأَلَّهَ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سِطًا﴾ أي: بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لِيَسْتَلْكُوا مِنْهَا شُكْلًا فِيمَا بَاءَ﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على

قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عديل له، ولا نذ ولا كفاء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي مَقْرُونٌ مِّنْ آلِ زَيْدِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ إِلَّا خَشَاكَ ۖ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ۖ﴾ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَا تَنْدُرُ بِالْهَيْكَلِ وَلَا تَنْدُرُ وَدَا وَلَا سَوَاكَا وَلَا يَنْوُكُ وَيَعُوقُ وَشِرْكَآ ۖ وَقَدْ آسَلْنَا كَثِيرًا وَلَا زَيْدَ الْطَالِبِينَ إِلَّا سَلَكَ ۖ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّرَ زَيْدَهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَشَاكَ﴾: قرئ «وَوَلَدَهُ» بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾، قال مجاهد: «أَشْتَبِكَاكَا» أي: عظيماً. وقال ابن زيد: «أَشْتَبِكَاكَا» أي: كبيراً. والعرب تقول: أمر عجب وعجاب وعجَّاب. ورجل حُسان. وحُسان: وجمال وجمال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد. والمعنى في قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾: أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَأَلْتَهَارٌ إِذْ تَأْمُرُونَ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ (سبأ: ٢٣). ولهذا قال ها هنا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَا تَنْدُرُ بِالْهَيْكَلِ وَلَا تَنْدُرُ وَدَا وَلَا سَوَاكَا وَلَا يَنْوُكُ وَيَعُوقُ وَشِرْكَآ ۖ﴾.

وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. قال البخاري: حدثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جريج، وقال عطاء، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ود: فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يعوث فكانت لمراد، ثم لبني عُطيف بالجُزف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عُبدت. وكذا زوي عن عكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق، نحو هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفیان، عن موسى، عن محمد بن قيس ﴿يَعُوقُ وَيَعُوقُ وَشِرْكَآ﴾ قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم. وروى الحافظ ابن عساکر في ترجمة شيث، عليه السلام، من طريق إسحاق بن بشر قال: وأخبرني جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: ولد لآدم، عليه السلام، أربعون ولداً، عشرون غلاماً وعشرون جارية، فكان ممن عاش منهم: هابيل، وقابيل، وصالح، وعبد الرحمن - والذي كان سماه عبد الحارث - وود، وكان ودي يقال له «شيث» ويقال له: «هبة الله» وكان إخوته قد سؤدوه، وولد له سواع ويعوث ويعوق ونسر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عمر الدورقي، حدثني أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم بن هرمز، عن أبي حنيفة، عن عروة بن الزبير قال: اشتكى آدم، عليه السلام، وعنده بنوه: ود، ويعوث، وسواع، ونسر وكان ودي أكبرهم وأبترهم به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب، عن أبي المطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر - وهو قائم يصلي - يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرت يزيد بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عُبد فيها غير الله. قال: ثم ذكر وداً قال: وكان وداً رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إنني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أحجل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله، فيكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله: الصنم الذي سموه وداً. وقوله: ﴿وَقَدْ آسَلْنَا كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والمعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل، عليه السلام، في دعائه ﴿وَاجْتَنِبْ رَبِّيَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٢٥﴾

رَبِّ إِنَّمَنْ أَسْلَمَنَّ كَيْبَرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿١٦٦﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّيَّاتِ الَّتِي نَدْعُوا بِهَا آبَاءَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّ دُعَاءَنَا لَكَ الْغَائِبُ﴾ [يونس: ٢٨]. وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿وَمَا خَطْبُكُمْ أَتْرَفُوا فَأَجَلُوا أَتْرَفُوا فَتَرَكَ اللَّهُ ذُرِّيَّةً بَلَغَ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ أَكْبَارًا ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي مَعَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٦٩﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَنَا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿١٧٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مما خطاياهم﴾ وقرىء: ﴿خَطِيئَتِهِمْ﴾ ﴿أَتْرَفُوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أَتْرَفُوا فَأَجَلُوا أَتْرَفُوا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مُعِينٌ ولا مُجِيرٌ ينقذهم من عذاب الله كقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ [هود: ٤٣]. وقال نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي مَعَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٦٨﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً وهذه من صيغ تأكيد النفي. قال الضحاك: ﴿تَبَارًا﴾: واحداً. وقال السُّدِّيُّ: الديار: الذي يسكن الدار. فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلًا يَمْصُبُ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ [مكة: ١٦٨] وقال ابن أبي حاتم: قرىء على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني شبيب بن سعد، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً، لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها. فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة». هذا حديث غريب، ورجاله ثقات. ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه. وقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَنَا مُؤْمِنًا﴾: قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيَّوَةَ، أنبأنا سالم بن غيلان: أن الوليد بن قيس التُّجَيْبِيُّ أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدري - أو: عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي». ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح، به. ثم قال الترمذي: إنما نعرفه من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة. وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: قال السدي: إلا هلاكاً. وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة «نوح» عليه السلام وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الجن

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ سَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَأْمُرُ أَنْ لَّنْ نَقُولَ الْإِنشَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ بَيْنَ الْإِنشِ يُوْدُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَوَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَمِيتَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه: أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ

أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴿٢﴾ أي: إلى السداد والنجاح، ﴿فَمَا تَمَّ بِكُمْ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الحقاف: ٢٩]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادتها ها هنا. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: فعله وأمره وقدرته. وقال الضحاك، عن ابن عباس: جد الله: الأؤوه وقدرته ونعمته على خلقه. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء، ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد ابن جبیر: ﴿قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تعالى ربنا. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: الجد: أب. ولو علمت الجن أن في الإنسان جداً ما قالوا: تعالى جد ربنا. فهذا إسناد جيد، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام؛ ولعله قد سقط شيء، والله أعلم. وقوله: ﴿مَّا أَخَذَ صَاحِبَهُ وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته، حين أسلموا وأمنوا بالقرآن، عن اتخاذ الصاحبة والولد. ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَيْفِينَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٣﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والسدي: ﴿سَيْفِينَا﴾ يعنون: إبليس، ﴿شَطَطًا﴾، قال السدي، عن أبي مالك. ﴿شَطَطًا﴾ أي: جوراً. وقال ابن زيد: ظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: ﴿سَيْفِينَا﴾: اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبه أو ولداً. ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَيْفِينَا﴾ أي: قبل إسلامه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وزوراً؛ ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٤﴾ أي: ما حسبنا أن الإنسان والجن يتمالثون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وأمننا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكْفُرُ بِاللَّهِ بِرَبِّهِ يَوْمَئِذٍ بَلَّغَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رَهَقًا﴾ ﴿٥﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنسان؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها. يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن، أن يصيبهم شيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنسان يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وقال الثوري، عن منصور عن إبراهيم: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: ازدادت الجن عليهم جراءة. وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال: فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقتهم الجن الأذى عند ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، حدثنا الزبير بن الحرث، عن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنسان كما يفرق الإنسان منهم أو أشد، وكان الإنسان إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: تعوذ بسيد أهل هذا الوادي. فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم. فدنوا من الإنسان فأصابوهم بالخبيل والجنون، فذلك قول الله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكْفُرُ بِاللَّهِ بِرَبِّهِ يَوْمَئِذٍ بَلَّغَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رَهَقًا﴾ ﴿٦﴾. وقال أبو العالية، والربيع، وزيد بن أسلم: ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المزني - عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن أبيه، عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المبيت إلى راعي غنم. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي، جارك. فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان، أرسله. فأنتي الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكْفُرُ بِاللَّهِ بِرَبِّهِ يَوْمَئِذٍ بَلَّغَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رَهَقًا﴾. ثم قال: ورؤي عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم السخفي، نحوه. وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنباً حتى يهرب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به، ليضله ويهينه، ويخرجه عن دينه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَمُتَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ﴿٧﴾ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً. قاله الكلبي، وابن جرير.

﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَيدُنَّهَا مَلَائِكَةٌ حُرُوسٌ شَدِيدَاتُ وَثِقَاتُ﴾ ﴿٨﴾ وَأَنَا كَمَا تَقَدَّمُ بَيْنَا مَقَدُّو لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَجِيعُ الْآنَ يَمِدْ لَمْ يَشَاهَا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ يَوْمَ رَهْمَ رَسَدًا ﴿١٠﴾.

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أركانها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن. فيلقوه

على السنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِّ صَدِيدٍ وَشِبْهَا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعِ الْآنَ مَحْدَلٌ لَّهُ شِبْهَا وَصَدَا ۝٩﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يحرقه ويهلكه، ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك». وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون في هذا؟» فقلنا: «كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم». فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء»، وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة «سبأ» بتامه. وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك، عند قوله في سورة «الأحقاف»: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ۝٢٩﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩]. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم. كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر. فلما بعث الله محمداً نبياً، رُجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويُسيبون مواشيهم، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف. أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كيشة - يعني: محمداً ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء. فنظروا فأروها، فكفوا عن أموالهم. وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: اتنوني من كل أرض بقبضة من تراب أسماها. فأنوه فشم فقال: صاحبكم بمكة. فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه، ثم أسلموا. فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول، والله أعلم، والله الحمد والمنة.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ صِدْقٍ ۝١١﴾ وَأَنَّا عَلِمْنَا أَن لَّنْ نَّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَّا لَنَا سَمِيعَاتُ الْأُذُنِ ءَامَنًا يَدُّهُ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ. فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا يُسَهِّرُونَ كَلِمَاتٍ عَلَى الْكَلِمَةِ لَأَسْقِنَهُمْ نَارَ عَدْنًا ۝١٥﴾ لَنُنْفِخَنَّ فِيهِ وَنَن نَّعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ. يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٦﴾.

يقول مخبراً عن الجن: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: غير ذلك، ﴿كُنَّا طَرَائِفَ صِدْقٍ﴾ أي: طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿كُنَّا طَرَائِفَ صِدْقٍ﴾ أي: منا المؤمن، ومنا الكافر. وقال أحمد بن سليمان الثجادي في أماليه، حدثنا أسلم بن سهل بخشلاً، حدثنا علي بن الحسن بن سليمان - وهو أبو الشعثاء الحضرمي، شيخ مسلم - حدثنا أبو معاوية قال: سمعتُ الأعمش يقول: تروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليك؟ فقال الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا. عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال: سمعتُ بعض الجن وأنا في منزلي بالليل ينشد:

فَلَوْ بَرَاهَا الْحَبَّ حَتَّى تَعْلَقَتْ مَذَاهِبُهَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَشَارِقِ
تَهَيَّمُ بِحَبِّ اللَّهِ، وَاللَّهُ رُبُّهَا مَعْلُوقَةً بِاللَّهِ دُونَ الْخَلَائِقِ

وقوله: ﴿وَأَنَّا عَلِمْنَا أَن لَّنْ نَّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ أي: نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر، لا يعجزه أحد منا. ﴿وَأَنَّا لَنَا سَمِيعَاتُ الْأُذُنِ ءَامَنًا يَدُّهُ﴾: يفتخرون بذلك، وهو

مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة. وقولهم: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، قال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَحَافُ غُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].
 ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو: الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِيَجِنَّهُمْ جَنًّا مُّجَرَّمًا﴾ أي: وقدوا تسعر بهم. وقوله: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ لَيْفَتَيْنِمْ يَدٌ﴾، اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَسْتَفِينَهُمْ مَّأَةً عَدَقًا﴾ أي: كثيراً. والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا تَوْرَتَنَا وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَوَّلَ إِلَيْهِمْ مِن زَبَابٍ لَّأَكَلُوا مِن قُرْبِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله: ﴿رَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ آمَنُوا وَأَقَامُوا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: ٩٦]. وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لَيْفَتَيْنِمْ يَدٌ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿لَيْفَتَيْنِمْ﴾: لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية؟ ذكر من قال بهذا قال: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ قال: الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي. وقال قتادة: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. وقال مجاهد: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الحق. وكذا قال الضحاک، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لَيْفَتَيْنِمْ يَدٌ﴾ أي: لنبتليهم به. وقال مقاتل: فنزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين. والقول الثاني: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾: الضلالة ﴿لَأَسْتَفِينَهُمْ مَّأَةً عَدَقًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم في الرزق استدراجاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا ضُرِبَ مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ بَرَكَةً إِذًا هُمْ يُثْبِتُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكقوله: ﴿أَيُّسِرُونَ أَنَّمَا يُدْعِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَّبِعُونَ ٥٥ شَارِعَ مَن فِي الْقُرْآنِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حُميد، فإنه قال في قوله: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الضلالة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وحكاها البغوي عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والكلبي، وابن كيسان. وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لَيْفَتَيْنِمْ يَدٌ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقة لا راحة معها. وعن ابن عباس: جبل في جهنم. وعن سعيد بن جبيرة: بشر فيها.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٧٨ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ ٧٩ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٠ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَتْلُو سُرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ٨١ ﴿قُلْ لِي أُوْحِي مِن رَّبِّي وَأَنِّي وَأَنَا مَلَائِكَةُ رَبِّي وَإِنَّا بِرَأْسِهِ لَنَازِلُونَ﴾ ٨٢ ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٨٣ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٤ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٥ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٦ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٧ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٨ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٨٩ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٠ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩١ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٢ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٣ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٤ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٥ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٦ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٧ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٨ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٩٩ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ١٠٠

يقول تعالى أمراً بعبادته أن يُوحده في مجال عبادته، ولا يُدعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٧٨. قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحده وحده. وقال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين: حدثنا إسماعيل ابن بنت السدي، أخبرنا رجل سماه، عن السدي، عن أبي مالك - أو أبي صالح - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٧٨. قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس. وقال الأعمش: قالت الجن: يا رسول الله، ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك. فأنزل الله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٧٨. يقول: صلوا، لا تتخالطوا الناس. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن محمود، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ قال: قالت الجن لنبي الله ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ٧٨. وقال سفيان، عن حُصَيْف، عن عكرمة: نزلت في المساجد كلها. وقال سعيد بن جبيرة: نزلت في أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره. وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح، من رواية عبد الله بن طائوس، عن أبيه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة - أشار بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين». وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ ٧٩، قال العوفي، عن ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه، من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ، يُسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ. هَذَا قَوْلٌ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا

أبو مسلم، عن أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال الجن لقومهم: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (١٩)، قال: لما أراه يصلي وأصحابه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قالوا: عجبوا من طواعة أصحابه له، قال: فقالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾. وهذا قول ثان، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضاً. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله»، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبّد عليه جميعاً. وقال قتادة في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (١٩)، قال: تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليظفوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويضمّيه ويظهره على من ناواه. وهذا قول ثالث، وهو مروى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠)، أي: قال لهم الرسول، لما أدّوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبتلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ (٢٠)، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١)، أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ، وعبد من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَعِذَّ مِنْ دُونِهِ مُتَسَدِّدًا﴾، قال مجاهد، وقاتدة، والسدي: لا ملجأ. وقال قتادة أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَعِذَّ مِنْ دُونِهِ مُتَسَدِّدًا﴾ (٢٢)، أي: لا نصير ولا ملجأ. وفي رواية: لا ولي ولا موئل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا لِلَّذِينَ يُرْسَلُ فِيهِمُ﴾: قال بعضهم: هو مستثنى من قوله: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ (٢٢)، أي: لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيكَ الرُّسُولُ بِبَلِيغٍ مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْسُطُكَ مِنَ الَّذِينَ﴾ [المائدة: ٤٦٧]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمِصْ إِلَهُ رُسُولَهُ فَإِنَّ لَهٗ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣)، أي: إنما إبلاغكم رسالة الله، فمن يمص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٢٤)، أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله ﷻ، أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله ﷻ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهٗمْ رِجًّا أَمَدًا﴾ (٢٥) ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهٗ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) ﴿لِيَعْلَمَٓ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢٨).

يقول تعالى أمرأ رسوله ﷺ أن يقول للناس: أنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد؟ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهٗمْ رِجًّا أَمَدًا﴾ (٢٥)؟ أي: مدة طويلة. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه السلام، لا يؤلف تحت الأرض، كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب. وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك. إنها كائنة، فما أعددت لها؟». قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مُصَفَّى، حدثنا محمد بن حمير، حدثني أبو بكر بن أبي مريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده، إنما توعدون لآت». وقد قال أبو داود في آخر «كتاب الملاحم»: حدثنا موسى بن سهيل، حدثنا حجاج بن إبراهيم، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبّير، عن أبيه، عن أبي ثعلبة الخُشني قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم». انفراد به أبو داود، ثم قال أبو داود: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان، عن شريح بن عبيد، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إنني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة عام. انفراد به أبو داود. وقوله: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، هذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهكذا قال ما هنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعته تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري. ثم قال: ﴿فَأَنْتُمْ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٨) أي:

يختصه بمزيد معقيات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساقونوه على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿لَيْلَةً أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿لَيْلَةً﴾، إلى من يعرود؟ فقيل: إنه عائد على النبي ﷺ.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٦٧) قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل، ﴿لَيْلَةً﴾ محمد ﷺ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. ورواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي، به. وهكذا رواه الضحاك، والسدي، ويزيد بن أبي حبيب. وقال عبد الرزاق، عن مغمّر، عن قتادة: ﴿لَيْلَةً أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾، قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عنه، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها. وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. واختاره ابن جرير. وقيل غير ذلك، كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٦٧)، قال: هي معقيات من الملائكة يحفظون النبي من الشيطان، حتى يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول، ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وكذا قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَيْلَةً أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾ قال: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وفي هذا نظر. وقال البغوي: قرأ يعقوب: «لِيلَعْلَمُ» بالضم، أي: ليعلم الناس أن الرسل بلغوا. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله ﷻ، وهو قول حكاة ابن الجوزي في «زاد المسير». ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته لئتمكنا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بين إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [التكوير: ١١]، إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.



تفسير سورة المزمل

وهي مكية. قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن، حدثنا شريك، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً فصدوا الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. فاتفق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فتمزمل في ثيابه وتدنثر فيها. فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ (١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيرُ﴾ (٢)، ثم قال البزار: معلى بن عبد الرحمن: قد حدثت عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ (١) فَرُّ الْإِلِّ إِلَّا قِيْلًا (٢) نَضَمَهُ أَوْ أَنْشَأَ مِنْهُ قِيْلًا (٣) أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَبَّيَ الْقَرْمَانَ تَرِيْلًا (٤) إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْكَ قَوْلًا قِيْلًا (٥) إِنْ نَأَيْتَنِي الْإِلِّي هِيَ أَنْدُ وَرَكَ وَأَقْوَمُ قِيْلًا (٦) إِنْ لَكَ فِي الْبَهَارِ سَبْعًا طَوِيْلًا (٧) وَأَذْكَرُ أَمْرَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبْيِيْلًا (٨) رَبُّكَ الْكَثِيْرُ وَالْكَرِيْبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩).

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزميل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿تَجَافَى جُؤْهِمَ عَنِ الصَّوْبِاحِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حَرْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وها هنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ (١) فَرُّ الْإِلِّ إِلَّا قِيْلًا (٢). قال ابن عباس، والضحاك، والسدي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ (١) يعني: يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو مُتَزَمِّلٌ بقطيفة. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ (١) قال: يا محمد، زُملت القرآن. وقوله: ﴿نَضَمَهُ﴾: بدل من الليل، ﴿أَوْ أَنْشَأَ مِنْهُ قِيْلًا﴾ (٣) أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ (٣) أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو

نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. وقوله: ﴿وَرَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَرِيلاً﴾ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري، عن أنس: أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مدداً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وقال ابن جريج، عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة: أنها سُئِلَت عن قراءة رسول الله، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وأزق، ورتل كما كنت تترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». ورواه أبو داود، والترمذي والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زُيِّنَ الْقُرْآنُ بِأَصْوَاتِكُمْ»، و«ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»، و«لقد أوتي هذا مزار من مزامير آل داود» يعني: أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم كنت تسمع قراءتي لحببته لك تحبيراً. وعن ابن مسعود أنه قال: لا تشروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرخوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. رواه البيهقي. وقال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة. فقال: هَذَا كَهَذَا الشَّعْرُ. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما. فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين في ركعة. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا تَبِيلاً﴾ ﴿٥﴾، قال الحسن، وقتادة: أي العمل به. وقيل: ثقيل وقت نزوله؛ من عظمته. كما قال زيد بن ثابت: أنزل على رسول الله ﷺ، وفحذه على فخذي، فكادت تُرَضُّ فخذي. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي ﷺ قلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصيل، ثم أسكتُ عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»، تفرد به أحمد. وفي أول صحيح البخاري عن عبد الله بن يوسف، عن مالك، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرفاً. هذا لفظه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا عبد الرحمن، عن هشام بن عُزْوة، عن أبيه، عن عائشة قالت: إن كان ليوحي إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فنضرب بجرانها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسْرَى عنه. وهذا مرسل. الجران: هو باطن العنق. واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقيل في الدنيا ثقيل يوم القيامة في الموازين. وقوله: ﴿إِنَّا نَائِثَةٌ آلِيلٌ جِي أُنْدُ وَتَكَ وَأَقَوْمٌ قِيلًا﴾ ﴿٦﴾، قال أبو إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: نشأ: قام بالحبشة. وقال عمر، وابن عباس، وابن الزبير: الليل كله ناشئة. وكذا قال مجاهد، وغير واحد، يقال: نشأ: إذا قام من الليل. وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء. وكذا قال أبو مجلز، وقتادة، وسالم وأبو حازم، ومحمد بن المنكدر. والغرض أن ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: ﴿جِي أُنْدُ وَتَكَ وَأَقَوْمٌ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغظ الأصوات وأوقات المعاش. وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية: «إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأصوب قِيلاً» فقال له رجل: إنما نقرؤها «وَأَقَوْمٌ قِيلًا»، فقال له: إن أصوب وأقوم وأهيا وأشباه هذا واحد. ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ ﴿٧﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم. وقال أبو العالية، ومجاهد، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وسفيان الثوري: فراغاً طويلاً. وقال قتادة: فراغاً وبغية ومثقالاً. وقال السدي: ﴿سَبْعًا طَوِيلًا﴾: تطوعاً كثيراً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ ﴿٧﴾ قال: لحوائجك، فافرغ لدينك الليل. قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله منَّ على العباد فخففها ووضعها، وقرأ: ﴿فَرُؤٌ آلِيلٌ لَّا قِيلًا﴾ ﴿٨﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي

أَتَيْلٌ ﴿١﴾، حتى بلغ: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَرِ مِنْهُ﴾ وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ. نَافِلَةً لَّكَ عَمَّا أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿١٧٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧٩]. وهذا الذي قاله كما قاله. والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا يحيى، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام: أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله في الكراع والسلاح، ثم يجاهد الروم حتى يموت. فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «اليس لكم في أسوة؟» فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبتك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك. قال: فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فقال: ما أنا بقاربه؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً، فأبت فيها إلا مضياً. فأقسمت عليه، فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته، قال: نعم. قالت: من هذا معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قال: فترحمت عليه وقالت: نعم المرأة كان عامر. قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهيمت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: أليس تقرأ هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيُّلُ ﴿١﴾﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفضت أقدامهم، وأمست الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل طوعاً من بعد فريضة. فهيمت أن أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ. قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم. ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم. فتلك إحدى عشر ركعة يا بني. فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم، أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك تسع يا بني. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض، صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحدِيثها، فقال: صدقت، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة. هكذا رواه الإمام أحمد بتامه. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث قتادة، بنحوه.

طريق أخرى عن عائشة في هذا المعنى: قال ابن جرير: حدثنا وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب وحدثنا ابن حميد، حدثنا مهران قالاً جميعاً، واللفظ لابن وكيع: عن موسى بن غُبيدة، حدثني محمد بن طَخْلَاء، عن أبي سلمة، عن عائشة قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يُصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج الكمغضب - وكان بهم رحيماً، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل - فقال: «أيها الناس، اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملأ من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه». ونزل القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيُّلُ ﴿١﴾ فَرِّ الْيَلِّ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ فَصَفَّهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ ﴿٤﴾، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه، فرحمهم فردهم إلى الفريضة، وترك قيام الليل. ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الرُبَذي، وهو ضعيف. والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة، وهذا السياق قد يُوهَم أن نزول هذه السورة بالمدينة، وليس كذلك، وإنما هي مكة. وقوله في هذا السياق: إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر - غريب؛ فقد تقدم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن يسعَر، عن سماك الحنفي، سمعت ابن عباس يقول: أول ما نزل: أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة. وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن أبي أسامة، به. وقال الثوري ومحمد بن بشر العبيدي، كلاهما عن مسعر، عن سماك، عن ابن عباس: كان بينهما سنة. وروى ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن قيس بن وهب، عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيُّلُ ﴿١﴾﴾، قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، حتى نزلت: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَرِ مِنْهُ﴾، قال: فاستراح الناس. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عُبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: فقلت - يعني لعائشة -: أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: أليس

تقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انتفخت أقدامهم، وحسب آخرها في السماء ستة عشر شهراً، ثم نزل. وقال معمر، عن قتادة: ﴿فَرَأَيْتَ لَإِلَّا قِيلًا﴾: ﴿قَامُوا حَوْلًا أَوْ حَوْلِينَ، حَتَّى انْتَفَخَتْ سُوقَهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَخْفِيفًا بَعْدَ فِي آخِرِ السُّورَةِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ الْقُمِي، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدٍ - هُوَ ابْنُ جَبْرِ - قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّزِيلُ﴾ قَالَ: قَالَ مَكْتُوبُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ عَشْرَ سَنِينَ يَقُومُ اللَّيْلَ، كَمَا أَمَرَهُ، وَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُومُونَ مَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ عَشْرِ سَنِينَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ تَعْمُرُ أَدْنَى مِنْ نَفْسِكَ وَيَضَعُكَ وَمَظَاهِرَهُ مِنَ الَّذِينَ مَكَكَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهَا السَّكْرَةُ﴾، فَخَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بَعْدَ عَشْرِ سَنِينَ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ رَافِعٍ، عَنْ يَعْقُوبِ الْقُمِي، بِهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَأَيْتَ لَإِلَّا قِيلًا﴾ ﴿فَضَمَّهُ أَوْ أَنْشَأَ مِنْهُ قِيلًا﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْفَرَمَانَ رَبِيلًا ﴿فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَحِمَهُمْ، فَأَنْزَلَ بَعْدَ هَذَا: ﴿عَلِمَ أَنْ سَكَتُونَ مِنْكُمْ رَجَعُوا وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَتَّبِعُ مِنْهُ﴾، فَوَسَّعَ اللَّهُ - وَلَهُ الْحَمْدُ - وَلَمْ يَضْيِقْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿أَيُّ: أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ، وَتَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ، وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ١٧] أَيُّ: إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ مِهَامِكَ فَانصَبْ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، لِتَكُونَ فَارِغَ الْبَالِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ بِمَعْنَاهُ أَوْ قَرِيبَ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَعَطِيَّةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أَيُّ: أَخْلَصْ لَهُ الْعِبَادَةَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: اجْتَهَدَ وَبَتَّلَ إِلَيْهِ نَفْسَكَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُقَالُ لِلْعَابِدِ: مَتَبَتَّلَ، وَمِنَهُ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ: أَنَّهُ نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ، يَعْنِي: الْانْقِطَاعَ إِلَى الْعِبَادَةِ وَتَرْكَ التَّزْوِجِ. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ﴿أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ الْمَتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكَمَا أَفْرَدَتْهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرَدَهُ بِالتَّوَكُّلِ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مرد: ١٢٣]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَأَيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فِيهَا الْأَمْرُ بِإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْلِيهِمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿وَدَرْبِ وَالْمُكذِّبِينَ أُولَى النَّعْتَةِ وَمَهْلِكُهُ قِيلًا﴾ ﴿إِنَّ لَدُنَّا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿وَلَعَلَّآ مَا عَمَّرُوا﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْدًا وَيَسًا﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿السَّمَاءُ مَطْفَرَةٌ بِؤْسٍ كَانَ وَدَّعْتُمْ مَقُولًا﴾.

يقول تعالى أمرأه رسول الله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال له متوعدًا لكفار قومه ومتهددًا - وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء -: ﴿وَدَرْبِ وَالْمُكذِّبِينَ أُولَى النَّعْتَةِ﴾ أَيُّ: دَعْنِي وَالْمُكذِّبِينَ الْمُتَرَفِّعِينَ أَصْحَابَ الْأُمُورِ، فَإِنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ يَطَالِبُونَ مِنَ الْحَقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، ﴿وَمَهْلِكُهُ قِيلًا﴾ أَيُّ: وَرِيدًا، كَمَا قَالَ: ﴿نُفِثْتُهُمْ قِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرُّهُمْ إِلَيْكَ عَدَابٍ غَلِيظٍ﴾ [الغمان: ٢٤]، وَلِهَذَا قَالَ هَا هُنَا: ﴿إِنَّ لَدُنَّا أَنْكَالًا﴾ وَهِيَ: الْقَبُودُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَكْرَمَةُ، وَطَاوُسٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، وَأَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، وَأَبُو مَجْلَزٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَحَمَادُ بْنُ أَبِي سَلْمَانَ، وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَالشُّورِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، ﴿وَجَحِيمًا﴾: وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرَمَّةُ. ﴿وَلَعَلَّآ مَا عَمَّرُوا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْشَبُ فِي الْحَلْقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ، ﴿وَعَدَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجَفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أَيُّ: تَتَزَلْزَلُ، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾ أَيُّ: تَصِيرُ كَكَيْبَاتِ الرَّمْلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ حِجَارَةً صَمَاءً، ثُمَّ إِنَّهَا تَنْسَفُ نَسْفًا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبٌ، حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا، لَا تَرَى فِيهَا عَوْجًا، أَيُّ: وَادِيًا، وَلَا أَمْتًا، أَيُّ: رَابِيَةً، وَمَعْنَاهُ: لَا شَيْءٌ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءٌ يَرْتَفِعُ. ثُمَّ قَالَ مُخَاطَبًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَالْمُرَادُ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِكُمْ، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْدًا وَيَسًا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالشُّورِيُّ: ﴿أَخْدًا وَيَسًا﴾ أَيُّ: شَدِيدًا، أَيُّ: فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تَكْذِبُوا هَذَا الرَّسُولَ، فَيُصِيبِكُمْ مَا أَصَابَ فِرْعَوْنَ، حَيْثُ أَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [التنازع: ٢٥]، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْهَلَاكِ وَاللِّدْمَارِ إِنْ كَذَبْتُمْ؛ لِأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿أَيُّ: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمًا﴾ مَعْمُولًا لِتَتَّقُونَ، كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بَالَهُ وَلَمْ تَصَدَّقُوا بِهِ؟» وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولًا لِكُفْرَتُمْ، فَعَلَى الْأَوَّلِ: كَيْفَ يَحْصَلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمِ هَذَا الْفِرْعِ الْعَظِيمِ إِنْ كَفَرْتُمْ؟ وَعَلَى الثَّانِي: كَيْفَ يَحْصَلُ لَكُمْ تَقْوَى إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَدْتُمْوه؟ وَكِلَاهُمَا مَعْنَى حَسَنٍ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أَيُّ: مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلْزَلِهِ

وبلبله، وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. فيقول: من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. قال الطبراني: حدثنا يحيى بن أيوب العلاف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوْمًا يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْئًا﴾ قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: من كم يا رب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد». فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم: «إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى يرثه لصلبه ألف رجل. ففيهم وفي أشباههم جنة لكم». هذا حديث غريب، وقد تقدم في أول سورة الحج ذكر هذه الأحاديث. وقوله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾: قال الحسن، وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله. ومنهم من يعيد الضمير على الله ﷻ. وروي عن ابن عباس ومجاهد، وليس بقوي؛ لأنه لم يجز له ذكرها هنا. وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقُولًا﴾ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي: واقعاً لا محالة، وكان لا محيد عنه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَضَمَ وَكَلَّمَ وَطَابَعَهُ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَ وَاللَّهُ يُعَذِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ أَن لَّنْ نَحْضُرُهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَن سَكَوَتْ يَنْكُرُ نَهْجِي وَأَخْرُونَ بِضُرُوبٍ فِي الْأَرْضِ يَنْتَوُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ بِقِيْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنْهُ وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرُبًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَقْبَرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: يتذكر بها أولو الألباب؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: ممن شاء الله هدايته، كما قيده في السورة الأخرى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٣٠﴾ (الإنسان: ١٣٠). ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَضَمَ وَكَلَّمَ وَطَابَعَهُ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَ﴾ أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُعَذِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا، ﴿عَلِيمٌ أَن لَّنْ نَحْضُرُهُ﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ أي: بقراءتك، ﴿وَلَا تَخَافُهَا﴾. وقد استدلت أصحاب الإمام أبي حنيفة، رحمه الله، بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بآية، أجزأه؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلواته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن». وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت، وهو في الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج، غير تمام». وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بأم القرآن». وقوله: ﴿عَلِيمٌ أَن سَكَوَتْ يَنْكُرُ نَهْجِي وَأَخْرُونَ بِضُرُوبٍ فِي الْأَرْضِ يَنْتَوُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ بِقِيْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعداء في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض ينتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في فهمهم من الغزو في سبيل الله. وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية. ولهذا قال: ﴿فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنْهُ﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن أبي رجاء محمد، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به، وإنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: ﴿وَاللَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢١٨]، ﴿وَعَلَّمَشَرَّ مَا لَوْ قَلَّمُوا أَنْتَ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]. قلت: يا أبا سعيد، قال الله: ﴿فَأَقْرَبُوا مَا نَسَرَّ مِنَ الْقُرْآنِ﴾؟ قال: نعم، ولو خمس آيات. وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري: أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك بال الشيطان في أذنه». فقيل: معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفي السنن: «أوتروا يا أهل القرآن». وفي الحديث الآخر: «من لم يوتر فليس منا». وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر عبد العزيز، من الحنابلة، من إيجابه قيام شهر رمضان، فإله أعلم. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجدي، حدثنا أبو حمزة محمد بن يوسف الزبيدي، حدثنا عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الله بن طاوس - من ولد طاوس -

عن أبيه، عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَهَرُ مِنْهُ﴾ قال: «مائة آية». وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني، رحمه الله. وقوله: ﴿وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة. وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تُبين إلا بالمدينة. والله أعلم. وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل. واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: «خمس صلوات في اليوم واللييلة». قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِسُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَشْعَابًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو خير لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟». قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعلموا ما تقولون». قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم وما مال وارثه ما آخر». ورواه البخاري من حديث حفص بن غياث، والنسائي من حديث أبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به. ثم قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْهِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها، فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

آخر تفسير سورة «المزمل» وشه الحمد



تفسير سورة المدثر

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيَا الدُّدَيْرَ ① قُرْ قَائِدًا ② وَرَبِّكَ نَكِيرٌ ③ وَيَبَايَعُكَ فَلْيَزِرْ ④ وَالرَّحْمَ قَاهِجِرْ ⑤ وَلَا تَمَنَّ سُنْكَيْرٌ ⑥ وَلِرَبِّكَ قَاصِرٌ ⑦ فَإِذَا يُقِرُّ فِي الْتَأْوُرِ ⑧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ يَبِيرٌ ⑩﴾.

ثبت في صحيح البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يَأْتِيَا الدُّدَيْرَ ①﴾. وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾، كم سيأتي بيان ذلك هنالك. قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَأْتِيَا الدُّدَيْرَ ①﴾. قلت: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواربي هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأنيت خديجة فقلت: دثروني. وضبوا عليّ ماء بارداً. قال: فدثروني وضبوا عليّ ماء بارداً قال: فنزلت ﴿يَأْتِيَا الدُّدَيْرَ ① قُرْ قَائِدًا ② وَرَبِّكَ نَكِيرٌ ③﴾. هكذا ساقه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم من طريق عقيل، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يتحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فنجثت منه حتى هويت إلى الأرض، فنجثت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيَا الدُّدَيْرَ ① قُرْ قَائِدًا ②﴾ إلى: ﴿قَاهِجِرْ ⑤﴾. قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان - ثم حمي الوحي وتتابع». هذا لفظ البخاري. وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»، وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾. ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه

الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثنا عُقيل، عن ابن شهاب قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينما أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء الآن قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فحثيث منه فرقاً، حتى هويت إلى الأرض، فحجث أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾ وَالرُّجُزَ فَاهْبِطْ ﴿٥﴾». ثم حمي الوحي بعدُ وتتابع». أخرجه من حديث الزهري، به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار، حدثنا الحسن بن بشر البجلي، حدثنا المعافي بن عمران، عن إبراهيم بن يزيد، سمعت ابن أبي مُليكة يقول: سمعت ابن عباس يقول: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا. قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر. وقال بعضهم ليس بشاعر. وقال بعضهم: بل سحر يؤثر. فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه، وتدثر، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾ وَالرُّجُزَ فَاهْبِطْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَسْكَتَ ﴿٦﴾ وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾». فقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ أي: شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس. وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة. ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ أي: عظم. وقوله: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾، قال الأجلح الكندي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾، قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدره. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإنني بحمد الله لا ثوب فاجر لبسْتُ، ولا من عذرة أتقنُ
وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ قال: في كلام العرب: نقي الثياب. وفي رواية بهذا الإسناد: فطهر من الذنوب. وكذا قال إبراهيم، والشعبي، وعطاء. وقال الثوري، عن رجل، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ قال: من الإثم. وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال مجاهد: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ قال: نفسك، ليس ثيابه. وفي رواية عنه: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رزين. وقال في رواية أخرى: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ أي: لست بكاهن ولا ساحر، فأعرض عما قالوا. وقال قتادة: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ أي: طهرها من المعاصي، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لمُدنس الثياب. وإذا وفي وأصلح: إنه لمطهر الثياب. وقال عكرمة، والضحاك: لا تلبسها على معصية. وقال الشاعر:

إذا المرء لم يذئس من اللوم عرَّضه
فكُلَّ رداء يَرتديهِ جَمِيلُ
وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ يعني: لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية. وقال محمد بن سيرين: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾ أي: اغسلها بالماء. وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أناطم مهلاً بعض هذا التَّدُلُّ
وإن تك قد ساءتكَ مني خَلِيقَةٌ
وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَرَبِّكَ فَطَلِّعْ ﴿٤﴾﴾: وقلبك ونيك فطهر. وقال محمد بن كعب القرظي، والحسن البصري: وخُلقك فحسِّن. وقوله: ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْبِطْ ﴿٥﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرُّجُزَ﴾، وهو الأصنام، فاهجر. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وفتادة، والزهري، وابن زيد: إنها الأوثان. وقال إبراهيم، والضحاك: ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْبِطْ ﴿٥﴾﴾ أي: اترك المعصية. وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أِنَّى اللَّهُ لَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب: ١]. ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اتَّقِ اللَّهَ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٢]. وقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَسْكَتَ ﴿٦﴾﴾: قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتبس أكثر منها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وأبو الأحوص، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وفتادة، والسدي، وغيرهم. وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: «ولا تمنن أن تستكثر». وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال خُصيف، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَسْكَتَ ﴿٦﴾﴾ قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب: تضعف. وقال ابن زيد: لا

تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَيْكَ تَأْسِيرٌ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله ﷻ قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر على عطيتك لله تعالى. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) ﴿فَلَيْكَ بِيَوْمٍ عَبْرٌ غَيْرٌ﴾ (٩) ﴿عَلَى الْكُفْرَيْنِ عَيْرٌ يَبِيرٌ﴾ (١٠) قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وزيد بن أسلم، والحسن، وفتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد: ﴿النَّافِرُ﴾: الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط بن محمد، عن مطرف، عن عطية العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) فقال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفض؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط، به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن ابن فضيل وأسباط، كلاهما عن مطرف، به. ورواه من طريق أخرى، عن العوفي، عن ابن عباس، به. وقوله: ﴿فَلَيْكَ بِيَوْمٍ عَبْرٌ غَيْرٌ﴾ (٩) أي: شديد، ﴿عَلَى الْكُفْرَيْنِ عَيْرٌ يَبِيرٌ﴾ (١٠) أي: غير سهل عليهم. كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكُفْرُونَ هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ﴾ [الفر: ٨]. وقد روينا عن زُرارة بن أوفى - قاضي البصرة - أنه صلى بهم الصحيح، فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) ﴿فَلَيْكَ بِيَوْمٍ عَبْرٌ غَيْرٌ﴾ (٩) ﴿عَلَى الْكُفْرَيْنِ عَيْرٌ يَبِيرٌ﴾ (١٠) شهِقَ شَهْقَةً، ثم خرميتاً، رحمه الله.

﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقْتَ رَجِدًا﴾ (١١) ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ (١٢) ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ (١٣) ﴿وَمَهْدَتْ لَهُ نَهْجًا﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِيَا عِينًا﴾ (١٦) ﴿سَأَرْهَقُهُ صُوْدًا﴾ (١٧) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ تَدْرَأُ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ تَقْدَرُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥) ﴿سَأَصْلِيهَ سَعْرًا﴾ (٢٦) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعْرٌ﴾ (٢٧) ﴿لَا يُغْنِي وَلَا يَنْدُرُ﴾ (٢٨) ﴿لَوَاعِمًا لِلْبَشَرِ﴾ (٢٩) ﴿عَلَيْهَا سِتْمَةٌ عَشْرٌ﴾ (٣٠).

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقْتَ رَجِدًا﴾ (١١) أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله، ﴿مَا لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ (١٢) أي: واسعاً كثيراً. قيل: ألف دينار. وقيل: مائة ألف دينار. وقيل: أرضاً يستغلها. وقيل غير ذلك. وجعل له ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ (١٣) قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضوراً عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. وكانوا - فيما ذكره السدي، وأبو مالك، وعاصم بن عمر بن قتادة - ثلاثة عشر. وقال ابن عباس، ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿وَمَهْدَتْ لَهُ نَهْجًا﴾ (١٤) أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِيَا عِينًا﴾ (١٦) أي: معانداً، وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله: ﴿سَأَرْهَقُهُ صُوْدًا﴾ (١٧) قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: «ويل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قرعه، والضُّعُودُ: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي به كذلك فيه أبداً». وقد رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى الأشيب، به. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج. كذا قال. وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج. وفيه غرابة ونكارة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة وعلي بن عبد الرحمن - المعروف بعلان المصري - قال: حدثنا منجاب، أخبرنا شريك، عن عمار الدُهْنِيِّ، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿سَأَرْهَقُهُ صُوْدًا﴾ (١٧) قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت». ورواه البزار وابن جرير، من حديث شريك، به. وقال قتادة، عن ابن عباس: صعود: صخرة في جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدي: صعوداً: صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدها. وقال مجاهد: ﴿سَأَرْهَقُهُ صُوْدًا﴾ (١٧) أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨) أي: إنما أرهقناه صعوداً، أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تَرَوَىٰ ماذا يقول في القرآن حين سُئِلَ عن القرآن، ففكر ماذا يخلق من المقال، ﴿وَقَدَّرَ﴾ (١٨) أي: تَرَوَىٰ، ﴿فَقِيلَ كَيْفَ تَدْرَأُ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ تَقْدَرُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) أي: أعاد النظره والتروي، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢) أي: قبض بين عينيه وقطب، ﴿وَبَسَرَ﴾ (٢٢) أي: كلع وكره، ومنه قول توبة بن الحُمير الشاعر:

وَقَدْ رَابِنِي مِنْهَا صُدُودٌ رَابِيَةٌ وَإِعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَبُسُورُهَا
وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن، ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْرٌ

يُؤْتِرُ ﴿٢١﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ليس بكلام الله. وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي، عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك نفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبا الوليد لتضبؤن قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدث به عشريني؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرِكْ وَمَنْ حَلَفْتَ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَا بَيْتَ وَلَا نَذْرَ ﴿١٨﴾﴾. وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلو، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿قَوْلُ كَيْتَ نَذْرَ ﴿١٩﴾﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَسَىٰ وَبَرَّ ﴿٢٢﴾﴾. قبض ما بين عينيه وكلح. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، أخبرنا محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن عباد بن منصور، عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فاتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟ قال: يعطونك، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنني أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنت كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلو. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: هذا سحر يآثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرِكْ وَمَنْ حَلَفْتَ ﴿١١﴾﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيداً حتى بلغ ﴿بَتَّةَ عَنَّتْ ﴿١٧﴾﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا. وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه، قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه، فقال قائلون: شاعر. وقال آخرون: ساحر. وقال آخرون: كاهن. وقال آخرون: مجنون. كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٤٨]، كل هذا الوليد يفكر فيما يقوله فيه، ففكر وقدر، ونظر وعسى ويسر، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ ﴿٢٤﴾﴾. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ قال الله ﷻ ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: سأعمره فيها من جميع جهاته. ثم قال: ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا بَيْتَ وَلَا نَذْرَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريده وأبو سنان وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَا تَأْتِيَنَّ الْبَشَرَ ﴿٢٩﴾﴾ قال مجاهد: للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَأْتِيَنَّ الْبَشَرَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقوله: ﴿عَلَيْهَا بَتَّةَ عَنَّتْ ﴿٣٠﴾﴾ أي: من مقدمي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خلقهم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني حريث، عن عامر، عن البراء في قوله: ﴿عَلَيْهَا بَتَّةَ عَنَّتْ ﴿٣٠﴾﴾ قال: إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا بَتَّةَ عَنَّتْ ﴿٣٠﴾﴾ فأخبر أصحابه وقال: «ادعهم، أما إنني سائلهم عن ثربة الجنة إن أتوني، أما إنها درمكة بيضاء». فجاءوا فسألوه عن خزنة جهنم، فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية، ثم قال: «أخبروني عن ثربة الجنة». فقالوا: أخبرهم يا ابن سلام. فقال: كأنها حُزْبَةٌ بيضاء. فقال رسول الله ﷺ «أما إن الخبز إنما يكون من الدُّرْمَكِ». هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء، والمشهور عن جابر بن عبد الله، كما قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا منده، حدثنا أحمد بن عبدة، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غلب أصحابك اليوم. فقال: «بأي شيء؟» قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ قال رسول الله ﷺ «أفغلب قوم سُئِلُوا عما لا يدرون فقالوا: لا ندرى حتى نسأل نبينا؟ عليّ بأعداء الله، لكنهم سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة». فأرسل إليهم فدعاهم. قالوا: يا أبا القاسم، كم عدد خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا»، وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة، وقال لأصحابه: «إن سُئِلْتُمْ عن ثربة الجنة فهي الدُّرْمَكِ». فلما سأله فأخبرهم بعدة خزنة أهل

النار، قال لهم رسول الله ﷺ: «ما تربة الجنة؟» فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: خبزة يا أبا القاسم. فقال: «الخبز من الدرّمك». وهكذا رواه الترمذي عند هذه الآية عن ابن أبي عمر، عن سفيان، به. وقال هو والبخاري: لا نعرفه إلا من حديث مجالد. وقد رواه الإمام أحمد، عن علي بن المديني، عن سفيان، ققص الدرّمك فقط.

﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلِيكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا نَسْتَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَيَرْجِعَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْجَبَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ وَالْكَاذِبِينَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّقُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالضُّحَىٰ إِذَا أَشْرَقَ ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا لِحَدَى الْكَبْرِ ﴿٣٥﴾ نَدِيمًا لِلنَّسْرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ سَبَّحْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ﴾ أي: حُرّانها، ﴿إِلَّا مَلِيكَةً﴾ أي: زبانية غلاظاً شداداً. وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم تغلبونهم؟ فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلِيكَةً﴾ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون. وقد قيل: إن أبا الأشدين - واسمه: كلداء بن أسيد بن خلف - قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال: إن صرعتني أمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن. قال: وقد نسب ابن إسحاق خبير المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب. قلت: ولا منافاة بين ما ذكرناه، والله أعلم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا نَسْتَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عذابهم أنهم تسعة عشر اختباراً مثلاً للناس، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يعلمون أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿وَيَرْجِعَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا﴾ أي: إلى إيمانهم. أي: بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ﴿وَلَا يَرْجَبَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَاذِبِينَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا ما هنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. وقوله: ﴿وَمَا يُغَلِّقُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم إنما هم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين. ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فما فهموا صدر الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله: ﴿وَمَا يُغَلِّقُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد ثبت في حديث الإسراء المروري في الصحيحين وغيرهما. عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «إفذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مروق، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تنطق، ما فيها موضع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفُرُشَات، ولخرجتم إلى الصُّعَدَات تجارون إلى الله ﷻ». فقال أبو ذر: والله لو ددث أني شجرة تُعُصِد. ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن غريب، ويروى عن أبي ذر موقوفاً. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا خير بن عرفة المصري، حدثنا عُرْوَةُ بن مروان الرقي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم بن مالك، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راکع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: سبحانك! ما عبدناك حقَّ عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً». وقال محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: حدثنا عمرو بن زرار، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحَرِز، عن حكيم بن حزام قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «أسمع أطيظ السماء وما تلام أن تنطق، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راکع أو ساجد». وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاد، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوي، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلي، سمعت الضحاک بن مزاحم، يحدث عن مسروق بن الأجدع، عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وَمَا يَبَأُ إِلَّا لِمَ مَقَامٌ مَّقَامُكُمْ﴾ ﴿وَمَا لَنَحْنُ الصَّالُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَحْنُ الْمَسْبُوحُونَ﴾» [الصفات: ١٦٤-١٦٦]. وهذا مرفوع غريب جداً رواه عن محمود بن آدم، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: إن من

السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماء قائماً، ثم قرأ: ﴿وَأَنزَلْنَا لَعْنُ الْكَافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَأَنزَلْنَا لَعْنُ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ .
ثم قال: حدثنا أحمد بن سيار حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقي المعروف بابن أمه، حدثنا المغيرة بن عثمان بن عطية
من بني عمرو بن عوف، حدثني سليمان بن أيوب من بني سالم بن عوف، حدثني عطاء بن زيد بن مسعود من بني الحبلى،
حدثني سليمان بن عمرو بن الربيع، من بني سالم، حدثني عبد الرحمن بن العلاء، من بني ساعدة، عن أبيه العلاء بن سعد -
وقد شهد الفتح وما بعده - أن النبي ﷺ قال يوماً لجلسائه: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: وما تسمع يا رسول الله؟ قال:
«أطت السماء وحق لها أن تظن، إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد، وقال الملائكة: ﴿وَأَنزَلْنَا لَعْنُ
الْكَافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَأَنزَلْنَا لَعْنُ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ . وهذا إسناد غريب جداً .

ثم قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفروي، حدثنا عبد الملك بن قدامة، عن
عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر: أن عمر جاء والصلاة قائمة، ونفر ثلاثة جلوس، أحدهم
أبو جحش الليثي، فقال: قوموا فصلوا مع رسول الله . فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم، وقال: لا أقوم حتى يأتي رجل هو
أقوى مني ذراعين، وأشد مني بطشاً فيصرعني، ثم يدس وجهي في التراب . قال عمر: فصرعته ودسست وجهه في التراب،
فأتى عثمان بن عفان فحجزني عنه، فخرج عمر مغضباً حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما أريك يا أبا حفص؟» . فذكر له
أبعد ناداه فقال: «اجلس حتى أخبرك بغنى الرب ﷻ عن صلاة أبي جحش، إن لله في السماء الدنيا ملائكة خشوعاً لا يرفعون
رؤوسهم حتى تقوم الساعة . فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا: ربنا، ما عبدناك حق عبادتك، وإن لله في السماء الثانية ملائكة
سجوداً لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم، وقالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك»
فقال له عمر: وما يقولون يا رسول الله؟ فقال: «أما أهل السماء الدنيا فيقولون: سبحان ذي الملك والملكوت . وأما أهل السماء
الثانية فيقولون: سبحان ذي العزة والجبروت . وأما أهل السماء الثالثة فيقولون: سبحان الحي الذي لا يموت . فقلها يا عمر في
صلاتك» . فقال عمر: يا رسول الله، فكيف بالذي كنت علمتني وأمرتني أن أقوله في صلاتي؟ فقال: «قل هذا مرة وهذا مرة» .
وكان الذي أمره به أن يقول: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك» . وهذا
حديث غريب جداً، بل منكر نكارة شديدة، وإسحاق الفروي روى عنه البخاري، وذكره ابن حبان في الثقات، وضعفه أبو داود
والنسائي والعقيلي والدارقطني . وقال أبو حاتم الرازي: كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فرميا لقن، وكتبه صحيحه . وقال مرة:
هو مضطرب، وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتادة الجمحي: تكلم فيه أيضاً . والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه
ولم يتكلم عليه، ولا عرف بحاله، ولا تعرض لضعف بعض رجاله؟! غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلأ
بنحوه . ومن طريق أخرى عن الحسن البصري مرسلأ، قريباً منه، ثم قال محمد بن نصر:

حدثنا محمد بن عبد الله فهزاذ، أخبرنا النضر، أخبرنا عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر
المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما
منهم ملك تقطر منه دعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم
يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله ﷻ، قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك» . وهذا إسناد لا
يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله ﷻ، قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك» . وهذا إسناد لا
بأس به . وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّبِيِّينَ﴾، قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار التي وصفت، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّبِيِّينَ﴾ . ثم
قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٢٢﴾ وَالْإِلِ وَالْأَبْرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولى، ﴿وَالشَّمْسِ إِذَا اشْرَقَتْ ﴿٢٤﴾﴾ أي: أشرق، ﴿إِنَّمَا لِحَمْدِ الْكَبِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي:
العظام، يعني: النار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغير واحد من السلف، ﴿ذِكْرًا لِلنَّبِيِّينَ ﴿٢٦﴾﴾ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ التَّنَادِرَ وَيَهْتَدِيَ لِلْحَقِّ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٧﴾ إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ في جَنَّةٍ يَتَنَادَرُونَ ﴿٢٩﴾ عَنِ الْمُنْجَبِينَ ﴿٣٠﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُنْجَبِينَ
﴿٣٢﴾ وَلَوْ نَكُنَّا ظُلُمًا أَمْسِكِينَ ﴿٣٣﴾ وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْغَافِقِينَ ﴿٣٤﴾ وَكُنَّا نَكُذِّبُ يَوْمَ الْآيَاتِ ﴿٣٥﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْآيَاتِ ﴿٣٦﴾ مَا نَعْتَمِرُ شِعْمَةَ الشَّيْبِيِّينَ ﴿٣٧﴾
مَا كُنَّا مِنَ التَّنَكُّرَةِ مُرْتَبِينَ ﴿٣٨﴾ كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّشْتَبِرَةٌ ﴿٣٩﴾ تَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٤٠﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَنَّنَةً ﴿٤١﴾ كَلَّا بَلْ لَا
يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٤٢﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا ﴿٤٣﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٤٤﴾ وَمَا يَذَكَّرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْبَأَهُ اللَّهُ مُؤَلَّمًا مِّنْ أَمَلِ النَّفُوسِ وَأَهْلِ الْغَفُورَةِ ﴿٤٥﴾ .
يقول تعالى مخبراً أن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: معتقلة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ

الْيَوْمِ ﴿٣٩﴾ ، فَإِنَّهُمْ ﴿٤٠﴾ فِي جَذَّتْ يَسَاءَ لَوْلَا ﴿٤١﴾ عَنِ الْمُتَمِرِينَ ﴿٤٢﴾ ، أَي : يَسْأَلُونَ الْمَجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ وَأَوْلَتْكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَاتِلِينَ لَهُمْ : ﴿٤٣﴾ مَا سَكَكَ فِي سَقَرٍ ﴿٤٤﴾ قَالُوا لَوْ نَكَّ مِنْ النَّصَلِينَ ﴿٤٥﴾ كَرَّرَ نَكَّ نَطِيمَ الْيَسْكِينِ ﴿٤٦﴾ ، أَي : مَا عَبَدْنَا رَبَّنَا وَلَا أَحْسَنَّا إِلَى خَلْقِهِ مِنْ جَنَسِنَا ، ﴿٤٧﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْفَلَاحِيِّينَ ﴿٤٨﴾ ، أَي : نَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا نَعْلَمُ . وَقَالَ قَتَادَةَ : كَلِمَا غَوَى غَاوِ غَوَيْنَا مَعَهُ ، ﴿٤٩﴾ وَكُنَّا نَكْبُرُ بِرَبِّهِ الَّذِينَ ﴿٥٠﴾ حَتَّىٰ أَنْتَنَا الْيَقِينَ ﴿٥١﴾ ، يَعْنِي : السَّمَوَاتِ . كَقَوْلِهِ : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر : ٩٩] ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَمَا هُوَ - يَعْنِي عِثْمَانَ بْنَ مَطْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ» . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّيْطَانِ ﴿٥٣﴾﴾ ، أَي : مَنْ كَانَ مُتَصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ شَافِعٍ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجِعُ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا ، فَمَا مِنْ وَافِي اللَّهِ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ لَه النَّارُ لَا مَحَالَةَ ، خَالِدًا فِيهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّكْوِينِ مُرْتَبِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ، أَي : فَمَا لَهُمْ يَوْمَ الْكُفْرَةِ الَّذِينَ قَبْلَكَ عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتَذَكِّرُهُمْ بِهِ مَعْرُضِينَ ، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُتْتَبِرَةٌ ﴿٥٥﴾ قَرَّتْ مِنْ قَسْوَمٍ ﴿٥٦﴾﴾ ، أَي : كَأَنَّهُمْ فِي نَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمْرٌ مِنْ حُمْرِ الْوَحْشِ إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يَرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ - فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ - وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ ، وَابْنَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . أَوْ : رَامَ ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَقَالَ حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ ، عَنْ يَوْسُفَ بْنِ مِهْرَانَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : الْأَسَدُ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَيُقَالُ لَهُ بِالْحَبَشِيَّةِ : قَسْوَرَةٌ ، وَبِالْفَارَسِيَّةِ : شِيرٌ ، وَبِالنَّبَطِيَّةِ : أَوِيَا . وَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ شُحْمًا يُنْتَهَرُ ﴿٥٧﴾﴾ ، أَي : بَلْ يَرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا كَمَا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ . قَالَه مَجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَلَوْ أَنَّ جَاءَهُمْ مَائَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَتَّىٰ نُؤْتَىٰ بِمَا أُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَكَلَّمَ حَيْثُ يَجْعَلُ يَسْأَلْتَهُمْ﴾ [الانعام : ١١٧٤] ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ قَتَادَةَ : يَرِيدُونَ أَنْ يُؤْتُوا بِرَاءةٍ بِغَيْرِ عَمَلٍ . فَقَوْلُهُ : ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٨﴾﴾ ، أَي : إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهَا ، وَتَكْذِيبُهُمْ بِوُقُوعِهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ يَرْتَدَّوْنَ ﴿٥٩﴾﴾ ، أَي : حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ تَذَكُّرَةٌ ، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْبَأَ اللَّهُ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠] . وَقَوْلُهُ : ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْتَغْفِرَةِ ﴿٦١﴾﴾ ، أَي : هُوَ أَهْلُ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَهْلُ أَنْ يَغْفَرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . قَالَه قَتَادَةُ : وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحَبَابِ ، أَخْبَرَنِي سَهِيلٌ - أَخُو حَزْمٍ - حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْتَغْفِرَةِ ﴿٦١﴾﴾ ، وَقَالَ : «قَالَ رَبُّكُمْ : أَنَا أَهْلُ أَنْ تُتَّقَى ، فَلَا يَجْعَلُ مَعِيَ إِلَهَ ، فَمَنْ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِيَ إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ» . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ الْحَبَابِ ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْمَعَانِيِّ بْنِ عِمْرَانَ كِلَاهِمَا عَنْ سَهِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُطَيْعِيِّ ، بِهِ . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَسَهِيلٌ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ هُذَيْبَةَ بْنِ خَالِدٍ ، عَنْ سَهِيلٍ ، بِهِ . وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى ، وَابْنُ أَبِي عَرِينَةَ ، وَابْنُ أَبِي عَرِينَةَ ، وَغَيْرُهُمْ ، مِنْ حَدِيثِ سَهِيلِ الْفُطَيْعِيِّ ، بِهِ .

آخر تفسير سورة «المدثر» وبالله الحمد والمنة وحسبنا الله ونعم الوكيل



تفسير سورة القيامة

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَّمَةِ ﴿٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَلَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلْ قَدِيرٌ عَلَيْهِ أَنْ سُئِيَ بِتَأَنَّهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفْتَحِرَ مَائِمَةً ﴿٥﴾ يَنْتَلِ بِإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِنَّا رَبُّ الْمَرْءِ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجَمَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَمَنَّا ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَدَّ ﴿١١﴾ إِنْ رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ لِلشَّعْرَةِ ﴿١٢﴾ يَبْيُؤُا الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَكَلَّمَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً، جار الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ها هنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجاهلة من العباد من عدم بعث الأجساد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَّمَةِ ﴿٢﴾﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قَتَادَةَ : بل أقسم بهما جميعاً . هكذا حكاه ابن أبي حاتم . وقد حكى ابن جرير ، عن الحسن والأعرج أنهما قرأا : «لأقسم بيوم القيامة» ، وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قَتَادَةَ رحمه الله ، وهو المروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، واختاره ابن جرير . فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال قره بن خالد ، عن الحسن البصري

في هذه الآية: إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلمتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي فُدماً ما يعاتب نفسه. وقال جُوَيْر: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَّةَ﴾ (٢)، قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، عن إسرائيل، عن سماك: أنه سأل عكرمة عن قوله: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَّةَ﴾ (٣)، قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا. ورواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن وكيع عن إسرائيل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيْج، عن الحسن بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة في: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَّةَ﴾ (٤)، قال: تلوم على الخير والشر. ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك: فقال: هي النفس اللوؤم. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: اللوامة: المذمومة. وقال قتادة: ﴿الْوَأَمَّةُ﴾: الفاجرة. قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْعَلَ عَظَمَهُ﴾ (٥)، أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا تقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بَلْ قَدِيرِينَ عَلَّمَ أَنْ نُسَوِّي بَنَانَهُ﴾ (٦)، قال سعيد بن جبيرة والعوفي، عن ابن عباس: أن نجعله خُفًا أو حافراً. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وفتادة، والضحاك، وابن جرير. ووجهه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا. والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَدِيرِينَ﴾، حال من قوله: ﴿يَجْعَلُ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجعل عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّي بَنَانَهُ، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه - وهي أطراف أصابعه - مستوية. وهذا معنى قول ابن قتيبة، والزجاج. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ﴾ (٧)، قال سعيد، عن ابن عباس: يعني يمضي قدماً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ﴾ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ﴾: يمضي أمامه ركباً رأسه. وقال الحسن: لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله فُدماً فُدماً، إلا من عصمه الله. وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والسدي، وغير واحد من السلف: هو الذي يجعل الذنوب ويُسَوِّفُ التوبة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده: ﴿يَسْتَلِ أَلَانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٨)؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩) قُلْ لَكُمْ يَوْمَ الْبَيْعَاتِ يَوْمٌ لَا تَسْتَعْتِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْفِرُونَ (١٠) [سبا: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى ها هنا: ﴿إِنَّا بِرَيْحِ الْبَصْرِ﴾ (١١)، قال أبو عمرو بن العلاء: ﴿رَيْحٌ﴾ بكسر الراء، أي: حار. وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء، من شدة الرعب. وقرأ آخرون: «برق» بالفتح، وهو قريب في المعنى من الأول. والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. وقوله: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجِجَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (١٢)، قال مجاهد: كُورًا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١٣) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (١٤) [التكوير: ١، ٢] وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: «وَجَمَعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ». وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (١٥) أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ أي: هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَوَدَّ (١٦) إِنْ رَأَىكَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَقُولَ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٧)﴾. قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف: أي لا نجاة. وهذه كقولته: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِ (١٨)﴾ [الشورى: ٤٧] أي: ليس لكم مكان تنتكرون فيه، وكذا قال ها هنا: ﴿لَا وَوَدَّ (١٩)﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ رَأَىكَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَقُولَ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (٢٠)﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (٢١)﴾ أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَدَّوْا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا وَلَا يَنْظُرُونَ رَبَّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال ها هنا: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (٢٢) وَلَوْ أَلْفَى مَآزِيرَهُ (٢٣)﴾ أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ يَتْفِكِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (٢٤)﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (٢٢)﴾ يقول: سمعته وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه. وقال قتادة: شاهد على نفسه. وفي رواية قال: إذا شئت - والله - رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم، تُبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذال في عينك لا تبصره. وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَآزِيرَهُ (٢٣)﴾: ولو جادل عنها فهو بصير عليها. وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَآزِيرَهُ (٢٣)﴾: ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال

السدي: ﴿وَلَوْ أَلْفٌ مَّادِيرُهُ﴾ (١٥): حجته. وكذا قال ابن زيد، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وقال قتادة، عن زرارة، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْفٌ مَّادِيرُهُ﴾ (١٥)، يقول: لو ألقى ثيابه. وقال الضحاك: ولو أرحى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر: المعذار. والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَرَكَكَ فَنَنْتَهَبُ إِلَّا أَنْ قَالَ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (١٣) [الانعام: ٢٣]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَبْتَسِمُ اللَّهُ جِيمًا فَيَحْفَتُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْفَتُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِلَهُمْ هُمْ الْكَذِبُونَ﴾ (١٨) [المجادلة: ١٨]. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْفٌ مَّادِيرُهُ﴾ (١٥) هي الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال: ﴿وَأَلْفًا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّارَّةُ﴾ [النحل: ٢٧]، ﴿فَأَلْفًا لَسَّارَةً مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ ﴿١٩﴾ كُلًّا بَلَّ يَحْيُونَ النَّاسَ ﴿٢٠﴾ وَذُرُوبَ الْآخِرَةِ ﴿٢١﴾ ذُرُوبًا يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَذُرُوبًا يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَطَّلُنُ أَنْ يُفَكَّرَ بِهَا فَأَقْرُبُهَا ﴿٢٥﴾.

هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الرحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يسره لأذنيه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَتَجَلَّجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١٧) ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي: في صدرك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ، ﴿فَانصَبْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (١٨) أي: بعد حفظه وتلاوته يبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن أبي عوانة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه - قال: فقال لي ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه - فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾، قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (١٩). فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخاري ومسلم، من غير وجه، عن موسى بن أبي عائشة، به. ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقي منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦). وهكذا قال الشعبي، والحسن البصري، وقاتدة، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد: إن هذه الآية نزلت في ذلك. وقد روى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) قال: كان لا يفتقر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ لَكَ ﴿١٧﴾ وَقُرْآنَهُ: أن نقرئك فلا تنسى. وقال ابن عباس وعطية العوفي: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (١٨): تبين حلاله وحرامه. وكذا قال قتادة: وقوله: ﴿كُلًّا بَلَّ يَحْيُونَ النَّاسَ﴾ (٢٠) وَذُرُوبَ الْآخِرَةِ ﴿٢١﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم: أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لا هون متشغلون عن الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ذُرُوبًا يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ (٢٢)، من النصارة، أي حسنة بهيمة مشرقة مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٣) أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً». وقد ثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة - وما في الصحيحين -: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضاؤون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك». وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا». وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷻ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيها، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وفي أفراد مسلم، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة» قال: «يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟» قال: «فيكشف

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة». ثم تلا هذه الآية: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئَلَتِهِمْ جَزَاءً زَكِيًّا﴾ [يونس: ٢٦].

وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك» - عني في عرصات القيامة - ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر، حدثنا ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمته. وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن شبابة، عن إسرائيل، عن ثوير قال: «سمعت ابن عمر...» فذكره، قال: ورواه عبد الملك بن أبجر، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، قوله. وكذلك رواه الثوري، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، ولم يرفعه. ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام. ومن تأول ذلك بأن المراد بـ﴿إِلَى﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦)، فقال: تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً فقد أبدع هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) [المطففين: ١٥]، قال الشافعي، رحمه الله: ما حجب الفجاء إلا وقد علم أن الأبرار يرونه ﷻ. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦). قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿وَيَوْمَئِذٍ نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦) قال: حسنة، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦)، قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق. وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦) نَظَرٌ أَنْ يَقَعَلَهَا فَأَوْفَى (٢٦): هذه وجوه الفجاء تكون يوم القيامة بأسرة. قال قتادة: كالحجة. وقال السدي: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة. ﴿نَظَرٌ﴾ أي: تستيقن، ﴿أَنْ يَقَعَلَهَا فَأَوْفَى﴾، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار. وهذا المقام كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وكقولوه: ﴿وَيَوْمَئِذٍ تُسْفِرَةٌ﴾ (٢٨) سَافِكَةٌ مُسْتَشِيرَةٌ (٢٩) وَيَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عِزَّةٌ (٣٠) وَتَعْمَقُ قَرَارٌ (٣١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَعْرَةُ (٣٢)، [عبس: ٣٨-٤٢] وكقولوه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيشَةٌ﴾ (٢) عَابِلَةٌ نَاصِيَةٌ (٣) تَصَلُّونَ فَإِنَّهَا حَاسِبَةٌ (٤)، إلى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) لَسَعِبَهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ (١٠) [الغاشية: ٢-١٠]، في أشبه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَنَحْنُ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَاللَّغَبُ السَّاقُ وَالسَّاقُ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا سَفَكٌ وَلَا سَلَى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى آخِرِهِ يَمْتَسِكُ (٣٣) أُولَئِكَ لَكَ فَوَاقُ (٣٤) ثُمَّ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ فَوَاقُ (٣٥) أَحْسَبُ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا سُبْحَانَكَ (٣٦) أَوَّلَ رَبِّكَ تَلَعَنَ مِنْ مَنِّ يَتَمَنَّ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ فَمَلَأَ سَخِيًّا (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الْاُوتُونَ الذِّكْرَ وَاللُّغْنَ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَذِرٍ عَلَيَّ أَنْ يَحْمِيَهُنَّ الْوَلَدُ (٤٠).

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦)، إن جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً. وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر، أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٢٧) وَأَنْشَرُ حَيْثُ نَظَرُونَ (٢٨) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٢٩) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ (٣٠) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) [الواقعة: ٨٣-٨٧]. وهكذا قال ها هنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦)، ويذكرها هنا حديث بئر بن جحاش الذي تقدم في سورة «يس». والتراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧) أي: من طيب شاف. وكذا قال قتادة، قال: عكرمة، عن ابن عباس: أي من راق يرقى؟ وكذا قال أبو قلابة: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧) أي: من طيب شاف. وكذا قال قتادة، والضحاك، وابن زيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧) قال: قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. وبهذا الإسناد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّغَبُ السَّاقُ وَالسَّاقُ﴾ (٢٩) قال: التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَاللَّغَبُ السَّاقُ وَالسَّاقُ﴾ (٢٩)، يقول: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلقتي بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: ﴿وَاللَّغَبُ السَّاقُ وَالسَّاقُ﴾ (٢٩): الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء بلاء. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَاللَّغَبُ السَّاقُ وَالسَّاقُ﴾ (٢٩)، هما ساقك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت

رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوالاً. وكذا قال السدي، عن أبي مالك. وفي رواية عن الحسن: هو لفهما في الكفن. وقال الضحاك: ﴿وَاللَّيْلِ أَنسَاتٍ وَأَلْسَاتٍ﴾ (٢٦): اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاءُ﴾ (٢٧): أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله ﷻ: ردا عبيدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء الطويل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي سُبْحَانَكَ وَأَعْتَدُ لِيَوْمِئِذٍ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (٢٨) ثم رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْمُلْكُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٢٩) [الأنعام: ٦١، ٦٢]. وقوله: ﴿فَلَا سَدَّ وَلَا مَدَّ﴾ (٣٠) ولكن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣١): هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذِباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقلبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال: ﴿فَلَا سَدَّ وَلَا مَدَّ﴾ (٣٠) ولكن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣١) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ آٰلِهِمْ يَتَمَتَّعُ﴾ (٣٢) أي: جدلاً أشراً بطراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ آٰلِهِمْ أَنفَلَتْوا فَيَكِينُ﴾ (٣٣) [المطففين: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي آٰلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ (٣٤) إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيْوَتِهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٣٥) أي: يرجع، ﴿يَعْلَمُ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ صَبِيرًا﴾ (٣٦) [الانشقاق: ١٣-١٥]. وقال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ آٰلِهِمْ يَتَمَتَّعُ﴾ (٣٢) أي: يختال. وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٧) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٨) وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال: في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٣٩) [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا وَشَرُّوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤٠) [المرسلات: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [نصفت: ٤٠]. إلى غير ذلك. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن - يعني ابن مهدي - عن إسرائيل، عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت سعيد بن جبيرة قلت: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٧) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٨) قال: قال النبي ﷺ لأبي جهل، ثم نزل به القرآن.

وقال أبو عبد الرحمن النسائي: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثنا أبو النعمان، حدثنا أبو عوانة - (ح) وحدثنا أبو داود: حدثنا محمد بن سليمان، حدثنا أبو عوانة - عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٧) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٨) قال: قاله رسول الله ﷺ ثم أنزل الله ﷻ قال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا شعيب بن إسحاق، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٧) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٨) كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبي الله بمجامع ثيابه، ثم قال: «أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى». فقال عدو الله أبو جهل: أتعودني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشي بين جليليها. وقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٩) قال السدي: يعني: لا يبعث. وقال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى. والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منه في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكروه من أهل الزيغ والجهل والعدا، ولهذا قال مستدلاً على الإعادة بالبداة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٧) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاؤُكُ﴾ (٣٨) أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمتنى يراق من الأصلاب في الأرحام ﴿ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً نَّطَقَ نَسْوًا﴾ (٣٩) أي: فسار علقه، ثم مضغة، ثم شكل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء، ذكر أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال: ﴿بِحَمَلٍ يَتَذَكَّرُ الْأَنْثَىٰ حَمْلًا وَأَبًى يُدَكِّرُ﴾ (٤٠) ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْكُفُوفَ﴾ (٤١) أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداية، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. والأول أشهر كما تقدم في سورة «الروم» بيانه وتقديره، والله أعلم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن آخر: أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن، فإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْكُفُوفَ﴾ (٤١) قال: سبحانك اللهم فبلى. فستل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك. وقال أبو داود، رحمه الله: حدثنا محمد بن العثني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْكُفُوفَ﴾ (٤١) قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي، ولا يضر ذلك. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان، حدثني إسماعيل بن أمية: سمعت أعرابياً يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢)؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَا أُقِيمُ بِوَرِّ الْقَيْنَةِ﴾ (٤٣) فانتهى إلى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ

الْمَوْتُ ﴿١٠﴾؟ فليقل: بلى. ومن قرأ: ﴿وَالرَّسَلَاتِ﴾ فبلغ: ﴿فَيَأْتِي حَبِيبٌ بِسَدِّهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾؟ فليقل: أمانة بالله. ورواه أحمد، عن سفيان بن عيينة. ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان بن عيينة. وقد رواه شعبة، عن إسماعيل بن أمية قال: قلت له: من حدثك؟ قال رجل صدق، عن أبي هريرة. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ ﴿٥٢﴾﴾؟ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك ويلي». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ ﴿٥٢﴾﴾؟ قال: سبحانك، فبلى.

آخر تفسير سورة «القيامة» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الإنسان

وهي مكية. قد تقدم في صحيح مسلم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الذَّهْرَ ﴿١﴾﴾ ﴿تَبَيُّرًا﴾ ﴿السَّجْدَةَ﴾ و ﴿هَذَلْ أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا ابن زيد: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة: ﴿هَذَلْ أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ لَم يَنْزَلْ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ أَسْوَدٌ، فَلَمَّا بَلَغَ صِفَةَ الْجَنَانِ، زَفَرَ زَفْرَةً فَخَرَجَتْ نَفْسُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْرَجَ نَفْسَ صَاحِبِكُمْ - أَوْ قَالَ: أَخِيكُمْ - الشُّوقَ إِلَى الْجَنَّةِ». مرسل غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَذَلْ أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ لَم يَنْزَلْ عَلَيْهِ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُرَابٍ أَسْفَلَ مِنْ سَمَاءٍ بِصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، لحقارته وضعفه، فقال: ﴿هَذَلْ أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ لَم يَنْزَلْ عَلَيْهِ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾؟ ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُرَابٍ أَسْفَلَ مِنْ سَمَاءٍ بِصِيرًا﴾ أي: أخلاط. والمشج والمشيح: الشيء الخليط، بعضه في بعض. قال ابن عباس في قوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ أَسْفَلَ مِنْ سَمَاءٍ بِصِيرًا﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون. وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس: الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة. وقوله: ﴿تَبَيُّرًا﴾ أي: نخبته، كقوله: ﴿يَبْلُوكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ كَكُنُوزٍ﴾ [الملك: ٢٢]. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْكَفَى﴾ [الفصل: ١٧]، وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [البعد: ١٠]، أي: بيناه له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد - في المشهور عنه - والجمهور. ورؤي عن مجاهد، وأبي صالح، والضحاك، والسدي أنهم قالوا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾: يعني خروجه من الرحم. وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول. وقوله: ﴿إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾: منصوب على الحال من «الهاء» في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فموقبها أو مُمْتَقبها». وتقدم في سورة «الروم» عند قوله: ﴿وَفَطَرَتْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلِيمًا﴾ [الروم: ٢٣٠]، من رواية جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرج إلا باباه رايان، راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يُحِبُّ الله اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته. وإن خرج لما يُسَخِّطُ الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان، حتى يرجع إلى بيته».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن خنيم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرَةَ: «أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون من بعدي، لا يهتدون بهدي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون

على حوضي. ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعْظِمِهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون على حوضي. يا كعب بن عُجْرَةَ، الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان - أو قال: برهان - يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُخْت، النار أولى به. يا كعب، الناس غاديان، فمبتاعُ نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها». ورواه عن عفان، عن وهيب، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، به.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَآغْلَاكًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَنْجِيرًا ﴿٦﴾ يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ نَحْوًا وَمِثْلًا مَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا فَطَرْتُمَا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرًا وَسُرُورًا ﴿١١﴾ نَجَّيْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَجَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عما أُرْصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق في نار جهنم، كما قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧﴾ فِي لَتْمِيرٍ شَرِّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (غانر: ٧١، ٧٢). ولما ذكر ما أعد لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاعة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَنْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ أي: الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويَرْوُونَ بها؛ ولهذا ضمن يشرب «يروي» حتى عده بالباء، ونصب ﴿عَيْنًا﴾ على التمييز. قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور. وقال بعضهم: هو من عين كافور. وقال: بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿يَشْرَبُ﴾. حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَنْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَقْدِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩﴾﴾ (الاسراء: ٩٠). وقال: ﴿وَجَرَّتَا عُنُقَهُمَا تَبَرًّا ﴿١١﴾﴾ (الكهف: ٣٣). قال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَنْجِيرًا﴾: يقودونها حيث شاؤوا، وكذا قال عكرمة، وقاتدة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا. وقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ نَحْوًا وَمِثْلًا مَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. قال الإمام مالك، عن طلحة بن عبد الملك الأيلي، عن القاسم بن مالك، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، رواه البخاري من حديث مالك. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً: وقال قاتدة: استطار - والله - شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. قال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع في الزجاجة واستطال. ومنه قول الأعشى:

فَبَانَتْ وَقَدْ أُنْأَرَتْ فِي الْفُؤَا دَصْدَعًا، عَلَى نَائِهَا، مُسْتَطِيرًا

يعني: ممتداً فاشياً. وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾: قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله ﷻ للدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وكقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُفِئَ قُورًا وَمَا نُفِئُونَ﴾ (آل عمران: ٩٢). وروى البيهقي، من طريق الأعمش، عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتبهت عيناً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفيه - يعني امرأته - فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول السائل، فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفيه إلى السائل فقالت: والله إن عدت لا تصيبُ منه خيراً أبداً. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به. وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر»، أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾. أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير: فقال سعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن، وقاتدة. وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم». وقال عكرمة: هم العبيد - واختاره ابن جرير - لعموم الآية للمسلم والمشرك. وقال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون لهؤلاء

الطعام وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرِيسَةِ اللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا يُؤِيدُ سِنَكُ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بالسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثني عليهم به ليرغب في ذلك راغب. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَسُوًّا قَطْرِيكَ﴾ أي: إنما نعمل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطيرير. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَسُوًّا﴾: ضيقاً، ﴿قَطْرِيكَ﴾: طويلاً. وقال عكرمة وغيره، عنه، في قوله: ﴿يَوْمًا عَسُوًّا قَطْرِيكَ﴾ أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران. وقال مجاهد: ﴿عَسُوًّا﴾: العابس الشفتين، ﴿قَطْرِيكَ﴾: قال: تقيض الوجه بالبسور. وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجه من الهول، ﴿قَطْرِيكَ﴾: تغليس الجبين وما بين العينين، من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطيرير: الشديد. وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها قول ابن عباس، رضي الله عنه. قال ابن جرير: والقمطيرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطيرير ويوم قماطر، ويوم عصيب وعصصب، وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطاراً، وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة، ومنه قول بعضهم:

بنسي عمننا، هل تذكرون بلاءنا؟
عليكم إذا ما كان يوم قماطر
قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَرُسُودًا﴾، وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: أمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَرُسُودًا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِتُ يُوتِئِهِمْ شُورَةَ﴾ ﴿سَاحِكَةً تُشْتَبِهُةً﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سُر استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُر، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وقالت عائشة: دخل علي رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه. الحديث. وقوله: ﴿وَبَرَّزْتُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم ويؤاهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلاً رجباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، فلما بلغ القارئ إلى قوله: ﴿وَبَرَّزْتُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، قال بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كم قنيل بشهوة وأسير
شهوأت الإنسان تورثه الدل
أف من مُشْتَهَى خلاف الجميل
وثلقية في البلاء الطويل
﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا سَنًا وَلَا ذَمِيرًا﴾ ﴿وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلْمًا وَوُدَّتْ قُلُوبُهُمْ نَدْبِيلًا﴾ ﴿وَتِلْكَ عَلَيْهِمْ بَابُ مَا يَصَّرُوا وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدْرُهَا نَعِيرًا﴾ ﴿وَسَقَيْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِيشَ الْإِصْبَاحِ نَدْبِيلًا﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ ﴿وَلِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَيْتُ نَيْمًا وَمَلَكًا كَرِيمًا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ ثَابُتٌ مُسْتَبِرٌّ وَهُمْ أُسْرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَيْنَهُمْ مِنْ شَرَابٍ مِثْلَ هُنَّ لَمَّا كَانَتْ لَكُلِّ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَسُورًا﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسخ عليهم من الفضل المميم فقال: ﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الصفات»، وذكر الخلاف في الاتكاء، هل هو الاضطجاع، أو التمرق، أو التربع، أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي السُر تحت الحجال. وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا سَنًا وَلَا ذَمِيرًا﴾ أي: ليس عندهم حزم مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سزمديتي: ﴿لَا يَبْعَثُونَ فِيهَا جَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. ﴿وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلْمًا﴾ أي: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَوُدَّتْ قُلُوبُهُمْ نَدْبِيلًا﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدل على أعلى غصنه، كأنه سامع طابع، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ دَائِبَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. قال مجاهد: ﴿وَوُدَّتْ قُلُوبُهُمْ نَدْبِيلًا﴾: إن قام ارتفعت بقدرة، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، لذلك قوله: ﴿نَدْبِيلًا﴾. وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بُعد. وقال مجاهد: أرض الجنة من ورق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والورق والتمر بين ذلك. فمن أكل منها قائماً لم يؤذه، ومن أكل منها قاعداً لم يؤذه، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه. وقوله: ﴿وَتِلْكَ عَلَيْهِمْ بَابُ مَا يَصَّرُوا وَأَكْوَابُ﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله: ﴿قَوَارِيرًا﴾ ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾، فالأول منصوب بخبر «كان» أي: كانت قوارير. والثاني منصوب إما على البدلية، أو تمييز؛ لأنه بينه بقوله: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وغير واحد: يياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي

من فضة، وهي مع هذا شفاقة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. قال ابن المبارك، عن إسماعيل، عن رجل، عن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتهم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿قَدَرًا نَقِيرًا﴾ أي: على قدر رتبهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك، مقدرة بحسب رتب أصحابها. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبي صالح، وقتادة، وابن أبزی، وعبد الله بن عبید بن عمير، وقتادة، والشعبي، وابن زيد. وقاله ابن جرير وغير واحد. وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَدَرًا نَقِيرًا﴾: قدرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاک: على قدر أكَفِّ الخُدَام. وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والرتب. وقوله: ﴿وَيَسْقُونَ فِيهَا كَلًّا كَأَن يَرَاجِعَهَا نَدِيمًا﴾ (١٧) أي: ويسقون - يعني الأبرار أيضاً - في هذه الأكواب ﴿كَلًّا﴾ أي: خمراً، ﴿كَأَن يَرَاجِعَهَا نَدِيمًا﴾، فإشارة يُمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل، وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾، وقال ههنا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾ (١٨) أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريها. وقال قتادة: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾ (١٩) عين سلسة مُستفيدة ماؤها. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق. واختار هو أنها تَمَم ذلك كله، وهو كما قال. وقوله تعالى: ﴿﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾﴾ (٢٠) أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة وللدان من ولدان الجنة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسره بأنهم مُخَرَّصُونَ في آذانهم الأفرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿عَيْنًا﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخيرة والسرور، ﴿رَأَيْتَ عَيْنًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. وقد قَدَمْنَا في الحديث المروي من طريق ثوري بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أذناه». فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى. وقد روى الطبراني ما هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عفيف بن سالم، عن أبيوب بن عتبة، عن عطاء، عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ: فقال له رسول الله: «سل واستفهم». فقال: يا رسول الله، فُضِّلْتُمْ علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به، إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده، إنه ليُرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام». ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له مائة ألف حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة». فقال رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جبل لأثقله، فتقوم النعمة - أو: نعم الله - فتكاد تستنفذ ذلك كله، إلا أن يتغنمه الله برحمته». ونزلت هذه السورة: ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الذَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾. فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة؟ قال: «نعم». فاستبكي حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه في حُفْرته بيده. وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ نِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالمقصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعمود في اللباس. ﴿وَعَلَوْا أَتَادِرَ مِنْ فَضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ لُّؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرذيلة، كما رويها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة

سورة المرسلات

﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴿١﴾ فَأَلْمِصَّتْ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالشَّيْرَتِ نَقْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ نَزْمًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَيْتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ تُوعَدُونَ لَوَيْحٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا الشُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ أُرْسِلَتْ أَقْنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُتِلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا زكريا بن سهل المرزوي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، أخبرنا الحسين بن واقد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴾ [١] قال: الملائكة. قال: ورؤي عن مسروق، وأبي الضحى، ومجاهد- في إحدى الروايات- والسدي، والربيع بن أنس، مثل ذلك. ورؤي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وفي رواية عنه: هي الملائكة. وهكذا قال أبو صالح في ﴿ فَأَلْمِصَّتْ عَصْفًا ﴾ و﴿ وَالشَّيْرَتِ نَقْرًا ﴾ و﴿ فَأَلْفَرَقَتْ نَزْمًا ﴾ و﴿ فَأَلْمَلَيْتِ ذِكْرًا ﴾: أنها الملائكة. قال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي الميدين قال: سألت ابن مسعود عن ﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴾ [١] قال: الريح. وكذا قال في: ﴿ فَأَلْمِصَّتْ عَصْفًا ﴾ [٢] و﴿ وَالشَّيْرَتِ نَقْرًا ﴾ [٣]: إنها الريح. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو صالح- في رواية عنه- وتوقف ابن جرير في ﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴾ [١]، هل هي الملائكة أرسلت بالعُزْف، أو كعُزْف الفرس يتبع بعضهم بعضاً؟ أو: هي الريح إذا هبَّت شيئاً فشيئاً؟ وقطع بأن العاصفات عصفاً هي الرياح، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه. ومن قال ذلك في العاصفات أيضاً: علي بن أبي طالب، والسدي، وتوقف في ﴿ وَالشَّيْرَتِ نَقْرًا ﴾ [٣]، هل هي الملائكة أو الريح؟ كما تقدم. وعن أبي صالح: أن الناشرات نشرأ: المطر. والأظهر أن: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ ﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَيْحٌ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الاعراف: ٥٧]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هبَّت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب ﷻ. وقوله: ﴿ فَأَلْفَرَقَتْ نَزْمًا ﴾ [٤] فَأَلْمَلَيْتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري. ولا خلاف ها هنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي. والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره. وقوله: ﴿ إِنَّكَ تُوعَدُونَ لَوَيْحٌ ﴾ [٧]: هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إن هذا كله ﴿ لَوَيْحٌ ﴾ أي: لكانن لا محالة. ثم قال: ﴿ فَإِذَا الشُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [٨] أي: ذهب ضوؤها، كقوله: ﴿ وَإِذَا الشُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢٢]، وكقوله: ﴿ وَإِذَا الْكُوكِبُ انْتَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢٢]. ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ [٩] أي: انفطرت وانسقت، وتدلَّت أرجاؤها، وهبت أطرافها. ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ﴾ [١٠] أي: ذهب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسِطُ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضِ بَارِدَةً وَخَصِرَتْنَهُمْ فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ أُرْسِلَتْ ﴾ [١١] قال: العوفي، عن ابن عباس: جمعت. وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال مجاهد: ﴿ أُقْنَتْ ﴾: أجلت. وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿ أُقْنَتْ ﴾: أوعدت. وكأنه يجعلها كقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالسَّاعَةِ وَالسَّاعِدَةُ وَوُضِعَ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر: ٦٩]. ثم قال: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُتِلَتْ ﴾ [١٢] ليوم الفصل ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿١٥﴾، يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجى أمرها؟ حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِفًا فِي دِينِهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨]. وهو يوم الفصل، كما قال: ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ [١٣]. ثم قال معظماً لشأنه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: ويل لهم من عذاب الله غداً. وقد قدمنا في الحديث أن «ويل». واد في جهنم. ولا يصح.

﴿ أَلَمْ تَنْبِكِ الْأُولَى ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبِّئْهُمْ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَنْبِكُ مِنْ نَارٍ مَهْمُومٍ ﴿٢٠﴾ نَجْمَلَتْ فِي قَرَارٍ مُكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ قَدَّرْنَا بَيْنَ الْقَدِيرِينَ ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَمَوْتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَيْخَاتٍ وَأَسْبَاطًا مَائًا فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكْدِبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَنْبِكِ الْأُولَى ﴾ [١٦]؟ يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به، ﴿ ثُمَّ نَبِّئْهُمْ الْآخِرِينَ ﴾ [١٧] أي:

ممن أشبههم؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿١٩﴾﴾. قاله ابن جرير. ثم قال ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداة: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَقُولُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري ﷻ كما تقدم في سورة «يس» في حديث بسر بن جحاش: «ابن آدم، أتى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟». ﴿وَجَمَلْتَهُ فِي قَرَارِ تَكْيِينِ ﴿٢١﴾﴾ يعني: جمعناه في الرّحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرّحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء. وقوله: ﴿إِن قَدَرْتُمْ مَلُوءَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿قَدَرْنَا فِيَمَ الْقَدِيرِ ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٢٤﴾﴾. ثم قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَكْرَأَ مِمَّا كَفَّتْ لَمَفْئِدِ الْوَالِدِ الْوَالِدَاتُ وَالْوَأَلِدَاتُ لِمَ بَنِيهِنَّ حَرْشًا مَّعْلُومًا ﴿٢٥﴾﴾ وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة. ﴿وَجَمَلْنَا فِيهَا رُؤْيَىٰ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿٢٦﴾﴾ يعني: العجبال، أرسى بها الأرض لثلاث تمديد وتضطرب. ﴿وَأَسْتَفْتِكُمْ نَارَ مَفِئَاتِكُمْ ﴿٢٧﴾﴾ عذاباً زلزالاً من السحاب، أو مما أنبئه الله من عيون الأرض. ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿أَصْلَقُوا إِنْ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكذِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أَصْلَقُوا إِنْ طَلَبَ ذِي تَلَكِّ شَمْسٍ ﴿٣٠﴾ لَا طَلِيلَ وَلَا يَقِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرَىٰ بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّ جَمَلَتْ صُفْرًا ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾
يقول تعالى مخاطباً للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَصْلَقُوا إِنْ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكذِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أَصْلَقُوا إِنْ طَلَبَ ذِي تَلَكِّ شَمْسٍ ﴿٣٠﴾ يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لَا طَلِيلَ وَلَا يَقِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب. وقوله: ﴿إِنَّهَا تَرَىٰ بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصون. وقال ابن عباس وقتادة، ومجاهد، ومالك عن زيد بن أسلم، وغيرهم: يعني أصول الشجر. ﴿كَأَنَّ جَمَلَتْ صُفْرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: كالإبل السود. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿جَمَلَتْ صُفْرًا﴾ يعني: حبال السفن. وعنه - أعني ابن عباس -: ﴿جَمَلَتْ صُفْرًا﴾ قطع نحاس. وقال البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، أخبرنا سفيان، عن عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس: ﴿إِنَّهَا تَرَىٰ بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾، قال: كنا نعد إلى الخشية ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فرفعه للشاء، فنسميه القصر، ﴿كَأَنَّ جَمَلَتْ صُفْرًا ﴿٣٣﴾﴾ حبال السفن، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال، ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٣٤﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ولا يتكلمون. ﴿وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرضت القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ. ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿٣٧﴾﴾. وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فإن كان لكم كيدٌ فكيدوا ﴿٣٩﴾. وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقوله: ﴿إِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرتون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّرَ الْمُنِيفُ وَالْإِنْسِي إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْدُوا مِنْ أَفْئِدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاقْدُوا أَلَّا تَنْدُونَ إِلَّا سَاطِنًا ﴿٣٧﴾﴾، [الرحمن: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَصْرُفْهُ شَيْئًا﴾ [مرد: ٥٧]، وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تبغوا نفعي فتتفغوني، ولن تبغوا ضري فتضروني». وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن المنذر الطريقي الأودي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا حصين بن عبد الرحمن، عن حسان بن أبي المخارق، عن أبي عبد الله الجدلي قال: آتيت بيت المقدس، فإذا عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس، فقال عبادة: إن كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعي، ويقول الله: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فإن كان لكم كيدٌ فكيدوا ﴿٣٩﴾، اليوم لا ينجو مني جبار عنيد، ولا شيطان مرید. فقال عبد الله بن عمرو: فإننا نحدث يومئذ أنه يخرج عُقُق من النار فتنتقل حتى إذا كانت بين ظهري الناس نادى: أيها الناس، إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يُغيثهم عني وزر، ولا تخفيهم عني خافية؛ الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وكل جبار عنيد، وكل شيطان مرید. فتطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿١٤﴾ وَوَكَاةٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْسًا بِمَا كَفَرْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٢١﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدهو بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من ظل الحمام، وهو الدخان الأسود المنتن. ﴿وَوَكَاةٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أي: ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْسًا بِمَا كَفَرْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى مخبراً خيراً مستأنفاً: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ﴾. وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾: خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَجِّنَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَلُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [النار: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ٢٩، ٣٠]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا أمر هؤلاء الجهلاء من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال: ﴿وَيَلْبَسُونَ لِتَمَكِّدِينَ﴾. ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ٢٦]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أمية: سمعت رجلاً أعرابياً بدأياً يقول: سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا﴾، فقرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل. وقد تقدم هذا الحديث في سورة «القيامة».

آخر تفسير سورة «والمرسلات» ونه الحمد والمنة



تفسير سورة النبا

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ بَسَّأْتُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ تَخْلُفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُو كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاحًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاقًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَمَاوَاتٍ شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا رِبَابًا وَهَامًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَاتًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى منكرأ على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارأ لوقوعها: ﴿عَمَّ بَسَّأْتُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبا العظيم، يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر. قال قتادة، وابن زيد: النبا العظيم: البعث بعد الموت. وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ تَخْلُفُونَ﴾ يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال تعالى متوعدأ لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي: أممهدة للخلائق ذلولأ لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: جعلها لها أوتادأ أرساها بها وبنيتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاحًا﴾ يعني: ذكراً وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْوَاحًا لِتَسْكُنُوا فِيهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْكُمْ قُوَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: قطعأ للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعاش في عرض النهار. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة «الفرقان». ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا﴾ أي: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤٤]، وقال الشاعر:

فَلَمَّا لَيْسَ مِنَ اللَّيْلِ، أو حين نَضَبَتْ له من خذا أذَانَهَا وهو جَائِحٌ وقال قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ يَاسَا﴾ أي: سكتاً. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْهَارَ مَعَاكَا﴾ أي: جعلناه مشرقاً مُمِيراً مَضِيئاً، لِيَتِمَّكَنَ النَّاسُ مِنَ النَّصْرِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وقوله: ﴿وَبَيَّنَّا لِقَوْمِكَ سَبَا سُبَادَا﴾ يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثابتة والسيارات؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَرَكَاتًا وَفَاكَا﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّابًا﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْمُعْصِرَاتُ﴾ الريح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: إنها الرياح. ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً، وأبو العالية، والضحاك، والحسن، والربيع بن أنس، والثوري. واختاره ابن جرير. وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلَّب بالمطر ولم تظمر بعد، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حضها ولم تحض. وعن الحسن، وقتادة: ﴿وَمِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ يعني: السموات. وهذا قول غريب. والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ فِيهَا سَبَابُ الْقِسْطِ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨] أي: من بينه. وقوله: ﴿مَاءً ثَمَّابًا﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿ثَمَّابًا﴾: منصباً. وقا الثوري: متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيراً. قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج: الصب المتتابع. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحج العج والثج». يعني: صب دماء البُدن. هكذا قال. قلت: وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنت لك الكرُسف» - يعني: أن تحتشي بالقطن - قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك، إنما أتج ثجاً. وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم. وقوله: ﴿يَخْرُجُ بِهِ حَبًا وَنَبَاكًا﴾ [١٥] وَجَعَلْنَا الْفَأَا [١٦] أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حَبًا﴾ يدخر للإناسي والأنعام، ﴿وَنَبَاكًا﴾ أي: خضراً يؤكل رطباً، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا الْفَأَا﴾ [١٦]. قال ابن عباس، وغيره: ﴿الْفَأَا﴾: مجتمعة. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجِرَاتٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَعْتَابٍ وَرِزْقٌ وَيَخِيلُ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ سَمِيٌّ يَمَلُّ وَيَمِيلُ وَيَقْبَلُ مَعْتَبًا عَلَيَّ بَعْضٌ فِي الْأَكْثَلِ﴾ الآية [الرعد: ١٤].

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَضَى كَانَ يَفْعَلُ﴾ [١٧] يَوْمَ يَفْعَلُ فِي الصُّورِ قَائُونَ أَنْوَابًا [١٨] وَوُجِّعَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا [١٩] وَوَسَّيَتْ لِلْجِبَالِ فُكَاكَةً سَرَابًا [٢٠] إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا [٢١] لِلظَّالِمِينَ نَبَاكًا [٢٢] لِيَبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا [٢٣] لَا يَذُرُونُ فِيهَا مَرْدًا وَلَا نَرًا وَلَا جَبَلًا وَمَشَاكًا [٢٤] جِرَاكًا وَفَاكًا [٢٥] إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا [٢٦] وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا [٢٧] وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا [٢٨] فَذُرُونَا فَأَنْزَلْنَاكُمْ إِلَّا عَذَابًا [٢٩].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزداد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، كما قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. ﴿يَوْمَ يَفْعَلُ فِي الصُّورِ قَائُونَ أَنْوَابًا﴾ [١٨] قال مجاهد: ذُمرأ. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال البخاري: ﴿يَوْمَ يَفْعَلُ فِي الصُّورِ قَائُونَ أَنْوَابًا﴾ [١٨]: حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفتختين أربعون». قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيت». قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت». قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت». قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبثون كما ينبث البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة». ﴿وَوُجِّعَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [١٩] أي: طرقاتاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿وَسَّيَتْ لِلْجِبَالِ فُكَاكَةً سَرَابًا﴾ [٢٠]، كقوله: ﴿وَوَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَرْمِي مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وكقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْفِيشِ﴾ [٩] [الغارة: ٥]. وقال ها هنا: ﴿فُكَاكَةً سَرَابًا﴾ أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿وَتَشْتَلُونَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا [١٥] فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [١٦] لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَابًا وَلَا أَمْثًا [١٧]﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِفُ السُّورَ لِلْجِبَالِ وَوَرَى الْأَرْضِ بَارُزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [٢١] أي: مرصدة مُعدَّة، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم: المردة العصاة المخالفون للرسول، ﴿نَبَاكًا﴾ أي: مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً. وقال الحسن، وقتادة في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [٢١] يعني: أن لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. وقال سفيان الثوري: عليها ثلاث قناطر. وقوله: ﴿لِيَبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [٢٣]

أي: ما كئيب فيها أحقاباً، وهي جمع «حُقب»، وهو المدة من الزمان. وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفیان الثوري، عن عمار الدهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحُقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا روي عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعمرو بن ميمون، والحسن، وقادة، والربيع بن أنس، والضحاك. وعن الحسن والسدي أيضاً: سبعون سنة كذلك. وعن عبد الله بن عمرو، الحُقب أربعون سنة، كل يوم منها كالف سنة مما تعدون رواهما ابن أبي حاتم.

وقال بشير بن كعب: ذكر لي أن الحُقب الواحد ثلاثمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمر بن علي بن أبي بكر الأصفهاني: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾، قال: فالحُقب ألف شهر، الشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحُقب ثلاثون ألف سنة. وهذا حديث منكر جداً، والقاسم والراوي عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك. وقال البزار: حدثنا محمد بن مرداس، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المعلّى قال: سألت سليمان التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ فقال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً». قال: والحُقب: بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون. ثم قال: سليمان بن مسلم بصري مشهور. وقال السدي: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾: سبعمائة حُقب، كل حُقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كالف سنة مما تعدون. وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَذُوْقُوا فَلَنْ نَّزِيْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٢٠﴾. وقال خالد بن معدان: هذه الآية وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۝١٧﴾ [هود: ٤١٧] في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير. ثم قال: يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾ متعلقاً بقوله: ﴿لَا يَذُوْقُونَ فِيْهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٠﴾، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما قال قادة والربيع بن أنس. وقد قال قبل ذلك: حدثني محمد بن عبد الرحيم البزفي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن زهير، عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحُقب سبعون سنة، كل يوم منها كالف سنة مما تعدون. وقال سعيد، عن قادة: قال الله تعالى: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾: وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضى حُقب جاء حُقب بعده، وذكر لنا أن الحُقب ثمانون سنة. وقال الربيع بن أنس: ﴿لَيَبِيْنُ فِيْهَا أَحْقَابًا ۝١٧﴾، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحُقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كالف سنة مما تعدون. رواهما أيضاً ابن جرير. وقوله: ﴿لَا يَذُوْقُونَ فِيْهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٠﴾ أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شرباً طيباً يتغذون به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا حَيْمًا وَسَسَاءًا ۝٢١﴾. قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس. فاما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه. والغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطيع من برده، ولا يواجه من ننته. وقد قدمنا الكلام على الغساق في سورة «ص» بما أغنى عن إعادته، أجازنا الله من ذلك، بمنه وكرمه. قال ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا يَذُوْقُونَ فِيْهَا بَرْدًا﴾ يعني: النوم، كما قال الكندي:

بَرَدَتْ مَرَاشِفَهَا عَلَيَّ فَصَدَنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا، الْبَرْدُ
يعني بالبرد: النعاس والنوم. هكذا ذكره ولم يعره إلى أحد. وقد رواه ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن مرة الطيب. ونقله عن مجاهد أيضاً. وحكاه البيهقي عن أبي غبيدة، والكسائي أيضاً. وقوله: ﴿جَزَاءً وَكَفَّارًا ۝٢١﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد، وقادة، وغير واحد. ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢١﴾ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وَكَذَبُوا بَيِّنَاتٍ كَذَابًا ۝٢٢﴾ أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالكذب والمعاندة. وقوله: ﴿كَذَابًا ۝٢٢﴾ أي: تكديباً، وهو مصدر من غير الفعل. قالوا: وقد سُمع أعرابي يستفتي الفراء على المروة: الحلق أحب إليك أو القصار؟ وأنشد بعضهم:

لَقَدْ طَالَ مَا نَبَطْتَنِي عَنْ صَحَابَتِي وَعَنْ حُجُجِ قَضَائِهَا مِنْ شَفَائِيَا
وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٢﴾ أي: وقد علمنا أعمال العباد كلها، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك،

إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَرِيَّكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣١﴾ أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، ﴿وَوَاحِشٌ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ﴾ ﴿٣٢﴾ [ص: ٥٨]. قال قتادة: عن أبي أيوب الأزدي، عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَرِيَّكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣١﴾. قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا جسر بن فرقد، عن الحسن قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار. قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَرِيَّكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣١﴾، فقال: «هلك القوم بمعاصيهم الله ﷻ».

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَنَّاتًا﴾ ﴿٣١﴾ حَذَائِقَ وَأَقْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاكِبَ آتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَأَكْشَابًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِمَّنْ رَبُّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾. يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والتعظيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَنَّاتًا﴾ ﴿٣١﴾. قال ابن عباس والضحاك: منتزهاً. وقال مجاهد، وقاتدة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر ما هنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَذَائِقَ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَقْنَابًا﴾ ﴿٣٢﴾ وَكَوَاكِبَ آتْرَابًا ﴿٣٣﴾ أي: حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَكَوَاكِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن تُدَيِّهَن نواهد لم يتدلين لأنهن أبقار عُرب آتراب، أي: في سن واحدة، كما تقدم بيانه في سورة «الواقعة». قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي، عن أبي سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكري، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة: أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ قُمْصَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَبْدُو مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمْرُ بِهِمْ فَتَنَادِيهِمْ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، مَاذَا تَرِيدُونَ أَنْ أَمْطَرَكُمْ؟ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَمَطْرَهُمُ الْكَوَاعِبُ الْآتْرَابُ». وقوله: ﴿وَأَكْشَابًا﴾ ﴿٣٤﴾، قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد، والحسن وقاتدة، وابن زيد: ﴿وَأَكْشَابًا﴾: الملاى المترعة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: هي المتتابعة. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ ﴿٣٥﴾، كقوله: ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمُ﴾ [الطور: ٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص. وقوله: ﴿جَزَاءً مِمَّنْ رَبُّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ ﴿٣٦﴾ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضلهم ومنه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً، تقول العرب: «أعطاني فأحسبني» أي: كفايني. ومنه «حسبي الله»، أي: الله كافي.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَلْعَلُكَ مِنْهُ جَنَابًا﴾ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِيَ لَّهُ الرِّجْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْقِيَامِ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَاذِبُ لِيَلْتَنِي كُتُّ رَبِّي ﴿٤٠﴾. يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء. وقوله: ﴿لَا يَلْعَلُكَ مِنْهُ جَنَابًا﴾ أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [مرد: ١٠٥]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، اختلف المفسرون في المراد بالروح هنا، ما هو؟ على أقوال: أحدها: رواه العوفي، عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم. قاله الحسن، وقاتدة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. الثالث: أنهم خلق من خلق الله، على صور بني آدم، وليس بملائكة ولا ببشر، وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جبيرة، والضحاك. ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب ﷻ، وصاحب الوحي. والخامس: أنه القرآن. قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]، والسادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾، قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا رواد بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: الروح: في السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفواً وحده، وهذا قول غريب جداً. وقد قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء، عن عبد الله بن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ مَلَكًا لَوْ قِيلَ لَهُ: التَّمَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ بِلِقْمَةٍ وَاحِدَةٍ، لَفَعَلَ، تَسْبِيحَهُ: سَبْحَانِكَ حَيْثُ كُنْتَ». وهذا حديث غريب جداً، وفي رفعه نظر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم.

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه - والله أعلم - أنهم بنو آدم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْرَكَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، كقوله: ﴿لَا تَكْفُرْ إِلَّا بِالْإِثْمِ﴾ [هود: ١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل». وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حقاً، ومن الحق: «لا إله إلا الله»، كما قاله أبو صالح، وعكرمة. وقوله: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة، ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ [٣٩] أي: مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آتٍ. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيراً وشرها، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكقوله: ﴿يَبْيُخِّرُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمٍ وَأَخَّرُ﴾ [١٣]. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [١٠] أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلقاً، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطرت عليه بأيدي الملائكة السُّفرة الكرام البررة. وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب. وقد ورد معنى هذا في حديث الضور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما.

آخر تفسير سورة «عم»



تفسير سورة النازعات

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا ۝١ وَالنَّشِيطَاتُ تَشَمَّا ۝٢ وَالسَّيِّحَاتُ سَبَّحًا ۝٣ فَالْمُنِيرَاتُ سَبَّحًا ۝٤ فَالْمُنِيرَاتُ سَبَّحًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُنَّ الرَّاادِفَةَ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَنْصَبَتْهَا حَنِينَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ رُحَدًا ۝١٠ أَوَلَمْ نَكُنْ عَظْمًا حَاشِرَةً ۝١١ قَالُوا يَا لَيْتَنَا كُنَّا كَمَا كُنَّا حَاشِرَةً ۝١٢﴾

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبيرة، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسدي: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا ۝١﴾: الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكانما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ تَشَمَّا ۝٢﴾، قاله ابن عباس. وعن ابن عباس: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ﴾: هي أنفس الكفار، تُنزع ثم تُنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا ۝١﴾: الموت. وقال الحسن، وقناة: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا ۝١﴾ وَالنَّشِيطَاتُ تَشَمَّا ۝٢﴾: هي النجوم. وأما قوله: ﴿وَالسَّيِّحَاتُ سَبَّحًا ۝٣﴾، فقال ابن مسعود: هي الملائكة. وزوي عن علي، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي صالح مثل ذلك. وعن مجاهد: ﴿وَالسَّيِّحَاتُ سَبَّحًا ۝٣﴾: الموت. وقال قناة: هي النجوم. وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن. وقوله: ﴿فَالْمُنِيرَاتُ سَبَّحًا ۝٤﴾: روي عن علي، ومسروق، ومجاهد، وأبي صالح، والحسن البصري: يعني الملائكة؛ قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به. وعن مجاهد: الموت. وقال قناة: هي النجوم. وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله. وقوله: ﴿فَالْمُنِيرَاتُ سَبَّحًا ۝٤﴾، قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقناة، والربيع بن أنس، والسدي: هي الملائكة - زاد الحسن -: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعني: بأمر ربها ﷻ. ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه حكى في ﴿فَالْمُنِيرَاتُ سَبَّحًا ۝٤﴾: أنها الملائكة، ولا أثبت ولا نفى. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ۝٥﴾ تَتَّبِعُنَّ الرَّاادِفَةَ ۝٦﴾، قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقناة، والضحاك، وغير واحد. وعن مجاهد: أما الأولى - وهي قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ۝٥﴾ - فكقوله جلّت عظمتها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [الزلزل: ١٤]، والثانية - وهي الرادفة - فهي كقوله: ﴿وَجُمَلِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَكُنَّا دَكَّةً وَجِدَّةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك». وقد رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سفيان الثوري، بإسناده مثله، ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». وقوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾ (٨): قال ابن عباس: يعني خائفة. وكذا قال مجاهد، وقتادة. ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩): أي: أبصار أصحابها. وإنما أضيف إليها؛ للملابسة، أي: ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال. وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَنَرُدُّوكَ فِي لَقَابِوَةٍ﴾ (١٠): يعني: مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي القبور، قاله مجاهد. وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوْنَا كُنَّا عَطَلًا جَحْرَةً﴾ (١١):؟ وقرئ: «ناخرة». وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: أي بالية. قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه. ﴿فَأَلَا يَأْتِكُ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢). وعن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والسدي، وقتادة: الحافرة: الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد: الحافرة: النار. وما أكثر أسماءها! هي النار، والجحيم، وسقر، وجهنم، والهاوية، والحافرة، ولظى، والحطمة. وأما قولهم: ﴿يَأْتِكُ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، فقال محمد بن كعب: قالت قريش؛ لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ (١٤) أي: فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب ﷻ ينظرون، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥١) [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٧) [القمع: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. قال مجاهد: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ (١٣): صيحة واحدة. وقال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب غضباً على خلقه يوم يبعثهم. وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب. وقال أبو مالك، والربيع بن أنس: زجرة واحدة: هي النفخة الآخرة. وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ﴾ (١٤)، قال ابن عباس: ﴿بِالنَّارِ﴾: الأرض كلها. وكذا قال سعيد بن جبير، وقتادة، وأبو صالح. وقال عكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد: ﴿بِالنَّارِ﴾: وجه الأرض. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها. قال: و﴿بِالنَّارِ﴾: المكان المستوي. وقال الشوري: ﴿بِالنَّارِ﴾: أرض الشام، وقال عثمان بن أبي العاتكة: ﴿بِالنَّارِ﴾: أرض بيت المقدس. وقال وهب بن منبه: ﴿بِالنَّارِ﴾: جبل إلى جانب بيت المقدس. وقال قتادة أيضاً: ﴿بِالنَّارِ﴾: جهنم. وهذه أقوال كلها غريبة، والصحيح أنها الأرض ووجهها الأعلى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا خزر بن المبارك الشيخ الصالح، حدثنا بشر بن السري، حدثنا مصعب بن ثابت، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ﴾ (١٤) قال: أرض بيضاء عفراء كالخُبزة النقي. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ﴾ (١٤)، يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عِبْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوتَ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَجِيدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) [إبراهيم: ٤٨]، ويقول: ﴿وَسَوَّلُونَكَ عَنِ لَيْسَالٍ فَقُلْ بَسْفَهَا رَقِي سَفَا﴾ (١٥) فَيَدْرَاهَا قَالَا صَفْصَفًا (١٦) لَا تَرَى فِيهَا عِصْمًا وَلَا أَمْتًا (١٧) [طه: ١٠٥، ١٠٧]. وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ السَّيَالِ لَيْسَالًا وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وبرزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يهراق عليها دم.

﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَهَبْتَ لِي رِبْعُونَ إِنَّمَا لِي مِنَ نَبِيِّكَ إِكْرَامٌ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكَبِيرٍ (١٧) فَكَذَّبَ وَعَصَى (١٨) ثُمَّ أَذْرَبْتَنِي (١٩) فَتَحَنَّنَ فَادَّى (٢٠) فَقَالَ تَا رَبُّكُمْ أَنجَلِي (٢١) فَتَلَّهَ اللَّهُ كَالْأَكْبَرِ وَالْأَكْبَرُ (٢٢) إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَن يَحْتَسِبُ (٢٣).

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَن يَحْتَسِبُ﴾. فقوله: ﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ مُوسَى﴾ (١٥): أي: هل سمعت بخبره؟ ﴿إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ﴾: أي: كلمه نداءً، ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي: المطهر، ﴿طُوًى﴾: وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة «طه». فقال له: ﴿أَهَبْتَ لِي رِبْعُونَ إِنَّمَا لِي مِنَ نَبِيِّكَ إِكْرَامٌ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَحْتَسِبُ﴾ (١٧) أي: تجبر وتمرد وعتا، ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكُبُ﴾؟ (١٨) أي: قل له: هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكئ به، أي: تسلم وتطيع. ﴿وَأَمَّا إِلَهُكَ يَا رَبِّكَ﴾: أي: أدلك إلى عبادة ربك، ﴿فَتَحَنَّنَ﴾: أي: فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكَبِيرَةَ﴾ (١٩) يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً

مفطع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةَ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [الفر: ٤٦]. ﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ ﴿٣٥﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال: ﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الفجر: ٢٣]. ﴿وَيُرْتَبِئُ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: أظهرت للنظرين فرأها الناس عياناً، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: تمزّد وعتا، ﴿وَأَرَادَ لِقَايَةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخرها، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم، وإن مطعمه من الرقوم، ومشربه من الحميم. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردّها إلى طاعة مولاهما ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٤١﴾ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء. ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاهَا ﴿٤٤﴾ أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردّها ومرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُنَّ إِلَّا بِنُورٍ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَوْرٌ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال ها هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مُنْهَاهَا﴾ ﴿٤٤﴾. ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِمَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذّره من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُّهَا لَرَّ يَلْتَسُوا إِلَّا غِشِيَةً أَوْ ضَحُوتًا﴾ ﴿٤٦﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم. قال جُوَيْر، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُّهَا لَرَّ يَلْتَسُوا إِلَّا غِشِيَةً أَوْ ضَحُوتًا﴾ ﴿٤٦﴾، أما عشيّة: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضَحُوتًا﴾: ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة «النازعات» والله الحمد والمنة



تفسير سورة عبس

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَمَ يَبْزُقُ ﴿٣﴾ أَوْ يُدْرِكُ فَتَنَعَمَ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَا مَنِ اسْتَقْبَلَ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبُكُ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَحْفَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْوَعُهُ مَطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ يُأْتِيهِ سَفَرًا ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديماً - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلج عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليطمئن ذلك الرجل، طمعاً ورغبة في هدايته. وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَمَ يَبْزُقُ ﴿٣﴾؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أَوْ يُدْرِكُ فَتَنَعَمَ الذِّكْرَىٰ﴾ ﴿٤﴾؟ أي: يحصل له اتعاط وانزجار عن المحارم، ﴿أَمَا مَنِ اسْتَقْبَلَ﴾ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ﴿٦﴾؟ أي: أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبُكُ﴾ ﴿٧﴾؟ أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة. ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَحْفَىٰ ﴿٩﴾؟ أي: يقصدك ويومك ليهتدي بما تقول له، ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ ﴿١٠﴾؟ أي: تتشاغل. ومن ها هنا أمر الله ﷻ رسول ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. قال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد - هو ابن مهدي - حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١﴾، جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء - يعني ابن أم مكتوم - وقال أبو يعلى وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثني أبي، عن هشام بن عروة مما

عرضه عليه عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟». فيقول: لا. ففي هذا أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١).

وقد روى الترمذي هذا الحديث، عن سعيد بن يحيى الأموي، بإسناده، مثله، ثم قال: وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة. قلت: كذلك هو في الموطأ. ثم روى ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَن جَاءَهُ الْأَحْمَى (٢)، قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب - وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا - فأقبل إليه رجل أعمى - يقال له عبد الله بن أم مكتوم - يمشي وهو يناجيه، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وعبس في وجهه، وتولى وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ يتقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَن جَاءَهُ الْأَحْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ يُبْرَأُ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤). فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبي ﷺ: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة في شيء؟». وذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ آلَ بَرَكَةٍ (٧)﴾. فيه غرابة ونكارة، وقد تكلّم في إسناده.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس، عن ابن شهاب قال: قال سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم». وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَن جَاءَهُ الْأَحْمَى (٢)، وكان يؤذن مع بلال. قال سالم: وكان رجلاً ضريب البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس - حين ينظرون إلى بزوغ الفجر -: أذن. وهكذا ذكر عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبو مالك، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم. والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو. والله أعلم. وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من شريفهم وضعيفهم. وقال قتادة والسدي: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ يعني: القرآن، ﴿فَنَسَاءٌ ذَكَّرُوا (١٢)﴾ أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره. ويحتمل عود الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿فِي مُحْضٍ تُكْرِمُهُ (١٣) تَرْوَعُهُ مُطَهَّرَةٌ (١٤)﴾ أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن: ﴿فِي مُحْضٍ تُكْرِمُهُ (١٣)﴾ أي: معظمة موقرة ﴿تَرْوَعُهُ (١٤)﴾ أي: عالية القدر، ﴿مُطَهَّرَةٌ (١٤)﴾ أي: من الدنس والزيادة والنقص. وقوله: ﴿يَأْيُؤِي سَرَّةَ (١٥)﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: السفارة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفارة الملائكة، والسفارة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدعُ السفَارةَ بين قُومِي وما أنشِي بغش إن مشيئ

وقال البخاري: سفرة: الملائكة. سفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم. وقوله: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. ومن ها هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا هشام، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران». أخرجه الجماعة من طريق قتادة، به.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْذَرُ (٧) مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ (٨) بَيْنَ تَلَفَعٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (١٠) ثُمَّ أَمَّا نَحْنُ فَأَقْدَرَهُ (١١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١٢) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَفْضَ مَا أَمَرَهُ (١٣) لَنَنْظُرَنَّ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ (١٤) إِنَّا مَبْنِئَاتُ اللَّهِ مِنَّا (١٥) ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (١٦) فَأَبْنَا فِيهَا جِبًّا (١٧) وَعَبًّا وَقَفًّا (١٨) وَزَيَّنَّاهَا رِجَالًا (١٩) وَنَسَاءً عَلَا (٢٠) وَفَكَّهُمْ وَأَنَا (٢١) مَنَّامًا لَكُمُ وَالْعَمَلِكُ (٢٢)﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْزَرُ (٧)﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾: لعن الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم

العلم. قال ابن جرير: ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾: ما أشد كفره! وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً؟ أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة - وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي -: ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾: ما لعنه. ثم بين تعالى له كيف خلقه الله من الشيء الحقيق، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال: ﴿مِنْ أَيْ قَوْمٍ خَلَقَهُ ۗ ﴿١٨﴾ مِنْ نَفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۗ ﴿١٩﴾﴾ أي: قدر أجله ووزقه وعمله وشقي أو سعيد. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۗ ﴿٢٠﴾﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقاتدة، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۗ ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: ٢٣] أي: بينا له ووضحناه وسهلنا عليه علمه، وهكذا قال الحسن، وابن زيد. وهذا هو الأرجح، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ۗ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إنه بعد خلقه له ﴿أَنَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: جعله ذا قبر. والعرب تقول: «قبرت الرجل»: إذا ولى ذلك منه، وأقبره الله. وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وبرتت ذنب البعير وأبرتته الله. وطردت عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً، قال الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَخْرِهَا عَاشَ، وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۗ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِمْ أَنْ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ
بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۗ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْوُطَّارِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ تَكْسُوهَا كَعَسَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقال ابن أبي
حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أصبغ بن الفرج، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمح أخبره، عن أبي
الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «ياكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟
قال: «مثل حبة خردل منه ينشؤون». وهذا الحديث ثابت في الصحيح من رواية الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة،
بدون هذه الزيادة، ولغظه: «كل ابن آدم يتللى إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب». وقوله: ﴿كَلَّا لَنَا قَبْرٌ مَّا أَنشَرَهُ ۗ ﴿٢٣﴾﴾، قال
ابن جرير: يقول: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَنَا قَبْرٌ مَّا أَنشَرَهُ﴾
يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه ﷻ. ثم روى - هو وابن أبي حاتم - من طريق ابن أبي نجیح، عن مجاهد قوله:
﴿كَلَّا لَنَا قَبْرٌ مَّا أَنشَرَهُ ۗ ﴿٢٣﴾﴾ قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه. وحكاه البغوي، عن الحسن البصري، بنحو من هذا.
ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۗ ﴿٢٣﴾﴾ أي:
بعثه، ﴿كَلَّا لَنَا قَبْرٌ مَّا أَنشَرَهُ ۗ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد
منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا، فإذا تهاهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم. وقد
روى ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه قال: قال غزير، عليه السلام: قال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطن الأرض،
وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق، وتمت هذه القبور التي مَدَّ الله لها، انقطعت الدنيا ومات من عليها،
ولفظت الأرض ما في جوفها، وأخرجت القبور ما فيها، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية، والله - سبحانه وتعالى - أعلم
بالصواب. وقال: ﴿فَنَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۗ ﴿٢٤﴾﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء
الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أَنَا سَيِّدُ الْكَلَمِ مَسَا ۗ ﴿٢٥﴾﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ
شَقًّا ۗ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أسكناه فيها فدخل في نُحُومِهَا وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض،
﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۗ ﴿٢٧﴾ وَنَبَاتًا وَغَنًّا ۗ ﴿٢٨﴾﴾، فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والغب معروف، والقضب هو: الفصفاة التي تأكلها
الدواب رطبة. ويقال لها: القث أيضاً. قال ذلك ابن عباس، وقاتدة، والضحاك، والسدي. وقال الحسن البصري: القضب:
العلف. ﴿وَرَبْوَاتًا ۗ ﴿٢٩﴾﴾ وهو معروف، وهو آدم وعصيره آدم، ويستصبح به، ويدهن به. ﴿وَتَحْلًا ۗ ﴿٣٠﴾﴾ يؤكل بلحاً، وبسراً، ورطباً،
وتمرًا، ونبثًا، ومطبوخًا، ويعتصر منه رُبُّ وِخْلٍ. ﴿وَسَدَائِقَ غَلًّا ۗ ﴿٣١﴾﴾ أي: بساتين. قال الحسن، وقاتدة: ﴿غَلًّا﴾: نخل غلاظ
كرام. وقال ابن عباس، ومجاهد: «الحدائق»: كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿غَلًّا﴾: الشجر الذي يستظل به.
وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَسَدَائِقَ غَلًّا ۗ ﴿٣١﴾﴾ أي: طوال. وقال عكرمة: ﴿غَلًّا﴾ أي: غلاظ الأوساط. وفي
رواية: غلاظ الرقاب، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبي حاتم، وأنشد ابن جرير
للفرزدق:

عوى فائزاً أغلبَ ضيئماً
فويل ابن المراغة ما استشار
وقوله: ﴿وَفَكَّهُمْ وَأَنَا ۗ ﴿٣٢﴾﴾: أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الشمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطباً. والأب: ما

أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس - وفي رواية عنه -: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب: الكلال. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفأكة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفأكة فهو أب. وقال ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس: الأب: نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ورواه ابن جرير من ثلاث طرق، عن ابن إدريس، ثم قال: حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك، عن سعيد بن جبير قال: عد ابن عباس وقال: الأب: ما أنبتت الأرض للأنعام. هذا لفظ أبي كريب، وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلال والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ ﴿٣٣﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق. فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿بَسَّ وَوَكَّأَ﴾ ﴿٣٤﴾، فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ ﴿٣٣﴾ قال: عرفنا ما الفأكة، فما الأب؟ فقال: لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف. فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَبَّئْنَا بِهَا بَاءً﴾ ﴿٣٧﴾ وَبَاءً وَقَبَّأً ﴿٣٨﴾ وَرَبْوَانًا وَقَلَّأً ﴿٣٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلًّا ﴿٤٠﴾ وَفَكَهَةً وَأَبًا ﴿٣٣﴾. وقوله: ﴿كُنَّمَا لَكُمْ وَلَا تَمَيَّزُ﴾ ﴿٣٣﴾ أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿إِذَا جَاءَ السَّاعَةَ﴾ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَغْرُ الزَّهْرُ مِنْ أَجْوِهِ ﴿٣٤﴾ وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾ وَصَحَابِهِمْ وَبَيْنِهِمْ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ شَاءً يُنْبِئُهُ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يُؤْمِنُ وَجُوهٌ يُؤْمِنُ ﴿٣٨﴾ سَاجِدَةٌ تُسَبِّحُ ﴿٣٩﴾ وَرُؤُوسٌ يُؤْمِنُ عَلَيَا عِبْرَةً ﴿٤٠﴾ تَرْعَفُهَا قَدْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾.

قال ابن عباس: ﴿السَّاعَةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده. قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: ﴿السَّاعَةُ﴾: يعني صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي: تبلغ في إسماعها حتى تكاد تُصمها. ﴿يَوْمَ يَغْرُ الزَّهْرُ مِنْ أَجْوِهِ﴾ ﴿٣٤﴾ وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾ وَصَحَابِهِمْ وَبَيْنِهِمْ ﴿٣٦﴾ أي: يراهم، ويفر منهم، ويتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل. قال عكرمة، يلقي الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت! وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهينها لي لعلني أنجو مما ترين. فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني بخير. فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْرُ الزَّهْرُ مِنْ أَجْوِهِ﴾ ﴿٣٤﴾ وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾ وَصَحَابِهِمْ وَبَيْنِهِمْ ﴿٣٦﴾. وفي الحديث الصحيح - في أمر الشفاعة -: أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلاق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتها. ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْرُ الزَّهْرُ مِنْ أَجْوِهِ﴾ ﴿٣٤﴾ وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾ وَصَحَابِهِمْ وَبَيْنِهِمْ ﴿٣٦﴾. قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم. وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ شَاءً يُنْبِئُهُ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: في شغل شاغل عن غيره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا الوليد بن صالح، حدثنا ثابت أبو زيد العباداني، عن هلال بن خباب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً». قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ شَاءً يُنْبِئُهُ﴾ ﴿٣٧﴾. أو قال: «ما أشغله عن النظر». وقد رواه النسائي منفرداً به، عن أبي داود، عن عارم، عن ثابت بن يزيد - وهو أبو زيد الأحول البصري، أحد الثقات - عن هلال بن خباب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. وقد رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن ثابت بن يزيد، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً». فقالت امرأة: أيبصر - أو: يرى - بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة»، ﴿لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ شَاءً يُنْبِئُهُ﴾ ﴿٣٧﴾. ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن ابن عباس، رضي الله عنه. وقال النسائي: أخبرني عمرو بن عثمان، حدثنا بقبية، حدثنا الزبيدي، أخبرني الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً». فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال: «لِكُلِّ أُمَّرِي يَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ شَاءً يُنْبِئُهُ﴾ ﴿٣٧﴾. انفرد به النسائي من هذا الوجه.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أزهر بن حاتم، حدثنا الفضل بن موسى، عن عائذ بن شريح، عن أنس بن مالك قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني سألنك عن حديث فتخبرني أنت به. فقال: «إن كان عندي منه علم». قالت: يا نبي الله، كيف يُحشر الرجال؟ قال: «حفاة عراة». ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله، كيف يحشر النساء؟ قال: «كذلك حفاة عراة». قالت: واسواته من يوم القيامة؟ قال: «وعن أي ذلك تسألين؟ إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون». قالت: آية آية هي يا نبي الله؟ قال: «﴿لِكُلِّ أُنثَىٰ يَتِيمٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهَا﴾». وقال البغوي في تفسيره: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا الحسين بن عبد الله، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن عبد العزيز، حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا أبي، عن محمد بن أبي عياش، عن عطاء بن يسار، عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الأذان». فقلت: يا رسول الله، واسواته ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شغل الناس، ﴿لِكُلِّ أُنثَىٰ يَتِيمٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهَا﴾». هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروزي، عن الفضل بن موسى، به. ولكن قال أبو حاتم الرازي: عائذ بن شريح ضعيف، في حديثه ضعف. وقوله: «﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرَةٌ﴾ (٢٨) حَايِكَةٌ تُنْتَبِرَةٌ﴾ (٢٩) أي: يكون الناس هنالك فريقين: ﴿﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرَةٌ﴾ (٢٨) أي: مستنيرة، ﴿حَايِكَةٌ تُنْتَبِرَةٌ﴾ (٢٩) أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة. ﴿﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّا غَيْرَةٌ﴾ (٣٠) تَرْفَعُهَا قَدْرَةٌ﴾ (٣١) أي: يعلوها ويغشاها قنطرة، أي: سواد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن عثمان العسكري، حدثنا أبو علي محمد مولى جعفر بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم». قال: فهو قوله: ﴿﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّا غَيْرَةٌ﴾ (٣٠)». وقال ابن عباس: «﴿تَرْفَعُهَا قَدْرَةٌ﴾ (٣١) أي: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْغَيْرَةُ﴾ (٣٢)﴾ أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِهًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

آخر تفسير سورة «عبس» والله الحمد والمنة



تفسير سورة التكوير

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص: أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره: أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)»، و﴿إِذَا النُّجُومُ انْفَطَرَتْ﴾ (٢)»، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَقَتْ﴾ (٣)». وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم العنبري، عن عبد الرزاق، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُحِّتْ (٨) بَاطِي دُونِ قِيلَتْ (٩) وَإِذَا الشُّعُفُ بُرِّتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ (١٤)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾ يعني: أظلمت. وقال العوفي، عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلّت وذهبت. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبیر: ﴿﴿كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾: غُورَتْ. وقال الربيع بن خثيم: ﴿﴿كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾ يعني: رمي بها. وقال أبو صالح: ﴿﴿كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾: ألقيت. وعنه أيضاً: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفها على الرأس، وتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿﴿كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن مجاهد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس: ﴿﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)﴾ قال: يكور الله الشمس والقمر

والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ربحاً دبوراً فتضرمها ناراً. وكذا قال عامر الشعبي. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ابن يزيد بن أبي مريم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال في قول الله: ﴿إِذَا انشَرَّتْ كُوْرَتٌ﴾، قال: «كورت في جهنم». وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن محمد بن حيّان، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد، حدثنا يزيد الرقاشي، حدثنا أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار». هذا حديث ضعيف؛ لأن يزيد الرقاشي ضعيف، والذي رواه البخاري في الصحيح بدون هذه الزيادة، ثم قال البخاري: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الدانا، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة». انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب «بدء الخلق»، وكان جديراً أن يذكره ها هنا أو يكرره، كما هي عادته في أمثاله! وقد رواه البزار فجود إرياده فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الدانا: قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد - مسجد الكوفة - وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة». فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: أحسبه قال: وما ذنبهما. ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الدانا عن أبي سلمة سوى هذا الحديث. وقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَرَّتْ﴾ (٢) أي: انتشرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَرَتْ﴾ (الانفطار: ٢)، وأصل الانكدار: الانصباب. قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تانثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحررت واضطربت واختلطت، ففرغت الجن إلى الإنس وإلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٣) قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا الْبِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) قال: أهملها أهلها، ﴿وَإِذَا الْآيَا سُجِرَتْ﴾ (٥) قال: قالت الجن: نحن نأتكم بالخبر. قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتهم. رواه ابن جرير - وهذا لفظه - وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثيم، والحسن البصري، وأبو صالح، وحماد بن أبي سليمان، والضحاك في قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَرَّتْ﴾ (٦) أي: تانثرت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَرَّتْ﴾ (٧) أي: تغيرت. وقال يزيد بن أبي مريم عن النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَرَّتْ﴾ (٨) قال: «انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يُعبدا لخدلاها». رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المتقدم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٩) أي: زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعاً صافصفاً. وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (١٠) قال عكرمة، ومجاهد، عشار الإبل. قال مجاهد: ﴿عُطِّلَتْ﴾: تركت وسُيِّت. وقال أبي بن كعب، والضحاك: أهملها أهلها. وقال الربيع بن خُثيم: لم تحلب ولم تُصَرَّ، تحلى منها أربابها. وقال الضحاك: تركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل - وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحداها: عُشراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم المُنْفِطِح الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها. وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها. وقد قيل في العشار: إنها السحاب يُعْطَل عن المسير بين السماء والأرض، لخراب الدنيا. وقد قيل: إنها الأرض التي تُعْشَر. وقيل: إنها الديار التي كانت تسكن تُعْطَل لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه «التذكرة»، ورجح أنها الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (١١) أي: جمعت. كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِثْنَاكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ لَّكَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَنْفُسُ﴾ (الأنعام: ٣٨). قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم. وكذا قال الربيع بن خُثيم والسدي، وغير واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافقة فيقضي الله فيها ما يشاء. وقال عكرمة: حشرها: موتها.

وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا عباد بن العوام، أخبرنا حُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (١٢) قال: حشرُ البهائم: موتها، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوفقان يوم القيامة.

حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝١﴾ قال: أتى عليها أمر الله. قال سفيان: قال أبي: فذكرته لعكرمة، فقال: قال ابن عباس: حشرها: موتها. وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝١﴾: اختلطت. قال ابن جرير: والأولى قول من قال: ﴿حُشِرَتْ﴾: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورٌ ۝١٩﴾ [ص: ١٩]، أي مجموعة. وقوله: ﴿وَإِذَا الْيَمَامُ سُحِرَتْ ۝٢﴾، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن غلبية، عن داود، عن سعيد بن المسيب قال: قال علي، رضي الله عنه، لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقاً ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ [الطور: ٢٦]، ﴿وَإِذَا الْيَمَامُ سُحِرَتْ ۝٢﴾ مُحَقَّقَةٌ. وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدبور فتسعرها، وتصير ناراً تاجح، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ ۝٢﴾. وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو طاهر، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط - شيخ صالح يُشَبَّهُ مالِك بن أنس - عن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة - يعني بحر الرُّوم - وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر. وهذا أثر غريب عجيب. وفي سنن أبي داود: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» الحديث، وقد تقدم الكلام عليه في سورة «فاطر». وقال مجاهد، والحسن بن مسلم: ﴿سُحِرَتْ﴾: أوقدت. وقال الحسن: بيست. وقال الضحاك، وقتادة: غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضاً: ﴿سُحِرَتْ﴾ فجرت. وقال السدي: فنحت وسيرت. وقال الربيع بن خثيم: ﴿سُحِرَتْ﴾: فاضت. وقوله: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ كَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ فَأَمْسَحُكُمُ الْيَمِينَةَ مِمَّا أَمْسَحُكُمُ الْيَسِينَةَ ۝٨ وَأَمْسَحُكُمُ الْمَشْأَمَةَ مِمَّا أَمْسَحُكُمُ الْمَشْأَمُونَ ۝٩ وَالْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ ۝١٠﴾ [الروافعة: ٧-١٠]، قال: هم الضرباء. ثم رواه ابن أبي حاتم من طرق آخر، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير أن عمر خطب الناس فقرأ: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ فقال: تزوجها: أن تولف كل شيعة إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار. وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ كَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ ۝٣﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال ابن نجيب، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير، وهو الصحيح. قول آخر في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن سوار، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً، فینبت منه كل خلق بلى، من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم ما قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض. قد نبثوا، ثم تُرسل الأرواح فتزوج الأجساد، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُفُوشُ رُويَتْ ۝٣﴾ أي: زوجت بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنون بالحوار العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة». وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُحِرَتْ ۝٤﴾، ﴿يَأْتِي ذَنْبُ قَيْلَتٍ ۝٤﴾، هكذا قراءة الجمهور: ﴿سُحِرَتْ﴾. والمؤودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل المؤودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟! وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُحِرَتْ ۝٤﴾ أي: سألت. وكذا قال أبو الضحى: «سألت» أي: طلبت بدمها. وعن السدي، وقتادة، مثله. وقد وردت أحاديث تتعلق بالمؤودة، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو الأسود - وهو: محمد بن عبد الرحمن بن نوفل - عن عروة، عن عائشة، عن جدامة بنت وهب - أخت عكاشة - قالت حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهي عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً». ثم سأله عن العزل، فقال

رسول الله ﷺ: «ذلك الواد الخفي، وهو الموودة سئلت». ورواه مسلم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ - وهو عبد الله بن يزيد - عن سعيد بن أبي أيوب. ورواه أيضاً ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن إسحاق السليحيني، عن يحيى بن أيوب. ورواه مسلم أيضاً وأبو داود والترمذي، والنسائي، من حديث مالك بن أنس، ثلاثهم عن أبي الأسود، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقري الضيف، وتفعل وتفعل هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا». قلنا: فإنها كانت وأدت أختنا لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموودة في النار، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام، فيعفو الله عنها». ورواه النسائي، من حديث داود بن أبي هند، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن علقمة وأبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار». وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق الأزرق، أخبرنا عوف، حدثني حسناء ابنة معاوية الصُرَيْمِيَّة، عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموودة في الجنة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «الموودة في الجنة». هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن، ومنهم من قبله. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٨). قال ابن عباس: هي المدفونة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٨)، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة». قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل؟ قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

قال الحافظ أبو بكر البزار: خولف فيه عبد الرزاق، ولم نكتبه إلا عن الحسين بن مهدي، عنه. وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: أخبرنا أبو عبد الله الظهراني - فيما كتب إلي - قال: حدثنا عبد الرزاق... فذكره بإسناده مثله، إلا أنه قال: «وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية». وقال في آخره: «فأهد إن شئت عن كل واحدة بدنة». ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا قيس بن الربيع، عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حصين قال: قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية - أو: ثلاث عشرة - قال: «أعتق عددهن نسماً». قال: فأعتق عددهن نسماً، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين. قال علي بن أبي طالب: فكنا نريحها، ونسميها القيسية. وقوله: ﴿وَإِذَا الضُّحَاكُ شُرِّتَ﴾ (١٣). قال الضحاك: أعطى كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله. وقال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم، تُملَى فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملئ في صحيفته. وقوله: ﴿وَإِذَا النَّمَاءُ كُطِبَتْ﴾ (١١). قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: ﴿وَإِذَا النِّجْمُ سَعِرَتْ﴾ (١٧). قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِنَّةُ أُرْلِفَتْ﴾ (١٢). قال الضحاك، وأبو مالك، وقرينة، والربيع بن خثيم أي: قربت إلى أهلها. وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤)، هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ لَّوْ لَأَنَّ بَيْنَهُمَا يَدَيْنَا مَذْمُومًا بَعِيدًا﴾ (١٣٠). وقال تعالى: ﴿يَبْقَاؤُا الْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ مَّا قَدَّمْ وَأَخَّرَ﴾ (١٣). [القيامة: ١٣]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا محمد بن مطرف: عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١٨)، قال عمر: لما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤) قال: لهذا أجري الحديث.

﴿لَا أَقِيمُ بِالْحَنَسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَسِ (١١) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ضُلَّاعٌ ثُمَّ أُمِينٌ (٢١) وَمَا سَاجِدُكُمُ يَسْجُودُونَ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْتَأَمِينَ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَائِعِينَ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٢٥) قَاتِنٌ تَدْهُوُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيبَ (٢٨) وَمَا نُنكَرُوهُ إِلَّا أَنْ يَسْئَلَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

روى مسلم في صحيحه، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية، من حديث مسعر بن كدام، عن الوليد بن سريع، عن عمرو بن حُرَيْث قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعتة يقرأ: ﴿لَا أَقِيمُ بِالْحَنَسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَسِ (١١) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا

تَنَسَّ (١٧) ﴿١٧﴾. ورواه النسائي عن بندار، عن عُثْدِر، عن شعبة، عن الحجاج بن عاصم، عن أبي الأسود، عن عمرو بن حُرَيْث، به نحوه. قال ابن أبي حاتم وابن جرير، من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن رجل من مراد، عن علي: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾ قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت خالد بن عرعة، سمعت علياً وسئل عن: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾ فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار وتكنس بالليل. وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن خالد، عن علي قال: هي النجوم. وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعة، وهو السهمي الكوفي، قال أبو حاتم الرازي: روى عن علي، وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيباني. ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، والله أعلم. وروى يونس، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: أنها النجوم. رواه ابن أبي حاتم. وكذا رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم: أنها النجوم. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هُوَذة بن خليفة، حدثنا عوف، عن بكر بن عبد الله في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾ قال: هي النجوم الدراري، التي تجري تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: «الخنس»، أي: في حال طلوعها، ثم هي جوار في فللكها، وفي حال غيوبتها يقال لها: «كُنُس» من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسة: إذا تغيب فيه. وقال الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥)﴾ قال: بقر الوحش. وكذا قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسرة، عن عبد الله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾، ما هي يا عمرو؟ قلت: البقر. قال: وأنا أرى ذلك. وكذا روى يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه.

وقال أبو داود الطيالسي، عن عمرو، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾ قال: البقر الوحش تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضاً، ومجاهد، والضحاك. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم ومجاهد: أنها تذكرا هذه الآية: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾، فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها بما سمعت. قال: فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئاً، وناس يقولون: إنها النجوم. قال: فقال إبراهيم: قل فيها بما سمعت. قال: فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرَتِهَا. قال: فقال إبراهيم: إنهم يكذبون على علي، هذا كما روى عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى، والأسفل الأسفل. وتوقف ابن جرير في قوله: ﴿بِالْحَقِّينِ الْجَوَارِ الْكَثِيرِ (١٦)﴾، هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً. وقوله: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَمَسَ (١٧)﴾، فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبيرة: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس. وكذا قال عطية العوفي. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس: ﴿إِذَا عَسَمَسَ﴾: إذا أدبر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿إِذَا عَسَمَسَ﴾ أي: إذا ذهب فتولى. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البُخْتَرِيِّ، سمع أبا عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي، رضي الله عنه، حين ثوب المثوب بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن التوت: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَمَسَ (١٧)﴾ وَأَلْضِجُ إِذَا تَنَسَّ (١٨)؟ هذا حين أدبر حسن. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَمَسَ﴾: إذا أدبر. قال لقوله: ﴿وَأَلْضِجُ إِذَا تَنَسَّ (١٨)﴾ أي: أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضاً:

حَتَّى إِذَا الضُّبُجُ لَهُ تَنَسَّسَا وانجاب عنها ليلها وعسسا
أي: أدبر. وعندني أن المراد بقوله: ﴿عَسَمَسَ﴾: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال ها هنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياؤه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا تَنَسَّ (١٨)﴾ وَأَلْضِجُ إِذَا تَنَسَّ (١٨)﴾، [الليل: ١، ٢] وقال: ﴿وَأَلْضِجُ (١٨)﴾ وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَى (١٩)﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال: ﴿فَأَنْزِلُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلُ أَلَيْلٌ سَكَاكَ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات. وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة «عسمس» تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم. قال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن «عسمس»: دنا من أوله وأظلم. وقال الفراء: كان أبو البلاد النحوي يُشَدُّ بيتاً:

عَسَمَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ إِذَا كان له من ضوئه مَقْبِيس
يريد: لو يشاء إذ دنا، أدغم الذا في الدال. وقال الفراء: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع. وقوله: ﴿وَأَلْضِجُ إِذَا تَنَسَّ (١٨)﴾، قال الضحاك: إذا طلع. وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل. وقال سعيد بن جبيرة: إذا نشأ. وهو المروي عن علي، رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: يعني: وضوء النهار إذا أقبل وتبين. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي: ملك شريف حسن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل، عليه الصلاة والسلام. قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مهران، والحسن، وقناة، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذو مِرَّةٍ قَاسَتَوَى (١)﴾ [النجم: ٥، ٦]، أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة. قال أبو صالح في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن، ﴿مُطَاعٍ نَمٍّ﴾ أي: له وجهة، وهو مسموع القول مطاع في الملا الأعلى. قال قتادة: ﴿مُطَاعٍ نَمٍّ﴾ أي: في السموات، يعني: ليس هو من أفناء الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، مُعْتَنَى بِهِ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة. وقوله: ﴿أَمِينٍ﴾: صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكَ بِجَنَّةٍ﴾ (٢٢)﴾. قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكَ بِجَنَّةٍ﴾ (٢٢)﴾ يعني: محمداً ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ (٢٣)﴾ يعني: ولقد رأى محمداً جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ﴿ذُو مِرَّةٍ قَاسَتَوَى﴾ (١) ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ (٧) ﴿نَمٍّ دَنَا ذُنُوكَ﴾ (٨) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٠)﴾ [النجم: ٥-١٠]، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره. والدليل أن المراد بذلك جبريل، عليه السلام. والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤) ﴿عِنْدَ مَا جَنَّتُ الظُّلُمَاتِ﴾ (١٥) ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ مَا يَشَاءُونَ﴾ (١٦)﴾ [النجم: ١٣-١٦]، فنلك إنما ذكرت في سورة «النجم»، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤)﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أراه. وكذا قال عكرمة، وابن زيد، وغير واحد. واختار ابن جرير قراءة الضاد. قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٥)﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له. كما قال: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٦)﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢٧)﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢٨)﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُ﴾ (٢٩)﴾؟ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ، كما قال الصديق، رضي الله عنه، لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فنلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهديان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله. وقال قتادة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٩)﴾ أي: عن كتاب الله وعن طاعته. وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلَكِينَ﴾ (٢٧)﴾ أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨)﴾ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ (٢٩)﴾ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ﷻ رب العالمين. قال سفيان الثوري، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان بن موسى، لما نزلت هذه الآية: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨)﴾، قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩)﴾.

آخر تفسير سورة «التكوير» وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الانفطار

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا محمد بن قدامة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن محارب بن دثار، عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتان يا معاذ؟! أفتان يا معاذ؟! أين كنت عن سبع اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟!». وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، ولكن ذكر ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١)﴾ في أفراد النسائي. وتقدم

من رواية عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الْبُشُورُ نُكِّرَتْ﴾ ① و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ② و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ③».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ نُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْبُشُورُ بُعِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ⑥ أَلَيْسَ خَلْقَكَ سُؤْيَكَ فَعَدْلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَنِينِينَ ⑪ يَتْلُونَ مَا تُعَلَّمُونَ ⑫﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ① أي: انشقت. كما قال: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ يَوْمَ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ ② أي: تساقطت. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ نُجِرَتْ﴾ ③ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها. وقال قتادة: اختلط مالحها بعدبها. وقال الكلبي: ملكت. ﴿وَإِذَا الْبُشُورُ بُعِرَتْ﴾ ④ قال ابن عباس: بُجِثَتْ. وقال السدي: تُبْعَثُ: تُحْرَكُ فيخرج من فيها. ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ ⑤ أي: إذا كان هذا حصل هذا. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ ⑥؟ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: ﴿الْكَبِيرِ﴾، حتى يقول قائلهم: غره كرمه. بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم - أي: العظيم - حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان: أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ ⑥، فقال عمر: الجهل. وقال أيضاً: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا أبو خلف، حدثنا يحيى البكاء، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ ⑥ قال ابن عمر: غره - والله - جهله. قال: ورؤي عن ابن عباس، والربيع بن خُثَيْم، والحسن، ومثل ذلك. وقال قتادة: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾: شيء، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان. وقال الفضيل بن عياض: لو قال لي: «ما غرك بي»، لقلت: سُتُورُكَ المُرْحَاة. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ لقلت: غرني كرم الكريم. قال البغوي: وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة. وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿الْكَبِيرِ﴾، لئنه على أنه لا ينبغي أن يُقَابَلَ الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء. وقد حكى البغوي، عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق، ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾؟ وقوله: ﴿أَلَيْسَ خَلْقَكَ سُؤْيَكَ فَعَدْلَكَ﴾ ⑦ أي: ما غرك بالرب الكريم ﴿أَلَيْسَ خَلْقَكَ سُؤْيَكَ فَعَدْلَكَ﴾ ⑦ أي: جعلك سرياً معتدلاً القائمة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا حريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش القرشي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «قال الله ﷻ: ابن آدم، أتى تُعْجِزُنِي وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيدٌ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدقني، وأتى أوأ الصدقة». وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حريز بن عثمان، به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: وتابعه يحيى بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن عبد الرحمن بن ميسرة. وقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ⑧ قال مجاهد: في أي شبهة أب أم أم أو خال أو عم؟ وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القرزاي، حدثنا مُطَهَّرُ بن الهيثم، حدثنا موسى بن عُلي بن رباح، حدثني أبي، عن جدي: أن النبي ﷺ قال له: «ما ولد لك؟» قال: يا رسول الله، ما عسى أن يولد لي؟ إما غلام وإما جارية. قال: «فمن يشبه؟» قال: يا رسول الله، من عسى أن يشبه؟ إما أباه وإما أمه. فقال النبي ﷺ عندها: «مه. لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم؟ أما قرأت هذه الآية في كتاب الله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ⑧ قال: سلكك. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والطبراني، من حديث مُطَهَّرُ بن الهيثم، به. وهذا الحديث لو صح لكان فيضلاً في هذه الآية، ولكن إنسانه ليس بالثابت؛ لأن مُطَهَّرُ بن الهيثم قال فيه أبو سعيد بن يونس: كان متروك الحديث. وقال ابن حبان: يروي عن موسى بن علي وغيره ما لا يُشْبَهُ حديث الأثبات. ولكن في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن امرأتى ولدت غلاماً أسوداً؟ قال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: يكون حُمر. قال: «فهل فيها من أورك؟» قال: نعم. قال: «فأنى أتانا ذلك؟»

قال: عسى أن يكون نزعة عرق. قال: «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق». وقد قال عكرمة في قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير. وقال قتادة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، قال: قادر - والله - ربنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله، ﷻ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلفه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة. وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِاللَّيْلِ﴾: أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ﴿١٣﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١٤﴾ يَتْلُونَ مَا تَقُولُونَ ﴿١٥﴾ يعني: وإن عليكم ملائكة حفظه كراماً فلا تقابلوهم بالقباح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنائسي، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسرر، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببيعه، أو ليستره أخوه».

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، فوصله بلفظ آخر، فقال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن حفص بن سليمان، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراف فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط، أو ببيعه». ثم قال: حفص بن سليمان لين الحديث، وقد روي عنه، واحتمل حديثه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا ميثم بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيع، عن الحسن - يعني البصري - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ﷻ، ما حفظا في يوم، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفار إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة». ثم قال: تفرد به تمام بن نجيع، وهو صالح الحديث. قلت: وثقه ابن معين وضعفه البخاري، وأبو زرعة، وابن أبي حاتم، والنسائي، وابن عدي. ورواه ابن حبان بالوضع. وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقولوسي، حدثنا بيان بن حمران، حدثنا سلام، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم - وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: هلك الليلة فلان». ثم قال البزار: سلام هذا، أحسبه سلام المدائني، وهو لين الحديث.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي حِمِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي. وقد روى ابن عساکر في ترجمة «موسى بن محمد»، عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق، عن عبيد الله، عن محارب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء». ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ ولهذا قال: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً. وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾﴾ تعظيم لشان يوم القيامة، ثم أكده بقوله: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾﴾ أي: لا يقدر واحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ونذكرها هنا حديث: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً». وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء؛ ولهذا قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وكقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ٤]. قال قتادة: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾﴾، والأمر - والله - اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد.

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَبْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ .

قال النسائي وابن ماجه: أخبرنا محمد بن عقيل - زاد ابن ماجه: وعبد الرحمن بن بشر - قال: حدثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، عن يزيد - هو ابن أبي سعيد النخعي، مولى قريش - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخيث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١)، فحسبوا الكيل بعد ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن النصر بن حماد، حدثنا محمد بن عبيد، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن عبد الله بن الحارث، عن هلال بن طلق قال: بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلاً؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١). وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا ابن فضيل، عن ضرار، عن عبد الله المكتب، عن رجل، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل. قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) حتى بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦). فالمراد بالتطفيف ها هنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسِرُونَ﴾ (٢) أي: ينقصون. والأحسن أن يجعل «كالوا» و«وزنوا» متعدياً ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميراً مؤكداً للمستتر في قوله: «كالوا» و«وزنوا»، ويحذف المفعول للدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وِزْناً بِالْقِسْطِ إِنَّهُ يَحْسِبُ ذَلِكَ سَبِيحاً وَأَحْسِنُوا وِزْنَاً﴾ (٣٥) [الاسراء: ٣٥]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلُوا نَفْساً إِلاَّ وُسْمَهَا﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (١) [الرحمن: ٢٩]. وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان. ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿أَلَا يَبْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (١) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾؟ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) أي: يقومون حفاة عراة عُراً، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المعجرم، ويفشاهم من أمر الله، ما تعجز القوى والحواس عنه. قال الإمام مالك عن نافع، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». رواه البخاري، من حديث مالك وعبد الله بن عون، كلاهما عن نافع، به. ورواه مسلم من الطريقتين أيضاً. وكذلك رواه صالح وثابت بن كيسان وأيوب بن يحيى، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر، ومحمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، به. ولفظ الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦): لعظمة الرحمن ﷻ يوم القيامة، حتى إن العرق ليُلجِمُ الرجال إلى أنصاف آذانهم».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني سليم بن عامر، حدثني المقداد - يعني ابن الأسود الكندي - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أذنت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه لإجماء». رواه مسلم، عن الحكم بن موسى، عن يحيى بن حمزة - والترمذي، عن سويد، عن ابن المبارك - كلاهما عن ابن جابر، به. حديث آخر: قال الإمام

أحمد: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح: أن أبا عبد الرحمن حدثه، عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يُعرفون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبه، ومنهم من يبلغ إلى ساقه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق». انفرد به أحمد. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لبيبة، حدثنا أبو عثانة حي بن يؤمن، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة. انفرد به أحمد. وفي حديث: أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون. وقيل: يقومون ثلاثمائة سنة. وقيل: يقومون أربعين ألف سنة. ويقضي بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عون الزياتي، أخبرنا عبد السلام بن عجلان، سمعت أبا يزيد المدني، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ لبشير الغفاري: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين، من أيام الدنيا، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر؟». قال بشير: المستعان الله. قال: «إذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة، وسوء الحساب». ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام، به. وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة. وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد، قد ألجم العرق برؤسهم وفاجرهم. وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة. رواهما ابن جرير. وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه، من حديث زيد بن الحباب، عن معاوية بن صالح، عن أزهر بن سعيد الحواري، عن عاصم بن حميد، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي واهديني، وارزقني وعافني». ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ رَرُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْدُوبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُتَعَدٍّ أَيُّهُ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنُجِيَ عَلَيْهِ مَا كُنَّا قَالِ سَاطِرُ الْأَرْكَانِ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَسَالُومٌ لِمَجِيمٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ بَالَ هَذَا أَلَيْسَ كُفْرًا بِكُمْ بِدَّ كَذِبُونَ ﴿١٧﴾ ۞

يقول: حقاً ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ أي: إن مصيرهم وأمرهم لفي سجين - فاعيل من السَّجْن، وهو الضيق - كما يقال: فسَّيق وشريب وخمير وسكير، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾؟ أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم وعذاب اليم. ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله ﷻ في روح الكافر: اكتبوا كتابه في سجين. وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت الأرض السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم. وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً منكراً لا يصح فقال: حدثنا إسحاق بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطي، حدثنا نصر بن خزيمة الواسطي، عن شعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الفلق: جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». والصحيح أن «سجينا» مأخوذ من السَّجْن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تنافل منها ضاق، وكل ما تعالي منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيُّق إلى المركز في وسط الأرض السابعة. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلَيْنِ ﴿١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [البين: ٥، ٦]. وقال هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَعِيقًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفرقان: ١٣]. وقوله: ﴿ كِتَابٌ رَرُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي. ثم قال: ﴿ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السَّجْن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿ وَيَلُّ ﴾ بما أغنى عن إعادته، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار، كما يقال: ويل لفلان. وكما جاء في المسند والسنن من رواية بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يُحدث فيكذب، ليضحك الناس، ويل له، ويل له». ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ ﴾ أي: لا يصدقون بوقوعه،

ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٧) أي: معتد في أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجازاة في تناول المباح والأثيم في أنواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر. وقوله: ﴿إِذَا نَقَلَ عَلَيْهِ الْمِثْقَالَ الْأَلْفِيَّةَ﴾ (١٨) أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَرِئَازًا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا لَسَطِطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٩) [النحل: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا لَسَطِطِرُ الْأَوَّلِينَ اسْتَنْبَهَا فِيهِ شَمْلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٢٠) [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢١) أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٢). والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٩)». وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، فإن عاد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٩)». وقال أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٩)». وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب، فيموت. وكذا قال مجاهد بن جبر وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (٢٣) أي: لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي، رحمه الله، في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ (٢٤) إلى ربيها ناظرة (٢٥) [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالابصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنات الفاخرة. وقد قال ابن جرير محمد بن عمار الرازي: حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (٢٥)، قال: يكشف الحجاب، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كل يوم غدوة وعشية - أو كلاماً هذا معناه -.. قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْعَمِيمِ﴾ (٢٦) أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿ثُمَّ نَبَأَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِدَعْوَتِكُمْ يَدَّ كَذِبُونَ﴾ (٢٧) أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لِي فِي عِلِّيِّينَ﴾ (٢٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٢٩﴾ كِتَابٌ تَرْقُومُ ﴿٣٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِي فِي نَبِيِّنَ ﴿٣٢﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يُنظَرُونَ ﴿٣٣﴾ تَتَرَفَّى فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّبِيِّينَ ﴿٣٤﴾ يُسْفَرُونَ مِنْ رَجْوِي مَحْشُورٍ ﴿٣٥﴾ حِجَّتُمْ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَبَّهُوا السُّلُوفُ ﴿٣٦﴾ وَرَبَّاجِهِمْ مِنْ تَسْبِيهِ ﴿٣٧﴾ عِنَّا يَتَرَفَّى بِهَا الْمَعْرُوفُونَ ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وهم بخلاف الفجار، ﴿لِي فِي عِلِّيِّينَ﴾ أي: مصيرهم إلى عليين، وهو بخلاف سجين. قال الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين، قال: هي الأرض السابعة. وفيها أرواح الكفار. وسأله عن عليين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين. وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لِي فِي عِلِّيِّينَ﴾ (٣٧) يعني: الجنة. وفي رواية العوفي، عنه: أعمالهم في السماء عند الله. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: عليون: ساق العرش اليمنى. وقال غيره: عليون عند سدة المنتهى. والظاهر: أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء ارتفع عظم واتسع؛ ولهذا قال معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (٢٩). ثم قال مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كِتَابٌ تَرْقُومُ﴾ (٣٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ﴾ (٣١). وهم الملائكة، قاله قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِي فِي نَبِيِّنَ﴾ (٣٢) أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم، ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ وهي: السرر تحت الحجال، ﴿يُنظَرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبديد. وقيل: معناه ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنظَرُونَ﴾ (٣٣) إلى الله ﷻ.

وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين». وقوله: ﴿تَمَثَّلُوا فِي وُجُوهِهِمْ نُصْرَةَ النَّبِيِّ﴾ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نصرة النبي، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله: ﴿يَسْفُونَ مِنْ رِجِحٍ مَخْتَوِينَ﴾ أي: يسقون من خمر من الجنة. والريحق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن سعد أبي المجاهد الطائي، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري - أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ - قال: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري، كساه الله من خضر الجنة». وقال ابن مسعود في قوله: ﴿خَتَمْتُ بِسِكَ﴾ أي: خلطه مسك. وقال العوفي، عن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، ختم بمسك. وكذا قال قتادة والضحاك. وقال إبراهيم والحسن: ﴿خَتَمْتُ بِسِكَ﴾ أي: عاقبته مسك. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن جابر، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي الدرداء: قال: «شرب أبيض مثل الفضة، يخبثون به شرابهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿خَتَمْتُ بِسِكَ﴾ قال: طيبه مسك. وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَابِسُونَ﴾ أي: وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكثر ويستبىح إلى مثله المستبحقون. كقوله: ﴿لِيُنَازِلَ هَذَا الْغَمِيلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. وقوله: ﴿وَيَرَاهُمْ مِنْ نَسِيمٍ﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَتَمُرُّ بِهَا الْمُتَمُرُونَ﴾ أي: يشربها المقربون صرفاً، وتُمزج لأصحاب اليمين مزجاً. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أٰجْرُوا كَاثِرًا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [١٣١] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿١٣٤﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿١٣٦﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿١٣٧﴾ هَلْ تُوِبَ الْكُفْرُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: إذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ أي: لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ انشُرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [١٣٨] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوكَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَدْ ضَلُّوهُمُ الْيَوْمَ يَمَا صَدَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاعِلُونَ ﴿١٤٠﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١]. ولهذا قال ها هنا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَىٰ الْأَذْيَاقِ يَنْظُرُونَ﴾ [١٣٦] أي: إلى الله ﷻ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله: ﴿هَلْ تُوِبَ الْكُفْرُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [١٣٨]؟ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة «المطففين»



تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية. قال مالك، عن عبد الله بن يزيد، عن أبي سلمة: أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿إِذَا نَسَّأَ انشَقَّتْ﴾ [١]، فسجد فيها،

فلما انصرف أخيرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. رواه مسلم والنسائي، من طريق مالك، به. وقال البخاري: حدثنا أبو النعمان، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن بكر، عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقراً: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، فسجد، فقلت له، قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. ورواه أيضاً عن مسدد، عن معتمر، به. ثم رواه عن مسدد، عن يزيد بن زريع، عن التيمي، عن بكر، عن أبي رافع، فذكره. وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق، عن سليمان بن طرخان التيمي، به. وقد روى مسلم وأهل السنن من حديث سفيان بن عيينة - زاد النسائي: وسفيان الثوري - كلاهما عن أيوب بن موسى، عن عطاء بن ميناء، عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿وَأَقْرَأَ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحِّتٌ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَجَلَتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأْتِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَ يُسَبِّحُهُ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا ﴿٨﴾ وَتَنظِقُ إِلَهُ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَ وَرَدَّهُ ظَهْرًا ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصِلُ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَنْ يَحْجُرَ ﴿١٤﴾ بَلْ إِنْ رَدُّهُ كَانَ بِرَبِّهِ صَعِيرًا ﴿١٥﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ﴿٢﴾ أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿وَحُقَّتْ﴾ ﴿٣﴾ أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء. ثم قال: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ﴿٣﴾ أي: بسطت وفرشت ووسعت. قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: يا رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي؟ فيقول الله ﷻ: صدق. ثم أشفع فأقول: يا رب، عبادك عبدوك في أطراف الأرض. قال: وهو المقام المحمود». وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَجَلَتْ﴾ ﴿٤﴾ أي: ألقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد، وسعيد، وقتادة، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ﴿٥﴾ كما تقدم. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا﴾ ﴿٦﴾ أي: ساع إلى ربك سعياً، وعامل عملاً، ﴿فَمَلَأْتِيهِ﴾، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر. ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسي، عن الحسن بن جعفر، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه». ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ ﴿٦﴾ أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك. وعلى هذا فكلا القولين متلازم. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا﴾ ﴿٦﴾ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به، خيراً كان أو شراً. وقال قتادة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا﴾ ﴿٦﴾ أن كدحك - يا ابن آدم - لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَ يُسَبِّحُهُ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا ﴿٨﴾ أي: سهلاً بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقش الحساب عُذِبَ». قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا﴾ ﴿٨﴾؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِبَ». وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير، من حديث أيوب السخيتاني، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا روح بن عباد، حدثنا أبو عامر الخراز، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذباً». فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا﴾ ﴿٨﴾؟ قال: «ذاك العرض، إنه من نُوقش الحساب عُذِبَ»، وقال بيده على إصبه كأنه ينكث. وقد رواه أيضاً عن عمرو بن علي، عن ابن أبي عدي، عن أبي يونس القشيري، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم، عن عائشة، فذكر الحديث. أخرجه من طريق أبي يونس القشيري، واسمه حاتم بن أبي صغيرة، به. قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا مسلم، عن الحرث بن الخزيم، عن أخيه الزبير، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: من نُوقش الحساب - أو: من حوسب - عُذِبَ. قال: ثم قالت: إنما الحساب اليسير عرض على الله ﷻ وهو يراه. وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن عبد الله بن الزبير، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: سمعت

رسول الله ﷺ يقول في بعض صلواته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً». فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نُوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك». صحيح على شرط مسلم. وقوله تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَعْيُنِهِمْ مَسْرُورًا﴾ (١٠) أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة، والضحاك، ﴿مَسْرُورًا﴾ أي: فرحان مغتبطاً بما أعطاه الله ﷻ. وقد روى الطبراني عن ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - أنه قال: إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك العازب أن يثوب إلى أهله، فمسرور ومكظوم.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١١) أي: بشماله من وراء ظهره، تُثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ (١٢) أي: خساراً وهلاكاً ﴿وَيَصَلِّ سَعِيرًا﴾ (١٣) إِنَّهُ كَانَ فِي أَعْيُنِهِمْ مَسْرُورًا ﴿١٤﴾ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّمَا ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٥) أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته. قاله ابن عباس، وقاتدة، وغيرهما. والحَوْرُ: هو الرجوع. قال الله: ﴿يَنْزِلُ إِذْ رَدُّكُمْ كَانَهُ بِصِيرًا﴾ (١٦) يعني: بلى سعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرا وشرا، فإنه ﴿كَانَ يَدُ بِصِيرًا﴾ أي: عليمًا خبيرًا.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِاللَّفْحِمْ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ ﴿١٩﴾ قَمَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرْبَىٰ عَلَيْهِمْ أَقْرَبَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ آيَةِ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ أَهْرَ عَيْرٌ مِّنْهُمْ ﴿٢٥﴾.

زوي عن علي، وابن عباس، وعُباد بن الصامت، وأبي هريرة، وشداد بن أوس، وابن عمر، ومحمد بن علي بن الحسين، ومكحول، وبكر بن عبد الله المزني، ويكنى بن الأشج، ومالك، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون أنهم قالوا: الشفق: الحمرة. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن حُثيم، عن ابن لبيبة، عن أبي هريرة قال: الشفق: البياض. فالشفق هو: حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس - كما قاله مجاهد - وإما بعد غروبها - كما هو معروف عند أهل اللغة. قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وقال الجوهري: الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة. وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء. وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق». ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل. ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِاللَّفْحِمْ﴾ (١٧): هو النهار كله. وفي رواية عنه أيضاً أنه قال: الشفق: الشمس. رواها ابن أبي حاتم. وإنما حملة على هذا قرأه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) أي: جمع. كأنه أقسم بالضياء والظلام. وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض. وقالوا: هو من الأضداد. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقاتدة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: وما جمع. قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة. واستشهد ابن عباس بقول الشاعر:

مُسْتَوْسَقَاتٌ لَوْ تَجِدُنَّ سَائِقًا

قد قال عكرمة: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) يقول: ما ساق من ظلمة، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه. وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومسروق، وأبو صالح، والضحاك، وابن زيد. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع، إذا امتلأ. وقال قتادة: إذا استدار. ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلاً لليل وما وسق. وقوله: ﴿لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ﴾ (١٩) قال البخاري: أخبرنا سعيد بن النصر، أخبرنا هُشيم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد قال: قال ابن عباس: ﴿لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ﴾ (١٩) حالاً بعد حال - قال هذا نبيكم ﷺ. هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: «نبيكم» مرفوعاً على الفاعلية من «قال» وهو الأظهر، والله أعلم. كما قال أنس: لا يأتي عام إلا والذي بعده شرُّ منه، سمعته من نبيكم ﷺ. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشيم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد: أن ابن عباس كان يقول: ﴿لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ﴾ (١٩) قال: يعني نبيكم ﷺ، يقول: حالاً بعد حال. هذا لفظه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ﴾: حالاً بعد حال. وكذا قال عكرمة ومرة الطَّيِّب، ومجاهد، والحسن، والضحاك ومسروق وأبو صالح.

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ طَبَقِ﴾ (١٩) حالاً بعد حال. قال: هذا، يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ، فيكون

مرفوعاً على أن «هذا» و«نبيكم» يكونان مبتدأ وخبراً، والله أعلم. ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة، كما قال أبو داود الطيالسي وعُثْرُ: حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: محمد ﷺ. ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وعمامة أهل مكة والكوفة: «لَتَرْكَبَنَّ» بفتح التاء والياء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل، عن الشعبي: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: لتركبني يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا زُوي عن ابن مسعود، ومسروق، وأبي العالية: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: سماء بعد سماء. قلت: يعنون ليلة الإسراء. وقال أبو إسحاق، والسدي، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: منزلاً على منزل. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس مثله - وزاد: «ويقال أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال». وقال السدي نفسه: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦): أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبني سنن من كان قبلكم، حذو القُذَّة بالقدَّة، حتى لو دخلوا جُحر صبَّ لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وهذا محتمل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا ابن جابر، أنه سمع مكحولاً يقول في قول الله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: في كل عشرين سنة، تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وقال الأعمش: حدثني إبراهيم قال: قال عبد الله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: السماء تنشق ثم تحمر، ثم تكون لونا بعد لون. وقال الثوري، عن قيس بن وهب، عن مرة، عن ابن مسعود: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق. وروى البزار من طريق جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦)، يا محمد، يعني حالاً بعد حال. ثم قال: ورواه جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: قوم كانوا في الدنيا خسيس أمرهم، فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا، فانضموا في الآخرة. وقال عكرمة: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حال، فطيماً بعد ما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً.

وقال الحسن البصري: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغني بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الله بن زاهر: حدثني أبي، عن عمرو بن شمر، عن جابر - هو الجعفي - عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة مما خلق له؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه، اكتب أجله، اكتب أثره، اكتب شقيقاً أو سعيدياً، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله إليه ملكاً فيحفظه حتى يدرك، ثم يرتفع ذلك الملك، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حضره الموت ارتفع ذاك الملكان، وجاء ملك الموت فقبض روحه، فإذا دخل قبره ردَّ الروح في جسده، ثم ارتفع ملك الموت، وجاء ملكا القبر فامتحنانه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انخط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه: واحد سائقاً وآخر شهيداً»، ثم قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾: إن قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٦) قال: «حالاً بعد حال». ثم قال النبي ﷺ: «إن قدامكم لأمرأ عظيماً لا تقدرونه، فاستعينوا بالله العظيم». هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، والله - سبحانه وتعالى - أعلم. ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل قول من قال لتَرْكَبَنَّ أنت - يا محمد - حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشُّدائد. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوجَّهاً - جميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أحوالاً. وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٢) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون إعظماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا بَيِّنَاتُ الْبَيِّنَاتِ﴾ (٢٢) أي: من سجيئتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) قال مجاهد وقتادة: يكتبون في صدورهم. ﴿فَيَقْرَأُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) أي: فأخبرهم - يا محمد - بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا - أي: بقلوبهم - وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿هُمْ أَجْرٌ﴾ (٢٤) أي: في الدار الآخرة. ﴿عَذَابٌ مَّوْتَنٌ﴾: قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد، والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَلَهُ عَذَابٌ مَّجْدُوفٌ﴾ [مود: ١٠٨]. وقال السدي: قال بعضهم: ﴿عَذَابٌ مَّوْتَنٌ﴾: غير منقوص. وقال بعضهم: ﴿عَذَابٌ مَّوْتَنٌ﴾ عليهم. وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وأن للحظة، وإنما دخلوها بفضلهم ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً والحمد لله وحده أبداً؛ ولهذا يلهمون

تسيحه وتحميده كما يلهمون النفس: ﴿وَمَا يَزُرُّ دَعْوَهُمْ أَنْ لَقِمَهُ لِلَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ [يونس: ١٠].

آخر تفسير سورة «الانشقاق» والله الحمد



تفسير سورة البروج

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا زُرَيْق بن أبي سلمى، حدثنا أبو المهزَم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق. وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا حماد بن عباد السدوسي، سمعت أبا المهزَم يحدث عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء. تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالنَّوْجَ الْمَوْجُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ مَشْهُورٍ ﴿٣﴾ قِيلَ انصَبْ الْاُخْدُوْدِ ﴿٤﴾ اَللَّهِ ذَاتِ الرَّقُوْدِ ﴿٥﴾ اِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُوْدٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُوْنَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ شُهُوْدٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوْا مِنْهُمْ اِلَّا اَنْ يُؤْمِنُوْا بِاللّٰهِ الْعَزِيْزِ الْحَمِيْدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَمْ يَلِكْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِيْنَ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِدٌ ﴿٩﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ فتنُوا الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبْتُؤُوْا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلَمِيْنٌ ﴿١٠﴾﴾.

يقسم الله بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿نَسَبَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضاً: البروج التي فيها الحرس. وقال يحيى بن رافع: البروج: قصور في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾: الخلق الحسن. واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلاثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين. وقوله: ﴿وَالنَّوْجَ الْمَوْجُودِ﴾ وشاهد مشهور: ﴿اختلف المفسرون في ذلك، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزي، حدثنا عبيد الله - يعني ابن موسى - حدثنا موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان بن أوس الأنصاري، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَالنَّوْجَ الْمَوْجُودِ﴾: يوم القيامة ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة. وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، ولا يستعبد فيها من شر إلا أعاده، ﴿وشاهد﴾ يوم عرفة». وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي - وهو ضعيف الحديث - وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار - مولى بني هاشم - عن أبي هريرة - أما علي فرفعه إلى النبي ﷺ، وأما يونس فلم يُعَدُّ أبا هريرة - أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهد مشهور﴾ قال: يعني الشاهد يوم الجمعة، ويوم مشهود يوم القيامة. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس، سمعت عماراً - مولى بني هاشم - يحدث عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهد مشهور﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن، وقتادة، وابن زيد. ولم أرهم يختلفون في ذلك، والله الحمد. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثنا ضمضم بن زُرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا». ثم قال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا ابن أبي فُدَيْك، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة».

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب، ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف المكي، عن ابن عباس قال: الشاهد هو محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهَ الْأَنفُسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. وحدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن شباك قال: سأل رجل الحسن بن علي عن:

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير، فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة. فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ ثم قرأ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا بَيَّعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَيَجْعَلْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ نَحْمُسُخُ لُهُ الْكُفَّارَ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾. وهكذا قال الحسن البصري. وقال سفيان الثوري، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب: ﴿وَمَشْهُودٌ﴾ يوم القيامة. وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة. وعن عكرمة أيضاً: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم الجمعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا سفيان، عن أبي يحيى القنات، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: الشاهد: الإنسان. والمشهود: يوم الجمعة. هكذا رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهرا، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة. وبه عن سفيان - هو الثوري - عن مغيرة، عن إبراهيم قال: يوم الذبح، ويوم عرفة، يعني الشاهد والمشهود. قال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود يوم الجمعة. ورووا في ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمين، عن عباد بن نسي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود، تشهد الملائكة». وعن سعيد بن جبيرة: الشاهد: الله، وتلا ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، والمشهود: نحن. حكاه البغوي، وقال: الأكثر على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة. وقوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَرْضِ﴾ أي: لمن أصحاب الأعداء، وجمعه: أخاديد، وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأحجوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقتلهم فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَرْضِ﴾ أكتار ذات الؤنؤو ﴿١﴾ إذ هر علينا قومؤ ﴿٢﴾ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودؤ ﴿٣﴾ أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٤﴾ أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذبجنا به، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس. ثم قال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما بينهما وما بينهما، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة، من هم. فمن علي، رضي الله عنه، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليه علماءؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقتل فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها. وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة، واحدهم حبشي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَرْضِ﴾ أكتار ذات الؤنؤو ﴿٥﴾ قال: ناس من بني إسرائيل، خذوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجلاً ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ضبيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً أعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقال: حبسني أهلي. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. وربما قتلها، ومضى الناس. فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني، أنت أفضل مني، وإنك سئلتني، فإن ابتليت فلا تدل علي. فكان الغلام يُرى الأكمة والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جلس فعمي،

فسمع به، فأثابته بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع. فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، ﷻ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك. فأمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي؟ فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بُني، بلغ من سحرك أن تبرى الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله، ﷻ. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذ أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه من فوقه فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فبعث به مع نفر في فُرقور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا ففرقه في البحر. فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم، اكفنيهم بما شئت. ففرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلنتي، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: «بسم الله رب الغلام»، فإنك إذا فعلت ذلك قتلنتي. ففعل، ووضع السهم في كيد قوسه ثم رماه، وقال: «بسم الله رب الغلام». فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: أمنا برب الغلام. فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر؟ فقد - والله - نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فحُذت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأفحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكانت تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمه، فإنك على الحق.

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح عن هُذبة بن خالد، عن حماد بن سلمة به نحوه. ورواه النسائي عن أحمد بن سليمان، عن عفان، عن حماد بن سلمة. ومن طريق حماد بن زيد، كلاهما عن ثابت به واختصروا أوله. وقد جوده الإمام أبو عيسى الترمذي، فرواه في تفسير هذه السورة عن محمود بن غيلان وعبد بن حُميد - المعنى واحد - قال: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ضُهير قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر همست؟ قال: «إن نبياً من الأنبياء، كان أعجب بأمتة فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم. فاختراروا النعمة، فسُلط عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفاً». قال: وكان إذا حدث بهذا الحديث، حدث بهذا الحديث الآخر قال: كان ملك من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً - أو قال: فطناً لقتناً - فأعلمه علمي هذا. فذكر القصة بتمامها، وقال في آخره: «يقول الله ﷻ: ﴿قِيلَ أَخَذُوا مِنَ الْأَنْبَاءِ الْقُرْآنَ مَا لَيْسَ بِالْحِكْمِ﴾». حتى بلغ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾. قال: فأما الغلام فإنه دفن قال: فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب، وإصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبي ﷺ. قال شيخنا المحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام ضُهير الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصراني، والله أعلم.

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة في السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي - وحدثني أيضاً بعض أهل نجران، عن أهلها - أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قرأها قريباً من نجران - ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيمؤن - ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه، قالوا: رجل نزلها - ابنتي خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم فوحد الله وعبدته، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه، فكتمه إياه وقال له: يا ابن أخي، إنك لن تحمله؛ أخشى ضعفك عنه. والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر

كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضمن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى أقذاح فجمعها، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قده، وكل اسم في قده، حتى إذا أحصاها أو قد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقده، فوثب القده حتى خرج منها لم يضره شيء، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي كتبه فقال: وما هو: قال: هو كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. قال: أي ابن أخي، قد أصبته فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم. فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أنه، فاتبعه علي أمره ودعا له فعوفي، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت علي أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك. قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح على رأسه، فيقع إلى الأرض ما به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بُحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيلقى به فيها، فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك - والله - لا تقدر على قتلي حتى تُوحِد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت علي فقتلتني. قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعضاً في يده فشجه شجة غير كبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانه. واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر - وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم، عليه السلام، من الإنجيل وحكمه - ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران. قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أي ذلك كان.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاخاروا القتل، فخذ الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس وجنده أنزل الله، ﷻ، على رسوله ﷺ: ﴿قِيلَ أَخَذُوا الْأَخْدُودَ ۚ وَالنَّارُ ذَاتُ الْوُودِ ۚ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُؤُودٌ ۙ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۗ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۙ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١٠﴾. هكذا ذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس، واسمه: زرعة، ويسمى في زمان مملكته ييوسف، وهو ابن تيان أسعد أبي كرب، وهو تبع الذي غزا المدينة وكسى الكعبة، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان تهود من تهود من أهل اليمن على يديهما، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً، فقتل ذو نواس في الأخدود عشرين ألفاً، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له: دوس ذو ثعلبان، ذهب فارساً، وطرّدوا وراءه فلم يُقدر عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة، فاستقذوا اليمن من أيدي اليهود، وذهب ذو نواس هارباً فلجج في البحر، ففرق. واستمر ملوك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنقذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى، لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه من في السجون، وكانوا قريباً من سبعمائة، ففتح بهم اليمن، ورجع الملك إلى حمير. وسنذكر طرفاً من ذلك - إن شاء الله - في تفسير سورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾. وقال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنه حَدَّث: أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب، حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْنٍ فيها قاعداً، واضعاً يده على ضربة في رأسه، ممسكاً عليها يده، فإذا أخذت يده عنها ثعبت دماً، وإذا أرسلت يده رذت عليها، فأمسكت دمه، وفي يده خاتم مكتوب فيه: ربي الله. فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره، فكتب عمر إليهم: أن أقرّوه على حاله، وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه. ففعلوا. وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، رحمه الله: حدثنا أبو بلال الأشعري، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، حدثني بعض أهل العلم: أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطاً من حيطان المدينة قد سقط، فبناه فسقط، ثم بناه فسقط، فقيل له: إن تحته رجلاً صالحاً. فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف، فيه مكتوب: أنا الحارث بن مضااض، نعمت على أصحاب الأخدود. فاستخرجه أبو موسى، وبنى الحائط، فثبت. قلت: هو الحارث بن مضااض بن عمرو بن مضااض بن عمرو الجهمي، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نبت بن إسماعيل بن إبراهيم، وولد الحارث هذا هو: عمرو بن الحارث بن مضااض هو آخر ملوك جرهم بمكة، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن، وهو القاتل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب:

كَانَ لَمْ يَكُنِ الْحَجُّونَ إِلَى الضَّفَا أَنَيْسَ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامُرُ

بلى، نحن كُنّا أهلها فإبأذنا صُرُوفُ النُيالي والجُدود العَوائِرُ وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديماً بعد زمان إسماعيل، عليه السلام، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها، وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام، وهو أشبه، والله أعلم. وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا صفوان، عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد. وفي العراق في أرض بابل بختنصر، الذي وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحبه: عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيه الحطب والنار، ثم القاهما فيه، فجعلها الله عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهما منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودَ﴾ قال: كانت الأخدود ثلاثة: خذ بالعراق، وخذ بالشام، وخذ باليمن. رواه ابن أبي حاتم.

وعن مقاتل قال: كانت الأخدود ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس. فاما التي بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدُشْتُكي، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع - هو ابن أنس - في قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودَ﴾ قال: سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً، ﴿كُلٌّ حَزَبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْعَوْنُ﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٤٣٢]، اعتزلوا إلى قرية سكنوها، وأقاموا على عبادة الله ﴿تَخِيصِينَ لَهُ الْاَيِّنَ حَنَفَةً وَيَتِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥]، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحدث حديثهم، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا، وأنهم أبوا عليه كلهم وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده، لا شريك له. فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت فإني قاتلكم. فأبوا عليه، فخذ أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار - ووقفهم عليها -: اختاروا هذه أو الذي نحن فيه. فقالوا: هذه أحب إلينا. وفيهم نساء وذرية، وفزعن الذرية، فقالوا لهم: لا نار من بعد اليوم. فوقعوا فيها، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسه حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففي ذلك أنزل الله، ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودَ﴾ [النار ذات الأتود] ﴿إِذْ هُرِّعَتْهَا نُورٌ﴾ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيبِ الْمَجِيدِ﴾ [الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد] . ورواه ابن جرير: حدثت عن عمار، عن عبد الله بن أبي جعفر، به نحوه. وقوله: ﴿إِنَّ الْاَيِّنَ نَفَرًا الْكُؤِيبِينَ وَالْكُؤِيبَتِ﴾ أي: حرقوا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن أبي زرى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَبْرُؤُوا﴾ أي: لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا. ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وذلك أن الجزء من جنس العمل. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الْاَيِّنَ مَأْمُورًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لِيَوْمِئِذٍ مِنَ الْاَيِّنِ إِلَّا أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ قَوْمِهِ مَا كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [١١] ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [١٢] ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [١٣].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾. ثم قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٧] أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر، أو هو أقرب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ رَبِّدِي﴾ [١٨] أي: من قوته وقدرته التامة بيدي الخلق ثم يعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [١٩] أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان. والودود - قال ابن عباس وغيره -: هو الحبيب، ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [٢٠] أي: صاحب العرش المعظم العالي على جميع الخلائق. ﴿وَاللَّجِيدُ﴾ [٢١] فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب، ﴿لَجِيءٌ﴾. والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح. ﴿فَمَنْ لَنَا بِرَبِّدِي﴾ [٢٢] أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له - وهو في مرض الموت -: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد. وقوله: ﴿مَنْ لَنَا

أَنَّكَ حَديثُ الْجَنُودِ ﴿١٧﴾ رِيْعَوْنَ وَتَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴿١﴾ أي: هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردوا عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله: ﴿إِنَّ بَلْعَى رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أي: إذا أخذ الظالم أخذه أليماً شديداً، أخذ عزيز مقتدر. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أُنْتِكَ حَديثُ الْجَنُودِ﴾ ﴿١٧﴾، فقام يسمع، فقال: «نعم، قد جاءني». وقوله: ﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿١٩﴾ أي: هم في شك ورب وكفر وعناد، «وَاللَّهُ يَنْزِلُ بِهِمْ حِطًّا» ﴿٢٠﴾ أي: هو قادر عليهم، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ أي: عظيم كريم، ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ ﴿٢٢﴾ أي: هو في الملا الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا قُورَةُ بن سليمان، حدثنا حرب بن سُريح، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾، في جبهة إسرافيل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح: أن أبا الأغيس - هو عبد الرحمن بن سَلْمَانَ - قال: ما من شيء قضى الله - القرآن فما قبله وما بعده - إلا وهو في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل، لا يؤذن له بالنظر فيه. وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه. وقد روى البغوي من طريق إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إنه في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله، أدخله الجنة. قال: واللوح لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافته الدر والياقوت، ودفته ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله، عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من ذرّة بيضاء، صفحتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويُعزِّز ويُذلُّ، ويفعل ما يشاء».

آخر تفسير سورة «البروج» وبه الحمد



تفسير سورة الطارق

وهي مكية. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد - قال عبد الله: وسمعتة أنا منه - حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عبد الرحمن ابن خالد بن أبي جبل العُدَواني، عن أبيه: أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس - أو: عصا - حين أتاهم يتغي عندهم النصر، فسمعتة يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ ﴿١﴾، حتى ختمها - قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام - قال: فدعنتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه. وقال النسائي: حدثنا عمرو بن منصور، حدثنا أبو نعيم، عن مسعر، عن محارب بن دثار، عن جابر قال: صلى معاذ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسما والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾ التَّمَّ الثَّاقِبُ ﴿٢﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٣﴾ يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ ﴿٤﴾ خُلِقَ مِنْ مَّا وَدَّ ذَاتِي ﴿٥﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِ وَالْخَلْبِ ﴿٦﴾ إِنَّهُ عَلَى نَجْوَى قَائِدٍ ﴿٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَارُ ﴿٨﴾ قَالَهُمْ مِنْ قُرُونٍ وَلَا تَأْسِرُ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾

يقسم تعالى بالسما وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ ﴿١﴾، ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾،

ثم فسره بقوله: ﴿الَّتِمُّ النَّارُ ۝٦﴾ . قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي: يأتيهم فجأة بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». وقوله: ﴿الَّتَاتِبُ ۝٧﴾ قال ابن عباس: المضيء. وقال السدي: يتقرب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ تَرَىٰ لَأَ عَنِّي حَافِظٌ ۝٨﴾ أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَمْ مُمْبِتَنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١١﴾ [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَوْقٍ ۝٩﴾: تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداء فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۝١٠﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝١٠﴾ يعني: المنى، يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله، ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْجَلٍ وَالتَّرَائِبِ ۝١١﴾ يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. قال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْجَلٍ وَالتَّرَائِبِ ۝١١﴾: صلب الرجل وترائب المرأة، أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقاتدة والسُّدِّي، وغيرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن يسمر: سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْجَلٍ وَالتَّرَائِبِ ۝١١﴾ قال: هذه الترائب. ووضع يده على صدره. وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تربية المرأة موضع القلادة. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائب: بين ثديها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبيرة: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وقال الليث بن سعد عن مَعْمَر بن أَبِي حَبِيبَةَ المدني: أنه بلغه في قول الله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْجَلٍ وَالتَّرَائِبِ ۝١١﴾ قال: هو عصارة القلب، من هناك يكون الولد. وعن قتادة: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْجَلٍ وَالتَّرَائِبِ ۝١١﴾: من بين صلبه ونحره. وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ عَنَبٍ نَضِيدٍ ۝١٢﴾، فيه قولان:

أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما. والقول الثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة. وقد ذكر الله، ﷻ، هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَكُلُّ الْأَنْرَارُ ۝١٣﴾ أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء عند استه، يقال: هذه غدره فلان بن فلان». وقوله: ﴿قَالَ لَمْ ۝١٤﴾ أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِنْ نُورٍ ۝١٤﴾ أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرَ ۝١٤﴾ أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن يقد نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجَمِ ۝١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْمَسْعِ ۝١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضَّلَ ۝١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَمْرٍ ۝١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوبًا ۝١٧﴾ .

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجَمِ ۝١١﴾: تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلك مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من هنا. هنا: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْمَسْعِ ۝١٢﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضَّلَ ۝١٣﴾ قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حكم عدل. ﴿وَمَا هُوَ بِأَمْرٍ ۝١٤﴾ أي: بل هو حق جد. ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن. ثم قال: ﴿فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ ۝١٦﴾ أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَهْلَهُمْ رُوبًا ۝١٧﴾ أي: قليلاً. أي: وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال: ﴿نَتَمَتَّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝١٧﴾ [المنان: ٢٤].

آخر تفسير سورة «الطارق»

وبه الحمد



تفسير سورة سَبَّح

وهي مكة. والدليل على ذلك ما رواه البخاري: حدثنا عبدان: أخبرني أبي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا يُقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) في سور مثلها. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن ثوير بن أبي فاختة، عن أبيه، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٢). تفرد به أحمد. وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى». وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٣)، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقُنُوتِ﴾ (٤)، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً. هكذا وقع في مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث. وقد رواه مسلم - في صحيحه - وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث أبي عوانة وجريز وشعبة، ثلاثهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير، به. قال الترمذي: «وكذا رواه الثوري ومسرر، عن إبراهيم - قال: ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم - عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان. ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه». وقد رواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن المنتشر، عن أبيه عن حبيب بن سالم، عن النعمان به. كما رواه الجماعة، والله أعلم. ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٥)، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقُنُوتِ﴾ (٦)، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبيزى، وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٧)، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٨)، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٩). زادت عائشة - والمعودتين. وهكذا زوي هذا الحديث - من طريق - جابر وأبي أمامة صُدي بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَرْخَى أَلْمَسَ (٤) فَمَجَلَّ عَنَاءَ حَمَإٍ (٥) سَنَفَرُوكَ فَلَا تَمَسُّ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ بِعَلَمِ الْغَيْبِ وَمَا يَخْفَى (٧) وَبَشِيرِ الْغَيْبِ (٨) فَذَكَّرْ لِنَقَمَتِ الذِّكْرِ (٩) سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَتَسْجُدُ الْأَنْفُسُ (١١) الَّذِي يَصَلِّ الْأَنْزَارَ الْكُفْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَخَى (١٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى - يعني ابن أيوب الغافقي - حدثنا عمي إياس بن عامر، سمعت عقبه بن عامر الجهني لما نزلت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (١٣) [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزلت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، قال: «اجعلوها في سجودكم». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث ابن المبارك، عن موسى بن أيوب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم النبطي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، قال: «سبحان ربي الأعلى». وهكذا رواه أبو داود عن زهير بن حرب، عن وكيع، به. وقال: «خولف فيه وكيع، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، موقوفاً». وقال الثوري، عن السدي، عن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، فقال: سبحان ربي الأعلى. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حُكَّام بن عَنَسَةَ، عن أبي إسحاق الهمداني: أن ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، يقول: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) [القيامة: ١] فأتى على آخرها: ﴿الَّذِينَ يَذَرُونَ عَلَىٰ الْأَنْفُسِ الْوَيْلَ﴾ (١) [القيامة: ٤٠] يقول: سبحانك وبلى.

وقال قتادة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها، قال: «سبحان ربي الأعلى». وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَوَسَّى﴾ (٢) : أي: خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات. وقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣) : قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتها. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] أي: قدر قدراً، وهدى الخلاق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) : أي: من جميع صنوف النباتات والزرع، ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٥) : قال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد، وقاتدة، وابن زيد، نحوه. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غشاً بعد ذلك. ثم قال ابن جرير: وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب؛ لمخالفته أقوال أهل التأويل. وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ أَيُّهَا مُحَمَّدٌ﴾ (٦) : يا محمد ﴿فَلَا تَسْبُحُ﴾ (٧) : وهذا إخبار من الله، ﷻ، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (٨) : وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَسْبُحُ﴾ : طلب، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ، أي: لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه؛ فلا عليك أن تتركه. وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا﴾ (٩) : أي: يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله تعالى: ﴿وَيُنَبِّئُكَ لِتَتَرَى﴾ (١٠) : أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشر لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (١١) : أي: ذكر حيث تنفع التذكرة. ومن ها هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! وقوله: ﴿سَيَذَكَّرُكَ مِنْ بَعْثِنَا﴾ (١٢) : أي: سيتعظ بما تبلغه - يا محمد - من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿وَنَجِّنِيكَ مِنَ الْآثَمَى﴾ (١٣) : الذي يصل آثار الكثرى (١٤) : ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٥) : أي: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضره عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سليمان - يعني التيمي - عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها لا يموتون ولا يحيون، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم في النار فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجل أنصاره فينبئهم - أو قال: ينبئون - في نهر الحياة - أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة فينبئون - نبات الحبة في حميل السيل». قال: وقال النبي ﷺ: «أما ترون الشجرة تكون خضراء، ثم تكون صفراء أو قال: تكون صفراء ثم تكون خضراء؟» قال: فقال بعضهم: كأن النبي ﷺ كان بالبادية. وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضباط ضباط، فنبتوا على أنهار الجنة، فقال: يا أهل الجنة، أفيصوا عليهم. فينبئون نبات الحبة تكون في حميل السيل». قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية. ورواه مسلم في حديث بشر بن المفضل وشعبة، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن زيد، به مثله. ورواه أحمد أيضاً عن يزيد، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة، حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون ضباط فيلقون على أنهار الجنة، أو: يرش عليهم من أنهار الجنة فينبئون كما تنبت الحبة في حميل السيل». وقد قال الله إخباراً عن أهل النار: ﴿وَكَاذِبًا يَمُوتُ لِقَابِ رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّكِيدُونَ﴾ (١٦) [الزخرف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَفْضَنُ عَلَيْهِمْ فَمُوتُوا وَلَا يُحْيَفْ عَنْهُمْ رَبُّكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (١٧) إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٨) : وذكر اسم ربه فصل (١٩) : بل تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٠) : وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتُمْ (٢١) : إِنَّ هَذَا لَبِئْسَ الْأَوَّلُ (٢٢) : صُوفِ

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) : أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) : أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله. وقد قال

الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد العرزمي، حدثنا عمي محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤)، قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أنني رسول الله»، و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥)، قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها». ثم قال: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وكذا قال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس. واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني عمرو بن عبد الحميد الأملي، حدثنا مروان بن معاوية، عن أبي خلدة قال: دخلت على أبي العالية فقال لي: إذا غدوت غداً إلى العيد فمر بي. قال: فمررت به فقال: هل طعمت شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني ما فعلت بركاتك؟ قلت: وكأنك قلت: قد وجَّهتها؟ قال: إنما أردت لك لهذا. ثم قرأ: ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥). وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء. قلت: وكذلك رويها عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥). وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة، فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥). وقال قتادة في هذه الآية ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥): زكى ماله وأرضى خالقه. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاتهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟! قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ذؤيب، عن أبي إسحاق، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارٌ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن عطاء، عن عرفة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١) فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) ترك القراءة، وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فآخترنا هذا العاجل وتركتنا الآجل. وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد: حديث سليمان بن داود الهاشمي، حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، فأثروا ما يبقى على ما يفنى». تفرد به أحمد. وقد رواه أيضاً عن أبي سلمة الخزامي، عن الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، به مثله سواء. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنِّي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صحَّفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩). قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا نصر بن علي، حدثنا معتمر بن سليمان، عن أبيه عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنِّي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صحَّفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩). قال النبي ﷺ: «كان كل هذا - أو: كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى». ثم قال: لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس غير هذا، وحديثاً آخر أورده قبل هذا.

وقال النسائي: أخبرنا زكريا بن يحيى، أخبرنا نصر بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١) قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت: ﴿وَابْتِهَيْمَ الَّذِي وَفَى﴾ (٢٧) [النجم: ٣٧] قال: وفى ﴿أَلَا نُرَدُّ وَرَدَّهُ وَنُرَدُّ نُقْرَهُ﴾ (٢٨) [النجم: ٣٨]. يعني أن هذه الآية كقوله في سورة «النجم»: ﴿إِنَّمَا لَمْ يَلِدْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٢٩) و﴿وَابْتِهَيْمَ الَّذِي وَفَى﴾ (٢٧) أَلَا نُرَدُّ وَرَدَّهُ وَنُرَدُّ نُقْرَهُ (٢٨) وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٠) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٣١) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأُولَى (٣٢) وَأَنَّ لَكَ رَبِّكَ الْمُتَبَيَّنَّ (٣٣) [النجم: ٣٦: ٤٢]. . . الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عكرمة - فيما رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفیان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة - في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنِّي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صحَّفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)، يقول: الآيات التي في سبوح اسم ربك الأعلى. وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَلْفَحَ مِنْ تَرَكِّي﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ أَسَدٌ رَبِّيَ فَصَلَّى﴾ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَكُنِّي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صحَّفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩). وهذا اختيار حسن قوي. وقد روي عن قتادة وابن زيد، نحوه. والله أعلم.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية. قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْكَافِلُ﴾ (١)، والغاشية في صلاة العبد ويوم الجمعة. وقال الإمام مالك، عن ضمرة بن سعيد، عن عبيد الله بن عبد الله: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١). رواه أبو داود عن القسطنطي، والنسائي عن قتيبة، كلاهما عن مالك، به. ورواه مسلم وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، عن ضمرة بن سعيد، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ (٣) ﴿صَلَّ نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) ﴿شَقَقَ مِنْ عَيْنَيْهَا رِيًّا﴾ (٥) ﴿لَيْسَ لَهَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ (٦) ﴿لَا يَسْتَوِي وَلَا يَتَّبِعُهُ خُفٌّ﴾ (٧).

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد؛ لأنها تغشى الناس وتغتهم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) فقام يستمع ويقول: «نعم، قد جاءني». وقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢) أي: ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله: ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ (٣) أي: قد عملت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصلبت يوم القيامة ناراً حامية. وقال الحافظ أبو بكر البرقاني: حدثنا إبراهيم بن محمد المُرَازِقي، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: مر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب يا راهب. فأشرف. قال: فجعل عمر ينظر إليه ويكي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله، ﷻ، في كتابه ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ (٣) ﴿صَلَّ نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤)، فذاك الذي أبكاني. وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ (٣): النصارى. وعن عكرمة، والسدي: ﴿عَايِلَةٌ﴾ في الدنيا بالمعاصي ﴿نَّاصِيَةٌ﴾ في النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿صَلَّ نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) أي: حارة شديدة الحر. ﴿شَقَقَ مِنْ عَيْنَيْهَا رِيًّا﴾ (٥) أي: قد انتهى حرها وغلبيتها. قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ (٦) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: شجر من نار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشبرق. قال قتادة: قرش تسميه في الربيع: الشبرق، وفي الصيف: الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له: الشبرق، يسميه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو سم. وقال معمر، عن قتادة: ﴿إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾: هو الشبرق، إذا يبس سمي الضريع. وقال سعيد، عن قتادة: ﴿لَيْسَ لَهَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ (٦): من شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي وَلَا يَتَّبِعُهُ خُفٌّ﴾ (٧) يعني: لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيِّنَةَ﴾ (١١) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْزُوعَةٌ﴾ (١٣) ﴿وَأَكْوَابُ مَوْسُوعَةٌ﴾ (١٤) ﴿وَقَارُورٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥) ﴿وَزَكَرِيُّ مَشْهُودَةٌ﴾ (١٦).

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) أي: يعرف النعيم فيها. وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) قد رضيت عملها. وقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠) أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيِّنَةَ﴾ (١١) أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو. كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا لَغْوًا فِيهَا وَلَا تَأْتِيَةٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (١٠) إلا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (١٠). [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) أي: سارحة. وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو:

من تحت جبال - المسك». ﴿وَبِهَا سُرٌّ مَّرْجُومَةٌ﴾ (١٧) ﴿أَي: عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةٌ الْفَرَشِ، مَرْفَعَةٌ السَّمَكِ، عَلَيْهَا الْحُورُ الْعَيْنُ. قَالُوا: فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللَّهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السَّرْرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ، ﴿وَأَكْرَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (١٨) يَعْنِي: أَوَانِي الشَّرْبِ مَعْدَةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا، ﴿وَتَأْرَاقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٩) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّمَارِقُ: الْوَسَائِدُ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ وَغَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ ﴿وَزَيَّاظٌ مَبْنُوثَةٌ﴾ (٢٠)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّرَابِيُّ: الْبَسْطُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَمَعْنَى مَبْنُوثَةٌ، أَي: هَا هُنَا وَهَا هُنَا لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا. وَنَذَرَ هَا هُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَهَاجِرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ الْمَعَاوَرِيِّ، عَنِ سَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى: حَدَّثَنِي كُرَيْبٌ أَنَّهُ سَمِعَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا هَلْ مِنْ مُشَمَّرٍ لِلجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نَوْرٌ يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مَطْرَدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَرْضِ دَارِ سَلِيمَةَ، وَفَاكِهِةٌ خَضْرَاءُ، وَحَبْرَةٌ وَنَعْمَةٌ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَيْهَةِ؟». قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ الْمَشَمَّرُونَ لَهَا. قَالَ: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ». قَالَ الْقَوْمُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَثْمَانَ الدَّمَشَقِيِّ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مَسْلَمٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَهَاجِرٍ، بِهِ.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢١) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٢٢) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٣) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٤) فَذَكَّرُوا نِمَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ يَمْدَبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢١)؟ فإنها خلقت عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتتقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، ويتنفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونهبوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت؟ أي: كيف رفعها الله ﷻ، عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٢١) ﴿لَقَدْ أَقْرَبْنَا﴾ (٢٢) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٣) أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لثلاث تميم الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن. ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٤)؟ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدر خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. وهكذا أقسم «ضمام» في سؤاله على رسول الله ﷺ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كنا نهيئنا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: «صدق». قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً. قال: «صدق». قال: ثم ولى فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئاً. فقال النبي ﷺ: «إِنْ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

وقد رواه مسلم، عن عمرو الناقد، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به. وعلقه البخاري. ورواه الترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة به. ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن أنس، به بطوله، وقال في آخره: «وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها ترعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أمه، من خلقتك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلقتني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: إني لأسمع لله شأنًا. وألقى نفسه من الجبل فتقطع. قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا.

قال ابن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا. في إسناده ضعف، وعبد الله بن جعفر هذا هو المدني، ضعفه ولده الإمام علي بن المدني وغيره. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢٦) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٧﴾ أي: فذكر- يا محمد- الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٧). قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢٦) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٧﴾. وهكذا رواه مسلم في كتاب «الإيمان»، والترمذي والنسائي في كتابي «التفسير» من سننهما، من حديث سفيان بن سعيد الثوري، به بهذه الزيادة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة، بدون ذكر هذه الآية. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَتَرَ﴾ (٢٨) أي: تولى عن العمل بأمره، وكفر بالحق بجنانه ولسانه. وهذه كقوله: ﴿فَلَا مَنكُ وَلَا مَكْلَ﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلٌ ﴿٣٢﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿يَعِذُّنَا اللَّهُ مِنَ الْمَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ (٢٩). قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي هلال، عن علي بن خالد: أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». تفرد بإخراجه الإمام أحمد، وعلي بن خالد هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه، ولم يزد على ما هنا: «روى عن أبي أمامة، وعنه سعيد بن أبي هلال». وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٣٥) أي: مرجعهم ومقلبهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٣٦) أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

آخر تفسير سورة «الغاشية» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الفجر

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم، أخبرني يحيى بن سعيد، عن سليمان، عن محارب بن دثار وأبي صالح، عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطول، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذً فقال: منافق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه فطول علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي. فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) و﴿وَأَلْمَسْهَا﴾ (٢) و﴿الْفَجْرِ﴾ و﴿وَأَلَيْلَ إِذَا يَبَسُ﴾ (٣)».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَيَلَالِ عَشْرِ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَأَلَيْلِ إِذَا يَسَّرُ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِنْ مَكَانُ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي الْبَلَدِ (٨) وَتُؤَدُّ إِلَيْهِ جَالُوا الصَّخْرِ بِالْوَادِ (٩) وَوَرَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبَلَدِ (١١) فَأَكْفَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤).

أما الفجر فمعروف، وهو: الصبح. قاله علي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي. وعن مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، كما قاله عكرمة. وقيل: المراد به جميع النهار. وهو رواية عن ابن عباس. والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة. كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء». وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد. وقد روى أبو كذبة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَيَلَالِ عَشْرِ﴾ (٢) قال: هو العشر الأول من رمضان. والصحيح القول الأول. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عياض بن عتبة، حدثني خير بن نعيم، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم

عرفة، والشفع يوم النحر». ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله، كل منهما عن زيد بن الحباب، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث زيد بن الحباب، به. وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندني أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾: قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة، لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر. وقاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضاً.

قول ثان: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثني عقبة بن خالد، عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ قلت: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى. قول ثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصهباني، حدثني أبي، عن النعمان - يعني ابن عبد السلام - عن أبي سعيد بن عوف، حدثني بمكة قال: سمعتُ عبد الله بن الزبير يخطبُ الناس، فقام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الشفع والوتر. فقال: الشفع قول الله، ﷻ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والوتر قوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقال ابن جريج: أخبرني محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق. وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». قول رابع: قال الحسن البصري، وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع، ووتر، أقسم تعالى بخلقه. وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب. قول خامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الشفع الزوج، والوتر: الله ﷻ. وقال أبو عبد الله، عن مجاهد: الله الوتر، وخلقه الشفع، الذكر والأنثى. وقال ابن أبي نجيب، عن مجاهد قوله: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾: كل شيء خلقه شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا. ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِمَا لَكُمْ أَنْ تَدْرُكُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد.

قول سادس: قال قتادة، عن الحسن: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾: هو العدد، منه شفع ومنه وتر. قول سابع: في الآية الكريمة رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جريج، ثم قال ابن جرير: ورؤي عن النبي ﷺ خبر يؤيد القول الذي ذكرنا عن أبي الزبير: حدثني عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا زيد بن الحباب، أخبرني عياش بن عقبة، حدثني خير بن نعيم، عن أبي الزبير، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «الشفع اليومان، والوتر اليوم الثالث». وهكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ في رواية أحمد والنسائي وابن أبي حاتم، وما رواه هو أيضاً، والله أعلم. قال أبو العلية، والربيع بن أنس، وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار. وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة، عن عمران بن حصين: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: هي الصلاة المكتوبة، منها شفع ومنها وتر. وهذا منقطع وموقوف، ولفظه خاص بالمكتوبة. وقد روي متصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه عام، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام: أن شيخاً حدثه من أهل البصرة، عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة، بعضها شفع، وبعضها وتر». هكذا وقع في المسند، وكذا رواه ابن أبي جرير عن بُنْدَارٍ، عن عفان وعن أبي كُرَيْبٍ، عن عبيد الله بن موسى، كلاهما عن همام - وهو ابن يحيى - عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن شيخ، عن عمران بن حصين. وكذا رواه أبو عيسى الترمذي، عن عمرو بن علي، عن ابن مهدي وأبي داود، كلاهما عن همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين، به. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث قتادة، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة. وقد روي عن عمران بن عصام، عن عمران نفسه، والله أعلم. قلت: ورواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام الضبي - شيخ من أهل البصرة - عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ فذكره، هكذا رأيت في تفسيره، فجعل الشيخ البصري هو عمران بن عصام الضبي.

وهكذا رواه ابن جرير: حدثنا نصر بن علي، حدثني أبي، حدثني خالد بن قيس، عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ في الشفع والوتر قال: «هي الصلاة منها شفع، ومنها وتر». فأسقط ذكر الشيخ المبهم، وتفرد به عمران بن عصام الضبي أبو عماره البصري، إمام مسجد بني ضبيعة وهو والد أبي جمره نصر بن عمران الضبي. روى عنه

قتادة، وابنه أبو جمرة، والمثنى بن سعيد، وأبو التياح يزيد بن حميد. وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وذكره خليفة بن خياط في التابعين من أهل البصرة، وكان شريفاً نبيلاً حطياً عند الحجاج بن يوسف، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث، وليس له عند الترمذي سوى هذا الحديث الواحد. وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبهه، والله أعلم. ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر. وقوله: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: أي إذا ذهب. وقال عبد الله بن الزبير: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: حتى يذهب بعضه بعضاً. وقال مجاهد، وأبو العالية، وقاتدة، ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس، أي: ذهب. ويحتمل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿وَالْقَمَرِ﴾، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾، على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا عَسَسَ﴾ (٧) و﴿أَشْفَجَ إِذَا نَفَسَ﴾ (٨) [التكوير: ١٧، ١٨]. وكذا قال الضحاك: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: أي: يجري. وقال عكرمة: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: يعني: ليلة جمع. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو عامر، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال: سمعت محمد بن كعب القرظي، يقول في قوله: ﴿وَأَيْتِلْ إِذَا يَسَّرَ﴾: قال: اسري سار ولا تبين إلا بجمع. وقوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ مَسْمُومٌ لَذِي عَقْلٍ وَلِبْ وَحْجٍ وَدِينٍ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حَجْرًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَمَنْهَ حَجَرٌ الْبَيْتُ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّائِفَ مِنَ اللَّصُوقِ بِجِدَارِهِ الشَّامِيِّ. وَمَنْهَ حَجَرُ الْيَمَامَةِ، وَحَجَرُ الْحَاكِمِ عَلَى فُلَانٍ: إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ، وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبفلس العباد من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقنون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم. ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِي﴾، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسوله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِي﴾ (٧) وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً، عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابٌ فَجَلَّيْوْا﴾ (٧) ﴿فَعَلَّ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاطِنِهِ﴾ (٨) [الحاقة: ٧، ٨]. وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون. فقوله تعالى: ﴿إِذْ ذَاتَ الْآيَمَادِ﴾ (٧) عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. وقوله: ﴿ذَاتَ الْآيَمَادِ﴾: لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ هُودٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسَلَةً فَآذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَمَّا كَرَّ قُلُوبُهُمْ﴾ (١٦) [الأعراف: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَأَوَّلَ رِوَادًا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال ها هنا: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَسْئَلُهَا فِي الْيَلْدِ﴾ (٨) أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدهم وعظم تركيهم.

قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عاداً الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسُدِّيُّ: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد، وقاتدة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتَ الْآيَمَادِ﴾: كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال العوفي، عن ابن عباس: إنما قيل لهم: ﴿ذَاتَ الْآيَمَادِ﴾ لطولهم. واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب. وقوله: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَسْئَلُهَا فِي الْيَلْدِ﴾ (٨): أعاد ابن زيد الضمير على العماد؛ لارتفاعها، وقال: بنوا عمداً بالأحفاف لم يخلق مثلها في البلاد. وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم. وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يَخْلُقْ يَسْئَلُهَا فِي الْيَلْدِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني معاوية بن صالح، عن حدثه، عن المقدم، عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «كان الرجل منهم يأتي على صخرة فيحملها على الحي فيهلكهم». ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو الطاهر، حدثنا أنس بن عياش، عن ثور بن زيد الديلي. قال: قرأت كتاباً - قد سمي حيث قرأه -: أنا شداد بن عاد، وأنا الذي رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع، لا يخرجها إلا أمة محمد ﷺ. قلت: فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحاً

يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما وضع، المقرونون بشمود كما ها هنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِزْمَ ذَاتِ أَلْمَادِ﴾ ﴿٧﴾ مدينة: إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو إسكندرية كما زوي عن القرظي، أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتزم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ﴾ ﴿٦﴾ ﴿إِزْمَ ذَاتِ أَلْمَادِ﴾ ﴿٧﴾، إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

وإنما نهبت على ذلك لثلاث يُعْتَرَّ بِكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: ﴿إِزْمَ ذَاتِ أَلْمَادِ﴾ ﴿٧﴾، مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصباها لآلىء وجواهر، وترابها بتنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفّر، ليس بها دأع ولا محجيب. وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك. وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب - وهو عبد الله بن قلابة - في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً. وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة ﴿إِزْمَ ذَاتِ أَلْمَادِ﴾ ﴿٧﴾ ها هنا مطولة جداً، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته. وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطر الذهب والفضة، واللوان الجواهر واليواقيت، واللالىء والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاير، ونحو ذلك من الهذيان، ويطنزون بهم. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للضوابط.

وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِزْمَ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرف فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ﴿١١﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. ومنه يقال: «مُجتَابِي التمار». إذا خرقوها، واجتأب الثوب: إذا فتحه. ومنه الجيب أيضاً. وقال الله تعالى: ﴿وَتَجَنَّبُوكَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُبِئَ لَهَا قُدْرُوهَا﴾ ﴿١٢﴾ [الشعراء: ١٢٤٩]. وأشد ابن جرير وابن أبي حاتم ها هنا قول الشاعر:

ألا كُلُّ شيءٍ - ما خلا الله - بائذٌ
مُمُ ضرُّوا في كُلِّ صَمَاءٍ صعدة
وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى. وقد ذكرنا قصة «عاد» مستقصاة في سورة «الأعراف» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَمُؤَمَّرِي الأَرْدَنِ﴾ ﴿١٣﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه. وقال قتادة: بلغنا أنه كانت له مطالٌ وملاعب، يلعب له تحتها، من أوتاد وحبال. وقال ثابت البناني، عن أبي رافع: قيل لفرعون ﴿ذِي الأَرْدَنِ﴾؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. وقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الأَلْبَدِ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الفَسَادَ﴾ ﴿١٥﴾ أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ﴿١٦﴾ أي: أنزل عليهم رجلاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ﴿١٧﴾: قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلّا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلاق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلّا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور. وقد ذكر ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً جداً. وفي إسناده نظر وفي صحته - فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة

البيساني، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن لدى الحق أسير. يا معاذ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم خلف ظهره. يا معاذ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله، ﷻ، فالقرآن دليله، والخوف محجته، والشوق مطيته، والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياء وزيره، وربّه، ﷻ، من وراء ذلك كله بالمرصاد». قال ابن أبي حاتم: يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان، وأبو حمزة عن معاذ مرسل. ولو كان عن أبي حمزة لكان حسناً. أي: لو كان من كلامه لكان حسناً. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبيغ بن عبد الكلاعي: أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول: إن لجهنم سبع قناطر، قال: والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى، فيقول: ﴿وَقَفُّوهُمْ لِيَوْمِ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها، قال: فيهلك فيها من هلك، وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها، وكيف خانوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. قال: والرحم يومئذ متدلّية إلى الهوي في جهنم تقول: اللهم من وصلني فصله، ومن قطعني فاقطعه. قال: وهي التي يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرِصَادٍ﴾. هكذا أورد هذا الإثر ولم يذكر تمامه.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [١٥] وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى طِعَامِ الْوَسْكَانِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْثَلًا لَمَّا ﴿١٩﴾ وَحَيُّونَ الْمَالَ حَيًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى منكرأ على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ مِنْ مَالٍ مَبِينٍ ﴿٥٥﴾ شَرَاءَ لِمَ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنته وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر. وقوله: ﴿بَلْ لَا تَشْكُرُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي عتاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وقال أبو داود: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا عبد العزيز - يعني ابن أبي حازم - حدثني أبي، عن سهل - يعني ابن سعد - أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وقرن بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام. ﴿وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى طِعَامِ الْوَسْكَانِ﴾ يعني: لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْثَلًا لَمَّا﴾ أي: من أي جهة حصل لهم، من حلال أو حرام ﴿وَحَيُّونَ الْمَالَ حَيًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً - زاد بعضهم - فاحشاً.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ يَوْمَهُمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَنْدَسُّ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهَ الْزَكْرِيُّ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَلْتَسِي فَنَمَّتْ لِيَابِقِ ﴿٢٣﴾ يَوْمَئِذٍ لَأَ يَدُؤُا عَنَابَهُ أُمَّدٌ ﴿٢٤﴾ وَلَا يُؤُوقُ وَكَاةً أَمَدٌ ﴿٢٥﴾ بِأَنفِهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَةُ ﴿٢٦﴾ أَرْجَىٰ إِلَ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّخَبِّئَةً ﴿٢٧﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٨﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لرهبهم، ﴿وَجَاءَ يَوْمَهُمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَنْدَسُّ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهَ الْزَكْرِيُّ﴾ وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي التوبة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها». فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة «سبحان»، فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً. وقوله: ﴿وَجَاءَ يَوْمَهُمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ قال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن العلاء بن خالد الكاهلي، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن عمر بن حفص، به. ورواه أيضاً عن عبد الله بن حميد، عن

أبي عامر، عن سفیان الثوري، عن العلاء بن خالد، عن شقيق بن سلمة - وهو أبو وائل - عن عبد الله بن مسعود، قوله ولم يرفعه. وكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن مروان بن معاوية الفزاري، عن العلاء بن خالد، عن شقيق، عن عبد الله، قوله. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: عمله وما كان أسلفه في قديم الدهر وحديثه، ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَ﴾ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَا تَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِيَالِي﴾ (٢٤) يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي - إن كان عاصياً - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعاً - كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله - يعني ابن المبارك - حدثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن محمد بن أبي عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هراماً في طاعة الله، لحقره يوم القيامة، ولو أنه يُرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب. ورواه بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن عتبة بن عبد، عن رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُدْرِكُ عَبْدًا مُدَّةً﴾ (٢٥) أي: ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿وَلَا يُؤْتِي وَكَافَهُ أَمَدً﴾ (٢٦) أي: وليس أحد أشد قبضاً ووقفاً من الزبانية لمن كفر بربه، ﴿وَإِنَّ فِي حَقِّ الْمَجْرِمِينَ مِنَ الْخَلِائِقِ وَالظَّالِمِينَ. فَأَمَّا النَّفْسُ الزُّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ وَهِيَ السَّاكِنَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ فَيَقَالُ لَهَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته، ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: في نفسها ﴿مَرْضِيَةً﴾ أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاهها، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ (٢٨) أي: في جملتهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٩). وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك ها هنا. ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروى الضحاك، عن ابن عباس: نزلت في عثمان بن عفان. وعن بريدة بن الحُصيب: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه. وقال العوفي، عن ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، يعني: صاحبك، وهو بدن الذي كانت تعمره في الدنيا، ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾. وروى عنه أنه كان يقرأها: «فادخلي في عبدي وادخلي جنتي». وكذا قال عكرمة الكلبي، واختاره ابن جرير، وهو غريب، والظاهر الأول؛ لقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ (الأنعام: ٦٢)، ﴿وَأَنْ مَرَدُّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ [غان: ٤٣] أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدُشْتُكي، حدثنا أبي، عن أبيه، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ (٢٨)، قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا. فقال: «أما إنه سيقال لك هذا».

ثم قال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن يمان، عن أشعث، عن سعيد بن جبير قال: قرأت عند النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ (٢٨)، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن هذا حسن. فقال له النبي ﷺ: «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت». وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن ابن يمان، به. وهذا مرسل حسن. ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مروان بن شجاع الجزري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقه، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن ثلثت هذه الآية على شفير القبر، ما يدرى من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠). رواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن أبيه، عن مروان بن شجاع، عن سالم بن عجلان الأفطس، به فذكره. وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشُكْر - في كتاب «العجائب» بسنده عن قُبات بن رزين أبي هاشم قال: أسرت في بلاد الروم، فجمعنا الملك وعرض علينا دينه، على أن من امتنع ضربت عنقه. فارتد ثلاثة، وجاء الرابع فامتنع، فضربت عنقه، وألقي رأسه في نهر هناك، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال: يا فلان، ويا فلان، ويا فلان - يناديهم بأسمائهم - قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠). ثم غاص في الماء، قال: فكادت النصارى أن يسلموا، ووقع سرير الملك، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام. قال: وجاء الغداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا. وروى الحافظ ابن عساکر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي، عن أبيها: حدثني سليمان بن حبيب المحاربي، حدثني أبو أمامة: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم، إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلغائك، وترضى بقضائك، وتقع بعطائك». ثم روى عن سليمان بن وبرة أنه قال: حديث رواحة هذا واحد أمه.

تفسير سورة البلد

وهي مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَمْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَمَفْتَنِينَ ﴿٩﴾ وَمَقَدِنَاتٍ الْجَنَّةِ ﴿١٠﴾﴾

هذا قسم من الله ﷻ بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالاً؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها. قال خفيف، عن مجاهد: ﴿لَا أَمْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾: لا ارد عليهم؛ أقسم بهذا البلد. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَا أَمْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ يعني: مكة، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ قال: أنت - يا محمد - يحل لك أن تقابل به. وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح، وعطية، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال قتادة: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ قال: أنت به من غير حرج ولا إثم. وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار. وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بخمرة الله إلى يوم القيامة، لا يُعصد شجره ولا يختلى خلاه. وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب». وفي لفظ آخر: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾﴾: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، عن شريك، عن خفيف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾﴾: الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شريك - وهو ابن عبد الله القاضي - به. وقال عكرمة: الوالد: العاقر، وما ولد: الذي يلد. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والضحاك، وسفيان الثوري، وسعيد بن جبير، والسدي، والحسن البصري، وخفيف، وشرحبيل بن سعد وغيرهم: يعني بالوالد آدم، وما ولد ولده. وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده. وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده. وهو محتمل أيضاً. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وخثيمة، والضحاك، وغيرهم: يعني منتصباً - زاد ابن عباس في رواية عنه - في بطن أمه. والكبد: الاستواء والاستقامة. ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سوياً مستقيماً كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ ﴿١﴾ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسْوَكًا فَصَلِّكَ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ [التين: ٤]. وقال ابن أبي نجیح جريح وعطاء، عن ابن عباس: في كبد، قال: في شدة خلق، ألم تر إليه. وذكر مولده ونبات أسنانه. قال مجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه يتكبد في الخلق - قال مجاهد - وهو كقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْمًا وَوَضَعَتْهُ كُرْمًا ﴿١﴾﴾ [الأحاف: ١٥]، وأرضعته كرمها، ومعيشته كره، فهو يكابد ذلك. وقال سعيد بن جبير: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: في شدة وطلب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول. وقال قتادة: في مشقة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو عاصم، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، سمعت محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلاً من الأنصار عن قول الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ قال: في قيامه واعتداله. فلم يُنكر عليه أبو جعفر. وروي من طريق أبي مودود: سمعت الحسن قرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ قال: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة - وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة. وقال ابن زيد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ قال: آدم خلق في السماء، فسُمي ذلك الكبد. واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ قال الحسن البصري: يعني يحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله. وقال قتادة: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ قال: ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفق؟ وقال السدي: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾

أَسَدٌ ﴿٥﴾ قال: قال الله ﷻ. وقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ﴿٦﴾ أي: يقول ابن آدم: أنفقت ما لا لبدا، أي: كثيراً. قاله مجاهد والحسن، وقاتدة، والسدي، وغيرهم. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٧﴾: قال مجاهد: أي يحسب أن لم يره الله ﷻ. وكذا قال غيره من السلف. وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿٨﴾ أي: يبصر بهما، ﴿وَلِسَانًا﴾ أي: ينطق به، فيعبر عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه. وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي، عن مكحول قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، قد أنعمت عليك نعماً عظماً لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما. وجعلت لك لساناً، وجعلت له غلاًفاً، فانطق بما أمرك وأحللت لك، فإن عرض لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك. وجعلت لك فرجاً، وجعلت لك سترأ، فأصّب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض لك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك. يا ابن آدم، إنك لا تحمل سخطى، ولا تطيق انتقامى». ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٩﴾. قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زرّ، عن عبد الله - هو ابن مسعود -: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ قال: الخير والشر. وكذا روي عن علي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبي وائل، وأبي صالح، ومحمد بن كعب، والضحاك، وعطاء الخراساني في آخرين. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير». تفرد به سنان بن سعد - ويقال: سعد بن سنان - وقد وثقه ابن معين. وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمد: تركت حديثه لاضطرابه. وروي خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها حديثاً واحداً. يشبه حديثه حديث الحسن - يعني البصري - لا يشبه حديث أنس. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليّة، عن أبي رجاء قال: سمعت الحسن يقول: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١١﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس، إنهما النجدان، نجد الخير ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير». وكذا رواه حبيب بن الشهيد، ويونس بن عبيد، وأبو وهب، عن الحسن مرسلأ. وهكذا أرسله قتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمام الأنصاري، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عيسى بن عقال، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٢﴾ قال: الثديين. وروي عن الربيع بن خثيم، وقاتدة وأبي حازم، مثل ذلك. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن عيسى بن عقال، به. ثم قال: والصواب القول الأول. ونظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طُفْلَةٍ أَشْجَاجٍ يُتَّبِعُهُ فَمَلَلْتَهُ سِيمًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفَرُوا﴾ ﴿١٤﴾ ﴿الإنسان: ٢، ١٣﴾. ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَلَك رَقَبَةٌ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿أَوْ لَطَمَةٌ فِي يَوْمٍ ذِي سَعْتَةٍ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿يَبِيسًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿أَوْ يَسْكِبُكَ ذَا مَرَبَةٍ﴾ ﴿٢٠﴾ ثُرٌّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ مَوَّصُونَ بِالنَّارِ وَمَوَّصُونَ بِالنَّارِ وَمَوَّصُونَ بِالرَّحْمَةِ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿أُولَئِكَ أَحْسَبُ الْآيَاتِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعِينَ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ ﴿٢٤﴾.

قال ابن جرير: حدثني عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١٥﴾ قال: جبل في جهنم. وقال كعب الأحبار: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١٦﴾: هو سبعون درجة في جهنم. وقال الحسن البصري: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١٧﴾، قال: عقبة في جهنم. وقال قتادة: إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ﴿١٨﴾. ثم أخبر عن اقتحامها فقال: ﴿فَلَك رَقَبَةٌ﴾ ﴿١٩﴾ أو لَطَمَةٌ. وقال ابن زيد: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فَلَك رَقَبَةٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أو لَطَمَةٌ. قريء: ﴿بِالإضافة، وقُريء على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعول وكلتا القراءتين معناهما متقاربان.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا عبد الله - يعني ابن سعيد بن أبي هند - عن إسماعيل بن أبي حكيم - مولى آل الزبير - عن سعيد بن مرجانة: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج». فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لعلام له - أقرّة غلامه - ادع مطرفاً. فلما قام بين يديه قال: اذهب فانت حر لوجه الله. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن سعيد بن مرجانة، به. وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم. وقال قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي نجيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من

عظامها عظماً من عظامها من النار». رواه ابن جرير هكذا. وأبو نجیح هذا هو عمرو بن عبسة السلمی، رضي الله عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقیة، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم: أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم. ومن شاب شيبة في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة».

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا حريز؛ عن سليم بن عامر: أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة: حدثنا حديثاً ليس فيه تزويد ولا نسيان. قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار، غُضوا بعضو. ومن شاب شيبة في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم فإصاب أو أخطأ، كان كعمتق رقبة من بني إسماعيل». وروى أبو داود، والنسائي بعضه. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان، عن أبي أمامة، عن عمرو بن عبسة: قال السلمی: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته عن رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم. قال: سمعته يقول: «من وُلد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الجنت، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله، بلغ به العدو، أصاب أو أخطأ، كان له عتق رقبة. ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها». وهذه أسانيد جيدة قوية، والله الحمد والمنة.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عيسى بن محمد الرملي، حدثنا ضمرة، عن ابن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي قال: أتينا وائلة بن الأسقع فقلنا له: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته، فيزيد وينقص. قلنا: إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار». وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي، عن وائلة، به. حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا هشام، عن قتادة، عن قيس الجذامي، عن عقبة بن عامر الجهني: أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار». وحدثنا عبد الوهاب الخفاف، عن سعيد، عن قتادة قال: ذكر أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا: حدثنا عيسى بن عبد الرحمن البجلي - من بني بجيلة - من بني سليم - عن طلحة - قال أبو أحمد: حدثنا طلحة بن مصرف، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة. فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة. أعتق النسمة، وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطَق ذلك فاطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير». وقوله: «أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ ﴿١٥﴾»: قال ابن عباس: ذي مجاعة. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة، وغير واحد. والسَّعْب: هو الجوع. وقال إبراهيم النَّحْعي: في يوم الطعام فيه عزيزٌ. وقال قتادة: في يوم يُشْتَهَى فيه الطعام. وقوله: «يَتِيمًا ﴿١٦﴾ أَي: أَطْعَمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَتِيمًا، «ذَا مَرَّيْبٍ ﴿١٧﴾ أَي: ذَا قَرَابَةِ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسَّدْيِيُّ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سَيْرِينَ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحْمِ اثْنَتَانِ، صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ». وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ: «أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَرَّيْبٍ ﴿١٦﴾ أَي: فَقَبْرًا مُدْقَعًا لاصِقًا بِالتُّرَابِ، وَهُوَ الدَّقْعَاءُ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «ذَا مَرَّيْبٍ ﴿١٧﴾ هُوَ الْمَطْرُوحُ فِي الطَّرِيقِ، الَّذِي لَا بَيْتَ لَهُ، وَلَا شَيْءَ يَبْقِيهِ مِنَ التُّرَابِ - وَفِي رِوَايَةٍ: هُوَ الَّذِي لَصِقَ بِالدَّقْعَاءِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ - وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ الْبَعِيدُ التُّرْبَةَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: يَعْنِي الْغَرِيبَ عَنْ وَطَنِهِ. وَقَالَ عَكْرَمَةُ: هُوَ الْفَقِيرُ الْمَدْيُونُ الْمَحْتَاجُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ لَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ، وَقَتَادَةُ، وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: هُوَ ذُو الْعِيَالِ. وَكُلُّ هَذِهِ قَرِيبَةُ الْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١٨﴾ أَي: ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ، مُؤْمِنٌ بقلبه، مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٩] وَقَالَ: «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿٢٠﴾ [النحل: ٩٧]. وَقَوْلُهُ: «وَتَوَّاصُوا

يَالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ أَي: كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم. كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وفي الحديث الآخر: «لا يَزْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَزْحَمُ النَّاسَ». وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن ابن عامر، عن عبد الله بن عمرو - يرويه - قال: «من لم يَزْحَمْ صغيرنا ويعرف حقَّ كبيرنا، فليس منا». وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١٧) أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١٨) أي: أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٢٠) أي: مطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. قال أبو هريرة، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والسدي: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مطبقة. قال ابن عباس: مغلقة الأبواب. وقال مجاهد: أسد الباب بلغة قريش: أي أغلقه. وسيأتي في ذلك حديث في سورة: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هَمَزٍ لَمْرُؤًا﴾ (١). وقال الضحّاك: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾: حيط لا باب له. وقال قتادة: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا في الحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أوصدوها عليهم، أي: أطبقوها. قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يدوقون فيها بارد شراب أبداً. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة «البلد» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة والشمس وضحاها

وهي مكية. تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١)، و﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (٢) و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشُدُّ﴾ (٣)؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَشُنُّهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّتْهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا حَمَلَتْهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّبَهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠).

قال مجاهد: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) أي: وضوئها. وقال قتادة: ﴿وَضُحَاهَا﴾: النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾ (٢) قال مجاهد: تبعها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾ (٢) قال: يتلو النهار. وقال قتادة: ﴿إِذَا تَلَّهَا﴾: ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه. وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر. وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٣) قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٣) أي: إذا غشيها النهار. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، لدلالة الكلام عليها. قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٣) أي: البسيطة، لكان أولى، ولصح تأويله في قول الله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَشُنُّهَا﴾ (٤)، فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٣) إنه كقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّتْ﴾ (١). [الليل: ٢]. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس، لجريان ذكرها. وقالوا في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَشُنُّهَا﴾ (٤) يعني: إذا يغشى الشمس حين تغيب، فتظلم الآفاق. وقال بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان، حدثني يزيد بن ذي حمامة قال: إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل يهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّتْهَا﴾ (٥): يحتمل أن يكون «ما» هنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها. وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «من» يعني: والسماء وبنائها. وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْتٍ﴾ (٦) أي: بقوة ﴿وَمَا كُوفِيْتُمْ﴾ (٧) وَالْأَرْضِ قَرَسْتَهَا فَنَمَّ الْمَهْدُونَ﴾ (٨) [الناربات: ٤٧، ٤٨]. وهكذا قوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا

لِحَنَاهَا ﴿١﴾: قال مجاهد: ﴿لِحَنَاهَا﴾: دحاها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا لِحَنَاهَا﴾ أي: خلق فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لِحَنَاهَا﴾: قسمها. وقال مجاهد، وقتادة والضحاك، والسُّدِّي، والثوري، وأبو صالح، وابن زيد: ﴿لِحَنَاهَا﴾: بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته، أي: بسطته. وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٢﴾: أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْفِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». أخرجه من رواية أبي هريرة. وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله: ﴿فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٣﴾: أي: فأرشدتها إلى فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٣﴾: بين لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري.

وقال سعيد بن جبيرة: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا: حدثنا عذرة بن ثابت، حدثني يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعفر، عن أبي الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضى عليهم. قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فرعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. قال: سددك الله، إنما سألت لأخبر عقلك، إن رجلاً من مؤمنة - أو جهينة - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضى عليهم». قال: فقيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهينه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾». رواه أحمد ومسلم، من حديث عذرة بن ثابت به. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ ﴿٤﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿٥﴾: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة. وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ﴿١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١٦﴾: أي: دسساها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانها إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو رزعة قالا: حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا أبو مالك - يعني عمرو بن هشام - عن جوبير، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ ﴿٤﴾ قال النبي ﷺ: «أفلحت نفس زكاهها الله». ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي مالك، به. وجوبير هذا: هو ابن سعيد، متروك الحديث، والضحاك لم يلق ابن عباس.

وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾ وقف، ثم قال: «اللهم أت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاهها». حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يعقوب بن حميد المدني، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي، حدثنا معن بن محمد الغفاري، عن حنظلة بن علي الأسلمي، عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾ قال: «اللهم أت نفسي تقواها، وزكاه أنت خير من زكاهها، أنت وليها ومولاها». لم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن نافع - يعني ابن عمر - عن صالح بن سعيد، عن عائشة: أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقمت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب، أعط نفسي تقواها، وزكاه أنت خير من زكاهها، أنت وليها ومولاها» تفرد به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عاصم الأحول، عن عبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم، والجبن والبخل وعذاب القبر. اللهم، أت نفسي تقواها وزكاه أنت خير من زكاهها، أنت وليها ومولاها. اللهم، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها». قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن. رواه مسلم من حديث أبي معاوية، عن عاصم

الأحول، عن عبد الله بن الحارث - وأبي عثمان النهدي، عن زيد بن أرقم، به .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۗ (١١) إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ۗ (١٢) فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۗ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۗ (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۗ (١٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي . وقال محمد بن كعب : ﴿ بَطَغَوْهَا ﴾ أي : بأجمعها . والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين . ﴿ إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ﴾ (١٢) أي : أشقى القبيلة ، هو قدار بن سالف عاقز الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذي قال تعالى : ﴿ قَادِرًا صَاحِبًا فَتَطَاوَى فَمَقَرًا ﴾ (التمر: ٢٢٩) . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً في قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زُعمرة قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها ، فقال : ﴿ إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ﴾ (١٢) : ابتعت لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه ، مثل زعمرة . ورواه البخاري في التفسير ، ومسلم في صفة النار ، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما ، وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن هشام بن عروة ، به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُعمرة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني يزيد بن محمد بن حُثيم ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن محمد بن حُثيم أبي يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ » . قال : بلى : قال : « رجالان ؛ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه » يعني : لحيته . وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعني : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أي : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أي : لا تعتدوا عليها في سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُوهَا ﴾ أي : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، ﴿ فَكَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : غضب عليهم ، فدمر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها . وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (١٥) : « فلا يخاف عقباها » . قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعه . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزني ، وغيرهم . وقال الضحاک والسدي : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (١٥) أي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع . والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

آخر تفسير «والشمس وضحاها»

تفسير سورة الليل

وهي مكية . تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : «فها صليت بـ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١) ، و﴿وَاللَّيْلِ وَمُضْحَاهَا﴾ (٢) ، و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى﴾ (٣) ؟» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا عَلَّقَ الْأَكْرُ الْأَعْيُنَ (٣) إِذْ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ (٤) فَمَا مِنْ أَشْفَى وَالْفَقْرِ (٥) وَوَدَّعَ الْيَمِينُ (٦) فَسَيِّئُوا لَيْسَتِي (٧) وَأَنَا مِنْ حَيْلٍ وَأَسْتَفْتِي (٨) وَكَذَّبَ الْيَمِينُ (٩) فَسَيِّئُوا لَيْسَتِي (١٠) وَمَا يَبْقَى عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة : أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقني جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) ؟ قال علقمة : «والذكر والأشئ» . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ ، فما زال هؤلاء حتى شككوني . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجبر من الشيطان على لسان النبي ﷺ . وقد رواه البخاري ها هنا ومسلم ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدتهم ، فقال : أيكم يقرأ

علي قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا بَتْنَ﴾ ﴿١﴾؟ قال: «والذكر والأنتى». قال: أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ: ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأَنْتَى﴾ ﴿٢﴾، والله لا أتابعهم. هذا لفظ البخاري: هكذا قرأ ذلك ابن مسعود، وأبو الدرداء - ورفعه أبو الدرداء. وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق: ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأَنْتَى﴾ ﴿٢﴾، فأقسم تعالى بي ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا بَتْنَ﴾ ﴿١﴾ أي: إذا غشي الخليفة بظلامه، ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ ﴿٣﴾ أي: بضياؤه وإشراقه، ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأَنْتَى﴾ ﴿٢﴾، كقوله: ﴿وَعَلَّقْنَاكَ أَرْوَامًا﴾ ﴿٤﴾ [النبا: ٨]، وكقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَلَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَيِّئًا لَشَقَّ﴾ ﴿٥﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّا مَنَّ أَعْطَى وَآتَى﴾ ﴿٦﴾ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ أي: بالمجازاة على ذلك - قاله قتادة -، وقال خصيف: بالشواب. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ أي: بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك: ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ أي: بلا إله إلا الله. وفي رواية عن عكرمة: ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ أي: بما أنعم الله عليه. وفي رواية عن زيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ قال: الصلاة والزكاة والصوم. وقال مرة: وصدقة الفطر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا زهير بن محمد، حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسن بن علي قال: «الحسن بن علي: الجنة». وقوله: ﴿فَسَيِّئَةٌ لِلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٧﴾ قال ابن عباس: يعني للخير. وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنات بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مَنَّ نَجَلْ﴾ ﴿٨﴾ أي: بما عنده، ﴿وَأَسْتَفَقَّ﴾ ﴿٩﴾ قال عكرمة: عن ابن عباس: أي بخل بماله، واستغنى عن ربه، ﷺ. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَكَذَّبَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٩﴾ أي: بالجزاء في الدار الآخرة، ﴿فَسَيِّئَةٌ لِلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٧﴾ أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَقْبَلْتَهُمْ وَبَعَثْنَاهُمْ لَمَّا كَرُؤُومُوا بِرُؤُومِهِمْ أَوْلَ مَرْوَةٍ وَكَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ بِمَمْهُونٍ﴾ ﴿١١﴾ [الأنعام: ١١٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة:

رواية أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش، حدثني العطف بن خالد، حدثني رجل من أهل البصرة، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه قال: سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف؟ قال: «بل على أمر قد فرغ منه». قال: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: «كل ميسر لما خلق له». رواية علي، رضي الله عنه: قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». قال: ثم قرأ: ﴿فَأَنَّا مَنَّ أَعْطَى وَآتَى﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَسَيِّئَةٌ لِلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٧﴾، إلى قوله: ﴿لِلْمُسْرِئِ﴾. وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع، عن الأعمش، بنحوه. ثم رواه عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، عن منصور، عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله، ومعه مخضرة فنكس فجعل ينكت بمخضرته، ثم قال: «ما منكم من أحد - أو: ما من نفس منفوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل ونُدع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ: ﴿فَأَنَّا مَنَّ أَعْطَى وَآتَى﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِأَلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَسَيِّئَةٌ لِلْمُسْرِئِ﴾ ﴿٦﴾ الآية. وقد أخرجه بقية الجماعة، من طرق، عن سعد بن عبيدة، به.

رواية عبد الله بن عمر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت سالم بن عبد الله يحدث عن ابن عمر: قال: قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه؟ أفي أمر قد فرغ أو مبتدأ أو متدع؟ قال: «فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإن كلاً ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء». ورواه الترمذي في القدر، عن بُندار، عن ابن مهدي، به وقال: حسن صحيح. حديث آخر من رواية جابر:

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «لأمر قد فرغ منه». فقال سراقه: ففيم العمل إذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل عامل مُيسَّر لعمله». ورواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، به. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن طلق بن حبيب، عن بشير بن كعب العدوي قال: سألت غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال: «بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير». قالوا: ففيم العمل إذا؟ قال: «اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له». قالوا: فالآن نجد ونعمل. رواية أبي الدرداء: قال الإمام أحمد: حدثنا هُيْثَمُ بن خارجة، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي، عن يونس بن ميسرة بن حُلبس، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء قال: قالوا: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل، أمر قد فرغ منه أم شيء نستأنفه؟ قال: «بل أمر قد فرغ منه». قالوا: فكيف بالعمل يا رسول الله؟ قال: «كل امرئ مهياً لما خلق له». تفرد به أحمد من هذا الوجه. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كَبْشَةَ، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا عباد بن راشد، عن قتادة، حدثني خُلَيْدُ العصري، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبِحَبَّتَيْهَا ملكان يناديان بصوت يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً». وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَأَسْتَفَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي كَبْشَةَ، بإسناده مثله.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العَدَنِي، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً كان له نخل، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فتزل من نخلته فتزق الثمرة من أيديهم، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه. فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أذهب». ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة» فقال له: لقد أعطيت، ولكن يعجبني ثمرها، وإن لي نخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها. فذهب النبي ﷺ فبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة. فقال الرجل: يا رسول الله، إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتهما أعطيتني بها ما أعطيت بها نخلة في الجنة؟ قال: «نعم». ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة، ولكلاهما نخل، فقال له: أخبرك أن محمداً، قد أعطاني بنخلتك المائلة في دار فلان نخلة في الجنة، فقلت له: قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها. فسكت عنه الرجل، فقال له: أترك إذا بعتهما؟ قال: لا، إلا أن أعطى بها شيئاً، ولا أظنتني أعطاه. قال: وما منك بها؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: لقد جئت بأمر عظيم، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة؟! ثم سكتا وأنشأ في كلام آخر، ثم قال: أنا أعطيتك أربعين نخلة، فقال: أشهد لي إن كنت صادقاً. فأمر أناس فدعاهم فقال: أشهدوا أنني قد أعطيت من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان. ثم قال: ما تقول؟ فقال صاحب النخلة: قد رضيت. ثم قال بعد: ليس بيني وبينك بيع لم تفرق، قال له: قد أقالك الله، ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة. فقال صاحب النخلة: قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد. قال: تعطينيها على ساق. ثم مكث ساعة، ثم قال: هي لك على ساق وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق، ففرقا، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي، فهي لك. فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له: «النخلة لك ولعبيالك». قال عكرمة: قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ إِيَّانَا يُنشَى ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَأَسْتَفَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾. هكذا رواه ابن أبي حاتم، وهو حديث غريب جداً.

قال ابن جرير: وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: حدثني هارون ابن إدريس الأصم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتقد على الإسلام بمكة، فكان يعتقد عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جُلُداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟! فقال: أي أبت، إنما أريد - أظنه قال: - ما عند الله: قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ

يَأْتِيَنَّ ۖ فَنَسِيتُ لَبِيسَ ۖ ﴿٧﴾ . وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۖ﴾ ﴿١١﴾ : قال مجاهد: أي إذا مات . وقال أبو صالح، ومالك
عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْفَلْهُنَّ ۗ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَىٰ ۖ ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۖ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۖ ﴿١٩﴾ إِلَّا أَيُّهَاً وَبِهِ زِينَةُ الْآخِلَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۖ ﴿٢١﴾ .

قال قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ﴾ ﴿١٧﴾ : أي: نبين الحلال والحرام . وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله . وجعله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] . حكاه ابن جرير . وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾ ﴿١٣﴾ : أي: الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما . وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْفَلْهُنَّ ۗ﴾ ﴿١٥﴾ : قال مجاهد: أي توهج . قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذركم النار أنذرتكم النار، أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعته من مقامي هذا . قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله . وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ تواضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه» . رواه البخاري . وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المزجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً» . وقوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ﴾ ﴿١٥﴾ : أي: لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى . ثم فسره فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ ۖ﴾ : أي: بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾ : أي: عن العمل بجوارحه وأركانه . قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد ربه بن سعيد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا الشقي» . قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وسريح قالوا: حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبي» . قالوا: ومن أبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» . ورواه البخاري عن محمد بن سنان، عن فليح، به وقوله: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَىٰ ۖ﴾ ﴿١٧﴾ : أي: وسيزحج عن النار التقى النقي الأتقى . ثم فسره بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۖ﴾ ﴿١٨﴾ : أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۖ﴾ ﴿١٩﴾ : أي: ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك ﴿أَيُّهَاً وَبِهِ زِينَةُ الْآخِلَىٰ ۖ﴾ ﴿٢٠﴾ : أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿لَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۖ﴾ ﴿٢١﴾ : أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه دخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَىٰ ۖ﴾ ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۖ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۖ ﴿١٩﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولا، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده مئة محتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد تقيف، يوم صلح الحديبية -: أما والله لولا يدك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۖ﴾ ﴿١٩﴾ إِلَّا أَيُّهَاً وَبِهِ زِينَةُ الْآخِلَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعت خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم» .

آخر تفسير سورة «الليل»

ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الضحى

وهي مكية. روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قال لي: كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك. فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العجلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَتَهَيَّأُ﴾. وقال آخرون: من آخر ﴿وَالضُّحَى﴾. وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر. وذكر الفراء في مناسبة التكبير من أول سورة «الضحى»: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفترت تلك المدة ثم جاءه الملك فأوحى إليه: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾ الآية. لكن يروى ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فالله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾ ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافِيًّا﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندباً يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. رواه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق، عن الأسود بن قيس، عن جندب - هو ابن عبد الله الجعفي ثم العلقمي به، وفي رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس: سمع جندباً - قال: أبطاً جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودَّع محمد. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندباً يقول: رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟ قال: فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فنزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. والسياق لأبي سعيد. قيل: إن هذه المرأة هي: أم جميل امرأة أبي لهب، وذكر أن أصبعه، عليه السلام، دميت. وقوله - هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون - ثابت في الصحيحين، ولكن الغريب ما هنا جعله سبباً لتركة القيام، ونزول هذه السورة. فأما ما رواه ابن جرير: حدثنا ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، عن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي: ما أرى ربك إلا قد فلاك. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أبطاً جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إنني أرى ربك قد فلاك مما نرى من جزعك. قال: فنزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. إلى آخرها. فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً، أو قالته على وجه التأسف والتحزن، والله أعلم. وقد ذكر بعض السلف - منهم ابن إسحاق - أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلّى منهبطاً عليه وهو بالأبطح، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا

أَوْفَى ﴿النجم: ١٠﴾. قال: قال له هذه السورة: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: سكن فاطلم وأدلمهم. قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم. وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿فَأَلْقَى الْأَمْثَالَ وَيَجْمَلُ الْإِنْسَانَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾﴾ [الإنعام: ٩٦]. وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴿٣﴾﴾ أي: ما تركك، ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي: وما أبغضك، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. ولما خيّر، عليه السلام، في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم التُّخمي، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: اضطلع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا أدنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا؟! ما أنا وللدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث المسعودي به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعهده له من الكرامة، ومن جعلته نهر الكوثر الذي حافاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه من مسك أذفر، كما سيأتي. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي، عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كثيراً، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف. وقال السدي، عن ابن عباس: من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا معاوية بن هشام، عن علي بن صالح، عن زيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ﴿٥﴾﴾. ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾، وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد، عليه السلام، ثم توفيت أمه أمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهاً لهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم أوه ونصره وحاطوه وقاتلوا بين يديه، رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَحْبَبْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَيْبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥٢] ومنهم من قال إن المراد بهذا: أنه عليه السلام، ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع. وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام، وكان راكباً ناقه في الليل، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق. حكاها البغوي. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عن سواه، فجمع له بين مقامي: الفقير الصابر والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه. وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ و﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله، ﷻ. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وفي الصحيحين - من طريق عبد الرزاق - عن معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس». وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ووزق كفافاً، وقتعه الله بما آتاه». ثم قال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ أي: كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهزه وتهنه، ولكن أحسن إليه،

وتلطف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿١٤﴾ أي : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿١٥﴾ أي : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعني رد المسكين برحمة ولين . ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١٦﴾ أي : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي : «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا» . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن غلبة ، حدثنا سعيد بن إياس الجُريري ، عن أبي نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا الجراح بن مليح ، عن أبي عبد الرحمن ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : «من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر . والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب» إسناده ضعيف . وفي الصحيحين ، عن أنس ، أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب الأنصار بالأجر كله . قال : «لا ، ما دعوتم الله لهم ، وأثنتم عليهم» . وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» . ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد ، عن ابن المبارك ، عن الربيع بن مسلم ، وقال : صحيح . وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن الجراح ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتبه فقد كفره» . تفرد به أبو داود . وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا بشر ، حدثنا عمارة بن غزوية ، حدثني رجل من قومي ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «من أعطي عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتبه فقد كفره» . قال أبو داود : ورواه يحيى بن أيوب ، عن عُمارة بن غزوية ، عن شريحيل عن جابر - كرهوه فلم يسموه - . تفرد به أبو داود . وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك . وفي رواية عنه : القرآن . وقال ليث ، عن رجل ، عن الحسن بن علي : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١٦﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك . وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

آخر تفسير سورة «الضحى» والله الحمد



تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ أَتَقَضَى ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ يعني : أما شرحنا لك صدرك ، أي : نورناه وجعلناه فسيحاً رحبياً واسعاً كقولهِ : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعهُ فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل : المراد بقوله : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة ، وقد أورده الترمذي ها هنا . وهذا وإن كان واقعاً ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذي فعله بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً ، والله أعلم . قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزار ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي كعب ، حدثني أبي محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة كان جرباً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسألها غيرها ، فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال : «لقد سألت يا أبا هريرة ، إنني لفي الصحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو؟ قال : نعم فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدتها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبل إلي يمشيان ، حتى

أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعاني بلا قَصْر ولا هَضْر. فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره. فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ والحسد. فأخرج شيئاً كههيئة العلقة ثم نبذها فطرحتها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدّ واسلم. فرجعت بها أعدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير». وقوله: ﴿رَوْضَتَنَا عَنكَ وَرَزَّكَ﴾ (٢) بمعنى: ﴿يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢٤] ﴿اللَّهُ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ (٣) ﴿الإنفاض: الصوت. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿اللَّهُ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ (٢) أي: أتفلك حمله. وقوله: ﴿رَوْضَتَنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٤) قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتَشهد ولا صاحب صلاة إلا يتأدي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرت ذكرت معي». وكذا رواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى، به، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة، عن دراج. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا أبو عمر الحوضي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قلت: قد كان قبلي أنبياء، منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى. قال: يا محمد، ألم أجدك يتيماً فأوتيتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قال: قلت: بلى يا رب. قال ألم أشرك لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب». وقال أبو نعيم في «دلائل النبوة»: حدثنا أبو أحمد الغطريفي، حدثنا موسى بن سهل الجوني، حدثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهيتي، حدثنا نصر بن حماد، عن عثمان بن عطاء، عن الزهري، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يا رب، إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعل لي؟ قال: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وحكى البغوي، عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك: الأذان. يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان بن ثابت:

أغرر، عليه للنسبوة خاتم
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
وشق له من اسمه ليُجِلَّهُ
من الله من نور يلوخ ويثهد
إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد
فدو العرش محمود وهذا مُحْمَدُ
وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكر الله إلا ذكر معه. وما أحسن ما قال الصرصري، رحمه الله:

لا يصبغ الأذان في الفرض إلا
باسمه العذب في الفم المرضي
وقال أيضاً:

الم تر أننا لا يصبغ أذاننا
ولا فَرَضُنَا إِنْ لَمْ نُكْرِزْهُ فِيهِمَا
وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٦) أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا حميد بن حماد بن خوار أبو الجهم، حدثنا عائذ بن شريح قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ جالساً وحياله حجر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه»، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٦). ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن محمد بن مَعْمَر، عن حميد بن حماد، به ولفظه: «لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه» ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٦)، ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قلت: وقد قال فيه أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرّة، عن رجل، عن عبد الله بن مسعود موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا أبو قطن، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا

يغلب عسر واحد يسرين اثنين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عُسْر يسرين، لن يغلب عسر يسرين، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً». وكذا رواه من حديث عوف الأعرابي ويونس بن عبيد، عن الحسن مرسلًا. وقال سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عسر يسرين». ومعنى هذا: أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر فتعدد؛ ولهذا قال: «لن يغلب عسر يسرين»، يعني قوله: «﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾»، فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد. وقال الحسن بن سفيان: حدثنا يزيد بن صالح، حدثنا خارجة، عن عباد بن كثير، عن أبي الزناد، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المعونة من السماء على قدر المؤونة، ونزل الصبر على قدر المصيبة». ومما يروى عن الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال:

مَنْ زَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
وَمَنْ زَجَاهَ يَكُونُ حَيْثُ زَجَا

وضاق لما به الصدر الرحيب
وأرست في أماكنها الخطوب
ولا أغنى بحيلته الأريب
يمن به اللطيف المستجيب
فموصول بها الفرج القريب

ذرعاً، وعند الله منها المخرج
فرجت، وكان يظننها لا تفرج

وقوله: «﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾» (٧) «وَلِرَبِّكَ فَارْزُقْ﴾» (٨) أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك التبة والريفة. ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان». وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء، فابدؤوا بالعشاء». قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة، فانصب لربك، وفي رواية عنه: إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وعن ابن عباس نحوه. وفي رواية عن ابن مسعود: «﴿فَاصْبِرْ﴾» (٧) «وَلِرَبِّكَ فَارْزُقْ﴾» (٨) بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾» (٧) يعني: في الدعاء. وقال زيد بن أسلم، والضحاك: «﴿إِذَا فَرَغْتَ﴾» أي: من الجهاد «﴿فَاصْبِرْ﴾» أي: في العبادة. «﴿وَلِرَبِّكَ فَارْزُقْ﴾» (٨): قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله، ﷻ.

آخر تفسير سورة «الم نشرح» وبه الحمد



تفسير سورة والتين والزيتون

وهي مكية. قال مالك وشعبة، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجه الجماعة في كتبهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١) ﴿وَأَمْوَانِ﴾ (٢) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٧) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْغَافِقِينَ﴾ (٨).

اختلف المفسرون ها هنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين مسجد دمشق. وقيل: هي نفسها. وقيل: الجبل الذي عندها.

وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف. وروى العوفي، عن ابن عباس: أنه مسجد نوح الذي على الجودي. وقال مجاهد: هو تينكم هذا. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: قال كعب الأحبار، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد، وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون. ﴿وَمَطُورِ سِينَاءَ﴾: قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: يعني: مكة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وإبراهيم النخعي، وابن زيد، وكعب الأحبار. ولا خلاف في ذلك. وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأولى: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً - فذكرهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها. ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفِيلِينَ﴾: أي: إلى النار. قاله مجاهد، وأبو العالية، والحسن، وابن زيد، وغيرهم. ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفِيلِينَ﴾: أي: إلى أرذل العمر. - روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة - حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر. واختار ذلك ابن جرير. ولو كان هذا هو المراد لما حُسن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المصر: ١-٣]. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي: غير مقطوع، كما تقدم. ثم قال: ﴿فَمَا يَكْفُرُكَ﴾: يعني: يا ابن آدم ﴿بَعْدَ الْبَلَاءِ﴾؟ أي: بالجزاء في المعاد وقد علمت البداية، وعرفت أن من قدر على البداية، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأني شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن منصور قال: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يَكْفُرُكَ بَعْدَ الْبَلَاءِ﴾: عني به النبي ﷺ قال: معاذ الله! عني به الإنسان. وهكذا قال عكرمة وغيره. وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَائِضِينَ﴾: أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه. وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً: ﴿فَإِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَائِضِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

آخر تفسير سورة «التين والزيتون»، والله الحمد



تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو: التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارىء». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: قال:

فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع. فقال: «يا خديجة، ما لي» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرأة تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟». فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدي له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً. فيسكن بذلك جاشه، وتقرب نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدي له جبريل، فقال له مثل ذلك. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومثبته ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى، فمن أرادفه فهو هناك محرر، والله الحمد والمنة. فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبتان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٢) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣). وفي الأثر: قيدا العلم بالكتابة. وفيه أيضاً: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم».

﴿كَلَّمَ إِنْ الْإِنْسَانَ لِقَوْلٍ﴾ (٤) ﴿أَنْ رَدَّاهُ اسْتَفْقَى﴾ (٥) ﴿إِنَّ إِلَّكَ رَبُّكَ الرَّحِيمَ﴾ (٦) ﴿أَنْزَلْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ (٧) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (٨) ﴿أَنْزَلْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ﴾ (٩) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوْلِ﴾ (١٠) ﴿أَنْزَلْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١١) ﴿أَوْ يَمْزُقْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٢) ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٣) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبِي خَاطِفَةٍ﴾ (١٤) ﴿فَلْيَنْعَمْ نَادِيَهُ﴾ (١٥) ﴿سَخَّجَ الرَّيَابِيَّةَ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا لَا طُعْمَهُ وَأَسْمَدُ وَاقْتَرِبَ﴾ (١٧) ﴿﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأسر ويطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَّكَ رَبُّكَ الرَّحِيمَ﴾ (٨) أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيه صرفته؟ قال ابن أبي حاتم: حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو عُميس، عن عون قال: قال عبد الله: منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان. قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ (١٦) ﴿أَنْ رَدَّاهُ اسْتَفْقَى﴾ (٥). وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١٧) [فاطر: ٢٨]. وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا». ثم قال تعالى: ﴿أَنْزَلْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ (٧) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (٨) فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أَنْزَلْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ﴾ (٩) أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، أو ﴿أَمَرَ بِالْقَوْلِ﴾ (١٠) بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَمْزُقْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٢) أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء. ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ (١٣) أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٣) أي: لنسمنها سواداً يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبِي خَاطِفَةٍ﴾ (١٤) يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطفة في فعالها. ﴿فَلْيَنْعَمْ نَادِيَهُ﴾ (١٥) أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصرون بهم، ﴿سَخَّجَ الرَّيَابِيَّةَ﴾ (١٦) وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب: أحزبنا أم حزبه. قال البخاري: حدثني يحيى، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة». ثم قال: تابعه عمرو بن خالد، عن عبيد الله - يعني ابن عمرو - عن عبد الكريم. وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما من طريق عبد الرزاق، به. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن زكريا بن عدي، عن عبيد الله بن عمرو، به.

وروي أحمد، والترمذي، وابن جرير - وهذا لفظه - من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان

رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هاشم فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا؟ - وتوعدّه - فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إنني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ سَنَدْعُ آزَابِيَهُ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد، حدثنا قرأت، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمثوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً». وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن الوليد بن العيزار، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتله. فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ حتى بلغ هذه الآية: ﴿لَسَنَعْمًا بِإِنْسَانِيَّةٍ ۝١٥ نَاصِيحَةٍ كَذَّبُوا خَالِقَهُ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ سَنَدْعُ آزَابِيَهُ ۝١٧﴾. فجاء النبي ﷺ فصلى فقبل: ما يمنعك؟ قال: قد أسود ما بيني وبينه من الكنايب. قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللوات والعزى لئن رأيت يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي يديه، قال: فقبل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة. قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاخطفته الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله - لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا - : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ ۝١﴾ إلى آخر السورة. وقد رواه أحمد بن حنبل، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، من حديث معتمر بن سليمان، به. وقوله: ﴿كَلَّا لَا طُمُؤُنَةٌ ۝١﴾ يعني: يا محمد، لا تطعه فيما ينهك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت ولا تباليه؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس، ﴿وَأَشْجَدُّ وَأَقْرَبُ﴾، كما ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن عمارة بن غزبية، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». وتقدم أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان يسجد في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ ۝١﴾ و﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾.

آخر تفسير سورة «اقرأ»



تفسير سورة القدر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ حَقٍّ ۝٤ وَمَا سَلَّوْا مِنْ حَقٍّ مَّا تَطَّلَعُ النَّفَرُ ۝٥﴾.

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله، ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ قُدْرِكَوْٓ﴾ [الدخان: ٣] وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ. ثم قال تعالى مُعْظِماً لِّشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾. قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدَاني، عن يوسف بن سعد قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعد ما بايع معاوية فقال: سؤدت وجوه المؤمنين - أو: يا مسود وجوه المؤمنين - فقال: لا تؤنبنني، رحمك الله؛ فإن النبي ﷺ أرى بني أمية على منبره، فسأه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ يا محمد، يعني نهراً في الجنة، ونزلت: ﴿إِنَّا

أَنْزَلْتَهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ، يملكها بعدك بنو أمية يا محمد. قال القاسم: فعددنا فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل، وهو ثقة وثقة يحيى القطان وابن مهدي. قال: وشيخه يوسف بن سعد - ويقال: يوسف بن مازن - رجل مجهول، ولا نعرف هذا الحديث، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه. وقد روى هذا الحديث الحاكم في مستدركه، من طريق القاسم بن الفضل، عن يوسف بن مازن، به. وقول الترمذي: إن يوسف هذا مجهول - فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة، منهم: حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عن ابن معين قال: هو ثقة. ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل، عن عيسى بن مازن، كذا قال، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، والله أعلم. ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجّة أبو الحجاج المزي: هو حديث منكر.

قلت: وقول القاسم بن الفضل الحُدّاني: إنه حسب مُدّة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص، ليس بصحيح؛ فإن معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، استقل بالملك حين سلّم إليه الحسن بن علي الإمره سنة أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية، وسمي ذلك عام الجماعة، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين، لكن لم تُزلْ يدهم عن الإمره بالكلية، بل عن بعض البلاد، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة، وذلك أزيد من ألف شهر، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكان القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير، وعلى هذا فتقارب ما قاله للصححة في الحساب، والله أعلم. ومما يدلّ على ضعف هذا الحديث أنه سبق لدم دولة بني أمية، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم، فإن ليلة القدر شريفة جداً، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة، بمقتضى هذا الحديث، وهل هذا إلا كما قال القائل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قُوَّةَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا
وقال آخر:

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ أَمْرًا ذَا بَرَاعَةٍ عَلَى نَاقِصِ كَأَنَّ الْمَدِيحُ مِنَ النَّاقِصِ
ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية، والسورة مكية، فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها؟! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارته، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا مسلم - يعني ابن خالد - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ التي ليس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام بن سلم، عن المثني بن الصباح، عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿١﴾﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني مسلمة بن علي، عن علي بن عروة قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً أربعة من بني إسرائيل، عبدوا الله ثمانين عاماً، لم يَعْصُوهُ طرفه عين: فذكر أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع بن نون - قال: فعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، فأثاب جبريل فقال: يا محمد، عجبت أمتك من عبادة هؤلاء نفر ثمانين سنة، لم يَعْصُوهُ طرفه عين؛ فقد أنزل الله خيراً من ذلك. فقرأ عليه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾، هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك. قال: فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ والناس معه. وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر. قال: عملها، صيامها وقيامها خير من ألف شهر. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، عن ابن جريج، عن

مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة، والشافعي، وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر. وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر - وليس فيها ليلة القدر - هو اختيار ابن جرير. وهو الصواب لا ما عده، وهو كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل». رواه أحمد. وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة: «أنه يكتب له عمل سنة، أجر صيامها وقيامها» إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسمايل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِمَ خيرها فقد حُرِمَ». ورواه النسائي، من حديث أيوب، به.

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه». وقوله: «نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۗ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَكْتُمُونَ مَا فِي بُحُورِهِمْ مِنْ شَيْءٍ يُصَلُّوا لَهُمْ فِيهَا وَرِجَالُهُمْ عَلَى سَلَابٍ مِنْ نُورٍ يَخْبِتُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فِيهَا وَعِزَّةٌ كُنْتُمْ فِيهَا وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ وَمَنْ يَرْجُ الْفَلَاحَ ۗ فَإِنَّ الْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ وَالْمَالَةَ يَرْجُو أَلْتَمَسُ لَهَا وَيَكْفُرُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۗ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَانُوا مُتَّقِينَ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ» [الدخان: ٤]. وقوله: «سَلِّمْ عَلَى مَنْ مَطَّلَعَ الْفَجْرَ ۗ» قال سعيد بن منصور: حدثنا هُشَيْمٌ، عن أبي إسحاق، عن الشعبي في قوله تعالى: «بَيْنَ كُلِّ أَمْرٍ ۗ سَلِّمْ عَلَى مَنْ مَطَّلَعَ الْفَجْرَ ۗ» قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر. وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «من كل امرئ». سلام هي حتى مطلع الفجر». وروى البيهقي في كتابه «فضائل الأوقات» عن عليّ أئراً غريباً في نزول الملائكة، ومرورهم على المصلين ليلة القدر، وحصول البركة للمصلين. وروى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار أئراً غريباً عجيباً مطولاً جداً، في نزول الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل، عليه السلام، إلى الأرض، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عمران - يعني القطان - عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة - أو: تاسعة - وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». وقال الأعمش، عن المنهال، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: «بَيْنَ كُلِّ أَمْرٍ ۗ سَلِّمْ ۗ» قال: لا يحدث فيها أمر. وقال قتادة وابن زيد في قوله: «سَلِّمْ ۗ» يعني: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر. ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد. حدثنا خِيَوَةُ بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّةٌ، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع أو سبع، أو خامسة، أو ثالثة، أو آخر ليلة». وقال رسول الله ﷺ: «إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة سجية، لا يبرد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمى به فيها حتى تصبح. وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ». وهذا إسناد حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زُئَمَةُ، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء». وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها، وهي في العشر الأواخر، من لياليها ليلة طلقة بلجة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».



فصل

اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين: قال أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري: حدثنا مالك: أنه بلغه: أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله - أو: ما شاء الله من ذلك - فكأنه تقاصر

أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر. وقد أسند من وجه آخر. وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب «العدة» أحد أئمة الشافعية من جمهور العلماء، فالله أعلم. وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الراجعي جازماً به عن المذهب، والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في أمتنا. قال أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عكرمة بن عمار: حدثني أبو زُمَيْل سِمَاك الحنفي، حدثني مالك بن مَرْثَد بن عبد الله، حدثني مَرْثَد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «بل هي في رمضان». قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت؟ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة». قلت: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر». ثم حدّث رسول الله ﷺ وحَدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها». ثم حدّث رسول الله ﷺ، ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أفسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته، وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها». ورواه النسائي عن الفلاس، عن يحيى بن سعيد القطان، به.

ففيه دلالة على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله، عليه السلام: «فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم»، لأن المراد رفع علم وقتها عيناً. وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما زوي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة، من أنها توجد في جميع السنة، وترجى في جميع الشهور على السواء. وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: «باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان»: حدثنا حُمَيْد بن زُجَيْب النسائي، أخبرنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني موسى بن عقبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن عبد الله بن عمر قال: سُئِل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر، فقال: «هي في كل رمضان». وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال: رواه شعبة وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه. وقد حكى عن أبي حنيفة، رحمه الله، رواية أنها ترجى في جميع شهر رمضان. وهو وجه حكاة الغزالي، واستغربه الراجعي جداً.



فصل

ثم قد قيل: إنها في أول ليلة من شهر رمضان، يحكى هذا عن أبي رزين. وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة. وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود. وروى موقوفاً عليه، وعلى زيد بن أرقم، وعثمان بن أبي العاص. وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري. ووجهه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود أيضاً، رضي الله عنهما. وقيل: ليلة إحدى وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فاتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه، فاتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وثر، وإني رأيت كأنني أسجد في طين وماء». وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قُرْعَةٌ فَمَطَرْنَا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه. وفي لفظ: «في صبح إحدى وعشرين» أخرجه في الصحيحين. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات. وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، لحديث عبد الله بن أنيس في «صحيح مسلم» وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد، فالله أعلم. وقيل: ليلة أربع وعشرين، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن الجريري، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين». إسناده رجاله ثقات.

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن الصنابحي، عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين». ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن أصبغ، عن ابن وهب،

عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي عبد الله الصنابحي قال: أخبرني بلال - مؤذن رسول الله ﷺ - أنها أول السبع من العشر الأواخر، فهذا الموقوف أصح، والله أعلم. وهكذا زوي عن ابن مسعود، وابن عباس، وجابر، والحسن، وقاتدة، وعبد الله بن وهب: أنها ليلة أربع وعشرين. وقد تقدم في سورة «البقرة» حديث وثالثة بن الأسقع مرفوعاً: «إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين». وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين؛ لما رواه البخاري، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى». فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر. وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبي سعيد، أنه حمله على ذلك. والله أعلم. وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «إنها ليلة سبع وعشرين». قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان: سمعت عبدة وعاصماً، عن زُرِّ: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يُيمُّ الحول يُصب ليلة القدر. قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف. قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة - أو: بالآية - التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها، أعني الشمس. وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعي، عن عبدة، عن زُرِّ، عن أبي، فذكره، وفيه: فقال: والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان - يحلف ما يستثني - والله إنني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأما رثتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها. وفي الباب عن معاوية، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين. وهو قول طائفة من السلف، وهو الجادة من مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً. وقد حُكي عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن، من قوله: ﴿هِيَ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة، والله أعلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدُّبري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة وعاصم: أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ، فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر. قال ابن عباس: فقلت لعمر: إنني لأعلم - أو: إنني لأظن - أي ليلة القدر هي؟ فقال عمر: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر. فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس: فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد من سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع. . . . لأشياء ذكرها. فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًا ۗ ﴿٢٧﴾ وَصَبَّأً وَقَصَبًا ۗ ﴿٢٨﴾﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨]. وهذا إسناد جيد قوي، ونص غريب جداً، والله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عمر بن عبد الرحمن، عن عبادة بن الصامت: أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو في آخر ليلة». وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود - وهو: أبو داود الطيالسي - حدثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به. وقيل: إنها تكون في آخر ليلة، لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي، من حديث عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكر، أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع بيقين، أو سبع بيقين، أو خمس بيقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة». يعني التمسوا ليلة القدر. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي المسند من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في ليلة القدر: «إنها آخر ليلة».



فصل

قال الإمام الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له: ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: «نعم». وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنَةٌ لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه. وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في

العشر الأواخر. وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم. وهو محكي عن الشافعي - نقله القاضي عنه، وهو الأشبه - والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد توأطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريراً فليتحررها في السبع الأواخر». وفيها أيضاً عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان». ولفظه للبخاري. ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل، وأنها معينة من الشهر، بما رواه البخاري في صحيحه، عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة». وجه الدلالة منه: أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال: إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط. وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت»: فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، وكما جاء في الحديث: «إن العبد ليُحْرَم الرزق بالذُّنْب يُصِيبه». وقوله: «فرفعت»: أي: رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة؛ لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة». وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتفاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله، ﷺ. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجه من حديث عائشة. ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر. أخرجه. ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره.

وهذا معنى قولها: «و شد المئزر». وقيل: المراد بذلك: اعتزال النساء. ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين، لما رواه الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا أبو معشر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه. انفرد به أحمد. وقد حكى عن مالك، رحمه الله، أن في جميع ليالي العشر تطلب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى: رأيت في شرح الرافعي، رحمه الله. والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر. والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: «اللهم، إنك عفوٌ تحب العفو، فاعف عني»؛ لما رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد - هو ابن هارون - حدثنا الجريري - وهو سعيد بن إياس - عن عبد الله بن بريدة، أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». وقد رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من طريق كهْمَس بن الحسين، عن عبد الله بن بريدة، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أ رأيت إن علمتُ أي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم، إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح». وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: «هذا صحيح على شرط الشيخين». ورواه النسائي أيضاً من طريق سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة عن عائشة قالت: يا رسول الله، أ رأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول لها؟ قال: «قولي: اللهم، إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». ذكر أثر غريب ونياً عجيب، يتعلق بليلة القدر، رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا موسى بن سعيد - يعني الراسبي - عن هلال أبي جبلة، عن أبي عبد السلام، عن أبيه، عن كعب أنه قال: إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة، مما يلي الجنة، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة، علوها في الجنة، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسي، فيها ملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله، ﷻ، يعبدون الله، ﷻ، على أغصانها في كل موضع شجرة منها ملك. ومقام جبريل، عليه السلام، في وسطها، فينادي الله جبريل أن ينزل في كل ليلة قدر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى، وليس فيهم ملك إلا قد أعطي الرأفة والرحمة للمؤمنين، فينزلون مع جبريل في ليلة القدر، حين تغرب الشمس، فلا تبقى بقعة في ليلة القدر إلا وعليها ملك، إما ساجد وإما قائم، يدعو للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة، أو بيت نار أو وثن، أو بعض أماكنكم التي تطرحون فيها الخبث، أو بيت فيه

سكران، أو بيت فيه مُسكر، أو بيت فيه وثن منصوب، أو بيت فيه جرس مُعلّق، أو مَبولة، أو مكان فيه كساحة البيت، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لا يدع أحداً من المؤمنين إلا صافحه، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه، فإن ذلك من مصافحة جبريل.

وذكر كعب أنه من قال في ليلة القدر: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، غفر الله له بواحدة، ونجاه من النار بواحدة، وأدخله الجنة بواحدة. فقلنا لكعب الأحبار: يا أبا إسحاق، صادقاً؟ فقال كعب: وهل يقول: «لا إله إلا الله» في ليلة القدر إلا كل صادق؟ والذي نفسي بيده، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق، حتى كأنها على ظهره جبل، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر. فأول من يصعد جبريل حتى يكون في وجه الأفق الأعلى من الشمس، فيسقط جناحيه - وله جناحان أخضران، لا ينشرهما إلا في تلك الساعة - فتصير الشمس لا شعاع لها، ثم يدعو ملكاً فيصعد، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحي جبريل، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك، في دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات، ولمن صام رمضان احتساباً، ودعا لمن حدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله. فإذا أمسوا دخلوا السماء الدنيا، فيجلسون حلقة حلقة، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا، فيسألونهم عن رجل رجل، وعن امرأة امرأة، فيحدثونهم حتى يقولوا: ماذا فعل فلان؟ وكيف وجدتموه العام؟ فيقولون: وجدنا فلاناً عام أول في هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعاً، ووجدنا فلاناً مبتدعاً ووجدناه العام عابداً قال: فيكفون عن الاستغفار لذلك، ويقبلون على الاستغفار لهذا، ويقولون: وجدنا فلاناً وفلاناً يذكران الله، ووجدنا فلاناً راکعاً، وفلاناً ساجداً، ووجدناه تالياً لكتاب الله. قال: فهم كذلك يومهم وليلتهم، حتى يصعدون إلى السماء الثانية، ففي كل سماء يوم وليلة، حتى ينتهوا مكانهم من سدرة المنتهى، فتقول لهم سدرة المنتهى، يا سكاني، حدثوني عن الناس وسموهم لي. فإن لي عليكم حقاً، وإنني أحب من أحب الله. فذكر كعب أنهم يعدون لها، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم. ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول: أخبريني بما أخبرك سكانك من الملائكة. فتخبرها، قال: فتقول الجنة: رحمة الله على فلان، ورحمة الله على فلان، اللهم عجلهم إليّ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم، فيلهمه الله فيقول: وجدت فلاناً ساجداً فاغفر له. فيغفر له، فيسمع جبريل جميع حملة العرش فيقولون: رحمة الله على فلان، ورحمة الله على فلانة، ومغفرته لفلان، ويقول: يا رب، وجدت عبدك فلاناً الذي وجدته عام أول على السنة والعبادة، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى عما أمر به. فيقول الله: يا جبريل، إن تاب فأعطني قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له. فيقول جبريل: لك الحمد إلهي، أنت أرحم من جميع خلقك، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم، قال: فيرتج العرش وما حوله، والحجب والسموات ومن فيهن، تقول: الحمد لله الرحيم، الحمد لله الرحيم. قال: وذكر كعب أن من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصي الله، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب.

آخر تفسير سورة «ليلة القدر» وبه الحمد والمنة



تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - أخبرنا علي - هو ابن زيد - عن عمار بن أبي عمار قال: سمعت أبا حية البدرى - وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري - قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أياً. فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة». قال أبي: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فبكى أبي. حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم». فبكى. ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث شعبة، به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، حدثنا أسلم المتقري، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا». قلت: يا رسول الله، وقد ذكرت هناك؟ قال: «نعم». فقلت له: يا أبا المنذر، ففرحت بذلك. قال: وما يمنعني والله يقول: ﴿قُلْ يُضَلِّلُ اللَّهُ وِجْهَتَهُ فَيُذَلِّكَ فَليَقْرَهُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال مؤمل: قلت

لسفيان: القراءة في الحديث؟ قال: نعم. تفرد به من هذا الوجه.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن». قال: فقرا: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، قال: فقرا فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال، فأعطيه، لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه، لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره. ورواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن شعبة، به. وقال: حسن صحيح. طريق أخرى: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن خليل الحلبي، حدثنا محمد بن عيسى الطباع، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، إني أمرت أن أعرض عليك القرآن». قال: بالله أمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت. قال: فرد النبي ﷺ القول. قال: فقال: يا رسول الله، أذكرت هناك؟ قال: «نعم، باسمك ونسبك في الملأ الأعلى». قال: فاقرا إذا يا رسول الله. هذا غريب من هذا الوجه، والثابت ما تقدم. وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له، وزيادة لإيمانه، فإنه كما رواه أحمد والنسائي، من طريق أنس، عنه، ورواه أحمد وأبو داود، من حديث سليمان بن صرد عنه، ورواه أحمد عن عفان، عن حماد، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عنه، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي، من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عنه، كان قد أنكر على إنسان، وهو: عبد الله بن مسعود، قراءة شيء من القرآن على خلاف ما قرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال، لكل منهما: «أصبت». قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية. فضرب رسول الله ﷺ في صدره، قال أبي: ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف. فقلت: «أسأل الله معافاته ومغفرته». فقال: على حرفين. فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على سبعة أحرف. كما قدمنا هذا الحديث بطرقه والأفاظه في أول التفسير. فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ﴿٣﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟». قال: لا، قال: «فإنك آتية، ومطوف به». فلما رجعوا من الحديبية، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة «الفتح»، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه، وفيها قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]، كما تقدم. وروى الحافظ أبو نعيم في كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفري المدني: حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم، عن ابن شهاب، عن إسماعيل بن أبي حكيم المدني، حدثني فضيل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»، فيقول: أبشر عبدي، فوعزتي لأمكنه لك في الجنة حتى ترضى». حديث غريب جداً. وقد رواه الحافظ أبو موسى المدني وابن الأثير، من طريق الزهري، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن نظير المزني - أو: المدني - عن النبي ﷺ: «إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» ويقول: أبشر عبدي، فوعزتي لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة، ولأمكنن لك في الجنة حتى ترضى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرْنَا إِلَيْكَ أَوْثَرًا أَلْكَتَبَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾.

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عبدة الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا «منفكين» يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق. وكذا قال قتادة: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾. ثم فسر البيضة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿٢﴾ يعني: محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى، في صحف مطهرة كقوله:

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ تَرْفَعُهُمْ ۝١٤ يُبْدِي سِرَّهُ ۝١٥ يَكْرُمُ بِهِ ۝١٦ ﴾ [عبس: ١٣-١٦]. وقوله: ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ۝١٧ ﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة: عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله، ﴿ قَالَ قَتَادَةُ: ۝١٨ رَسُوْلٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝١٩ ﴾. يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويشي عليه بأحسن الشناء. وقال ابن زيد: ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ۝٢٠ ﴾: مستقيمة معتدلة. وقوله: ﴿ وَمَا نَقَرُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَقِيْنَةُ ۝٢١ ﴾ كقوله: ﴿ وَلَا تَكْفُرُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَآخَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَقِيْنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ۝٢٢ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعني بذلك: أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». وقوله: ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيْنَ ۝٢٣ ﴾ كقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٤ ﴾ [الانبيا: ٢٣]؛ ولهذا قال: حنفاء، أي: مُتَحَفِّظِينَ عَنِ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ. كقوله: ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُوْلًا أَنْبَأَهُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٢٥ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة «الأنعام» بما أغنى عن إعادتها هنا. ﴿ وَيُقِيْمُوا الصَّلَاةَ ۝٢٦ ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۝٢٧ ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج. ﴿ وَذَلِكَ رِبْنُ الْقِيَمَةِ ۝٢٨ ﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو: الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة، كالزهري والشافعي، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاءَ وَيُقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ رِبْنُ الْقِيَمَةِ ۝٢٩ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٣٠ ﴾ [آل عمران: ٦] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٣١﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٣٢﴾. يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفر أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله: أنهم يوم القيامة: ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذراها. ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار- الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم- بأنهم خير البرية. وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾. ثم قال: ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ. ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾: ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتفقه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب- مولى أبي هريرة- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هبة استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل في ثلثة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى. قال: «الذي يسأل بالله، ولا يعطي به».

آخر تفسير سورة «لم يكن»



تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا عياش بن عباس، عن عيسى بن هلال الصّدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذات الر». فقال له الرجل: كبر سني واستد قلبي، وغلظ لساني. قال: «فاقرأ من ذات حم»، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات»، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني- يا رسول الله- سورة جامعة. فأقرأه: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!» ثم قال: «علي به». فجاءه فقال له: «أمرت بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة». فقال له الرجل: رأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحى بها؟ قال: «لا، ولكنك تأخذ من شعرك، وتقليم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عاتك،

فذلك تمام أضحيتك عند الله، ﷻ. وأخرجه أبو داود والنسائي، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن موسى الحرشي البصري: حدثنا الحسن بن سلم بن صالح العجلي، حدثنا ثابت البناني، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، عدلت له بنصف القرآن». ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن سلم. وقد رواه البزار عن محمد بن موسى الحرشي، عن الحسن بن سلم، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» تعدل ثلث القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن. هذا لفظه. وقال الترمذي أيضاً: حدثنا علي بن حنجر، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا يمان بن المغيرة العنزي، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ تعدل ربع القرآن». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وقال أيضاً: حدثنا عقبة بن مكرم العمري البصري، حدثني ابن أبي فديك، أخبرني سلمة بن وردان، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟» قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج؟! قال: «أليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾؟». قال: بلى. قال: «ثلث القرآن». قال: «أليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن». قال: «أليس معك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن». قال: «أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴿١﴾﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن تزوج، تزوج». ثم قال: هذا حديث حسن. تفرد بهن ثلاثهن الترمذي، لم يروهن غيره من أصحاب الكتب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاكًا يُبْتَزُّوا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ أي: تحركت من أسفلها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ يعني: ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ يُرَكِّبُ لَكُمْ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرًّا عَظِيمًا ﴿١﴾﴾ [الحج: ١]، وكقوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق: ٣، ٤]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً». وقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن المبارك. وقال الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي، واللفظ له: حدثنا سويد بن نصر، أخبرنا عبد الله، هو ابن المبارك. عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن أبي سليمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: «أتدرون ما أخبرها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وفي معجم الطبراني من حديث ابن لهيعة: حدثني الحارث بن يزيد. سمع ربيعة الجرشية: - أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً، إلا وهي مُخْبِرة». وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ قال البخاري: أوحى لها وأوحى إليها، ووحى لها ووحى إليها: واحد. وكذا قال ابن عباس: ﴿أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي: أوحى إليها. والظاهر أن هذا مُضْمَنٌ بمعنى أذن لها. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: قال لها ربها: قولني، فقالت. وقال مجاهد: ﴿أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي: أمرها. وقال القرظي: أمرها أن تتشق عنهم. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاكًا ﴿٦﴾﴾ أي: يرجعون عن مواقف الحساب، ﴿أَشْتَاكًا ﴿٦﴾﴾ أي: أنواعاً وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم. وقال السدي: ﴿أَشْتَاكًا ﴿٦﴾﴾ فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿يَسْرُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨). قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني مالك، عن يزيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستتت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً وثناء ونواء، فهي على ذلك وزر». فمثل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨)». ورواه مسلم، من حديث زيد بن أسلم، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا جرير بن حازم، حدثنا الحسن، عن صعصعة - عم الفرزدق - أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨)، قال: حسبي! لا أبالي إلا أسمع غيرها. وهكذا رواه النسائي في التفسير، عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدب، عن أبيه، عن جرير بن حازم، عن الحسن البصري قال: حدثنا صعصعة عم الفرزدق، فذكره. وفي صحيح البخاري، عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق ثمرة، ولو بكلمة طيبة». وفي الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تغرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسطة». وفي الصحيح أيضاً: «يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» يعني: ظلّفها. وفي الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف مخرق». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا كثير بن زيد، عن المطلب بن عبد الله، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، استري من النار ولو بشق ثمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان». تفرد به أحمد. وزوي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة، وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير: حدثني عوف بن الحارث بن الطفيل: أن عائشة أخبرته: أن النبي ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سعيد بن مسلم بن أنك، به. وقال ابن جرير: حدثني أبو الخطاب الحساني، حدثنا الهيثم بن الربيع، حدثنا سماك بن عطية، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨)، فرجع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله، إني أجزى بما علمت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة».

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي الخطاب، به. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب قال: في كتاب أبي قلابة، عن أبي إدريس، أن أبا بكر كان يأكل مع النبي ﷺ، فذكره. ورواه أيضاً عن يعقوب، عن ابن عليّ، عن أيوب، عن أبي قلابة: أن أبا بكر، وذكره. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني حُبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟». قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطثون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطثون ويذنبون فيغفر لهم». حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة وعلي بن عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة - المعروف بعلان المصري - قالوا: حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: «نعم». قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: «نعم». قلت: الصغار الصغار؟ قال: «نعم». قلت: وأثكل أُمي. قال: «أبشريا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعني إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله». قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة». قال أبو زرعة: لم يرو هذا غير ابن لهيعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨)، وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيُطْمِئِنُّ الْعَالَمُ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾

وَسَيِّئًا وَبَرًّا ﴿٨﴾ [الإنسان: ٨]، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجرون على الشيء القليل الذي أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك، فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء. إنما نُؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشبه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر. فرغيبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ يَمَلَّ دَرَّةً﴾ يعني: وزن أصغر النمل ﴿حَبْرًا يَرَهُ﴾ يعني: في كتابه، ويسرّه ذلك. قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة. وبكل حسنة عشرة حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً، بكل واحدة عشر، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة، دخل الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد ربه، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجاء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها.

آخر تفسير سورة «إذا زلزلت» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة العاديات

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا ﴿١﴾ وَالْمُؤَيَّتَ قَدَمًا ﴿٢﴾ وَالْمُؤَيَّتَ صَبَاحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْغَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسُهُ أَلْفُ بَعِيرٍ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يقسم تعالى بالخيول إذا أجزيت في سبيله فعدت وضبحت، وهو: الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. ﴿وَالْمُؤَيَّتَ قَدَمًا﴾ يعني: اصطكاك نعالها للصحراء فتدح منه النار. ﴿وَالْمُؤَيَّتَ صَبَاحًا﴾ يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويتسمع أذانا، فإن سمع وإلا أغار. وقوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يعني: غباراً في مكان معترك الخيول. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ أي: توسطن ذلك المكان كلهن جمع. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبدة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبد الله: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ قال: الإبل. وقال علي: هي الإبل. وقال ابن عباس: هي الخيل. فبلغ علياً قول ابن عباس، فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بعثت. قال ابن أبي حاتم وابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس حده، قال: بينا أنا في الحجر جالساً، جاءني رجل فسلاني عن: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عني فذهب إلى علي، رضي الله عنه، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله. قال: اذهب فادعه لي. فلما وقف على رأسه قال: نفتي الناس بما لا علم لك، والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات صبحاً؟ إنما العاديات صبحاً من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فنزعت عن قولتي ورجعت إلى الذي قال علي، رضي الله عنه. وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال: قال علي: إنما ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أروا إلى المزدلفة أروا النيران. وقال العوفي عن ابن عباس: هي الخيل. وقد قال بقول علي: إنها الإبل جماعة. منهم: إبراهيم، وعبيد بن عمير. ويقول ابن عباس آخرون، منهم: مجاهد وعكرمة، وعطاء وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. قال ابن عباس، وعطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبيح: أح أح. وقال أكثر هؤلاء في

قوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا ١﴾ يعني: بحوافرها. وقيل: أسعزَنَ الحرب بين رُكبانهم. قاله قتادة: وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا ٢﴾ يعني: مكر الرجال. وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل. وقيل: المراد بذلك: نيران القبائل. وقال من فسرها بالخيل: هو إيقاد النار بالمزدلفة. وقال ابن جرير: والصواب الأول؛ أنها الخيل حين تقدم بحوافرها. وقوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ سُبْحًا ٣﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة: يعني إغارة الخيل صباحاً في سبيل الله. وقال من فسرها بالإبل: هو الدفع صباحاً من المزدلفة إلى منى. وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَتْرَنَ بِهِ نَقْمًا ٤﴾: هو: المكان الذي إذا حلت فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو. وقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ٥﴾: قال العوفي، عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك: يعني جمع الكفار من العدو. ويحتمل أن يكون: فوسطن بذلك المكان جميعهم، ويكون ﴿جَمًّا﴾ منصوباً على الحال المؤكدة.

وقد روى أبو بكر البزارها هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فأشهرت شهراً لا يأتيه منها خير، فنزلت: ﴿وَالْمُدَيَّبِيَّتِ سُبْحًا ١﴾، صبحت بأرجلها، ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا ٢﴾: قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً، ﴿فَالْمُورِيَّتِ سُبْحًا ٣﴾: صبحت القوم بغارة، ﴿فَأَتْرَنَ بِهِ نَقْمًا ٤﴾: أثارت بحوافرها التراب، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ٥﴾: قال: صبحت القوم جميعاً. وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦﴾: هذا هو المقسم عليه، بمعنى: أنه لنعم ربه لجحود كفور. قال ابن عباس، ومجاهد وإبراهيم السُّخعي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضحى، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن قيس، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو كَرَيْب، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦﴾، قال: «الكفور الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفته». ورواه ابن أبي حاتم، من طريق جعفر بن الزبير - وهو متروك - فهذا إسناد ضعيف. وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حريز بن عثمان، عن حمزة بن هانئ، عن أبي أمامة موقوفاً. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لِشَهِيدٌ ٧﴾: قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ ١٧﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لِحَبِطِ آلْفِرِّ لَشَهِيدٌ ٨﴾: أي: وإنه لحبب الخير - وهو: المال - لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح. ثم قال تعالى مُؤْهِدًا في الدنيا، ومُرْغَبًا في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ٩﴾: أي: أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠﴾: قال ابن عباس وغيره: يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١﴾: أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، مجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

آخر تفسير سورة «العاديات» وبه الحمد والمنة، وحسبنا الله



تفسير سورة القارعة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴾ فَلَمَّا مَن تَقَلَّتْ مَرْيَمُ ٦ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴾ وَأَمَّا مَن حَقَّتْ مَرْيَمُ ٨ ﴿فَأَمُّهُ هَارِيَةٌ ٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ ﴿إِنَّهَا حَامِيَةٌ ١١﴾.

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾: من أسماء يوم القيامة، كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية، وغير ذلك. ثم قال معظماً أمرها ومهولاً

لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٣﴾ أي: في انتشارهم وتفريقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جِرَادٌ مُّنتَبِرٌ ۝٤﴾ والقمر: ١٧. وقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥﴾ يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والضحاك، والسدي: ﴿كَالْمُهْنِ﴾: الصوف. ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة، بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوَازِينَهُ ۝٦﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٧﴾ يعني: في الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته. وقوله: ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةً ۝٩﴾ قيل: معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم. وعبر عنه بأمه - يعني دماغه - زوي نحو هذا عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة. قال قتادة: يهوي في النار على رأسه. وكذا قال أبو صالح: يهوي في النار على رؤوسهم. وقيل: معناه: ﴿فَأَمَّهُ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها ﴿هَكَايَةً﴾، وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمه، لأنه لا ماوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية: النار، هي أمه وماواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَا أُوْتِهُمُ النَّارُ إِلَّا بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝١٠﴾. قال ابن أبي حاتم: وروي عن قتادة أنه قال: هي النار، وهي ماواههم. ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۝١١﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾. قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوْحُوا أَحْكَامَ، فإنه كان في عمّ الدنيا. قال: ويسألونه: ما فعل فلان؟ فيقول: مات، أو ما جاءكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وقد رواه ابن مَرزُويه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً، بأبسط من هذا. وقد أوردناه في كتاب صفة النار، أجازنا الله منها بمنه وكرمه. وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية للهب والسعير. قال أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فَضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً». ورواه البخاري، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن مالك. ورواه مسلم عن قتيبة، عن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، به. وفي بعض ألفاظه: «إنها فَضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - عن محمد بن زياد - سمع أبا هريرة يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». فقال رجل: إن كانت لكافية. فقال: «لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حراً فحراً». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط مسلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ - وعمرو، عن يحيى بن جَعْدَةَ -: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذا على شرط الصحيحين، ولم يخرجوه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم في صحيحه من طريق ابن أبي الزناد. ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد العزيز - هو ابن محمد الدراوردي - عن سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم». تفرد به أيضاً من هذا الوجه، وهو على شرط مسلم أيضاً. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا مَعْنُ بن عيسى القزاز، عن مالك، عن عمّه أبي سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أندرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً». وقد رواه أبو مصعب، عن مالك، ولم يرفعه. وروى الترمذي وابن ماجه، عن عباس الدوري، عن يحيى بن أبي بكير: حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، ففي سواد مظلمة». وقد روي هذا من حديث أنس وعمر بن الخطاب. وجاء في الحديث - عند الإمام أحمد - من طريق أبي عثمان التهدي، عن أنس - وأبي نضرة العبدي، عن أبي سعيد وعجلان مولى المشتمل، عن أبي هريرة - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه». وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بتقسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف. فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها». وفي الصحيحين: «إذا اشتد

الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم».

آخر تفسير سورة «القارعة»



تفسير سورة التكاثر

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَسْتَأْذِنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟! قال ابن أبي حاتم: حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصري، حدثني خالد بن عبد الدائم، عن ابن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ عن الطاعة، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ٢: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ﴾. وقال الحسن البصري: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٣ في الأموال والأولاد. وفي صحيح البخاري، في «الرقاق» منه: وقال: أخبرنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٤ يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سمعت قتادة يحدث عن مُطَرِّف عن مَطْرَف - يعني ابن عبد الله بن الشَّخِير - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٥، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟». ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من طريق شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا سُويد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي؟ وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس». تفرد به مسلم. وقال البخاري: حدثنا الحُمَيْدِي، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله». وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل». أخرجاه في الصحيحين. وذكر الحافظ ابن عساكر، في ترجمة الأحنف بن قيس - واسمه الضحاك - أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقت في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتَه فالمال لك

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة قال: صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١. قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ - ويشيرون إلى القبر - ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل. وقال قتادة: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٣ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٤: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ٥ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فَتَعَمَّ إِذَا». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، أخبرنا حكام بن سلم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحجاج، عن المنهال، عن زر بن حبيش، عن علي

قال: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿الْهَنَكُ أَتَكَاثَرُ﴾ ① ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ②. ورواه الترمذي عن أبي كريب، عن حكّام بن سلم، به، وقال: غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن داود العُرُضي، حدثنا أبو المريح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿الْهَنَكُ أَتَكَاثَرُ﴾ ① ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ②. فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر يد من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله - إلى جنة أو نار.. وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ② فقال: بُعث اليوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ③ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ④: قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقال الضحّاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑤ يعني: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑥ يعني: أيها المؤمنون. وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ⑦: أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر. ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ⑧ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ⑨ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑩ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑪. توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار، التي إذا زفرت زفرة خر كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاناة الأحوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْصِيِّ﴾ ⑫: أي: ثم لتستلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقرئ، حدثنا عبد الله بن عيسى أبو خالد الخزاز، حدثنا يونس بن عبيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة، فوجد أبا بكر في المسجد فقال: «ما أخرجك هذه الساعة؟» قال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله. قال: وجاء عمر بن الخطاب فقال: «ما أخرجك يا ابن الخطاب؟» قال أخرجني الذي أخرجكما. قال: فقعده عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: «هل بكما من قوة، تنطلقان إلى هذا النخل فتصبيان طعاماً وشراباً وظلاً؟» قلنا: نعم. قال: «مروا بنا إلى منزل ابن النّهان أبي الهيثم الأنصاري». قال: فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا، فسلم واستأذن - ثلاث مرات - وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدا رسول الله ﷺ من السلام، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم، فقالت: يا رسول الله، قد والله - سمعت تسليمك، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك. فقال لها رسول الله ﷺ: «خيراً». ثم قال: «أين أبو الهيثم؟ لا أراه». قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذب الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله، فبسطت بساطاً تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً، فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ يَا أبا الهيثم». قال: يا رسول الله، تأكلون من بُسرِهِ، ومن رطبه، ومن تَدُّوْبِهِ، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». هذا غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثني الحسين بن علي الصدائي، حدثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ها هنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قَرْبَتَهُ بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتنت؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «لتستلن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم». ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان، به. ورواه أبو يعلى وابن ماجه، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر الصديق، به. وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصة. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا حشرج، عن أبي نصر، عن أبي عسيب - يعني مولى رسول الله - قال: خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى أتى حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا». فجاء بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «لتستلن عن هذا يوم القيامة». قال: فأخذ عَمْرُ العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْرُ قبل رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟، قال:

«نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سدّ بها جوعته، أو حجر تدخّل فيه من الحر والقر». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا عمار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». ورواه النسائي، من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن جابر، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، عن صفوان بن سليم، عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿أَلَيْسَ لَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، عبد الملك بن عمرو، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خيراً من الغنى، وطيب النفس من النعيم». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن خالد بن مخلد، عن عبد الله بن سليمان، به. وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا شبابة، عن عبد الله بن العلاء، عن الضحاک بن عبد الرحمن بن عزم الأشعري قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له: ألم تُصِحِّحْ لكَ جِسْمَكَ، وتُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟». تفرد به الترمذي. ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن العلاء بن زبير، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، لأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «إن ذلك سيكون». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان - هو ابن عيينة - به. ورواه أحمد عنه، وقال الترمذي: حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، حدثنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: قل لهم: أليس تحتدون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى - أظنه عن عامر - عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال: «الأمن والصحة». وقال زيد بن أسلم، عن رسول الله ﷺ: «﴿ثُمَّ لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكين، واعتدال الخلق، ولذة النوم». ورواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السورة. وقال سعيد بن جبیر: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال: التعميم: صحة الأبدان والاسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وثبت في صحيح البخاري، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا أبو حمزة، عن ليث، عن أبي فزارة، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فوق الإزار، وظل الحائط، وحُبْرٌ، يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه»، ثم قال: لا تعرفه إلا بهذا الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْرُزُّ عِفَّانٌ قَالَا: حدثنا حماد - قال عفان في حديثه - قال إسحاق بن عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ - قال عفان: يوم القيامة - يا ابن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تَرْبَعٌ وترأس، فأين شكر ذلك؟». تفرد به من هذا الوجه.

تفسير سورة العصر

وهي مكية. ذكروا أن عمرو بن العاص وقد على مسيلمة الكذاب لعنه الله، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾. ففكر مسيلمة هُتَيْهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وُبر يا وُبر، إنما أنت أذنان وضُدر، وساترك حفر تُقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب. وقد رأيت أبا بكر الخراطي أسند في كتابه المعروف بـ«مساوىء الأخلاق»، في الجزء الثاني منه، شيئاً من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرح ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان. وباقية مميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرح ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان. وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الله بن حصن أبي مدينة، قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر «سورة العصر» إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾
العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو العشي، والمشهور الأول. فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي: في خسارة وهلاك، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على المصائب والأقدار، وأذى من يؤدي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

آخر تفسير سورة «العصر» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُكْفَنُ فِي الصَّلْطَةِ ۝٤ وَمَا أَذْرَكَ مَا كُنَّطَهُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِيَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٨ فِي عَمْرٍ مُّتَدَدٍ ۝٩﴾
الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس ويتقص بهم. وقد تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ يُبَيِّنُ﴾ [القلم: ١١]. قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾: طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة: يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطن عليهم. وقال مجاهد: الهمزة: باليد والعين، واللمزة: باللسان. وهكذا قال ابن زيد: وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ: المراد بذلك الأخنس بن شريق. وقيل غيره: وقال مجاهد: هي عامة. وقوله: ﴿الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [١]: أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]. قاله السدي، وابن جرير. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [١]: ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة. وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [٢]: أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟ ﴿كَلَّا﴾ [٣]: أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. ثم قال تعالى: ﴿لَيُكْفَنُ فِي الصَّلْطَةِ﴾ [٤]: أي: ليلقن هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة وهي اسم من أسماء النار صفة؛ لأنها تحطم من فيها. ولهذا قال: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا كُنَّطَهُ﴾ [٥]

نَارَ اللَّهِ الْمُؤَصَّدَةَ ﴿٦﴾ أَلَّتْ تَطْلِيحَ عَلَى الْأَقْيَدِ ﴿٧﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفتدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي. وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده. وقوله: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي: مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا علي بن سراج، حدثنا عثمان بن خَرَزَادَ، حدثنا شجاع بن أَشْرَسَ، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾﴾ قال: «مطبقة». وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن أسيد، عن إسماعيل بن خالد، عن أبي صالح، قوله، ولم يرفعه. ﴿فِي عَمْرِ مُدَدِّمٍ ﴿٩﴾﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد. وقال السُّدِّيُّ: من نار. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فِي عَمْرِ مُدَدِّمٍ ﴿٩﴾﴾ يعني: الأبواب هي الممدودة. وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود: إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة. وقال العوفي، عن ابن عباس: أدخلهم في عمَد فعدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار. واختاره ابن جرير. وقال أبو صالح: ﴿فِي عَمْرِ مُدَدِّمٍ ﴿٩﴾﴾، يعني القيود الطوال.

آخر تفسير سورة «ويل لكل همزة لمزة»



تفسير سورة الفيل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَحْسَبِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ لِيَجْزِيَ أُولَئِكَ فِئْتَمِمْ مَآكُلِهِمْ ﴿٥﴾﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم أنوفهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، ورددهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم نصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه، خاتم الأنبياء. وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نواس - وكان آخر ملوك حمير، وكان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام - وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرباط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرباط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصالوا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأبنا قتل الآخر، استقل بعده بالملك. فأجابته إلى ذلك فتبارزا، وحلّف كل واحد منهما قناة، فحمل أرباط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرباط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه قنراً، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزئ ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، ويجراب فيها من تراب اليمن، وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله. وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رقيقة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمئها العرب القليس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها

كما يُحجج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدوا بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحرق فيها وكراً راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخرينه حجراً حجراً. وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار في جيش كثيف عزمهم؛ لثلاث يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل غيره، والله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُتق الفيل، ثم يزرع ليلقي الحائط جملة واحدة. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت. ورَد من أراذه بكيد. فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم، يقال له «ذو نُفَر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله، من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نُفَر» فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عَرَض له نُفَيْل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيْل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رَعَال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المُعَمَس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: «الأسود بن مَضُود» فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حنافة الحميري إلى مكة، وأمر أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجرئ لقتالكم إلا أن تُصدوه عن البيت. فجاء حنافة قَدْ عَلَى عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه. فقال له حنافة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال لترجمانه: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: اني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك. ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب ففرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إليه، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لَا تُرْمِمْ إِنْ الْمَمْرَاءَ يَمْرُومُ
لَا يَفْغَلِبُنَّ صَلْبِيُ بِهِمْ
مَعُ زَخْلَهُ فَاثْمَنُوعُ جَلَالُكَ
وَمَحَالُهُمْ غَدُوا وَحَالُكَ

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال، وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة، لعل بعض الجيش ينال منهم شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه. فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة، وهيا فيله - وكان اسمه محموداً - وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «أبرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام». ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالظبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقِهِ فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجله، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز،

ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أَيَّنَ الْمَفْرُؤُ؟ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ
قال ابن إسحاق: وقال نُفَيْلُ فِي ذَلِكَ أَيْضاً:

أَلَا حُمِيَّتْ عَنَّا يَا زُؤِينَا
زُؤِينَنَّهُ، لَوْ رَأَيْتَ - وَلَا تُزْرِنَهُ
إِذَا لَمَعَدْرَتُنِي وَخَمَدتْ أُنْزِرِي
خَمَدتْ اللهُ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيِّسِرَا
فَكُلَّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَن نُّفَيْلِ

وذكر الواقدي بأسانيدهم أنهم لما تعبوا للدخول الحرم وهيؤوا الفيل، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، وإذا وجهوه إلى الحرم رُبِّضَ وصاح. وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه، ليقهر الفيل على دخول الحرم. وطال الفصل في ذلك. هذا وعبد المطلب وجماعة من أشرف مكة، منهم المطعم بن عدي، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، ومسعود بن عمرو الثقفي، على حراء ينظرون إلى ما الحبيشة يصنعون، وماذا يلقون من أمر الفيل، وهو العجب العجيب. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل، أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام، وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاث أحجار، وجاءت فحلقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا. وقال محمد بن كعب: جاؤوا بفيلين فأما محمود فربِّضَ، وأما الآخر فَشَجَع فَحُصِبَ. وقال وهب بن مُثَنَّب: كان معهم فيلة، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربِّضَ، ليقنتدي به بقية الفيلة، وكان فيها فيل تشجع فحصب، فهربت بقية الفيلة. وقال عطاء بن يسار، وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً، حتى مات ببلاد خثعم. قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أئمة أئمة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالا جزئياً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملا حفرة. وقال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عُتْبَةَ: أنه حدث أن أول ما رويت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر الحزمل، والحنظل والعُشر، ذلك العام. وهكذا روي عن عكرمة، من طريق جيد.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً كان فيما يُعَدُّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما رَدَّ عنهم من أمر الحبيشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِأَحْمَدَ الْفَيْلِ ﴿١﴾ أَلَوْ جَعَلَ كِيدُهُ فِي تَضَلِيلِ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾. ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ لِأَنَّهُمْ رَحِلَةٌ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة قريش: أي: لتلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه. قال ابن هشام: الأبايل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهمأ كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج: الحجر، والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، واحده عصفه. انتهى ما ذكره. وقد قال حماد بن سلمة: عن عاصم، عن زر، عن عبد الله - وأبو سلمة بن عبد الرحمن -: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس، والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري، وقتادة: الأبايل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبايل: المختلفة، تأتي من ها هنا، ومن ها هنا، أنتهم من كل مكان. وقال الكسائي: سمعت النحويين يقولون: أبول مثل العجول. قال: وقد سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبايل: إيبيل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المشي، حدثني عبد الأعلى، حدثني داود، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل؛ أنه قال في قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة. وحدثنا أبو كُرَيْبٍ، وحدثنا وكيع، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وحدثنا يعقوب، حدثنا

هُشِيم، أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَايَلٍ﴾ قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رؤوس كرووس السباع. وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير: ﴿طَيْرًا أَبَايَلٍ﴾ قال: هي طير سود بحرية، في منقارها وأظفارها الحجارة. وهذه أسانيد صحيحة. وقال سعيد بن جبير: كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر، تختلف عليهم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: كانت الطير الأبايل مثل التي يقال لها عتقاء مغرب. رواه عنهم ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبه، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف. كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزعة: حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر. وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادت شدة فأهلكوا جميعاً. وقال السُّدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿بِعَجَارٍ مِّن رَّيْبِلٍ﴾ قال: طين في حجارة: «سُنْك - وكل» وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقوله: ﴿يَنكَلُهُمْ كَمَنْبِي تَأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة: هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة. وعنه أيضاً: العصف: التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة. وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع، وورق البقل، إذا أكلته البهائم فرائته، فصار دريناً. والمعنى: أن الله، سبحانه وتعالى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدوره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات. فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة. ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة، فأفند معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آباتهم من الملك، وجاءته وفود العرب للتهنئة. وقد قال محمد بن إسحاق: حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقَعَّدِينَ، يستطعمان. ورواه الواقدي، عن عائشة مثله. ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم. قلت: كان اسم قائد الفيل: أنيساً. وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل، ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له: شعر بن مفسود، وكان الجيش عشرين ألفاً، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً، فأصبحوا صرعى. وهذا السياق غريب جداً، وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره. والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار. وهكذا روى ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة: أن أبرهة بعث الأسود بن مفسود على كتيبة معهم الفيل، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه، والصحيح قدومه، ولعل ابن مفسود كان على مقدمة الجيش، والله أعلم. ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبيري:

كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
إِذْ لَا عَزِيْزَ مِنَ الْأَنْبَامِ يُرْوَمُهَا
فَلَسَوْفَ يُنْبِي الْجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
بَلْ لَمْ يَعْشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
وَاللَّهِ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يُقِيمُهَا

ش، إذ كل ما بَمَثْوِه زَرَمَ
وقد شَرَمُوا أَنْفَهُ فَنَاخَرَمَ
إِذَا يَمُومُوهُ قَمَّاهُ كَلِيمَ
وقد بَاءَ بِالظَّلْمِ مَنْ كَانَ ثَمَّ

تَنَكَّلُوا عَنِ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا
لَمْ تُخَلِّقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حُرْمَتِ
سَائِلِ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى؟
سَتُونَ أَلْفًا يُوْؤِبُوا أَرْضَهُمْ
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمَ قَبْلَهُمْ
وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري المري:

وَمِنْ صُنْعِهِ يَوْمَ فَيْلِ الْخُبُوبِ
مَحَاجِنَهُمْ تَحْتِ أَقْرَابِهِ
وقد جعلوا سوطه مغزولاً
فَوَلَّسِي وَأَدْبَسِي أَدْرَاجِهِ

يُلْفَهُمْ مَثَلُ لَفِ الْقَزْمِ
وَقَدْ تَأْجُوا كَشَوَاجِ الْمَقْمِ

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، ويروى لأمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة:

مَا يُمَارَى فِيهِنَّ إِلَّا الْكُفُورُ
مُسْتَبِينٌ حَسَابُهُ مَقْدُورُ
بِمَهَاةٍ شُعَاعِهَا مَنْشُورُ
صَارَ يَخْبُؤُ، كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
مَنْ ظَهَرَ كَنُكْبِ مَحْدُورُ
مَلَاوِيكُ فِي الْحُرُوبِ صُقُورُ
كُلُّهُمْ عَظْمٌ سَاقَهُ مَكْشُورُ
لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنْبِيَّةَ بَورُ

فَأرسل من فوقهم حاصباً
تحت على الصَّبر أحبازهم

إن آيات ربنا باقيات
خلقت الليل والنهار فكل
ثم يجلو النهار رب رحيم
حبيب الفيل بالمفئس حتى
لازماً خلقه الجران كما فطر
حوله من ملوك كندة أبطال
خلقوه ثم ابذعوا جميعاً،
كل دين يوم القيامة عند الـ

وقد قدمنا في تفسير «سورة الفتح» أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها فألحت، فقالوا، خلأت القصواء، أي: حزنت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يُعظمون فيها حُرُمات الله، إلا أجبتهن إليها». ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرُمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

آخر تفسير سورة «الفيل»



تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية. ذكر حديث غريب في فضلها: قال البيهقي في كتاب «الخلافيات»: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرو، حدثنا أحمد بن عبيد الله النرسي، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شريحيل، حدثني عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق، عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة، عن أبيه، عن جدته أم هانئ بنت أبي طالب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجاجة، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله، ﷻ، عشر سنين لا يعبدونه غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن» ثم تلاها رسول الله: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿٢﴾ إِذْ لَبَّيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٣﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٤﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٥﴾**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿٢﴾ إِذْ لَبَّيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٣﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٤﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٥﴾

هذه السورة مفصلة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن كانت متعلقة بما قبلها. كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي: لا تتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يلقونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترامهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم آمن بهم. هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتاتهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَكْرَمًا وَإِنَّا وَخَّطِفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [المنكوب: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال:

﴿إِلَيْنِهِمْ رِجْلَةُ الشَّيْءِ وَالصَّيْفِ﴾. وقال ابن جرير: الصواب أن «اللام» لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان. ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: فليوحده بالعبادة، كما جعل لهم محرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ تَعْبُدُوا رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]. وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَأَسْكَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفرده بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]. ولقد جاءهم رسولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النمل: ١١٢، ١١٣]. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن عمرو العَدَنِيُّ، حدثنا قَبِيصَةُ، حدثنا سفيان، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل أمكم، قريش، لإيلاف قريش». ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى - يعني ابن يونس - عن عبيد الله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِلَيْنِ الْفِرْيَاسِ قُرَيْشٍ﴾. هكذا رأيت عن أسامة بن زيد، وصوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن، أم سلمة الأنصارية، رضي الله عنها. فلعله وقع غلط في النسخة أو في أصل الرواية، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «إيلاف قريش»



تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَذْهَبَتْ الَّتِي يَكْذِبُ بِالرِّيبِ﴾ ١ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ٢ ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ ٣ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ٥ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ﴾ ٦ ﴿وَيَسْتَمِعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ٧.

يقول تعالى: أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ١ أي: هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ ٢، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ٧ ﴿وَلَا تَحْصُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ ٧ [الفجر: ١٧، ١٨] يعني: الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ٥، قال ابن عباس، وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون. إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أداؤها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبير لمعانيتها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من أتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن أتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً؛ ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». ولعله إنما حملة على القيام إليها مראה الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو إذا لم يصل بالكلية. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةَ قَامُوا كُنَّا كَمَا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤]. وقال ها هنا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (١). وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبدويه البغدادي، حدثني أبي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن يونس، عن الحسن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم لودايا، تستعبد جهنم من ذلك الوداي في كل يوم أربعمئة مرة، أعد ذلك الوداي للمرائين من أمة محمد: لحامل كتاب الله، وللمصدق في غير ذات الله، وللحاج إلى بيت الله، وللخارج في سبيل الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمع الناس بعمله، سمع الله به سامع خلقه، وحقره وصغره». ورواه أيضاً عن غندر ويحيى القطان، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، فذكره. ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (١): أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس، فأعجبه ذلك، أن هذا لا يعد رياء، والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا مخلد بن يزيد، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كنت أصلي، فدخل علي رجل، فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ، فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية». قال أبو علي هارون بن معروف: بلغني أن ابن المبارك قال: نعم الحديث للمرائين. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وسعيد بن بشير متوسط، وروايته عن الأعمش عزيزة. وقد رواه غيره عنه. قال أبو يعلى: حدثنا محمد بن المثنى بن موسى، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو سنان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل بسره، فإذا أطلع عليه أعجبه. قال: قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية». وقد رواه الترمذي عن محمد بن المثنى، وابن ماجه عن بُنْدَار، كلاهما عن أبي داود الطيالسي، عن أبي سنان الشيباني - واسمه: ضرار بن مرة - ثم قال الترمذي: غريب، وقد رواه الأعمش وغيره. عن حبيب، عن النبي، مرسلًا. وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان النحوي، عن جابر الجعفي، حدثني رجل، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٢) قال: «الله أكبر، هذا خير لكم من أن لو أعطي كل رجل منكم مثل جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يَزُجْ خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه». فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وشيخه مُبهم لم يُسم، والله أعلم. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن أبان المصري، حدثنا عمرو بن طارق، حدثنا عكرمة بن إبراهيم، حدثني عبد الملك بن عمير، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٢) قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها». وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكليّة، أو صلاتها بعد وقتها شرعاً، أو تأخيرها عن أول الوقت سهواً حتى ضاع الوقت. وكذا رواه الحافظ أبو يعلى عن شيبان بن فروخ، عن عكرمة بن إبراهيم، به. ثم رواه عن أبي الربيع، عن جابر، عن عاصم، عن مصعب، عن أبيه موقوفاً. وهذا أصح إسناداً، وقد ضعف البيهقي رفعه، وصحح وقفه، وكذلك الحاكم. وقوله: ﴿وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرْبَاتِ أولى وأولى. وقد قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: قال علي: الماعون: الزكاة. وكذا رواه السدي، عن أبي صالح، عن علي. وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر. وبه يقول محمد بن الحنفية، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وعطاء، وعطية العوفي، والزهرى، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقال الحسن البصري: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله. وفي لفظ: صدقة ماله. وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون، ظهرت الصلاة فصلوها، وضمت الزكاة فمنعوها. وقال الأعمش وشعبة، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار: أن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون، فقال: هو ما يتعارفه الناس بينهم من الفأس، والقدر، والدلو. وقال المسعودي، عن سلمة بن كهّيل، عن أبي العبيدين: أنه سُئل ابن مسعود عن الماعون، فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم، من الفأس والقدر، والدلو، وأشباه ذلك. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن أبي العبيدين وسعد بن عياض، عن عبد الله قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو، والفأس، والقدر، لا يستغنى عنهن. وحدثنا خلاد بن أسلم، أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت سعد بن عياض يحدث عن أصحاب النبي ﷺ مثله. وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيْد، عن

عبد الله: أنه سئل عن الماعون، فقال: ما يتعارفه الناس بينهم: الفأس والدلو، وشبهه. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا أبو عوانة، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: كنا مع نبينا ﷺ ونحن نقول: الماعون: منع الدلو وأشباه ذلك. وقد رواه أبو داود والنسائي، عن قتيبة، عن أبي عوانة بإسناده، نحوه. ولفظ النسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارضةً للدلو والقدر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله قال: الماعون: العواري: القدر، والميزان، والدلو. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني: متاع البيت. وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبیر، وأبو مالك، وغير واحد: إنها العارضة للامتنعة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: لم يجيء أهلها بعد.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة. ومنهم من قال: يمنعون الطاعة. ومنهم من قال: يمنعون العارية. رواه ابن جرير. ثم روي عن يعقوب بن إبراهيم، عن ابن عُلَيَّة، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: الماعون: منع الناس الفأس، والقدر، والدلو. وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال، وأذناه المنخل، والدلو، والإبرة. رواه ابن أبي حاتم. وهذا الذي قاله عكرمة حسن؛ فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد. وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة. ولهذا قال محمد بن كعب: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: المعروف. ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: بلسان قريش: المال. ورَوَى ها هنا حديثاً غريباً عجيباً في إسناده ومنتنه، فقال: حدثنا أبي، وأبو زُرْعَةَ قال: حدثنا قيس بن حفص الدارمي، حدثنا دلهم بن دهشم العجلي، حدثنا عائذ بن ربيعة النميري، حدثني قرة بن دعموص النميري: أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما تعهد إلينا؟ قال: «لا تمنعوا الماعون». قالوا: يا رسول الله، وما الماعون؟ قال: «في الحجر، وفي الحديدية، وفي الماء». قالوا: فأبي حديدية؟ قال: «قدوركم النحاس، وحديد الفأس الذي تمتنونون به». قالوا: وما الحجر؟ قال: «قدوركم الحجارة». غريب جداً، ورفع منكر، وفي إسناده من لا يعرف، والله أعلم. وقد ذكر ابن الأثير في الصحابة ترجمة «علي النميري»، فقال: روى ابن قانع بسنده إلى عائذ بن ربيعة بن قيس النميري، عن علي بن فلان النميري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم. إذا لقيه حيّاه بالسلام، ويرد عليه ما هو خير منه، لا يمنع الماعون». قلت: يا رسول الله، ما الماعون؟ قال: «الحجر، والحديد، وأشباه ذلك».

آخر تفسير سورة «الماعون»



تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْطَقْنَا الْكُوثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَايِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن قُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءً، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليّ آتفاً سورة». فقراً: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَا الْكُوثَرَ﴾، حتى ختمها، قال: «هل تدرون ما الكوثر؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي، ﷺ، في الجنة، عليه خير كثير، تردّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عدد الكواكب، يُخْتَلَجُ العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق. وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يُشَخَّبُ فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن عليه آتية عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل، وعلي بن مُسَهَّر، كلاهما عن المختار بن قُلْفُل، عن

أنس. ولفظ مسلم قال: «بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متمسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي أنفاً سورة»، فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ لِمَا شَاءْتَكَ هُوَ الْبَاقِرُ ﴿٣﴾. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعديني ربي، ﷺ، عليه خير كثير، هو حوض تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك». وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسمة من السورة، وأنها منزلة معها. فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾، فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أنس فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت، عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾. قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يشق شقاً، وإذا حافته قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسكه ذفرة، وإذا حصاه اللؤلؤ». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر، حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، ﷺ». ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهذا لفظ البخاري، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع، أخبرنا ابن وهب، عن سليمان بن هلال، عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال: لما أسري برسول الله ﷺ، مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ترابه، فإذا هو مسك. قال: «يا جبريل، ما هذا النهر؟ قال: هو الكوثر الذي خبا لك ربك». وقد تقدم في حديث الإسراء في سورة «سبحان»، من طريق شريك عن أنس عن النبي ﷺ. وهو مخرج في الصحيحين. وقال سعيد، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر، حافته قباب اللؤلؤ مجوف، فقال الملك الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثر الذي أعطاك الله. وضرب بيده إلى أرضه، فأخرج من طينه المسك». وكذا رواه سليمان بن طرخان، ومعمر وهمام وغيرهم، عن قتادة، به. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن أبي سريح، حدثنا أبو أيوب العباسي، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثني محمد بن عبد الله، ابن أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُرز». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها». وقال أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا الليث، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الوهاب، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: «نهر في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجرز». قال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها يا عمر». رواه ابن جرير، من حديث الزهري، عن أخيه عبد الله، عن أنس: أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فذكر مثله سواء. وقال البخاري: حدثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾، قالت: نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئه عليه دُرٌّ مجوف، آتيته كعدد النجوم. ثم قال البخاري: رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف، عن أبي إسحاق. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مطرف، به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن سفيان، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة، شاطئه درُّ مجوف. وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء. وحدثنا ابن حُميد، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق أو مسروق قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، حدثيني عن الكوثر. قالت: نهر في بطنان الجنة. قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافته قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت. وحدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن أبي جعفر الرازي، عن ابن أبي نجيح، عن عائشة قالت: من أحب أن يسمع خرير الكوثر، فلْيَجْعَلْ أصبعيه في أذنيه. وهذا منقطع بين ابن أبي نجيح وعائشة، وفي بعض الروايات: «عن رجل، عنها». ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك، لأنه يسمعه نفسه، والله أعلم. قال السهيلي: ورواه الدارقطني مرفوعاً، من طريق مالك بن مغول، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، عن النبي ﷺ. ثم قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال

سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. ورواه أيضاً من حديث هُشَيْم، عن أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وقال الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دثار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله، موقوفاً. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، حدثنا ورقاء قال... وقال عطاء بن السائب عن محارب بن دثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، به مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْب، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنه للخير الكثير. ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾، قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافته من ذهب، يجري على الدر والياقوت». وقال ابن جرير: حدثني ابن البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني حرام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً فلم يجده، فسأل امرأته عنه - وكانت من بني النجار - فقالت: خرج ياني الله أنفاً عامداً نحوك، فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار، أو لا تدخل يارسول الله؟ فدخل، فقدمت إليه خيماً، فأكل منه، فقالت: يارسول الله، هنيئاً لك ومريئاً، لقد جئت وأنا أريد أن أتيك فأهنيك وأمريك؛ أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهرأ في الجنة يدعى الكوثر. فقال: «أجل، وعرضه - يعني أرضه - ياقوت ومرجان، وزبرجد ولؤلؤ». حرام بن عثمان ضعيف. ولكن هذا سياق حسن، وقد صح أصل هذا، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض ولذكريها ها هنا. وهكذا روي عن أنس، وأبي العالية، ومجاهد، وغير واحد من السلف: أن الكوثر: نهر في الجنة. وقال عطاء: هو حوض في الجنة. وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحَرَكَ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ مِنْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: يعني بذلك نحر البُذُن ونحوها. وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والربيع، وعطاء الخراساني، والحكم، وإسماعيل بن أبي خالد، وغير واحد من السلف. وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَلًا تَرْتَابًا إِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾: وضع اليد اليمنى تحت النحر. يُروى هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة. وقيل: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ أي: استقبال بنحر القبله. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً منكراً جداً فقال: حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي - سنة خمس وخمسين ومائتين - حدثنا إسرائيل بن حاتم المروري، حدثنا مقاتل بن حيان، عن الأصمغ بن نباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾، قال رسول الله: «يا جبريل، ما هذه الشَّحيرة التي أمرنا بهاري؟» فقال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلوة الملائكة الذين في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، من

سورة قل يا أيها الكافرون

حديث إسرائيل بن حاتم، به. وعن عطاء الخراساني: ﴿وَأَمَحَّرَ﴾ أي: أرفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وأبرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم. كل هذه الأقوال غريبة جداً. والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: «شاتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزىء عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزىء أحداً بعدك». قال أبو جعفر بن جرير: والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظي، وعطاء. وقوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن ميفضك - يا محمد - وميفض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبر الأقل الأذل المنقطع ذكوره. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة: نزلت في العاص بن وائل. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكوره. فأنزل الله هذه السورة. وقال شير بن عطية: نزلت في عقبه بن أبي مغيط. وقال ابن عباس أيضاً، وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وقال البزار: حدثنا زيد بن يحيى الحسائي، حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصنَّب المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح. وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بئز محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ﴾ يعني: عدوك. وهذا يعمُّ جميع من اتصف بذلك ممن ذكر، وغيرهم. وقال عكرمة: الأبر: الفرد. وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بئر. فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بئر محمد. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر الذي إذا مات انقطع ذكوره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكوره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة «الكوثر»، وشه الحمد والمنة



تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية. ثبت في صحيح مسلم، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة - أو: بضع عشرة مرة - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين - أو: خمساً وعشرين - مرة، يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب ب﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد - هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيري - حدثنا سفيان - هو الثوري - عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ شهراً، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر ب﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي أحمد الزبيري. وأخرجه النسائي من وجه آخر، عن أبي إسحاق، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا دُرِّئَتْ﴾ تعدل ربع القرآن. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق، عن فروة بن

نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟» قال: أراها زينب. قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها، قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها. قال: «فمجيء ما جاء بك؟» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك». تفرد به أحمد. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو القطراني، حدثنا محمد بن الطفيل، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾» حتى تمر بأخرها، فإنها براءة من الشرك». والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن فروة بن نوفل، عن الحارث بن جبلة قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: «إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»، فإنها براءة من الشرك». وروى الطبراني من طريق شريك، عن جابر، عن معقل الزبيدي، عن عباد أبي الأخضر عن خباب، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى يخرتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلمة، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، يعني: من الأصنام والأنداد، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وهو الله وحده لا شريك له. فلما ها هنا بمعنى «من». ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ و﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا اقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ الْفَالِقَ وَالْفَيْسُ ثُمَّ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْفُلْكَ﴾ [النجم: ٢٣]، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم ياذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا آعَمَّ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَمَا يَصْلَحُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿لَا أَعْبُدُكُمْ وَأَعْبُدُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾: الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: الإسلام. ولم يقل: «ديني» لأن الآيات بالنون، فحذف الياء، كما قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيئكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وَلْيَرْبِّدْكُمْ كَيْدًا مِّنْهُمْ مَا أَزِلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]. انتهى ما ذكره.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [شرح: ٥، ٦]، وكقوله: ﴿لَتَرْوِيَنَّ الْجَحِيمَ﴾ [تُرْوِيَنَّهَا عَيْنٌ الْيَقِينِ] [التكاثر: ٦، ٧]. وحكاه بعضهم - كابن الجوزي، وغيره - عن ابن قتيبة، فإله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً. الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ و﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: في الماضي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ و﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض. وثم قول رابع، نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾: نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾: نفي قبوله لذلك بالكلمة؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكانه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم. وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة تورثه اليهود من النصارى، وبالعكس؛ وإذا كان بينهما نسب أو سب يتوارث به؛ لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث

عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى».

آخر تفسير سورة «قل يا أيها الكافرون» والله الحمد والمنة



تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية. قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن. وقال النسائي: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا جعفر، عن أبي العُميس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال: صدقت. وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي، من حديث موسى بن عبيدة الزبدي، عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أو وسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة. وقال الحافظ البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا الأسفاطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إنه قد نُعيت إلي نفسي»، فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت. وقد رواه النسائي - كما سيأتي - بدون ذكر فاطمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ نَسِخَ بِمَحْمَدٍ رَيْكَ وَأَسْتَفِرَّهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رؤيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أأذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷻ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿نَسِخَ بِمَحْمَدٍ رَيْكَ وَأَسْتَفِرَّهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري. وروى ابن جرير، عن محمد بن حُميد، عن مهران، عن الثوري، عن عاصم، عن أبي رزين، عن ابن عباس، فذكر مثل هذه القصة، أو نحوها. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال رسول الله ﷻ: «نُعيت إلي نفسي». . . بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به أحمد. وروى العوفي، عن ابن عباس، مثله. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وغير واحد: إنها أجل رسول الله ﷻ نُعي إليه. وقال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفي، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي حازم، عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷻ في المدينة إذ قال: «الله أكبر الله أكبر! جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن». قيل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان، والفرقة يمان، والحكمة يمانية». ثم رواه عن ابن عبد الأعلى، عن ابن ثور، عن معمر، عن عكرمة، مرسلًا.

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو كامل الجَحْدَرِي، حدثنا أبو عَوَّانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷻ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷻ بعد ذلك: «جاء الفتح ونصر الله، وجاء أهل اليمن». فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفرقة يمان». وقال

الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزّين، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ علم النبي ﷺ أنه قد نُعيت إليه نفسه، فقيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، السورة كلها. حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزّين: أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: لما نزلت نُعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه. وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن أحمد بن غمّر الوكيعي، حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن عون، عن أبي العُميس، عن أبي بكر بن أبي الجهم، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مَرّة، عن أبي البخري الطائي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها، فقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز». وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». فقال له مَرّوان: كذبت - وعنده رافع بن خديج، وزيد بن ثابت، قاعدان معه على السرير - فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة. فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رآيا ذلك قالوا: صدق. تفرد به أحمد، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا». أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما.

فالذي فسره به بعض الصحابة من جلساء عمر، رضي الله عنهم أجمعين، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره - معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فقال قائلون: هي صلاة الضحى. وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يثو الإقامة بمكة؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحواً من عشرة آلاف. قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح، قالوا: فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات. وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، ثم قال بعضهم: يصلها كلها بتسليمة واحدة. والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين. وأما ما فسره به ابن عباس وعمر، رضي الله عنهما، من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة، واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك - ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتبها للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، وسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾. قال النسائي: أخبرنا عمرو بن منصور، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إلى آخر السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح، وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن». فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان». وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن. وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي، من حديث منصور، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ورأيت النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾». ورواه مسلم من طريق داود - وهو ابن أبي هند - به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص، حدثنا عاصم، عن الشعبي، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «سبحان الله وبحمده». فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: سبحان الله وبحمده؟ قال: «إني أمرت بها»، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إلى آخر السورة. غريب، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه والألفاظ في جزء مفرد، فيكتبها هنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيْدة، عن عبد الله قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، كان يكثر إذا قرأها - وَرَكَعَ - أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثاً. تفرد به أحمد. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عمرو بن مُرّة، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. والمراد بالفتح ما هنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، والله الحمد والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي. الحديث. وقد حررنا غزوة الفتح في كتابنا: السيرة، فمن أراد فليراجعه هناك، والله الحمد والمنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني جابر لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله، فسلم عليّ، فجعلت أحذّثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً».

آخر تفسير سورة «إذا جاء نصر الله والفتح» والله الحمد والمنة



تفسير سورة تبت

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

قال البخاري: حدثنا أبو محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قریش، فقال: «أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسحكم، أكنتم تصدقوني؟». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهدا جمعتنا؟ تبأ لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾، إلى آخرها. وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبأ لك سائر اليوم. ألهدا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾. الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه. فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبرّ عتبة. وإنما سمي «أبا لهب» لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه. قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: أخبرني رجل - يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الدليل، وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا». والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحمر ذو غدريتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب. ثم رواه عن سُرَيْج، عن ابن أبي الزناد، عن أبيه، فذكره قال أبو الزناد: قلت لربيعة: كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا، والله إنني يومئذ لأعقل أني أزر القربة. تفرد به أحمد. وقال محمد بن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عُبَيْد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إنني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل - ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة - يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إنني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفد عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تنبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب. رواه أحمد أيضاً، والطبراني بهذا اللفظ. فقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ أي: خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه، ﴿وَتَبَّ ۝١﴾ أي:

وقد تبّ تحقق خسارته وهلاكه. وقوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١)، قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني: ولده. ورُوي عن عائشة، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وابن سيرين، مثله. وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فأنزل الله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢). وقوله: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣) أي: ذات شرر ولهب وإحراق شديد، ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤). وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٥) في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مُهيأة لذلك مستعدة له. ﴿في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٥) قال مجاهد، وعروة: من مسد النار. وعن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والثوري، والسدي: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس، وعطية الجذلي، والضحاك، وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، واختاره ابن جرير. قال ابن جرير: قيل: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب، فغيرت بذلك. كذا حكاه، ولم يعزه إلى أحد. والصحيح الأول، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، يعني: فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن سليم مولى الشعبي، عن الشعبي قال: المسد: الليف. وقال عروة بن الزبير: المسد: سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً. وعن الثوري: هي قلادة من نار، طولها سبعون ذراعاً. وقال الجوهري: المسد: الليف. والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، وقد يكون جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسدأً؛ إذا أجدت فتله. وقال مجاهد: ﴿في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٥) أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسدأً؟ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو زُرعة قالوا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبِينَا ودينه قَلِينَا وأمره غَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني». وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥). فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجانني؟ قال: لا، ورب هذا البيت ما هجأك. فقلت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها. قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فعقرت أم جميل في مزطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم. فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصانٌ فما أكلم، وثقافٌ فما أعلم، وكلنا من بني العم، وقريش بعد أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالوا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تحشيت لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها». فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا، ورب هذه البنية ما نطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما رأتك؟ قال: «لا»، ما زال ملك يسترنني حتى ولت. ثم قال البزار: لا نعلمه يروي بأحسن من هذا الإسناد، عن أبي بكر، رضي الله عنه. وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٥) أي: في عنقها حبل من نار جهنم ترقع به إلى شفورها، ثم يرمى بها إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً. قال أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير - وقد روى ذلك -: وغبر بالمسد عن حبل الدلو، كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب «النبات»: كل مسد: رشاء، وأنشد في ذلك:

وَبِكُورَةٍ وَيَخْشَوْرًا صِرَارًا وَمَسَدًا مِنْ أَيْتِقِ مُفَارًا
قال: والابتى: القُتْب. وقال الآخر:

يَا مُسَدَّ الْخُوصِ تَعَرَّذَ مِنِّي إِنَّ تَكَّ لَذُنَا لِيْنَا فإِنِّي
مَا شِئْتُ مِنْ أَشْمَطُ مُفْسِسِينَ

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَخَّصَلْنَا ذَاتَ هَمٍ ۝١ وَأَمْرَاتُهُ حَكَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٢ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ ۝٣﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقبض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً، لا مسراً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.

آخر تفسير «تبت» والله الحمد والمنة



تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية.

ذكر سبب نزولها وفضيلتها

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغانى، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾. وكذا رواه الترمذى وابن جرير، عن أحمد بن منيع - زاد ابن جرير: ومحمود بن خذاش - عن أبي سعد محمد بن ميسر به - زاد ابن جرير والترمذى - قال: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾: ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثل شيء. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي سعد، محمد بن ميسر، به. ثم رواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله بن موسى، عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، فذكره مرسلًا ولم يذكر «أخبرنا». ثم قال الترمذى: هذا أصح من حديث أبي سعد.

حديث آخر في معناه: قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا إسماعيل بن مجالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك. فأنزل الله، ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، إلى آخرها. إسناده مقارب. وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن سريج فذكره. وقد أرسله غير واحد من السلف. وروى عبيد بن إسحاق العطار، عن قيس بن الربيع، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره، عن قيس، عن أبي عاصم، عن أبي وائل، مرسلًا. ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي، عن الوازع بن نافع، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء نسبه، ونسبه الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢»، والصمد ليس بأجوف.

حديث آخر في فضلها: قال البخاري: حدثنا محمد - هو الذهلي - حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنا عمرو، عن ابن أبي هلال: أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في جبر عائشة زوج النبي ﷺ - عن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه». هكذا رواه في كتاب «التوحيد». ومنهم من يسقط ذكر «محمد الذهلي». ويجعله من روايته عن أحمد بن صالح. وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به. حديث آخر: قال البخاري في كتاب الصلاة: «وقال عبيد الله، عن ثابت، عن أنس، قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة. فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فلما أن تقرأ بها، ولما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يزورونه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره.

فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟». قال: «إني أحبها». قال: «حُبِك إياها أدخلك الجنة». هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به. وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه، عن البخاري، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن عُبيد الله بن عمر، فذكر بإسناده مثله سواء، ثم قال الترمذي: غريب من حديث عبيد الله، عن ثابت. قال: وروى مَبَارَكُ بن فضالة، عن ثابت، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال: «إِنْ حُبَّكَ إياها أدخلك الجنة». وهذا الذي علقه الترمذي قد رواه الإمام أحمد في مسنده متصلاً، فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «حُبِك إياها أدخلك الجنة».

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن: قال البخاري: حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَغُصَّة، عن أبيه، عن أبي سعيد. أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن». زاد إسماعيل بن جعفر، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان، عن النبي ﷺ. وقد رواه البخاري أيضاً عن عبد الله بن يوسف، والقَعْنَبِيِّ. ورواه أبو داود عن القَعْنَبِيِّ، والنسائي عن قتيبة، كلهم عن مالك، به. وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائي من طريقين، عن إسماعيل بن جعفر، عن مالك، به. حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عُمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقِيُّ. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟». فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن». تفرد بإخراجه البخاري من حديث إبراهيم بن يزيد النخعي والضحاك بن سُرحبيل الهمداني المَشْرِقِيُّ، كلاهما عن أبي سعيد، قال القَرَبْرِيُّ: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبد الله قال: قال أبو عبد الله البخاري: عن إبراهيم مرسل، وعن الضحاك مسند. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن العمار بن يزيد، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده، لتعدل نصف القرآن، أولئك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حَيَّي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ، عن عبد الله بن عمرو: أن أبا أيوب الأنصاري كان في مجلس وهو يقول: ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال: فإن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثلث القرآن. قال: فجاء النبي ﷺ وهو يسمع أبا أيوب، فقال: «صدق أبو أيوب». حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، أخبرني أبو حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا، فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن». فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن». إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن بشار، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، واسم أبي حازم سلمان. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن زائدة بن قدامة، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن الربيع بن خثيم، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن امرأة من الأنصار، عن أبي أيوب، عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الله أَفْصَحُ» في ليلة، فقد قرأ ليلته ثلث القرآن». هذا حديث تُسَاعِي الإسناد للإمام أحمد. ورواه الترمذي والنسائي، كلاهما عن محمد بن بشار بندار - زاد الترمذي وقتيبة - كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي، به. فصار لهما عُشْرًا. وفي رواية الترمذي: «عن امرأة أبي أيوب، عن أبي أيوب»، به وحسنه. ثم قال: وفي الباب عن أبي الدرداء، وأبي سعيد، وقاتدة بن النعمان، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي مسعود. وهذا حديث حسن، ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث أحسن من رواية «زائدة». وتابعه على روايته إسرائيل، والفضيل بن عياض. وقد رَوَى شُعْبَةُ وغير واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا هَشِيم، عن حُصَيْن، عن هلال بن يساف، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب -

أو: رجل من الأنصار - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكَأَنَّمَا قرأ بثلاث القرآن». ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث هُشَيْم، عن حُصَيْن، عن ابن أبي ليلى، به. ولم يقع في روايته: هلال بن يساف. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي قيس، عن عمرو بن ميمون، عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن». وهكذا رواه ابن ماجه، عن علي بن محمد الطَّنَافِسي، عن وكيع، به. ورواه النسائي في «اليوم والليلة» من طرق آخر، عن عمرو بن ميمون، مرفوعاً وموقوفاً. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا بَكَيْر بن أبي السميط، حدثنا قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَانَ بن أبي طلحة، عن أبي الذرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز. قال: «فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن». ورواه مسلم والنسائي، من حديث قتادة، به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن أخي ابن شهاب - عن عمه الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن - هو ابن عوف - عن أمه - وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط - قالت: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن». وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، عن عمرو بن علي، عن أمية بن خالد، به. ثم رواه من طريق مالك، عن الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن، قوله. ورواه النسائي أيضاً في «اليوم والليلة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الحارث بن الفضيل الأنصاري، عن الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن: أن نقرأ من أصحاب محمد ﷺ حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن لمن صلى بها».

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة: قال الإمام مالك بن أنس، عن عبيد الله بن عبد الرحمن، عن عُبَيْد بن حُثَيْن قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وَجِبَتْ». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث مالك. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث مالك. وتقدم حديث: «حُبِّك إياها أدخلك الجنة». حديث في تكرار قراءتها: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا قطن بن نسير، حدثنا عيسى بن ميمون القرشي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات في ليلة، فإنها تعدلُ ثلث القرآن؟». هذا إسناد ضعيف، وأجود منه حديث آخر، قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المَقْدَمِي، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن أسيد بن أبي أسيد، عن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي لنا، فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل». فسكت. قال: «قل». قلت: ما أقول؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»، والمعوذتين حين تسمي وحين تصبح ثلاثاً، تكفك كل يوم مرتين». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديث ابن أبي ذئب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقد رواه النسائي من طريق أخرى، عن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، فذكره ولفظه: «يكفك كل شيء». حديث آخر في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث بن سعد، حدثني الخليل بن مرة، عن الأزهر بن عبد الله، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ «من قال: لا إله إلا الله واحداً واحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحداً، عشر مرات، كُتِبَ له أربعون ألف حسنة». تفرد به أحمد، والخليل بن مرة: ضعفه البخاري وغيره بمُرَّة. حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زِيَان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها، عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة». فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فقال ﷺ: «الله أكثر وأطيب». تفرد به أحمد. ورواه أبو محمد الدارمي في مسنده فقال: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا حيوة، حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد - قال الدارمي: وكان من الأبدال - أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: إذن لتكثر قصورنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك». وهذا مرسل جيد.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا نصر بن علي، حدثني نوح بن قيس، أخبرني محمد العطار، أخبرني أم كثير الأنصارية، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة عُفِرَتْ له ذنوب خمسين سنة». إسناده ضعيف. حديث آخر: قال أبو يعلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا حاتم بن ميمون، حدثنا ثابت، عن أنس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ الْفَلَّاقِ﴾ ① و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ النَّائِسِ﴾ ②. ثم قال: «يا عقبه، لا تَنْسَهُنْ ولا تُبْثِ ليلة حتى تقرأهن». قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن»، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبه، ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبه، صِلْ من قطعك وأعطِ من حَزَمَكَ، وأعرض عمن ظلمك». روى الترمذي بعضه في «الزهد»، من حديث عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد وقال: هذا حديث حسن. وقد رواه أحمد من طريق آخر: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن عياش، عن أسيد بن عبد الرحمن الخثعمي، عن فزرة بن مجاهد اللخمي، عن عقبه بن عامر، عن النبي ﷺ، فذكر مثله سواء. تفرد به أحمد. حديث آخر في الاستشفاء بهن: قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا المفضل، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ③ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ الْفَلَّاقِ﴾ ④ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ النَّائِسِ﴾ ⑤. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث عُقَيْل، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ② ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ③.

قد تقدم ذكر سبب نزولها. وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله. وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر. وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان. أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ①. يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عدل، ولا يُطَلَقُ هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ②، قال عكرمة، عن ابن عباس: يعني الذي يصمد الخلاق إليه في حوائجهم ومسائلهم. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته. وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار. وقال الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل: ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد الذي قد انتهى سؤده، ورواه عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، مثله. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد. وقال الحسن، وقناة: هو الباقي بعد خلقه. وقال الحسن أيضاً: ﴿الصَّمَدُ﴾: الحي القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمة: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم. وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ③، وهو تفسير جيد. وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير، عن أبي بن كعب في ذلك، وهو صريح فيه. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة أيضاً، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له. قال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبد الله بن بريدة أيضاً: ﴿الصَّمَدُ﴾: نور يتلألأ. روى ذلك كله وحكاه: ابن أبي حاتم، والبيهقي والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده، وقال: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن عمرو بن رومي، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش، حدثني صالح بن حيان، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: - لا أعلم إلا قدره - قال: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له. وهذا غريب جداً، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا، ﷻ، وهو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي انتهى سؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ③، يعني: لا صاحب له ولا ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ③ يعني: لا صاحب له. وهذا كما قال تعالى: ﴿يَدْعُ الْمَشْرِكِينَ وَالْأَرْضِينَ أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ وِلْدٌ وَوَلَدٌ لَّهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلْقٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۙ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقُرُنَ مِنْهُ وَنَشَقُّ الْأَرْضَ وَنَحْنُ لِلْإِنْسَانِ هُنَا ۙ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۙ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۙ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا بِي الرَّحْمَنِ عَلَيْهَا ۙ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَقَدْ أَحْضَمْتُمْ وَأَعْدَمْتُمْ ۙ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنَا ۙ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿[مریم: ٨٨-٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۙ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ ۙ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَقْمَلُونَ ۙ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿[الانبیاء: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَلِمَةِ نَسَبًا ۙ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْكَلِمَةَ الْكَلِمَةَ الْكَلِمَةَ ۙ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۙ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿[الصافات: ١٥٨، ١٥٩]، وفي الصحيح - صحيح البخاري -: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيتهم». وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله، ﷻ: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يُعِينَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام بن مَثْبُة، عن أبي هريرة، مرفوعاً بمثله. تفرد بهما من هذين الوجهين.

آخر تفسير سورة «الإخلاص»



تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيان. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه؟ فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل، عليه السلام، قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ فقلتها، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾ فقلتها. فنحن نقول ما قال النبي ﷺ. ورواه أبو بكر الحُمَيْدِي فِي مَسْنَدِهِ، عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ وَعَاصِمُ بْنُ بَهْدَلَةَ، أَنَّهُمَا سَمِعَا زُرَّ بْنَ حَبِيشٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمَعُودَتَيْنِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذَرِ، إِنَّ أَحَاكُ ابْنَ مَسْعُودٍ يُحْكِمُهُمَا مِنَ الْمَصْحَفِ. فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قِيلَ لِي: قُلْ، فَقُلْتُ». فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ زُرِّ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْمَعُودَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْهُمَا فَقَالَ: «قِيلَ لِي، فَقُلْتُ لَكُمْ، فَقُولُوا». قَالَ أَبِي: فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ فَنَحْنُ نَقُولُ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ، عَنْ زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ - وَحَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ زُرِّ - قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ: أَبَا الْمُنْذَرِ، إِنَّ أَحَاكُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: زُرُّ بْنُ حَبِيشٍ - وَحَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ، عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ، بِهِ. وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا الْإِزْرَقُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا الصُّلْتُ بْنُ يَهْرَازِمَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَحْكُ الْمَعُودَتَيْنِ مِنَ الْمَصْحَفِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ يَقْرَأُ بِهِمَا. وَرَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَحْكُ الْمَعُودَتَيْنِ مِنْ مِصْحَافِهِ، وَيَقُولُ: إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - قَالَ الْأَعْمَشُ: وَحَدَّثَنَا عَاصِمُ، عَنْ زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ، عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَنْهُمَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قِيلَ لِي، فَقُلْتُ». وَهَذَا مَشْهُورٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْفُقَهَاءِ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لَا يَكْتُبُ الْمَعُودَتَيْنِ فِي مِصْحَفِهِ، فَلَعَلَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُمَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَتَوَاتَرَ عَنْهُ، ثُمَّ لَعَلَّهُ قَدِ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَتَبُوهُمَا فِي الْمِصْحَافِ الْأَثْمَةِ، وَنَفَذُوهُمَا إِلَى سَائِرِ الْأَفَاقِ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَدْ قَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا قَتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ بِيَانٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرْمَلْهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾». وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ أَيْضًا، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَقْبَةَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جابر، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن عاقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نَقَبٍ مِنْ تَلْكَ النَّقَابِ، إِذْ قَالَ لِي: «يَا عَقْبَةُ، أَلَا تَرَكِبُ؟». قَالَ: فَأَجَلَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أُرَكِبَ مَرْكَبَهُ. ثُمَّ قَالَ: «يَا عَقْبِيُّ، أَلَا تَرَكِبُ؟». قَالَ فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً، قَالَ: فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكِبَتْ هَنِيئَةً،

سورتي المعوذتين

ثم ركب، ثم قال: «يا عقيب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟». قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي فقال: «كيف رأيت يا عقيب، أقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت». ورواه النسائي من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك، كلاهما عن ابن جبار، به. ورواه أبو داود والنسائي أيضاً، من حديث ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن العلاء بن الحارث، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن عقبة، به. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني يزيد بن عبد العزيز الرعيني وأبو مرحوم، عن يزيد بن محمد القرشي، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر قال: «أمرتني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من طرق، عن علي بن رباح. وقال الترمذي: غريب. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن مشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأ بالمعوذتين، فإنك لن تقرأ بمثلهما». تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جُبَيْرِ بن نَفِيرٍ، عن عقبة بن عامر أنه قال: إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء، فركبها فأخذ عقبة يقودها له، فقال رسول الله ﷺ: «أقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾». فأعادها له حتى قرأها، فعرف أنني لم أفرح بها جداً، فقال: «لعلك تعاونت بها؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها». ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان، عن بَقِيَّةِ، به. ورواه النسائي أيضاً من حديث الثوري، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبيرة بن نفير، عن أبيه، عن عقبة بن عامر: أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين، فذكر نحوه.

طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، سمعت النعمان، عن زياد أبي الأسد، عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا قتيبة، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «يا عقبة، قل». فقلت: ماذا أقول؟ فسكت عني، ثم قال: «قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فسكت عني، فقلت: اللهم، أردد علي. فقال: «يا عقبة، قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال: «قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما». طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا معاوية، عن العلاء بن الحارث، عن مكحول، عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في صلاة الصبح. طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا قتيبة، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عمران أسلم، عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني سورة هود أو سورة يوسف. فقال: «لن تقرأ شيئاً أنفع عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾». حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو الأزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي عبد الله، عن ابن عائش الجهني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عائش، ألا أدلك - أو: ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟». قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، هاتان السورتان. فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث. وقد تقدم في رواية صُدِّي بن عجلان، وفَرْوَةَ بن مُجَاهِدٍ، عنه: «ألا أعلمك ثلاث سُورٍ لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلهن؟ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا الجريري، عن أبي العلاء قال: قال رجل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، والناس يعتقدون، وفي الظهر قلة، فحانت نَزْلَةُ رسول الله ﷺ ونزلتي، فلحقني فضرب من بعدي منكبي، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه، فقال: «إذا صليت فاقرا بهما». الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر، والله أعلم. ورواه النسائي عن يعقوب بن إبراهيم، عن ابن عليه، به. حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا محمد بن المنثي، حدثنا محمد بن جعفر، عن عبد الله بن سعيد، حدثني يزيد بن رومان، عن عقبة بن عامر، عن عبد الله الأسلمي - هو ابن أنيس -: أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال: «قل». فلم أدر ما أقول، ثم قال لي: «قل». قلت: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثم قال لي: «قل». قلت:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿١﴾ ، حتى فرغت منها، ثم قال لي: «قل». قلت: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ، حتى فرغت منها. فقال رسول الله ﷺ: «هكذا فتعوذ، ما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط». حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي أبو حفص، حدثنا بَدَل، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة، عن سعيد الجريري، حدثنا أبو نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: وما اقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿٢﴾». فقرأتها، فقال: «اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلهما». وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن، وينثف في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده. وقال الإمام مالك: عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينثف، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها. ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن القعني، والنسائي عن قتيبة - ومن حديث ابن القاسم، وعيسى بن يونس - وابن ماجه من حديث معن وبشر بن عُمر، ثمانيتهم عن مالك، به. وتقدم في آخر سورة: ﴿ت﴾، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا حسن بن صالح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: الفلق: الصبح. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْفَلَقِ﴾: الصبح. ورؤي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن محمد بن عقيل، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وابن زيد، ومالك عن زيد بن أسلم، مثل هذا. قال القرظي، وابن زيد، وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿قَائِلُ السُّجُودِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿الْفَلَقِ﴾: الخلق. وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله. وقال كعب الأحبار: ﴿الْفَلَقِ﴾: بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، ورواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثني أبي، حدثنا سهيل بن عثمان، عن رجل سماه، عن السدي، عن زيد بن علي، عن آبائه أنهم قالوا: ﴿الْفَلَقِ﴾: جب في قعر جهنم، عليه غطاء، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم، من شدة حر ما يخرج منه. وكذا رؤي عن عمرو بن عُثَيْبَةَ، والسدي، وغيرهم. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع منكر، فقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطي، حدثنا نصر بن خزيمة الخراساني، عن شعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿الْفَلَقِ﴾: جب في جهنم مغطى، إسناده غريب ولا يصح رفعه. وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: ﴿الْفَلَقِ﴾: من أسماء جهنم. قال ابن جرير: والصواب القول الأول، أنه فلق الصبح. وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري، رحمه الله، في صحيحه. وقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿٢﴾ أي: من شر جميع المخلوقات. وقال ثابت البناني، والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق. ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿٣﴾ ، قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس. حكاه البخاري عنه. ورواه ابن أبي نجیح، عنه. وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، وخُصَيْف، والحسن، وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه.

وقال الزهري: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿٣﴾ : الشمس إذا غربت. وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب. وقال أبو المهزم، عن أبي هريرة: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿٣﴾ : كوكب. وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكان الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها. قال ابن جرير: ولهؤلاء من الأثر ما حدثني: نصر بن علي، حدثني بكار بن عبد الله - ابن أخي همام - حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿٣﴾ : قال: النجم الغاسق. قلت: وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ. قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو داود الحفري، عن ابن أبي ذئب، عن الحارث، عن أبي سلمة قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: أخذت رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين يطلع، وقال: «تعوذني بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب». ورواه الترمذي والنسائي، في كتاب التفسير

من سنتيهما، من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظه: «تعوذني بالله من شر هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب». ولفظ النسائي: «تعوذني بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب». قال أصحاب القول الأول وهو أنه الليل إذا ولج -: هذا لا ينافي قولنا؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء، إلا في الليل، فهو يرجع إلى ما قلناه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ الْكَلْبِ فِي الْعُقَدِ﴾، قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة والضحاك: يعني: السواحر. قال مجاهد: إذا رقبين ونفثن في العقد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين. وفي الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ فقال: «نعم». فقال: باسم الله أزيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك. ولعل هذا كان من شكواه، عليه السلام، حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاهه فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله ﷺ علياً، رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاه بها فحلها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط حتى مات. ورواه النسائي عن هناد، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير. وقال البخاري في «كتاب الطب» من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جُرَيْجٍ، يقول: حدثني آل عَزْوَةَ، عن عروة، فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سُحْرًا، حتى كان يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان - وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا - فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفانني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم - رجل من بني زُرَيْقٍ حليف لليهود، كان منافقاً - قال: وفيهم؟ قال: في مُشَطِّ ومُشَاقَّة. قال: وأين؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ ذكر تحت راعوفة في بئر دُرَّوَانَ». قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها، وكان ماءها نفاة الحنأ، وكان نخلها رؤوس الشياطين». قال: فاستخرج. قالت: فقلت: أفلا؟ أي: تَنْشُرَتْ؟ فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً». وأسنده من حديث عيسى بن يونس، وأبي صَمْرَةَ أنس بن عياض، وأبي أسامة، ويحيى القطان وفيه: «قالت: حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله». وعنده: «فامر بالبئر فدفنت». وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبي الزناد والليث بن سعد. وقد رواه مسلم، من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير. ورواه أحمد، عن عفان، عن وهيب، عن هشام، به. ورواه الإمام أيضاً عن إبراهيم بن خالد، عن رباح، عن مَعْمَرٍ، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، فاتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجله، فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث.

وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره: قال ابن عباس وعائشة، رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك رجل منهم - يقال له: لبيد بن أعصم - ثم دسها في بئر لبني زُرَيْقٍ، يقال لها: دُرَّوَانَ، فمرض رسول الله ﷺ وانتشر شعر رأسه، ولبت ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يذوب ولا يدري ما عراه. فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعدهما عند رأسه والآخر عند رجله، فقال الذي للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طَبٌّ. قال: وما طَبٌّ؟ قال: سحر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ تحت راعوفة في بئر دُرَّوَانَ - والجف: قشر الطلع، والراعوفة: حجر في أسفل البئر نائم يقوم عليه الماتح - فانتبه رسول الله ﷺ مذعوراً، وقال: «يا عائشة، أما شعرت أن الله أخبرني بدائي؟». ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر كأنه نفاة الحنأ، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود، فيه اثنتا عشرة عقدة مغرزة بالإبر. فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل، عليه السلام، يقول: باسم الله

أزقيك، من كل شريوذك، من حاسد وعين الله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن يثير على الناس شراً». هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْأَسْوَابِ ﴿٤﴾ الْفِتَنِ ﴿٥﴾ الَّتِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٦﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٧﴾﴾.

هذه ثلاث صفات من صفات الرب، ﷻ؛ الربوبية، والملك، والإلهية: فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيده، فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزِين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخيال. والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح أنه: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»، وثبت في الصحيح، عن أنس في قصة زيارة صفة النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعَا، فقال رسول الله: «على رسلكما، إنها صفة بنت حبي». فقالا: سبحان الله، يا رسول الله. فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئاً، أو قال: شراً». وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن بحر، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياداً التميمي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، سمعت أبا نيمية يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاطم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». تفرد به أحمد، إسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاطم وغلب. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا الضحاك بن عثمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد، جاءه الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته، فإذا سكن له زنقه - أو: أجمه». قال أبو هريرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنون فتراه مائلاً - كذا - لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله، ﷻ. تفرد به أحمد. وقال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْأَسْوَابِ﴾، قال: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس. وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: ذكر لي أن الشيطان، أو: الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْأَسْوَابِ ﴿٤﴾ الْفِتَنِ ﴿٥﴾ الَّتِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٦﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٧﴾﴾، قال: هو الشيطان يأمر، فإذا أطع خنس. وقوله: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾، هل يختص هذا ببني آدم - كما هو الظاهر - أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تعلياً.

وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم. وقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾، هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾، ثم بينهم فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾. وهذا يقوي القول الثاني. وقيل: قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾، تفسير للذي يوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودي، حدثنا أبو عمر الدمشقي، حدثنا عبيد بن الخشاش، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصل». قال: فقامت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم». قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قلت: يا رسول الله فما الصوم؟ قال: «فرض يجزيء»، وعند الله مزيد». قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يا

رسول الله، أيها أفضل؟ قال: «جُهد من مُقل، أو سر إلى فقير». قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم، نبي مُكَلَّم». قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر، جَمًّا غفيراً». وقال مرة: «خمس عشرة». قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾». ورواه النسائي، من حديث أبي عمر الدمشقي، به. وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان في صحيحه، بطريق آخر، ولفظ آخر مطول جداً، فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن ذر بن عبد الله الهمداني، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». ورواه أبو داود والنسائي، من حديث منصور - زاد النسائي: والأعمش - كلاهما عن ذر، به. آخر التفسير، والله الحمد والمنة، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. ورضي الله عن الصحابة أجمعين. حسبنا الله ونعم الوكيل.



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	ترجمة المؤلف
٩	مقدمة المؤلف
١٤	كتاب فضائل القرآن
١٧	جمع القرآن
٢٣	تنزيل القرآن على سبعة حروف
٢٩	تأليف القرآن
٣١	جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ
٣١	القراء من أصحاب النبي ﷺ
٣٢	نزول السكينة والملائكة عند القراءة
٣٤	فضل القرآن على سائر الكلام
٣٤	الوصايا بكتاب الله
٣٥	من لم يتغن بالقرآن
٣٥	فصل في ذكر أحاديث وأحكام التلاوة بالأصوات
٣٨	اغتيباط صاحب القرآن
٣٨	خيركم من تعلم القرآن وعلمه
٣٩	القراءة عن ظهر قلب
٤٠	استذكار القرآن وتعاهده
٤٢	القراءة على الدابة
٤٢	تعليم الصبيان القرآن
٤٢	نسيان القرآن وهل يقول: نسيت آية كذا
٤٣	الترتيل في القراءة
٤٤	مد القراءة
٤٤	الترجيع
٤٤	حسن الصوت بالقراءة
٤٤	من أحب أن يسمع القرآن من غيره
٤٥	قول المقرئ للقارئ: حسبك
٤٥	في كم يقرأ القرآن
٤٦	فصل في ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن
٤٧	البكاء عند القراءة
٤٧	من رأى بقراءة القرآن
٤٨	اقروا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم

٤٩	كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن
٥٠	ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن
٥٣	مقدمة مفيدة
٥٣	الاختلاف في معنى السورة
٥٤	فاتحة الكتاب
٥٥	ذكر ما ورد في فضل الفاتحة
٥٨	الكلام على تفسير الاستعاذة
٦٠	فصل في معنى الاستعاذة
٦١	سورة الفاتحة
٧٧	سورة البقرة
٣٤٩	سورة آل عمران
٤٣٨	سورة النساء
٥٦٩	سورة المائدة
٦٧٥	سورة الأنعام
٧٤٤	سورة الأعراف
٨١٦	سورة الأنفال
٨٥٩	سورة التوبة
٩٢٢	سورة يونس
٩٤٧	سورة هود
٩٧٤	سورة يوسف
١٠٠٠	سورة الرعد
١٠٢١	سورة إبراهيم
١٠٤٢	سورة الحجر
١٠٥٥	سورة النحل
١٠٨٢	سورة الإسراء
١١٤٤	سورة الكهف
١١٧٨	سورة مريم
١٢٠٥	سورة طه
١٢٣٢	سورة الأنبياء
١٢٥٩	سورة الحج
١٢٨٩	سورة المؤمنون
١٣٠٩	سورة النور
١٣٤٩	سورة الفرقان

١٣٦٩	سورة الشعراء
١٣٩٠	سورة النمل
١٤٠٩	سورة القصص
١٤٢٩	سورة العنكبوت
١٤٤٤	سورة الروم
١٤٥٩	سورة لقمان
١٤٧٢	سورة السجدة
١٤٨٠	سورة الأحزاب
١٥٣١	سورة سبأ
١٥٤٨	سورة فاطر
١٥٦٢	سورة يس
١٥٧٩	سورة الصافات
١٥٩٩	سورة ص
١٦١٤	سورة الزمر
١٦٣٣	سورة غافر
١٦٥٠	سورة فصلت
١٦٦٢	سورة الشورى
١٦٧٦	سورة الزخرف
١٦٨٨	سورة الدخان
١٦٩٧	سورة الجاثية
٨٧٠١	سورة الأحقاف
١٧١٦	سورة القتال (محمد)
١٧٢٤	سورة الفتح
١٧٤٢	سورة الحجرات
١٧٥٣	سورة ق
١٧٦٢	سورة الذاريات
١٧٦٨	سورة الطور
١٧٧٥	سورة النجم
١٧٨٧	سورة القمر
١٧٩٤	سورة الرحمن
١٨٠٤	سورة الواقعة
١٨٢٢	سورة الحديد
١٨٣٥	سورة المجادلة

١٨٤٤	سورة الحشر
١٨٥٦	سورة الممتحنة
١٨٦٦	سورة الصف
١٨٧١	سورة الجمعة
١٨٧٥	سورة المنافقون
١٨٨٠	سورة التغابن
١٨٨٣	سورة الطلاق
١٨٩٠	سورة التحريم
١٨٩٧	سورة الملك
١٩٠١	سورة ن (القلم)
١٩١١	سورة الحاقة
١٩١٦	سورة سأل سائل (المعارج)
١٩٢١	سورة نوح
١٩٢٤	سورة الجن
١٩٢٩	سورة المزمل
١٩٣٤	سورة المدثر
١٩٤٠	سورة القيامة
١٩٤٥	سورة الإنسان
١٩٤٩	سورة المرسلات
١٩٥٢	سورة النبأ
١٩٥٦	سورة النازعات
١٩٥٩	سورة عبس
١٩٦٣	سورة التكوير
١٩٦٨	سورة الانفطار
١٩٧١	سورة المطففين
١٩٧٤	سورة الانشقاق
١٩٧٨	سورة البروج
١٩٨٣	سورة الطارق
١٩٨٥	سورة سبح (الأعلى)
١٩٨٨	سورة الغاشية
١٩٩٠	سورة الفجر
١٩٩٦	سورة البلد
١٩٩٩	سورة والشمس وضحاها (الشمس)

٢٠٠١ سورة الليل
٢٠٠٥ سورة الضحى
٢٠٠٧ سورة ألم نشرح (الشرح)
٢٠٠٩ سورة والتين والزيتون (التين)
٢٠١٠ سورة اقرأ (العلق)
٢٠١٢ سورة القدر
٢٠١٨ سورة لم يكن (البينة)
٢٠٢٠ سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
٢٠٢٣ سورة العاديات
٢٠٢٤ سورة القارعة
٢٠٢٦ سورة التكاثر
٢٠٢٩ سورة العصر
٢٠٢٩ سورة ويل لكل همزة لمزة (الهمزة)
٢٠٣٠ سورة الفيل
٢٠٣٤ سورة لإيلاف قريش (قريش)
٢٠٣٥ سورة التي يذكر فيها الماعون (الماعون)
٢٠٣٧ سورة الكوثر
٢٠٤٠ سورة قل يا أيها الكافرون (الكافرون)
٢٠٤٢ سورة إذا جاء نصر الله والفتح (النصر)
٢٠٤٤ سورة تبت (المسد)
٢٠٤٦ سورة الإخلاص
٢٠٥١ سورة المعوذتين (العلق، الناس)



